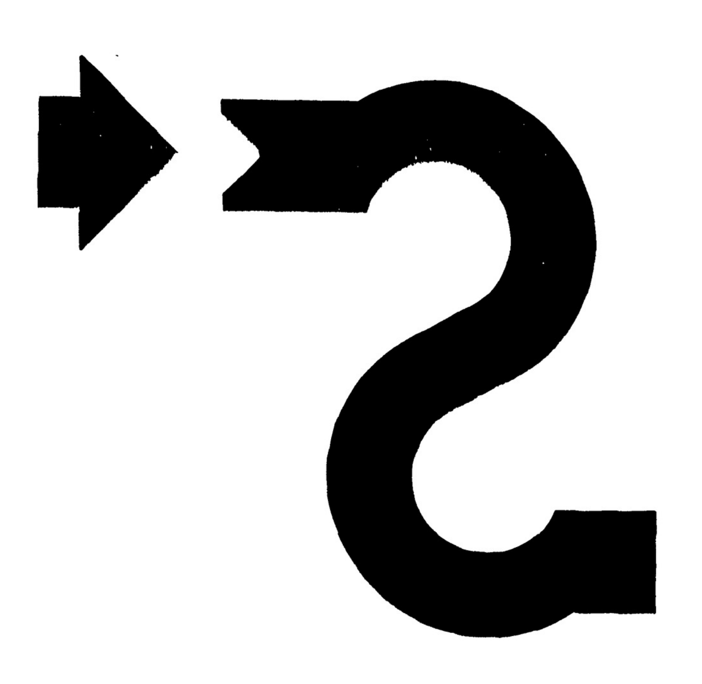
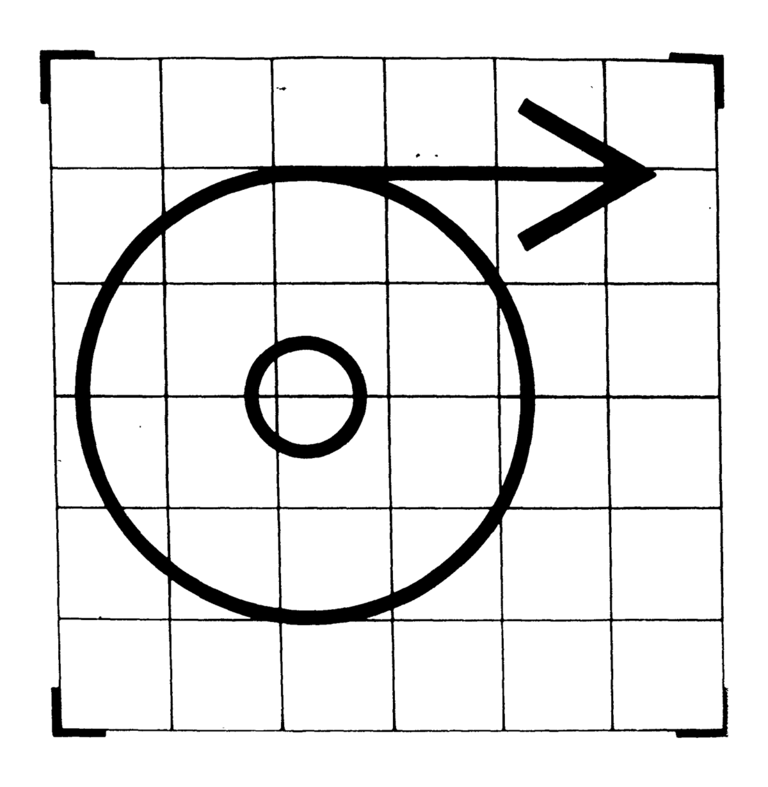


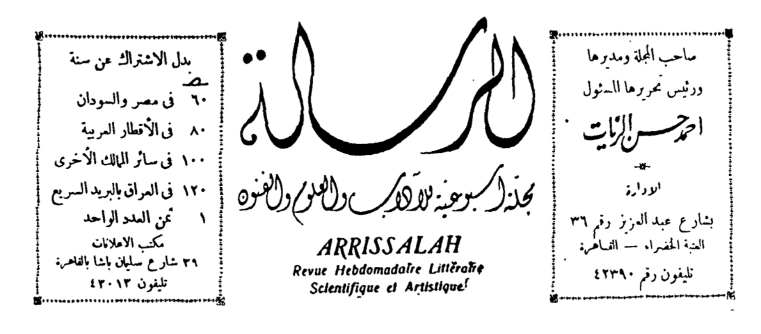
Suite d'une autre bobine

NF Z 43-120-7



Début de bobine

NF Z 43-120 1



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع عبد العزيز رقم ٣٦
العتبة الخضراء — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

1935

1er juillet - 30 décembre

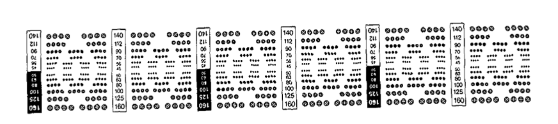
(n° 104-130)

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx11

A.C.R.P.P



MIRE ISO N° 1
NF Z 43-007
AFNOR
Cedex 7 - 92080 PARIS-LA-DÉFENSE

graphicom 338 57.70

3 me Année, No. 104.

Lundi-1-7-1935

بدل الاشتراك عن سنة

ص

٦٠ فى مصر والسودان

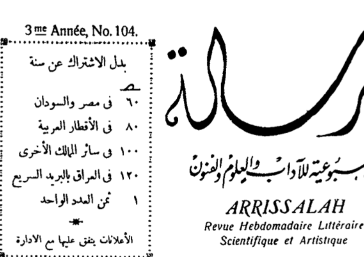
٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة — « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ ربيع الأول سنة ١٣٥٤ — أول يوليو سنة ١٩٣٥ » — العدد ١٠٤

كلكم حواريون فمن يهوذا ؟

لا تسمع من أى انسان فى أى مكان إلا تذمراً على حال المجتمع ، وتضجراً من نظام العيش ، وتضوراً من فساد الحكم ، وتحسراً على أخلاق الناس ! فما من سياسى تلقاه إلا رأيته لهيف الجوانح ، ذاهب القلب ، لا يملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذه الشكاة : أضاعوا استقلال البلاد ، ووأدوا دستور الأمة ، ونشروا بخطلهم على الشعب سوء النبأ ! فقد كان لنا بجانب « الاحتلال » مكان ، ومع « دار الاستشارة » رأى ، وقبل نفاذ الأمور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة ؛ وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق ، أديناه ضحايا برّة من أرواح الشباب فى ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من أموال الأمة فى « قانون التضمينات » ، ثم أصبحنا وإذا المكان خلاء ، والاشارة أمر ، والكلمة رجاء ، والكرامة ضراعة ! !

أجل ! يقول كل سياسى هذا الكلام ، ويلوم هذا اللام ، حتى أولئك الذين قتلوا بأيديهم الدستور أمس ، يبكون عليه اليوم بأربعة آماق ، لأن الانجليز أكرموه فدفنوه ! !

* * *

فهرس العـــدد

صفحة

وما من موظف تراه إلا حدثك والهم يعتلج فى صدره ، والأسى يتلظى على وجهه ، كيف تحكمت المحاباة فى دوائر الحكم ، وفشا التواكل فى دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » فى التعيين زور مع التوصية ، والكفاية البارعة فى الترقية خُرْق مع الهوى ، وحسن العمل فى سبيل الحظوة جناية مع سوء الحظ ؛ ثم ترى «الأقلام» غاصة بالكتبة ، والمكاتب مكتظة بالأضابير ، والوزارات مزدحمة بالسائلين والمستعجلين ، والأوراق الحائرة تنتقل من يد إلى يد ، وتخرج من مكتب إلى مكتب ، وترحل من بلد إلى بلد ، لأن « التواكل » الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب أن يزيح همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه ، فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهوراً وسنين ، وهى مع الجد لا تستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة !

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هـذا الاتهام ، حتى أولئك الطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظلوا على الشيوع من غير عمل ولا مكتب ! !

* * *

وما من أديب تخلو إليه إلا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم فى مسمعيك تشاؤم أبى العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من الدهش : متى كان البذاء من الأدب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من الفن ، والتقليد البهيم من العبقرية ، والكيد اللئيم من الصحافة ؟ ؟

كان الأدب سبيلاً بين الله والنفس ، وسلاماً بين الروح والجسم ، ولساناً بين الجمال والحس ، ودليلاً بين الهوى والخير ، ونسباً بين القرابة والبعد ، فأصبح كما ترى سبباً من أسباب العداوة ، وسبيلا من سبل الفرقة ، وبوقاً من أبواق الفتنة ، ومظهراً من مظاهر الجهالة !

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقى عليك هذا الاستفهام ، حتى أولئك السفهاء الذين يلبسون ظلماً مسوح الأدب ، ثم يلتمسون الظهور بالوقيعة فى كل من كتب ! !

* * *

وما من رجل من رجال الدين تجلس إليه إلا قال لك ودموع الحسنَين تنهلُّ على رُدنه العريض انهلال القَطْر : لم يبق للدين فى هذه الدنيا سلطان ، ولا للخلق فى هذه الفوضى مكان ، ولا للفضيلة فى هذه المادية قيمة ! ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء ، فأصبحوا يأنفون من الورع ، وينفرون من البساطة ، ويتأبّهون عن العامة ، ويمدون أعينهم لشهوة الحياة ، ويُذهبون أنفسهم على فتنة الحكم ، ويتخلون عن الدعوة إلى سبيل الله إلى الدعوة إلى أهواء الفرد ! !

يقول كل عالم هذا الكلام ، ويهتم هـذا الاهتمام ، حتى أولئك الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا ، وجعلوا من نفوسهم إلى الباطل سبيلا ودليلا !

* * *

وما من تاجر تعامله ، أوصانع تقاوله ، إلا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش ، وأثْرَوا على الخداع ، وسلبوا ثقة الشعب باسم الأخوة ، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن ، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معانى النهب ، وحيلة من حيل الشطارة ؛ فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفى حسك لا محالة أنك مغبون فى السعر ، أو مخدوع فى النوع ، أو مظلوم فى التقدير !

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى أولئك الذين قضى عليهم موت الضمير أن يَصْدُقوك فى البيع ويكذبوك فى التسليم ، ويعاهدوك على نوع فيغيروه ولا يزيد رَجْعُهم من غشه على مليم !

* * *

وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض الممضّ والزراية الساخرة من كل لسان فى أى طبقة ، وفى كل حديث فى أى مجلس ، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتسأل :

إذا كنتم يا قوم جميعاً حَوَاريّين ، فمن الذى خان الوطن بدوانقه الثلاثين ؟ ؟ كلكم يلوم فمن الملوم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟

وعظ مالك بن دينار عظةً تقاطرتْ عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه ! فنظر إليهم وكلهم من أثر كلامه لا يملك عينه ! وقال : ويحكم ! كلكم يبكى فمن سرق المصحف ؟ ؟

احمد حسن الزيات

دموع
من رسائل «الطائشة»(١)
للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورسائلُ هذه الطائشة إلى صاحبها ، تُقرأ في ظاهرها على أنها رسائلُ حبٍّ ، قد كُتِبَت في الفنون التي يترسّل بها العشاق ؛ ولكن وراء كلامها كلاماً آخر ، تُقرأ به على أنها تاريخُ نفسٍ مُلتاعةٍ لاتزال شُعلةُ النار فيها تتنسّمُ وترتفع ؛ وقد فَدَحَتها الحياةُ إذ حصرتها في فنٍّ واحدٍ لا يتغير ، وأوقعتها تحت شرطٍ واحدٍ لا يتحقق ، وصرفتها بفكرة واحدة لا تزال تخيب

وأشدُّ سُجون الحياة فكرةٌ خائبةٌ يُسجَنُ الحيُّ فيها ، لا هو مُستطيعٌ أن يدَعها ، ولا هو قادرٌ أن يحققها ؛ فهذا يمتدُّ شقاؤه ما يمتدّ ولا يزال كأنه على أوله لا يتقدم إلى نهاية ؛ ويتألم مايتألم ولا تزال تُشعِره الحياةُ أن كل مافات من العذاب إنما هو بدءُ العذاب

والسعادةُ في جملتها وتفصيلها أن يكون لك فكرٌ غيرُ مقيّدٍ بمعنىً تتألم منه ، ولا بمعنىً تخاف منه ، ولا بمعنىً تحذر منه . والشقاءُ في تفصيله وجملته انحباسُ الفكر في معاني الألم والخوف والاضطراب

وقد اخترنا من رسائل (الطائشة) هذه الرسالة المصوّرة التي يبرُقُ شعاعُها وتكاد تقومُ بإزاء نفسها كالمرآة بإزاء الوجه . وهي فيها عذبةُ الكلام من أنها مُرّةُ الشعور ، متّسقةُ الفكر من أنها مختلّةُ القلب ، مُسدّدةُ المنطق من أنها طائشةُ النفس . وتلك إحدى عجائب الحب ؛ كلما كان قفراً مُمْحِلاً اخضرّت فيه البلاغةُ وتفننت والتفّت ، وعلى قِلّةِ المُتْعةِ من لذّاته تزيد فيه المتعةُ من أوصافه . ولَكأنّ هذا الحبّ طبيعةٌ تُروَى بالنار فتُخْصِبُ عليها وتتفتّق بمائها ، كما تُروى الأرض بالماء فتُخصِب وتتغطّى بنباتها ؛ فإن رَوِيَ الحبُّ من لذّاته وبَرَدَ عليها ، لم يُنْبِت من البلاغة إلا أخفّها وزناً وأقلّها معانيَ ، كأوّلِ ما يبدو النباتُ حين يتفطّر الثرى عنه ؛ تراه فتحسبه على الأرض مَسْحةَ لونٍ أخضر ؛ أو لم يُنبِتْ إلا القليلَ القليلَ كالتّماشيب(١) في الأرض السَّبِخة

إن قصةَ الحب كالرواية التمثيلية ، أبلغُ ما فيها وأحسنُه وأعجبُه ما كان قبل « العُقْدة » ، فإذا انحلت هذه العقدة فأنت في بقايا مفسّرةٍ مشروحةٍ تريد أن تنتهي ، ولا تحتمل من الفن إلا ذلك القليلَ الذي بينها وبين النهاية

* * *

وهذه هي رسالة الطائشة إلى صاحبها :

. . .

ماذا أكتبُ لك غيرَ ألفاظ حقيقتي وحقيقتك ؟

يُخيَّل إليّ أن ألفاظَ خضوعي وتضرُّعي متى انتهت إليكَ انقلبت إلى ألفاظ شِجارٍ ونزاع !

أيُّ عدلٍ أن تلمسكَ حياتي لَمْسَةَ الزهرةِ الناعمة بأطراف البنان ، وتَقذِفَني أنت قَذْفَ الحجر بِملْءِ اليدِ الصلبة مُتَمَطّيةً فيها قوّةُ الجسم ؟

جعلْتَني في الحب كآلةٍ خاضعةٍ تُدار فتدور ، ثم عَبِثتَ بها فصارت متمرّدةً تُوقَّف ولا تَقِف ؛ والنهايةَ — لا ريبَ فيها — اختلالٌ أو تحطيم !

وجعلتَ لي عالَماً ، أما ليلُه فأنتَ والظلامُ والبكاء ، وأما نهارُه فأنتَ والضياءُ والأملُ الخائب . هذا هو عالَمي : أنتَ أنت . . . !

سمائي كأنها رُقْعةٌ أُطبِقت عليها كلُّ غيوم السماء ، وأرضي كأنها بُقْعةٌ اجتمعت فيها كلُّ زلازلِ الأرض؛ لأنك غيمةٌ في حياتي ، وزلزلةٌ في أيامي

(١) أعشاب قليلة متفرقة

(١) نحن لم نخترع الطائشة ، فهي فتاة متعلمة أديبة ، تكتب كتابة بليغة ، وقد أحبت رجلا متزوجاً فطاش بها الحب طيش الطفل إذا منع ما يطمع فيه ، وتركها الحب عليلة لما بها ثم قضت . وكان بعض صواحبها يعذلنها ويرمينها بالتهمة ، فكانت تقول : إنما مثلهن كالنائب المحكوم عليه ، لا هو علك دفاع الذنب ولا الحاكم عليه علك إثبات الذنب

يا بُعدَ ما بين الدنيا التى حولى وبين الدنيا التى فى قلبى!

* * *

ما يَجْمُلُ منك أن تُلزِمَنى لومَ خطأ أنتَ المخطىءُ فيه

سَلنى عن حبى أُجِبْكَ عن نكبتى ، وسَلنى عن نكبتى أُجِبك عن حبى

كان ينبغى أن تكونَ لىَ الكبرياءُ فى الحب ، ولكن ماذا أصنع وأنت منصرفٌ عنى ؟ وَيلاهُ من هـذا الانصرافِ الذى يجعل كبريائى رِضًى منى بأن تنسى !

ليس لى من وسيلةٍ تَسْعِطفُكَ إلا هذا الحبّ الشديد الذى هو يَصُدُّك ، فكأنَّ الأسبابَ مقلوبةٌ معى منذ انقلبتَ أنت

ويخيّل إلىّ من طُغيان آلامى أن كلّ ذى حُزْنٍ فعندى أنا تمامُ حُزْنه !

ويخيل إلىّ أنى أفصحُ من نطقَ بِآه !

عذابى عذابُ الصادقِ الذى لا يعرفُ الكذب ، بالكاذب الذى لا يعرف الصدق

كم يقول الرجالُ فى النساء ، وكم يَصِفُونَهُنّ بالكيد والغدر والمكر ؛ فهل جئتَ أنتَ لتُعاقِبَ الجنسَ كلَّه فىَّ أنا وحدى . . .

ما لِكلامى يتقطّع كأنما هو أيضاً مختنق ؟

* * *

لَشَدَّ ما أتمنّى أن أشترىَ انتصارى ، ولكن انتصارى عليك هو عندى أن تنتصر أنت

إن المرأة تطلب الحرّيةَ وتَلِجُّ فى طلبها ، ولكن الحياة تنتهى بها إلى يقينٍ لا شكّ فيه ، هو أن الطفَ أنواعِ حرّيتها فى الطف أنواع استعبادِها

حتى فى خيالى أرى لكَ هيئةَ الآمر الناهى أيها القاسى . لا أحبُّ منك هذا ، ولكن لا يعجبنى منكَ إلا هذا . . . !

ويزيدك رِفْعةً فى عينى أنك لم تحاول قطُّ أن تزيد رِفعةً فى عينى

فالمرأة لا تحبّ الرجلَ الذى يعملُ على أن يُلْفِتَها دائماً ليرفعَ من شأنه عندها

إن الطبيعة قد جعلت الأنوثةَ فى الانسان هى التى تَلْفِتُ إلى نفسها بالتصنّع والتّزَيُّدِ ، وعَرْضِ ما فيها وتَكَلُّفِ ما ليس فيها ؛ فان يَصْنَع الرجلُ صنيعَها فما هو فى شىءٍ إلا تزيين احتقاره !

التّزَيُّدُ فى الأنوثة زيادةٌ فى الأنثى عند الرجل ، ولكن التّزَيُّدَ فى الرجولة نقصٌ فى الرجل عند الأنثى !

* * *

ارْفع صوتك بكلماتى تَسمعْ فيها اثنين : صوتَك وقلبى

ليست هى كلماتى لَدَيك أكثرَ مما هى أعمالك لَدَىّ

وليس هو حبى لك أكبرَ مما هو ظلمُكَ لى !

ما أشدَّ تعَسى إذا كنتُ أخاطب منك نائماً يسمعُ أحلامَه ولا يسمعنى !

ما أتعسَ من تُبكيه الحياةُ بكاءَها الفاجىَ على ميّتٍ لا يرجع ، أو بكاءَها المألوفَ على حبيبٍ لا يُنال !

* * *

ولكن فَلأصبرْ ولأصبرْ على الأيام التى لا طعمَ لها ، لأن فيها الحبيبَ الذى لا وفاءَ له !

إن المصابَ بالعمَى اللّونىّ يرى الأحمرَ أخضر ، والمصابَ بعَمَى الحب يرى الشخصَ القَفْرَ كله أزهار

عَمًى مركَبٌ أن تكون أزهاراً من الأوهام ولها مع ذلك رائحةٌ تَعْبق

وعَمًى فى الزمن أيضاً أن ينظر إلى الساعة الأولى من ساعات الحب ، فيرى الأيام كلها فى حكم هذه الساعة

وعَمًى فى الدم ، أن يَشعر بالحبيب يوماً فلا يزال من بعدها يُحيى خياله ويغذّيه أكثرَ مما يُحيى جسمَ صاحبه

وعَمًى فى العقل ، أن يَجعلَ وجهَ إنسانٍ واحدٍ كوجه النهار على الدنيا ، تَظهر الأشياءُ فى لونه ، وبغير لونه تنطفىْ الأشياء

وعَمًى فى قلبى أنا ، هذا الحبُّ الذى فى قلبى !

* * *

ليس الظلامُ إلا فِقدانَ النور ، وليس الظلمُ فى الناس إلا فقدانَ المساواة بينهم

وظلمُ الرجالِ للنساء عملُ فقدانِ المساواة لا عملُ الرجال

كيف تَسخرُ الدنيا من متعلِّمةٍ مِثلي ، فتضمُها موضعاً من الهوان والضعف بحيث لو سُئلتْ أن تكتب (وظيفتَها) على بطاقة ، لما كتبت تحت اسمها إلا هذه الكلمة : (عاشقة فلان) . . . ؟

وحتى في ضَعفِ المرأة لا مساواةَ بين النساء في الاجتماع ، فكل متزوِّجةٍ وظيفتُها الاجتماعيةُ أنها زوجة ؛ ولكن ليس لعاشقةٍ أن تقول إن عِشقَها وظيفتُها . . .

وحتى في الكلام عن الحب لا مساواة ، فهذه فتاةٌ تُحبُّ فتتكلَّم عن حبها فيقال : فاجرة وطائشة ، ولا ذنب لها غير أنها تكلمتْ ؛ وأخرى تحبُّ وتكتم فيقال : طاهرة عفيفة ، ولا فضيلةَ فيها إلا أنها سكتتْ

أول المساواة بين الرجال والنساء أن يتساوى الكلُّ في حرِّية الكلمة المخبوءة . . . .

لا لا ، قد رجعتُ عن هذا الرأى . . .

* * *

إن القلَقَ إذا استمرَّ على النفس انتهى بها آخرَ الأمر إلى الأخذ بالشَّاذِّ من قوانين الحياة

والنساء يُقلِقْنَ الكونَ الآن مما استقرَّ في نفوسهن من الاضطراب ، وسيخرِّبنَه أشنعَ تخريب

ويلٌ للاجتماع من المرأة المصرية التي أنشأها ضعفُ الرجل ! إن الشيطان لو خُيِّرَ في غير شكله لما اختار إلا أن يكون امرأة حرَّة متعلمة خياليَّة كاسدة لا تجد الزوج ... !

ويلٌ للاجتماع من عذراء بأُرقٍ خيالية ، تريد أن تفرَّ من أنها عذراء ! لقد امتلأتِ الأرضُ من هذه القنابل .... ولكن ما من امرأةٍ تفرِّطُ في فضيلتها إلا وهي ذنبُ رجل قد أهمل في واجبه

* * *

هل تملك الفتاةُ عِرْضها أوْلا تملك ؟ هذه هي المشكلة . . . إن كانت تملك ، فلها أن تتصرَّفَ وتعطى ، أوْلا ، فلماذا لا يتقدَّمُ المالك ... ؟

هذه المدنية ستنقلب إلى الحيوانية بعينها ، فالحيوانُ الذى لا يعرف النسبَ لا تعرف أنثاه المرَض

وهل كان عبثاً أن يَفرِض الدين في الزواج شروطاً وحقوقاً للرجل والمرأة والنسل ؟

ولكن أين الدين ؟ وا أسفاه ! لقد مَدَّنوه هو أيضاً ... !

* * *

طالت رسالتى إليكَ يا عزيزى ، بل طاشت ، فانى حين أجدُكَ أفقدُ اللغة ، وحين أفقدُكَ أجدُها .

ولقد تكلمتُ عن الدِّين لأنى أراكَ أنتَ بنصفِ دين ...

فلو كنتَ ذا دين كامل لتزوَّجتَ اثنتين ......

لا لا ، قد رجعتُ عن هذا الرأى ... ؟

(طنطا) طبق الأصل

. . .

الى (ب) فى دمشق :

خير ما أرى لك أن تدع للغد حل مشكلة اليوم ، وليس بين اليوم والغد إلا أن تصبر ، وأنت كالذى رأى نفسه فى غبش الفجر ويزعم أنه أمسى ..

« الرافعى »

٢ ـ شمس الدين السخاوى

حياته وتراثه

للأستاذ محمد عبد الله عنان

ولنتعرض الآن تراث السخاوى وآثاره ، بعد أن أتينا على حوادث حياته وظروف تكوينه ؛ وللسخاوى تراث حافل ينم عن غزير مادته ونشاطه ؛ وقد تلقينا منه الكثير ، وتلقينا بالأخص أهمه وأقيمه . ويعنى السخاوى فى ترجمة نفسه بتعداد رسائله ومؤلفاته ؛ ويستغرق تعدادها عدة صفحات من ترجمته ؛ ويضم هذا الثبت الحافل كتباً ورسائل فى عدة فنون مختلفة ؛ ولكنا نستطيع بوجه عام أن نقسم آثاره إلى قسمين : قسم الحديث ، وقسم التاريخ

وقد كان السخاوى كما رأينا محدثاً كبيراً ، انتهى اليه علم الحديث فى عصره ؛ بيد أنه كان أيضاً مؤرخاً بارعاً ، ونقادة لايجارى ؛ والجمع بين الحديث والتاريخ خاصة لكثير من أقطاب المؤرخين المسلمين مثل كتاب السيرة ، والطبرى ، والذهبى ؛ وعلم الحديث بما يحتويه من قواعد الاسناد وتمحيص الرواية ، والجرح والتعديل ، خير معوان للمؤرخ الناقد على تحرى الحقائق ؛ وهكذا كان السخاوى محدثاً ومؤرخاً ؛ وكانت براعته النقدية فى التاريخ ترجع فى كثير من الوجوه إلى براعته فى الجرح والتعديل كمحدث ؛ وهذه الصبغة النقدية البارزة هى التى تسبغ على آثاره التاريخية قوتها وطرافتها

ويحدثنا السخاوى فى ترجمته بأنه شرع فى التأليف « قبل الخمسين » ؛ ولكن هنالك ما يدل على أنه وضع بعض التصانيف قبل سنة ٨٧٠ هـ ، أعنى وهو فى نحو الأربعين من عمره ؛ فهو يحدثنا أنه لما حج للمرة الأولى سنة ٧٠ ، قرأ بعض تصانيفه فى مكة[1] ، وإذاً فهو قد بدأ التأليف فى سن متقدمة ؛ بيد أنه أنفق شبابه فى استيعاب النصوص والمراجع ، ونزل ميدان التأليف مزوداً بمادة غزيرة ؛ ولبث مدى الثلاثين عاماً التالية يخرج الكتب والرسائل تباعاً ، ولم ينقطع عن الكتابة حتى أعوام حياته الأخيرة

(١) السخاوى فى ترجمة نفسه — فى الضوء اللامع فى المجلد المشار اليه — ص ٧٤

وبدأ السخاوى التأليف فى ميدان الحديث ، فوضع فيه عدة كتب ورسائل يعنى بتعدادها فى ترجمته ، ولكنا لم نتلق منها سوى القليل ؛ وأشهرها كتاب « المقاصد الحسنة فى الأحاديث المشتهرة » ، وهو من كتب الحديث المتداولة ، ومنها « فتح المغيث بشرح ألفية الحديث » و « الغاية فى شرح الهداية » و « الاخبار المكللة فى الأحاديث المسلسلة » و « شرح الشمائل النبوية للترمذى » و « التحفة المنيفة فيما وقع من حديث أبى حنيفة » ، وعدة كتب ورسائل أخرى فى شرح متون الحديث ، وعدة حواش وذيول لبعض كتب الحديث المعتبرة يذكرها كلها فى ترجمته ، ولايتسع هذا المقام لذكرها[1]

وكتب السخاوى فى هذه الفترة الأولى أيضاً عدة رسائل عن رحلاته المختلفة ؛ منها الرحلة السكندرية وتراجمها ؛ الرحلة الحلبية وتراجمها ؛ الرحلة المكية ؛ والثبت المصرى ؛ وفيها يصف تجواله ودراساته فى تلك الأنحاء ؛ ووضع كتاباً فى تراجم شيوخه وأساتذته اسمه « بغية الراوى فيمن أخذ عنه السخاوى »

* * *

على أن أهم ما فى تراث السخاوى هو مجهوده التاريخى والأدبى ، ففيه يرتفع السخاوى الى ذروة القوة ، وفيه تبدو شخصيته فى أبرز خواصها ومواهبها ؛ وقد انتهت الينا نخبة من هذا التراث القيم . ومن الصعب أن نتتبع الترتيب الزمنى فى استعراض هذه الآثار ؛ ولكن يلوح لنا أن السخاوى قد استهل مجهوده التاريخى بوضع كتاب « التبر المسبوك فى ذيل السلوك » والسلوك الذى وضع هذا الكتاب ذيلاً له هو كتاب « السلوك فى دول الملوك » لتقى الدين المقريزى ، وقد تناول فيه تاريخ دول المماليك المصرية حتى سنة ٨٤٤ هـ ؛ وتناول السخاوى فى كتابه تاريخ مصر الاسلامية من سنة ٨٤٥ ـ ٨٥٧ هـ ؛ وكتبه كما يقرر فى مقدمته نزولاً على رغبة الداوادار يشبك المهدى وزير

(١) راجع الضوء اللامع — المجلد المشار اليه ص ٧٥ وما يليها حيث يعدد السخاوى كتبه وتآليفه

السلطان الظاهر خشقدم[١] ؛ وعنى السخاوى بتدوين حوادث هذه الفترة المعاصرة باسهاب ، وذيل كل عام بوفيات أعيانه ، واتبع فيه طريقة الترتيب الزمنى ؛ وكتب السخاوى أيضاً ذيلاً لكتاب شيخه ابن حجر « رفع الأصر عن قضاة مصر » وهو الذى يتناول فيه تراجم القضاة المصريين حتى عصره ، وسماه « ذيل رفع الأصر »[٢] ، وفيه يتناول تراجم القضاة المصريين حيث وقف شيخه ابن حجر

وأعظم آثار السخاوى بلا ريب هو كتابه الضخم « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع » ، وهو موسوعة حافلة تقع فى فى عدة مجلدات ويتم عنوانها عن موضوعها ، ويبسط لنا السخاوى موضوع كتابه فى ديباجته على النحو الآتى : « فهذا كتاب ... جمت فيه من علمته من هذا القرن الذى أوله سنة احدى وثمانمائة ، ختم بالحسنى ، من سائر العلماء والقضاة والصلحاء والرواة والأدباء والشعراء ، والخلفاء والملوك والأمراء ، والمباشرين والوزراء ، مصرياً كان أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً ، بل وذكرت فيه بعض المذكورين بفضل ونحوه من أهل الذمة . . . » وقد هيأت حياة السخاوى نفسه وتجواله فى مصر والشام والحجاز ، ولقاؤه لمئات العلماء والأدباء فى عواصم هذه الأقطار ، وما قيده عنهم فى مختلف رحلاته ، مادة حسنة لكتابه المستقبل . وأنفق السخاوى بلا ريب أعواماً طويلة فى اعداد مواده وتنظيمها واستكمالها ؛ والظاهر أنه لم يبدأ فى كتابة معجمه إلا فى أواخر القرن التاسع حوالى سنة ٨٩٠ هـ واستمر فى الكتابة فيه حتى سنة ٨٩٧ أو ٨٩٨ هـ ؛ يدل على ذلك أنه يصل فى ترجمة نفسه حوادث حياته حتى سنة ٨٩٧ هـ ، وأنه يذكر ضمن كتبه « كتاب التوبيخ لمن ذم أهل التاريخ » وقد كتبه حسبما يقرر فى خاتمته بمكة سنة ٨٩٧ هـ ؛ هذا فضلاً عن أنه يترجم لكثيرين توفوا سنة ٨٩٧ هـ[٣]

ويمتاز « الضوء اللامع » بقوة فائقة فى التصوير ليس لها نظير فى كتب التراجم الاسلامية ، ويمتاز بالأخص بروحه النقدية اللاذعة ؛ وهنا يبدو السخاوى فى أعظم خواصه وكفاياته الأدبية نقادة لا يجارى ؛ بيد أن هذه النزعة النقدية تحمله بعيداً فى مواطن كثيرة ، فينزع عندئذ إلى التجريح والهدم بقسوة ، ويطبع نقده تحامل بين ؛ وقد ترجم السخاوى كثيراً من أقطاب العصر ، ولكن أحداً منهم — إلا شيخه ابن حجر — لم ينج من تجريحه اللاذع ؛ وتراجم المقريزى وابن خلدون وابن تغرى بردى والسيوطى أمثلة واضحة لهذه النزعة الهدامة ، ففيها يبدو شغف السخاوى بالتجريح والانتقاص ظاهراً ؛ وهو لا يكاد يطيق عبقرية بارزة من عبقريات هذا القرن إلا هاجمها بشدة ؛ وهو يبدو فى أحيان كثيرة فى حملاته قوياً صارم الوطأة ، غير أنه يبدو فى أحيان أخرى سقيماً تعوزه الحجة فينحدر عندئذ إلى ما يشبه القذف المجرد ؛ وقد كان السخاوى أشد الناس شعوراً بقوته ومضاء قلمه ، وكان كثير الاعتداد بهذه القوة ، يشيد بها فى مقدمة الضوء اللامع فيما يأتى : « ولكنى لم آل فى التحرى جهداً ، ولا عدلت عن الاعتدال فيما أرجو قصداً ، ولذا لم يزل الأكابر يتلقون ما أبديه بالتسليم ، ويتوقون الاعتراض فضلاً عن الأعراض عما ألقيه والتأثيم ، حتى كان العز الحنبلى والبرهان بن ظهيرة المتلى يقولان ، إنك منظور اليك فيما تقول ، مسطور كلامك المنعش للعقول ، وقال غير واحد ممن يعتد بكلامه وتمتد اليه الأعناق فى سفره ومقامه ، من زكيته فهو العدل ، ومن مرضته فالضعيف المعلل ... بل كان بعض الفضلاء المعتبرين يتمنى الموت فى حياتى لا ترجمه بما عالمه يخفى عن كثيرين ... » . ويفرد السخاوى لنفسه فى كتابه ، كما رأينا ، ترجمة ضافية ؛ ويذيلها بنبذ عديدة من أقوال شيوخ العصر وأعلامه فى مديحه والاشادة بغزير علمه ، والتنويه بتبوئه مركز الرياسة والزعامة فى علم الحديث ، ومنها ما حصه به بعض خصومه كالبقاعى قبل أن تنشب بينهما الخصومة ، ثم يتبع ذلك بايراد بعض القريض الذى قيل فى مديحه وتقديره

وقد كان كتاب « الضوء اللامع » حادثاً أدبياً عظيماً ؛ تردد فى كثير من مواطنه أصداء تلك المعارك الأدبية الشهيرة التى نشبت مدى حين بين السخاوى وبين بعض أقرانه وتلاميذه ولا

(١) التبر المسبوك (ص ٥) — والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ (ص ٤٥)

(٢) حصلت دار الكتب أخيراً على صورة فتوغرافية لهذا الكتاب منقولة عن نسخة بخط السخاوى نفسه وهى فى مجلد

(٣) يراجع الضوء اللامع — ج ١ ص ١٠١ فى ترجمة ابراهيم التلوانى وقد توفى سنة ٨٩٧ هـ

سيما البقاعى والسيوطى ؛ واتخذت سوراً من العنف لم تعرفها الآداب العربية من قبل ؛ واستمر صداها بدوى مدى حين بعد وفاة السخاوى وخصومه ، وكانت من أهم وأغرب الحوادث الأدبية فى هذا العصر [1]

وكتب السخاوى إلى جانب الضوء اللامع كتباً أخرى فى التراجم منها حسبما يذكر كتاب « الشافى من الألم فى وفيات الأمم » وهو ثبت لوفيات الأعيان فى القرنين الثامن والتاسع مرتب حسب السنين ، وعدة تراجم مطولة لبعض الأئمة ؛ بيد أنه لم يصلنا من هذه الكتب سوى ترجمة شيخه ابن حجر فى مجلد ضخم أسماه « كتاب الجوهر والدرر » ، وقد حصلت دار الكتب أخيراً على نسخة فتوغرافية لهذا الكتاب ، وفى خاتمته ما يفيد أن السخاوى كتبه فى مكة سنة ٨٧١ هـ ؛ وفيه يتحدث بافاضة عن نشأة ابن حجر ، وتربيته ، وصفاته ، ومواهبه ، وعن حلقاته ودروسه وتصانيفه ، ثم يورد مختارات من كلامه وفتاويه ، وما قيل فى رثائه من نثر ونظم

وهناك عدة مؤلفات تاريخية أخرى يذكر السخاوى أنه كتبها ، ولكنها لم تصل الينا مثل « التاريخ المحيط » الذى يشغل ثلثمائة رزمة ، وتاريخ للمدنيين ، وتلخيص تاريخ اليمن ، ومنتقى تاريخ مكة ، ثم طائفة أخرى متنوعة منها : ختم السيرة النبوية لابن هشام ، القول النافع فى بيان المساجد والجوامع ، القول التام فى فضل الرمى بالسهام ، عمدة المحتج فى حكم الشطرنج ، الكنز المدخر فى فتاوى شيخه ابن حجر ، القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع ؛ ومن هذا الأخير نسخة بدار الكتب

* * *

ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولهما أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما الينا ؛ أولهما كتاب « تحفة الأحباب ، وبغية الطلاب ، فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات » وهو دليل لخطط المشاهد والمزارات والبقاع المقدسة ، ولا سيما مصر القاهرة ؛ وفيه وصف لأحياء مصر القاهرة التى تقع فيها هذه المشاهد فى أواخر القرن التاسع ؛ وذكر لكثير من المشاهد والمدافن التى لم يعن بها المقريزى فى خططه ، ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم ؛ ومن ثم كانت أهمية الكتاب فى تاريخ الخطط المصرية ، إذ نستطيع بالرجوع إلى معالمه أن نحدد كثيراً من مواقع القاهرة القديمة وأحيائها وشوارعها فى القرن التاسع الهجرى

وأما الثانى ، فهو كتاب « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » وهو رسالة نقدية قيمة ، يعرف السخاوى فيها علم التاريخ ويشيد بفضله ؛ ويتناول طائفة كبيرة من المسائل والمباحث النقدية التى تدخل فى حيز التاريخ ؛ ثم يذيلها ببيانات ضافية لجميع المؤلفات التاريخية الاسلامية التى ظهرت فى مختلف أبواب التاريخ وعصوره ، مثل كتب السيرة ، وكتب التراجم المختلفة ، وما ألف فى تواريخ الطوائف والجماعات المختلفة ، مثل تواريخ القضاة والحفاظ والشعراء واللغويين والأطباء والاشراف والأدباء والعشاق والصوفية وغيرهم ؛ فهو بذلك فهرس بديع شامل لأمهات الكتب التى وضعت فى هذه النواحى المختلفة ، ويتخلل ذلك مواقف نقدية كثيرة تجعل لهذا الأثر قيمة خاصة

هذا هو استعراض موجز لتراث السخاوى وآثاره ، ولا ريب أن مجال البحث والقول يتسع لأضعاف هذا العرض الموجز ، إذا أردنا أن نفى شخصية السخاوى ونواحيه الأدبية والنقدية المتعددة حقها من التحليل والبحث ؛ وقد كان السخاوى بلا ريب من أعظم شخصيات مصر الاسلامية والعالم الاسلامى فى القرن التاسع الهجرى

(تم البحث) — محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(1) سبق أن عالجنا هذه المعارك الأدبية الشهيرة فى بحث مستفيض نشرناه فى مجلة الهلال الغراء (سنة ١٩٣٢)

٢ـ فريزر ودراسة الخرافة (١)

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور

ثبّتت الخرافة كذلك دعائم الملكية الشخصية وحفظتها ، إذ مما لا شك فيه أن هذه الملكية متأخرة فى الوجود عن الملكية العامة ، فالناس عرفوا متاع الجمية ومال القبيلة قبل أن يعرفوا مال زيد وعمرو . والملكية العامة نفسها ظهرت فى شكلها الأول على صورة الملكية المقدسة ، فنشأت فى أحضان الخرافة وتربت على حسابها . وقد كان التقديس ولا يزال وسيلة من وسائل احترام الملكية والمحافظة عليها . وللخرافة يد أخرى فى الدفاع عن الملكية ، فقد حاربت السرقة والسراق ، وحمت مال الفرد والجماعة ، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب . وإذا تتبعنا عقائد وتقاليد الأمم الهمجية المعاصرة ، وجدنا فيها خير برهان على هذه القضايا

ففى البولينيز Polynésie ، أحد أقسام الأقيانوسيه ، لا يجرؤ أحد على الاعتداء على أملاك الشيوخ والرؤساء والمحاربين لمالها من صفة مقدسة تبعاً لأصحابها ، فحرام على أى شخص أن يعدو عليها بالسرقة أو النهب أو التبديد ؛ ومن اقترف اثماً من ذلك استوجب غضب الآلهة ولعنة الملائكة والناس أجمعين ، وجر على قبيلته بوجه خاص السخط والنكال لهذا كان عدوّ الجماعة التى تعمل على محاربته ورد المال المسلوب إلى أهله . يقول براون : « إن كل ما يملكه السيد أو يحيط به مقدس فى نظر عبيده من سكان زيلندة الجديدة . لذلك لا يستطيع أحدهم — برغم حبه للتبغ — أن يمس ورقة منه علم أنها من مال السيد . وقد حدث مرة أن أعطى صديق لى حفنة من التبغ الى عبد لم يكد يمضغها حتى علم أنها أخذت من منزل سيده ، فأسقط فى يده ، وسارع المسكين الى مولاه يقص عليه القصص ، ويسأله المغفرة واباحة التبغ الذى مضغه ، خشية أن يجر عليه صنعه نتائج مهلكة (٢) . » فبيت السيد اذن حَرَم آمن لا يستطيع مخلوق أن ينتهك حرمته .

وكثيراً ما ترك رؤساء القبائل التى نتحدث عنها أموالهم وأمتعتهم معرضة للجمهور دون أن تصاب بسوء . وإذا أراد فرد عادى أن يحمى ماله ، اكتفى بأن يميزه بشارة من الشارات المقدسة . ووسائل التقديس كثيرة : منها أن يقام فى الحقل شاخص على هيئة صليب أو سمك مهرى خاص (brochet) ؛ أو أن يوضع تحت شجرة الفاكهة صورة فأرة إذا رآها السارق ولى مدبراً ، أو أن يربط فى عنق الشخص خيط أحمر علق فيه رمز لتمساح أو قطة أو وطواط ، تلك الحيوانات التى تثير فى نفوس القبائل الهمجية عوامل الخوف والرعب ، أو التقديس والاحترام ، وقد تحمى قرية بأسرها بواسطة عزيمة أو رقيـة معلقة فى رجل دجاجة ، فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة فى حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة ، وربما كان لها على نفوس متنقيها سلطان لا يعد له سلطان قوانيننا المنظمة . فكثيرمن البدو تأنف نفوسهم من الاذعان لأمر ، اللهم إلا ما أملته تقاليدهم الخرافية أو قيودهم الجمية . يقول بعض الرحالة : « انه ما كان يمكن حكم الزيلنديين بمجموعة من القوانين غير تلك التى جاءت بها خرافتهم . ذلك لأن هؤلاء القوم الحربيين يأبون أن يخضعوا اللوائح ومراسيم لم تصدر عن الآلهة ، ولا يترددون لحظة فى أن يرفضوا فى احتقار أى أمر بشرى ، وفوق هذا فانه من الخير أن يقاد شعب قيادة هينة بواسطة خرافة يدين بها بدل أن ترغمه القوة الغاشمة ارغاماً (١) »

وقد حاربت الخرافة السرقة بشكل يدعو الى التقدير والاعجاب ، فسكان مدغشقر يعتقدون أن من سرق بيضة أصيب بالجرب ، ومن سرق قطعة من الحديد حلت به عاهة جسمية أخرى . وكى يحمى أهل سيام حقولهم ينصبون فيها راية خافقة ، فاذا ما جرؤ لص واعتدى على هذه الحقول أصيب رعدة واضطرب اضطراب العلم الخافق ولم يقو على الهرب . ويقال إن صياداً كان يفقد كل يوم جزءاً كبيراً من صيده ، فرأى أن يحصن شباكه ونخاخه بتلك الراية الآنفة الذكر ، فلم يدن اللص منها فى الغد إلا وارتعدت فرائصه ، ولم يبرح مكانه حتى قبض عليه . وجرت عادة السومطريين (سكان سومطرة) أن يبتهلوا الى آلهتهم ويستنزلوا لعنات السماء على من سرق شيئاً من أمتعتهم ، فلا يلبث السارق أن

(١) سبق القلم فى المقال الأول فعد جزائر السود (Mélanésie) جزءاً من أفريقيـة ، والحق أنها جزء من استراليا (انظر الرسالة عدد ١٠٢) ص ٩٧٩)

(2) W. Brown, New-Zealand, pp. 13 sg.

(1) Thomson, The Storg of New-Zealand, p. 105.

يملن عن نفسه وعما سرق . ويروى أنه سرق مرة أرز سومطرية ، فأخذت تدعو عنا على السارق ، وفى الصباح وجدت الأرز المسروق قد وضع خفية أمام بابها . وهاك نموذجا من هذه الأدعية الغريبة : « شياطين الماء وملوك الأرض والسماء ، أسألكم المعونة والثأر لى ممن اعتدى على . فان كان السارق رجلا فيخفق فى جميع مشروعاته ، وليصب بمرض يعذبه عذابا أليما دون أن يقتله ، ولتخنه زوجه ، وليعصه ولده ، وإن ذهب الى الحرب فليقتل ، وإن ركب سفينة فليغرق دون أن يعثر له على أثر ، وإن قطع شجرة فلتسقط عليه ، ولتصب الآلهة عليه جام غضبها فتهلك زرعه ولا تمن عليه بشىء يأكله حتى يضطر الى أن يتكفف الناس ولا يجيبون سؤله فيموت جوعا . وإن كان السارق امرأة فلتبق عاقرا الى الأبد ، وليسىء زوجها معاملتها ، وليهجرها بنوها ، ولتصب بأمراض لا شفاء منها[1] . » ويظهر أن قدماء الأغريق كانوا يلجأون الى أمثال هذه الأدعية والابتهالات لحفظ أموالهم ، فكانوا يكتبونها على ألواح خاصة يضعونها فى الأمكنة التى يراد حمايتها ، ولا تزال بعض هذه الألواح باقيا الى اليوم . وقد استخدموا هذه الأدعية كذلك فى إرغام السارق على الاعتراف بسرقته ، وهذا ضرب من وسائل التحقيق أن عيب بخرافته فهو يمتاز بسهولته . أما الرومان فقد ذهبوا الى ما هو أبعد من ذلك ، واعتقدوا أن هناك إلها خاصا يتولى حراسة الحدود بين الحقول المتجاورة ، فكل من اعتدى على جاره كان عرضة لسخط هذا الآله العظيم . ويخيل إلينا أن إله الحدود هذا يفسر ما كان عليه الرومان الأول من عناية بالزراعة وشؤونها . وجملة القول أن الخوف الناشىء عن أسباب خرافية صرف الناس عن السرقة فى كثير من الشعوب القديمة ولدى القبائل الهمجية المعاصرة ، فنتج عن هذا احترام للملكية الفردية وأمن مكن المالك من الانتفاع بها

ولا يفوتنا أن نضم إلى الملاحظات السابقة ما نشاهده بيننا من أثر الخرافة فى حفظ المال والمتاع . فالمعجل إن قيل إنه « للسيد » قضى الليل والنهار فى الحقل وخارج الدار دون أن يصاب بأذى ، وإن كان من عجول عباد الله الآخرين أضحى عرضة للسرقة والنهب والسم والذبح . وكيف لا « والسيد » الذى جاء بالأسير من بلاده كفيل بأن يحمى ماله غائبا أو شاهدا ، حيا أو ميتا ؟ ولا أظننا نجهل الأحلام المتواترة والقائلة بأن فلانا رأى « الامام » مثلا يطارده طوال الليل ، لأنه ، فيما يزعمون ، لم يوف بنذر نذره له من قبل . وما أشنع هذا الزعم الذى يناقض أصلا من أصول الدين ، ويسمح بالتقرب إلى غير الله ، وقد وصل الأمر ببعضهم أن ادعوا أن هذا البلد بلد « الدسوقى » ، والآخر ملك « الهنساوى » ، والثالث من نصيب « العريان » ، ويعنون بذلك أن كل واحد من هذه الأمكنة دخل فى حوزة حارس أمين وحام عظيم . فلم يكن بدعا أن تلجأ طائفة من الناس إلى نقل ملكيتهم — إن صح هذا التعبير — ولو ادعاء إلى بعض الأولياء والمقربين ليحفظ مالهم من الضياع . أما التمائم والرقى فقل فيها ما شئت ، وحدث عنها ولا حرج : فتارة يقال إن هذه التميمة تحفظ من السرقة والغرق والحرق ، وأخرى يظن أن هذه الرقية ما تلبث فى دار إلا أمنت كل مكروه ، وعلى عادة وضع التماسيح على الأبواب تعتمد على خرافة من هذه الخرافات التى ترمى إلى حماية المال والمتاع ؟

ابراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(1) E. H. Gomes, Seventeen years..., 64—66 بتصرف من كتاب:

التربية عند الانكليز

التعاون في سبيل تربية الطفل بين المدرسة والمنزل[1]

للأستاذ محمد عطية الابراشي
المفتش بوزارة المعارف

من مظاهر التربية الحديثة أن التعاون في المدرسة يجب أن يحل بالتدريج محل المنافسة ، وأن المدرسة والمنزل يجب أن يعملا يداً بيد في سبيل تربية الطفل تربية يصلح بها للحياة التي تنتظره ، تربية اجتماعية كاملة ، بحيث يتعود التعاون مع غيره من الصغر ، حتى يستطيع أن يقوم بأعمال جليلة في الكبر . قد لا يستطيع الآباء في المنزل أن يروا الغرض من الحياة أو معنى الحياة ، وقد يكونون محبين لأنفسهم ، يأخذون ولا يعطون . وهنا تبدو الحاجة الى المدرسة ، فإنها تأخذ وتعطي ، وتدرك معنى الحياة ، وتستطيع القيام بمساعدة المنزل في تربية الطفل تربية عملية علمية صحية ، تتفق والبيئة التي ينتسب إليها

وأحسن الوسائل التي بها يستطيع المنزل والمدرسة معاً إعداد الطفل للحياة الكاملة هي :

(١) العناية بالدور الأول من الحياة وهو دور الطفولة ، فإنه هو الأساس الذي يبنى عليه مستقبل الطفل وحياته . ولقد بلغت بالانجليز العناية بالطفل لدرجة أنهم يفكرون فيه حتى قبل أن يولد بخمسين سنة على الأقل ، فالطبقة الراقية منهم تفكر في أمر الوراثة ، فلا يتزوج أحد من هذه الطبقة بمن به أو بها مرض من الأمراض العقلية أو العصبية أو الرئوية ؛ خوفاً من التسبب في ايجاد طفل معتوه أو مجنون أو مستعد للسل مثلاً

(٢) أن يعطى الطفل حرية كبيرة لتنمية مواهبه وقواه التي تعد هبة للحياة الاجتماعية ، ولا نقصد بذلك أن ندع الطفل يفعل كل ما يشاء ، بل نعطيه فرصة في أن يعمل ويجرب ، ونراقبه عن بعد حتى يظهر خطؤه ، وندعه يحاول إصلاحه بنفسه ، ونساعده عند الحاجة ، ونعمل على أن يعرف نفسه ، ويعتاد ضبط شعوره وعواطفه ، والصبر ، والتجربة والمثابرة ، والتفكير في الجماعة ، وفي روح الجماعة ، بحيث نضحي في سبيله بكل شيء آخر ؛ فلا نفكر إلا في الطفل وفي تقويمه وتهذيبه ليكون المثل الأعلى في الحياة

(٣) الاهتمام بالألعاب الرياضية ؛ فإنها أحسن وسيلة لتقويم خلق الطفل وتقوية جسمه ؛ بها نبث فيه حب العمل والتفكير لا في نفسه بل في الفرقة التي يشترك فيها ، وبذلك نميت فيه ذلك المرض النفسي : مرض حب الذات والتفكير في النفس ليس غير

(٤) الحاجة الى معرفة أن الطفل يحتاج أحياناً الى الهدوء والصمت

(٥) العمل على الاصلاح دائماً . والتفاهم بالمحادثة الودية خير طريقة للعلاج والاصلاح . وإن المراقبة في دور البلوغ ، والمراهقة واجبة ، لأن هذا الدور أكثر أدوار الحياة خطراً

(٦) العناية بالفنون والأعمال اليدوية كوسيلة للنمو العقلي والخلقي وكسب المهارة

(٧) يجب أن يتم التعاون بين المدرسة والمنزل ، للوصول بالطفل الى الكمال . فاذا لم يكن هناك تعاون بينهما فمن المحال أن نصل إلى الغرض الأسمى من التربية

وفي الأمم المتمدينة ، وبخاصة انجلترا والولايات المتحدة بأمريكا تجد الثقة متبادلة بين المدرسة والمنزل ، والرابطة بينهما كبيرة ، يتعاون كل منهما على تثقيف الطفل وإفادته ، فليست المدرسة في واد والمنزل في آخر . وإني آسف لأن أقول إن المدرسة وحدها في مصر هي التي تجاهد منفردة في سبيل تربية الطفل ؛ فالمنزل في الغالب منفصل عنها كل الانفصال ، وقد يهدم ما تبنيه أحياناً . ولا سبب لذلك إلا انتشار الجهل والأمية وحبذا الأمر لو قامت المدرسة بدعوة المتعلمين من الآباء في وقت معين كل ثلاثة أشهر مثلا للتفاهم والبحث معهم في الأمور التي تتعلق بشؤون الأطفال ، والنظر في أحوال التعليم ، ومستقبل التلاميذ ، والعمل على رفع مستواهم العلمي والخلقي والصحي والاجتماعي

وفي (نيويورك) مثلاً تجد المدرسة تعمل على التقريب بينها وبين المنزل ؛ فالآباء في الولايات المتحدة بأمريكا أعضاء عاملون

---

(١) من كتاب « نظام التعليم في انجلترا » تحت الطبع

فى الحياة المدرسية يذهبون الى المحاضرات العامة التى تلقى فى المدرسة ، ويشتركون فى مناظراتها ، ويساعدون فى مقاصفها ، ويعاونون فى محافلها الاجتماعية

وبأمريكا الآن جمعيات للآباء والمدرسين فى كل مكان تلقى فيها محاضرات عن : أعمال المدرسة ، والغرض من المدرسة ، والطفل ، ونفسيته ، وتربيته ، ومعاملته

والكل يفكر فى الطفل ثقة بأن طفل اليوم هو رجل الغد ، وأثر التربية اليوم يظهر فى الغد ، وما تزرعه اليوم تجنى ثماره غداً . وإن غداً لناظره قريب . والوسيلة الوحيدة لاصلاح الجيل المقبل وترقيته هى العناية بالجيل الحاضر . فاذا عنينا بأطفال اليوم وتربيتهم تربية صالحة فى المدرسة والمنزل ، والملعب ، انتظرنا ثمرة طيبة وشعباً راقياً فى المستقبل

وفى مدارس الأطفال فى (وينتكا) بأمريكا يشترط لقبول التلاميذ أن يقبل الآباء معاونة المدرسة والاشتراك مع موظفيها فى العمل ، وبغير ذلك لا تقبل الأطفال . وفى انجلترا قد بذلت جهود كبيرة فى السنوات العشر الماضية للتوحيد بين هذين العاملين : المدرسة والمنزل ، وتوثيق عرى الرابطة بينهما . ولقد نجحت هذه المجهودات وأصبح الآباء يعنون بأمور التعليم ، يسترشدون برأى المدرسة ، ويستعيرون من مكتبتها إذا شاءوا ، ويدعون للمجتمعات الموسيقية والتمثيلية والرياضية لكى يروا أبناءهم يغنون أو يمثلون أو يلعبون ، ويشاهدوهم كرجال يقومون خير القيام بكثير من الأعمال من إدارة مطعم ، وتنظيف فصول ، وتنظيم حديقة ، ومراقبة ألعاب رياضية ، وإدارة مكتبات ، وتوزيع الأدوات وجمعها بعد الانتهاء منها ، وإصلاح كل ما يحتاج الى الاصلاح فى المدرسة . فالطفل عضو عامل فى المدرسة يعوّد من صغره الاعتماد على نفسه ، والاستعداد للحياة العملية العالية باشتراكه مع رفقائه فى الفصل والمعمل والمصنع والمحفل والملعب الرياضى

وفى المنزل يجد الطفل الانجليزى مدرسة أخرى صغيرة ؛ فالبيئة علمية ، والجو علمى ؛ أم تعلمه ، وأب يرشده ، وخادم تقرأ له . فالكل يفكر فيه صباحاً ومساء . فى الصباح يأتى الطفل إلى أمه بالصحيفة اليومية فتقرأ له الجزء الخاص به من الصحيفة عن الفيل والنمر مثلاً ، فيعرف ما تم من أمرها . ثم تقطع له هذا الجزء فيضمه بين كتبه الخاصة ، فى حجرته الخاصة بكتبه ولعبه ، وفى الساعة السابعة مساء يتناول كوباً من اللبن أو فنجاناً من المرق بعد الاستحمام ، ثم تأخذه إلى فراشه ، وتقرأ له بعض الحكايات السارة ، وتنشده شعر الطفولة ، وتغنى له بعض الأغانى بصوت هادىء جميل حتى ينام ، فتتركه إلى الصباح

وترحب المدرسة الانجليزية بالآباء ، وتريهم الأعمال التى يقوم بها أولادهم فيها ، وتعمل على إيجاد روح التعاون بينها وبين المنزل

والمدرس الحازم يستطيع أن يساعد الآباء فى معرفة أن الحياة لا تقصد طفلاً واحداً ، أو أسرة واحدة ، أو مدرسة واحدة ليس غير ، بل تقصد المجتمع الذى ينسب اليه الفرد ، والذى يجب أن يقوم الكل بواجبه نحوه ؛ حتى تزول الأثرة التى تظهر فى بعض الآباء الذين لا يفكرون إلا فى أبنائهم وبناتهم . فالمدرسة تستطيع بمعاضدة المنزل أن تقوم بجلائل الأعمال نحو الأخلاق والانسانية وتحسين المستوى الصحى والاجتماعى والعلمى والخلقى . ولسنا فى حاجة إلى تكرار القول بأن التعاون بين المدرسة والمنزل هو الوسيلة الوحدة لنجاح التعليم . وبالمنتديات يمكن الجمع بين الآباء والمدرسين لاستماع روايات أو مناظرات مثلا يقوم بها الطلبة والمدرسون ، وبهذه الطريقة تتم الرابطة ، ويلم الشمث ، ويعمل الجميع لاسعاد الطفل وتربيته تربية حسنة

ولقد أوحت روح (بستالوتزى) إلى المدرسين بأن يكسبوا تقدير الآباء ، فان هذا التقدير هو العامل الأول لنجاح الادارة المدرسية ، وإن كانت المدرسة فى حاجة فانها فى حاجة إلى مساعدة المنزل ؛ فالمدرسة هى التى تتسلم البضاعة التالفة ؛ يأتى الطفل اليها يتكلم لغة غير لغتها ، ويتخلق بأخلاق سيئة ، وحينئذ نجد عمل المدرسة مضاعفاً ؛ فتبتدىء تعلمه لغة جديدة أو لغتين ، وبجانب بث الأخلاق الفاضلة فيه تعمل على تقويم المعوج منها

وإنى أعتقد أن الطفل يتمنى أن يأخذ والده فى إحدى يديه ، وأستاذه فى يده الأخرى ؛ حتى يعمل الكل وحدة « ثلاثية » متينة الاتصال تعمل لشىء واحد هو رقى المجتمع ، والوصول إلى الحياة الكاملة ؟

محمد عطية الابراشى

٣ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

شذرات من كلام محمد اقبال

أقفى على ما كتبته فى المقال السابق عن موقف المسلمين من تقليد أوربا بشذرات من الفيلسوف الشاعر الهندى محمد اقبال تؤيد ما قلت . وهى شذرات من كتابه جاويدنامه ، وهو رحلة خيالية فى الأفلاك والجنة تضمنت آراء اقبال فى الاسلام والمسلمين ، وسأتكلم عنها فى مقالات أخرى ، وإن تكن هذه الشذرات طويلة فالحق لايضره الطول . قال على لسان سعيد باشا حليم حينما لقيه فى فلك عطارد مخاطباً المسلم :

« قم فصوّر بنفسك عالماً آخر ، وامزج العشق بالذكاء الباهر . إن شعلة الأفرنج أصابها الماء فهى خامدة ، فالعيون ناظرة والقلوب هامدة ؛ أصابت سيوفهم منهم المقاتل ، فسقطوا كصيدهم فى المجاهل . فلا تطلب الحرقة والنشوة من كرومهم ، ولا ترجّ عصراً جديداً فى أفلاكهم . فى نارك أنت حرقة الحياة ونورها ، وعليك أنت بعثها ونشورها

قال مصطفى[1] وهو يتغنى بالتجديد : « لا بد أن نمحو كل قديم عتيد . » إن الكعبة لا تجدد فيها الحياة ، إذا جاءها من أوربا اللات ومناة . وا أسفا ليس فى رباب التركى نغمة جديدة ، جديده قديم أوربا الغالبة . لم يكن غير هذا النفَس فى صدره ، ولم يكن سوى هذا العالم فى ضميره . فلا جرم سكن إلى العالم الموجود ، وذاب كالشمع فى حرقة العالم المشهود . وكم فى طباع الكائنات من طريف وجديد ، ليس فى تقويم الحياة هذا التقليد ، إن القلب الحىّ يخلق العصور ، وينفر من التقليد أى نفور

إن يكن لك قلب المسلم الولهان ، فانظر فى ضميرك والقرآن ، كم عالم جديد فى آياته ، وكم عصر مطوى فى آناته[2] . وحسب العصر الحاضر واحد من عوالمه ، إن نفذ قلبك إلى بواطنه ، إن المؤمن من آيات الله الوهاب ، يلبس العوالم لبس الثياب . كلما قدم عليه عالم منحه القرآن عالماً آخر . . . الخ

وهذا حديث من الكتاب نفسه بين نادر شاه ملك إيران وزنده رود (محمد اقبال) حينما التقيا فى الجنة :

نادر :

مرحباً بالشاعر المشرقىّ ، الذى يجدر به اللسان الفارسىّ ، إنى محرَم للأسرار فأفش أسرارك ، ماذا عندك عن ايران الوطن المبارك ؟

زنده رود :

فتح عينه على نفسه حيناً ، ثم وقع فى الشرك سريعاً . هو صريع دلال أوربا الفاتنة هام بها فاتبعها ، وفتن بزينتها فقلدها ، همّه اليوم الملك والنسب ، وذكر سابور وتحقير العرب ، أوقاته من الواردات خالية ، يطلب الحياة من القبور البالية . تحدث بالوطن وذهل عن نفسه ، وترك حيدراً[1] وهام برستمه ! الخ

ويقول على لسان أبدالى[2] ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر حينما لقيه فى الجنة

أبدالى :

ذهل الشرق عن نفسه بما قلد الغرب واتبعه ، ولابد للشرق أن ينقد الغرب فيفهمه ، ليست قوة الغرب من العود والرباب ، ولا من رقص الفتيات بغير حجاب ، ولا من سحر وردّيات الخدود ، ولا من الساق العارية والشعر المجدود . وليست هيبة الغرب من نبذ الدين ، ولا بهاؤه من حروف اللاتين . ما قوة الأفرنج إلا العلوم والفنون ، وما ضوء مصباحهم إلا من هذه النار

ما الحكمة صورة من الزى واللباس ، وما تمنع العلم والفضل عمامة على الراس ؛ إن للعلم والفن أيها الشاب النافر ، سراً وراء هذه الظواهر ؛ وإنما يغنى فى هذه السبيل العين النظارة ، لا هذه العمارة[3] أو تلك العمارة ؛ حسبك الفكر النفاذ ، وناهيك بالطبع الدرّاك . إن مُلك المعنى لم يحجّره أحد ، ولا يناله إلا الجهاد والجلد ، لقد غفل التركىّ عن نفسه ، وسكر من الأفرنج رأسه ،

وقع تحريف فى المقال السابق فى كلمة « طوينا مسافة القرون » فكتبت : « طوينا مسألة القرون » كذلك حرفت « أين ثم أين » إلى « آمين ثم آمين »

(١) يعنى الغازى مصطفى كمال باشا (٢) جمع آن

(١) على بن أبى طالب (٢) أحمد خان أبدالى ملك الأفغان فى القرن الثانى عشر الهجرى (٣) العمارة غطاء الرأس

فشرب من يدهم السم حلو المذاق ، وترك عامداً ترياق العراق ، ولست أدعو له إلا بالهداية والسداد . إن عبد الأفرنج قد أولع بالظهور ، فأخذ عنهم الغناء والفجور ، يضنى روحه فى اللهو والفتون ، ويستصعب الجد فيركن إلى المجون . يؤثر السهل ايثاراً لراحته ، ويرى فى السهل كفاء لفطرته . وإنما طلب السهل فى هذه المحن ايذان بأن الروح قد فارق البدن »

ويقول فى خاتمة كتابه خطاباً للجيل الجديد :

« آسيا موطن الشمس ومشرقها ترى غيرها وتحتجب عن نفسها ، قلبها محروم من الواردات الجديدة ، فهى اليوم لا ترن شميرة ؛ وقتها فى معترك هذه الدار جامد ساكن لا يلذ التسيار . هى صيد الشيوخ وقنيص اللوك ، وغزال فكرها ظالع منهوك . العقل فيها والدين والعلم والشرف والعار من ربقة السادة الافرنج فى إسار . هجمت على عالم أفكارها ، ومزقت حجاب أسرارها ، وجعلت قلبى فى صدرى دماً حتى صبغت عالمها لوناً آخر . . . . شباب عطاش كؤوسهم فارغة ، ووجوههم نضرة ، ورؤوسهم مضيئة ، وأرواحهم مظلمة ، ضعاف البصر قد حرموا اليقين والأمل ، لم تدرك أعينهم شيئاً فى هذا العالم ، يكفرون بأنفسهم ويؤمنون بغيرهم ؛ إن منكر الحق عند الشيوخ كافر ، ومنكر نفسه عندى أكفر »

***

ثم أعود الى الكلام فيما فعله الكماليون فيما يسمى « النهضة التركية الأخيرة » ، وأقدم قبل الكلام ترجمة البلاغ الذى أذيع على الناس قبل فتح المجلس الكبير بأنقرة ليتبين القارئ أين ابتدأت هذه النهضة وأين انتهت :

نشرت الهيئة التمثيلية التى مهدت لاجتماع مجلس الأمة الكبير بأنقرة هذا البيان قبل فتح المجلس :

١ — بمنه الكريم سيفتتح مجلس الأمة الكبير فى أنقرة يوم الجمعة الثالث والعشرين من نيسان بعد صلاة الجمعة

٢ — إختير يوم الجمعة لفتح مجلس الأمة الكبير الذى سيؤدى الوظائف الحيوية الخطيرة مثل انقاذ مقام السلطنة والخلافة ، واستقلال الوطن . ويستفاد من بركة هذا اليوم فتؤدى صلاة الجمعة فى جامع الحاج بايرام ويحضرها المبعوثون كلهم ، للتيمن بأنوار القرآن والصلاة . وبعد الصلاة يسار باللحية المباركة واللواء الشريف إلى الدائرة المخصوصة . وقبل الدخول إلى الدائرة يتلى دعاء وتذبح الذبائح . وفى هذه المراسم تنظم الفرق العسكرية ، من الجامع الى الدائرة المخصوصة

٣ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يبدأ اليوم بتلاوة الختمة الشريفة والبخارى فى مركز الولاية بترتيب الوالى ، وتؤخر الأجزاء الأخيرة من الختمة الشريفة لتتلى أمام الدائرة يوم الجمعة بعد الصلاة

٤ — لأجل تأكيد قدسية اليوم المذكور يشرع منذ اليوم (فى كل الجهات) فى قراءة الختمات الشريفة والبخارى ، وتقرأ الصلوات الشريفة على المنارات يوم الجمعة قبل الأذان ؛ وحينما يذكر أثناء الخطبة الاسم الهمايونى المظيم اسم حضرة صاحب الخلافة سلطاننا يدعى لصاحب الشوكة ولممالك الشاهانية ولرعاياه بالخلاص والسعادة . وبعد أداء الصلاة يكمل الختم وتلقى المواعظ فى تبيين خطر وقداسة المساعى الملية التى يراد بها خلاص مقام الخلافة العلى والسلطنة وأقسام الوطن كلها ، وفيما يجب على كل فرد من المؤازرة فى تأدية الوظائف الملية التى يقوم بها المجلس الكبير المؤلف من نواب الأمة . ثم يدعى بالخلاص والسلامة والاستقلال لخليفتنا وسلطاننا ، وديننا ودولتنا ، ووطننا وملتنا ، وبعد إيفاء هذه المراسم الدينية ، والخروج من الجامع ، يجتمع الناس فى مركز الحكومة فى كل البلاد العثمانية ، للتهنئة بفتح المجلس . ويقرأ المولد الشريف فى كل جهة قبل صلاة الجمعة بصورة مناسبة

٥ — تتخذ كل الوسائل لاذاعة هذا البيان ، ويبلغ سريعاً إلى أبعد القرى ، وأصغر الفرق العسكرية ، وكل مؤسسات الدولة ، ويعلق فى لوحات مخصوصة ، ويطبع ويوزع مجاناً حيثما أمكن ذلك

٦ — نضرع الى جناب الحق أن يهبنا التوفيق الكامل

باسم الهيئة التمثيلية

مصطفى كمال

ذلك ما افتتح به الكماليون عملهم ؛ فلما أتيح لهم النصر شرع القادة منهم يتنكرون للاسلام . وكان أشدهم إفراطاً فى ذلك الغازى مصطفى كمال باشا الذى كان المسلمون جميعهم يعدونه بطل أبطالهم غير مدافع . ولست أدرى أبعود الكماليون

فيتوسلون بالدين إذا وقعوا فى محنة أخرى . ولست أودّ لهم المحن بل أدعو لهم بالعافية والهدى . حدثنى من أثق به عن الشيخ عبد العزيز جاويش رحمه الله أن الغازى قال له مشيراً إلى القرآن الكريم : « لن تفلحوا ما دام هذا الكتاب البالى إمامكم » وحدثنى آخر من كبار الرجال أن الغازى رمى بالمصحف ساخراً؛ وكان يأمر فتترجم له بعض آياته ليتخذها هزواً . ألم يكن للنهضة التركية بدّ من هذا ؟ لقد سبقنا الأوربيون فى كل سبيل وما سمعنا عن ملك من ملوكهم أو زعيم من زعمائهم أنه فعل هذا بالتوراة والانجيل . ولو فعله بعضهم لكان فعلة شنعاء لا يقتدى بها العقلاء . وقد قرأت فى إحدى الجرائد الانكليزية منذ سنين أن ملك الانكليز يواظب على قراءة فصول من التوراة منذ أربعين سنة لأن أمه أوصته بهذا

وقد كتب الكماليون فى دستورهم أول الأمر أن دين الدولة الاسلام ، ثم عادوا فمحوا ذلك منادين بأن الدولة لا دين لها . ثم عمدوا إلى القوانين المدنية ، وهى مستنبطة من الشريعة الاسلامية فنبذوها واستبدلوا بها قانون سويسرا . وليسوا أول من يلام على ذلك ، فقد سبقهم المصريون فسنوا للمسلمين هذه السنة السيئة ، ولكن الكماليين كانوا بدعاً من الأمم فى اختيار قانونهم الجديد . فما كان هذا القانون وليد عاداتهم ، ولا نتيجة حاجاتهم ، ولا منتهى مارآه أولو الأمر منهم ، بل أتوا بالقانون السويسرى مجموعاً مطبوعاً مجلداً ، وعرض على المجلس هذا المجلد مُطَبقاً ، وأخذت الآراء فأجمع عليه الأعضاء ، فانتقل قانون سويسرا إلى الأناطول فى ساعة ، وصار الأناطول سويسرا ، وصار أهله سويسريين ، وأنجاهم الله من القوانين الاسلامية البالية ، إذ أنزل عليهم قانوناً جديداً مطبوعاً مجلداً ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء !

***

ومما ابتدعه الكماليون التأذين باللغة التركية . وقد ترجموا القرآن من قبل إلى لغتهم فعذرناهم وقلنا لا بد للمسلم أن يفهم قرآنه ، والتركى لا يستطيع أن يفهم القرآن بالعربية فلا مناص من ترجمته إلى لغته ؛ والأمر فى الأذان غير هذا ، فهو تسع كلمات معدودات صارت شعاراً للمسلمين فى أقطار الأرض كلها يفهمونها على اختلاف لغاتهم ؛ ليس فى الأرض مسلم لا يعرف معنى الله أكبر ومحمد رسول الله ، والصلاة والفلاح ، وإن يكن فى الأرض مسلم لا يفهمها وجب عليه أن يفهمها احتفاظاً بهذا الشعار ، واستمساكاً بهذه الكلمات الجامعة بين المسلمين . فما بال الكماليين أصرّوا على التأذين بالتركية ؟ ذلك بأنهم لا يبالون بالرابطة الاسلامية ، وما أحسبهم إن استمرت لهم هذه السيرة إلا سيلغون الأذان كله فيستريح السادة المترفون من هذه الضوضاء . ذهبت مرة إلى جامعة اكسفورد فتعشيت فى إحدى كلياتها مع الطلبة . فلما جلسنا على الموائد أقبل جماعة من الأساتذة إلى مائدة تسمى المائدة العالية ، فوقف الطلبة ، وتلا أحد الأساتذة دعاء باللاتينية . ولما انتهى الطعام وقف الطلبة خاشعين فاستمعوا إلى دعاء آخر باللاتينية أيضاً . وهناك شواهد كثيرة على احتفاظ الأمم فى بعض أمورها بكلمات من لغات غير لغاتها احتفاظاً بذكرى تاريخية أو ابقاء على سنة دينية . وأذكر هنا أن فى اكسفورد تسع عشرة كلية مع كل واحدة منها كنيسة ، والطلبة ملزمون بالتناوب على الصلاة فى أوقات معينة ، فهل منع هذا الامبراطورية البريطانية من أن تسود العالم ؟ أو كان هذا بعض الأسباب التى مكنت لها فى الأرض ؟

ولا ننسى هنا أن الجامعة المصرية حينما شيد بناؤها على طراز أوربىّ لا مصرىّ ولا عربى لم يتم بُناتها التقليد ببناء مسجد ، ييسر للطالب المصلى تأدية الصلاة ، فكأنه أكره على ترك الصلاة اكراهاً . وقد تكلمت فى هذا فقيل لى إن فى تخطيط الجامعة مسجداً . ولست أدرى متى يشيد هذا المسجد المخطَّط ؟ لماذا نؤمن ببعض سنن الأوربيين ونكفر ببعض ؟ ولماذا يا قوم نقلدهم فى المراقص ولا نقلدهم فى بناء المعابد فى الجامعات ؟ وقد كان لنا مصليات فى مدارسنا ، وكان لها أئمة يصلون بالطلبة ، ولكنا شعرنا بتوغلنا فى المدنية وتقدمنا فى العلوم والفنون فخجلنا من الابقاء على هذه السنن القديمة فأهملناها فدرست ونسيت !

***

ومما فعله الكماليون آخراً تحويل جامع آيا صوفيا كنيسة بمحو مافيه من آيات قرآنية وأحاديث ، والكشف عما ستره المسلمون من صور القديسين والملائكة والصلبان ونحوها من نقوش المسيحية ؛ وقد احتج لهم من يدافع عنهم بالحق وبالباطل بأن بناء المسجد وَهَى ، ولم يبق صالحاً لاقامة الصلوات فجعلوه متحفاً وكشفوا عن هذه الصور الأثرية ، فهل معنى هذا أن

الكماليين أشفقوا على المصلين أن يخرّ عليهم المسجد فأرادوا أن يفدوهم بروّاد المتاحف لا يبالون أن يسقط عليهم المتحف أولا يسقط ؟ هل بلغ الولع بالآثار القـديمة عندهم أن يمحوا الآيات القرآنية ليكشفوا عن الرهبان والصلبان ؟ على أن هذه الآيات قد كتبت بخط جميل يجعلها من الفنون الجميـلة ، ومضت عليها عصور تجعلها من الآثار القديمة ...

لست أرى فيما صنعه الكماليون بآيا صوفيا إلا إنفاذاً للمنهاج الذى وضعوه . فهذا جامع كان كنيسة معظمة عنـد النصارى ، وقد فتح المسلمون القسطنطينية فجعلوا من آيات الفتح والظفر تحويل الكنيسة إلى جامع فطمسوا نقوش النصرانية فيها ، وبنوا لها منارتين ، ونصبوا أمامها لوحاً كتبوا فيه حديثاً مروياً عندهم : « لتفتحن القسطنطينية ! ولنعم الجيش جيشها ، ونعم الأمير أميرها ! » ولايزال التركى كلما مر بهذا الجامع ذكر الفتح والفاتح ، وغلبة الاسلام فى هذه المدينة ونحو هـذا مما لا يلائم « النهضة التركية الأخيرة » ولايساير المدنية الحديثة ، ثم لايزال هذا الجامع حسرة فى نفوس النصارى ، ما نسوه قط ، وقد أعربوا عن أملهم فى تحويله إلى كنيسة يوم احتل الحلفاء الآستانة فى الحرب الكبرى فتجمع الروم حول آيا صوفيا ليستولوا عليه فيعود سيرته الأولى . فكان لزاماً أن يمحو الكماليون هذه الآية من نفوس الترك وغيرهم من المسلمين ، لينسوا الماضى وينظروا إلى الحاضر . وليتقربوا إلى أوربا النصرانية التى التزموا محاكاتها فى كل شىء . وما بالكم أيها المسلمون تكرهون هذا التسامح فى الدين وأنتم تزعمون أن دينكم دين التسامح ؟ ستقولون إن أوربا النصرانية لا تتسامح معنا فنجزيها تسامحاً بتسامح ، ولا يزال كثير من مساجدنا فى الأندلس والبلقان كنائس فى أيدى النصرانية . وفاتكم أيها المسلمون أننا أولى بالتسامح منهم فلماذا لانبدؤهم به ! ! !

وقد بلغنى أخيراً أن الحكومة التركية هدمت المسجد الجميل مسجد المدرسة البحرية فى هيبه لى أطه ، هذا المسجد الذى كان يشرف على بحر مرمرة يوحى إلى المسلم أن دينه ينبغى أن يعز فى البر والبحر ، فان صدق هذا الخبر ، ولست على يقين منه ، فهو حلقة من هذه السلسلة .

(له بقيـة) عبد الوهاب عزام

الديمقراطية والانتخاب

فى التربية

للأستاذ فخرى أبو السعود

مبدأ التعليم العام حديث العهد وليد الديمقراطية فى نظم الحكم الحديثة ، إذ اقتضت الديمقراطية المساواة بين جميع أفراد الأمة فى الفرصة التى تتاح لهم لتقويم طباعهم واستثمار مواهبهم ؛ ففى نصف القرن الأخير جُعلت مرحلة التعليم الأولى فى دول الغرب الراقية عامة إجبارية مجانية ، لينال كل فرد حظاً من التعليم ، وعاونت الحكومات ذوى المواهب من أبناء الطبقة الفقيرة على المضى إلى غايات التعليم دون أن يكون فقرهم عائقاً لهم عن ذلك ، وبذا انتشر النور وأطلقت المواهب التى كانت من قبل معقولة

على أن التعليم العام لم يَخْلُ انتشاره من مساوئ : من ذلك أن معظم أبناء الطبقة السفلى يغادرون المدرسة تواً عقب إنهاء مرحلة الدراسة الأولى ويعودون إلى مزاولة مهن آبائهم وينسون ما تعلموه فى المدارس إلا النزر اليسير الذى لا يساعدهم إلا على قراءة غث الكتب وفارغ القصص ؛ ومن ثم انتشر الأدب الرخيص وطغى على الأدب العالى ، وتدلت الصحف ، وكثر الكتاب المرتزقون الذين لا يتوخون سـوى ارضاء تلك العقلية المنحطة ، وقد آذى هذا الأدبُ المنحط الثقافةَ الرفيعة : إذ اجتذب غير قليلين من المتعلمين تعلماً راقياً ، لأن من طبيعة الانسان أن يؤثر الهين من الأبحاث على الصعب منها ، إلا أنْ يكون له وازع من نفسه شديد يَقْسرُهُ على التسامى عن الفضول ؛ وما من وسيلة من وسائل التثقيف الحديثة كالراديو والسينما والمحاضرات إلا أُسِيء استعمالها كما أُسِيءَ استعمالُ الكتابة إرضاءً لفضول أشباه المتعلمين ، وكانت النتيجة أن التعليم العام حين رفع مستوى الطبقة السفلى درجة هبط بعقلية الطبقة العليا مثلها

على أننا إذا فرضنا أن التعليم العام كان خيراً كله فى بلاد الغرب التى سبقتنا اليه فهل هو كذلك فى مصر ؟ لقد أخذنا

مبدأ التعليم العام فيما أخذنا عن أمم الغرب ، وقلنا : مادمنا نطالب الديمقراطية فى السياسة والحكم فلا بد من اتباعها فى التعليم ، وما دمنا نريد النهوض ببلادنا فلننشر فيها العلم لننقيها من خرافات الجهل وجموده ، وأغرقنا وتسرعنا فى تطبيق ذلك المبدأ شأننا فى كل ما ننقل عن الغربيين : فأنشأنا عشرات المدارس وزججنا فيها الناشئين من كل صوب ، وأنفقنا على ذلك الأموال الطائلة ، وتخرج فى معاهدنا ألوف الشبان ، فماذا كانت النتيجة ؟ النتيجة فشل لم يكن فى الحسبان : فأولئك الشبان يزيدون على حاجة البلاد ، وتعليمهم ناقص مشوه ، وأخلاقهم لا تحمد ، والتعليم عامة يتقدم فى طريق الضعف والانحلال سنة بعد سنة باطراد

* * *

ذلك بأننا أخذنا بمبدأ الديمقراطية فى التربية مطلقاً غير محدود ، وهو مبدأ غير طبيعى ولا يصلح به وحده مجتمع ولا نظام ، وإنما المبدأ السارى فى الطبيعة هو مبدأ الانتخاب : فالأصلح فى الطبيعة هو الذى يرقى ويسود ؛ وقد فطن إلى ذلك أول الشعوب أخذاً بالديمقراطية فى حياتهم الاجتماعية ونظمهم الحكومية ، وهم اليونان : فديمقراطية أثينا لم تكن فى الواقع إلا أرستقراطية إذا تذكرنا أنه كانت بها دائماً طبقتان ممتازتان غير متساويتين فى الحقوق والواجبات : طبقة الأحرار وطبقة العبيد . ولما بحث فلاسفة اليونان الكبار فى النظم الحكومية لم يؤثر واحد منهم الديمقراطية المطلقة ، ومالوا إلى الأرستقراطية لأنها هى النظام الطبيعى ؛ وحين عالج أفلاطون التربية وضع لها نظاماً أرستقراطياً قائماً على مبدأ انتخاب الأصلح ، لا ديمقراطياً على مبدأ المساواة التامة: فجعل التعليم على ثلاث مراحل يتمتع الجميع بالأولى منها ولا يرتقى إلى الثانية فالثالثة إلا من أظهروا استعداداً طبيعياً لذلك ، ومن المرحلة الأولى يتخرج أرباب المهن اليدوية ، ومن الثانية يتخرج القائلون ، ومن الأخيرة الفلاسفة والحكام

فالطبيعة لم تجعل أبناءها متساوين فى المواهب ، بل هى ترفع بعضهم فوق بعض درجات ، ومادام هذا كذلك فسيظل فى كل مجتمع فى كل عصر طبقات متفاوتة ، ولن ترقى أمة إلا أن تعترف ضمناً بالتفاوت بين هذه الطبقات ، والغفلة عن هذا التفاوت خطأ قاتل

وأشهر الشعوب بالديمقراطية فى العصر الحديث الانجليز ، ولكن من يتأمل فى حياتهم يرى أن ديمقراطيتهم أرستقراطية كديمقراطية أثينا : فالفوارق بين طبقات النبلاء والأوساط والسوقة قائمة محددة يشعر بها أفراد كل طبقة ، والنبلاء يترفعون على من عداهم ترفعاً شديداً ، والآخرون ينظرون إليهم نظرة رهبة وإكبار ، حتى لتكاد تكون طبقة النبلاء هذه أمة داخل أمة ؛ وهذا الشعور باختلاف الطبقات والتسليم به والاعتراف بالأمر الواقع دليل على نزعة الانجليز العملية ، وهو هو سر صلابة بنيان نظامهم الاجتماعى والحكومى ، وخلو تاريخهم من زعازع التقلبات

وهو أيضاً أكبر أسرار نجاح نظم التربية عندهم : فالنظام الارستقراطى يتمثل فى المدرسة الانجليزية كما يتمثل فى المجتمع الانجليزى : فالتعليم عام مباح للجميع ، ولكن هناك مدارس للخاصة قاصرة على أبناء من يأبون لأبنائهم مخالطة أبناء السوقة ، ومعظم أبناء الطبقة السفلى ينقطعون عن المدرسة بمجرد انتهاء المرحلة الاجبارية وينزلون إلى ميدان الحياة العملية ، ونظم المدارس من الشدة والدقة وجوها من النقاء بحيث لا يسمح بالاستمرار فى مراحل التعليم إلا لمن حسنت أخلاقهم ونضجت مداركهم ، والحكومة ومجالس الأقاليم والجماعات الخيرية لا تنفق أموالها إلا على النابغين المتفوقين ، وهكذا يبدأ التعليم فى أول مراحله ديمقراطياً عاماً ثم تتناوله يد الانتخاب بالتهذيب والتنقية فلا يبلغ القمة إلا الأكفاء خُلُقاً وموهبة ، ولا يصل إلى مراتب الادارة والحكم وقيادة مصالح البلاد وتوجيه مصايرها إلا صفوة أبنائها ، ويظل الأوشاب فى أسفل

* * *

أما فى مصر فاننا لطول لهفتنا إلى الديمقراطية والعلم — بعد أن عصف بنا الاستبداد والجهل أجيالاً — اندفعنا إلى مبدأ التعليم العام اندفاعاً ، وأخذنا بمبدأ الديمقراطية وحده ، وهو مبدأ كما تقدم غير طبيعى مالم يماشه جنباً لجنب مبدأ الانتخاب ، ومالم يراعَ معه قيام الفوارق بين الطبقات ، فأدى هذا الاندفاع إلى هبوط مستوى التعليم هبوطاً ذريعاً : فكثر عدد المتعلمين ولكن قلّت قيمة الواحد منهم بما يحمله من علم وخلق ، والجانب الخلقى هو الذى يعنينا هنا أكثر من غيره ، وقصارى

ما يقال فى أخلاق أبناء مدارسنا وخريجيها أن النفس تمتلئ أسى ويأساً من مستقبل قضية الوطن العزيزة حين تذكر أن هؤلاء هم ذخر البلاد لغدها ، وما جنى على أخلاق متعلمينا هذه الجناية إلا حشدُ التلاميذ فى المدارس من جميع الطبقات بلا تمييز

فى كل أمة فى العالم طبقة سفلى ، فلا ضير علينا فى الاعتراف بوجود هذه الطبقة بيننا ، بل يجب علينا ونحن نلتمس موضع الداء ونحاول إصلاح عيوب التربية أن نذكر أن الطبقة الدنيا فى بلادنا كبيرة العدد كبراً يفوق ما بالبلاد الراقية ، وأن أخلاق تلك الطبقة فى منتهى الضعة ، لأنها ما تزال تحمل بين أطوائها آثار عصور الاستبداد والجهل التى أوهنت الأخلاق وبثت الكذب والنفاق والغش والخيانة والخشونة والوقاحة ، وما يزال أبناء الطبقة الوضيعة عندنا متسمين بهذه الصفات ، وهم لا يرون بها بأساً ولا يعدونها إلا إمارات مهارة وحنكة ووسائل احتيال للعيش وانتهاز للفرص

ومن سوء حظ التعليم فى مصر أن أبناء تلك الطبقة أقبلوا على التعليم فى السنين الأخيرة إقبالاً شديداً ، لا لِقَدْرِهم العلم قَدْرَه ومعرفتهم بفضل الخلق الكريم العالى ، بل طمعاً من الآباء فى أن يروا أبناءهم يرفلون فى أزياء الأفندية والبكوات ، ويترشحون لعالى المناصب والمرتبات ، فوجد أبناء السائقين والأسكافين والخدم والبوابين ومن إليهم أبواب المدارس مفتحة لهم على مصاريعها فجلسوا على أرائكها بجانب أبناء الأسر الطيبة الذين نُشِّئوا فى بيوتهم على حسن الذوق ولطف الخطاب وطهارة الطوية ، فبثوا فى جو المدرسة خشونة طباعهم ، وجلافة خطابهم ، وسفالة أفكارهم ، وضَعَة نفوسهم ، ولم تكن إلا سنون حتى تسمم جو كل مدارسنا ، وصارت تطبع كلَّ من أمّها من التلاميذ — سوقتهم وراقيهم — على غرار واحد لا يتصف بصفة حميدة واحدة

والذى أراه أنّ مدارسنا لن تقال من كبوتها ، وأخلاق ناشئتنا لن ترفع من حطتها ، حتى يُصَدَّ هذا الذى يحق أن نسميه «غارة السوقة على المدارس» ، ويفصل بين أبناء السوقة وأبناء الأسرات الطيبة فى معاهد العلم ، وما دام هذا المزج الذى لا تمييز فيه فستظل أخلاق سوقتنا تطغى على أخلاق عليتنا ونحن نمكّن لهذا الطغيان بأيدينا فى مدارسنا

فى الأمة سوقة وفيها أسرات طيبة ، ونحن الذين نريد الرقى ببلادنا نبغى الخير للجميع بلا نزاع ، ولكن هذا المزج بين الفريقين بدعوى الديمقراطية لا يؤدى إلى غرضنا المنشود ، هو يهبط بأخلاق العلية ولا يرفع السفلة ، كالذى يمزج قليلاً من الماء النقى بكثير من الماء العكر لن يحصل إلا على ماء عكر ، والأجدر بنا ألا نتعجل الأمر فنحاول ترقية الأمة جميعاً وتعليمها وتهذيبها دفعة واحدة

إن الأجدر بنا أن نصرف عنايتنا أول الأمر إلى أبناء الطبقة المهذبة فنمدهم بالتعليم الذى ينشرونه وهم بمنأى عن مخالطة السوقة والتطبع بطباعهم ، فهؤلاء صفوة أبناء الأمة ، ومتى خلص لنا تعليمهم وتهذيبهم فقد أهدينا إلى البلاد طبقة من أبنائها الأكفاء ذوى الخلق العظيم القادرين على تدبير أمورها وقيادة نواحى النشاط العام فى حياتها ، ولنا أن نلتفت بعد ذلك — أو مع ذلك — إلى أبناء السوقة ، فنفسح لهم فى مجال التعليم والتربية بما يؤدى إلى ترقية أخلاقهم ورفع مستواهم ، ولكن على أن يظلوا بنجوة لا يبثون السموم فى بيئة أرفع من بيئتهم ، وإنّ رفع مستواهم لأمر يحتاج إلى أجيال ، كما أنهم إنما هبطوا الى دركهم ذاك فى أجيال ، فجدير بنا أن ننبذ التسرع جانباً

* * *

من ثم نرى ضرورة إنشاء مدارس منفصلة لأبناء الطبقة المهذبة والأسرات الطيبة كما أشرت اليه فى كلمة سابقة ، يُقبل بها التلاميذ على أساس الانتخاب الخلقى والعقلى لا على أساس الديمقراطية العمياء ، فما لا نزاع فيه أن بالبلاد أسرات طيبة ينشأ أبناؤها فى بيوتهم نشأة طيبة ، فلننتخب أبناء هذه الطبقات — بخير الطرق المستطاعة — ولنُفرد لهم مدارس تمدهم بالثقافة ولا تفسد أخلاقهم بمخالطة الدون

ولا شك أن اليُسر المالىّ من دواعى رقى الأسرة ورقى المجتمع كله . فالأسرة التى تشعر باليسر وترى امتيازها المالى على غيرها تسعى ليكون لها امتياز خلقى أيضاً ، فتنزع إلى الحياة المنظمة النظيفة وتتسامى عن الشرور وعن السفساف ، وتسود فيها رقة الحاشية وسلامة الذوق ، والأخلاق الطيبة تبدأ تطبعاً وتستحيل

طبعاً وتبتدىء بالظهر ثم تأخذ بالجوهر . أما الأسرة السوقية الدقعة فيورثها كفاحها فى طلب القوت وضيع الرذائل وقذرَ العادات ، ومن ثم عكن أن يُتخذ اليسر المالى مقياساً لرقى أسرة الطالب وسموها عن أدران السوقية كما تتخذ مهنة والده مقياساً لذاك أيضاً ، ويجب بعد أن يُقبل الطالب فى المدرسة أن تستمر الرقابة المدرسية الصارمة ، فمن ثبت عدم استحقاقه للبقاء فى بيئتها الراقية فُصل على الفور ليظل جو المدرســة دائماً نقياً يسمو بأخلاق أبنائها

كذلك يجب أن تسمو المدارس بالمقول : بأن يُرفع مستوى الامتحانات التى يتوقف عليها تقدم الطالب فى مراحل العلم — أيا كان نوعها وكيفما أدخلت على أنظمتها الاصلاحات — حتى لا يُسمح باجتياز مراحل التعليم المختلفة إلا لمن هيأتهم الطبيعة بالمواهب الصحيحة ، فيُسمح للجميع بطَرْق مرحلة التعليم الأولى ، ولـكن لا ينال الاجازات العلمية إلا من هم جديرون بها

* * *

هكذا يُطبَّق مبدأ الانتخاب فى التربية بناحيتيها الخلقية والعقلية ؛ وباتباع هذا المبدأ ترقى أخلاق المتعلمين وترتفع مستوى الحاصلين منهم على الاجازات العلمية ويقل عددهم فلا تزيد على حاجة البلاد ولا يكونون طبقة عاطلة ، ومن تخلفت به مواهبه منهم عن إدراك غايات العلم الصحيح يُعرج على ما يناسبه من مهن وأعمال

فمبدأ الانتخاب ، مبدأ الاعتراف بالتفاوت بين الأفراد والطبقات ، مبدأ اختيار الأصلح ، الذى هو المبدأ الطبيعى ، هو المبدأ الذى به تصلح نظم التربية عندنا وتبرأ من عللها الـكثيرة ؛ أما مبدأ الديمقراطية المطلقة ، مبدأ فرض المساواة التامة بين الجميع فى كل شىء ، مبدأ إفساح المجال لـكل من هب ودب ، فهو مبعث آفات التعليم ، وهو الذى أدى إلى حشد التلاميذ فى المدارس ذلك الحشد الذى عزا إليه تقرير معالى وزير المعارف معظم مساوىء التعليم فى مدارسنا

فخرى أبو السعود
المدرس بالعباسية الثانوية

إبليس يتوب . . . !

للأستاذ محمد سعيد العريان

« ليس أسمج من الرذيلة تـكون وحدها فى الأرض ، إلا الفضيلة تـكون وحدها . . . ! »
الرافعى

اطَّلع إبليسُ ذات مساء على الأرض ؛ يستروح من نسمات الليل والدنيا نائمة — رَوْحَ الفردوس الذى طردته الـكبرياءُ من رحمته . وانبثَّ زبانيتُه ينفثون الشرَّ عن أمره فى أوكار الظلام ؛ ففى كل منعطَفٍ شيطانٌ صغيرٌ يتربَّص ، وبين كل اثنين ثالثٌ لا يريانه . . .

وسمع إبليسُ فى هدأة الليل عابداً يتهجَّد ، مايبدأ ولاينتهى من سجدةٍ إلا لَعن الشيطان . . . !

وأحسَّ إبليسُ لعنات الشيخ العابد تنصبُّ عليه كما ينهال التراب على نار تتلهَّب ، أو ينصبُّ الماءُ على جمرٍ تؤجّ

وصَرَّت أسنانُ الشيطان من الغيظ ، وانقدح من حَجاجيْه شرارٌ كالهب ، أن عجزَ وعجزتْ زبانيتُه معه عن فتنة مثل هـذا الشيخ الزاهد وإرادته على أن يتعلَّق بحظه من الدنيا وشهوات النفس ، على حين لم يعجز الشيطان أن يطرد أباه من الجنة !

أفكان يعصم الشيطانَ من اللعنات أن يُسلَّط على الناس جميعاً شهواتهم ويُغرى بهم أنفسَهم ؟ فـكيف وإنَّ عبادَه من أهل الغواية والمعصية ليذكرونه باللعنـة على مقدار ما يُيسر لهم شهواتِهم ويضاعف لهم من مَسرَّاتها ؛ وإنهم ليسرعون إلى لعنته إسراعهم إلى طاعته . . . ؟

وهبَّت نسمةُ السَّحر تُعطر الدنيا بأنفاس الجنة ، فاستروَح منها إبليسُ رَوحَ الماضى يُذكره أيامه كلها منـذ بدء الخليقة ويلقى التاريخَ بين يديه . وتنشَّته الذكرى وعاد الزمانُ القهقرى أمام عينيـه ؛ فإذا هو مَلَكٌ بين الملائك يسبِّحون بحمد ربِّهم حافِّين من حول العرش ؛ ثم إذا هو يفسق عن أمر ربِّه أبياً مستـكبراً أن يسجد لبشرٍ من طين ؛ وإذا هو من بعدُ مطرودٌ

من رحمة الله ، مذموم مدحور يلعنه الفضاء ويسبّه الأبد ؛ ثم ينفث نفثته في صدر حوّاء فيزلّها وزوجها عن الجنة فيُخرجهما مما كانا فيه ، ويتعقّب أبناءهما من بعدها على الأرض يصنع منهم حطب جهنم ، فما بشرٌ من الناس إلا شيطانُه يسعى بين يديه ...

ثم هو في موقفه ذاك تتناثر من حوله لعنات الناس سواءٌ منهم طائعُه وعاصيه . وتصكّ أذنيه من مكانٍ سحيق زفرات عباده في نار جهنم تكوى جباهُهم وجنوبهم بما أغواهم الشيطانُ وأضلهم سواءَ السبيل !

ولأول مرة استشعر إبليسُ لذعَ الندم فدمعت عيناه ...!

يالها من سخرية ... إبليس يتوب ... ! لقد كفاه ما اقترف منذ هبط من السماء انتقاماً لكبريائه التي زعمها ديستْ يوم أُمِرَ أن يسجد لصلصالٍ من حمإٍ مسنون !

أكانت توبةً نصوحا ، أم مبالغةً في الانتقام ، أم هو يشتهي أن يعيش بشراً بين البشر عُمْراً من عمره ، ليذوق بعض لذّات البشرية ، ويرى بعيني حسه كيف يفتتن بها الناسُ جميعاً منذ كانوا فتسرع بهم شهواتُهم إلى طاعة الشيطان ... ؟

***

وطلع إبليس على الأرض فتًى وسيماً يمشي على قدمين مشْى الناس . وشعر لأول ما لبسته البشريةُ أنه جائع ، فماج على ندىٍّ ساهرٍ له به عهد ، لأنه هو الذي أنشأه وأقامه حجراً على حجر ، وطالما قضى فيه الليالىَ ذواتِ العدد من حيث لا يراه الناس ؛ ينفث الشر ، ويبذر بذور الخطيئة ، ويفتنّ في وسائل الاغواء ...

كانت مصابيح النّدىّ ترمى أضواءها إلى بعيد ، وتمُدُّ من أشعّتها شركاً يصيد الناس ويأخذ عليهم طريقهم ؛ وكان كلُّ ما ينبعث منه يُشعر أن هناك حركةً وعملاً يغريان من يلتمس إرضاء شهواته ...

ولكن ... ولكن هاهو ذا إبليس يصعد الدّرجَ في أناةٍ ورفق ، ويدفع الباب في هدوءٍ وخفة ، ويخطو إلى البهو في سكون وحذر ، فيرى ، ولكنه يرى أجساداً لا تكاد تتحرك ، ويسمع ، ولكنه لا يسمع إلا مثل أنفاس النائمين ؛ ويشهد ، ولكنه لا يشهد إلا عيوناً محدّقة في الفضاء تتأمل . لم يكونوا سكارى ولا مُغيَّبين ، ولكن فكرةً واحدة كانت تسيطر عليهم جميعاً ، فكرةً بين السخط والرضى ، وبين الندم والاستغفار !

وجلس الشيطان إلى مائدة وحده وطلب طعاماً ، وراح يدير عينيه فيما حوله ومن حوله ، ويتسمع نجوى الضمائر الخفية تهمس في أعماق أصحابها

ورأى مائدة خضراء مبسوطة ، قد تناثر عليها هنا وهاهنا نقدٌ وورق ، ورأى كؤوساً فارغة وممتلئة ، ورجالاً ونساء قد تحلّقوا حول المائدة ، ذراعاً إلى ذراع ، وامرأةً بين كل رجلين ... ولكن يداً واحدة لا تمتدّ إلى شيء ، وفماً واحداً لا ينبس بكلمة ...

وأبصر رجلاً يهتز في موضعه هزّةً خفيةً وهو يتحدّث إلى نفسه : كيف يصنع وقد فقد كل ما كان معه من نقد ، إنه ليرى ماله أمامه على المائدة ولكنه ليس من حقه ، لأن حظه في اللعب قضى به لغيره ، هو قضاءٌ غير مشروع ولكنه حكم العرف فما عليه إلا الطاعة ! وقالت له نفسه : ما أنت والقمار ؟ شدَّ ما نهيتُك فلم تنته ! الآن فذُق ألم الحرمان مما تملك ، فلعلك من بعد ألا تستمعَ إلى إغواء الشيطان ...

واختلج إبليس حين ذكر اسمُه اختلاجةً كادت تنمّ عليه ؛ وهمّ أن ينهض ، لولا أن أقبل النادلُ [1] عليه بالطعام

وشُغِل إبليس لحظة بالأكل ، يزدرد اللقمة بعد اللقمة يكاد لا يحرّك بها فكيه ؛ وعرف لأول ماذاق الطعام — لماذا كانت شهوة البطن أولَ همٍّ الانسان ... !

وعاد ينظر إلى وجوه الناس وضمائرهم ، فما راعه إلا هذا المقامر الرابع محدقاً في الفضاء يتفكر ، وإن وجهه لتتعاقب عليه شتى ألوان الندم والخزى والحياء ... ثم لم يلبث أن نهض يجمع المال على المائدة فيفرّقه في سُمّاره وهو يقول : معذرة ياصحابتى ، فانما هو مالكم ليس لى حق منه في شيء ، وما لعبت لأسلبكم ما تملكون ، إنما أردتُ السلوة وإزجاء الفراغ . وعضّ على شفته واحمر وجهه ، إذ كان يعلم أنه يكذب في اعتذاره ؛ فما كان ليقامر إلا مؤمِّلا أن يربح ، وما كان ليربح مرة إلا وهو يعلم أنه يأخذ مالا علك ؛ وقد ربح الليلة ، ولكنه حين ضمّ يديه على

---

(١) النادل واحد الندل (بضمتين) ، وهم خدم الدعوة والطعم والقهوة

المال أحسّ كأنه يقبض على جمر؛ وردت به سانحةٌ من الخير، فتعفف أن يأكل مال الناس فخرج عنه لأهله . . . !

ونظر الرجل إلى يمين، فاذا صاحبته مطرقة قد تغرغرت عيناها، فمال عليها وهو يهمس :

« أيكون قد أغضبك ما فعلت يا سيدتي ؟ »

قالت المرأة : « عفواً، ليس لي شأن بذاك، ولكن أمراً يقتضيني أن أعود مسرعة إلى الدار . . . ! »

وهبت واقفة، فقال الرجل : « خير . . . . ! أتأذنين لي أن أصحبك ؟ »

قالت : « شكرا . . . ! »

وسارت في طريقها فما ألحّ الرجل ولا تموقت المرأة، ومالت إلى غرفة في الندىّ تأخذ زينتها في المرآة فأدركتها صديقة، ونظرت كل منهما في وجه صاحبتها فأطالت النظر ثم أطرقتا . .

منذ بعيد تقارف هاتان المرأتان الاثم في غير حذر ولاتذمم؛ أما إحداها فضحية شاب غوى أغراها حتى نال منها ثم اختفى من وجهها وخلّف بين أحشائها بضعة منه، ففرّت بجريمتها من قانون الجماعة إلى حيث تشفى داء قلبها بالانتقام من الرجال

وأما الأخرى فزوج كالأيّم، أو هي أيم وإن تك ذات بعل؛ فما شعرت يوماً أن لها حقاً على رجلها، وإنه لدائب التجوال بين البلاد، لاتستقر به الدار في حضن زوجته أياماً حتى تعرض له الأماني تغريه أن يضرب في الأرض يطلب المجد بالثمن الغالي . . . بشرف زوجته . . . !

لم تحس المرأتان قبل الليلة معنىً من معاني الندم؛ فمالها الليلة مطرقتين لا تنبسان ؟

أرأيت إلى المجرم إذ يُفجَأ وهو يقارف جريمةً منكرة، فليس علك أن ينكر ولا أن يعتذر ؟

وعاد نظر المرأتين فالتقيا فاذا هما تتعانقان وقد اجهشتا باكيتين، وأطفأت دموع الاستغفار وقد النار ولذع الندم، فكأنما حلت في جسد كلٍّ منهما روحٌ جديدة قد خرجت من الجنة لساعتها لم تتعلق إثماً ولم تجترح معصية

وتلفت إبليس فاذا الندىّ مقفر خالٍ ليس فيه إلا النُّدُل يسمون بين الموائد الخالية، يرفون الأوراق والأقداح ويصففون الكراسي والمناضد

وتنفّس الصبح فأبدل إبليس ثياباً بثياب، وانطلق في تُبّانه وبُرنُسه إلى سِيف البحر[1]، يستمتع به مايستمتع البشر، ويملأ عينيه وقلبه من مفاتن دنيا الناس. لقد كان له في البحر معهدٌ يرتاده زبانيتُه يملون الناس السحر وينصبون شَرَكَ الفتنة؛ وهوذا البحر، فأين فتنته وسحره، وأين مباهجه التي كانت؛ أين الأجسام البضة، والأذرع الفضة، والسيقان اللفاء، والصدور النواهد؛ وأين العيون التي ترمى فتصمى، وأين لآلئُ البحر تغوص وتطفو، وأين الزَّبَدُ الأبيض يلاطم الزبد الأبيض

لقد خلا البحر من عرائسه، إلا عجوزاً مقرورة مستلقية على الشاطئ، ما يبدو منها إلا عينان كصَدَفَتين ملقاتين في كومة رمل !

وهذه فتاة تمشي على استحياء مستندة إلى ذراع أخيها، فما تعرت من برنُسها إلا ليسترها الماء. وهذا رأس رجل يبدو سابحاً من بعيد، ما يكاد يرى الفتاة حتى يتنكّب عن الطريق لئلا تتأذّى منه الحسناءُ السَّبوح

وأحسّ إبليس أولَ آلام البشرية في الوحدة والفراغ والضجر، فمضى على وجهه ممتلئَ النفس فارغ الفؤاد. لقد ودّع عالَمه الموحش تحت الرَّغام ليظفر بالأنس في عالم البشرية، فما ظفر إلا بالوحشة وألم الشعور بالحرمان؛ وخلع عنه شيطانيّته تائباً ليهب للناس الاستقرارَ والسلام، فما لقي هو في بشريته إلا الاضطراب والألم

* * *

واطمأنت الحياةُ بالناس، فاجتمعوا على الرضى والطاعة في حالٍ شرٍّ منها السخطُ والعصيان؛ إذ لم يكن ثَمّتَ عدوانٌ يدعو إلى المقاومة، أو تَرَبُّصٌ يُنَبِّه إلى الحذر، أو كيدٌ يستتبع الحرصَ واليقظة؛ وعاد كل فردٍ أمةً وحده، يعيش في رضى وقناعة على أكمل ما يكون الانسان صلاحاً وحبّاً في الخير، ولكن الجماعة لم تجد ما يشدّ وحدتها ويربطها آصرةً إلى آصرة. ودبّ النعاسُ إلى أجفان الحياة : فمات الطموح

(١) التبان : سراويل البحر. والسيف (بكسر أوله) : البلاج

لأنه بابٌ من التكبر ؛ وخمد النشاط ، لأنه جهاد فى غير عَدُوّ ؛ واستنام الناس إلى القدر ، لأن التمنى ضربٌ من الأثرة ؛ وعاش نصف الناس عيالاً على نصف الناس ؛ فليس ثمت عملٌ للشرطة والجيش ورجال الحكم ؛ وأنَّى لهم أن يعملوا مادام لا سرقة ولا قتال ولا عدوان ؟

وكسدت سوق القَفَّال والزَّرَّاد والصَّيْقَل والرَّمَّاح ؛ وما حاجة الناس إلى الأقفال والدروع والسيوف والرماح ؟

وقال فتىً لصاحبه : تعالَ نلتمس نزهةً فى غير ساحة (المولد) ؛ فما لنا ولهذه المهرجانات التى لا تجتمع إلا على شرٍّ ولا تحشد الناس إلا لمعصية ؛ حسبى أن أعمر قلبى بذكر الله وأتخذ أولياءه قدوتى وإمامى . . .

وأمَّن صاحبه على قوله ؛ ولكن البدَّال ، والبقَّال ، والبزَّاز ، وبائع الحمص ، وصانع الحلوى ، ومدير الملهى — لم يعرفوا لماذا هجر الناسُ المولد ؛ فمضى الموسمُ ما باعوا ولا اشتروا ولا تعوَّضوا ، وقوَّض كل منهم خيمته ومضى غير مأجور على جهاده !

وقال بعضهم لبعض : « أترون الناس قد نسوا أولياءهم فتمرَّدوا على ما اعتادو ؟ »

فأجاب شيخ كبير : « ذلك من عمل الشيطان . . . ! »

وأراق الخمَّارُ أحمرَه وأصفره وهو يقول : « ليت خمرى كانت خلاً . . . . ! »

وجلس قاضيان يداولان بينهما الرأى :

« أيهما خير : أن تعيش الفضيلةُ وحدها على الأرض ، أو أن تنبت بين أشواك الرذيلة والمنكر والشر ، فيكون للانسانية منها أفراح ثلاثة : فَرَحُ النفس المؤمنة بها ، وفرحها بالصبر على المجاهدة لها ، وفرحها بالظفر بعد مشقَّة الجهاد . . . ؟ »

ونظر الشيخ الزاهد فى صحيفة أعماله ، فاذا هى بيضاء أو كالبيضاء ؛ فليس يضاعف الأجرَ إلا المقاومة . ولو أن عابدا قضى الدهر كله راكعاً ساجداً ، ما عَدَل أجرُ عبادته كلِّها ثوابَ ساعةٍ لشابٍّ تتجاذبه شهواتُ الدنيا ، كلما هفت نفسُه إلى معصية ردَّه عنها الايمانُ والتُّقى ، فهو أبداً فى مجاهدةٍ لا يهدأ ، وهو أبداً مأجورٌ أجراً لا ينتهى !

وإنما يقظة الحياة فى الجهاد والمقاومة وتوقُّع ما يأتى به الغدُ على شتى ألوانه ؛ فاذا عُدِمَ الجهاد ، وفُقِدت دواعى المقاومة ، وعاش الانسان لساعته التى هو فيها — أعمى أو كالأعمى لا يُبصر ما أمام — فَقَدَت الحياةُ معناها الأسمى ، وعاش الناس فى هدى أشبهَ بالضلال ، وفى فضيلةٍ شرٍّ من الاثم والفسوق والعصيان !

ليتك تدرى أيها الزارى على القدر . . . ! هل تستوقد النار إلا بالحطب ؟ فمن أين لك مادمتَ تشفق على الغصن اليابس والهشيم الجافّ !

وهل يعلم الفُسَّاق والعُصاةُ من بنى آدم ، أنهم قبل أن يكونوا فى أخرامهم حطبَ جهنم — كانوا فى دنياهم سُلَّم البشرية إلى مثلها الأعلى . . . ؟

وتثاءب الشيطان وتمطى إذ أدركه النعاسُ الذى ضرب على عيون البشر ؛ وإذا هو وقد خضع لناموس البشرية قد ماله ما ينال الناسَ من الضيق والملل وتقلُّب الرأى ؛ إذا تقلقلت دنياه طلب الإستقرار ، فاذا استقرَّ عاد ينشد الحركة ويتبرَّم بالسكون . . . !

وقلَّب وجهه فى السماء كاسفاً محزوناً ، ثم أسند رأسه إلى راحته وجلس يتفكَّر . . .

أىَّ خيرٍ كان يقدم هو للجماعة البشرية على حين كان لا ينبغى إلا الكيدَ والانتقام ؟ هذه الدنيا تنام بعد يقظة ، وتسكن بعد حركة ، وتسترخى بعد نشاط ، لأنه هو قد بطل سحره ، وإذ لم يعد فى الدنيا شرٌّ ، مات فى الجماعة روحُ الانبعاث إلى الخير . . !

أيها الخالق العظيم ، ما أعجب تدبيرك وأدقَّ حكمتك ! خلقت الشر والخير يصطرعان فى هذا العالم لتوجدَ منهما الخيرَ الأعظم ، وأنا — أنا الشيطان المشئوم — حسبتنى يوماً أكبر مما أنا ، حين ذهبتُ أهدِّم ما تبنى ، وأعصى ما تأمر ، وأدعو إلى ما تنهى ، فلما آذنتَ أن تُذل كبريائى ، أريتنى نفسى إلى جانب عظمتك ، فاذا أنا ، أنا الذى زين له الغرور يوماً أنه أكبر من أمرك ، إذا أنا أعصى عصيانى فى طاعتك ، وأفسد إفسادى لاصلاح عبادك على قدر منك وتدبير حكيم . . . . !

وشعر الشيطان بالخيبة تلاحقه فى كل مكان ، فلا هو هناك — فى عالَمه الشيطانىّ — كان موفقاً فيما يحاول الانتقام من بنى آدم ، ولا هو هنا . . .

وعاودته نزغة شيطانية لم يلبث أن قمعها فى صدره وانطلق فى سبيله

***

وانتهى إلى البستان المشوشب المخضل وقد نال منه الاعياء فارتمى على العشب الرطب يستريح فى ظل وارفة لفاء ، وطلع له من بين ملتف الحدائق حسناء وضاءة ، تمشى كما يهتز الغصن وترنو كما يبتسم الزهر

وأحس إبليس مرة أخرى أن قانون البشرية يعمل فى دمه وأعصابه ، وأطال النظر إلى الحسناء الفاتنة ثم أطبق عينيه وهو يتنهد ، كأنما قد توهم أنه قد احتوتها أجفانه ، وشمر عس الحب فى قلبه فأشرق وجهه بابتسامة هادئة فيها لمحة من السرور وغير قليل من الألم

وجلست الحسناء جلستها على العشب غير بعيد ، وضمت إليها أطراف ثوبها يستر شيئاً ويكشف عن شيء ، مستأمنة مطمئنة

وخطا إبليس خطوتين إلى حيث جلست يسألها شيئاً ، فاستحييت حواء الصغيرة وأرخت فضل ثوبها على الوجه الفاتن ، ووقف إبليس ينشد قصيدة غزل طويلة ، وعتها حواء كلمة كلمة ومعنى معنى ، ولكنها لم تنبس ، ومد إليها يداً يستنهضها فما نهضت وازورت عنه معرضة ، وسكت ولكن عينيه ظلتا تتحدثان حديثهما

واربد وجه المرأة من غضب ، فما رأى إبليس غضبتها إلا فناً جديداً من فنون جمالها ، فقالت وقد ضاقت به : « اليك عني يا فتى وخل سبيلي . . . . ! »

وضاق صدر الشيطان بهذه الانسانة العنيدة ، وثقل عليه أن يعجز عن نيلها وهو هو !

كم فتاة وامرأة قبل صاحبته تلك كانت من عباده وأتباعه ما تأبت واحدة منهن على ما أراد لها ؛ على أنه اليوم يريدها لنفسه هو ، فليس به اليوم حاجة لأن يسعى لغيره وقد خلع شيطانيته !

ماذا . . . ! أيعيش هذه الآلاف من سنيه الماضية يتحكم فى البشرية كلها ، وعلى إرادتها ، ويسعى بين الناس ، ويصل بين الأحباب ، ويقدم الثمرة لكل من يشتهيها ؛ حتى إذا اشتهى هو أن يذوق تلك الثمرة أعجزه أن ينالها ... ؟

وللمرة الثانية منذ خلق شعر أن كبرياءه جريح . . . !

لقد أبى أن يسجد لأبى البشرية كلها وفسق عن أمر ربه ، أفتفسق عن إرادته امرأة ؟ وما هو إن لم ينلها ؟ وما هى حتى تتأبى عليه كل هذا الاباء ؟

وعاود احتياله يستجدى الحسناء بعض الرضى ، فولت عنه معرضة مستكبرة ، ومضت تدوس بقدميها الصغيرتين قلب إبليس . . . !

وعاد إلى نفسه يستلهمها الحيلة فما أمدته بشيء ، وبدا إبليس فى بشريته إنساناً ضعيفاً قليل الحول ، لا قدرة له على التصرف ولا طاقة له بالاحتيال . . .

ووجدت له شغلاً من فراغ . . . وعدا خلف المرأة يحاول أن يدركها ما يبالى نظرات الناس ؛ فاذا زوجها يلقاها على الطريق فيصحبها إلى الدار يداً فى يد وجنباً إلى جنب !

وأحس إبليس فوق ألم الحب الذى يجد — ألماً جديداً من آلام البشرية ، وقذف منظر الزوجين المتحابين فى قلبه الحسد . . . !

وآده العجز والشعور بالحرمان ، فعاودته شيطانيته ثائرة محنقة . على أنه وقد ذاق بعض لذات البشرية فى آلامها لم يكن يريد أن يرتد إلى عالمه ، إنما كان حسبه أن يستمد الحيلة من طبيعته الأولى عن يحب وهو باق فى بشريته !

ولكنه — وا أسفاه ! — لم يستطع أن يكون شيطاناً ورجلاً فى وقت معاً ؛ وحين ألهمته طبيعته الأزلية بالرأى فقذف بالفكرة المحرمة فى قلب المرأة — كان خلقاً آخر ليس من البشرية ولا حظ له من المرأة . ونظرت الحسناء إلى وراء تفتقد عاشقها المدنف فما رأته ، وما كان لها أن تراه وقد عاد شيطاناً لا يخضع لنواميس هذا العالم ؛ ورآها هو تنظر متلهفة مشتاقة ، فما نالته نظرتها ولا مست قلبه ؛ لأن إحساس البشرية ونوازعها كانت قد فارقته حين لبس جناحى شيطان . . . !

وكتب فى تاريخ الأرض ، أن إبليس قد تاب مرة ، ولكن ردته الى شيطانيته امرأة . . . . ! ؟

(طنطا) **محمد سعيد العريان**

٦ ـ شاعرنا العالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

وروى مخارق أن أبا العتاهية جاءه فقال : قد عزمت على أن أتزود منك يوماً تهبه ، لى فتى تنشط ؟ فقلت متى شئت ! فقال : يكون ذلك فى غد ؛ فجئته فأدخلنى بيتاً له نظيفاً ، ودعا بطعام وفاكهة فأكلنا ، ودعا بألوان من الأنبذة فقال اختر ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت ، ثم صب قدحاً وقال : غنني فى قولى :

أحمدُ قال لى ولم يَدْرِ مابى ... أتحب الغداة عُتبةَ حقاً

فغنيته ، فشرب قدحاً وهو يبكى أحر بكاء ، ثم قال : غننى فى قولى :

ليس لمن ليست له حيلةٌ ... موجودةٌ خيرٌ من الصّبر

فغنيته وهو يبكى وينشج ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غنني فديتك فى قولى :

خليلى مالى لا تزال مضرتى ... تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

فغنيته إياه ؛ وما زال يقترح على كل صوت غنى به فى شعره ، فأغنيه ويشرب ويبكى ، حتى صارت العتمة ، فقال أحب أن تصبر حتى ترى ما أصنع ، فجلست ، فأمر ابنه وغلامه فكسرا كل ما بين أيدينا من النبيذ وآلته والملاهى ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بيضاء من صوف ، ثم عانقنى وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبى وفرحى من الناس كلهم ، سلام الفراق الذى لا لقاء بعده ؛ وجعل يبكى ، فانصرفت وما لقيته زماناً

وروى أبو سلمة الغنوى أنه قال لأبى العتاهية : ما الذى صرفك عن قول الغزل إلى قول الزهد ؟ فقال : إذن والله أخبرك ، إنى لما قلت :

الله بينى وبين مولاتى ... أهدتْ لى الصد والمَلالاتِ

منحتها مهجتى وخالصتى ... فكان هجرانها مكافاتى

هيّمنى حبها وصيّرنى ... أحدوثة فى جميع جاراتى

رأيت فى المنام فى تلك الليلة كأن آتياً أتانى فقال : ما أصبت أحداً تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصية إلا الله تعالى ، فانتبهت مذعوراً ، وتبت إلى الله تعالى من ساعتى من قول الغزل

فاذا كانت هذه الروايات كلها فى حادثة واحدة فهى متضاربة متدافعة ينقض بعضها بعضاً ؛ وإذا كان الرشيد هو الذى كان يأخذ على أبى نواس اندفاعه فى اللهو ويحاسبه على ذلك فى شعره ، ويحبسه عليه مرة بعد مرة ويزج به فى سجنه ، فكيف يتفق هذا مع ذلك المسلك الذى كان يسلكه مع أبى العتاهية ، وهو لم يكن أرق غزلاً من أبى نواس ولا غيره من جمهور الشعراء الذين كانوا يلتفون بالرشيد ، وكان لهم من رقيق الغزل ما يغنيه عن غزل أبى العتاهيـة ؟ وليس هذا وذاك كل ما يعنينا من هذه الروايات ، بل يعنينا منها أيضاً أنها لا تصل بنا إلى غور نفس أبى العتاهية وصلتها بتلك النزعة الصوفية التى صارت اليها ، وقد كان فى ظاهر أمره أبعد الناس منها ، فلا تبين لنا تلك الروايات إلا أنها حالة طرأت عليه فى بغداد ، ولا تتصل إلى سابق أمره بصلة ، وتردها الرواية الأخيرة إلى تلك الرؤيا النامية السابقة ، وهى إذا صحت لا تكفى وحدها فى الأخذ به الى كل ما أخذ به من ذلك الغلو فى أمره ؛ فاذا أمكننا أن نصل إلى هذه النواحى الغامضة من أمر أبى العتاهية أمكننا أن نفهم من أمره ما لم يفهمه الناس منه الى الآن . وسنجلو من أمر ذلك ما نحتاج اليه هنا ، ونترك ما بقى من ذلك إلى موضعه من هذه الدراسة لأبى العتاهية ، ليكون لنا منها دراسة منظمة لا يسبق شىء منها على موضعه ولا يتأخر عنه

وإنه ليهمنا فى الأول أن ننفى ما يفيده ظاهر تلك الروايات من أن تلك النزعة الصوفية فى أبى العتاهية كانت نزعة طارئة عليه فى بغداد ، والحقيقة أنها كانت نزعة قديمة عنده ، وأن أمرها يرجع إلى مبدأ أمره بالكوفة ، وأنه كان يخفى ذلك فى نفسه ليظهر به فى الفرصة التى يكون له فيها أثره فى الناس جميعاً ، لا فى نفسه وحده . ودليلنا فى هذا هذه الرواية التى تنطق بأن القول فى الزهد كان أول ما أخذ به فى شعره

روى محمد بن عبد الجبار الفزارى أن أبا العتاهية اجتاز فى أول أمره وعلى ظهره قفص فيه فخار يدور به فى الكوفة ويبيع

منه ، فمر بفتيان جلوس يتذاكرون الشعر ويتناشدونه ، فسلم ووضع القفص عن ظهره ، ثم قال : يا فتيان ! أراكم تذاكرون الشعر ، فأقول شيئاً منه فتجيزونه ، فان فعلتم فلكم عشرة دراهم ، وإن لم تفعلوا فعليكم عشرة دراهم ، فهزئوا به وسخروا منه ، وقالوا نعم ، قال : لابد أن يشترى بأحد القمرين رُطَبٌ يؤكل ، فانه قمرٌ حاصل ، وجعل رهنه تحت يد أحدهم ، ففعلوا ، فقال أجيزوا :

« ساكني الأجداث أنتم »

وجعل بينه وبينهم وقتاً فى ذلك الموضع إذا بلغته الشمس ، ولما لم يجيزوا البيت غرموا الـخطَر ، وجعل يهزأ بهم وتممه :

ساكني الأجداث أنتم ... مثلنا بالأمس كنتم
ليت شعرى ما صنعتم ... أربحتم أم خسرتم

وهى قصيدة طويلة فى شعره

فهذه نزعة أبى العتاهية فى الزهد والتصوف ظاهرة فيه تمام الظهور من أول أمره ، ولا شك أنه رأى بعد هـذا أن يتصل بشعراء الكوفة ليظهر بينهم أمره فى الشعر ، وأنه فى سبيل هذه الغاية أخفى هـذه النزعة فى نفسه ، وأخذ يسلك فى اللهو والشعر مسلك هؤلاء الشعراء ، ثم تركهم إلى بغداد عاصمة المملكة العباسية لينال من ظهور الشأن بالاتصال ببنى العباس ما لا يناله لو بقى بالكوفة ، فنال من ذلك بغيته وأكثر من بغيته ، وأخذت نفسه تنازعه ميلها إلى الزهد ، وإلى الظهور بمظهره الحقيقى الذى يريد أن يمكر فيه صفو هؤلاء الملوك ، ويطلع الرعية على إسرافهم فى الحياة ، وغفلتهم عن الآخرة ، وانصرافهم عن مناهج الخلفاء الراشدين ، وسبل الملوك الصالحين ، ويخدم فى ذلك بمهارة فائقة أغراضاً سياسية له ، سنبينها بعد فى موضعها أيضاً

ولا غرابة بعد هذا فى أن يهتم الرشـيد بأمر أبى العتاهية فى هذه الحال الجديدة ، ويعرف سوء أثر شعره فى الزهد وما إليه فى نفوس الرعية بالنسبة إليهم ، وقد كان يشاهد افتتان الناس بأبى العتاهية وشغفهم بشعره الذى قرب إليهم ألفاظه ومعانيه ، وفتح لهم من أبوابه ما أغلقه الشعراء السابقون ، فصار يلهج به العابد فى خلوته ، والراهب فى صومعته ، والملاح فى سفينته ، والفلاح فى حقله ، والراعى فى غدوه ورواحه ، والعامل فى شغله وفراغه ، حتى صار شاعر الشعب بحق ، ولسان الرعية الناطق بالصدق . وإنما نسوق من ذلك ما يدل على مقدار تعلق الناس بشعر أبى العتاهية وافتتانهم به :

قال يحيى بن سعيد الأنصارى : مات شيخ لنا ببغداد ، فلما دفناه أقبل الناس على أخيه يعزونه ، فجاء أبو العتاهية إليه وبه جزع شديد فعزاه ثم أنشده :

لا تأمن الدهر والبس ... لكل حين لباسا
ليدفننا أناس ... كما دفنا أناسا

فانصرف الناس وما حفظوا غير قول أبى العتاهية

وقال محمد بن صالح العلوى أخبرنى أبو العتاهية قال : كان الرشيد مما يعجبه غناء الملاحين فى الزلالات إذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ، فقال قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء شعراً يغنون فيه ، فقيل ليس أحد أقدر على هـذا من أبى العتاهية ، وهو فى الحبس ، قال فوجه إلىّ الرشيد : قل شعراً حتى أسمعه منهم ، ولم يأمر باطلاق ، فغاظنى ذلك فقلت : والله لأقولن شعراً يحزنه ولا يسره ، فعملت شعراً ودفعته إلى من حفظه من الملاحين ، فلما ركب الحراقة سمعه وهو :

خانك الطَّرْفُ الطَّموحُ ... أيها القلبُ الجَمُوحُ
لدواعى الخير والشـ ... ـر دُنُوٌّ ونُزُوحُ
هل لمطلوب بذنب ... توبة منـــه نَصُوحُ
كيف إصلاحُ قلوب ... إنمـا هُنَّ قُرُوحُ
أحسن الله بنا ... أن الخطايا لا تفوح
فاذا المستورُ منا ... بين ثوبيه فَضُوحُ
كم رأينا من عزيز ... طُويتْ عنه الكُشوح
صاح منـــه برحيل ... صائحُ الدهر الصَّدُوحُ
موتُ بعض الناس فى الأر ... ض على قوم فُتُوحُ
سيصـــير المرء يوماً ... جسداً ما فيـــه روح
بين عينى كل حىٍّ ... عَلَمُ الموت يلوح
كلنـا فى غفلة والـ ... ـموتُ يغـدو ويروح
لبنى الدنيا من الدنـ ... ـيا غَبُوقٌ وصَبُوحُ
رُحْنَ فى الوشى وأصبحـ ... ـن عليهن المُسُوحُ
كل نَطَّاحٍ من الدهـ ... ـر له يوم نَطوحُ

نُحْ على نفسك يا مسـ ـكين إن كنت تنوح
لتموتنّ وإن عُمـ ـرت ما عُمِّر نُوح

فلما سمع الرشيد ذلك جعل يبكي وينتحب ، وكان الرشيد من أغزر الناس دموعاً وقت الوعظة ، وأشدهم عسفاً فى وقت الغضب والغلظة ؛ فلما رأى الفضل بن الربيع كثرة بكائه أومأ إلى الملاحين أن يسكتوا

وقد اختار أبو العتاهية عهد الرشيد لاظهار ما كان يخفيه فى نفسه من ذلك لأنه كان أقل غلظة من أبيه المهدى ، وأخيه الهادى ، وأخف منهما عسفاً وبطشاً . وقد ذكر ابن خلكان أنه أراد أن يظهر بذلك فى عهد المهدى ، فأمر المهدى بحبسه فى سجن الجرائم ، فلما دخله دهش ورأى منظراً هاله ، فطلب موضعاً يأوى فيه ، فاذا هو بكهل حسن البزة والوجه ، عليه سيما الخير ، فقصده وجلس من غير سلام عليه ، لما هو فيه من الجزع والحيرة والفكر ، فمكث كذلك ملياً وإذا الرجل ينشد :

تعودت مسّ الضر حتى ألفته وأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من الناس واثقاً بحسن صنيع الله من حيث لا أدرى

فاستحسن أبو العتاهية البيتين وثاب إليه عقله ، فقال له : تفضل أعزك الله علىّ باعادتهما ، فقال : يا إسماعيل ويحك ! ما أسوأ أدبك وأقل عقلك ومروءتك ! دخلت فلم تسلم علىّ تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألتنى مسألة الوارد على المقيم ! فقال له : اعذرنى متفضلاً ؛ فدون ما أنا فيه يدهش ! قال : وفيم أنت ؟ تركت الشعر الذى هو جاهك عندهم ، وسببك إليهم ؟ ولابد أن تقوله فتطلق ، وأنا يدعى الساعة بى فأطلب بعيسى بن زيد بن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان دللت عليه لقيت الله تعالى بدمه ، وإلا قتلت ، فأنا أولى بالحيرة منك ؛ ثم دعى بهما فطولب الرجل بأن يدل على عيسى بن زيد فأبى ، فأمر المهدى بضرب عنقه . ثم قال لأبى العتاهية : أتقول الشعر أو ألحقك به ؟ قال بل أقول ، فأمر به فأطلق

وقد كان الرشيد أشفق بكثير مع أبى العتاهية فى ذلك من أبيه . والذى أراه أن الرشيد كان يحبسه فى ذلك ثم يعفو عنه ، وأن ذلك تكرر منهما بقدر ما حدثتنا به تلك الروايات السابقة ؟

عبد المتعال الصعيدى

٢٧ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون أو خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

قال : أما إن كانت الروح يا أصدقائى خالدة حقاً ، فما أوجب العناية بها ، ليس فى حدود هذه الفترة من الزمن التى تسمى بالحياة وكفى ، بل فى حدود الأبدية ! وما أهول الخطر الذى ينجم عن إهمالها بناء على هذه الوجهة من النظر . لو كان الموت خاتمة كل شىء ، لكانت صفقة الأشقياء فى الموت راجحة ، لأنهم سيغتبطون بخلاصهم ، لا من أجسادهم فحسب ، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً . أما وقد اتضح فى جلاء أن الروح خالدة ، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول على الفضيلة السامية والحكمة العليا ، لأن الروح لا تستصحب معها شيئاً فى ارتقائها إلى العالم السفلى ، اللهم إلا التهذيب والتثقيف ، اللذين يقال عنهما بحق إنهما ينفعان الراحل أكبر النفع أو يؤذيانه أكبر الأذى ، إذا ما بدأ حجته إلى العالم الآخر

فبعد الموت ، كما يقولون ، يقود كلّ امرئ شيطانُه [1] الذى كان تابعاً له فى الحياة ، إلى مكان معين يتلاقى فيه الموتى جميعاً للحساب ، ومن ثمّ يأخذون سمتهم نحو العالم السفلى . يقودهم دليل نيطت به قيادتهم من هذا العالم إلى العالم الآخر ، فاذا مالقوا هنالك جزاءهم ولبثوا أجلهم ، رجع بهم ثانية بعد كر الدهور المتعاقبة دليل آخر ، وليست هذه الرحلة للعالم الآخر ، كما يقول اسكيلوس Aeschylus فى « التلفوس » Telephus ، طريقاً واحدة مستقيمة ، وإلاّ لما احتاج الأمر إلى دليل ، فلم يكن أحد ليضل فى طريق واحدة ، ولكن الطريق كثيرة الشعب والحنايا ؛ وإنى لأستنتج ذلك مما يقدم إلى آلهة العالم السفلى من الشعائر والقرابين ، فى أمكنة من الأرض تتلاقى عندها سبل ثلاث .

(١) فى الأصل Genius ومعناها روح طيبة أو خبيثة تسيطر على الانسان وتملى عليه كل أعماله منذ ولادته حتى يأتيه الأجل

فالروح الحكيمة المنظمة تكون عالمة بموقفها وتسير فى سبيلها على هدى ، أما الروح الراغبة فى الجسد ، والتى لبثت أمداً طويلاً – كما سبق لى القول – ترفرف حول الهيكل الذى لا حياة فيه ، وحول عالم الرؤية ، فيحملها شيطانها الملازم لها فى عنف وعسر ، وبعد عراك متصل وعناء كثير ، حتى تبلغ ذلك المكان الذى تجتمع فيه سائر الأرواح . فان كانت روحاً دنسة ، خبيثة الصنيع بأن انغمست فى الفتك المنكر ، وفى أخوات الفتك من الجرائم الأخرى ، وتلوثت بهذه السلسلة من الآثام – فان كل إنسان يفرّ من تلك الروح وينصرف عنها ، فلن يكون أحد لها رفيقاً أو دليلاً ، بل تظل تخبط وحدها فى أرذل الشر ، حتى ينقضى أجل معلوم ، فاذا ما انقضى ذاك الأجل ، حُمِلَتْ خانعةً إلى مستقرها الملائم ؛ كذلك لكل روح طاهرة مستقيمة ، مضت فى حياتها مرافقة للآلهة مترسِّمة خطوهم ، مُقامها الخاص

هذا وإن فى الأرض لربوعاً مختلفة عجيبة ، تختلف فى حقيقة أمرها – كما أعتقد معتمداً على رأى ثقةٍ لن أذكر اسمه – تمام الاختلاف عن آراء الجغرافيين من حيث طبيعتها ومداها . فقال سمياس : ماذا تعنى يا سقراط ؟ لقد سمعتُ للأرض أوصافاً كثيرة ولست أدرى مع أيها تذهب ، وأحب أن أعلم ذلك

فأجاب سقراط : حسناً يا سمياس ، لا أظن أن حكاية تروى تستلزم لروايتها فن جلوكس Glaucus ، ولست أرى أن فن جلوكس مستطيعٌ أن يقيم الدليل على صدق حكايتى ، التى أنا عاجز تمام العجز عن إثباتها بالدليل ، وحتى لو استطعت ذلك ، لخشيت يا سمياس أن أختم حياتى قبل أن يكمُل الدليلُ ، ومع ذلك فقد أستطيع أن أصف لك صورة الأرض وربوعها كما أتصورها !

قال سمياس : حسبى منك ذلك

قال : حسناً ، إذن فيقينى أن الأرض جسم مستدير ، هو من السموات فى مركزها . لهذا لم يكن بها حاجة إلى الهواء أو ما إلى الهواء من قوة أخرى ، ليكون لها عماداً ، بل هى قائمة هنالك ، تحول موازنة السماء المحيطة بها ، وتوازنها هى نفسها ، بينها وبين السقوط أو الانحراف فى أية ناحية ، ذلك لأن الشىء الذى يكون فى مركز شىء آخر منتشر انتشاراً متوازناً ، ويكون هو نفسه متزناً ، لن ينحرف بأية درجة فى أى اتجاه ، بل سيظل ملازماً لحالة بعينها دون أن يحيد . ذلك هو أول رأى لى

فقال سمياس : وهو بغير شك رأى صحيح

– كذلك أعتقد أن الأرض فسيحة جداً ؛ وإننا ، نحن الذين نقيم فى المنطقة التى تمتد من نهر فاسيس Phasis إلى أعمدة هرقليس Pillars of Heracles ، بمحاذاة البحر ، إنما نشبه النمل أو الضفادع احتشدت حول مستنقع ، فلسنا نأهل إلا جزءاً ضئيلاً ، وأعتقد أن كثيراً من الناس يقيمون فى أمكنة كثيرة كهذه . فلا بد من القول بأن هنالك فجوات فى أنحاء الأرض جميعاً ، مختلفاً أشكالها وحجومها ، يتجمع فيها الماء والضباب والهواء ، وأن الأرض الحقيقية أرض نقية تقيم فى السماء النقية حيث سائر النجوم – تلك هى السماء التى يجرى عنها الحديث عادة بأنها أثير ، وليس الأثير منها إلا ارساباً يتجمع فى فجواتها ، وأما نحن الذين نقيم فى هذه الفجوات ، فنظن مخدوعين بأننا إنما نقيم على سطح الأرض ، كما يخيل للكائن الذى فى قاع البحر بأنه على سطح الماء ، وبأن البحر هو السماء التى يرى خلالها الشمس وسائر النجوم – فهو لم يَطْفُ على سطح الماء قط لوهنه وفتوره ، ولم يرفع رأسه ليرى ، ولا سمع دهره ممن شهد تلك المنطقة الثانية ، وهى أشد نقاء وجمالاً من منطقتنا . والآن ، فتلك حالنا تماماً : فنحن مقيمون من الأرض فى فجوة ، ونخيِّل لأنفسنا أننا على السطح ، ونطلق على الهواء اسم السماء ثم نتوهم أن النجوم سابحة فى تلك السماء . ولكن ذلك أيضاً يرجع لما بنا من ضعف وفتور ، فهما اللذان يحولان بيننا وبين الصعود إلى سطح الهواء : فلو استطاع انسان أن يبلغ الحد الخارجى ، أو أن يستعير جناحى طائر ليطير بهما صُعُداً ، فيكون كالسمكة التى تطل برأسها لتشهد هذا العالم ، إذن لرأى عالماً قاصياً ، ولاعترف الانسان ، إذا ما شحذت طبيعتُه من بصره ، بأن ذلك هو مكان السماء الحق والضوء الحقّ والنجوم الحق ، لأن هذه التربة وهذه الصخور ، بل وكل هذه المنطقة التى تحيط بنا قد فسدت وتآكلت كما يتآكل كل ما فى البحر من أشياء بفعل الأجاج . فيندر فى البحر أن ينمو شىء نمواً رفيعاً كاملاً ، فكل ما فيه شقوق ورمال وحمأة لا نهاية لها من الطين ، لا بل يجوز أن نقرن البر

بما فى ذلك العالم من مناظر هى أروع فى جمالها ، فالعالم الآخر أسمى بدرجة عظيمة جداً . والآن أستطيع أن أقص عليك ياسمياس حكاية رائعة عن تلك الأرض العليا التى تحت السماء ، وهى جد جديرة بالانصات

فأجاب سمياس ونحن ياسقراط يسرنا أن نصغى

(يتبع) زكى نجيب محمود

الـكاظمى

للأستاذ معروف الرصافى

ليس من غاية الحيـاة البقاء   فلذا خاب فى الخلود الرجاء
غير أن الحياة بالعز عنـد الرَّ   جُل الحـر غاية غـراء
أى فخر للناعمين بعيش   لم تجـلله عزة قعساء
حسب من رام فى الحياة خلوداً   أنه بعـــد موته علواء
وكفى المرء بعـد موت حياةً   أن ذكراه حـلوة حسناء

* * *

قد قضى الـكاظمى وهو جدير   أن تعزى فى موته الشعراء
عاش منسىَّ عارفيه ولمـــا   مات فاضت بنعيه الأنباء
ذكـرته نعاته بنعوت   قبله حاز مثلهـا العظماء
فلئن كان ما يقولون حقاً   إنهم بالذى نسـوا لؤماء
كيف ينسون فى الحياة أديباً   عبقرياً عَنَتْ له الأدباء
أفَيُنْسى حياً ويُذْكر ميتاً   إن هذا ما تنـكر العقلاء
إن هـذا أمر يتيه ضلالاً   فى بوادى تفسيره الحـكماء
ضحكوا منه فى الحياة ومذ ما   ت تعـالى نحيبهم والبكاء

* * *

أيها النادبون غـيرىَ غُروا   بَرِح اليوم للبيب الخفـاء
يُـكرم الميت بالثناء وتحيـا   عندكم فى المهانة الأحيـاء
كل من يخبر الأنامِ خُبْرى   لا يبالى أأحسنوا أم أساؤا
أنا جربتهم إلى أن تساوى الـ   يَوم عندى سبابهم والثناء
قد تمادى فى القائلين غـلوٌّ   وتوالى فى الفـاعلين رياء

* * *

أيها الـكاظمى نم مبتريحاً   حيث لا مبغض ولا إيذاء
عشت فى مصر باحترام يؤديـ   ـه إليـك الأماثل الفضلاء
إن للنيل من جرائك شكراً   ستؤديه دجلة الشـــناء
لم تعش عيشة الرفاه ولـكن   لك فى العيش عزة وعلاء
أى حر فى الشرق عاش سعيداً   لم تشب صفو عيشه الأقذاء
وهنيئاً إن لم تعش فى العراقيـ   ـن مضاعاً تنتـابك الأرزاء
من شقاء العراق إن ذوى النعْـ   ـمة فيـــه أجانب غرباء

* * *

إن جَفَتنا بلادنا فهى حب   ومن الحب يستلذ الجفاء
لم نحل عن عهودها مذ جفتنا   بل لهـا الود عندنا والوفاء
قد بكينا شجواً عليها ومنها   وعنانا ســـقامها والشفاء
كم أردنا سخطاً عليها ولـكن   غلب السخطَ فى القلوب الرضاء
إنما هــــذه المواطن أمٌّ   مستحق لهـا علينا الولاء
إن خدمنا فلا نريد جزاء   ومن الأم هل يراد جزاء ؟
إنمـا نحن مصلحون وما إنْ   غاية المصلحين إلا الرفاء
نحن كالشمع حين ذاب اشتعالاً   فهدى المظلمين منه الضياء

بغداد معروف الرصافى

البقـاء

بقلم الياس قنصل

أزهدُ الناسِ فى الحيـاةِ يُمنّى   نفسه بالبقاءِ رُغم شكاتِهْ
والذى أفنت الليـالى صباه   ورماه زمانُه بأذاتِهْ
يطلب الموتَ وهو امّا أتاه   ردّه عنـه ملغياً كلماته
وإذا خاضَ قائدٌ غمرةَ يرُ   سبُ فيهـا بسيفه وقناته
حدّثَ النفسَ بالرجوع سليماً   وسماتُ النجاح فى قسماته
وإذا قامَ رائدٌ يطلبُ المرَّ   يخ حيث الحِمام بعض هداته
ودَعَ الأرضَ آمناً مطمئناً   واثقاً من معادِه ونجاته
كلّنا يعشقُ الحياةَ ويهوى الـ   ـعيشَ فوق الثرى على عِلاّته
ربّ ساعٍ إلى الخلود مجدٍّ   يغلبُ النـاسَ والقضا بثباته
ليس يسعى وإن يُرَقْ دمُه إلاّ   ليحيا مكرّماً فى حياتِهْ

عاصمة الأرجنتين الياس قنصل

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٢ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

حاسة الفنية

لم يكن نيتشه مفكراً فحسب ، بل كان فناناً ذا حاسة فنية عميقة ، يدل على ذلك ميله خلال طفولته الأولى إلى الموسيق وعشقه لأربابها . وهل كان إلا غرامه بها الذى جعله ينظر إلى « ڤاجنر » كمثل أعلى لموسيقى عصره ؟ وقد انكب على تلقن أصولها ومبادئها فى صباه الأول ، ودفعته حاسته إلى نظم بعض المقاطيع الموسيقية . وما هى إلا خطوة واحدة لو خطاها نيتشه لأشرف على عالم غير عالمه ، ولأشفى على وجود قد يبدل كل أفكاره وكل آرائه . وهو يقول عن نفسه « لولم ترجح كفة التفكير عندى لكنتُ الآن موسيقياً ! » على أن ذوقه الموسيقى لبث حياً فى طوايا نفسه . يرتاح للموسيقى أينما صدحت ، ويغيب فى عوالمها حيث تفتحت عوالمها . وهو أكثر مايطمئن لتلك العوالم الفنية الظلمة التى تذهل فيها النفس وتدرج إلى أعماقها حيث يلتقى الفيلسوف والفنان . وقد يؤاخى هذه الحاسة — عنده — حاسته الشعرية . فهو شاعر بالفطرة ، يبدى آراءه الفلسفية بطريق الشعر ؛ وله فى الشعر جولات صادقة تدل على فن عميق وابتكار رائع . وهو وان صدف عن عالم الشعر فان حاسته الشعرية لم تخمد ، بل ظلت تعاوده فى كل ما كتب وسطر . وانشاؤه يغلب عليه الشعر والعاطفة . لايرى قارئه فى تأملاته عقل نيتشه وحده ، وإنما هو واجد كل كيانه يفكر ويكتب ، يطلع عليك بوجوده كله لا بفكره وحده

الانفعال

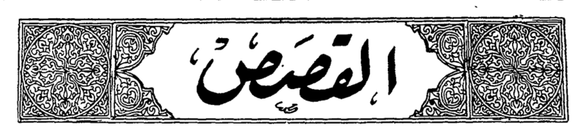
تكاد تكون تفاصيل حياته الشخصية محدودة . فهو قد ولد عام « ١٨٤٤ » فى « روكن » ، حيث كان أبوه قسيساً . وقد تيتم فى الخامسة من عمره . فأتم دروسه الثانوية وتوجه إلى الدروس العالية . وبينما كان يتهيأ للموضوع الذى ينال به « الدكتوراه » فى « ليبزيج » دُعى ليكون أستاذاً فى جامعة « بال » وقد مُنح « الدكتوراه » بدون أن يعرض موضوعه . قضى ستة أعوام هادىء النفس فى الجامعة يقوم بتدريس اليونانية ، وهو خلال هذه الأعوام كالمقيد بصحبة أصدقائه لايخرج من حلقتهم ، وهؤلاء الأصدقاء هم زملاؤه وبعض رفاقه ، أضف إلى ذلك بعض زيارات متتالية إلى منزل الفنان « ڤاجنر » . وقدكان يختلس بعض الفرص فيذهب فى بعض سياحاته القصيرة إلى البحيرات والجبال ، ولم يعكر عليه هذا الهدوء إلا إعلان الحرب السبعينية ، فهجر الجامعة وتطوع فى الجيش الألمانى ، ولكن صحته خانته ، فاضطر إلى العودة مريضاً ، وأعظم ما قام به من الآثار الأدبية خلال هذه الفترة كتابه « نشوء المأساة » ونقده للحضارة الحديثة . فى الكتاب الأول يعالج نبوغ اليونان وعبقريتهم المختلفة فى الفنون ، وفى الكتاب الثانى يعرض « تأملات فى غير حينها » وهو ينطوى على أجزاء : فى الجزء الأول يحمل على « دافيد ستراوس » ، وفى الجزء الثانى يبحث فائدة التاريخ وأخطاره ، وفى الجزأين الأخيرين يبسط عبقرية الفيلسوف « شوبنهاور » وعبقرية الفنان « ڤاجنر » معتقداً أن فى امكان هذين النابغتين أن يقودا الانسانية إلى مثلها الأعلى

وفى سنة ١٨٧٦ عرا حياته الداخلية ماعرا حياته الخارجية من تطور وتبدل ، وأعظم ما نزل به نزاعه مع صديقه « ڤاجنر » أضف إلى هذا ماحاق بصحته من سوء واعتلال ، حتى منحته الجامعة فرصة يقضيها إذا شاء فى إيطاليا أوعلى هضاب سويسرا . وبعد هذه الراحة عاد إلى بذل الجهود برغم أن صحته كانت تنذر ولا تبشر . فجمع سنة ١٨٧٨ كتابه « أشياء إنسانية ، إنسانية جداً » وكتاباً آخر يضم « آراء مختلفة » و « المسافر وظله » فزادت صحته ضعفاً حال بينه وبين التعليم ، فاعتزل الجامعة لكى يجد المجال الفسيح والقوة الكافية لتتميم رسالته الفلسفية

وها هنا بدل القدر صفحة حياته ، ومنحه حياة جديدة يغمرها الاعتزال ، وحرية التفكير والانفصال ، يكمل تحت ظلها هذه الرسالة التى خُلق لها

* * *

لم يكن ميل نيتشه إلى دراسة اللغات القديمة مجرد هوى أوهيجان ابن ساعة ثم ينطفئ . فقد مال نيتشه إلى هذه الدراسة بقلبه وعقله ، ذلك لأنه يريد أن يظهر أمره فى علم ضيق المساحة ليدرك العلم فضله . وهو أكثر الناس علماً بقيمة العلماء الناقصين الذين يعلمون كل شىء ولا يعلمون شيئاً . وهاهو ذا الآن لا يريد أن يعرف كل شىء ، وإنما يريد أن يعرف شيئاً معرفة متقنة ، فبذل



من أساطير الإغريق

هرقـــــل
فى سبيل التفاحات الذهبية
للأستاذ دريني خشبة

٧ — خيول ديوميدز

وكان الملك ديوميدز ، ملك تراقيه ، يقتنى مجموعة طيبة من خيول السباق التي لا يشق لها غبار ، ولا تباريها خيولٌ فى مضمار ؛ ولكنها لم تكن كهذه الخيول التى يقتنيها الناس ، بل كانت بالوحوش أشبه ، وإلى السباع أقرب ، لأنها لم تكن تذوق الحشيش ولا تُسيغ النبات ، بل بالعكس ، كانت لا تأكل إلا اللحم تنهشه نهشاً . .

وكانت تأبى لحم الحيوان والبهائم ، وتستطيب لحم الانسان وتستلذه ، ولم يكن الملك القاسى يبخل عليها به . ولكى يُوَفِّر لها هذا الغذاء الغريب ، أصدر أمره بالقبض على كل أجنبى تطأ قدماه أرض البلاد بدون إذن من الملك ! فلما نمى الخبر إلى يوريذوس ، أرسل هرقل لمعاقبة ديوميدز ولتخليص الناس منه ومن خيوله

وشد هرقل رحله إلى أرض تراقيه ، ودخلها غير مستأذن ولا مستأنس ، فلما سأله ديوميدز فى ذلك ، انقض عليه كأنه الحتف ، واقتلعه من عرشه كأنه نبتة ، ومضى به إلى خيوله فألقاه إليها . . .

وانقضت الخيول على الملك فمزقته تمزيقاً ، واغتذت بلحمه الملكى الفاخر !! وطرب الشعب لتخلصه من حاكمه الظالم ، ونثر الورد والريحان تحت قدمى هرقل ، ومضى البطل فألجم الخيول كلها ، وساقها هدية غير مبرورة إلى يوريذوس !!

٨ — منطقة هيبوليت مليكة الأمازون

وكانت ليوريذوس ابنة ذات كبرياء وذات خيلاء ، مشغوفة

ما بذل من صبر وجهد بذل الأمين الراعى لأمانته . مدرعاً بالأناة التى لا غنى عنها للذاهب مذهبه . راضياً بأن يزهق روحه فى سبيل العلم وخدمته . ولكنه سالك فيه مسلكا جديداً لا أثر فيه للتعاليم الدارسة ، وللتقاليد التى لا تجدى شيئاً . وهو يمزج هذه الدراسة مع الفلسفة والفن ويجعل من هذا المزج مزيجاً جديداً

يعتقد نيتشه بأن المثل « الكلاسيكى » سيبقى خالداً لا يهدده الفناء . فلا العلم ولا الخلق ولا التثقيف مستطيعة أن تنقذنا من البربرية إذا سلخنا المثل الكلاسيكى ، وكفرنا بالبساطة الشريفة التى تتجلى فى الفن اليونانى والبراعة اليونانية . وإذا شاء رسل العلم أن يجحدوا هذه البراعة وينكروها على اليونان ، فانها براعة سائدة خالدة مسيطرة على براعتنا ، تدل على أن اليونان كانوا أكثر توفيقاً منا فى حل مسائل الوجود

وهكذا تظهر مهنة « دارس علم اللغات » مهنة جميلة سامية هو لا يعنى باحياء الآثار العافية ، والنصوص البالية ، ولكنه كادح دائب على احياء روح اليونان القديمة ، يريد أن يتفهم كيف قدر لهذه الروح أن تتسامى وتتعالى فى الآثار التى تركتها ، والفنون التى أنجبتها ، والمؤثرات التى تركت تأثيرهم بادياً فى أدبنا وفلسفتنا ، فجعلت منهم أساتذة لا يزال الغرب يتلقن عنهم . هذا هو دأب نيتشه يوم دخل جامعة « بال » مدرساً . يقول فى إحدى محاضراته « إن دراسة علم اللغات ليست بآلهة شعر ولا بنبية رحمة ، لكنها رسولة الآلهة ، والآلهة فى القديم كانت تهبط على القرويين المحزونين . واليوم تهبط هذه الرسولة على عالمنا القاتم الألوان ، المظلم الرسوم ، المفعم بالآلام والشقاء الذى لا يشفى ، حاملة إلينا بلسم العزاء ، عارضة علينا بأحاديثها تلك الوجوه الجميلة المتألقة فى قطر خصب أزرق سعيد »

(يتبع) خليل هنداوى

باقتناء الحلى والجواهر النادرة ، تضحى فى سبيلها بسلام المملكة وأرواح البرايا ، إذا اقتضت الحال حرباً من أجل ياقوتة أو زبرجدة ! !

وكان أبوها الأفين يلبى رغباتها ولا يكاد يرفض لها أمراً ، فلما وُصِفَت لها مِنْطَقَةُ هيبوليت ، مليكة الأمازون ، وما رُصِّعت به من اللآلئ ، ثار فى نفسها فضول الذهب ، وألم بها مرض الحصول عليه . فانطلقت إلى أبيها تبكى ، وتشكو المطل وقلة الحلية ، ولو أن خزائنها تحوى نصف ثروة المملكة

وسألها أبوها ما بكاؤها ؟ فتاهت قليلاً ودلّت ، ثم ذكرت منطقة هيبوليت ! !

ورق الملك على كتفى ابنته ، ودعا إليه هرقل ، وأمره بالذهاب إلى الأمازون والحصول على منطقة الملكة ولو أدّى دمه ثمناً لها ! !

أما الأمازون ، فقبيل عظيم من النساء المحاربات ، يحيين حياة عسكرية حافلة بضروب من الشجاعة تحيّر الألباب وتذهل العقول . فمنهن فريق يعمل فى الحصون ويسهر على قلاع المملكة ، وفريق للغزو ومناوشة الأعداء ، وثالث يقوم بمهمة الشرطة والعسس ، ورابع للعمل فى الأسطول الذى يلقى الرعب فى الشواطئ .... الخ

ولا يعيش بين شعب الأمازون أحد من الرجال ، فاذا جازف رجل ، وانسرق بينهن ، ترصّده الموت فى كل مكان !

وكانت مملكتهن فى جزيرة نائية قاصية ، ذهب هرقل فى البحث عنها كل مذهب ، واستعان بأقربائه من الآلهة ليرشدوه إليها

ونصح له أحدهم أن يدع هذه الرحلة القاسية إلى مملكة الأمازون ، ولكنه أبى ، لأن مجازفاته التى يتعرض بها للهلاك ، إن هى إلا ثمن الحرية التى ينشدها ويحلم دائماً بها !

ووصل هرقل إلى المملكة ، وتحايل حتى مثل بين يدى الملكة ، فلقيته بما هو أهله من التجلة والاكرام ، كأن إله عظيم . . وأبدى رغبته فى الحصول على المنطقة الغالية التى تزين وسط الملكة ، وتحلى خصرها ، ليقدمها ثمناً لحريته الضائعة ، للفتاة المزهوّة (أدميت) بنت ملك أرجوس ...

وتبسّمت الملكة ، ووعدته أن تخلعها عليه ، ليصنع بها بعد ذلك مايشاء . ثم تفضلت فدعته إلى حفلة راقصة ، وعشاء فاخر ... وهنا تبرز حيرا لتمثل دورها ! !

لقد هالها هذا النجاح المطّرد الذى يظفر به خصمها فى كل مكان ، فتحولت إلى أمازونة جميلة ، واندست بين رعايا الملكة ، وألقت فى روعهن أن هرقل هو ألد أعدائهن ، وأنه إنما أقبل ليَسبِيَ الملكة ، وليفر بها إلى ملك أرجوس ، وأنه اتخذ المنطقة تعِلَّةً لذلك جميعاً ، فثارت ثائرة الأمازون ، وتجمهرن حول الملكة ، وصارحنها بما قالت لهن حيرا . فأمرتهن بالحرب ... ولكن هرقل ، البطل الأعزل ، انقض كالمنية على الأمازون ففرّق شملهن ، وأظفرته شجاعته بهن ، ثم هجم على الملكة فاختطف منطقتها ، ونظر فرأى حيرا تشهد المعركة فوق رابية قريبة ، فأشار إليها قائلاً : « وهنا أيضاً أنتصر عليك ، وسأنتصر عليك دائماً ! »

٩ — وطربت ابنة الملك بمنطقة هيبوليت أيما طرب ، وكبرت فى نفسها منزلة هرقل ، فاستوصت به أباها خيراً

واستجاب يوريذوس لشفاعة ابنته فى هرقل ، فلم يكلفه هذه المرة شططاً ، بل اكتفى أن أمره بالتوجه إلى بحيرة ستيمفالوس ليبيد طيورها ذوات المخالب النحاسية التى تُدَوّم فوق الماء الآسن وتغطس فيه تصيد السمك ، ثم تذهب فتأكله قريباً من القرى ، فتنتشر بذلك الأمراض والطواعين . ولم يكن أيسر على هرقل من أن يبيد هذه الجوارح ومعه قوسه الرنان ، وفى كنانته سهامه التى رويت من دم هيدرا

١٠ — *قطعان الجريونز*

وكان يأوى إلى سفوح الجبال فى مقاطعة أريثيا مارد مخوف مرهوب الجانب يدعى جريونز . وكانت له قطعان كبيرة من الماشية والغنم عرفت فى سائر هيلاس بجودة ألبانها ونعومة أوبارها ، حتى لكان يضرب بها المثل كلما فاخر الرعاة بقطعانهم

وطمع يوريذوس فى نَعَم جريونز وشائه ، فأمر هرقل أن ينصرف إلى أريثيا فلا يعود إلا بها

وأغذّ هرقل السير ؛ وألفى المارد ممدداً فى كهفه السحيق يغط فى نوم عميق ، فانقض عليه كأنه الشهاب الراصد ، وقبض بيديه الحديديتين على عنقه الغليظ فلم يفلته إلا جثة لا نأمة فيها ولا نَفَس ! وساق القطعان ، وتولى إلى ملك أرجوس بالثروة الطائلة ، والوفر الكثير

وأرخى الليل سدوله ، ولما يبلغ هرقل نصف الطريق ، فأناخ فى منحدر معشوشب ، ولعبت سنة من النوم بعينيه فغفا ،

وأسكرته نسمات الربيع فاستسلم لأحلامه الحرية الحلوة . . .

وكان يأوى إلى هذا الجبل ، جبل آفنتين ، مارد لص قطاع طريق ، يدعى كاكوس ، وجد هرقل غاراً فى سبات ناعم ، فذهب بنصف القطيع أو يزيد . . . .

واستيقظ البطل على رُغاء يتجاوب فى حدود الأفق ، فلما تفقد قطعانه انطلق فى أثر اللص حتى لحق به ، وحطمه تحطيما !

وقبيل شروق الشمس ، كانت مدينة أرجوس كلها عند الأبواب تستقبل الرزق والغُنم ، وتهتف باسم البطل الحلاحل الذى بهرها بشجاعته ، وخلب ألبابها بما أبدى ، وما ينفك يبدى ، من ضروب القوة والاستبسال

وأحس يوريذوس بما انطوت عليه قلوب الأهالى من المحبة والافتتان بهرقل ، فتسخّط وحنق ، وبيّت الشر المستطير

١١ — تفاحات هسبريا الذهبية

وأدركت حيرا ما ينقم الملك من هرقل ، فوسوست اليه أن يأمره بالحصول على تفاحات هسبريا الذهبية ، وهيهات هيهات أن يستطيع أحد الحصول عليها !

ولقد أهديت هذه التفاحات الى حيرا ، ليلة زفافها الى زيوس ، رب الأرباب ، فيما أهدى إليها من تقدمات وتحف ؛ أهدتها إليها (جى) ربة الأرض ، فكانت أثمن الهدايا جميعاً وأغلاها . لأنها فضلاً عن أنها من الذهب الخالص ، فقد رصعت بأندر اللآلىء ، وزينت بصور الآلهة ، ونقشت فيها حدائق الأولمب ؛ ثم هى تستقل بميزة ندر أن تكون لحلية مهما غلت : ذلك أنها إذا غابت الشمس ، وأقبل الليل بظلامه ، شعّت أضواءً ولألاء قل أن تصدر إلا عن كوكب درّى ، أو شمس وضاءة ، فتنقشع الغياهب وتنجلى الدياجير !

وحسبك أن تعلم أن حيرا نفسها لم تأمن آلهة الأولمب وحُرّامها الغلاظ على هذه القُنْيَة النادرة ، فأرسلت بها إلى الهسبريد ، بنات هسبروس إلـه الغرب المظلم ، ليحرسْنَها . ولتكون عندهن فى مأمن من كل سارب بليل ، أو سارق فى نهار ، وقد عرف الهسبريد لهذه التفاحات قيمتها ، فعلّقنها فى دوحة باسقة فى حديقة قصرهن المنيف ، وأقمن على حراستها التنين الهائل لادون ، الذى قيل فى صفته إن له سبعين ألف رأس فى كل رأس سبعون ألف عين ، وسبعون ألف ناب يتدفق السم منها جميعاً . ثم إنه يبلغ ألف ذراع طولاً وخمسين سُمكاً ، وإن له لأظافر كأن كل واحد منها جراز هرمز ، وإن له لفحيحاً تضيع فيه زمزمة الجن ، ومُكاءُ الشياطين !!

وانقلب هرقل على وجهه فى الأرض حيران !

أين هى تفاحات هسبريا هذه ؟

« أفى الأرض أم فى السماء ؟ لأمض ! فرب إلـه دلّنى إليها . . . »

وشرّق وغرّب ، وذرع الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، وانسرق إلى الكهوف والغيران ، وأوغل فى الجبال ، وتحدّر فى القيعان ، ومر بكل حنيّة ، ووقف عند كل عين ، حتى كان لدى نهر أريدانوس ، ووقف بشاطئه يتناجى ؛ فخرجت من الماء النمير عرائسه ، ورُحن يُسَرّين عن هذا اللاجئ الحزين

وإنه ليسائلهن عن تفاحات هسبريا ، فيحدثنه ويتلطفن معه ، ثم ينصحن له أن ينطلق إلى نريوس إلـه البحر ، عسى أن يهديه إلى ما يريد

ويهيم فى الأرض محاذياً سيف البحر ، حتى يكون آخر الأمر أمام شيخ هرم ، وخط الشيب رأسه ، وتدلى شعر لحيته الكث فوق صدره العريض ذى النتوء ؛ وبرزت أهدابه حتى لكادت تحجب عينين تزدحم فيهما السنون ، وتطل من حدقتيهما الأحداث !

وجده جالساً القرفصاء مُقَلِّباً ناظريه فى مملكة الماء التى تتصل باللانهاية ، فألقى عليه تحيـــة هيّنة ، رد عليها الشيخ بهذه العبارة :

« أيها الفتى لم قطعت علىّ تأملاتى ؟ ! »

« فقال هرقل : « أستحلفك بسيد الأرباب يا أبتاه إلاّ ما أخبرتنى عن حدائق الهسبريد ، فتكون لك علىّ يد أذكرها لك أبد الدهر وأشكرها ! »

وتجهّم نريوس وقال : « حدائق الهسبريد ! أوه ! أنت هرقل إذن ! »

فبهت هرقل وأجاب : « أى وحقك أنا هو ، فمن ذكرنى عندك ! ؟ »

— « ليس هـذا من شأنك يا بنى ، ولكن لعلك تبتغى تفاحاتها الذهبية ؟ »

— « إى وزيوس يا أبتاه ! »

— « بشراك إذن ! فلن يحصل عليها إلا أنت ، ولكنك لست أنت الذى ستنفذ إلى حدائق الهسبريد ! إذهب إذن فالتمس

المسكين برومثيوس (١) مُكَبَّلاً فوق جبال القوقاز ، فأحسن إليه ، وَسَلْهُ حاجتك ، فهو وحده الذى يستطيع إرشادك إلى ما تريد . . »

وشكره هرقل ، وحياه ، وأطلق ساقيه يطوى الفيافى إلى القوقاز . وهناك وجد برومثيوس والرخ ينوشه ، بحيث يمزق كبده ويهرأه ، ويغتذى به ؛ فوتر قوسه ، وسدد إلى الطير سهماً أصابه ، وتخلص إلى الإله البائس فأزال أصفاده ، واحتمله إلى السفح ، ومازال به حتى أقبل الليل والتأمت جراحه ، ثم تحدّث إليه عن حدائق الهسبريد وتفاحاتها الذهبية . فحدجه برومثيوس بنظرة فاحصة ، وقال له : « لكأنك هرقل إذن ؟ »

— « أجل أنا هرقل يا أبتاه ! »

— « وأنت عدو حيرا يا بنى ؟ »

— « عدوها المبين يا أبتاه ! »

— « مسكين ! ! »

ولم يلبث الفتى أن انهمرت عبراته ، وطار لونه ، وهاجت فى فؤاده البلابل والأشجان ؛ ثم اتصل الحديث ، وقال برومثيوس :

— « انطلق يابنى إلى أخى أطلس ؛ هناك . . . هناك فى إفريقية الظلمة شمالاً بغرب ؛ تجده على قنة جبل شامخ يحمل السماء على منكبيه ، ويتشح بوشاح من اللازورد يرفرف بين الشرق والمغرب . . فأقرئه سلامى ، وزف إليه بشرى خلاصى مما أوقع زيوس بى ، ثم حدثه بحاجتك يقضها لك ، فهو وحده يعرف أين حدائق الهسبريد ، وهو وحده يستطيع أن ينفذ اليها ، وهو وحده يستطيع قتل لادون التنين الهائل الذى يحرس تفاحات هسبريا الذهبية ؛ فاذا أتاك بها ، فاحذر أن يأخذك بشىء من مكره ، فانى قد علمت أنه بدأ يتململ من حمله الثقيل ، ويود لو ينجيه منه أحد ، ولو انتثرت الكواكب ، وانتقض نظام الكون ! »

هرقل يصارع أنتيوس

وفى طريقه إلى أطلس ، لقى من الأهوال والخطوب ما تفتأ تتحدث به الأيام إلى زماننا هـذا . من ذلك أنه مر بقوم من الأقزام ضئال الأجسام قصارها ؛ كانوا يؤجرون مارداً عظيم الجسم مفتول العضل : ليحميهم من جيرانهم الأعزاء الأقوياء ، وليدفع عنهم غائلة الغربان النجاسية التى كانت تتلف أعنابهم وتبيد زروعهم كلما تم نضجها فى كل عام . وكان ذلك المارد — أنتيوس — ذا حول وذا طول . حتى لكان يخشاه الوحش ، ويتخوفه الجن ، وترجف من سولته أفعوانات البحار ، فلما شهد هرقل يخب فى أفق البلاد كأنه جبل يتدهدى ، أخذ أهبته لمنازلته ، ولم تساوره ذرة من انتك أنه منتصر عليه

فلما وصل هرقل ، حيا أحسن تحية ، ولكن أنتيوس لم يجب ، بل إنه سارع فأخذ بتلابيب البطل عابر السبيل ! !

— « ماذا بك أيها الأخ ! دعنى فليست لى عندك حاجة ! »

— « لا ، لانجوتَ إن نجوتَ ! لا أرى الآن أصرعك ! »

— « ولمه ؟ »

— « هذا مالا أعرف ، ولكن لابد من أن أصرعك على أية حالة ! »

وتصارع الخصمان ، وأقبلت الأقزام ترنو إلى هذين الجبلين يأخذ أحدهما بخناق الآخر فيلببه تلبيباً !

وكان أنتيوس كلما خانته قواه ، وأيقن أن هرقل لابد صارعه ، وقف قليلاً على أديم الأرض يستمد منها قوة ، ويستلهم الحول من أمه (جى) . .

فهو ابن جى إذن ، ولن يسر ربة الأرض أن يصرع ابنها أحد ، إذن فلتمده بكل مافى سرها من قوة ليصرع هرقل !

وخارت قوى البطل ! وراح يلهث من شدة النصب ؛ بيد أنه تنبه إلى السر آخر الأمر ، عند ما لحظ أن أنتيوس يزداد قوة كلما مست قدماه الأرض ؛ فرفعه رفعة هائلة ، ولم يمكنه من الوقوف لحظة على قدميه ؛ ثم أخذ يضغط عنقه الغليظ العبل ، حتى شهق شهقة كانت هى شهقة الموت . . !

فألقى به . . . ومضى لشأنه ! !

وتلفت فرأى عرائس ماء يلعبن على الشاطىء ، ويترامين بلآلئ مما يعـد لهن من حصباء البحر ؛ فوقف غير بعيد وهتف بهن :

« ياعرائس الماء الجميلات ! هل لكن أن تهديننى إلى أطلس الذى يحمل السماء ، وعسك كواكبها أن تقع ! ؟ »

وفزع عرائس الماء وهرعن إلى البحر ، ولكن فتاة جريئة وقفت ترقص على رأس موجة وقالت : « امض أيها الرجل حتى إذا لقيت السد الذى يفصل البحر المحيط من مائنا هـذا (وكان البحر الأبيض) ، فاذا استطعت أن تنفذ فانك تكون على فراسخ من أطلس . . . »

(١) العدد ٩٩ من الرسالة

وشكرها هرقل ، وانطلق . . .

وكان أمام السد ؛ ولكنه كان جبلاً شامخاً ذا قُنن وقُلل وأحياد ؛ فلما لم يستطع أن يتسلقه ؛ ضربه بيمينه ضربة ، وبشماله أخرى ، ففتح ثغرات كبيرة نفذ منها ، وترك الجبل وراءه أعمدة عالية ، ماتزال تعرف إلى يومنا هـــذا بأعمدة هرقل ! ! (١)

ونظر فما هاله إلا هذا الآله العظيم سامقاً في الأفق ، يحمل على كتفيه العريضتين قبة السماء . والنجوم منتثرة حوله كأنها قطرات أمطار في يوم عاصف !

وتقدم هرقل فحيا الآله الضخم ، وحياه الآله الضخم بأحسن مما حيا هرقل ، ثم أقرأه هذا تحية برومثيوس ، وزف إليه بشرى خلاصه من الصخرة التي ظل مكبَّلاً فوقها أحقاباً وأحقاباً !

وطرب أطلس لهذه البشرى ، وافتر عن ثنايا كأنها قمم الجبال مغطاة بالثلوج ، ثم قال :

— « ومن أنقذه من عذابه الطويل يا صاح ! »

— « أنا إن كان يسرك ذاك النبأ »

— « أنت ؟ أنت من الكرمين إذن ! مرحباً بك أيها المخلص الأمين !

لقد كنت ألقى بهذا الحمل الذي ترى لأنقذ أخي ، ولكني خفت أن يهلك العالم بمن فيه . . . و . . . على ذكر أخي ، كيف هؤلاء الناس الذين خلق ؟ أبخير هم ؟ وهل يخبتون له حقاً ؟ إن زيوس مغيظ منهم ، وامرأته حيرا محنقة كذلك ، أعندك من أخبار هؤلاء شيء ؟

— « عندي أشياء يا أبتاه . . أنا ابن زيوس من ألكمين ، وقد نقمت حيرا على والدتي ، فأرادت أن تفجعها فيّ ، وقد أغرت رب الأرباب بي ، فقضى أن أخدم النذل يوريذوس سنة بتمامها أصدع له خلالها بما يأمر ، وقد أرسلني أجوب الآفاق وأذرع الأرض من أجل تفاحات هسبريا الذهبية ، وقد ذكر لي أخوك ، بعد إذ أطلقته ، أنك وحدك تعرف مكان حدائق الهسبريد وأنك وحدك تستطيع الحصول على هذه التفاحات ، فهل أسعد بأن تؤدي لي هذه اليد ؟ لقد كادت حيرا كيدها هذا ، وإلا تفعل لي أكن من الهالكين !! »

وشاعت الخيلاء في أعطاف أطلس ، وسرت حُميَّا الزهو في ظهره الشامخ ، فقال : « أجل يا صاح ، لن يستطيع قتل لا دون غيري ، ولن يدخل حدائق الهسبريد سواي ، ولكن كيف أترك حملي هذا لآتيك بالتفاحات ؟ »

ونظر هرقل إلى القبة الهائلة نظرة تفيض كبرياء وقال : « أنا أحمل عنك هذه القبة يا أبتاه ، حتى تعود بالتفاحات !! »

وما كاد يتم كلمته ، حتى تقدم فركز كتفيه تحت السماء ، وانطلق أطلس لأول مرة منذ أحقاب وأدهار ، يمتّع نفسه بمشية حرة طليقة في حدائق الأرض الفيناء !!

وعبرت أيام . . .

ثم ذكر تفاحات هسبريا ، فذهب إلى حدائق الهسبريد ، واقتحم الأسوار ، وانقض على التنين لادون فزلزلت الأرض تحتهما ، ولم يدعه يفلت ، برغم مرونته في الوثب وسرعته في الالتفاف ، حتى خر صريعاً

ومد يده إلى الأيكة الذاهبة في السماء فتناول التفاحات الثلاثة الوضاءة ، وعاد يزهو ويختال إلى حيث هرقل المجهود التعب

وما كاد أطلس يلمح الحمل الثقيل الذي يؤود هرقل ، حتى ذكر الأدهار السحيقة التي لبث يتململ طوالها تحت عبئه ؛ فارتعدت فرائصه لمجرد فكرة العود الى حمله الشاق . . . وبدا له أن يدع هرقل ويمضي . . . ولكن هرقل المتعب فطن الى ما وقر في قلب أطلس ؛ فناداه : « أبتاه ! لعمري ان حملك لأخف من الهواء ؛ ولعمري انني لأستطيع أن أصمد له الى نهاية الأبد ! »

وبهت أطلس وقال : « إذن لتمض في حملك مادام يسرك ! »

فأجاب هرقل : « ليس أيسر من هذا ! ولكن هل تسمح فتحمل مكاني برهة حتى أضع حوية فوق كتفيّ ، فاني أشعر بنتوء في أديم السماء ! ! »

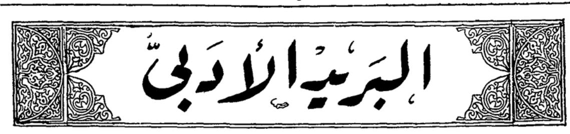
وقبل أطلس المغفل ، فنثر التفاحات من يده على الكلأ الأخضر ، وتقدم فحل محل هرقل ! !

والتقط صاحبنا التفاحات ، وانطلق لا يلوى على شيء ! !

وبعد رحلة طويلة مضنية ، دخل على يوريذوس بالقُنية الغالية التي خلبت لب فتاته أدميت ؛ وخرت مغشياً عليها حين وقع بصرها عليها

(لها بقية) دريني خشبة

(١) بوغاز جبل طارق



لورد هيدلى عميد المسلمين الانكليز

نعت إلينا أنباء لندن الأخيرة عظيماً من عظماء الانكليز يعرفه المسلمون جيداً فى مشارق الأرض ومغاربها هو لورد هيدلى زعيم المسلمين فى انكلترا

توفى لورد هيدلى فى الثمانين من عمره بعد حياة حافلة متنوعة الأطوار والأوضاع وبعد أن لبث اسمه يرن فى العالم الاسلامى أكثر من خمسة وعشرين عاماً ، مذ اعتنق الاسلام ، وكان أول من اعتنقه من أشراف الانكليز

ولورد هيدلى من صميم الأرستقراطية الانكليزية ، ولد فى سنة ١٨٥٥ ؛ وأبوه الشريف النسون ون ابن بارون هيدلى . وتلقى تربية جامعية حسنة فى وستمنستر وترنتى وكامبردج ؛ وبرع فى الرياضة منذ فتوته ولا سيما « البوكس » وألف فى هذا الفن رسالة ذاعت فى وقتها ذيوعاً كبيراً . ثم اشتغل حيناً بالتدريس ، ثم بالصحافة حيث كان يحرر جريدة « سالسبورى » ؛ ثم اشتغل بالاعمال الهندسية التى تخصص فيها ، وعمل مدى حين سكرتيراً للسير هنت ، وسافر بعد ذلك إلى الهند حيث تولى عدة أعمال ومشروعات هندسية هامة ، ولا سيا فى أعمال الموانى ، وذاعت شهرته الفنية يومئذ واعتبر من أعلام المهندسين

وفى سنة ١٩١١ غدا ر . ح . النسون لورد هيدلى بعد وفاة عمه البارون هيدلى ؛ وفى نفس هذا العام ، فى مأدبة عقدتها الجمعية الاسلامية بلندن ، أعلن لورد هيدلى الجديد أنه اعتنق الاسلام ، وأنه لم يقطع علائقه مع ذلك بالكنيسة البروتستانتية التى نشأ فى ظلها ؛ وكان إسلام اللورد هيدلى حادثاً اجتماعياً عظيما فى انكلترا ، وثار حوله الجدل مدى حين ، وحملت بعض الهيئات والصحف على اللورد المسلم حملات شديدة ، ولكنه لم يحفل بها واستمر فى طريقه يدعو إلى الاسلام ويفاخر باعتناقه

وفى سنة ١٩٢١ تزوج لورد هيدلى للمرة الثانية بعد أن توفيت زوجه الأولى فى سنة ١٩١٩ ؛ وكانت زوجه فى هذه المدة مسز باربارا بانيتون ، وكان قد بلغ السادسة والستين من عمره .

وفى سنة ١٩٢٣ انتخب اللورد هيدلى رئيساً للجمعية الاسلامية بلندن تنويهاً بخدماته للدعوة الاسلامية ، وفى هذا العام سافر إلى مكة وأدى فريضة الحج ، وأنعم عليه الملك حسين ملك الحجاز يومئذ بوسام النهضة العربية ؛ ولقب اللورد من ذلك الحين « بالحاج هيدلى » وغلب عليه اللقب الجديد

وفى سنة ١٩٢٩ ، تزوج الحاج هيدلى للمرة الثالثة بأرملة الماجور باسفورد وكان يومئذ فى الخامسة والسبعين

وكان اللورد هيدلى رجلاً وافر النشاط والذكاء يجمع بين مصالح كثيرة مختلفة ، ويدير دفة طائفة متنوعة من الأعمال الهامة ، ويسير بها جميعاً فى طريق التقدم والنجاح

وقد ترك اللورد المتوفى من زوجه الأولى أربعة أولاد ؛ وورثه فى لقب اللوردية ولده البكر رولاند باترك النسون ون

***

ونستطيع أن نذكر بهذه المناسبة أن هناك طائفة من مشاهير الانكليز اعتنقوا الاسلام فى مختلف العصور ، ومن هؤلاء رجل من اكستر يدعى يوسف بتس أسره القرصان المغاربة سنة ١٦٧٨ وأرغم على اعتناق الاسلام ، وأدى فريضة الحج مع سيده . ثم فر بعد ذلك إلى أزمير ونشر رسالة عن مغامراته ؛ ومنهم توماس كابث الشهير الذى اعتنق الاسلام ووصل إلى منصب « الأغا » فى بلاط السلطان باستانبول ، ثم انتهى بأن عين حاكماً للمدينة المنورة . ومن مشاهير الانكليز الذين أسلموا فى عصرنا الحاج عبد الله فيلبى (سنت جون فيلبى) مستشار الملك ابن السعود ، واللادى إيفلين كوبولد صاحبة كتاب « الحج إلى مكة » الذى ترجم أخيراً إلى العربية ، ومنهم الدكتور نولان الذى كان مديراً للأمن العام ، واعتنق الاسلام ثم سافر إلى تركيا ، وهاجر بعدئذ إلى أمريكا ، ومنهم كثيرون من المستشرقين الذين أسلموا لأغراض علمية وسياسية

ذكريات عن بيير لوئيس

منذ عشرة أعوام ، فى يونيه سنة ١٩٢٥ توفى الكاتب والشاعر الفرنسى الكبير بيير لوئيس ، فى الرابعة والخمسين ، بمنزله فى شارع بولا نفلييه بباريس ؛ وكان يعانى آلام المرض قبل وفاته بأعوام طويلة ، والآن يحتفل أصدقاء الكاتب الكبير بذكرى وفاته ، وهذه سنة مؤثرة فى فرنسا ، فقلما يودع هذه الحياة كاتب أو شاعر أو نابغة من نوابغ العلم أو الفن حتى تقوم جمعية من أصدقائه والمعجبين بنبوغه لتعمل على تكريم ذكراه فى كل مناسبة ، وتذكى فى نفوس الخلف حب تراثه ، وقد كان لبيير لوئيس مكانة خاصة فى نفوس الخاصة وذوى الشاعر الرفيعة ؛ ذلك لأنه يثير بروعة بيانه ورقة أسلوبه شجناً لا تملك مغالبته ، وقد بدأ بيير لوئيس حياته الأدبية بانشاء مجلة صغيرة اسمها « لا كونك » فى مارس سنة ١٨٩١ ، وكان يطبع منها مائة عدد فقط ، ويعاونه فى تحريرها كتاب تملأ اليوم أسماؤهم فرنسا ، مثل أندريه جيد وبول ڤاليرى وهنرى دى رينيه

وكان أول من لفت الأنظار الى بيير لوئيس ودفعه إلى طريق المجد ، القصصى الشاعر الكبير فرانسوا كوبيه ؛ ففى مارس سنة ١٨٩٣ ظهرت قصة لوئيس المساة « افروديت » ، فلم تمض أسابيع قلائل حتى تناولها كوبيه بالنقد فى جريدة « الجورنال » وكان مما قاله يومئذ ما يأتى : (انه لم يكتب مثلها فى النثر الفرنسى منذ « قصة الموميا » و « سلامبو ») . ثم قال : إنها قصة خليعة جدا ، فهو يوصى بقراءتها للفنانين ، وللفنانين وحدهم ، وكان ذلك كافياً لأن تلقى « افروديت » ذيوعاً عظيما ، وأن ينحدر بيير لوئيس بسرعة الى طريق المجد

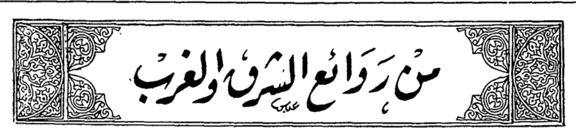
وما فعله فرانسوا كوبيه مع لوئيس ، فعله لوئيس فيما بعد مع كلود فارير ؛ فقد أصدر فارير كتابه « المتمدنون » سنة ١٩٠٥ ، وتقدم لينال به جائزة جونكور ؛ وكان بيير لوئيس أحد العشرة الذين يؤلفون المجلس ، فأذاع بعد قراءتها فى كل مكان أنها لا تقل فى الروعة والابداع عن قطع « ميرميه » ؛ وهكذا نال فارير جائزة جونكور ، وأضحى بفضل لوئيس علماً ذائع الصيت ، ولم ينس فارير لبيير لوئيس هذا الفضل ، فلبث طوال حياته يرعاه بحبه ورفيع تقدره

عناصر الحركة الهتلرية

ألقى المسيو هنرى بيجه ، وهو من أعضاء مجلس الدولة الفرنسى ، فى « أكاديمية العلوم الأخلاقية » محاضرة عنوانها « الدولة الألمانية الثالثة والنظريات الاشتراكية الوطنية » ، وهى خلاصة بحث دقيق قام به لدرس خواص النظام الهتلرى ؛ وخلاصة رأى مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية إنما هى ظفر حزب وظفر نظرية قاما على « تفاعل عناصر اليأس وعناصر الخرافة » ؛ وأما مثل هذه الحركة فتنحصر فى ثلاثة أشياء : نظرية الجنس أو الوحدة الشعبية Volkstum ؛ ونظرية الزعيم Fuahrer ، ونظرية الاشتراك Gemein Dchaft . وتقوم الحركة من الوجهة النظامية على المزج بين الدولة والحزب والشعب واعتبارها أسماء ثلاثة لمسمى واحد ؛ متعارضة بذلك كل التعارض مع النظام الديموقراطى الحر الذى يقوم على فكرة الفرد والدولة ، ويفرق بينهما أتم تفريق . ويرى مسيو بيجه أن الحركة الهتلرية رغم قوتها الحاضرة ، تحمل عناصر فنائها ، وأن هذا الفناء ليس بعيد الحدوث

كتاب جديد عن الملكة فكتوريا

صدر أخيراً بالانكليزية كتاب عن الملكة فيكتوريا بقلم الكاتب والمؤرخ الانكليزى ا . بنسون . ومع أنه يقع فى مجلد واحد ، فقد ألم بحياة الملكة العظيمة إلماماً قوياً ، ويستند مستر بنسون فى معظم آرائه على خطابات الملكة ذاتها ، ولاسيما فى أعوامها الأخيرة . وهو لا يعنى بتحرى الصور الشائقة أو المثيرة ، ولكنه يسير فى بحثه بهدوء واتزان ، ويحلل أخلاق الملكة وموقفها من الشخصيات الكبيرة التى كانت تعمل معها ، ومما يدلل عليه مستر بنسون أن الملكة ڤيكتوريا أبدت مواهبها العظيمة فى عصر متقدم جداً ، فرسائلها وهى فى الثالثة عشرة لا تختلف كثيراً عن رسائلها وهى فى الخمسين من حيث القوة والاتزان وحسن التدليل ، ومما هو جدير بالذكر ما يعرضه مستر بنسون عن معركة الملكة فكتوريا مع وزيرها الشهير جلادستون ، فقد كانت ثمة بين الشخصيتين العظيمتين معركة ملأت أيام الملكة الأخيرة ، وكان الحق فيها فى جانب الوزير ، ولكن الملكة صمدت فيها إلى النهاية



المنصـــور Almansor

للشاعر الألمانى هاينرخ هاينه Heinrich Heine

نقلها عن الألمانية

الدكتور زكى محمد حسن

الأمين العلمى لدار الآثار العربية

هاينرخ هاينه شاعر غنائى وكاتب ألمانى ولد من أبوين يهوديين بدسلدورف سنة ١٧٩٧ ودرس الحقوق ولكنه هجرها إلى الأدب وذاع صيته فيه سنة ١٨٢٦ وسنة ١٨٢٧ حين ظهر كتابه « صور رحلة Reisebilder » عن طوافه فى ألمانيا ، وما لبث أن نشر أحسن شعره فى ديوان سماه كتاب الأغانى Buch der Lieder قابله القراء فى ألمانيا بحماسة تفوق الوصف

واعتنق هاينه الدين المسيحى سنة ١٨٢٥ ، ولكنه كان فى الحقيقة متشككاً فى كل شىء ، إباحيا جد الأباحة ، مستهتراً كل الاستهتار . وفى سنة ١٨٣٠ هاجر هاينه إلى باريس فاستوطنها واشتهر فى أنديتها الأدبية حتى توفى سنة ١٨٥١ بعد أن أقعده الشلل فى أواخر حياته

وظل الألمان يعدونه من أكابر كتابهم وشعرائهم حتى كان الانقلاب الأخير ، فنمى المتلرنون عليه أصله اليهودى فانقلبوا على ذكراه وهدموا ما أقيم له فى ألمانيا من أنصاب وتماثيل

وامتاز هاينه بأسلوبه التهكمى اللاذع ووصفه الدقيق المشرق ، بيد أن أهم ما خلد ذكراه حتى الآن وسوف يخلدها طويلاً إنما هى أغانيه فى ديوانه الذى أشرنا إليه ؛ وانا ننقل منه إلى العربية القصيدة الآتية التى يعجب الألمان بها كثيراً على الرغم من تعريضه فيها بالمسيحية قال :

فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة
تقف أعمدة ثلثمائة وألف ،
ثلثمائة وألف من الأعمدة الشاهقة تحمل القبة العظيمة الضخمة

وعلى الأعمدة والقبة والجدران تجرى وتنحدر فى كل اتجاه
آيات القرآن العربيـــة فى حروف مشبكة مزهرة مزخرفة

قديماً بنى ملوك العرب هـذا البيت تمجيداً لذكر الله ،
بيد أن أشياء كثيرة قد تغيرت فى هذا الدهر ذى الأحداث الظالمة !

فعلى المنارة حيث كان المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة ،
ترسل الآن أجراس المسيحية رنين دقاتها الحزينة

وعلى المنبر حيث كان المؤمنون يرتلون كلام النبى ،
يعرض الآن القسس الصغار الصلع أعاجيب قدامهم المضجر !

وهناك دوران والتفاف ، حول نساء كالعرائس المنقوشة بالألوان المختلفة ، وهناك ثغاء وتبخر وأصوات نواقيس ،
بينما الشموع الغبية ترسل أضواءها

فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة ، يقف المنصور بن عبد الله
يتأمل الأعمدة فى سكون ، ويغمغم بالكلمات الآتية :

إيه أيتها الأعمدة القوية الجبارة
التى ازينت ذات يوم تعظيما لله
ها أنت ذى الآن مضطرة إلى أن تقدمى للمسيحية المشنوءة
فروض الطاعة فى ذلة وخنوع

أنت على ممر العصور ترضين وتقنعين ،
وأنت تحملين العبء بصبر واستسلام ،
فكان جديراً بمن هو أضعف منك أن يكون أسهل انقياداً
وأسرع خضوعاً

ثم يطأطئ المنصور بن عبد الله رأسه ذا الوجه الطلق فوق
حوض المعمودية المزخرف فى الكنيسة الكبيرة بقرطبة !

***

وهرول المنصور من الكنيسة مسرعا ،
فامتطى جواداً عتيقاً جموحاً انطلق به ،
حتى صارت خصـــلات شعره المبللة
وريش قبعتـه تهتز فى الريح

فى الطريق الى القليمة [1] على ضفة الوادى الكبير
حيث تزهر شجيرات اللوز وشجيرات البرتقال ذات
الرائحة الزكية

هناك يسير الفارس المرح وهو يصفر ويغنى ويضحك
والطيور تشاركه فى شدوه
وخرير النهر يتابعه فى طربه

وفى قصر القليمة تقطن « كلارا دى الفارس »
ووالدها يحارب فى نافار ،
فهى تتمتع بحرية أوسع وأمنة أوفر

ويسمع المنصور على بعد أصوات الدفوف والطبول ،
ويرى أضواء القصر تتلألأ بين الأشجار والحقول

فى قصر القليمة ترقص اثنتا عشرة سيدة بثيابهن المزركشة ،
ويرقص اثنا عشر فارساً بحللهم المطرزة
ولكن أجلهم رقصاً وسمتا هو المنصور بن عبد الله !

كأن له جناحين من البهجة والسرور !
فهو يرفرف فى القاعة هنا وهناك !
وهو يعرف كيف يقول لكل حسناء ،
عبارات الملق والغزل والاطراء

فيدا « إزابلا » الجميلتان يقبلهما بشغف ، ثم يقفز مسرعاً
ويجلس إزاء « الفيرا » فيقبل عليها بوجه الفرح

وهو يسأل « ليونورا » ضاحكاً :
هل كانت تحبه اليوم ؟
وهو يريها الصليب الذهبى المطرز فى معطفه !

وهو يؤكد لكل سيدة أن صورتها مرسومة فى قلبه
مقسماً ثلاثين مرة فى تلك الليلة « ما أنا مسيحى ! »

* * *

فى قصر القليمة انتهى المرح وساد السكون
واختفى الرجال والنساء ، وانطفأت الأنوار

وبقيت دونا كلارا والمنصور وحيدين فى القاعة الكبرى
بينما كان آخر مصباح يبعث بضوئه فى عزلة وانفراد

فعلى المقعد الكبير تجلس السيدة ،
وعلى الكرسى الخشبى يجلس الفارس
ورأســـه الذى أضناه التعب
يســـتريح على ركبتى حبيبته

وتصب دونا كلارا باحتراس وهى تفكر
عطرا من قنينة ذهبية فوق خصلات شعره الأسمر
وهو يتنهد من أعماق قلبه

وتطبع وهى غارقة فى لجة التفكير قبلة حلوة من فم رقيق
على خصلات شعره الأسمر
فتعلو السحب جبهته

عبرات من عيون مضيئة
تسكبها الحسناء وهى تفكر
على خصلات شعره الأسمر
فيقبض سريعاً على شفتيه

ويحلم المنصور كأنه يقف ثانية مطأطىء الرأس والجبين
فى كنيسة قرطبة الكبيرة
يسمع كثيراً من الأصوات العميقة

وكل الأعمدة الشاهقة يسمعها تتمتم محتجة متضجرة
فهى لا تريد أن تحتمل أكثر من هذا
وهى تميل وترتعد

وهى تتهدم منزجرة ، ويكفهر الشمع والقسس
وتهوى القبة فى صوت عظيم
وتولول آلهة المسيحية

زكى محمد حسن

(١) ضاحية من ضواحى قرطبة غير مسكونة الآن



الكتب

١ — حياة محمد : للدكتور محمد حسين هيكل

٢ — قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث

للأستاذ جمال الدين القاسمي

للأستاذ محمد بك كرد علي

عضو مجمع اللغة العربية الملكي

— ١ —

مؤلف « حياة محمد » أشهر من أن يعرف ، برع في تصوير الرجال وآخر ما كتبه سيرة أعظم رجل قام في الأرض ، سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام . وقد وضع الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي مقدمة الكتاب وأبدع ؛ وكاد الاجماع يتم على استحسان ما كتب المؤلف الذي قال إنه توخى الأسلوب العلمي الجديد ، وما خلا كلامه من خطابيات تكررت معانيها ، تخرج السفر عن الرسم الذي وضعه له صانعه أحياناً . ووقع له غير مرة أن مثل لبعض الظواهر في التاريخ المحمدي بحوادث عصرية لا دخل لها في الموضوع ، فقد مثل في قصة زينب بنت جحش بمدام ركامييه (ص ٢٩١) ولا معنى لهذا الاستطراد

وأحسن المؤلف في تعليل بعض حوادث السيرة مما كان يتخذ منه من لا يقول بالاسلام سلاحاً يحاربه به على غير هدى ، على حين اختلف أحبار الأمة في توجيهه ، ومن ذلك مسألة تعدد زوجات الرسول . ووقع له (ص ١٦٦) في الكلام على بيعة العقبة أن وجه صيغة بيعة النساء إلى الرجال ، والآية الكريمة صريحة في أن الخطاب للنساء ، ولذلك سميت بيعة النساء (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى « ولا يعصينك في معروف » قال إنما هو شرط شرطه الله تعالى للنساء ، ومعنى لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن أي بولد ملقوط ينسبنه إلى الزوج فان الأم إذا وضعت الولد سقط بين يديها ورجليها

وقد تابع بعض المؤرخين في دعوى أن الرسول اجتمع بَحيرا الراهب في بُصرى (ص ٧٦) وأنه عليه السلام اتصل في رحلته الثانية إلى الشام « بنصرانية الشام وتحدث إلى رهبانها وأحبارها وتحدث اليه الراهب نسطور وسمع منه » ، وهذه الرواية في اجتماع الرسول ببحيرا ونسطور لا تستند إلى أصل تاريخي صحيح ، ولذلك أوردها ابن كثير في البداية والنهاية بصيغة الشك فقال : « زعموا » ولم يرد ذكر لبحيرا في كتب السريان ؛ ومعنى بحيرا بالآرامية « المختار » ، والذي يعنينا أن بحيرا اختلف الناس فيه : فمن قائل على ما في الروض الأنُف أنه كان حبراً من يهود تيماء ، ومن قائل على ما ورد في المسعودي أنه كان من عبد القيس واسمه سرجيس ؟ وفي سيرة ابن هشام أن بحيرا كان اليه علم أهل النصرانية ؛ ويقول ابن الجوزي في عيون التاريخ والسير إن أبا طالب لما ارتحل بالرسول تاجراً قِبَل الشام نزل تيماء فرآه حبر من اليهود ، ويقال إنه بحيرا الراهب ، فقال : من هذا الغلام معك ؟ قال : هو ابن أخي ، قال : أشفيق عليه أنت ؟ قال : نعم ، قال : فوالله لئن قدمت به الشام ليقتلنه اليهود . ويقول ابن كثير إن الذي يظهر من سياق قصة الراهب أنه كان راهباً نصرانياً . ويقول الزهري إنه كان حبراً من أحبار يهود . واختلفوا في عمر الرسول يومئذ ، فمنهم من قال إنه كان في الرحلة الأولى ابن سبع سنين ، ومنهم من ادعى أنه كان ابن اثنتي عشرة سنة لما وافى بصرى في رواية ، أو تيماء في أخرى . ويقول ابن سعد في الطبقات إن بحيرا قال لأبي طالب : احتفظ بهذا الغلام ولا تذهب به الى الشام ، إن اليهود حسد وإني أخشاهم عليه . وتناقض هذه

الروايات فى دين الراهب بحيرا أكان نصرانياً أم يهودياً ، وتناقض الرواة في محل هذا الاجتماع : هل كان فى تيماء أو فى بصرى من أرض الشام يوقع الشك فى أمرها ، وكذلك الحال فى الرحلة الثانية واجتماع الرسول بنسطور . والجواب لمن يريدون أن يتخذوا من هـذه الرواية سنداً ليقولوا إن الرهبان كانوا يعرفون أنه سيظهر من العرب رسول تختم به الرسل ويدعو الناس إلى التوحيد ؛ الجواب إن ذلك لا يتعلق به أمر كبير فى إثبات نبوة الرسول ؛ والجواب على أعداء دين الرسـول من أنه أخذ عن هـذه الرهابين أن ابن سبع سنين أو اثنتى عشرة وهو عابر سبيل مع أهله لايعرف الأخذ عن أحد ، والرحلة الثانية الى الشام لم تتجاوز مدتها شهرين فى أصح الروايات جيئة وذهاباً ، ونسطور هذا مجهول الهوية والمكان

وأهم ما فات المؤلف كونه لم يذكر أن المسلمين قوى أمرهم أول الاسلام باسلام عمر بن الخطاب ، وأنهم أخذوا يدعون الى دينهم جهرة وكانوا يدعون اليه على تقية ، ويصلون فى دار الأرقم خائفين يترقبون أعداءهم من قريش ، فأصبحوا يطوفون فى الكعبة ظاهرين .

— ٢ —

يقول صاحب كشف الظنون إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالم عاقل إلا فيها ، وهى : إما شىء لم يسبق اليه فيخترعه ، أو شىء ناقص يتممه ، أو شىء مغلق يشرحه ، أو شىء طويل يختصره ، دون أن يخل بشىء من معانيه ، أو شىء متفرق يجمعه ، أو شىء مختلط يرتبه ، أو شىء أخطأ فيه مصنفه فيصلحه . قال : وينبغى لكل مؤلف كتاب فى فن قد سبق اليـه ألا يخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شىء كان معضلاً ، أو جمعه إن كان مفرقاً ، أو شرحه إن كان غامضاً ، أو حسن نظم وتأليف ، أو اسقاط حشو وتطويل اهـ

وكتاب قواعد التحديث بأسلوبه فى التأليف ينطبق عليه شرط الجمع فقط ، جمعه مؤلفه من مظان كثيرة لعلماء ثقات فى علوم الحديث ونسقه وجوّد النقل ، ولا يكاد يثبت له فكراً ولا يرجح قولاً . فقد نقل فى أول كتابه نحو مائة صفحة (الكتاب فى أربعمائة صفحة) من أقوال القدماء ، ثم أثبت له رأياً واحداً سُبق اليـه (ص ١٠١) رجح فيه رأى الجلال الدوانى على رأى الشهاب الخفاجى فى عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت فى شىء من الترغيب والفضائل

قدم الناشر للكتاب أربع مقدمات ، ثلاثة لثلاثة من الأساتذة المعاصرين ورابعة للمؤلف ، استغرقت كلها أكثر من عشرين صفحة ، وما خرج الكلام فى بعضها عن الدعاية والتمجيد . قلنا إن المؤلف اقتصر على نقل كلام غيره من أول الكتاب الى آخره ، ينقل عمن يروقه كلامهم من المحدثين وغيرهم ، كما أخذ عن بعض المتصوفة ومجدّديهم ، وربما استشهد ببعض أقوال المعاصرين ونقل عن مجلات غاضاً عن ذكر أسمائها ترفعاً على ما يظهر

وكأن هذا السفر كان مجموعة من مفكرات يريد واضعها أن يضع كتاباً فى هذا الفن ويقتبس أقوال المؤلفين الذين درجوا ثم بدا لبعضهم نشر هذه المفكرات فى صورة مؤلَّف . وكانت طريقة التأليف فى عهود الارتقاء العلمى أن يأتى كلام المؤلف أكثر من شواهده ، ولما ضعفت ملكة التأليف بعد عهد السيوطى أصبحت التأليفات عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وقل أن تجد فيها جديداً للمؤلف ، وربما كان الشيخ القاسمى رحمه الله ، وهو من العلماء النورين المكثرين من التأليف على هذه الطريقة فى الجمع والنقل آخر من جرى على تلك الطريقة فاكتفى فى أكثر تآليفه ببسط آراء غيره

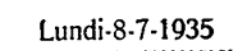
أما طريقة التأليف اليوم فالايجاز من دون اخلال بالمعانى ، وادماج آراء المتقدمين خلال تقرير المسائل ، وإذا وقع للمؤلف بعض آراء متشابهة أشار اليها جملة واحدة ، حتى لا يضيع على القارئ وقته وتملأ صفحات بلا داع . وعلى هـذه الطريقة جرى المعاصرون من المصريين وغيرهم ممن كتبوا فى موضوعات اسلامية أو عربية ، تمثلوا ما وضعوه من المباحث أولا ثم كتبوه فى صحف لتنشر ، مقتصرين على لباب ما قرأوا فى موضوعهم ، عازين ما لابد من عزوه لأصحابه تدعيماً لأقوالهم من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ، فجاءت مصنفاتهم كالسبيكة الذهبية ، لاخلل فى تضاعيفها ولا شقوق ؛ وهم اذا اقتبسوا اقتصروا على محل الشاهد ، وأعرضوا عن باقى ما قال المقتبس منه ، لأن الكتاب ليس بكثرة أوراقه ، بل بما حوى بين دفتيه ؛ وكم من كتب للسلف وفت ورقاتها المعدودة بأكثر مما تفى المجلدات . وقد رأينا الكتب المنقحة عاشت أكثر من الكتب المطولة المنتشرة ولكل عصر ذوقه وطريقته

محمد كرد على

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة الثالثة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة الثالثة

3 me Année, No. 105.


Lundi-8-7-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

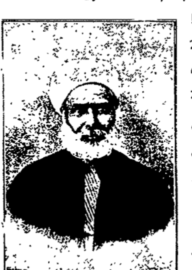
العــــدد ١٠٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ٨ يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

الميت الذى لا يموت

الشيخ محمد عبده

بمناسبة ذكراه الثلاثين



« عجب عجيب ! ! شيخ يلبس حُلة مقطوعة الكم ، ضيقة الرُّدن، مُبنَّقة الجيب ، ويعتم على طربوش كطرابيش الأفندية ، وينتعل حذاء كأحذية الفرنجة ، ثم يتكلم الفرنسية، ويصاحب الخواجات ، ويغشى بلاد الكفر ، ويترجم كتب أوربا ، ويأخذ عن جمال الدين ، ويدرس المنطق على رغم ابن الصلاح ، ويريد أن يُدخل فى الأزهر علوم المدارس ، ويشتغل بالأدب ، وينشئ المقالات



للصحف ؛ ثم يحرم « الدوسة » ، وينكر الوسيلة ، ويحلل الموقوذة ، ويسوغ لبس القبعة ، ويجيز الربا فى صناديق التوفير ، ويحاول الاجتهاد ، ويفسر القرآن على غير طريق السلف... ! !

نعوذ بالله من شر هذه المحنة وعواقب هذه الفتنة ، ونسأله أن يقبضها على منهج السنة وعقيدة الجماعة . . . . »

هكذا كان يقول جمهور « العلماء » فى صحن الأزهر حين انبلج نور الاصلاح من جبين محمد عبده ، كما كان يقول مشركو قريش فى فناء الكعبة حين انبثق نور الهدى من غرة محمد رسول الله ! لأن دعوة الدين لجأت الكعبة على دنيا مقلوبة الأوضاع ، فى الأخلاق والطباع ، فقال الناس حين رأوا رجلا رأسه فى السماء ورءوسهم فى الأرض : انظروا كيف يريد أن يبدل نظام الكون و يغير خلق الله ؟! ولأن دعوة الاصلاح باغتت الأزهر على سكون كذهول البله ، وخمود كغشية الموت ، واستغراق كخدر الأفيون ، من طول ما تنكرت له الاحداث ، وطفت عليه البدع ، وعشت فيه الجهالة ، فارتد إلى مثل تكايا الصوفية ، أو صوامع الرهبان ، يقطع أهله عن الناس ، ويجرى بهم إلى الخلف ، ويعيش معهم فى الماضى ، ويجعل المثل الأعلى لرجل الدين أن يتوفر على مسائل الفقه ، ويتقيد بآراء السلف ، ويتعبد بألفاظ الموتى ؛ فلما نبههم الامام إلى أن الدين للدنيا ، والعلم للعمل ، والعلماء إنما يخلفون الأنبياء ليظل أثر الدعوة شديداً ، وحبل الدين جديداً ، وخلافة الله قائمة ، فتحوا أعينهم على رجل يخالف سمته سمت البيئة ، وزيه زى القوم ، ورأيه رأى الحلقة ، فاستوحشوا من ناحيته وأنكروه ، ثم قالوا معتزلى مبتدع !

* * *

قال الأستاذ الامام وهو ينفض باسما ما حثوه على عطفيه من الظنون والتهم : لا صلاح للدين إلا بصلاح الأزهر ، ولا قيامة للدنيا إلا بقيامة أهله ! ثم استعان على خصومه بالاحسان والنصيحة والصبر حتى آمن من آمن ، وهادن من هادن ، فوضع يمناه فى أيديهم ، ويسراه فى أيدى أولئك الذين فتنهم الغرب فأنغضوا رءوسهم إلى مدنية الاسلام ، وذووا وجوههم عن ثقافة العرب ، يحاول أن يصل بين الثقافتين ، ويوفق بين العقليتين ، ويجعل من هؤلاء وهؤلاء وحدة متسقة الفكر ، متفقة الهوى ، متحدة الغرض ، تؤلف بين الدين والعلم ، وتقرب بين الشرق والغرب ، وتصل بين الماضى والحاضر ؛ فنجح على قدر ما ينجح الأنبياء والمصلحون فى إبان الدعوة ، يهيئون الأرض فى رجف من الخصومة ، ويبذرون البذر فى عصف من المعارضة ، ثم ينفثون فى أتباعهم القليلين المخلصين أرواحهم الخالقة وقواهم الخارقة ، ليكونوا من بعدهم أوصياء على الغراس ، وشهوداً على الناس ، وأدلاء على المحجة

* * *

لا ريب أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المصطفَيْنَ الذين يوضح الله بهم طريق الانسانية من قرن إلى قرن ؛ وأخص ما تميزهم به الطبيعة متانة الخلق ، وصلابة الرجولة ، وشدة الأسر ، وقوة الحيوية ، وحدة الذهن ، وصفاء الملكة . ورث عن أبيه وثاقة التركيب ، وشجاعة القلب ، فشب نابياً على الضعف ، آبياً على السكون ؛ يريد أبوه أن يكون تلميذاً كلداته فى المكتب ، فيأبى هو إلا أن يكون زارعاً كأخوته فى الحقل ! ويرسله أبوه إلى المعهد الأحمدى يطلب العلم ، فيفر منه إلى مدارج السبل يطلب الفلاحة ! لأن حفظة القرآن وحملة الفقه كانوا موضع العطف من القلوب لقلة الكسب وضعف الحيلة ؛ وحيويته تأنف الخمود ، وحريته تأبى القيود ، ورجولته تعاف الشفقة

ثم لجأ إلى الشيخ درويش خال أبيه ، وهو صوفى عالم من أهل البحيرة ، سار فى الأرض حتى بلغ طرابلس الغرب ، فأخذ الشريعة والطريقة على السيد محمد المدنى ؛ والتصوف فى المغرب يقوم على ذكر الله بالاستحضار ، وتلاوة القرآن بالاستذكار ، ورياضة النفس بالتأمل ؛ فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة ، ويلطف حميا شبابه بالذكر ، ويطفئ غليل قلبه بالدرس ، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الأبدى والكمال المطلق

ثم اتصل بالسيد جمال الدين فتولى عقله يثقفه بالمنطق ، ويكمله بالحكمة ويقويه بالملاحظة ؛ فكان لهؤلاء الثلاثة : أبيه مربى جسمه ، وشيخه مربى روحه ، وأستاذه مربى عقله ، أبلغ الأثر فى تكوين صفاته وتوجيه حياته وتبليغ رسالته . . .

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

٥ـ كلمة وكُلَيمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أرادوا مرةً امتحانَ السياسيين فى بلاغة السياسة ، فطرحوا عليهم هذا الموضوع :

سَرَقْتَ حقوقَ أمةٍ ضعيفة ، فاكتب كيف تشكرها على هديَّتها . . .

* * *

عندما يَشربُ الضعفاءُ من السراب الذى تُخَيِّلُه السياسةُ لأعينهم ـ يقدّمون لهم المناديلَ النظيفةَ ليمسحوا أفواهَهم . . .

* * *

لو سُئِلَ السياسىُّ العظيم : أىُّ شىء هو أثقلُ عليك ؟ لقال : إنسانيتى

* * *

قد يُبْطِلُ المنطقُ كل الحجَج إلا اثنتين : حُجَّةَ السياسىّ القوىّ حين يغتصبُ الضعيف ، وأُختها حُجةَ اللص الفاتك حين يُسألُ من أين اشترى ؟ فيقول : اشترت يمينى من شمالى . . . . .

* * *

قالوا . نظم الصَّقرُ قصيدةً من الغَزَل فى عُصفور جميلٍ مُصَبَّغ الريش ، فكان مَطْلَعُها : « ما ألذَّ » ريشك أيها العصفور ! هكذا لغةُ السياسة

* * *

مرَّ فيلسوفٌ برجلٍ مصوِّرٍ بين يديه صورةُ امرأةٍ قد صورها فأكثر عليها الحَلْى من الذهب والجوهر ، فسأله فى ذلك ، فقال المصوِّر : لم أستطع أن أجعلها حسناءَ فجعلتها غنيَّة . . . كذلك أحزابُنا السياسية لما عجزتْ عن حقيقة السياسة جعلتنا أغنى الناس بالكلام الفارغ

* * *

من تمام فضيلة الرجل السياسىّ أن يكون له كلامان : أحدهما سكوتُه

* * *

فى الحب والسياسة ، لا يَبْدأُ الاثمُ إلا كالفلتة المُفْرَدَة ؛ ولكن متى وَقَعَ الشَّاذُّ فى السياسة والحب ، صار هو القاعدة . . . .

* * *

إذا رأيتَ شبابَ أمةٍ يَتَنَبَّلون بالثياب والزينة ، فاعلم أنها أمةُ كَذِبٍ ونفاق : يُغَطُّون الحقيقة الرخيصةَ بالثوب الغالى ، ويكذبون حتى على الأعين

* * *

فضيلةُ الملائكة عند الناس أنهم لا يكابدُون ولا يحْزَنون ؛ أفلا تكونُ فضيلةُ الناس عند الملائكة أنهم يكابدون ويحزنون ؟

* * *

قالت العَشرةُ للأَلْف : أنت سرقتَ منى صِفْرين . . . هكذا رأيتُ غرورَ بعض أدبائنا

* * *

يكْبرُ بعضُ الأدباء من صِغَر المحيطين بهم ؛ قالوا بَعَرَت شاةٌ حولَ قطعةٍ من حَجر ، فنطقتْ بَعْرةٌ فقالت للحجر : يا ما أعظَمَك أيها الجبلُ الشامخ . . .

* * *

يكونُ فى بعض الأدباء من سَخَافة الحِقْد ما لا يكون مثله إلا فى بعض النساء من دناءة الغَيْرة : لو ماتت ضرَّتُها لبقى من ذنبها أنها كانت ضرَّة . . .

* * *

من فَرَضَ على الناس أن يعرفوه نابغةً فقد فَرَضَ عليهم أن يعرفوه معتوهاً أو مغروراً

* * *

إذا أردتَ أن تتكلم عن ميِّت ، فضع نفسك فى موضعه ثم تكلم

* * *

مَن أكثر الشكوى إلى الناس ، علمهم كيف يسمعون كلامه خالياً من الشكوى

* * *

إذا صَدقَ الحبُّ كانت بعضُ اللعَنات فيه أحياناً ضرباً من التَّحايا (غيابياً) . . .

* * *

كلُّ معشوقةٍ هي أعظمُ من عاشقها بحاجته اليها ، ولو كانَ مَلِكا وكانت خادماً ؛ فما أحقر العظَمة أحياناً !

* * *

علمتني التَّجربةُ أنه لا يَحسُنُ استعمال البلاغة مع مجاز النساء ، فانهنَّ يحسبنها غزلاً . . . فمن كَتب لاحداهن فلا يجعلنَّ كتابه متقدِّماً في الأدب بل متقدِّماً في السِّن . . .

* * *

لاتكونُ صورة المرأة أجملَ من الأصل إلا عنـد اثنين : العاشق ، والمصور المُـكْرَه على التزوير . . .

* * *

المرأةُ التي لاتعرفُ كيف تجعلُ كبرياءَها وسيلةَ حُبٍّ ، لاتجعلها إلا وسيلةَ مَقت

* * *

إذا أصبحتَ زوجين يتمني أحدهما موتَ الآخر ، فلن تجدَ لهذا الآخرِ عملاً إلا أن يَغيظَ صاحبه كلَّ يوم بأنه لم يَمُتْ . .

* * *

أعظمُ الشعراء وأعظمُ الفلاسفة من بلغ درجةَ الطِّفل ... في جعل حكمه على الدنيا من الشعور لا من الفكر

* * *

تزولُ صفةُ الجمال عن الحبيب إذا لم يره مُحبُّه متَّصفاً بها ؛ ولكنَّ المشكلة هي : كيف يستطيع أن يراه غيرَ جميل ، وهو كأنما خُلِقَ من أجلِ عينيه خاصَّة ؟

* * *

أيُّهما الذي تحبُّه المرأة ؟ أَلرجـلُ القويُّ بأنواعِ القوة يُعجِبُها فتراه سيِّدَها وسيِّدَ قلبها ، أم الرجلُ الضعيفُ أنواع الضعف ترى نفسها سيِّدَته ؟

هذا هو جوابُ طبيعةِ المرأة على طلب المساواة بين الرجال والنساء

* * *

من سُخْريةِ الحياة بالنابغة العبقريّ ، أنه حين يؤخِّر عملَه من عجز أو ضعف ، يكون هذا هو كل ما يستطيعه النابغة العبقري . . . .

* * *

لو اجتمع الذين ملأوا الدنيا بشهرتهم لما ملأوا داراً صغيرة ؛ كأن منهم ممالكَ للتاريخ كممالك الأرض فلا يتسع إلا لعَدد محدود

* * *

لو كنتُ قاضياً ورُفِعَ إليَّ شابٌّ تجرَّأ على امرأة فمسَّها أو احتكَّ بها أو طاردَها أو أسمعَها ، وتحقَّق عندي أن المرأة كانت سافرةً مدهونةً مصقولةً متعطِّرةً متبرِّجة — لعاقبتُ هذه المرأةَ عقوبتين : إحداها بأنها اعتدَتْ على عفة الشاب ... ، والثانية بأنها خَرقاءُ كشفت اللحمَ للهِر . . . .

* * *

لن يكونَ الالحادُ من العلم ، فأساسُ العلم هو هذا : ما عرَفتَه فقد عرفته ، وما لم تعرفه فلا أقلَّ من أن تقرَّ بأنك لا تعرفه

* * *

إذا كنت قائداً عظيماً في أمة ذليلة فقيرة ، استطعت أن تكون نبياً فيها بنَصْبِ شَنَّاقتَين ؛ وما أسرعَ ما يعتقدون أن الذي معه عِزْرائيل كالذي معه جِبْرائيل . . . .

* * *

ليس المصلحُ من استطاع أن يُفسِدَ عمل التاريخ فهذا سهلٌ مُيَسَّرٌ حتى للحَمْقى ؛ ولكن المصلحَ من لم يستطع التاريخُ أن يُفسد عملَه من بَعْد

* * *

كل أبٍ يضربُ أولادَه المساكين هو نابليون ، ولكنه نابليون داره فقط . . . .

* * *

دَجاجةُ القَفَص امرأةٌ متحجبةٌ في نظر الثَّعلب ؛ وحجابها جهلٌ وحماقةٌ ورَجْعيةٌ وتَخلُّفٌ عن زمن الثعالب . . . .

* * *

هنا مسألةٌ اقتصادية : فهذا مسجدٌ واسع مفتوح لا يؤجَّر بايجار يُنْتَفَع به ؛ وهذه كنيسةٌ قائمةٌ لا تستوفي الدولةُ عليها ضريبة . أفليس الاصلاح أن يحوِّلَ المسجد دارَ صناعةٍ مثلاً ، وتنقلبَ الكنيسةُ مثلاً (خمَّارة) ؟

بلى أيها الحاكم . إن هذا هو إصلاحك الطبيعي ما دام عقلك كيسَ دراهم ، وما دامت بلادك بلاد إفلاس . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

دستور قناة السويس

وهل نسخ ميثاق عصبة الأمم ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ يناير الماضي تجوز السفن الايطالية قناة السويس فى كل يوم تقريباً ، مشحونة بالجند والسلاح والذخيرة فى طريقها الى الارترية والسومال ؛ ولاتخفى ايطاليا الفاشستية بعد أن حشدت قواتها الزاخرة فى شرق أفريقية أنها مصممة على تنفيذ مشروعها الاستعمارى الضخم فى المنطقة الحبشية ، وأنها لاتقبل ثمناً للعدول عن غزو الحبشة أقل من بسط حمايتها الفعلية عليها ؛ أما الحبشة فانها من جانبها تشهد جـلدة متحفزة تلك الأهبة الضخمة التى تنظمها دولة قوية من دول الغرب المتمدن للبطش بها وسحقها من عداد الأمم الحرة ، وزجها إلى حظيرة الأمم المستعبدة بعد أن لبثت آماد التاريخ دولة كاملة السيادة والاستقلال

وهذا المنظر الذى نشهده اليوم هو أحد هذه المناظر العديدة التى شهدها كثير من الأمم الشرقية والافريقية الضعيفة منذ أواخر القرن الماضى ، والتى تعرف فى لغة الاستعمار الأوربى « بافتتاح إفريقية » ؛ منظر الدول الغربية الكبرى تتسابق إلى بسط حمايتها على تلك الأمم ، ثم تتقدم استعمارها واستعبادها خطوة فخطوة باسم المدنية والمصالح الاقتصادية والتهذيب الأوربى

ليس من موضوعنا أن نعرض إلى شىء من نواحى ذلك الصراع الذى سينشب فى القريب العاجل فى شرق إفريقية والذى تخوض فيه الحبشة معركة الحياة والموت ؛ ولكننا نريد أن نعرض إلى مسألة يثيرها هـذا الصراع فى الوقت الحاضر ، هى مسألة قناة السويس ونظامها الدولى فى مثل هذا الظرف ، وسنقتصر فى بحثنا على الشرح الفقهى والتاريخى المحض

* * *

أبدى السير نورمان آنجل الكاتب الانكليزى الكبير ، وأحد أقطاب الدعوة إلى السلام ، رأيه أخيراً بأنه إذا نشبت الحرب بين إيطاليا والحبشة ، فانه لا يجوز أن تبقى قناة السويس مفتوحة فى وجه الفريقين المتنازعين ، بل يجب أن تغلق دونهما ، وألا تمكن السفن الايطالية من المرور فيهـا ، كما أنه يجب ألا تمكن الحبشة من استيراد الذخائر عن طريقها ؛ ويستند السير آنجل فى رأيه إلى أن المعاهدات الدولية التى تكفل حرية الملاحة فى القناة أثناء الحرب والسلم معاً قد نسختها نصوص ميثاق عصبة الأمم

ولبيان ذلك نقول إن النظام الذى تخضع له قناة السويس اليوم هو نظام الحيدة الدولية المطلقة ، وهو النظام الذى كفلته معاهدة ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ التى وقعت فى استانبول بين الباب العالى ، وبريطانيا العظمى ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وفرنسا وإيطاليا ، وأسبانيا ، وهولنده ، وروسيا ؛ ونص فى ديباجتها على أن الغرض من عقدها هو « الاتفاق الحر على نظام نهائى يكفل فى كل الأوقات ولكل الدول حرية الملاحة فى قناة السويس » . وتحتوى المعاهدة على سبع عشرة مادة تنظم شروط الملاحة فى القناة فى أوقات السلم وفى أوقات الحرب

وهذه الحيدة المطلقة للقناة وقت الحرب تنص عليها المادة الرابعة من المعاهدة فيما يأتى : « تبقى القناة مفتوحة وقت الحرب . وقد اتفق المتعاقدون أعلاه على أنه لا تفرض أية ضريبة حربية أو يعمل أى عمل من شأنه أن يخل بحرية الملاحة فى القناة ذاتها أو فى موانى الوصول إليها ، أو فى قطاع من هذه الموانى طوله ثلاثة أميال بحرية ، وهذا حتى لو كانت الدولة العثمانية هى إحدى الدول المتحاربة » . وتنص المادة السادسة من المعاهدة على « أن قناة السويس تبقى مفتوحة فى وقت الحرب شأنها وقت السلم ، لكل سفينة تجارية أو حربية ، لجميع الدول بلا تفريق . . . وتتعهد الدول الموقعة بانها لا تقوم بأى عمل لعرقلة حرية الانتفاع بالقناة وقت الحرب ، مثلما يجب ذلك وقت السلم ؛ ويجب ألا تعرض القناة مطلقاً لمزاولة حق الحصار »

على أنه يحظر على سفن الدول المتحاربة المارة بالقناة وقت الحرب ، بمقتضى نص المادة الرابعة أيضاً ، أن تتزود من المؤن فى القنال أو موانيه إلا بالقدر الضرورى ؛ ويجب عليها أن تخترق القناة بسرعة ، وألا تمكث فى موانى القناة أكثر من أربع وعشرين ساعة ؛ ولا يسمح لها بأن تنزل جنوداً أو ذخائر

إلى البر . ويمكن أن يسمح لسفينتين حربيتين ، كلتاهما بالبقاء في ميناء الوصول ، ولكن لا يسمح لأية سفينة حربية بالبقاء في مياه القناة »

هـذه هي خلاصة النصوص التي يقوم عليها نظام المرور في قناة السويس وقت السلم ووقت الحرب ؛ وما تزال معاهدة سنة ١٨٨٨ هي المرجع والحكم في هذا الشأن ، وإن كانت بعض نصوصها الأخرى قد ألغيت بفعل الظروف والتطورات الدولية . مثال ذلك أنه قد نص في المعاهدة على أن تقوم الحكومة العثمانية باتخاذ ما يجب لتنفيذ المعاهدة ؛ ولكن الدولة العثمانية قد ذهبت واختفت من عالم الوجود ، وفقدت تركيا كل حقوقها القديمة على مصر بمقتضى نصوص معاهدة الصلح (معاهدة سيفر) أولاً ، ثم بمقتضى نصوص معاهدة لوزان (سنة ١٩٢٣) ؛ وهي حقوق يقضي المنطق والقانون بأن تؤول إلى مصر ؛ ولكن مصر لم يعترف لها بهذا الحق ؛ وينص تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ الذي تعترف فيه بريطانيا العظمى باستقلال مصر ، على أن بريطانيا العظمى تحتفظ ضمن المسائل المعلقة بمقتضى التصريح بمسألة المواصلات الامبراطورية ، أو بعبارة أخرى بمسألة قناة السويس ؛ ومن جهة أخرى فقد اختفت بعض الدول الأخرى التي اشتركت في عقد المعاهدة مثل امبراطورية النمسا والمجر وروسيا القيصرية ؛ وفقدت ألمانيا بمقتضى معاهدة الصلح كل حقوقها في مصر وفي جميع المعاهدات التي عقدتها مع مصر ؛ وفيما عدا ذلك فنصوص معاهدة سـنة ١٨٨٨ ما تزال قائمة ، وما تزال إلى اليوم دستور قناة السويس

* * *

والآن لنر إلى أي مدى يمكن أن يتأثر هـذا الدستور الذي يقضي بحرية الملاحة في القناة وقت الحرب ، بنصوص ميثاق عصبة الأمم . وما يشير إليه السير آنجل من أن هذا الميثاق ينسخ دستور القناة نجده في المادة ٢٠ من ميثاق العصبة ؛ وهذا نصها ؛ « يعترف أعضاء العصبة بأن الميثاق الحالي يلغي كل التعهدات أو الاتفاقات الخاصة التي تتعارض مع نصوصه ، وتتعهد بأنها لا تعقد في المستقبل أية معاهدة تتعارض مع هذه النصوص » ؛ ولما كان دستور العصبة يقوم على فكرة السلام العام بين الأمم ، وعلى مبدأ التفاهم والتحكيم في تسوية المنازعات التي تقع بينهما ، فان مثل هـذا الدستور الذي وضع لقناة السويس منذ نحو نصف قرن ، والذي يقضي بأن تسهل حرية المرور في القناة لسفن الدول المتحاربة ، لا يتفق مع الغاية التي تعمل لها عصبة الأمم ، وهي توثيق أواصر السلام بين الأمم ، بل يغدو بالعكس عاملاً في تشجيع الحرب ؛ ومثل هـذه النصوص التي تتعارض مع روح ميثاق العصبة يجب أن تعتبر منسوخة لاغية

ولكنا نجد من جهة أخرى في ميثاق العصبة نصاً آخر ربما كان يناقض هذا الرأي ، فالمادة ٢١ من الميثاق تنص على « أن التعهدات الدولية مثل معاهدات التحكيم والاتفاقات الاقليمية مثل نظرية مونرو ، وهي التي يقصد بها توطيد السلم ، لا تعتبر متعارضة مع أي نص من نصوص هـذا الميثاق » . فاذا اعتبرنا معاهدة سنة ١٨٨٨ داخلة في باب التعهدات الدولية أو في باب الاتفاقات الاقليمية وهو الأرجح ، فان ميثاق العصبة لا يمكن أن يؤثر على نصوص معاهدة سـنة ١٨٨٨ . ونظرية مونرو كما نعلم هي قاعدة السياسة الأمريكية ، وبمقتضاها تعتبر الولايات المتحدة الأمريكتين منطقة نفوذ معنوي خاص ، لا يصح أن تمتد إليها يد أية دولة أوربيـة بالتدخل في شؤونها أو محاولة بسط نفوذها الاستعماري على أي جزء من أجزائها ، وإلا اعتبرت هذه المحاولة عملاً عدائياً موجهاً إلى الولايات المتحدة ذاتها . وكما أن النص هنا صراحة على استثناء نظرية مونرو الأمريكية قد وضع نزولا على رغبة السياسة الأمريكية ، صاحبة الفكرة الأصلية في إنشاء عصبة الأمم ، فكذلك قد يكون النص على استثناء الاتفاقات الاقليمية هنا تحقيقاً لرغبة السياسة البريطانية ؛ وهي قد أصرت على اعتبار قناة السويس منطقة اقليمية تعلق عليها أهمية خاصة أولاً في تصريح فبراير سـنة ١٩٢٢ حيث احتفظت بمسألة المواصلات الامبراطورية ، وثانياً في التبليغ الذي اقترن بهـذا التصريح إلى الدول ، وفيه تعتبر أن التدخل في أمر العلائق المصرية الانكليزية يعتبر عملاً غير ودي بالنسبة لانكلترا

* * *

على أن المعاهدات والنصوص وحدها لا تكفي ، وهنالك الجانب العملي ؛ واحترام هذه النصوص يتوقف دائماً على الظروف والاتجاهات السياسية . فمثلاً حينما قامت الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٤ ، وكانت انكلترا تميل فيها إلى جانب اليابان ، لم تسمح

انكلترا بفتح قناة السويس فى وجه الأسطول الروسى المسافر إلى الشرق الأقصى ، واضطر هذا الأسطول أن يطوف حول إفريقية ، وأن يسير إلى الصين من طريق رأس الرجاء الصالح ، وكان هذا السفر الطويل من عوامل انهاكه وهزيمته بعد ذلك فى موقعة تسوشيما (سنة ١٩٠٥) وخسران روسيا للحرب ، هذا مع أن روسيا إحدى الدول الموقعة على معاهدة سنة ١٨٨٨ كما قدمنا .

وفى الحرب الكبرى لم تحترم حيدة القناة ولم تحل المعاهدة الدولية دون تحصينها واغلاقها فى وجه الدول المعادية لانكلترا ودول الحلفاء ؛ وقد استأثرت انكلترا وحلفاؤها أثناء الحرب باستعمال القناة ؛ ومن جهة أخرى فان ألمانيا وتركيا لم تحترما من جانبهما حيدة القناة ، ونظمتا سنة ١٩١٥ أكثر من هجوم محلى على مصر من جهة القناة ، وضربت شواطئها بالقنابل المخربة ؛ واستمرت طوال الحرب منطقة حربية محضة تستأثر انكلترا بالاشراف عليها

وكذلك لا نستطيع فى الظروف الحاضرة التى يحلق فيها شبح الحرب فى شرق افريقية أن نقف عند المعاهدات والنصوص فى تقدير الدور الذى يمكن أن تؤديه قناة السويس فى اذكاء هذه الحرب أو وقفها ؛ فايطاليا تستعمل القناة بملء الحرية لارسال الجند والذخائر إلى شرق افريقية ؛ فاذا نشبت الحرب بينها وبين الحبشة فماذا يكون شأن القناة ؟ هل تظل مفتوحة أثناء الحرب لمرور الإمداد الايطالية ، أو تغلق فى وجهها ؟ إن معاهدة سنة ١٨٨٨ صريحة كما بينا فى وجوب فتح القناة وضمان حرية الملاحة فيها أثناء الحرب بالنسبة للفريقين المتحاربين ؛ ولكن النصوص وحدها لا تكفى هنا . وكل شىء يتوقف على ظروف العلائق بين انكلترا وإيطاليا ؛ فاذا كانت هذه العلائق مما يسمح بتأييد السياسة البريطانية لمشروع إيطاليا فى غزو الحبشة ، فان القناة ستبقى مفتوحة حرة ؛ وإذا كان لدى السياسة البريطانية ما يحملها على الوقوف فى وجه مشاريع إيطاليا ، فقد تغلق القناة بالاستناد إلى ميثاق عصبة الأمم أو غيره من الأسانيد والنصوص

وعلى أى حال فان المسألة فى منتهى التعقيد والدقة ، وأمرها مرهون بالظروف والمفاجآت التى قد تثيرها الحوادث دون توقع أو تقدير

محمد عبد الله عنان

مات الشيخ بدر الدين !

للأستاذ على الطنطاوى

اليوم انقطعت رواية الحديث :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤساء جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا

أخرجه البخارى ومسلم والترمذى

كان أقل مزايا الشيخ بدر الدين الحسنى أنه يحفظ صحيحى البخارى ومسلم بأسانيدهما ، وموطأ مالك ، ومسند أحمد ، وسنن الترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجة ، ويروى لك منها ماتشاء كأنه ينظر فى كتاب ؛ وأنه يحفظ أسماء رجال الحديث وماقيل فيهم ، وسنى وفاتهم ، ويجيبك عما شئته منها ، وأنه يحفظ عشرين ألف بيت من متون العلوم المختلفة كالألفية والزبد والشاطبية والطيبة الخ ... وأنه ألف نحواً من خمسين مؤلفا قبل أن يتجاوز عمره الثلاثين ؛ وأن له اطلاعا فى كافة العلوم حتى الرياضيات العالية فقد أقرأها لطلاب شعبة الرياضيات فى المدرسة التجهيزية فأدهشهم وأدهش باطلاعه معلميهم ؛ وأنه ما انقطع عن الدرس والتدريس يوما واحداً منذ سبعين سنة على زهادة عجيبة ، وورع نادر ، وترفع عن الدنيا ولذاذاتها مع الغنى الواسع والمال الكثير ، وهو على الجملة آخر علماء السلف الصالح رضى الله عنهم .

مر على دمشق فى هذه السنين العشرين ، من جليل الحوادث وفادح الخطوب ، ما لو مر على الشامخات الرواسى لجعلها دكا ، أو وقع على الجلاميد الصم لصيّرها هباء . فأعدت له الايمان الذى لا تزلزله رزء ، والثبات الذى لا تزيله مصيبة ، وصبرت عليه « صبر العظيم على العظيم » . . . . حتى تعودت مسّ الضرّ ، وألفت قوارع الدهر

« وصارت إن أصابتها » سهام تكسرت النّصال على النصال

وغدا أبناؤها لطول ما رأوا من البلاء ، وما راضوا نفوسهم عليه من الصبر ، لا يألون لمصيبة ، ولا يجزعون لنائبة ، ويهتفون بالزمان كلما تعب من مساءتهم ، فأقلع عن ايذائهم :

إن كان عندك يا زمان مصيبة مما تسوء به الكرام فهاتها

* * *

نكبت دمشقَ الحرب ، فقلّت الأقوات ، حتى أكل الناس

العشب ... وباد الرجال : مَنْ لم يمت منهم برصاص الانكليز والفرنسيين ، ومن لم يمت من الجوع ، مات على مشانق جمال باشا ، حتى لم يبق فى دمشق إلا شيوخ ركّع ، ونساء جُوَّع ، وأطفال رضّع ...

فشيعت دمشق من مات ، وحدبت على من بقى ، ما خارت ولا جزعت ... « وصبرت دمشق » !

ثم كانت « مَيْسلون » فذبح « المُشْروط الأفّاق » ربّ البيت ، واستباح الحِمى ، وأراد أن يمدو على سليلة الشرف ، وبنت الأكرمين ، فصدّته أروع صدّ ، فأتى على الديار فجعلها حصيداً ، كأنْ لم تَغْنَ بالأمس ؛ وعادت دمشق من ميسلون ، فاذا كل شىء قد انهار ، وإذا الدار قواء ، كأنما لم يشد فيها مُلك ، ولم تقم فيها دولة ، ولم يكن لها استقلال ...

فدفنت دمشق بيدها أبناءها ، وأقسمت على قبورهم « القسم الأحمر » وما بكت ولا شكت ... « وصبرت دمشق » !

ثم كانت الثورة ، فهبت دمشق تعلن فى أبنائها بأن قد جاء « الامتحان الأول » فأرونى ماذا حفظتم من الدرس ...

وكان الامتحان فى دقّ الباب (١)

فدقه الأبطال من أبناء دمشق دقاً ضوضى(٢) على جوانب السين ، فثار الناس فزعين يقولون : ماذا ؟

قيل : بردى يشتعل ! ... قالوا : أطفئوه بالنار !

فكانت المعركة بين الماء والنار ... بين الدم والحديد ... فردّ الفتية العُزّل الجيش اللجب ، فوقف سنتين دون نهر تورا لا يجتازه ، وما عرضه بأكثر من « ستة أمتار »

ثم انتهى الامتحان ، فدفنت دمشق أبناءها ، وقامت دمشق المفجوعة على أنقاض دمشق المحرّقة المهدّمة تجدّد القسم ، وكانت ميسلون فصارتا ميسلون والغوطة ...... « وصبرت دمشق » !

ثم كان يوم (٢٠) كانون ، فأعلنت دمشق أن قد جاء الامتحان الثانى ، وكان الامتحان فى فتح الصندوق (١)

فقالت القوة : لا ! وقال الحق : نعم !

فكانت المعركة بين القوة والحق ، فانتصرت نعم ، وكسر الصندوق ، ودفنت دمشق أبناءها ، وجددت القسم ، وصرن ثلاثة : ميسلون والغوطة والمرجة ! « وصبرت دمشق » !

صبرت دمشق ، ولم تجزع ولم تضطرب ، ولم تقلقها هذه الحادثات ولم تبكها ؛ ولكن كلة واحدة سرت أمس فى دمشق ، فتقلقلت لها دمشق واضطربت ، وخفّت منها الأحلام ، وضلّ عنها الصبر ، فلم تعد تطيق صبراً ، فانفجرت تبكى فى نكبة اليوم النكبات كلها !

تلك هى الكلمة الرهيبة : مات الشيخ بدر الدين ....

***

كان الشيخ سرّ قوة دمشق ، تلجأ اليه كلما دهمتها الخطوب ، فتفىء منه إلى جنة وارفة الظلال ، وتفزع اليه كلما حاق بها اليأس ، فتجد عنده الأمل الباسم الذى يشق طريقاً للحياة وسط شعاب الموت ، والثقة بالله التى تسمو بصاحبها حتى يجتاز العقبات كلها طائراً بجناحين من الشجاعة والثبات

وكانت كلمات الشيخ كأنما هى السحر ، ينصب فى أعصاب الشاميين إذ يسمعونها ، فيقدمون لا يهابون شيئاً ، كذلك الذى شرب ماء الحياة فلا يبالى — وهو لن يموت : — أىّ أودية الموت سلك !

وكان الشيخ رمز العصور الذهبية الأولى ، وصفحة حية من تاريخ المجد الاسلامى ، وآية من آيات الله قامت فى هذه الأيام المظلمة لتنيرها بنور الصدر الأول ، كما ينير البدر الليل الداجى بنور الشمس المشرقة ، ولكنّ ذاك بدر الدنيا ، وهذا « بدر الدين » !

وكانت غرفة الشيخ فى دار الحديث حمى قد حماه الله بهيبة العلم ، وحجبه بجلال الاخلاص ، فهى من دمشق الأموية أو العباسية ، أو دمشق صلاح الدين ، لا من دمشق « القرن العشرين » ، وقفت عند عتبتها سطوة جمال باشا ، وقوة الانتداب فلم يجتزها منهما شىء ؛ وكان يجيئها أبداً العتاة الجبارون الذين

(١) قال أمير الشعراء رحمه الله :

« وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق »

فذلك هو الباب ...

(٢) أى كانت له ضوضاء

(١) قيل : هو صندوق الانتخاب

يخشاهم البلد ، ويجرى حكمهم لا يرده أحد ، فكانوا جميعاً من بشاوات وموسيوات . . . يخلعون نعالهم بأيديهم ، ثم يدخلون مطأطئى رءوسهم حتى يجلسوا على ركبهم بين يدى الشيخ ، خاشعة أبصارهم ، ترهقهم ذلة ، ثم لا يتكلمون إلا أن يسألهم ، أو يأذن لهم بالكلام ، وربما أعرض عنهم ، وربما وعظهم أو علمهم ، ولا يقول لهم إلا كلة الحق ، ولا يكلمهم إلا بلسان عالم من دمشق صلاح الدين !

فكان الشاميون حين يرون هذا لا يبالون ، وفى دار الحديث هذا الجيش ، بما كان فى دمشق من جيوش ودبابات وطيارات .. أفليس عجيباً أن هذا الشيخ الهِمّ ابن التسمين ، قد :

سـدّ الطريق على الزما ن وقام فى وجه الخطوب !

* * *

والشيخ لا جرم نسيج وحده فى هـذا العصر ، وهو بقية من المحدثين الأولين الذين ألفوا بسيرهم تاريخ المسلمين العلمى ، أجل تاريخ علمى كتب أو يكتب إلى يوم القيامة . فقـد لبث سبعين سنة ، يشتغل بالدرس والتدريس والتقوى والعبادة ، على خطة معروفة ، وسـنة مألوفة ، ما تبدلت يوماً ولا تغيرت ، إلا لمرض مقعد ، أو أمر قاهر ، أو سفر لازم ؛ وقد بلغ من ثبات الشيخ وحسن ظنه بالله عز وجل انه كان[1] مرّة فى قطار الحجاز فوقف القطار فى عرض البادية لشيء طرأ عليه ، (وقد رأينا هذه البادية فاذا هى رمال ملتهبة ، وشمس محرقة ، ولا شيء سواها) فنزل بعض القوم يصلون ، ونزل الشيخ ، فلما أحرموا بالصلاة وكادوا يركعون ، صفر القطار ، فانفضوا إليه فتعلقوا به وتركوا الشيخ قائماً . وسار القطار ؛ (قال الراوى) فنظرت إليه فلا والله ما التفت ولا تحرك ، فـكدت والله أجَنّ ، وأقبلت على من بيدهم أمر القطار فرجوتهم أن يقفوه فأبوا ، فسقطت على قدمى كبـيرهم حتى لان فأمر بالقطار فتقهقر حتى وقف على الشيخ فاذا هو جالس لم يسَلِّم ، فلما سلم قام فركب ، وما يبالى بانقطاعه فى البادية ، ولا بالموت الذى يحوم حوله ، ما دام قائماً بين يدى رب الأرض والسموات ، ومن بيده الموت والحياة

* * *

لبث سبعين سنة يفيق إذا عَسْعَسَ الليل[1] ، فيصلى ماشاء الله أن يصلى ، فيشمر بلذة العبادة ، ويحس حلاوة الايمان ، ويسمو بنفسه عن الدنيا ولذاذتها حتى يحقرها وتهون عليـه ، فيصبح وهو يطير بنفسه فى سموات الجنان والناس يمشون فى حضيض الأرض

ثم يمضى إلى الجامع الأموى فيصلى الصبح مع الجماعة ، فى مكانه الذى لم ينقطع عنه ثلاثة أرباع القرن ، وربما ثبت عليه أكثر من ذلك ، فقد جاوز رحمه الله التسعين ، فاذا قضيت الصلاة عاد إلى غرفته ، فلبث يقرأ ويقرئ إلى ما بعد الستمة ، إلا أن يكون يوم الجمعة فيجلس للدرس العام يحـدث الناس تحت قبة النسر من الظهر إلى العصر ، لا يسكت ولا يتنحنح ولا يقف ؛ يبدأ بحديث فيرويه مسنداً ، ويستقرئ طرقه كلها ، ويتحدث عن رواته ، ثم يذكر شواهده من الكتاب والسنة ، فلا يروى حديثاً إلا رفعه ، ولا كلة إلا عزاها ، ثم يذكر ما أخذه منه الفقهاء من الأحكام ويوازن بينها ، ويبسط الكلام فيما يتصل بذلك من الفلسفة والتصوف والعلوم ، وكان الشيخ فى الفلسفة الاسلامية منقطع النظير

وطالما حضر هذا الدرس جلة علماء دمشق ومن يزورها من علماء الأقطار ، فخرجوا معجبين مُكْبِرين ؛ وطالما حضره الأطباء والمحامون وأهل الفلسفة والطبيعة ، فخرج كل وقد امتلأ وطابه من وسائل الفن الذى يشتغل به ، أو العلم الذى انقطع إليه

وكان يمضى الدرسان والثلاثة ولم يتمد الشيخ شرح حديث واحد

ولم يكن يردّ سائلاً ، أو طالب علم ؛ وكان يوليه ماشاء من وقته ووجهه ؛ وكان إذا استفتى قال للسائل ، انظر كتاب كذا ، وكتاب كذا ؛ وربما دله على الصفحة التى يجد فيها المسألة ، لا يحب أن يفتيه هو

وكان يصوم الدهر ، فاذا كان المساء أكل ما قدم إليه ، ولم يعرف عنه فى سفر ولا حضر انه اشـتهى طعاماً أو كرهه إلا مرة كان فى سفر ، فقيل له : ما نطبخ ؟ فقال : ما شئتم !

قالوا : عندنا بامياء وفول وعدس . . . .

(١) حدث بهذه القصة رجل كبير كان شاهدها

(١) وذلك قبل السحر

قال : هل قلتم إن عندكم فولاً ؟

ففهموا أنه يشتهيه ، ولم يروعنه فى هـذا الباب أكثر من هذا . ولم يكن يشتم رجلاً أو يتنابه ، ولم يكن يدع أحداً يتناب فى مجلسه ، وكان غاية تأنيبه إذا غضب أن يقول :

— « يابا — وكانت تلك كلمته — لماذا أنتم هكذا ؟ »

* * *

تواضع لله ، فأناله الله رفعة ما أنالها سلطاناً ولا ملكا ، وانصرف عن الدنيا فأقبلت عليه الدنيا ، ودر عليه المال فما مسه ولا مد إليه يداً ، واعتزل الناس ورغب عن الجاه ، فأقبل عليه الناس ، ورغب فيه الجاه ، فما غيره ولا أقام للجاه وزناً ، وابتعد عن الحكام ، فتزلف إليه الحكام ، ووضعوا بين أيديه دنياهم فما حاد عن دينه ولا رزأهم دنيا ، ولا كتمهم نصحاً ...

عاش فكانت حياته أعظم حياة ، ومات فكان موته أفخم موت[1] . وكيف لا يكون فخماً ، وقد كان الشيخ دولة وحده ، وقد كان تاريخاً ، وقد كان مجموعة كاملة من الفضائل كلها ، تأكل وتشرب وتمشي ؟

* * *

رحمك الله يا أيها الامام العالم العظيم ، ورزق دمشق الصبر على فقدك ، وعوض منك المسلمين خيراً ....

وقد كنت بدراً للديانة مشرقاً وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

على الطنطاوى

(١) وكنا على أن نصف الجنازة التى مشى فيها مائة وخمسون ألفاً ، ولم تر دمشق مثلها ، فضاق عنها هذا الفصل ، ولعله لا يضيق إن شاء الله عنها فصل آت .

الشعر الوطنى فى الأندلس

للأستاذ عبد الله كنون الحسنى

كثر الشعر الوطني عند العرب فى العصر الحديث كثرة عظيمة حتى طغى على غيره من الأغراض الشعرية ، فأصبح لا يكاثره غرض آخر منها . وما ذلك إلا لأن البلاد العربية كلها قد مزق الاستعمار شملها ، فأصبح أهلها خاضعين للنير الأجنبي يتشوقون ليوم الحرية تشوق الظمآن للماء البارد ؛ فهم تارة يتغنون بالنصر الباهر الذى يكسبونه فى موقعة ذلك اليوم ، وتارة يستعرضون مواقف المجد والبطولة فى تاريخهم الأدبي والحربى ، فيثيرون بذلك شعور مواطنيهم للسعى إلى تقريب أمد ذلك اليوم الذى تشرق شمس الحرية فيه على ربوعهم فيعود اليها مافقدته من العز والعظمة ، وتارة ينعون على قومهم تخاذلهم وقعودهم عن حرب العدو المغير على أوطانهم ، لافتين أنظارهم إلى ما يسومونهم من الخسف والعذاب ، وما يبتزونه من أموالهم وخيرات بلادهم

وأخيراً ، وعلى هذا المنوال ، تكون الشعر الوطني فى العربية ، وأصبح فى المقام الأول من أغراضه الشعرية ، تخلف بذلك المديح الذى كان يحتل هذا المقام من قبل

ونحن إذا رجعنا إلى ما قبل العصر الحديث من العصور المختلفة وقلبنا تطورات الشعر العربى فى تلك العصور ، لم نجد للشعر الوطنى ذكراً ولا أثراً بين أقسام الشعر ، ولم نعثر على ما يفيد أن هذه الظاهرة التى غلبت على الشعر العربى اليوم أمكنها فى عصر من العصور أو طور من الأطوار أن تظهر ، بله أن تغلب على شعر شاعر من العرب أو من غير العرب فيمن نظم بالعربية ، فتجرف غيرها من الظواهر وتكون هى المسيطرة على كثرة أشعار الشعراء كما هو الحال اليوم . ولذلك لما قال ابن الرومى أبياته المشهورة فى هذا المعنى كانت عنقاء مغرب الشعر الوطنى ، فتداولتها الألسنة وأصبحت مثلاً يضرب فى طبيعة حب الناس لأوطانهم ، وتلك الأبيات هى :

ولى وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

وحبب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكَّرتهم ... عهود الصبا فيها ، فحنوا لذالكا

ولا نعني بالشعر الوطني ما كان من قبيل العواطف المجردة عن المعاني المذكورة كهذا الذي يكثر قوله في بلاد الغربة تشوقاً إلى معاهد الأحباب ومواطن الشباب ، فان هذا قد زخرت به العربية قديماً وحديثاً ، ولم يخل عصر من أعصارها من لدن الجاهلية إلى الآن عن قوله والمكثرين منه . وما أشعار نجد والحجاز والعقيق ورامة وغيرها إلا بعض من كل ، وقُل من جل ، مما يتمثل فيه هذا اللون من الشعر العاطفي أحسن مثال . ولكن ما نعني هو الشعر الوطني بمعناه الشائع الذي يصطبغ بالفكرة السياسية التي ألمنا اليها من قبل ؛ وهذا هو الذي يصح القول فيه أنه وليد التجديد الأدبي في العصر الحديث ، وأنه لم يكن له وجود في العصور المتقدمة التي ازدهرت فيها الآداب العربية سواء في شبه الجزيرة نفسها ، أو فيما اصطنع لغتها من البلدان بعد إشراق نور الإسلام فيها — اللهم إلا هذا القطر الأندلسي الذي عقمت الأيام أن تلد مثله في رقيه وحضارته ، فانه لا بد أن يستثني من العموم

ذلك أن عرب الأندلس الذين تقدموا الزمن بكثير في النضوج العلمي لم يجز أن يتخلفوا عنه في الاحياء الأدبي ، فطلعوا على العالم العربي بالتوشيح الذي لم يستطع التجديد العصري حتى الآن أن يأتي بما يشبهه من حيث التأثير البليغ في تحرير الشعر من قيود البحور والقافية الثقيلة ، وقد حاول المشارقة أن يأتوا بشيء في هذا الصدد فاستظهروا بالدوبيت ، والكان وكان ، والقوما وغيرها ، ولكنه كان شيئاً غريباً عن الذوق العربي غرابة هذه الكلمات في اللغة العربية ، وكذلك قالوا الشعر الوطني وأكثروا منه وتفننوا فيه ، فانفردوا به عن سائر الشعوب العربية ، وسبقوا اليه الأجيال الحديثة ، وكان إحدى مأثُراتهم الجليلة في النهوض بالأدب العربي من وجه عام

ولقد كان باعثهم عليه هو نفس ما بعث إخوانهم اليوم من تكالب دول النصرانية عليهم وإذلالها لهم في عقر بلادهم ، ولذلك لم يوجد في عهد الفتح وعهد الأمويين إذ أمرُ العرب مقبلٌ وشملهم جميع ، وإنما وُجد بعد أن ضعف لسانهم ودالت دولتهم وصاروا يشهدون سقوط ممالكهم الواحدة بعد الأخرى ، وحصون بلادهم في قبضة العدو فلا ترجع اليهم أبداً ؛ وعرفوا الغاية التي اليها يسيرون ، والمصير الذي منه يقتربون ؛ فاشتد رعبهم وهلعت قلوبهم ، فبكوا واشتكوا ونظموا الأشعار الوطنية في تحميس الناس للدفاع عن حقيقتهم والاستماتة في صون كيانهم ، معرضين بما يؤول اليه أمرهم هناك من الذل والاستكانة وطمس معالم الحضارة والدين

ولقائل أن يقول إن مثل هذه الأحوال قد صار في بلاد المشرق ولا سيما في عهود الحروب الصليبية يوم سلبت من الأمبراطورية العربية أثمن درة في تاجها : مصر وبلاد الشام ، ومع ذلك فلم تتفتق قرائح الشعراء هناك بالشعر الوطني ولم يظهر منهم من جال في ذلك الميدان ، فما السبب في ذلك ؟ لعل للعجمة التي كانت قد بدأت تعقل اللسان العربي في ذلك العهد من جراء ظهور سلطان الأعجام في بلاد العرب وضعف الانتاج الأدبي تبعاً لذلك ، تأثيراً مباشراً في عدم ظهور هذا النوع من الشعر في بلاد الشرق وإن وجدت البواعث . على أن هذه الأحوال وإن لم تبعث على قول الشعر الوطني كانت السبب في ظهور فن من فنون الأدب لا يقل خطراً عن الشعر مطلقاً وهو فن القصص ، فان من المعلوم أن كثيراً من هذه القصص الحماسية كعنترة وسيف بن ذي يزن وغيرها إنما وضعت في هذا العهد الصليبي ، وفي مصر بالخصوص ، لتضرب للناس أمثلة من الشجاعة العربية يخلق بهم أن يحتذوها في صد هجمات المغيرين من ذئاب الغرب على بلاد الاسلام ، وهي وإن كانت عامية التأليف تدل على أن المشرق لم يقف واجماً بازاء تلك الحوادث الكبرى وإن لم يهتد إلى الشعر الوطني كما اهتدت اليه الأندلس !

ونقفك الآن على نماذج من الشعر الوطني الأندلسي لترى أنه لا يكاد يتميز عن الشعر العصري الوطني في وصف من الأوصاف . ولا ننقل لك شيئاً من قصيدة صالح بن شريف الرندي في رثاء الأندلس ، وإنما نشير اليها فانها شهيرة لا تخفى على تلاميذ المدارس الابتدائية الاسلامية !

فانظر إلى هذه القطعة للأديب أبي عبد الله الفازازي يصف فيها الفوضى الناشية على بلاد الأندلس وتخاذل أهلها عن الدفاع عنها بل وإعانة الأعيان منهم على خرابها ! ويستشف من الغيب المآل الذي تؤول اليه إن دامت على تلك الحال ، فيسأل الله

تعالى أن يلطف بعباده ويرحمهم :

الرُّوم تضربُ فى البلادِ وتغنمُ … والجورُ يأخذُ مابقى والمغرمُ
والمالُ يورد كله قشـــتالةً … والجند يسقط والرعية تُسْلَمُ
وذوو التعيش ليس فيهم مُسلمٌ … إلا معين فى الفساد مُسَلِّمٌ
أسفى على تلك البلاد وأهلها … الله يلطفُ بالجميع ويرحم

وانظر إلى هــذه القطعة أيضاً لأبى المطرف بن عميرة يقف فيها موقف اليائس البائس يمتنع حتى عن الاستسقاء لبلاده ، ويتساءل فى حزن وحقد كيف يمكن أن يدوم وداده لهذه الديار ، التى ألقت بطاعتها للأغيار :

زدنا عن النائين عن أوطانهم … وإن اشترکنا فى الصبابة والجوى
أنا وجدناهم قد استسقوا لها … من بعد ماشطّت بهم عنها النوى
وبصــدنا عن ذاك فى أوطاننا … مع حبها، الشِّركُ الذى فيها ثوى
حسداً لطاعتها استقامت بعدنا … لعدونا ، أفيستقيم لها الهوى ؟

وله أيضاً يشير إلى انتقاله من بلد إلى بلد لاستيلاء العدو على البلاد واحدة فواحدة ، من قصيدة طويلة :

كفى حزناً أنـّا كأهل مُحَصَّبٍ … بكل طريق قـد نفرنا وننفر

واستمع إلى هذين البيتين اللذين قيلا فى أهل بلنسية ، وما أكثر انطباقهما علينا اليوم :

لبس الحديدَ إلى الوغى ولبستمُ … حلل الحرير عليكمو ألوانا
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها … لولم يكن ببَصَرْنَةٍ ما كانا!..

ولابن الأبار من قصيدة طويلة يخاطب بها السلطان أبا زكريا ابن أبى جعفر صاحب أفريقية :

أدرك بخيلك خيلِ الله أندلسا … إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست … فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً … للحادثات وأمسى جدّها تعسا
فى كل شــارقة إلمام بارقة … يعود مأتمها عند العدا عُرُسا
بالمساجد عادت للعدا بِيَعاً … وللنــداء غدا أثناءها جرسا
لهفى عليها إلى استرجاع فائتها … مدارساً للمثانى أصبحت دُرُسا

وقصائد الاستنجاد بملوك العدوة كثيرة ، يستدعى إيرادُها أو الاشارة اليها فصولاً ، ولـكن لا بأس بإيراد شىء من قصيدة فى هــذا المعنى لابراهيم بن سهل الاسرائيلى ، وهى كافية للدلالة على قوة العاطفة الوطنية عند أهل الأندلس ، لأن هــذا الجنس من الناس ملموزٌ بضعف هذه العاطفة ، فصدور هذه القصيدة عن فرد منه دليل على ما قلنا :

وِرْداً فمضمونٌ نجاح المصدر … هى عزة الدنيا وفوز المحشر
يا معشر العرب الذين توارثوا … شيم الحمية كابراً عن أكبرَ
إن الالـه قد اشترى أرواحكم … بيعوا ! وهنيكم وفاء المشترى
أنتم أحقُّ بنصر دين نبيكم … وبكم تمهـد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتـدعموا … ذاك البناء بكل لدنٍ أسمر
لـكم عزائم لو ركبتم بعضها … أغنتكم عن كل طِرف مضمر
الـكفر ممتـد المطامع والهدى … متمسك بذناب عيش أغبر
والخيل تضجر فى المرابط غيرة … ألاَّ تجوس حريم رهط الأصفر
كم نـكروا من معلم ، كم دمَّروا … من معشر ، كم غيروا من مشعر !
كم أبطلوا سنن النبى وعطلوا … من حلية التوحيد صهوة منبر!
أين الحفائظ مالها لم تنبعث ؟ … أين العزائم مالها لا تنبرى ؟
أيهز منكم فارس فى كفــه … سـيفاً ودين محمد لم ينصر ؟

ونختم هذه الـكلمة بتنبيه قومنا إلى تاريخ هــذه الفاجعة العظيمة فان فيها عبرة لمن يعتبر

(طنجة) عبد الله كنونه الحسنى

عمـــل عظيم

للأستاذ محمد بك كرد على

لو كل بلد اسلامى قام بواجبه قيام المسلمين فى مدينة بيروت ثغر الشام ، لاضمحلت الأمية علة العلل فى هذا المجتمع ، ولزاد فى بنيه عدد المتعلمين وأرباب الصنائع ، وعلى تلك النسبة كانت تزيد الثروة والرخاء ، ولنجا المسلمون من مشاكل كثيرة ، ورثوا مما يتهمهم به أعداؤهم من أن دينهم لا يفسح لهم مجالاً للنور والثقافة

أسس المسلمون فى بيروت فى سنة ١٢٩٦ ﻫ جمعية دعوها جمعية المقاصد الخيرية الاسـلامية ، وعنيت مدة بتعليم النشء الجديد يومئذ ، ثم طرأت عليها طوارىء شلت حركتها ، ومن أهمها أن الحكومة العثمانية ما كانت تحب استرسال المسلمين فى سبل التعليم ، على حين كانت تتغافل عن المسيحيين يتعلمون فى مدارسهم الطائفية ومدارس المبشرين ما شـاءوا وشاءت دول الاستعمار

ولما انتدبت فرنسا على الديار الشامية بعد الحرب العامة ، كان أول ما فكر فيه المسلمون اعادة جمعية المقاصد الخيرية الملغاة ، خصوصاً وقد رأوا كفة التبشير تقوى ، فهبوا الى التذرع لاحياء جمعيتهم فى سنة ١٣٣٨ ﻫ وأخذوا يجمعون أموالاً ، واستوهبوا أرضاً عظيمة من الأوقاف أقاموا عليها مخازن وحوانيت ومقاهى ، فكان لهم منها بأخَرَة ريع لا يقل عن عشرة آلاف ليرة عثمانية ذهباً فى السنة يدخرون نحو ثلثها مالاً احتياطياً ، ولا يفتأون كل عام يجمعون مبلغاً تنتظم به مالية جمعيتهم

وجعل أولئك العاملون هدفهم الأسمى انشاء مدارس لتربية البنين والبنات ، وتثقيفهم بالثقافة الحديثة التى تنطبق على التعاليم الاسلامية ، واعدادهم ليكونوا عاملين منورين أقوياء فى عقيدتهم الدينية والقومية ؛ وزادوا فى مناهج البنات على مناهج البنين — والعلوم النظرية واحدة فى جميع مدارسهم — دروساً عملية فى تدبير المنزل ، تتناول الطبخ ، والخياطة على اختلاف أنواعها ، والأشغال اليدوية ، والرسم ، والموسيقى ، وتربية الأطفال

أصبح لهذه الجمعية فى مدينة بيروت سبع مدارس للذكور والأناث ، منها مدرستان ثانويتان ، احداهما للصبيان والثانيـة للفتيات ، أُطلق على كل واحدة منهما اسم « كلية » . وقد نجح تلاميذها فى السنة الغابرة نجاحاً باهراً ، وكان فيهم ثلث من نجحوا فى الجمهورية اللبنانية فى احراز شهادة البكلوريا ؛ هذا وبيروت مدينة المدارس ، ومنها ما يردُّ عهد تأسسه الى ستين أو سبعين سـنة . وبلغ مجموع ما فى مدارس البنين والبنات فى بيروت فى سـنة ١٩٣٤ — ٣١٣٠ طالباً وطالبة ؛ وللجمعية عناية فائقة بمدارس رياض الأطفال

ساهم المسلمون على اختلاف درجاتهم فى الثروة فى قيام هذه المدارس ، يمدونها بما تصل اليه أيديهم من المال كل سنة ، وكانت مدارسهم فى هـذه الأزمة الخانقة أقل دور العلم تأثراً بالحالة الاقتصادية والمالية ، ذلك لأن مدارس الجمعية تدار بأيدٍ رشيدة ، لا يسرف فى مالها أيام الرخاء ، ويراعى فى الانفاق العام الحاضر كما تراعى الأعوام المقبلة

ولما رأت الجمعية أن التبشير يسرى بسرعة فى القرى الاسلامية من عمل بيروت هبت لجنة من أعضائها وغيرهم بمعاونة الجمعية نفسها ، وكوَّنت لها رأس مال وبدأت بانشاءِ المدارس فى القرى فى سنة ١٣٤٠ ﻫ فكان لها منها الآن ثنتان وأربعون مدرسـة فيها ما يربو على الألفى طالب وطالبة يتلقون التعليم الابتدائى الصحيح على منهاج التعليم فى الجمعية

ولم تـكتف جمعية المقاصد بما أتت ، بل عمرت لها فى بيروت مستشفى ذا طبقتين يحتوى على اثنتين وثلاثين غرفة ، منها ما هو بمساحة مائة وعشرين ذراعاً مربعاً ، وجهزته بستة وسبعين سريراً ، وبلغ ما أنفق على بنائه ٢,٣١١,١٥٩ غرشاً سورياً أو نحو أربعة آلاف ومائتى جنيه عثمانى ذهباً ، ونشطت المدارس الأهلية الأخرى وعاونتها ، وتولت رجالها مراقبتها وإرشادها ، ورممت بعض المساجد فى الحاضرة والضاحيـة ، ومنحت معاونات لمن يريد التخصص فى مدارس الشرق أو مدارس الغرب ، وعاونت حفظة القرآن وسهلت سبل اتقان حفظه ، كما بسطت يد معونتها للمولعين بالفنون الجميلة إلى غير ذلك

هـذه الأعمال الجليلة قامت بقروش قليلة جمعت من أهل البر والخير جمعها الغُيُر على أبناء دينهم ، فتألف منها رأس مال لا يستهان به ؛ وبهذه الصورة يكافح البيروتيون الأمية ، ويرجعون إلى حظيرة الدين من كانوا على وشـك أن ينسلخوا منه ، وكل

ذلك بمعاونة المستنيرين من المسلمين وفضل رئيس الجمعية عميد بيروت وعين أعيانها عمر بك الداعوق الذى كانت طريقته وطريقة أعوانه أن يعملوا ولا يقولون ، ويبذلون مالهم ووقتهم ولا يمنون ولا يتبجحون

قرت العيون بهذا العمل الخطير الذى كان سداه الاخلاص، ولحمته حب الدين والمدنية ، فدفعت جمعية المقاصد الخيرية أبناء أمتها خطوة إلى الأمام ، وغدا الأمل بالمستقبل أعظم من الماضى ، فى محيط تنفق فيه مدارس التبشير للأميركان والفرنسيين وغيرهم عن سعة ؛ وقلّ فى الشرق الأدنى بلد ظهر فيه نشاط المبشرين ظهوره فى هذه القطعة الصغيرة من الديار الشامية ؛ وقل أن كتب لبلد قاوم المبشرين بمثل سلاحهم كمدينة بيروت . ونعود فنؤكد لو أن كل بلدة حذت حذو النابهين من أبناء بيروت لقضى مع الزمن على الأمية فى المسلمين . وجوهر كل نهضة فى عقول الرجال ، ولا نجاح فى الأعمال لغير المخلصين المثابرين

دمشق محمد كرد على

دولة المماليك فى حكم التاريخ

للأستاذ ظافر الدجانى

لعل تاريخ الشرق الأدنى فى عهد الحكومة الاسلامية أحفل التواريخ بما يملأ على النفس جوانب الفكر والخيال ، ويوحى إليها أبلغ ضروب الحكمة والموعظة ، لأنه كان مسرحاً لظهور بعض الدويلات الاسلامية الغريبة فى نشوئها ومظاهر حكمها ومبلغ تأثيرها فى مجرى تاريخه العام[1] ولعل أغرب هذه الدويلات ، دولة المماليك فى مصر ، التى اختلست من الدهر ما يزيد على خمسين ومائتى سنة ، كان الملوك فيها مالكاً والمغلوب غالباً ، فكان يتخللها من المؤامرات والدس وأهوال الاستبداد مالا نظير له فى تاريخ المجتمع البشرى . على أنها والحق يقال ليست أول محاولات هذه الطائفة البشرية لاغتصاب الحكم والاستبداد به والانتقام من الجنس الانسانى عامة لما ألحقه بها من ضروب الفظاعة والقساوة ، فقد شهد تاريخ رومة الخالد ، قبل ظهور النصرانية ، كثيراً من هذه المحاولات الجامحة التى باءت جميعها بالفشل والخذلان بعد أن روعت العالم وضربت له مثلاً صارماً فيما يستطيعه أبناء المماليك ، بل أبناء كل طائفة مظلومة ، فى ميدان التمرد والانتقاض ومقايضة الجور والأذى الصاع منهما بصاعين . ولعل هذه الدولة كانت أكبر انتصار أحرزته هذه الطائفة ، بل لعلها أروع مظهر لجموح أخلاقها ، وتعدد الخوالج التى كانت تتجاذب نفوسها وتتنازعها إلى مسالك الخير والرجولة وجلائل الأعمال ومفاوز الشر والجريمة والآثام !

فى الحق أن هذه الدولة لعبت دوراً خطيراً على مسرح الحياة السياسية العمرانية فى الشرق الأدنى حتى ليعزى إليها أكبر الفضل فى صدّ هجمة التتر المنبعثة من أعماق المشرق ؛ قال ابن خلدون : « حتى إذا استغرقت الدولة فى الحضارة والترف ، ولبست أثواب البلاء والعجز ، ورميت الدولة بكفرة التتر الذين أزالوا كرسى الخلافة وطمسوا رونق البلاد ، وأدالوا بالكفر عن الايمان بما أخذ أهلها عند الاستغراق فى التنعم والتشاغل فى اللذات والاسترسال فى الترف من تكاسل الهمم ، والقعود عن المفاخرة ، والانسلاخ من جلدة البأس وشعار الرجولة ؛ فكان من لطف الله سبحانه أن تدارك الايمان باحياء رمقه وتلافى شمل المسلمين بالديار المصرية بحفظ نظامه وحماية سياجه بأن بعث لهم من هذه الطائفة التركية وقبائلها العزيزة المتوافرة أمراء حامية وأنصاراً متوافية يجلبون من دار الحرب إلى دار الاسلام فى حقارة الرق»[1] فكانت تنقضى أيام هذه الطائفة فى التنقل من ميدان إلى ميدان ، ومن حصن إلى حصن ، فى مختلف أنحاء سوريا وفلسطين ، وقد اندحر التتر فى أكثر من واقعة واحدة ؛ كواقعة « عين الجالوت » التى كان النصر فيها حليف المسلمين ، فهلك كتبوغا زعيم التتر ، ومزقت جموعه كل ممزق[2] كما هلك خليفته أيضاً وجموعه من بعده ، عند ما حاربهم الملك الظاهر بيبرس ، وردهم على أعقابهم خاسرين متعثرين فى أذيال الهزيمة[3] ، وكانت سوريا فى خلال ذلك

(١) كانت العوامل التى دعت إلى ظهور هذه الدويلات كثيرة منها اضطراب أحوال الشرق السياسية وغلبة الاستبداد على حكامه وملوكه وشيوع بعض الآراء السياسية والدينية وعظم تأثيرها فى نفوس العامة ، وبعض مظاهره الاجتماعية كحياة القصور والحريم ونحو ذلك مما تضيق بذكره هذه الكلمة

(١) تاريخ ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧١
(٢) تاريخ مصر لابن إياس . مصر ١٣١٢ هـ ج ١ ص ٩٧
(٣) المصدر نفسه ص ١٠٩

ميداناً لجهاد هؤلاء المماليك العنيف ضد الحملات الصليبية فامتلأت بجيوشهم وزهرة فرسانهـم ، ومازالوا يذرعون أرضها صعوداً وصـعوداً ، متكاتفين متكالبين حتى انتزعوا السلطة من أيدى الصليبيين ، واستخلصوا منهـم القلاع والحصون ، فافتتح الملك الظاهر بيبرس حصن صمذ وسيس[1] ، وسيس هذه كانت كعبة المجاهدين من أبناء المماليك لأنها مدينـة نصرانية ، فكان أهلها يظاهرون الأرض على جيوش المسلمين

وكان العلويون والحشاشون ، وهم من الباطنية ، أصحاب سلطة ونفوذ ، وكان قد دوخهم هولاكو فى حملته المشهورة ، ودمر حصونهم وقلاعهم[2] فاستأصل أبناء المماليك شأفتهم ، وحرروا سوريا من ربقة مظالمهم فى عهـد الملك الظاهر بيبرس المذكور[3] . وكان الملك الظاهر بيبرس هـذا قد استقدم ابن الخليفة الظاهر بأمر الله آخر خلفاء الدولة العباسية فى بغداد ، فأكرمه وقلّده الخلافة ولقبه « المستنصر بالله » ، فأصبحت القاهرة مركز الخلافة الاسلامية بعد أن كان مركزها بغداد . وبقيت هنالك حتى مقدم العثمانيين[4] . ولـكن الواقع أن سلطة هؤلاء الخلفاء كانت مقيدة لا تعدو أمور الدين والزعامة الدينية . وإنما أكد حاجة المماليك الى هـذه الخلافة الوهميّة رغبتهم فى وسم حكومتهم بطابع دينى شرعى حتى تنهض حجتهم ويستقيم أمرهم بين جماعات المسلمين[5]

وأخيراً لا ينبغى أن ننسى أن هؤلاء المماليك قد خلّفوا كثيراً من الآثار والأبنية التى تشهد لهم بالتقـدم فى فن العمارة وفى الرى والعمران ، فقد شـيدوا المساجد والمدارس والقصور والمستشفيات ، وعمروا القناطر والترع ، وحفروا الخلجان ، ووسعوا الأوقاف من كل ناحية . وكانوا يتبارون فى ذلك حتى عمّر القطر المصرى والبلدان المجاورة التى خضعت لحـكم المماليك بجليل الآثار . فعمر الملك الظاهر الحرم النبوى ، وقبة الصخرة ، وقناطر شبرامنت بالجيزة ، وقلعـة دمشق ، وعمر المدرسة بين القصرين بالقـــاهرة ، وحفر خليج الاسكندرية ، وبنى قرية الظاهرية[1] . وشيد الملك الناصر القصر الـكبير الأبلق ، وعمر الديوان الـكبير والجامع الـكبير الذى بالقلعة ، وعمر المجراة وأجراها من بحر النيل الى القلعة ، وحفر الخليج الناصرى ، وعمر قناطر أم دينار[2]

على أنه مهما قيل فى حسـنات هؤلاء المماليك فثمت ما يقال فى سيئاتهم وفيما خلّفوه من آثار البطش والجور والارهاق ، لخبث سيرتهم وعظيم جورهم ، وغلبة القسوة وشهوة الاستبداد على طبائعهم ، أولئك الذين كانوا فى الأمس عبيداً أرقاء ! فـكان السلطان منهم مستبداً فى أمره لا وازع يكفه عن عمل الموبقات ؛ وكانوا فوق ذلك لا يعرفون « مبدأ الوراثة » فى الحـكم ، فـكان القوى منهم ينتهز الفرص للتفرد بالحـكم والاستبداد بالضعيف ، فـكان ذلك الوقت وقت تشاغل وفرص ، بل وقت مؤامرات تحاك فى الخفاء ، فلا يسلم منها الشعب ، ويصيبه من جرائها كثير من الجور والارهاق . وكانت الضرائب غير مقيدة بقانون أو وازع دينى أو إنسانى ، وإنما كانت تتفاوت فى الزيادة والنقصان حسب الظروف والأحوال ومشيئة السـلطان

ولم تكن مصر مع ما ذكرنا بأسوأ حالاً من سورية وفلسطين ، ولاسيما وأن الأخيرتين كانتا ميـداناً للحروب والمناحرات . وهكذا ضج الناس وعم الفقر ، وانتشر الجهل والبلاء . وكان المجد العربى والعزة العربية والخلق العربى قد امحت جميعها من أذهان العامة ، فأصبح الناس لا يبالون بمن يولونه قيادهم ، ويسلمون له زمام أمورهم ، وإنما يطلبون العدل والانصاف !

وفى وسعنا المضى فى هـذا السبيل القاتم ، ولـكننا نخشى ألاّ يكون فى ذلك فائدة بعد أن دللنا بالقليل على الـكثير ، وهذه كتب التاريخ حافلة بمظاهر الجور بل بمشاهد الفقر والذل التى سادت الشرق العربى فى ظل حكم المماليك

يافه ظافر الدجانى

أ . ع

(١) المصدر نفسه ١٠٤
(٢) تاريخ مصر الحديث ، للمرحوم جورجى زيدان ، مصر ١٨٨٩ م ص ١٨
(٣) دائرة المعارف الاسلامية « مادة المماليك »
(٤) راجع تاريخ ابن إياس المتقدم ج ٣ ص ٩٧ . وتاريخ جودت ترجمة دنا (بيروت ١٣٠٨ هـ) مجلد (١) الخ . . .
(٥) ابن إياس ص ١٠٠ . قال Main فى كتابه المماليك (لنـــدن ١٨٩٦ م) ص ٢١٤ ما ترجمته : « كانت خلافة المماليك مظهراً لا أثر للحياة فيه ، ولـكن خلافة العثمانيين كانت مجرد حلم ! »

(١) ابن اياس ص ١١١ (٢) المصدر نفسه ١٧٥

من مشاهد الشرق

١ ـ طائفة البهرا فى الهند

ومجالسهم فى عدن

بقلم محمد نزيه

منذ عنيت الصحافة المصرية بأنباء الهند ، وهى تذكر عن مكاتبيها فى تلك البلاد النائية جماعة البهرا وشيخ البهرا بكثير من الاجلال والمهابة ، ولقد طالما رأيت مذ شهدت الشيخ ومسست حياة جماعته أيام رحلتى فى الهند أنهما حقيقان بمدة فصول تجمع الى طرافتها فائدة التعريف بجماعة من جماعات الاسلام لها خطرها فى الهند ، على الرغم من أنها قليلة العدد لا يكاد أفرادها يجاوزون الثلثمائة ألف هندى مسلم ، إلا أن التئامهم أرق وسائل التعاون وأجدى أسباب الارتباط قد أغناهم عما يراد بالكثرة من قوة وعتاد

والبهرا طائفة من طوائف الشيعة يطلق عليها فى العربية اسم (الشيعة الداوودية) نسبة الى رئيسها الأول ، وقد كان باليمن ثم انتهى به انهزم الى الهند ، فحط الرحال فى صحبة من أتباعه بمدينة كجرات ، على ساعات بالقطار من (بمبى) . منذ نيف ومائة سنة ، وبمبى إذ ذاك فى عالم الغيب

وإذا كانت جماعات الشيعة قد عرفت بأوضاعها الخاصة وتقاليدها المستقلة فى الدين والاجتماع ، فان شيعة البهرا أو شيعة الداوودية قد عرفت فى جماعات الشيعة نفسها بعقائد وتقاليد تدير حولها سياجاً يفصلها عن غيرها فصلاً تاماً ؛ فهى تعتقد أن المهدى المنتظر سيكون من سلالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وتذهب إلى تخصيص فرع معين من فروع الدوحة النبوية ، على أن المهدى سيكون من ثمره ، أو على أن نبوة المهدى تسكن فيه ؛ وهى إذ كانت لا تعرف موعد ظهور الرسول الجديد ، لا تفتأ تنتظره دون تعجل ولا ملالة ، وتتمثله فى واحد من الأحياء الذين ينتظمهم هذا الفرع المعين ، فاذا حان حينه فقد استخلف على رسالة المهدى وريثاً من أبنائه ، وما تزال أمانة النبوة تتنقل فى صندوقها المقفل من وريث إلى وريث ، ومن عصر إلى عصر ، حتى يتهيأ الزمن لاستقبال هذه النبوة الجديدة ؛ وحتى يرى الله أن قد استفحل الضلال فلا مناص من إنقاذ الدنيا ، فيأمر فاذا بصاحب الصندوق قد فتحه وأصاب فيه عدة النبوة وخاتمها ، وإذ ذاك يظهر المهدى المنتظر . أما هذا الذى تكمن فيه نبوة المهدى ، فيظل نكرة لا يعرف سره من الناس إلا الشيخ الأعلى لجماعة البهرا ، يجتمع به كل ليلة فى خلوة مهيئة بالمسجد الخاص ، وما يزال هـذا أمره حتى يقبل اليوم الذى يسفر فيه للناس

وشيخ البهرا هو همزة الوصل بين المهدى المنتظر وأتباعه ، وهو مستودع سره ومثار نجواه ، يستشيره ويستلهمه ويخرج بتعاليمه على الناس ؛ وأما الطائفة فتنشر الدعوة إلى المهدى المنتظر ، وتبشر بها بأن تزين مبادئها للناس ، وما تزال ماضية فى مهمتها حثيثة السير حيناً ووئيدته حيناً حتى يدخل المسلمون جميعاً فى طائفة البهرا ، يقدسون مذهبها ، ولا يحيدون عن عقائدها

وشيخ البهرا فى العالم هو اليوم مولانا طاهر سيف الدين ، وهو الذى يقيم على جماعتها فى كل بلد توجد بها شيخاً من قبله يأتمرون بأمره وينتهون بنواهيه ـ وقد رأيت أول من رأيت من أولئك الشيوخ ؛ فى عدن ، بعد أن علمت أنه من أجل أهل الاقليم مقاماً ، ومن أرفعهم شأناً ، فاذا رجل يحف به الوقار ، ويتهلل وجهه الذى استتر نصفه خلف لحيته البيضاء ، بالبشاشة والأنس ، حديد البصر ، أخضر الأحداق ، أبيض اللون ، نحيل الجسم بعض النحول ، يستر رأسه بعمامة بيضاء ويبتسم عن سنين أو ثلاث فى فمه ، فقد بلغ بالستين مبلغ الشيوخ — ولعل أبرز ما فى الشيخ لحيته الطويلة ولسانه العربى المبين : أما لحيته فكأنها قطن منق ، يتفرق على صدره خصلاً رقيقة منفوشة ، إن تكلم اهتزت أطرافها ، واتبعت فى اهتزازها حركات فمه ، كأن بين لسانه ولحيته صلة من فضل ومن وقار . وكأنما عاهد الشيخ نفسه على ألا ينطق بغير العربية الفصحى ، فما سمعه

النـاس متكلما إلا بها ، وقد حاسب نفسه على الضمة والفتحة حساباً عسيراً

ولقد كنت فى جملة من دعاهم الشيخ إلى مأدبة عشاء أقامها فى دار البهرا بعدن ، وهى من أفخم دور المدينة وأكثرها أناقة ، تجمع بين منزل الشيخ والمسجد الخاص الذى لا يصلى فيه غير البهرا ، ولا تصح صلواتهم فى سواه . والشرفة الفسيحة التى يستقبل الشيخ فيها زواره ، تحف بها حجرات كثيرة أعدت لشؤون الطائفة ، وقد بنيت هذه الدار على نفقة (البهريين) المقيمين فى عدن ، وعددهم لا يجاوز الألف ، كلهم ملتحون

***

كانت الشرفة الرحيبة التى هيئت ليستقبل الشيخ فيها ضيفه مفروشة بالحصير ، وفى صدرها صفت الوسائد إلى الجدار ، واتكأ على أوسطها صاحب الدار ، ويطلق عليه فى أساليب (البهرا) اسم (الداعى) لأنه أحد هؤلاء الدعاة المديدين الذين يكل الشيخ الأكبر إلى نشاطهم البارع ، وذكائهم الخلاب أمر الدعوة إلى اعتناق هذا المذهب من مذاهب الشيعة فى جهات كثيرة من أنحاء العالم ، فكان الرجل لا ينهض من مجلسه إلا ليستقبل المدعوين من غير جماعة (البهرا) بينما يقبل المدعوون من هـذه الجماعة وفيهم من يدخلون فى وجوه عدن وخير تجارها ، فيقدمون على الشيخ وهو مستـو فى مجلسه ، حتى إذا صار كل منهم قيد خطوة منه انحنى كانحناء المصلى ، وكاد يلمس الأرض بيمينه ، ثم رفعها إلى مفرقه ، وتراجع إثر ذلك إلى مجلسه من المـكان

وطفق الشيخ يتحدث إلى خاصة مدعويه وأقربهم إلى مجلسه ، وهو لا يفتر عن رعاية المدعوين جميعاً ، يقسم بينهم بشاشة محياه ، ويلقى عليهم من نظرات عينيه أشعة تحمل فى حرارتها معانى الشكر والترحيب والرعاية ، وإنك لتنظر إلى هاتين العينين فتلمح فى إشراقهما عواطف الحدب والرفق والاشفاق

اكتمل المدعوون عدا فى أربعة صفوف طوال ثم دار اثنان أو ثلاثة من البهرا بأباريق الماء بين الصفوف يصبون منها على الأيدى ، وفى إثرهم حملة المناشف ، وفى دقائق معدودة غسلت الأيدى جميعاً ، وتهيأ القوم لاستقبال الطعام . وما هى إلا برهة يسيرة حتى مد المتطوعون للعمل من أبناء الطائفة سُمطاً طويلة من قماش أبيض على أديم المـكان ، ثم صفوا فوقها أطباقاً رحيبة من الليف ، وثبتوا على كل طبق قاعدة اسطوانية جوفاء ترفع أخونة الطعام

انتظم المدعوون حول الموائد ، وكنت فى مائدة الشيخ ، فلم نلبث أن توسط خواننا إناء صغير من البلور فيه ملح مجروش يضرب إلى الاحمرار ، ولقد ماثلت جميع الأخونة خواننا فيا عليه ، ولم يعسر على أن أدرك أن لابد للتقاليـد البهرية من نصيب فيما يحتوى عليه هذا الاناء ، ولم أتبين أنه الملح ، وحرك الفضول يدى فتناولت أصابعى حصوات منه ، فلم تـكد تبلغ فمى حتى أحسست كأنما مسنى عقرب

وقال الشيخ فى صوت جهير بعد البدء بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو يضع سبابة يمناه وإبهامها فى الاناء : « ليـكن الملح فاتحة طعامنا حتى يكون بيننا » فاذا الجمع كله يذوقه . . . وجىء بجفان الأرز فكانت تقلب فى الخوان جفنة تلو جفنة حتى اكتظ على سعته ، ثم حملت صحاف الأطعمة إلى الشيخ ، فكان يتناولها ويضعها بين يديه تحت المـائدة ، ثم يتولى سكب ما فيها على الأرز واحدة بعد واحدة ، بين برهة وبرهة ، وهو لا يفتأ يذكر الله ويذكر باسمه كلما فعل ، فأما حرصه على أن يضع الطعام بيديه بين أيدى الطاعمين فلعل سببه أن أبناء طائفته يلتمسون فى ذلك خيراً وبركة . . . بل لقـد خيل إلى أننى أجد ما يلتمسون كلما رأيت الشيخ يخرج مما بينه وبين المائدة صحافاً من الطعام كان يشغلنى ما أنا فيه ، وربما شغل غيرى عن رؤيته وهو يتناولها من الخدم المتطوعين . . . وكأنما كانت بسملته المرتفعة الرهيبة التى تصاحب يديه كلما ارتفعتا وبينهما لون من ألوان الطعام فى طريقه الى الأرز ، توحى إلى الناس أنه يستنبته مما بينه وبين المـائدة ، وكان الطاعمون جميعاً يتناولون الأرز بأصابعهم إلا من طلب الملعقة من خاصة الضيوف

وما إن فرغنا من الطعام حتى عاد الناس إلى مجالسهم صفوفاً وطيف عليهم بأباريق المـاء فغسلوا أيديهم ، ثم بالمناشف فجففوها ، ومرت دقائق معدودة ، ثم أقبل الخدم يمرون بين الصفوف ينثرون عليها ماء الورد ، ويبدون بمده زجاجات من عطر عربى فياح ،

فتمتد الأيدي ، وتنال كل كف حظها منه ، وفي إثر هذا وذاك يمضي حملة البخور في طريقهم وهم يديرون أوانيها حول الرؤوس ثم يدخلونها تحت الأثواب ، فيتصاعد بخار المسك والعود من فتحاتها . . . وثم شيء اسمه (التمبُل) وهو ورقة شجرة هندية تعرف بهذا الاسم ، تطوى على مزيج من توابل مرة المذاق جميلة الرائحة ، يقال إن بينها نوعا مخدرا ، يمر بهذا التمبل بين الصفوف رجال من البهرا ، فيحبون كل مدعو بواحدة إلا من رفض ، فما إن يطبق المرء عليها فكيه حتى تروعه منها مرارة بالغة ، ولقد روعتني أكثر مما روعتني ملوحة الملح ، فتلفت أبحث عن وسيلة للخلاص منها ، ولما لم أجد حشثت أسناني على مضغها حتى أستطيع ازدرادها ، وإن هي إلا دقيقة أو بعضها حتى خفت وطأتها على لساني ، وما فتئت تخف حتى زالت ، وهي تزدرد بعد ذلك فيتعطر بها روائح الأفواه ، وتطيب أنفاسها . وغادرنا دار الشيخ وفي أثوابنا شذى المسك ، والعود ، وفي وجوهنا عبير ماء الورد ، وفي أكفنا نفح الطيب ، بل وفي أفواهنا أريج القرنفل . . . فكأنما لبسنا نسيما رفيفاً من نسائم الجنة ، يمضي في طريقه فيهمس في آذان أهل الأرض عما ينقله عن أهل السماء

* * *

ولقد كان لي مع الشيخ بعد ذلك في مجالس أخر حوار لعله لم يسغه ، ولم يقبل على الاشتراك فيه راضياً ؛ فقد كنت أتبين رغبته عنه في صعوبة خلال أدبه الجم . . . ولكن طالب العلم من السفر حريص على أن يطل بعقله على كل ما عسى أن تراه عيناه ؟

القاهرة محمد ثابت

اعلان من الرسالة

(١) لا تنشر الرسالة إلا ما كتب لها خاصة

(٢) لا تنشر الرســـالة المقالات المسلسلة إلا إذا أرسلت إليها السلسلة كاملة

(٣) لا تنشر الرســـالة قطعة مترجمة ما لم يرسل أصلها معها

وزارة المعارف العمومية

إعلان

تعلن وزارة المعارف أنها ستوفد هذا العام سنة ١٩٣٥ بعثة علمية من أربعة أعضاء للتخصص في اللغة الانجليزية لمدة سنتين بانجلترا وذلك لاعدادهم لتــدريس اللغة الانجليزية بالمدارس الثانوية

ويشترط للترشيح للبعثة المذكورة :

١ — أن يكون المرشح حاصلا على دبلوم المعلمين العليا الأدبية أو معهد التربية العالي

٢ — أن يكون ممن مارسوا التدريس بمدارس الوزارة

٣ — أن يكون حاصلاً على ٦٥ ٪ على الأقل من مجموع درجات امتحان الدبلوم

٤ — أن يجتاز بنجاح امتحان المسابقــة التحريري الذي سيعقد بمدرسة التجارة العليا في الساعة الثامنة من صباح يوم الاثنين ٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ فيما يأتي : الانشاء الانجليزي — مبنى اللغة ومصطلحاتها — الترجمة الى اللغة الانجليزية — وأن يحصل فيه على ٧٠ ٪ على الأقل من النهاية العظمى للدرجات وعلى ٦٠ ٪ على الأقل في كل فرع على حدة

٥ — أن يجتاز اختباراً شفوياً في المطالعة والمحادثة الانجليزية يتبين منه حسن استعداده لمهمة تدريس هذه المادة وأن يحصل فيه على ٧٠ ٪ على الأقل من النهاية العظمى لمجموع الدرجات

وسيراعى في الاختيار نتيجــة الامتحان التحريري والاختبار الشفوي وتقارير حضرات النظار والمفتشين ، فعلى من يرغب في التقدم للالتحاق بهذه البعثة أن يقدم طلباً على الاستمارة المدموغة المعدة لذلك . ويمكن الحصول عليها من مخازن وزارة المعارف بدرب الجماميز بالقاهرة نظير دفع مبلغ ثلاثين مليما . وترسل بعد ملئها مسجلة بطريق البريد إلى حضرة صاحب المعالي رئيس لجنة البعثات بوزارة المعارف على ألا يتأخر ورود الطلبات عن يوم ٢٠ يوليه سنة ١٩٣٥

من ذكريات مصر

ساعات مع الكاظمي

للأستاذ كمال ابراهيم

مات الكاظمي ! فطويت بموته للعبقرية صفحة زاهرة ، كانت سامية المثال ، علوية الروح ، عراقية النشأة ؛ نمت نبتتها متسقة الأصول على دجلة المبارك ، وعلت دوحتها مبسوطة الأفانين على ضفاف النيل السعيد ؛ وما زالت تصوب إلى السماء صعداً حتى اجتاحها للمنيـة اعصار شديد ، فجالدها أعواماً ، وغالبها أياماً ، حتى هوى بها من باسق الذرى إلى الأرض ، حيث النهاية التي لا تراغم . والقدر غير المدفوع

مات الكاظمي ! فسكت لسان عربي مبين ، كان فخر لغة الضاد ، وحادي الأبناء إلى المجـد ، وباعث العزائم في الخطوب السود ؛ وكان لسان العروبة الناطق بحقها في حياتها ، ومخذمها المذرب عند الخصام ، فكم ذاد عن الحسب الكريم ، ونافح عن الحق المهضيم ، وتغنى بالمجد القديم ، يوم لم نكن نجد في هذه الأمة إلا الخافر لذمتها ، والمنتهك لحرمتها ، والكافر بنعمتها ، والمظاهر لأعدائها عليها

والهفتا على العروبة المهضيمة ! لقـد أخرس الردى شاعرها الصيداح ، فاشتملت بالأسى أباطح الحجاز ، وصوحت أزاهير اليمن الخضراء ، وحالت ربى حائل والرياض ، وجلل السواد سواد العراق ، وفاضت عيون النيل ، وجرت باكية معولة عيون الشام ومحاجر لبنان ، ترجع أنغامها الحزينة بنات الهديل بين لفائف الأغصان . .

كان الشعر العربي قد بلغ من الاسفاف الحضيض ، فعدت به عن مجاراة الحياة أثقال تلك الصناعة المقوتة التي حملها اياه شعراء الفترة المظلمة ، وضيقت عليه الخناق تلك القيود المحكمة من زخارف اللفظ وبهارج البديع وأفانين الصناعة ، حتى أخرجته عن طبيعته ، وزاغت به عن سمته ، فجاء متكلفاً نابياً ، وغثاً بالياً وجامداً بغير روح ، لولا ذماء ضعيف يشعر ببقية الحياة . كان الشعر كذلك ، وكانت البيئة الأدبية في العراق متأثرة كل التأثر بشعر (الأخرس ، وصالح التميمي ، والشاوي ، والجبوري ، وأضرابهم) حتى أتاح القدر للشعر من نفخ فيه من روحه ؛ فأطلقه من عقاله ، وأنهضه من كبوته ، وسما به صعداً الى السماء يرف بجناحين من نور ، بعد أن كاد يحثى عليه التراب في حفير مظلم عميق ، وكفى الكاظمي سبقاً أنه بذ المتأخرين ومعظم المتقدمين في ارتجال الشعر من غير كلفة في أي غرض ، تستقيد له شوارد القوافي ببديهة حاضرة ، وذاكرة نادرة ، وحافظة وعيت من شعر الأولين عيونه ، وما أجدر شاعرنا أن يكون لسان حاله ما قال (ابن هانئ الأندلسي) عن نفسه :

ما ضرني إن لم أجئ متقـدما   السبق يعرف آخر المضمار
وإذا اغتديت ربع البلاغة بلقماً   فلرب كنز في أساس جدار

وكما كان الكاظمي السابق في حلبة البيان ، كان كذلك علو كعب في ميدان الجهاد والاصلاح . عُرفت منه هذه النزعة وهو طرير لم يكتهل ، وغرير لم يعجم حوادث الزمان ، فكان صوته في الاصلاح يرن في مجتمعات بغداد ، ولكنه كان قليل العائدة ، حتى قدم الزوراء إذ ذاك رجل الاصلاح المشهور (الشيخ جمال الدين الأفغاني) فوجد شاعرنا فيه ضالته ، فكان من أشياعه ، فضاقت عليه البلاد بما رحبت ، وقذفت به نوى شطون ، شرق فيها وغرب ، حتى احتضنته (مصر) ؛ فألقى بها عصاه

وبوادي النيل الجميـل حيث القوة تصارع الحق ، والظلم يناهض العـدل ، والحرية تنتحب ، يأبى الكاظمي إلا الصدع بالحق ، فيقارع الاستعمار ، ويتغنى بالحرية ، ويشيد بمجد العرب الضائع ، حافزاً للأبناء على استرداد ذلك المجد ؛ وخلصت له في مصر صفوة ممتازة من أعلام البيان وقادة الفكر وزعماء الأمة ، عرفوا له فضله ، فصدقوه الولاء ، وأحلوه السويداء . واستوثقت الصلات بينه وبين (الوفد المصري) فكانا لساناً من ألسنته مشرعاً لا ضد حزب من الأحزاب ، ولكن ضد سياسة الاستعمار فحسب . . .

عرفت الشيخ الكاظمي أول هبوطي مصر (عام ١٩٢٩) فكنت أسأل عنه من أتعرف اليهم ، حتى أرشدني (محرر بالأهرام) إلى داره في (مصر الجديدة) فذهبت اليه في لمة من الاخوان ، جئنا اليه من بلده ، ومسقط رأسه . فما كان أشد ابتهاجه بنا ، وطربه بمقدمنا ، لقد استعاد بتلك الزيارة ذكريات ماضيه حلوة في العراق . فكان رحمه الله يحدثنا عن أيامه تلك بشوق واقبال ليس فوقهما مزيد

وقد كانت داره مصاقبة لدار أستاذنا المرحوم (الشيخ محمد عبد المطلب) وكانت بينهما صلة وثيقة ، وصداقة قل أن تعرف

بين الأصدقاء ، فكنت أقصد (مصر الجديدة) فى الغالب لزيارة الشيخين وتجديد العهد بهما ؛ فأقضى ساعات هى أمتع ما تكون للنفس ، وأشهى ما يلذ للعقل ، ويقرأ عليّ شاعرنا ما استجد له من شعر

ما أنس لا أنس تلك الايام السعيدة التى كنت أخرج فيها مولياً وجهى شطر (هليوبوليس) يحدونى الشوق الى تلك العبقرية الفياضة ، والصفحة النادرة ، والشخصية الفذة ، فأجلس الى الشاعر ، أتلقف من حكمته ، والتقط من درر فوائده وجواهر فرائده ، وشاعرنا محدث كما هو شاعر ، يهدر كالسيل إن أفاض فى الحديث ، يصله ببعضه ، ويزين مجلسه بطرائف الأخبار ، وروائع الحكم ، وأوابد الملح والفاكهات ؛ فلا تكاد تسأم له لهجة ، ولا تمل منه لفتة . وكان - رحمه الله - حريصاً على أن يكشف لنا عن صفحات القضية العربية فى عهدها الأخير ويجردها بغير طلاء ، ويجلو لنا حقائق التاريخ ناصعة غير مموهة ، ويبعث فينا من روحه لمواصلة العمل والجهاد . . .

لقد كان شاعرنا ذخراً لأمته ، ولكنه كان مضاعا تنكر له وطنه الأول كما تنكر له دهره ، وظل وفياً لهذا الوطن يلاحى عنه بمهجته ، على حين لم يجد منه طوال حياته غير الجفاء ونكران الجميل ، ظل وفياً له حتى قضى نحبه . فلما قضى نحبه جئنا بعده نذرف الدمع عليه نادمين . . .

فاذهب كما ذهب الوفاء فانه عصفت به ريحا صبا ودبور

(بغداد) كمال ابراهيم

خريج دار العلوم

تصحيح والتفات نظر

طلعت « الرسالة الغراء » فى (العدد ١٠٣) على قرائها بمقالة ممتعة فى تحليل شخصية الامام المؤرخ (السخاوى) بقلم الأستاذ المؤرخ السيد محمد عبد الله عنان ، فكان من حق الأستاذ علينا أن نشكر له مباحثه الدقيقة ، ومن فرض العلم علينا أن نبين للناس هفوات قلم طامعين بعفوه ، لما اشتهر عنه من سعة علمه وعظيم حلمه

أورد الأستاذ فى آخر مقاله المذكور أن صاحب (شذرات الذهب) يضع وفاة السخاوى (فى مكة) . وهنا سهو من الأستاذ لأن عبارة (شذرات الذهب) هى بحروفها : (وتوفى — بالمدينة — المنورة يوم الأحد الثامن والعشرين من شعبان ، وصلى عليه بعد صلاة صبح يوم الاثنين ووقف بنعشه تجاه الحجرة الشريفة ودفن بالبقيع بجوار مشهد الامام مالك) ج ٨ ص ١٧

فانكشف بهذا النص المفصل الموافق لمحفوظ غير واحد من ثقات المؤرخين أن من أرخ وفاته فى مكة فقد وهم ، وجل من لا يغلط

نزيل القاهرة محمد آل ياسر الخشبة

دراسات فى الادب الانجليزى

المذهب الواقعي وفن الدرامة [1]

بقلم محمد رشاد رشدى

في المسرح الاغريقي : أول ما يتبادر الى ذهن الباحث فى هذا الموضوع أن يُنقّب عن الواقعية فى عناصر الدرامة الثلاثة : فى الموضوع والأشخاص والأسلوب . غير أن نسبة الواقعية فى كل من هذه الأجزاء قد تختلف نظرياً - أى فيما يكتبه نقاد العصر عن الفن المسرحى - عما يباشر عملياً فوق مسرح العصر . ولذلك رأينا من الأوفق فى معالجة هذا الموضوع أن نلقى نظرة سريعة على النقد المسرحى نتبعها بمطابقة هذا النقد للمسرح نفسه . والناقد الوحيد الذى نستطيع الاعتماد عليه فى حديثنا عن المسرح الاغريقى هو أرسطو . .

كتب (أرسطو) فى رسالته عن الشعر يتحدث عن الواقعية فى الموضوع قال : « يتضح مما سبق أن مهمة الشاعر هى أن يصف - لا الشىء الذى حدث - بل الشىء الذى من المحتمل وقوعه - أى ما قد يكون ممكنا أو ضرورياً » . وعلى هذا فوحدة الموضوع إنما تنشأ من مبادئ الواقعية الأساسية ؛ فحوادث القصة يجب أن يتصل بعضها ببعض اتصالاً ممكناً أو ضرورياً تحتمه ظروف القصة نفسها وجوها الخاص بها . وكتب هذا الناقد عن أسلوب القصة المسرحية ، قال : « يمكننا الآن أن نرى أن على الكاتب أن يخفى نفسه حتى يستطيع أن يتحدث طبيعياً لا صناعياً » . ومن الجدير بالذكر هنا أن الأثر الذى يحدثه أسلوب (شكسبير) على المسرح لا يختلف واقعياً عن الأثر الذى يحدثه أسلوب (أوسكار وايلد) — أو (كونجريف) أو (شريدان) أو (برناردشو) . أما عن شخصيات الدرامة فقد قال أرسطو : « من البدهى أن أشخاص القصة إما أن يكونوا أشخاصاً صالحين أو طالحين — ويتبع هذا أن بطل القصة إما أن يكون فوق مستوانا الخلق والاجتماعى ، أو تحت

---

(١) رجعنا فى هذا البحث الى رسالة الأستاذ ا . هـ . دافيز ، التى حاز بها جائزة Le Bas لعام ١٩٣٣ من جامعة كمبردج

هـذا المستوى ـ أو فى نفس المستوى ومثلنا تماماً ـ غير أن من يتأمل الدرامة الاغريقية لا يجد فيها متسعاً لهذا الصنف الثالث من الشخصيات التى هى فى مستوانا ومثلنا تماماً ـ على أن ذلك لا يمنع أن يكون للدرامة الاغريقية الحظ الأوفر من الواقعية ، وأن تكون بعيدة بعداً شاسعاً عن كل ما هو رمزى أو مثالى . وقد يبدو هذا مخالفاً للمألوف ـ غريباً ـ غير أننا سنحاول بسطه وتفصيله

(فالتراجيدية) الاغريقية تعالج فى مجموعها ماضى الاغريق وأساطيرهم ؛ وهى لذلك يمكن أن تعد فى القصة التاريخية ـ ويتضح قولنا هذا إن استطعنا تصوّر جماعة المتفرجين فى مسرح أثينا ، عند ازدهار الدرامة وانتشارها . فقد كان هؤلاء القوم على قسط من البداوة يسمح لهم بأن يعدوا كل ما نظمه الشعراء من قصص الآلهة وأنصاف الآلهة تاريخاً قومياً لبلادهم وشعبهم ؛ وإن ما نراه نحن اليوم غريباً خرافياً فى شعر أولئك الشعراء مثل ظهور الآلهة على المسرح ، أو إنبعاث الأشباح من قبورها ، لم يكن هكذا غريباً أو خرافياً عند الاغريق الأوائل ، بل كان حقيقة تروى وتاريخاً يقص ـ نسبة إلى دينهم وحياتهم وقوة خيالهم الطفل ـ أما أن الدرامة التاريخية هى أقرب أنواع هذا الفن إلى الواقع والحياة فهذا مما لا ريب فيه ـ وقد كتب الناقد الانجليزى (كولريدج) يقول : « لأجل أن تكون الدرامة حقيقة تاريخية يجب أن يعالج موضوعها تاريخ القوم الذين تمثل لهم وتقص عليهم ، ـ ونحن إذا أنعمنا النظر قليلاً وجدنا أن من الصعب أو من المستحيل أن تنشأ لشعب عاطفة وطنية ما لم يكن هـذا الشعب على علم ـ ولو خاطئاً ـ بتاريخه وتاريخ بلده ـ ومن هذا ينتج أنه فى الدرامة التاريخية تكون العلاقة بين حوادث القصة على المسرح وبين المتفرج على مقعده قوية متصلة أقوى منها فى أى نوع آخر من الأدب المسرحى . ومن المشاهد أن الكاتب المسرحى يتوخى ذكر هزائم التاريخ وسقطات الأبطال وفشلهم ، فان هو ذكرها فانما يذكرها معكوسة فلا توحى إلى نفس المتفرج يأساً ولا خيبة ، ولكن تشملها حماسة ووطنية ، وإنا لنذكر حظ الشاعر الأثينى البائس الذى بنى قصته على فشل (أثينا) البحرى فى حربها مع (أسبرطة) ، فكانت النتيجة أن ألزمه قومه بدفع قسط من المال كبير عقاباً له وتأديباً وإظهاراً لاحتجاجهم وسخطهم . فخلال هـذا الشعور الذى تتأجج به نفس المشاهد ، وخلال إحساسه بوحدة بلده وقوميته واتصال ماضيه بحاضره تقوّى حوادث القصة التاريخية على المسرح إحساسه هو بنفسه وكيانه كما يقوّى وجوده هو حقيقة القصة وصحتها ولونها الواقعى . ومهما يكن فى المسرحية التاريخية من شذوذ أو بُعد عن الامكانية فان لونها الواقعى يظل أقوى الألوان جميعاً مادام التاريخ يكسوها ويظلها بظله

غير أن هناك مأخذا واحدا ، هو أن أبطال تلك المسرحية هم دائماً أبداً فوق المستوى الاجتماعى العادى

الدرامة الرومانية : لم تتقدم (التراجيدية) عند الرومان عما كانت عليه عند أسلافهم الأغريق — إن لم تكن قد انحطت وضعفت ؛ أما فى (الكوميدية) فقد كتب الناقد اللاتينى (دوناتُس) ما يدهش له أقطاب المذهب الواقعى الحديث ، قال : « الكوميدى هى مرآة الحياة البشرية » — وهو يذكر فى موضع آخر أن « الكوميدية » تصف أشخاصاً معينين تتكون حياتهم من حوادث بسيطة عادية ، فى حين أن (التراجيدية) تختار لمسرحها قاعات الملوك aulis regis الذين تتكون حياتهم من حوادث جسام ذات أثر خطير . وقد أصبحت مطابقة (الكوميدية) الرومانية للحياة والواقع أمراً مشهوراً عند كل من قرأها ، فأسلوب كاتبيها (تَرِنْس) و (بلَوْتُس) هو أقرب أساليب الآداب القديمة إلى اللغة اليومية ، كما أن جل أبطالها هم من الطبقة الوسطى ، وحوادثها بسيطة عادية قد تقع كثيراً للقارىء أو للمشاهد فى حياته الخاصة

إلى هذا الحد كانت (الكوميدية) الرومانية تطابق الواقع ، غير أنا نشاهد فيها اتجاهاً غريباً يتنافى مع صبغتها الواقعية — وأعنى به (تصنيف الشخصيات) — وينحو هـذا الاتجاه نحو اختيار مثل خاص لكل شخصية من الشخصيات . فللابن مثل خاص معروف به لدى كل كتاب المسرح ورواده — كذلك لكل من العبد والأب والباهر وكل شخصية يتكون منها المسرح مثل خاص ؛ فلكل منهم أحاديث خاصة ، وملابس خاصة ، وصفات خاصة يعترف بها الجميع ، حتى ان لونهم

الانسانى وصبغتهم الواقعية تكاد تكون معدومة على المسرح

الدرامة الانجليزية فى عصر شكسبير : ازدهرت الدرامة فى هذا العصر بأنواعها الثلاثة : التاريخية والبيتية والشعرية أو الغرامية . أما النوع الأول فقد سبق أن تحدثنا عنه وسنتحدث الآن عن اللون الواقعى فى كل من النوعين الآخرين .

يحسب الكثير من الناس أن الشعر يتعارض مع الحياة والواقع ، وأن القصة الشعرية يجب أن تكون بعيدة كل البعد عن الحياة ، وخالية كل الخلو من اللون الواقعى ؛ غير أن هذا الظن — فى رأيى — يخاطئ كل الخطأ

وإن أوضح تعريف للشعر أن نقول إنه ترتيب تجارب الشاعر فى الحياة ترتيباً خيالياً عكس كل ترتيب آخر فكرى أو فلسفى . والشعر على العموم يأخذ شكلا من تعبيرين : فهو إما أن يأخذ شكل الاسطورة ، أو شكل المجاز والصورة ، أو شكل الأسطورة والمجاز معاً . فشعر (ملتون) مثلاً يأخذ شكل الأسطورة ، وشعر (دن) يأخذ شكل المجاز والصورة . أما فى مسرحيات (شكسبير) العظمى فالشعر فى القصة نفسها — فى الموضوع — قبل أن يكون فى الكلام والصورة — ونحن إن قصرنا الشعر على الكلام والألفاظ وجردنا منه موضوع القصة فاخترناه موضوعاً نثرياً مما قد يقع كل ساعة وكل يوم كان الأثر الذى لابد أن تحدثه القصة أثراً ضعيفاً بعيداً عن الواقع والحقيقة ؛ وليس معنى الواقعية أن تكون القصة خالية من الشعر ، فوجود الشعر لا يمنع وجود هذا اللون ، بل هو قد يقويه ويزيده نضرة ووضوحاً ؛ ويكفى أن يفكر المشاهد فى نفسه أنه لو حدث له مثل ما يرى فى القصة أمامه ، ولو كانت له من الصفات مثل ما للبطل نفسه فسيحدث الحادث بنفس الطريقة ، ومثلما حدث للبطل تماماً . . .

وقد يعترض البعض بأن اللغة الشعرية تجرد الكلام من لونه الواقعى — ولكن من منا قد دهش لروميو يتحدث شعراً ، أو (لهاملت) يناجى نفسه ويحدثها حديثاً ؛ لو أن (شكسبير) صاغه صياغة غير الشعر لجاء باهتاً ، ضعيفاً ، لا يؤدى معنى ، ولا يحمل صورة . وإن من يقرأ قصة شكسبير (أنطونيو وكليوباتره) ، ثم يقرأ بعدها قصة شو (قيصر وكليوباترة) ، والأولى شعر والثانية نثر — ليرى الى أى حد استطاع شكسبير أن يكسو القصة بشعره لوناً واقعياً قوياً ، فى حين أنه لا يتمالك نفسه من الضحك أو ذوقه من النفور عند ما يسمع (كليوباتره) تودع قيصر قائلة : Good Bye, Ceasar

فلأجل أن يكون الشاعر واقعياً يجب أن يكون الشعر فى عناصر قصته الثلاثة : فى موضوعها وأبطالها وأسلوبها ؛ وإن من يتأمل (شكسبير) من كل نواحيه يتضح له أن الشاعر الكبير كان إمام الواقعيين وسيدهم ، فهو يسمعك شعراً ولكنه شعر يصف الحياة أدق وصف — حياة الجسم وحياة الروح — وأنت تحس وأنت تقرأه أن (ياجو) ما كان ليستطيع أن يقول غير ما قاله ، أو يفعل (هملت) غير ما فعله

ولقد قرأت قصة (مكبث) مراراً ، فكنت فى كل مرة أقف مبهوتاً أمام هذه السطور يحادث بها (مكبث) نفسه بعد أن منته الساحرات أمانيهن الخلابة ، فأصبح فى حيرة من أمره وأضحى خياله ملتهباً ، وعقله مشتتاً :

« المخاوف الحاضرة أقل عناء من التخيلات الواسعة البعيدة ، وإن عقلى الذى لم يقتل بعد كل القتل — يعصف هكذا بكيانى كله — حتى لقد قبر الفكر فى الحلم والتخيل ، ولم يبق كائناً أمامى غير كل ما هو ليس بكائن » . أقول إن شاعراً غير (شكسبير) ما كان يستطيع أن يعطينا وصفاً أدق من هذا ، وأكثر مطابقة للواقع والحقيقة ، لو استطعنا تأمل حالة (مكبث) الذهنية وهو يلفظ تلك الكلمات — و (شكسبير) دائم الجهد فى أن يصبغ قصصه باللون الواقعى ، فتراه فى أعظم قصصه (التراجيدية) يدخل فصولاً وأشخاصاً مضحكة خفيفة ، تقرب ما بين جو القصة وبين جو الحياة العادية — والأثر الواقعى الذى ينشأ من هذا لا ينتج من أن الضحك والبكى يسيران جنباً إلى جنب فى حياتنا ، بل لأن اللون الواقعى فى الشخصية المضحكة أشد وأظهر منه فى شخصيات (التراجيدية)

فالشخصية المضحكة هى فى الغالب تحت مستوانا الاجتماعى ، ولذلك نميل نحن الى تصديق صحتها والاعتقاد بوجودها أكثر من ميلنا الى الاعتقاد بوجود شخصية أو شخصيات فوق مستوانا ؛ ومن هذا كان (شكسبير) يستخدم أهل الطبقة الدنيا ليصبغ الكثير من قصصه بلون واقعى ؛ خذ مثلاً شخصيتى حافرى القبور فى (هملت) ، والبستانى فى (ريتشارد الثانى) ، وجماعة الممثلين القرويين فى (حلم منتصف ليلة صيف) ، وظهور

٢٨ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

قال : الحكاية يا صديقى هى كما يأتى : فأولاً إذا نظرت إلى الأرض من أعلى رأيتها تشبه إحدى هذه الكور التى تكسوها أغشية من الجلد فى اثنتى عشرة قطعة ، وهى مختلفة الألوان ، فليس ما يستخدمه المصورون فى هذه الدنيا من الألوان إلا مثال منها ، أما هنالك فالأرض كلها مصبوغة بها ، وهى أشد لماناً ونصاعة من ألواننا ، فثمَّ أرجوانى عجيب الرونق ، وثمَّ ذهب يتألق ، والأبيض فى أرضها أنصع من كل ثلج أو طباشير . تلك الأرض مصبوغة بهذه الألوان وغيرها ، وهى أكثر عدداً وأروع جمالاً مما وقعت عليه عين الانسان ، والفجوات نفسها (التى كنت أتحدث عنها) يغمرها الهواء والماء ، فتراها كالضوء الوامض بين سائر الألوان ، ولها لون خاص بها يخلع على تباين ما فى الأرض نوعا من التآلف ، وكل شىء مما ينمو فى هذه المنطقة الجميلة — أشجاراً وأزهاراً وفاكهة — أجمل — بنفس الدرجة — من أضرابه هنا ؛ وثمَّ تلال ، صخورها أشد صقلاً ، وأكثر شفافية ، وأجمل لوناً — بنفس الدرجة — مما نغلو بقدره عندنا من زمرد وعقيق ويصب وسائر الجواهر التى إن هى إلا نثرات منها ضئيلة ، فالأحجار كلها هنالك كأحجارنا الكريمة ، بل أروع منها جمالاً ؛ وعلة ذلك أنها نقية ، وأنها لم تفسدها ولم تبرها العناصر اللحة الفاسدة ، كما فعلت بأحجارنا الكريمة ، تلك العناصر التى خثرت عندنا فتولد منها الدنس والمرض فى التراب وفى الصخور على السواء ، كما تولدا فى الحيوان والنبات ، تلك هى جواهر الأرض العليا ، وفيها كذلك يسطع الذهب والفضة وما اليهما ، وليست تلك الجواهر بخافية عن العين ، وهى كبيرة وكثيرة ، وتوجد فى مناطق الأرض جميعاً ، فطوبى لمن يراها . ويعيش فوق الأرض ناس وحيوان ، منهم من يستوطن اقليما داخلياً ، ومنهم من يسكن حول الهواء ، كما نسكن نحن حول البحر ، ومنهم من يعيش فى بلد يتاخم القارة ، ويهب حوله الهواء . وجملة القول أنهم يستخدمون الهواء كما نستخدم نحن الماء والبحر ، وللأثير عندهم ما للهواء عندنا ؛ هذا وحرارة فصولهم هى بحيث لا يعرفون معها مرضاً ، فيُعَمَّرون أطول بكثير مما نُعَمَّر نحن ، ولهم بصر وسمع وشم ، وسائر الحواس كلها ، وهى أبعد كمالاً من حواسنا بنفس الدرجة التى بها الهواء أنقى من الماء ، أو الأثير أصفى من الهواء . كذلك لهم معابد وأماكن مقدسة فيها يقيم الآلهة حقاً ، فهم يسمعون أصواتهم ويتلقون اجاباتهم ، وهم يشعرون بهم ويديرون بينهم وبين أنفسهم أطراف الحديث ، وهم يرون الشمس والقمر والنجوم كما هى فى حقيقة أمرها ، وعلى هذا النحو كلُّ ما هم فيه من أسباب النعيم

تلك هى طبيعة الأرض كلها ، وما حول الأرض من أشياء ، وفى الفجوات التى على ظهر الأرض أصقاع متباينة ، بعضها أعمق وأوسع من فجوتنا التى نقيم فيها ، وأخرى أعمق وأضيق فوهة منها ، وبعضها أوسع وأقل عمقاً ، وتربطها جميعاً بعضها ببعض ثقوب عدة وممرات عريضة وضيقة فى باطن الأرض . وهنالك يتدفق فيها ومنها ـ كما يتدفق فى الأحواض ـ تيارٌ عظيم من الماء ، وثمَّ مجار ضخمة لأنهار تحت الأرض لا ينقطع جريانها ، وينابيع حارة وباردة ، ونار عظيمة ، وأنهار كبيرة من النار ، ومجار من طين سائل ؛ منها الرفيع والسميك (كأنهار الطين فى صقلية وما يتبعها من مجارى الحمم) فتغمر المناطق التى تتدفق

شخصية (فالستاف) الفكهة بعد كل من المعركتين فى (هنرى الرابع) ، وظهور شخصية المهرج (النول) فى منظر العاصفة فى (الملك لير) ؛ والأمثلة غير هذه كثيرة ، كما أن (شكسبير) لا ينهى رواية بنهاية حوادث القصة الأساسية ، بل يعرض عليك فصلاً ، وربما عرض فصولاً لا قيمة لها فى القصة ، غير أنها تكسبها لوناً واقعياً يدلك على أن الحياة ما زالت كما هى بعد موت بطل الرواية أو بطلتها

محمد رشاد رشدى
بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

حولها . وهنالك فى باطن الأرض نوع من الذبذبة يحرك هـذا كله إلى أعلى وإلى أسفل ، والحركة الآن فى هـذا الاتجاه : وبين الفجوات هوةٌ هى أوسعها جميعاً ، تنفذ خلال الأرض كلها ، وهى التى وصفها هوميروس بهذه الكلمات :

« ان أغور عمق تحت الأرض جد سحيق »

وقد أطلق عليها فى مواضع أخرى اسم جهنم ، وكذلك فعل كثير غيره من الشعراء . وسبب الذبذبة هو تلك الأنهر التى تتدفق فى هذه الهوة ومنها ، ولكل منها طبيعة التربة التى تجرى فيها ، وإنما كانت تلك الأنهار دائمة التدفق دخولاً فى الهوة وخروجاً منها لأن عنصر الماء ليس له قاع ولا مستقر ، وهو يعج ويهتز صعوداً وهبوطاً ، وهكذا تفعل الريح والهواء المحيطان به ، إذ هما يتبعان الماء فى صعوده وهبوطه وفى اندفاعه فوق الأرض هنا وهناك ، مثل ذلك مثل الشهيق والزفير لا ينقطعان حين تتنفس الهواء ، وباهتزاز الرياح تبعاً للماء دخولاً وخروجا نشأت عنها العواصف المروعة القاصفة : فاذا ما تراجعت المياه مندفعةً إلى الأجزاء السفلى من الأرض – كما تسمى – انسكبت فى تلك المناطق خلال الأرض وغمرتها ، كما يحدث إذا تحركت مضخة الماء الحركة الثانيـة ، فاذا ما خلفت تلك المناطق وراءها وكرت إلى هنا مندفعة ، فانها تملأ ما هنا من فجوات مرة أخرى ، حتى إذا امتلأت هذه ، فاضت تحت الأرض فى قنوات لتلتمس سبيلها إلى أمكنتها العـديدة ؛ فتكوّن بذلك البحار والبحيرات والأنهار والينابيع ، ومن ثمّ تغور فى الأرض ثانية ، فيدور بعضها دورة طويلة فى أراض فسيحة ، ويذهب بعضها إلى أمكنة قليلة وإلى المواضع القريبة ، ثم تهبط مرة أخرى إلى جهنم ، فيبلغ بعضها حداً دون ما كان ارتفع اليه بمقدار كبير ، ولا يهبط بعضها الآخر دون ذلك الحد هبوطاً كثيراً ، لكنها جميعاً تكون أوطأ من نقطة الانبثاق إلى حدما ، ثم ينهمر بعضها ثانياً فى الجانب المقابل ، وينهمر بعضها الآخر فى الجانب نفسه ، ويدور بعضه حول الأرض فى ثنية واحدة أو فى عدة ثنايا تشبه حنايا الثعبان ؛ وتنزل ما استطاعت النزول ، ولكنها دائماً تعود فتصب فى البحيرة ، أما الأنهار التى على كلا الجانبين فلا تستطيع النزول إلى أبعد من المركز ، لأن فى الجانب المقابل لهذه الأنهار هاوية

(يتبع) زكى نجيب محمود

على دار النيابة

للأستاذ فخرى أبو السعود

يا دارُ قد عبثتْ بكِ الأقدارُ ... وبغى عليك المعشر الأشرار

عُطِّلْتِ فى رَبْعِ الشباب وصُدَّ عن ... ناديك ظلماً رهطك الأبرار

وخَلَوْتِ حتى صرتِ ربعاً موحشا ... يُشجى النفوسَ حِيالَه التـذكار

لم يبقَ منكِ – ولم يَطُلْ بكِ عهدُنا – ... يا دارُ إلاّ الرسمُ والأخبـار

عاضتْ بشاشةُ صفحتيكِ وإن تكنْ ... حفّتْ بكِ الأغصانُ والأزهار

وعلَتْ لِوَاءَكِ ذلةٌ وكآبة ... ولغيرهِ التبجيلُ والإكبار

مهجورة فى موطنٍ عَمَرتْ به ... للظالمين الآثمين ديار

وُئدتْ بكِ الآمالُ فى إبّانها ... وخبا ضيـاء للهُدى ومَنار

ما كان يَبغيكِ اللئامُ بريبةٍ ... لو صَدَّ عنكِ الجحفل الجرّار

***

للهِ رهطٌ فيكِ أمسِ تجمّعوا ... ترضى الكنانةُ سعيَهم ، أخيارُ

من كلِّ عالى النفس أرْوعَ ماله ... فى الدهر إلاّ مجدَ مصرَ شِعارُ

لا يَطَّبيه زيفُ جاهٍ كاذبٍ ... كلاّ ولا يغترّهُ الدينار

خُلَصاءُ مصرَ هُمُ وصَفوةُ آلها ... والأوفياء لعهـدها الأحرار

فخرتْ بهم مصرٌ وعزّتْ فى الورى ... وبمثلهم تتفـاخر الأقطار

رهطٌ من الصِّيد الكرام إمامهم ... سعدُ الرئيسُ القائدُ المغوار

كم رنَّ فى ناديكِ عالى صوته ... بالحقّ يستخذى له الفُجّار

ما كان أفخمَ ذاكَ مظهرَ سُؤددٍ ... لو دامَ منـه سؤددٌ وفخار

غيظَ العداةُ له وكادوا كيدهم ... حتى علاكِ الوهْنُ والإقفار

سدّوا الطريق إليكِ أو بعثوا بمن ... لا ترتضى مصرٌ ولا تختار

***

فصول ملخصة فى الفلسفة الالمانية

١٣ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

ونظرة واحدة الى المواد التى شاء أن يلم بها ترينا ما بذل صاحبها من قلبه وعقله فى التحليل والاستقراء ، معالجاً الأدب اليونانى وتاريخ اليونانية القـديمة ، والفصاحة اليونانية وتاريخ الفلسـفة اليونانية حتى أفلاطون . وبعض نظرات عميقة ينفذ بها الى بعض فلاسفة أو شعراء . وقد قدر بنفسه أنه منجز خلال سبعة أعوام أو ثمانية درس كل ما يتعلق ببراعة اليونان . وأقدم على المفاداة بعشر سنوات من عمره ليكمل درس المسألة اليونانية من جميع وجوهها ، ولـكن — ويا للأسف — ظلت هذه الأفكار صوراً مقتضبة ومقاطيع صغيرة غير كاملة . لأن صحته المختلة حالت بينه وبين تقديم ما ينبغى له لمثل هذا الأمر ، فاثنى عن عمله هذا ، ولـكن الصور التى تركها تكاد لا تخفى عنا الفكرة العامة التى أراد نيتشه أن يصورها وينشرها

يعتقد نيتشه بما اعتقد به معلمه « شوبنهاور » بأن جوهر الوجود هو الارادة ، وهذه الارادة واحدة عند كل الـكائنات ، وهى تتجلى بثباتها وقوتها فى جثمان الخليقة ؛ على أن هذه الارادة هى شقية تفتقر الى الرحمة لأنها تثار على الجهاد والمقاومة فى هذا الوجود ، وهى موقنة عالمة أن نتيجة المعركة عليها لا لها . « وهل الحياة إلا أن تريد شيئاً بدون سبب ، وأن تتألم دائماً ، ثم لا ينتهى الألم إلا بالموت . . . وهكذا تقابل الحياة الأحياء حتى يتفطر الـكون ويعمر فساده » . إن الوجود فى نظر العقل غير كامل ، لأن نواقصه كثيرة ، وعنصر الألم فيه غالب على السعادة والراحة ، وبهذا يقضى على العقل أن يطوى الارادة على نفسها ويسحقها من وجوده ، واذا انعدمت الارادة انعدم الوجود نفسه ، لأن الوجود ما هو إلا الارادة الفعالة . ولـكن نيتشه لا يذهب الى هـــذه النتيجة التى أدركها شوبنهاور . فالوجود الذى لا يكمل فى نظر العقل — عند شوبنهاور — فانه يكمل كأثر فنى يحمل الى صاحبه الغبطة الفنية . وفى مثل هذا الافتراض الذى يفترضه نيتشه يرى من واجب كل انسان أن يستنفد وسعه ويبذل جهده فى امتلاك نصيبه من هذا الجمال ، باحتوائه على ما فى نفسه من معنى الجمال ، وبتأمله للوجود ولنفسه بعين الجمال

إننا فى ساعة الابداع الفنى نشعر بغبطة لا تحد ولا تحس إذ هى غبطة المبدع . وإذا كان الانسان فى هـذه الحياة فرداً قائماً بذاته ، يحيا فى عالم المادة ، فهو فنان بطبيعة خياله المبدع الوثاب . يستطيع أن يبدع إبداع من يخلق ويصور – إن كان فناناً مبدعاً ، ويقدر أن يكون مبدعاً فى تفكره فى الأثر الفنى الذى يبعث فى نفسه خياله الباطنى ، لأنه يشاطر المبدع فنـــه ويتحد معه فى تحليقه . وهو فى كلتا الحالتين متخيل صوراً وألواناً جديدة تبعث فيه الغبطة الفنية ، ولا يضر هـذه الصور أن تكون أخيلة أو أحلاماً ، لأن أجزاءها مقتبسة من الوجود ، ولا ينبغى لهذه الصور أن تكون صوراً ضاحكة تملأ الجو أفراحاً ، فقد تكون صوراً تملأ الأفئدة ذعراً والنفوس شقاء ، وتكون بعد ذلك كله جميلة . . .

هذه الخاصة العاملة على إبداع الصور والأوهام ، وتغليب الناحية الخيالية على الناحيـة الحقيقية يدعوها نيتشه « الخاصة الأبولونية : نسبة الى « أبولون[1] » ، والفن الأبولونى عنده هو النحت والتصوير والشعر القصصى . إن الرجل الأبولونى يستنقذ نفسه من التشاؤم باستسلامه للجمال . يقول للحياة : أنا أريدك ، لأن صورتك جميلة ، يجدر بها أن تكون مادة للحلم والخيال . . .

(١) إله الشعر والموسيقى

يادارُ أنت رجاءُ مصرَ وفى سوى	ناديك ليستْ تُبْلغَ الأوطار
لن يستقيم لآل مصرَ بناؤُهم	يوماً ورُكنُكِ ينهم مُنْهار
مادام ربعُك موحشاً قفراً فلن	يَلْتَامَ شَمْلٌ أو يعزَّ ذمار
يَبقى بغيرِك أَمْرُهم فوضى به	يلهو اللئامُ ويعبث الأغرار
لو يعلمون سَعَوْا إليكِ ومسَّحُوا	إما سعَى للكعبة الزُّوَّار
حتى يعودَ الحقُّ فيكِ لحِضْنِهِ	وَيَعِزَّ فيكِ ذمارُهم يا دار

فخرى أبو السعود

ولكن الانسان ليس بكائن يمكن تحديده بالذاتيـة ، أو بالانفصال ، فهو كائن يشعر بنفسه كارادة متفوقة ، ويحس أنه قطعة من هذه الارادة المتوزعة في الوجود كله ، ويدرك أنه متحد مع كل مايحيا وما يتألم ، تام الاتحاد مع الوجود . والانسان – في حالة ذهول أو سكر ناشىء عن مادة مخدرة ، أو إزاء حوادث طبيعية كعودة الربيع – يشعر بأن هـذا الحاجز الذاتي الذي يفصله عن الوجود قد وهى وزال ، ويجد نفسه متحدة مع الطبيعة كلها ، وهذا الطور مايدعوه نيتشه « الطور الديونيزوسي » ، نسبة الى الالـه « ديونيزوس[1] » ولغة الرجل الديونيزوسي هي الوسيقى التي يعتبرها شوبنهاور لغة الارادة الخالدة بل صورة الرغبة الدائمة المستترة في باطن الوجود ، والانسان – في هذا الطور – يحس بالألم الشامل والوهم الباطل وشقاء الفردية ، فيكاد يجنح الى التشاؤم ، ولـكنه يهتز قليلاً ويشعر بخلوده ويدرك أن ارادته المفصولة إنما هي جزء من ارادة الوجود ، وتراه حيال كل مظهر من مظاهر الفناء ، أو مصرع بطل من الأبطال ، تراه يشعر بأن حياة الارادة الباقية لم تطفأ بموت البطل . إن الرجل الديونيزوسي ينقذ نفسه من التشاؤم لأنه يبصر خلود الارادة ، والحادثات تمر والتقلبات تستمر ؛ هو يقول للحياة : أنا أريدك ! لأنك أنت الحياة الخالدة

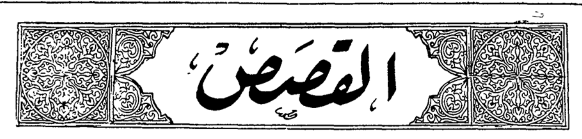
وبهذين المذهبين يرى نيتشه أن اليونان قد قهروا التشاؤم ، وجعلوا الحياة جميلة زاهية ؛ ويرى أن التفاؤل اليوناني لم يكن وليد الخفة والعبث ، أو تجاهل لما يغمر الوجود من شقاء وألم ، ولـكنه تفاؤل تولد من مثل أعلى وغاية أسمى ؛ والمؤرخ الذي يستقرئ هذه التأثيرات في مطلع تاريخهم يتبين له أن القوم عرفوا الألم كما عرفناه ؛ وتذوقوا الشقاء كما تذوقناه

سأل ملك « ميدا » الفيلسوف « سيلين » ماعساك تجد خير شيء للانسان ؟ فأجاب الفيلسوف : « يا ذرية التعس والألم ، وأبناء المصادفات والمتاعب ! لماذا تنقمون علي إذا جئتكم بما لا ترتاح له آذانكم ؟ إن الخير الذي لاخير بعده هو ألا تكون – أيها الانسان – مولوداً ، وألا تكون موجوداً ، وألا تصير شيئاً ؛ والخير الناجل لك أن تلقى مصرعك الآن ! » . فهذا الألم المنبعث من أعماق الروح الشاعرة بالأوجاع والشقاء الغامر الأرض ، هو الذي أهاب باليونان ودعاهم إلى أن يكملوا معنى الحياة الناقصة بخلقهم آلهة هي آلهة جبال « أولمبوس » ، هذه الآلهة هي نتيجة إبداع الروح « الأبولونية » وانتصارها . أرادوا أن يستنقذوا أرواحهم من حقيقة الوجود المروعة فمهدوا الى خلق شعب من الآلهة وجملة أوهام طبقوها على الحياة التي يروها صالحة للظهور ؛ وهم مؤمنون بأن هذه الآلهة تعمل معهم على مجابهة التشاؤم . وهكذا لبست الحياة عندهم لباساً جديداً ، وظهرت ظهوراً جديداً ، وغدت جميلة في عيونهم لأن آلهة جميلة تتصرف بها وتقبل بأقدارها ؛ وهوميروس هو المثل الأعلى للروح الأبولونيـة ؛ ومقاطيعه وقصائده هي نشيد انتصار الحضارة اليونانية على سيئات الأجيال الغابرة ، وهي التي خلقت هذه الروح التي تغلب اليونان بأوهامها وأخيلتها على كآبة الحيـاة الحقيقية وقبحها . وإزاء هذه البراعة الأبولونية نشأت البراعة « الديونيزوسـية » أو براعة المأساة ؟

« يتبع » خليل هنداوي



(١) إله الخمرة عند اليونان ، وهو « باخوس » عند الرومان



من أساطير الإغريق

نهاية هرقل

للأستاذ دريني خشبة

١٢ — رحلة هرقل إلى الدار الآخرة

لم تكن محفوفةً بالمكاره هذه الرحلة إلى الدار الآخرة ؛ فقد سلك هرقل سُبُلاً من قبل كان الموت يجثم له في كل خطوة فوقها ، وكانت المنايا تتربص به ، ثم تفر منه آخر الأمر ، كأنما كان هو موتاً للموت ، ومنيةً للمنية ، وفناء للفناء

أسقط في يد حيرا حين عاد هرقل بتفاحات هسبريا ، واستولى عليها الجزع حين رأت إلى التنين لادون مضرجاً بدمه ، فوسوست في صدر يوريذوس أن يأمر البطل فيحضر له سيربيروس من الدار الآخرة ! !

وسيربيروس هو ذلك الكلب الهائل ذو الرؤوس الثلاثة ، الذي رأيناه يعدو في إثر بلوتو — إله الموتى — حينما زار هذه الدار الأولى ليخطف برسفونيه ، وهو أبداً يربض عند قدمي سيده الجالس فوق عرش هيدز ، يقلّب في غيهب السُّفل أعينه الست ، كأنها أنجم تحترق في فحمة ليل بهيم ، وهو أيضاً أداة تعذيب في دار الأبدية ، ينشب أظفاره في أرواح المجرمين ، ولا يفتأ يكرع من دمائهم حتى يروى !

وكانت الحرية تشيع بالآمال في قلب هرقل ، وكان هو قد برم بهذا الرق الأسود الذي كتبته عليه السماء ؛ فانطلق يعدو إلى دار الموتى ، وبين يديه طائفة من الآلهة تهديه وترشده ؛ حتى إذا كان قاب قوسين من السّدة القاتمة الدجوجية ، ووجد سيربيروس مُقْعِياً يغط في نوم عميق ، وإله الموتى مستلقياً يُقلب في حضنه القوى برسفونيه الجميلة ، انقض على الكلب يخنّقه حتى لا يعوى فتعاوي به كلاب الجحيم كلها وتكون هنالك الطامة . . . ! وانفتل من دار الظلمات وفي نفسه من الرحمة لهذه الأرواح الهائمة ما أسال دموع الحنان من عينيه الحزينتين !

وانخلع قلب يوريذوس حين لمح الكلب الهائل !

لقد كانت الظلماء تتدجى في أشداقه فتكسف الشمس الوضاءة ، وترد نور النهار المتلألئ ديجوراً يلج في ديجور ! !

وكان الزبد ينتثر من أفواهه كأنه ندف يسّاقط من عل في ليل عاصف !

وكان ذيله الطويل الضخم يتلوى وينثني كأنه ذنب هيدرا أو ذيل لادون !

وكان يعوى وينبح فيقلقل الجبال المجاورة ، ويزلزل قصور أرجوس !

وانظر إلى الملك الجبان !

لقد قفز من عرشه مما ألم به من الهلع ، وانطلق إلى مخزن الغلال المجاور فاختبأ في خابية عظيمة أغلقها على نفسه حتى كاد يختنق ، وآلى لا يخرج حتى يعود هرقل بسير بيروس إلى هيدز !

* * *

وهكذا أصبح هرقل حراً ، وأُلقيت عن كاهله هذه الربقة التي أذلته طويلاً ، وتلفت حوله فوجد الحياة تتبرج كأنها غانية ، ووجد كل شيء بساماً ضاحكاً يدعوه إلى اللهو والمرح ، والأخذ بنصيب مما تفيض به هذه العاجلة من مباهج ومغريات

وذهب في رهط من أصدقائه والمعجبين به من الآلهة إلى الأولمب ليلقى أباه وليقدم له طاعته ، وليرى هل يتوب عليه من غضب لا يستحق منه كثيراً ولا قليلاً . . .

ولقيه أرباب الأولمب هاشين باشين ، وأخذوا يتندرون

بمجازفاته العجيبة التى انتصر فيهـا على سبع نيميا والأفعوان هيدرا ومحاربات الأمازون . . . . .

وأغرقوا فى الضحك حين ذُكر أطلس وما كان من أمر الحيوية !! . . . .

واقترح هِرْمز على الآلهة أن يصارعوا هرقل ويلاكموه ، ويباروه فى العدو والسباحة وألعاب القُوى ، لتتم بذلك بهجة لقائه ، وليعبروا عما يكنونه له من حب ، ويضمرون من إعجاب . فأقيم ملعب الأولب الفخم ، وشيدت على جوانبه المدرجات العجيبة التى تتسع لألف ألف من الآلهة وأنصاف الآلهة وكبار المدعوين من عباد برومثيوس[1]

وتم مهرجان الألعاب ، وحاز هرقل قصب السبق فى أكثر المباريات ؛ وكان هذا هو الأولمپياد[2] الأول الذى أخذ اليونانيون يحتفلون بمثله كل خمس سنوات

وتتابعت السنون . . .

ومر هرقل بقوم يبكون ؛ وقيل له إن أدميتوس[3] ملك تساليا مريض ، فتمنى على الآلهة أن تمنحه الخلود فى هـذه الدار الدنيا ، فأجيب إلى ما تمنى ، بشرط أن يحل محله أحد أهل بيته إذا حضره الموت ، وهنا تقدمت زوجه المخلصة السستيس فضحت بنفسها كى ينجو بعلها من الموت ، وليخلد ماشاء له الخلود . وماتت الزوج الوفية فداء للملك . وينظر أرميتوس إلى ملكه الشاسع فيراه بغيضاً لا خير فيه ؛ ويكون فى حاشيته فيشعر بوحشة وانقباض كأنه يعيش فى صحراء ؛ ويقدم إليـه الطعام فلا يكاد يسيغه ؛ وترقص القيان بين يديه فيثرن فى نفسه الاشمئزاز كأنهن جِنَّةٌ تدمدم فى ظلام غابة . . .

ويبغض الدنيا . . .

ويود لو كانت زوجه الجميلة المخلصة إلى جانبه لحظةً واحدة وتتلاشى الحياة بكل من فيها . . . !!

لذلك يبكى الملك ، ويبكى حوله شعبه الأمين !

ويذكر هرقل أنه وحده يستطيع أن ينفذ الى هيدز ــ دار الموتى ــ فيستنقذ ألِسْتِيس من براثن الفناء ، ويردها معززةً مكرمةً الى زوجها المسكين فيهدأ قلبـــه ، وَيَرْقأ دمعه ، وتستقر نفسُه ، ويفىء الى أمر هذا الشعب الذى تكبكب حوله يمول وينتحب . . .

ونَفَذَ البطل الى ظلمات الدار الآخرة ، وسأل الأرواح الهائمة فدلته على منامة ألسستيس ؛ فتغفَّل حارسها الجبار وخنقه ، واختطف الفتاة الناعسة وفرَّ بها دون أن تشعر به زبانية بلوتو وعادت الطمأنينة الى قلب الملك ، ورفرف السلام على المملكة

* * *

هرقل وأومفاليه

وذهب هرقل يذرع الأرض ، واشترك فى حملة الأرجونوت ضد السنتور[1] ، وانضم إلى الأغريق فى حصارهم الأول لطروادة

ولقى رجلاً ذا خيلاء وكِبْر فقتله ظالماً ، وكان زيوس ينظر من علياء الأولب ، فعبث وبسر ، وقضى أن يظلَّ هرقل فى خدمة أومفاليه ملكة ليديا بضع سنين


هرقل وأمفاليه (تصوير موبان)

وتجهم هرقل ، ولكنه لم يكد يبدأ خدماته التافهة للملكة ، حتى راعه جمالهـا ، واستهوته مفاتنها ، وأحس للمرة الأولى فى حياته المشحونة بالمخاطر أن قبساً يتأجج فى قلبـه يوشك أن يجعله ضراماً

وحَلاَ فى فمه ما مر من الذل ، وطاب ما كره من العبودية ، وود لو قضى الحياة فى ظلال هـذا الحب الأول مغموراً برضى الملكة ، سعيداً بما أفاء عليه جمالها من هناء ونعيم وبال . ولـكن الآلهة لم تقر بهذه السعادة فأرسلت بطلها لمآرب أخرى

(١) لهذه الحرب أسطورة طويلة آثرنا ألا نثبتها مخافة الاطالة

(١) هو خالق البشر فيما تزعم الميثولوجيه — العدد ٩٩
(٢) الأولمپياد هو دورة الألعاب الأولمبية
(٣) أسطورة أدميتوس وزوجه ألسستيس وطرد أبوللو من السماء من أبرع الأساطير الاغريقية وقد نعرض لها قريباً

زواج هرقل

وطوّف هرقل فى أقصى الأرض حتى انتهى إلى كاليدون ، مملكة أونيوس ، والتى ابنته الناهد الهيفاء تجمع الزهور فى خميلة غناء . وكان قلبه قد نهل من خمرة الحب ، وكانت عيناه قد ثقفتا نظرات الغزل ، وكان لسانه قد انحلت عقدته عن وحى الهوى ، فانطلق يلاعب الفتاة ويداعبها ، وينمق لها من الورود والرياحين باقات تتكلم بالشذى ، وتهتف بالخضرة والحمرة ، وتصافح الروح بالعبير الفياح

وأنِست ابنة الملك بهرقل واطمأنت اليه ، وبثها وبثته ، وتشاكيا ماشاء لهما الغرام الروى ، والحب الفتىّ ، والدمع المسكوب!

وعلم منها أن أخيلوس ، أحد آلهة الأنهار ، قد خطبها إلى والدها ، وأن الملك قد أجابه إلى ما أراد :

« فهل أسعد بأن تريح هذا الكابوس عن قلبى ؟ »

« وتقف حائلاً بينى وبين الشقاء الذى يتربص بى ؟ »

« فنكون أهنأ زوجين ينعمان بلذة الحب ، ورفلان »

« فى برد السعادة ، ويتغنيان مع الطير ألحان الهوى »

« والحياة ! ! ... ... »(٢)

هكذا بكت ديانيرا إلى هرقل ، فهاجت فى قلبه نخوة البطولة ونحيزة المغامرة ، وأطلقت فى كل عضلة من جسمه المكتنز كهرباء الحماسة والاستبسال :

« قرّى عيناً أيتهـــا الحبيبة ، فليس أيسر »

« على هرقل من حرب الآلهة . لقد صرعتهم »

« جميعاً فى حفل الأولمب ؛ وقد مر بى من المغامرات »

« ما ينخلع من بعضه قلب أخيلوس ... ... » (١)

واستأذن هرقل على الملك ، وحيا أحسن تحية ، ثم طلب يد ديانيرا . . . . وكان أونيوس يعرف من بأس البطل وعظيم قوته ما يعرف كل ملوك هيلاس وأمرائها ؛ وكان قد أجاب أخيلوس إلى خطبته وهو يعلم من سخط ابنته على هذا الزواج ما يعلم ؛ فلما تقدم اليه هرقل استبشر وقال : « ... ... لقد كنت يا بنى وعدت أخيلوس أن يبنى على ديانيرا ، وهو من تعلم فى الحول والطول والجبروت ، ولكنى مع ذلك لا أفضله عليك ، بل نجعل لكما يوماً تلتقيان فيه ؛ فمن يصرع صاحبه كان كفؤاً لديانيرا »

وقبل هرقل ، ورضى أخيلوس ؛ واجتمع الناس من كل فج يشهدون الصراع المظيم بين الجبارين العنيدين . . . وكان كلٌ واثقاً بنفسه ، لايخامره أدنى شك فى أنه فائز على صاحبه . فلما تقابلا ، ثار من حولهما النقع ، وكانت أنظار الناس كالمتصلة بسواعدهما بأمراس شداد ؛ وبعد قليل أخذت الأرض ترجف من تحتهما ، وطفق الملعب يهتز بمن فيه من خلق كثير . . . وكانت ديانيرا تشرف من مقصورتها وتكاد تغص بريقها إشفاقاً على هرقل ، وكان هو كذلك ؛ كلما خارت قواه ، نظر اليها النظرة تتجدد بها روحه وتتضاعف بها منّته ويمتلئ قلبه بالآمال . . . . . .

وكان أخيلوس قد فطن إلى جبروت هرقل ، وكان يستطيع أن يتشكل بأى خلق أراد ، فجعل يتقلب من ثعبان ضخم الجثة ، إلى تنين عظيم الجرم ، إلى أسد بادى النواجذ ، إلى . . . ماشاء له سحره وقوة حيلته من أشكال وأوضاع . . : ثم انقلب إلى عجل جسد ذى قرنين كبيرين ، وشرع ينطح هرقل ، وهرقل يتقيه ، حتى استطاع البطل أن يأخذ بقرنيه بكلتا قبضتيه ، وجعل يخبط برأسه الأرض فى عنف وغل ، حتى كسر أحد القرنين وفرّ أخيلوس من الميدان هارباً . . . لايلوى على شىء . . .



صراع هرقل وأخيلوس (تصوير جيد)

ودوى الملعب بالتصفيق ، واندلعت الحناجر بالهتاف ، وتدفق الناس نحو هرقل يحملونه على الأعناق . . وتقدمت ديانيرا فحياها البطل بقبلة فردوسيّة خالدة ، مازال صداها يرن على شفاه المحبين . .

وتم العرس . . .

وانطلق هرقل بزوجه يجوب الآفاق . .

(١ ـ ٢) هذه السطور من سوفوكليس فى مأساته الخالدة « عذارى تراقية »

وحدث أن اعترضه نهر عظيم لم يستطع أن يعبره ومعه ديانيرا . فبينما كان يعمل فكرته كيف يقتحمه ، إذا سنتور عظيم يعرض عليه أن يحمل زوجه فيعبر بها إلى العدوة الثانية سالمة آمنة ، ثم يرتد فيحمله اليها كذلك ؛ وقبل هرقل ، ونسي ما كان بينه وبين السنتور من عداوة وبغضاء ، وحرب قديمة تدمى لها قلوبهم ، وتقرح نفوسهم ، وأعان هرقل زوجه فاستوت على ظهر السنتور ، وخاض بها الماء وهو يطفر من الفرح ، ويحلم بالمنى والآمال . فما كاد يبلغ الشاطىء الآخر حتى عدا عدواً شديداً ليكون بمنجاة من سهام هرقل . ولكن ديانيرا صرخت صرخة داوية نبهت ماغفل من سمع زوجها ؛ فلما فطن إلى خيانة السنتور ، شد قوسه العظيمة ، وأرسل إلى دبر السنتور سهماً مراشاً كان قد شرب من دم هيدرا حتى ارتوى !

وأحس السنتور بسم الموت يخترم حشاشته ، وبرودة الفناء تشيع في جسمه البدن ، فأقسم ليكيدن لهرقل ، فيذيقه من هذا السم الذى سقى به سهامه ما يودى به . فقال لديانيرا : « أيتها الفتاة ! لا تثق أن حب هرقل دائم لك ، بل أكبر الظن أنه منصرف عنك إلى فتاة أخرى تكون أسبى وأصبى . وما أحسبك إلا ذاكرة كيف كان يتفانى في حب أومفاليه . فخذى قميصى هـذا فاحفظيه لديك ، حتى إذا أحسست من زوجك جفوة ، أو رأيت فيه ازوراراً ، فابعثى به إليه ليلبسه ، وألقى فى روعه أنه يحفظه من أعدائه . فانه إن فعل ، عاد إليك بقلب مفعم بالحب ، ونفس ملتاعة كلها شوق وتوق . . . » وخر السنتور ميتاً !

وأخـذت ديانيرا القميص المضرج بالدماء المسمومة ، وفى نفسها من الهم شيء عظيم ! « من أومفاليه هذه ؟ ! كان يحب أومفاليه ؟ كان يحب فتاة غيرى ؟ وحق زيوس لأسألنه ! هاهو ذا قد سبح إلى الشاطىء ! »

ولقيته فسألته ، فاعترف لها بكل شيء ، وطمأنها على محبته وإخلاصه . . . . ولكن قلب المرأة لا يعرف هـذا الاستسلام المعسول للكلمات الناعمة ! فقـد ظل الوسواس يدب فى نفس ديانيرا ، حتى كان هرقل فى إحـدى جولاته ، وكانت هى عند أبيها ملك كاليدون ؛ فطالت غيبته ، وذهبت بهـا الظنون من أجل ذلك كل مذهب

وذكرت القميص ورددت عبارات السنتور ، فنهضت من توها وأرسلته مع إحدى وصيفاتها [١] إلى هرقل فى منآه البعيد . وأوصت الوصيفة أن تذكر له من مآثر القميص ما وسوس به السنتور . فلما لبسه هرقل ، التصق به التصاقاً ، وأخذ السم يشيع فى جسمه الحديدى فيدبيه ويفتته . . .

وصرخ البطل بلا جدوى ؛ وكلما حاول انتزاع القميص كان جلده يتمزق ، ولحمه يتهرأ ، ويتصبب الدم من فوق ومن تحت . . . ثم أخذت نفسه تساقط أنفساً . . . وطفقت روحه تودع هذا الجثمان الهائل فى دموع سخينة وآهات حارة . . .

ولفظ نفسه الأخير وهو يبكى ويقول : « فدى لك نفسى . . . يا . . . ديا . . . نيرا ! »

***

« وهوى الى الأرض ما كان من الأرض ، ورفرفت »
« الروح الكبيرة فى جهرة من أرواح الآلهة التى أقبلت »
« من الأولب تزف ابن زيوس العظيم . والكل ضاحك »
« مستبشر أن ألقى أخوهم حمله الثقيل ، وخرج الأولب »
« جميعاً يستقبل البطل ويهتف باسمه فى عليين ! . . . [٢] »

***

وحمل الجثمان الطاهر الى جبل أويتا ، حيث دفن فى إجلال وإعظام ، وحيث وقفت ديانيرا ترويه بدمعها العزيز ! ؟

دريني خشبة

(١) فى أحد المصادر أنها أرسلت خادمها الصناع ليخاس

(٢) هذه السطور من شلر الألمانى . وفى بعض المصادر أن الذى أثار الغيرة فى قلب ديانيرا ، أنها سمعت أنه عاد الى احدى صويحباته القدامى (ايول) وأنه هام بها . ومع ذلك فلو علمت أن القميص مسموم لما أرسلت به إليه

قلب فتـــاة

للآنسة ابنة الشاطئ

لعلها حنقت عليّ حينما تقدمت إليها في لوعة صامتة ثائرة ورجوتها أن تبكي وأن تسرف في البكاء؛ ولعلها أنكرت مني أن أفاجئها في وحدتها وقد استنامت إلى أحزانها وأسلمت أفكارها إلى ذلك الفضاء الرحب الواسع الذي نود لو نفر اليه، وإن كنا نجهل أين مكانه منا وأين السبيل اليه! لقد كنت أعلم يقيناً أن هذه الكلمات التي اصطلحنا على تسميتها كلمات المواساة، والتي تعود المرء منا أن يلقيها على مسامع المحزون، لا تحمل عن هذه المسكينة شيئاً مما ترزح تحته من أعباء ثقال، وكنت أعتقد أنني إذ كنت لا أملك إلا الوقوف بجانبها أفرض عليها سماع كلمات المواساة المحفوظة، وأحتم عليها أن تزدردها كما تزدرد قطع الثلج، لخير لها أن تظل هكذا في ذهولها وإطرافها، لعلها واجدة من خداع الخيال ما ينسيها شيئاً من رهبة الحقيقة الواقعة، ولو إلى فترة قصيرة! لكني كنت أحبها، وأتألم لها، وكان هذا الحب من القوة والعنف، بحيث ينكر عليّ أن أظل واجمة وهي تكاد تحترق أمامي في صمت، وأن أقف مكتوفة الأيدي، بينما أرى ذرات كيانها المضطرب تكاد تتبخر في الفضاء الأثيري المخلخل بعد العاصفة... آه! كم كنت أود أن أحترم صمتها، وأن أتركها في جلستها المفجعة ومكانها المنفرد؛ ولكني خشيت أن يهدمها الحزن المكتوم. وكان لابد لي أن أقول شيئاً، فلم أجد ما أقوله إلا أن آخذ رأسها بين يديّ وألح عليها أن تمعن في البكاء

* * *

لم تكن هذه الفتاة من أولئك الفتيات اللائي يحملن قلوبهن في أكفهن ويخرجن بها إلى الأسواق للبيع أو الاستئجار، وكان كل من يعرفها لا يكتم إعجابه بذكائها وجاذبيتها وسمو أخلاقها، ولكنها كانت لا تكترث لشيء من هذا إلا كما يكترث الغني ببضعة مليمات! كانت تعلم يقيناً أن أثمن شيء لديها، هو قلبها الحي الكبير، وكانت تعتز به اعتزاز الانسان بأثمن ما يملكه؛ وكلما أثنى الناس على ذكائها أو حسنها، ابتسمت ابتسامة يتجسم فيها عدم الاكتراث، وتساءلت في نفسها: إذا كان هذا هو مقدار احتفال الناس بتلك الظواهر المادية التافهة، فكم يكون مدى احتفالهم بالكنز الذي في صدرها؟! ذلك القلب المليء بالحياة، الشغوف بالتضحية، النزاع إلى المثل العليا، والذي يود لو تتاح له الفرصة لاسعاد الآخرين!

ولقد أحبت هذه الفتاة! أحبت بكل ما في طبيعتها من إسراف وغلو، وبكل ما في قلبها من قوة وحياة، وما في نفسها الشعرية من ثورة وحرارة! وكان حباً نبيلاً تسامى شيئاً فشيئاً حتى تخلص من أدران الماديات ... ولعل الشاب الذي أحبته لم يكن بادئ ذي بدء يفهم معنى ذلك النوع من الحب، ولكنه أدرك على ممر الأيام أنها قدمت إليه قلباً من ذهب، وحباً نبيلاً أشبه بالخيال لغرابته وندرته، فهاله ما قدمت، وصمم على الاحتفاظ بحبها حتى يضمهما اللحد، وعلى أن يهيئ لها حياة سعيدة ولو كلفه ذلك حياته. واستبد به بعد ذلك حب قوي غلاب جعله يرى الحياة بدونها جحيما لا يطاق؛ وكان كلما تسامى إليها وتوغل في فهمها ودراستها، اتضحت له قيمة ذلك الحب الذي لا يعرف الأثرة ولا الاستهتار، وغمرته لذة روحية تجعله في شبه ذهول... ذهول الحالمين السعداء

* * *

عرفته في اكتوبر سنة ١٩٢٩، وكان لايزال طالباً بالسنة الأولى باحدى المدارس العليا، وكان تعارفهما طبيعياً ووليد المصادفة البحتة. فقد نزح والداه من الريف إلى القاهرة، ليحميا وحيدهما من بلدة المغامرة واللهو والفساد؛ واتخذت الأسرة مسكناً متواضعاً في بيت كانت تسكن به أسرة الفتاة؛ ومرضت الأم مرضاً أقعدها عن مباشرة أعمال أسرتها الصغيرة، فتطوعت الفتاة لمساعدتها، لأنها جبلت على حب الخير؛ ثم كانت ساعة من تلك الساعات التي ينسى المرء فيها نفسه وتقاليده وارادته، فتقابلت الفتاة المحتجبة الحريصة، بالفتى الشاب المثقف، ولم يكن لأحدهما يد في تلك المقابلة. كان ذلك في مساء ليلة ليلاء من ليالي الشتاء القاسية، وقد آوت الجنوب إلى المضاجع فراراً من ثورة الطبيعة؛ ولاذ الناس بالبيوت ينشدون الدفء في صمت وسكون. وكان هناك شعاع حائل ضئيل، ينبعث من نافذة الأم المريضة، ويختفي بعد قليل في جوف الظلام. وقد رقدت المسكينة حين استبدت بها نوبة قاسية أذهلتها عن كل ما حولها؛ وكان صوت الريح يذهب بأنات الأم العليلة، فلم يكن يسمعها أحد

سوى الشبح الأبيض الواقف بجانب سريرها ، كأنه ملاك هبط من السماء . كان هـذا شبح الفتاة النبيلة الحنون التي قامت بتمريض العليلة . وفتح الباب فجأة ، ودخل الابن الشاحب المحزون يصحبه الطبيب ، فلم تتمكن الفتاة من الخروج ، فقد كان عليها أن تصغي إلى تعليمات الطبيب ، وأن تشرح له ملاحظاتها عن درجة حرارة العليلة ، وبصاقها وطعامها ، ولم يتمكن الفتى من الخروج ، فقد كان المرض الليلي لأمه ، وكان عليه أن يصغي لما يقوله الطبيب عن سير المرض ؛ وهكذا جمعهما الحزن المشترك ؛ وأنستهما رهبة الموقف ، وشدة تفجعهما المريضة وابنها ، ما درجت عليه من تحفظ واحتجاب

وكان لابد للفتى بعد أن شفيت أمه أن يشكر تلك الانسانية النبيلة ، وكان لابد لها أن ترد على رسالته ، لتؤكد له أنها ماقامت إلا بواجبها الانساني ، ثم اختفت تلك المراسلات الرسمية ، لتفسح المجال للتراسل الأخوي والتفاهم الروحي ، بين الشاب المعجب بنبل الفتاة ، وبين الفتاة الثائرة الحنان ؛ ووجد كلاهما لذة مبهمة في ذلك النوع من الاخاء والصداقة ، ولذ لهما أن يفرجا عن أنفسهما بالكتابة ، وكلاهما يفهم أخاه ويحيا في بيئة تكاد لا تسمح لها باستنشاق الهواء

* * *

لم يكن مرض الأم الذي أصابها في شتاء عام ١٩٢٩ والذي كان سبباً لتعارفهما ، إلا نوبة من نوبات مرض صدري يرعى في رئتها ويأتي في مهل على ما احتازته المسكينة من جَـلَد واصطبار ، وهاقد تمكنت العلة منها وأصبحت شبحاً هزيلاً يدب إلى القبر ، ويهدي آخر أنفاسه إلى حياتنا العاجلة

وقرر الأطباء أن تبادر العليلة إلى مصحة حلوان . . . وإلا عجل إليها الموت ؛ ولكن كيف ؟ إن الوالد الشيخ لا يملك إلا ما يسد به رمق أسرته الصغيرة ، كان يملك بضعة فدادين في مديرية الشرقية ، وكانت زوجته تملك شيئاً من الحلي ، فبذلا كل ذلك عن طيب خاطر في تعليم وحيدهما ، ولكنه نال شهادة التعليم ليعلقها على جدران الحجرة الحقيرة التي استأجروها أخيراً ليقيموا بها . ثم قبع في كسر داره بجانب أمه العجوز المريضة ، وأبيه الشيخ الفاني ! وإلا فهل يجمع الصبيان في الطرق ليلقي عليهم الدروس ، ويطبق مبادئ زونسو وآراء فردريك هربرت سبنسر مستعملاً (هدايا) فروبل و (جهاز) مدام منتسوري ؟ أم يفتح مدرسة أهلية وقد تراكمت المدارس في أحياء البلاد ، وهو بعد لا يملك مايشتري به الدواء لأمه المصدورة العليلة ؟

كان مرهف الحس مهذب الوجدان ، وقد عز عليه أن يفقد أبواه ثروتهما في سبيله ، حتى إذا مابلغ مبلغ الرجال كان حملا عليهما . كان يشعر بأنه مسئول عن كل ما أصاب ويصيب والديه ؛ وقد عذبه ذلك الخاطر وأمعن في إيلامه ، فأخذ يبحث عن عمل كل يوم ، ولكن ما الذي يستطيع حامل دبلوم المعلمين العليا أن يعمله ، وهو لا يملك إلا تلك الثروة العلمية المخزونة في دماغه ، لا يدري كيف يستغلها ! ولقد صبر على الجوع حيناً وتحمل الضيق أحياناً ، ولكنه الآن لا يستطيع الصبر ، إذ يرى أمه التي غمرته بالعطف والحنان ، تجود بحياتها مع أنفاسها الخافتة اللاهثة ؛ ويرى أباه يجلس ذاهلاً مطرقاً ، ينظر نظرات حزينة جوفاء إلى تلك الانسانة المخلصة الراقدة ، التي قاسمته حلو العيش ومره ثلاثين عاماً ، غمرته فيها بكل حب وإيثار ؟!

* * *

وقف الشاب يوماً بين أبويه وقد نفد صبره وعذبه عجزه فرفع يديه إلى السما في حركة ضارعة مبتهلة ، وتساءل بصوت متهدج حزين : « أبتاه . ! ألا أستطيع أن أصنع شيئاً لها ؟ حياتي يا أبي ماقيمتها إذا لم تكن لكما وفي سبيلكما ؟ ألا يمكنني فداؤها ؟ » فابتسم الشيخ الحزين بعد أن تحجرت الابتسامة في شفتيه أعواماً ، وقام إلى ولده البار يضمه إلى صدره ، ويغمره بقبلاته ، ثم أسر إليه أن لا وسيلة لانقاذ الأم المعذبة إلا بزواجه من ابنة عمه التي ورثت عن أبيها كثيراً من المال والعقار

طعنة أصابت قلب الفتى فأدمته ! لقد كان مستعداً للتضحية بحياته لأنها ملك له ؛ أما أن يضحي بقلبه وقد وهبه ، وبفتاته وقد وثقت به واطمأنت إليه ، فهذا مالا طاقة له به . . يتزوج ؟ ولمن إذن يترك الفتاة الصغيرة المثقفة ؟ لقد تمكن الحب من قلبيهما ثلاث سنوات ، وكانا من الاعتزاز بهذا الحب بحيث لم يلوثاه بإباحة منكرة ! كانا يخشيان على حبهما وهو الثوب الأبيض الناصع ، أن يلوثه القليل من الغبار ، ولم تعد لها حيلة في التخلص من سلطان هـذا الحب الذي نما مع الأيام ، فكيف يفرض عليه أبوه ذلك الثمن الغالي ؟ لا . . إنه لن يحطم قلبها ولن يكفر بالنعمة التي منحته إياها . . إنه بشر ولاحتماله حد معقول ؛ وقد أحب بكل قواه ؛ ولئن كان مسئولاً عن سعادة أمه ، فهو

مسئول كذلك عن سعادة فتاته ، فقد منحته الأولى حبها وحنانها لأن عاطفة الأمومة فيها أرادت ذلك ، بينما منحته الثانية حبها منة منها وتفضلاً . . .

لقد يستطيع أن يخنق حبه ويحطم قلبه ، ليشترى بذلك سعادة أمه ، ولكنه لا يستطيع أن يحطم قلب فتاته الصغيرة النبيلة . . .

ولكن الفتاة كانت أقوى منه . . لقد أحبته حباً صادقاً ، والمرأة إذا أحبت فمات المستحيل فى سبيل سعادة من تحب . . . لقد عجز عن السير فى طريق التضحية الشائك ، فلتحمله هى على كتفيها غير آبهة بالأشواك تمزق ثياب راحتها ، وتسيل دماءها . ولقد أعماه الحب عن الواجب ، فلتفتح بأناملها الرشيقة عينيه ، وتوقظ شهامته ورجولته ، وحسبهما سعادة بعد ذلك إنقاذ الأبوين الكريمين

ولكن كيف تقنعه بوجوب التضحية ؟ حدثتها نفسها أن توهمه أنها تحب غيره ، ولكنها رجعت عن تلك الفكرة الروائية التى فرضها « اسكندر دماس » على المحبين ، وعز عليها أن تلوث الحب العالى بمثل هذه الأفكار ، وهو آخر ما تبقى لها من سعادة ! وأشفقت على فتاها أن تنهدم المثل العليا أمامه فيجزع وربما جحد الفضيلة وأنكر الحياة ! ثم فكرت فى أن توهمه أن أباها يفرض عليها الزواج من غيره ، ولكن هذا لن يفيد فى إيقاظ نخوته وشهامته ، وإذن فلتتقدم اليه فى صراحة وحزم ، لتعلنه أن حبها وقد تنزه عن الماديات ، أضعف من أن يحتمل تبعة موت الأم الحنون ، وجنون الأب الشيخ ، وأنها تحبه إلى الدرجة التى تخشى عليه فيها من فقد احترامها له إذا قتل أمه بأنانيته . إنها تحبه ، ولكن هذا الحب نفسه هو الذى يفرض عليها أن تتنكر له إذا لم يؤد واجبه كرجل وكابن ، فاذا ما سألها عما ستفعله بنفسها بعده ، أجابته فى رفق حازم أن لا شأن له بها ، وأن عليه أن يتزوج من ابنة عمه . . .

لها الله ! ! ما كان أنبلها وهى توصى حبيبها الذى انتزعته الأقدار منها بالرفق بابنة عمه وإسعادها وتمهيد الراحة لها ؟ !

لها الله ! ! ما كان أنبلها وقد وقفت تهمس فى أذنه ألا يحدث أمه عن تضحيته ، وألا يقدم اليها الدواء مسموماً باشعارها أن حياتها أنقذت بهذا الثمن الغالى . . .

ما كان أنبلها وقد وقفت تبعده عنها أشد ما تكون حباً له وشغفاً به ! !

* * *

من يدرى ؟ ! ربما كان هول الموقف قد شغلها عن النظر إلى الأفق البعيد ، حيث تتجمع قطع الظلام ويتصل بعضها ببعض ! وربما كانت تجهل أن انتزاع الكلمات التى حرمت بها الفتى على الزواج من ابنة عمه ، أقسى وأشد إيلاماً من قطع لحمها وهى حية . . . ظنت نفسها سعيدة ساعة خضع الفتى لحكمها ، وقامت تودعه وتشد على يده بكلتا يديها وهى تبتسم ابتسامة شاحبة ذاهلة ، حتى إذا ما تركته وتزودت منه بالنظرة الأخيرة ، أحست بالألم يحز فى قلبها ، فهرعت إلىّ – وأنا صديقتها الواحدة – كالمجنونة ، تشكو وتلتمس التشجيع ؛ ثم ركنت إلى الصمت والهدوء ، ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ! وكنت أعلم أن وراء مشيتها الميكانيكية المفجعة ما وراءها ! وأن تلك البسمة الصفراء الباهتة المتحجرة على شفتيها ، تخفى وراءها ناراً ترعى قلب الفتاة المسكينة . كان هدوؤها المصطنع يقتلنى ، وكنت ألمح عن كثب وميض النار تتأجج بين جوانحها وتختفى تحت رماد الحياء والمداراة ، كزبد الأفران العالية ، يبدو سطحه للعين تراباً أدكن ، حتى إذا انفرج الزبد ترى حممه ! ولم أكن أرجو شيئاً ، إلا أن يمُن الله عليها بنعمة البكاء ! !

كان حبها من نار ونور ، فلما حرمت نوره ، رأت أن تحترق بناره فى صمت ! فقد كان عليها أن تظهر للناس بسّامة ضاحكة وإلا ولغت ألسنة السوء فى سمعتها ، ولوثت حبها الطاهر النبيل ، وعبثت بمستقبل الحبيب النائى البعيد !

وكان علىّ أنا ، أن أتغنى بشهامتها ، وأن أؤكد لها أنها ظفرت من الحياة بأوفى نصيب ، حين اشترت بسعادتها سعادة ثلاثة آخرين ! وكانت تنصت لكلماتى أحياناً ثم يغلبها الضعف فتفر إلى حيث تختلى بنفسها لا لتبكى ، فليتها كانت تفعل ، وإنما لتحترق فى صمت !

ولمحتُ عن بُعد شبح العاصفة يقترب فى بطء ، ولازمت الفتاة وأنا أكاد أختنق من الحزن والألم ؛ فلما أعلن أخوها أن فتاها تزوج بابنة عمه ، أرسلت نظرات محمومة مبهمة جوفاء ! وفى بطء حزين ، قامت إلى حجرتها ، فركضت وراءها ، ولم أجد ما أقوله إلا أن أطلب اليها أن تسرف فى البكاء ، فقد هالنى تحجر الدمع فى مقلتيها أشد مما يهولنى الصراخ والنواح وانهمار الدموع ! !

ابنة الشاطىء



البريد الأدبي

الرصافي في دينه

دفع إليّ اليوم وأنا مار في سوق الحميدية أخ لنا من الوراقين الأدباء متــدين غيور ، كتاباً جديداً لأمين الريحاني اسمه : قلب العراق ، صدر في هــذه الأيام في بيروت ، وأقرأني فيه الفقرة الآتية (ص ٢٦٥) ، ولست أعرف من الكتاب أكثر منها ، فأحببت أن أنشرها ليقول فيها الرصافي كلمته ، فهو المتهم فيها ، واليه تنسب هــذه الآراء . . . وليطلع عليها حُولة الكتاب ، وحماة الدين ، وورثة البيان القرآني : الرافعي والزيات وعزام ، ويروا رأيهم في هذه « الأفكار الجديدة » !

وهذه هي الكلمة بنصها وفصها :

قال :

« إن للرصافي رأياً في الوحي الشعري غريباً : هو لا يؤمن بالوحي ، أو بالحري الوحي المنزل ، إنما يعتقد أن القوة الشعرية في الابداع تتعلق بقوة الباه في الجماع ، وأن الضعف الذي يعترى القوة الواحدة يتصل بالأخرى ، إذن لابد من التوازن بينهما ، بل هو ضروري . . . (إلى أن قال) :

. . . ثم ذكر النبي محمداً ، وهو في نظر معروف شاعر عظيم على أن أجمل قصائد النبي ، أي أجمل السور القرآنية ، إنما هي التي جاء بها في عهد الاعتدال الجنسي يوم لم يكن له غير خديجة زوجاً ، أما بعد وفاة خديجة فقــد أصبح محمد مزواجاً ، وكانت القصائد ـ السور ـ في هذا العهد مثل نسائه (كذا) أي دون ما تقدم منها ومنهن

فقد كتب الرصافي سيرة النبي محمد ، وأطلعني عليها مخطوطة بيده ، في سبعة دفاتر من الدفاتر المدرسية ، فما أدهشني منها ما فيها من العلم والتحقيق لأن مصادر الموضوع متوفرة لمن شاء معالجته ، وأحسن البحث والموازنة ، إنما أدهشتني القوة النافذة والمقدرة على التحليل والاستخراج ، والتفلسف في عقائد لا تستقيم بغير الايمان والجرأة والصراحة مع الاتكال على العقل والعلم فيهما

فقد استخدم في « سيرته » المصباح الذي استخدمه العلماء الأوربيون في نقد التوراة ، أي مصباح النقد الأعلى الذي ينير العلم بنور العقل والمقارنات التاريخية ، ومما يزيدك إعجاباً بالرصافي أنه لا يحسن لغة أجنبية ، فقد ركن في كل ما حلل وأوّل واستخرج واستنتج الى اجتهاده الخاص والى علومه الواحدة العربية

وإنك لتدرك الروح في مصنفه هذا إذا ما علمت رأيه بالله ، فقد قال لي مرة : إن الآية لا إلــه إلا الله ، لا معنى لها ويجب أن تبطل ، أو تبــدل بالآية ، لا إلــه إلا الوحود ، أي أن الكون هو الله ، والله هو الكون ، هي عقيدة البانيتزم أي الحلول وهو فيها على اتفاق والزهاوي ، قد يهمل وينسى كثير من شعر الرصافي في المستقبل ، وتظل سيرته النبوية من الكتب التي تقرأ وتكتنز ذاك هو الرصافي في دينه » اهـ

فما هو رأي الشاعر الكبير الأستاذ معروف الرصافي ؟ . . .

دمشق — علي الطنطاوي

(الرسالة) لم نقرأ كتاب الريحاني لأنه لم ينشر في مصر ؛ ولكنا نعلم أن حكومة العراق قد صادرته ؛ وربما كان هذا المتن من أسباب هذه المصادرة ؛ على أن الرصافي قد يقول شيئاً من هذا الكلام في ساعة لهوه ليطوى في بساط الشراب ، لا لينشر على الناس في كتاب ! فذنب (الفيلسوف) الذي روى ، أقبح من ذنب (الأديب) الذي تحدث ! والكلمة قبل كل شيء للأستاذ الرصافي

الى الدكتور عزام

في العدد ٨٧ من (الرسالة) نشر الدكتور عبد الوهاب عزام « قصيدة تاريخية » خطيرة بعثها بعض أهل جزيرة الأندلس للسلطان بايزيد العثماني يستغيثون به مما حلّ بهم من القواصم والدواهي في دينهم ودنياهم بعد أن نقض الاسبان العهد والميثاق الذي أُخذ عليهم . وقد وصلت القصيدة للدكتور عزام بواسطة العلامة الشيخ الجليل الراوية خليل الخالدي الذي نقلها من نسختين

بقلم مغربي رآها بمدينة فاس . وختم الأستاذ عزام تمهيده للقصيدة الثانية بقوله : ولسنا ندرى ما كان جواب السلطان بايزيد على هذه الدعوة الملهوفة والقصيدة الباكية . فمن عرف شيئاً في هذا فليخبرنا مشكوراً »

وأنا أخبر الأستاذ الفاضل — ولا شكر — بأن القصيدة الثانية ذكرها كلها الشهاب أحمد المقّري صاحب نفح الطيب في كتابه : « أزهار الرياض . في أخبار القاضي عياض » (١ : ٩٤) وهو كتاب طبع جزؤه الأول بتونس سنة ١٣٢٢ ويوجد بعض ثانيه خطأ ؛ كما ذكر قصيدة ميمية بعثها أبو عبد الله بن الأحمر لسلطان المغرب يعتذر فيها عما فعل وذلك بعد نزوحه لفاس واستقراره بها حيث توفى وترك ذرية

أما جواب السلطان (أبا يزيد الثاني ابن محمد الفاتح ووالد سليم الأول) فيظهر أنه سعى لاغاثتهم بما أمكنه مع ما عرف به من الرغبة عن الحرب والاخلاد الى السلم ، فقد ذكر الأستاذ حسين لبيب في كتابه تاريخ الأتراك العثمانيين (٣ : ٣٩) أن (كمال ريس) أول مشاهير أمير الايات الترك ، كان أول ما ظهر اسمه : (سـنة ١٤٨٣ لما جُعل قائداً للأسطول الذى أرسله السلطان بايزيد غوثا وإعانةً لمسلمي غرناطة الذين أرسلوا لسلطان البحرين والبرين مستجيرين به من ظلم وتعدى نصارى اسبانيا)

فيكون بذلك قد كاتب الاسبان في خطيهم أولاً :

وقد بلغ المكتوب منكم إليهم فلم يعملوا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداءً وجرأةً علينا وإقداماً بكل مساءة

(كما تقول القصيدة) فلما لم يسمع له نداء أرسل أسطولا لاغاثتهم وإعانتهم في محنتهم ولكن الشمس كانت الى الغروب

رباط الفتح (المغرب الأقصى) عبد الكريم بن الحسني

تكريم الأزهر للأستاذ الأكبر

أقام الأزهر علماؤه وطلابه في مساء الأربعاء الماضي حفلة تكريمية للأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي دُعي اليها ألوف ، وألقيت فيها خطب ، وأنشدت بها قصائد ؛ وكانت الرسالة تود أن تسجل هذه الظاهرة الجديدة في حياة الأزهر لولا أن لجنة الاحتفال أغفلت دعوتها ، لسبب نرجو أن يكون كل شيء غير المروق أو الفسوق . . . . . ! !

لوبي دى فيجا

تحتفل اسبانيا بذكرى شاعرها الأكبر لوبي دى فيجا بمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته ، وفى الأدب الاسباني اسمان خالدان يفوقان في العظمة والبهاء كل اسم آخر : هما سير فانتس دى سافدرا ، ولوبي دى فيجا ، الأول في النثر والخيال الرائع ، والثاني في الشعر ؛ وقد عاشا في عصر واحد ، ولكن سيرفانتس دى سافدرا قد غدا اسما عالمياً ، وغدا أثره الشهير «الدون كيشوتى» أثراً من أعظم الآثار العالمية ، هذا بينما يبقى لوبي دى فيجا اسبانياً فقط وينحصر صيته وأثره في الأدب الاسباني . ولكن لوبي دى فيجا يبذ من هذه الناحية مواطنه ومعاصره ، فهو عميد الأدب الاسباني الحديث وأعظم أقطابه ، وهو لوبي فيلكس دى فيجا ، ولد بمدريد في ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ ، وربى تربية عسكرية ، وانخرط في سلك الجيش بادئ ذى بدء ، وفى سنة ١٥٨٢ اشترك في الحملة التى بعثتها اسبانيا إلى جزائر الآزور ، وبعد ذلك بأعوام اشترك في الحملة البحرية الكبرى التى جردتها اسبانيا لغزو انكلترا وهى المعروفة بحملة « الارمادا » ، (سنة ١٥٨٨) ؛ ثم انتقل إلى الحياة المدنية ، وعمل سكرتيراً للدوق آلفا (دوق البه) وزير فيليب الثاني الشهير ، واشتغل بعد ذلك سكرتيراً للمركيز ملبيكا . وفى سنة ١٦١٣ دخل الرهبنة وانقطع للنظم والكتابة حتى وفاته في ٢٧ أغسطس سنة ١٦٣٥ .

كان لوبي دى فيجا شاعراً عبقرياً ومؤلفاً مسرحياً عظيماً ؛ وكان يضطرم ابتكاراً وطرافة ، وكان ينثر في شعره كل العواطف البشرية وضاءة ملتهبة من الحب والأسف والغيرة والأمل والحزن والطمع وطموح الجد ؛ وكان شاعر الحقيقة في الوقت نفسه يتنقل بين مراحل الحياة البشرية ؛ وكان أنيقاً في لفظه يتخير التعبير المنسجم ، فيجمع نظمه بين الفلسفة الحية والخيال الساحر والبيان الرائع . وكان تقلبه في ميادين الحياة المختلفة ، من الجندى ، إلى الحياة المدنية ، ثم إلى الحياة الكنسية ، من أكبر عوامل الخصب والتنوع في خياله ؛ وكان يحب مسقط رأسه «مدريد» ويخصها ويخص مجتمعاتها بكثير من نظمه الممتع ، بيد أن لوبي دى فيجا كان شاعر الخاصة ، ولم يغز نفوس الكافة ، ذلك لأنه كان يرتفع عن مستواهم في تفكيره وفى وحيه ؛ أما معاصره وشريكه في

الخلود ، سيرفانتيس ، فقد كان أبعد صيتاً منه فى نفوس الكافة ، لأنه كان أكثر تنزلاً اليهم وأقرب إلى أفهامهم ومشاعرهم

وكتب لوبى دى ڤيجا كثيراً للمسرح الاسبانى ، وكان من أعظم عوامل مجده وازدهاره ؛ وقد بلغ ما كتبه من القطع المسرحية زهاء ألفى قطعة ؛ ولم يتبوأ مكانه فى الأدب الاسبانى بقريضه وأناشيده قدر ما تبوأها بهذا التراث المسرحى الرائع . وله أيضاً كثير من المؤلفات القصصية ، ونظم كثيراً من الأناشيد والشعر الخالص فى مختلف الفنون والنواحى ، وكان يتبوأ فى عصره ذروة النفوذ ، ويمكن أن نقارن نفوذه الروحى فى عصره وفى أمته بنفوذ ڤولتير فى فرنسا فى القرن الثامن عشر

وفاة المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى

استعز الله بمحدث الشام وعلامة الاسلام الأستاذ الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى والد رئيس الحكومة السورية عن تسعين عاماً قضاها فى الاقراء والافتاء والعبادة . وقد عرا الشام من هول مصابه رجفة من الحزن لم تسكن على الصبر والعزاء بعد . وقد نشرنا عنه فى هذا العدد مقالاً للأستاذ الطنطاوى يبين عن فضله ويكشف عن عظم المصاب فيه

اربعون عاما من السينما

فى أواخر سنة ١٨٩٥ ، أذاع لوى لوميير أنه قد أتم اختراع جهاز ضوئى جديد ينقل صور الأشخاص والكائنات فى حركاتها الطبيعية . وفى شهر ديسمبر من هذا العام أقيمت التجربة العملية الأولى لهذا الاختراع فى البهو الأسفل لمقهى يقع فى البناء رقم ١٤ من شارع الكابوسين ؛ وكان هـــذا الاختراع هو السينما ، فاجتمع لشهوده ثلاثة وثلاثون شخصاً ؛ ولم يكن المعروض « فلماً » شائقاً بالمعنى الصحيح ، ولكن مناظر متقطعة من الأشخاص والأعمال

وقد عمل لوى لوميير وأخوه أوجست لوميير بعد ذلك على تحسين هذا الاختراع الذى درسه مخترعون آخرون قبل ولاسيما هنرى ماريه العلامة الطبيعى الشهير . وعاش لوميير ليرى بعينيه كيف نما اختراعه وأضحى أداة مدهشة من أدوات المتعة والثقافة العالمية . وقد تناوله أثناء هذه الحقبة مخترعون عظماء مثل أديسون وتمهدوه بطائفة من الابتكارات المدهشة حتى أضحى من أعظم مدهشات عصرنا

وفى الأنباء الأخيرة أن بلدية باريس قد احتفلت بمرور أربعين عاماً على اختراع لوى لوميير لآلة السينما ؛ وشهد لوى لوميير الاحتفال بظفره بعد أربعين عاماً من تحقيقه ؛ وألقيت خطب بديعة ، وأنعم على المخترع خلالها بوسام الاستحقاق الذهبى

كتاب عن مصر

أخرجت شركة درلانجر للطباعة والنشر فى انجلترا كتاباً جديداً بعنوان « آخر بلاء لمصر » وهو يتضمن تاريخ حياة اللواء رسل باشا حكمدار القاهرة وقصة مكتب المخدرات

مؤتمر المستشرقين

سيعقد فى مدينة روما مؤتمر المستشرقين التاسع عشر بين ٢٣ و ٢٩ من شهر سبتمبر القادم ، وسيمثل مصر فيه الأساتذة طه حسين وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق

وسيشهده طائفة أخرى من رجال الأدب واللغة فى مصر وفلسطين وسورية ، وقد أسندت وكالته إلى الدكتور كارلو نالينو أستاذ الأدب العربى بجامعة روما وعضو المجمع الملكى للغة العربية بالقاهرة

مجلة الفجر الفلسطينية

توفرت طائفة من شباب العرب فى فلسطين على اخراج مجلة أدبية أسبوعية باسم « الفجر » تصدر عن مدينة يافا

ويقوم على تحريرها نخبة ممتازة من الكتاب فى فلسطين ؛ كالأساتذة محمود سيف الدين الايرانى ، وعارف سليمان العزونى ، والدكتور أبى غنيمة ، وسامى السراج . يعاونهم فى تحريرها من مصر الأساتذة محمود تيمور وابراهيم المصرى ومحمد أمين حسونه ؛ وقد صدر منها عددان دلا على نزعة طيبة وجهد محمود

لإحياء ذكرى ليسنج

كانت قد ألفت فى ڤينا قبل الحرب لجنة خاصة للنظر فى اقامة أثر تذكارى كبير للكاتب والنقادة الألمانى الكبير ليسنج ومرت اللجنة بأدوار وأحداث كثيرة ، وتوقفت أعمالها أثناء الحرب ؛ بيد أنها وفقت أخيرا إلى اتمام مهمتها بعد صعاب جمة ، وافتتح الأثر الذى صنعه المثال شارو برسم ليسنج فى حفلة كبيرة جمعت رجال الفن والأدب وأساتذة الجامعة ؛ وخطب رئيس أكاديمية الفنون وهو رئيس لجنة الذكرى الدكتور ردليخ فنوه بالعلائق الفكرية التى تربط ليسنج بمدينة ڤينا إذ زارها مرتين ، وأقام بها ردحاً من الزمن ، وكان يحلم فيها بأن يغدو مديرا للمسرح الامبراطورى حيث كانت تمثل رواياته بنجاح مستمر ؛ وأشار إلى أن الأثر الذى يقام للكاتب فى ڤينا إنما يراد به تحية الآراء والمبادئ التى كافح ليسنج من أجلها ، وهى مبادئ الانسانية والعدالة والتسامح ؛ وهى مبادئ تخلو اليوم منها بعض المجتمعات (يشير إلى ألمانيا) . وخطب وزير المعارف النمسوية الدكتور برتر ؛ فأتى على حياة ليسنج ومؤلفاته ، وقال إن النمسا الحالية تكرم فى شخصه ألمانيا العالمية ، وتدلل على أنها مازالت بلد الثقافة الروحية والفن الرفيع ؛ وأنها على أهبة دائماً لأن تكرم النبوغ الفكرى ؛ وأعلن حاكم مدينة ڤينا أنه يضع يده على الأثر باسم المدينة ؛ وأن الميدان الذى يقام فيه سيسمى قريباً بميدان ليسنج

وليسنج كما هو معروف من أكبر كتاب ألمانيا المسرحيين فى القرن الثامن عشر

أثر جديد لجان لوران

نشرت مجلة « الأخبار الأدبية » الفرنسية (نوفيل لترير) فى أحد أعدادها الأخيرة فصلاً عنوانه « خاتمة مسيو دى بوجرلون » وهو أثر لم ينشر من قبل للكاتب الفرنسى جان لوران ؛ وتتمة لكتاب قصصى بقلم لوران عنوانه « مسيو بوجرلون » ظهر فى سنة ١٨٩٧ ، ولقى فى عصره نجاحاً عظيما ، وطبع مراراً فى أعوام قليلة ، ولآثار جان لوران قيمة خاصة ، فهو كاتب اجتماعى وافر السحر والطرافة ، وقلما تجد فى الآداب الفرنسية نظيراً لأسلوبه المطبوع أو تصويره الدقيق . وقد امتاز لوران بأنه يصف من المجتمع جوانبه الخفية ، ومثالبه المروعة ، فليس أبدع ولا أروع من قلمه فى وصف أوكار البغاء والرذيلة ، ومهابط الفجور والتدهور الاجتماعى ، وصرعى المخدرات والشهوات السافلة . وقد توفى هذا الكاتب المبدع سنة ١٩٠٦ بعد أن تبوأ فى أدب عصره أرفع مكانة

نادى المثنى بن حارثة

فى بريد العراق أن شباب بغداد أسسوا نادياً بهذا الاسم ، غايته بث الثقافة العربية ، واحياء التقاليد القومية ، واذكاء روح الرجولة فى الشبان بالطرق المشروعة ، ومحاربة كل مايضعف الأخلاق ويوهن الصحة

وفى النادى لجان مختلفة ، منها لجنة الثقافة القومية ، تمهد المحاضرات والخطب والنشرات العلمية ، وتقوم باحياء الأيام والحوادث القومية ، وتكافح الأمية ، وتعنى بالآثار العربية ، وتمد مكتبة منظمة تحوى الكتب العربية المختارة ، وتتصل بالحلقات العلمية فى البلاد العربية

واللجنة الاجتماعية ، ومهمتها الخدمة الاجتماعية : وتقوم بالارشاد الصحى والاجتماعى والتهذيبى ، وتعالج المرضى من الفقراء ، وتعنى عناية خاصة بالفلاح والعامل وترقية شؤونهما

ولجنة الفنون الجميلة ، وهذه تعنى بالأناشيد العربية والموسيقى وتمثيل الروايات القومية والقيام بترقية الرسم والتصوير والنحت والاعتناء بالعربية

واللجنة الاقتصادية ، تأخذ على عاتقها تشجيع المصنوعات الوطنية ، والسعى إلى ايجاد مصانع وطنية تقوم باحياء بعض الصناعات الوطنية التى كان لها الشأن الكبير فيما مضى ، وهى تعمل كذلك على ايجاد صناديق للتوفير وغير ذلك من الأمور الاقتصادية التى تحتاج اليها البلاد

ولجنة محيى القرى ، وهى تعنى بايجاد قرية عراقية عصرية كاملة من جميع الوجوه العمرانية والصحية

ثم اللجنة الرياضية ، وتقوم بتشجيع الرياضة والألعاب على اختلاف أنواعها ، من فروسية ورماية وركوب خيل وصيد وسباحة ، وتعنى بصورة خاصة باحياء الألعاب القومية الموروثة

ومثل هذا النادى المفيد يحتاج إلى عون الحكومة ليأمن عوادى الانحلال وجرائر الفوضى ؟



رسالة في الاسلام

بين هيجل ومحمد عبده

تاليف الأستاذ محمد محمد البهي

عضو بعثة تخليد ذكرى الامام

من أولى نتائج الدرس الذي عكف عليه أعضاء بعثة تخليد ذكرى الأستاذ الأمام محمد عبده ، كتيب قيم وضعه باللغة الألمانية الأستاذ محمد محمد البهي ، الذي لا زال يتابع دراسته في جامعة هامبورج بألمانيا

ويقول المؤلف في مقدمة كتيبه هذا إن الدافع له على إصداره هو ما رآه في ألمانيا من أن الناس فيها لا يفقهون الاسلام على حقيقته ، وقد كوّن رأيه هذا بعد استماعه لأستاذه « نوك » Brof. Dr. Noack في محاضراته عن « فلسفة التاريخ » لهيجل ، وبعد اشتراكه في مساجلة الأستاذ شتروتمان Brof. Dr. Srtolhmann لتلاميذه في عدد من المؤلفات عن الاسلام . وبذلك أتيحت له الفرصة ليوازن بين آراء « هيجل » في الاسلام ، كما جاءت في كتابه « فلسفة التاريخ » ، وآراء فيلسوف الاسلام الامام محمد عبده ، كما جاءت في كتابه « الاسلام والنصرانية ، والعلم والمدنية » . وأراد الأستاذ البهي أن يتقدم برسالة في هذا الموضوع لينال بها الدكتوراه في الفلسفة ، ولكن غيرته على العلم والدين لم تمهله حتى يستوفي البحث ؛ فأصدر هذا الكتيب لينفس عن روحه وليطلق فكرته من عقالها ، وكان حقاً موفقاً في سرد أهم آراء الفيلسوف الألماني هيجل الخاصة بالاسلام ، ورغم الاجمال الذي التزمه المؤلف فانه ألم بتلك الآراء إلماماً حسناً . فذكر كيف أن الاسلام في نظر الفيلسوف هيجل ، هو صورة صادقة للعقلية الشرقيـة ، فهو يجمع بين المتناقضين : المسائل التجريدية والمسائل الواقعية . وأن فكرة الآله عند اليهود هي غيرها عند المسلمين — على حد ما يعتقده هيجل ، فيهوا Jehova هو رب الشعب الاسرائيلي فقط ، أما الله فرب العالمين ؛ ويرى هيجل أن المسلمين يعيشون ويحيون من أجل دينهم وتحقيق مبادئه ، وأن حياتهم الدنيوية ليست إلا وسيلة لبلوغ الآخرة ومافيها من متاع . ولهذا كانت فتوحاتهم العظيمة في آسيا وأفريقيا وأوروبا . وكان التعصب ضد الكفرة على أشده في بادئ الأمر ، إلا أنه تراخى بعض الشيء ، فاستعيض عن قتل الكافر بفرض جزية سنوية على شخصه ؛ ومع ذلك لم يكن التعصب في الاسلام مدعاة تخريب وهدم ، كما هي طبيعة التعصب ، بل كان فوق ذلك مدعاة تشييد وبناء . ثم تدرج المؤلف إلى ذكر رأي هيجل في أن الاسلام كدين يبرر أعمال العنف والقوة لنشره ، كما برر روبسبير Robespierre أعمال العنف والقوة لبلوغ الحرية ؛ وأن الفردية في الاسلام من التناقض بدرجة تجعل الحاكم الذي يبغي المجد والعظمة والسيطرة لا يتوانى في أن يضحي بها جميعاً في سبيل الدين ، وقد لا يلبث إلا قليلاً حتى يستردها دون هوادة ، وأن الخليفة عمر — على حد ما ذكره هيجل — هو الذي أمر باحراق مكتبة الاسكندرية ، بينما الخليفة المنصور كان يجمع العلماء في مجلسه ويغدق عليهم العطايا ؛ ويحسن معاملته لهم ازدهر الأدب والعلم في أيامه . ثم ذكر بأن الحريات كانت مكفولة للناس كافة ، لا فرق بين رجل وامرأة ، ولا بين طبقة وأخرى ، حتى كان الرجل من رعاع الناس يدخل على الخليفة في مجلسه فيحدثه مطمئناً عن كل ما يريد ؛ ولكن عقب ذلك اعتكف الخلفاء والحكام في قصورهم وأبعدوا الشعب عنهم ، فانقلب الحال إلى الضد . ويرجع « هيجل » أسباب ذلك إلى أن التعصب الديني كانت قد بردت حرارته ، فبدأت المفاسد تسود المجتمع ، وأصبح الاستمتاع بلذات الحياة شهوة الناس في هذه الدنيا ، ثم تراجع الاسلام كما

يقول هيجل إلى أفريقيا وآسيا ، ولم تطقه النصرانية إلا فى ركن ضيق من أوروبا . وتلاشى الاسلام كقوة مسيرة لتاريخ العالم .
ويعترف هيجل بأن الغربيين أخـذوا عن العرب مختلف العلوم والفنون والمعارف ، وبخاصة الفلسفة ؛ ويقر فيلسوف الألمان أن الاسلام هو أكبر ظاهرة فى تاريخ العالم

غير أن الأستاذ البهى يرى أن هيجل حكم على الاسلام من خلال أعمال بعض المسلمين . وكان الأولى به أن يرجع إلى مصادر الاسلام وهى : القرآن والحديث وما أجمع عليه الأئمة . وعاب على هيجل طريقته فى البحث ، وقال بأنه (أى المؤلف) لن يكون عادلاً فى حكمه إذا ما نسب إلى الدين المسيحى عـداءه للعلم ومحاربته لحرية الفكر ، مستندا فى ذلك إلى بعض الحوادث التى منها :

(١) إعدام (حيباتيا) المصرية Hypatia ، وكانت سـيدة من أفذاذ العلماء الرياضيين ، عام ٤١٥ ميلادية أثناء تعقب النصارى للفلاسفة

(٢) إحراق ١٢٢٠ شخصاً بالنار فيما بين سـنة ١٤٨١ و ١٤٩٩ ميلادية ، وهم أحياء تنفيذاً لأحكام الرقابة الموضوعة على الـكتب وأصحابها

(٣) إحراق جيوردانو برونو Giordano Bruno ، الذى قال بالوحدانية الربانية

(٤) إحراق الـكردينال زعنس Ximenes ٨٠٠٠ مجلد من الـكتب العلمية فى غرناطة

إن كل هذه الأعمال لا تؤيدها التعاليم الدينية المسيحية ، وكل بحث يرتكن إلى مثل هذه الأشياء يكون خاطئاً . وهكذا كان هيجل فى بحثه عن الاسلام ؛ واستشهد المؤلف برأى الأستاذ هورتن الذى ذكر فى أحد كتبه : « أن انحطاط المسلمين وعدم قيامهم بأعمال مجيدة سامية لا ترجع الى روح الاسلام ، ولـكن إلى سوء تصرف الخلفاء وإلى غيره من الأمور ، ونشأ عن ذلك أضرار عديدة بالدين والعادات وسمعة الاسلام » .

ثم ناقش الأستاذ البهى ثمانى مسائل من آراء الفيلسوف هيجل أولها : الفردية فى الاسلام . فهى ليست العمل للآخرة دون سواها ، كما تصورها هيجل ، ولـكن العمل للدنيا أيضاً ؛ واستشهد بما جاء فى الذكر الحكيم : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ، وما جاء فى الحديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا »

وتكلم فى المسألة الثانية عن الصوم وأن الغرض منه ليس مجرد صحة الأبدان ، بل له غرض معنوى آخر هو إشعار الصائم بوجوب العطف على الفقراء والمساكين

أما المسألة الثالثة فقد حاول فيها الأستاذ البهى أن يثبت بأن الاسلام لم يكن فى كل الحروب التى خاضها إلا مدافعاً عن كيانه . أما فكرة الغزو لاجبار الناس على اعتناق الاسلام ، فليس لها أصل فى الدين . وقد استشهد بآراء هورتن الذى ذكر فى أحد كتبه بأن الحروب الدينية فى الاسلام لم تكن إلا للدفاع عن هجمات الأعداء أو لاخماد فتنة . ولهذا كانت الفكرة القائلة بأن الدين الاسلامى يبرر أعمال العنف والقوة فكرة خاطئة

وعالج المؤلف فى المسألة الرابعة مسألة الجزية على الذميين ، وقال بأن الغرض منها لم يكن إجبار الناس على اعتناق الاسلام بل كانت مجرد ضريبة للمحافظة على أرواح الناس وأملاكهم

أما عن التعصب فى الدين ، وهى المسألة الخامسة فالاسلام لا يعارض العلم ، ولا يعاقب الأحرار من العلماء أو يتعقبهم ، بل دعا الدين الاسـلامى إلى الدراسة ، وإلى العلم والمعرفة ، وقد أحيا المسلمون العلماء أياً كانوا ، وأشادوا بذكرهم واحترموهم وبجلوهم ؛ ويكفى أن علماء اليهود فى سورية وعلماء النصارى فى مصر ، كانوا يجلسون مع غيرهم من العلماء فى مجالس الخلفاء والحكام . ولقد نقل المسلمون العلوم إلى بلاد الغرب ، كما أن الاسلام لم يحظر على الناس حرية البحث ، بل ضمن لهم الحرية الكاملة سواء أكانوا من الأولياء أم الأعداء

أما مسألة حرق العرب لمكتبة الاسكندرية ، وهى النقطة السادسة ، فان هذه الدعوى لم تأت فى أى كتاب علمى للتاريخ ، وقد كذبتها دائرة المعارف الاسلامية ، كما كذبها الأستاذ موللر Prof. Müller فى كتابه « الاسلام فى الشرق والمغرب »

وعالج المؤلف فى النقطة السابعة عفاء الدولة الاسلامية ، وقال إن ذلك يرجع إلى أسباب سياسية واقتصادية ، مما ليس له علاقة بالدين ، واستشهد برأى الفيلسوف شبنجلر حيث يقول :

« وإذا كان هيجل قد ختم بحثه عن الاسلام بقوله : « إن قوة الاسلام اختفت كعامل لتكييف تاريخ العالم . . » فعلينا أن نتذكر بأنه يوجد اليوم ثلثمائة مليون مسلم فى العالم »

وأعقب الأستاذ البهى ذلك البحث بآراء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده فى الاســـلام ، مستندا فى ذلك إلى كتابه « الاسلام والنصرانية ، والعلم والمدنية » – كما ذكرنا فى البدء . وإنا نكتفى هنا بالاشارة اليـه ، ليراجعه من يهمه الاطلاع عليه

ابراهيم ابراهيم يوسف

شرح الايضـــاح
فى علوم البلاغة

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربية

ذكر جلال الدين الخطيب أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن القزوينى أنه ألف كتابه (الايضاح) وجعله على ترتيب مختصره الذى سماه (تلخيص المفتاح) وبسط القول فيه ليكون كالشرح له ، فأوضح فيه مواضعه المشكلة ، وفصل معانيه المجملة ، وعمد إلى ما خلا عنه المختصر مما تضمنه (مفتاح العلوم) للامام السكاكى ، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبد القاهر فى كتابيه (دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة) وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما – فاستخرج من ذلك كله زبدته ، وهذبه ورتبه حتى استقر كل شىء منه فى محله ، ثم أضاف إلى ذلك ما أداه اليه فكره ولم يجده لغيره ، فجمع بهذا أشتات هذه العلوم كلها ، واستقامت له فيها هذه الطريقة البديعة التى فتن بها الناس بعده وجاراه فيها كل من كتب فى علوم البلاغة الثلاثة إلى الآن

وهو يميل فى مختصره (تلخيص المفتاح) إلى طريقة السكاكى فى العناية بجمع القواعد دون إيراد الشواهد ، ويميل فى الايضاح إلى الجمع بين طريقة السكاكى فى ذلك ، وطريقة عبد القاهر فى العناية بإيراد الشواهد ، وقد امتاز فى إيضاحه على السكاكى فى طريقته بحسن الترتيب ، وبوضوح العبارة وجريها على الأسلوب العربى ، كما امتاز على عبد القاهر بالقصد فى إيضاح القواعد على ما يليق بأسلوب الكتابة العلمية

ولكن العلماء الذين أتوا بعد الخطيب لم تعجبهم طريقة (الايضاح) على ما تمتاز به من هذه الميزات العظيمة ، وفتنوا أيما فتنة بطريقة (التلخيص) فى العناية بجمع القواعد ، وإهمال إيراد الشواهد من منظوم العرب ومنثورهم ، فوضعوا عليه من الشروح المبسوطة مالا يحصى ، ووضعوا على تلك الشروح شروحاً سموها حواشى ، ووضعوا على تلك الحواشى شروحاً سموها تقارير ، وجروا فيها كلها على إهمال ما أهمله الخطيب فى تلخيصه من تلك الشواهد التى لا يستقيم النظر فى هذه العلوم إلا بها ، فجاء كل ما كتبوه على هذه الطريقة حشواً لا فائدة إلا فى القليل منه ، حتى أصبحت طريقة غاية فى العقم ، وغدت دراسة هذه العلوم بها خالية من الثمرة ، عاجزة عن تربية الذوق البيانى

وقد أحسنت كلية اللغة العربية من كليات الجامع الأزهر بالعدول عن درس هذه العلوم فى التلخيص وشرحه للسعد التفتازانى إلى درسها فى الايضاح وحده ، ولكن طلاب هذه الكلية يجدون أنفسهم فى حاجة إلى الرجوع إلى هذه الشروح والحواشى والتقارير فى كثير من مواضع الايضاح فى سائر أبوابه ، فيضطرون بحكم هذه الحاجة إلى الرجوع إليها كلها ، واستيعاب النظر فيها ، وتضيع بذلك الفائدة المقصودة من إيثار درس الايضاح عليها

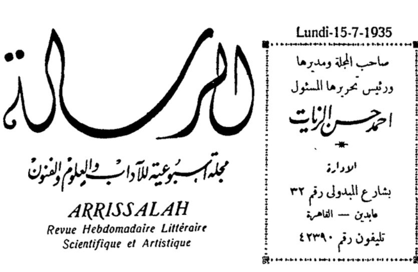
ولا شك أن هؤلاء الطلاب وغيرهم من طلاب هذه العلوم فى حاجة إلى شرح على الايضاح يجاريه فى طريقته ، ويكمل من شواهده ما لم يكمله ، ويزيد عليها ما تدعو الحاجة إليه ، وينظر فى ذلك الحشو الكثير الذى أتخمت به هذه العلوم فيختار منه ما فيه فائدة تتصل بها وما أقل ذلك بينه ، ويهمل ما لا اتصال له بها وما أكثره فيه ، ويؤدى مع ذلك كله واجب النظر العلمى الحديث فى بعض مسائلها ، وقد وفق الله واضع هذا الشرح الجديد على الايضاح إلى ما أراده من هذه الأغراض ، فجزاه الله عنه خير الجزاء

(ص)

3 me Année, No. 106.
Lundi-15-7-1935

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات
الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



العـــدد ١٠٦ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ١٥ يوليو سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

الميت الذى لا يموت

٢ـ الشيخ محمد عبده

بمناسبة ذكراه الثلاثين

تولدت حيوية الامام القوية من جبلّة أبيه الحرة فى « محلة نصر » ، وتكونت نفسيته الدينية من صوفية خاله النقية فى « كنيسة أورين » ، وتفتحت عقليته العفية فى شمس جمال الدين المشرقة بالقاهرة ؛ فكان سر الوراثة يُجريه فى الاعتقاد على الاخلاص ، وفى العزم على المضاء ، وفى القول على الصراحة ، وفى العمل على الجرأة ، وفى الحياة على التمرد ؛ فالقلق المقدس الذى يشبه فى الحكماء ، الأرهاصَ فى الأنبياء ، كان لا يفتأ منذ الحداثة يساوره فى كل هم يحاوله ، وعمل يزاوله ، وموضع يستقر فيه ؛ وذلك القلق مبعثه فى المصلح صفاء النفس ولطف الحس وحدة الفطنة ، فهو وحده يدرك النقص فيروم الكمال ، ويلحظ الخطأ فيطلب الصواب ، ويسأم الركود فيبتغى التحول ؛ ولذلك كان الامام لا يُكره طبعه على حال ، ولا يلبس سمعه على رأى ، ولا يملك لسانه عن نقد ، ولا يكف عزمه عن تغيير ، ولا يخزل جهده عن إصلاح دخل المعهـــد الأحمدى فبرم بالتعلم لفساد الطريقة وسوء

الكتب ، فكان وَكْدُه طول عمره أن ينعش الدين من هذا الجمود ، ويخرج الأزهر من هذه الفوضى ، وينقذ الطلاب من هذا العنت ؛ وظهرت مقالاته فى (الأهرام) وهو لا يزال فى صدر الطلب تحمل دعوة هـذا العقل المتجدد التمرد إلى العلوم العقلية ، والمعارف العصرية ، والأدب المنتج ؛ ثم تولى رآسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار على الأساليب الكتابية فى الدواوين ، والتقاليد الادارية فى الحكم ، والبدع الفاشية فى الدين ، والعادات المنكرة فى المجتمع ؛ وكانت مقالاته فى (الوقائع المصرية) دستوراً للغة ، ونظاماً للكتابة ، ومنهاجاً للفضيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعته وقوة من نفوذه

ثم شايع العرابيين فى النضبة المصرية الأولى مشايعة البصير الحازم ، فأعقبته النفى إلى سورية ؛ وهناك دله ذلك الشعور النبوى فيه إلى ماجره سوء سياسة السلطان ، من انفراج الحال بين الأديان ، وجفاف الثرى بين الاخوان ، فوضع دستوراً لاصلاح التعليم الديني قدمه إلى شيخ الاسلام ، ومشروعاً لاصلاح القطر السورى قدمه إلى والى بيروت ، ولو أخذت بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتها غير هذه العاقبة

ثم اتسع أفق تفكيره ، وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من قناعتهم بالدون ، واستنامتهم إلى الهُون ، وقعودهم عن مسايرة التمدن ، فوافى الافغانى إلى باريس ، ودعا فى (العروة الوثقى) أشتات الأمة إلى الوحدة ، وأموات الجهالة إلى البعث ، وأسرى العبودية إلى التحرر

ثم وليه بعد العفو عنـه القضاء ، فلاءم بين الأحكام المدنية والدينية ، وساوى فى النظام بين المحاكم الأهلية والشرعيـة ، وارتجل لهذه من الاصلاح ما حقق من وجودها النفع ، وجدد فى قضاتها الثقة ، وضمن لقضائها التنفيذ

ثم عاد فحصر إصلاحه الداخلى والخارجى ، الدينى والمدنى ، فى إصلاح الأزهر ، لأنه منشأ الدعاة والهداة والقضاة والمعلمين فى مصر وغير مصر ، فاذا قلبه على الوضع الذى يريد فقـد وضع الكواة على أصل العلة ، واختصر الطريق إلى بلوغ الغاية ؛ ولكن أبا لهب وأشياعه فى الجامع وفى القصر أرادوا وا أسفاه أن يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا بكيدهم سراج حياته ! !

* * *

ذلك سر الوراثة الفسلجية عن أبيه القروى الفقير الباسل ؛

أما سر الوراثة الروحيـة عن خاله التقى العارف ، فرجوعه إلى مشارع الدين الصافيـة ، وعقائد القرآن الأولى . قال ذات يوم لخاله : ما طريقتكم ؟ قال : الاسلام ؛ قال : وما وِرْدكم ؟ قال : القرآن . فلم يتَّبع منذ يومئذ غير سبيل المؤمنين ومنهاج الأئمة : أيقظ همه للاسلام فقرب عقائده من الأفهام ، وقطع عنه ألسنة المبشرين والمستعمرين بالأدلة النواهض والحجج الملزمة ؛ وجمل عزمه للقرآن ففاز منه برياض مونقة ، وأعـلام بينة : فبراهين قضاياه من قواعده ، وبينات دعاواه من شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وأفانين بلاغاته من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ؛ فكأنه رسول الرسول ظهر فى عصر العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره !

أما سر الوراثة العقلية عن أستاذه الحكيم الثائر ، فذلك النفوذ البعيد فى علوم الفلسفة ، والبصر الشديد بضروب المعرفة ، والالمام المحيط بثقافة العصر ، والعلم الواسع بقواعد العمران وتاريخ الأديان وطبائع الشعوب وأخبار الأمم ! ومن النتاج فى هذه الوراثات الثلاث : طبع ذكى ، ونبوغ فطري ، ونفحة من روح الله ليعيد كلمته على لسانه ، ويبعث شريعته عن قلبه

* * *

كان الامام محمد عبقرية ثائرة ناقدة لا تعرف القيود ولا الحدود ولا السطحية ، ولكنها انحصرت بحكم الظروف فى الاصلاح الديني ، فوقفت بين الدين الذى تأخر ، والعلم الذى تقدم ، موقف ابن رشد وابن سينا من قبل : تحاول التأليف بين القلب والعقل ، والتوفيق بين الرأى والنقل ، فذهب أكثر جهده باطلاً بين الجامدين الذين يرون فى تجديده الدين بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون فى تقييده العلم بالدين رجعية ! فلو أنه عالج الاصلاح الاجتماعى من طريق العلم ، أو السياسى من طريق الحكم ، لدفع الأمة إلى الأمام قرناً على الأقل

وبعد ، فان فى ميدان الأزهر الجديد موضع التمثال العتيد لمجدد الاسلام ومصلح الأزهر ! ولو كنا اقترحنا هذا الاقتراح فى عهد (الفلان) وأشباهه لاستنفرنا الجهل سبعين مرة ، ولكننا نقترحه اليوم فى عهد المراغى تلميذ الامام وخليفته ! فهل يتحقق الظن ويصدق الأمل ؟

احمد حسن الزيات

فلسفة الطائشة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

... وهذا مجلس من مجالس الطائشة مع صاحبها ، مما تسقَّطته من حديثها ؛ فقد كان يكتب عنها ما تُصيبُ فيه وما تخطىء ، كما يكتب أهلُ السياسةِ بعضُهم عن بعض إذا فاوضَ الحليفُ حليفه أو ناكرَ الخصمُ خصمَه ؛ فان كلامَ الحبيبِ والسياسيِّ الداهيةِ ليس كلامَ المتكلّم وحده ، بل فيه نطقُ الدولة .... وفيه الزمنُ يُقبل أو يُدبر

وصاحبُ الطائشة كان يراها امرأةً سياسية كهذه الدُّول التي تُرْغِم صديقاً على الصداقة لأنه في طريقها أو طريق حوادثها . وكان يسميها « جيشَ احتلال » ، إذ حطت في أيامه واحتلتها فتبوأتْ منها ما شاءت على رغمه ، واستباحت ما أرادت مما كان يَحميه أو يمنعه . وقد كان في مدافعته حبها واستمساكه بصداقتها كالذي رأى ظلَّ شيء على الأرض فيحاول غسله أو كنسه أو تغطيته ... فهذا ليس مما يُغسل بالماء ولا يكنس بالمكنسة ولا يغطى بالأغطية ، إنما إزالتُه في إزالة الشّبح الذي هو يُلقيه أو إطفاء النور الذي هو يُثْبته

في كل شيء على هذه الأرض سُخرية ، والسخريةُ من الحسن الفاتن الذي تقدسه ، تأتي من اشتهاء هذا الحسن ؛ فذاك إسقاطُه سقوطاً مقدّساً ... أو ذاك تقديسه إلى أن يسقط ، أو هو جعلُ تقديسه باباً من الحيلة في إسقاطه . لا بد من سُفلٍ مع العلو يكون أحدهما كالسخرية من الآخر ؛ فاذا قال رجل لامرأةٍ قد فتنَته أو وقعت من نفسه : « أحبُّك » أو قالتها المرأةُ لرجل وقع من نفسها أو اشتهاها ، ففي هــذه الكلمة الناعمة اللطيفة كلُّ معاني الوقاحة الجنسية ، وكل السخرية بالمحبوب سخريةً باجلالٍ عظيم ... وهي كلمةُ شاعرٍ في تقديس الجمال والاعجاب به ، غير أنها هي بعينها كلمةُ الجزّار الذي يرى الخروف في جماله اللحميّ الدهنيّ ، فيقول : « سَمين ... ! »

لهذا يمنع الدينُ خلوةَ الرجل بالمرأة ، ويُحرِّم إظهارَ الفتنةِ من الجنس للجنس ، ويَفصل بمعاني الحجاب بين السالب والموجب ، ثم يضع لأعين المؤمنين والمؤمنات حجاباً آخر من الأمر بغضّ البصر ، إذ لا يكفي في ذلك حجابٌ واحد ، فان الطبيعة الجنسيةَ تنظر بالداخل والخارج معاً . ثم يطرد عن المرأة كلمةَ الحب إلا أن تكون من زوجها وعن الرجل إلا أن تكون من زوجته ، إذ هي كلمةُ حيلةٍ في الطبيعة أكثرُ مما هي كلمة صدقٍ في الاجتماع ، ولا يؤكد في الدين صدقَها الاجتماعيَّ إلا العقدُ والشهودُ لربط الحقوق بها ، وجعلها في حياطة القوة الاجتماعية التشريعية ، وإقرارها في موضعها من النظام الانساني ؛ فليس ما يمنع أن يكون العاشقُ من معاني الزوج ، أما أن يكون من معنًى آخر أو يكونَ بلا معنًى فلا ؛ وكل ذلك لصيانة المرأة ما دامت هي وحدها التي تلد ، وما دامت لا تلد للبيع ....

وفلسفةُ هذه الطائشة فلسفةُ امرأةٍ ذكية مطلعةٍ محيطة مفكرة ، تُبصر بالكتب والعقل والحوادث جميعاً ، وقد أصبحت بعد سَقْطةِ حبها ترى الصوابَ في شكلين لا شكل واحد ؛ فتراه كما هو في نفسه ، وكما هو في أغلاطها

وقد أسقطنا في رواية مجلسها ما كان من مُطارحات العاشقة ، واقتصرنا على ما هو كالاملاء من الأستاذة ....

***

قال صاحب الطائشة : ذكرتُ لها « قاسم أمين » وقلت : إنها خير تلاميذه .... حتى لكأنها تجربة ثلاثين سنة لآرائه في تحرير المرأة . فقالت : إنما كان قاسم تلميذَ المرأة الأوربية ، وهذه المرأة بأعيُننا فما حاجتنا نحن الى تلميذها القديم ؟

قالت : وأبلغُ من يرد على قاسم اليومَ هي أستاذته التي شبتْ بها أطوارُ الحياة بعده ، فقد أثبتت قاسم — غفر الله له — أنه انحصر في عهدٍ بعينه ولم يُتبع الأيامَ نظره ، ولم يستقرِئ أطوارَ المدنية ؛ فلم يُقدِّر أن هذا الزمن المتمدّنَ سيتقدم في رذائله بحكم الطبيعة أسرع وأقوى مما يتقدم في فضائله ، وأن العلم لا يستطيع إلا أن يخدم الجهتين بقوة واحدة فأقواها بالطبيعة وأقواها بالعلم ، وكأن الرجل كان يظن أنه ليس تحت الأرض زلازلُ ولا تحت الحياة مثلُها

مزّقَ البرقع وقال : « إنه مما يزيد في الفتنة ، وإن المرأة لو كانت مكشوفةَ الوجه لكان في مجموع خَلْقها — على الغالب —

ما يردُّ البصر عنها » فقــد زال البرقع ، ولـكن هل قدّر قاسم أن طبيعــة المرأة منتصرةٌ دائماً فى الميْدان الجنسىّ بالبرقع وبغير البرقع ، وأنها تخترع لـكلّ معركةٍ أسلحتها ، وأنها إن كشفت برقع الخزّ فستضعُ فى مكانه برقعَ الأبيض والأحمر . . . ؟

وزعم أن « النقاب والبرقع من أشد أعوان المرأة على إظهار ماتظهر وعمل ما تعمل لتحريك الرغبة ، لأنهما يخفيان شخصيتها فلا تخاف أن يعرفها قريب أو بعيد فيقول : فلانة ، أو بنت فلان ، أو زوج فلان كانت تفعل كذا . فهى تأتى كل ما تشتهيه من ذلك تحت حماية البرقع والنقاب » فقد زال البرقع والنقاب ، ولـكن هل قدّر قاسم أن المرأة السافرةَ ستلجأ إلى حماية أخرى فتجعل ثيابها تعبيراً دقيقاً عن أعضائها ، وبدلاً من أن تُلبس جسمها ثوباً يكسوه تُلبسُه الثوبَ الذى يكسوه ويزيّنه ويظهره ويحرّكه فى وقت معاً ، حتى ليكاد الثوب يقول للناظر : هــذا الموضع اسمهُ . . وهذا الموضع اسمه .. وانظر هنا وانظر هاهنا .. مازادت المدنية على أن فـكّـكَت المرأةَ الطيّبة ثم ركّبتها فى هذه الهندسة الفاحشة !

وأراد قاسم أن يعلمنا الحب لترتبطَ به الزوجُ معنا ، فلم يزد على أن جرّأنا على الحب الذى فرّ به الزوجُ منا ، وقد نسى أن المرأة التى تخالط الرجلَ ليُعجبها وتعجبَه فيصيرا زوجين ــ إنما تخالط فى هــذا الرجل غرائزَه قبل إنسانيته ، فتـكون طبيعتُـه وطبيعتها هى محل المخالطة قبـل شخصَيهما ، أو تحت ستار شخصيهما ؛ وهو رجل وهى امرأة ، وبينهما مصارعةُ الدم ... وكثيراً ما تـكون السكينةُ هى الذبوحة . وقد انتهينا إلى دهرٍ يُصنَع حُبُّه ومجالسُ أحبابه فى « هوليود » وغيرها من مُدُن السيما ، فان رأى الشاب على الفتاة مظهرَ العفّـة والوقار قال : بلادةٌ فى الدم ، وبلاهة فى العقل ، وثقـل أىّ ثقل . وإن رأى غير ذلك قال : نَزقٌ وطيش واستهتارٌ أىّ استهتار . فأين تستقر المرأة ولا مكان لها بين الضدّين ؟

أخطأ قاسم فى إغفال عمل الزمن من حسابه ، وهاجمَ الدين بالعُرف ؛ وكان من أخشن غلطه ظنُّـه العرفَ مقصوراً على زمنه ، وكأنه لم يدر أن الفرق بين الدين وبين العُرف هو أن هذا الأخير دائم الاضطراب ، فهو دائم التغيُّر ، فهو لا يصلح أبداً قاعدةً للفضيلة . وهانحن أولاء قد انتهينا إلى زمن العُرْى ، وأصبحنا نجد لفيفاً من الأوربيين المتعلمين ، رجالهم ونسائهم ، إذا رأوا فى جزيرتهم أو محالّهم أو ناديهم رجلاً يلبس فى حِقْوَيه تُبّاناً قصيراً كأنه وَرَقُ الشجر على موضعه ذاك من آدمَ وحواء ، إذا رأوا هذا المتعفِّف بخِرْقَـة . . . . أنكروا عليه وتَسَاءلوا بينهم . مَن ؟ مَن هذا الراهب . . . . ؟

ونسى قاسم ــ غفر اللهُ له ــ أن للثياب أخلاقاً تتغير بتغيرها فالتى تُفرغ الثوبَ على أعضائها إفراغَ الهندسة ، وتُلبس وجهها ألوانَ التصوير ــ لا تفعلُ ذلك إلا وهى قد تغير فهمُها للفضائل ، فتغيرتْ بذلك فضائلُها ، وتحوّلتْ من آيات دينية إلى آيات شعرية . وروحُ المسجد غير روح الحانة ، وهــذه غيرُ روح الرقص ، وهــذه غير روح المخدع ، ولـكلّ حالةٍ تلبسُ المرأة لِبْساً فتُخفى منها وتُبدى . وتحريكُ البيئة لتتقلب ، هو بعينه تحريكُ النفس لتتغير صفاتها ، وأين أخلاقُ الثياب العصريةِ فى امرأة اليوم ، من تلك الأخلاق التى كانت لها من الحجاب ؟ تبدّلتْ بمشاعر الطاعة والصبر والاستقرار والعناية بالنسل والتفرّغ لاسعاد أهلها وذويها ــ مشاعرَ أخرى أوّلها كراهيةُ الدار والطاعة والنسل ، وحَسبُك من شرّ هذا أوّله وأخفُّه !

كان قاسم كالمخدوع المغترّ بآرائه ، وكان مصلحاً فيه روحُ القاضى ، والقاضى بحكم عمله مقلدٌ مُتّبع ، أليس عليه أن يسند رأيه دائماً إلى نَصٍّ لم يكن له فيه شأنٌ ولا عمل ؟ من ثم كثرت أغلاطُ الرجل حتى جعل الفرقَ بين فساد الجاهلة وفساد المتعلّمة أن الأولى « لا تـكلّف نفسها عناء البحث عن صفات الرجل الذى تريد أن تقدّم له أفضلَ شىء لديها وهو نفسها ؛ وعلى خلاف ذلك يكون النساءُ المتعلماتُ ، إذا جرى القدَرُ عليهن بأمر مما لا يحلّ لهن لم يكن ذلك إلا بعــد محبةٍ شديدة يسبقها علمٌ تامٌ بأحوال المحبوب (....) وشمائله وصفاته ، فتختاره من بين مئاتٍ وألوف ممن تراهم فى كل وقت (!!!!) وهى تحاذر أن تضع ثقتها فى شخص لا يكون أهلاً لها ، ولا تُسلم نفسها إلا بعد مناضلة يختلف زمنها وقوةُ الدفاع فيها حسب الأمزجة (؟؟؟؟) وهى فى كل حال تستتر بظاهرٍ من التعفُّف (؟؟؟؟) . . . »[1]

(١) ص ٥١ من كتاب « تحرير المرأة » ، وهو كلام قاسم بنصه ، وأكثر ما فى هذا الـكتاب هو فى رأينا خلط وخبط

أليس هذا كلامَ قاضٍ من القضاةِ المدَنيِّين المتفلسفين على مذهب (لمبروزو) يقول لاحدى الفاجرتين: أيتها الجاهلةُ الحمقاء كيف لم تتحاشي ولم تتستري فلا يكونَ للقانون عليك سبيل؟

وحتى في هذا قد أثبت قاسم أنه لا يعرفُ الأرنبَ وأذنيها[1] وإلا فمتى كان في الحب اختيار، ومتى كان الاختيارُ يقع فيما يجرى به القَدَر، ومتى كان نظر العاشقة إلى الرجال نظراً سيكولوجياً كنظر المعلمة إلى صبيانها .... فتدرس الصفات والشمائل في مئات وألوف ممن تراهم في كل وقت لتُصفِّيها كلها في واحد تختاره من بينهم؟ هذا مضحك!

إليك خبراً واحداً مما تنشره الصحفُ في هــذه الأيام:

كفرار بنت فلان باشا خرِّيجة مدرسة كذا مع سائق سيارتها، ففسَّر لي أنت كلام قاسم، وأفهِمْني كيف تكون اثنانِ واثنان خمسةً وعشرين؟ وكيف يكون فرار متعلِّمة أصيلة مع سائق سيارة هو محاذرةَ وضع الثقةِ فيمن لا يكون أهلاً لها؟

لقد أغفل قاسم حساب الزمن في هــذا أيضاً، فكثير من المنكرات والآثام قد انحل منها المعنى الدينيُّ وثبت في مكانه معنىً اجتماعيٌّ مقررٌ، فاصبحت المتعلمة لاتتخوَّف من ذلك على نفسها شــيئاً، بل هي تُقارِفُهُ وتستأثر به دون الجاهلة، وتلبس له (السواريه)، وتقدِّم فيــه للرجال المهذَّبين مرةً ذراعها، ومرة خَصرها...

أقرأتَ (شهر زاد)؟ إن فيها سطراً يجمل كتابَ قاسم كلَّه ورقاً أبيض مغسولاً ليس فيه شيء يُقرَأ:

قالت شهر زاد المتعلِّمةُ المتفلسفة، البيضاءُ البضَّة، الرشيقةُ الجميلة؛ للعبد الأســود الفظيع الدميم الذى تهواه: «ينبغى أن تكون أسودَ اللون؛ وضيعَ الأصل؛ قبيحَ الصورة، تلك صفاتُك الخالدةَ التي أُحبُّها ... ...[2]»

فهذا كلامُ الطبيعة نفسِها لا كلام التأليف والتلفيق والتزوير على الطبيعة

* * *

(١) يقول العرب: «فلان يعرف الأرنب وأذنيها» أى يعرف الشيء بالعلامة التي تثبته ولا تتخلف

(٢) ص ١٠٦ من «شهر زاد» للكاتب الدقيق الأستاذ توفيق الحكيم. وقد كتبنا نحن في هذا المعنى وكشفنا عن سره في كتاب «أوراق الورد» ص ٥١ — ٥٢ وفي غيره من كتبنا

قال صاحب الطائشة:

فقلتُ لها: فاذا كان قاسم لا يرضيكِ، وكان الرجل مصلحاً دخلتْه روح القاضي، تخلَّطَ رأياً صالحاً وآخرَ سيِّئاً، فلعل «مصطفى كمال» تمثُّكِ من رجلٍ في تحرير المرأة تحريراً مزَّق الحجاب والـ ...؟

قالت: إن مصطفى كمال هــذا رجلٌ ثائرٌ، يسوق بين يديه الخطأ والصوابَ بعصاً واحدة، ولا يمكن في طبيعة الثورة إلا هــذا، ولا يبرحُ ثائراً حتى يتمَّ انسلاخُ أمتِه. وله عقلٌ عسكريٌّ كان يمكرُ به مَكرَ الألمان حين أكرهَهم الحلفاءُ على تحويل مصانع (كروب) فحوَّلوها تحويلاً ردَّها بأيسر التغيير إلى صنع المدافع والمهلكات. وليس الرجل مصلحاً ألبتــة، بل هو قائدٌ زَهَاه النصرُ الذى اتفق له، فخرج من تلك الحرب الصغيرة وعلى شفتيه كلمة: «أُريد ....» وجعل بعــد ذلك إذا غَلِطَ غلطةً أرادها منتصرة، فيفرضها قانوناً على المساكين الذين يستطيع أن يفرض عليهم وهم اليوم لا يملأون قبضةَ دولته، فيقهرهم عليها ولا يناظرهم فيها، ويأخذ كيف شاء، ويَدَعُهم كيف أحب؛ وبكلمة واحــدة: هو مؤلِّف الرواية والقانونُ نفسُه أحدُ الممثِّلين ...

وحِقْدُه على الدين وأهلِ الدين هو الدليلُ على أنه ثائرٌ لا مصلح؛ فان أخصَّ أخلاق الثورة حِقْد الثائرين، وهذا الحقد في قوة حربٍ وحدها، فلا يكون إلا مادةً للأفعال الكثيرة المذمومة. والرجل يحتذى أوروبا ويعمل على أعمال الأوربيين في خيرها وشرِّها، ويجعل رذائلَهم من فضائلهم على رغم أنفهم يتبرَّأون هم منها ويُلحِقُها هو بقومه، فكأنه يَعتَسِفُ الآراءَ ويأخذها أخذاً عسكرياً، ليس في الأمر الا قولةُ أُريد. فيكون ما يريد. هو لم يحكم على شبرٍ من أوروبا يجعله تركياً، ولكنه جعل رذائلَ أوروبا تتجنَّس بالجنسية التركية ...

وتالله إنه لأيْسَرُ عليه أن يجيء بملائكةٍ أو شياطينِ من المرَدَة، ينفخون أرض تركيا فيُمطُّونها مطاً فيجعلونها قارَّة، مِن أن يُكرِه أوروبا على اعتبار قومه أوربيِّين بلبس قبعةٍ وهَدمِ مسجد. إنه لا يزال في أول التاريخ، وهذا الشعبُ الذى انتصر به لم تَلِدْه مبادئُه ولا أنشأه هَدْمُ المساجد وشَنْقُ العلماء،

بل هو هو الذى ولدته تلك الأمهات ، وأخرجه أولئك الآباء ، وما كان يُعوِزُه إلا القائد الحازم المصمّم ، فلما ظفر بقائده جاء بالمعجزة ؛ فاذا فُتِنَ القائد بنفسه وأبى إلا أن يتحوّل نبياً فهذا شىءٌ آخر له اسمٌ آخر

ولنفرض « الأثير » كما يقول العلماء ، لنستطيع أن نجعل مسألتنا هذه علمية ، وأن نبحثها بحثاً علمياً ، فليكن مصطفى كمال هو اللورد كتشنر فى انجلترا ، فيكسب اللورد كتشنر تلك الحرب العظمى لاحرب الدوَيلة الصغيرة ، وينتصر على البراكين من الجيوش لا على مثل براميل النبيذ ... ثم ينتميزُ الرجلُ بدالّته على قومه ويدخُله الغرور ، فيتصنع لهم مرة ويتزين لهم مرة ، ثم يأتيهم بالآبدة فيُسفِّه دينَهم ، ويريدهم على تعطيل شعائرهم وهدم كنائسهم لأن هذا هو الاصلاح فى رأيه . أفتُرَى الانجليزَ حينئذ يضوون اليه ويلتفون حوله ويقولون : قائدنا فى الحرب ، ومصلحُنا فى السِّلم ، وقد انتصرنا به على الناس فسننتصر به على الله ، وظفرنا معه بيوم من التاريخ فسنظفر معه بالتاريخ كله . . . ؟ أم تحسب كتشنر كان يجسر على هذا وهو كتشنر لم يتغير عقله ؟

إنه والله ما يَتدافعُ اثنان أن هَدْمَ كنيسة واحدة لايكون إلا هدم كتشنر وتاريخ كتشنر ، ولكن المعجزَ ممهدٌ من تلقاء نفسه ، والأرض المتخسفةُ هى التى يستنقعُ فيها الماء فله فيها اسمٌ ورسم ؛ أما الجبلُ الصخرىُّ الأشمّ ، فاذا صُبَّ هذا الماء عليه أرسله من كلّ جوانبه ، وأفاضه إلى أسفل . . . ! [1]

***

قال صاحب الطائشة : فأقول لها : إذا كان هذا رأيك للنساء فكيف لاتزين مثل هذا لنفسك ؟

فتضمضمت لهذه الكلمة ولجلجت قليلاً ثم قالت : أنت سلبتني الرأى لنفسى ، ووضعتني فى الحقيقة التى لا تتقيد بقانون الخير والشر

قلت : فاذا كانت كل امرأة تغلط لنفسها فى الرأى وتنصح بالرأى الصائب غيرها ، فيوشكُ ألا يبقى فى نساء الأرض فضيلة ولا يعود فى المدرسة كلها عاقلٌ إلا الكتاب

فتضاحكت وقالت : لهذا يشتدّ ديننا الاسلامىّ مع المرأة ، فهو يخلق طبائع المقاومة فى المرأة ، ويخلقها فيما حولها ، حتى ليخيَّل إليها أن السماء عيونٌ تراها ، وأن الأرض عقولٌ تحصى عليها . وهل أعجبُ من أن هذا الدين يقضى قضاءً مبرماً أن تكون ثياب المرأة أسلوب دفاع لا أسلوب اغراء ، وأن يضعها من النفوس موضعاً يكون فيه حديثها بينها وبين نفسها كالحديث فى الراديو له دوىّ فى الدنيا ، فيقيم عليها الحجاب وغَيرة الرجل وشرف الأهل ، ويؤاخذها بروح طبيعتها ، فيجعل الهفوة منها كأنها جنينٌ يكبَرُ ولا يزال يكبَرُ حتى يكون عارَ ماضيها وخزْىَ مستقبلها

هذه كلها حُجُبٌ مضروبة لاحجابٌ واحد ، وهى كلها لخلق طبائع المقاومة ، ولتيسير المقاومة ، ومتى جاء العلم مع هذه لم يكن أبداً إطلاقاً ، ولم يكن أبداً إلا الحجابَ الأخيرَ كالسور حول القلعة . ولكن قَبح الله المدنية وفنها ؛ انها أطلقت المرأة حرّة ثم حاطتها بما يجعل حريتها هى الحرية فى اختيار أثقل قيودها لاغير . أنت مُحمَّلٌ بالذهب ، وأنت حرٌّ ، ولكن بين اللصوص ، كأنك فى هذا لست حراً إلا فى اختيار من يجنى عليك . . . . !

لم تعد المرأة العصريةُ انتصارَ الأمومة ، ولا انتصار الخُلُق الفاضل ، ولا انتصار التعزية فى هموم الحياة ؛ ولكن انتصار الفن ، وانتصار اللهو ، وانتصار الخلاعة

قال صاحب الطائشة : فضحكت وقلت : وانتصارى . . . ! ؟

طبق الأصل (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

« تنبيه »

ليست الطائشة كل النساء ولا كل المتعلمات ، ونحن إنما نروى قصة هى فى الدنيا ليس فيها كلمة من المريخ ولا من زحل ؛ فأما الصالح فيرى ويفهم ، ولعله يصون بها نفسه ؛ وأما الفاسد فيرى ويتحير ، ولعله يردّ بها نفسه . ومذهبنا دائماً وجوب كشف الحقيقة ، وإذا أردت أن تأخذ الصواب نخذه عمن أخطأ

(١) سنفرد مقالا خاصاً لهذا الإلحاد التركى الذابل . . . . فقد عثرنا فى النسخة الخطية التى عندنا من (كليلة ودمنة) على فصل بديع عنوانه : « كفر الذبابة » ، وسنقدمه لقرائنا

حول المســـجد

للأستاذ أحمد أمين

ساقني حسن الحظ إلى الحديث مع سيدة انجليزية فضلة ، وكان ذهني مستغرقاً في برنامج « الأخلاق والتربية الوطنية للمدارس الثانوية » والمتحدثون — عادة — يلونون حديثهم — ولو من غير شعور — بما يشغل أذهانهم ويستغرق أفكارهم — ومهما بعُد المتحدث عن الموضوع الذي يستولي عليه فسرعان ما يعود إليه ، وينغمس فيه

لقد بدأنا الحديث في الجو وانتقلنا إلى غيره ، وإذا بنا نتكلم في « التربية والتعليم وشؤونهما » وإذا بي أسأل السيدة :

— ما برنامج الأخلاق والتربيـة الوطنية للمدارس الثانوية في انجلترا ؟

— ليس لهما في المدارس برنامج معين ولا دروس خاصة ، ولكن تلقى فيهما محاضرات في مناسبات ، وأهم ما يقوم بهذه المهمة « الكنيسة » فهي تنظم دروساً للشبان والشواب في هذا الموضوع ، ويقوم بها رجالها ، فيكفوننا بذلك مؤونة الدروس في المدارس ؛ وإلقاؤها في الكنائس يجعل لها معنى أجل ، واحتراماً أوفر ، وطعماً أحلى

* * *

انتقل ذهني في سرعة البرق من الكنيسة عندهم إلى المسجد عندنا ، وساءلت نفسي :

ما الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها المسجد للأمم الاسلامية ؟

إني أفهم أن لمسجد الحي وظيفة اجتماعيـة هامّة بجانب وظيفته الدينية ، هي الاشراف على تجلية الروح وتهذيب النفس بتنظيم المحاضرات في الموضوعات التي تمس العصر ، والمشاكل التي تعرض في كل زمن ، كما أن من وظيفته الاشراف على حالة الحي الاجتماعية ، وما يصاب به من بؤس وفقر وانغماس في المخدرات ونحو ذلك ؛ ثم تنظيم الاحسان والقيام بالخدمة العامة بين الأغنياء والفقراء ، وإسداء النصائح للأسر فيما يعرض لهم من متاعب وصعاب

إني أفهم من مسجد الحي أن يكون كمستشفى الحي ، غير أن المستشفى يداوي الأمراض الجسمية ، والمسجد يداوي الأمراض الروحية والاجتماعية

إني أفهم أن يكون إمام المسجد رئيس المستشفى يعرف مرضى الحي ، ويعرف علاجهم ، ويكون صلة تآلف وتعارف بين أهل الحي ، يأخذ من غنيهم لفقيرهم ، ومن صحيحهم لمريضهم ، ويقضي على النازعات والخصومات ما استطاع ، ويثقف الجهلاء ، ويتخذ من المثقفين من أهل الحي أعواناً وأنصاراً ، يخطبون ويعظون ، ويعلمون ويثقفون — وإذ ذاك يشعر أهل الحي بأن المسجد ضرورة من ضرورات الحياة ، يقوم لهم بما تقوم به المدرسة وبما تقوم به المحكمة ، وبما تقوم به جمعيات الاحسان ، وبما هو فوق هذا وذاك

بل لم لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل ، فيخصص مسجد كل حي وقتاً لنساء الحي تعلّم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتفقه فيه في دينها ودنياها ، وترشد فيـــه إلى طرق إسعاد البيت ، وتثار همّتها إلى العطف والاحسان وتنظيمهما

فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحي والديني ؛ لأنها بعيدة عن المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها في الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها — لقـد حرمتَ المرأة من المسجد ، فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفـة الدينية ، لأن الأم — غالباً — هي مصدر هذا الايحاء ، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزيها ، جمحت وغوت ؛ فهي الآن بين بيت وملهى ولامسجد بينهما يذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهي

هذا هو المسجد كما أتصوره ، وكما ينبغي أن يكون — قوي الأثر في النواحي الروحية والاجتماعية والتعليمية ، في الرجـل والمرأة ، قلوب الحي معلقة به ، يغارون عليه ، ويعملون على ترقيته من حيث نظامه ونظافته وإمامه وخطباؤه ، ويرون أنه لهم وهم له ، وأن منارته ينبعث منها الاصلاح في جميع نواحيه ؛ متعلمو الحي جنوده في نشر الثقافة ، وأغنياؤه جنوده في محاربة الفقر ، ونساؤه دعاة أبنائهم وبناتهم إليه

هذا هو الوضع الصحيح للمسجد ، فأين مسجدنا منا ، وأين نحن من المسجد ؟

لقد اعتزل الناسَ واعـتزله الناسُ ، ولم يشعر شعوراً قوياً بوجودهم ، ولم يشعروا شعوراً قوياً بوجوده

نظرت دار الآثار إلى بنائه فعدته « آثاراً » ونظر الناس إلى نظامه فعدوه كذلك « آثاراً » فليس يؤمه — مع الأسف — إلا الطبقة الفقيرة البائسة ، أو الموظف الذي أحيل إلى المعاش ،

أو من تقدمت به السن من عامة الناس . أما الشباب المثقفون ومن أنعم الله عليهم بشيء من رغد العيش فلا يفكرون في المسجد ولا تحدثهم أنفسهم بزيارته ، وإن دخلوا لا يعرفوا كيف تؤدَّى شعائره إلا القليل النادر ؛ كأن السينما والمساجد اقتسما الناس ، فخص المسجد بالشيوخ والعجائز والفقراء ، وخص السينما بالفتيان والفتيات والأغنياء ، وهي حال لا تشعر بأمل ، ولا تبشر بخير

ووزارة الأوقاف كذلك عدَّت المساجد « آثاراً » ، فهي تسير في تعيين أئمتها وخطبائها وفي مراقبتها سير القرون الخالية كأن الزمن لا يسير

والأئمة والخطباء يعاملونها معاملة « الآثار » فهم يقرأون غالباً الخطب التي ألفت في القرون الماضية ، فلا تحرك نفساً ولا تحيي همة — كل ما فيها « اتقوا الله » إجمالا من غير تفصيل . أما ما يحدث بيننا من أحداث ، وأما ما نشعر به من مصائب وما ينتابنا من كوارث ، فلا دخل لهم فيه ، لأن دواوين القدماء لم تنص عليه

ورحبت السياسة بهذا النظر الأثرى إلى المساجد فاطمأنت إليه لأنه يخدمها ، وإلا فما بالنا نرى المسجد بعيداً عن الناس هذا البعد ؟ هل لو أراد الخطباء غير الامام أن يخطبوا في المسجد في إصلاح الحالة الاجتماعية أجيب طلبهم ؟ وهل لو نظمت محاضرات ثقافية في المسجد للشبان مرة والشواب مرة في الأخلاق والتربية الوطنية تسمح وزارة الأوقاف بذلك ؟ أكبر الظن أن لا

الحق أن للناس بعض العذر في الانصراف عن المساجد ، فلو عرف الخطباء كيف يكلمون الناس وعرف رجال الدين كيف يصلون إلى قلوبهم ، وشعر الناس أنهم يجدون في المسجد متعة روحية وغذاء دينياً واجتماعياً ، لتغير الحال وازدحم المسجد بالناس من جميع الطبقات

وقد كان المسجد في الاسلام يقوم بهذه النواحي التي ذكرنا ، فالخلفاء ونوابهم كانوا يخطبون في المشاكل الحاضرة — وكانوا يخطبون كلما حزبهم أمر أو عرض لهم مهم ، وكان المسجد مدرسة للعلماء والمتعلمين والشعراء والمتأدبين ، وكان المسجد مكتبة للواردين والمترددين ، وكان المسجد يجمع الناس في الأعياد والمواسم ، وكان المسجد مكتب الصغار ومدرسة الكبار ، ولو سار في طريقه وتأقلم مع الزمن لكان يؤدى كل الخدم الاجتماعية التي أشرنا إليها من قبل ولكن « خلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ، واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا إلا من تاب »

هل للأزهر ووزارة الأوقاف أن يتعاونا على إصلاح المسجد ويضعا البرامج له على أنه مرفق اجتماعي كما هو مركز ديني ؟ ؟ . . إن إصلاحه على هذا الوضع تقوية للدين ، وإصلاح للناس ؟

في القطار الى (رأس البر) **أحمد أمين**

بين الأسطورة والتاريخ

هل احرق فاتح الاندلس سفنه ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتخذ شخصية طارق بن زياد فاتح الأندلس مكانها بين عظماء الفاتحين ، لا في التاريخ الاسلامي وحده ، ولكن في تاريخ الأمم القديمة كلها ؛ وتعتبر موقعة شذونه أو « مدينا سدونيا » من أعظم الوقائع الحاسمة في تاريخ الاسبانية ، ففيها افتتح العرب اسبانيا وغنموا ملك القوط ، وشادوا صرح تلك الدولة الأندلسية الزاهرة التي لبثت قروناً تبهر أمم الغرب بقوتها وفخامتها وروائع حضارتها وفنونها . بيد أنه من الغريب أن شخصية الفاتح العظيم — طارق — بينما تبدو في بعض نواحيها وضاءة مشرقة ، إذا بها تبدو في البعض الآخر خفية يكتنفها الغموض ؛ فالرواية الاسلامية تختلف حول نشأة طارق وحول نسبته وجنسيته ، وتكاد تسدل على مصيره بعد الفتح ستاراً من الصمت والنسيان

ولسنا نعرض في هذا البحث لشخصية طارق أو تاريخه أو اختلاف الرواية في شأنه ، ولكنا نعرض لواقعة ترتبط باسمه ، وقد يغلب عليها لون الأسطورة ، وإن كانت مع ذلك تعرض علينا في لون التاريخ الحق ، تلك هي واقعة إحراق السفن التي نقل عليها طارق جيشه من الشاطئ الأفريقي إلى شاطئ الأندلس . ونحن نعرف أن فتح الأندلس قد تم بدعوة من الكونت يوليان القوطي حاكم سبتة والمضيق لخصومة سياسية وشخصية بينه وبين رودريك (لذريق) ملك القوط ، وأنه عاون العرب بخدماته ونصحه ، وأنه هو الذي قدم السفن التي عبر العرب عليها إلى الأندلس في بعثتهم الاستكشافية الأولى بقيادة طريف بن مالك

(رمضان سنة ٩١) ثم فى حملتهم الغازية بقيادة طارق بن زياد (رجب سنة ٩٢ – ابريل سنة ٧١١ م) . وهنا تذكر الرواية أن طارقاً ما كاد يعبر بجيشه إلى اسبانيا حتى أمر باحراق السفن التى عبر عليها جيشه وذلك لكى يدفع جنده إلى الاستبسال والموت أو الظفر ، ويقطع عليهم كل فكرة فى التخاذل أو الارتداد .

فما مبلغ هذه الرواية من الصحة ؟ إن جميع الروايات الاسلامية التى تحدثنا عن فتح الأندلس لا تذكر شيئاً عن هذه الواقعة ، ولا تذكرها سوى بعض الروايات النصرانية المعاصرة أو المتأخرة ؛ ولا تذكرها الرواية الاسلامية إلا فى موطن واحد ، فقد ذكر الشريف الادريسى فى معجمه الجغرافى الشهير « نزهة المشتاق » عند الكلام على جغرافية الأندلس أن طارقاً أحرق سفنه بعد العبور بجيشه إلى الأندلس [1] ؛ وقد نقلت الروايات النصرانية المتأخرة هذه الرواية عن الأدريسى فيما يرجح ؛ وفيما عدا ذلك فان جميع الروايات الاسلامية تمر عليها بالصمت المطبق

وهنالك وجه آخر لتأييد هذه الرواية هو الخطاب الذى يقال إن طارقاً ألقاه فى جنده قبيل نشوب الموقعة الحاسمة بينه وبين القوط ؛ ونحن نعرف هذا الخطاب الشهير الذى مازال يحفظه الطلاب كنموذج من أبدع نماذج البلاغة العربية ؛ فقد استهله طارق بقوله : « أيها الناس ؛ أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ؛ وليس لكم والله إلا الصدق والصبر ... » وفى ذلك ما يمكن أن يحمل على أن الجيش الفاتح قد جرد من وسائل الارتداد والرجعة إلى الشاطئ الأفريقى ، أو بعبارة أخرى قد جرد من السفن التى حملته فى عرض البحر إلى اسبانيا ؛ ولكنا نلاحظ من جهة أخرى أن هذا الخطاب الحربى الشهير الذى تنسبه الرواية الاسلامية المتأخرة إلى طارق ، لم يرد فى روايات المؤرخين المتقدمين ؛ فمثلاً لم يذكره ابن عبد الحكم والبلاذرى وهما أقدم رواة الفتوحات الاسلامية ؛ وذكره ابن قتيبة ، ولم يشر اليه ابن الأثير وابن خلدون ، ونقله المقرى عن مؤرخ لم يذكر اسمه [2] ، وهو على العموم أكثر ظهوراً فى كتب المؤرخين والأدباء المتأخرين ؛ وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نتخذه دليلاً مادياً على واقعة إحراق السفن ؛ ولو صح أن طارقاً قد ألقى مثل هذا الخطاب فعلاً – وهو ما نراه موضع الشك – فانه يمكن تفسيره بأن السفن التى عبر عليها طارق وجيشه كانت ملكاً للكونت يوليان القوطى ، ولم تكن سوى أربع ، وقد عبر الجيش الاسلامى عليها تباعاً فى مرات عدة ، فمن المعقول إذاً أن يعتبر طارق أنه فى حالة الهزيمة لم تكن لديه وسيلة سريعة للارتداد وعبور البحر إلى إفريقية

على أنا نستطيع مع ذلك أن نأخذ برواية الشريف الادريسى ؛ وإذا كان احتراق السفن على هذا النحو لقطع الرجعة والارتداد على جيش فاتح عمل بطولة رائع ، فانه لم يتفق مع بطولة فاتح الأندلس ، وليس موقف قيصر فى غاليا أو موقف بونابارت فى إيطاليا فيما بعد بأدعى للاعجاب من موقف طارق فى سهل شريش (مكان اللقاء الحاسم)

* * *

والظاهر أن إقدام الغزاة على إحراق السفن على هذا النحو الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس نوع من أساطير البطولة الخارقة التى ترجع إلى أقدم عصور التاريخ ؛ ففى كثير من مواطن التاريخ القديم الممزوج بخوارق الأسطورة تعرض مثل هذه الواقعة للتنويه بعمل بطولة خارق . على أننا لا نعدم أيضاً فى التاريخ الحق أمثلة واقعة منها . ففى التاريخ الرومانى مثل رائع لهذا الحدث هو مثل الامبراطور يوليان فى حملته الفارسية . وكان يوليان منذ جلس على عرش قسطنطينية ، يتوق إلى غزو فارس وتحطيم تلك الدولة الشامخة التى ما زالت منذ الحقب تناهض دولة القياصرة ، وكان مثل الاسكندر المقدونى يحفزه ويذكى عزمه ؛ ففى سنة ٣٦٣ م ، سار يوليان من انطاكية حيث كان ينظم أهبته فى جيش ضخم ، واخترق صحراء الشام من جهة الشمال ، ثم سار جنوباً بحذاء الفرات ، وسار فى نفس الوقت فى الفرات أسطول رومانى ضخم يحمل أقوات الجيش ؛ ثم عبر يوليان نهر الفرات ، واجتاح بلاد الأشوريين ، وأشرف على نهر دجلة حيث كان الفرس فى انتظاره فى الضفة الأخرى ؛ وحمل الرومان سفنهم المشحونة بالمؤن والذخيرة من الفرات إلى الدجلة بعد جهود ومشاق هائلة ؛ واعتزم الامبراطور أن يعبر الدجلة بجيشه ليقابل سابور ملك الفرس فى قلب مملكته كما فعل الاسكندر من قبل حيث هاجم الفرس فى عقر أرضهم ؛ وهنا اعتزم الامبراطور فجأة أن ينفذ فكرة جريئة جالت بخاطره

(١) راجع « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » طبع رومة ص ١٧٨

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١١٢

وهى أن يحرق أسطوله الراسى فى دجلة ؛ وفى الحال نفذت الفكرة وأحرق الأسطول الرومانى الضخم ولم تنقذ منه سوى سفن قلائل استبقيت لاجتيـاز الأنهر ، ولم يتزود الجيش الامبراطورى إلا بمؤونة عشرين يوماً ؛ وكان يوليان يرمى بذلك الاجراء إلى غاية حربية حكيمة هى ألا يمكن القوات الفارسية المحصورة فى مدينة اكتسيفون قاعدة الجزيرة من انتهاز فرصة توغله فى الداخل ومهاجمة أسطوله والاستيلاء عليـه وعلى المؤن التى يحملها غنيمة باردة . وقد حكم التاريخ على يوليان ولم يحكم له ، ذلك لأنه لم يكن موفقاً فى غزوته ، وقد لقى جزاء جرأته فى نكبة جيشه أمام الفرس وفى مصرعه متأثراً بجراحه ؛ وارتد الجيش الرومانى مهزوماً ممزقاً ونجت فارس بحريتها واستقلالها مدى ثلاثة قرون أخرى حتى كان الفتح العربى

* * *

وفى التاريخ الحديث مثل واقعى رائع أعدمت فيه سفن الجيش الفاتح ، هو مثل هرناندو كورتيز فاتح المكسيك ؛ ومن غرائب القدر أن يكون أروع نموذج لهذا الضرب من البطولة اسبانى يذكرنا بطارق فاتح اسبانيا وما ينسب إليه فى هذا الصدد . ومن المرجح جداً أن يكون فاتح المكسيك قد تأثر بالمثل الرائع الذى تنسبه الرواية لفاتح الأندلس ؛ وقد كان طارق وكورتيز فى الواقع كلاهما أمام ظروف متماثلة : مغامرة مجهولة الظروف والعواقب ، ومحاولة جريئة لافتتاح أرض جديدة وعالم جديد ، وجيش قليل العدد ليواجه جيوشاً زاخرة لا يعلم نوعها ولا مدى قوتها . بيد أن مغامرة كورتيز وقعت فى ظروف أكثر دقة وخطورة ؛ فقد كانت اسبانيا من أمم العالم القديم ولم تكن مجهولة تماماً من العرب وكان بها شعب قديم يتمتع بحضارة لا بأس بها ؛ ولـكن كورتيز كان أمام عالم مجهول تكتنفه الظلمات من كل ناحية ، ولم يكن يعرف ما هى الأرض ، وما هى الأمم التى يزمع اقتحامها بجنده القليل

وصل كورتيز فى أسطوله المتواضع الى مياه المكسيك فى سنة ١٥١٩ ليغزو امبراطورية « الازتكيين » الهندية ، ولم يكن يعرف الأسبان يومئذ عنها شيئاً إلا أنها امبراطورية ضخمة غنية تفيض بالنعم والذهب الوهاج ؛ وما كاد كورتيز وجنده يضعون أقدامهم فى الأرض الجديدة ، حتى فكر الفاتح الجرىء فى إعدام سفنه ؛ وأعدمت فى الحال بإغراقها ؛ وكان كورتيز يرمى بهذا الاجراء إلى غاية ظاهرة هى ألا يدع إلى قلوب جنده سبيلا إلى الخور أو أملا فى الارتداد . إما الظفر أو الموت : هكذا كان شعار كورتيز ، وهكذا كان عزمه وخطته ، وكان عملاً جريئاً ، ولـكن ضرورياً ، حتى لا يجد الناقمون أى وسيلة لمغادرة إخوانهم ، وحتى يرتمى الجميع فى أحضان الموت لا يلتمسون به بديلاً سوى الظفر . ولا ريب أن عمل كورتيز عمل بطولة خارق ، وربما كان أعظم عمل من نوعه فى التاريخ ، لأن الفاتح الأسبانى تقدم فى جرأة مدهشة لافتتاح الامبراطورية الهندية العظيمة بجيش لا يعدو عدة مئات ، ولم يحجم مع ذلك عن إعدام أسطوله ، وهو وسيلته الوحيدة للنجاة فى حالة الهزيمة والفشل ؛ وكان ظفره بافتتاح ذلك العالم الجديد عظيماً مدهشاً [1]

ومثل هذه الحوادث تبدو فى التاريخ كالأسطورة وقد تمتزج أحياناً بالأساطير ؛ وكلما بعدت فى ثنايا التاريخ كلما كان امتزاجها بالأسطورة أشـد وأقوى . بيد أننا هنا أمام أمثلة واقعة . وفى التاريخ حوادث من نوع مماثل فى شذوذه وروعته ما زالت فى عصرنا تبدو كالأعاجيب الخارقة ، فمثلاً يذكر التاريخ أن محمداً الثانى سلطان الترك العثمانيين وفاتح قسطنطينية ، حينما حاصر قسطنطينية من البر والبحر ، ولم يستطع أسطوله أن يقتحم خليج القرن الذهبى الذى تقع عليه المدينة من البحر ، اعتزم فى الحال أن ينقل أسطوله إلى البر ، مما يلى مؤخرة القرن الذهبى ، ونفذ مشروعه الخارق بالفعل ونقل أسـطوله الضخم على طريق من الخشب المطلى بالدهن والشحم ، ثم دفعه إلى داخل القرن الذهبى ؛ وبذلك تم تطويق المدينة ، ولم تلبث أن سقطت فى أيدى الغزاة (١٤٥٣ م) . بيد أن هذه الحوادث والأعمال الخارقة لا تبدو فى روعتها الحقيقية إلا إذا اصطبغت بألوان العصر الذى وقعت فيه ، وقد ينتقص من قدرها إذا قدرت بمعيار عصرنا ، وتفهمها بروح العصر الذى وقعت فيه هو وحده الذى يسبغ عليها هذا اللون القوى من البطولة الخارقة ، وهذا السحر الذى تبثه إلينا أعمال تشبه الأساطير فى روعتها

محمد عبد الله عنان

(١) نرى أن نشير هنا إلى كتاب من أبدع كتب التاريخ هو « فتح المكسيك » Conquest of Mexico بقلم المؤرخ الأمريكى وليم برسكوت ، ففيه عرض بديع لسيرة هذا البطل الفاتح وأعماله العظيمة

التشجيع ....

للأستاذ على الطنطاوى

سيدى . . . . . صاحب الرسالة ، أنت
لا تحب الثناء ، ولكن القراء يحبون الحقيقة ،
فأرجو أن تنشر لهم هذا الفصل «على»

قرأت ما كتب عنى وعن كتابى « أبو بكر الصديق » أستاذنا أديب العربية الأستاذ الزيات ، فقرأت فيه صفحة من كرم السجايا ، ونبل الأخلاق ، والتشجيع الذى يتفضل به الكبير على الصغير ، فيسدد به خطواته ، ويأخذ بيده ، ويصب من قوته فى أعصابه ، حتى يقوى ويشتد ويتقدم ، فأحببت أن أعلق على هذا التقريظ بكلمة فى التشجيع وماله من الأثر فى العلوم والآداب ، وأن أفى للحق والواجب ، بأن أسجل للأستاذ وللرسالة ، ماله علينا من منّة ، وما للرسالة علينا من يد ؛ وأنا وأصحابى هنا مدينون للرسالة ، بما نجد من قوّة ، ومانحس من نشاط ، ما كنا لولا « الرسالة » نحس منه شيئاً ؛ وما رأينا قبل الرسالة مجلة أدبية راقية ، فتحت أبوابها لأدباء العربية جميعاً ، لا تفرق بين أبناء قطر وقطر ، وبلد وبلد ، ولا تزن الأدباء بالشهرة الواسعة ، ولكن بالانتاج القيم ، فكانت بذلك الرسالة ديوان العرب المشترك ، وسجل الأدب الحديث ، وجعلت من قرائها – وقراؤها كل الناطقين بالضاد – أسرة واحدة ، تجمعها وحدة المبدأ ، ووحدة الغاية . وهل أجل فى اثبات هذه الوحدة ، من رجل يكتب مقالة عن الأوزاعى من فلسطين ، فيعقب عليه آخر من الشام ، ويجيبه ثالث من مصر ، ويعلق عليها رابع من سنغافورة ثم يكتب فى الموضوع خامس من دمشق ؟ . . . . كأن الرسالة قد محت بسحرها ما بين سنغافورة والشام من صحارى وبحار ، وجبال وأنهار فغدت هذه من تلك ، كالمقعد من المقعد فى الصف الواحد ، يخرج رأى من هنا ، ورأى من هنا ، ويسمع الأستاذ وهو على منبره الرأيين ليقول القول الفصل ، وينطق بالكلمة الحاسمة وما الأستاذ إلا الزيات وما المنبر إلا الرسالة !

***

أشكر للأستاذ هذه السنّة التى يتبعها فى تشجيع صغار الأدباء ، والأخذ بأيديهم ، لأن التشجيع مذ كان أصل التقدم ، وسبب النجاح ؛ وقد قرأت مرّة أن مجلة انكليزية كبيرة سألت الأدباء عن الأمر الذى يتوقف عليه نمو العلوم وازدهار الآداب ، وجعلت لمن يحسن الجواب جائزة قيمة ، فكانت الجائزة لكاتبة مشهورة قالت : إنه التشجيع ! وقالت : انها فى تلك السنّ ، بعد تلك الشهرة والمكانة ، تدفعها كلمة التشجيع حتى تمضى إلى الامام وتقعد بها كلمة التثبيط عن السير

وإن من أظهر الأسباب فى ركود الأدب فى الشام فى القرن الماضى ، وانقطاع سبيل التأليف ، هو فقدان التشجيع ، وذلك «الاحتكار العلمى» الذى قتل كثيراً من النفوس المستعدة للعلم ، وخنق كثيراً من العبقريات المهيئة للظهور ، فقد كان العلم فى الشام مقصوراً يومئذ على بيوت معروفة ، لا يتعداها ولا يجوز أن يتعداها ، هى : بيت العطار ، والحمزاوى ، والغزى ، والطنطاوى ، والشطى ، والخانى ، والكزبرى ، والاسطوانى ، والحلبى . . . وكانت كلها متجمعة حول المدرسة البادرائية ؛ فى القميرية والعمارة ، وزقاق النقيب ، حيث يسكن الأمير العالم المجاهد عبد القادر الجزائرى رحمة الله عليه وعليهم ؛ وكان لهذه البيوت كل معانى الامتياز و « الاحتكار العلمى » ، فاذا سُمع أن شاباً اشتغل بالعلم من غير هذه البيوت ، وقدروا فيه النبوغ ، وخافوا أن يزاحمهم على وظائفهم الموروثة ، بذلوا الجهد فى صرفه عن العلم ، والعدول به إلى التجارة ؛ أوليست الوظائف العلمية وقفاً على هذه البيوت ؟ أوليس للولد ولاية العهد فى وظيفة أبيه ، تنحدر اليه الأمامة أو الخطابة أو التدريس عالماً كان أو جاهلاً ، فكيف إذن يزاحمهم عليها أبناء التجار ، وهم لا يزاحمون أبناء التجار على « حوانيتهم » ؟ أو لا يكفى أبناء التجار هذا القسط الضئيل من النحو والصرف والفقه والمنطق الذى عن به عليهم هؤلاء العلماء ؟ . . .

حتى إنه لما نشأ محمد أمين (ابن عابدين) وأنسوا منه الميل الى العلم ، وعرفوا فيه الذكاء المتوقد ، والعقل الراجح ، خافوا منه فذهبوا يقنعون أباه – وكان أبوه امرأً تاجراً – ليسلك به سبيل التجارة ، ويتنكب به طريق العلم ، وجعلوا يكلمونه ،

ويرسلون اليه الرسل ، ويكتبون اليه الكتب ، ويستعينون عليه بأصحابه وخلصائه ، ولكن الله أراد بالمسلمين خيراً ، فثبت الوالد فكان من هذا الولد المبارك ، ابن عابدين صاحب « الحاشية » ، أوسع كتاب فى فروع الفقه الحنفى

بل لقد أرادوا أن يصرفوا أستاذنا العلامة محمد بك كرد على عن العلم ، فبعثوا اليه بشقيقين من آل . . . بشقيقين قد ماتا فلست أسميهما ، على رغم أنهما قطعا عن العلم أكثر من أربعين طالباً — فما زالا بأبيه — ولم يكن أبوه من أهل العلم — ينصحانه أن يقطعه عن العلم ، ويعلمه مهنة يتكسب منها ، فما فى العلم نفع ، ولا منه فائدة . . . ويلحان عليه ويلازمانه ، حتى ضجر فصرفهما فكان من ولده هذا ، الأستاذ كرد على أبو النهضة الفكرية فى الشام وقائدها ، ووزير معارف سورية [1] ومفخرتها ، والذى من مصنفاته : خطط الشام ، وغرائب الغرب ، والقديم والحديث ، والمحاضرات ، وعابر الأندلس وحاضرها ، والإدارة الاسلامية ، والاسلام والحضارة العربية . . . والمقتبس . . . ومن مصنفاته : « المجمع العلمى العربى بدمشق » ، ومن مصنفاته هؤلاء : « الشعراء والكتاب من الشباب » !.

ولعل فى الناس كثيرين كانوا لولا الاحتكار والتثبيط كابن عابدين أو ككرد على . وهاهو ذا العلامة المرحوم الشيخ سليم البخارى مات وماله مصنف رسالة فما فوقها ، على جلالة قدره ، وكثرة علمه ، وقوة قلمه ، وشدة بيانه ؛ وبسبب ذلك أنه صنف لأول عهده بالطلب رسالة صغيرة فى المنطق ، كتبها بلغة سهلة عذبة ، تنفى عن هذا العلم تعقيد العبارة ، وصعوبة الفهم ، وعرضها على شيخه ، فسخر منه وأنبه ، وقال له :

أيها المغرور ! أبلغ من قدرك أن تصنف ، وأنت .. وأنت .. ثم أخذ الرسالة فسجر بها المدفأة . . فكانت هى أول مصنفات العلامة البخارى وآخرها !

وقد وقع لى أنى كنت فى المدرسة وكنت أحاول أن أنظم الشعر ، فآخذ أبياتاً قديمة فأغير قوافيها ، وأبدل كلماتها ، وأدعيها لنفسى ، كما يفعل اليوم بعض الأدباء « التراجمة » حين يترجمون الكلمة الانكليزية أو الفرنسية حتى إذا بلغوا التوقيع ترجموه هو أيضاً ، فكانت ترجمة اسم المؤلف أو الكاتب اسم الترجمان أو « السارق » ! وكان الكتاب أو الفصل المترجم من وضع أديبنا البارع . . .

كنت أنظم أبياتاً من الشعر أو أسرقها ، كما ينظم كل مبتدئ ويسرق ، حتى إذا اجتمع عندى كثير من القطع ، عرضته على أستاذ العربية ، وكان لسوء الحظ تركياً يسمى اسماعيل حقى أفندى ، يعلمنا النحو العربى باللسان التركى ! فلما قرأه سخر منى وسبنى وتهكم على ، وجاء من بعد أخى أنور العطار — فنظم كما كنت أنظم حتى إذا اجتمع عنده كثير من القطع ، عرضه على الأستاذ كرد على رئيس المجمع العلمى العربى ، فأقام له حفلة تكريمية !

فكانت النتيجة أنى عجزت عن الشعر ، حتى لنقل البحر بفمى أهون على من نظم خمسة أبيات ، وأن أخى أنور العطار غدا شاعر الشباب السورى ، وسيغدو شاعر شباب العرب !

***

وأول من سن سنة التشجيع فى بلدنا هو العلامة المرحوم مربى الجيل الشيخ طاهر الجزائرى ، الفيلسوف المؤرخ الجدلى ، الذى من آثاره المدارس الابتدائية النظامية فى الشام ، والمكتبة الظاهرية ، والأستاذ محمد كرد على بك ، وخالى الأستاذ محب الدين الخطيب . . . . ومما كتب فى ذم التثبيط :

« . . . وقد عجبت من أولئك الذين يسمون فى تثبيط الهمم ، فى هذا الوقت الذى يتنبه فيه الغافل . . .

وكان الأجدر بهم أن يشفقوا على أنفسهم ويشتغلوا بما يعود عليهم وعلى غيرهم بالنفع ، ولم نر أحداً من المثبطين قديماً أو حديثاً أتى بأمر مهم ، فينبغى للجرائد الكبيرة ، أن تكثر من التنبيه على ضرر هذه المادة ، والتحذير منها ، ليخلص منها من لم تستحكم فيه ، ويتنبه الناس لأربابها ليخلصوا من ضررهم »

وكان الشيخ فى حياته يشجع كل عامل ، ولا يثنى أحداً عن غاية صالحة ، حتى لقد أخبرنى أحد المقربين منه أنه قال له : إذا جاءك من يريد تعلم النحو فى ثلاثة أيام ، فلا تقل له إن هذا غير ممكن . فتفل عزيمته ، وتكسر همته ، ولكن أقرئه وحبب إليه النحو ، فلعله إذا أنس به واظب على قراءته

(١) سابقا

ثم ان التشجيع يفتح الطريق للعبقريات المخبوءة حتى تظهر وتثمر ثمرها ، وتؤتى أكلها ؛ ورُبّ ولد من أولاد الصناع أو التجار يكون إذا شجع وأخذ بيده عالماً من أكابر العلماء ، أو أديباً من أعاظم الأدباء ! وفى علماء القرن الماضى فى الشام من ارتقى بالجد والدأب والتشجيع من منوال الحياكة ، إلى منصب الافتاء ، وكرسى التدريس تحت القبة .

نشأ الشيخ محمد اسماعيل الحائك عامياً ، ولكنه محب للعلم ، محب للعلماء ، فكان يحضر مجالسهم ، ويجلس فى حلقهم للتبرك والسماع ، وكان يواظب على الدرس لا يفوته الجلوس فى الصف الأول ، فجعل الشيخ يؤنسه ويلطف به ، لما يرى من دوامه وتبكيره ، ويسأل عنه إذا غاب ، فشدّ ذلك من عزمه ، فاشترى الكتب يحيى ليله فى مطالعة الدرس ، ويستعين على ذلك بالنابهين من الطلبة ، واستمر على ذلك دهراً حتى أتقن علوم الآلة ، وصار واحد زمانه فى الفقه والأصول ، وهو عاكف على مهنته لم يتركها ؛ وصار الناس يأتونه فى محله يسألونه عن مشكلات المسائل ، وعويصات الوقائع ، فيجيبهم بما يعجزعنه فحولة العلماء . وانقطع الناس عن المفتى من آل العمادى فساء ذلك العماديين وآلمهم ، فتربصوا بالشيخ وأضمروا له الشرّ ، ولكنهم لم يجدوا إليه سبيلاً ، فقد كان يحيا من عمله ، ويحيا الناس بعلمه ، وكان يمر كل يوم بدار العماديين فى « القيمرية » وهو على أتان له بيضاء ، فيسلم فيردون عليه السلام ، فمر يوماً كما كان يمر ، فوجد على الباب أخا المفتى ، فردّ عليه السلام ، وقال له ساخراً :

ـ إلى أين يا شيخ ! أذاهب أنت إلى (اسطمبول) لتأتى بولاية الافتاء ؟ وضحك وضحك من حوله ، أما الشيخ فلم يزد على أن قال :

ـ إن شاء الله !

وسار فى طريقه حتى إذا ابتعد عنهم دار فى الأزقة حتى عاد إلى داره ، فودع أهله ، وأعطاهم نفقتهم ، وسافر !

وما زال يفارق بلداً ، ويستقبل بلداً ، حتى دخل القسطنطينية فنزل فى خان قريب من دار المشيخة ، وكان يجلس على الباب يطالع فى كتاب ، أو يكتب فى صحيفة ، فيعرف الناس من زيه أنه عربى فيحترمونه ويجلونه ، ولم يكن الترك قد جنوا الجنة الكبرى بعدُ . . . فكانوا يعظمون العربى ، لأنه من أمة الرسول الأعظم الذى اهتُدوا به ، وصاروا به وبقومه ناساً . . .

واتصلت أسباب الشيخ بأسباب طائفة منهم فكانوا يجلسون إليه يحدثونه ، فقال له يوماً رجل منهم :

ـ إن السلطان سأل دار المشيخة عن قضية حيرت علماءها ولم يجدوا لها جواباً ، والسلطان يستحثهم وهم حائرون ، فهل لك فى أن تراها لعل الله يفتح عليك بالجواب ؟

قال : نعم

قال : سر معى الى المشيخة

قال : باسم الله

ودخلوا على ناموس المشيخة (سكرتيرها) ، فسأله الشيخ اسماعيل عن المسألة فرفع رأسه فقلب بصره فيه بازدراء ، ولم تكن هيئة الشيخ بالتى ترضى ، ثم ألقاها اليه وانصرف الى عمله ، فأخرج الشيخ نظارته فوضعها على عينه فقرأ المسألة ثم أخرج من منطقته هذه الدواة النحاسية الطويلة التى كان يستعملها العلماء وطلبة العلم للكتابة وللدفاع عن النفس ، فاستخرج منها قصبة فبراها ، وأخذ المقط فقطها ، وجلس يكتب الجواب بخط نسخى جميل حتى سوّد عشر صفحات ما رجع فى كلمة منها الى كتاب ، ودفعها إلى الناموس ، ودفع اليه عنوان منزله وذهب . فلما حملها الناموس الى شيخ الاسلام وقرأها ، كاد يقضى دهشة وسروراً

ـ وقال له : ويحك ! من كتب هذا الجواب ؟

ـ قال : شيخ شامى من صفته كيت وكيت . . .

ـ قال : علىّ به

فدعوه وجعلوا يعلمونه كيف يدخل على شيخ الاسلام ، وأن عليه أن يشير بالتحية واضعاً يده على صدره ، منحنياً ، ثم يمشى متباطئاً حتى يقوم بين يديه . . . . إلى غير ذلك من هذه الأعمال الطويلة التى نسيها الشيخ ، ولم يحفظ منها شيئاً

ودخل على شيخ الاسلام ، فقال له :

ـ السلام عليكم ورحمة الله ، وذهب فجلس فى أقرب المجالس اليه . وعجب الحاضرون من عمله ولكن شيخ الاسلام سرّ بهذه التحية الاسلامية وأقبل عليه يسأله حتى قال له :

ـ سلنى حاجتك

ـ قال : إفتاء الشام وتدريس القبة

ـ قال : هما لك . فاغدُ على غداً !

فلما كان من الغد ذهب اليه فأعطاه فرمان التولية وكيساً فيه ألف دينار

وعاد الشيخ إلى دمشق فركب اتانه ودار حتى مرّ بدار العاديين فاذا صاحبنا على الباب ، فسخر منه كما سخر وقال :

ـ من أين ياشيخ ؟

ـ فقال الشيخ : من هنا ، من اسطنبول . أتيت بتولية الافتاء كما أمرتنى

ثم ذهب إلى القصر فقابل الوالى بالفرمان ، فركع له وسجد وسلم الشيخ عمله فى حفلة حافلة

***

ومن هذا الباب قصة الشيخ على كزبر ، وقد كان خياطاً فى سوق السكية على باب الجامع الأموى ، فكان إذا فرغ من عمله ذهب فجلس فى الحلقة التى تحت القبة فاستمع إلى الشيخ حتى يقوم فيلحق به فيخدمه ، وكان الشيخ يعطف عليه لما يرى من خدمته إياه ، فيشجعه ويحثه على القراءة فقرأ ودأب على المطالعة ، حتى صار يقرأ بين يدى الشيخ فى الحلقة ، ولبث على ذلك أمداً وهو لا يفارق دكانه ولا يدع عمله ، حتى صار مقدماً فى كافة العلوم

فلما مات الشيخ حضر فى الحلقة الوالى والأعيان والكبراء ليحضروا أول درس للمدرس الجديد ، فافتقدوا المعيد فلم يجدوه . ففتشوا عليه فاذا هو فى دكانه يخيط ، فجاءوا به ، فقرأ الدرس وشرحه شرحاً أعجب به الحاضرون وطربوا له . فعيّن مدرساً ولبث خمسة عشر عاماً يدرس تحت قبة النسر ، وبقيت الخطبة فى احفاده إلى اليوم (1)

على أن للتشجيع عيباً واحداً هو الغرور ، فأنا أعوذ بالله أن أغتر فأصدق أنى أهل لكل ما تفضل به علىّ الأستاذ من النعوت ، وأرجو أن أوفق إلى الجد والتقدم بتشجيع الأستاذ وفضله ، وأشكر للأستاذ الزيات باسمى واسم إخوانى هنا ، أياديه علينا وعلى الأدب العربى ، الذى سمت وتسمو به « الرسالة » !

على الطنطاوى

(1) ومدرس القبة الرسمى اليوم شاب أوربى الزى ، أوربى اللسان ، أوربى الزوجة . لا يدخل المسجد مرة فى العام ، ولكنه مدرس القبة !

٤ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية

انتشر الاسلام بين الأمم فدخل الناس فى الاخوة الاسلامية وصاروا أمة واحدة ، واتخذوا اللغة العربية لسان الدين والعلم ، لا يكتبون غيرها

ولما حييت لغاتهم على مر الزمان بجانب العربية كتبوها بالخط العربى الذى ألفوه ، وترك من كان ذا كتاب منهم كتابته الأولى . ولم يخسروا فى هذا شيئاً إذ كانت الكتابة العربية على علاتها أوضح وأيسر مما كان عندهم

— ١ —

كان الفرس يكتبون بالخط الفهلوى ، وهو مشتق من الخط الآرامى القديم ، والخط الفهلوى مبهم مشكل . قال الأستاذ براون إنه يصدق فيه ما قاله أحد الفرنسيين عن الخطابة إنها فن إخفاء الأفكار ، يعنى أنه خط يخفى الألفاظ . ذلك بما تشابهت حروفه ، وبما اشتركت الأصوات المختلفة فى بعض الحروف . وقد أدى هذا اللبس الى مالم يعهده التاريخ فى لغة أخرى . كان الكتاب يكتبون كلمة آرامية مكان كلمة فارسية خوفا من اللبس ، فاذا قرأوا نطقوا بالكلمة الفارســـية غير المكتوبة ، وتركوا الآرامية المكتوبة . روى عن ابن المقفع أنه قال : إن فى اللغة الفهلوية ألف كلمة تقرأ ولا تكتب . وروى ابن النديم فى الفهرست من أمثلة هذا أنهم كانوا يكتبون كلمة « بسرا » الآرامية ويقرءون گوشت (لحم) بالفارسية ، ويكتبون « لهما » الآرامية ويقرأون نان (خبز) بالفارسية

ولم تكن الألفاظ الآراميـة مقصورة على ما يستعار من لغة الى أخرى من الأسماء ، بل كان فيها أفعال وضمائر وإشارات . وكانوا يلحقون بالكلمات الآرامية خواتم فارسية الخ ، ومن أجل صعوبة الخط الفهلوى ندر القارئون فى ذلك العهد

فكان خيراً للفرس أن كتبوا لغتهم بالحروف العربية لهذا ، وللأخوة العامة التى أدخلهم الاسلام بها حين مد ظله على الأمم وأراد أن يمحو الفروق بين بنى آدم

— ٢ —

وأما الترك فكان أكثرهم قبائل أميـــة لا تعرف قراءة ولا كتابة ، وتسربت الى طوائف منهم كتابات الأمم المجاورة . كتبت بعض الأسماء والألقاب التركية بالهيروغليفية الصينية فى القرنين السابع والثامن بعد الميلاد . ولما أريد تنصير الترك النازلين على بحر الخزر فى القرن السادس ترجم لهم الكتاب المقدس ، وكتب بالحروف اليونانيـة . وكذلك كتبت التركية بالحروف اليونانية فى جهات الطونة ، وكذلك كتبت التركية بالعبرية ، والنسطورية ، والهندية ، والسلافية ، والأرمنية الخ الخ

وقد أثر عن جماعات من الترك ضربان من الكتابة يمكن أن يعدا كتابة تركية . وهما الخط الأورخونى الذى دلت عليه الآثار التى عثر عليها حوالى نهر أورخون فى سيبريا ، والخط الأويغورى . والأول كتبت به تركية الشمال ، وبالثانى كتبت تركية الجنوب

فأما الخط الأورخونى فيرى أكثر العلماء أنه مشتق من الخط الآرامى القديم . وقد كتب به فئات من الترك من القرن الرابع الميلادى الى القرن الثامن . وهو مؤلف من ثمانية وثلاثين حرفاً ، أربعة منها حروف حركة ، وثلاثة منها مركبة . ويوصل به غالباً كلمتان أو ثلاث معاً . وأحياناً يستغنى بالحرف من الكلمة فتكتب (ت) للدلالة على آت (فرس) و (ز) للدلالة على آز (قليل) وهكذا . ولا ريب أن هذا الخط لا يقاس بالخط العربى وضوحاً ويسراً وكمالاً

وأما الخط الأويغورى وهو أحدث الخطين ، وأطولهما عهداً ، وأوسعهما انتشاراً ، فيظن أنه حل محل الخط الأول منذ القرن الثامن الميلادى . كتبت به أول الأمر ترجمة الكتب البوذية ، وبقى بين الأويغوريين وغيرهم من الترك ، بعد أن دخلوا فى الاسلام فكتبت به الدولة الخاقانية فى كشغر (٣٢٠ ـ ٦٠٩ هـ) والدولة الجنكيزية ، والايلخانية (٦٥٤ ـ ٧٤٤) ودولة آلتون أوردو فى قفجاق (٦٢١ ـ ٩٠٧) . وكتبت به بعض الكتب الاسلامية حتى القرن العاشر الهجرى . وهذا الخط مشتق من الخط الصُغْدى والصغْدى مأخوذ من الآراميـة أيضاً ، وهو أربعة عشر حرفاً يدل بعضها على أصوات مختلفة . وهو من

اللبس والعسر بحيث لا يقاس بالخط العربي أيضاً .

فكان من نعم الاسلام أن بدل بهذين الخطين الخط العربي الذي صار خط الأمم الاسلامية جماء . ثم الآثار القليلة التي أثرت في الخطين الأورخوني والأويغوري في بقاع ضيقة ، وموضوعات تافهة لا تقاس بما كتب باللغة التركية والحروف العربيـة في العهد الاسلامي إذ أفاد الترك من الحضارة الاسلامية ، ودخلوا في جماعة المسلمين ، وتمكن سلطانهم بينهم

— ٣ —

والتركية العثمانية التي اختيرت لها الحروف اللاتينية أخيراً لم تعرف في تاريخها غير الحروف العربية ، ولم تدوّن إلا في ظل الحضارة الاسلامية بعد سبعة قرون من الهجرة

دخل السلاجقة في الاســلام ثم أقاموا دولتهم في القرن الرابع وفتحوا بغداد سنة ٤٤٧ ، وامتد سلطانهم على آسيا الغربية من أفغانستان إلى البحر المتوسط . ثم تقسم الخلف ميراث السلف فكان من الدول السلجوقية المتعددة دولة ســلاجقة الروم وهي التي نشأت في الأناطول وما يصاقبه

وكان الأدب الفارسي في القرن الخامس قد ازدهر بجانب الأدب العربي ، فأخذ السلاجقة حضارة الاسلام باللغتين العربية والفارسية . فكانت العربية لغة العلم عند سلاجقة الروم والفارسية لغة الدواوين . وكان الأدب التركي مقصوراً على العامة ، غـير مدوّن

ولما نشأت إمارة قرمان بعد منتصف القرن السابع صارت التركية أول مرة لغة الدواوين وكتبت بالحروف العربية .

وقد اشتملت هذه التركية المكتوبة على كثير من الكلمات العربية والفارسية

— ٤ —

وكانت الكتابة التركية في عهدها الأول تقارب الأسلوب العربي لا تكتب فيها حروف الحركة إلا قليلا . ثم أثبتت حروف العلة والهاء للدلالة على الحركات دون تعميم . ثم انتهى الأمر في العصر الأخير إلى أن كتبت حروف الحركة في كل كلة فصارت الكتابة التركية كالكتابة اللاتينية : كل حرف صحيح يليه حرف يمثل للدلالة على الحركة

فاذا قرأنا مثلا في ديوان سلطان ولد ابن مولانا جلال الدين الرومي وهو أول ناظم بالتركية العثمانية نجد رسم الكلمات الآتية على هذا النسق : أل (هـذا) كُرُر (يرى) بقمز (لا ينظر) كُنَش (الشمس) أُلُرُ (يكون) أيقُدا (في النوم) أجَر (يطير) ، فاذا قرأنا في كتب المتأخرين وجدنا الرسم قد تغير على هذا النسق : أول ، گورووو ، باقماز ، گونَش ؛ أولور ، أويقوده ، أوچار

وإذا قرأنا في الكتب التي كتبت قبل ثلاثين سنة لا نجد حروف الحركة مثبتة في كل مقطع . فاذا نظرنا في الكتب التي كتبت من بعد وجدنا اطراد حروف الحركات في مقاطع الكلمة . كانت الكلمات الآتية ترسم كما ترى :

تمز (نظيف) آرقداش (أخ) كنيش (واسع) دها (أيضاً) گبي (مثـل) قدر (مقدار) دكل (ليس) درين (عميق) گوزل (ظريف)

فصارت بعد كما يأتي:

تە ميز (الهاء علامة الفتحة الخفيفية) أرقاداش ، گەنيش داها ، گيبي ، قادار ، ده كيل ، ده رين ، گوزه ل

وكان يسع الكماليين أن يسيروا على هذه السيرة واصلين حديثهم بقديمهم مبقين على ما دوّن أسلافهم ، ولكنهم آثروا ، إنفاذاً لخطتهم ، أن ينبذوا الحروف العربية ، وهي الحروف التي يكتب بها مسلمو العالم كافة ، ولفقوا هجاء من الألمانية والفرنسية والايطالية فبلغوا الكمال المطلوب ولحقوا بالسادة الأوروبيين .

ولست أقول ما قاله أحـد كبراء الفرس لأديب تركي يناظره في الحروف اللاتينية : « إنكم معشر الترك ليس لكم من آدابكم ما تفخرون به فآثرتم أن تسدلوا عليها ستراً من الحروف اللاتينية ولكن لنا من آدابنا ما نفخر به ونحرص على قراءته في كل جيل فلسنا نريد أن نغير كتابتنا » لست أقول هذا ففي الأدب التركي القديم ما هو جدير بالرعاية ، وقد افتنّ الترك في تجويد الخط حتى صاروا أئمة فيه وصار لهم من آياته ما يجدر بكل أمة أن تحرص عليه

مسألة الحروف اللاتينية ليست فيما أرى ضرورة أو إصلاحا ولكنها فتنة من فتن تقليـد أوروبا التي ضربت الشرق عامة والمسلمين خاصة بالذلة والهوان ، وقد بلغ الأمر أن نرى بعض الناس أن تكتب اللغة العربية أيضاً بالحروف اللاتينية ، فاذا قلت لهم فما تصنعون بأحد عشر حرفاً من الهجاء العربي ليست في الحروف

اللاتينية ؟ قالوا نضع لها حروفاً لاتينية بالتركيب أو النقط . فياسبّة الأمم ، وعار الأجيال ، وموتى النفوس ، لماذا تجعلون من أنفسكم واضعين مخترعين فى حروف اللاتينية ، ولا تكملون مافى حروفكم من نقص ، وتصلحون ما بها من عيب ؟ جرى الجدال بينى وبين واحد منهم فكان منه الحوار الآتى :

قلت : كيف تكتب ، خاشماً وخاضماً ، بالحروف اللاتينية ؟

قال هكذا : Khash,i و Khad,i فأركب K ، H للدلالة على الخاء ، و S ، H للشين وأضع مدا على A وأدل على العين بالحرف i مفصولاً عما قبله بشولة كما يفعل المستشرقون

قلت فلماذا كل هذا العناء ؟ لقد اضطررت أن تنقط وتشكل فى الحروف اللاتينية ، أترى هذا أيسر وأبين من خاشم وخاضم ،

قال : لا، ولكن الكلمتين بالخط العربى خاليتان من حروف الحركة

قلت : فضع كسرة تحت الشين والضاد . وهذا حسبك ، بل لست فى حاجة إلى هذه الكسرة فوزن الكلمة يعين حركاتها . قال هذا صحيح فى هذا المثال ، فما بال الكلمات الأخرى . قلت : صدقت فهلمّ نتناول الموضوع على عمومه

ـ ماذا تنقمون من الكتابة العربية ؟

ـ ننقم منها أنها كتابة لاتبين عن الألفاظ ، فهذه الصورة « حسن » تقرأ حَسَن ، وحُسْن ، وحَسُن ، وحَسَّن ، وحُسِّن . . . الخ

ـ قد كانت كتابتنا أول عهدها غير معجمة ولامشكولة ، مثلاً كانت الجيم والحاء والخاء ترسم بصورة واحدة فأعجم السلف الحروف فامتاز بعضها من بعض ، ثم وجدوا الحرف الواحد فى أكثر حالاته مبهم الحركة ، فشكلوا الحروف فتعينت الحركات ، واستبانت الألفاظ ، وكان للحروف صور غير صورها الحاضرة ، فما زال بها الاختراع ، والتجميل والتجويد حتى بلغت جمالها الحاضر ، وتعددت الخطوط ، وجعل لكل مقصد ضرب يواتيه ، فكان خط الثلث والنسخ والرقعة وغيرها . فإن كنتم يارجال القرن العشرين أحياء قادرين على الابداع ، أباة آنفين من المحاكاة ، وإن تكن عقولكم غير سقيمة ، وقرائحكم غير عقيمة ، فانظروا فى كتابتكم ، فان رأيتم عيبا فأصلحوه ، وإن آنستم نقصاً فأكملوه ، ولا تكونوا فى عصور العلم ضلالاً ، وفى نور القرن العشرين ظلالاً ، أدخلوا فى الكتابة حروف الحركة إن شئتم ، أو اعملوا غير ذلك إن استحسنتم ، فأما أن تقولوا كتبت أوربا فنكتب مثلها فذلك ضلال المقول ، وهوان النفوس ، والموت الذى لا يستره باطن الأرض

ثم لا تنس ياأخى أن اللغة العربية لغة أوزان وصيغ ، فليست كل كلماتها فى حاجة إلى الشكل ، ولو اتسع المجال لأبنت لك أن الكاتب العربى يستطيع أن يكتب سطوراً لايحتاج فيها إلا إلى شكلات قليلة ، وقد ضربت مثلاً من هذا فى مقدمة الشاهنامه

ـ هب ما قلت صواباً ، فماذا ترى فى شكاوى أصحاب المطابع من كثرة صور الحروف العربية : للحرف صورة فى أول الكلمة وأخرى فى وسطها وثالثة فى آخرها ، على حين لاترى الطابع الأوربى أمامه للحرف إلا صورة واحدة

ـ بل صورتين صغيرة وكبيرة

ـ أجل وهذه ميزة أخرى للحروف اللاتينية

ـ هذه الشكاوى هى شكاوى أصحاب المال من كثرة العمال ؛ كل صاحب مطبعة يود أن يديرها عامل واحد ، ليأخذ كثيراً ويعطى قليلاً ، وأما القارئ فسيان عنده أن يكون الذين هيأوا الجريدة خمسة عمال أو مائة ، ثم أخبرنى : ما الذى جعل للحروف اللاتينية هذه الميزة ؟

ـ صور هذه الحروف ، ثم فصل بعضها من بعض

ـ قد كانت الحروف اللاتينية كلها موصولة ولاتزال توصل فى كتابة اليد ، فلما كانت المطابع استحسن الأوربيون أن يفصلوا بعضها من بعض ، فما الذى يمنعكم أيها المقلدون أن تفصلوا حروفكم فلا يكون للحرف فى الطبعة إلا صورة واحدة ؟

ـ هذا يبدو لى صواباً ولكنه عجيب غريب

ـ أعجب منه أن نفكر فى كتابة لغتنا بالحروف اللاتينية . قد هانت علينا نفوسنا حتى صار التقليد يسيراً قريباً ، والاختراع مهما قل عجيباً غريباً

ـ لا تنس أن العلوم والمخترعات قربت بين الأمم وطوت المسافات بين أطراف الأرض . والأمم صائرة إلى التوحيد فلماذا لا تكتب لغات الأمم كلها بالحروف اللاتينية ؟

ـ أجل قربت العلوم والمخترعات بين الأمم ، ولكن أوربا لا تعرف الأخوة بين الناس ، ولا تزال تفرق بينهم بأتفه الأشياء وهى الألوان . والتوحيد الذى تريده أوربا أن تكون هى آكلة

ونحن ما كولين . وهذا حديث يضيق عنه مقامنا الآن . وبعد فلماذا يكون توحيد الكتابة بالحروف اللاتينية ولا يكون بالحروف العربية ؟ ان أردت أن تمتحن صدق الداعين إلى التوحيد فادعهم إلى استعمال الحروف العربية فستبلغ بهم الكبرياء والازدراء والسخرية والعجب ألا يجيبوك بكلمة . ولن يكون ذلك لما عرفوا من فضل حروفهم على حروفنا ، بل لأن هذه حروفهم وتلك حروفنا . وسيشترك في السخرية من لم ير الحروف العربية قط . ثم هل اتفق الأوربيون على الكتابة بحروف واحدة ؟ وهل استعملوا الحروف التي اتفقوا عليها بأسلوب واحد ؟ أذكر أنه منذ ثلاث سنين جاء إلى أستاذ كبير في الجامعة المصرية كتاب من جماعة في أوربا يدعونه إلى العمل معهم على تعميم الحروف اللاتينية في العالم ، فسألني رأيي فيما يجيبهم به فقلت ان كان لابد أن تجيب فاكتب إليهم أن ابدأوا بكتاباتكم فوحدوها فاذا صار الرومي واليوناني والألماني والفرنسي والانكليزي والاسباني الخ يكتبون بحروف واحدة ، وأجمعوا في كتابة هذه الحروف على نمط واحد فاكتبوا إلينا لنفكر في الأمر

وبعد ، فاللغات يا أخي مهما أحكمت كتابتها ، لا تؤخذ من الكتب وحدها بل لابد لها من التلقين . تعرف الكلمة بالسماع ثم تدل الكتابة عليها دلالة تامة أو ناقصة . وكثيراً ما تكون الحروف كالرموز أو العلامات يلمحها الانسان فيعرف ما وراءها من لفظ قبل أن يكمل قراءتها ، ويدرك اللفظ من صورة الحروف مجتمعة بل كأنه يفهم المعاني من النقوش دون توسط الألفاظ . وإذا أسرع القارئ سلط عينيه على المكتوب وقصّر لسانه عن مجاراة عينيه ، ثم يا أخي هل بلغت الحروف اللاتينية التي فتنتم بها درجة الكمال ، وبرئت من العيوب ؟ ألست ترى الصوت الواحد تدل عليه حروف عدة فصوت الكاف تدل عليه C ، k ، q ، والحرف الواحد يدل على أصوات مختلفة فالحرف c يلفظ مرة ك وأخرى س ، و s يكون س حيناً وحيناً ز وهلم جرا

والكتابة الفرنسية ، وهي أدق الكتابات الأوربية ، فيها عيوب كثيرة فاللفظ الواحد أو الألفاظ المتحدة في الصوت تكتب بصورة مختلفة مثل palais و pose, palet و pot, pause و pau, pean و Choud, Chaux و Crét, Craie .. فالصوت وحده لا يدل على رسم الكلمة . وكم في الفرنسية من حروف تكتب ولا تلفظ أحياناً كما ترى في الكلمات السابقة

وأنت تعرف الكتابة الانكليزية ، ودلالتها على الألفاظ بالجملة لا التفصيل ، وكم من حرف فيها يلفظ ولا يكتب وآخر يكتب ولا يلفظ وحسبك مثل daughter و night laugh, nerghbour wright . ولو قرأ قارئ الكلمات الانكليزية كما تدل عليها حروفها مافهم عنه أحد ، وقل أن تسأل رجلاً أو صبياً انكليزياً عن اسمه أو اسم شارع إلا أتبع الاسم بهجائه علماً بأن الصوت لا يدل على الحروف والامبراطورية الانكليزية ، مع هذا ، لم تضمحل بهذه الكتابة ، والأساطيل البريطانية لم تصطدم بهذه الحروف وما رأيت مصرياً من العيابين الطعانين في الحروف العربية جرؤ مرة على عيب الاملاء الانكليزي أو تنبه إلى عيوبه . وذلك بأن الحروف العربية لا تحميها امبراطورية ولا أساطيل ، نعوذ بالله من ضعف الهمم ، وذل الأمم

وإن للحروف العربية لمزايا عظيمة فهي أيسر كتابة . لا تملى على صبي كلمة فيخطئ كتابتها إلا الكلمات المهموزة . وهي كذلك أخصر رسماً يستطيع كاتبها أن يساير خطيباً أو مدرساً فيكتب كل ما يقول ، وهي في جملتها أوضح من كتابة اليد في اللغات الأوربية . قال لي مستشرق ألماني كبير قد أتقن اللغات العربية والفارسية والتركية ، وحذق كثيراً من لغات أوروبا : « ما أشكل علىّ قط قراءة رسالة عربية وقد أشكل علىّ وعلى غيري مرات كثيرة قراءة رسائل ألمانية »

هذا إلى ملاءمة الكتابة العربية للعين . قال لي طبيب كبير من أطباء العيون : إن الحروف اللاتينية بكثرة زواياها أشق على البصر من الحروف العربية

إن مجال القول يا صاحبي واسع . وما بكم صعوبة الحروف العربية ، ولكن الغرام بمتابعة أوربا ، والخجل من التمسك بما أورثكم آباؤكم . ما بكم علة الحروف العربية ولكن علل الذلة والمهانة ، واحتقار أنفسكم وتعظيم غيركم . إن المريض يكثر التحدث عن صحته ، ويكثر اتهام الأطعمة والأشربة ، كلما أحس السقم ظن أن الماء الذي شربه قد أضر به ، أو أن الطعام الذي طعمه لم يلائمه . فكذلك أنتم تحملون علل أنفسكم على اللغة أو الكتابة أو غيرها وإنما الداء الدوي في أنفسكم ، والعلة القاتلة في سرائركم

(له بقية) عبد الوهاب عزام

المؤتمـــــر الثامن

للجمعية الطبية المصرية بدمشق

للأستاذ عز الدين التنوخي

كاتب سر المجمع العلمي العربي

مطالب جليلة ، ورغائب جميلة ، وقلوبٌ كبيرة نبيلة ، إلى معارف شبيبةٍ مثقفـــةٍ ، ومدارك كهولةٍ ممحصة ، وتجارب شيخوخة محنكة ، مع كثيرٍ من الخيرات والبركات ، قد حل دمشق أولئك جميعاً بحلول رجال المؤتمر الطبي الثامن فيها

أجل تغيرت بهم فى دمشق أحوال المجتمع والحياة ، فأصبح مؤتمرهم حديثَ الأندية ومَلهجَ الألسنة ، فلم يبق فى أحياء الفيحاء من لم يتحدث به من الرجال والنساء ؛ وتبدلت كذلك فنادق دمشق بأبهائها وموائدها وبما قام فوق صروحها من خُضر الأعلام المصرية الزاهرة بأنجمها الثلاثة وهلالها خفاقةً إلى جانب تلك الأعلام الشامية الزاهية بألوانها الأربعة وجمالها

ويا حبّذا يوم نشاهد هـــذه الأعلامَ العربية بلغة أبنائها وبلدانها ، تَقر عيوننا بكثرة أنواعها وألوانها فيتماوجُ غداً على المؤتمرات العربية فى دمشق : العلم المصريّ والشآميّ والعراقيّ والحجازيّ واليمانيّ والبرقي[1] والتونسي والجزائري والمراكشي ، وتمازج فيها لهجات العرب المنتشرة فى أقطار هـذه الأعلام ، فيتألف من مجموعها لحنٌ عربيٌ ندىٌ يرتفع له حجاب السمع ، ويهتزُّ له شغاف القلب

بل قل ما أسعدَ ذلك اليومَ الأغرَّ المحجّل الذى نرى فيه للأقطار العربية المتحدة — والقاهرة (وَشنْطونُها) يومئذٍ — علماً عربياً واحداً ، ونسمع لها فيه نشيداً عربياً واحداً ، كما نرى اليوم أبناء العالم الجديد لولاياتهم المتحدة الأمريكيـة لواءً وطنياً واحداً ، ويسمعون فى جميع أنحائها نشيداً قومياً واحداً !!

عيدان أظلاّ دمشقَ واجتمعا للدمشقيين فى يوم واحد ، وعلى صعيدٍ واحد : عيدُ المولد النبويّ ، وعيد المؤتمر الطبيّ ، فكأنما اندمجت بذلك ولادةُ هذه الأمة الدينية الغابرة ، بولادتها السياسية والدنيوية الحاضرة ! فليس اليوم فى الفيحاء إلا قلوب تخفق

(١) نسبة إلى برقة أى طرابلس الغرب

لذكرى ذلك النبيّ العربيّ العظيم الذى أحيا من هـذه الأمة مواتَها ، وجمع بعد صدع النوى شـتاتها ؛ وليس فيها اليوم إلا قلوبٌ طاهرة وعقول ناضجة ، تفكر فى إحياء هذه الفصحى المحبوبة وإزالة بلبلتها بتوحيد لغتها العلمية ، وإعادة عزتها بجمع كلمة أبنائها ؛ وليس فيها كذلك إلا حفـلات وولائم متتابعات فى قصر أمية والقصر الملكى ، وردهة محاضرات الجامعة ، وحـديقة الأمة الرائعة ، ورياض الغوطة الفيحاء ، وربُى بلودان الشماء

كذلك تبدّلت بالمؤتمر الثامن فى دمشق لهجـةُ صحافتها ، فذهلت بنشر أخباره جريدة (الأيام) عن صراحتها ، و(القبس) عن معارضتها و(الجزيرة) عن ميثاقها ، و(ألف باء) عن اعتـدالها ، و(فتى العرب) عن كفاحه ، و(الشعب) عن طاحه ، و(المضحك المبكى) عن ظريف هزله ومزاحه

إن هذا المؤتمر — وهو دليلُ يقظة الأمة العربية وبرهانُ رشدها الاجتماعى — ليرمزُ إلى شعورها بقوتها الكامنة اليوم ، وبقدرتها الفاعلة غداً ؛ ولذا ورد على من خبر انعقاده فى دمشق ما خفف من بث قلبى الملتاع بتشتت هذه الأمة ، والمرتاع لمصيرها المظلم ؛ فشعرت لعمرى به شعور الأمل الحالم اغتبط بتوهم الحقيقة ، والهائم الحائم على مواقع القطر ابتهج برؤية أمنيته فلمع نور البشر فى غرته

ولِمَ لا أغتبط — ليت شعرى — ولا أبتهج ، أو لا تغلبنى نشوة الطرب ، وبعينى رأيتُ حسن ذلك الخيال مجسماً ، وبأذنى سمعت لحن ذلك الوصال مرنماً ، فى بعض مجامع المؤتمر[1] من عتاب الأحباب على الهَجْر ، والأقرباء على الجفاء ، وجيرة المنازل والديار ، على تناسى حقوق الجوار ؛ والجوار — عمركَ الله — رحمٌ شابكة وصلة واشجة ؟ وكان ممـا استرقته الأذن من قول أديب شاميّ لطبيب مصرى وهو يعاتبه :

— « إن لم تنضموا إلينا فضموناً إليكم ، فما كان لحواجز الاستعمار أن تقوى على فصم عرى الجوار ؛ ألسنا نحن الشاميين نشارك إخواننا المصريين فى أفراحهم وأتراحهم ؛ أما كنا نفرح بالأمس لسعد ، ولفوز سعد ، وأنصار سعد ؛ ألم تُرمض جوانحنا « سيشل » بذكراها ، وتقض مضاجعنا « دنشواى » ببلواها ؛ أو لسنا نشارككم اليوم فى نعيم الواحى (الراديو) فنطرب أمثالكم لألحان أم كلثوم وعبد الوهاب ، مثلما نساهمكم فى العلوم والآداب

(١) على مائدة القصر الملكى — أوروبان بالاس — فى وليمة مديرية الصحة العامة .

بسماع الآيات والخطب والمحاضرات ؟

أو ليس علماؤكم فى الأزهر والجامعة علماءنا ، وأدباؤكم من الكتاب والشعراء أدباءنا ، وتاريخ القطرين الشقيقين يكاد يكون واحداً ، ومطالعاتنا اليوم فى الكتب والمجلات والصحف المنشرة ، تكاد تكون واحدة أيضاً ؟ أولا تعلم أن « الرسالة » يقرأها فى دمشقنا هذه جمهرة العلماء والأدباء من الجنسين المنيف واللطيف على السواء ؟ ؟ »

وكان الطبيب المصرى يجيبه على أسئلته هذه العذبة الرقيقة بقوله :

— بلى ، بلى ، ونحن لكم اليوم يا أخى كذلك ، وفوق ذلك

فهذا الحديث وأمثاله هو من بعض بركات المؤتمر المصرى على العرب والعربية معاً . ومن أيمن تلك البركات المأثورة العزم على توحيد المصطلحات العلمية ؛ فى جلستها الخطيرة بحث الخطباء فى تاريخها وطرق وضعها ووسائل توحيدها ، وقد أشار كاتب سر المؤتمر الحكيم الدكتور عبد الواحد الوكيل فى فاتحة الجلسة إلى أن الجمعية الطبية المصرية قد اهتمت فى جميع مؤتمراتها السابقة بتوحيد المصطلحات الطبية ، فكان كل واضع يتعصب لوضعه فخرجنا من مؤتمراتنا كلها بدون فائدة ؛ ويجب الآن بعد تكوين المجمع اللغوى الملكى مع وجود المجمع العلمى الشامى أن تخرج هذه القضية من أيدينا إلى المجمعين

وقد شجعت جميتنا الدكتور محمد شرف على وضع معجمه وآزرته الحكومة فوزعه على الجمعيات اللغوية فى الممالك العربية ، واقترحنا أن يجعل أساساً لأعمال المصطلحات الفنية ، وأن يضاف اليه فى كل طبعة ما يتمحص منها ، وما يوضع من الألفاظ الجديدة فيتألف منه على الأيام معجمنا العربى المنشود

ثم بحث الخطباء فى طرق الوضع وهى جمة ، فذكروا منها قبول الأسماء الأعجمية الواردة على أوزان عربية ، وليس فى لغتنا ما يدل عليها ، وقبول النحت عند الضرورة فى الأسماء الأعجمية المركبة ، وترجمة الأسماء التى لا يصح تعريبها ؛ وفى الأسماء العلمية المركبة من جنس ونوع قد يجب تعريب الجنس ، والنوع ذو المعنى مما يجب ترجمته لا تعريبه ؛ وأما الأسماء المنسوبة الى الأعلام والأماكن فلا يجوز غير تعريبها ، إلى غير ذلك من الأساليب التى لا يجنح اليها إلا بعد التثبت من أن دواوين اللغة وكتب الطب والعلم لا تشتمل عليها ، فاذا ظفرنا بمثل كلمة التعايش لكلمة Symbiose وقد ذكرها الزمخشرى ، لم نحتج الى نحتها أو ترجمتها أو تعريبها

وفى خلال المباحث حدث جدال قليل بين بعض الأطباء فى الدفاع عن الأوضاع ، لا محل لتفصيله ، فانبرى لفصل الجدال بينهم الدكتور محجوب ثابت فرأينا منه خطيباً حلو النادرة ، طلق البادرة ، يتدفق فى إيراد بيناته وفكاهاته تدفق اليعبوب ، فيملأ الأسماع والقلوب ، ومما قاله :

إن العمل الشوش (المهرجل) لا يثمر أبداً ، والجمعيات الطبية العربية — وهى بحمد الله كثيرة فى بلاد العرب — لا تثمر ولا تنتج إن لم تعمل كذلك بطريقة علمية منظمة ، فلو أن شعبة المصطلحات الفنية فى الجمعية الطبية المصرية أخذت مثل كتاب : Medical terms dictionary وقسمت ألفاظه على عدد أعضاء الشعبة ، وفى آخر كل شهر يعرضون ما وضعوه على الجمعية مجتمعين ، وبعد تمحيصها وتحقيقها ، ترسلها الجمعية إلى مجمع اللغة الملكى بمصر ليحكم لها أو عليها ، فيعتبر حكمه عدلاً ، وقوله فصلاً

لا جرم أن من الانصاف والحصافة أن تجتمع كلمة الأقطار العربية على مجمع مصر الملكى لأنه يمثلها بالأعضاء الذين اختارهم من علمائها فاذا ما حكم بفصاحة لفظة فكأنما حكمت بها مجامع العرب كلها ، إذ هى ممثلة فيه ومحكمة فى ناديه ؛ وأما مجامع اللغة فى البلاد العربية فتعتبر روافد لمجمع مصر أو مؤتمرها اللغوى ، بما ترسله إليه من الأوضاع الجديدة ، وأعضاء المجمع المرسل يبينون لاخوانهم فى مصر توجيهاتها ، وأسباب تعديلها وتفضيلها ، وبذلك يكون الانتاج خصيباً ، والرأى على الأغلب مصيباً ، وقديماً قيل : المرء قليل بنفسه كثير باخوانه ، ومجمع اللغة المصرى ضعيف بواحده ، قوى بروافده

إن هذا المؤتمر الطبى الثامن لغزير النفع ، كثير الرجع على الأمة العربية ، فمن منافعه الجليلة تمهيده السبيل إلى توحيد المصطلحات العلمية ، وتمهيده السبيل إلى تعليم الطب فى المدارس الطبية باللغة العربية ومهما يتمهد السبيل إلى توحيد مناهج التربية والتعليم فى بلاد العرب الذى هو لعمرى من أقوى البواعث على توحيد الثقافة العربية المؤدى إلى توحيد الأمة العربية ، وإلى سيادتها فى العالم بتعارفها وتآلفها وتحالفها :

فنحن فى الشرق والفصحى بنو رحم ونحن فى الجرح والآلام إخوان

عز الدين التنوخى

كاتب سر المجمع العلمى

دراسات في الأدب الإنجليزي

المذهب الواقعي وفن الدرامة

بقلم محمد رشاد رشدي

تتمــــة

الدرامة الإنجليزية في عهد (دريدن)

من أهم ما يميز هذا العصر – منتصف وأواخر القرن السابع عشر – انتشار عادة غريبة، هي محاولة حل كل شيء في الوجود بواسطة العقل والتفكير؛ وقد كان (بوالو) على حق حينما قال: (إن ديكارت قد ذبح الشعر) – على أن هذه العادة نشأت نتيجة لحضارة هـذا العصر التي كانت قائمة على أكتاف الطبقة الوسطى – ونحن لانجد عصراً من عصور انجلترا كان نصيب الفلاح فيـه أقل مما كان في ذلك العصر؛ مع أن مادة الفن الغزيرة تأتي دائماً من الفلاح حيث يعيش الرجل جنباً إلى جنب مع الطبيعة، ويواجه سمابها وشؤونها كل ساعة وكل يوم فيتحايل على فهمها وإدراك أسرارها لابالعلم والتفكير بل بالدين والفن

في هـــذا العصر لبست الدرامة ثوب النثر وأخذت (الكوميدية) تنقد عادات الناس وأحوالهم، فهي تارة ساخرة وتارة مهذبة ناصحة، وأخرى مستهترة متهتكة – على أن حوادثها وشخصياتها كانت كثيرة المطابقة للواقع، حتى أن بعض الكتاب كان يبني قصصه بناء تاماً على حوادث شخصية وقعت له أو لمن يعرفهم – وإن كان ثمة شيء ينقص من واقعية هذه (الكوميدية) فهو أن الكاتب كان كثير الحضور والظهور في قصته – فهو يكاد يكون دائم الحديث على ألسنة أبطاله، إما ناصحاً أو متفكهاً أو ناقداً أو جاعلاً هؤلاء الأبطال الذين لايمتون للشعر بسبب – وللحياة اليومية بكل سبب – يتحدثون بلغة هي أبعد ما تكون عن لغة الحديث العادية. أما (التراجيدية) فقد اتجهت اتجاهاً آخر كان فيه القضاء عليها، فباتت تصور عالماً كله بطولة وحب وشجاعة، وأضحى أبطالها آلات تتغنى بالفضيلة والطهر والمروءة في كلام موزون مقفى ثقيل على الأذن لامرونة فيه ولا عبقرية؛ وإنما كان هذا التصور الخاطئ للحياة رد فعل للجو الاباحي المستهتر الذي كان يعيش فيه شعراء العصر وطبقته العليا – كما كانت الفضيلة والبطولة مثل الفروسية الأعلى في القرون الوسطى – رد فعل لخلو الحياة في ذلك العصر خلواً يكاد يكون تاماً من كل ما هو فاضل برئ

نهضة الدرامة في القرن التاسع عشر: كانت حياة المسرح الانجليزي في القرن الثامن عشر حياة خاملة لا نشاط فيها ولا جدة، ولو أن نجماً أو نجمين سطعا في سمائه ثم أفلا – وأعني بهما (شريدان) و (جولد سمث). والآن ونحن نريد أن نعالج نهضة القرن الفائت الحديثة يجدر بنا أن نذكر شيئاً عن كل من الاتباعية (الكلاسزم) مذهب العهد المنقرض، والابتداعية (الرومانتسزم) مذهب العهد الناهض الجديد. والحق أن كلا من المذهبين ينشأ عن وجهة نظر خاصة نحو الطبيعة البشرية. (فالاتباعية) تعتبر الانسان حيواناً حقيراً بطبيعته، وتعتبر أنه لايستطيع أن يرقى وينهض إلا بالطاعة وحكم النفس والعمل الدائم. ومن هذا كانت الطاعة وضبط النفس أظهر مميزات هـذا المذهب، وأنت تجدها تتجلى في الفن (الاتباعي) في دقة الأشكال والأوضاع، وفي صقلها صقلا تاماً، ثم في خلوه من كل مامن شأنه التطرف والعنف. أما الابتداعية فتعتبر الانسان نبيلاً بطبيعته، غير أن الأوضاع والأنظمة التي وضعها لنفسه هي التي حطت من قيمته وجعلته ذليلاً ضعيفاً. ومثل هذه الأنظمة المجتمع نفسه – والأخلاق – والقانون وغيرها – وإن عبارة (روسو) الافتتاحية في كتابه العقد الاجتماعي: (الانسان حر بطبيعته ولكنه يجد نفسه مكبلاً بالقيود أينما كان) هي أول تعبير صادق (للابتداعية) وهي تتجلى في الفن في نبذ متعمد لكل القواعد والتعاريف، وفي الاعتماد اعتماداً تاماً على قوة تعبير الفنان تعبيراً لا يقيده شكل ولا تحده قاعدة – فان أراد الفنان (الابتداعي) أن يعالج الطبيعة لم يكن محتاجاً إلى الفلسفة تقوده وتهديه – كما كان يفعل شعراء وكتاب القرنين السابع والثامن عشر، بل إن عليه أن يلاحظ ظواهرها فقط، وأن يدون ملاحظاته دون تعديل ولا تهذيب

ومن هـذا يتضح قرب المذهب (الابتداعي) من المذهب الواقعي – أعني اتجاه (الابتداعية) اتجاهاً واقعياً قوياً بطبيعتها – واتصالها اتصالاً أساسياً بالحقيقة والواقع. وإن شعر الشاعر الانجليزي (وردسورث) ونظريته في الأسلوب الشعري – أن

يكون خليطاً من الأساليب والألفاظ التى يتحدث بها الناس فى حياتهم العادية ــ لشاهد على ذلك

ومما يشاهد فى الدرامة فى أواخر القرن التاسع عشر نبذ بعض كتابها — عن عقيدة وعمد — كل ما هو شعرى نبذاً تاماً كاملاً . ولقد نشأ هذا عن رغبة أصحاب المذهب الجديد فى إدخال طرق البحث العلميــة فى الأدب ، إذ يجب أن تكون الملاحظة دقيقة لا تحيز فيها كما يجب أن يكون الملاحظ مختفياً لا أثر لوجهة نظره الخاصة ، بل يدوّن كل ما يلاحظــه تدويناً صادقاً واضحاً . وقد كتب (زولا) يقول : (لقد ترك الكيميائيون اليوم البحث عن الذهب ــ على أنهم لو اهتدوا يوماً الى صــنعه ، فسيكون دليلهم البحث العلمى الجديد ، وإنى أشــبه نفسى بهم ــ فأنا أ كدّ وأبحث محاولاً إتمام الطريقة الحديثة التى ستهدينا ولا ريب شيئاً فشيئاً الى الحقيقة كاملة) ؛ على أن (زولا) نفسه كان يدرك أن الدرامة لأجل أن تكون فناً ، يجب أن تجمع عناصر أخرى غير عناصر العلم . وهو يذهب فى كتابة أخرى له الى أن للواقعية نفسها لوناً شعرياً فنياً لا يستطيع أحد إنكاره ، إذ يقول : « من يستطيع أن ينكر أن فى حجرة العامل الفقير شعراً أ كثر مما فى قصور التاريخ جميعها ؟ »

ومن ظواهر هذه الواقعية العلمية التى ظلت تسود الدرامة منــذ نهضتها فى أواخر القرن الماضى الى عهدنا الحالى ظاهرة التشاؤم والانقباض . والحق أن الواقع والتشاؤم يسيران دائماً جنباً الى جنب ، فالعقل الانسانى يميل الى صبغ ما يخشى حدوثه بصبغة الحقيقة ، وما يرجوه وما يأمله بصبغة الحلم والخيال ؛ ولقد كانت آلهة الانسان الفطرى ــ وقد كان يخافها كل الخوف ــ أقوى فى مخيلته وأوضح شكلا من حوادث حياته اليومية

أقطاب النهضة الحديثة : أنتون تشيكوف

تؤكد شخصــية (تشيكوف) وجو مسرحياته الخاص وأسلوبها أنه أول الكتاب الحديثين الذى حقق المثــل الأعلى للواقعية ؛ فتشاؤمه ونظرته الخاصة نحو الحياة تبدو كأنها ليست نظرة شخصية خاصة به بل نظرة أهل عصره العامة ــ نظرة الروسى البائس الفقير الذى كان يعيش فى روسيا فى القرن الماضى . فأنت لا تجد (لتشيكوف) دعاية خاصة يدعو بها أو عقيدة يدافع عنها ، بل هو يصور الحياة كما يراها ، هادئاً قابعاً مختفياً وراء صورته . . .

هنريك ابسن :

كذلك مسرحيات هذا الكاتب النرويجى هى مثل أعلى للواقعية الحديثة ؛ ولو أنها تختلف كثيراً عن كتابات (تشيكوف)، ولقد تبدو قصصه ــ لأول نظرة ــ قصصاً تعالج شــئوناً اجتماعية مثل الزواج وتحرير المرأة وغير ذلك ؛ ولقد يتبادر إلى ذهن القارى أنه بزوال هذه الشؤون وحلها ستزول قيمة القصص وتقل أهميتها . على أن هذا الزعم خاطئ ، فروح (إبسن) ليست بروح المصلح الاجتماعى فحسب ، بل هى قبل كل شيء روح شاعر كان إذا ما فكر فى مشكلة اجتماعية ملكت عليــه كل حواسه فأصبح لا يرى للعيش قيمة إذا هو لم يهتد الى حلها وإزالة خطرها

ومسرحيات (برنارد شو) تعالج هى الأخرى موضوعات اجتماعية ؛ على أن الفرق بين الكاتبين عظيم ، فمعالجة (شــو) لموضوعاته هى معالجة علمية بحتة ، أعنى أنها لا تهمه شخصياً بل اجتماعياً ــ أما مع (إبسن) فهى كما قدمت موضوعات شخصية قبل أن تكون اجتماعية أو عالمية ــ موضوعات تهمه مباشرة كأنما كان يتعلق بها كيانه ووجوده . وقد كتب (إبسن) مرة يقول : « كل ما أ كتبه له علاقة وطيدة بكل ما أحيا خلاله ؛ وفى كل قصة أو قصيدة أ كتبها أبغى تحرير نفسى وصفاءها » . ومن الجلى أن هذا يختلف كثيراً عن تفكير الكاتب الايرلندى الذى يهمه تحرير انجلترا قبل تحرير نفسه هو ؛ وقد كان تحرير النرويج يهم (أبسن) أيضاً ، على أن الأهمية لم تأت مباشرة ، بل أتت عن طريق نفسه وروحه . ولقد يبدو من حديثنا هذا أن مسرح (شو) أ كثر مطابقة للواقع وللروح العلمية الجديدة من مسرح (إبسن) ، على أن هــذا خطأ وعكسه صحيح . والسبب فى ذلك هو أن الناس يختلفون فى آرائهم أ كثر مما قد يختلفون فى مشاعرهم وإحساساتهم — (فبرنارد شو) الذى يعتمد اعتماداً كلياً على الفكرة والرأى ، والذى يعيب مسرحياته من الجهة الواقعية كثرة ظهور المؤلف فى القصة ــ سيهرم ويذوى عندما تهرم الموضوعات التى يعالجها وتموت ــ أما (ابسن) الذى لا يعتمد على الفكرة اعتماد (شو) ، والذى لا يجعل من أبطال مسرحه ألاعيب ودمى لاقيمة لها إلا اظهار الفكرة والدعاية لها ، بل يجعل منها أشخاصاً آدميين نافذا الى أعماق نفوسهم ــ مظهراً منها ما قد خفى ومضيئاً ما قد أظلم أو قتم ــ فسيظل حياً ما دام الانسان والنفس البشرية حية على ما هى عليه

٧ ـ شاعرنا العــــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

ومما يدل على أن أبا العتاهية كان يحمل نفسه من أسباب اللهو ما ليس من سجيتها فى الزهد لأغراض له فى ذلك ـ ما رواه صاحب الأغانى قال : حدثنى أحمد بن عبيد الله بن عمار . قال حدثنى ابن أبى الدنيا قال حدثنى الحسين بن عبد ربه قال حدثنى على بن عبيدة الريحانى قال حدثنى أبو الشمقمق أنه رأى أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين ، فقلت له : أمثلك يضع نفسه هـذا الوضع مع سنك وشعرك وقدرك ؟ فقال له : أريد أن أتعلم كيادهم ، وأتحفظ كلامهم

وهو فى أخذه بما كان يأمره به الرشيد منه ليتقى به حبسه وسجنه إنما كان يأخذ بالتقية التى يأخذ بها الشيعة ، وقد كان على ما سيأتى من رجالهم ، فجرى بذلك مع الرشيد كما جرى به مع الهادى والمهدى ، وكان إذا خرج من سجنه ، وجرى على ما يهواه منه ، مضى معه كأن لم يكن هناك شىء يخفيه منه فى دخيلة نفسه ومدحه بشعره أحسن مدح ، وأخذ عليـــه منه جزيل صلاته وجوائزه ، حتى إذا غلبتـــه نفسه نبا عليه ، وأخذ فى زهده ونسكه ، وأخذ الرشيد فى الغضب عليه وسجنه وحبسه ، وأبو العتاهية رابح فى الحالين ، قاض لنفسه غرضها من مال العباسيين ، ولمذهبه السياسى الذى سنشرحه غرضه من ذم دنياهم ، والنعى على ما فى دولتهم من فساد دينى وسياسى واجتماعى

وقد أخبر ابن أبى العتاهية أن الرشيد لما أطلق أباه من الحبس لزم بيته وقطع الناس ، فذكره الرشيد فعرف خبره ، فقال : قولوا له صرت زير نساء ، وحِلْس بيت ! فكتب إليه أبو العتاهية :

برِمتُ بالنـاس وأخلاقهم فصرت أستأنس بالوَحْدَه
ما أكثر الناس لعمرى وما أقلهم فى منتهى العِـدَّه

ثم قال : لا ينبغى أن يمضى شعر إلى أمـير المؤمنين ليس فيه مدح له ، فقرن هذين البيتين بأربعة أبيات مدحه فيها وهى :

عاد لى من ذكره نَصَبُ فدموعُ العـين تنسكبُ
وكذاك الحبُّ صاحبُهُ يعتريه الهمُّ والوَصَبُ
خيرُ من يُرْجَى ومن يُهَبُ مَـلِكٌ دانت له العرب
وحقيق أن يُدَانَ له من أبوه للنبى أب

ولما عقد الرشيد ولاية العهد لبنيه الثلاثة : الأمين والمأمون والمؤتمن ، قال أبو العتاهية :

رَحَلْتُ عن الرَّبع المحيـل قَعودى إلى ذى زُحُوفٍ جَمَّـةٍ وجنود
وراعٍ يراعى الليل فى حفظ أمة يدافع عنها الشر غير رَقود
بألوية جبريلُ يقـدم أهلها ورايات نصر حوله وبُنُود
تجافَى عن الدنيا وأيقن أنها مفارقةٌ ليست بدار خلود
وشَدَّ عُرَى الاسلام منه بفتية ثلاثة أمـلاك وُلاة عهود
همُ خير أولاد لهم خير والد له خـير آباء مضت وجدود
بنو المصطفى هارونٍ حول سريره فخيرُ قيــامٍ حوله وقُعود

ويرينا (أبسن) أن أعلى أنواع الواقعية فى الدرامة كما فى كل فن آخر ـ إنما يعتمد على الخيال القوى الوثاب الذى يستطيع أن يعالج مسائله الشخصية معالجة يفهمها الجميع وتصل إلى كل القلوب حتى لقد تبدو لها وكأنها مسائلها هى لا مسائل الشاعر ، ونبضاتها هى قد سجلت على الورق لا نبضات الكاتب النرويجى أو الروسى أو الانجليزى ؛ وعلى هذا فهى معنى أدق مما كان يقصده الفيلسوف الأغريقى (أرسطو) تكون شخصيات مثل هـذه الدرامة (مثلنا تماماً)

فليست الواقعية وليدة بحثٍ علمى أو مذهبٍ أو عصر خاص ، بل هى جزء لا ينفصل عن الشاعرية الفذة والخيال القوى الذى يصور لك ما يرسمه تصويراً حياً قوياً ، يجعلك تراه وتؤمن به وتشترك فيه حساً وعاطفة وفكراً

محمد رشاد رشدى

بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

تقلّب ألحاظَ النهاية بينهم   عيونُ ظباء في قلوب أسود
خدودهمُ شمسٌ أتت في أهلة   تبدت لراءٍ في نجوم سعود

فوصله الرشيد بصلة ما وصل مثلها شاعراً قط

ثم انقضى عهد الرشيد وجاء بعده عهد ابنه الأمين ، وحصل ما حصل من الخلاف بينه وبين أخيه المأمون ، فاضطرب أمر الدولة ، ووجد أبو العتاهية من ذلك ما يساعده على المضي في سبيله من الزهد ، واستخدام شعره في دعوة الأمة إليه ، وتهوين أمر الدنيا التي فتنوا بها عن الآخرة ، ولم يعد يقول الشعر في التغزل والمجون وما إليهما ؛ ولكن لم يقطع صلته بملوك العباسيين ولم يتحرج من مدحهم الحين بعد الحين طمعاً في أموالهم . وسنتكلم بعد في أمر ذلك الزهد

حدث عكرمة عن شيخ له من أهل الكوفة قال : دخلت مسجد المدينة ببغداد بعد أن بويع الأمين محمد بسنة فاذا شيخ عليه جماعة وهو ينشد :

لهفي على وَرَقِ الشباب   وغصونه الخُضْرِ الرِّطابِ
ذهب الشباب وبان عني (م) غير مُنتَظَرِ الاياب
فلأبكينّ على الشبا   ب وَطيبِ أيام التصابي
ولأبكينّ من البِلَى   ولأبكينّ من الخضابِ
إني لآملُ أن أخلّـ   ـدَ والمنية في طِلابي

قال فجعل ينشدها وإن دموعه لتسيل على خديه ، فلما رأيت ذلك لم أصبر أن ملت فكتبتها ، وسألت عن الشيخ ، فقيل لي: هو أبو العتاهية

وحدث حبيب بن الجهم النميري قال : حضرت الفضل بن الربيع متنجزاً جائزتي وفرضي ، فلم يدخل عليه أحد قبلي ، فاذا عون حاجبه قد جاء فقال : هـذا أبو العتاهية يسلم عليك ، وقد قدم من مكة ، فقال : أعفني منـه الساعة يشغلني عن ركوبي ، فخرج إليه عون فقال : إنه على الركوب إلى أمير المؤمنين ، فأخرج من كمه نعلاً عليها شراك مكتوب عليه :

نعلٌ بعثت بها ليلبسها   قَرْمٌ بها يمشي إلى المجد
لو كان يصلح أن أشرّكها   خدّي جعلت شراكها خدي

ثم قال لعون قل له إن أبا العتاهية أهداها اليك ، فدخل بها عليه فقال له احملها معنا . فلما دخل على الأمين أخبره بها ، وأنه رأى أن أمير المؤمنين أولى بلبسها لما وصف به لابسها ، فقرأ الأمين البيتين فقال : أجاد والله وما سبقه إلى هذا المعنى أحد ، هبوا له عشرة آلاف درهم ، فأخرجت والله في بدرة وهو راكب على حماره ، فقبضها وانصرف

ولما تولى المأمون بعد أخيه الأمين حسن حال أبي العتاهية في عهده ، وكان المأمون أحسن حالاً من الملوك العباسيين قبله ، فقرب أبا العتاهية منه ، وأكثر من بره وصلته والاحسان اليه عالم يفعل مثله معه سلفه ؛ ومن ذلك أن أبا العتاهية كان يحج كل سنة ، فاذا قدم أهدى إلى المأمون برداً ومطرفاً ونعلاً سوداء ومساويك أراك ، فيبعث اليه بعشرين ألف درهم

ودخل عليه مرة فأنشده :

ما أحسنَ الدنيا وإقبالهَا   إذا أطاع الله من نالها
من لم يُواس الناس من فضلها   عرّض للأدبار إقبالها

فقال له المأمون : ما أجود البيت الأول ! فأما الثاني فما صنعت فيه شيئاً ، الدنيا تدبر عمن واسى منها أو ضن بها ، وإنما توجب السماحة بها الأجر ، والضن بها الوزر . فقال : صدقت يا أمير المؤمنين ، أهل الفضل أولى بالفضل ، وأهل النقص أولى بالنقص ، فأمر المأمون بأن يدفع اليه عشرة آلاف درهم لاعترافه بالحق . فلما كان بعد أيام عاد فأنشده :

كم غافل أوْدَى به الموت   لم يأخذ الأهْبة للفوت
من لم تزلْ نعمته قبلهُ   زال من النعمة بالموت

فقال له : أحسنت ، الآن طيبت المعنى ، وأمر له بعشرين ألف درهم

فاذا رأينا المأمون بعد ذلك يزهد في هذا الملك العظيم لأهله من بني العباس ، ويؤثر به من بعده الامام عليا الرضى من آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فيزوجه بنته أم حبيب ، ويجعله ولي عهده ، ويضرب اسمه على الدينار والدرهم ، فان لشعر أبي العتاهية أعظم الأثر في ذلك ؛ وهذه هي النتيجة والثمرة التي جاهد به من أجلها ، فقد سعى في تزهيد الناس في كل أسباب الدنيا والتكالب عليها ، ليزهد العباسيين في التكالب على هـذا الملك

الذي يملكونه منها ، ويعودوا به إلى سيرته الأولى ، فيتولاه أصلح الناس له ، ولا يستأثر به أحد على غيره ؛ وهذا هو ما فعله المأمون مع على الرضا ، فقد كان بمدينة مرو وفيها على ، فاستحضر أولاد العباس الرجال منهم والنساء ، وكان عددهم ثلاثة وثلاثين ألفاً ما بين الكبار والصغار ، واستدعى علياً فأنزله أحسن منزلة ، وجمع خواص الأولياء ، وأخبرهم أنه نظر فى أولاد العباس وأولاد على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، فلم يجد فى وقته أحداً أفضل ولا أحق بالأمر من على الرضا ، فبايعه وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام ؛ وقد قام بسبب ذلك تلك الفتنة المعروفة بينه وبين عمه إبرهيم بن المهدى ، فقضت على تلك الفكرة الصالحة ، ومضى العباسيون فى أمرهم إلى أن ملكهم خولهم وجنودهم من الترك وغيرهم ، وانتهى أمرهم بتلك النكبة التى انتهى بها ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يعود من الخير على المسلمين لو تم للمأمون من ذلك ما أراده ، ورجع أمر المسلمين إلى ما كانوا عليه من الشورى فى عهد النبوة والخلافة

وقد بلغت سن أبى العتاهية فى عهد المأمون تسعين سنة ، وأدركه أجله فى تلك السن سنة ٢٠٩ هـ وقيل سنة ٢١١ هـ

وروى محمد بن أبى العتاهية قال : آخر شعر قاله أبى فى مرضه الذى مات فيه :

إلـهى لا تعـــذبنى فإنى مقرٌّ بالذى قد كان منى
فمالى حيـــلة إلا رجائى لعفوك إن عفوت وحسن ظنى
وكم من زلة لى فى الخطايا وأنت علىَّ ذو فضل ومنٍّ
إذا فكرتُ فى ندمى عليها عضضتُ أناملى وقرعتُ سنى
أجَنُّ بزهرة الدنيا جنوناً وأقطع طول عمرى بالتمنى
ولو أنى صدقتُ الزهد عنها قلبتُ لأهلها ظهر المجنّ
يظن الناس بى خيراً وإنى لشر الخلق إن لم تعف عنى

ثم أمر أن يكتب على قبره

أذن حىٍّ تسمعى إسمعى ثم عى وعى
أنا رهنٌ بمضجعى فاحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة أسلمتنى لمضجعى
كم ترى الحىَّ ثابتاً فى ديار التزعزع
ليس زادٌ سوى التقى فخذى منه أو دعى

عبد المتعال الصعيدى

٢٩ ـ محاورات أفلاطون

الحوار الثالث

فيدون او خلود الروح

ترجمة الأستاذ زكى نجيب محمود

تتمـــــة الحوار

وهذه الأنهار عديدة وقوية ومنوعة ، منها أربعة رئيسية أعظمها وأقصاها نحو الخارج هو ذلك المسمى بالاقيانوس oceanus الذى يجرى فى دائرة حول الأرض ، ويسير فى الاتجاه المضاد له نهر أشيرون Acheron الذى يجرى تحت الأرض فى ربوع جدباء حتى يصب فى بحيرة أشيروزيا Acherusian Lake : هـذه هى البحيرة التى تذهب إلى شواطئها أرواح الدهماء حين يدركهم الموت ، حيث يلبثون أجلاً مضروباً ، يكون طويلاً لبعضها قصيراً لبعضها الآخر ، ثم تعود ثانية لتحل فى جسوم الحيوان .

وينبع النهر الثالث فيما بين ذينك النهرين ، وهو يصب على مقربة من منبعه فى منطقة شاسعة من النار ، حيث يكوِّن بحيرة أوسع من البحر الأبيض المتوسط ، يغلى فيها الماء والطين ، ثم يخرج منها عكراً مليئاً بالوحل ، فيدور حول الأرض حتى يبلغ فيما يبلغ من مواضع أطراف بحيرة أشيروزيا ، ولكنه لا يختلط بمائها ، وبعد أن يتحوى فى عدة ثنايا حول الأرض ، يغوص إلى جهنم أدنى مما كان مستوى . هذا هو نهر بيرفليجثون Pyriphlegethon — كما يسمى — الذى يقذف فى كل مكان بفوارات من النار .

ويخرج النهر الرابع فى الجهة المقابلة ، ويسقط أول ما يسقط فى منطقة همجية متوحشة ، تصطبغ كلها باللون الأزرق القاتم الذى يشبه حجر اللازورد ، وهـذا النهر هو ما يسمى نهر ستيجيا Stygian River وهو يصب فى بحيرة ستكس Styx التى يكوِّنها ، وبعد أن يصب فى البحيرة ويستمد لمائه قوى عجيبة ، يجرى تحت الأرض ، دائراً حولها فى اتجاه يضاد نهر بيرفليجثون ، ويلتقى به فى بحيرة أشيروزيا من الجهة المقابلة ، ولا يختلط ماء هـذا النهر أيضاً بغيره ، بل يجرى فى دائرة ويتدفق فى جهنم ، مقابلاً لنهر بيرفليجثون ويسمى هذا النهر كوكيتوس Cocytus كما يقول الشاعر

تلك هى طبيعة العالم الآخر ، فلا يكاد الموتى يصلون الى حيث تحملهم شياطينهم وحداناً حتى يقضى فى أمرهم بادئ ذى

بده ، إن كانوا أنفقوا الحياة فى الخير والتقوى أم لا ، فمن ظهر منهم أن حياتهم لم تكن لا إلى الخير ولا إلى الشر ، فانهم يذهبون الى نهر أشيرون ، ويركبون ما يصادفونه من وسائل النقل ، فيُحملون فيها الى البحيرة حيث يقيمون ويطهرون من أوزارهم ويمانون جزاء ما أساءوا به للناس من أخطاء ، ثم يُغتفر لهم وينالون جزاء وفاقاً بما قدمت أيديهم من خير . أما أولئك الذين لا يرجى لهم اصلاح ، فيما يظهر ، لفداحة ما أجرموا ، أولئك الذين أتوا من الآثام المنكرة شيئاً كثيراً ، كتدنيس المعابد وازهاق الأنفس ازهاقاً خبيثاً عنيفاً أو ما أشبه ذلك - أولئك يلقى بهم فى جهنم لا يخرجون منها أبداً ، فهى لهم أنسب مصير . أما هؤلاء الذين أجرموا اجراماً لا يجل عن العفو على هوله - أولئك الذين قسوا على والد أو والدة مثلاً وهم فى سورة من الغضب ثم أخذهم الندم مدى ما بقى من حياتهم ، أو الذين قتلوا نفساً مدفوعين بظروف تخفف من جرمهم - هؤلاء ينغمسون فى جهنم ، ولزام عليهم أن يَصْلوا عذابها حولاً ، وفى نهايته تقذف بهم الموجة : أما قاتل النفس فتقذفه به إلى مجرى نهر كوكيتس ، وأما قتلة الآباء والأمهات فالى نهر بيرفليجيثون - فيحملون إلى بحيرة أشيروزيا حيث يرفعون عقائرهم صائحين بضحاياهم القتلى ، أو بمن نالتهم منهم اساءة ، عسى أن تأخذهم بهم رحمة فيتقبلوهم ويسمحوا لهم بالخروج من النهر إلى البحيرة . فان نالتهم الرحمة من أولئك ، خرجوا ونجوا من عذابهم ، وان لم يرحموهم حملوا إلى جهنم مرة أخرى ، ومنها إلى الأنهار ، وهكذا دواليك حتى يظفروا بمن أساءوا إليهم بالرأفة ، فهكذا قضى عليهم قضاتهم . أما من امتازت حياتهم بالتقوى ، فأولئك يطلق سراحهم من هذا السجن الأرضى ، فينطلقون إلى عليين حيث يقيمون فى مقامهم الطاهر ويعيشون على تلك الأرض وهى أنقى ؛ وأما أولئك الذين طهروا أنفسهم حقاً بالفلسفة فهم يعيشون منذ الآن متحللين من أجسادهم فى منازل أجمل من تلك ، يعجز عنها الوصف ويضيق الوقت أن أحدثكم عنها

إذن ياسمياس ، وقد رأيت هذه الأشياء كلها ، فماذا ينبغى لنا ألا نفعله لكى نظفر بالفضيلة والحكمة فى هذه الحياة ؟ ألا إن الجزاء لجيل ، والأمل لعظيم

لست أريد أن أقطع بصدق الوصف الذى قدمته عن الروح ومنازلها - فما ينبغى لرجل ذى فطنة أن يقطع بهذا ، ولكنه فى رأيى حقيق ، وقد اتضح خلود الروح ، أن يجازف بالظن ، لا خاطئاً فيه ولا عابثاً ، أن يكون الصواب شيئاً كهذا ، وانه منه لظن عظيم ، ولا بد له أن يسرى عن نفسه بمثل هذه الكلمات ، فمن أجلها أطلت حكايتى ، ولهذا أوصيكم ألا يأخذ أحد على روحه الأسى ، ما دام قد طرح زينة الجسد ولذائذه ، واعتبرها غريبة عنه ، بل هى أدنى إلى إيذائه بما تجر وراءها من أثر ، وما دام فى هذه الحياة قد تعقب لذة المعرفة ، إلا أن أولئك الذين يزينون أرواحهم بلآلئها الصحيحة ، وهى : الاعتدال والعدل والشجاعة والنبل والحق - أولئك تكون أرواحهم ، إذا ما ازينت بتلك اللآلئ ، مهيأة للرحيل إلى العالم السفلى حين يدركها الموت . فأنتم ، أى سمياس وسيبيس ، وياسائر الرجال ، سترحلون فى وقت قريب أو بعيد . أما أنا ، فها هو ذا يناديني صوت القدر على حد قول شاعر المأساة ، ولابد أن أجرع السم عما قريب ، ويجمل بى فيما أظن أن أذهب أولا إلى الحمام حتى لا يشق على الناس غسل جثمانى بعد موتى

فلما أن فرغ من الحديث ، قال كريتون : أعندك ما تشير علينا به ياسقراط ؟ ألديك ما تقوله عن أطفالك ، أو عن أى شىء آخر نستطيع أن نعينك فى أمره ؟

فقال : ليس عندى شىء بعينه : غير أنى أحب لكم ، كما كنت أحدثكم دائماً ، أن تنظروا فى أنفسكم ، فذلك فضل تستطيعون أن تواصلوا أداءه من أجلى ، وهو أيضاً فضل منى لكم . ولا ينبغى لكم أن تكونوا أدعياء فيما تقولون ، لأنكم لو جهلتم أنفسكم وصدقتم عما أوصيتكم به ، وليست هذه أول مرة أوصيكم فيها ، فلن تجدى عليكم حماسة الادعاء شيئاً

قال كريتون : سنبذل جهدنا ، ولكن كيف تريدنا أن نواريك الثرى ؟

على أى وجه تشاءون ، غير أنه لا بد لكم أن تمسكوا بى ، وأن تحذروا فلا ألوذ منكم بالفرار . ثم التفت إلينا وأضاف باسما : لا أستطيع أن أقنع كريتون أننى سقراط ذاته الذى كان يتحدث ويوجه الحوار ، فهو يحسبنى سقراط الآخر الذى سيشهده بعد حين جثة هامدة - وهو يسائل : ماذا عسى دفنى أن يكون ؟ مع أنى قد أفضت فى الحديث محاولاً إقامة الدليل على أنى مخلفكم حين أجرع السم ، حيث أتوجه إلى لذائذ أصحاب النعيم - ويظهر أنه لم يكن لحديثى هذا الذى سريت به عن أنفسكم وعن نفسى ، أثر فى كريتون ، لذلك أريدكم أن تكونوا لى الآن عنده كفلاء ، كما كان هو كفيلى عند المحاكمة :

[illegible] فقد كان كفيل القضاة أنى سأبقى ، [illegible] أن تكفلوا له أنى غير باق ، بل إنى ظاعن راحل ، [illegible] موتى ، ولا يحزنه أن يرى جثمانى يحترق أو يُهال عليه التراب . إنى لا أحب له أن يتحسر على جدى العاثر ، بأن يرتاع لدفنى ، فتأخذه الحيرة : على هذا النحو نكفن سقراط ، أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب . إن الأقوال الباطلة ليست شراً فى ذاتها فحسب ، بل إنها لتصيب الروح بشرها . لا تحزن إذن ، أى عزيزى كريتون ، وقل إنك لا تقبر منى إلا الجثمان ، فاقبره على النحو الذى جرى به العرف ، وكما تفضّل أن يكون

ولما فرغ من هـذه العبارة ، نهض ودخل غرفة الحمام ، يصحبه كريتون ، الذى أشار إلينا بأن ننتظر ، فانتظرنا نتحدث ونفكر فى أمر الحوار وفى هول المصاب . لقد كنا كمن ثكل فى أبيه ، وأوشكنا أن نقضى ما بقى من أيامنا كالأيتام ، فلما تم اغتساله جىء له بأبنائه – (وكانوا طفلين صغيرين ويافعاً) كما وفدت نساء أسرته ، فحادثهن وأوصاهن ببعض نصحه ، على مسمع من كريتون ، ثم صرفهن وعاد إلينا

ها قد دنت ساعة الغروب ، فقـد قضى داخل الحمام وقتاً طويلا ، وعاد بعـد اغتساله فجلس إلينا ، ولـكنا لم نُفِض فى الحديث ، وما هى إلا أن جاء السجان ، وهو خادم الأحد عشر ، ووقف إلى جانبـه وقال : لست أتهمك ياسقراط بما عهدته فى غيرك من الناس ، من سورة الغضب ، فقد كانوا يثورون ويصيحون فى وجهى حينما آمرهم باجتراع السم ، ولم أكن إلا صادعاً بأمر أولى الأمر . أما أنت فقد رأيتك أنبل وأرق وأفضل ممن جاءوا قبلك إلى هذا المـكان ، فليس يخامرنى شك أنك لن تنقم علىّ ، فليس الذنب ذنبى ، كما تعلم ، إنما هى جريرة سواى . وبعد ، فوداعاً ، وحاول أن تحتمل راضياً ما ليس من وقوعه بد ، وإنك لعليم فيم قدومى إليك . ثم استدار فخرج منفجراً بالبكاء

فنظر إليه سقراط وقال : لك منى جميل بجميل . فسأصدع بما أمرتنى به . ثم التفت إلينا وقال : يا له من فاتن ! إنه ما انفك يزورنى فى السجن ، وكان يحادثنى الحين بعـد الحين ، ويعاملنى بالحسنى ما وسعته . انظروا إليه الآن كيف يدفعه فضله أن يحزن من أجلى فلزام علينا يا كريتون أن نفعل ما يريد . مر أحداً أن يجىء بالقـدح إن كان قد تم إعداد السم ، وإلا فقل للخادم أن يهيىء شيئاً منه

فقال كريتون : ولـكن الشمس لا تزال ساطعة فوق التلاع ، وكثير ممن سـبقوك لم يجرعوا السم إلا فى ساعة متأخرة بعد إنذارهم . إنهم كانوا يأكلون ويشربون وينغمسون فى لذائذ الحس ، فلا تتعجل إذن ، اذ لا يزال فى الوقت متسع

فقال سقراط : نعم يا كريتون ، لقـد أصاب من حدثتنى عنهم فيما فعلوا ، لأنهم يحسبون أن وراء التأجيل نفعاً يجنونه ، وإنى كذلك لعلى حق فى ألا أفعل كما فعلوا ، لأننى لا أظن أنى منتفع من تأخير شراب السم ساعة قصيرة . إننى بذلك إنما أحتفظ وأبقى على حياة قد انقضى أجلها فملاً ، إنى لو فعلت ذلك سخرت من نفسى . أرجو إذن أن تفعل بما أمرت به ولا تعص أمرى

فلما سمع كريتون هذا ، أشار إلى الخادم فدخل ، ولم يلبث قليلاً ان عاد بصحبه السجان يحمل قدح السم ، فقال سقراط : أى صديقى العزيز ، إنك قد مرنت على هـذا الأمر ، فأرشدنى كيف أبدأ . فأجاب الرجل : لا عليك إلا أن تجول حتى تثقل ساقاك ثم ترقد ، فيسرى السم ، وهنا تناول سقراط القدح فحدق فى الرجل بكل عينيه ، يا أشكراتس ، وأخذ القدح جريئاً وديعاً لم يُرَع ولم يمتقع لون وجهه . هكذا تناول القدح وقال : ما قولك إذا سكبت هذا القدح لأحد الآلهة ؟ أفيجوز هذا أم لا يجوز ؟ فأجاب الرجل : إننا لا نُعِدّ ياسقراط إلا بمقدار ما نظنه كافياً فقال : إنى أفهم ما تقول ، ومع ذلك فيحق لى بل يجب على أن أصلى للآلهة أن توفقنى فى رحلتى من هذا العالم إلى العالم الآخر – فلعل الآلهة تهبنى هذا ، فهو صلاتى لها . ثم رفع القدح إلى شفتيه وجرع السم حتى الثمالة رابط الجأش مغتبطاً ، وقد استطاع معظمنا أن يكبح جماح حزنه حتى تلك الساعة ، أما وقد رأيناه يشرب السم ، وشهدناه يأتى على الجرعة كلها ، فلم يَمُدّ فى قوس الصبر منزع ، وانهمر منى الدمع مدراراً على الرغم منى ، فسترت وجهى ، وأخذت أندب نفسى ، حقاً إنى لم أكن أبكيه بل أبكى فجيعتى فيه حين أفقد مثل هذا الرفيق . ولم أكن أول من فعل هذا ، بل أن كريتون ، وقد ألفى نفسه عاجزاً عن حبس عبراته ، نهض وابتعد ، فتبعته ، وهنا انفجر أبولودورس الذى لم ينقطع بكاؤه طول الوقت ، بصيحة عالية وضمتنا جميعاً موضع الجبناء ، ولم يحتفظ بهدوئه منا إلا سقراط ، فقال : ما هـذه الصرخة العجيبة ؟ لقـد صرفت النسوة خاصة حتى لا يسئن صنيعاً على هذا النحو ، فقد خبِّرت أنه ينبغى للانسان أن يسلم الروح فى هدوء ، فسكوناً وصبراً .

فلما سمعنا ذلك ، اعترانا الخجل وكفكفنا دموعنا ، وأخذ سقراط يتجول حتى بدأت ساقاه تخوران – كما قال – ثم استلقى

زهرتي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قد تصوَّحتِ عند شرخ الشباب زهرتي بغتةً فجاءِ مصابي
زهرتي قد جاء الربيع بما ازدا ن به من نبتٍ ومن أعشاب
ولقد قام مهرجان على الأر ض جميعاً بطاحها والهضاب
لعزيزٌ عليَّ ألا تكوني طاقةً فوق الكلأ المعشاب
نبت الزهر كله فلماذا أنتِ يا زهرتي بجوف التراب

***

ضقتِ بالقبر فاخرجي من ظلام الـ أرض للنور فوقها والرحاب
أخرجي من جوف الثرى وابسمي لي
عن رضًى أو تجهمي للعتاب
أخرجي من جوف الثرى من جديد
واسحريني بلحظك الخلاب
وأعيدي إليّ أسعدَ عهدٍ كنتُ فيه وذاك عهدُ شبابي
قرّبيني إذا أردتِ سلامي واصرميني إذا أردتِ خرابي
وافتحي العينَ والمسامعَ دوني واسمعي شدوي وانظري إعجابي

***

أنا يا زهرتي دعوتكِ للحبِّ (م) مراراً فلم تردّي جوابي
لا تقولي إني هلكتُ فلا تر جُ لميتٍ ذاق الردى من مآب
أنتِ تحيين في فؤادي وعيني ودمي فائراً وفي أعصابي
ايقظي من هذا الرقاد فإن الشـ
شمسَ قد ذرَّت من وراء الحجاب
أنتِ للحب والغرام بوجه الـ أرض لا للرقاد تحت التراب
أنتِ لا تخلقين يا زهرتي أن تختفي في غياهب الأحقاب

***

يتهاوى دمعُ الأسى من عيوني كشهابٍ ينقضّ إثرَ شهاب
متّ قبلي فلو سبقتُكِ عاهد تِ دموع الأسى على التسكاب
لا سلامٌ على الربيع إذا ثا بَ ولم تصحبيه عند المثاب
ارجعي لي وقبّليني ولا تخـ شَيْ رقيباً على الهوى لا يحابي
ارجعي ارجعي كما كنتِ قبلا أو خذيني بأقرب الأسباب
إنني لم أرزْ أجلْ بعدُ قبري غير أني منه على الأبواب

***

آهِ إن الحياة أعجزُ من أن تستطيعَ الرجوعَ بعد الذهاب
بين شعرٍ أقوله وأنيني شعبة من وشائج الانساب
ذهبت زهرتي التي كنتُ أشدو باسمها خالياً وبين صحابي
زهرةٌ قد سقيتُها بدموعي مزّقتها المنون بالأنياب
إنني كنتُ أعبد الحسن فيها ولقد كان وجهُها محرابي
خطفتها المنون مني كعاباً ما على الموت بعدها من عتاب
خطفتها مني ذئابُ المنايا وذئابُ المنون شرُّ الذئاب
قلت أسلو فأستريح ولكن كيف أسلو والحب ملء أهابي
كل شيء مذكرٌ لي بليلَى ليتَ شعري ماذا يذكّرها بي
هدّدتني إذا تصديتُ عيني وفؤادي والنفس بالاضراب

***

وكأن الدنيا العريضةَ بحرٌ وكأنا عليه بعض الحباب
خضتُ بحرَ الهوى وكان خضمّا ثم منه ركبت متنَ العباب
ثم صارعتُ الموج منه فما كنـ تُ سوى مغلوبٍ الى غلّاب
عن يميني وعن شمالي ماءٌ ثم إني أعدو وراء السراب

بغداد ٤ تموز جميل صدقي الزهاوي

على ظهره ، كما أشير له أن يفعل ، وكان الرجل الذي ناوله السم ينظر إلى قدميه وساقيه حيناً بعد حين ، ثم ضغط بعد هنيهة على قدمه بقوة وسأله هل أحس فأجاب أن لا ، ثم ضغط على ساقه وهكذا صعد ثم صعد ، مشيراً لنا كيف أنه برد وتصلب ، ثم لمس سقراط نفسه ساقيه وقال : ستكون الخاتمة حين يصل السم الى القلب . فلما أخذت البرودة تتمشى في أعلى فخذيه كشف عن وجهه ، إذ كان قد دثّر نفسه بغطاء ، وقال : (وكانت هذه آخر كلماته) إنني يا كريتون مدين بديك لاسكلبيوس Asclepius فهل أنت ذاكر أن ترد هذا الدين ؟ ولم يكن لهذا السؤال من جواب ؛ وما هي إلا دقيقة أو دقيقتان حتى سُمعت حركة ، فكشف عنه الخدم ، وكانت عيناه مفتوحتين ، وأقفل كريتون فمه وعينيه

هكذا يا اشكراتس قضى صديقنا الذي أدعوه بحق أحكم من قد عرفت من الناس ، وأوسعهم عدلاً وأكثرهم فضلا

تم الحوار زكي نجيب محمود

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١٤ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

على أن الروح « الديونيزوسي » يكاد يكون فاشياً في كل أصقاع العالم القديم . وهو عند البرابرة كان يزجيهم إلى الانهماك في المنكرات ، وإشباع البهيمية الانسانية باللذائذ . واليونان برغم حضارتهم وبعدهم عن البربرية سرت إليهم العدوى ، ومشى فيهم هذا الروح . ولكن انهما كهم لم يكن انهما كا بهيمياً . أقاموا الأعياد والأندية حيث تنطلق الطبيعة ويذهل الانسان متحداً بعاطفته مع الوجود . ومن هذا الانهماك تولدت المأساة اليونانية . والمأساة اليونانية يرجع أصل نشأتها إلى فريق « الساتير » وهؤلاء عند اليونان هم أرواح من الطبيعة تحيا ، ولا يتسرب إليها الفناء ؛ تعيش بعيدة عن الحضارة ، وظهورها في شعب متحضر يقضي على حضارته ويقذف بالحواجز التي تفصل الانسان عن الطبيعة . وهم يظهرون أن الطبيعة ثابتة قوية مخصبة برغم تقلب الأمم وتبدل الشعوب . واليونان اعتقدوا أن هذا الفريق مخلوق طبيعي مجرد من كل براعة ، ولكنه ليس ببهيمي . يتجلى فيه شيء من السمو الالهي ، وهو رمز الغريزة الأكثر قوة وسيطرة على الانسان . هو سريع الهيام يذهله تقرب الاله منه . كثير الاشفاق والعطف لأنه يقاسم « ديونيزوس » آلامه . وهو يسالم حكمة الطبيعة . وهو رمز خصب الحياة التي يعبدها اليونان عبادة دينية . كان هذا الفريق يبدو في بدء نشأته وهو نشوان « بالسكر الالهي » ورقصه ، وموسيقاه تغادر روح الناظر في شبه ذهول عميق ، يمحو من نفسه ذكر الحضارة ، ويجرده عن ذاته حتى يرفعه إلى مرتبته ، ويشركه في ذهوله وسكرته . حتى إذا وجبت القلوب واستسلمت النفوس يلوح وراء هذا الفريق خيال الاله « ديونيزوس » وهذا السكر الالهي قد ولد خيالا شعرياً لم يكن في حقيقته إلا تعبيراً خاصاً عن حالة نفسية واضحة ولدها هذا السكر الصوفي . فالمأساة اليونانية هي بحقيقتها موسيقية شعرية . وهي هتاف ظفر الارادة التي تشعر بخلودها ازاء تقلب الكائنات وتحولها . بطل كل مأساة هو الاله «ديونيزوس» ، وهي عاطفية لأنها نشأت لتكون أنشودة في مدح الاله . ثم تطورت المأساة لتكون أشد تأثيراً في المخيلة ، فأصبحت صورة رمزية لسحابات يلوح بينها الخيال الالهي الذي يظهر على السكارى الهائمين في الوادي ، السكارى بالاله . ولكن « ديونيزوس » لم يعد يظهر بشكله الالهي . وإنما يظهر بهيئات الأبطال الذين يتمثل فيهم تحت قناع البطل « كيروموني» أو « أوديب» . و «ديونيزوس» هو البطل الحقيقي في كل مأساة ، يبدو بأشكال مختلفة . وهو في ظهوره هذا يشبه الانسان في حياته ، يتيه ويضل ، يناضل ويتألم . « ديونيزوس » هو هذا الاله المتألم الذي تكلمت عنه الأساطير . هذا الاله الذي يحس في نفسه بآلام الفردية . هذا الاله الذي قالوا عنه إنهم جزأوه وهو صغير وعبدوه باسم الاله « زاكروس » ومن ابتسامته تولدت الآلهة ، ومن دموعه نشأ الرجال

إن روح هذا الاله قد فتحت للعلم مجالاً عند اليونان . فهم بعد أن أطلقوا الأرواح من التشاؤم بتأملهم للجمال أو بشعورهم بخلود الارادة ، ذهبوا إلى طريقة ثالثة ، هي المعرفة العقلية للوجود وأجزائه . فجاء العلم حليفاً ثالثاً معهم يناضل التشاؤم . فبينما يقول الفنان للحياة « يليق بنا أن نحياك ، أيتها الحياة ! لأن صورتك جميلة » يقول العالم لها « أنا أريدك أيتها الحياة ! لأنك جديرة بأن تعرفي . . . » وهكذا وجد العالم في اكتشافاته العلميـة من اللذة والبهجة ما يجده الفنان في أوهامه وأخيلته . وتآزرت هذه الأوهام كلها لتجمل وجه الحياة المشوه جميلاً . ويجب ألاّ نجحد أن فضيلة العلم إنما هي تتمثل في البحث الدائم والتنقيب المتواصل . لا في الحقائق التي يكتشفها . أو النتائج التي يبلغها . وخطيئة العلم القطعي هي أنه لا يقف عند معرفته للوجود واقتناعه بما أدرك وتفهم من أحاجيه وإنما يثب إلى إصلاحه وإتمامه ، فتسمده حالته

الأولى مادام يبحث وينقب ، ويشقى فى الحالة الثانية ما دام يطمح ويطمع إلى ما لا قبل له به . يعتقد ببساطة نفسه أن الوجود سهل فهمه بجملته وبأجزائه ، وأن رأس كل فضيلة هى المعرفة ، وأن الجهل هو مصدر كل بلاء ، وبالعلم وحده يستطيع أن يبلغ الانسان ما يشاء من أمهات الفضائل

جاء سقراط وهو أعظم مفكر يونانى جاحد للوحى ، يؤمن بأن العقل وحده يقوم مقام الغريزة والفطرة فى الحياة . والرجل العاقل له من عقله سلاح يدرأ عنه أخطاء الغريزة وضلال الفطرة . سلك سقراط طريقاً خالف به قومه واستطاع فى النهاية أن يقهر معاصريه بسمو منطقه ، وباختياره لصرعه الذى لقيه . ترك الحياة هادئ النفس ، لا يمضه أسى ولا يقرعه ندم ، كأنما كان يثبت بهذا الصرع إيمانه فى الحياة إيماناً متفائلاً لا يتضعضع ولا يتزعزع

هـذا هو عقل سقراط الذى هزم « المأساة عند اليونان » وحق لهذه المأساة أن تتلاشى أمام مجلس العقل ، لما يطغى عليها من تعاليم لا يجمع بينها قياس ولا منطق . يستند كل ما فيها من تأثير على الموسيقى . المأساة لا توحى شيئاً ولا توضح عن أية حقيقة نافعة ؛ وقد تجئ فاحشة المغزى ، أو ليس يبدو بعد هذا أنها تعمل على تحطيم أجمل النماذج التى تخلقها الانسانيـة . فاذا كان هنالك أواصر متينة بين العلم والفضيلة والسعادة الحقيقية — كما يريد العلم المتفائل — فان المغزى الفاجع يغدو بدعة خطرة

ان سقراط لم يهدم فن المأساة وحده ، بل هدم كل البراعة اليونانية . كان المثال الذى تجسد فيه العقل يوم كان اليونان يتبعون بأهوائهم شريعة الفطرة والغريزة . كانوا يريدون الحياة قوية جميلة ، وهو يريدها منطقية ، تفقه نفسها بنفسها ؛ كان مظهر سقراط بمظهر المزدرى لروح عصره ، وهو وحده أعلن بين معاصريه أنه لا يدرى شيئاً ، وأنه على حق فى خصامه معهم . يعرج على نوادى الشعراء والمفكرين والخطباء والمعلمين ، فيقول : إن هؤلاء الواثقين بأنفسهم يفكرون ويجادلون بدافع الفطرة وحدها ، وهم لا يفقهون ما يصنعون . تراه حيثما توجه وأينما انطلق لا يبصر إلا وهماً باطلاً ، وخطأ فاشلاً ، ممـا اضطره أن يعلن أنه مقدم على انشاء حضارة جديدة يديرها العقل وحده . فهدم الحضارة الأولى ولم يبق على شيء منها ، فعل ذلك وهو لا يشعر بأن العـالم الذى هدمه هو أسمى من العالم الذى راح يبنيه بعقله

* * *

هذا ملخص ما رآه نيتشه فى « المأساة اليونانية » وهو جد آسف على ذهاب ذلك الماضى النبيل . وقد لا يعنينا أن ننظر إلى مذهب « نيتشه » من حيث تملقه بالتاريخ . فهو ليس فى الحقيقة إلا مذهباً يستخلصه من بعض نظراته المختلفة إلى أدب اليونان . وللعلم الحق وحده أن يتقبل هذه النظرات أو يأباها

يقول نيتشه عن شوبنهاور : « انا بعيد جداً عن الاعتقاد بأننى فهمت شوبنهاور ، ولـكنى مؤمن جد الايمان بأن شوبنهاور قد أعاننى على تفهم نفسى » وحال نيتشه فى درسه العبقرية اليونانية قد تشاكل هذه الحال ، فهذه الدراسة قد كشفت عن تفكيره وأبانت عن منحاه فى الحياة . وهذه الارادة التى يذرع بها (ديونيزوس) مجابهاً أخطار الموت والشقاء والألم تعبر عن عاطفة عميقة من أسمى عواطف «نيتشه» ؛ ومهما كانت قيمة كتابه هذا فهو بعد هذا كله كتاب خالد يتلو علينا كيف شعر نيتشه بذاته حين درس براعة اليونان

(يتبع) خليل هنداوى



من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيد

أروع قصص الحب في التاريخ القديم

للأستاذ دريني خشبة

كان الليل الهادئ القمر أصفى من قلوب العذارى؛ وكان النسيم العليل الحلو يرف كالأماني في قلوب المحبين؛ وكان البدر العاشق المُسَهَّد يُرسل القُبَل فتنطبع على خدود الورد، وتلثم أعواد الزنبق، ثم تنتشر بالشذى فتعطّر أحلام المدنفين!

وكان كيوبيد الصغير يتميّز من الغيظ حين انطلق حاملا سهامه ليقتل بْسيشيه ابنة الملك، التي أهانت بجمالها كبرياء أمه ڤينوس!

كان الناس يعبدون ربة الجمال والحب حتى ترعرعت بسيشيه وتدفّق ماء الشباب في جسمها الريّان، فهوت إليها نفوسهم، وخفقت بحبها قلوبهم، وآثروها بعبادتهم من دون ڤينوس!

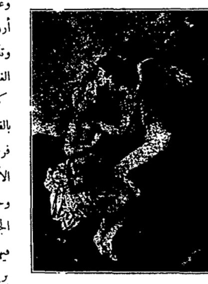
وكان للفتاة أختان حسناوان، ذواتا دلّ وفتون، ولكنهما كانتا مع ذلك دونها قسامةً ووسامةً ولا نهائية!

أجل، كانتا دونها لا نهائية، فلقد كانت العيون تغرق من جمال بسيشيه في لُجّةٍ من الحسن الغامض ما لها من قرار؛ وكان غموض حسنها هو سر عبادة الناس لها، وافتتانهم بها، وانصرافهم إليها عن كل ربات الجمال!

ودعت إليها ابنها ربُّ الحب، فأثارت في قلبه المداوة لهذه الغادة وجسّمت له ما يحيق به وبأمه من انصراف الناس عن عبادتهما إلى هذه المخلوقة التّعِسة:

« أفيرضيك يا بني أن تكون من آلهة الأولمب تكبرتين لا يخبت لهما شعب من العباد المخلصين؟ أم يرضيك أن يتغامز بي الآلهة كلما مررت بهم، وهم كما تعلم مغيظون مني، فيقولون هاهي ذي ڤينوس التي هدمت كبرياءها امرأة، وصرفت الناس عن عبادتها عادة؟ اذهب إذن فتربّص لها، وأنفذ إلى أغوار قلبها سهماً يودي بها إلى هيدز، وبئس القرار! وإنه لا ضير على أن تهيم بها أرواح الموتى، أو يفتتن بها بلوتو وملؤه . . . .

ومضى كيوبيد إلى قصر الملك في طريق حُفّت بالورد:



بسيشيه وكيوبيد

وعبقت فيها أرواح البنفسج، وتأرّج النرجس الغض، واختلط كل أولئك بالقمراء الفضية فرققت من غيظ الآله الأصغر، وجملته يحس الجنة التي يخطر فيها ليقتل فتاةً بريئة، كل ذنبها جمالها، وأقصى ما ارتكبته من وزر أن بدت للناس فشغفوا بها، وفنوا فيها ...

وكبر في قلب كيوبيد أن تنتهي هذه الجنة إلى جحيم تعج بالجريمة؛ وتفيض بالآلام؛ فجلس تحت سوسنة نامية يتأمل، وكان ضوء القمر ينعكس على الأزهار ثم يرتد عنها شعراً وسحراً وموسيقى صامتة؛ تنعزف ألحانها على أوتار قلبه الخفّاق!

وصدح بلبلٌ غَرِد في هدْأةِ الليل الفضي، فانتفض الآله الأصغر وحمل قوسه وسهامه ومضى . . . . لا يأبه بجمال الطبيعة

الساحرة ، ولا بأس لبه هذا البهاء الإلهى الذى يغمر الكون حوله ، حتى كان عند أسوار القصر الملكى الراقدة فى طوفان زاخر من أزهار الشيير والياسمين والبابونيا

ورفتين من جناحيه الصغيرين كان فى حديقة القصر . . .

ها هو ذا يصعد على الدرج الرخامى ، متبخترا ، دون أن يلمحه الحرس . . .

وانفتل فى غرفة بسيشيه النائمة ، واندس خلف الستائر الحريرية يوتر القوس الذهبية ، وينتقى من كنانته سهماً تقطر المنية من سيتيه ، ويرقص الموت على شباته !

وتقدم نحو الفتاة . . . . . .

يا للجمال النائم فوق الأريكة ! ويا للفتنة النائمة ملء السرير !

لقد كانت متجردة كلها ! وكان نهدها البارز الثمر مجللاً بثديين ناضجين ، يتحلبان لذاذة ويلتهبان إغراء ! !

ونامت هذه الذراع هنا ، واطمأنت تلك الذراع هناك ؛ لدنتان وإن كانتا كالمرمر ؛ رخصتان وإن كانتا لتمثال معبود !!

وكان السحر يهمهم فوق الساقين الملفوفتين ، ويهوم من تحتهما ، كأنه يرقيهما من نفسه ، أو ينفث فيهما من روحه وبأسه ! . . . .

والرأس الصغير فوق الطنفسة الوردية ، مستسلماً لأحلام الشباب الحلوة ، متلألئاً فى شعاعة من ضوء القمر سقطت عليه من النافذة القريبة ، رسولا من لدن ديانا (١) البارة ، أقبل ليقول للإله الأصغر : « مكانك أيها الرائى الحبيب ! ماذا جنى عليك هذا الحسن فتسلمه للردى ، وتجرعه كأس المنون ؟ ! افتح له ما انغلق من قلبك تنعم به ، فانك لن تجد فى ربات الأولمب من تخلص لك الحب كما يخلصه لك هذا الملك البرىء . . . ! »

وخطا كيوبيد خطوتين ، وحملق فى وجه بسيشيه . . . . . .

وبهره الجبين المشرق ، والهدب الناعس ، والخد الأسيل . . . .

وأخذ بلبه هذا الشعر المسجدى تفضض حواشيه أضواء القمر فتزيده بهاء ورونقاً ، فآلى لا يهدرن هذا الجمال البارع ، وانثنى مسلوب اللب ، مشدوه القلب ، موزع الفكر ؛ وانتزع السهم فألقى به فى كنانته . . . وقبل أن يخرج يده الصغيرة الناعمة ؛ شاء القدر أن يخدشها سهم ذهبى من سهام الحب ، فلأ كيوبيد هوى وأفعم قلبه صبابة ، فتقدم نحو بسيشيه لهفان ، يتزود لأوبته من جفنيها النعسان وحالها الفينان

وطبع على الفم الدقيق قبلة دقيقة حلوة ، وعاد أدراجه عاشقاً وامقاً لا يبالى بسخط أمه ڤينوس ! !

* * *

وانصدع عمود الليل ، وتنفس الصبح فهبت الأرواح النائمة ، وأقبلت ڤينوس ربة الحب لتسمع إلى النادبات النائحات فى قصر الملك . . . . . بيد أنها ، بدلاً من ذلك ، رأت بسيشيه ، بسيشيه بعينها ، تمرح فى حدائق القصر ، وقد برزت عرائس الماء من الغدران الصافية تحييها وتغنى لها ، وتضفر لها أفواف الزهر . . . . ! !

وحنقت ربة الجمال والحب ، ونادت بالويل والثبور على ولدها كيوبيد ، وأقسمت لتجعلن مباهج الحياة ووضاءتها ظلاماً فى عينى الفتاة ! !

فسلطت عليها الأشباح تروعها وتفزعها ، وأغرت بها خفافيش سوداء جعلت تنوشها وتهاجها ، وسخرت عليها ريح السموم تلفحها وتصهر روحها ، فانطلقت المسكينة مذعورة إلى داخل القصر ، وطفقت تصرخ وتعول ، ولا يدرى أحد لماذا تصرخ ابنة الملك وتعول . . . وازدحم حولها أبواها وإخوتها والخدم والحشم ينظرون ويعجبون ولا يكادون يحيرون . . .

ومضوا بها إلى المعبد يستوحون الآلهة ، ولكنها ما كانت لتزداد إلا شكاة وأشجاناً ! !

وكرت الأيام . . .

وانسربت بسيشيه إلى الجبل القريب المشرف على البحر ، وفى نفسها أن تلقى بجمل الحياة من شاهق ، فتستريح مما يطيف بها من آلام !

ورآها كيوبيد . . .

وظلت هى ترقب الموج الهائج ، وتشهد اليم المصطخب ، وتلقى على البطاح نظرة مودع عجلان ، وعلى المروج الخضر تحية مأخوذ القلب أسوان ؛ ثم صرخت صرخة هائلة ، وألقت بنفسها من عل . . . .

وكأن كيوبيد كان قد أحس بما تعتزمه حبيبته من الانتحار ، فدعا إليه صديقه ونجيه زفيروس ، إله الريح الجنوبية ، وأطلعه على ما يكن من الحب : « لهذه الفتاة التى تكاد تلقى بنفسها من

(١) ديانا هى ربة القمر ، وهى التى اكتشفت كيوبيد ، فأرسلت الشعاعة فوق وجه الفتاة لانقاذها

قُنة الجبل يا صديقى زفيروس . فإن رأيت أن تكون لك علىَّ هذه اليد ، أذكرها لك أبد الدهر ، فخذ أهبتك ، ولا تدعها تغوص فى اليم ، بل تلقها فى يديك الرفيقتين ، واذهب بها إلى الجزيرة القابلة حيث الشاطىء المنضور بالرياحين ؛ فدعها ثمة ، فقد أعددت لها مُستراداً وملعباً . . . . . »

ولشد ما دهشت بسيشيه إذْ رأت طيفاً نورانياً كريماً يبرز من الماء فجأةً فيلتقطها فى يديه الكريمتين ، ثم يترفق بها فيضعها على ظهره العريض الرّحْب ، كأنه أريكة من أرائك الجنة التى وُعِد المتقون ، ويخوض بها اليم المضطرب فتعنو له الأمواج ويسجد من تحته الثبج ، ويصير البحر فى لحة كأنه مرآة صافية ملساء ، كأنها صفحة السماء . . .

ويصل إلى الشاطئ المزدهر فيبسم للفتاة ثم يحييها بتمتمة ، وينطلق فى البحر الذى يعود إلى سابق اصطخابه واضطرابه . . .

وتجلس بسيشيه على الكلأ فتفرك عينيها مما استولى عليها من ذهول ، لترى هل هذا الذى هى فيه حُلم ، أم هى قد ماتت فعلاً ولكنها دخلت الجنة ؟ ! !

بيد أنها تذكر أن الأرواح فقط هى التى تنفذ إلى دار الموتى ؛ وأنه ليس فى دار الموتى شمس ولا إياه ، وهى تتحسس نفسها فترى جسمها البض الجميل كما هو لم يتغير ، وهى ترى أيضاً إلى الشمس مشرقة تغمر بآرادها البر والبحر ، وتنشر إياها فى الأكوان جميعاً . . .

إذن هى لم تمت ، وهـذا الطيف الكريم الذى أنقذها من الموت ، والذى ترفق فحملها إلى تلك الجزيرة هو رسول أحد الآلهة ؛ وإذن فلتنهض ولتضرب فى هذا الفردوس المنزل حتى يكون أمر غير هذا الأمر . . .

ومضت فى غِيـاضٍ وأرباض ، ورأت فى الأفق القريب قصراً باذخاً ذا شرفات وأجياد ، فيممت إليه ، وما كادت تدنو منه حتى فُتحت بَوّابة السور الكبرى على مصراعيها ، وامتدت منها أذرع نورانية تصافحها ، وانبرت أصواتٌ رقيقة موسيقية تحتفى بها وتُحَيّى وتُبَيِّى ! . . . . .

وفركت بسيشيه عينيها كذلك !

وظنت أنها تحلم ، ولكن كل شىء حولها حدثها أنها ترى رؤيةً حقيقية ، لا رؤيا منامية . . . . فدخلت القصر ، وفى نفسها من الحَيْرة وشدة العجب ما أخذ يتضاعف فى كل خطوة ويزداد . . .

وحاولت أن ترى أحداً ممن لهم هذا الصوت الرقيق . . .

ولكن عبثاً . . . ليس هناك إلا أذرع من نور تمتد إليها محتفية بها ، تقودها إلى المخدع الوثير الذى أعدته العناية لها . . .

ودار الحديث بينها وبين طيف لا تراه :

ـ « . . . ويدهشنى أنكم تحتفون بى . وتبالغون فى إكرامى ، وأنا لا أرى منكم أحداً ، فهل كلكم يلبس قلنسوة هرمز ؟ (١) »

ـ « كلا أيتها العزيزة ؛ ولكنا أمرنا ألا ننكشف لك . . »

ـ « ومن ذا الذى أصدر إليكم هذا الأمر ؟ »

ـ « ونُهينا أيضاً عن ذكر اسمه . . . »

ـ « أنتم كرام ، ولكنكم تضايقوننى إلى حد الازعاج . . »

ـ « ليفرخ روعك أيتها العزيزة ، فنى المساء ، تلقين الآمر الكريم صاحب هـذا القصر ، وصاحب القصور الكثيرة فى أطراف الأرض »

ـ « وهل لى أن أجول جولةً فى قصركم المنيف عسى أن تذهب هذه الوحشة الجاثمة على قلبى . . . »

ـ « ولم لا . . . بسيشيه العزيزة ؟ »

ـ « بسيشيه ؟ ! . . . ومن أنبأكم اسمى ؟ »

ـ « رب هذا القصر أيتها العزيزة . . . »

وجالت الفتاة فى القصر الجميل المنسق ، وكان مثار عجبها هذه الصور البارعة المرسومة على الجدران ، كلما وقفت عند واحدة دبت فيها الحياة ، وتحركت على الحائط متهللة مستبشرة ، مُحَيِّيَةً بابتسامة خفيفة ، أو انحناءة مؤدبة . . . ! !

وكانت التماثيل فى زوايا الغرف ، وأوساط الردهات ، وفى حنايا الحديقة ، وفوق الربى المكسوة بالسندس الرّطب ، تحتى الضَّيْفة ، كأن حياة تدب فى مرمرها كلما وقع بصر بسيشيه عليها ، فتتحرك الأذرع ، وتومى الرؤوس ، وتغمر الفتاة وقد أخذ الدهش من نفسها كل مأخذ . . .

وكانت المنادل تهتف بها ترجوها أن تتلبَّثَ فتُسْمِعها أنشودة الخلد ، ولولا العجلة لوقفت بسيشيه عند كل حتى ينتهى من غنائه الحلو ، وتغريده الرنان

وعادت إلى المخدع مع مغيب الشمس

(لها بقيـــة) دريني خشبة

---

(١) قلنسوة هرمز (طاقية) الاخفاء

اقصوصة عراقية :

بَدّاى الفـــايز

للأستاذ محمود . ا . السيد

— ١ —

كان اليوم العاشر من شهر مايو . . .

كان الفرات فائضاً توشك أمواهه الطاغية أن تجرف السدود المقامة على ضفتيه . وكان الفلاحون من أبناء القبائل المختلفة ، فى منطقة خضراء بين ذى الكفل والكوفة ـ كأمثالهم فى مناطق الفرات الأخرى ـ ساهرين عليها ، مقيمين حولها ليلاً ونهاراً وَجِلين ، يخيفهم الخطر الجاثم حيالهم منذ شهر ، وقد اشتد بعد أن كان ضعيفاً مبهماً

وكان الصبح . . .

وكان النسيم يهب بليلاً فينعش هؤلاء المساكين ، ويحيى فيهم عنصر النشاط الذى كانوا فى أشد الحاجة إليه ؛ فقد أنهكهم النصب ، وآذاهم الجهد الذى بذلوا مذ طغى الماء ، وهم يصارعونه ليحولوا بينه وبين زرعهم ـ مع أنه جزء قليل من زرع الرؤساء المالكين ـ وماشيتهم ؛ وهما لهم قوام الحياة

وكانت سنابل القمح المنتشرة المتكاثفة فى الحقول على مقربة من بيوتهم ـ وهى من القصب البالى والحصر وجريد النخل ـ ومن النهر ، مصفرة ناضجة تبهج الناظرين . وكان وقت حصادها جد قريب

وحان الضحى ؛ فحانت ساعة العمل لتقوية السدود وتمكينها فانتشرت جموعهم كالنمل تحمل إلى المواقع الواهنة منها التراب من أطرافها ، ثم تعود لتحمل إليها التراب كذلك والحطب والقصب والحُصُر والعَمَدَ والحبال وما إليها ؛ ثم تعود مرة أخرى ، فأخرى ، يسوقها المهندسون والرؤساء المالكون فى غير ملل ولا إمهال

وحان الظهر ؛ فاستراحوا قليلاً ثم عادوا يعملون

وتغير الطقس ، آنئذ ، تغيراً مفاجئاً ـ ومثل هـذا التغير مألوف ومعتاد فى العراق ـ فحجبت وجه الشمس عاصفةٌ شديدة أثارت الموج فى النهر ، وعظم بها الخطر ، لأن السدود قد كانت احتملت من جريان المياه الطاغية وتيارها القوى أكثر مما تطيق احتماله ، فكيف بها الآن وقد أخذ الموج يلاطمها فيوهنها ويكاد يهدمها تهديماً

وكان الخطر أعظم ما يكون فى الضفة اليسرى من النهر ، لأن أهلها كانوا أقل عديداً من جيرانهم أهل الضفة اليمنى ، وأرضهم أوطأ من أرضهم ، وسدودهم أضعف من سدودهم

وكان الرؤساء جميعاً ، هنا وهناك ، مع وفرة غنائمهم ، وامتلاكهم الدور والأحراز والأرضين دون الفلاحين ، أحرص منهم على حفظ السدود لحفظ الزروع . فداروا حولهم يشجعونهم ويضربون المقصِّر المتخلف منهم عن صحبه بالعصى والسياط

ونحن الآن فى الضفة اليمنى

حان الأصيل ، وبدأت قصتنا ؛ فوقف فتى طويل القامة ، مفتول الساعدين ، آدم اللون ، يدعونه « بَدّاى الفايز » ويتميز بخنجر مفضض لا يفارق حزامه ، أمام رئيس من رؤساء القبيلة التى ينتمى إليها ، معتدلاً يعلوه الشمم ، وتهز كيانه نخوة الأعراب ؛ وقد أصابته منه ضربة عصا كما أصابت غيره ضربات ، وسواء أكان لتلك الضربة سبب من تقصير فى العمل أم لم يكن ، فان (بداى) الذى كان شاذاً فى قبيلته فى بعض خلاله ، قوى الشكيمة ، عزيز النفس ، معتزاً بقوة جسمه ، لم يحتملها ؛ فوقف يغمغم متظلماً فى شبه ثورة وعصيان

وبهت الرئيس ، فنظر إليه مستغرباً مستنكراً : مستغرباً شممه ونخوته وقد حسبهما طيشاً ونزقاً وخنزوانة عبد ، وحمله خنجره المفضض حتى فى ساع العمل المسير ، مستنكراً تظلمه ، وكيف لم يحتمل منه ما احتمل الآخرون أذلةً خاضعين

وأقبل عليه يريد أن يضربه مرة ثانية ؛ ثم انثنى عنه فى لحظة فأنشأ يرميه بما هو عند القبائل شر من ضرب العصى وأنكى ، قال يُعَيِّره :

ـ « ويلك يا جبان ! هل يرفع أنفك فيميزك عن اخوتك الطائعين هؤلاء خنجرك المفضض هذا ! ؟ ولأى يوم كريهة تحمل هذا الخنجر وتلك البندقية التى تعلقها بالسدرة ؟ وأين كان هذا السلاح يوم قتل جَسّام أخاك عباس ؟ ولماذا لم تثأر له به حتى الآن أيها الجبان الذليل ؟ ! »

وإذ نطق باسم « جسام » شدّد « السين » تشديداً غريباً ومد « ألفه » وهو يشير بعصاه اشارة ذات معنى إلى ضفة النهر المقابلة ؛ ثم إذ أتم كلمته ابتسم ساخراً متهكماً وتولىّ ، وهو مدرك أية طعنة نجلاء طعن الفتى

وسمع بداى هذه الكلمة الطاعنة أمام الجمهور الحاشد من الفلاحين الذين كان يراهم دونه شمماً وإباء للضيم ونخوة ، وهو فى أسوأ حال من الاضطراب النفسى والغيظ ، وعضّ على شفته إذ أخذته (العزة) ؛ فصاح صيحة كاد ينفطر لها فؤاده :

ـ «اخسأ ! أنا أخو شمسة ! ولأنتقمنّ ولأدفننّ عنى عارى ! »

وترك العمل وهو حانق غضبان . وشعر بأن حياته أضحت عبئاً ثقيلاً عليه . و « النار ولا العار ! » وهل يهمه بعدُ الزرع وغير الزرع ؟ « لقد قتل جسام من أبناء القبيلة المجاورة أخاه عباسا ، فى نزاع على دين قديم ، منذ عهد قريب ؛ وتلكأ عن أداء ديَتِه . هذا ما كان يعلمه ؛ ولكنه لم يكن راضياً بالعار الذى خلع عليه هذا الحادث منه جلباباً أسود ضافياً . لم يكن ساكتاً عن حقه ، والثأر فى القبائل كالديَةِ ، حقٌ . على أنه لم يرَ بدّاً من التريث حتى تنجلى هذه المصيبة التى حلت بالقبائل الفراتية كافة : مصيبة الفيضان . وكان من المروءة تركه وشأنه ؛ أما وقد سبق السيف العذل ؛ فَعُيّر أمام الناس ، فلا كانت الحياة إن لم يثأر وينتقم . . . . . »

هذا ما فكر فيه فى دقائق مسرعة كالثوانى ، ونفض عباءته ليزيل ما علق بها من تراب حين العمل ، ثم تناول بندقيته غير ملتفت وراءه ، وتوارى عن الأنظار

— ٢ —

ونحن الآن فى الضفة اليسرى

أقبل الليل ؛ وانقلب الفلاحون إلى بيوتهم ، وهم يتوقعون الخطر الجاثم حيالهم ، يتوقعون أن تتدفق المياه عليهم فى هذه الليلة ان لم تنقص قليلاً . وبقيت الريح العاصفة على شدتها تثير أمواجها فتوهن السدود . وكان الأعياء آخذاً منهم مأخذه فرقدوا متوكلين على الله ؛ الا الحرس منهم الذين أقاموا على السدود ، فكانوا متحفزين للعمل ، يروحون ويجيئون كأشباح الجن ؛ يلفهم نور القمر الضئيل الذى حجبت سطوعه الريح الذارية وما كانت تحمله للقوم من غبار كثيف

وكان جسام القاتل واحداً من هؤلاء الحرس

وكان وهو فى جماعته ، مطمئناً غافلاً ، لا يدرى أن بداى قد أقسم لينتقمن لشرفه فى تلك الليلة ؛ لا يدرى أنه جاء دارةَ القوم خلسةً وقد عبر الفرات على زورق من زوارق الصيد صغير ، بعد لأى وجهد كبير ؛ وأنه كان ـ وقد مضى الهزيع الأول من الليل ـ يكمن له وراء نخلة فى طرف حديقة مجاورة لبيوت القبيلة مما يلى مضرب الحرس ملثما بكوفيته ، متلفعاً بعباءته السوداء ؛ مصمما على قتله

وكان موقع الحارس جسام قريباً من الحديقة ؛ وكان خصمه يتبينه ؛ وكان يعرفه مستدلاً عليه بصوته الذى كان يرتفع بين دقائق ودقائق إذ ينادى صحبه نداء الحذر والانتباه

وكان ينظر إليه وهو واقف فى الظلام ، ظلام الحديقة الذى كان يستره كالخنزير الحانق على الصياد ؛ ويقول بصوت خافت ؛ وكأنه يتوعده :

ـ « اصبر لى قليلاً يا ابن الكلب . . . . »

ثم حشا بندقيته ؛ وقد اشتدت ضربات قلبه ؛ وبدت على وجهه سيماء الانسان الوحشى القديم ؛ وثنى ركبتيه وأطال النظر فى عدوه ليسدد الرمى ؛ وكاد يطلق رصاصاته الخمس التى أعدها لقتله ، لولا أن رأى بجانبه حارسا آخر أقبل عليه مسرعا . فكان على بداى لقتل واحد منهما أن يقتل الاثنين معا ، وهذا ما لم يكن يريده ؛ لأن ثأره على تلك الصورة يخلق له مشكلة يصعب عليه التخلص منها ، فقد يغتفر له ذوو جسام وأبناء قبيلته قتله لأنه قاتل أخيه ، ولكنهم لا يغتفرون له قتل الثانى ؛ ولابد لهم من قتله بعدئذ ليثأروا به منه

وتملكته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل

ثم بدا له أن يتوقع عودة القادم ، لينفرد بفريسته ، وبينما هو فى موقفه هذا ، ارتفعت من جانب بعيدٍ قيدَ غلوة صيحة حارس يستغيث

لقد حم الأمر ؛ وتفجرت المياه من ثلمة حدثت فى السد المصاقب ، ومضى الحرس وفى طليعتهم جسام ، يعدون مستبقين لسد الثلمة ، فلم يتمكنوا من ذلك ، ولم يكن دفع المياه المتدفقة المتحدرة تحدر السيل من أعالى الجبال مستطاعاً

واستيقظ أبناء القبيلة فروّعهم الحادث ، وشعروا بوقوع الكارثة ، فأضاعوا رشدهم ، كما أضاعوا من قبل جهودهم كلها فى الزرع وفى إقامة السدود . وحاولوا كفاح المياه العرمة فحاولوا عبثاً ، وراموا مستحيلا

وما كان أمامهم إلاّ الهرب ، فكان النساء يولولن ، والأطفال فى خوف ورعب يتصارخون . وكان جسام ذا أسرة تتألف من زوج ، وثلاثة أطفال ، وأم عجوز ، وأخت . وكان الرجل آخر هارع إلى أمه وإلى أطفاله لينقذهم من الغرق ، وقد خسر مع الخاسرين نصيبه فى الزرع ، ونسى بقرته وغنمه ؛ وعلى

هذه البقرة والغنم تقوم حياتهم بعد الزرع . . .

وأدركت الرحمةُ الطبيعةَ حينئذ ، فسكنت الريح ، وانقشع الغبار ، فهذا القمر المنير زاهياً متلألئاً يطل على هذه الفاجعة فى قسوة وجمود

— ٣ —

وبعد ساعة أو أقل كانت الثلة متسمةً ، تنتصبُ منها فى السهل الكائن وراءها حيث البيوت ثم الحقول ، مئات الألوف من الأمتار المكعبة من الماء . وكان بداى يشهد هذه الفاجعة التى فُجعت بها القبيلة فى دهش وتألم . وكانت نفسه ساكنة هادئة بعد أن أفلتت فريسته منه ، وأحس شيئاً يتمزق فى جوفه . ثم استيقظ فى نفسه شعور غريب جديد ، هو غير الشعور بالضراوة والرغبة فى الانتقام والثأر ؛ وذهل عما جاء من أجله ؛ فاقترب من بيوت القوم قليلاً ، فرأى — مما رأى — أطفال جسام الثلاثة فى صراخهم وعويلهم ، والأب يحمل منهم الاثنين الكبيرين وكانا فى الرابعة والخامسة ، يحيفين واهنين من مرض أو جوع ، وزوجه تحمل بعض المتاع وتقتاد البقرة ، وأخته تريد أن تحمل أمها العجوز ، والطفل الثالث ، وهو فى الثالثة من العمر ما زال على الأرض متشبثاً بأذيال أمه يرتجف ويعول باكياً ، والأم ذاهلة تحنى فتتناوله لتحمله فوق المتاع ، فيفلت منها زمام البقرة ؛ ثم يذكر الأب ، وهو دهش يحمل طفليه ، غنمه فيذهب إليها حيث كانت فى زريبة مجاورة ليسوقها أمامه . . . وأبناء القبيلة كل منهم مشغول ببلائه ، وقد اختلط الحابل بالنابل ؛ فكانوا فى مثل يوم المحشر الموعود

وكانت الكلاب تنبح شاعرة بالخطر نباحاً صاخباً يملأ الجو

وحينئذ كان بداى يحكم لثامه شداً ، ويتنكب بندقيته ، ويشمر عن ساعديه ؛ ويبادر لنجدة هذه الأسرة وعونها . وأقبل على الأم الذاهلة فتناول منها طفلها يخفف عنها حملها الثقيل . وحسبه جسام ، وقد حانت منه التفاتة اليه فى الزحام ، واحداً من أبناء عمه ، فخاطبه مرشداً ومشجعاً :

— « دونك السد »

وكان السد الممتد على طول النهر والمؤدى إلى قرية قريبة ، الطريق الوحيد الذى لجأ اليه القوم طلباً للنجاة من الغرق لقربه من بيوتهم ، وارتفاعه عن السهل المنبسط الذى أخذ الماء يغمره شيئاً فشيئاً . . .

وإذ تخلصت زوج جسام من وليدها ، واطمأنت لنجاته ، استطاعت سحب البقرة وراءها واستنقاذ ما حملت على ظهرها من متاع البيت . وحملت أخته أمها العجوز . وبلغوا يخوضون الماء المتدفق خوضاً ، معه ، وهو حامل طفليه . واستمدوا ليمشوا وراء قافلة القبيلة التى رحلت من مستقرها وقد مسها ضرٌ أليم .

وأقبل أرهم الرجل الملثم حاملاً الطفل الصغير فأنزله إلى الأرض ، واقترب حتى قابل جساما فحل عنه لثامه ، ونظر اليه ، فى ضوء القمر ، محملقاً كأنه يقول له :

— « هلا عرفتنى ؟ فأنا خصيمك طالب ثأر عباس ؟ »

ولبثا دقيقة ينظر الواحد منهما إلى الآخر ، وقد أوشكت أن تثور فيهما نوازع الرغبة فى الاقتتال ، هذا ليدافع ، وهذا ليثأر وينتقم

ونحّى جسام طفليه عنه فى تأن وحذر ، ومد عيناه إلى خنجره بيد أن بداى أخاف ظنه مما زاد على أن هز رأسه ، وقال له بصوت أجش :

« اذهب الآن ! . . مع السلامة . . خلصت . . ولكن لا تنس أن لك ساعة أخرى ! »

وانكفأ إلى زورقه مسرعاً ، تاركاً ثأره [1] وزوجه التى انتهت اليه آخر الأمر ، فى حيرة واستغراب

* * *

وآب بداى الفائز إلى قبيلته ساكناً هادئاً ، فخوراً بالفعلة التى لم يفعل مثلها أحد قبله ، إذ أنجد أسرة حين لم يكن له من إنجادها بد ، واستحيا لأجلها ، ولو إلى حين ، نفساً ما كان لها إلا أن تموت

— ٤ —

ومر عام على هذا الحادث . فعادت قبيلة جسام إلى أرضها الأولى ، بعد أن زال عنها الماء الذى غمرها أشهراً ؛ وأنشأت لها سداً جديداً على ساحلها ؛ فجاءها رسل من القبيلة الثانية يسمون بين بداى وجسام بالصلح ، ويحملون دية القتيل مالاً وامرأة ، وهى أخت القاتل ، فتزوجها بداى زواج « الفصل » على سنة القبائل الموروثة وتقاليدها

ولم يعد أحد يجرؤ ، بعد ذلك ، أن يعير الفتى بأنه نام عن ثأره نوم الجبان الذليل

محمود . أ . السيد (العراق — الأعظمية)

(١) ثأر الرجل : قاتل قريبه

البريد الأدبي

تبسيط اللغة الانكليزية واهتمام الانكليز بنشرها

يبدى الانكليز فى الوقت الحاضر اهتماماً خاصاً بنشر اللغة الانكليزية ، ويحاولون بمختلف الوسائل أن يجعلوا منها لغة دولية عامة ، كاللغة الفرنسية فى الشؤون والمعاملات الدولية والتجارية ؛ ويرجع هذا الاهتمام إلى ما بعد الحرب الكبرى إذ اتسع نطاق الامبراطورية البريطانية اتساعاً عظيما ، وضمت إليها شعوب وأمم جديدة ، وزاد نفوذ انكلترا الدولى تبعا لذلك ، واتسع نطاق تجارتها اتساعا عظيما . والانكليز أقل الأمم اهتماما بدرس اللغات الأجنبية ، وقد حاولوا أن يتلافوا هذا النقص بفرض لغتهم على الشعوب التى تنضوى تحت لوائهم ، ولكنهم يرغبون اليوم فى التقدم خطوة أخرى ، وذلك بالعمل لجعل اللغة الانكليزية لغة دولية اختيارية . وقد رأوا أن أنجع وسيلة لتحقيق هذه الغاية هو تبسيط اللغة الانكليزية إلى أبعد حد ، وانتهوا فعلا إلى عمل هذه التجربة ، فقام الأستاذ أجدن أحد أعضاء المعهد اللغوى بجامعة كامبردج باختيار الألفاظ الانكليزية التى تعبر عن أكبر عدد من المعانى المطلوبة ، وانتهى إلى حصرها فى ٨٥٠ كلمة تكون وحدها لغة انكليزية جامعة وافية بالتعبير عن كل ما يرغب ، ويكفى لدرسها وحفظها ثلاثون ساعة ، وليس فيها أى تضارب ولا تعقيد ، وليس فيها من الأفعال سوى ١٨ فعلا ، وقد سميت هذه اللغة « بالانكليزية الأساسية » . ويعلق الانكليز على هذا التبسيط المدهش للغة تبلغ كلماتها عشرين ألفا آمالا كبيرة ، وتنوه الصحف العلمية بهذه المناسبة بأن أحب الكتاب الانكليز إلى الشعب الانكليزى هم أبسطهم لغة وبيانا مثل سويفت وبرنارد شو ، ومن ينحو نحوهما فى التعبير الجزل البسيط الذى لا يتخلله حشو ولا ترادف ولا تعقيد

ازمة الديموقراطية

تشغل أزمة الديموقراطية أذهان الساسة والكتاب الأحرار ، وقد صدرت فى موضوعها فى الآونة الأخيرة مؤلفات عديدة ولا سيما مد تولت عصبة الهتلريين الحكم فى ألمانيا وسحقت كل أنواع الحقوق والحريات العامة ؛ ومنذ أسابيع قلائل ظهر كتاب جديد فى الموضوع بقلم مسيو دى روڤيرا الكاتب والسياسى الاسبانى عنوانه « تجربة سياسية » Un Essai Politique ومن رأى هذا الكاتب أن الديموقراطية تجتاز أزمة الموت ، بيد أنه من المستحيل أن يظفر المؤرخ أو السياسى المعاصر بجراثيم الداء التى تنخر أسس الديموقراطية ؛ وأكبر الظن أن مؤرخ القرن الثانى والعشرين أو الثالث والعشرين سيكون أقدر منا على تفهم الصلات والحوادث التى تربط الثورة الفرنسية بالحركات الثورية الجديدة مثل الشيوعية والفاشستية ، وأقدر منا على تفهم المراحل التى جازتها المبادئ الثورية السياسية حتى انتهت إلى نواحيها الاجتماعية ؛ وقد يرون أن تحول العالم القديم إلى العالم الجديد قد استهدف لسلسلة من النزعات والعوامل المضطربة . ثم يقول مسيو روڤيرا : إننا نشعر الآن فى جميع أوربا بضرورة الارادة العاملة ؛ ولنا أن نسميها « سلطة » أو « طغياناً » فان المهم هو أننا نريد أن نعمل . ويجب علينا ألا نحكم على آبائنا بالبله والعجز لأنهم لم يبتوا فى المسائل بشىء . والواقع أنه يجب أن نعتبر خاتمة القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين مرحلة الهدم بالنسبة للعالم القديم ، ومرحلة التجارب الهائلة ؛ وليس ثمة ما يدهش إذ نرى ما نرى من ذلك الاضطراب الهائل الذى يسود شؤون العالم اليوم . وقد أثارت ملاحظات المسيو دى روڤيرا كثيراً من الاهتمام والجدل لأنها تتعلق بمسألة تعتبر مسألة العصر ، سياسياً واقتصادياً واجتماعياً

رسائل جديدة لشارلس دكنز

صدر فى لندن مجلد من رسائل جديدة لشارلس دكنز الكاتب الانكليزى الفكه ، محتوياً على جميع الرسائل التى كتبها دكنز لزوجته كاترين هوجارت من سنة ١٨٣٥ إلى سنة ١٨٦٧ وكانت مدام دكنز قد أوصت بهذه الرسائل لبناتها ، وأودعتها ابنتها الثانية كات بيروجيني بالمتحف البريطانى وأوصت بأن تبقى فى طى الكتمان بعيدة عن النشر والاذاعة حتى تموت هى ، والسير هنرى فلدنج دكنز آخر من بقى على قيد الحياة من نسل الكاتب الشهير . وقد عمل المتحف البريطانى بهذه الوصية ولم يسمح باذاعة الرسائل حتى تحقق شرط الانقراض . وليس فى هذه الرسائل جديد مما لم يعرف عن حياة دكنز ، ولكنها تلقى ضياء جديداً على ما كان بينه وبين زوجه من الخلاف وما كان بينهما من أسباب النفرة والاحتكاك مذ عرفها باسم كاترين هوجارت . والرسائل الجديدة على وجه العموم صورة حية من خواص دكنز ومواهبه الكتابية ، وهى تسبغ على الحوادث والمسائل التى تتناولها حياة جديدة لم تتوفر فى أية ترجمة من التراجم التى تناولت حياة الكاتب الكبير ، وفيها يبدو دكنز فى ذروة براعته المعروفة فى التصوير الفكه المبكى معاً . وقد تلقى الجمهور الانكليزى الرسائل الجديدة لهذا الكاتب المحبوب بلهفة واشتياق . والذين قرأوا من أبناء العربية شيئاً من قصص دكنز ولا سيما قصته الخالدة « داڤيد كوبر فيلد » أو « نادى بكويك » أو « نيكولاس نيكلباى » أو غيرها يذكرون كيف يستطيع هذا الكاتب المبدع أن يصور حياة البؤس والتشريد فى صور بسيطة مبكية معاً ، وكيف يستطيع أن يهز أوتار القلوب بمرحه المؤثر وبيانه الخلاب

وليم كوبيت

تحتفل الدوائر الأدبيــة الانكليزية بذكرى كاتب مازالت كتابته تطبع أذهان النشء الانكليزى بطابع قوى : ذلك هو وليم كوبيت الذى توفى منذ مائة عام . وقد ولد كوبيت سنة ١٧٦٢ فى فرنهام من أعمال سورى ، فى أسرة ريفية فقيرة ، وقضى حداثته فى فلاحة الأرض ، ثم تقلب فى مهن صغيرة مختلفة ، فاشتغل كاتباً وجندياً ، ولما ترك الجندية سافر إلى أمريكا ونفى بها ردحاً من الزمن ثم عاد إلى انكلترا ؛ واشتغل أثناء ذلك بالصحافة آناً وبالزراعة آناً آخر ، ولقى فى حياته السياسية صعاباً جمة نظراً لمناوأته رجال الحكم ؛ واستقر فى انكلترا منذ سنة ١٨٠٠ وأخذ يعالج الصحافة السياسية أولاً إلى جانب حزب الأحرار ، ثم إلى جانب المحافظين ؛ وكانت صرامته وعنفه وشدة حملاته تثير عليه السخط فى الجانبين ، ولكنه مع ذلك كان يبدى براعة ظاهرة فى حملاته ، وكان مرهوب القلم . وفى سنة ١٨١٧ سافر إلى أمريكا مرة أخرى ومكث بهـا عامين ثم عاد إلى انكلترا ؛ ورشح نفسه للانتخاب النيابى فسقط لأول مرة ، ثم عاود الكرة بعـد ذلك ونجح فى الانتخاب كنائب عن أولدهام . بيد أنه لم يبد فى مجلس العموم مقدرة خطابية . ولم يلبث أن توفى بعد ثلاثة أعوام ، فى يونيه سنة ١٨٣٥

وقد كان كوبيت من أعظم النقدة فى عصره ، وكان كاتباً وصفياً لا يجارى ، وكان يملك زمام البيان بقوة مدهشة ؛ وكان أشد تأثيره فى شباب عصره ؛ وأشهر مؤلفاته « نزهات ريفية » و « نصيحة إلى الشبان والشابات » وهو من خير ما كتب وخير ما ظهر فى عصره ؛ ثم رسائله السياسية الأسبوعية وهى تملأ مجلدات كثيرة

الذكرى الثلاثون للامام محمد عبده

أقامت رابطة الشباب الأدبية فى الساعة السادسة من مساء الخميس الماضى بالدار الجديدة لجمعية الشبان المسلمين احتفالاً رائعاً بذكرى مرور ثلاثين عاماً على وفاة المصلح الكبير الامام محمد عبده ، شهده صفوة من رجال العلم وجمهرة من شباب الأمة ، وتكلم فيه الأستاذ عبد الوهاب النجار عن حياة الامام ، والأستاذ مصطفى عبد الرازق عن الامام فى الأزهر ، والدكتور محمد حسين هيكل عن الامام فى الصحافة ، والأستاذ عبد الله عفيفى عن دفاع الامام عن الاسلام ، والأستاذ الهلباوى بك عن الامام فى القضاء ؛ وكادت هذه الخطب المتمة تؤلف للامام ترجمة وافية لولا أن ضيق الوقت أعجل الأستاذين النجار والهلباوى عن لم الموضوع واستيفاء البحث



الكتب

١ — فتح العرب لمصر : للدكتور بتلر

ترجمة الأستاذ محمد فريد أبو حديد

٢ — فنون الطهي الحديث

لمؤلفيه السيدين أبي زيد أمين وطفيان سعيد

للأستاذ محمد بك كرد علي

من الكتب كتاب واحد يغني عن عشرة ، وقلما أغنى قط كتاب عن كتاب . وهذا الكتاب في فتح العرب مصر يدخل في باب ما لا يستغنى عنه من الكتب لفائدته وطرافته . صرف مؤلفه في وضعه وقتاً طويلاً يدرس ويبحث ، ثم يستقرئ ويستنتج ، فجاء كتابه ناضجاً من كل وجه ، حرياً بأن يتعلم بعض من يؤلفون بالعربية أصول التأليف المنقحة بالنظر إلى هذا الكتاب وكيف يدرس الغربيون أبحاثهم ليفيدوا العلم ويأتوا بالمتقن من صفحاته

استعان المؤلف في تأليفه بشذرات قليلة مما كتبه الروم ومؤرخو الكنيسة القبطية ، وما كتبه أهم المؤرخين من العرب والانجليز والفرنسيين والألمان ، وما عثر عليه من أوراق البردى في أرجاء مصر ، وما كشف من عاديّاتها القديمة ، ورجع إلى عالم عصره الشيخ محمد عبده فأعطاه بعض قطع اختارها أو كتبها ، وكانت خاصة بالفتح ، وساعده غير واحد من أعلام مصر في قراءة جمل من القبطية وغيرها فجلا تاريخ هذه الحقبة بأجمل أسلوب عصري ، صوّر لك ماوقع من حوادث الفتح العربي كأنك تشهدها

قال : « ولعل القارئ يستطيع من مطالعة اللاحق التي ألحقناها في آخر الكتاب أن يتبين شيئاً من مقدار ما هنالك من خلط في التاريخ ، ومقدار ما عانيناه من المشقة في ابتداع طريقة لضبط تواريخ الفتح الفارسي والفتح العربي ، فالظاهر أن مؤرخي العرب لا يعرفون شيئا عن تيودور القائد الأعلى لجيوش الروم ، فهم يخلطونه ببعض أصاغر القواد ، وهم كذلك يخلطون بين قيرس (المقوقس) وبنيامين ، وبين فتح قطر مصر وفتح مدينة مصر ، وفتح الاسكندرية ، ولا يميزون بين فتح الاسكندرية الأول الذي كان صلحا وبين فتحها الثاني الذي كان عنوة ، وكانوا يذهبون إلى أن القبط قد ساعدوا العرب ورحبوا بهم . وقد ظلم التاريخ القبط في ذلك ظلماً فاحشاً على نحو ما ظلم العرب ظلماً كثيراً بنسبة حريق خزانة كتب الاسكندرية إليهم » قال : وما كان لنا إلا قصد واحد وهو أن نصل إلى الحق ، وقال إنه ممن يحمل لكل من الشعبين العربي والقبطي أكبر الاعجاب

ومن براهينه في تبرئة العرب من حريق خزانة الاسكندرية أن هذه القصة لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة وقد فحص هذه الحكاية وحللها (شأن عشرات من علماء المشرقيات) فألفاها كما رأوها سخافات مستبعدة ينكرها العقل ، وقال إن الرجل الذي ذكر أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل ، وإن القصة قد تشير إلى واحدة من خزانتين : الأولى خزانة المتحف ، وقد حرقت في حريق قيصر ، وإذا لم تتلف كلها كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب . وأما الثانية وهي خزانة السرابيوم اما أن تكون تلفت قبل عام ٣٩١ ، وإما أن تكون قد ضاعت ، وعلى كل فقد ضاعت أخبارها قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن ، ولو كانت هذه الخزانة باقية عند ما عقد قيرس صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لنقلت الكتب ، وقد أبيح ذلك في شروط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والأموال في مدة الهدنة وقدرها أحد عشر شهراً ، وإن كتّاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجود الخزانة ، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ، وإنه لو صح أن هذه الخزانة قد نقلت أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذلك كاتب من أهل العلم وهو يوحنا النقيوسي ، وكان قريب العهد من الفتح ، ولما مرّ على ذلك بغير أن يكتب حرفاً الخ

وقال المؤلف في الحاشية إنه لم يقصد سوى اثبات الحقيقة ،

وما قصده الدفاع عن العرب ، وليس الدفاع بضروري ، ولو كان ضرورياً لما تعذّر أن نجد شيئاً يليق الاعتذار به عن ذلك ، ولاشك أن العرب عُنوا فيما بعد بجمع كثير من الكتب القديمة وغيرها مما وقع فى أيديهم ، وعنوا بحفظها ، وترجموا منها فى كثير من الأحوال . قال : وفى الحق أنهم أقاموا مثلا يجدر بفاتحى هذه الأيام أن يحذوا حذوه ، فقد نقل سيديليو فى تاريخ العرب العام أن الفرنسيين عند ما فتحوا مدينة قسنطينة فى شمال أفريقية أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التى وقعت فى أيديهم « كأنهم من صميم الهمج » ؛ ووجد الانجليز عند فتح مدينة مجدلة خزانة كبرى من الكتب الحبشية فحملوها معهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن تركوا أكثرها فى كنيسة على جانب الطريق إذ وجدوا فى حملها عناءً . وقيمة الكتب التى نجت وحفظت تدل على فداحة الخسارة التى لحقت العلم بضياع ما ترك منها اهـ

بهذا الانصاف ، وهذه العناية ، وهذا الجهد ، ألف المؤرخ الانجليزى تاريخ الفتح العربى فى مصر ، فرسم صورة جميلة ، وكان اعجابه بعمرو بن العاص لايقل عن اعجابنا معاشر العرب به وبأمثاله من الصحابة الفاتحين . وعناية المترجم الفاضل شديدة بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها ؛ وقد وقع له تحريف فى بعض الأعلام ، ومنها ترجمته اذاسا(Edesse) ، وهى الرُّها وأطلق عليها الترك « أورفه » ؛ ومنها « افيسوس » وهى « إفسس » مدينة فى آسيا الصغرى أطلالها قرب أزمير اليوم ؛ ومنها «برغاموس» وهى « فرغاموس » ، وفى قاموس الجغرافيـة القديمة للعلامة أحمد زكى باشا أن فرغامس هو الاسم الوارد فى كتب العرب للدلالة على مملكة قديمة بآسيا الصغرى اسمها عنـد الأفرنج (Pergame) ، ومنه اشتقوا الكلمة التى يطلقونها على الرق (بفتح الراء) أى الجلود المستعملة للكتابة ، لأنها أول ما صنعت بهذه المملكة ، فيقول الطليانيون (Pergamina) والفرنساويون (Parchemin) الخ . وقال مدينة « بيرويه » وهى مدينة حلب ذاتها . هذا إلى هنات قليلة لا يكاد يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية . أما الترجمة فى مجموعها فيستحق عليها المترجم كل ثناء وشكر

— ٢ —

[illegible] أحسن مؤلفاً فن الطهى الحديث على الطراز العربى والغربى وضعه . ألفاه بعـد أن عانيا صناعة الطبخ بالعمل فى مصر وبلاد الغرب سنين طويلة وعملا فى قصور الملوك والأمراء وفنادق النبلاء والثلاء ، فجاء الكتاب نافعاً فى بابه لا تستغنى عنه ربة دار ، ولا طاهٍ يروقه أن يزين خُوانه بشهىّ الألوان ، ويتفنن فى تلذيذ الآكلين بطعام صحىّ منوّع . جاء الكتاب فى ١١٧٠ صفحة كبيرة وصفت فيه الأطعمة والحلويات والتبلات مشفوعة بالمقادير الواجب استعمالها وبصورة وضعها وصنعها بحيث لا يكاد يحتاج من يريد الاقتباس منها إلا إلى قليل من الدقة والعناية حتى يتفنن فى طبخ الطعام ويجهز ألواناً رائعة شائقة شكلاً وطعماً . وكنا نتمنى لو دفع المؤلفان كتابهما إلى من يصقل عباراته ويترجم أسماء بعض الألوان الأفرنجية بألفاظ عربية تدنى مفهومها من ذهن من لا يحسن لغة من اللغات الأجنبية من أبناء العرب

وقديماً ألف أجدادنا فى هذا الموضوع بما دل على رسوخهم فى الرفاهية ، وقرأنا فى الكتب أن الخليفة الفلانى أو الملك الفلانى كان يقدم على مائدته عشرات بل مئات من ألوان الطعام . والتفنن فى الطبخ دليل الحضارة ، ولطالما كان بعض الأمراء يرسلون إلى الأقطار البعيدة بعض طهاتهم ليأخذوا عنها صنع أطعمة لايعرفونها ، والمطابخ الافرنجية اليوم أرقى من المطابخ الشرقية ؛ لأن طعامها يطهى على أساليب كيمياوية صحية لا نزاع فى خفتها وطرافتها . وحضارة الغرب أرقى الآن من حضارة الشرق ، اللهم إلا فى مسائل يتفرد بها الشرقيون

فليس البحث فى الأكل الجيـد إذاً بالذى يعد انحطاطاً ، ونحن لو أنعمنا النظر لا نفسر هذا الجدال القائم بين البشر اليوم وقبل اليوم وبعد اليوم إلا على الرفاهية ، وما فلسفة الأمم إلا فلسفة خبز فى الواقع . ودعوى خدمة المدنية والانسانية صورة مبهرجة يراد بها غير ما تعطى ظواهرها . والأمة التى يكثر خبزها وتتلون أطعمة المتوسطين والموسرين فيها هى أمة راقية سعيدة ، والعرب الذين عهدنا لهم تلك الخشونة فى المطعم لما فتحوا الممالك وخرجوا من جزيرتهم أغرقوا فى التنطع والتنوّق إغراق غيرهم من الأمم

محمد كرد على

3 me Année, No. 107.

Lundi-22-7-1935

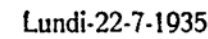
الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول


الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٠٧ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ٢٢ يوليو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العــــدد

١ ـ محمد حافظ ابراهيم

بمناسبة ذكراه الثالثة



كان الجيل الماضى بمصر لايزال يعيش على بقايا تخلفت من تقاليدنا الجميلة فى الجماعات والأسر ، فالناس يجرون على أثر من خلال الفتوة ، يرتاحون للندى ، ويتنافسون فى العرف ، ويهتزون للبطولة ، ويطربون للبيان ، ويجيزون على الشعر ؛ و(مناظر) الدور وأبهاء القصور تأخذ فى كل مساء زخرفها من أهل الأدب ورجال السياسة وأصحاب الجاه وأرباب الحكم ؛ وكان مدار الحديث فيها على النكتة البارعة ، والخبر الطريف ، والمسألة الدقيقة ، والبلاغة المأثورة ، يتساقطها السامرون على محض المودة ووثوق الألفة ،

فتفتق الذهن ، وتصـقل الذوق ، وتوجه الميل ، وتنيل الحظوة ؛ وكانت المواهب والملكاتُ تتفتح فى جوانب هذه الأندية فتـدل على نفسها أهلَ النفوذ فيشبلون عليها حتى تزهر وتثمر ؛ وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ فى طور الانتعاش ، تتحركان للنمو والسمو على نفحات المرصفى والبارودى والافغانى وعبـده وسلمان وحمزة والشنقيطى واليـازجى والمويلحى ونديم وسعد وفتحى ومصطفى وقاسم ؛ فالمجالس تُشيع حر الكلام ، والصحف تذيع بارع النقد ، والخديويون يتخذون من الأدباء ندامى ، ومن الشعراء بطانة ، حتى قر فى نفس حافظ وأنداده من ناشئى الشباب الطامحين أن الأدب كان سبيل الثراء (لليثى) ، وسبب المجد (لسامى) ، ووسـيلة الزلفى (لشوقى) ، فتجهز لهذه الغاية بجهاز هذه البيئة ، فروى رقائق الشعر ، وجمع مقطعات الحديث ، وراض نفسه على معاناة القريض

***

كان عمر حافظ سنتين حين توفى أبوه فقيراً فى (ديروط) ، فنشأ فى مهد اليُتم والعُـدم لا يجد حانياً غير أمه ، ولا كافياً غير خاله ، فجاز مرحلة التعليم الابتدائى فى ضيق وشدة ، ثم قضى بضع سنين فى طنطا متبطلا يُزَجِّى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض ، ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة البائس وذلة اليتيم ، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش ، متأففاً من الناس ، متجنياً على القـدر ، لا ينشئ الشعر إلا فى ذاك ؛ ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين — وكانت يومئذ مفتحة الأبواب لكل داخل — فتبلَّغ من العمل بها حيناً ، حتى أسعفته الفرص فدخل المدرسة الحربية ، وهى مطمح بصره وحديث أمانيه : ثم خرج منهـا ضابطاً إلى السودان ليشهد صلف الانجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع إخوانه الضباط على جور المحتـل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نُفى من السـودان والجيش

عاد حافظ كما كان يضطرب فى الحيـاة النابية المبهمة ، لا يستريض لعمل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يتشوف إلى غاية ، لأن طفولته الشاردة المهملة طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ؛ ولأن عقيدته التقليدية الخاطئة أن الشعر وحده يشغل الحياة ، ويبسط الرزق ، ويكسب الحقوق ، أحْيَتْه على نمط مسلم ابن الوليد وأبى نواس وأضرابهما ، ممن عاشوا صـنائع للملوك ، وحمائل على الجوائز ، ووسائل للهو ؛ فأبى الوظيفة وهى على حبل ذراعه ، وآثر أن يعيش فى ظلال الامام محمد عبـده ينتفع بجاهه ويفئ إلى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامر أهلها بعذب حديثه ، وينادمهم برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين إلى صلات القصر فيحجبه عنها شاعر الأمير بحوله وقوله

ومنْ دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن ينفقوا إلى جـد السفه إذا عاشوا فى الحاضر كصريع الغوانى وابن هانى ، وأن يمسكوا إلى حـد الكزازة إذا عاشوا فى المستقبل كأبى العتاهية والبحترى ، ومن الأولين كان حافظ !

تمتـلئ يداه بالمـال اليوم فيعتريه حال من البَرَم والقلق لا تنفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد على إخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب ، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى فى لؤم الزمان ، وظلم الانسان ، وشقاء الأديب

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمى لا يدخل فى نظام ، ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب فى عمل ، ولا يطمئن الى تبعة ، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس ؛ وأينما كان كان الأنس الشامل ، والظرف الناصع ، والأدب الغض ، والحديث المشقق الذى يمتزج بالروح ، ويغمر بالنشوة جوانب النفس

تقوضت أسرة حافظ وهو فى المهد ، فشب وحشى الطبع مَعَرِّىَّ الغريزة لا يتضح فى نفسه معنى البيت ، ولا يجرى فى حسه شعور الأسرة ؛ ثم وقفت به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الأدب ، فقصر جهده على صوغ الشعر فى المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من ذلك مكاناً لا يتعاق به درك . ولكنه حين أُريد على ترجمة البؤساء ، وكتاب الأخلاق ، ووكالة دار الكتب ، أدركته علة النشأة ، فقعدت به عن التمام ، وخذلته عن الاجادة ، وشلته عن العمل . . .

(للكلام بقية) احمد حسن الزيات

كفر الذبابة . . .

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

قال كَليلةُ [1] وهو يَعِظ دِمْنةَ ويُحذِّرُه ويقفو حقَّ الله فيه ؛ وكان دمنةُ قد داخلَه الغرورُ وزهاه النَّصر ، وظهر منه الجفاءُ والغِلظة ، ولقىَ الثعالبُ من زَبنه وإلحاده عنَتاً شديداً :

. . . واعلم يادمنــة أن مازعمتَه من رأيك تاماً لا يَعتريه النقص ، هو بعينه الناقصُ الذى لم يتمّ ، والغرورُ الذى تُثبت به أن رأيك صحيحٌ دون الآراء ، لعله هو الذى يُثبت أن غيرَ رأيك فى الآراء هو الصحيح

ولو كان الأمر على ما يتخيَّلُ كل ذى خيال لصدق كلُّ إنسان فيما يزعم ، ولو صدَق كلُّ إنسان لكذَب كلُّ إنسان ؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضَهم ببعض ، ليجىءَ حقُّ الجميع من الجميع ، ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبَر ، ويثبُتَ الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُنتقَص ، ويصحَّ الصحيحُ مادامت الشهادةُ له ، ويفسُدَ الفاسد مادامت الشهادةُ عليه ، وما مثَلُ هذا إلا مثَلُ الأرنب والعلماء

قال دمنةُ وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن أرنباً سمعت العلماءَ يتكلمون فى مصير هذه الدنيا ، ومتى يتأذَّنُ اللهُ بانقراضها ، وكيف تكون القارعة ؛ فقالوا : إن فى النجوم نجوماً مذنَّبةً لو التفّ ذنبُ أحدها على جِرْمِ أرضنا هذه لطارتْ هواءً كأنها نفخةُ النافخ ، بل أضعفُ منها كأنها زفرةُ صدرٍ مريض . فقالت الأرنب : ما أجهلَكم أيها العلماء ! قد والله خرِفتُم وتكذّبتم ، ولا تزال الأرضُ بخير مع ذوات الأذناب ؛ والدليلُ على جهلكم هذا . — ، قالوا : وأرتهُم ذنَبها . . . !

قال كليلة : وكم من مغرورٍ يُنزل نفسَه من الأنبياء منزلةَ هذه الأرنب من أولئك العلماء ؛ فيقول : « كذَبوا وصدَقتُ أنا ، وأخطئوا جميعاً وأصبتُ ، والتبس عليهم وانكشف لى ، وهم زعموا وأنا المستيقن . » ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليل الأرنب الحرقاء من هنةٍ تتحرّك فى ذنبها . وكان يُقال : إنه لا يجاهرُ بالكفر فى قوم إلا رجلٌ هان عليهم فلم يعبأوا به ؛ فهو الأذلُّ المستضعف ؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم ، فهو الأعزُّ الطاغية . ذاك لا يخشونَه فيدعونه لنفسه وعليه شهادةُ حمقه ، وهذا يخشونه فيتركون معارضته وعليه شهادةُ ظلمه ؛ وما شرٌّ من هذا إلا هــذا . وقالت العلماء : إن كنتَ حاكماً تشنق من يخالفك فى الرأى ، فليس فى رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل ؛ وإن كنتَ تقتل مَن ينكر عليك الخطأ ، فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد ؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر ، ففيك عقلٌ اسمه الجدار . أما إن كنتَ تناظر وتجادل ، وتُقنع وتقتنع ، وتدعو الناس على بصيرة ، ولا تأخـذُهم بالعمى ــ ففيك العقلُ الذى اسمه العقل

* * *

قال كليلة : وأنا يادمنة ، فلو كنت قائداً مطاعاً ، وأميراً متبعاً ، لا يُعصى لى أمر ، ولا يرَد علىّ رأى ، ولا ينكر منى ما ينكر من المخلوق إذا أخطأ ، ولا يقال لى دائماً إلا إحدى الكلمتين : أصبتَ أصبت ؛ ولا يلقانى أحدٌ من قومى بالكلمة الأخرى ، رهبة من سخطى رهبةَ الجبناء ، أو رغبة فى رضاى رغبةَ المنافقين ، وزعموا أنهم على ذلك قد خلص لى باطنهم جميعاً ، وصحت نياتُهم كلها ــ فلو كنتُ وكانوا على هذا ، لأحالنى نقصهم إلى نقص العقل بعد كماله ، وردَّتنى فسولتُهم إلى فسولة الرأى بعد جودته ، فأخلقْ بى أن أعتبر وضعهم إياى فى موضع الآلهة هو إنزالهم إياى فى منزلة الشياطين ، وإلا كنتُ حقيقاً أن يصيبنى ما أصاب العنز التى زعموا لها أنها أنثى الفيل . . .

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أنه كان فى إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العَظَاء ، وكان فيها عَضْرَفُوطٌ كبير [1] فملَّكتْه الجماعةُ وذهبت تأتمِرُ عن أمره وتنتهى . فمرَّ بهذه الخربَةِ فيلٌ جسيمٌ

(١) كليلة ودمنة هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافعى يعمد اليه حين يريد تقدير المعانى بالتمثيل والمحاورة (الرسالة)

(١) العظاء : جمع عظاءة وعظاية ، وهى هذه الدويبة التى يقال لها (السحلية) ، والعضرفوط ضرب من العظاء يكون أكبر منها

من الفيـلة ، لم يُحِس بالعـظاء ، ولم يُميز فرقاً بين هذه الأمة وبين الحصى منثوراً يلتمع في الأرض هنا وهنــا ؛ فنظر المضرفوطُ كيف يصنعُ به ، وكان قائداً عظيماً ، ثم دبّر أمرَ الفيل ، فرآه لا يتحرك إلا بأقدامه ينقلها واحدةً واحدة ؛ فقدّر عند نفسه أنه لو أزال قدم الفيل عن الأرض زال الفيل نفسُه ؛ فجاء فاعترض الطريق ، ودبّ دبيبَه إلى قَدَم الفيل ؛ فلما رفع الفيلُ قدمَه اهتبلَ هذه الغفلة منه ... واندسّ تحتها ، فاندسّ مقبوراً في التراب ؛ ثم إن العـظاء افتقـدت أميرَها . فلما مضى الفيـلُ لسبيله ، ورأتْ ما نزل بها نَفَرَتْ إلى أجحارها واستكنّت فيها ترتقبُ وتتربّص ؛ فدخلتْ إلى الخربة عنزٌ جعلت تَتقمم منها وترتعُ فيها ، ورأتها العظاءُ فاجتمعن يأتمرن ..

فقال منها قائل : هذه أنثى الفيل . فسألتْ عظَايةٌ منهن : وأين النابان العظيمان ؟

قالت الأولى : إن الاناثَ دون الذكورة في خلقها ، والأنثى هي الذكر مقلوباً أو مختصراً أو مشوّهاً ، ولذلك هن يقلبن الحياة أو يختصرنها أو يشوّهنها . أفلا ترَين النابين العظيمين البارزين في ذلك الفيل الجسيم ، كيف نبتا صغيرين منقلبين فوق رأس أنثاه . . . . ؟

فقالت واحدة : إن جاز قولك في الرأى فأين الخُرطوم ؟

قالت الأخرى : هوهذه الزَّنَمَةُ المتـدلية من حلقها ، وهو خرطومٌ على قدر أنوثة الأنثى . . . :

قالوا ؛ ثم اجتمع رأيهن على أن يُمَلّـكن أنثى الفيل هذه ؛ وأن يهبن لها الخربة وأمّتها . وسمعت الماعزة كلامهن فقالت : لا جَرمَ أن تكون العنزُ فيلةً في أمةٍ من العـظاء ، فقد قالت العلماء : إنه لا كبيرَ إلا بصغير ، ولا قويَّ إلا بضعيف ، ولا طاغيةَ إلا بذليل ؛ وإن العظـمة إن هي إلا شهادة الحقارة على نفسها ، وإنه رُبَّ عظيمٍ طاغيةٍ متجبر ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة ، ولا عاش إلا كما يعيش الكـذب ، ولا حَكَم إلا كما يحكم الخِداع . وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده ، فمتى جاءت إليه فقد جاءت ، وإذا أدبرت عنه من ناحية رجعت من ناحيةٍ أخرى ، ليُثبتنَ الحظُّ أنه الحظ

وتقدّم العـظاء إلى العنز ، فقُلن لها : أيتها الفيلةُ العظيمة ، إن قرينكِ العظيم قد مسّ أميرَنا المضرفوط بقدمه فغيبه تحت سبع أرضين ، وإننا قد اخترناكِ ملكةً علينـا ، ووهبنا لك الخربةَ وما فيها

قالت العنز : فاني أتّهبُ منكن هذه الهبـة ، ونِعِمّـا صَنَـعتنّ ؛ غير أن بينكنّ وبيني ما بين المظانة والفيل ، ومابين الحصاة والجبل ؛ فاذا أنا قلتُ ، فأنا قلت ؛ وإذا أنا أمرتُ ، فأنا أمرْت ؛ وإذا أنا فعلتُ ، فأنا فعلت . هنا في هذه الأمةِ كلّها (أنا) واحـدةٌ ليس معها غيرها ؛ لأن ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة ، وفي هذا الجسم قوةَ فيلة ، وفي الخربة كلها فيـلةٌ واحدة ؛ فلا أعرفَنّ منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعة ، طاعة الأعمى للبصير . ألاَ وإن أولَ الحقائق أنني فيلةٌ وأنكن عظاء ؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلافُ من بيننا وبَطل الاعتراض منكن ، وقوّتي حقٌ لأنها قوّة ، وباطلي كذلك حق لأنه من قوّتي ؛ وقد قال حكماءُ الفيلة : إن القويّ بين الضعفاء مشيئةٌ مطلقة ، فهو مصلحٌ حتى بالافساد ، حكيمٌ حتى بالحماقة ، امامٌ حتى بالخرافة ، عالمٌ حتى بالجهالة ، نبيٌّ حتى بالشعوذة . . . . . . !

قالوا ؛ وتُنـكر عليها عظَايةٌ صالحةٌ عالمة كانت ذاتَ رأيٍ ودينٍ في قومها ، وكنّ يُسمّينها : (العبهمة) ، لبياضها وصلاحها وطهارتها ، فقالت : ولا كلُّ هذا أيتها الفيلة ؛ لقد تخرّصْتِ غيرَ الحق فانك بحكميننا من أجْلنا لا من أجلك ، وما قولك إلا كلماتٌ لا يحققـها إلا أعمالنا نحن ؛ فَملاكُ الطاعةُ فيا يُصلحنا لا فيا يُفسِدنا ، ورأيك شيءٌ ينبغي أن تكون معه آراؤنا ، لتتَبيّنَ الأسباب أسبابُ الموافَقة والمخالَفة ، فنأخذَ عن بيّنة ونتركَ عن بيّنة ؛ وقد كان يُقال في قديم الحـكمة : إنه يجب على مَن يقدِّم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به ، أو يضعُ لها شرعاً ليحملَها عليه ، أو يَسِنُّ لها سنّة لتتّبعها — يجب على هذا التقدّم لتحويل الأمة وتحريرها أن يتقدّم لأهل الشُّورى وفي رأسه الرأى ، وفي عنقه حَبْـل ؛ ثم يتكلم برأيه ويبسطه ويدفع عنه ، ويجادله ويجادلونه ؛ فان كان الرأيُ حقاً أخذوا الرأى ، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا التهوّر

وفى ديننا أن الطاعةَ فى المعصية معصيةٌ أخرى ؛ ولقد كان لنا عَنْضرفُوطٌ بحّاثةٌ فى الأديان دَرّاسةٌ لكتُبها ؛ فكان مما علّمنا أن المخلوق مبنيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء ، فيجب ألا يتم منه شيء إلا بمقدار ، وألا تكون القوةُ فيه إلا بمقدار ؛ ولهذا كان العقل التامُّ فى الأرض هو مجموعُ العقول كلِّها ، وكان أتمُّ الآراء وأصحُّها ما أثبتت الآراءُ نفسُها أنها أصحُّها وأتمُّها . فلا الدينَ اتبعتِ أيتها الفيلةُ ولا اتبعتِ فينا العقل

فلما سمعت العنزُ ذلك تنفَّشَتْ وغضبت ، وقالت : إياكم وهذه الترَّهاتِ من ألسنتكم ، وهذه الأباطيلَ فى عقولكم ؛ لا أُمْتَحَنُ منكم كلمةَ الدين ولا كلمةَ الأنبياءِ ولا العَضَافيط ... فذلك وحيٌ غير وَحْيي أنا ؛ وإذا كان غير وحْيي أنا فأنا لستُ فيه ، وإذ لم أكن أنا فيه فهو لا يَصْلُح للحكم الذى شرطُه أن الدولة ليس فيها إلا أنا واحدة . وذلك إن لم يحملكم غُرَباءَ عنى جعلني غريبةً عنكم ، ما بُدٌّ من إحدى الغُربتين ، فهو أوّلُ القطيعة ، والقطيعةُ أوّلُ الفساد . وما دام فى الدين أمرٌ غير أمرى ، ونَهْيٌ غيرُ نَهْيي ، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيّران على مشيئتي — فأنا مجنونة إن رضيتُ لكم هذا . . . !

فضحكت (العيامة) وقالت للماعزة : بل قولى : أنا مجنونة بـ . . . أنا . أفلا يجوز وأنتِ خَلْقٌ من الخلق أن يعتريَ عقلَكِ شيءٌ مما يعترى العقول ؟ ولسنا ننكر أنك قويةُ الرأى فى ناحية القوة ، حَسَنَةُ التدبير فى ناحية الشجاعة ، متجاوزةُ المقدار فى ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة ؛ ولكن ألم يقل الحكماء : إن الزيادة المسرفة فى جهةٍ من العقل تأتى من النقص المتحيِّف لجهةٍ أخرى ؛ وإنه رُبَّ عقلٍ كان تاماً عَبْقَرياً فى أمور لأنه ضعيفٌ أبلهُ فى غيرها ؛ يُحسِنُ فى تلك ما لا يُحسنه أحد ، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمه أحد ؛ ثم يغلط فى الأخرى ما لا يغلط أحدٌ فيه ؟

قالوا ؛ فجاشت العنزُ وفارَتْ من الغضب فورةَ الجبّار ، وخيِّل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبتْ بين الأرض والسماء ، وأن زَنَمَتَيْها امتدَّ منها خرطومٌ طويل ، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان ؛ وقالت : ويْحَكُمْ ! خذوا هذه (العيامة)

فاشنُقوها ؛ فإنها كما قالت ؛ تقدّمتْ إلينا بالرأى والحيل . . . !

وكان فى العَظَاء ضِعافٌ ومَهَازِيلُ وجبناء ، وما كولون لكلِّ آكل ؛ فتشبَّحَ[1] لهم أن أنثى الفيل هـــذه . . . ستَخْلُقُهم فِيَلةً إنْ هم أطاعوها ؛ فإذا تمرَّدُوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيث تجعل كلَّ ظِلْفٍ من أظلافها جَبَلاً فوقهم كأنه ظُلَّةٌ فتسوخ بهم الأرض . ثم إنهم انخزلوا وتراجعوا وأُخِذتِ (العيامةُ) الصالحة فشُنِقَتْ ، وخمد الرأىُ من بعدها وانقطع الخلافُ والدِّينُ والعقلُ الحرّ . . . . ؛ وأقبلت دولةُ العَظَاء على العنز تجرِّرُ أذيالها . . . .

قالوا ؛ واغترَّت الماعزة وأحسَّتْ لها وجوداً لم يكن ، وعرفتْ لنفسها وهى ماعزةٌ نَبَاهَةَ شأن الفيل القويِّ ، فَلَجَّتْ فى عمايتها وكفرتْ بجنسها ، وقالت : لم يخلقْنى الله فيلةً وخلقتُ نفسى ؛ فأنا لا هو . . .

وثبتَ عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتْها كلُّ عنز فى الدنيا ؛ وذهبتْ تقلّد وتميش على مذاهب الفيَلة بين العَظَاء ؛ فإذا مشتْ ارتجَّت وتخطَّرتْ كأنها بناءٌ يتقلقل ، وإذا اضطجعتْ أنذرتِ الأرضَ أن تتمسكَ لا تدُكّها بجنبها . . . !

ومرَّ ذلك الفيلُ بهذا الخراب مرَّةً أخرى ، فلاذَتْ العَظَاء كلُّهنّ بالفيلة . . . . وتأهَّبتْ هذه للقتال وتحصَّفَتْ فى المبارزة والمناجزة . . . . والماعزة فنصبتْ قرنها ، وحرَّكتْ زَنَمَتَيها ، وطأطأتْ ، وشدَّتْ أظلافَها فى الأرض ، وثبَّتتْ قوائمَها ، وصلَّبتْ عظامها ، ونفَّشتْ شعرَها ، وتَشَوَّكتْ كالقنفذ ، وأصرَّت بكل ذلك إصرارَها ؛ وكانت عنزاً نطيحةً منذ كانت تتبع أمها وتتلوها ، فكيف بها وقد تَفَيَّلَتْ . . ؟

ثم إنها ثبتتْ فى طريق الفيل ليرى بعينيه هـــذا الهولَ الهائل . . . فأقبلَ ، فمدَّ خُرطومَه ، فنالها به ، فلفَّها فيه ، فقبضَه ، فرفعه ، فطوّحها ، فكأنما ذهبتْ فى السماء . . . !

وتَهارَبت العَظَاء ولُذْنَ بأجْحارهن ، ثم غدَوْنَ على رزقهن فإذا جيفةُ العنز غيرَ بعيد ، فَذَبَبْنَ عليها وارتَعَيْنَ فيها وعَلِمن أنها كانت ماعزة فيَّلها جنونها ، وأدركن أن الكذب على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتله ، وأن من غلبَ

(١) أى خيل إليهم وتمثل

أمة العظاء على أمرها فليست الأيام والليالي عظاء فيغلبها ؛ وأن تغيير المخلوقات إنما يكون بتحويل باطنها لا بتحويل ظاهرها ، وأن الاناء الأحمر يريك الماء محمراً والماء في نفسه لا حمرة فيه ، حتى إذا انكسر الاناء ظهر كما هو في نفسه ؛ وكل ما يخفي الحق هو كهذا الاناء : لون على الحق لا فيه ؛ ثم أيقن أن محاولة إخراج أمة كاملة من نزعات ماعزة مأفونة ، هي كمحاولة استيلاد الفيل من الماعزة . . . !

* * *

قال كليلة : واعلم يا دمنة ، أنه لولا أن هذه العنز الحمقاء قد كفرت كفر الذبابة لما أخذها الله أخذ الذبابة

قال دمنة : وكيف كان ذلك ؟

قال : زعموا أن ذبابة سوداء كانت من حمقى الذبان ، قدرت الحماقة عليها أبدية ، فلو انقلبت نقطة حبر لما كتبت بها إلا كلمة سخف

ووقعت هذه الذبابة على وجه امرأة زنجية ضخمة ، فجعلت تقابل بين نفسها وبين المرأة ؛ وقالت : إن هذا لمن أدل الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه ، وأنه مرسل كيف يتفق على ما يتفق عبثاً في عبث ، ولا ريب أن الأنبياء قد كذبوا الناس ؛ إذ كيف يستوى في الحكمة خلق (أنا) وخلق هذه الذبابة الضخمة التي أنا فوقها . . . ؟

ثم نظرت ليلة في السماء ، فأبصرت نجومها يتلألأن وبينها القمر ؛ فقالت : وهذا دليل آخر على ما تحقق عندي من فوضى العالم وكذب الأديان وعبث المصادفات ؛ فما الايمان بعينه ، إلا الالحاد بعينه ، ووضع العقل في شيء هو إيجاد الألوهية فيه ، وإلا فكيف يستوى في الحكمة وضعي (أنا) ورفع هذا الذبان الأبيض وبسموه الكبير إلى السماء . . . ؟

ثم إنها وقعت في دار فلاح ، فجعلت تمور فيها ذهاباً وجيئة حتى رجعت بقرة الفلاح من مرعاها ؛ فبهتت الذبابة وجدت على غبرتها من أول النهار إلى آخره ، كأنها تزاول عملاً ؛ فلما أمست قالت : وهذا دليل أكبر الدليل على فوضى الأرزاق في الدنيا ، فهاتان ذبابتان قد تقبتا نقبين في وجه هذه البقرة

وا كتنتا فيهما تأكلان من شحمها فتعظمان سمنا ؛ والناس من جهلهم بالعلم الذبابي يسمونهما عينين . . . . وأنا قضيت اليوم كله أخمش وأعض وألسع لأنقب لي ثقباً مثلهما فما انتزعت شعرة ؛ فهل يستوى في الحكمة رزق (أنا) ورزق هاتين الذبابتين في وجه البقرة . . . ؟

ثم إنها رأت خنفساء تدب دبيبها في الأرواث والأقذار فنظرت إليها وقالت : هذه لا تصلح دليلاً على الكفر ؛ فاني (أنا) خير منها ؛ (أنا) لي أجنحة وليس لها ، (وأنا) خفيفة وهي ثقيلة ؛ وما كأنها إلا ذبابة قديمة من ذباب القرون الأولى ذلك الذي كان بليداً لا يتحرك ، فلم تجعل له الحركة جناحاً . ثم إنها أصغت فسمعت الخنفساء تقول لأخرى وهي تحاورها : إذا لم يجد المخلوق أنه كما يشتهي فليكفر كما يشتهي ؛ ياويحنا ! لم لم نكن جاموساً كهذا الجاموس المظلم ، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وجد من ينفخه ولم نجد . . . ؟

فقالت الذبابة : إن هذا دليل العقل في هذه العاقلة ، ولعمرى إنها لا تمشي متثاقلة من أنها بطيئة مرهقة بعجزها ، ولكن من أنها وقور مثقلة بأفكارها ، وهي الدليل على أني (أنا) السابقة إلى كشف الحقيقة . . . !

وجعلت الذبابة لا يسمع من دندنتها إلا : أنا ، أنا ، أنا ، أنا . . . . من كفر إلى كفر غيره ، إلى كفر غيرها ؛ حتى كأن السماوات كلها أصبحت في معركة مع ذبابة ... ...

ثم جاءت الحقيقة إلى هذا الالحاد الأحمق تسعى سعيها ؛ فبينا الذبابة على وجه حائط ، وقد أكلت بعوضة أو بعوضتين ، وأعجبتها نفسها ، فوقفت تحك ذراعها بذراعها — دنت بطة صغيرة قد انفلقت عنها البيضة أمس ، فمدت منقارها ، فالتقطتها . ولما انطبق المنقار عليها قالت : آمنت أنه لا إله إلا الذي خلق البطة . . . . !!!؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

إلى (.....) المجهولة :

اشكرك ياسيدتي ، وكل ما صنعته فهو خير ما كنت صانعة . وسأكتب إن شاء الله في موضوعك بعد فترة من الزمن ، ولكن إياك والخاطر الذي خطر لك فانك تربحين به عشرة ، وتخسرين عشرات . . . . الرافعي

التراث المنسي

مسالك الأبصار

ومؤلفه الشهاب العمري

للأستاذ محمد عبد الله عنان

في سنة ١٩٢٤ أخرجت دار الكتب المصرية الجزء الأول من أثر ضخم ، هو كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لشهاب الدين أحمد بن فضل الله العمري ، وذلك بإشارة المغفور له العلامة الأستاذ أحمد زكي باشا وبتحقيقه . ثم وقف مشروع اخراج الكتاب في مستهله لأسباب نجهلها حتى اليوم ، ولكنا علمنا أخيراً أن دار الكتب قررت استئناف العمل في « مسالك الأبصار » واخراجه تباعاً إلى جانب الآثار القديمة الأخرى التي تعنى بنشرها

وهو نبأ يستقبله الباحثون والأدباء بمنتهى الغبطة . ذلك أن « مسالك الأبصار » من الآثار الاسلامية الضخمة التي تمتاز بغزارة مادتها وتنوع موضوعاتها ونفاسة معلوماتها ؛ وهو ثالث ثلاثة من الموسوعات العربية المصرية الضخمة ، التي كتبت في عصور متقاربة ، وامتازت على جميع الآثار الاسلامية بضخامتها وتنوعها وطرافتها ؛ وهي : مسالك الأبصار ، ونهاية الأرب للنويري ، وصبح الأعشى للقلقشندي . وقد أخرجت لنا دار الكتب « صبح الأعشى » كاملاً في أربعة عشر مجلداً ، وأنجزت لنا من نهاية الأرب نحو ثلثه في احد عشر مجلداً ، وما زالت ماضية في اخراجه ، وبقي عليها أن تستأنف العمل في ثالثة هذه الموسوعات الكبرى ، ونعني « مسالك الأبصار »

كان القرن الثامن الهجري في مصر عصر الموسوعات الأدبية والتاريخية العامة ؛ وإذا لم تكن فكرة الموسوعات الجامعة في الأدب العربي مصرية محضة ، فقد بلغت ذروتها على الأقل في مصر ، وأخرج الكتاب المصريون أعظم وأبدع نماذجها . وكان شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري هو أول كتاب الموسوعات ورأس هذه المدرسة الغزيرة الباهرة (٦٦٠ — ٧٣٢ هـ) وقد وضع لنا موسوعته الفريدة « نهاية الأرب في فنون الأدب » في أوائل القرن الثامن الهجري في أكثر من ثلاثين مجلداً كبيراً ، فجاءت أثراً ضخماً لم تشهد مثله الآداب العربية من قبل في غزارة المادة وتنوع الموضوعات وطرافة الأوضاع ؛ ثم تلاه العمري الذي نريد أن نتحدث اليوم عنه وعن جهوده ، بوضع موسوعته « مسالك الأبصار » ؛ وجاء القلقشندي ليختتم هذا الثبت في أوائل القرن التاسع بوضع موسوعته « صبح الأعشى »

كان العمري دمشقي المولد ؛ ولكن مصري التربية والوطن والتكوين ؛ وهو شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله أحمد بن يحيى ؛ وينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب ، ومن ثم كان تلقيبه بالعمري . ولد في ثالث شوال سنة سبعمائة (١٣٠٠ م) ، وتلقى تربيته الأولى في دمشق ؛ ثم وفد على القاهرة حدثاً ودرس بها واتخذها وطناً وموئلاً ، ومال إلى التخصص في علوم الفقه واللغة ، وبرع بالأخص في الكتابة والانشاء ، وتقلد في البلاط القاهري عدة مناصب هامة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثالثة (٧٠٩ — ٧٤١ هـ) وانتهى إلى تقلد ديوان الانشاء والرسائل ، فاستحدث فيه كثيراً من الأساليب والأوضاع البديعة ، ووضع له دستوراً لبث عمدة الكتاب والسلاطين مدى عصور

ولبث العمري إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة رجل البحث والدرس ؛ وعني عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك والمسالك وطبائعها وخواصها ؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها ، ولاسيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين ، ودرس الفلك أيضاً ، ولم يكتف في درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة ، ولكنه قرن الدرس النظري بنوع من الدراسة العملية ، فتجول في أنحاء الشأم والأناضول والحجاز وبعض الممالك الاسلامية الأخرى ، حسبما يبدو ذلك في أكثر من موضع من سياق موسوعته ، وحسبما يشير اجمالاً في مقدمته [1] ، واستعان في تعرف أحوال الأمم والممالك التي لم تتح له زيارتها بأقوال العارفين والثقاة ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة [1] ، حتى اجتمعت له من ذلك

(١) راجع الجزء الأول من « مسالك الأبصار » (طبع دار الكتب) ص ٢

مادة غزيرة تمتاز فى كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها

وقد تبوأ العمرى إمامة البلاغة والبيان والترسل فى عصره حتى أن الصفدى معاصره وصديقه يفضله فى هذا الفن على القاضى الفاضل ، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية فى تلك العبارات البليغة : « يتدفق بحره بالجواهر كلاماً ، ويتألق انشاؤه بالبوارق المستمرة نظاماً ، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة ، وتندى عباراته انسجاماً وصياغة ، وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق ، ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق ، قد استوت بديهته وارتجاله ، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله ، يكتب من رأس قلمه بديهاً ما يعجز القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهاً ، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهراً يُخجل الروض الذى باكره الحيا مُزهراً ، صرّف الزمان أمراً ونهياً ، ودبر الممالك تنفيذاً ورأياً ، ووصل الأرزاق بقلمه ، ورويت تواقيعه وهى سجلات لحكمه وحكمه ، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه » . ثم يصفه الصفدى بعد ذلك بالأديب « الكامل » وينوه بقوة ذاكرته ، وحسن ذوقه ، ويقول لنا إنه ، أى العمرى ، كان آية فى النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك ، وأنه « لم ير من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيزخان معرفته ، وكذلك ملوك الهند والأتراك . وأما معرفته الممالك والمسالك ، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها ، فانه فيها امام وقته »[1]

ولأقوال الصفدى ، وهو إمام النقد فى عصره ، قيمتها فى التنويه بخلال العمرى الأدبية ، والعلمية الفائقة . بيد أن تراث العمرى نفسه مازال خير شاهد بعبقريته ولا سيما فى فن الانشاء والترسل ، وقد كان العمرى فوق ذلك شاعراً مجيداً ؛ ومن رقيق شعره قوله :

أأحبابنا والعذر منا اليكمو ... إذا ماشغلنا بالنوى أن نودعا
اشكوا شوقاً أبارى ببعضه ... حمام المشايا رنة وتوجعا
أبيت سمير البرق قلبى مثله ... أقضى به الليل التمام مروعا
وما هو شوق مدة ثم ينقضى ... ولا أنه يلقى محباً مفجعا
ولكنه شوق على القرب والنوى ... أغص الأماقى مدمعاً ثم مدمعا
ومن فارق الأحباب فى العمر ساعة ... كمن فارق الأحباب فى العمر أجمعا

وقطع العمرى حياة قصيرة ولكن باهرة ؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة ، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب ، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده ؛ ثم توفى سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) دون أن يبلغ الخمسين

— ٢ —

ترك لنا العمرى تراثاً حافلاً ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه ، منه موسوعته الكبرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » و « الدعوة المستجابة » و « صبابة المشتاق » وهو فى المدائح النبوية و « سفرة السفرة » و « دمعة الباكى » و « يقظة الساهر » و « نفحة الروض » وكلها من كتب الأدب والبيان ، وكتاب « فواضل السمر فى فضائل آل عمر » وكتاب « الشتويات » وهو رسائل فى الشتاء و « النبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية » وكتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية ، وسنعود اليه ؛ وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير [1]

وقد انتهى الينا من هذا التراث أهمه وأنفسه ؛ فلدينا أولا كتاب « مسالك الأبصار » وهو أهم آثار العمرى وأضخمها ؛ وهو فى الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً [2] ، ويقول لنا العمرى إنه أثر الحياة وإنه « قطع فيه عمر الأيام والليالى » وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر ؛ وقد يكون ذلك حوالى سنة ٧٣٠ هـ ؛ ويبدو من مقدمته أيضاً ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه ، أنه أنجز نسخته الأولى قبل سنة ٧٤١ هـ أعنى قبل وفاة الناصر [3] ؛ بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك لأنه يصل فى رواية الحوادث إلى سنة ٧٤٣ هـ

ومن المحقق أن العمرى تأثر فى وضع موسوعته بمثل سلفه

(١) راجع ترجمة العمرى فى فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (ج ١ ص ٧ و ٨ و ٩) وقد نقلها جميعاً من معجم الصفدى « أعيان النصر وأعوان العصر » وهو ما يزال مخطوطاً

(١) فوات الوفيات — ج ١ ص ٨

(٢) فى دار الكتب نسخة فتغرافية كاملة لمسالك الأبصار (رقم ٢٥٦٨ تاريخ) وتقع فى ٤٣ مجلداً أو قسماً ، والفضل يرجع فى استنساخها لدار الكتب إلى المرحوم العلامة أحمد زكى باشا

(٣) راجع مسالك الأبصار — ج ١ — ص ٦

المظم النوري صاحب موسوعة « نهاية الأرب » وهي أول موسوعة من نوعها . غير أنه ينحو في تقسيمها ومحتوياتها نوعاً آخر ؛ وبينما يسبغ النوري على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية ، إذا بالعمري يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية ، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين : الأول : « في الأرض » والثاني « في سكان الأرض » ، ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما اشتملت عليه براً وبحراً ، وهو نوعان كبيران : المسالك والممالك ، ويدخل في النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها وما تحتويه من أنهار وجبال ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهي أساس الجغرافية القديمة وما فيها من المدن والجزائر وما يؤثر عنها من العجائب ، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والاعراض الطبيعية ؛ ويدخل في القسم الثاني الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ مبتدئاً بممالك الهند والسند والتتار ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن ، ثم ممالك السودان والحبش وإفريقية والأندلس ، وفيه بيانات ضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها ؛ ويبدي العمري هنا دقة البحث والتحري ، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره كلما شعر بمبالغة أو غرابة فيما يروي . ويختتم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين في عصره وأماكن وجودهم ولا سيما في مصر ، وهو فصل له قيمته في تعرف الأصول والأنساب . ويشغل هذا القسم الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات

ويتناول القسم الثاني الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء في الشرق والغرب ، ثم الكلام على الأديان والنحل المختلفة ؛ وبعدئذ يجيء الكلام على التاريخ ، وهو قسمان ، تاريخ الدول التي كانت قبل الاسلام ، ثم تاريخ الدول التي قامت بعد الاسلام حتى عصر المؤلف ، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة ٧٤٣هـ أعني قبل وفاته بنحو خمسة أعوام

ولم ينشر إلى يومنا من كتاب « مسالك الأبصار » سوى الجزء الأول كما قدمنا ؛ غير أنه قد نشرت منه بعض فصول ونبذ متفرقة منها فصل من فصول القسم الأول عنوانه « كلام إجمالي في أمر مشاهير ممالك عباد الصليب في البر دون البحر » نشره المستشرق أماري (سنة ١٨٨٣) مقروناً بترجمة إيطالية ، وهو فصل يمتاز بدقته وطرافته ويتناول الحديث عن أحوال الممالك النصرانية والجمهوريات الايطالية في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وينسب العمري ما أورده فيه من المعلومات إلى رجل إيطالي يدعى « بلبان الجنوي » عرفه في بعض رحلاته واستقى منه معلوماته وهي معلومات في منتهى الدقة ولا سيما ما تعلق منها بنظم الجمهوريات الايطالية في ذلك العصر . وعني صديقنا العلامة السيد حسن حسني عبد الوهاب بنشر الفصل الخاص بوصف افريقية والأندلس ؛ ونشر أحد المستشرقين الألمان أخيراً الفصل الخاص بوصف بلاد الأناضول

— ٣ —

على أنه قد انتهى إلينا من تراث العمري أثر ذو أهمية خاصة هو كتاب « التعريف بالمصطلح الشريف » . وقد كان العمري كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظراً لديوان الانشاء والرسائل ، وقد استحدث في هذا الديوان كثيراً من الأساليب والأوضاع الجديدة سواء في توجيه الرسائل والمخاطبات أو صيغها ؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الانشاء كان في تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية ، فمنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الوظفين ؛ ومنه توجه الرسائل الخارجية إلى مختلف الملوك والدول التي ترتبط بمصر بعلائق سياسية أو تجارية ؛ وإذا فقد كان اختصاصه يتناول ما يسمى اليوم في لغة السياسة الحديثة بنظم « البروتوكول » ، وهي عبارة عن الرسوم والاجراءات التي تجرى عليها الدولة في تنظيم علائقها الخارجية ، سواء في إجراء المفاوضات السياسية أم في عقد المعاهدات أو مخاطبة الدول الأخرى أو استقبال ممثليها ومعاملتهم أو في تحرير المكاتبات الدبلوماسية . وتسمى هذه الرسوم والنظم في الدولة الاسلامية « بالمصطلح الشريف » . وقد كان للعمري أكبر الفضل في تجديد هذه النظم ، وعلى يده بلغت ذروتها من الافتنان والتناسق والدقة ؛ وللتعريف بهذه النظم وشروحها وضع العمري كتابه « التعريف بالمصطلح الشريف »[1] وفيه يشرح رتب المكاتبات السلطانية وإجراءاتها ، ويعرض نماذج من العهود والتقاليد والتفاويض والمراسيم والمناشير وكذلك نماذج عديدة من الوثائق والمكاتبات الدبلوماسية ؛ ثم يتحدث

(١) وقد طبع بمصر أكثر من مرة

خواطر وأفكار

للأستاذ أديب عباسي

يغلب أن يسيطر على الحياة فى كلا عنصريها من السعادة والشقاء قانون المرجّحات العام الذى يسيطر على جميع حوادث الطبيعة ويسير بها جميعاً ، كلما امتدّ الزمن وتوالى الحدوث ، إلى التعادل والاستواء ، ومانرى من فروق شاسعة بين حظوظ الناس من السعادة والشقاء سببه — فيما نرى — قصر مدى التجربة والاختبار . وأعتقد أن لو أُتيح للأحياء من الناس عمرٌ أطول ، أو لو كانت أمواج السعادة والشقاء وأصداء اللذة والألم أقل لبثاً وأقصر مكثاً ، لتدانى من التعادل نصيبُ كل امرئ من حظى السعادة والشقاء

* * *

حياة كل امرئ « متوالية » من الآمال والآلام والأحلام والأعمال . ولست بمستطيع أن تجرّد الحياة حلقةً واحدة من هـذه الحلقات : الآمال تثير الآلام والأحلام ، والأحـلام لابد مفضية فى نهاية الأمر إلى الأعمال ، والأعمال بدورها تبتعث آمالاً جديدة ، والأمل الجديد يثوّر آلاماً وأحلاماً جديدة ، وهكذا تظل تدور بين حدّين من الأمل والعمل يتوسطهما واسطتاها ما نألم وما نحلم إلى أن تتلمأ علينا القبور ، وتُرَصّ علينا الجنادل والصخور

* * *

ليس مما يُنقص قيمة العمل الطيب أن يكون حاديه ورائده اللذة منشودةً أو حاصلةً ، بل نحن نعتقد أن من مصلحة الأخلاق ، ومن الخير العميم للناس أن يتعلم الناس كيف يستشعرون السعادة ويتذوّقون الغبطة فى العمل الطيب بدءاً وختاماً ، حساً وخيالاً . كذلك نعتقد أن من مصلحة الأخـلاق ونشر الفضيلة وتعميم الصلاح أن يشعر المرء أن عمل الخير مجزىٌّ عليه فى هذه الحياة الدنيا ، وأن ليس على المرء يصنع الخير أن ينتظر إلى اليوم الأخير ليثاب على عمله الصالح وينال جزاء ما قدّم من خير وأسـلف من صلاح

يكاد يكون الاحساس بالحق ونصرة العدل من فطرة البشر ومن هنا نرانا — فى الأحوال العادية — نهلّل للعدل ونمقت الجور ، سواء أكنا نحن المعنيين بالجور والعدل أم كان المعنى غيرنا

* * *

من غرائب الطباع امرؤ يثنى عليك بما أنت أهله أو بما لست أهلاً له ، ثم تراه لغير سبب واضح أو علة مقبولة ينقلب عليك ، ولا يتعفف أن يهجوك بعكس ما كان يمتدحه فيك!! هذا الصنف من الناس هم ، فى اعتقادى ، من المتسوّلة الجبناء الذين يستجدون امتداح الناس بامتداحهم الناس ؛ فاذا خاب ما يؤملون ، ولم يبادلهم ممدوحوهم مدحاً بمدح انقلبوا قادحين مشنعين

* * *

ما أشبه بناء الأمة ببناء الهرم ؛ ما زال قائماً ثابت الاتزان ، بما شغل الرأس منه مكان الرأس ، والقاعدة مكان القـاعدة ؛ وما أسرع ما ينهار الهرم ويتفكك حينما تنقلب الأوضاع فتسمو القاعدة إلى مكان الرأس ، ويهبط الرأس إلى مكان القاعدة ؛ ومن هنا أضحى الهرم المقلوب مضرب المثل فى سخافة البناء ووهن الثبوت . . . .

* * *

عن أوضاع الممالك وتقاسيمها الادارية ، وعن مراكز البريد ووسائل المواصلة البحرية . ويعتبر كتاب العمرى دستور المصطلح الشريف فى مصر الاسلامية ؛ ويعتبره القلقشندى صاحب صبح الأعشى أنفس الـكتب المصنفة فى هذا الباب[1] . وقد انتفع به القلقشندى فى موسوعته أعظم انتفاع ، ونقل إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل والمكاتبات السلطانية التى دبجت بقلم العمرى فى ظروف ومناسبات مختلفة ، وكلها دليل على ما كان يتمتع به العمرى من المواهب الانشائية السامية

وللعمرى آثار ورسائل أخرى كما قدمنا ، ولـكن معظمها لم يصل إلينا ، وما زال بعضها بعيداً عن التداول فى بعض المكاتب الأوربية . على أن « مسالك الأبصار » يبقى دائماً أعظم آثاره ؛ ورجاؤنا أن تعمل دار الـكتب المصرية لاخراجه بهمة مضاعفة فلا تمضى أعوام قلائل حتى تضمه كاملاً بين أيدى الباحثين

محمد عبد الله عنان

(١) راجع صبح الأعشى ج ١ ص ٧

لست أدرى أى خير وأية سعادة كانا يصيبان البشر لو أقصى من مجال الدين جميع المتَّجرين به . فليتق الله المتاجرون وليجعلوا فى غير مجال الدين مجارتهم

* * *

تظل تجربة المرء ناقصة مالم تتكرر . . .

* * *

خصومتك الصغير تورثك المهانة ، سواء أكنت المنتصر فى هذه الخصومة أم كنت الخاسر

* * *

الأغراب والتكلف فى أساليب الحياة والأخلاق دليل على فساد الطبع والتواء التكوين

* * *

قد تكون المحافظة على القديم ناجمة من خوف الحديث وحسب ، لا من حب للقديم صحيح

* * *

ثم صنف غريب من الكتاب والمفكرين يعمدون إلى الرأى الواهن الواهى ، أو الفكرة الميتة يثيرون حولها حرباً شعواء ويوسعونها طعناً وضرباً ، ثم يلتفتون إلى الناس ولسان الغرور يقول : انظروا ماذا صنعنا وإلى أى المقاتل قد نفذ سلاحنا ؟ وقد نسوا ـ حفظهم الله وكلأهم ـ أن سلاحهم يُجرد على موتى ويُشرع على أشلاء

* * *

قد يعيش الكاتب بشهرته الأدبية أعواماً بعد أن يُصفى . وهذا سرُّ ما نراه من مدح يكال وتقدير يُسرف فى توزيعه على أناس لا يستحقون بعض أبعاضه . والحقيقة أن من الكتاب اليوم من يعيشون بقوة الاستمرار وحسب ، لا بقوة العمل وصدق الانتاج

* * *

ما أسرع ما يلتفُّ صغار النفوس حول صغير النفس ، أما كبير النفس فلايسمح لهم بالدنو منه لئلا تعلق به من نتنهم عالقة .

الاتجار بالوطنية فى الشرق علة مستحكمة لا يزيلها إلا صرامة النقد ، وصراحة المقت ، وقسوة التشهير

* * *

يموت العظيم فى الغرب ، ولكن ما أسرع ما تُسدُّ الثغرة ويقوم الخلف . ويموت العظيم الشرقى فيظل محله خالياً جيلاً أو أجيالاً . وذلك أن تربيتنا الاجتماعية الناقصة لا ترفع إلى مستوى الزعامة الصحيحة القوية فى الجيل الواحد إلا نفراً قليلاً جداً ، فاذا أودى هذا النفر ظلّ محلهم خالياً إلى أن تتمخض الأمة بعد حمل طويل وآلام مبرحة وتجارب شاقة فتلد المولود الجديد الذى يُقدَّر له أن يستأنف السير ويتولى القيادة

* * *

قد يعمد الرجل الشرير إلى بعض الخير يصنعه ليتبين كيف يكون أثر ذلك ، كما قد يسعى الرجل الطيب إلى بعض الشر يصنعه لمثل غرض الشرير فى صنعه الخير . وإلى هذا قد يُردُّ بعض ما نراه من شذوذ فى الخلق السوى

* * *

قد يبدو الفكر العميق للقارئ السطحى الضحل متناقضاً ، وذلك ان ذا الفكر العميق قد ينتهى إلى أغوار لا يستطيع أن ينفذ إليها ضحل التفكير ، ويدرك من العلائق والوشائج الخفية بين الأشياء مالا يدركه ذو الفكر الرقراق الذى لا غور له

* * *

المصادفة بليغة الأثر فى حياة الفرد ، أما فى حياة الأمة فهى ضئيلة الأثر أو لا أثر لها البتة

* * *

ما من رأى إلا ودار فى أكثر من ذهن واحد ، ولكن شخصاً واحداً يكتب له أن يخلّد هذا الرأى

* * *

الرأى رنأى كالصدى يكثر تجاوبه كلما استوعر طريقه

* * *

الألم كالنار يصهر القوى ولكن لا يلاشيه ، كما لا تلاشى النار الحديد ، أما الضعيف فيحيله الألم دخاناً يصَّاعد

* * *

قد يتصدى المرء أحياناً للرأى العام لا ليتحدّاه ، إنما هو يتصدى له ليدرك مبلغ قوته ثم ليدرك مدى الرأى العام ومجراه ، فيحوّل شراع العمل على هواه

* * *

الرجل القوى حق القوة لا يخلق بهذه القوة عبيداً وآلات

ناطقة ، إنما يخلق بها رجالاً أقوياء . وكل مظهر من مظاهر القوة لا يفضي الى هذه النتيجة يجب أن يشككنا في هذه القوة

* * *

يجب أن ندخر خصومة الصراحة وجهد المقاومة للأمور الجسام والمسائل العظام . أما الصراحة العادية في كل ما يعرض للمرء من شؤون الحياة اليومية تافهها وجليلها على السواء فجهد غير مبرور وعمل غير مشكور ، ولا يعود على المصارح منه إلا خصومات لا تنتهي وعداوات لا تنقضي

* * *

ما تزال المرأة طفلة حتى تحب ، وما يزال الرجل رجلاً حتى يحب . ومتى أحبت المرأة بلغت أوج الأنوثة ؛ أما الرجل السليم القوي فيندر أن يجعل الحب آخر مرحلة من مراحل الحياة ، وهو – أي الحب – عند الرجل مرحلة الى رجولة أسمى . فالمرأة تتجه الى الحب لا لتتعداه ، أما الرجل فيحب ليكون الحب مرحلة من مراحل حياته . وهذا يشير الى أن الحياة تريد من المرأة الحب فقط ، وتريد من الرجل فضلاً عن الحب الجهاد والمغامرة

* * *

يجب ألا يغرّ الشبان بيت شوقي « نظرة فابتسامة . . » ثم ما بعد ذلك . فبين النظرة والابتسامة – في كثير من الأحيان – وبين قلب الفتاة سبعُ قلاع بسبعة أسوار

* * *

رُكّب في طبيعة المرأة التلويح من بعيد والاغراء . فهي قد تتبذّل أحياناً ولو لم تنوِ السقوط ، وتدنو ولكن لا لتصل ، وتقترب ولكن لا لتُنيل . فكأنها تعمد الى ذلك لتقيس مقدار فتنتها وتختبر قوة أنوثتها

* * *

الرجولة لا تكون كاملة إلا إذا خالطها بعض طبائع الأنوثة . فكأن الطبيعة في ذلك لا تريد للرجل أن يتخلص من إرث الأنوثة الأقدم ، حينما كانت الذكورة لا تزال في ضمير الغيب ؛ وكانت الأنوثة كل ما في يد الطبيعة من مواد التجريب والاختبار

* * *

ثورة الحب تفضي الى أسر الزواج ، وثورة الحقد والطمع تفضي الى أسر السجن

* * *

نداء الأمومة عند المرأة أقوى من نداء الحب . وكثيراً ما تضحي المرأة بحبها في سبيل الأمومة السالمة والنسل القوي القويم

* * *

لا يستطيع إبليس – في كثير الأحيان – أن يتراءى للرجل الا عن طريق المرأة . فهي – في أغلب الأحيان – سفيره اليه . وكثيراً ما تنجح هذه السفارة كما نجحت من قديم في جنات عدن

* * *

حياة المرأة أنشودة يتناوب انشادها الملائكة وإبليس

* * *

حب الأم أشرف أنواع الحب وأعمقه وأدومه . وذلك أن فيه من حب الأبنة وحب الأخت وحب العاشقة وحب العابدة . فالأم إذ تحب وليدها وترأمه لا تحبه وترأمه كوليد فقط ، إنما هي ترأمه وتحبه ، ولو في غير شعور ، حبّ الأبنة أبويها ، والأخت أخاها ، والعاشقة عاشقها ، والعابدة معبودها

* * *

من مظاهر الفسولة وصغار الرجولة أن يتعشق الفتى فتاته ، ثم لا يفتأ يعلن عن هذا العشق وينبّه اليه في كل مناسبة وعند كل حديث ؛ فكأنه الكلب يلغ في الاناء أو يبول فيه لينفّر منه بقية السباع !

* * *

في الزمان غير المحدود والمكان غير المحدود يكون احتمال الحدوث غير محدود أيضاً . ولا أدري لم يستبعد أو ينفي حدوث حادث يقدر أو يفترض بحجّة بُعد الاحتمال

أديب عباسي

اعلان من الرسالة

(١) لا تنشر الرسالة إلا ما كتب لها خاصة

(٢) لا تنشر الرسالة المقالات المسلسلة إلا إذا أرسلت إليها السلسلة كاملة

(٣) لا تنشر الرسالة قطعة مترجمة ما لم يرسل أصلها معها

٥ ـ النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

الحروف اللاتينية والألفاظ العربية

وقد عجل الكماليون فى انفاذ قانون الحروف اللاتينية ، واشتدّوا فى ذلك لا يستثنون الكتب التى فى المطابع ، قد طبع بعضها بالحروف العربية ولما يتم طبعها ، فسارع بعض المؤلفين إلى إكمال كتبهم قبل الوعد المحدود ، ودون الكمال المنشود . ويئس آخرون أن يتموا كتبهم قبل الأجل المضروب وكرهوا بل عجزوا أن يكملوها بالحروف الجديدة فيجعلوها ذات خطين أعجمى وعربى ، فوقفوا بها حيث وقف بهم القانون الجديد . وأعجب ما فى هذا أن أحد الأدباء الكبار كان يطبع معجماً كبيراً وأخرج منه مجلدين ، ولم يسوّغ له القانون أن يكمله بالحروف العربية فما يحتاج إليه من وقت ، وعجز هو وعجز الفكر الانسانىّ أن يكمل هذا المعجم بالحروف اللاتينية على ترتيبها بعد أن طبع معظمه بالحروف العربية على ترتيبها فبقى ناقصاً حائراً بين القديم والجديد

كأنما محا الترك العثمانيون من تاريخهم ستة قرون حين اختاروا للغتهم الحروف اللاتينية . فهل هم يعترفون ، كما قال ذلك الأديب الفارسىّ ، أن لهم تاريخاً لا يضيرهم أن يمحى منه ستة قرون ؟ وليت شعرى هل لهم فى التاريخ غير هذه القرون الستة ؟

مثّل لنفسك صبياً تركياً ممن تعلموا القراءة بالحروف الجديدة يدخل اليوم جامع الفاتح أو سليمان فينظر إلى أسماء الصحابة فلا يدرى ما هى وينظر إلى اسم الفاتح واسم سليمان القانونى فلا يدرك منهما حرفاً . وتصوّره فى بروسه فى أولو جامع (الجامع الكبير) الذى جعل الخطاطون الترك على مر العصور جُدُره معرضاً لبدائع الخط وفنونه ، تصوّره ينظر إلى آثار أسلافه فلا يتبين منها شيئاً ، ويود لو كتبت بالحروف اللاتينية . وتصوره كذلك أمام كل أثر عظيم من آثار المسلمين . وتصوره وقد شبّ وقوى على الدرس والبحث يذهب إلى مكتبات استانبول فيرى من آثار أسلافه ، وكل المسلمين أسلافه ، أكداساً لا يفقه منها حرفاً إلا بدرس خاص . ألست ترى هذا الناشئ مقطوعاً من تاريخه ، غريباً عن قومه ، ألست تراه يتيماً حرم ميراث آبائه ، وجنى عليه سفه أو صبائه ؟

وقد ذهب مع الحروف العربية فن جميل بلغ فيه الترك الغاية ، وتنافس فى تجويده سلاطينهم وأمراؤهم وكبراؤهم فأتوا فيه بآيات الجمال وحلى التاريخ ؛ وشد ما يهيج الحسرة أن تسير فى شوارع استانبول عند الباب العالى فترى الخطاط التركى الماهر وقد كسدت بضاعته ، وحاولت أن تجارى الزمان صناعته ، فكتب على مكتبه بالحروف اللاتينية Hattat أى خطاط

سيقول بعض الناس إن هذه المواطف لا ينبغى أن تعوق سير الأمم ، وأنا أقول لو كان هذا سيراً ما اعترضناه ، ولو كان إصلاحاً ماعارضناه ، ولكنه تقليد يعصف بتاريخ الآباء ، ويزلزل أقدام الأبناء ، ويقطع سنن الأمة كما تقطع جذور الشجرة

* * *

وقد وصل الكماليون عملهم فى الحروف العربية باجتهادهم فى نبذ الكلمات العربية والفارسية . زعموا أنهم يريدون إنقاء اللغة التركية من الكلمات الدخيلة ، فما بالهم يخرجون كلمة عربية ليضعوا مكانها كلمة أوربية ؟ كانوا يسمون معهد الأبحاث التركية « تركيات مؤسسه سى » فمحوها وكتبوا «تركيات أنستيتوسى» فلماذا آثروا كلمة institu على مؤسسة ، وهى كلمة هم واضعوها فى العربية وعنهم أخذها العرب ؛ وكم كان لهم من حذق وذوق سليم فى وضع مصطلحات علمية باللغة العربية التى اتخذوها هم وسائر المسلمين كاللاتينية عند الأوربيين . وكانوا يسمون الجامعة « دار الفنون » فسموها Université ، وكذلك وضعوا مكان معلم ومدرس وغيرهما من ألقاب الجامعة ألقاباً أخرى أخذوها من الألمانية ، ومثل هذا كثير . فليس بالقوم الاصلاح أو العصبية التركية ، ولكنه بغض العربية . وإذا تحكم البغض والحب فى تصريف الأمور لم يبق للحق والهدى مكان .

وكان لهم فى العام الماضى مؤتمر لغوى تكلم فيه أستاذ فى الجامعة فقال : إن بين العربية والفارسية والتركية علائق يجب الابقاء عليها ، فطرد من المؤتمر ومن الجامعة ، تقديساً للحرية التى يتغنى بها الكماليون ! وسمعت أن حسين جاهد ، وهو من الدعاة الأولين إلى العصبية التركية فى اللغة قال فى المؤتمر إن إنقاء اللغة يتم على مر الزمان ، ولا تصلح فيه الطفرة . فشتم وأسكت

وأوذى ، ولو كان الأمر بحثاً وإصلاحاً لاتسع للآراء المختلفة ، وأُخذ فيه بالنظر والرويّة

وقد سمعنا أن الفرس يريدون أن يحذوا حذو الترك فى هذا . ونحن لا نكره أن يأخذ الشرقيون بعضهم عن بعض ، وأن يزول العداء القديم بين الفرس والترك ، وينسوا ما تصفه الشاهنامه من حروب إيران وتوران ، وما يحدث به التاريخ من جلاد الصفويين والعثمانيين . أجل ، أدعو الله أن يؤلف بين الأمتين ، ولكن لا أحب أن يقلد بعضهم بعضاً فى هذه الترّهات ، وتتقبّل إحداها الأخرى فى هذه الضلالات

نحن لا ننكر على الترك والفرس أن يؤثروا الكلمات التركية والفارسية على الكلمات العربية حين يحسّون الحاجة إلى ذلك ، ويدعوهم إليه اصلاح اللغة وتجميلها ، وإنما ننكر عليهم أن يفعلوا ذلك بغضاً للغة العربية ، وإيثاراً لتقطيع الأوصال بين الأمم الاسلامية . إن فى الفارسية والتركية اصطلاحات علمية وأدبية كثيرة ، بل تكاد تكون اصطلاحات الآداب والعلوم كلها عربية ، وهذه الاصطلاحات هى من أعظم الروابط بين الأمم الاسلامية . وفى حذفها مفاسد كثيرة ، منها أنهم يحرمون أنفسهم اصطلاحات وضعت واستقرّت ، وتحددت ، وأحكمها الاستعمال فى عصور متطاولة . وليس الاصطلاح على الكلمات ، وخلق اللغة العلمية بالأمر اليسير ؛ والثانى أنهم يباعدون بين اللغة العلمية القديمة واللغة العلمية الحديثة ، وفى ذلك ما فيه من الفصل بين قديم الأمة وحديثها ، والحيال بين المحدّثين وما كتب أسلافهم ، وبين مؤرخى الآداب وفقه أطوار الأدب الأولى

والثالث أنهم يقطعون الوشائج بين آدابهم والآداب الاسلامية الأخرى التى شاركهم أهلها فى تأليف حضارة واحدة ، على حين يسعى الناس للتقريب بين الآداب واللغات ولا سيما اللغات العلمية ، وهم أنفسهم من الساعين للتقرب إلى أهل أوربا أو الفناء فيهم . فلماذا الوصل من ناحية والقطع من ناحية أخرى ، والتقرب إلى قوم والتباعد من آخرين ؟ بل لماذا التقرب من الأعداء ، والتباعد عن الأصدقاء ، وحب الأمم الأوربية وبغض الشعوب الاسلامية ؟ هل لذلك من تأويل ؟

والرابع أنهم يعسّرون لغتهم على طلابها من الأمم العربية خاصة والأمم الاسلامية عامة ، والأمم تسعى اليوم لتيسير لغاتها وتسهيلها على طلابها

لست أقول هذا اشفاقاً على اللغة العربية ، أو عصبية لها ، فليس يحسّ المتكلم بالعربية والقارئ فيها أن ألفاظاً منها مستعملة فى الفارسية والتركية أو غير مستعملة ، ولا يهتم بهذا إلا حين يدرس الفارسية والتركية ، ودراسة هاتين اللغتين من شؤونهما لا من شؤون العربية ، وإنما يعنينى ألا تقطع الصلات بين أمم عاشت دهوراً متآخية متعاونة كأنها أمة واحدة . وإنما يدعونى إلى الجدال أن الأخوة الاسلامية ، والجامعة الانسانية ، تنفر من هذه العصبيات القاطعة ، والنعرات المفرّقة

وفى اللغة العربية كثير من الكلمات الفارسية عُرّبت وأدمجت فيها ، وصيغت على أوزانها ، وما يفكر العرب فى اخراجها من لغتهم ؛ ثم ألا يرى الفرس أنهم إن ذهبوا مذهب الترك فى أمر اللغة ثار عليهم الأفغان والهند المسلمون وأهل كشغر وما وراء النهر ثورة أدبية فنبذوا اليهم لغتهم التى اتخذوها لساناً أدبياً ، ثم اجتهدوا فى اخراج الكلمات الفارسية من لغاتهم ؟

أضرب لاخواننا مثلاً أوربياً ، فان الشرقيين لايعرفون الحق إلا إذا شهدت به « ماركات » من أوربا :

هذه اللغة الانكليزية ، وهى ما هى انتشاراً بين الأمم ، وذيوعاً فى الشرق والغرب ، فيها كثير من الألفاظ اللاتينية والجرمانية ، ومعظم اصطلاحاتها فى الآداب والعلوم لاتينية . وقد وقع ما وقع بين الأمم اللاتينية والانكليز من حروب متمادية ، وما فكر الانكليز فى أن يجمعوا الكلمات اللاتينية وينبذوها إلى اللاتين كراهة لهم ، أو عصبية للغتهم ؛ ما فعل القوم هذا ، لأن لهم من جلائل الأعمال ما يشغلهم عن هذه السفاسف

القوم يذهبون مع الحياة مذاهبها ، ويتوسلون لها بخير وسائلها ، فلا تتسع أوقاتهم للمناقشات فى الحروف والألفاظ ، ونحن نغمض أعيننا عن أواصر تجمعنا ، وآلام وآمال تقرّب بيننا ، ونقلب تاريخنا لنعثر على عداوة قديمة ، أو حرب ذهب الزمان بذكراها وآثارها ، لنخلق منها قطيعة جديدة ، ونثير بها خصومة شديدة . كاد الانكليز والألمان يتفانون ويفنوا الأمم معهم منذ خمسة عشر عاماً ؛ وهم الآن يمدون أيديهم للتعاون والتعاهد ! فأين يذهب بكم أيها الشرقيون ، وإلى أين تساقون أيها المسلمون ؟ ذلك كلام واسع الجوانب ، بعيد الأغوار ، لايتسع له هذا المجال . ولعل لى اليه عودة ان شاء الله

(له بقية) عبد الوهاب عزام

من مشاهد الشرق

٢ ـ طائفة البهرا في الهند

في الطريق الى داعي الدعاة

بقلم محمد نزية

وأذن الله أن أبرح عدن إلى الهند ، فلم تبرح النفس تواقة إلى رؤية الشيخ الأكبر لطائفة البهرا ، ولم تزل تستنفر عزيمتي حتى عاهدت كل منهما صاحبتها على أن تكون زيارة الشيخ أول ما أتكلف له بعد مطالعة (بمبي) ، فلم أكد أنيخ الراحلة في هذه المدينة ، حتى طالعني أبناء هذه الطائفة زرافات ووحداناً ! تموج بهم المدينة ؛ فهم في شوارعها ودروبها وحوانيتها يعرفون بطول اللحى ، وبالعمائم البيضاء ، و (البنطلونات) تحت المعاطف القصيرة ، وبالنشاط الذي لا يفتر ، وبالوقار الذي لا يُذهل عنه ؛ فانهم قوم جبلوا على النشاط حتى لتحسبهم في سرعتهم إذا ساروا وفي دأبهم إذا عملوا ، أضعاف أضعافهم ، هم لا يتجاوزون العشرين ألفاً في مدينة تزخر بمليون وثلثمائة ألف نسمة ؛ ولكن دأبهم جعل الواحد منهم عشرة أشخاص ! لا تكاد تراه هنا حتى تشهده هناك ، كأنه من عالم الأرواح . . . هم كالموج المتلاطم على سطح المحيط ، يضيق به الخضم وهو منه كالحصاة من الجبل ، بل وتمضي السفن في طريقها تشق العباب ولا تحفل به ، حتى إذا دوى الموج ارتمدت فرقا ، واهتزت رعباً ، وكانت تهتز عجباً

ليس من جماعة البهرا من لا يجمع إلى فصاحة الأردية طلاقة الكجراتية ، ورطانة الانجليزية ؛ وليس فيهم من يعرب لباسه عن حاجة ، أو ينم ضعفه على هوان ، فكلهم عند نفسه كريم ، وفي قومه عزيز

كنت راغباً في زيارة الشيخ الأكبر ، فلم يزدني ما تحققته من طوابع طائفته إلا رغبة أمست رؤى ، وأصبحت هواجس ـ والشيخ لا يحظى بالاستئذان عليه إلا كل عظيم بارز في قومه ، ولا مناص ـ لمن شاء ـ من رجاء يتقدم به إلى رئيس الوزارة البهرية ، فاذا انتهى هذا به إلى الشيخ فأذن ، حدد الموعد بحساب الدقائق فيما لا يستنفد من الساعة إلا أقلها ، وعلى أن يذكر الزائر أن الدقيقة ستون ثانية ، والثانية ستون ثالثة ، فكأن دقات القلب لا تسعف في هذا الحساب

وكان أن تفضل الشيخ الأكبر ، فأذن لرئيس وزرائه أن يستقدمني ، ضاربا للقاء موعداً من مساء يوم قريب . . . فلما أن اقترب الموعد ، ركبت إلى قصر الشيخ ، وكمبة الحجيج من أبناء الطائفة ، في (والْ كِيشَرْ)

ووال كيشر ، هو من ثغر بمبي حي الطبقة الرفيعة من سراة الاقليم ، أقيم على ربوة عالية تطل على المحيط وتشرف على المدينة كلها ـ لكأنه نجم سها عن ذكره الفلك ـ ليس بين قصوره وعمائره إلا متاحف تنطق بغنى الهند وتفصح عن جاهها وترفع النقاب عن فنونها ـ من شاء أن يعلم أين تنصب كنوزها ففي هذا الحي السعيد مصبها ، وفيه يستحيل الذهب فنوناً ، وتقوم الرياض على قنة الجبل كأنها البنود المرفوعة . أليس زرعها يتماوج من مداعبة النسيم كما تتماوج البنود ، أليست مطرزة بألوان من الزهر مختلفات بين أحمر القرنفل وأبيض النرجس وأصفر الورد وأزرق البنفسج ، على صفحة من خضرة مذهبة ؛ ثم لعل ما ينفح الناس من طيبها فينبههم إلى تحيتها إذا أغفلوا ، إنما يقوم في موضع تلك القداسة المعنوية التي تنبه الناس إلى تحية العلم

بلغت السيارة بنا حي وال كيشر ، فتباطأت عند أقدامه وتهيأت للتصعيد في مراقيه ، وأخذت تطوي مسالكه ونحن في داخلها كأننا تحت أجنحة طائرة ، وقد مهد الطريق على شدة صعوده وكثرة منعرجاته ، وامتد الزرع على جانبيه ، وقد امتزج سكون الليل إذ ذاك وسكون العظمة يزدهي بها هذا الجبل الذي لا يحمل على أكتافه ، ولا يضم إلى صدره ، إلا العظماء وفنونهم ؛ فاذا رهبة زاد بلوغها في النفس هذه الأضواء الخافتة التي تشع من مصابيح الطريق ، ولا راجل في مراق هذا الجبل بل سيارات تصمد بأهلها أو تهوي بهم فينة بعد فينة . وفيم يقدم الراجل على ركوب هذا الجبل ؟ وهو لا ناقة له فيه ولا جمل ؟ أما خفوت الأضواء ، فلعل له غاية لا تمت بسبب إلى مبادئ الاقتصاد ، هذه المبادئ التي يلفظها هذا الجبل ، بل لعله يرتفع

بساكنيه معتصما بالعلو من سيلها ، وعاصما لهم منه ، إنما هى دعوة الجمال ، ومن آياتها ألا يطغى النور الصناعى على النور الطبيعى ، على نور القمر وما أحاط به من كواكب

كنا نجتلى مفاتن هذا المنظر السحرى ، والسيارة توغل فيه كأنما نسيت أنها تقصد بيتاً ، فاندفعت على غير هدى تريد أن تصل إلى أعماق هـذا الابداع ؛ أما أنا فقد مرت بى برهة ما شككت أثناءها فى أننى أترك العالم ، وفى أننى لن ألبث طويلاً حتى أبلغ ماوراء الكون ، وأهتدى إلى أسرار الخلق وغوامض الحياة والموت .. ثم ليكن ما يكون ، ومازالت أرواحنا تسمو ويخلص جوهرها من شوائب الدنيا وأعراضها وشهواتها حتى صارت كأنما فرغ الله من صنعها منذ طرفة عين ، ذلك كله والسيارة تهتز فى منعطفات الجبل كأنها سكرى . . . . بل هى سكرى ! ولم لا ؟ وهى تسبح فى خمر الطبيعة ، ثم لم لا ؟ ومن شأن هذا الجمال أن يشيع الحياة فى الجماد

انتهينا إلى بوابة رحيبة الجانبين مفتوحة المصراعين ، وكانت حمايتها إلى حارسين عليهما أزياء الجند ، ما إن نفذت سيارتنا منها ، ثم هوت خطوات فى جادة القصر ، حتى كنا فى قلعة ذات أبراج ، تكاد تقطع بيننا وبين معالم الدنيا ، وكأنما أعدت لتقارع الفناء ، وليمتنع بها الأبد

ثم استقرت السيارة بنا فى منتصف هذه الجادة عند ردهة على يمينها ذات ثلاثة أبواب ، وهنالك ابتدرنا خادمان ملتحيان هما من أبناء الطائفة بالسؤال ، فأجبنا ، وإن هى إلا برهة حتى استقبلتنا غرفة الانتظار عن يمين الردهة ، فلما شرعت إليها ساق ، همس سائق السيارة فى أذنى بانجليزيته المفهومة على أى حال ، أن اخلع نعليك فذلك عند القوم سنة مؤكدة ، وقد فعلت ، ودخلت فاذا غرفة تتسع لنحو سبعة أمتار فى نصها ، صفت إلى جدرانها كراسى نظيفة ليست بالوثيرة ولا بالخشنة ، وكل أبهتها فى سجادتها البيضاء ، المتسمة بأبهى الألوان فى أبدع الشكول ، وفى تلك الصور القليلة تحف بها إطاراتها الثمينة ، وقد ثبتت إلى الجدران ، وبينها صورة الحرم القدسى رصعت بالأصداف ، وقد علمت أنها كانت فيما حمله وفد المؤتمر الاسلامى إلى الهند من هدايا ؛ فكانت نصيب هذه الغرفة

ظللت أتأمل محتويات الغرفة دقائق لعلها بلغت عشراً ، حتى أقبل علىّ رجل معتدل القامة كريم الوجه ، هو فى ضحى العقد السادس من العمر ، ينبئ الجد فى ملامحه والنفوذ فى عينيه خلف منظاره الأبيض ، والانتصاب فى قامته ، والهدوء فى نبرات صوته ، عن أن له فى هذه الدولة شأناً ؛ طويل اللحية أسودها ، يرتدى معطفاً قصيراً من أقمشة الصيف خفيف الاحمرار مشدوداً إلى عنقه ، تحته بنطلون من القماش نفسه ، وقد تعمم على طربوش ، لحيا ، ثم استوثق من أننى صاحب الموعد المضروب ، فاقتادنى إلى مجلس داعى الدعاة

ذاك رئيس الوزارة البهرية ، وكاتم سر إمامها ، وأقرب القوم إلى نفسه ، وهو من وجوه المدينة وأعلام رجال المال فيها ، وهو ممن يلقى الحاكم إليهم سمعه ، ولا يضن بالطاعة له المحكوم . . . ثم هو قبل ذلك ومع ذلك وبعد ذلك ، خادم للشيخ لا يعدل بمرتبته تلك مرتبة إلا أن تكون فى السماء

القاهرة **محمد زيد**

حافظ بك ابرهيم

اثر حياته في اخلاقه وشعره

بمناسبة ذكراه

بقلم السيد احمد العجان

تمهيد :

لست أحاول التحدث عن نواحى الدراسات المختلفة فى أدب حافظ ، فان مباحث شعره المتعددة لا تأتى عليها لمحة سريعة ووقت قصير ؛ ذلك لأن العاطفة فى رثائه موضوع دراسة ، وتداعى المعانى فى خمرياته موضوع دراسة ، وظرفه وفكاهته ومدحه ووصفه كلها محل بحث وتناول وتحليل . ولقد تكلمنا (١) عن حافظ (الشاعر الوفى لمصر) فى ذكراه الثانية ، وسنتكلم اليوم عن ناحية جديدة لها متين الصلة بالمجتمع ، وكبير الأثر فى حياتنا العامة ، وهى أثر حياته فى أخلاقه وشعره

— ١ —

نشأ حافظ ابراهيم — رحمه الله — نشأة شعبية ، قد زخرت بألوان العيش ، وتقلبت بين مُتع دنيا لم تشبعه ، وبؤس زمان غلب عليه ، وعاش مسكيناً وبائساً فى مجموع حياته ، لا نستطيع أن نحدد صفوه ونعيمه بشهر معلوم ، ولا بسنة ، ولا بفترة من الزمان طويلة ؛ فانه قد يكون فى اليوم الواحد شقياً وسعيداً ، بائساً وغنياً ، إلا أنه فى المجموع متغلب البؤس ، متدانى الرزء ، غير مجدود

وما النعيم لديه إلا فترات يخلقها ما فيه من ظرف ومرح ، وتبعثها مداعباته وفكاهته ، ويولدها تفاؤله بالمستقبل ، ويقينه فى الظفر ، ثم ما يراه فى العلم والفضيلة من تقريب للسعادة ، وسمو بالروح

وهذا القدر من الظرف والمرح هوَ الذى هيأ لحافظ عطفاً على فقره ، وولد فيه حناناً من بؤســه ، وحببه إلى الصحاب والعارفين ، ودفعه إلى مواساة البائسين ، ومشاركة المحزونين ، فائن صح أن فى البؤس ذلة وانكساراً ؛ فان فى الحنان ميلاً إلى البر ، واندفاعاً إلى الصدقة

(١) العدد ٥٦ من (الرسالة)

— ٢ —

كان لهذه النشأة أكبر الأثر فى صدق شعوره وإحساسه بالآلام ، وتعبيره عنها أدق تعبير ، ورسمه صوراً شفافة واضحة لألوان البؤس التى يكتوى بنارها الشعب ، ويقاسى بسببها العذاب

وجدير بنا أن نتساءل : أكان مدفوعاً إليه بنفسه ، مطبوعاً فى حنانه ؟ أم هو البيان يثيره والشعر يحفزه ؟ أجاب حافظ — رحمه الله — بما يقطع كل شك ، ويقضى على كل تأويل :

ذقت طعم الأسى وكابدت عيشاً	دون شربى قذاه شرب الحمام
فتقلبت فى الشقاء زماناً	وتنقلت فى الخطوب الجسام
ومشى الهم ثاقباً فى فؤادى	ومشى الحزن ناخراً فى عظامى
فلهذا — وقفت أستعطف النا	س على البائسين فى كل عام

ولقد عرف إحساسه خلق كثير : عرفه صديقه الجليل الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشرى ، فقال فى المرآة ، : « على أنه ما فتئ طوال أيامه يشكو البؤس . . . ولعل هذا من أنه نضجت شاعريته فى باب (شكوى الزمان) ، وقال فيه مالم يتعلق بغباره شاعر ، فهو ما يبرح يطلب البؤس طلباً ، ويتفقده تفقداً . » ولا ينبئك مثل صديق

وعرفه كل من خالطه وعاشره ، بل عرفه كل من قرأ شعره ، وتصفح ديوانه الذى هو صورة من نفسه

« قد دروا أن الشعر فى كل أرض هو من نفس أهلها منزوع »

— ٣ —

إذن كان حافظ يتطلب البؤس والبائسين تطلباً ، ويتفقدهم تفقداً ، وكانت لديه رغبة قوية صادقة فى مشاركة البائسين آلامهم ، ومشاطرته أحزانهم ، « والرغبة(١) الحق هى تلك القوة الروحية التى توحى إلى الشخص القيام بالشىء بهمة لا تعرف الكلل ، ولا تقف دونها عقبة : رغب « ابراهام لنكولن » فى تحرير العبيد يوم ذهب مع بعض العمال إلى السوق ، فوجد جارية تباع وتشترى ، فتألم لبيع الانسانية وشرائها الألم كله ، وتمنى أن لو أعطى سلطة حتى يضرب على الاسترقاق بيد من حديد ، فأعطى الفرصة بعد زهاء ثلاثين عاماً ، بانتخابه رئيساً للجمهورية فى ولايات أميركا المتحدة ، فكان من أوائل أعماله ، العمل على تحرير العبيد

(١) الأستاذ محمد عطية الابراشى

وإن شدة الرغبة فى الاصـلاح الاجتماعى هى التى جعلت « شارلز ديكنز » أكبر كاتب ومصلح اجتماعى بانجلترة فى القرن التاسع عشر

وإن الرغبة فى أعمال الآلات هى التى جعلت « أديسون » أكبر مخترع فى القرن العشرين . والأمثلة كثيرة لا حصر لها »

وهذه الرغبة كانت قوية لدى حافظ ، تهزه ويجيش بها صدره ، صادقة غاية الصدق ، أراد بها إنقاذ الشعب من ذله ، وتحريره من إساره وعبوديته ؛ فلست أحسب رجلاً وهبه الله إشفاقاً على البائسين ، وحناناً على صرعى الفقر ، وضحايا الأملاق ، ومنكوبى الزلازل والغرق والحريق كشاعرنا العظيم ؛ فهو يرسم ببيانه الذى يطاوعه صوراً ناطقة تكاد تتجسم أمامك ، وتمثل بين يديك ، تسمعك أنينها وتوجعها ، وتبثك آلامها وتفجعها ، وتحرك فيك ما كمن من عطف واستتر من حنان . فما سنحت فرصة إلا غرد بالألم ، ولا حانت مناسبة إلا دعا إلى الرحمة

— ٤ —

ولهذا نراه شـديد الولوع بقصص المرزوئين ، وروايات المعدمين . شغف « بالبؤساء » فترجمها ، وهام بها فنقلها إلى لغة قومه ، لأن فيها إرواء لعاطفته ، وغذاء لنزعته ، وتعبيراً صادقاً عن خلجات فؤاده ، ولأنها منتجع خاطره ، ومهوى قلبه . واختار لها من الألفاظ والأساليب ما يذيب قسوة الصلد رقة وليناً ، ويخترق أذن الأصم فيضحى سميعاً . ولأنها تمثل لوناً من الانسانية المعذبة ، وطائفة من أسرى العوز ، وضحية من ضحايا تتكرر على الدوام ولا تنقطع ، تتكاءدها الهموم ، وتمثل بها خطوب الزمن ، وتنهشها أفاعى الضنك على مرأى من السراة وأولى الأمر ؛ فلا يخلصها منقذ ، ولا يدافع عنها نصير

— ٥ —

ثم لهذا نرى الغزل فى شعره قد توارى واختبأ ، ولا نستطيع أن ننسب حافظاً إليه ، لأنه أحسّ بما يشغله عن تتبع المرأة ، ويصرفه عن طلابها

وقد يكون ذلك لضيق اليد ، وخلو الجيب ، إذ من شأن الإيثار أن يتطلب المال ، والوقت ، والثراء . ولـكنى أرجح الأول ؛ لسمو غايته ، ونبل مقصده ، وموافقته لحياة شاعرنا

ثم لهذا أيضاً بكى كل مصاب ومفجوع ، وناح على كل ضائع وشريد ، واستبكى المحسنين معه ليستدر عطفهم ويستميل قلوبهم

— ٦ —

وإذ أحسّ أن كثيراً من أهل العسرة وضيق اليد يرمقون المال ويشتهونه ، حتى إذا لم ينالوه يئسوا من الدنيا ، وسخطوا على الحياة ، أخذ رحمه الله يعالج أدواءهم ، ويهدم مذهبهم

فهو مع فقره لم يتبرم بالحياة إلى حد القنوط ، ولم يسخط عليها حتى اليأس . فليس التجرد من المال فقراً ، وتكدس الخزائن به غنى ، ولـكنه وسيلة ترفيه وأداة رغد ، فان لم يفد متاعاً ولم يكسب مغنما ، فلا خير فيه ولا منفعة منه . وأنه كثيراً ما اجتمع له المال الوفر من كتب ألفها وترجمها ومقالات كتبها وسطرها ، ووظيفة قبضها ، فما استقر عنده ، ولا عمل على ابقائه . قال الأستاذ البشرى فى المرآة : « وهو أجود من الريح المرسلة ، ولو أنه ادخر قسطاً من الأموال ، لـكان اليوم من أهل الثراء ، على أنه ما فتىء طوال أيامه يشكو البؤس ، حتى إذا طالت يده الألف جن جنونه ، أو ينفقها فى يوم إن استطاع »

— ٧ —

ثم أمسك بأيديهم ، ونهض بهم إلى حيث المجد يبتغى ، والشرف ينال ، وعزة النفس تكتسب : بالعلم ، بالأباء ، بالـكرامة والرزق ووفرة المال ، بالسعى ، بالهجرة ، فأرض الله رحبة واسعة :

وفيها لمن رام الحياة سعادة وفيها لمن رام النعيم مقـــام

والتفت إلى الحاكمين والسراة يستثير عطفهم ، ويحرك الشفقة والحنان نحو مساكين تنتابهم غير الدهر ، وتتوالى عليهم أحداث الزمان ، وبائسين يؤلمهم الفقر ، ويؤذيهم العرى

— ٨ —

وعاطفة المواســاة ترتقى بحافظ : فلا تقتصر على مواساة الفقراء والمنكوبين ، وأسرى الحروب والملقين ، ولـكنها تنوح بالألم ، على كل حالة يعتبرها صاحبها شقاء ويظنها تعساً . على كل حالة تصرع الرجل فيها الشدائد ، وتضعضعه النوائب ، وتهده المظالم والشوائب . على كل حالة يتبدل فيها شأن الانسان من رضى وسكون ودعة ، إلى تبرم وسخط وكراهة ، من شعور بالراحة والسعادة والهناء ، إلى تذمر وامتعاض وموجدة ، فتراه

بواسى ملوكا غاب عن جبينهم التاج ، وسلاطين خلت أيديهم من الملك ، وأصبحوا يحتمون بالقانون بعد أن كانوا مصدر القانون ! ويخضعون للنظام وقد كانوا يصدرون النظام ! ويبتدئون بالتحايا العارفين وقد كانوا بها يبتدأون ، ولهم مراسيم تقضى وواجبات تؤدى . . . ! !

هذه الامبراطورة « أوجيني » زوجة نابليون الثالث تقدم مصر بعد زوال ملكها ، فيرفع لها حافظ تحيته ، بل مشاطرته ومواساته :

إن يكن غاب عن جبينك تاج كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج لا يدانيه فى الجلال مدانى
ذاك من صنعة الأنام وهذا من صنيع المهيمن الديان
فاعذرينا على القصور كلانا غيرته طوارئ الحدثان

وقال فى فتنة الآستانة موجهاً إلى السلطان عبد الحميد صورة من التأسى والتصبر ، مشفقاً عليه باكياً ، بعد أن كان مغيظاً حانقاً ، يعيب على الشامتين شماتهم ، وينتقص رجولتهم ، ويبين أنه لازال خارج الحكم عبد الحميد كما كان مملكا حاكما :

كنت أبكى بالأمس منك فمالى بت أبكى عليك عبد الحميد
فرح المسلمون قبل النصارى فيك قبل الدروز قبل اليهود
شمتوا كلهم وليس من الهمة أن يشمت الورى فى طريد
ماعهدنا الملوك تبكى ولكن علمها روة الفؤاد الجليد
شفع الدمع فيك عند البرايا ليس ذاك الشفيع بالمردود
دمعك اليوم مثل أمرك بالأمس مطاع فى سيد ومسود

ولعل هذه الفواجع المتكررة ، والأرزاء المتتابعة ، التى يستوى فيها الفقير لا يجد قوتاً ، والشريد لا يعثر على مأوى ، والملك لا يأمن غدر الدهر وخيانة الزمن ، والسلطان لا يستقر به الجاه ، ولا تدوم له العزة — لعل هذه الفواجع — هى التى جعلت حافظاً ينحى باللائمة على حواء أمنا الأولى ؛ لأنها ولدتنا ولم توص الزمان بنا خيراً ، مع عرفانها بصروفه وأكداره :

لم تلدنا حواء إلا لنشقى ليتها عاطل من الأولاد
سلمتنا إلى صروف زمان ثم لم توصها بحفظ وداد

ولكنه فى غضبه هذا لم يذهب كما ذهب غيره : يدعو الموت ويتطلب مبارحة الحياة وفراق الدنيا ، ولم يكن كمن قال : « فيا موت زر إن الحياة ذميمة » ؛ ولا من قال : « ألا موت يباع فأشتريه » ؛ بل فطن لما فرط منه ، وانتبه لما بدر ، فنفض عن نفسه غبار الشجو ، وكابوس الجزع ، فهو يسوءه أن يضيق ذرعاً بدنياه ، ويؤكد أن الاستسلام للألم مما يشينه ، وقد يموقه عن تأدية رسالته . فالمواساة ليست بكاء فقط ، أو ألماً فحسب ، ولكنها : تسرية هموم وتخفيف مصاب ، ثم هى فوق ذلك جلب منفعة ، وإكساب غنيمة ، وليس فى مقدوره أن يخدم الفقراء والبائسين إذا ضاق بالحياة وسخط على الدنيا ، وانزوى بعيداً ، لا يتصل بالحاكمين ، ولا يتعرف ما عند المحسنين

— ٩ —

ولقد عرف أن تخليد الذكر إنما يكون بالاحسان ، فهو أبقى على الزمن ، وأدوم فى التاريخ ؛ فأخذ يغرى الحاكمين بالعطف على أبناء الشعب والعمل على إسعاده ، ولا سيما أن منصب الوزارة ليس دائماً ، ولكنها الصالحات والمؤسسات الخيرية أبقى وأكثر دواماً :

إن المناصب فى عزل وتولية غير المواهب فى ذكر وتخليد

وأغرى السراة بالانفاق على الفقراء ، فلقد يكون منهم الزعيم السياسى يخلص الوطن وينقذ البلاد ، أو الرئيس الدينى يرعى الأخلاق ويحمى الشريعة ، أو الشاعر النابغة يهز القلوب طرباً ، ويثقف العقول بياناً وحكمة :

أيها المثرى ألا تكفل من بات محروماً يتيماً معسراً
أنت من يدريك لو أنبته ربما أطلعت بدراً نيرا
ربما أطلعت (سعداً) آخرا يحكم القول ويرقى المنبرا
ربما أطلعت منه شاعرا مثل (شوقى) نابها بين الورى
ربما أطلعت منه (عبده) من حمى الدين وزان الأزهرا

***

كم قضى البؤس على موهبة فتوارت تحت أطباق الثرى
كل من أحيا يتيما ضائعا حسبه من ربه أن يؤجرا

ثم نراه يبين لأولئك السراة أن لا قيمة للمال إذا لم يعصمنا من الفقر ، ولم نؤسس به الملاجئ ، ودور العلم ، وبيوت الشفاء ؛ فان الدينار نفرح به مادام فى أيدينا ، حتى إذا ما دخلنا به السوق كان والدرهم سواء . والمال الكثير إذا حل الغلاء ؛ يكون قليلاً يمضى سريعاً

نهش إلى الدينار حتى إذا مشى به ربه للسوق ألفاه درهما

فلا تحسبوا فى وفرة العلم لم تفد   متاعاً ولم تعصم من الفقر مغنما
فان كثير المال والخفض وارف   قليل إذا حل الغلاء وخيما

— ١٠ —

ولقد بصر بلذع السؤال ومرارته ، وألم الاستجداء وحرقته فأهاب بالمحسنين أن يصدروا عن عاطفة ، وألا يحرجوا المحروم ؛ فان خير الصنائع ما تنبو بحاملها عن الاهانة ، وإن الذى يجود بعد الحاح وطلب كثير ؛ لهو المعدود من البخلاء :

خير الصنائع فى الأنام صنيعة   تنبو بحاملها عن الأذلال
وإذا النوال أتى ولم يهرق له   ماء الوجوه فذاك خير نوال
من جاد من بعد السؤال فانه   وهو الجواد يعد فى البخال

وهو لذلك يربأ بنفسه أن تمد يده لذى منة ، وأن تبسط لمن يستعذب سؤال المحتاج ، أو من يعتز بغناه ليسخر من مسهب معوز ؛ فيعف ويود لها البلى قبل سؤال الدنىء اللئيم

أيا يد ما كلفتك البسط مرة   لذى منة أولى الجميل وأنعما
فلله ما أحلاك فى أنمل البلى   وان كنت أحلى فى الطروس وأكرما

— ١١ —

لحافظ — رحمه الله — مذهب فى الاحسان ، فهو يرى أنه ليس منة وفضلاً يفخر به ذووه ، وتعلو به رؤوسهم وتشرف أقدارهم ، وانما هو واجب على الثرى أن يؤديه ، وحق للفقير يجب أن يوفيه ، ودين لا يفر من قضائه الا مماطل ، ولا يهرب منه الا نذل دنىء . والاحسان فى نظره يستطيع كل انسان أن يؤديه :

بالقول !! يخفف به الألم عن الشاكى ، ويثير به همم أولى العزم والمروءة والنجدة

وبالدمع !! مشاركة للمحزون فيما أحزنه ، وللمهموم فيما أهمه وللمصاب فيما أصابه

وبالمال !! الذى هو العون فى قضاء الصوالح ، والجالب للنفع ، والدافع للضر ، به تقضى الرغبات ويؤدى المطلوب قال فى زلزال إيطاليا :

سلام على الأولى أكل الذئـ   ـب ونهشت جوارح العقبان
وسلام على امرئ جاد بالدمـ   ـع ، وثنى بالأصفر الرنان
ذاك حق الانسان عند بنى الانـ   ـسان . لم أدعكم إلى احسان

(البقية فى العدد القادم)

السيد محمد العجان

إلى الأستاذ أمين الخولى :

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى
للأستاذ صالح بن على الحامد العلوى

قرأت ما كتبتم رداً على مقالى عن الفقه الاسلامى والرومانى وأشكركم على حسن ما ظننتم بى من الغيرة الدينية وجميل الأدب فى النقاش . وبما أنك أيها الأستاذ قد تنكبت فى ردك جوهر الموضوع فى مقالى إلى ناحية أسلوب التفكير وصحة الانتقال والاستنتاج — كما عبرت — مكتفياً ببيان أنك قد اطلعت على الموضوع نفسه وأنه قد نشر فى مصر — وربما بنصه — منذ ربع قرن مضى الخ ، وقلت إنك قرأته ولا تزال تذكره جيداً ومع ذلك قلت فيما قلت عن تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى الخ

فانى أقول لك — على تسليم ما ذكرت — : انى لم أكتب ما كتبت متهماً لك فى معارفك ومعلوماتك ، ولا لأن أقنعك أنت وحدك فقط دون الجم الغفير من قراء (الرسالة) القراء الذين قد قرأوا ولا شك رأيك ورأى غيرك فى الموضوع وإلا لما كان الأمر فى حاجة إلى نشره فى صحيفة سيارة كا(الرسالة)، فالأمر قد صار أعم من أن يختص بى أو بك . أفليس من اللازم أن تجيب — ولو بايجاز عن كل ما كتبتُ وتبسط للقراء رأيك ،مدعّماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظرك ، وبذلك تكون قد أرت السبيل للقراء لأن يهتدوا برأيك ويتفقوا معك على تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى . وإلاّ فلا معنى لأن تفتح باب البحث مختاراً ، ثم إذا دعيت إلى بسطه عمدت إلى سدّه متعللاً بضيق الوقت

لا يا أستاذ ! إن الوقت الذى تعتذر بضيقه الآن قد اتسع لدرس علوم وفنون وصنائع قد ضاق عن أقلها الزمن الماضى ، فلماذا يضيق ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ؟

وإذا كان قراء الصحف الأسبوعية لا ينشطون للمناقشة الفنية

كما قلت فانى أجل قراء (الرسالة) بخاصة عن ذلك . فالرسالة فى اعتقادى هى الصحيفة الأسبوعية الجدية الوحيدة التى ينبغى أن تضطلع برسالة العلم – كما يُعبَّر اليوم – والأدب والفن ، وأرى أن قراءها كذلك يمتازون من قراء غيرها من الصحف . على أن الصحيفة الراقية هى التى ترفع قراءها إليها لا التى تنزل إليهم . والآن آخذ فى ذكر ملاحظاتك على مقالى والرد عليها

وأبدأ أولاً بأخذك علىَّ قولى : ان الأخذ والتأثر يجريان إلى مدى واحد بقولك : (إن التأثر قد يكون سلبياً صرفا ، ثم استشهادك لذلك بأن الوثنية العربية قد أثرت فى الاسلام فى تحريم التصوير والنحت الخ ، والحق أيها الأديب أن تحريم التصوير ليس من موضوعنا فى شىء ، وليس إلا من باب سد الذرائع وهى القاعدة المعمول بها فى الاسلام ولا تزال أصلاً فى مذهب مالك ؛ ومن أمثلة ذلك فى الاسلام تحريم آلات اللهو سداً للذريعة فى تعاطى الخمر ، وضرب الحجاب على المرأة سداً للذريعة فى افتتان الرجل بها ، كالعكس إلى غير ذلك ، فلماذا أيها الأستاذ لا تجعل تلك من هذه ؟ ولا تكون فى حاجة لتكلف هذا التأثر السلبى غير المفهوم ، اللهم إلا إذا كان كتأثر الشىء بضده فى ظهوره ووضوحه عند المقابلة كالبياض مع السواد مثلاً فيكون هذا من باب : وبضدها تتبين الأشياء

ثم انى أخشى أن يعد ما قلته أيها الأستاذ خطوة فى التهرب من الموضوع والتملص منه ، ذلك لأن أصل البحث الذى نحن فيه أنه وجد فى الفقه الرومانى تشابه مع الفقه الاسلامى فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، فادعى كولد زهير ومن قلده تأثر الفقه الاسلامى بالرومانى ، فقلنا كما قال غيرنا أيضاً : ان الأحرى والأنهض بالدليل أن يكون الرومانى هو المتأثر . هـذا هو حاصل الموضوع ، فلو سلمنا صحة تقسيم التأثر إلى إيجابى وسلبى كما قلت أيها الأستاذ فما السلبى مما نحن فيه فى قليل ولا كثير . وإذا كنت ترى تأثر الفقهاء بالفقه الرومانى إنما هو تأثر سلبى بهذا المعنى فقد لا يبقى بيننا ما يستوجب النزاع والمناقشة

(٢) وقلت أيها الأستاذ عند قولى : إن الاسلام فى ذاته جاء خارقاً لقاعدة البيئة والثقافة ، إذ قام به النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو النبى الأمى الذى نشأ أبعد الناس عن أن يطلع على قانون رومانى أو حكمة منقولة ، وأتى بهذا الدين الأقدس مناقضاً كل المناقضة لما عليه قومه . . . الخ . قلت : (إن هذا القول غريب من . . . لأنه لا يصح إلا على تقدير أن هذا الدين من صنيع الرسول نفسه وهو أمى . . . الخ فعمله ناقض لقاعدة البيئة والثقافة ، أما على أن الاسلام كما هو فى حقيقته وحى إلـهى فلا يستقيم هذا التمثيل مطلقاً فى نقض قاعدة البيئة والثقافة الخ)

فلولا حسن ظنى بسلامة نيتك أيها الأستاذ لعددت هذا منك مغالطة غير سائغة من مثلك ؛ ذلك لأنى لم أقل فيما كتبت إن الاسلام بظهوره بهذه الصفة ناقض لقاعدة البيئة والثقافة قط ، ولكنى قلت : إن الاسلام فى ذاته خارق لها ، لأنه دين سماوى ووحى إلـهى لا تتحكم فيه بيئة ولا تؤثر عليه ثقافة ؛ على أن قولى خارق أحرى بأن يفهم منه اثبات قاعدة البيئة والثقافة ؛ لأن الخارق ما خرق العادة وخالف مقتضاها ، والغرض مما قلت بيان أن الاسلام فى فقهه وعقائده وعباداته لا يتطرق اليه تأثير البيئة والثقافة ، لأنه فى كل ذلك جاء خارقاً لقانونها ، ولم أقل قط إن الاسلام ناقض لقاعدة البيئة والثقافة كما فهمت أيها الأستاذ ، بل قلت : إنه خارق ؛ وفرق بين مدلولى اللفظين ، فليشهد القراء وليحكموا !

(٣) وقلت أيها الأستاذ عند قولى : إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة ، أو بعبارة أصح جاءت فى زمن واحد . . الخ (إن هذه العبارة أوضح من أن تحتاج مخالفتها إلى دليل) . فلماذا أيها الأديب الفاضل ؟ فهل كنت تنكر أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يمت إلا وقد تركنا على المحجة البيضاء ، حتى ترى أن بعض الشريعة لم يوجد إلا بعد زمنه ؟ ألم يقل الله جل ذكره فى كتابه العزيز : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ؟ ويقول ابن عباس والسدى فى تفسيرها : إن المعنى اليوم أكملت لكم حدودى وفرائضى وحلالى وحرامى بتنزيل ما أنزلت وتبيين ما بينت لكم ، فلا زيادة فى ذلك ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا اليوم ؟ حتى غالى بعض نفاة القياس فاحتج بها على إنكاره

(٤) ثم ذكرت أيها الأستاذ قولى : وهيأ لنا شريعة كاملة ، وقانوناً ربانياً منظما يصلح لأن يطبق على أى جيل وعلى أية أمة ، ولم يزد فيه الفقهاء شيئاً قط إلا تصنيفه ونقله . . . الخ ، فقلت : (إن هذا الكلام ليس أحسن حالاً من سابقه ، فالفقهاء قد فهموا وطبقوا واستنتجوا واستنبطوا . . . الخ) ونحن لا ننكر

هذا ، وعبارتى لا تفيد نفيه إذ لست ظاهرياً ، وقد شاء فضلك أيها الأديب أن يقتضب من عبارتى ماشاء فقط ، وإلا فنى آخر الفقرة بيان المراد ، فقد قلت فى آخرها إنهم (أعنى الفقهاء) فيما لم يجدوا فيه نصاً صريحاً يطبقونه على قواعده الأساسية ، وهذا هو معنى الفهم والاستنباط ، ولا يقال له زيادة ولا تعارض فى العبارة ، لأن المراد بما لم يزد فيه الفقهاء شيئاً أصوله وقواعده الأساسية ، وهى التى لم يلحق الشرع الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى إلا وقد تركنا منها على سبيل واضح وقانون ربانى منظم وشريعة كاملة ، فيحسن أن نقول هنا إننا والأستاذ الفاضل على خطة اتفاق

(٥) وقلت أيها الأستاذ إن قولى (. . . والنصوص الفقهية كلها صريحة بينة الاغراض واضحة المرامى ، يناقضه قولى فى القرآن : على أن الاختلاف فى تفسيره ليس إلا لايجازه المعجز مع بعد مراميه الغيبية ، وقلت : (إن هذا الايجاز المعجز لم يفت آيات الاحكام كذلك وبعد المرامى يشملها . وجوابى عليك أن آيات الاحكام قد جاءت مفسرة بالسنة إلا ما ندر منها كآية الربا ، فلم يبق مجال للاختلاف فيما أوضحه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كما يمكن أن يكون فى غيره مما لم يفسر بالسنة ، وبهذا يتضح الفرق بين أدلة الاحكام والتفسير المختلف فيــه ، ويصح به لنا القول بألا يقاس بالفقه التفسير ، وحسبك دليلاً على الفرق بين فهم الكتاب وفهم السنة ما صنع الامام على كرم الله وجهه عند إرساله ابن عباس رضى الله عنهما لجدال الخوارج ، إذ أمره أن يتوخى جدالهم بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا فى فهم القرآن وتأويله ؛ وما ذاك إلا لما ذكرنا

(٦) وتقول أيها الأستاذ (وإذا كانت النصوص صريحة بينة الأغراض ففيم اختلف فقهاء المذاهب الكثيرة المتعددة الخ

وأقول لك إن سبب الخلاف بين فقهاء المذاهب ليس اختلاف البيئة والثقافة مع غموض الأدلة ، ولكن السبب الأكبر هو اختلاف علمهم بالأدلة أولاً ، ثم تفاوت مراتبها عندهم قوة وضعفاً ، وقد كانت السنة آنئذ تتلقى من أفواه الشيوخ . وقد يبلغ الفقيه حديث لم يبلغ الآخر ، أو يكون هذا سمعه بطريق أقوى من طريق الآخر ، وهذا عندى السبب الأكبر فى اختلاف الفقهاء . ولذلك قال الشافعى إذا صح الحديث فهو مذهبى . ونحن لا ننكر اختلاف الأفهام فى الاستنباط أصالةً ، ولكنا ننكر لزوم أن يكون ذلك من آثار البيئة والثقافة ، فاختلاف الأفهام جار حتى بين أبناء المدرسة الواحدة والبيئة الواحدة كما هو مشاهد ، فلا يصلح دليلاً لتأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى

(٧) واستطرفت أيها الأستاذ الأديب تمثيلى للصراحة بقولنا مثلاً لا تكذب قائلاً : « إن هذه المسألة على وضوحها الشديد محل خلاف تعدى إلى كتب البلاغة) والكلام إنما هو تمثيل للصراحة لغة ، وفرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صراحة مؤدياتها اللغوية

ثم إنى لم أمثل بهذا إلا توضيحاً لكون الكلام العربى الصريح لا يختلف معناه على حسب الأزمان والبيئات ؛ ويدل على هذا قولى بعد ذلك : وأرى أننا لو نقلنا خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى حجة الوداع مثلاً ونشرناها اليوم لما فهم منها ، أى اجمالاً ، من يعرف مدلولات الكلام العربى من مثقفى اليوم إلا ما فهمه عشرات الألوف من المسلمين حينما خطبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى ذلك الموقف الرهيب قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف)

وهذه ميزة للغة الضاد يجب ذكرها على حين أن بعض اللغات سواها قد تغيرت وتطورت تطوراً كاد يجعلها مقطوعة الصلة بينها وبين ماضيها قبل مائتى سنة

(٨) وأما استغرابك لقولنا إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فيذهب إذا علمت أن آيات الأحكام جاءت جلها إن لم نقل كلها مفسرة موضحة بالسنة ، فالسنة مع كونها مصدراً خاصاً لبعض الأحكام فهى فى بعض واسطة بين الكتاب وبين الفقهاء فى فهم آيات الأحكام ، وبهذا تعلم أغلبية الأدلة الفقهية التى من السنة وإن كان أغلبها فى الحقيقة تفسير ما أجمل الكتاب ، وهذا معنى التبيين فى قوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما أنزل اليهم) الآية

(٩) ثم قلت أيها الفاضل مستدلاً على تأثر الأوزاعى بالفقه الرومانى : (إن الرومانية حكمت الشام قطعاً ، وكان ذلك الحكم لقرون كثيرة قطعاً ، وكانت الدولة الرومانية وحكمها الشام قبل الاسلام قطعاً . . . ثم قلت وكان الاسلام هو الذى خلف على ذلك بلا شك ، وكان لهذا على طول الزمن أثره الذى تختلف به

الشام عن الحجاز مثلاً ، ولا مد والأوزاعى ابن هذه البيئة الحديثة العهد بهذه الحال الرومانية فلتلك البيئة وهاتيك الثقافة أثرها المحتوم فى تكوين الأوزاعى الخ . فلو سلمنا جدلاً بصلاحيـة الفقه الاسلامى وقبوله للتأثر بالبيئة والثقافة كما تعتقد أيها الأستاذ الفاضل ، فالشام لم يفتح فى عهد الأوزاعى ولكنه فتح فى عهد عمر رضى الله عنه ، والأوزاعى – وهو من تابعى التابعين ، ومن الطبقة السابعة من الرواة ، ومن أهل القرن الثانى – لم يأت إلا وقد انصرم ، أو كاد ينصرم بعد رسوخ الاسلام فى الشام جيل كامل . ثم إن الاسلام من شأنه أنه لم يفتح بلاداً وتطأها أقدام جنوده الأبطال إلا ويدخل اليها معه حضارته وآدابه وأحكامه ، وأصرح من ذلك أن أقول إن الاسلام لم يفتح البلاد ويتولى الشعوب إلا لينسخ أدياناً ويقر مكانها ديناً واحداً ، ويهدم قوانين ويبنى بدلها قانوناً جديداً مفرداً ، ويجتث حضارات ويغرس محلها حضارة واحدة ؛ فالاسـلام لم يفتح أرضاً ولم يحكم شعباً إلا ليؤثر فيه – يا مولاى الأستاذ – لا ليتأثر به

وقد تولى الاسـلام الشام منذ عهد الخليفة الثانى وأسبغ عليه من روحه وثقافته وتعاليمه حتى غدا إسلامياً صبغةً وروحاً ، ومضى على ذلك زمن ، ولم يأت الأوزاعى إلا والشام فى دينـه وروحه وثقافته إسـلامى صرف ، ولم يبق به من ثقافة الرومان عين ولا أثر . فالأوزاعى وليد بيئة إسلامية وثقافة إسلامية ، فتسرب الثقافة الرومانية اليه بعد أن اندرت وسحب الدهر عليها ذيل النسيان وحل محلها ما هو خير ثقافة وأعدل حكما – من البعد بحيث لا يستسيغه عقل المتثبت الحازم

(١٠) والعجيب أيها الأستاذ الفاضل أنك فى آخر ردك على مقالى قلت لا أدع منه عبارة ختامية تلك هى . . . إن الفقه الرومانى جديد لفّقه جماعة من العلماء وتحقق أنهم أخذوه من الفقه الاسلامى ، وهذا ما يجب ألا يعتقد خلافه كل مسلم ، قائلاً بل أقول . . . لسنا فى شئ من المطالبة بهـذه العقيدة فى الفقه الرومانى ، فليست أصول الاسلام ستة ، تلك الخمسة المروية ثم سرقة الفقه الرومانى من الفقه الاسلامى الخ)

ولا أدرى ماذا أردت بأصول الاسلام الخمسة ؟ فان كنت تريد بها أركانه التى أولها الشهادتان وآخرها الحج ، فالاستنتاج عجيب ، لأننى لم أقل إن هذا الاعتقاد ركن من أركان الاسلام ، بل غاية ما فى الأمر أنى قلت إنه واجب ؛ وواجبات الاسلام يا مولاى الأستاذ أكثر من أن تكون ستاً أو ضعفها ، فاذا ضممت اليها الواجبات الاعتقادية والأعمال والتروك صارت أكثر من أن تحصر ! فأىّ منطق استنتجت من قولى ما لم أقله ، وألزمتنى على هذا القول بأن أصول الاسلام ستة ؟ ولا يفوتنى هنا أن أقول لك أيها الأستاذ إن أدبك الجم قد سمح لك أن تنصحنى بأن أعدل رأيى فى هذه الأشياء قبل أن أهتم بمسألة الفقه الرومانى وأخذه أصوله من الفقه الاسلامى أو تأثر الفقه الاسلامى فتلك مسائل متأخرة ، ولكنى هنا لم يطاوعنى أدبى معك – مهما كان بالنسبة إلى أدبك – أن أقول لك مقال الناصح المشفق إنه يحسن أن تصلح منطقك أولا قبل التعرض لتطبيقه على مثل هذه الأمور

وفى الختام أقول لك إنه ليس من الخير أن يتذرع الكاتب المتغلب على مناظره بتحقيره أو مغالطته ، وأعتقد أنك أعلم بأدب الحوار والمناقشة من أن أنبهك اليه والسلام عليك

سنغافوره صالح بن على الحامد العلوى

نهر النيـــل

كما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته

بقلم رشوان أحمد صادق

جاء ذكر النيل في كثير من المؤلفات العربية التي وضعها جغرافيو العرب من أمثال الادريسي وياقوت الحموي والاصطخري وابن سعيد الجيهاني وغيرهم كثير . على أن ابن خلدون وصف هذا النهر وصفاً بديعاً في مقدمته المشهورة

وقبل أن نتحدث عن مقال ابن خلدون عن نهر النيل يحسن بنا أن نذكر الحقائق الآتية :

أولا : اطلع ابن خلدون على أبحاث من سبقه إلى هذا الموضوع وحاول أن يوفق بينها وبين ما سمعه من الأحاديث المختلفة عن نهر النيل

ثانياً : لم يذهب ابن خلدون إلى أعالي النيل ولكنه ربما زار بعض أجزاء النهر السفلي مثل الأراضي المصرية

ثالثاً : إن ابن خلدون قد وصف بعض أجزاء نهر النيـل بدقة جعلت الكثير من العلماء يهتم برسالة هـذا الرجل الفيلسوف

رابعاً : إن العهد الذي كتب فيـه ابن خلدون كان عهد اجتهاد من حيث البحث عن منابع النيل ، إذ كانت مسألة النيل من الأمور الغامضة ، ولم تتح الفرص لفك لغزه أو الحصول على معلومات حقيقية عنه مبنية على أبحاث دقيقة إلا بعـد أن وطد محمد على الأمن في أعالي النيل ، وبذلك سهلت مهمة من قام بهذا العمل

والآن نذكر أقوال ابن خلدون عن نهر النيـل ثم نعقب عليها

قال : « فأما النيل فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الأقليم الأول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الأرض جبل أعلى منه . تخرج منه عيون كثيرة فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ، ويخرج من هـذه البحيرة نهران يذهب أحدهما إلى ناحيـة الشمال على سمته ويمر ببلاد النوبة ثم بلاد مصر ، فاذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجاً وتصب كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ، ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه والواحات من غربيه . ويذهب الآخر منعطفاً إلى المغرب ثم يمر على سمته إلى أن يصب في البحر المحيط وهو نهر السودان وأممهم كلهم على ضفتيه »

من ذلك يتبين إلى أي حد كانت معلومات ابن خلدون عن هذا النهر . أما عن أعالي النهر فمعلوماته قاصرة على السماع وعلى ما وصل إلى علمه من كتب من سبقه إلى ذلك الموضوع . وعلى الأخص كتاب بطليموس الذي ذكر ذلك بوضوح ونقل عنه الادريسي وغيره . ولكن في كلام ابن خلدون مسألة مهمة ألا وهي ذلك النهر الذي يتجه غرباً ويصب في البحر المحيط ما هو ذلك النهر الغربي ؟

أكان ابن خلدون متأثراً بالآراء القديمة من أمثال رأي هيرودوت الذي يقول بأن النيل يتجه غرباً إلى المحيط ؟ أم كانت عنده معلومات عن نهر الكنغو وظن أنه يتصل بالنيل كما كانت هذه الفكرة سائدة إلى زمن ليس ببعيد ؟ أم كان يعرف نهر النيجر وظن أنه فرع من النيل لقرب منابع بعض نهيراته من منابع بعض نهيرات حوض تشاد القريبة من منابع بعض نهيرات النيل ؟

ولكي نوضح هذه المسألة نقول : إن ابن خلدون ربما كان يقصد أحد هذه الآراء الثلاثة الآتية :

١ — يقول ابن خلدون إن هناك نهيرات تنبع من جبل القمر ثم تصب في بحيرتين ، ثم تخرج أنهار من البحيرتين فتصب كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء ، ويخرج من هذه البحيرة نهران يتجه أحـدهما نحو الشمال والآخر نحو الغرب ويصب في المحيط

لعله كان يقصد بحيرة فكتوريا وبحيرة ادورد ، وأن البحيرة

الثالثة هى بحيرة البرت ، والنهر المتجه شمالاً هو بحر الجبل والمتجه غرباً هو الـكنغو

والقاعدة فى هذا الفرض أن المنطقة بين النيل والـكنغو غير محدودة تماماً ، كذلك ليست شديدة الارتفاع ، وفى زمن الأمطار الشديدة قد تكون هذه المنطقة عبارة عن شبكة من المجارى المائية التى يصبح من المتعذر تتبعها خصوصاً وأن تلك الجهات كانت غير معروفة تماماً ، وأن المعلومات عنها كانت منقولة عن التجار العرب والزنوج

فان كان ابن خلدون يقصد ذلك ــ وهو الأرجح ــ فذلك دليل على ذكاء ذلك الرجل الفيلسوف والعالم المحقق

ولقد ظلت فكرة اتصال النيل بالـكنغو زمناً طويلاً فى عالم الوجود قبل أن يكشف تماماً عن نهر الـكنغو

٢ — أما عن الرأى الثانى فنقول إن ابن خلدون ربما قصد بالبحيرة الثالثة منخفض بحر الغزال (بحيرة نو واقليم السدود ومنخفض بحر الغزال) . فالواقع اننا عندما نتتبع هذه المنطقة على الخريطة قد لا نتبين تماماً مقدار عظمها ، ولكن إذا ما اطلعنا على مذكرات بعض التجار الذين قطعوا هذه المساقات من أمثال الزبير باشا نتبين تماماً أن هذه المنطقة تظهر لأول وهلة كأنها مستنقع عظيم السعة . فلقد ذكر الزبير باشا فى مذكراته أنه ضل الطريق وسط هذا المستنقع اثنى عشر يوماً حتى كاد يشرف على الهلاك

فربما كان ابن خلدون يقصد بالبحيرة الثالثة هذا المستنقع العظيم . وان النهر الذى يتجه غرباً هو بحر العرب وروافده . وربما وصلته أخبار عن النيجر وحوض تشاد فظن أن بحر العرب يتصل ببحيرة تشاد وهذه الأخيرة تتصل بالنيجر إلى (البحر) المحيط

ولقد كان يظن أن النيل يتصل بنهيرات بحيرة تشاد وهذه تتصل بأعالى النيجر ، وبقيت تلك الفكرة سائدة إلى أن ذهبت البعثة الفرنسية وطافت حول بحيرة تشاد وأثبتت أن حوض تشاد منفصل عن النيل وعن النيجر تماماً

وربما كانت تلك الفكرة بعيدة عن ذهن ابن خلدون ، ومع ذلك لا مانع من ذكرها خصوصاً وأن فكرة اتجاه النيل غرباً كانت سائدة فى قديم الأزمنة

٣ — أما عن الرأى الثالث فربما قصد ابن خلدون بالبحيرة الأولى ، بحيرة رودلف ، وظن أن نهر أومو الذى يتصل بها متصل بنهر أوكوبو أحد أفرع السوباط ، وأن البحيرة الثانية هى فكتوريا ، والبحيرة الثالثة هى نو (ومنخفض بحر الغزال واقليم السدود) ، وأن النهر الغربى هو بحر العرب ويتصل بحوض تشاد ، ثم حوض تشاد يتصل بحوض النيجر ، ثم ينصرف الأخير الى المحيط كما سبق أن بينت ذلك فى الرأى السابق

ومما جعلنا نحتمل وجود هذا الرأى على الرغم من ضعفه هو قرب بحيرة رودلف من ساحل أفريقية الشرقى ، إذ أنه معروف أن التجارة كانت تنقل من أعالى النيل الى ساحل أفريقية الشرقى حيث يمكن تبادلها مع سكان الساحل الاسيوى المقابل لساحل أفريقية الشرقى ، وكانت الأخبار تنقل مع التجار العرب أو الزنوج ، ومن ضمن هذه الأخبار المعلومات المختلفة عن منابع النيل واقليم البحيرات

ولما كانت بحيرة رودلف قريبة من ساحل أفريقية الشرقى فلا يبعد على الظن أن تكون ذكرت كمنبع للنيل

ولعل تلك الفروض كانت راجعة الى عدم معرفة هذه الجهات بالدقة أيام أن كتب ابن خلدون رسالته ، وان كل ما ذكر عنها كان عن طريق النقل والسماع الذى لا يخلو من المبالغة والخطأ ، زد على ذلك قلة المعدات العلمية وآلات الضبط والمقاييس المختلفة بعكس ما نحن عليه الآن من تقدم

والآن ندخل فى التفاصيل التى ذكرها الفيلسوف ابن خلدون عن بقية نهر النيل

قال يصف البحيرة الثالثة : « فى أسفلها جبل معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال ويقسم ماءها الى قسمين فيمر الغربى منه الى بلاد السودان مغرباً حتى يصب فى البحر المحيط »

وفى ذلك اشارة الى خط تقسيم المياه بين النيل والـكنغو ، ونرجح ذلك إذا ما علمنا أن شاطئ بحيرة البرت من الجهة الغربية تحف به الجبال ، ثم خلف هذه المرتفعات أى فى الجهة الغربية منها توجد المجارى المائية التى تمد نهيرات الـكنغو ، فلا يبعد على الظن أن يكون ابن خلدون قد اعتبر منابع الـكنغو

وراء هذه الجبال التاخمة لشاطئ بحيرة البرت الغربي جزءاً متمما لهذه البحيرة خصوصاً وهـذه المنطقة تحتوى على عدد عظيم من النهيرات ، فهى عبارة عن شبكة مائية يصعب تحديدها خصوصاً فى أوقات الأمطار الشديدة والفيضانات حيث تظهر كمتسع عظيم من المياه

وربما قصد ابن خلدون بهذه المرتفعات مرتفعات دارفور التى تفصل مياه وادى الـكوه ووادى جندى المتصلين ببحر العرب عن وادى بحر السلامات المتصل بنهر شادى المتصـل ببحيرة تشاد

وربما قصد بهذه المرتفعات مرتفعات بندا التى تفصل بين مياه بحر الغزال من جهة ونهر شادى المتصل ببحيرة تشاد من جهة أخرى . إذ أن نهرى الجبل والغزال يكونان حوضاً منخفضاً فى الوسط وحافاته مرتفعة ، وما ارتفاع الجهات التى تفصل حوض الغزال عن حوض تشاد إلا لهبوط الانخفاضات المجاورة التى فيها بحر الغزال وحوض تشاد

أما عن بقية نهر النيل فقد قال ابن خلدون : « ويخرج الشرق منه ذاهباً إلى الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما . وينقسم فى أعلى أرض مصر فيصب ثلاثة من جداوله فى البحر الرومى عند الأسكندرية ورشيد ودمياط ، ويصب واحد فى بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر فى وسط هذا الأقليم »

وفى ذلك اشارة إلى فروع النيل وتغيرها فى عهد العرب وما بعده عما كانت عليه فى عهد البطالـة ، فقد زالت المصبات الشرقية كلها تقريباً

ويقول أيضاً « وعلى هذا النيل بلاد النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات إلى أسوان ، وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقله وهى فى غربى هذا النيل ، وبعدها علوه وبلاق ، وبعدها جبل الجنادل على ست مراحل من بلاق فى الشمال ، وهو جبل عال من جهة مصر ومنخفض من جهة النوبة فينفذ فيه النيل ويصب فى مهوى بعيد صباً مهولاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب بل يحول الوسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر إلى بلد أسوان قاعدة الصعيد ، وكذا يوسق مراكب الصعيد إلى فوق الجنادل ، وبين الجنادل وأسوان اثنتا عشرة مرحلة ، والواحات فى غربها عدوة النيل وهى الآن خراب وبها آثار العمارة القديمة »

وفى ذلك اشـارة صريحة إلى الشلالات التى تعترض النيل قبيل أسوان والتى تكون عتبة عقبة ، إذ نجد الانحدار شديداً . ويظهر أن المنطقة التى يصفها ابن خلدون هى المنطقة المسماة الآن شلال حلفا ، وتبدأ بعد سراسن ، ومن بعدها بقليل نجد شلالات جيمى وابكه وطولها معاً أكثر من ١٦ ك . م ، وينحدر عندها النيل انحداراً شديداً . وهذه الجنادل هى التى يطلق عليها عادة شلال حلفا وهى كغيرها من الشلالات السابق ذكرها يرجع تكوينها إلى اعتراض الصخور البلورية الشديدة الصلابة فى مجرى النهر وتتكون منها الجزر

وأما عن لفظ (واحات) فربما قصد بذلك بقايا المدن الأثرية التى قامت على أنقاضها المدن الحديثة ، أو ربما أطلق هذا اللفظ على البلاد الموجودة فى هذه المنطقة الجدبة والتى تعتمد على الآبار لبعدها عن النيل

أما عن قوله إن الحبشة على النيل فربما قصد بذلك الفرع الذى يأتى من بلاد الحبشة وهو الأرجح ، إذ يقول : « بلاد الحبشة على وادٍ يأتى من وراء خط الاستواء ذاهباً إلى أرض النوبة فيصب هناك فى النيل الهابط إلى مصر » . ويقول « وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمر ، وبطليموس ذكره فى كتاب الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل »

وهذه إشارة إلى أنه لم يكن يعرف هضبة الحبشة ولا منابع النيل الأزرق . على أنه يتفق مع بطليموس فى أنه ينبع من جهات غير منابع النيل فى جبل القمر . وهذه المسألة مدهشة ، إذ أن النيل الأزرق كان معروفاً منذ أيام اراتستين ، وأن هضبة الحبشة كانت مجاورة لبلاد اليمن وذات حضارة ، فكيف لم يعلم شيئاً عن منابع النيل الأزرق بينما رسم كل من بطليموس والادريسى بحيرة تسانا ؟

ثم ذكر المحيط الهندى والبحر الأحمر والخليج الفارسى ، وقال عنهما : البحران الهابطان ، ثم ذكر بوغاز باب المنـدب والمنطقة المعروفة الآن باسم الارتريا ، ثم تكلم عن التجارة بين اليمن والسويس ، وذكر سواكن ، وتكلم عن الواحات الداخلة وعين مكانها ، وذكر النيل فى المنطقة بين القطم (وجبل الواحات)

فى أوطانهم غرباء

للشاعر الفيلسوف جميل صدقى الزهاوى

إنما فى بلادنا الشعراء فئةٌ فى أوطانهم غرباء

لا رخاءٌ ولا أمانٌ ولا ما لٌ ولا عزّةٌ ولا سرّاء

ألمن يكذبون ذاك التملّى[1] ؟ ولمن يَصدقون هـذا الشقاء ؟

ما جروحٌ تَدمَى الجلود بها مثـ لُ جروح تَدمَى بهـا الاحشاء

ما شكوا أعباء الحيـاة وان كا نت ثقالاً عليهم الأعباء

وإذا دافعوا عن الحق جهرا فهناك الويلات والارزاء

لم أجد للجمهور عطفا عليهم وكأن الجمهور منهم بَرَاء

انهم لا يرون من قومهم برْ راً ولا تقديراً وهم احياء

وإذا ما لقوا الردى فعليهم يكثر الحزنُ منهم والبكاء

(١) الاستمتاع

وذكر بلدة اسنا وأرمنت وأسيوط وقوص وصول ، وقال عند الأخيرة يتفرع النهر إلى فرعين : فرع يذهب إلى اللاهون ويقصد بذلك بحر يوسف ، ثم ذكر عيذاب

من ذلك يتبين لنا أن معلومات ابن خلدون عن نهر النيل كانت مستمدة من كتابات من سبقوه إلى هذا الموضوع ومن الرواة كذلك ، ولكن يجب أن نعترف بأن ذكاء هذا الرجل ومقدرته العلمية جعلاه يضع هذه المعلومات فى قالب يقبل العقل الجزء الأكبر منه . فلقد ذكر بعض الجهات وعلل وجودها أحسن من غيره بكثير ، ومع ذلك فان له عذره ، إذ أن السياحة إلى مثل تلك الجهات كانت من الصعوبة بمكان ، ولم يكن هناك آلات دقيقة ولا معدات علمية تساعد على ضبط الأماكن بالدقة ، زد على ذلك فقد الأمن فى تلك الجهات وصعوبة ارتيادها ، ومع ذلك فان كتابات ابن خلدون جاءت معتدلة خالية من القصص الخرافية بعيدة عن المبالغة والخلط بين المعلومات والمعتقدات ؟

رشوان أحمد صادق
B. A فى الجغرافيا

تلك أخلاقهم وقد ورثتها سنناً من آبائها الأبناء

ليس هـذا فى يومنا وحده جا رٍ وعلّ الأيام طراً سواء

إنما دنيانا لقوم جحيمٌ ولا قوامٍ جنّةٌ غنّاء

* * *

ولقد أخّر الألى قرضوا الشعـ ـرَ نفوسٌ لهم بهـا كبرياء

واجتنابُ الرياء منهم بعصر شاع من أجل العيش فيه الرياء

شعراء العراق كل سنيهم سنةٌ فيها تخلف الأنواء

انني أطلب العزاء لنفسي فى أساها ، وأين منى العزاء ؟

لهفَ نفسى على القريض فقد هبّـ ـت عليـه تشلّه النكباء

عبثت فى الربيع بالروض حتى ملأته من زهره الاشلاء

وإذا الورد فى الربيع تولّى فعلى ذلك الربيع العفاء

جفّت الدوحة التى كل صبح فوقها كانت تهتف الورقاء

وعلى الزهر قد تصوّح عندى زفرة تصطلى بهـا الاحشاء

بسمت فى ربيعها لذُكاء كلما أشرقت عليها ذُكاء

أيهـا البلبل الذى يتغنّى لا يَسُمْكَ الهوانَ هـذا الغناء

* * *

أيها الشعر أنت أشجى أنين نزعته من نفسها الحوباء

أنت فى اسماع الأشايب موسيـ ـقى وفى أعين الشباب ضياء

وإذا كنتُ الدهرَ للشعر أُطرى فقليلٌ منى له الاطراء

وكأن السماء ديوان شعر بعضُ أبياته النجومُ الوِضاء

وكأن المجرّ والليلُ صافٍ كدموعى قصيدةٌ عصماء

لم يكن بالشعر الغرامُ قليلاً غير أن العراق منه خلاء

أحسنُ الشعر ما بنته على ما شعرت فى حياتها الشعراء

غير أن التقليد فيه كثيرٌ وقليلٌ على الشعور البناء

وأجلّ القريض ما استحسنته حين يُتلى العقولُ والاهواء

ونصيبُ الكثير منه بَوارٌ ونصيبُ القليل منه البقاء

(بغداد) **جميل صدقى الزهاوى**

المســاء

بقلم أمجد الطرابلسي

هوَ ذا الليلُ قد أطلَّ منَ الأفْـ   قِ فى فمِ الفضاء صمتٌ رَهيبُ
جاء يختالُ فى غَلَائلِهِ السُّو   دِ وفى وجههِ عُبوسٌ مَهيب
فتولتْ ذُكاء جازعَةَ النُّو   رِ وفرّت وقد عَلاها الشُّحوب
بسطت للوداعِ أيَّ شُعاعٍ   شاحبٍ قد أمضَّهُ التأويبُ
ما ترى الأفقَ قد تورَّدَ حزناً   إنهُ منْ دمِ النهارِ خَضيب
كانَ ساحَ الوَغى وقد ظفرَ اللّيـ   لُ كما يظفرُ القويُّ القَصوبُ
وتولّى النهارُ ، أيَّ طعينٍ   مُستضامٍ تسيلُ منهُ النُّدوبُ
مأتمُ الشمسِ أهكذا الكونُ بغيٌ   ودماء طَليـــلةٌ وحروب
إنْ غدا الليلُ ظافراً فكذا النو   رُ على الأرضِ عاجزٌ مغلوب
هكذا يظفرُ الظلامُ ويخبو   لَهَبُ النورِ فى الدُّنا ويخيب
هكذا سُـــنّةُ الحياةِ غِلابٌ   وكذا الحقُّ هيِّنٌ مَغصوب
وأطلّ الرّاعى ينوح على الشمـ   سِ كما ناحَ فى الرُّبى العندَليب
هَبَطَ القريةَ الحزينـةَ يبكى   وتعالى حُداؤهُ والنحيب
أكذاكَ الأكواخُ يغمرُها الصمْـ   تُ ويعلو الحقولَ هذا القُطوب؟
أكذاك الطيورُ تندُبُ شجْواً   ويَعُمُّ الرُّبى الظلامُ الرحيب؟
أينَ سهلٌ يموجُ فى لُجَجِ النو   رِ ووادٍ جمّ الظلالِ عَشيب
أينَ لحنُ الحياةِ تُنْشِدُهُ القرْ   يةُ ؟ أينَ المراحُ ؟ أينَ الوثوب
فبكى والقطيعُ بينَ يديهِ   خافتُ الخطوِ والثُّغاء ، كئيب
ومشى فى الظلامِ يبكى على النو   رِ كما سارَ ثاكلٌ مَحْروب
يصرُخُ النايُ فى يديهِ فتبكى   لِبُكَا النايِ أعينٌ وقلوب
هى أُنشـــودةُ الوداعِ يُغنّيـ   ـها وقد حانَ للضِّـياء غُروب
هى أنّاتُ شاعرٍ عبقريٍّ   عَشِقَ النورَ واستبتهُ الغيوب
أيهذا المساء فيكَ منَ المو   تِ دُجاهُ وسِرُّهُ المحجوب
العفاء الدجيُّ مثلُكَ رَحْبٌ   وشَبيهٌ بكَ الفناء الجديب
هكذا تنطفى الحياةُ ويَغشا   ها سُكونٌ منَ الفناء مُريبُ
هكذا تسكنُ الأمانىُّ للمو   تِ ، ويَبلى ثوبُ الحياةِ القشيب
وتغوصُ الرّكابُ فى ثبَجِ الرمْـ   لِ وتخفى مَهامهٌ وسُهوبُ
ويَضيعُ الضّجيجُ فى العدَمِ القفْـ   ـرِ وتُمحى معالمٌ ودُروبُ
نامَتِ القريةُ الحزينـةُ إلاّ   ساهراً نومُهُ الهنىُّ سليب
لِمُناهُ بينَ الأضالعِ همْسٌ   ولِخَفّاقِهِ المُلِحّ وجيب
ظلّ سَهْرانَ يرقُبُ الأنجمَ الزُّ   هْرَ تهادَى كما تهادى حبيب
علقتْ عينهُ السماء ذُهولا   واستباهُ هــذا الفُتونُ العَجيب
فى فِجاجِ السماءِ عُرسٌ بَهيٌّ   وعلى الأرضِ مأتمٌ وكُروب
فهناكَ النجومُ تطفحُ بِشْراً   وهنا الليـلُ حالكٌ غِربيب
زغردتْ فى السماءِ أنجُمها القُرْ   حى وغنّى بعيـدها والقريب
وتبدتْ تختالُ عُجباً كما تخـ   تال بينَ الشُّفوفِ خَودٌ لعوب
هكذا تضحكُ السماء منَ الأر   ضِ كما يضحكُ الخليُّ الطروب
إيهِ يا ليلُ رُفَّ فوقَ خليٍّ   لم تؤرِّقهُ لوعةٌ وخطوبُ
وانشرِ الحُلمَ والطيوفَ لِصبٍّ   لم يُنغِّصْ نعيمَه تعذيب
لستَ يا ليلُ للّذى ألفَ السُّهْـ   ـدَ كما يألفُ الغريبَ الغريبُ
أنا يا ليلُ ليس لى من سكون الـ   ـكونِ أو هدْأةِ الظلامِ نصيب
حسبُ قلبى ظلامُهُ ودُجاهُ   وأساهُ المبرِّحُ المشبوبُ
لىَ ليلانِ ساهرانِ وغيرى   ليلُهُ باسمُ الطيوفِ خصيب
أنا أحيا الحيـاةَ ليلا طويلا   أفيصفو لِىَ الدجى ويطيب؟
إطوِ يا ليلُ هذه السُّجُفَ السو   دَ فكم تحتَ جُنْحِها مكروب
كم قلوبٍ وجيعـةٍ ونفوسٍ   تحتَ هذا الدُّجى تكادُ تذوب
يا إلهى سئمتُ هذى الدياجى   إن فى القلبِ ظُلمةً لا تغيب
أنا كهفٌ مهدمٌ مُستباحٌ   فيـه للحزنِ والشكوكِ نعيب
يَصْفِرُ الغمُّ فى دُجاهُ كما تصْـ   فِرُ فى الليلِ شَمْألٌ وجنوب
أقطعُ الليلَ ساهراً ذاهلَ الفكْـ   ـرِ وفى الصدرِ للهمومِ شُبوب
غارقاً فى هواجسى وذُهولى   وعلى العينِ للسُّهادِ رَقيب
شاقنى النورُ يا إلهى ولكنْ   أينَ منّى السنا وأينَ اللهيب؟
شاقنى الشدوُ والغناء ولكنْ   أينَ منى اللحونُ والتطريبُ؟

... ...

للضّياء الحبيبِ يا نفس فى الأر   ضِ مغيبٌ وللحياةِ مغيب
لا يَرُعْكِ الظلامُ إن ملأ الكو   نَ فإنَّ الصباحَ سوف يؤوبُ

دمشق   أمجد الطرابلسي

ما يحتويه قانون العقوبات الألماني الجديد

نظريات جديدة
في فهم العقوبة والمجتمع

كانت الحكومة الألمانية قد انتدبت منذ حين لجنة من كبار المشترعين (الهتلريين) لبحث مبادئ العقوبة الجنائية التي يجب أن تتمشى مع مبادئ الثورة الاشتراكية الوطنية ومبادئ حزب (النازي) ؛ وفي الأنباء الأخيرة أن التعديلات الجديدة لقانون العقوبات الألماني قد صدرت متضمنة لمبادئ جديدة عجيبة في تعريف الجريمة وتحديد معنى العقوبة الجنائية لم يسمع بها من قبل في أي بلد متمدين . وقد قرأنا في هذا الموضوع مقالاً قيماً لكاتب فرنسي كبير ، فرأينا أن نترجمه لقراء (الرسالة) فيما يلي :

يقول زعماء الأمبراطورية الألمانية الثالثة (الزعماء الهتلريون) إن قانون العقوبات هو « مرآة صادقة للروح القومي »

ونحن في فرنسا نتأثر منذ قرون بالقانون الروماني القديم الذي اشتقت منه ثورة سنة ١٧٨٩ (الثورة الفرنسية) مبادئه الجوهرية ، ولكن الهتلريين يرفضون هذه المبادئ باشمئزاز ، ويقولون ما معنى هذا الاجلال الخالد لقصاصة من الورق ؟ إن التعلق بحرفية النصوص ينم عن ذهنية متأخرة وضيعة . والقانون يقوم على حقيقة حية هي « ضمير الشعب » ، ولا غاية لقانون العقوبات إلا أن يحمي هذا الضمير

ونحن في بلادنا ذات المبدأ الانفرادي ، نقدس ذلك المبدأ الأساسي العظيم : « لاعقوبة بغير نص » Nulla poena sine lege ولكن المشترعين الألمان الجدد يقولون : إنه لا يوجد قانون في العالم يمكن أن يتحوط بنصوصه المقابية لكل الأعمال البشرية الممكنة ، وإذن يجب على قضاتنا أن يعاقبوا أيضاً على الأعمال التي لم ترد في القانون « متى كانت تثير الرأي السليم المتزن للمجتمع »

وكذلك نبذ المشترعون النازيون مبدأ أساسياً آخر هو « عدم رجعية القوانين » (أو عدم سريانها على الماضي) ، وعلى هذا فان محكمة لايبزج العليا قد حكمت بالاعدام على فان درلوبي مع أنه في الوقت الذي وقع فيه حريق الريخستاج لم يكن القانون يعاقب على هذه الجريمة إلا بالأشغال الشاقة . وإذا كنا نحن نرى من الشر أن نطبق على المجرم قانوناً كان يستحيل عليه أن يعرفه ، فان المشترع الألماني يقول إنه يجب عليه (أي المجرم) أن يعرف إلى أي حد يمكن أن يثير بعمله السخط العام

ونحن من جانبنا يصعب علينا أن نعترف بقانون عقوبات لا يعترف « بالحريات الفردية » ، فانه إذا عدمت هذه الحريات أضحى المشترع حكما متعسفاً لا غير . وهذا ما حدا برجل مثل رامون فرناندز أن يقول إن صوغ القانون الشيوعي الجديد ، والقانون الفاشستي الجديد « لا يتميز فقط بسحق القانون القديم ، وإنما يتميز بسحق الحقوق جميعاً » ؛ بيد أنه يجب أن نعترف على رغم اشمئزازنا بأن الهتلريين يقومون بتحويل الحقوق . ذلك أن الشعب هو الذي يرفعونه فوق كل شيء ؛ والشعب ، لا الفرد ، هو الذي يريدون حمايته بادئ ذي بدء ؛ وهو تحويل في القيمة يتمشى مع استبدال المبادئ الحرة القديمة « بمجتمع دولة عام »

ومن مبادئنا أننا نريد أن تحدث القوانين والظروف دائماً أثرها لصالح الفرد ، فاذا عدل قانون ، فاننا نطبق عليه أخف النصوص ؛ فاذا تطرق الشك إلى ذهن القاضي وجب عليه أن يحكم بالبراءة ؛ وكل متهم يعتبر بريئاً حتى يفصل في قضيته ، وهذه كلها مبادئ يمقتها الهتلريون

فهم يصيحون : أليس فظيعاً أن نضع المجرم في ذروة قانون العقوبات ؟ وأن نعكف بشغف على درس نفسيته باسم الدفاع عنه ؟ لقد انحدر علماء الجنائيات في الأمم الديمقراطية إلى هذا الدرك ، أعني إلى درك « الحق الزائف » أو « الحق المعدوم »

والواقع أن ميولنا الفردية تجنح إلى التساهل مع المجرم ؛ فمتى حللنا البواعث التي دفعت المجرم إلى ارتكاب جرمه ، فقد فهمناها ، وعندئذ نعطف على المجرم عطف الانسان على الانسان ، بل لقد انتهى مشترعونا الجنائيون شيئاً فشيئاً لا إلى تحديد العقوبة ، ولكن إلى حب الاصلاح

وهذه حالة ذهنية لا يسيغها مشرعو الامبراطورية الألمانية الثالثة ؛ فهم يرفضون ، لا أن يحكم على بريء – ولكن أن يفلت مجرم من العقاب . وإذا القضاء لم يقدم ترضية كافية لسخط الشعب العادل حينما يطالب بالعقوبة ، فان النظام الاجتماعي يغدو في خطر ، وتسري إلى الشعب عوامل الهياج العام

ومن خواص هذه النظرية تقرير صنوف المشبوهين . وإذا كان القاضي يمثل الشعب حقاً ، فانه في زعم أولئك المشترعين لا يمكن أن يرتكب خطأ قضائياً ، ويكفيه دون أن يفتح القانون أو يرجع إلى ضميره الشخصي ، أن يستشير ضمير الشعب ، والشعب معصوم لا يخطئ ، وهو يكاد يتكهن ، وعواطفه هي التعبير عن العدالة ذاتها

ويقرر قانون العقوبات الاشتراكي الوطني أنه يمكن معاقبة مجرم لم يتم جريمته ، ولكن « أراد أن يرتكبها » . وفي رأيه أن الجريمة ليست هي عمل القتل في ذاته بل هي « اعتزام القتل » ونحن في فرنسا نعاقب على « الشروع » في بعض الأحوال ؛ فلا يعاقب مثلاً ذلك الذي يجس جيب انسان من الخارج بنية سرقته ، ولكنه يقع تحت طائلة القانون إذا حاول أن يدخل يده في ذلك الجيب . فهذه الفروق القضائية الدقيقة يخشاها المشترع الألماني أعيا خشية ؛ ولهذا يتخذ الرأي الناقص ويرى أن يضع تحت نظرية « العزم المهدد » أقل حركة تمازجها الشبهة

وهكذا نرى أن قانون العقوبات الألماني الجديد وكذلك الاجراءات الجنائية قد بسطت كل التبسيط . وقد ألغيت « الظروف المخففة » ولم يعترف « بسبق الاصرار » بحيث أضحت جريمة الهوى والجريمة التي دبرت طويلاً سواء في العقوبة ؛ ذلك أن المجموع يجب أن ينتقم بسرعة وبلا هوادة من أولئك الذين يمكرون صفوه ؛ وللقاضي أن يوقع عقوبات تبعية بعد تنفيذ العقوبة الأصلية مثل الجلد والصوم الجبري ، ومصادرة الملك ؛ وهكذا يراد أن يدفع الجانح الذهن إلى مرتبة انسان منحط من الوجهة الجسمية والعقلية

وقد ذهب المشترعون النازيون إلى حد اعتناق الروح الاسبارطي ؛ فالدولة لها الحق « أن تقضي بصفة ادارية بالموت على بعض الأفراد الذين ليست لهم قيمة جوهرية » فرجل مثل بيرون (لورد بيرون شاعر الانكليز) يمكن أن يلقى في الماء منذ مولده ؛ ورجل مثل هلدرلن الشاعر الهائم يمكن أن يعدم ؛ ويصرح قانون العقوبات الجديد للطبيب بأن يعدم المريض الذي لا يرجى برؤه متى طلب اليه ذلك . وبعكس ذلك فانه لما كان الفرد السليم مديناً بحياته للمجتمع ، يعتبر الانتحار جريمة ، ويعاقب الشركاء في محاولته . ثم إنه لما كان الشرف أثمن من الحياة ، فان القانون يعترف باجراء المبارزة بين المتخاصمين

ويكشف لنا المشترعون الهتلريون عن غايتهم النهائية فيما يأتي : ليس المجتمع هو الذي يكون غاية في ذاته ، ولكنه الجنس أو الأمة ؛ والعمل لعظمتها يجب أن يكون هو غاية الحياة لكل فرد

إن النزعة الفردية وحدها هي التي تدفع الفرد إلى حب الانسانية . ولكن الهتلريين باعتمادهم على القيم الاجتماعية ، يجنحون إلى أهم عناصرها ، أعني « القومية »

وعلى هذا فان قانون العقوبات عندهم يقرر صنوفاً جديدة للجرائم ؛ فمثلاً يعتبر « خائناً للوطن » من يجرح الاشتراكيين الوطنيين في عزتهم ، أو يهزأ باحتفالاتهم ، أو يسخر من أغنيتهم، أو من ينوه بأعمالهم المعجبة ؛ وكذلك من ينتقص من اقدار الأبطال الماضين ، أو من يهين المحاربين القدماء . وهكذا نقلت الحماية الشرعية لشخص الانسان إلى حماية الحزب وإلى حماية الأمة

ثم إن الأمة عندهم تقوم على الجنس ، ويجب أن يحتفظ الدم الشمالي القديم بنقائه وتفوقه . وعلى هذا فانه ترتكب جريمة « خيانة الجنس » كلما امتزج الألماني (أو الألمانية) باليهود أو بالأجناس الملونة ، أو لذا امتزج علناً بزنجي وجرح بذلك « العاطفة الجنسية » لأمته . ويعاقب الزنجي بعقاب أشد لاعتباره انساناً منحطاً

ونحن نعرف أن الهتلريين أصدروا في العام الماضي قانوناً للتجارة ينظم العلائق بين العمال وبين أصحاب الأعمال على أسس جديدة . وقانون العقوبات الجديد يتأثر بهذه الأسس ؛ اذ المقصود أن ترتب بين المخدوم والعامل نفس العلائق التي كانت سائدة في العصور الوسطى بين السادة والأتباع . فالعامل يجب عليه الطاعة والاخلاص ، ولا يستطيع بعد أن يتولى الدفاع عن نفسه بنفسه ، بل يعتبر واقعاً تحت حماية السيد ، وعلى السيد أن يقوم بحماية مصالحه المادية والأدبية . صحيح أن قوانين العمل الاشتراكية (مثل قانون الثماني ساعات ، وقانون التأمينات وغيرها) لم تلغ ، وصحيح أنها ما زالت تطبق ، ولكن لا لحماية حقوق العامل ، بل من وجهة اجتماعية مشتركة ، لأن القضاء على النزعات المتمردة يؤكد تعاون العمل ورأس المال

فهل يعني ذلك كله أن حماية الفرد قد ألغيت بتاتاً ؟ كلا ؛ ولكن قانون العقوبات لا يهتم بشأن الفرد إلا باعتباره عضواً في

(البقية على صفحة ١١٩٨)



من أساطير الإغريق

بسيشيه وكيوبيــــد

للأستاذ دريني خشبة

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

فلما كان الغسق [1] سمعت إلى الباب ينفتح ، ويدخل فَتًى خفيف الخُطى ، ويقبل عليها فيُحيي أحسن تحية بأرق صوت ، ثم يستأذن فيجلس إلى جانبها

وكان الظلام شاملاً ، فلم تستطع بسيشيه أن تتبيّن وَجه الجالس إليها أو خَلْقَه ، ولكنها كانت تسمع إلى موسيقى تمتزج بصوته الحنون ، وكانت تحس كأن عَبرات تكاد تخنقه ، لأنه يريد أن يبوح بشيء يمنعه الخجل من البوح به ... واقترب منها ...

وأخذا في حديث شهي ، ولكن الحياء كان ما يزال يعقد لسانيهما ...

واقترب منها كذلك ...

وتماست الأجسام المرتجفة ، وليس كتماس الأجسام مُفرّجاً عن الحب !

وأخذ الحبيب يد حبيبته بين كفيه ، فانتقلت الحرارة من هنا إلى هنا ، ثم دَنا الفم من الفم ، واستراح الخد على الخد ، وبدأ طوفان القبل ... ...

وتمتم كل من الحبيبين بهذه الكلمة السماوية الخالدة :

« ... أنا ... أحبك ... »

* * *

ـ « كأنك أنت أيها الحبيب الصغير الذي أنقذتني من براثن الموت !! »

ـ « أجل يا مُنْية النفس ، وَرجيَّة القلب ، بمعونة الآله الرفيق زفيروس »

ـ « أفأنت إلَـهٌ إذن ؟ »

ـ « لا أستطيع أن أذكر لك من ذلك الآن شيئاً ... »

ـ « إذن ما اسمك ؟ »

ـ « ولا هذا أيضاً ! »

ـ « أحب أن أراك ، فهل تأذن بإيقاد المصباح ؟ »

ـ « إذا حاولت أن تريني ، كان فراق بيني وبينك !! »

ـ « أنت تزعجني أيها الحبيب الصغير ... »

ـ « ولم أزعجك ؟ ... ألست قد أنقذتك من الموت ، وأسكنتك هذا القصر المنيف ، ولست أمُنُّ عليك !! »

ـ « برغم هذا فانك تزعجني ... »

ـ « هاتي قبلة ... ودعي هذا الحديث الشاجن ... »

ـ « ... ؟ ... »

* * *

وظل يزورها كلما أقبل الليل ، فيمكث معها حتى مطلع الفجر آخذين في عناق وقُبَل ، وحديث ألذ من قِطع الروض ، وأروح من رفيف النسيم ؛ ثم يَفْصل على أن يعود لميعاده من اليوم التالي ... ... وبسيشيه راضية قانعة ، لا يضيرها ألا تعرف من هذا الحبيب الوفي ... ولا ما يكون اسمه ...

وذهبت تنشق أنفاس البحر فوق الشاطىء الطويل المزهر فلقيت أختيها فجأة تخرجان من زورق جميـل ، فتعانقهما عناقاً حاراً ، ويغمرها للقائهما فرح كبير ، وتعود بهما إلى القصر ، وتطوف معهما حدائقه وغرفاته ، وتقف عنـد الصور والتماثيل ونافورات الزئبق ؛ وتدخلهما « هيكل الحب » كما اتفقت وحبيبها أن يسميا المخدع ؛ ثم تقص عليهما قصتها منذ اعتزامها الانتحار إلى أن تلقاها . . .

وتكون الغَيْرةُ قد أنشبت أظفارها في فؤادي الفتاتين ؛

---

(١) الغسق أول ظلمة الليل

ويكون الحسد قد شاع فى نفسيهما الخبيثتين ، فتضمران لها الشر المستطير

— « ولكن كيف تطمئنين إلى هذا الحبيب يا أختاه ؟ ألا تخافين أن يكون غولاً أو هولة أو سعلاة ؟ لماذا إذن يأبى عليك أن تنظرى اليه ؟ أليس يخشى أن تفزعى منه إذا رأيته على حقيقته ؟ أيغرك منه كلامه الناعم الموشى ؟ لا يا أختاه ! نحن نخشى أن يقلاك يوماً أو يجفوك فيقتلك . . . ! لا بد أن تأخذى حذرك منه ! ولا بد أن تنتهزى فرصة يكون غارًا فى نوم عميق فتوقدى المصباح وتنظرى اليه ، فان كان وحشاً أو هولة ، فاليك هذا الخنجر المرهف فاغمديه فى قلبه واستريحى منه ، وعودى معنا إلى أبينا الملك فانه جد مشتاق اليك . . . » .

ودفعتا اليها الخنجر المسم بغِلِّهما ، وولتا عنها تخببان فى أجمة دانية . . .

وفعل كلامهما فى قلب أختهما فعله ، فلما كان الليل ، وغفا الحبيب الصغير مما ألم به من سكرة الحب ، نهضت بسيشيه إلى مصباحها فأوقدته ، وإلى الخنجر فشرعته ، وذهبت تنظر إلى العاشق البرىء . . .

فماذا رأت ؟

أجمل مخلوق على وجهك أيتها الأرض ! . . .

لقد كان نائماً حالماً ، فيه دعة وفيه فتون . . . وملأ الفتاة حباً . . . فارتجفت . . . واهتز المصباح فى يدها . . . فسقطت نقطة من الزيت المشتعل على ذراع الحبيب فأيقظته . . . وفتح عينيه . . . فرأى إلى الخنجر المرهف فى يمين بسيشيه . . .

ياللهول . . . ! !

لقد قفز الحبيب قفزة هائلة ، ورفرف بجناحيه الصغيرين ، وقال :

« بسيشيه . . ! ياشقية . . ! وداعاً . . ! فلن نلتقى بعد اليوم !! »

وشاعت الحسرة فى قلب الفتاة فسقطت على الأريكة من الجزع والاعياء . . .

ما كاد كيوبيد يرف بجناحيه فيغادر القصر حتى امتلأ المخدع أرواحاً شريرة طفقت تهاجم نفس بسيشيه فى شدة وعنف ، وكلما نظرت هنا أو هناك رأت أفواهاً هائلة تنفث الموت الأبيض من أنيابها البارزة الحوانى ، ثم أحست كأن القصر يرتجف ويميد ، ويكاد ينقض ، فهرعت إلى الخارج مهرولة ، وهرعت فى إثرها المخاوف والأشجان ، يحدوها الذعر والفزع الشديد

ونظرت فى السماء فلم تجد قمرها المنشود تبثه وتشكو اليه ، بل وجدت سحباً قاتمة تنعقد فى المشرقين والمغربين ، والودق يخرج من بينها كما تخرج الزفرة من صدر مكروب ! وبدأت العاصفة الهوجاء تزلزل الجزيرة وتميد بالدوح وترفع شياطين الموج فتجرف العامر واليباب !

وأخذت الرياح الهوج تلاحق الفتاة حيثما ذهبت ، وترجم وجهها الكاسف المُغضَّن بجمرات البَرَد أيان ولَّت

ووهنت أعصابها فراحت تصيح فوق الشاطىء كالذى يتخطفه الشيطان من المس ، فلما لم يلب نداءها أحد ، انثنت نحو القصر ، واطَّوفت بالأسوار تتفقد الباب الكبير الضخم ... ولكن ... هيهات ! لقد كان السور كتلة واحدة ليس بها منفذ ، ولم يكن غارقاً هذه المرة فى الطوفان الزاخر من أزهار الشيير والياسمين والبابونيا ، وكان عالياً على غير عهدها به ، حتى يكاد يستتر وراءه القصر الباذخ ؛ فلما استيأست من الدخول ، وشعرت بقلبها يتحطم ، وبنفسها تذهب شعاعاً ، استلقت على الكلأ ، واستسلمت لنوم ممتلىء بالأشباح

وأشرقت الشمس فاستيقظت بسيشيه ، وتلفتت حولها فلم تر السور ولم تجد القصر ، وفركت عينيها تخال أنها تحلم ، ولكنها ترى الجزيرة جرداء إلا من شجرات قليلة من الشاهبلوط ؛ وإلا من غدير صغير به بقية غير مباركة من الماء النمير . . .

ويكون صوابها قد ثاب إليها ، فتيمم شطر الشاطىء تتفقد وروده ورياحينه ، ولكنها لا تجد إلا آلافاً من السراطين الميتة لفظها البحر بفعل العاصفة ، وإلا أكواماً من الوَدَع والمحار تجلل كثبان الرمال الممتدة فوق الجزيرة ، كأنها قوافل من آلام بسيشيه وأشجانها !

« ويلاه !

« لقد حملت إليك أيتها الجنة الصغيرة وبُرْدُك بُرْدُ الشباب ، وربَّانك ريعان الصبى ، وفى أعطافك تنهل سُلافة الحب ، وتحت شطئانك ترقص عرائس الماء ، وفى غُدرانك تترقرق أمْواهُ الهوى ؛ وكل مافيك تدب فيه حياة إلّهية ناضرة

« أفهكذا يذبل شبابُك ، ويذوى ريعانك ، ويغيض حُبُّك

وتقفر شطئانك ، فليس يرف فوقك إلا هامة ، ولا يهتف فيك إلا صدى الوحشة ، ولا تهب ريحك إلا كأنفاس الجحيم ؟!

« ويلاه !

« لقد كنت أفرك عينيّ أحسبني منك أيتها الجنة فى حلم ، فالآن أفرك عينيّ أرى هل أنا من خرابك اليوم فى حلم ؟!

« لقد نعمت بالحب فوقك أيتها الجزيرة ، فلماذا لقيت أختيّ ؟! أين ذهبتا ؟! أحسبهما ذُعِرَتا من العاصفة ، وفزعتا من الزلزال ، ففرّتا . . . فصبر جميل !! . . . »

* * *

هكذا ظلت تبكي پسيشيه ، وهكذا غبرت بها الأيام فوق الجزيرة تنتظر أوبة حبيبها . . . ولكن . . . بلا جدوى !!

وكانت تأكل ثمرات من الكستناء تذهب بها سغبها ، وترشف من بقية الماء فى الغدير رشفات تبل بها أوامها ، ثم تعدو فى الجزيرة باحثة عن . . . . . لا شيء !!

ووقفت يوماً عند ضفاف الغدير تروى ، فما شدهها إلا أن ترى الماء يزداد ويزداد ، والغدير يتسع ويتسع ، حتى تكون على عُدْوة نهر عظيم دافق ، تزخر أمواجه وتجرجر أواذيّه . ويبدو لها أن تلقى بنفسها فى أعماقه ، لأنها لم تعد تحتمل هذا الألم المتصل والشجن الطويل الممض . . . وانها لتنظر الى الماء فيجيش قلبها بالذكريات ، وتفيض عيناها بالدمع ، ويشحب جبينها الكاسف الحزين ، ثم يتأوّد غصنها اليابس الهش ، فتنحدر الى اليم ، وتتلقفها اللجة

ولكن رب النهر الذى كان واقفاً يسمع ويرى يسرع إلى الفتاة فينتشلها ، ويصيح ببناته عرائس الماء فيأتين من كل فج عميق ، ويترفق باللاجئة الشقية فيواسيها بكلمات تقطر حناناً وتفيض رحمة ، ثم يتركها لبناته يداعبنها ويلاعبنها

وتأنس پسيشيه الى العرائس الحلوة ، ولا يخجلها أن تأخذ معهن فى حديث حبها ، فاذا سألنها عن صفة حبيبها ، قالت : « كان صغيراً كالطفل إلا حين يكون فى ذراعيّ ، مسنداً رأسه على صدرى ، فيكون إذ ذاك أكبر من الدنيا بما فيها من مباهج ومفاتن . وكان طيّب الأنفاس ، فما قبلني أو قبّلته إلا شممت عبق الورد فى فمه ، وأرج البنفسج فى خده . وكان اذا عانقنى أو عانقته ، تحسّست له جناحين على ظهره ، صغيرين ناعمين ، فاذا سألته عنهما ، أنكر عليّ وصرفني برفق ودعة عن الحديث عنهما ، فنأخذ فى أمور أخر . وكان يحمل قوساً من ذهب ماتفارقه ، وكنانتين من حرير فيهما سهام من رصاص وذهب . . وما دهاني فى الليلة المشؤومة إلا أن أراه يثب من النافذة ، فيحلق فى كبد السماء كأن له قصراً فيها . . فبحق زيوس عليكن ياعرائس الا ما أعلمتُنَّني مَن هذا الحبيب ، فأنتن بنات إله مبارك ، ولا بد أن يعرف أبوكن من أمره كل شيء . . . . »

وصمتت پسيشيه ، ونظرت إلى العرائس فرأتهن يحدجنها بنظرات دهشة حائرة ، ثم يتهامسن ، ثم لايحرن جواباً ؛ فقالت لهن :

« أأنتن تزعجنني ياعرائس ، فهل هكذا يُلقى الضيف لديكنّ ؟ »

فقالت كبراهن : « لا عليك يا فتاة ، ولكنك كنت أتعس مخلوقة على وجه الأرض حين عصيتِ أمر كيوبيد !! »

ـ « كيوبيد ؟! ومن كيوبيد تعنين !؟ »

ـ « كيوبيد بن ڤينوس ، فهو الذى كان يهواكِ وكنتِ تهوين !!؟ »

ـ « كيوبيد الآله ! كيوبيد حبيبي ! ياويح لى . . . لابد أن يعود لى إلهي الجميل الحبيب . . . لن تحلو لى الحياة بدونك يا كيوبيد . . . »

* * *

هامت پسيشيه على وجهها فى أقصى الأرض ، وكلما مرت بروضة أو غيضة ، وكلما وقفت عند ضفاف نهر أو ألمّت بحفافي غدير ، برزت لها عرائس الماء فشكت اليهن ، وسألتهن إن كن يعرفن أين يأوى كيوبيد ؟ وقالت لها عروس :

ـ « أترين يا فتاة إلى هذا الجبل البعيد الذى يحمل السماء بروقيه ؟ إذا كنت عنده فتلبثي حتى يعود بان[1] من صيده فتملقي به ، واذرفي من دموعك تحت قدميه ، فاذا هش لك وبش ، فاذكرى له حاجتك يقضها لك ، أو يدلك على من عنده قضاؤها »

ـ « ومن عسى أن يكون بان ياأختاه ؟ »

ـ « رب المراعي ، وإله الصيد ، وحامي القنص . ألم تقرّبي له ؟ ألم يفعل أبواك ؟ »

(١) ورد ذكره فى بعض الأساطير باسم كونستنيس . وما يزال الرعاة الانجليز يتغنون بحاميم بان إلى اليوم

- « بل فعلنا . . . . »

ونهدتْ إلى الجبل وكأنما بها عُقل من الجنون ، وجعلت تَطوّف به حتى مالت الشمس إلى الغروب ، فرأت (بان) قادماً يدبُّ بحافريه ، ويردد فى الآكام ناظريه ؛ فلما لمحها أقبل عليها دهشاً متعجباً ، ثم أخذ يتفرس فيها كأنما بهره حسنها ، وسباه منظرها . . .

وشكت إليه ؛ فما هالها منه الا قوله : « تمسة ! أنت غريمة فينوس !! » فقالت ، وفى عينيها دموع تخنق منطقها : « غريمة فينوس ؟ ومالى أنا ولفينوس ؟ » فقال بان : « جمالك هذا جنى عليك . . . لقد صرف الناس عن ربة الجمال والحب الى عبادتك أنت أيتها الشقية ، ولذلك حنقت عليك ، وأصابك من الأذى ما أصابك . . . إسمعي يافتاة . . . لقد مررت اليوم بربة الخيرات ديميتير ؛ هل تعرفينها ؟ أم پرسفونيه ، فتاة الربيع التى خطفها أخى بلوتو لتؤنسه فى هيدز ! مررت بها فسمعتها تتحدث عن كيوبيد وهيامه بك ! بك أنت ! أليس اسمك پسيشيه ؟ »

- « . . . . ؟ . . . . . . »

- « تحمّلى إليها إذن . . . إنها ليست بعيدة من هنا . . . إنها شفيقة رفيقة ، وهى ترثى لأمثالك من العاشقات الوامقات ؛ تحدثى إليها عن كيوبيـد واستمعى إلى ما تقوله لك وتشير به عليك . . . أترين إلى هذه الغابة الملتفة الوارفة ؟ إنها هناك تنتظر ابنتها فى أوبتها من هيدز »

وتحملتْ إلى الغابة ، ولقيت ديميتير الطيبة الوقور ، فانحنت تحييها ؛ وما كادت تسرد شكاتها حتى انهمر الدمع من عينيها الحزينتين ، وتخاذلت فخرّت مغشياً عليها ! . وتقدمت ربة الخير فباركت الفتاة ، وطفقت ترش على وجهها الماء من غدير قريب ، فكان الزهر ينبت حول پسيشيه كلما انتثرت قطرات على الأرض ، فلما أفاقت ، بهرها هذا السرير الربيعى من منضور الورد يحف بها ، ويحنو عليها . . . حنو المرضعات على الفطيم !

وبسمت ديميتير ، وواست الفتاة الوالهة وآنستها ، ثم ذكرت لها أنها رأت كيوبيد بُكرة ذلك اليوم ، وفى كتفه جرح دام أحدثته فيه أمه فينوس ؛ لماذا ؟ لا يدرى أحد ! - « . . . فاذا كان لا بد لك من لقاء كيوبيد ، فاذهبى إلى فينوس وتبتّلى إليها ، وادخلى فى خدمها وحشمها ، وأبدى لها بتفانيك فى طاعتها أنك من عبادها المخلصين ؛ عسى يا بُنيَّة أن ترضى عنك ، ويذهب عنك هذا الحزَن . . . »

ثم قادتها إلى قصر فينوس ، وزوّدتها بما ينبغى لها من النصح ، وعادت إلى غابتها الوارفة تنتظر پرسفونيه

وبرهنت پسيشيه على حسن إخلاصها وجميل توبتها ، وكانت ربة الحسن تسخّرها فيما لا طاقة لبشر به ، فكانت تقوم بما تُكلَّف به وتؤديه خير الأداء .

وأعجب ما حدث لها من ذلك أن أمرتها فينوس بالتوجه إلى هيدز - دار الموتى - واقتحامها ، ثم لقاء پرسفونيه ، ربة الربيع ، وزوج بلوتو ، وسؤالها صندوق الطِّيب الذى تدهن منه العجوز الشمطاء ، فيرتد اليها صباها ، ويتدفق ماء الشباب فى أعطافها ، وتعود كما كانت ، شرخ صبى ، وعنفوان شباب !

وأسقط فى يد پسيشيه ! ولم تدر كيف السبيل إلى هيدز ! ! ولكنها حين ذكرت پرسفونيه ، بدا لها أن تذهب فتستشير أمها ديميتير عسى أن ترشـدها أو تزودها خالص نصيحتها . فذهبت إلى الغابة ، ولقيت لحسن حظها ديميتير تودع ابنتها ، لتعود أدراجها إلى هيدْز ، إذْ كان الربيع الحلو قد صوّح ، وأزف الشتاء ببرده وزمهريره . . .

وهشت لها ديميتير ، وعقـدت بينها وبين ابنتها أواصر الصداقة ، ولما حان موعد الافتراق ، أبدت پسيشيه رغبتها فى أن تصحب ربة الربيع لتؤنسها فى ظلمات دار الفناء ، فلم تعارض الفتاة ، بل أذنت لها راضية [(١)]

وسارا بين صفين من أرواح الموتى تغنى وتنشد . . . وتبكى ! !

وكم كان عجب بلوتو شديداً حين لمح الفتاة الرشيقة الهيفاء تسير إلى جانب زوجته ، وبلغ به التأثر مبلغه ، فغادر لها غرفة العرش المظلمة . . .

وتلطفت پسيشيه فسألت مليكة هيدز صندوق الطيب الثمين ؟ ؟ ؟ فوجمت پرسفونيه ؛ وكانت على وشك أن ترفض هذا الطلب ، لولا أن ذكرت الفتاة أن فينوس هى التى أرسلتها لتطلبه وتجيئها به . فنهضت پرسفونيه إلى دولاب قريب ، وعادت بالصندوق ، ترتجف به يدها العاجية الجميلة ، وقدمته للفتاة وهى تقول :

(١) فى بعض المصادر أن زفيروس هو الذى قاد الفتاة الى هيدز

« لا تفتحيه . . . لا تفتحيه أيتها الصغيرة ! ! »

واستأذنت بسيشيه ، وعادت أدراجها إلى . . . هذه الدار الأولى . . .

وفى طريقها إلى قصر فينوس ، ذكرت كلمات ربة الجمال عما يحتويه الصندوق من دهان يرد القليل منه جمال الشباب وريعان الصبى . . . وذكرت كذلك تلك الليالى الطوال التى ظلت فيها مُسهَّدَةَ العينين تبكى كيوبيد وتحن إليه ، حتى شفَّها الوجد ، وأوهنها السقم ، وبرّح بها الهيام الشديد ؛ فتحدثت إلى نفسها تقول : « فلم لا أدهن بقليل منه وجهى وبَشْرَتى ؟ ولم لا أرتد جميلة كما كنت ، مادمت أطمع فى لقاء كيوبيد ؟ إن ربة هيدز حذرتنى من فتح الصندوق ، لا أدرى لماذا ؟ فاذا كان ما به شر ، فلم تريده فينوس الجميلة ؟ لا ! لا بد أن أتطيب به ، وليكن بعدها ما يكون !! »

وداعبت أناملها الصندوق ففتحته . . . . ولكن . . . .

وا أسفاه ! ! لم يكن به غير هذا الروح الشرير المنكر . . . روح النوم . . . ولقد وثب فى وجه بسيشيه فخلّق فى عينيها الزرقاوين الصافيتين ، ثم ما هى إلا لحظة حتى انكفأت المسكينة على الحشيش المُنَدَّى تغط فى نوم عميق . . . ! !

* * *

وكان كيوبيد يتنزه فى الحدائق المجاورة ، فما دهاه إلا أن يرى ملاكه المحبوب ممدداً على الكلأ ، وصدره يعلو ويهبط ، كأن كابوساً مستقر عليه

ودنا إله الحب من بسيشيه ، وسرعان ما هاجت به ذكريات غرامه الأول ، وثار فى قلبه الحنين إلى الليالى المقمرة الحلوة التى كان يقضيها إلى جانب الرشأ الغرير ، الذى يترنح أمامه فى قبضة الروح الشرير . . . روح النوم !

ونظر كيوبيد بعينيه السَّحريّتين ، فرأى الروح يصارع بسيشيه صراعا هائلا . . . فثارت فيه نخوة الوفاء ، وأنفذ إلى العدو سهاماً متتابعة متلاحقة ، حتى قهره ، واضطره إلى العودة من جديد إلى الصندوق الصغير ، وما كاد يستقر فيه حتى أغلقه عليه ، ودفنه فى غَوْرٍ من الأرض

ثم تقدم الى حبيبته ، وطفق يروّح على وجهها ، ثم أيقظها بقبلة اهتز لها الروض ، وطرب الورد ، وشاعت فى الطبيعة الضاحكة أسراً وسحراً ! !

«أختاه ! ! انهضى ! أنظرى الىّ ! هأنذا كيوبيد ! هلمى فلن نفترق بعد اليوم ! ! »

* * *

وأغذا السير ، حتى اذا كانا فى دولة الأولمب صاح كيوبيد فى معشر الآلهة : « أن اشهدوا أيها الأرباب ، لقد اخترت بسيشيه الجميلة زوجة لى مباركة . . . . » وطرب الآلهة ، وأقيم المهرجان الفخم ؛ ورقصت ديانا ربة القمر ، وعزف أبوللو على موسيقاه ، وتقدمت فينوس فباركت الزوجين الحبيبين ، ورسمت بسيشيه ربة للروح الخالدة التى لا تفنى ... ومنذ ذلك اليوم وهى ترف بأجنحة فراشة جميلة فى جنة الأولمب ، والى جنبها حبيبها كيوبيد

دريني خشبة

البريد الأدبي

حول كتاب فتح العرب لمصر

عزيزى الأستاذ الفاضل صاحب (الرسالة)

قرأت اليوم فى (الرسالة) الغراء صحيفة النقد التى تسميها (الرسالة) صحيفة «الكتب»، وقرأت فيها للأستاذ الجهبذ العلامة محمد بك كرد على كلمتين، احداها عن كتاب «فتح العرب لمصر»؛ والثانية عن كتاب «فنون الطهى الحديث»

ولقد عنانى أن أقرأ ما كتبه الأستاذ الفاضل عن كتاب فتح العرب لمصر بنوع خاص، لأن ذلك الكتاب حبيب إلى نفسى لصيق بها. ورأيت الأستاذ الفاضل يذكر عن الكتاب بعض حسناته فشكرت له ذلك، فالكتاب جدير من الناطقين بالعربية بكل تقدير واعجاب، إذ هو مثل عال من أمثلة البحث الدقيق العادل، فوق ما يمتاز به من قوة الأسلوب وجماله فى لغته

ثم عرج الأستاذ على الترجمة والمترجم، فتفضل بأن وصف المترجم بأنه اعتنى عناية شديدة «بتجويد ترجمته على صعوبتها لما حوت من النقول العربية وغيرها من اللغات ليرد الوثائق إلى أصلها». ثم ذكر ما سماه تحريفاً فى الأسماء، وذكر من ذلك أمثلة

على أنى وإن شكرت له قوله إن المترجم قد عنى بالترجمة عناية «شديدة» أرجو أن أراجعه فى زعمه أن ترجمة (Edessa) تكون محرفة إذا قلنا هى «اذاسا»، فان اطلاق ذلك الاسم على المدينة كان مقصوداً، فالمدينة معروفة بالرها وبأذاسا، والاسم الثانى أقرب إلى التسمية العامة فى اللغات المختلفة، فكان هذا سبباً فى تفضيل «أذاسا» على الرها؛ وأما برجاموس أو فرغاموس فلا أدرى وجه التحريف فيها، فان الباء والفاء والجيم والغين كانت دائماً موضع اختلاف فى وضع العرب للأسماء، ولاسيما المحدثين منهم، وقد آثرت أن أكتب الاسم بالعربية قريباً كل القرب من الاسم القديم الذى كان ولا يزال معروفاً يطلق على المدينة التى كانت فى آسيا الصغرى. وأما «افسس» و «افيسوس» فلم أفطن إلى وجه التفرقة بينهما، ولا إلى وجه التحريف فى الاسم الذى أوردته فى الترجمة، فليس بين الكلمتين من فارق إلا اثبات حركات الكلمة على النحو الذى يسهل النطق بها

على أن الأستاذ الفاضل لم يكتف بعد ذلك بتوجيه النظر إلى هذا التحريف الذى زعمه، بل ذكر كلمة عامة عن «هنات قليلة» لا يخلو منها كتاب منقول إلى لغتنا من لغة أعجمية؛ وكنت أود أن يجمل حضرته من ذلك الوجه بحثاً فيما يوجه فيه الترجمة وجهة صالحة، غير أنه اكتفى بالتعميم والاشارة والايجاز فى موضع كان الأوجب فيه الافاضة والاطناب، ذلك بأن عمل المترجم إن هو إلا النقل، وما يكون نقله جديراً بالتقدير إلا إذا سلم من العيوب التى تؤخذ على أساليب اللغات الأعجمية. ولعل اشتغال الأستاذ الفاضل بالكتابة عن الكتاب الآخر (فن الطهى الحديث) فى نفس اليوم قد جعله لا يجد الوقت لذكر شىء من تلك الهنات، فرجاؤنا أن يتفضل باعادة الكرة وبيان ما أجمل؛ ورجاؤنا كذلك أن يبين وجه النقد حتى نكون على بصيرة من رأيه، نفعنا الله بعلمه وفضله وعلم أمثاله من أعلام العلماء ؟

محمد فريد أبو حديد

وفاة دريفوس

من أنباء فرنسا الأخيرة أن الكولونل ألفرد دريفوس قد توفى فى الخامسة والسبعين من عمره، ولم يشتهر فى تاريخ فرنسا المعاصر اسم بقدر اسم دريفوس، ولم يقترن باسم آخر مثل ما اقترن به من الحوادث والحركات العظام؛ كان اسم دريفوس منذ أربعين عاماً ملء الأسماع فى فرنسا والعالم بأسره، وكانت القضية الشهيرة التى ارتبطت باسمه، واتهم فيها ظلماً بالخيانة، أعظم قضية عرفها التاريخ من حيث اتساع مداها، وتشعب نواحيها، وتعقد إجراءاتها، وما أثارته مدى عشرة أعوام فى فرنسا من الأحقاد والشهوات التى كادت تزلزل أسس الحياة العامة فيها وتثير ضرام الحرب الأهلية. وقد كان دريفوس يهودياً، وهو سر المسألة كلها؛ فقد كانت الخصومة السامية أو حركة العداء ضد اليهود

يومئذ على أشدها فى معظم البلاد الأوربية ، وكانت الكنيسة والعسكرية فى فرنسا تضطرمان بهذا العداء ، وكانت قضية دريفوس نفثة من نفثات هذه الحركة التى أريد بها القضاء على نفوذ اليهودية فى السياسة والجيش ؛ فاتهم دريفوس الضابط اليهودى (سنة ١٨٩٦) بالخيانة العليا ، وبأنه يقدم إلى بعض البلاد الأجنبية (ألمانيا) معلومات عن الدفاع الفرنسى ، وضبطت ورقة سميت فيما بعد « بالبردرو » نسبت إلى دريفوس ، وحوكم الضابط البرىء وقضى عليه ظلماً بالنفى إلى جزيرة الشيطان ؛ ولكن العدالة لم تعدم أنصاراً ؛ فقد أثار خصوم العسكرية وخصوم الكنيسة على هذا القضاء الظالم دعاية شديدة ؛ وبذلت جهود قضائية وسياسية فادحة لتبيان براءة الضابط اليهودى ، وتبين فيما بعد أن « البردرو » قد زُور عليه ؛ وما زالت المعركة بين « الدريفوسيين » وبين الوطنيين خصومهم تضطرم وتنتقل من دور إلى دور حتى تقرر إعادة النظر فى القضية مرة بعد مرة ؛ ونزل إلى المعركة كتاب عظام مثل فرانسوا كوبيه فى جانب الوطنيين ، وأميل زولا فى جانب « الدريفوسيين » ؛ وأرسل اميل زولا صيحته الشهيرة : « إنى أتهم ! » ؛ أى يتهم القضاء والعسكرية بالتآمر والتزوير ، واستمرت المعركة نحو عشرة أعوام أعيد النظر خلالها فى القضية عدة مرات ، وانتهت أخيراً محكمة النقض بأن قضت ببراءة الضابط اليهودى (سنة ١٩٠٦) وردت اليه مراتبه وحقوقه ، وأسدل الستار على تلك المأساة الشهيرة التى هزت حياة فرنسا العامة أعواماً طوالاً

هذا وسنفرد فى فرصة قادمة فصلاً خاصاً لهذه القضية الشهيرة ، التى تعتبر من أعظم قضايا التاريخ

السخاوى

سيدى الأستاذ . . قرأت بالرسالة بالعدد ١٠٤ كلمة الأستاذ البحاثة مقريزى هذا العصر محمد عبد الله عنان فى ترجمة السخاوى مالفظه : (ونجد أخيراً فى تراث السخاوى أثرين من نوع خاص ولها أهمية خاصة ، وقد انتهى كلاهما إلينا : أولهما كتاب تحفة الأحباب وبغية الطلاب . فى الخطط والمزارات والبقاع المباركات) الخ . . .

والواقع أن هذا الكتاب كما ذكر العلامة النبهانى فى كتابه (جامع كرامات الأولياء) ليس للحافظ السخاوى. إذ قال عاطفاً على ما استمد من الكتب ما لفظه : (وتحفة الأحباب فى الكلام على الأولياء المدفونين بمصر للسخاوى من أهل القرن التاسع وهو غير الحافظ السخاوى) اه وذلك لأنه ذكر فى فاتحته أن اسمه محمد بن احمد الحنفى ، وقد ذكره ابن مخلوف فى طبقات المالكية وأنه فرغ من تأليفه سنة ست وخمسين وتسعمائة ، وأنه كان حياً سنة ستين وتسعمائة ، فنسبة كتاب تحفة الأحباب للحافظ السخاوى المتوفى بالمدينة المنورة سنة تسعمائة واثنتين خطأ دخل على كثير من أهل العلم يجب ألا يضيع ولا يفوت على البحاثة عنان . . فلذلك لزم التصحيح ، وانى أحيل الأستاذ عنان على كتاب مصرع الامام الحسين ليزداد علماً والسلام ؟

(جرجا) محمود عساف أبو الشباب

منتدى النشر بالنجف

تألف فى النجف هذا المنتدى من صفوة العلماء والأدباء للسعى إلى تعميم الثقافة الاسلامية والعلمية ، وإحياء لغة الضاد ، ونشر المعارف الدينية والأخلاقية فى ربوع البلاد بكل ما لديه من شتى الوسائل المشروعة

وها هو ذا اليوم فى أول أدواره يضع الخطط التى تساعده على إنجاز مهمته العالية وتحقيق رغبته المنشودة ومن بينها دعوة العلماء والمؤلفين إلى مشاركته ومساعدته بأقلامهم وثروتهم العلمية

ويذيع مجلس إدارته أنه مستعد من الآن لتلقى كل سؤال أو استفتاء دينى أو علمى يرد عليه فيحيله الى اللجنة المختصة للنظر فيه ولاستجواب العلماء ممن تشرف المنتدى بانتسابهم اليه ومن غيرهم من العلماء الأعلام

المؤتمر الدولى السادس لتاريخ الأديان

قرر مجلس الوزراء اشتراك الحكومة المصرية فى المؤتمر الدولى السادس لتاريخ الأديان الذى سيعقد بمدينة بروكسل بين ١٦ و ٢١ من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٥ ، وندب الأستاذين مصطفى عبد الرازق وأمين الخولى لتمثيل الحكومة فى هذا المؤتمر ؛ وربما مثلا الأزهر بعد ذلك فى المهرجان الذى ستقيمه جامعة بودابست فى أخريات شهر سبتمبر بمناسبة احتفالها بالعيد المئوى الثالث على انشائها

أحب شاعرة الى الانكليز

احتفل أخيراً فى انكلترا بالذكرى المئوية لوفاة مسز «هيمانس» الشاعرة المؤثرة التى تعرف فى الأدب الانكليزى «بحبيبة انكلترا»

وكانت وفاتها فى مايو سـنة ١٨٣٥ . وهى شاعرة العواطف ، وشاعرة الأمومة الرقيقة ، ومسرات الأسرة والورع والرضى ؛ ومازال شعرها الرقيق فى كتابيها «كازابيانكا» و«قبور العائلة» مثالاً للنظم الأنيق المبدع الذى يملأ القلب سحراً وتأثراً . وكانت مسز هيمانس أستاذة للخيال الواضح والصور الرقيقة والانفعالات العميقة ؛ وكانت تتبوأ فى عصرها مقاماً عظيما فى الشعر ، ولو أن أسلوبها اليوم قد عفا ؛ وكانت ثقافتها الواسعة ، ومواهبها الفنية موضع الاعجاب ، وكانت تشتهر بالأخص بخلالها الرفيعة وجلدها ورقتها وتواضعها ، حتى كانت تحمل عباقرة العصر مثل وردسورث وشيللى وبرونتنج ويبزون على احترامها وإكبارها . وكانت ظروف حياتها المؤثرة تزيد فى هذا التقدير ، فقد كانت مسز هيمانس تنظم لتعيش ، ولم يكن يهمها اختيار الجيد من الشعر ، وإنما كان يهمها اختيار أكثر النظم قبولاً وانتشارا

وقد قطعت مسز هيمانس حياة قصيرة مؤثرة . فقد تزوجت الـكبتن هيمانس فى الثامنـة عشرة ، ولم تمض سـتة أعوام حتى رزقت منه أربعة أولاد ، ثم لم يلبث أن غادرها وحيدة . وهنا يبدو نبل هذه الشخصية ، فقد احتملت كل أعباء الحياة صابرة جلدة ، لا يضلها جمالها الباهر عن الطريق السوى ؛ وسرعان ما ذبل هذا الجمال فى حياة ملئها الشجن وهموم الأسرة ؛ وفى سن الحادية والأربعين غادرت مسز هيمانس هذه الحياة بعد أن طبعت أمومة العصر بطابعها ، وتركت لجنسها تراثاً مازال يحمل على التقدير والاكبار

استدراك

كتب إلىّ جماعة يسألوننى عن مؤلفات الشيخ بدر الدين الحسنى رحمة الله عليه فحققت عنها فاذا هى قد احترقت مسوداتها حين احترقت مكتبة الشيخ . ولست أعرف للشيخ مؤلفاً باقياً . أما الفقرة التى سقتها بين يدى مقالتى عن الشيخ فى (الرسالة) الخامسة بعد المائة فهى من ترجمة الشيخ المنشورة فى جريدة ألف باء الدمشقية صبيحة وفاته مكتوبة بقلم أستاذ كبير من كبار تلاميذ الشيخ رحمه الله

وقد كتبت هذا التنبيه كيلا يسجل فى (الرسـالة) ماهو غير الحقيقة . و (الرسالة) سجل خالد . ومن حق (الرسالة) على كتابها ألاّ يكتبوا فيها إلا حقيقة ، ومن حق قرائها عليها ألاّ يجدوا فيها إلاّ حقيقة

على الطنطاوى

نظريات جديدة

(بقية المنشور على صفحة ١١٩٠)

الجماعة . وعلى هذا فان الملـكية الفردية لا تجب حمايتها إلا بقدر ما يبديه المالك من السداد فى ادارتها بحيث تعاون فى تحقيق الخير العام . وفى القانون الفرنسى ما زالت تعرف الملـكية بالتعريف الرومانى القديم ؛ فهى الحق فى أن تتمتع بشىء وأن تستعمله أو تسىء استعماله ؛ والواقع أن هـذا الحق قد قيد فى العهد الأخير بقيود ما زالت فى ازدياد . ولـكن الهتلريين يرون الغاء المبدأ ذاته ؛ فالملـكية الفردية لا يعترف بها ، وانما يعترف بوضع اليد على الأملاك ، بشرط ألا يتصرف الفرد فيها إلا فى صالح الدولة

وكذلك الأسرة تحميها نفس المبادئ العامة ؛ فانه يحظر على كل فرد « أن يتلف أو ينقص كفايته لانتاج النسل »

وقد ذهب الهتلريون بعيداً فى تحديد واجب الفرد نحو الأمة ، فقرروا أن التضامن اجبارى

تلك هى الأسس الجديدة لهذا التشريع الهائل ؛ وقد اتبع المشترعون الألمان اجراءات محاكم التحقيق (التفتيش) لـكى يصلوا الى غايتهم بأية وسيلة ، وهى تحقيق خير الجماعة القومية وسيادتها ، فجعلوا من القاضى شخصية مطلقة السلطة ، وجعلوه مشرفاً دائماً على أخلاق الفرد ، فمن يحاول غير الزعماء أن يميز نفسه من المجموع ، كان عرضة للقبض والعقاب

واذا كان فى هذه المبادئ ما يروع ، فذلك لاننا منذ عصر الأحياء ، ومنذ عصر الثورة الفرنسية بنوع خاص ، قد شهدنا القوى الفردية تنمو وتتسع إلى أعظم حد ، ولم يفعل الاصلاح الاشتراكى فى عصرنا شيئاً لوقفها . واليوم وقد انتهت الفردية إلى هذا الافراط ، فان الرجعة التى كانت تبدو مستحيلة بالأمس تصبح اليوم محتومة . ذلك أن الحرب ، والأزمة الاقتصادية ، وروح الأثرة المتسلطة على المنتجين ، وكبرياء عظماء الفنانين ، قد أدت إلى الرجعة الجماعية الحاضرة ؛ وسوف تنتهى هذه النزعة بلا ريب الى صنوف جديدة من الافراط ، والى تناسق لا يطاق . ولعلنا نرى الفردية والنزعة التعاونية وهما النزعتان الجوهريتان المتناقضتان اللتان تتجاذبان الانسان ، تنتعشان ، وتشرفان بالتناوب على الحركات الاجتماعية ، دون أن يتحقق بينهما توازن ما ؛ والتوازن كمال يناقض الحياة ذاتها (. . .)



١ — **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين :**

لأبي الحسن الأشعري[1]

٢ — **التيسير في القراءات السبع :**

لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني[2]

للأستاذ محمد بك كرد علي

في مطبعة الدولة في استانبول طبعت لجنة « النشريات الاسلامية لجمعية المستشرقين الألمانية » هذين الكتابين المعتبرين. نشر الكتاب الأول منهما : العلامة ريتر . وكتب الأشعري مفخرة أهل السنة والاستقامة على كثرتها لم يطبع منها سوى كتابين في الهند : « الابانة عن أصول الدين » و « استحسان الخوض في الكلام » وهذا الكتاب في مقالات الاسلاميين ، هو الذي عني بتصحيحه والتعليق عليه ، ووضع فهارسه السيد ريتر ، وقال فيه : إنه مهم في بابه لمعرفة فرق أهل الاسلام ، لأن تأليفه أقدم من « الملل والنحل » للشهرستاني و « الفرق بين الفرق » لعبد القاهر البغدادي و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لابن حزم الظاهري ، وأن الأشعري أدرك المتأخرين من المعتزلة وغيرهم من أهل المذاهب ، فاضطر في نقل بعض ما ينقله عن أوائلهم إلى الأخذ من الكتب المؤلفة قبله في مقالات الناس مثل مقالات الكعبي والكرابيسي واليمان بن رباب وزرقان وغيرهم ، وهذه قد ضاعت كلها

وقد علل الناشر ضياع الكتب بقوله : إنه كلما كان الكتاب أقدم عهداً كانت نسخه أعز وجوداً وأقل عدداً ، وذلك لعدة أسباب : منها استيلاء الفناء عليها بتقادم العهد ، وجريان حكم الزمان عليها بالمحو والافساد ، ومنها ضياعها وتلفها عند استيلاء الأعداء على البلاد وجنايتهم على الكتب بالاحراق والانحراق ، ومنها اعتداء بعض أهل المذاهب على كتب مخالفيهم ، ومنها أن المعلمين والمدرسين الذين كان جل همهم أن يضبطوا قواعد كل علم بأقصر لفظ ، عمدوا إلى تهذيب مؤلفات من سبقهم ، وتنسيق المباحث وترتيبها ، ووصل كل بحث بما يجانسه ، وضم كل فرع الى أصله واختصروها إيثاراً للايضاح والتقريب ، وتسهيلاً للتعليم والتعلم ، فآثر المحصلون كتبهم على الكتب القديمة من أجل ذلك فصارت المؤلفات السابقة كأنها منسوخة باللاحقة فتركت ونسيت

وكتاب مقالات الاسلاميين بحث مستوفى في المذاهب والفرق الاسلامية ، لم يستعمل فيه مؤلفه السباب والمهاترة على ما وقع في مثل ذلك ابن حزم والبغدادي وغيرهما ممن كتبوا في مناقشة أهل الأهواء وأصحاب المقالات . فالأشعري عمد الى لسان العلم يستخدمه في ذكر مقالات مخالفيه ؛ وقد حوى كتابه فوائد تاريخية وسياسية ولاسيما في تدوين وقائع من طالبوا بالخلافة من العلويين في كل عصر ، وفي أحكام الإمامة واعتقاد أهل الفرق فيها ، وفي الحكمين والحكم عليهما بما فعلا . أطلق في كل ذلك العنان لقلمه حتى لا تكاد تستبين أن المؤلف خالف أصحابه المعتزلة في شيء ، بل هو معتزلي تربية ومنشأ ، وربما جاءه الفيض من الأخذ عن علمائهم ، وإلا كان فقيهاً عادياً من فقهاء عصره ومحدثيه

وفي الكتاب وصف دقيق لمسائل علم الكلام وما اختلف فيه أرباب المذاهب ، كتبه بلهجة سلسة يتفهمها لأول وهلة حتى من ليس له أنسة بمثل هذه الأفكار والعبارات ، وذلك لأن المؤلف هضم ما تعلمه وتمثله ، فوصفه بدقائقه وصفاً قربه من الأذهان . وهذه الموضوعات من أبحاث قدماء العلماء ، واليوم لا يهتم لها إلا خواص الناس ومن هم بسبيلهم من طلاب العلم الديني

والكتاب في مجلدين بلغا أكثر من ستمائة صفحة ، هذا عدا الفهرس الذي وضعه الدكتور ريتر في أسماء الرجال والنساء ، ذكر فيه المكان الذي وردت فيه تراجمهم تسهيلاً على القارئ ،

(١) مات سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة (٢) المتوفى سنة ٤٤٤ هـ

وهناك فهرس بأسماء الفرق والطوائف ، وثالث بأسماء البلدان والأماكن . وقد تجلى التوفيق والعناية فى كل صفحة من صفحات هذا الكتاب الذى يعدُّ بلا جدال من الأمهات فى هذا الموضوع

***

الكتاب الثانى هو « التيسير » فى القراءات السبع للامام أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى ، نشره العلامة برتزل وقال فى المقدمة التى وضعها له بالعربية : « إن علم قراءة القرآن أقدم العلوم الاسلامية نشأة وعهداً ، وأشرفها منزلة ومحتداً ، وكان أول ما تعلم الصحابة من علوم الدين حفظ القرآن وقراءته ، ثم لما اختلف الناس فى قراءة القرآن وضبط ألفاظه مست الحاجة إلى علم يميز بين الصحيح المتواتر ، والشاذ النادر ، ويتقرر به ما يسوغ القراءة به وما لا يسوغ ، وقاية لكلماته من التحريف ، ودفعاً للخلاف بين أهل القرآن ، فكان ذلك العلم علم القراءة الذى تصدر لتدوينه الأئمة الأعلام من المتقدمين

قال وفى الحق إن تدوين علم القراءة أفاد المسلمين فائدة لم تحظ بها أمة سواهم ، وذلك أن البحث فى مخارج الحروف والاهتمام بضبطها على وجوهها الصحيحة لتيسر تلاوة كلمات القرآن على أفصح وجه وأبينه ، كان من أبلغ العوامل فى عناية الأمة بدقائق اللغة العربية الفصحى وأسرارها ، وكانت ثمرة هذا الاجتهاد والجهد أن القراء تشربوا بمزايا اللغة العربية وقواعدها ودقائقها . ومما يؤيد ذلك أن الكثيرين من قدماء النحويين كانوا مبرزين فى علم القراءة ، كما كان الكثيرون من أئمة القراء كأبى عمرو والكسائى بارعين فى علم النحو

ويرى الناشر أن على كل من يتصدى للنظر فى تاريخ اللغة العربية ودرس المسائل التى تتناولها كتب النحويين ، أو للبحث فى تنوع اللغات واختلافها بحسب الأقطار والأمصار ، ينبغى له أن يتتبع علم القراءة والتجويد ، ومن شرع فى درس معانى القرآن ، واستقصاء لطائفه واستخراج حقائقه ، ثم اعتمد على القراءة الوحيدة التى يجدها فى المصحف الذى بين يديه فقط من غير التفات إلى روايات الأئمة الآخرين ؛ فقد غفل عن أمر ذى بال اﻫ

والمؤلف كان شيخ مشايخ المقرئين فى الأندلس ، رحل فى أخذ القراءات عن الأئمة فى الشرق ” وكان هو من الأئمة فى علم قراءة القرآن ، وطرقه ورواياته وتفسيره ومعانيه وإعرابه ، ولم يكن فى عصره ولا بعده من يضاهيه فى قوة حفظه وحسن تحقيقه ، ونقل عنه أنه كان يقول : ما رأيت شيئاً قط إلا كتبته ، وما كتبته إلا حفظته ، ولا حفظته فنسيته ؛ وكان أيضاً عارفاً بعلوم الحديث وطرقه وأسماء رجاله ، وبارعاً فى الفقه وسائر أنواع العلوم » خلف فيما قيل مائة وعشرين مصنفاً ، لا يزال بعضها محفوظاً فى بعض خزائن الكتب فى الغرب والشرق ، واعتمد الناشر فى طبع كتاب التيسير على ست نسخ منها ما هو فى دار الكتب ببرلين وفى دار الكتب فى مونيخ وفى خزانة لَيْدِن وبعض خزائن استانبول

وكتاب التيسير كما قال فيه مصنفه مختصر فى مذاهب القراء السبعة بالأمصار ، يتضمن من الروايات والطرق ما اشتهر وانتشر عند التالين ، وصح وثبت عند المتصدرين من الأئمة المتقدمين . افتتح كتابه بذكر أسماء القراء والناقلين عنهم ، وأنسابهم وكناهم وموتهم وبلدانهم ، واتصال قراءتهم وتسمية رجالهم ، واتصال قراءتنا نحن بهم ، وتسمية من أداها إلينا عنهم رواية وتلاوة وأتبع ذلك بذكر مذاهبهم واختلافهم

دمشق — محمد كرد على

3 me Année, No. 108. — Lundi-29-7-1935



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

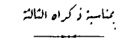
بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٥٤ — ٢٩ يوليو سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــدد

٢ — محمد حافظ ابراهيم





كان حافظ فى ميعة شـبابه يطلب الثروة على قـدر طموحه، والحظوة على قـدر نبوغه؛ ولكنه طلبهما من طريق الحق الذى يدعيه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذى يؤديه كل إنسان إلى المجتمع. فلما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاكة الشاعرة الصابرة، يحمل بؤسه على « حرفة الأدب » كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القـدر؛ ثم عاش عيش الطائر الغَرِد: عمره ساعته، ودنياه روضته، وشريعته طبيعته، ودأبه أن يطير فى الغيم والصحو،

و يشدو فى الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحَب أينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابية العقيم التى حَيِّها حافظ أن قتلت فيه الطموح فلم ينشط إلى سعى ، وأذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقفته على الشاطئ فلم يتعمق فى فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة . كان مبدؤه الأدبى مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة : رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية فى مصر ، وعرش الخلافة فى الآستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع فى مدح عباس وتمجيد عبد الحميد ؛ ثم اتصل بالامام وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ فى الانجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه فى هذه الفترة قصيدة فى رثاء الملكة ڤيكتوريا ، وقصيدة فى تتويج الملك إدوار السابع ، وقصيدتان فى وداع اللورد كرومر ، عبر بهما عن الرأى السياسى الارستقراطى فى ذلك الحين ؛ ثم خلص للشعب فلابس دهماءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى ، فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم أمانىّ الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره ؛ ثم عطف عليه الوزير الأديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل فى (دار الكتب) ، وأجزل له المرتب طمعاً فى مواهبه ، وثواباً على فضله ؛ ولكن الشاعر حمل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة فاستراح للخفض . واستنام للدعة ، وفتر عن قول الشعر إلا مدفوعاً إليه من فترة إلى فترة ؛ فلما خرج على (المعاش) انضوى إلى أعلام (الوفد) ، واتصل بالزعيم اتصال النديم ، وحاول أن يبعث فى نفسه الشعر الوطنى ، ولكنه كان قد أصْفَى . . .

* * *

وكان فكر حافظ فيض الشعور وعفو البديهة ، ينشأ فى الكثير الغالب من آراء المجالس ، وأقوال الصحف ، ومخزون الحافظة ، فلم تُعنه حياته على التروية ، ولم يدَعْه اضطرابه إلى التأمل ، ولم تطلقه قيوده إلى الطبيعة ، وإنما ظل صنيعة لوحى البيئة ، وإلهام الفطرة ، وتوجيه المناسبة ؛ فهو فى قصائده للإمام يذكر تعلق الناس بالأباطيل ، وتهالكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد فى ذلك على نقد الامام ونعيه ؛ وفى قصائده لقاسم يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه ؛ وفى قصيدته التى أنشدها فى احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم فى تعليم الأم وسفور المرأة وعيوب الجماعة بما لا جديد فيه ؛ وفى قصائده التى نظمها فى مشروع الجامعة وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الاكثار من الكتاتيب وانشاء الجامعة ؛ وفى رثائه لتولستوى يذكر السلم والحرب ، والخير والشر ، والغنى والفقر ، بما لا يبعد عن متناول الناس ، ولا يرتفع عن مستوى الجمهور ؛ من أجل ذلك كان فكره مستقيما لا ينحرف ، وواضحاً لا يلتبس ، وسديداً لا يطيش ، والسر فيه اعتماده على قوة الاجماع ، لا على غرابة الابداع

* * *

وكانت ثقافة حافظ ثقافة الشاعر العربى الأول : يتزود لمجالس الملوك بالأخبار والطُّرَف ، ولمحافل الأدباء بالأشعار واللغة ، و يستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، و إلحاح الحاجة ؛ ولحافظ فى كل أولئك موضع منفرد ومكان بارز

عكف منذ شب على دواوين الشعراء ، وأجزاء (الأغانى) يتنخَّلها ، و يتمثلها ، و يعاود النظر فيها ، و يستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده ؛ ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ، ينقلها عن السماع و يأخذها عن الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسمار وصوغ القريض ؛ حتى لغته الفرنسية ظلت بكماء فلم يتقنها ولم يستفد منها لا بالقراءة ولا بالترجمة ؛ وثقافة الشاعر المدنى المجدد ثقافة محيطة شاملة ، تشارك فى ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة

* * *

أما صياغة حافظ فهى موهبته الأولى ومزيته الظاهرة ، وهو فى ذلك ثانى الخمسة (١) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لأمانىّ شعبه ، وتصويره لمساوئ عصره

احمد حسن الزيات

(١) البارودى وحافظ وصبرى وشوقى ومطران

فى رأس البر

للأستاذ أحمد أمين

يعجبني فى رأس البر بساطة العيش والقرب من الديمقراطية . يعيش الناس — كما كان يعيش آباؤهم الأولون — فى أكواخ من الحصر ، لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم ، وغنيهم وفقيرهم ؛ ويلبسون لباساً ساذجاً قريب الشبه بما كان يلبس آباؤهم ، ويسبحون فى البحر عراة ، ويمشون على البر حفاة ؛ ملوا المدنيـة وزخارفها ، والحضارة وبهرجها ، وهربوا من المدن وضوضائها ، والأرستقراطية وأوضاعها وتقاليدها وتعقيداتها ، وارتموا فى أحضان الطبيعة فأفسحت لهم صدرها ، ينزلون الى البحر فينفضون عنهم هموم الحيـاة ، وينبطحون على الرمل ويذكرون قوله تعالى : « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى »

ليس فيها قصور شامخة بجانب أكواخ وضيعة ، وليس فيها ثريات كهربائية بجانب أضواء زيتية أو عازبة ، ولا ملابس أنيقة بجانب أثواب مهلهلة ؛ يصعب عليك التميز فيها بين الغنى والفقير ، والعالم والجاهل ، إلا فى الآنسات والسيدات فهن يأبين إلا الظهور ، والتمسك بالفروق ، وإلا فى أمثالهن ممن حليتهم لباسهم ، وقيمتهم مظهرهم

خلف فيها الناس وراءهم المخترعات الحديثة بجلبتها ورذائلها ؛ فلا سيارات تصم الآذان بأبواقها ، وتأنف الأنوف من روائحها ، وتربك السائرين لسرعتها وكثرتها واضطراب حركاتها ؛ ولا تليفون يرن فى الهجير وفى منتصف الليل فيوقظك من نومك الهادئ ، ويحملك رجاء تنوء بحمله ، أو يصلك بثقيل ينغص عليك الحياة بحديثه ؛ ولا راديو يسمعك اللطيف والسخيف ، ويأبى عليك النوم أحوج ما تكون إليه ، وأشد ما تكون رغبة فيه ، لأن جيرانك يأبون إلا أن ينتفعوا به كاملاً من بدء يمين — شمال ، إلى سلام الملك !

* * *

حياة حرة طليقة ، وجو مفتوح ، وهواء جديد دائماً ، لم تفسده الحضارة بدخانها وغازاتها ، ولم تحبسه الأبنية الشاهقة ، ولم تحجزه الحيطان الأربعة ، تتجدد النفس بتجدده ، وتمتلئ نشاطاً من نشاطه ، يغذى كل خلية غذاء حلواً طيباً ، ويخلع على الجسم لوناً نحاسياً ظريفاً ، وينعش العواطف والروح ، فهى قوية حادة ، شديدة التنبه ، شديدة الاحساس ؛ حتى عاطفة الدين ، فهى أقوى ما تكون ، وأطهر ما تكون ، وأصفى ما تكون ، حينما تتجلى الطبيعة فى ثوبها الفطرى الجميل ، فى السماء والماء ، والمزارع والحقول ، فليس الألحاد والزندقة والتعصب الذميم وضيق النظر إلا وليـد الحضارة المعقدة ، والجو الخانق ، والفكر الراكد ، ودوران الفكر حول نفسه لا حول الطبيعة

فى جو المدن لا يشعر الانسان بالسماء إلا عنـد المطر ، ولا بجمال الشمس ولا جمال القمر ، ولا يلمس الطبيعة إلا إذا ساءت من شدة الحر أو شدة البرد ؛ كل ما حوله من جمال جمال صناعى ؛ قد استغنى بجمال طاقات الزهور عن الزهور فى منابتها ، واستغنى بثريا الكهرباء عن ثريا السماء ، وبالحسن المجلوب عن جمال الفطرة وجمال الطبيعة وجمال الخلقة . وهيهات أن يتساوى منتحل وغير منتحل ، فليس التكحل فى العينين كالكَحَل !

إنما يشعر الانسان بجمال الطبيعة يوم يخرج من المدينة إلى الريف ، ويَفِر من الحضر إلى البدو ، فينكشف له الخالق بجماله القشيب ، وتأخذ لبه السماء فى لا نهائيتها ، والبحار فى أبديتها ، ويشعر شعوراً قوياً بأنه ذرة من ذرات العالم ، وجزؤ صغير من أجزائه ، ضعيف بنفسه ، قوى بكله ، وأنه لاشىء يوم ينفصل عنه ، وأنه نغمة من نغماته يوم يتصل به

* * *

لوددت أنى خلعت نفسى فى المدينة يوم فارقتها ، فقد سئمتُ نفسى وسئمتْنى ، ومللتها وملتنى ، وتمنيت أن تكون النفس كالثوب نخلعه حيناً ، ونلبسه حيناً ، ويبلى فتجدده ، ونكرهه فتغيره — إذن لاستبدلت بنفسى — ولو إلى حين — نفساً مرحة تستغرق فى الضحك من الشىء التافه ومن لا شىء ، ولا تبكى على ما فات ، ولا تحمل هماً لما هو آت

بل لتمنيت أن أكون كدودة القز تكون دودة حيناً ، ثم تكون فراشة حيناً ، أرشف من هذه الزهرة رشفة ، ومن هذه رشفة ، وأنشر جناحي في الشمس ، أعيش في جمال وأغيب في جمال ، كما تغيب الشمس الجميلة في الشفق الجميل ، أو كما تفنى النغمة الحلوة في رنات الآلات ، أو كما تنداح الابتسامة العذبة في الوجه الصبوح ، أو كما تندمج الموجة العظيمة في البحر العظيم !

ولكن أنى لي هذا ؟ ولو كان لشكوت وبكيت ، فقد خلقت كما خلق المتنبي

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبي

لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

* * *

وخرجت مبكراً والناس نيام ، أمشي على الشاطئ ، وأرقب الشمس في طلوعها ؛ والشمس على الساحل أجمل من الشمس على غيره ، فليس لها تلك القوة العاتية ، ولا الحرارة القاسية ، ولا الأضواء المشية ؛ فيها شيء من الوداعة واللطف والحنان !

ها هي ذي قد طلعت ، فأخذت الحياة تدب في النفوس ، تلقى أشعتها على البحر فينعقد منه سحاب فمطر فأنهار ، فجميع ما لذلك من أعمال باهرة ، وقوى ساحرة ، وأفعال عجيبة ! أنظر يميناً فأرى النيل ، وأنظر يساراً فأرى البحر ، وقد عاد النيل إلى البحر بعد أن أتم دورته ، وأدى مهمته ؛ قد خرج هذا العذب الفرات ، من هذا الملح الأجاج ، كما يخرج اللبن من بين الفرث والدم ! قد سلسلوا النيل فعدا عليه البحر فاغتصب مجراه ، وأملح ماءه ، ثم فكوا قيوده ، فاسترد حقوقه ، وأراد أن ينتقم من أبيه ، فحاول أن يحتل شاطئه ، ويحلى ماءه ، ولكن يعكر صفاءه ، ثم ندم على العقوق فتاب وأناب وإذا هما مؤتلفان ، بينهما برزخ لا يبغيان

ثم تسطع الشمس ، ووددت أن تكون مذكرة في اللغة العربية ، كما هي مذكرة فيما أعرف من اللغة الأوربية ، لأنها تزوج الأرض فتولدها ما شئت من أشكال وألوان وذكور وإناث ، وكأن أشعة الشمس خمر معتقة تشربها الأرض فتنتشي وتبتهج ، وتمتلئ قوة ونشاطاً وحركة

وتقع أشعتها على الطير فيسرح ويمرح ويتغنى ، وتحل في قلب الانسان فيهدأ روعه ، ويذهب فزعه ، ويطمئن إلى حياته ، وتتحرك ارادته ، وتنتعش آماله

دعني أتمم ، فالعراء على الساحل مباح ، فأملأ جسمي بأشعتها ، وأملأ شعوري ودمي بقوتها ، وأملأ نفسي بعظمتها وسحرها .

ومشيت إلى قلعة في رأس البر كنت آنس بها قديماً ، وكان في كل حجر من أحجارها صفحة من العزة القومية ، والحمية الوطنية ؛ أقامتها الأمة يوم كانت تشمر بنفسها ، وتدافع بنفسها عن كيانها ، وتحس بتبعاتها ، وتدبر شؤونها ، وتدير أمورها ، كما يتراءى لها — فرأيتها وقد عدا عليها الزمان ، وعلاها البلى ونقض أحجارها ، وليس من يعتز بها فيقيم أنقاضها ، ورأيت بها « مدفعاً » قد هزأ به الرمل فغطاه ، وسخر به الصدأ فعلاه ، دفن كما يدفن عزيز أرداه الزمان بسهامه ، وذل كما يذل السيد الكريم توالى عليه الدهر بأحداثه ! ورأيتهم أقاموا في وسطها صهريجاً يخزن الماء لرأس البر ؛ فقلت : سبحانك ربي ، جعلت من مستودع النار ماء ، كما جعلت من الشجر الأخضر ناراً ! لقد كان مكانك رمز القوة فأصبح رمز الرقة ، وكان بك جن يقذفون بالنار فبدلت بهم ملائكة يوزعون الرحمة ، وكان بك دم يغلي ، فأحاله الزمان القاهر زلالا باردا ، وما أدري ماذا جاش بنفسي فدمعت عيني

وقالوا قد جننت فقلت كلا — وربي ما جننت وما انتشيت
ولكني ظلمت فكدت أبكي — من الظلم المبين أو بكيت
فإن الماء ماء أبي وجدي — وبئري ذو حفرت وذو طويت

ثم صحوت فقلت : أتندب كل طلل مررت به ، وتبكي كل شيء رأيته ، وتحزن في معاهد الفرح ، وتنقبض في مغاني المرح ؟ من أجل هذا تمنيت — قبل — أن أخلع نفسي ، ووالله لو أمكنتني الفرصة ثانية ما ترددت ، ولسمحت وما حرصت ، فقد برمت بها وعجزت عن حملها

هيا إلى البحر ! فهناك الفرح والمرح ، وهناك يضحك الناس له ويضحك لهم ، ويداعبون أمواجه وتداعبهم ، وأحياناً ينسون جلاله فيصفعهم ! فيه الحياة ، وفيه القوة ، وفيه العظمة ، وفيه أكبر مظهر لطاحون العالم ، تطحن دائماً ، وتطحن ناعماً !

رأس البر — أحمد أمين

قضايا التاريخ الكبرى

من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يعتبر عصر لويس الرابع عشر أعظم عصور التاريخ الفرنسي ، لامن وجهة السلطان الباذخ فقط ، ولكن من الوجهة الاجتماعية والفكرية أيضاً ؛ فكما أنه عصر الفتوحات العظيمة ، فهو أيضاً عصر تقدم فكري واجتماعي ساطع ؛ ولم تبد الملوكية الفرنسية من قبل قط بمثل مابدت به في عصر لويس الرابع عشر من العظمة والبهاء ، ولم يزدهر المجتمع الفرنسي مثلما ازدهر في هذا العصر ؛ وفيه تتفتح العبقرية الفكرية إلى الذروة ، ويحتشد النبوغ الفكري أيما احتشاد ، هو « القرن الأعظم » كما ينعت في التاريخ الفرنسي ، وهو عصر « الملك الأعظم » ؛ وهو عصر كورني وراسين وراسان ولافونتين وجمهرة كبيرة أخرى ممن يزدان بهم التاريخ الفرنسي

بيد أن هذا البهاء الساطع الذي يشع به « القرن الأعظم » تغشاه الظلمات في كثير من النواحي ؛ ففيه يتكشف ذلك المجتمع الباهر عن ثغرات خطيرة من الانحلال الخلقي والاجتماعي ؛ وفيه تزدهر الجريمة ، وتنحط النفس البشرية إلى ضروب شائنة من الفساد والاثم تخلق بأشنع العصور

في سنة ١٦٧٦ كشفت مأساة السموم الشهيرة [١] التي أخذت فيها المركيزه دي برانفليه بطائفة من الجرائم المروعة عن طرف من تلك الآثام الخفية التي تجثم وراء مجتمع زاهر ؛ وكان ذلك الحدث المدهش مفاجأة مروعة لمجتمع ذلك العصر ؛ فقد ظهر أن السم — ذلك السلاح الخفي النادر — يحصد علية القوم حصداً ، وأن كثيراً من الوفيات الفجائية المريبة التي وقعت في تلك الفترة إنما هي جرائم قتل شائنة ترتكب في سبيل

الانتقام والمال والهوى

بيد أن جرائم المركيزه دي برانفليه كانت جرائم فردية ، وكانت محدودة المدى ، ولم تكن شيئاً يذكر إلى جانب ذلك الثبت الحافل من جرائم هائلة مثيرة معاً تبث الروع الخفي الصامت إلى المجتمع الباريزي وتصمه بحمأة العار والاثم ، ويدمغ شينها المثير أرفع الرؤوس والمقامات في ذلك المجتمع الأنيق الباهر

كانت جرائم « السحرة » ، وذيوع الخرافات السحرية بين علية القوم ، ومزاولة هذه الرسوم الوثنية الشائنة ، والتماسها وسيلة لتحقيق أحط الشهوات البشرية ، من ظواهر ذلك الانحلال الخفي الشامل الذي يغشى عظمة « العصر الأعظم »

كان السحر من الأمور التي طبعت أذهان العصور الوسطى بطابعها القوي ؛ وكانت مزاولة السحر جريمة يعاقب عليها القانون في تلك العصور بأشد العقوبات ؛ وكان يعتبر من السحر كل مالا تسيغه عقلية هذه العصور من الأمور المدهشة حتى ولو كانت مما يدخل في حيز الاكتشافات العلمية كمزاولة السيميا أو البحث عما يسمونه حجر الفلاسفة ، والتجارب الكيميائية المدهشة ؛ وكان السحر دائماً وسيلة الاجرام ، ترتكب باسمه وفي ظله أشنع الجرائم الدموية والأخلاقية ؛ وكان هذا النوع من السحر الملوث بحمأة الجريمة ، والذي تخضب رسومه الفظيعة في معظم الأحوال بالدماء البشرية ، يسمى « بالسحر الأسود » أو السحر الذي يقصد به وجه « الشيطان »

ولم تكن عقلية القرن السابع عشر بعيدة عن هذه الأوهام الشائنة ، بل كانت تتأثر بها أيما تأثر ؛ وكان المجتمع الرفيع الذي يحفزه حب المال أو لوعة الهوى أو ظمأ الانتقام أو غيرها من الشهوات البشرية أوالمثالب الخلقية يجد في السحر ملاذه ويعتقد أن السحر مازال وسيلة لتحقيق هذه الأطماع والأهواء

في ظل هذا المعترك الذي تضطرم فيه الشهوات الوضيعة ، ويملك الايمان بالسحر عقول الخاصة فضلاً عن الكافة وتسري إلى المجتمع أسباب الانحلال الخلقي والاجتماعي ، كان « السحرة » ومن اليهم من دعاة السيميا والكيمياء يبثون في المجتمع أباطيلهم ، ويزاولون تلك الرسوم المروعة المثيرة التي تعرف «بالسحر الأسود» ويسلحون الأيدي الغادرة بالسموم المرهقة ، وينظمون أشنع

[١] تناولنا هذه المأساة المروعة تفصيلاً في كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » ص ١٥٨ — ٢١٢

الجرائم الدموية والخلقية ، ويستظلون للتمويه على الكافة بظل الخفاء والمقدرة على تنبؤ الغيب وتسخير القدر ، وتوجيه الحظوظ

وقد بلغ الشغف بالخفاء والتماس السحر ذروته في ذلك العصر ؛ وكان يتمخض بين آن وآخر عن طائفة من الجرائم الفظيعة التي يكتنفها خفاء السحر وروعته

وكانت جرائم السحرة الشهيرة التي اكتشفت فجأة في عصر « الملك الأعظم » من أروع هذه المفاجآت التي يرتجف المجتمع لهولها وشناعتها

***

في يوم من أواخر سنة ١٦٧٨ ، اجتمع في باريس على مائدة سيدة تدعى « لافيجوريه » هي زوجة خياط للسيدات ، محام متواضع هو الأستاذ بيران ، وامرأة « عرافة » مشهورة في هذا الوقت تدعى ماري بوسي ؛ ففي أثناء العشاء بدرت من العرافة تلميحات خطيرة حول جرائم ترتكب بالسم ، ويشترك في ارتكابها رجال ونساء من علية القوم ؛ فانزعج الأستاذ بيران ، وأفضى بما سمعه إلى مدير البوليس « لاريني »

وكانت ذكريات جرائم المركيزه دي برانفليبه ما تزال حية رنانة ، فأدرك « لاريني » أنه ربما كان أمام ثبت آخر من الجرائم المماثلة ، فأمر بالقبض على مدام فيجوريه ، وماري بوسي وابنتها مانون وولديها ؛ وذلك في ٤ يناير سنة ١٦٧٩ ، وأفضت التحقيقات الأولى التي قام بها لاريني نفسه إلى أن قبض في ١٢ مارس على امرأة تدعى «لافوازان» أو مدام فوازان ، وهي عرافة شهيرة في ذلك العصر تزاول السحر وأموراً خفية أخرى ، وعلى ابنتها مرجريت ، ثم على رجل يدعى « لي ساج » وهو شريك لافوزان وعشيقها ، ثم على عشرات آخرين ممن ورد اسمهم في التحقيق ونسب اليهم قسط من الأعمال والجرائم المروعة التي كشفت عنها اعترافات المتهمين

كان لاريني مديراً للبوليس ، يقف بحكم وظيفته على أخطر الأسرار وأفظع الجرائم ، ولكنه لم يلبث أن رأى نفسه أمام معترك هائل من الجرائم التي ترتجف لهولها وروعتها أقسى القلوب وأصلبها ؛ جرائم تمتد إلى النفس والعرض والمال بأشنع الآثام ، وتتطاول إلى الملك وحياته ذاتها ، ويشترك في تدبيرها وارتكابها نفر من العظماء نساء ورجالاً يزاولون « السحر الأسود » ويشتركون طوعاً في اجراءاته المروعة المثيرة ، ويغمسون أيديهم في الدم البرئ تقرباً إلى الشيطان ، والتماساً لتحقيق أسفل الشهوات والغايات

وكانت لافوازان هي المحور الأكبر لذلك الثبت المروع من الجرائم التي سودت صحف « العصر الأعظم » وهي امرأة تدعى في الأصل كاترين ديزى ، وزوجها رجل يدعى مونفوازان ، أو فوازان ، ومن ثم كان اسمها . وقد بدأ الرجل حياته تاجراً في الحلي ، ثم زاول أنواعاً أخرى من التجارة ، ولكنه لم يفلح ولازمه النحس ، فاعتزمت زوجته عندئذ أن تزاول مهنة التنجيم والعرافة . وكانت لافوزان في الواقع ذات مقدرة خاصة في تفهم نفسية بعض الناس ، وكانت قد درست شيئاً من الفلك وما يتماق بالسحر من المسائل والرسوم التي كانت ذائعة في ذلك العصر ؛ فامتهنت العرافة والسحر ، واستقرت في منزل تحيط به حديقة في فلنيف من ضواحي باريس . وأقبل عليها القوم من كل صوب يستوحون علمها ونصحها ، وكانت تزاول كل ما يدخل في باب الخفاء من قراءة الكف وصنع التمائم والتعاويذ ، والتنبؤ بالمستقبل ، بيد أنها كانت تزاول أعمالاً أخطر ، فقد كانت تبيع السموم لزوجات يردن التخلص من أزواجهن ، أو أقارب يترقبون وفاة المورث ، وكانت تصف الأدوية لمختلف الأمراض ، وتزاول التوليد وبالأخص الاجهاض ؛ وكان بين قصادها سادة من الأكابر وسيدات من أرقى طبقات المجتمع

وكانت لافوازان ، كما يصفها المعاصرون امرأة قصيرة القد ؛ مليئة الجسم ، وافرة الحسن ، لها عينان ساطعتان ثاقبتان ، وكانت بما ينهمر عليها من المال من كل صوب تعيش عيشة ترف ومتاع ، تصطفي العشاق حسبما تهوى تحت سمع زوجها المسكين وبصره ، وتقيم الحفلات الصاخبة ، وكانت تعشق الشراب وتفرط فيه ، فلا ترى دائماً إلا ثملة ، تضرب زوجها أو عشاقها وهم عديدون ؛ وكانت تحيا هذه الحياة الحيوانية المحضة فوق أكداس من الآثم ترتكبها كل يوم ، لا يزعجها شبح أولئك الذين ترسلهم بسمومها إلى الأبدية ، ولا تلك الضحايا البشرية العديدة التي كانت تزهقها مع شركائها كلما أجرت رسوم القداس الأسود كما سنرى

وكان شريكها وساعدها الأيمن فى تلك الحرفة الأثيمة رجل يدعى «ليساج» ، وكان أحب عشاقها اليها وأشدهم نفوذاً لديها ، وكان ليساج يزاول أعمال السيميا ليكتشف ما يسمونه « حجر الفلاسفة» أو المادة التى يمكن أن تعاون فى تحويل المادن الخسيسة إلى ذهب ، وتمده لافوازان كما تمد غيره من السيميائيين والمشعوذين بالأموال الوفيرة لاجراء التجارب المطلوبة . وكان هذا «الساحر» الخطر من أهل الجنوب واسمه الحقيقى آدم كيربه ؛ وكان يشتغل بتجارة الصوف ، ولكن غلبه شغف السحر والخفاء فاتصل بلافوازان ووثق الحب بينهما ذلك التحالف الأثيم ، ووعد لافوازان بالزواج متى غدت أرملا . وفى سنة ١٦٦٧ قبض عليه بتهمة « الاتصال بالشيطان » وقضى عليه بالأشغال الشاقة فى الأسطول ، ولكن لافوازان سعت لانقاذه بنفوذها واستطاعت أن تستصدر العفو عنه فعاد إلى باريس سنة ١٦٧٢ وتسمى بليساج ، واستأنف أعماله الأثيمة مع عشيقته

وكان ليساج وغداً سافلاً لايحجم عن ارتكاب أية جريمة ، وكان له أكبر نفوذ على لافوازان وزميلاتها ، فكان يقتنص منهن الأموال الوفيرة بخبثه ودهائه ؛ وكان يكتب التعاويذ للراغبين ويعقد صلاتهم بالشيطان بتمائم وأدعية مريبة ، وأحياناً يتزيا بزى القسس ويقيم الصلوات والأقدسة ؛ وكان منظره غريباً يضع على رأسه شعراً أحمر ، ويرتدى ثوباً أشهب ومعطفاً غريباً ، وكان القبض عليه المرة الثانية عقب القبض على لافوازان فى ١٧ مارس سنة ١٦٧٩

* * *

كان اكتشافاً مروعاً ذلك الذى وقع به لاريني مدير البوليس من أعمال هذه الطغمة . ولم يكن أمر السحرة مجهولاً ، وكان الهمس يسرى حول آثامهم وجرائمهم فى أرفع الأنحاء ؛ ولكن لاريني لم يكن يتوقع قط أن يكشف التحقيق الذى أجراه وأشرف عليه مدى أشهر عن تلك الشبكة السوداء الهائلة التى تغمر العاصمة الفرنسية والتى تجذب شراكها الخطرة أعظم الرؤوس وأعظم المقامات . وقد أثبت لاريني فى ملف التحقيق الذى أجراه أقوالا ومعلومات مدهشة عن أعمال المتهمين وحياتهم الغريبة ؛ ومما أثبته من أقوال لافوازان ، إن أفضل ما يعمل هو أن يقبض على كل من يزاول قراءة الكف ، فان هذه الحرفة تكشف عن أمور مدهشة حينما يعنى المحب بخيبة الأمل ، وإن التسميم جرم ذائع ، وإنه يدفع عن « العملية » الواحدة أحياناً عشرة آلاف جنيه (نحو خمسين ألف فرنك من العملة الحديثة) ؛ وأيد ليساج هذه الأقوال ، وزاد عليها أن كل أولئك الذين يزعمون أنهم يبحثون عن الكنوز أو حجر الفلاسفة أو غيرها إنما يزاولون أعمالا خفية أخرى ، وأولئك الذين يزاولون السحر إنما يتعاقدون على تسميم زوج أو زوجة أو أب وربما على تسميم طفل فى المهد

بيد أن أروع ما سطره التحقيق أقوال المتهمين عن مزاولة « السحر الأسود » وإجراءاته الدموية المثيرة . وكانت هذه الاجراءات تقترن عادة بأزهاق طفل صغير يسرق أو يؤخذ من بين اللقطاء الذين تقذف بهم الأمومة الأثيمة . وكان يؤتى لهذه الغاية بفتى تمدد عارية بين هالة من الشموع السوداء ؛ ثم يأتى الساحر فى ثياب قس ، وبعد أن يذبح الطفل ، يلقى بعض التمائم والدعوات الشيطانية ؛ وكان الساحرات يبحثن دائماً عن الأمهات الآثمات أو البغايا الحاملات فيجرين توليدهن ويأخذن المواليد برسم القربان ؛ ويلقى بهذه الجثث الصغيرة فى بعض الغابات أو تحرق فى منزل الساحرة . وكانت لافوازان أنشط الساحرات فى إجراء هذه الرسوم الهائلة ؛ وكان يعاونها فى إجرائها غير ليساج قس وغد يدعى الأب جيبورج ؛ فيقوم بقراءة « القداس الأسود » أو قداس الشيطان على أجسام النسوة اللاتى يرغبن فى هذا الاجراء وكن يتمددن عاريات فوق مائدة تؤدى وظيفة الهيكل ، ويوضع الاناء المقدس على البطن العارى ، ويذبح وقت القربان طفل يلقى دمه فى الاناء ، وقد اعترفت لافوازان أنها أحرقت فى فرن منزلها أو أخفت فى حديقتها نحو ألفين وخمسمائة جثة من هذه الضحايا الصغيرة البريئة !

هذا طرف مما دونه لاريني فى تحقيقه من أقوال المتهمين أنفسهم . ويعلق لاريني على ذلك بقوله ، إنه يستحيل أن يتصور الانسان أن تكون هذه الجرائم حقيقية أو ممكنة إذا ما تأملناها . بيد أنها اعترافات أولئك الذين ارتكبوها أنفسهم ؛ وتفاصيل الاعتراف لا تدع مجالاً للريب

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

جندى الأدب المجهول

للأستاذ عبد الوهاب النجار

أقول جندى فقط لأنه لم يكن ضابطا كريماً ولا ضابطا عظيما ولا ضابطاً صغيراً ، بل كان جنديا . وكفى .

والذى أتحدث إلى حضرات الأدباء عنه ، أعتقد أن أحداً منهم لا يعرف عنه شيئاً . وهو المرحوم الشيخ المعمَّر محمد أفندى التميمى بن المرحوم الشيخ أحمد التميمى مفتى الديار المصرية

وكان والده المرحوم الشيخ أحمد التميمى من أهل مدينة الخليل بفلسطين ومن علمائها ومن ذرية تميم الدارى . وقد أتى به إلى الديار المصرية ساكن الجنان ابراهيم باشا جد مولانا الملك فؤاد ، وعين مفتياً للديار المصرية . وظل بتلك الوظيفة إلى أن عزل بالمرحوم الشيخ محمد العباسى الحنفى المهدى — (وقد تولى الشيخ المهدى إفتاء الديار المصرية وهو طالب بالأزهر)

مات المرحوم الشيخ أحمد التميمى عن ولديه عبد الرحمن أفندى ومحمد أفندى ؛ فأما عبد الرحمن فأسرع فى تركة والده إسراعاً شديداً ، فأنشأ له ذهبية فى النيل وجعل مقابض مداريها من الذهب ، والجزء الذى يغرز فى الطين من الفضة ، وجعل نعال خيله من الفضة ؛ وكان أخوه محمد لا يعصى له أمراً ، فكلما أراد بيع عمارة أو بيت أمضى محمد مع أخيه عبد الرحمن واعترف بقبض ثمن حصته ، وهو فى الواقع لا يناله من ذلك سوى النزر اليسير .

فلما فرغت الراحة عمد محمد افندى إلى اسطنبول ليجد واسطة من أصدقاء والده ليعين فى وظيفة . ولست أعلم إن كان أخوه عبد الرحمن افندى سافر إلى اسطنبول أو لا

وآخر عهدى بعبد الرحمن افندى أنه كان مأمور مركز ؛ وكانت له ورشة نجارة بطنطا ، لأنه أتقن فن النجارة أيام أن كان مهيمناً على عمارات والده

وأما محمد افندى وهو أديبنا المجهول ، فلما عاد بالوصية عين موظفاً بتفتيش السنطة والهيانم التابع لدائرة ثالثة زوجات المرحوم إسماعيل باشا

كان المرحوم محمد افندى التميمى مغرماً بالتدخين فى النرجيلة (الشيشة) ، فلما كان فى اسطنبول خرج إلى متنزه اسمه (الكاغدخانه) ومعه النرجيلة يدخن فيها ، وجاءت السيدات والأوانس من كل صوب وحدب إلى ذلك المكان النزه . ونظر فوجد بقربه سيدة جميلة رشيقة قد جلست ومعها سيدة أخرى . وحانت من السيدة التركية التفاتة فرأت ذلك الرجل الذى يلبس جبة وقفطاناً وعمة خليلية منهمكاً فى كتابة شىء ، فحزرت أنه يكتب عنها ، فأرسلت السيدة الأخرى إليه وكانت تحذق العربية ، فسألته عما يكتب ، فناولها ما كتبه فقرأت :

ظل قلبى فى غزال … من بنات الترك يُفكرْ

رمت منها الوصل قالت … سن صقللى هيدا سكتر

أى أنت ملتح ، هلم فاذهب ! فأسرعت إلى السيدة التركية وأرتها ما كتبه وترجمت لها بالتركية ما فى الكتابة من ألفاظ عربية فسرها ما سمعت ، وحلفت بالمحرجات من الايمان إلا ما حل عندها ضيفاً الليلة .

ولما كان بتفتيش السنطة ومركزه القرشية عين ناظراً لورشة التصليحات التى أنشأها المرحوم إسماعيل باشا لإصلاح الآلات الميكانيكية ، وكان بناؤها سنة بضع وسبعين ومائتين وألف هجرية ؛ فمر التميمى بالحدادين يحمون الحديد إلى درجة الاحمرار ثم يفطحونه بمطارقهم . فقال مواليا أوله :

لان الحديد للمسلم والحبيب ما لانْ

وقد ند عن ذا كرتى باقيه

وله لطيفة وهو بالورشة ، فان المرحوم خلف الله باشا عين مفتشاً لتفتيش السنطة والهيانم ؛ فلما استقر به المقام طلب إحصاء بالعمال الذين بالورشة ومرتب كل واحد منهم أو يوميته ، فلما نظر فى ذلك الاحصاء وجد (خوجة لتعليم العمال القراءة والكتابة وإرشادهم فى أمر دينهم ، ومرتبه جنيه فى الشهر) فقال : هذا الخوجة لا لزوم له . فقال التميمى : إنى فكرت فيما فكر فيه سعادة الباشا وأردت رفته ولكنى وجدت الرجل يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد مجاناً ، ويخطب الناس يوم الجمعة والأعياد بلا مقابل ، فقلت أتركه الآن حتى يأتى (ابن الحلال) الذى يكون قطع رزق هذا الرجل على يده . والحمد لله سعادتكم ، شرفتم ومكنكم

أن تعملوا ما لم أعمله . فقال خلف الله باشا : والله لا أكون ابن الـ . . . الذى يقطع رزق هذا الرجل على يده . وبقى الرجل فى هذه الوظيفة عشرات من السنين إلى أن توفى

وكان له صديق مُثر من المال ، علم أن التميمى اعتزم الزواج ، وما بينهما من المودة يقضى عليه بتقديم المساعدة و (النقوط) ، فأحدث غضباً لا أصل له ، وفطن التميمى فكتب اليه :

إن قوماً أبغضونا خيفة من قول هاتِ

قل لهم فى يوم عرسى نقطـــونا بالسكاتِ

والأمثال لا تغير

ولما نقل المرحوم ابراهيم أدهم باشا من تفتيش السنطة والهياتم وعين مديراً للغربية ، طلب أحد العمد ، نخشى العمدة أن يعتريه الباشا المدير بسوء ، وجاء إلى التميمى ليكتب إلى الباشا خطاب عناية به فكتب :

قد ظن هذا رجائى عندكم فأتى مستشفعاً بى فعلَ الطامع الراجى

قد ظن عكساً وقصدى من سعادتكم أن تضربوه جزاءً ألفَ كرباج

وأخذ الرجل الكتاب بعد أن ألصق جوانبه بالبرشام وهو يكاد يطير من الفرح ، وقدم على الباشا وناوله إياه ، فأغرق الباشا فى الضحك وعفا عنه

وله رجز فى الفلاح حين واتاه القطن فى نحو سنة ١٢٨٠ عقب حرب أمريكا ، واقتنى الجوارى البيض والعبيد ، وتأنق فى المأكل والملبس ، أحفظ منه :

من بعد خضْرٍ صار يقتنى كالفدان وطعامه قلدر وخادمه أمان

ولكم مصاغ علقه بعضهم من فوق زوجته الكثيبة ستهم

تلقاه يرى اللفظ كالجالوس ويقول عندى نسخة الجاموس

***

وفى أيام اختفاء عبد الله افندى النديم بالقرشية عند المرحوم أحمد باشا المنشاوى ، وكان يسمى نفسه السيد على الادريسى اليمنى ، كان النديم يجالسه كل ليلة ولا يدرى حقيقته . وكان المجلس يمتد بهما إلى ما بعد نصف الليل . ففى ليلة سأل المنشاوى باشا جليسيه عن أرباب الجرائد ، فكان عبد الله النديم يسرع ويجيب ويسبق التميمى إلى الجواب ، فقال المنشاوى باشا وما تقولان فى صاحب الطائف ؟ فسكت النديم أو السيد على الادريسى اليمنى وتكلم التميمى ، وقد رابه شأن النديم ولم يقم من المجلس إلا وهو موقن بأن جليسه فى هذه السنوات هو عبد الله النديم

فلما رجع إلى بيته كتب اليه

يأيها الحبر الذى كالبحر يبعد ساحله

من كان مثلك فاضلاً نمت عليه فضائله

وأرسل البيتين مع الخادم ؛ فلما قرأها النديم ارتاع وخشى على نفسه . فلما جن الليل وجاء محمد افندى التميمى على عادته لقيه بالعناق ، وكتم التميمى أمره إلى أن أعانه الذى قال إنه علم بالنديم بالجيزة ، وكان الواقع أن النديم أعلن نفسه لذلك المخبر بعد أن مضى على الحكم عشر سنوات شمسية وأحد عشر يوماً

وللتميمى قصائد لا أحفظها ولا أجد من يقفنى عليها الآن ؛ وهو أول من أبرز رواية بالعربيـة وسماها أم حكيم ، وقد مضى على إبرازها أكثر من خمسين سنة

وقولى إنه معمر سببه أن التميمى كان قد تولى عمارة مسجد وضريح سيدى فخر الدين ببلدة طوخ مَزْيد فى عهد المرحوم اسماعيل باشا ، وكانت العمارة ينفق عليها من دائرة ثالثة أزواج الخديو اسماعيل ، وأحيلت الكتابة على والدى رحمه الله وكانا قريبين فى العمر . وكنت إذا سألت كلا منهما عن الأسن منهما أبهم كل منهما الآخر بأنه أسن منه ، وقد توفى والدى سنة ١٩١٩ عن نحو مائة سنة ، وعاش محمد افندى التميمى بعده من أربع إلى خمس سنوات ، واعتقادى أنه أربى على المائة

فهذا الرجل فى نظرى هو جندى الأدب المجهول

عبد الوهاب النجار

٦ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

المرأة :

ومما آخذه على الكماليين خطتهم في تربية النساء ، فقد أخذوا بيد المرأة التركية ، ربة الدار الطاهرة ، وأم الأشبال الباسلة ، فقادوها إلى المراقص ، والملاهي ، ومجالس السمر أخذاً بسنن أوربا ؛ وسموا هذا تحريراً للمرأة وانصافاً لها واعظاماً ، واعترافاً بقدرها ، كأن المرأة لاتكون حرة إلا إذا هجرت الدار ، وعمرت المراقص ، وأهملت أطفالها لتجالس سمّارها ، وتركت سكينة الدار وسعادة الأسرة ، إلى ضوضاء الملاهي ونزاع المحافل ! لست آخذ على الكماليين أنهم تركوا المرأة تغشى المراقص اختياراً ، ولم يردوها إلى الدار قسراً ، بل آخذ عليهم أنهم هم دعوها إلى ذلك ، وحرضوها عليه ، وزينوه لها ، بل ألزموها به بعض الالزام حين نظروا شزراً إلى الموظفين الذين لا يأخذون زوجاتهم باتباع السنن الجديدة ، ويريدونهن على مسايرة النهضة النسوية ، ويروضونهن على أفانين المعيشة الأوربية

فعل الكماليون هذا تقليداً لأوربا وتقرباً اليها ، واستحياء من الاستمساك بآداب لايعرفها الغربيون ، والابقاء على سنن ينكرها السادة الاوربيون . ثم زادوا تقرباً حين أباحوا تزوج المسلمة من غير المسلم ، وقد عاشت المرأة التركية حقباً ترى واجبها أن تربي أشبالها للدفاع عن قومها ودينها ، وحماية تاريخ الاسلام والترك ، وترى نفسها أعز وأرفع من أن يلي أمرها غير مسلم ؛ وكانت هذه الكبرياء عصمة لها ولقومها في المحن التي انتابتهم ، والفتن المحيطة بهم ، وفي هذا النزاع ، نزاع الحياة والموت الثائر بين الشرق والغرب . فذهبت هذه «النهضة» بكبريائها ، ومحت ما أورثها الاسلام والتاريخ من عزة وإباء

وأتم الكماليون اعظام المرأة وتحريرها بأن فتحوا دوراً للبغايا فسايروا بعض الأمم الأوربية ، وشاركوا مصر الاسلامية في وصمة العار ، وسمة الخزي ، التي تحاول اليوم أن تمحوها عن جبينها . وقد بلغ من اعتدادهم بما فعلوا ، وافتخارهم بما اقترفوا ما تبين عنه القصة الآتية : حدثني من لا أرتاب في صدقه قال :

كنت على ظهر سفينة من عابرات المحيط ، ذاهباً إلى المؤتمر البرلماني في البرازيل ، وكان على السفينة جماعة من ممثلي الدول يؤمون المؤتمر ، وكان فيهم مندوبو الحكومة التركية ، فجلسنا مرة نتحدث ، وذهب بنا الحديث مذاهب حتى قال مندوب تركي مفتخراً متبجحا : لقد أنفقنا كذا وكذا في بناء دور فخمة رائعة للبغاء (وذكر مقدارا من المال عظيما جداً ، لا أذكره الآن)

قال محدثي : فلما قام صاحبنا نظر مندوبو الدول الأوربيـة بعضهم إلى بعض ساخرين متعجبين يقولون : ماذا يريد أن يقول هذا الرجل ؟

* * *

لا يحسبنّي أحد مجادلاً في سفور المرأة واحتجابها فيقولنّ فيم يجادل هذا الجاهل ؟ لقد سبقته المدنية مراحل كثيرة لجدال الناس اليوم في اللبس والعري . لا يقولن أحد هـذا فاني لست أنكر على المرأة أن تأخذ طريقها طليقة رشيدة ، تصرّف أمورها وتقوم بقسطها في الأمور العامة والخاصة على قدر ما تمكنها أعمال الدار والقيام على الأسرة . ولست أنكر أن الاسلام منح المرأة من الحقوق مالم تظفر به نساء أمم في أوربا حتى اليوم . لا أنكر هذا ولا أجادل فيه ، ولكني أضن بالمرأة أن تنزل عن عرشها في أسرتهـا لتتبذل في الطرق والمسارح والمراقص ، وأشفق عليها أن يخدعها الرجال لحاجات في أنفسهم فيزينوا لها كل ما تنزع إليه مآربهم ، ثم يكذبون فيذكرون الحرية والحق والاصلاح والكرامة ونحو هذا من الكلمات الكاذبة الخادعة ، الثائرة الرائجة في هـذا العصر . أيها الناس لا تخدعوا أنفسكم ولا تجحدوا أن لهو المدنيـة الحاضرة يدور معظمه حول جسم المرأة في الطريق والمرقص والمسرح وشاطئ البحر . وحسب المرأة ذلة وهواناً أن تكون ألعوبة الرجال حيثما شاءوا وكيف شاءوا . وبعد فهذا أمر لا يعالج بكلمات ، ولا ينفد بيانه في صفحات ، فحسبي أن أتناوله مجملاً موجزاً لا معدّداً مناهج النهضة التركية الأخيرة

* * *

ويقتضي المقام هنا كلمة موجزة عن نساء مصر : تغيرت المرأة

المصرية فى السنين الأخيرة تغيراً عظيماً . وبعض هذا التغير خير لا مراء فيه ، فقد تعلمت وبَصرت بمناهج الحياة ، وهذا صلاح وخير ؛ ولكن ما يسمى النهضة النسائية فى مصر تشوبه شيات من الضلال ، وألوان من أفن الرأى وخدعة الهوى ، ويلتبس الخير والشر فى كثير من جوانبها : فى مصر جماعة تتكلم عن نساء مصر كل حين ، وتدعى أنها تنطق بآلام المرأة المصرية وآمالها ، وهى على ذلك لا تمثل إلا جماعة من النساء هن أقرب إلى أوربا من مصر ، وأشبه بالأجنبيات منهن بالمصريات . وأما المرأة المصرية كما نراها وكما نودّ أن نراها فلا تمثلها هذه الجماعة إلا بزعمها ؛ هى جماعة كثيرة القول والعمل فى الجوانب اليسيرة البرّاقة التى لا تكلفها إلا الكلام والاجتماع من حين إلى حين ، وأما جوانب الاصلاح العسيرة التى تقتضى كدّ الفكر واليد وهجر الراحة والرفاهية : جوانب الاصلاح الخلقى والدينى التى تحول بين الناس وبين كثير من رغائب المدنية الأوربية ، فليس للجماعة غرام بها ، ولا صبر عليها . لا ريب أن للجماعة أعمالاً مشكورة فى تربية الفقيرات والحدب عليهن ، ولكن أبرز أعمالها أن تجمع الشواب من بنات الأسر الراقية للغناء والرقص وامتاع النظارة بضروب من المناظر وهلم جرّا . يضربن بذلك للمرأة المصرية أسوأ الأمثال ، ويدعونها إلى شر الخطط ، ويحطمن فى ساعات ما وطدته الأمة فى أجيال

كثيراً ما سألت أصحابى : لماذا لا تدعو هذه الجماعة إلى طريقة خلقية رشيدة ، أو سنة دينية حميدة ؟ لماذا لا يطالبن — مثلاً — أن يكون للنساء الحق فى غشيان المساجد أحياناً ليوعظن ويعلَّمن ما منح الاسلام المرأة من حق ، وما فرض عليها من واجب ؟ وقد اطلعت فى عدد الرسالة الأخير على كلمة للأستاذ أحمد أمين « حول المسجد » أخفف عن نفسى بنقل شذرة منها ، قال : « بل لِمَ لا يكون المسجد معهداً للمرأة كما يجب أن يكون معهداً للرجل . فيخصص مسجد كل حىّ وقتاً لنساء الحىّ تعلَّم فيه المرأة واجباتها الدينية والاجتماعية ، وتُفقَّه فيه فى دينها ودنياها ، وترشد فيه إلى طرق إسعاد البيت ، وتثار همتها إلى العطف والاحسان وتنظيمهما . فالمرأة الآن محرومة من غذائها الروحى والدينى لأنها بعيدة من المسجد ، حرمت منه من غير حق ، وهو سلوتها فى الأزمات ، وهو منهل عواطفها وغذاء روحها . لقد حرمت المرأة من المسجد فحرم أبناؤها وبناتها من العاطفة الدينية . لأن الأم — غالباً — هى مصدر هذا الايحاء ، وإذا انحرفت مرة فلم تجد المسجد يهديها ويعزّيها ، جمحت وغوت . فهى الآن بين بيت وملهى ولا مسجد بينهما يُذهب ملل البيت ويكسر من حدة الملاهى »

فليت شعرى ما رأى سيداتنا فى هذا الكلام ؟ اليس الاهتمام بالمساجد فى حالنا الحاضرة أولى من الاهتمام بالمؤتمرات التى يحرصن عليها ويحاولن فيها أن يسبقن نساء أوربا ؟ أذكر أن وفداً من سيداتنا المصريات ذهب إلى مؤتمر نسائى كان فى روميَة — فيما أذكر — فهل تدرى فيم تكلم الوفد ؟ تكلم فى « حقوق الطفل غير الشرعى » ! !

وأنا أترك القارئ لنفسه هنا يبدى ما يشاء ويقول ما يريد فى هذا الموضوع . وفى هذا العام ذهب وفد للمشاركة فى مؤتمر نسائى اجتمع فى اسطنبول ، فنادين باسم المرأة المصرية أنهن راضيات مغتبطات بما اختطه الكماليون للمرأة التركية ، وبكل ما فعله الكماليون . وتطوعت زعيمتهن فقالت للغازى مصطفى كمال باشا : إنك تسمَّيت « أتاتورك » وأنا أسميك « أنا شرق »

وليس يهمنى هنا أنها منحت الغازى لقباً لا معنى له فى اللغة التركية ، فان معنى أتاتورك : التركى الأب ، فمعنى « أنا شرق » على هذا القياس الشرق الأب وهو كلام لا معنى له . ليس يهمنى هذا الغلط اللغوى ولكنى أقول إن الوفد النسائى ما كان يبين عن آراء المرأة المصرية ، ومعظم المصريين من نساء ورجال لا يرضون مذاهب الكماليين فى المرأة ولا غيرها . ومعظم الشرقيين لا يرضون لأنفسهم مذاهب الكماليين ، بل معظم الترك لا يرضونها ، فان كانت الزعيمة أرادت أن تقول إن الغازى صار بعمله أباً للشرق كله فهى أبوّة لا يعترف بها الشرق ، وهى « أبوة غير شرعية » والكلام فيها كالكلام فى الطفل غير الشرعى

لست ، يعلم الله ، أحاول بهذا توهين المساعى النسائية فى مصر ، ولا تهوين أمرها على الناس ، ولا الزراية على أحد من المتصديات لها ، وما أريد لهن إلا الكرامة والرشد ، والنجح والظفر ، ولكن علينا أن ننصح ما استطعنا وأن نبين الرشد والغىّ

إلى الدكتور ابراهيم مدكور

التــــابو

للأستاذ محمد روحي فيصل

قرأت مغتبطاً دراسة الدكتور للخرافة ، وقوة أثرها في الجماعة ؛ وأشهد لقد أحسن العرض وأتقن البحث ، ثم وفق إلى كثير من الأمثلة الواقعة الجميلة التي استقاها من أوثق المصادر ، والتي تلقي ضوءاً على الموضوع ؛ ولابد أن يكون القراء قد أعجبوا كما أعجبت بعمق ثقافته وسداد تفكيره

يقول الدكتور : « وللخرافة يد أخرى في الدفاع عن الملكية ، فقد حاربت السرقة والسراق ، وحمت مال الفرد والجماعة ، وقضت على عامل كبير من عوامل الاضطراب . فالخرافة حلت محل القوانين والشرائع المختلفة في حماية الملكية الفردية والعامة لدى بعض الشعوب المتوحشة ، وربما كان لها على نفوس معتنقيها سلطان لا يعدله سلطان قوانيننا المنظمة »

وهذا صحيح ! فلقد شهدت فيمن شهد الرواية السينمائية الرائعة « ضحية المعبد » التي تصور عادات القبائل المتوحشة في جزر البحار الجنوبية ، وتبرز العقلية الأولية القاصرة في إطار وضيع مهين ، وتتلخص في أن فتاة لا بأس بجمالها نذرت نفسها للرب وكرست حياتها لخدمته ، فغدت عذراء مقدسة لا يتزوجها ولا يخاطبها ولا يمسها أحد من الناس . وشاء القدر العابث أن تعشق شاباً طويل القامة مفتول الذراعين ، ويعشقها هو الآخر فيتغازلان ويجتمعان ، ثم يهربان إلى جزيرة نائية خوفاً من عقاب « التابو » ! ! ذلك أن من يهاجم العذارى ، أو يخرق حدودهن ، وينتهك حرماتهن ، جزاؤه الموت ؛ أفلسن للاله وحده ؟ فكيف يشركه في ذلك آدمي نجس ؟ . . . وراح رجال القبيلة يفتشون عن المجرم ويقتفون معالمه ، وبعد لأي وجهد عثروا عليه فأوثقوه بالحبال ثم هووا به إلى قاع اليم فذهب ضحية المعبد . . . ! !

والتابو Tabou وسم أو علامة يضعها المتوحش على باب داره مثلاً إن أراد حمايتها ، وله بعد ذلك أن يهجرها ما شاء من السنين ، فلن يجرؤ امرؤ على سرقتها أو دخولها . والتحريم الذي تخلعه هذه العلامة على الأشياء والأشخاص ليس كالتحريم الذي نمهده في شؤوننا الأخلاقية من تحبيب في الخير وتبغيض في الشر ، وإنما هو تحريم خاص ، ملفف بالرهبة والتقـــديس ، ومفعم بالأسرار والمساتير

فالأمراء البولينزيون الذين يزعمون أن نسبهم الكريم يتصل بالأرباب يطلق عليهم « آريي تابو » أي الأمراء القدسون ؛ أما كلمة « نوا » فإنها تفيد العموم والاشتراك . فالمرأة في بولينزيا توصف قبل أن تتزوج بنوا ، أي أنها حرة طليقة تتزوج ممن تشاء ، وإذا تزوجت أسدل عليها ستار صفيق من التابو فتحرم على الناس جميعاً خلا زوجها

وحدث أن رجلاً من « التونجا » مس جثة أمير ميت فحكم عليه بالحرمان التابوي عشرة أشهر قربة لأن الأمراء مقدسون أحياء وأمواتاً ، ومن يمس شعر أمير أو جسده أو عظمه أو يشترك في جنازته يطوق بالتـــابو . والمعروف في « نيوزيلانده » ان القارب الذي ينقل جثة لا يجوز استعماله مرة أخرى ، وإنما يطرح أبداً على الساحل بعد طلائه بالبياض

ويذكر الأســتاذ ليفي برول في كتابه « العقلية الأولية » أن الرجل من قبائل « المركيزا » إذا ذبح عدواً له حكم عليه بالالتباس عشرة أيام يحرم عليه في خلالها مس امرأته وإشعال ناره ، فلا بد له إذن من طاه يطبخ له طعامه . والزاد الذي يحمله الشريف على ظهره يحرم على جميع الناس إلا على صاحبه ! كأن

(له بقيـــة)

جهدنا ، وأن ننادي بالرأي صريحاً في غير محاباة ولا مراءاة ؛ فليس من الخير للأمة أن يدهن الناس في أمورها ، وأن يسلموا للضـــلال زمامها ، وللفوضى قيادها ؛ وليس من البر بالنساء المصريات أن ندعهن سائرات على غير هدى ، فلا نماوئهن بالنصيحة المخلصة ، ونسددهن بالرأي الصريح ، فنخذلهن ونقعد عن نصيرتهن بالفعل وبالقول ، والله يهيئ لنا من أمرنا رشدا

عبد الوهاب عزام

التحريم أو « التتويب » قد انتقل من شخص الشريف إلى أشيائه ؛ وشعور الأمراء محرم لمسها ؛ ولو أن أميراً مس شعوره بأصبعه فعليه أن يدنيها من أنفه في سرعة ليستنشق رائحة القداسة التي علقت بها !

وفي الاصحاح السادس من سفر العدد من التوراة كلام مسهب عن شيء يدعى النذير ، فقد أمر موسى أن يقول لبني إسرائيل : أنه إذا انفرز رجل أو امرأة منهم لعمل نذر للرب . فالنذير يجتنب الخمر والخل ولا يشرب من نقيع العنب ، ولا يمر موسى الحلاقة على رأسه ؛ وينتهي النذر الاسرائيلي على نحو ما ينتهي التابو البولينزي ، وذلك بأن يحلق النذير رأسه عند مدخل خيمة الاجتماع المقدسة فيأتي الكاهن إليه ويضع على يديه طعاماً

ومن عادات اليهود ألا يقسموا بالله الكريم ، فهم يتورعون أشد الورع عن القسم باسم « يهوا » ، ومن يمس جثة ميت عد نجساً لمدة سبعة أيام ، وتنتقل نجاسته إلى كل شيء يلمسه ، وفي ختام الأيام السبعة يغسل لباسه ويستحم بالماء الطهور ؛ وكذلك النفساء فهي نجسة لا تجوز مقاربتها في حال من الأحوال

أما السبت فله عندهم قواعد خاصة تتعلق بالمحافظة عليه والاستراحة فيه . حرم عليهم فيه العمل ، واشعال النار في المنزل ، وطبخ الطعام ، والخروج من المنزل إلى مسافات معينة . والتاريخ يروي أن بومبي الكبير قد تغلب على اليهود في القدس لأنهم لم يسموا إلى مقاومته يوم السبت ، وان انيتوكرس الرابع السلوقي افتتح القدس عنوة لأنهم راعوا حرمة السبت

***

ليست تخلو فكرة التابو من خير ونفع ، ذلك انها كما يقول فريزر في كتابه « عمل بسيشه » أساسُ الشعور بحق التملك واحترام الأوضاع الاجتماعية والرابطة الزوجية وما إلى ذلك كله مما يتصل به الناس في حياتهم الخاصة والعامة . ولكنها على ذلك إعما تدل على انحطاط العقل ، وأخذه بالعنف في فعل الخير والشر ، وحاجته إلى الحدود والحواجز ، وتعليله الأمور والأحداث على الطريقة الدينية الميتافيزيكية ؟

محمد رومي فيصل

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى

للأستاذ محمد محسن البرازى

الأستاذ بمعهد الحقوق فى الجامعة السورية

صدفتنى أشغال شاغلة عن قراءة (الرسالة) ومطالعة كتب الأدب عامة منذ شهر وأكثر ؛ ولما عدت ، بعد تحررى من قيود الموانع ، إلى النظر فيما فاتنى من أعداد مجلتنا المحبوبة ، ألفيت فيها مقالين فى موضوع الفقه الاسلامى والفقه الرومانى ، أحدهما لمواطننا السيد على الطنطاوى بعنوان : « حول الأوزاعى أيضاً » (العدد الحادى والتسعون) ، والآخر للسيد صالح بن على الحامد العلوى السنغافورى بعنوان : « هل تأثر الفقه الاسلامى بالفقه الرومانى أم الحقيقة هى العكس » (العـــدد السابع والتسعون) ؛ فرأيت أن الواجب العلمى يدعونى إلى أن أقول كلمة فى الموضوع الذى عالجاه . فجئت إلى صاحب (الرسالة) أرجو منه أن يكرم وفادة كلمتى هذه ، وله الشكر خالصاً

يتلخص ماجاء فى المقالين فى مادتين اثنتين : (١) كون الفقه الاسلامى لم يؤخذ عن الفقه الرومانى ولم يتأثر به (٢) كون الفقه الرومانى مأخوذاً عن الفقه الاسلامى

إننى لاأريد أن أبحث الآن فى الشطر الأول من هذا الرأى ، لأسباب منها أنه لايجوز عندى الخوض فى موضوع خطير كهذا بكلمة عجلى ؛ وأما الشطر الثانى فلا أرى منتدحاً عن البحث فيه ، وأعتقد أنه يحتمل الايجاز

علم أصحاب المقالين أن الشريعة الرومانية هى أقدم عهداً من الشريعة الاسلامية ، وأنه لايمكن لعاقل أن يزعم مازعماه بصورة بسيطة مجردة ، ولذلك لجآ إلى تأييد دعواهما بدليل ليس بأقل منها غرابة ، وهو أن الفقه الرومانى المعروف اليوم هو — فى نظرهما — فقه جديد « لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم »

فى كلمات لا تزيد على العشرين ، وفى أقل من مدة قلم ، يقضى الأستاذ الطنطاوى ببطلان ما أجمع علماء الحقوق والتاريخ بلا استثناء على صحته ، وأنكر ما لم يختلف فيه اثنان منذ أن اشتغل الناس بدرس تاريخ الرومان وحقوقهم

ثم أيد الأستاذ العلوى دعوى زميله الطنطاوى ، معتمداً على ما كانت نشرته مجلة حضرمية منذ ربع قرن لأحد السادة العلويين الحضارمة ، فلم يخرج ماجاء به عن المناقضات

إن دعوى كهذه لايعبأ بها فى البيئات العلمية ، لأنها تخالف حقيقة علمية تعد بمثابة البداهة ؛ ولو أنها نشرت فى صحيفة غير موثوق بها ، أو مجلة من عامة المجلات ، لما كنت حركت فى موضوعها قلماً ؛ ولكنها نشرت فى مجلة لم يكتب لغيرها من المجلات العربية ما كتب لها من الحظوة عند ذوى العلم والأدب ، وسمة الانتشار فى مختلف الأمصار ؛ تصدر عن عاصمة الأدب العربى والفكر الاسلامى فى هذا العصر ، وينظر الناس إلى ما يكتب فيها ممثلاً بصورة إجمالية لآراء عمدتها الذين هم من أركان النهضة الأدبية العربية الجديدة ، ونزعة الاسلام الحديثة . لذلك خشيت أن يحسب علماء الغرب هذا الرأى العجيب معبراً عن اتجاه جدّى للرأى العام الاسلامى المثقف ، فيحكموا علينا بما لا نستحقه

أحس صاحب المقال الأول بوهن دليله ، فنهج منهجاً غريباً بعد ذلك ، إذ طلب التدليل على عكس ما ادعى ، أى على أن الفقه الرومانى الحديث هو الفقه الرومانى القديم قائلاً : « ليأتونا بالأسانيد الصحيحة والروايات المضبوطة »

الله ! الله ! أيطلب من أحبار العلم التدليل على ماأقرته أجيال من الأعلام المحققين لمجرد دعوى انفرد بها أديبنا الطنطاوى ، وهو على الرغم من تفوقه على أكثر أقرانه بذكاء كان موضع إعجابنا ، لم يتح له أن يدرس الحقوق الرومانية أكثر من غيره من الطلاب فى معهد الحقوق بدمشق ، ولم يتأت له النظر فى تاريخ الحقوق ، ولم يقيض له بعد أن يطلع على ما ظهر فى العالم من مؤلفات فى الحقوق الرومانية وما اكتشف من آثار تاريخية

إن من يقدم على الجزم بأمر كهذا يحدث — إن صح — انقلاباً فى العالم العلمى لايعادله أى انقلاب عرفه التاريخ فى الدين أو السياسة أو الاجتماع ، لا يحق له أن يكتفى بأن يقول لهذا العالم العلمى : « دلّل أيها العالم على صحة ما عكفت على دراسته

باعتباره صحيحاً منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً

البينة على من ادّعى ؛ فعلى من يقول إن الفقه الرومانى الذى نعرفه الآن مختلق أن يثبت اختلاقه ويبين مختلِقه ، ويظهر مكنون الفقه الرومانى القديم ، أسوة بما يفعله العلماء إذ يكشفون القناع عن الوثائق التاريخية المزورة والكتب المنتحلة

لئن جاز فى نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذى بأيدينا هو غير القرآن الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه مختلق من جماعة من علماء المسلمين الحديثين ، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا : « هاتوا دليلكم » ، فقد حق كذلك لصاحبى المقالين المتحمسين للأسلام هذا التحمس أن زعما ما زعماه

لقد جمع نصوصَ الشريعة الرومانية وآراء فقهائها حتى بدء القرن السادس المسيحى ؛ تلك النصوص القانونية والآراء الحقوقية التى هى أساس لدرس الحقوق وبحثها فى جامعات العالم ، ذلك الأمبراطور المتشرع الرومانى جوستنيان Justinien (المتوفى سنة ٥٦٥ ب . م) فى خلال ست سنين (٥٢٨ — ٥٣٤ ب . م) . وأضاف إلى ذلك القوانين التى أصدرها ؛ وقد عرفت هذه المجموعة الحقوقية منذ بدء القرون الوسطى ب « Corpus Juris civilis » .

وكان بين العلماء الذين يشتغلون تحت رعاية الأمبراطور الفقيه أساتذة فى معهد حقوق بزانس : (القسطنطينية) ، ومعهد حقوق بيروت

إن هذه المجموعة الحقوقية قد انتقلت إلينا بنصها وفَصِّها ، وهى مؤلفة من أربعة كتب أو مجموعات صغيرة : ال « كوديكس Codex » ، وال « ديجست Digeste » وال « انستيتود Institutes » ، وال « نوفل Novelles » ؛ ولا تزال نسخ قديمة من هذه الكتب أو المجموعات القيمة محفوظة فى المكاتب الكبرى فى أوربا يرجع عهد بعضها إلى القرن السادس (ب . م) ، أى إلى القرن الذى عاش فيه جامعها وواضعها الامبراطور جوستنيان نفسه

ومن أجلّ هذه النسخ المخطوطة نسخة من ال « ديجست Digeste » كتبها خطّاطون إغريقيون فى القرن السادس والقرن السابع (ب . م) ، معروفة بال « فلورنسية Florentiene » لوجودها فى مدينة « فلورنسه » منذ سنة ١٤٠٦ [1] . وقد نشرت هذه المخطوطات مصورة تصويراً فوتوغرافياً ، وحققها العلماء الاختصاصيون فى المخطوطات ، ولم يطعن عليها طاعن ؛ وعثر على مخطوطات كثيرة من عصر « جوستنيان » مكتوبة فى اللغة اليونانية على ورق البردى ، نشر قسماً منها العالمان الألمانيان « ميتيس Mitteis » و « ويلكن Wilcken » سنة ١٩١٢ ونشر الأستاذ « جان ماسپرو Jean Maspero » عدداً كبيراً من هذه المخطوطات المدونة على ورق البردى فى مجموعة متحف القاهرة (سنة ١٩١٠ — ١٩١٤) (Catalogue des papyrus Grecs d'époque Byzantine) بل إن المتاحف والمكاتب تحفظ أيضاً نسخاً مخطوطة أصلية لمجموعات قانونية سابقة لعهد « جوستنيان » كالمجموعة القانونية للأمبراطور « ثيودوسيوس Theodosius » ، وكتاب المتشرع « غايوس Gaius » المعروف بال « Justitutes » ، ومؤلفات أخرى ، منها مؤلف معروف بـ Fragmenta Vaticana وضع فى القرن الرابع (ب . م) وعثر عليه فى مكتبة الفاتيكان سنة ١٨٢٠

ثم إن الفقه الرومانى هذا قد عمل به بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية فى روما ، وبعد وفاة الامبراطور جوستنيان ، وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية ، وهذا أمر لم يختلف فيه العلماء المؤرخون . فبلاد فرنسا الجنوبية ظلت خاضعة لأحكام الفقه الرومانى بصفة حقوق عرفية حتى قبيل الثورة الفرنسية . هذا عدا البلاد التى تأثرت كثيراً أو قليلا بالحقوق الرومانية ، كايطاليا وألمانيا ، حتى إنكلترا بلاد العرف والتقاليد . وقد بقى الفقه الرومانى معمولاً به فى عصرنا هذا فى بلاد جنوبى أفريقية الخاضعة لأنكلترة

أما المناقضات التى وقع فيها السيد صالح العلوى نقلاً عن السيد العلوى الحضرمى ، فأشير منها إلى ما جاء فى السطر الثانى من الجانب الأول من الصفحة ال « ٧٨١ » من الرسالة . فبعد أن قال إن الفقه الرومانى « اختفى ثم اكتشف ، ولم يظهر ويعمل

(١) راجع تاريخ مخطوطات الحقوق الرومانية فى مقدمة العلامة « مومسن Mommsen » فى مجموعة جوستنيان التى قام بطبعها ؛ وراجع ذلك مختصراً فى كتاب الحقوق الرومانية للأستاذ العلامة « جيرار Girard » ص ٨٣ وكتاب المؤسسات الحقوقية الرومانية للأستاذ الكبير « كوك Cuq » ص ٦١ هامش ٨

به إلاّ فى القرن الثانى عشر ، وانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادى عشر » ؛ وقال فى السطر الـ « ٢٢ » من الصفحة نفسها : « ان دعوى اختفائه أكذوبة » ، ثم مالبث ان استند إلى قول العلامة « سافنيه » : « ان القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع »

أما وقد صح لدى السيد العلوى قول « سافنيه » هـذا ، فهو مضطر إلى الاعتراف إذن بأن الفقه الرومانى المعروف لدينا الآن ، هو تلك « القوانين الرومانية التى لم تختف لأنهـا ظلت معمولاً بها إلى اليوم » ، وبرغم على التسليم بأن تلك القوانين الرومانية القديمة التى هى أقدم عهـداً من الفقه الاسلامى ، لم تختلق اختلاقاً ولم تلفـق تلفيقاً من قبـل العلماء الحديثين ، ولم تؤخـذ عن الفقه الاسلامى ، خلافاً لمـا ادعى . ولا أدرى كيف يورد قول سافنيه هذا ويؤيده ، ثم يحاول ، بعد القول المستشهد به بسطر واحـد ان يأتى بأدلة على اقتباس القوانين الرومانية من الحقوق الاسلامية

قلنا إنه لا يجوز مبدئياً طلب التدليل على أن الفقه الرومانى الحديث هو نفس الفقه الرومانى القديم لمجرد دعوى وحيدة فى بابها . ثم إذا قبلنا لزوم التدليل ، فمـا هى وسائل البينة ؟

إن السيد الطنطاوى يتطلب « الأسانيد الصحيحة ، والروايات المضبوطة »

ان البينات تختلف بحسب الأمور المراد اثباتها ؛ فاذا كانت هـذه الأمور غير مدونة بنفسها ، كالحديث الشريف[1] فلا بد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات ، واقامة الدليل على صدق الرواة ، إلى آخر ذلك مما هو معروف فى أصول علم الحديث . أما إذا كان المراد اثباته مدوناً بنفسه ، لم يعـد مجال حينئذ إلى الأخـذ بطريقة الرواية والاسناد ، وصار لابد من التدليل عليه بنسخته الأصلية التى وضع بها ، أو بالنسخة التى أخذت عن هذه .

فالقرآن الكريم مثلاً ، لما كان قد دون فى العهد الذى نزل فيه ، وجمعت صحفه المدونة فى عهد الخليفة الأول ، وانتقلت إلينا نسخ مخطوطة منه كتبت فى عهـد قريب من عهد نزوله ، لم يلجأ إلى الرواية لاثبات صحته

وكذلك أيضاً شأن الشرع الرومانى الذى دوّن وجمع فى عهد جوستنيان ، فهو لا يثبت بالروايات والأسانيد ، ولـكنه يثبت بنسخه المخطوطة القديمة التى هى من عصر جامعه ومصلحه جوستنيان . وهـذه النسخ قد عثر عليهـا ولا تزال محفوظة ؛ ولو لم يكن على الفرض ، بأيدينا منها ، إلا ما هو منذ القرون الوسطى ، لوجب أيضاً ألا نشك فى صحتها ، لأن علماء تلك القرون المظلمة لم يكن لديهم من الكفاية والمقدرة العلمية مايمكنهم من وضع حقوق راقية كالشرع الرومانى ، فالأولى ألا يشار إلى الروايات والأسانيد فى موضوع الحقوق الرومانية وغيرها من الحقوق التى دونت عند وضعها

هل بعد الوثائق الأثرية والنسخ المخطوطة القديمة حاجة لدليل على صحة ؟ إن القوانين والأحكام الحقوقية الرومانية المعروفة فى عهدنا هـذا هى نفس القوانين والأحكام التى عرفها الرومان فى القرن السادس الميلادى وقبله

قد يغضب صاحبا المقالين فيقولان إن هذه النسخ المخطوطة القديمة نفسها مصطنعة لفقها الأوربيون ؛ فاذا بلغت بهما الحماسة الدينية القومية هذا الحد من إنـكار الحقائق العلميـة التاريخية الراهنة لم يعد آنئذ مجال للبحث

ولـكن هل يجوز لنا أن نتهم جميع علماء الغرب بلا استثناء بالتزوير ؟ وما الذى يسوغ لنا ذلك ؟ أو لا نجد بينهم أناساً وضعوا الحقيقة فى أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شىء ؟ ألا نرى بينهم عدداً غـير قليل دافع عما يعتقد أنه الحقيقة مخاصماً بذلك رجال الدين ، ومعادياً فى هذا السبيل السلطان الجائر ؟

ألم ينافح كثير من علماء المشرقيات عن ديننا الحنيف ، ونبينا العربى ، وحضارتنا الاسلامية ، ومدنيتنا الشرقية ، تجاه حملات المتعصبين من أبناء جلدتهم ودينهم ؟

حسبنا أن نذكر على سبيل المثال أسماء الفرنسيين : « جوستاف لوبون » صاحب كتاب حضارة العرب و « هوداس » و « مارسيه » ، مترجمى صحيح البخارى للفرنسية ، و « درمنغهم »

---

(١) الحديث الشريف لم يدون كالمذكرات العصرية أو التآليف الموضوعة ، بل كان عبارة عن الأقوال التى كان ينطق بها الرسول « ص » فى مجالسه بين أصحابه وفى خطبه ومواعظه ، أو الأحكام التى كان يفصل بها الخلافات ، أو الأعمال التى كان يقوم بها والتى صارت تعتبر سنة يقتدى بها ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يأمر بتدوينها ، إنما حفظها أو حفظ قسما منها من سمعها من أصحابه فتناقلوها بروايات مختلفة فيما بينها فى بعض الأحيان . وهكذا انتقلت بطريقة السماع حتى شرع فى تدوينها بعد زهاء قرن ونصف قرن من تاريخ الهجرة

صاحب كتاب حياة « محمد » ، و « ماسينيون » مدرس العلوم الاجتماعية الاســلامية فى كلية فرنسا ، وصاحب المؤلفات الكثيرة عن الاسلام ، ومدير مجلة المباحث الاسلامية ؛ ويكفينا أن ننوه بتلك الوقفة الشريفة التى وقفها هذا الأستاذ الأخير سنة ١٩٢٨ دفاعا عن المدنية الاسلامية ، ورده البليغ على المسيو « لويس برتران » الذى حمل على الاسلام والعرب فى مقال نشرته فى ذلك العام جريدة « الفيجارو » الباريسية

أيعقل ألا يوجد رجل واحد شريف منزه عن التزوير بين علماء أوربا من فرنسيين ، وألمان ، وانكليز ، ومجر ، وايطاليين ، واسبان ، وروس الخ . ؟ فلو لم يوجد إلا عالم واحد صادق يقول الحق ، لكان بلا ريب قد رفع صوته عالياً أمام هذه الفرية الفظيمة التى يتهم بها السيدان ، الطنطاوى ، والعلوى العالم فى الغرب ؛ ولكنا شهدنا قبل مقالى حضرتيهما حرباً قلمية دونها حرب البسوس ، وخصاما علمياً دونه خصام الملل والنحل ، ودعاوى ذم وتزوير لا تجاريها دعاوى « آثار كلوزيل Clausel » الحفرية . ونحن نعلم أن العلماء فى أوربا يتجادلون ويتناظرون فى أمور نعدها فرعية وزهيدة

أضف إلى ذلك أن العلماء الاختصاصيين فى الحقوق الرومانية ليسوا جميعاً من عرق لاتينى أو ثقافة لاتينية ، بل هم من مختلف الأعراق والأمم ؛ وثمّ علماء من الألمان هم جهابذة فى الفقه الرومانى ، أمثال « سافينى Savigny » و « ايهرينغ Ihering » لايمكن أن نتهمهم بتعصب للرومان ، وقد ساروا جميعاً فى ضوء الحقيقة التاريخية المقررة مطابقة الفقه الرومانى المعروف فى عصرنا للفقه الرومانى القديم

لم يمنع العلماء الأوربيين عامة تفاخرهم بشرع الرومان الذى ورثوه من الاقرار باقتباس الرومان شيئاً غير يسير من شرائع الأمم الشرقية التى سلفتهم أو عاصرتهم مباشرة ، أو عن طريق الأغريق ، حتى أن عالماً عظيم القدر هو من أكابر الأثريين الأستاذ « ريفيو Revillou » الفرنسى وضع كتاباً دلل فيه على اقتباس قسم عظيم من أحكام قانون « الأثنى عشر لوحاً » الرومانى ، وهو أقدم قانون لدى الرومان من شريعة المصريين القدماء موردًا للنص الرومانى والنص المصرى ، ومبيناً ما بينهما من شبه لامراء فيه ؛ وبهذه الطريقة العلمية ، وبعد تنقيب وبحث مدة أعوام ، عمد إلى اثبات دعوى الاقتباس والأخذ ، لاعجرد القول يثيره غرب الشباب

إن علماء يوجد بينهم أمثال « ريفيو » ، وأمثال المستشرق الفرنسى « هوداس » الذى يقول : « إن القرآن ليحوى بصورة كامنة جميع ما يمكن أن يصل اليه العقل البشرى من معارف [1] » و « كولد زيهر » الذى يقول : « يجب على المرء إذا شاء أن يكون عادلاً أن يسلم بأن فى نظريات الاسلام قوة فعالة متجهة نحو الخير ، وبأن حياة توافق هذه النظريات تستطيع أن تكون حياة لاتشوبها شائبة من الناحية الخلقية ؛ فهى توجب الرحمة لمخلوقات الله جميعاً ، وحسن النية فى المعاملات ، والمحبة والوفاء ، وكبح غرائز الأثرة [2] » ، والبارون « كارادى فو » الذى يكتب صراحة عن ابن خلدون : « انه لم يسبق قط لعقل من العقول أن يكون لديه فكرة فى فلسفة التاريخ أكثر وضوحاً من فكرة ابن خلدون ؛ وأن ابن خلدون هو سلف علمائنا الاجتماعيين الحديثين الخ [3] » . وعلماء آخرون هم فى هذه المنزلة أو أسمى ؛ إن علماء كهؤلاء لا يمكن أن يزوّروا بداعى التعصب الدينى شريعة يسمونها بالفقه الرومانى ويقتبسونها عن الشرع الاسلامى ؛ ولا يعقل أن يسكتوا أمام تزوير كهذا

ثم إن بين أحكام الحقوق الرومانية ، وأحكام الشريعة الاسلامية ، ولا سيما فيما له صلة بالأحوال الشخصية ، وحقوق الأشياء (حق الملك وما يتفرع عنه) اختلافاً وتبايناً لا يدعان عدا الأدلة التى ذكرناها مجالا للشك بأن دعوى اختلاق الفقه الرومانى من قبل علماء حديثين اقتبسوه عن الفقه الاسلامى ضرب من الخيال

فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية ، وكره لأوروبا والثقافة الغربية ؛ فيسرفوا فى القول حتى يجانبوا المنطق

إن الحقيقة فوق العاطفة والهوى ، والعلم لا وطن له . ثم إن فى دعاواهم الغريبة وتهمهم الفظيعة ، بنيّة خدمة الاسلام ما قد يضرّ بالاسلام ويسىء بثقافة المسلمين الظنون

محمد محسن البرازى

أستاذ فى معهد الحقوق بالجامعة السورية

(1) Houdas : l'islamisme P 13. edit Paris 1904

(2) Goldziher : Le Dogme et la loi de L' islam trad fr. P. 15.

(3) Baron Carra de Vaux : Les Penseurs de l' islam t = p 278. ed. Poris 1927

في الاصلاح العلمي :

الأزهـــــر

بين الجامعية والمدرسية

بقلم محمد طه الحاجري

تسيطر على الدراسة العاليــة في مصر روحان ، ما زالتا تصطرعان وتنتضلان ، كما يصطرع الحق والباطل ، في عنف وقسوة حيناً ، وفي هدوء وهينة حيناً آخر . إحداهما روح جامعية تقوم على تمثيل العلم في أصح صوره وأدق معانيه ، وتهذيب العقل في أوسع باحاته وأكمل مجاليه ، وتربية الملكات العالية التي يقوم بها ذلك العالم الصغير ، وتطلب الحقيقة في مختلف أشكالها ، وبشتى وسائلها ؛ والأخرى روح مدرسـية تعتمد على قشور من العلم لا تغني عن العلم شـيئاً ، وتلقين لبعض الحقائق المقررة كأنها حقائق مطلقة ، وإغفال لحرمة العقل والملكات الانسانية لأن الأمر أهون من ذلك فيما يزعمون

والأولى روح مطلقة تأبى التقيد ، بعيــدة الأفق لا يكاد يحدها حد ، إلا ما اقتضته طبيعة العلم واستلزمته أساليب التفكير الصحيح . والأخرى لا حياة لها إلا في أثقال من القيود المرهقة ، وأسداد من الحدود الضيقة ، توقف الفكر ، وتبلد العقل ، وتعطل المواهب ، وتجعل من الرجل آلة طيِّعة ، وكائناً منفعلاً لا فاعلاً . ففرق ما بين الروح الجامعية والروح المدرسـية ، هو فرق ما بين الروح الفاعلة المختارة ، والآلة المنفعلة المنقادة . تلك توجه العلم للعـلم ، وتطلب الحقيقة من أجل الحقيقة ، وتقدّر المسائل العلمية تقديراً ذاتياً ، لا يخضع للهوى ، ولا يتكيف بغاية معينة مرسومة ، ليست من العلم ولا من الحق ولا من الحياة الفاضلة . وهذه جعلت العلم مركباً إلى العيش ، ووسيلة إلى نوع من الحياة الدنيا ، وآلة صماء لتهيئة غرض محدود وإصابة هدف معين ؛ فوضعت له المناهج والرسوم ، وثقل بالأصفاد والقيود ، وأقيمت من حوله الأسداد والحدود ، وحصن من أن تصل إليه شعاعة من أشعة الروح الجامعية النفاذة ، فتثير فيه طبيعة الثورة على تلك اليد الثقيلة الباطشة

وتتنازع الروحان الهيمنة على العلم ، ولكن الغلبة للروح الجامعية مهما أقيمت في وجهها الصعاب ، واكتأدت سبيلها العقاب ؛ ذلك أن قوتها من قوة العلم ، والعلم قوى غلاب ، لا يصده صاد ولا يغلبه غالب . والروح المدرسية روح مصطنعة ، أوجدها الضعف ، ودعمها الاستعمار ، وقام من حولها دعاة الذلة والمسكنة يسندون ما وهى ، ويرأبون ما تصدع ، ويلونونها بألوان فاقعة تأخذ بأبصار الغفل السذج

هذا إلى أن الروح الجامعية روح عريقة في مصر تضرب إلى حـدود بعيدة من تاريخنا العلمي ، وتتمثل في ذلك التوثب الفكري المجيد الذي يبدو — في أروع مظاهره — في ذلك التراث العلمي الذي خلفه أجدادنا من رجال الأزهر : جامعة العلم ومثابة العلماء مدة من القرون مديدة ، جديرة أن تلبسنا ثوب الفخر ، وتقوى في نفوسنا الاعتزاز بالروح الجامعية ، وتبث فينا القوة على تعززها ودفع المتدين عليها ، دون أن تفرقنا في ذلك الأهواء المقيتة ، وتوزعنا العصبيات الفارغة . بل كلنا أمام العلم والتاريخ جامعيون : نستمد من روحنا العلمية وتاريخنا الجامعي قوة على قوة وعزة فوق عزة ، ونستمسك بجامعيتنا ونستعصم بهـا من عوامل الضعف أو التسفل ، ومن منازعة أهواء الحياة ، والتفريط في جانب العلم

فلست أذهب مذهب القائلين بأن الروح الجامعية في مصر وليدة الجامعة الأولى أو الثانية ، أو أنها جاءت إلينا من أوربا مع العائدين إليها من المصريين ، أو مع الأساتذة الأجانب القادمين أو المستقدمين ؛ فلنا جامعيتنا الأصيلة المنبثقة عن أقدم الجامعات ، ولنا تقاليدنا العلمية الصحيحة التي تشبع في أنفسنا الرغبة العلمية وترضى فيها العزة القومية ، وتبعث فيها المضاء والحمية ، وتعصمنا من مهاوى الروح المدرسية التي يتكاتف ربائب الاستعمار وأبواقه وأنصاره والمخدوعون فيه والممون عنه على تثبيت أقدامها ، ونشر سمومها ، وتزيينها في أعين الغفل الواقفين عند الظواهر ، المفتونين عن الحقائق ، في أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان : من النظام والجمال ومراعاة الزمن ومسايرة الحياة ومطالب العيش ، وما إلى ذلك من العبارات الخادعة

وتلك هي الخدعة التي نخشى أبلغ الخشية وأعظمها اعتلاجاً

فى القلب أن يقع الأزهر فى حبالتها ، وأن يتردى فى مهواتها . ونرجو ألا يكون اندفاعه فى سبيل الاصلاح والتجدد مفشياً على بصره أن يتنبه إليها ، وألا تكون مسايرته لروح العصر صارفة له عن روح العلم وصبغته التى صبغ عليها ، وألا ينسيه جديده الذى يشتد عدواً فى طلبه وتحقيقه عن تقاليده العلمية الأولى التى تفخر بها مصر والشرق العربى بله الأزهر نفسه

وإنه لحقيق بالأزهر فى وقاره ورزانته ، وزمامه بيد الأستاذ المراغى فى بصره وحكمته ، ألا يمنعه طلب الجديد عن التمسك بتقاليده ، وألا تخدعه مطالب الحياة عن روحه الجامعية التى قام عليها بناؤه ، وارتفع بها مجده ؛ ولعله لا يني فى تصفية ما خلفه العهد المشئوم من آثار لتلك الروح المدرسية المشئومة ، كانت هى القاضية عليه ، لو طال بها الزمن فيه ، فى غفلة من هؤلاء وإغماض من أولئك ، لولا لطف الله بنا ورحمته عليه

إنما ينبغى أن يكون أساس الاصلاح فى الأزهر هو الأخذ بأساليب البحث الحديثة ، ومجاراة الرقى العلمى فى مجالاته العليا ، ومسايرة الحركة العلمية فيما يتصل بنواحى دراسته ، والاتصال بالحياة المصرية اتصالاً نبيلاً يعينه على تأدية رسالته ، إذ يهيئ له وسائل الاصلاح الاجتماعى ، ويعبد له سبل الدعوة إلى الحق والفضيلة والدين ، مع الاحتفاظ بتلك الروح الجامعية التى تأبى أن تتعبد لما دون العلم من المطالب الدنيا ، وتلك الصوفية العلمية التى تفرض على صاحبها الفناء فى العلم ، والاندماج فى الدرس ، والترفع عن الدنيات . وللأزهر من نعمه فى ذلك شواهد باهرة وآيات ظاهرة : فليس فى ذلك القول ما يسوغ لقائل أن يرميه بأنه خيال شاعر أو حلم نائم

لا ! بل تاريخ العلم كله ، وسير العلماء الغابرين والمعاصرين ، شاهد بأن الروح العلمية الخالصة التى ترفع العلم فوق كل اعتبار ، وتذهب به إلى منزلة من التقديس عالية ، هى وحدها التى ينبغى أن تسود جامعات الدرس ومعاهد البحث ، وهى وحدها التى تخلع على صاحبها ثوب المجد ، وترفعه إلى منزلة الخلود

فليس « تمصير » الأزهر أن ينزل به إلى تلك الدركة الدنيا من الحيـاة حيث يضطرب الناس ويتعايشون ، وأن يعد أهله لمرافق الحياة وقضاء ضرورات العيش ليس غير ، ليصير أحدهم معلم صبيان ، أو مأذون قرية ، أو امام مسجد ، أو واعظاً فى مدينـة . وتصبح تلك الجامعة الكبرى ولاهم لها إلا تخريج أولئك وتزويدهم بمـا لابد منه لأمثالهم ! وياضيعة التاريخ المجيد إذن ، ويا هوان الاسم الكبير الضخم ، ويا للسخرية من تلك الصفة الجامعية التى وسموا بها تلك المدرسة !

كم يمتلئ صدري أسى وحسرة حتى ليكاد قلبى أن يتفطر حين أشعر بذلك المصير الذى أخشى أن يهوى إليـه الأزهر فى سبيله إلى الاصلاح ، ومسراه نحو التجديد ، لولا أمل يغمر قلبى فى حكمة الأسـتاذ الأكبر وبصيرته ، وروحه الجامعية التى تتجلى فى أحاديثه وخطبه ، وفى أنه يترسم الأسـتاذ الامام « قدس الله سره » فى خطواته الاصلاحية ، ومراميه العلمية

إن الضعف النفسى هو الثغرة التى تنفذ منها الروح المدرسية إلى الأزهر . فمـا أكثر ما تضيق النفوس بالكمال ، وتنوء بتكاليف المثل الأعلى . ولكن الأمر فى الاصلاح العلمى يجب ألا ينزل على حكم الضعف ، فان العلم يتطلب بطبيعته القوة المتحكمة ، والعزمة المصممة ، كما يجب أن يسمو المصلح فوق الاهواء فلا يداهن فيها ، وفوق شهوات النفوس فلا يتألف عليها أو يتملقها

أنا لا أقول إن « العلم زبال » كما كان يقال فى الأزهر ، فقد تطورت الحياة الاجتماعية تطوراً لا يسيغ ذلك القول ؛ ولا أقول إن العالم يجب أن يعيش فى صومعة يتابع فيها دراسته ، ويوالى فيها تأملاته ؛ أو يقنع بالدون من العيش فى مقابل طموحه العلمى ، فهذا مالا سبيل إليـه مطلقاً ؛ ولكنى أقول يجب ألا يكون العيش غاية العلم ، فانه متى صار أداة لمرافق الحيـاة وجب أن يتكيف بمـا تقتضيه ، لا بمـا يقتضيه البحث العلمى والحقيقة المنشودة . وأى مسخ للعلم وتحويل له عن سبيله أشنع من هذا ؟ وانى أعيذ الأزهر — وله من ماضيه المجيد معاذ ومستعصم — أن يحقر تاريخه ، وينكر ماضيه ، ويكون صاحب هذه الجناية . ثم لعله مع هذا لا يوفق فى تهيئة الترف والرفاهية والحياة الكريمة لرجاله ، وبالها من عثرة !

وما أحقه إذن بقول الله جل شأنه : خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين

على أن الحياة لا تضن على الرجل الكريم الذى يبذل نفسه فى سبيل العلم بمـا يضمن له راحة البال ، وهدوء الضمير ،

وكرامة النفس ، ومتاع العيش . ومن فوق ذلك كله مايستشعره من سعادة لا تعدلها سعادة فى كل لحظة من لحظات حياته العلمية الموفقة

ولقد أحس بأن الناس بدأوا يمجون ذلك الصنف من المعاهد الذى تهيمن عليه الروح المدرسية . وبدأت الحياة تلفظ هؤلاء الذين انطبعوا بطابع تلك الروح ، فصاروا بالآلات التى تملأ لتفرغ أشبه منهم بالأحياء الذين حيويتهم دائبة على الخلق والابداع . ولئن لم يتجل هـذا المظهر اليوم تجلياً قاطعاً عناتج الشبهة ، فان الحياة صائرة إليـه ، ما من ذلك بد ؛ وبين أيدينا مقدماته جلية

فليعرف الأزهر ذلك وليتدبره تدبر الحكيم البصير ، ولا يصرفنه المتاع العاجل عن العاقبة القريبـة ، وعن حسن تفهم الأمور على وجهها الصحيح ، وعن النظر فى منطق الحياة الذى لا يتخلف ؛ ولا تغرنه الحياة الدنيا عن الآخرة ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل

محمد طه الحاجرى
بكلية الآداب

الجو فى القصـــة

بقلم محمود عزت موسى

قبل أن نستعرض بعض مسائل هذا البحث ، نتقدم بسؤال صغير : هل يخلق جو القصة قبل تكون القصة ذاتها ، أى قبل الألمام التام بكل أوضاعها وشخصياتها وحوادثها ؟ إن الاجابة على هذا السؤال قد تبدو مرتبكة ، كثيرة الشعاب ، والواقع غير هذا ، فان أول ما يجب أن نفهمه أن الجو هو الذى « يؤدى » أو هو الذى يساعد على تأدية عملية الخلق فى الرواية أو القصة ، ومعنى هذا أن القصة لا يمكن أن تخلق أو تتكون أجزاؤها بعضها إلى بعض ، كما لا يمكن أن تمر على أدوار التكوين حتى تصب فى قالبها الأخير قبل أن يسبق هذا وجود الجو الذى تقع فيه هذه العمليات ، إذ أن القصة كأى شىء حى يحتاج إلى الجو الذى يؤهل له عملية الظهور فى الحياة والنمو والا كتمال

ذكرت (آنا جريجو فنا) فى مذكراتها عن زوجها فيدور دوستويفسكى القصصى الروسى الخالد أنه لما كان فى سويسرا ، كان كثير الاضطراب والملل والسأم ، وأنه لم يألف سويسرا ولا أهلها كثيراً ، بل كان كثير التحنان إلى روسيا دائم الشوق إليها .

وقد بدا هذا ظاهراً فى رسائله التى كان يبعث بها إلى بعض خلصائه فى روسيا ، وقد كان دوستويفسكى فى تلك الآونة التى قضاها فى سويسرا يعانى ضيقاً مالياً خانقاً ، وكانت الديون التى ألزم نفسه أداءها بعد وفاة أخيه ميشيل تجعله يرى فى سويسرا مأمناً لو كان رجلاً يلوذ بالفرار من المسئوليات والدائنين الذين ينتظرون عودته إلى بلاده لمطالبته بسـداد ديونهم أو زجه فى سجن المدينين حتى يوفى دينه . . لكن هذا الرجل العظيم لم يغفل قط يوماً أثناء إقامته فى سويسر الحنين إلى روسيا حتى أتيح له ذلك بعد سنوات . فلم يكد يصل إلى وطنه حتى أحس بأن الحياة قد عادت تدب فى عروقه قوية مشبوبة . . مع أن وفود الدائنين لم تكن لتنقطع عن زيارة بيته على أثر وصوله !

كتب دوستويفسكى فى بعض رسائله « إننى أحتاج إلى الجو الروسى حتى أستطيع أن أكتب كما أريد » وهـذه العبارة الدقيقة تكاد تحل بنفسها موضوع هذا البحث . فان هذا القصصى على الرغم من أنه عاش فى روسيا طوال حياته إلا سنوات قليلة قضاها فى الخارج ، ومع أنه استطاع أن يختزن فى ذاكرته وقلبه وعقله الباطن كل الاحساسات والحوادث ، وأن يخلق الجو الروسى فى كافة رواياته التى ألفها فى سويسرا كنتيجة للاعتبارات السابقة ، إلا أنه مع هذا كله خشى إن هو ابتعد طويلاً عن وطنه أن يخف ويتضاءل مقدار الجو الذى اختزنه فى حياته الماضية ، وشعر بحاجته — على حد التعبير الادبى — إلى أوكسجين روسى يملأ رئتيه . لأنه استشعر بأنه مهما استنهض كل الذكريات فى خلق الجو فانه فى حاجة إلى أن يكون دائماً فى ذلك الجو ليطمئن على فنه من أن يختلط بأجواء أخرى فيفسد وتضعف روعته . أو تشيع فيه الفوضى والاضطراب

إن الفنان العظيم لابد أن يكون له جو خاص ، هذا الجو هو ذوب مواهبه ، هو العالم الذى يضع فيه أفكاره ، ويخلق بين جنباته أعماله الفنية ؛ فاذا رأينا رجلاً مثل دستويفسكى يحتاج إلى

جو روسيا لتكوين أعماله الأدبية ، فهو يعطى لهذا الجو شكلا ولوناً ورائحة تختلف عن غيره من سائر القصصيين الروسيين وإن اتفقو جميعاً فى شىء واحد ، وهو الجو العام لبلادهم ، إلا أن لكل منهم جوه الخاص . ومن هذه النقطة تتفاوت أقدار الفنانين تبعاً لقدرة كل منهم وسمو فنه وحذقه عن الآخرين

والقصصى الذى لا تلمح فى عمله جواً خاصاً به ، ولا تحس بهذا الجو أو وجوده ، أو ترى جوه خليطاً من تأثرات شتى ؛ هـذا القصصى لا يمكن أن يكون قصصياً صحيحاً . لأن التركيز ينقصه ، بل هو قصصى « اكتسبَ » فن القصة اكتساباً ، والتقط موهبته الفنية من مواهب الكثيرين ، واستلب من كل الأجواء الأدبية التى عاش فيها شيئاً ، ليعيش لحظات على التقليد أو المحاكاة . وهذا الفنان تبدو حياته الفنية مهددة دائماً بالموت والانتهاء ، لأنه شائع بين كافة الفنانين ، لاشخصية له بينهم

إن أهمية وجود الجو فى القصة لاحد لها . فان هذا الجو هو الذى تخلق فيـه الشخصيات والحوادث ، وكلما كان القصصى أو المصور ، أو الموسيقى ، أو الشاعر ، مؤمناً بالجو الذى يعيش فيـه ارتفع فنه إلى الذروة ، واستطاع أن يبرع فى ايضاح عمله الفنى

قد تكون القصة — فى موضوعها — بسيطة ، لاشذوذ فى حوادثها ، ولا مؤثرات مفتعلة كما نرى فى القصص الرخيص ، ومع هذا فان القصصى يستطيع أن يسمو بالحادثة الصغيرة إلى أوج الفن القصصى ؛ وذلك لأن طريقة العرض والتقديم والجو الذى تنطلق فيه القصة هى التى تحيا بها القصة . ومن هنا فقط نستطيع أن نقارن ونفاضل بين القصصيين ، فان القصصى لا يمتاز عن غيره بكثرة الاغراب فى الحوادث ، بل هو يمتاز بجوه ، هذا الجو الذى تحيا فيه شخصيات قصصه ؛ حتى ليشعر القارئ بأنه يعيش مع تلك الشخصيات ، وبهذا يحس القارئ أنه أمام عمل فنى مجيد ، جدير بالتأمل العميق ، لايمكن أن يذهب أو يضمحل بعـد قليل كما تذهب صور الحوادث التى يقرأها الانسان فى الصحف ، والتى يعتقد بعض الناس — خطأ — أن هذه الحوادث من القصص ، وهذه الحوادث فى المعنى الفنى أحط أنواع القصة وأكثرها تفاهة

ولنقرب هذا ، نقول إن كثيرين يسجنون مثلاً ، فاذا خرج أحدهم من السجن وأحببت أن يورد لك شيئاً عما رآه وأحسه فى المدة التى أمضاها فى السجن اقتصر على ذكر الحوادث ، وهذا شىء عادى يمكن لكل انسان أن يفعله ؛ بينما لا يعمد إلى ذلك الفنان الذى يعيش فى جو السجن ، فهو يرى الحوادث التى وقعت له فى السجن فى المكانة الثانية . أى أن جو السجن ساعد مواهبه على أن يكون شخصاً ايجابياً لخلق الاحساسات والتأملات والأفكار ، بعد أن انعكست عليه حوادث السجن المختلفة ، فأخرجها على النحو الذى أحس به ، وهذه هى شخصية الفنان . إذ أن الحادثة تمر به فلا تعبر بسيطة كما تعبر بسائر الناس ، ويرى المنظر ، فلا يراه كما يراه غيره بصورته الظاهرة ؛ بل يراه بعينه الفنية التى تنفذ إلى أبعاد شتى لايمكن أن تخطر على ذهن عادى ، أو تلفت شعوره

إن ثقافة الفنان وسعة اطلاعه لاتكفيان لكى يكون القصصى كاتباً مجيداً ، يستطيع أن يخلق الجو القصصى ؛ وقد يبرع القصصى فى تكوين القصة من كل جوانبها ، ولكنه يفشل فشلاً تاماً فى ايجاد الجو ، ولنضرب المثل على هذا نقول : إن الأغانى الريفية تحس فيها حرارة الايمان بالبيئة ، وهى على الرغم من صراحتها وخلوها من الزخارف الكثيرة التى تفسد طبيعة الأغانى وتباعد بينها وبين الحقائق ، وقربها من الطبيعة وتعبيرها المبين عن مشاعر انسانية مأخوذة من البيئة هى فى قيمتها الفنية أسمى من الأغانى التى لاتعتمد على الجو ، بل تعتمد على الامعان فى التأثير بذكر الهجر ، والوصال ، والدموع ، وما إلى ذلك من العواطف التى يمكن حشدها فى كل أغنية فى أى اقليم . وقد تكون الأغنية الأخيرة فى تجويدها ورقتها وزخارفها ، أحسن من الأولى صنعاً ، إلا أنها مفقودة الطابع

وعلى هذا الوضع نقول بأن « الجو » لايمكن أن يخلق عند الفنـان إلا إذا كان مؤمناً كل الايمان بالبيئة ، وحقيقة الفن الذى يعالجه . . . ؟

محمود عزت موسى

للتاريخ

الرافـــعى

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

« بيان كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم » سعد زغلول (١)

بيني وبين الأستاذ مصطفى صادق الرافعى عهدٌ وذمّة ، وله عليّ حرمةُ المعلّم والأب والصديق ؛ أفترى كل أولئك يمنحنى الحقّ أن أكتب عنه كما عرفتُه ، وأخذتُ عنه ، واستمعتُ إليه ، واستمتعتُ بفنّه وأدبه ومجلسه ؛ أم تراه سيغضب إذ يرانى أتناول حياته وأدبه فأنشر منهما على الناس ، ثم لا أنبئه بما اعتزمتُ إلا حين تنبئه الصحائفُ المنشورة ، على حين أجالسه كل مساء . . . ؟

وإنى لحريص على رضاه ، وما أعلم أنه يغضبه أن يحسن رأيى فيه أو يسوء ؛ فإنه ليعلم علمى أن ذلك حق الأدب ، لا يمنع منه تفاوتُ المنازل أو تدانى الرتب ، ولا يؤثر فيه حق المعلم والأب والصديق ، بل لعله إذ يغضب أن يكون غضبه من أنه يؤثر العيش فى عزلته التى رضيها لنفسه ، بعيداً من ضوضاء الحياة وصخب الناس ، منعزلاً فى (طنطا) الحبيبة إليه ، عن مجالى الأدب ومزدحَم المتأدبين فى (القاهرة)

على أنى إلى ذلك لا أستطيع أن أردّ طلبة للأستاذ الزيات ، وهو قد طلب إليّ أن أكتب هذا الفصل عن الرافعى ، على علم بمنزلته عندى ومنزلتى عنده ؛ أفتشفع لى هذه المعذرة عند الأستاذ الرافعى أم سيشفع لى الأستاذ الزيات . . ؟

* * *

تمهيد :

سمعت اسمَ الرافعى لأول مرة مقترناً إلى نشيده الخالد : « اسلمى يا مصر . . . » فى حفل حاشد بطنطا ؛ وكان لاسمه يومئذ فى أذنى رنينٌ عذب ، امتزج بأنغام ذلك النشيد ، وتألف لى منهما لحن عُلوىٌّ ساحر ، فيه جمال وعذوبة ، وفيه اعتزام وقوة . على أنى لم أكن أعرف يومئذ أهو الرافعى صاحب (الأخبار) (١) ، أم رافعىٌّ آخر ، تجمع بينهما وحدة اللقب وشرعة الوطنية

ومضت سنوات ، وشدوت من العلم ما شدوت ، وإذا صديق يدفع إليّ كتاب « رسائل الأحزان »

كنت يومئذ فى بُكرة الشباب ، فى تلك السن التى تدفع الفتى إلى الحياة بعينين مغمضتين ، وفكر حالم ، ورأس يزدحم بالأمانى ؛ وقلب مملوء بالثقة ؛ ثم لا يكاد يفتح عينيه على حقائق هذا الوجود ، حتى يعرف أن دنياه من دنيا الناس ، ويحسّ الفرق بين عالم قلبه ، وعالم حسّه ، وتسخر منه الدنيا سخريتها الأليمة ؛ فيلجأ إلى وحدته الصامتة يذرف دمع عينيه ودمع قلبه ، فلا يطرب إلا لأنغام الحزن ، ولا يُسرّى عنه إلا رسائل الأحزان . . . !

واستهوانى عنوان الكتاب ، فتناولته أقلّب صفحاته ، لا أكاد أفهم جملة إلى جملة . . حتى انتهيت إلى قصيدته « حيلة مرآتها » فاذا شعرٌ عذب يخالط النفس ، وينفذ فى رفق إلى القلب ؛ وإذا أنا أعيدها مرة ومرة ، فلا أدع الكتاب حتى أستظهر القصيدة . وحبّبَ إليّ هذا الشعر الساحر أن أعود إلى الكتاب فأقرأه فى روية ومهل لعلنى أن أستدرك ما فاتنى من معانيه ؛ وأدّخر لنفسى قوةً من سحر بيانه ، وصدق عواطفه ؛ وعُدت اليه أقرؤه قراءة الشعر ، أفهمه بفكرى وشعورى ، وأنظر فيه بعينيّ وقلبى ؛ فاذا الكتاب يكشف لى عن معناه . .

وأحببتُ الرافعى من يومئذ ، فرُحتُ أتتبّع آثاره فى الصحف والكتب ، لا يفوتنى منها شىء . وأشهد ، لقد كنت أجهد جهداً شديداً فى فهم كتابة الرافعى ؛ لأنى لم يكن لى عهد بمثلها فيما أقرأ ، وما كنت أقرأ من قبلُ إلا لازجاء الفراغ ، ألتمسه فى ذلك النوع الهيّن من أدب القصص والصحف ؛ على أننى كنت إلى جانب ذلك أحب الشعر ، أقرؤه فأفهم ما أقرأ ، فكان لى من ذلك ما أعاننى على فهم الرافعى ، ثم الاعجاب به من بعد ، ثم ألا يعجبنى إلا مثلُ ما يكتب . . . .

(١) من كتاب لفقيد العرق الزعيم سعد زغلول إلى الرافعى ، فى تقريظ كتابه « إعجاز القرآن »

(١) هو المرحوم أمين بك الرافعى صاحب جريدة (الأخبار) المصرية ، وابن عم الأستاذ مصطفى . . .

صلتي بالرافعي :

كنت أعرفه وأسمع عنه ، على حين لا يعرفني ولا يسمع بي ، وليس عجيباً ؛ وكنت ألقاه في الطريق منطلقاً إلى غرض ، يهز في عناه العصا ، ويتأبط بيسراه عدداً من الصحف والمجلات والكتب ، واسع الخطو لا يتمهل ، ماشياً على حيد الطريق لايميل ، ناظراً إلى الأمام لا يتلفت إلا حين يهم باجتياز الشارع ؛ فإذا ألقيت إليه تحية ، رفع عناه بالعصا إلى رأسه من غير أن ينظر عنة أو يسرة أو تضيق خطاه ؛ وكنت أرى ذلك فأحسبه نوعاً من الكبر وأرستقراطية العلماء ، فباعد ذلك بيني وبينه إلى حين . . .

ففي خريف سنة ١٩٣٢ اجتمع بطنطا طائفة من الشباب على تأليف رابطة أدبية باسم « جماعة الثقافة الاسلامية » ، تقوم أغراضها على العناية بشؤون الأدب والاجتماع ، والعمل على إحياء مجد العرب والاسلام . وتذاكر المجتمعون فيمن يمكن أن ينضم إلى الجماعة من أهل الرأى لتقوى به على تنفيذ أغراضها ، فكان اسم الرافعي أول هذه الأسماء

وذهبتُ إليه عن أمر الجماعة في وفد ثلاثة ، فلقينا الرجلُ مرحِّباً مبتسماً وقادنا إلى (دار كتبه) ، ثم جلس وجلسنا ؛ وفي تلك الغرفة التي تتنزل فيها عليه الحكمة ويُلقَّى الوحي ، جلسنا إليه ساعة يجاذبنا ونجاذبه الحديث ما نكاد نشعر أن الزمن يمرّ

كان جالساً خلف مكتب تكاد الكتب من فوقه تحجبه عن عيني محدِّثه ؛ وعن يمينه وشماله مناضد قد ازدحمت عليها الكتب في غير ترتيب ولا نظام ، تطلّ من بين صفحاتها المطوية قصاصات تنبئك أن قارئها لم يفرغ منها بعد ، أو أن له وقفة عند هذا الموضع من الكتاب سيعود إليها ؛ وعلى حيطان الغرفة أضونةُ الكتب المتراصّة ، لا يبدو من خلفها لون الجدار . . .

ومضى يتحدث إلينا حديث المعلّم ، وحديث الأب ، وحديث الصديق ؛ فما شئتَ من حكمة ، وما أكبرتَ من عطف ، وما استعذبتَ من فكاهة ؛ وللرافعي فكاهة رائعة يخترعها لوقتها لاتملك معها إلا أن تضحك وتدع التوقُّر المصنوع ؛ على أن له في فكاهته مذاهبَ عقلية بديعة ، تحسّ فيها روحه الشاعرة ، وفنّه البكر ، وحكمتَه المتزنة ، وسخريته اللاذعة ؛ ويكاد يكون كثير من مقالات الرافعي برهاناً على ذلك ، فقلما تخلو إحداها من دعابة طريفة أو نكتة مبتكرة

وطال بنا المجلس وخشينا أن نكون قد أثقلنا عليه فهممنا بالانصراف ، وإذا هو يطلب إلينا البقاء ، ويلحّ علينا في تكرار الزيارة ، ويكشف لنا عن سروره بألا نُغِبَّ مجلسه ، وعرفت الرافعي عرفاً تاماً من يومئذ فلزمته ، وعرفني هو أيضاً فأصفاني عطفه ومودّته

امتحان !

وجلست إليه في الزّورة الثانية وبين يديه صحفه وكتبه ، فدفع إليّ صحيفة يومية كان منشوراً فيها يومئذ قصيدة لشاعر كبير ، وطلب إلى رأيي في القصيدة . لم أتنبه ساعتئذ إلى غرضه ، وحسبتُه يقصد إلى أن يشاركني في لذة عقلية أحسّها في هذا الشعر ؛ فتناولت الصحيفة وقرأت القصيدة ، ثم دفعتُها إليه وقد أشرت بالقلم إلى عيون أبياتها ورأيي فيها ، وتناولها مني ليرى اختياري ، فما عرفتُ إلا وقتئذ أنه كان يختبرني ؛ ولكني — والحمد لله — نجحتُ في الامتحان قدْراً من النجاح . . . !

وتكرّر هذا الاختبارُ مرات وهو لا يحسبني أدرك مايعني ، على أن إدراكي هذا قد جعلني من بعدُ أكثرَ تدقيقاً في اختيار الحسن مما أقرأ . وأولاني ثقتَه على الأيام ، فكان عليّ من بعدُ أن أقرأ أكثر ما يُهدَى اليه من الكتب ، لأشير له إلى المواضع التي يصح أن يقرأها منها ، وأدع ما لا جدوى عليه من قراءته ضناً بوقته ؛ وكنت أنا أكثر ربحاً بذاك . . .

الشيخ الرافعي . . . .

كثير من الذين يقرأون للرافعي ويعجبون به ، لا يعرفون عنه إلا هذا الأدب الحيّ الذي يقرأون ؛ بل إن أكثر هؤلاء القراء ليتخيلونه شيخاً معتجر العامة ، مطلق العذبة ، مسترسل اللحية ، مما يقرأون له من بحوث في الدين ، وآراء في التصوّف ، وحرص على تراث السلف ، وفطنة في فهم القرآن ، مما لايدركه إلا الشيوخ ، بل مما لايدركه الشيوخ . . . وكثيراً ما تصل اليه الرسائل بعنوان : « صاحب الفضيلة الشيخ مصطفى صادق الرافعي . . . » أو « صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر . . . »

ومن طريف هذا الباب رسالة جاءته من (حلب) منذ قريب ، يبدى كاتبها دهشته أن يرى صورة الرافعي منشورة في

(الرسالة) إلى جانب مقالته فى عدد الهجرة ، مطر بشاً ، حليق اللحية ، أنيق الثياب ، على غير ما كان يحسب ؛ ويتساءل كاتب الرسالة : لماذا ياسيدى أبدلتَ ثياباً بثياب ، وهجرتَ العمامة والجبة والقفطان ، إلى الحلّة والطربوش ؟ ألك رأى فى مدنية أوربا وفى المظاهر الأوربية غير الرأى الذى نقرؤه لك . . . ؟ »

وما كان هذا السائل فى حاجة إلى جواب ، لو أنه عرف أن الرافعى لم يلبس العمامة قط ، وهذا لباسه الذى نشأ عليه منذ كان صبياً يدرج فى طربوشه وسراويله القصيرة ، يوم كان تلميذاً يدرس الفرنسية إلى جانب العربية بمدرسة المنصورة . . .

نشأته :

على أن نشأة الرافعى كان لها أثر بالغ فى هذا الاتجاه العقلى الذى برز فيه وتفرَّد به ؛ فهو قد نشأ فى بيت له نسب عريق فى الاسلام . وأنت إذا رجعت إلى تاريخ القضاء فى مصر إلى قرن مضى ، رأيت لاسم (الرافعى) تاريخاً فى كل ديوان من دواوين القضاء والافتاء . وقبل نزوح الشيخ محمد الرافعى الكبير من (طرابلس الشام) لم يكن معروفاً لمذهب أبى حنيفة أتباع فى مصر ؛ فهو شيخ الحنفية فى هذه الديار غير منازع ، وقد تخرّج على يديه أكثر علماء الحنفية الذين نشروا المذهب ، ومن تلاميذه المرحوم الشيخ محمد البحراوى الكبير ؛ كما تخرّج على يدى أخيه الشيخ عبد القادر الرافعى كثيرٌ منهم ، ومن تلاميذ أخيه شيخ الشيوخ الآن فضيلة الأستاذ محمد بخيت مفتى الدولة السابق ، مدّ الله فى حياته . وقد مضى زمن كانت فيه وظائف الافتاء كلها محبوسة على (آل الرافعى) ، حتى ذكر اللورد كرومر فى بعض تقاريره : « إن من هذه الأسرة أربعين قاضياً شرعياً » . . وأبو المترجم له (الشيخ عبد الرازق الرافعى) كان رئيساً للمحاكم الشرعية فى كثير من الأقاليم ، وكان رجلا ورعاً له صلابة فى الدين ، وشدة فى الحق ، ما برح يذكرها مع الاعجاب معاصروه من شيوخ طنطا . وبيت الرافعى فى (طرابلس الشام) من البيوت الرفيعة ، وما زال كعبة يحجّ إليها العلماء . واسم (الرافعى) معروف فى تاريخ الفقه الاسلامى منذ قرون . . .

فالأستاذ مصطفى صادق الرافعى وإن كان قد ربى تربية مدنية كالتى ينشأ عليها أكثر أبناء هذا الجيل لم يزل بعضَ أهله ؛ وقد حمل عن آبائه الراية يقتحم بها فى سبيل الدين ، وينافح الشّرك ، ويدعو إلى الله . وما جهادُه فى ذلك ـ على تسلُّط أسباب الفتنة والزيغ فى هذا الزمان إلا حلقة من سلسلة جهاد طويل ، أفرغها آباؤه حلقةً حلقةً منذ انحدر أوّلهم من صلب الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . .

* * *

الرافعى الشاعر

أفرأيت الرافعى وهذا منشؤه ونسبه يقنع بالقدر الضئيل من العلم الذى تلقّاه فى المدرسة ؛ ومن أين للرافعىّ أن يعرف هذه القناعة . . . ؟

فما هو إلا أن ترك المدرسة حتى انكبّ على كتب الدين والعربية يستبطن أسرارها وينبش عن دفائنها ؛ فحصّل ما حصل من علوم اللغة والدين ، وبلغ ما بلغ من أساليب البلاغة وأسرار العربية . وكان فى نفس الرافعى هوى قديم أن يكون شاعراً . . . فأخذ يقرض الشعر ، وأتمّ طبع الجزء الأول من ديوانه ولما يبلغ الثالثة والعشرين . . . وقدم بين يدى ديوانه مقدمة بليغة ، كانت وحدها البرهان على أن هذا الشاب النحيل الضاوى الجسد يعرف أين موضعه بين أدباء العربية فى غد . . . وما أحاول أن أتكلم عن الرافعى الشاعر الأديب فى ديوانه وعن مقدمة ديوانه بأبلغ مما قال عنه العلامة الشيخ إبراهيم اليازجى ، وهو يومئذ أديب العصر وأبلغ منشىء فى العالم العربى ؛ فقد كتب فى عدد يونيو سنة ١٩٠٣ من مجلة الضياء ، فى تقريظ الجزء الأول من ديوان الرافعى ما يأتى :

« وقد صدّره الناظم بمقدمة طويلة فى تعريف الشعر ، ذهب فيها مذهباً عزيزاً فى البلاغة ، وتبسط ما شاء فى وصف الشعر ، وتقسيمه ، وبيان مزيّته ، فى كلام تضمّن من فنون المجاز ، وضروب الخيال ، ما إذا تدبّرته وجدته هو الشعر بعينه . . .

ثم انتقد الأستاذ اليازجى بعض ألفاظ فى الديوان ، وعقب عليها بقوله :

« . . . على أن هذا لا ينزل من قدر الديوان وإن كان يُستحبّ أن يخلو منه ؛ لأن المرآة النقية لا تستر أدنى غبار ، ومن كملتْ محاسنه ظهر فى جنبها أقلّ العيوب ؛ وما انتقدنا هذه المواضع إلا ضناً بمثل هذا النظم أن تتعلّق به هذه الشوائب ، ورجاءَ أن يُتنبَّه إلى مثلها فى المنتظَر ، فان الناظم ـ كما بلغنا ـ

لم يتجاوز الثالثة والعشرين من سنيه ؛ ولا ريب أن من أدرك هذه المنزلة في مثل هذه السن ، سيكون من الافراد المجلِّين في هذا العصر ، وممن سيُحَلُّون جيد البلاغة بقلائد النظم والنثر . . . »

الرافعي وحافظ

لم يكن الشيخ إبراهيم اليازجي وحده هو الذى تنبأ للرافعي الشاب بالمنزلة الرفيعة التي يتبوؤها اليوم ؛ فقد نال يومئذ أكبر قسط من عناية الأدباء في عصره ؛ وهذه أبيات لشاعر مصر الكبير المرحوم حافظ إبراهيم ، بعث بها إلى الرافعي في سنة ١٩٠٦ تدل بنفسها على مقدار احتفال أدباء العصر بهذا الناشئ الجبار:[1]

أراك وأنت نبْتُ اليوم تمشي … بشِعرك فوق هـام الأوّلينا

وأوتيتَ (النبوّةَ) في المعاني … وما جاوزتَ حدَّ (الأربعينا)

فزن تاج الرياسة بعد (سامي)[2] … كما زانت فرائدُه الجبينـا

وهذا الصولجان فكن حريصاً … على مُلْكِ القريض وكن أميناً

وحسبك أن مُطْرِيكَ (ابن هانى)[3] … وأنك قد غـــدوت له قرينـا

نبوءة

لم يتناول الرافعي في الجزء الأول من ديوانه إلا ما يتناوله الشباب من فنون الشعر ، ولم يكن معروفاً له اتجاه أدبيٌّ إلى غير هذا اللون من شعر الشباب ؛ على أن نبوءة من وراء الغيب جاءت على لسان الأستاذ الامام (محمد عبده) ، في كتاب بعث به إلى الرافعي سـنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) تدعو إلى العجب والتأمُّل ؛ إذ ختم كتابه إلى الرافعي بهذه العبارة :

« . . . أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل ؛ وأن يقيمك في الأواخر مقام حسّان في الأوائل . »

أفكان الشيخ محمد عبده يُلَقَّى الغيب ، فيعلم من شأن الرافعي في غده مُقَامَه في الدفاع عن الحق والذود عن لغة القرآن ؛ أم استجاب الله دعاءه للرافعي كما استجاب دعاءه لحافظ . . . [1]

(١) أتاحت لي صحبة الرافعي ثلاث سنين ، أن قرأ أكثر رسائل الأدباء إليه بخط أصحابها ؛ فكل ما سيأتي ذكره منها في هذا المقال أثبته عن بينة

(٢) محمود سامي البارودي باشا ، المتوفى سنة ١٩٠٤

(٣) ابن هانئ : أبو نواس الشاعر العباسي المشهور ، ويعني به حافظ نفسه

وأشبهُ أن يكون نبوءة أخرى ما كتبه المرحوم الزعيم مصطفى كامل باشا من تقريظه ديوان الرافعي في جريدة اللواء :

« وسيأتي يومٌ إذا ذُكر فيه الرافعي قال الناس : هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان . . . »

ولما همَّ الكاظمي الشاعر، أن يسافر إلى الأندلس في سنة ١٩٠٥ كتب إلى الرافعي : « ثق أني أسافر مطمئناً وأنت بقيتي في مصر . . . »

(للحديث بقية) **محمد سعيد العريان**

(١) لما عرب حافظ كتاب (البؤساء) عن الفرنسية ، أهداه إلى الأستاذ الامام مع كلمة جاء فيها : « وقد عنيت بتعريبه لما بيني وبين أولئك البؤساء من صلة النسب . . . » فيقال إن الأستاذ الامام كتب إليه يمازحه : « لو كان البؤس هو الذى أعانك على تعريب هذا الكتاب ، فاني أدعو الله أن يزيدك بؤسا . . . ! » فكان حافظ — رحمه الله — يقول : « استجاب الله دعاء الامام ! » وقد عاش حافظ مدة حياته بائسا ومات بائساً

حافظ بك ابراهيم

بمناسبة ذكراه

بقلم السيد أحمد العجان

تتمـــة

— ١٢ —

نصائحه الى البائسين :

١ — الهجرة خير للفقير :

إن ضيق العيش لا يرضى به إلا ذليل خطمه الذل ، وجبان أقعده الخوف ؛ والكسل والعجز والخمول آفة المصرى ، وكثير من الشرقيين ضربوا فى الأرض ، وركبوا البحار ، فأثروا

أليس خيراً للمعدم أن يجوس خلال البلاد ، يطلب سعة ويبتغى سعادة ؟ لقد سبقه فى الهجرة كثير من أبناء الشام ، ورجال الشرق :

ما عابهم أنهم فى الأرض قد نثروا
فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضيرهم سراء فى مناكبها
فكل حى له فى الكون مضطرب
رادوا المناهل فى الدنيا ولو وجدوا
إلى المجرة ركبا صاعداً ركبوا
أو قيل فى الشمس للراجين منتجع
مدوا لها سبباً فى الجو وانتدبوا

وقديماً غادر هو الوطن ، ونزح عن بلاده ، يطلب عيشاً ، ويروم رزقاً :

نزحت عن الديار أروم رزقى وأضرب فى المهامه والتخوم
ولولا سورة للمجد عندى قنعت بعيشتى قنع الظليم

وكان فى مقدوره أن يتقاعد لو كان يرتضى وجدان مواطنيه ، ولكنه يأبى أن يكون خاملاً :

فياليت لى وجدان قومى فأرتضى حياتى ، ولا أشقى بما أنا طالبه
ينامون تحت الضيم والأرض رحبة
لمن بات يأبى جانب الذل جانبه
أيضيق على السورى رحب بلاده فيركب للأهوال ما هو راكبه
ويخرج بالرومى مذهب رزقه فتفرج فى عرض البلاد مذاهبه

وعجيب أن يقيم بيننا الغربى فيثرى ويخصب ، ونحن قعود عن منافسته وسبقه ومجاراته

سابق الغربى واسبق واعتصم بالمروءات ، وبالبأس اعتصاما
جانب الأطماع وانهج نهجه واجعل الرحمة والتقوى لزاما
وامتط العزم جوادا للعلا واجعل الحكمة للعزم زماما

ومع هذا الفقر الذى سأل من أجله السراة والمترفين ، والذى من أجله حبب الهجرة ودعا إلى الارتحال ابتغاء الرزق ، ومع حاجته إلى الأنصار والأعوان يمدون له يد المساعدة ، ويقدمون له العطايا ، فانه جد حريص على كرامته ، يحتفظ بها ويرعاها

ولقد راق لديه ما فعل « فيكتور هيجو » بعد أن زج فى السجن ، وحشد فى زمرة السفاكين والمجرمين ، وأراد الولاة الغاصبون أن يمنوا عليه بالعفو ، فأبى واستكبر أن تسدى إليه العفو يد مذنب أثيم :

عاف فى منفاه أن يدنو به عفو ذاك القاهر المغتصب
بشروه بالتدانى ونسوا أنه ذاك العصامى الأبى
كتب المنفى سطراً للذى جاده بالعفو فاقر أواعجب :
أبرئ عنه يعفو مذنب ؟ كيف تسدى العفو كف المذنب؟

وكثير من العلماء النابهين ، والشعراء والكاتبين ، والأئمة والزعماء ، درجوا فى منابت الفقر ، وقاسوا محن العيش ، فطلبوا الجاه فى العلم ، والشرف فى الكرامة ، والهيبة فى الأباء ، وخلقوا لأنفسهم مجداً لا يقاس به عرض الدنيا : فلقد كان بشار بن برد الشاعر النابه من أولئكم الفقراء ، إذ كان أبوه طياناً يضرب اللبن ، وكان أبو العتاهية يبيع الفخار بالكوفة ، والجاحظ يبيع الخبز والسمك ، وأبو تمام يسقى ماء بالجرة فى جامع مصر ، كما كان أبو حنيفة بزازاً ، وكما هو مشاهد الآن فى زعامة الأمم الراقية أمثال روزفلت ، وهتلر ، وموسولينى

إن الظروف القاسية تحطم عظماء الرجال ولكنها لا تجرؤ أن تحطم التفاؤل عند المتفائلين ، وهؤلاء الذين يجالدون آلام الجوع والمسغبة ، وفى قلوبهم إيمان وفى ضمائرهم حياة ، ليس شيمتهم التفاؤل فقط ، ولكنه التفاؤل الرخيص

وكان حافظ رحمه الله أحد هؤلاء المتفائلين ، كما ينطق بذلك شعره صريحاً بينا :

على أننى لا أركب اليأس مركباً ولا أكبر البأساء حين تغير
نفسى برغم الحادثات فتية . عودى على رغم الكوارث مورق

فياقلب لا تجزع إذا عضك الأسى … فانك بعد اليوم لن تتألما

ولئن تتابعت عليه نارات الأحداث ، وطوارق الغير ، فان ذلك لا يثنيه عن عزمه ، ولا يقعده عن غايته ، ما دامت العلياء رائده ، وشرف الغاية مأربه :

مرحباً بالخطب يبلونى إذا … كانت العلياء فيــه السببا
عقنى الدهر ولولا أننى … أوثر الحسنى ؛ عققت الأدبا

— ١٣ —

لقد مدح حافظ كل ذى جاه فى الدولة ، أو ذا تصريف فى أمور البلاد ، أو من أنس منه الخير يجلب والشر يتق ، وهو طبيعى فى رجل كحافظ تجرد من القوة ، وأصفر من المال ، فركن إلى الولاة والحاكمين يتق عواديهم ويأمن جورهم ، وقد يناله خيرهم ، ويدركه نفعهم

ولـكنه فى مدحه الذى من أجله عرض ألفاظ اللغة ، « ونبش [1] بطون الـكتب ، وقلب أحشاء القواميس ، ثم استخرج من الألفاظ أطلاها وأحلاها ، ومن المعانى أسماها وأعلاها ، وصاغ من كليهما مدحـة تهز الممدوح وتطربه ، » لم يخالف ضميره ولم يتجر بوطنيته ، ولم يرق ماء وجهه ، ويمتهن كرامته . بل كان يقف عند دهاء السياسة وحزم الرجولة ، ولين الجانب حيث لا مغمز ولا تجريح

مدح الخليفة وســلاطين الدولة العثمانية ، وخديو مصر وأمراءها ، ورجال مصر وسراتها ، بل مدح اللورد كرومر وملك الانجليز ومنــدوب الانجليز . ولـكن ما كان يمدحهم تملقاً ورياء ، بل كان أشبه بالتشبيب يقدمه الشاعر لتصغى الأسماع اليه وتتعلق القلوب بما بعده ، ثم يتناول مطالب الشعب يقدمها ، وشكايات الوطن يلفت الأنظار اليها ، وقد ينتقد فى السياسة ، ويتهكم بمسلك الحاكمين ، كما حدث فى قصـيدته التى رفعها إلى عميد الدولة البريطانية بعد حادثة دنشواى

قصر الدبارة هل أتاك حديثنا … فالشرق ريع له وضج المغرب
أهلا بساكنك الكريم ومرحباً … بعـد التحية إننى أتعتب
ماذا أقول وأنت أصدق ناقل … عنا ولـكن السياسة تـكذب
أنقمت منا أن نحس ؟ وإنما … هذا الذى تدعو اليه وتندب
أنت الذى يعزى اليه صلاحنا … فيما تقرره لديك وتـكتب
أو كلما باح الحزين بأنة … أمست إلى معنى التعصب تنسب؟

فاجعل شعارك رحمة ومودة … إن القلوب مع المودة تـكسب

لقد طبع حافظ مدحـه بطابع المصلحة للمجتمع ، والنفع للوطن ، والتعبير عن أحاسيسه وآلامه والذود عن شرفه وكرامته . وكان هـذا المدح يتقدم به فى قصائده كالتشبيب عند السابقين كما فى قصيدته التى رفعها لسمو الأمير عباس الثانى فى عيد رأس السنة الهجرية

قصرت عليك العمر وهو قصير … وغالبت فيك الشوق وهو قدير
وأنشأت فى صدرى لحسنك دولة … لها الحب جند والولاء سفير
فؤادى لها عرش وأنت مليكه … ودونك من تلك الضلوع ستور
وما انتفضت يوماً عليك جوانحى … ولا حل فى قلبى سواك أمير

ثم انتقل — بعـد أن عرض للهوى والصبابة والغرام — إلى آمال الوطن ومطالبه :

أمولاى إن الشرق قد لاح نجمه … وآن له بعـد الممات نشور
مضى زمن والغرب يسطو بحوله … على ومالى فى الأنام ظهير
إلى أن أتاح الله للصفر نهضة … فقلت غرار الخطب وهو طرير
جرت أمة اليابان شوطاً إلى العلا … ومصر على آثارها ستسير
وما يمنع المصرى إدراك شأوها … وأنت لطلاب العلاء نصير
فقف موقف الفاروق وانظر لأمة … اليك بحبات القلوب تشير

— ١٤ —

فى مصر فقراء وأيتام وذوو خصاصة ، ولهم حقوق على المجتمع الذى يعيشون فيه ويعملون له

١ — لهم حق التعليم حتى يرتفع مستواهم ، وتعلو منازلهم وحتى يتضامنوا مع المجتمع فى بناء مجده بوحى من الضمير ووازع من النفس ، لا بطريق السخرة والأجبار ، وحتى تـكون العلاقة بين أفراده وهيئاته بعضهم مع بعض علاقة محبة وإخلاص وولاء ، لا علاقة سيادة وغطرسة وكبرياء

٢ — ولهم حق تيسير سبل الرزق ؛ بفتح أبواب العمل أمامهم ، والسهر على صوالحهم ، ورعاية شؤونهم ؛ حتى يعيشوا وأسراتهم فى مأمن من الجوع والخصاصة ، وحتى لا يشغلوا المجتمع بسرقاتهم وسطوهم

٣ — ولهم حق المعالجة فى بيوت الشفاء والمصحات ، حتى تسلم جسومهم من العلل ، وتصح أبدانهم من الأسقام . فنحن فى ميدان نهضة ، وكل نهضة لابد لها من عدة ، فلتكن عدتنا رجالاً أشداء البنية أصحاء الأجساد ، سليمى العقل نابهين حازمين ، كى

(١) حافظ : ليالى سطيح

يكون منهم الجندى الباسل ، والزارع النشيط ، والصانع الحاذق ، والوطني الغيور ، إلى آخر ما يتطلبه الوطن ليسلم ، وتستدعيه النهضة لتدوم .

٤ — على أن منهم العاجز الضعيف ، واليتامى الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، كل أولئك في حاجة إلى ملاجىء يأوون اليها ، ومدارس يتعلمون بها ما ينفع الجماعة ويدر عليهم الخير

٥ — ثم من فوق ذلك ، ومن قبل كل ذلك ، لهم حق قد يعلو على كل الحقوق فى جلال شأنه وخطره ، ذلك هو أن يشمروا بعطف ذوى الجاه وأرباب النفوذ وأولياء الأمور ، حتى يشربوا فى قلوبهم حبهم ، ويولوهم الطاعة التى تحقق لهم رغباتهم

هذه حقوق الشعب المسكين كما راها حافظ ، فهو يرقب فرصة اعتلاء سعد منصة الحكم فيتقدم اليه يقول :

يا سعد إن بمصر أيـ ـتاماً تؤمل فيك سعدا
قد قام بينهم وبين العلـ ـم ضيق الحال سدا
ما زلت أرجو أن أرا ك أبا ، وأن ألقاك جداً
حتى غدوت أبا له أضحت عيال القطر وُلدا
فاردد لنا عهد الأما م وكن بنا الرجل المفدى

عليكم حقوق للبلاد أجلها تعهد روض العلم فالروض مقفر
قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم يداً تبتني مجداً ورأساً يفكر

فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يبق باباً للسعادة مغلقاً

وقصيدته فى سبيل « الجامعة » تبين رأيه فى التعليم ، وأنه لا يقنع بالأوليات السطحية ، بل بالثقافة الرشيدة والدراسة الحكيمة ، وأن ألف كُتّاب لا تعدل مدرسة عالية أو جامعة منظمة ؛ لأننا نستبدل بالكتاتيب داء الجهل بداء أشد خطراً وهو الغرور

ذرّ الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا أن المصابيح لا تغني عن الشهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى إذا ماعلة عرضت؟ من الدافع عن عرض وعن نشب
ومن يروض مياه النيل إن جنحت
وأنذرت مصر بالويلات والحرب ؟
ومن يوكل بالقسطاس بينكم حتى يرى الحق ذا حول وذا غلب؟
ومن يميط ستار الجهل إن طمست معالم القصد بين الشك والريب؟
فما لكم أيها الأقوام جامعة إلا بجامعة موصولة السبب

والحق أن حافظاً صورة من النفسية المصرية العامة فى هذه الفترة ، فترة الانتقال والحيرة والاصطدام فى جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فهو على ذلك قد أدى رسالته فى الحياة ، وقام بواجبه نحو وطنه وشعبه ، لأنه بصر بآلامه ، وتغنى بالأمل المنشود ، والمصلحة المرجوة ، ووقع على قيثارة الحنان أناشيد الأسى وأنات البائسين ، فجزاه الله كفاء وفائه الجنة وحسن المقام وخلود الذكر

السيد أحمد العجان

سود قمصانكم حمر غداً

للأستاذ فخرى أبو السعود

أمّةَ الأحباش يا أُسْدَ الحمى … علِّمى الطليانَ عُقْبى من بغى
أنتِ لقّنتِهمُ فى عَدْوَةٍ … غالِيَ الدرس ، وطُوبى من وعى
فنَسوهُ ، فأعيــديه عسى … يحفظون الدرس رنّانَ الصدى
ويُميط القومُ عن أعينهم … غَرَراً بات شبيهاً بالعمى
ويُقلّونَ دعاوى لهمُ … مَلأوا من إفكها الأرضَ سُدَى
مثّلوا الذئبَ ولكن لم يَرَوْا … حَمَلاً يَرْهَبُ ذُؤبانَ الفلا
هُمْ أرادوا أن يُحاكوا دولةً … مُلْكُها يجمع أطرافَ الدُّنى (١)
أمّـةٌ قامت تُحاكى حُرّةً … ساخراً من جهلها هـذا الورى
منْ سُويسْرا الشَّرْقِ رَجّوا جَنّةً … لَهُمُ طابت مَعيناً وجَنى
طَمعوا فيها ولكن دونها … مربضُ الأساد منْ ذاك الشَّرى
حشدوا حولكِ من قمصانهم … جحفلاً طبّق أجوازَ الفضا
وأثاروا مُرْعِداتٍ فوقهم … حائمـاتٍ حجبتْ أُفقَ السما
وأعَدّوا من جحيم العلم ما … يفلق الهام وما يبرى الصَّفا
طالما بَدّدْتِ خصما عادياً … فى عصور الجهل قِدماً والدُّجى
فانظُرِى اليومَ عدوًّا باغيـاً … صالَ بالعلم وفى النُّور سطا
جَرَّدَ السُّمْرَ منَ الفَضْلِ وقد … قَصَرَ الفضلَ عليـــه والحجى
أمّـةَ الأحباش فانضِى عزمةً … ما تلقّتْ جحفلاً إلا انثنى
وإذا جاءوا فقُولى لهمُ … قولةً فيهـا رشادٌ وهُدى :
« نحن خضَّبْنا بكم فى عَدْوَةٍ … جانبَ السهل وأفوادَ الرُّبى
فاجمعوا أشْلاءكم مِنْ تُرْبها … قبل أن تخطُوا إلى هذا الحِمى
نحن إنْ لم نَقْرَأ العلمَ ولم … نَحذقِ الفنَّ ولا نَحْتَ الدُّمى
نَمنعُ الحوضَ ونَفْنى دونه … ونعاف العيش فى ظل العدى
يا عبيدَ الأمس إنّا لم نَدِنْ … أبدَ الدهر لجبّار عتا (٢)
ما رَوَى التاريخُ عنّا أبداً … غيرَ عزٍّ باذخٍ فيما مَضَى
لم نُغِرْ يوماً على جارٍ لنا … غير أنّا كمْ رددنا من طَغى
فإذا ساءكُمُ فى أرضــنا … ـ يا بنى الصُّفْرِ ـ رقيقٌ يشترى
فغـــداً نَقْرِنُ منكمْ بِرِمٍ … كلَّ مفْتونٍ على الغاب اجترا !
تَدَّعُونَ الفضل ظلماً والعلا ، … والعلا منكم براء والنَّـدَى
لكُمُ فى الغـدر ماضٍ مظلم … فى طَرابُلْسَ من الفضـل خلا
كم غدرتم وفررتم هلعاً … ما صبرتم مرّةً فى الملتقى
عُمَرُ المختارُ قد جَلّلكُمْ … يومُه عاراً على طول المَدَى
فالبسوا العار عليكم سرمداً … وانزلوا حيث نزلتم بالظُّبى
ما لكم غير ظُبانا من قِرى … عبثــاً منّيْتمُ النفس المنى
ســودُ قمصانكم حمْرٌ غداً … من نجيعٍ من لُهاكم قد جرى ! »
وتحايا ـ أمّةَ الأحباش ـ من … كلُّ حُرٍّ وَدَّ لو كان الفِدا
لو دَرَى الحربَ لَلَبّى ومضى … فى صفوف الحق لا يخشى الردى
إذْ تَنَحّى كلُّ شعبٍ طالما … شاد بالسـلم وبالحق شدا
مَلأَ الدنيا كلاماً فإذا … قيل : مَن للسلم والحق ؟ انزوى
أُمَمُ الغرب وما أدراكَ ما … أمم الغرب وما رهط العلا
ذَلّ من يطلُبُ نَصْـفاً فيهمُ … إنمـا يُطْلَبُ فى ساح الوغى

فخرى أبو السعود

النسيان

للدكتور ابراهيم ناجى

وحبيبٍ كانَ دنيا أملى … حبُّـه المحرابُ والكعْبةُ بيتُهْ
منْ مشَى يوماً على الورْد لهُ … فَطريقى كانَ شوْكاً ومشيتُهْ
منْ سقى يوماً بماءٍ ظامئاً … فأنا منْ قدَحِ العُمْر سقيتُهْ
خفقَ القلبُ له مُختلجاً … خَفْقَةَ المصْباحِ إذ ينضبُ زيتُهْ
قدْ سلاَنى فتنكّرْتُ لهُ … وطَوَى صفحةَ حُبِّى فطوَيتُهْ

ابراهيم ناجى

---

(١) يحاول الطليان التشبه بالامبراطورية البريطانية

(٢) حافظت الحبشة دائما على استقلالها ولم تستقل إيطاليا إلا حديثا

الطبـــيعة

بقلم رفيق فاخوري

تحنو على عهودها النفسُ ولا تستطيع أن تصبر عن لقائها
كأنما حلّ بجسمي روحها وفي عروقي سابَ من دمائها

* * *

بكرٌ لها منها حُلى دانيـــةٌ لكل جسٍّ بينهنَّ مسلكُ
لي من مرائيها شخوصٌ أجتلي تجَياىَ في وصالها وأُدركُ

* * *

مطبوعةٌ طبعَ الحياة العاريهْ غبطتُها وحزنها علانيهْ
تستقبلُ الأجيالَ في ثوبٍ إذا أبلته عادت فارتدته ثانيـــه

* * *

قديمةٌ ، آذارُ يُحْيِيها ، ولا يمحو بِلَى الخريفِ من جلالها
يمشي عليه الدهرُ وهي عنه في شُغْلٍ فلا تُلْقي إليـــه بالها

* * *

لهـا البقاء حين نغـدو رِمَماً مَنْسِيَّةً لا تهتدي لها الذِكَرْ
يا ليت لي عيناً كمرآة الضُّحى ترعى مجاليها إذا غابَ النظر

* * *

أُحِبُ بها خرساءَ حُمَّتْ شمسُها فألبتْ أنفاسَ كل ذي حَرَكْ
وهيمنَ الصمتُ على أرجائها كأَنْ بمَنْعَى الكونِ قد دارَ الفلكْ

* * *

واستحوذتْ على الورى إغماءةٌ ثقيلةٌ ، سلطانُها لا يُدْفَعُ
وَعَرَتِ الأطيارَ سكتةٌ فما يَنْغَمُ في سُــباته مرجَّعُ

* * *

والنهرُ لهبانُ ، والماء به مَسَارِبٌ يَنْسَحِبُ فيها الخاطرُ
والسهلُ في غيبوبةٍ مستغرقٌ مَيْتٌ وفيـه تلتقي العناصر !

* * *

أُحِبُ بها كَسْلَى تولّى جسمَها بعـد اقترارٍ ومراحٍ خَدَرُ
واحتبسَ النسيمُ محروراً فما يَشيعُ في الفضاء عنها خَبَرُ

* * *

أُغرِقُ في صحرائها كآبةً تَنْسِجُ في قلبي غماماً أسودا
وأشتهي لُقيانها سُوَيْعَةً أنْسَى بها نفسي ولا أرعى غدا

حمص رفيق فاخوري

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١٥ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

يؤمن نيتشه بأن حياة الانسان هي نضال دائم لكل وهم ولكل خطأ . وينظر إلى الوجود بعيني متشائم ؛ فتبدو الطبيعة له صورة تبعث الخوف ، والتاريخ وحشياً خالياً من المعاني ؛ ينفر ممن يؤمن بأن كل شيء هو للأحسن ! ولا يعتقد بأن في وسع الحياة أن تهب لنا لحظة فرح حقيقي . وإذا كانت هذه وهي الحقيقة فواجب الانسان السامي أن يحارب بدون هدنة ولا هوادة كل ما هو سيء ، وأن يهدم كل القيم الخاطئة والتعاليم الفاسدة ، وألا يرحم أي مظهر من مظاهر الضعف والرياء والجبن في هذه الحضارة . (إنني أحلم برجال كاملين ، مطلقي الارادة ، لا يدارون ولا يراءون . يدعون أنفسهم الهدامين . يخضعون كل شيء لنقدهم ويضحون بأنفسهم في سبيل الحقيقة . ألا ينبغي لكل سيء ولكل كاذب أن يظهر تحت وضح النهار ؟ نحن لا نريد أن نبني قبل الساعة الموقوتة ، ونحن لا ندري إذا كان بامكاننا أن نبني ، أو إذا كان الأحسن لنا ألا نبني أبداً . هنالك متشائمون كسالى خاضعون مستسلمون ؛ إننا لا نكون من هؤلاء . إن المثل الأعلى الذي نتبعه ونترسمه هو الانسان الذي قال عنه شوبنهاور ، من يعتقد بأن السعادة الحقيقية هي غير ممكنة ، ومن يبغض ويمقت الوجود المادي الذي تتكامل فيه الانسانية المنحطة ، ومن يسحق كل ما ينبغي سحقه ولا يشعر بألم يحز في نفسه ، أو ينتشر حوله ؛ ويمشي بارادة جبارة لا يلويه عن عزمه شيء ، وكل إرادته أن يكون مع الحق والصدق في كل شأن من شؤونه .)

يصل شوبنهاور بانسانه إلى سلب الحياة منه والفناء المطلق ؛ أما نيتشه فانه يقدس (كاليوناني الديونوزوسي) هــذه الارادة التي تريد الحياة الخالدة وتعمل على تخليدها بأية الوسائل . فهو متشائم ، لكن تشاؤمه لا يدفعه إلى الاستسلام ، ولكن إلى البطولة المناضلة . فهو يرى الزهد علامة من علامات الانحطاط والذل . لأن التشاؤم – عنده – فكرة مستحيل تحقيقها ، لا يقبل

بها واقع ولا يثبتها منطق ، ولن يكون الفناء غاية الوجود ، وهكذا راح نيتشه يمجد الحياة وآلاءها بدلاً من أن يبشر بالفناء وبغض الحياة كمله ؛ يقدس مايقوى فى الانسان إرادته ، ويضاعف عزيمته للوصول إلى الهدف الأسمى

ونيتشه فى هذا شأنه شأن اليونان فى مآسيهم ، يفخر بذاته ، ويطول بسموه ، ويعجب بالحضارة اليونانية لأنها انشأت جماعة من الرجال السامين ، وهل غاية الحياة إلا مثل هـذا التوليد ؟ والانسانية عنده تركض وتتألم وتتمخض لتلد هذا العدد الضئيل من هؤلاء الرجال السامين . « وإنما على الانسانيـة أن تعمل لتحمل إلى الأرض رجال عبقرية ، هذه غايتها ، ليس لها من بعدها غاية ! وإن علينا أن نوحى اليها أن تعجل بتوليد الفيلسوف والفنان فينا وفى غيرنا . وأن نسعى إلى إكمال معنى الطبيعة ؛ وأن على الانسان أن يحس بنفسه أنه صنع غير كامل من صنع يدها . ولكننا نوقظ فيه — برغم نقصه — هذه العبقرية الفنية حتى يساعد الطبيعة على إكمال ماجاء ناقصاً منها ، وبهذا يكمل الانسان الفنان صنع الطبيعة . وبهذا تغدو معرفة الانسان نفسه وشعوره بصغرها هى أساس نهضته . . .

« ألا إننى أرى فوقى شيئاً يتألق ؛ هو أسمى منى ، فيه من معنى الانسان أكثر مما فىَّ ! فساعدنى على الوصول إلى هذا المثل ؛ كما أننى سأعمل على مساعدة من يفكر مثلى ويتألم مثلى . . . كل ذلك لنمهد الطريق أمام ذلك الانسان المقبل ، الشاعر بكماله ومعرفته الواسعة ، ومحبته العميقة التى لا تحد ، وقدرته المولدة وتأمله البعيد : هذا الانسان الذى سيحيا فى الأرض حاكماً ، بيده مقياس كل شىء » فلا يجب والحالة هذه أن نترك للمصادفات عمل هذا الانسان ، وإنما ينبغى للناس أن يجهدوا ويعملوا بالانتخاب على خلق هذه الذرية — ذرية الأبطال — على أن هذا المذهب قد يترك جحفلاً من العبيد الذين شأنهم أن ينفذوا ارادة الأبطال . والعبودية — عند نيتشه — لازمة لتحقيق مثل هؤلاء الأبطال . إذ ليست غاية العلم والبراعة أن تخفف من نصب هؤلاء المتعبين . فعمال اليوم ليسوا بأكثر سعادة من عبيد الأمس . هؤلاء كانوا يخضعون لشرفاء ذوى غطرسة وخيلاء . وأولئك دائبون على خلق نخبة سامية من رجال العبقرية ، فالبطل ليس دأبه بأن يحقد على الظالمين والمتخلفين فحسب ، بل مما ينبغى له أن يقتل عامل الشفقة فى صـدره إذا هب لأنه عامل خطر . إذا ظفر عمل على قتل البراعة فى سبيل السعادة المادية للانسانية . وهو — هنالك — لا بد مصطدم بالشريعة الغالبة التى تسيطر على الوجود . وكل من ود أن يحيا ، أو حكم عليه بأن يحيا فى وجود مشحون بالألم والفناء فينبغى له أن تشتمل نفسه على هذه المضادة المؤلمة التى تعبر عن كنه الحيـاة ، ومر كل تطور واستحالة . . . « كل لحظة تفترس الثانية . وكل ولادة هى موت كائنات لاعـداد لها . الولادة والحياة والموت كنه ذو جوهر واحد . وهكذا نستطيع أن نشبه البراعة المنتصرة بالبطل الظافر الذى يسيل دمه من جراحه ، ولكنه يجر خلفه قطيعاً من المغلوبين والعبيد المقيدين بعجلته »

ينبغى لنا إذا أردنا الحقيقة أن نضرب بكل وهم باعث على التفاؤل عرض الحائط . فالرجل الغربى الذى يظن ببساطة نفسه أن العلم يبعث على السعادة ، ويرى أن سـعادة الجميع هى غاية الحضارة القصوى ؛ هذا الرجل يجرب أن ينكر تعس « العبيد » هذا التعس اللازم للمجتمع البشرى . وهو يموه عليهم بقداسة العمل ، زاعماً أن الآكل بعرق جبينه هو أشرف الناس . فياله من مذهب حقير أصبح لا يخدع أحداً ! ولماذا لا نعترف بأن العبودية هى حقار وصغار ، ولكننا نستطيع أن نخفف وقعها ونجعلها أقل شقاء ، ونحتم على أصحابها القبول بها . . . فما ظل المجتمع الانسانى على هذا الوضع فان فيه الأقوياء الذين يرفعون عظمتهم على طائفة من المستضعفين فى الأرض !

* * *

كان المدفع يدوى فى جوف أوربا ، ونيتشة معتزل فى أحد وديان « الالپ » يعالج درس الروح اليونانية وفهم وحياتهم . ولما استقر السلام أعلن أن عصر الأحزاب قد شارف النهاية . وأن روحاً حرة يجب أن تنهض وتعرف كيف تتعالى فوق هذه الحدود : « إن الشرق والغرب مفصولان بشحطة رسمها قلم لأعيننا ، هذه الشحطة هى التى تثير خوفنا . تقول النفس الفتية (أنا أجرب بأن أكون حرة !) وحق لها أن تثور ، لأنها ترى أن شعبين قد يهرقان دماءها لأن بحراً يفصل بينهما ، أو لأن ديانتين مختلفتين عندهما لم تكونا قبل ألفى عام » وهكذا نرى نيتشه بكل ما أوتى من تفكير وقوة يريد أن يزعزع تقاليد عصره ، ويشعر بنفسه بأنه لم يخلق لحاضره وإنما خُلق للأجيال القادمة

(يتبع) خليل هنداوى



من اساطير الاغريق

أدونيس

للأستاذ دريني خشبة

كان جميلاً كالكأس المترعة . وجه أبيض كالحَبَب ، ثم تتدفق الخمر فى دمه ، وتكمن فى عينيه ، وتنثال على لسانه

رأته ڤينوس يستحم فى بحيرة مزهرة ، فوقفت تنظر إلى هذا التمثال من بلُّور ، يسبح فى لُجة من لُجَيْن !

ولمحها الغلام فخجل واستحيا ، وطفق يخصف عليه من أوراق اللوتس . . . . ولكن الحياء ورّد وجنتيه ، وصبغ خديه ، وفتر ناظريه ، وتصبَّب فى شفتيه فاحمرتا ! وبذلك أصبح فتنة تملأ البحيرة ، وعجباً يشيع فى الماء

وسبح إلى الشاطئ المقابل ؛ بيد أن ڤينوس كانت عنده قبل أن يبلغه هو ، فانثني يريد الشاطئ الآخر ، فكانت ڤينوس عنده كذلك ؛ فارتد يحسب أنه يسبقها إلى الشاطئ المقابل كرة أخرى ، ولكن الالهة المنيدة كانت تسابق الوهم فى الوصول إلى أحد الشاطئين ؛ فلما نال الجهد من أدونيس لم ير بدًّا من البروز إلى البر ، وليكن من أمر هذه الغادة التى تهاجه بحبها وهو لا يعرف من هى ـ ما يكون !

ـ « أدونيس . . . . أليس كذلك ؟ »

ـ « . . . . . ؟ »

ـ « ألا تتكلم ؟ . . . »

وكانت قطرات الماء البلورية تتحدر على جسمه الرشيق ، فمن يدرى ؟ أهى من ماء البحيرة أم من ماء الخجل ! . . .

ـ « تكلم يا أدونيس ! ألا تعرف من أنا ؟ . . »

ـ « . . . . ؟ ؟ »

ـ « أنا التى سجد عند إخمصيها مارس الجبار ! لقد ألقى سلاحه لدى النظرة الأولى التى زلزلت بها أركان قلبه ! ألا تصدق ؟ أدونيس ؟ ! . . . »

ـ « أرجوك . . . إن رفاقى ينتظروننى ، ونحن جميعاً نتخذ أهبتنا للصيد . . . »

ـ « صيد ؟ . . . . وماذا تصيدون فى هذه البريّة الوحشة ؟ . . . »

ـ « الخنازير ياغادة . . . إنها متوحشة جداً . . . »

ـ « وهى خطرة أيضاً ، وكل يوم لها ضحايا . . . أدونيس ! ألست ترى إلى جمالك الفينان ! ألا تشفق عليه أن يصيبه سفع من شمس هذه البرية المحرقة ؟ ألا تقلع عن صيد الخنازير القتالة ؟ . . . تكلم ! لا تصمت هكذا ؟ »

ـ « أرجوك ؟ »

ـ « ترجونى ؟ أنا التى أرجوك يا حبيبى ! »

ـ « . . . . ؟ ؟ . . . . »

ـ « أراك ارتبكت إذ دعوتك حبيبى ؟ وَىْ ! ما للحياء يصبغك بأرجوانه هكذا يا أدونيس ؟ تعال . . . هات قبلة ! »

ـ « لا . . . لن يكون شىء من هذا ! اسمعى ! ها هى ذى سلوقياتى تنبح ولا بد أن أسرع إليها . . . دعينى . . . دعينى ! »

ـ « لن أدعك ، ولو استجمعت شبابك كله وريعانك ما استطعت أن تفلت من ذراعىّ يا حبيبى ! . . . . . هات قبلة قلت لك ! . . . . »

ـ « . . . . ؟ ؟ . . . . »

ـ « إذن أنال بالقوة كل ما أشتهى ! سأحرق شفتيك الباردتين بشفتىّ المشتعلتين ! »

ـ « أ ... ر ... جوك ... أوه ... حسـ ... بك ... »

ـ « فمك جميل شهي ، ولـكن خديك جميلان كذلك ... ألف قبلة على خديك وعارضيك أيها الغلام الفتان ! ... »

ـ « ...... ؟؟ ...... »

ـ « أنفاسك تتضوَّع من فمك الرقيق ، وأنفك الدقيق ؛ فهل فيك حديقة من بنفسج ؟ ... »

ـ « أر ... جوك ... كفى ... كفى ... سلوقياتى تنبح ، ولابد أن أذهب ! ... »

ـ « تذهب ؟ ولمن تترك هذا الصدر الدافئ الذى يضمك ؟ حقاً أنت غرير ! ... »

ـ « أرجوك ... قلت لك ! ... »

ـ « كل هذه القبـل أغمر بطوفانها فمك ، ولا تحيِّيها بقبلة ؟ ... قبِّلـنى ! ... »

ـ « لا ... لا أقدر ... ارسلى ذراعيك عن عنق ... »

ـ « أنت لا تقدر ؟ آه ياساذج ؟ إننى لن أفلتك مادمت تتباله علىَّ ! ... »

ـ « أرجوك ، دعينى أذهب ! أوه ... »

ـ « قبِّلنى قلت لك ! لن يقهر كبريائى فتى غرير مثلك ! إذا قبلتنى أرسلتك ! ... »

ـ « أقبلك ؟ »

ـ « أجل ، قبلنى يا أدونيس ! »

ـ « أقبلك كيف ؟ »

ـ « هكذا يا صغيرى ...... »

ـ « ... ؟ ... ؟ ... دعينى إذن ! »

* * *

وانتشت ربة الجمال بقبلة أدونيس اليافع ، فارتجفت ارتجافة هائلة ، وخرّت إلى الأرض كأنما أُغشى عليها ؛ وارتبك الفتى الذى لم يألف مثل هذا الموقف النادر من مواقف الحب ، فأنف أن يغادر المكان قبل أن يعالج الغادة حتى تصحو ، ثم يذهب إلى صيده بعد . ولـكنه لم يدر ماذا يفعل ؛ وعلى كل فقد طفق يدلك قدميها ، وربت على صـدرها ، ومر بيديه الناعمتين على خديها وجبينها ، فلما لم تُفق ، أهوى على فمها الحلو يلثمه ... ورد إليه ديْنه من القبل !

وكانت ڤينوس الخبيثة تحس وتصمت ... ولا تأتى بحركة قد تطير بهذه الأحلام السعيدة التى تطيف بها ، وتتنزل من السماء الصافية عليها ، ألم تـكن تضرع اليـه من أجل قبلة واحدة ؟ فـكيف بها تطرد هذه العشرات والعشرات من القُبل ؟ !

ولم تطق ڤينوس ...

فڤينوس ربة ولـكنها هلوك ! لقد طوقت أدونيس بذراعيها ، ثم أمطرت فمه الخمرىّ ، ووجهه العطرىّ ، آلافاً من القبـل العِـذاب ، والنولات الرطاب [١]

حدثته عن الحب بلسان ينفث السحر ، وعينين تتقـدان اشتهاء ، ولـكنه كان يصم أذنيه ويُغلّق أبواب قلبه . وضمته بحرارة وعنفوان إلى ثدييها ، فما زادته إلا شموساً وعناداً ...

قالت له : « ألا تُقبل علىَّ إلا ميتة يا أدونيس ؟ أيسرك أن أقضى نحبى إذن ؟ ألست أعدل عندك خنزيراً بريًّا ؟ أكلما خلعت عليك شبابى ونضرتى وحبى ألقيت بها فى تراب كبريائك غير آبه لدموعى وتوسلاتى ؟ افتح قلبك للحب ياصغيرى !! ... »

ولـكن أدونيس يعبس عبوسة محنقة ويقول لها : « أهذا كله عندك هو الحب ؟ .. »

فتنظر فى عينيه الساخرتين نظرة تستشف بها ما فى قرارة نفسه وتسأله : « إذن ماهو يا أدونيس ؟ »

وينفجر الفتى بالحقيقة المرة فيقول لها : « إن كنت تجهلين ماهو ، فالحب أجل من هذا وأقدس باعادة ...... إنك قد أسلمت جسمك للشهوة تصهره ، وروحك للغلمة تحرقها وتذهب بها شعاعاً ... دعينى أذهب إذن ... دعينى ... سلوقياتى تنبح

---

(١) لانستطيع متابعة الموقف ، ولـكننا نثبت هنا أسطراً من شكسبير الذى لم نعرف فيه تفحشا ، فى وصف ماكان بينهما — وذلك من قصته الخالدة Venus and Adonais (مجموعة وارد ولوك ص ١٠٢٤)

And on his neck her yoking arms she throws:
She sinketh down, still hanging by his neck,
He on her belly falls, she on her back.
Now is she in rhe very lists of love,
Her champion mounted for the hot encounter:
All is imaginary she doth prove,
He will not manage her, altheugh he mount her.. erc...

والقصة رائعة ، وبها أكثر من ثلثمائة بيت فى وصف القبل وحدها ، ومن لم يقرأها لم يعرف شكسبير القصاص

ولا بد أن أذهب اليها . . . . »

* * *

وكأن ثلجاً ذاب فى أعصاب ڤينوس عند ما سمعت أدونيس ينتهرها ويعيرها ، فتقلَّص ذراعاها ، وفترت نفسها ، وخمدت فى قلبها تلك الشهوة الملحة التى سلطت عليها تعذبها وتضنيها ... واستطاع الفتى بجهد بسيط أن يتخلص من أسرها ، فانطلق يعدو كالظليم إلى سلوقياته التى كانت تناوش خنزيراً كبيراً بادى النواجذ بارز الأنياب .

وجلست ڤينوس تنظر إلى أدونيس يعدو ، وتجتر كلماته وتتعذب . . .

وغفت إغفاءة قصيرة ، ولكنها استيقظت فجأة على صرخة راجفة من جهة الشرق ، حيث كان فتاها الحبيب يتلهى بالصيد ، فهبت مُروَّعة ، لأن الصوت كان بصوت أدونيس أشبه ، وانطلقت تعدو حتى كانت عنده . . .

يا للهول ! !

أدونيس مضرج بدمه ، وعيناه مستسلمتان للموت [1] ، وسلوقياته تبكى حوله ؟ ! لقد انقض عليه الخنزير الضارى فمزّق لحم الفخذة ، وسرى فى الدم سم الكلَب !

ووقفت ڤينوس ذاهلة تنظر إلى حبيبها الصغير ، ثم أهوت على فمه تقبله وترشفه وتبكى . . . ثم أسندت الرأس الذابل إلى صدرها ، وجعلت تقول :

« ألم يكن حباً حبى يا أدونيس ؟! ياللقضاء ؟! كنت أعرف هذه النهاية ، وكنت أشفق عليك منها ، ولذا كنت أتشبث بك ، وأحاول أن أنسيك بقبلى ودموعى خنازير هـذه البرية ، ولكنك قلت إن حبى شهوة ، وصبابتى غلمة ، فجنيت على نفسك وعلىَّ ! ! أوه ! يالبرودة الموت ؟ أدونيس ؟ أدونيس ؟ رُدَّ علىَّ ياحبيبى ! لقد حسبتنى غادة ! أنا ڤينوس أ كلك فردّ على . . . آه . . . »

وألقت به على الكلأ السندسىّ [2] ، وانطلقت تبكى وتنتحب ، حتى كانت عند عرش الأولب فقالت تكلم رب الأرباب زيوس المظيم :

ـ « أدونيس يا أبى ! ! »

ـ « ماله ؟ . . . »

ـ « قضى . . . قتله الخنزير . . . »

ـ « ومالك مذعورة هكذا ؟ . . . »

ـ « مذعورة ؟ ! وحقك إن لم تأمر برده إلى الحياة الدنيا لأذهبن معه إلى هيدز ! ! »

فوقف إله كان يجلس قريباً من السدة وقال : « تذهبين إلى هيدز ؟ ! ياللهول ! والجمال والحب ؟ أيذهبان فى إثرك إلى دار الموتى ؟ وهذه الدنيا يا ڤينوس ؟ »

ـ « هذه الدنيا تنعى من بناها ... تخرب ... لا زهر ... لا شفق ... لا طير ... لا موسيقى ... لا خمر ... لا حب ... لا حنين ... لا غزل ... لن تكون دنيا كم شيئاً إذا ذهبت إلى هيدز مع حبيبى أدونيس ! ! »

فسجد الاله الذى تكلم أمام زيوس ، ثم نهض وقال له :

ـ « أنا بلسان الآلهة أضرع إلى مولاى أن يلبى طلبة ڤينوس ربة الحب . . . . »

فتبسم إله خبيث كان قريباً منه ، وغمز إليه وقال :

ـ « وربة الجمال يا ابن العم ! ! »

* * *

وأرسل زيوس المظيم إلى أخيه ... بلوتو ... إله هيدز ، يرجوه عن أدونيس ويستأذنه فيه ؛ ولكن بلوتو كان أحرص على الجمال من سكان هذه الحياة الدنيا ، فأبى أن يلبى رجاء أخيه ، فألح عليه ، فلم يقبل . . .

ثم اتفق الاخوان ، زيوس وبلوتو ، على أن يجعلا حياة أدونيس مناصفة ، فيقضى ستة أشهر فى هيدز ، أشهر الخريف والشتاء ، وستة أشهر فى الدنيا ، حيث تأخذ زخرفها فى الربيع وتؤتى أكلها فى الصيف ! !

ولما لقيت ڤينوس حبيبها عائداً أدراجه من دار الفناء قالت له : « أتستطيع اليوم تعريف الحب ؟ » . فقال أدونيس : « هاتى قبلة يا ڤينوس . . . هاتى قبلة . . . هاتى ألف قبلة . . . »

دريني خشبة

---

(١) اقرأ مرثاة شلى (أدونيس) فى كيتس . طبعة أكسفورد ص ٤٢٥

(٢) ذكر شكسبير أن أدونيس تحول زهرة بيضاء فيها بقع كالدم ، وهذا يخالف اطراد القصة حسب الأسطورة اليونانية

قلعـــة الرمل

بقلم حسين شوقي

كانا يسيران على الشاطئ غير مكترثين بما حولهما وهما يتبادلان هذا الحديث :

هو - عزيزتي ، إني آسف إذ تأخرت عن موعدك ؛ ولـكن صـديقاً حميماً لم أره من زمان طويل اعترضني في الطريق واستوقفني ملياً . . .

هي - لاعليك من ذلك ، فليس ثمة ما يدعو للاعتذار

هو - ولـكن لماذا أجدك وحدك ؟ لِمَ لمْ تذهبي إلى السيدة (س) لتأنسي برفقتها ؟

هي - إني أوثر العزلة ، كي أشهد في سكون تلك الصفحة الزرقاء العجيبة المنبسطة أمامي . . .

هو - ولـكن البحر ثائر اليوم ، إني لا أحبه في مثل هذه الحال ؛ إنه ليشبه وجه عجوز قد غضّنته السنون

هي - أنت تراه كذلك ؟ . . . أحسبك زعمت لي مرة أنك تحب البحر وهو هائج ، لأنه يشبه قطيعاً من الخراف البيضاء اللطيفة ! . . . .

هو (في حيرة) - هل . . . هل تنزلين إلى البحر ؟

هي - نعم ، وأنت ؟ . . .

هو - أنا سأنتظرك في القصف ، لأني على موعد هناك ؛ أتأذنين لي في الذهاب ؟

هي - الآن ؟ . . .

هو - أجل . . . .

هي - لك ما تشاء ! . . . (ثم افترقا)

الفتاة في همّ شديد ، لأن صاحبها لم يعد يحبها ؛ إنها لاتشك في أنه بدأ يملّها ، فقديماً لم يكن يسمح لها أن تنزل إلى البحر وحدها وهو كذلك مضطرب مائج ، وهو لم يلاحظ ثوب البحر الجديد الجميل الذي كانت تلبسه ، مع أنه نال اعجاب جميع الذين شاهدوها تخطر به على الشاطئ . . . تنهدت الفتاة قائلة : « آه ! لماذا لم تُخلق القلوب البشرية متشابهة كلها ؟ لماذا خُلق كل قلب يعيش من عواطفه في دنيا وحده ؟ »

وبينا الفتاة غارقة في هذا التفكير ، إذ وقع نظرها على أطفال يبنون قلعة من الرمل ، وهم يهللون ويلغطون فرحين . بدّد هذا المنظر البهيج خواطر الحزن التي كانت تستبدّ بالفتاة ، فوقفت ترقب في اهتمام عمل الصغار ، ولما انتهى بناء القلعة وضع الأطفال في كل ناحية منها قطعة من الخشب على شكل مدفع ، ثم اختلفوا على جنسية العلم الذي يرفع على القلعة ، إذ كان كل منهم يحاول أن يرفع رايته ؛ وبعد جدال ومداولة ، اتفقوا على رفع راياتهم جميعاً عليها ونال كلٌّ منها حظه من المجد . عندئذ صاحت الفتاة في دهشة : ولـكن مُلك أي دولة هذه القلعة ؟ وأجابوا ملك جميع الدول

فقالت الفتاة : آه ! ما أمهركم في السياسة أيها الصغار ! لو أن آباءكم لم يعرفوا الأثرة لأراحوا العالم من مشاكل عدة ! ليت رجال السياسة ظلوا أطفالاً . . . ! ولـكن ، ها هي ذي موجة عظيمة تطغى على الشاطئ فتبتلع القلعة بمدافعها وراياتها ؛ فوقف الأطفال لحظة واجمين ، ولـكن كم كانت دهشة الفتاة عظيمة حينما رأت هذا الوجوم ينقشع بغتة ، ثم هو ينقلب إلى ضحك ومرح ونشاط ، إذ استقر رأيهم على بناء قلعة أخرى من فورهم ، تـكون أروع وأفخم من القلعة الأولى . . كم كانت الفتاة تغبط هؤلاء الصغار على تلك السرعة التي سلوا بها أشجانهم ، إنها تعطي كل ما تملك لـكي تتمكن أن تستبدل بقلبها الـكليم أحد هذه القلوب الغضة ! ثم أخذت تتذكر طفولتها السعيدة أيام كانت آلامها النفسية لا تدوم أكثر من لحظة . .

الفتاة حزينة ، حزينة جداً ، لأن حبها في دور النزع ، فهاهو ذا حبيبها يتأخر عن مواعيده ، وها هو ذا قد بدأ يتمحل بالمعاذير ؛ فهل يكون ذلك إلا المقدماتِ المألوفة للفراق . . . ؟ الفتاة تذكر في حسرة وألم مقدار ما كان تعلق حبيبها بها في بداية حبهما . . وتذكر كيف كان لا يقوى على فراقها لحظة ، حتى أن أحد أقاربه الأعزاء قد مات فلم يشترك في جنازته حتى لا يفرّق ذلك بينهما وقتا ما . . ! وكم زعم لها أن وجودها بجانبه ضروري له ضرورة الماء للسمك .. والآن ، الآن ، هو يتلمس الأعذار ليبتعد عنها..!

ما أغلظ قلب هذا الفتى ! إن هذه الأمواج الصاخبة لأرقّ قلباً منـه ، وإنها لترحب بالفتاة على حين يفرّ هو منها !. كم تود الأمواج أن تضمّ إلى صدرها تلك الدمية الجميلة ذات الجدائل

البريد الأدبي

استفتاء السلام

تألفت منذ حين فى انكلترا لجنة سميت « باجنة التصريح القومى » عن عصبة الأمم ومسائل التسليح ، ونظمت استفتاء عاماً للشعب البريطانى عن مسائل السلام الدولى ليعرف انعالم إلى أى أتجاه يتجه بعواطفه وتأييده ؛ وتولى رئاستها الفيكونت سسل ، وأنفقت اللجنة مدى أشهر جهوداً عظيمة للدعوة إلى الاستفتاء وتنظيمه ، وجمع الاجابات عن الأسئلة التى طرحتها على الجمهور البريطانى . وقد أصدرت أخيراً كتاباً شرحت فيه جهودها والنتائج التى وصلت إليها ، وهذه هى الأسئلة الخمسة التى طرحت على الشعب البريطانى لابداء رأيه فيها :

١ — هل يجب أن تبقى بريطانيا العظمى عضواً فى عصبة الأمم ؟

٢ — هل تؤيد تخفيض التسليح تخفيضاً عاماً بمقتضى معاهدة دولية ؟

٣ — هل تؤيد الغاء الخدمة القومية العسكرية والتسليح الجوى بمقتضى معاهدة دولية ؟

٤ — هل يحظر صنع الأسلحة وبيعها للفائدة الشخصية بمقتضى معاهدة دولية ؟

٥ — هل إذا أصرت أمة ما على مهاجمة أمة أخرى يجب على الأمم الأخرى أن ترغمها على وقف الاعتداء بالاجراءات الاقتصادية ، وبالاجراءات العسكرية إذا اقتضى الحال ؟

الذهبية ! أتذهب الفتاة إلى لقاء صاحبها فى القصف ؟ لا ! إنه سوف يستقبلها بتلك الابتسامة المصطنعة البغيضة ! وإن لقاء الأمواج لأحب اليها من لقاء هـذا الحبيب ... اصبرى أيتها الأمواج ؟ إن الفتاة الجميلة ذات الجدائل الذهبية تراود نفسها أن تهب لك هذا الجسم الغض ، وماأراها ستمتنع عليك ، وما أراها ستكون لغيرك ...... وكان انتظار الفتى صاحبته فى هذا اليوم وبعد هذا اليوم عبثاً ...

حسين شوقى

وقد عاونت اللجنة فى عملها عدة من الصحف الكبرى ، فطرحت هـذه الأسئلة للاستفتاء ؛ وقسمت اللجنة بريطانيا العظمى إلى مناطق توافق الدوائر الانتخابية ؛ وكانت نتائج الاستفتاء التى نشرتها فى كتابها كما يأتى :

السؤال الأول — أجاب عنه بالايجاب ١٠,٦٢٤,٥٦٠ شخصاً ، وبالنفى ٣٣٧,٩٦٤

السؤال الثانى — أجاب عنـه بالايجاب ١٠,٠٥٨,٥٢٦ شخصاً وبالنفى ٨١٥,٣٦٥

السؤال الثالث — أيده بالايجاب ٩,١٥٧,١٤٥ شخصاً ، وعارضه ١,٦١٤,١٥٩

السؤال الرابع — أيده بالايجاب ١٠,٠٠٢,٨٤٩ شخصاً وعارضه ٧٤٠,٦٣٤

السؤال الخامس — أجاب عنه بالايجاب عن الشطر الأول أكثر من تسعة ملايين ، وبالايجاب عن الشطر الثانى أكثر من ستة ملايين ، وأجاب بالنفى عن الشطر الأول نحو ستمائة ألف وعن الشطر الثانى أكثر من مليونين

ولمثل هذا الاستفتاء ونتائجه أهمية عظيمة فى بلد كبريطانيا تتمتع بأعرق الأنظمة الدعوقراطية ، ويحسب فيه أكبر حساب للرأى العام ، وتتجه السياسة الخارجية تحت مؤثرات الرأى العام ورغباته . ويتضح من مجموع الاجابات أن الشعب البريطانى يميل بصفة عامة إلى السلام والسياسـة السلمية . وقد عقب الفيكونت سسل على نتائج الاستفتاء بمقال عن حالة السياسـة الدولية العامة قال فيه :

« إن الموقف الأوربى قد سـاء إلى أعظم حد ، وقد أخذ العالم يتحرك نحو الحرب ، وهزت الحوادث الخطرة التى وقعت فى الشرق الأقصى كل أنظمة السلام ، وقامت أمة عسكرية (يريد اليابان) تتجاهل المعاهدات الدولية فاستولت على أراض شاسعة من أملاك جارتها ، وتحدت معارضة جنيف بكل نجاح »

« وقد قبلت عدة أمم أوربية نظام الدكتاتورية الذى يدعو

إلى استعمال القوة كأداة صالحة لتسوية المسائل الدولية ، وأنذرت دولتان عظيمتان عصبة الأمم بالانسحاب ، وعاونت القوميـة الاقتصادية التي نشأت عن الأزمة العالمية ، على احياء نظريات العزلة القديمة ؛ والخصومات الجنسية التي تحاكي بأشنع الصور الوسطى ، ولاح أن أوربا تنحدر إلى حالة الطائفية القديمة التي أنقذتها منها المدنية النصرانية »

تاريخ للصحافة

كانت جريدة « التيمس » قد أصـدرت بمناسبة عيدها الخمسين بعد المائة وهو الذي احتفلت به في شهر يناير الماضي ، عدداً خاصاً بتاريخ الصحافة من سنة ١٧٨٥ وهو عام انشائها حتى يومنا . وقد لقي هذا العدد الخاص يومئذ رواجاً عظيماً ونفـد بسرعة مدهشة حتى أن إدارة « التيمس » رأت أن تعيد طبعه ولـكن في شكل كتاب يصلح للمكتبة . وقد صدر هذا المجلد أخيراً ، وهو في نحو مائتين وعشرين صفحة ، وهو يحتوي على تاريخ ضاف للصحافة وتطوراتها في مدى القرن ونصف القرن الذي عاشته الجريدة الانكليزية الـكبرى ؛ وقد صدر بصورة فتوغرافية لـكتاب الملك جورج الخـامس إلى التيمس وفيه يهنئها بعيدها ؛ ونشرت صورة طريفة أخرى منها صورة تخطيطية لمدينة لندن منذ مائة وخمسين سنة حينما صدر العدد الأول من « التيمس » تحت عنوان « السجل اليومي العام » . وقد طبع في ثوب قشيب في منتهى الأناقة ، وجعلت منه نسخ مذهبة بديعة تناسب هذا التذكار الصحفي العظيم

آراء جديدة في التربية

تتحدث الصحف النمسوية في تلك الآونة عن العلامة المربي (البيدا جوجي) جاك دالـكروزي وعن نظرياته في التربية ، وذلك لمناسـبة احتفاله ببلوغ السبعين من عمره . وجاك دالـكروزي سويسري الأصل ولـكنه ولد في ڤينا ونشأ بها في ذلك العهد السعيد ، عهـد شوبرت ويوهان شتراوس ؛ ومال إلى الشعر والموسيقى ، وظهر بطريف آرائه في التربية . وأنفق مدة الحرب في ألمانيا ، ولـكن نظرياته لم تلق هناك نجاحاً ؛ ثم نزح إلى براج وهنالك ذاعت نظرياته ، وأنشئت المدارس والبرامج الجـديدة متأثرة بروحها ، ويرى دالـكروزي أن الموسيقى تولد مع الانسان ، وأن الانسان ولا سيما الطفل يحملها في أعمق مشاعره ؛ ومن ثم ابتكر دالـكروزي نوعاً من الرياضـة التوقيعية تتأثر بروح الموسيقى التي هي روح الانسان . وتقوم نظرية دالـكروزي الأساسية في التربية على أن الانسان يستطيع الابتكار بطبيعته ، وأن الانسان هو الذي يخلق نفسه ويكونها ، ولهذا يرى أنه يجب أن يعود الطفل الارتجال في القول والعمل ؛ وهـذه نظرية تخالف رأي بروكنر القائل بأن الانسان لا يستطيع الابتكار إلا بعـد التحصيل والمران الفني ، ولـكن جاك دالـكروزي يبث روح الابتكار في تلاميذه ، وينظمه كفن ، ويرى أنه خير وسيلة لسرعة البت وتحقيق المجهود ، وإدراك الآراء ، وهو يصـقل الشعور ، ويوجد صلة مباشرة بين الروح الذي يتأثر ويوحي ، وبين المخ الذي يفكر ويتصور ؛ وقد دلت التجارب على أن الطفل يعشق الارتجال ، وانه يتفوق في الابتكار أحياناً على الأحداث ، وذلك لأن ذهنه لم يكن قد صفد بعد بالأصول والقواعد الموضوعة ، ولأن ذهنه يتمتع بالحرية الطبيعية

ولنظريات دالـكروزي في التربية وتـكوين النشء أثر عميق في تربية الجيل الحاضر من الشباب في النمسا وتشيكوسلوفاكيا ؟



١ — المقنع فى رسم مصاحف الامصار مع كتاب النقط
لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى (١)

٢ — المختار من شعر بشار للخالديين

نشره وعلق حواشيه الأستاذ محمد بدر الدين العلوى

للأستاذ محمد بك كرد على

تحدثنا فى العدد الماضى عن كتاب التيسير فى القراءات السبع للامام أبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى الذى نشره العلامة برتزل . واليوم نتحدث عن كتابه الآخر وهو « المقنع » فى رسم مصاحف الأمصار مع كتاب النقط نشره كذلك العلامة برتزل ، قال المؤلف فى مقدمته : « هذا كتاب أذكر فيه إن شاء الله ما سمعته من مشيختى ، ورويته عن أئمتى ، من مرسوم خطوط مصاحف أهل الأمصار : المدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وسائر العراق ، المصطلح عليها قديماً ، مختلفاً فيه ومتفقاً عليه ، وما انتهى الىّ من ذلك ، وصح لدىّ منه عن الامام مصحف عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعن سائر النسخ التى انتسخت منه الموجه بها الى الكوفة والبصرة والشام . وذكر كيف جمع عثمان المصحف ، وروى أن علياً قال : لو وليت لفعلت الذى فعل عثمان . وقال : إن أكثر العلماء على أن عثمان بن عفان لما كتب المصحف جعله على أربع نسخ ، وبعث الى كل ناحية من النواحى بواحدة منهن ، فوجه الى الكوفة احداهن ، والى البصرة أخرى ، والى الشام الثالثة ، وأمسك عند نفسه واحدة . ثم أفاض فى رسم المصاحف وذكر ما حذفت منـــه الياء اجتزاءً بكسر ما قبلها منها ، وما حذفت منه الواو اكتفاء بالضمة منها أو لمعنى غيره ، وما رسم باثبات الألف على اللفظ أو المعنى ، وما رسم باثبات الياء على الأصل ؛ وما رسم باثبات الياء زائدة أو لمعنى ، الى ما يتعلق بذلك ، وختم هذا الكتاب بقوله : « قال قيل فلم خص زيد (بن ثابت) بأمر المصاحف ، وقد كان فى الصحابة من هو أكبر منه كابن مسعود ، وأبى موسى الأشعرى وغيرهما من متقدمى الصحابة ، قلت إنما كان ذلك لأشياء كانت فيه ، ومناقب اجتمعت له ، لم تجتمع لغيره ، منها أنه كتب الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأنه جمع القرآن كله على عهد رسول الله (ص) ، وأن قراءته كانت على آخر عرضة عرضها النبى على جبريل عليهما السلام ، وهذه الأشـــياء توجب تقديمه لذلك وتخصيصه به ، لامتناع اجتماعهما فى غيره ، وان كان كل واحد من الصحابة رضوان الله عليهم له فضله وسابقته ، فلذلك قدمه أبو بكر لكتابة المصاحف وخصه بها دون غيره ، من سائر المهاجرين والأنصار ؛ ثم سلك عثمان رضى الله عنه طريق أبى بكر فى ذلك إذ لم يسعه غيره ، وإذ كان النبى (ص) قد قال اقتـدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر فولاه ذلك أيضاً وجعل معه النفر من القرشيين ليكون القرآن مجموعاً على لغتهم ، ويكون مافيه من لغات ووجوه على مذهبهم ، دون ما لا يصح من اللغات ولا يثبت من القراءات . . . »

وأتبع المؤلف كتاب المقنع فى مرسوم المصاحف بكتاب نقط المصاحف وكيفية ضبطها على ألفاظ التلاوة ، ومذاهب القراءة ، بدأه بذكر من نقط المصاحف أولاً من التابعين ومن كره ذلك ، ومن ترخص فيه من العلماء ، ثم عرض لكل ما يتعلق بهذا الباب . وقد وضع الناشر فهرساً للآيات الواردة فى كتاب التيسير وكتاب المقنع وكتاب النقط فجاء مسهلاً للمطالع والمراجع

هذه عناية علماء الشرقيات بكتب الاسلام ، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون . وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له فى القطر ، وأساتذة دار العلوم وغيرهم يتروون فى عمل هؤلاء الأعاجم ، وقد كان عليهم هم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر فى الخزائن عطف الغرب

اننا مدينون لعلماء الشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والاسبانيين ، وغيرهم من شعوب أوربا وشمالى أميركا ، بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا . أحسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا ؟

(١) المتوفى سنة ٤٤٤ هـ

— ٢ —

عني السيد محمد بدر الدين العلوى من أساتذة جامعة عليكرة الاسلامية فى الهند بتصحيح « المختار من شعر بشار » اختيار الخالديين وشرحه لأبى طاهر اسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التُّجيبي الرَّقي من أهل القرن الخامس ، فوقع فى ٣٤١ عدا فهارس قوافى الأبيات والمصاريع وأسماء الشعراء وأسماء الرجال والنساء والقبائل والأصنام والأفراس والجمال . وهذا من الكتب التى يزيد احياؤها مادة الأدب القديم ، وتفيد فى بث الجيد من الشعر والنثر وفصيح اللغة ، وفيه جواب كاف شاف لمن حاولوا أن يحذفوا من كتب القدماء مالم يروه منطبقاً بزعمهم على مصطلح هذا المصر فى هزل الأدب ومضحكاته ؛ فقد نقل من صفحة ٢٠١ إلى ما بعدها قصصاً وأشماراً من هذا القبيل ، أجاد الناشر ومعلق الفوائد على الكتاب السيد العلوى فى ابقائها بحالها ، على ما تقضى بذلك أمانة العلم ، إذ الناس يحبون أن يروا الكتاب كما ألفه مؤلفه ، لا كما راق ناشره ، وقد يجوّز هذا لنفسه حذف مواضع لم ترقه ، وعبارات لا يستحسن اثباتها أصحاب الذوق الجديد ، فيجئ الكتاب المشذّب على هذا النحو كتاب الناشر لا كتاب المؤلف ، ولو كانت هذه الطريقة من اثبات ما يسمونه الفحش اليوم مما يستنكر لما رأينا الراغب الأصفهانى فى محاضراته ، ولا ابن حزم الظاهرى فى طوق الحمامة ، وهما ماهما من المكانة الدينية والعلمية ، يجوزان أن ينقلا أشياء من هذا القبيل يمدُّها بعضهم فى عصرنا نابية عن حد الأدب ؛ فالناشر المستعرب الهندى إذن جدير بكل احترام واعجاب لعنايته بنشر مصنف قديم على النحو الذى وضعه واضعه

والشكر الكثير للجنة التأليف والترجمة والنشر على احيائها هذه الكتب خدمة للمعارف والآداب سيذكرها التاريخ لجماعة متشاكلين فى العلم والتربية تألفوا على غاية نبيلة واحدة ، وهى خدمة العلم والأدب فى مظاهره المنوعة ؟

محمد كرد على

خواطر الخيال وإملاء الوجدان

تأليف محمد كامل حجاج

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأديب الأريب محمد كامل حجاج له فضل قديم على قراء العربية بما عرفهم من الأدب الغربى فى كتابه الكبير « بلاغة الغرب » وأنا أعترف أنى عرفت الأدب الغربىّ أول ما عرفته ، فى هذا الكتاب ، وأحسب كثيراً من المتأدبين يشاركوننى فى هذا الاعتراف

وقد أخرج الأديب الفاضل عام أول كتاباً سماه « خواطر الخيال وإملاء الوجدان » ، وهو كتاب من إنشائه يتضمن خمسة وسبعين مقالاً فى موضوعات شتى . والكتاب أربعة أقسام . وليست خواطر الخيال إلا القسم الأول منه الذى يحوى مقالات الربيع ، والزمان ، والزهرة ، والشيطان الجميل ، والأمل ، والنور ، والظلام ونحوها من الموضوعات الخيالية والوجدانية

والقسم الثانى فيه أبحاث فلسفية ونفسية مثل الموسيقى والحب ، الموسيقى والسحر ، الموسيقى والتربية ، أغانى الحب عند هنود أمريكا ، وأ كثر مافى هذا القسم يتصل بالموسيقى . وكاتبنا الفاضل له ولع بالموسيقى ، وخبرة بها ، واهتمام بتاريخها . وقد ألف فيها كتاباً طبعه مؤتمر الموسيقى الذى اجتمع بالقاهرة منذ سنتين

والقسم الثالث من الكتاب باب النقد وفيه مقالات كثيرة منها « بين القديم والحديث » ورواية عائدة ، وألف ليلة وليلة ، وعلى ضفاف الكنج ، ونابغة شرقى مجهول ، وفيه تراجم جماعة من أدبائنا فى القرن الماضى مثل عبد الله باشا فكرى ، ومحمود باشا قدرى ، ورفاعه بك ، وعبد الله نديم ، ومحمود صفوت الساعاتى

والقسم الرابع سماه الكاتب متفرقات وفيه أربع مقالات

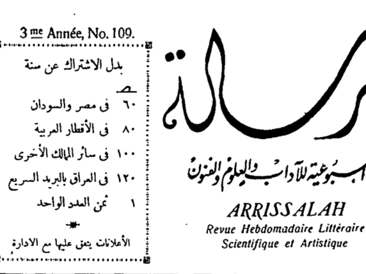
والأديب الفاضل محمد كامل حجاج مولع بالجمال حيثما تجلى . فهو كلف بالجمال فى الحدائق ، ذو دراية ودُربة فى زراعة البساتين ، وهو كلف بالجمال فى الموسيقى يكثر التحدث بها والكتابة عنها ، وله فيها ذوق سليم . وهو كلف بالجمال فى التصوير وله فيه حسنات . وهو كلف بالجمال فى الفضيلة والأخلاق الطيبة ، كريم الخلق مولع بالتحدث عن الخلق الكريم والدعوة اليه الخ الخ

وهو إلى هذا كله واسع المعرفة بالأدب الفرنسى ، حريص على إقناع قراء العربية بطرفه وروائعه

هـذا الكلف بالجمال فى مظاهره المختلفة والبصر بالأدب الفرنسى يتجلى فى صفحات الكتاب . ولست أستطيع تفصيل ما فى الكتاب هنا ولكنى أدعو المتأدبين إلى أن يقرأوا فى الكتاب تفصيل ما أجملت ، وبرهان ما ادعيت ، فالكتاب جدير بالقراءة خليق باهتمام الأدباء وكاتبه جدير منا بالشكر والثناء

عبد الوهاب عزام

3 me Année, No. 109. — Lundi-5-8-1935



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

م	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٠٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

أساليب الاستعمار

قضـــية الحبشة

قضية الشرق وقضية الحرية

للاستعمار الغربى تاريخ أسود ، حافل بصنوف الاعتداءات الدموية على حقوق الأمم الضعيفة ، وعلى أرواح الشعوب الآمنة وحرياتها وأرزاقها ؛ ولـكن هـذا الاستعمار الدموى الغادر ، لم يبلغ فى عصر من العصور ، ولا فى ظرف من الظروف ، ما يبلغه اليوم من الجرأة والاستهتار ، بل من الاجرام والتوحش ، فهو لا يحاول حتى أن يستر نياته كما عهدناه فى الماضى أو يسبغ على تصرفه أى لون مشروع أو معقول ، بل يتقدم بكل بساطة ، مسفراً عن براثنه ، شاهراً سلاحه للقضاء على الفريسة ، متغنياً فى غير حياء ولا وجل بما يستطيع أن يغنم من وراء الدم المسفوك ، والحريات المغصوبة ، والبلد المباح

تلك هى الصورة التى يعرضها لنا النزاع الإيطالى الحبشى . ونقول النزاع من باب التجاوز ، إذ أى نزاع هنالك ؟ بلد حر

مستقل منذ أحقاب التاريخ ، وشعب آمن مطمئن فى أرضه التى خصه الله بها ، يريد الاستعمار الفاشستى الغاشم أن يلتهمه نهاراً جهاراً ؛ ولا عذر له — إن صح التعبير — إلا أنه يريد أن يزيد فى أرضه وفى ثرواته وفى سلطانه ، وأن يحقق شهوة عرضت له فى استباحة الهضاب الحبشية الغنية بكنوز الطبيعة ، التى يضطرم جشعاً للحصول عليها . وأى طريق هذا الذى يلجأ إليه لتحقيق هذه الشهوة الوضيعة الغاشمة ؟ هو القتل المنظم يسميه الحرب ، والفتك الذريع يسميه الفتح ؛ هو القرصنة المجردة ، وهو السلب الجهر ، وهو قطع الطريق ؛ وهو أخيراً كل ما فى الجريمة من عدوان وانتهاك وكل ذلك باسم المدنية الغربية والتهذيب الأوربى

وأوربا المتمدينة ، ما هو موقفها من ذلك العدوان الآثم ؟ وشرائع الله وشرائع الأمم ما مصيرها ؟ أما أوربا المتمدينة فهى تأتمر جمعاء مع هذه الفاشستية الدموية المتوحشة ؛ و إذا شذت دولة فعرضت بعدوانها فإنما ذلك لغيرة أو منافسة ؛ و إنما عصابة الاستعمار كلها يد واحدة تؤيد إيطاليا القوية الزاخرة بالجند والسلاح ، لا باعتبارها دولة أوربية وقوة استعمارية فقط ، ولكن باعتبارها دولة غربية تزمع أن تفترس أمة شرقية ، وأمة بيضاء تزمع أن تفترس شعباً أسمر « ملوناً » ؛ وكلها تأتمر مع القوى المعتدى ضد الضعيف المعتدى عليه ، فتمتنع عن بيع السلاح للحبشة مصانعة لإيطاليا ومؤازرة لقضية الاستعمار المشتركة ، لكى تعجز الحبشة عن الدفاع عن نفسها ، ولكى يستطيع المعتدى أن يحصد أبناءها المدافعين عنها بأيسر أمر

وأما شرائع الله وشرائع الأمم ، فان هـذا الاستعمار الباغى ينتهكها شر انتهاك ؛ بل إنه ليتيه كبرياء إذ يستطيع انتهاكها دون وازع ، ويزعم أنه يستطيع بما لديه من القوى والعدد أن يسخر من رأى العالم ومن الانسانية كلها ؛ فحقوق الأمم وحرياتها المقدسة ، وأمن الشعوب وحياة الأمم والأفراد كلها لغو فى نظره ؛ ثم هو يطأ قانون الأمم (القانون الدولى) بقدميه ويسحقه سحقاً ، فلا ترده عن مشروعه الآثم معاهدات سلم وتحكيم يرتبط بها ، ولا يحترم معاهدات خاصة عقدها مع الأمة التى ينوى افتراسها يوم كان يخطب ودها

تلك هى إيطاليا الفاشستية ، وذلك هو موقفها كما يعرضه ذلك الرجل ! ذلك الطاغية الذى يزعم أنه بعدوانه الصارخ على حرية الأمم ، يقود أمته فى سبيل المجد والعظمة والثراء ، وما يقودها إلا فى سبيل الدمار والفناء

لقد كانت إيطاليا لأقل من قرن أمة ذليلة تصفدها أغلال الحكم الأجنبى ، وكانت أوربا والعالم كله يعجب بكفاحها فى سبيل حرياتها ؛ وما زالت أسماء أولئك الزعماء الذين قادوها فى سبيل الحرية أمثال مازينى وأورسينى وكافور وجاريبالدى تستثير اعجاب الخلف وتقديره . ولكن إيطاليا ، ولكن ذلك الطاغية الذى يسيطر على مصايرها اليوم ، يوشك أن يقضى بمعوله المخرب على ذلك الصرح النبيل الذى ما زالت تتخذه الأمم الطامحة إلى حرياتها مثلا أعلى

إن هذا النزاع الذى تهتز له اليوم ارجاء العالم كله ، ليس قضية إيطاليا والحبشة بل هو أجل شأناً من ذلك وأبعد مدى ؛ هو قضية الغرب الظافر والشرق المغلوب ، وهو قضية الاستعباد والحرية ؛ و إذا كانت قوى الاستعمار تتضافر اليوم مع إيطاليا لتزيدها جرأة على جرأتها ، وقوة على قوتها ، فذلك لأنها ترى فى سحق الحبشة سحق آخر معقل للحرية الافريقية ؛ و إذا كانت بعض الدول الاستعمارية تحاول أن تبذل باسم عصبة الأمم جهوداً لاتقاء الحرب الافريقية ، فليس ذلك حباً منها للسلام أو عطفاً على الحبشة ، ولكن لأنها تشفق أن يثير هذا الفصل الجديد فى الصراع بين الشرق والغرب ، و بين الاستعمار وفرائسه ، اضطراباً فى أملاكها ومستعمراتها ، وأن يذكى فى الأمم المستعبدة روح الانتقاص والثورة فتعمل على تقويض سلطانها المغصوب

إن فرصة تلوح فى الأفق للأمم الشرقية ، فهل تعنى الأمم الشرقية بمراقبة الحوادث ، وهل تعد نفسها لانتهاز فرصتها ؟

(. . .)

كلمات عن حافظ

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ذهبتُ بقلبي إلى كل مكان فوجدت أمكِنَةَ الأشياءِ ولم أجدْ مكانَ قلبي ؛ أيُّها القلبُ المسكينُ أين أذهب بك ؟

هذا ما أجبتُ به (حافظ) حين سألني مرةً : ما لك لا ترضى ولا تهدأُ ولا تستقرّ ؟ وكان يُخيَّل إليّ أنه هو راضٍ مستقر هادئ ، كأنما قضى من الحياة نَهْمَتَه ولم يبق في نفسه ما تقول نفسُه ليت ذلك لي . وكنت أعجبُ لهذا الخُلق فيه ولا أدرى ما تعليله إلا أن يكونَ قد خُلق مطبوعاً بطابَع اليُتم فلم يعرف منذ أدرك ألا أنه ابنُ القَدَر ؛ تأتيه الأفراحُ والأحزانُ من يدٍ واحدة مقبِّلة كما تنالُ الصبيّ ألطافُ أبيه ولَطَماتُ أبيه . . . .

وقد قلتُ له مرة : كأنك يا حافظ تنام بلا أحلام ؛ فضحك وقال . أو كأنني أحلم بغير نوم . . . .

ولقد عرفته منذ سنة ١٩٠٠ إلى أن لَحِق بربه في سنة ١٩٣٢ فما كنتُ أراه على كل أحواله إلا كاليتيم محكوماً بروح القبر ، وفي القبر أولهُ . ولما أزْمَعَ السفرَ إلى اليونان قلتُ له : ألا تخشى أن تموت هناك فتموت يونانياً . . . . فقال : أو تراني لم أمتْ بعد في مصر . . . ؟ إن الذي بقى هيِّن

* * *

ومن عجائب هذا اليتيم الحزين أنه كان قويّ المَلَكة في فن الضحك ، كأن القَدَر عوَّضه به ليُوجِدَهُ في الناس عطفَ الآباء ومحبةَ الاخوة . ولم يخلُ مع فقره من ذريعة قوية إلى الجاه ، ووسيلة مؤكدة إلى ما هو خيرٌ من الغنى ؛ فكانت أسبابُه إلى الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، ثم حشمت باشا ، ثم سعد باشا زغلول ؛ وهذا نظامٌ عجيبٌ في زمن (حافظ) يقابل الاختلالَ العجيبَ في نفس حافظ ؛ فالرجلُ كالسفينة المتكفِّئة تميلُ بها موجةٌ وتمْدِلها موجة ، وهي بهذه وبهذه تمرُّ وتسير

وأولئك الرؤساءُ العظماءُ الذين جعلهم القَدَر نظاماً في زمن حافظ كانوا من أفقر الناس إلى الفكاهة والنادرة ، فكان لهم كالثروة في هذا الباب ، ووقع إصلاحاً في عيشهم وكانوا إصلاحاً في عيشه ؛ ولو أن الأقدارَ تُشَبِّهُ بالمدارس المختلفة لقلنا إن (حافظ) تخرَّج منها في مدرسة التجارة العليا . . . . فهو كان أبرعَ من يتاجر بالنادرة

* * *

وهذه النوادر كأنها هي أيضاً صنعت (حافظ) في شكل نادرة . فكان فقيراً ، ومع هذا كان المال عنده مُتَمَّم هو إنفاقُه وإخراجُه من يده ؛ وكان يتيماً ، ولكنه دائماً متودِّد ؛ وكان حزيناً ، ولكنه أنيسُ الطَّلْعة ؛ وكان بائساً ، ولكنه سليمُ الصدر ، وكان في ضيق ، ولكنه واسعُ الخُلُق ؛ وتمامُ النادرة فيه أنه كان طِوالَ عمره مُتَبَسِّطاً مهتزاً كأن له زمناً وحدَه غير زمن الناس ، فتترا كم عليه الهموم وهو مُسْتَنيمٌ إلى الراحة ، ويعتريه من الجوع مثلُ مَكْسَلةِ الشِّبَع ، ويَسْتَرسلُ إلى البَطَالة وكأنه مُشَمِّرٌ للجد ، ويستمكنُ الحزنُ منه في ساعة فيَتَبَهَّدُ حزنه بالساعة التالية . . . .

رأيته في أحد أيام بؤسه الأولى قبل أن يتصل عيشُه وكان يَعُدُّ قروشاً في يده فقلت : ما أمر هذه القروش ؟

قال : كنت أقامرُ الساعة فأضعت ثلاثين قرشاً ولم يبق لي غير هذه القروش الملعونة ، فهلمّ نتعشّ . ودخل إلى مطعم كان وراء حديقة الأزبكية فزعمت له أني تعشّيت . . . فأكل هو ودفع ثمن طعامه ثلاثة قروش . وكنت أطالعُ في وجهه وهو يأكل ، فما أتذكره الآن إلا كما طالعتُه بعد عشرين سنةً من ذلك التاريخ حين دعاني (حافظ) إلى مطعم بار اللواء وقد فاضت أنامله ذهباً وفضة . وكان رحمه الله قد أصدر الجزء الثاني من (البؤساء) ورآني في القاهرة فأمسك بي حتى قرأتُ معه الكتابَ كلَّه فيما بين الظهر والمغرب ؛ وركبنا في الأصيل عربة وخرجنا نتنزَّه أي خرجنا نقرأ . . .

* * *

وكان على وجه (حافظ) لونٌ من الرضي لا يتغير في بؤس

(١) لما توفي حافظ رحمه الله كتبنا فصلا طويلا عن أدبه للمقتطف . ولم نعرض في كلماتنا هذه لشيء من أدب الرجل وإنما هي ذكرى وبقايا من الأيام

ولا نعيم كبياض الأبيض وسواد الأسود . وهذا من عجائب الرجل الذى كان فى ذات نفسه فناً من الفوضى الانسانية حتى لكأنه حلم شعرى بدأ من أبويه ثم انقطع وترك لتتممه الطبيعة !

ومن نظر إلى (حافظ) على اعتبار أنه فن من الفوضى الانسانية رآه جميلاً جمال الأشياء الطبيعية لا جمال الناس ؛ ففيه من الصحراء والجبال والصخور والغياض والرياض والبرق والرعد وأشباهها . وكنت أنا أراه بهذه العين فأستجمله ، ويبدو لى جزلاً مُطهّماً ، وأرى فى شكله هندسة كهندسة الكون تتم محاسنها بقبائحها . وكم قلت له : إنك يا حافظ أجمل من القمر ......

أما هو فكان يرى نفسه دميماً شنيع المرآة متفاوت الخلق كأنه إنسان مغلوط فى تركيبه ...

وقد سألته مرة : هل أحب ؟

فقال : النساء اثنتان : فاما جميلة تنفر من قبحى ، وإما دميمة أنفر من قبحها ؛ ولهذا لم يفلح فى الغزل والنسيب ، ولم يحسن من هذا الباب شيئاً يسمى شيئاً ؛ وبقى شاعراً غير تام ، فان المرأة للشاعر كحواء لآدم ، هى وحدها التى تعطيه بحبها عالماً جديداً لم يكن فيه . وكل شرها أنها تتخطى به السموات نازلاً . . .

* * *

وتهدم حافظ فى أواخر أيامه من أثر المرض والشيخوخة ، وكان آخر العهد به أن جاء إلى إدارة (المقتطف) وأنا هناك فلم يرنى حتى بادرنى بقوله : ماذا ترى فى هذا البيت فى وصف الأمريكان :

وتخذتم موج الأثير بريداً
حين خلتم أن البروق كسالى (١)

فنظرت إلى وجهه المعروق المتغضن وقلت له : لو كان فيك موضع قبلة لقبلتك لهذا البيت ؛ فضحك وأدار لى خده ؛ ولكن بقى خده بلا تقبيل . . .

* * *

وشهرة هذا الأديب العظيم بنوادره ، ومحفوظاته من هذا الفن أمر مجمع عليه ؛ وكان يتقصص النوادر والفكاهات ومطارحات السمر من مظانها فى الكتب ورجال الأدب وأهل المجون ، فاذا قصها على من يجالسه زاد فى أسلوبها أسلوبه هو ، وجمل يقلبها ويتصرف فيها ويبين عنها أحسن الابانة بعطفه ووجهه ونبرات فى لسانه ونبرات فى يده

وهو أصمعى هذا الباب خاصة ، يروى منه رواية عريضة ، فاذا استهل سح بالنوادر سحاً كأنها قواف قصيدة تدعو الواحدة منها أختها التى بعدها

وقد أذكرنى (القوافى) مجلساً حضرته قديماً فى سنة ١٩٠١ أو ١٩٠٠ وكان (مصباح الشرق) قد نشر قصيدة رائية لابن الرومى ، فتعجب المرحوم الشيخ محمد المهدى من بسطة ابن الرومى فى قوافيه ، فقال له (حافظ) هلم نتساجل فى هذا الوزن حتى ينقطع أحدنا . وكانت القافية من وزن : قدرها ، أحمرها ، أخضرها الخ ، وجعلت أنا أحصى عليهما ؛ فلما ضاق الكلام كان الشيخ المهدى يفكر طويلاً ثم ينطق باللفظ ولا يكاد يفعل حتى يرميه حافظ على البديهة ، فيعود الرجل إلى الاطراق والتفكير ؛ ثم انقطع أخيراً وبقى حافظ يسرده من حفظه الغريب

أما فى النوادر فالعجيبة التى اتفقت له فى هذا الباب أنه جاء إلى طنطا فى سنة ١٩١٢ ومديرها يومئذ المرحوم « محمد محب باشا » وكان داهية ذكياً وظريفاً لبقاً ، وكنت أخالطه وأتصل به ، فدعا (حافظ) إلى العشاء فى داره ؛ فلما مدت الأيدى قال الباشا : لى عليك شرط يا حافظ . قال وماهو ؟ قال : كل لقمة بنادرة

فتهلل حافظ وقال : نعم لك علىّ ذلك . ثم أخذ يقص ويأكل ، والعشاء حافل ، وحافظ كان نهماً فما انقطع ولا أخل حتى وفى بالشرط . وهذا لا يمنع أن الباشا كان يتغافل ويتغاضى ويتشاغل بالضحك فيسرع حافظ ويغالط بفمه . . . .

* * *

ولكن هذه المضحكات أضحكت من (حافظ) مرة كما أضحكت به . فلما كان يترجم (مكبث) لشكسبير — وهى كأعماله الناقصة دائماً — دعوه لالقاء (محاضرة) فى نادى المدارس العليا ، والنادى يومئذ يجمع خير الشباب حمية وعلماً ، وكان صاحب السر فيه (السكرتير) زينة شباب الوطنية المرحوم أمين بك الرافعى . فقام حافظ فأنشدهم بعض ماترجه نظماً عن شكسبير ومثله تمثيلاً

(١) هذا البيت من قصيدة نظمها حافظ يخاطب فيها الأمريكيين وقد أشرنا فى مقالنا فى المقتطف إلى أن معناه مسروق

أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب . ثم سألوه (المحاضرة) فأخذ يلقي عليهم من نوادره . وبدأ كلامه بهذه النادرة : عرضت على المعتصم جارية يشتريها ، فسألها : أنت بكرٌ أم ثيِّب ؟ فقالت : كثرت الفُتوح على عهد المعتصم . . .

ونظر حافظ إلى وجوه القوم فأنكرها ... وبقيت هذه الوجوه إلى آخر المحاضرة كأنها تقول له : إنك لم تُفلح

ولقد كان هذا من أقوى الأسباب في تنبُّه (حافظ) إلى مايجب للشباب عليه إن أراد أن يكون شاعره ، فأقبل على القصائد السياسية التي كسبهم بها من بعد . ونادرة المعتصم كالعورة المكشوفة ؛ ولست أدري أكان حافظ يعرف النادرة البديعة الأخرى أم لا . فقد عرضت جارية أديبة ظريفة على الرشيد فسألها : أنت بكر أم إيش ؟

فقالت : أنا (أم إيش) يا أمير المؤمنين ...

* * *

وفنُّ (الشعر الاجتماعي) الذي عرف به حافظ ؛ لم يكن فنَّه من قبل ولا كان هو قد تنبه له أو تحراه في طريقته . فلما جاءت إلى مصر الأمبراطورة (أوجيني) نظم قصيدته النونية التي يقول فيها :

فاعذرينا على القصور كلانا غيرته طوارئُ الحدثان

ولقيتُه بعدها فسألني رأيي في هذه القصيدة ، وكان بها مُدلاً مُعجباً شأنه في كل شعره ؛ فانتقدتُ منها أشياء في ألفاظها ومعانيها وأشرت إلى الطريقة التي كان يحسن أن تخاطب بها الأمبراطورة . فكأنني أغضبتُه ؛ فقال : إن الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، أجمعوا على أن هذا النمط هو خير الشعر ، وقالوا لي : إذا نظمتَ فانظم مثل هذا « الشعر الاجتماعي » ، ثم كأنه تنبه إلى أنها طريقة يستطيع أن ينفرد بها فقال : إن كل قصائد شوقي الآن غزل ومدح ، ولا أثر فيها لهذا الشعر ، على أنه هو الشعر

وتتابعت قصائده الاجتماعية ، فلقيني بعدها مرة أخرى فقال لي : إن الشاعر الذي لا ينظم في الاجتماعيات ليس عندي بشاعر . وأردت أن أغيظه فقلت له : وما هي الاجتماعيات إلا جمل مقالات الصحف قصائد ... ؟

فالأستاذ الامام وسعد زغلول وقاسم أمين : أحدُ هؤلاء أو جميعُهم أصلُ هذا المذهب الذي ذهب اليه حافظ . وهو كثيراً ما كان يقتبس من الأفكار التي تعرض في مجلس الشيخ محمد عبده من حديثه أو حديث غيره فيبني عليها أو يُدخلها في شعره . وهو أحياناً رديءُ الأخذ جداً حين يكون المعنى فلسفيا إذ كانت ملكة الفلسفة فيه كالمعطَّلة ، وإنما هي في الشاعر من ملكة الحب ، وإنما أولها وأصلها دخول المرأة في عالم الكلام بإبهامها ورزنتها ...

* * *

وكنت أولَ عهدي بالشعر نظمت قصيدة مدحتُ فيها الأستاذ الامام وأنفذتها اليه ، ثم قابلت حافظ بعدها فقال لي إنه هو تلاها على الامام ، وأنه استحسنها . قلت : فماذا كانت كلمته فيها ؟ قال : إنه قال : لا بأس بها . . .

فاضطرب شيطاني من الغضب ، وقلت له : إن الشيخ ليس بشاعر ، فليس لرأيه في الشعر كبيرُ معنى . قال : ويحك إن هذا مَبْلغُ الاستحسان عنده

قلت : وماذا يقول لك أنت حين تنشده ؟ قال : أعلى من ذلك قليلاً ... فأرضاني والله أن يكون بيني وبين حافظ (قليل) ، وطمعت من يومئذ

وأنا أرى أن « حافظ ابراهيم » إنْ هو إلا ديوان « الشيخ محمد عبده » ، لولا أن هذا هذا ، لما كان ذلك ذلك

ومن أثر الشيخ في حافظ أنه كان دائماً في حاجة إلى مَن يَسمعه ، فكان إذا عمل أبياتاً ركب إلى اسماعيل باشا صبري في القصر العيني ، وطاف على القهوات والأندية يُسمع الناس بالقوة ... إذ كانت أذُن الامام هي التي ربَّت الملَكة فيه ، وقد بينا هذا في مقالنا في (المقتطف)

وكان تمام الشعر الحافظيّ أن يُنشـــده حافظ نفسهُ ؛ وما سمعت في الانشاد أعربَ عربيةً من البارودي ، ولا أعذبَ عذوبةً من الكاظمي ، ولا أفخم فخامةً من حافظ ؛ رحمهم الله جميعاً

وكان أديبنا يُجلُّ البارودي اجلالاً عظيما ، ولما قال في مدحه :

لُمِرْ كلُّ معنى فارسيّ بطاعتي وكلُّ نَفور منه أن يتودَّدا

قلت له: ما معنى هذا؟ وكيف يأمر البارودى كل معنى فارسىّ وما هو بفارسى؟

قال: إنه يعرف الفارسية، وقد نظم فيها، وعنده مجموعة جمع فيها كل المعانى الفارسية البديعة التى وقف عليها. قلت: فكان الوجه أن تقول له: أعرنى المجموعة التى عندك . . .

أما الكاظمى فكان حافظ يجافيه ويباعده، حتى قال لى مرة وقد ذكرته به: «عَقَقْناه يا مصطفى!»

وما أنس لا أنس فرحَ حافظ حين أعلمته أن الكاظمى يحفظ قصيدة من قصائده. وذلك أنهم فى سنة ١٩٠١ — على ما أذكر — أعلنوا عن جوائز يمنحونها من يجيد فى مدح الخديو، وجعلوا الحكم فى ذلك إلى البارودى وصبرى والكاظمى. ثم تخلى البارودى وصبرى، وحكم الكاظمى وحده، فنال حافظ الدالية الذهبية ونال مثلها السيد توفيق البكرى

ولما زرتُ الكاظمى وكنت يومئذ مبتدئاً فى الشعر ولا أزال فى الغَرْزَمَة (١) قال: لماذا لم تدخل فى هذه المباراة؟ قلت: وأين أنا من شوقى وحافظ وفلان وفلان؟ فقال: «ليه يَخْلَى هِمَّتَك ضعيفة؟» ثم أسمعنى قصيدة حافظ وكان معجباً بها، فنقلتُ ذلك إلى حافظ فكاد يطير عن كرسيه فى القهوة

* * *

وكان تعنُّت حافظ على الكاظمى لأنه غير مصرى. ففى سنة ١٩٠٣ كانت تصدر فى القاهرة مجلة اسمها (الثريا) وظهر فى أحد أعدادها مقال عن الشعراء بهذا التوقيع (*). وانفجر هذا المقالُ انفجار البركان، وقام به الشعراء وقعدوا، وكان له فى الغارة عليهم كزَفيف الجيش وقَعْقَعة السلاح، وتناولته الصحف اليومية، واستمرت رجفته الأدبية نحو الشهر؛ وانتهى إلى الخديو، وتكلم عنه الأستاذ الامام فى مجلسه، واجتمع له جماعة من كبار أساتذة العصر السوريين كالعلامة سليمان البستانى، وأديب عصره الشيخ ابراهيم اليازجى، والمؤرخ الكبير جورجى زيدان — إذ كان صاحب المجلة سورياً — وجعلوا ينفذون إلى صاحب المجلة دسيساً بعد دسيس ليعلموا من هو كاتب المقال وشاع يومئذ أنى أنا الكاتب له؛ وكان الكاظمى على رأس الشعراء فيه، فغضب حافظ لذلك غضباً شديداً، وما كاد يرانى فى القاهرة حتى ابتدرنى بقوله: وربِّ الكعبة أنت كاتب المقال؛ وذمة الاسلام أنت صاحبُه

ثم دخلنا إلى «قهوة الشيشة» فقال فى كلامه: إن الذى يغيظنى أن يأتى كاتب المقال بشاعر من غير مصر فيضعه على رءوسنا نحن المصريين. فقلت: ولعل هذا قد غاظك بقدر ما سرّك ألا يكون الذى على رأسك هو شوقى . . .

وغضب السيد توفيق البكرى غضباً من نوع آخر، فاستعان بالمرحوم السيد مصطفى المنفلوطى استعانة ذهبية . . . . وشمّر المنفلوطى فكتب مقالا فى (مجلة سركيس) يعارض به مقال (الثريا)، وجعل فيه البكرى على رأس الشعراء . . . ومدحه مدحاً يَرِنُّ رنيناً

أما أنا فتناولنى بما استطاع من الذم وجرّدنى من الألفاظ والمعانى جميعاً، وعدّنى فى الشعراء ليقول إنى لست بشاعر . . . فكان هذا ردَّ نفسه على نفسه (١)

وتعلَّق مقالُ المنفلوطى على المقال الأوّل فاشتهر به لا بالمنفلوطى؛ وغضب حافظ مرة ثانية، فكتب إلىّ كتاباً يذكر فيه تعسُّف هذا الكاتب وتحامله، ويقول قد وكلْتُ اليك أمرَ تأديبه

فكتبت مقالاً فى جريدة (المنبر) وكان يصدرها الأستاذان محمد مسعود وحافظ عوض، ووضعت كلمة المنفلوطى التى ذمّنى بها فى صدر مقالى أفاخر بها ... وقلت: إنى كذلك الفيلسوف الذى أرادوه أن يشفع إلى مَلِكِه فأكبَّ على قدم الملك حتى شفّعه؛ فلما عابوه بأنه أذال حرمةَ الفلسفة بانحنائه على قدم الملك وسجوده له، قال: ويحكم، فكيف أصنع إذا كان الملك قد جعل أذُنيه فى رجليه ....

* * *

ولم يكن مضى لى فى معالجة الشعر غير سنتين، حين ظهر مقال (الثريا)؛ ومع ذلك أصبح كل شاعر يريد أن يعرف رأيى فيه؛ فمررت ذات يوم (بحافظ) وهو فى جماعة لا أعرفهم، فلما

(١) الغرزمة أول قول الشعر حين يكثر الردىء فيه يقال فلان يغرزم

(١) نشر المرحوم المنفلوطى مقاله هذا فى الطبعة الأولى من كتابه (النظرات) بعد أن هذبه؛ ثم حذفه من الطبعات الأخرى لأنه هو كان يعد أن النائحة المستأجرة لا يسمى بكاؤها بكاء ....

قضايا التاريخ الكبرى

٢ ـ من قضايا السحرة

صفحة من الجرائم المروعة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان لظهور هذه الحقائق المروعة عن جرائم السحرة وقع عميق فى باريس وفى فرنسا بأسرها؛ ولم يكن القضاء العادى ليكفى لسحق هذه الطغمة الآثمة وتطهير المجتمع من عيثها الذريع، فرأى لويس الرابع عشر ووزراؤه أن يعهد بمقاضاتها إلى القضاء الاستثنائى، وانتدبت لذلك محكمة خاصة هى «الغرفة الساطعة»(١) الشهيرة فى تاريخ ذلك العصر، وسميت كذلك لأن المحاكم الخاصة التى تنتدب للنظر فى الجرائم الكبرى كانت تجلس فى غرفة تجلل جدرانها بالسواد وتنار بالمشاعل والمصابيح

وعقدت «الغرفة الساطعة» جلستها الأولى فى العاشر من ابريل سنة ١٦٧٩، وقررت أن تكون إجراءاتها وتحقيقاتها سرية حتى لا يقف الجمهور على شىء من الأعمال السحرية أو أسرار السموم؛ وتولى الرآسة المستشار لوى بوشرا كونت دى كومبان يعاونه عدة من أعضاء مجلس الدولة؛ وتولى لارينى مهمة القاضى المحقق؛ وكانت إجراءاتها تتلخص فى أن كل من تقع عليه شبهة الاتهام يقبض عليه بأمر الملك أعنى بواسطة «اللتر دى كاشيه» (أو رقعة السجن)، وتقدم نتيجة التحقيق الأول إلى النائب العام، وله وحده أن يقرر المواجهة بين الشركاء، وعند انتهاء التحقيق يرفع به تقرير ضاف إلى «الغرفة الساطعة»؛ وهى تقرر ما إذا كان يجب الاستمرار فى اعتقال المتهم، فاذا قررت ذلك، استمر التحقيق معه؛ وعند نهايته، ترفع أوراق الاتهام إلى المحكمة، فيقرؤها القضاة، ويقدم نائب الملك (النائب العمومى) طلباته سواء بتبرئة المتهم أو بالحكم عليه؛ ثم تسمع أقوال المتهم فوق منصة المحكمة؛ وبعدها تصدر المحكمة حكمها غير قابل للاستئناف

وكانت «الغرفة الساطعة» تعقد فى قصر «الأرسينال»؛ واستمر انعقادها باستمرار حتى يوليه سنة ١٦٨٢ عدا فترة أشهر وقفت فيها جلساتها؛ وبلغ عدد المتهمين الذين قدموا اليها ٤٤٢ متهماً، تقرر استمرار اعتقال ١١٨ منهم؛ وحكم بالاعدام على ستة وثلاثين، وتقرر تعذيبهم بالتحقيق العادى وبالتحقيق الاستثنائى، ثم أعدموا حرقاً كما سيجىء؛ ومات اثنان فى السجن؛ وحكم على خمسة بالاشغال الشاقة، وبالنفى على ثلاثة وعشرين؛ وأطلق سراح الباقين لا لأنهم أبرياء، ولكن لأن لهم شركاء فى التهم المسندة اليهم من أكابر الدولة والسادة وأرفع سيدات البلاط

* * *

يقول فولتير فى كتابه «عصر لويس الرابع عشر» فى حديثه عن قضية السحرة، إن أعظم رؤوس فى المملكة استدعوا لابداء أقوالهم أمام «الغرفة الساطعة» ومنهم ابنتا أخت الكردينال مازاران؛ والدوقة دى بويون، والكونتة دى سواسون والدة البرنس أوجين، والماريشال دى لوكسمبورج؛ وقد كان لهؤلاء جميعاً ولغيرهم من أكابر المملكة علائق ومعاملات مع السحرة

وقد كشف التحقيق عن واقعة أشنع وأفظع هى أن حياة الملك ذاتها كانت موضعاً لائتمار السحرة، وأن التحريض على اغتيالها لم يجىء إلا من أعماق القصر، ومن أقرب المقربين لشخص الملك ذاته

كانت مدام دى مونتسبان حظية لويس الرابع عشر الشهيرة،

(١) La Chambre ardente

اطمأن بى المجلس قال حافظ: ما رأيك فى شعر اليازجى؟ فأجبته؛ قال: فالبستانى، فنجيب الحداد، ففلان، ففلان؛ فداود بك عمون؟ قلت: هذا لم أقرأ له إلا قليلاً لا يسوغ معه الحكم على شعره. قال: فماذا قرأت له؟ قلت: رده على قصيدتك اليه: شجتنا مطالعُ أقمارِها. قال فما رأيك فى قصيدته هذه؟ قلت: هى من الشعر الوسط الذى لا يعلو ولا ينزل

فما راعنى إلا رجلٌ فى المجلس يقول: أنصفتَ والله! فقال حافظ: أقدم لك داود بك عمون ...... رحم الله تلك الأيام!

(طنطا) محمد درويش

قد وصلت فى ذلك العصر إلى ذروة القوة والنفوذ ، وتبوأت فى البلاط أرفع مكانة ، وبسطت سلطانها على المليك التيم مدى أعوام طويلة ؛ ولكن حل عهد السأم والهجران أخيراً ، ومال الملك عن حظيته القديمة إلى حظية جديدة هى فتاة من وصيفات الشرف تدعى الآنسة دى فونتانج ، فلما شعرت مدام مونتسبان بأفول نجمها اضطرمت سخطاً ويأساً ، وفكرت فى أن تنتقم من الملك وحظيته الجديدة معاً ، واتصلت بالساحرة لا ڤوازان وزميلة لها تدعى لاتريانون ، فتعهدتا بتدبير مشروع لاغتيال الملك ؛ وتعهد الساحران المسمان رومانى وبرتران بقتل الآنسة دى فونتانج ، وبذلت مدام دى مونتسبان للسحرة مالا وفيراً

وكانت مدام دى مونتسبان إبان نفوذها وسلطانها وثيقة الصلات بلاڤوازان وشركائها ؛ وكانت تلجأ إلى السحرة التماساً لتوطيد نفوذها بفعل السحر والتمائم ؛ وكانت هذه الحسناء المتكبرة تنزل عند دجل السحرة ، وتقبل الاشتراك فى إجراءات السحر الأسود ، فترقد عارية أمام أولئك الطغام ، وتقوم لاڤوازان وزملاؤها باجراء القربان الدموى والسحر الأسود ، وتعتقد الحظيـة الهائمة أنها بذلك تذكى نار حبها فى نفس الملك وتوطد دعائم نفوذها وسلطانها

ويتلخص مشروع اغتيال الملك كما دونه لارينى من أقوال لاڤوازان وشركائها فى أن الجناة فكروا أولاً فى أن يزهقوا الملك بالسم ، وذلك بأن ينثروه على ثيابه أو حيثما اعتاد أن يمر ، فيستنشقه تباعاً ويموت ببطء ، وتعهدت الآنسة ديزييه وصيفة مدام دى مونتسبان بتأدية هذه المهمة . ولكن لاڤوازان رأت بعد التفكير أن تلجأ إلى وسيلة أخرى . وذلك أن لويس الرابع عشر اعتاد طبقاً لعادة قديمة أن يتلقى بنفسه فى أيام معينة العرائض التى يرفعها اليه رعاياه بالتظلم والالتماس ، ويسمح لكل بالدخول عليه عندئذ دون فارق أو تمييز ، ففكرت لاڤوازان أن تعد عريضة من هذا النوع تضمخها بنوع من السم الزعاف ، فاذا تناولها الملك بين يديه سرى اليه السم وهلك ؛ وتعهدت الساحرة لاتريانون باعداد هذه العريضة ، وتعهدت لاڤوازان بتقديمها إلى الملك . ورؤى أن يكون موضوعها طلب الغوث لشخص يشتغل بالسيميا ويدعى بلسيس ويعتقله المركيز دى ترم فى قصره ، وسمت لاڤوازان لدى وصيف بالقصر من معارفهـا ليسهل لها مهمة تقديم العريضة بنفسها

وارتاع الجناة لجرأة لاڤوازان ، وتنبأوا لها بالوقوع بين براثن القضاء متهمة بجريمة دولة ؛ ولم يكن الموت شر مايخشاه السحرة فى تلك العصور ، بل كان التعذيب أشد ما يروعهم ، بيد أن لاڤوازان كانت تخلبها وتغريها مائة ألف جملتها مدام دى مونتسبان ثمناً للجريمة (نحو مليون فرنك من النقد المعاصر) ، فقصدت إلى سان جرمان فى يوم ٥ مارس سنة ١٦٧٩ ، ثم فى التاسع منه ، محاولة أن تصل إلى الملك فتقدم اليه العريضة المسمومة ، ولكنها لم تفز ببغيتها ، فعادت مكتئبة إلى باريس ، ولكن مصممة على أن تعود فى أول فرصة . بيد أن عين لارينى كانت ساهرة ترقب أعمال السحرة ؛ وفى الثانى عشر من مارس قبض عليها وعلى ابنتها مرجريت ، وعلى عدة من شركائها حسبما أسلفنا

ولما ذاع نبأ القبض على لاڤوازان وشركائها ، ارتاعت مدام دى مونتسبان ، وغادرت البلاط فى الحال إلى الريف ، فمكثت هنالك مدى حين

* * *

أنفقت المحكمة الخاصة أو « الغرفة الساطعة» أشهراً طويلة فى تحقيقات واجراءات يتسع نطاقهـا يوماً عن يوم ، وكان التحقيق يمتد شيئاً فشيئاً إلى طائفة من الرؤوس الكبيرة ، حتى أن المحقق لارينى اضطر أن يطلب حرساً خاصاً لمرافقته فى زيارته لسجن ڤنسان حيث اعتقل المتهمون ، وكثر الهمس والوعيد حول قضاة الغرفة الساطعة ، واهتم الملك ووزراؤه بالأمر ، وكتب لوڤوا رئيس الوزارة إلى رئيس المحكمة يقول له : إنه لمناسبة ما نمى إلى جلالته من الحديث حول « الغرفة » واجراءاتها ، فان جلالته قد أمر بتبليغ القضاة أنه يؤكد لهم حمايته ، وأنه يطلب اليهم أن يستمروا فى اقامة العدالة بثبات . ثم زاد الملك على ذلك فاستدعى اليه قضاة المحكمة ليطمئنهم ويشجعهم ؛ ويقول لنا لارينى تعليقاً على تلك المقابلة ، إن جلالته قد أوصاه بتحقيق العدالة والواجب ، وإنه يرجو تحقيقاً لخير المجموع أن ننفذ جهد الاستطاعة إلى أسرار جرائم السموم ، وأن نجتث جذورها إذا

استطعنا ، وذلك دون تفريق بين الأشخاص والمقامات

بيد أنه قد طلب إلى القضاة من جهة أخرى أن يلزموا التحفظ فى بعض الأمور ، وظهر أثر هذا التحفظ فى الحرص على عدم حالة لافوازان إلى التعذيب ، وذلك خوفاً من أن ينطلق لسانها حين التعذيب بما لا يراد أن يذاع وأن يعرف ، ومع ذلك فقد صرحت لافوازان فى ساعتها الأخيرة عقب الحكم عليها بالأعدام « أنها مضطرة لأن تقول اراحة لضميرها إن عدداً كبيراً من الناس من جميع الطوائف والطبقات قد لجأ اليها سعياً إلى ازهاق الكثيرين ، وإن الباعث الأول لهذه الجرائم إنما هو الفجور »

ولما وقف لويس الرابع عشر على أقوال مرجريت مونشوازان ابنة لافوازان عقب اعدام أمها ، كتب إلى لاربنى يطالب اليه أن يدون اعترافاتها وما يترتب على هذه الاعترافات من مواجهات ومناقشات فى ملف خاص ، وكذلك أقوال الساحرين رومانى وبرتران ، وهما من شركاء لافوازان . وقد كانت أقوال مرجريت مونشوازان ذات أهمية خاصة لأنها تتعلق بمشروع تسميم الملك ، ومن جهة أخرى فقد وعد لوفوا الساحر ليساج بأن ينقذ حياته إذا قال كل شىء ، ولكنه لما ذهب فى اعترافاته إلى حدود مروعة ، رمى بالكذب ولم يقبل المحقق أن يصغى اليه بعد ؛ وأدلت متهمة أخرى تدعى فرانسواز فيلاستر بمعلومات مثيرة مدهشة ، فأمر الملك بأن تودع أقوالها فى ملف خاص ، وأن ترفع إلى مجلسه ؛ وهكذا بلغ من اهتمام لويس الرابع عشر بهذه القضية أن لبث يتتبع كل أدوارها ، وأن يسحب من أوراق التحقيق كل ما لا يرغب فى اذاعته ؛ والواقع أن لويس الرابع عشر تأثر أيما تأثر لما كشفت عنه التحقيقات من الوقائع والحقائق المؤلمة التى تصيبه فى أعز عواطفه وفى كرامته الملوكية . ألم تلجأ حظيته التى كان يعبدها إلى السحرة ، وتلوث نفسها وجسمها فى معاهدهم سعياً إلى ازهاقه ؟ أليست مدام دى مونتسبان أم أولاده المحبوبين ؟ ومع ذلك فقد كظم الملك المظيم ألمه وتأثره ؛ ولبثت هذه الوثائق الهائلة التى تكشف عن عاره فى خزائنه السرية أعواماً طويلة حتى أمر باحراقها جمد ذلك فى مدفئه فى يوم من أيام سنة ١٧٠٩ ، أعنى بعد هذه الحوادث بثلاثين عاما

* * *

كانت « الغرفة الساطعة » حاسمة صارمة فى أحكامها ، فقد حكمت بالاعدام والتعذيب على ستة وثلاثين متهماً ثبتت إدانتهم فى مزاولة التسميم والأعمال السحرية الاجرامية ، وذلك من مجموع قدره مائة وثمانية عشر متهماً . ونفذ الاعدام فى المحكوم عليهم تباعاً ؛ وكان إعدام السحرة يجرى بطريق الحرق دائماً . وكانت لافوزان ولافيجوريه وليساج فى مقدمة المحكوم عليهم بهذا الموت المروع . وقد احرقوا معاً فى « ميدان جريف » . وتصف لنا مدام دى سفينيه الكاتبة الشهيرة منظر إحراق الساحرة لافوازان — وقد شهدته بنفسها — وتقول لنا « لقد أسلمت لافوازان روحها للشيطان فى لطف » . وينقل إلينا الكاهن الذى تولى مرافقة الساحرة إلى المحرقة كلماتها الأخيرة وهى : « إننى مثقلة بأكداس من الجرائم ، ولست أدعو الله أن ينقذنى من النار بمعجزة ، لأن ما سألقاه من الجزاء لا يقاس بشىء مما ارتكبت »

ويقدم إلينا فولتير فى كتابه « عصر لويس الرابع عشر » خلاصة لهذه الحوادث والمحاكمات المثيرة ثم يعلق عليها بقوله : « نستطيع أن نتصور أية إشاعات مروعة أذيعت خارج باريس . بيد أن حكم الاعدام الذى قضى به على لافوازان وشركائها قد وضع فى الحال حداً لهذه الأعمال وهذه الجرائم ؛ وقد كانت هذه الحرفة المروعة محصورة فى شرذمة من الناس ، ولم تلوث أخلاق الأمة كلها ؛ بيد أنها طبعت أذهان الناس بميل سقيم إلى اعتبار الوفيات الطبيعية ، نتيجة الجريمة »

والواقع أن هذا الثبت من الآثام والجرائم المروعة يلقى ضياء كبيراً على روح هذا العصر وخلاله — ويؤيد حقيقة تاريخية خالدة ، هى أن عصور العظمة القومية ، تتكشف فى الغالب عن صنوف من الانحطاط المعنوى والاجتماعى تتناسب مع ما تبثه نعماء العصر وترفه من ألوان الفساد الروحى والأخلاق ، ومع ما يذكيه العصر من الشهوات الانسانية الوضيعة . وقد كان عصر لويس الرابع عشر بلا ريب على ما بلغه من العظمة والبهاء يعانى فعل هذه العناصر الهدامة التى انحدرت بالمجتمع الفرنسى غير بعيد إلى درك من التفكك والانحطاط ، كان نذر الثورة الفرنسية الكبرى (١)

تم البحث

محمد عبد الله عنان

(١) اعتمدنا فى هــذا البحث على كتاب العلامة فونك برنتانو Le drame des poions وكتاب فولتير Siecle de Louis XIV

وقفـــة بالعقيق !

للأستاذ علي الطنطاوي

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة في العقيق
مائل بين أربع ماثلات ينزع الشوق من فؤاد علوق
« البحتري »

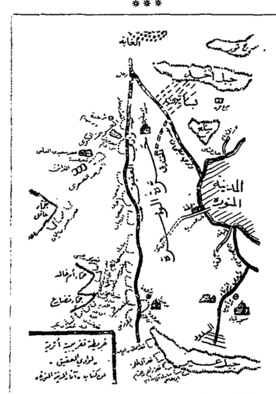
. . . . أصابتنا في المدينة عَينٌ من المطر ، فحبستنا في الدار أياماً ، وجاءت بعد مَحْلٍ من الأرض ، وشُحٍّ من السماء ، فروّت الأرض ، وأسالت الأودية ، فاستبشر الناس بنا [1] إذ كان قدومنا خيراً ، وزيارتنا غيثاً ، ومقامنا ربيعاً ؛ وليس أجمل في أرض العرب من الربيع ، ولا أجدى من الغيث ؛ ثم انقشعت الغيوم بعد أيام ، إلا جهاماً من السحاب هفّاً رقيقاً ، وأفتق [2] قرن الشمس تخلع على الدنيا حُلّةً نسجت من خيوط النور . . . . وَحلِيَ اليوم وطاب ، فخرجنا من دورنا نستمتع بجماله وطيبه ، ونملأ صدورنا بهذا النسيم الناعش ، وعيوننا بهذه المناظر الخلابة ، وآنافنا بهذا الأرج يتضوّع من هذه التربة المطرة « بمطر السماء » . . . وسرنا في « شارع المنبرية » نريد الحرم ، ، فلم نكد نتعدى « المناخة » حتى قيل : قد سال العقيق .. فاذا الوجوه تطفح بالبشر ، وتفيض بالسرور ، وإذا على كل لسان : قد سال العقيق . . . . وإذا الناس يستعدون للخروج !

وهل يملك النـاس نفوسهم ، فيقعدون لا يخرجون إلى العقيق ، وقد سال العقيق ؟ وهل يذكر عربيّ العقيق ثم لا يذكر الحب والشعر ، والفنّ والجمال ، والحياة الناعمة والعيش الرغيد ؟ أولم يكن وادي العقيق رمز الهوى والشباب ، ومغنى الغِنى والغناء ، ومثابة الفنّ والأدب ، ومجمع المشاق ، وندىّ الشعراء ؟ ألم يكن العقيق قلب المدينة حين كانت المدينة قلب العالم ؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أربع دواوين الأدب العربي وأحلاها ؟ ألم تمش على أطراف العقيق المشرات من القصور الفخمة ، والرياض النضرة ، والمغاني التي فاض منها الشعر والسحر والعطر على الدنيا كلها ؟ أليس لاسم العقيق حلاوة ؟ أما عليه طلاوة ؟ ألا يحلو في الأذن تكراره ، ويلذ اللسان ترداده ؟ . . .

ألم يقرأ أحاديث العقيق ، ويرو أشعار العقيق ، من لم يَرَ قط العقيق ، فيهوى العقيق ، ويحنّ إلى العقيق ؟ فكيف يسيل العقيق ثم لا يخرج أهل المدينة إلى العقيق ؟ . . .

أو لم يسمع عبد العزيز بن الماجُشُون أن قد سال العقيق ، وهو خارج من صلاة الصبح ، فلا يتريث ولا يمر بداره ، ويمضي اليه من ساعته ، فيلهو فيه بعض اللهو ، ويسمع فيه الغناء ، وهو هو في مكانته ووقاره ؟ فكيف بعامة الناس وشبابهم ؟

***



خرجنا مع من خرج ، فلم نجاوز السور ونترك عن أيماننا المحطة العظيمة ، الخالية الخاوية ، الكابية الباكية ، التي أضاعها أهلوها ، وأهملوها حتى نسوها ... حتى بدت لنا الحرّة السوداء الواسعة [1] فسلكنا طريقاً فيها جديدة ، على يسار الطريق القديمة التي تهبط الحرّة على سلم منقورة في الصخر ، وهذه النقرة هي ثنية الوداع ، التي طلع منها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستقبله الولائد بالدفوف ينشدن :

(١) استبشر الوفد السوري

(٢) أفتق قرن الشمس ، أي بدا من فتق في السحاب

(١) وهي حرة الوبرة احدى حرتي المدينة ، أو لابتيها

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع

والتي منها أشرق « البدر » على القلوب والعقول ، فأنارها فهي منه في نور إلى يوم القيامة !

ومررنا في هذه الطريق نحواً من كيلين اثنين فانتهينا إلى بئر عروة ، التي حفرها الامام الزاهد العلم عروة بن الزبير ، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر ، ولم يبق له من أثر ، وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها ، وكان ماؤها يحمل إلى الرشيد في قوارير وهو مقيم في الرقّة ؛ وإلى جانب البئر قهوة جديدة ، قامت على جذوع النخل ، فجلسنا فيها على كراسيّ مستطيلة ، تتخذ في مقاهي الحجاز مجلساً وسريراً ، تطلّ على الوادي العظيم

والوادي رغيب ، بين عدْوتيه أكثر من مائة متر . وعلى العدوة الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر ، وقد غنى الوادي وامتلأ ، والسيل دفاع يلتطم آذيّه ، وتصطخب أمواجه ، يرمي بالزبد ، ويطوّح بالفقاقيع ، ويجري متكسراً وله خرخرة ، وله دردرة ، وعلى جانب الماء حصباء واسعة ، قد جلس فيها المدنيون حلقاً ، يحفون بـ «سماورات» الشاي البراقة العالية ، ويغنون ويطربون ، ما سمحت لهم « الحكومة » أن يغنّوا ويطربوا ...

***

جلس إخواننا يتجاذبون أطراف الحديث ، فيذكرون بلادهم وأوطانهم ، ويحنون إلى الغوطة الغناء ، والعين الخضراء ، والزبداني وبلودان ، وتلك الجنان ، وجلست أحدّق في ماء العقيق ، وأحن إلى أيامه الغر ، وماضيه الفخم ، وأفكر في حاضره الممض ، وواديه القاحل ، فأطيل التحديق ، وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي ، وأنسى مكاني ، فأرى صفحة الماء تضطرب وتهتز ، وتختلط فيها الأنوار ، وتمتزج فيها الأضواء ، كأنما هي سبيكة ذهب ، أو قطعة ياقوت ، ألقي عليها نور وهاج ، ثم أراها قد استقرت وسكنت ، فاذا العقيق غير العقيق ، وإذا هو غارق في العطر والنور ، وإذا من حوله العشرات من القصور ، تفيء كأنها الثريا في السماء ، فتنعكس أنوارها في الماء ، فتتوارى النجوم استحياء ، وتغض العين خجلاً ، ثم تستتر ببرقع الغمام وتبكي ، فيضحك العقيق لبكاء السماء ، وتضحك الأرض لضحك العقيق !

***

وأرى قصر عروة العظيم ، قد سطعت في شرفاته الأنوار ، وحف به الشعراء والمغنون ينتظرون ربه الجليل ، الشاعر الغزل الفقيه المحدث عروة بن أذينة ، ليأخذوا من شعره ، ويحفظوا من حديثه ، فاذا طال بهم الانتظار ، وتصرّم الليل ، ولم يفوزوا بطائل ، ذهبوا إلى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة ، وأزمعوا أن يباكروه من الغد . وسكن العقيق وخلا إلا من عاشق أرق « يناجي طيف من يهوى ، ويمي عنده السلوى » وخشع الليل ، وأنصت الكون ، فقام عروة على شرفة القصر ، فراقه سكون الليل ، وفتنه منظر العقيق ، فهاج في نفسه الشوق ، فاندفع ينشد :

إن التي زعمت فؤادك ملّها   خلقت هواك كما خلقت هوى لها
فبك التي زعمت بها وكلاكما   يبدي لصاحبه الصبابة كلها
ويبيت بين جوانحي حب لها   لو كان تحت فراشها لأقلها
ولعمرها لو كان حبك فوقها   يوماً وقد ضحيت اذن لأظلها
بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقة فأدقها وأجلها
لما عرضت مسلماً لي حاجة   أرجو معونتها وأخشى ذلها
منعت تحيتها فقلت لصاحبي   ما كان أكثرها لنا وأقلها
فدنا فقال : لعلها معذورة   من أجل رقبتها ، فقلت : لعلها

فلما كان الصباح ، غدا أبو السائب المخزومي على عبد الله ، فقال له : أسمعت أبيات عروة أمس ؟ قال : وأية أبيات ؟ قال : وهل يخفى القمر ؟ قوله :

إن التي زعمت فؤادك ملّها . . . .

فأنشده إياها ، فلما بلغ إلى قوله : لعلها ، قال أبو السائب : أحسن والله ، هذا والله الدائم العهد ، الصادق الصبابة ، لا الذي يقول :

إن كان أهلك يمنعونك رغبة   عنيّ فأهلي بي أضنّ وأرغب

وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) حسن ظنه بها ، وطلبه العذر لها ؛ ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول : لا والله ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل !

وينتظر عبد الله حتى إذا حان المساء ، وأثر الجوع في أبي السائب ذهب اليه فقال له : « جئت أنشدك وأحدثك » فيقول : « هات ما عندك » ، فيحدثه وينشده ، حتى ينشده بيتي العرجي :

باتا بأنعم ليلة حتى بدا   صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر
فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول أبو السائب : أعده علىّ ، فيعيده أبو مصعب ، فيستفز المخزومى الطرب فيحلف بالطلاق لاينطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته !

ويمرّ بهما عبد الله بن حسن بن حسن وهو منصرف من مال له يريد المدينة فيسلم عليه ويقول : كيف أمسيت أبا السائب ؟

فيقول :

فتلازما عنـد الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقول ابن حسن : مالك يا أبا السائب ، انى لا أكاد أفهم عنك

فيقول :

فتلازما عنـد الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر

فيقبل عبد الله بن حسن على عبد الله ، فيقول : متى أنكرت صاحبك ؟ فيقول : منذ الليلة ، فيقول : إنا لله ! أىّ كهل أصيبت به قريش ! ثم يمضى

ويمرّ بهما عمران بن محمد التيمى قاضى المدينة يريد مالاً له على بغلة له ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فيسلم ويقول : كيف أنت يا أبا السائب ؟

فيقول :

فتلازما عند الفراق صبابة   أخذ الغريم فضل ثوب المعسر

فيقول القاضى لعبد الله : متى انكرت صاحبك ؟ فيقول : آنفاً ، فيسترجع القاضى ويهمّ بالمضى ، فيمكر عبد الله بصاحبه ويقول : أفتدعه هكذا أيها القاضى وتمضى ؟ والله ما آمن أن يتدهور فى بعض آبار العقيق ، قال القاضى : صدقت ، يا غلام ! قيدَ البغلة ، فيضع القيد فى رجله وهو يشير بيده ويصيح :

فتلازما عنـد الفراق صبابة   أخذ الغريم بفضل ثوب المعسر !

* * *

ثم يضطرب الماء ويموج ، فتنطمس الصورة فلا أرى فى الماء إلا أشباحاً مبهمة ، مهتزة متداخلة ، ثم تبين وتضح ، فاذا أنا أرى قصر عروة ، وقد هيئ وفرش ، ودارت به الخدم والعبيد ، واجتمع من حوله السراة والأعيان ، وهم يتحدثون تبدو عليهم أمارات الملل والقلق ، فعلَ الذى ينتظر شيئاً ويبطئ عليه ، وأدنو منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عروة بن الزبير ، أحد الفقهاء السبعة ، وقد كان فى دمشق فأصابته الأكلة فى رجله ، فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه جسده ، وقيل له نسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً ! فقال : لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية . قالوا : نسقيك المرقد . قال : ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائى وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه

قالوا : فما تصنع إذن ؟ فأخذ فى التهليل والتكبير ، وقال : شأنكم بها !

ودخل عليه قوم أنكرهم ، فقال : ماهؤلاء ؟ قالوا : يمسكونك . فان الألم ربما عزب معه الصبر ، وأنت شيخ كبير !

قال : أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسى . فقطعت كعبه بالسكين ، حتى إذا بلغ العظم وضع عليه المنشار . . . فقطعت ، وهو يهلل ويكبر . . . ثم أغلى له الزيت فى مغارف الحديد ، فحسم به . فغشى عليه ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه ، فلما رأى القدم بأيديهم ، دعا بها فقلبها فى يده ، ثم قال :

أما والذى حملنى عليك ، إنه ليعلم إنى ما مشيت بك إلى حرام . . . .

وأسمعهم يتحدثون كيف دخل ابنه محمد — وهو فتى المدينة جمالاً وكمالاً ، وأدباً ونسباً — كيف دخل اصطبل الوليد فرمحته دابة فقتلته ، وما يعلم عروة بشىء من ذلك ، وكان عروة رجلاً صالحاً قد عاف الدنيا ، وانصرف عنها ، ولم يرد منها إلا زاداً يقطع عليه الطريق إلى الجنة :

ذكر العُتْبى أن المسجد الحرام جمع مرة بين عبد الملك ابن مروان وعروة وأخويه عبد الله ومُصعَب ، على عهد معاوية ابن أبى سفيان فقال بعضهم لبعض : هلمّ فلنتَمنّ

فقال عبد الله : مُنيَتى أن أملك الحرمين ، وأنال الخلافة

وقال مصعب : منيتى أن أملك العراقين ، وأجمع بين عقيلتى قريش : سكينة بنت الحسين ، وعائشة بنت طلحة

وقال عبد الملك : منيتى أن أخلف الأرض كلها — وأخلف معاوية

فقال عروة : لست فى شىء مما أنتم فيه ، منيتى الزهد فى الدنيا ، والفوز بالجنة بالآخرة ، وأن أكون ممن روى عنه هذا العلم

فصرف الدهر من صرفه — إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله — فكان عبدالملك يقول : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة ، فلينظر إلى عروة ؟

(البقية فى العدد القادم)

على الطنطاوى

٧ - النهضة التركية الأخيرة

للدكتور عبد الوهاب عزام

تتمة

بقيت هنات مما اقترف الكماليون لا أبغى إحصاءها ، بل أكتفى بواحدة منها هى : لبس القبعة . والأمر فى نفسه هين . ولكل أمة أن تتخذ من اللباس ما يلائم هواها ، ويوائى حاجاتها ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ؛ ولكن الكماليين اتخذوا القبعة شارة لهم سيراً على خططهم فى تقليد الأوربيين وإتماماً لسننهم فى محاكاتهم ، وإمعاناً فى هجر ما يميزهم منهم فيحرمهم شرف الفناء فيهم . ولو أن القوم فكروا ثم فكروا فرأوا أن لا مناص لهم من لبس القبعة ضرورة يقتضيها الزمان والمكان لا بدعة يمليها التقليد لكان لهم فى العقل مساغ ، وفى العذر متسع ، ولكان عليهم مع هذا أن يفهموا الأمة بالدليل ، ويجادلوها بالحسنى ، حتى ترى أن القبعة لباس اختاروه لأنفسهم ، لا ذلة ضربت على رءوسهم ، فقد عاشت الأمة التركية أحقاباً ترى هذه القبعة شعار مخالفى دينها ، ولباس أعداء تاريخها . فلما أكره التركى فى ثورة التقليد أن يضعها على رأسه أحسها ذلة طأطأ لها الرأس الأبى ، وعاراً ذلت له النفس الكريمة . وحاولت رءوس أن تنبذها فقطعت ، وأرادت نفوس أن تستهجنها فقتلت . وإنك لتبصر رأس التركى الأصيد ، وكأنه حمل من الذل ملء الأرض والتاريخ ، وسيم من الخسف ما تنوء به عزته وعزة آبائه . وليس هيناً على أمة أن تسام هذه الخطة ، وتحمل على هذا المنت . وإن يكن بعض الترك لبس القبعة عزاً وفخاراً ، فقد لبسها معظمهم خزياً وشناراً ، تنطق بذلك أساريرهم وتبين عنه عيونهم ؛ ولو أن القوم ، إذ رأوا رأيهم ، أخذوا به النشء الصغار ، وخيروا فيه الكبار ، لهان الأمر بعض الهوان . تصور الشيخ ابن السبعين أو الهم ابن التسعين قد شابت لحيته فى الاسلام ، ونبتت نفسه وترعرعت ثم ذبلت فى كره القبعة ، يكره على أن يختم حياته بها ، ويتوج شيبته بسوادها . وانظر ذلك الشيخ الجليل الذى كان يدرس العربية فى جامعة استانبول فقيل له : البس القبعة وانزع العمامة . قال : أعرونى وعدونى من رجال الدين . قالوا : فاخرج من الجامعة إن لم يكن لك بد من عمامتك . فخرج منها وخلفه فيها معلم ألمانى ، فكان يأخذ عنه علم العربية ويعلم الطلبة ، وكفى الله الطلبة عمامة الشيخ وعلمها ، وأسعدهم بقبعة الألمانى وبركتها

* * *

وقد جاءت الأنباء بأن الإيرانيين حذوا حذو الترك فى لبس القبعة ، ولم يقنعوا بالبهلوية «التى ابتدعوها» فهنيئاً لهم تقليد المقلدين

فلو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

وأعجب من هذا وأشأم صيحة سمعناها من العراق تدعو إلى الاقتداء بالفرس والترك فيما صنعوا . وهى دعوة إلى هذا التقليد الأشأم الذى يبدأ فى ناحية فيسرى سريان العلة فى جميع النواحى ؛ إذا ضل العرب فى الضالين ، وتهافتوا مع المتهافتين ، فبأى وزر تعتصم الحضارة الاسلامية ، وبأى ملاذ يلوذ التاريخ الاسلامى ؟ وكيف تثبت الأمم الاسلامية فى هذه الزعازع إذا مال العرب وهم العماد ، وزلزلوا وهم الأوتاد ؟ كيف وهم الحلماء إذا طاشت الأحلام ، والراسخون إذا زالت الأقدام ؟

ما أحسب العراقيين يستجيبون هذه الدعوة ، فيسنوا للعرب أقبح سنة ، أو يستبدوا دونهم برأى ، وهم الدعاة إلى الأخوة العربية ، الغلاة فى الحماسة القومية ؛ الأمر ، كما قلت ، هين إذا أدت إليه الروية والاختبار ، فليجتمع وفود العرب أو وفود المسلمين كافة فى مؤتمر عربى أو اسلامى ، ولينظروا فيما يلائم كل اقليم من الأزياء ، وما يوافق المدنية الحاضرة من ألبسة ، ثم ليختاروا على بينة . وليكن ما يختارونه موافقاً لأزياء أوربا أو الشرق ، أو مخالفاً لكل أزياء العالم ، فلا حرج فى هذا ولا بأس به

لقد لبس العراقيون منذ سنين شارة سموها الفيصلية جمعت مزايا القبعة الأوربية والعقال العربى ، يسهل خلعها ووضعها ، وتحمى الرأس والرقبة والوجه عند الحاجة ، وهج الشمس ولفح الهجير ، وتفرغ على رأس العربى جمالاً وجلالاً ، وتتوجه بمجد الماضى والحاضر . فلماذا لا يدعى إلى تعميمها ، ويحتج لها بمزاياها ؟ ألأنها اختراع لم تلده قرائح الأوربيين ، ولباس لم تقره سننهم ؟ إن لم يكن بد من شهادة أوربية فسلوا أهل أوربا العالمين بأحوال بلادكم فسيقولون إنها خير لكم من القبعة ، وأجدى

عليكم منها . ليت شعرى إلام ندعو إلى اليقظة فتنامون ، وإلى الحذر فتستسلمون ، وإلى العزة فتهنون ، وإلى الاستقلال فتتبعون ، وإلى الاجتهاد فتقلدون ؟

كفى يا قوم بالزمان واعظاً ، وبالتجارب هادياً . إنكم فى مهب العواصف ، ومفترق الطرق ، فخذوا حذركم ، ونبهوا عقولكم واشحذوا عزائمكم ، ولا تصدروا إلا عن بينة ، ولا تقولوا إلا عن روية ، فانه الحياة أو الموت ، والبقاء أو الفناء

الخاتمة

رأى القراء مما قدمت أن الترك الكماليين لم يأتوا بجديد فى هذه « النهضة التركية الأخيرة » ولكنهم ساروا على سنن أوربا فأحسنوا وأساءوا . أحسنوا بما أخذوا بأسباب الحياة فاجتهدوا فى تعمير بلادهم وإسعاد أهلها ، وتوسلوا لمعارك الحياة بعددها فدربوا الجيوش واستكثروا من السلاح وجعلوا أنفسهم سادة بلادهم . وأساءوا بما تبعوا أهل أوربا فى امور هى من نفايات الحضارة ، وحثالات المدنية ، وبما هجروا من أجل ذلك كثيراً من سنن دينهم القويم ، وأخلاقهم الكريمة ، وتاريخهم المجيد . وأذكر فى هذه الخاتمة ما قاله فى أوربا بعض أولى الرأى منذ سنين : قال : « كأن الكماليين بما يفعلون اليوم يقولون يا أهل أوربا ! معذرة ، لا تؤاخذونا بما فعل آباؤنا فقد حاربوكم جهدهم ، وجالدوكم ما استطاعوا ، ودافعوكم جهد طاقتهم ، وما كانوا ينشرون حضارة أو يدافعون عن حضارة . وها نحن أولاء نعترف بأن الخير فى اتباعكم ، والشر فى مخالفتكم ، وإن آباءنا أثموا إذ منعوا عنا خيركم ، فاقبلوا الأبناء فى جماعتكم ، ولا تأخذوهم بذنب آبائهم . ها نحن أولاء نحنى رؤوسنا إكباراً لكم ، ونلوم أجدادنا من أجلكم . »

وبعد . فهذه الكلمات التى كتبتها لا تفى بهذا الموضوع العظيم ، ولا بد أن يتعاون الكتاب والمفكرون فى هذه السبيل حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشبه المضلة ، ثم يسيروا بها على المحجة البيضاء إلى الغاية المجيدة . فانما نحن فى فتن لا عذر فيها لمقصر ولا حجة فيها لمتهاون

وما أردت بما كتبت إلا وجه الله ، والله هو الحق المبين . وهو حسبنا ونعم الوكيل « إن أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . »

عبد الوهاب عزام

المدنية الأمريكية

كما يصفها أندريه موروا

للأستاذ محمد روحى فيصل

أندريه موروا كاتب فرنسى معاصر ، وروائى واسع الشهرة ؛ وهو الآن فى الخمسين من عمره ، يكتب كثيراً ويعمل كثيراً ، ولعله « الحركة الدائمة » التى ينشدها علماء الطبيعة ، والغريب أن انتاج موروا على كثرته خصب عميق ، فيه ملاحظات نفسية قيمة ، وفيه وصف بارع طريف ، وفيه حلاوة قل أن تجدها عند غيره من الكتاب والروائيين

قام بسياحة إلى أمريكا منذ حين ، زار فى خلالها مدن الشواطئ الشرقية ، ورأى آثارها ، وحاضر فى جامعاتها ، وفهم فى شهرين حقيقة المدنية الأمريكية ومظاهرها الصحيحة ، ثم عاد إلى وطنه وألقى محاضرة قيمة طويلة نقتطف منها ما يلى :

« وصلت باخرتنا إلى نيويورك فى الصباح الباكر فراعتنى المدينة العظيمة الناعمة ، وطغى على شعور غريب جميل . والحق أن مرفأ نيويورك منظر لا أعرف أبهج منه ولا أروع ولا آخذ بلب الرائى المفتن ! بقينا على الماء نسير خمسة أيام ثم طلعت علينا نيويورك بوجهها الضخم وهيكلها العريض كما يطلع الجبل الشاهق على المسافر العانى بعد طول السير وطى الأميال . وجلنا فى الشوارع نسير على غير هدى ، فاذا المبانى ضخمة بالغة الضخامة ، متينة بالغة المتانة ، تشق الفضاء طولاً وعرضاً واتساعاً . ونلاحظ أن الضخامة مظهر من مظاهر الجمال ، وأعنى أن جمال الشئ إنما يرجع أحياناً إلى ضخامته الناشزة ؛ أرأيت إلى أهرام مصر أو قصر (بيتى) كيف أن علوها خلع عليهما جمالاً خاصاً على جمال الفن والهندسة »

« والأمريكيون شعب يعمل فى جنون ، فلا يريح جسده ولا يريح عقله ، وإنما يجهدهما فى التجارة والصناعة والاختراع ؛ وهذه الظاهرة هى أقوى ما يلمح العابر السائح من الصور . ويل للمحاضر فى أمريكا ! إنه يخضع للحركة الأمريكية الطاغية ، ففى الصباح يلقى محاضرة ، وعند الظهر رأس حفلة خطابية ، ثم يحاضر فى نادى النساء ، وفى الساعة الخامسة يقول كلمة فى جامعة كولمبيا أو الاتحاد الفرنسى ؛ وأنى رحل يجد برنامجاً طويلاً مريعاً يبتدئ من الصباح وينتهى فى منتصف الليل ! »

« إن العقلية الأمريكية تتطلع إلى عرفان كل شيء ، وتولع بالجديد الغريب ؛ وهى عقلية فتية تؤمن سريعاً وتـكفر كثيراً ؛ وأنت لابد ناجح فى أمريكا إن كنت روائياً طريفاً ناقداً متفلسفاً . والـكاتب الناشئ يغدو معروفاً فى أقل من شهرين ، تقام له الحفلات الرائعة ، وتتحدث إليه الصحف ، وتطبع مؤلفاته مراراً ثم ... ثم يموت فى أذهان الجمهور ، وينحدر إلى الخمول والنسيان ، كأنما هى شهرة خاطفة تمتع بها قليلاً وحلم فيها كثيراً ثم عاد إلى الواقع المجهول يتفيأ ظلال الذكرى وبقايا المجد ! »

« والشخصية الفردية لا أثر لها فى أمريكا على الأطلاق ، والسعادة الروحية لم يتمتع بها الأمريكى بعدُ لذاته ؛ دائماً (خدمة الجمهور) هو المذهب السائد الذى يؤمن به الأمريكيون كافة ، وهو مذهب ، على قيمته ، خطرٌ كل الخطر ، مفسد للشخصية والنبوغ ، لأن المرء الذى لايبالى بوجوده الفردى يعد آلة تعمل من غير شعور ولاتطور . والواقع أن المصانع قامت مقام اليد العاملة ، والآلة طغت على الفن ، « والـكثرة » هى المقياس الذى توزن به قيم الأعمال ونتائج الأشياء »

« وهذه المساوئ التى نذكرها ويذكرها غيرنا ليست مساوئ النفسية الأمريكية ، وإنما هى مساوئ المدنية الغربية الحاضرة . ولئن مات الفن اليدوى فى أمريكا وعاشت الآلة فانما يموت الفن وتحيا الآلة فى فرنسا وانجلترا وألمانيا وايطاليا ؛ ونستطيع أن نستثنى مهنة النقوش والخياطة والفسيفساء التى يمارسها القليل من الخلائق البشرية ؛ أما عامة الشعب فمحشود فى المصانع يعمل مجتمعاً من غير تفكير فى الذات ؛ والأدب الأمريكى أدب الصناعة حقاً ، يصور ميكانيكية العمل وسرعة الحياة واضطراب المجتمع ؛ أما أزمات النفس ، وثوران العواطف ، وانفعالات الأهواء ، فهى غريبة نكرة فى الأدب الأمريكى الحديث . . . . .

الواقع أن الحياة الحاضرة حياتان : حياة آسيوية أخروية متشائمة ساخطة ، نظرت إلى الدنيا من خلال منظار أسود كئيب ، فرأت جوعاً وفقراً ومرضاً وظلماً ، فكرهت المجتمع الحافل ، وانعكفت على التصوف وأحبت الأحلام ، ثم قالت : إنما الدنيا متاع الغرور ! . وحياة أمريكية دنيوية صناعية لا تبالى بالباطن المحجوب ، ولاتمنى إلا بالأرض ؛ فالأمريكى قل أن يلتفت إلى نفسه يطالع فيها ويتأمل جوانبها على نحو ما يفعل الأسيوى الحالم ، وإنما هو يطالع فى الآلة والصنع والأرض ، ثم يحاول أن يجد السعادة فيما يحيط به من الدنيا الواقعة المحسوسة

وعندى أن الحياتين على نفعهما لاتصلحان للبشرية ، فالتطرف مذهب لا أحبه لنفسى ولا أرضاه لجنسى ، وإنما أرجو حياة وسطاً بين الحياتين ، قوامها الحس والتفكير ، ومادتها الدنيا والنفس ، وغايتها التقدم والمرح والانتاج . ولعل الحياة الأوربية هى الحياة التى تجمع خصائص الحياتين المتطرفتين: الأسيوية والأمريكية . .

وهنا قد يستطيع الفرنسيون أن يوفقوا بين هذه وتلك ، وينشروا الاعتدال ؛ فالمدنية الفرنسية مدنية قديمة ذات أدب خصب صحيح ، لها أنصار كثيرون ، ولها ماض جليل حافل ، ولها صناعة قوية جميلة . وإنما المهم أن يعرف الفرنسيون أى سبيل يسلكون لذيوع الثقافة الفرنسية وتأثيرها فى العقول . ولقد ينبغى قبل كل شىء أن نفتح أعيننا جيداً حين نطوف البلاد ونجول الأرجاء ، ثم نرسل العقل حراً فى البحث والتفكير ، والمطالعة والاستنتاج »

محمد روحى فيصل

فرقة الخوارج

بقلم فريد مصطفى عز الدين

فرقة الخوارج من تلك الفرق الهدامة التي نشأت في مختلف مراحل التاريخ الاسلامي ، وكانت حرباً على الدولة الاسلامية ، وعقبة كأداء في طريق عزها وازدهارها . أما العوامل التي أدت إلى ظهور الخوارج فكانت في بادئ الأمر سياسية ثم ما لبثت ميولهم أن اتجهت إلى الناحية الدينية وأخذوا يحوكون حولها معتقداتهم ونظرياتهم

تسميتهم

لا نجد في التاريخ الاسلامي كله فرقة تعددت أسماؤها كهذه الفرقة ، غير أن اسم الخوارج قد غلب عليها . وقد سموا بالخوارج لخروجهم على الامام على بن أبي طالب في معركة صفين سنة ٣٧ هجرية لقبوله التحكيم وقولهم : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال . ويقول بعض المؤرخين إنهم دعوا بالخوارج لخروجهم بعد ظهور نتيجة التحكيم في رمضان سنة ٣٧ هجرية من الكوفة إلى النهروان . ثم تطور هذا الاسم فأصبح يطلق على كل جماعة خرجت على القانون والسلطة الحاكمة سواء في صدر الاسلام أو زمن التابعين

أما الخوارج أنفسهم فيقولون إنهم تسموا بهذا الاسم لخروجهم من بيوتهم طلباً للجهاد والاستشهاد في سبيل إعلاء كلمة الله والدين الحنيف ، ويستندون في ذلك على قول الله تعالى : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك ، وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً »

وهنالك اسم آخر يطلق على هذه الفرقة وهو اسم الشراة ، ويقال إن الخوارج يفضلونه على الاسم الغالب عليهم ، لأن هذه التسمية تعني أنهم اشتروا الجنة بالدنيا واستبدلوا الباقية بالفانية استناداً على الآية الكريمة : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم »

ودعيت هذه الفرقة أيضاً فرقة المحكمة ، وذلك لأنها حكمت الله تعالى ورفضت تحكيم العبيد . ويميز المؤرخون الفرقة الأولى من الخوارج التي انشقت على علي بن أبي طالب في صفين عن الخوارج بدعوتها الفرقة المحكمة الأولى أو الحارورية نسبة إلى حاروراء بقرب الكوفة ، وهي المكان الذي خرجوا إليه ، ويدعون بقية الخوارج فرقة المحكمة

نشأتهم

من الصعب أن نعين العلاقة بين ظهور الخوارج ومسألة التحكيم ، فنقول إن هذه نتيجة لتلك وإنه لولا مسألة التحكيم لما اعترى جيش الامام على ذلك الانقسام ولما نشأت فرقة الخوارج ؛ وقد عنى البعض ببحث هذه النقطة فتبين لهم بعد دراسة عميقة أن نشوء الخوارج ومسألة التحكيم مستقلتان عن بعضهما استقلالاً تاماً . ويعتقد المستشرقون لامانس وكايتاني وولهاوسن أن فرقة الخوارج ظهرت قبل التحكيم مما يدل على صحة الرأي القائل باستقلال المسألتين بعضهما عن بعض . ولكن المستشرق ديلافيدا يخالف رأي لامانس ورفيقه ، ويقول إن الخوارج ظهروا بعد التحكيم

معركة صفين

تولى على بن أبي طالب الخلافة والعالم الاسلامي في غليان شديد من جراء مقتل الخليفة عثمان بن عفان وعواقب هذه الجريمة ، فلم تكن مبايعته بالاجماع كأسلافه . وكان عدوه الأكبر معاوية بن أبي سفيان والي الشام الذي خرج طالباً للثأر من قاتلي قريبه الخليفة المغدور . فلما انتهى على من أمر طلحة ابن عبد الله والزبير بن العوام في موقعة الجمل بالقرب من البصرة سار طالباً معاوية فالتقى الجيشان في سهل صفين وهو مكان قريب من بلدة الرقة في شمالي شرقي الشام

وفى أول صفر من سنة ٣٧ هجرية ، ابتدأ القتال بين الفريقين فرجحت كفة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، فخاف معاوية العاقبة ، وعمد إلى الحيلة يساعده على إتقانها الداهية الأكبر عمرو ابن العاص . وبينما كانت الحرب مستمرة إذا بجنود الشام يرفعون المصاحف فجأة على أسنة الرماح طلباً للتحكيم . فلم يؤخذ علىّ بهذه الحيلة ، وقرر الاستمرار فى القتال إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا . ولكن فريقاً كبيراً من جنـد على قبل التحكيم وحمل زعيمه على قبوله رغماً عنه . وبعد أن رضى الامام بالتحكيم قام فريق آخر من جنـده يندد بالتحكيم ، ويصيح : لا حكم إلا لله ، لا حكم للرجال ، ويظهر أنه كان بين هذا الفريق بعض من أتباع الفريق الأول . فانقسم بذلك جيش على إلى شطرين ، ونجحت الحيلة التى قال فيها عمرو « إن قبل خصومنا التحكيم اختلفوا ، وإن ردوه افترقوا »

ولما ظهرت نتيجة التحكيم التى تقضى بخلع على عن الخلافة — ولا أقول معاوية ، لأن اقرار عمرو بن العاص بخلع صاحبه لم يؤثر فى مركز معاوية لأن خلعه كان وهمياً ، إذ أن معاوية لم يكن خليفة ليخلع عن عرشها — رفض على قبولها ، وهكذا أضعفت نتيجة التحكيم مركز على وقوت مركز معاوية

فقويت برفض على لنتيجة التحكيم حجة الفريق القائل بعدم قبول التحكيم منذ بادىء الأمر ، واكتسب إلى صفه جميع الموتورين من سياسة الامام . وهكذا نرى أن فريق الخوارج كان مؤلفاً من جماعات متفككة العرى تجمعها مناوأة سياسة على ، إما لأنه لم يقبل التحكيم أولاً أو لأنه قبل التحكيم ثانياً ، أو لأنه رفض قبول نتيجته ثالثاً . والقسم الأكبر من الخوارج هم الذين أخذوا على علىّ قبوله التحكيم صارخين : لا حكم إلا لله . ثم انضم إلى هذه الفرق المختلفة كل من كان ناقماً على السلطة أو خارجاً على القانون ، حتى أصبح معسكر الخوارج ملجأ لهؤلاء ، أيام الراشدين والأمويين والعباسيين

وبعد انشقاقهم على جيش الخليفة ساروا إلى حار وراء وانتخبوا عبد الله بن وهب الراسبى خليفة عليهم . وقد اضطر على أن يحمل عليهم قبل أن يسير لقتال معاوية ليأمن شرهم ، فقـاتلهم فى معركة عظيمة تدعى معركة النهراوان فى ٨ يوليو سنة ٦٥٨ ميلادية ، وتغلب عليهم ، غير انه دفع ثمن هذا النصر غالياً ، لأن هذه المعركة أضعفت جيشه فأصبح عاجزاً عن السير إلى سورية لحرب معاوية ، وبقى بالكوفة إلى أن قتله ابن ملجم الخارجى سنة ٦٦١

الخوارج فى عهد الدولة الأموية

اشتدت فى عهد الدولة الأموية قوة الخوارج ، وكانوا من العوامل الرئيسية التى طاحت بحكم الأمويين ، فما من خليفة أموى إلا ثاروا عليه ، غير أنهم ظهروا واشتهروا خصوصاً فى زمن الخليفة عبـد الملك بن مروان ، وكانت ميادين القتال العراق وخراسان . وقد بدأ بقتال الخوارج مصعب بن الزبير — شقيق عبد الله بن الزبير منافس عبد الملك بن مروان فى الخلافة — وكان قائده المهلب بن أبى صفرة . ولما تغلبت قوات عبد الملك على الزبيريين وقتل مصعب كان لا يزال المهلب يحارب الخوارج فبايع عبد الملك بالخلافة حالما بلغه نعى مصعب وتابع قتاله

ثم أرسل عبد الملك فى سنة ٧٥ هجرية الحجاج بن يوسف الثقفى والياً على العراق فتمكن بشـدة بأسه من خضد شوكة الخوارج . وقد امتازت فرقة الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق من فرق الخوارج ببسالتها وشدتها واستماتتها فى ميادين القتال والنزال

الخوارج فى عهد الدولة العباسية

ضعف أمر الخوارج فى عهد الدولة العباسية ولم تعد فرقهم خطراً على الدولة الاسلامية كما كانت نشأتها فى العصر الأموى ، غير أنهم لم يعدموا أوقاتاً قاموا فيها ببعض الثورات والفتن . وقد اشتهرت من بين فرقهم فى هذا العهد فرقة الاباضية أتباع عبد الله بن أباض التى ظهرت فى عمان وعلى الخليج الفارسى وفى افريقيا الشمالية أى تونس الخضراء والجزائر والمغرب الأقصى

ولما غلب الخوارج على أمرهم فى الناحية السياسية أخذوا ينصرفون إلى الناحية الدينيـة ويحوكون حولها نظرياتهم ومعتقداتهم الدينية

تصلب الخوارج وشدتهم فى المعتقدات الدينية

عرفت فرق الخوارج واشتهرت بتصلبها الدينى الشـديد وتمسكها بالمعتقدات الدينية التى تدين بها ، ولذا كانت كل جماعة منهم ترى أن زعيمها بدأ ينحرف عن المبادىء التى تعترف بها

انشقت عنه وعن أفراد فرقها وكونت لها فرقة خاصة ، وهذا هو السبب فى تعدد فرق الخوارج وتشعبها . ومن هذه الفرق الفرقة الاباضية والفرقة الصفارية والأزاردة والعجاردة والنجدات وغيرها . وكانت كل فرقة تنقسم إلى فرق صغيرة عديدة ، وقد ذكر الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ثمانى فرق من الأزارقة . ولا ريب أن انقسام الخوارج إلى فرق متعددة كان عاملاً قوياً فى إضعاف شأنهم وزوال هيبتهم

معتقدات الخوارج السياسية

قلنا فى صدر هذا المقال إن حركة الخوارج بدأت حركة سياسية ثم تحولت بمضى الوقت إلى حركة دينية . ولذا فان معتقداتهم تدور على وجهين سياسى ودينى . فأما معتقداتهم السياسية فتدور حول مسألة الخلافة ، ولهم فى هذه المسألة مواقف أساسية يخالفون بها السنة والشيعة . فهم مثلا لا يقيدون جنسية الخليفة ولا يمانعون فى أن يكون حتى زنجياً ، بينما أن السنيين لا يجيزون سوى انتخاب قرشى للخلافة . أما الشيعة فيذهبون إلى أبعد من ذلك ولا يعترفون إلا بالخليفة الذى هو من آل البيت

ولا يرى الخوارج أن من الضرورى وجود خليفة على رأس الأمة إذا انتظمت أمور الرعية ، بينما أن الشيعيين يقولون بوجوب بقاء الامام فى كل عصر ودهر . أما السنيون فليس عندهم اجماع عام على هذه المسائل

وليس الخليفة معصوماً عن الخطأ كما هو الحال عند الشيعة ، فهم يجوزون القيام عليه حتى قتله إذا بدا منه اعوجاج أو عدل عن الصراط المستقيم الذى يتحتم على الخلفاء أن يتبعوه . وهم لا يعترفون من الخلفاء الراشدين إلا بالشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ولا يعترفون بالخلفاء الأمويين والعباسيين وأصحاب موقعة الجمل أى طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام

معتقدات الخوارج الدينية

أشرت آنفاً إلى التصلب الدينى الشديد الذى اشتهر به الخوارج ، فهم يطلبون من المؤمن أن يقرن إيمانه بالعمل الحسن إذا أراد الثواب ، لأن الايمان وحده غير كاف لدخول جنة الفردوس . ويكفر الخوارج صاحب الكبيرة ، فهم بذلك على عكس فرقة المرجئة التى ترجئ تكفير المؤمن الى يوم القيامة . ويذهب الأزارقة — ومذهبهم أشد مذاهب الخوارج تصلباً — إلى أن مخالفيهم مشركون ، ودرجة الاشراك عندهم أشد وأدهى من درجة الكفر ، فهم يستبيحون قتل مخالفيهم مع نسائهم وأولادهم

ومن الغريب أن هذه الفرقة المتعصبة لمذهبها ، الصلبة فى معتقداتها ، القاسية على إخوانها من المسلمين متسامحة مع اليهود والنصارى وغيرهم من الذميين . والبعض من الأزارقة يعتبر غير المسلم مؤمناً إذا اعترف برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العالمين . ويظهر تسامحهم نحو غير العرب فى أنهم يجيزون خلافة كل مسلم سواء أكان حبشياً أم عبداً زنجياً

ويتردد بعض الخوارج فى قبول سورة يوسف عليه السلام فى القرآن الكريم لاعتقادهم أنها سورة غرامية ، فلا يمكن أن يحويها كتاب الله . والبعض الآخر يتردد فى قبول سورة أبى لهب

أما فى الفقه فهم لا يعترفون من أصوله الأربعة إلا بالقرآن الكريم والسنة الشريفة واجماعهم فقط لا أجماع الأمة الاسلامية . أما القياس فلا يعترفون به ولا يقبلونه ركناً رابعاً للشريعة الاسلامية السمحاء التى سنها الله جل جلاله للمسلمين نبراساً ومعواناً . أما التفسير فهم لا يقيدون أنفسهم به ولا يؤولون

ويظهر تصلبهم الدينى بوضوح فى فروض الصلاة ، إذ لا يكفى فى نظرهم أن يكون الجسم عند الصلاة طاهراً ، بل يجب أن يكون الفكر كذلك ، لاعتقادهم أن الفكر السيء يبطل الصلاة كما أن الجسم الملوث يبطلها . ونظراً لتصلبهم الشديد فى معتقداتهم السياسية والدينية دعاهم بعض المؤرخين الغربيين The Puritans of Islam

فلسفة الخوارج وأدبهم

ويمثل الخوارج فى إحدى فرقهم حركة فكرية لا يستهان بها جعلت المستشرق الكبير ديلافيدا يجزم بأنه يجب أن يكون من جراء ذلك علاقة وثيقة بين المعتزلة والخوارج . وتنحصر أهميتهم من الناحية الفلسفية فى إثارتهم مسألة الايمان والعمل وكان مجرد تطرف معتقداتهم يجذب إليهم أحياناً البعض من العلماء والأدباء والشعراء الذين تستهويهم المبادئ المتطرفة

حـــديث

بقلم الأديب أحمد الطاهر

نفض يديه الشريفتين من غبار الحرب وجلس إلى أصحابه وقال : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر . » قول على سهولة وضعه ، وبساطة لفظه ، يدل على فهم وثيق للحياة ، وإدراك عميق لأسرارها ، ووزن صحيح لحقيقتها . وهو يدل من ناحية على عظمة هذه النفس النبوية التي وازنت بين جهاد الغزو ، وكفاح الحرب ، – وفى ذلك ما فيه من كرب وبلاء – وبين جهاد الأنسان فى الحياة تلقاء ما يلقى من خطوبها ، وأحداثها ، وصروفها ، وأعنائها ، وما يفرض عليه فيها من حقوق لا مندوحة عن أدائها ، فأدرك رسول الله وقال إن الحرب جهادها أصغر ، وإن الحياة جهادها أكبر ، وإن جهاد الأبدان هيّن يسير ، وجهاد النفوس شاق عسير ، وإن جهاد الغزو محدود بوقته قصر أو طال ، وجهاد الحياة يبدأ بالحياة وينتهي بانتهاء الآجال

وفى كلة رسول الله تحديد لما بين النفوس والأبدان من صلة تجعل للنفوس على الأبدان سيطرة وسلطاناً ، وتسخر الأبدان للنفوس فيما توجهها اليه من غايات ومقاصد

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

وكلما علت النفوس سمت أغراضها ، وجلت مآربها ، فاشتد الجهاد والنضال بينها وبين ما يتكاءدها فى سبيل الحياة من عقبات وحوائل ، حتى يصبح جهادها عنيفاً حاراً يهون إلى جانبه جهاد الغزو على ما فيه من سفك للدماء

ولا جدال فى أن صاحب السلطان والأمر ومن اضطلع بتدبير شؤون الرعية والقيام على حقوقها ، والذود عنها يلقى عناء ومشقة وعسراً ، يتضاءل أمامها ما يلقاه أوزاع الناس وعامتهم ممن ليس عليهم من الأمر إلا أن يسخروا أبدانهم لنيل غرض أو بلوغ مقصد

أدرك رسول الله أنه وقد خرج من ميدان الغزو ونفض عن نفسه وعن أصحابه نقع الحرب ، سيلقى ميدان جهاد أوسع وأرحب وأكثر عناء وأشد بلاء ، أليس عليه بعد هذا الغزو من أعباء الدنيا والدين ، ما لا يقوم به إلا أولو العزم المتين؟

أليس عليه أن يقر هذا النصر الذى أحرز ، ويرجع الأمور إلى نصابها فى السلم بعد أن نَبَتَتْ بها مواضعها فى الحرب ؟

أليس عليه أن يواصل السير فى تبليغ الرســالة التى اؤتمن عليها ، وأن يسوس بالعدل والرحمة الأمة التى بعث إليها ، وأن يثبت بين الناس شرعة قد نشر لواءها ، ويسلك بهم دياناً قد مسح غثاءها ؟

أليس عليه أن يؤدى لله شكراً على هذا النصر والتأييد ؟ وأداء هذا الشكر لا تعرفه إلا هذه النفس العظيمة التى لا ترضى فيه بما دون الغاية ، ولا تنتهى فيه إلى نهاية ؟

أليس فى ذلك من العناء والجهـد ما يهون بجانبه عناء الحرب وجهادها ؟

* * *

وأهون ما يهون به عناء الحرب وجهادها أن رسـول الله المؤيد بروح الله ، ليس عليه إلا أن يستنفر الناس فيسموا إليه زمراً تخضع لآرائه ، وتنضوى تحت لوائه ؛ وأما جهاد السلم الذى ألمنا ببعض نواحيه إلماماً فمكتوب عليه وحده ، يضطلع بالأمر فيه ، ويحيط بأسراره وخوافيه ، وهو فى هـذا الجهاد أعزل أكشف لا عدة له إلا نفس عظيمة فى صدره ، ووعد من الله بنصره !

وسوق الناس إلى الحرب ليس بالأمر الشاق العسير : فساعة الحرب تسبقها أحداث وخطوب وإحن وحفائظ ، تستنهض الهمم ، وتستنفر النفوس ، وتستثير العزائم . فما هو إلا أن

وقد حفظت لنا كتب الأدب العربى كثيراً من أدبهم وشعرهم وحكمهم وخصوصاً آثار شاعرهم العظيم وخطيبهم المفوه قطرى بن الفجاءة

الخوارج اليوم

لم يبق من فرق الخوارج إلى اليوم إلا فرقة الأباضية ، وهى من الفرق المتدلة ، وقد نشأت فى الأماكن الاسلامية النائية ، فى عمان ثم فى شرق أفريقيا الشرقية ، ثم فى أفريقيا الشمالية . وتكون هذه الفرقة الآن دولة مستقلة فى داخلية سلطنة عمان على الخليج الفارسى ؟

فريد مصطفى عز الدين

يستنفروا فينفروا وينساقوا إلى الحرب وِرْداً ، يؤزهم الحماس أزّاً ، حتى إذا « حميت وشب ضرامها » رخصت الأرواح وهان الموت : فما ترى الناس يفكرون أو يترددون ، ولكن إلى حياض الردى يتدافعون : لا يصدهم عنها صادّ ولا يتكاءدهم في سبيلها عقبة ، وأنّى لهم أن يترددوا والحافز لا تفتر همته ، والدافع لا تهن عزمته . وهم لا يستشعرون عناءً للحرب ، ولا يرون خطراً للقتال ، ولا يفكرون في بلاء الغزو . لأنهم لا يجدون متسعاً لأن يشعروا أو يبصروا أو يفكروا

أما في السلم فما أشق الرسالة وما أخطر الجهاد ! الناس هادئون وادعون ، يجدون من الوقت والطمأنينة متسعاً للتخاذل والتفكير ، والتردد والتدبير ، والاختلاف والمحال . والتنكر والجدال ، أليس شاقاً جهاد الرسول : وهو يدعوهم إلى دين لم يعرفه آباؤهم ، وخلق لم تألفه طباعهم ، وحياة غير التي ألفوها ؟

* * *

على أن رسول الله حين أشار إلى الجهاد الأكبر ، جهاد الحياة ، لم يكن يحدث الناس عما سيلقاه وحده من نصب وإعنات ، وإنما أراد أن يذكرهم بما كتب عليهم جميعاً من جهاد في الحياة . فما كتب الجهاد على الزعماء دون الدهماء ، ولا كتب على القواد دون الأجناد ، ولا على الرعاة دون الرعية ، ولا على الكبير دون الصغير ، إنما جهاد الحياة فرض يستقبل الناس حين يستقبلون الحياة ، ولا ينصرف عنهم حتى تنصرف عنهم الحياة

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها مهدد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد

وهذا الطفل إذا اشتد جاهد في الحياة جهاداً يتسق مع شأنه في الحياة ، ولا يزال الطفل ينمو ويخطو في حياته ، ونصيبه من الجهاد ينمو ويخطو ألزم له من ظله حتى مماته . وجهاده في مراحل حياته يعتريه من الأعراض والصور مايعترى كل كائن حي في أطوار حياته من نمو وقوة ونشاط وضعف وعجز وفتور وغير ذلك

فالرضيع لا يجاهد إلا فيما يشعر به من ألم أو حاجة . ولذا يكون جهاده « ذاتياً » محدوداً ، يستمين فيه بأعضاء بدنه ؛ فإن ألح عليه الألم والحاجة استعان فيه بالبكاء حتى يغاث فيظفر ، أو يعيي فينام فيقهر . ثم ينمو الطفل فيدرك معنى « الملكية » فيجاهد في الاحتفاظ بما ملك ويسعى للملكية مالا يملك ، فيزداد جهاده ، ويشتد ويحول إلى غير ما كان عليه جهاد الرضيع

والشاب في شبابه يدرك معنى الحياة فيستشرف إلى نعيمها وملذاتها ، وتتعدد حاجاته ومطامعه ، ويسعى حثيثاً للاستمتاع بالنعيم واللذة ، ويُعِدّ نفسه لما تفرضه عليه سنن الحياة ، فيجاهد في ذلك جهادا عنيفاً ، ويلقى في جهاده نصباً

والكهل يسعى وراء الرزق : يدره لنفسه ، ويدر اخلافه على أهله وأبنائه ، ويدخر منه لعقبه وأخلافه . وإنه لواجد في سبيل الرزق عقبات وعوائق . وإنه لجاهد مجاهد في تذليلها ، والتغلب عليها ، وإن جهاده لشديد ، وإنه لأكثر بلاء وعناءً

والشيخ الفاني الذي نفض يديه من الدنيا ، تنتابه الأمراض والعلل ، ويلح عليه الفناء ، وتخذله قواه ؛ فيجاهد في الحياة الباقية له جهادا عنيفاً جباراً ، ولكنه خافت صامت ؛ يكسر من حدته صبر الشيوخ وأناتهم ، وضعف آمالهم واستسلامهم

أولئك جميعاً تفرض عليهم الحياة فروضاً ، وتلوح لهم بمطامع وهم يبسطون إليها آمالاً : ثم تقيم لهم في السبيل عقبات ، وتنصب بينهم وبين مطامعهم حجاباً ، وتجعل أمانيهم سراباً ، وهم لاينفكون يجاهدون : تنزل بهم البأساء ، فيطمعهم الرجاء ، وتنقطع بهم أسباب الأمل ، فيغريهم طول الأجل

حتى الرجل الذي لا تشغله الدنيا بزخرفها . والذي يصدف عن مطامعها ، والذي يؤثر الآخرة على الأولى : ذلك جهاده قوى حاد . فهو أبداً في جهاد مع نفسه ولنفسه : يروضها على الزهد والاستغناء ، ويدفع عنها عوامل الاغراء ، ويسوقها إلى الفضيلة ، ويباعد بينها وبين الرذيلة ، وهو جهاد لا يهون ، ولا يصبر عليه إلا القليلون

وأهون الناس شأناً في الحياة وأقلهم تقديراً لشأنها وأكثرهم استخفافاً بها لا محيد له عن الجهاد فيها : أليس عليه أن يجاهد الحر والبرد والمطر والشمس والعلل والأمراض ؟ ذلك جهاد على سذاجته شاق وعسير

ما أصدق رسول الله فيما قال ، وما أبعد نظره فيما رأى !

اليوزباشي أحمد الطاهر

من مشاهد الشرق

٣ – طائفة البهرا في الهند

في حضرة داعي الدعاة

بقلم محمد نزيه

مضى محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية وأنا في أثره ، في بعض جادة القصر ، حتى انتهى وانتهيت معه إلى باحة فسيحة أمام سلم مديد ، ذي ست درجات من رخام أبيض يشف عن زرقة رقيقة ، فلما أن دَرَّجْناه كنا أمام بابين رحيبين ، كلاهما سبيل إلى تلك الحجرة الرهيبة التي يستقبل داعي الدعاة زواره فيها ؛ وإذا كانت غرفة الانتظار قد تقاضتنا خلع الأحذية قبل ولوجها ، فأحْرِ بغرفة الشيخ الأكبر أن تطالب قصادها بمثل ذلك وأكثر منه . وكذلك هتفت بي نفسي هذه المرة بما هتف به سائق السيارة من قبل ، أن أخلع نعليك فانك قادم على أنيس المهدى المنتظر وجليسه ، وأمينه سراً وعلانية ، وأبى بكره من دون الخلق أجمعين !

ولقد ظللت مذ أُسْرِيَ بي من غرفة الانتظار إلى غرفة الملتقى — وكلاها حرام — منصرفاً عن كل ما عسى أن يتداول سمع المرء وبصره ، إلى التفكير في ذلك الرجل الذى يتقاضى جميع الناس كل أسباب التقديس له ، بين مؤمن بمذهبه ومستريب به ومنكر له ، ثلاثتهم من تقديس الشيخ في أوضاع متشاكلة ما أرادوا لقاءه ، بل وما يكون هذا التقديس من ثالث الثلاثة تكلفا ولاصناعة ولازَيْفا ، فقد كنت أحسبه كذلك من قبل ، وهأنذا الآن في منتصف الطريق بين الحجرتين ، مفعم النفس برهبة شديدة تكاد تطغى على الرغبة الشديدة في رؤية الشيخ ، بل وما فتئت هذه الرهبة تشتد سريعاً ، حتى لقد بلغت شأوها في ثلاث من خطواتي ، وإذا بالحواس الخمس قد رقت في بعض الدقيقة ودق ارهافها ، فكأنما غادرت عالم الملموس والمحسوس إلى عالم الالهام ؛ وما دام هذا العالم الجديد لايدرك مما يحيط بالمرء وإنما يدرك من باطنه ، من دخائل نفسه ، فقد انقلبت حواسي كلها إلى نفسي ، وكأنني بت لا أعىَ من الوجود شيئاً ، ولم تزل هذه النفس المرتهبة تتسع حتى تملأ كل فضاء داخل الجسد ، وتشمل القلب كله ، وتنير على ما فوقه وما تحته ، وما عن يمينه وما عن يساره ، وما أمامه وما خلفه ، كل ذلك في خطى الكهرباء ، فلم أكد أتم الخطوة الرابعة حتى كنت نفساً ولاجسد

وأخذت هذه القوة الجديدة تتخيل صورة الشيخ وتحاول رسمها ، فاذا دأبت في هذا السبيل جاهدة ، انبعثت ذرات الرهبة ، فتوثبت على القلب فاختل نظام دقاته ، وهنالك تضطرب النفس فلا تقوى على المضى في مهمتها ، لذلك لم ترسم الصورة حتى صرت على قيد خطوات من صاحبها ، فتقدمت اليه حتى استويت أمامه . لم يكن في وسعي ولا في وسع سواى أن يصافح الشيخ دون أن ينحني ؛ إلا أن يركع ، مالم يكن قصيرا ، ولست بقصير . ذلك أنه يجلس على كرسي لعل مقعده أدنى إلى الأرض مما يعهد في كل كرسي ، ولم ينهض الشيخ عنه ليصالحني واقفاً ، وربما كان لا يعرف الوقوف من أسباب التحية ، فلا مناص لمن شاء مصالحته من الانحناء ، ثم لا مناص لمن استأذن عليه من المصافحة ، ومن يدرى ؟ لعل هذا الكرسي القصير إنما دبر تدبيراً ، ثم إن هذا الكرسي قد عوض عن قصر أرجله رحابة في صدره ، حتى لقد تبينت الشيخ من الكرسي ولم أتبين الكرسي من الشيخ

صافحت الشيخ منحنياً ولا بد ، فاذا كف نحيل لعل الرَّفَّ يؤذي عظمه ، فلقد أحسست أنني أقبض على حزمة من الأقلام ، بل أحسست أكثر من ذلك بالمفاصل الدقيقة لكل أصبع ، وكأنما انفرطت عظامها في يدى فما يستعصى عدها علىّ ! لكأن هذه الكف ترتفع من تلقاء نفسها إلى فمي ، فلقد علمت أنني رفعتها ، ولعل ذلك إكبار ولعله رفق بالضعف ، ولا سيما وهو ضعف الكبر ؛ ولشد ما يحنو بعض القوة على بعض الضعف ؛ إذن فقد انحنيت فصافحت ثم قبلت ، وخطوت بعد ذلك إلى الكرسي الواحد الذى يشاطر الغرفة كرسي الشيخ ، ثم تحركت حدقتا عيني فطافتا ببعض الحجرة وميضا حتى استقرتا لحظة على صاحبي محمد على بخش وقد ألصق ظهره بالجدار ، وأمال رأسه إلى الامام قليلا ، وشبك أصابع كفيه على صدره تحت لحيته ؛ وجد كذلك كأنه التمثال

سألني داعي الدعاة عن موقع المدينـة من نفسي ، ثم عن الصحافة المصرية وحظها من النهوض ، فلما أن فرغ من أسئلته وحان دوري في السؤال ، وكنت أعلم أن التحدث في مسائل الدين هو أشهى الأحاديث لدى رجاله ، وأعلم إلى ذلك علماً ليس بالظن أن أقران الشيخ لا يفتأون ينعون على الناس تركهم أمر الآخرة ، فكل امرىء عنـدهم مفرّط مهما تخفف من زخارف العاجلة وتولى يرتجي الآجلة ، ما يألونه إذ يرونه ذلك النصح الممزوج بالتعنيف والاتهام ، فهم متسخطون متبرمون رغماً من رغم ، أثرة بالكمال من دون الناس ، فقد استهللت بالأسف لاهمال المسلمين أمور دينهم وأمور دنياهم معاً ، وكأنما قلت للسيل انهمر ، فقد تدفق الشيخ فلم يترك في معجم الألم كلمة الا قالها ، ولاحركة الا أتاها ، بعينيه وشفتيه وكفيه ، قال بلسانه العربي المبين — وقد أسلفت أنه من سلالة عربية قريبة العهد بموطنها الأول ، اليمن : (إن دولة الاسلام قد انهـارت أركانها في كل مكان ، ودكت حصون الدين وسقطت معاقله ، حتى عادت أطلالاً نناجيها) ثم راح يبعث قول الشريف الرضي :

ولقـــد مررت على ديارهم وطلولها بيد البـــلى نهبُ
فبكيت حتى ضج من لغب نضوى ولج بعـذلي الركب
وتلفتت عيني فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

قلت : هل يرى مولانا أن تخلف العالم الاسلامي ناجم عن إهمال الدين ؟ قال : (عن اهماله فقط ، وليس في أداء فرائضه وحسب ، بل في التأدب بآدابه ، بل في الاستمساك بأسباب التعاون والمودة ، وإطراح الخصومة والعداوة والبغضاء ، وحدب الغني على الفقير ، واطمئنان الفقير إلى الغني ، وخشية الله والآخرة ، واتقاء الخزي والندامة ، والحسرة والعذاب يوم القيامة)

قلت : وهل من أمل في إصلاح ما انهدم ؟ فانبسطت أسرة الشيخ دفعة واحدة والتمعت عيناه ، وطالعني منه صوت يتجلى فيه الحزم والعزم والايمان والبأس الشديد وهو يقول : (نعم . إن الأمر لله في دين الله ، وإنه ليحميه ويعلي كلمته حين يشاء ، ولكنما يترك الأمر للناس حتى يسلموا بالفشل وييئسوا من النهوض ، وإذ ذاك يقضي الله فاذا الحق في الذروة والباطل في الرغام)

قلت : أفلا يحاسب رجال الدين على شيء مما نرى من أمر الدين . ؟ فسكن الشيخ لحظة ثم قال : (أعلم أن كثيراً من الناس يقومون برجال الدين ويقمـدون ، ولكن ما الذي يسع رجال الدين أن يفعلوا إن كانوا في شعب متخاذل مستضعف ؟ إنهم إذ ذاك لا يفضلون أبناء شعبهم ، ولعلك تعلم أن الفساد جرثومة سريعة العدوى ؛ وهب أن بين رجال الدين من امتنع من جراثيم الفساد ، فماذا يفعل وأهل أمته كلهم ذلك الحواري الذي شهد على عيسى بن مريم ؟ ! . أفتدرى كيف تقهر الأمراض العصية في الأجساد ، إن أحدث أسباب ذلك وأصدقها نتيجة أن يلقح الجسد المريض بعين الجراثيم التي تمرح فيه ، ولم يتنبه الطب إلى ذلك إلا بعد قرون من تنبه الحكم الى أثر هذه الوسيلة نفسها في أخلاق المحكومين ، ولن يعدم زمن من الأزمان ، ولن تبرأ جماعة من الجماعات ، من أشرار وإن قلوا ، وتلك سنة الحياة ، وقد احتال الظلمة وافتنّوا في الاحتيال ، حتى استكشفوا أن رجل الدين الصالح لايقهر إلا برجل الدين الطالح ، ثم هم يزودون صاحبهم بقوة المال وسطوة البطش والعدوان ، ويذودون عنه بعد ذلك إن أحدق به خطر ، فاذا سئلوا في ذلك قالوا ، إنما نرفع كلمة الدين ونعيذه من الهوان)

وتنفس الشيخ برهة ثم قال : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، وقد نزل الدين سهلاً مفهوماً ، فلنأخذ عبادته التي لا تحتاج إلى رجال الدين ، فاذا استقرت هذه الأوليات في النفوس ، سهل علينا أن نميز الصالح من الطالح من رجال الدين فنأخذ عن أولها وندع الآخر . على الآباء والأمهات جميعاً بهذه المهمة ، كل يؤدب أبناءه بأدب الدين منذ الصغر ، قبل أن يبلغ الطفل أشده ، فيصبح تحت رحمة القانون والبيئة والمطامع)

قلت : وهل من سبيل إلى تخفيف الفساد ؟ قال : (نعم ، ولكن أسباب التخفيف لا تعرض هكذا على بساط الريح ، فلا بد من البحث والروية والتثبت ، ولا سيما ونحن نريد أن نعالج جماعات كثيرة مختلفة الملل ، وقد يصلح لهذه من الدواء ما يزيد تلك علة على علة ، ولذا وجب أن يجتمع أطباء الدين والأخلاق من كل جماعة أطباؤها ، فاذا تذاكروا جميعاً حتى اهتدوا إلى الملة المشتركة ، تذاكروا حتى يهتدوا الى الدواء المشترك . المؤتمرات ، على أن تكون خالصة لله وحده ، نقية من الدخلاء ، بريئة من الشبهات ، حرة أكمل حرية ، مطبوعة بإنكار الذات والايثار

دون الأثرة) وسكن الشيخ برهة وقد بدا على محياه أنه يطلب الراحة ؛ ثم ضغط على جرس كهربائى مثبت على منضدة صغيرة أمامه ، فان هى إلا ثوان معدودة حتى أقبل من داخل الحجرة خادم يحمل بيمينه لفافة من قماش ، تقدم بها الى الشيخ فتناولها منه ، ثم مد بها يده الى ناحيتى ، فخطوت اليه وأخذتها شاكراً ، وودعت داعى الدعاة بعد أن ألقيت على سمعه ماواتانى به الله من كلمات الشكر والتقدير

أما لفافة القماش ، فقد تبينت بعد أن بابنت الغرفة أنها (شال) من الكشمير وسط فى صنعته وقيمته ، ثم علمت أنه نفحة الشيخ لكل زائر غريب ، وإنما تختلف قيمتها بقدر ما للزائر من مكانة فى قومه ، وأما غرفة الزيارة فرحيبة تكاد تتسع ثلاثين متراً فى نصفها ، يرتفع سقفها على عمد من رخام ، عارية الجدران من الصور ، حافلة الأديم ببساط أبيض عار من زهو النقوش ، وقد أسلفت أنه لم يكن بها إلا كرسيان للشيخ ولى ، ولعل هذه البساطة فى مظاهرها والرحابة فى اتساعها مما يزيدها رهبة ويزيد صاحبها إجلالاً . أما الشيخ فانه من نحول الجسد ورقته كأنما إياه كان المتنبى يعنى لما قال :

كفى بجسمى نحولاً أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وهو على شدة نحوله ليس بالطويل القامة ، كأنه غاندى ، لولا أن وجهه المستطيل خفيف السمرة ، مشرق الديباجة ، متسع العينين حتى لتملآن نصف وجهه ، حديد البصر ، كأنما تطل نفسه المطمئنة من عينه ، ضاحك السن فى وقار كثير ، تنبئك مظاهره كلها بأنه رجل موطأ الأكناف حقاً . وقد استتر رأسه تحت طاقية بيضاء ، وغطى جسمه بجلباب أبيض ، وهو فى غرفته مثال نادر الأنداد للبساطة فى الغنى ، والتواضع فى الجاه

كررت إلى جادة القصر بصحبتى محمد على بخش ، فمضينا إلى مسجد القصر متحدثين بالانجليزية فانه لا يعرف العربية ، فاذا نحن حيال مسجد حديث البناء أنيقه ، متوسط السعة ، مفروش بالسجاد ، ذى ثلاثة أبواب ، اثنان منها لدخول المصلين من الرجال ، والثالث لدخول المصليات من النساء ، وقد فصل بينهن وبين الرجال فى رواق المسجد جدار رقيق لا يتصل بسقفه ، أما المنبر فمن الخشب الثمين المتين وقد خلا من كل زخرف ، كل ما فى المسجد ناطق ببساطته ، خلا ثرياته الثمينة التى تؤلف فى انتظامها أروع الشكول . فلما فرغنا من تفقد المسجد دعانى صاحبى إلى التدرج إلى أعلى القصر ، حيث أعد به موضع يشرف على المدينة كلها ، فترى منه واضحة المعالم جلية الرسوم ، ولولا سدول الليل لاستطعت فى هذه القمة إحصاء مساجد (بمبى) وعد حدائقها ، وتبين أعلامها والتحديق فى ميادينها ، على أنك لا ترى المدينة وحدها من هذه القمة ، بل ترى البحر وعبابه ينساب إلى عالم المجهول !؟

القاهرة محمد ثابت

وزارة المعارف العمومية

اللجنة الوزارية الاستشارية لبعثات الحكومة

تعلن إدارة البعثات بوزارة المعارف أنها ستوفد فى هذا العام بعثتين عضو واحد من الحاصلين على دبلوم الهندسة الملكية قسم (الكهرباء) للتخصص فى الرياضة والطبيعة بجامعة كمبردج بانجلترا لاعداده للتدريس بمدرسة الهندسة الملكية

فعلى من يريد ترشيح نفسه لهذه البعثة أن يقدم طلبه بذلك على الاستمارة الخاصة المعدة لذلك . ويمكن الحصول عليها من إدارة مخازن وزارة المعارف بدرب الجماميز بالقاهرة نظير دفع ثلاثين مليماً . ويرسل هذا الطلب بعد استيفائه مسجلاً بطريق البريد إلى : حضرة صاحب المعالى رئيس لجنة البعثات بالمعارف . وذلك إذا كان الطالب غير موظف فى الحكومة . أما إذا كان موظفاً فيها فيجب أن يقدم طلبه إلى رئيس المصلحة التى هو تابع لها

وفى كلتا الحالتين يجب ألاّ يتأخر وصول الطالب إلى سكرتارية لجنة البعثات بوزارة المعارف عن ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٥ ٣

الأدب والتاريخ

٢ – الرافعي

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

الرافعي الأديب

مضى الرافعي في قرض الشعر، معنياً به، متصرفاً في فنونه، ذاهباً فيه مذاهبه، إلى جانب عنايته بالتأليف والكتابة، وانكبابه على العلم والتحصيل، فوضع في سنة ١٩١١ كتابه (تاريخ آداب العرب)، وحسبك به من كتاب أن يقضي الأستاذ الكبير أحمد لطفي السيد بك أسبوعاً يخطب عنه في مجالس العاصمة (١) وقد كتب عنه الأمير شكيب أرسلان – وهو أشهر كتاب العربية في ذلك الوقت – مقالة في صدر (المؤيد) جاء فيها: «لو كان هذا الكتاب في بيت حرام إخراجُه للناس منه، لكان جديراً بأن يُحَجَّ إليه؛ ولو عُكِف على غير كتاب الله في نواشئ الأسحار، لكان جديراً بأن يُعكَف عليه...»

وقال عنه المقتطف: «إنه كتاب سُنَّة...» وما كتب المقتطف مثل هذه الكلمة من قبل ومن بعدُ لغير هذا الكتاب

ومن يقرأ كتاب الرافعي (تاريخ آداب العرب) يعرفه عالماً عميق البحث، مُرَتَّب الفكر، واسعَ المعرفة؛ إلى جانب معرفته به شاعراً عربيَّ الديباجة، مُشرِق المعنى، مشبوبَ العاطفة؛ على أنه كان يومئذ لم يجاوز الثلاثين...

ثم ألَّف الرافعي (كتاب المساكين) الذي يقول عنه فقيدُ العربية العلامة أحمد زكي باشا: «لقد جعلتَ لنا شكسبير كما للانجليز شكسبير، وجوته كما للألمان جوته، وهوجو كما للفرنسيين هوجو.»

وتألق نجم الرافعي الشاعر العالم الأديب، وبرز اسمُه بين عشرات الأسماء من أدباء عصره برّاقاً تلتمع أضواؤه وترمي أشعّتَها إلى بعيد؛ على أن هذه المنزلة الكريمة التي نالها الرافعي بين الكتّاب إلى جانب منزلته في الشعر – لم تكن غريبة؛ فقد حدثني أديب فاضل كانت له صلة بالعلامة الشيخ ابراهيم اليازجي: أن الرافعي لما طبع الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩٠٣ وأهدى منه نسخة إلى الأستاذ اليازجي – أبطأ في الكتابة عن الديوان؛ فسأله هذا الأديب الفاضل في ذلك فقال: لقد قرأت مقدّمة الديوان فأكبرت أن يكون كاتبها من عصرنا؛ فأنا منذ أسبوعين أبحث عنها في مظانّها من كتب العربية، مما أخادع نفسي في قدرة هذا الشيخ على كتابة مثلها. فقال له: إنه ليس بشيخ، بل هو فتى لم يبلغ الثالثة والعشرين..

وليس عجيباً أن يكون هذا كلام اليازجي، فقد برهن الرافعي من بعدُ ألفَ برهان على ذلك. وإنما كتب هذه المقدمة وعُني بها حتى جاءت ما جاءت، ليعارض بها مقدمة حافظ لديوانه الذي نشره قبل ذلك بقليل؛ وكان لمقدمة حافظ هذه حديث طويل، حتى نسبها بعضهم يومئذ إلى الويلحيّ؛ ولكن مقدمة ديوان الرافعي جاءت بعدها تقطع قول كل خطيب؛ واحتفل بها (المؤيد) أيّما احتفال فنشرها في صدره، والمؤيد يومئذ جريدةُ العالم العربي

بين الجديد والقديم:

ثم بدأ الرافعي يميل عن الشعر رويداً رويداً حتى هجره منذ عامين، لم ينظم فيهما غير قصيدتين اثنتين نُشرتا له في مجلة المقتطف. وإنها لخسارة كبيرة أن ينصرف الرافعي عن الشعر ويترك ميدانه خالياً.. على أنه لم يهجر غير الشعر المنظوم، وهذه كتاباته المنثورة ضربٌ من الشعر أفسحُ مدًى وأبعد غاية، وإنه لينشئُ بها أدباً جديداً في العربية على رغم ما يُتَّهم بالتقليد والمحافظة على القديم؛ بل معانيه كما قال الأستاذ الدكتور منصور فهمي في تقريظه رسائل الأحزان: «إنها من آخر طراز يأتي من أوروبا...» على أن الرافعي إلى ذلك ليس له حظٌّ من لغة أجنبية، ومعرفته الفرنسية لا تجدي عليه اليوم أكثر مما كانت تجدي عليه يوم كان يتعلمها بالمدرسة وهو غلام!

وللجديد والقديم حديثٌ طويل في تاريخ الرافعي؛ فهو قد

---

(١) حدثني الأستاذ الرافعي بهذه العبارة، كما حكاها له الأستاذ أحمد لطفي السيد بك

وقف نفسه على الدفاع عن الدين والحفاظ على لغة القرآن . ذلك مذهب درج عليه وأعانته عليه نشأته وتربيته ؛ وهل يأخذ أحد عليه هذا المذهب أو ينكره ؟ . . فهو إنما « يحرص على اللغة من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شيء قائم كالأساس والبناء ، لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً . . . » وإنه بسبيل ذلك ليسأل : ما الجديدُ وما القديم ؟

لو أنهم يَعنون بالجديد الابتداعَ والطرافة بمقدار ما يتطوّر الفكر ، أو الانشاء والابتكار على مقدار ما ينفعل الزمن فى إحساسات أهله ، أو التنويعَ والخَلْق على قياس ما يزيد فى المعانى ويستجدّ من انفعالات النفس – لو أنهم يعنون بالجديد شيئاً من ذلك ، أو كل شيء من ذلك ، لوجدوا الرافعى مجدداً مع المجددين ؛ بل لما كان لشيء من هذا أن يُسمى جديداً ، لأنه حُكم الزمن وسنّة التطور من قديم . . أما أن يكون التجديد هو ابتداعَ لغةٍ ليست من اللغة ، وإنشاءَ دينٍ من شهوات النفس لا من وحى السماء ، والتزويرَ على التاريخ القديم باختراع تاريخ من الأحلام – أما أن يكون ذلك كذلك فما هو التجديد ، ولكنه التبديد الذى يوشك أن يتبعه الفناء . . . !

فى النقد :

هذا هو الرافعى فى موقفه من الجديد والقديم ؛ وما نحبّ أن ننتهى منه حتى نعرض لأسلوب الرافعى فى النقد ؛ فما نعرفه ناقداً عنيفاً إلا حين يتناول الجديد والقديم ؛ وإذا نحن تدبرنا ما أسلفت من تلخيص رأيه فى الجديد والقديم ، ومن مقدار حماسته فى الذود عن الدين والعربية – عرفنا لماذا يؤثر الرافعى ذلك الأسلوب العنيف فى مهاجمة خصومه والطعن عليهم ، إذ هو لا يَعتبر حينئذ إلا شيئاً واحداً ، هو الدفاع عن الدين وتراث السلف ، مؤمناً بأنك « لن تجد ذا دِخْلةٍ خبيثة لهذا الدين إلا وجدتَ له مثلَها فى اللغة . . . » وأنت لا ترى الرافعى مرة يأخذ فى أسباب النقد ليدفع كيداً يراد باللغة والدين ، إلا كما ترى البدوىّ الثائر لعِرضه ، يطرح كل اعتبار من دون هذا الشرف المثلوم ؛ فمن ثَمّ يكون فى كلامه معنى الدم . . .

على أن الرافعى إلى شدته وعنفوانه ، ناقدٌ بصير بأساليب النقد ، مما عالج من مختلف فنون الأدب ، ووقف على أسرار العربية ؛ من ذلك لما كتب المرحوم السيد مصطفى لطفى المنفلوطى مقالته عن الشعراء ونشرها فى مجلة (سركيس) سنة ١٩٠٣ ، كتب المرحوم حافظ ابراهيم إلى الرافعى يقول : « . . . . قد وكلتُ أمر تأديبه إليك . . . ! »

وقد تعجب أشدّ العجب أن ترى الرافعى ينسى حين يجرّد قلمه للنقد كلَّ اعتبار مما تقوم به الصِّلاتُ بين الناس ؛ ولكنه هو يعتذر من ذلك بقوله : « . . . إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة ، إذا هى قامت اليوم بفلان الذى نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه ؛ ونحن نردّ على هذا وعلى هذا بردٍّ سواء ، لا جهلُنا مَن نجهله بالطف منه ، ولا معرفتُنا من نعرفه تبالغ فيه . . . فان كان فى أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول المؤلم ، أو التهكم ، فما ذلك أردنا ، ولكنا كالذى يصف الرجل الضالّ ليمنع المهتدىَ أن يضلّ ، فما به زَجْرُ الأول ، بل عظةُ الثانى . . . »

وقد خسر الرافعى كثيراً بالأمساك على مذهبه ذاك ، ووضع نفسه بحيث تنوشه من كل جانب سهامٌ مسدّدة ، وألّب عليه كثيراً من الخصوم ؛ ولكنك لن تسمع منه أبداً كلمة الندم ، وتراه على تربُّص دائم لكل « ذى دخلة للدين والعربية . . . » وهو ضربٌ من التضحية والشجاعة يدعو إلى الاعجاب

وكما ترى هذا الموقف للرافعى من دعاة الجديد فى الأدب ، ترى له موقفاً قريباً منه من دعاة الجديد فى الأخلاق والاجتماع ؛ فله آراء فى الاختلاط ، والحجاب ، والتعليم ، والحرّية ، والحبّ والزواج ؛ تراها منبثّة فى عديد الكتب والمقالات ؛ ولكن قليلاً من القراء من يستطيع أن يفهمها بروح مجردة من هوى ، ليعرف أىّ مذهب فى الاجتماع يدعو إليه الرافعى ؛ وله فى هذه المقالات روحٌ رفافة ، وشعر ساحر ، وحجة قوية ؛ وهو فيها من أنصار المرأة عند من يعرف أين يكون انتصار المرأة ؛ ولستَ واجداً أحداً يردّ عليه رأيه فى ذاك على قلة من تجد من أنصاره ؛ وقد جلستُ مرة إلى أديبٍ كبير ومربٍّ فاضل ، نداول الرأى فى أدب الرافعى ومذهبه الاجتماعى ، فقال لى : « إنك لن تجد أحداً من أنصار الجديد يرضى هذا المذهب ، ولكنك

لن تجد أحداً — أيضاً — يستطيع أن يصاول الرافعي في ميدانه بمثل حجته وقوة إقناعه . . . »

الرافعي والمرأة :

وإذ تكلمتُ عن مذهب الرافعي في الاجتماع ، فاني أقف قليلاً لأتحدث عن الرافعي والمرأة

وعجيبٌ أن يكون الرافعي صاحب « إعجاز القرآن ، وأسرار الاعجاز ، والبلاغة النبوية ، والانسانية العليا ، وسموّ الفقر ؛ والمحدّث ، المفسّر ، المتصوّف ، الذي يصف عن عصر النبوّة ، ومجالس الأئمة ، وكأنه يعيش في جوّهم وينقل عن حديثهم ؛ والذي تتصل روحه فيما يكتب من وراء القرون بروح الغزالي ، والحسن البصري ، وسعيد بن المسيّب ، وغيرهم وغيرهم من أئمة السلف — عجيب أن يكون هذا الرافعي هو صاحب « رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، وسموّ الحب ، واليمامتان ، وسحر المرأة ، والطائشة ، وغيرها وغيرها ؛ فيصف عن المرأة والحب ، ويتحدّث في ذلك حديث الرجل الذي عرف وذاق وجرّبَ ، ولبس المرأة ولبسته ، واستبدل قلباً بقلب ، وتقلب بين مجالس ومجالس ، وسمعَ (لا) بمعنىَ (نعم) ، و(اليكَ عنى) في موضع (اتبعنى يا حبيبى) ؛ والذى يترجم معنى النظرة والابتسامة وما بعدها . . . !

وإنك لتراه أحياناً يمزج بين حديث الحب وحديث الدين ، ويصل بين وَحْىِ السماء ووحى العيون الدُّعْج . . . فتسأل : أيّ رجل هو ؟

ولقد خالطته زماناً ، فاني لأعرفه عرفاني لنفسي ، فما وجدته في حاليْه إلا الرجلَ العفّ الكريم ، ولكن له عالَماً من وراء هذا العالم ، يصل اليه في سبحات فكرية لطيفة ، ليستوحيه من معاني المرأة ما لا سبيل إلى معرفته في دنيا الناس . ولو أنك أردت أن تسأله مرة : أيّ رجلٍ أنت ؟ لما جاءك الجواب إلا أنه رجلٌ وَحَسْب . . . !

وتسأل نفسك : هل عرف الرافعي الحب نخفّ بجناحيه إلى تلك العوالم غير المنظورة ينقل عنها فلسفة الجمال والمرأة والحب . . . ؟ فاستمع اليه يقرر : « إن النابغة في الأدب لا يتمّ تمامه إلا إذا أحبّ وعشق . . . ! » ثم ارجع إلى كتبه الثلاثة : رسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ؛ لتعرف « أنها كانت عواطفَ ثارت وقتاً ما ، ليَحْدُث منها تاريخ ؛ وسكنتْ بعد ذلك ليحدث منها شعر وكتابة . . . »

ولكن ، من تكون تلك الفتانة التي تيّمها وتيّمته زماناً ، « هي بروعتها ودلالها وسحرها ، وهو بأحزانه وقوّته وفلسفته . . . ؟ »

ذلك سرُّه هو ، أو سرُّها هي . . . !

وطنيته :

وللرافعي رأيٌ في معنى (الوطن الاسلامي) ، والوطنية الاسلامية ، تلمحه في كثير مما يكتب ، قوامه « أن يَظهر المسلمُ الأول بأخلاقه وفضائله في كل بقعةٍ من الدنيا مكانَ انسانِ هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ؛ فان كلّ أرض اسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا انسانها التاريخيّ بجهله وخرافاته وما ورث من القدَم ، فهنا المسلمُ الفرعوني ، وفي ناحيةٍ المسلمُ الوثنيّ ، وفي بلدٍ المسلمُ المجوسيّ ، وفي جهةٍ المسلمُ المعطل . . . وما يريد الاسلام إلا نفسَ المسلمِ الانسانيّ . . . »

فلا يمنع أن يكون إلى جانب احساسه بمعنى (المصرية) احساس آخر بمعنى (الاسلامية) على أنها الوطن الأكبر ، كما لا يمنع الطنطاوي أن يكون إلى جانب حبه (طنطا) حبٌّ أعمق يشمل (مصر) كلها ؛ فاذا تحدّث الرافعي عن الشام ، أو العراق ، أو بقعةٍ أخرى من الوطن الاسلاميّ ؛ فما يعني ذلك أنه قد خلع مصريته

والوطن عند الهمجيّ دارٌ تؤويه ، وحقلٌ يغلّ عليه ، وكلما زاد الانسان في معنى الانسانية انبسطت له رقعةُ الوطن ، فمن ثمّ كان الوطن فيما يرى الانسانُ المسلم هو كلّ أرض يخفق فيها لواءُ الاسلام ، وما مصر ، والعراق ، والشام ، والمغرب ، وغيرها إلا أجزاء صغيرة من هذا الوطن الاسلاميّ الأكبر ، كالأقاليم من الدولة ، والمناطق من الأقليم ، والشوارع من المنطقة ، والدُّور من الشارع ، والغرفتين من الدار ، حين يتدابر الأخوان وتدبّ بينهما الشحناء التي توشك أن تنسيهما أنهما أخوان لأب وأم . . . !

(البقية في العدد القادم)

محمد سعيد العريان

دراسات في الأدب الانكليزي

وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

نشأته وطفولته :

هو زعيم طائفة شعراء البحيرات وسيد شعراء الانكليز بعد شكسبير وملتن . ولد هذا الشاعر في السابع من شهر ابريل سنة ١٧٧٠ في كوكرموث في إقليم البحيرات من مقاطعة كمبرلند . وهو من أسرة متوسطة في الجاه والثروة ، توفيت أمه وهو ابن ثماني سنين ، وكانت تؤمل لو فسح لها في الأجل أن تشاهد الدور الذي سيمثله على مسرح الحياة ، لأنها لمحت فيه طفلاً حدة طبعه ورجاحة عقله يمتازانه عن بقية إخوته الخمسة . ولقد كان والداه مرشديه ، فهما اللذان تعهدا إنماء قواه العقلية ، وتوجيه مداركه الشعرية في أقوم السبل وأرشد الطرق ، وذلك بتلقينه أشعار القدماء والمحدثين ، وإلى ذلك يشير وردزورث في قصيدته « الفاتحة » The Brelude

كان موطنه مزداناً بالمناظر الشعرية الخلابة التي استهوت فؤاده ، ووجدت منفذاً إلى عقله فظهر أثرها في شعره

وبعيد وفاة والدته قصد مدرسة هوكشد حيث تلقى مبادئ العلوم والفنون . وكانت هذه المدرسة في محيط ريفي ساذج ، تكتنفها المناظر الطبيعية من جميع الأطراف ، مما أغوى شاعرنا وجعله يصرف أويقات فراغه في حضن الطبيعة . فتارة تلقاه يتمشى على شواطئ البحيرة ، وأخرى تجده يصطاد الأسماك ويداعب العصافير في أعشاشها ، أو يمرح بين التلال والشعاب يلاعب المعزى ويعبث بالحملان . وكثيراً ما كان يصطحب الكتب الى تلك الحقول فيطالع منها مايستسيغه ويبعث في نفسه أملاً ورغبة في الحياة

في كمبردج :

توفي والده قبل أن يتم دروسه الابتدائية ، لكن أريحية عمه وليم كفلت له الالتحاق بكلية القديس يوحنا في جامعة كمبردج . وقد كره الشاعر هذه البيئة الجديدة ، ومجت نفسه هذه الحياة المقيدة في بدء الأمر ، إلا أنه عاد فألفها وتشبع بروح ذلك المكان بعد أن جالت في ذهنه صور الشعراء الذين قضوا قسما من حياتهم فيه . فقد أمده خياله الخصب بعالم روحي مطلق يعيش فيه ويستأنس بأهله لما لم تتح له الظروف أن يعيش طليقاً في الحياة . ولقد كان يتردد على أهله في بيرنث أو في هوكشد كلما سنحت له الفرص . وجرى له ذات يوم حادث غريب كان له أثر بعيد في حياته الأدبية ، إذ بينما كان يتسلق أحد التلال في هوكشد رأى رؤيا غريبة ظن أنه أوحى اليه فيها بالعمل العظيم المعد له . وقد ورد ذكر هذا الحادث باختصار في قصيدته (الفاتحة) ولا نعلم عنه أكثر من ذلك

رحلته الأولى :

اتفق شاعرنا وصديقاً له على القيام برحلة كبيرة في جبال الألب في إحدى فرص الصيف ، وكان ذلك على أثر انتشار الأخبار الأولية عن الثورة الفرنسية . استأجر الصديقان سفينة وأبحرا فيها إلى ميناء كاليس ونزلا في اليوم الذي حلف فيه لويس السادس عشر يمين الاخلاص للدستور الجديد . ومن ثم قصدا الجنوب إلى بحيرات إيطاليا وسويسرا ، فصرفا على شواطئها بعض الوقت الممتع ، ثم قطعا سيلون ومن هناك كرا عائدين إلى الأوطان ، وفي طريقهما لقيا جيوش الثوار ناشرين لواء الحرية ومنتضين سيف العصيان على الملكيين . ولقد كان لهذه الرحلة أثر كبير في نفس وردزورث ، إذ أوحت إليه بروح شعرية وثابة ونفس متمردة تنزع إلى الحرية وتطلب التجديد ، فلا غرو إن انتصر للثوار الفرنسيين ورفع صوته معهم منادياً بسقوط باستيل الاستعباد

في فرنسا مرة ثانية :

ما كاد الشاعر يتسلم شهادته من كمبردج حتى عن له أن يزور فرنسا مرة ثانية ليتصل بالثوار الذين تشبعت نفسه بمبادئهم في رحلته الأولى . شرع في ذلك ماشياً سنة ١٧٩٠ ، فمر بباريس عش الثوار حيث قضى بضعة أيام يرصد في أثنائها حركات الثوار عن كثب ، ومن ثم رحل إلى أورليان فبلوا Blois حيث

تعرّف بابنـة جرّاح فرنسي اسمها أنيت فالون Annette vallon وأقام هناك برهة يتعلم عليها مبادئ الفرنسية . ولقد كانت هذه الفتاة على حظ وافر من الجمال مما استهوى شاعرنا وأوقعه في الشرك ، فوضعت على أثر ذلك طفلة . ورأى وردزورث أن يمحو إثمه هـذا بالزواج منها ، لكن الظروف لم تسمح له بالبقاء طويلاً في أرض الثوّار لنفاد دراهمه وقطع عمه المساعدة المالية عنـه متوخياً بذلك إرغامه على الرجوع إلى بلاده لئلا يقع في حبائل الملكيين . وإننا لنحمد الأقدار التي أوحت الى عمه ذلك ، إذ لولاه لقضي شاعرنا كما قضي غيره من عباقرة الرجال أنصار الثورة الفرنسية ، ولم يخلف لنا بعدُ تراثاً أدبياً يُذكر

ولقد أثارت عليه فعلته هـذه حرباً عواناً في الأوضاع الاجتماعية والأدبية فبعد أن كان متصفاً بالفضيلة والكمال إلى حدّ القداسة أمسى اسمه مقروناً بالكفر والاثم خصوصاً بعد أن كشف لنا الدكتور هارير عن هذه الصحيفة السوداء من حياته في فرنسا في كتابه « حياةوردزورث » . ولقد ظهر في سنة١٩٢٢ كتاب لاميل ليجوس اسمه « وليم وردزورث وأنيت فالون » يصف فيـه علاقة الشاعر بمشوقته المنكودة الحظ في بلوا . ولم يُشر الشاعر إلى هذه الحادثة في جميع أشـعاره أو كتاباته النثرية إلا بعض الاشارة والتلميح في قصيدته فودرا كور وجوليا Vaudracore & Julia

وفي أثناء إقامته في بلوا اتّصل بفيلسوف وزعيم جمهوري كبير هو ميشيل بيوباي ، فصرف معه طوال الليالي على ضفّة اللوار في الجدل والبحث في حرية الانسان السياسية والاجتماعية مما غذى عقيـدة شـاعرنا الثورية وأذكى في نفسه نار التمرد والخروج على المبادئ القديمة . ولقد سوّلت له نفسه الانخراط في عداد الثـوار وحثّهم على مهاجمة معاقل الملكيين . بيد أنه لم ينفّذ رغبته هذه لنفاد دراهمه كما بينا فعاد إلى انكلترا وفي نفسه غصة وفي فؤاده حرقة لحبوط مسعاه وتلوث اسمه بذلك الفعل المنكر

كان للشاعر شقيقة اسمها دوروثي لا تقل عنه في توقد الذهن وحدّة الذكاء ونفاذ البصر ، وكثيراً ما كانت توجه نظره إلى أمور دقيقة ، وحوادث غريبة ، ومناظر بديعة فيتخذها مواضيع لقصائده . وقد أخذت على نفسها مرافقته في غدواته وروحاته منذ صباها رغم معارضة أمها لها . فمند مالمحت فيـه وميض العبقرية وفيض الشاعرية هبت إلى مناصرته وتشجيعه على المضي في سبيله . وكانت في أكثر الأحيان تقرأ أشعاره وتنظر فيها قبيل إعدادها للنشر نظر الناقد الشفيق . وقد وجد في أخته هذه كل العزاء والأنس بعيـد رجوعه من فرنسا كاسف البال كسير القلب لما جنته يداه من إثم

في فورنست :

كانت أخته تقطن آنئذ فورنست فقصدها شاعرنا ، وهناك نظم عدة قصائد جمعها في مؤلفين سماها « سير في الليل » An Ereniug Walk » ومقطعات وصفيـة « Descriptive shetches .

واقد أعجب كولردج بهما وتكهن لناظمهما بمستقبل باهر في عالم الأدب رغم ما وُجّه اليه من نقد على صفحات « منثلي ريفيو » و « ادنبرج ريفيـو » . وفي تلك الأثناء خاض الشاعر المعامع السياسية فنادى بتحرير الزنوج ومعاضدة ثوّار الفرنسيين ، ويعالج في بحث له يرد به على أحد أنصار الملكية مبادئ الحرية منادياً باتساع نطاق الدموقراطية على حين لم يكن فيه الرأي العام قابلاً للأخذ بهذه الآراء المبتسرة

فمضى شاعرنا ردحاً من الزمن حائراً بين الكنيسة والأدب لضيق ذات يده . على أن المنية وافت صديقه الحميم ريسلي كالفرت فأوصى هذا قبيل مماته لوردزورث بتركته البالغة نحو ٩٠٠ ج مما حداه إلى الانصراف بكليته إلى الأدب وقرض الشعر . ولقد كان لهذه المبرة أثر ظاهر في حياته ، وقد أشار اليها في « الفاتحة » وفي قصيدة موضوعها « إلى كالفرت »

والظاهر أن شاعرنا لم يكن على وئام تام مع أقاربه . نستنتج هذا من رسالة بعثت بها شقيقته دوروثي إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « إن أخي لناقم على أقاربه ، ولا يصفو قلبه إلا لأخويه يوحنا وخريستو »

(يتبع) جبرئيل القسوس

شهـــداء الانسانية

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـــدمة

شهداء العلم والاصلاح يزدحمون على باب الحياة ويسألون كل هالك : هل تحقق الخير الذى بذلوا حياتهم من أجله ؟ فتدركه الحيرة ! أيكذب كى يدخل على قلوبهم الاطمئنان ، أم يصدق فيفجعهم فى آمالهم ، أم يغريهم بالصبر الطويل كصبر الأحياء على الشر . أم يغريهم بالعودة إن استطاعوا الى كفاح الحياة . وإذا استطاع أن يعزى الشهداء الموتى فماذا يقول للشهداء الأحياء :

الناظم

* * *

على باب الحيـاة أرى زِحَاماً ... من الأشباح عجَّ بهم وسالا

من العهد القديم إلى زمان ... حديث قد مضوا زُمراً توالى

هُمُ ضَحَّوْا بهذا العيش كيما ... يطيبَ العيش للأحياء حالا

إذا ما هالك ألفوه ظلوا ... على شغف يعيدون السؤالا :

* * *

بربك هل مضى قدرٌ بِشَرّ ... وخبث النفس هل أودى وزالا

وهل جفّت دموع الناس طرا ... وهل بلغوا من العيش الكمالا

وذل الجوع هل قد زال عنهم ... وكان سوادهم هَمَلاً مُذالا

وجهل يفتـدى بالناس بُهْماً ... يُصَرِّفها يميناً أو شمالا

وهل غلبوا من الشهوات ما قد ... عدا سلطانه فيهـم وغالا

أصار العيش من مِقَةٍ وأمن ... وكان العيش لؤماً واقتتالا

أعاد العيش عدلاً واعتدالا ... وكان العيش مكراً واغتيالا

بربك لا تقـل إنَّا غُبِنَّا ... وإن هزأ الحِمَامُ بنا وصالا

* * *

أيفجعهم بآمالٍ عِزَازٍ ... وما نال الردى منهـا منالا

يقول لهم : لقد رُمْتُم خيالا ... وأسديتم وضحيتم ضلالا

أيسكت والسكوت له معانٍ ... أيخدعهم وما ألفوا احتيالا

أيغريهم بصبر مثـل صبر ... لدى الأحياء دام لهم وطالا

أيأْتَى أن مَوْتَى لم ينالوا ... من العرفان ما يُرْجَى نوالا

أيغريهم ببخع النفس يأساً ... إذا اسطاعوا عن الأخرى انتقالا

أيسخر أنهم ـ وهُمُ رفات ـ ... أبوا للعيش سقماً واعتـلالا

فيا عيش الورى ماذا تراه ... يقول لهم إذا ألقى مقالا

* * *

يقول لهم إذا اسْطعتُمْ فعودوا ... دفاعاً للنوائب أو صـيالا

إذا الأحياء لم يرعوا عهوداً ... لأحياء فلا تشكوا انخذالا

* * *

يقول لمعشر الأحياء منهم ... ليقضوا العيش صبراً أو نزالا

أيفدح أن تقاسوا العيش نحساً ... لِيُسعِد بعـدكم صحباً وآلا

وكم من نعمة لولا شـقاء ... قديماً لم تكن إلا وبالا

فكم خَبَر الأوائلُ من شـقاء ... فنلنا من شـقائهم نوالا

عبد الرحمن شكرى

مفتش بوزارة المعارف

خمـــر الرضا

للدكتور ابراهيم ناجى

ياحبيبى اسْقِنِى الأمانِيَّ واشْرَبْ ... بُورِكَتْ حمرةُ الرضا وَهْىَ تُسكَبْ

بُورِكَ الكَأْسُ والحَبَابُ الذى يَرْ ... قُصُ فى الكَأْسِ والشُّعاعُ المُذَهَّبْ

نَضَبَتْ رَحمةُ الوجودِ جميعاً ... وَبِكَ الرحمةُ التى ليس تَنْضَبْ

وَلئن ضاقتِ السماء بِشَجْوِى ... فالسماء التى بِمَنْكِبَيْكَ أَرْحَبْ

وشَقَائى وسادُ رأْسى إذا نِمْـ ... تُ وَمَرْسَاىَ حيثُما أتَقَلَّبْ

كمْ تَمَنَّيْتُ والصُّدُورُ تُجَافِيـ ... ـنى وَتزْوَرُّ والوجوهُ تقطَّبْ

كم تمنيْتُ صَدْرَكَ البَرَّ ، يَرْتَا ... حُ على خَفْقِهِ الطَّرِيدُ المُعَذَّبْ

هاتِ وَسِّدْنِىَ الحَنَانَ عليـهِ ... جَسَدِى مُتْعَبٌ وَرُوحِىَ مُتعَبْ

ابراهيم ناجى

أياصوفيا

بقلم أمجد الطرابلسي

أياصوفيا حان التفرق فاذكرى
عهود كرام فيك صلوا وسلموا
حافظ ابراهيم

« أياصوفيا » تُذرِى الدُّموعَ وتَسفَحُ … وتُمسِى على مُرِّ الأنينِ وتُصبِحُ

تنكَّرَ أهلوها لها وأذاقها … فوادحَهُ صَرفُ الزمانِ المُفدِّحُ

وهانتْ على مَنْ كانَ بالأمسِ مُشفقاً … يُدافِعُ عنها الطامعينَ وينفحُ

فوا أسفا! ماذا أساءتْ وأذنبتْ … وقد يُغفَرُ الذنبُ العظيمُ المُبرِّحُ

أيهجُرُها أبناؤها دونَ رحمةٍ … وتتركُ في أيدي الأسى تتصوَّحُ

ألم تكُ محرابَ الخلافة أعصراً … يرفُّ عليها المجدُ والعزُّ يَصدَحُ

إذا سمعَ الناسُ الأذانَ رأيتها … تكادُ بأفواجِ المصلِّين تطفحُ

وإن تُلِيَ الفرقانُ فيها رأيتها … تمايَلُ من ترتيلِهِ وتَرنَّحُ

فأضحتْ خلاءً لا الحمائمُ خُشَّعٌ … لديها، ولا الداعي المؤذِّنُ يُفصحُ

وعُطِّلَ فيها الدينُ فهيَ وجيعةٌ … تضجُّ شكاةً والمنابرُ نُوَّحُ

* * *

«أتاتورك» لا يغرُرْكَ أنكَ حاكمٌ … مُطاعٌ، تُردِّي إن أردتَ وتصفحُ

رُوَيدَكَ إنَّ الدهرَ ـ مذ كانَ ـ قُلَّبٌ … يعودُ فيستقضي الذي كان يمنحُ

لَعَمْرُكَ إنْ أمسيتَ ربًّا مُسوَّداً … أتعلمُ ما يُبدي الصباحُ ويفضحُ؟

إذا العينُ نامتْ عن أذى الدهرِ غفلةً … تُفيقُ على الهولِ العظيمِ وتُفتَحُ

وأنتَ الذي يدعونكَ اليومَ مُصلِحاً … فهل يَهدِمُ التاريخَ والمجدَ مصلح

لئن كانَ قُبحاً نبذُكَ العُربَ جانباً … فنبذُكَ للدينِ المقدَّسِ أقبح

حقوقٌ على العُربِ الكرامِ صَبَبْتَها … على الدين، ما تنفكُّ تُورى وتُقدَح

تبينَ فيها الغدرُ واللؤمُ والأذى … «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ»

تجرّأتَ مغتراً على الدينِ أهوجاً … ولكنَّ دينَ اللهِ أسمى وأسمحُ

وشمّرتَ للدينِ الحنيفِ مغالباً … فوا عجباً! أنتَ الأجمُّ وتنطحُ

وما ناصبَ الدينَ العداوةَ أحمقٌ … منَ الناسِ إلا عادَ وهوَ مُجرَّحُ

وللهِ عينٌ تَكلأُ الدينَ برّةٌ … وتدفعُ عنه كلَّ من جاء ينبحُ

* * *

بنيتم على الإسلامِ شامخَ مُلكِكم … فلستَ إذا هدَّمتَهُ اليومَ تُفلِحُ

وإنَّ أيادي العُربِ فيكم كثيرةٌ … وما ضرَّها أن تُنكروها وتقدحوا

ولولا تهاويلُ الخلافةِ لم يكن … «لعثمانَ» في ضخمِ الممالكِ مطمحُ

فإن تهجُروا الدينَ المقدَّسَ فارجعوا … سوائمَ ترعى في المروجِ وتسرحُ

* * *

«أتاتورك» حاذرْ من بني الغربِ وثبةً … وإن غرّدوا بالسِّلمِ يوماً ولوَّحوا

فحبُّهمُ حبُّ الذئابِ لنعجةٍ … وسِلمُهُمُ البرّاقُ سِلمٌ مُسلَّحُ

فصمتَ عُرى الشرقِ العزيزِ بنزوةٍ … من الحُمقِ ما تنفكُّ تنزو وتجمحُ

وقطّعتَ أسبابَ القرابةِ عامداً … وهذا الذي يُرضي عِداكَ ويُفرِحُ

أأنتَ إذا خُنتَ القرابةَ واجدٌ … من الأهلِ من يحنو عليكَ وينصحُ

ووالله لا يُبدي لكَ الغربُ حُرمةً … ولو رُحتَ في أذيالِهِ تتمسَّحُ

يقولُ لكَ الغربُ المُدِلُّ بنابِهِ … وقد جئتَ تستجدي رضاه وتمدحُ

مكانكَ يا شرقيُّ وارجعْ بذلّةٍ … فمن ذا رأى الشرقيَّ للعزِّ يَصلُحُ

ومهما سما الشرقيُّ فالشرقُ نعجةٌ … تُسمَّنُ للغربِ النهومِ وتُذبَحُ

فلا تلتمسْ عطفاً من الغربِ صاغراً … ذليلاً فما يحنو القويُّ ويسمحُ

ولا تعبُدِ الغربيَّ جهلاً فإنما … ستكسبُ منه كلَّ ذلٍّ وتربحُ

ألستَ تراهُ رابضاً متربِّصاً … يودُّ لو انَّ الصيدَ يبدو ويسنحُ

دمشق — أمجد الطرابلسي

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٦ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

غزوات نيتشه

الغزوة الأولى

حمل نيتشه فى الغزوة الأولى على الكاتب الألمانى « داڤيد ستراوس » وعلى كتابه الذى أخرجه فى درس الدين والمدنية ، والايمان قديمه وحديثه . وقد يحتدم فى نقده للجزء الثانى من الكتاب حيث يعلن « ستراوس » المثل الأعلى الذى يجده خير ماوجده لأبناء الأجيال القادمة . ونيتشه يصب سوط نقده على الرجل الذى لم يعلُ ولم يسفل ، بل وقف وسطاً قانعاً بما آل اليه ، يأخذ من كل علم بحزمة ، ويقنع من كل فن بضمة ، ويعتقد بأنه بلغ الدرجة القصوى من الكمال الانسانى

لايؤمن « ستراوس » بجنة المسيح ، ولايرتاح لوجود الله ، وإنما يعمل على أن يوحى الى أنصاره أن العالم ماهو إلا رحى ميكانيكية لاتهدأ عن دورانها ، وما على الانسان إلا أن يسلم من الوقوع تحت ثفالها . وهو فى الأخلاق كذلك ، فلا يبشر بمذهب خطر ، ولا يجرؤ على أن يطلب إلى الفرد أن يستخدم مواهبه وان يكون كما تريد نفسه فى الوجود . وإنما يقول هذه الجملة بعد تثبته من اختلاف الناس فى حظوظهم ومواهبهم ، « لاتنس أبداً أيها الانسان أن الآخرين هم أناس مثلك ، لهم نفس حاجاتك وذات مآربك »

يحسب كل ما تجاوز حد الفهم الوسط قبيحاً ، لأن العبقرية تتجلى فى التوسط لا فى التطرف . فالنشيد التاسع « لبيتهوفن » لا يقع موقع الرضا إلا عند من يرون الغريب عبقرية ، والخروج عن المألوف والوزن سمواً . وقد ظن بنفسه أنه قهر « شوبنهاور » ببرهانه الركيك الذى رآه « إذا كان الوجود قبيحاً ، فالعقل الذى أوجده هو قبيح أيضاً ، فالمتشائم إذن هو مفكر قبيح ، والوجود هو حسن وجميل ! . . . »

إن ستراوس فى نظر نيتشه هو مثال العقل المتوسط الذى يدعى معرفة كل شئ ، ويريد أن يفرض سلطته على الوجود . هو مفكر هياب لايبلغ بفكره إلامنتصف الطريق ، ولايستطيع أن يقصد نهايته . إنه متفائل يغلق عينيه عن الآلام الضرورية للبشر خوفاً ورهبة . وهو مفكر يدعو الناس إلى حياة قانعة خانعة ، وبدلاً من أن يكرم رجال العبقرية يعمل على محاكمتهم لأنهم — بزعمه — خالفوا نظامه ومثله الأعلى باختراقهم حدود النبوغ المتوسط

***

الغزوة الثانية :

وتصدى نيتشه فى تأملاته الثانية للتاريخ ، وهو لا يجابه رجلاً معلوماً أو طائفة مشهورة ، وإنما ينازل مذهباً حديثاً يهم بأن يشيع ويطبع الحضارة المصرية بطابعه ، فالتاريخ هو خير راع للحضارة وناقل لها ماظل يعمل على خدمة الحياة ، ويحث الناس على نشدان الحياة السامية ، فالتاريخ الموقوف على نشر المآثر يمثل للانسان آثار الأقدمين الرائعة ويبعث فى روحه الأمل

نجوى

أنت لحن الفؤاد فى الخفقان ... يانجيّ الضمير فى كل آن

رافق القلب ذكرك العذب كلما ... ء رفيقاً لخاطر الظمآن

إن هذى الحياة ـ وهى شؤون ـ ... ليس فيها سواك لى من شان

أنا من أجلك احتملت حياتى ... حين ظلّت فى الحياة مكانى

ربَّ ليل معى عليك هنيئاً ... بتُّ فيه مؤرق الأشجان

طيفك العابث الكذوب يمنِّ ... نى فأحيى ليلى سمير الأمانى

وأرى عطفك البعيد قريباً ... فيفيض السرور فى وجدانى

ثم يحنو علىّ طيفك حتى ... نتهادى مواثق الرضوان

ونحلُّ الوصال لثماً وضماً ... وحديثاً باللحظ أو باللسان

ثم أصحو فلا أراك حيالى ... فيثور الدفين من أشجانى

أيها الظالم الجميل ترفق ... بأسير معذب ولهان

بغداد — ابن عباس

الملتهب والعزم المتأجج لأكمال معنى هـذه الآثار . ويعمل على رفع مثل الانسانية الأعلى ناقضاً من قلبه التلهى بحب الحاضر والاستسلام لملذاته . أما التاريخ التقليـدى الذى يوحى للانسان احترام الأشياء الفانية ، وحب الآثار الماضية ، فهو خير حقير يحمل أصحابه على الرضا بالحاضر الممقوت ، يسكرهم بذلك الماضى الذهبى البعيد ويسكب فى وجودهم القاتم المستكين خدراً شعرياً يمنعهم على الركود . وهنالك التاريخ الناقد الحاكم ، يعرض الماضى كله على محكمة العقل ويبحث فيه ثم ينفيه ، لأن كل ما كان من حقه أن يزول . — ان مثل هذا التاريخ هو سلاح محمود عند من أثقلت ظهورهم أعباء الماضى الثقيل ، وهم يريدون أن يطرحوها عنهم ويمشوا قُدُماً إلى ما خطت لهم الحياة

ولقد يستحيل التاريخ إلى قوة غاشمة سيئة حين ينفصل فى طريقه عن الحياة ، وحين يود أن يفرض مذهباً خاصاً بعيداً عن مذاهبها ، إنه يصبح رسول موت لا رسول حياة . ينشئ من الانسان مجموعة محشوة علوماً ومعارف . ويقتل فيه القوة التى تسوقه إلى العمل . . . إنه مجموعة أثرية لاحظ فيها لسطر من سطور العمل . صاحبها ضعفت شخصيته ، ونشأ فى تفكيره عالة على غيره ، وتعلم أن التاريخ يجب أن يتلقنه تلقيناً ، وألا يضعه بنفسه . على أن المؤرخ الحقيقى الذى ينبغى لمثله أن يسطر التاريخ هو من يقف تجاه المسألة التى يدرسها وقفة الخلى ، ويعمل دائباً على تشييد بناية الحاضر . رجل التجارب والسمو هو الذى يسطر التاريخ

وللتاريخ وجهة ثانية رائعة يستخلصها نيتشه : هى أن التاريخ يكرِّم من التفاؤل ما كان محفوفاً بالكدر والخطر . ويحترم الميول الفظّة وبعيد الظفر . يعتقد المؤرخ أنه يرى فى الحركة الانسانية أثراً لا أعلم من أى عقل سام منحدره . يجهد العقل ليدرك أنى بدأت هذه الحركة وأين يجب أن تنتهى ؟ والانسان لم يكن عظيماً إلا حين كان يشن الغارة على القدر ويعلن الحرب على القضاء الأهوج ، ولكنه يفعل ذلك دون أن يخرج من نفسه

ليس التاريخ الحقيقى بذلك التاريخ الذى يأتى على كل شىء وإنما هو تاريخ أبناء العبقرية ، وسيأتى عصر تتبدل فيه صورة هذه الحركات التى ألف التاريخ تسجيلها . وسترسم هذه الصورة بصورة أدنى إلى الحقيقة ، فلا يكتب التاريخ بعمومه وخصوصه ، وإنما يقصر فيه على رجال العبقرية الذين أثروا فى العالم ؛ هم لا يأتون ويتعاقبون حسب شريعة تاريخية ، ولكنهم يعيشون وراء الزمان ! يمثل وجودهم التصـل التماسك معبراً ترابطت أجزاؤه واستمكنت عقده فوق الأمواج العاصفة . ولنعم هذا التاريخ الذى يرسم هذه الصورة ويخرج هذا المثل ! وهذه هى جمهورية العباقرة التى تحدث عنها « شوبنهاور » . عبقرى ينادى عبقرياً فى أثناء العصور واهضام الأجيال . ووظيفة التاريخ أن يجمع شتاتهم ، ويدنى بعضهم من بعض ، وأن يهيئ — فى كل مهلة — ولادة جديدة لعبقرى جديد . إذ ليست غاية الانسانية من سـيرها ذلك الغرض الذى تزحف اليه وإنما غايتها تتمثل فى النماذج الكاملة التى تخرجها وتنشئها فى الوجود

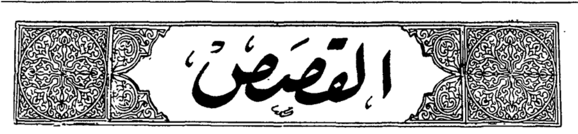
* * *

الفترة الثالثة :

ولم يقف الأمر عند تهديم العمارة القديمة وتماثيلها الخطرة . فهو يقصد إلى تشييد عمارة المستقبل على دعائم جديدة ، فتحرى عن عباقرة أحياء يستطيعون ان يذهبوا بالشباب إلى هذه العمارة وإلى هدف جديد ، ينزع عنهم هـذا التفاؤل المخدر ويعرضهم أمام أنفسهم مجردين ، وسـعى إلى أن يرى له معلمين يساعدونه على كشف نفسه ويعرفونه بنفسه ؛ من أين نشأت وإلى أين تذهب ؟

وقع — أو شاءت المصادفات — أن يقع نيتشه مصادفة على كتاب شوبنهاور « العالم إرادة وتمثيل » وما كان نيتشه ليقدر ان هذا الكتاب سيقلب كل أطوار حياته ، ويترك ثورة مستعرة فى فى نفسه ، ثم تشتعل هذه الثورة وتزيدها الأيام ضراماً ، فلا تهدأ إلا بعد أن تأكل نفسها ، وتمد ألسنة شواظها إلى نفسها فتهدأ الثورة بثورتها على ذاتها ... فكان أول ماشغله من هذا الكتاب الجديد شخصية صاحبه المتجلية فى كل حرف من حروفه ؛ وهو الذى يقول : « أنا من قراء شوبنهاور ، ممن يدركون أنهم سيتلون شوبنهاور من فاتحته إلى خاتمته ، وسيصغون إلى كل حرف تهمسه شفتاه . إن ثقتى به ثقة عمياء مازادها كر الأيام إلا ثباتاً »

(يتبع) خليل هنداوى



من أساطير الإغريق

القرية الظالمة

للأستاذ دريني خشبة

ذهبا يدلجان فى هدأة الليل ، ويضربان فى ظلام الوادى ، ويتحدث أحدهما إلى الآخر حديث الآلهة ؛ وكلما نال منهما الجهد ، جلسا يتسامران ، أوينصت الشيخ ذو اللحية البيضاء المرتعشة ، إلى السحر الذى تنفثه قيثارة الفتى اليافع

ـ «حسبك يابنى ، فلقد كادت موسيقاك تبطل عمل العاصفة»

ـ « وفيم تريد أن تستيقظ العاصفة يا أبتاه ؟ »

ـ « أريد أن تستيقظ العاصفة لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس . أترى إلى هذه القرية الناعمة فى أكناف الجبل ؟ »

ـ « أين يا أبى ؟ »

ـ « أنظر جيداً »

ـ « الظلام دامس ، ويكاد الحلك يختلط بسواد الصخر فلا أرى شيئاً . . . »

ـ « أنظر فى الجهة التى تشير إليها يدى »

وأشار الشيخ بيده فانبعثت منها شعاعة من نور شديد ، كشفت القرية للفتى

ـ « آه . هذه هى . عمش خفيف أصابنى الليلة يا أبتاه ! »

وكان الفتى حلو الدعابة رقيق النكتة ، ثرثاراً ، فقال له الشيخ يحذره :

ـ « إذا كنا عند القرية فلا تبدأ حديثاً ، ولا تخاطبنى إلا أن أخاطبك ؛ وإياك أن تأتى باشارة تسقط هيبتنا فى أعين القوم ، فانهم لؤماء سفهاء ، وقد تفسد علينا ثرثرتك ما جئنا من أجله الليلة إلى هذه القرية . . . »

« نسيت القفل يا أبتاه ! ! »

ـ « أى قفل ؟ »

ـ « الذى أقفل به فمى فما يتحرك ببنت شفة »

ـ « يا خبيث . . : أصمت »

* * *

وأشار الشيخ بيده إلى السماء فاربدت وتكلحت وأورى برقها وقرقع رعدها ، وانصبت ميازيبها بماء منهمر . وانطلقا إلى القرية . . .

ووقفا عند منزل فخم ضخم ذى شرفات ، فقال الشيخ :

ـ « تشبث يا بنى بأحياد الحائط حتى تكون عند النافذة ، فانظر ماذا ترى »

وفعل الفتى ، ونزل ، وقال للشيخ :

ـ « أبتاه ! نسوة عاريات يرقصن ، وندامى وخمر ، و . . . موسيقى . . . وفتيان وفتيات . . . و . . . »

ـ « وماذا يا صفيرى العزيز ؟ »

ـ « ودعارة وعهر يا أبتاه . . . . لماذا جئنا هنا ؟ لماذا جئنا هنا ؟ . . . »

ـ « قلت لك جئنا لأريك عجباً هذه الليلة من طباع الناس ، هلم إلى باب هذا المنزل »

وطرقا الباب ، فبرز لهما فتى غرانق وقال : « ماذا ؟ شحاذان قذران ! » فقال الشيخ :

ـ « على رسلك يا بنى . أنا رجل شيخ غريب ، وهذا ابنى ، وقد دهمتنا العاصفة فلجأنا إليكم نرجو أن تضمنا غرفة صغيرة إلى الصباح ، ونطمع أن نتبلغ لديكم بلقمات . . . »

ــ « غرفة ولقيمات ؟ ها ها . . . اذهبا اذهبا . . . لصوص ! هذه حيل قطاع الطريق والسفاحين بلوناها من قبل »

ثم قذف بمصراع الباب فى وجهيهما . فنظر الشيخ إلى ولده وقال : « أرأيت ؟ سر إلى هذا البيت القريب »

وقال لابنه : « هلم إلى النافذة فانظر . . . »

وتسلق الفتى وحملق قليلاً ، ثم قفز وقال : « أبتاه ! أناس يخزنون الذهب فى خوابٍ عظيمة ويختمون عليها بالرصاص المذاب ؛ من أين لهم هذا الذهب كله يا أبى ؟ .. » فقال الشيخ : « هم لصوص يا بنى ، وإن كانوا لا يقطعون طريقاً ، ولا يسطون على دار ؛ ولكنهم يمتصون دم الفقير والمعتر ، ويصهرونه ذهباً ويكنزونه هكذا ؟ ! إنهم أصحاب هذه الضياع والبساتين ! هلم إلى بابهم .... »

وطرقا الباب ، وسألا طعاماً ، ومبيت ليلة ، فقالت لهم العجوز صاحبة الدار :

ــ « إن هذا العام عام شــدة ، ولم تبق لنا المجاعة على زرع ولا ضرع ، ماذا عندنا لنعطيكم ؟ هيكل زيوس قريب من هنا ناما فيه ، وكهنته أسخياء كرماء ، وعندهم فى كل آونة خمر ... سيطعمونكما ويسقونكما ؛ وربما قدموا لكل منكما غادة ! فهم فساق عرابيد ... إقصدا إليهم ... اذهبا ... »

وقذفت بالباب فى وجهيهما ....

قال الشيخ : « أرأيت يا بنى ؟ » فقال الفتى مداعباً : « نحن نستحق أضعاف هــذا الهوان ! مالنا وللناس ؟ ! » ؛ فقطب الرجل جبينه وقال : « مالنا وللناس ؟ اذن ما نحن فى هذه الدنيا يابنى ؟ ولــكن ليس الآن ما أعددت لك من عبرة هذه الليلة ؛ سر بنا الى ذلك القصر العتيق »

فلما كانا عنده ، تطلع الفتى فرأى صخباً كثيراً ما يزال يتمشى ، والموائد حافلة بالأشربات والأشواء ، وبكل مالذ وطاب . والندامى البيض كالنجوم رافلات ، ورافلون ، فى وشى وأفواف . وكأن الفتى استطير من العجب ، فقال للشيخ : « كل الناس يا أبتاه هانئون هذه الليلة القرورة إلا نحن ! ! الجميع يأخذ فى نشوة ولذة ونحن نضرب فى وحل و نتشقق من غيظ ؟ ! »

قال أبوه : « ألم أقل لك ألا تبدأ حديثاً حتى أبدأك ؟ هلم إلى الباب » وقرعا الباب فبرز لهما شابٌ مفتول العضل كأنه هرقل . فلما سألاه حاجتهما ، قادهما إلى البهو الواسع حيث القوم فيما هم فيه من متاع

قال الشاب المفتول : « اليكم أيها الاخوان لصين من لصوص الدجاج عاثا كثيراً فى قريتنا هذه ، ولولا طول الحذر ماذقتم الليلة رجل دجاجة . . . . . . إنهما يطلبان مبيتاً وعشاءً ، ولا أدرى لِمَ لَمْ يقصدا الى هيكل الأب زيوس حيث المبيت الوثير والعشاء الكثير ؟ ! وحيث أشياء أخرى . . . . . . »

وقهقه السمار وتكبكبوا حول الغريبين ، ثم أخذوا معهما فى ألوان غير محتشمة من المزاح الثقيل . هذا ينتف شعرات من ذقن الشيخ ، وذلك يرفع ذيل الفتى مما وراء ، وهذه تعانق الشيخ وتقبّله وتقدم له كأساً من الخمر ، وتلك تركب الفتى « زَقَفُونَه ! » (1) . . . . . .

ولما فاضت الكأس بالشيخ والفتى ، نظر أحدهما إلى الآخر نظرات ، ثم غابا عن أنظار الجماعة ، كأنما تحولا الى هواء . . . ؟ ! فَشُدِهَ القوم ، وأوجسوا خيفة

* * *

لم يبرح الرجل وابنه يتنقلان فى شوارع القرية الموحلة من بيت إلى بيت ، وكلما طلبا المبيت والعشاء استهزئ بهما وطردا شر طردة وأخسها ، حتى ضجر الفتى وبرم بحكمة والده فى هذه الرحلة المضنية فى ذلك البلد البخيل . . . فقال له : « اذهب أنت فسأنتظرك على هذه الصخرة الناتئة فى حيد الجبل ، وسأتسلى بموسيقاى حتى تعود » فقال الشيخ : « وحكمتى التى أردتك أن تراها بعينيك ؟ هلم ، هلم . . . أترى إلى ذلك الكوخ ؟ لندلج نحوه وليكن آخر مطافنا »

وكانت فى الكوخ كوة صغيرة ينبثق منها نور خافت . فلما نظر الفتى تمتم يقول : « أبتاه ! امرأة متهدمة وشيخ محطم ! يا لبؤس الحياة ، ويا لشظف العيش ! لماذا أرت العاصفة يا أبى ؟ إن الماء يئز عليهما ويبلل فراشهما . . . »

(1) لم نعرف غير هــذه اللفظة النابية للتعبير عن الركوب على ظهر الانسان مع لف الساقين والذراعين حول الوسط والعنق وقد استعملها أبو العلاء فى رسالة الغفران فنقلناها عنه

ـ « سترى أن هذا الكوخ هو وحده الذي يبقى »

ـ « ما ذا تعني يا أبي ؟ هل تهدم القرية ؟ »

ـ « صه ! هلم فاطرق باب الكوخ . »

* * *

ـ « قم يا فيلمون . إن بالباب طارقاً »

ـ « نامي يا بوسيز ! إنه البَرَد ترجم به العاصفة »

ـ « لا . ليس برداً . إسمع ! أناس ينادون . قد تكون بهم حاجة »

ونهض فيلمون متهالكاً على نفسه ففتح الباب . وما كاد الشيخ يذكر حاجته حتى هش صاحب الكوخ وبش ، وتلقى الرجل وابنه أحسن لقاء

ـ « مرحباً مرحباً . . . أنتما في حاجة إلى دفء . بوسيز . انهضي يا امرأة فأوقدي ناراً . أنا أعرف أن الحطب مبلل ، ولكن حاولي . . . مرحباً يا كرام معذرة ، فنحن نستعين على الحياة هنا بالصبر . بوسيز ، هاتي قربة النبيذ أولاً . ليس فيها الا صبابة ! لا بأس ! سيبارك زيوس للضيفين فيها . . . هاتي شيئاً من المشمش الجاف يا امرأة ! . . . »

وتأتي بوسيز بقربة النبيذ ، وما يكون فيها إلا ثمالة ، فيتناولها الشيخ ذو اللحية البيضاء ، فيتمتم فيها بكلمات فتمتلئ نبيذاً من خير ما عصر باخوس ؛ وبعد أن يروى منها هو وابنه ، يدفع بها إلى صاحب الكوخ ممتلئة كأن لم يمتد إليها فم ! فيتولى الرجل دهش عظيم ويقول : « بحق زيوس إلا ما أخبرتني أيها الصفيّ الصالح من أنت ؟ » فيقول الشيخ : « أنا أيها العزيز رجل نقلة وأسفار وهذا ابني الموسيقي البارع . أتطرب للموسيقى ؟ »

ويهتز الرجل ، ويوقع الفتى على قيثارته لحناً كأنه لسان العاصفة بما فيها من سنا برق وهزيم رعد ومكاء ريح وتنقير مطر ، ثم هو مع ذلك لحن مشرق متألق يأسر اللب ولا يستأذن على القلب . . . وطرب فيلمون ، ورقصت جوانح بوسيز ، وأحضرت طبقاً به قليل من المشمش الجاف فقدمته للفتى ، ناسية أن تقدمه الى الشيخ ، وهذا من أثر الموسيقى على أعصابها ، فقدمه هذا الى أبيه في أدب واحترام .. وما كادت اليد البيضاء الناصعة تمس الفاكهة حتى عادت إليها النضارة ، وتأرجت عنها أنفاس الحديقة ، وتضاعفت في الطبق حتى ملأته . فأكل الشيخ ، وأكل ابنه ، وأكل فيلمون وزوجه ، وهما لا يصدقان ما يريان !

وظلا يقدمان للضيفين كل ما استطاعاه من خبز وأدم ، فكان القليل يزداد والشفوف يتضاعف . وكانت لديهما إوزة عجفاء حاولا أن يجريا عليها التجربة فهما بذبحها ليصنعا منها شواء يقدمانه للضيفين ، ليريا ماذا يكون من أمرها . ولكن الأوزة فزعت فزعاً شديداً ، وانطلقت في ناحية الشيخ تستجير به كأنها تكلمه . فابتسم ، وربت على ريشها الناعم النظيف ، وأجارها من سكين فيلمون

وكان نسيم السَّحر قد أخذ يهب في الأفق الشرقي ، فقال الشيخ :

ـ « أيها العزيز فيلمون . أيتها التقية الكريمة بوسيز ، من إلهكما ! »

ـ « إلهنا زيوس تبارك في علياء الأولمب ؟ »

ـ « أو يسركما أن يكون معكما الآن ؟ »

ـ « معنا ؟ هو دائماً معنا ! »

ـ « أجل . هو دائماً مع عباده المخلصين . ولكن ، أيسركما أن تكونا الآن في حضرته يحدثكما وتحدثانه ؟ »

فيصيح فيلمون :

ـ « أنت هو زيوس . تقدست . تقدست »

ويسجد الرجل وزوجه ، وما تفتأ تأخذهما رعدة شديدة

ـ « أجل . أنا زيوس . أتيت أبتلي هذه القرية . وهذا ولدي هرمز . انهضا . والآن . ستزلزل الأرض زلزالها فلا تنزعجا . . . »

ووقف زيوس ، وأشار بيده إشارة خفيفة إلى الشرق ، ثم إلى الغرب ، ثم إلى الجنوب ، ثم إلى الشمال ؛ ؛ ؛ ثم نظر إلى فوق وتمتم بكلمات ، وجلس

وما كاد يفعل حتى رقصت الأرض ، وسمع كأن الجبل القريب يندك ، وكأن الصواعق تنقض على المنازل فتقوضها ، وتنقلب القرية إلى جحيم ملتهب ، وكلما أطل فيلمون أو أطلت امرأته من الكوة سرت فيهما رجفة أروع من رجفة الزلزال ، فيطمئنهما زيوس

ـ « الكوخ يا إلهي ! أنا رجل فقير ! »

ـ « مال كوخك يافيلمون ! »

ـ « إذا انهدم عشت في العراء ! »

ـ « لاعليك ! فلن تقوض الزلازل إلا قصور العتاة ؟ »

وأشرقت الشمس ، فنهض الإله الأكبر ، ونهض الجميع معه . وما كاد فيلمون يفتح باب كوخه الحقير حتى أخذه العجب وارتد على عقبيه مذعورا :

ـ « مولاى ! لمن هذا القصر المشيد ؟ »

ـ « هو لك يا فيلمون ، أمرت الآلهة فبنى لك فى ساعة السحر جزاء كرمكما . هلما نشهد غرفاته »

وانطلق الجميع يتنقلون فى غرفات القصر وردهاته ، وكلما مر فيلمون وزوجه بتمثال إله سجدا له وأخبتا ، حتى إذا كانوا فى أكبر ردهات القصر ، وقف زيوس وقال : «فيلمون ! هذا هيكلى ! وقد جعلتك كاهنى الأكبر ، فتمن الآن علىّ ، فسأجيبك إلى كل ما تطلب »

فتبسم فيلمون وقال : « مولاى ! الشباب يا مولاى ! ليعد الشباب إلىّ وإلى زوجى بوسيز ، ولنعش طويلا ، فاذا جاء وعدك فلنمت فى يوم واحد فى ساعة واحدة ! » وسجد يقبل الأرض بين قدمى الإله الأكبر !

فقال زيوس : « انهض يا فيلمون فطلبك مجاب ، وستعيشان راغدين ! »

* * *

وسلم الإلهان وغابا عن الأنظار ، وخرج فيلمون وزوجه ليريا إلى القرية ، فلم يشهدا شيئاً غير بحيرة تمج أمواجها ، وجزيرة كبيرة خضراء فى وسطها قصرهما المنيف ! فآمنا بزيوس وسبّحا له !

وعاشا طويلا ، وماتا فى يوم واحد وساعة واحدة ، ونبتت دوحتان عظيمتان من أشجار السرو أمام باب القصر تخلدان ذكراها فى العصور ... !

دريني خشبة

البريد الأدبي

المؤتمر المصري الثالث للطلبة المصريين بانجلترا

أقام الطلبة المصريون في انجلترا مؤتمرهم الثالث من مساء يوم الأربعاء ١٠ يوليه إلى يوم الاثنين ١٥ منه ، فحاضر في اليوم الأول اللازم حسن بكير في البوليس المصري والأمن العام : حالتهما وما يجب أن يكونا عليه ؛ وفي يوم الخميس ألقت الآنسة أسماء فهمي محاضرة عن (علاقة علم النفس بالتربيـة ومقاييس الذكاء) ، وكذلك ألقى الأستاذ عبد العزيز أمين عبد المجيد محاضرة عن (عيوب النظام المدرسي الحالي بمصر ووسـائل اصلاحه) ؛ وفي يوم الجمعة تكلم الأستاذ يحيى نامق عن (حركات الشباب المصري وكيف يجب أن تتجه) ، والأستاذ حسن محمد الشعراني عن (رقي الصناعة في مصر) ، ثم تحدثت الآنسة حنينه خوري عن (الحبشـة وعاداتها وعلاقتها بمصر) ؛ وفي يوم السبت تكلم الأستاذ ابراهيم حسن الوجي عن (فضل الاسلام في رفع منزلة المرأة) ؛ وفي يوم الأحد تكلم الأسـتاذ سليمان أحمد حزين عن (مشكلتي السكان والدفاع القوي ومكانتهما من سياستنا التعليمية) ، والأستاذ يحيى عبد السـلام الملايلي عن (علاقة الطلبة المصريين بانجلترا وكيف يجب أن تكون)

وفي يوم الاثنين انعقد المؤتمر بشكل جمعية عمومية لمراجعة النتائج التي وصل اليها في المحاضرات السابقة ولمناقشة شؤون المؤتمر الرابع المقبل وانتخاب اللجنة المعدة لادارته

بين الرصافي والريحاني

نشرنا في عدد مضى مارواه الريحاني عن الرصافي في كتابه الجديد (قلب العراق) وانتظرنا كلمة الأستاذ الرصافي في هذه الرواية . وقد قرأنا أخيراً في جريدة الاستقلال البغـــدادية كتاباً من الأستاذ الرصافي ينكر فيه كل ماعزاه الريحاني اليه انكاراً يؤيد تعليقنا على هـــذا الخبر إذ ذاك ، وهذا كتاب الرصافي بنصه :

حضرة الأستاذ الفاضل صاحب جريدة الاسـتقلال الغراء أرجو نشر الـكلمة التاليـة في جريدتـكم ولـكم الفضل والشكر :

أطلعني بعض معارفي على مارواه الريحاني عني في كتابه قلب العراق فعجبت منه واستغربته كل الاسـتغراب . لقد اجتمعت بالريحاني عدة مرات في أزمان مختلفة ، ومجالس مؤتلفة وغير مؤتلفة ، تجاذبنا فيها أطراف الأحاديث من كل نوع ، ولا أتذكرها اليوم لمرور الزمان ولاختلال ذاكرتي بالنسيان ، فأنا من هذه الناحية لا أستطيع أن أناقشه في صحة تلك الأقوال التي أسندها إليّ ورواها عني . ولـكنني الآن أستطيع أن أنفي نفياً باتاً صحة كثير مما رواه في كتابه المذكور بدليل أن في تلك الأقوال مالو قاله اليوم أحد غيري لأنكرته عليه أشـد الانكار . إذن فـكيف أقول للريحاني ما أنـكره لو قاله غيري ؟ وفي الأخير أقول : إن كان كل ماترويه الريحاني في كتبه من هذا القبيل فويل للحقيقة منه ، وويل له من الحقيقة !

معروف الرصافي

معهد شرقي في برلين

من أنباء برلين الأخيرة أن الحـكومة الألمانية قررت إنشاء معهد جديد يسمى « المعهد الشرقي » يلحق بجامعة برلين ويعنى بدراسة اللغات الشرقية ومسائل الشرق وحضاراته . وسيدمج في هذا المعهد الجديد ، معهد اللغات الشرقية القديم Seminar für Orient. Sprachen الذي كان ملحقاً بجامعة برلين ، ومعهد اللغات السامية والعلوم الاسلامية ، والمعهد الصيني ، والمعهـد الهندي الألماني . أما المعهد الياباني المخصص لدراسة المسائل والحضارة اليابانية ، فسيبقى مستقلاً كما هو الآن نظراً لمهمته الخاصة

وفي هذا النبأ ما يلفت النظر ، لأن الحـكومة الألمانية الحالية وهي الحـكومة الهتلرية قد اضطهدت حركة الاستشراق ، أعني المباحث الشرقية والاسلامية ، اضطهاداً شديداً ، لأن معظم أقطاب المباحث الشرقية والاسلامية من اليهود ؛ وقد طاردت الحـكومة

الهتلرية العلماء اليهود أشـد مطاردة وشردتهم من معاهدهم ، وركدت بذلك حركة الاستشراق فى ألمانيا ؛ وكانت هذه الحركة زاهرة بألمانيا قبل الحرب لأنها كانت يومئـذ تجيش بالمطامع الاستعمارية فى الشرق وتشجع المباحث الشرقية والاسلامية وتغذيها بالمال والبعوث ؛ ثم ضعفت هذه الحركة بعد الحرب ، وفترت همم العلماء المستشرقين لتخلى الحكومة عنهم وقصورها عن إمدادهم بالمال اللازم ؛ فهل نفهم من إنشاء « المعهد الشرقى » الجديد أن الحكومة الهتلرية تزمع العودة إلى تشجيع المباحث الشرقية ، وأن لهذه الخطوة علاقة بمطامعها السياسية والاقتصادية فيما وراء البحار ؟ هذا ومن جهة أخرى فالمعروف أن الحكومة الهتلرية تقيم سياستها على فكرة الجنس ، وأنها تنادى بانحطاط الأجناس الشرقية وعدم كفايتها « لانشاء الحضارات » وتعتبرها فرائس مشروعة لاستعمار الجنس الآرى إلى آخر ما هنالك من مبادئ ومزاعم جديدة يعمل الهتلريون على بثها وتدعيمها ؛ ولذا فانا نجد ما يدعو إلى التأمل فى اهتمام الحكومة الهتلرية بانشاء « المعهد الشرقى »

عميد أطباء فرنسا

من أنباء فرنسا أن الدكتور الكسندر جنيو عميد الأطباء الفرنسيين سـناً قد توفى فى سن الثالثة بعد المائة ؛ وأنه لبث محتفظاً بصفاء ذهنه وقوة حواسه حتى اللحظة الأخيرة . وقد كان مولد هذا الطبيب المعمر فى سنة ١٨٣٢ ؛ ودرس الطب ، ونال أجازته سـنة ١٨٥٧ ؛ ثم نال شهادة العالمية الطبية سنة ١٨٦٩ ، واشتهر بنبوغه فى الجراحة ؛ وانتخب عضواً فى أكاديمية الطب ، ثم رئيساً لها ، وانتخب أيضاً رئيساً لجمعية الجراحين ؛ وله مؤلفات قيمة فى فن الجراحة مازالت حجة فى بابها . وقد كان الدكتور جنيو طوال حياته شهيراً ذائع الصيت لا كطبيب نابغ فقط ، ولكن كرجل اجتماعى جم الفكاهة ، وقد اشتهر بالأخص برسالة ألفها فى أواخر حياته عن « طول الحياة » ، وما يجب على الانسان أن يتبعه من نظم التغـذية والرياضة إذا أراد أن يعيش مائة سنة ، وخلاصة نصحه فى ذلك أنه يجب الامتناع عن الافراط فى أى شىء ، فى العمل أو فى الراحة أو فى الطعام أو فى الشراب ؛ ويجب الامتناع بالأخص عن التدخين والخمر وغيرهما من المواد والعناصر المهلكة التى تبثها المدنية الحديثة

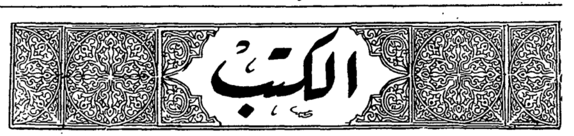
المرأة والاستكشاف

نظمت أخيراً فى انكلترا بعثة استكشافية جديدة لارتياد « الأرض الخضراء » (جرينلاند) فى منطقة المتجمد الشمالى ؛ ورحلت البعثة فوق السفينة القطبية الشهيرة « كوست » وهى سفينة السير أرنست شاكلتون الذى اشتهر باكتشافاته فى تلك المناطق ، وعهد برئاسة البعثة الجديدة إلى الأستاذ واجر ؛ وبين أعضائها عدد من العلماء القطبيين المعروفين بين انكليز ودانماركيين ومنهم الأستاذ كورتولد الذى اشتهر بمخاطراته فى الجزيرة الخضراء وقضى بها وحده شتاء كاملاً فوق الجليد فى سنة ١٩٣١ . ومما يلفت النظر أن هذه البعثة القطبية ترافقها أربع سيدات هن زوجات أربعة من الأعضاء ، وسيقضين الشتاء مع البعثة فى الجليد ، ويحتملن نفس المشاق التى يحتملها باقى الأعضاء . وقد سافرت البعثة من ثغر ابردين فى اسكتلندا فى أوائل شهر يوليه صوب البحار القطبية ، ويتولى تسيير السفينة بحارة من النرويجيين الذين عرفوا بخبرتهم فى هذه البحار ، واحتمالهم لهذه الأجواء

وعلى ذكر مخاطرة المرأة فى ارتياد المجاهل والوهاد الخطرة فى سبيل الغايات الاستكشافية نذكر أن امرأة بمفردها هى الدكتورة مارى آكلى أرملة المثال الشهير كارل آكلى تزمع السفر بمفردها إلى بعض مناطق أفريقية الوسطى فى رودسيا وفى سوالى لاند وزولولاند لدرس حياة الحيوان فى تلك الأنحاء ، ولتعرف رسوم القبائل وعاداتها الوثنية . وقد سبق أن قامت الدكتورة آكلى بمثل هذه الدراسات فى بعض أنحاء أفريقية الجنوبية ، وقامت أيضاً برحلات شاقة فى الجبال الكندية بأمريكا ، ولها اكتشافات معروفة فى تلك الأنحاء استحقت من أجلها عدة أوسمة وتقديرات علمية

خليل بك مطران وفرقة التمثيل الحكومية

أصدرت وزارة المعارف قراراً بتعيين الشاعر الكبير الأستاذ خليل بك مطران مديراً للفرقة التمثيلية التى اعتزمت الحكومة انشاءها تنفيذاً لاقتراح لجنة ترقية المسرح المصرى بمرتب قدره خمسون جنيهاً فى الشهر ؛ وهو تعيين معناه الجد فى انهاض هذا الفن الذى عبثت به الأهواء والفوضى فخرجت به عن سبيل النهضة العامة



قواعد التحديث

من فنون مصطلح الحديث

نشره « مكتب النشر العربي بدمشق »

للأستاذ الأمير شكيب أرسلان

اطلعت فى مجلة « الرسالة » المصرية على كلام للأخ الأستاذ العلامة محمد بك كرد على ينتقد فيه كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » للمرحوم العلامة الأستاذ الشيخ جمال القاسمى بأنه كتاب قد جمع جماً ولم يأت صاحبه فيه إلا برأى واحد وهو ترجيح قول الجلال الدوانى على قول الشهاب الخفاجى فى عدم التسامح بالأحاديث الضعيفة ولو كانت فى مقام الترغيب فى الفضائل . وقال : إن طريقة التأليف فى عهد الارتقاء العلمى هى أن يأتى كلام المؤلف أكثر من شواهده ، وانه لما ضعفت ملكة التأليف أصبحت الكتب عبارة عن نسخ أقوال من سلف ، وربما كان الشيخ جمال القاسمى آخر من جرى على هذه الطريقة وهى بسط آراء غيره ؟ وأنه قد حدثت فى التأليف طريقة جديدة اليوم وهى أن المؤلف فى فن يقتصر على لباب ماقرأ فيه ، ويدعم أقواله بشواهد من كتب القدماء أو المحدثين بأسلوب سهل سائغ خال من الخطابيات والسجع ؟

فالأستاذ كرد على ينتقد هذا التأليف رأساً من جهة أنه ليس على طريقة التأليف العصرية التى هى بزعمه الاكتفاء بالاشارة إلى ماكتبه القدماء أو التلخيص لأقوالهم بدون التزام النقل إلا ما جاء فى سبيل التأييد والدعم . ثم إنه لم يكتف بنقد الكتاب نفسه بل انتقد ناشره بأنه قدم له أربع مقدمات ، ثلاث لبعض المعاصرين ورابعة للمؤلف ، وأن هذه المقدمات استغرقت أكثر من عشرين صفحة وماخرج الكلام فى بعضها عن الدعاية والتمجيد ؟ وكأن الأستاذ كرد على يريد انتقاد أخيه هذا فى المقدمة التى من قلمى والتى أذكر فيها ما أعرفه عن الشيخ جمال القاسمى رحمه الله . وبعبارة أخرى قد ثقل على أخينا الأستاذ ما صدرنا به كتاب « قواعد التحديث » من مناقب مؤلفه ، ولقد كنت أتمنى ألا يكون الأستاذ كرد على جعل من هذا موضعاً لنقده . وأنا أتمنى الآن أن أكون أسأت فهم كلامه . فأما من جهة مؤلف هذا الكتاب الشيخ جمال القاسمى فانه من مفاخر الشام بالاتفاق ، وممن سار ذكر فضائلهم فى الآفاق ، وليس محمد بك كرد على بالذى يجهل ذلك أو يقدر أن يمارى فيه ، وإنى لجد مستغرب منه ضيق صدره بثنائى على رجل لا يتمارى اثنان فى دمشق الشام فى كونه من أفذاذ هذا العصر ومن العلماء الذين تحتج بمثلهم دمشق فى كل مقام مباهاة .

فأنا لم أكتب عن الشيخ جمال القاسمى إلا ما أعلمه وأعتقده ، وإذا كان أخونا كرد على يسمى ذلك « تمجيداً » فان التمجيد فى محله لا يكون موضع نقد ، فان لم يمجد الانسان مثل الشيخ جمال القاسمى فى علمه واحاطته ، وقوة حجته ، ودماثة خلقه ، ورقة طبعه ؛ وسائر ما امتاز به من خلال الخير الكثيرة ، فيكون هو المقصر ، وهو الذى يستحق النقد . ما كنت أحب أن يغمز الأخ كرد على بى فى مسألة كهذه ، ولا أعلم لماذا فعل ذلك ؟ وأما من جهة التأليف نفسه فان الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا قد أعطاه حقه فى إحدى المقدمات الأربع التى أشار اليها حضرة الأخ ، وقد ذكر كل ما يلزم من بيان مزايا الكتاب وقال انه لا يعرف كتاباً مثله فى موضوعه وسيلة ومقصداً ومبدأً وغاية ، ونظن أن السيد رشيد رضا هو من يضع الهناء موضع النقب ، ولا يكون مخالفاً للواقع إذا قلت إننى أنا والأخ كرد على لا نقدر أن نتكلم فى علم الحديث إذا كان السيد رشيد رضا قد تلقف فيه كرة البحث .

وبعد هذا فلست أرى ما يراه الأخ من أن القاسمى جمع جماً ،

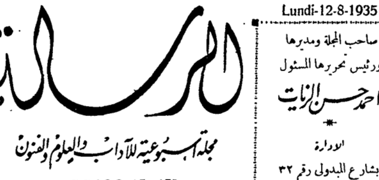
وان الجمع فى التأليف هو خطة عهد التأخر ، بل قد وجد الجمع فى كل من عهدى التقدم والتأخر . وفى أوربا اليوم كتب كثيرة لا تزيد فيها أصحابها على الجمع ، وهم يتركون فيها الحكم لأرباب النظر ، وقد يوجد الانسان فى ظروف زمانية أو مكانية تمنعه من التصريح برأيه ومن الترجيح والتجريح لاختلاف أذواق من يخاطبهم ، فيكون الجمع حينئذ هو أمثل الطرق ، ويكون كل قارئ قادراً أن يستقى من هذا الجمع ما يستمذبه . فالشيخ جمال القاسمى كان يعلم ما فى عصره ومصره من طبقات مختلفة ومنازع متباينة ، وكان هدفه ألا يصادم مشرباً خاصاً ولا يحكم لمذهب على مذهب ، بل يجمعها كلها تحت راية الهدى النبوى ، وينظم كلام ابن تيمية مثلاً إلى كلام الشعرانى والشيخ الأكبر بحيث يكون كل من الطبقتين السلفية والصوفية واجدين فى هذا الكتاب طلبتهم : وقد نسى أخونا الأستاذ كرد على محنة الشيخ جمال القاسمى عام ١٣١٣ عندما اتهم بالاجتهاد هو والمرحوم الشيخ عبد الرزاق البيطار وآخرين من رفاقهما واعتقلوا من أجل ذلك وأهينوا ، فأصبح مثل الشيخ جمال وقد عضته الصراحة بأنيابها يتجنب الخوض فيما يؤدى به إلى نكبة ، ويجد الاكتفاء بعرض الآراء أسلم ، وربما أعلم أيضاً ، لأن مثل هذه الآراء لا ينتهى الخلاف فيها ، ولا تزال كل طائفة تجادل فى كونها على حق إلى يوم القيامة . ففى بعض المواقف يكون السكوت أفصح من البيان ، وأبعد عن مثار الشبهات لاسيما عند ما يكون العالم الخبير بامور عصره وشؤون قطره واثقاً بأن المصلحة هى فى جمع الكلمة ، وأن جمع الكلمة تحت راية الهدى النبوى لا يتأتى بالترجيح والتجريح والقول بأن هذا فاسد وهذا صحيح إلا فى المسائل التى لاخلاف فيها بين العلماء والتى إنما يختلف فيها العوام . . .

فكتاب « قواعد التحديث » لو كان يؤتى من هذه الجهة لما أطراه مثل صاحب المنار هذا الاطراء كله وهو فى علم الحديث الجبل الذى لا يطاول والبحر الذى لا يساجل ، كما أنه يعلم من طرق التأليف القديمة والمتوسطة والعصرية ما لا يقدر أن ينكره العلامة الكرد على . ثم إن هناك غمزاً بالسجع ، وليس الأخ كرد على وحده الذى بدأ بهذا الغمز ، بل كان أحد الأصحاب أطلعنى على كتاب للدكتور زكى مبارك لحت فيه كلاماً يشبه أن يكون استصغاراً للسجع أو استكباراً لأتيانه ؛ وهذا باب جديد عجيب إذا أردنا الآن أن ندخل فيه يطول بنا الأمر . فنكتفى بالقول إن السجع وجد فى الجاهلية وجاءت منه أمثلة لأفصح فصحائها ، ثم جاء فى القرآن الكريم ، بل القرآن الكريم كله سجع وهو أبلغ الكلام العربى وغير العربى ، وجاء فى كلام الصحابة والمخضرمين ثم فى الطبقة التى تليهم ، ثم فى التى تليهم ثم فى التى تليهم إلى يومنا هذا . ولم نعلم أحداً عاب السجع من حيث هو ، وإنما يعاب السجع بالنسبة إلى المقام الذى يستعمله فيه الكاتب ، أى إنه لما كان السجع تقييداً بفواصل كما هو الشعر تقييد بقواف فلم يكن السجع مستحسناً فى المواطن التى يجب أن ينطلق فيها عقال القلم لكمال تأدية المعانى على وجهها . وأما فى المواطن التى هى أقرب إلى الشعر منها إلى المباحث العلمية الصرفة ، فليس السجع بالذى يعد سبة على العربية ، بل هو من محاسن هذه اللغة . وإن كان يجب حذفه من هذه اللغة من أجل كونه طريقة قديمة ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية فان هذا يؤدى بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً ، فان الشعر هو من قبيل السجع طريقة قديمة وزينة كلام تتوخى فيها المحاسن اللفظية كما تتوخى المحاسن المعنوية ويراعى فيه الوزن والقافية وهو من قبيل الموسيقى . والموسيقى هى أيضاً قديمة والطبيعة البشرية تألفها بل تحتاج إليها بل تهتف بها . والشعر ضرب من الموسيقى ، فهو إذن من مقتضيات الطبيعة البشرية . والسجع وإن لم يكن مقيداً بكل تقييد الشعر فهو مقيد أيضا بقيود لها مواقع فى النفوس ، وهى فى محلها مطربة مستعذبة ولا غبار عليها ، ولا يقدر أحد أن يقول إننى أنا مفرط فى هذا المذهب لأنه ليس لأحد من الكلام المرسل أكثر مما لى ، ولكنى لا أزال أرى السجع حلية الكلام العربى عندما يكون فى محله ، وذلك مثل مقدمات الكتب ومثل الخطب التى تلقى على الجماهير . وإن العرب قد اصطلحوا على السجع فى أسماء الكتب ولم يخطئوا فى ذلك لأن الكلام المسجع أعلق فى الذهن من غيره . وعسى كلامى هذا يكون مقبولاً عند أخى الأستاذ الكرد على ، ولا تتأثر به آصرة الأخاء القديم الذى بيننا والذى لا يمكن أن يطرأ عليه ما يوهنه مهما كان السبب ثقيلاً . فكيف إذا كان خفيفاً . وإن أدرى فقد يكون أراد أن يداعبنى ، ولا تكون هذه أول مداعبة بيننا

جنيف شكيب أرسلان

3 me Année, No. 110.

Lundi-12-8-1935



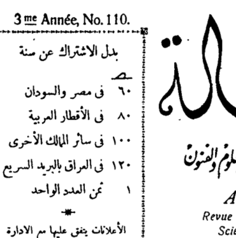
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



بدل الاشتراك عن سنة

	مـ
في مصر والسودان	٦٠
في الأقطار العربية	٨٠
في سائر الممالك الأخرى	١٠٠
في العراق بالبريد السريع	١٢٠
ثمن العدد الواحد	١

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١١٠ « القاهرة في يوم الاثنين ١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ١٢ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العــــدد

مصر والشرق الاسلامى

إذا قلتَ إننا أمة من غير منهج ودولة من غير سياسة لا تبعد عن الصدق ! فإن التبعية المثلثة التي ضربتها علينا الأقدار الخصيمة في السياسة والاقتصاد والأدب قتلت في عقولنا الرأى الأصيل ، وفي نفوسنا العزم المستقل ، وفي مواهبنا العمل المرتجل . فنحن في مجموع الناس أتباع وأوزاع ننظر إلى الأمم تعمل ، وإلى العالم يسير ، بعين بلهاء لا يجاوز بصرُها مدى العجَب ! وعلّتنا أن ساستنا وقادتنا كلهم من رجال القول لا من رجال الفعل ، ومن أرباب القلم لا من أرباب السيف ، ومن جنود القانون لا من جنود (الأوامر) ؛ رُبُّوا على مقاعد المدارس ، وثُقِّفوا على مباحث الكتب ، ودُرِّبوا على مكاتب الدواوين ، وحرموا التربية العسكرية وهى وحدها القائمة على الخطة والنظام والأمر والتنفيذ والشرف ؛ فكانت سياستهم سياسة الترقب والتردد والخوف ، لا يُصدرون ولا يوردون إلا عن فتوى فقيه ، أو تقرير خبير ، أو إشارة (مندوب) ، أو رغبة سلطان ، أو إرادة حزب ؛ وذلك هو الفرق بين ساسة مصر وفلسطين وسورية ، وبين ساسة العراق وإيران وتركية ؛ فبينا تجد الأولين — وهم رجال قانون —

مشغولين بالمفاوضات والمعاهدات والاحتجاجات والشكوى ، تجد الآخرين — وهم رجال حرب — لا يتبعون غير قانون الطبيعة ، ولا يفهمون غير سطور الجيش ، ولا يعبأون إلا بالواقع ، ولا يمضون إلا على العزم ، ولا يأوون إلا إلى الأمة .

ففى مجلس من مجالس الحكم ، أو فى ناد من أندية السمر ، تجول فى خواطرهم الفكرة ، أو تجرى فى نفوسهم الأمنية ، فما هى إلا صيحة القائد حتى تصبح قانوناً مرسوماً كالخطة ماضياً كالنظام ، شاملاً كالتعبئة ؛ والعسكرى لا يتردد ولا يتلكأ ، وإنما ينطلق ماضى الصريمة قدماً إلى وجهه : مبدؤه الأمر ، وطريقه المعركة ، وغايته النصر !

***

تدبر ذلك ووازن بين هذه السياسة الدبلوماسية التى تضطرب ولا تستقر ، وتدور ولا تتقدم ، وتناقش ولا تنتج ؛ وبين تلك السياسة العسكرية التى تهجم ولا تضطرب ، وتقدم ولا تتقهقر ، وتعمل ولا تناقش ، فلعلك واجد فى الموازنة تعليل هذا الشذوذ الذى نحن فيه : أمة لا تقل عن أكثر الأمم رجالاً ولا مالاً ولا قوة ، يدفعها ماض مجيد ، ويحفزها حاضر ملح ، ويغريها مستقبل واعد ؛ ثم موقعها من أعظم المواقع ، ومغرسها من أكرم المغارس ، وعدتها الممكنة من خير العدد ، وتراها مع ذلك لا تزال صاغرة تعطى بالقهر ، وقاصرة لا تملك التصرف !

هل تجد بربك علة لخمودها وونيها فى غير قيادتها الرخوة وسياستها المستكينة وإرادتها المعطلة ؟ ما دستور سياستنا فى الغرب ؟ متابعة انجلترا على هوى الاحتلال ، ومصانعة الدول على حكم الامتيازات ، وإطفاء هذه البقعة المشرقة فى وجه أفريقية بهذا المظهر الكاسف . وما دستور سياستنا فى الشرق ؟ إن كنت تسمى الاغفال سياسة والقطيعة خطة ، فدستورهما ما ترى بيننا وبين الحجاز من تناكر لا يسوغه عرف ولا تقتضيه طبيعة ولا تجره منفعة ؛ وما تشهد بيننا وبين جاراتنا الأخوات من تدابر لا يسلم عليه تضامن ولا يجرى معه تعاون ولا تنتظم به وحدة ؛ ثم ما تسمع بيننا وبين الشرق الإسلامى من تغاضب على التمثيل السياسى ، وهو أقل ما توجبه الروابط الدينية والتاريخية والجنسية من التواصل والتعاطف والمجاملة

سخونا إلى حد السرف على تمثيلنا الخارجى فى أوربا ، حتى فى العواصم التى لا تصلنا بها سياسة ولا تجارة ولا جالية ؛ فلما نبهنا اخواننا فى آسية إلى أنهم أمم كأولئك الأمم ، لهم ما ليس لنا من استقلال صحيح وسيادة كاملة ، فضلاً عما بينهم وبيننا من أواصر التاريخ ووشائج القربى ، مثلنا أنفسنا هناك فى الغالب بمن تنفيهم الاهواء لا بمن تدعوهم الحالة ، وجعلنا للعراق وإيران وأفغانستان سفيراً واحداً يقيم فى طهران !

فمس ذلك من كبرياء الأمتين الأختين فتثاقلت العراق عن تعيين سفيرها فى القاهرة ، ونقلت الأفغان وزيرها المعين إلى مكة ! ذلك والغرب كله يتحلب فوه إلى ازدراد الشرق ، فهو يستعين عليه (بالعصبة) ، ويحتال له بالتجارة ، ويتدسس إليه بالعلم ، ويدور من ورائه بالمعاهدات ، ثم يرى أن العرب صلبه والاسلام روحه ، فيهجم عليهما بالمودة ، ويتسابق اليهما بالخديعة ؛ ولكن الاسلام والعرب يريدان أن يظل الشرق مطلع النور ومصدر الحرية ومنبت العزة ؛ وتحقيق هذه الارادة موكول إلى اجتماع الكلمة واتحاد الوجهة وتساير الهوى فى الأمم الاسلامية التى ألفت بين قلوبها العقيدة ، وفرقت بين جسومها المطامع

ومن أحق من مصر إذا استقلت إرادتها وتقررت سياستها وتحررت كفايتها بجمع هذه القلوب المخلصة على جهاد الاستعمار ، وقيادة هذه النفوس المؤمنة إلى نصرة الحق ؟

إن وطننا يا قوم مترامى الحدود ، فلماذا تحدونه على الضيق ، وقومنا ضخام العديد ، فلماذا تحصرونهم على القلة ، واخواننا كرام يصفون المودة ويولون المعونة ، فلماذا تجعلون بيننا وبينهم سداً من الاهمال والغفلة ؟ إن الأمم القوية الناجحة لترخص الأموال والأنفس فى التمكين لأدبها ونفوذها وتجارتها فى الشرق ، فكيف نعرض نحن عن ذلك وهو يأتينا عفواً عن طريق القرابة فى البلد والنسب ، والوحدة فى اللغة والأدب ، والمشابهة فى الخط والحالة ؟ !

احمد حسن الزيات

محمد طاهر باشا نور



مثل نادر من المُثل العُليا فى كرم الخلق وعفة الضمير وصدق النية ؛ استأثر به الله وأمته وأسرته أحوج ما تكونان إلى كفايته ورعايته؛ فكان الأسى على فقده شاملاً يتبين فى كل وجه ، ويحز فى كل قلب ؛ والمصيبة فى الأخيار النوابغ مصيبة الانسانية جمعاء ، لأن كمالها قائم على كمالهم ، وتقدمها سائر على أعمالهم ، وسلامها معقود بما ينبعث عن فِطَرهم النبيلة من إلهام الجمال والخير والحق . كان رحمه الله على كرم أبوته وأمومته ، وشرف منصبه وأسرته ، متواضع النفس لين الجانب ؛ وكان على هذا التواضع وذلك اللين أبيّ الطبع شديد الأنفة ، لا يطمئن على مكروه ولا يصبر على غضاضة . ومن العجيب النادر أنه استطاع على سلامة قلبه من النفاق ، وبراءة لسانه من الملق ، ونزاهة نفسه عن الخنوع ، أن يصعد فى مناصب الدولة الخطيرة صعود الشمس فى الفلك ، فلم تعقه مكاره العزة والإباء عن بلوغ الغاية منها ؛ وفى ذلك ولا ريب نجاح للكفاية فى استقلالها ، وانتصار للحق فى ذاته

لم يكن طاهر باشا رجل حزب ، ولكنه كان رجل أمة . حصر جهده فى عمله ، وحدد عمله بواجبه ، وانطوى قلبه منذ نشأ على صراحة القانون ونزاهة القضاء ونصاعة العدل ؛ فكان فى كل عمل تولاه مظهراً لهذه الأخلاق وموئلاً لأصحاب الحق

وفى سنة ١٩٢٤ كان زعيم الأمة الخالد سعد باشا زغلول رئيساً للحكومة ، وكان رضى الله عنه حريصاً على أن يقيم حكومته على الاخلاص فى العمل والنزاهة فى التصرف والفناء فى الواجب ؛ فخلا يومئذ منصب النائب العمومى ، وهو ألصق المناصب القضائية بسلامة الناس ، لأنه يد القانون وعين العدالة ولسان الحق ؛ فدار الزعيم الجليل بعينه وقلبه فى رجال القانون وكبار الدولة يتوسم صفات النائب التى يريدها فى الوجوه ، ويتعرفها من الماضى ، ويتجسسها من الأسئلة ، فلم يقع اختياره الموفق إلا على طاهر نور مدير الادارة القضائية ، وهو من غير العاملين معه ولا المقربين إليه ولا المتصلين به . فقام النائب المختار بما حمل من أعباء العدل على ما يحققه فيه الزعيم من الفطانة والأمانة والذمة والحكمة ، لا يضطرب فى مهب الأهواء ، ولا يسخر سلطانه لشهوات الرؤساء ، ولا يعرّض أخلاق الناس وأعراضهم لهوان السياسة ، حتى طغى فى مصر الحكم وفشا فى الناس الظلم ، فلم يستطع فى ذلك العهد البغيض أن يوفق بين جور الحاكم وعدل القانون ، فنقل وكيلاً لوزارة الحقانية سنة ١٩٣٠ ، وظل فيه على عهد الناس به حتى قبضه الله إليه . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوض أمته وأسرته منه خير العوض .

الزيات

الأدب والأديب

للأستاذ مصطفى صادق الرافعى

إذا اعتبرتَ الخيالَ فى الذكاء الانسانى وأوّليتَه دقّةَ النظر وحُسْنَ التمييز ، لم تجده فى الحقيقة إلا تقليداً من النفس للألوهيّة بوسائل عاجزة منقطعة ، قادرة على التصوُّر والوهم بمقدار عجزها عن الايجاد والتحقيق

وهذه النفسُ البشريةُ الآتيةُ من المجهول فى أول حياتها ، والراجعةُ إليه آخرَ حياتها ، والممدَّدَة فى طريقه مدةَ حياتها ، لا يمكن أن يتقررَ فى خيالها أن الشىء الموجود قد انتهى بوجوده ، ولا ترضى طبيعتها بما ينتهى ؛ فهى لا تتعاطى الوجودَ فيما بينها وبين خيالها على أنه قد فُرغ منه فما يُبْدَأ ، وتمّ فما يُزاد ، وخلَدَ فلا يتحوَّل ؛ بل لا تزال تضرب ظنها وتُصرِّف وهمها فى كل ما تراه أو يتلجلج فى خاطرها ، فلا تبرح تتلمَّسُ فى كل وجود غيبا ، وتكشف من الغامض وتزيد فى غموضه ، وتجرى دأبا على مجاريها الخيالية التى تُوثق صلتها بالمجهول . فمن ثم لا بدّ فى أمرها مع الموجود مما لا وجود له ، تتعلق به وتسكن إليه ؛ وعلى ذلك لا بد فى كل شىء - مع المعانى التى له فى الحق - من المعانى التى له فى الخيال ؛ وهاهنا موضعُ الأدب والبيان فى طبيعة النفس الانسانية ؛ فكلاهما طبيعىٌّ فيها كما ترى

وإذا قيل الأدب ، فاعلم أنه لا بد معه من البيان ؛ لأن النفس

تخلُق فتصوُّر فتحسين الصورة؛ وإنما يكون تمام التركيب – في مَعْرضه وجمال صورته ودقّة لمحاته، بل يَنزلُ البيانُ من المعنى الذي يَلبسه منزلةَ النضج من الثمرة الحلوة، إذا كانت الثمرةُ وحدها قبل النضج شيئاً مُسمّى أو متميزاً بنفسه، فإن تكونَ بغير النضج شيئاً تاماً ولا صحيحاً، وما بُدٌّ من أن تستوفي كمالَ عمرها الأخضر الذي هو بيانها وبلاغتها

وهذه مسئلة كيفما تناولتها فهي هي حتى تمضيها على هذا الوجه الذي رأيتَ في الثمرة ونضجها؛ فإن البيانَ صناعةُ الجمال في شيء جماله هو من فائدته، وفائدته من جماله؛ فإذا خلا من هذه الصناعة التحق بغيره، وعاد باباً من الاستعمال بعد أن كان باباً من التأثير؛ وصار الفرقُ بين حالَيْه كالفرق بين الفاكهة إذ هي بابٌ من النبات، وبين الفاكهة إذ هي بابٌ من الخمر. ولهذا كان الأصلُ في الأدب البيانَ والأسلوبَ في جميع لغات الفكر الانساني، لأنه كذلك في طبيعة النفس الانسانية

فالغرضُ الأول للأدب المبين أن يَخلق للنفس دنيا المعاني الملائمة لتلك النزعة الثابتة فيها إلى المجهول وإلى مجاز الحقيقة، وأن يُلقي الأسرارَ في الأمور المكشوفة بما يتخيّل فيها، ويردَّ القليلَ من الحياة كثيراً وافياً بما يُضاعِفُ من معانيه، ويترك الماضيَ منها ثابتاً قاراً بما يخلِّد من وصفه، ويجعلَ المؤلم منها لذاً خفيفاً بما يَبُثُّ فيه من العاطفة، والمملولَ ممتعاً حلواً بما يكشف فيه من الجمال والحكمة. ومَدارُ ذلك كلّه على إيتاء النفس لذةَ المجهول، التي هي في نفسها لذّةٌ مجهولة أيضاً؛ فإن هـــذه النفس طُلَعةٌ متقلّبة، لا تبتغي مجهولاً صرْفاً ولا معلوماً صرفاً، كأنها مُدْركة بفطرتها أنْ ليس في الكون صريحٌ مُطلقٌ ولا خفيٌّ مطلق؛ وإنما تبتغي حالةً ملائمة بين هذين، يثور فيها قَلَقٌ أو يسكن منها قلق

وأشواقُ النفس هي مادّة الأدب؛ فليس يكون أدباً إلا إذا وَضَعَ المعنى في الحياة التي ليس لها معنى، أو كان متّصلاً بسرٍّ هذه الحياة فيكشفُ عنه أو يومئ إليه من قريب، أو غيَّر للنفس هذه الحياةَ تغييراً يجيء طباقاً لغرضها وأشواقها؛ فإنه كما يَرْحَل الانسانُ من جوٍّ إلى جوٍّ غيره، ينقله الأدبُ من حياته التي لا تختلفُ إلى حياةٍ أخرى، فيها شعورُها ولذّتها وإن لم يكن لها مكانٌ ولا زمان؛ حياةٍ كملَتْ فيها أشواقُ النفس، لأن فيها اللذاتِ والآلامَ بغير ضرورات ولا تكاليف.. ولعمري ما جاءت الجنةُ والنارُ في الأديان عَبَثاً؛ فإن خالق النفس بما ركّبه فيها من العجائب، لا يحكُمُ العقلُ أنه قد أتمّ خَلْقها إلا بخلق الجنة والنار معها؛ إذ هما الصورتان الدائمتان المتكافئتان لأشواقها الخالدة إن هي استقامت مُسدَّدَة أو انعكستْ حائلة

وقد صحّ عندي أن النفسَ لا تتحقق من حريتها ولا تنطلق انطلاقتها الخالدة فتُحسُّ وحدةَ الشعور ووحدةَ الكمال الأسمى – إلا في ساعاتٍ وفَترات تَنسَلُّ فيها من زمنها وعيشها ونقائضها واضطرابها إلى (منطقةِ حياد) خارجةٍ وراء الزمان والمكان؛ فإذا هبطتها النفس، فكأنما انتقلتْ إلى الجنة واستروَحتِ الخلد؛ وهذه المنطقة السحْرية لا تكون إلا في أربعة: حبيبٍ فاتنٍ ممشوقٍ أُعطِيَ قوةَ سِحْر النفس، فهي تَنسى به؛ وصديقٍ محبوب وفيٍّ أُوتِيَ قوةَ جَذْبِ النفس، فهي تنسى عنده؛ وقطعةٍ أدبية آخِذة، فهي ساحرةٌ كالحبيب أو جاذبةٌ كالصديق؛ ومنظرٍ فنيٍّ رائع، ففيه من كل شيء شيء

وهذه كلُّها تُنسي المرء زمنَه مدةً تطول وتقصر؛ وذلك فيها دليلٌ على أن النفس الانسانية تُصيب منها أساليبَ روحية لاتصالها هنيهةً بالروح الأزليّ في لحظاتٍ من الشعور كأنها ليست من هذه الدنيا وكأنها من الأزلية. ومن ثم نستطيع أن نقرِّر أن أساسَ الفنّ على الاطلاق هو ثورةُ الخالدِ في الانسان على الفاني فيه؛ وأن تصويرَ هـذه الثورة في أوهامها وحقائقها بمثل اختلاجاتها في الشعور والتأثير – هو معنى الأدب وأسلوبه

ثم إن الاتّساقَ والخيرَ والحقَّ والجمال – وهي التي تجعل للحياة الانسانية أسرارَها – أمورٌ غير طبيعيةٍ في عالمٍ يقوم على الاضطراب والأثَرة والنزاع والشهوات؛ فمن ذلك يأتي الشاعرُ والأديب وذو الفن علاجاً من حكمة الحياة للحياة، فيبدعون لتلك الصفات الانسانية الجميلةِ عالمَها الذي تكون طبيعيةً فيه، وهو عالمٌ أركانه الاتساقُ في المعاني التي يجري فيها؛ والجمالُ في التعبير الذي يتأدّى به؛ والحقُّ في الفكر الذي يقوم عليه؛ والخيرُ في الغرَض الذي يُساق له؛ ويكون في الأدب من النقص والكمال بحسب ما يجتمع له من هذه الأربعة، ولا معيارَ أدقُّ منها إن ذهبتَ تعتبره بالنظر والرأي؛ ففي عمل الأديب تخرجُ الحقيقةُ مضافاً إليها الفن، ويجيء التعبيرُ مَزيداً فيه الجمال، وتتمثّل الطبيعةُ الجامدةُ خارجةً من نفسٍ حيّة، ويظهر الكلامُ وفيه رقّةُ حياةِ القلب وحرارتُها وشعورُها وانتظامها ودقّتها الموسيقيّ؛ وتلبسُ الشهواتُ الانسانيةُ شكلها المهذّب لتكون بسببٍ من تقرير المثَل الأعلى، الذي هو السرُّ في ثورة

الخالد من الانسان على الفاني ، والذي هو الغايةُ الأخيرة من الأدب والفنِّ معاً ؟ وبهـذا يَهَبُ لك الأدب تلك القوَّةَ الغامضة ، التي تتسع بك حتى تشمرَ بالدنيا وأحداثها مارَّةً من خلال نفسك ، وتحسّ الأشياء كأنها انتقلت إلى ذاتك من ذواتهـا . وذلك سرُّ الأديب العبقريّ ؛ فانه لا يرى الرأى بالاعتقاب[1] والاجتهاد كما يراه الناس ، وإنمـا يحسُّ به ؛ فلا يقع له رأيه بالفكر ، بل يُلْهَـمه إلهاماً ؛ وليس يُؤاتيه الالهام إلا من كون الاشياء تمرُّ فيه بمانيها وتَعْبره كما تعبر السفن النهر ، فيحسُّ أثرها فيه فَيلهم ما يُلهم ، ويحسبه الناس نافذاً بفكره من خلال الـكون ، على حين أن حقائق الـكون هى النافذةُ من خلاله

ولو أردتَ أن تعرِّف الأديبَ من هو ، لمـا وجدت أجمع ولا أدقَّ فى معناه من أن تسمّيه الانسان الـكونيّ ، وغيره هو الانسانُ فقط ؛ ومن ذلك ما يبلغ من عمق تأثُّره بجمال الأشياء ومعانيها ، ثم ما يقع من اتصال الموجودات به بآلامها وأفراحها ؛ إذ كانت فيه مع خاصية الانسان خاصيةُ الـكون الشامل . فالطبيعة تثبت بجمال فنه البديع أنه منها ، وتدلُّ السماء بمـا فى صناعته من الوحى والأسرار أنه كذلك منها ، وتبرهنُ الحيـاةُ بفلسفته وآرائه أنه هو أيضاً منها ، وهذا وذاك وذلك هو الشمول الذى لاحدّ له ، والاتساع الذى كلُّ آخر فيه لشىء ، أوّل فيه لشىء

وهو انسان يَدُلّه الجمالُ على نفسه ليدلَّ غيرَه عليه ، وبذلك زِيد على معناه معنى ، وأُضيفَ إليه فى إحساسه قوّةُ إنشاء الاحساس فى غيره ؛ فأساسُ عمله دائماً أن يزيدَ على كل فكرةٍ صورةً لها ، ويزيدَ على كل صورةٍ فكرةً فيها ، فهو يُبدع المعانيَ للاشكال الجامدة فيوجدُ الحياةَ فيها ، ويبدع الأشكالَ للمعانى المجرّدةِ فيوجدها هى فى الحيـاة ، فكأنه خُلِقَ ليتلقى الحقيقةَ ويعطيها للنـاس ويزيدهم فيها الشعورَ بجمالها الفنى . وبالأدباء والعلماء تنمو معانى الحياة كأنما أوجدتهم الحكمة لتنقلَ بهم الدنيا من حالة إلى حالة ؛ وكأن هذا الـكونَ العظيم يمرُّ فى أدمغتهم ليحقّق نفسَـه

ومشاركةُ العلماء للأدباء توجبُ أن يتميز الأديبُ بالأسلوب البيانى ، إذ هو كالطابع على العمل الفنيّ ، وكالشهادة من الحياة المنوِّهة لهذا الانسان الموهوب الذى جاءت من طريقه ، ثم لأن الأسلوبَ هو تخصيصٌ لنوع من الذوق وطريقة من الأدراك ، كأن الجمال يقولُ بالأسلوب : إن هذا هو عملُ فلان

وفَصْلُ ما بين العالم والأديب ، أن العالِمَ فكرة ، ولـكن الأديب فكرةٌ وأسلوبها ؛ فالعلماءُ هم أعمالٌ متصلة متشابهة يُشارُ إليهم جملةً واحدة ، على حين يقال فى كل أديب عبقريّ : هذا هو ، هذا وحده . وعلمُ الأديب هو النفسُ الانسانيةُ بأسرارها المتجهة إلى الطبيعة ، والطبيعة بأسرارها المتجهة إلى النفس ، ولذلك فموضع الأديب من الحياة موضع فكرة حدودُها من كل نواحيها الأسرار

وإذا رأى الناس هـذه الانسانية تركيباً تاماً قائماً بحقائقه وأوصافه ، فالأديبُ العبقريُّ لا يراها إلا أجزاء ، كأنما هو يشهد خَلقها وتركيبها ! وكأنما أمرُّها فى (معمله) ، أو كأن الله — سبحانه — دعاه ليرى فيها رأيه . . . . وبذلك يجىء النابغُ من أدب العباقرة وبعضُه كالمُقْترحات لتجميل الدنيا وتهذيب الانسانية ، وبعضه كالموافقة واقرار الحـكمة ، وأساسُه على كل هذه الأحوال النقدُ ثم النقد ، ولا شىء غير النقد ، كأن القوةَ الأزليةَ تقول لهذا المُلْهَم : أنت كلمتى ، فقُل كلمتَك . . . .

* * *

وترى الجمالَ حيث أصبته شيئاً واحداً لا يكبر ولا يصغر ، ولـكن الحسَّ به يكبر فى أناس ويصغر فى أناس ؛ وهاهنا يتألّـه الأدب ، فهو خالقُ الجمال فى الذهن ، والممكنُ للأسباب المعينة على إدراكه وتبين صفاته ومعانيه ، وهو الذى يقدر لهذا العالم قيمته الانسانيةَ باضافة الصُّور الفكرية الجميلة اليه ، ومحاولته إظهار النظام المجهول فى متناقضات النفس البشرية ، والارتفاع بهذه النفس عن الواقع المنحطّ المجتمعِ من غِشَاوة الفِطرةِ ، وصَولةِ الغريزة ، وغرارةِ الطبع الحيوانى

وإذا كان الأمرُ فى الأدب على ذلك ، فباضطرارٍ أن تتهذّب فيه الحياةُ وتتأدب ، وأن يكون تَسَلُّطُه على بواعث النفس دُرْبةً لاصلاحها وإقامتها ، لا لأفسادها والانحراف بها إلى الزيغ والضلالة ؛ وباضطرارٍ أن يكون الأديبُ مكلفاً تصحيح النفس الانسانية ، ونَفيَ التزوير عنها ، واخلاصها مما يلتبسُ بها على تتابع الضرورات ؛ ثم تصحيح الفكرة الانسانية فى الوجود ، ونفى الوثنية عن هذه الفكرة ، والسمو بها إلى فوق ، ثم إلى فوق ، ودائماً إلى فوق !

وإنما يكلف الأديبُ ذلك لأنه مستبصرٌ من خصائصه التميزُ

[1] الاعتقاب إطالة النظر وكد الفكر

وتقدم النظر وتسقُّط الالهام ، ولأن الأصلَ في عمله الفنيّ ألا يبحث في الشيء نفسه ، ولكن في البديع منه ؛ وألا ينظر إلى وجوده ، بل إلى سرِّه ، ولا يُعنَى بتركيبه ، بل بالجمال في تركيبه ، ولأن مادة عمله أحوالُ الناس ، وأخلاقُهم ، وألوان معايشهم ، وأحلامُهم ، ومذاهب أخيلتهم وأفكارهم في معنى الفن ، وتفاوت إحساسهم به ، وأسباب مغاويهم ومَراشدهم ، يُسدِّد على كل ذلك رأيه ، ويُجيل فيه نظره ، ويخلطه في نفسه ، ويُنفِذُه من حواسه ، كأنما له في السرائر القبضُ والبسط ، وكأنه وليَ الحكم على الجزء الخفيّ في الانسان ، يقوم على سياسته وتدبيره ، ويَهديه إلى المثل الأعلى . وهل يُخلَق العبقريّ إلا كالبرهان من الله لعباده على أن فيهم من يَقدر على الذي هو أكملُ والذي هو أبدع ، حتى لا ييأس العقل الانساني ولا ينخذل فيستمرَّ دائباً في طلب الكمال والابداع اللذين لانهاية لهما ؟

فالأديب يُشرفُ على هذه الدنيا من بصيرته ، فاذا وقائعُ الحياة في حدٍّ واحد من النزاع والتناقض ؛ وإذا هي دائبةٌ في مَحْق الشخصية الانسانية ، تاركةً كل حيٍّ من الناس كأنه شخصٌ قائم من عمله وحوادثه وأسباب عيشه ؛ فاذا تلجلج ذلك في نفس الأديب اتجهت هذه النفسُ العالية إلى أنْ تحفظ للدنيا حقائق الضمير والانسانية والايمان والفضيلة ، وقامت حارسةً على ما ضيع الناس ، وسُخرت في ذلك تسخيراً لا تملك معه أن تأبَى منه ولا يستوى لها أن تغمض فيه ، ونقلت الانسانيةُ كلُّها ووُضعت على مجاز طريقها أين توجهت فتأكَّد الأمرُ فيها ، ووُصِلَ بها ، وعلمت أنها من خالصة الله ، وأن رسالتها للعالم هي تقريرُ الحب للمتعادين ، وبسطُ الرحمة للمتنازعين ؛ وأن تجمعَ الكلَّ على الجمال وهو لا يختلف في لذته ؛ وتصِلَ بينهم بالحقيقة وهي لا تتفرّق في موعظتها ؛ وتُشمرَهم الحكمة وهي لا تتنازعُ في مناحيها . فالأدبُ من هذه الناحية يشبه الدين ، كلاهما يُعينُ الانسانيةَ على الاستمرار في عملها ، وكلاهما قريبٌ من قريب ؛ غير أن الدين يعرضُ للحالات النفسية ليأمر وينهى ، والأدب يعرض لها ليجمع ويقابل ، والدين يوجه الانسان إلى ربه ، والأدب يوجهه إلى نفسه ، وذلك وحيُ الله إلى المَلَك إلى نبيٍّ مختار ، وهذا وحيُ الله إلى البصيرة إلى إنسان مختار

فإن لم يكن للأديب مثلٌ أعلى يجهدُ في تحقيقه ويعمل في سبيله ، فهو أديبُ حالةٍ من الحالات ، لا أديبُ عصر ولا أديبُ جيل ؛ وبذلك وحده كان أهل المثل الأعلى في كل عصرٍ هم الأرقام الانسانية التي يُلقيها العصر في آخر أيامه ليحسب ربحه وخسارته . .

ولا يخدعنَّك عن هذا أن ترى بعضَ العبقريين لا يُؤْتَى في أدبه أو أكثره إلا إلى الرذائل ، يتغلغلُ فيها ، ويتملَّأ بها ، ويكون منها على ماليس عليه أحدٌ إلا السَّفِلة والحِشوة من طَغام الناس ورعاعهم ؛ فان هذا وأضرابه مسخرون لخدمة الفضيلة وتحقيقها من جهة مافيها من النهي ، ليكونوا مثلاً وسلفاً وعبرة ؛ وكثيراً ما تكون الموعظةُ برذائلهم أقوى وأشدَّ تأثيراً مماهي في الفضائل ؛ بل هم عندي كبعض الأحوال النفسية الدقيقة التي يأمر فيها النهيُ أقوى مما يأمر الأمر ، على نحو ما يكون من قراءتك موعظةَ الفضيلة الأدبية التي تأمرك أن تكون عفيفاً طاهراً ؛ ثم ما يكون من رؤيتك الفاجرَ المبتلَى المشوَّهَ المتحطِّم الذي ينهاك بصورته أن تكون مثله . ولهذه الحقيقة القوية في أثرها — حقيقةِ الأمر بالنهي — يعمد النوابغ في بعض أدبهم إلى صرف الطبيعة النفسية عن وجهها ، بعكس نتيجة الموقف الذي يصورونه أو الاحالة في الحادثة التي يصفونها ؛ فينتهي الراهب التقيُّ في القصة ملحداً فاجراً ، وترتدُّ المرأة البغيُّ قديسة ، ويرجع الابن البرُّ قاتلاً مجنوناً جنونَ الدم ؛ إلى كثير مما يجري في هذا النسق ، كما تراه لأناطول فرانس ، وشكسبير وغيرهما ، وما كان ذلك عن غفلة منهم ولا شرٍّ ، ولكنه أسلوبٌ من الفن ، يقابله أسلوبٌ من الخلق ، ليبدع أسلوباً من التأثير . وكل ذلك شاذ معدود ينبغي أن ينحصر ولا يتعدى ، لأنه وصفٌ لأحوال دقيقةٍ طارئةٍ على النفس ، لا تعبيرٌ عن حقائق ثابتةٍ مستقرَّةٍ فيها

والشرط في العبقري الذي تلك صفته وذلك أدبه ، أن يعلوَ بالرذيلة . . . في أسلوبه ومعانيه ، آخذاً بغاية الصنعة ، متناهياً في حسن العبارة ؛ حتى يصبح وكأنَّ الرذائلَ هي اختارت منه مفسرَها العبقريَّ الشاذَّ الذي يكون في سموِّ فنه البياني هو وحده ، الطَّرفَ المقابلَ لسموِّ العبارة عن الفضيلة ؛ فيصنع الالهامُ في هذا وفي هذا صنعه الفنيَّ بطريقةٍ بديعة التأثير ، أصلها في أديب الفضيلة ما يريده ويجاهد فيه ، وفي أديب الرذيلة ما يقوده ويندفع إليه ؛ كأن منهما إنساناً صار ملكاً يكتب ، وإنساناً عاد حيواناً يكتب . . .

وإذا أنت ميلت بين رذيلة الأديب العبقري في فنه ، ورذيلة

الأديب الفسل الذي يتشبه به — في التأليف والرأي والمتابعة والمذهب — رأيت الواحدة من الأخرى كبكاء الرجل الشاعر من بكاء الرجل الغليظ الجاف : هذا دموعه ألمه ، وذاك دموعه ألمه وشعره . وفي كتابة هذه الطبقة من المقربين خاصة يتحقق لك أن الأسلوب هو أساس الفن الأدبي ، وأن اللذة به هي علامة الحياة فيه ، إذ لا ترى غير قطعة أدبية فنية ، شاهدُها من نفسها على أنها بأسلوبها ليست في الحقيقة إلا نكتةً نفسية لاهتياج البواعث في نفوس قرائها ، وأنها على ذلك هي أيضاً مسئلةٌ من مسائل الانسانية مطروحةٌ للنظر والحل ، بما فيها من جمال الفن ، ودقائق التحليل

* * *

واللذةُ بالأدب غير التلهي به واتخاذه للعَبَث والبَطَالة فيجيء موضوعاً على ذلك فيخرج إلى أن يكون مَلْهاة وسُخفاً ومَضْيَعَة ؛ فان اللذة به آتية من جمال أسلوبه وبلاغةِ معانيه وتناوُله الكَون والحياة بالأساليب الشعرية التي في النفس ، وهي الأصل في جمال الأسلوب ؛ ثم هو بعد هذه اللذة منفعةٌ كلُّه كسائر ما ركب في طبيعة الحي إذ يحس الذوقُ لذَّةَ الطعام مثلاً على أن يكون من فعلها الطبيعيّ استمراءُ التغذية لبناء الجسم وحفظِ القوة وزيادتها . أما التلهي فيجيء من سخف الأدب ، وفراغ معانيه ، ومؤاتاته الشهوات الخسيسة ، والتماسه الجوانب الضيقة من الحياة ؛ وذلك حين لا يكون أدبَ الشعب ولا الانسانية ، بل أدبَ فئةٍ بعينها وأحوالها ؛ فان أديب صناعته أو أديبَ جماعته ، غير أديب قومه وأديب عصره : أحدهما إلى حدٍّ محدود من الحياة ، والآخر عملٌ جامع مستمرٌّ متفنّن ، لأن عمله الأدبي هو وجوده ، وكل شيء في قومه لا يبرحُ يقول له : اكتبْ . . .

ومن الأصول الاجتماعية التي لا تتخلَّف ، أنه إذا كانت الدولةُ للشعب ، كان الأدب أدبَ الشعب في حياته وأفكاره ومطامحه وألوانِ عيشه ، وزخَر الأدب بذلك وتنوَّع وافتنّ وبُنى على الحياة الاجتماعية ؛ فان كانت الدولةُ لغير الشعب ، كان الأدبُ أدبَ الحاكمين وبُنى على النفاق والمداهنة والمبالغة الصناعية والكَذِب والتدليس ، ونَضَبَ الأدب من ذلك وقلّ وتكرَّر من صورةٍ واحدة ؛ وفي الأولى يتسع الأديب من الاحساس بالحياة وفنونها وأسرارها في كلّ من حَوْله إلى الاحساس بالكون وتجاليه وأسراره في كل ما حَوْله . أما الثانية فلا يُحس فيها إلا أحوال نفسه وخَليطه ، فيصبح أدبه أشبهَ بِسافةٍ محدودةٍ من الكون الواسع ، لا يزال يذهب فيها ويجيءُ حتى يملّ ذهابه ومجيئه

والعَجَب الذي لم يتنبّه له أحدٌ إلى اليوم من كل من درسوا الأدبَ العربي قديماً وحديثاً ، أنك لا تجد تقريرَ المعنى الفلسفي الاجتماعي للأدب في أسمى معانيه إلا في اللغة العربية وحدها ، ولم يغفل عنه مع ذلك إلا أهل هذه اللغة وحدهم !

فاذا أردتَ الأدب الذي يقررّ الأسلوبَ شرطاً فيه ، ويأتي بقوّة اللغة صورةً لقوة الطباع ، وبعظَمة الأداء صورة لعظمة الأخلاق ، وبرقّة البيان صورة لرقة النفس ، وبدقّته المتناهية في العمق صورةً لدقّة النظرة إلى الحياة ؛ ويُريك أن الكلامَ أمةٌ من الألفاظ عاملةٌ في حياة أمةٍ من الناس ، ضابطةٌ لها المقاييسَ التاريخية ، مُحْكِمَةٌ لها الأوضاع الانسانية ، مشترطةٌ فيها المثلَ الأعلى ، حاملةٌ لها النور الالٓهيَّ على الأرض . . .

وإذا أردتَ الأدبَ الذي يُنشئُ الأمة إنشاءً سامياً ، ويدفعها إلى المعالي دفعاً ، ويردُّها عن سَفَاسِف الحياة ، ويوجّهها بدقّة الابرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة ، ويسدِّدها في أغراضها التاريخية العالية تسديدَ القنبلة خرجت من مدفعها الضخم الحرِّ المحكم ، ويملأ سرائرها يقيناً ونفوسَها حزماً وأبصارَها نظراً وعقولَها حكمة ، وينْفُذُ بها من مظاهر الكون إلى أسرار الألوهية . . .

. . . إذا أردت الأدب على كل هذه الوجوه من الاعتبار — وجدت القرآنَ الحكيم قد وَضَعَ الأصلَ الحيَّ في ذلك كله . وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدّساً ، وفَرَضَ هذا التقديس عقيدة ، واعْتَبَرَ هذه العقيدةَ ثابتةً لن تتغير ؛ ومع ذلك كله لم يتنبه له الأدباء ولم يحْذُوا بالأدب حَذْوه ، وحسبوه ديناً فقط ، وذهبوا بأدبهم إلى العبث والمجون والنفاق ؛ كأنه ليس منهم إلا بقايا تاريخ محتَضَر بالملل القاتلة ، ذاهبٍ إلى الفناء المحتم !

والقرآن بأسلوبه ومعانيه وأغراضه ، لا يُستخرج منه للأدب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأدب هو السموُّ بضمير الأمة

ولا يستخرج منه للأديب إلا تعريفٌ واحد هو هذا : إن الأديب هو مَن كان لأمته وللُغتها في مواهب قلمه لقبٌ من ألقاب التاريخ . . .؟ (طنطا)

مصطفى صادق الرافعي

همـــا

للأستاذ أحمد أمين

« هما » انسانان متباينان ، لا يجمعهما إلا أنى عرفتهما

أما « هو » الأول ، فنظيف الثوب فى غير أناقة ، لا يعنيه من ثيابه إلا أنه لا يتأذى بقذارتها ، ولا يتأذى من أنها زاهية تستلفت الأنظار – قد طبع على ما يود ، فلا هو جميل يقيد النظر ، ويفترق البصر ؛ ولا هو قبيح الشكل سمج للنظر ، تتفاداه العيون ، ويلفظه الطرف ، لو عهد اليه أن يخلق نفسه ما اختار غير صورته وشكله ، لأنه يأبى تكاليف الجمال وتكاليف القبح

كثير التفكير فى نفسه ، كأن الله لم يخلق فى العالم إلا هى ، وإن كان قد خلق أشياء فنفسه مركزها ، دائم المحاسبة لنفسه على ما صدر منها للناس ، ودائم المحاسبة للناس على ما صدر منهم لنفسه ، فنى نفسه محكمة منعقدة باستمرار ، تطول فيها المرافعة ، ويشتد فيها الخصام ، وتكثر منها الأحكام ، والنقض والابرام – حدثنى أنه إذا جلس فى مجلس استعرض بعد الفراغ منه كل ما دار فيه على الترتيب ، كأن ذهنه « شريط ماركونى » ثم وقف عند كل كلمة صدرت منه يفحصها ، هل مست شعور أحد ، هل ظلمت أحداً ، هل جرحت كرامة أحد ، ألم يكن غيرها خيراً منها ، أما كان يحسن أن يقال فى مثل هذا الموقف غير هذا الكلام ؟ ووقف عند كل كلمة قالها غيره يحللها ، ماذا يريد منها ، لقد جرح احساسى بها ، لقد كان يلتفت إلىّ عند قولها ، وما سبب ذلك والعلاقة بينى وبينه على خير ما يكون صديق لصديقه ، لابد أن يكون قد تأثر من كذا وغضب من كذا ، ولكن إن كان هذا فلا حق له لأنه لم يفهم قصدى ولم يتبين غرضى . فاذا أتم ذلك وأوى إلى فراشه بدأ يعيد الشريط من جديد ، ويعلق على الحوادث تعليقات جديدة ، ويفسرها تفسيراً جديداً ، حتى يدركه النوم ، وقلّ ألا يحلم بما حدث ، وقلّ ألا تأتيه الرؤيا بتفسيرات جديدة وتعليقات جديدة

من أجل هذا يفر من الناس ، ويفر من المجتمعات ، حتى لا تكثر الأشرطة فيكثر عرضها ، والتعليق عليها ، فقل أن أجاب دعوة مع كثرة ما وجه اليه من دعوات ، لأنه مع هذا ليس ثقيل الظل ولا جامد النسيم ، فاذا اضطر إلى دعوة ذهب اليها كارهاً ، وحسب حساب كل كلمة يتكلمها ، وكل حركة يتحركها قبل أن يقدم عليها ، تفضيلا للحساب العاجل على الحساب الآجل ، فقلّ أن يأخذ الناس عليه غلطة مع كثرة ما يتوهمه هو من غلطات

أداه التفكير الكثير فى نفسه إلى أن يكون عميق التفكير فى كل ما يعرض عليه ، فاذا عرض أمر قلبه على جميع وجوهه ، وغاص فى نواحيه ، واستخرج منها أدق الأفكار وأصعبها وأعقدها ، وشغف بالعلم فكان دائب الدرس ، كثير الاطلاع ، تثقف بالثقافة الانجليزية فهو يتكلمها ويقرؤها كأحد أبنائها ، وسمع بعمق التفكير الألمانى فعكف على اللغة الألمانية حتى حذقها ، وحدثه الأدباء بالأدب الفرنسى وما فيه من دقة فى تحليل العواطف واجادة الوصف ، فدرس اللغة الفرنسية حتى أجادها ، وتضلع من آداب اللغات الثلاث ، وعرف أشهر ما كتب فيها ، فاذا حدثك فى أية ناحية منها أبان لك عن علم واسع ، ومعرفة دقيقة هذا إلى لغته العربية ومعرفته بها كأنه متخصص فيها – ثم هو بعدُ لا يرضى عن نفسه ، فهو دائم الدرس ، دائب العمل ، كلما قطع شوطاً طمح إلى ما هو أرقى منه ؛ فكأنه ومطامحه كالفرس وظله يجرى دائماً ليسبقه ؛ وهيهات أن يلحقه

وهو مع كل علومه وكل لغاته وكل عمقه خامل مجهول ، لا يعرف حقيقته إلا خلصاؤه ، إن جلس مع غيرهم فهى جهول لا يشاركهم فى جدل ، ولا يفضى اليهم بحديث ، يعرف مواضع السخف من قولهم ، ومواضع النقص فى تفكيرهم ، ويتظاهر بأنه لا يعى ما يقولون ، ولا يرقى إلى ما يفكرون ويجادلون ، يتغابى وهو الذكى ، ويتعايى وهو الفصيح

لا يعبأ بالمال إلا بمقدار ما يعيشه عيشة نظيفة فى غير ما ترف ولا سرف . عرضت عليه يوماً « وظيفة » يكاد ينال منها ضعف مرتبه . فرفضها فى غير تردد لأنه يرى أنه لا يصلح لها ولا تصلح له ، ولا تتفق ونفسه ، ولا يتقنها اتقان عمله الذى يقوم به

ثم هو — غالباً — لا يحب رؤساءه ولا يحبه رؤساؤه ، فهو لا يحبهم لأنه يتطلب فيهم كمالاً لا تسمح به الدنيا إلا نادراً ،

ويقيس الـكمال بمقياس محـدود معين ، مع أن للـكمال مناحى مختلفة ، وقد يُتَسامح فى نقص يستره كمال ، ويُغتفَر ضعفٌ تسنده قوة ، ولـكنه فى تقديره يجسم النقص ، ويكبر الضعف ، ويريد فى رئيسه الكمال صرفاً ، والقوة خالصة ، فكأنه يريده نبياً أو إلـهاً ، وأنى له بذلك ؟ فهو فى نقد لهم مستمر ، وتجريح دائم — وأما هم فيكرهونه لأنه حنبـلى فى تصرفه — متزمت فى خلقه ، صريح لا يلطف صراحته بلباقة ، شديد لا يمزج شدته برقة ، التصرف عنده كالخط إما أن يكون مستقيماً أو أعوج ولا وسط بينهما ، لا يأتمر بأمر رئيسه ولا ينتهى بنهيه متى خالف قانوناً — والقانون عنده هو القانون الحرفى الذى لا يحتمل تفسيراً ولا تأويلاً — من أجل ذلك تعاقب عليه رؤساء مختلفون وتنقل من مصلحة إلى مصلحة والنتيجة واحدة دائماً فى نظرهم اليه ونظره اليهم — حتى لقد كان رئيسه يوماً ما أقرب الناس اليه وأعرفهم به ، ورجوت السعادة له أيام رياسـته ، فما لبثت أن رأيت الصداقة استحالت إلى فتور فكراهية ، ثم كان أعدى له ممن لم يكن يعرفه

* * *

أما « هو » الآخر فجميل الصورة ، ظريف الهيئة ، حسن الحلية ، ممتلىء البدن ، ريان الجسم ، واسع البطن ، أنيق الملبس إلى آخر حد الأناقة ، دقيق الذوق فى تناسب الألوان ، وتناسق الأشكال ، حتى يعد حجة فيما يلبس وما لا يلبس ، وما يتناسب وما لا يتناسب ، لأنه خبير بأحدث الأزياء بل هو فيها مخترع فنان ، يحدثك حديثاً مستفيضاً عن خير الخيـاطين ومزاياهم وعيوبهم ، ومواضع الاجادة والعيب فيهم

وشىء آخر يجيد ذوقه ، ويجيد التحدث فيه ، ويجيد وصفه ويجيد نقده ، وهو الطعام والشراب ، فان أردت أن تعرف لوناً من الطعام لا يناسب لوناً أو أردت حديثاً شهياً عن طعام شهى أو عن المائدة وكيف تنظم و[illegible] بيوت مصر وما يجيده كل بيت من الأصناف فهو فى ذلك [illegible] لا يبارى ، وله فوق ذلك العلم الدقيق الواسع فى صنوف الشراب ، فأيها قبل الأكل وأيها على الأكل وأيها بعد الأكل ، وأى ألوان الشراب يصح أن تجتمع وأيها لا يصح ، وأى أنواع الشراب تجيده بلاد فرنسا وأيها تجيده ألمانيا وأيها أسبانيا - [illegible] كل هذه معلومات أولية بالنسبة اليه فعنده ما هو أدق فى ذلك وأعمق

هذه هى الدنيا وهده هى الحياة ، وهل أنت آخذ من دنياك إلا ما طعمت وما شربت وما لبست

وله كذلك حديث طريف عن النساء وأوصافهن فهو يجيد الحديث عن سحر العيون ورشاقة القد ، ولطافة التكوين ، وبراعة الشكل ، وهيف القوام إلى آخر ما هنالك ، ثم يتبع هذا بالكلام على مغامراته وما شاهده فى حياته ، كأنه كان له فى كل خطوة حادثة نسائية ، وفى كل سفر عشق ، وفى كل مجتمع غرام _ والعشق العفيف ، والهوى العذرى والحب الأفلاطونى ألفاظ جوفاء لا تدل على شىء إلا على جنون قائلها أو ريائه ، ينظر للمرأة نظر الأفعى للعصفور ، وله من وسائل الأغراء ونصب الشباك ، ورسم الخطط ما يعجز عنه القائد الماهر ، والصائد الحاذق ، فما هو إلا أن يضع عينه على فريسته حتى يخلق من الحركات والأفاعيل والأحاديث ما يستلفت النظر ، وإذا هو فى حديث جذاب مع من أحب

وإلى هنا ينتهى علمه الواسع وقدرته الفائقة

ثم ما الخلق وما الفضيلة وما الحق ؟ ليست إلا كلمات اخترعها الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء . ولا بأس من استعمالها أحياناً متى جلبت خيراً أو دفعت ضيراً ، ولم يخلق الله أسخف ممن يزعمون أنهم يتمسكون بمبدأ ، فليس فى الدنيا مبدأ صحيح إلا المبدأ القائل « الغاية تبرر الوسيلة » على أن تُفسَّر الغاية بغايتى لا غاية غيرى فكن « وفدياً » فى دولة الوفد ، و « شعبياً » فى دولة حزب الشعب و « حراً دستورياً » فى دولة الأحرار الدستوريين ، والعن فى كل دولة أعداءها ، وتمن بمناقبها متى كان هـذا ينيلك « درجة » أو على الأقل « علاوة » ، واجعل مبدأك مشايعة الزمان ، تقبل على من أقبل عليه ، وتدبر عمن أدبر عنه _ ولا تأخذ شيئاً « جداً » فما الحياة إلا لهو ولعب ، فان استطعت أن تجعلها كلها « مزحة » أو « نكتة » فافعل فهكذا خلقها الله

صادفته يوماً فى فندق فلما نزل إلى البهو استلفت نظر الناس بشكله واناقته ولباسه وأمره للخدم ونهيه ، وتحدث بصوت عال قليلاً ، فاذا ضحك يتصاعد من هنا ومن هنا ، وإذا الصوت يرتفع شيئاً فشيئاً والتفات الناس يزيد شيئاً فشيئاً وإذا الحـديث جذاب ، وإذا هو محور من فى المجلس وقيد أبصارهم وآذانهم

مأساة قضائية شهيرة

ذكريات عن قضية دريفوس

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ أسابيع قلائل توفى فى صمت وسكون ، رجل كان اسمه قبل ثلاثين عاماً يدوى فى أرجاء العالم بأسره ، ويقترن اسمه بأعظم وأشهر مأساة قضائية فى عصرنا ؛ ذلك هو الكولونل الفريد دريفوس الضابط الفرنسوى اليهودى ، الذى أثار اتهامه ومحاكمته ومحنته فى خاتمة القرن الماضى فى فرنسا أعظم ضجة ، وشغلت قضيته الأمة الفرنسية بأسرها زهاء عشرة أعوام ، وأثارت فيها من الجدل القضائى ، والشهوات والاحقاد القومية والجنسية ، والعواطف السياسية ما كاد يدفعها إلى معترك الحرب الأهلية والفوضى

وقد طويت صفحة قضية دريفوس منذ بعيد ، وأسدل الستار على آخر فصل من فصولها منذ ثلاثين عاماً . ولكن هذه المأساة القضائية الهائلة . التى طبعت تاريخ العصر بطابعها القوى ، وأثرت فى كثير من نواحيه السياسية والاجتماعية ، ما زالت منذ ثلاثين عاماً تثير اهتمام البحث التاريخى والقضائى ، وتصدر عنها المؤلفات الحافلة بأقلام أكابر الكتاب والساسة ، ومنهم من عاصروها واتصلوا بحوادثها وشخصياتها . وكان آخر ما صدر عنها من المؤلفات الهامة كتاب بالألمانية حافل بالشهادات والوثائق الحاسمة ، هى مذكرات الجنرال ماكس فون شفارتز كوبن ، وهو الذى كان ملحقاً عسكرياً للسفارة الألمانية فى باريس وقت انفجار العاصفة والقبض على دريفوس (سنة ١٨٩٤) متهماً بالخيانة العليا وبيع أسرار الجيش لدولة أجنبية ؛ وكانت فرنسا بأسرها تتهم ألمانيا بأنها هى الدولة التى تحاول الوقوف على أسرار الدفاع الفرنسى ، وتتهم الملحق الحربى الألمانى بأنه هو الذى يعمل على ابتياع هذه الأسرار . ولم يكن فى وسع الجانب الألمانى أن يتكلم يومئذ وأن يفضى بما لديه لاظهار الحقيقة ؛ وكانت المأساة القضائية تسير فى طريقها ، وينزل القضاء الحربى بالضابط البرئ أقسى حكمه مستنداً إلى طائفة من الوثائق والشهادات المزورة ، وفرنسا تضطرب من أقصاها إلى أقصاها سخطاً على الخائن وعلى اليهودية التى ينتمى اليها ؛ وهناك فى الظلام رجل واحد يعرف لب الحقيقة ، ويستطيع أن ينقذ البرئ ، وأن يهتك هذه الحجب كلها بكلمة ؛ ذلك الرجل هو فون شفارتز كوبن الملحق الحربى الألمانى ، بطل المأساة الخفى ؛ ولكن هذه الكلمة لم يستطع أن يقولها ولم يسمح له بقولها يومئذ ، وقضت الرسوم والاعتبارات السياسية أن ينوء بالسر حتى مرض موته ؛ وعندئذ أفضى به إلى زوجه وأوصاها بنشر مذكراته ووثائقه ، وقام بنشرها الكاتب الألمانى برنهارد شفر تفيجر تحت العنوان الذى اختاره صاحبها لها وهو « الحقيقة عن دريفوس » (١)

ولم يك ثمة شك فيما سيقوله الرجل الذى اشترك بنفسه فى حوادث المأساة ، وعرف سرها فى المهد ؛ فقد أكد لنا شفارتز كوبن وهو على شفا القبر ، ما كشفت عنه من قبل تطورات القضية الشهيرة ، وما اضطر القضاء الأعلى أن يثبته وأن يعلنه بعد تلك الجهود والمحاولات الفادحة التى بذلها أنصار البرئ

(١) Die Wahrheit ueber Dreyfus: Berlin 1930

وشأنه فى « المصلحة » التى يعمل فيها شأنه فى الفندق ، كعبة القصّاد ونجعة الرواد يقضى الحاجات لتقضى حاجاته ، وينفذ أغراض من هو أكبر منه لينفذ أغراضه من هو أصغر منه ، وهكذا اتخذ « وظيفته » تجارة ، يحسب فيها فى دقة ما يشترى وما يبيع ، وما يدخل وما يخرج ، ومقدار الرصيد ، وبكم هو دائن وبكم هو مدين

***

لعل الذى جعل من الانسان ذكراً وأنثى ، وجعل منه من يميل إلى الشعر والخيال ، ومن يميل إلى الحقيقة والواقع جعل الناس كذلك أحد هذين الرجلين ، وكل ما فى الأمر أنه قد يكون « هو » الأول صرفاً أو « هو » الثانى صرفاً ، وقد يكون خليطاً مبهما ، مزيجاً بينهما — هما رجل الآخرة ورجل الدنيا ، ورجل الفلسفة ورجل المادة ، ورجل الأخلاق والمبادئ ، ورجل المصالح والمنافع ؟

أحمد أمين

لاعادة النظر وتحقيق العدالة ؛ أكد لنا براءة دريفوس مرة أخرى ، وأوضح لنا بما يعرض من الناحية الخفية للحوادث كيف كان القضاء بعيداً عن الحقيقة ، وكيف كان الجرم الحقيقي ظاهراً غير بعيد عن يد العدالة ، ولكن يتمتع بحماية العسكرية المتعصبة المغرضة ؛ ويقدم إلينا شفارتز كوبن فوق أقواله الخاصة طائفة هامة من المذكرات والوثائق الرسمية التي تبودلت بخصوص الحادث ، ومنها رسائله إلى قلم أركان الحرب الألماني

وقد أتيحت لنا منذ أعوام فرصة لدراسة قضية دريفوس من الناحيتين القضائية والتاريخية ، وكتبنا عنها بحثاً مستفيضاً في كتابنا « ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى » [1] وشرحنا أدوارها السياسية والقضائية المدهشة ، وبينا كيف أنها كانت أثراً بارزاً من آثار « خصومة السامية » أو حركة العداء ضد اليهودية ، فالى هذا البحث نحيل القارئ ؛ ولكنا نرى أن نقدم هنا خلاصة موجزة لأهم وقائع القضية ، لابد منها لفهم ما سيجئ من البيانات والتعليقات

في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٩٤ قبضت السلطات العسكرية على ضابط بقسم المدفعية هو الفريد دريفوس بتهمة الخيانة العليا ، وذلك على أثر ضبط قلم التحريات السرية لوثيقة تتضمن التعريف ببعض أسرار الدفاع الفرنسي ، قيل إنها بخطه وإنه قدمها إلى سفارة أجنبية ، وقد عرفت هذه الوثيقة فيما بعد باسم « البردرو » وقدم دريفوس إلى المجلس الحربي ، وحوكم سراً ، وحكم عليه بالنفي المؤبد والتجريد (٢٣ ديسمبر سنة ٩٤) ، وكان دريفوس يؤكد بكل قواه أنه برئ من كل تهمة ؛ ولكن لم يصغ إليه أحد ، وجرت محاكمته بسرعة وتحيز ظاهر ، ونفذ فيه الحكم بصرامة ؛ وكان يؤمن ببراءته جماعة من أكابر المفكرين والساسة ويرونه ضحية الخصومة السامية ؛ وكان من بين هؤلاء السياسي شورر كستنر وكيل مجلس الشيوخ وطائفة من أعلام الكتاب مثل أميل زولا ، وإيف جيو ، وجوزف ريناخ ، وجورج كليمنصو ، وجوريس ، وكاسنياك ؛ فأثار هؤلاء دعوة شديدة ضد رجال العسكرية والقضاء الحربي ، وطالبوا باعادة النظر في القضية ؛ وبذلت أسرة دريفوس جهوداً كبيرة لانقاذه وتبيان براءته ؛

وكان الكولونيل بيكار من رجال العسكرية الذين يشكون في نزاهة القضاء الحربي ، فانتهز فرصة انتدابه لرئاسة قلم التحريات السرية ، ودرس القضية ومستنداتها المزعومة ؛ فأيقن أن دريفوس كان بريئاً وضحية واستطاع بعد البحث أن يعرف كاتب « البردرو » الحقيقي وهو ضابط يدعى « استر هازى » . ولم تلبث هذه الحقيقة أن ذاعت رغم اضطهاد زعماء العسكرية لبيكار ؛ واستغلها أنصار الاعادة ؛ فاضطرت السلطات الحربية أن تقبض على استر هازى ، وأن تحاكمه تهدئة لثورة الرأى العام ؛ ولكن المجلس الحربي قضى ببراءته ، فكانت هذه البراءة نذير فورة أشد من الأولى .

وفي ١٣ يناير سنة ١٨٩٨ نشر أميل زولا في صحيفة « الاورور » خطابه المشهور « إنى أتهم ! » موجهاً إلى رئيس الجمهورية ، واتهم فيه القضاء الحربي في عبارات عنيفة ملتهبة بانه انتهك قدس العدالة والقانون ، وقضى عمداً على البرئ ، واستعمل الغش والتزوير في إجراءاته ؛ فأحيل زولا على محكمة الجنايات بتهمة القذف ، وحكم عليه بالحبس عاماً وبالغرامة (٣فبراير سنة ٩٨) ولكنه فر إلى انكلترا تفادياً من تنفيذ الحكم ؛ ولم تفتر جهود أنصار الاعادة مع ذلك ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى اعترف الكولونل هنرى وهو رئيس سابق لقلم التحريات ، بانه اشترك في صنع بعض الوثائق السرية التي قدمت كدليل على إدانة دريفوس فقبض عليه وسجن ، ولكنه انتحر في سجنه ؛ فزاد الشك في إجراءات القضاء الحربي واشتد سخط الرأى العام ؛ واضطر عندئذ وزير الحربية أن يحيل الطلب الذى قدمه الضابط البرئ باعادة النظر إلى محكمة النقض ؛ وقضت هذه بنقض الحكم (٢٦ سبتمبر سنة ١٨٩٩) وأحيل دريفوس إلى المجلس الحربي في رن ، واستقدم من منفاه في جزيرة الشيطان في حالة يرثى لها ؛ ولكن المجلس الحربي قضى ثانية بادانته مع الظروف المخففة وحكم بسجنه عشرة أعوام ؛ وأصدر مسيو لوبيه رئيس الجمهورية عفواً عن المحكوم عليه . ولكن الضابط البرئ وأسرته وأنصاره لم ترضهم هذه الخاتمة العرجاء ، فضاعفوا جهودهم في سبيل الاعادة ومحو كل أثر للحكم ؛ وانقسمت فرنسا عندئذ إلى شطرين ، فريق وهو الأغلبية إلى جانب الاعادة وانصاف البرئ والحد من طغيان العسكرية ؛ وفريق الوطنيين يؤازر الجيش ويقاوم الاعادة ؛ واشتد

(١) يراجع كتابي المذكور ص ٥٠٤ إلى ص ٥٣٢

الجدل بين الفريقين ، واتخذ مظهراً سياسياً عنيفاً يغشى كل الحياة العامة فى فرنسا ؛ وفى أثناء ذلك وقف أنصار الاعادة على وثائق وحقائق جديدة تؤيد البراءة ، وقدم دريفوس طلباً ثانياً باعادة النظر ، ورأت الحكومة القائمة تهدئة للرأى العام أن تحيل طلبه ثانية إلى محكمة النقض ؛ فقررت المحكمة أن تنظر فيه بنفسها ، وأصدرت حكمها فى ١٢ يوليه سنة ١٩٠٦ بالغاء حكم محكمة رن وبراءة الضابط اليهودى ؛ وفى الحال أعيد دريفوس إلى فرقته ومنح وسام الشرف ، وأسدل الستار على تلك المأساة القضائية الهائلة ، وهدأت العاصفة السياسية الكبرى التى أثارتها زهاء عشرة أعوام

* * *

يقول الكاتب الأشهر أميل زولا فى كتابه الذى وضعه عن القضية بعنوان « الحقيقة تسير »[1] « إن فون شفارتز كوبن وحده هو الذى يستطيع أن يذيع الحقيقة الناصعة » ، وقد كان ذلك إبان اضطرام الصراع بين الحق والباطل وبين البرىء وجلاديه ؛ ولكن شفارتز كوبن كان يومئذ مرغماً على الصمت كما أسلفنا . أما اليوم فبين يدينا أقواله وشهادته الحاسمة ، وقد فاه شفارتز كوبن وهو على شفا الموت فى أواخر ديسمبر سنة ١٩١٦ بهذه الألفاظ التى حرصت زوجه على تدوينها : « أيها الفرنسيون ؛ استمعوا إلىّ : إن الفريد دريفوس برىء ، ولم يرتكب جرماً قط ؛ وكان الأمر كله دسائس وتزويراً ، إن دريفوس برىء » وفى المذكرات والوثائق التى تركها شفارتز كوبن أدلة الحقيقة الناصعة التى طالب زولا بكشفها ؛ فان « البردرو » الذى كان أساس الاتهام ، والذى نسب زورا إلى دريفوس ، كان من صنع استر هازى وبخطه ، وكان المجرم الخائن هو استر هازى ؛ وتلك حقيقة ثبتت ابان المأساة القضائية ذاتها ؛ بيد أن شفارتز كوبن يفصل لنا علائقه بذلك الضابط المجرم ، وكيف أنه لبث فى خدمته عامين يمده بأسرار الدفاع الفرنسى ؛ ثم يقول لنا إن « البردرو » لم يصل إلى يده قط ، ولم تلتقطه مدام بستيان خادمة السفارة الألمانية من سلة الأوراق المهملة ، وتوصله إلى قلم التحريات الفرنسية كما هو ذائع ؛ ولكن المرجح أن استر هازى وضعه فى صندوق الخطابات الخاص بالسفارة فاستلبه شخص ثالث لم يعرف قط ؛ وهذه شهادة تهدم الرأى الحديث الذى يقول به بعض الكتاب الفرنسيين ، وهو أن شفارتز كوبن نفسه هو كاتب « البردرو » مقلداً فيه خط استر هازى وأنه ألقاه فى سلة الأوراق المهملة عمداً لكى يصل إلى قلم التحريات السرية عن يد مدام بستيان وتتم بذلك الدسيسة ؛ والواقع أن شفارتز كوبن لم يقف على أمر « البردرو » إلا بعد القبض على دريفوس والحكم عليه بعامين حيث رأى صورة الوثيقة منشورة فى جريدة « الماتان » فعرف لفوره أنها من خط استر هازى ، وأدرك فى الحال روعة الخطأ القضائى الذى ارتكب

وفى الرسائل التى تبادلها شفارتز كوبن مع الكونت منستر سفير المانيا فى باريس وقتئذ ما يدل على التأثر العميق الذى كانت تتبع به السلطات الألمانية يومئذ تطورات المأساة القضائية ؛ وقد لبث الكونت منستر نفسه مدى حين بعيداً عن فهم الحقيقة معتقداً مسؤولية شفارتز كوبن حتى أنه حمل عليه فى بعض رسائله بقسوة ، واتهمه بأن تصرفاته المريبة كانت أكبر سبب فى الحملات الصارمة التى شهرتها الصحافة الفرنسية على المانيا ، والتى اضطرت حكومة القيصر أن تسعى لدى الحكومة الفرنسية لوقف هذه الحملات ؛ وقد وقف الكونت منستر بعد ذلك على طرف من الحقيقة ؛ وكان أركان الحرب الألمانى يعرفها منذ الساعة الأولى ، ويعرفها القيصر أيضاً . وكان القيصر يعرف ويثق بأن السفارة الألمانية فى باريس لم تتصل بدريفوس قط ؛ ولما صرح له الكونت منستر حين مقابلته بأنه لا يشك لحظة فى براءة دريفوس ، أجابه القيصر بأنه لا يشك فيها كذلك ؛ ونجد تفصيل المحادثات والتقارير الرسمية الألمانية المتعلقة بقضية دريفوس فى المجلدين التاسع والثالث عشر من مجموعة الوثائق الرسمية التى أصدرتها المانيا عن تاريخ ما قبل الحرب . هذا وفى مذكرات الجنرال فون شفارتز كوبن كثير من الوثائق والتفاصيل التى تلقى أكبر ضوء على حقائق المأساة القضائية الكبرى ، وتعرضها فى كثير من نواحيها عرضاً جديداً مؤثراً

ولقد كانت فورة الخصومة السامية التى بعثت قضية دريفوس ، ضربة شديدة لليهودية ، استنفدت كثيراً من مواردها

(١) La vérité en marche

وقواها ؛ ولكنها كانت لها نذير الخطر والكفاح ؛ فقد لبثت اليهودية مدى حين آمنة مطمئنة فى ظل الدعوقراطية الظافرة ؛ ولكنها أفاقت مذعورة من هذه الدعة الظاهرة ، ونهضت تكافح طغيان القومية والعسكرية والكنيسة معاً ؛ وكانت هذه اليقظة اليهودية وقود الحركة الصهيونيـة التى أذكى تيودور هرتسل الكاتب اليهودى جذوتها . وكان هرتسل يشهد مأساة دريفوس وتطوراتها منذ البداية كراسل لجريدة « نويه فرايه بريسه » النمسوية [1] ، ويصور حوادث المأساة بقلمه الملتهب تصويراً قوياً مؤثراً يثير روح الكفاح والمقاومة فى الملايين من بنى جنسه ؛ واستطاعت اليهودية غير بعيد أن تستجمع قواها ؛ وغدا هرتسل روح الحركة الجديدة التى انتهت بتنظيم الصهيونية السياسية ؛ ثم الفت اليهودية فرصتها أثناء الحرب الكبرى ، واتجهت صوب فلسطين ، وما زالت حتى ظفرت ببغيتها من الحلول بأرض الميعاد والاحتشاد فيها وتحقيق حلمها القديم بالعود إلى أرض سليمان

محمد عبد الله عنان

(١) Die Neue Freie Presse (الصحافة الجديدة الحرة) وهى أقدم الصحف النمسوية وأكبرها

وقفـــة بالعقيق !

للأستاذ على الطنطاوى

وقفة بالعقيق نطرح ثقلا من دموع بوقفة فى العقيق
مائل بين أربع ماثلات ينزع الشوق من فؤاد علوق
« البحترى »

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

وأرى عروةَ وقد أقبل من سفره ، فدخل القصر ، وحار الناس كيف ينمون إليه محمداً ، حتى جاء عيسى بن طلحة فدخل عليه ، فقال عروة لبعض بنيه : اكشف لعمك عن رجلى ينظر إليها ، ففعل

فقال عيسى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا أبا عبد الله ! ما أعددناك للصراع ولا للسباق ، ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا نحتاج إليه : رأيك وعلمك

قال عروة : ما عزّانى أحد عن رجلى مثلك

قال : فانى معزيك بمحمد !

فوثب فزعاً يقول : ما له ؟

قال : قد لقى الله

فاصفرّ عروة ثم جلس يسترجع ويقول :

اللهم أخذت عضواً وتركت أعضاء ، وأخذت ابناً وتركت أبناء ، فانك إن كنت أخذت لقد أبقيت ، وإن كنت ابتليت لقد عافيت !

* * *

ويتبدل المنظر فاذا أنا أرى قصر سعيد بن العاص الذى يقول فيه عمرو بن الوليد :

القصر فالنخل فالجمّـــاء بينهما
أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

وأرى فيه حركة وازدحاماً ، وأرى على الوجوه سحابة من غم ، وعلى الجباه سطوراً من كآبة ، فأغشى القوم أسألهم وأعلم علمهم فاذا هم واجون ، لأن سعيد بن العاص يحتضر ! وأىّ نبأ فى المدينة أروع من موت سعيد ؟ وفيه يقول الفرزدق :

ترى الغرّ الجحاجح من قريش إذا ما الأمر فى الحدثان غالا
قياماً ينظرون إلى سـعيد كأنهم يرون به هلالا

وأدخل القصر فأسمع عمراً ابنه يقول له : لو نزلت إلى المدينة !

فيقول له سعيد : يا بنى إن قومى لن يضنوا على بأن يحملونى على أعناقهم ساعة من نهار ، فاذا أنا مت فآذنهم ؛ فاذا واريتنى فانطلق إلى معاوية فانعنى له ، وانظر فى دَينى ، واعلم أنه سيعرض قضاءه فلا تفعل ، ولكن اعرض عليه قصرى هذا ، فانى إنما اتخذته نزهة وليس بمال

وما هى إلا أن يموت فيحمله الناس من قصره حتى يدفنوه فى البقيع . ورواحل عمرو بن سعيد مناخة ، فيعزيه الناس على قبره ويودعونه ، ويمضى من ساعته إلى معاوية فيكون أول من ينعاه له . فيتوجع له معاوية ويقول : هل ترك ديناً ؟

فيقول : نعم ، فيقول معاوية : هو علىّ

فيقول : قد ظنّ ذلك وأمرنى ألا أقبله منك ، وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه ، فيكون قضاء دينه منه

فيقول : اعرض علىّ

فيقول : قصره بالعرصة

فيقول معاوية : قد أخذته بدينه

قال نوفل بن عمارة : وكان دين سعيد ثلاثة آلاف ألف درهم ، فاشترى معاوية القصر بألف ألف درهم ، والزارع بألف ألف ، والنخيل بألف ألف درهم[1]

فيقول عمرو : هولك على أن تحملها إلى المدينة ، وتجعلها بالوافية .

فيحملها له إلى المدينة ، فيفرقها عمرو فى غرمائه ، وكان أكثرها عدات وعدها سعيد ، فيأتيه شاب بصك فيه عشرون ألف درهم بشهادة سعيد على نفسه ، وشهادة مولى له عليه ، فيرسل عمرو إلى المولى فيقرئه الصك ، فيبكى حين يقرؤه ويقول : نعم ، هذا خطه وهذه شهادتى عليه

فيقول عمرو : ومن أين لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم ؟ وإنما هو صعلوك من صعاليك قريش .!

فيقول المولى : أنا أخبرك : مرّ سعيد بعد عزله فاعترض له هذا الفتى ، ومشى معه حتى صار إلى منزله ، فوقف له سعيد وقال : ألك حاجة ؟

قال : لا . إلا أنى رأيتك تمشى وحدك ، فأحببت أن أصل جناحك

فقال لى سعيد : ائتنى بصحيفة ، فأتيته بهذه ، فكتب له على نفسه هذا الدين ، وقال : إنك لم تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا ، فاذا جاءنا شئ فأتنا

فيقول عمرو : لا جرم والله لا يأخذها إلا بالوافية ، ياغلام ! أعطه إياها ، فيعطيه عشرين ألف درهم وافية

ويجيئه مولى لقريش فيقول : إنى أتيت أباك بابن مولاى (فلان) ، وقد هلك أبوه ليزوجه . فقال : ماعندى ، ولكن خذ ماشئت فى أمانتى

فيقول له عمرو : كم أخذت ؟ فيقول : عشرة آلاف

فيقبل عمرو على القوم فيقول : من رأى أعجز من هذا ؟ يقول له سعيد : خذ ماشئت فى أمانتى ، فلا يأخذ إلا عشرة آلاف ، والله لو أخذ مائة ألف لأديتها

***

ويتبدل المنظر ، فأرى العقيق قد ازدحم بالناس حتى كأنه المحشر ، وانتقلت اليه المدينة حتى لم يبق فيها كهل ولا غلام ، وذلك أن خبراً سرى فى المدينة سريان الأمل فى النفوس اليائسة ، فترك الناس ماهم فيه وأقبلوا على قصر سعيد يسمعون منه مالم يسمعوا ... وإذا ابن عائشة وهو أضن خلق الله بالغناء ، وأسوأ الناس فيه خلقاً ، ومن إذا قيل له غنّ ، قال : ألمثلى يقال هذا ؟ وإذا ابتدأ بغناء وقيل له أحسنت ، قطع الغناء مغضباً وقال : ألمثلى يقال أحسنت ؟ وإذا هو يغنى أطيب غناء وأطربه ، فلا ينتهى من صوت حتى يشرع فى آخر ، لايسكت ولا يستريح ، حتى عدّوا عليه مائة صوت ، وإذا خبره أن العقيق طمى وازداد ماؤه ، فاعتصم ابن عائشة بقصر سعيد بن العاص فملأ الماء عرصة القصر ، فصعد على قرن البئر ورآه الحسن بن الحسن ، وكان قادماً على بغلة له وخلفه غلامان أسودان كأنهما شيطانان ، فقال لهما : امضيا رويداً حتى تقفا بأصل القرن الذى عليه ابن عائشة ؛ فخرجا حتى فعلا ذلك ، ثم ناداه الحسن : كيف أصبحت يا ابن عائشة ؟ قال : بخير ! فداك أبى وأمى ، قال : انظر إلى من بجنبك ، فنظر فاذا العبدان ؛ قال : أما تعرفهما ؟ قال : بلى ، قال : فهما حران لئن لم تغننى مائة صوت لآمرنهما بطرحك فى البئر ، وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن أيديهما . فغنى فلم ير الناس أحسن يوماً منه

***

ثم أرى فتياناً من فتيان المدينة فيهم يونس الكاتب وجماعة ممن يغنى قد خرجوا إلى وادٍ يقال له رومة من بطن العقيق ، فغنوا ، فأثار غناؤهم أهل الوادى ، فاجتمع اليهم الرجال والنساء حتى كان حولهم مثل مراح الضأن ؛ وأرى محمد بن عائشة مقبلاً معه صاحب له ، حتى يرى جماعة النساء عندهم فيأخذه الحسد ، وتحزّ فى نفسه الغيرة ، فيقول لصاحبه : كيف بك إذا فرقت هذه الجماعة ؟ فيسخر منه صاحبه ، فيهيج ابن عائشة فيأتى قصراً من قصور العقيق فيعلو سطحه ، ويلقى رداءه ، فيتكئ عليه ويغنى بشعر عبيد بن حنين :

هذا مقـــام مُطَرَّدٍ ... هدمت منازله ودوره

نمت عليه عــداته ... كذباً فعاقبـه أميره

ولقد قطعت الخرق به ... د الخرق ممتسفاً أسيره

حتى أتيت خليفة الر ... حمن ممهوداً سريره

حييتـــه بتحيّة ... فى مجلس حصرت صقوره

فلا ينقضى الصوت إلا والنساء كأهن تحت القصر الذى

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦ : ١٤٤

هو عليه ، وقد تقوض مجلس يونس ولم يبق فيه أحد !

***

وأرى غلاماً خلاسياً ، مديد القامة أحول ، قد ارتقى صخرة فى العقيق منفردة ، فاضطجع عليها ضجعة خفيفة ، ثم هب فزعاً وهو يغنى غناء ما سمع مثله السامعون ، يزعم أن الشيطان اجراه فى مسامعه وهو نائم ، ويعيد الغناء وهو يتصيد الطير بحبالة فى يده ، فيمر به شيخا مغنى مكة ابن سريج والغريض ، وقد أقبلا على بعيرين لهما يزوران المدينة ويتعرضان لمعروف أهلها ، ويلقيان من بها من صديقهما ، فيسمعان ثم يستعيدان الصوت :

القصر فالنخـــل فالجماء بينهما
أشهى إلى النفس من أبواب جيرون

فيعيده ، وهو مشغول عنهما بصيده ، فيقبل أحدهما على صاحبه فيقول : هل سمعت كاليوم قط ؟ فيقول : لا والله ! فيقول : فما هو رأيك ؟ فيقول : هذا غناء غلام يصيد الطير ، فكيف بمن فى الجوبة ؟ أما أنا (فثكلته أمه) إن لم أرجع !

فـكرّا راجعين . . . .

وكان الغلام (معبد) سيد من غني صوتاً فى الحجاز !

***

ويتبدل المنظر فأرى حميدة بنت عمر بن عبد الرحمن بن عوف ، وقد خطبها رجل عبشمى من أهل الشام ، فلما أراد أن يرحل بها وحف بهما الناس يودعونهما سمعت رجلاً يغني بشمر أبي قطيفة :

لا ليت شعرى هل تغير بعدنا	جنوب المصلى أم كعهدى القرائن
وهل ادؤر حول البلاط عوامر	من الحىّ أم هل بالمدينة ساكن
إذا برقت نحو الحجاز سحابة	دعا الشوق مني برقها المتطامن
ولم أتركها رغبة عن بلادها	ولـكنه ما قدر الله كائن

فتسقط وقد أغمى عليها ، فيعالجونها كيما تفيق ، فاذا أفاقت سمعته يغنى :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا	قباء وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاء قبر محمد	أراهط غرّ من قريش تباكره
لهم منتهي حبي وصفو مودتى	ومحض الهوى مني وللناس سائره

فتنشت بين النساء وسقطت ميتة . . . . . .

***

... واضطربت الصورة وتضاءلت ، ثم توارت واختفت ، وإذا صفحة الماء بيضاء ليس فيها صورة ، وإذا المجد والجلال ، والمطر والنور ، وإذا الدور والقصور ، والأنس والحبور ؛ كل أولئك قد غطى عليه الفناء ، وابتلعه هذا السيل الدفّاع ، ثم عاد يجرى بين الآكام الجرداء ، وله خرخرة وله دردرة . . .

وإذا كل ما بقى من هذه الدنيا الواسعة ، قهوة قامت على جذوع النخل ، وبئر نصبت عليها سانية ، وجماعة قد تحلقوا يشربون الشاى ، ويطربون ، وما بهم لو حققت من طرب ؛ وإذا قصر سعيد أنقاض مائلة ، وإذا سائر القصور تلال من الرمل الأحمر . . . . .

وإذا المجد والجلالة والجا ه كما يطرس السطورَ البنان !

دمشق — **على الطنطاوى**

عاقبـــة سليمة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المـازنى

لم يتفق الناس إلى الآن على وسيلة يدفع المرء بها عنه ثقيلاً يتصدى له ، ويلح عليه بما لا يسمه أن يجيبه إليه ، فالأمر متروك إلى صدق الروية ، وسرعة الخاطر ، وحسن البديهة ، ولـكل موقف ما يقتضيه ، ويدفع إليه ويغرى به ، والذى يُلهَمه الواحد فى موقف لا يُلهمه واحـد آخر فى الموقف عينه ؛ فاذا بدا لى أولاك ما لجأ إليه « حامد » غريباً أو شاذاً أو غير لائق ، فلا تلمه ولا تنع ذلك عليه ، فان عذره أنه لم يخطر له سواه ، وأن الموقف كان يتطلب السرعة واتقاء الجدل ، فقـد كان — كما لا تعلم — فى قهوة « الحمام » — بفتح الحاء — وكانت معه « فريدة » وهى بنت عمه ، وكان بينهما من الود أكبر مما يكون فى العادة بين ذوى القربى : وكانت تنطوى له على حب هادئ ، وتحس — بفطرتها الذكية — أنه يصبو إليها ، ولـكنها كانت تراه لا يصارحها بشىء ولا يبثها أمراً ، ولا يدع لفظاً أو عملاً يشى بهواه هذا ، فجنحت إلى الشك ، ثم يئست . ولما تقدم أحد أغنياء الريف يخطبها ، أغرت أباها بالتلكؤ ، لعل حامداً يتحرك ، ولـكنه لم يفعل . فقالت لنفسها إذا لم أتزوج من أحب ، فانه لا يبقى أمامى إلا زواج المال والوجاهة . . . وهكذا حدث ، أعنى أنه لم يحدث ، وإنما احتفل بقبول هـذا الوجيه الريفى ، وبتقديم « الشبكة » إلى عروسه المستقبلة ، على أن يكون العقد ليلة الجلوة

ومضت أيام ، والتقى حامد بهـا خارجة من متجر كبير ، فخفت اليه وهو يهم بركوب سيارته وسألته :

« لماذا هذه الجفوة ؟ »

فضحك وقال : « الجفوة ؟ إنما أفسح لمن هو أحق منى »

فتلفتت ثم قالت : « سأصرف سيارتى وأركب معك ، فهل تقبلنى ؟ »

قال : « ليس لى خيار ، إنك كهذا الهواء ، لاغنى عنه »

قالت : « أشكرك » وصعدت إلى جانبـه وأشارت إلى سائقها أن ينصرف . وسألها حامد :

« إلى أين بنا ؟ »

قالت : « إلى مكان فيه هواء ، وطعام ، فانى جائعة وحرَّى »

فمضى بها إلى قهوة الحمام على النيل ؛ فأكلا شيئاً وشرب هو قدحاً من البيرة — أو الجعة كما تسمى — وقالت له على الطعام

« لماذا لم تهنئنى ؟ »

قال : أهنئك من اعماق قلبى ، ولـكن بأى شىء ؟ »

قالت : بخطبتى — ثم انك لم تحضر — لماذا ؟ »

قال : « آه صحيح ، مبروك ! لقد سمعت أنه غنى جداً ، ووجيه فى بلده »

قالت : « نعم ، إن غناه مضافاً إلى غناى خليق أن يساعدنى على ما يميل اليه طبعى من البذخ والترف . صحيح ، فانى لا أطيق الفقر ، ولا أستطيع أن أحيا حياة رقيقة الحال »

قال : « أعرف ذلك — أو أنا على الأصح قدرته »

فحدقت فى وجهه فقال : « نعم ، لقد انتهى كل شىء الآن فلا ضير من الصراحة ، ومن الممكن أن أكاشفك بالحقيقة ... »

فقاطعته وقالت : « هل تعنى أنك . . . . »

ولم تتمها ، فقال : « نعم ، قدرت أن لا أمل لى ، فان عمى غنى وأنا فقير ، وقد عطفه علىَّ أنى ابن أخيه »

فقالت : « ولـكنك لست بفقير ! »

قال : « أعنى نسبياً . . كل ما أكسب بعـد الجهد والعناء ستون جنيها فى الشهر . وما خير ستين لمن تنفق وحدها — وهى فتاة فى بيت أبيها — أكثر من هذا القدر ؟ »

فلم تقل شيئاً ، وفتر الحديث بعد ذلك ، وصار متقطعاً ، وإن كان حامد لم يقصر فى توجيهه إلى كل ناحية تخطر بالبال . ثم قاما ، وانهما ليتخطيان باب القهوة وإذا بفريدة تشد على ذراع حامد وتقول بصوت يكاد يكون همساً : « حامد ! هذا هو ! »

فتلفت وهو يسأل : « من ؟ » ولـكنها ذهبت تعدو إلى السيارة وفتحت الباب الخلفى وأغلقته وراءها ، وانطرحت على أرضها — لا مقعدها — فأهمل حامد السؤال والجواب ، ودخل سيارته وأدار المحرك ، ولم يفته أن يحكم ايصاد الأبواب حتى لا يفتحها أحد من الخارج ، وأسدل الستائر الخلفية فاستحال

أن يرى أحد فريدة وهى راقدة . ولم يكن حامد يعرف ممن تجرى ولا كان يدرى ما يخيفها ويدفعها إلى التخفى ، وإنما كان يدرى أنها تريد ذلك ، فعليه أن يكون عوناً لها

ومد يده إلى ناقل السرعة ، يريد أن يضمه فى المكان الأول ، وإذا برجل ضخم هائل الأنحاء ، ولكنه أنيق الثياب محبوكها يقول له :

« لحظة ! لقد رأيت فتاة تدخل هـذه السيارة ، فافتح الباب من فضلك لتخرج »

فابتسم حامد وقال : « رأيت فتاة تدخل فى هذه السيارة ؟ أواثق أنت ؟ » ويتلفت وراءه ليطمئن

فقال الرجل بلهجة جافية : « أقول لك افتح الباب »

فقال حامد : « معذرة ، ولكنك مخطىء . . . . إنى لست سائق سيارتك »

فاحتد الرجل وصاح به : « انها . . . انها . . . ألا تنوى أن تفتح ؟ »

وعالج الباب ، ولكنه كان موصداً من الداخل ، فأعياه فتحه ؛ فارتد إلى نافذة حامد وقال بصوت اجتمع له الناس :

« افتح . . . أقول لك افتح . . . أخرج هذه الفتاة »

وصار المحتشدون على الرصيف جمعاً حافلا ، وأكثرهم من العامة والنوبيين ، والصبيان ، وسائقى السيارات المختلفة ، وعلت أصواتهم بالنكات والضحك ، فزاد الرجل حماقة ، وجعل يدق الباب بجمع يده ، وتهور فوضع قدمه على سلم السيارة وهم أن يدخل رأسه من نافذتها لينظر ، فلم يبق مفر من عمل يعمله حامد ليدفعه عنه ويتخلص منه ؛ ولو غيره فى مكانه لكان الأرجح أن يلكمه ، ولكن حامد لم ير أن يتقى شراً بشر ، واكتفى بأن يطير له طربوشه عن رأسه ، فطار عقله وراءه ، وارتد عن السيارة لينقذه من التراب البليل — أو الوحل — وسر الناس هذا المنظر فضحكوا ، وقهقهوا ، واغتنمها الصبيان فرصة فاقبلوا على الطربوش يدفعونه بأرجلهم كأنه كرة ويصيحون ويصخبون ، والرجل يسبهم ويلعنهم ويحاول أن يدرك واحداً منهم ، ولكنه ثقيل وهم خفاف ، فكف ، وعاد اليه الرشد مع التعب ، ونظر فاذا السيارة قد غابت !

* * *

وقالت فريدة لحامد فى بيتها عصر يوم :

« هل تعرف لماذا دعاك عمك ؟ »

قال : « لا »

قالت : « ليسألك عما حصل فى قهوة الحمام ، وعلى بابها »

قال : « من أخبره ؟ أنت ؟ »

قالت : « بل هو »

قال : « هو ؟ »

قالت : « نعم ، ألا تعرفه ؟ الخطيب ! واتهمنى بالسكر أيضاً »

قال : « اتهمك أنت ؟ ولكنك لم تذوقى شراباً سوى الماء . أنا الذى شربت بيرة »

قالت : « ولا أنت — فاهم ؟ »

قال مستغرباً : « ولا أنا ؟ ولكنى شربت بيرة — ولم لا أشرب ؟ وماذا يدعونى أن أقول غير الحق ؟ »

فهزت كتفيها وقالت : « كما تشاء ! ولكنى أنذرك إذا اعترفت »

فسألها متعجباً : « تنذريننى ؟ لست فاهماً »

قالت : « يا صاحبى ، لا أستطيع أن أتزوج سكيراً — أنا هكذا — من الطراز القديم المحافظ »

فانتفض واقفاً وصاح : « ماذا تقولين ؟ »

قالت بضحك : « أليس كلامى مفهوماً ؟ »

قال : « ولكنك مخطوبة . . . . ؟ »

قالت : « كنت مخطوبة . . . أما بعد أن كشفت لى عن حبك المكتوم ، فقد اغتنمت الفرصة وقذفت بالشبكة فى وجهه »

قال : « ولكنى فقير . . . . »

قالت : « وأنا أحب الفقر . . . ليس أمتع منه ، لا تخف أن أجىء اليك بغناى الثقيل المنفر . . . والآن ألا تقبلنى ؟ »

فدنا منها وهو يقول : « لم ألثم شفتيك منذ . . . . »

فقالت : « منذ يناير سـنة ١٩٢٧ . . . دونت ذلك فى مذكراتى . . . « اليوم لثم شفتى . . . . . . »

ابراهيم عبد القادر المازنى

التطور والتقليـــــد

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخرى أبو السعود

التطور والتقليد ، أو التجديد والمحافظة ، عاملان خالدان يعملان جنباً لجنب ويتنازعان كل كائن حى من فرد أو مجتمع أو نظام أو نحوه . فهما يتنازعان كل أدب حى ؛ وقد كان لكل من الأدبين العربي والانجليزى نصيب من كليهما ، غير أنا إذا دققنا النظر رأينا أن الأدب العربى كان أوفر حظاً من التقليد أو المحافظة أو الاتباع ، بينما كان الأدب الانجليزى أوفى نصيباً من التطور والتجديد والابتداع .

تطورت لغة الأدب الانجليزى وأسلوبه : فهما اليوم يخالفان ما كانا عليه فى عهد شكسبير مخالفة كبيرة ، وتطورت أغراضه عامة : فصار اليوم أشد اتصالاً بالمجتمع أخذاً منه وتأثيراً فيه ، وتطورت أشكاله : فظهرت فيه على التتابع المقالة الدورية والصورة والترجمة والقصة الطويلة والقصيرة

وتتابعت مذاهبه : نخلت المدرسة الرومانسية التى ازدهرت فى عهد اليزابث ، وكان شكسبير وسبنسر من أينع ثمراتها ؛ وكان الخيال ووقائع البطولة وحياة الملوك والأمراء والقواد وقصص الأولين وخرافاتهم مِدَادَ نظمها ونثرها ؛ وتلتها المدرسة الدينية التى أطلعت ملتون وبنيان اللذين كانت أمور الدين وأخبار البعث والحساب والخلود مدار كتاباتهما ؛ ثم كانت المدرسة الكلاسية فى القرن الثامن عشر فافتتن زعماؤها فى الشعر أمثال درايدن وپوپ ، وفى النثر أمثال أديسون وستيل ، بمحاكاة الآثار الكلاسية القديمة من أغريقية ولاتينية فى حسن الصياغة وإحكام الأسلوب ؛ ثم أعقبت هذه مدرسة رومانسية أخرى فى مستهل القرن التاسع عشر كان من أقطابها وردزورث وشلى وكيتس ، فنبذت الاهتمام بتنميق الأسلوب وأطلقت لخيالها العنان ؛ وفى أواسط ذلك القرن قامت المدرسة الواقعية تحد من ذلك الخيال الجامح وتربطه برباط الواقع ، وكان من رجالها تنيسون ثم هاردى .

وكانت كل مدرسة من هذه المدارس الأدبية مرآة للحياة فى عصرها : فمدرسة شكسبير كانت مرآة عصر الاستكشاف الجغرافى وكشف كنوز الأدب القديم ، والمخاطرات والمغامرات فى الكشف والقتال . ومدرسة ملتون الدينية كانت مرآة عصر التشدد الدينى الذى كان زعماؤه « المطهرين » ؛ والمدرسة الكلاسية المنمقة الأسلوب كانت صدى لمجتمع القرن الثامن عشر المنمق الآداب والأقوال المتهافت على حياة المدن المزدرى بمظاهر الطبيعة ؛ والمدرسة الرومانسية فى مستهل القرن التاسع عشر كانت تعبيراً فى عالم الأدب عما عبرت عنه الثورة الفرنسية إذ ذاك فى عالم السياسة : من نزعة إلى التحرر من قيود المجتمع واغلال الفكر والعودة إلى الطبيعة ما أمكن ؛ والمدرسة الواقعية التى تلت ذلك كانت متأثرة بالاستكشافات العلمية البعيدة المدى التى شهدها القرن الماضى . وقد تتابعت هذه المدارس جيلاً بعد جيل وكانت كل واحدة منها ثورة على سابقتها تحاول إصلاح معايبها وتدارك ما أهملته

هكذا تطور الأدب الانجليزى مع تطور السياسة والعلم والدين ، وكذلك تطور الأدب العربى : فلغة الجاهلية الوعرة تلتها لغة صدر الاسلام الفحلة ، فلغة الصدر العباسى الجزلة ، ثم جاءت بعد ذلك لغة لينة مبالغة فى اللين والاناقة ، والأسلوب المرتجل المرسل تلاه الأسلوب الفنى المتعمل المرصع الذى تزايد تعمُّله وترصيعه شيئاً فشيئاً ؛ وتطورت أغراض الأدب وشملت من أسباب الحضارة ما لم تشمل قبل : من شؤون الإمارة ومظاهر الترف وآثار العلم والفلسفة ؛ وتطورت أشكاله : فظهرت كتب التراجم والأخبار والنقد والمقامات والرسائل المطولة . فالأدب العربى قد تطور تطوراً عاماً اتجه إلى ترقيق العبارة وتوسيع أغراض القول ، وكان مرجع هذا التطور العام هو تحضر أبناء العربية واشتغالهم بالعلوم

ولكنه تطور عام غير محسوس كتلك التطورات السالف ذكرها فى مجرى الأدب الانجليزى ؛ ومعظم أغراض الأدب العربى وصفاته تووررثت جيلاً عن جيل : فأغراض الفخر والمدح والهجاء والرثاء ونحوها فى الشعر ظلت أبواباً ممتازة محددة يتبارى الشعراء فى تناولها ولا تتم لأحدهم البراعة حتى يطرق كلاً منها ؛ وكتب الأخبار الأدبية والتاريخية المختلطة ظلت على

وتيرة واحـدة من أول ظهورها لا يختلف بعضها عن بعض فى طريقة البحث والسرد وتهذيب الأبواب والفصول

ولا غرو فقد كانت تحيط بالأدب العربى ظروف كلها تدعو إلى المحافظة والتقليد : فالمجتمع العربى ذاته كان مجتمعاً محافظاً لم يكد يطرأ عليه جديد من الأفكار والأنظمة بعد تشبعه بحضارة الأقدمين وعلومهم ، ولم يختلف عليه من الاحداث الاجتماعية والسياسية ما تترك صداها فى الأدب : فقـد كانت القصة من أولها إلى آخرها على وتيرة واحـدة : أُسَر وأمراء يتوارثون الحكم ويتجاذبونه ، وأمم مكفوفة عن شؤون الحـكم إلاّ أن تثور ثائرتها فى الفينة بعد الفينة فتُقمع وتعود الأمور إلى وتيرتها ، وما من نزعة جديدة أو اتجاه جديد يحوّل عنان الأمور إلى غير ما هى سائرة فيه

والأدباء أنفسهم كانوا منعزلين بآدابهم عن مجتمعهم قلما يعبرون عن أمانيه أو يحاولون قيادته ، وكانوا أقرب مكاناً إلى الأمراء منهم إلى صف الشعب ، لأنهم كانوا يعتمدون على الأولين فى معاشهم

ثم إن قيام الامبراطورية الاسلامية أدى من بادئ الأمر إلى نتيجتين كانت كلتاهما ذات أثر بالغ فى الأدب العربى ، وكانتا عاملَيْ محافظة وتقليد فيه : وهما فساد اللغة الفصحى تدريجاً ، ودخول الأعاجم فى اللسان العربى

فان فساد اللغة تدريجاً جعل الأدباء يحتذون دائماً حـذو المتقدمين من العرب الأقحاح ، ويتخذون من كلامهم نماذج وشواهد ، وصار حَسْب الشاعر المتأخر أن يجارى المتقدمين فى جزالة القول وإحكام النسج ليكون قد بلغ مبالغ الشاعرية ، ولا يكاد يخطر له أن يبرّز على أولئك المتقدمين ويبتكر مالم يعرفوا ، وهو وإن لم يُرِدْ إلا محاكاة أسلوبهم إلا أن ذلك مؤديه حتما إلى محاكاة أفكارهم ، ومن ثم التقليد والمحافظة

والأعاجم الذين دخلوا فى اللسان العربى انكبوا كذلك على دراسة المتقدمين وانصرفوا إلى محاكاتهم تقويماً لعربيتهم وطلباً لأسرار اللغة وقواعدها ؛ ولا يخفى أن كثيراً من أقطاب الأدب المتأخرين كانوا من هؤلاء الأعاجم المستعربين ، فكان تأثيرهم فى الأدب تأثير محافظة وتقليد ونظر إلى القديم

وقد تزايد تبجيل كل ما ورد عن المتقدمين حتى قارب منزلة التقديس وإن قام من الأدباء من ينكره ويثبت الفضل للمتأخرين ، وكان من آثار هذا التقديس وهذه المحاكاة الدائبة ما نرى فى الأدب العربى دون غيره من الآداب من ظواهر بتراء ليست من التعبير عن الواقع ولا من الابتكار فى شيء : كالغزل الاستهلالى ، وذكر الابل والحداء والبيد ، ومعارضة القصائد المشهورة بمماثلاتها فى الغرض والوزن والقافية

وهناك بابان من أبواب الشعر كان مجرد بقائهما عامل تقليد ومحافظة فى الأدب : هما المدح والهجاء المتكلفان طلباً لصلات الممدوح أو لهبات خصم المهجو ، فقـد كان الشاعر مثلاً يمدح قائد الخليفة أو وزيره مادام مرضياً عنه ، فان نُـكب تقرَّب الشاعرُ إلى الخليفة بذمه ؛ وقد كان أكثر المدح والهجاء من هـذا النوع المتكلف المستَمْنِح ، ومالم يُصدِرْه الشاعر عن شعور حقيقى فسبيله فيه أن يحاكى ويأخـذ ممن تقدم نَقْصاً وزيادة وتخريجاً وتوليداً ، لذلك ظلت معانى المدح والهجاء وتشبيهاتهما فى مختلف العصور تحوم حول أقوال المتقدمين ، وأثر هـــذا جلىٌّ فى جمود الأدب وتقيُّده بالقديم بدل اتجاهه إلى مناح جديدة

ثم هناك عامل كبير بين عوامل محافظة الأدب العربى ، هو اعتزال ذلك الأدب غيره من الآداب ، فالأدب كـكل كائن حى يَجْمُد ويتضاءل إذا لم يتصل بغيره . فتتجاوب الاحساسات والأفكار ، وقد كان من أكبر عوامل رقى الأدب الانجليزى وتطوره اتصاله بالآداب المعاصرة ورجوعه إلى الآداب الـكلاسية ، أما الأدب العربى فلم يكن له مرجع عدا ماضيه ، فظل دائماً ينظر إلى الخلف بدل أن ينظر إلى الامام ، ولو استفاد من الأدب الأغريقى مثلاً لـكان له تاريخ غير تاريخه المعروف

كل هذه عوامل سياسية واجتماعية وأدبية أدت إلى ضعف رغبة التجديد واستفحال نزعة التقليد فى الأدب العربى ، ومن ثم ظل طوال العصور يردد ألحاناً بعينها حتى بلغ ما يمكن أن يبلغه مثله من الرقى ، ثم انحدر فى طور تدهوره الطويل ، وكان من أكبر عوامل هذا التدهور تغلُّب نزعة التقليد فيه على نزعة التطور ؟

فخرى أبو السعود

إلى الشباب الناهض

الأدب اللاهى ...

للأستاذ محمد روحى فيصل

قال صاحبي :

« والأدب لو تدبرت متعة تلهو بها النفوس ، ولذة تنشط لها العقول ، وفن جميل نقرؤه فتبرز الأحلام ، وتتدافع الخواطر ، وتخف الحياة ، ثم نخلص إلى عالم حلو لا تجثم عليه أثقال السعي والعيش ، ولا تحده قيود الجد والوقار . . »

وسكت هامساً قد انفرجت عيناه الصغيرتان تستطلعان في وجهي أثر الحديث ، وتتبينان ما عسى أن أقول ، فراعه أن أجمع الأنف وأزوى اللحظ وأقطب ما بين الحاجبين ، ثم أقوم هادئاً إلى مكتبتي المتواضعة فأنزع منها رسالة [1] في مائة صفحة قد ألفت النظر اليها والانام فيها منذ سنوات ، فما أتركها إلا لنوم أو طعام ، أو شأن من شؤون الدنيا . وشرعت أتلو على صاحبي صفحة موجزة ليست جديدة في روحها ومعناها لدى القراء ، ولكنها جديدة طريفة في عيني ، أريد أن أذيعها اليوم في الناس ليتدبروها وليروا الرأى الذى يرتأون فيها

فافتح إن شئت أية مجلة عربية ، فانك لاشك واجدها قد جردت كثيراً من صفحاتها للشعر ، أو للشعر المنثور ، أو لغيرهذا من القطع الفنية مما يسمونه أدباً ، وما هو من الأدب الصادق الصحيح في شيء ؛ والظاهر أن اعتبار الأدب وسيلة للتعابث والمفاكهة ، أو للتظرف والمنادمة ، هو علة هذا الهراء والهذيان ، وسبب قوى لكل ما يعترى الآداب والفنون من انحطاط وإسفاف ، وما يتدسس اليها من ألوان المجانة وفضول الكلام . ونحن في هذه العجالة إنما نبتغي تبيان أوجه الخطأ في هذه النظرة اللاهية الهازلة ، والكشف عن عقمها وفسادها ، وعن نتائجها الخطيرة التي تقتل في الأدب روح الجد والصدق والطبع

وقبل أن نخوض في هذا الحديث الذى يستشرف له القلم اليوم نقرر أن النهضات القومية التى تحدو بالأمم في مدارج العظمة والمجد ، وتنفث في الشعوب معنى القوة والاستقلال ، لا تطلع عليها إلا إثر النهضات الأدبيـة التى تهتاج فيها النفوس ، ويتيقظ الشعور ، وتلتهب العواطف ، ويتحرك الكامن من الهواجس والأمانى ، فيكون الأدب بمثابة ناقوس يهيب بالركب الغافى إلى المسير والعمل . فهذه ألمانيا لم يستطع بسمارك تأليف وحدتها وضم دويلاتها بعضها إلى بعض إلا بعد أن تذوق الألمانيون آثار جوت وشيلر وهيني وليسنغ وهردر . وهذه فرنسا ما نهضت في الثورة الكبرى إلا بعد أن شاعت بين أبنائها مؤلفات روسو وڤولتير ومونتسكيو . وشبيه بذلك انجلترا في القرن السابع عشر يوم هبت للحياة العالية وللفتح والسيادة ، فقد كان شكسبير وغير شكسبير نشروا قبل ذلك في الأمة الانجليزية أرواحهم الحية ونفثاتهم القدسية

هذا ما تستفيده الجماعات من الأدب ؛ ولعل ما يعود منه على الفرد أجل وأرفع ، ذلك بأن الأدب باب كبير من أبواب السعادة ، وطريق ناعم ناضر تشم من جوانبه روائح الورد ، وتمتع باصرتيك في مسالكه بأكمام الزهور ، وتتسمع في أجوائه الى أناشيد البلابل الثائرة الخافقة . انك بالأدب تحيا حياة طيبة راضية ، تحيا حياة موسعة « مضاعفة » تحسها في أعماق قلبك ، وفى رجع شهيقك وزفيرك !

إن العطف والالفة قوام الهيئة الانسانية ، فلا ينعم امرؤ بالانفراد ولا يهنأ بالوحدة ، وأحسب لو أن الناس جميعاً كانوا خيرة خسرة لايجوز منهم إلى جنة الله غير رجل واحد لكان هذا الرجل الصالح أنكد حظاً وأسوأ مقاماً ممن هم على النار يتقلبون ! كأنى أراه في جنبات الفردوس وعلى ضفاف الأنهار يمشى على غير هدى وإلى غير غاية حتى تبلى قدماه ، وينظر إلى أفاويق النعيم وألوان الجمال فتبدو له كئيبة محزونة ، ثم يرتمى في الجحيم الصالى يفضله على هذا النعيم الذى لا يرى فيه من يقول له : ما أرغده ! ويحب ذو النعمة الحسد ، ولو نزع من الصـدور لاشتراه وفرقه على الناس مجاناً ليحسدوه على ما به من نعمة ! ويرتاح العاشق إلى من يتحدث اليه عن فرحة حبيبه وغضبة عذوله ... فالسعادة كما ترى لا تتم حتى تستجلى مثالها في المرآة ،

(١) نرجو أن نطبع هذه الرسالة قريبا

والانسان لا يطرب حقاً إلا إذا رأى كلام النفس مسطوراً على قطعة من طرس

فما دام التعاطف عماد الحياة فلن يوجد بغير تعبير ، لأن الحياة لا يمكن أن تكون بغير أدب ؛ تصور أمة تتملى فى نفسها شعوراً سامياً : هذا تطمح آماله إلى السيادة ، وهذا يدفعه حب الخطر إلى جوب البحار ومجاهل الأرض ، وذاك تنزع قلبه بهجة الجمال وفتنة الحسن ؛ تصور أمة تجيش فى نفوس أبنائها مختلف الميول والأهواء ملحة قاسية ، مكتظة دافقة ؛ أفتستطيع أن تتمثلها حريبة من الأدب ؟ أما أنا فلست أعرف أمة حية لم يكن لها أدب جميل ؛ فان أمة لا تعرف الشعور مكتوباً لا تعرفه محسوساً

فالأدب كما ترى ليس حلية تزين بها الأمة جيدها ، وليس هو ألهية من الألاهى كما يزعم الأستاذ شفيق جبرى [1] لأنه لو كان كذلك لانتظم فى سمط الكماليات ، والأدب إنما هو ضرورة من ضرورات الحياة ، وشرط لازم لها ، لا يمكن تخيلها ولا تكمل سعادتها بدونه

ما ينبغى أن يكون الأدب ألهية من الألاهى نعبث بهـا على ما تقتضيه المآرب وترتضيه الأهواء ، فان الشر كل الشر فى هذه النظرة الخاطئة ، ذلك بأن الألهية تصدفنا عن جليل الحياة وعظيمها ، وتدفعنا إلى عالم البطالة نلهو ونعبث ؛ فاذا نحن رحنا نصور ذلك ظفرنا بما لا خطر فيه ولا قيمة له ، ونكون كمن فاز بالقبض على الريح . واعتبار الأدب ألهية يهيب بالمتأدب إلى أن يتحرر من ربقة الجـد واللمحة الصادقة ، فيهذى لغواً تقرؤه المقول فى ساع كلالها وفتورها ، أو يستمع الناس إليه كما يستمع الوالدان إلى ولدهما المحبوب وهو يلثغ بالألفاظ والكلمات ، فاذا كذب أو أخطأ أو مسخ الحقيقة أو شوه الفضيلة غـُفر له ذلك

ولعل فى النظر إلى الأدب كألهية مدعاة إلى التزويق فى البيان ، والاكثار من المحسنات البديعية من جناس وتورية وطى ونشر ، فينعدم الطبع ويغـدو الشعر مجموعة من الألاعيب اللفظية والتهريج الكلامى [2] . والحق أننا بلغنا فى هـذا غاية ننكرها ونأسف لها ، فنحن ما نزال نخطئ فى تقديرنا للشعر ، وفهمنا المعانى ، ونقدنا لفنون القول والبيان ، وما نزال بسطاء سذجاً تخدعنا البهرجة الكاذبة والطلاوة العابثة ، وتفتننا الألاعيب اللفظية والاناقة الكلامية ، وترانا على ثقافتنا وجلال نهضتنا نجهل كل الجهل مقاييس الأدب الصحيحة ، وحـدود الجودة والرداءة ، ومواطن الجمال والدمامة ، نستحسن ما تغثى منه النفس وما هو حقيق بالنبذ والاهمال ، ثم نستقبح ما قد يكون فى الذروة من البلاغة الرائعة ! فما أحوجنا إلى إصلاح هذه النظرة العقيمة التى نزن بها الآثار الفنية ، وتصحيح الذوق الأدبى المقلوب ! وما أفقرنا إلى من يأخذ بأيدينا إلى النماذج الحية فيدلنا على قوتها وحسن تمثيلها ، وإلى السخافة المرذولة فيرينا وجه ضعفها وعبثها ! وعندى أن كل إنتاج فى الأدب لم يبدأ بهذا الاصلاح على هـذا النحو فانما هو محاولة فاشلة فائلة ، ومضيعة للجهود المبذولة فى غير طائل . . .

لقد كنا إلى عهد قريب أمواتاً نرتدى معالم الأحياء ، أمواتاً فى حسنا وشعورنا وتفكيرنا ، أمواتاً فى أهدافنا ومُثلنا العليا ، أمواتاً فى نظمنا ومرافقنا الاجتماعية ، أمواتاً فى كل شىء لا يسمع لنا نبض ولا خفق حياة . كنا أحياء نعيش فى العدم أو يعيش العدم فينا ، كأن الغيب الجليل الهازل قد قذفنا من جوفه جثثاً هامدة تغدو من المهد فى لحـد ومن اللحد فى مهد ! فأنت ، إذ تدرس الأدب العربى فى هذه الفترة الغافلة من الزمان التى دامت ما يقرب من ألف عام ، لا تجد أثراً لما يعتلج فى النفوس الخافقة من ضروب العواطف وشتى الانفعالات ، وما يجرى فى الهواجس من الأحلام والأوهام ، وما ينتاب الضمائر من قلق أو يأس أو ألم ، وإنما تلقى أدباً فارغاً أجوف يفيض بالاحساس المكوس والاسفاف المخل والصناعة البديعية أو التدجيل الذى يعتمد على الطباق والجناس والمقابلة وما إليها ! وحسبك أن تقرأ شعر ابن نباتة وابن معتوق والحلى لتلم بطرف من شعر اللفظ البالى الهزيل الذى يحبس المعانى المشبوبة فى أضيق الآفاق !

ثم اتصلنا بالغرب فى يوم اسماعيل وبعـده ، وكان اتصالاً وثيقاً تناول بالتغيير بعضاً من العادات والأوضاع المعيشية ، وكثيراً من طرائق التفكير والتعلم ؛ وكان للآداب من هـذا

(١) راجع المحاضرة الأولى من كتابه « المتنبي »
(٢) راجع المقال الممتع الذى أثبته العقاد فى صدر « المطالعات »

التطور نصيب وافر ، فان المتأدبين الذين درسوا فى معاهد أوربا عادوا إلى ديارهم بعد ذلك يحملون رؤوساً وقلوباً غير التى كانوا يحملون ، ذلك بأنهم تذوقوا أشتاتاً من الأدب الحى ، وبلوا شخصيات من الشعراء متمايزة ، وفقهوا أساليب النقد الحديث ، ولما أرادوا القيام برسالة « الحياة » شرعوا فى الهدم وإزالة الأنقاض وتنبيه الأمة إلى مواطن النقص والهزل والكذب

هـذا جماع ما يعترى الأدب فى اعتباره ملهاة وتسلية ؛ ولو أننا شئنا التمثيل لأتينا بهذا الغرض الوضيع الذى يكاد يكون كله غلواً وعبثاً ، ذلك هو المدح ، ومن البديهى أن يكثر فيه الغلو البشع لأن الممدوح ليس يرضى الا اذا خلعت عليه صورة ترفع من قدره وتعظم من شأنه ، ولأن المادح إنما جل همه التكسب والاستجداء . فلا بد إذن من المبالغة والكذب فى الاحساس والتوشية المموهة ، ولذلك كان المدح من أنواع الأدب الرخيص

وإنما الأدب العالى الرفيع تصوير لما يتردد فى أطواء النفس من النزعات والمشاعر ، وترجمة لما يجول فى الخاطر من الهواجس والأحلام ، أو لغير هذا من صروف الحياة وأحداثها — يرسم الشاعر ذلك كله لاهازلاً ولا عابثاً وإنما جاداً كل الجد ، صادقاً تمام الصدق ، مخلصاً أوفى الأخلاص !

ارجع إلى نفسك حين تكتب ، تجد عنها واستوحها ، وليكن لك من صدق إحساسك ودقة تأملك وصفاء بصيرتك ما تكشف به عن ألوان هذه الحياة النامية الزاخرة التى تسمى فى تلافيف قلبك وثنايا ضلوعك بحيث تجد لها صورتين : أولاها فى الضمير وأخراها على القرطاس . فلن يكون الأدب أدباً إلا إذا صدر عن صاحبه كما تصدر الزفرة عن فؤاد المصدور والدمعة عن عين المحزون ؛ وإذا بهرك أن الشاعر أو الكاتب يبدع فى التصوير ويسمو فى البيان فينبغى أن تؤمن أن الرجل إنما يذيب من لحمه وعصبه ، ويريق من مائه ودمه فى سبيل الفن والأدب !

والاستحسان إنما يجب أن يكون فى إطار هذا الأدب السامى الرفيع برسله المبين لا خادعاً ولا مشعوذاً وإنما مصوراً مشاعره البيّنة النيّرة ونزواته الخفية المكنونة . فأنا إذ أنقد أنظر إلى إحساس الشاعر هل كان نافذاً عميقاً ؟ وإلى نظرته هل كانت عامة شاملة ؟ ثم الى تعبيره هل كان فيه مجيداً موفقاً ؟ فاذا تبيّن لى هذا كله على نحو ما أريد استحسنت وفضّلت ، وأنا محق مخور فى استحسانى وتفضيلى . وقد يكون من الخير أن نضرب لذلك مثلاً نوضح فيه هذا الذى نزعم ، فقد تغنى الأمثلة عن تقرير القواعد النظرية والشروح المستفيضة

ما اختلف عربى الى جامع بنى أميـة فى الشام إلا أخذته حالة نفسية خاصة ببقايا المجد والعظمة ، يحسها فى أطوائه غامضة مبهمة ، كئيبة متحسرة ! فان كان مبيناً فصيحاً وشاء نشرها وتوضيحها لم يزد على قول أمير الشعراء :

مررتُ بالمسجد المحزون أسأله ... هل فى المصلى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبـــدان
فلا الأذان أذان فى منارته ... إذا تعالى ولا الآذان آذان !

هذه أبيات صادقة لا تمويه فيها ولا تضليل ، نظمها الشاعر فى قالب رائع جميل ، ولعل فى بسط الحزن على المسجد ما يضاعف هذه الروعة التى لا تلمحها فى الكلمات منفردة ، وإنما تلحظها منبثقة من خلال الاتساق والانسجام . إنه ليحلو لى هذا التساؤل عن مروان ، وهذا الترجيع للمحزون فأقبع فى مكانى هامساً فى خفوت : « وا حسرتاه على شوقى ! »

ولنتأمل — فى روية وإنعام — صورة هذا العزيز المهان التى يعرضها علينا شوقى :

بنت فرعون فى السلاسل تمشى ... أزعج الدهرَ عريُها والحفاءُ
وأبوها العظيم ينظر لمـــا ... رُدِّيت مثلما تُردى الإماءُ
أُعطيتْ جرة وقيل اليك النهـ ... ـرَ قومى كما تقوم النســاءُ
فمشت تظهر الإباء وتحمى الدمـ ... ـعَ أن تسترقه الضراءُ
فبكى رحمة وما كان من يبـ ... ـكى ، ولكنما أراد الوفاءُ !

ما أريد أن أتناول هذه الصورة الشعرية الرائعة بالتحليل أبين مواضع قوتها وجمالها ، فاننى ان لمستُها أخشى تشويهها والحط من شأنها ، فحسبى وحسب القارئ تلاوتها فى هدوء نتملى معاً حلاوتها ونستشمر نضارتها . . إنما أطلب فى رفق ولين ، إلى الشباب الناهض ، أن ينظر الى الأدب بعين الجد والصدق حتى ينتج مثل انتاج شوقى الخالد

حمص « سورية » ... محمد روحى فيصل

الأدب والتاريخ

٣ ـ الرافـــعي

بقلم تلميذه وصديقه

الأستاذ محمد سعيد العريان

تتمـــة

إيمانه :

والرافعي رجل مؤمن إيمانَ فكرٍ وعقيدة ، تُشرق على قلبه وعقله حقائقُ هذا الدين ، فهي كأنما تأتيه تلتمس في كتابته وشعره حياةً تكون بها في الناس معنى يقدرون على فهمه ، إذ لا يستطيعون أن يفهموه بأنفسهم ، فمن ثَم تراه حين يكتب عن الدين يتدفّق تدفُّقَ البحر ، وتتدافع معانيه تدافع الموج ، وتزدحم أفكاره ازدحام اللُّجة ؛ ومن هنا تغمض معانيه على بعض من لم تشرق حقائق هذا الدين على روحه وفكره

وما سَهلٌ أن تجد كاتباً غير الرافعي يكتب بهذا الأسلوب في هذه المعاني ؛ فانك لترى إيمان أكثر من تعرف ، فكرةً يستبدّ بها العقلُ المتقلب ، فهو إيمانٌ متقلقل يتنازعه الشك ، لا يأخذ ولايدع إلا بحذر ؛ أو تراه إيمان عقيدةٍ موروثة تستبدّ بصاحبها استبداد الجهل والتقليد ، فهو إيمان جامدٌ ، لا يأخذ ولا يدع إلا ما أُريدَ على أن يأخذ وأن يدع . وقلما تجد غير هذين من يؤمن إيمان الفكر والعقيدة معاً ؛ ولو قد وُجد من يؤمن هذا الايمان ، لرأيتَ الاسلام ينبعث اليوم كأوّله ، ولعادت المعجزة الاسلامية تكتب فصلاً جديداً في تاريخ الانسانية

والرافعي بإيمانه ذاك ينقاد للمقدور انقياد الطاعة ، واثقاً أن لامفرّ للانسان مما قُدِر عليه ؛ فلا تراه يتبرّم أو يتسخط لشيء يناله ، وتسمعه يقول : « جئنا إلى هــذه الحياة غير مخيرين ، ونذهب غير مخيرين ، إن طوعاً وإن كرهاً ؛ فمدّ يدك بالرضى والمتابعة للاقدار أو انزعها إن شئت ، فانك على الطاعة ما أنت على الكره ، وعلى الرضى ما أنت على الغضب ؛ ولن تعرف في مذاهب القدر ، إذا أنت أقبلت أو أدبرت أي وجهيك هو الوجه ؛ فقــد تكون مقبلاً والنقمة من ورائك ، أو مدْبِراً والنقمة أمامك ، والقدر مع ذلك يرمى بك في الجهتين أيهما شاء .

وحريٌّ بمن يوقن أنه لم يولد بذاته ، ألا يشك في أنه لم يولد لذاته ، وإنما هي الغاية المقدورة المتعينة ، فلا الخلق يتركونك لنفسك ، ولا الخالق تاركٌ نفسك لك ... » فمن ثَم ترى الرافعي دائماً يُحسن الظنّ بالغد وبما وراء خير أيامه ، فهو يحاول أن يجمل من كل ألمٍ يناله لذّةً يُشعر بها نفسَه ، ومن كل فادحةٍ تنزل به خيراً يترقبه ويهيىء له ، وهو يفصح عن ذلك المعنى في مقالاته : سموّ الفقر ، وحديث قطّين ، وبين خروفين ، والانتحار ، وكتاب المساكين ، أدقّ إفصاح وأبلغَه

ولعل أحداً لا يعرف أن الرافعي لا يرى في تلك العلة التي أوْدتْ بسمعه وهو غلامٌ بعد ، إلا نعمةً هيأته لهذا النبوغ العقلي الذي يُملي به في تاريخ الأدب فصلا لم يكتب مثله في العربية منذ قرون . ولاشيء غير الايمان بحكمة القدَر وقانون التعويض ، يجعل الانسان أقوى على مكافحة أحداث الزمن ، ولا تأخذ منه النوازلُ بقدر ما تعطيه . . .

حياته الخاصة :

وبعد ، فأنا قد رأيت الرافعي يكتب ، وجالسته وهو يفكر ، وجلستُ إليه ليملي عليّ ، وصحبتُه في غدواته وروحاته ، وأشركني في مطالعاته ، وأخذ مني وأعطاني ؛ فمن حقّ العربية عليّ أن أصف بعض ما أستطيع مما رأيت

وحياة الرافعي بسيطة كل البساطة ؛ فهو في أشيائه بعيد كل البعد عن التأنق ، ولا يمتدّ بالعرف اعتداداً كبيراً . تراه في الديوان ، وفي البيت ، وفي الشارع ، وفي القهوة — رجُلاً كبعض من تعرف . ولو أنك ذهبت اليه في الديوان ، ورأيته جالساً إلى مكتبه ، يوقّع على هذه الورقة ، ويراجع تلك الحسبة ، ويحادث الناس ويحادثونه . . . لشككت أن يكون هــذا هو الرافعي ؛ وقد يميّز مكتبه عن مكاتب غيره من الموظفين بضع صحف مركومة إلى جانب ، أو كتابٌ جديد مستند إلى كتاب ، على أنه في عمله معروف بشدّته وعنفوانه ، وكثرة دلاله أيضا ...!

وفي البيت قلما تجد الرافعي إلا جالساً إلى مكتبه مطالعاً

أو كاتباً ، وتكاد غرفة كُتُبه أن تكون كل نصيبه من الدار ... وله صبرٌ عجيب على العمل ؛ فهو حين يجلس للمطالعة قد يظلّ ثمانى ساعات لا يزايل موضعه . ولا يسهر خارج الدار عادةً إلا ليلةً أو ليلتين فى الأسبوع ، وسائر لياليه عمل مستمر فى الكتابة أو المطالعة ؛ ويندر أن يأوى إلى فراشه ليلة قبل الثانية عشرة ؛ وقد كان له عناية كبيرة بالرياضة البدنية إلى عهد قريب ، وهو يحاول معظم تمرينات (صاندو) الرياضى المشهور ؛ وترى صورته قريبة من مكتبه ، إلى جانب صورة محمد عبده ، وجمال الدين ، و ... وملكة الجمال التّركية كريمان هانم خالص ... !

وهو لأولاده أخ كبير ، لا يدخل أحدهم إليه فى مكتبه لأمر إلا داعبه بكلمة عذبة أو إشارة لطيفة ، ولكنه قلما يدخل اليه أحد منهم إلا إذا دعاه ، لتخلو له جَلْوته

وإذا أراد الرافعى أن يسهر ليلة خارج الدار ؛ فليس إلا فى السيما أو فى القهوة ، وذهابه إلى السيما عمل أدبىّ أيضاً ... فهو لا يميل إلا لمشاهدة نوع خاص من الروايات الفنية ، يكون له منها مادّةُ وحى ...

وحتى فى القهوة لا يريد أن يمضى وقتــه عبثاً ؛ فلا بد من صحف أو كتب أو مجلات ، يمضى بها الوقت ، أو يفرغ منها مع الوقت ؛ فتراه مُكِباً على كتابه ، وفى يمينه قلم يشير به إشاراته ، وفى يساره لىُّ الكركرة (١) ، وفمه إلى فمها يبادلها أنفاساً بأنفاس ... فاذا فرغ من الكتاب ومن الكركرة أقبل على جليسه بحديث عذب ، أكثرُه دعابة وأقلّه هزل ... وإذا أردت أن تستمع الى الجدّ الهازل ، أو الهزل الجادّ ، فاجلس الى الرافعى لحظات ...

ولصوته رنّة عذبة ، كانت حبسة من مرض فمادت لحناً من الموسيقى ؛ فأنت تميّز صوته بلهجته ورنينه بين مئات الأصوات . ولو سمعت الرافعى خطيباً لما حسبته هو الواقف أمامك يخطب ؛ فان صوته يعلو ويعلو ، ويمتدّ امتداده فى الجهات الأربع ، ثم يعود اليك عَوْد الصدى من مكان بعيد ، أرَنّ أغنّ مندفعاً متحمّساً ينسيك الزمان والمكان والناس ، فاذا أنت حيث يريد أن ينقلك ؛ ولكنك مع الأسف قلما تسمعه خطيباً ، لأنه يجهد فى الخطابة جهداً كبيراً يبلغ منه . فهو لا يخطب إلا حين يدعو نفسه أو يدعوه الموضوع ، فيحمل نفسه على ما يكره ... فاذا دعوته أنت أنكر على نفســه أنه خطيب ؛ ومن أين له أن يعرف ... ؟

وفى الرافعى كثير من الاعتداد بالنفس بقدر ما فيه من التواضع ، ولا أحسب أحداً يؤمن باجتماع هاتين الصفتين فيه من جلسة واحدة ، فقد يستقبلك لأول ما يعرفك بدعابة أو نادرة ، أو ينصرف عنك الى كتابه ، أو يقبل عليك فى صمت وأنت تتحدث اليه ، أو يأخذ عليك أشتات الحديث فلا يدع لك أن تتكلم ، فتنصرف وما عرفت إلا لوناً واحداً من أخلاقه . وجلساء الرافعى قليلون على كثرة من يعرفهم ويعرفونه

كيف يكتب ؟

وهو حين يهم أن يكتب ، يختار موضوعه ، ثم يتركه للفكر يعمل فيه عمله ، وللواعية الباطنة أن تهيّئ له مادته ، ويدعه كذلك وقتاً ما ، يطول أو يقصر ، يقيّد فى أثنائه خواطره ؛ لا تكاد تفلت منه خاطرة ؛ وهو فى ذلك يستمد من كل شئ مادّة وَحى ، فكأنّ فى الوجود الذى يراه صوتاً يسمعه ، وكأن لما يسمعه لوناً يراه ، وكأن فى كل شىء شيئاً زائداً على حقيقته ، يملى عليه معنى أو رأياً أو فكرة

فاذا اجتمع له من هذه الخواطر قدر كاف ، يأخذ فى ترتيبها معنى الى معنى وجملة الى جملة ، وهذه هى الخطوط من هيكل المقالة

ثم هو يعود إلى هذه الخواطر المرتّبة ، ينظر فيها ، ويزاوج بينها ، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد ؛ ولا يزال هكذا يزاوج ويستولد ، ويستنتج من كل معنى معنى ، وينفلق له عن كل رأى رأى ، حتى تستوى له المقالة فكرةً تامة بعضها من بعض ، فيكتبها

ولا تراه حين يكتب أو يُملى ينظر إلى أصول المقالة بقدر ما ينظر فى أعماق فكره الى ما يتّصل بمعنى ما يكتب ؛ فقد يكون المُمْلَى منه صفحة أو صفحتين ، فيُملى صفحاتٍ وصفحات

ومذهبه فى الكتابة إعطاء العربية أكبر قسط من المعانى ؛ فهو لا يكتب الكتابة الصحافية السوقية ، لأن الهدف الذى يرمى اليه هو أن يضيف ثروة جديدة الى اللغة . ولن تجد كاتباً

(١) الكركرة : النارجيلة (الشيشة) كما يسميها الرافعى

غير الرافعي يجهد جهده فيما يكتب فلا يحاول مرة أن يسخر من قرائه أو يُشَعْوِذ عليهم ليملأ فراغاً يريد أن يمتلئ!

وميزة أخرى تراهـا في كتابة الرافعي ، هي أنه لا ينحرف مرة واحدة عن مذهبه في المادة والموضوع ، فهو هو منذ كان الى اليوم ، لم يرجع عن رأي رآه ، أو يناقض نفسه في منهج ابتدعه ، وهذا بعض أسرار الايمان في هذا الرجل الذي لم يغالط نفسه قط

وله فلسفة خاصة به ، تعرف فيها طابعه وخلقه ومزاجه ، على حين ترى أكثر فلسفة المتفلسفين من أدبائنا مزَقاً مرقّعة من آراء فلان وفلان . . . وإني لأشهد أن هؤلاء أكبر من كل فيلسوف في الأرض ، لأنهم وعوا في رءوسهم آراء كل فلاسفة الأرض . . . ثم لم يزيدوا . . . !

وحظ الرافعي من لغة العامة كحظـه من الفرنسية ... فأكثر لغته من الكتب ، وقد استغنى بالاطلاع عن الرواية ، وبالقراءة عن المدارسة والاستماع ؛ وهو مع ذلك قد يصنع أغاني شعبية بديعة ، بالغةً الغايةَ في بلاغة العامية ، من دون أن ينحرف في ذلك عن أسلوبه في البيان العربي وطريقته في توليد المعاني ؛ ولعل قراء (الرسالة) لم يزالوا يذكرون له « أغنية الزّبّال ! » وتراه إذ يحاول أن يصنع شيئاً من ذلك يرجع إليّ ليسألني عن كلمة أو تعبير مما ينطق العامة ؛ فأقوم حينئذ منه مقام قاموس العامية ..

وهو مع ذلك لا يرى أكثر ما تكتب الصحف إلا عامية راقية . . . فهو يشكو دائماً الجوَّ العاميَّ الذي يحوطه ، فكيف به لو كان يسمع لغو الناس . . . ؟ ومن ثمّ لا يهم الرافعي أن يكتب إلا حاول جاهداً أن يتخلص من هذا الجوّ الذي كان فيه ، فيرجع إلى بعض كتب العربية يقرأ منها صفحات كما تتفق ، ليعيش لحظة قبل الكتابة في بيئة عربية فصيحة اللسان . وخير ما يقرأ في هذا الباب كتاباتُ الجاحظ وابن المقفع . وأحبُّ الكتب اليه من بعد ، كتاب الأغاني لأبي الفرج

ولكتابة الرافعي جرس موسيقي خاص تتميز به ، حتى ما عليه على عجل بلا إعداد ولا توليد ؛ وكثيراً ما أُملي بلا إعداد صفحات وصفحات ، وقد أملى عليّ مرة مقالاً طويلاً في الرد على بعض الأدباء ، استغرق تسعة أعمدة من صحيفة يومية ، على حين لم يستغرق إملاؤه ساعات ؛ وأملى عليّ في كتابته كان أكثر من تعبه في إملائه . . . !

والرافعي على ما يبدع في كتابته ، لا يرى ما كتبه يرضيه بعد الفراغ منه بساعات ، فهو دائماً يطالب الأعلى ؛ وهو نوع من التواضع ونوع من الطموح في وقت معاً . . . !

ويُتهم الرافعي بالغموض أحياناً ؛ وليس ثمة غموض فيما يكتب إلا عند من لم يتزوّد من الأدب الصحيح ، أو يتعوّد قراءة أدب الرافعي ؛ على أن كتابته في مجموعها لا تصل إلى نفس قارئها إلا أن يقرأها قراءة الشعر ، بعقله وروحه ، لا قراءة القصص والروايات ، يفتش بعينيه بين السطور عن معنى يسليه ، أو حادثةٍ يُزجي بها الفراغ . . . ونصيحتي إلى الذين يطلبون التسلية في الأدب ، ألا يقرءوا كتب الرافعي ، فانها لن تجدي عليهم شيئاً ...!

وقد يطلب إليه الكثير من ناشئة الأدب أن يجعل أدبه أهون مما هو أو أقلّ دسماً ، فيأبى أن ينزل إلى ذاك ؛ ومذهبه أن يحاول جذبَ الجمهور إلى أعلى ، بدل أن يتدلىّ هو إلى الجمهور ، وأن يكتب ما يُرضي الفن لا ما يرضي الناس . على أنه لو أراد الرافعي أن ينزل لما استطاع أن ينزل إلا أن يصير شيئاً غير الرافعي لأنه على مقدار عمق الفكرة ، يكون عمق الصورة اللغوية التي تتأدّى بها ، ولن يستطيع كاتب من الكتّاب — فيما أرى — أن يرضي الفن ويرضي الجمهور في وقت واحد ، حتى لو كان يكتب بلغة العامة ، فان الكتابة لغةٌ وفكر ، أفتراه إن كتب بلُغة العامة ، يكتب أيضاً بأفكار العامة . . . ؟

وقد أخذ الرافعي منذ أكثر من عام يكتب في (الرسالة) نوعاً أحسبه جديداً في الأدب العربي ، جَمَعَ إلى الرافعي طائفة من القراء لم يكونوا يقرؤون له ، وعرّفه إلى الذين لم يكونوا يعرفونه إلا من خلال ما يكتب عنه خصومه . ولا أدلّ على قيمة هذه المقالات ، من ترجمة بعضها إلى غير العربية ، على ما في ترجمة كتابة الرافعي مِن عنف ومشقة !

وأذكر أن بعض المستشرقين الألمان يُعنى بوضع كتاب بالانجليزية عن (زعماء الأدب العربي الحديث) بمعاونة الأستاذ طاهر الخيري المغربي ، وقد وضع الجزء الأول منه عن خمسة من

كبار كتابنا ، فلما قرأ مقالات الأستاذ الرافعى فى (الرسالة) ، كتب اليه منذ قريب رسالة طويلة يثنى عليه ثناء بالغاً ، ويعده بأن يصحح أغلاطه فى الجزء الثانى من الكتاب . . . . !

الرافعى القصصى :

لم يكن الأستاذ الرافعى معروفاً بكتابة القصة ، حتى جاءت قصصه فى (الرسالة) برهاناً على نوع جديد من عبقريته ، وهو يروى أكثرها عن السلف من الأئمة والخلفاء ، فما منزلة هذه القصص من الحقائق التاريخية ؟ . . . هذا سؤالٌ أحسب الكثير من القراء ينتظر الجواب عنه ؛ ذلك لأن كثيراً منهم لا يرى للرافعى فيها يداً إلا أن يُجَلّيها لوقتها . وأيّ يدٍ هذه . . . ؟

وطريقة الرافعى فى كتابة هذا القصص غريبة ، فمعظمه لا أساس له من الواقع ، أو أن له أساساً لا يلهم هذه القصصَ الطوال البديعة فى خيالها وموضوعها وفنها ، وإنما هو يفكر فى موضوع الحكمة التى يريد أن يلقيها على ألسنة التاريخ — على طريقته فى تأليف مقالاته — فاذا انتهى إلى ذلك تناول كتاباً من كتب التراجم الكثيرة بين يديه ، فيقرأ منها ما يتفق حتى يعثر باسم ما ، فيدرس تاريخه ، وبيئته ، وخلانه ، ومجالسه ، ثم يصنع من ذلك قصة لا تزيد على سطور ، يجعلها كالبدء والختام لموضوعه الذى أعدّه من قبل ، وإنه ليُلهم أحياناً ويوفق فى ذلك توفيقاً عجيباً ، حتى تأتى القصة وكأنها بنت التاريخ ، وما للتاريخ فيها إلا سطور ، أو إلا أسماء الرجال . . . .

على أن وجه الابداع فى ذلك ، هو قدرة الرافعى على أن يعيش بخياله فى كل عصر من عصور التاريخ ، فيحسّ احساسه ويتكلم بلسان أهله ، حتى لايشكّ من يقرؤها فى أنها كلها صحيحة من الألف إلى الياء . . . .

فليزِدْنا الرافعى من هذا الباب ليُعرّف دعاةَ الجديد أى رجلٍ هو من رجالات العربية ، وماأشك أن هذا النوع من الأدب سيكون له فصلٌ بعنوانه فى تاريخ الأدب الحديث

أرانى قد أطلت وما استوفيت ، على أنى ما قصدت إلى دراسة الرافعى ، وإنما هو المام سريع ببعض جوانبه ، على مقدار ما بقيها فى الذاكرة من الخواطر لوقتها ، فمعذرة ، والى اللقاء بعد حتام . . . ؟

(طنطا) محمد سعيد العريان

دراسات فى الأدب الانكليزى

٢ـ وليم وردزورث

William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

المتاخمون — The Borderers

وعلى أثر هذه الهبة أخلد ورد زورث إلى السكينة فى بيته الجديد فى « راسيدوم لودج » فى مقاطعة دور تشاير منقطعاً عن العالم وعاكفاً على المطالعة والانتاج ، وفى بيته هذا نظم مأساته الشعرية المشهورة « المتاخمون » ، وقد ضمنها خلاصة عقيدته التى اقتبسها من « وليم ڤودْوِنْ » وفيها يدعو الى حل الشرائع والسنن الاجتماعية وهدم الفروق بين الطبقات البشرية والمناداة بتأسيس هيئة اجتماعية جديدة شعارها المساواة والديمقراطية ، أما تأسيسها فمن طريق الدعاية والجدل ، لا عن طريق العنف والشدة كما كان يؤمن فى بدء حياته . ولعل هذه الفلسفة أقرب ما تكون لمبدأ الشيوعية الجديدة . بيد أن وردزورث لم يطل تمسكه بهذه العقيدة بل نبذها حالما تحقق صعوبة نجاحها وتنفيذها

كولردج ووردزورث

كان كولردج الشاعر الشهير يقطن فى بيت قريب من مسكن شاعرنا ، فلما علم بوجود ناظم « القطعات الوصفية » فى جواره رأى أن يزوره . ولما التقيا كان أول ما فعلاه أن تبادلا قراءة منظوماتهما وخصوصاً « الكوخ المتهدم » أو « مرغريت » وقد ضُمّتْ مؤخراً إلى قصيدته المشهورة « النزهة The Excursion » والمتاخمون The Borderers لوردزورث ومأساة أوساريا Osaria لكولردج

ولقد كتبت دوروثى رسالة إلى أحد أصدقائها تقول فيها : « لقد كانت خسارتك عظيمة فى عدم مشاهدتك كولردج .. إنه لرجل عظيم حقاً ، ولا ينطق إلا بحديث طلى عذب يشفّ عن سموّ روحه وقوة إدراكه ، وإنه لأسود الحاجب صلت الجبين »

وعلى أثر زيارة كولردج له كتب عنه يقول : « انني لأستصغر نفسي إذا ما قورنت به » . وفي رسالة له يشير إلى دوروثي بأنها « امرأة حقاً ، وتتجلى أنوثتها في طبيعتها وفي روحها وعقلها . هي ساذجة الطبع ، قوية العاطفة عفيفة النفس ، ذات عين ثاقبة دقيقة الكشف والملاحظة » . ويقول وردزورث عن صديقه كولردج : « لم أرَ له مثيلاً بين الرجال »

فلا غرو إذن أن نجد شاعرنا وشقيقته بعد تبادل مثل هذه العواطف مع كولردج ينزحان إلى قرية صديقهما غب زيارته لهما بشهر . هناك وجد كلٌ منهما له في الآخر مكملاً . فبينا كان كولردج رجل خيال وأحلام ، كان وردزورث شاعر الطبيعة والحقيقة . وليس أحوج من الصداقة بين الشعراء إلى التباين في الأهواء والأذواق الأدبية والفنية

وما كاد يستتب أمرهما حتى شرعا في مراسلة « نيومنثلي مَقَزين » ، فساهما في نظم قصة موضوعها « الملاّح القديم The ancient Mariner » . أما مصدر هذه القصة فهو حلم قصه عليهما أحد الأصدقاء فرأيا أن يحوكاه في قصة شعرية . غير أنهما عدلا عن الاشتراك في نظمها لما لقياه من المشقّة في اقتسام مواضيعها الرئيسية . فقد قرّرا أولاً أن ينظم وردزورث الأجزاء التي تتجلّى فيها الأشياء والحوادث عاديّة مألوفة ، وأن يقتصر كولردج على ما يُعتمد فيه على الخيال الرائع والتصوير الشائق . ولالتباسهما في التمييز ما بين هذين النوعين من الفنّ آثر كولردج أن يختصّ بنظمها وحده ، ففعل ذلك بعد أن نظم وردزورث بضعة أبيات منها . ويُعزى إلى وردزورث استنباط الطائر الميمون Atabatross أحد أبطال هذه القصة . أما الفلسفة التي تتضمّنها هذه القصّة فهي أن يحبّ الانسانُ ما على الأرض على السواء حيواناً كان أو انساناً أو جماداً ، ما دامت كلّها من خلقه تعالى

ولقد عزم الشاعران على دراسة اللغة الألمانية والالمام بثقافتها ذريعة إلى تفهم فلسفتها الفنية . لهذا قرّرا السفر إلى ألمانيا ، بيد أن أحوالهما الماديّة كانت مضعضعة إلى حدّ رأيا معه أن يسدّا عوزهما عن طريق النشر . لهذا أصدرا في سبتمبر ١٧٩٨ مجلّداً جامعاً لأشعارهما أسمياه « قصص شعرية غنائية » Lyrical Ballds . ولم يكن لكولردج فيه غير ثلاث قصائد إحداها « الملاّح القديم » ولسوء الحظ لم يصادف الكتاب رواجاً كبيراً في بدء الأمر ، كما يظهر من رسالة بعثت بها سارا زوج كولردج إليهما بُعيد سفرهما إلى ألمانيا تقول فيها من ضمن ما كتبته لهما « لم يلق الكتاب الاقبال المرجو »

سافر الشاعران ودوروثي إلى ألمانيا مخلّفين زوجة كولردج وأطفالها في رعاية بول أحد أصدقائهم . وقد رأوا أنهم بانفصالهم يقلون من المحادثة باللغة الانكليزية ويكثرون من ممارسة اللغة الألمانية ، لهذا قصد كولردج راتزبرج ليقضي هناك بقية الشتاء ؛ أما وردزورث وشقيقته فآثرا البقاء في مدينة غوسلار حيث نظم قصائده في « الطفولة الانكليزية » . ولم يستفد وردزورث من هذه السياحة بقدر ما استفاد صديقه كولردج ، فقد أصبح كولردج قادراً على النطق باللغة الألمانية كابنائها ، وعلى أثر رجوعه من ألمانيا ترجم كتاب « ولنشتين » للفيلسوف شيلر . إلاّ أن إلمام وردزورث اليسير بهذه اللغة لم يكن بعيد الأثر في حياته الأدبية . رجع وردزورث وشقيقته من ألمانيا . يحدوهما الشوق والحنين إلى أرض الطفولة ، وكان ذلك في ربيع سنة ١٧٩٩ ، وفي طريقهما عرّجا على سوكبرن ليزورا أصدقاءهما آل هتشنسن . وما كاد كولردج يسمع بذلك حتى لحق بهما إلى سوكبرن في صيف تلك السنة

في اقليم البحيرات مرة ثانية

وفي هذه الزيارة أُتيح لوردزورث أن يرود هو وكولردج ودوروثي وبعض الأصدقاء اقليم البحيرات مرة ثانية ، وخصوصاً مع عصبة كهذه دأبها التأمّل ، وفي حين اكتملت فيه عقلية وردزورث وأرهف حسّه للتشبّع من جمال الطبيعة في هذا الاقليم الذي ألفه منذ صباه . واقليم البحيرات من أجمل البقاع في بلاد الانكليز على الاطلاق ، وهو يقع على حدود سكوتلندا في مقاطعتي وستمولند وكبولند حيث ولد شاعرنا . وفيه نحو ست بحيرات متقاربة ، تحيط بها جبال شاهقة وتطوّقها مناظر طبيعية رائعة . في هذا الاقليم قضى كلّ من كولردج وسذي قسماً من حياته ، وفي هذا المحيط نشأ شاعرنا وترعرع ، فلا غرو إذا أمه بعيد رجوعه من ألمانيا . ولاستطابته المقام والعيش في

هذه البقعة استأجر فيها بيتاً سماه « كوخ الحمامة » . وفى القسم الأول من قصيدته « المتزل The Recluse » صورة رائعة لحياة أولئك الأدباء فى ذلك البيت . ولقد ذاع صيت هـــذا الاقليم واشتهر باشتهار أصحابه الشعراء وروّاده الأدباء فأصبحَ ولا يزال محجة لأهل الأدب والفنّ يقصدونه من جميع الأقطار الأوروبية ليتعرّفوا إلى البقعة التى خلّدت أسماء شعراء البحيرة وخُلّدتْ فى أشعارهم . وجمل مؤخراً من بيت ووردزورث ورفاقه متحفا أودعَ فيه كلّ ما خلّفه من آثار تظلّ تدلّ عليه وتنطق بنبوغه على مدى الأيام . ولقد وضع ووردزورث سـنة ١٨١٠ مقدمة لـكتاب « مناظر منتخبة من كمبرلند » لولـكنسن ، وهو وصف بارع لهذه البيئة وسكانها

فى تلك البقعة أخذ نجم ووردزورث يسطع فى سماء الشعر إذْ ثمّ شرع ينظم قصائده الخالدة التى تُعدّ فتحاً جديداً فى الأدب الانكليزى ، كيف لا وقد أتيح له أن يحتك بزهرة الأدباء فى ذلك العصر كسرْ هتشنسون ولامبْ ودى كونس وسكوت وسرْ همفرى ديفى . فكانت عصبة دأبها البحث والتأمل والتحقيق والانتاج الأدبى . وكثيراً ما كان يقوم بنزهات قصيرة مصطحبا شقيقته دوروثى وأخاه يوحنا ، فيرتادون شواطئَ البحيرات ويتسلقون الجبال والآكام ويهبطون الوديان والمنمرجات وشاعرنا فى تنقلاته هذه كثير التأمل دقيق الملاحظة والاستقراء ، فلا يفوته منظر جميلٌ دون أن يصفه ، ولا خاطر رقيق إلا ويسجله . فى ذلك الاقليم أتمّ قصائده الكبرى التى تمثل نزعته وتشرح فلسفته ، أهمها « المتزل The Recluse » والفصل الأول من « النزهة The Excursiou » « والفاتحة The Prelude » . وفى قصائده هـذه وفى غيرها من منظومات هذا الأوان تلمح روحا وثابة ونفساً نزاعة مستعصية ؛ وسنقول كلمة فى « النزهة » و « الفاتحة » عند الكلام على شعره

(يتبع) — جريس القسوس

حول الفقه الاسلامى
والفقه الرومانى

قرأنا فى (الرسالة) الثامنة بعد المائة مقالة الأستاذ محمد محسن البرازى ، فى الردّ علينا ، فاذا الأستاذ برغم تفوقه على أكثر أقرانه من الشباب الذين درسوا فى أوربة بذكاء كان موضع اعجابنا ، قد أخطأ فهم كلامنا ، وأخذ منه بعضاً وترك منه بعضاً . وحمّل كلامنا ما لا يحمل ، وأخذ منه عبارة على غير الوجه الذى وضعناها عليه ، ثمّ لم يدّخر وسعاً فى ردّها ، ولم يتورع عن أن يسميها زعماً لا يمكن لعاقل أن يزعمه ، وما لم يمكن للعاقل يمكن للمجنون . . . . فكان الجنون جزاؤنا لأنا لم نذهب الى الأستاذ فنقرأ له كلتنا كلها ، التى لم يقرأ منها إلا ما فيه الردّ علينا ، فكان أمرنا معه كما قال المثل الفقهى :

« زنّاهُ َفحدَّهُ . . . »

***

لا يا أستاذ ! أنا ما قلت : « إن الفقه الرومانى جديد لفّقه طائفة من العلماء الخ . . . » وسكتّ ، ولكنى أوردت هذه الجملة فى معرض الفرض والتقدير ، فقلت (وهذه عبارتى بالنص) :

« . . . على حين أنه لا يمكن أن يقوم دليل علمى واحد على أن الفقه الاسلامى مأخوذ من الفقه الرومانى ، (وقد علق على هذه الكلمة أستاذنا الجليل الزيات بالتفريق بين الأخذ والتأثر) إلا إذا كان القرآن مترجماً عن لغة الرومان ، وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رومانياً خرج من أبوين عربيين ، والذى نقوله ، (وليتنبه القراء للذى نقوله) إنه إذا كانت هناك علاقة بين الفقهين (إذا كانت) فان الفقه الرومانى هو المقتبس عن الفقه الاسلامى ؛ ودليلنا على ذلك أن الفقه الرومانى الحاضر جديد لفقه طائفة من العلماء بعد أن اندثر الفقه الرومانى القديم ، وهذا الدليل على علاته (تأمل قولنا على علاته) أقوى من دليلهم على دعواهم ، فليثبتوا إن استطاعوا أن الفقه الرومانى الحاضر هو القديم بذاته ، وليأتونا بالأسانيد الصحيحة ، والروايات المضبوطة ، كما نأتيهم نحن بأسانيد حديثنا ، وروايات سنتنا »

هذه هى الجملة ، وليس معناها يا سيدى أنا نعتقد بأن الفقه الرومانى جديد الخ . . ولم يكن موضوع مقالنا الفقه الرومانى ، ولكنها كلمة جاءت عرضاً ، ومعناها أن هذه الدعوى على علاتها (أى مع اعترافنا بأن فيها شيئاً) أقوى من دليلهم على دعواهم أن الفقه الاسلامى مأخوذ من الرومانى ، أى أن دليلهم ليس بشىء مطلقاً ، ما دام دليلنا على هذه الدعوى الغريبة أصح منه ، هذا هو المقصد ، وهذا أسلوب من أساليب البيان يفهمه من كان من أهله !

ثم إن هذا كله على فرض أن هناك علاقة بين الفقهين ، ووجود العلاقة هو المقدمة المنطقية اللازمة لهذه النتيجة ، ونحن ننكر هذه العلاقة ، والأستاذ قد أنكرها وبيّن أنه لا تشابه فى أحكام الفقهين فى الأحوال الشخصية الخ .. فنحن إذن متفقون على اسقاط هذه النتيجة

ولست أقول هذا الآن ، ولكن يقوله كلامى المنشور فى (الرسالة) الواحدة والتسعين منذ أربعة أشهر كاملة

فهل يصحّ للأستاذ أن يقيم القيامة علينا ، ويزلزل بنا الأرض ، من أجل هذه الكلمة ؟ . . .

***

هذا ، وإن فى مقال الأستاذ شيئاً عن الموازنة بين رواية الحديث ونقل الفقه الرومانى ، قد يفهم منه أن الفقه الرومانى أصحّ سنداً ، وأثبت نقلا ، لأنه — كما يقول الأستاذ — قد دوّن فى عصر جامعه ومصلحه جوستنيان ، والحديث إنما شرع فى تدوينه بعد زهاء قرن ونصف قرن من تاريخ الهجرة ، ولأنه لادليل على الصحة بعد الوثائق الأثرية ، والنسخ المخطوطة القديمة . فنحن ننبه من قد يفهم منه هذا الأمر بأنه باطل وليس بشىء

ونحن نكرر وصية الأستاذ (الشاب) لشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين والقومية (ونزيد : أو تعصب عليهما) ، وكره لأوربة والثقافة الغربية (ونزيد : أو موت فى عشقهما) فيسرفوا فى القول حتى يجانبوا المنطق

ونسأل الله أن يرينا الحقّ حقاً ويرزقنا اتباعه ، ويرينا الباطلَ باطلاً ويرزقنا اجتنابه . ونشكر للأستاذ الفاضل جهده وفضله م؟

علي الطنطاوي

٨ـ شاعرنا العـــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

عقيدته الدينية والسياسية : كان لنشأة أبى العتاهية بالكوفة أثر فى عقيدته الدينية والسياسية ، فقد كانت الكوفة مهد التشيع للعلويين من يوم أن اتخذها على رضى الله عنه عاصمة خلافته ، وآثرها بذلك على المدينة التى كانت عاصمة الخلافة قبله ، فنشأ بها أبو العتاهية متشبعاً بمذهب الزيدية البترية ، لا ينتقص أحداً ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان ؛ وكان مجبراً ، يقول بالتوحيد ، ويزعم أن الله خلق جوهرين متضادين لا من شئ ، ثم بنى العالم هذه البنية منهما ، وهو حادث العين والصنعة لا محدث له إلا الله تعالى ، وسيرد الله كل شئ إلى الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعاً ؛ وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعاً ، ويقول بالوعيد وتحريم المكاسب . ولما ظهر الخلاف فى خلق القرآن كان ممن يقولون بخلقه ، وقد حدث أبو شعيب صاحب ابن أبى دؤاد قال : قلت لأبى العتاهية : القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق ؟ فقال : أسألتنى عن الله أم عن غير الله ؟ قلت عن غير الله ، فأمسك ؛ وأعدت عليه فأجابنى هذا الجواب حتى فعل ذلك مراراً ، فقلت له مالك لا تجيبنى ؟ قال : قد أجبتك ولكنك حمار

فهذه هى عقيدة أبى العتاهية لا شئ فيها مما ينسبه إليه بعضهم من الزندقة ، وإن كان يخالف فيها المعروف من مذهب الجماعة ، ولكن بنى العباس كانوا قد نقضوا ما اتفقوا عليه مع بنى على قبل قيام دولتهم ، من جعل الأمر شورى بينهم ، فاستأثروا به لأنفسهم ، وثار بذلك بنو على عليهم ، وتحركت نفوس كثير من العلماء ووجوه الناس لنصرتهم ، فلم ير بنو العباس حيلة تنفعهم فى ذلك إلا أن يأخذوهم باسم الدين ، ليخدعوا به العامة ، ويرهبوا به الخاصة ، وأحدثوا فى ذلك ما لا يعرفه الاسلام من التجسس على الناس فى أمور عقائدهم ؛ وقد أمر الاسلام أن يؤخذ الناس فى ذلك بما يظهر منهم ، وأن يترك باطنهم لله تعالى وحده ؛ وإنما السياسة وحدها هى التى أخذت من أخذت فى ذلك العهد باسم الزندقة ، والدين برئ من هذه الدماء التى سفكت بالشبهة ، واستبيحت بالظنة

فلما انتقل أبو العتاهية من الكوفة إلى بغداد ، وعرف العباسيون أخذه بالتشيع لأبناء على ، حتى استرابوا به ، وأحاطوه بجواسيسهم الذين بثوهم فى الناس لارهابهم بالصاق تهمة الزندقة بهم ، إذا رأوا فيهم ميلا إلى أعدائهم ، فعاش أبو العتاهية فى بغداد تحوم حوله هذه الشبهة من أجل تلك الغاية السياسية ، واغتر بها بعض الناس فطعنوا بها فى عقيدته ، وهو أبعد الناس من تلك التهمة الشائنة ؛ وقد أمكنه مع هذا أن يقوم بتلك الدعاية الشعرية التى فهم العباسيون غرضه السياسى منها ، وأنه يقصد محاربة دولتهم بذلك السلاح الذى أعياهم أمره ، وجعل يفتح أعين الناس إلى عيوبهم فلا يعرفون كيف يكسرونه من غير أن يفتضح أمرهم ، ولم يجدوا إلا أن يداوروا فى أمره ، ويأخذوا صاحبه بالشدة مرة وباللين أخرى ، ويشككوا الناس فى أمر عقيدته ليضعف أثر شعره فيهم ، ولا يصل إلى ما يريده منهم ، فكانت محاربة بارعة من الجانبين ، قام فيها الدهاء السياسى مقام السيف ، وأدى فيها أبو العتاهية رسالته الشعرية بدون أن يمكن سيف العباسيين من رقبته ، وعملوا هم على إفساد غايته بدون أن يفضحوا أمرهم أمام الناس بسفك دمه لأنه ينشر فيهم تلك الدعاية المحبوبة ، ويحاول إصلاح نفوسهم بالزهد الذى بعدوا عنه كل البعد ، وشغفوا بدنيا العباسيين كل الشغف ، وإنا نسوق بعد هذا بعض ما كان يلقاه أبو العتاهية فى ذلك لنعرف كيف كانوا يتكلفون الصاق تلك التهمة به

ذكر النسائى عن محمد بن أبى العتاهية أنه كان لأبيه جارة تشرف عليه ، فرأته ليلة يقنت فروت عنه أنه يكلم القمر ، واتصل الخبر بحمدويه صاحب الزنادقة ، فصار إلى منزلها ليلاً وأشرف على أبى العتاهية فرآه يصلى ، فلم يزل يرقبه حتى قنت وانصرف إلى مضجعه ، وانصرف حمدويه خاسئاً

وممن كان يشنع على أبى العتاهية بهذا رجاء بن سلمة ومنصور ابن عمار ، وقد حدث العباس بن ميمون عن رجاء قال : سمعت

أبا العتاهية يقول : قرأت البارحة عم يتساءلون ، ثم قلت قصيدة أحسن منها . قال وقد قيل إن منصور بن عمار شنع عليه بهذا .
ولما قص منصور على الناس مجلس البعوضة قال أبو العتاهية إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي ، فبلغ قوله منصوراً ، فقال أبو العتاهية زنديق ، أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار ، وإنما يذكر الموت فقط ، فبلغ ذلك أبا العتاهية فقال فيه :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً ... إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
كالملبس الثوب من عري وعورته ... للناس بادية ما إن يواريها
فأعظم الاثم بعد الشرك نعلمه ... في كل نفس عماها عن مساويها
عرفانها بعيوب الناس تبصرها ... منهم ولا تبصر العيب الذي فيها

فلم تمض إلا أيام يسيرة حتى مات منصور ، فوقف أبو العتاهية على قبره وقال : يغفر الله لك أبا السرى ما كنت رميتني به

وحدث الخليل بن أسد النوشجاني قال : جاءنا أبو العتاهية إلى منزلنا ، فقال زعم الناس أني زنديق ، والله ما ديني إلا التوحيد ، فقلنا له فقل شيئاً نتحدث به عنك ، فقال :

ألا إننا كلنا بائد ... وأي بني آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

وحدث محمد بن أبي العتاهية قال : لما قال أبي في عتبة :

كأنما عتبة من حسنها ... دمية قس فتنت قسها
يارب لو أنسيتنيها بما ... في جنة الفردوس لم أنسها

شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة ، وقال يتهاون بالجنة ويبتذل ذكرها في شعره بمثل هذا التهاون . وشنع عليه أيضاً بقوله :

إن المليك رآك أحـ ... ـسن خلقه ورأى جمالك
فحذا بقـــدرة نفسه ... حور الجنان على مثالك

وقال أيصور الحور على مثال امرأة آدمية والله لا يحتاج إلى مثال ، وأوقع له هذا على ألسنة العامة فلقى منهم بلاء .
ولا تخفى سماجة هذا النقد ، وأن الدين لا يصل في الحرج على الشعراء إلى هذا الحد ، وأين ابن عمار في هذا من عبد الملك بن مروان وقد اجتمع ببابه عمر بن أبي ربيعة وكثير عزة وجميل بثينة ، فقال لهم أنشدوني أرق ماقلتم في الغواني ، فأنشده جميل :

حلفت يميناً يا بثينة صادقاً ... فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسني ... وباشرني دون الشعار شريت
ولو أن راقي الموت يرقى جنازتي ... بمنطقها في الناطقين حييت

وأنشد كثير :

بأبي وأمي أنت من مظلومة ... طبن العدو لها فغير حالها
لو أن عزة خاصمت شمس الضحى ... في الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إليَّ بصرم عزة نسوة ... جعل المليك خدودهن نعالها

وأنشد ابن أبي ربيعة :

ألا ليت قبري يوم تقضى منيتي ... بتلك التي من بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كله ... وليت حنوطي من مشاشك والدم
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتي ... هنا أو هنا في جنة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه : أعط كل واحد منهم ألفين ، وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف . ولكن هذا عصر وذاك عصر ، والناس في كل عصر على دين ملوكهم ، وإذا كان العباسيون قد تغالوا في أخذ الناس بالزندقة في عصرهم ، فلماذا لا يتغالى ابن عمار وغيره في ذلك أيضاً ؟

عبد المتعال الصعيدي

دموعي وصباباتي

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

دموعيَ ياليلَى إليكِ رسائل … أبثّ صباباتي بها أو أحاول

ومن فشلت آماله في حياته … فليس له غير الدموع وسائل

من السَّبْح قد كلّت يداي وأرجلي … أما لك يا بحر المحبة ساحل

أقول لقلبي يوم مات رجاؤه … عزاءك يا قلبي فإنك ثاكل

وقد أتداعى للمنيّة في غد … كأني جدار ضعضعته الزلازل

على الأرض أيام الشقاء كثيرة … تُمضّ وأيامُ السرور قلائل

تقرّبتِ يانفسي من الهُلك بعدما … تكلّفتِ عمراً أفعمته الغوائل

دنا أن تكوني للمنايا فريسة … فلا تجزعي مما بكِ الدهرُ فاعل

ولا تجزعي إمّا ألمّ بكِ الردى … فقبلكِ يا نفسي تردّت فطاحل

وماقيمةُ القلب الذي تحت أضلعي … فتُنصَبَ أشراكٌ له وحبائل

على الحق قد عوّلتَ ياقلب مؤثرا … ومَن لك ألا يُزهق الحق باطل

ومهما تزدني غيهباً فوق غيهبٍ … فإنك عند الصبح يا ليلُ زائل

إذا كنتَ تستهدي بعقلك وحده … فما أنت في يوم إلى الله واصل

وإن كان إيمان الفتى عن عقيدة … فأضيعُ شيء في الحوار الدلائل

يلومونني في حب ليلَى بشدة … ومن حبّ ليلى لي عن النوم شاغل

لقاؤكِ ياليلى لنفسي لبانةٌ … فأيّ رقيبٍ بيننا هو حائل

وإن تك روحي هذه ثمناً له … فما أنا بالروح العزيزة باخل

ونفسي إذا فتّشتِ نفسي وجدتِها … كعصفورة قد هدّدتها الأجادل

وللهمّ إمّا جنّني الليل داجيا … جحافلُ في آثارهن جحافل

إذا كان لي ذنبٌ به تأخذينني … فإني لذاك الذنب بالدمع غاسل

سهامك يادهرَ الأديبِ كثيرةٌ … وكلّي إذا سدّدتَ سهماً مقاتل

وياطيف ليلى أنت أكرم من سرى … إلى مغرمٍ قد أعجزته الوسائل

وياطيف ليلى أنت في الأرض صنوُها … وأنت لها في كل شيء مماثل

ويا طيفها مالي شكاةٌ من النوى … فإنك في عيني وقلبيَ ماثل

تماطلني ليلى إذا هي واعدت … وأنت إذا واعدتني لا تماطل

وإن بخلت ليلى فإنك محسنٌ … وإن هجرت ليلى فإنك واصل

لقد جعل الدنيا إليّ حبيبةً … هوًى هو في أعماق نفسيَ داخل

لئن كان يانفسي شديداً بك الصدى … لقد نضبت يا نفس تلك المناهل

وما هذه الدنيا سوى دار محنةٍ … قليل بها مَن لم تصبه النوازل

إذا سلم الانسان من غيظ أرضه … أصابته من صوب السماء القنابل

حياة إذا إيفَتْ تُزايل أهلَها … وموتٌ إذا استولى فليس يزايل

ولا تحسب الأخرى أقل قساوةً … فأكثرنا منها على النار نازل

أراك تخاف النارَ نارَ جهنمٍ … وإنك أنت المؤمن المتفائل

يقولون شيطانُ القريض موسوسٌ … وهل مصدر الوسواس إلا الخلاخل

وما منتدى الآداب إلا كروضة … محبّبة أبكارها والأصائل

وكل امرئ يصبو لما اختار ذوقه … وفي الروض غربانٌ وفيه عنادل

وللعندليب الزهرُ في الروض باسمٌ … وللزهر فيه العندليبُ يُغازل

وأكبرُ مَن حاك القريض هو الذي … يهزّ جماهيراً بما هو قائل

وأكبر منه مَن إذا قال أصبحت … تَناقَلُ أقوال الحكيم المحافل

وأكبرُ من هذا وذلك شاعرٌ … عن الحق في نظم القوافي يُناضل

بغداد — **جميل صدقي الزهاوي**

العصر الذهبي

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مقدمة :

أولع الناس من قديم الزمن بالتفكير في عصر الانسانية السعيد : عصر الخير العميم الشامل ؛ فبعضهم كان ينشده في الزمن القديم ويبكي انقضاءه ، وبعضهم ينشده في المقبل من العصور ، يدنيه رقي الانسان . وكثيراً ما استخدم شعاره أهل الحرص لنيل أطماعهم ، واقتياد الناس لاستثمارهم واستذلالهم ؛ وكثيراً ما علق الأذلاء بكماله حتى إذا تحكموا ساروا على نهج الطغاة ؛ وهو مثل عال ولا تحلو حياة الانسان إلا به ؛ ولئن صدق ما يقوله بعض المفكرين الذين يزعمون تحققه نذير الفناء ، فرحباً بالفناء يكون نذيره الخير والسعادة الشاملة والمثل العالي ، وقد لا يصدق تشاؤمهم !

الناظم

* * *

عصرَ السلام تحيةٌ وسلام … خامتْ عليك رجاءها الأقوام

من كل عصر في نسيجك لحمةٌ … ألأجل صنعك تدلف الأعوام

إمّا دنوت وما عهدتك دانياً … عفّى على نقص الأنام تمام

نســتقبل الأيام وهى كوالح   مستبشرين إذِ التمام إمام

خالوك فى الماضى ولم تك ماضياً   إذ زان منه البعد والأوهام

ويرون فى غدهم سراباً نائياً   فيطول نحس العيش والاجرام

تتغير المُثُلُ التى شاقتهمُ   تتبــدل الآمال والأحلام

حسب الورى من حسن عهدك قدوة

علياء ما إنْ شانها استبهام

ما فاتهم طب الطبيب وإنما   تتباين الأرواح والأفهام

ولَانت فى سير النفوس إذا صفت   يدنى إليك البر والاكرام

عطف النفوس على النفوس ولن تُرَى

أبداً ونفس فى الأنام تضـــــــام

هيهات يكرم فاضلاً ذو خسة   أو يغفر الجانى شآه كرام

استبطأوك وأنت بين جنوبهم   وتَنَظَّروك ودأبك الالمام

ورأوك فى الدهر البعيد ولو دروا   أنْ لو أرادوا كان منك لِمَام

لرأوا مشيئتهم تشاء ولا تشا   هاموا وتحسب أنهم ما هاموا

ومن المشيئة ما يجىء فجاءة   ليست تجزئ أمره الأيام

ونأى بهم عن وِرْدِ خيرك أنهم   للحرص حادٍ بينهم وزمام

أمباغتا بالخير بعــــد تمنع   حب الأنام لعهدك استقدام

ولقد يتوب أخو المجانة بغتــة   من بعد عيش كله آثام

ويتوب هذا الخلق من شر ومن   إثم فتحمد خَيْرَك الأيامُ

كم فتنة أججتَ نار جحيمها   شوقاً لعهــدك والأنام حُطام

وشعار حق كم غدا أُحْبُولة   أترى بحقك فى الأنام لئام

وإذا العبيــد تحكموا فى فتنــة   ساروا على نهج الظَّلُوم وضاموا

أترى العبيــد ببابلٍ وبطيبةٍ   أغرتهمُ بكمالك الآلام

لو أنهم ملكوا لعافوا مسلكاً   يدنى إليك وطاشت الأحلام

ولطالما حن اليهود لشرعه   ودعا المسـيح له ورِيمَ سلام

وتَنَظَّر المهــــدىَّ قوم أمَّلوا   ركباً له يحدو به الاسلام

ثار الفرنس وخيرهم يبغى له   عهداً تدين لشرعه الأحكام

يبكى ويعتنق الغريب مُبَشِّراً   بالشر زال وبالكمال يُشام

مازال شر — لا — ولم يتهد به   نهجَ السلام الحكمُ والحكام

أنَّى تكون وفى الأنام تفاوتٌ   أُسْدٌ لها فى الصاغرين سَوام

عِزٌ وذو مكر فلست بكائن   حتى تَسَاوَى فى الأنام الهَام

فمتى يدين لسُنَّةٍ لك جمعهم   ويراك خيراً شَرُّهم فترام

لا يصدق الكُهَّان إن هم أنبأوا   بدوام ما لم يُلف فيه دوام

كم من عهودٍ كان يحسب أهلها   أنْ زل عنها النقض والابرام

نَسِيَ الأنام عهودهم فعهودهم   أقصى وأدنى منهمُ الأوهام

فقد الأنام صفاتِ أجداد لهم   وتحولت وتبــدلت أجسام

والطبــع فى غدد الجُسوم فعلَّها   يوماً تصح فلا يكون أثام

وتعود من فرط الصفاء حياتهم   ذهبيـــــــــةً أيامها والعام

خير مَرَى الحرصُ الخسيسُ أقل من

خير لديك تروده الأحــــــــلام

والنحس عدوى ليس يُقصِى شرَّها   إلا التضافر شاده الأقوام

كذبوا فما أبقى التقاتل بينهم   إلا الضعيف وقد قَضَى المقدام

خلفت فى سير النفوس مباهجاً   وتجملت بجمالك الأيام

كغناء حادى الركب رَفَّهَ عنهمُ   نعم النشيد ونعمت الأنغام

حُلُمٌ هو المثــل الأجلُّ وإنهم   لولا مثال كمالك الانعام

ولعل عمر الشر ليس بدائم   ينمو سناك فينمحى الاظلام

قالوا إذا ما جاء خيراً كله   لم يبق خير فى الحياة يشام

لولا جهاد فى الشرور تعطلت   سبل المكارم واستنام أنام

إن لم يكن نقص ففيم رجاحة   وبضدها تتميز الأقوام

لا يطعم السعدُ الشَّهِيَّ وشُهْدَهُ   من لا ترود فؤادَه الآلام

والوهن يسعى للفناء دنيبه   إن لم يكن حذرٌ وعَمَّ سلام

لغز الحياة وليس يفقه لغزها   بين الأنام مُفَهَّمٌ عَلَّام

والشر أهون بعضه من بعضه   فاطلب كمالاً كى يقل الذام

أهلاً بغائلة الفناء نذيرها   عهد يَشُوق سلامُه وتمام

إن لم يصح العيش إلا أن ترى   شرع التنافس فى الأنام يقام

فعسى التنافس فى المحامد ينثنى   طبعاً وإن قيل الأنام لئام

يدنو إذا بطلت ضرورة كائدٍ   يُزْجَى بها رزق له وحطام

إن نال كلٌّ مطمئناً رزقَه   فعلام لؤم للورى وخصام

دِينُ التنافس فى المكارم ربما   أنماه نصح فيهمُ وحسام

فترى الورى دينَ الورى وصلاحُهم

فرض يدين لشرعه الأقوام

عبد الرحمن شكرى

القصص

من أساطير الإغريق

مأســاة أم

للأستاذ دريني خشبة

رآها زيوس تقطف الزهر وتتيه في حدائق السوسن، وتنشد مع البلابل ألحان الشباب، فتنصت الطبيعة وتتفتح آذان الورد، وتحملق نواظر النرجس ترى إلى كليستو الرقيقة رقة النسيم، الحلوة كأنها حلم جميل في أجفان عاشق، الموسيقية التي يستطيل نغمها حتى يبلغ السماء، ويتسع حتى يغمر الكون، فيثوى بكل أذن، ويستقر في كل قلب، ويخفق مع نبضات المحبين، وينسكب ذوباً من دموع المدنفين المعذبين!

رآها زيوس فجن بها! وبالرغم مما أعطى على نفسه من مواثيق لزوجه حيرا ألا يصبو إلى أنثى غير أزواجه اللائي كن إلى هذه اللحظة ستاً أو أكثر من ست، فقد ذهب يقتفي أثر كليستو، ويرهف سمعه ليملأ بموسيقاها قلبه

كانت تمشي بين صفين من أعواد الزنبق، تنمقهما ورود ورياحين؛ وكانت تنثني وتميس، فيهتز الروض وينتشي الزهر، وكلما ترنمت بأغنية من أغنياتها الساحرة، رددت الأزهار والأطيار ما تغنت، كأن كل شيء في تلك الطبيعة الرائعة الفنانة عضو في فرقة كليستو الموسيقية

وجلست تتفيأ ظل خوخة وارفة كانت تداعبها فتساقط عليها من ثمرها الجني، ورطبها الشهي، فتتذوقه كليستو وهي تبتسم وأسكر النسيم الحرى عينيها الساجيتين، فاستسلمت للكرى الطارىء والغفوة العارضة، وتمددت على البساط السندسي ليحسر الهواء عن ساقيها، ولتكون فتنة يضل في تيهها قلب زيوس، وتضرب في بيدائها نفسه ... على غير هدى!!...

وبدا للإله الأكبر أن يرتد فتى موفور الشباب ريان الأهاب؛ ثم يسوق آلهة الأحلام فترقص في أجفان كليستو، تبهرج لها من الرؤى ما يشب في نفسها رغائب الهوى ولذائذ الحب، ويثير فيها حرارة الحياة

ونام الخبيث إلى جانبها، وطفق يروح على وجهها، ثم نثر ذراعه على جيدها الناهد، وراح يضغط قليلاً... قليلاً

ولقد فعلت الأحلام الحلوة فعلها في قلب كليستو، فلما استيقظت، ووجدت نفسها في حضن هذا الشاب اليافع الجميل، لم تنفر، بل خجلت خجلة زادتها جمالاً، وضاعفت سحرها وفتونها؛ وفترت أهدابها فاسترخت، وفنيت في حبيبها المفاجىء... وفنى هو الآخر فيها

***

وجاءها المخاض!

ووضعت غلاماً أحلى من القبلة الحارة على الثغر الحبيب، وأعذب من ابتسامة الزهرة طلها الندى

فلما زارها زيوس وبشرت به، اهتز الإله الأكبر وشاعت الكبرياء في أعطافه، وأخذ الغلام فباركه، وطبع على جبينه الوضاح قبلة أولمبية خالدة!؛ ثم زف إلى كليستو تلك البشرى التي ظل يخفيها عنها طوال حبه لها، وذلك حينما أشار إلى ابنه بيمينه البيضاء هاتفاً:

— « بوركت يا أركس! يا أجمل أطفال الأولمب! »

وقد اضطربت الأم الصغيرة حين سمعت هذا الدعاء ونظرت إلى حبيبها كأنها تستريب، وقالت له:

— « أجمل أطفال الأولمب؟ إذن من أنت أيها الحبيب؟ »

— « بشراك يا كليستو! فأنا ربك وزوجك وحبيبك زيوس! » ولم يسع كليستو إلا أن تسجد لربها وهي ترتعد من الخوف؛ فقال لها:

— « انهضي! انهضي! ماذا تصنعين يا حبيبة! انهضي فقد رسمت ابننا أركس إلهاً، فاكفليه حتى يشب، وإياك أن تراكما حيرا فتسحقكما.. »

وقبّل الغلام وقبل الأم ، ، ، وغاب فى الأفق . . .

***

وكانت كليستو أحرص على فتاها من أن تدعه وحده لحظة واحدة ، فاذا خرجت للصيد فى الغابات القريبة ، أقامت عليه حارسين من كلابها الكواسر ، يكفى أحدها لتشتيت شمل جيش بأ كمله . وكانت تحمل اليه أثمار اللوز والبندق كلما عادت من الغابة ؛ حتى إذا استد ساعده ، علمته الرماية وألعاب الفروسية ، مستعينة فى ذلك بالسنتور المظيم ، شيرون ، مؤدب هرقل ومدربه

وذاعت الأنباء فى دولة الأولمب ، أن زيوس خليلة يختلف إليها فى الفينة بعد الفينة ، وأن أولدها طفلاً بارع الحسن ، وسيماً قسيا ، يكاد يكون فى مستقبله هرقلا آخر ، يضارع هذا الهرقل الهائل ، ابن ألكمين ، الذى كان يدوّخ أبطال العالم فى ذلك الوقت . . .

وقد مادت الأرض بحيرا حين علمت هذه الأنباء ، لأنها كانت تغار من أزواج زيوس ، وتخشى أن تلد إحداهن بطلاً يكسف شمس ولديها مارس وفلكان . وكانت الحرب بينها وبين هرقل على أشدها ، فكم نثرت فى طريقه شوكاً ، وكم فجرت تحت قدميه ينابيع من نار . أفلا يحزنها إذن أن يبرز لها خصم آخر يغطش حياتها ، ويراوحها بالأشجان والآلام ! !

وكانت كلّيستو تصدح فى أصيل يوم من أيام الربيع ، فتستجيب لها الغابة ، وبردد غناءها الطير ، ويمشى فى إثرها الدوح ، وتهتز الأرض والسماء ؛ وكانت حيرا قد عرفت أوصافها من شيرون ، مدرب فتاها أركس ؛ فلما سمعتها تغنى ، ويمشى وراءها العالم بأسره ، عرفت أنها هى ! !

وكاد قلب حيرا يصبو الى كلّيستو ، مسحوراً بروعة الغناء ، مأخوذاً بترجيع البلابل . . . حتى لكانت تخال الورد نفسه يغنى معها ! ! وكادت بذلك تنسى غيظها ، بل كادت تنخرط فى هذا الحشد الموسيقى الذى يصفق لكلّيستو ويستجيب لألحانها ! ولكن !

لقد ذكرت ابنيها مارس وفلكان ، وذكرت يوم صرعهما هرقل فى حفل الأولمپياد ، حتى لكانا ضحكة كل راء ! فنسيت الغناء وأصمّت أذنيها ، وغرفت من ماء قريب بيديها غرفة جعلت تتمتم عليها بتعاويذ سحرية ، ورُقى غيبية ، ثم صاحت بالفتاة فسُمّرت مكانها دهشة مأخوذة ، فنثرت حيرا فى وجهها الماء وهى تقول : « شاهَتْ دُبّة ! شاهَتْ دُبّة ! »

وا أسفاه ! !

لقد أحسّت كليستو فى ذراعيها الجميلتين بخدَر شديد ، ثم نظرت فرأت شَعَراً خشناً ينمو بسرعة فيغطّى جسمها البض الجميل كله !

وأحسّت أظافر طويلة غليظة تنبت فى أطراف أصابعها ، ومخالب مرعبة تبرز من أصابع رِجْليها المبهوتين !

وشمرت بوجهها الوضاء المشرق يتغير ويتحول ، ثم يتغير ويتحول حتى لقد رُكب فيه أنف كبير أسود ، وفم مقبّر فى منتهى القبح ، يسيل على جنباته لُعاب شائه كريه !

وخُيِّل لها أن ذَنَباً ينبت وراءها ، فتحسّسته فأيقنت أنه ذَيل خبيث . . . ما فى ذلك ريب !

وفزعت كليستو ، فأرادت أن تصيح تستنصر الغابة ، ولكن . . . يا للهول ! لقد راحت تصرخ كما تصرخ الحيوانات ، وتعوى كما تعوى الذئاب ! !

وانخلع قلب الفتاة فحاولت أن تغادر هذا المكان الساحر ، ولكنها لم تستطع أن تنهض على قدمين ، بل انطلقت تعدو على أربع كأنها بهيمة من بهائم الأرض !

وأصابها حيرا بظمأ كاد يصهر حلقها فذهبت إلى غدير ترتوى ، ولما انحنت ترشف الماء رأت صورتها المفزعة تتقلب فى صفحته ، وأنها لم تعد كليستو الحسناء بعد ، بل إنها قد انسحرت فصارت دُبّة قبيحة قذرة ذات أنف طويل أسود ، وعينين رجراجتين تقدحان بالشرر

***

وانطلقت فى الغابة تعدو وتعدو ، وتتوارى بين الأشجار حتى لا يراها أحد ، وكانت الحيوانات — حتى ضواريها — تفزع منها كلما مرت بها ، وهكذا شاءت المقادير الظالمة ألا يكون لها صديق حتى من سباع الغابة الوحشة ، التى كانت قبل لحظات ترقص بين يديها . . . وتنشد وتغنى ! !

وضربت فى القفار والفلوات ، مؤثرة ألا تعود إلى ابنها الحبيب أركس فتفزعه ؛ وكانت تختلف الى الغابة ، فاذا مر بها بعض أصدقائها القدماء عرفتهم ولكنها تتوارى عنهم ، وفى نفسها هموم وحسرات

خمس عشرة سنة !!

قضتها كلّيستو التاسعة فى هذا الشقاء الطويل ، لا تمر بها هنيهة دون أن تفكر فى ابنها وتبكى . . . وتفكر فى مآلها . . .

وتبكي ، وتفكر في ذكريات شبابها ... وتبكي ، وتذكر الوسيقى والغناء . . . وتبكي ! !

واشتعل قلبها شوقاً إلى أركس ، فجلست الى أيكة حزينة تتناجى :

« ترى ! ما ذا تصنع الآن يا بني ؟ أما تزال تنهل كأس هذه الحياة المرة ؟ أم أنت قد طواك الردى ونسيك كبير الأولب ؟ هل أنت مريض يا أركس ؟ هل في جنبك جرح يتفجر دماً لبعد أمك عنك ، كهذا الجرح الذي تنزف منه نفسي ، وتنسكب حياتي ؟ وهل إذا أصابك ضر ، فأنت واجد قلباً يحنو عليك ويترفق بك .... ويرعاك ؟ ومن هو صاحب هذا القلب الرفيق يا ترى ؟ يا ولدي ! ! . . . يا حبة القلب يا أركس . . . ! ! »

وتبكي البائسة بكاء يذيب الصخر ، ويحرق فحمة الليل ، ويزلزل أركان الكهف المظلم الذي تعودت قضاء لياليها فيه . . .

***

أما أركس فقد كان هو الآخر يبكي أمه ، حتى استطاع مؤدبه شيرون أن يفل بنصائحه غرب حزنه ، ويطفئ بمواعظه نار أساه ، فنسيَ ، أو تسلى . . . أو تناسى . . .

واستد ساعده ، وثقف الرماية حتى ما يطيش له سهم ، ولا تخيب له رمية ؛ وأحبه شيرون من سويدائه ، ولازمه طويلاً ، حتى كانت حرب السنتور فودَّعه وعاش الفتى وحيداً . . . يحيا حياة هي بحياة أمه في شبابها الأول أشبه ؛ فيختلف الى الغابة يصيد منها الثعالب ، والى البرية يرى فيها الوعول ، ويعود مع الغروب مثقلاً بالصيد

وفيما هو يرتاد الغابة في ضحى يوم شديد القيظ ، إذا أمه المسكينة تلمحه فجأة ، وتعرف فيه ابنها ، وأعز الناس عليها ... ! فتذهل عن نفسها وتقف مشدوهة باهتة لا تنبس ولا تحير ! فهل عرفت هذه التماثيل المرمرية التي تقف صامتة كالألغاز في المتاحف ودور الآثار ؟ لقد كانت كليستو أشد منها تحجراً عند ما شاهدت ابنها بعد هذه السنين الطوال !

ولقد خشيت أن تزعجه بوجودها ، لأن الصيادين لا يرهبون من ضواري الغاب شيئاً كما يرهبون الدبّاب ، فحاولت أن تختبئ وراء شجرة أو نحوها ، ولكن . . . هيهات ! ! فلقد عجزت عن الحركة المجردة لما تولاها من الحيرة والارتباك !

والتفت أركس ففزع أيما فزع لوجود دبة متوحشة كبيرة الجرم على مقربة منه ، وهو غير متهيئ للرماية ، فارتبك حين تناول قوسه بيد مرتجفة ، وأصابع مرتعشة . . . . ولكنه ، ويا للعجب ! أحس ببريق غريب ينبعث من عيني الدبة ، وشعر بحنان وعطف يتحركان في صميمه من أجلها ، وحاول أن يتعرف مصدر هذا الحنان فلم يستطع ، وضاعف دهشته أن الدبة سُمرت مكانها دون ما حراك ، وأن دموعاً حارة أخذت تنسكب بغزارة من عينيها اللتين ترنوان اليه ، وما ترمان عنه ! !

وكم كانت كليستو تتمنى لو تقدر على الكلام فتقص حكايتها على ابنها ، بيد أنها خافت أن تضاعف انزعاجه بصراخها الحيواني المخيف . . . فصمتت . . . وتكلمت عبراتها ! !

ثم . . . .

سدد أركس سهمه إلى رأس أمه ، وكاد السهم المميت يمرق فيودي بحياة أعز الأمهات . . . . لولا أن زيوس . . . الاله الذي طال رقاده ! . . . كان يسمع في تلك الآونة ويرى ، ولولا أن تحركت في قلبه الرحمة هذه المرة ، فلم يبال التدخل في سحر زوجته – حيرا الخبيثة – فأطلق لسان كليستو ، وصاحت فجأة :

« أركس ! ... بني العزيز ! ... أنا هي ... أنا هي أمك .. »

وسقطت القوس من يد أركس .. . وكانت مفاجأة مشجية ! وظل الفتى يرمق الدبة عن كثب وهو لا يصدق ! ! وقال لها :

– « ماذا تقولين ؟ أدُبة تتكلم ؟ أمّ من ؟ ... من أنا ؟ ... »

– « أنا هي يا بني ... أنا كليستو أمك البائسة ... فعلت بي حيرا ما ترى ... خمسة عشر عاماً يا أركس وأنا أتعذب وأبكي من أجلك في هذه الغابة الموحشة ... ! »

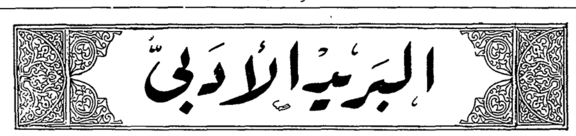
ولم ينبس أركس ببنت شفة ، بل تقدم مهدماً من الهم ، فعانق أمه ... ووقفا لحظة يبكيان !!

ثم تدفق حنان السماء ، وأمطرت رحمة الآلهة ، وأمر زيوس فحملا إلى الأولب – أركس وأمه – ومن ثمة أطلقهما رب الأرباب في السماء الخالدة ليكونا برجين من أبراجها ، ما نزال نراهما إلى اليوم ، وما نزال نحتفظ لهما بعنوان المأساة المؤلمة ، إذ نسمي الأم « الدب الأكبر » ، ونسمي الابن ، أركس الحبيب « الدب الأصغر ... » ... وما تزال حيرا القاسية تنظر اليهما وتتميز من الغيظ (١)

دريني خشبة

---

(١) أورد الأستاذ جريس . ه . كينر في كتابه الجبل عن أساطير اليونان زيادة في آخر هذه الأسطورة لم يأت بها غيره ، بل لم يشر اليها أحد من مؤرخي الأساطير . والزيادة – إذا صدق حدسنا – هي من ابتكار الأستاذ ، ولذا لم نر أن نكمل بها قصتنا



موسم الثقافة الاسلامية

فكرت رابطة الاصلاح الاجتماعى فى اجتماعها الأخير — فى القيام بدعاية واسعة النطاق لتنظيم « موسم للثقافة الاسلامية » يبتدىء من ٢٠ أغسطس وينتهى فى ٢٠ من سبتمبر القادم وإعداد برنامج حافل يشتمل على ما يأتى :

١ — إصدار أعداد خاصة من الصحف الاسبوعية الاسلامية ، تدعو لفكرة الجامعة الاسلامية وتتحدث عن التاريخ الاسلامى وتشرح الثقافة الاسلامية الحق

٢ — إصدار صفحات خاصة من الصحف اليومية تحتوى على آراء الزعماء والقادة فى الدعوة للوحدة الاسلامية وحث الشباب الاسلامى على القيام بنشر الثقافة الاسلامية فى مختلف الأقطار

٣ — إعداد محاضرات يومية تلقى فى المساجد والجمعيات والأندية والروابط وفى المذياع

٤ — إقامة حفلات تعارف وإخاء بين شبيبة العالم الاسلامى

اللغات الاجنبية فى الازهر

بحثت لجنة تعديل قانون الأزهر فى تعليم اللغات الأجنبية فيه فرأت بالاجماع وجوب تعليمها فى كلية أصول الدين لمختلف السنين الدراسية ، ولطلبة التخصص جميعاً ، واختلف فى تقريرها على طلاب كليتى اللغة العربية والشريعة ، ويقال إن ذلك الخلاف قد انتهى بتقريرها عليهم كذلك بحجة أن العالم الذى يتخرج فى الأزهر وفقاً لنظامه الحديث يجب أن يعد اعداداً اجتماعياً يؤهله لطلب الرزق فى كل ميدان من ميادين العمل ، ولا يكون هذا الاعداد صحيحاً إلا إذا ألم بلغة أو لغتين من اللغات الأجنبية ، أما اللغات التى ستقرر دراستها فى كليات الأزهر الثلاث فهى الانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية واليابانية والصينية واللاتينية

نسبة بيتين

اطلعنا فى العدد ١٠٥ من الرسالة : على مقال : (ساعات مع الكاظمى) للأستاذ كامل ابراهيم نسب فيه هذين البيتين : إلى ابن هانئ الأندلسى :

ما ضرنى ان لم أجىء متقدماً السبق يعرف آخر المضمار
وإذا اغتدى ربع البلاغة بلقعا فلرب كنز فى اسار جدار

وهذا سبق قلم من الكاتب ؛ والبيتان هما من خاتمة قصيدة لشاعر المغرب والأندلس فى وقته غير مدافع أبى عبد الله لسان الدين ابن الخطيب : دفين فاس ؛ وقد اثبتهما معزوين اليه معاصره وصديقه أبو القاسم محمد الشريف الغرناطى فى شرحه لمقصورة « حازم » [1] ؛ وكذلك أثبتهما له من المتأخرين أبو العباس المقرى فى النفح [2] ؛ وابن الخطيب هذا أحد مفاخر المغرب وشعرائه المكثرين ، وله من الشعر ما يملأ الدنيا على سمتها ، توقن بهذا إذا ماعلمت أنه جمع مطولاته خاصة فى ديوان أسماه « الصيب والجهام ، والماضى والكهام » فى سفرين ، وجمع مقطوعاته خاصة فى ديوان سماه فتات الخوان ، ولقط الصوان » ، واختار من مطالع ماله من الشعر سفراً دعاه « أبيات الأبيات » ، وجمع موشحاته وغيرها من الموشحات التى عارضها فى سفر أسماه « جيش التوشيح »

وقد نقبت فيما أعلمه من المكاتب العامة والخاصة على أعثر على كنز من هاته الكنوز الثمينة فلم أوفق !

ثم دعانى هذا إلى أن ازمعت منذ حين على جمع ما يمكننى الوصول اليه من شعر هذا الشاعر . فاجتمع لدىّ من ذلك — بعد إفراغ الجهد وطول المراجعة — نحو الثلاثة آلاف بيت ، جمعتها مما أمكننى الاطلاع عليه من كتب لسان الدين وغيره من الذين عاصروه أو شغفوا به فمنوا بجمع أخباره ، والتقاط كتاباته وأشعاره ، ما بين مخطوط منها ومطبوع ؛ وسأتربص طويلا علنى أصل إلى ما لم يمكنى الوصول اليه من شعر هذا الشاعر فأضيفه إلى ماجمعته ، وأطبع الجميع مع مقدمة أقصر فيها القول على تحليل شاعرية لسان الدين ، وبهذا نصل إلى معرفة شاعر كبير قد جهلناه زمناً طويلا . . . ؟

فاس (المغرب الأقصى) **أحمد بن المليح**

(١) عن النسخة المخطوطة بخزانة القرويين تحت رقم (415 ل 40) ، ص ١٧ (٢) ج ٤ ص ١٦٩

أرنولد تسفايج

يقيم منذ عامين فى فلسطين كاتب من أعظم كتاب ألمانيا المعاصرين هو القصصى الأشهر أرنولد تسفايج A. Zweig (١) ، وقد لجأ إلى فلسطين فراراً من عسف الطغيان الهتلرى ، لأنه يهودى تنكره ألمانيا الهتلرية ؛ ونزل فى ضيعة فى جبل الكرمل على مقربة من حيفا ، وكان مولد هذا الكاتب المظيم فى كلوجاد سنة ١٨٨٧ ؛ ودرس القانون وامتهن المحاماة ، ولكن جرفه تيار الأدب . وقد لفتت اليه الأنظار أولى قصصه : « مذكرات أسرة كلوبفر » ، وهى تاريخ أسرة يهودية هاجرت من بولونيا إلى ألمانيا ويظن أنها أسرته الخاصة ، ثم اتبعها برواية « أخبار كلوديا Die Novellen um Claudia ، ثم هجر تسفايج القصة مدى حين وانقطع للتأليف المسرحى فنالت قطعه المسرحية نجاحاً عظيما فى ألمانيا والنمسا وفى كثير من الأمم الأخرى التى ترجمت قطعه إلى لغاتها . بيد أنه ترك التأليف للمسرح وعاد إلى القصة منذ عشرة أعوام فنجح فيها نجاحاً عظيما ، وأعظم قصصه هى بلا ريب « الجاويش جريشا Sergeant Grischa » التى يصف فيها مناظر الحرب الكبرى فى الميادين الشرقية وصفاً قوياً رائعاً ويصور فيه قائداً ألمانيا يظن أنه لودندورف فى صور لاذعة ، ثم اتبعها برواية « عذراء سنة ١٩١٤ Die Junge Frau von 1914 » ، والتربية فى فردون Die Erziehung vor Verdun

وقد عاد أرنولد تسفايج أخيراً إلى معالجة التأليف المسرحى ، وأخرج قطعة مسرحيــــة جديدة أوحت بها إليه إقامته فى مروج فلسطين عنوانها « بونابارت فى يافا Bonaparte vor Jaffa » ويقول الكاتب الشهير تعليقاً على عوده إلى التأليف المسرحى إنه شعر أثناء اشتغاله بكتابة القصة بأن شهوة المسرح تضطرم فيه مرة أخرى ، وأنه فى فترة فراغ وعزلة وضع قطعته الأخيرة فى خمسة فصول ، ثم يلخص موضوعها وظروف كتابتها فيما يلى :

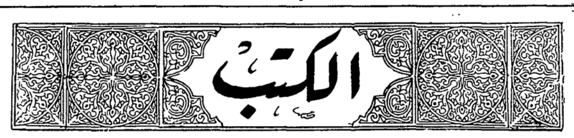
« وقفت بطريق المصادفة على رواية تتناول حملة بونابارت على مصر ومشروعه فى غزو فلسطين وسورية ، والذى سحرنى بنوع خاص هو المشروع الهائل بل الجنونى الذى تصوره نابليون ، وهو أن يشق لنفسه طريقاً من عكا وحلب واستانبول ثم البلقان إلى فينا ومن ثم إلى فرنسا ، وذلك بعد أن حطم الانكليز سفنه فى أبى قير ، ولقد قرأت قصة الغزوة الفلسطينية باهتمام كبير خصوصاً وأن مسرح الحوادث كله يبدو أمام عينى ، من شرفة منزلى . فأمامى خليج حيفا ، ثم عكا على قيد أميال قليلة ، ثم جبل تابور الذى اضطرمت فيــه المعارك ، حتى خيل إلى وأنا أكتب أننى أرقب حركات الجنود بكل تفاصيلها . وأما عن باعث القصة ، فانا نعرف أن نابليون قد أسر فى يافا ثلاثة آلاف من الأتراك ؛ ولما لم يستطع إطعامهم أمر بقتلهم ، ولكن الواقع أن الفرنسيين غنموا من الجيش التركى الذى قدم من دمشق وهزم فى جبل تابور نحو ستة آلاف قدر من المؤن ، وهذه تكفى لاطعام ثلاثة آلاف أسير مدى عشرين يوماً . فاذا كان نابليون قد تصرف طبقاً للضرورات العسكرية فان عمله مع ذلك يبقى بعيداً عن كل عاطفة انسانية

« ولم اتبع فى القطعة المسرحية التى وضعتها الأسلوب التاريخى ؛ ولكنى راعيت فيها الاسلوب الواقعى وعالجت مسألة العمل الوحشى (غير الانسانى) وإذا لم يكن من شأنه أن يقع على عاتق ذلك الذى يرتكبه رغماً عن كل البواعث الواقعية . وفى الفصل الأخير الذى تقع حوادثه فى يافا كباقى فصول القطعة ، ولكن بعد هزيمة عكا ، أتناول باعث مقتل الثلاثة آلاف تركى فى أسلوب ساخر أرمى به إلى تصوير شخصيات الرواية . وقد حاولت أيضاً أن أكشف عن أنانية نابليون ، وكيف أن هذه الأنانية كانت متأصلة فى أعماق روحه ؛ وإذا كنت قد وفقت فى صوغ الخاتمة ، فان النظارة لا بد أن يذكروا واترلو ، وفشل نابليون ، وخاتمته المحزنة »

مكتبة لموسى بن ميمون

يذكر القراء أنه قد احتفل أخيراً فى مصر وفى كثير من الجامعات والهيئات العلمية الأوربية بذكرى الطبيب الأندلسى اليهودى الأشهر موسى بن ميمون وذلك لمناسبة مرور ثمانمائة عام على وفاته . وقد عاش ابن ميمون فى قرطبة وفى مصر ، وكان طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ؛ وكتبت مؤلفاته بالعبرية والعربية معاً ، وفى أنباء فلسطين الأخيرة أن بلدية مدينة تل أبيب اليهودية قد قررت أن تنشىء مكتبة خاصة بموسى بن ميمون تودع فيها ما انتهى الينا من مؤلفاته سواء بالعربيــة أو بالعبرية أو تراجمها اللاتينية ، وكذلك جميع المؤلفات التى كتبت عنه فى جميع اللغات وفى مختلف العصور

(١) وهو غير الكاتب النمسوى البارع المعيت اشتيفان تسفايج Stephan Zweig



الكتب

١ — تاريخ القرآن للأستاذ أبي عبد الله الزنجاني

٢ — الخلق الكامل للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك

للأستاذ محمد بك كرد علي

— ١ —

تاريخ القرآن هو كما قال المؤلف وجيز في سيرة النبي الأكرم والقرآن الكريم والأدوار التي مرت به من كتابته وجمعه وترتيبه وترجمته إلى سائر اللغات، طبعته مؤخراً مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. وقد استند المؤلف، وهو من المستنيرين من علماء إيران ومن اسرة نبيلة بشرفها وعلمها في مدينة زنجان، في تأليفه على مصادر لكبار علماء السنة والشيعة وجوّد الكلام على ما تقتضيه بيئته، وربما تجاوزها إلى أبعد غاية كان في مقدوره تجاوزها. وحبذا لو كان قد توسع في القراءات واستخدم لذلك مثلاً كتاب النشر في القراءات العشر لابن الجزري المتوفى سنة ٨٣٣ هـ والمطبوع في مدينة دمشق. وليته قال لنا شيئاً في القراءات وما هي عليه اليوم في بلاد فارس والهند والصين وتركستان وجاوه والحجاز ومصر والعراق والشام وشمالي أفريقية، وتوسع في كلامه على ما قاله العلامة بولدكه في هذا المعنى وردّ عليه؛ ومثله من يحسن عليه الرد؛ وبسط القول في الترجمات الأفرنجية وأيها أجدر بالعناية والقبول، إلى غير ذلك مما نرجو أن يتعرض له العلامة المؤلف في طبعة ثانية مزيدة

وقد صدّر الكتاب الأستاذ أحمد أمين صاحب فجر الاسلام وضحى الاسلام بمقدمة موجزة قال فيها: ولئن ساغ في العقل أن يقتتل المسلمون أيام كان هنالك نزاع على الخلافة، ومن أحق بها، ومن يتولاها؛ فليس يسوغ بحال أن يقتتلوا على خلاف أصبح في ذمة التاريخ، وأنه لولا ألاعيب السياسة، واستغفال الماكرين لعقول العامة، واحتفاظ أرباب المطامع والشهوات بجاههم وسلطانهم، لانمحى الخلاف بين الشيعي والسني، ولأصبحوا بنعمة الله اخواناً، ولنظر بعضهم إلى بعض كما ينظر حنفي إلى مالكي ومالكي إلى شافعي؛ ورجا أن يفكر عقلاء الفريقين في احياء عوامل الالفة، وأن يترك للعلماء البحث حراً في التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب، كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي

ورأى صديق أحمد أمين هو رأى فريق كبير من علماء المسلمين اليوم، وفي مقدمتهم الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي، فقد قال في خطابه البديع الذي أجاب به من كرموه في الحفلة الأخيرة في القاهرة: إن من مناهجه العمل على ازالة الفروق المذهبية وتضييق شقة الخلاف بينها، فان الأمة في محنة من هذا التفرق، ومن العصبية لهذه الفرق، ومعلوم لدى العلماء أن الرجوع إلى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي، يهدي إلى الحق في أكثر الأوقات، وإن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها، ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصباً يساير التعصب السياسي، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما ادعاه أهلها. وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم وجملتها شيعاً في الأصول والفروع؛ ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين، ونتج عنه سخف مثل ما يقال في فروع الفقه الصحيح أن ولد الشافعي كفء لبنت الحنفي، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة، وعذبات العمائم وطول اللحى، حتى أن بعض الطوائف لاتستحي اليوم من ترك مساجد جمهرة المسلمين وتسعى لانشاء مساجد خاصة»

هذه أمنية عقلاء المسلمين، ويا حبذا لو عنى بعض علماء الأزهر فكتبوا كتاباً بل كتباً في منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة، والطرق العملية لازالته على ما يحب كل مسلم دَرّاكة، ولا سبيل إلى ضم الشمل المبتوت، والخلاص من هذا الاختلاف الممقوت، بغير الرجوع إلى الكتاب وما صح من السنة،

والقاء الخلافات جانباً بين أرباب المذاهب الاسلامية

— ٢ —

طالعت بالأمس لمؤلف كتاب « الخلق الكامل » كتاباً جيلاً أسماه « محمد (ص) المثل الكامل » فأكبرت بحثه وغبطته على استخراج العبر من هذه السيرة الشريفة التى تدعو المؤمنين وغيرهم الى التأسى بها . واليوم طالعت كتابه « الخلق الكامل » وهو فى مجلدين ضخمين يتبعهما مجلد ثالث ، فرأيت مؤلفاً يجمع بين الثقافتين الاسلامية والغربية ، ويكتب كتابة من تمثل فنه ، وأخذ به ، ودعا اليه مخلصاً مؤمناً . ولقد فزع فى وضع كتابه الى أصح المصادر الاسلامية : فزع الى الكتاب والسنة والى آراء علماء الأخلاق من سلف هذه الأمة وبعض رجالها المعاصرين ، وفزع الى آراء علماء التربية وفلاسفة الغرب ، واعتبر الاسلام جامعاً لكل الفضائل النفسية والمدنية ، لو تذوقه أهله حق تذوقه ، وعملوا بكل ما أمر به لكانوا خير أمة أخرجت للناس فى هذا العصر

عالج المؤلف كل ما يخطر بالبال من النقائص ، وما يقابلها من الحسنات والمكارم ، وهو يرى مثلاً من نقائصنا الخلقية أن يضحك الوالد عند سماع السب والفحش من طفله ، واحتقار بعضهم الأعمال الحرة كالزراعة والصناعة والتجارة ، ولطم الخدود والعويل على الشبان الذين يجندون لخدمة بلادهم والدفاع عنها ، واحتقار كثير من عاداتنا القديمة وإن كانت حسنة ، والتعلق بالعادات الغربية وان كانت سيئة ، والانغماس فى الترف ومحاكاة الفقير الغنى ، وتطلع الشبان إلى الزوجات الغنيات وان كن وضيعات الأخلاق ، وتطلع الشابات الى الأزواج الأغنياء وان كانوا فاسدى الأخلاق ، وشهادة الزور وحلف اليمين الغموس واعانة الظالم على ظلمه ، والاقبال على الروايات الهزلية المدقوقة والزهد فى الكتب الجيدة المفيدة ، والامتعاض من سماع الحق ومقت قائله ، وازدراء المعتصم بدينه المحافظ على شعائره ، وتقريب المستخفين والمستهزئين ، وتكريم الزنادقة والملحدين الى آخر ما عدد

ويتألف من كل باب من الأبواب التى عالجها رسالة جديرة بأن تقرأ ويستفاد منها . ومما قال إن فلاسفة الغرب وإن كان يرجع اليهم فضل السبق فى بحث أمهات الفضائل فهم لم يبينوا مناطها ، ولم يضعوا لها حداً فاصلاً بين ما يحقق الفضيلة وما لا يحققها ، فانهم لم يذكروا متعلق العفة ولا أى شىء تكون ولا مقدارها الذى إذا تجاوزه المرء وقع فى الفجور ، وكذلك الحلم لم يذكروا مواقعه ومقداره ، وأين يحسن وأين يقبح وكذلك الشجاعة . وأفاض فى الفلسفة الخلقية وينابيع الخلق والعواطف والانفعالات النفسية وينابيع الأخلاق والعادة والبيئة ووسائل تقويم الخلق والموازين الخلقية ووجوه الخير ومظاهر التربية الخلقية فى الأمم الغربية والشرقية ومظاهر الأخلاق الاسلامية ومظاهر الأخلاق الفردية ومظاهر الخلال الاجتماعية إلى غير ذلك من الأبحاث التى خاض عبابها وجزأها أجزاء ، ومزج فيها الكلام فى القديم والحديث على النحو الذى تقبله النفوس ، ولا يكون مثالاً غير حى لا ينتفع به قارئه لبعده عن مستوى عقله وخلقه وعاده وحاجته

وعلى الجملة فان كتاب الخلق الكامل استجمع صفات التأليف النافع ، وظهرت شخصية مؤلفه فى صفحاته ، وتحمسه لما يريد أن يدعو اليه ليستقيم حال هذا المجتمع الذى كثرت شروره ومفاسده على صورة لم تكن للمسلمين فى الدهر السالف ؛ دهمتهم سيئات الحضارة الجديدة فسهل عليهم قبولها أكثر من حسناتها التى صعب عليهم الأخذ بها كلها ، ومن الغريب أننا بقدر ما يعلو مستوانا فى العلم نزداد ضعة فى الأخلاق إلا قليلاً ، وبعداً عن الجميل من حسنات الأجداد والآباء ، حتى لقد تجد فى المتعلمين أخلاقاً شاذة واستهتاراً رديئاً قد لا تقع على مثله فى العامة والأميين ، وهذا من جملة سيئات المدنية المادية التى تجردت من عاطفة الدين وعاطفة الخلق ، وقاست كل أمر على المادة والنفع العاجل

محمد كرد على

تاريخ العرب

فى الجاهلية وصدر الاسلام

تأليف الأستاذ عبد المتعال الصعيدى

المدرس بكلية اللغة العربيه

اشتمل هذا الكتاب على تاريخ دول العرب فى الجاهلية ، وعلى السيرة النبوية ، وعلى تاريخ دولة الخلفاء الراشدين . وفى تاريخ العرب فى تلك العهود الثلاثة مسائل كثيرة تحتاج الى التمحيص ، وشبهات للشعوبية فى القديم والحديث ، فعنى هذا الكتاب بتمحيصها ، وكشف أمر تلك الشبهات فيها ، وسلك فى دراسة السيرة النبوية منهجاً جديداً كشف فيه غامضها ، ورد بأقوى الأدلة كل ما يحاول به تشويه شىء منها ، ومن ذلك غزوات النبى صلى الله عليه وسلم مع يهود المدينة ، فقد أراد صاحب كتاب « تاريخ اليهود فى بلاد العرب » أن يرجع أسبابها الى طمع المسلمين فى أموال أولئك اليهود ، وذكر أنه من أجل ذلك تعرض النبى صلى الله عليه وسلم لدينهم ، وكلفهم أن يعترفوا برسالته وهم لا يمكنهم أن يعترفوا برسول من غير بنى اسرائيل ، ولو أنه اقتصر على محاربة الوثنية العربية وحدها لما وقع نزاع بينه وبين اليهود الذين يشاركونه فى أمر تلك الوثنية

فأثبت له صاحب كتاب « تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام » أن اليهود هم الذين بدءوا المسلمين فى ذلك النزاع بعد أن جمع النبى صلى الله عليه وسلم بين الفريقين فى حلف واحد ، وجعل منهم أمة واحدة تجمع بينها رابطة الوطن ، وإن اختلف دينها الى الاسلام واليهودية . أما ذلك المال فكان الاسلام يحرم أن ينظر اليه المسلمون فى قتالهم ، وكان الله جل شأنه يؤدبهم بالقول وبالفعل إذا خالف بعضهم ذلك كما حصل منهم فى غزوة بدر وغزوة أحد ، وإنما كان سبب قتال اليهود نقضهم ذلك الحلف ، وكراهتهم أن ينهض العرب بذلك الدين الجديد وهم أصحاب البلاد ، واليهود قوم طارئون عليهم ، فكان شأنهم فى ذلك شأن الأجانب الآن فى بلادنا ، وإذا كان من حق الأجنبى على صاحب الوطن أن يكرم جواره ، فمن حق صاحب الوطن على الأجنبى أن يراعى ذلك منه فلا يكره الخير له ، ولا يقف حجر عثرة فى سبيل نهوضه ، فاذا لم يراع ذلك له كان من حقه أن يخرجه من وطنه ، وألا يكرم جواره كما لم يكرم جواره

ومن ذلك أيضاً تلك الفتن التى حدثت بين الصحابة فى عهد الخلفاء الراشدين ، فقد أدى للتاريخ حقه فيها ، كما أدى لأولئك الأصحاب حقهم فى صحبتهم لصاحب الرسالة ، وفى عظيم جهادهم فى نشر تلك الديانة . وهكذا سار المؤلف فى كتابه يعنيه تحقيق مسائل التاريخ أكثر من عنايته بسرد أخبارها ، ويشفى فى ذلك غليل من يريد الوصول إلى الحق فيها ؟ (ص)

وزارة الأوقاف

اعلان

تشهر الوزارة توريد الكتب والأدوات الدراسية اللازمة لإدارة التعليم فى سنة ٩٣٥ الدراسية والوارد بيانها بالكشوف المودعة مع شروط التوريد بقسم الإدارة بديوان الوزارة وبمكتب إدارة التعليم الكائن بسراى اليازجى بروض الفرج لمن يريد الاطلاع عليها . وتصرف استمارة العطاء وشروط التوريد من إدارة التعليم نظير مبلغ مائة مليم يوردها الطالب لخزينة الوزارة

وتقدم العطاءات ومعها العينات مصحوبة بتأمين ابتدائى يوازى ٢٪ اثنين فى المائة من قيمتها داخل مظروف مختوم بالشمع الأحمر بعنوان حضرة صاحب المعالى وزير الأوقاف إلى قسم الادارة بديوان الوزارة لغاية ظهر يوم الثلاثاء الموافق ٢٠ أغسطس سنة ٩٣٥ . ولمقدمى العطاءات الحق فى الحضور أمام لجنة المزادات بالوزارة أثناء فتح المظاريف بجلسة يوم الأربعاء الموافق ٢١ أغسطس سنة ٩٣٥

ومن يرس عليه أى عطاء يكمل تأمينه إلى ١٠٪ عشرة المائة من قيمة ما يرسو عليه ، وللوزارة الحق فى قبول أو رفض أى اعطاء دون ابداء الأسباب م؟

اعلانات قضائية

فى يوم الثلاثاء ٢٧ أغسطس سنة ٩٣٥ سيباع علناً الساعة ٨ افرنكى صباحاً وما بعدها بحارة زاوية نصر نمرة ١٦ تبع قسم اللبان منقولات منزلية مبينة بمحضر الحجز بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١٨٦ قرشاً صاغاً خلاف رسم التنفيذ وأجرة النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٠٠٠ سنة ١٩٣٥ منشية وهذا البيع بناء على طلب الست أسما سلامه محمد ضد ضباشه محمد على صالح فعلى راغب الشراء الحضور

المخطوطات العربية

المخطوطات العربية القديمة لها مكانتها العليا ولا يقدرها قدرها إلا عوانها . لهذا جمع منها الكثير صاحب مكتبة العرب الشهيرة بالفجالة وعرضها للبيع بأثمان معتدلة كما أنه مستعد لشراء أمثالها من الكتب وغيرها والموجود من المخطوطات فى الأدب والتاريخ والشعر والروحانى والصنعة الكريمة والطب وكتب إسلامية مختلفة فى كل مذهب وغيرها من كل الفنون وجميع المخابرات مع صاحب المكتبة الشيخ يوسف البستانى بشارع الفجالة نمرة ٤٧ بمصر

فى يوم الأحد ٢٥ أغسطس سنة ١٩٣٥ الساعة ٨ افرنكى صباحاً بناحية موسه والأربعاء ٢٨ منه بسوق أشمون إذا لزم سيباع علناً جاموسة خضراوى بقرون مصرى سن ٦ سنوات سليمة ومقدار من القمح بقدر باردبين قمح استرالى ملك أحمد عفيفى منصور من الناحية وفاء لمبلغ ٢١٩٨ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر نفاذاً للحكم نمرة ١٣٠٠ سنة ١٩٣٥ وهذا البيع بناء على طلب فالية على منصور من مونسه فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٥ من الساعة ٨ أفرنكى صباحاً بناحية كمشوش مركز منوف وفى يوم السبت ٢٤ أغسطس سنة ١٩٣٥ بسوق منوف سيباع علناً ١٠ أردب قمح استرالى من محصول العام و ٦ كراسى خيرزان و ١ سرير حديد أسود بوصة ونصف وهذه الأشياء ملك عبد الحميد أفندى اسماعيل جمعة المقيم بكموش نفاذاً للحكم الصادر من محكمة منوف الجزئية فى القضية المدنية نمرة ٥٦٢٢ سنة ١٩٣٤ وفاء لمبلغ ١٤ جنيه و ٥٤٠ مليم بخلاف رسم هذا والنشر وما يستجد وهذا البيع بناء على طلب زكى محمود أفندى ناشر الكاتب بمحكمة شبين الكوم الأهلية فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم ١٧ أغسطس سنة ١٩٣٥ الساعة ٨ صباحا بكفر قباله مركز المحلة وفى يوم الثلاثاء التالى بسوق المحلة كطلب السيد محمد مراد من الناحية سيباع علنا خروفين وأردب قمح ملك ابراهيم يوسف الغبارى من الناحية نفاذا لحكم محكمة المحلة الأهلية نمرة ٣٥١٨ سنة ١٩٣٥ وفاء لمبلغ ١ ج و ٨٦٠ م فعلى راغب الشراء الحضور

3 me Année, No. 111.

Lundi-19-8-1935



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

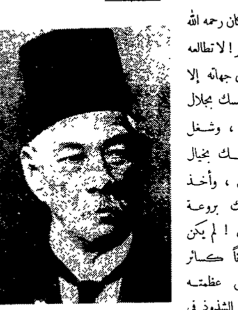
الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١١١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ١٩ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السـنة الثالثة

فهرس العـــــدد

ســـــعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة



كان رحمه الله كالبحر! لا تطالعه من أى جهاته إلا غمر نفسك بجلال العظيم، وشغل رأسك بخيال الشاعر، وأخذ حسك بروعة المجهول! لم يكن إنساناً كسائر الناس عظمته موضع الشذوذ فى بشريته، وعبقريته بعض الكمال فى نقصه، وقوته عَرَض منتقل فى ضعفه؛ إنما كانت العظمة أصلا فى طبعه، والعبقرية فطرة فى خَلْقِه، والقوة جوهراً فى إرادته. وإذا كان النبوغ قوة فى

مَلَكَةٍ على حساب مَلَكات، وارتفاعاً في جهة بانخفاض جهات، فان نبوغ سعد باشا كان نظاماً عـدلا في نوعه: ظهر في كل موهبة من مواهبه بمقدار واحـد، وبهر في كل أثر من آثاره بشعاع ممتاز. فهو في صرامة المنطق مثله في لطافة الشعر، وفي جرأة القلب مثله في رقة الشعور، وفي بلاغة اللسان مثـله في براعة الذهن، وفي كيد الخصومة نفسه في شرف الرجولة، وفي قيادة الجمعية التشريعية عينه في قيادة الأمة المصرية!

سعد زغلول ومحمد عبده هما الآية الشاهدة على سمو الجنسية المصرية الخالصـة، والحجة القائمة على فضل الثقافة العربيـة الصحيحة. نشأ كلاهما قرويين لم يَشُبْ دماءهما عنصر دخيل، أزهريين لم يشل تفكيرهما تقليد عاجز: ثم مضيا على إلهام الجنس، ورسم التاريخ، وهدى العقيدة، يدعو أحدهما إلى اصلاح الدين، ويدعو الآخر إلى صلاح الدنيا، برجولة الخلق، وفحولة التفكير، وبطولة التضحية؛ حتى كان من أثر جهادهم المباشر ما نحن والشرق فيه من انتباه العقل وانتعاش الوجـدان وثورة الحميَّة.

كانت معجزة الرجلين في رسالتهما الإنسانية، من نوع معجزة الرسول في رسالته الإلهية: رجولة قاهرة وفصاحة ساحرة وخلق عظيم. وتلك هي عناصر الشخصية الجبارة التي تأمرك وكأنها تستشيرك، وتقودك وكأنها تتابعك، وتتطامن إليك وأنت منها كما تكون من البحر أو الجبل أو العاصفة!!

***

إذا شئت أن تختصر رسالة سعد في كلمة فهي (الدفاع عن الحق)؛ تطاوع له منذ شب بدافع من غريزته الحاكمة وطبيعته الناقدة؛ فـكان في كل مرحلة من مراحل حياته يذود عنه طغيان القوة، وسلطان الهوى، وعدوان الرذيلة. عُيِّن بعـد خروجه من الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الامام، فكان يكتب في الاستبداد والشورى والأخلاق، وينتقـد الأحكام التي كانت تصدرها يومئذ (المجالس الملغاة)؛ ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة، وكان حكمه حكم القاضي الجزئي، فنزل الخلق من عدله وعقـله في حمى أمين؛ ثم أصغى لصرخة الحق في الغضبة العرابية ففصل من وظيفته، فزاول المحاماة، وهي يومئذ حيلة الباطل وخصيمة العدل وآفة الخلق؛ فأنقذها من هذه المراغة، وطهرها من ذلك الرجس، وردَّها إلى طبيعتها مجلوة الصدر عفيفة الأديم، تساعد القانون وتؤيد الحق

وكان سعد أفندي زغلول أول محام أقرته المحاكم الأهلية في مصر، فجعل دستور هذه الحرفة النبيلة هذا الجواب الجامع الذي أجاب به ممتحنه وقد سأله عن واجبات المحامي فقال:

«درس القضية، والدفاع عن الحق، واحترام القضاء»

ثم اختير نائب قاض في محكمة الاستئناف، ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الغواص، والدرس المحيط، والتوجيه النزيه، والاستدلال الصحيح، والاستنباط الدقيق، والحكم الموفق. ثم انتقل من القضاء إلى وزارة المعارف، وكان لدنلوب فيها استبداد الطاغية، وفساد المستعمر، وعناد القـدَر؛ وكان لهذا الفاجر صرعى كثيرون أولهم اللغة العربية والكرامة المصرية؛ فطاطأ سعد بسطوة الحق علو المستشار، وأعز جانب العربية في وطنها فجعلها لغة الثقافة، ووضع الأقدار في مواضعها فرفع بذلك من قدر الكفاية

ثم انتخبته الأمة نائباً عنها في «الجمعية التشريعية»، فكان بشخصيته الغلابة ولهجته الخلابة وحججه المُلزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء، ودهشة النواب، ومُتجه الأفئـدة؛ وكان منهاجه فيها قوله المأثور:

«الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة»

ثم أُعلنت الهدنة ووضعت الحرب العامة قضية العالم كله على مكاتب الغالبين في (فرساي)، فدوى في سمعه صوت الحق الصريع، وعصفت في رأسه نخوة الشعب المستذَل، فنهض للغاصب المزهوّ نهضته المعروفة، فخيّس بها أنف الجبار العنيد، وفتح بفصلها الدامي تاريخ مصر الجديد

***

وهكذا اصطفى الله سعداً لرسالة الحق، في أمة سَفِهَتْه في نفسها فلا تأخذه ولا تعطيه، ثم ركّبه على الصورة التي أرادها لتبليغ هذه الرسالة، ثم هدى به قافلة قومه إلى طريق السلامة، وجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة!

(للكلام بقية)

احمد حسن الزيات

أيها البــحر!

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

إذا احتدمَ الصيفُ ، جعلتَ أنت أيُّها البحرُ للزمن فصلاً جديداً يسمى « الربيعَ المائي »

وتنتقلُ إلى أيامك أرواحُ الحدائق ، فتنبتُ في الزمن بعضُ الساعاتِ الشهيةِ ، كأنها الثمرُ الحلوُ الناضجُ على شجره

ويُوحي لونُكَ الأزرقُ إلى النفوس ما كان يوحيه لونُ الربيع الأخضر ، إلا أنه أرقُّ وألطف

ويرى الشعراءُ في ساحلك مثلما يرون في أرض الربيع ، أنوثة ظاهرة ، غير أنها تلدُ المعانيَ لا النبات

ويُحِسُّ المشاقُ عندك ما يُحسُّونه في الربيع : أن الهواءَ يتأوَّه . . . .

* * *

في الربيع ، يتحرك في الدم البشريِّ سرُّ هذه الأرض ؛ وعند « الربيع المائي » يتحرك في الدم سرُّ هذه السُّحُب

نوعان من الخمر في هواء الربيع وهواء البحر ، يكون منهما سكرٌ واحدٌ من الطرَب

وبالربيعَيْن الأخضر والأزرق ينفتح بابان للعالم السحريِّ العجيب : عالَمِ الجمالِ الأرضيِّ الذي تدخله الروحُ الانسانية كما يدخلُ القلبُ المحبُّ في شعاع ابتسامةٍ ومعناها

* * *

في « الربيع المائي » ، يجلسُ المرءُ وكأنه جالسٌ في سحابةٍ لا في الأرض

ويشعرُ كأنه لا بسٌ ثياباً من الظلِّ لا من القماش ؛ ويجدُ الهواءَ قد تنزَّه عن أن يكون هواءَ التراب

ويَخِفُّ على نفسه الأشياءُ ، كأن بعضَ المعاني الأرضية انتزعتْ من المادة . وهنا يدركُ الحقيقة ؛ أن السرور إن هو إلا تنبُّهُ معاني الطبيعة في القلب

* * *

وللشمس هنا معنى جديدٌ ليس لها هناك في « دنيا الرزق »

تُشرقُ الشمسُ هنا على الجسم ؛ أما هناك فكأنما تطلُعُ وتغرُب على الأعمال التي يعملُ الجسمُ فيها

تطلعُ هناك على ديوان الموظف لا الوظف ، وعلى حانوت التاجر لا التاجر ، وعلى مصنع العامل ، ومدرسة التلميذ ، ودار المرأة

تطلع الشمسُ هناك بالنور ، ولكنَّ الناسَ — وا أسفاه — يكونون في ساعاتهم المظلمة . . .

الشمسُ هنا جديدة ، تُثبتُ أن الجديدَ في الطبيعة هو الجديدُ في كيفية شعور النفس به

* * *

والقمرُ زاهٍ رفَّافٌ من الحسْن ؛ كأنه اغتسل وخرج من البحر

أو كأنه ليس قمراً ، بل هو فجرٌ طلع في أوائل الليل ؛ قَصَرَته السماءُ في مكانه ليستمرَّ الليل

فجرٌ لا يوقظ العيونَ من أحلامها ، ولكنه يوقظُ الأرواح لأحلامها

ويُلقي من سحره على النجوم فلا تظهر حوله إلا مُسْتَبْهِمة كأنها أحلامٌ معلَّقة

للقمر هنا طريقةٌ في إبهاج النفس الشاعرة ، كطريقة الوجه المشوق حين تقبِّله أولَ مرة

* * *

و « للربيع المائي » طيورُه المغرِّدة وفَراشُه المتنقِّل

أما الطيور فنساءٌ يتضاحكنَ ، وأما الفراشُ فأطفالٌ يتواثبون

نساءٌ إذا انغمسْنَ في البحر ، خيِّلَ إليَّ أن الأمواج تتشاحنُ وتتخاصمُ على بعضهن . . . .

رأيتُ منهن زهراءَ فاتنةً قد جلست على الرمل جِلْسَةَ حوَّاءَ قبل اختراع الثياب ، فقال البحر : يا إلهي . قد انتقل

* كتبنا في (أوراق الورد) رسالة عن البحر والحب فيها أوصاف كثيرة للبحر

معنى الغرق الى الشاطئ . . . إن الغريق من غرق في موجة الرمل هذه . . . .

* * *

والأطفالُ يلعبون ويصرخون ويضجُّون كأنما اتسعت لهم الحياةُ والدنيا

وخيِّل اليَّ أنهم أقلقوا البحر كما يُقلقون الدار ، فصاح بهم : ويحكم يا أسماكَ التراب . . . ! ورأيتُ طفلاً منهم قد جاء فَوَكزَ البحرَ برجْله ! فضحك البحر وقال : انظروا يا بني آدم ! !

أعَلى الله أن يَعْبَأ بالمغرور منكم إذا كَفَرَ به ؟ أعليّ أن أعبأ بهذا الطفل كيلا يقول إنه ركلَني برجله . . . ؟

* * *

أيها البحر . قد ملأتك قوة الله لتُثبت فراغ الأرض لأهل الأرض

ليس فيك ممالك ولا حدود ، وليس عليك سلطانٌ لهذا الانسان المغرور

وتجيش بالناس وبالسفُن العظيمة ، كأنك تحمل من هؤلاء وهؤلاء قشاً ترمى به

والاختراعُ الانسانيُّ مهما عَظُم لا يُغْني الانسانَ فيك عن إيمانه

وأنت تملأ ثلاثة أرباع الأرض بالعظَمة والهول ، رداً على عَظمة الانسان وهوله في الربع الباقي ؛ ما أعظمَ الانسانَ وأصغره !

* * *

يَنزلُ الناسُ في مائك فيتساوَوْن حتى لا يختلف ظاهرٌ عن ظاهر

ويركبون ظهركَ في السفُن فيحنُّ بعضهم إلى بعض حتى لا يختلف باطنٌ عن باطن

تُشعرهم جميعاً أنهم خرجوا من الكرة الأرضية ومن أحكامها الباطلة

وتُفقرهم إلى الحب والصداقة فقراً يُريهم النجوم نفسها كأنها أصدقاء ، إذ عرفوها في الأرض

يا سحر الخوف ، أنت أنت في البحر كما أنت أنت في جهنم

* * *

وإذا ركبك المُلحِدُ أيها البحر ، فرجفت من تحته ، وَهدَرْتَ عليه وثُرت به ، وأريتَهُ رأيَ العين كأنه بين سماءين ستنطبقُ إحداهما على الأخرى فتُقفَلان عليه ، تركتَه يَتَطَأطأ ويتواضع ، كأنك تهزُّه وتهزُّ أفكاره معاً وتُدَحْرِجُه وتدحرجها

وأطَرْتَ كل ما في عقله فيلجأ إلى الله بعقل طفل

وكشفتَ له عن الحقيقة أن نسيان الله ليس عمَل العقل ، ولكنه عملُ الغفلة والأمن وطولِ السلامة

* * *

ألا ما أشبَه الانسانَ في الحياة بالسفينة في أمواج هذا البحر !

إن ارتفعت السفينةُ ، أو انخفضت ، أو مادت ، فليس ذلك منها وحدها ، بل مما حولها

ولن تستطيع هذه السفينةُ أن تملك من قانون ما حولها شيئاً ، ولكن قانونها هي الثبات ، والتوازن ، والاهتداء إلى قصدها . ونجاتُها في قانونها

فلا يعتبنَّ الانسانُ على الدنيا وأحكامها ، ولكن فليجتهد أن يحكم نفسه

كتبت في شاطئ سيدي بشر
(اسكندرية)

مصطفى صادق الرافعي

مصر وقت الفتح الفاطمى

والعوامل التى مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كانت مصر وقت الفتح الفاطمى ، فريسة هينة للطامع ؛ بيد أنها لم تكن كذلك قبل الفتح الفاطمى بنصف قرن فقط . وقد ثابت للفاطميين مذ شادوا ملكهم فى إفريقية ، نية فى غزوها وامتلاكها ، فغزوها أكثر من مرة ، واستولوا على بعض نواحيها ، ولكنهم ارتدوا عندئذ أمام جند الخلافة وجند مصر ؛ ذلك أن مصر لم تكن يومئذ فريسة هينة ، وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ينظمون مواردها وقواها الدفاعية حين الخطر الداهم ؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يغالبون فى المغرب خطر الانتقاض المستمر ، ويقوم ملكهم الفتى على بركان يضطرم بعناصر الخروج والثورة ؛ حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار فى المهد تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة وذلك فى عهد ثانى خلفائهم القائم بأمر الله [1] . على أن الخلافة العباسية التى استطاعت فى فورة من القوة فى عهد المكتفى بالله أن تسحق الدولة الطولونية وأن تسترد مصر منها ، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلى فى مصر ، وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسى والدينى فيها ، وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزرى ، وذكا الرومى ، وابن كيغلغ ، وابن طغج ، يتمتعون بكثير من الاستقلال ، وربما نزع بعضهم إلى انتزاعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل ، وكما فعل محمد بن طغج (الأخشيد) فيما بعد ، وكانت هذه النزعة الاستقلالية ، ذاتها عاملا فى ضعف سلطان الخلافة فى مصر ، وفى المباعدة بينها وبين مصر ، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر النائى ومصايره ؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملاً فى حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر وحمايتها من غارات المتدين عليها والمتطلعين إلى امتلاكها . وكان جل اعتمادهم فى ذلك على جند مصر ذاته ، ولكن الشعب المصرى لم يكن يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب خصوصاً ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعربين ، فكان الزعماء المحليون ينزعون دائماً إلى منافستهم ومناوأتهم ، وكان الجند كثير التمرد والثورة ، يتبرم بأطماع أولئك الزعماء وجشعهم فى استخلاص أرزاقه [1] ؛ فكان تعاقب الولاة ومنافساتهم فى تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة ، واضطراب الشؤون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة الفوضى ؛ هذه كلها تزيد مصر ضعفاً على ضعفها ، وتدفعها إلى التطلع إلى مصير أفضل من هذا المصير

وبينما كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف ، كانت دولة خصيمة فتية هى الدولة الفاطمية تسير مسرعة الى النماء والتوطد ؛ وكانت القبائل البربرية التى شدت أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة ، تحتفظ فى هذا القفر بخشونتها وبأسها بعيدة عن تلك العوامل الرخوة التى تحمل عناصر الهرم والفناء الى دول ومجتمعات يغمرها تيار الحضر والنماء والترف ؛ ولم تكن المعركة الهائلة التى اضطرمت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخصيمة ، وكادت تسحقها فى المهد ، إلا لتذكى فيها رغبة الحياة وعزم النضال ؛ وقد خرجت من المعركة ظافرة قوية ، ولكنها أدركت فى نفس الوقت فداحة الخطر الذى يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء ؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوخوا قبائل المغرب كله وأن ينفذوا بفتوحاتهم فى المغرب الأقصى حتى المحيط ، فانهم لم يطمئنوا الى البقاء فى تلك الوهاد الوعرة ، ولم يعتبروا أنهم وصلوا باقامة ملكهم فى افريقية الى ذروة الأمانى والغايات

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائى درة خضراء ؛ وكانت مصر فى نظرهم هى ميدان المعركة الحاسمة التى يضطرمون لخوضها مع الدولة العباسية — خصيمتهم السياسية والمذهبية — وقد حاولوا خوضها منذ الساعة الأولى ، فزحفوا على مصر أكثر من مرة كما قدمنا ، وكما سنفصل بعد ؛ ولكن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد ، واستطاعت مصر بجندها وجند الخلافة أن ترد الغزاة ، وشغل الغزاة مدى حين بما يهددهم فى

---

(١) راجع المقريزى — اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء ص ٤٧ — ٤٩ — والخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٦٣

(١) راجع الخطط — ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧

افريقية ذاتها من خطر الانتقاض والفناء . وفى تلك الفترة تطورت الحوادث فى مصر وسارت الى مرحلة جديدة من الاستقرار فى ظل الخلافة أيضاً ؛ وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة بفوز محمد بن طغج الأخشيد بولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) من قبل الخليفة القاهر ؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بعامين ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر ؛ فلما وليها من قبل القاهر سار اليها من دمشق فى قواته ، فتعرض له أحمد بن كيغلغ حاكم مصر وقتئذ وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف ؛ ذلك لأن ابن كيغلغ كان من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون الى الاستقلال بمصر ؛ ولكن ابن طغج هزمه ودخل مصر ظافراً وتقلد ولايتها ، وأنعم عليه الخليفة بلقب الأخشيد أو (ملك الملوك)

وكان الاخشيد أميراً طموحاً ، وافر الذكاء والشجاعة والعزم ، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشام ومصر ؛ ولكنه رأى أن ينشئ فيهما لنفسه دولة مستقلة فى ظل الخلافة ، وأسرة ملوكية تتوارث السلطان من بعده ، على مثل ما انتهى إليه ابن طولون بانشاء الدولة الطولونية . وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هى الدولة الأخشيدية ؛ واستقرت الأحوال بمصر فى ظل الدولة الجديدة ، وانتظمت قواتها الدفاعية ، واستطاعت أن ترد الغزاة الفاطميين كرة أخرى (سنة ٣٣٢ هـ) وسطعت الدولة الأخشيدية بمصر مدى حين ، وكادت تنافس فى القوة والبهاء دولة بنى العباس ذاتها ، ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين فى فتح مصر قد خبا . ولكن قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص إلى همة منشئها الأخشيد وإلى قوة خلاله ؛ فلما توفى الأخشيد (سنة ٣٣٤) ، وخلفه ولده انوجور على مصر والشام ثم أخوه على بن الاخشيد (سنة ٣٤٩) ، وآل تدبير الامور فى عهدها إلى كافور الأخشيدى خادم أبيهما ، أخذ صرح الدولة الجديدة فى التصدع ؛ ولما توفى على بن الاخشيد ، انتزع كافور الامارة لنفسه (سنة ٣٥٥) ؛ وقبض هذا الأسود الخصى مدى حين على مصاير مصر والشام ؛ ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم ، فانه لم يستطع أن يحول دون تسرب العوامل المنوية والاجتماعية الهدامة التى كانت تقضم أسس الدولة الأخشيدية ، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين ؛ وخلفه فى الامارة صبى حفيد للأخشيد هو احمد بن على بن الأخشيد ، وتولى تدبير الأمور وزير مصر القوى جعفر بن الفرات ؛ ولكن الامور كانت قد ساءت يومئذ ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب ، وظهرت امارات الذبول والهرم على الدولة الأخشيدية ولاح لها شبح الفناء حائماً فى الأفق

— ٢ —

وشغلت الدولة الفاطمية فى تلك الفترة بشؤونها الخاصة ، فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ سنة ٣٣٢ هـ ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث فى مصر بمنتهى العناية ؛ وكانت تعتمد فى تنفيذ مشروعها على الشعب المصرى ذاته وعلى زعمائه الناقمين على بنى الأخشيد ، وعلى تمرد الجند الساخط لانتقاص أعطيته ؛ وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين الى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيغلغ مهزوما أمام الاخشيد لسحق الدولة الأخشيدية[1] . ولما توفى كافور ، واضطربت أحوال الدولة ، وتعارضت الآراء فى مسألة الولاية والحكم ، وكثر التنافس على السلطة ، وقلت اعطية الجند ، كتب بعض زعمائه إلى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يدعوه إلى فتح مصر[2] ؛ واشترك فى هذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة فى عهد كافور ، هو يعقوب بن كلس ؛ وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه إلى السجن وصادر أمواله فما زال يسعى حتى أفرج عنه ؛ وفر من مصر إلى المغرب ودعا المعز إلى فتح مصر ، ووصف له خصبها وغناها ، وضعفها واضطراب أحوالها[3] ؛ وقد كان لابن كلس هذا فيما بعد أعظم شأن فى الدولة الفاطمية بمصر فى عهد المعز وولده العزيز

وقد رأى الفاطميون فى موت كافور خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد بنى الأخشيد ، ولم يفتهم أن يلاحظوا عوامل الانحلال والوهن التى سرت سراعاً إلى قوى مصر المادية والمعنوية . والواقع أن مصر كانت تعانى من تقلب الزعماء والدول أسوأ الآثار فى مواردها وفى نظمها الاجتماعية وأحوالها المعنوية ، وكانت تلك القوة التى تسبغها الزعامة المؤقتة على مركزها خاباً ، وكان الشعب مطية المتغلب يسوقه إلى الحرب والسلام طبق

(١) الخطط — ج ٢ ص ١٢٧
(٢) ابن خلكان فى ترجمة القائد جوهر — ج ١ ص ١٤٨
(٣) ابن خلكان — ج ٢ ص ٤٤٠

أهوائه ، ويستنفد موارده وأرزاقه فى بذخه ومشاريعه ، وكانت العاطفة القومية تتبرم بهـذه السيادة الأجنبية التى تمثلها قصور لا تصطبغ بصبغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية ، كذلك كانت الأزمات الاقتصادية الخطيرة التى تنتهى غالباً بالغلاء والوباء تفعل فعلها فى إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس ؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمى (سنة ٣٥٨ هـ) تعانى مصائب الغلاء والوباء ، ويقال إنها فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ستمائة ألف [1] وكان ذلك بلاريب عاملاً فى إضعاف قواها الدفاعية وفى زهدها فى النضال والمقاومة . أضف الى ذلك كله ما كانت تعانيه مصر يومئـذ من ضروب الانحلال والفساد الاجتماعى الشامل ؛ وقد انتهت الينا فى ذلك رواية إذا صحت فانها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية فى إذكاء همة الفاطميين لفتح مصر ؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت إلى مصر صبية للبيع فعرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت إليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج وأنها اشترت الصبية لتستمع بهـا لأنها تهوى الصبايا الحسان ، فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها ، فدعا المعز شيوخ القبائل ، وروى الوكيل لهم حادث الصبية ، وعندئذ قال المعز : يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم ، فانهضوا بنا اليهم [2]

وفى هذه الأقوال التى ينسب قولها عن مصر للمعز لدين الله صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الرخو من عناصر الهدم . وقد كان هذا شأن المجتمع المصرى فى خاتمة كل فترة من النهوض والقوة : ففى نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصرى ، بعد فترة قصيرة من الفتوة والبهاء والقوة ، إلى نوع من الانحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسـية ؛ وقد كان هذا شأنه فى خاتمة الدولة الأخشيدية التى سطعت فى عهد مؤسسها لمدى قصير فقط . وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرعت فى قفار المغرب ، فى مهاد البساطة والخشونة والفتوة ؛ وانتهت فى هذا الوقت الذى أزمع الخليفة الفاطمى فيه فتح مصر ، إلى ذروة القوة والفتوة والرجولة إذا صح التعبير . وإليك رواية عن المعز تقدم إلينا صورة قوية مؤثرة عن تلك الروح الخشنة الوثابة التى امتازت بها الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من حياتها : استدعى المعز فى يوم بارد إلى قصره بالمنصورية عدة من شيوخ كتامة ، وأمر بادخالهم إليه من باب خاص ، فاذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبة وحوله أبواب مفتحة تفضى إلى خزائن كتب وبين يديه دواة وكتب ؛ فقال يا إخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء ، وإنها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى اخواننا يظنون انا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل ، أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ؛ وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم وبما خصنى الله به من إمامتكم ؛ وانى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ؛ وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا الا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم ، فافعلوا ياشـيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر فينزع الله النعمة عنكم وينقلها إلى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحنني عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ؛ ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم ؛ انهضوا رحمكم الله ونصركم [1]

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) ابن خلكان — ج ٢ ص ١٣٤

(٢) المقريزى — الخطط ج ٢ ص ١٦٦ — واتعاظ الحنفاء ص ٦٤

(١) المقريزى الخطط . ج ٢ ص ١٦٤ واتعاظ الحنفاء ص ٦٠ و٦١

حول الأوزاعى «ثالثا»

للأستاذ أمين الخولى

. . . ولا مفر لى من أن أعد قراء الرسالة ألا أعود إلى هذا الموضوع بعدها ؛ ثم سلام على الأخ السيد السنفاورى ، وانتصاحى خير انتصاح بنصيحته فى أن أعدل منطقى ؛ وجزاه الله عن هذه النصيحة خير الجزاء ؛ ولعله يعمل معى على هذا الاصلاح الرشيد الذى أبادر بشكره عليه ، فيدعنى أضع بين يديه هذه النقط ليصلحها كما يشاء ، وله أن يبعث إلى هذا الاصلاح بأى طريق يؤثره . وربما لا يكون لقراء الرسالة بهذا الاصلاح اهتمام فليجعله — إن كان ذلك — بيننا خاصاً

ياسيدى ؛ فسرت فى حديث عن الأوزاعى التأثر الرومانى ، بالتأثر بالثقافة والبيئة الذى لا بد من تقديره ؛ فكتبت تقول لى إن القانون الرومانى الحديث مأخوذ من الفقه الاسلامى ؛ وإذ ذاك قلت لك هذا رأى قديم نشر فى مصر ولا يؤثر فى قولى ؛ فقلت لى إنى أكتب ذلك للقراء ، لا لك وحدك . والذى نشر فى الكتب المطبوعة منذ ربع قرن ؟ أليس هو للقراء ؟ أم مهمة الرسالة أن تذيع مافى الكتب ؟ أم أين منطق . . . وأقول لك لا يؤثر على قولى ولا يتصل به من قرب ، فترى من اللازم أن أجيب عن كل ما كتبت أنت وأبسط للقراء رأيى مدعماً ببراهين لا تنقص — على الأقل — عن براهين مناظرى ؛ ولكن لم أكن مناظرك فى هذا ، ولا عرضت له ؛ وعنونت كلمتى الثانية أيضاً كما عنونت هذه الثالثة ، حول الأوزاعى ؟ فلا أنا فتحت البحث ولا أنا أردت الخوض فيه ؛ وستعرف آخر الأمر لماذا فعلت ذلك ؛ فالآن أين منطق . . وأقول لك وقتى — وقتى أنا — وعملى وواجبى ومصالحى ، فتقول لى لماذا يضيق الوقت ذرعاً بالخوض فى هذا البحث وحده ، فبربك أين منطق ؟ . . . وأقول لك حين تسوى بين الأخذ والتأثر أنهما متغايران والثانى منهما قد يكون حاداً قوياً ، وهو متاركة ومجانبة واحتياط من المخالطة ، فلا يعجبك ذلك ، وتحدثنى عن سد الذرائع ، كأنك تريد أن أخوض معك مناظرة أصولية ، ولما نفرغ من المناظرة فى تاريخ القانون ، التى تجبرنى عليها ، حين تزعم أن أصل البحث الذى نحن فيه أنه وجد فى الفقه الرومانى تشابه مع الفقه الاسلامى فهم منه البعض وجود علاقة بين الفقهين ، وعلم الله أنى أرد العلاقة إلى أبسط من هذا التشابه وذاك الأخذ الذى تحب أن تتكلم فيه ، فتجبرنى على المناظرة فيما لا أرى القول فيه أو أكون هارباً منك ، فأين منطق . . . ؟

وأقول لك إن قانون البيئة والثقافة ينطبق على الاسلام تمام الانطباق ، فتقول لى إنك تريد أنه خارق لا ناقض وتفرق لى بينهما ، وفى منطق — المريض — أن الناقض والخارق كلاهما مخالف وأنا أقول إنه موافق ، فما التفريق بين الناقض والخارق ؛ وأين منطق . . .

وتقول إن الشريعة الاسلامية وجدت كاملة دفعة وفى زمن واحد . فأقول لك نمت وزادت وتغيرت بالزمان والمكان واختلف فيها اختلاف هائل ؛ فتقول لى إنما أريد الأصول والحدود والفرائض ؛ وهل وجود الأصول هو وجود فهم الأصول والاختلاف فيها ، والتطبيق عليها ؛ وأين منطق . . .

وأقول لك إن بعد المرامى القرآنية سبب للاختلاف ، فتحتج فى الرد على هذا بأمر على لابن عباس أن يتوخى الجدال بالسنة حرصاً على ألا يخطئوا فى فهم القرآن وتأويله ، وهو عين ما أقوله من تسبيب الاختلاف ، فأين منطق . . .

وأقول لك عدم صراحة النصوص من أسباب الاختلاف ، فتقول السبب الأكبر هو كذا ، وهذا عندى هو السبب الأكبر ، وهل وجود السبب الأكبر — عندك — ينفى السبب ، أو الأسباب الكبيرة ، والصغيرة و و . . . ، وأين منطق

وأقول لك اختلف الأدباء فى فهم معنى الكذب فى القرآن واستعماله فيه ، فتقول لى فرق بين رسوم الألفاظ وحدودها المنطقية وبين صراحة مؤدياتها اللغوية ، وهل ليست مؤدياتها هذه هى معانيها وما يفهم منها ، وهل ليس هذا هو ما يحدد ويقدر حين يراد التفريق الدقيق والفهم المحلل والمحرم ، وإلا فما هذه الحدود المنطقية وما تلك المؤديات التى تختلف عند السيد . . . وأين منطق . . . ؟ إن منطقى لم يفهم مطلقاً أن خطبة حجة الوداع نفهمها المسلم اليوم بمثل ما فهمها المسلم سنة عشر من الهجرة

دون خلاف ، لأن الألفاظ يغيرها الاستعمال ، وتوسعها وتضيقها الظروف الحيوية والأدبية وغيرها ، وهذا ممن قاله قدماء أدبائنا وقاله أصوليونا حين طلبوا فهم القرآن بمثل ما كانت تفهم العرب وقت نزوله ، لا بغير ذلك من المعانى ؛ ثم منطق هذا لم يفهم الكلام فى التفريق بين العربية وما تطور من اللغات حتى كاد ينقطع عن أصله الأول قبل مائتى سنة ، لأنا لم نكن بصدد دراسة مميزات العربية ، بل بصدد صراحة آيات الأحكام ووضوح مرامها أو وقوع المشترك فيها ، لا لبعد المرمى الدقيق الاعجاز فقط

وتقول إن أغلب النصوص الفقهية من السنة ، فلا أفهم ذلك ، فتحتج عليه بأن السنة مبينة للكتاب ، فهل البيان يثبت الأغلبية والأكثرية وهى أمر احصائى ؟ ثم كيف غلبت وهى تابعة لأصل هو الكتاب لا تجيء بما ليس فيه ، فكل ما فيها فيه ، فما هذه الأغلبية ، وأين منطقى . . . أصلح الله شأنى وأصلح شأنك إن قبلت منى هذه الدعوة فى غير غضب ، وإلا فدع نصيبك منها لى كله

وأقول لك تتأثر الأمم بعيراث بعضها ؛ فتقول لى قد مضى على الرومان قرن وأكثر ، ولم يبق من ثقافتهم عين ولا أثر ؛ فرحم الله أسلافنا وعوضنا خير العوض فى بعيد ماضينا الذى حالت عليه أحوال وتقلبت أزمان ؛ ورحم الله منطق مع هذا التراث ، ما دام قرن أو أكثر لا يدع عيناً ولا أثراً ، وما دامت الحياة فى الدنيا جارية على القلع والغرس ، بل ليتها جارية عند السيد على ذلك ، فان الرسيم يسمد الأرض عندنا للقطن ؛ والغارس فى مكان القلع مستفيد من المقلوع عند الفلاحين لا عند منطق أنا . . .

وإذا رأيت أن الاسلام يؤثر ولا يتأثر ، فتلك منك رغبة فى إكرامه ، لعله لا يحرص عليها ، لأنه لا يحب أن يخالف سنن الله التى لا تتبدل

وقلت : « الواجب ألا يعتقد مسلم خلافه هو كذا وكذا » فقلت لك فهذا الاعتقاد أصل من أصول الاسلام لا يصح أن يجرى فيه الخلاف إذن ، فعجبت من ذلك ، وسألتنى بأى منطق استنتجت من قولك ذلك ، وأقول لك إنه بهذا المنطق المحتاج إلى الإصلاح وقع هذا الكلام فى عبارتك ففهمته ، ثم كنت ذكرت يا سيدى فى هذا المجال أول ما ذكرت : الضلال والزيغ ومحاربة الاسلام فتركت لك ذلك أولاً ثقة بجميل غيرتك ؛ وأما الآن فأقول لك : إن هذا الكلام الذى كنت ذكرته عن عجبك من وزارة الأوقاف الاسلامية كيف تقول كذا وكذا فى الفقه ، ومنى كيف أقرر هذه الضلالة وأمسرها ؛ هذا الكلام كله هو الذى يجعلنى أفهم — ولو لم تقل — أنك ترى هذا أصلاً من أصول الدين يكفر منكره ؛ ولا تتأول للمخالف فيه حتى يهون أمره عليك ولا تغضب

وأخيراً أقول للسيد بجرأة المؤمن ، وواجب النصح ، ولو غضب أو قذف : أولى لى — أنا أولاً — ثم لحضرتك ثانياً ، أن ندع المناقشة فى تاريخ القانون الرومانى لدراسة يحق لها أن تتكلم فى هذا أو ترتئى فيه ؛ لا لمقال ينشر فى سنغافورة بعد خمسة وعشرين عاماً من نشره فى مصر ؛ وهو كل بضاعتنا وما ندور عليه مناقشتنا . والأمثل لنا أن ندرس فقهنا درساً جيداً ، وندرس تاريخه درساً عميقاً ؛ ويدرس قوم منا الرومان وتاريخ قانونهم ، ثم نلتقى بعد ذلك لنبحث عن الحقيقة ، ونتعاون على الوصول إليها ، لا لنكفر كل قائل ، ونتهم كل متكلم ، ونتحدث عن الرومان والاسلام واليونان والعرب ، والفرنجة والمستشرقين والمبشرين فى صفحة وبقطرة مداد واحدة . تلك نصيحتى إليك يا سيدى أكررها جزاء لك على خالص نصحك لى بأن أغير منطقى ؛ وإنى لعلى أتم استعداد لتغييره لو كان منطق أنا ، لكنما المنطق وحدة عقلية إنسانية لا بد لى فيها ولا بد لك بتغييرها . فنهنى أصلحك الله إلى ما أحيد عنه من منطق الانسانية ، ولا نخلق لنا منطقاً خاصاً بنا فننعزل عن الدنيا ؛ وكفانا ما كان من عزلة وانقطاع . وهذا الذى بينت هو الذى منعنى من الخوض معك فى مناقشة العلاقة بين القانونين — الرومانى والاسلامى — وهو الذى تجنبته منذ كتبت أول ما كتبت وحين كتبت آخر ما كتبت

وإذا كنت — وحق المنطق وكرامة العقل — لم أغالطك مطلقاً ، فانى وحرمة الاخوة الاسلامية لم يدر بخلدى أن أحقرك بل أنا أحقر من ذلك ، والحق أجل منى ومنك . والسلام عليك ورحمة الله

أمين الخولى

الى الشيخ اللغوي ... و (فلان)

الوظيفة والموظفون

للأستاذ علي الطنطاوي

اعلم – أعزّك الله – أن الوظيفة ليست غُلاً في العنق ، ولا قيداً في الرجل ، وليست مقايَضَة أو مُبادَدَة ، آخذ فيها الوظيفة(١) باليمين ، لأعطي الوجدان بالشمال ؛ ولو أنها كانت كذلك ، لمزقت عهدها واجتويتها ، ونفضت يدي منها ، ولآثرت أن أبيع خزانة كتبي كرّة أخرى ، أو أفقي وأسرتي خَمْصاً ، على أن آكل خبزي مغموساً بدم الضمير . . . وعلى أن أكفر بالفضيلة ، وأومن بالمصلحة ، وأزن كلّ شيء في الدنيا بميزان صنجاته الدنانير ، وأبصر كلّ ما في الكون من ثقب القرش ، وأفكر إذ أفكر بعقلي الذي في كيس نقودي ، لا بعقلي الذي في رأسي ، فاختزل المنطق كله في قضية واحدة ، هي الأولى والأخرى ، وهي الحق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهي الكتاب المعجز الذي لا يُفرّط فيه من شيء ، ولا يعجزه شيء ، فيكون المنطق كله هذه القضية : تحصيل المال واجب ، وفي هذا الأمر تحصيل مال ، فهذا الأمر واجب . . وضَعْ مكان (هـذا الأمر) ما تشاء من أفعال اللؤم والخسّة ، والكذب والنذالة ، والضّعة والفسولة ، تنتظم القضية وتستقيم ، وتصح وتطرد . . . . ولا يبقى في الدنيا رديء ولا فاسد ، ولا منكر ، ما دام معه المال !

لا – يا سيدي – لست أسلك هذه الطريق التي لا أزال أحذّر منها من لم يسلكها ، وأصرف عنها سالكيها ، وإن كان السالكوها هم الكثرة من موظفينا وعلمائنا ، ومن كل ذي وظيفة ، أو صاحب صلة بالحكومة ، حتى أن الرجل من هؤلاء ليأتي الأمر يعترف أنه مؤذٍ للأمة ، مُنافٍ للفضيلة ، مناقضٌ للشرف ، فيحتج له بأن مصلحته تقتضيه ، ومعيشته تستلزمه ، وانه رجل (عاوز يعيش . .) ولا يعيش من لا يساير وينافق ، ويَذِلّ ويتزلّف ، لا يدري الجاهل أن المعيشة على الصّعتر مع الشرف ، خير من حياة النعيم والترف ، من غير فضيلة ولا شرف !

(١) الوظيفة هي الراتب ، والتوظيف تعيين الوظيفة ، وإذا نحن أطلقنا الوظيفة على العمل نفسه فانما نتبع في ذلك العرف السائد

* * *

ومن أنبائك – أعزّك الله – أن الموظف لا يحق له أن يفكر إلا بعقل رؤسائه ، ولا يرى إلاّ بعين أمرائه ، فلا يحقق من الآراء ما أبطلوا ، ولا يقبل ما ردّوا ، ولا يوقر ما سفّهوا ، ولا يرى ما استقبحوا حسناً ، ولا ما كتموا ظاهراً ، ولا ما صغّروا كبيراً ، ولا ما عظموا حقيراً ؟ أولو كان رؤساؤه مخطئين ، أولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟

ومن ذا حظر عليه ما أبيح للناس ، ومنعه ما منحوا من حرية التفكير ، وحرية الرأي ، وحرية القول ، ولماذا يشتهي من الطعام ما يعافه رئيسه ، ويستحسن من أبيات الشعر وأصوات الغناء ما يستهجنه ويستثقله ، ولا يكون عليه في ذلك من حرج ، ثم لا يتخذ له من الآراء غير رأيه ، ومن المذاهب غير مذهبه ؟ ولماذا لا ينشر هذ الرأي ، ويؤيد هذا المذهب ، ما دام لا يأتي محرماً في الشرع ، ولا ممنوعاً في القانون ؟..

والوظيفة – يا سيدي – عَقْدٌ بين الدولة والموظف(١) ، على أن يعمل عملاً بعينه ، على جُعْلٍ بذاته ، أفهل يعمل الأجير في الدكّان ، والعامل في المصنع ، والنّادل في الفندق ، والخادم في البيت ، وكلّ مأجور من الناس في عمل جلّ أو قلّ ، علا أو سفل ، فإذا أكمل عمله وجوّده ، استحق الأجر ، وانطلق حراً في وقته ، يقضيه على ما أحب ، حراً في ماله ينفقه على ما شاء ، حراً في رأيه ينحو به النحو الذي أراد ، ويسوقه المساق الذي اختار . . . ثم لا يكون الموظف حراً أبداً ، ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ؟

وماذا عليّ وأنا مدرس إذا أنا أعددتُ درسي وألقيته ، وقرأت وظائف تلاميذي وصحّحتها ، وفعلت كل ما يوجب عليّ القانون أن أفعل وزدت على الواجب النوافل ، أن أؤلّف وأكتب ، وأنقد الأخلاق والكتب والعادات ، وأساهم في الجهاد الاصلاحي ، وأحمل القسط الذي أطيقه من أثقال الأمة ، ومن ذا يحمله إذا لم أحمله أنا وأمثالي من الموظفين والمتعلمين ؟ وكيف تتقدم الأمة وتسير في طريقها إلى غايتها ، إذا لم تجد من أبنائها من يحمل أثقالها ؟

أفهل يريد سيدي – أعزّه الله – أن أمحو ملكة الكتابة

(١) لست أعني العقد الاجتماعي نظرية روسو المعروفة ، فذاك شيء قد سقط اليوم من قائمة العلوم ودخل في سجل التاريخ

من رأيى ، وأطمس نور البصيرة من قلبى ، وأسـدل على عينى حجاباً حتى لا أرى فأمرّ فأشكر ، أو أبتئس فأنقد ، وأهجر الكتب حتى لا أقرأ فيفتح علىّ الكتاب طريقاً إلى مقالة ، وأتعزّل الناس حتى لا أسمع حديثاً فأكتب هذا الحديث ، أو قصة فأدوّن هذه القصة ، وأدل على مكان العبرة منها ، وموطن العظة فيها ؟ أفهل يريد سيدى أن أذهب إلى غار فى الجبل فأحبس نفسى فيه كيلا أكتب فأزعج حضرته ؟

أوهل توجب الوظيفة على صاحبها أن يكون عبداً لرؤسائه ، مسخراً لأغراضهم ساعياً فى مصالحهم ، ولو كانت الطريق إلى إرضائهم طريقاً ملتوية معوجّة لا يسلكها رجل يعرف ماهى الفضيلة ، ويدرى ماهو الشرف ؟

وهل توجب الوظيفة على الموظف أن يكون مبتوراً من جسم الأمة ، فلا يشعر بشعورها ، ولا يألم لألمها ، ولا يحس أنه منها ، ولا يشاركها فى شىء من عواطفها ، فى حين أن المفروض فى الموظف أنه من أرقى أبناء الأمة فكراً ، وأوسعهم اطلاعاً ، وأشدّهم شعوراً « بالواجب العام » ؟

أوهل يأخذ الموظفون رواتبهم من صندوق الأمة ، ثم ليناموا آمنين إذا هى خافت ، ويضحكوا فرحين إذا هى تألمت ، وينعموا فارهين إذا هى شقيت ، ويأكلوا مسرفين إذا هى جاعت ؟

كلا ! كلا يا سيدى ، فالموظف من الأمة وإلى الأمة ، وليس فى البلد شعب وموظفون ، ولكنّ فيه شعباً واحداً ، يشعر بشعور واحد ، ويصدر عن مبدإ واحد ويسعى إلى غاية واحدة ، ولأن تعرف أنت هذه الحقيقة فتعمل بها ، أولى من أن أنزل أنا على رأيك ، وأخضع لارادتك ، فيما يؤذى الحقيقة وينافيها

كلا ! لقد انقضى ذلك العهد الذى كان الموظف فيه مسئولاً أمام رئيسه ، وأصبحنا اليوم وكلنا مسئولون أمام الأمة والتاريخ ؛ وليس هذا الراتب منحة منك حتى تمنّ به علىّ ، ولكن راتبك أنت منحة من الأمة - التى أنا من أبنائها تمن هى بى - عليك !

* * *

وبعد ؛ أفليس مما يجب على قادة الفكر ، وأرباب الأقلام ، أن يعرّفوا الناس حقيقة الوظيفة والموظفين ، وحق الأمة عليهم ، وأمل الأمة فيهم ؟ أوليس يجب عليهم معالجة هذه النواحى من أخلاقنا ، وبسط الكلام فيها ، وتحذير السالين منها ، ومداواة المصابين بها ؟ . . .

على الطنطاوى

الى الأستاذ محمد كرد على

أغراض الاستشراق

للأستاذ محمد روحى فيصل

العجالة التى أسوقها اليوم إنما كتبت منذ عهد بعيد ، وهى كما ترى أو كما سترى تحكى أغراض المستشرقين الدينية والسياسية ، وتبين البواعث النفسية التى قام عليها تاريخ الاستشراق ، وتمدد الوان التخاذل العلمى والوجدانى التى خضعت لها هذه الطائفة منذ نشأتها الأولى ؛ ولقد كنت أريدها دراسة قوية مستفيضة موفقة تشرح ما تتوغر به صدور القوم من الحقد والوجدة ، وتفضح ما ألم بالقلوب من النزوات البشعة والاهواء المريضة ؛ وأذكر أنى ما قرأت كلمة فى هذا الصدد لكاتب من الكتاب الا اعتادنى الحنين الى تكملة ما شرعت فيه قديماً ، واستئناف تبيان ما عميت أو تعامت عنه البصائر والأفهام

كان يعوقنى عن ذلك أمران ، هما الدعامة التى ترتكز عليها أسباب الكتابة والنشر ، أولها فقدان الصحيفة العربية الاسلامية الشرقية التى ترحب ببحوث كهذه التى نعتزم إذاعتها فى الناس ، والتى تشجع الكاتب الباحث على المضى فيما أخذ به نفسه من الدراسة الحرة الخالصة ؛ وثانيهما غموض الحجة وهلهلة المنطق والتواء التاريخ للظهور على المستشرقين والتغلب على مزاعمهم ودحض آرائهم واثبات خطئهم ؛ فليس يكفى عندنا أن نتهمهم فى ابهام ، ونبغضهم لغير سبب ، ثم نحمل عليهم ونرشقهم بقارص الكلام وعنيف السباب ؛ إذن لتجنينا عليهم فظلمناهم ظلماً كبيراً ، ولكانت دعوانا التى نتقدم بها عاثرة خاسرة !!

أما الصحيفة العربية الاسلامية فقد عثرنا عليها واهتدينا اليها ، و « الرسالة » السمْحة لن تضيق أبداً بما تعتقد أنه الحق ، أو تتبرم بنفى ما غشى العرب والاسلام من ضمة الخطأ والعدوان ، وهى المجلة الراقية التى تعتز بالكرامة وتعتصم بالنبل ثم تصل الماضى بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة ؛ وأما الحجة والمنطق والتاريخ فقد توفرت لدينا وأسلست عناصرها لنا

واتضحت فى ذهننا ، وإنا لنرجو أن نؤثر فى الأسلوب والعرض جانب الحق والانصاف والهدوء على جانب التحامل والملامة والغضب

وأحب قبل كل شىء أن أقول لعلامة الشام الأكبر ومؤرخها البارع الأستاذ محمد كرد على إنه إذا قدر أن ينشر المستشرق برتزل كتابى المقنع والنقط نشراً حسناً ويضع لهما فهرساً خاصاً يسهل على المطالع أمر المراجعة والتنقيب ، فما ينبغى أن توجه الشكر والثناء إلا للناشر الفاضل وحده ، أما أن ترسل الكلام إرسالاً وتمتدح المستشرقين كافة فهذا ما ينكره العلم ولا يرضاه الحق ، فتقول : « هذه عناية علماء المشرقيات بكتب الاسلام ، أما خاصة أهله اليوم فساهون لاهون : وليت سادتنا علماء الأزهر والمعاهد المماثلة له فى القطر وأساتذة العلوم وغيرهم يتروون فى عمل هؤلاء الأعاجم ، وقد كان عليهم أن يأخذوا باليمين آثار السلف ليحيوها قبل أن تنتظر فى الخزائن عطف الغرب . إننا مدينون لعلماء المشرقيات من الهولانديين والجرمانيين والفرنسيين والبريطانيين والايطاليين والأسبانيين وغيرهم من شعوب أوربا وشمالى أمريكا بما تفضلوا به علينا من نشر أسفارنا ، أحسن الله اليهم بقدر ما أحسنوا لمدنيتنا وآدابنا » (١)

لقد تعودنا أن نكيل المديح للمستشرقين كيلاً ، وأن ننعت جهودهم بأنها بذلت لخدمة لغتنا وأدبنا وتاريخنا ، وأن ما نشروه من البحوث والمخطوطات إنما كان لذات العلم خالصاً ، وترانا نرجع اليهم كلما اختلفنا فى رأى أو حزّ بنا أمر لنستوحى منهم الحكمة وفصل الخطاب ؛ هم يتمتعون منا بثقة لا حد لها ، ولكن هل عرفنا أغراضهم وغاياتهم ؟ هل تبينا حقيقة مقاصدهم ؟ ذلك ما نحاول الكشف عنه اليوم ، وسيتضح لكل ذى عينين باصرتين أن وراء الأكمة ما وراءها . . . ! !

ولسنا ننكر أن بين المستشرقين طائفة معتدلة قد أخلصت فى دراستها الاخلاص كله ، فنظرت الى الأدب العربى والتاريخ الاسلامى والى كل ما أنتجه الشرقيون من دين وعلم وفلسفة نظرة مجردة عن الهوى كما يتطلبها البحث العلمى الحديث ، وهى لذلك تستحق أجزل الثناء ، بل إنها لما ينبغى أن نفاخر به أبد الدهر ، إلا أن أفراد هذه الطائفة إذا عدُّوا لا يتجاوزون عدد الأصابع ، وهم إزاء هذه الكثرة الهائلة المغرضة من المستشرقين لا يذكرون شيئاً ؛ وقد قيل إن النادر لا حكم له . فأنت لو تصفحت هذه الأسماء : مرجليوث ، لامنس ، ماسبرو ، دى ساسى ، فلوغل ، كارليل ، كولنبرك ، جنستون ، ستونتن ، هوغتن ، غابلنتس ، سيدليو ، كوسان دى برسفال ، كلابروت ، جيب ، دى لاغرانج ربنو ، مونك ، برون ، كازميرسكى ، كسفارتن ، برنستين ، فترر ، وولف ، بورغستال ، جونس ، غوتوالد ، كريستيانوفتش ، خانيكوف ، بوتجانوف ، سيانكوفسكى ، سافلياف ، غريغورياف ، تورنبرغ ، دوزى ، بروكلمان ، غويدى ، غولد زهير ، هيار ، قمبرى ، زترستين ، نالينو ، هوداس ، موسل ، بيكر ، دى فو ، ماسينيون ، هرغرونى ، فولرس ، ارنولد ، مورتمان ، لشاتلييه ، بوفا ، كاياتون ، هاليفى ، مكدوبل ، دوفال ، بارت ، ليفى ، كازانوفا ، شوفين ، كولينيون ، دافيدس ، لامبروز ، نافيل . لشككت فى حسن الغاية من أعمال الكثير منها ، ولحرصت على أن تقصر الثناء على بعضها فى تحفظ واعتدال ! !

* * *

كان الباعث الأصلى للأوربيين على تعلم اللغات الشرقية دينياً محضاً . فقد هالهم أمر العرب ، وأدركوا سريعاً أن هؤلاء القوم الفاتحين إنما يريدون فيما يريدون الاستيلاء على أوربا بأسرها لنشر تعاليمهم الجديدة والقيام بما أوصاهم به سيدهم الأعلى ونبيهم الكريم محمد بن عبد الله ، والتاريخ يحدثنا انهم امتلكوا حقاً اسبانيا الواسعة ، واجتاحوا جزءاً كبيراً من جنوب فرنسا حتى مدينة بواتيه Poitiers أو بلاط الشهداء كما يطلق عليها مؤرخو العرب ، ثم احتلوا جزيرة صقلية وشرعوا فى بسط نفوذهم الأدبى على ايطاليا . . . وايطاليا كما تعلم معقل المسيحية الحصين ، ومصدر أشعة الدين ، فعزم الغربيون على أن يحاربوا الاسلام والشرق بكل قواهم متخذين جميع الوسائل الفعالة

لجأوا إلى السيف أولاً فقاتلوا وقاتلوا حتى إذا لم يفلحوا كل الفلاح ولم ينالوا ما يبتغون عمدوا إلى وسيلة أخرى أمرُّ من تلك وأدهى ! فقد عقدوا مؤتمراً كبيراً فى فينا عام ١٣١١ ميلادية ترأسه البابا كليمان الخامس ، وقرروا أن تؤسس فى باريس وبولون

(١) مجلة « الرسالة » عدد ١٠٨

واكسفورد وسلمنكة مدارس خاصة تدرس فيها العربية والعبرانية والكلدانية لتخريج وعاظ أشداء يستطيعون تنصير المسلمين واليهود أو تشكيكهم فيما هم فيه مؤمنون . وأنشأ الدومينيكان والفرنسيسكان[1] في أديارهم دروساً في هذه اللغات ، فغدت إيطاليا في ذلك العهد موطن علم الشرقيات . على أنهم كانوا يعنون بصورة خاصة بالعربية والعبرية ، يأخذون الأولى عن السوريين الموارنة كبني السمعاني ، والثانية عن الأحبار الربانيين . فانتشرت العربية بين الطليان انتشاراً عظيما ، حتى أن تجار البندقية وجنوة وبيزا ونابولى كانوا ينظرون إلى أن تعلمها من الحاجات الماسة للحياة على نحو ما ننظر اليوم إلى اللغة الفرنسية أو الانجليزية . وعقيب اختراع الطباعة كان قانون ابن سينا أول كتاب عربي طبع في روما . ولما قامت الحركة البروتستانية في القرن الخامس عشر وأمدها لوثر بروحه ازدادت عناية الغربيين بالعبرية والسريانية والكلدانية للبحث عن النص الأصلي للتوراة ، وتبع ذلك قيام البابا غريغوار الثالث عشر وأربان الثامن بتعليم اللهجات الشرقية عملياً ليستفيد منها المبشرون بالنصرانية . وفي عام ١٦٢٧ أنشئت مدرسة « انتشار الايمان » التي خرّجت الألوف من علماء الشرقيات ؛ وكذلك أنشئت في فرنسا على عهد الوزير كولبير مدرسة « الشبان » التي أذاعت الفارسية والتركية وكثيراً من القصص الشرقية كألف ليلة وليلة وغيرها من الرسائل .

وفي نهاية القرن السابع عشر نشر اليسوعيون أتباع لويولا اللغتين اليابانية والصينية وثقافتهما

على أن الاستشراق بعد ذلك قد تبدلت بواعثه ، فغدا يخدم السياسة بعد أن كان يخدم الدين ، ذلك لأن في القرن الثامن عشر ظهرت طائفة من الكتاب كفولتير وغيره حملت على الدين ورجاله حملة منكرة ، وتناولته بالسخرية والتهكم المر ، غير مبقية على شيء من احترامه القديم وسلطانه النافذ ؛ ولأنه قامت في ذلك الحين ضجة الاستعمار وثار الغرب على الشرق يريد استعباده . فوضع المستشرقون أنفسهم تحت تصرف رجال السياسة ، يدلون إليهم بما يعلمون عن الشرقيين لتتمكن أقدامهم في بلاد الشرق ، وتكون لهم على أهله سلطة خالدة .!!

ونلاحظ في هذا الطور الجديد تأليف الجمعيات في مختلف المدن الشرقية ، فقد أنشأ المستشرقون جمعية العلوم والفنون في باتافيا عام ١٧٧٨ ، والجمعية الأسيوية في البنغال عام ١٧٨٤ ، والجمعية الأسيوية في بومباى عام ١٨٠٥ ، والجمعية الأسيوية في باريس عام ١٨٢٢ ؛ وقد بذلت هذه الأخيرة جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه لا سيما اللغة العربية والعقلية العربية والثقافة العربية وما يتصل بذلك كله من دين وفلسفة ، وعلم وأدب ، لتقدم للحكومة آخر السنة تقريرها المعروف الذي لا يضم بين جوانبه حقائق تمليها العدالة ويمليها الواقع ، وإنما ينطوي على سموم من الحقد وأثر من المغالطة ! وهذه المجلة الأسيوية la revue Asiatique التي ما تزال حتى الآن تصدر في باريس مرة كل شهرين إنما هي أثر من آثار هذه الجمعية . . .

لقد كان المستشرقون على اتصال دائم بوزارة الخارجية ووزارة المستعمرات ، يترددون على رجالاتهما لمعرفة ما جدّ وتغير من القرارات ، وأن هذه البعثات التي يقومون بها إلى بلاد الشرق بين حين وآخر ليست بعثات علمية كما يزعمون تقصد وجه العلم خالصاً ؛ وإنما هي في الحقيقة بعثات سياسية مصدرها هذه الرؤوس المفكرة الماكرة الجاثمة في الوزارتين المذكورتين ، تطوف أنحاء الشرق باسم العلم منقبة باحثة ، حتى إذا ما ملأت حقائبها بما تريد عادت إلى وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات تصب فيهما معلوماتها طروبة فخورة ! وكثيراً ما كانت هذه

---

(١) طائفتان هما بمثابة جنديين قويين من جنود البابا ، تهيجان الحياة الدينية في نفوس الشعب ، وتحاربان البدع المستحدثة التي لا تجيزها الكنيسة الكاثوليكية ! أسس الأولى اسباني اسمه Saint Daminique هاله تفشي المنكرات وإهمال القسس واجب الوعظ والأرشاد ، فطلب إلى البابا عام ١٢١٥ ميلادية إنشاء فرقة تقوم بنشر تعاليم المسيح وتجديد الطاعة له . وأسس الثانية عام ١٢١٠ ميلادية ايطالي غني اسمه Français d' Assise هاله انغماس الناس في الترف ، وإسرافهم في اللهو والمجانة فنزل عن ماله كله للفقراء وطفق يحيا حياتهم المدقعة ، يمشي في الأسواق متنعلاً حذاء بالياً ويرتدي ثوباً من الصوف أسمر وقد اتزر من فوقه بأزار مشدود حول وسطه ، حسبه الناس لأول وهلة معتوها ممروراً فراحوا يعبثون بمرآه ويتندرون به في أسمارهم ويهزأون بتعاليمه الخشنة القاسية ثم كثر أنصاره واشتد ساعده وذاع مذهبه

والطائفتان كانتا متصلتين بالشعب مباشرة أقوى اتصال ، تمتزجان بعامته وخاصته ، فتسكبان في خياله ما تشاءان ، وتصبان في وهمه ما تهويان ، بخلاف الرهبان « الأخرويين » الذين كانت تفصلهم عنه هوة عميقة بسبب انكماشهم وجودهم في الكهوف والأديار

البعثات « العلمية » تمنع من دخول بعض البلاد الشرقية ، وقد تطرد منها أحياناً على أسوأ حال !!

***

وبعد ، فلو نظرنا إلى بحوث علماء المشرقيات التي خطوها عن الأدب العربي والعقلية العربية ، وفلاسفة العرب لاستخرجنا من ثناياها براهين جمة تبين لنا بوضوح كيف تندفع هذه الطائفة وراء الهوى والغرض لتثبت قضية من القضايا على أساس تجاهل الواقع وطمس الحقيقة ؛ هـذه نظرية « السامية والآرية » التي يؤمن بها أغلب المستشرقين والتي تصبغ دراساتهم بلون خاص تصف العرب والجنس السامي على العموم بأنهم قوم غرباء عن العلم والفلسفة ، لا يحسون بالجمال والفن ، ولا يعرفون ما يسمى بالأنظمة السياسية والمدنية . يقول أرنست رينان[1] في الفصل الأول من كتابه في تاريخ اللغات السامية : « إن اللفظين اللذين استعملا ولا تزال استعمالها جارياً إلى الآن ، للدلالة على سير العقل نحو الحقيقة ، وهما علم وفلسفة ، قد كانا غريبين عن الجنس السامي تقريباً . فالبحث التفكيري المستقل الدقيق العميق ، أو بعبـارة أخرى التفكير الفلسفي للبحث عن الحقيقة ، يبدو أنه كان وقفاً على الجنس المسمى بالهنـدي الأوربي (الآري) الذي كان يبحث منـذ أقدم العصور إلى الآن لتفسير الله والانسان والعالم تفسيراً عقلياً ، والذي ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي ، أما الساميون فانهم بدون تفكير أو تدليل توصلوا إلى أصفى صورة دينية عرفها التاريخ فالمدرسة الفلسفية موطنها اليونان والهند ، في وسط قوم طُلَعَة يهتمون كثيراً بمعرفة أسرار الأشياء . أما المزامير والأناشيد والكتب المنزلة والحكم الرمزية أو الموضوعة في شكل ألغاز فهي من نصيب الجنس السامي

« والجنس السامي أدنى من الجنس الآري إذا قورن به ، فهو — أي الجنس السامي — ليست له هذه الروحانية السامية التي عرفها الهنود والألمان فقط ، وليس له هذا الاحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عند اليونان ، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبـة عند الكلتيين (سكان فرنسا وجزء من البلجيك) ، وإنما الساميون بديهتهم حاضرة ولكنها محدودة ، وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب ، فالتوحيد هو أهم خصائصهم وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم

« من آثار التوحيد عند الساميين التعصبُ ، فعدم وجود التسامح الديني عنـد الساميين هو نتيجة ضرورية لمذهبهم في التوحيد ، ومسألة النبوات والوحي هي من المسائل التي تخص الساميين ، حتى أن القرآن لم يجد تقسيما للشعوب غير تقسيمهم إلى كتابيين وغير كتابيين

« والساميون تنقصهم الدهشـة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير ، والتي تدعو إلى البحث عن الحقيقة ، لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء ، فاذا رأوا شيئاً عجيباً قالوا : « ربنا قادر على كل شيء » كما أنهم في حالة الشك يختمون رأيهم بقولهم « الله أعلم » فاذا اعترض على ذلك بظهور حركة علمية فلسفية عند العرب في عصر العباسيين وجب أن يكون الجواب على ذلك إنه من الخطأ وسوء الاستعمال أن نسمى فلسفة منقولة عن اليونان بالفلسفة العربية ، مع انه لم تظهر لها أي مبادئ أو مقدمات في شبه جزيرة العرب مكتوبة بالعربية ، وهذا هو كل ما في الأمر ، كما انها لم تزدهر إلا في الجهات البعيـدة عن بلاد العرب مثل اسبانيا ومراكش وسمرقند ، وكان معظم القائمين بها من غير الساميين وكثرتهم من الفرس

« والتوحيد له تأثير أيضاً في الشعر العربي ، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف والتنويع ، فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة قليلة العدد جداً عند الساميين ؛ والواقع أن هذا الجنس لم يعرف إلا نوعين من الشعر هما الشعر المجازي عند اليهود والشعر الشخصي الغنائي عند العرب ، والأبطال في هذا الشعر هم نفس منشئيه . وهذه الصفة الشخصية إلى الغاية التي تجدها في الشعر العربي واليهودي ترجع إلى خصيصة أخرى من خصائص النفس السامية وهي انعدام المخيلة الخالقة عندهم ، وتبعاً لذلك عدم القدرة على الاختراع .. !!

« والساميون ينقصهم الاحساس بالتنويع ، فالتشريع السامي البحت لم يعرف مطلقاً إلا نوعاً واحداً من القصاص هو

---

(١) عالم فرنسي ولد عام ١٨٢٣ وتوفي عام ١٨٩٢ ، كتب في التاريخ وبحث في اللغة ثم قارن بين الشعوب وانتهى كما ترى الى هذا الخلط العجيب الذي لا يقول به الجاهلون بله العلماء !

الموت . وملكة الضحك معدومة عند الساميين ، حتى إن الفرنسيين وهم شعب ضحوك ينظر اليهم عرب الجزائر باستغراب ، ويعتبرون ذلك منهم موضع دهشة بالغة

« والساميون عندهم نقص تام في كثير من الفنون الجميلة مثل صناعة التماثيل والتصوير ، وقد حال دون وجودها عندهم تحريم الدين من جهة وانعدام الخيال والاختراع من جهة أخرى وهما شرطان لازمان لهذين الفنين . والموسيقى وهي الفن الشخصي إلى الغاية هي الفن الوحيد الذي عرفه الساميون

« والأخلاق نفسها ينظر اليها الساميون نظرة تخالف نظرتنا اليها ، فالسامي لا يعرف مطلقاً أن عليه واجبات إلا لنفسه ؛ وإذا طلبت اليه أن يحافظ على كلمته ويبر بوعده وأن يقيم العدل بلا تحيز فانما طلبت اليه مستحيلاً ، فالأنانية تتمثل فيهم بأجلى مظاهرها » (١)

لن نناقش الآن هذه النظرية أو نقول فيها رأياً ، لأن ذلك مما يطول بنا ، وحسبنا أن ندل على شيء مما يعتقد المستشرقون ، ومع أن تسعين في المائة من هذه النظرية خطأ واختلاق فقد أحلها الغربيون من نفوسهم المحل الأرفع لأنها توائم نزعاتهم وتتفق وميولهم الطافرة إلى السيطرة والاستعمار

* * *

لست أدري ما الذي يرضينا في المستشرق ؟ ! آلعلم النزيه ، وقد رأينا أنه إنما كان لآراب أخر ، أم الذوق الأدبي ، وليس من شك عندنا أنه بعيد عنه بعد الأرض عن السماء ! فالمستشرق مهما تضلع من اللغة العربية ، وأخذ من الثقافة الأدبية ، وتغلغل إلى الروح الاسلامية فلن يدرك أبداً غاية الأدب وأثره وحدوده ولن يستطيع بحال من الأحوال أن يتذوق جمال قطعة أدبية أو قصيدة فنية على نحو ما يتذوقها العربي ! هو يفهم القرآن ولكنه لا يخشع عند سماعه أو تلاوته ، ويشرح القصيدة العربية غريبها وبديعها وعروضها ولكن أذنه لا تطرب لهذه الرنة الموسيقية المبثوثة في أطواء الشعر العربي ؟

حمص — محمد روحي فيصل

(١) العبارات هنا من ترجمة الأستاذ صادق برسوم مطر

صورة وصفية

عبد السميع

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كان كل امرئ يعرفه — أهل الحى ، وزوّار الامام الشافعى ، والأجانب السياح الذين يجيئون إلى هذه الناحية ، ليروا مقابر الخلفاء والمماليك ومدافن « الباشوات » . وكان « عبد السميع » — كاسمه — سميعاً ، ولكنه غير بصير ؛ وكان له حجر عال عريض يقعد عليه ، ولا يريمه ، فى الشتاء والصيف ؛ ولم يكن يبالى لا الشمس ولا الرياح ، ولا المطر ولا التراب ؛ وكان يظل نهاره على هذا الحجر ، فاذا غابت الشمس ودخل الليل ، اختفى ، كأنما ابتلعته الأرض ، أو انشق له الحجر فغاب فيه ، فكل ما يعرفه الناس من أمره أن هذا مكانه قبالة المسجد ، وأن كل راكب يميل اليه ويترجل عنده ، ويضع بين أصابعه زمام دابته ، حتى يفرغ من الصلاة فى المسجد أو غيرها مما جاء له ، فينقده القرش أو المليم ويتناول منه العنان ويحييه ويمضى . وكان « عبد السميع » يعرف كل رجل وامرأة وطفل فى الحى ، وكل غريب ألقى اليه بزمام حماره أو بغلته أو فرسه أو مهره ، من صوته ؛ وكان من عجائبه أنه يعرف — وهو ممسك بالأعنة — حمار مَن الذى نهق ، وأى هذه الدواب تملك لجامها ، وأى البغال مزنوق فيرفه عنه ويرخى له الرباط الذى تحت حنكه ، وأى حمار تفلتت الشكيمة من فمه ، فينهض اليه ويردها إلى مكانها من فيه ، وأى الأفراس انحل إزيم منطقته فيعقده ، أعنى يدخل لسانه فى طرفه الآخر . وكان كثيراً مايشير على أصحاب الدواب باتخاذ المراشح تحت لبد السروج لتنشيف العرق ، أو بتضمير الفرس إذا وجدها سمينة ، أو برفع المهماز إذا أحس بيده آثار وخزه فى جلدها ، أو بتغيير السرج إذا وجد له عقراً بظهرها ، فقد كان رحيما رقيق القلب

وكان يأبى أن يتخذ عصاً يتوكأ عليها ، ويجس بها الأرض ويقدر لرجله موضعها قبل الخطو ، فكان يمشى مطمئناً واثقاً ، كأنما يرى الطريق ، ويلقى التحية إلى الناس بأسمائهم ، فى دكاكينهم حين يبلغها ، بل كان يعرف المرء من دبة رجله على الأرض ، فيقول له : « مالك مستعجلاً يا فلان ؟ خيرا ، إن شاء الله ! » وكان — ولا يزال — هناك طريق أعلى من الميدان الذى أمام المسجد يؤدى اليه سلم ، درجاته متهدمة ، فكان إذا بلغها رقى فيها كأنه صبى فى العاشرة من عمره ؛ ولكن أعجب من هذا كله أنه كان يركب الخيل والحمير والبغال ، ويركضها فى الطرق والسكك التى ألفها ، فاذا اعترضه زحام أو قطيع من الغنم ، حبس الدابة ، ثم أرخى لها اللجام ، وتركها تتخلل الزحمة حتى إذا أحس خلو السكة نقر[1] بها ، ازعجها ويستحثها ؛ فقد كان كما أسلفت شديد الرفق بالحيوان ، لا تطاوعه نفسه حتى على نكزه بقدمه العارية

وكان دائم البشر ، لايتجهم ولا يكتئب ، ولا يبدو للناس إلا طلق المحيا ، ضحوكا ، طيب النفس ، حلو الدعابة ؛ ولكن غزله كان فيه بعض العنف ، فقد كان إذا داعب فتاة لا يحلو له إلا أن يقبض على شعرها ويجذبه اليه بقوة فينتتف بعضه ؛ وكانت الفتيات يحذرن ذلك ويتقين أن يكن منه بحيث تنالهن يده

وجاء الشتاء ، وجاء معه طبيب عيون ألمانى ، فأدار عينه فى الصحراء فرأى على جبل المقطم شيئاً كالبناء فأشار اليه وسأل عنه فقالوا هذا قبر الجيوشى — أمير الجيوش — فرجا منهم أن يكون أحدهم دليله إليه ، فقالوا : « بل يكون دليلك عبد السميع » وجاءوه به ، فتعجب ، ولو كان يعرف العربية معرفتها لتمثل بقول القائل :

أعمى يقود بصيراً ، لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه

ولكن عبد السميع لم يضله ، ولم يندم الطبيب على ثقته به واطمئنانه اليه ، ووجد فى صحبة هذا الدليل الغريب كل ما طالعه به وجهه الصبيح من الأنس ، فنشأت بينهما بعد هذه الرحلة صداقة فريدة ، فكان الطبيب يزوره كل بضعة أيام ، ويجلس إلى جانبه على حجره العالى ، ويراعيه وهو يحرس الخيل والحمير لأصحابها ؛ ووقع من نفسه رفقه بها وحسن تعهده لها ، فقال له يوماً — بعربيته المحطمة — إنه يريد أن يعمل له فى عينيه شيئاً ،

(١) النقر أن تلوى لسانك إلى فوق وتنزله بحنكك ثم تطلقه بقوة فيقرقع

وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء فى عينيه وأن يسمعهم يتلاغطون بما لا يفهم ، ثم يمضون عنه ويبقى هو على حجره

وجاء يوم نظر فيه الناس فاذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعنة تُلقى إلى صبيان يشدونها إلى مسامير فى الحائط ، وينامون ويتركون الحمير تترافس

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف فى مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه — إلى أرنبة أنفه — الضمادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألماً أو ضجراً ، ولايدع شكه يغلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من العسير أن يعرف أحد فى أى شيء يفكر هذا الراقد المعصوب الرأس ولعله — لطول صمته على خلاف عادته — كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التى سيرنها حين يفتح عينيه عليها ويبصرها لأول مرة ؛ ولعله كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحدثه وهو يغير له الضمادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت الملاءة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه — زملاءه — فى صباح يوم ، وحل الأربطة بعناية وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل فى الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أترى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع — وعلى فمه ابتسامته التى لا تزايله — « صبراً ، صبراً » ، فصبر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النور الحجرة وملأتها الشمس ورقدت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حانون به ، منحنون اليه ، يحدقون فى وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم فى حلوقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التى تطل على النيل ؛ ثم تحركت يداه ، وارتفعت كفه إلى محياه ، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه ، وأدرك القوم أن الطب أخفق ، وتوجع الطبيب الألمانى وارفضّ دمعه ، فغطى وجهه بكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، وتحسس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الخشنة فلمست لحيته المبللة ، فنقلها إلى كتفه

وقال بصوت لا يشى بما عسى أن يكون مطوياً تحت ضلوعه

« لا تبك ياصاحبى ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولاحيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفعه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم — صبى يعود بى »

وعاد إلى حجره ، وخيله وحميره ، فلم يغب عنها بعد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

إبراهيم عبد القادر المازنى

من مشاهد الشرق

٤ — طائفة البهرا فى الهند

ملاحظات فى المجتمع البهرى

بقلم محمد نزيه

تتمـــــة

يقول الكهل الوقور محمد على بخش رئيس الوزارة البهرية فى وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فاذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلها ، فلاذ بكرسى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل همه منها ، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة ، وعق ديانتها ، ورماها فى أمنع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هى جماعة أقسمت مذ وضعت فى كف الحياة كفها ، ألا تعرف خفض العبودية ولا يعرفها رق هـذا الزمان ، وإنهما ليقتحمان كل شيء إلا هذه الأمة التى أجمعت على ألاّ يكون الوطن المقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يعز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استغنوا عن الوطن المقدس بالمعهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أبا صغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغارهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبدا . وإذ كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرقُ بينه وبين سواه ، فان أجلى معارف البهرى ابتعاده عن مخالطة أى امرئ

من غـير طائفته ؛ ومُعظم بواطنه الحب والمودة والأهبة الدائمة لمعاونة أخيه فى مذهبه ، دون تفريق بمختلف الأجناس والمراتب، فاستغنوا بقوادهم عن كل حاجة إلى سواهم ، حتى (الحـكومة) يعزفون عن أعمالها ، ترفعاً بأنفسهم عن شعور الحاجة إليها يوماً من الأيام

يقدم البهرى من أقاصى إفريقية على بمبى ، فينزل من قلوب أبناء الطائفة هناك ، منزلة من عاد إلى أمه وأبيه من سفر طويل ، كل بيت من بيوتهم هو ملك يمينه حتى تقر نفسـه وتذهب وحشته ، فينفح بما يحتاج التجارة إليه من مال . يبدأ به عمله ؛ فاذا لمح وجه الفشل ، أسرع فوضع أمره بين يدى طائفته ، ولا يكاد ذلك يَضِيح لهم ، حتى يهالوا على بضاعته ابتياعاً ، إلى أن تروج سوقه ، وتبدو طلائع نجاحه ، فان تجده مهما نقبت عنه ، ذلك البهرى الذى لم يفئ الله عليه نعمة السعة واليسار

وإذ كانت شؤون هذه الأمة الواحدة فى حاجة إلى الراعى ، يصرفها ويسهر على تدبيرها ، فلا بد لها من قاض يفرق بالعدل بين أبنائها جميعاً فيرضيهم جميعاً ، وهذا القاضى هو داعى الدعاة فى بمبى ، وهو نائبه فى كل بلد اتخذها بعض هذه الطائفة منزلاً ، يخولونه أمرهم فيقضى بينهم بما شاء ، لا يرد له حكم ولا يراجع فى أمر ؛ ملك لا يملك من أسباب السلطان إلا عدل القاضى ، فـكيف يبرم عدله ولا ينال المظلوم من ظالمه ، وإنما يحكم بالعدل ويأمر ضمير الظالم أن يجزى صاحبه وأن يردعه ، بل لعل المظلوم لا يشكو ، وإنما ظالمهم هو الذى يشكو أن ضميره يخزه ويشتد عليه مذ ظلم ، فيادعى القوم اكفنى عذاب الضمير فانه ليوشك أن يكون كالموت لا يُعْتِبُ . . . هـذا قاض أمره عجيب ، وقضاؤه أعجب ، أتراه يمضى على شرعة مدونة ؟ أتراه يستلهم قانوناً بمينه ماله عنه من محيد ؟ كلا ، وإنما يستلهم قوة روحه ، وقد استُمِدت من معالم الشيعة وأعلام كتبهم

يعدل الداعى بقوة الروح ، ومن مظاهرها أنهـا تسترقُّ النـاس حولها ، مرتقبين لا مرتهبين ، بدافع الحب . ومظهرُ الحب الخضوعُ ، يسمو حتى يصير تفانياً . تتجه القلوب إلى الداعى ، لأنه عظيم من عظمة الله عظمته ؛ ثم تتعلق القلوب به ، لأنه مقدس من قدسية الله قدسيته ، ثم تتقبل ظله قبول الرضا ، لأنه ولى المالك المتصرف ـ فى رأيها ـ فاذا عدل ، تفانت فيه ؛ فاذا أحب فنيت فى روحه ، وذاك داعى الدعاة عند طائفة البهرا

هو فرد ولـكنه الجماعة كلها ، وهم جماعة ولـكنهم فرد واحد يقل ويقل حتى تتسع له سويداء قلب واحد كبير ، هو قلب هـذا الرجل ، يحدب عليهم وما يحدب إلا على نفسه ، ويحدبون عليه فهم على أنفسهم يحدبون . ولقد علمت أن الحب شريعتهم ، فاعلم أن أول أحكام هذه الشريعة أن ما يحوزه كل بهرى هو للشيخ قبل أن يكون لصاحبه ، يتصرف فيه متى شاء أينما شاء كيفما شاء ، وما جار . أليس رب الدعوة إلى التعاون والتساند والتعاضد وهى التى أثمرت كل ما أوتيت الطائفة من مال أو أكثره ؟ نعم فلكم أغنت هذه المبادئ عائلاً ، وأعزت يتيماً ، وروّت صادياً ! وهل يكون ساقى البذرة إلا رب ثمارها . . . وفيم ينفق الأمين العادل المحب ماله إلا على الأمانة والعدل والحب ؟ إنه ليأخذها صاعاً فيردها بأمانته وعدله وحبه عشرة

على أن الشيخ لا يَهْنِئُه طعامُه إلا إذا كان من كد يمينه ؛ ولهذا يشتغل بالتجارة ، ولأمر آخر هو القدوة ، وربى تجارته كأى من أبناء طائفته ، ولا ينسى حادث ذلك الشيخ الذى عاش فى المدينة على عهد رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فـكان لا ينقطع عن العبادة فى ليله أو نهاره ، إلا ريثما يتأهب لرجع ما انقطع ، وإنه لزاهد بالعراء لا يحمل لدنياه هماً ، وإن حمل لآخرته هموماً ، يخف الناس إلى تزويده بالطعام سراعاً وهم يغبطونه على تزوده للآخرة ، حتى مر النبى به فى بعض غدواته ، فدنا ممن أحاطوا به ، وسألهم ما خطبهم حتى تـكأكأوا على هذا الشيخ ، قالوا : رجل صالح يا رسول الله ، نهاره وليله صيام وقيام ، فعجب النبى عليه الصلاة والسلام ! وأسرع يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟. من يقوم بطعامه ؟ ! رسول الله يسأل ؟ فيا فخرنا عند رسول الله إن كنا نطعم الشيخ الصالح ، ويا حظنا من رضا رسول الله إن علم أننا نؤثره على أنفسنا بالطعام . . . لم يكد النبى يسأل ، ومن يقوم بطعامه ؟ حتى تسابقت أصوات كثيرة تقول ، ترجو ثواب الله . . . كلنا نطعمه يارسول الله ، وأحاطت أبصارهم بوجه النبى ترصد ابتسامة الرضـــا ، فاذا بالوجه المشرق الـكريم يعبس ، ويضطرب ، ثم تجتمع فى غضبته حكمة الأبد من قوله : (كلـكم خير منه) . داعى الدعاة الشيخ المسن لا ينسى هذا الحديث ، وإن قومه ليقدسونه ، وتطيب نفوسهم له بكل ما يملـكون ، ويبلغ من تقديسهم شخصه أن يستكبروا على الأرض أن تمسها قدماه ، فيحملونه إذا أراد الانتقـال من حجرة من قصره إلى

أخرى ، وهو على رغم ذلك كله حريص على أن يغدو إلى متجره كل يوم ، فيقضى بعض نهاره عاملاً لدنيـاه ، كأنه على شيخوخته وضعفه ، يعيش أبداً

إن الدين لله ، فما يحفظ رجل الدين عليه حرمته ، إذا وزن الدعوة إليه بالدرهم والدينار ، إنما يسمو رجل الدين ، وتخلص روحه ، وتصقل نفسه فلا تمسها شائبة من أكدار الدنيا ، إن يلتمس على جهده مثوبة الله وحده ، مزدرياً للوظيفة تجرى عليه فتذكره كلما أوشك أن ينسى ، بأن دعوته رهن بوظيفته ، ووظيفته رهن بدعوته . . . . فهل نوجب على رجل الدين أن يكون زاهداً ؟ كلا بل نريده مع ذلك مكفول الرزق موفوره ، بادى النعمة واليسار ، عالى الكف يعطى ويتعفف أن يأخذ ، وكيف السبيل ؟

سبيل واحد يسلكه داعى الدعاة البهرى ، وعماله فى مختلف البلاد ، وقد سلكه من قبله أشرف البشر وسـيد سادتهم محمد عليه الصلاة والسلام ، إذ كان تاجراً ؛ وفى التجارة وهى أم (المعاملات) ، ألوان من الخير والأمانة والصدق والاستقامة والقناعة والدأب ، ومن كل فضيلة فى الأرض ، وهى التى توجت (بالأمين) اسم محمد ، و (بالصادق) أمانة محمد ، فكانا شافعيه لدى الله فى اختياره ، ولدى الخلق فى دعوته

وفى هامش هذا الحديث فلنذكر ، أن داعى دعاة البهرا ، أراد فى العام الماضى ، وكنت حينئذ فى بمبى ، أن يحج إلى كربلاء موطن قبر الحسين ، ومفيض نفسه ودمه ، وإذا سار الشيخ كانت الطائفة كلها تسير ، فلا بد من مظاهر العظمة ومطالع الجلال ، وأسباب التحدث بنعمة الله ، وفى سبيل ذلك اكترى الشيخ باخرة من عظام البواخر ، عبرت به إلى البصرة فى ستمائة بهرى ، وما فتئ مذ وطئت قدماه أرض العراق يمْجد الناس من عطاياه ، بأكرم ما يتسع له كرم ، وأكمل ما يفيض به جاه . . فمن أين ؟ من تجارة الشيخ وكد يمينه

***

فلينته هذا الحديث الذى لا يفرغ منه ، بأمرين ، أولهما أن التعاون والمحبة هما روح الجماعة الصالحة المفلحة ، وعلى قدر القلة فى عدد الجماعة تكون قوة هذه الروح ، فكأن أجدادنا لم يخطئوا حين اتخذوا نظام القبيـلة ، وكأننا أحفادهم ، لم نتقدم خطوة واحدة حين خلّفنا نظامها

وثانيهما أن التجارة أشرف حرفة وأعف حرفة ، وأكفل حرفة بالنعمة واليسار ، وأيسر حرفة مع الفضيلة ، فاذا أهبنا برجل الدين ، وإنه لأعظم الناس خطراً أن يعوّل عليها ، ويلتمس شرفها ، فأخلق بكل رجل أن يُحمّلها أمنيتيه من الغنى : غنى النفس وفى أعقابه غنى المال ؟

القاهرة — محمد نديم

النهضة التركية الأخيرة

والموسيقى الشرقية

بقلم عبد الحميد رفعت شيحه

قرأت بشغف عظيم ما خطه يراع الأستاذ القدير الدكتور عبد الوهاب عزام عن « النهضة التركية الأخيرة » وما تناوله من بحث ونقد أبرز الاصلاحات الكمالية بقلم ربه مخلص يظهر منه بجلاء الأسف الشديد الذى يشاركه فيه كل شرقى يعتز بشرقيته على ما قام به الترك من قطع كل ما يصلهم بالشرق ، وتجنبهم كل ما يدنيهم منه كما يتجنب السليم الأجرب . . ! معتقدين أنهم بذلك يضمنون عطف الغرب عليهم ، فى حين أنهم لن ينالوا إلا سخرية تلك الأمم التى تقدس الشخصية والجنس

ولما لم يشر حضرة الأستاذ الدكتور إلى حملة الكماليين على الموسيقى الشرقية رأيت أن أتناول هذه الناحية بهذه الكلمة :

للموسيقى الشرقية تاريخ مجيد لم يبق خافياً على أحد . إلا أنه من الانصاف أن نعترف بفضل الأتراك وخدمتهم لها . . فاننا لم نعد نقرأ فقط ما استحدثوه من علوم وفنون فيها ، ومن اشتهر بينهم من أعـلام الموسيقى ، بل حفظوا لنا ثمارهم الفنية بتدوينهم لها بعد استعمالهم « النوتة الغربية »

وهم وإن كانوا إلى وقت قريب يستعملون التدوين الموسيقى على أخطاء كثيرة ، إلا أنهم على كل حال قد صانوا ثروة فنية عظيمة يحق لنا أن نفخر بها أمام الموسيقى الغربية

هذب الأتراك الموسيقى الشرقية وأحدثوا بها فنوناً لم يكن للشرق عهد بها ، وتبحروا فى علم الأنغام ووضعوا لكل نغم شروطاً دقيقة تميزه وتظهر شخصيته بجلاء ، ولهم فى هـذا

الميدان جولات موفقة ، حتى أنهم استنبطوا كثيراً من الأنغام الشائعة بيننا ، ووجهوا عنايتهم كذلك إلى علم الايقـاع ، ووضعوا لأوزانه طريقة حديثـة تدون بها ، كما أن لهم فضلاً لا يستهان به فى ابتكار جملة ضروب زادت من جمال الموسيقى الشرقية . هذا الى اهتمامهم بضبط مسافات السلم الموسيقى الشرقى وعدم تركهم كبيرة ولا صغيرة فى الموسيقى النظرية أو العملية إلا تناولوها بحثاً وتمحيصاً

إنه حق وفضل لاينبغى إنكارهما . . وقد كنا إلى عهد قريب نعترف فخورين بزعامة تركيا للموسيقى الشرقية

فلما قامت « النهضة التركية الأخيرة » تهللنا بشراً وقلنا لا بد أن القوم لن يقنعوا بما وصلت اليه موسيقاهم من تقدم ونجاح ، وسيدأبون على البلوغ بها إلى أوج المجد والعظمة . . ولـكن أحلامنا اللذيذة لم تلبث طويلاً عند ما فوجئنا بقرارات الكماليين القاسية التى منها : استعمال الحروف اللاتينية بدل العربية ، وهجر ألفاظ لغـة الضاد ، والترحيب بالمصطلحات اللاتينية و ... وأخيراً .. عدم استعمال الأرباع الشرقية ، وإلغاء الموسيقى التركية وإحلال الغربية محلها . . !

نزلت علينا تلك القرارات نزول الصاعقة وهدمت ما كنا نبنيه من آمال . . وظهر لنا ما يضمره الكماليون من إسراف فى هجر الشرق والشرقيين ، ومن رغبـــة فى الفناء فى الغرب والغربيين . . !

تتأثر موسيقى كل أمة – كما يتأثر أى فن – بعوامل شتى : منها الجو والأخلاق والعادات وغير ذلك . فليس من السهل أن نبدل بقرار ذوق أمة فى غمضة عين ، لأنها لم تـكتسب هذا الذوق إلا بمرور الزمن وبفعل مؤثرات البيئة التى تعيش فيها . فقرار التركى الأب « أتاتورك » إلغاء الموسيقى التركية لا محالة خاطئ لأنه يجبر الأتراك على موسيقى لم يتذوقوها ولن يتأثروا بها مطلقاً . . فاذا سمع التركى مثلاً قطعة حماسية غربية فلن تهز مشاعره بقـدر ما تفعل فيهـا قطعـة تركية ، لأن [illegible] لى لم تصـل إلى طريقة استفزاز شعور التركى ، ولم تصدق فى التعبير عن نفسيته ، بعكس الثانية ؛ وإذا كان الألمانى مثلاً لا يتأثر بموسيقى الفرنسى أو الروسى كما تؤثر فيه موسيقاه ، فـكيف بالتركى ، والفرق شاسع جداً بين تقارب أمزجة هؤلاء ، وبعد هذا الأخير عنهم..!

كان الأجدر لو أريد قتـل الموسـيقى التركية أن تشجع الموسيقى الغربية ويشجع الاقتباس منها والتطعيم بها ؛ فعلى مر الزمان تزول تلك الموسيقى التى لا نصير لها ، بدل هذا التصرف الذى استعملت فيـه الطفرة . ولـكن من يجرؤ منهم على إعلان هـذا الرأى يكون نصيبه شراً مما نال الأستاذ المدرس بالجامعة فى المؤتمر اللغوى ، وحسين جاهد ، وقد أشار اليهما حضرة الدكتور عزام فى إحدى مقالاته القيمة . . !

من هذا نلاحظ أن الديوان الموسـيقى الغربى مكون من أصوات كاملة وأنصافها ؛ بينما الديوان الشرقى يتكون من أصوات كاملة وأنصافها وأرباعها أيضاً .. ولـكنهم مع ذلك آثروا الديوان الأول لأنه غربى قبل كل شيء . . . !

فاذا كان الديوان الغربى موجوداً بتمامه ضمن الديوان الشرقى ، وبذا يتسنى عزف أية قطعة غربية على أية آلة موسيقية شرقية ، مع أنه فى كثير من الآلات الغربية لا يمكن عزف أغلب القطع الشرقية . . . وإذا كانت الأرباع الشرقية تتيح ثروة جديدة فى علم الأنغام زيادة على الثروة التى نحصل عليها من الأنصاف وحدها ، وبذا يتسع المجال أمام الملحن ويمكنه أن يعبر بلحنه عما يشاء . . . . فهل من الحـكمة أن نلجأ إلى الديوان الناقص ونترك الديوان الـكامل . . . ؟

إن كل مزايا الديوان الغربى موجودة فى ديواننا الشرقى ، وفوق ذلك فان لديواننا مزايا أخرى عندما نستعمل الأرباع الصوتية ، فلا شك حينئذ فى أن قرار الحكومة التركية إلغاء الأرباع الشرقية فى الموسيقى لم يكن لعيب فى هذه الأرباع بل إتماماً للخطة التى رسموها من البعد عن كل ماهو شرقى أو يمت للشرق بصلة . .

الآن . . وقد ظهر للملأ تصرف الحـكومة الكمالية وتنصلها من كل ما يقربها من الشرق سواء كان ذلك فى الدين أو العلم أو اللغة أو الفن أو الأخلاق والتقاليد ، فليس من الخير أن يقتصر موقفنا على مراقبة أعمال هذه الحـكومة وعلى مناشدة الـكتاب والمفـكرين أن يتعاونوا فى هـذه السبيل « حتى يجلوا عن الأمة هذه الغمة ، ويدفعوا عنها هذه الفتن المدلهمة ، والشبه المضلة ، ثم يسيروا بها على المحجة البيضـاء إلى الغاية المجيدة » كما يتمنى الأسـتاذ الفاضل الدكتور عزام ، بل يجب أن نفـكر تفـكيراً جدياً فى نقل الفنون الشرقية من تركيا كى نحافظ عليها قبل أن تعفو ويطويها البلى

فالى مفكرى الشرق العربى أرسل هذه الصيحة راجياً أن

دراسات فى الأدب الانكليزى

٣ ـ وليم وردزورث
William Wordsworth

بقلم جريس القسوس

أشعاره ونظريته فى الأدب

ظهرت الطبعة الأولى من ديوانه Syrical Balleds سنة ١٧٩٨ كما بينا سابقاً ، أما الطبعة الثانية فقد نشرت سنة ١٨٠٠ حاوية مقدمته الشهيرة التى ضمنها نظريته فى الأدب عامة وشعره خاصة دون خيفة أو تردّد . ولكولردج فى الطبعة الأولى من هـــذه المجموعة ثلاث قصائد . غير أنه أضاف إليها قصيدتين أخريين ظهرتا فى الطبعة الثانية . وهذه القصائد الخمس هى « الملاّح القديم ، والعندليب ، و Foster - Mother tale ، و Dungeon ، والحبّ » . وما كاد الأدباء والكتاب يطلعون على آراء وردزورث فى مقدمة ديوانه ويقرأون أشعاره فى ديوانه حتى تناولوه بأقلام نارية وألسنة حادّة ، فسخروا ما شاء الله لهم أن يسخروا بآرائه وأشعاره . ولم يبق ديوانه فى شكل واحد بل ظهر فى أوضاع شتى ، وكان الشكل الأخير الذى ظهر فيه سنة ١٨٤٥ جامعا جزأين مع المقدمة ومذيلا بملحق فى (التعابير الشعرية) Poetic Dicton

أما النظرية التى أودعها المقدمة فتتلخص فيما يلى : —

« على الشاعر أن ينتزع موضوعاته من الحوادث العادية المألوفة ، وأن يعبر عنها بلغة سهلة واضحة ليفهمها « الراعى والعالم » على السواء . أى لا تكون خلواً من البلاغة ، ولا تهبط الى درجة الركاكة والفهاهة . وعليه أيضاً أن يلبس الحوادث كساء من الخيال الرائع لكى تظهر وهى عادية مألوفة غير عادية ولا مألوفة ، وأن يقف تجاه كل حادث موقف العالم المدقّق المحقّق ، الذى يحلّل الأمور تحليلاً علمياً منطقياً ، فيبحث عن المسبّبات ويرجعها إلى أسبابها ، محكما فى كل حالة عقله فى التحليل وعاطفته فى التعبير . أما الشعر فهو الانبعاث الطبيعى للشعور القوى الزاخر ؛ وما الشاعر إلا إنسان يخاطب بشراً ، إنسان شديد الاحساس والغيرة متضلّع من درس الطبيعة البشرية ، تنكشف له نواح فى الحياة ومظاهر فى الطبيعة تحتجب عن غيره ، وهو يعبّر عن موضوعه بلغته ليتغنّى بها الجميع . بهذا يمتاز الشاعر من سائر البشر عموماً ومن علماء الطبيعة بعض الامتياز خصوصاً »

ولقد نحا وردزورث فى انتخاب موضوعات أشعاره منحى إسحاق ملتن ووليم بلايك وروبرت برنز وقراى وغيرهم ، غير أنه لم يقتصر على أسلوب واحد فى النظم ، بل طرق معظم البحور والأوزان الشعرية التى سبقه إليها الشعراء قبله . أما سبكه اللفظى فنى غاية الدقة والبساطة ، وتراكيبه خالية من الألفاظ اللاتينية التى يكتظ بها شعر ملتن ، ومن قالبية بوب ، أو إبهامية بروننج الناجمة عن تطرّفه فى الايجاز . ويندر أن تجد فى شعره رجوعاً إلى الأساطير الأولى أو اقتباساً من الأدب (الأصولى) الكلاسيكى أو تقليداً له ، ولقد أكثر من دراسة الشعراء الذين سبقوه وخصوصاً شكسبير ، وملتن وجوسر وسبنسر وكونز وقراى وتشبع بآرائهم وأساليبهم فنسج على منوالهم فى بدء حياته ، غير أنه عاد فابتدع له أداة للتعبير خاصة به . أما ميزات شعره فتتلخص فيما يلى :

بساطة الأسلوب وسهولة التعبير ، ووضوح المعنى فى أغلب الأحيان

انتزاعه موضوعات أشعاره من الطبيعة والحوادث اليومية والأشياء العادية المألوفة . وقد ورد ذكر هاتين الميزتين فى الكلام على مقدمة ديوانه

يولوها حقها من الاهتمام ، وأهيب بوزارة المعارف المصرية أن ترسل إلى تركية بعثة من طلبتنا النجباء كى يدرسوا فنون الموسيقى الشرقية الصميمة ، وينقلوا لنا كل ما تصل اليه أيديهم قبل أن تتلاشى هذه الفنون ويتم حلول الموسيقى الغربية محلها ، وذلك أسوة بالبعوث التى ترسلها إلى أوربا ؛ وهناك يتشبع الطلبة بالموسيقى الغربيـة ولا يكونون فى المستقبل حرباً على الموسيقى الشرقية التى من العار أن تنهض على حساب الموسيقى الغربية أو تتلوث بدماء دخيلة فيتعكر صفاؤها . .

اسكندرية عبد الحميد رفعت شمة

تصوف :

وهـذه إحدى خصائص الحركة الابتداعية التى كان عثلها شاعرنا فى بلاد الانكليز أصدق التمثيل . ووردزورث يرى أن الله روح تقطن فى جميع مظاهر الكون أو الطبيعة الخارجية من هواء وجبال ورياح وصخور حتى الرعاة والحيوانات . وتظهر لنا هذه الفلسفة جليّة فى قصيدته Tintern Abbey ، وتعرف عند أهل اللاهوت والصوفية « بشمول الألوهية » أو « وحدة الوجود » Pantheism ، « أىْ أن الله إنما هو القوى والنواميس الطبيعية وأنه حال فى كل شىء وليس مستقلاً » . على أنه لم يتمسك بهذه العقيدة تمسكاً دينياً ذمياً كما يظن بعضهم ، بل اتخذها عقيدة شعرية وقتية دفعته عاطفته وروحه الشعرية إلى إيرادها فى سياق الكلام

ولعه بالطفولة والأطفال :

وهذا ظاهر فى معظم قصائده مثل « نحن سبعة » ، وفى القصائد التى ورد فيها ذكر الطفلة « لوسى » . وتتجلى هذه الخاصية بوضوح فى قصيدته « خواطر فى الخلود من ذكريات الطفولة » ؛ ففيها يرى أن الانسان أقرب ما يكون إلى الله وإلى السماء فى أوان الطفولة . وهو يؤمن بسابق وجود الانسان وأزليته (Preexistance) ، أى ان الانسان كان أصلاً فى السماء فهجرتها روحه وظهرت فى جسد بشرى على الأرض . فالانسان فى عهد الطفولة يكون بحكم الطبع قريباً جداً من الزمن الذى قضته روحه فى السماء ، لهذا يفضل عهدُ الطفولة عهدى الكهولة والشيخوخة . إلا أنه يحسن بنا أن نرفق بالشاعر فلا نُجرى عليه الأحكام الجارفة فى كل ما نعزوه إليه من العقائد . فهو — كما بيّنا سابقاً — لم يكن متعصباً لرأى أو لعقيدة واحدة منظمة شأن كبار الفلاسفة أو اللاهوتيين وإنما كان شاعراً يكتب عن عاطفة شديدة ، فهو لا يستقر على رأى من الآراء ما دامت العاطفة لا العقل هى الدافع والمحرك له فى أغلب منظوماته

الخيال الرائع

يمتاز وردزورث بإلباسه الأشياء الطبيعية المألوفة كساء من الخيال الرائق ، وعنده أنه كلما ازداد الشاعر توسعاً وانطلاقاً فى عالم الخيال ازداد لذة واستمتاعاً فى الحياة . ويختلف عن كولردج باتخاذه عاديات الأشياء ومألوفها مواضيع تصويره وخياله متوخياً أن يبتدع مما هو عادىٌّ ومألوف شيئاً جديداً مبتكراً . فبينا كولردج يتدرج من عالم الروح والخيال إلى عالم المادة والحقيقة نرى وردزورث يشرع من عالم المادة وينتهى عند التصاوير الشائقة والأخيلة الرائعة

غموض معانيه

وهذه الميزة لا تلازم معظم أشعاره وإنما تصدق على البعض منها . وغموضه ناجم عن عجزه فى بعض الأحيان عن التمييز بين ما هو عادى مألوف وما يظنه غريباً نادراً ؛ هذا عدا جنوحه إلى إلباس الأشياء العادية حلة من رائع الخيال مما يوقع القارئ فى ارتباك شديد يجعله غير قادر على إدراك المعنى الصحيح وتفهم ما يتوخى الشاعر إفهامه

وعدا هذا يمتاز وردزورث بوصفه الحيوانات والطيور الأهلية منها والبرية . ويؤخذ عليه ندور ورود النكتة فى أشعاره ، وأن أشعاره لا تلهب الحماسة فى نفس القارئ

ولكى يتم لنا البحث فى أشعاره لا بدّ لنا من أن نقول كلمة فى قصيدتين كبيرتين من قصائده ألا وهما الفاتحة The Prelude والنزهة The Exeursion . أما « الفاتحة » فهى ترجمة وافية لحياة وردزورث الشعرية ، ففيها يبحث عن تطور نفسه الشعرى ونمو سليقته منذ عهد الطفولة . فى هذه القصيدة ماتتى حاضره وماضيه، وفى هذا الملتقى مبعث لشعوره . إذ أنه كلما ذكر أيام الصبى اللذيذة اختلجت فى نفسه عاطفة قوية وتملكه شعور لذيذ لا يتمالك من بعثه شعراً حياً لا أثر للكلفة فيه . وللذاكرة المقام الأول والفضل الأكبر فى تصويره أحلام الطفولة وأيام الصبى ، إذ لولاها لنضب معين شعوره وانحبس لسانه عن التعبير عما يجيش فى صدره من مشاعر وفى نفسه من خلجات ، ووقف قلمه عن وصف الأويقات العذبة الهنيئة التى قضاها تحت كنف أمه الرؤوم : الطبيعة بأبسط معانيها وأجلى مظاهرها . وهـذه القصيدة مهداة إلى صديقه الشاعر كولردج ، وتقع فى عدة أبواب يختص الأول منها بحياة الطفولة ، والثانى بحياة المدرسة ، والثالث بالسنين التى صرفها فى كمبردج ، والرابع فى حياة لندرة ومؤثراتها ، والخامس بزيارته الأولى لفرنسا والألب وإقامته فى فرنسا خلال الثورة الفرنسية ،

غير ذاكر شيئاً عن علاقته بأنيت ڤالون معشوقته المعهودة

أما « النزهة » ففيها يحلق الشاعر ويسمو فى عالم الروحيات إذ هى مجلى تأملاته فى الفلسفة والاجتماع وعلم النفس والصوفية ، وفيها يطرق شتى الموضوعات العلمية البحتة ، كتركيب العقل ونشوئه ، وفلسفة العواطف ، والتأمل ؛ غير أنه يكسوها حلة من الخيال ، ويعبرعنها بأبسط التراكيب وأسلس العبارات وأوضحها ، هذا إذا ضربنا صفحاً عن جنوحه فى بعض الأحيان إلى الغموض فى المعنى . « والنزهة » تقع فى تسعة أجزاء مقتضبة ، كل فصل منها حاو لقسم من أقسام القصة التى يسردها ويجعلها هيكل هذه القصيدة الكبرى

وهو فى جميع مباحثه هذه لا يتوخى غير الصدق واظهار عظمة الخالق . أما مدار بحثه فى هذه المواضيع فنفسه ، لا لأنه صنع من جبلة غير التى صنع منها سائر البشر ، بل لأنه أكثر علماً بنفسه من غيرها من النفوس

ولقد أثارت نظريته هذه وأشعاره جدلاً عنيفا وبحثاً متواصلاً فى البيئات الأدبية ، فمن الأدباء من حمل عليه وطعن فيه ، ومنهم من انتصر له . ومن الذين انتقدوه فرنسيس جفرى وبيرون وهزلت ، ومنهم أيضاً صديقه كولردج فى فصل من كتابه (تراجم أدبية) ، بيد أنه لم يكن هدّاماً فى نقده ولا شديد التحامل عليه فى تعليقه على آرائه كغيره من النقّاد . أما إمرسن الكاتب الأمريكى الشهير فينتصر له ، ويعدّ قصيدته « خواطر فى الخلود من ذكريات الطفولة » التى تمثل عقيدة شاعرنا الفلسفية ونظريته الأدبية بعض التمثيل ، من أروع بل أروع ماخلّفه لنا أدباء القرن التاسع عشر من القصائد . ولقد كان ديوان وردزورث معواناً للفيلسوف الانكليزى الشهير جون ستوارت مِل على تخلصه فى ربيع حياته من السوداء التى كانت تلازمه من حين إلى آخر ، إذ وجد فى قراءة القصائد الفلسفية والدينية منها راحة وعزاء بل خير شفاء له من دائه النفسانى

ومؤرخو الأدب الانكليزى يجعلون السنة التى ظهر فيها ديوان وردزورث لأول مرة ، أى سنة ١٧٩٨ ، فاتحة العصر الابتداعى ، لأن أشعاره تمثل الحركة الابتداعية من الناحية الأدبية خير تمثيل . ولكى يتضح لنا معنى هذا القول علينا أن ننظر بعض النظر فى خواص هذه الحركة ، وخصوصاً الناحية الأدبية منها

(البقية فى العدد القادم) عيسى القسوس

فى اللغة والأدب

المثنيـــات

للأستاذ محمد شفيق

إن من خصائص اللغة العربية التى امتازت بها على غيرها من اللغات الحية هذه المثنيات[1] . وقلما يخلو علم من علوم لغة الضاد من مثنيات إن قليلة أو كثيرة . وقد رأيت أن أقدم إلى قراء « الرســـالة الغراء » أمثلة منها مرتبة على العلوم ، مبتدئاً بالأدب واللغة لشدة علاقتهما بالرسالة ، وإن كانت هى حفية بالثقافات الاسلامية والعربية وغيرها :

المثنيات فى اللغة والأدب والنحو والعروض

(الابردان) الغداة والعشىّ ، والظل والفىء ، وفى الصحاح : الابردان : المصران . (الأبيضان) اللبن والماء ، أو الشحم واللبن ، أو الشحم والبياض ، أو الخبز والماء ، أو الحنطة والماء ، أو الملح والخبز ، قال الشاعر :

ولكنه يأتى إلى الحول كاملاً ومالىَ إلا الأبيضين شرابُ

(الأجدّان) الليل والنهار ، وكذلك الجديدان ، والدائبان والطريدان ، والمصران ، والملوان ، والأحدثان ، والأصرمان .

(الأحمران) الخمر واللحم ، وفى المثل « أفسدَ الناسَ الأحمران » قال الشاعر :

(١) وقسموا المثنى إلى نوعين : المثنى الحقيقى وهو مشهور ، والمثنى التغليبي وهو تغليب احد المتجاورين والمتشابهين على الآخر فيجعل الآخر مسمى باسمه ثم يثنى ذلك الاسم قصداً إليهما جميعا ، والتغليب يكون تارة للشرف وأحياناً للشهرة وآونة للخفة كالعمرين لأبى بكر وعمر ، والقمرين للشمس والقمر . قال الزجاجى ... قال المفضل الضبي ... وجه إلى الرشيد فخرجت حتى صرت إليه ... فقال يا مفضل عندك مسألة تسأل عنها ، قلت نعم يا أمير المؤمنين قول الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

قال قد أفادنا هذا قبلك هذا الشيخ — يعنى الكسائى وكان فى المجلس — لنا قمراها يعنى الشمس والقمر كما قالوا سنة العمرين يريدون أبا بكر وعمر ، قلت ثم زيادة يا أمير المؤمنين ، قال زد قلت : فلم استحسنوا هذا ؟ قال لأنه إذا اجتمع اسمان من جنس واحد وكان أحدهما أخف على الأفواه غلبوه ... قال قلت قد بقيت مسألة أخرى ، فالتفت إلى الكسائى وقال : أفى هذا غير ماقلت ؟ قلت : بقيت الغاية التى أجراها الشاعر المفتخر فى قوله ، قال : وما هى ؟ قلت : أراد بالشمس ابراهيم خليل الرحمن ، وبالقمر محمداً صلى الله عليه وسلم ، وبالنجوم الخلفاء الراشدين ؛ فسر وأمر له بجائزة عظيمة .

إن الأحامرة الثلاثة أهلكت مالى وكنتُ بهنّ قدماً مولعا

الرّاح واللحم السمين وأطّلى بالزعفران فلا أزال مُولّعا

(الأخضران) النباتان القريب والبعيد ، لأنّ القريبَ أخضر حقيقةً ، والبعيد كما قالوا أسود ؛ والأسودُ عند العرب أخضر ، يقال فلانٌ أحرق الأخضرين : يراد المبالغة فى ظلمه وتمديه ، كأنه يوصلُ الشرّ إلى القريب والبعيد . وقيل الأخضران : النبات والانسان من العرب ؛ قال الفضل بن العباس :

وأنا الأخضرُ من يعرفني أخضر الجلدةِ من نسل العربْ

(الأصرمان) الذئب والغراب لأنهما انصرما عن الناس ، أى انقطعا ، قال :

وموماة يحارُ الطرفُ فيهـا إذا امتنعتْ علاها الأصرمان

(الأعميان) السيل والفحل ، والسيل والحريق ، والسيل والليل ، والسيل والجمل الهائج : لأنها لا تتقى موضعاً ولا تتجنب شيئاً كالأعمى الذى لا يدرى أين يسلك فهو يمشى حيث ذهبت رجله

(البازيان) الأعشى وجرير . كان أبو عمرو بن العلاء يقول : الأعشى وجرير بازيان يصيدان ما بين العندليب إلى الكركى

(البردان) الغداة والعشى ، قال ابن خالويه : حدثنا ابن دريد عن أبى حاتم عن الأصمعي قال : دعا أعرابيّ لرجلٍ فقال : أذاقك الله البردين — يعني بردَ الغنى وبرد العافية — وأماط عنك الأمرّين ، يعنى مرارة الفقر ومرارة العرى ، ووقاك شر الأجوفين ، يعنى فرجه وبطنه

(الحكيمان) أبو تمام والمتنبى : سئل أبو العلاء عنهما وعن البحترى فقال : هما حكيمان والشاعر البحترى ، كأنه يريد أنهما ينتزعان المعانى من كلام الحكماء ويراعيان الصناعات الشعرية التى أحدثها المتأخرون ، وأما البحترى فانه يجرى على عادة العرب فى ترك التكلف واختراع المعانى

(الخالدان) هما خالد بن نضلة بن الأشتر بن جحوان ، وخالد بن قيس بن المضلل بن مالك ، قال الشاعر :

فقبلىَ ماتَ الخالدانِ كلاهما عميدُ بنى جحوان وابنُ المضللِ

(الخالديّان) هما أبو بكر وأبو عثمان ابنا هاشم الشاعران المشهوران ، قال الصابى :

أرى الشاعرين الخالديين نشّرا قصائدَ يفنَى الدهرُ وهى تقيدُ

تنازعَ قومٌ فيهما وتناقضوا ومرّ جدالٌ بينهم وتردُّدُ

فطائفةٌ قالتْ سعيدٌ مُقدم وطائفةٌ قالت لهم بل محمدُ

وصار إلىّ حكمى فأصلحتُ بينهم وما قلتُ إلا بالتى هى أرشدُ

هما لاجتماع الفضل روحٌ مؤلف وممناهما من حيثُ ألفيت مفردُ

كما فرقدا الظلماء لما تشاكلا علاءً أشكل ذاك أم ذاك أمجدُ

فزوجهما ما مثله فى اتفاقه وفردهما بين الكواكب أوحدُ

فقاموا على صلح وقام جميعهم رضياً وساوى فرقدَ الأرض فرقدُ

(السّببان) هما عند علماء العروض خفيف ، وهو حرفان ثانيهما ساكن ، وثقيل وهو حرفان متحركان

(الصادان) هما الصاحب بن عباد والصابى ، قال أبو الحسن البندارى : أكتب أهل العصر الصادان

(الجرادتان) هما قينتا معاوية بن بكر أحد العماليق واسمهما بعاد وثماد ، وبهما ضرب المثل « ألحن من الجرادتين »[1]

(الصناعتان) هما عند الأدباء صناعة الشعر وصناعة النثر ، وللبلغاء فيهما مؤلفات كثيرة ، وأما الصنعتان فى قول الوراق يرثى أبا الحسين الجزار :

يا عيـــدنا الأضحى سقى صوبُ الغمام أبا الحسينِ

لو عاشَ فيك لقــد غدا يشكو بوارَ الصنعتينِ

فالمراد بهما صنعة الجزارة لعدم من يتقدم إلى الله بالاضاحى ، وصنعة الشعر لعدم الكرماء

(الفاصلتان) هما عند العروضيين صغرى ، وهى ثلاثة أحرف متحركات على التوالى يعقبهن ساكن ، وكبرى ، وهى ما تجمع أربعة أحرف متحركة على التوالى يعقبهن ساكن

(رهين المحبسين) هو أبو العلاء المعرى ، سمى نفسه بذلك وكان لزم بيته فلم يخرج منه مطلقاً ، فأراد بأحد المحبسين البيت وبالآخر العمى

(ملكا الشعراء) هما امرؤ القيس وأبو فراس الحمدانى ، قال الصاحب بن عباد : بدئ الشعر بملك وختم بملك ، يعنى امرأ القيس وأبا فراس

(فصلا المدح والذم) و (جمعا التصحيح) و (اجتماع الساكنين على حدة) و (اجتماع الساكنين على غير حدة) عند النحويين مشهورة[2]

محمد شفيق

(١) تفصيل خبرهما عند المحبي فى « جنى الجنتين » فى صفحة كبيرة

(٢) وقد أسهب المحبي فى الكلام عليها بما لا يوجد بعضه فى كثير من كتب النحو

صور من التاريخ الاسلامى :

عبد الله بن الزبير

(١ — ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسنى عبد الرحمن

كان القرن الهجرى الأول عامراً بالأبطال الذين ترتكز بطولتُهم على العقيدة ، وتقوم شخصياتُهم على العزائم الثابتة ، والمبادئ الواضحة القويمة . ولو أن مؤرخاً إسلامياً أراد أن يسجل صفحة ثبتاً بأسماء النابغين من رجالات قريش ، فى الصدر الأول من الدولة الأموية ، لكان خليقاً به أن يضع فى طليعتهم بطلاً فذاً ، كان لا ينفك شوكةً فى جنب هذه الدولة ، لسموّ نفسه ، وطمعه فى الخلافة ، وعمله لتحقيق غرضه ؛ حتى كاد ينتزع اللقمة لنفسه من فم تلك الدولة الفتية ؛ كان يطمع فى النجم ، وكان يؤيد مطامعَه عزمٌ قوىّ ، وبأس شديد ، ولسان ذربٌ ، وشرف واضح ، وهمةٌ قعساء ، تعضدُها الشهامةُ والبطولة ، ولقد تمت له بكل هـذا أدواتُ الرجولة . ذلك هو عبد الله بن الزبير الأسدى القرشىّ

أنجبه أبوان كريمان ؛ أما أحدُهما فالزبير بن العوام بن خويلد من بنى أسـد بن عبد العُزى ، حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته صفية ؛ ولم يكن الزبير مغموراً ولا وسطاً فى الناس ، وإنما كان رجلاً من الطراز الأول ، ومن ذوى المقامات الممتازة الذين تقوم الدول على أكتافهم ، ولا يُبتّ فى أمر هام إلا بعد مشورتهم وبذل نُصحهم ؛ ولقد كانت له اليد الطولى فى نجدة الاسلام أيام كان المسلمون قلة ، كما كانت له مواقف مشهودة وآراء سديدة ، فى فتح البلدان ، ونشر الاسلام ؛ أرسله أميرُ المؤمنين عمر إلى مصرَ نجدة لابن العاص وهو يحاول فتحَها ، وقال له : إنى أرسلت اليك رجلاً بألف ! ولقد برهن الزبير بسداد رأيه ، وبجيد أعماله أنه أهلٌ لهذا التقدير العظيم . وفى الحق أن الزبير كان يُعدّ فى الصف الأول بين أمجاد قريش ، وذوى الثروة فيها ، وقد رشّحه مركزُه ونباهةُ شأنه ، وقوة شخصيته للخلافة ؛ فكان أحد الستّة الذين عهد اليهم ابن الخطاب ، أن يختاروا خليفةً منهم بعد وفاته للمسلمين

هذا هو الزبير أبوه ؛ أما أمه فحسبُ القارئ أن يعرف أنها أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وأخت عائشة أم المؤمنين ، وكانت مع شرف أرومتها ، ذات حزم وفكرٍ ثاقب ، كما كانت صُلبة العود ، أبيّة النفس ، لها عزمٌ جبّار ؛ فلو أنها لم تكن أنثى ، لكانت رجلاً ولا كالرجال ! ! !

من هذه الأنساب الواضحة ، والدوحة الباسقة ، خرج عبد الله وورّثه آباؤه وأقرباؤه جُل الصفات الممتازة التى تغذى الطموحَ وتُذكيه ؛ وساعدت بيئتُه التى نشأ فيها على تنمية خلال البطولة والاقدام فى نفسه ، فامتاز بالفصاحة ، وذلاقة اللسان ، وقوة الحجة ، حتى كان يعد من خير خطباء الاسلام ؛ واشتهر كذلك فضله وزهده ، وطولُ صيامه وقيامه ، بين الخاصة والكافة . أما شجاعتُه فحدّثْ عن الليث ولا حرج ! فهو الذى يقول : « ما أبالى — إذا وجدت ثلثمائة من الرجال ، يصبرون صبرى — لو أجلب بهم على أهل الأرض ! ! » ويشهد له أبو عبيد بأكثر من هذا فيقول « إن عبدَ الله كان لا يُنازَع فى ثلاث : شجاعة ، وبلاغة ، وعبادة » وتلك عدةُ الرجولة الكاملة ، وخاصة فى ذاك العصر

* * *

كان عبد الله أولَ مولود للمهاجرين بالمدينة عامَ الهجرة ، فدرج بها ، ونشأ فيها ، حتى نال من التعليم المنتشر فى عصره ما أكسبه ثقافةً دينيةً محْضة ، فعرف الكتابة والقراءة ، على طريقة عصره ، وحفظ الكتاب ، وروى الأحاديث ؛ واقتدى فى حياته وعبادته بمن كان يخالطهم ويباشرهم من جلة الصحابة الكرام ؛ فأثر هذا فى أخلاقه تأثيراً كبيراً ، كان من ثماره تلك النزعةُ ، نزعةُ العبادة وطول القيام والتهجّد التى غلبت عليه فيما بعد . وكان أهم ما يجذب النظر اليه وهو صغير ، جراءته النادرة ، وميله إلى العناد ، مع الثقة بنفسه ، والاعتداد بقوّته ؛ « كان ذات يوم يلعب مع الصبيان ، فمرّ رجل فصاح بهم ، ففروا ومشى عبد الله القهقرى (بظهره) ثم قال : يا صبيان اجعلونى أميركم ، وشُدوا بنا عليه فهزَمه ! » . ومرّ به عمر بن الخطاب ، وكان عبد الله مع صبيان يلعبون ، ففروا وبقى هو ؛ فقال له عمر : لماذا لم تفر مع رفاقك ؟ فأجابه بجراءة وفصاحة : « لم أجرمْ فأخافَك ،

وليست الطريق ضيقة فأوسع لك » . هذه أمثلة صغيرة ، ولكنا نلمس فيها روحاً متحركة وثابة ، في زمن الطفولة والتنشئة ، ونستنبط منها أن للعظمة بوادر تلوح في الحوادث الحقيرة ، كأنها ارهاصات لظواهر أخرى كبيرة ، تكون حينما تكون عظائم الأمور ، ومن هذه المُثُل وأشباهها نعرف أيضاً مدى اعتداده بنفسه ، وثقته بها ؛ ولا ريب أن الحبّة الجيدة إذا صادفت أرضاً خصبة فانها تشق الأرض شقاً ، لتحيا على أنضر ما تكون النبتةُ الطيبةُ حياة وبهجة !

ولما بلغ أشده وأطاق حمل السلاح ، ثقف صناعة الحرب ، ثم صحب الجيوش الغازية ، وأبلى في العدوّ بلاء محمودَ الأثر ؛ روى الزبير بن بكّار « أنه - عبد الله - قتل بيده في فتح افريقية أميرَ جيوش الروم » فأرسله عبد الله بن أبي سرح (وكان قائد جيش المسلمين) بشيراً إلى أمير المؤمنين عثمان ، فما سمع بشارته أعجبه كلامُه وشجاعةُ قلبه ، ثم سأله : أيمكنه أن يخطب الناس بمثل ما أخبره به ؟ فأجابه : وما يمنعني من ذلك ؟ ثم قام خطيباً ، وتدفّقت من فيه آياتُ البلاغة ، وأطنب في وصف الفتوح ، وفصّل هزيمة العدو ، حتى أسر القلوب ، وأدهش السامعين ، بفرط بلاغته وقوة عبارته ، وتمكنه من ناصية القول والموقف ؛ فقام أبوه وقبله بين عينيه ، وانفضّ الجمع ، وليس فيهم إلا معجبٌ ببيانه ، مثنٍ على شجاعته

ولم أطلع في وصف عبد الله على عبارة وافية موجزة أبلغ من قول أبي عمرو بن عبيد : « كان عبد الله شهماً ذَكَراً ذا أنَفَة ، وكان له لَسَنٌ وفصاحة ، وكان كثير الصلاة والصوم والعبادة ، شديد البأس ، كريم الجدات والأمهات والخالات » . بهذا الوصف الكريم الجامع استأهل ابن الزبير أن يكون في الطبقة العالية بين رجال عصره ، وما فتىء عثمان يتفرس في مخايله قوة الشكيمة ، وفرط النبوغ ؛ ويرمقه بعين ملؤها الحبُّ والرضا ، حتى كان يوم الدار ، فاستخلفه عليها قبيل مصرعه ... ومن ثمّ دبّ الطمع إلى قلبه في طلب الخلافة لنفسه ، وأبقى ذلك سراً مكتوماً ، ولكنه لم يألُ جهداً في تحقيق هذا الحلم الجميل ، الذي يلائم طبعه ويشبع رغباته الكامنة ؛ ولِمَ لا يكون خليفة وقد استخلفه أمير المؤمنين عثمان على داره التي هي دار الخلافة ؟ ولِمَ لا يكون خليفة وَجدُّه أبو بكر أولُ الخلفاء ؟ بمثل هذا تحدّث إلى نفسه ، ولكن أنّى له هذا ، وفي القوم كثيرٌ ممن يكفُّونه بمجرد وجودهم عن ذلك المرتقى السامي ؟ ؟ وإذن فليرتقب سنوح الفرصة ، وليأخذ أهبته ريثما تواتيه الظروف المسعدة ، عسى أن ينال ما يبتغيه ! ! وقد قضت عليه سياسة الترقب هذه أن يناوئ كل خليفة يلي الأمر من بعد عثمان ، فما هو أن بويع عليٌّ بالخلافة حتى قام عبد الله يؤلب عليه أهلَ الحجاز بزعامة أبيه الزبير وطلحة بن عُبيد الله ، وتحت راية خالته عائشة ، وما كانت أم المؤمنين لتخرج من تلقاء نفسها لملاقاة عليٍّ بالعراق ، وإنما زجها عبد الله ودفع بها في هذا المأزق الحرج ، بعد أن بين لها فظاعة الجريمة التي ارتكبها الثائرون ضد عثمان ، وبعد أن هوّل ما بينها وبين علي من الأحن القديمة ، فاستجابت طبيعة المرأة لما أُلقي اليها من دواعي الاغراء ، وأجمعت أمرها على النزال ، فقامت تخطب المسلمين ؛ تحرضهم على الانتقام لعثمان . . . . حتى كان ما كان يوم الجمل . روى المسعودي « أن عائشة قالت يوماً : إذا مَرَّ ابن عمر فأرُونيه ، فلما مرَّ قالوا هذا ابن عمر ؛ فقالت : يا أبا عبد الرحمن ، ما منعك أن تنهاني عن مسيري إلى العراق ؟ قال : رأيت رجلا قد غلب عليك ، ورأيتك لا تخالفينه !! (يعني عبد الله بن الزبير)

يؤخذ من هذا ومن قول الرواة أن عبد الله كان هو المحرك الخفيّ لجيش عائشة على علي ، وأنه كان قطبَ الرحا يوم الجمل ، والدافع له إلى هذا إنما هي نيتُه المستورة ، ورغبتُه المكبوتة في أمر الخلافة

* * *

ثم تجري الأمور على قدر ، ويتولى معاوية الأمر بعد مقتل علي ، فيتمنى عبد الله أن لو كان معه جند يشدّ أزره أمام الخليفة الجديد ! ولكن أنى له ذلك الآن ! وقد انقسم المسلمون فرقتين ، ظفرت سياسة إحداهما بزعامة معاوية ، وخذلت الأخرى بمصرع ابن أبي طالب ، فلم يبق إلا الاذعان للواقع ، والحزم إذن في المداورة لمن يبني أمراً جللاً كهذا ، ولابد حينئذ من المبايعة ، مع الترقب من جديد لفرصة أخرى أمثلَ من هذه

بايع ابنُ الزبير معاوية ، وفي نفسه غصة ، ولقد كانت المطامع الكبيرة التي ينطوي عليها توقفُه من معاوية موقف الند للند ، بل موقف المشاكس المناقض ، حتى ليهم الخليفة أن يبطش به ، فلا يحجزه عن ذلك إلا مركز عبد الله من جهة ، وخشية الانقلاب والفتنة من جهة أخرى ،

يُروى أن معاوية حجّ سنة ، ثم رحل إلى الشام ليلاً ، فلم يعلم بسفره من غير خاصته إلا عبد الله ، فقفا أثره على فرس ومعاوية نائم في هودجه ، فانتبه على وقع الحافر ، وقال من صاحب الفرس ؟ قال أنا عبد الله ! لو شئت يامعاوية قتلتك الآن ! ! (يمازحه بهذه الكلمة) قال معاوية لستَ هناك ، ثم دار بينهما حوار طويل ، وكان مما قال عبد الله : أفعلتها يامعاوية ! أما إنا قد أعطيناك عهداً ، ونحن وافون لك به مادمت حياً ، ولكن ليعلمنّ مَن بعدك !!! وفي هذا التهديد ماينم عن ثورة عنيفة يتأجج بها صدر عبد الله ، وإنما كان يكتمها إلى أجل ؛ وكثيراً ما كان يضيق به معاوية فيغمز عليه عمرو بن العاص ليُحرجه ويستثير دفائنه ، فيقع بينهما في مجالس الخلافة الجدالُ الشديد ، والتفاخر بالآباء والأحساب ، ولكن ابن الزبير كان يُفحم عمراً بالقول الرادع ، والحجة الدامغة . قال له مرة : « يا ابنَ العاص . إنما طال بي إلى الذّرى مالا يطول بك مثله : أنفٌ حمِى ، وقلبٌ ذكى ، وصارم مشرفي ، في تليد فارع ، وطريف مانع » . فعبد الله — كما قلنا — يطوى نفسه على طلب الخلافة ، ويستسرّ الأمر ، ولم يكن هذا ليخفى على أحد ، حتى على الخليفة نفسه ؛ وتتضح نيتُه ، وتظهر مطامعه لمعاوية حينما يطلب منه أن يبايع لابنه يزيد . يروى الرواة أنه لما طلب منه ذلك أطرق مفكراً ، فقال معاوية مالى أراك مطرقاً إطراقَ الأفعوان في أصول الشجر ؟ قال : « أنا أُناديك ولا أُناجيك ؛ أخوك من صدَقك ، ففكِّرْ في الأمر قبل أن تندمَ » فهو لم يرض البيعة ليزيد ، ولم يوافق معاوية على ما أراد لابنه من المُلك ؛ وبهذه اللهجة الحازمة جابه خليفة المسلمين ، مع قدرته على الفتك به . ولقد حذّر معاوية ابنَه يزيد منه ، إذ كان لا يخشى عليه أحداً سواه ؛ قال لابنه : « إياك منه — ابن الزبير — إنه الثعلب الماكر ، والليث يصول بالجراءة عند إطلاقه ، فوجِّهْ اليه كلَّ جدك وعزمك ، وأما ما بعد ذلك فقد وطّأت لك الأمر ، وذللتُ لك أعناقَ المنابر . . . » . فمعاوية السياسي الخطير ، والداهية العظيم ، لم يكن يخشى على خلافة ولده إلا عبدَ الله ؛ وإنما كان يتوقع الشر والوثوبَ من جانبه ، لما يمهده فيه من قوة الشكيمة ، وصدق العزمة ، وأنه لايستكين ولا يستخذى ، وأن صدرَه مطويٌّ على أمور جسام

***

ويلحقُ معاوية بربه ، فيتجلى نزوع ابن الزبير للخلافة بصورة واضحة قوية ، حيث يتولى يزيد الأمر ، ويميل إلى السرف في المتع والشهوات ، وينغمس في ملاذه ، حتى لينسيه ذلك أن يعنى بأمور المسلمين على الوجه الذى يرضى جمهرتهم في سائر الأمصار ، ويضمن التفافهم حوله . حينئذ يغلى صدرُ عبد الله بمكنوناته ، فيتحفز ، وتزداد حرارة نفسه ، ثم ينطلق إلى منبر المدينة ، فيُلقى من أعلى ذروته على أهل الحجاز كلمةَ الثورة على الخليفة الأموى ؛ يخطب القوم خطبة حماسية حارة ، يسب فيها يزيد ، ويذكر مقابحه وعيوبه ، ثم يبلغ كلامُه مسامع يزيد ، فيؤدى هذا إلى وقعة الحرَّة ، التى انتهك فيها جيش الخليفة حرمات المدينة ، مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذه نقطة سوداء أثيمة ، كان من شأنها تحويل قلوب كثيرة من مختلف الأقطار الاسلامية عن الخلافة الأموية . وساعدت ابن الزبير كثيراً على مطالبه ؛ وقد قلنا إنه كان يتطلع إلى منصب الخلافة وزعامة المسلمين منذ زمن بعيد ، وكانت نزعته هذه تعتمد على عدة أمور : منها أن عثمان استخلفه على الدار يوم حصارها ، فتدخّله من هذا الاستخلاف طموح إلى الأمر ، ولذا كان يقول لئن أُصبتُ بأبى فلقد أصبت بأمى عثمان ؛ وقوّاه على هذا أن طلحة والزبير قدّماه للصلاة بالناس أيام وقعة الجمل ، وكأنى به يقول لنفسه : لم لا أكون خليفةَ المسلمين ، والأمر لا يجرى على ميراث ولا يتبع قانوناً ؟ ولم لا يؤسس أسرة زبيرية ، كما أراد معاوية أن يُقيم دولة سفيانية ؟ وقد نمى عنده هذه الخواطرَ ما أنسه في نفسه من قوة الشخصية ، وشدة الاعتداد ، مع شرفه وجراءة قلبه . سأله ابن عباس مرة : بماذا تروم هذا الأمر ؟ قال بشرفى ! ، وقد وجد في أهل الحجاز ضراماً لناره . فهم يؤيدونه على الأموية ، ولذا اتخذ الحجاز مقراً لدعوته

(البقية في العدد القادم) *محمد حسنى عبد الرحمن*

الشـــباب

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقـــدمة

مستقبل الانسانية رهن بطموح الشباب الى المثل العليا وعزوفه عن حقيرات الأمور وإبائه الضيم للناس ولنفسه ، وبألا يقنع من الحياة بما يرى ، وبأن يحاول أن يبلغ من جليلات أمورها البعيد الدانى الى قلبه ونفسه ، وبأن يحاول أن يقهر طاغوت الأمور وجبروتها ، وأن يستنقذ الدهر من عبث العابثين الذين جعلوا الحياة مهزلة رخيصة ومأساة وضيعة — الناظم

***

إن الشباب حديقة الأزمان … عَطِر الروائح ناصع الألوان

مثل الربيع إذا جلوت بسحره … نَوْرَ الرُّبَى وأطايب البستان

روحٌ من الفردوس يُثمِل نَشْرُه … تغدو الحياة به رياض جِنان

ما راعه حكم الحِمام وصَوْله … إن الشباب من الخلود لَدَانى

لا اليأس يضنيه ولا جزع إذا … كثر العثار وزلت القدمان

ينسى الذى يمضى لينشد مقبلاً … مستأنفاً للعيش بالنسيان

ولو أن رفضا للقضاء يذيقه … كأساً تذيب القلب من ذيفان

والشيب بالتسليم يكسر سمها … حيث الشباب لِغِرَّةِ الأسوان

وهو المغامر فى الحياة بنفسه … نشوان لا من خمرة النشوان

نشوان من خمر الحياة وكأسها … تغنيه عن نشوات بنت الحان

فكأنما فلك الزمانُ قيودَه … عنه وما للدهر من سلطان

ويصوغ من أحزانه نغماً له … فكأنه خلوٌ من الأحزان

يسمو إلى الغرض البعيد طموحه … ويرد خطب الدهر بالايمان

متحصن منه بأمنع معقل … متكفّل إيمانه بأمان

ويكاد من فرط المناءة والهوى … يدع الثرى ويهم بالطيران

والشيب يرسب فى الحضيض تخلفاً … وترى الشباب كذروة الأكوان

ما أرّقته ذكرة من أشيب … جم التردد خَطْوُهُ متدانى

وله على إدبار دَهْرٍ عزةٌ … تنأى به عن ذلة وهوان

كِبْرُ الشباب ولا اعتداد مُسَوَّدٍ … بالجاه والأجناد والأعوان

إن كان صعلوكاً فليس بخانع … فكأنه ذو التاج والإيوان

إن العزيز هو العزيز على الصبى … والشيب مهما عز ذل جَنَان

ذل الجَنَان لوهن جثمان ولا … ذل كذل الوهن فى الأبدان

ورث المراح ذخيرةً لمبذر … خال الحياة رخيصة الأثمان

لَذَّاتُه دَيْنٌ يؤديه إذا … حل المشيب وهد من جثمان

تتعادل اللذات فى ريعانه … ولواعج للشيب فى ميزان

عهد الصراحة والمروءة والندى … وتألُّف الخلان بالخلان

عهد المحبة والأخاء وربما … تُلفيهما فى القلب يمتزجان

عهد إذا طلب الكرى لم يُعْيِه … وكرى المشيب مؤرّق الأحزان

عهد الصِّبَى عهد المنى ، فإذا مضى … لم يبق إلا مُرُّ سُؤْرٍ دنان

وتكاد ذكراه إذا فات الصبى … تحيى الصبى وترد عرب زمان

أطماعه عُلْوِيّةٌ ، أحلامه … ذهبيةُ الآمال كالعقيان

عهد الصيال ولا صيال لأشيب … هاب الحياة وصولة العدوان

والخطب أن يهوى المشيب بصائل … ما كان يخشى جولة الحدثان

حتى تراه بالحياة مُرَوَّعاً … قلق الضلوع مؤرّق الأجفان

والخوف طبع فى المشيب وقلما … تلقى الشباب على غرار جبان

ولربما جمح الشباب بسادر … عَبَدَ الحياة عبادة الشيطان

ولربما عبد الحياة أخو النهى … كعبادة لله والأوطان

قال المشيب ورُبَّ قولة صامت … تعظ المصيخ له بغير لسان

ما سرَّنى أنى فطنت وإننى … والحلم والتبيان فى أكفان

ونسيت ما نَشْرُ الجنان وخلدُها … وذكرت أن العيش مهلة فانى

ولقد علمت الآن ما عهد الصبى … من بعد جهلى فيه والنسيان

والآن عالجت الحياة كما أرى … لا ما أريد من البعيد الدانى

وعددت من سُنَن الحياة وحكمها … ما يفعل الانسان بالانسان

فى حرصه أو قسوة أو رقة … من فتكه بالروح والأبدان

وفزعت من ظُلْم الحياة وطالما … ذَلَّلْتُ منها أيّما طغيان

وتلوت فى التاريخ آيات الأسى … مسطورةً بمدامع الأحزان

فعسى الشباب بمقبل من دهره … يبلو الحياة بعزمة وأمانى

ويَسُنُّ للدنيا الوسيعة سُنَّةً … لا سنة الحرص والحرمان

يستنقذ الأزمان من عبث الورى … ويُطهِّر الاحشاء من أضغان

ويُذِل طاغوتَ الأمور فيحتذى … شرعُ الحياة شريعةَ الرحمن

ويُحِيلُ ظلم العيش عدلاً سائغاً … يُنْسَى به ما كان من عدوان

عبد الرحمن شكرى

ذكرى سعد

للأستاذ فخري أبو السعود

تهفو لذكرك أنفس ومشاعر … وتجود أفئدة له وخواطر

ويضيء شعر من علائك قابس … ويتيه فخراً في مديحك شاعر

وعلوت أنت فما يزيدك مادح … مجداً ولا يعلي مكانك ذاكر

يا فخر مصر في الشعوب على المدى … ما قام فيها بالرجال مفاخر

كانت حياتك صفحة كم سُطِّرت … فيها لمصر محامد ومآثر

أنت الذي أعليت خافت صوتها … والخصم يرعد والخطوب بواسر

فشدت بذكرك ألسن وصحائف … وبذكر مصر عواصم وحواضر

روّعت عنها غاصباً متجبراً … الموت من أسيافه متقاطر

ليث يروع العالمين مهابة … قد راعه من ليث مصر زماجر

لما رأوك تثير شعباً هامداً … وتمج سحر القول قالوا: ساحر

لو أنصفوا قالوا: نبي مرسل … الوحي يتبع خطوه ويساير

أديت أمس رسالة علوية … العز أول آيها والآخر

في عهدك الزاهي الأغر — ولم يطل — … ينعت أماني للبلاد زواهر

شرقت لمصر سيادة كانت خبت … من عهد فرعون وعز باهر

وطلعت في دست الرياسة قائداً … في راحتيه أزمة ومصائر

ومثلت في دار النيابة مدرهاً … شخصت إليه جوارح ونواظر

أنّى حللت سما بمجدك منصب … أن زانه سعد العظيم الكابر

استقبلت بك مصر سالف رفعة … وبدت لمأمول النهوض بشائر

فأتت ثمان بعد ذاك كأنها … دهر على الوادي المروّع داهر

وئدت بها الآمال في إبانها … وتلت سناك على البلاد دياجر

سرقت زمام الحكم فيها عصبة … لا عاد عهدهم الأثيم الداثر

من كان قاع السجن مأوى مثلهم … عمرت محافل باسمهم ومنابر

أجروا على الأهلين ما لم يجره … في سالف الأحقاب غاز فاجر

وتحكموا والأجنبي مظاهر … لهم وجند الأجنبي مناصر

أوهى وأوهن ما رأوه شرائع … عبثوا علانية بها ودساتر

أعداء مصر هم كواشح سعدها … قد شفهم حقد عليه ساعر

نقموا عليه في النفوس مكانة … مسعاتهم عن دركها تتقاصر

ضنوا على سعد بتمثال وقد … ضمت جوانح رسمه وسرائر

في موطن كم فاز بالأنصاب في … ساحاته علج دخيل ماكر

وحموا بقيته ضريحاً شاده … لرفاته الشعب الحفي الشاكر

ولو استطاعوا فوق ذاك لما ثوى … في مصره جسد الزعيم الطاهر

حسد لعلياء الرئيس وفضله … حياً وميتاً ما يزال يساور

إن يمنعوا عنه بناء حجارة … فله البناء المشمخر الفاخر

بنيان مجد شاده بيمينه … هيهات يبلغه الحسود الخاسر

يمضون في غدهم حطاماً مغفلاً … وهو المخلد في العصور الظافر

فخري أبو السعود

راتبي

للأستاذ محمود غنيم

ولي راتب كالماء تحويه راحتي … فيفلت من بين الأصابع هاربا

إذا استأذن الشهر التفت فلم أجد … إلى جانبي إلا غريماً مطالبا

فأمسيت أرجو نعيه يوم وضعه … وليس الذي يمضي من العمر آيبا

لعمرك ما فوق المكاتب راحة … ولا تحتها كنز يدر المكاسبا

قضيت حياتي بين داري ومكتبي … فألفيت وجه العيش أصفر شاحبا

تشابهت الأيام عندي كأنما … مضى العمر يوماً واحداً متعاقبا

فقل لشباب النيل قالة ناصح … تعاف له أخلاقه أن يواربا

إذا مصر لم ترفع قواعد مجدها … بساعدها لم تقض منه مآربا

وإن تك في كل المرافق عالة … على غيرنا عشنا بمصر أجانبا

أما من سبيل للحياة وغيرنا … يرى سبلاً شتى لها ومذاهبا؟

محمود غنيم

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

١٧ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

غزوات نيتشه

أثرت فى نيتشه تعاليم شوپنهاور تأثيراً ظهر فى كتابه « نشأة المأساة » وعنه اقتبس قواعد كتابه . فاتخذ الارادة منه كشىء قائم بنفسه ؛ والذاتية فى الوجود مصدر كل ألم ، والموسيقى كلغة أصيلة للارادة . وفى الكتاب ذاته يرحب بشوپنهاور ويحييه تحية العبقرية ، يرى فيه هاديه إلى الحقيقة ، ويحاول تأثيره وما يمكن لهذا التأثير أن يفعله فى الأرواح الحديثة . يقول : « إن انسان اليوم يتحرى عن ذاته ، ولا يفتأ يتحرى حتى تهديه المصادفات إلى معلم نافع فيتبعه ، لا يعمل هذا المعلم على تخطيط آثار وتعيين طريق من الطرق المختلفة ، ولكنه يعمل على استنقاذه من كل ما يمسك عليه حريته ويحول بينه وبين الوصول إلى هذه « الذات » الغامضة المتوارية فى أحناء كل انسان » ، ولم يكن معلمه إلا شوپنهاور

شاهد فيه للوهلة الأولى ذلك الفيلسوف الصادق المستقيم الذى يتحرى عن الحقيقة فى كل ما حبر وسطر . وفى مدرسة شوپنهاور تعلم نيتشه أن يرى الحقيقة كما هى بما فيها من قبح وبما تنطوى عليه من ألم . وتعلم أن العبقرية يجب أن تناضل عصرها وأبناء عصرها حتى تحمل الناس على الاعتقاد بوجودها ، فهى حين تناضل الضعف وتحارب الرذيلة ، تحاول فى هذا كله أن تطهر ذاتها من كل الأوضار التى دخلت عليها من مجتمعها

وأخيراً وجد نيتشه فى شوپنهاور تعريفه لحياة البطولة ؛ (أما الحياة السعيدة فهى ضرب من المحال . ولكن الذى يمسح الانسان بمسحة الجلال هو أن يعتنق حياة البطولة ، وأن يقضى وجوده فى تربية الرجولة ، لا تحفل بأن تكافأ على حياتك ، نخير ما تكافئ به نفسك أن تكون عظيما ظافراً ، ذكراك تبقى حية ، وأنت تمجد تمجيد الأبطال ؛ وارادتك تثب من خطر إلى خطر ، وتصمد من قدر إلى قدر ، حتى تتلاشى فى « النرڤانا ») وهكذا خال نيتشه أنه وجد فى شوپنهاور روح « ديونيزيوس » التى تعتمد على الارادة وحدها

الغزوة الرابعة

وهناك صداقته القديمة للموسيقى الفنان « ريشارد ڤاجنر » هذه الصداقة التى يعود عهدها إلى أيام الحداثة ، ما عمرها إلا اعجاب نيتشه بآثار هذا الفنان اعجاباً تسامى عن اعجاب فنان بفنان إلى امتزاج انسان بانسان ؛ فقد تقاربا وتعاشرا ردحاً طويلاً من الزمن ، كانا خلاله مثلين للثقة العمياء والمودة الراسخة ؛ وظلا ثابتين على هذه الصداقة حتى شاءت الظروف أن تفرق بينهما ؛ فمضى « ڤاجنر » إلى « بايروت » حيث أسس فيها داراً للتمثيل ، فكان نيتشه يعوده بذات الاعجاب ؛ وفى احدى مطالعاته الأخيرة وصف « ڤاجنر » كبطل من أبطال العبقرية على النحو الذى ذهب اليه فى معلمه « شوپنهاور » ، ولكن هذا أدى رسالته عن طريق الفلسفة ، وذاك يؤديها عن طريق الفن بأسلوب حى يمازجه شىء من الغموض ، هو ذلك العبقرى « الديونيزوسى » الذى لا يستطيع أن يعبر عن عالم عواطفه الزاخرة فى نفسه بطريقة الكلام والبيان الناقص ؛ فهو عبقرى جمع اليه جملة فنون متصاحبة : فيه براعة الممثل ، وعبقرية الموسيقى ، وسمو الشعر ؛ تساعده كلها على التعبير عما يخالج نفسه ويغشى حسه ، وقد كان هدف « ڤاجنر » من افتتاحه لدار التمثيل أن يخلق درامة موسيقية يحيى بها عهد المأساة عند اليونان ؛ وإن تحقيق هذه الدرامة ليُعد أول محاولة من نوعها فى تاريخ أدب الغرب الحديث ؛ لأنها محاولة لا ترمى فى الحقيقة إلا إلى احياء العبقرية اليونانية الهامدة ، ولو أن هذا العمل قُدر له الانتصار والبقاء ، لاعتبر طليعة صادقة من فجر جديد فى تاريخ الانسانية

ولكن نيتشه بعد انجازه ما كتب بأسابيع قفل راجعاً إلى أهله ، وقد تراكم عليه اليأس والضجر ، لجفته الأيام فى أحلام صباه ، وانتصر فيه اعجابه بفاجنر على كل شىء

هذا نيتشه الذى كان قذفة كل خاطرة طفق يدنو من استقلاله الفكرى الذى قهره عليه سلطة هذين المعلمين ، وهو أحد

المتعصبين لأفكارها وآرائهما ، وأحد المادحين على حبهما ، لأنهما في اعتقاده أكمل ما جاد به المثل الأعلى . ولكن نيتشه أخذ يعمل بينه وبين نفسه على الانفصال من قيودهما . وقد عرفنا كيف انفصل عن « شوبنهاور » في مسائل واضحة من مذهبه . فقد أصبح يرتاب في كل ما ينطوي عليه هذا المذهب من المسائل التصورية ، وفي الحاسيلات التي يعزوها صاحبها إلى الارادة ، وفي الارادة التي يزعم صاحبها أنها كنه أكناه الكون ، وفي الشيء القائم وجوده بنفسه . وبعد قليل حمل على التشاؤم الذي يدعو إليه شوبنهاور ، فأبى الخضوع والاستسلام ورفض الجنوح للسكون الفلسفي . وبهذا قضى على فلسفة الحكمة « الراكدة » اللابسة لباس اليأس . هو يريد الحقيقة مهما كان ثمنها . ولو كان للعلم فوز في تضحية بني البشر لفعل . ويمدح الحكمة الممزوجة بالمأساة ، التي تكفر بعلم ما وراء الطبيعة ثم تخضع المعرفة لها لتخدم أجمل شكل في أشكال الحياة ، ويعيد للفن حقوقه التي انتزعها العلم منه ، هذه الحقوق التي تخول الانسان حق التخيل وحق التوهم

ولم يكن حكم نيتشه على « ڤاجنر » أقل جرأة وقسوة . فقد أخذ يبدي فيه مواضع ضعف يحسبها الناظر ذخائر جمال ، ويظهر ما يطغى على روحه من روح الفوضى والاضطراب . ويقارن بينه وبين « باخ وبيتهوفن » اللذين هما أسنى مزاجاً منه . وأصبح في شك من قيمته الفنية التي تدس فيه الموسيقي والشاعر والمفكر . وأخذ عليه تشبثه بالقديم وعودته إلى الآراء القديمة . منها توقانه إلى القرون الوسطى وميله إلى المسيحية والذهول البوذي ، وحبه للأشياء الغريبة . أصبح في شك من أي تأثير يحمله « ڤاجنر » إلى الشعب الألماني

هذا نيتشه الذي كان يرى في موسيقى « ڤاجنر » المثل الأسمى قد انقلب عليها وجحد بها ، فما هي علة هذا الانقلاب ؟

يقول نيتشه جواباً على هذا السؤال أثناء تحدثه عن شوبنهاور « إنما نخاله فيلسوفاً : ثم نرى : إذا خدع في الأسلوب الذي أبدى به ملحوظاته فان هذه الملحوظات لا يشوبها خلل . لأن منازل هذه الملاحظات لا خلاف فيها ، فهو كفيلسوف يعلم قد يكون مخطئاً مائة مرة . ولكن شخصيته ذاتها لا تظهر إلا على حقيقة ، مرتدية أزياء الحقيقة . . . وههنا مجال النظر والتأمل ؛ وفي الفيلسوف شيء لا تنطوي عليه الفلسفة ، هذا الشيء هو الذي يخلد الفلسفة ويولد العبقرية » . وفي هذا الرأي يكاد يتبين لنا هوى نيتشه وميله لهذين الرجلين ، فهو قد مال إليهما بآثارهما والتعصب لها . ثم انقلب هذا الميل والتعصب إلى الآثار إلى إعجاب مجرد بالشخصية ، فأحبهما كرجلين عبقريين منفصلين عن آثارهما . ثم عمل على أن يتجنب كل ما يعكر هذه الصداقة أو يشوش أسبابها ، ولكنه اضطر إلى نقد مالا يوائم فكرته نقداً عاماً ، وأخيراً اقتربت تلك الساعة التي وجد فيها أن الفواصل التي تفصله عنهما هي أكبر من أن تخنق

وألفى أن في سكوته عنها خيانة لنفسه . فبدأ ينقد آثارهم ويظهر أخطاءها . وهو في كل ذلك لا يحاول أن يفهمهما بحقيقتهما ولكنه عامل على تفهم نفسه بالاتصال بهما ؛ وهو بدلاً من أن يصور نفسه بصورتها رأيناه قد حوّل صورتهما إلى صورته ، وأذاب ذاتيهما في ذاته ، كالبحر الذي يحول فيه الفرات أجاجاً . وصورة « شوبنهاور » التي رسمها نيتشه ليس بينها وبين صورة الفيلسوف الحقيقية مشابهة ، وإنما هي صورة للمثل الأعلى للفيلسوف « التراجيدي » كما يتخيلها نيتشه . وهكذا قل في صورة « ڤاجنر » . وهو دائماً لا يمر في كل ما يصف ويصور إلا عن حلمه الباطن

(يتبع) خليل هنداوي



صور من هوميروس

حروب طروادة

التفاحة المشئومة

للأستاذ دريني خشبة

نشيد الزمان !

وقصيدة الماضي !

وغناء السلف !

وحداء القافلة التي لا تفتأ تخب في بيداء الأزل ، إلى الواحة المفقودة في متاهة الأبد ، ركبانها الآلهة ، وأبوللو ، وكيوبيد ومملوءها ولدانها المخلدون !

***

أنشد يا هوميروس !

وأملأ الأحقاب موسيقى !

واللانهاية جمالا وسحرا !

فالأرواح ظامئة ، والقلوب متعبة ، والانسانية واجفة ، والآذان مكدودة من دوي العصر ، فهي أبداً تحن إلى سكون الماضي !

***

لئن تغنيت يا هوميروس !

فالقيثارة الخالدة ما تزال بيديك !

والقلوب هي القلوب !

فدع أوتارها تملأ الدنيا رنينا ، فلقد أوسعتنا هذه الدنيا أنينا ، ورنينك العذب أذهب لأنين الشاكين الباكين !

— ١ —

رآها تخطر فوق اللج ، وتميس على رؤوس الموج ، فهام بها ، وشغلته زماناً عن أزواجه في قصور الأولمب ، فكان يقضي عند شاطئ البحر أياماً يترقب الفرصة السانحة ، ويفتش في كل موجة عن حبيبته « ذيتيس » . . . عروس الماء الفاتنة ، « ذات القدمين الفضيتين[1] » ، ابنة نريوس ، رب الأعماق ، الثاوي مع زوجته الصالحة دوريس ، في قصور المرجان . . . هناك . . . هناك تحت العباب . . .

ورقت له الفتاة ، حين علمت أنه رب الأرباب ، وسيد آلهة الأولمب ، زيوس العظيم ، فوصلت بحبالها حباله ، تطمع الخبيثة أن تصبح زوجة أولمبية عظيمة ، تصاول خيرا أم مارس وفلكان ، وتفاخر لاتونا أم ديانا وأبوللو ، وتدل على دبون أم فينوس . . . وعلى سائر ربات الأولمب !

وابتسم لهما الزمان ، وتساقيا كؤوس الغرام دهاقاً ؛ وأوشك الإله الأكبر أن يبني بها لولا وسواس خامر قلبه ، فآثر أن يستشير ربات الأقدار[2] قبل أن يبت في الأمر أو يقطع فيه بشيء

ولقد شاء حسن طالع الإله الأكبر أن يفعل ؛ إذ أخبرنه أن ذيتيس الجميلة التي يهواها سيد الأولمب ، تلد غلاماً ما يزال يقوى ويشتد حتى يخلع أباه ويستأثر بالملك من دونه ؛ أو على الأقل ، تكسف شمس عظمته شمس أبيه ، فيعيش إلى جانبه إمعة لاشأن له . وهو لهن لحدثنه عما يكون للغلام من مقام حين يثار النقع ، ويستحر القتال ، بين شعبه « الأغريق » وجيرانهم « الطرواديين » . . .

(١) العبارة من هومير

(٢) زيوس هو صاحب الأمر والنهي على جميع الآلهة في الميثولوجيا اليونانية ، ماعدا ربات الأقدار Fates وهن ثلاث ربات : (١) كلوتو صغراهن تغزل حبل الحياة من خيوط بيضاء وسوداء ، (٢) لاخيسيس تبرمه فتجعل منه المتين والواهي ، (٣) أتروبوس كبراهن وهي تقطع الحبل جزءاً فجزءاً بمقص كبير

وخفق قلب زيوس ، وذكر تلك الحرب الضروس التي انتصر فيها على أبيه ساترن [1] بعد فظائع وأهوال ، فأشفق أن يكون له ولد يصنع به ما صنع هو بأبيه

لذلك قصر هواه ، وأصدر على غفلة من كل آلهة الأولمب إرادة سامية تقضي أن تتزوج ذيتيس من پليُوس ملك فيثيا ، الذي كان هو الآخر مولعاً بها ، مشغوفاً بجمالها حباً . . . حتى لقد خطبها إلى أبيها غير مرة فرفض رب الأعماق أن تبنى ابنته على بشريٍّ هالك ولو كان ملكاً . بيد أنه صدع بأمر الإله الأكبر ، وقبل پليوس لابنته بعلاً . . .

وحزنت ذيتيس ، واعتكفت في غرفتها المرصعة باللآلىء تشكو وتبكي ؛ فلما علم زيوس ما حل بها ، زارها من فوره ، وطفق يلاطفها ويترضاها ، حتى رضيت أن تكون زوجة لپليوس الملك : « على أن تحضر بنفسك ، أنت وجميع الآلهة ليلة الزفاف ، وليعزف أبولو على موسيقاه ، ولترقص ديانا ربة القمر . . . »

— ٢ —

ودُقّت البشائر ، واضطرب بطن اليم ، وانشق الماء عن طريق رحب تتهادى فيه موكب الآلهة إلى قصر نبتيون في أعماق المحيط ، ووقفت الأوسيانيد والنيريد وسائر عرائس الماء صفوفاً صفوفاً تحيي الضيوف الأعزاء ، الأوداء الأحباء ، وتغني وتنشد وترسل ألحانها الخالدة موقعة على الموسيقى الشجية

وانبرى أبولو يوقع على قيثارته الذهبية ، أبولو ! ! الذي اشترك في بناء أسوار طروادة ، فلم يكن يصنع شيئاً أكثر من أن يلعب بأنامله على أوتار القيثارة ، فتقفز الحجارة مترنحة من الطرب إلى مكانها من الأسوار ! !

وانطلقت ديانا ترقص . . . فما علم أحد من الآلهة أخطرات نسيم تهبط من القمر الفضي ، وتعلو في السماء ، أم ديانا الهيفاء ترقص في القلوب والأحشاء ! !

ونهض الجميع إلى القصف الفاخر الذي تفننت في تنويع آكاله وأشربانه أيد إلهية ماهرة ، فأكلوا ما لذ ، وشربوا ما طاب ، وأخذوا في سمر جميل . وكان هرمز يرسل نكاته

(1) حرب طويلة لا يتسع هذا المكان من الرسالة للتحدث عنها ، ويرجع إليها في الميثولوجيا من شاء

الطريفة فيقرقع المكان الحاشد بالضحك . وتُدَوّي الأكف بالتصفيق . . .

وبينما الآلهة في قصفهم ، لا يفكر أحدهم إلا في هناء العروسين ، إذا بالربة الخصيم أريس [1] تظهر فجأة في وسط الجماعة ، ثم شرعت تقلب فيهم عينين تقدحان بالشرر ، وتنفثان سم البغض ، وعلى رأسها الفاحم الأسود تتلوى خصل ثعبانية شائهة ذات فحيح وصلصلة ، وعلى صدغيها الأرمدين تخشخش عقربان منكران لكل منهما ذُنابَى يقطر الموت الأسود منها ههنا وههنا

ظهرت إريس غاضبة حانقة ، لأن القائمين بالدعوة إلى العرس أغفلوها فلم يرسلوا إليها بالدعوة التي أرسلت إلى الأرباب جميعاً . وهم قد قصدوا إلى ذلك عن عمد ، لأنهم خشوا على العروسين من أذاها الذي ما تفتأ تثيره في كل مكان وطئته قدماها . أليست هي ربة الخصام ، النافخة في نار العداوة التي تتضرم منذ الأزل في الجوانح والقلوب ؟

لكنها لم تنس لهم هذا الإهمال ، بل أقبلت ، وهي تتميز من الغيظ ، لتقلب هذا العرس الكريم إلى مأتم أليم

ولقد أوجس الآلهة جميعاً خيفة حين رأوا إليها تقلب فيهم ناظريها المشتعلين ، غير أنهم اطمأنوا قليلاً ، حين رأوها تنصرف بعد إذ ألقت على الخوان الفخم تفاحة كبيرة من الذهب ، نُقشت عليها هذه الكلمة المقتضبة : « للأجمل ! »

— ٣ —

باريس :

درجت عادة القدماء أنه كلما وُلد لأحدهم غلام توجه من توه إلى الهيكل يقدم القرابين ويزف الهدى ، ثم يستوحي المعبود عما يكون من مستقبل ولده وما يفيض به من سعادة أو شقاء ، ليأخذ للأمر أهبته ، وليعد لكل شيء عدته

فلما وضعت هيكيوبا ، ملكة طروادة ، غلامها باريس ، حمله أبوه الملك ، بريام ، إلى هيكل أبولو ، ليرى رأي الإله فيه

واربد وجه الملك الشيخ ، وتغضنت أساريره ، حين قال له كاهن المعبد : إن ولده سيكون كارثة على قومه وعلى بلده !

(1) تسمى أيضاً دسكورديا (ومعناها نزاع) أو إيتيه

يأتي من الآثم ما يجر إلى قتل آله وبنى جلدته ، ويفضى إلى سقوط طروادة في يد أعدائها

وتحدث بريام إلى هيكيوبا في ذلك ، فصما على الخلاص من الطفل بتركه فى العراء ، فوق واحدة من جنبات الجبل ، ينوشه طير جارح ، أو تفترسه ذئاب البرية . وأنفذا فعلتهما الشنعاء !

ولكن القضاء ينبغى أن يتم ، والقدر يجب أن يأخذ مجراه ! فلقد جاز بهذا المكان من الجبل أحد رعاة الأغنام فوجد الغلام وفرح به ، واتخذه لنفسه ولداً ؛ ثم سهر عليه واعتنى به ، ونشأه تنشئة الفروسية التي كانت أحب مزاولات الحياة فى هذا الزمن

وشب باريس فتى يافعاً ، جميلاً ممشوقاً ؛ فعمل مع الراعى الذى أنقذه . وكان مولعاً بالبحر ، تشوقه أمواجه ، وتفتنه أواذيه ، فكان يختلف إليه ريثما تفىء الأغنام من الحر ، يلهو بالسباحة ، ويتريض بمصارعة الموج . وبدت له إحدى عرائس الماء - إيونونيه - وكانت قسيمة وسيمة ، فهويها وعلقها قلبه ، وما لبثت أن أصبحت أعز شيء عليه فى هذه الحياة

وعشقته إيونونيه ، وأخلصت له الحب ، وكانت تنتظر أوبته من رعى الغنم كما ينتظر الظمآن جرعة الماء ، والعليل برد الشفاء

وا أسفاه !

لقد قضت ربات الأقدار - كلوتو وأختاها - ألا يدوم هذا الحب طويلا[1] !

- ٤ -

اجتمع الغانيات حول التفاحة كل تريدها لنفسها ، وكل تدعى أنها أجمل من فى الحفل جميعاً . . . ثم ساد صمت عميق حين نهضت جيرا ومنيرفا وفينوس ، ميممات شطر الجهة التي يتنازع فيها الغانيات من سائر الربات على التفاحة الثمينة . . .

- « أنا حيرا العظيمة ، مليكة الأولمب ، وصاحبة الحول والطول فيه ، وأثيرة ركن إلى قلب الإله الأكبر ، أنا ، أحقكن بهذه التفاحة الملوية ، وأعرفكن بقدرها . . . سأضمها إلى تفاحات هسبريا[2] ، فهى بهن أليق ، وهن عليها أحفظ . . . سيلقنها مع أخواتها الثلاث لتزداد بها حداثقهن . . . »

- « أنت تفاخرين علك الأولمب ، وبالجاه والسلطان ؟ إذن أين جمال الحكمة ، وأبهة الموعظة الحسنة ، وجلال الرأى السديد ؟ بل أنا . . . منيرفا . . . ربة الهدى والسبيل الحق . . . أحق منك بهذه التفاحة . . . »

- « فيم تختصمان يا أختى العزيزتين ؟ أليس قد كتب الحكم على التفاحة نفسها ؟ أليست هى للأجمل ؟ أو ليست أنا . . . فينوس جميعاً . . . ربة الجمال ؟ لم تربعت على عرش الفتنة إذن ؟ هي لي من دونكما ! . . . »

واختلف الآلهة ، وساد هرج ومرج ، ولم يجسر أحد ممن احتشد حول الخوان أن يفوه بكلمة يفضل بها إحدى الربات الثلاث حتى لا يقع فى سخط الأخريين ، وحتى لا يكون أبداً عرضة لنقمتهما . . .

وتفرق الجمع بدداً

وقصدت الربات الثلاث جبلاً شامخاً يشرف على البحر فتلبثن به ، واتفقن على أن يفصل أول عابر ، مهما يكن شأنه ، بينهن فى أمر التفاحة ، وتعاهدن ، بالأيمان المغلظة ، أن يخضعن لحكمه ، وأن تكون كلمته فصل الخطاب فيما اختلفن فيه

وتنظرن طويلاً ؛ وكان البحر يضطرب من تحتهن فيقذف باللآلئ والمرجان ، كأن إلهه حاول أن يشبع نهم الربات بالجواهر الغالية فلا يتشاجرن من أجل تفاحة ، ولكنهن ما كن يأبهن لحصباء الدر المنثور على الشاطئ ، بل ما كانت أعينهن تريم عن لقية إيريس ! !

وكانت عروس فتانة من عرائس الماء تعلو وتهبط مع الموج ولا تفتر تحدق ببصرها فى الجهة التى جلست بها الربات يتربصن . . .

وكانت إيونونيه من غير ريب ! وكان الجبل مستراد باريس الذى يريح فيه قطعانه ، ثم ينطلق للقاء حبيبته ، فيتباثان ويتشاكيان

وأقبل باريس يشدو لشائه ويغني ، فزلزل قلب إيونونيه ، وهلعت نفسها ، وفرقت على حبيبها فرقاً شديداً ، ذلك أن أخبار النزاع الذى انتهى اليه يوم الزفاف من أجل تفاحة إيريس كانت قد ذاعت وشاعت ، وتسامع بها كل عرائس البحار ؛ فلما

(١) نظم الشاعر الإنجليزي الفذ ألفرد تنيسون مأساة ايونونيه نظماً رائعاً ، وهى من خير شعره ويجدها القارئ فى ديوانه ص ٧٤-٨١ طبعة كلنز

(٢) راجع قصص « هرقل » فى الأعداد السابقة من « الرسالة »

عرفت إيونونيه ما اجتمع الربات في هذه الناحية من الجبل من أجله ، اضطربت أيما اضطراب ، وقلقت على باريس أيما قلق . لأنه وحده هو الذي يجوز بهذا الطريق ، حين ينفذ إليها بحملانه ويتناجيان . وكان مصدر قلقها هو ما عساه أن يجره على نفسه — إذا قضى بينهن — من سخط الربتين اللتين لا يقضى لهما بالتفاحة . . .

— ٥ —

وصاحت حيرا : « قف أيها الراعي الجميل فاحكم بيننا فيما نحن مختلفون فيه . تلك تفاحة من الذهب ساقتها السماء إلينا منحة منها لأكثرنا جمالاً وأسطعنا رونقاً ، وأنا - حيرا - مليكة الأولب وذات الحول والطول فيه ، وربة التاج والصولجان ، وصاحبة القوة والسلطان ، وآثر أزواج زيك ، كبير الآلهة ؛ وأحبهن إليه . . . أنا - حيرا ذات الجبروت - وولدي مارس إله الحرب ، ورب الطعن والضرب ، أقوى أبناء زيوس العظيم . . . وولدى ڤلكان كذلك ، إذا شئت سرد لك الدروع من حديد فتصبح سيد أبطال العالم ، لا يشق لك غبار ، ولا يجرى معك في مضمار ! إذا خضت حرباً جاءك مارس وأيدك ، ونصرك ڤلكان وآزرك . . . ألست ترى إذن أيها الراعي الجميل أنني أحق من هاتين بتلك التفاحة ؟ أنا - حيرا مليكة الأولب - سأمنحك الثروة التي لا تفنى ، والسلطان الذي لا يبيد . . . سأجعلك ملك هذه الديار التي ترى . . . ستكون صاحب عرش وتاج ، وستستريح إلى الأبد من هذه الحياة الضنك التي تحياها . . . أنت جميل يا فتى . . . وأنت بعرش عظيم أولى منك بهذا القطيع الذي يثغو . . . »

وصمتت حيرا . . . وجعل باريس يقلب في التفاحة ناظريه ، وفي قلبه مما رأى وسمع فرق عظيم . . .

لقد كانت حيرا تختال في ثوبها الأولبي الموشى ، وكان طاووسها الجميل - الذي اتخذته منذ الأزل رمزاً لها - يتشبث بناصيتها ويميس ، فيزيدها جلالاً وكبرياء

- وأوشك الفتى الراعي أن يقدم التفاحة لحيرا ، لولا أن صاحت به مينرفا :

- « على رسلك أيها الشاب . . . اسمع منا جميعاً ثم اقض بيننا . . . أنا لن أزخرف عليك بمال ولا سلطان ، فأنت أعقل من أن تنخدع للعرض الزائل ، وأعلى من أن يهيمن جسمك على عقلك ، وهواك على قلبك . . . أنا مينرفا ربة الحكمة والآلهة الروح الأعلى المقدس . . . سأمنحك السداد ، وسأكشف لك حجب الجهالة ، وسيضيء مصباح المعرفة بين يديك فتكون أهدى الناس ، وأعلم الناس ، وأحكم الناس . . . »

وسكتت مينرفا ؛ وسمع هاتف من جهة البحر يصيح :

« باريس ! أعطها لمينرفا يا باريس . . . » ؛ وكانت إيونونيه . . . ولا شك ! !

وكاد باريس يلقى بالتفاحة في يدى مينرفا . . . لولا أن تقدمت ڤينوس الصناع . . . ڤينوس الحلوة . . . ڤينوس الساحرة . . . ڤينوس ذات الدل . . . ڤينوس التي تكفي غمزة ماكرة من طرفها الفاتر الساجي لاذلال ألف قلب . . . لولا أن تقدمت ڤينوس كأنما تطارد قلب باريس وتحاصر عينيه حتى ما يقعان إلا على عينيها . . . . . . تقدمت ڤينوس ترنو وتبتسم ، وتتبرج وتتهتر ، وتشد هذا الثدي وتثني هذه الذراع ، وتميل برأسها الذي كله خدود وعيون وأصداغ . . . تقدمت ڤينوس تبسم للراعي الجميل عن فم حلو رقيق ، تتلألأ ثناياه ، ويتضوع عبير خمره ، وقالت :

« باريس ! هل لك عينان تعرفان الغزل ، وقلب يعرف الحب ؟ . . . باريس ! أنا ڤينوس التي صليت لها بالأمس ، والتمست منها التوفيق . . . ها أنا ذي يا باريس . . . أليست التفاحة للأجمل ! ألست تحب أن أهبك أجمل زوجة في العالم ؟ ستكون زوجتك مثلى ، تغمرك بجمال لانهائي لاحدود له ، ولن تشعر معها إلا أنك تعيش معها في جنة . . . قبل . . . نظرات حلوة . . . خد مورد . . . أهداب كظلال الخلد . . . ساق ملتفة عبلة . . . جسم ممشوق طوال . . . جيد مهتز ناضج . . . ثدى مثمر يتحلب نمياً . . . . هاتها يا باريس . . . هاتها يا حبيبي . . . »

وقبل أن تتم الخبيثة سحرها ، كان الفتى البائس قد ألقى التفاحة في يديها الجميلتين ، برغم الصيحات المتتالية التي كانت تهتف به من البحر : « لا يا باريس . . . لا يا باريس . . . أعطها لمينرفا يا باريس . . . ! »

وجر على نفسه غضب حيرا ومينرفا ، وكتبت التعاسة عليه وعلى قومه . . . ولم يلق إيونونيه بعدها ! !

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

نصوص سريانية عن العلوم الإسلامية في بغداد

صدرت أخيراً في إنكلترا موسوعة نفيسة للعلوم العربية وأحوالها في بغداد في أوائل القرن التاسع الميلادي (أوائل القرن الثالث الهجري) وعنوانها: «موسوعة للعلوم الفلسفية والطبيعية كما كانت تدرس في بغداد حوالي سنة ٨١٧ م» أو «كتاب كنوز أيوب الرهاوي»، وقد نشرت هذه الموسوعة بالسريانية وهو نصها الأصلي مقرونة بترجمة انكليزية وملاحظات نقدية بقلم العلامة الشهير الدكتور منجانا صاحب مكتبة «رينولدز» الشهيرة التي تحتوي طائفة كبيرة من أنفس المخطوطات الشرقية؛ وقد سبق أن نشر الدكتور منجانا بعض هذه النصوص والتراجم نقلاً عن المخطوطات السريانية والجرشونية التي تحتويها مكتبته. وهو يقول لنا في مقدمته إن هذا الجزء هو المجلد الأول في سلسلة جديدة علمية يزاد إصدارها.

وأهمية النصوص السريانية في تفهم أحوال العلوم الاسلامية الأولى تبدو جلية متى ذكرنا أن العرب حينما بدأوا ترجمة العلوم اليونانية، استعملوا في نقلها بالسريانية، فكانت تنقل أولاً إلى السريانية ثم تنقل بعد ذلك إلى العربية، وكان أعظم أولئك المترجمين كما هو معروف حنين بن إسحاق، أما أيوب الرهاوي هذا صاحب «الكنوز» التي أصدرها الدكتور منجانا، فهو من أشهر المترجمين الذين نقلوا المؤلفات اليونانية العلمية إلى السريانية، وقد ذكره ابن النديم في كتابه «الفهرست»، وعرفه العرب بالأخص من تراجمه للكتب اليونانية الطبية؛ وقد انتفع حنين بن إسحاق بترجمة الرهاوي لمؤلفات جالينوس، وترجم الرهاوي أيضاً بعض مؤلفات أرسطو، وألف رسالة دينية عنوانها «كتاب الايمان». وقد ولد هذا العلامة في مدينة إذيسا أو (الرها) حوالي سنة ٧٦٠ م وتوفي حوالي سنة ٨٤٠

ولا ريب أن المجلد الأول الذي أصدره الدكتور منجانا من النصوص السريانية التي اتخذت واسطة لنقل العلوم اليونانية إلى العربية سيكون له شأن يذكر في درس الحركة العلمية الاسلامية في بغداد في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع أعني في أزهر عصور الدولة العباسية

لجنة الفتاوى في الأزهر والمعاهد الدينية

رأى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن رسائل الاستفتاء عن مختلف المسائل الفقهية تنثال كل يوم على الرياسة الدينية من مصر ومن جميع الأقطار الاسلامية فأراد أن يجعل لهذا التثقيف المثمر جهة خاصة تتولى الفتوى على هذه الأسئلة وترجمها إلى لغة المستفتي ثم عرضها على الرياسة العليا. فأصدر قراراً بتأليف لجنة تسمى «لجنة الفتاوى في الأزهر والمعاهد الدينية» وأسند رياستها إلى العالم الجليل الأستاذ حسين والى عضو هيئة كبار العلماء، وعضو مجمع اللغة العربية الملكي. وجعل أعضاءها أحد عشر عضواً يمثلون المذاهب الأربعة المشهورة، وسيكون دستورها في الفتوى أن تجيب الطالب على المذهب أو المذاهب التي يريد الاجابة على مقتضاها. فاذا لم يعين المستفتي مذهبا أجابته بحكم الله المؤيد بالأدلة من غير تقيد بمذهب من المذاهب الشرعية

الغارة الدولية للكتب

اجتمع في شهر مايو الماضي المؤتمر الدولي الثاني للمكتبات وفنونها بمدريد واشبيلية وسلمنكا وبرشلونه، وكان الغرض من اجتماعه إيجاد اتحاد أدبي بين الدول لنشر العلوم والثقافة بالتعاون بين مكتبات العالم. وكان من أهم ما نظر فيه مسألة «الغارة الدولية للكتب» فاتخذ فيها قراراً ننقل خلاصته عن تقرير المندوب المصري فيما يلي:

١ – أن تكون المعاملة بين الدول في مسألة الغارة الدولية للكتب على قاعدة المثل في أوسع معانيها

٢ – أن تتعهد المكتبة المستعيرة بضمان كل ما ينشأ من ضياع أو تلف للكتب التي ترسل إليها

٣ – أن تتعهد المكتبة المستعيرة بأن تتحمل كل نفقات الارسال والتأمين

٤ – أن تنفذ عملية الاستعارة بأسهل الطرق وأسرعها وبأقل النفقات الممكنة

٥ – أن تكون الاستعارة بين الدول بطريقة مباشرة

٦ – يجب على كل مكتبة قبل أن تطلب مؤلفات من الخارج أن تتأكد من عدم وجود هذه المؤلفات في بلادها

٧ – يحسن أن يعين في كل مكتبة موظف خاص باستعارة الكتب وهو الذي يرسل ويتسلم الكتب المطلوب استعارتها

٨ – وعلى المكاتب المنضمة إلى الاتحاد أن تعمل إحصائية عن الكتب التي أعارتها أو استعارتها كل عام

الإنكليز واللغات الأجنبية

المعروف عن الانكليز أنهم أقل الشعوب الأوربية ميلا إلى تعلم اللغات الأجنبية ، وقد يرجع ذلك من وجوه كثيرة إلى انتشار لغتهم في كثير من البلاد والأمم التي يبسطون عليها سيادتهم أو نفوذهم ؛ ولكن الواقع أن الانكليزي يرغب بطبيعته عن بذل أي جهد لتعلم لغة أخرى ؛ بيد أنه لوحظ منذ بداية هذا القرن أن الشباب الانكليزي قد أخذ يميل نوعاً إلى تعلم لغة أجنبية ، وأنه يؤثر الفرنسية في ذلك على كل لغة أخرى ، وتليها اللغة الألمانية ؛ وقد أذاع أحد كبار الأساتذة الفرنسيين الذين يتولون التدريس في جامعة لندن أخيراً تقريراً عن تقدم اللغة الفرنسية في انكلترا وفيه يقول إنها أصبحت اللغة الأجنبية الوحيدة التي تدرس في المدارس الابتدائية الممتازة في انكلترا وعددها نحو خمسمائة مدرسة ؛ وأنه يوجد زهاء خمسين ألفاً من الشبان الانكليز يتعلمون الفرنسية في المدارس الليلية ، وعشرين ألفاً يتعلمون الألمانية ، وتسعة آلاف يتعلمون الأسبانية . ويغلب تعلم الفرنسية في المدارس الابتدائية الحرة وفي المدارس الثانوية . ويختار الفرنسية كلغة أجنبية إضافية نحو تسعين في المائة من تلاميذ هذه المدارس . غير أنه يلاحظ من جهة أخرى أن الطلبة بعد تعلم الفرنسية في المدارس لايجرؤون على التكلم بها بعد تخرجهم ، لأنهم يجدون صعوبة كبيرة في التحدث بها سواء من جهة النطق أو النحو ؛ ويلاحظ من جهة أخرى أنهم لا يقرأون بها سوى القليل من الكتب والنشرات الخفيفة . وإلى جانب ذلك يتقدم تعلم اللغة الألمانية خصوصاً في الأقسام العلمية للجامعات.

جائزة نوبل للسلام

من المعروف أن معهد نوبل يخصص جائزة سنوية للسلام يمنحها للشخص أو الأشخاص الذين يقدمون أعظم خدمات لقضية السلام العالمي . وقد منحت هذه الجائزة في العام الماضي للمستر آرثر هندرسون الوزير الانكليزي السابق ورئيس مؤتمر نزع السلاح ، والسير نورمان آنجل الكاتب الانكليزي الذي اشتهر بمقالاته وكتبه لتأييد قضية السلام . وفي أنباء (أوسلو) الأخيرة أنهم يرشحون لنيل جائزة السلام عن سنة ١٩٣٥ ، المسيو مازاريك رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، والهير كارل فون اسيونسكي . والأول معروف بحبه وخدماته للسلام ، وأما الثاني فهو كاتب ألماني ذو نزعة ديموقراطية ، كان يحرر صحيفة « دي ثلث بينه » (المسرح العالمي) ، وقد اشتهر بحملاته على الجميعات الوطنية الثائرة السرية . فلما تولى النازي الحكم في يناير سنة ١٩٣٣ ، قبض عليه وأودع في معسكر الاعتقال . ولا يزال معتقلاً حتى اليوم

مشروع أدبي ضخم

وضع أحد كبار الناشرين في السويد مشروع مباراة أدبية ضخمة ، خلاصتها أن يتقدم اثنا عشر ناشراً يمثلون كبرى الدول الأوربية ، ويقدم كل ناشر منهم أنفس ما لديه من مخطوطات كبار المؤلفين المعدة للنشر إلى لجنة من المحكمين من أكابر المفكرين ؛ وتنتخب كل لجنة مما يقدم إليها أنفس وأجمل رواية ؛ ثم ترسل الروايات الاثنتا عشرة المختارة إلى السويد وتعرض هنالك على لجنة عليا من المحكمين ، وهذه تختار أنفس وأجمل رواية من الجميع ؛ ويمنح مؤلف هذه القصة المختارة مكافأة مالية قدرها ثلثمائة ألف فرنك (نحو أربعة آلاف جنيه) . ثم تترجم إلى معظم اللغات الحية وتنشر في مختلف بلاد العالم ؛ ويقدر واضع المشروع أنه يمكن أن يجتنى من تنفيذه نحو مليون فرنك . بيد أن المهم في ذلك كله هو ما يصيب المؤلف الذي يسعده الحظ بأن تفوز قصته بالجائزة الكبرى ، فهو يغدو بالحصول عليها من أصحاب الثراء ؟

الكتب

روض الشقيق في الجزل الرقيق

ديوان المرحوم الأمير نسيب أرسلان

١٢٨٤ — ١٣٤٦ هـ

للأستاذ محمد بك كرد علي

بيت الأمراء أرسلان في لبنان عريق في النسب والأدب ، وأشهرهم في هذا العصر الأمير شكيب أرسلان أحد من أنبغتهم الشام من أرباب الأقلام ، ويليه في الشهرة الأدبية شقيقاه الأمير عادل والأمير نسيب صاحب هذا الديوان . طبعه في دمشق شقيقه الأمير شكيب وقدم له مقدمة التزم فيها السجع على عادة أهل القرن الماضي ، وعلق عليه حواشي وأردفه بترجمة الناظم ونسب العائلة الأرسلانية التي تنتسب إلى الأمير عون المتوفى سنة ١٣ هـ . وكان قد حضر وقعة أجنادين ، حضر مع خالد بن الوليد من العراق إلى الشام لنجدة أبي عبيدة بن الجراح ، وحضر الأمير مسعود المتوفى سنة ٥٤ هـ وقعة اليرموك بألف وخمسمائة من أصحابه ، وشهد وقعة قنسرين . وأرومة هذا البيت ترتقي بعد ذلك إلى المنذر بن الملك النعمان الشهير بأبي قابوس ممدوح النابغة الذبياني . وقد فصل الأمير شكيب كل ذلك تفصيلاً وافياً استغرق أكثر من نصف هذا الديوان ، وهو في ٢٧٠ صفحة متوسطة القطع ، وترجم لمن ورد ذكرهم من القضاة والدول وغيرهم ممن شهدوا لهذا النسب ، ورد على بعض المؤرخين الذين أغفلوا لمقاصد حزبية ذكر آل أرسلان في بعض المواضع والوقائع ، وقديماً قالوا : الناس مصدقون بأنسابهم .

سمى الأمير أرسلان ديوان أخيه روض الشقيق ، في الجزل الرقيق ، وذلك لجمعه بين متانة التركيب ، ورقة الشعور ؛ وفي لفظة الشقيق من التورية مالا يخفى . وقد أشار إلى أصحاب الأدب الجديد ، وهو من أنصار الأدب القديم بقوله : « لا ينبغي لناشئة العرب أن يعدلوا بهذه الأم العربية البرة أماً ، ولا يجوز أن يجعلوا لها من بين اللغات نداً ، بل يجب أن يجعلوها قطب رحى الثاقفة ، ويعلموا أنها نعم السند يوم المائنة . فلا يرتبوا أفكارهم في لغة قبلها ، ولا يضلوا في الأبانة عن ذات نفوسهم سبلها ، حتى إذا صفت لهم مشارعها ، وحنت عليهم أجارعها ، وصارت ملكتها جارية مجرى المهج من نفوسهم ، نازلة منزلة الأدمغة من رءوسهم ، كان لهم أن يستزيدوا من آداب الغرب والشرق ما شاءوا وتطالت إليه عزائمهم ، وأن يضموا إلى التلاد العربي القديم طريف البضائع ، وأن يضيفوا إلى الارث المعبد Archaïque ملى الكريم حديث البدائع ، مشروطاً في نقلها إلى خزانة العربية ، لأجل تمام القصد واجتناب الهجنة ، أن يكون الأسلوب العربي الأصيل ظلها وماءها ، وديباجة النطق بالضاد أرضها وسماءها ، وأن تكون لغة الكتاب المنزل على أفصح العرب ألفها وياءها .. »

وها كم نموذجاً من شعر هذا الأمير الشاعر من قصيدة يصف الفقير في ضنكه ويحث الموسر على إعانته ، « وهي قصيدة فذة في بابها في وصف الفقر وشدته على المرء واستجلاب الرحمة والتحنان على الفقراء والتحذير من مغبة إرهاقهم » :

رأيت سليل الفقر يعمل في الثرى ... مكباً على محرائه يتلهف
يخد أديم الأرض خداً كأنه ... له قبل الغبراء ثار مخاف
كأني به نادته للحرب فاغتدى ... يكر عليها بالحديد ويعطف
كأني به إذ فرق الترب والحصى ... يفتش هل في باطن الأرض منصف
كأني به إذ خط في الأرض قبره ... يهم على جثمانه ثم يصدف
به آية الجهد الذي ليس ناهضاً ... به بشر غض البنان مهفهف
جبين يرفض الصبيب مضمخ ... وشعر بملتص الغبار مغلف
وجيد خفوق الأخدعين كأنما ... تبينت من أوداجه الدم ينطف
رثيت لمكروب سحابة يومه ... إذا قر منه معطف ماج معطف
إذا زلزلته سرعة الخطو أوشكت ... أضالعه في زوره تتقصف
كأن أزيز الجوف عند وجيبه ... حسيس هشيم والندى يتوكف
يشقق عنه الثوب فالريح قد غدت ... تصافح منه جلده حين تعصف

وأثبت حَنىُّ الشمس فى أم رأسه … نبالاً فراش العظم منها منقف
تبطن منثور الغبار جفونه … فضرّج منها مقلة تتجسف
كأن حماة الشوك فى ذيل برده … طراز حواه العبقرى المفوّف
عدٌّ إلى الجبار كفاً تكدحت … أناملها والله بالعبد أرأف

ومنها :

وصفت لك الضراء يا صاحب الغنى … وهل تعرف الضراء من حيث توصف
هى الفقر ما أدراك ما الفقر إنما … لهات الردى منه أخف وألطف
حياة بلا أنس وعيش بلا رضى … فلا الرغد ميسور ولا العمر ينزف
بكيتك يا خلوَ اليدين بأدمعى … فأنت صريع النائبات المذفف
يروح كثير المال يسحب ذيله … وأنت المعنّى يا فقير المكلف
ألست الذى شاد الحصون بعزمه … وناط نجاد السيف للحرب يزحف
وأجرى سفين البحر فى اللج ينثنى … ومشّى قطار النار فى البيد يهذف
وقد ملأ الأنبار للخلق ميرة … وحاك لهم موشية تتغضف
بلى إن من هان المسير بكده … على الأرض مفتول الشوى متقشف
أخو فاقة لم يدخل الطيب رأسه … ولامسٌ كفيه القضيب المثقف
أفى الحق أن يشقى الفقير بعيشه … وذو المال فى شر الغواية يسرف
وأن يدنف المثرى بأعقاب بطنه … غداة خفيف الحاذ بالجوع يدنف
أما فى كبود المالكين هوادة … ولا رحمة عند الشدائد تعطف
وهل فقدت بين الأنام قرابة … يحثٌّ بها منهم عديم ومترف
أرى المرء لا يأسو جراحة مملق … ولو هزّ فوديه النصيح المعنف
أراه إذا ما نعّم الرغد جسمه … غدا قلبه يقسو لديه ويصلف
إليكم بنى غبراء تدمى عيونهم … وليس لهم إلا المياسير مسعف
يعدون نحو المحسنين أكفهم … وما يستوى المكفى والمتكفف
سألت عزيز المال حين يعوثهم … من الرمل يحثو أم من البحر تغرف
ألا إنما الحسنى اليهم فريضة … وفى ذلك الآيات لا تتحرف
فإن طلبوا الإنصاف قبل سماحة … ومن لك بالمظلوم لا يتنصف
عليكم بكشف العسر عنهم فإنما … أخو الضر يعسى ضاريا حين يهجف
فلا ترهقوهم بالشقاوة والطوى … فيبدر منهم بادر لا يكفكف
فإن لم ينالوا بالهوادة حقهم … ينالوه يوماً والصوارم ترعف
ولا تهملوا حسن الخطاب ولينه … فإن الخطاب العذب نعم المثقف
لكم عبرة فى الغرب من كل فتنة … تهز الجبال الراسيات وتخسف
فلو كان عيش للمفاليس طيب … لما قام منهم قائم متطرف

وفى الديوان كسائر الدواوين الشعرية أماديح وقصائد فى التهنئات ، ومقاطيع فى الغزل والنسيب ، وكلها من الشعر الجزل . رحم الله ناظم عقودها وأمد فى حياة ناشرها

إلى صديقى العلامة الأمير شكيب أرسلان

نعم شق علىّ يا أخى أن تلقى دلوك فى الدلاء ، وأن تكتب مقدمة كتاب « قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث » بهذا اللسان الذى ما عهده فيك من تأدبوا بأدبك ، وأكبروا عظمة بيانك . بالأمس كتبت مقدمة « النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى » للأستاذ محمد أحمد الغمراوى ، فمن منا لم يعجب بما كتبت وحبرت ، وإن كنت أطلت وتوسعت ؟ واليوم تكتب ما تكتب لقواعد التحديث ، فى فن لست منه ولا أنا فى العير ولا فى النفير ، وجئت تغالى بكتاب ليس فيه من حديثه ولا أسلوبه أسلوب المؤلفين ، ولا يستحق هذه العناية والدعاية وهذه الضجة ؛ ولكل رأيه واجتهاده

أنا أجلك عن الدخول فى هذه المآزق ، لأنك فى غنية عنها ، ولست بحمد الله محتاجا إلى مصانعة الناس ، ولا تضيت أمامك الموضوعات ، تحتاج لمعالجتها لتورثك شهرة وحسن ذكر ؛ وما إخالك إلا كتبت ما طلب منك فى غير وقت نشاطك ، وليس لك من القول ما تقول فتبدع على عادتك . ومهما كانت منزلة الكتاب وكاتبه من نفسك ، ما أرى لقلمك أن يجرى إلا فيما يصلح أن ينسب إلى احسانه ؛ وحملة الأقلام مسؤولون إذا اقتصروا مع المؤلفين والطابعين على مقارضة الثناء ، ولم يتعاودوهم بالنقد الصحيح ؛ والأفراط فى التقريظ شيمة المتأخرين من أهل عصور الانحطاط الأدبى فى العرب ؛ والنقد المفيد عادة نقاد الأفرنج فى زماننا . ومن الأمانة للعلم والأدب أن يدل كل كاتب على مواضع الخطل من كلامه ، إلا أن نغشه ونغش قراءه ، فنجسم ما صغر حجمه فى الميان ، ولا يشول مهما نفخناه فى الميزان

وأكتفى الآن بجملة من مقدمتك ، وقد بدأتها بقولك : (لا يخفى على أهل الأدب ، أن الجمال والقسام فى العربى (؟) واحد ، وأن معنى القاسم هو الجميل ، فلا يوجد إذن لتأدية هذا المعنى أحسن من قولنا « الجمال القاسمى » الذى جاء اسما على مسمى ؛ مع العلم بأن الجمال الحقيقى هو الجمال المعنوى ، لا الجمال الصورى ، الذى هو جمال زائل ؛ فالجمال المعنوى هو الذى ورد به الحديث الشريف : إن الله جميل ويحب الجمال . وعلى هذا يمكننى أن أقول إنه لم يعط أحد شطر الجمال المعنوى الذى يحبه الله تعالى ، ويشغف به عباد الله تعالى ، بدرجة المرحوم الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى ، الذى كان فى هذه الحقبة الأخيرة

جمال دمشق ، وجمال القطر الشامي بأسره ، في غزارة فضله ، وسعة علمه ، وشفوف حسه ، وزكاء نفسه ، وكرم أخلاقه ، وشرف منازعه ، وجمعه بين الشمائل الباهية ، والمعارف المتناهية ، بحيث أن كل من كان يدخل دمشق ، ويتعرف إلى ذاك الحبر الفاضل ، والجهبذ الكامل ، كان يرى أنه لم يكن فيها إلا تلك الذات البهية ، المتحلية بتلك الشمائل السرية ، والعلوم العبقرية ؛ لكان ذلك كافياً في اظهار مزيتها على سائر البلاد ، واثبات أن أحاديث مجدها موصولة الاسناد . . الخ)

بأبي أنت وأمي يا شكيب ! هل هذا بيانك الذي عرفته وعرفه فيك قومك ؟ أنا لا أطلب غير حكمك ، فلا أحتكم إلا اليك . أهذا كلام ترضاه لنفسك في كتاب يبقى ؟ وما هذا القلق في المعاني والمباني ؟ ربما اغتفر صدور مثل هذا الصدر من فتى يشدو في الأدب ، ولكن من شيخ كتاب العرب لا ثم لا !

وحديث السجع أنت عرفت رأيي فيه ، ولعلك تذكر أني كنت لفت نظرك إلى ما أسميت به كتاب رحلتك إلى الحجاز : « الارتسامات اللطاف ، في خاطر الحاج الى أقدس مطاف » وقلت لك يومئذ إن القارئ مهما بلغ من تقوب ذهنه لا يدرك لأول وهلة معنى هذا العنوان المسجوع ، إلا بكثير من إجهاد الفكر ؛ وهكذا كدت باستحسانك السجع في بعض المقامات والغلو في تقريظ من ترى تقريظه ، أن تنسينا حسناتك علينا في كلامك المرسل الكثير ، وأنا على ما تعلم من أحرص الناس على تخليده وتأبيده .

بحقك ، هل رأيت لأحد من بلغاء القرون الأولى سجعاً في شيء من أسماء كتبهم ؟ وهذا الجاحظ وابن المقفع ، وهذه أسماء كتبهما ورسائلهما ، هل وجدت لهما سجعاً تتقزز منه كصاحبك أبي اسحاق الصابي الذي أفسد اللغة على علو مكانته في الأدب بما سجع ورصع ؟ وأظنك موافقي على رأيي في أن التسجيع أضعف ملكات المؤلفين من عهد ابن العميد إلى زمن أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده الذي قضى بقوة حكومته على استعمال السجع في الصحف والرسائل الرسمية ، فعد عمله هذا أكبر حسنة من حسناته ؛ ولولا عمله ما دخلت اللغة في هذا الأسلوب الممتع الذي نقرؤه اليوم للمنشئين والمؤلفين ؛ ونرجو أن تعود به اللغة إلى رونقها السالف من الرشاقة والجزالة ، على نحو ما كانت على عهد سهل بن هرون والجاحظ وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب وابن المقفع وأضرابهم . وما أظنك تنكر علي أن رصف أبي حيان التوحيدي في القرن الرابع ، وابن خلدون في القرن التاسع ، أرفع وأمتع من تعسف الصابي والصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والقاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الأثير إلى آخر أعيان ذاك المذهب المتكلف . وأظنك موافقي أن في قولك : « وإن كان يجب حذفه (السجع) من هذه اللغة من أجل كونه في طريقة قديمة ، ومن أجل أنه عبارة عن زينة كلامية ، فان هذا يؤدي بنا إلى اقتراح حذف الشعر أيضاً » — إن في قولك هذا مغالطة لطيفة ، وفي علمك أكرمك الله أن النثر غير الشعر ، والكراهة آتية من التزيد والتكلف

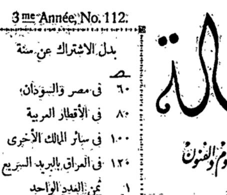
لو كنت على مقربة منك ما تركتك تقول في مقدمة الديوان الذي نشرته بأخرة ودعوته : « روض الشقيق ، في الجزل الرقيق » ما قلته في فاتحته : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ، ولا لديوانه حلية أجمل من نشره في الأقطار ؛ وخير وصف الحسناء جلاؤها ؛ والجواد عينه تغني عن الفرار . ولعمري لو وصفته بأزهار الربيع ، وأنواع البديع ، وشققت في تحليته أصناف الأساجيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما أغنيته فتيلاً ، ولا رفعته عن درجته كثيراً ولا قليلاً ؛ كما أني لو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، لا يزن له حجل ولا سوار ، ولا يتلألأ عليه ياقوت ولا نضار ، وكان هو في نفسه دراً نظيماً ، وأمراً عظيما ، وديوانا تتأرج أرجاؤه ندًّا ولطيما ، لما خفي أمره على ذوي الوجدان ، ولا تعامى عن سبقه أحد ممن له عينان . . » ولو كنت مكانك لقلت وما باليت : « . . . الذي لا أجد لشعره وصفاً أوفى من عرضه على الأنظار ؛ ولو وصفته بأزهار الربيع ، وكان هو في الواقع دون ما أصف لما اغنيته فتيلاً ؛ ولو قدمته للقراء فريدة معطالاً ، وكان هو في نفسه دراً نظيما ، لما خفي أمره . . »

أليس هذا الايجاز أوقع في النفس ، وأجمل في أداء المعنى ، وأدعى إلى الأفهام من أسجاع تثقل على الطباع ؟ ونحن إنما نكتب لنفهم ، لا لنسجع ونبهم . وبعد فمالنا والتقيد بما قاله بعض المتأخرين في معنى التعلق بأهداب السجع ، ولدينا في أقوال المتقدمين والمأثور من كتاباتهم مايحملنا على تقليدهم في أساليبهم ، يوم لا هذا الترصيع والتسجيع ، ولا ذاك الضرب المستكره من أنواع البديع

محمد كرد علي

3 me Année, No. 112 — Lundi 26-8-1935

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الادارة



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥٤ — ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

٢ ـ سعد باشا زغلول

بمناسبة ذكراه الثامنة



كانت رسالة سعد كما رأيت (الدفاع عن الحق) فى زمن خذل الحق فانتهى فيه الحكم إلى الأثرة ، وشعب جهل الحق فجرى به الأمر على الباطل . وكانت عدة هذا المحامى المذره لذلك الدفاع البلاغة والمنطق والقانون :

فالبلاغة للجمهور ، والمنطق للخصوم ، والقانون للحكومة ؛ ولست أرمى بذلك إلى تقسيم كلام الزعيم إلى التأثير المحض ، والاقناع المطلق ، والتطبيق المجرد ، فان خطبتـه فى كل موضع وفى أى

موضوع لا تخلو من هذه العناصر الثلاثة ، وإنما يظهر بعضها على بعض حين يقتضى المقام ذلك الظهور ؛ فهو يوجه التأثير بالفكرة إلى الذهن إذا هاجم الانكار والجهل ، وبالعاطفة إلى النفس إذا عالج الجمود والغفلة ، وبالنصوص إلى الذاكرة إذا عارض القوة والسلطة . ولم ير التاريخ المصرى بل الشرقى قبل سعد خطيباً بليل اللسان ، ندىّ الصوت ، طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة ، حسن السمت ، يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الاقناع والامتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الايقاع ؛ وكل ذلك فى هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة ، تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهى باهر ، ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب اللينة فتراع

***

كان سعد رجل جلاد وجدل ؛ تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدب اللسان والقلم ، وتنفّس به العمر فى ميادين الجهاد فى الحق ، فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة ، وتثقفت بالتجربة ، وتقوت بالمران ؛ حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذى ينهض بالكلام أربع ساعات متواليات لا يتلكأ ، ولا يتلجلج ، ولا يتكثر باللغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع ؛ وكأنما كانت الخطابة لطول ما زاولها تصدر عنه كما يصدر الفعل عن الطبع اللازم والعادة المستحكمة ؛ فالفكر عميق من غير إعنات ، والأسلوب رشيق من غير تكلف ، واللفظ متخير من غير قصد ، والمعانى متساوقة تختلف باختلاف العقول والميول والحال ، فتقع من قلوب سامعيها العشرين ألفاً موقع الأنداء من جفاف الأرض : هذا بالصورة الآخذة ، وذاك بالفكرة النافذة ، وذلك بالحجة الوثيقة ، وأولئك جميعاً بالبيان الملهم ، والأداء العجيب !

أكثر ما فى خطب الخطباء حنجرة وإلقاء وحركة ؛ فاذا قرأت بعد ذلك ما سمعت تبينت فيه الكلام الزائف والرأى المجازف والأسلوب المشوش ؛ أما سعد فتسمعه وتقرؤه فلا تجد بين الحالين إلا الفرق بين الخطيب الماثل بشخصه ، والكاتب الماثل بروحه ؛ ذلك لأنه يخطب كما يكتب ويكتب كما يخطب ، متوخياً فى الأمرين براعة التفكير ، وبلاغة الأداء ، وجمال الأخيلة ، وصحة الأقيسة ، وقوة الأدلة

***

كان سعد برّد الله ثراه وخلد ذكراه يحب الكلام كما يحب العمل ، وينشط بالجلاد كما ينشط بالجدل ، ويطرب للفتة الذهن كما يطرب لقهر الخصومة ، ويقدس المنطق حتى ليأخذ به من نفسه لعدوه ؛ ويقوى بالكفاح حتى ليركبه المرض والوهن إذا ما استجمّ

دخلت ذات يوم بيت الأمة فى وفد من قومى يجدد الثقة بالرئيس حين انصدع من حوله الوفد ، وائتمرت به الحكومة ، وتخشّن عليه الانجليز ، ودس له المراءون الغدر فى الملق ، ولم يبق معه إلا اعتداده بنفسه ، واعتقاده بحقه ، وثقة الشعب الأعزل به ؛ وكان فى ذلك اليوم عليلاً لا يخرج إلى أحد ولا يدخل عليه أحد ، ولكن الوفد المسافر المشوق يأبى فى إلحاح وإصرار إلا أن يرى رئيسه وإن لم ينزل ، ويسمعه رأيه وإن لم يتكلم ؛ فنزل الزعيم النبيل مدثراً بلفائف المرض يتحامل على نفسه ويتهالك على مقعده ؛ وكان فناء الدار وشارع الدار وحجرات الدار قد انفجرت انفجار عرفات بالدعاء والتلبية حين لاح وجهه الشاحب من العلة

قدّم وفدنا إلى الرئيس عرائض الثقة فى غلاف حريرى جميل ، ثم تعاقبت الخطب على الأسماع ما بين سمين وهزيل ، والخطيب المعجز جالس إلى مكتبه يصغى إلى كل خطيب ويصفق لكل خطبة ، حتى انتهى القوم ووقف هو يقول كلمة الشكر ، فبدأها بصوت خافت متهافت ، ثم ما لبث أن شبا وجهه ، واستقام عوده ، وارتفع صوته ، وتنوعت لهجته بالنبرات المؤثرة ، وتحركت يده بالاشارات المبينة ، ثم تدفق تدفق السيل الهادر ساعة كاملة هتك فيها أستار الغلول والخديعة عن سياسة الحكومة والخصوم ، فما سمع الناس كاليوم خطيباً ينطق عن الوحى ، وأسلوباً يتسامى للإعجاز ، وصوتاً يمتزج رنينه الفضى بأجزاء النفس ، وخطبة لا يظفر بمثلها البيانيون نموذجاً كاملاً للفن !

تلك صورة جانبية لناحية من نواحى فن الزعيم ، جلوناها على قدر هذه الصفحة ؛ ولعلنا نعود يوماً الى هذا الاجمال فنفصله ، و إلى هذا التركيب فنحلله

احمد حسن الزيات

القومية العربيـــة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

كثيراً ما يسألني الشبان الذين لم يشهدوا الثورة المصرية — لأنهم كانوا أطفالاً — «هل كانت حقيقة رائعة ؟»

فأقول: «لقد بلغت غاية الروعة — في حدودها. ولم يكن في الوسع أن تكون فوق ما كانت؛ ولكنها فشلت — مع الأسف — لأنا أحطنا قوميتنا بمثل سور الصين»

ذلك أني أومن بما أسميه «القومية العربية». وأعتقد أن من خطل السياسة وضلال الرأي أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بسمها غير عابئة بشقيقاتها، أو ناظرة اليها؛ ويحفقني ويستفزني أن أرى أحداً ينظر إلى مصر كأنها من أوربا وليست من الشرق. وعندي أن الجنسية الشرقية هي أساس حياتنا وتاريخنا، وأن هذه النظرة تفسد مزايانا الشرقية — إذا لم تفقدنا إياها — ولا تكسبنا مزية من مزايا الغرب؛ والعلم ينقل، وقد نُقل من الشرق إلى الغرب، ومن اليسير أن ينقل من الغرب إلى الشرق من غير أن يحاول الشرق أن يغيّر جلده أو يخسر خصائصه

وقد اعترض عليّ شاب — ذات مرة — ونحن في حديث كهذا، فقال: «وما الرأي في القومية؟ أليست حقيقة تاريخية تفرّق بين هذه الشعوب والأمم التي تريد أن تجمعها وتربطها برباط واحد؟»

فقلت له: «إن هذه القوميات المنيفة الضيقة الحدود، حديثة من الوجهة التاريخية، وهي — بحدتها الحاضرة — بنت العصر الحديث، أو إذا شئت، فقل انها وليدة الحرب العظمى، وإن كان صحيحاً أنها سبقت الحرب بنصف قرن تقريباً، بل إن فكرة الامبراطورية البريطانيـة نفسها ليست إلا بنت القرن العشرين. ولعل أكبر مسئول عن بث هذه الفكرة هو الشاعر كبلنج. ما علينا من هذا، ولنرجع إلى حديث الشرق: لقد كانت هناك وحدة وثقافة اســـلاميتان دان لهما الشرق، أو ما يعنينا منه، وظلت هذه الوحدة قائمة على الرغم من انحطاط الثقافة، ولم يمنعها أن تظل قائمة أنّ ثورات شبت، وحروباً استعرت، فان هذه أشبه بالفتن الداخلية والحروب الأهلية؛ وقد كان العلماء والأدباء والفقهاء يرحلون من بلد إلى بلد، ولا يحسون أنهم تركوا أوطانهم وتغرّبوا، ولا يشعرون أنهم اجتازوا حدوداً، وتخطوا تخوماً، تفصل بين أقطار، وتعزل أمة عن أمة. ولا تزال الحال كذلك؛ ولو جبتم هذا الشرق لما شعرتم أنكم في غير مصر — إلا من حيث التقدم المادي — وكانت اللغـة العربية هي اللسان الذي لا يحتاجون إلى اتخاذ غيره في حينما يكونون من هـذا الشرق العظيم الذي تقسمونه اليوم أمماً وشعوباً وتقولون هـذا مصري وذاك فلسطيني أو شامي أو حجازي. وعلى أن القوميـة هي اللغة لا سواها. ولكن طبيعة البلاد ما يشاء الله أن تكون؛ ولكن الأصول البعيدة المتغلغلة في القدم ما شاءت، فما دام أن أقواماً لهم لغة واحدة فهم شعب واحـد. ذلك أن الانسان لا يستطيع أن يفكر — إلى الآن على الأقل — إلا بالألفاظ. هي وحدها أداة التفكير، فلا سبيل اليه بدونها؛ ومن المستحيل — الآن — أن نتمثل معنى مجرداً عن ألفاظ تعيّنه. ولكل لغة أساليبها وطرائقها، فأساليب التفكير وطريقة التصوّر خاضعة للأساليب التي يتألف على مقتضاها الكلام في اللغات المختلفة؛ ومن هنا يتفق ويتشابه أبناء كل لغة، ويختلفون عن أبناء كل لغة أخرى؛ وهذا فرق ما بين الانكليزي والفرنسي، وما بين الانكليزي والهندي؛ وهذه فيما أظن، حقيقة علمية، ومتى كان الأمر كذلك فكيف نكون إلا عرباً كالعراقيين، والسوريين، والفلسطينيين، والحجازيين، واليمانين، مع اختلاف يسير تحدثه طبائع هذه البلاد؟»

فعاد الشاب يسألني: «وأصلنا المصري؟ وتاريخ الفراعنة ومدنيتهم؟»

فقلت له: «أكرم بهذا من أصل! وإنها لمدنية باهرة تلك التي كانت للفراعنة؛ وإن العالم كله لمدين بأكثر مما يعرف لهذه الحضـارة القديمة، ولكنها بادت واندثرت، ولم يبق منها إلا الأثر المدفون في التراب، والذي لا يمكن أن يؤثر في حياتنا

الحاضرة إلا من طريق واحد – هو إشمارنا العزة ، وحثنا على استحقاق هذا الميراث الجليل ، كما يكون الأب كريماً فيخجل الابن أن يكون كزاً لئيماً وأن يفعل ما ينافي كرم آبائه وطيب أرومتهم ؛ ولكن المدنية العربية – أو قل الإسلامية إذا شئت – لم تفن ، ولم تبد ، ولم تندثر ، ولم تفقد إلا القوة ومظاهر السلطان ، وهذه تكتسب وتستفاد ؛ ولكنها فيما عدا ذلك ، بقيت حية ، وأبقى ما بقي منها لغتها بكنوزها المختلفة ، فهي – أي المدنية العربية – عامل مؤثر بوجوده – لا بذكراه كالعامل الفرعوني . ومن الممكن هدم هذه الحواجز المفتعلة التي يقيمها الغرب ويرفع منها سدوداً بيننا وبين إخواننا »

وكثير ممن أحدثهم هذا الحديث يقتنعون ، ولكنهم يرون أنفسهم شباناً ، ويستهولون أن يوكل إلى أسنانهم الغضة توثيق ما أوهنه تفريط الشيوخ أو ضيق إدراكهم ، ولكني أنا أومن بقدرة الشباب على المعجزات ، لأن خياله أنشط ، وجرأته أعظم وعزيمته جديدة لم تنل منها الخطوب والخيبات ، وآماله فسيحة . وإذا كان الشباب لا يقدم ، فمن ذا عساه يفعل ؟ ؟

ولو أن هذه القومية العربية لم تكن إلا وهماً لا سند له من حقائق الحياة والتاريخ ، لوجب أن نخلقها خلقاً ، فما للأمم الصغيرة أمل في حياة مأمونة ، وماخير مليون من الناس مثلاً ؟ ماذا يسعهم في دنيا تموج دولها بالخلق ، وكيف يدخل في طوقهم أن يحموا حقيقتهم ويذودوا عن حوضهم ؟ إن أية دولة تتاح لها الفرصة تستطيع أن تثب عليهم وتأكلهم أكلاً بلحمهم وعظامهم . ولكن مليون فلسطين إذا أضيف إليهم مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلاً يصبحون شيئاً له بأس يتقى . وهذه البلاد ما انفكت زراعية على الأكثر ، وجل اعتمادها على حاصلات الأرض ، والصناعة فيها ساذجة محدودة ، وضيقة النطاق ، والزراعة لا تغني الأمم كما تغنيها الصناعة ، والمال عصب الحياة وسر القوة ، وأخلق بهذه الأقطار العربية أن تظل صناعاتها ضئيلة ما بقيت هي مقسمة موزعة ، لأنه لا يوافق الدول الغربية التي لها فيها سلطان أو نفوذ أن تدع صناعاتها تنشط وتنهض ، ولا سبيل إلى نشاطها إلا إذا فتحت أسواق مصر ، جاراتها الشرقية ، وأسواق الجارات لمصر ، ومعقول أن تشترى منا دول أوربا حاصلاتنا الزراعية أو ما يزيد على حاجتنا منها ، ولكن صناعتنا لا يعقل أن تجد لها أسواقاً في أوربا ، فما بها حاجة إلى ما نصنع بالغاً ما بلغ التجويد فيه ، وإنما يتسع الميدان لصناعتنا إذا وجدت سبيلها إلى الشرق ، ومثل هذا يقال عن البلاد العربية الشرقية

قد يقال ولكن هذا ليس إلا حلماً ، فنقول نعم إنه الآن حلم ، لا أكثر ، ولعله لا يتراءى إلا لآحاد يعدون على الأصابع في كل بلد ، وعسى أن تكون العقبات المعترضة والصعاب القائمة قد صرفت كثيرين عنه بعد أن دار زمناً في نفوسهم ، ولكنه ، على كونه حلماً ، ليس أعز ولا أبعد منالاً مما تحلم به أمم أخرى في هذا العصر ؛ وبالأمم حاجة إلى الأحلام ، وإلى الألحاح على نفسها بها حتى تخلد إليها وتتعلق بها ولا تعود ترى للحياة قيمة أو معنى إذا لم تسع لتحقيقها ، وإلا فلأية غاية تسعى ؟ ؟ ماذا تطلب من الدنيا ؟ وماذا عسى أن يكون مرامها في الحياة إذا لم تحلم بأمل ؟ أيكون كل ما تبغى أن تأكل هنيئاً ، وتشرب مريئاً ، وتنام ملء جفونها ؟ ؟ وهيهات أن يتيسر لها ذلك إذا هي أقصرت وكفت عن الأحلام والتأميل وما يغريان به من السعى ، وغيرنا يحلم بنا إذا كنا نحن لا نحلم بشيء ، وحقيق بنا إذا سلمنا إلى خمن أن تعود فريسة لأمة من الأمم الطامعة الجائعة

والأحلام ضرورة من ضروريات الحياة للأفراد والجماعات ، وبغيرها يمتنع السعى وتنقطع الحوافز ، وتركد الدنيا ويأسن العيش ، ومن لا حلم له ، لا أمل له ، ولا مستقبل ، فلماذا يعيش إذن ؟

ابراهيم عبد القادر المازني

مصر وقت الفتح الفاطمي

والعوامل التي مهدت لهذا الفتح

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمـــة

— ٣ —

كانت الدولة الفاطمية تضطرم بهذا الروح الوثاب ، وهذه الخلال البدوية النقية حينما اعتزم المعز لدين الله فتح مصر ، وكانت هذه الروح والخلال هي دعامة الدولة الجديدة ؛ نشأت في مهدها ، كما تنشأ معظم الدول المغامرة التي تجد في قفار المغرب خير ميدان لطالعها ونشاطها . وكانت هذه الأسبارطية[١] الصارمة تطبع تصرفات الغزاة منذ البداية ؛ وبينما كان أبو عبد الله الشيعي داعية الفاطميين وطليعة دولتهم يزحف بعصبته من البربر على بني الأغلب لينتزع ملكهم ، كان زيادة الله بن الأغلب مكباً على لهوه ومسراته[٢] ، ولم يك ثمة شك في مصير ملك يغشاه مثل هذا الانحلال في الروح وفي الخلال ؛ ولما تم الظفر لأبي عبد الله ودخل رقادة عاصمة الأغالبة ، واحتوى على تراث بني الأغلب ، عرضت عليه جواري ابن الأغلب وفيهن عدة فائقات الحسن ، فلم ينظر إلى واحدة منهن ، وأمر لهن بما يصلح شأنهن[٣] وأقام على ما كان عليه من تقشف بالغ وخشونة في المأكل والملبس ، ولم ترد اقامتــه في القصر الأنيق على اقامة القفر الساذج[٤]

ولما اعتزم المعز أن يحقق أمنية أسرته في افتتاح مصر ، استعد لذلك استعداداً عظيماً ، وحشد كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال ، وعهد بتلك الحملة الزاخرة إلى أعظم قواده جوهر الصقلي ؛ ومع أن المعز كان قوى الأمل في التغلب على مصر ، ومع أنه كان يعرف من طلائعه وعيونه مبلغ ما انتهت اليه من التفكك والضعف عقب موت كافور ، فانه لم يدخر عدة في الرجال أو المال ، واليك رواية توضح لنا ضخامة هذه الأهبة : استدعى المعز يوماً أبا جعفر حسين بن مهذب متولى بيت المال ، وهو في وسط القصر ، وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف صناديق مبددة ، فقال له : هذه صناديق مال ، وقد شذ عني ترتيبها ، قال الحسين ، فأخذت أجمعها حتى رتبت ، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين ، فلما رتبت أمر برفعها في الخزائن على ترتيبها ، وأن يغلق عليها ويختم بخاتمه ، وقال : قد خرجت عن خاتمنا وصارت اليك ، فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، وكان ذلك في سنة ٣٥٧ هـ ؛ فأنفقت جميعها على الحملة التي سيرها إلى مصر[١] ؛ ويقال إن الحملة الفاطمية على مصر بلغت نيفاً ومائة ألف فارس ، غير الجند المشاة[٢] ، وهي قوة زاخرة تقتضي لكي تقطع هذا القفر الشاسع بين افريقية ومصر بعددها وعددها جهوداً جبارة ؛ ولقد أذكى منظر تلك القوى الجرارة وأهباتها الهائلة وقت خروجها من القيروان إلى مصر في يوم من أيام ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ خيال الشاعر المعاصر ابن هانيء ، فأنشد في وصفها :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع ... وقد راعني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سد بمثــله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
الا ان هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حل في أرض بناها مدائناً ... وإن سار عن أرض غدت وهي بلقع
تحـل بيوت المال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المرفع
وكبرت الفرسان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ... ورق كما رق الصباح الملمع
فان يك في مصر ظماء لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع

ولم تمض أسابيع قلائل حتى سرت الأنباء في مصر بمقدم

(١) نسبة إلى اسبارطة من حواضر اليونان القديمة ، وقد اشتهرت بنوع من التربية الخشنة الصارمة كانت تفرضه على أبنائها منذ الحداثة حتى يشبوا جنداً أقوياء يغالبون كل ضروب الشاق

(٢) اتعاظ الحنفاء ص ٣٦

(٣) « « ص ٣٧

(٤) « « ص ٣٨

(١) الخطط ج ٢ ص ١٦٤

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ — ابن خلكان ج ١ ص ١٤٨

العساكر الفاطمية ؛ ولم يكن مشروع الفاطميين في فتح مصر مجهولاً ؛ وكان للمعز بمصر دعاة يبثون دعوته خفية ، ويبشرون بالفتح الفاطمي [1] . ولم يك ثمة ما تخشاه الأمة المصرية من هذا الفتح ، خصوصاً بعد الذي شهدته من عسف الجند العباسيين ، وطغيان الولاة المستعربين ، وما انتهت إليه شؤونها في أواخر عهد الدولة الأخشيدية من الاضطراب والفوضى ، وما توالى عليها من محن الغلاء والوباء ؛ ولقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصي هو كافور ؛ وكان لهذا الحادث الفذ في تاريخ مصر الإسلامية ، بلا ريب ، وقع عميق في جرح الشعور القومي ؛ وكانت الدولة الفاطمية تجذب إليها الأنظار بقوتها وغناها ؛ وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية ، تستظل بلواء الإمامة الإسلامية كالدولة الفاطمية ، على الاستمرار في معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية ؛ وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر ، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه.

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطمية إلى الأراضي المصرية ، اشتد الاضطراب في مصر ، وكثر الخلاف في الرأي ، فرأى جماعة من الزعماء والجند من أنصار بني الأخشيد وكافور أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف ، وأخذوا يتأهبون للقتال ؛ ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة ؛ وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبيد الله الحسيني أن يكون سفيرهم فأجابهم إلى ذلك ؛ وسار على رأس جماعة من وجوه مصر إلى لقاء جوهر ، فلقيه على مقربة من الإسكندرية ، في قرية تعرف بأتروجه ، (أواخر رجب سنة ٣٥٨) فاغتبط جوهر بمقدمهم وأجابهم إلى ما طلبوا ؛ وكتب لهم أماناً يعتبر وثيقة هامة في الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ؛ وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر « بعد أن تخطفتها الأيدي واستطال عليها المستذل ، المهينة نفسه بالاقتدار عليها ، وأسر من فيها ، والاحتواء على نعمها وأموالها ، حسبما فعله في غيرها من بلدان المشرق » وان أمير المؤمنين بادر بتسيير الجيوش المظفرة لمجاهدته وحماية المسلمين ببلدان المشرق مما شملهم من الذل واكتنفهم من المصائب والرزايا ، ثم يشير جوهر إلى ما تطرق إلى شؤون الحكم من فساد وإلى ما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب ، وإلى ما يزمعه أمير المؤمنين من إقامة العدل وتأييد الشريعة وإصلاح المرافق والشؤون ، ويختتم ببيان بعض الأحكام الشرعية الفاطمية وتوكيد الطاعة لأمير المؤمنين [1]

وفي هذا الأمان الذي أصدره جوهر لأهل مصر إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا الشام يومئذ ، وأخذوا يهددون مصر ؛ وقد كان الخطر حقيقياً لا ريب فيه ، ولو لم يبادر الفاطميون إلى احتلال مصر ، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة في يد أولئك الغزاة السفاكين ؛ بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين حتى اضطروا إلى لقاء القرامطة في أرض مصر ذاتها ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد

على أن جوهراً اضطر مع ذلك إلى خوض بعض المعارك قبل أن يفتتح مصر . ذلك أن فلول الأخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب ؛ فاختاروا لهم أميراً ، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة ؛ ولما وصل الجيش الفاطمي إلى الجيزة ألفى القوى الخشيدية تتهيأ لرده عن عبور النيل ؛ فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضاً ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم الأخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير ، ولاذوا بالفرار وتم الفتح الفاطمي لمصر (منتصف شعبان سنة ٣٥٨)

واستجاب جوهر إلى رغبة المصريين كرة أخرى ، فجدد لهم الأمان ؛ وذهب الوزير ابن الفرات ، والشريف أبو جعفر إلى لقائه على رأس العلماء والكبراء ؛ وسار جوهر في ركبه المظفر إلى عاصمة مصر في عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٠ م) » وعليه ثوب ديباج مثقل ، وتحته فرس أصفر [2] « ؛ وشق مدينة مصر (الفسطاط) ونزل في المكان

(١) اتعاظ الحنفاء ص ٦٦

(١) راجع هذه الوثيقة بنصها في اتعاظ الحنفاء — ص ٦٧ — ٧٠

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

الذى غدا فيما بعد مدينة القاهرة ، واختط العاصمة الجديدة فى نفس الليلة إيذاناً بقيام الدولة الجديدة ، وبعث البشرى إلى مولاه المعز بالفتح المظيم ، فوصلته فى منتصف رمضان ، وأنشد ابن هانئ بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر
فقل لبني العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

— ٤ —

وقامت القاهرة عاصمة الدولة الجديدة بسرعة ، وأعدت بقصورها ومسجدها الجامع (الجامع الأزهر) لتكون منزلاً ملوكياً لبني عبيد وعاصمة للخلافة الفاطمية ، وبدأ الحكم الفاطمى بمصر على يد مبعوث الخليفة الفاطمى وقائده جوهر ؛ وكان خطر القرامطة الذى أشار إليـه جوهر فى رسالته لأهل مصر يشتد ويتفاقم ، ويهدد مصر بالويل والدمار ، وملك الفاطميين بالفناء العاجل . وقد زحف القرامطة على مصر بالفعل فى أوائل سـنة ٣٦١ هـ بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم ، ونشبت بينهم وبين الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر ، معارك هائلة فى ظاهر الخندق (على مقربة من القاهرة) انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشأم . ولما رأى المعز أن ملكه الجديد قد توطد بمصر ، سار من أفريقية إلى مصر بأهله وأمواله فى ركب هائل تفيض الرواية المعاصرة فى وصف ضخامته وروعته[1] ، فوصل إلى الاسكندرية من طريق برقة ، فى ٢٤ شعبان سنة ٣٦٢ ؛ وهرع وفد من أكابر المصريين للقائه وتحيته عند المنارة ، فقال لهم « إنه لم يسر إلى مصر لازدياد فى الملك أو المال ، وإنما سار رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين وإقامة الحق والسنة »[2] . ودخل المعز القاهرة ، عاصمته الجـديدة فى أوائل رمضان ، ولما وصل إلى قصره خر ساجداً فى مجلسه شكراً لله ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل[3] ؛ وسطعت فى الحال آيات من عظمة الملك الجديد

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ .
(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ واتعاظ الحنفاء ص ٨٨
(٣) اتعاظ الحنفاء ص ٩٠

وبذا استقرت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبدأت زعامتها الدينية فى المشرق ؛ وكانت الامامة الدينية أخص الصفات التى تبدو بهـا الخلافة الجديدة ، وكان المعز لدين الله يحرص جد الحرص على صفة الامامة ورسومها ؛ بيد أن الفاطميين قدموا إلى مصر يحيط بنسبتهم وامامتهم نفس الريب الذى أحاط بهما منذ قيام دولتهم فى المغرب ؛ وقد أثيرت هذه المسألة عند مقدم المعز إذ اجتمع به جماعة من الأشراف العلويين الذين ينتسبون إلى على وفاطمة ، فسأله الشريف عبد الله بن طباطبا عن نسبه ، فأجابه المعز أنه سيعقد مجلساً ويتلو عليهم نسبه . ثم عقد المعز مجلسه بالقصر ودعا إليه الكبراء ، وسل نصف سيفه من غمده وقال لهم هذا نسبى ؛ ونثر عليهم ذهباً كثيراً ، وقال هذا حسبى ؛ فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا ![1] ، وفى ذلك ما يدل على اعتـداد الدولة الجديدة بقوتها وجاهها ، قبل اعتمادها على امامتها وهيبة انتسابها لآل البيت ، وان كانت قد اتخذت الامامة شعارها لدى الكافة منذ الساعة الأولى ، وأقامت ملكها السياسى على أسس دعوتها الدينية

وكان عهد المعز بمصر عهد توطيد ودفاع عن الملك الفتى . وكان خطر القرامطة لا يزال جاثماً فى الأفق ينذر دولة الفاطميين الجديدة بالمحو والفناء . ولم يمض بعيد حتى غزا القرامطة دمشق وانتزعوها من يد حاكمها الفاطمى . ثم زحفوا على مصر بقيادة الحسن الأعصم كرة أخرى ، فلقيتهم جيوش المعز على مقربة من بلبيس فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ وأوقعت بهم هزيمة فادحة . بيد أنها لم تكن خاتمة النضال ؛ فقد لبث المعز حتى وفاته فى معارك مستمرة فى الشأم مع القرامطة والروم ؛ بيد أنه أتيح له قبيل وفاته أن يشهد ظفره ؛ ولم يغادر هـذه الحياة ، (فى ربيع الثانى سنة ٣٦٥) حتى كانت الخلافة الفاطمية تبسط سلطانها وامامتها على المغرب ومصر والشأم والحرمين

(تم البحث) محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٧

٣ – فريزر ودراسة الخرافة

الزواج(١)

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

قد لا تكون الخرافة استولت على أية ظاهرة اجتماعية استيلاءها على الزواج وشؤونه ؛ فرفعت قدره ، ودعت الناس إليه ، وحددت قيوده ، ونظمت ما يحيط به من طقوس ورسوم ؛ فلا يكاد المرء يفكر في أن يتزوج حتى تتسرب الخرافة مسرعة إلى تفكيره هذا ، محاولة أن تعين له الزوجة التي تليق به ، وباحثة عما إذا كان نجمها يتفق مع نجمه ، وطالعها يتلاءم مع طالعه . وكثيراً ما أحيطت حفلات العقد والزفاف برقى وتعاويذ أملتها الخرافة وأحكمت وضعها . وبين ظهرانينا من هذه الخرافات الشيء الكثير ؛ « فالتبييته » ، وحساب الطالع ، وقراءة الكف ، « وضرب الرمل » ، ترمي غالباً إلى اختيار الزوجة الصالحة والشريكة اللائقة في الحياة الأسرية ؛ وإذا ما قر رأي الشاب والشابة على الزواج أسبغت عليهما الأحراز والتمائم التي تقيهما الساحر وضره والحاسد وشره ؛ فتارة يكتب لهما بالألفة والمودة ، وأخرى يحصنان مما يوقع بينهما الشحناء والبغضة . ولم تتعفف الخرافة عن التدخل في العلاقات الجنسية بين المرء وزوجه فتثيرها وتنشطها ، أو تقف في طريقها وتقضي عليها . وكلنا يعرف خرافة « الحل والربط » السائدة في قرانا ، والتي كانت ولا تزال مصدر رزق لجماعة السحرة والدجالين ، وباب شر دائم وألم مستمر للزوجين ومن يتصل بهما من أهل وأصدقاء . طغت الخرافة كذلك على الأسرة المكونة فسولت لبعض الناس أنها قادرة على أن ترد العاقر ولوداً ، وتسلب أم الأولاد نسلها وتقضي عليها بالحرمان والعقم

لم يعن فريزر في كتابه « محامي الشيطان » بدراسة هذه الخرافات المتعددة ؛ وإنما تفرغ لإيضاح نقطة واحدة هي موضوع كلمة اليوم . وتتلخص في أن الخرافة غرست في القلوب حب الحياة الزوجية وتقديسها ، وحملت الناس على احترام القواعد الخلقية والقوانين الجمعية الخاصة بالعلاقات الجنسية بين العزب والمتزوجين . ذلك أنها أثارت على الزنا والفسق حرباً شعواء وصورتهما في أقبح صورة ممكنة ، فأبعدت الناس عنهما بقدر ما قربتهم من الحياة الأسرية المنظمة . فالزنا واللواط وكل اختلاط جنسي غير مشروع كانت ولا تزال لدى كثير من القبائل الهمجية من أفحش الخطايا الخلقية التي لا يقع إثمها على مرتكبيها وذويهم فحسب ، بل يتعداهم إلى الطبيعة فيقلب نظامها ، وإلى الآلهة فيثير سخطها وغضبها . وربما أدت فعلة من هذه الفعال السيئة إلى هلاك الحرث والنسل ، وموت الزرع ، ويبس الضرع ، وسقوط المطر ، والرعد والبرق ، ونزول الصواعق التي لا تبقي ولا تذر . لذلك أضحى الزنا وتوابعه جريمة شعبية تهدد المجتمع بأسره وتعدو عليه في أهم عناصر حياته من غذاء وماء وأمن وعافية.

يزعم سكان برمانيا من أعمال الهند الصينية أن الزنا ذو أثر سيء على الحاصلات المختلفة . فإذا ساء المحصول في قرية من القرى أو انقطع عنها المطر عاماً أو عامين متتاليين اعتقد الناس أن ذلك راجع إلى ارتكاب الفحشاء التي أغضبت الآلهة . وإذا وقف البرمانيون على حادثة من حوادث الزنا ألزموا الجناة بشراء خنزير صغير يكون في سكب دمه ما يغسل خطيئتهم الشنعاء ؛ وقد جرت عادة المتقرب أن يبتهل إلى الله حين يقدم قربانه قائلاً : « إله الأرض والسماء والجبال والهضاب ، قد أجدبت الأرض من أجلي ، فلا تنزل علي جام غضبك ونذر سخطك ، وارأف بي وارحمني . هأنذا أصلح الجبال وأسوي الهضاب وأحفر الأرض وأشق الأنهار ، فاللهم رد إلينا المحصول المفقود ، ولا تضيع علينا أي مجهود ، وأخصب أرضنا ، ونم زرعنا »(١)

ويعتقد كذلك كثير من برابرة أفريقية الغربية أن الآلهة تعاقب بالجوع والخوف والقحط والجدب كل جماعة انتهك فيها عرض إذ اعتدي على محرم . ويروى أنه سنة ١٨٩٨م انقطع المطر

---

(١) نأسف جد الأسف لأن ظروفاً قاهرة قضت علينا بقطع هذه السلسلة بضعة أسابيع . ولا يفوتنا أن نشكر الأستاذ محمد روحي فيصل على كلمته الرقيقة (الرسالة : عدد ١٠٨ ، ص ١٢١٢)

(1) Mason, Journal of the Asiatic Society of Bengol, (1868) s. XXXVII, 2= partie, p. 147 sq.

عن هذه الجهات زمناً طويلا ، جفت الذرة ، واحترقت أوراق البطاطس والنباتات الأخرى . فهرع الأهلون إلى قسسهم يرجونهم أن يستكشفوا سر هذا السخط العظيم . وبعد تضرع طويل وابتهال خالص تبين هؤلاء القسس أن آلهة السماء غاضبة على سكان الأرض لسوء سلوكهم . فجمع كل رئيس أتباعه ، وأرسل فيهم العيون والأرصاد للبحث عن أصل هذه الجناية الكبرى . وقد أدى البحث الدقيق إلى إثبات أن ثلاث فتيات أبحن أعراضهن وأكلن بأثدائهن ؛ وما إن همت القبائل بمعاقبتهن حتى نزل المطر مدراراً[1] . ويزعم كثير من متوحشي سومطرة أن الزنا مجلبة للطاعون والأمراض المهلكة واعتداء الحيوانات المفترسة أمثال النمر والتمساح . وعلى الجملة فمعظم القبائل الهمجية الباقية إلى اليوم يعتقد أن كل اعتداء على العرض أو مخالفة لقوانين الزواج مصدر عقوبات سماوية كثيرة أخصها انقطاع المطر وجفاف الأرض ونقص الزرع

وليست هذه المعتقدات بمقصورة على القبائل المتوحشة ، بل إن لها أثراً لدى بعض الشعوب المتمدينة . فالإغريق مثلا يؤمنون ببعضها ويفسحون للخرافة المجال في العلاقات الجنسية كما أفسحوا لها في شؤونهم الاجتماعية الأخرى . روى سوفوكل أن بلاد تيبان أصيبت بالجدب والطاعون تحت حكم أوديب الملك الذي قتل عفوا أباه وتزوج أمه . فأصبحت القرى والحقول قفراء ، وأضحى كثير من المدن خراباً يباباً . وأعلن وحى (دلف) أن لا سبيل لرفع هذه الطامة ورد الحياة إلى هذه الأرض الموات الا بطرد المجرم[2] . وفي شرائع بني إسرائيل ما يؤذن بأن ارتكاب الفحشاء يغير نظام الطبيعة ، ويبدل سنة الله في خلقه . يقول أيوب : « الزنا جريمة شنعاء ، وخطيئة تستوجب قصاصاً لا مفر منه وناراً تأكل الشحم واللحم وتقضى على الحاصلات كلها »[3] . وفي القرن الثالث الميلادي لم تؤت الحقول الأرلندية أكلها ، فيما يزعمون ، لأن أحد الملوك تزوج بأخته[4] . وما لنا نذهب بعيداً وكثير منا يعتقد أن مرور الزاني بحقل أو وقوفه في بيدر يؤذي ثمره وينقص غلته ويذهب ببركته

أما أخطار الزنا المباشرة وأثره السيء في مرتكبيه أنفسهم ، فيكاد يسلم بها في مختلف الجمعيات الإنسانية . وكثيراً ما علل فقر الرجل وفشله في صناعته أو زراعته بفجوره وفسقه . وإذا أصاب المرء أمر أو حل به حادث ، ظن الناس أن في هـذا انتقاماً منه لجرم اقترفه أو عرض انتهكه . والأمثلة في هذا الباب كثيرة سواء لدى القبائل الهمجية أم في الأمم المتمدينة ؛ وسنكتفي بعرض بعضها . فبدو روديسيا يلعنون كل امرأة تموت أثناء وضعها ، ويتهمونها بالفجور والفسق وقتل روح بريئة لا أثم لها . وتزعم طائفة من سكان أفريقية الشرقية أن الطفل الذي يعدو على زوج أبيه يصاب بعاهة دائمة . وتقول طائفة أخرى إن المرأة تموت إن أتى زوجها الفاحشة أثناء حملها ؛ وإذا لمس أب ابنه الصغير صبيحة ارتكابه المنكر مرض ولده على الأثر . وحدث مرة أن مات ثلاثة اخوة في فترة قصيرة ، فاتهمت أمهم بالزنا مع رجم محرم . ويعتقد كثير من القبائل الهمجية أن خيانة الزوجة سبب محقق لفشل الزوج في صيده ورحلاته وحروبه ؛ وربما أدى ذلك إلى موته ؛ لهذا اعتاد كثير من الهنود ، إن خرجوا إلى الحرب ، أن يجمعوا نساءهم في صعيد واحد كي ترقب إحداهن الأخرى

فواضح إذن أن الزنا وما اتصل به ، في نظر كثير من الشعوب البائدة والحاضرة ، خطر يهدد الفرد والأسرة والجماعة ؛ فليس شره مقصوراً على مرتكبيه وحدهم ، بل يتعداهم إلى القبيلة جميعها والشعب بأسره ؛ هو جناية عامة وجريمة شعبية تصيب الأمة في أموالها وأرواحها . لذلك قسا الناس في محاربته وأنزلوا بالزناة أشد العذاب . وإذا صح أن نقيس الجريمة بما قدر لها من قصاص ، استطعنا أن نقول إن الزنا من أشنع الجرائم التي عرفها الإنسان ، ان لم يكن أشنعها . وهذه القسوة الزائدة في مطاردة الزنا والزناة سهلة التعليل ؛ فان المسألة مسألة حياة وموت ، مسألة دفاع عن مجتمع مهدد في أعز شيء لديه ، فهو مدفوع بطبيعته إلى أن يحارب من يحاول الاعتداء عليه

ومن هنا كانت العقوبات الصارمة التي أنزلتها الأمم والشرائع المختلفة بكل من استباح عرضاً أوجنى على عفاف امرأة . فقوانين

---

(١) Dapper, Description de l'Afrique, p — 326

(٢) Sophocle, Aedipe—Roi, 22 sq. 95 sq.

(٣) Job, xxxi, 11 sq.

(٤) Keating, History of Ireland, pp. 337 sq

(مانى) تقضى بأن ترسل على الزانية كلاب تنهشها جهرة تحت سمع الجمهور وبصره ، وعلى الزاني بأن يوضع فوق حديدة محماة يقلى بها قلياً [١] . وتعاقب قوانين حامورابى الزناة بالشنق والإغراق [٢] ؛ وقد كان بنو اسرائيل يحكمون على الزانى غير المحصن بالرجم ، وعلى المحصن بالقتل [٣] . ولا تزال بعض القبائل الهمجية تطبق هذه العقوبات على الزناة فى غير ما شفقة . ففى افريقية الوسطى يجلد الزانى وتهاجم حقوله ومنازله ويسلب ماله . وإذا تبين أحد الأحباش أن أخته أو ابنته ارتكبت الفاحشة قتلها جهرة وقتل عشيقها معها . ولدى الهوتينتوت قانون مشهور يحكم على الزناة بالقتل ضرباً بعصا غليظة . وقد اعتاد سكان الهند الشرقية أن يرموا الزناة فى عرض النهر بعد أن يثقلوهم بالحجارة ، فإذا استطاع أحدهم النجاة عفى عنه ، وفى سومطرة يوأد الزانى ويقبر حياً .

وهنالك نوع خاص من الفحشاء اشتد هوله فقست الجمعية فى محاربته ، وهو ما كان بين أفراد الأسرة القريبين كالرجل وزوجة ابنه ، والمرأة وأب زوجها . ولكى يدرأ خطر هذا المنكر وضعت فى سبيله عقبات كثيرة تحول دون وقوعه ؛ وهذا هو السر فى أن القبائل الهمجية تباعد بين الأقارب الأقربين ، فى حين أنها لا تجد غضاضة فى أن يختلط الأجانب بعضهم ببعض ؛ فجماعة البنتو فى افريقية الوسطى لا يسمحون مطلقاً للرجل بأن يتناول طعام العشاء مع حماته ، ولا للمرأة بأن تتمشى مع حميها منفردين ، ومن الجرم أن يرى رجل حماته تأكل ؛ وعليه أن يكفر عن هذا بمختلف القرابين ، وليس له أن يتم النظر فيها ، وإذا خاطبها وجب عليه أن يطأطئ رأسه ويغض من طرفه ، وإن صادفها على غرة أفسح لها الطريق ، وسارع إلى الغابة مختفياً كى لا تراه ولا يراها تماماً . وأغرب من هذا أن أهل سومطرة لا يبيحون للرجل أن يأكل مع صهره عارى الوجه ؛ وإذا رأى صهره فمه مفتوحاً أحس بخجل عظيم ، وتوارى فى الغابات المجاورة ، فهذه العادات والتقاليد الغريبة يفسرها شيء واحد ، وهو أن هذه القبائل تحول دون أى اختلاط يكون وراءه معصية الأقارب الأقربين

نرى بعد الذى تقدم أن الخرافة صورت الزنا والفسق بصورة شنعاء لدى كثير من الشعوب قديمها وحديثها ، وأبرزتهما فى مظهر عاملين خطرين من عوامل القضاء على الفرد والأسرة والجماعة ، وبذا استطاعت إلى حد كبير محاربتهما والقضاء عليهما . وإذا كانت الجمعية تنظر بعين السخط والمقت إلى كل اختلاط جنسي غير مشروع ، فإنها تدفع الأفراد تبعاً إلى احترام الزواج والخضوع لقيوده . وكل رأى أو عقيدة أو تشريع يحارب الأباحية هو فى الوقت نفسه سلاح قوى لتثبيت دعائم الحياة الأسرية ؟

(له بقية)

إبراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) Laws of Manu, VIII, 371 sq.

(٢) Code of Hammurabi, parag. 129,157.

(٣) Deutêrouowe, XXII,22.

البـــدر الحسنى

محدث ونحوى أيضاً

للأستاذ عبد القادر المغربى

عضو مجمع اللغة العربية الملكى

وهى الكلمة التى ألقاها الأستاذ المغربى رئيس المجمع العلمى فى الحفلة الكبرى التى أقيمت على ذكر المحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسنى والدخامة الشيخ تاج الدين رئيس الوزارة السورية ، وذلك فى يوم الثلاثاء ١٣ من أغسطس سنة ١٩٣٥ ، وقد أقيمت الحفلة فى مدرج الجامعة السورية

شيخنا البدر ، أشبه ما يكون بالبحر : فهو من أيّ النواحى أتيتَه وجدت علماً وفضلاً ، ووجدتَ ورعاً وتقوى ، ووجدت من جميل خصاله ومستحبّ أخباره مجالاً للقول ، وموضعاً للعظة ، وموضوعاً للبحث

لكنني لضيق الوقت سأقتصر من ترجمة حياته على وصف [١] طريقتنا فى الدروس التى أخذناها عنه ، تعرفون منها أنه كان رحمه الله نسخة طبق الأصل عن رجال سلفنا الصالح فى ورعهم وتقواهم ووقوفهم عند حدود الشريعة

(١) تفصيل وصف هذه الدروس وسيرة الشيخ بدر الدين فى العددين الأخيرين من مجلة المجمع العلمى.

في شهر ذي الحجة سنة ألفٍ وثلثمائة وأربعٍ وثلاثين بدأتُ بقراءة صحيح مسلم على شيخنا رحمه الله في دار الحديث الأشرفية ، وشاركني في هذه الدراسة قليلٌ من الإخوان ، حتى إذا أتممتُ صحيح مسلم وشرعتُ في سنن الترمذي ازدحم علماءُ دمشق وفضلاؤها على غرفة الدرس ؛ وكنتُ عدا ضبط الأحاديث والتعليق عليها ، ألتقطُ من فم شيخنا بالمناسبة فوائدَ تتعلق بعلم الحديث ، من ذلك قوله :

— كلُّ حديثٍ فيه لفظ (الحميراء) مثل حديث (خذوا ثلثي دينكم عن هذه الحميراء) يعنون عائشةَ رضي الله عنها — فهو دليلٌ على ضعفه .

— حديثُ (توسّلوا بجاهي الخ) : قال شيخنا اشتهر على الألسنة وهو غيرُ صحيح

— حديث : إن جبريل كان يدسُّ الطينَ في فم فرعون كي لا ينطقَ بالشهادتين استبعدتُه أنا ، وأقرّني الشيخ قائلا : (الله أعلم بصحة هذا الحديث)

— وسمعتُه مرةً يروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الْهُوا والعبوا فإني أكره أن أرى في دينكم غلظة) وبديهيٌّ أن المراد باللهو واللعب المباحان شرعاً

وبمناسبة حديث الأَمَةِ التي سألها النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أين ربكِ يا جارية ؟ فأشارت إلى السماء — قال الشيخ : (مرَّ عيسى عليه السلام برجلٍ يصلي وصنعتُه عملُ البراذع وهو يقول في سجوده : (دُلَّني يا ربِّ على حمارك لأصنعَ له برذعة من ذهب) فاعترضه عيسى . فأوحى الله إليه : (دعه فإنه يمجّدني بحسب عقله)

وكنّا أحياناً نلمح في الحديث بصيصاً من معنًى يتعلق بأحوالنا الاجتماعية ، فنريد شيخنا على التوسع في شرح الحديث ، فيأبَى تورعاً وخشيةَ أن نقعَ في باطلٍ من القول :

جاء في حديث عائشة أن جبريلَ أراه صلى الله عليه وسلم صورتَها في قطعةٍ من جيِّد الحرير . فتساءلنا في الدرس عما إذا كان هذا الحديث يدلُّ على جواز التصوير ؟ أو على جواز أن يرى الرجلُ من يَوَدُّ خِطبتَها من النساء : فيكون التصوير حاجةً من حاجات الاجتماع

فقال أحد الاخوان : مادام للرجل الحقُّ أن يرى خطيبته نفسَها فليس ثم حاجةٌ إلى رؤية صورتها . فرد عليه آخر بأنه قد يتفق أن يكون هو في بلدٍ وهي في بلد آخر فيحملُ إليه البريدُ صورتَها ، كما حمل جبريلُ صورةَ السيدة عائشة .

كان يجري هذا الحوارُ في الدرس وشيخنا ساكت . وأردناه على أن يفيدنا ما عنده في هذا الموضوع فلم يفعل ، وظل ساكتاً . واستدرجتُه مرةً إلى موضوعٍ عصريٍّ طريفٍ فأفتى به أو كاد ، ثم عاد إلى الاعتصام بالسكوت :

ذلك أنه مرَّ معنا في حديث مسلم قوله : (لِمَ ؟ أُصلي فأتيمم) ؛ فقرأتها (لِمْ أُصلي فأتيمم) واستشكلت رفع (أُصلي) ، فقال الشيخ (لِمَ) للاستفهام لا للجزم ، وأُصلي مستأنف مرفوع

فاغتنمت هذه الفرصة وقلت له : إنهم اليوم اصطلحوا على علاماتٍ يرقمونها بين الجمل ، ويسمونها علامات التنقيط : وهي نقطة ، ونقطتان ، وواو صغيرة كالضمة ، وخط صغير أفقي ، وخط آخر عمودي ، وغير ذلك مما يستعملونه في مقامات التعجب والاستفهام والوقف

فنقولُ الحديثُ (لِمَ أُصلّي فأتيمم) ؛ لو وُضعتْ علامة الاستفهام بعد (لِمَ) لقُرئت استفهاماً من أول الأمر

فهل يجوز لنا استعمالُ هذه العلامات المستحدثة في كتاباتنا كما استعمل السلف الصالح ما أحدثوه من النقط والتشكيل ؟

قال الشيخ : يجوز ، قلتُ ونستعملُها في كتب الحديث ؟ قال يجوز ، قلت وفي القرآن . قال يجوز

ثم سألني قائلاً : ولكن لماذا لم تُرْقَم هذه العلامات في كتابِ مسلمٍ المطبوعِ الذي نقرؤه ؟ قلتُ لأنه كتابٌ دينيٌّ . وطابعوه يخشوْن إنكارَ بعض العلماء عليهم فلا يباع الكتاب ، فلم يضعوا هذه العلامات ، واجتهدتُ أن لا أسميها له بأسمائها الأفرنجية مثل (Point) (Virgule) فلحظ الشيخُ أن في الأمر سراً ، فتبسم وضرَب على كتفي وقال : « الله يُصاحك » ولم يُردْ أن يُفتي بشيءٍ جديدٍ قد يمكن أن تكون فيه شائبة بدعة

إلى هذا الحد كان شيخُنا رضي الله عنه يحرصُ على سلامة الدين ويحذَر أن يتسرَّب إليه شيءٌ من البدع

ومن ذلك أيضاً أنه مرَّ معنا في الحديث نهيُ النبي صلى الله عليه وسلم عن تشييد المساجد ، وفسر ابنُ عباسٍ التشييد بالزخرفة ، فقال بعض الأخوان : المرادُ بالتشييد رفعُ بناء المساجد . فقلتُ بل الصحيحُ ما قاله ابنُ عباس من أن التشييد هو الزخرفة

وهو مشتق من (الشيد) الذي معناه الجص ، والجص مادة تزخرف به الأبنية . أما رفع بناء المساجد فأمر مستحب في عمارتها ، وذلك لكي يتخللها الهواء ويتسهل التنفس على المصلين . فالتفت إلى الشيخ وقال مبتسماً : وما دخل الهواء والتنفس في الدين والتشريع ؟ وعجب من قولي أشد العجب.

***

أما أن الشيخ كان متوسطاً في اللغة العربية ، فهذا يلحظه منه كل من أطال مجالسته ، وراجعه القول في تفسير غريب الحديث ؛ ولكنه رحمه الله ما كان يكثر من الاستشهاد بنصوص الأدباء ، ولا بأقوال الشعراء ، لما يقع فيها أحياناً من اللغو وعبث القول .

وقد سمعته مرة ينشد بنغمة حزينة :

(أيا بجد لو كان النوى منك مرة
صبرنا ولكن النوى منك دائم)

وأنشدني مرة أخرى :

صديق الصدق في الدنيا قليل
فمن لك إن ظفرت به فمن لك
لحاجته يودك كل شخص
وذاك إذا قضاها منك ملك
صديقك من إذا ما كنت منه
طلبت الروح بالتمليك ملك

وجاء يوماً ذكر طرابلس الشام وليمونها فسألني : ما معنى قولهم في المثل : (من لم يجيء بشراب الليمون يجيء بشوكه وحطبه) فتجاهلت الجواب لأسمع من فمه ولو مرة تفسير النصوص الأدبية — كما سمعت منه مراراً تفسير النصوص الدينية .

ففسره لي قائلاً :

المراد بشوكه وحطبه قضبانه وعيدانه . والمعنى من لم يجيء باللين واللطف ، يجيء بالشدة والعنف

وأنشدني يوماً قول الراجز :

(التمر والسمن جميعاً والأقط
الحيس إلا أنه لم يختلط)

فاعترضت بأن الحيس هو حلوى للعرب تكون مختلطة من التمر والسمن والأقط الذي هو ضرب من الجبن فكيف يقول الشاعر (لم يختلط) . ثم قلت للشيخ لعل صحة الرواية في البيت هكذا : (لكن شرطه أن يختلط) . ثم راجعت كتب اللغة فوجدت رواية البيت كما قال شيخنا رحمه الله ورأيت علماء اللغة استشكلوا البيت كما استشكلته أنا . وأجاب بعضهم على هذا الاشكال بجواب لم يعجبني .

ومن عادة شيخنا رحمه الله أنه إذا طلب منه أحد إجازة بالعلوم تمنع وتمثل بقول القائل

(ولست بأهل أن أجاز فكيف أن
أجيز ولكن الحقائق قد تخفى)

وأنقل من مذكرات شاعرنا (خليل بك مردم) — وكان رفيقي في درس صحيح مسلم — هذا الخبر الذي يتعلق بي ، وقد أنسيته أنا وهو : أنني قرأت يوماً على الشيخ عدة أحاديث يدل ظاهرها على تقدم إيمان أبي طالب . فأطبقت الكتاب بين يدي وسألت شيخنا عن حقيقة ذلك وأبيت إلا كلمة صريحة منه يطمئن إليها القلب في إيمان عم النبي صلى الله عليه وسلم . فامتعض الشيخ من إلحاحي ، وقال سبحان الله يا شيخ عبد القادر أنت كاتب وأديب ، أما سمعت ما قاله (أبو طالب) مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم

ودعوتني وزعمت أنك ناصح
ولقد صدقت وكنت ثم أميناً

فأنت تسمع أبا طالب يقول لابن أخيه (ولقد صدقت) ثم تستشكل ؟

فسررت يعلم الله بجواب شيخنا كما سرني استظهاره للشعر القديم واستحضاره له حين الحاجة اليه

ولا عجب أن يكون شيخنا لغوياً ، فانه لا يكاد يوجد محدث إلا وهو لغوي ، ولا لغوي إلا وهو محدث ؛ لأن المحدث لا يمكنه أن يفهم معاني أحاديث الرسول إلا بعد فهم معنى كلماتها اللغوية ، واللغوي لا ترسخ قدمه في اللغة مالم يستظهر الجم الكثير من أحاديث الرسول ، تكون له عدة في الاستشهاد بها حين الحاجة فاللغوي المتقن محدث ، والمحدث المتقن لغوي

وشيخنا الذي يحفظ على أقل تقدير خمسة آلاف حديث

يحفظ على أقل تقدير ألف كلمة لغوية بشواهدها من كلام النبوة

فأنتم ترون أن بين شيخنا البدر ، وبين مجمعنا العلمى العربى نسبةً موصولةَ السبب فى خدمة لغة العرب

هو (رحمه الله) كان ينشر اللغة العربية بواسطة دروسه المشهورة ، ونحن ننشرها بوسائطنا المجمعية المعروفة

أذكر أنه زارنى يوماً فى دار المجمع العلمى ، فأجلسته فى صحن المدرسة ، خشية أن يرى فى ردهتها صُوَر المتوفين من أعضاء المجمع ، معلَّقةً على جُدرانها ، فيمتنع عن الدخول كما هى عادته

وبعد أن استقرَّ به المجلس سألنى : وماذا تصنعون هنا ؟

قلت : إننا يا مولانا نشتغل فى خدمة اللغة العربية ونشرها وفى ذلك خدمة للدين الإسلامى ونشره .

وإذا أحدُ تلاميذه (اللطفاء) يلمس كتفه من ورائه ، ويشير إلى التماثيل الحجرية المنصوبة فى أحد أركان المدرسة ، فقال لى الشيخ : وما هذه التماثيل ؟ وأشار إليها بأصبعه

فشعرتُ إذ ذاك بخطورة الموقف ، وبصعوبة الاعتذار عن وجود تماثيلَ فى صحن مدرسة دينية اسلامية ؛ غير أن الله ألهمنى جواباً تضمَّن حقيقــةً معقولة ، لكنها ويا للأسف منسيةٌ مجهولة

فقلت : إن هذه التماثيل تجمع فى دور الآثار للاستدلال بها على تاريخ الجاهلية الأولى ، ويدخل فى ذلك عبادة تلك الأمم للتماثيل ، وإرسالُ الرسل لانقاذهم من تلك العبادة ، كما كان من نبينا صلى الله عليه وسلم مذ أنقذ أهلَ الجاهلية من الشرك ، وصقَلَ نفوسهم بصقال التوحيد

ولكننا اليوم نرى الناسَ قد أغفلوا دراسة هذه الناحية من تاريخ الأمم القديمة ، ونسوا نعمةَ الله عليهم بالبعثة المحمدية ، حتى إذا رأوا هذه التماثيل فى المتاحف تذكروا النعمة ، وحمدوا الله عليها

قلتُ هـذا وسكتُ منتظراً ماذا يقول الشيخ ؟ فلم يقل إلا خيراً وتبسم ودعا لى وللمجمع

رَحِمَ الله شيخنا البدر ، وأثابه عن حياته الصالحة بأجزل الأجر . . . ؟

المغربى

استعطاف

بقلم رفيق فاخورى

هواكِ عن هذا الوجود شاغلى   والوجدُ منذ غبتِ عنى واصلى
إبعثْ مَوَاتَ خاطرى بزورةٍ   واخطُ خُطا الظلال فى الخمائل

واحملْ إلى قلبى الكليم باسماً   وشافياً من عطفكِ الممنَّع
ما سرّنى أنَّ النعيم قسمتى   إنْ لم تكن فى ناظرى ومسمعى

لأنتِ حسبى من ضياء إن دجا   يومى ، وحسبى من هدًى فى حيرتى
رُدَّ على عينى جلاءها ومُرْ   يسطعْ مُحيّاكِ على دُجُنَّتى

وينحسِرْ عن مقلتى سهادُها   يا طالما منعتها رقادَها !
عِدْنى أعشْ إلى غدٍ بنظرةٍ   غائبةٍ كم أخلفتْ ميعادَها !

وبَسْمةٍ تُفحمنى ولم تَقُلْ   شيئاً ، وإنما البيانُ فى الصُّوَرْ
إذا علَتْ ثغركِ فدّاها الحشا   بدَمِه ثم مشى على الأثر

وهمسةٍ أرقَّ من نَفْحِ الصَّبا   تسكنُ فى أذنىَّ ما عاش الهوى
تألفُها جوارحى فكلُّها   أذنٌ ، وينزاح عن الصدر الجوى

يا مُنيةَ الولهان صِلْ بعد النوى   أوْ لا فخُذْ قلبى وخُذْ لسانيا
هذا شـــغلتَهُ بذكرٍ دائمٍ   وذاكَ قد أسهرتَهَ اللياليا

حمص   رفيق فاخورى

طموح

للأستاذ محمود غنيم

خليليَّ هل للمجد حدٌّ فأنتهى   إليه لقد طال العبورُ ولم أرْسِ
مآربُ تترى ، كلما نلتُ مأرباً   تنازعُنى عنه إلى غيره نفسى

فلا النفسُ إن أبلُغْ تقفْ عند غايةٍ
ولا هى إن أخفِقْ تُرخِّنى باليأس
كذلك أشقى ما حييتُ فإن أمت
فيا ليت شعرى ما ورائى فى رمسى

محمود غنيم

وراثة العبقرية

«نشرت مجلة (ألشهر) الفرنسية بحثا طريفا في وراثة العبقرية استعرض فيه كاتبه أحدث النظريات العلمية في هذا الموضوع.. فآثرنا نقله إلى قراء الرسالة»

شغلت مسألة وراثة العبقرية طائفة كبيرة من العلماء والفلاسفة منهم جالتون وموبياس وزيبو ولمبروزو وكرتشمر وغيرهم من الباحثين.

وهذه المعضلة تبدو في أشكال مختلفة : تبدو أولا كحالة خاصة من معضلة الوراثة على العموم. إذ ما هي الآثار التي يتركها الآباء والأمهات؟ وبأي الأشكال تظهر؟ وما هي الآثار النسبية في تكوين الشخصية للوراثة المجردة من جهة، وللبيئة والتربية من جهة أخرى؟ وهل أثر الوراثة دائم أو غير دائم؟ وهناك وجهة نظر أخرى تعتبر العبقرية والذكاء شذوذاً إذا قورنا بحالة الشخص العادي.. وكثيراً ما يصحب هذه العبقرية وهذا الذكاء فقدان في التوازن الجسماني، وغالباً في التوازن النفسي. كذلك قد تصحبهما حالة جنون.

ولأننا نعلم أن عدداً من هذه الأمراض ينتقل بالوراثة، كان لنا أن نتساءل عن صدى هذا الاتجاه المزدوج : وراثة العبقرية، ووراثة الاضطراب العصبي أو المرض.

إن مما لا شك فيه أن (في بعض الحالات) تكون العبقرية أحياناً وراثية. وقد ظهر ذلك جلياً في كثير من رجال العلم والموسيقيين والمصورين والشعراء وكبار الكتاب.

فبين العلماء استطاع جالتون أن يجد أسراً كان بها عالمان وأحياناً ثلاثة أو أربعة أو خمسة، وأحياناً أخرى أكثر من ذلك.

ووجد موبياس ٢١٥ أسرة اتفق فيها أن كان الأب والابن وافري الاستعداد الرياضي، (بين هذا العدد ثلاثة وثلاثون والداً لكل منهم أكثر من ابن واحد موهوب). وقد وجد هذا الاستعداد في ثلاثة أجيال متتالية سبع عشرة مرة، وبين خال وابن أخته عشرين مرة : وبين أبناء العم مرتين، وبين أشقاء أو شقيقات ١٣١ مرة، وبين أكثر من شقيقين ثلاثة وعشرين مرة.. وكان العالم الفلكي الكبير (دومينيك فرانسوا آرجو) له ثلاثة أشقاء وولدان كلهم موهوبون في استعدادهم الرياضي. وكانت أسرة برنولي Bernouilli أعظم أسرة علمية عرفها التاريخ مما دفع الأستاذ دوبليه الفلكي بمرصد بوردو أن يخصص للكتابة عنها كتاباً صدر عام ١٩٢٩ وسماه Les Bernouilli et le Bernowillienum وفي هذا الكتاب ذكر الأستاذ دوبليه أن أسرة برنولي شغلت كرسي العلوم الرياضية في جامعة بال — مسقط رأسها — مائة عام وثلاثة دون انقطاع؛ وبقيت أكاديمية العلوم في باريس تحوي أحد أفراد أسرة برنولي مدة واحد وتسعين عاماً متوالية

وكما نرى أثر الوراثة بين العلماء نراه أيضاً بين الشعراء. وقد وجد جالتون اثنين من العباقرة في الشعر بين أسر : بيرون وشنييه وجوته وهين وراسين. . . . وثلاثة أو أربعة في أسر : أسكيل وارستوفان وكورني وملتون. . . . وخمسة أو ستة في أسرتي كولردج ووردثورث. . .

ووجد جالتون اثنين من الكتاب والأدباء في كل أسرة من أسر بوسويه وشاتوبريان وشامبليون وادجاربون ومل. . . الخ وثلاثة أو أربعة في أسر بنتام وبوالو وفينيلون ولسينج وسفيني، وخمسة أو أكثر في أسر فيلينج وما كولي وشليجل وستايل وغيرها.

وبين الموسيقيين نجد أسرتي باخ Back وستروس Strauss هما الأسرتين اللتين ظهر فيهما أكبر عدد من الموسيقيين. ويبدأ تاريخ أسرة باخ عام ١٥٥٠، واستمر يظهر منها الموسيقيون الموهوبون ثمانية أجيال متعاقبة؛ وكان من عادة هذه الأسرة أن يجتمع أعضاؤها المغرمون بالفنون مرة في كل عام؛ فكان يصل عدد المجتمعين أحياناً إلى مائة وعشرين فناناً؛ وقد ذكر فتيس Fétis أن هذه الأسرة حوت سبعة وخمسين موسيقياً منهم تسعة وعشرون كانوا في عداد النابغين

على أننا لا ينبغي أن نخرج من هذه الحقائق بأن العبقرية (دائماً) وراثية. إذ أن توارث العبقرية محدد ببضعة أجيال فقط، كما أنه ليست هناك قاعدة عامة لتوارث العبقرية. بل بالأحرى هناك استثناء. ويمكن أن نقول أكثر من ذلك وهو أن العبقرية الحقيقية دائماً منعزلة، أو كما يقول لوردا Lordat : (إن العباقرة هم أطفال لقطاء ورجال أعزاب) Les génies sont des enfants trouvés et des célibataires. ويقصد بذلك أن الطبيعة تمحي حين يخلق العبقري

ولو كانت العبقرية تنتقل بالوراثة دائماً لكان من الضروري أن توجد (أجناس) معينة من العباقرة . وهذا ما لا وجود له . (إن العبقرية حادث فجائي يكون أحياناً وراثياً) Le génie est un accident, qui est parfois héréditaire.

وقد ذكر لومبروزو الملاحظة الآتية : (إذا وضعنا جانبا عدداً قليلاً من الحالات الاستثنائية كالتي نجدها في أسر دارون وكانيتي وبرنولي وسان هيلير وهيرشل ، وجدنا أن العبقري لا ينقل إلى ذريته إلا اتجاهاً حقيقياً يعظمه في عيوننا الاسم المجيد !)

إن أبناء العباقرة هم في الغالب مخلوقات عادية بل أقل من العادية . ويقول ج . موردو دوتور : (إن الملاحظة العامة ترينا أن غالبية أبناء الرجال العباقرة ليسوا فقط أقل من آبائهم ، بل هم كسائر الناس البادين) ، وقد أكد ألكسندر تاسوني Alexandre Tassoni أحد كتاب القرن السابع عشر أنه كثيراً ما يحدث أن ينجب آباء عباقرة أبناء عظيمي الغباوة ، وآباء شديدو الغباوة أبناء علماء . واستشهد على النوع الأول بأبناء أفريكان الكبير وأنطوان وشيشرون ومارك أوريل وسقراط . ويعتقد أوسوالد الكيميائي الألماني الشهير أن أبناء الرجل العبقري لابد أن يكونوا أقل منه

وذكر تاسوني رأي أحد العلماء المعاصرين له وكان يفسر النقص في كثرة أبناء الرجال العباقرة بقوله : (في الرجال العظام تتجمع معظم القوى الحيوية في المخ كيما تقويه وتبعث الحياة والعنف في القوى الفكرية . ولهذا السبب يكون الدم والخلية باردين ضعيفين . والنتيجة أن يكون أبناء أولئك الرجال وخصوصاً الذكور أغبياء)

وهناك حقيقة أخرى هامة فيما يختص بوراثة العبقرية ، وهي أن هناك ظواهر من الجنون والاضطراب العصبي تحول دون وراثة هذه العبقرية . ذلك أن العبقري تصحبه غالباً أنواع خاصة من الأمراض النفسية . وكثيراً ما يلاحظ المرض العقلي عند سلف وخلف الرجل العبقري . ومن المعلوم أن الجنون ينتقل غالباً وبكثرة شديدة في الأجيال القريبة . وحالات الجنون الوراثي في ثلاثة أجيال متعاقبة عديدة جداً . وكان الجنون فيها في الغالب من نوع واحد . والآن ، أليس هنا تشابه — وإن لم يكن كاملاً — بين وراثة العبقرية ووراثة الجنون ؟

وقد ذكر موردو دوتور أن بين طبقات المجتمع التي تحوي أكبر عدد ممكن من الرجال الممتازين بذكائهم الشديد يوجد أيضاً أكبر عدد ممكن من المجانين . وقد لاحظ كل علماء النفس أن هناك عدداً من المجانين لهم أقارب يتميزون بذكاء تتفاوت درجاته . من ذلك أوليمبيا أم اسكندر الأكبر التي كانت امرأة فاسدة الخلق ظاهرة الوضاعة . وكان أب الاسكندر داعراً إلى أقصى حد . وكان الاسكندر نفسه مصاباً بحالة عصبية في كوعه . وكان شقيقه أريدوس — الذي قتل بأمر أوليمبيا — أبله معتوها

وكان ابن برناردين دوسانت بيير ، وإحدى بنات فكتور هوجو ، ووالد وأشقاء فيلمان ، وشقيقة الفيلسوف كانت ، وشقيقة هيجل ، وغيرهم وغيرهم كانوا جميعاً مجانين . وكانت شقيقة ريشليو تتصور أن ظهرها من البلور ، وكان شقيقه معتوهاً . وكان والد الموسيقي بيتهوفن مدمناً الخمر ، وكان الشاعر بودلير نفسه نصف مجنون . وقد كتب يقول : (إن والدي اللذين كانا إما معتوهين أو مجنونين قد ماتا ضحيتي جنون فظيع) وكان والد الشاعر الأمريكي الشهير ادجار بو شديدي الإدمان لتعاطي المشروبات الروحية

وكانت تحدث لشاتوبريان حركات تشنجية في ذراعه ، وكان دائم التفكير في الانتحار ، وكان أخوه نصف مجنون ؛ وكان والد بلزاك غريب الأطوار ، وكذلك كان بلزاك نفسه ، وكانت جورج صاند شديدة الانقباض والحسرة وهي في السابعة عشرة من عمرها ، وقد حاولت الانتحار فيما بعد عدة مرات . وقد كان والدها يشبهها من هاتين الناحيتين . وكان كثير من أقارب هوفمان مجانين . أما هوفمان نفسه فقد أصابه الخدرَف لطول استسلامه للشراب ، وكان يتصور أمام عينيه أشباحاً ويصيبه من جراء ذلك الرعب الشديد ، فيطلب من أمه أن تجلس بجانبه . وكانت خالة هيرتز مجنونة وأخته شديدة الكآبة ؛ وقد جن ابنها

وكان أثر الوراثة المرضية بارزاً في لورد بيرون . إذ كان أبوه رجلا فاسد الخلق وقحاً . وكانت أمه غريبة الأطوار متكبرة طائشة . كذلك كان شوبنهور وارثاً لما كان عليه من غرابة الميول واضطراب الأعصاب . فقد كانت خالة جدته وجدتها مجنونتين . وكان أبوه تنتابه نوبات قوية من الغضب المتزايد والهم

الدفين الذي يكشف عن نفسيته المريضة

وكانت أسرة الفيلسوف رينان – الذي كان يعذبه اضطراب أعصابه – تسودها أنواع مختلفة من الجنون؛ وكان عمه مأفوناً. وقد قضى حياته في التصعلك حتى وجد ذات ليلة ميتاً على قارعة الطريق. وكان جد رينان شديد الوطنية عظيم الاخلاص، ولكنه فقد عقله عام ١٨١٥م نتيجة هم ألم به. وقد أصبحت بلدة تريجوبير التي ولد بها رينان ممتلئة بالمجانين وأنصاف المجانين نتيجة إكثار أهلها من زواج بعضهم ببعض.

فماذا كرنا يظهر أن العبقرية ليست محدودة. وأنها لا تمتد إلا لأفراد مخصوصين، فلا بد اذن من أن نعترف أن هنالك شيئاً آخر غير الوراثة المجردة. إن العبقري يظهر في الأسرة في لحظة معينة ولا يمكن أن يظهر قبل ذلك. كذلك قد يتبعه وقد لا يتبعه عباقرة آخرون. والأب العبقري قد يكون له ابن عادي، وقد يكون هذا الابن غبياً، وإذا استمرت الأسرة في إنتاج عباقرة كثيرين فان هذه الظاهرة تقف بعد بضعة أجيال كأن الطبيعة قد نالها الرهق والضنى. وأخيراً كثيراً ما يحدث أن يحل الجنون محل العبقرية ويكون ذلك راجعاً إلى نوع خاص من الوراثة متأثر بعوامل غير وراثية

وقد قال البعض: إن الوراثة والبيئة يتعاونان معاً بنشاط على إيجاد العبقري، إذ أن (الوراثة) لا تنتج في الرجل إلا (ما يمكن أن يكون) وليس ما سيكون، أما آثار الوسط وحدها فهي قادرة على تحويل الاحتمال إلى أمر واقع. على أن (الوسط) لا يكون تأثيره بعد الولادة فقط، بل إنه يؤثر في الشخصية المستقبلة قبل الولادة، وذلك بطرق مختلفة.

ولقد عملت أبحاث في جلاسجو عن علاقة عدد المواليد بالذكاء فظهر أن عدد المواليد يزيد عند الرجال الأقل ذكاء، كذلك الأنثى يتكاثر عددها كلما قلت الكفاءة العقليـــة عند أعضائها.

إن العبقرية شذوذ وشرود عن الحالة العادية، وهي بلا شك اضطراب أكيد؛ هي حادث فجائي، وكذلك الجنون، وهذا الحادث الفجائي قد يرجع إلى حالة الوالدين قبل الحمل أو إلى اضطراب يصيب الجنين، فما يحدث للوالدين قد ينتج عند الطفل نوعاً من الشذوذ النافع، وقد ينتج تشوهاً في خلقته، أو يؤدي إلى التحام الجنينين بعضهما إذا كانت الأم تحمل اثنين: وهـذا الشذوذ قد ينتقل بدوره بالوراثة. على أن انتقاله يكون بدرجة محدودة ولبعض أجيال فقط، والاضطراب الذي يحـدث في حالة عدم استمرار التحام الجنينين قد يكون أثره فيما بعد إما أن ينتج عبقرية وإما جنوناً، أو اضطراباً في الأعصاب؛ وقد تجتمع الحالتان معاً. وأخيراً قد تتبع كل منهما الأخرى، أي أن يجمع الشخص أحياناً صفات العبقري ومواهبه، وأحياناً أخرى اضطراباً في الأعصاب يجعله أشبه ما يكون بمجنون حقيقي

وهناك أنواع من الشذوذ تنتقل أحياناً بالوراثة، وأحياناً لا تنتقل، مثل الحول، وقصر النظر، وصغر أحد أعضاء الجسم أو كبره أكثر من الحد الطبيعي؛ وأحياناً يكون هناك اتجاه نحو مصادر الانسان الأولى. وقد تكلم عن ذلك ريبو في كتابه عن (الوراثة) إذ ذكر أن أسرة كلبورن كان بها شـذوذ الست أصابع Sexdigitisme (أي زيادة أصبع في اليد أو في القدم) وقد استمر هذا الشذوذ في الأسرة مدة أربعة أجيال

والآن، أليس هناك تشابه بين الشذوذ الجثماني والشذوذ العقلي الذي يسمى العبقرية والذي تكون فيه الوراثة أيضاً محدودة؟ ذكرت مدام ناجوت ولبو كفتش أن سيدة كانت تتبع عبثاً وسائل لاجهاض نفسها، فعند ما وضعت الطفل في ميعاده المعتاد كان هذا الطفل قوي البنية ولكنه كان أبله. وكانت والدة (كاردان) قد حاولت إجهاض نفسها أيضاً عدة مرات دون جدوى، وكانت النتيجة أن أصبح الطفل الذي ولدته وهو (كاردان) عبقرياً فذاً؛ وقد تكون محاولة السيدتين كلتيهما إجهاض نفسيهما ليس هو السبب الحقيقي، لكن هذا التشابه كاف لأن يرينا كيف تنتج حالات الشذوذ التي تسمى بالعبقرية. والتي هي وراثية ولكن إلى درجة محدودة

إذن ماذا عسى أن يكون قانون هـذا الشذوذ؟ ذلك ما لا يعلمه أحد. ومنذ بضعة أعوام قال الأستاذ ج. هكسلي إنه قد يمكن في المستقبل أن يجعل كل طفـل عبقرياً بتغيير بعض غدده، وقد يكون ذلك حلماً خيالياً. على أن مجموع الحقائق المعروفة تثبت أن في تكوين العبقرية قانوناً ينتج (شذوذاً) خاصاً. فمن يدري؟ قد يستطيع الانسان في حالة فهم هذا القانون ودراسته أن يصنع العبقرية ما؟ (...)

دراسات في الأدب الانكليزي

٤ – وليم وردزورث
William Wordsworth
بقلم جريس القسوس

تتمة

الحركة الابتداعية

أما أبطال هذه الحركة فهم : الفيلسوف الشهير كانت في ألمانيا ، والكردينال وسلي في بلاد الانكليز ، وروسو في فرنسا . ولا غرو في أن الأخير كان فارس هذه الحلبة وسيد زعمائها في مختلف البلدان . فقد نادى بالرجوع إلى الطبيعة ، وبسيطرة العاطفة على أعمال الانسان ؛ ونظريته في التربية تتلخص فيما يلي : « ترك غريزة الانسان وجسمه وقواه العقلية تنمو في مجراها الطبيعي ، وذلك بنبذ قيود المدنية الحاضرة ، والتقرب من الطبيعة »

وبعد مرور نحو ربع قرن على وفاة فيلسوف الثورة رجع شاعرنا صدى صوته في إقليم البحيرات ، وأصبح حامل اللواء (الرومانتيكي) في بلاد الانكليز . وتمتاز هذه الحركة بسمو مقام الرجل العادي ، فقد أصبح موضوع الأدب بدل الرجل الارستقراطي ؛ وهذه الميزة تظهر بجلاء في قصص سرولتر سكوت ، ودكنز ، وفي معظم قصائد شعراء القرن التاسع عشر ، وتشجع هذه الحركة حب الأطفال وتقليدهم لأنهم – كما أسلفنا – أقرب إلى الفضيلة من الشيوخ . ولقد رأينا شيئاً من هذا في أشعار ورد ذورث ، وظهر شيء منه في نثر « لامب » وخصوصاً فصله المشهور : « أطفال الحلم » ، وفي أشعار سونبرن أحد شعراء القرن التاسع عشر المتأخرين . وتمتاز أيضاً بالولع بالحيوانات الأهليـة منها والبرية ، وبحب القصص التي تدور حوادثها على الحب والحرب ، خصوصاً ما كان منها شائعاً في العصور الوسطى ؛ والتي بطلها الرجل العادي لا الارستقراطي . ومن أهم مظاهرها شيوع الدين والتقوى ، والتأمل والبحث في أسرار الكون ، والخروج على العادات المألوفة ، والتمرد على الهيئة البشرية . ولقد اتخذ الأدب سلاحاً لمحاربة سخائف الحضارة وقيودها ، ومن أهم أبطال هذا المظهر بيرون وشلي وكيتس . وتتميز هذه الحركة أيضاً بالتقرب إلى الطبيعة وانتزاع الموضوعات الأدبية منها ، والابتكار في اختيار الموضوع ، والتفنن في التعبير عنه ، لا النسج على منوال الأقدمين كما هو شائع في العصر الكلاسيكي

وإذا ما ألقينا نظرة على شعر ورد ذورث ألفيناه يمثل الأدب (الرومانتيكي) أصدق التمثيل ، وما يصدق على شعره يصدق على آرائه ونزعاته ، وخاصة في مستهل جهاده الأدبي ، حينما كان من أنصار الثورة الفرنسية التي كانت ثمرة فلسفة روسو بطل الحركة الابتداعية

زواجه ، كهولته ، منتهى حياته

تزوج وردزورث سنة ١٨٠٢ م من ماري هتشنسن ، من تلك العائلة التي كان يكثر من التراداد عليها . ويروى أنه أراد أن يتفر زلته مع خدينته « أنيت فالون » قبيـل إقدامه على الزواج ، لهـذا شرع في استرضائها بشتى الوسائل ، والظاهر أنه نجح في ذلك . والذي نعلمه أن (أنيت) هذه لم تلاق جفاء ومضضاً في عيشتها ، وأن ابنتها زُوجت من أحد السراة . وفي قصيدة للشاعر موضوعها « على الشاطئ قرب كاليس » يخاطب ابنته هذه ويرنم بها بكل وداد وحنان . على أن هـذه القصة لا تزال طي الخفاء ولم يتكشف لنا منها إلا الشيء القليـل .

والباحث في ترجمة حياة وردزورث وتحليل عبقريتـه يود لو أنه ذكر لنا تلك الحادثة بالتطويل شارحاً بذلك عواطفه نحوها وحبه لها قبل وبعـد وقوعه في الجرم . لو فعل الشاعر ذلك لوفر على الباحث الشيء الكثير من الحدس ، ولأنار لنا هذه الناحية المهمة من حياته غير تارك بذلك مجالاً لتقول المتقولين ، وإشاعات المشيعين

ولقـد وجد في زوجته امرأة سامية الخلق عالية المدارك شديدة العطف والاحساس ، لا تقل بذلك عن أخته دوروثي . فلا عجب أن رأينا دوروثي تخلد إلى الراحة بعد أن أدت واجبها إلى أخيها ونحو الأدب بكل أمانة واخلاص ، إذ رأت في امرأة أخيها خير خلف لها . ولقد خلد الشاعر اسم زوجته هذه في قصيدة موضوعها « هي مثال الرضا She was a Phanthani of delight »

وفي سنة ١٨٠٨ ورده نعي أخيه يوحنا ، فقد مات غرقاً في أحد المراكب التي كان يتولى إدارتها . فكان ذلك باعثاً للحزن والأسى في نفسه . وعلى أثر موت شقيقه نظم قصيدة خالدة عنوانها « أخلاق المجاهد السعيد The charaitei of the Happy warrior » مشيراً فيها إلى أخيه وحياته الحافلة بجليل الأعمال ؛ ولهذه القصيدة

من الشهرة ما جعل الانكليز والأمريكان يتلونها في مآتمهم ، فيجدون في ذلك ما يعزّي النفوس ويسرّي عنها الأحزان .

وفي تلك السنة أيضاً انتقل الشاعر وامرأته وأولاده الأربعة إلى الآن بارك إلى بيت رحب الفناء جميل الشكل حيث أتم قصيدته : (النزهة) . هنالك افترق الشاعران الصديقان كولردج ووردزورث ، وذلك على أثر تعريض وردزورث بصديقه ووصمه إياه بالجنون الناجم عن إدمانه الأفيون ؛ فكان لهذا أثر بليغ في نفس كولردج لم يطق بعده العيش معه ، وبانتهاء صداقتهما انتهت حياتهما الأدبية الخصبة ، ويندر أن تجد بين عيون قصائد وردزورث واحدة نظمت بعد ذلك الافتراق .

وفي سنة ١٨١٨ انتقل شاعرنا إلى بيت مجاور لاحدى الكنائس حيث توفي اثنان من أولاده ، إلا أنه لم يمكث هناك طويلاً ، بل رحل سنة ١٨١٧ إلى بيته الجميل في (كديل ماونت) حيث أتيح له أن يلتقي بشخصيات ذات أدب جم ومكانة اجتماعية سامية ؛ ولقد قام برحلات شتى أهمها إلى أواسط أوربا ، وأخرى إلى سكوتلندا ، وعلى أثر رحلته الأخيرة نظم خمس عشرة قصيدة تفيض بذكريات الطفولة وأحلام الشباب ، منها قصيدته المشهورة (الحصاد المنعزل) .

ولقد لبث طيلة هذه المدة مكلوم الفؤاد ، حزين النفس ، لما حل به من المصائب والويلات العديدة ، ولما كان يلاقيه من جفاء وجحود في الأوساط الأدبية ، غير أنه حدث في سنة ١٨٣٩ ما طيب نفسه وسرّى عنه شجونه وهمومه ، وشجعه في مبدئه ، فقد عرّفه كيبل Keble أحد أركان أساتذة كيمبردج إلى إحدى الشخصيات الكبرى في البلاط ، وأشاد بذكره أمام ذوي المناصب السامية ، فذاع صيته بين الخاص والعام ، وأحرز مركزاً رفيعاً في الأدب لا يقل عن مركز ملتن .

وفي سنة ١٨٤٢ منحته الدولة مرتباً سنوياً مقداره ٣٠٠ جنيه تشجيعاً ومكافأة له ؛ وبعد موت روبرت سوذي سنة ١٨٤٣ عرض عليه منصب شاعر الدولة ، فرفضه في بدء الأمر لبلوغه الثالثة والسبعين ، وقيل لأنه رأى صعوبة وعناء في نظم قصيدة في كل سنة يلقيها في عيد ميلاد الملكة كما جرت العادة قبله ، غير أن رئيس الوزراء مستر روبرت بيل عاد وبعث إليه بكتاب نقتطف منه ما يلي : «لما كانت صاحبة الجلالة توليك ثقتها الغالية فبادر بقبول هذا المنصب ، وكن عند أملها فيك . وإنها لتتوخى بعملها هذا أن ترفعك إلى المركز الذي يليق بعقليتك الأدبي والاجتماعي ، ما دمت في رأيها ورأي الجميع سيد الشعراء الأحياء على الإطلاق ؛ فلا ترفض هذه النعمة» .

وبعد ما اطلع وردزورث على هذا الكتاب الرقيق قبل هذا المنصب السامي فتوّج بإكليل من غار ، وأصبح خليفة ملتون الأوحد ، ولم ينتج بعد تبوئه هذا المركز الرفيع شيئاً خالداً ، بل استولى عليه الخمول منذ زواجه ، ومنذ أن بدأت الحكومة تمده بمعاش سنوي كاف . ومن القصائد المشهورة التي نظمها بعد ذلك الأوان واحدة ضمنها ولاءه وشعوره نحو صاحبة الجلالة قدمها إليها مع نسخة من ديوانه .

وفي سنة ١٨٤٧ م توفيت ابنته (دورا) فعجلت بذلك وفاته . وكانت وفاته في الثالث والعشرين من ابريل (في اليوم الذي توفي فيه شكسبير) من سنة ١٨٥٠ م ، وهكذا خمد ذلك النفس الذي كان يلتهب عاطفة وعطفاً على الفقراء وولعاً بالطبيعة

ولقد دُفن جثمانه في كنيسة في (قراسمير) - حسب طلبه - في حضن ذلك الوادي الذي نشأ فيه وترعرع ، وبه تغنّى ، وبذكره أشاد .

ولقد أقيم له نصب تذكاري من رخام في مقبرة الشعراء في (وستمنستر أبي) يحيط به أنصاب تذكارية لكيبل وأرنلد وكتجرلي وموريس ، ونقش على هذا النصب الكلمات التالية :

«لذكرى وليم وردزورث الشاعر الملهم والفيلسوف الكبير الذي وُهب عقلاً نيّراً ، ولساناً غنياً ، ليتحدث إلى الطبيعة والبشر ، الذي لم يأل جهداً في نشر الفضيلة والكمال ، والذي تغنّى وأشاد بذكر البسطاء والفقراء ، فذاع صيته بين العام والخاص ، وأصبح رسول الحق وربّ الشعر . لذكراه يشيد أصدقاؤه والمعجبون بأدبه هذا النصب التذكاري ، لينطق بنبوغه على مدى الأيام»

الكرك — شرق الأردن

جريس القسوس

مصادر هذا البحث

1 George Harper's W. Wordsorth, Life, Work and Influence
2 Zeitlin's Hazlit on Eng. Literature: ch. X
3 Wordsworth's Poetical Works: Students Camb. Edition
4 Goss' English Literature; Vol. IV
5 Cazamian's Eng. Literature; P. 1034 ff
6 Oliver Elton's Survey of Eng. Literature; Vol. II; P. 49 ff
7 Moody and Leavit's English Literature; P. 273
8 Wordsworth's Preface to Lyrical Ballads

صور من التاريخ الإسلامي :

عبد الله بن الزبير

(١ — ٧٣ هـ)

بقلم محمد حسني عبد الرحمن

تتمة ما نشر في العدد الماضي

وقد يكون من الانصاف للحق والتاريخ أن نثبت هنا آراء غيره، ممن عاصروه، في أسباب طلبه هذا الأمر، وأنهما كه فيه : يروي السمودي أن ابن عباس كان يقول « أما والله ماعرفت عبد الله إلا صنواماً قواماً ؛ ولكني مازلت أخاف عليه منذ رأيته تعجبه بغلات معاوية الشهب ؛ وكان معاوية قد حج فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء، عليها رحائل الأرجوان، فيها الجواري الحسان، عليهن الثياب معصفرات، ففتن الناس بموكبه »

وقال ابن الزبير لامرأة عبد الله بن عمر بن الخطاب : إنني لم أخرج ولم أطلب الخلافة إلا غضباً لله وللمسلمين من أثرة معاوية وابنه، فهم يستأثرون بالفيء دون الناس، ويستحلون محارم الله . قال هذا وسألها أن ترجو زوجها في مبايعته ؛ فلما جاء زوجها ذكرت له ابن الزبير وعبادته وجهاده، وأثنت عليه قائلة إنه يدعو إلى طاعة الله عز وجل وأطنبت في مدحه، ثم طلبت من زوجها أن يبايعه ويؤيده، فأجابها ابن عمر « ويحك ! أما رأيت البغلات الشهب التي كان يحج عليها معاوية قادماً إلينا من الشام ؟ قالت، بلى ! قال والله ما يريد ابن الزبير بعبادته غيرهن !! »

فهذان اثنان من أقطاب الرجال في عصره، ومن ذوي الشرف والفضل والنزاهة في المسلمين، يقرران أنه ما يبغي إلا الدنيا، وأنه يتخذ من العبادة سلماً يرقى به إلى قلوب الناس، ليسا عدوه على قضاء مآربه في الخلافة

والذي يمكن أن نستنبطه من ظروف الحوادث في ذلك العصر، أن سعيه وراء الخلافة كان مبنياً على طائفة من الأسباب إذا راعيناها جميعاً، أمكن التوفيق بين وجهات النظر المختلفة ؛ فقد أراد أن يلي أمور المسلمين، ليحقق نزعته ويشبع رغبته، وليعدل في المسلمين، فيرد الأمور إلى حالتها الأولى، ويقيم الأمر بالقسط ؛ فكأنه كان يبغي بذلك أمري الدنيا والآخرة معاً

ومهما يكن الداعي إلى طلبه الخلافة، فإنه كان كفؤاً لها، وقد واتته الفرصة، التي لبث يترقبها زمناً، بموت يزيد وابنه معاوية الثاني، ولم يبق في السفيانية من يقوى كاهله للقيام بأعباء الخلافة ؛ وحينئذ نرى عبد الله يهم بالعمل الجريء، فهو رجل الساعة، والظروف المهيأة تنتظر منه الوثوب والظهور، وقد كان ذلك ؛ إذ دعا لنفسه على منبر الحجاز سنة ٦٤ هـ، ولم تلبث الدعوة الجديدة أن سرت في أنحاء العالم الاسلامي ؛ فخطب له على كافة المنابر (بالعراق وخراسان والحجاز والشام) سوى بعض جهات بالشام كان هواها ما زال أموياً

وهنا تقوم عقبة شاقة أمام الخليفة الجديد ؛ فأهل الشام الذين لم يبايعوا قد أخذتهم نعرة العصبية لبلدهم، فيمشي بعضهم إلى بعض، وفيهم الرؤساء والقواد يتشاورون ويقلبون الأمر على كافة وجوهه، حتى لا يفلت الملك من أيديهم، ولا يخرج السلطان من بلدهم ؛ ثم يسفر اجتماعهم وتشاورهم على أن يبايعوا المروان، وإن لم يكن سفيانياً فإنه أموي ؛ وهو بعد أرشد القوم وأحزمهم وخير من يسند إليه هذا المنصب من أهل هذا البيت، في مثل تلك الظروف ؛ ولكن الضحاك بن قيس ومعه جنده يعارض هذه البيعة بشدة، يريد أن يتم الأمر لابن الزبير، فتقع الحرب بين الفريقين بالشام، وتلوح بشائر النصر للضحاك، فيعمد مروان الداهية إلى الحيلة « كما فعل معاوية مع علي سابقاً » ويطلب الهدنة، ثم ينقض بجنده على جيش عدوه بغتة، فيشتتهم، ويقتل قائدهم الضحاك (بمرج راهط) . وبهذه الهزيمة تنطفئ دعوة ابن الزبير بالشام، وتقوم الراية المروانية تخفق في ربوعه

ولو أن الضحاك ساعده الحظ وانتصر في مرج راهط لتغير أمر الخلافة، ولحيت الدولة الأموية في أول عهدها، وانقلبت سلسلة التاريخ الاسلامي، فرويت على غير وجهها الذي تروى عليه اليوم

***

بعد هذه الموقعة أضحى للمسلمين خليفتان ؛ أحدهما بالحجاز، والثاني بدمشق، ولكن مروان تعاجله المنية بعد قليل، فيلي الأمر من بعده ابنه عبد الملك سنة ٦٥ هـ . وكان عبد الملك حازماً

وفيه صرامة ، وله عزيمة ورأى سديد ، ولكنه مع هذا كله رآه يهيب ابن الزبير ، لما ثبت له في قلوب الناس من المكانة ، ولأن كثرة الأقطار الإسلامية تؤيده . فكر عبد الملك في الأمر طويلاً ، ثم طفق يعد للحرب عدتها ، فأخذ يحشد الجنود ، ويعرضها بنفسه ، وعنم أن يحسم هذه المشكلة الخطيرة التي بينه وبين منافسه ؛ فيحسن بنا أن نتركه قليلاً يستقر في منصبه الجديد ، وينظم جيوشه ، ويرى رأيه ، لننظر ماذا يفعل الخليفة الآخر مع الوفود التي كانت تأتيه من أنحاء البلدان وأقاصى الأمصار ، لتقر بخلافته ، وتجدد بيعته ، وتطلب منه العطاء وتظهر له حسن استعدادها لنصرته وتأييده ، ولنرى في الجملة سياسته مع جنده الذين هم عماد خلافته وسند دعوته

جاءه مصعب أخوه بجماعة من أعيان أهل العراق ، بعد أن مهدها ، وملك زمامها ، وخاطبه قائلاً : «لقد جئتك بوجوه أهل العراق ورجالاتها ، ليؤكدوا لك البيعة ، وليأخذوا منك العطايا !» فيدعوه حرصه أن يمنعهم العطاء ويقول لأخيه : «إنما جئتني بعبيد أهل العراق ، يستنزفون بيت المال ؟ لوددت أن لي بهم صرف الدينار بالدرهم ! ! » . وكان هذا الرد طعنة نجلاء أصابت قلوب أهل العراق ، فزلزلت خلافته ولما تزل في مهدها ؛ وما فتيء يجرى على هذه السياسة ، سياسة الحرص والشح بالمال ، مع التأنيب والزجر ، وعدم التشجيع بالكلمة الطيبة ـ ولقد بالغ في تقتيره على الجنود أيما مبالغة ، فكان أحياناً يقتصر على إطعامهم التمر مع التقتير في صرفه لهم ، فإذا فروا أنبهم بقوله : « أكلتم تمري ، وعصيتم أمري !» حتى قال فيه شاعرهم :

ألم تر عبد الله ، والله غالب على أمره ، يبني الخلافة بالتمر !؟

وكان بدعوه حرصه أن يقول : ماذا عسى أن أنتفع بالدنيا ، وإنما بطني شبر في شبر ؟ ويقول المسعودي : أظهر عبد الله الزهد وملازمة العبادة مع الحرص على الخلافة ، وشبر بطنه . وليس من شك في أن سياسة التقتير التي نهجها هي سياسة عاجزة ، لا تنتج إلا الهزيمة وسقوط الدعوة ، وضياع الأمر ، فلا يسعنا إلا أن نقول إن هذا موطن ضعف كبير ، ما كان ليليق بطالب الخلافة ، ولا سيما إذا وجد أمامه مزاحماً قوياً ، وخصماً عنيداً كعبد الملك بن مروان ! ! إذ كيف يبذل الجنود في سبيله الدماء ، ثم يضن عليهم بالعطاء ؟ إن هي إلا الهزيمة الكبرى ! وإذن فقد جنى على عبد الله بخله ، حيث صرف عنه القلوب ، فتحولت الوجوه إلى الخليفة الآخر ، يجدون فيه ملكا يكثر العطايا ، ويكرم الوفود ، ولا يعز الدرهم والدينار ، بل يجود بالدنيا لتقبل عليه الدنيا ؛ اتجهت قلوب الناس إلى عبد الملك ، وشخصت أبصارهم إلى بريق نضاره ، فلما أنس بهذا ، ووثق بضعف عدوه من هذه الناحية ، توجه يقود جيشه الكبير إلى البصرة — وكانت لعبد الله مركز قوته ، كما كانت الحجاز موطن دعوته — فلاقى بها أخاه مصعباً ، ودارت بينهما رحا الحرب ، فقتل مصعب ، وهزم جنده ، واستولى عبد الملك على العراق حصن الدعوة الزبيرية . وفي الحق أن عبد الملك ما قتل مصعباً ، وإنما أرداه وهزم جيشه حرص أخيه على الدنيا ، حرصاً نفر منه القلوب ، فأسلمه أهل البصرة : وفروا إلى صفوف العدو ، فقل ناصره ، وراح ضحية التقتير وسوء التدبير

لم يبق بعد هذا إلا أن يلتقي القرنان ويتصادم الجيشان بالحجاز . فلندع عبد الملك ينظم أمر العراق الذي دخل في حوزته بعد النصر ، ولنتركه له فرصة يجهز فيها جيشاً آخر ، تحت إمرة قائده الجبار الحجاج بن يوسف الثقفي ، ليلقي به عبد الله في الحجاز .

لندع كل هذا جانباً لنشاهد موقف بني هاشم من خلافة ابن الزبير ، وما صنع هو معهم بالحجاز !

كان ابن عباس وابن الحنفية وغيرهما يعلمون من قبل طموح عبد الله إلى الخلافة ، وينكرون عليه في أنفسهم ، بل كانوا يستكثرون عليه ذلك ، ويرون أنه ليس أحق منهم بالأمر (وإن كان أحق من مروان وابنه) وكانوا يرون أن الذي يدفعه إلى هذا إنما هو الجشع والحرص على المظاهر الدنيوية (وقد ذكرنا حكاية البغلات الشهب عن ابن عمر وابن عباس) — لذلك لم يبايعوه ، فحنق عليهم ، وضيق خناقهم ، حتى إنه فكر في الخلاص منهم ، فحبسهم في شعب عارم ، وجمع حولهم حطباً كثيراً ، وهددهم بالاحراق ، وكاد يقضي عليهم ؛ ويقال إنه ما فعل هذا إلا خوفاً من تفرق الكلمة ، واختلاف الناس ، كما فعل عمر مع علي لما تأخر عن مبايعة أبي بكر ، فقد هدده كثيراً

ولقد لجأ ابن الزبير إلى النفي عقاباً لمن تخلف عن بيعته ،

فأخرج محمد بن الحنفية من مكة والمدينة ، ونفى ابن عباس إلى الطائف ، وبهذا العمل العدائي مع بني هاشم ، واضطهاده لهم ، ضم سبباً جديداً قوياً إلى أسباب خذلانه ، وإفلات الأمر من يده ، فكان بذلك مجانباً الحزم والسياسة الرشيدة

***

ويسير الحجاج ذلك القائد العنيد إلى الحجاز ، فيستولي بعد مناوشات قليلة على جبل أبي قبيس الذي يطل على مكة ثم يحاصر البلد الحرام ، فتتعطل مشاعر الحج ، حتى إنه هو وجنوده وقفوا بعرفات ولم يطوفوا بالبيت ذلك العام ، وطاف عبد الله ومن معه بالبيت ولم يقفوا بعرفات ؛ وطال الحصار حتى سئم أهل مكة ؛ ويقول الطبري إن الحجاج حصره ثمانية شهور ، ولم تزل الحرب بينهما حتى تفرق عنه عامة أصحابه ، وخرج أهل مكة إلى الحجاج بأمان ، ولم يصبر مع ابن الزبير سوى نفر قليل ممن بايعوه على الموت دونه

وفي يوم عصيب ، من أيام الحصار الرهيب ، يدخل عبد الله على أمه أسماء ، فيدور بينه وبينها حوار رائع ، يعرض عليها حاله وما آل إليه أمر أصحابه ، ويطلب مشورتها ، فتبذل له النصح ، وتحثه على الاستمساك بما ولاه المسلمون ، وأن يدافع عن حقه إلى آخر قطرة من دمه ، وألا يقبل من عدوه خطة يصحبها الذل ، وتقول له في عبارة حماسية مؤثرة : « والله يا بني لضربة سيف في عز ، خير من ضربة سوط في مذلة » وتلهب هذه النصيحة ، وتثير نخوته ، فيخرج إلى العدو في قلة من صحبه ، وفي كثير من جلده وإيمانه ، وقوة عزمه ؛ وحينئذ نقرأ في جهاده واستبساله أروع صفحة للبطولة الكريمة ، والدفاع عن الحق المهضم ، صفحة يتجلى فيها البلاء الحسن ، والصبر الجميل والاعتماد على قوة اليقين ، مع ضعف العدة والعدد ، ووفرة العدو وإحاطته ، وتمكنه من ناصية الموقف . ملك الحجاج عليه أبواب المسجد الحرام ، وحاصره فيه ، فبات يصلي ليلته ، ثم أغفى قليلاً ، وقام يصلي الفجر ، ولما انفتل من صلاته أخذ يستعد للنزال ليرمي آخر سهم في كنانته ، وليموت بعده شهيد الوفاء لمبدئه ، ثم قال لمن معه : « يا آل الزبير ! لو طبتم لي نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب ! أما بعد فلا يرعكم وقع السيوف . . . غضوا الأبصار عن البارقة ، ولا يلهينكم السؤال عني ، فلا يقولن أحدكم أين عبد الله ! . . . ألا من كان سائلاً عني فاني في الرعيل الأول ، احملوا على بركة الله . . . »

وبعد أن بث الحمية في قلوب من حوله ، وألهبهم حماسة ، حمل على عدوه بسيفين صارمين ، يضرب بهما معاً ، فيهزم الداخلين عليه من هذا الباب ، ثم لا يلبث أن يتكاثر الهاجمون على الباب الآخر ، فيصمد لهم ، حتى يولوا الأدبار ، فيوقع بهم ، وهو يقول : « يا له من نصر ، لو كان له رجال !! »

لو كان قرني واحداً أرديته أوردته الموت وقد ذكيته !

ولم يزل يضرب القوم بصارمية ويشتت شملهم ، حتى قذف بحجر ضخم أصابه بين عينيه فخر صريعاً ، وتكاثر الجند على البطل المضرج بدمه الحرام ، في المسجد الحرام ، واحتزوا رأسه ولم يرعوا فيه ديناً ولا رحماً

وكان مصرع البطل الشهيد سنة ٧٣ هـ بعد أن أدرك وطره وسلم الناس عليه بالخلافة زهاء تسع سنوات ، كانت كلها خطباً واستعداداً ، وحرباً وجهاداً

***

وبعد فهذا بطل صنديد ، وخليفة شهيد ، نرى في طلبه الخلافة ، وتعريض نفسه للمخاطر ، إبان تلك الظروف العصيبة حدباً على المسلمين ، وأنفة أن يسامو الخسف من بني أمية ، ونوعاً من التضحية في سبيل الجماعة ، كما نلمح في نفسه نزعة سامية ، وشرفاً وشجاعة ، لا نجدها في كثير من رجالات عصره ، فلقد كان هو رجل الوقت بلا منازع ، لم يتوقع بنو أمية الوثوب الظافر عليهم من غيره ؛ ولقد صدقت فيه فراسة معاوية

والحق أن خلال عبد الله منذ تنشئته كانت ترشحه وتعده للخلافة ، ولكن لأية خلافة ؟ للخلافة المتقشفة الحريصة على أموال المسلمين أن تنفق في غير وجهها ، لا تلك الخلافة المترفة التي تنغمس في النعيم ، وتغمرها أبهة الملك ومظاهر السلطان ؛ ولو لم يرن عبد الله بطرفه إلى هذا المركز السامي ، لكان ذلك غريباً عن طبعه ، مناقضاً لنشأته ، وعلو همته وطموحه ؛ فلنسجل له ثورته العنيفة الدامية على من طلبوا الملك والدنيا باسم الخلافة الاسلامية العتيدة

(ميت غمر) محمد حسني عبد الرحمن

نحو الفجــــر

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

المقــدمة :

إن الذى يأمل للانسانية فجراً تنجاب فيه ظلمة الضيم والغدر ، يرى فى فجر كل نهار رمزاً له ووعداً به ؟ فيتعلل بهذا الرمز وينتظر إنجاز الوعد آملا أن النومة التى يحدث فيها للانسانية كابوس من الأضغان والأذى والتنابذ والكيد ، والاستهتار فى العبث بالحق ، يكون فيها أيضاً نسيان لخصالها الوضيعة يدركها من طريق سنة النوم فتستيقظ فى خلق الحق والخير (الناظم)

***

أرقتُ فطال الليل أم طال بى عمرى ... كأن انجياب الليل فى موعد الحشر

كأنى فى لج من الليل غارق ... سوى هدأة لم تُلفَ فى لجج البحر

كأنى غريب من حراك لواعجى ... بعالَم صمت غاله الصمت من سحرْ

كأن غصون الدوح فى حندس الدجا ... رءوس ثكالى أرسلت أسود الشَّعر

كأن النجومَ الغانياتُ ترهّبتْ ... تبيت طوال الليل تعبد فى دير

أو الفلُّ مزروعاً بحقل بنفسج ... وكاللازورد الأفق رُصِّع بالدر

أو أن ثقوباً فى جدار زبرجد ... تَطلَّعُ منها الغيد يشرفن من خدر

أقلب طرفى بينها ، متفهماً ... تفهُّمَ معنى اللفظ فى صفحة السِّفر

كأن الدجا ديرٌ به البدر راهب ... جميل المُحيّا حوله هالة الحبر

كأن صقيعاً قد كسا الأرضَ نورُه ... أو أن عليها أبيض الطهر مايمرى

كأن فراشاً أبيضاً مدَّ نُورُه ... مهاداً لروح أو شنا كامن السحر

أما يذهل الراؤون من سحر ضوئه ... وقد تحسب الأحلام تسرى وما تسرى

وإن تلكُ أحلامٌ فأوهام خاشع ... عراه جلال الحسن فى الليل والبدر

أيحلم هذا الدوح فى سحر ضوئه ... فقد نحلته من هدأة النوم فى أسر

كأن حفيف الدوح أضغاثُ حالم ... أو ان حديثاً بينه خافت السر

أدور بعينى لا أرى غير ساكن ... فأين احتيال الناس بالغدر والمكر

وأين نشاط القوم للهو والهوى ... وأين مساعى الناس فى الخير والشر

ألا ليت نسياناً كذا النوم ساقياً ... يدير لهم كأساً ألذ من الخمر

لتذهلهم عن كل شر وفتنة ... فيستيقظ النُّوَّامُ فى خلق الطهر

خواطر آمالٍ أسلّى بها الدجا ... وتمضى مُضىّ الليل أو طيرة الطير

فلما تقضّى الليل وانجاب جنحه ... رأيت صباحاً يصبغ النبت بالتبر

تَشُوب اخضرارَ الروض صفرةُ ساطع ... من الضوء مثل الغيد فى حلل خُضْر

كما تينع الأثمار شاب اخضرارها ... لدى النضج لونٌ فى غلائلها الصُّفْر

كأن نبات الزهر من نبت جنة ... رمى مَلَكٌ من أفقها الأرضَ بالبذر

أظل وطرفى فى مدى الأفق ذاهل ... أحاكَ عليه الفجر وشياً من السحر

ويرنو إلىَّ الفجر من خلف ظلمة ... بنور كما شَقَّ الرمادُ عن الجمر

كأن نماتاً فى الدجا أهلك الدُّنا ... فتبعث فيها الروح فى وضح الفجر

كأن كيان الكون يخلق ثانياً ... فإن انفجار الفجر كالخلق والنشر

تخال تباشير الصباح أزاهرا ... أذا ما بدت فوق الشجيرات كالنَّوْر

فيختلط الزهران حسناً ومنظراً ... ويزداد نِظْرُ الحسن من مشهد النِّظْر

تحدِّث أنباء السماء بمشرق ... من الضوء مثل الرُّسْل تُبْعَثُ بالخير

تبادهنا منها محاسن جمة ... كما باده الأذهان من حسن الفكر

تفض ختام النفس عن كل ذكرة ... وكم ذِكَرٍ فى الضوء والزهر والعطر

تذكرنا الآمال والحب والصِّبَى ... كأن رواء الصبح ضرب من الشِّعر

كذلك يغدو منظر الحسن ذكرة ... وخاطرة فى النفس تُسعِدُ فى الضُّر

وتستيقظ الأرض النُّؤُوم إذا اخنا الصـ ... ـباح عليها يلمس الثغر بالثغر

كما استيقظ الطرف المُغَمَّضُ بعدما ... أريق عليه ساطع من سنا البدر

تحن إليه النفس من بعد ظلمة ... فتحكى حنين الطير تهفو إلى الوكر

ترى الصبح يجلو النهر كالقين سيفه ... ويذكى الندى فوق الشجيرات كالدر

أطلُّ بأفكارى على النهر مثلما ... لدُنْ هدأة يحنو النبات على النهر

تصب عليه الشمس رقراق عسجد ... فيعلو لجينَ النهر نهرٌ من التبْر

ترى تارة فى متنه الماء راجفاً ... كما ارتعدت أبشار غيدٍ من القُرّ

وتحسب أن النهر يشعر بالذى ... يعالج من حاليْه فى القر والحر

ترى النهر مثل العين سحراً وبهجة ... ويُملأ مثل العين بالصُّوَر الكُثْر

يموج بسر الحسن لونٌ مجدد ... ولولاه ما ألفيت فى الكون ما يغرى

وأروعه ما كان منــه فجاءة ... فجاءة صبغ النهر من سُحُبٍ حُمْر

وليس رواء الكون فى الصيف وحده ... فرب شتاء ناثر أيما ذُخر

جلال يريح النفس من بعد رونق ... نصيبك من سحرين فى الحر والقر

على أن ذكرى الصيف فيه جلية ... ففى النهر من ذِكْرٍ وفى الروض من ذكر

المثل الأعلى في السينما — حياة عبقرية متألمة

اللحن الذى لم يتم

Symphonie inachevée

للأستاذ خليل هنداوى

— ١ —

قد يكون الإقبال على هذا الفلم الناطق بالألمانية ضعيفاً ، لأن مخرجه لم يترك مجالاً للمادة تعبث بالفن ، والمصلحة تغلب على العاطفة ، والعبث تسطو يداه على « مثل أعلى » ألفته عبقرية — أقامت في الأرض عمرها — بمداد روحها ودماء قلبها . على أن هـذه الحياة قد فسدت ، ولم يبق خالصاً ظاهرها ولا باطنها ، فالقوم قد لجأوا من صراع المادة المستحوذة عليهم ، وهم الذين تركوا لها مجال التسيطر ، تفر المادة منهم ، وهم إليها يفرون ! وقد آل بهم هذا الصراع الدائم إلى أن يمحوا عن جوهر الحياة الذي وضعته الحياة على أبنائها يوم كانت ، فهم من صراع إلى صراع ، ومن نزاع إلى نزاع ، لا ترتاح لهم جنوب ولا تستقر مضاجع . أحلامهم طافحة بالعراك كيقظاتهم ، وليت شعرى لم هذا العراك ، وليت فيه هذا النزوع إلى محجة الحياة ، فهم مضطرون إلى تهدئة أعصابهم المجنونة وقلوبهم الثائرة باللهو واللعب ، يطلبون اللهو متى انتهوا من جدهم ، ويتوخون العبث متى خرجوا من دائرة عملهم . لهو كثير وجد كثير تذوب بينهما حياة شفافة في سبيل الحياة البهيمية ! وقد شعرت السينما بتعب الانسانية وأحست بضناها ، فأحبت أن تسفهها في جهادها ، وتريها ومضات تلمع وتخبو في جنبات « الشاشة البيضاء » . فهي تتشبث بالألحان والحسان ومظاهر الخيال الذي لا ينطبق على حقيقة ، لتفرّج عن هذه الانسانية المنكوبة ، ولكنه دواء من ينقش الشوكة بشوكة ، ويُنير للشمعة سبيلها بذوبها . لأن مثل هذه الألحان المضطربة والنجوم الساطعة الخابية سرعان ما تفقد تأثيرها لأنها لم تصب هدفاً معلوماً ولم تطرق نهجاً مرسوماً .

قد تكون السينما للأدب حليفة وقد تكون عدوة ، لأنها تريد أن تهضم « الأدب » وتبلع زاد العقل لتجعله للناظر عن طريق العين ، فهي مساعدة للأدب على خلق « المثل الأعلى » ؛ وباعثة في الأرواح مختلف الأشواق والحنين إلى ربوع « المثل الأعلى » ، ولكن من المخرجين من لا يبالي بهذا المثل ولا يسمع صوته ، لأنه يريد أن يقبض على عيون الناس وجيوبهم ، وهذا هو الأديب التاجر ، ومنهم من يؤمن بهذا المثل ، ولكنه لا يجد الفرصة سانحة لمثل هـذا النوع ، فهو يُلقى الومضة إثر الومضة لأنه لا يقدر أن يتبرأ من كل ما يجيش في صدره ، ولكن أكثر بضاعته بضاعة يرضى بها رؤساءه ، ورؤساؤه يفرضونها ليكسبوا بها جنوداً ونقوداً ، وهـذا هو البائس المداري ، ومنهم من بلغ إيمانه بالمثل الأعلى مبلغاً عظيماً ، يخرج من الروايات ما تؤمن به روحه ، ويخلق فيها شيئاً جديداً متدفقاً لأنه يمثل بقلبه لا بيده ، وهذا هو من يشفق على هذه الانسانية ، ويريد أن يحملها على أجنحة صوره وألحانه — ولو ساعة — إلى عالم المثـل الأعلى ؛ يريها ما هنـالك من نور طافح وأمل خافق . والجالس إلى أفلام هذا المخرج ليجد نفسه وقد انسلخت عنه بغير شعور منه إلى عالم شعرى بعيد ، ما كان حامله إليه إلا فكرة سامية نقلتها أشعة العين إلى القلب فهام واستهيم . . . إن مثل هذا المخرج يعطى أكثر مما يأخذ ، ويهمه من الناس قلوبهم قبل جيوبهم

مرّت بى هذه الخطرات وازدحمت في نفسى يوم رنت عيناى وخشع قلبى لهذا (اللحن الذى لم يتم) أراه للمرة الثانية ، وقد تجردت روحى عنى لتتسامى في هذا اللحن ماشاء لها التسامى

— ٢ —

هذا اللحن أو هـذا (الفلم) ترجمة دقيقة لفصل من حياة « شوبير » الموسيقى المتساوى الذى لم تفض عليه الحياة أجله .

وقد يحلم المحروم باليسر واللهى — كذلك حلم الأرض بالصيف واليسر
فلما تقضى الليـــــل يحدو لواعجى
وذكري طيور الصيف تهزج في صدرى
أخذت نصيباً من جَدَى الفجر وافراً
فنهنهت آلامى وأرخيت من صبرى
وأملت للدنيا صباحاً مؤجلا — سيكشف عنها ظلمة الضيم والشر
فيكل صباح رمزه ومثاله — ووعد به يحدو الى الزمن النضر
نسر بنعماه وإن لم تكن لنا — وننشده فيا يكون من الدهر

عبد الرحمن شكرى

(١٧٩٧ — ١٨٢٨) لكنه فصل مشحون بكل ما يتمثله فكر عن فنان ، وسأعرض عليك هذا الفصل لتتلمس فيه هذا المثل الأعلى الذي نجح المخرج في إظهاره . وإنما هو حياة فنان يشق طريقه إلى المجد بأوتار قيثارته وأنامل « بيانه » البيضاء ، وتاريخ صراع هذا العبقري للمصادفات والأقدار التي انتصر عليها

نحن الآن في منزل « رهون » تجتمع فيه البذلة الثمينة بجوار تمثال « نابوليون » والقيثارة الجريح بقرب الحسون في قفصه « رهين المحبسين ! » يتسلم هذه الأشياء فتاة جميلة ، لامعة العينين ، لا تقدر قيمة الأشياء إلا بحسب قائمة عندها

يطل على النافذة فتى تكاد تيبس عضلات وجهه المتصلب ، على عينيه نظارتان ، يعد قيثارته التي طالما ملأت لياليه ألحاناً ، وأشبعت وحدته أماناً ، يقدمها بيد مرتعشة ليرهنها ، يجد ثمن الرهن ضئيلاً فيراجع الفتاة الجالسة فتجيبه : هذا هو الثمن المحدد ! ولكن صوتاً يهيب بها في داخلها ، وإنما هو صوت الحنان على الفن الذبيح . . . فتزيد الثمن وتدعو الله أن يذهل والدها عما زادت ، ليتسنى لصاحب القيثارة أن ينتفع ببدل قيثارته . فيأخذ الثمن ويحصيه بعد خروجه فيجده أكثر مما قالت ، فيعود بقلبه البسيط ، فيغتر بالفتاة خارجة وتخبره أنها شذت معه إكراماً لفنه ؛ وإذ يسمع « شوبير » ألحاناً تأتي من بعيد فينطلق وراءها وهي تقودها إليه عاطفة غريبة ، فتسأله سر ابتهاجه بهذه الألحان ، فيبينها أنها ألحانه رددها الصبايا الحانيات على الماء

— إن ألحانك رددها « فينا » ؟

— أجل ! رددها « فينا »

— أنت سعيد إذاً يا شوبير ! ولا بد أنك غني

— أما الغنى فلا

— ولماذا تثابر إذن على التلحين ؟

— وما يكون عمل شوبير في الوجود إذا انصرف عن التلحين؟

— وهذه الأبيات الرقيقة التي أسمعها أهي من « جيته » ؟

— لا ! ومن هو جيته ؟ إنني لم أسمع به قبل اليوم

— إنها من نظم صديقي « موللر »

— عجيب ، ألا تعرف « جيته » ؟

وهنا يعودان على آثارهما فتثب إلى غرفتها وتقذف له على طريقه بديوان (لجيته) فيأخذ الكتاب ، ويلتهم ما في الكتاب ويتلو ذاهلاً غافلاً ؛ يخطر في الشوارع وعيناه شاخصتان في الكتاب ، ويدخل قاعة الدرس وطلابه في حرب يعلنها بعضهم على بعض ، سلاحها الأوراق والكتب وإهراق المداد ! وقد تصيب دواة قبعته فتطير عن رأسه فلا يشعر : ولكنه لا يكاد يستقر في مكانه حتى تهدأ الجلبة وتقر الحركة ، فيعجبه هذا السكون ويشكر طلابه عليه ، فيبدأ درس الحساب ويكتب على اللوح الأسود بادئاً بجدول الضرب ، ولكن هذه اليد تتحرك بغير وعي وتنتقل بغير إرادة . لأن القلب الموسيقي الذي أطل عليه من وراء « جيته » قد استولى عليه ، فيده تسطر وقلبه يلحن ، وما هي إلا لحظة حتى كان الطلاب من ورائه يرددون اللحن الذي سطره ! وإذا بدرس الحساب يتحول إلى درس موسيقى ! فيسمع الرئيس الألحان شائعة في الفناء ، فيطرق غرفة « شوبير » فيجده لاهياً وطلابه بهذه الأغنية ، فيطاب إليه أن يهرع إلى مقابلته ، ولكن هذه المقابلة التي يتخيلها الناظر عثور جد وسوء طالع ، قد هيأت لشوبير أن يقابل « مدير الأوبرا » في « فينا » المعجب ببراعته ، وهو ينتظره في بهو الرئيس يحمل إليه دعوة إلى منزل الكونتس « دي رنسكي » ليعزف في إحدى سهراتها الموسيقية الحافلة التي تقيمها كل خميس وتجعل من منزلها ملتقى أرباب الفن وأنصاره . وجدير بمثل هذه المقابلة أن تفتح أمام « شوبير » مستقبلاً زاهياً مضموناً . ولكن أنى له أن يغشى هذه الحفلة وليس عنده رداؤها . وقد طرق بيت الرهون فرده صاحبه خائباً ، لأنه لا يملك ما يفك به رهينة ، ولكن الفتاة الهائمة بفنه أعادت إليه رداءه وقبعته لتحقق له ظفره في هذه الليلة

كان بهو « الكونتس » يعج بالزائرين والزائرات ممن سما بأرواحهم الفن والموسيقى ؛ وفجأة دخل « شوبير » منتفخ الرداء ساطع الوجه ، يلمس غده بيده . ولكن نشوة السرور قد أذهلته عن أن ينزع (علامة الرهن) عن ظهر الرداء . فمر وعيون القوم رانية إليه ، تتغامز عليه . فقبل يد الكونتس وحطم بخيط « العلامة » تمثالاً عزيزاً علق به ، ولكن الكونتس لم ترد إلا ترحيباً به

جاء دور « شوبير » ومرت أنامله على « البيان » يعزف أنشودة أبدعها لمثل هـــذه الساعة . وأودعها كل ما يختلج في صدره من أماني وأشجان . فترى القوم سكارى وما هم بسكارى ! فتدخل — خلال ذلك — الكونتة استركاز الفتاة الحسناء وهي متأخرة ، فتأخذ مقعدها وتصغي بروحها المرحة إلى هـذه النغمات ، فتسأل فتاها فيجيب همساً : انه « شوبير » فلا تفهم .

فيكتب على صفحة مرآتها بعد ذر « البودرة » أحرف « ش و ب ى ر » فلا تفهم ... وتنفخ على اسمه فيطير . ولكن أوضاع جلوس شوبير على البيان تهيب بها إلى الضحك فتملك نفسها فلا تقدر ، فترسلها ضحكات عالية تنال من عزة « شوبير » فيرمقها شزراً ، ويغلق البيان بعنف ، ويهب من مقعده لا علك نفسه الهتاجة ، فيدركه « مدير الأوبرا » فيجيبه بإباء وأنفة :

— أنا لست ممن يعزفون وهم يضحكون !

وانطلق وقد ترك في المنزل زوبعة ، وصاحبة المنزل تقول للفتاة « ومما يؤسف له أن المقطوعة لا تبعث على الضحك »

تلك عزة الفن دعته فأجاب ، وهو يقدر أنه قاتل مستقبله ، وداع البؤس إلى ساحته ، ولكن ما همه مستقبله وبقاءه إذا كان الفن يحيا في منزله مهاناً ويرضى بهوانه ؟ أليس هذا المثل يقترب لكل فنان معنى العزة ويبعث فيه الكبرياء ؟

خرج « شوبير » دامى القلب ، ولكنه عنيف الثورة شديد النقمة على هذه الفاذة التى حالت بينه وبين اتمام لحنه . . . آب إلى غرفته بأمانيه المهزومة كالقائد المتكسر يعود بفلول جيشه وأوسمته القديمة ، فألفى غادته الأولى فى انتظاره ، وهى لم تكن لتحب أن تراه مقطباً عابساً ، جلس إلى البيان يعاود ذلك اللحن الطائر ، فلا يكاد يشرف على الهوى الذى تعالت فيه ضحكة الساخرة ، حتى يتمثل أن ضحكتها تملأ جو غرفته ، فيهب مذعوراً يسد أذنيه ، وكأن يداً سحرية تحول بينه وبين الانتقال إلى الهوى الثانى . وبعد محاولة غير مجدية غادر البيان والبيان يضحك ، وجدران الغرفة تضحك ، وهى فى قرارة ضميره تضحك . . .

كلفه هذا الحادث كثيراً ، فقد أخرجوه من المدرسة ، وحرموه الخبز الذى يأكله ، فألحف الدائنون فى الطلب ، ولج الأصدقاء فى الهرب . وشفعت له « فتاته امى » عند « مدير الأوبرا » ولكن هذا قد قُدَّ قلبه من جماد !

ـ كن لطيفاً معه

ـ أنا لستُ بلطيف

ـ لا تهجر شوبير !

ـ إنه يستحق

ـ ولكن اذكر أن « ڤينا » تترنم بأغانيه ، فأين أغانيك ؟

بمثل هذه البساطة وهذه الحدة كانت تجادل « امى » مدير الأوبرا لاستمالته إلى معاضدة « شوبير » ، ولكن العبقرية كتب عليها القدر ألا تخط طريقها إلا بدماء القلب الجريح ، والشقاء الدائم ، فليمش « شوبير » على طريق العبقرية . . .

ــ ٣ ــ

طلب أحد الأمراء الموسرين فى « هونغريا » إلى شوبير أن يقدم عليه ليعلم فتاتيه الموسيقى ، فارتاح لهذا الطلب وأيقن أن الأمل طفق يبسم له ، فودع « امى » ووعدها بأن يكاتبها وسار وراء الأمل الجديد

دخل المنزل فاستقبله الوالد بابنتيه « ماريا وكارولين » . نظر شوبير فى وجه « كارولين » فأدرك أن هذا الوجه هو وجه الساخرة ، فاربد وجهه وتقلصت شفتاه . ولكنه هدأ نفسه وكظم غيظه . وغادر الوالد المكان ، وعدت وراءه « ماريا » لأنها لا رغبة لها فى الموسيقى ، وخلا له ولها المكان

قالت كارولين باسمة :

ـ أريد أن أعرفك ، لأننى جعلتُ درس الموسيقى سبباً !

ـ أتودين أن تسخرى منى أيضاً ؟

ـ لا يا شوبير ! أريد منك أن تغلق هذا البيان

فدنا شوبير من البيان وأغلقه بهدوء ، فضحكت كارولين وقالت :

ـ فى امكان الانسان أن يغلقه بدون ضوضاء ! قد شعرت بخطيئتى العظمى ، وانى لأرجو أن تصفح عنى . . .

ـ قد صفحتُ !

ـ إذاً سنبدأ غداً . . .

وفى اليوم الثانى كان « شوبير » يلقى على تلميذته قواعد فى الموسيقى وفى الايقاع ، ويبدى لها أن الايقاع هو حياة الموسيقى وأصل توازن ألحانها ؛ ويعرض عليها مقطوعة صغيرة له تتلوها بصوت عال ، فتتلو السطر الأول والثانى ثم يتعالى صوتها شادية مرنمة يتلاشى أمام نغماتها ونبراتها عزف البيان ولحن القيثار ، فيذهل شوبير وأى ذهول ! ويتصاغر أمام جلال هذا اللحن المتناسق ؛ حتى انتهت من تلاوتها وجاءت على هذه الكلمة « وهى مقطوعة مهداة إلى الفتاة امى » فثارت فى نفسها غيرة عميقة ، لأنها كانت تشعر بأن هذا الفنان يجب أن يكون لها وحدها ، فطلبت إليه أن يقدم لها فى المرة الثانية من أغانيه مالا تشركها فيها امرأة ! ولتكن تلك الأغنية التى لم تكمل . . . ولكن هذه الأغنية ظلت غير تامة لأنه لم يستطع أن يتمها

قالت له كارولين فى إحدى خلواتها :

بـ سمعت بأنك تختلط بعمالنا في المزرعة في جلسات طربهم وأنى لأربأ بأستاذي أن يغشى هذه المجامع الساقطة

ولكن شوبير كان يستوحى الفن حيثما كان ، ويعتقد أن الفن يسكن في الأكواخ ، وفي الجماعات المنحطة ، وفي التراب . وظل يغشاها كعادته ، حتى فجأته يوماً في مجلس لهؤلاء « الغجريين » الذين اتخذوا الحياة عزفاً وطرباً ، وقذفوا بهمومها من وراء ظهورهم . فجأته وهي ترتدي رداء « الغجريات » وعلى وجهها يطفو بهجتهن وسرورهن . فرقصت حتى بات المكان كله لا يتسع إلا لقدميها ، رقصت حتى أعيت ، ودنت منه تنشد مقطوعة رقيقة تدعو إلى الاستسلام الذي تولده الغبطة الكئيبة :

« قل أنك تحبني ؟ قل بدون انقطاع
قل أنك تحبني قليلاً . . .
كلماتك هذه تبعث الغبطة في نفسي ، والراحة في قلبي
عيناك هما السبيل الجميل حيث يتوارى خلفي
قل أنك تحبني ، وإذا كذب إذا وجب الكذب . . .
قل ذلك . . . لأنك — إذا بكيت — تسلمني إلى الموت »

وجدير بمثل هذه الأغنية الرقيقة أن تذهلها عن نفسها ، وأن تغيب أستاذها عن وعيه . فيلثم يدها ، والزوبعة لا تزال هزيعها بين الأغصان . فغادرت المكان راكضة بين المروج الذهبية التي هي قبلة العشاق ، وتمر بجني أصحاب الوحدة ، فتبعها ليرجع إليها نقابها

ـ قفي يا كارولين . . . لقد نسيت نقابك . ما عسى يقولون في القصر إذا عرفوا ؟ لماذا جئت ؟

ـ ألا تعرف أنت حتى الآن . . عانقني يا شوبير !

وهنا ضمتهما قبلة عميقة لم تشهدها إلا السماء . ولم تسمع همسها إلا الأزهار والأعشاب . . . . أذهلتها عن نقابها الذي سقط على الأرض فعادت بغير نقاب

— ٤ —

أدرك الأمير والدها ، ورأى في فتاته ميلاً إليه قد ينتهي بالزواج . فأحب أن يحول بينهما ، فصرف « شوبير » صرفاً أديباً ليعود إلى عزلته الأولى . وشوبير في كل غيبته لم يذكر « إيمى » بكتاب . لأن كفة « كارولين » رجحت على كفتها . فلم تستقبله « إيمى » ولكنها سمعت أنه يكاد يغدو مجنوناً . وهو في كل يوم يرتقب كتاباً من « كارولين » وها قد دب اليأس في نفسه بعد انتظار ثلاثة أشهر ، وها قد أشفقت « إيمى » عليه فهرعت إليه بدون إرادة ولا عزيمة . . . . وفي لحظة حضورها وردت عليه بطاقة من القصر تأمره بالحضور العاجل . فما قابل « إيمى » إلا ليودعها وتودعه

ـ إيمى ! كوني سعيدة إنني مسافر ، سوف أبعث إليك بأنبائي

انطلق « شوبير » ولا يعرف ما كتب له . فشاهد في القرية حالة غير معهودة ؛ أجراس تدق ، وثياب بيضاء ترف . وأغان تتعالى . إنه عرس « كارولين » أجئت يا شوبير لتودع كارولين ؟

لم يكن صاحب البطاقة الرسالة إلا « ماريا » أخت « كارولين » دعت « شوبير » ليحضر حفلة زفاف أختها . وليصفح عنها لأنها كفرت عن وزرها بالبكاء الطويل ، ولكنها أذعنت لوالديها مضطرة غير مختارة . . . وقد وقف « شوبير » بين الجموع يشهد مزورها أمامه

وقفت « ماريا » فجأة بين جموع المهنئين في بهو القصر ، تعلن أن « شوبير » يريد أن يهنئ العروسين . فدخل شوبير وقد رنت العيون إليه ، ومشى حتى بلغ موقف « كارولين » وقال لها : « يا سيدتي ! هل تتفضلين بأن أقدم تتمة اللحن الذي لم يتم تقدمة لك في يوم عرسك ؟ » واختلف إلى البيان يردد اللحن الأول « وكارولين » بين الجموع تنتفض طوراً وتختلج تارة تحت تأثير الذكريات الهافية حولها . تفيض على قلبها مرارة ، وعلى محجريها تطفح دمعتان . وما كاد ينتقل « شوبير » إلى تتمة المقطع ، وقد اختلفت النغمة ، وامتزج الجلال بالجمال ، ونطقت العاطفة ، وغلب القلب على الأنامل ، حتى سقطت « كارولين » مستخرطة في البكاء في الموقع الذي قاطعت شوبير بضحكها . فانفض الجمع وأخذوا المريضة . وشوبير مسمّر في مكانه لا يتزحزح . وبعد برهة عاد إليه زوجها يقول له : « إنها تحسنت قليلا وتود أن تقابلك » . عادت كارولين ووجهها مقنع بكل ما رسمت على وجهها الحياة منذ طفولتها حتى الساعة . فالآمال مجاورة للآلام . واليأس مؤتلف مع القنوط : إنه وجه حياة كاملة

ـ شوبير ! هذه مقطوعتك أرسلها إليّ

ـ ولمه ؟ إنها مكتوبة للجميع

ـ عش سعيداً يا شوبير ! ولا تحزن . إنك تملك شيئاً هو أسمى من كل شيء . . . هو الفن الذي يعطيك الخلود

طفرت من عينها دمعة ، وانصرفت راكضة لأنها لا تستطيع أن تقف أمام هذه السحابة الجارفة التي يسوقها فن عميق سام جارف

عاد « شوبير » إلى لحنه ، فأبقى ما عزفه ، ومزق تتمة اللحن ، وكتب حول ما مزقه : « ليكون دليلاً على حبي الذي لا ينتهي ، جعلته لحناً لا ينتهي » . وخرج « شوبير » يسلك الطريق الذي أبصر أحلامه الواثبة ، والآن يبصر نفسه المكتئبة ؛ وما زال يقذف به السير حتى وقف على تمثال « مريم العذراء » وهنالك تمازج كل ما فيه من عوامل متضادة ، من يأس ورجاء . من غبطة وكآبة ، وفن ومثل أسمى ، لتؤلف هذه العوامل « أنشودة السلام الملائكي » التي خلدت شوبير في عالم الموسيقى . .

« السلام الملائكي [1] »

سلام عليك يا مريم ! يا ملكة السماء
إليك ترتفع صلاتي ، وأرى العطف في عينيك
وفيك أيتها الطاهرة أضع رجائي

***

ولدي كان يخفف بؤسي ، ومعزى فاقتي
إنه تألم ، وا أسفاه ، إنه قضى
أفهمي دموعي أنت ، يا من كنت أماً
وأعيدي إليّ طفلي البائس . . .

***

سلام عليك يا مريم ! إن ولدي جميل
كنتُ به مختالة معجبة . . .
باركي سريره الصغير . . .
إنه كان خيري ، بل خيري الوحيد

***

إذا أصابني الله في غضبه
فاعطفي أنت على الصغير البريء
واستجيبي لي . . . إنني أم
تطلب الموت في سبيل ولدها

***

سلام عليك يا مريم
أرى طفلي وُلد ثانية بالصلاة
كأنه الزهرة الناضرة ، والمنحة الجميلة ،
والجمال الجذاب ، والسر المقدس ،
انظري إليّ ! أنت يا موضع أملي !

ولدي ! إن جبينك ليسطع نوراً . . .
شكراً لك أيتها الأم الإلهية
أنت التي أنقذت ولدي
سلام عليك يا مريم . . .

***

هي مقطوعة تناجي بها أم ثكلى « مريم » وتبثها شكواها . وقد برح بها الحزن ، وأمضها الألم . والآن تناجي قلبها المفتوح وتطوي ألمها المنشور ، وتحس براحة نفسية ، تصافح الألم فلا تراه شائكاً ، بل هي الآن أوسع صدراً للألم لأنه لا يقاني على إيمانها . وقد تكون هذه الفكرة فكرة فنان شاعر يناجي مثله الأعلى الذي وجد فيه أمله الأسمى . فهو يحمل نفسه المجرحة يريد أن يلقي لها منزلاً تنزل فيه ، فيجد الأبواب كلها مسدودة ، وها هو ذا الآن على طريق المثل الأعلى الذي سلخه عن الوجود

قد تلاشى الحب في « شوبير » وانطفأت جذوته الملتهبة ، وابتعدت ذكرياته العذبة . لا لأن شوبير محب كاذب يسهل عليه الاتصال والانفصال . ولكن شوبير قلبه قلب فنان ، وقلب الفنان كبير ، قد ارتسمت — على قلبه — كل أشواقه الماضية ، وآلامه الثائرة ومرت معه لتؤلف « ذلك المثل الأعلى » بفنه الذي — كما قالت كارولين — إنه وحده يعطيه الخلود

وقد يتساءل القارئ : أما وقد عاد شوبير خائباً ، فكيف التقت به « إيمي » فتاته الأولى ؟ بقيت نقطة غامضة لم يعالجها المخرج ليترك المثل الأعلى منتصراً على كل شيء

— ٥ —

قد لا تروق هذه النتيجة للبعض ، لأنهم يتلقونها بعقولهم ، وعقولهم لا يرضيها شيء من غذاء العاطفة ، ولا تقبل إلا ما فيه غذاء لمنطقها ، ولا يغذى منطقها إلا عالم الواقع الملموس . . . ولكن فاتهم أن هذا العالم الواقعي قد بدأت تطغو عليه عوامل الاضمحلال لأنهم قتلوا فيه كل مثل ، سواء ذلك المثل الذي يوحيه الفن أو توحيه الشعر

لا يحمل الناس من هذه الوهدة التي نزلوا فيها وهذه المادية التي استغرقوا فيها إلا الايمان بالمثل الأعلى فهل نرى — السينما ! — تقف يوماً أمام الفن والشعر جنباً لجنب ، لتؤدي ماعليها من التبشير بهذا « المثل الأعلى » ؟

خليل هنداوي

[1] هي أغنية — كما يتضح — تناجي بها أم ثكلى « مريم العذراء » وهي مشهورة بين الألحان الكنائسية

٩ - شاعرنا العـــالمى

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

زهده وتكسبه بالشعر : كان أبو العتاهية مع زهده لا يترك التكسب بشعره ، وإذا رجعنا إلى حاله فى ذلك وجدناه لم ينقطع عن بنى العباس وقبول جوائزهم من عهد المهدى الذى ابتدأ اتصاله بهم فيه ، إلى عهد المأمون الذى انتهت فيه حياته ، وقد طعن عليه بذلك فى زهده كثير من منافسيه فى الشعر وغيره ، وحملوا ذلك منه على الرياء والخادعة ، وقد أنشد المأمون بيت أبى العتاهية يخاطب سلماً الخاسر :

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذل الحرص أعناق الرجال

فقال المأمون : إن الحرص لمفسد للدين والمروءة ، والله ما عرفت من رجل قط حرصاً ولا شرهاً فرأيت فيه مصطنعاً . فبلغ ذلك سلماً فقال : ويلى على الخنث الجرار الزنديق ، جمع الأموال وكنزها ، وعبأ البدر فى بيته ، ثم تزهد مراآة ونفاقاً ، فأخذ يهتف بى إذا تصديت للطلب . واجتمع أبو العتاهية مع جماعة عند قثم بن جعفر بن سليمان فأخذ ينشد فى الزهد ، فطلب قثم الجماز فأحضر إليه وأبو العتاهية ينشده ، فأنشأ الجماز يقول :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهّد الناس ولا يزهد
لو كان فى تزهيده صادقاً أضحى وأمسى بيته المسجد
يخاف أن تنفد أرزاقه والرزق عنـــد الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسـود

فالتفت أبو العتاهية إليه فقال من هذا ؟ قالوا الجماز ، وهو ابن أخت سلم الخاسر ، اقتض خاله منك ، فأقبل عليه وقال له : يا ابن أخى إنى لم أذهب حيث ظننت ولا ظن خالك ولا أردت أن أهتف به ، وإنما خاطبته كما يخاطب الرجل صديقه ، فالله يغفر لكما ، ثم قام

وحدث حبيب بن عبد الرحمن عن بعض أصحابه قال : كنت فى مجلس خزيمة بجرى حديث ما يسفك من الدماء ، فقال والله ما لنا عند الله عذر ولا حجة إلا رجاء عفوه ومغفرته ، ولولا عز السلطان وكراهة الذلة ، وأن أصير بعد الرياسة سوقة وتابعاً بعد ما كنت متبوعاً ، ما كان فى الأرض أزهد ولا أعبد منى ، فإذا هو بالحاجب قد دخل عليه برقعة من أبى العتاهية فيها مكتوب :

أراك امرأً ترجو من الله عفوه وأنت على ما لا يحب مقيم
تدل على التقوى وأنت مقصر أيا من يداوى الناس وهو سقيم
وإن امرأً لم يلهه اليوم عن غد تخوّف ما يأتى به لحكيم
وإن امرأً لم يجعل البر كنزه وإن كانت الدنيا له لعديم

فغضب خزيمة وقال : والله ما المعروف عند هذا المعتوه الملحف من كنوز البر فيرغب فيه حر . فقيل له وكيف ذاك ؟ فقال لأنه من الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله

وقد كان أبو العتاهية يجمع إلى أخذه بهذا التكسب الذهاب فى البخل إلى حد مكن منه خصومه فشوهوا به زهده أيضاً ، وله فى بخله نوادر كثيرة ، وأخبار مأثورة ، قال ثمامة بن أشرس أنشدنى أبو العتاهية :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت من أين قضيت بهذا ؟ فقال من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت . فقلت له أتؤمن بأن هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه الحق ؟ قال نعم ، قلت فلم تحبس عندك سبعاً وعشرين بدرة فى دارك ولا تأكل منها ولا تشرب ولا تزكى ، ولا تقدمها ذخراً اليوم فقرك وفاقتك ؟ فقال يا أبا معن والله إن ما قلت لهو الحق ، ولكنى أخاف الفقر والحاجة إلى الناس . فقلت وبم تزيد حال من افتقر على حالك وأنت دائم الحرص ، دائم الجمع ، شحيح على نفسك ، لا تشترى اللحم إلا من عيد إلى عيد . فترك جواب كلامى كله ، ثم قال لى والله لقد اشتريت فى يوم عاشوراء لحماً وتوابله وما يتبعه بخمسة دراهم ، فلما قال لى هذا القول أضحكنى حتى أذهلنى عن جوابه ومعاتبته ، فأمسكت عنه وعلمت أنه ليس ممن شرح الله صدره للاسلام

وحدث محمد بن عيسى الخزيمى وكان جار أبى العتاهية قال : كان لأبى العتاهية جار يلتقط النوى ، ضعيف سيء الحال ، متجمل عليه ثياب ، فكان يمر بأبى العتاهية طرفى النهار ، فيقول أبو العتاهية اللهم أغنه عما هو بسبيله ، شيخ ضعيف سيء الحال عليه

ثياب متجمل ، اللهم أعنه ، اصنع له ، بارك فيه ، فبقي على هذا إلى أن مات الشيخ نحواً من عشرين سنة ، فقلت له يوماً يا أبا إسحاق إني أراك تكثر الدعاء لهذا الشيخ ، وتزعم أنه فقير مقل ، فلم لا تتصدق عليه بشيء ؟ فقال أخشى أن يعتاد الصدقة ، والصدقة آخر كسب العبد ، وإن في الدعاء لخيراً كثيراً

وقال علي بن مهدي حدثني الحسين بن أبي السري قال : قيل لأبي العتاهية مالك تبخل بما رزقك الله ؟ قال والله ما بخلت بما رزقني الله قط ، قيل له وكيف ذاك وفي بيتك من المال ما لا يحصى ؟ قال ليس ذلك رزقي ، ولو كان رزقي لأنفقته

وقال محمد بن عيسى قلت لأبي العتاهية أتزكي مالك ؟ فقال والله ما أنفق على عيالي إلا من زكاة مالي ، فقلت سبحان الله ، إنما ينبغي أن تخرج زكاة مالك إلى الفقراء والمساكين ، فقال لو انقطعت عن عيالي زكاة مالي لم يكن في الأرض أفقر منهم

وأما تكسب أبي العتاهية بالشعر فلا شيء فيه عندي مع أخذه بذلك الزهد ، لأن الزهد في الاسلام لا يمنع صاحبه من الأخذ بالأسباب والسعي في الحصول على الرزق ، والتكسب بالشعر سبب من تلك الأسباب ، والشعر فن من الفنون التي لا غنى للدولة عنها ، فيجب أن يأخذ حظه من الأموال التي تجبى فيها ، ويجب على أرباب الدولة أن يبسطوا أيديهم بالعطاء لرجاله ، ليتوفروا على إجادته ، ويتضافروا في النهوض به ، وليس على الشعراء من حرج إذا لم يصل نصيبهم من ذلك إليهم أن يتلطفوا في الوصول إليه بمدح الملوك والوزراء ، وكذا غيرهم ممن في أيديهم تلك الأموال ، وإنما يذم التكسب بالشعر إذا بالغ صاحبه في الالحاح به ، وجعله كل غايته من الشعر ، فحمله ذلك على الالتواء في سبيله ، واتخاذ الشعر أداة شر بين الناس ، يقلب الحقائق بينهم ، ويجعل في سبيل المال الباطل حقاً والحق باطلاً ، والظلم عدلاً والعدل ظلماً ؛ وقد تكسب الشعراء بشعرهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له شعراء يمدحونه وينصرون دعوته ، ويدافعون عنه أعداءه ، ويردون عنه هجاءهم بالحق إذا هجوه بالباطل

ولم يكن شاعرنا أبو العتاهية بحيث يصل به التكسب بالشعر إلى هذا الحد ، وقد مضى لنا في ترجمته ما يؤيد ذلك له ، وكم له من مواقف مشهودة مع ملوك عصره وأمرائه ، لم تنسه فيها جوائزهم أن ينكر عليهم ما يستحق الانكار منهم ، أو يغضب لنفسه إذا رأى منهم أقل تهاون به . حدث الحسين بن أبي السرى قال : مر القاسم بن الرشيد في موكب عظيم ، وكان من أتيه الناس ، وأبو العتاهية جالس مع قوم على ظهر الطريق ، فقام أبو العتاهية حين رآه إعظاماً له ، فلم يزل قائماً حتى جاز فأجازه ولم يلتفت اليه ، فقال أبو العتاهية :

يتيه ابنُ آدم من جهله ... كأن رحا الموت لا تطحنُهْ

فسمع بعض من كان في موكبه ذلك فأخبر به القاسم ، فبعث إلى أبي العتاهية وضربه مائة مقرعة ، وقال له : يا ابن الفاعلة أتعرض بي في مثل ذلك الموضع ؟ وحبسه في داره ، فدس أبو العتاهية إلى زبيدة بنت جعفر وكانت توجه له هذه الأبيات :

حتى متى ذو التيه في تيهه ... أصلحه الله وعافاهُ
يتيه أهل التيه من جهلهم ... وهم يموتون وإن تاهوا
من طلب العز ليبقى به ... فإن عز المرء تقواه
لم يعتصم بالله من خلقه ... من ليس يرجوه ويخشاه

وكتب إليها بحاله وضيق حبسه ، وكانت مائلة اليه فرقت له ، وأخبرت الرشيد بأمره وكلمته فيه ، فأحضره وكساه ووصله ، ولم يرض الرشيد عن القاسم حتى بر أبا العتاهية وأدناه واعتذر اليه

وحدث محمد بن عيسى قال : كنت جالساً مع أبي العتاهية إذ مر بنا حميد الطوسي في موكبه ، وبين يديه الفرسان والرجالة ، وكان بقرب أبي العتاهية سوادي على أتان ، فضربوا وجه الأتان ونحوه عن الطريق ، وحميد واضع طرفه على معرفة فرسه ، والناس ينظرون اليه يعجبون منه وهو لا يلتفت تيهاً ، فقال أبو العتاهية :

للموت أبناءٌ بهمْ ... ما شئت من صلف وتيه
وكأنني بالموت قد ... دارتْ رحاه على بنيهْ

فلما جاز حميد مع صاحب الأتان قال :

ما أذلَّ المُقِلَّ في أعين النا ... س لاقلاله وما أقماهُ
إنما تنظر العيون من النا ... س إلى من ترجوه أو تخشاه

وقد كان أبو العتاهية في آخر أمره يحاول جهده أن يجعل جوائز الملوك وغيرهم اليه في نظير هدايا يتقدم بها اليهم ، كما كان يفعل ذلك مع الأمين والمأمون فيما ذكرنا في ترجمته ، وهو في ذلك يشعر بسمو منزلته إلى منزلتهم ، ويترفع عن ذلك التكسب الذي كان يأخذ به في أول أمره ، وإن كان على تلك الطريقة التي لم يكن لها أثر معيب في نفسه

وأما بخله فنعتقد أنه لم يصل فيه إلى ذلك الحد الذي يؤثر فيه ما أثر عنه من تلك النوادر وغيرها ، وإنما ذلك من اختلاق

خصومه ومنافسيه عليه ، ليشوهوا منه تلك الصيحة المدوية في الزهد ، ويظهروه في مظهر من يقول بما لا يفعل ، فلا يتأثر الناس بدعوته ، ولا ينظرون إلى أقواله ، ولاشك أنه يشفع لأبي العتاهية في ضنه بماله أنه كان رجلاً شاعراً يجمع ماله من أيدي الملوك والعظماء ، ويبذل في ذلك ماء وجهه على ما كانت عليه نفسه من عزة ورفعة ، فاذا ضن به بعد هذا فانما يحمله على ذلك أن يكون دائماً في غير حاجة ملجئة إلى من يحاول أن يشترى شعره بها ، فيتسير فيه كما يشتهي هو لا كما يشتهي غيره ، وقد كان أبو العتاهية دائماً مهدداً من أجل هذا بالحرمان ، وعرضة للتضييق والسجن واستباحة المال ، فهو يجمع من ذلك ما يجمع ليجده في وقت حرمانه ، ويضن به على من لا يجده في ذلك الوقت إلا عدوا له أو شامتاً فيه ، وقد كان يجد من الناس ما ساء به ظنه فيهم ، وآثر به العزلة عنهم ، وكان له فيهم مذهب غريب يقضي بتبخيلهم كلهم ، فهو يقارضهم بخلاً ببخل ، ويضن عليهم ضناً بضن ، قال مخارق : لقيت أبا العتاهية على الجسر ، فقلت له : يا أبا اسحاق أتنشدني قولك في تبخيل الناس كلهم ؟ فضحك وقال لي : ها هنا ؟ قلت : نعم ، فأنشدني :

إن كنت متخذاً خليلا ... فتنق وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً ... في الود فابغ به بديلا
ولربما سئل البخيـ ... ـل الشيء لا يسوى فتيلا
فيقول لا أجد السبيـ ... ـل اليه يكره أن ينيلا
فلذاك لا جعل الالـ ... ـه له إلى خير سبيلا
فاضرب بطرفك حيث شئـ ... ـت فلن ترى إلا بخيلا

فقلت له : أفرطت يا أبا اسحاق ، فقال : فديتك فأكذبني بجواد واحد ؟ فأحببت موافقته ، فالتفت يميناً وشمالاً ، ثم قلت : ما أجد ؟ فقبل بين عيني وقال : فديتك يا بني ، لقد رفقت حتى كدت تسرف

وهكذا مضى أبو العتاهية عظيماً لم يزر به بخله ولا تكسبه بشعره ، كما أزرى ذلك بغيره ، ولو أن ذلك أزرى به كما زعمه خصومه لما كان لمنصور بن المهدي أن يمد اليه يده ليزوجه إحدى ابنتيه ، وقد كان لأبي العتاهية بنتان : احداهما « لله » والأخرى « بالله » ، فخطب منصور منه « لله » فلم يزوجه ، وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية ، وكأني به قد ملها فلم يكن لي إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار ؛ ولكني أختاره لها موسراً ؟

عبد المتعال الصعيدي

في اللغة والأدب

٢ ـ المثنيات

في التاريخ والجغرافية والفلك

للأستاذ محمد شفيق

(الأخشبان) هما جبلا مكة الملصقان بها : أبو قبيس والأحمر ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان ، والأخشب في اللغة هو الجبل الخشن العظيم ، ويقال هو الذي لا يرتقى علوه . وهما جبلا مني . وقيل هما الأخشب الشرقي والأخشب الغربي ، فالشرقي أبو قبيس والغربي جبل الخط من وادي ابراهيم . قال أبو عبيد : وأخشبا المدينة حرتاها

(البونان) بفتح الموحدة وسكون الواو : موضعان باليمن البون الأعلى والبون الأسفل ، وهما متصلان من أعمال صنعاء ، ويقال إن فيهما البئر المعطلة والقصر المشيد المذكوران في القرآن الكريم

(الخراتان) نجمان من كواكب الأسد ، وقيل كوكبان بينهما قدر سوط وهما كتفا الأسد ، وقيل سميا بذلك لنفوذهما إلى جوف الأسد

(الزبانيان) هما كوكبان نيران ، وهما قرنا العقرب ينزلهما القمر ، وهما مفترقان بينهما أكثر من قامة الرجل في رأي العين ، ويسميهما أهل الشام يدي العقرب ، ويقال لهما زباني الصيف ، لأن سقوطهما في زمن تحرك الحر

(الشرطان) نجمان من الحمل وهما قرناه

(الشرفان) بالوادي الأخضر من دمشق وهما الجانبان المتقابلان شرف أعلى وهو الشمالي وأدنى وهو القبلي ، وبينهما الوادي والنهران بردى وبانياس . ويقال : فلان حاز الشرفين أي شرف الأب والأم

(الغوطتان) بدمشق معروفتان قبلية وشمالية

(الصفصافتان) معروفتان عند الدمشقيين ، وهما : شجرتا صفصاف بالوادي التحتاني معدتان للتنزه ذكرهما الشعراء المتأخرون في أشعارهم فمنهم الأمير المنجكي حيث قال :

وبالصفصافتين مقام أنس عليل نسيمه يبرى السقاما
إذا غنت حمائمه سكرنا بما تملى ولم نشرب مداما

(العزيزيتان) قريتان بمصر فى ناحية الشرقية منسوبتان إلى العزيز بن المعز

(العسكريان) محمد بن على والحسين بن رشيق ، منسوبان إلى عسكر : محلة بمصر ، وأبو الحسن على بن محمد . . . بن جعفر وولده الحسن منسوبان إلى عسكر المعتصم وهى مدينة سر من رأى (سامرا) ، والعسكريان الأديبان أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى وتلميذه أبو هلال الحسن بن عبد الله منسوبان إلى عسكر مكرم

(الفرقدان) نجمان منيران فى بنات نعش يضرب المثل بهما فى طول الصحبة فى التساوى والتشاكل ، قال البحترى :
كالفرقدين إذا تأمل ناظر لم يعد موضع فرقد عن فرقد

(القرافتان) القرافة الصغرى والقرافة الكبرى ، فيهما مقبرتا مصر ، وكانتا من قبل خطتين لقبيلة من اليمن ثم من المعافر ابن يعفر يقال لهم بنو قرافة

(المحلفان) نجمان يطلعان قبل سهيل فيظن الناظر لكل منهما أنه سهيل ، ويحلف أنه سهيل ويحلف آخر أنه ليس به

ما يتعلق بالمنطق من المثنيات

(الجنسان) الجنس القريب والجنس البعيد

(الحدان) الحد التام والحد الناقص

(الضدان) صفتان وجوديتان يتعاقبان فى موضع واحد يستحيل اجتماعهما كالسواد والبياض

(المتقابلان) بالعدم والملكة أمران أحدهما وجودى والآخر عدم ذلك الوجودى لا مطلقاً بل من موضع مقابل له كالبصر والعمى ، والعلم والجهل ، فان العمى عدم البصر عما من شأنه البصر ، والجهل عدم العلم عما من شأنه العلم

(المتقابلان) بالايجاب والسلب هما أمران أحدهما عدم الآخر مطلقاً كالفروسية واللافروسية

(المضافان) هما المتقابلان الوجوديان اللذان يعقل كل منهما بالقياس إلى الآخر كالابوة والبنوة

(النوعان) الحقيقى والاضافى : فالحقيقى الكلى المقول على واحد أو كثيرين متفقين فى الحقائق فى جواب ماهو ، والاضافى ماهية يقال عليها وعلى غيرها الجنس قولاً أوليا أى بلا واسطة كالانسان بالقياس إلى الحيوان

المثنيات المتعلقة بالتفسير والقراءات

(النجدان) هما الضلالة والهدى ، فى قوله تعالى (وهديناه النجدين)

(مدهامتان) هما فى القرآن بمعنى سوداوين من شدة الخضرة من الرى لأن العرب تسمى كل أخضر أسود

(الصدفان) هما فى الآية الكريمة جبلان متلاصقان ، من المصادفة أى المقابلة ، وقيل من الصدف وهو الميل لأن كل واحد منهما منعزل عن الآخر

(السدان) هما فى قوله جل وعز (حتى إذا بلغ السدين) الجبلان اللذين بينهما السدان وهما جبلا أرمينيا وأذربيجان ، وقيل هما جبلان منيفان فى آخر بلاد الترك

(الابنان) هما فى مصطلح أهل القراءات ابن كثير وابن عمر

(الأبوان) هما أبو عمرو وأبو بكر بن عاصم القارئان المشهوران

(الاخوان) هما حمزة والكسائى . (الحرميان) هما ابن كثير ونافع من القراء السبعة

المثنيات المتعلقة بالحديث الشريف

(التدليسان) أحدهما تدليس الاسناد وهو أن يروى عمن لقيه ولم يسمع منه موهماً أنه لقيه أو سمع منه ، والآخر تدليس الشيوخ وهو أن يروى حديثاً عن شيخ سمعه منه فيسميه أو يكنيه ويصفه بما لم يعرف به كيلا يعرف

(الشيخان) هما عند الاطلاق أبو بكر وعمر ، وعند المحدثين يراد بهما البخارى ومسلم

(الذبيحان) فى حديث (أنا ابن الذبيحين) اسمعيل أو إسحق وعبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم . والمرجح أن الذبيح هو اسمعيل ، وأما القول بأنه إسحق فمردود بأكثر من عشرين وجهاً (١)

(١) بسط المحبى فى (جنى الجنتين) مفصل القول فى ذلك بتحرير دقيق عن ابن تيمية وغيره من الأئمة

(العودان) منبر النبي صلى الله عليه وسلم وعصاه ، وقد ورد ذكر العودين في الحديث ، وفسرا بذلك ، وقال شمر في قول الفرزدق :

ومن ورث العودين والخاتم الذي
له الملك والأرض الفضاء رحيبها

وكني بالعودين عن الشاهدين ، قال شريح : القضاء جمرة فادفع الجمر عنك بعودين

(الأسودان) الحية والعقرب ، وفي الحديث (اقتلوا الأسودين)

(الثقلان) الانس والجن سميا بذلك لثقلهما على الأرض ورزانة رأيهم وقدرهم ، أو لأنهم مثقلون بالتكليف ، وفي الحديث (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي) سماهما ثقلين لأن الأخذ بهما والعمل بهما ثقيل إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما

(الأسواريان) محمد بن يحيى ومحمد بن أحمد نسبة إلى أسوار بالفتح — قرية بأصبهان ، محدثان

(الأماميان) محمد بن عبد الجبار ومحمد بن إسمعيل البسطامي محدثان

المثنيات في الطب والكيمياء والنباتات

(البهقان) أبيض بياضه دقيق ظاهر البشرة لسوء مزاج العضو إلى البرودة وغلبة البلغم على الدم ، وأسود يعترى الجلد إلى السواد لمخالطة المرة السوداء الدم

(الحلولان) حلول سرياني وهو عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الاشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد فسمي الساري حالاً والمسرى محلاً ، وحلول جواري وهو عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء في الكوز

(الزرنيخان) أراد به الأطباء الزرنيخ الأحمر ، والزرنيخ الأصفر

(البهمنان) نباتان أحمر ظاهره السواد وأبيض كذلك ، وهما فارسيان معربان وكلاهما يضران السفل ويصلحهما الأنيسون والكثيرا أو العناب

المثنيات المتصلة بالفلسفة والأخلاق والتصوف

(الأجلان) هما على رأي الفلاسفة طبيعي واخترامي فإنهم قالوا : الرطوبة الغريزية من الحرارة الغريزية بمنزلة الدهن للفتيلة المشتعلة وكلما انتقص تبعها الحرارة الغريزية في ذلك ... الخ ما ذكره المحبي في « جنى الجنتين »

(الأدبان) أدب الغريزة ، وهو الأصل ، وأدب الرواية وهو الفرع ، ولا يتفرع شيء إلا بنمو أصله ، ولا ينمو الأصل إلا باتصال المادة ، وقيل الأدبان أدب النفس وأدب الدرس

(الإمامان) هما في اصطلاح أهل التصوف : الشخصان اللذان أحدهما عن يمين العرش أي القطب ونظيره في الملكوت وهو مرآة ما يتوجه في المركز القطبي إلى العالم الروحاني من الامدادات التي هي مادة الوجود والبقاء ، وهذا الإمام مرآته ، والآخر عن يساره ونظيره في الملك وهو مرآة ما يتوجه منه إلى المحسوسات من المادة الحيوانية وهذا مرآته ومحله أعلى من صاحبه وهو يخلف القطب إماماً إذا مات

(الفناءان) أحدهما سقوط الأوصاف المذمومة ، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة وهو بكثرة الرياضة ، والثاني عدم الاحساس بعالم الملك والملكوت ، وهو بالاستغراق في عظمة الباري ومشاهدة الحق

(الصورتان) النوعية والجسمية ، وهما محلهما الهيولى ، وهي جوهر في الجسم قابل لما يعرض له من الاتصال والانفصال

ما يتصل بالفقه والأصول من المثنيات

(البيعان) هما البائع والمشتري ، وفي الحديث : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا[1] »

(المفهومان) مفهوم الموافقة ومفهوم المخالفة : فالأول ما يفهم من الكلام بطريق المطابقة ، والثاني ما يفهم من الكلام بطريق الالتزام ، وقيل هو أن يثبت في المسكوت على خلاف ما يثبت في المنطوق

(الخليطان) هما الشريكان يخلط أحدهما ماله بمال الآخر ، وفي الحديث : « وما كان من خليطين فإنهما يتراجعان بينهما بالسوية[2] »

(البيهقيان) حنفي وشافعي : فالحنفي إسماعيل بن الحسن ، والشافعي أحمد بن الحسين

(يتبع) محمد شفيع

(١) في « جنى الجنتين » وكتب الفقه تفصيل آراء الفقهاء في معنى الحديث
(٢) شرح هذا الحديث في « جنى الجنتين » في صفحة كبيرة

القصص

صور من هوميروس

٢ - حروب طروادة

باريس يعود

للأستاذ دريني خشبة

- « ألست تحن إلى وطنك ، وتتمنى لو ترى والديك يا باريس ؟ . . . »
- « وطني ووالدي ؟ ؟ »
- « . . . ؟ . . . »
- « وهل لي وطن غير هذه المروج الخضر ، ووالدان غير أبي الراعي وأمي المتداعية الفانية ؟ »
- « مسكين ! ! »
- « بل أسعد الناس بأن أكون إبنهما ! وله ؟ أليس أبي سيد هذه الفلوات ، وأمي أعز الأمهات ؟ »
- « ذلك حق لو أن أباك هذا الراعي يا باريس ! »
- « ماذا تعنين ؟ »
- « أعني أنك لست ابنه ؟ ... »
- « وي ! لو لم تكوني ڤينوس لقتلتك ! ! »
- « الحق أقول أيها العزيز ! »
- « أنت تعذبينني ! ابن من إذن ؟ ... »
- « أترى إلى جمالك البارع ، وجسمك المشوق السمهري ؟ أيكون هذا الخلق من نسل الرعاة الأجلاف ؟ »
- « ...... ؟ ...... »
- « أتدور بك الأرض إذا علمت أنك ابن ملك ؟ ... »
- « سخرية وهزؤ ... إلام تلذعين فؤادي يا ربة الحسن والحب ؟ ألأنني أعطيتك التفاحة الخالدة ؟ ... ... »
- « الآلهة لا تكذب يا باريس ! »
- « أنا ؟ ... أبي ... ملك ؟ ... هذا الراعي ؟ ! ملك ماذا ؟ ؟ »
- « ليس هذا الراعي قلت لك ! ! أنت لست ابنه ! أنت سليل الملوك ، الصيد ! ! ... ... »
- « إذن من عسى أن يكون أبي ؟ ... ... »
- « ملك طروادة ! ! ... ... »
- « ملك طروادة أبي ؟ ... بريام ؟ ! ... ... »
- « هو ... هو ... ... »
- « هاها ها ...... ومن جاء بي هنا ؟ سرقوني ؟ ... أليس كذلك ؟ ... ... »
- « لا تنس يا باريس أنك في حضرة ڤينوس ... وأقولها لك كرة أخرى : إن الآلهة لا تكذب ... أجل أنت ابن بريام ملك طروادة ... قيل له إنك تجر عليه ألواناً من العذاب فصدق ، وأرسل بك من تركك فوق جبل بعيد ، لتأكلك الذئاب ... كل هذا إذ أنت طفل صغير ... وليد ... ولقد عثر بك ذلك الراعي الذي تحسبه أباك ففرح بك وقال لامرأته : عسى أن يكون لنا منه ولد ... والآن ... لقد وعدتك زوجة جميلة ... أجمل امرأة في العالم ... فاذهب أولاً إلى طروادة ، والق أباك فانه سيعرفك ... سيعرفك لأن له أبناء خلقهم كخلقك ... وسيحدثه قلبه ... وتكلمه روحه أنك ابنه ... سيفرح بك بريام يا باريس ، وسيخفق قلب هكيوبا ... أمك التي تبكي من أجلك ، وتتمناك بنصف ملكها !

فاذا اطمأنوا بك ، ولبثت فيهم أياماً ، فأبد لهم رغبتك في الابحار إلى بلاد الأغريق في أسطول كبير ... ... إن ثمة المرأة التي وعدتك ... أجمل نساء العالم ... »

وغابت ڤينوس !

* * *

جلس باريس على صخرة تشرف على البحر المضطرب من جهة ، وعلى السفح المشوشب المصطخب بالحياة من جهة أخرى ، ثم أخذ يفكر في كل كلمة انفرجت عنها شفتا ڤينوس...

« ترى ؟ ! أصحيح ما قالته ڤينوس ؟ أصحيح أن پريام أبى ؟ ألا أنادى أبى الراعى بعد اليوم ؟ وأنت أيتها الشاء والنعم : أفراق لا لقاء بعده ؟ وا أسفاه ! لم لقيت ڤينوس ؟ عزيز على أن أهجرك إلى الأبد أيتها البطاح ! وأنت أيتها السماء الحبيبة ؟ بم أستبدل قلائدك الدرية في الليل ، وشمسك الدافئة ، وسحبك الموشاة بالذهب في النهار ؟ ! .... »

الآلهة لا تكذب ! ! هكذا كانت تقول ڤينوس ! أنا إذن ابن ملك ! وأبى لابد أن يكون غرًّا ضيق العطن ، وإلا فلم صدق ماذكرته له الكهنة عنى ؟ طفل صغير ينبذ بالعراء ليأكله السباع ! يا لقساوة القلوب ، وتحجر الأكباد ؟ ! وأمى ؟ أين كانت أمى ؟ وأين كان قلب الأم في هذه المرأة ؟ كيف سهل عليها أن تدعني ينطلق بى لأنبذ بالعراء ، فريسة لا حول لها لكلاب الجبل ، وطعمة شقية لسباع البرية ؟ ! ... ... »

لابد أن أذهب ! لابد أن أعلم حقيقة أمرى ! وداعاً أيها البحر ! وداعاً أيتها المروج ! يا كل شىء هنا ... وداعاً ! »

وانطلق لا يلوى على شىء ...

وكان أصدقاؤه الرعاة يلقونه في الطريق فينكرون منه كل شىء ! ينكرون منه انقباضه وعهدهم به طلق المحيا لا يفارق المرح ثغره البسام ، وينكرون منه صمته الطويل وهو الثرثار الذى لا يقف لسانه ولا تسكن شفتاه ! وينكرون منه هذه النظرات العميقة الحزينة ، وهو ذو العينين الضاحكتين والجبين المشرق الطروب ...

وكان هو ينكرهم جميعاً كذلك ! أليس قد عرف أنه ابن ملك ؟ وابن أى ملوك العالم ؟ ابن ملك طروادة ! وهل أقوى وأعظم في ملوك العالم من ملك طروادة ؟

ورغم هذا الانكار كان الرعاة ما يبرحون يحبون باريس ويعجبون به ، وقد أحزنهم أن ينطلق فريداً وحيداً في فلوات تدمدم فيها السباع وتهمهم الوحوش ، فذهبوا يقتصون أثره ، وكانوا له حرساً شديداً في وحشة هذه البرية المخوفة ...

ووصل إلى طروادة ...

وجلس فوق هضبة مرتفعة قليلاً فنظر إلى المدينة الخالدة !

واجتمع حوله أصدقاؤه الأمناء الأوفياء يسألونه فيم جاء إلى هذا البلد ، ولم هجر قطعانه وأوطانه ، وهل في أمره ... حب ... ؟

وطمأنهم باريس ، وزوق لهم الأحلام والأمانى ، ووعدهم خيراً « لا ترى مثله عين ، ولا يخطر على قلب بشر »

ودخلوا المدينة ...

ويمموا ميدانها الرحب الفسيح ، حيث اجتمع خلق كثير يشهدون المهرجان الرياضي ، ويمتعون أنظارهم بشتى الألعاب التى عارضها أبطال طروادة وما جاورها من القرى . ولبث باريس وأصحابه ينظرون إلى المتبارين ساعة ، ثم زهاهم الروح الرياضى فقدموا أنفسهم إلى الرئيس المشرف على الألعاب ، فأشركهم في كثير من المباريات ...

ولقد برز باريس على أقرانه ، وبذ كل من تبارى معهم في مضمار ، حتى لفت إليه أعين النظارة وأصبح موضع إعجاب الحاضرين ...

وكانت الأسرة الملكية ، الملك وزوجه وأبناؤه وحاشيته ، يحدقون في الفتى مشدوهين مأخوذين ، وكانت الملكة خاصة تحس كأن رباطاً روحانياً يجذبها إلى الناحية التى يجول باريس فيها ويصول ؛ بل كانت تشعر كأن الحديد الذائب في عضلات البطل ، إنما يتدفق من عضلاتها هى ! وأعجب من ذلك جميعاً ، ذلك الحنان المتفجر في قلبها ؛ وذاك الحب الحزين الشاذ الذى يغمرها كلها من أجل هذا الغريب المفاجئ المجهول !

ولحت كاسندرا ، ابنة الملك ، ما كان ينتاب أمها من عواطف ، وكانت فتاة بارعة الحسن ، مليحة الدل ، فينانة ريانة ؛ أعجب بها أبوللو فمنحها حبه ، وهام بها حتى لكان يعبدها عبادة ، وهو الإله المعبود !

وكان ما يفتأ يباركها ويخلع عليها من نعمه ؛ فمن ذلك أنه وهبها القدرة على كشف الغيب ، والتنبؤ بما كان وما يكون ؛ فكانت تخبر الناس بماضيهم وحاضرهم وما يكون من مستقبلهم وهم يسمعون ويعجبون ...

ولكنها تاهت على أبوللو ودلت ، وكانت أبداً تمنحه الجفاء والصدود ، وتعرض عنه وهو المقبل عليها بروحه وقلبه وشعره وموسيقاه !

رجاها أبوللو أن تكون له ، وأن ترتضيه لها بعلا ، ووعدها لقاء ذلك أن يبني لها القصور الشماء في قبة السماء ، وأن يحملها معه أبداً في رحلاته العلوية فترى كل ما يدب على الأرض ، وأغراها بالتوسط لدى كبير الآلهة زوس الأعظم فيمنحها الخلود وربما رفعها إلى صفوف الآلهة أنفسهم ... بيد أنها ما كانت لتزداد إلا شماساً وعناداً

ولما ضاق أبوللو بها ذرعاً ، صب جام غضبه عليها ، وسلط عليها سخرية سامعيها ، فما تقول شيئاً ، ولا تتنبأ بشيء ، ولا تكشف غيباً ، إلا استهزأ بهـا الناس ، وعيروها بأنها تكذب وتهرف وتدعي ! . . .

فلما شاهدت ما كان من فورة الاحساس التي تجرف قلب أمها من أجل باريس ، ذكرت لها أن هـذا الشاب إن هو إلا أخوها الذي نبذوه بالعراء فوق الجبل لتأكله السباع ، وآيتها على ذلك هـذا التشابه الشديد بينه وبين أخيها هكتور وبينه وبين أبيها الملك . وحاجها قومها فأحضروا باريس ليطابقوا بينه وبين هكتور . . . ولكن ما كادت المطابقة تتم حتى أخذته هكيوبا في حضنها الحنون المرتجف ، صائحة مستعبرة : « ولدي باريس . . ابني باريس ... ولدي ... إليّ إليّ يا بني ... !! » . أما الملك فقـد بكى هو الآخر ، ونهض فعانق ابنه عناقاً طويلاً حاراً ، غاسلاً جبينه المتلألئ المشرق بدموع الاعتذار عن الماضي البعيد المحزن

ولما أخبرهم باريس أن ڤينوس ، ربة الحب والحسن ، هي التي هدته إلى مولده ومنشئه وكريم أرومته ، خر الملك وأهله لها ساجدين ... إلا كاسندرا

لقـد عبست عبوسة قاتمة ، وحدجت أخاها الغريب بنظرة كالحة ! ! ثم صاحت بالملك : « أبي ! لتحذر هـــذا الأخ ... لتحذر باريس ... ولتذكر نبوءة الكهنة في معبد أبوللو .... ابنك يجر الخراب على مملكتك ، ويعرض شعبك للدمار ، وينشر الموت في بيوت رعاياك !! »

وهنا ينتقم أبوللو ، ويسخر من حبيبته الجافية !

لقد تضاحك الملك مستهزئاً ، وغمزت الملكة ابنتها ولزتها بكلام قارص ... أما هكتور ، فقد عبث بأخته ومازحها مزاحاً ثقيلاً ...

مسكينة كاسندرا !

حتى الحاشية استهزأت بها وأشعرتها الذلة والهوان ... !

كل ذلك والرعاة ... أصدقاء باريس ... ينظرون ويعجبون.... ولا يفهمون !!

الآلهة لا تكذب !!

أفرخ روعُ باريس إذن ! وصدق كل ما ذكرته ڤينوس !

ها هو ذا يعيش في قصر منيف باذخ ! وها هو ذا ، لأول مرة في حياته يخلع هذا الصوف الخشن الغليظ ، ليلبس من سندس أبيض وإستبرق ! والولدان البيض كالتماثيل يطوفون عليه بأكواب الخمر من فضة ، وبصحاف الآكال من ذهب ! وشعب بأسره يطيع أباه ويطيعه ، وجيوش تصدع بأمره ، وأساطيل لجب تملأ البحر ، إذا شـــاء أقلعت وإذا شاء أرست ! ! ! وملك وسلطان ، وتاج وصولجان .... !!

لا ينقصه الآن إلا أجمل فتاة في العالم . . .

تلك الفتاة التي وعدته ڤينوس ! وما دامت الآلهة لا تكذب فأجمل فتاة في العالم هي من غير ريب في بلاد الأغريق ... لأن ڤينوس أوصته بوجوب الابحار إليها ... وهل أجمل من حسان اسبرطة في بلاد الاغريق ؟! إنهم قوم يعبدون الجمال واعتدال القوام

إذن ، فليبحر باريس إلى اسبرطة !!

(لها بقية) دريني خشبة

في حفل استقبال سمو الأمير سعود

يقال إنه كان للهدية الثمينة التي انفرد بتقديمها أحد كبار الهنود بمصر . حضرة السيد بير شريف علي الدني صاحب فابريقة سجاير ملوك الهند وفخر العرب ، من بين المحتفلين بقدوم سمو الأمير سعود بالوكالة العربية بالقاهرة وقد نالت عنـد سمو الأمير حسن القبول والاعجاب فتناولها شاكراً وأثنى على صاحبها مما لفت نظر جميع المحتفلين بسموه وجعلهم يتحدثون بشأنها ، وندرة هـذا النوع من الهدايا إذ لا وجود له إلا بين قصور الملوك والأمراء وخاصة في الهند مما روته الصحف في حينه يوم الحفل من الأسبوع الماضي ؟

البريد الأدبي

كتاب جديد عن ستالين

قرأنا في مجلة « لوروب نوفيل » وصفاً لمؤلف جديد عن « ستالين » بقلم مسيو بيير فردريس . والظاهر أن شخصية ستالين (أو الرجل الصلب) طاغية روسيا السوفيتية أضحت مستقر الاهتمام والدرس ؛ فللأسابيع قلائل يصدر عن ستالين كتاب جديد بالفرنسية . وقد سبق أن أشرنا في هذا المكان إلى صدور الكتاب الأول وهو بقلم مسيو هنري باربيس الكاتب الفرنسي الثوري . وأما الكتاب الثاني فعنوانه ستالين أيضاً وهو بقلم مسيو بوريس سوفارين الكاتب الشيوعي ؛ والكتاب الجديد بالفرنسية أيضاً مع أن مؤلفه مسيو سوفارين روسي الأصل نشأ في مهد الصحافة الروسية ، ولكنه نزح إلى فرنسا منذ الثورة البلشفية ، وغدا من أقطاب الشيوعيين في فرنسا ، وكتابه يقع في مجلد ضخم يناهز السبعمائة صفحة ، وهو كما يسميه في عنوانه « خلاصة لتاريخ البلشفية » بيد أنها خلاصة ضافية جداً . ويبدأ مسيو سوفارين بالكلام عن ستالين ونشأته الأسيوية في بلاد الكرج في أسرة ريفية فقيرة ؛ ثم يتناول تاريخ الحركات الثورية في روسيا منذ أواخر القرن الماضي بإفاضة ، وتاريخ الأحزاب الثورية ومبادئها ، وكيف تمخضت عن قيام الحزب البلشفي في أوائل هذا القرن ؛ ويتطرق من ذلك إلى الحديث عن مقدمات الثورة البلشفية التي انتهت بقيام الحكومة السوفيتية وقبض البلاشفة على أقدار روسيا إلى اليوم ، ويستعرض خلال ذلك كل ما سنه البلاشفة من القوانين أو النظم الجديدة الاقتصادية والاجتماعية ؛ ويعنى عناية خاصة باستيعاب كل ما يتعلق بتلك الشخصية الغامضة — ستالين — وكل ما يمكن أن يلقى الضياء على خواصها الغريبة . ويبدو ستالين خلال هذا الدرس شخصية مدهشة ، فبينا نراه في ثوب متواضع جداً رجلاً لا يتمتع بثقافة محترمة ، إذا به رجل ذو إرادة حديدية مخيفة ، وإذا به طاغية خطر ، يتذرع بأقسى الوسائل لتحقيق سياسته وأهوائه ، ثم إذا به لا يزال مطبوعاً بالنزعة والصفات الأسيوية القديمة في الشغف بالدس والعمل من وراء ستار . ثم لا ريب مع ذلك أن ستالين من أعظم شخصيات التاريخ الحديث ، وهو بذلك جدير بأن يدرس دراسة عميقة واسعة كتلك التي يقدمها إلينا مسيو سوفارين بعد أعوام طويلة من البحث والدرس في جميع المصادر والمخفوظات الروسية والأجنبية

وفاة شاعر انكليزي كبير

توفي أخيراً الشاعر الانكليزي السير وليم وطسون في نحو السابعة والسبعين من عمره ؛ وكان يعاني آلام المرض منذ أعوام ؛ وولد السير وطسون في سنة ١٨٥٨ في بلدة من أعمال يوركشير ، وتلقى تربيته الأولى في ليفربول حيث كان أبوه يشتغل بالتجارة ، ثم درس الحقوق في جامعة أدنبرة ؛ وفي سنة ١٨٨٠ نشر أولى قصائده في كتاب سماه « أمنية الأمير » وظهر فيه تأثره بنفوذ الشاعرين كيتس وتنيسون ؛ وبعد بضعة أعوام أخرج كتابه « صور من الفن والحياة والطبيعة » ، ولكنه لفت الأنظار لأول مرة حينما نشر في سنة ١٨٩٠ قصيدته الشهيرة « قبر وردسورث » التي أثارت يومئذ اعجاب النقدة ، واعتبرت دليلاً قاطعاً على مقدرته الشعرية ؛ وأعقب السير وطسون ذلك بعدة قصائد وأناشيد شعرية ؛ وظهر من ذلك الحين مواهبه الأدبية ، واشترك في تحرير كثير من الصحف الأدبية الشهيرة . ولما توفي الشاعر تنيسون رثاه بقصيدة رائعة ضم اليها قصيدة أخرى في الذكرى المئوية للشاعر شيللي (سنة ١٨٩٣) . وفي ذلك العام منحته الحكومة « معاش الأدب » الذي كان مخصصاً لتنيسون وقدره مائتا جنيه . ولما وقعت المذابح الأرمنية في تركيا في أواخر القرن الماضي ، نشر السير وطسون عدة قصائد وأناشيد عنها في جريدة « الوستمنستر جازيت » ثم جمعت بعد ذلك في

ديوان سمى « عام العار » . وفي سنة ١٩٠٩ نشر ديوانا سماه « القصائد الجديدة » فلقي نجاحاً عظيماً ، ثم نشر « الشعر في المنفى » ، وأنعم عليه بلقب « النبير » سنة ١٩١٧ ؛ واستمر السير وطسون بعد ذلك يخرج مجموعات شعرية متعاقبة

ويحمل شعر السير وطسون طابع المدرسة الروائية وميلها إلى البلاغة ، بيد أنه يمتاز بالوضوح الجم والاحتشام الرفيع

ولما مرض السير وطسون منذ أعوام ولم تف موارده بحاجته للعلاج ، أبدى مواطنوه له تقديرهم واعجابهم بفتح اعتماد مالى شعبي يمكنه من اتمام علاجه وارتياد المصحات اللازمة ؛ وقد نجح الاكتتاب نجاحاً عظيما

وفاة السيد محمد رشيد رضا

استأثر الله في يوم الخميس الماضي بالعالم الكاتب والفقيه الحجة السيد محمد رشيد رضا صاحب (المنار) ؛ أدركه موت الفجاءة وهو في السيارة عائداً من توديع الأمير سعود في السويس . وليس في العالم الاسلامى مثقف يجهل تلميذ الأستاذ محمد عبده ، وحامل لواء الاصلاح الديني من بعده ؛ فان أربعين سنة قضاها الفقيد الكريم في تحرير المنار يفسر كتاب الله على طريقة الإمام ، ويبسط أحاديث الرسول على نهج السلف ، ويحرر الفتاوى في المسائل الدينية المختلفة ، ويقطع ألسنة المبشرين والملحدين بالأدلة النواهض ، ويجلو عن الشريعة ظلام الشبهة بالعقل النير ، ويزيد في ثروة الأدب الاسلامي بالمصنفات القيمة ، حرية أن تحله من قلوب المؤمنين موضع التجلة ، وتبوئه من صفحات التاريخ مكان الأئمة

ولد الفقيد في قرية (القلمون) إحدى قرى لبنان القريبة من طرابلس ، فتلقى العلم طفلاً ويافعاً في هذه المدينة ، ثم هاجر إلى مصر ، فدخل الأزهر واتصل بالامام محمد عبده اتصالاً وثيقاً ، فأشار عليه أن يصدر (المنار) فكانت سجلاً لآراء الأستاذ الاجتهادية في حياته ، واستمراراً لدعوته الاصلاحية بعد مماته . ثم ساهم في النهضة العربية واتصل بجمعياتها السرية في أطوارها المختلفة من سنة ١٩٠٨ إلى قيام الحرب الكبرى . فلما أعلنت الهدنة عاد إلى سورية فانتخب رئيساً للمؤتمر السوري الذى نادى بالأمير فيصل ملكا ؛ ثم ظل في خدمة هذه الدولة العربية الجديدة حتى ثل عرشها الفرنسيون سنة ١٩٢٠ ، فارتد إلى القاهرة يحرر المنار ويعالج التأليف ، فأصدر طائفة من الكتب القيمة أشهرها تكملة تفسير الامام على هديه ووحيه ، ثم الجزء الأول من تاريخ الامام وكان قد أصدر منه جزءه الثاني فيما قاله ، والثالث فيما قيل فيه ، ثم كتابه الجليل (الوحي المحمدي) وهو من غير شك معجزة نبوغه وكتاب خلوده . رحمه الله رحمة واسعة وعوض فيه الاسلام والمسلمين خيراً

ذكرى آندرسن معبود الطفولة

احتفل أخيراً في كوبنهاجن عاصمة الدانمارك باحياء ذكرى الكاتب القصصي الكبير هانز كرستيان آندرسن ؛ وذلك لمناسبة مرور ستين عاماً على وفاته . ويحق للدانمارك أن تفتخر أيما فخر بأن ينتسب اليها ذلك الذى يعتبر بحق معبود الطفولة في جميع أنحاء العالم . ذلك أن آندرسن هو أمير القصص الساذج الذى مازال سحر الطفولة المرحة منذ ثلثي قرن . وقد ولد آندرسن سنة ١٨٠٥ في مدينة أودنسى من أعمال جزيرة فين ؛ وكان أبوه صانع أحذية شديد الفاقة فلم يتمكن من تربيته ، ولكن جماعة من أصدقائه لاحظوا مواهب الطفل الخارقة ولا سيما في الموسيقى ؛ ولما بلغ هانز أشده أبدى مقدرة في قرض الشعر ، وحاول أن ينتظم في سلك المسرح في كوبنهاجن ؛ ولكن تربيته الساذجة حالت دون هذه الأمنية ؛ وبلغ الملك خبر هذا الفتى العجيب ومواهبه الخارقة ، فأمر بأن يلقن بعض ضروب الثقافة ؛ وكان لذلك العامل الجديد أحسن الأثر في إبراز مواهبه الشعرية والفنية . وكان بدء شهرته ومجده قصيدته الخالدة « الطفل المحتضر » . ثم تلاها بقطعة أدبية ساخرة اسمها « نزهة إلى آماك » وقد صدم آندرسن في بدء حياته الأدبية بمهاجمة النقدة ؛ ولكنه لم يعبأ بهم ؛ وأمر الملك بأن يسافر آندرسن في بعض الرحلات على نفقته . وكان أعظم ما أخرج آندرسن بعد رحلاته ، قصصه الخالدة التى تعرف « بقصص الجن » . ومنها « كتاب الصور الذي لا صور فيه » « سوق شاعر » « قصص من جتلنده » « البجعة المتوحشة » « العذراء الثلجية » « الجندي الشجاع » وغيرها ؛ وهي جميعاً من القصص البرىء الساذج الذى وضع للطفولة ، ومن أبدع ما أخرج القلم في هذا الباب من القصص ؛ ويمتاز آندرسن بخياله المبدع وأسلوبه الساحر ، وخفة روحه التى تخلب لب قرائه الأطفال في جميع أنحاء العالم ، وقد ترجمت قصصه إلى جميع اللغات الحية ، بحيث أصبح بحق كاتباً عالمياً عظيما

قصور بيزنطية

من أنباء استانبول الأخيرة أن المباحث الأثرية التى يجريها العلامة الأثرى الايكوسى الأستاذ باكستون للبحث عن مواقع بيزنطية القديمة قد اسفرت عن العثور على بعض آثار تحدد موقع

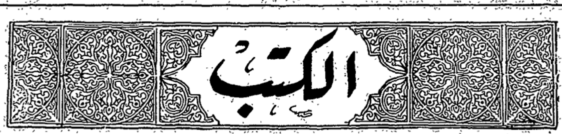
القصر الامبراطوري القديم أو قصر قياصرة الدولة الشرقية .
وقد توفر على درس هذه المسألة عدد كبير من العلماء ؛ ودرسوها على ضوء الخطط القديمة لعاصمة القياصرة ؛ ولكن مباحثهم كانت نظرية في الغالب ؛ وأشهر من قام بهذه الدراسات العالمان الأثريان عبوري وفياند في رسالتين شهيرتين أثبتت بهما بعض الخرائط والخطط النظرية القديمة لعاصمة القياصرة . وقد استعان الأستاذ باكستر بهذه الدراسات التاريخية على إجراء مباحثه ؛ وبدأ بالحفر على مقربة من جامع السلطان أحمد الذي تجتمع فيه عدة من أشهر الآثار البيزنطية مثل كنيسة أياصوفيا الشهيرة ؛ وهي على مقربة منه ، ومسرح الهيبدروم (مسرح الخيل) ؛ وحصر الأستاذ حفرياته في المنحدر المتجه نحو البحر ، فعثر على عمق مترين ونصف متر على ممشى من الرخام وعلى بعض الأساسات القديمة ، ووجد بينها آثار أحجار وفسيفساء تدل على أنها من صنع الترك في القرن السادس عشر ، ولما نظفت هذه الأسس وحفر حول الممشى الرخامي ظهرت فسيفساء أخرى ؛ عرف في الحال أنها من بقايا القصر الامبراطوري ، فتوسع الأستاذ باكستر في الحفر في تلك المنطقة ، فعثر على قطع أخرى من الفسيفساء البيزنطية القديمة ، ولم يعرف بعد أي جزء من القصر الامبراطوري هذا الذي اكتشف ؛ على أن هذا الممر الرخامي عثد نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو عشرة أمتار ، وتظلله أعمدة ترتفع نحو خمسة أمتار ونصف متر . والمظنون أن هذا الممر إنما هو أحد أروقة « الهيبدروم » ؛ وقد كانت هذه الأروقة في العصور القديمة داخل القصر في الجناح المخصص لشخص الامبراطور ؛ وربما كان هذا الممر الرخامي وهذه الفسيفساء من بقايا كنيسة « ثانيا » وهي الكنيسة الامبراطورية الخاصة ، وربما كان من بقايا الجناح الضيق الذي بناه الامبراطور تيوفيلوس . ومهما كانت الآراء الخاصة بهذه الآثار ، فإن الرأي يجمع على أنها على أعظم جانب من الأهمية في الكشف عن مواقع القصر الامبراطوري القديم

نظريات الجنس والدم في ألمانيا

تتخذ نظريات الجنس والدم والسلالة في ألمانيا كل يوم صوراً مدهشة من الغلو والاغراق ؛ وما زالت التفرقة بين الجنس الآري والجنس السامي (وبخاصة اليهود) عماد الفكرة الجنسية ؛ ولكن تحدث أخيراً بعض غلاة الوطنيين الاشتراكيين (المتلريين) فقال إن الطب الحديث هو من عوامل فساد الدم ، ويجب أن يحتفظ الجنس الآري والجنس الجرماني بنوع خاص بحجارب الطب الحديث لأنه يهودي المنشأ والصبغة ؛ وقد تفنن أقطاب الأطباء والباحثين اليهود في اختراع نظريات الميكروبات وغيرها وأفسدوا بذلك نظام الطب الطبيعي الذي يجب أن يكون شعار الجرمانية إلى غير ذلك من الأقوال المغرقة التي تدل على غلو لا في التعصب فقط ولكن في تشويه العلم والحقيقة أيضاً . وثمة صيحة غريبة أخرى يلقيها غلاة المتلريين ، فهم يحذرون الألمان من أكل البقول والمنتجات الأجنبية ، لأنه لا يصح أن يتكون الدم الألماني النقي إلا بالأغذية والبقول التي تنتجها الأرض الألمانية . وضربت جريدة « الفرانكيشه تسيتونج » مثلاً لذلك بالليمون الذي ارتفعت أسعاره أخيراً في ألمانيا ، فقالت يجب على الألمان أن يصرفوا النظر عن الليمون الأجنبي لأنه يفسد دماءهم ، وأن يستعيضوا عنه ببقل ألماني آخر يسمى « الرهابارب » وهو بقل حامض يزرع بكثرة في ألمانيا ويمكن استخراج حامضه واستعماله مكان الليمون ؛ وهكذا يخلط القوم خلطاً غريباً في نظريات الدم والسلالة والقومية وغيرها من جنايات التعصب المغرق التي تجرف ألمانيا المتلرية

الرقص العاري ليس فناً

هل يعتبر الرقص العاري منافياً للحياء ؟ لقد انتشر الرقص العاري أخيراً في فرنسا وأصبحت عدة من ملاهيها الشهيرة تخصص للرقص العاري في برنامجها أهم مكان . والمقصود بالرقص العاري هو العراء المطلق ، ويقوم به راقصات حسان يرقصن أمام الجمهور عاريات تماماً ، ولم يكن البوليس يتدخل في أمر هذا الرقص لاعتباره داخلاً في باب الفن ، ولكن القضاء تدخل أخيراً بناء على شكوى قدمت اليه من أحد النظارة ، فقد اصطحب رجل زوجه وابنته إلى أحد الملاهي الشهيرة ، وبعد حين غادرت ابنته المكان لسبب ما ، ولم يمض على خروجها برهة حتى ظهرت الراقصة الشهيرة جوان وارز عارية تماماً وأدت رقصتها ، وهتف لها الجمهور طويلاً . ولكن السيد المشار اليه ذهب تواً إلى إدارة البوليس وقدم شكواه ضد هذا المنظر المنافي للحياء والذي ينطوي على فسق بين . ورفع الأمر إلى القضاء ، فقدمت الراقصة وصاحب الملهى متهمين بارتكاب عمل ينافي الحياء ، وأخذت المحكمة بهذا الرأي ، وقضت على الراقصة بغرامة قدرها خمسون فرنكاً ، وعلى صاحب الملهى بمائة فرنك ، وذلك برغم ما دفعت به الممثلة من أن رقصها العاري إنما هو رقص محتشم يدخل في باب الفن ، وبرغم ما دفع به صاحب الملهى من أن برنامج الليلة كان مذكوراً فيه هذا المنظر ، وقد كان على المشتكي أن يمتنع من الدخول



كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

للمقريزي

نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر

للأستاذ محمد بك كرد علي

المقريزي مؤرخ القرن التاسع غير مدافع (٨٤٥ هـ)، استفاضت شهرته بتآليفه في حياته وبعد مماته، وقد طبع له حتى الآن «كتاب التنازع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم» و «الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام» و «البيان والإعراب عما في أرض مصر من الاعراب» و «الأوزان والمكاييل الشرعية» و «الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة». وأهم كتبه الذي حفظ به تاريخ عمران مصر كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» الذي يدعى تسهيلاً «الخطط» طبع غير مرة وعني به علماء المشرقيات عناية خاصة ومنهم من اقتطع منه فصولاً نقلها إلى إحدى اللغات الافرنجية، ومنهم من درسه في الجامعات وعلق عليه

ومن كتب المقريزي التي بقيت محفوظة في بعض دور الكتب العامة، واكتفى علماء المشرقيات بنقل ما يتعلق بغرضهم منها «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» وقد وفق الأستاذ محمد مصطفى زيادة المدرس بقسم التاريخ في كلية الآداب بالجامعة المصرية بإخراج هذا السفر الجليل على طريقة علماء المشرقيات في إحياء تراثنا الأدبي، معارضاً له على عدة نسخ مخطوطة وأهمها نسخة بخط المؤلف. وتجد في كل صفحة أثر العناية البالغة في هذا الجزء الأول — القسم الأول ٢٦١ صفحة من القطع الأخير

«كتب المقريزي — كما جاء في تصدير الناشر — كتابه على نظام الحوليات الشائع في مؤلفات المؤرخين الشرقيين في القرون الوسطى فسرد تاريخ كل سنة على حدته، ولم يحاول أن يصل بين سنة وأخرى أبداً، ولم يستوقف القارىء في وسط السنين إلا عند حدوث عهد جديد» وقال المقريزي إنه لما أكمل كتاب «عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط» و «كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الخلفاء» وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء منذ فتحت وإلى أن زالت الدولة الفاطمية. أحب أن يصل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية والسلاطين المماليك التركية والجركسية غير معتن فيه بالتراجم والوفيات لأنه أفرد لها تأليفاً آخر

وفي هذا الكتاب كما في أكثر ما خطته يد المقريزي يسقط الباحث على شذرات في التاريخ وآراء سديدة في نقد الحوادث ما عرف عنه مثله في سائر كتبه المنقحة، فقد قال في دولة بني العباس وهو ما سبق له التصريح بمثله في كتابه النزاع والتخاصم: «وفيها افترقت كلمة الاسلام وسقط اسم العرب من الديوان، وأدخل الأتراك في الديوان، واستولت الديلم ثم الأتراك، وصار لهم دول عظيمة جداً، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر» وقال في المنصور إنه أول من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد علي بن أبي طالب وكان قبل ذلك أمرهم واحداً، وهو أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم، وأول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات، وأول خليفة استعمل مواليه وغلمانه في أعماله وقدمهم على العرب، فاقتدى به من بعده من الخلفاء، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها، وكان قد نظر في العلم فكثرت في أيامه روايات الناس واتسعت علومهم

ومما دونه من حوادث سنة ٥٩٤ أن معز الدين اسماعيل ابن سيف الاسلام طغتكين ملك اليمن ادعى الالوهية نصف نهار وكتب كتاباً وأرخه من مقر الالوهية ثم رجع عن ذلك، وادعى الخلافة، وزعم أنه من بني أمية ودعا لنفسه في سائر مملكته بالخلافة، وقطع الدعاء من الخطبة لبني العباس ولبس ثياباً خضراً وعمائم خضراً مذهبة، وأكره من كان في مملكته من أهل

خصومه ومنافسيه عليه ، ليشوهوا منه تلك الصيحة المبدوءة في الزهد ، ويظهروه في مظهر من يقول ما لا يفعل ، فلا يأتمر الناس بدعوته ، ولا ينظرون إلى أقواله . ولا شك أنه يشفع لأبي العتاهية في ضنه بماله أنه كان رجلاً شاعراً يجمع ماله من أيدي الملوك والعظماء ، ويبذل في ذلك ماء وجهه على ما كانت عليه نفسه من عزة ورفعة ، فاذا ضن به بعد هذا فانما يحمله على ذلك أن يكون دائماً في غير حاجة ملحة إلى من يحاول أن يشتري شعره بها ، فيتميز فيه كما يشتهي هو لا كما يشتهي غيره ، وقد كان أبو العتاهية دائماً مهدداً من أجل هذا بالحرمان ، وعرضة للتضييق والسجن واستباحة المال ، فهو يجمع من ذلك ما يجمع ليجده في وقت حرمانه ، ويضن به على من لا يجده في ذلك الوقت إلا عدواً له أو شامتاً فيه ، وقد كان يجد من الناس ما ساء به ظنه فيهم ، وآثر به العزلة عنهم ؛ وكان له فيهم مذهب غريب يقضي بتبخيلهم كلهم ، فهو يقارضهم بخلاً ببخل ، ويضن عليهم ضناً بضن ، قال مخارق : لقيت أبا العتاهية على الجسر ، فقلت له : يا أبا اسحاق أتنشدني قولك في تبخيل الناس كلهم ؟ فضحك وقال لي : ها هنا ؟ قلت : نعم ، فأنشدني :

إن كنت متخذاً خليلا … فتنقَّ وانتقد الخليلا
من لم يكن لك منصفاً … في الود فابغ به بديلا
ولربما سئل البخيـ … ـل الشيء لا يسوى فتيلا
فيقول لا أجد السبيـ … ـل اليه يكره أن ينيلا
فلذاك لا جعل الالـ … ـه له إلى خير سبيلا
فاضرب بطرفك حيث شئـ … ـت فلن ترى إلا بخيلا

فقلت له : أفرطت يا أبا اسحاق ، فقال : فديتك فأكذبني بجواد واحد ؟ فأحببت موافقته ، فالتفت يميناً وشمالاً ، ثم قلت : ما أجد ، فقبل بين عيني وقال : فديتك يا بني ، لقد رفقت حتى كدت تسرف .

وهكذا مضى أبو العتاهية عظيما لم يزر به بخله ولا تكسبه بشعره ، كما أزرى ذلك بغيره ، ولو أن ذلك أزرى به كما زعمه خصومه لما كان لمنصور بن المهدي أن يمد اليه يده ليزوجه إحدى ابنتيه ، وقد كان لأبي العتاهية بنتان : احداهما « لله » والأخرى « بالله » ، فخطب منصور منه « لله » فلم يزوجه ، وقال : إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية ، وكأني به قد ملها فلم يكن لي إلى الانتصاف منه سبيل ، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرار ؛ ولكني أختاره لها موسراً ؟

عبد المتعال الصعيدي

في اللغة والأدب

٢ – المثنيات

في التاريخ والجغرافية والفلك

للأستاذ محمد شفيق

(الأخشبان) هما جبلا مكة الملصقان بها : أبو قبيس والأحمر ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان ، والأخشب في اللغة هو الجبل الخشن العظيم ، ويقال هو الذي لا يرتقي علوه ، وهما جبلا منى . وقيل هما الأخشب الشرقي والأخشب الغربي ، فالشرقي أبو قبيس والغربي جبل الخُط من وادي ابراهيم . قال أبو عبيد : وأخشبا المدينة حرتاها

(البونان) بفتح الموحدة وسكون الواو : موضعان باليمن البون الأعلى والبون الأسفل ، وهما متصلان من أعمال صنعاء ، ويقال إن فيهما البئر المعطلة والقصر المشيد المذكوران في القرآن الكريم

(الخراتان) نجمان من كواكب الأسد ، وقيل كوكبان بينهما قدر سوط وهما كتفا الأسد ، وقيل سميا بذلك لنفوذهما إلى جوف الأسد

(الزبانيان) هما كوكبان نيران ، وهما قرنا العقرب ينزلهما القمر ، وهما مفترقان بينهما أكثر من قامة الرجل في رأي العين ، ويسميهما أهل الشام يدي العقرب ، ويقال لهما زباني الصيف ، لأن سقوطهما في زمن تحرك الحر

(الشرطان) نجمان من الحمل وهما قرناه

(الشرفان) بالوادي الأخضر من دمشق وهمـا الجانبان المتقابلان شرف أعلى وهو الشمالي وأدنى وهو القبلي ، وبينهما الوادي والنهران بردى وبانياس . ويقال : فلان حاز الشرفين أي شرف الأب والأم

(الغوطتان) بدمشق معروفتان قبلية وشمالية

(الصفصافتان) معروفتان عند الدمشقيين ، وهما : شجرتا صفصاف بالوادي التحتاني معدتان للتنزه ذكرهما الشعراء المتأخرون في أشعارهم فمنهم الأمير المنجكي حيث قال :

وبالصفصافتين مقام أنس   عليل نسيمه يبرى السقاما
إذا غنت حمائمه سكرنا   بما تملى ولم نشرب مداما

(العزيزيتان) قريتان بمصر فى ناحيـة الشرقية منسوبتان إلى العزيز بن المعز

(العسكريان) محمـد بن على والحسين بن رشيق ، منسوبان إلى عسكر : محلة بمصر ، وأبو الحسن على بن محمد . . . بن جعفر وولده الحسن منسوبان إلى عسكر المعتصم وهى مدينـة سر من رأى (سامرا) ، والعسكريان الأديبان أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكرى وتلميذه أبو هلال الحسن بن عبد الله منسوبان إلى عسكر مكرم

(الفرقدان) نجمان منيران فى بنات نعش يضرب المثل بهما فى طول الصحبة فى التساوى والتشاكل - قال البحترى :

كالفرقدين إذا تأمل ناظر   لم يعد موضع فرقد عن فرقد

(القرافتان) القرافة الصغرى والقرافة الكبرى ، فيهما مقبرتا مصر ، وكانتا من قبل خطتين لقبيلة من اليمن ثم من المعافر ابن يعفر يقال لهم بنو قرافة

(المحلفان) نجمان يطلعان قبل سهيل فيظن الناظر لكل منهما أنه سهيل ، ويحلف أنه سهيل ويحلف آخر أنه ليس به

ما يتعلق بالمنطق من المثنيات

(الجنسان) الجنس القريب والجنس البعيد

(الحدان) الحد التام والحد الناقص

(الضدان) صفتان وجوديتان يتعاقبان فى موضع واحد يستحيل اجتماعهما كالسواد والبياض

(المتقابلان) بالعدم والملكة أمران أحدهما وجودى والآخر عدم ذلك الوجودى لا مطلقاً بل من موضع مقابل له كالبصر والعمى ، والعلم والجهل ، فان العمى عدم البصر عما من شأنه البصر ، والجهل عدم العلم عما من شأنه العلم

(المتقابلان) بالايجاب والسلب هما أمران أحدهما عدم الآخر مطلقاً كالفروسية واللافروسية

(المضافان) هما المتقابلان الوجوديان اللذان يعقل كل منهما بالقياس إلى الآخر كالأبوة والبنوة

(النوعان) الحقيقى والاضافى : فالحقيقى الكلى المقول على واحد أو كثيرين متفقين فى الحقائق فى جواب ماهو ، والاضافى ماهية يقال عليها وعلى غيرها الجنس قولاً أوليا أى بلا واسطة كالانسان بالقياس إلى الحيوان

المثنيات المتعلقة بالتفسير والقراءات

(النجدان) هما الضلالة والهدى ، فى قوله تعالى (وهديناه النجدين)

(مدهامتان) هما فى القرآن بمعنى سوداوين من شدة الخضرة من الرى لأن العرب تسمى كل أخضر أسود

(الصدفان) هما فى الآية الكريمة جبلان متلاصقان ، من المصادفة أى المقابلة ، وقيل من الصدف وهو الميل لأن كل واحد منهما منعزل عن الآخر

(السدان) هما فى قوله جل وعز (حتى إذا بلغ السدين) الجبلان المبنى بينهما السدان وهما جبلا أرمينيا وأذربيجان ، وقيل هما جبلان منيمان فى آخر بلاد الترك

(الابنان) هما فى مصطلح أهل القراءات ابن كثير وابن عمر

(الأبوان) هما أبو عمرو وأبو بكر بن عاصم القارئان المشهوران

(الاخوان) هما حمزة والكسائى . (الحرميان) هما ابن كثير ونافع من القراء السبعة

المثنيات المتعلقة بالحديث الشريف

(التدليسان) أحدهما تدليس الاسناد وهو أن يروى عمن لقيه ولم يسمع منه موهماً أنه لقيه أو سمع منه ، والآخر تدليس الشيوخ وهو أن يروى حديثاً عن شيخ سمعه منه فيسميه أو يكنيه ويصفه بما لم يعرف به كيلا يعرف

(الشيخان) هما عند الاطلاق أبو بكر وعمر ، وعند المحدثين يراد بهما البخارى ومسلم

(الذبيحان) فى حـديث (أنا ابن الذبيحين) اسمعيل أو إسحق وعبـد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم . والمرجح أن الذبيح هو اسمعيل ، وأما القول بأنه إسحق فمردود بأكثر من عشرين وجهاً [1]

(١) بسط المحبى فى (جنى الجنتين) مفصل القول فى ذلك بتحرير دقيق عن ابن تيمية وغيره من الأئمة

اعترفت بها دول العالم جميعاً؟ هذا ما نتساءل عنه منذ أعوام .

إن مصر تستطيع أن تبرر عدم اعترافها بروسيا السوفيتية ، وهي الدولة الوحيدة الأخرى التي لا تعترف بها ، بما شاءت من الحجج والمعاذير ؛ ولكن موقفها من المملكة السعودية مما يصعب فهمه وتعليله . وإذا لم يكن ثمة موضع للتحدث عن التبعات في هذا المقام ، فإنه مما يجدر ذكره أن جلالة ابن السعود قد أبدى في كل فرصة استعداداً محموداً لتنظيم العلائق بين مملكته وبين المملكة المصرية . وقد تكون ثمة مسائل وتفاصيل لا بد من تسويتها لإقامة الروابط الرسمية بين الحكومتين على أسس وطيدة مرضية ؛ ولكنا لا نعتقد أن هذه المسائل من الخطورة بحيث يتعذر تذليلها وحلها

ولسنا في حاجة لأن ننوه في هذا المقام بما يجمع بين الأمتين من الروابط التاريخية القديمة ، ولا بما يوثق بينهما من أواصر الدم والدين واللغة ومختلف المصالح المعنوية والمادية ؛ وإذا كان مما يدعو إلى الغبطة أن الأمتين رغم هذا الشذوذ القائم في علائقهما الرسمية ، تقصدان كلتاهما واجبها نحو الأخرى ، وتعاملها معاملة الأخت الشقيقة ، بل وتبعث إليها بممثل غير رسمي يتمتع فعلاً بجميع المجاملات الممكنة ، فإنه لابد من تتويج هذه الحالة الفعلية القائمة بالصبغة الرسمية الصريحة حتى يزول كل ريب والتباس في علائق الدولتين

***

وثمة ملاحظة أخرى في موقف مصر من الأمم الشرقية الشقيقة هي تصرفها في مسألة تبادل التمثيل السياسي مع أفغانستان ؛ فقد أنشأت أفغانستان لها في مصر منذ أعوام مفوضية خاصة وبعثت إليها بوزير مفوض ؛ ولبثت أفغانستان تنتظر مدى أعوام أن تعاملها مصر بالمثل ، وأن تقوم في كابول مفوضية مصرية يتولى أمرها وزير مصري مفوض ؛ ولكن الحكومة المصرية رأت أخيراً أن تكتفي بأن تنشئ في كابول مفوضية اسمية يتولى أمرها « قائم بالأعمال » وأن تسند إلى وزير مصر المفوض في طهران ، فاضطرت الحكومة الأفغانية إزاء ذلك أن تلغي مفوضيتها في مصر ، وأن تبعث بوزيرها المفوض إلى جهة أخرى ، وأن تكتفي كالحكومة المصرية بمفوضية اسمية يتولاها « قائم بالأعمال » وتسند إلى وزير أفغانستان المفوض في تركيا

وهذه نتيجة يؤسف لها ؛ خصوصاً إذا ذكرنا أن مصر في الوقت الذي تقدم فيه على هذا التصرف إزاء أفغانستان ، وفي الوقت الذي تكتفي فيه بأن يمثلها في العراق « قائم بالأعمال » ، تنشئ لها مفوضية جديدة في النمسا يتولاها وزير مفوض خاص

***

هذه مآخذ في سياسة مصر الخارجية نحو الأمم الشرقية ، كنا نود أن تنزه عنها وأن ترتفع فوقها ؛ فمصر وحدة بارزة في هذه الكتلة الشرقية التي تضطرم اليوم بروح جديدة ، وتحفزها آمال وأماني مشتركة ، وتجمع بينها جميعاً صلات التاريخ والأجيال ، وسياسة مصر نحو هذه الأمم الشقيقة يجب أن تقوم على اعتبارات معنوية سامية ترتفع فوق كل الاعتبارات المادية

ويجب أن تذكر مصر دائماً أنها تضطلع بتبعات خاصة نحو العروبة والإسلام ؛ فهي تحمل رسالة الثقافة العربية ، وإليها تتجه أنظار الأمم العربية ، تقفو أثرها وتتعاون معها في إحياء الآداب العربية ، ثم هي تحمل زعامة الإسلام الدينية والاجتماعية ، وإليها تتجه أنظار الأمم الإسلامية لتتعاون معها في حماية التراث الإسلامي المشترك ؛ وفي تضامن مصر مع الأمم العربية والإسلامية في صوره الممكنة قوة لا يستهان بها ؛ وهذا المركز الخاص الذي تتبوأه مصر بين الأمم العربية والإسلامية يحتم عليها أن تكون قدوة في حسن التفاهم مع هذه الأمم الشقيقة التي تلتف حولها وتحبوها بعطفها وتقديرها

فهل لنا أن نؤمل أن تتجه سياسة مصر الخارجية إلى تقدير هذه العوامل والاعتبارات الخطيرة ؟ وهل نشهد في القريب العاجل عقد معاهدة الصداقة المصرية الحجازية ؟ هذا ما نرجو لخير مصر ، ولخير العروبة والإسلام

« *** »

في الربيع الأزرق (١)

خواطر مرسلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ما أجملَ الأرضَ على حاشيةِ الأزرقَين البحر والسماء ؛ يكادُ الجالسُ هنا يظنُّ نفسَه مرسوماً في صورة إلٰهية

* * *

نظرتُ إلى هذا البحر العظيم بعينَيْ طفلٍ يتخيل أن البحر قد مُلِىءَ بالأمس ، وأن السماءَ كانت إناءً له ، فانكفأ الاناءُ فاندفق البحر ؛ وتسرَّحتْ مع هذا الخيال الطفليّ الصغير فكأنما نالني رشاشٌ من الاناء . . . .

إننا لن ندركَ رَوعةَ الجمال في الطبيعة إلا إذا كانت النفسُ قريبةً من طفولتها ، ومرَحِ الطفولة ، ولعبها ، وهذيانها

* * *

تبدو لك السماءُ على البحر أعظمَ مما هي ، كما لو كنتَ تنظر إليها من سماءٍ أخرى لا من الأرض

* * *

إذا أنا سافرتُ جئتُ إلى البحر ، أو نزلتُ بالصحراء ، أو حللتُ بالجبل ؛ شعرتُ أولَ وهلةٍ من دهشة السرور بما كنت أشعر بمثله لو أن الجبلَ أو الصحراءَ أو البحرَ قد سافرت هي وجاءت إليّ

* * *

في جمال النفس يكون كلُّ شيء جميلا إذ تُلقي النفسُ عليه من ألوانها ، فتنقلب الدارُ الصغيرةُ قصراً لأنها في سَعَة النفس لا في مساحتها ، وتعرفُ لنور النهار عذوبةً كعذوبة الماء على الظمأ ، ويظهر الليل كأنه معرضُ جواهر أقيم للحُور العين في السماوات ، ويبدو الفجرُ بألوانه وأنواره ونسماته كأنه جنةٌ سابحة في الهواء

في جمال النفس ترى الجمالَ ضرورةً من ضرورات الخليقة وَيْ كأن الله أمرَ العالَم ألا يَعبسَ للقلب المبتسم

* * *

أيامُ الصيف هي الأيامُ التي ينطلق فيها الانسانُ الطبيعيُّ المحبوسُ في الانسان ، فيرتدُّ إلى دهره الأول دهر الغابات والبحار والجبال

إن لم تكن أيامُ الصيف بمثل هذا المعنى ، لم يكن فيها معنى

* * *

ليست اللذة في الراحة ولا الفراغ ، ولكنها في التعب والكَدْح والمشقة حين تتحولُ أياماً إلى راحة وفراغ

* * *

لا تتمُّ فائدةُ الانتقال من بلد إلى بلد ، إلا إذا انتقلت النفس من شعور إلى شعور ؛ فاذا سافر معك الهمُّ فأنت مقيمٌ لم تبرحْ

* * *

الحياةُ في الصيف تثبت للانسان أنها إنما تكونُ حيث لا يُحتفَل بها كثيراً

* * *

يشعر المرءُ في المُدُن أنه بين آثار الانسان وأعماله ، فهو هناك في رُوح العَناء والكَدْح والنزاع ؛ أما في الطبيعة فيحُسُّ أنه بين الجمال والعجائب الإلٰهية ، فهو هنا في رُوح اللذة والسرور والجلال

* * *

إذا كنت في أيام الطبيعة فاجعل فكرك خالياً وفرِّغه للنَّبت والشجر ، والحجَر والمَدَر ، والطير والحيوان ، والزهر والعُشب ، والماءِ والسماء ، ونورِ النهار وظلام الليل ، حينئذ يفتح لك العالَم بابَه ويقول : ادخل

* * *

لطُفُ الجمال صورةٌ أخرى من عظَمَة الجمال ؛ عرفتُ ذلك حينما أبصرتُ قطرةً من الماء تلمعُ في غصن ، فخُيِّل إليَّ أن لها عظمة البحر لو صَغُر فعُلِّق على ورقة

* * *

في لحظة من لحظات الجسد الروحانية ، حين يفورُ شِعرُ الجمال في الدم — ألقيتُ النظرَ إلى وردة في غصنها زاهيةٍ ، عطرة ، متأنقة ، متأنثة ؛ فكدت أقول لها : أنتِ أيتها المرأة ، أنت يا فلانة . . .

* * *

أليس عجيباً أن كل انسان يرى في الأرض بعض الأمكنة

(١) هذه تسمية جديدة للصيف على ساحل البحر

كأنها أمكنة للروح خاصة ؟ فهل يدل هذا على شيء إلا أن خيال الجنة منذ آدم وحواء ، لا يزال يعمل في النفس الإنسانية ؟

* * *

الحياة في المدينة كشرب الماء في كوب من الخزف ؛ والحياة في الطبيعة كشرب الماء في كوب من البلور الساطع ؛ ذاك يحتوي الماء وهذا يحتويه ، ويبدي جماله للعين

* * *

وا أسفاه ، هذه هي الحقيقة : إن دقة الفهم للحياة تفسدها على صاحبها كدقة الفهم للحب ؛ وإن العقل الصغير في فهمه للحب والحياة ، هو العقل الكامل في التلذذ بهما . وا أسفاه ، هذه هي الحقيقة

* * *

في هذه الأيام الطبيعية التي يجعلها المصيف أيام سرور ونسيان يشعر كل إنسان أنه يستطيع أن يقول للدنيا كلمة هزل ودعابة . . .

* * *

من لم يرزق الفكر العاشق لم ير أشياء الطبيعة إلا في أسمائها وشياتها ، دون حقائقها ومعانيها ؛ كالرجل إذا لم يعشق رأى النساء كلهن سواء ؛ فإذا عشق رأى فيهن نساء غير من عرف ، وأصبحن عنده أدلة على صفات الجمال الذي في قلبه

* * *

تقوم دنيا الرزق بما تحتاجه الحياة ؛ أما دنيا المصيف فقائمة بما تلذه الحياة ؛ وهذا هو الذي يغير الطبيعة ويجعل الجو نفسه جو مائدة ظرفاء وظريفات . . .

* * *

تعمل أيام المصيف بعد انقضائها عملاً كبيراً ، هو إدخال بعض الشعر في حقائق الحياة

* * *

هذه السماء فوقنا في كل مكان ؛ غير أن العجيب أن أكثر الناس يرحلون إلى المصايف ليروا أشياء منها السماء . . .

* * *

إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع ، وحقائق الهموم تصغر وتضيق ، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيق لا هي

* * *

في الساعة التاسعة أذهب إلى عملي ، وفي العاشرة أعمل كيت ، وفي الحادية عشرة أعمل كيت وكيت ؛ وهنا في المصيف تفقد التاسعة وأخواتها معانيها الزمنية التي كانت تضعها الأيام فيها ، وتستبدل منها المعاني التي تضعها فيها النفس الحرة

هذه هي الطريقة التي تصنع بها السعادة أحياناً ؛ وهي طريقة لا يقدر عليها أحد في الدنيا كصغار الأطفال

* * *

إذا تلاقى الناس في مكان على حالة متشابهة من السرور وتوهم الفكرة فيه ؛ وكان هذا المكان ممهداً بطبيعته الجميلة لنسيان الحياة ومكارهها — فتلك هي الرواية وممثلوها ومسرحها (١) أما الموضوع فالسخرية من إنسان المدنية ومدنية الإنسان

* * *

ما أصدق ما قالوه : إن المرئي في الرائي . مرضت مدة في المصيف ، فانقلبت الطبيعة العروس التي كانت تتزين كل يوم إلى طبيعة عجوز تذهب كل يوم إلى الطبيب . . .

شاطئ سيدي بشر . (أسكندرية) مصطفى صادق الرافعي

(١) يظن صديقنا العلامة الكبير الأمير شكيب أرسلان أن المسرح لدار التمثيل غير صحيح . وأن صوابها الزرح ولكن الصاحب بن عباد استعملها في قريب من معنى دار التمثيل وأصلها من مرادفات ندي القوم ومجتمعهم

إلى الآنسة ف . ط . بدمشق

لا أستطيع أن أشكرك بما أنت أهله وأرجو بعون الله وتيسيره أن أكون عند ظنك ، ولكن احذري هذا الوهم الكبير ، وهم المثل الأعلى ، فكل الرجال مثل أعلى في أول الرواية . . . الرافعي

حول النزاع الايطالي الحبشي

عصبة الأمم

وما تستطيع أن تفرضه من العقوبات

بقلم باحث دبلوماسي كبير

تعاني عصبة الأمم أزمة دقيقة من جراء تعرضها للنزاع بين ايطاليا والحبشة ؛ ولم يكن في وسع العصبة أن تقف جامدة أو أن تتنحى عن بحث مشكل يقع في صميم اختصاصها بمقتضى « الميثاق » وتثيره دولتان كلتاهما عضو في العصبة ، وعصبة الأمم تعرف منذ البداية أنها تواجه في المشكلة الايطالية الحبشية أزمة خطيرة ، بل تواجه محنة قد يقوض الفشل في درئها صرح العصبة ، وكل المبادئ الدولية التي يقوم عليها ، وتعرف منذ البداية أيضاً أنها لن تستطيع أن تقوم في معالجة هذه الأزمة بدور فعال ، أو بإجراء حاسم ، ولكنها أيقنت في نفس الوقت أن قليلاً من الشجاعة في مواجهة الموقف ، وأن تطبيق بعض الاجراءات النظرية التي ينص عليها ميثاق العصبة في مثل هذه الأحوال ، وأخيراً أن محاولة اكتساب الوقت في بعض المجادلات الفقهية قد تنتهي بانقاذها من مأزق الحياة والموت

وقد أبدت العصبة هذا القليل من الشجاعة فاستمعت إلى نداء الحبشة في بحث النزاع ، وإن لم تبحثه إلا في الحدود الضيقة التي ارتضتها ايطاليا ، وسمت إلى تطبيق المادة الثالثة عشرة من الميثاق ، واتفق الطرفان على محاولة اجراء نوع من التحكيم ، وألفت بالفعل لجنة تحكيم مشتركة تمثل الفريقين التنازعين ؛ ولكن الحوادث تطورت بسرعة ، وأكدت ايطاليا وما تزال تؤكد بمنتهى الصراحة أنها لا تبغي بديلا بافتتاح الحبشة والاستيلاء عليها ، وأنها سوف تلجأ لتحقيق غايتها بالقوة القاهرة ، وأنها لن تني عن مشروعها أمام أي تدخل أو أية قوة في العالم ؛ وهكذا تحطمت جميع الآمال التي علقت على تدخل العصبة ، وعلى لجنة التحكيم ، ولن يحول دون اضطرام الحرب في شرق أفريقية سوى معجزة ، أو تطور في الحوادث لا يخطر ببال انسان ؛ ولن تحدث هذه المعجزة أو هذا التطور الخارق

ونحن نعرف كيف حاولت السياسة البريطانية جهد استطاعتها أن تحول دون اضطرام الحرب في هذه المنطقة التي تجاور عدة من الأملاك البريطانية ، وتهدد حلول ايطاليا فيها وادي النيل من منبعه إلى مصبه ، ويضع السودان ومصر في مأزق خطر ، ويجعلهما عرضة لأخطار النزعة الاستعمارية التي تضطرم بها ايطاليا ، وتهدد من جهة أخرى مواصلات الامبراطورية البريطانية في البحر الأحمر ، وفي عدن وباب المندب بصفة خاصة ؛ ولكن السياسة البريطانية لم توفق رغم ما بذلته من الجهود وما عرضته من الحلول إلى اقناع السياسة الايطالية الجامحة المتوثبة بالعدول عن مطامعها وأحلامها العريضة في اقامة امبراطورية استعمارية ضخمة في شرق أفريقية

والآن ، وقد فشلت كل محاولة للتسوية السلمية ، ولم يبق سوى اضطرام هذه الحرب المهيجة التي تصر الفاشستية على اضرامها تحقيقاً لمطامعها ، ومشاريعها المثيرة في افتراس الشعوب الآمنة ، تحاول السياسة البريطانية أن تجد سبيلاً لمقاومتها وتحطيم مشاريعها ؛ لا حباً بالحبشة ، أو نصرة لقضية السلام في ذاتها ، ولكن توسلا إلى درء الأخطار التي تهدد سيادتها ومصالحها الامبراطورية في البحر الأبيض المتوسط وفي شرق أفريقية إذا استطاعت الفاشستية أن تفوز بغيتها في افتتاح الحبشة . وقد تستطيع السياسة البريطانية أن تشل حركة الفاشستية ببعض الاجراءات والمساعي التمهيدية ، وقد لا تحجم عن أن تخوض معها غمار الحرب إذا لم تجد مناصاً من خوضها

ومن هذه الاجراءات والمساعي التمهيدية التي تفكر انكلترا في التذرع بها لرد الفاشستية عن عدوانها ، محاولة توقيع العقوبات الدولية التي ينص عليها ميثاق عصبة الأمم . وقد كثرت الاشارة أخيراً إلى هذه العقوبات ومداها ومبلغ ما ينتظر من تأثيرها إذا طبقت . ولهذا نرى مناسبة لأن نتناولها بشيء من الشرح والتفصيل ، فنقول إن المادة (١٥) من ميثاق العصبة تنص على الاجراءات والقرارات التي يمكن اتخاذها لتسوية المنازعات الدولية التي قد تقع بين أعضاء العصبة عن يد العصبة

ذاتها وما يمكن أن يقوم به مجلس العصبة في هذا السبيل . وتنص المادة التالية أي المادة (١٦) على العقوبات الدولية التي يمكن توقيعها على الدولة التي تخالف تعهداتها وتلتجئ إلى الحرب ، وإلى القارئ نص هذه المادة الشهيرة كاملاً :

« إذا التجأ عضو من أعضاء العصبة إلى الحرب خلافاً للتعهدات المنصوص عليها في المادتين ١٢ و ١٣ أو المادة ١٥ ، فإنه يعتبر فعلاً قد ارتكب عملاً حربياً ضد كل أعضاء العصبة الآخرين ، ويتعهد هؤلاء أن يقطعوا في الحال معه كل علائقهم التجارية والمالية ، وأن يحظروا كل علائق بين رعاياهم وبين رعايا الدولة التي خرقت الميثاق ، وأن يقطعوا كل المواصلات المالية والتجارية والشخصية بين رعايا هذه الدولة وبين رعايا أية دولة أخرى سواء أكانت عضواً في العصبة أم لا —

« وفي هذه الحالة يجب على المجلس (مجلس العصبة) أن يوصي إلى الحكومات المختلفة ذات الشأن بتقديم القوى العسكرية أو البحرية أو الجوية التي يساهم أعضاء العصبة في تقديمها للقوى المسلحة التي تقوم بالعمل على احترام تعهدات العصبة .

« ويتعهد أعضاء العصبة أيضاً أن يعاونوا بعضهم بعضاً في تطبيق الاجراءات الاقتصادية والمالية التي تتخذ طبقاً لهذه المادة والتي يراد بها أن تخفض إلى أدنى حد ما يمكن أن يترتب عليها من الخسائر والمضار . ويتعهدون بالتعاون أيضاً في مقاومة كل إجراء خاص يوجه إلى أحدهم من جانب الدولة التي خالفت الميثاق ؛ ويتخذون الاجراءات اللازمة لكي يسهل المرور في أراضيهم لقوات أي عضو من أعضاء العصبة يساهم في العمل المشترك الذي يقصد به العمل على احترام تعهدات العصبة

« ويمكن أن يفصل من العصبة كل عضو ينتهك أحد التعهدات المرتبة على هذا الميثاق ، ويصدر قرار الفصل بموافقة جميع أعضاء العصبة الآخرين الممثلين في المجلس »

هذا هو مجمل الاجراءات التي سجلها ميثاق العصبة لتوقيع العقوبات الدولية على العضو المعتدي أو المنتهك لميثاق العصبة . وظاهر أن هذه العقوبات ذات صبغة اقتصادية محضة ؛ ويمكن وصفها بأنها نوع من الحصار الاقتصادي . ولهذا الحصار الاقتصادي إذا طبق على دولة من الدول أكبر الأثر في الضغط عليها وشل مشاريعها العسكرية ، خصوصاً إذا كانت مثل إيطاليا تعتمد على الخارج في كثير من المواد الأولية الأساسية . بيد أن هذه النصوص التي سجلتها عصبة الأمم في ميثاقها لا تزال نظرية محضة ، ولم يجر تطبيقها حتى اليوم بصورة فعلية ، وإن كان ذكرها قد جرى في بعض الأزمات الدولية ، ولا تزال أكبر نقطة ضعف فيها خلوها من أي ضمان فعلي للتنفيذ ؛ فليست لعصبة الأمم أية قوة أو أية سلطة فعلية تمكنها من تطبيق مثل هذه العقوبات ، وليس في وسع مجلس العصبة إلا أن « يوصي » إلى الحكومات ذات الشأن بتقديم القوى اللازمة ، فإذا رفضت هذه الحكومات أن تقدم هذه القوى ، فماذا عسى أن يستطيع مجلس العصبة إزاء الدولة « المعتدية » ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن صفة « الاعتداء » لم تعرف حتى اليوم تعريفاً كافياً ؛ وربما كان من الميسور أن يعرف « المعتدي » حالاً في مسألة النزاع الايطالي الحبشي ، إذ لا ريب في أن « المعتدي » هو إيطاليا ؛ ولكن ليس من السهل في كثير من المنازعات الدولية أن يقطع في أمر « المعتدي » قطعاً لا مرية فيه

وقد كان هذا النقص في ضمان التنفيذ وما زال أعظم نقط الضعف في مواثيق السلام والتحكيم الدولية ، وهو أعظم نقط الضعف في ميثاق تحريم الحرب (ميثاق كلوج) الذي اغتبط لعقده أنصار السلام أيما اغتباط ، ثم لم يلبث أن ظهر عقمه حين الحاجة إلى تطبيقه . وقد كان اعتداء اليابان على منشوريا أعظم صخرة ارتطم بها ميثاق عصبة الأمم وميثاق تحريم الحرب . والآن يبدو عقم هذه المواثيق الدولية مرة أخرى إزاء النزاع الايطالي الحبشي ؛ وحيثما كان الفريق الأقوى يعتبر المواثيق الدولية قصاصات لا قيمة لها ، كما هو الشأن في حالة إيطاليا التي ترتبط مع الحبشة ومع فرنسا وانكلترا بأكثر من معاهدة لاحترام استقلال الحبشة وسلامة أراضيها ، فإن المناقشات الفقهية في احترام مواثيق السلام لا تجدي ما لم تكن مؤيدة بالقوى الفعلية لتنفيذها

ولكن السياسة الانكليزية ما زالت تعول على دستور عصبة

الأمم في سعيها لرد عدوان السياسة الفاشستية . وهي تشير إلى مسألة العقوبات الاقتصادية التي نصت عليها المادة السادسة عشرة كوسيلة من وسائلها . والواقع أنه ربما كان لهذا التهديد أثره المادي إذا أيدته الدول . فقد حدث في سنة ١٩٢١ ، حين غزت يوجوسلافيا الأراضي الألبانية ، أن هددت عصبة الأمم بتطبيق العقوبات الاقتصادية ، فكان ذلك كافياً لوقف الاعتداء . وقد عجزت العصبة في سنة ١٩٢٣ أن ترد السنيور موسوليني عن احتلال جزيرة كورفو اليونانية تنفيذاً للبلاغ النهائي الذي وجهه إلى اليونان ، ولكنها استطاعت بعد ذلك بعامين أن تحول دون اضطرام الحرب بين اليونان وبلغاريا من جراء النزاع بينهما على الحدود . وقد فطنت عصبة الأمم نفسها إلى هـذا النقص الذي يعتور نص المادة (١٦) ، وبحثت في أمره ، وقررت في شأنه بعض التعديلات التي من شأنها أن تسهل الاجراءات في حالة الأزمات الخطيرة ؛ ويقضي هذا التعديل « بأنه يجب على مجلس العصبة أن يقرر ما إذا كانت قد ارتكبت مخالفة للميثاق » ولكن العصبة صرحت أيضاً أن المجلس لا يستطيع أن يفعل أكثر من أن يدعو الأعضاء إلى تطبيق العقوبات الاقتصادية ، وقد يستطيع بعد ذلك أن يطالب الدول بتقديم المعاونة العسكرية التي يمكن استخدامها ضد الدولة المعتدية . بيد أن هذا التعديل لم تصادق عليه الأغلبية المطلوبة من الأعضاء حتى اليوم

وقد تستطيع السياسة الانكليزية أن تقنع عصبة الأمم بتوقيع العقوبات الاقتصادية على ايطاليا ، وهذا الاقناع ميسور إذا استطاعت أن تجذب السياسة الفرنسية إلى جانبها وأن تقنعها بضرورة العمل معها لدرء الأخطار التي تهددها وتهدد أوربا من جراء الحرب التي تعمل الفاشستية لاضرامها . وعندئذ يمكن أن تؤدي انكلترا في هذا الحصار الاقتصادي الذي ينص عليه ميثاق العصبة أكبر دور ، هذا فضلاً عن الدور الذي تؤديه باقي الدول المؤيدة لانكلترا ضد ايطاليا ، وذلك بقطع المواد الأولية عن ايطاليا ورفض التعامل معها في كل ما يمكن أن يسهل استعداداتها الحربية ؛ أما انكلترا ففي وسعها أولاً أن تلجأ إلى اغلاق قناة السويس بالاستناد إلى نص المادة (٢٠) من ميثاق العصبة ، وهي التي تنص على الغاء جميع المعاهدات السابقة التي لا تتفق مع نصوص الميثاق وغاياته ، باعتبار أن معاهدة سنة ١٨٨٨ التي تضمن حيدة القناة وفتحها في كل وقت من أوقات السلم أو الحرب واسفن جميع الدول أضحت مناقضة لميثاق العصبة ، وهذا ما تنكره ايطاليا على انكلترا كل الانكار ، لأن معاهدة سنة ١٨٨٨ ما تزال قائمة في نظرها ويجب احترامها طبقاً لنص المادة ٢٨٢ من معاهدة فرساي (بند ١١) ، حيث ينص على تعداد المعاهدات التي تبقى نافذة المفعول مع ألمانيا ، وميثاق عصبة الأمم ليس إلا فصلاً من فصول معاهدة فرساي . وفي وسع انكلترا أن تلجأ أيضاً إلى إغلاق جبل طارق في وجه السفن الايطالية ، كما أنها تستطيع أن تغلق في وجهها بوغاز باب المندب فتقطع بذلك على إيطاليا كل سبيل للاتصال بالأرترية أو السومال . على أن إيطاليا ترى في هذه التصرفات كلها أعمالاً عدائية وإعلان حرب تقابله بالمثل ، ومن المحقق أن انكلترا ستفكر طويلاً قبل أن تقدم على شيء منها

وهناك مسألة تصدير السلاح إلى الحبشة ، وهذه أيضاً وسيلة ناجعة في يد انكلترا ، وقد ألغي تصدير السلاح إلى الحبشة مؤقتاً في انتظار نتيجة المساعي السلمية ؛ فإذا أصرت إيطاليا على موقفها ، وهو الأرجح ، فإن انكلترا ستعود إلى تصدير السلاح إلى الحبشة ؛ وتزويد الحبشة بالسلاح يطيل أمد الحرب ، ويزيد في متاعب إيطاليا إلى حدود قد لا تقوى على مغالبتها

وسنرى على أي حال ما إذا كانت عصبة الأمم ، أو بعبارة أخرى ما إذا كانت الدول التي تسيطر على مجلس العصبة ، تستطيع في هذه الدورة القريبة التي ستعقد بعد يوم أو اثنين ، أن تذهب في الشجاعة والحزم إلى حد المطالبة بتوقيع العقوبات على إيطاليا

(* * *)

بين ثقافتين

يتجه الناقد الأدبي بنظره إلى مختلف النوازع الفكرية والتيجهات الأدبية في هذا البلد، فلا يلبث أن يرتد إليه الطرف حيران؛ فما نستطيع أن ندعي عن يقين أن لهذا العصر اتجاهاً أدبياً ينسب إليه ويعرف به ويتسم بطابعه. ولكنها تيارات مختلفة يتنازعها الضعف والوهن، وتتوزعها الأهواء والشيع؛ وبين دعاة الجديد وأنصار القديم حرب مشبوبة ومعركة هدامة، لا نراها ستؤذن لنا أن نهدأ فنستقر إلا أن نعرف مدى هذا الجديد، وماهية ذلك القديم

ولن يتأتى لنا أن نعرف ذلك أيضاً، ما دامت مناهج الدراسة الأدبية في مصر لا تعرف لها متجهاً ومذهباً، وعندنا عديد من معاهد الأدب، يذهب كل منها مذهباً في تخريج طلابه، وتمثل في مناهجه الدراسي صورة مصغرة للصراع الأدبي المختلف النزعة والاتجاه بين أدبائنا الكبار!

فعندنا الأزهر، قديم موغل في القدم، لا يرى العلم والأدب والثقافة إلا كما كان يراها القدامى الأولون من علمائه؛ وهو مذهب في الاعداد الأدبي له قيمته وأثره، ولكن له إلى جانب ذلك عيوبه وخطره – وما نعني الأزهر الجديد الذي يخطو اليوم إلى التجديد خطاه الأولى، بحنكة شيوخه وهمة شبابه، فانه ما زال على الطريق، ولا نعرف أين تستقر به الغاية من الهدف الذي يرمي إليه.

ولو أنا تركنا الأزهر وولينا النظر شطر الجهة الأخرى، لرأينا منهجاً جديداً في كلية الآداب، بينه وبين منهج الأزهر ما بين طرفي خيط طويل يصل أول التاريخ بما بعد التاريخ؛ فهنالك القديم الغارق في القدم، كأنما يحاول أن يقف خطو الزمان، وهنا الجديد الغالي في الجدة، كأنما يحاول أن ينسلخ من ماضي التاريخ. وهنالك في الأزهر يدرس القديم ويعنى بالقديم، بعيداً من روح العصر وسنة التطور؛ وهنا في كلية الآداب يحاول الجديد من غير أن يستند إلى أساس من العلم القديم، وهو بذلك كذلك، بعيد من روح العصر وسنة التطور؛ ومن ثم ترى في أكثر ما ينتج أدباؤنا لهذا العهد نوعين من الأدب، لو وضعت أولهما في الذروة من بلاغة الوضع وحسن الأداء، لوضعت ثانيهما في المنحدر؛ على أنك لو نظرت إليهما من ناحية الموضوع والفكرة لجعلت أعلاها أسفل وصعدت بالثاني ... ولكنك لن تجد في واحد منهما – على الأكثر – ما يبعثك على الاعجاب بالفكرة والأسلوب معاً؛ ومن هذا لا ترضى عن أحدهما في ناحية إلا أغضبك في الأخرى، ومنه جاءت الدعويان اللتان تسمعهما دائماً عند ما يستحر الجدل بين دعاة الجديد وأنصار القديم: «هذا أدب فارغ أكثر عنايته بأسلوب الأداء دون المعنى» أو «هذا أدب ساقط يتحيف اللغة ويهمل الجمال الفني في اللفظ»

وكلتا هاتين الدعويين صادقة من وجه؛ لأن الأدب فكرة وبيان، لا يتم تمامه إلا بهما معاً؛ وأنت قلما تجد بين الكاتبين والشعراء من أدبائنا من يجمع إلى جمال الفكرة جمال الأسلوب

***

ولو قد تركنا الأدب في ناحية وأردنا أن نعرف اتجاه الثقافة في مصر بوجه عام، وأثر ذلك في أخلاق أبنائها وفي المثل العليا التي ينشدونها – لوجدنا مثل هذا الاضطراب وتلك الفوضى، ففي الأزهر ثقافة دينية، ولكنها جامدة لا تتطور، واقفة لا تتحرك، مغلقة من دونها الأبواب فلا تؤثر تأثيرها إلا في أبناء الأزهر وحدهم، أو في المحيط الضيق الذي يضطربون فيه من قراهم

على أن في جمود الأزهر مدى طويلاً، قطعاً بين الأزهر بين وبين عصرهم، ومن ثم أخذت الثقافة الدينية تتقلص رويداً رويداً، حتى غدت مقصورة على طائفة قليلة من أبناء الريف، وبدأ تأثير الأخلاق ينحسر تبعاً لذلك حتى نوشك بعد قليل ألا نرى أثراً له في نفوس الكهولة والشباب منا

إلى جانب ذلك أخذت الثقافة المدنية في مدارس التعليم العام تغتن أبناءنا بالمناصب والوظائف والسلطان المرموق، فاتجهوا إليها بعقولهم وأفرغوا لها أنفسهم، حتى ما يكاد أب يفكر في تعليم بنيه وبناته إلا ذهب إلى هذه المدارس المدنية

ومنهاج التعليم في هذه المدارس هو ما نعرف، وهو ما يشكو منه واضعوه والقائمون عليه، ولعل شر عيوبه أنه لا يرمي إلى غرض عام من أغراض التربية الصالحة، وأنه يعنى أكثر ما يعنى بتلقين المعلومات وتحفيظ النظريات، فلا الدين، ولا القومية، ولا الأخلاق، ولا المثل العليا؛ ومن ثم كانت القومية المريضة، والدين الزائغ، والأخلاق المنحلة، والأمثلة الدنيا

هذان نوعان من التربية وأساليب التعليم في مصر، يكاد

الشعب بهما أن يكون طائفتين مختلفتي الخلق والثقافة والتفكير كأنما تعيشان في عصرين مختلفين ، وهاتان الطائفتان من متعلمينا وهذان المذهبان في التربية المصرية ، هما اللذان يكشفان عن سر الاضطراب في الثقافة المصرية ، كما يكشفان عن مقدار الفوضى في اتجاهنا الأدبي

وإننا بسبيل هذا البحث لنحاول أن نتعرف أي هذين المذهبين ستكون له الغلبة ، وأي هاتين الثقافتين أجدر بالبقاء ؟

***

إن تيار العصر يجرفنا في مسراه فما يدع لنا الفرصة أن نتلبث قليلاً لنعرف موقفنا ، على أن كلتا التربيتين لا تجديان علينا الجدوى التي تقربنا إلى المثل الأعلى الذي ننشده ؛ ولسنا بمستطيعين أن نظل أبداً نحن بالماضي والحياة تتقدم ، ولسنا بقادرين على أن ننسلخ من هذا الماضي ونخلع قوميتنا لنعدو في غبار الأوربيين ، فلا غنى لنا عن المزاوجة بين هاتين الثقافتين والمزج بينهما ، لنخرج من ذلك بمنهج تعليمي صالح ، يحفظ علينا قوميتنا ، ويصل بين ماضينا والعصر الذي نعيش فيه

على أن فوضى الأدب ودعوى الجديد والقديم ، يجب أن ينتهيا إلى غاية ؛ فما في اللغة والأدب جديد ولا قديم ، وما حسن أن تتنكر لتراث أدباء العربية الماضين بدعوى التجديد ، ولا أن نتنكر حكم العصر وسنة التطور بالدعوة إلى القديم ؛ فما ينهض هذا إلا بذاك ، وما يستطيع بان أن يبني على غير أساس ، ولا بد لمن يتهيأ لحمل رسالة الأدب لينشئ فيه الجديد الذي تنصت له الدنيا ويفاخر به العصر ، أن يأخذ له عدته ويتزود بزاده : فيتوفر على دراسة الأدب القديم ، ويستمع إلى أئمته ، ويروى عيونه ، ويستظهر من روائعه ، ثم يأخذ بسبب من كل علم وفن مما يعرفه عصره ، فاذا اجتمعت له الأسباب واستكمل الأهبة ، عاد إلى دنياه التي يعيش فيها ، وإلى العصر الذي يتصل به ، وإلى الأحداث التي تنفعل بها نفسه ، وإلى عواطفه التي انطبعت فيها صورة دنياه ؛ ثم لينشئ ما ينشئ ، فسيأتي بالجديد في الديباجة الصافية ، وبالمعنى البكر في العبارة المستقيمة ، وبالشعر الرائق في اللفظ الجزل ، وبالفكر العميق في البيان الساحر

ولكن أين نجد هذا مما ندرس هنا وهناك ، وما نجد هنا وهناك إلا فكراً بلا بيان ، أو بياناً بلا فكر ؟ وما نرى هناك وهنا إلا رطانة مستعربة ، أو عربية فارغة ، نسميها الجديد والقديم !

***

على أن في مصر مدرسة نحمد أثرها ، ونذكر يدها على الأدب والثقافة العربية ، هي مدرسة دار العلوم ، فهي الصلة بين الثقافتين ، والملتقى بين الغربيين ؛ جمع منهجها بين الثقافة العربية والاسلامية التي تدرس في الأزهر ، والثقافة المدنية التي تدرس في المدارس العامة ؛ فالى جانب دراسة الدين ، ونصوص اللغة ، وتراث السلف من أدباء هذه الأمة وعلمائها — يدرس التاريخ ، والفلسفة ، وأشتات من الرياضة والعلوم والفنون والآداب ؛ فمن أجل ذلك كان لدار العلوم هذا الأثر القوي في النهضة الأدبية الحاضرة ، وكان لأبنائها السبق في كثير من ميادين الانتاج ؛ وأنت ترى فيما يبدعه الكتاب والشعراء من أبناء دار العلوم ، طابعاً خاصاً قلما تراه فيما ينتجه غيرهم من الكتاب والشعراء ؛ ذلك لأنهم درسوا القديم دراسة روية وفهم ، وعاشوا في عصرهم كما يعيش أهله ؛ فلم ينسلخوا عن ماضي أمتهم ، ولم يتخلفوا عن عصرهم ؛ فكانوا بذلك صلة التاريخ بين ماضيه وحاضره

تلك شهادة الحق لهذه الدار التي أنشأها اسماعيل منذ ستين عاماً ونيف ، فنهضت بتبعاتها على أكمل وجه ، وأدت أمانة العلم أحسن أداء ، نذكرها لها منصفين في الوقت الذي تحاول فيه أحداث الزمان أن تنال منها وتنكر جدواها

على أن فضل هذه المدرسة ليس مقصوراً على أثرها في اللغة والدين ؛ فلعلها المدرسة الوحيدة التي تخرج المدرس القوي ، والمدرس في بلدنا — كمناهج التعليم في مدارسنا — لا يراد منه أن يمثل الروح القوي أكثر مما يراد منه أن يكون مدرس مادة بعينها ، ولكن خريج دار العلوم بحكم ثقافته وتربيته ، هو وحده يمثل الروح القوي أصدق تمثيل ، بعروبته ، ودينه ، وخلقه ، ومكانه من زمانه ؛ فليت وزارة المعارف عرفت له ذلك فلا تدعه في هذه الدائرة الضيقة من برنامج عمله المحدود ، فان مصر في حاجة إلى هذا الروح القوي ليبعث في التلاميذ من أبنائها معنى القومية وينشئهم التنشئة القومية التي تؤهلهم لحمل تبعات الجهاد في المستقبل القريب

ونحن مستيقنون أن دار العلوم يوم ينفسح لها الميدان لتؤدي رسالتها ويمكن لها لتنهض بما استعدت له ، ويزاد في مناهجها ما يؤهلها لأن تنظر في كل جديد فتتبع أحسنه — نكون قد عرفنا الاتجاه الأدبي الذي نسير اليه ، ورسمنا لنا في الثقافة منهاجاً صالحاً ، لا يمكن للأجانب أن يغزونا في آدابنا وعقولنا ، بعد أن نالوا منالهم من أرضنا وأموالنا !

من تراثنا العلمي

كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود، في علم ضائع، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

البَيْزَرَة (أو البَزْدَرَة): علم يبحث فيه عن أحوال الجوارح من حيث حفظ صحتها، وإزالة مرضها، ومعرفة العلامات الدالة على قوتها في الصيد، وضعفها فيه — قاله في كشف الظنون

والكلمة معربة، وهي من قولهم «بَيْزار» معرب «بازدار» و «بازيار»، أي حافظ البازي وصاحبه، والجمع «بيازرة» كما في التاج واللسان، قال الكُمَيْت:

كأن سوابقها في الغبار صقور تعارض بيزارها

وجاءت بالدال في قول أبي فراس:

ثمّ تقدمت إلى الفهّاد والبازداريِّين باستعداد

قال الشيخ داود الأنطاكي: وغايته اقتناص ما يشق اصطياده واللهو والرياضة، وشرح الصدور، وتسكين نحو الجذام والنقرس والمفاصل لتوالي الفرج، وسكون الغضب الخ

وقد سموه علم البزدرة (أو البيزرة)، إضافة له إلى أشرف أنواعه وأخفها، وهي البزاة

ولخصه في «التذكرة» في مقدمة وثلاثة مباحث:

فالمقدمة في كيفية اهتداء الناس إلى اتخاذ الطيور، وأول متخذ لها، وما هو المعتبر منها

والمبحث الأول في كيفية الاستدلال على الجيد منها باللون والصفة، وفي ذكر طرق التعليم

والمبحث الثاني في أوقات الارسال وكيفية الصيد، واختلاف حال الطيوز

والمبحث الثالث في علامات الصحة والمرض وطب الجوارح

* * *

وقد كان هذا العلم حيناً معروفاً أيام عز العرب وازدهار مدنيتهم، ثم ضاع فيما ضاع من تراث الأجداد، وفقدت كتبه كلها، ونسيه الناس، فلم يكد يذكره أحد ممن ألف في تاريخ الثقافة الاسلامية، ولم يبق بين أيدينا من المراجع في هذا العلم إلا هذا الفصل الذي كتبه الشيخ داود الأنطاكي في كتابه تذكرة أولي الألباب[1] وكلمة في كشف الظنون للحاج خليفة[2] لاتعدو الأسطر الثلاثة، نقلا عن جامع السعادة لكاشكري زاده، وكلمة في مُعْلَم (دائرة معارف) البستاني تحت عنوان: بزدرة

على أن للمتقدمين كتباً كثيرة في هذا العلم عدّ منها ابن النديم[3] في الفهرست: كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازيار، وكتاب البزاة للفرس، وكتاب البزاة للروم، وكتاب البزاة للترك، وكتاب البزاة للعرب، وكتاب البزاة واللعب بها لأبي دلف العجلي[4] وسماه ابن خلكان[5] كتاب البزاة والصيد

ومن الكتب المؤلفة في هذا العلم كتاب «القانون الواضح» ذكره في كشف الظنون نقلا عن جامع السعادة لكاشكري

---

(١) المعروف بتذكرة داود، وهو داود بن عمر الأنطاكي، طبيب ماهر ضرير، لم يكن في زمانه أعلم منه بالطب، ولد في أنطاكية وحفظ القرآن، وقرأ المنطق والرياضيات وشيئاً من الطبيعيات، وأحكم اليونانية، وهاجر إلى القاهرة ونال بها شهرة، ورحل إلى مكة فمات فيها سنة ١٠٠٨ هـ. تصانيفه كثيرة، أهمها التذكرة، وتزيين الأسواق في الأدب، وكفاية المحتاج في علم العلاج، وشرح عينية ابن سينا، وله شعر، وكان يملي ذلك كله املاء.

(٢) الحاج خليفة مصطفى بن عبد الله، كاتب شلبي المؤرخ التركي المستعرب، ولد في القسطنطينية وتقلب في كثير من المناصب، وحج وساح في الأرض، وتوفي في الآستانة سنة ١٠٦٦ هـ وله مصنفات أهمها الكتاب الجليل كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، وتحفة الكبار في أسفار البحار، وتقويم التواريخ وغيرها

(٣) محمد بن اسحاق بن يعقوب النديم البغدادي الوراق المعتزلي وكنيته أبو الفرج مؤرخ ثقة بحاثة، توفي سنة ٣٨٥ هـ وكتابه الفهرست من أقدم وأفضل كتب التراجم

(٤) القاسم بن عيسى أمير الكرخ وسيد قومه وقائد المأمون، أديب شاعر كريم ممدوح، وله تصانيف منها سياسة الملوك والبزاة والصيد، وهو الذي قيل فيه:

إنما الدنيا أبو دلف بين باديه ومحتضره
فاذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٥

(٥) أحمد بن محمد بن ابراهيم البرمكي، المؤرخ الحجة الأديب البارع، وكتابه الوفيات أحسن كتب التراجم وأجمعها وأضبطها، ولد في اربل سنة ٦٠٨ وأقام بمصر مدة تولى فيها نيابة القضاء، ثم تولى قضاء الشام الملك الظاهر، ثم تردد بينها وبين مصر، ودرس في العادلية والأمينية وغيرهما من مدارس دمشق، وتوفي فيها سنة ٦٨١ ودفن في سفح قاسيون

زاده (1) ووصفه بأنه كاف في هذا العلم ولم يسم مؤلفه

وذكر الشاعر الكبير الأستاذ الشيخ رضا الشبيبي (وزير المعارف العراقية اليوم) في مجلة المقتبس (2) أن في الخزانة التيمورية كتاباً اسمه « القانون في البيزرة » ولعله هو

وذكر أن من كتب هذا العلم كتاب « أنس الملا بوحش الفلا » تأليف محمد بن منكلي نقيب الجيش المصري في أواخر القرن الثامن ، وهو في خزانة باريز تحت رقم ٢٨٣٤ ، والقواعد المحبرة في البيطرة والبزدرة للأنطاكي

وهنالك آثار تعم الصيد بالكلاب والنبل والنشاب وهي كثيرة منها : كتاب المصائد والمطارد لكشاجم (3) ذكره ابن خلكان في الوفيات ، وانتهاز الفرص في الصيد والقنص للشيخ تقي الدين الناثري ألفه بزبيد سنة ٩١٠ ، ذكره الحاج خليفة في كشف الظنون وغيرها

وقد تكلم في طباع الجوارح وأحوالها كثيرون منهم : الدميري (4) في حيـــاة الحيوان . والقزويني (5) في عجائب المخلوقات وغيرهما

وفي الأدب العربي أدب للصيد قائم برأسه ، يعرف بالطرديات نبغ فيه جماعة منهم : أبو نواس ، وأبو فراس ، وكشاجم ، والحلي وغيرهم

***

(1) أبو الخير أحمد بن مصلح الدين كاشكبري مؤرخ تركي الأصل مستعرب ، ولد في بروسة وتنقل في مناصب التدريس والقضاء إلى أن ولي قضاء حلب وكف بصره ، وتوفي سنة ٩٦٨ هـ ، ومن كتبه : الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ، ومفتاح السعادة والشفاء وغيرها

(2) العدد الأول من المجلد التاسع الصادر سنة ١٣٣٥ هـ ، وقد كان يصدر المقتبس مفخرة القطر الشامي أستاذنا الجليل محمد بك كرد علي ، وقد صدرت في مصر ثم في الشام ، فكانت الحجر الأول من بناء نهضتنا الأدبية والفكرية ، ومجموعتها سجل أدبي لتلك الحقبة ، وكتاب فيه من المباحث العلمية ونفائس آثار الأولين ما لم ينشر في غير المقتبس

(3) محمود بن محمد بن الحسين الرملي المعروف بكشاجم ، شاعر متفنن من كتاب الانشاء ، له « أدب النديم » و « خصائص الطرب » و « المصايد والمطارد » وله ديوان ، مات سنة ٣٥٠ هـ

(4) محمد بن موسى بن علي الدميري وكنيته أبو البقاء ، باحث فقيه أديب مولده ووفاته في القاهرة ، كان خياطاً ثم أقبل على العلم وأفتى ودرس في الأزهر . له حياة الحيوان ، والديباجة شرح كتاب ابن ماجه ، والنجم الوهاج في شرح المنهاج وغيرها توفي سنة ٨٠٨ هـ

(5) زكريا بن محمد بن محمود من سلالة أنس بن مالك رضي الله عنه ، مؤرخ جغرافي ، ولد بقزوين ورحل إلى الشام والعراق وتولى قضاء واسط والحلة أيام المستعصم العباسي ، توفي سنة ٦٨٢ هـ ، له آثار البلاد وأخبار العباد ، وخطط مصر وعجائب المخلوقات (قال في الأعلام) وقد ترجم إلى الفارسية والألمانية والتركية

وفي سنة ١٣٣٢ هـ وجد الأستاذ الشيخ رضا الشبيبي بين (نفيسات آثار شتتها الإهمال ، وطمسها الابتذال ، منبوذة في ناحية غامضة ، نبذك سقط المتاع ، ملقاة نالت منها الأرضة والحشرات ، أضعاف ما اقتبسته منها العقول النيرات . قد علاها من الزبل وسلح الطيور ونحوها ما غير محاسنها ، وأخلق كريم ديباجتها) وجد بين هذه الآثار كتاباً في البيزرة ، وأول شيء في هذا الكتاب إغفال تسمية مؤلفه فيه ، وأنه خال من البسملة والحمدلة ، عار من تقديم مقدمة قبل الشروع في المقصود ، وعلة ذلك انقطاع دابر هذا الفن وأهله حتى لم تتألف من مشاهيرهم إلا طبقة محدودة ... وليس هذا الكتاب مما ألف للإسكندر الرومي ثم نقل إلى العربية كما يظهر مما جاء على ظهره وهذا نصه : « كتاب البيزرة صنفه الحكماء المتقدمين (كذا) للملك الإسكندر الرومي ؛ وهو كتاب عجيب مما يصلح بالملوك إذ لابد لكل ملك من مسير إلى صيد بأحد هذه الطيور الجوارح » ، والذي أوقع الوراقين في هذا الوهم ما ورد في نحر الكتاب من أن ثقات الروم من أهل المعرفة ؛ ذكروا أن الاسكندر الرومي قال للحكماء المحتفين بخدمته : « أريد أن تعرفوني بطبيعة البازي وأمراضه وعلامة كل مرض ودوائه وهل طبيعته تقارب طبيعة الآدمي أم لا ؟ » وأنت تعلم قصور هذه العبارة عما يدعون ، كيف وفي الكتاب نقل كثير عن حكماء العرب والمستعربين ، ومنهم من صحب الرشيد !! فالكتاب إذن من طرائف عصر عربي راق كما يظهر أيضاً من أسلوب انشائه السهل الممتنع البليغ . ولا يبعد أن يكون مؤلفه من رجال أواخر القرن الثالث أو الرابع للهجرة : يدلنا على ذلك أن المسعودي المتوفى سنة ٣٤٦ أورد في مروج الذهب عن الجوارح فصلين ترجح - بقول الأستاذ - أنهما منقولان عن هذا الكتاب باختلاف يسير

وروى لنا خبير أن في خزانة باريز كتاباً رقمه ٢٨٣١ بدون اسم إلا أنه كتب على ظهره بخط غير خطه : « كتاب الجوارح والبزدرة تصنيف الفيلسوف (أبو) بكر بن يوسف بن أبي بكر ابن حسن بن محمد القاسمي القرشي الدلوي الأشعري » تاريخ كتابته سنة ٨٤٨ هـ

فاسم هذا الكتاب طبق المحز وأصاب المفصل من الكتاب الماثل أمامي الآن ، لكن لا تزال حقيقة مؤلفه مبهمة مجهولة . هذا وكتابنا جزآن أو مقالتان ، في المقالة الأولى ٥٢ باباً في تاريخ

الصيد بالجوارح وتقسيمها إلى أقسامها وكيفية ترتيبها وسياستها ثم إرسالها إلى غايتها

وفي المقالة الثانية ٦٣ باباً في أدواء الجوارح وعللها وما يتخذ لعلاجها من المركبات بجملة الأبواب ١١٥ باباً في حجم ١٤٥ ورقة أو ٢٩٠ صحيفة صغيرة مخطوطة خطاً واضحاً متأخراً، أغاليطه بخطئها البدء. وفي آخره: « وقع الفراغ من كتابة هذه البيزرة نهار السبت ١٢ جمادى الأخرى سنة ١٢٠١ من الهجرة على يد ملا مطا ابن عبد الله الطرفي » ا هـ. كلام الأستاذ الشبيبي

***

أما الكتاب الذي أصفه اليوم فقد وقع عليه صديقنا الوراق العالم الشيخ حمدي السفرجلاني في خزانة قديمة في دمشق فعرف قدره فاشتراه. ثم كانت له قصة انتهت بأن بيع الكتاب إلى أحد المولعين بالكتب القديمة من الأفرنج وبقيت منه النسخة الفوتوغرافية التي أصفها عند الأستاذ السفرجلاني

وكتابنا - وإن لم يعرف مؤلفه - من أقدم الكتب المصنفة في هذا العلم وأجلها. فقد وضع للعزيز بالله أبي منصور نزار بن المعز معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بالله محمد بن المهدي العبيدي الفاطمي صاحب مصر والشام المتوفى في الحمام يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦هـ

وكان مغرى بالصيد، يصيد بالجبل والجارح من الطير ويصيد بالسباع. وكان مؤلف الكتاب كما يتحدث عن نفسه من بيازرة العزيز والمقربين إليه، وكان غالياً في التشيع لا يذكر العزيز مرة إلا صلى عليه وسلم. ومن قوله وهو يتحدث عن باز: « ولم أر في المدة التي لزمت فيها الصيد ومبلغها عشرون سنة الى أن صنفت كتابي هذا في علم البيزرة مثل هذا البازي على كثرة ما رأيت منها. ولقد وصل الينا في ليلة واحدة مائة باز من الشرق والغرب. فكم تراه يصل في كل سنة محمولاً إلى أمير المؤمنين صلوات الله عليه، مما لم يحمل إلى ملك قبله كثرة وجودة، وكل ذلك أيوني تدبيره، وأمارس تضريته، والاصطياد به الخ »

وقال في آخر الكتاب:

« وقد كان مؤلف هذا الكتاب في جملة البيازرة متقدماً عليهم - لا في جملة واحد منهم لا يحسن شيئاً من البيزرة، ثم أفرده أمير المؤمنين صلى الله عليه عنهم، وله من العمر إحدى عشرة سنة، وعلمه وهو لا يملك عشرة دراهم وعليه ثوب - ثم خرج في صناعته إلى ما قد شاهده الناس وعرفوه، ورقى أمير المؤمنين صلى الله عليه بمنزلته إلى أن صار اقطاعه عشرين ألف دينار، وبلغ المنزلة التي لو رآها في النوم لما صدقها، فلا يخف عن الناس ما كان فيه، وما صار إليه »

والكتاب كله من النمط العالي في إنشائه وأسلوبه، وهو مشحون بالفوائد والأخبار الأدبية، والأشعار المستملحة، والقصص اللطيفة، ويقع في ٣٠٠ صفحة مكتوبة بخط قريب من النسخي، قليلة أخطاؤه، مشكول شكلاً لا يعتمد عليه دائماً، فيه إشارات خاصة كانت توضع على الحروف المهملة ثم أهملت[1]، ومقدار المكتوب من الصفحة (١٨ × ١٠) سنتيمتراً، وفيه ١٣ سطراً وفي آخره: « وقد وصينا بما فيه الصلاح لمن انتهى إليه وعمل به، وبالله نستعين وعليه نتوكل

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين، كما هو أهله ومستحقه، وصلى الله على نبيه محمد خاتم النبيين، وعلى الأئمة من عترته الطاهرين الأخيار وسلم تسليماً »

وبعد ذلك ست صفحات يختلف خطها قليلاً عن خط الكتاب فيها:

باب النفقة على البيازرة وما يصل من أموال أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين اليهم في كل سنة

وباب في أحكام الصيد الشرعية وما يحل من ذلك وما يحرم في خمس صفحات في الثلاث الأخيرة منها خرم يصعب معه قراءتها وقد صرح بأن هذه الأحكام على المذهب الشيعي وعرض بالمذاهب الأخرى

وليس في أول الكتاب أو آخره ما يدل على تاريخ كتابته ولكني عثرت في وسطه على جملة مكتوبة تحت (باب ذكر ما يحتاج إليه البازي في القرنصة) بخط الناسخ هذا نصها:

« وكتب هذا الكتاب تاريخ سنة خمسمائة في شهر شوال »

وإذن فيكون عمر النسخة التي نصفها أكثر من ثمانية قرون

هذا وسنعرض على القراء خلاصة أبواب الكتاب، ونماذج منه صالحة في مقالة أخرى، فقد طال بنا نفس الكلام، والله المستعان

علي الطنطاوي

(١) وللعلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري رسالة في بيان هذه الاشارات مطبوعة

فى الكتب

ما كنت أتمنى أن أقرأ

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

ليس أكثر من الكتب فى الدنيا ، ولعلها الشىء الوحيد الذى يزيد ولا ينقص ، ولو أن ما كتبه الناس من أقدم العصور التى بقى لنا منها أثر — ودع ما نقل بعضهم عن بعض — جمع فى مكان واحد ، لملأ مدينة واسعة كالقاهرة ومعها ضواحيها التى تزحف بها على الريف من ناحية ، وعلى الصحراء من نواح ، وليس أشد شرها ممن يستقل ذلك ، أو لا يرى فيه غناء ، وهنا موضع التحرز أو التنبيه إلى وهم قد يسبق إلى بعض الأذهان ، فما أعنى أن فى الموجود من الكتب ما يغنى عن الاستزادة أو يصد عن التطلع ، أو ما يكتفى به العقل الانسانى عن المضى فى البحث والتقصى ، وإنما أعنى أنه حسب من شاء أن يقرأ ، فما يتسع عمر — مهما طال — للالمام ببعض هذا الموجود من ثمار العقول ، ولو أن أعمار الذين لا خير فيهم أضيفت إلى عمر الواحد منا (! !) وزيدت عليه ، لما كانت كافية لتحصيل ذلك كله ، ولكني ، مع ذلك ، أرانى أحياناً — وأنا جالس بين ما بقى لى من كتبى — أتحسر وأتمنى : أتحسر لأن مطبوعاً من هؤلاء المؤلفين ، على الشعر ، أبى إلا أن يكون جاهلا نفسه ، وتوهم أنه ناقد أو فيلسوف أو غير ذلك ، وذهب يكتب . أو أن كاتباً فذاً غالط نفسه فراح يقرض الشعر ، ويجىء بالغث ويحسب أنه صنع شيئاً ، وأتمنى لو أن بعضهم نظم قصيدة فى معنى يخطر لى ، وأراه كان أقدر على صوغه ، أو وضع كتاباً فى بحث معين ، أو كتب قصة مثلا ، أو أردف ما كتب بشرح ما يعنى ، كأنما كل هذه الكتب لا تكفى ولا تقنع !

وأتساءل أحياناً — لو أن أبا العلاء لم ينظم أكثر سقط الزند وبعض اللزوميات ، وزادنا من مثل رسالة الغفران ، أكان هو ينقص شيئاً أم كان يزيد ؟ ؟ وهل كنا نحن القراء نخسر أم نكسب ؟ ؟ كنا نربح فيما أعتقد ، ولم يكن يضيع علينا شىء من نظمه لا نهمله الآن ، ولكن أبا العلاء غلط وآثر التكلف ، ليرضى غروره ، وليتعزى أيضاً باظهار اقتداره . وإنه لفحل عظيم ، وما يطيب لى أن يظن أحد أنى أغمطه أو أنزله دون منزلته ، وإنى لأعلى به عيناً من أن يخطر لى أن فى وسعى أن أظلمه ، ولكني كنت أود لو زادنا من مثل الرسالة ، وفى يقينى أنه لو كان فعل ، لبلغ الذروة واستولى على الأمد

ويؤسفني أحياناً أن الجاحظ لم يكتب قصة . أما لو كان فعل ! ؟ أين بين كتاب العرب ، من كان أقدر على ذلك منه ، وأولى بأن يكون أبرع فيه ، وأسحر وأفتن ؟؟ من له مثل قدرته على الكتابة ووفاء التعبير بافته ؟ من له مثل فطنته ونفاذ نظره ، وفكاهته ، وحسن تأتيه ، ولطف مداخله ، وحذقه فى التناول والعرض ، ودقته فى فهم الناس واستبطانهم ، والاحاطة بجوانبهم المختلفة ، والتفطن إلى نواحى الجد والهزل فيهم ، وإلى مبلغ اختلاط هذا بذاك ، وإرباء ذاك على هذا ؟؟

أوليت الجاحظ كان مصوراً ! ؟ أترى كان يستطيع — لو ساعفته الأحوال وتاحت لذلك فرصة — أن يحول مواهبه إلى هذه الجهة ؟؟ أكان يسعه أن يسخر قدرته اللفظية على البيان إلى قدرة من نوع آخر ، على الأداء ، فيثبت ما يريد على اللوح ويدعه ، وهو ساكن لا حركة فيه ولا تتابع للحظاته ومناظره ، ينطق بما حمله من المعانى ؟ ومن يدرى ؟ إن مطلب الكاتب غير مطلب المصور ، وأداة هذا غير أداة ذاك ، وأقل ما بينهما من الفروق ووجوه الاختلاف أن الكاتب يقوم أسلوبه على الحركة والتعاقب ، وأن المصور لا يسعه إلا أن يثبت لحظة ويعرضها ساكنة ، والسكون لا ينفى التعبير والنطق ، وقد يكون أنطق ، وأبلغ فى نطقه من الكلام . فهل كان بيان الجاحظ — وهو فيض لا تصده السدود — يستطيع أن يحتمل الحصر والتجمد والتجمع ، والنطق بقوة الابراز لا بفضل الانسياب أو التدفق ؟ أعود فأقول ، لا أدرى ؟

وتمنيت ، وأنا أدير عينى فى كتبى على رفوفها ، لو أن هؤلاء الألمان الذين يتفلسفون علينا بما لا نفهم ، بينوا لنا — أو لى أنا على الأقل — ماذا يريدون أن يقولوا . عجيب أمرهم والله ! قرأت مرة لأحدهم — وأظنه « هيجل » فما أذكر الآن بعد هذا الزمن كله — كتاباً فى « فلسفة التاريخ » فخرجت منه كما دخلت ، وقلت لنفسى : إما انى أنا حمار ، وإما أن هذا الرجل

لا يحسن العبارة عما فى رأسه ، ولكنى أفهم عن غيره فلماذا أرانى لا أفهم عنه ؟ ! وكيف يعقل أن أعجز عن فهم ما أخرجه عقل انسان مثلى ؟ وكان فى هذا الكتاب فصل عن المدنية الاسلامية أو عن تاريخ العرب — فقد نسيت — خيل إلى أنى فهمت أقله ، ودارت الأيام ، ووقع فى يدى كتاب لرجل أمريكى اسمه « دربير » عن المدنية ونشوئها ، يكتب كما يكتب خلق الله — لا الألمان — فاذا فيه فصل طويل عن العرب يعد تطبيقاً لنظرية هجل التى لم أفهمها ، فسألت نفسى : لماذا لم يكتب هجل كما يكتب هذا الرجل ؟ ؟ ثم عدت أسألها وأتعجب : لماذا فهم « دربير » عن « هجل » ولم أفهم أنا عنه ؟ وأسأت الظن بنفسى واعتقدت أن بى نقصاً فى التدريب العقلى ، وراجعت « هجل » وكررت إلى هؤلاء الألمان الموصين كرة المصمم المستميت ، ولكن مضغ الجلاميد أعيانى ، فنفضت يدى منهم — ومن نفسى — يائساً ، وقلت : يا هذا ، لقد صدق القائل : كل ميسر لما خلق له ، وأنت لم تخلق لتقرأ فلاسفة الألمان ، فارجع عنهم ، وانج بنفسك منهم

ولست أعرف أن المتنبى نثراً ، وإن شعره لحسبه ، فما يحتاج بعد أن قال هذا الشعر أن يصنع شيئاً آخر ، أو يجشم نفسه جهداً فى باب غيره ، ولكنى مع هذا أحس بحسرة لأنه لم يشأ أن يترك لنا كتاباً عن مقامه فى مصر ورحلته إلى « الأستاذ » كافور ! ألا يشعر القارئ معى أن كنوز الأدب العربى ينقصها هذا الكتاب من قلم المتنبى فى « كافور » ؟ يالها من تحفة نادرة ، ضن بها علينا المتنبى ؟ ؟ أتراه لم يخطر له هذا قط ؟ فماذا كان يصنع يا ترى حين لا يعالج النظم ؟ لقد كان مقلا ، وليس ديوانه الذى خلفه بالذى يستنفد عمر مثله أو جهده ، فلماذا يا ترى لم يشغل فراغه الطويل بالكتابة ؟ أكان الكلام الجيد لا يواتيه إلا منظوماً ، لأن عواطفه لا تتدفق إلا على لحن ؟ وخواطره لا تنتظم أو تتسق إلا على النغم ؟ ربما

وينقص الأدب العربى — فى رأيى — اعترافات رواته ، فقد ملأوا عالمه بالدخيل والمنحول والمخترع ؛ وتركوا لنا نخل ذلك كله وغربلته ، فليت واحداً منهم كانت له جراة « روسو » اذن لارتفعت عن الباحثين تكاليف ثقيلة ، ولاستغنوا عن هذه الغرابيل التى لا نراها تغربل شيئاً ، ولأمكن أن تنفق الأعمار التى تضيع فى هذا البحث ، فيما هو أجدى . ولو أن الرواة كتبوا اعترافات لخلفوا لنا قصصاً من أمتع ما فى الآداب ، غربيها وشرقيها ، ولكشفوا لنا عن خصائص ، نفسية وعقلية ، ينفع الناس العلم بها ، ولتسنى أن نعلل هذه الفوضى التى أغرق فيها الرواة أدبنا ، ولاسيما القديم منه . ومن الذي لا يشتاق أن يعرف لماذا كان الواحد منهم ينظم الأبيات ثم يحشرها فى قصيدة لشاعر قديم ، أو يخترع القصة أو النادرة ويعزوها إلى هذا أو ذاك من الأولين ، ويصر على أن الأمر حق وأنه صادق ، ويزعم أنه أخذ ذلك عن فلان وعلان ، أو تلقفه من أفواه البدو الضاربين فى الصحراء ؛ والغريب من أمرهم أنهم ينزلون عن مزية كبيرة فى سبيل مزية أصغر منها ، ذلك أن اختراعاتهم وتصنيفاتهم تدل على خصب فى القريحة ، وعلى قوة الخيال ونشاطه ، بل على وجود ملكات كافية لأن يكون الواحد منهم شاعراً مجيداً أو قصاصاً بارعاً ؛ ولكنهم يزهدون فى ذلك ، ويظلمون أنفسهم ، ويقنعون بأن يكونوا رواة فحسب ؛ أى حفاظاً ليس إلا ؛ أى خزانة مفتاحها فى لسانهم ؛ وأغرب من ذلك أنهم لو قنعوا بما حفظوا ، وتوخوا الأمانة فى الحفظ والرواية ، لعدوا علماء ، ولكانوا محل الثقة والاطمئنان ؛ ولكنهم يأبون لأنفسهم منازل الكرامة ، ويروحون يزورون ويفترون ويلفقون ، ويظهرون فى ذلك من الحذق والبراعة ما لو أظهروا بعضه فى غيره لرفعهم مقاماً عالياً . فلا بد أن يكون هناك عوج فى طباعهم والتواء فى عقولهم يزينان لهم الطريق الذى سلكوه ، ويعدلان بهم عن المنهج الأقوم ، ويغريانهم باهمال مواهبهم ، أو سوء استخدامها

وعلى ذكر الاعترافات أقول إنى لا أحب أن أقرأ اعترافات لذلك النواسى الفاجر ، وليس هو بأفجر من سواه من أصحابه فى زمانه ، ولكنه أظهرهم لأنه أعلاهم لساناً وأقواهم بياناً ، ومثل سيرته لا يزيد الناس فهماً للحياة وحسن إدراك لها ، وما فى الأمر إلا أنه كان أجرأ فلم يكتم نقائصه ، كما يفعل غيره ، ولم يحاول أن يستتر لما ابتلى ، ولولا أنه شاعر لما شغل بقصصه أحد ، والشهرة هى التى جنت عليه فأبرزت جانب السوء والاستهتاك من حياته ، ولولا ذلك لكان شأنه كشأن سواه من أمثاله الذين لا يخلو منهم عصر أو شعب . فلو أنه كتب اعترافات لما كانت لها مزية يفيدها الناس ، وماذا كان يمكن أن يكون فى اعترافاته مما يجهله الناس ،

الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر

« ان صوتى قد أوقد النار القديمة(١) في بلاد إيران
ولكن العرب لا يعرفون شيئا عن نغماتي الشجية »
(اقبال)

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

شدا صديقنا الفضال الشاعر الفيلسوف الدكتور السر محمد إقبال بهذا البيت في ديوانه « پيام مشرق » (أي رسالة الشرق) منذ ثلاث عشرة سنة ، ولكنه لم يسمع صدى المعرفة الحقيقية « لنغماته الشجية » من العرب إلى اليوم . وثلاث عشرة سنة مدة طويلة . لأن الشيء إذا مر عليه زمن قليل يقال إنه مضى ودخل في ذمة التاريخ ، وليس كل ما دخل حصن الماضي نال رعاية التاريخ . لأن مخالب التاريخ الحديدية لا تقتطف إلا ما هو مؤثر مباشرة في الحوادث المادية ولا تهتم بوجود الكائن الحي بنفسه أيا كان ، ولكن هناك أشياء خارجة عن وصول مخالب التاريخ ومؤثرات الزمن مع كونها مؤثرة في الحوادث المادية . وتلك الأشياء هي الحقائق الملهمة ، ومنها الشعر أو « النغمات الشجية » كما عبر الدكتور . فالحقيقة الملهمة شيء خالد بعيد المرام عن تلاعب الزمن ، وعزيز المنال من مخالب التاريخ ، تظمأ الحياة الانسانية إلى مناسمته في كل زمان ، وتتطلع إلى مؤانسته في كل مكان

(١) إشارة إلى أن النار كانت تعبد في بلاد إيران قبل الاسلام



الدكتور محمد اقبال

وعلى هذا أريد أن أعرف إخواني الناطقين بالضاد بتلك « النغمات الشجية » وأن أكون على الأقل ترجمانا لها إن لم أكن راوية ، فأقدم اليوم اليهم على صفحات (الرسالة) ترجمة حياة الدكتور بالإيجاز ، وسأتبع ذلك بحديث عن شعره وفلسفته وآرائه في نواحي الحياة المختلفة إذا وفقني الله لذلك

انحدر الدكتور السر محمد إقبال من سلالة وثنية عريقة في المجد والشرف من طبقة « پنڈت » القاطنة ببلاد كشمير في شمال الهند . و « پندت » لقب يلقب به أهل العلم والفضل من طبقة البراهمة التي هي أرفع الطبقات وأعلاها شرفا وعلما ونفوذا في النظام الاجتماعي الوثني في الهند ، وقد أشار الدكتور إلى ذلك إذ قال :

مرا بنگر كه درهند وستان ديگر نمى بينى
برهمن زاده رمز آشناى روم وتبريز است

« انظر إلى فانك لا تجد في الهند مثلي من سلالة برهمن ولكنه يعرف رموز روم وتبريز(١) »

تشرفت عائلة الدكتور باعتناق الاسلام قبل مائتين وخمس وعشرين سنة . وذلك أن أحد أجداده اتصل بولي من أولياء الله من الصوفية المسلمين فأشرب قلبه حب الاسلام فأسلم . وكان من

(١) إشارة إلى رموز تصوف مولانا جلال الدين الرومي الصوفي المسلم الشهير وإلى رموز شعر شعراء تبريز مثل حافظ وسعدي

وإن كانوا لا يجاهرون بالعلم به . كل ما كنا خلقاء أن نستفيده هو صورة الحياة ، كما عرفها وعاناها ، فاسق عظيم

وليت دعبلا ترك لنا مذكرات ، فانه متمرد ظريف ، وليس أحب إلى المرء من الوقوف على مظاهر التمرد ، ولكن التمرد صنيعه في حياته ، وصنيع شعره معه — أو أكثره — فلو أنه كتب مذكرات لما أعوز خصومه الحطب

***

لو ذهبت أذكر ما كنت أتمنى أن أجد فيه كتابا ، لما فرغت ، فما لهذا آخر ، فحسبي ما بينت ، ولكن كاشارة الفهرس

ابراهيم عبد القادر المازني

آثار تلك الحادثة أن حسن الاعتقاد في الصوفية المخلصين لا يزال من الأوصاف المميزة لعائلة الدكتور إلى اليوم.

ولد الدكتور محمد إقبال في سنة ١٨٧٦ ميلادية في بلدة سيالكوت مسقط رأس فيلسوف الاسلام العلامة الشهير عبد الحكيم السيالكوتي من أقليم بنجاب في شمال الهند. فلما بلغ سن التعليم أدخله أبوه في مكتب من المكاتب الاسلامية في تلك البلدة، ومن وهبه الله الذكاء المتوقد والحذق الحاد ظهرت بوادره منذ نعومة أظفاره. كذلك الدكتور إقبال فانه لم تمض عليه مدة قليلة حتى أتم دراسة المكتب فأدخله أبوه في المدرسة، وفي المدرسة أيضاً بقي مثالاً لحدة الذهن وموضع الاعجاب من جميع أساتذته. فانه لم يتنقل من فصل إلى فصل ولم ينل شهادة بعد شهادة إلا بتفوق على أقرانه وباستحقاق مساعدة مالية شهرية من قبل الحكومة جائزة لنبوغه إلى أن أتم دراسته الثانوية، وبعد إتمام الدراسة الثانوية دخل الدكتور كلية في نفس البلدة، وكان في تلك الكلية أحد كبار علماء الدين أستاذاً للغة الفارسية والعربية وهو شمس العلماء مولانا مير حسن[1] الذي كان يشار اليه بالبنان في الأدب الفارسي والعربي فتتلمذ له الدكتور ونبغ في الفارسية كما تعلم منه العربية أيضاً. وبعد إتمام دراسة الكلية انتقل الدكتور إلى كلية الحكومة ببلدة لاهور حاضرة اقليم بنجاب ونال منها شهادة B. A. بتفوق حيث استحق مداليتين ذهبيتين والمساعدة المالية الشهرية من قبل الحكومة. وفي هذه الأثناء انتقلت خدمات المستشرق الشهير السر توماس آرنلد من كلية عليكره إلى كلية لاهور. وكان السر آرنلد هذا مشهوراً بسعة إطلاعه في علوم الفلسفة، وكان عند الدكتور إقبال أيضاً ميل غريزي إلى الفلسفة حيث لم يترك دراستها في نيل جميع شهاداته الماضية فتتلمذ للسر آرنلد. فكان السر آرنلد يعترف دائماً بذكاء تلميذه المتوقد واستعداده للفلسفة ويفتخر به إلى أن أتم الدكتور دراسته الجامعية ونال شهادة M. A. مع مدالية ذهبية.

عين الدكتور بعد إتمام دراسته مباشرة أستاذاً للفلسفة والسياسة المدنية في الكلية الشرقية بلاهور ثم أستاذاً للفلسفة واللغة الانجليزية في كلية الحكومة بلاهور. فصنف في أيام تدريسه كتاباً في السياسة المدنية باللغة الأردية. وكان الدكتور طول مدة التدريس في الكليتين حسن الصيت في العلم والفضل عند أساتذتهما، وممدوح الخلال مأثور المحامد عند تلاميذه.

لم يسمح للدكتور عشقه للعلوم وطموحه إلى التوسع فيها بأن يقنع بتلك الوظيفة، فهجر في سنة ١٩٠٥ وطنه وأقربه ثلاث سنوات طلباً للتوسع والمزيد في الفلسفة والقانون وللتحقيقات العلمية الأخرى إلى انجلترا والتحق بجامعة كمبردج ونال منها شهادة في فلسفة الأخلاق، ثم انتقل إلى ألمانيا والتحق بجامعة مونيخ فيها ونال منها شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ثم رجع إلى انكلترا والتحق بجامعة لندن ونال منها شهادة المحاماة (Bar — at — Law).

إن كثيراً من طلاب الشرق حينما يذهبون إلى الغرب يجدون أنفسهم في عالم جديد لم يخطر ببالهم ولا هجس في ضمائرهم، إذ الفوضى الأخلاقية قد استحكمت عراها، والأباحية قد شيدت وطائد رباها، وأبواب المفاسد مفتوحة، ودواعي الخلاعة مسروحة. فيندفعون في تياره ويضيعون فيه أوقات فراغهم حتى أوقات أشغالهم، ولكن الدكتور لم يضيع أوقاته، بل كان يستغل حتى وقت فراغه فقد سعى فيه لخدمة الاسلام بتبليغه إلى العوام، إذ ألقى في غضون قيامه في انجلترا ست محاضرات في الاسلام بين حشد الخاص والعام. وقد منح الله الدكتور العبقرية الشاملة وأسبغ عليه جميع مزايا النبوغ، فهو شاعر بليغ كما هو ناظم مطبوع، وكاتب بارع كما هو خطيب مصقع فكان لمحاضراته رنة بين الناس ووقع حسن في أوساط العلم والأدب

وإذا كان غاية ما يبتغيه الأستاذ من تلميذه ويتمنى له، لمكوفه على تعليمه ومكابدته في تهذيب نفسه وتنوير عقله، أن يبلغ منزلته في العلم والأدب، وأن يقوم بمهمته أتم قيام، وأن ينوب عنه أحسن مناب لا يشوبه خلل، ولا يعتريه أود ولا يخالطه وهن ولا أمت. فقد بلغ فيه صديقنا الدكتور إقبال حيث لم تبلغ الآمال والهمم، إذ الدكتور بذكائه المتوقد، وفكره الحاد، وحصافة رأيه، وطول باعه في العلوم والصناعات نال أجل مكان وأخص محل في أنظار جميع أساتذته فكانوا يتباهون به في السر والعلن، ويذكرونه فخراً في مسامرات الأدب وأندية العلم. وهذا هو الذي حفز أستاذه السر توماس آرنلد أن يفوض إليه القيام بأعمال وظيفته بجامعة كمبردج لستة أشهر عند غيابه عنها فخلفه الدكتور أستاذاً بالجامعة، وقام بالمهمة خير قيام تناقلته ألسنة المديح وناطة الذكر الجميل.

رجع الدكتور من أوروبا إلى الهند في سنة ١٩٠٨ مزوداً

(١) توفى رحمه الله تعالى في سنة ١٩٢٩ ميلادية

بالعلوم والصناعات ومتأهباً لخدمة وطنه وأبناء دينه ، فاستقبله حشد كبير من جميع الأجناس والطبقات والأديان والملل . وأقيمت في تكريمه مأدبة فاخرة ليلة وصوله إلى لاهور هنأه فيها أعيان البلد ورؤساء القوم بسلامة وصوله إلى وطنه ، كما اعترف غير واحد من الشعراء والأدباء والعلماء والفضلاء بالقصائد والخطب فيها بعلمه وفضله . ومن ذلك الحين اختار الدكتور لنفسه الحياة الحرة ولم يقبل مناصب الحكومة لكي يجد مجالاً واسعاً لبحوثه العلمية ، وميداناً أوسع لخدمة إخوانه ودينه . فبدأ يمارس مهنة الأرشاد القانوني للطالبين

والدكتور بنفسه رجل قنوع ، نزيه ، عزيز النفس ؛ يقنع بالكفاف ويرضى بالميسور ، كما عبر عن ذلك في بيت من ديوانه : « رسالة الشرق » قال :

ناز شهان نمى كشم زخم كرم نمى خورم

در نگرای هوس فريب همت اين گداى را

« أنا لا أتحمل دلال الملوك ، ولا جرح الإحسان

يا من انخدعت بالطمع ! انظر إلى همة هذا الفقير »

فقد رفض غير واحد من مناصب الحكومة التي قدمت إليه وآخرها منصب ممثل الحكومة الهندية لدى حكومة جنوب أفريقيا وهو منصب ذو مرتب باهظ وشرف عظيم

اشتغل الدكتور بعد رجوعه من أوربا في تصنيف دواوين « أسرار خودي » و « رموز بيخودى » على الترتيب باللغة الفارسية . فنالا إعجاب الجميع من ذوى الفضل والعلم ، وترجم الأول الدكتور نسكلسن إلى الانجليزية فذاع به صيت الدكتور في أوربا وأمريكا فمنحته الحكومة في سنة ١٩٢٣ لقب « السر » اعترافاً بفضله في الشعر وطول باعه في العلوم

وفي سنة ١٩٢٦ أجبره أحبابه وأصدقاؤه وأهالي لاهور على أن يرشح نفسه لعضوية المجلس التشريعي في إقليم بنجاب . فلم يقبل أولاً . فلما ألحوا عليه كثيراً قبله . فانتخب عضواً بأكثرية ساحقة . فسعى الدكتور سعياً حثيثاً لتخفيف الضرائب الفادحة عن كاهل الفلاح الهندى ، ولسن قانون العقاب لكل من يطعن في شارع الدين أو أحد رؤسائه من غير دينه هو ، وقد سن فعلاً ، ولتقرير غاية الاصلاح لادمان الخمر عند الحكومة حرمتها التامة تنفذ في مدة خمس عشرة سنة . وفي سنة ١٩٢٨ أثار الدكتور في المجلس بحثاً طريفاً استوقف الأنظار ، وهو هل الأراضي من ملكية الحكومة أو ملكية الشعب ؟ وفي سنة ١٩٣٢ عند انتقاد ميزانية الحكومة أثبت بالدلائل الناطقة والشواهد الصادقة أن الأراضي ليست من ملكية الحكومة فلا يجوز للحكومة جمع المال بالضرائب الفادحة على أراضي الفلاح

وفي سنة ١٩٣١ انتخبته الحكومة عضواً في مجلس المائدة المستديرة المنعقد في لندن لاصلاح الهند الدستورى فسافر إلى لندن وعند الرجوع لبى دعوة المؤتمر الاسلامي بالقدس وزار مصر أيضاً وألقى على طلب منه محاضرة قيمة فلسفية دقيقة في جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة موضوعها « الاسلام كالتحول في التاريخ » باللغة الانجليزية ، ولكن من الأسف لم يقدر أحد من السامعين ولا من أركان إدارة الجمعية أن ينقل تلك المحاضرة القيمة المفيدة إلى العربية للحاضرين أو يكتبها على الأقل وينشرها على صفحات الجرائد للافادة

وفي أواخر سنة ١٩٢٨ دعى الدكتور من قبل جمعية اسلامية ببلدة مدراس حاضرة اقليم جنوب الهند لالقاء محاضرة في الاسلام ، فلبى الدعوة ، فلما وصل إلى مدراس احتفل به أهالي مدراس من جميع الأجناس والملل احتفالاً باهراً ، وأقيمت في تكريمه مآدب كثيرة من قبل جمعيات مختلفة منها جمعية العلماء البراهمة وغيرها من جمعيات الوثنيين ؛ ومن مدراس توجه الدكتور إلى حيدر آباد تلبية لدعوة صاحب السمو نظام حيدر آباد ثم بأمارة ميسور ، وهي أمارة وثنية كبيرة في جنوب إمارة حيدر آباد ، فلما وصل بنجلور بلدة من بلادها استقبله حشد كبير من الطلبة والعلماء والوجهاء ، وكان بينهم رئيس الوزراء لأمارة ميسور أمين الملك ميرزا اسماعيل (وهو مسلم) فسافر معهم إلى بلدة ميسور حاضرة إمارة ميسور ، ونزل ضيفاً على الأمير الوثني مهاراجا ميسور ، وأقيمت في تكريمه مآدب كثيرة أهمها مأدبة جامعة ميسور التي خطب فيها الدكتور ، وفي هذه المأدبة خطب عالم وثني كبير وهو أستاذ الفلسفة بالجامعة فقال : « إن المسلمين مهما قالوا إن الدكتور اقبال منهم ، فان الحقيقة أنه منا جميعاً ، هو ليس من ملك دين واحد أو جماعة واحدة ، فان افتخر المسلمون بأنه من أبناء دينهم ، فلسنا نحن الوثنيين بأقل فخراً منهم بأنه من أبناء وطننا الهند » . ومن ميسور توجه الدكتور إلى حيدر آباد ، فاستقبله جمع غفير من جميع الأجناس والملل ، بينهم أركان الحكومة وأساتذة الجامعة وطلبتها وغيرهم من ذوى

الجاه والشرف »، وكان طلبة المدارس مصطفين فى الشوارع والخطة ويغنون بأصواتهم الشجية « نشيد المسلم » الذى صنفه الدكتور باللغة الأردية وأوله :

جين وعرب هارا ، هندوستان هارا
مسلم هين هم وطن ، هى سارا جهان هارا

« إن الصين والعرب لنا ، (كما) أن الهند لنا
إننا المسلمون ، فالعالم كله وطننا »

نزل الدكتور ضيفاً على سمو نظام حيدر آباد وحظى بالمثول فى حضرة سموه ، وألقى محاضرات عديدة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد ، ثم توجه من حيدر آباد إلى الجامعة الاسلامية بعلى قره تلبية لدعوتها ، فألقى فيها أيضاً غير محاضرة ؛ وجميع هذه المحاضرات التى ألقاها فى مدراس ، وحيدر آباد ، وعلى قره ، ست يحتوى على أعمق الأفكار وأرق المعانى ، فى فلسفة دين الاسلام ، وقد سمى الدكتور فيها التشكيل علم الكلام الجديد على ضوء الفلسفة الحديثة ، وقد نشرت فى شكل كتاب ونحن مستعدون أن نتحف قراء الرسالة بشىء منها لو تحملوا جفاف الفلسفة فى جنب حلاوة الأدب .

وفى سنة ١٩٣٣ دعا الدكتور المغفور له جلالة الملك نادر شاه خان ملك أفغانستان مع عالمين كبيرين هنديين وهما الأفوكاتو السيد راس مسعود رئيس الجامعة الاسلامية بعلى قره ، وصديق صاحب الفضيلة الشيخ السيد سليمان الندوى من كبار علماء الدين للاستشارة فى تأسيس جامعة بكابل ، وفى أمور تعليمية أخرى ، فلبى الدكتور الدعوة ، وفى هذا السفر صنف الدكتور ديوانه المسمى « مسافر » باللغة الفارسية

وفى سنة ١٩٣٤ سافر الدكتور لزيارة البلاد الاسلامية فى المغرب ولمشاهدة الآثار الإسلامية فى الأندلس وصنف فى هذا السفر ديواناً باللغة الأردية مسمى « بال جبريل » وفى أواخر نفس السنة دعى الدكتور إلى انجلترا لالقاء محاضرات فى فلسفة الدين فى سلسلة محاضرات هيبرت Hibbert Lectures فلبى الدعوة

هذه هى ترجمة حياة الدكتور بالاختصار وموعدنا بالحديث عن شعره المقال الآتى إن شاء الله ؟

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

من بدائع شكسبير [1]

حلم منتصف ليلة صيف

A Midsummer Night's Dream

بقلم محمد رشاد رشدى

يحملنا جو القصة أجيالاً عديدة إلى الوراء حيث (ثيزيوس) دوق أثينا يعد قصره للاحتفال بقرانه على ملكة الأمازون الساحرة . أما أسلوب القصة فهو ملىء بالصور الخلابة التى تشيع فى الذهن جواً يشبه جو الحلم الغريب . كذلك تنشر أشخاص الجن التى ما تزال تظهر ثم تختفى فى القصة روحاً غريبة نائية حالمة . . . .

والحب — سيد خالق الأحلام والخيالات — هو موضوع القصة ... بيد أنه ليس بالحب الذاهب اللاهى تحمله السطور فى خفة ورشاقة مقبلاً حيناً مدبراً حيناً آخر . بل هو حب قوى قاهر يبهر النظر والسمع ويأبى إلا أن تعبر عنه الاستعارة والمجاز واللغة الشعرية الحارة . تبعثه من الصدر مثلما تبعث ليلة مقمرة هادئة من ليالى الصيف شعر شاعر من صدره ، أو زفرة عاشق من حنايا ضلوعه

(ليساندر) و (هرميا) يتفقان على اللقاء :

ليساندر : فى مساء الغد عند ما تبصر (نيبى) طلعتها فى البحيرة ناشرة على العشب الأخضر لباساً من اللؤلؤ السيال — فى ذلك الوقت قد اتفقنا على أن نجتاز أبواب أثينا ونمضى هاربين

هرميا : وفى نفس الغابة حيث اعتدنا اللقاء ، وحيث كنا أحياناً نرقد على العشب اللين الرخص ونشم أنفاس الزهر الوحشى . هناك يلتقى أحدنا الآخر ، أى ليساندر !

ويضل كل من العاشقين سبيله وينهكهما البحث والفكر فيرقد كل تحت شجرة من أشجار الغاب ويغلب عليهما النعاس فما يدريان من أمرهما شيئاً ، ويأتى (بَك) رسول ملك الجان فيهصر فى عينى الفتى زهرة من أزهار الغاب سحرية تغير قلبه

(١) أستعرت هذا العنوان من رسائل أستاذى الجليل محمد فريد أبو حديد التى كان ينشرها تحته فعسى أن يسمح الأستاذ لى بالاستعارة وعسى أن أوفق فى إيفاء الاسم بعض ما وفاه هو من الحق

حتى إنه إذا ما صحا من نومه وقع فى حب أول امرأة يلقاها . . .

وفى نفس الوقت يهيم فى الغاب الفسيح (يمتريوس) عاشق (هرميا) المنبوذ منها تتبعه (هيلينا) التى ينبذها هو ولا يصغى لما تريد أن يصل أذنه من ألفاظ الحب والتوسل . بيد أن (بَكْ) سرعان ما يأتيه هو الآخر بالزهرة السحرية فيغير قلبه ، ويصبح فاذا به مدله فى حب (هيلينا) ، ويهيم العشاق فى الغاب كل يبحث عن أليفه تارة متباطئاً وأخرى مسرعاً . تراقبهم من عل أشجار البلوط الشاهقة ويظلهم الليل فى ردائه الهادىء . ونبتهم نحن إذ نرى كيف يتغيرون . كيف يشكون وكيف يتدلهون — على أننا لا يسعنا إلا الاشتراك فى كل ما يفعلون

هذه العاطفة هى حلم ، غير أنه حلم يحركنا ، فان الشاعر يلعب بالعواطف فيخلطها ويمزجها سوياً ثم يثنيها ثم يعود فيفصلها ويقيم كلا منها على حدة كأنما هى خليات رقصة جميلة ، ونشاهد نحن الوجوه الغضة الوديعة تمر سريعة إلى جوار الشجيرات الخضراء وتحت أبصار النجوم اللامعة ، تبللها حيناً دموع الشوق والألم ويشيع فيها حيناً آخر بريق الحب والأمل . . .

أولئك قوم قد وهبوا أنفسهم للحب خالصة لا يبغون من عطائهم هذا جزاء ولا مقصداً ، وإنما هى هبة نقية خالصة لأنها موجهة لله لا للشيطان ، وللحب الخالص لا لشهوات البدن

هى — فى الحق — هبة للجمال الذى يخالج مشاعرهم ويملك عليهم حسهم وفكرهم — وإن مرآهم يألمون ثم يسمدون ، يشكون ثم يفرحون ، يطربهم التافه من الخير ، ويعصف بهم خالج الفكر البسيط ، تحنو عليهم بنات الغاب ساعة مداعبات ، ثم تسخرن بهم ساعة أخرى لاهيات — لهو نوع من السحر المبين . . .

ونشاهد بين الحين والآخر جماعة من القرويين يتدربون على تمثيل قطعة مسرحية يحيون بها حفل زواج أميرهم (تيتريوس) — أولئك قوم بسطاء مثل كل أهل الريف يعيشون عيشة طبيعية بسيطة لا يشغل فكرهم خاطر ولا يعذبهم شك لاهين قانعين مؤمنين كل الايمان بالحياة ، بعيدين كل البعد عن بحثها والتأمل فيها . ويفزعهم مرآى رفيقهم (بوتوم) وقد أتاهم يحمل فوق عنقه رأس حمار فيصيح أحدهم :

« يا للشيطان ! يا للغرابة ! لقد زارنا ابليس

صلوا أيها الرفاق — اهربوا أيها الرفاق — المعونة ! »

كان هؤلاء رجالاً من المحتمل أن يكون شكسبير قد رأى وخبر أمثالهم فى بلدته ، لأن الدرامة لم تعد بعد مقصورة على بلاط الملوك والأمراء ، بل عمت البلاد والقرى جميعها ، وأصبحت وكأنها ضرورة من ضرورات العيش ومرفقاً من مرافق الحياة لا ينفصل عنها ، ولقد كان كل عيد من أعيادهم مهرجاناً عظيماً يشترك فيه الصغير والكبير ويتعاون على إقامته الجميع ، إذ أن القوم فى ذلك العهد كانوا يعشقون التمثيل ويجيدونه بالطبيعة ، لأن الروح إذا ما كانت ناضجة ممتلئة فهى لا تميل إلى التعبير عن خواطرها بالأرقام والمنطق ، بل تعمد إلى تصورها فتقصها وتقلدها ، تلك هى لغة الأطفال ، لغة الفن والخلق والسرور

وفوق كل هؤلاء العشاق والممثلين البسطاء تلهو وترفرف بأجنحتها جماعة الجن وبنات الغاب . هم أيضاً يعشقون (فتيتانيا) مليكتهم التى تحب صبياً صغيراً أتت به من بلاد الهند ، ويغار زوجها (أوبرن) منه فيريد أن يبتاع الصبى منها على أنها لن تنيله ما يريد :

تيتانيا : لو اجتمعت الجن كلها لما استطاعت أن تبتاع منى هذا الصبى ، كانت أمه من أتباعى ولكم جلسنا جنباً إلى جنب على رمال نبتون الصفراء فى الليل الهادئ ، تهب علينا نسمات الهند العطرة ، نرقب السفن يحملها الفيضان فوق تياره سريعة تتسابق — وكم كنا نضحك عند ما نرى الشراع وقد حملت وانتفخت منها البطون ، وكانت الريح العابثة هى الزوج أو العاشق المسئول

ويتشاجر (أوبرن) مع زوجه فتهرع الجن خائفة إلى أكمام الزهر تختبئ فيها وتتخذ منها ملجأ يقيها غضب الملك والملكة

ويريد (أوبرن) أن يثأر لنفسه ، فيرسل خادمه (بَكْ) يلمس بالزهرة السحرية أجفان زوجه ، حتى إذا ما صحت أجمل بنات الغاب وأرشقهن من سباتها وجدت نفسها مدلهة بحب مخلوق عجيب له رأس حمار وجسم رجل ، هو (بوتوم) القروى الممثل

وتركع الملكة أمام المريض المسحور ، وتضع فوق كتفه الملىء بالشعر اكليلاً من الزهر النضر ، ثم تنادى أتباعها وتخاطبهم :

« ترفقوا بهذا الرجل وأحسنوا مثواه ؛ غنوا له وارقصوا أمامه كلما مشى خطوة ، أطعموه المشمش ، والعنب ، والتين الأخضر والتفاح »

كان لزاماً على (تيتانيا) أن تفعل هذا ، لأن حبيبها كان بهق بهيقاً فاحشاً ، وكان إذا ما قدمت له الزهور والفاكهة هز رأسه في طلب الحشيش والبرسيم !

أهناك أعذب وأمر من سخرية شكسبير هذه ؟ أي هزء بالحب ، وأي حدب عليه ! العاطفة في نفسها نبيلة ، بيد أن موضوعها تافه حقير ، هي فراش ذهبي لكنه يطير في الوحل ، فراش أعمى لا يدري أين يسير

وشكسبير إذ يصف كل آلامها يحتفظ أيضاً بكل ما هو حلو وجميل فيها :

تيتانيا : تعال نجلس فوق هذا الزهر ، دعني ألمس وجنتيك الجميلتين وأرشق الورد في رأسك الناعم ، وأقبل أذنيك الطويلتين الحلوتين

لقد طمس الحب عيني ملكة الغاب فباتت ترى في صديقي الحمار جمالاً ، وتلبس في رأسه نعومة ، وتحس في أذنيه حلاوة وطراوة .

وينقضي الليل ، ويأتي الصباح فينطل السحر ويزول ، وتفيق (تيتانيا) إلى نفسها فتبدو لها ذكريات الأمس (مثل أشياء صغيرة يصعب تمييزها ، فكأنها رءوس جبال نائية يراها الإنسان عن بعد كالسحب الكثيفة قد تجمعت فوق الأفق)

هذه هي القصة ، فهل لنا أن نناقشها جدياً مثلما نناقش (هملت) أو (عطيل) ؟ هل لنا أن نفرض منطق الحياة على حوادثها وأسلوبها وأشخاصها ، أو أن نبحث عن الجمال والانسجام في كيانها وتركيبها ؟

لا ، فنحن إن فعلنا ذلك بعدنا عن الروح التي يجب أن نتفهمها فيها

هذه القصة لا تصور الحياة بل تمثلها — هي تمثل الناحية الحلوة الناعمة السهلة الهادئة من العيش مثلما تصور قصة (لير) الناحية الأخرى العاصفة ، المظلمة ، المرة ، الموحشة

على أن الحياة ليست دائماً عاصفة موحشة ؛ كما أن القدرة لا تتشدد كل يوم ألماً وبحيباً ، فهناك في حياة الرجال لحظات يحسون فيها بجسومهم ، وأرواحهم ، وقد رقت وصفت وارتفعت فأصبحت في صفاء نسمات الخريف تهب عند الأصيل ، وفي هذه اللحظات يكفي أن يثلج أفئدتهم ويملأها طرباً وحبوراً أن يشاهدوا زهرة جميلة قد تفتحت أكمامها ، وتلألأ على أوراقها ندى الشروق ، وأن يحرك مشاعرهم ويملأها عطفاً ورقة وحناناً ، مرأى كلب بائس ينبح ألماً ويتضور جوعاً

ذلك لأن في النفس حينذاك لحناً ونشيداً يعزف ، فاذا كل ما بالعيش قد أصبح بهياً جميلاً ، وإذا كل ما يدب على الأرض قد أمسى طيباً وديعاً كالحمل ، ذلك أن بالروح موسيقى تسبغ الدفء والسلام والحب على كل شيء خارج الروح : موسيقى (أحلى من نغم الكروان ، يسمعه الراعي وقد ترعرع قمحه ومشى النضوج في سنابله) ؛ فهل نترك تلك الأوقات السعيدة دون أن نسجلها

إن أكثر الواقعيين تطرفاً ، وأشدهم تشاؤماً وانقباضاً لا يستطيع أن ينكر وجود أمثال تلك اللحظات ، فان هو فعل فقد ترك إنتاجه ناقصاً مبتوراً ونفسه ضيقة يعوزها الاتساع والبسطة ، على أن شكسبير الكامل لم يكن يستطيع أن يكون ناقصاً ، فلم تكن تلك الأوقات النادرة تمر دون أن يرقبها ويسجلها معاً

لقد سجلها الشاعر كما يجب أن تسجل — أعني أنه لم يصورها كما هي في الحياة — لم يرسم لنا أحلام الشباب نفسها ، يحلمها وهو يقظان فتتسمده وتزكى خياله ، بل صور لنا عالماً جميلاً غريباً حتى إذا ما تعرفنا إليه ودخلناه[1] أحسسنا نفس ما يحسه الشباب الحالم من سعادة ودفء وسلام ، وكانت الشاعر التي تختلج بها نفوسنا حينذاك هي نفس المشاعر التي تنتجها هذه الأوقات السعيدة في حياة الرجال

أقول إن شكسبير كان واقعياً حتى في أحلامه وخيالاته وقد يبدو هذا القول غريباً ، على أن شرحه سهل بسيط ؛ فكثير من الناس يحسب أن الفنان ساعة الخلق يقلد مظاهر الطبيعة نفسها ويصورها فان هو قلد — في زعم هؤلاء — شيئاً لا يراه الجميع في الطبيعة ويحسونه — كان تقليده خاطئاً وخلقه وهماً باطلا ، وعندي أن هذا الرأي خاطئ من أساسه ؛ فالحق أن الفنان لا يقلد مظاهر الطبيعة نفسها ، بل يدرس ويقلد السبيل الذي

(١) شأن الشاعر في ذلك شأن الموسيقى يصف لنا أنغامه وصفاً فنياً ، فتحدث في النفس الأثر المرغوب من راحة أو ثورة ومن حزن أو فرح ، وهي لو أخذت كل نغم على حدة لما تركت في النفس أثراً من الآثار

تسلكه الطبيعة فى خلق مظاهرها ، وإنما هى الآلة المصورة التى تمنى بتصوير هـذه المظاهر دون أن يهمها تقليد السبيل الخالقة وتصويرها . ومن هذا يكون الحكم على العمل الفنى من حيث قربه من الواقع والحق لا يتعلق بمحتويات العمل نفسه بل بالاحساس الذى تنتجه هذه المحتويات على القارئ أو الشاهد أو المستمع

فشكسبير هنا لا يعطينا هذه اللحظات السعيدة فى حياتنا نفسها بل ما قد تنتج هذه اللحظات أو ما يقرب منها

إن ما يعطينا الشاعر هو حلم خلفه ساعة منتصف ليلة صيفية حيث يرق النسيم ويصفو ، ويهدأ الفكر ويرتاح البدن ، ذلك هو كائن دقيق يهيم ويتنقل من حلم إلى حلم ، له أجنحة فضية رقيقة تتكسر جميعها وتتلاشى إذا ما حاولنا أن نحبسه أسيراً فى سجن العقل والمنطق وأن نضيق الخناق عليه هناك . فليس من الواجب أن نخبر طبيعة هـذا الكائن ولا أن نديم البحث فى حقيقته بل ندعه يمضى أمام أبصارنا ترفرف فوقه أجنحته الجميلة ، فيبهر منا البصر ويحملنا معه إلى عالم الأحلام من حيث أتى . وهل هناك أحلى من أن نترك حياة الحقيقة هذه وراءنا لحظة لنريح الفكر فى حياة اللاحقيقة ؟

لقد يسعدنا أن نتحرر من أسر المنطق الثقيل لنمضى ونحيا حياة المغامرة والغرابة والشعر حيث لا قيـد ولا شرط — مثل هذه الحياة للعقل تريحه وتجدد نشاطه ، وللنفس تنعشها وتنضجها ، ولكننا يجب أن نصدق ما نراه لكى نستمتع هذه المتعة ونستريح هذه الراحة

نعم إن بالقصة ما لا يمكن تصديقه وما لا يمكن وقوعه فى الحياة ، لكن عدم الامكانية هذا هو الذى قد عد العقل بالراحة والهدوء إذ أنه يجرد العواطف من حرارتها فلا يحمل الشاهد يتألم أو يشق ؛ فاذا ما جاءت اللحظة التى يقوى فيهـا إحساسه بالقصة ويشتد عطفه يذكر نفسه بأن الموضوع كله حلم وخيال فقط ، فتهدأ نفسه ويبدأ يرى حوادثها مثل أشـياء بعيدة نائية يكسوها البعد لباساً من الهواء أزرق شفافاً

ولكن أترى ينقص عدم الامكانية هذا من قيمة القصة أو يحط من مغزاها ؟ ثم ترى هل الحياة خالية كل الخلو من الجنى الداعب (بك) ورفقائه ؟

لا ! إن بنات الغاب يمشين فوق أرضنا هذه من وقت لآخر مداعبات حيناً نفوس الشباب وقلوبه ، حدبات حيناً آخر على عقول رجال الأعمال الجامدة وأفئدتهم الصلدة ، وأحياناً مشفقات منشدات للفقير والمكلوم أناشيد الراحة والأمل ، ونحن نخشى (بك) الساخر ولكنا لا نراه — نحسه يسير معنا فى حياتنا ، ونحس سحره الفعال كما صوره شكسبير يغير رؤوس الرجال إلى رؤوس الحمير والبغال — بيـد أن سحره قوى لا يقاوم مرغوب من الناس محبوب من الشعراء . . .

أحب أن أقول إنه برغم كل ما بهذه القصة من شذوذ وغرابة فإنها تطابق الحياة والواقع ، ولا نقل فى هذا عن قصة (لير) أو (هملت) — تطابق الحياة فقط فى أن الاحساس الذى تنتجه فى النفس هو إحساس صادق حقيقى كثيراً ما نحسه فى حياتنا العادية ونحتاج إليه ، ولو أن ما بالقصة نفسها يختلف عن الحياة وذلك نوع من أنواع الخلق الفنى النادر ، ومثل من أمثلة الفن الايعازى الذى ما أحسب أحداً غير شكسبير يستطيعه بسهولة ووضوح

لقـد نحلم أحياناً عند ما نسمع لحناً شجياً أو نرى وجهاً بهياً . بيد أن الشاعر هنا يدعونا لأن نحلم عند ما نقرأ شعره . فهل نرفض الدعوة ؟ إن الحلم الهادئ الجميل نادر فى هذا العيش ، وإن الاحساس بالراحة والطمأنينة وحلاوة الحياة الذى يعقب الحلم ويقطن النفس بعد رحيله عنها أندر من الحلم نفسه وأثمن . . .

فلزام علينا إذن أن نقبل دعوة الشاعر ، وأن نقبلها فرحين شاكرين ؟!

محمد رشاد رشدى

بكالوريوس بامتياز فى الأدب الانجليزى

١٠ - شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

حماقاته: روى صاحب الأغاني عن الحسين بن علي قال: حدثنا محمد ابن القاسم قال: حدثني إسماعيل بن عبد الله المكي قال: حدثني عمرو بن صاحب الطعام، وكان جار أبي العتاهية قال: كان أبو العتاهية من أقل الناس معرفة، سمعت بشراً المريسي يقول له: يا أبا إسحاق لا تصل خلف فلان جارك وإمام مسجدكم فإنه مشبه، قال: كلا، إنه قرأ بنا البارحة في الصلاة «قل هو الله أحد»، وإذا هو يظن أن المشبه لا يقرأ قل هو الله أحد

وقد ذكرنا عن مخارق فيما سبق ما جرى لأبي العتاهية معه حينما دعاه فغناه وشرب معه ثم أمر غلامه فكسر كل ما بين أيديهم من النبيذ وآلته والملاهي، قال مخارق: فظننت أنها بعض حماقاته، فانصرفت وما لقيته زماناً، ثم تشوقته فأتيته فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرتين وثقب إحداها وأدخل رأسه ويديه فيها، وأقامها مقام القميص، وثقب أخرى وأخرج رجليه منها وأقامها مقام السراويل. فلما رأيته نسيت كل ما كان عندي من الغم عليه والوحشة لعشرته، وضحكت والله ضحكاً ما ضحكت مثله قط، فقال: من أي شيء تضحك؟ فقلت: أسخن الله عينك هذا أي شيء هو؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابة والمجانين؟ انزع عنك هذا يا سخين العين، فكأنه استحيا مني؛ ثم بلغني أنه جلس حجاماً، فجهدت أن أراه بتلك الحال فلم أره، ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أغنيه، فأتيته عائداً، فخرج إليّ رسوله يقول: إن دخلت إليّ جددت لي حزناً، وتاقت نفسي من سماعك إلى ما قد غلبتها عليه، وأنا أستودعك الله وأعتذر إليك من ترك الالتقاء، ثم كان آخر عهدي به

وذكر بشر بن المعتمر أنه قال يوماً لأبي العتاهية: بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل، أكذلك كان؟ قال: نعم، قال له: فما أردت بذلك؟ قال: أردت أن أضع نفسي حسبما رفعتني الدنيا ليسقط عنها الكبر، وأكتسب بفعلته الثواب، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصة، فقال له بشر: دعني من تذليل نفسك بالحجامة، فإنه ليس بحجة لك أن تؤدبها وتصلحها بما لعلك تفسد به أمر غيرك، أحب أن تخبرني هل كنت تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم؟ قال: لا، قال: هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبيعه مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم؟ قال: لا، قال: فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين.

قالوا وإنه من أجل هذا وأشباهه غلب عليه هذا اللقب «أبو العتاهية» وقد أخبر ميمون بن هارون عن بعض مشايخه قال: كنى بأبي العتاهية أن كان يحب الشهرة والمجون والتعته. وأخبر محمد بن موسى بن حماد قال: قال المهدي يوماً لأبي العتاهية أنت إنسان متحذلق معته، فاستوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته وسارت له في الناس، قال: ويقال للرجل المتحذلق عتاهية، كما يقال للرجل الطويل شناحية، ويقال أبو عتاهية بإسقاط الألف واللام

ومن المحتمل عندي أن يكون تلقيبه بذلك من أجل ابنه عتاهية الذي روينا عنه فيما سبق بعض أخبار أبيه، وأن تلك الأمور التي نسب إليه من أجلها هذا الحمق كان يتحامق بها لأغراض له فيها، وقد تحمل الأغراض بعض ذوي العقول على هذا التحامق فلا يكون لهم منه بد، كما قال الشافعي رحمه الله وقد جرى بينه وبين بعض من صحبه مجانة:

وأنزلني طول النوى دار غربة ... إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

أحامقه حتى يقال سجية ... ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

ويمكن أن يكون من تلك الأغراض التي حملت أبا العتاهية على ذلك اتقاء ما كان يدبر له من ضروب الكيد، ومحاولة الايقاع به، وأخذه بتهمة الزندقة وما إليها، فإن ظهوره بهذا المظهر يهون من أمره، ويجعله امرأ لا يخاف شره

ويؤيد هذا ما رواه أبو الفرج قال: أخبرني محمد بن الصولي قال: حدثنا أبو ذكوان قال: حدثنا العباس بن رستم قال: كان

حمدويه صاحب الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية بفزع من ذلك وقعد حجاماً

وإذا كان خوفه من حمدويه هو الذي حمله على أن يحترف هـذه الحرفة التي ليست من شأنه ، لا ما تظاهر به من إرادة تذليل نفسه ، فيمكننا أن نحمل على ذلك كل تلك الحماقات التي تؤثر عنه ، ونخرجها على ذلك التحامق الذي يقصد به مداراة أهل الظلم والحق

وقد كان أبو العتاهية يعتمد في هـذه الحياة المضطربة التي عاش فيها على ضروب من الحيلة كان يجيـد تمثيلها ، ولولاها لطاحت رقبته فيمن طاحت رقابهم ممن لم تساعفهم الحيـلة في تلك البيئة ، ولأبي العتاهية في ذلك نوادر لطيفة كان يتوصل بها إلى ما يعجز عنه غيره ، ويجوز بها القبول لدى أرباب الحل والعقد في عصره من رجاله ونسائه ، ولنختم هذا الفصل بتلك النادرة الظريفة من نوادره

ذكر أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي أن أبا العتاهية لما ألح في أمر عتبة لأول دخوله بغداد ولم ينل منها شيئاً ، وجدها يوماً قد جلست في أصحاب الجوهر ، فمضى فلبس ثياب راهب ، ودفع ثيابه إلى انسان كان معه ، وسأل عن رجل كبير من أهل السوق ، فدل على شيخ صائغ ، فجاء إليه فقال : إني قد رغبت في الاسلام على يدي هذه المرأة ، فقام معه وجمع جماعة من أهل السوق وجاءها فقال : إن الله قد ساق إليك أجراً ، هذا راهب قد رغب في الاسلام على يديك ، فقالت هاتوه ، فدنا منها فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقطع الزنار ودنا فقبل يدها ، فلما فعل ذلك رفعت البرنس فعرفته ، فقالت نحوه لعنه الله ، فقالوا لا تلعنيه فقد أسلم ، فقالت إنما فعلت ذلك لقذره ، فعرضوا عليه كسوة فقال ليس لي حاجة إلى هذه ، وإنما أردت أن أشرف بولائها ، فالحمد لله الذي من علي بحضوركم ، وجلس فجعلوا يعلمونه الحمد وصلى معهم العصر ، وهو في ذلك بين يديها ينظر إليها لا تقدر له على حيلة ؟

عبد المتعال الصعيدي





أسطورة يونانية : «اورفيوس ويوريديس»

الألم

[مهداة إلى شاعر يتألم : إلى الصديق محمد الفراتي]

للأستاذ خليل هنداوى

«أعيدوه الى أرض الحياة وحده ! إن عوده سيبكت إذا عادت معه ، وإن قيثارة الأرض ستنقص وتراً ، انى أريده يغني فلا تعطوها له . نحن فى السماء كما على الأرض نتلذذ بالآلام المولدة»

قد أطرب الطيرَ بأنغامه ... وسهّد الوحشَ بألحانه
يغيب عن إحساسه ذاهلاً ... منتقلاً فى غير أوطانه
يشكو إلى القيثارِ أشجانَه ... فيملأ الكونَ بأشجانه
سكرانُ ! لا يُدرك ما مسَّه ... نشوانُ ! لا يخرجُ من حانه

***

البحرُ والأمواجُ تصغى له ... والليلُ إن أسبلَ أستاره
يأوى إلى عزلته حائراً ... يُذيعُ فى العزلة أسراره
ما باله يُعول قيثاره ... لحطموا الليلة قيثاره
هو الهوى امتدَّ إلى قلبه ... وأضرمَ الحبُّ به ناره

***

وهذه من أيقظتْ روحَه ... تسرحُ فى الغابةِ كالحالمه
خاليةُ القلبِ ، تلاقى الفتى ... معرضةً عن حبّه ، واجمه
لا تفهمُ اليومَ نداءَ الهوى ... لا توقظوها ! إنها نائمه
يا هائماً قد لجَّ منه الجوى ... إنهدْ إلى غانيةٍ هائمه . . .

***

سيفتحُ القيثارُ من نفسها ... ما تعجزُ الأزهارُ عن فتحِهِ
ويفتحُ الألحانُ محزونُها ... جرحاً بها أعمقَ من جرحهِ
وينقلُ النغمُ إلى سمعها ... ماراحَ يشكو الصبُّ من برحهِ
لا تنزلِ الرأفةَ فى قلبها ! ... فإنما الإبداعُ فى نوحهِ . . .

***

طغا على الكونِ سكونُ الدجى ... وقد غفا غيرُ عيونِ الزهرْ
وخفَّ فى الأجواءِ عبقُ الشذا ... ونامتِ الأكوانُ إلا القدرْ
هبَّا إلى الرقص يُحيِّيهما ... فى صفحةِ المشرقِ ضوءُ القمر
من يُنبئ الإلفينِ أن القضا ... مُبدِّلٌ صفوَهما بالكدر ؟

***

تسلَّلَ الصلُّ إلى جسمِها ... بوخزةٍ من وخزاتِ المنونْ
فلم يكن فى عمرِها فسحةٌ ... فخاطبتْ محبوبَها بالسكونْ
يا ليلةً ضلّتْ مسراتُها ! ... وما اهتدتْ الأعينُ الشجونْ !
زفّوا عروسَ الموتِ يا ويلتا ! ... للموتِ ، ما تغنى فتاها الشئون [1]

***

استنطقَ القيثارَ لكنما ... قيثارُه المحزونُ لا يُسعدُ
سعى إلى وادى الردى ذاهلاً ... لكى يناجي روحَ من يعبُد
أصغى إليه الموتُ فى فترةٍ ... فجاءه يسألُ ما يقصدُ ؟
فقال : والقيثارُ فى شجوِه ... لى عندكم محبوبةٌ ترقدُ

***

يأيها النادى إلى عالمٍ ! ... داخلُه المفقودُ لا يرجعُ
ليس شفيعٌ للذى جاءنا ... بمهجةٍ محزونةٍ يشفعُ
أحابَ عندى لك أغنيةٌ ... أنشدَها قلبى ، فهل تسمعُ ؟
ثم انبرى ينفثُ من حزنهِ ... ما تنهمى حزناً له الأدمعُ

***

رقّت له روحُ الردى فانثنتْ ... تستعطفُ الموتَ على من نزلْ
قالتْ له : عطفاً على هائمٍ ... ليس له من بعدها من أملْ . . .
أرجع إليه من سبتْ عقلَه ... نوّارةَ الوادى ، ونورَ المقل
قد أرعنَ الوادى برناته ... ألم يلن قلبك هذا الغزلْ ؟

***

قال له الموتُ وقد راقه ... ورق ، والقلبُ أسيرُ النغمْ
أخرجْ من الوادى ، ولا تلتفت ! ... إنى معيدٌ خلقها من عدمْ
فحطمَ القيثارَ من بشرِه ... وخفَّ جذلانَ ، سريعَ القدمْ
يسبق من تسرى بأعراقها الروحُ وتهتزُّ اهتزازَ النسمْ

***

مشى وئيداً مرهفاً سمعَه ... لعله يُصغِى إلى جرسها

(١) المراد بالشئون الدموع من قبيل المجاز المرسل

أصغى إلى الأزهار من حوله ... أصغى ، فلم يسمع سوى همسها
الزهرُ والأعشابُ في يقظةٍ ... كأنها تمشى إلى عرسها
أوَقعُها ألينُ من وقعِها ؟ ... أم حسُّها أرفقُ من حسِّها ؟

* * *

رنا إلى خلفُ على رقبةٍ ... وقد عراه الشكُّ من عودِها
إن لم تعد حيةً فلأعد ! ... إنَّ الردى أهونُ من فقدِها
فأبصرَ الغادةَ شفافةً ... كشعلةٍ تَسطعُ من وقدِها
ولمعةُ الأحلامِ في عينِها ... وجذوةُ الأشواقِ في خدِّها

* * *

تقابلا ! لكنَّ صوتَ الردى ... صاحَ ، فحالَت كُتلةً من تراب
فلم يعانِقْ غير أحلامِهِ ... ولم يُشارِفْ غيرَ لمعِ السراب
وهاتفٍ صاح به : يا فتى ... عُدْ للهوى الباكى ، وعُدْ للعذاب
واحمل بقايا العود ، لا تمهلْ ... حرقتَها : ليس لها من إياب

* * *

غداً إذا آبَ وآلامُه ... هادئةٌ ، يسكتُ قيثارُه
غذوه بالآلام لا ترأفوا ... ترنُّ بالآلام أوتارُه
لا تقتلوا الأشجانَ في نفسِه ... تفيضُ بالأشجانِ أشعارُه
لولا الندى تسكبُه يا ندى ! ... ما ضحِكَت في الروضِ أزهارُه

* * *

لنا بآلامِ الورى لذةٌ ... وبالندَى يُشرِقُ لونُ الزهَرْ
نريدُه يشدو لنا ، فليعدْ ! ... حليفُه الهمُّ وطولُ الضجرْ
نريده يشدو فلا تقطعوا ... من معزَفِ الألحانِ هذا الوترْ
قد يَطرَبُ اللهُ وأملاكُه ... لنكبةٍ تُنطِق قلبَ البشرْ

* * *

للأرضِ من قلب الفتى مِزقةٌ ... ومِزقةٌ يرفعها للسماء
فوزعِ القلبَ على أهلِه ... وامنحْ من الآلامِ معنى الهناء
خُلقتَ هتافاً فلا تبتئسْ ... هل نتاجُ الطيرِ إلا غناء ؟
إن تبقَ منه بضعةٌ فلتكنْ ... هديةً مشكورةً للفناء . . .

دمشق — خليل هنداوى

ظمأ على ظمأ

بقلم فريد عين شوكه

ظمأ على ظمأ وليس لمهجتى ... رِيٌّ سواك يَبُلُّ حرَّ ظمانى
يا مهد أحلامى ومُتعة خاطرى ... ومناط آمالى وفيض رجائى
أنت الحياة ولا أزيدك بعدها ... وصفا ، فذلك منتهى إيفائى
كم ذا تشعُّ بخاطرى فأغيب عن ... صحبى ولا أصغى إلى خلصائى
وأظل أسبح فى هواك وألتقى ... بك فى الخيال وأنت عنى نائى
وأراجع العهد الحبيب المشتهَى ... فلعل فى ذكراه بعض عزائى
والصحب من حولى عيون تجتلى ... حالى وتلحظنى على استحياء
حتى إذا جمح الحنين ولج فى ... خلدى وألهب بالأسى أحشائى
مدُّوا إلىَّ عيونهم وتساءلوا ... عما يقول بشاشتى وصفائى
فأحار ثم أجيب غيرَ موفَّق ... مع وفرة الأعذار فى حوبائى
يا غائباً عن ناظرىَّ وليس فى ... قلبى سواه يرفُّ بين دمائى
كم أشتهى برح الضنى لتعودنى ... وأراك رأى العين فى جلسائى
يامستريح البال من عبث الهوى ... لو كنت تعلم فى نواك شقائى
الفرقة الهوجاء قد رانت على ... كبدى فيا للفرقة الهوجاء
شتان ما بينى و بينك فى النوى ... كالبعد بين قرارتى وسمائى
ما أبعد الخالين ! أنت منعَّم ... غافى العيون على رضًى وهناء
تسعى لك الدنيا وتحتشد المنى ... للقاك كل صبيحة ومساء
وتعيش فى وادى الهوى متفيئاً ... أندى الظلال وأكرم الأفياء
وأنا ، وقاك الله من سَرَف الجوى ... وكفاك ما ألقى من الأعباء !
وأنا — كما تدرى — أهيم بمهمه ... قفر الجوانب موحش الأرجاء
حرَّانُ تلفحنى الهواجر باللظى ... حتى تذيب عزيمتى ومضائى
ظمآن أستسقى الغمام و إنه ... ليضن أن يهمى بقطرة ماء
حيران ما أرتاح لحظ بصيرة ... حتى أعاف إقامتى وثوائى
والوعة المهجور فى وادى النوى ... مما يساوره من البرحاء
يا جنة السلوان ، ناءت عزمتى ... من فادح الذكرى وخار بنائى
فمتى أفىء إلى ذراك وأستقى ... بَرْد العزاء ونشوة التأساء

فريد عين شوكه

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

١٨ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

فريدريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوي

الآن تبين لنيتشه أن هاوية سحيقة تفصل بينه وبين شوبنهاور وڤاجنر ، وقد تقبل مذهب التشاؤم من قبل ليتخذه سلاحاً يصرع به التفاؤل الخادع ، وقد بدا له أن نقد الوجود نقداً مصحوباً بالتشاؤم هو من واجب كل نفس خالصة ، ولكنه لم يتقبل تلك النتائج السلبية التي استخلصها شوبنهاور من نظراته ، ولم يتقبل العدم وسلب الحياة كغاية منشودة في الوجود . ولكن هذا المذهب العدمي الذي يستتر فيه الخطر ، قد لا يكاد يقل مذهب التفاؤل المطلق عنه خطراً ، فإن جيلنا إذا نمت فيه الروح الراضية القانعة والذات الخانعة ، كان هذا نتيجة علامة الوهن والضعف والانحطاط ، تنشأ في جيل يتهيب من الحياة وتصدع من الألم ، ويرتاح إلى الراحة المتمثلة في العدم ، وهكذا بدرت لنيتشه مسألة جديدة شغلته طيلة حياته . . . ما هو منشأ هذا الانحطاط الحديث ؟ ما هي الفلامات التي ساعدت على نشره . وما هو داء العدمية ؟ وما هو دواؤه ؟ ولم يكد يبلغ هذه النقطة حتى وجد أن حكمه على ذينك المعلمين قد تحول من الشكل إلى الشكل . وإذا رفيقيه اللذين كانا عدته في مكافحة التفاؤل يبدوان خصمين عنيفين له تثقل عداوتهما عليه وعلى المجتمع . وأدرك في النهاية أن ثباته على صداقتهما فيه خطر عليه كبير ، فإذا لم يبرأ من هذه الصداقة ويخلص من تأثيرها ومرضها فإنه لن يتاح له أن يقف أمام نفسه واعياً همسها فاهماً نجواها لابساً لباسها ، ولن يتاح له أن يأتي الناس بإنسانه الكامل الذي أوحته إليه تعاليمه الجبارة فيما درس من عبقريات اليونان ، فنفض عنه هذه الزخارف الصبيانية التي يتحلى بها أسلوب « ڤاجنر » . ووجد فيه ذلك الدليل الأمين الذي ينفع المفكر الذي يبغي أن يدرس هذه النفس وينحدر إلى أعماقها ، فهو اعتنق مذهب « ڤاجنر » بادئ ذي بدء ليصل إلى هذه النفس . والآن يحاول أن ينجو من حبائل هذا الساحر : « إن ما يشغلني الآن هو الشفاء . . . لم يكن « ڤاجنر » إلا علة من عللي » . . على أن الأندية الأدبية قد ارتاعت لهذا الانقلاب وهذه المفاجأة . وأجمعت كلها الحملة على نيتشه العقوق الذي رأت فيه الناكث للعهود . وأخذت الأندية تبعث بتأويل شتى لمعنى هذا الانفصال . وكلها أزمعت القول بأن نيتشه كان في الحالة الأولى خيراً من تفهم « ڤاجنر » ووقف على دقائق مذهبه ، وكان تحليله الأول له خير ما أخرجه ناقد محلل عن هذا الفنان . وعللت بأن ما عزاه من مرضه العقلي الذي ساقه إلى قطع علاقاته مع المجتمع ، هو الذي ساقه إلى التنكر لأصدقائه ، ولكن هذا التعليل تعليل فاسد يفسد على الرجل كل فلسفة ، وهو الذي كتب نظراته وأعطى مذهبه حراً مفكراً مختاراً . لم يكن مجنوناً ولا مخبولاً يوم طعن « ڤاجنر » ونال من مذهبه . أما أصدقاء نيتشه فهم يعزون ذلك إلى انخداع نيتشه بهذا الفنان . وهنالك آراء تقاربت تجيء طوراً مع نيتشه وتارة عليه . أما الذين يمقتونه فهم ينقمون منه هذه الشخصية أو هذه الأنانية التي قادته إلى نكران الصداقة ، زاعمين أن شخصية نيتشه لا تود أن ترى ظلاً لشخصية غيرها ، وشخصية نيتشه في الحقيقة شخصية ذاتية قوية ، لأن الرجل يرى أن الشخصية هي كل شيء ، يضحى في سبيلها بكل شيء ولا يضحى بها في سبيل أي شيء . فوجد نيتشه أن شخصيته تكاد تفنى في شخصية « ڤاجنر » وهو الذي التصق به واتصل لمجرد الوصول إلى نفسه وتفهمها . ولم يجعل منه رسولاً هادياً ولا مثلاً سامياً . . وهكذا أخذت هذه الشخصية الغالبة تضيق عليه ويضيق بها ، وتخفى صوته الحقيق ، فليضح بكل شيء في سبيل ذاته . ولعل نيتشه أدرك أن القوم سيختلفون في تعليل هذا الانقلاب فكتب هذه الرسالة التي تنطوي على صفاته ولون تفكيره : « كنا صديقين غريبين . . . . . كنا كمركبين . كلاهما له غايته وله سبيله . . . . قد نتلاقى ونرفع أعلام اللقاء كما فعلنا . . . وفي هذه اللحظة ذاتها قد رسا المركبان في مرفأ واحد ، يغمرهما شعاع واحد ، كأنهما مقدمان على هدفهما ، وكأن هذا الهدف واحد عندهما ، ولكن الضرورة التي لا تدفع قد تقذف بمركبينا قذفة جديدة نحو بحار مختلفة وأنواء متباينة . وقد نتراءى ولكن لا نتلاقى . كم لوحتنا الشمس والأمواج ! نظل غريبين لأن الشريعة الغالبة تريد ذلك . .

ولكن صداقتنا القديمة تبقى شيئاً قدسياً . . . وهكذا نريد أن نؤمن بصداقتنا « في النجوم » حتى في العهد الذي يجب أن نكون فيه خصيمين على الأرض »

أليس في هذه الكلمة ما يجعل نيتشه ربناً شريفاً بازاء خصميه وأنصار خصميه ؟

نيتشه الفيلسوف !

— ١ —

لم تكن نهاية عمر نيتشه إلا معركة متصلة الأسباب ، يشنها صاحبها على الداء الذي خامره ، يصرعه حيناً وحيناً يصرعه . وهو خلال ذلك يطول صراعه ويمتد نزاعه ، يحول الداء بينه وبين اتمام عمله الذي تصدى له ، ولا يشعر بالمجد الذي صار يركض اليه في أصقاع العالم.

هذه الفلسفة الغريبة الشاذة قد شك عند مناقشتها النقاد الذين لم يتسع لها عقولهم ، فقالوا عنها : إنها فلسفة طائشة جاء بها مجنون ، قد تمخض بها الجنون فناً من قبل ! وهؤلاء قد ظلموا الرجل ميتاً كما ظلمته الطبيعة حياً ، على أن شذوذ هذه الفلسفة لا يدعو إلى حسبانها فلسفة مجنونة ، فقد كتبها صاحبها واغياً وغالب بها ألمه قبل أن يستحيل إلى جنون ، ومهما ذهب النقاد في تعليل جنون نيتشه : أهو جنون اكتسابي أم وراثي ، فان الرجل قد استطاع بما أوتي من عبقرية سامية أن يحدث في صفحة الحياة أمواجاً عنيفة بالحجر الذي ألقاه . وبهذا لا ينبغي لنا أن نعتقد أن الجنون أثر في آثاره وهو الذي دل على وعي خارق في أحد نوباته وأعنف آلامه

— ٢ —

أراد نيتشه آلامه ، وعمل على تحملها غير مستثقل ولا مستضعف ، يحولها إلى الحاجة التي يريدها ويستخلص منها ما يلائم حياته . فاذا لم يكن هذا الرجل جديراً بالرأفة والشفقة لأنه لا يريدها ؛ فهو جدير بالاحترام . والبطل يحترم مستلماً ومكفناً

أول نعمة احتسبها للألم أنه أنقذه من مهنة التعليم ودراسة اللغات المندثرة ، إذ أخذ يحس أن هذه المهنة برغم شرفها لا تتلاءم والغرض الذي تتوق إليه روحه . فهو فيلسوف قبل أن يكون عالماً بدراسة اللغات . وأخذ يشعر بأن وفاءه لهذه المهنة دفعه إلى قتل أزهى أيامه وتعطيل دراساته ، فما أثقل اليوم على ظهره هذه الاعباء ! فجاء الداء وأجبره على تحطيم كل حلقة تربطه بالماضي الذي أصبح بعيده غريباً عنه وهو منه . جاء فبدل حياته بحياة ثانية تختلف مظاهرها ، وألقاه في عزلة عميقة لا يقر فيها إلا إلى نفسه لأنها حرمت عليه الانكباب على المطالعة والانصراف إلى الدرس . فهو اليوم وحيد مع نفسه ، أمام نفسه . يسمع نداء من كان في أذنه وقر عنها . فرحت اليوم نفسه بعودته إليها ، بأوبته إلى العزلة والراحة الخالدة : هذه النفس التي كادت تقتلها الحادثات وتطغى عليها جبلة المجتمع قد نفضت عنها الأكفان ودفنت صوتها الرنان « ما تذوق يوماً من السعادة ما تذوقه خلال أيام دائه لأنه عاد إلى نفسه . وهذه العودة إليها كانت شفاءه . وهذا الشفاء يتلوه شفاؤه المادي »

على أن الداء لم يزد نيتشه إلا احترازاً في النظر إلى مسائل الكون والحياة ، وهو عاكف على التطلع إلى هذه المبادىء الفلسفية ، ولكن يراها بمجموعها جملة مبادىء هي خفائق بعينها ؛ اطلع اليها كأنها ابنة طبع مبدع وشخصية مبدعة ، ومما ينبغي أن ينظر اليه بعين الاعتبار مسألة تأثير الصحة والسقم في العقل البشري ، فاذا تألم جسدنا — وهو العقل الأكبر — فالعقل الصغير لابد متأثر مما نزل بالعقل الكبير ، وإذ ذاك يسأل السائل : هل هذا المذهب علامة من علامات صحة صاحبه أو انحطاطه ؟ وقد أيقن نيتشه بأن السقم زاده احتراساً وانتباهاً من سلطة الأخيلة والأوهام التي تتولد عادة عند من راقت لهم صفحة الحياة وبهجة الدنيا « بلى ! انني أدرك أن الألم لا يحمل الانسان إلى المقام الأحسن ، ولكن الألم ينحدر بنا إلى أعماقنا ! »

والانسان الذي يريد أن يناضل ما ينتابه من قلق جسماني متسيطر ينبغي له أن يفرض على نفسه قوة يقهر بها نفسه ، تخرج منها ارادته المتمرنة ظافرة كما يصنع الهندي المستسلم لألوان من العذاب ، أو أن يستسلم لزهد مطلق واعتزال كامل وهجر للارادة ، والانسان الذي يتمكن من هذا الامتحان بقضيه من غير ضعف ، يتعلم منه أن يتأمل مسائل الحياة بوضوح وجلاء ، لا يخدعه عن حقيقتها شيء ؛ فهو يأبى أن تصرفه عن حقيقة الوجود هذه التشابيه والخزعبلات المغرية ، وكأن دافعاً للانتقام والثأر من الحياة يتحرك في طوايا نفسه ، يريد أن يستبدل بها آلاماً تتولد له حين

يقابلها وجها لوجه يميط عن وجهها النقاب . وينزع كل زينة خادعة تتبرج بها لاغواء الناس ؛ وهو إذا أحب الحياة بعد ذلك فإنه يحبها كالعاشق الغيور المتحرز ، حبك لامرأة خدعتك وأصبحت مثار الشك عندك

يلاحظ نيتشه أن الألم هو الذى جعله متفائلاً ، والسقم قد علمه ما يبلغ تأثير الانحطاط الجسماني فى عقل المفكر ، ولاحظ به كيف يسمى الألم إلى قهر عزة العقل الفلسفى ورد هذه النزة ضعفاً وذلة وحزناً وكآبة . وأدرك ما هى المواضيع والزوايا السماوية التى يلجأ اليها عقل المرضى والمنحطين سعياً وراء ما يخفف عنهم من فاقتهم وكآبتهم . وأدرك بعد هذا كله أن كل فلسفة تضع السلم فوق الحرب ، وكل فضيلة تعطى للسعادة تحديداً سلبياً ، وكل علم من علوم ما وراء الطبيعة يرى أن فى مراحل الاعتدال والراحة التامة والأمل الديني فى عالم خير من هذا العالم ، وفى برزخ غير هذا البرزخ ، يرى فى هذا كله حداً للرفعة والسمو ؛ إن هذه الفلسفة مهما كانت مظاهرها فهى تحمل طابع الفساد والانحطاط ؛ وآمن بأنه فهم أن كل هذه المذاهب الداعية إلى التشاؤم والركون المطلق تدل على أن أصحابها الواضعيها كانوا فى حالة مرض عضوى ؛ ولما أراد هذا المريض أن يشفى ركن إلى التفاؤل ؛ وقد نفعته أيام البلاء بالوقوف على أسباب التشاؤم ، فانصب على الداء بكل ما يحوى جسده ونفسه من عزم ، يقاومه فى معركة لاهوادة فيها ولا رحمة ، وبقوة روحه قد انتصر فى عالمي جسده ونفسه ؛ عاد متفائلاً ، وعادت اليه العافية ؛ « ألا إننى اكتشفت حياة جديدة ؛ اكتشفت نفسى . إننى قد جربت الأشياء الكبيرة كما رشفت الصغيرة منها ؛ وجعلت من رغبتى فى الشفاء والحياة كل فلسفتى ، حذار جميعاً ؛ إن الأعوام التى انحطت فيها حيويتى ، هى الأعوام التى طلقت فيها تشاؤمى ، وغريزة الوقاية هى التى صرفت عنى فلسفة اليأس والفاقة »

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

سور من هوميروس

٣ - حروب طروادة

إلى أسبارطه!

للأستاذ دريني خشبة

- « سمعت يا أبي قصة أختك المعذبة « هسيونيه » إذ أنا أرعى الشاء والبهم، فكان قلبي يتفطر أسى، كيف يسكت شعب عظيم كشعب طروادة على إهانة تصيبه في الصميم من شرفه، وعار ليس أيسر من دفعه، لكنه يغضي عليه، وينام عنه، كأن العزة القومية عند أهل هذا البلد ليست إلا أسطورة قديمة، أو خلقاً لا يدور لهم بخلد!؟ »

- « حسبك يا باريس! حسبك يابني! إنها محنة كتبت على طروادة، صنعها جدك بيديه! »

- « جدي؟! »

- « أجل! جدك... أبي... أبي لاوميدون! هو الذي نكث بعهده لبطل الأبطال هرقل... الرجل العظيم الذي أنقذ هسيونيه من براثن هذا الوحش البحري الهائل... الوحش الذي فتك بعذارى طروادة... لقد أعلن أبي أن من يقتل هذا التنين فإنه يتزوج هسيونيه. ولما قتله هرقل العظيم... »

- « رفض والدك أن يزوجها منه! »

- « هو ذاك! »

- « لم أسمع بهذا من قبل... ولكن كيف سمحتم لهرقل وملئه أن يستبيحوا طروادة ويذهبوا ببعض الأعزاء من أفراد البيت الملكي!

- « كنت طفلاً... وقد كنت بعض هذا السبي... ثم من كان يستطيع دفع هرقل، أقوى أبناء زيوس، وصاحب المجازفات الخرافية! من كان يستطيع حماية طروادة منه، بعد أن نكث الملك بوعده؟

أنت كنت بعض السبي؟! انت يا أبي؟!

- « أجل يا باريس! وقضيت في أيدي أعدائنا الشرفاء أجمل حقبة من شبابي! لله كم كانوا كرماء حقاً؟... »

- « وكيف عدت إلى طروادة إذن؟ »

- « مات أبي بعد حياة مفعمة بالمتاعب، ولم يكن له ولي عهد غيري، فتوجه الطرواديون إلى الأعداء يطالبونني ملكا لهم، بأي ثمن... ولكن أعداءنا كانوا أكرم من أن يسترقوا الملوك أو يبيعوا الأمراء... لقد أعادوني معززاً مكرماً إلى وطني، بعد إذ أخمد خصومتهم موت هرقل...

- « ولم لم تعد عمتي هسيونيه يا أبتاه؟ »

- « لقد تزوجها تيلامون يا بني، وأحسبها الآن أيما »

- « ذلك أدعى لعودتها... إنها لا شك تتعذب في دار غربتها... مسكينة!! إن حدائق الخلد لا تجدي نفعاً إذا كانت سجناً لأحدنا!

- « هذا حق يا بني... ومثله القفص من ذهب يحبس فيه البلبل المحزون!

- « أنا حزين يا أبتاه... لا بد أن تعود عمتي... أفتأذن لي في الابحار إلى هيلاس (1)؟ إذا أذنت، فلن أعود إلا بها

* * *

الآلهة لا تكذب!

هكذا قالت فينوس! وإذا كانت الآلهة لا تكذب، فلن يكذب أبولو! لابد أن تصدق النبوءة القديمة! لابد أن يبحر باريس إلى هيلاس ليجر الخراب على طروادة، وليخيم الموت في داراتها جميعاً...

(1) اسم بلاد اليونان قديما

الآلهة لا تكذب !

لقد أبحر إلى أسبارطة في يوم عاصف ؛ أسود من جبين الموت ! وأربد من بطون القبور ! ولقد كان أسطوله العجيب يرقص على نواصي الموج ، كما يرقص الطائر المذبوح في قبضة الفناء . . .

هيلين[1]

ثمرة الحب الأولمبي الساحر ... ابنة زيوس ، الغزل ، زير النساء ؛ من ليدا الفاتنة ، التي حولها حبيبها كبير الآلهة ، وسيد أرباب الأولمب ؛ إلى بجعة بيضاء تتهادى في مرايا المستنقعات والغدران ، ليسهل عليه لقاؤها دون عزول . . . أو رقيب !

ولقد ولدت له هذه الطفلة التي كانت كقطرة الندى يجهر بها إعلان الحرب !

شبت هيلين وشبت في أثرها شياطين الفتنة ؛ وكثرت ، وكثرت تحت قدميها مصارع العشاق !

لقد كان جمالها أسطورة مصورة في السحب ، موشاة بذهب الأصيل ! كانت نظراتها تغتذى بأرواح المحبين في غير شره ، وترتوي بماء حياتهم في غيرتهم . . . وإن كان محبوها يحصون بالآلاف . . . !

وهي لم تعمد يوماً إلى قتل هذه الأرواح المظلومة ؛ ولم يكن دنيها كذلك أن تنظر فتصرع ، أو تتنفس فتصبى ... ولكن القتل كان يذهب بأرواح عاشقيها عفواً كلما نظرت هنا أو هنا ... وذلك هو القتل البرىء ... !

وكان لها فم شتيت حلو ، أودعت فيه السماء أسرارها ، وصبغته عرائس[2] الفنون بحمرة القبل ؛ فهو دائماً يبتسم ، وكل ابتسامة منه تحيي وتميت !

وكذلك الأنسيلان ! لقد كانت لها نمومة ولمة ، و « نونة »[3] خلابة ، هي ملتقى الفتنة بين الخد والفم والعين والأنف !!

ثم عنقها الطويل البلوري الشفاف ، وجيدها المتلئ الخصب ! وجسدها الرخص الرمري ! وساقاها الملتفتان ، يختلط في بشرتهما بياض الندف بحمرة الورد !

هذه هي هيلين !

فاذا فترت العينين ؛ وأرخيت الأهداب الكحيلة السوداء ، ذات الوطف ؛ وأرسلت نظراتك الذهولة ترف بالخد والجيد ، والفم النضيد ، فترتد إلى فؤادك بأحمال الحب ، وأثقال الهوى ... رأيت التمثال المعبود الذي خاب ألباب أمراء هيلاس ، وأجج قلوبهم بالفتنة ، وقرح أجفانهم بالسهاد !

***

لم تنشأ هيلين مع ذلك في حجور الآلهة ، إذ تزوجت أمها ، بعد أن هجرها زيوس ، من تنداريوس ، أحد أمراء هيلاس ، فترعرعت الطفلة في مهاد النعمة ، وسعدت بالهناءة والعيش الخفوج حتى كانت هيلين التي رأيت !؟

وقد تقدم إلى خطبتها كثير من سادة الأغريق ونبلائهم ، ولكن أحداً منهم لم تقبله هيلين بعلاً لها ... لا لعيب فيهم ... ولكن القلب !!

أجل ، لم يكن يتفتح قلب هيلين الأولبية الرائعة ، إلا لكل جميل رائع ! وما لم يكن في كل من تقدموا لخطبتها من هو سليل الآلهة مثلها ، فقد رفضتهم جميعاً ، وعلة ذلك هذا الدم المتكبر الذي يتدفق في عروقها ، وذلك الجمال المعبود الذي كان أكثر من أن يحصر في امرأة واحدة !!

وجرت الألسن في هيلين ، وجمال هيلين ، وعشاق هيلين . . والساخطين على هيلين ممن جرحت كبرياءهم لرفضها إياهم ، ولقى زوج أمها من جراء ذلك هولاً شديداً ورهقاً ...

تحدثوا أن عشاق هيلين ، ومنهم أبطال هيلاس وشجعانها وذوو الصولة والجبروت فيها ، كانوا يضربون معسكراتهم حول بيت زوج أمها ، يطمع كل منهم أن يفوز هو بيد هذه الغادة ذات المفاتن ، التي أذلت الأعناق العزيزة ، ورغمت بها الأنوف الأغريقية الشماء !

وخشى تنداريوس أن تشب الحرب بينهم ، لو أن هيلين قبلت أحدهم زوجاً لها دون الآخرين . . . وأسقط في يده حين تقدم منالايوس ، ملك أسبارطة ، وسليل الآلهة أيضاً ، إلى هيلين يطلب يدها ... فلما أسرت الفتاة إلى زوج أمها أنها ترضى ملك

---

(١) ايلين أو هيلانه أخت كليتمنسترا من أشهر الأشخاص الكلاسيكية

(٢) Muses

(٣) للخد البارز المستدير خط مما يلي الأنف يزيده جمالا وقد أطلق عليه بعض الكتاب (نونة) ولا ندرى هل توافق الرسالة على هذه التسمية ؟

أسپارطة بعلاً لها ، تضاعف فزعه ، وازدادت خشيته ، وأيقن أنه لو أنفذ من أمر ذلك الزواج شيئاً ، فان أمراء هيلاس بأسرهم يصبحون له أعداء ألداء ، وهو لا حول له بعداوة أحدهم بمفرده ولا طول !!

ولجأ تنداريوس إلى الحيلة ...

لقد أقام حفلاً شائقاً دعا إليه كل من تقدموا لطلب يد هيلين ، وبالغ في إكرامهم والاحتفاء بهم ، ثم خطبهم فتحدث عن فتاته وما كان من أمر خطبتهم لهـا وعدم التوفيق في إنجاز شيء مما أقدموا له واختلفوا فيه ... : « أفإن بدا لهيلين يا سادة أن تختار أحدكم ليكون لها زوجاً من دونكم انقلبتم على أعقابكم وثرتم بمن يقع عليه اختيار الفتاة فقتلتموه أو فضحتموه في عرضه ، وجعلتم اسم هـذا البيت الكريم مضغة في أفواه الهيلانيين وجيرانهم ؟؟ إنما نريد أن نتقي هذا الشر فلا يستطير ، ونتدارك الأمر ، فلا ندعه جمجمة بيننا ؛ ولن أكلفكم في سبيل ذلك شططاً ... عين ، يا سادة ، صادقة ، تقسمونها فتكون عهد الوفاء بيننا ، أن ترتضوا جميعاً ما ترتضيه هيلين ، وأن تكونوا يداً على من يحنث ولو كان أعزكم جانباً وأكثركم قوة ... بل لنتفق جميعاً على أمر يكون أعم مما أشرت إليه ، أن نكون يداً على من تحدثه نفسه بالأضرار بهيلين أو بسَبْيها ؛ فقد تحدث إليّ من عنده علم أن بعضكم ينتوي هـذه النية السوداء ... ينتوي أن يسرق هيلين إذا لم يكن من حظه أن يقع اختيارها عليه ليكون بعلاً لها ، وأنتم السادة النجب من علية الأغريق وجيرة الأولمب ، أفترضون أن يحدث هذا الحدث في أمر كلكم شاركتم فيه من قبل ؟ ... »

ويجيب المدعوون في صوت واحد : « حاشا حاشا ! لنقسم جميعاً ... » وأشرقت هيلين على الملأ ، وكادوا يفتتنون بعد إذ أقسموا ، لولا أن أرسلت الفتاة صوتها الموسيقي الرنان ... تختار ملك أسپارطة ، الملك منالايوس ، ليكون زوجها الوفي الأمين !!

وطأطأوا رؤوسهم ... وانصرف أحدهم في إثر الآخر ...

***

رسا أسطول باريس في مرفأ ليسدمونيا[1] الأمين ، وخرج الأسپارطيون وعلى رأسهم ملكهم ومليكتهم للقاء ابن بريام المظيم ، حيث شاع أنه ينزل ضيفاً كريماً على صاحبي العرش ، فيلبث أياماً في ضيافتهما ، ثم يعود أدراجه الى طروادة مصطحباً عمته الأيم هسيونيه !

وتقدم الملك والملكة فسلما على الضيف الشاب ، وتحرك الموكب الكبير في طريق حُفَّت بالشجر الطروب ، وفرشت بأوراق الورد ، وتأرجت في جنباتها أنواع الرياحين . وكانت فرق من الموسيقيين تعزف هنا وهناك ، فتراقص ألحانها العذبة حبات القلوب . وكم كان جميلاً رائعاً إنشاد الجنود وقد وقفوا صفوفاً صفوفاً ، كلما مر الموكب الملكي بفرقة منهم دوى هتافها حتى يبلغ عنان السماء . . فإذا فرغوا وملأت هتافهم فرقة تالية . . . وهكذا . . .

وكان سرب من أجمل قيان اليونان وحسانها يحيط بالملكة الجميلة ، وقد قصرن ثيابهن وأرسلن شعورهن ، فيبدون فتنة الركب ، وكن سحر الموكب ، ولكن فتن من باريس بصره وسمعه وفؤاده !

وكان الفتى يخالسهن نظرات مشفوعة ، وكن بدورهن يبتسمن له ويتبرجن ، حتى التقت عيناه بعيني الملكة . . . فنسي نفسه ! !

لقد خُيل له أن قلبه انخلع من مكانه الذي بين جنبيه ، ليتأرجح في مقلتيه ! أين رأى هذه الملكة من قبل يا ترى ؟ إنه لم يذهب إلى الأولمب قط ، وهل لبشرى أن تطأ قدماه أرض الأولمب فيرى مثل هذا الجمال الساحر ، والحسن الفتان ؟

الحق أن هيلين تعمدت أن تشك قلب باريس في قوة وعنف ، حين أدركت رُسُل العيون تنتقل بسرعة بينه وبين قيانها وحسانها ! فلما التقت عيناها بعينيه غمزت قلبه الضعيف الغض بسهم مراش من عينها الساجيتين ، انطلق الى جوانحه في بروق من بسماتها ... ورعود !

لقد زلزل قلبه . . .

وأحس كأن قوى خفية تجذب روحه لتمرغها تحت قدمي هيلين ! وطفق يفكر ويفكر أين رآها من قبل . . . ولكن بلا جدوى . . .

ثم بدت له ڤينوس بحيث لا يراها أحد غيره . . . وقالت له : « هي . . . هي . . . كن شجاعاً ! » . . . ثم غابت ربة الحسن . . .

فذكر ماضيه القريب ، وذكر ما وعدته به ڤينوس ، وذكر

---

(١) عاصمة أسپارطة قديماً وقد يطلق هذا الاسم على أسپارطة نفسها

أن هيلين إن هي إلا صورة أرضية . . . سماوية . . . من ربة الحب ، وأنها مخلوقة تخلقها ، عذوبة روح ، ورقة نفس ، ودفء دم ، وسحر عيون . . .

فصمم على أن تكون له !!!

***

ولبث باريس في ضيافة الملك أياماً كانت تتصرم كأطياف الأحلام ! ثم حدث حادث جلل في أطراف المملكة استلزم وجود الملك نفسه ليرى رأيه فيه ، فلما كان يوم السفر ودع منالايوس زوجته الحسناء ، وأوصاها بإكرام ضيفه العظيم ، باريس ، « ابن صديق ملك طروادة ! » . فطمأنته هيلين ، وخرجت تودعه ، حتى إذا كانت عند أسوار ليسدمونيا ، حيته تحية فاترة . . . وعادت لترعى عصفورها الغريد . . . !!!

أقبلت هيلين على ضيفها غير هيابة ، وأقبل هو عليها في غير وجل . . . أقبلت عليه تؤانسه كما أوصاها زوجها ، وأقبل هو عليها يغازلها ، ويبحث فيها عن أجمل امرأة في العالم كما وعدته ڤينوس !

« هي هي . . . كن شجاعاً ! » . وهكذا كانت تردد هذه العبارة المقتضبة في أذني باريس كلما ذكر الوفاء ، وشكران الجميل ؛ وكلما هم أن يتعمد بقلبه عن زوجة الملك الكريم المضياف الذي احتفى به وأكرم مثواه . . .

« هي هي . . . كن شجاعاً ! » إذن فليكن باريس شجاعاً كما أمرته ڤينوس ! ليقترب من هيلين في هذه الخلوات الحلوة التي تمن عليه بها ، فتستطيل كل مرة إلى ساعات وساعات ؟

ليقترب منها ، ولتنصت هي سلسبيلاً من الموسيقى في أذنيه المرهفتين لكل كلمة من كلماتها ... وليرشف هو هذه الخمر التي تتدفق من عينيها وأهدابها ... ليرشف من هذه الخمر حتى تثمل روحه ، ويسكر قلبه ، وتزيغ عيناه !

ليقترب ! ليقترب كثيراً ! ليمس جسده المشتعل ، جسدها المعطر الفينان ! إنها لا ترفض أن يكون ذراعه فوق كاهلها ! بل هي أيضاً تنثر ذراعها فوق كاهله ؟ ماهما يتخاصران ! الخبيث يضغط ثديها الأيسر بشدة ! هل يبحث عما يكنه قلبها ؟ أم يفتش عن شيء مفقود في نفسها ؟ إن عينيه ما يتحولان عن عينيها ! إنه يحملق فيهما بشراهة !

قبلة . . .

هي القبلة الأولى من غير شك ؛ هي الاعتراف الصريح بنضوج الحب !

وقبلة ثانية . . .

وهي القبلة المؤكدة لأختها الأولى ! هي عدم المبالاة بما عساه أن يكون ! هي أول شرط في عقد هذا الغرام الأثيم . . . ! هي الاعتداء الصارخ على عرض منالايوس . . . منالايوس العظيم ملك أسبارطة . . . وسليل الآلهة ! !

***

– « ألا يسرك يا هيلين أن نعيش سوياً أبد الدهر ! . . . »

– « ألا يسرني ! ما السرور إذن يا حبيبي باريس ؟ »

– « إذن فلنرحل في ظلام الفجر ! »

– « إلى أين ؟ »

– « إلى طروادة ؟ »

***

وأقلع الأسطول في غبشة البكور يحمل . . .

هيلين ! !

وعفا الحب عن عمة باريس ! عفا الحب عن الأيم هسيونيه !

(لها بقيـة) دريني خشبة

من أساطير الأغريق

الحسن ...

[مهداة إلى الأستاذ دريني خشبة]

للأستاذ محمد روحي فيصل

منذ آلاف السنين ، بينما الناس في اللهو والضلال كانوا منغمسين ، سُمِع من جانب السماء صوتٌ هائل كأنه الرعد القاصف قد اهتزت له أطباق الفضاء ومادت منه جوانب الأرض ؛ فاذا عيازيب النور تجف على أثر ذلك ، والظلام يغمر الدنيا كلها ؛ كأنما الشمس الحبيبة — أمُّ الحياة — قد غاضت أشعتها الزاهية وانطفأ معناها الحى ، وإذا بالأنهار والينابيع والغدران تجمد وتكف عن السعى ، وقد استحال خريرها المؤنس الجميل إلى صمت كئيب موحش كصمت القبور ، وإذا بريح صرصر عاتية تهب مجنونة على الأرض فتقتلع الأشجار بأصولها وفروعها وتهيج الغبار ، وتختطف المنازل من أماكنها ، وإذا بالضوارى المروّعة تنفر من مكامنها هائجة غاضبة تزأر ..!!

وريع الناس وجبنوا فما يدرون ماذا دهاهم من الخطوب ، ثم أقبل بعضهم إلى بعض يتساءلون : أى ذنب اقترفناه ، وأية فريضة لم نقم بها حتى صب علينا الآله العظيم غضبه وويله ؟

وكانت قافلة الحياة يومئذ من الشر والضلال فى منزلة لم يعرفها التاريخ فى أدنى عهوده ، تسير على غير هدى وإلى غير غاية فى معمه من الفساد وطريق من الرذيلة ، وكان رجال الفن أدق الناس شعوراً وأرهفهم إحساساً . فقال الشاعر : « إنى نظمت فى مديح الآله قصيدة رائعة منتزعة من النفس ؛ لا صادرة عن اللسان ، ما أحسب أن أحداً من الشعراء سبقني إلى مثلها على كثرة المادحين ، أودعت فيه قلبى ودمى ؛ وحرقت لها مخى وكبدى ، ثم صغتها فى لفظ عذب جميل ! فأنا أسبح بحمده ما نطقت ، وأنشر روحه أنى حللت ، ولقد أجثو فى محرابه خاشعاً متصدعاً ، أتلو آى التمجيد والاجلال ، فكيف يغضب منى وينقم علىّ ؟ »

وقال الموسيقى : « وأنا أيضاً لحنت إنشودة قوية تحكى هديل الحمام وتغريد المنادل ، ورجعتها ترجيع عاشق محزون ، ثم قدمتها هدية حقيرة للآله الجبار ، فلماذا غضب .؟ »

وقال النحات : « أما أنا فقد صنعت له تمثالاً عظيماً يجمع إلى معاني الجبروت تهاويل الجمال ، وإلى قوة البنية رشاقة القسمات ترى أيغضب الآله منى وأنا مجسده ؟[1] »

وانتفض المصور وقال : « أأنا مغضب الآله إذن ؟ لقد أخذت زرقة السماء وخضرة الأوراق واحمرار الشفق ، ونزعت من الورود ألوانها ، والتمست من ذلك كله صورة لآلهنا الكبير فما زلت أعمل فيها وأنسقها حتى برزت حية ناطقة فى إطار واضح مشرق ... »

ويضطرب الناس ، وتطغى عليهم حيرة جاهلة عمياء ؛ تلبينها فى الوجوه الواجمة ، والنظرات الحائرة ، والخطى الثقيلة ! ويتداولون الأمر همساً ، ويلتمسون الخلاص من الخطب ، ويجمعون رأيهم على الذهاب إلى وادي عبقر ، موطن الوحى والالهام . فراحوا جميعاً إلى حيث يلاقون إلههم الغاضب ، يتقدمهم الشاعر ساهم الوجه ، تائه البصر ، وحمل المصور لوحته وريشته العذراء ، وتأبط الموسيقى قيثارته المشدودة الأوتار ، وجمع النحات أزميله ومنقاشه وحجره ...

وفى لحمة خاطفة ، طلعت الشمس ، وغردت الطيور ، واستأنفت الأنهار سعيها ، ثم لامست الوادى غيمة كبيرة بيضاء هبط منها الآله الجبار !!

وخر الناس من الخشية سجّداً يلتمسون البركة والضراعة والغفران . وكما يسمع الحالم فى النوم سمعوا صوت إلههم يقول :

لقد بعثت فيكم رسولاً كريماً ينشر الرحمة ويعلمكم العطف والتقدير فتجاهلتموه !

بعثته والأخلاص ملء برديه وفيض إهابه فلم تقدروه !

هو خادمكم الأمين يبذل عرق جبينه لاصلاح مجتمعكم الواهى وينفق المال الذى بين يديه دون أجر غير أجرى ؛ لأنه يعطيكم أكثر مما يأخذ منكم ، ويبنى المستشفيات والملاجئ ، ويقيم دوراً للعلم فنسيتموه أو تناسيتموه !

وحق عظمتى ، لولا رحمتى التى وسعت كل شىء لجعلت الأرض فوقكم قاعاً صفصفاً ...

عند ذلك صاح الساجدون كلهم :

ما اسم هذا الرسول الكريم ؟

فأجاب الآله الجبار : المحسن

حمص — محمد روحي فيصل

(١) التجسيد : تمثيل الرب بطبيعته وهيئته فى زى انسان ، والتعبير مقتبس من اليونانية Anthropamarphisme

الهـــدية

للأستاذ بشير الشريقي

حدثني صديق لي وهو في مقتبل عمره ، وأول عهده بالوظيفة ، قال :

في صباح أحد الأيام ، وأنا متهيء للخروج إلى عملي ، إذا بباب غرفتي يطرق ، وإذا بالطارق فتى جميل المحيا ، يقظ الملامح ، يحمل على يديه سفطاً مستطيل الشكل ، كبير الحجم ، فما وقع نظري على الفتى والسفط بين يديه حتى تولاني الانقباض ، لأنني عرفته من هو ؟ وأين يشتغل

تمتم الفتى : لقد عاد عمي الشيخ من دمشق مساء أمس وهو يهديك تحياته ، وقد أرسلني بهذا السفط هديته من دمشق اليك

ولكن عقلي كان قد اهتدى إلى أني موظف ، وأن لصاحب هذه الهدية مصالح كثيرة عندي يهمه قضاؤها

فبادرت الفتى بتؤدة : ما هذا ؟ ليس من الضروري . . . . له مني الشكر . . . أعد السفط اليه . . . . ليس من الضروري . . .

ولكنه قاطعني بأدب : لقد بعث به الشيخ اليك .. وهو هديته من دمشق . . . . وسيغضب علي إن رجعت به

قلت بلهجة الآمر : أرجعه . . . . سوف لا آخذه

عاد الفتى بالسفط وهو لا يصدق أني رفضت قبوله ؛ وعدت فأغلقت علي باب غرفتي أفكر في الذي صنعت : لولا أنه صاحب حاجة عندي لما خطرت هذه الهدية له على بال ولما فكر في الخطة ، إذ لا صداقة بيني وبينه ، وأنا لا أراه إلا في الدائرة حين يريدني في أمر رسمي ، أو في الطريق فنتبادل التحية من بعيد ، وفوق ذلك فهو من التجار الذين يحاسبون على السحتوت والقطمير ، والذين يعطون القرش ليستردوه قرشين ؛ وهكذا كان الظاهر محاطاً كله بالريب فلم يدخل في نفسي أن هدية الشيخ منزهة عن الغرض

وبينا أنا على هذه الحال ، إذ أرى الشيخ من نافذة غرفتي قادماً إلي ، فأسرعت وفتحت له الباب :

أهلاً وسهلاً بحضرة الشيخ ، الحمـــد لله على سلامتك ، تفضل . . . اجلس فاذا به قد تجاوز الخامسة والخمسين ، ولكنه لا يزال محتفظاً بقوته ونشاطه ، قد تدلت من ذقنه لحية كبيرة بيضاء ، يرتدي سروالاً وجبة ، نظيف البزة ، وسيم الطلعة ، حسن القيام على نفسه

— ماذا فعلت يا ابن أخي ، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية

قلت : ويرد الصدقة

قال : ويرد الصدقة ؟! ولكن قسماً بهذه اللحية - وقبض على لحيته - إن الهدية قد صنعت على اسمك وحملتها من دمشق اليك

قلت : أشكرك . . . . أشكرك . . .

قال : ولا أزيدك علماً أنه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه : « من أهدي اليه شيء ورده فكأنما رده على الله »

قلت : صدق رسول الله الكريم .. أنا لا أشك في حسن نية الشيخ ، ولكن القانون يا عم . . . هذا القانون المكلفون نحن قبل غيرنا بحفظه واحترامه ينهانا عن أخذ مثل هذه الهدية ، فهي في عرفه رشوة والعياذ بالله ، يستحق معطيها وآخذها شديد العقـاب — إليك المواد — ٦٧ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٦ من قانون العقوبات العثماني — وقرأت له نصوصها — إنه لأمر خطير

وقلت له :

ولكي تثق بواسع علم المشرع الذي سن لنا قانون العقوبات وبعد نظره أروي لك هذا الحديث الشريف المثبت في الصحيحين عن أبي حميد الساعدي قال : استعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فلما قدم قال : هذا لكم وهذا أهدي إلي ، فقال النبي : ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله فيقول هـذا لكم وهذا أهدي إلي فهل قعد في بيت أبيه أو بيت أمه فينظر أيهدى إليه أم لا ! »

وهنا صمت الشيخ ولكن لسان حاله كان يقول :

— لقد عرفت كثيرين غيرك من الموظفين كباراً وصغاراً فلم يحدثني واحد منهم عن مواد قانون العقوبات ولا عن حراسة القانون ، لم يذكر لي واحد منهم حديث النبي صلى الله عليه وسلم مع عامله على الصدقة بل كان أمري معهم ولا يزال على العكس تماما فأنا مكلف عند كل خطوة وعند كل حاجة أن أقدم الهدايا وألبي الطلبات . . . .

* * *

وإلى هنا انتهى حديث الصديق فوجدته جديراً بالتدوين ؛ فدونته في الحال ؛ وها هو كما سمعته بلا زيادة ولا نقصان ؟!

(شرق الأردن) بشير الشريقي

البريد الأدبي

جورج رسل عميد الشعر الإرلندي

من أنباء أرلندة أن شاعرها الكبير جورج وليم رسل قد توفي في الثامنة والستين من عمره . وكان رسل عميد الشعراء الأرلنديين منذ أوائل هذا القرن ، كما كان السير وليم وطسون عميد الشعراء الانكليز ، وقد توفي كلاهما هذا الصيف ، ففقد الأدب الإنكليزي بذلك آخر زعماء المدرسة الشعرية القديمة ؛ وكان مولد جورج رسل في لورجان سنة ١٨٦٧ ؛ وتلقى تربيته في دبلن ودرس التصوير ومارسه ؛ ثم غدا زعيماً لحلقة أدبية كانت تنشر صحيفة عنوانها « الثيوسوفي الأرلندي » ، وفيها نشر أشعاره الأولى التي جمعت بعد ذلك في ديوان سمي « أغنية وطنية متناثرة » (سنة ١٨٩٤) وفي مجلد آخر سمي « أنفاس الثرى » (سنة ١٨٩٧) . وكان رسل إلى جانب مواطنه الشاعر ييتس زعيماً للأحياء الأدبي في أرلنده ؛ ودرس رسل التصوف الشرقي ، وتوثقت أواصره بزميله ييتس ؛ وكان يعمل مدى أعوام طويلة كاتباً في شركة للأقمشة ، فقدمه صديقه ييتس إلى الزعيم والمثري الأرلندي الكبير السير هوراس بلانكيت وأوصاه به خيراً ، فألحقه بالشركة الزراعية الكبيرة التي ألفها لمعاونة المزارعين ؛ وتولى رسل الطواف على دراجة في القرى الأرلندية يستفهم من السكان عن أحوالهم ورغباتهم . وفي سنة ١٩٠٥ اختاره السير بلانكيت لتحرير صحيفة الجمعية ، وهي صحيفة سياسية تعاونية ، فاستمر في تحريرها حتى سنة ١٩٢٣ . وفي ذلك العام أصدر رسل لنفسه صحيفة جديدة عنوانها « السياسي الأرلندي » فاستمرت حتى سنة ١٩٣٠ . وأصدر خلال هذه الفترة عدة مؤلفات شعرية ونثرية منها كتاب « لب المرفة » (سنة ١٩٠٣) ورواية مسرحية عنوانها « ديدري » (١٩٠٧) وكتاب « مثل المجتمع الأرلندي الريفي » (١٩١١) وقصيدة كبيرة عن ثورة سنة ١٩١٦ عنوانها « التحية » ، وديوان عنوانه « السحر وقصائد أخرى » وغير ذلك مما يضيق بذكره المقام .

وقد كان رسل وطنياً كبيراً ، يشتغل بالسياسة إلى جانب الأدب ، ويسخر الأدب لخدمة وطنه ، وتأييد مثله العليا في الحرية والاستقلال ، وكان أيضاً انسانياً عظيماً يبذل وسعه لمناوأة البائس وغوثه ، وانتشال الطبقات الدنيا من وهدتها

فكتور هوجو الصحفي

كان فكتور هوجو شاعر فرنسا الأشهر صحفياً كبيراً ؛ وقد تناول هذه الناحية من حياة الكاتب الكبير ، مسيو بول سوشون ، بمناسبة الذكرى الخمسينية لوفاته ، فقال : إن هوجو قد مارس خلال حياته ثلاثة أنواع من الصحافة : الصحافة الأدبية ، والصحافة السياسية ، والصحافة الخبرية . وقد بدأ هوجو حياته الصحفية في جريدة « كونسر فاتير لترير » ، وكان يكتب فيها فصولاً نقدية ، أثارت إعجاب النقدة يومئذ ، ووصف ادموند بيريه يومئذ كاتبها بما يأتي : « صحفي وناقد ، كانت لذعاته الأولى لذعات أستاذ مبرز ؛ وعند هذا الفتى الذي لم يجاوز الثامنة عشرة موهبة نثرية لا تقل عن موهبته الشعرية . ومما يلفت النظر لأول وهلة سعة معارفه الأدبية ، فهو يكاد يستوعب كل شعراء العصر القديم . ثم الشباب ! وهذا هو الذي يفيض على صحف « الكونسر فاتير لترير » سحراً لا يقاوم »

ولما صدرت في سنة ١٨٠٩ أول طبعة من مؤلفات شينيه ، كتب هوجو في التعليق عليها أن نزعة شعرية جديدة قد ولدت ، ولما صدر ديوان « التأملات » استقبله بحماسة وترحاب

أما في الصحافة السياسية فان هوجو لم يرتفع إلى هذا المدى وقد أبان مسيو سوشون في بحثه وجوه الضعف التي كانت تغلب على الشاعر الكبير في هذا المضمار . بيد أن هوجو كان من الناحية الخبرية صحفياً لا يجارى . وقد كان يقدم أخباره للجمهور تحت عنوان « أشياء رؤيت » . وقد ظهرت مجموعة منها بعد

وفاته تحت هذا العنوان ، وفيها يقيد الحوادث التي شهدها خلال حياته وخواص العظماء الذين لقيهم

تلك صفحة من حياة هو جو لم تأخذ حقها من التعريف في حياة الشاعر الكبير

آثار قديمة في سوريا

كشفت الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلامة الأثري الفرنسي أندريه بيرو في سوريا على مقربة من بلدة أبي كمال عن آثار هامة ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام قبل المسيح ، وتدل على أن حضارة زاهرة قامت في ذلك العهد في تلك الأنحاء ، وتدل النصوص والنقوش التي عثر عليها أن هذه المنطقة كانت منزل الحيثيين الذين استطاعوا أن يقاوموا طويلاً غزوات البابليين والمصريين ، أما الآثار المكتشفة فهي عبارة عن بقايا قصر تبدو منه مراكز الوسطى ، ويلوح أنه كان مقراً ملوكياً ، وملاذاً للكبراء ومركزاً لبعض الصناعات التي كانت زاهرة في ذلك العصر ، وهنالك ما يدل على أن حصونه التي كانت محيطة به قد قوضت ، وأن جموراني زعيم البابليين قد اقتحمها وأحرق القصر

ومن الآثار الغريبة التي اكتشفت فصل حقيقي من فصول التعليم بمقاعده وأدراجه ، مما يدل على أنه كان مدرسة يؤمها الشباب . وتدل مواقع القصر في مجموعها على أن كبراء هذا العصر كانوا يتمتعون بضروب من الرفاهة والترف ، لم تعرفها العصور الوسطى في أوربا ؛ وتتخلله طرق مستقيمة ذات زوايا قائمة ، وسلالم داخلية كبيرة ، ومخازن للمؤن ، ومجاز منظمة تحمل المياه والفضلات إلى خارج المدينة ، ووجدت في معظم الأبنية المجاورة آثار حمامات وأحواض للاستحمام صنعت من الفخار المحروق

برنارد شو في التاسعة والسبعين

احتفل الكاتب الإنكليزي الأشهر جورج برنارد شو أخيراً ببلوغه التاسعة والسبعين من عمره ، وذلك في بلده ومسقط رأسه هيرتفوردشير . وفي يوم الاحتفال بمولده اعتكف الكاتب الشهير واحتجب طول الصباح في مكتبه ؛ وعند الظهر أعلن أنه قد انتهى من كتابة الفصل الأول من قطعة مسرحية جديدة ، وقال إنه سيعالج فيها موضوعاً جديداً هو « الحب »

حول كتاب قواعد التحديث للقاسمي

أليس من الحق وقد كتب عن هذا الكتاب كاتبان من أكبر كتاب العربية في كبرى مجلاتها ، وكان السبب في هذه الفصول الممتعة ، وهذه الساجلات الأدبية الطريفة بين أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، ومؤرخ الشام وكاتبها العلامة محمد بك كرد علي أن ننوه في (الرسالة) بفضل هؤلاء الشباب الغير على الدين واللغة والثقافة الاسلامية الذين ألفوا « مكتب النشر العربي » ونشروا طائفة صالحة من كتب الفلسفة والحديث للغزالي وابن الطفيل والقاسمي وغيرهم ، وأنجزوا في مدة قليلة ما لم ينجز مثله سواهم في برهة طويلة ؟

أليس من الحق أن نشكر للسادة الأذكياء المثقفين العاملين : ظافر القاسمي ، وداود التكريتي ، وعصام الانكليزي ، أعضاء « مكتب النشر العربي » قيامهم بهذا الغرض الذي قصرنا جميعاً في القيام به ؟ وثباتهم على تأديته على قلة التشجيع ، ورقة الحال ، وشدة الزمان ؟

(متأدب)

ملكة الجمال في سوريا ولبنان

تقوم الزميلة جريدة لزيكو الغراء بتنظيم مباراة الجمال التي كلفت القيام بهذه المهمة لتشترك ملكة الجمال في سورية ولبنان بمباراة الجمال في مدينة بروكسل وقد تقرر أن تقام حفلة كبرى في فندق بلودان يوم الخميس المقبل لهذه الغاية وتألفت لجنة من السيدة عقيلة رئيس الجمهورية والسيدة عقيلة وزير المعارف والسيدة عقيلة مدير البرق والبريد العام على أن يقوم بسكرتارية اللجنة السيد باسيل مكرديج مدير المطبوعات في وزارة الداخلية لانتخاب ثلاث أوانس واحدة من دمشق والثانية من حلب والثالثة من اللاذقية من بين المتباريات ثم تشترك الأوانس الثلاث في حفلة مباريات الجمال في صوفر مع الأوانس اللبنانيات اللواتي ينتخبن فيها الآنسة التي تتربع على عرش الجمال في سوريا ولبنان

وستكون هذه الحفلة تحت رعاية رئيس الجمهورية . (الأيام)

أقول : هذا بعض ما أنشىء له فندق بلودان الذي لم يعص الله في الشام بمثل انشائه نبعث به إلى (الرسالة) بلا تعليق

(متأدب)



كتاب الأموال

في ٦٢٦ صفحة

لأبي عبيد القاسم بن سلام (١)

للأستاذ محمد بك كرد علي

ولد أبو عبيد في هراة وأبوه مملوك رومي ، وتخرج في بغداد على أئمة وقته وروى عنه أئمة مذكورون ، وكان آية في النحو واللغة والحديث والفقه ، وعدّ أعلم رجال عصره بلغات العرب ، قال ابراهيم الحربي :

رأيت ثلاثة تعجز النساء أن تلد مثلهم : رأيت أبا عبيد ما أمثله إلا بجبل نفخ فيه روح ، ورأيت بشر بن الحرث فما شبهته إلا برجل عجن من قرنه إلى قدمه عقلاً ، ورأيت أحمد بن حنبل فرأيت كأن الله قد جمع له علوم الأولين من كل صنف ، يقول ما يشاء ويمسك ما يشاء . وروى الناس من الكتب المصنفة لأبي عبيد بضعة وعشرين كتاباً في القرآن والفقه وغريب الحديث والغريب المصنف والأمثال ومعاني الشعر وكتاب الأموال ، والغريب المصنف زعموا أنه أجل كتبه

كان أبو عبيد خاصاً بعبد الله بن طاهر الوزير المشهور أغناه عما أعطاه ، ولقد بعث أبو دُلف إلى عبد الله بن طاهر يستهديه أبا عبيد شهرين ، فأنفذه إليه فأقام شهرين ، فلما أراد الانصراف وصله بثلاثين ألف درهم فلم يقبلها . وقال : أنا في جنبة رجل لم يحوجني إلى صلة غيره ، فلما عاد إلى ابن طاهر وصله بثلاثين ألف دينار . فقال : أيها الأمير قد قبلتها ، ولكن قد أغنيتني بمعروفك وبرك ، وقد رأيت أن أشترى بها سلاحاً وخيلاً وأوجه بها إلى الثغر ليكون الثواب متوفراً على الأمير ففعل ، وهذا من العلم الحقيقي والخلق الكامل ، وعزة النفس إذا فقدت من العلماء خاصة صار العلم تهريجاً ومهزلة

قالوا : ولما عمل أبو عبيد كتاب الغريب عرضه على عبد الله ابن طاهر فاستحسنه وقال : إن عقلاً بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يخرج عنا إلى طلب المعاش . فأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر ، قال أبو عبيد : كنت في تصنيف هذا الكتاب أربعين سنة ، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها في موضعها من الكتاب ، فأبيت ساهراً فرحاً مني بتلك الفائدة ، وأحدكم يجيئني فيقيم عندي أربعة أشهر أو خمسة أشهر فيقول قد أقمت الكثير . وكان أبو عبيد يقسم الليل أثلاثاً فيصلي ثلثه وينام ثلثه ويصنف ثلثه . وذكر من ترجموا له أنه كان فاضلاً في دينه وفي علمه ، ربانياً متفنناً في أصناف علوم الاسلام ، صحيح النقل لم يطعن عليه في شيء من أمره ودينه

غلب على أبي عبيد جمع المتفرق في الكتب وتفسيره وذكر الأسانيد ، وصنف السند على حدته ، وأحاديث كل رجل من الصحابة والتابعين على حدته ، وأجاد تصنيفه ، فرغب فيه أهل الحديث والفقه واللغة لاجتماع ما يحتاجون اليه فيه ، وكتابه الوحيد الذي ظهر بالطبع كتاب الأموال . وهو كما وصفوه من أحسن ما صنف في الفقه وأجوده . جرى فيه على أسلوب قدماء المؤلفين من إيراد الرواية والسند في الأحاديث ، لكنه لا يطيل في ذكر الرواة وينسب الحديث إلى آخر راوية معتمد ، ثم يشرع في شرح ما أبهم وتفسير ما أعضل من الأحكام ، يرجح ما هو أولى بالترجيح ، ويبين عن رأيه بصراحة . بأسلوب محكم سلس ينم عن إحاطته بالأقوال الصحيحة المأثورة عن صاحب الشرع ، ثم يشير إلى عمل الصحابة والتابعين من بعده في أحكام الأموال وصنوفها والفيء والصدقات والجزية وفتوح الأرضين صلحاً أو عنوة ، وما يتبع ذلك من الأحكام التي قال بها القرآن أو فسرتها

(١) المتوفى سنة ٢٢٤ هـ

السنة أو عدّلها بعض الصحابة بحسب الحال

فقد ذكر في باب مالا يجوز لأهل الذمة أن يحدثوا في أرض العنوة وفي أمصار المسلمين وما لا يجوز قول عمر (ض) « لا كنيسة في الإسلام ولا خصاء » وقول عمر بن عبد العزيز : « لا تهدموا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار ، ولا تحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا بيت نار » ، فقال أبو عبيد : أراه يعني الكنائس والبيع وبيوت النيران يقول : لا ينبغي أن تكون مع المساجد في أمصار المسلمين . قال أبو عبيد ، فهذا ما جاء في الكنائس والبيع وبيوت النار ، وكذلك الخمر والخنازير قد جاء فيهما النهي عن عمر ، ثم قال : وأما وجوه هذه الأحاديث التي منع فيها أهل الذمة من الكنائس والبيع وبيوت النيران والصليب والخنازير والخمر أن يكون ذلك في أمصار المسلمين خاصة ، وبيانه في حديث ابن عباس . حدثنا أبو عبيد قال : سمعت علي بن عاصم يحدث عن أبي علي الرحبي عن عكرمة عن ابن عباس قال : « أيما مصر مصّرته العرب ؛ فليس لأحد من أهل الذمة أن يبنوا فيه بيعة ولا يباع فيه خمر ، ولا يقتنى فيه خنزير ولا يضرب فيه بناقوس ، وما كان قبل ذلك فحق على المسلمين أن يوفوا لهم به . قال أبو عبيد : فقوله كل مصر مصّرته العرب يكون التمصير على وجوه : فمنها البلاد التي يسلم عليها أهلها مثل المدينة والطائف واليمن ، ومنها كل أرض لم يكن لها أهل فاختطها المسلمون اختطاطاً ، ثم نزلوها مثل الكوفة والبصرة وكذلك الثغور ، ومنها كل قرية افتتحت عنوة ، فلم ير الإمام أن يردها إلى الذين أخذت منهم . ولكنه قسمها بين الذين افتتحوها كفعل رسول الله (ص) بأهل خيبر . فهذه أمصار المسلمين التي لا حظ لأهل الذمة فيها ، إلا أن الرسول كان أعطى أهل خيبر اليهود معاملة لحاجة المسلمين وكانت إليهم ، فلما استغنى عنهم أجلاهم عمر وعادت كسائر بلاد الاسلام : فهذا حكم أمصار العرب ، وإنما نرى أصل هذا من قول رسول الله (ص) أخرجوا المشركين من جزيرة العرب . وفي ذلك آثار ثم ساق الأحاديث ، والمأثور عن عمر في جلاء غير المسلمين من جزيرة العرب ، وذكر بلاد الصلح كهجر والبحرين وأيلة ودومة الجندل وأذرح . وذكر أحكام البلاد التي فتحها عمر كالشام ومصر والعراق الخ

ومما ذكر ، وهو ما نطيل بنقله إرادة الوقوف على طريقته في تأليفه ، (ص ١٦٩) أن عمر بن الخطاب استعمل عُمَيْر ابن سعيد أو سعد على طائفة من الشام ، فقدم عليه قدمة فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عرب السوس وإنهم لا يخفون على عدونا من عوراتنا شيئاً ، ولا يظهروننا على عوراتهم ، فقال له عمر : فاذا قدمت فخيرهم بين أن تعطيهم مكان كل شاة شاتين ، ومكان كل بعير بعيرين ، ومكان كل شيء شيئين فان رضوا بذلك فأعطهم وخرّبها ، فان أبوا فانبذ إليهم وأجّلهم سنة ثم خرّبها ، فقال : اكتب لي عهداً بذلك فكتب له عهداً ، فلما قدم عليهم عرض عليهم ذلك فأبوا ، فأجلهم سنة ثم أخرّبها . قال أبو عبيد : وهذه مدينة بالثغر من ناحية الحدث يقال لها عرب سوس وهي معروفة هناك — ومعروفة لعهدنا بهذا الاسم أيضاً — وقد كان لهم عهد فصاروا إلى هذا . وإنما نرى عمر عرض عليهم ما عرض من الجلاء ، وأن يعطوا الضعف من أموالهم ، لأنه لم يتحقق ذلك عنده من أمرهم ، أو أن النكث كان من طوائف منهم دون إجماعهم ، ولو أطبقت جماعتهم عليه ما أعطاهم من ذلك شيئاً إلا القتال والمحاربة . وقد كان نحو من هذا قريباً الآن في دهر الأوزاعي بموضع بالشام يقال له جبل لبنان ، وكان ناس من أهل العهد فأحدثوا حدثاً ، وعلى الشام يومئذ صالح بن علي فحاربهم وأجلاهم ، فكتب الأوزاعي فيما ذكر لنا محمد بن كثير برسالة طويلة منها : « قد كان من أجلاء أهل الذمة من أهل جبل لبنان ، مما لم يكن تمالأ عليه خروج من خرج منهم ، ولم تطبق عليه جماعتهم ، فقتل منهم طائفة ورجع بقيتهم إلى قراهم . فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة فيخرجون من ديارهم وأموالهم . وقد بلغنا أن من حكم الله جل وعز أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة ، ثم يبعثهم على أعمالهم ، فأحق ما اقتدى به ووقف عليه حكم الله تبارك وتعالى ، وأحق الوصايا بأن تحفظ وصية رسول الله (ص) ، وقوله : من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه ، ومن كانت له حرمة في دمه فله في ماله والعدل عليه مثلها ، فإنهم ليسوا بعبيد فتكونوا من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة ، ولكنهم أحرار أهل ذمة الخ » . وكتاب الأوزاعي

هذا نقله البلاذرى فى فتوح البلدان مع اختلاف يسير

وهكذا يمضى المؤلف فى تأليفه ومعالجة فصول كتابه الممتع . يأتى بالآثار المشهورة الصحيحة على مثل هذه الطريقة السهلة ، وفيها جمل من الأحكام التى استخرجها الحكام بعد عهد صاحب الشرع الأعظم . وقد أورد كثيراً من الكتب والمعاهدات والعقود والاقطاع ، وذكر فصولاً فى الصدقات والغنائم والزكوات وثمار الأرضين وما يجبى منها ومالا يجبي والمعادن والركاز والمكاييل والمكوس والعشور ومخارج الصدقة وسبيلها التى توضع فيها والوقف ، إلى غير ذلك من الأبواب بحيث لم يترك شيئا مما يحتاج اليه من يريد الوقوف على أحكام كل ذلك فى الاسلام ، وإن كان أكثره ، ويا للأسف أصبح يتلى اليوم للعلم به فقط ، أو التبرك بسيرة السلف الصالح وترداده لمعرفة تاريخ تشريعهم

ومما قال فى اسقاط الجزية عمن أسلم : وإنما احتاج الناس إلى هذه الآثار (عن الصحابة وغيرهم) فى زمن بنى أمية ، لأنه يروى عنهم أو عن بعضهم أنهم كانوا يأخذونها منهم وقد أسلموا ، يذهبون إلى أن الجزية بمنزلة الضرائب على العبيد ، يقولون فلا يسقط اسلام العبد عنه ضريبته ، ولهذا استجاز من استجاز من القراء الخروج عليهم ، وقال إن عمر بن عبد العزيز فرض على رهبان الديارات على كل راهب دينارين ، ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه بطاقتهم له ، وأن أهل دينهم يتحملون ذلك لهم ، كما أنهم يكفونهم جميع مؤوناتهم : وقال إن رسول الله (ص) استحل دماء بنى قريظة لمظاهرتهم الأحزاب علية ، وكانوا فى عهد منه ، فرأى ذلك نكثاً لعهدهم وإن كانوا لم يقتلوا من أصحابه أحدا ، ونزل بذلك القرآن فى سورة الأحزاب ، قال وكذلك آل أبى الحقيق رأى كتمانهم إياه فاشترطوا له ألا يكتموه نكثاً ، وقد حكم بمثل ذلك عمرو بن العاص بمصر

وقال فى القريات التى أقطعهـا الرسول لتميم الدارى فى فلسطين : إنها أرض معمورة لها أهل فانما ذلك على وجه النفل له من رسول الله (ص) ، لأن هذا كان قبل أن تفتح الشام ، وقبل أن يملكها المسلمون ، فجعلها له نفلا من أموال أهل الحرب إذا ظهر عليها ، وهذا كنفله بابن بقيلة عظيم الحيرة حين سأله إياها الشيبانى ، فجعلها له بمثل افتتاح الحيرة ، فأمضاها له خالد ابن الوليد حين ظهر عليها ، وكذلك امضاء عمر لتميم حين افتتح فلسطين . ومما قال فى الأقطاع : « وأما إقطاع أبى بكر طلحة وعيينة ، وما كان من انكار عمر ذلك وامتناعه من الختم عليه ، فلا أعلم له مذهبا إلا أن يكون رأى عمر أنه كان يومئذ يكره الأقطاع ولا يراه ، ألا تسمع قوله لطلحة : « أهذا لك دون الناس » ثم رأى بعد ما أفضى الأمر اليه غير ذلك ، فقد علمنا أنه قد أقطع غير واحد فى خلافته ، وهذا كالرأى يراه الرجل ثم يتبين له الرشد فى غيره فيرجع اليه ، وهذا من أخلاق العلماء قديما وحديثا »

ومما قال فى السبب الذى دعا إلى ضرب الدراهم : قال أبو عبيد : سمعت شيخا من أهل العلم بأمر الناس ، كان معنياً بهذا الشأن ، يذكر قصة الدراهم وسبب ضربها فى الاسلام ، وقال : إن الدراهم التى كانت نقد الناس على وجه الدهر لم تزل نوعين : هذه السود الوافية ، وهذه الطبرية العُتُق ، فجاء الاسلام وهى كذلك ، فلما كانت بنو أمية وأرادوا ضرب الدراهم نظروا فى العواقب فقالوا : إن هذه تبقى مع الدهر ، وقد جاء فرض الزكاة « إن فى كل مائتين أو فى خمس أواقٍ خمسة دراهم » والأوقية أربعون ، فأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال السود ؛ ثم فشا فشواً بعد لا يعرفون غيرها ، أن يحملوا معنى الزكاة على أنها لا تجب حتى تبلغ تلك السود العظام ، مائتين عدداً فصاعداً ، فيكون فى هذا بخس للزكاة ؛ وأشفقوا إن جعلوها كلها على مثال الطبرية أن يحملوا المعنى على أنها إذا بلغت مائتين عدداً حلت فيها الزكاة ، فيكون ذلك اشتطاطاً على رب المال ، فأرادوا منزلة بينهما يكون فيها كمال الزكاة من غير اضرار بالناس ، وأن يكون مع هذا موافقا لما وقت رسول الله (ص) فى الزكاة ؛ إلى أن قال بعد شرح ما عملوه بشأن الدراهم : فمضت سنة الدراهم على هـذا واجتمعت عليه الأمة فلم تختلف أن الدرهم التام هو ستة دوانيق ، فما زاد أو نقص قيل درهم زائد أو ناقص ، فالناس فى زكاتهم بحمد الله ونعمته على الأصل الذى هو السـنة والهدى لم يزيغوا عنـه ولا التباس فيه ، وكذلك المبايعات والديات على أهل الورق ، وكل ما يحتاج إلى ذكرها فيه ، هذا

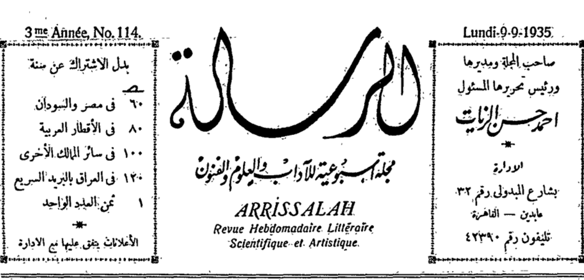
كما بلغنا ، أو كلام هذا معناه اهـ »

ومما روى فى صدقة الحلى من الذهب والفضة : « إن عبد الله ابن عمرو حلّى ثلاث بنات له بستة آلاف دينار ، فكان يبعث مولى له جليداً كل عام فيخرج زكاته منه » ، ومما قال : « وشرائع الاسلام أمهات لا يقاس بعضها ببعض ، لأن لكل واحدة حكماً غير حكم الأخرى » ، ونقل كثيراً من كتب عمر بن عبد العزيز تأييداً للأحكام التى وردت فى القرآن وفسرتها السنة ، وكان عمل الراشدين ومن بعدهم سنة متبعة فى الأموال ، ومنها كتب عمر بن عبد العزيز : أن اقضوا عن الغارمين ، فكتب إليه : إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث . فكتب عمر : لا بد للمرء المسلم من مسكن يسكنه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن أن يكون له الأثاث فى بيته ، نعم فاقضوا عنه فانه غارم » .

ويغتبط قارئ كتاب الأموال أن يرى نور المعقول يتخلل كلام أبي عبيد ، وأن يقرأ فيه صورة جميلة من تأليف القوم فى القرن الثانى وأوائل الثالث بهذه البلاغة الخالية من التكلف . ولو كتبت العلوم الإسلامية كلها على المثال الذى كتب به علماء القرون الأولى لاقتصرت على طالبها طرق التعلم . ولنجا الناس من استظهار تلك الدساتير التى جمد من اقتصر عليها ، وسار من تفلت من قيودها سيراً متساوقاً وصل به إلى الغاية ، ويشبه كتاب الأموال فى تأليفه تأليف يحيى بن آدم فى الخراج ، ولا يشبه كتاب الخراج لأبى يوسف بأسلوبه ، لأن هذا عبارة عن رسالة شرعية سياسية إدارية كتبها إمام عظيم لامام عظيم فى إصلاح مملكته ، وأورد له الأحكام للتدليل على ما يقول ، ولم يكتبها للتعليم والتفقيه ، وفى كتاب الأموال كثير من الفصيح والشوارد اللغوية وألفاظ يمكن إحياؤها وهى اليوم منسية أو فى حكم المنسى

ويسرنى أن ناشر كتاب الأموال الأستاذ محمد حامد الفقى هو من علماء الأزهر ، وقد جوّد فى التصحيح والتعليق عليه وإيراد الروايات المختلفة ، وطبعه على نسختين مصرية وشامية ، على ما كان وقف على طبع غيره مثل : « تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول » لابن الديبع الشيبانى (٩٤٤ هـ) ، ويلاحظ أنه كان من المفيد للكتاب لو أن ناشره الأستاذ الفقى وضع له فهارس على نحو ما فعل الأستاذ أحمد محمد شاكر لما أعاد نشر كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشى ، فانه حلاه بالفهارس على مثال علماء المشرقيات عندما يعانون نشر كتبنا ، فيقربون فوائدها بما يؤلفون لها من فهارس بأسماء الرجال والبلدان وغير ذلك ، وقد يضعون للكتاب الواحد خمساً أو سبعاً من الفهرستات المختلفة تيسيراً على القارئ ، وهذا ما بدأت به دار الكتب المصرية فى مطبوعاتها من الأمهات المعتبرة التى تتحف بها العالم العربى الحين بعد الآخر

محمد كرد على



العـــدد ١١٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ١١ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

مصر وعصبة جنيف

تحدث بعض الكتاب لمناسبة الموقف الدقيق الذى تقفه مصر من النزاع الايطالى الحبشى، عما كانت تجنيه مصر من المزايا لو أنها كانت عضواً فى عصبة الأمم، وعما كانت تستطيع أن تؤديه فى الظرف الحاضر لصون حقوقها لو أتيح لها أن تبسط وجهة نظرها أمام العصبة؛ وفى رأى هؤلاء أن مصر تخسر كثيراً إذ تحرم فى هذه الآونة من رفع صوتها بطريق العصبة، وأن السياسة الانكليزية هى التى عملت لاسكات صوتها وحالت بينها وبين جنيف

ولسنا من رأى هؤلاء، ولسنا ممن يحسن الظن بالعصبة ولا ممن يؤمنون بوسائلها ومبادئها وغاياتها؛ ومن رأينا أن مصر لم تخسر شيئاً بابتعادها عن العصبة مهما كانت أسباب هذا الابتعاد

ويكفى أن نتأمل هذا المنظر الذى تقدمه إلينا عصبة جنيف ونحن نكتب هذه السطور، لنقتنع بأن هذه الهيئة التى تزعم أنها رسول السلام والأخاء والحقوق الانسانية، إنما هى شبح وستار فقط، تعمل وراءه قوى الاستعمار، فتأتمر وتتجاذب وتمثل مختلف

الأدوار التي تمكنها من أعناق الفرائس ؛ والفرائس هي الأمم الشرقية التي سلبت أو يراد أن تسلب حرياتها باسم المدنية الأوربية والتهذيب الأوربي

* * *

فإيطاليا والحبشة كلتاها عضو في عصبة الأمم ، وبينهما نزاع أثارته السياسة الإيطالية عن عمد وإصرار سابق ، وقد طرح النزاع أمام عصبة جنيف منذ يناير الماضي ، فماذا فعلت العصبة لتطبق نصوص ميثاقها ؟ لقد أوصت بالعمل على حسم النزاع بطريق التحكيم ، ولكنها ما زالت تصغي إلى وعيد السياسة الايطالية ، وتشهد نياتها وتصريحاتها الواضحة لغزو الحبشة وافتراسها ؛ والحبشة تستغيث بالعصبة ، والعصبة تسوف وتمد إيطاليا بالوقت اللازم لاستكمال أهبتها ، وتفسح كل مجال لما تعرضه دول الاستعمار لاقتسام الحبشة أو فرض نوع من الحماية أو الانتداب عليها كوسيلة لارضاء إيطاليا وحسم النزاع وتأييد السلام ، وإيطاليا خلال ذلك تبرق وترعد وتصرح بأن العصبة إذا حاولت أن تنحرف ضد المطامع الايطالية أو تنتقص من شرعيتها ، فإنها تصفع العصبة وتجرى مشيئتها بالعنف والقوة القاهرة

والدول الاستعمارية تحرك اليوم عصبة الأمم ، وتوجهها علنا دون خفاء ؛ وقد ابتدعت العصبة أو حملت أن تبتدع يوم قيامها نظام الانتداب خدعة غادرة تضفد بها عدداً من الأمم والشعوب التي وقعت في يد الحلفاء غداة النصر ، والتي ما زالت ترزح تحت هذا الرياء الشفاف

ولم تشهد عصبة الأمم تنتصر مرة لدولة شرقية أو أمة مستضعفة مهما كان في جانبها الحق ، ولا سيا إذا كانت هنالك مصلحة أو غاية لدولة من دول الاستعمار ، سادة العصبة ؛ ولم يغب عن الذاكرة بعد موقفها من النزاع بين انكلترا وتركيا على مسألة كردستان ، وموقفها من النزاع بين انكلترا وإيران على مسألة جزائر البحرين ، ثم موقفها من مسألة منشوريا وعجزها المطبق عن أن تعمل شيئاً لرد الاعتداء الياباني على الصين ؛ بل لم يغب عن الذاكرة بعد موقفها من العراق يوم التحقت بها ويوم اشترطت عليها أفدح الشروط ثمناً لهذا الالتحاق

ولماذا نذهب بعيداً ونقلب صحف العصبة ونحن نشهد موقفها اليوم إزاء النزاع بين إيطاليا والحبشة ؟ إن صفة الاعتداء الصارخ هنا تلحق إيطاليا بلا ريب ، ومع ذلك فهل استطاعت العصبة أن ترفع صوتها ضد المعتدي ؟ وهل استطاعت حتى اليوم أن تفعل شيئاً ولو من الوجهة النظرية لغوث المجنى عليه ؟ وهي لن تفعل شيئاً بلا ريب حتى يقع المحتوم وتنقض إيطاليا على الفريسة تحاول التهامها ، ولن ينفع الفريسة يومئذ إلا ما يتاح لها من وسائلها الخاصة للدفاع عن نفسها

* * *

وبعد ، فمن هم السادة في العصبة ؟ ومن هم الذين يشرفون على مجلسها ويوجهونه ؟ هم أقطاب الاستعمار ومنظموه ، وهم المغيرون على حريات الأمم ، وهم المستمرئون لاستغلالها وإذلالها واستلاب حقوقها باسم المدنية الأوربية ؛ هذه المدنية التي أضحت تلتمس ذريعة للسفك وافتراس الشعوب الآمنة

لقد كان قيام عصبة جنيف مهزلة وخديعة شائنة ؛ مهزلة لأنها زعمت في ميثاقها أنها قامت لتحقق ما لم تستطع أن تحققه الأمم والانسانية جميعاً مدى الأحقاب ، أعني منع الحرب وتحقيق العدالة الدولية ، وحماية الضعيف من القوى بالوسائل السلمية ؛ وخديعة شائنة لأنها تبطن وراء هذه المظاهر الخلابة دستور الاستعمار المنظم والانتهاك المثير لحقوق الأمم باسم الانتداب والمدنية والتهذيب وما إليها

فما الذي يمكن أن تجنيه مصر من الانتظام في عصبة جنيف ؟ وأي ضير عليها إذ تبقى بعيدة عن هذه الهيئة المريبة العاجزة التي يفتضح أمرها اليوم ؟ فعلى أولئك الذين يزعمون الغيرة على حقوق مصر — ومصر تعرفهم حق المعرفة — أن يفروا على أنفسهم أمثال هذه الدعاية التي تنم دائماً عما وراءها .

(* * *)

عربة اللُّقطاء

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جلستُ على ساحل الشاطبي (فى اسكندرية) أتأملُ البحر ، وقد ارتفع الضُّحى ، ولكنَّ النهارَ لَدْنٌ ناعمٌ رطيبٌ كأن الفجرَ ممتدٌّ فيه إلى الظهر

وجاءت عربةُ اللُّقَطاء فأشرفتْ على الساحل ، وكأنها فى منظرها غمامةٌ تتحرك إذ تعلوها ظُلَّةٌ كبيرة فى لون الغَيم . وهي كعربات النقل غير أنها مُسوَّرة بألواحٍ من الخشب كجوانب النعش تُمسِكُ من فيها من الصِّغار أن يتدحرجوا منها إذ هي تَدرُجُ وتتقلقل

ووقفتْ فى الشارع لتُنزِلَ ركْبَها إلى شاطئ البحر ؛ أولئك ثلاثون صغيراً من كل بَسفيح ولَقيط ومنبوذ ، وقد انكمشوا وتضاغطوا إذ لا يُمكن أن تمطَّ العربةُ فتسعهم ، ولكن يمكن أن يكبسوا ويتداخلوا حتى يَشغلَ الثلاثةُ أو الأربعةُ منهم حيِّزَ اثنين . ومن منهم إذا تألم سيذهب فيشكو لأبيه . . . ؟

وترى هؤلاء المساكينَ خليطاً مُلتبِساً يُشعرك اجتماعهم أنهم صيدٌ فى شبكة لا أطفالٌ فى عربة ، ويدلك منظرهم البائسُ الذليلُ أنهم ليسوا أولادَ أمهاتٍ وآباء ، ولكنهم كانوا وساوس آباء وأمهات ....

* * *

هذه العربةُ يجرها جوادان : أحدها أدهمُ والآخر كُمَيْت . فلما وقفتْ لوى الأدهمُ عنقَه والتفت ينظر ؛ أيُفرِغون العربةَ أم يزيدون عليها ..؟ أما الكُمَيْتُ فحرك رأسه وعلك لجامَه كأنه يقول لصاحبه : إن الفكر فى تخفيف العبء الذى تحمله يجعله أثقلَ عليك مما هو إذ يضيف إليه الهمَّ والهمُّ أثقل ما حملت نفس ؛ فما دمتَ فى العمل فلا تتوهمن الراحةَ فان هذا يوهنُ القوة ، ويخذُلُ النشاط ، ويجلبُ السأم ، وإنما روحُ العمل الصبر ، وإنما روح الصبر العزم

ورآه الأدهمُ يُنزلون اللقطاء ، فاستخفَّه الطرب ، وحرك رأسه كأنما يسخر بالكميت وفلسفته ، وكأنما يقول له : إنما هو النُّزوعُ إلى الحرية ، فإن لم تكن لك فى ذاتها فلتكن لك فى ذاتك . وإذا تعذَّرت اللذة عليك فاحتفظ بخيالها فانه وُصلتكَ بها إلى أن تمكن وتتسهَّل ؛ ولا تجمعَانِّ كلَّ طباعك طباعاً عاملة كادحةً وإلا فأنت أداة ليس فيها إلا الحياةُ كما تريدك ؛ وليكن لك طبعٌ شاعر مع هذه الطباع العاملة فتكون لك الحياة كما تريدك وكما تريدها

إن الدنيا شيء واحد فى الواقع ، ولكن هذا الشيء الواحدَ هو فى كل خيال دنيا وحدها

* * *

وفى العربة امرأتان تقومان على اللقطاء ؛ وكلتاهما تزوير للأم على هؤلاء الأطفال المساكين ؛ فلما سكنت العربة انحدرت منهما واحدة وقامت الأخرى تُناوِلها الصغار قائلة : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة . . . إلى أن تم العدد وخلا قفص الدَّجاج من الدجاج ..!

ومشى الأطفالُ بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستبيلةٌ ، مستكينة ، معترفة أن لا حق لها فى شيء من هذا العالم إلا هذا الاحسان البخس القليل

جاءوا بهم لينظروا الطبيعة والبحر والشمس ، فغفل الصغار عن كل ذلك وصرفوا أعينَهم إلى الأطفال الذين لهم آباء وأمهات ....

* * *

واكَبِدي أضنَى الأسى كبِدي ؛ فقد ضاق صدري بعد انفساحه ، ونالني وَجعُ الفكر فى هؤلاء التعساء ، وعرتني منهم علّة كدسٍّ الحمى فى الدم . وانقلبتُ إلى مثواي ، والعربة وأهلُها ومكانُها وزمانها فى رأسي

فلما طاف بي النوم طاف كل ذلك بي ، فرأيتني فى موضعي ذاك وأبصرتُ العربة قد وقفت ، وتحاور الأدهمُ والكميت . فلما أفرغوها وشعر الجوادان بخفتها التفتا معاً ثم جمعا رأسيهما يتحدثان !

قال الكُميت : كنتُ قبل هذا أجرُّ عربة الكلاب التى

يقتلها الشرطة بالسم ، فآخذ الموتَ لهذه الكلاب المسكينة ، ثم أرجع بها موتى ؛ وكنتُ أذهبُ وأجيء في كل مرادٍ ومضطرب من شوارع المدينة وأزقتها وسككها ولا أشعر بغير الثقل الذي أجره ؛ فلما ابتليت بعربة هؤلاء الصغار الذين يسمونهم اللقطاء ، أحسست ثقلاً آخر وقع نفسي وما أدري ما هو ، ولكن يخيل إليَّ أن ظل كل طفل منهم يُثقل وحده عربة

قال الأدهم : وأنا فقد كنت أجر عربةَ القُمامة والأقذار ، وما كان أقذرَها وأنتنها ، ولكنها على نفسي كانت أطهرَ من هؤلاء وأنظف ، كنتُ أجدُ ريحَها الخبيثة ما دمتُ أجرها ؛ فإذا أنا تركتُ العربة استروَحتُ النسيمَ واستطعمت الجو ، أما الآن فالريحُ الخبيثةُ في الزمن نفسه كأن هذا الزمن قد أروح وأنتن منذ قُرِنتُ بهؤلاء وعربتهم

قال الكميت : إن ابنَ الحيوان يستقبلُ الوجودَ بأمه إذ يكون وراءها كالقطعة المتممة لها ، ولا تقبل أمُّه إلا هذا ولا يصرفها عنه صارف ، فترغمُ الوجود على أن يتقبل ابنها وعلى أن يعطيَه قوانينَه . أما هؤلاء الأطفالُ فقد طردهم الوجودُ منه كما طرد الله آباءَهم وأمهاتِهم من رحمته . وقد هُدِيتُ الآن إلى أن هذا هو سرٌّ ما نشعر به ؛ فلسنا نجر للناس ولكن للشياطين . .

* * *

وهنا وقف على خوذيّ العربة صديقٌ من أصدقائه فقال : من هؤلاء يا أبا علي ؟

قال الحوذي : هؤلاء هؤلاء يا أبا هاشم

قال أبو هاشم : سبحان الله ، أما تترك طبعك في النكتة يا شيخ ؟

قال الحوذي : وهل أعرفهم أنا ؟ هم بضاعةُ العربة والسلام . اركبوا يا أولاد ، انزلوا يا أولاد . هذا كل ما أسمع

قال أبو هاشم : ولكن ما بالك ساخطاً عليهم ، كأنهم أولاد أعدائك ؟

قال الحوذي : ليت شعري من يدري أي رجل سيخرج من هذا الطفل ، وأية امرأة ستكون من هذه الطفلة ؟ انظر كيف تعلقت هذه البنتُ وعمرها سنتان ، في عُنق هذا الولد الذي كان من سنتين ابن سنتين [1] . . . . لا أراني أحمل في عربتي أطفالاً كالأطفال الذين تحملهم العربات إلى أبواب دُورهم فإن هؤلاء اللقطاء يُحملون إلى باب الملجأ ، وهو بابٌ للحارات والسكك لا يأخذُ إلا منها ، فلا يرسل إلا إليها

أما والله يا أبا هاشم ضيّقُ الصدر ، كاسفُ البال من هذه المهنة ، ويخيَّل إليَّ أني لا أحمل في عربتي إلا الجنون والفجور والسرقة والقتل والدعارة والسكْر وعواصف وزوابع . . . .

قال أبو هاشم : ولكن هؤلاء الأطفال مساكين ، ولا ذنب لهم

قال الحوذي : نعم لا ذنب لهم ، غير أنهم هم في أنفسهم ذنوبٌ . إن كل واحد من هؤلاء إن هو إلا جريمة تُثبت امتدادَ الإثم والشر في الدنيا . ولدتهم أمهاتهم لِغَيَّة [2]

فقطع صاحبُه عليه وقال : وهل ولَدَتْهُم إلا كما تلد سائر الأمهات أولادهن ؟

قال : نعم إنه عمل واحد ، غير أن أحواله في الجهتين مختلفة لا تتكافأ ؛ وهل تستوي حالُ من يشتري المتاع ، ومن يسرق المتاع ؟

ههنا باعثٌ من الشهوة قد عجز أن يسموَ سموَّه – وما سموُّه إلا الزواج – فتسفَّل وانحط ، ورجع فسقاً ، وعاد أوله على آخره . كان أوله جزماً فلا زال إلى آخره جزماً ، ولا يزال أبداً يعود أوله على آخره . فلما حملت المرأة وفاءتْ إلى أمرها ، وذهب عنها جنونُ الرجلِ والرجلُ معاً ؛ انطوت للرجال على الثأر والحِقد والضغينة ؛ فلا يكون ابنُ العار إلا ابن هذه الشرور أيضاً

والأمهاتُ يُعْدِدْن لأجنّتهن الثيابَ والأكسيةَ قبل أن يولدوا ، ويهيّئن لهم بالفكر آمالاً وأحلاماً في الحياة ، فيَكْسِبْنَهم في بطونهن شعورَ الفرح والابتهاج وارتقابَ الحياة الهنيئة والرغبةَ في السموّ بها ؛ ولكن أمهات هؤلاء يعددن لهم الشوارعَ والأزقة منذ البدء ، ولا تترقب إحداهن

(١) تعبير بالنكتة على طريقة ظرفاء البلديين من أمثال (أبي علي) ، والمراد أنه ابن أربع سنوات

(٢) ولدته لغية أي من سفاح وضده لرشدة بفتح الراء

طولَ أشهر حملها أن يجيئها الوليد بل أن يتركها حياً أو مقتولاً ؛ فيُورثهم بذلك وهم أجنّة شعورَ الخفة والحسرة والبغض والمقت ، ويطبعهم على فكرة الخطيئة والرغبة في القتل ، فلا يكون ابن العار إلا ابنَ هذه الرذائل أيضاً

وتظلّ الفاسقةُ مدة حملها تسعة أشهر في إحساس خائف ، مترقب ، منفرد بنفسه ، منعزل عن الانسانية ، ناقم ، متبرم ، متستر ، منافق . فلو كان السَّفيحُ من أبوين كريمين لجاء ثعباناً آدمياً فيه سُمُّه من هذا الاحساس العنيف . ومتى ألقتْ الفاسقةُ ذا بطنها [1] قطعتْه لِتَوِّه من روابط أهله وزمنه وتاريخه ورمت به لموت ؛ فان هلك فقد هلك ، وإن عاش لمثل هذه الحياة فهوموت آخر شرٌّ من ذاك ؛ ومهما يَتَوَلَّهُ الناسُ والمحسنون ، فلا يزال أوله يعود على آخره مما في دمه وطباعه الموروثة ، ولا يبرح جريمةً ممتدةً متطاولة ، ولا ينفكُّ قصةً فيها زانٍ وزانيةٌ ، وفيها خطيئة ولعنة

فهؤلاء كما رأيتَ أولادُ الجرأة على الله ، والتعدّي على الناس والاستخفاف بالشرائع ، والاستهزاء بالفضائل ؛ وهم البغضُ الخارج من الحب ، والوقاحةُ الآتيةُ من الخجل ، والاستهتارُ النبيث من الندامة ؛ وكلٌ منهم مسئلة شر تطلب حلها أو تعقيدَها من الدنيا ، وفيهم دماءٌ فوّارة تجمع سمومها شيئاً فشيئاً كلما كبروا سنة فسنة

قال أبو هاشم : ألا لعنــة الله على ذلك الرجل الفاسق الذي اغترّ تلك المرأة فاستزلها وهوّرها في هذه المَهواة . أكان حقُّ الشهوة عليه أعظمَ من حق هذا الآدمي . أما كان ينبغي أن يكون هذا الآخِرُ هو الأولَ في الاعتبار ، فيعلمَ أن هذا اللقيط المسكين هو سبيله إلى صاحبته ، وهو البلاغُ إلى مايحاوله منها ، فيكون كأنما دخل بين الاثنين ثالث يراهما . . . فلعلهما يستحيان

قال الجوذيّ الفيلسوف : لعنة الله على ذلك الرجل ، ولعناتُ الله كلُّها ، ولعناتُ الملائكة والناس أجمعين على تلك المرأة التي انقادت له واغترت به . إن الرجل ليس شيئاً في هــذه الجريمة فقد كانت بصفةٌ واحدة تُغرقُه ، وكانت صفعةٌ واحدة تهزمه ، وكان مع المرأة الحكومةُ والشرائعُ والفضائلُ ومعها جهنم أيضاً

ألم تعلم الحمقاء أن الرجــل الذى ليس زوجاً لها ليس رجلاً معها ، وأن الشريعــة لو أيقنت أنه رجل لما حرمت عليها أن تخالطه ؟ إنه ليس الرجل هو الذى ساوَرَ هــذه المرأة ، بل هي مادة الحياة التي رأت في المرأة مُستودعها فتريد أن تقتحم إلى مقرها عَنوة أو خداعاً أو رضى أو كما يتفق ؛ إذ كان قانون هذه المادة أن توجد ، ولا شيء إلا أن توجد ؛ فلا تعرف خيراً ولا شراً ولا فضيلة ولا رذيلة

لأنهما يجب التحصين ، أللصاعقــة المنقضَّة ، أم للمكان الذي يُخشى أن تنقضَّ عليه ؟ لقد أجابت الشريعة الاسلامية : حصِّنوا المكان ؛ ولكن المدنية أجابت : حصِّنوا الصاعقة . . . !

* * *

وكانت المرأتان الصاحبتان لجماعة اللقطاء تتناجيان ، فقالت الكبرى منهما :

يا حسرتا على هؤلاء الصغار المساكين . إن حياة الأطفال فيها فوق مادة الحياة ، أي في سرورهم وأفراحهم ، وحياة هؤلاء البائسين فيما هو دون مادة الحياة ، أي في وجودهم فقط

وكِبَرُ الأطفال يكون منه إدخالهم في نظام الدنيا ، وكِبَرُ هؤلاء إخراجهم من « الملجأ » وهو كل النظام في دنياهم ، ليس بعده إلا التشريدُ والفقر وابتداء القصة المحزنة

فقالت الصغرى : ولمَ لا يفرحون كأولاد الناس . أليست الطبيعةُ لهم جميعاً ، وهل تجمعُ الشمسُ أشعتها عن هؤلاء لتضاعفها لأولئك ؟

قالت الأخرى : الطبيعة ؟ تقولين الطبيعة ؟ إنك يا ابنتي عذراء لم تبدأ في حياتك حياةٌ بعد ، ولم تجاوبي بقلبك القلبَ الصغير الذى كان تحت قلبك تسعة أشهر . وإنما أنت مع هؤلاء (موظفة) لا تعرفين منهم إلا جانب النظام وقانون الملجأ

لقد ولدت يا ابنتي خمسة أطفال ، وبالعين البليغة التي أنظر بها إليهم ، أنظر إلى هؤلاء فما أراهم إلا منقطعين من صلة القلب الانساني ؛ يعبسُ لهم حتى الجو ، ويُظلم عليهم حتى النور ؛ ويبدو الطفل منهم على صغره كأنه يحملُ الهمَّ المقبلَ عليه طولَ عمره

(١) أي وضعت وولدت ، وهو تعبير عربي بليغ

يا لهفى على عودٍ أخضرَ ناعمٍ ريانَ كان للثمر فقيـل له : كُن للحطب .

الفرحُ يا ابنتى هو شعورُ الحىّ بأنه حىٌّ كما يهوى ، ورؤيته نفسه على ما يشاء فى الحياة الخاصة به . وهؤلاء اللقطاءُ فى حياةٍ عابسة قد نُزعت منها الأمُّ والأبُ والدار فليس لهم ماضٍ كالأطفال وكأنهم يبدأون من أنفسهم لا من الآباء والأمهات

قالت الصغيرة : ولكنهم أطفال

قالت تلك : نعم يا ابنتى هم أطفال ، غير أنهم طُردوا من حقوق الطفولة كما طُردوا من حقوق الأهل . وحسبك بشقاء الطفل الذى لم يعرف من حنان أمه إلا أنها لم تقتله ، ولا من شفقتها إلا أنها طرحته فى الطريق

إن الطبيعة كلها عاجزة أن تعطيَ أحدهم مكاناً كالموضع الذى كان يتبوأه بين أمه وأبيه

ليس الأطفالُ يا ابنتى إلا صوراً مبهمة صغيرة من كل جمال العالم ، تفسرها أعينُ ذويهم بكل التفاسير القلبية الجميلة ؛ فأين أين العيون التى فيها تفسير هذه الصور اللقيطة ؟

ألا لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين على أولئك الرجال الأنذال الطغام الذين أولدوا النساء هؤلاء المنبوذين . يزعمون لأنفسهم الرجولة فهذه هى رجولتهم بين أيدينا ، هذه هى شهامتهم ، هذه هى عقولهم ، هذه هى آدابهم . عجباً إن سيئاتِ اللصوص والقتلة كلها تُنسى وتتلاشى ، ولكن سيئات العشاق والمحبين تعيش وتكبر . . .

أ كان ذنبُ المرأة أنها صادقة فصدّقت ، وأنها مخلصة فأخلصت ، وأنها رقيقة فلانت ، وأنها محسنة فرحمت ، وأنها سليمة القلب فانخدعت ؟

واكبدى للمسكينة هل انخدعت إلا من ناحية الأمومة التى خلقت لها . هل انخدعت إلا الأمّ التى فيها ، وهل خدعها من ذلك اللئيم إلا الأبُ الذى فيه ؟

وا كبدى لمن تُفجع بالنكبة الواحدة ثلاثَ فجائع : فى كرامتها التى ابتُذلت ، وفى الحبيب الذى تبرأ منها ، وفى طفلها الذى قطعته بيدها من قلبها وتركته لما كُتب عليه

إن هذا لا يعوّضه فى الطبيعة — إلا أن يكون لكل رجل من أولئك الأنذال ثلاثُ أرواح ، فيُقتلَ ثلاثَ مرات ، واحدة بالشنق ، والثانية بالحرق ، والثالثة بالرجم بالحجارة

* * *

وكان اللقطاءُ قد تبعثروا على الساحل جماعاتٍ وشتى ، فوقف أحدهم على طفل صغير يلعب بما بين يديه ، وأمه على كثب منه ، وهى تتلهى بالجرم تتلوّى فيه أصابعها

فنظر الطفل إلى اللقيط وأومأ إلى جماعته ثم قال : أأنتم جميعاً أولاد هاتين المرأتين أم إحداهما ؟

قال اللقيط : هما المراقبتان ؛ وأنت أفليست هذه التى معك مراقبة ؟

قال الطفل : ما معنى مراقبة ؟ هذه ماما ؟

قال الآخر : فما معنى ماما ؟ هذه مراقبة

قال الطفل : وكلكم أهل دار واحدة ؟

قال : نحن فى الملجأ ، ومتى كبرنا أخذونا إلى دورنا

فقال الطفل : وهل تبكى فى الملجأ إذا أردت شيئاً ليعطوك ؟ ثم تغضب إذا أعطوك ليزيدوك ، وهل يُسكتونك بالقرش والحلوى والقُبلة على هذا الخد وعلى هذا الخد ؟ إن كان هذا فأنا أذهب معكم إلى الملجأ ، فإن أبى قد ضربنى اليوم ، وقد أمر (ماما) أن لا تعطينى شيئاً إذا بكيت ، ولا تزيدنى إذا غضبت ، ولا . . . .

وهنا صاحت المراقبة الصغيرة : تعال يا رقم عشرة . . . .

فلوى اللقيط المسكين وجهه ، وانصاع وأدبر

« ومشى الأطفال بوجوه يتيمة ، يقرأ من يقرأ فيها أنها مستسلمة ، مستكينة ، معترفة أن لا حق لها فى شىء من هذا العالم إلا هذا الإحسان البخس القليل » . . . . ؟

(اسكندرية) مصطفى صادق الرافعى

إلى (فلان) بنابل — تونس — إن كانت مقالات الانتحار قد صدتك عن الانتحار إلى حين فهل تريد جنوناً بعد عقل وكفراً بعد إيمان ؟ وكيف تريد الانتحار فى ليلة زفاف صاحبتك ، فتلق عليها الريبة وهى طاهرة ، وترميها فى الأفواه تمضغها مضغ المر ، وتنشىء لها بجنونك قصة فى الاثم والعار ليس منها حرف صحيح !!

إن لم تتق الله فى نفسك فاتق الناس فى نفسك الأخرى ، وان لم تكن كريماً فلا تكن بهذا اللؤم مع التى أحببتها وأحبتك (الرافعى)

أقطاب الرواية المصرية

أبو عبد الله القضاعي

فقيه ومؤرخ وسياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

عنيت منذ أعوام بدراسة طائفة من أقطاب الرواية التاريخية عن مصر الاسلامية ودرس آثارهم، ماذثر منها وما بقى؛ وكتبت بالفعل عدة فصول عن ابن عبد الحكم والكندى وابن زولاق استقصيت فيها حياتهم وآثارهم؛ ثم تناولت بعد ذلك عدة أخرى من مؤرخى مصر الاسلامية فى عصور متأخرة، مثل النويرى والمقريزى وابن تغرى بردى والسخاوى وابن إياس؛ وقصدى بذلك أن أترجم لمؤرخى مصر الاسلامية كلما سنحت الفرص، وأن أستوعب مصادر التاريخ المصرى

والآن نستأنف هذا الدرس، ونخصص هذا الفصل لأستاذ من أساتذة الرواية المصرية، هو أبو عبد الله القضاعى، وهو مؤرخ وفقيه وسياسى معاً، عاش فى فترة من أدق الفترات التى جازتها مصر الاسلامية، وشهد الدولة الفاطمية فى ذروة القوة والعظمة، ثم شهدها تنحدر سراعاً إلى دور من الانحلال والتفكك يكاد يؤذن بذهابها، وشهد محنة من أشنع المحن التى عانتها مصر الاسلامية، وانتدب أيام المحنة ليكون سفيراً لأمته فى طلب العون والغوث؛ وكتب عن مصر الاسلامية وعن حوادث عصره آثاراً هامة، لم تصل للأسف كلها الينا، ولكن ما انتهى الينا منها عن يد المؤرخين المتأخرين يدل على أهميتها وقيمتها

وهو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الشافعى المصرى؛ ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى، فى عصر الحاكم بأمر الله، ودرس الحديث، والفقه على مذهب الشافعى وبرع فيه، وبرز فى التاريخ والأدب؛ وبدأ حياته العامة بتولى القضاء، ولبث يليه حيناً بالنيابة كلما خلا منصب قاضى القضاة بالوفاة أوالعزل، ثم تولى التوقيع (أو العلامة) لأبى القاسم الجرجرائى المعروف بالأقطع[1] وزير الخليفة الظاهر لاعزاز الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده. ولما توفى الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦ هـ) تقلب القضاعى فى عدة وظائف ومهام رسمية؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصريفه للامور؛ وتجول القضاعى ودرس فى بغداد ومكة والشام، ووقف على أحوال الدول الاسلامية يومئذ، ومجرى السياسة فى القصور المختلفة، وتبوأ فى البلاط المصرى ذروة الثقة والنفوذ. ثم جاء ظرف عهد فيه إلى القضاعى بمهمة سياسية دقيقة. ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التى توالت على مصر فى عهد المستنصر بالله لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء فى سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٣ م)؛ وعانت مصر يومئذ آلاماً ومحناً مروعة. وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر الاسلامية «بالشدة العظمى». وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة، فأرسل المستنصر بالله فى سنة ٤٤٦ هـ إلى امبراطور قسطنطينية، وهو يومئذ قسطنطين السابع، أن يمده بالغلال والمؤن؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا فى آسيا الصغرى؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر التى كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر، وتم الاتفاق على أن ترسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال تقدرها الرواية الاسلامية بأربعمائة ألف أردب[2] ولكن قسطنطين السابع توفى قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفته على عرش قسطنطينية الامبراطورة تيودورا، واشترطت لارسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها المستنصر، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذى بدء. ولكن الأسطول البيزنطى غزا مياه الشام، وهزم المصريين فى عدة مواقع؛ فكف

(١) سمى كذلك لأنه كان أقطع اليدين، قطعا بأمر الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٤ هـ

(٢) خطط المقريزى. بولاق. ج ١ ص ٣٣٥

المستنصر عن متابعة الحرب ، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة ، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيراً مختاراً يسعى إلى عقد الصلح وتنظيم العلائق بين الفريقين

وكان ذلك السفير المصري إلى بلاط القياصرة ، هو أبو عبد الله القضاعي الذي يحبوه المستنصر بثقته وتقديره . فقصد القضاعي إلى بيزنطية عن طريق الشام ؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة في سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) ويقع هذا التاريخ في عصر الامبراطورة تيودورا التي جلست على العرش سنة ١٠٥٤ م وتوفيت في أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الامبراطورة تيودورا . وهذا ما يذكره ابن ميسر مؤرخ مصر بوضوح في حوادث سنة ٤٤٧ هـ إذ يقول : « وفيها سير المستنصر ، فقبض على جميع ما في كنيسة القمامة[(١)] ؛ وسبب ذلك أن أبا عبدالله القضاعي كان قد توجه من مصر برسالة إلى القسطنطينية ، فقدم إليها رسول طغرلبك يلتمس من ملكتها أن يصلي رسوله في جامع قسطنطينية ، فأذنت له في ذلك ؛ فدخل وصلى بجامعها ، وخطب للخليفة القائم ؛ فبعث القضاعي بذلك إلى المستنصر فأخذ ما كان بقمامة ؛ وكان هذا من الأسباب الموجبة للفساد بين المصريين والروم »[(٢)] بيد أن هنالك من جهة أخرى ما يدل على أن الجالس على عرش قسطنطينية وقت مقدم القضاعي إليها لم يكن الامبراطورة تيودورا ، وأن الذي استقبل السفير المصري هو خلف تيودورا الامبراطور ميخائيل السادس (ستراتيو تيكوس) الذي تولى عرش قسطنطينية في أغسطس سنة ١٠٥٧ م ؛ فقد نقل المقريزي في كتابه « المقفى » في ترجمة القضاعي ما يأتي : « وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبري ، سمعت القاضي أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي يقول : لما دخلت على ملك الروم اليون ، رسولاً من قبل المستنصر بالله ، وأحضرت المائدة ، فلما رفعت جملت ألتقط الفتات ؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى ، ففعل ؛ فقال لي الملك أصبت منه وإنك لم تشبع ؛ فقلت أنا والله مستكف ؛ فقال لي لم أكلت الفتات ؟ فقلت : بلغني مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من التقط ماسقط من المائدة برىء من الحمق والفقر ؛ فأمر الخازن في الحال باحضار ألف دينار وإعطائها ؛ فقلت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستغنيت وبريت من الحمق »[(١)] ؛ وذكر المقريزي في الخطط أيضاً مايؤيد هذه الرواية[(٢)] . على أننا نستطيع أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعي وصل إلى قسطنطينية في أواخر عهد الامبراطورة تيودورا ؛ واستمر في أداء مهمته بمدوفاتها لدى الامبراطور ميخائيل السادس ؛ ومكث حيناً بقسطنطينية ؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعي بعاصمة القياصرة أنه عنى هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها[(٣)] . أما مهمة السفير المصري لدى البلاط البيزنطي فلم تحددها الرواية الاسلامية تحديداً واضحاً ، ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث أنها كانت تقوم على السعي في إقناع البلاط البيزنطي بالتحالف مع مصر ضد السلاجقة ، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن ، تنفيذاً للعهود التي قطعها قسطنطين السابع للمستنصر وتوفي قبل الوفاء بها

ولكن القضاعي أخفق في مهمته . ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة ، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر ، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرلبك ؛ وبعث القضاعي بذلك إلى المستنصر ، فرد المستنصر بالقبض على أحبار قمامة ومصادرة نفائسها ، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية كرة أخرى ؛ وعاد القضاعي إلى مصر على أثر هذا الفشل ، ونستطيع أن نضع تاريخ عودته في سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) أعني بعد أن أنفق أكثر من عامين في رحلته . ثم توفي القضاعي بعد ذلك ببضعة أعوام ، في ١٦ ذي القعدة سنة ٤٥٤

— ٢ —

كتب القضاعي عدة مصنفات في الفقه والتاريخ منها كتاب

(١) هي كنيسة بيت المقدس التي تعرف عند النصارى « بالقبر المقدس » أو قبر المسيح

(٢) ابن ميسر في « أخبار مصر » في حوادث سنة ٤٤٧ هـ — وخطط المقريزي ج ١ ص ٣٣٥

(١) نقل ترجمة القضاعي هذه من القطعة المحفوظة بمكتبة ليدن من كتاب « المقفى » المستشرق كينج في مقدمته للجزء الذي نشره من كتاب « تسمية أمراء مصر » للكندي (ص ٢٢ و ٢٣)

(٢) راجع الخطط ج ١ ص ٣٣٥

(٣) راجع طبقات الشافعية للسبكي في ترجمة القضاعي — ج ٣ ص ٦٣

« الشهاب » وكتاب « مناقب الامام الشافعي وأخباره » وكتاب « الانباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » وكتاب « المختار في ذكر الخطط والآثار » وكتاب « عيون المعارف » ، وقد دثر معظم هذه الآثار ، ولم يصلنا منها سوى كتاب « الشهاب » و « مسند الشهاب » أو (مسند الصحاب) وهما في الحديث ، وكلاهما بمكتبة الأسكوريال بمدريد [١] ، وانتهى الينا أيضاً ، كتاب « عيون المعارف » وهو على ما يصفه مؤلفه في مقدمته « موجز في ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء وولايات الملوك والخلفاء إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة » ، وتوجد من عيون المعارف نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية [٢] ، ولكنا نرتاب في أنها مختصر لكتاب أكبر ربما كان هو المعروف « بتاريخ القضاعي » وهو الذي يقتبس منه كثير من المؤرخين المتأخرين ، والظاهر أيضاً أن « عيون المعارف » و « الأنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء » هما اسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة « عيون المعارف » المشار اليها

بيد أن أهم آثار القضاعي هو بلا ريب كتابه الشهير في الخطط وهو المسمى : « المختار في ذكر الخطط والآثار » ؛ ولم يصلنا هذا الأثر ، ولكن انتهت الينا منه على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين ، ولا سيما القلقشندي والمقريزي وابن تغري بردي والسيوطي شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته ؛ وقد كان لمؤلف القضاعي في الخطط أهمية خاصة لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والخراب التي نزلت بمصر أيام المستنصر بالله ، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقاً جديداً في معظم معالمها وصروحها ، وهي حقيقة ينوه بها المقريزي في مقدمة « الخطط » إذ يذكر كتاب القضاعي « المختار » ضمن مصادره ثم يقول : « ومات (أي القضاعي) في سنة سبع وخمسين واربعمائة [٣] قبل سني الشدة فدثر أكثر ما ذكر ولم يبق إلا يلمع وموضع بلقع » [٤] والظاهر مما نقل الينا من كتاب القضاعي أنه أثر ضخم تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الاسلامي بافاضة ، وأضاف اليه ما انتهت اليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس والظاهر أيضاً أن كتاب « المختار » إنما هو المنعوت « بتاريخ القضاعي » لأن ما نقل الينا منه من الشذور يمتاز بإفاضة واضحة ، ولا وجود له في الموجز المسمى « عيون المعارف »

وقد كان القضاعي ، كما يبدو من آثاره ، مؤرخاً دقيقاً ثقة ، يزن روايته ويمحصها ، وكانت روايته عن مصر الاسلامية ، ولا سيما عن حوادث عصره ، مستقى خصيباً لكثير من المؤرخين المتأخرين ؛ وما زالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصري حتى أواخر القرن التاسع حيث نرى السيوطي ينقل في حوادث فتح مصر عن كتاب « الخطط » للقضاعي مكتوباً بخطه [١] ، وفي ذلك ما يؤيد أيضاً أن الكتاب المنعوت « بتاريخ القضاعي » إنما هو كتاب المختار في الخطط والآثار ؛ ومن بواعث الأسف أن يحتجب عنا هذا الأثر الهام بين مصادر التاريخ المصري ، ولا سيما بين مصادر العصر الفاطمي الأول ، الذي احتجبت عنا معظم الآثار الخاصة به ، والتي غدت كالحلقة المفقودة في مصادر تاريخ مصر الاسلامية [٢]

(النقل ممنوع) محمد عبد الله عنان

(١) راجع فهرس مخطوطات الأسكوريال للأستاذ ليفي بروفنال (ج ٢) رقم ٧٣٦و٧٦٧ (كتاب الشهاب) ورقم ٧٠٢ (مسند الشهاب)

(٢) تحفظ هذه النسخة ضمن مجموعة مخطوطة رقم (١٧٧٩ تاريخ)

(٣) وهي رواية خاطئة ، لأن القضاعي توفى سنة ٤٥٤ هـ كما قدمنا

(٤) الخطط — ج ١ ص ٥

(١) حسن المحاضرة — ج ١ ص ٧٠

(٢) راجع في ترجمة القضاعي : ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٠ — السبكي (طبقات الشافعية) ج ٣ ص ٦٣ — والمقريزي في المقفى (مقدمة كتاب الولاة طبعة كينج ص ٢٢ و ٢٣) وفي الخطط ج ١ ص ٥ و ٣٥٥ — والسيوطي في حسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ — وأخبار مصر لابن ميسر في حوادث سنتي ٤٤٧ و ٤٥٤

اللغـــة والألفاظ

الدعوة إلى اختصارها لتسهيلها

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

اللغة تتبع الدولة ، وتسير في ظلها ، ولا سبيل إلى انتشار لغة يغلب أهلها على أمرهم ، ويبعد أن تصد عن الذيوع لغة يتسع سلطان أبنائها وتنبسط رقعة ملكهم أو نفوذهم ، ولا عبرة في هذا الأمر بما في اللغة نفسها من سهولة أو عسر في التحصيل ، والمعول على القوة والسلطان ، لا على أن اللغة قريبة المنال أو بعيدته ، ويسيرة المطلب أو عميقة الغاص ، وقد استطاعت اللغة الانجليزية أن تنتشر في الأرض وأن تنفذ إلى مجاهلها ، وأن تزحزح الفرنسية وتحطها عن عرشها ، لأن سلطان هذه الدولة امتد شرقاً وغرباً ، وليست الانجليزية أسهل من الفرنسية أو العربية ، ولكن قوة أهلها أكبر ، ونشاطهم أعظم ؛ وهذه « الاسبرانتو » التي اخترعوها لتكون اللغة المشتركة بين الأمم ماذا كان مآلها؟ يعرفها آحاد رائهم الفكرة ، ولا يعبأ بها أحد فيما عدا هؤلاء النفر القليلين ، لأنه ليس وراءها ولا قدامها دولة لها سطوة ؛ وفي الهند لغات عدة لا رجاء لإحداها حتى في أن تصبح لغة الهند كلها مادامت انجلترا تحكمها ، وفي مصر جالية أجنبية ليس أنشط منها ولا أكثر عدداً ، هي الجالية اليونانية ، ولكنه يندر أن يعني مصري بتعلم لغتها ، على حين نتعلم الانجليزية في مدارسنا ونعدها لغتنا الثانية

ولا آخر لما يمكن أن نضربه من الأمثال ونسوقه من الشواهد ، فحسبنا هذا القدر ، فالذين يقولون إن المستر اوجدن قد تخير من اللغة الانجليزية خمسين وثمانمائة لفظ رآها كافية وافية بحاجات التعبير كلها ، وأن مثل هذا الاختصار أو الاختزال ميسور في اللغة العربية ، وإنه يعين على نشر اللغة ويفضي إلى ذيوعها ، ويتيح لها أن تصبح « عالمية » — أقول إن الذين يذهبون هذا المذهب ، ويفكرون على هذا النحو ، يغلطون ويقلبون المسألة ، ذلك أن هذه الألفاظ الثمانمائة ليست اللغة الانجليزية ، ولا فيها لأبنائها وعلمائها وكتابها وساستها أي كفاية ، وإنما هي حسب الأجنبي الذي يريد أن يتصل بأهلها اتصال تجارة أو ما هو من هذا بسبيل ، وقد ابتكر المستر اوجدن هذه الوسيلة ليمكن للغته ويزيدها ذيوعاً ، لا لينشرها ، فقد تكفلت بنشرها الامبراطورية الطويلة العريضة من قبل أن يخلق المستر اوجدن ؛ ولو أنك عمدت إلى مثل ذلك في لغة الفرس أو إحدى لغات البلقان الكثيرة ، لما أجدى ذلك شيئاً ، ولما جاوز بها هذا التسهيل صبغتها المحلية

وشيء آخر يغلط فيه أصحابنا الذين افتتنوا بالتسهيل ، ذلك أن السهولة مرجعها إلى العقل ، لا إلى الألفاظ ، فلو أنك قصرت اللغة على ثمانين لفظاً ، لا ثمانمائة ، لما اختلف الحال ، ولبقيت المسألة حيث كانت ، لأن المعول في التعبير على الكاتب ؛ وليس على عدد الألفاظ ، وما من كاتب أو شاعر في الدنيا يستعمل كل ما في لغته من كلمات ، والسهولة مردها إلى أمور لا علاقة لها باللفظ في ذاته ومن حيث هو ، منها أن يكون المعنى الذي يلتمس المرء العبارة عنه ، واضحاً في الذهن ، ومنها أن يحسن الكاتب بعد ذلك انتقاء الألفاظ التي يؤدي بها المعاني ، وكثيراً ما يحدث أن يكون المعنى غائماً ، أو غامضاً ، أو غير واضح على العموم ، في ذهن المرء ، فيحاول العبارة عنه قبل أن يدركه هو نفسه أو يحيط به ، فيجيء الكلام مضطرباً غير مفهوم ، لأنه لا سبيل إلى البيان إلا بعد أن يعرف المرء ماذا يريد أن يقول ، وقد يكون المرء عارفاً بما في نفسه ؛ مدركاً للمعاني الدائرة فيها ، ولكنه لا يعرف كيف يعبر عنها ويبرزها في صورة واضحة ، فيسيء الأداء ؛ وإن كان قد أحسن التفكير ، ويقصر في العبارة ؛ وإن لم يقصر في فهم ما يرد على خاطره ويتمثل له من الخوالج . وفي وسعي أن أكتب لك سطوراً ليس فيها كلمة واحدة غير مألوفة ، أو لا يعرفها العامة والأميون ومع ذلك لا يستطيع أن يفهمها أحد ، وفي مقدوري كذلك أن أعبر عن أدق الاحساسات وأعمق المعاني وأعوصها تعبيراً يحمل القارئ على الظن بأن هذه كلها من البداهة ، لأن العبرة كما قلت ليست بالألفاظ ولا بكونها غريبة أو مألوفة ، وحوشية أو مأنوسة ، بل بالكاتب نفسه ، أي بوضوح المعنى الذي في رأسه

أو غموضه ، وبقدرته على أدائه أو عجزه عن ذلك . وقد يتفق لك أن تحادث رجلاً عامياً لا يقرأ ولا يكتب ، فتسمع منه كلاماً كالتخليط أو الهذيان لا تستطيع أن تتبين منه مراده ، فهذا العامى الأمى لم يرجع إلى الغريب من ألفاظ اللغة ولم يستعمل المهجور والدارس منها ، وإنما استعمل ألفاظاً يعرفها الأطفال والباعة والجهلة والمتعلمون ، ومع ذلك أعياك أن تفهم كلامه . فلو أن الألفاظ هى التى يرجع إليها أمر الغموض أو البيان ، والصعوبة أو السهولة ، لوجب أن تفهم عنه ، ولما كنت معذوراً إذا لم تفهم

فلا قيمة إذن لعدد الألفاظ التى فى اللغة ، ولتكن ألفاً لا أكثر ، أو مائة ألف ، أو أقل من ذلك أو أكثر ، فلن يختلف الأمر فى الحالين . والأمر من حيث الأداء فى اللغة مثله فى التصوير ؛ ذلك أن الألوان التى يستعملها المصور قليلة العدد جداً ، وهى أداة المصورين جميعاً كما أن الألفاظ أداة الكتاب ، ولسنا نظن أن أحداً سيزعم أن قلة الألوان التى يستخدمها المصور جعلت التصوير أسهل ، وما من مصور إلا وهو عارف بالألوان وكيف يستعملها وكيف يزاوج بينها ، ومع ذلك يجيء واحد بالصورة الناطقة بل التى تكاد تصيح من قوة النطق ، ويجيء آخر بغير شيء ، ولا نحتاج أن نقول إن الألوان لا ذنب لها ، وإن المصور نفسه هو الذى لم يستطع أن يؤدى بها ما أراد أن يبرزه أو يثبته أو يدل عليه أو يرمز له ، وكذلك فى الكتابة : لا ذنب للألفاظ ، فانها — وهى مفردة — لا تؤدى شيئاً ، ولا فرق بينها ، ولا فضل لواحدة على واحدة ، وإنما تصير كلاماً بعد أن يحدث فيها الكاتب نظماً أى بعد أن يؤلف بينها ، كذلك الألوان ليست هى الصورة ، وإنما تصبح صورة بعد المزج والمزاوجة والتأليف

وسواء أقلت الألفاظ المستعملة أم كثرت ، فسيظل هناك كتاب مشرقون واضحون يسهل ورود كلامهم ويحسن وقعه ، وآخرون غامضون أو معوصون ، يحطمون رؤوس القراء لأنهم يكتبون قبل أن يتبينوا ما فى نفوسهم من الخواطر أو الاحساسات أو لأنهم لم يرزقوا القدرة على الأداء الحسن الواضح ، أو لأن فى أسلوب تفكيرهم التواء ، أو لأن فى طريقة تناولهم للموضوع عوجا ، أو لغير ذلك من الأسباب الراجعة — فى مرد أمرها — إلى المرء نفسه لا إلى الألفاظ . ولو كان الأمر رهناً باللفظ وحده لهان الخطب ، وما على الانسان حينئذ إلا أن يفتح معجما — إذا اعترضه لفظ غريب

وعلى أن الواقع أن عدد الكلمات التى يستعملها الكتاب ، قليل جداً إذا قيس إلى ما فى اللغة ، وهو لا يزيد على بضع مئات ، ومن هذه المئات القليلة يحدث كل كاتب أو شاعر آلافاً من الصور ، وبها يؤدى ما لا يستطيع أن يحسبه الحاسب من المعانى والخواطر والاحساسات ، كما يستطيع المصور — بقمة ألوان — أن يرسم مئات من الصور لا تشبه واحدة منها أختها ، فلا معنى إذن لهذه الضجة التى يثيرها بعض إخواننا الكتاب حول اللغة ووجوب الاقتصار على المألوف من ألفاظها ، وهجر المهجور منها ، لأن هذا حاصل من تلقاء نفسه ، والكاتب الذى يؤثر الاغراب ويلجأ إلى الميت والدارس من الألفاظ ، يجنى على نفسه بذلك ، وكثيراً ما يحدث أن يضطر أمثاله إلى تنكب هذا الطريق الأعوج والرجوع إلى النهج المستقيم

***

وبعد ، فانه لا يصح أن يقال إن لغة من اللغات عيبها كثرة ألفاظها ، فان الألفاظ تنشأ ، وتحيا ، وتموت ، على حسب الحاجة ، والناس لا يشتقونها أو ينحتونها ، أو يضعونها ، أو يستعيرونها من اللغات الأخرى ، للترف ، بل للضرورة فى وقتها ، وللألفاظ حياتها كما للناس ، وهى — مثلهم — أجيال ، حتى معانيها تتطور على الأيام ، ويجرى عليها من الحظوظ ما يجرى على كل كائن حى ، وإنما الذى يصح أن يقال ، والذى يقبل من قائله ، هو أننا نسيء تعليم لغتنا ، ونجعلها بسوء طريقتنا فى تعليمها وبتقصيرنا فى حقها ، أعوص مطلباً مما هى فى الحقيقة وأشق فى التحصيل على أبنائها — فضلا عن الغرباء — من اللغات الأجنبية التى أحسن أهلها القيام على خدمتها وذللوا لطلابها ما فيها من صعوبات لا تخلو منها لغة

وما عدا ذلك خلط لا قيمة له

ابراهيم عبد القادر المازنى

كيف ارتأى الشيخ رشيد مصر — رسالة تاريخية قيمة

من المرحوم السيد رشيد رضا

إلى صديقه الأستاذ المغربي

. . . . . كان السيد رشيد رحمه الله أشار في مصنفاته الأخيرة إلى مبلغ الود الذي توثقت عراه بيننا في عهد طلبنا العلم في طرابلس الشام ، وقد استمرت هذه المودة زهاء عشرين سنة ، حتى سافر إلى مصر ، واتصل بالأستاذ الإمام ، وأنشأ المنار . وكانت هذه الرحلة إلى مصر نتيجة الدراسة العلمية الحرة المشتركة بيننا خلال تلك المدة . ولا أدل على ذلك من هذه الرسالة المرسلة اليكم . وكان السيد رشيد كتبها إلى بعد أن وصل مصر سنة ١٨٩٨ م والرسالة المذكورة تدخل في نحو ٢٠٠ رسالة مثلها أرسلها إلى السيد رشيد خلال تسع سنوات (من ١٨٩٨ — ١٩٠٦) حتى جئت مصر وحررت في المؤيد

والرسائل المذكورة محفوظة لدي لا يعوزها إلا حذف بعض (الخصوصيات) فتشكل كتاباً يحتوي على مذكرات في مواضيع مختلفة هامة ، لما فيها من وصف الحالة الاجتماعية والأدبية في مصر خلال تسع سنوات

« المغربي »

الرسالة

أخي وسيدي :

سلام وتحية — وأشواق قلبية

لقد امتلأت المخيلة ولا سعة في الوقت لشرح ما ينبغي شرحه بل ولا لكتابته موجزاً بعبارة بسيطة . ولكن لابد من الإيماء إلى البعض بما يحتمله الوقت من البيان

(١) في بيروت : رغب إلى الوطني الفاضل عبد القادر أفندي القباني أن أحرر جريدة الثمرات ، وأعلم في المدرسة التي أنشأها مع الشيخ أحمد عباس فانها تحتاج لمثلي ولم يجداه

(٢) حدثني المومأ إليه عن السيد محمد بيرم حديثاً طويلا يتضمن حالته في بيروت والآستانة ورجوعه إلى تونس ثم إقامته في مصر : أهمه أنه في بيروت جرى له مع قاضيها يومئذ مذاكرة علمية طويلة ما كان أحد غيرهما يفهم مايقولان . وبعد الانصراف سأل عبد القادر أفندي السيد بيرم عن القاضي فقال إنه أعلم من رأى ، ثم سأل القاضي عنه فقال انه زنديق فلم يسلم له باطناً . وأن جريدته (الإعلام) ذكرتهم بكلام القاضي بعد زمان ، لأنها كانت خادمة للانكليز ، وأنه رأى منها عدداً يتكلم فيه على الكمال ويقول فيه إن الكمال موجود عند الانكليز ، فيجب أن نأخذه عنهم بعد ما قدم مقدمه أنه يجب أخذ الكمال حيثما كان

(٣) حدثني أيضاً عن ترجمة فانديك ، وأن أطباء الافرنج لا يعترفون له بأنه طبيب ماهر ولا علماءهم بأنه عالم وإنما كان مترجماً . وحزبه — ومنهم جماعة المقتطف — الذين تحزبوا له يوم أخرجته الجمعية الأمريكانية من المدرسة بناء على أنه ليس لديه من العلم ما يؤهله لها — يسمونه فيلسوفاً

(٤) اجتماعاتي مع الأمير شكيب وحديثه لي عن شؤونه في الآستانة لا سيما مع ابراهيم بك المويلحي وترددهما بين السيد جمال الدين (الأفغاني) وبين أبي الهدى أفندي وقضيت العجب مما ذكر لي من خبث المويلحي

(٥) اجتماعاتي مع وجوه الجبل (لبنان) متصرفه فمن دونه أمور شخصية ليس فيها فائدة تاريخية أو علمية إلا مسألة تولية نسيب بك جنبلاط قائمقامية صيدا بارادة سنية وذهابه بأمر الوالي إليها وما كان من الاحتفال الغريب من أهلها به وإرسال الوالي تلغرافا صبيحة ليلة وصوله بطلبه لبيروت وإقامة وكيل لصيدا مكانه بحيث لم ينم في صيدا إلا ليلة واحدة

(٦) بور سعيد والاسكندرية ومرفأ كل منهما ومبانيهما وشوارعهما لا سعة للكلام في ذلك

(٧) مدرسة جمعية العروة الوثقى بالاسكندرية وتعليمها ورئيسها عبد القادر أفندي سري

(٨) اجتمعنا بالسيد عبد الفتاح النديم بداره في الاسكندرية وأهداني نسخة من الجزء الأول من سلافة النديم وأخبرني أن كتب أخيه (عبد الله نديم) لم تزل في الآستانة وهي عند الشيخ ظافر ، ولم يعطوها له بناء على صدور الأمر بفحصها ، وأن كتاب المسامير الذي ألفه بالطعن في أبي الهدى أفندي توجد نسخة منه عند أخ لجورجي كان يتردد بين السيدين الأفغاني والنديم في الآستانة وأخو جورجي الآن في مصر لكنه يطلب في مقابلة الكتاب مئات من الجنيهات

(٩) مولد السيد البدوى الرجبى فى طنطا وما يقام فى ذلك المسجد العظيم فى أيامه من الأذكار والنوبات واجتماع الألوف من النساء والرجال وطوافهم بقفص قبر السـيد كما يطاف بالكعبة ، وتقبيلهم له وتمسحهم به ، بل وتقبيل عتبة باب مقصورته

(١٠) بحيرة الاسكندرية ، الملاحة ـ أراضى مصر وفيها سباخ كثير ، أشجارها ، النيـل ، عظمتها لاسيما فى كفر الزيات والمنصورة ودمياط ، الطرق الحديدية والترام الكهربائى — أموز عمومية

(١١) ذهبت إلى دمياط عن طريق المنصورة ومعنا الشيخ أبو النجى والشيخ أبو النصر (القاوقجيان) فنمنا بالمنصورة عند صديقنا الشيخ عبد الرزاق أفندى الرافعى القاضى ولم يكن ثمة ، لـكن تلقانا ولده محمد أفندى بالترحاب وهو لطيف جداً ، وسهر عندنا المفتى والنائب وبعض أهل العلم ، ولما سمعوا حديث أعجبهم أعجبوا به ، ودعانا المفتى للغداء عنده فى اليوم التالى فسافرنا إلى دمياط ولم نجب دعوته

(١٢) الجمعية الأدبية للخطابة فى المنصورة وكلام القطام فيها

(١٣) اجتماعنا بالعلماء فى دمياط وكثرة سؤالهم لى عن المسائل الدينية والصوفية والفلسفية ، وبفضـل الله لم أتوقف فى جواب . وقد تمنى الـكثير منهم أن أبقى عنـدهم وبعضهم أن يكون معى .

(١٤) فريد بك (وجدى) ابن وكيل محافظ دمياط ، شاب ذكى نبيه ، أبصر أهل دمياط بحالة الاسلام والوقت وجهته مثلنا دينية ، يطالع الاحياء ، وله اعتناء بالفلسفة ، ألف كتاباً صغيراً سماه الفلسفة الحقة أهدانى نسخة منه ، وهو الآن يستعد لتأليف كتاب بالفرنسوية فى الديانة الاسلامية ويعرضه فى معرض باريز الآتى ، وهو منفرد بهـذه الأفكار فى دمياط ، لأن دمياط بلدة اسلامية لا مداخلة للنصارى والافرنج فيها ، ومن ثم هى ضعيفة فى العمران ، قوية فى التمسك بالدين ، لانظير لها فى مدن مصر . زرت فريد بك وزارنى ، وقد أعجب بى كل الاعجاب ، وتمنى أن أكون معه دائماً ، ونشط همتى على انشاء الجريدة (المنار) وسيكتب فيها

(١٥) فاتنى أن أذكر لـكم عنـد ذكر الاسكندرية أننى اجتمعت هناك برجل يدعى السيد حسن أفندى وهو رجل باقمة أصله بيروتى ودخل النصرانية وتعلم اللاهوت البرتستانتى ثم رجع للاسلام ، وهو متقن للغة الانكليزية ومتزوج بافرنجية ، وقد ساح فى البلاد كثيراً وأكثر إقامته فى عدن يتعاطى الأعمال التجارية ، وله مداخلة مع جميع طبقات الناس ، ويباشر كلا على مشربه خيراً أو شراً ، يجتمع باللورد كرومر ومختار باشا (الغازى) وبسائر الوزراء والـكبراء وكتاب الجرائد ، وله صحبة مع أصحاب المقطم أثنوا عليه يوم جاء مصر ، وفى هذه المدة الأخيـرة أقامه الشيخ الميرغنى الشهير خليفـة على تلامذته فى شرق أفريقيا إلى رأس الرجاء ، ولا نعلم ما يكون من أمره ، وقد وعدنا بالمساعدة فى أمر الجريدة (المنار)

(١٦) مصر وما أدراك ما مصر ! ! وصلنا إليها قبيل العصر يوم السبت الماضى ، وأتينا تواً للأزهر ؛ فتلقانا الشيخ اسماعيل (الحافظ) وغيره ، وشربنا الشاى فى غرفة الشيخ بدر الغزى — يظهر أنه يأبى على مذهب شيخه — وفى ضحوة يوم الأحد ذهبت لزيارة المصلح العظيم الأستاذ الشيخ محمد عبده ومعى الشيخ اسماعيل والشيخ أبو النجى . قعدنا فى المنـدرة وأعطيت العبد بطاقة الزيارة فأوصلها إليه فى الحريم . فلم يلبث أن نزل وهى فى يده ولم يتركها مدة جلوسنا ، بل جعل يقلبها بيده ويتكلم

سألنا أولاً عن أستاذنا الشيخ حسين افندى (الجسر) ثم عن عزيز افندى سلطان ومحمد باشا المحمد ، ثم عن طلبة العلم وشيوخهم وتعليمهم . ومما قلنا له إن الطلبة نحو مائتين والمستفيد المجتهد نحو اثنين

ثم أنشأ يتكلم عن حالة الأزهر والأمة . فعلمنا أن ما كنا نعتقده فيه من أنه موجه كل همه وسعيه للأزهر صحيح . ومن جملة كلامه أن سعادة هذه الأمة فى الأزهر ، وأن شـقاءها من إهمال الأزهر . وإنه لا يرى نفسه سعيداً إلا إذا نجحت مساعيه فى إصلاح التعليم فيـه . وإنه إذا رأى انتظامه قبل موته يموت قرير العين ويرى أنه ملك عظيم ، وحدثنا بأمر الامتحان فى الأزهر حديثاً كله تنديد بشيوخه وبتعليمهم ، بل قال إن الـكثير من مدرسى الأزهر لا قابلية فيـه الآن لأن يكون طالب علم : ومنهم من يصلح اليوم لأن يطلب العلم من طريقه

قال: كنت في الامتحان أسأل أحد الطلبة عن عبارة فيحل ألفاظها المفردة بإرجاع ضمائرها وبيان متعلق ظروفها — هذا إن أحسن الجواب — فأسأله عن المراد بهذه العبارة فلا يحير جواباً. قال لأحدهم مرة: ما مراد المصنف من هذه العبارات — ثلاث مرات — وهو يعيد له الحل السابق. فقال له في الأخير: إن مراده كذا، فقل مثلما قلت؛ فلم يحسن ذلك. وقال — بمناسبة ذم كتبهم —: سألت أحدهم في المنطق فأجاب بما يبعد عن الصواب، قال: فقلت: من أين لك هذا الكلام؟ فقال: من حاشية الصبان على السلم. قال: فلم أصدقه فنظرت في الكتاب فرأيتها كما قال. فقلت للشيوخ كيف يعرف المنطق من هذا الكتاب، وإن صاحب السلم لا يعرف المنطق وشارحه لا يعرف المنطق ومحشيه (الصبان) لا يعرف المنطق

قال: كان مراده من العام الماضي قلب هيئة الأزهر دفعة واحدة، لكن قيل له إن الشيوخ يصعب عليهم ذلك، ولابد من أخذهم بالتدريج

وقال: إن مداخلته بالحكومة إنما هي لأجل الأزهر، لأنه لولا مركزه في الحكومة لا يقبل له قول ولا يستطيع أن يعمل شيئاً فيه، وأنه يعلم أن كثيراً من الشيوخ الذين ينقادون له الآن ساخطون عليه في نفوسهم، مع أنه سعى لعلماء الأزهر بمبلغ خمسة آلاف جنيه بعضها من الحكومة وبعضها من الأوقاف، وكانوا في غاية الضيق

مما ينقمون عليه أنه لا يطول أكمامه مثلهم، وأنه يركب الحصان ويلبس الجزمة عند ركوبه كما فهمت من الشيخ إسماعيل فتأمل. وقال: لما ولاه الخديو السابق القضاء قال لناظر الحقانية: أنا خلقت لأن أكون معلماً لا لأن أكون حاكماً: أقول حكمت على فلان بكذا وعلى فلان بكذا. فقل للخديو يجعلني في دار العلوم، فلم يرض الخديو، وقال: إن الحكومة أرادت الإصلاح بكذا وكذا

قال: وإن المصريين منهم من يعتمد على فرنسا وعلى . . . وعلى . . وكل هذا أوهام، والصحيح أنه لا يضمن لنا الاستقلال والحياة للأمة إلا شيء واحد وهو التربية والتعليم الصحيح

ثم تكلم عن ضعفنا وقوة أوربا وقال: إن جميع ما حولنا — لا سيما حكامنا وعلماءنا — يدل على اليأس، ومع هذا فإن لي أملاً كاملاً، ويوجد رجل آخر في مصر له نصف أمل سأسأله عنه[1]، ثم جاء بكلام تاريخي عن حالة أوربا في ضعفها وكيف قويت

سألته عن الكتاب المعهود[2]، فقال: إنه لم يتمه وأنه لا بد منه ومن كتب أخرى. لكنه يحتاج إلى مساعد حاذق أمين: يفحص له عن النصوص؛ فإن جميع أرباب التآليف الكثيرة كالغزالي وغيره كانوا كذلك، وإلا فإن الوقت لا يتسع لتلك المؤلفات. وإنه لم يجد ذلك المساعد ولا بالمال. فقلت له: « ستجدني إن شاء الله من الصالحين » وربما يحصل بيني وبينه ارتباط عظيم. ولو جئت مصر غير متعلق[3] بغيري ربما كان أولى؛ فإني أجد قبولاً عظيماً عند الكبراء والوجهاء من أهل العلم وأهل الدنيا: ما تكلمت أمام أحد إلا اعتبرني اعتباراً زائداً. وقد تبين لي صحة قول من كان يقول لي: إنك ضائع في بلادك ولو كان في الوقت سعة لأخبرتك بما يسرك جداً من التفصيل

أخبرنا الأستاذ (الامام) أيضاً أنه كان شرع في تأليف رسالة في التوحيد منذ كان في بيروت، وأنه سيتمها ويقرؤها درساً في الأزهر في أول السنة الآتية، ويقرأ كتاب السيرة المعهود أيضاً إذ قراءته تدعو إلى اتمامه

وقال بمناسبة صعوبة التآليف المهمة في العربية — إن بعض الكتب التاريخية وغيرها ربما لا يوجد فيه من العبارات المفيدة إلا عبارة واحدة أو اثنتان والباقي لا أهمية له. فاستخراج المفيد صعب، ومثل مثلاً فقال: إذا أردنا أن نكتب في تاريخ علم الكلام فمن أين نستفيد: كيف كان هذا العلم في عصر الصحابة ومن بعدهم؟ وكيف اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري؟ ومن أين جاءه ذلك الفكر في المخالفة؟ وهل كان غيره على رأيه؟ وما الذي حمل أبا الحسن الأشعري على القول بأن الوجود عين الموجود مثلاً؟ وما غرضه من ذلك؟ ومتى دخلت الفلسفة

(١) ثم أخبرني في رسالة أخرى أنه سأله عنه فقال هو الشيخ عبد الكريم سلمان صديقه

(٢) كان يفكر رحمه الله في تأليفه وهو في السيرة النبوية كما يفهم من الآتي

(٣) يشير إلى ارتباطه بشريك له في إنشاء المنار

ونحوها من الفنون فى هـذا العلم ؟ وما غرض العلماء من جمل الفلسـفة تدخل على المقول مع عقائد الدين فى وقت واحد ؟ مسائل لم يشرحها أحد من علماء الاسلام . وقال : إن لعلماء الافرنج ومؤرخيهم كلاماً فى الدين الاسلامى لم يهتد له أحد من المسلمين ، وذكر لنا بعض تلك الكتب ومؤلفيها وكيفية أبحاثها

وقال : إن الأمم تتقدم إلى الأمام ونحن نرى من سعادتنا فى تقدم الأمة أن ترجع للوراء تسعمائة سنة . وأن تكون كتبنا وتعاليمنا كما كانت منذ تسعمائة سنة

وذكر فى معرض الانتقاد ابن عابدين وانتقد عليه وقال : كان يمكن جمل الكتاب مجلدين بذكر ما يفيد والسكوت عما لا يفيد ، وذكر الاحياء وأنه ينبغى اختصاره ، وأنه رأى له مختصراً فى مجلدين فى المكتبة الخديوية يمدحه كثيراً ، ولولا أنه محروم لسعى فى نشره ، وقد تعجبت لرضائه عنه رضاء تاماً ، ولعله لا يعجبه غيره كذلك

أما سيرة الأستاذ (الامام) فى مصر فكل يعلم أن بيده زمام الأزهر ، وأنه هو الساعى فى انتظامه . وشيخ الاسلام فمن دونه تبع له ، وفى إنشاء الرواق الجديد الذى أنشأه الخديو ويسمى بالرواق العباسى وهو حسن جداً ، وقد سعى بمبلغ من النقود ليوزع على النابغين فى الامتحان من الطلبة ، وسيوزع قريباً فى احتفال يخطب هو فيه الخ

وأما من حيث المحكمة فقد سمعت أنه يأتى الساعة واحدة فيحلّ المشاكل ويفصل الدعاوى المتراكمة . وينقلون عنه حكايات لطيفة فى بيان الحيل وكشف الدسائس

ذكرت له : أن غرضى الأول تلقى الحكمة منه فى أوقات الفراغ ؛ فسر لذلك وعهد إلىّ أن أجيء لبيته صباح يوم الجمعة (نهار غد) وأنه يأخذنى حيث يذهب

فاتنى أن أكتب لكم عند ذكر التربية أنه قال للسيد جمال الدين (الأفغانى) عند ما كانا فى فرنسا ، دعنا من السياسة ولنختر لنا مكاناً مهملا لا اعتبار له فى نظر الحكام (أو ما معناه) ونعلم به ونربى بعض الأولاد ، فلا تمضى عشر سنين إلا ويبرع منهم جماعة على رأينا يقلدوننا فى ترك أوطانهم والهجرة فى نشر العلم والدين فنرسلهم للجهات ، وأن السيد (الأفغانى) أبى عليه هـذا وقال له : أنت مثبط فلم يكن مندوحة عن الانصياع له . وقال : لو أن السيد ترك السياسة والتفت إلى التعليم لأصلح اصلاحاً عظيما

ذكرت له بمناسبة ما شاهدته من طواف الناس بقبر السيد البدوى ولثم أعتابه ، فحدثنا أن بعض الوجهاء كان عنده فى يوم مولد السيدة زينب وأنه قام ليحضر المولد . فسأله الأستاذ أين تذهب ؟ قال : لزيارة السيدة . فقال : لأى شيء خصصت زيارتها بهذا اليوم . قال : لأنه يوم المولد . فقال له : ما هو يوم المولد ؟ أنا لا أفهم معنى هذا اللفظ . هل هو عبارة عن يوم تقوم فيه من قبرها وتستقبل الزائرين ، وطفق يندد بهذا الأمر . فقال له الرجل إن كثيراً من العلماء والفضلاء يحضرون هـذه الموالد وتهيأ للقيام . فقال الأستاذ : أنا لا أعتبرك وأعتبر هؤلاء الذين تسميهم فضلاء إلا وثنيين ، لأن هذه الأعمال أعمال الوثنيين ؛ إن كل آيات الكتاب ونصوص السنة تذم هذا (أو ما معنى هذا) بل الفاتحة التى تصححون بها عبادتكم تنهاكم عن هذا وتعده خلاف العقيدة ، أنتم فى كل ركعة من الصلاة تقولون : « إياك نعبد وإياك نستعين » فكيف تصدقون بهذا وأنتم تطلبون الاعانة من هؤلاء الأموات ، أفعالكم متناقضة ، لأن قراءتكم الفاتحة لهم يدل على أنهم محتاجون إليكم بهذا العمل الذى تهدونه لهم ليكون فى ثواب أعمالهم ثم تطلبون منهم الحوائج الخ

أهـل مصر عموماً لا سيما العلماء والوجهاء وأركان الحزب الوطنى يلعنون أبا فلان فى المجالس ويكفرونه ، ويقولون إنه هادم لأساس الدولة وإنه موقع الفتنة بين السلطان والخديو ، حيث أوهم الأول أن الثانى طالب للخلافة ويساعده على هـذا العمل توفيق البكرى الانكليزى المشرب

ما كنت أتخيل أنى أكتب هذا المقدار لضيق الوقت علىّ ولا أراك تؤاخذنى على قبح الخط وعدم انتظام الكلام ، واقرأه على الشيخ محمد (كامل) افندى الرافعى لأنى أود أن يطلع عليه ، وكنت عازماً أن أكتب له بمثل هذا فلم يساعدنى الوقت ؟

أخوكم

محمد رشيد رضا

المعنى والأسلوب

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

المعنى الصادق الرفيع والأسلوب المحكم الجميل هما قوام كل أدب جيد بهذا الاسم، لا يغني أحدهما إذا غاب الثاني، ولا يرتفع الأديب إلى الذروة العليا في الأدب إلا باجتماعهما له

وقد كان كبار شعراء الانجليزية — كشكسبير وملتون ووردزورث وتنيسون — يجمعون إلى خصب شعورهم بصيرة باللغة بعيدة ومقدرة على التصرف بمفرداتها وتراكيبها تصرفاً يبرز معانيهم في أحسن صورة، أما توماس هاردي فقصر به عن بلوغ ذروتهم — رغم خصوبة شاعريته — إعواز الرصانة في أسلوب شعره الذي هو أشبه بالنثر الجيد، وقصوره عن أولئك الفحول في التبصر باللغة ومعرفة كيفية التصرف في ألفاظها وتعابيرها، ومن ثم ينزله النقاد الانجليز المرتبة الثانية بين شعرائهم

وقد كان للمعنى — المعنى الصادق الجدير بالتعبير عنه — المنزلة الأولى عند كبار الأدباء الانجليز دائماً، وكان الأسلوب يحل عندهم في المحل الثاني، ويأتي لأداء المعنى لا ليحل محله أو يتحيفه، ولم يشتد الولع بالأسلوب إلى حد الاغراق إلا في عهد قصير في القرن الثامن عشر ما يزال يعد أحط أزمان الشعر الانجليزي، وسرعان ما تحرر الأدب من قيوده، وعاد كما كان تعبيراً صحيحاً عن الشعور الصادق في أسلوب طبيعي مستقيم

أما الأدب العربي فطغى الأسلوب على جانب كبير منه في مختلف عصوره وتحيف المعنى أو ألغاه: ففي الأدب العربي شعر ونثر كثيران يروع أسلوبهما والمعنى فيهما ضئيل هزيل أو مصطنع كاذب غير معبر عن شعور صحيح أو تفكير سليم، لأن الأديب قدَّم براعة الأسلوب على التعبير عن حقيقة خواطره أو الاتيان بمعنى جديد يستحق عناء الانشاء

لقد كان العرب شعراء السليقة لا شك، يحلُّون الشعر أو الأدب عامة مكانة عالية ويحتفون به ويطربون له، حتى أوشك أن يكون فنهم الجميل الوحيد، ولكن من العجيب بل من المؤسف أن الأدب العربي أحاطت به ظروف أزاغت نظرة كثير من أدبائه إلى الأدب أو وظيفته أو رسالته، وقد أشرت في كلمات سابقة إلى بعض تلك الظروف، ومنها دخول الأعاجم في اللسان العربي، واعتزال الأدباء مجتمعهم واعتمادهم على صلات الكبراء، وتغلب نزعة التقليد على نزعة التطور في الأدب العربي، واعتزاله غيره من الآداب القديمة والمعاصرة له إلى حد كبير

زاغت نظرة كثير من الأدباء إلى الأدب فحسبوه صنعة لا فناً جميلاً، وظنوا الغرض منه إظهار البراعة لا التعبير عن الشعور والفكر الصادقين، فجاءت آثارهم صناعة وبراعة خالية من المعاني الصادقة العالية والشعور العميق الصحيح: فالمقامات ورسائل الدواوين وأشعار النسيب الاستهلالي والمدح والهجاء المأجورين والفخر الأجوف، والمنثور والمنظوم المرصعان بغرائب السجع والجناس والازواج والمقابلة وهلم جراً، كل هذه آثار أدبية قليلة الحظ من الصدق والحياة وعمق الفكرة، وإن تكن لها مزية فهي مزية الأسلوب إن كان منشئها بارعاً

وهناك عدا ذلك آثار أدبية لم يقدم أصحابها الأسلوب على المعنى، ولكن المعنى فيها تافه بذاته غير ذي بال. فالأدب الرفيع هو ما تحدث عن مشاعر النفس العميقة وتأثراتها بأسباب الحياة، ومشاهد الكون، وتناول حياة الانسانية على الاطلاق ناظراً في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، معبراً عن آمالها وآلامها، فأين من هذا خمريات أبي نواس ومقذعات جرير والفرزدق ومجونيات بشار؟ لقد كان هؤلاء شعراء صادقي المعاني في كثير مما قالوا رائعي الديباجة، ولكن شعرهم لتفاهة المواضيع التي سخروه فيها أو حطها لا يرتفع إلى الطراز الأول من الشعر الانساني، ولا تبقى له قيمة إذا جردته من أسلوبه الجزل

فاذا نظرت إلى كثير من منتجات أولئك الأدباء طالباً تلك النظرة الانسانية العامة، وراغباً في شيء من الثقافة تضيفه إلى ما عندك، ومنتظراً أن ترى نفسية الأديب وشخصيته مرتسمتين في آثاره لم تصب من ذلك شيئاً، ولم تزدد علماً من دواوين وكتب كاملة بغير فائدة لغوية أو براعة لفظية أو تعبير جديد عن معنى متداول قديم

فاذا ألغيت من آداب اللغة كل الآثار التي لا تتعدى مزيتُها أسلوبَها ، والتي هزلت معانيها أو كذبت أو لم تزد على التمحل والمبالغة والتخريج والاغراب ، لم يبق لك إلا القليل من الأدب السامي الذي اجتمعت له مزايا المبنى القيم والموضوع الهام المفيد والأسلوب المحكم ، كأشعار الفحول في الحكمة والوصف الطبيعي والتعبير الصادق عن الوجدان والنسيب الحقيقي والحماسة وما إلى ذلك ، وتلك دون غيرها هي الجديرة أن تسمى آدابا

وهذه الآثار — وأحسن نماذجها حكمية المتنبي وأوصاف ابن الرومي وأبي تمام والبحتري ونظرات المعري ووجدانيات الشريف الرضى ، ورسائل الجاحظ — هي خلاصة الثقافة التي يخرج بها الدارس من الأدب العربي ، وهذا المحصول الثقافي هو بلا شك دون المحصول الذي يظفر به مطالع الأدب الانجليزي ، الذي أوسع أقطابُه النفس الانسانية والحياة البشرية والمحاسن الطبيعية درساً ووصفاً ومناجاة

لقد أشرت إلى الظروف التي أحاطت بالأدب العربي فأدخلت فيه كثيراً من زيف الصنعة وكاذب القول وغلّبت الأسلوب في كثير منه على المعنى ، ولعل طبيعة اللغة العربية قد ساعدت على هذا التغليب ، وأمدّت لمن انصرفوا بكليّاتهم إلى الأسلوب وجمعت حولهم المستجيدين : لما للغة العربية من بلاغة أصيلة ، وموسيقى فخمة ، وما لألفاظها وتراكيبها في الآذان والنفوس من روعة وفتنة ، وما لأوزان الشعر العربي وقوافيه من رصانة واتساق بحيث يستطيع المتمكن من كل هذا أن يستولى على الألباب دون أن يبتدع في المعنى ، كما يصرفك جمال اللحن الموسيقى عن تفاهة المعنى المتغنّى به أحياناً

وقد زالت اليوم الظروف التي لابست الأدب العربي قديماً ، فهبطت بمعاني الكثير منه وأدخلت عليه الزيف والصنعة وزيغ النظرة إلى الغرض منه ، وما زالت للغة سعتها ومقدرتها وجمالها وموسيقاها ، فاذا اجتمع صدقُ النظرة إلى الأدب ومطاوعةُ أداته وهي اللغة ، إذا قرنت المعاني المبتكرة السامية إلى اللغة الفنية المساعدة ، فما أجدر الأدب العربي أن يتبوأ منزلة عالية بين الآداب ، وما أقوى الأمل في أن يفوق مستقبلُه كلَّ ما عرف ماضيه

فخري أبو السعود

من تراثنا العلمي

٢ — كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، في علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

« ابواب الكتاب »

المقـــدّمة :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي له في كل لطيف من خلقه مُعجِز يُتفكَّر فيه ، وخفيّ من صُنْعه يُتنبَّه به عليه ، ونعَم تقتضي مواصلة حمده ، ومِنَن تحثّ على متابعة شكره . والذي ميّز كل نوع من حيوان خلقه على حِدَته ، وأبانه بشكله وصورته ، وجعل له من الآلة ما يلائم طبعه ومُركّبه ، ويسّره للأمر الذي خلق له ، ويؤدّيه إلى مصلحته ، وقوام جسمه . وجعلنا من أشرف ذلك كلّه نوعاً ، وأتمّه معرفة ، وجمع فينا بالقوّة ما فرّقه في تلك الأصناف بالآلة ، فليس منها شيء مخصوص بحال له فيها مصلحة إلا ونحن قادرون على مثلها ؛ كذوات الأوبار التي جعلت لها وقاءً وكسوة تلزمها ولا تعدمها ؛ فانا بفضل حيلة العقل نستعمل مثل ذلك إذا احتجنا إليه ، ونفارقه إذا استغنينا عنه ؛ وكذوات الحدّ والشوكة من صدف أو مخلب ، فان لنا مكان ذلك ما نستعمله من السيوف والرماح وسائر الأسلحة ؛ وكذوات الحافر والظلف فان لنا أمثال ذلك مما ننتعله ونتّقي أذى الأرض به . وجعل لنا خدماً وأعواناً ، وزينة وجمالاً ، وأكلاً وأقواتاً ؛ فبعض نمتطيه ، وبعض نقتنيه ، وبعض نغتذيه . وأحلّ لنا صيد البرّ والبحر والهواء ؛ نقتنص الوحش من كنامها ، ونحطّها من معاقلها ، ونستنزل الطير من الهواء ، ونستخرج الحوت من الماء . ولم يكلنا في ذلك إلى مبلغ حيلتنا حتى عضّدنا عليه ، وسهّل السبيل إليه ، بأن خلق لنا من تلك الأنواع أشخاصاً أغراها بغيرها من سائر أجناسها ، ووصلها من آلة الخلْقة وسلاح البُنْيَة ،

وقبول التأديب والتضرية ، والانطباع على الأكف ، والاستجابة . فدلنا على موضع الصنع فيها ، وموقع الانتفاع بها ، كالفهد والكلب وسائر الضوارى ، والبازي والشاهين وسائر الجوارح كما يحويه من ذلك لنا كاسب وعلينا كادح ، وبمصلحتنا عائد ؛ نستوزعه جل جلاله الشكر على ما منحناه من هذه الوهبة ، وفضلنا به من هذه التكرمة ، إلى ما نقصر عن تعداده ، ونعجز عن الاحاطة به من عوائد كرمه ، وفوائد قسمه ؛ ونرغب إليه جل جلاله فى العون على طاعته ، ومقابلة إحسانه باستحقاقه . وصلى الله على محمد نبيه الصادق الأمين ، البشير النذير ، وعلى آله الطيبين الأخيار وسلم تسليما ، وعلى الأئمة من ولد الحسين بن على بن أبى طالب حتى تنتهي الى العزيز بالله أمير المؤمنين فتشمله وتسله الى يوم الدين

إن للصيد فوائد جمة ، وملاذ ممتعة ، ومحاسن بينة ، وخصائص فى ظلف النفس[1] ونزاهتها وجلالة المكاسب وطيبها كثيرة ؛ فبه يستفاد النشاط والأريحية ، والمنافع الظاهرة والباطنة والمران والرياضة ، والخفوف والحركة ، وانبعاث الشهوة واتساع الخطوة ، وخفة الركاب ، وأمن من الأوصاب ؛ مع ما فيه من الآداب البارعة ، والأمثال السائرة ، ومسائل الفقه الدقيقة ، والأخبار المأثورة ما نحن نجتهد فى شرحه وتلخيصه ، وتفصيله وتبويبه فى هذا الكتاب المترجم بكتاب (البيزرة) على مبلغ حفظنا ، ومنتهى وسعنا ، وبحسب ما يحضرنا ، وينتظم لنا اتباعاً فيما لا يجوز الابتداع فيه ، وابتداعاً فيما أغفله من تقدمنا ممن يدعيه ، ونحن مقدمون ذكر الأبواب التى تشتمل على ذلك ليأتى كل باب منها فى معناه ، وبالله الحول والقوة ، ومنه عز وجل التوفيق والمعونة

(باب) من كانت له رغبة فى الصيد وعنده شىء من آلته من الأنبياء صلوات الله عليهم ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن الأشراف

(باب) تمرين الخيل بالصيد والضراءة ، وجرأة الفارس على ركوبها باقتحام العقاب ، وتسنم الهضاب ، والحدور والانصباب

(باب) ما قيل فى طرد كل صنف من وحش وطير

(١) ظلف نفسه عن الشيء منعها من أن تفعله أو تأتيه أو كفها عنه

(باب) فضائل الصيد ، وأنه لا يكاد يحب الصيد ويؤثره إلا رجلان متباينان فى الحال ، متقاربان فى علو الهمة : اما ملك ذو ثروة ، أو زاهد ذو قناعة ، وكلاهما يرمى اليه من طريق الهمة إما لما تداوله الملوك من الطلب وحب الغلبة الخ . . . والفقير الزاهد لظلف نفسه عن دنىء المكاسب ، ورغبتها الخ ، فمن هذه الطبقة من يقتات من صيده ما يكفيه ، ويتصدق بما يفضل عنه توقياً من المعاملة والمبايعة ، ومنهم من يبيع ما فضل عن قوته ، ويعود بثمنه فى سائر مصلحته ، وكانت هذه حال الخليل بن أحمد الفرهودي مع فضله وأدبه وكمال علمه وآلاته الخ . . وكان جلة الناس فى عصره يجتذبونه الخ . . . فأحد من كاتبه سليمان بن على الهاشمى ، فكتب الخليل بن أحمد إليه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة ... وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحًى بنفسى أنى لا أرى أحداً ... يموت هزلاً ولا يبقى على حال[1]

«قال» وقلما رأيت صائداً إلا تبينت فيه من سنيا القناعة الخ . .

وقال أرسطاطاليس : أول الصناعات الضرورية الصيد ، ثم البناء ثم الفلاحة . ولو أن رجلاً سقط إلى بلدة ليس بها أنيس ولا زرع لم تكن له همة إلا حفظ جسمه ونفسه بالغذاء الخ . . .

ويغدو للصيد اثنان متفاوتان : صعلوك متسحق الأطمار . وملك جبار ، فينكفىء الصعلوك غانماً ، وينكفئ الملك غارماً ، وإنما يشتركان فى لذة الظفر الخ . . . وقال أبو العباس السفاح لأبى دلامة سل ! . . فقال : كلباً ، قال : ويلك وما تصنع بكلب ؟ قال : قلت سل ، والكلب حاجتى ، قال : هو لك ، قال : ودابة تكون للصيد ، قال : ودابة ! قال : وغلام يركبها ويتصيد عليها ، قال : وغلام ! قال : وجارية تصلح لنا صيدنا وتعالج طعامنا ، قال : وجارية ! قال أبو دلامة : كلب ودابة وغلام وجارية ! هؤلاء عيال ! لا بد من دار ! قال : ودار ! قال : ولا بد من غلة وضيعة لهؤلاء ، قال : قد أقطعناك مائة جريب عامرة ومائة جريب غامرة قال : ما الغامرة ؟ قال : التى لا نبات فيها ، قال : أنا أقطعك

(١) والذى قاله ابن خلكان : أنه كان للخليل راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، وكان والى فارس والأهواز ؛ فكتب اليه يستدعي حضوره ، فكتب الخليل جوابه (هذين البيتين وبعدها) :

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه ... ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه ... ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

(فى قصة طويلة)

خمسمائة جريب فى فيافى بنى أسد ، قال : قد جعلنا لك المائتين عامرة بقى لك شىء ؟ قال : أقبل يدك ، قال : أما هـذه فدعها ؛ قال : ما منعت عيالى شيئاً أهون عليهم فقدا من هذا [1]

وقيل لبعض من كان مدمناً على الصيد من حكماء الملوك الخ . . . وقيل للزاهد المشغوف بالصيد الخ . . . وهـذا كتاب كليلة ودمنة الخ . . . وكانت ملوك الأعاجم تجمع أصنافها (أى الحيوانات) ، وتدخل أصاغر أولادها عليها وتعرفها الخ . . .

وأشرف الغذاء الذى يحفظ به الأعضاء ، وليس شىء أشبه بها وأسرع استحالة إليها من اللحم ، وأفضل اللحمان ما استدعته الشهوة ، وتقبلته الطبيعة بقوة غليه ، ولا لحم أسرع انهضاماً وأخص بالشهوة موقعاً من لحم الصيد المطرود المكدود ، لأن ذلك ينضجه الخ . . .

وإن كان الحيوان غليظاً ، عكست هـذه الأسباب طبعه ، ونفت ضرره ، وقمعت كيموسه ؛ وربما أكل اللطيف الخفيف على تعنف وتكره ، فكان إلى أن يأخذ من الأعضاء ، أقرب من أن تأخذ منه الأعضاء

وتأول الرواة معنى امرئ القيس فى قوله :

رُبَّ رامٍ من بنى ثُعَلٍ ... مُخرجٍ كفَّيْهِ من سُتَرِهْ
فأتَتْهُ الوحشُ واردةً ... فتمتَّى النَّزْعَ من يَسَرِهْ
فرَماها فى فرائصِها ... من إزاءِ الحوضِ أو عُقُرِهْ
مطعمٌ للصيدِ ليس لهُ ... غيرها كسبٌ على كِبَرِهْ

على المدح بإدمان الصيد ، ومن الطائر فيه ؛ واستثناؤه بقوله على كبره زائد عندهم فى المدح لوصفه أنه يتكلف من ذلك مع قدح السن وأخذها منه شيئاً لا يعجزه مع هذه الحال ، ولا يلحقه فيها ما يعرض للمسن من الفتور والكلال ؛ وبنو ثُعل بنو عمه لأنهم فخذ من طيئ ، وكندة فخذ من مرّة ، ومرّة أخو طيئ فلم يرد غير المدح ؛ وهـذا الرامى عمرو الثعلى ، وكان من أرمى الناس الخ . . .

وفى أبيات امرئ القيس هـذه ، أدب من أدب الصيد ، ولطائف حيله ، وهو قوله : فتمتى النزع من يسره ، وتمتّى وتمطّى واحد ، أبدلت التاء من الطاء ، وفى تمتى معنيان : أحدهما الاعتماد والتوسط من قولهم حصلته فى متى كمّى ، فتمتاه بمعنى تعمد متاه (كذا) والآخر بمعنى إبدال التاء من الطاء يريد التمطى [1] وهو أن مريد الصيد بالرمى يتمطى بيساره نحو الأرض مرات حتى يؤنس الطريدة فتألف ذلك منه ولا تذعر له ، ثم حينئذ يستغرق نزعه ويمضى سهمه

ولا يزال امرؤ القيس فى كثير من شعره يفخر بالصيد ، وأكل لحمه ، كقوله الخ . . .

ومن فضائل الصـيد ما فيه من التبريز على ركوب الخيل صعوداً ، وحدوراً ، وكراً ، وانكفاء ، وتعطفاً ، وانثناء الخ . .

وقال بعض الحكماء : قلما يمعش ناظر زهرة ، أو زمن مريغ طريدة ، يعنى بذلك الخ . .

وليس يكبر الملك الرئيس المعظم الوقور ، إذا أثيرت الطريدة أن يستخف نفسه فى اراغتها ، ويستحفز فرسه فى أثرها الخ . . وحكى عن عظماء الأكاسرة الخ . . وعن الخلفاء الراشدين الخ . .

ومنها ما يسنح فيه من النشاط والأريحية الخ . . . وربما قويت النفس حينئذ ، وانبسطت الحرارة الغريزية فعملت فى كوامن العلل . أخبرنى غير واحد ممن شاهد مثل ذلك : أنه رأى من غدا إلى الصـيد وهو يجد صداعاً مزمناً ، فظفر فعرض له رعاف حلّل ما كان فى رأسـه ، وآخر كانت به سلعة بجنب عن بطها قويت عليها الطبيعة فانبطت ، وآخر كان فى بدنه جرح الخ . . . وربما عكس ما يعرض له من ذلك ذميم حالاته ، فآلت إلى ضدها من الخيرية حتى يتشجع إن كان جباناً ، ويجود وإن كان بخيلاً ، ويتطلق وجهه وإن كان عبوساً

أخبرنى بعض الأدباء ، عن رجل من الشعراء ، قصد بعض الكبراء فتعذّر عليـه ما أمله عنده ، وحال بينه وبينه الحجاب وكان آلفاً للصيد ، مغرى به ، فعمد الشاعر إلى رقاع لطاف ، فكتب فيها ما قاله من الشعر فى مديحه ، وصاد عدة من الظباء والأرانب والثعالب ، وشد تلك الرقاع فى أذناب بعضها وآذان بعض ، وراعى خروجه إلى الصيد ، فلما خرج كمن له فى مظانه

(١) قال الجاحظ : فانظر إلى حذقه بالمسألة ، ولطفه فيها ، ابتداء بكلب تسهل القصة به ، وجعل يأتى بما يليه على ترتيب وفكاهة ؛ حتى نال ما لو سأله بديهة لمـا وصل اليه . « انظر أخبار أبى دلامة فى الجزء التاسع من الأغانى »

(١) قال فى اللسان والتاج . والتمتى فى نزع القوس من العصب

ثم أطلقها فلما ظفر بها واستبشر، ورأى تلك الرقاع ووقف عليها زاد في طربه واستطرف الرجل واستلطفه وتنبه على رعى ذمامه، وأمر بطلبه فأحضر ونال منه خيراً كثيراً

ومن شأن النفس أن تتبع ما عزّها، وبعد من ادراكها الخ ... وهذا شبيه بما تأوله يحيى بن خالد البرمكي في توصية ولده بتقديم الغدات أمام الحبات فانه قال لهم الخ ...

ولو أن محاول حرب، أو مقارع جيش، ملك عدوه قبل مكافحته إياه حتف أنفه، أو انفل جيشه من سوء تدبيره فانصرف، أو جاءه ضارعاً طالباً لأمانه، لما كان مقدار السرور بذلك كمقداره لو نازله فقهره، أو بارزه فأسره، وهذا بين في اللاعب بالشطرنج الخ ...

ولو أن ملكاً يهدى له في كل يوم عدد كثير من أصناف الوحش والطير لم يبلغ فرحه بذلك جزءاً واحداً من اغتباطه بقبرة ضئيلة يدأب في صيدها، أو عكرشة هزيلة يظفر بها الخ ..

وقال بعض المحدثين :

لولا طراد الصيد لم يك لذة ... فتطاربى لى بالوصال قليلا
هذا الشراب أخو الحياة وماله ... من لذة حتى يصيب غليلا

وأخذ هذا المعنى محمد بن الوزير الحافظ الغسانى فكساه لفظاً حسناً، في كلمة له يعتذر فيها من تأخير هدية :

أخر ما عندي لتطلبه ... ولذة الصيد حين تطرده

وقال بعض الكتاب يستعفى رئيساً من برّ بعث به اليه، (بعد أن مدحه بأبيات) :

لا أستلذ العيش لم أدأب له ... طلباً وسعياً في الهواجر والغلس
وأرى حراماً أن يواتيني الغنى ... حتى يحاول بالعناء ويلتمس
فاحبس نوالك عن أخيك موفراً ... فالليث ليس يسيغ إلا ما افترس

ومن فضل العلم بالصيد ما حكاه لى أبى عن اسحاق بن ابراهيم السعدى عن عبد الملك بن صالح الهاشمى عن خالد بن برمك ؛ أنه كان نظر وهو مع صالح الهاشمى صاحب المصلى وغيره من رجال الدعوة، وهو على سطح قرية نازل مع قحطبة حين فصلوا من خراسان وبينهم وبين عدوهم مسيرة أيام إلى أقاطيع ظباء مقبلة من البر حتى كادت تخالط العسكر، فقال لقحطبة : ناد في الناس بالاسراج والالجام وأخذ الأهبة، فتشوف قحطبة فلم ير شيئاً يروعه، فقال لخالد : ما هذا الرأى ؟ فقال : أما ترى الوحش قد أقبلت، إن وراءها لجمعاً يكشفها ؛ فما تمالك الناس أن يتأهبوا حتى رأوا الطليعة، ولولا علم خالد بالصيد لكان ذلك العسكر قد اصطلم

وعذل بعض أبناء الملوك في الاستهتار بالصيد والشغف به الخ

ولما شهد أبو علقمة المزنى عند سوار أو غيره من القضاة ؛ وقف في قبول شهادته، فقال له أبو علقمة : الخ

ومن فضائل الصيد أنه كان الملك من ملوك فارس الخ . . .

وكانت لبهرام شوبين حظية الخ . . .

وذكر الأصمعى عن الحارث بن مصرّف الخ . . .

ووقف بعض الملوك بصومعة حكيم من الرهبان فناداه فاستجاب له فقال له : ما اللذة ؟ فقال له : كبائر اللذات أربع، فمن أيهن تسأل ؟ فقال : صفهن لى، فقال : هل تصيدت قط ؟ قال : لا (وسألة عن خصال) قال : لا، قال : فما بقي لك من اللذات ؟ ..

يتبع — علي الطنطاوى

إلى الأستاذ البرازي

حول الفقه الاسلامي
والفقه الروماني
للأستاذ صالح بن علي الحامد العلوي

قرأت ما سطره قلمكم أيها الأستاذ الفاضل في العدد ١٠٨ من الرسالة الغراء رداً عليّ وعلى الأستاذ علي الطنطاوي وما كدت أوغل في أسطره حتى أرسلت زفرة حارة تتخللها آهة من أعماق صدري لا لأنك خالفتني في رأيي أو لأنك أتيت لتدافع عن الفقه الروماني أو غيره . ولكن لتلك الروح التي تبدو من خلال سطاوره ، روح الافتتان بأوروبا وما تقوله أوروبا والاستماتة في سبيل الدفاع عنها والفناء فيها وعدم الاستقلال أمام ما تمليه من الآراء والتقريرات ، ثم الوقوف مع الاسلام بروح ميتة تزعمونها روح العدل وإنصاف البحث العلمي كما سماها لكم الشيوخ المحنكون ، والحقيقة غير ذلك . ويا ليت الأمر وقف عند هذا الحد فقط ولكنه تعدى إلى الازراء بالعصبية الدينية واستهجان العاطفة القومية ودعوة الشباب المسلم إلى هذا التقليد الأعمى الذي تسمونه الانصاف لأوروبا ، وإلى الاقتداء بأئمة أوروبا الأحرار الذين لا ينطقون عندكم عن الهوى بل عن علم وبحث وانصاف . هذه النزعة الغالية جعلتني أرسل الآهة تلو الآهة على الشباب المسلم المتعلم منا معاشر العرب ممن يفدون على أوروبا القوية المادية بقلوب فارغة وطباع فطيرة غير مجهزين من سلاح الاسلام إلا بوراثة اسمه ، يأتون ليكرعوا من غمار موارد أوروبا ويتشبعوا من علومها وثقافتها . فتنفحهم من فتونها وحبها وتملأ صدورهم الفارغة مما تشاء هي لا ما يشاء الآباء . فيعودون وقد تشبعوا بثقافة أوروبا وأخلاق أوروبا والتعصب لأوروبا أيضاً . وقد يكونون مزودين من كل شيء إلا من تعاليم الاسلام والحماس للاسلام ، وماذا يصنعون أمام أوروبا وقد أتاهم هواها قبل أن يعرفوا الهوى ؟ إن أمثال هؤلاء لا يعدّون عندي إلا جرائم لآبائهم تتكرر بتكرر أنفاسهم

ووالله إننا لا ننكر ذات أوروبا ولا علوم أوروبا ولا ثقافة أوروبا ولكننا ننكر هذه النزعة الغالية ، وهذه الثقافة البيضاوية الصورية التي يتمشدق بها بعض الشبان المتطرفين . أما علومها وأما ثقافتها الجدية وصناعاتها النافعة فإننا في مقدمة من يحبذها ويدعو اليها ولكن بعد غرس العصبية الدينية والعاطفة القومية في نفوس الناشئة حذراً من هذا الفناء وهذا الادّغام المشين

ولست أدعي انطباق كل ما قلت عليك يا حضرة مناظري الأديب ! كلا ! ولكني أقوله بمناسبة ما رأيته ملموساً في مقالك من نزعة الافتتان بأوروبا وتقليدها ودفاعك عنها دفاع المستميت ، ثم تظلمك لعلمائها بعبارات جعلتني أتخيل أننا صرنا في عصر صار فيه الشرق رب الصولة والدولة وكان الغرب على عكس ذلك ، وكأنك قمت محتسباً تستعطف العالم لانصاف الغرب الضعيف المظلوم من بني الشرق وعنت الشباب

وماذا صنعنا سوى أننا أنكرنا أن يكون الفقه الاسلامي متأثراً بالقوانين الرومانية ، وأنه إذا كان بين الفقهين تشابه فليس الحكم على أن الفقه الاسلامي هو المتأثر بأولى من العكس ، فأدلة الفقه الاسلامي صريحة والمستنبطون منها وهم مؤسسو المذاهب لا يجوز أن يقال بتأثرهم بالقانون الروماني إذ لم يتصلوا بالرومان ولم يعرفوا لغتهم ونشأوا ودرجوا في محيط إسلامي وفي ثقافة اسلامية محضة ، ومن خطل الرأي وعدم الانصاف أن يقال لمجرد وجود التشابه بين الفقهين إن الفقه الاسلامي هو المتأثر أو الآخذ مع فقد الدليل وتوفر القرائن على ضده ، ولم لا يقول زاعمو التأثر إن هذا التشابه وليد المصادفة ؛ إذ أن الدين الاسلامي أتى في أحكامه بما يوافق العقل السليم من العدل والانصاف ، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح ، فما أمرنا بأمر فقال العقل السليم ليته نهى عنه ، ولا نهى عن أمر فقال العقل السليم ليته أمر به ، هكذا وصفه بعض الصحابة ، وعن هـذا نشأ الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة في مسئلة الوجوب بالعقل أو بالشرع والقول بالتحسين والتقبيح العقليين ؛ فلا يبعد أن تكون العقول التي عنيت بوضع القوانين لتحديد الحقوق وفصل الخصومات ، قد صادفت بعض ما قرره الفقه الاسلامي الملازم لمطابقة العقل في قضاياه وأحكامه ، وقد نقلنا حكاية اختفاء القوانين الرومانية وزعم ظهورها بعد ، وأن تاريخ ظهورها بزعمهم كان بعد تأسيس المذاهب وانصرام عصر

أعقها ومن المستحيل تأثرهم بشيء لما يظهر بعد من اختفائه ؛ وإذا كنا رجحنا أن القوانين الرومانية هي الآخذة عن الفقه الاسلامي فلم نقل ذلك اعتباطاً ولكن ببراهين نعتقدها كافية في ذلك ، وأخذ أوربا عن علوم العرب غير مجهول كما تكرره المجلات العلمية عند كل مناسبة

القول باختفاء القوانين الرومانية ثم ظهورها

أما القول بأن القوانين الرومانيـة قد اختفت ودرست ثم ظهرت فجأة ؛ فلسنا نحن مبتدعيه وإنما قاله علماء غربيون ، فقد حكى جيبون أن هذه القوانين — أي قوانين الاثنتي عشرة لوحة — بقيت الى زمان جوستنيان ثم فقدت ، ونقل العلامة موشهيم الجرمني في تاريخ الكنيسة في حوادث القرن الثاني عشر في البند ٥ من الفصل الأول من القسم الثاني من الكتاب الثالث : إن الملك لوثاريوس اكتشف في افتتاح أملفي سنة ١١٣٧ نسخة مجموع الشريعـة الشهيرة التي كانت مجهولة على أجيال كثيرة ، فأتى بها الملك الآن الى مدينة بيزا ... الخ

ولا شك أن القوانين المعمول بها قبل ظهور هذه القوانين كانت مغايرة لها أي مغايرة كما سيأتي . وأول من ابتدع هذه الحكاية أي حكاية اختفائها واكتشافها هو لود فيكوس سنة ١٥٠١ م ، ثم راجت هذه الحكاية وانتشرت في القرون الوسطى الى الآن (انظر جيبون جزء ٤ صفحة ٥٥٥) ، وقال اللورد ماكنزي في كتابه على القانون الروماني صحيفة ٦ إن هذا القانون (يعني قانون الاثنتي عشرة لوحة) لم يصل الى أيدينا وغاية معلوماتنا فيه تستند على بعض أوراق مفرقة وبعض ملاحظات تاريخية مما فقدت آثاره ... الخ

القوانين الرومانية القديمة

أما القوانين الرومانية القديمة ؛ فهـذه نماذج منها ذكرها الأستاذ عبد الجليل سعد قال : إن فقـه الرومانيين الأولين كان أشبه شيء بالفضول المضحكة (انظر تاريخ الدولة الرومانية للعلامة جيبون جزء ٤ صفحة ٥٢٧) وذلك لأن جميع معاملاتهم كانت لا تخلو من الحركات والطقوس ، وكانوا لا يفرقون بين المعاملات والأحوال الشخصية ، بل كانت الصيغة المستعملة واحدة للجميع وهي مايسمونه : (مانسيباشيو) فاذا أراد أي إنسان إجراء أي عمل قانوني سواء كان زواجاً أو بيعاً أو وصية أو غيره ، فعليه أن يحضر القباني ومعه الميزان ، وعليه أن يحضر الشهود الذين يشترط ألا يقل عددهم عن خمسة ، وعندئذ يبتدئون في عمل الطقوس المفروضة ؛ فيتلون بعض العبارات ويصنعون بعض الاشارات أو الحركات ، ثم يمسك المشتري أو الموصى اليـه أو الموهوب له قطعة من النحاس ويضرب بها في كفة الميزان لتقليد الطريقة القديمة المتبعة في وزن البدل ، ثم بعد ذلك يتفوه الطرف الثاني بجمل معلومة تدل على أنه قابل ومقر على هذا العمل (انظر ماين على القوانين القديمة صحيفة ٢٩٥ و ٣٠٥) فلم يكن إذن لدى الرومانيين القدماء عقود مختلفة تتوقف على النية ، بل كان من الضروري إجراء حركات معينة ، فكان الخصمان في الدعوى يتكافحان أمام القاضي ، وكان المتظلم يمسك بخصمه من قفاه ويتضرع الى إخوانه أن يساعدوه ، وكان الموصى اليه لا بد وأن يخلع لباسه ويقفز ويرقص ، وكان الأب هو الحاكم والقاضي في أسرته . وجميع أفرادها داخلون في ملكه يتصرف فيهم كما يتصرف الانسان في ملكه المنقول ، فله بيعهم كالعبيد سواء كانوا نساء أو رجالاً (راجع جيبون صحيفة ٥٦٣ جزء ٤)

ولم يكن حق الملكية معروفاً لديهم على النسق الذي نعرفه ، بل كان الملوك يقطعون الاقطاعات للضباط والعساكر ، وهؤلاء يجبون الخراج من أصحابها المزارعين (ماين صحيفة ٢٦٥) ، ومن أراد الزواج يذهب ويشتري زوجتـه من والدها على الصورة المتقدمة مع إحضار القباني والميزان والشهود ، ثم قال : أما قانون الاثنتي عشرة لوحة فلم يزل أصلاً ثابتاً ، ثم قال : ومن يطلع على أحكام هـذا القانون يجد بعضها في غاية الشدة والقسوة كمعاملة المدين المفلس ، فانه كان يعمل ثلاثين يوماً وهو مسجون مكبل بالحديد والقيود والسلاسل التي لا يقل وزنها عن خمسة عشر رطلا ثم يعرض ثلاث مرات في السوق العمومي لاستجداء الأصحاب والأقارب ، وبعد انتهاء الثلاثين يوماً إما أن يعدم أو يصير عبداً للدائن يبيعه ويقضي دينه ، وإذا كان له جملة دائنين حق لهم أن يجزئوا لحمه قطعاً وينتقم كل منهم لنفسه بتقسيم بدنه هذا التقسيم الشنيع (انظر جيبون جزء ٤ صحيفة ٥٨٩ الى ٦٠٠) وكانت أحكام الرومان الجنائية قاسية للغاية ، فكانوا يلقون المذنب لافتراس

الوحوش الكاسرة فى محل يسمى : الأنفتياتر ... الخ ما ذكره

هذا بعض ما قاله العلماء الغربيون عن الفقه الرومانى القديم ومخالفته للجديد ، وهو كاف — بلا شك — فى خرق الاجماع الذى ادعيته عندهم يا حضرة الأستاذ على استمرار القانون المعهود بينهم من ذلك العهد ، ولا نناقشك الآن فى أصل احتجاجك بسكوت الأوربيين عن جرح القانون الرومانى المعهود لديكم أو تلفيقه إلا بهذا ، ولا نعيد لك ما قاله العلامة ابن تيمية ، ولا أبو الوليد ابن خيرة ؛ فقد يكون كل كلام لا يروج لديكم إلا إذا كان عليه الطابع الأوربى ، فذاك عند البعض قضاء لا يرد قائله ، غير أننا سنمهلكم وننتظر حتى يأتى يوم تصيح بكم فيه أوربا الحبيبة : أن أصلحوا معلوماتكم ، وغيروا مذكراتكم ؛ فعند ذلك تخفون أصواتها قائلين : غطى هواك وما ألقى على بصرى !

سقوط قياس القانون الرومانى بالقرآن

قلت أيها الأستاذ فى الصفحة ١٢١٦ من الرسالة : (إن البينات تختلف بحسب الأمور المراد اثباتها ، فاذا كانت هذه الأمور غير مدونة بنفسها كالحديث الشريف فلا بد حينئذ من ذكر الأسانيد وسرد الروايات ، أما إذا كان المراد اثباته مدوناً بنفسه لم يعد مجال حينئذ إلى الأخذ بطريق الرواية والاسناد ، وصار لابد من التدليل عليه بنسخه الأصلية ، التى وضع بها ، أو بالنسخة التى أخذت من هذه ، فالقرآن الكريم مثلاً لما كان قد دون فى العهد الذى نزل فيه وجمعت صحفه المدونة فى عهد الخليفة الأول ، وانتقلت الينا نسخ مخطوطة منه كتبت فى عهد قريب من عهد نزوله ، لم يلجأ إلى الرواية لاثبات صحته ؛ وكذلك أيضاً شأن الشرع الرومانى الخ) وقلت فى صفحة ١٢١٥ : (لئن جاز فى نظرنا لأحد من النصارى أو اليهود المتعصبين أن يجزم بأن القرآن الذى بأيدينا هو غير القرآن الذى أنزل على محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأنه مختلق من جماعة من علماء المسلمين الحديثين ، مكتفياً للتدليل على ذلك بأن يقول لنا : هاتوا دليلكم ، فقد حق كذلك لصاحبى القائلين المتحمسين أن زعما ما زعماه)

فما أغناك أيها الأستاذ عن قياس القانون الرومانى بالقرآن الكريم ؛ وزعمك أن الاستناد فى اثبات كونه هو المنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما هى نسخه المخطوطة القديمة الموجودة ، لا روايته الصحيحة ، فحينئذ هو عندك فى نسبته إلى الشارع (ص) كنسبة القانون الرومانى المعروف إلى جوستنيان ؛ وهذا تقرير لا أعلم مسلماً قاله قبلك أيها الأستاذ الفاضل ، فالعمدة فى اثبات القرآن الكريم ليست نسخه المخطوطة فحسب ، بل المقرر حتى عند تلاميذ المدارس الابتدائية أن العمدة فى اثبات القرآن الكريم إنما هو التواتر ، والتواتر أقوى الأسانيد ، وقد تلقاه الجيل عن الجيل ؛ ورواه الخلف عن السلف بالتواتر فى كل عصر من عهد نزوله إلى اليوم ، ولم يقل أحد بأن العمدة فى اثبات القرآن إنما هى نسخه المخطوطة القديمة فقط . وكيف يقاس القانون الرومانى الذى لا يعلمه إلا الأفراد من المتعلمين بكتاب يتلى فى كل مسجد وزاوية ، بل فى كل بيت فى بلاد الاسلام ، وفرض على كل فرد من المسلمين تلاوة شىء منه فى كل يوم خمس مرات ، ذلك بعد أن حفظه الجم الغفير عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى عصره ، حتى ثبت أنه قتل فى يوم اليمامة فقط سبعون قارئاً ، ورواه الألوف عن الألوف من ذلك العصر ، وهكذا دواليك إلى اليوم ، ولا يبلغ الطفل المسلم سن التمييز إلا ويوجه لتعلم القرآن الكريم قبل دراسته لأى شىء كان

أين يكون قانون لا يعرفه إلا الأفراد من المتصدين لدراسة الحقوق من كتاب يدرسه العابد فى محرابه ، والتاجر فى سوقه ، والزارع فى ريفه ؛ ويشترك فى تلاوته الشريف والوضيع ، والذكر والأنثى من الطفل الصغير إلى الشيخ الكبير ، حتى أننا لو فرضنا أن المدنية المصرية قد عمت العالم وتخللت أوساطه الرفيعة والمنحطة ، وأريد أن يتلى القرآن بالمذياع على كل ذى مصحف لانفتحت عند سماعه مائة مليون مصحف فى شرق الأرض وغربها ، ولو أخطأ القارئ فى فاتحته لرد عليه عند ذلك فوق ثلثمائة مليون صوت من أنحاء الدنيا ! . . . .

هل يقاس هذا إلى ذاك إلا إذا قيست الذبالة بالغزالة ؟

وقلت : (أما المناقضات التى وقع فيها ... صالح العلوى ... فأشير منها إلى ما جاء فى السطر الثانى من الجانب الأول من الصفحة الـ ٧٨١ من الرسالة ، فبعد أن قال : (إن الفقه الرومانى اختفى ثم اكتشف ولم يظهر ولم يعمل به إلا فى القرن الثانى عشر وأنه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم قبل القرن الحادى

عشر) وقال في السطر ٢٢ من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أ كذوبة) ثم ما لبث أن استند إلى قول العلامة سافنيه : (إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع) الخ

ومحصل ما نسبته إليّ أيها الأستاذ أنني أؤيد دعوى اختفاء القوانين ثم اكتشافها ثم أدعي أنها لم تختف بل بقيت معمولاً بها وأستند لذلك بقول سافنيه :

هكذا شاء قلمك يا أستاذ الحقوق أن يصنع ، وهكذا أراد أن يمسخ الحق ليصوره باطلاً فيقطع من عباراتي ما شاء ويصل ، ولا يتورع من أن يتلع بعض الكلمات بلعاً ؛ ذلك ليبني مما قلته تناقضاً

وانظروا أيها القراء ثم احكموا ، أما ما قلته في السطر الثاني من الصفحة ٧٨١ ؛ فهذا نصه بالحرف : (ثم إن الفقه الروماني — على زعم أنه اختفى ثم اكتشف — لم يظهر ولم يعمل به إلا في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر بعد الميلاد ، أما قبل الحادي عشر فانه لم يكن معروفاً حتى عند الرومان أنفسهم ، ولا شك أن الفقه الإسلامي قد قرر وصنف الخ) فقلت هنا على زعم أنه اكتشف الخ ، لأبين أن تأثر الفقه الاسلامي بالفقه الروماني غير معقول حتى على زعم أن الفقه الروماني الموجود هو القديم نفسه وأنه اختفى ثم اكتشف لأنه على هذا الزعم لم يظهر بزعمهم إلا بعد الحادي عشر وقد وجد فقهاء الاسلام وألفوا وصنفوا قبل ذلك بزمن طويل وهناك قلتُ : وما قيمة زعم تأثر الفقهاء بالقوانين الرومانية إذا كان مصنفو الفقهاء وأئمتهم ومنهم : مالك والشافعي وأحمد وأبو حنيفة والثوري والأوزاعي الخ . درسوا وألفوا وصنفوا قبل أن توجد أو تعرف القوانين الرومانية للرومان أنفسهم . أليست هذه مهزلة مضحكة ؟

فهل سوغ لك هذا أيها الأستاذ أن تنسب إليّ من هذا أنني أقول باختفاء الفقه الروماني ثم ظهوره ؟

وقلت إنني قلت في السطر ٢٢ من الصفحة نفسها (إن دعوى اختفائه أ كذوبة) وجعلتها بين قوسين ، وهذا يفهم أنها بالحرف ، وأصلها بالنص : (إن دعوى اختفاء الفقــه الروماني ثم ظهوره بعد ستة قرون أ كذوبة لا مرية فيها ، وقد كان الفقه الروماني معروفاً وهو أشبه شيء بالفصول المضحكة) ، ولكن قلمك يا أستاذ الحقوق أدى منها هذه الكلمات الثلاث أو الأربع وذهبت الكلمات الباقية ضحية في سبيل خلق التناقض الموهوم !

وأما العبارة الأخيرة فلم تذكر سطرها ولا جانبها ، وقد يكون ذلك لكونها تبعد عما قبلها بأسطر والغرض إيهام القراء وجود التناقض في عبارة متصلة وقد ذكرتها أعني العبارة الأخيرة بنصها ولك الشكر ، غير إنك اخترلتها اختزالاً كي تجعلني أمام القراء ملزماً بها بزعمك بالاعتراف بأن الفقه الروماني الحديث هو القديم ، والعبارة (ثم إن حكاية اختفائها وبروزها في القرن الحادي عشر لم يقل بها غير هولود فيكوس سنة ١٥٠١ م ثم راجت . أنظر جيبون ٤ صفحة ٥٥٥ ، وقد اعتبرها بعض العلماء إذ ذاك غير حقيقة فقد قال القانوني الشهير سافنيه إن القوانين الرومانية لم تختف لأنها ظلت معمولاً بها إلى اليوم من غير انقطاع . اه ، ويعني بها القوانين القديمة المتقدم ذكرها) هذه عبارتي حرفياً ، وبهذا وذاك ينكشف للقارىء الكريم أنني لم أقل إن الفقه الروماني اختفى ثم اكتشف إلا وأنا مبين بأن ذلك زعم ، وقلت إن الرومان قانوناً معروفاً كله همجية وقسوة ، وهو الذي لم يختف وهو المعنيّ بقول سافنيه ، وكلامي صريح في ذلك وبهذا يتضح ألا تناقض وإن كان فانما هو في مخيلة الكاتب الأديب !

بامينا الفصبية والعاطفة القومية !

وتقول أيها الأستاذ : فأولى بشبابنا ألا يكونوا أسرى عواطفهم من تعصب للدين ثم تقول : (إن في دعاواهم ما يضر بالاسلام ويسيء بثقافته الظنون)

فيا عجباً لك أيها الأستاذ أدفاعنا عن الإسلام بالبرهان والمنطق يضر بالاسلام وتعصبنا لديننا يسيء بثقافتنا الظنون ؟ هكذا تعصبنا نحن فقط يضر بديننا ؟ لماذا يضر التعصب (على فرض وجوده) بنا وبديننا ولم يضر بأروبا ولا بدينها وقد ضربت فيه الرقم القياسي وبلغت النهاية ؟ ألم تتقول أروبا على الاسلام بما ليس فيه وتقذف أهله بما يندى له جبين الشرف ، وترمى نبينا العربي صلى الله عليه وآله وسلم بفرى تصرخ منها الحقيقة ويضج لها التاريخ ؟ فعلت ذلك ولا تزال تفعل إلى اليوم . فهل أضر بها لديكم فتيلاً ؟ لقد أشبع الأوربيون ديننا زوراً وأوسعوا تاريخنا مسخاً وتشويهاً مما لو جمعنا بازائه كل ما قاله متعصبو المسلمين فيهم لما كانت نسبته إليه إلا كنسبة التأفيف إلى حرب البسوس ؛ وهاهم أولاء يملأون الدنيا تبشيراً بدينهم ، ودعاية لهم غير آبهين عند ذلك بأن

يسفهوا الأديان ويكيلوا أنواع الأذى على مشرّعيها . فهل أضر ذلك أيها الأستاذ بمسيحيتهم ؟ وهل أساء بثقافتهم لديكم الظانون ؟ أو هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت

أما إذا قمنا لندافع عن ديننا بالتي هي أحسن ونظهر فضل تشريعه على العالم ببراهين كافية وأدلة وافية متذرعين بأقوال بعض الأوربيين أنفسهم غير قاذفين لأحد ولا متهجمين على أحد قلتم إننا متعصبون نسرف في القول على علماء أوربا الذين لا يمكن أن يزوروا ، وأنهم وضعوا الحقيقة في أعلى المنازل وجعلوها فوق كل شيء . لأن فلاناً ألف كتاباً عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وفلاناً قال كلمات تعتبر ثناء على الاسلام ، والآخر مدح فلاناً المؤرخ العربي وقال إنه من سلف علمائنا ، فأولئك قوم رضى الله عنهم ورضوا عنه ، فاسمعوا فلن يقولوا إلا حقاً ، ولن يخبروا إلا صدقاً . ومعنى هذا أغلقوا أبواب البحث عن أوربا وتلقوا كل ما تلقيه عليكم بالتسليم . هكذا احتججتم وبهذا قضيتم ؛ فما لكم كيف تحكمون ؟

أما العصبية أيها الأستاذ فما أعظم رزء قومنا بفقدها . وأما العاطفة القومية فما أحوج أمتنا إلى الشعور بها فإننا الآن في زمان لا ملاذ فيه إلا للقوة ولا صولة فيه إلا للعصبية . فنحن في عهد تنشد فيه العصبية وتحمد فيه العاطفة الدينية ، ومن لا يتعصب لدينه لا يتعصب لقومه ولا وطنه ؛ وهل تلتمس القومية عند من لا عصبية له إلا كما تلتمس عند الديوث خلال الشرف . إنني أنصحكم أيها الشباب عن هذا الضعف وأحذركم عن هذا التلاشي والاندماج في أوربا ، إنكم في حاجة لغير هذا

فيا شباب العرب ! كونوا في عصبيتكم لدينكم ناراً تتلهب ، وكونوا في عواطفكم أعاصير تلوى بكل ما هو أمامها من باطل وبغى . وكونوا في مبادئكم جبالاً لا تعبأ بالزلازل ولا تحركها هوج العواصف

إن المجد والحرية يدعوانكم من وراء القرون أن تتقدموا إلى الأمام . فتجهزوا يا أبناء جنود الفتوح وسلالة فوارس بدر . فحيا الله عصبية العروبة وعاطفة الاسلام ، وسلام على صدور امتلأت أحناؤها بنور الاسلام ، وفي سبيل الله نفوس للآباء أزهقت طعناً بالرماح وقعصاً بالسيوف ضحايا على أعتاب الاسلام !

سنغافورة — صالح بن علي الحامد العلوي

المصيف ...

للأستاذ محمود خيرت

خلا الرَّبعُ في الصيف من ربّه … فهلاّ خلا الدمعُ من غَربه
وكم ضاق ربعٌ بسُكانه … فولّوا فراراً على رَحبه
وحَسْبهمُ القيظ عذراً فمن … يؤاوى الجحيمَ إلى جَنبه
ترى الناس في زُمَر يركضون … منازيحَ كالطير في سربه
إذا سعّر الحرُّ رطْبَ النسيم … تنقّل يبحثُ عن رَطْبه
وليس النِّفارُ ووعثاؤه … بصارفه عن جَنى طلبه
ومهما تمزّز طعمُ الدواء … فإنّ السلامة في شربه

* * *

وأما المصيف فمن ذا الذي … تعلّق منه ولم يُصبه
هنالك الطبيعةُ فتّانةٌ … ترفّ من الحسن في ثوبه
هناك الجمال وسلطانه … هناك الهوى بأساليبه
إذا ما الغواني رمى لحظهنّ … شربت الدموعَ على نخبه
وهمّ الخلىُّ ثقيلَ الهموم … يُسِرّ إلى جاره ما به
وقد سبقتْ وعيَه كفُّه … إلى موضع الجُرح من قلبه
وتخطر في الشطّ أغصانهنّ … دلالاً فيوغلُ في عُجبه
وعُجْبُ المليحات من دأبهنّ … وما كان للشطّ من دأبه

* * *

ويجلسن تحت مظلاتهنّ … تَشاوى وكلٌّ إلى صحبه
يطوف الحديث بأرجائهنّ … ألذّ من الصفو في ذَوبه
إذا حل أذْنَ نزيلِ الشباب … لواهُ وزعزع من لبّه
وإن حلّ أذن نزيل المشيب … أعاد الشّباب إلى شَيبه
ويسمعُه الطير في روضه … فيهتزّ سُكراً على قضبه
ويجرى النسيمُ به عاطراً … فيعزو الأنوفَ شذا طيبه

* * *

ومنهنّ مَن راقها في العُباب … زئير الضّراغم من صَخبه

فوافقته تسبيحُ جبَّارةٍ فهل خرجت فيه من صُلبه
فما راعها هولُ أمواجه ولا راعها الهول في جُبّه
ومن كان في الخطب ذا مرّة أصاب المقاتل من خَطبه
ومن سار للأمر لم يتّخذ له عدّة ضلّ في دربه
فهذا المصيفُ ولذّاته وهذا هو السرّ في حُبّه
فشتانِ بين لهيب الجحيم وطيب النعيم وأسبابه

اسكندرية محمود غنيم

تحية مصر

بقلم الياس قنصل

أبليتُ كلّ تصلّبي وعُرامي قال الزمانُ وما بلغت مرامي
جمعتْهما بيضُ الخلال ووثّقتْ تلك العرى لغةُ الكتاب السامي
يتسابقان إلى العُلا بأخوّةٍ وشّى سناها صفحةَ الأرحام
قطران في عقد العروبة برّزا أرضُ الشآم وموطن الأهرام

***

يا مصرُ «سعدُك» كان أيضاً سعدنا في دفع شر الظلم والظلام
وجهادُ فتيةِ جلّق إلك حصّة منه، تخلخل أضلع الأخصام
من يخبر الغربيّ أنّ رجاءه في شرقنا وهم من الأوهام
يحظى بنيل الحقّ شعبٌ صادقتْ أسيافُه دعماً من الأقلام

***

يا مصرُ يا أمّ الحضارات التي مهدتْ سبيل الحقّ للأفهام
ما دشّن التاريخُ قبلكِ للورى شعبٌ بآي السؤدد المترامي
أنتِ التي نطق الجمادُ بمجدها من غير ما عيٍّ ولا إبهام
في كلّ تمثالٍ هناك عصارة من عزّكِ المبنيّ بالإقدام

***

في أيّ عصرٍ لم تكوني معقلاً من كلّ نائبةٍ لكلّ مضام
لجأ المسيحُ إليكِ فاتّضعتْ له بعد المناخ عواصفُ الأيام
وأتاكِ أعلامُ البيان فأمّنوا من شِرّة الحكّام والأحكام
خلقٌ لنيلكِ ما تضاءل فضلُه بل عزّزته فضائلُ الإسلام

***

للشعر فيكِ بلابلٌ صدّاحة علويّة الألحان والأنغام
قبستْ من الروض الجمال فكان في إنشادها بسنائه النمّام
لا ترتضي الخيالا يوماً سوى مغنى الأثير ومسرح الأجرام
قلبُ العروبة منصتٌ لنشيدها إنصاته للوحي والإلهام!

***

كم في سجلّ الفنّ عندكِ من فتى بلغ النبوغُ به أجلّ مقام
إن كان فخرُكِ بالمثّل رائعاً ما القول في النحّات والرسام؟
في كلّ ميدانٍ لأهلكِ جولةٌ محفوفةٌ بالفوز والإعظام
أنتِ المليكةُ والفنون لآلئٌ في تاجكِ المتألق البسّام

***

يا مصرُ لم أنسَ بذكركِ مرّةً إلّا وروح الشوق طيَّ كلامي
إن كانت الأقدار تأبى أن أرى فيكِ البهاء فأنتِ في أحلامي
هذي مناجاتي لنيلكِ أكبرتْ بيني الكنانة حكمةَ الأعوام
لا زلتِ للمجد المؤثّل شارةً وعليكِ منّي ألف ألف سلام!

عاصمة الأرجنتين الياس قنصل

فصول ملخصة فى الفلسفة الإلمانية

١٩ — تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

فردريك نيتشه

للأستاذ خليل هنداوى

— ٣ —

كانت أولى مآثر نيتشه اللامعة فى الفلسفة « نشأة المأساة » ، فهى المثل الأعلى الذى وجده فى البطل « ايشيل » والفيلسوف « شوبنهاور » والفنان « فاجنر » ، وفى أخريات أيامه جدد نيتشه المهد لمثله الأعلى الذى تكرر فى « السوبرمان — الانسان الكامل » ، وبين هذين العصرين تمتد هاوية عميقة تفصل بين هاتين القمتين : عصر سلب ونقد مفرط . إن نيتشه قد عجل بالبناء وكأنى به قد شعر بأن مواد بنائه لم تكن صلبة بالمقدار الذى يجب أن تكون عليه . ألم يحس فى نشأته الأولى أن فى أصول « شوبنهاور وفاجنر » ما لا يعبث بأصوله ولا يلتقى مع فكرته ، فعمل على اقتلاع ما لا يتصل به واستخلاص ما داخل فكرته مما لا يوائمها . وفى العصر الثانى رأيناه يقتفى سبيله الذى اتجه فى البدء بعد أن حطم ما حطم من قيم فاسدة ونظم معفنة دون ما رأفة ولا شفقة . وبهذا انتقل من مرحلة السلب إلى مرحلة الاثبات ، واستبدل جرأة الناقد بذهول النبى . وكان من آثار ذلك العهد الأول « أشياء انسانية » و « آراء مختلفة » و « المسافر وظله » و « فجر » ، وكلها سطرت يوم كانت الحادثات تهد صحة نيتشه ، وكلها وليدة ذلك الحذر الأعمى من الوجود ، هذا الحذر الذى ولده الداء فى نفسه ، فالريح الذى يخفق حوله بارد قاتم ، ونيتشه يلوح كالمهدم العابث الذى زال من صدره عامل الاشفاق ، يعمل على تهديم أسوار الشرائع وتحطيم أبراج الأخلاق ، فى كتابه « أشياء انسانية » يحارب التشاؤم ويسطو على معلمه « شوبنهاور » جاحداً مذهبه ، كافراً بتعاليمه ، لا يؤمن بأن الارادة شىء قائم بذاته ، نافياً القول بامكان « شىء يقوم بذاته » ، يقاتل عاطفة الرأفة والشفقة ، ويرذل فضيلة الزهد ، هذه الفضيلة التى تجرد الانسان من شخصيته وأنانيته ، وفى هذا الكتاب أصبح لا يرى غاية الانسانية توليد العبقرية كما جهر من قبل ؛ ولكنها بمجموعها تعيش ولا غاية تسعى اليها . وفى كتابه « المسافر وظله » يعلن ذلك الظل الذى يلحق الأشياء حين تشرق عليها شمس المعرفة ، ويعتقد بأن الأشياء لا تدرس واضحة جلية عندما يجدد دارسوها دراستها على ضوء المعرفة « المثالية » لأنه لا يبدو إذ ذاك من الأشياء إلا أجزاؤها المضيئة ، أما الأجزاء القاتمة فتبقى بعيدة عن نظر المجتلى ، وهكذا ينبنى الفكر الحقيقى الذى يرغب بأن تكون له فكرة تامة عن الحقيقة أن يتأملها من وجهها الخفى . وفى كتابه « فجر » يخضع نيتشه لنقده مسألة « القيم والنظم الأخلاقية » التى يقدسها الناس ويحترمون قواعدها ، هو يرى أن الايمان بالواجب ليس بنظام سماوى ولا بتعليم أوحته السماء على البشر ، وليس هنالك قاعدة خالدة لتمييز الخير من الشر ، وهذه الشريعة الأخلاقية التى تجبر الانسان على أن يكون صادقاً أمام نفسه فى كل شأن ، قد تنتهى بالاضمحلال ، فقد يغدو الانسان بالأخلاق ردىء الأخلاق ، كما يغدو بالدين زنديقاً ، لأن اخلاصه لعقله يزجيه إلى أن يقذف بنقده الأخلاق ذاتها ، وأن يكون فى ريب من نظمها

— ٤ —

والمثل الذى استخلصه نيتشه من الوجود أصبح يدنو الآن من المثل الواقعى ، فقد يرى أن كل كائن فى الثلاثين من أعوامه الأولى تتولد فيه حركة قد تحتاج الانسانية إلى ثلاثين ألف سنة لتحقيقها . الانسان الأول ينشأ فى حداثته مؤمناً متديناً ، ثم فاقداً لايمانه فى الله والخلود ، مأخوذاً بما يزين له العلم النظرى ، ثم يفقد العلم النظرى تأثيره ، حين يمسى لا يشبع نفسه ولا يكفى عقله . وفى النهاية تستيقظ فيه الروح العلمية فتقوده إلى دراسة التاريخ والطبيعة درساً صحيحاً . وفى انسان العلم وفى الروح الحر المفلت من كل وهم زائل والمنعتق من كل اعتقاد باطل ، فى هذا الانسان يرى نيتشه الانسانية المتسامية ، فالروح الحر هو متشائم يعتمد على عقله ، وهو مفتقر إلى صحة أدبية قوية لا غش فيها ،

تعمل على الحيلولة بينه وبين الاستسلام إلى اليأس والفناء ، وليس من السهل على الانسان أن يمزق عن جسده أثواب الخطأ الملتفة عليه في كل جانب ليرى الحقيقة ماثلة أمام عينيه ، « فالحياة الانسانية غارقة بأكملها في الأخطاء ، وليس في استطاعة الفرد أن ينتشل نفسه من هذه الهاوية إذا لم يكن خصماً قاسياً على ماضيه ، كثير السخرية من الأهواء التي تدفعنا إلى الايمان بالمستقبل وبالسعادة الآتية » ، وبهذا يستطيع إذا كان جريئاً صافي الطبع أن يجد في العلم ما يعمل على استنقاذ روحه من اليأس ، فان المعرفة المبطنة بالتشاؤم تنقذه من التسأم الذي يأكل قلوب سواد الناس ، حتى إذا قدر أن يتحرر من كل ما يحترمه الناس زاده تمتعه بالأشياء طرباً وجمالاً ، فهو يهوى أن يحلق فوق الاضطراب البشري لا يخفق قلبه رعباً فوق العادات والأوهام والعقائد ، هو يحيا لكي يفهم فهماً صحيحاً ، وإن أسمى مكافأة عنده هي أن يتفهم في نفسه وفي غيره من الأكوان هذه النواميس الضرورية المتجلية في حركات الكون ، وأن يستدل - كالمنجم - على مستقبل الذرية البشرية

(وهل تعتقد بأن مثل هذه الحياة المتجلية بمثل هذه الغاية باعثة للفناء خالية من اللذة؟... إنك لم تدرك أن السحب الثقيلة ، سحب الأحزان هي أنداء ضخمة ترضع منها أفاويق عذبة حلوة ، لتقبل الشيخوخة فتفهم بنفسك كيف تلبي نداء الطبيعة ، نداء هذه الطبيعة التي توجه العالم إلى السرور . هذه الحياة التي تتخذت الشيخوخة ستاماً (؟) اتخذت الحكمة ذروتها . . . وهل الحكمة إلا ذلك الشعاع المنبثق من الفرح العقلي . . . الحكمة والشيخوخة عنصران نراهما على قمة طود واحد — هكذا شاءت الطبيعة - قد تقترب الساعة فلا تهتج ! ولتكن حركتك الأخيرة - حين يتراكم ضباب الموت — جهداً تبذله وتوقاناً نزاعاً إلى النور ، لتكن تنهداتك الأخيرة أنشودة انتصار الحكمة)

ومنذ عام ١٨٨٢ بدأت تتبدل لهجة نيتشه تبدلاً محسوساً على أنه ثابر على نضاله ومحاربته لعقائد جيله حتى النهاية . فكتبه الأخيرة إنما هي غارة شعواء ضد المسيحية وما تحمله من زهد وتقشف . ولكن هذه الصيحات التي يرسلها قوية عالية أصبح يمازجها قليل من الألحان العاطفية ؛ ألحان نشيد الانتصار

عاد نيتشه إلى صحته بعد أن قضى أيام علة وسأم ، يرتقب الموت في كل فجر يتنفس ، وفي كل ليل يتمسمس . عاد إليه رجاء جديد وتنفس جديد ، - والأرض أرحب بكثير من كفة الحابل . . . ! — يقول في فاتحة كتابه « العلم الطرب » : (إن هذا الكتاب هو صيحة طرب بعد أيام طويلة مكفنة بالبؤس والعجز . هو أغنية مرح تتهادى فيها أصوات قوى بعثت بعثاً جديداً ، وألحان إيمان واسع في الغد وما بعده ، في مستقبل مفتوح لي يحمل طيه حوادث قريبة ، ينطوي على بحار حرة وغابات جديدة تجذبني نحو ما أستطيع أن أبلغه وأقدر أن أومن به) وهكذا تقشع من سماء نيتشه سحاب اليأس القاتم ، فبانت له سماء صافية مضيئة ، رحل الشتاء المتجمد وخفق قلب ربيع جديد

وفي هذه الخطرات الجديدة التي هيمنت عليه عادة الشك في قيمة ذلك الروح الحر الذي بشر به وجعل منه مثالاً عالياً . إن هذا الروح الحر عابس ينقصه روح الطرب ، قد جعل منه الألم كائناً كئيباً وهذا الروح لا يزال ثقيلاً لم يتعلم أن يرقص وأن يلعب ويفرح حراً طرباً وثاباً على أمواج الحياة ، إن هذه الفكرة خلقت لنيتشه خيالاً جديداً انطوى على الصورة الرائعة التي وجدها في نبيه « زرادشت » هذا النبي الذي قضى في الصحراء عشرة أعوام ، مرتاحاً لعزلته وفكرته ، ثم نزل إلى الناس يلقنهم الديانة الجديدة ، ديانة السوبرمان والعودة الخالدة ، وهو يجمع حوله في مناراته المنعزلة نماذج متقاربة صافية للانسانية المتألمة السامية . إن رجال الرغبة الكبيرة والاحتقار الكبير والسأم الكبير ؛ هؤلاء الرجال يجب أن يفسحوا مكاناً للسوبرمان الذي يشفيهم من تشاؤمهم ويضيء لأعينهم آفاق المستقبل ، ثم يموت في اللحظة التي يبلغ فيها أعلى ذروة الحكمة ، في اللحظة التي تبلغ فيها شمس وجوده سمتها الأعلى في الهاجرة الكبرى ، معلناً بموته انتصار مذهبه

وقد رأينا توصلاً إلى تحليل فلسفة نيتشه تحليلاً منطقياً أن نقسمها إلى قسمين : الناحية السلبية ، وهي تنطوي على نقد الانسان الحالي ونقد إيمانه وغريزته ، والناحية الايجابية ، يبحث

فيها البنور بمان وعودته الخالدة ، وبهذا تبدو أفكار نيتشه مرصوفة ضمن نظام مذهبي لم تعرف به من قبل . لأن هذه الأفكار في الآونة الأخيرة لم تثبت على حال معهودة فهي سريعة التبدل وسريعة التنقل . ونيتشه نفسه لا يريد أن يكون فيلسوف مدرسة . . . لأن الحقيقة عنده لا خلاف فيها . على أنه لم يحجم عن مهاجمة الآراء التي يراها فاسدة بأدلة باهرة وحجة منطقية « إلا أن غريزتي ترينى في هذا الانسان أو في هذه الكتلة من الناس جماعة منحطة تدعو للاحتقار . . . وفي هذا المذهب أو في هذا الايمان جرثومة مرض . . . إنني أحاربهم وأكافحهم كما يكافح الخطر والمرض . فاذا صح أنني أنصر مذهباً حياً وخصوى ينصرون مذهباً فاسداً فالنصر لا ريب مماودى ، وفي الحالة المعاكسة لا يأتيني إلا الخسران ! وبما أنني لا أريد إلا شيئاً واحداً هو انتصار الحياة ، أرانى أطرب بانكسارانى كما أطرب بانتصاراتى وكل ما وراء ذلك عندي سواء

أوليس من الغباوة أن نشيد مذهباً منطقياً لفلسفة نيتشه ضمن هذه البوادر ، شأن فلسفة « كانت » وشوبنهاور ، وليس للمنطق كبير شأن في هذه الفلسفة ؟ . على أن نيتشه إذا صح خدمى كان يأتي المسألة ويدرسها من جوانب مختلفة ، يتلقفها ثم يدرسها ثم يفحصها حتى تحين اللحظة التي يطلق فيها حكمه الأخير . فاذا درست آثاره أثراً أثراً ألفيت أن المواضيع نفسها تطوى وتنشر ومن وراء ذلك عقل نيتشه المظلم . وإذا لم يأخذ نيتشه بالمنطق ونظامه الدقيق كما يأخذ به أرباب الفلسفة فليس معنى ذلك أن الرجل خلت أحكامه منها ، أو أن عقله لم يكن منطقياً . فالرجل حاد الفكر ، وفلسفته — من حيث المجموع — يربط بينها نظام منطقي دقيق . ولكن صحته السيئة حالت بينه وبين ترتيبها ترتيباً فنياً ، فجاءت مقاطيع متفككة بأجزائها كاملة بكليتها . مقاطيع أودع فيها صاحبها كل نفسه وقلبه

(يتبع) خليل هنداوى



صور من هوميروس

٤ - حروب طروادة

التعبئة

للأستاذ دريني خشبة

عاد منالايوس من رحلته فى الحدود ، وليته لم يعد !

لقد جُن جنونه حينما علم من أمر زوجه وضيفه ما علم !

« علام إذن كانت كل هذه الضجة التى أحدثتها تلك اللعينة قُبيل زواجها ؟ لقد تركت عشاقها الكثيرين صرعى حول قصر أبيها ، وظلت تتيه وتدل وتتأبى وترفض ، وفيهم شجعان هيلاس وحماتها وأباتها ، وملوكها الصيد ، وفرسانها الذاود !

فيم إذن كانت كل هذه الضجة ؟

هل منحتني جسمها فقط ، يوم اختارتنى بملأ لها ؟ وهل ذخرت قلبها للعشق الأثيم ، والهوى الفاجر ، حتى تزقها شياطين الفتنة هـذا الشاب الغـرانق اللاهى المستهتر ، فراحت تقدمه فوق مذبح جماله قرباناً للذتها النجسة ، وتقدمة لشبابه الذميم ؟ وا حَيرتا ! هل اختارتنى بملأ لها ، لا لشيء إلا أننى مَلك وسليل آلهة ؟ !

يا للفاجرة !

أفى ذلك البيت الرفيع الذُّرى ، ظلت تتقلب التاعسة فى ذراعى هـذا الخائن ، شبقة متلذذة ؟ هل ظل هو يضمها إلى صدره الثائر فى شدة وعنف ؟ ! هل كانت تستزيده ؟

أيتها الجدران الحزينة ! كم قبلة دنسة أصمّت آذانك ، وكم ضرخة فاجرة دوت كالرعد فى حناياك ؟ حدثنى أيها الهواء المسمم عما كنت تشهد فى صميمهما ، حين كانا ينفثانك من صدريهما سمًّا قتّالاً ! خبّرى أيتها الستائر ، أيتها المصابيح ، يا شموع قصرى ، أيتها الأرض الملوثة ، أيها العرش المهين ، أيها التاج الذليل .. أيتها الكؤوس المتناثرة ، والأكواب المقلوبة .. تحدثى إلىّ ! !

حدثنى يا كل شيء هنا عن مهازل الفسق ومذابح الشرف !

آه ! الشرف ؟ ! الخرافة الكبرى !

الحرب ! ... الحرب ! ... الانتقام ! ... الانتقام من الفاجرة ... اقتلوا الخائن ... يا حلفائى ... تنداريوس ... أدعُ حلفاءك ... لقد أقسموا جميعاً ... لقد كنت تتوقع هذه النهاية تنداريوس ... استيقظ ... استيقظى يا أسبارطة ... جنودى ... شعبى ... هلموا إلى ... »

وهكذا أرسلها منالايوس صرخةً داوية تجاوبت أصداؤها فى جميع أجواء هيلاس ، واستجاب لها كل قادر على الحرب فيها ... إلا القليل

لقـد عجب عشاق هيلين حين وصلتهم صيحة تنداروس ، وصدّقوا يمينهم التى أقسموا ، فلبوا سراعاً ؛ وانتفضت هيلاس كلها فصارت ثكنة عسكرية تمج بالجند وتضج بآلات الحرب ، واضطربت البحار بالأساطيل تيمم شطر أوليس[1] ، حيث اتفقت الكلمة على أن يبحر منها الأسطول المتحد ؛ فلا يرسو إلاّ فى مياه طروادة

لبّى الصيحة كل عشاق هيلين الذين أقسموا اليمين فهرعوا من المشارق والمغارب بخيلهم ورجلهم ... إلا ملك إيثاكا ... أوليسز[2]

أوليسز

كبر فى نفس أوليسز أن يتقدم لخطبة هيلين فترفضه فيمن

---

(١) أوليس ثغر كبير فى مقاطعة بووطيه (التى كانت طيبة حاضرتها قديماً)

(٢) آثرنا هذه التسمية بدلا من التسمية الشائعة (عوليس) لحرشيتها ، وبدلا من أوليسيس أو يوليسيس لتكرار السين ، ويسمى أيضاً أوديسيوس

رفضت ، وهو مع ذلك ملك إيثاكا وبطلها الحُلاحل ، وفارس هيلاس الذى لا يشق له غبار . وكبر فى نفسه أن تؤثر عليه منالايوس ، وهو مع ذلك دونه شجاعة وأقل منه إقداماً حين يثار النقع وتستحر الحرب العوان ؛ وكبر فى نفسه أيضاً ألا تكون له زوجة يفاخر بها هيلين ، وأتراب هيلين ، وآل هيلين ، فذهب من فوره إلى عمها فتزوج ابنته الجميلة الرائعة بنلوب : « الزهرة التى تهتز للندى ، وترقص لخيوط الشمس الذهبية ، وتُغنى مع الأطيار ، ويسكر النسيم إذا داعب خديها ... قُبلة الحب الخالد على خدود الجمال الطليق ، وابتسامة السماء الضاحكة فى قلوب المحبين المعذبين ... بنلوب ... الوديعة كالأطفال ، الحلوة كالرضى ، الصافية كقطرة الندى فى أوراق الورد ، الرخة كسطور الغرام فى خطاب الحب ... بنلوب ... التى تفخر الأرض بأنها تحملها ... والهواء بأنها تستنشقه ... والسماء بأنها تظلها وتشرق عليها ... والجبل بأنها تنظر إليه ... والبحر بأنه يغسل قدميها المعبودتين !

بنلوب ! ذات الفم العطرى ، والخد اللامع الورد ، والجبين الناصع الوضاح ، والعنق الناهضة الجيداء ... ربيبة الآلهة ، ولحة الأولمب ، وبندوزا الثانية ... »

تزوج أوليسيز من بنلوب هذه ، فأخلصت له الحب ، وأصفاها المودة والغرام ؛ وولدت له طفله الجميل المتلألئ تلياخوس (تلماك) ، فزادت محبتها له ، وتضاعفت عبادته لها ، بعد هذا الرباط القدسى الكريم

عزّ على أوليسيز أن ينأى عن زوجته الجميلة وطفله العزيز المحبوب ، لا لشىء يجر عليه مغنماً أو رفعة ، ولكن ليحارب حرباً لا تعلم إلا الآلهة كيف تنتهى ؛ فقد تكون عقباها القتل أو الغرق أو الأسر ، فتعيش الزوجة الجميلة أيما محزونة ، ويحيا الطفل يتيماً مُفجَّعاً ... وثمن ماذا كل هذه المصائب وتلك الآلام ؟ ثمن امرأة أذلت سادة هيلاس ، وجرحت كبرياء زوجها ، وفضحت أباها ... ثم ... هتكت عرضها ، إذا كان لها عرض ، بفرارها مع هذا العاشق الفاجر الأثيم !!

لم يشأ أوليسيز أن يقامر بسعادته وحياته فى هذه الحرب إذن ، ولو كان فى ذلك ، كله أو بعضه ، الحنث العظيم ... فما عين شرف هذه التى يتمسك بها ملك كبير كملك إيثاكا ، من أجل امرأة ليس لها شرف ؟!

ليقعد إذن عن هذه الحرب ، وليصم أذنيه دون صيحتها الكبرى ، فاذا ألح عليه الملحون ... فهو مجنون مأفون مخبول ... لا تهيمن عليه مسكة من عقل ولا ترشده أثارة من تفكير

أرسلوا إليه رسولهم السياسى الكبير بالاميديز يحضه على الحرب ويذكره بيمينه التى آلاها ، ويحرضه على « الطروادين اللؤماء ، الذين يوشكون أن يفضحوا الهيلانيين فى أعراضهم » ولكنه ألفاه يحرث شاطئ البحر بمحراث هائل يجره ثور ذو خوار ... وحصان عربى أصيل !!

ـ « عم صباحاً أيها الملك ... »

ـ « .... ! .... »

ـ « ماذا يصنع مولاى ؟ »

ـ « أحرث هذا الحقل الخصيب ! »

ـ « أى حقل ؟ »

ـ « الحقل الذى ترى ... أليس لك عينان تسمع بهما ، وأذنان تريان ما أفعل ؟ »

ـ « عينان تسمعان ، وأذنان تريان ؟ ... »

ـ « اذهب ... لا تشغلنى ... أريد أن أبذر حقلى هذا الصباح »

ـ « وماذا عساك أن تبذر أيها الملك »

ـ « لست ملكاً لا تهزأ بى ... نحن الفلاحين نطعمكم ونسمنكم ثم يكون جزاؤنا أن تسخروا بنا ... اذهب ... اذهب ... »

ـ « وماذا تحاول أن تزرع هنا ؟ »

ـ « سأزرع ملحاً ؟ ! »

ـ « تزرع ملحاً ؟ ! وتحصد ماذا ؟ »

ـ « أزرع ملحاً ، وأحصد ... سمكا ... ها ! ا ... لا لا ... سأحصد باذنجاناً ... ... ولكن لماذا تقف هكذا ، ... باً منى ؟ لماذا لا تذهب ؟ »

ـ « ألا تعرفنى يا مولاى ؟ »

ـ « أرجوك ! أنا لست مولاك ولا مولى أحد ! اذهب ودعنى اشتغل »

ـ « أنا بالاميديز يا مولاى ! وا أسفاه ! إن هيلاس كلها تنتظرك ليومها المشهود ! »

- « تنتظرنى ؟ ... إنها لابد جائعة يا بالا ... يا بابا ... يا بالا دين ! ! ؟ »

- « لست بالادين يا مولاى ! ... أنا بالاميديز ! »

- بالاميديز ! هذا عجيب ! تعال إذن فاعمل معى ... سأسأ(١) ... ... »

- « الحرب يا مولاى ! الأساطيل فى أولس ! »

- « أى حرب ، وأى أساطيل يا رجل ؟ »

- « ستحارب طروادة ! »

- « ولم لم تذهبوا بعد ؟ »

- « تريد أن تكون معنا ، فالكل يهتف بك ويدعوك ؟ »

- « أنا ؟ يدعونى أنا ؟ ... أنت يا رجل لا تريد أن أزرع هذا الحقل ملحاً ؟ وماذا أصنع فى الحرب ؟ هل أخبروك أننى فارس ؟ ... اذهب اذهب ... سأساً ... ... سأساً ... »

- « ألا تعرف من أنت يا مولاى ؟ »

- « وهل تعرف أنت من أنت ؟ »

- « أنا بالاميديز ، وأنت ؟ »

- « أنا ؟ أتريد أن ترسل اسمى إلى الميدان ؟ ... أتتركنى بغير اسم يا رجل ؟ »

***

لم يستطع بالاميديز أن يفوز من أوليسيز بطائل ، فقد مثل ملك إيثاكا دور مجنون تمثيلاً متقناً ، يحاول أن يفلت من هذه الحرب التى لا شأن له فيها ولا جمل ، والتى قد يقتل فيها أو يؤسر من أجل زوجة خائنة لا شرف لها ولا عرض . بيد أن بالاميديز لم ييأس حين رأى ما شدهه من جنون الملك ، فإن وسواساً وقر فى قلبه أن هذا البله قد يكون تبالهاً ، وأن ما بالملك من مس إن هو إلا حيلة يحاول أن يفلت بها من أرزاء الحرب وأهوالها ، ثم هو حيلة كذلك للتحلل من اليمين التى أقسمها عشاق هيلين

لذلك لجأ بالاميديز إلى الحيلة هو الآخر ، فانقطع أياماً ظل يرقب الملك فيها عن كثب ، بحيث لا يراه أوليسيز ، ولكن الجواسيس كانت تحمل أخبار السياسى الداهية أولاً فأولاً إلى رئيس البلاط ، وهذا يحملها بدوره إلى مولاه ... الذى يفطن إلى مكر بالاميديز فيبالغ فى ادعاء الجنون ، وينزل إلى البحر يحرث موجه ... بعد إذ فرغ من حرث شاطئه ! ...

ويسقط فى يد بالاميديز فيطلق آخر سهم فى كنانته ...

ذلك أنه تحايل فسرق تلياخوس الصغير ، ولى عهد أوليسيز ، والأعز عليه من نفسه ، ومن الدنيا وما فيها ... ... سرقه فذهب به إلى حيث والده يحرث الشاطئ ويحرث البحر ، فطفق يضع الغلام أمام المحراث ليرى ما يكون جنون الملك ، هل يقتل ابنه ، ويكون بذلك مجنوناً حقاً ، أم يتفاداه ، ويكون جنونه محض ادعاء وبلهه تلفيقاً فى تلفيق ؟ !

ولكن الملك كان أحرص على ولى عهده ، وقرة عينه ، من أن يتم فيه حيلة بالاميديز الداهية ! فكان كلما تعرض ابنه لخطر الموت ، لوى عنان الثور ، وذاد الفرس ، متفادياً الطفل إلى الناحية التى لا يكون عليه فيها خطر . . .

فتضاحك بالاميديز ، وفضح جنون الملك ، وأخجل حيلته .. ثم لم يزل به حاضاً محرضاً حتى أقنعه بوجوب خوض هذه الحرب مع إخوانه الهيلانيين

***

ازدحمت جحافل الهيلانيين فى أولس ، وانعقد المجلس الحربى لانتخاب القائد الأعلى ، فاختير ابن الشمس البكر ، أجاممنون ، شقيق منالايوس وصفيُّه ، بالاجماع

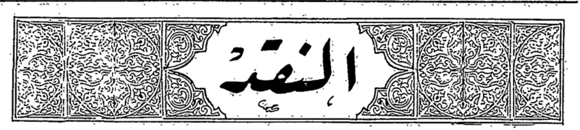
اختير أجاممنون للقيادة العامة ولو لم يكن خير أعضاء المجلس الحربى . وكيف يكون كذلك ومن أعضاء هذا المجلس أوليسيز العظيم ملك إيثاكا ، وأجاكس بطل الأبطال وفارس كل نزال ، ونسطور أحكم من أشار بخطة فى معمعان ، وديوميديز المحارب الصنديد ... إلى آخر هذه العصبة المختارة من جيرة الأولمب ، والسادة النجب من فرسان هيلاس

اختير أجاممنون إذن لأنه شقيق منالايوس وممثله فى هذه الحرب ، ثم لأنه أكبر أعضاء المجلس الحربى سناً ، وهو مع ذلك أحد شجعان هيلاس المعدودين

***

انتظمت صفوف الجند ، وأخذوا فى مران عنيف أياماً معدودات ، ركبوا بعدها فى سفائن أسطولهم العظيم ، وظلوا ينتظرون إذن القائد الأعلى ، أمير البر والبحر ، بالاقلاع ، فتجرى بهم الجوارى المنشآت فى موج كالجبال ... إلى ... طروادة ! ...

(١) سأسأ بالحمار دعاه للضرب أو الانصراف أو للعدو والسير



النقد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

كتبت إليّ – أعزّك الله ، وأمتع الأدباء ببقائك – أنه قد بعد عهدك بمطالعة ما كنت أكتبه في الصحف من فصول في النقد ، ممتعة في حسن ظنك بأخيك ، وبحوث ضافية دقيقة فيما تنظره عين رضاك عن صديقك ، وقلت : إنها لامست موضع هواك ، وحققت غاية مناك ، وشفت من صدرك غلة لم يكن ليشفيها ما طالعت أو سمعت من فصول غيرها في النقد مما ملئت به صدور الصحف والمجلات ، وحشيت به بطون المؤلفات ، وأفاض فيه أساتذة النقد الأدبيّ في الدروس والمحاضرات ، إذ كان أكثرها بل كلها من إملاء الغرض ووحي الهوى ، وليس للفن فيها من الحظ إلا بمقدار ما يبرّر الناقد به تفضيل صاحبه على غيره ، واتهام الآخر بالعيّ والقصور في نثره أو شعره ؛ يغفلون الأذواق والعقول ، ويحكّمون النزعات والميول ، ويتبعون القلوب على ما يعرفون من تقلّبها ، ويستملون العواطف الخادعة على تحوّلها وعدم استقرارها ؛ فتخرج بحوثهم مختلّة السياق ، مضطربة الآراء ، لا تحمل قارئاً على احترامها ، ولا باحثاً على الاعتماد عليها . فهي بقصائد المدح والهجاء ، أشبه منها ببحوث الأدباء والعلماء ، حتى إن الشعراء والكتّاب أنفسهم لم يعودوا يأبهون لما ينشره هؤلاء النقاد عن ثمرات قرائحهم ، إذ كان نقدهم إما مدحاً تمليه مودّة أو منفعة ، وإما هجاء تبعثهم عليه عداوة أو حسد . ولقد قلت مرة لبعض الشعراء المجيدين : إن فلاناً الناقد المعروف قد كتب فصلاً طويلاً في صحيفة كذا يثني فيه على بعض قصائدك ثناء لو قرأته لسررت به ، وهششت له ؛ وطفقت أطيل في ذكر ما كتب ؛ فقال صاحبي : بعض هذا يا أخي ، فما مدح هؤلاء مما أرجو ، ولا نقدهم مما أخشى ، فما أيسر الوسائل التي ينال بها مدح هؤلاء ورضاهم ، وإن ثناءهم لأشبه شيء بالشهادة للميت حين يحمل إلى قبره ، ويقال : (ماتشهدون في هذا الرجل ؟) فيقول المشيّعون : (صالح وابن صالح) ولعله كان على خلاف ما شهدوا به في حياته ، وقد أراح الله البلاد

يحملون إليها المنايا الصفر ، والنوائل السود ، في شفار المشرفيات البيض !

ولكن أمير البحر والبر لم يأذن لهم بالاقلاع ...

ذلك أن بعض أعضاء المجلس الحربي أشار بوجوب استيحاء الآلهة عما إذا كانت حملتهم العظيمة هذه قد كتب لها الظفر والانتصار ، أم الهزيمة والانكسار ؟ ليكونوا من أمرهم على بيّنة ، وليكونوا أيضاً قد استخاروا أربابهم فتخيّر لهم ، واستشاروها فتخلص لهم المشورة ، ويمضون بعد ذلك على بركتها وفي حراستها

وارتقبوا نبوءة الآلهة بقلوب فارغة ، ونفوس مبتهلة . . .

ومضت أيام . . .

ثم رأوا إلى كاهن المعبد يدلف نحوهم في هدأة فجر صامت ، فشخصت أبصارهم إليه ، وظنوا فيه الظنون

وجلس الكاهن المسن يقلب في القادة عينيه الكبيرتين ، وصمت لحظة ثم قال : « أين ابن بليوس أيها الملأ . . . ؟ »

ونظر القادة بعضهم إلى بعض ولم يحيروا . . .

فقال الكاهن : « ابن بليوس رب الأعماق ، من زوجته ذيتيس ! أليس فيكم أخيل ؟ ! . . . »

فأجاب أجا ممنون : « ومن أخيل أيها الأب المقدس ؟ ! »

فقال الكاهن : « هو ابن ذيتيس التي قالت فيها ربات الأقدار إنها تلد غلاماً يكسف مجده مجد أبيه . . . ابحثوا عنه ، فلن تفتح طروادة إلا على يديه ... لن ينفعكم أن تذهبوا بدونه ... هكذا قالت الآلهة . . . »

(لها بقية) دريني خشبة

والعناد بمثاله ، ولم تقتصر متابعة الغرض ومسايرة الهوى في النقد الأدبي على صغار النقاد في هذا البلد ، بل شمل ذلك أساتذة النقد وذوى الكلمة الفاصلة منهم ، ومن يرتقب رأيه في كل أثر فني ، كما يرتقب المتهم حكم القضاء العادل الذى لامرد له ، ولا جدال فيه ، فطغى على الجميع سيل الغرض ، واندفعوا في تيار الهوى ، ولم يبال واحد منهم بمكانه في الأدب ، ولا بمنزلته الرفيعة في نفوس الأدباء ، وآية ذلك أنك لا تجد اثنين من الناقدين يتفقان في الشاعر الواحد على رأي واحد في شعره ، ويضعانه في المنزلة التي يستحقها مع غيره ، بل تختلف الآراء فيه — بل في البيت الواحد من شعره — اختلافاً ظاهراً إلى حد التناقض ، فبينا أحدهم يرى في الشاعر أنه شاعر العربية ، إذا بالآخر يقول : (إنه ليس بالشاعر ولا يشبه الشاعر) ، وهكذا ترى المبالغة والاغراق في طرفي الرأي ، مما أسقط النقد الأدبي وأضاع الغرض منه في تهذيب الفن ، وأضعف أثره في نفوس الكتاب والشعراء . مع أنه مما لا نزاع فيه أن للذوق الأدبي مقياساً عاماً لا يختلف في أصله ؛ وإن اختلف في بعض الفروع التي لا تقدم ولا تؤخر في الحكم على الشاعر في جملته ، ولا في منزلته الشعرية بين أبناء جلدته

وثمة أمر آخر هو أمر نكاية في الأدب ، وأبلغ في هدمه ، وهو أن أكثر هؤلاء النقاد يقيسون الأدب العربي بمقاييس الأدب الغربي ، فيطلبون إلى الشاعر المصري العربي أن يحاكي شعراء الغرب في أغراضهم ومعانيهم ، وإن كان أكثرها لا يلائم بيئته ، ولا يجري مع قانون حياته ، ولا يتفق بوجه مع الطبيعة الشرقية ؛ وأطالوا في اتهام من خالفهم بالجمود ، وضيق الأفق الفكري حتى حاول بعض الشعراء الناشئين تكلف هذه المحاكاة مراغمة لشعور القلب وإحساس الفؤاد ، وإرضاء لهؤلاء النقاد فخرجت قصائدهم لاشرقية ولا غربية ، مشوهة الصور ضعيفة الأثر ، كالحة الظاهر ، جوفاء الباطن ، لم تصور إحساساً في فرد ولا في جماعة ، ولم تعبر عن شعور في الأمة ولا في الشاعر نفسه ، فلم تسترع هذه القصائد سمعاً ، ولم تجتذب إليها قلباً ؛ ولولا طائفة قليلة أمسكت بسلسلة البيان أن تنقطع ، وآوت إليها طرائد الشعر العربي ، وصبرت وصابرت في مدافعة هؤلاء المستغربين في شرقهم ، وصانت ذخائر العرب — وأخصها اللغة — حتى تسلمها إلى طائفة أخرى مثلها ممن قوى في نفوسهم شعور القومية ونظروا في الأدب العربي نظرة واسعة منصفة ، فعرفوا من نفائسه مالم يعرفه سواهم ؛ لولا هؤلاء لأفل نجم البيان العربي عن هذه البلاد ، ومات الشعر أو كاد

وقلت : إن آثر النقاد عندك وأجداهم بحثاً على طالب الشعر والكتابة من يعني بالبحث في آثار الكتاب والشعراء واختبار ثمرات قرائحهم ، فيميز جيدها من رديئها ، وناجحها من رجيحها ، ويرى القارىء أسباب الاجادة فيما يستجيد من شعر أو نثر فيأخذ بها ومواضع الزلل والمؤاخذة فيما لا يستجيد منهما فيجتنب الوقوع فيها

أما البحث في تحليل حياة الشعراء وكيف نشأوا والعصور التي يعيشون فيها ، والبيئات المحيطة بهم فذلك أولى بالمؤرخ الأدبي منه بالناقد الفني ، على أن تلك البحوث لا تفيد طالب الشعر فائدة قليلة ولا كثيرة في الاجادة الفنية ، وإن إفادته في توسيع ثقافته العلمية

ثم سألتني أيها الأخ الكريم أن أعود إلى عادة الأدباء والتأديين فيما قرأت وأقرأ من جيد الكلام ورديئه ، وتبيين سبب الاجادة في الأول ، وموضع المؤاخذة في الآخر ، والترجيح بين المتساويين في أول النظر على صاحبه ، ثم لا أذكر بيتاً فيه زلة لشاعر إلا عقبته ببيت قد سلم منها لمعاصر أو غير معاصر ، مفاضلاً بين البيتين ، موازناً بين الشعرين ، ليكون ذلك مثالاً يتبع ، وقياساً ينتهج ، فإن لم أجد فيما أحفظ من الشعر ما يصلح مثالاً ، ويتخذ قياساً ، غيرت من البيت نظمه ، وداويت سقمه ، وذهبت بشكله ، وأبقيت على أصله ، وذلك هو ما انتهجته في البحوث السابقة ، وشرحته في أول بحث كتبته ، وإنا لسؤالك لباذلون ، ولدعوتك لملبون ؛ نسأل الذى فطر الفطرة ، ووهب القدرة ، أن يعصمنا من هوى لا نستطيع غلابه ، وأن يعيذنا من خطأ لا نعرف صوابه ، ولست أعد قراء (الرسالة) بأن تحمل حديثي إليهم في كل أسبوع ، بل قد تطول الفترة بين الحديثين ، وقد تقصر ، إذ لم أتعود فيما أكتب التقيد بالوقت ، فان هذه القيود الصحفية مما يحمل الكتاب في بعض الأحيان على أن يملأوا الصحائف بالسطور ، وإن خلت من فائدة المجهود

أحمد الزين

البريد الأدبي

هنري باربيس H. Barbusse

توفي في أواخر شهر أغسطس المنصرم كاتب وشاعر من أعظم كتاب فرنسا وشعرائها المعاصرين ، هو هنري باربيس ؛ وكان باربيس زعيم المدرسة الثورية وأعظم كتابها ، ولم تمض أشهر قلائل على صدور كتابه الأخير الذي كتبه عن ستالين طاغية روسيا البلشفية ، وعن تاريخ الحركات الثورية في روسيا القيصرية ، وهو الكتاب الذي أشرنا إليه وقت صدوره في هذا المكان من « الرسالة »

وقد ولد هنري باربيس في ازنيير في سنة ١٨٧٤ ، وتلقى تربية جامعية حسنة ، ونظم الشعر القوى منذ شبابه ، وكتب القصص ؛ وظهر لأول مرة في أفق الأدب بصدور ديوانه المسمى « الباكيات Pleureuses » في سنة ١٨٩٥ م . وفي سنة ١٩٠٣ م نشر قصته « المتضرعون Les Suppliants » ، ثم أخرج قصته « جهنم L'enfer » في سنة ١٩٠٨ ، وامتهن باربيس الصحافة وبرز فيها ؛ وفي سنة ١٩١٠ تولى تحرير صحيفة Je sais tout الشهيرة ولما نشبت الحرب الكبرى انخرط في سلك الجيش العامل كجندي في المشاة ، وأبدى شجاعة فائقة في الذود عن وطنه استحق من أجلها وسام « صليب الحرب » ، وفي أثناء الحرب أخرج باربيس أعظم قصصه وهي : « النار Le Feu » وهي مذكرات فرقة محاربة والشعلة Clarté ، وبهما ارتفع باربيس الى صف أعظم كتاب العصر ويصل الى ذروة قوته ، ولما انتهت الحرب وقع تحول عظيم في تفكير باربيس وفي مبادئه فاعتنق المذهب الشيوعي ، وتولى التحرير في جريدة « لومانتيه » الشيوعية التي أنشأها جان چوريس واشتهر بكتاباته الملتهبة ، وفي سنة ١٩٢٠ أصدر باربيس قصته « النور في الهاوية Les lueur dans L'abime » ؛ وفي العام التالي أخرج قصة قوية أخرى عنوانها : « بعض زوايا القلب Quelques coins du coeur » ؛ ثم أصدر كتاب « الاغلال Enchainements »

وفي سنة ١٩٢٧ أصدر كتابه « بيان الى العقلاء Manifeste aux intellectuels » ، ومنذ أشهر قلائل أخرج كتابه عن ستالين . وكان باربيس في أعوامه الأخيرة دائم التردد على موسكو وثيق الصلة بزعمائها ، وكانت وفاته في موسكو في مستشفى الكرملين بعد مرض قصير . ومما يجدر ذكره أنه تزوج من ابنة كاتيل مانديس الكاتب والفنان الشهير ، وهي أيضاً كاتبة وأديبة معروفة

قوانين الملكية في روسيا

يخطئ من يعتقد أن روسيا البلشفية تعيش في ظل النظم الشيوعية ؛ والحقيقة أنها لا تكاد تطبق اليوم نوعاً من اشتراكية الدولة أو الاشتراكية المخففة ؛ وقد اقتنع البلاشفة بعد تجارب شائكة أن الحياة الاقتصادية والاجتماعية المنظمة في ظل الشيوعية ضرب من الخيال . ومما يدل على أن روسيا السوفيتية تعود شيئاً فشيئاً الى النظم الفردية ، أن الحكومة البلشفية قد أصدرت أخيراً قانوناً جديداً بتحديد ملكية الأراضي في مختلف الولايات الروسية ، ولا سيما في جمهوريات التركان وأزبكستان وأزربيجان وقازاقستان ، وبعض مناطق سيبيريا الزراعية ، وفيه تفصيل لما يمكن أن يملكه المزارع من الأرض أو الماشية لاستعماله الشخصي ؛ والقانون الجديد يتحدث عن وضع اليد والحيازة فقط ، على أن تلحقه قوانين أخرى بتثبيت الملكية متى استقر تقسيم الأراضي نهائياً . وليس القانون جديداً في الواقع ، فان المزارع « الكولاك » يتمتع منذ أعوام بحق ملكية حديقته وبعض الماشية ، ولكن القانون الجديد يزيد في نسبة الملكية الى حدود لم تعرف من قبل في ظل النظام البلشفي ، هذا فضلاً عما يتضمنه من الوعد بتثبيت الملكية وتطمين المزارعين بذلك على مصير أراضيهم ومواشيهم . وبمقتضى هذا القانون يصبح للمزارعين في سيبيريا الحق في امتلاك أرض تبلغ مساحتها الى هكتار واحد حسب منطقة الأرض ، وفي امتلاك الماشية من خمسين رأساً من

الزنجير إلى مائتي رأس ، ومن الكلاب ما شاء . وفي جمهوريات أزربيجان وأوزبكستان وما إليها يستطيع الزارع أن يمتلك من ٢٠ إلى ٣٠ في المائة من الهكتار أرضاً زراعية ، ومن الماشية جواداً وحماراً وخمس عشرة إلى ثلاثين رأساً من الغنم

وفي هذه القوانين الجديدة دليل قاطع على ما انتهت اليه سياسة السوفييت من التطور نحو الفلاحين . وقد كان لتنفيذ المشاريع الاقتصادية الجديدة أثر كبير في هذا التطور ، لأنها أقنعت زعماء البلاشفة بأن الترويح عن المزارعين وتحريرهم من قيود الانتاج الاجتماعي مما يضاعف أسباب الانتاج والرخاء الزراعي

أعمدة سبعة من الحكمة

لم يمض على وفاة الكولونل لورنس زهاء أربعة أشهر ، ومع ذلك فان آثاره وذكرياته تشغل اليوم فراغاً كبيراً في الأدب الانكليزي ، فقد صدرت أول طبعة جديدة تذكارية من كتابه الشهير « سبعة أعمدة من الحكمة Seven Pillars of Wisdom » وهذه الأعمدة السبعة هي : القاهرة وأزمير وقسطنطينية وحلب وبيروت ودمشق والمدينة . وكان الكولونل لورنس قد بدأ في كتابته منذ سنة ١٩٢١ ، وفيه يقص سيرة أعماله المدهشة في بلاد العرب ، وما اشترك في تدبيره من الثورات والانقلابات والوقائع الغريبة التي انتهت بتمكين الانكليز من الاستيلاء على فلسطين والعراق ، وسيرة مغامراته الشخصية ، وفيه روايات وأسرار خطيرة عن كثير من القادة والزعماء الذين عملوا مع لورنس . وفي سنة ١٩٢٦ ظهر كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » وظهرت منه فقط مائة وعشرون نسخة باسم المشتركين ، فكأنه لم يطبع ولم يذع في الواقع إلا في دائرة خاصة جدا ، ثم لخص منه لورنس كتاباً آخر هو « الثورة في الصحراء » وهو الذي طبع وأذيع بكثرة ؛ وقد كان من أكبر أماني أصدقاء لورنس والمعجبين به ، أن يخرج كتابه الشهير في طبعة جديدة ذائعة ، والآن تتحقق هذه الأمنية بعد وفاته ، ويصبح كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » في متناول كثيرين ممن لم يحظوا باقتنائه

مآسي التاريخ

صدر أخيراً كتاب جديد للمؤرخ الفرنسي ج . لينوتر الذي توفي منذ أشهر قلائل ، عنوانه : « مآسي التاريخ Drames de l'Histoire » ، وقد اشتهر لينوتر بنوع خاص من التاريخ لبث يكتبه أعواماً طويلة في جريدة الطان تحت عنوان : « التاريخ الصغير » وفيه يتناول من حوادث التاريخ المنسية ومآسيه الطريفة ما يفوق في الحقيقة كثيراً من وقائع الخيال ، وتوفر لينوتر على دراسة هذا النوع ، حتى أصبح أستاذه الحقيقي ، وكانت الثورة الفرنسية وحوادثها العجيبة أعظم مصادره ، فتناول كثيراً من حوادثها الخفية وتفاصيلها العجيبة التي يغفل عنها المؤرخ العام وأخرج فيها كتباً ورسائل ساحرة ، ومن مؤلفاته الشهيرة في هذا الباب : « من ثورة إلى أخرى » و « من السجن إلى النطع » و « ملك بلا مملكة » و « باريس الثائرة » وغيرها ، وأما كتابه الأخير « مآسي التاريخ » فقد كتبه في أواخر حياته ، وتناول فيه عدة مآس شهيرة مثل سقوط الجيرونديين ، ومصرع الدوق دنجين ، ومقتل الكاتب بول لوى كوريبه وغيرها ، وكتبها بأسلوبه القوي الساحر ، الذي يدنو في تفاصيله من الرواية ، ويجمع في جوهره عناصر التاريخ المنسية ، وقد كانت فصول لينوتر التي تنشرها « الطان » مثلاً بديعاً لهذا النوع الشعبي من التاريخ ، وكان لينوتر دائب التوفر على اخراجها حتى أواخر أيامه ، بل نذكر أن الفصل الأخير الذي كتبه فيها لم ينشر في الطان إلا بعد وفاته بيوم أو اثنين ، وقد فاز لينوتر قبل وفاته بنحو عامين بكرسي الاكاديمية ، وكان من الخالدين

لقب جديد لربات الجمال

كان لفوز الفتاة الاسبانية الحسناء كاربني أليشا ناقارو في مباراة الجمال الأوربية العامة وفوزها بلقب « مس أوربا » وقع عميق في اسبانيا حيث يبدى الشعب الاسباني حماسة عظيمة لهذا الفوز لا سيما وانه أول حادث من نوعه في اسبانيا ؛ ويؤمل الاسبان أن تفوز فتاتهم بتاج الجمال العالمي . بيد أن بعض المفكرين الاسبان رأوا أن الجمال المادي وحده لا يكفي لأن تتبوأ الفتاة مركزها الممتاز في المجتمع ؛ ولا بد أن تتحلى إلى جانبه بالصفات الأدبية والمنزلية التي يجب أن تختص بها المرأة ، ولذلك أقيمت في مدريد مباراة من نوع خاص بين لفيف من الفتيات الحسان يتبارين للفوز بلقب « ربة الدار » ؛ وتضمنت هذه

المباراة امتحان الفتيات فى أعمال الطهى والكى والخياطة وغيرها من الأعمال المنزلية ، ففازت بهـذا اللقب الآنسة كونشيتا مانسيجوى دى لارا ، ونالت أول لقب من نوعه بين الحسان وهو « ربة الدار » Miss Dona de Casa .

أغراضه المستشرقين

قرأت فى (الرسالة) ما كتبه الأستاذ محمد روحى فيصل فى أن علماء الشرقيات أبعد الناس عن البحث العلمى المجرد يوم يخوضون الأبحاث الاسلامية ، وأنهم يقصدون من الاستشراق خدمة دينهم وسياسة دولهم . وقد لامنى لقولى من مقالة فى الرسالة إن علماء الشرقيات يحمدون لنشرهم كتب العرب ، وإنه كان على سادتنا العلماء أن يأخذوا باليمين آثار السلف يحيونها ، حتى لا يطول مقامها فى الخزانة تنتظر عطف أبناء العرب عليها . إنى موافق على ماقاله فى تزييف بعض من تعلموا لغات الشرق واختصوا فى علومه ، إلا أننى لا أغمط حق العاملين منهم ، لتفضلهم بنشر كتبنا . وأرجو ولا أزال أرجو أن ينقطع فريق من علمائنا وأدبائنا لمساهمة علماء الشرقيات هذه الخدمة الجليلة ؛ لأن الكتب كتبنا ، والمدنية مدنيتنا ، وصاحب البيت أحق الخلائق بالعطف عليه وعلى ما فيه

وقد وقع لصديقى العلامة الشيخ عبد العزيز جاويش ، يوم ألقيت فى دار المعلمين العليا بالقاهرة (٥ مايو سنة ١٩٢٧) محاضرة فى « أثر المستعربين من علماء المشرقيات فى الحضارة العربية » وعددت ما نشره علماء الشرقيات فى كل أمة غربية من كتبنا ، أن قام رحمه الله يعدد أغراض علماء الشرقيات من الغربيين فى الدين والسياسة ، وما كان موضوع المحاضرة غير التنويه بفضل من خدموا آثار أمتنا فاستفدنا نحن بالعرض . وأذكر أن بعض أساتذة مصر ممن حضروا المجلس تبرموا بكلام الأستاذ جاويش وعدوه خروجا عن الموضوع ، لأنى لم أمتدح المستشرقين إلا من الوجهة التى أفادوا بها حضارتنا ، حتى إن الأستاذ على الشمسى باشا (وزير المعارف المصرية يومئذ) كان ممن حضر فقال : سامح الله الأستاذ جاويش ، ان صاحب المحاضرة لم يتعرض لمدح المستشرقين فى السياسـة والدين ، وإنما ذكر افضالهم على لغتنا وحضارتنا بنشر كتبنا . قال ذلك للأستاذ سـيد كامل رحمه الله ، (راجع المحاضرة فى مجلة المجمع العلمى العربى م٧ ص ٤٣٣)

فأنا والحالة هذه إذا امتدحت من علماء المشرقيات ، وأعجبت بعملهم فى خدمة آدابنا ، فانما تنويهى بهم من هذه الناحية فقط . وأعلم أن كثيرين منهم يعملون لسياسة بلادهم أولا ، وأن منهم دعاة دين متعصبين يتخذون الاستشراق سلما لخدمة دينهم على نحو ما كان أسلافهم فى القرون الوسطى ، ومن أحب أن يقف على تخريف المخرفين من المستشرقين ، وانصاف المنصفين منهم فى أحكامهم على الاسلام والعرب فليرجع إلى كتابى الأخير « الاسلام والحضارة العربية » فمعظم هذا السفر يدور على هـذا المحور ، وأحب مع هـذا ألا يفوتنا أنه ليس من المعقول أن نكلف من لم يتأدبوا بأدبنا ، ولم تعمل فيهم أحاسيسنا ، ولا دانوا ديننا ، أن يعتقدوا ما نعتقد ، ويكتبوا فينا ما نحب . فلكل جنس تفكيره ، ولكل جيل مدنيته ، ولكل إنسان أهواؤه وأغراضه .

محمد كرد على

الأستاذ صاحب الرسالة

لا يزال الأستاذ صاحب الرسالة ومحررها يعالج منذ أسبوعين مرضاً شديداً قطعه عن الناس وعن العمل . والحمد لله قد طرأت على صحته عوارض التحسن منـذ اليوم ، ولا يمضى وقت طويل حتى يستأنف الأستاذ جهاده الموفق فى خدمة الأدب والثقافة



١ — حياة الوزان الفاسي وآثاره

تأليف الأستاذ محمد المهدي الحجوي

٢ — تاريخ الصحافة (الجزء الرابع)

للفيكونت فيليب دي طرازي

٣ — تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني

تأليف الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف

للأستاذ محمد بك كرد علي

في شمال أفريقية اليوم حركة مباركة في التأليف ، تدل على انتباه فكري يبشر بخير كثير لتلك البلاد الاسلامية العربية ؛ تطالعنا تلك البلاد الحين بعد الآخر بتآليف يجوّد كتابها ما ينشرون ، ويضعون أسفارهم على النمط المصري الحديث ،

ومما طالعناه مؤخراً « التذكار فيمن ملك طرابلس ، وما كان بها من الأخبار » لابن غلبون الطرابلسي نشره وعلق عليه الأستاذ الطاهر أحمد الزاوي ، و « كشف الحجب عن مدنية الغرب » للأستاذ محمد بن عمار الورتتاني التونسي ، و « رسائل الرحالة » العالم عبد العزيز الثعالبي ، وبعض تآليف في الأدب والشريعة للأستاذ طاهر بن عاشور ، وتآليف عالم أفريقية حسن حسني عبد الوهاب معروفة مشهورة ، وكذلك تآليف العلامة الشيخ محمد بن أبي شنب رحمه الله في الجزائر فانها من الممتع الجيد و « كتاب الجزائر » للأستاذ أحمد توفيق المدني من أجود ما كتب في تاريخ الجزائر وتقويم بلدانها وحالتها الاجتماعية والإدارية والسياسية والاقتصادية . هذه بعض ما وصل الينا من تآليف أهل المغرب الأدنى والأوسط ، أما المغرب الأقصى ، فقد ظهر أربعة مجلدات ضخمة من كتاب « اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس » للمؤرخ المدقق مولاي عبد الرحمن ابن زيدان ، وهو في تاريخ مراكش في السياسة والاجتماع والأدب ، أبان فيه واضعه عن نَفَس طويل ومادة واسعة ظهرت منها عظمة تلك الديار في الدهر السالف ، ونشر في فاس الأستاذ عبد الحي الكتاني كتباً نفيسة وعلق عليها فأحسن ؛ ونشر العلامة سيدي محمد بن الحسن الحجوي الفاسي في فاس والرباط (رباط الفتح) كتاب « الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي » في أربعة مجلدات ، دل على علو كعبه في الشريعة وتاريخها وأدبها ، وله غير ذلك من المصنفات والأبحاث والمحاضرات والمسامرات ، وها هو نجله الأستاذ أبو عبد الله محمد المهدي يطالعنا ببحث طريف في حياة الوزان الفاسي وآثاره ، فكان النجيب ابن النجيب . زادنا الله في أفريقية من أبناء نجباء الأبناء

* * *

هو بحث قدمه المؤلف لمؤتمر المستشرقين الثامن الذي أقامه معهد المباحث العليا المغربي بفاس يوم ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٣ في ترجمة أبي علي الحسن الوزان الفاسي المعروف عند الافرنج باسم ليون الأفريقي (Léon l, Africain) ، وكان هـذا الرجل العظيم من أصل أندلسي ، نشأ في فاس وتجلى فيه الذكاء منذ الصغر ، فتعلم العلوم الدينية والأدبية ثم ساح في بلاد المغرب الأقصى أوائل المائة العاشرة وكتب رحلات ومفكرات في جغرافية تلك البلاد بناها على مشاهداته ، ورحل إلى الروم ومصر والحجاز ، وكان في بعض رحلاته سفيراً عن بعض ملوك المغرب الأقصى في زمن الدولة الوطاسية ، وارثة الدولة المرينية « دولة العلم والعرفان والفن الرائق الفتان » وقيام الدولة السعدية في الجنوب ، ووقع للوزان أن أسره قرصان البحر من الطليان فأتوا به هدية لطيفة إلى البابا ليون العاشر في رومية ، وكانت إيطاليا آخذة بنهضتها في عهد ذاك البابا العظيم حامي المعارف والآداب فوجد في الرحالة الوزان ضالته المنشودة لخدمة المعارف ، وبعد موت البابا سنة ١٥٢١ م ٩٢٧ هـ دخل الوزان تحت حماية الكردينال « جيل دي فيطرب »

وكان يعلمه العربية ، ثم تولى مدة تدريس العربية فى كلية بولونيا فى إيطاليا ؛ وبذلك تعلم الايطالية واللاتينية ، وكان من قبل يعرف الاسبانية والعبرانيـة . وألف هناك قاموسه الطبي باللاتينية والايطالية ... وأهم ما نقله بنفسه إلى الايطالية بأمر البابا كتابه فى وصف أفريقية ، وقد جوّد فى هذا الكتاب من وراء الغاية حتى جعله الغربيون أعظم مرجع لهم للوقوف على تلك الأرجاء الشاسعة . وصف فيه كل ما رآه من طبيعتها وأجوائها وحاصلاتها وعالها وأخلاقها وعاداتها

وقد طبع كتاب الوزّان من القديم فى إيطاليا وفرنسا غير مرة ؛ وعلق عليه ناشروه شروحاً كثيرة واستفادوا منه . فصل كل ذلك الأستاذ المؤلف تفصيل باحث محيط بأطراف موضوعه . وأجاب من اعترضوا عليه مستغربين نبوغ المترجم له فى سن الفتوة فقال : « دخل الوزّان معترك الحياة دخول أبطال الرجال على حداثة سنّ جلى وأبلى بلاء تجده غريباً فى خيال الرجال . نعم ذلك غريب إذا قيس بسنه ، ولكن لا بدع هناك فى حق الشباب المغربى ، فقد حفظ له التاريخ أعمال كثير من أفراده المبكرين فى النبوغ العلمى والسياسى ، وذلك باب فتحه المولى إدريس بن إدريس رمز الشباب المغربى العربى بما فيه من نبوغ وكفاءة ، ومثال الفضيلة المحمدية ، والشمم الهاشمى ، والعبقرية القرشية . فقد بويع وهو ابن إحدى عشرة سنة وقام بالملك أحسن قيام وأسس دولة من أفخر الدول تأسيساً ونظاماً ، وأسس لمملكته عاصمة من أفخر العواصم ، وهو ابن خمس عشرة سنة ، لم يؤسس العرب مدينة أحسن منها مناخاً ولا أليق منها بقمة للعمران ، ومات بعد أن بلغت دولته العنفوان ، وهو ابن ست وثلاثين سـنة ، وله نظائر فى تاريخ المغرب نبغوا مبكرين فى مختلف مظاهر الحياة لا نطيل بهم ، ومنهم المترجم »

— ٢ —

هذا هو الجزء الأخير من تاريخ الصحافة تصنيف الأستاذ فيليب طرازى أمين دارى الكتب والآثار فى بيروت ، وقد اشتغل فى هذا الموضوع الطريف أربعاً وأربعين سنة وصرف فيه مالاً ووقتاً وجهداً حتى تسنى له اقتناء مجموعة من الصحف والمجلات العربية التى صدرت فى القارات الخمس منذ عام ١٨٠٠ م إلى عام ١٩٢٩ وبلغ عدد ما لديه من أعداد هذه الصحف والمجلات وهو يحرص على العدد الأول منها فى الغالب — نيفا وثلاثة آلاف ومائتين وخمسين جريدة ومجلة ، فكان عدد ما صدر من المجلات فى المملكة المصرية منذ تكوين الصحافة إلى سنة ١٩٢٩ : ١٣٩٨ جريدة ومجلة وعدد ما صدر فى بلاد الشام ٧٧٩ كان من حصة الجمهورية اللبنانية ٤٢٦ الخ واتضح « أن بعض المدن النائية فى أوربا وأمريكا والتى لا ينطق سكانها بالضاد فاقت بعدد جرائدها ومجلاتها كثيراً من عواصم الدول وشهيرات المدن الواقعـة فى صميم البلدان العربية ويعزى ذلك إلى هجرة العدد الوافر من الكتاب فى عهد الدولة العثمانية . فقد كانت هذه الدولة تضطهد المفكرين والمثقفين من سكان بلادها وتشدد عليهم وتخاف ضرر أقلامهم . ويرجع أكثر الفضل فى هذه النهضة الصحافية الميمونة إلى أدباء لبنان الذى نزح منه مئات الألوف الى تلك الديار العامرة ولا سيما إلى العالم الجديد ، ويقع هذا الجزء فى ٥٤٥ صفحة وقد ترجمت أكثر فصوله إلى الانجليزية ليعم الانتفاع بهذا الاحصاء ، ويستفيد الغربى كما يستفيد العربى من مضامين الكتاب عند ما يرأ دالكشف عن جريدة ومعرفة منشئها الأول وتاريخ صدورها والمدينة التى صدرت فيها الى غير ذلك من الفوائد . وفى الحقيقة إن للبنانيين الأثر المحمود فى إصدار الصحف فى الشرق والغرب باللغة العربية ، وكان للمؤلف الفضل الأوفر فى تدوين أعمالهم والتدليل عليها باحصاءاته المدققة ، فله الشكر على هذه المنابة وهذا الدؤوب

— ٣ —

الأمير فخر الدين المعنى الثانى أعظم أمير عربى قام فى النصف الأول من القرن الحادى عشر من الهجرة فى جبل لبنان وما اليه من بلاد الشام . كان واسع المدارك محباً للعمران والحضارة ، انتفع بكل قوة وجدها أمامه ، وإذ كان حكمه يتناول الدروز والشيعة والسنة والموارنة والروم الأرثوذكس وغيرهم من النحل فى الساحل الشامى ، ويريد أن يرضى كل فريق تبعاً للسياسة التى جرى عليها ، اتهمه بعضهم بأنه كان يذهب مذهب الدروز ، وفريق بأنه كان نصرانياً ، والحقيقة أنه كان مسلماً يرى رأى أهل السنة والجماعة ، وكان قد لجأ إلى ايطاليا فى أخريات أيامه فأخذ معه إمامه وأنشأ مسجداً ومنارة فى البلد الذى نزله حتى أن فتاة له ماتت هناك لم يرض أن يدفنها فى أرض إيطاليا ، وحملها معه الى الشام لما عاد اليها لتدفن فى أرض اسلامية . وأهل لبنان

يتمجدون بالأمير المعنى لأنه حكم النصارى فأحسن إليهم ما وسعه الاحسان ، واعتمد فى الحكم على بعض نبهائهم يومئذ . ولذلك كان من الواجب تدوين تاريخه ، والجمهورية اللبنانية الصغيرة فى إبان نشأتها تحاول أن تجعل لها تاريخاً تعتز به ، وقد تخلقه خلقاً ، فكيف بتاريخ رجل جدير من كل وجه بالتخليد ؟ وهذا ما تمحض له زمناً الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف ، واستطرد فى كتابته استطرادات كثيرة حتى جاء كتابه فى ٤٤٦ صفحة ، مستنداً فيه إلى مصادر لبنانية وغيرها ، باحثاً عما يهم وما لا يهم من الحوادث التى لها مساس بحاكم حكم لبنان من سنة ١٥٩٠ إلى سنة ١٦٣٥ م ، وكان قضى فى الآستانة مقتولاً سنة ١٠٤٥ هـ .

وقد حلى المؤلف كتابه بصور أثرية قديمة تمثل حالة البلاد فى عصر الأمير المعنى ، وشرح كل ما رآه جديراً بالشرح فى الحواشى ، فاستحق شكر الباحثين فى تاريخ هذا الجزء الصغير من الديار الشامية

محمد كرد على

تصويب

جاء فى القسم الأول من وصف كتاب البيزنطة فى الرسالة (١١٣) اسم المؤرخ التركى « طاش كُبرى زاده » صاحب مفتاح السعادة عرفاء ، وهذا صوابه . كما أن ما جاء عن « جامع السعادة » صوابه « مفتاح السعادة » كما هو مكتوب فى موضع آخر من المقالة

3me Année, No. 115.

Lundi-16-9-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

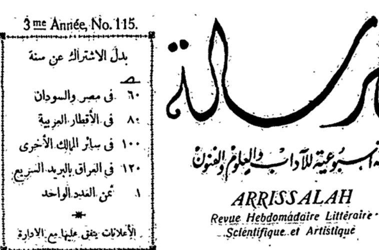
٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات يتفق عليها مع الادارة



الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ١٦ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

المسرح المصرى

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

أخفق المسرح المصرى ، أو لم يقم ، وهذا أصح ، لأن الذين حاولوا هـذا الأمر لم يجدوا من يسدد خطاهم ، ويأخذ بيدهم ، ويشد أزرهم ، فخابت مساعيهم ، وضاعت عليهم جهودهم وأموالهم ، وتخبطوا حيناً ، ثم يئسوا وانصرفوا عن أمر لا طائل تحته ، ولا محصول وراءه ، ولا خير فيه لا لهم ولا للأدب ولا للناس

ويخطئ من يظن أن الذنب للحكومة وحدها ، وأن تقصيرها فى بذل العون للمسرح قعد به ثم قضى عليه ، ولا ريب أن الحكومة أهملته وتركته للأقدار ، حتى صار فى النزع ، ثم حاولت أن تدركه ، ولكن بعد أن تفاقمت العلة وتعضَّلت المداوى ، فلم ينقذه المال الذى بذل له ، بل أزلفه إلى البوار الذى لم يبق منه مفر ، ذلك أن المال لم يكن كل ما بالمسرح فقر إليه ، فقد بدأ مستغنياً بنفسه عن مثل هذه المعونة ، وكان فى أول عهده يلقى من الاقبال والتشجيع ماينفى عنه الشعور بوجود خلة تتطلب أن تسدّ ، ثم فتر الاقبال وانصرف الناس لأنهم لم يجدوا

ما يطلبون ، وما كان خليقاً أن يؤدي إلى قيام مسرح مصرى بالمعنى الصحيح ، فقد كان المسرح معنياً بالترجمة والنقل والتمصير ، فكان صدى للمسارح الغربية ، ولم تكن له صبغة مصرية ، وليس عندنا ممثلون فى وزن ممثلى الغرب ، والحياة المصرية لا تشبه الحياة الغربية إلا فى بعض المظاهر المنقولة ، ومجتمعنا يقوم على نظم تغاير نظم الغرب من وجوه شتى ، على الرغم من كثرة ما أخذنا عنه واقتبسنا منه ، وكذلك تختلف الروح والمزاج والطبائع والنزعات . فانا شرقيون على فرط ما نحاول أن نتغرب ، وما زال صحيحاً أن الشرق شرق ، والغرب غرب ، وأنهما لا يكادان يلتقيان ، والشرق مهبط الأديان ، والغرب مصانع آلات ، والأديان لا تهبط الآن فى شرق أو غرب ، ولكن مزاج النفوس هو هو ، كما كان ، فى الناحيتين ، وتهيؤها واستعدادها واتجاهها ، وأسلوبها فى تلقى الحياة وتناولها ، ولا عبرة بالتعليم أو الجهل فى هذا الباب ، وإنما العبرة بالروح العامة ، وقد يزورها التعليم الحديث ويخفيها أو يسترها ، ولكنه لا يستطيع أن يغيرها

لهذا كان ما يمثل على المسرح المصرى من الروايات المترجمة أو الممصرة ، لا يستولى على هوى الجمهور ، ولا يشعره أن ما يراه يصور حياته كما بدت للكاتب ، وبعد أن أفرغ عليها صبغة الفن ، فبقى المسرح غريباً أجنبياً وإن كانت لغته العربية حيناً ، والعامية أحياناً ، وصار المرء يؤثر أن يقرأ هذه القصص فى الأصل أو باحدى اللغات التى نقلت إليها ، أو أن يشاهد ما يعرض منها فى دور السينما

وقد قطع المسرح — أو باعد على الأقل — ما بينه وبين الأدب ، فكانت تلك جناية ليس كمثلها جناية ، ألوت به أشد الإلواء ، وأتت عليه من قواعده ، ولسنا نفرد رجال المسرح أو الأدباء باللوم ، فان كلا من هؤلاء وهؤلاء يحمل نصيبه ، ولعل رجال الأدب قصروا فى الاتصال بالمسرح ، وعسى أن يكون الذنب للاتجاه العام الذى سار فيه الأدب المصرى بعد نهضته الحديثة ، فقد كانت العناية كلها — أو جلها — بالشعر والبحث والنقد ، ولم تكن القصة تشغل حيزاً فى هذه الحلبة الواسعة ، ولكن رجال المسرح كانوا أشد تقصيراً ، فقد كانوا يستطيعون أن يحولوا إليهم جدولاً من ذلك النهر الفياض ، غير أنهم تهيبوه وأشفقوا من مطالبه ، وظنوا أن فى مقدورهم أن يستغنوا عنه ، وأجروا سفينتهم على العامية فجنحت بهم ولزقت بالأرض ، وتحطمت على الصخر

والعامية لفظة نطلقها هنا على اللغة وعلى أسلوب التناول أيضاً ، فنحن نعنى بها الجهل باللغة ، والجهل بالروح التى كان يجب أن يستوحيها المسرح ، وهو توسع فى التعبير نجيزه لأنفسنا فى هذا المقام ولا نرى منه بأساً ، ولا نخشى معه التباساً ؛ والأدب وحده هو الذى يدخل فى وسعه أن يهتدى إلى اللغة الموافقة لقصة المسرح ، وهو وحده الذى يستطيع أن يستلهم روح الجماعة ، فاما أنه هو الذى يقدر على الأداء الموافق ، فلأن الأدب ذوق وبصر وسليقة وعلم وفن ، فان لم يكن هذه فهو ليس بأدب ، وأما قدرته على الاستيحاء فذاك لأنه فن ، والفن ملكة يحصل بها إدراك الحقائق وإبرازها على نحو يصدق على العموم وإن كان يبدو أنه فى أمر على الخصوص ، ومن هنا فرق ما بينه وبين التجربة ، فانها معرفة بأحوال معينة وخبرة بها تقتصر عليها ولا تتسع حتى تكون شاملة ، أما الفن فيتعلق بالحقائق العامة ، وهو فطنة ، لا علم ، وملكة قد تساعدها الخبرة ولكنها لا تخلقها ، وذوق تصقله وترهفه المرانة غير أنه لا يكتسب بها ، وإن كانت المرانة تفيد الحذق والبراعة

ولا يقل أحد إن الجماهير لا تقدر الأدب ، وإنها يشق عليها أن ترتفع إلى طبقته كما يتعذر عليه هو أن ينزل إليها ، فان القول بهذا جهل وغفلة ، والذى يذهب إلى هذا الرأى إنما ينظر إلى الشكل والعبارة لا إلى الجوهر والموضوع ، ثم هو يخلط بين ضروب متباينة من الأدب . نعم ، يعسر على الجماهير غير المثقفة أن تنتفع أو تستمتع ببحث أو درس ، أو أن تدرك القيمة

الحقيقية لقصيدة ، وأن تفطن إلى عناصر الجمال أو الجلال أو القوة فيها ، ويعييها أن تبين لماذا يطربها الشعر أو يروقها الكلام ويطيب موقعه من نفوسها ، أو يؤثر فيها ، ولكنها تميز بغريزتها وإن لم تميز بعقلها ، وتحس بروحها وإن عزها الاهتداء إلى السبب ، والقصة ، بعد ، شيء لا عناء عليها في فهمه ، لأنها حوادث ووقائع قد يكون أو لا يكون وراءها معنى عويص أو فكرة عميقة ، على أن الوقوع على المراد لا يعجز الجمهور إذا سيق مساق القصة ، وللناس نفوس ، وفيهم نظر ولهم إدراك وإحساس إذا لم يكن لهم علم . وأسلوب القصة يسهل التلقف ، ويقرب المناص ؛ وفي وسع القارئ أو المشاهد أن يعرف مبلغ الصدق في التصوير إذا لم يستطع أن يفطن إلى دقائق الفن ، كما يعجب بالصورة ويشهد لها بالصدق في التعبير ، والقوة في النطق ، وإن غابت عنه المزايا الفنية التي لا يراها أو لا يستطيع الحكم عليها إلا أهل هذا الفن والعارفون به .

وقد تم هدم المسرح لما ظهرت السينما الناطقة ، لأن مجالها أرحب ، وميدانها لا تكاد تحصره الحدود ، وقد تضعضع المسرح في أوربا من جرائها ، فلا بدع أن تقوضه في مصر ، وهو هناك يعاني منها البرح ، فغير مستغرب أن يدركه هنا الفناء ، وعسير بعد السينما الناطقة أن يقوم في مصر مسرح إلا في ظل الحكومة وبمالها ورعايتها ، ولكنه لا خير في هذه الرعاية إذا لم يقض عليه القائمون به الصبغة المصرية ، ولم يخلعوا عنه ذلك الثوب المستعار الذي انتهى بأن صار كفناً له . وقد صار أمل المسرح المصري معقوداً الآن برجلين اثنين يتوليانه : حافظ عفيفي باشا ، والشاعر خليل مطران ، فاذا خاب هذان ، فلست أرى أملا للمسرح وراءها

وقد كانت عناية الحكومة — إلى الآن — بالأوبرا دون غيرها ، وصحيح أنها اعتادت في السنوات الأخيرة أن تمنح الفرق إعانات ، وأن تبذل للممثلين مكافآت ، ولكن الاعانة كانت ضئيلة لا تغني ، والمكافأة كانت زرية ، وكان الأسلوب الذي تجرى عليه وزارة المعارف في منحها لا يخلو من استهان لكرامة الممثل . على أن هذا كله لم يكن إلا ستراً لجودها على الأوبرا ، وليست الأوبرا مصرية ، ولا التمثيل فيها بلغتنا ، ولعل مصر هي الدولة الوحيدة التي تبني داراً للأوبرا لتستقدم إليها فرقاً من أمم شتى تمثل بلغاتها المختلفة ويضمن لها الربح ، وإن كان أبناء البلاد لا يذهبون إليها ولا يشهدون ما يمثل على ملعبها . وهو تكلف شديد انفردنا به ، ولا غاية منه إلا أن يجد السياح حين يفدون داراً للأوبرا ، عامرة بمثل ما ألفوه في ديارهم ؛ ولو أن هذه الأوبرا كانت مصرية والتمثيل فيها كذلك ، لكان هذا أبعث على سرور السياح ، لأنهم لا يجيئون إلى بلادنا ليروا فيها ما يرون في بلادهم ، بل ليطلعوا على ما عندنا نحن ، مما امتلنا تميزنا به وخالفناهم فيه ، ولو وثقوا أن ما عندنا ليس إلا صورة لما تركوه لما جشموا أنفسهم عناء السفر ومشقات الرحلة ونفقاتها ، وليت الفرق التي تبذل لها المال لتفاخر بها من الطراز الأول ! والغريب بعد ذلك أن الفرق المصرية كانت تذاد عن دار الأوبرا إلا في الندرة القليلة والفلتات المفردة . وهذا حال يجب أن يقلب ليعتدل ، وعار ينبغي أن يغسل عنا ، ومهزلة يجب أن تقصر الحكومة عنها ، وإلا صح فينا بعد ألف سنة أننا أمة تضحك من جهلها الأمم .

إبراهيم عبد القادر المازني

ثبات الأخلاق

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لو أنني سُئلت أن أجمل فلسفة الدين الاسلامي كلها في لفظين، لقلت إنها: ثبات الأخلاق، ولو سُئل أكبر فلاسفة الدنيا أن يوجز علاج الانسانية كله في حرفين، لما زاد على القول إنه: ثبات الأخلاق، ولو اجتمع كل علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصروا ما يعوزها في كلمتين لقالوا: ثبات الأخلاق

فليس ينتظر العالم أنبياء ولا فلاسفة ولا مصلحين ولا علماء يبدعون له مدعاً جديداً؛ وإنما هو يترقب من يستطيع أن يفسر له الاسلام هذا التفسير، ويثبت للدنيا أن كل العبادات الاسلامية هي وسائل عملية تمنع الأخلاق الانسانية أن تتبدل في الحي فيخلع منها ويلبس، إذا تبدلت أحوال الحياة فصعدت بإنسانها أو نزلت؛ وأن الاسلام يأبى على كل مسلم أن يكون إنسانَ حالته التي هو فيها من الثروة أو العدم، ومن الارتفاع أو الضَّعة، ومن خمول المنزلة أو نباهتها؛ ويوجب على كل مسلم أن يكون إنسانَ الدرجة التي انتهى إليها الكون في سموه وكماله، وفي تقلُّبه على منازله بعد أن صُفي في شريعة بعد شريعة، وتجربة بعد تجربة، وعلم بعد علم

انتهت المدنية إلى تبدُّل الأخلاق بتبدُّل أحوال الحياة، فمن كان تقياً على الفقر والاملاق وحرمه الاعسار فنون اللذة، ثم أيسر من بعدُ؛ جاز له أن يكون فاجراً على الغنى، وأن يتسمح لفجوره على مدّ ما يتطوّحُ به المال، وإن أصبح في كل دينار من ماله شقاءُ نفس إنسانية أو فسادُها

ومن وُلد في بطن كوخ، أو على ظهر الطريق، وجب أن يبقى أرضاً إنسانية؛ كأن الله سبحانه لم يبن من عظامه ولحمه وأعصابه إلا خربة آدمية من غير هندسة ولا نظام ولا فن ... ثم يقابله من وُلد في القصر أو شبه القصر فله حكم آخر، كأن الله سبحانه قد ركب من عظمه ودمه وتكوينه آية هندسة، وأعجوبة فن، وطرفة تدبير، وشيئاً مع شيء، وطبقة على طبقة

ولكن الإسلام يقرر ثبات الخُلق ويوجبه وينشئ النفس عليه، ويجعله في حياطة المجتمع وحراسته، لأن هناك حدوداً في الانسانية تتميز بحدود في الحياة، ولا بد من الضبط في هذه وهذه، حتى لا يكون وضع إلا وزاءه تقدير، ولا تقدير إلا معه حكمة، ولا حكمة إلا فيها مصلحة؛ وحتى لا تعلو الحياة ولا تنزل إلا بمثل ما ترى من كفتي ميزان شُدّتا في علاقة تجمعهما وتحركهما معاً، فهي بذاتها هي التي تنزل بالنازل لتبدل عليه وتشيل بالعالي لتبين عنه. فالاسلامُ من المدنية، هو مدنيةُ هذه المدنية

***

إنها لن تتغير مادة العظم واللحم والدم في الانسان فهي ثابتة مقدَّرة عليه، ولن تتبدل السنن الالهية التي توجدها وتفنيها فهي مصرّفة لها قاضية عليها؛ وبين عمل هذه المادة وعمل قانونها فيها، تكون أسرارُ التكوين؛ وفي هذه الأسرار تجد تاريخ الانسانية كلَّه سابحاً في الدم

هي الغرائز تعمل في الانسانية عملها الالهي، وهي محدَّدة محكمة على ما يكون من تماديها واختلاف بينها، وكأنها خُلقت بمجموعها لمجموعها. ومن ثمَّ يكون الخُلق الصحيحُ في معناه قانوناً إلهياً على قوة كقوة الكون وضبطٍ كضبطه. وبهذه القوة وهذا الضبط يستطيع الخُلق أن يحوّل المادة التي تعارضه إذا هو اشتدَّ وصَلُب، ولكنه يتحول معها إذا هو لان أو ضعُف.. فهو قدَرٌ إلا أنه في طاعتك، إذ هو قوةُ الفصل بين إنسانيتك وحيوانيتك، كما أنه قوة المزج بينهما، كما أنه قوة التعديل فيهما. وقد سُوِّع القدرةَ على هذه الأحوال جميعاً، ولولا أنه بهذه المثابة لماش الانسانُ طولَ التاريخ قبل التاريخ، إذ لن يكون له حينئذ كونٌ تؤرِّخ فضائلُه أو رذائله بمدح أو ذم

فلا عِبرة بمظهر الحياة في الفرد، إذ الفردُ مقيدٌ في ذات نفسه بمجموع هو للمجموع وليس له وحده. فانك ترى الغرائز دائبةً في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنَنٍ من أعمالها، ودائبةً كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنَنٍ أخرى. فليس قانونُ الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحولَ الفردُ على أسباب مختلفة. ثم تبقى الأخلاقُ التي بينه وبين المجموع ثابتةً على صورتها

فالأخلاقُ على أنها في الأفراد هي في حقيقتها حُكْمُ المجتمع على أفراده ؛ فقيوامها بالإعتبار الاجتماعيّ لا غير

***

وحين يقع الفسادُ في المجتمع عليه من آداب الناس ، ويلتوي ما كان مستقيما ، وتشتبهُ العاليةُ والسافلة ، وتُطْرحُ المبالاةُ بالضمير الاجتماعي ، ويقومُ وزنُ الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر ، وتجرى العِشْرةُ فيما يعتبرونه بالرذائل والمحرّمات ، ولا يُعجِبُ الناسَ إلا ما يُفسدهم ، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحلُّ في محل العادة ؛ فهناك لا مِساكَ للخُلُق السليم على فرد ، ولا بد من تحوّل الفرد في حقيقته إذ كان لا يجيءُ أبداً إلا متصدِّعاً في كل مظاهره الاجتماعية ، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً ، وكأنه منتقلٌ من عالَم الى عالم ثانٍ بغير نواميس الأول.

وما شذَّ من هذه القاعدة إلا الأنبياءُ وأفرادٌ من الحكماء ؛ فأما أولئك فهم قوةُ التحويل في تاريخ الانسانية لا يُبعَثُ أحدُهم إلا ليَهيجَ به المنْبَعُ في التاريخ ، ويتطرّقَ به الناسُ الى سُبُلٍ جديدة كأنما تطردهم اليها العواصفُ والزلازلُ والبراكين ، لا شريعتُه ومبادئُه وآدابه . وأما الحكماءُ الناجحون فهم دائماً في هذه الانسانية أمكنةٌ بشريةٌ محصّنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم ، فلهم في ذات أنفسهم عِصمةٌ ومَنَعَة كالجبال في ذات الأرض

***

الأخلاقُ في رأيي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة ، فالاصلاحُ فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات ، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حُكمه . وعندي أن للشعب ظاهراً وباطنا ، فباطنُه هو الدينُ الذي يحكم الفرد ، وظاهره هو القانونُ الذي يحكم الجميع ، ولن يَصلح للباطن المتصل بالغيب ، إلا ذلك الحكم الدينيُّ المتصلُ بالغيب مثله ، ومن هنا تتبيّنُ مواضعُ الاختلال في المدنية الأوربية الجديدة ، فهي في ظاهر الشعب دون باطنه ، والفردُ فاسدٌ بها في ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين ، ولكنه مع ذلك يبدو صالحا منتظما في ظاهره الاجتماعي بالقوانين وبالآداب العامة التي تفرضها القوانين ، فلا يبرحُ هازئا من الأخلاق ساخراً بها لأنها غير ثابتة فيه ، ثم لا تكون عنده أخلاق يَعتدُّ بها إلا إذا درّت بها منافعُه وإلا فهي ضارّة إذا كانت منها مضرّة ، وهي مؤلمة إذا حالت دون اللذات . ولا ينفكُّ هذا الفردُ يتحول لأنه مُطلَقٌ في باطنه غيرُ مقيد إلا بأهوائه ونزعاته ، وكلتا الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات إذ الغايةُ المتاعُ واللذة والنجاحُ ، وليكن السببُ ما هو كائن . . . .

وبهذا فلن تقومَ القوانينُ في أوربا إذا فني المؤمنون بالأديان فيها أو كاثَرَهم الملحدون ، وهم اليوم يُبصرون بأعينهم ما فعلت عقليةُ الحرب العظمى في طوائفَ منهم قد خربت أنفسهم من إيمانها فتحولوا ذلك التحولَ الذي أومأنا إليه ، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربةً مقاتلةً ترى في كل شيء بروحَ الدم والأشلاء والقبور والتعفّن والبلى . . . . وانتهت الحربُ بين أمم وأمم ، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق

وقديما حارب المسلمون ، وفتحوا العالم ، ودوّخوا الأمم ، فأثبتوا في كل أرض هدى دينهم وقوةَ أخلاقهم الثابتة ، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السِّلم ، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول ، ولا تستخفه الحياةُ بنزَقها ، ولا تَتسفّهُهُ الدنيّاتُ فتحمله على الطيش .

ولو كانوا هم أهلَ هذه الحرب الأخيرة بكل ما قذفت به الدنيا ، لبقيت لهم العقليةُ المؤمنةُ القوية ، لأن كل مسلم فإنما هو وعقليتُه في سلطان باطنه الثابت القارّ على حدود بينةٍ محصلةٍ مقسومةٍ تحوطُها وتمسكها أعمالُ الايمان التي أحكمها الاسلامُ أشد إحكام بفروضها على النفوس منوّعةً مكررة كالصلاة والصوم والزكاة ليمنع بها تغيرا ويُحدث بها تغيرا آخر ، ويجعلها كالحارسة للارادة ما تزال تمرُّ بها وتتعهدها بين الساعة والساعة (1)

إنما الظاهرُ والباطنُ كالموج والساحل ؛ فاذا جُنَّ الموجُ فلن يَضيرَه ما بقي الساحلُ ركيناً هاذئاً مشدوداً بأعضاده في طبقات الأرض . أما إذا ماج الساحل ... فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير ؛ ولا جَرَمَ ألا يكون إلا خَسْفاً بالأرض والماء وما يتصل بهما

***

(1) فصلنا هذا المعنى في كثير من مقالاتنا في الرسالة كمقالة (حقيقة المسلم) ، و (فلسفة الصوم) وغيرهما

فى الكون أصلٌ لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانونُ ضبطِ القوة وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الحكمة . ويقابلهُ فى الانسان قانونٌ مثله لا بد منه لضبط معانى الانسان وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكلُّ فروض الدين الاسلامىّ وواجباتِه وآدابه ، إنْ هى إلا حركةُ هذا القانون فى عمله ، فما تلك إلا طُرُقٌ ثابتة لخلق الحِسّ الأدبىّ ، وتثبيتِه بالتكرار ، وإدخاله فى ناموسٍ طبيعىّ باجرائه فى الأنفُس مجرى المادة ، وجعلِه بكل ذلك قوةً فى باطنها ؛ فتُسمَّى الواجبات والآداب فروضاً دينيةً ؛ وما هى فى الواقع إلا عناصرُ تكوينِ النفس العالية ، وتكوين أوامرَ وهى خفائق[1]

من ذلك أرانا نحن الشرقيين نمتاز على الأوربيين بأننا أقربُ منهم إلى قوانين الكون ؛ ففى أنفسنا ضوابطُ قويةٌ متينة إذا نحن أقررنا مدنيتهم فيها — وهى بطبيعتها لا تقبل إلا محاسنَ هذه المدنية — سبقناهم وتركنا غبارَ أقدامنا فى وجوههم ، وكنا الطبقةَ المُصَفَّاةَ التى يَنْشُدونها فى إنسانيتهم الراهنة ولا يجدونها ، ونمتازُ عنهم من جهة أخرى بأننا لم نُنْشِئ هذه المدنيةَ ولم تنشئنا ، فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها فى حسناتها ، وحماقتها فى حكمتها ، وتزويرها فى حقيقتها ، وأن نُسيغَ منها الحلوةَ والمرة ، والناضجة والفجّة ، وإنما نحن نحصّنها ونقتبسها ونرتجع منها الرّجعةَ الحسنةَ ؛ فلا نأخذُ إلا الشىءَ الصالحَ مكانَ الشىء قد كان دونه عندنا وندعُ ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا ندع إلا على الأصول الضابطة المحكمة فى أدياننا وآدابنا ، ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدنيتهم بمثل ماضيهم . بيْدَ أنَّ العجب الذى ما يفرغ تعجّبى منه أن الموسومين منا بالتجديد لا يحاولون أولَ وَهْلةٍ وآخرها الا هدمَ تلك الضوابط التى هى كل ما نمتازُ به ، والتى هى كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدنيتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ، وَلَهُوَ بأن يسمى حماقةً وجهلاً أولى وأحق

أقولُ ولا أبالى : إننا ابتلينا فى نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا النقلَ من لغات أوربا ، ولا عقل لهم إلا عقلُ ما ينقلونه ؛ فَصَبغتهم الترجمةُ من حيث يدرون أو لا يدرون صبغةَ تقليدٍ مَحْضٍ ومتابعةٍ مُسْتَعبِدَة ، وأصبح عقلُهم بحكم المادة والطبيعة ، إذا فكَّر انجذب الى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه . وإذا صح أن أعمالنا هى التى تَعملنا كما يقول بعض الحكماء ، فهم بذلك خطرٌ أىُّ خطرٍ على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه ، ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن ... أن يترجموه الى شعب آخر ....

***

إن أوربا ومدنيتها لا تساوى عندنا شيئاً إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها ، فانما الذاتيةُ وحدها هى أساسُ قوتنا فى النزاع العالمىّ بكل مظاهره أيّها كان ؛ ولها وحدها ، وباعتبار منها دون سواها ، نأخذ ما نأخذه من مدنية أوربا ونهمل ما نهمل ؛ ولا يجوز أن نترك التثبت فى هذا ولا أن نتسامح فى دقة المحاسبة عليه

فالمحافظة على الضوابط الانسانية القوية التى هى مظاهرُ الأديان فينا ، ثم إدخالُ الواجبات الاجتماعية الحديثة فى هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته ؛ ثم تنسيقُ مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط ؛ ثم العملُ على اتحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبىّ فى جملته بتقويم أجزائه . هذه هى الأركانُ الأربعة التى لا يقوم على غيرها بناءُ الشرق

والالحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدنية الأوربية التى لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر فى أجمل أشكاله . . . ثم الجهلُ بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحياطة الاجتماع وماجرى هذا المجرى . ثم التدليس على الأمة بآراء المقلدين والزائفين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبية القوية ، وما اتصل بذلك . ثم التخاذل والشقاق وتدابر الطوائف وما كان بسبيلها . تلك هى المعاول الأربعة التى لا يهدم غيرُها بناءَ الشرق

فليكن دائماً شعارنا نحن الشرقيين هذه الكلمة : أخلاقنا قبل مدنيتهم

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

إلى البغدادي فى بغداد : سنقدم بعد قليل على موضوع الزبال والله المستعان ، فقد كنا نتهيب هذا الموضوع إذ هو عندنا ليس الزبال ولكنه نصف المسألة الانسانية كما يقول عن نفسه

الرافعى

(١) هذا هو الذى ضل عنه مصطفى كمال ومن شايعوه ، ومن قلدوه ، ومن انخدعوا فيه ، ولو فهمه حق الفهم لجدد تركيا وجدد العالم الاسلامى كله ، ولكن الرجل غريب عن هذه المعانى قصير النظر ، فما زاد على أن جدد ثوباً وقبعة ...

طب النفس

للأستاذ أحمد أمين

لست أدرى لماذا يؤمن الناس أشد الإيمان بمرض أجسامهم ، ولا يؤمنون بمرض نفوسهم ، فإذا شعر أحدهم بمرض جسمى أسرع الى الطبيب يصف له أعراضه ، ويستوصفه دواءه ، وينفذ أوامره مهما دقت ، ويبذل فى ذلك الأموال مهما جلت ، ثم هو يمرض نفسياً ، فلا يأبه لذلك ، ولا يعيره عناية ، ولا يستشير طبيباً نفسياً ، ولا يعنى بدرس الأعراض ومعرفة الأسباب ، وقد يلح عليه مرض النفس ، ويصل به إلى اليأس ، فلا يسعى لعلاج ، ولا يجدّ فى معرفة دواء ، كأن نفسه أهون عليه من جسمه ، وروحه أتفه من بدنه

ومن أجل عناية الناس بأجسامهم دون نفوسهم ، كان لدينا نظام شامل واف لطب الأجسام دون طب النفوس ؛ فمدرسة لتخريج الأطبـــاء حتى للطب البيطرى ، ومعاهدُ للتشريح والتجارب ، وتخصصٌ فى الأمراض ؛ فهذا طبيب عين ، وهذا طبيب أنف وحنجرة ، وهذا طبيب أسنان ، وهذا طبيب باطنى الخ ، وكان لكل حىّ طبيب أو أطباء ، ولكل مدرسة طبيب ، وفى الأمم الراقية لكل أسرة طبيب ، ووجدت المستشفيات فى أنحاء الأقطار ، وعدها الناس عملاً خيرياً يتبرعون لها بأموالهم ، كما عدتها الحكومات ضرورة اجتماعية ترصد لها الأموال فى ميزانياتها ، وأنشئت الصيدليات فى كل حىّ وكل شارع لتلبية طلبات الأطباء والجماهير فى كل وقت إسعافاً للجسم فى مرضه وفى ترفه

وخضعت هذه النظم لسنة الارتقاء ، فهى تساير الزمان ، وتستفيد مما يؤدى إليه البحث والعلم ، وتتكيف حسب ما تقتضيه الأحوال ، وتجهز بأحدث المخترعات

والعقل عنى به بعض هذه العناية ، فكان أطباء للأعصاب ، ومستشفيات للمجاذيب ، وبحوث وتجارب فى أمراض العقل وعلاجه

أما النفس فحظها من ذلك كله حظ الأرنب بجانب الأسد ، فلا الناس يقدّرون خطورة أمراضها ، ولا تنشأ المدارس لأطبائها ، ولا تؤسس المستشفيات لعلاجها

مع أنى أعتقد أن آلام الناس من نفوسهم أكثر من آلامهم من جسومهم ، وأضرار المجتمعات من مرضى النفوس تفوق أضرارها من مرضى الجسوم ، وللنفس أمراض لا حصر لها ، تختلف كاختلاف أمراض الجسم الى مرض عين ومرض معدة ومرض أمعاء ، فهناك حميات نفسية متعددة كحميات الأجسام ، وهناك تسمم نفسى يشبه التسمم الجسمى ، وهناك ميكروبات نفسية كالميكروبات المادية ، وهناك عدوى بها تصيب النفوس كعدوى الأجسام — وهناك انفعالات تحرق النفس وتضنى البدن الى آخر ما هنالك ، ولكل هـــذه الأمراض علاجات تختلف باختلاف المرض وباختلاف الشخص ولها أدوية من جنسها ، منها ما يسكن الألم ، ومنها ما يشفى المرض — وهى فى دراستها وتشخيصها وعلاجها أدق وأصعب منالاً وأغمض كشفاً ، والفرق بينها وبين أمراض الجسم وعلاجه كالفرق بين الجسم والنفس فما أحوجها الى أطباء مهرة ، ومستشفيات صالحة معدة ، ودراسات عميقــة منتجة ، ونظم فى ذلك ترقى مع الزمان رقى طب الأجسام

لعل الذى صرف الناس عن علاج نفوسهم الى علاج جسومهم أنهم أو الكثير منهم لا يزالون يسبحون فى دائرة الحس وحده ، ولم يرتقوا الى ملاحظة النفوس وشؤونها ؛ فاذا جرح الانسان جرحاً بسيطاً فى جسمه هرع الى الطبيب يعالجه ويحتاط له ، وإذا كسر عظمه ذهب الى الطبيب ليجبر كسره ، ولكن إذا جرحت نفسه ولو جرحاً عميقاً ، وكسرت ولو كسراً خطيراً احتمل الألم من غير بحث عن علته أو نتائجه أو طرق مداواته لأنه لا يزال مادياً فى إدراكه أولياً فى تفكيره

أو لعل السبب أن الناس لا يؤمنون بأطباء النفوس إيمانهم بأطباء الأجسام ؛ فهم لا يعتقدون فى صلاحيتهم ، ويشكون كل الشك فى قدرتهم على علاجهم ، فيستسلمون للمرض النفسى كما يستسلمون لمرض جسمى استحال شفاؤه ولم يستكشف دواؤه ،

إن كان هـذا فعلى الطب النفسي أن يثبت قدرته ، ويبرهن على نجاحه حتى يقبل الناس عليه ويؤمنوا به

وقد يكون السبب أن الناس يؤمنون بسهولة أمراض النفس وقدرتهم على علاجها والاستشفاء منها من غير طبيب ، فما عليه إن كان حزيناً إلا أن يضحك ، أو منقبضاً إلا أن يتسلى ، وهذا خطأ بين ؛ فأمراض النفوس كأمراض الجسم فيها ما يداوي بحمية وفيها ما يستعصي على الطبيب الماهر والخبير الحاذق.

***

لعلك تزعم أن هذه الناحية من طب النفوس لم تهمل بتاتاً فهناك المدارس للتهذيب ، فيها إصلاح النفوس وفيها دروس الدين والأخلاق لمعالجة الأمراض ، وهناك الوعاظ لإرشاد الناس وعلاج النفس ، وهناك العرف والقوانين توجه الناس إلى الخير وتحذرهم من الشر ، وفي ذلك تهذيب لنفسهم وإصلاح لجوانب الشر فيهم

ولكن يظهر لي أنها كلها مع فائدتها لا تكفي ، لأنها — من ناحية — تكاد تكون علاجاً عاماً يقال لكل الأشخاص ، ويخاطب بها كل النفوس ، كالطبيب يذكر ضرر الإفراط في الأكل ، وأضرار كثرة التدخين ، وفائدة الرياضة البدنية ، وفائدة الاعتدال في المأكل والمشرب ، وهي قل أن تتعرض للأزمات النفسية الخاصة بكل نفس وما أحاط بها من ظروف خاصة ، ونوع النفس وما يلزم لها من علاج خاص بها ، هي أقرب ما تكون إلى الوقاية لا إلى العلاج ، وللاحتياط من الوقوع في المرض لا لعلاج المرض ، فان تعرضت لعلاج وصفت علاجاً عاماً للنـاس على السواء ، إذ ليس في استطاعتها — غالباً — أكثر من ذلك

ومن ناحية أخرى أكثر ما بأيدينا منها اليوم لم يؤسس على ما وصل إليه العلم الحديث ، ولم يبن على ما استكشف من قوانين علم النفس على قلة ما استكشف منها ، فالدراسة الحديثة أبانت عن اتجاهات كانت غامضة ، وأخطاء كانت ترتكب في تصور النفس وإدراكها وجزائها وطرق تهذيبها ، ولا يزال علماء النفس يقرون بأنهم في أول مراحلهم ، ولم يقولوا في النفس إلا الكلمة الأولى ، فكان من المعقول أن يساير التهذيب ودراسة الأخلاق وعلاج النفس ما وصل إليه علم النفس وعلم الاجتماع ، كما يساير علم طب الأجسام ما يستكشف من مخترعات . فآلات الجراحة اليوم غيرها بالأمس ، والمادة الطبيـة اليوم غيرها بالأمس وهكذا ولكن ذلك لم يكن

وربما كان أقرب المناحي إلى طب النفس منحى الصوفية ، فقد كان لكل مريد شيخه يفضي إليه بدخائل قلبه وأزمات نفسه ، ووساوسه وخطراته وآلامه وتوجهاته ، والشيخ يصف لكل مريد ما يراه أنسب له وأقرب لعلاجه ، ويصف له طرقاً يسلكها واتجاهات يتجهها وأوراداً يتلوها ، يرى أنها تشفي مرضه ، وتبرىء نفسه ، وله في كل مريد نظرته وفراسته ، بها يشخص وبها يصف ، ولكن تكاد تقتصر هذه الحالة بين المريد والشيخ على الأزمات الدينية ، أما ما عدا ذلك من أزمات دنيوية واجتماعية ، فقلما يتناولها المريد والشيخ ، على أنه ، من لكل مريد بهذا الشيخ الدقيق النظر الصائب الفكر الصادق الفراسة الموفق في تبين المرض ومعرفة العلاج

***

وإذا عدمنا مثل هـذا الشيخ وحرمت مجتمعاتنا من نظم وافية شاملة للطب النفسي كالنظم الوافية الشاملة للطب الجسمي فلا أقل من أن نوجه النظر إلى أن يعنى كل شخص بناحيته النفسية عناية لا تقل عن عنايته الجسمية . فضحايا أمراض النفوس كثيرون ، وصرعى المرض لا يحصون ، والالتفات إلى فتك هذا النوع من الأمراض ضعيف فاتر — فهناك صرعى الخوف من الموت ومن الفقر ومن الرؤساء ، وهناك صرعى الشك في الدين وفي الحياة وقيمتها وفي كل ما يحيط بهم مما في الأرض وما في السماء ، وهناك صرعى الحزن لا يسرهم شيء في الحياة ، ويودون أن يبكوا دائماً ويسودون كل منظر يرونه ، ويحزنون عند ما يحزن الناس ويحزنون عند ما يضحك الناس ، فإذا عدموا أسباب الحزن خلقوها حتى من أعمق منابع السرور — وهكذا تتعدد الصرعى

كمرضى السل والسرطان وما إليهما — يبدأ فيهم مكروب النفس صغيراً ثم ينمو شيئاً فشيئاً حتى يفترسهم ، ثم من العجيب ألا يتوجهوا قليلاً ولا كثيراً إلى قتله قبل أن تقتلهم وهزمها قبل أن تهزمهم ، كأنهم يظنون أن المرض فوق أن يعالج والأمر أيأس من أن يفكر فيه

* * *

لأمراض النفس أسباب عدة : من حالة صحية ، وبيئة اجتماعية ، وبذور ميكروبات تسربت اليها من كتب قرأتها ، ومقالات طالعتها ، وأحاديث سمعتها ، ومناظر رأتها إلى غير ذلك ، ولعل أهم مرض نفسي يصيب طائفة المثقفين سببه أنهم لا يريدون أن يكونوا أنفسهم ويريدون أن يكونوا غيرهم

لقد خلقت النفوس البشرية متشابهة فى بعض جهاتها ، مختلفة فى بعض جهاتها ، شأنها فى ذلك شأن الوجوه ، فكل وجه فيه عينان وأنف بين العينين وفم تحت الأنف وذقن تحت الفم ولكن مع هذا الاشتراك لكل إنسان وجهه الخاص به لا يشاركه فيه غيره ، وكذلك النفوس تشترك فى اللذة والألم ، وتشترك فى أهم منابع اللذة ومنابع الألم وتشترك فى الغرائز الأساسية وما إلى ذلك ، ومع هذا فلكل انسان نفسه الخاصة ، لا يساويها فى جميع وجوهها غيرها

ومما ألاحظه أن نفس كل انسان إن سارت على فطرتها ، وعرفت أن تتغذى بما يناسبها ، وطلبت لها مثلاً أعلى يتفق وطبيعتها ، عاشت فى الأغلب راضية مطمئنة ، فان خالفت فطرتها وحاولت أن تكون غيرها أظلمت وأصابها الحزن والقلق والاضطراب ، وفقدت سعادتها وهناءها ، واطمئنانها ورضاءها ، ومحال أن تنال ما يخالف فطرتها ، كما هو محال أن يكون الوجه الأسود أبيض ، أو الأبيض أسود ، أو الطويل قصيراً ، أو القصير طويلاً

يسعد الانسان إذا عرف طبيعته وحدوده التى يستطيع أن يصل إليها ، ونوع الرقى الذى يمكن أن يبلغه ، فان حاول أن يكون غير ذلك كان فى الحياة « ممثلاً » لا يعيش عيشته الطبيعية ، فهو فقير يمثل دور ملك ، وصعلوك يمثل دور وزير ، وطفل يمثل شيخاً هرماً ، ورجل يمثل دور امرأة ، ومحال أن يوائم بين نفسه الحقيقية والدور الذى يمثله إلا بمقدار ما يظهر على المرسح ، فان هو حاول أن يطيل ذلك بعد دوره فجزاؤه الهزؤ به ، والسخرية منه ، وقلق نفسه ، واضطراب شأنه

فأكثر أسباب اضطراب المثقف ناشئ من أنه غبي يريد أن يكون ذكياً ، أو ميال بطبعه إلى العزلة والانكماش ، يريد أن يكون وجيهاً شهيراً ، أو عالم يريد أن يكون أديباً ، أو أديب يريد أن يكون عالماً ، أو صريح يريد أن يخادع ويمالق ، أو خجل يريد أن يكون وقحاً ، أو متزن نواحى العقل يريد أن يكون نابغاً شاذاً الخ . فهو يحاول ويحاول ، ثم يفشل ويفشل ، لأنه يكلف النفس ضد طباعها ، وهذا الفشل يهز نفسه هزة عنيفة تسبب له القلق الروحى والاضطراب النفسى ، هو بذلك يريد أن يكون إنساناً صناعياً وهو مخلوق إنساناً طبيعياً ، فالتوفيق محال ، وخير نصيحة لهذا وأمثاله أن تقول له : « كن نفسك ، ولا تنشد إلا مثلك »

أحمد أمين

أقطاب الرواية المصرية

عز الملك المسبحي

جندي ومؤرخ وسياسي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان المسبحي رجل حرب ورجل قلم ؛ وكان سليل أسرة حرانية [١] نزحت إلى مصر قبل قيام الدولة الفاطمية ، واستوطنت مصر وسطعت فيها ؛ وكان احدى هاته الشخصيات القوية البارزة التي كانت الدولة الفاطمية ابان قوتها وفتوتها تحشدها حولها ، وتوليها ثقتها وعطفها ، وتؤثر أن تختارها من غير المصريين البلديين . بيد أن المسبحي كان مصرياً بمولده ، مصرياً بتربيته وبيئته ، وقد خصص حياته ومواهبه الممتازة لدراسة مصر وأحوالها وتاريخها ؛ ولو لم يذهب الزمن بآثاره ولا سيما بموسوعته الضخمة عن تاريخ مصر ، لكان بين يدينا الآن أعظم أثر عن مصر وتاريخها في المرحلة الأولى من الحكم الفاطمي ، أعني مرحلة العظمة والبهاء .

ولد المسبحي بمصر حسبما ذكر في تاريخه ونقل الينا الرواة المتأخرون في العاشر من رجب سنة ست وستين وثلثمائة (٩٧٧ م) [٢] ؛ وهو الأمير المختار عز الملك محمد بن عبد الله ابن احمد بن اسماعيل المعروف بالمسبحي ؛ ولم نعثر على تفاصيل عن حياته الأولى ولا عن تربيته وتكوينه ؛ ولكن يبدو لنا من آثاره التي نسبت اليه ، والتي انتهت الينا شذور منها أنه تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة النواحي ، كذلك يظهر أن المسبحي بدأ حياته العامة جندياً ورجل ادارة ، لأنه كان يرتدي زي الجند ، ولأنه تقلد بعض المناصب الادارية الهامة ؛ وقد ذكر لنا المسبحي في تاريخه أيضاً ، أن اتصاله بخدمة الحاكم بأمر الله يرجع إلى سنة ٣٩٨ هـ ؛ بيد أنه تقلب قبل ذلك في بعض الوظائف الهامة ، فتقلد أعمال القيس والبهنسا من أعمال الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب [١] وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ، ثم اصطفاه الحاكم بأمر الله وعينه في بطانته الشخصية في سنة ٣٩٨ هـ .

وكان الحاكم يومئذ فتى في نحو الثالثة والعشرين من عمره ؛ ولكنه كان في ذروة القوة والسلطان والبطش ، وكانت هذه الفترة بالذات من أروع فترات حكمه ، وفيها فتك بكثير من الوزراء ورجال الدولة (سنة ٣٩٥ — ٤٠٠ هـ) ويروي لنا المسبحي نفسه في تاريخه طائفة من الحوادث الدموية التي شهدها في هذا العهد [٢] ؛ وكان الحاكم دائم الفتك بالزعماء والكبراء لأسباب تتصل بسياسته العامة أو لريب ومخاوف تساوره ، ولكن المسبحي تبوأ لدى الحاكم مركزاً من النفوذ والثقة لا تتطاول اليه الشكوك والريب ، ولا تتجه اليه النقمة الغادرة ، بل يظهر أن المسبحي كان من أخص خواص الحاكم ، حسبما تدل به الواقعة الآتية التي يرويها لنا في تاريخه ، قال :

« قال لي الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار ، استدعاني والدي قبل موته ، وهو عاري الجسم ، وعليه الخرق والضماد ، قال فاستدعاني وقبلني وضمني اليه وقال : واغمي عليك يا حبيب قلبي ، ودمعت عيناه ، ثم قال : امض يا سيدي فالعب فأنا في عافية . قال الحاكم : فمضيت والتهيت بما يلتهي به الصبيان من اللعب إلى أن نقل الله تعالى العزيز اليه » [٣]

ويقول لنا ابن خلكان إن المسبحي نال لدى الحاكم حظوة وسعادة ، وإنه كانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات حسبما يشهد بها تاريخه الكبير [٤] ، وتبدو دلائل هذه الصداقة التي توثقت عراها بين الحاكم والمسبحي في كثير مما يرويه المؤرخ في تاريخه وينقله عنه الكتاب المتأخرون مثل المقريزي وابن تغرى بردى عن عصر الحاكم بأمر الله ، وعن أحواله وتصرفاته الشخصية ، ففي كثير من هذه المواطن يبدو المسبحي الصديق المخلص والمستشار الأمين

(١) نسبة إلى حران ، وهي مدينة قديمة كانت تقع بين الموصل والشام على مقربة من الرها

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٤

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

(٢) نقله المقريزي عن المسبحي في الخطط (الطبعة الأهلية) ج ٣ ص ٣٢ و ٣٣

(٣) نقله ابن تغرى بردى في النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣

وهذه حقيقة تلفت النظر ، فإن الحاكم كان أميراً خطر النزعات عنيف الأهواء ، وقلما نجا من نقمته أحد من رجال الدولة الذين خدموه . بيد أن الذهبي يقدم إلينا في تاريخه تعليلا لهذه الظاهرة ، هو أن المسبحي كان رافضياً [1] . والروافض فرقة من غلاة الشيعة تغلو في حب علي بن أبي طالب وفي بغض أبي بكر وعثمان ومعاوية ومن إليهم ، وقد اختلف في سبب تسميتهم بالروافض . وهنا نلمس سر هذه الصداقة التي توثقت بين المؤرخ وأميره ، فقد كان الحاكم ، جريا على سنة آبائه ، يصطفي غلاة الشيعة أبناء مذهبه ويوليهم مناصب النفوذ والثقة ؛ وكان المسبحي يتمتع فوق صفته المذهبية بخلال باهرة تضاعف مكانته ، فقد كان عارفاً بعلوم عصره ، وكان راوية ومحدثاً ساحراً ، وكان أيضاً شغوفاً بعلم النجوم الذي يشغف به الحاكم بأمر الله ، وقد وضع فيه أكثر من مؤلف [2] ؛ وهذه كلها عوامل وظروف تلقي أكبر الضياء على طبيعة هذه الحظوة التي نالها المؤرخ في بلاط الحاكم بأمر الله

وقد استطالت هذه الحظوة حتى وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ هـ ؛ ولا نعرف ماذا كانت صلة المسبحي بالبلاط الفاطمي في الأعوام التالية ، والظاهر أنه اعتزل الحياة العامة ، وانقطع للبحث والكتابة ، ووضع كثيراً من مؤلفاته في هذه الفترة التي استطالت تسعة أعوام أخرى حتى وفاته في شهر ربيع الثاني سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م).

— ٢ —

يقدم إلينا ابن خلكان ثبتاً حافلاً من مصنفات المسبحي ، وفي هذا الثبت القوي المتباين معاً ما يدل على ما كان يتمتع به هذا الذهن الممتاز من نواحي التفكير والثقافة المتعددة ، فقد ألف المسبحي في التاريخ والجغرافيا والأدب والاجتماع والفلك كتباً بل موسوعات ضخمة ، وإليك مفردات هذا الثبت الذي يقدمه إلينا ابن خلكان : كتاب التاريخ الكبير في ثلاث عشرة ألف ورقة ، كتاب التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره في ألف ورقة ، كتاب الراح والارتياح في ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الغرق والشرق في ذكر من مات غرقاً وشرقاً في مائتي ورقة ، كتاب الطعام والادام في ألف ورقة ، كتاب درك البغية في وصف الأديان والعبادات ثلاث آلاف وخمسمائة ورقة ، قصص الأنبياء عليهم السلام وأحوالهم ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب المفاتحة والمناكحة في أصناف الجماع ألف ومائتا ورقة ، كتاب الأمثلة للدول المقبلة وهو في النجوم والحساب خمسمائة ورقة ، كتاب القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم ثلاث آلاف ورقة ، كتاب جونة الماشطة في غرائب الأخبار والأشعار والنوادر ألف وخمسمائة ورقة ، كتاب الشجن في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ألفان وخمسمائة ورقة ؛ كتاب السؤال والجواب ثلثمائة ورقة ؛ وكتاب مختار الأغاني ومعانيها ؛ وغير ذلك من الكتب ؛ ويقول لنا ابن خلكان أيضاً إن مصنفات المسبحي بلغت نحو الثلاثين [1]

وهو تراث حافل ضخم ينم عن غزارة مدهشة ، ويشهد من حيث تنوعه لصاحبه بطرافة يندر توفرها في آداب هذا العصر ؛ بيد أننا لم نتلق من هذا التراث شيئاً يذكر ، ولا نكاد نظفر في عصرنا للمسبحي بأثر تام أو فصل تام ، وقد اشتهر المسبحي بالأخص بتاريخه الكبير ، الذي يصف لنا محتوياته في مقدمته فيما يلي : « هو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذي كتب فيه ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحكام والمعدلين والأدباء والمتغزلين وغيرهم » [2] ، وإذن فقد كان تاريخ المسبحي ، سواء من حيث حجمه أو موضوعاته موسوعة قوية شاسعة ؛ ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذي يلقي بلا ريب أعظم الضياء على تاريخ الدولة الفاطمية في عصرها الأول ، ولا سيما عصر الحاكم بأمر الله ، وشخصيته الغريبة الفذة التي درسها المسبحي عن كثب ؛ ولكن الشذور القوية الممتعة التي وصلتنا منه على يد المقريزي وغيره من المؤرخين المتأخرين عن أحوال الدولة الفاطمية وقصورها وخزائنها وصروحها

(١) راجع السيوطي — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥
(٢) ابن خلكان — ج ٢ ص ٦٥٣ — حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣
(٢) » » » » » »

وبذخها وبهائها ، تنوه بقيمة هذا الأثر ونفاسته وطرافته ، وتدل أيضاً على أن مؤلفه قد تناول خطط مصر وآثارها ومشاهدها في كثير من الافاضة

وقد لبث تاريخ المسبحي مستقى خصباً لمؤرخي مصر الاسلامية حتى عصر متأخر جداً ؛ فالمقريزي وابن تغري بردي والسخاوي والسيوطي وغيرهم يقتبسون منه ويشيرون إلى وجوده ؛ وكذلك يذكره حاجي خليفة في « كشف الظنون » عما يأتي : « ومنها تاريخ مصر لعز الملك محمد بن عبد الله المسبحي الحراني المتوفى بسنة ٤٢٠ هـ ، وهو كبير في اثني عشر مجلداً ؛ واختصره تقي الدين الفامي والذيل عليه لابن ميسر »[١] ؛ وفي ذلك ما يدل بأن تاريخ المسبحي كان موجوداً حتى القرن الحادي عشر الهجري (السابع عشر الميلادي) ؛ بل هنالك ما يدل على أنه كان موجوداً كله أو بعضه حتى القرن الثاني عشر (الثامن عشر) ؛ فقد ورد في معجم مخطوطات الأسكوريال الذي وضعه الغزيري اللبناني (Casiri) باللاتينية في سنة ١٧٧٠ بأنه يوجد في مكتبة الأسكوريال العربية « أربعة مجلدات من تاريخ مصر وأرضها وعجائبها مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤ هـ ، تصنيف محمد بن عبد الله بن عبد العزيز المسيحي (كذا) (Almisihi) (معجم الأسكوريال رقم ٥٣١ فقرة ٢)[٢] ، وليس من شك في أن المقصود هو تاريخ مصر للمسبحي ، وذلك رغم تحريف الاسم . على أننا عند مراجعة فهرس الأسكوريال الحديث الذي وضعه ديرنبورج ، ثم ليفي بروفنسال (سنة ١٩٢٨) لم نجد في كتب التاريخ ذكراً لكتاب المسبحي ، مما يدل على أن ما كان موجوداً منه بقصر الأسكوريال في القرن الثامن عشر قد ضاع بشأن كثير من الآثار التي أثبت الغزيري وجودها في معجمه

بيد أنه يبدو من هذا الوصف الذي أثبته الغزيري في معجمه أن المسبحي استمر في تتبع حوادث مصر وحوادث عصره حتى سنة ٤١٤ هـ ، وربما استمر إلى ما قبيل وفاته في سنة ٤٢٠ هـ إذا لم يكن الغزيري قد وقف على نهاية كتابه . هذا وقد كتب ابن ميسر المصري المتوفى سنة ٦٧٧ هـ ذيلاً لتاريخ المسبحي ، يبدأ فيه من حيث انتهى المسبحي ، وسماه « أخبار مصر » ؛ وانتهى الينا منه قسم يبدأ في سنة ٤٣٩ هـ وينتهي سنة ٥٥٣ هـ ، وهذا الذيل هو الذي أشار اليه صاحب كشف الظنون فيما تقدم[١]

هذا وقد كان المسبحي شاعراً رقيقاً وله شعر جيد نقل الينا ابن خلكان شيئاً منه ، ومن قوله يرثي أم ولده :

ألا في سبيل الله قلب تقطعا ... وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبراً وقد حل الثرى من أوده ... فلله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتني للموت قد مت قبلها ... وإلا فليت الموت أذهبنا معاً

وقوله من قصيدة يرثي بها والده

بأبي فجعت فأي ثكل مثله ... ثكل الأبوة في الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلم به الردى ... أو يعتريه من الزمان هموم

وقد رأينا أن المسبحي كتب فيما كتب كتاب « التلويح والتصريح في معاني الشعر وغيره » مما يدل على أنه كان راسخ القدم في فنون الشعر رسوخه في النثر

(البقية بموضوع) **محمد عبد الله عنان**

---

(١) راجع كشف الظنون (طبعة فليجل) ج ٢ ص ١٤٧ و ١٤٨

(٢) Casiri - Bibliotheca arabico - Hispana Escurialensis

(١) وقد نشر هذا القسم المستشرق الفرنسي هنري ماسيه (راجع مقدمته الفرنسية في شرح الصلة بين الكتابين)

من تراثنا العلمي

٣ – كتاب في البيزرة

وصف وتحليل لنسخة فريدة من كتاب مفقود ، في علم ضائع ، لمؤلف مجهول

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمة

وللصيد لذة مشتركة موجودة في طباع الأمم ، وكأنها في سكان البدو والأطراف أقوى لمصاقبتهم الوحش ومنازلتهم إياها ؛ فلا تزال تراهم لها ذاكرين وبها متمثلين ، ومنها طاعمين ، حتى أن نساءهم ليتصيدن على الخيل ؛ ذكر ذلك بعض الرواة فقال : أتيت مكة فجلست في حلقة فيها عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي وإذاهم يتذاكرون العذريين وعشقهم وصبابتهم ، فقال عمر : أحدثكم بعض ذلك : إنه كان لي خليل من بني عذرة (وقص قصة الدوحة ، وهي على طولها ، وعلى أنها أخذت من الكتاب نحواً من عشر صفحات من أجمل قصص الحب في الأدب العربي ، وهي مشهورة لم نروها لطولها)

وربما ألث السحاب[1] وجرت الأودية وتتابع السيل ، وثلجت الصحراء ، حتى يعم ذلك معاقل الأروى ، وكناس الظباء ، ومرابض المها ، ومفاحص القطا ، ومسالك الطير من الهواء ، فتلجأ الصوار[2] والسرب والعانة والرعيل والرف الى العمارة ؛ فتؤخذ قبضاً وتكون حالها في استسلامها ، وضعف من يقدر عليها في تلك الصورة كقول علي بن الجهم في وصف غيث :

وحتى رأينا الطير في جنباتها … تكاد أكف الغانيات تصيدها

ولا يكون لصيدها ذلك الموقع ، على أن ناساً قد أمكنهم مثل ذلك فرأوا تركه ، وقالوا إنما لجأت إلينا وعاذت بجوارنا ، فنؤمنها ولا نروعها ولا نجور عليها ، وفعل مثل ذلك مجير الجراد واسمه حارثة بن حنبل من طيء ، وكان الجراد قد وقع في أرضه ؛ فبدأ بالوقوع حول خبائه ؛ فخرج أهل الحي ليصيدوه ؛ فركب فرسه وأشرع إليهم صدر قناته وقال : ما كنت لأمكنكم من جاري

(١) الث والالثاث والثلثة الالحاح والاقامة ودوام المطر

(٢) الصوار جماعة البقر وجمعه صيران

ونخر بذلك قومه ، فقال هلال بن معاوية التغلبي :

ومنا الكريم أبو حنبل … أجار من الناس رجل الجراد

وزيد لنا ولنا حاتم … غياث الورى في السنين الشداد

وفعل مثله رجل من بني عبد الله بن كلاب يقال له همام ، وبات بأرض خلاء ليس معه أحد ؛ فأوقد ناراً ، وقد كان صاد صيداً ، فلما رأى الذئب النار أتاها ، وذلك من شأنه إذا رأى النار ، فلما قرب الذئب منه وهو غرثان أقبل يتقرش ما يرميه همام من العظام ولا يراه ، فلما تبينه رمى إليه بقية صيده ولم يرعه ، وأنشأ يقول :

يا رب ذئب باسل مقدام … منجرد في الليل والاظلام

عاود أكل الشاء والأنعام … قد ضافني في الليل ذي التمام

في ليلة دانية الأرزام … يقرش ما ألقى من العظام

فبات في أمني وفي ذمامي … مستدفئاً من لهب الضرام

آثرته بالقسم من طعامي … ولا يخف نبلي ولا سهامي

ولو أتى غيري من الأقوام … من اللئام لا من الكرام

إذن للاقى عاجل الحمام

وأخبرني من وثقت بصدقه عن رجل من جلة أهل همذان أن الثلج كثر في ضياعه حتى لجأت إليها عانات كثيرة ؛ فأخذها وكلاؤه ولم يحدثوا فيها حدثاً وكتبوا إليه يخبرها ؛ فكتب إليهم أن أقيموا لها قضبا وعلفاً الى أن ينحسر الثلج ؛ فاذا انحسر الثلج خلوا سبيلها واحموها حتى تصل الى أبعد موضع من العمارة ففعلوا ذلك

وتلجأ أيضاً الى الأنس والعمارة إذا أجدبت السنة وعدمت الكلأ ، وذكر هذا المعنى ابراهيم الموصلي في قوله يرثي أخاه اسمعيل بن جامع المغني ، فقال :

وإني واسمعيل يوم فراقه … لكالغمد يوم الروع فارقه النصل

فان أغش قوماً بعده أوازورهم … فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

يذكرنيك الخير والشر والتقى … وقول الخنا والحلم والعلم والجهل

فألقاك عن مذمومها متنزهاً … وألقاك في محمودها ولك الفضل

وقد زعم قوم أن هذا الشعر لمسلم بن الوليد الأنصاري

ومثله لآخر :

تخرم الدهر أشكالي فأفردني … منهم وكنت أراهم خير جلاس

وصرت أصحب قوماً لا أشاكلهم   والوحش تأنس عند الخل بالناس

وأخبرني مخبر عن أبي العباس الخ . عن المعتصم أنه أوغل يوماً في الصيد وحده ، فبصر بقانص يصيد ظباء فاستدناه وقال : حدثني أعجب ما رأيت في صيدك ، فقال :

خربقت المشارع التي تردها الظباء ؛ فلما شمت الخربق صدرت عطاشاً ، ثم عادت من غد فانصرفت أيضاً عطاشاً ، ثم عادت في اليوم الثالث بأجمعها ، فلما جهدها العطش رفعت رؤوسها إلى السماء فأتاها الغيث فما انصرفت حتى رويت وخاضت في الماء .

وذكرت العلماء بطبائع الحيوان أن الوحش ربما انحازت إلى الغدران عن مواضعها من الجبال والبر في الفصل الذي يتصل بفصل الشتاء ، فيستدل بذلك أهل البلدان على قوة شتاء تلك السنة وشدة برده وثلجه لأنها تحس في الجبال بتغير الهواء وبرد شديد ؛ فتستدل بذلك على ما بعده من قوة البرد وتخاف الهلاك فتلجأ إلى المعازة.

(باب) من كان مستهتراً بالصيد من الأشراف : اسماعيل ابن ابراهيم الخ . . وحمزة بن عبد المطلب الخ . . ومن خلفاء بني العباس الخ . . الخ . . (وهو باب طويل حافل بالأخبار الممتعة ، والأشعار المستملحة)

(باب) صفة البواشق وذكر ألوانها وشياتها وأوزانها وصفة الفاره منها : فالأحمر الأسود الظهر جيد صبور على النكد ، والأحمر الظهر والبطن رخو ماله جلد الخ . . .

وأكثر ما رأيناه من أوزانها مائة وثلاثون درهماً ، وأقله خمسة وتسعون الخ . . .

(باب) في ضراءة الباشق وفراهته وما يصيد من الطرائد المعجزة التي هي من صيد البازي وذكر علاجات البواشق وعللها وما خلص منها من العلل وأنجب ، وذكر القرنصة وذكر ما عاش عندي منها بالقاهرة حرسها الله ، وذكر ما يحتاج إليه في القرنصة من الخدمة ، وذكر السبب الذي استحقت به التقدمة على البزاة إذ كان مؤلفو الكتب يقدمون البازي على سائر الجوارح

(فصل) صفة ضراءة الباشق وهو وحشي ، يحتاج الباشق إلى أن يكون على يد رفيق من البيازرة يعرف ما يعمل به ، وهو أن يخيط عينه إلى أن يكلب على الطعم ومقدار ذلك سبعة أيام الخ . . . فإذا كلب كلباً تاماً على الطعم فأفتحه وأطعمه الخ . . . فإذا لم يبق عليك من إجابته شيء على ما وصفنا ، فخذ له من طير الماء الفرافير ولقفه إياها الخ . . . الخ . . .

(فصل) ذكر الضراءة على البيضاني والمكحل

إذا أردت أن يصيد الباشق البيضاني والمكحل الخ . . .

وقد رأيت من فراهة البواشق ما لم أر مثله قط ، فمنها باشق أحمر كبير الخ . . . ومن قوة البواشق ثلاثة لم يسمع بمثلها قط الخ . . . وكان لنا باشق وحشي الخ . . . ولم أر مثله إلا باشقاً كان لمولانا صلوات الله عليه (يعني العزيز الفاطمي) ، فإنه أمرني في بعض الليالي أن أشيمه وشغل هو صلى الله عليه بطير الماء الخ . . . وأنه كان لنا باشق يعرف بباشق ابن حوفية ، وكان يكون على يد أمير المؤمنين صلى الله عليه الخ . . . وهذا لم أر مثله إلا من باشق كان الخ . . . وقد كان عندي باشق حوام الخ . . . الخ

(فصل) صفة علاج القرنصة وذكر ما يحتاج إليه من آلتها

(فصل) ذكر علاج القرح في جناح الباشق وكيف يخرج

(فصل) صفة علاج الدود

(باب) في صفة البزاة وذكر شياتها وألوانها وأوزانها وضراءتها والحوادث التي تحدث لها وعلاجاتها وما تحتاج إليه من الخدمة في قرنصتها

(فصل) صفة شياتها

(فصل) ذكر أوزانها

(فصل) صفة ضراءة البازي : إذا وقع البازي إلى الصياد فسبيله أن يخيط عينيه الخ . . .

وقد كان لي باز ، وكان الخ . . .

وكان عندنا باز حمل إلينا من دمشق الخ . . .

ولقد بلغنا في صيد البازي خبر عجيب ، لم نسمع بمثله ، وذلك أن مسلماً دخل إلى بلد الروم الخ . . .

(فصل) ذكر ما يحتاج إليه البازي في القرنصة[1]

(١) قال الشيخ داود الأنطاكي : وأما القرنصة فعبارة عن اراحة الطائر مدة معلومة عن الصيد ؛ وتكون غالباً للبزاة ، ووقتها من دخول ابار

(فصل) ذكر سياسة الذرق

(فصل) ذكر الأدوية والعلاجات وما يستدل به من الذرق[1] على كل علة.

(فصل) ذكر ما يحدث الجص وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج النفس

(فصل) ذكر علاج البشم

(فصل) ذكر علاج البياض إذا أصاب عين البازي

(فصل) ذكر ما يولد القمل في البازي وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج المسمار إذا أصاب كف الجارح

(فصل) ذكر ما يحدث الورم في الكفين وصفة علاجه

(فصل) ذكر علاج القلاع

(فصل) ذكر ما يتبين به كون الدود في البازي وصفة علاجه

(فصل) صفة علاج الحر

(فصل) صفة علاج مخاليب الجارح إذا تقلعت

(فصل) صفة علاج البرد

(فصل) صفة علاج إعوجاج ريش الجناح

(فصل) صفة علاج العقر إذا أصاب كف البازي

(فصل) ذكر ما يحدث السدة في المنخرين وصفة علاجهما

(باب) في تفضيل الصقور على الشواهين لما فيها من الفراهة وهو السبب الموجب لتقديمها وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراءتها ، (وفيه فصول طويلة كالذي مر في باب البواشق وباب البزاة)

(باب) في صفة الشواهين وذكر ألوانها وأوزانها وصفة ضراءتها

(باب) السقاوات وذكر ألوانها وأوزانها وضراءتها ، وما تصيده من الوبر والريش ، وذكر ما يستدل به على جيدها ورديئها

(باب) العقبان الخ . . .

(باب) الزمامجة الخ . . .

(ذكر) ما قيل في العقاب من الشعر المستحسن

(باب) صيد الفهد الخ . . .

(ذكر) الصيد بالفهد وما يستحسن منه الخ . . . وقال بعض الشعراء الخ . . . (وفي هذا الفصل كثير من الأشعار والأخبار الجيدة)

(ذكر) ما قيل في ابتذال الملك نفسه في الصيد بهذا الضاري ومباشرته له الخ . . . (وفي هذا الفصل أشعار كثيرة)

(باب) في صفة الظباء وذكر مواضعها التي تأويها وصيدها وما فيها من النافع ، وما قيل في ذلك من الشعر

(باب) في ذكر كلاب سلوق وخصائصها وصيدها وعللها ودوائها ، وما قيل فيها من الشعر (وفيه فصول وقد أورد المؤلف في بعضها طائفة صالحة من الشعر)

(باب) ذكر ما قيل في الجوارح وما وصفت به من الشعر المستحسن لمتقدم ومتأخر ، (وفيه فصول)

(باب) صيد طير الماء في القمر بالبازي والباشق ، وهو باب تفردنا به دون غيرنا ولم نعلم أحداً سبقنا اليه من مؤلفي كتب البيزرة من المتقدمين (وهو آخر أبواب الكتاب) ثم تأتي الزيادات التي أشرنا اليها في صدر مقالنا السابق

***

هذا وصف موجز ، وبيان لقيمة هذا الكتاب الجليل ، وإنا لنرجو أن يهيء الله له ناشراً ، يسرع إلى طبعه ليستفيد منه أهل الأدب ، وأصحاب هذه الصناعة ، ويأخذ مكانه في المكتبة العربية ، فان مكانه لا يزال خالياً ، ولا يسده اليوم في الدنيا كتاب غيره ، وإنا لنرجو أن تعنى بأمره « لجنة التأليف والترجمة والنشر » ويكون لها في نشره مأثرة جديدة ، تضم إلى مآثرها الجمة وأياديها الكثيرة على الثقافة والأدب ؟

علي الطنطاوي

(١) الذرق للطائر كالزرق وزناً ومعنى ، وهو بمنزلة البول من الانسان

دراسات فى النقد (١)

طريقة أرسطو فى النقد الأدبى

بقلم محمد رشاد رشدى

كتب (أوسكار وايلد) مرة يقول : إن أعلى أنواع النقد هو سجل الروح . فالناقد لا يرى فى العمل الفنى أكثر من وحى يوحى إليه بعمل جديد شخصى قد لا يكون بينه وبين العمل المنتقد أى وجه من وجوه الشبه . هذا الرأى (لأوسكار وايلد) يصف لنا مدرسة بأجمعها من مدارس النقد - أعنى بها مدرسة الشموزيين . وفى ضوء هذه المدرسة سأحاول أن أستخلص طريقة (أرسطو) فى النقد ومدرسته . فاذا ما فرغت من هذا حاولت أن أناقش هاتين المدرستين مع أى مدرسة أخرى قد تمت إليهما بسبب

ولأجل أن تكون المناقشة جلية واضحة سأبدأ الآن بأن أقتطف من بعض النقاد نبذاً كتبوها عن شكسبير

كتب الناقد الفرنسى (تين) عن الشاعر الكبير فقال : « أظهر ما فى شكسبير خياله القوى الذى لا يعرف قناعة أو راحة ، فهو يبعثر الاستعارات فوق كل ما يكتبه ، وفى كل لحظة تتغير خواطره إلى صور قوية واضحة ، ويعرض لنا عقله رسومات وأشكالاً متتابعة ، وشكسبير لا يرى الأشياء أبداً فى هدوء . بل إن قوى عقله جميعها تتركز فى الصورة أو الخاطر الذى يعالجه تركزاً علك عليه كل نفسه وتمتص كل قواه الأخرى . إن كتابنا المتوسطين يجعلون كل همهم فى أن تكون كتاباتهم منطقية واضحة جلية وهم فى الغالب يصيبون ما يقصدون ، بيد أن شيئاً واحداً يبقى بعيداً عن متناولهم ، ألا وهو الحياة .

أما شكسبير فهو على عكس هذا يدع الوضوح والمنطق لنفسيهما ويجعل كل همه أن يصيب ما يكتبه الحياة والحركة . ولهذا السبب يبدو شكسبير لنا غريباً وقوياً ، مبدعاً وخالقاً أكثر من أى شاعر من شعراء عصره أو غير عصره . أبدع من وصف النفس البشرية ، وأبعد الشعراء عن المنطق وتفكير القدماء المتزن ، وأقدرهم على أن يثير فى النفس دنيا من الأشكال والصور الحية التى لا تموت » .

وكتب (كارليل) عن نفس الشاعر يقول : « إنه لفيما أسميه رسم الصورة - معالجة الرجال والأشياء تكون عظمة شكسبير . فعظمة الرجل تأتى يقيناً من هذه الناحية - من العين المبصرة ! تلك هى العين التى تكشف لنا عن الموسيقى الكامنة فى الخلق . عن الفكرة الجليلة التى قد ضمنتها الطبيعة مخلوقاتها جميعاً . على أن الشاعر لأجل أن تكون لديه هذه الهبة يجب أن يكون عنده من العقلية القوية ما فيه الكفاية . فان امتلك الرجل عقلية قوية كان شاعراً فى كلامه . فان لم يستطع هذا كان - وذلك أفضل وأجدى - شاعراً فى أعماله

وكتب (سير والتر رولى) عن شكسبير فقال : « إن قوة خياله لا تسمح له بأن يجد الراحة فى فكرة أو ناحية واحدة فهو فى استطاعته أن يدرس حياة الرجال مثلما يدرس المرء الحياة على ظهر باخرة . وهو دائم الاهتمام بما يحدث يومياً بين أفراد العائلة الانسانية ، غير أن للصورة دائماً فى عقله أساس واحد ترتكز عليه ، ذلك أنه دائم التفكير فى البحر - البحر الذى لا يعرف لقوته حداً والذى لا يسيره عقل أو منطق ، والآن من الواضح أن النقاد الثلاثة مشتركون جميعاً فى تحديد الصفات الأساسية التى تكون عظمة شكسبير كما أنه من الواضح أيضاً أنهم يختلفون كل الاختلاف فى الطرق التى سلكوها فى نقدهم . فمع (تين) نرى أن شاعرية شكسبير إنما تأتى من أنه أبعد الناس عن المنطق العادى وتفكير القدماء المتزن ؛ ومن (كارليل) نعلم أن ميزة الشاعر الأساسية فى أن تكون عقليته ممتلئة ناضجة ؛ ويبدو من هذا أن كلا من الناقدين يعتقد أن النقد إنما هو سجل روح الناقد ونفسه ، « فتين » العاطفى القوى الخيال يزدرى المنطق العادى ، ويرى فيه عقبة فى سبيل الشعر ، و « كارليل » الذى كان اعتماده فى حياته على فكره دون عاطفته يرى أن العقل وحده جدير بأن يخلق الشاعر وأن يجعله مبدعاً عظيما

أما (رولى) فهو لا يفعل شيئاً من هذا ، فهو يهتم فقط بأن يوضح ويعلق ، وأن يشرح ويملل دون أن يعنى بالمدح أو بالحط من قيمة الأشياء ، ونحن فى الواقع لا نستطيع أن نحكم

(١) هذه هى أولى دراسات فى النقد الأدبى الغربى سأتبعها بدراسة تفصيلية لتطور النقد عند الانجليز منذ نشأته الى وقتنا الحالى

ما إذا كان تفكير شكسبير الدائم في البحر ، البحر الذي لا يعرف لقوته حداً والذي لا يسيره عقل أو منطق ، يزيد في شاعرية الشاعر أو ينقص منها . ونحن لا نرى النقد هنا سجلاً لروح الناقد ومشاعره ، وإنما كل ما نراه هو وضوح في الأسلوب ودقة في الوصف وقوة في المنطق ، وتلك هي مدرسة أخرى من مدارس النقد تختلف عن مدرسة (أوسكار وايلد) ينحو النقد فيها منحى البحث العلمي حيث لا نجد لمشاعر الناقد نفسه أو لإحساسه الشخصي إزاء ما ينتقده أثراً من الآثار

تلك هي المدرسة الفكرية أو الاتباعية ، وقد كان أول من أسسها الفيلسوف الأغريقي (أرسطو)

ونحن لا نحس هنا أثراً لذات الناقد ؛ فهو بعيد كل البعد لا نراه إلا كما نرى الرجل العلمي من خلال بحثه — الفكر والمنطق — ذلك هو الأساس الذي بنى عليه (أرسطو) طريقته في النقد ، كان الرجل دقيق الملاحظة للطبيعة والفن ، وإنه لمن هذين الينبوعين فقط نراه يستقي كل آرائه ، يبنى كل نظرياته ويستنتج كل استقراءاته

وليس (لأرسطو) آراء شخصية يفرضها على القارئ ؛ فهو إن مدح شيئاً فليس مدحه لأن نفسه تعشقه أو تميل إليه ، ولكن لأن التجارب قد أثبتت أن هذا الشيء صحيح جدير بالتقدير . خذ مثلاً حديثه عن الشعر القصصي إذ يقول :

(أما عن البحر الذي يكتب فيه هذا الشعر فهو (بحر الأبطال) ، فإن أراد شاعر أن ينظم قصيدة قصصية في غير هذا البحر ، كان شعره شاذاً غير مألوف . إذ أن التجربة والطبيعة نفسها قد وقفت هذا النوع من الشعر على ذلك البحر)

(وأرسطو) لا يسمح لنفسه مطلقاً بأن تتمسك برأي من الآراء أو أن تمدح شيئاً أو تذم آخر دون سبب أو علة ، بل هو يقنع بأن يشرح القبيح دون ذمه ، وأن يظهر الجميل دون مدحه ، شأنه في هذا شأن أصحاب المدرسة الواقعية في القصص الحديث ، وهو في هذا أيضاً يختلف عن أصحاب المدرسة النظرية في النقد التي كتب عنها (أرنولد) يقول : (هي جماعة من النقاد ذات لون فلسفي باطل خداع ، تجيش بنفوسها بعض الآراء الخاطئة التي لم تبنها التجربة والفكر ، بل بنتها الأوهام والعواطف الذاتية تريد أن تفرضها على كل ما يقع في يدها من شعر أو فن

والناقد من أتباع تلك المدرسة لا يمدح عملاً إلا إذا صادف هوى في نفسه وسد حاجة من حاجياتها ؛ فإن هو لم يفعل كان العمل باطلاً زائفاً ، وكذلك من مميزات هذا الصنف من النقاد أنهم يعنون بمحتويات العمل الفني أكثر من عنايتهم بالفن نفسه — أعني بالأسلوب والطريقة والجمال — كما أنك كثيراً ما تسمعهم يقولون : (حبذا لو ترك الشاعر هذا الموضوع وكتب في موضوع كذا وكيت) ، وذلك كما لا يخفى أردأ أنواع النقد وأحطها قدراً ، إذ أن واجب الناقد الأول أن يفحص ويحكم على العمل الذي أمامه داخل دائرة العمل نفسه وحدوده لا خارجها ، محاولاً أن يتفهم ما يقصده الشاعر ويرمي إليه ، وإلى أي مدى استطاع أن يبلغ قصده وأن يبرز فكرته للقارئ

وقد يجدي أن نعطي هنا مثلاً من أمثلة هذه المدرسة النظرية الخاطئة لنرى إلى أي حد يبعد (أرسطو) عنها ويرتفع

كتب (أوسكار وايلد) أحد نقاد هذه المدرسة — في رأيي — يقول : (لأن نمضي من فن عصر من العصور إلى العصر نفسه هو أكبر خطأ يرتكبه المؤرخون جميعاً ، فالفن الردئ الزائف كله إنما يأتي من الرجوع إلى الحياة والطبيعة والتسامي بهما إلى مراتب المثل العليا !)

من هذه النبذة نستطيع أن نحكم بأن (أوسكار وايلد) كان يدين بهذا الرأي الذي يعطينا إياه — ولكننا لا نستطيع القول بأن شيئاً أو سبباً معيناً أدى به إلى هذا الاعتقاد — كما أننا لا نستطيع أيضاً أن نحكم ما إذا كان هذا الرأي خاطئاً أم صحيحاً ؟ وذلك لأن الناقد نفسه لم يخبرنا ولم يعلل ما يقوله ؛ لم يكن (أرسطو) ليسمح لنفسه بأن ينقد بهذه الطريقة ، ولكن تعال معي نرى كيف كان (أرسطو) يعالج مثل هذا الرأي لو أنه كان يدين به مثلما كان يدين الناقد الانجليزي ، فإنه إذا ما قال إن الفن الزائف إنما يأتي من الرجوع إلى الطبيعة والحياة أتبع قوله بأن ذلك صحيح لأن (هوميروس) لم يذهب إلى الحياة في البحث عن مادته (هذه أمثلة فقط ولا تعتبر صحيحة) ، وأن كل روعة فن (إيسكلس) إنما تأتي من اعتماده على أساطير الآلهة كمادة لفنه وأن فن (أريستوفانيس) كان أحط وأقل قيمة لأنه كان يصور الحياة ويستمد منها . ذلك أن (أرسطو) لا يسمح لنفسه بأن يكون نظرياً ، بل يجب أن يعطيك براهين وأمثلة وأسباباً تعليل ما يقول

خذ مثلاً آخر حديثه عن طول القصيدة القصصية إذ يقول: (يمكن في هذا الصنف من الشعر أن تعالج جميع أجزاء القصة معالجة متناسبة من حيث الزمن الذي يأخذه سير حوادثها في الحياة، أما في القصة المسرحية فالأمر يختلف إذ أنك لو عالجت حوادث القصة في مثل ما تعالجها من الطول في القصيدة القصصية، كان الأثر الذي تحدثه في النفس أثراً سيئاً يجلب الملل والسأم؛ قد يبدو هذا القول نظرياً ولكنه يتبعه بأن يقول: (إن صحة ما نقوله واضحة لأن كل من حاول أن يصوغ قصة سقوط (تروادة) صياغة مسرحية، ولم يعن بأن يختصر في الحوادث أو يركزها قد فشل فشلاً تاماً)

كان (أرسطو) سريع الملاحظة، حاضر الذهن، يمقت النوع من القضايا الذي لا يبرره سبب أو يشرحه مثال، كما أن المنطق كان دائماً رائده في البحث والنقد — ذلك لأن طبيعة عقله كانت طبيعة عملية واقعية مثل طبيعة أهله وقومه الأغريق. وهو إن سرد لك قضية من القضايا، أو نظرية من النظريات سردها في بساطة وغير كلفة تشعرك بأنك كنت تعلمها من قبل. وأن عكس هذه القضية لا يمكن أن يوجد أو أن يكون صحيحاً، كما أن قضاياه تمتاز بأنها يمكن أن تستخلص منها قضايا أخرى صغيرة، وأن تبنى عليها نظريات أكبر وأوسع أفقاً

في رأي أرسطو كناقد أن الشعر نوع من التقليد والمحاكاة — تقليد الحياة والطبيعة — وفي رأي (شلي) كناقد أيضاً أن «الشعر هو ما يحيل الأشياء كلها جمالاً — فهو يزيد الجميل جمالاً ويزين القبيح ويجمله» — كلنا يعرف أن قول (شلي) هذا صحيح، وأن الشعر فعلاً يؤدي كل هذا، ولكن هل نستطيع أن نسمي هذا القول تعريفاً للشعر؟ هنا نشعر بالفارق بين الناقد الشعوري والناقد الفكري، فكلاهما يعبر عن أشياء صحيحة حقيقية، ولكن الثاني يجعلك تلمس ما يقول وتبصره، بينما يسحر الأول سمعك ثم يتركك ويمضي. — وقد لا يكون تعريف أرسطو للشعر في جمال أو حلاوة تعريف (شلي) لكنه ملموس محسوس نستطيع أن نبصره في وضوح وأن نبني ونعتمد عليه

وهناك فارق آخر بين الناقدين يبدو لنا أيضاً من خلال تعريفهما للشعر، فواضح من سطور شلي أن الناقد لا يعني فقط بطبيعة ما ينقده وماهيته، بل يعني أيضاً بالغرض والرسالة التي عليه أن يؤديها الشعر — مما يجعل البحث بعيداً عن روح العلم — في حين أن (أرسطو) لا يتساءل مطلقاً عن رسالة الفن أو الشعر في الحياة، بل كل ما يهمه أن يبحث طبيعتهما وأن يشرحهما لنا — شأن العالم الكيميائي أو الطبيعي —

وقد كان (لأرسطو) وجهة نظر في نقده خاصة به، وأعني بها أنه كان يرى أن لكل فن من الفنون، قصصاً كان أم شعراً غنائياً، نهاية طبيعية لا بد أن يصل إليها ولا يتعداها؛ فإن أراد صاحب الفن أن يتعدى بفنه نهايتـه كان مآله الفشل ومصيره السقوط الذي لا نجاة منه. فقد يصل شعر شاعر مثلا مرتبة النضوج والكمال، وهو في سن الثلاثين، غير أنه مهما عمّر الشاعر بعد ذلك من سنين ومهما زاده العمر من حكمة وتجارب، فإن شعره لن يزيد ولن ينضج أكثر مما نضج — وقد لا يرى البعض هذا الرأي غير أنه — في اعتقادي — رأي لا بأس به، ساعد على تكوينه لدى (أرسطو) حب الاغريق الغريزي للاعتدال والوسط، وخوفهم من بطش الآلهة وغيرتها إن اشتد الرجل منهم أو زها وعظم أكثر من اللازم. وقد كان التوسط والاعتدال رائد الاغريق في كل شيء، ولم يكن التطرف عندهم ذنباً فحسب بل جريمة كبرى، ولذلك نرى الاعتدال أظهر ما يميز أدبهم وفنهم، ولذلك أيضاً كان (أرسطو) مؤسس المدرسة الفكرية التي تمنح نفسها للمنطق والعقل وتحاذر كل الحذر من الشعور والعاطفة

والآن وأحسبني قد بسطت بعض البسط طريقة (أرسطو) في النقد وقارنتها بالطريقة الشعورية الأخرى أحب أن أقول كلمة عن المذهبين

إن كل ما يفعله (أرسطو) هو أن يشرح ويفصل ويرتب ويصنف ليعطينا في النهاية مجموعة من القوانين والقضايا ما أحسبها تخلق فناناً أو تصلح من شأن فنان آخر. وهو في هذا يخاطب الفكر لا العاطفة، وإني كلما تصورته يعالج (شكسبير) يضيق بي الخيال ولا أدري كيف كان يتيسر (لأرسطو) أن يفعل هذا

قد كنا نفهم بعض صفات فن شكسبير ومميزاته من نقد (أرسطو) له. على أني أشك كثيراً في أنه كان يجعلنا نتفهم الشاعر نفسه ونعشقه مثلما فعل (كولردج) و (هزلت) و (تين)

وفي رأيي أن أعلى أنواع النقد ما كان يؤثر في النفس ويوحي

إليها النقد الذي يشرح ويفصل دون أن يزج في دائرة الفن ودون أن يصبح علماً من العلوم . ذلك هو النقد الذي يعالج الأدب مثلما يعالج الأدب نفسه الحياة ، أعني عن طريق الخيال والعاطفة

كتب (تشارلس لام) يقول :

(إني أفضل العاطفة على العلم) وفي يقيني أن كل من له صلة بالأدب ولا يفعل مثلما يفعل (لام) يكون مخطئاً في حق نفسه وفي حق صناعته أو فنه ؟

محمد رشاد رشدي

بكالوريوس بامتياز في الأدب الانجليزي

٢ - الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر

« ان صوتي قد أوقد النار المقدسة في بلاد إيران
ولكن العرب لا يعرفون شيئاً عن نغماتي الشجية »
(اقبال)

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

حينما ننعم النظر في شعر اقبال وانصافه بميزات خاصة في الأزمان المختلفة نجد أنه يتمتع الآن بدور ثالث . فقد قطع قبله دورين : أولهما دور نشأته ، حين كان اقبال لا يزال فتى يافعاً وطالباً بالمدرسة . فقد بدأ اقبال يقول الشعر باللغة الأردية وهو في صباه ، فكان ينال به استحسان زملائه الطلبة ، ويجمعهم حوله اغتباطهم بحدة ذكائه وتفوقه عليهم في الشعر . فكانت شهرة إقبال في الشعر بادئ ذي بدء محصورة بين أترابه وأقرانه ، فلما انتقل من كلية سيالكوت إلى كلية الحكومة بلاهور بدأ يشترك في مجالس الشعراء ويقول القصائد للاحتفالات السنوية لجمعية حماية الاسلام الشهيرة بلاهور ، فذاع صيته بين الخاص والعام

ينتهي هذا الدور لشعر اقبال إلى سنة ١٩٠٥ ، أي قبل سفره إلى أوربا ، ويمتاز شعره فيه بسعة الخيال ، وابتكار المعاني ، ولكنه مجرد عن دقة الفكر والتعمق بالنسبة إلى شعره في أدوار أخرى ، ومعظمه باللغة الأردية ، تتجلى فيه روح الحب وطلب الجمال وترحيب العشق ، وأكبر ميزة لهذا الدور أنه دور أمل لشيء غير معلوم ، ففيه تتوق روح الشاعر إلى المجهول ، وتنزع إلى الغائب ، وتضطرب ، كما يظهر لك من ترجمة بيت من أبيات هذا الدور فيما يلي ، قال :

« أنا طالب النور ، أنا قلق في معمورة هذا العالم
أنا مثل الطفل الصغير في ظلام الوجود الحالك مضطرب كالزئبق »

وأما الدور الثاني فهو الزمن الذي قضاه الدكتور في أوربا ، أي من سنة ١٩٠٥ إلى سنة ١٩٠٨ . وهذا الدور من شعر الدكتور أقل انتاجاً من الدورين الآخرين ، ويمتاز عن الأول بأن أثر مشاهدات أوربا باد فيه ، ولكن روح الحب ، وطلب الجمال ، وترحيب العشق لا تزال متجلية فيه كما كانت في الدور الأول . وقد حدثت فيه حادثة ، وهي أن الأبحاث العلمية سطت مرة بنفسية الشاعر ، فأراد أن يترك الشعر ويتوب عنه وينصرف إلى العلم ، فمنعه عن ذلك صديق قديم له كان حينئذ في لندن ، وحاول اقناعه فلم يقتنع ، وأخيراً اتفقا على أن يستشيرا فيه أستاذه السر آرنلد . فأيد آرنلد رأي صديقه فعدل عن ارادته . وأكبر ميزة لهذا الدور أن بدأت أفكاره الشعرية تعلو وتتسع حتى ضاق عنها نطاق اللغة الأردية الحديثة السن فمال إلى الفارسية وبدأ يعبر بها عن الهامه الشعري

وأما الدور الثالث فيبتدئ من بعد رجوع الدكتور من أوربا إلى الهند ، أي من سنة ١٩٠٨ إلى الآن ، وهو الأهم ، إذ فيه تدرج شعره في معارج الكمال وتسنم سنام المجد وبلغ من دقة المعاني وعمق الفكر وحسن البيان غاية لم تبلغها الآمال ولا نالتها الأماني . وفيه حلت السكينة والطمأنينة في روح الشاعر محل التوقان والاضطراب ، كأنها أدركت ذلك الغائب المجهول الذي حنت اليه طويلاً ونزعت اليه سنين ، وفيه خف عن نفسية الشاعر سلطان المحبة والجمال ، وقام مقامه توقان الحكمة والكمال ، وفيه جادت قريحة الشاعر بما لم تجد في الدورين السابقين ، إذ ظهرت إلى الآن سبعة دواوين ، ونحن ندعو الله أن يمد في حياته ويوفقه لأكثر من ذلك ، وفي هذا الدور أيضاً تمكن الشاعر من إبراز معالم فلسفته في شعره للعالم ، وفيه تحققت رسالة شعره للعالم الاسلامي والشرق إذ كان في نفسه تتساجل روحان : روح

الحب للجمال والمجد والعشق ، وروح المسلم الشرقي المتحمس الثائر . فكان في الدورين الأولين الحظ الأوفر للأولى وفي هذا الدور للثانية .

حينما نحاول البحث عن العناصر التي تكونت منها نفسية الشاعر وشعره نجد أنهما قد تكونا من عناصر جمة ، منها ما هو هبة من الله كالعبقرية والذكاء ، ومنها ما هو وراثي غير كسبي ، ومنها ما هو ثقافي كسبي ، ومنها ما يرجع الى البيئة سواء أكانت جغرافية أم اجتماعية . فهذه الأصناف الأربعة من العناصر هي دعائم نفسية الشاعر ووظائف شعره .

أما العناصر الموهوبة مثل العبقرية وغيرها فلا يقدر الانسان على الكشف عن حقائقها ، ولا على الفحص عن دقائقها ، وما يقدر عليه هو وصف ظواهرها بالمقارنة . فاذا قارنا ظواهر عبقرية الدكتور وذكائه بالشعراء الآخرين نجد أنه فريد زمانه ، وقريع دهره ، قد أوتي عبقرية شاملة لا يدرك شأوها ولا يلحق غبارها ، وذكاء متوقداً لا يجارى ، وقلباً عقولاً لا يبارى ، وجنانا حاداً لا ترام مساماته وفكرا نافذاً لا يمكن مجاراته ، وبصيرة قوية لا يجري في مضمارها .

أما العناصر الوراثية فالدكتور من نسل آري . والآريون يمتازون بدقة الفكر وسمو الخيال عن الشعوب الإنسانية الأخرى . ثم الدكتور ينتسب الى طبقة البراهمة منهم ، وهي طبقة قد سادت ولا تزال تسود بحدة ذكائها ورجاحة عقلها وحصافة رأيها جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى في الهند منذ آلاف من السنين ، فدقة الفكر وسمو الخيال بالقوة[1] عنصران وراثيان هامان في نفسية الدكتور وشعره .

وأما العناصر الثقافية الكسبية فهي التي يكسبها الانسان بواسطة التربية والتعليم . فقد بلغ فيهما الدكتور رفعة لا تسامى ومنزلة لا تغالب ، إذ تعلم في معاهد الشرق والغرب ونال منها أرقى الشهادات وأعلاها بالتفوق والامتياز وهضم الثقافتين — الشرقية والغربية — في معناها الحقيقي . فهو على اطلاع تام بالفكر الشرقي — الهندي والايراني — بجليه وخفيه وتاريخه وتقدمه ، كما هو عالم متبحر في الفكر الغربي بجميع أدواره وتحولاته ، سواء كان عند اليونان أو الرومان ، أو الانجليز أو الألمان ، أو فرنسا أو أمريكا . وقد سبر الدكتور غور الفكر السامي العربي أيضاً وبخاصة الاسلامي منه كما تميط اللثام عن ذلك مصنفاته . وقد أشار إليه هو أيضاً في خطاب حيث قال :

« أما قد صرفت معظم حياتي في دراسة فقه الاسلام وسياسته وحضارته ومدنيته وأدبه ؛ فبناء على دراستي الطويلة هذه وعلى العلاقة الخاصة التي لي بروح تعليم الاسلام أعتقد أنني على بصيرة أقدر بها أن أحكم على منزلة الاسلام في العالم من حيث الحقيقة العامة »

والدكتور حائز في جميع هذه العلوم والمعارف درجة الاجتهاد

وأما العناصر التي ترجع إلى البيئة فهي صنفان : الاجتماعية والجغرافية . أما الاجتماعية فقد ولد الدكتور في مجتمع اسلامي وتربى فيه ودرس حاضره وماضيه ، فهو كأحد أركانه من محبيه الأوفياء ، وعشاقه الصادقين ، ومن أكبر الطامحين إلى خيره ومجده ، كما هو من كبار العارفين بحقيقته وصلاحيته . وهذا الحب ، والعشق ، والطموح ، والمعرفة كعناصر البيئة الاجتماعية متجلية في نفسية الشاعر وشعره ، وليس هذا التجلي عن عاطفة وتعصب ، بل عن علم وعقل ، كما سيظهر لك من المقال الذي سنخصصه لذلك في المستقبل إن شاء الله

وأما عناصر البيئة الجغرافية . فقد ولد الدكتور في مقاطعة بنجاب وتربى فيها . وبنجاب أخصب المقاطعات الهندية في سفح جبال هالايا تجرى من تحتها خمسة أنهار . فهي بهوائها المعتدل ومناظرها الجميلة التي تفرح قلوب الشاهدين وتؤنس أبصار المبصرين ، تملأ النفس بالمؤثرات القوية التي تربي الذوق وتقوى ملكة الشعر ، وتغذي الفكر . فحسن الذوق ، وحب الجمال ، والتصرف في فنون الشعر ، وجولات الفكر المتجلية في شعر الدكتور ونفسيته فيها أثر للبيئة الجغرافية

أما شعر إقبال من حيث الفن فسنتحدث عنه في مقال تال

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

(١) يرى معظم علماء النفس والتربية أن الصفات الوراثية توجد في الطفل بالقوة لا بالفعل أي على شكل استعدادات واتجاهات

فلسفة الأسماء

بقلم ظافر الدجاني

إذا كانت اللغات من ألوان الحياة الفكرية الصريحة التي يتسم بها الانسان وتميزه من سائر الكائنات الحية، فان الأسماء — أو ما يعبر عنه الصرفيون بأنه مادل على معنى في نفسه غير مقترن وضعاً بأحد الأزمنة الثلاثة المعروفة — من مظاهر بيئاته الاجتماعية والطبيعية. فلسنا نبالغ إذن إذا قلنا بأن لعنصر الأسماء في اللغات فلسفة خاصة مستقلة، استطاع العلم الحديث مؤخراً أن يقتبسها ويستزيد منها بل يستغلها استغلالاً بالغاً يستحق عليه كل ثناء وإعجاب وإكبار. ومن الحق علينا القول بأن أقطاب اللغات في العالم لا يتفقون على أقدمية الأسماء وأسبقيتها في اللغة، فمنهم من يذهب إلى أنها أسبق مرتبة في الوضع والاستعمال من الحروف والأفعال، لأن منزلتها في النفس من حيث القوة والاعتقاد أن تكون قبل الفعل، والفعل قبل الحرف؛ ومنهم من يذهب — وهؤلاء معظمهم من أصحاب التوقيف ودعاة الالهام — إلى أن جميع الأصول اللغوية إنما وقع الوضع فيها معاً فلا يجوز لك الاعتقاد بسبق الاسم على الفعل أو سبق الفعل على الحرف

ومهما يكن من شيء فان بعض الأسماء — أعني أسماء الأعلام والأجناس بوجه خاص — تمتاز على سائر الأصول اللغوية بأنها وضعت للدلالة على الأشياء المحيطة بالانسان في بيئتيه الطبيعية والاجتماعية، وما عساه ينجم عنهما في حياته الفكرية، بعكس الحروف والأفعال — مثلاً — التي إنما وضعت لتدخل بها « الأسماء في المعاني والأحوال »[1]، أو بعبارة أخرى لتربط ما بين الأسماء في جمل معلومة مستقلة بدلالاتها اللفظية

ومعنى ذلك أنه يتعذر على الانسان مثلاً أن يستدل بالأفعال والحروف العربية على نوع الحياة الطبيعية والاجتماعية التي كان يحياها العرب قبل الاسلام، إن لم يكن ذلك مستحيلاً عليه، في حين أن استدلاله بالأسماء يكاد يكون في حكم الواجب الذي لا عدول عنه، لأنها تعكس لنا ألواناً من البيئات المتنوعة التي كان العربي عرضة لها آنئذ، كأسماء الكائنات الحية وغير الحية التي كان على اتصال بها، وأنواع الأسلحة التي كان يستعملها في حروبه وغزواته، والموازين والأثقال التي كان يصطنعها في بيعه وشرائه ونحوه.. كما أنها تعكس لنا أيضاً شيئاً من أثر البيئة الطبيعية في نفسه وإحساساته، ففي ميسورك مثلاً أن تقرر باحصاء الأسماء التي تعبر في العربية عن ضروب المصائب والرزايا من ناحية، والأسماء التي تعبر عن مظاهر اللهو والعبث من ناحية أخرى، ثم الموازنة بينها، ما إذا كانت بيئة العرب قبل البعثة بيئة قاسية مظلمة قاحلة أم بيئة مشرقة سمحة خصبة

وليس ذلك وحسب، بل في ميسورك الاستدلال بالأسماء العربية « العاربة » منها و « المعرّبة »، الأصيلة والدخيلة، على مختلف التقلبات السياسية التي طرأت على الوسط الاسلامي في غضون تاريخه الطويل الحافل؛ وبالتالي الاستدلال على مختلف الأدوار الاجتماعية التي تقلبت عليه، ومقدار نفوذ كل من العناصر الفلسفية والجنسية فيه؛ فاذا كانت الأسماء الفارسية مثلاً في الآداب والفنون أغزر من الأسماء اليونانية دل ذلك على أن نفوذ الفرس من هذه الناحية كان أبعد من نفوذ اليونان، وإذا كانت الأسماء اليونانية في ميدان الفلسفة أوفر من الأسماء الفارسية والهندية دل ذلك على أن العرب قد تأثروا بالفلسفة اليونانية أكثر من تأثرهم بفلسفة الفرس والهند. بيد أنه بالأسف ليس الوصول إلى هذا الاستدلال باليسير الهين لأن المعجم العربي ناقص من وجوه كثيرة، أهمها الوجه التاريخي المدعم بالشواهد والأدلة مما لا يتسع المقام لذكره.

هذا إلى عثورك خلال أزمنة التيقظ الفكري والنهضات الدينية الحافلة على بعض أسماء الأعلام الذائعة بين الأوساط العامة لأنها غالباً هي أسماء بعض الزعماء أو القادة أو الأنبياء الذين لهم الفضل كل الفضل في بعث هذه النهضات وإحيائها، بحيث يستدل منها على ما لهؤلاء المصلحين من حظوة لدى الجمهور، وما لتلك النهضات من سحر في أفئدة العامة.. ومن ثم كانت لبعض الملل أسماء خاصة تعرف بها ولا يصطنعها غيرها كعزرا واسرائيل في

(١) الخصائص لابن جني ٤٣٢

اليهودية ، وحنا وبطرس فى المسيحية ، ومحمد والحسين فى الاسلام

بل ترى فى بعض الأزمنة الاضطهاد والغلو الدينى أن لفظ المولى عز وجل يشترك عادة فى أسماء الملوك والأمراء من أولى الحل والعقد فى تلك الأعصر الرهيبة . يتضح ذلك من أسماء الخلفاء من ولد العباس فى أواخر أيامهم حين أمست الخلافة رمزاً للنفوذ الدينى مجرداً عن السلطة الزمنية ، وفى خلفاء الفاطميين وغير الفاطميين من السلالات الملكية التى قامت على الدعايات الدينية

ومن ناحية أخرى ترى أن بعض الأسماء قد تضيع فى زوايا الإهمال والنسيان ، ولو إلى حين ، لأنها تكون عادة أسماء بعض الأفراد أو الجماعات المضطهدة ، بحيث يستدل من ذلك على مبلغ غلو الدولة القائمة وشدتها على الفرق المناوئة ، فمثلاً إذا علم القارىء أن العلويين والشيعة كانوا مضطهدين فى الدولة الأموية ، فانه يستطيع أن يستدل على مقدار هذا الاضطهاد إذا ذكر أن الناس فى أيامها كانوا كما يقول المستشرق « مارجليوث » يتحاشون تسمية الأبناء والأحفاد بأسماء علوية كعلى والحسن والحسين وأشباهها (١)

***

وبعد فقد أوردنا لك بعض فلسفة الأسماء موضحة بالأمثلة النظرية ، ولكننا لم نشرح لك كيف كان استغلال العلم الحديث لها ، لأن هذه الأمثلة على وفرتها قليلة النفع من ناحية عملية تطبيقية إن لم تكن عديمته ، لأن الحياة العربية الجاهلية من الأزمنة التاريخية التى تتوفر فيها النصوص والوثائق والآثار . ومن هنا قطعنا بأن الحاجة غير ماسة إلى استيضاح الأسماء العربية وتفصيل ما تنطوى عليه من ألوان هذه الحياة المتنوعة

وإنما تتبين فلسفة الأسماء الخاصة وترجح قيمتها العملية المجهودية فى الأبحاث الدقيقة المنعقدة حول حياة الانسان الأولى ، التى لا نجد لدرسها من المصادر الأولية سوى اللغات وبعض الآثار الجيولوجية التى نراها تكتشف بين حين وحين ، وينفض الغبار عنها فتقيم الموج من هذه الدراسات وتنير المبهم المستغلق

فمن ذلك أن أصل اللغات الأوروبية ظل إلى عهد قريب مجهولاً أو فى حكم المجهول ، فنشأت حول ذلك نظريات عديدة متباينة ، لكل نظرية أنصار متحزبون وعلماء محققون ، ثم إن بعض الثقات حاولوا درس هذه اللغات بطريق القياس والمقابلة فخرجوا من هذا الدرس بنتائج باهرة لم يتسق للمنطق والتاريخ أن يتوصلا إليها . إذ وجدوا أن بين اللغات الأوروبية على اختلافها من ناحية واللغة السنسكريتية - أقدم اللغات الهندية الموجودة - من ناحية أخرى كثيراً من الشبه فى القواعد والأوضاع اللغوية ، كما وجدوا أن فيها بعض الأسماء المشتركة كبعض أسماء الأعداد والأجناس ونحوها ، فاستخلصوا من ذلك أنه لا بد من أن تكون اللغات الأوروبية والهندية من فصيلة واحدة دعوها باللغات « الأندو أوروبية » Indo - Europeon

وإذ انتهوا من ذلك فانهم حاولوا أن يستدلوا بهذه الأسماء على موطن « الأندو أوروبين » الأصلى ووصف بيئتهم الطبيعية والاجتماعية ، وما إذا كانوا يعرفون البحر والأحراج والأنهار ، وأى أنواع الحيوانات كانوا على اتصال وثيق بها ، وهل عرفوا الحديد والبرونز قبل شتاتهم وانقسامهم قبائل وشعوباً ، ثم هل كانوا على درجة كبيرة من التمدن والحضارة ؟ أم كانوا بعد فى طور الفطرة الانسانية العريقة فى البداوة ، ولهم فى ذلك أبحاث مطولة دقيقة تنطوى على كثير من قوة التحقيق والتحليل ورجاحة الفكر والنظر

وقس عليه محاولات المستشرقين فى الاستدلال ببعض الأسماء المشتركة بين الأقوام السامية على موطن الساميين الأول ونوعه ، وحضارة الساميين ومقدارها ، بل قس عليه أبحاث المحققين فى مختلف نواحى الحياة الانسانية قبل الأعصر التاريخية حيث تنعدم الآثار والمنقولات ، فلا تكاد نجد من مصادر درسها إلا اللغات التى نشأت مع الانسان وسايرته فى تطوره واستوائه

فالعجب من العلم الحديث ونشاطه ومؤهلاته البالغة التى لم تترك كبيرة ولا صغيرة من صامت الكون أو ناطقه دون أن يحاول استقراءها ونبش دفائنها عسى أن يكون فيها ما ينير سبل القوم فى تفهم أسرار الكون ومظاهر الحياة الانسانية

يافا — ظافر الدجانى

(١) فى كتابه « محاضرات على مؤرخى العرب » ص ٨٦

شكوى الشيخ إلى ابنه

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

أبوك بأن يردى بنيّ مهددُ ... كأن الردى سيف عليه مجرد
ويشكو تباريحاً تكاد تهده
وشيخوخةً ليست عن الموت تبعد
أحسُّ بقرٍّ في عروقي وأعظمي ... يكاد دمي منه بجسميَ يجمد
أُقادُ إذا رمتُ المضيَّ لحاجة ... وأمشي كما يمشي الأسير المقيد
كأنك بي شلواً على النعش سائراً ... وعما قليل في التراب يوسَّد
وليس بمخيفي الموتُ إن هو زارني ... ولكن وراء الموت شملٌ مُبدَّد
تعالَ فقبّلني بنيَّ مودِّعا ... فإنّ فراقي عنك يا ابني مؤبَّد
ولي من حياتي يا بنيَّ بقيةٌ ... ولكنها عما قليلٍ ستنفد
بنيَّ أقم حيناً بجنبي فإنني ... على غير ما قد كنتَ من قبلُ تعهد
أبوك من الآمال جرَّد نفسَه ... وأنت فتى فيه المنى تتجدد
ولم يك حظاً نا من الدهر واحداً ... فلي الأمسُ من أيامه ولك الغد
أنا اليوم أشقى بالمشيب ووهنه ... وأنت بشرخٍ من شبابك تَسعد
لعمرك لا عهد المشيب الذي به ... برمتُ ولا عهد الشبيبة سرمد
وما نحن إلا كالسيوف بحومةٍ ... تُجرَّدُ حيناً للوغى ثم تُغمد

* * *

ستحدثُ فوق الأرض أشياء جمةٌ
وأنت لها بعدي بنيَّ ستشهد
خُلقتَ لمهدٍ غير عهدي فلا تكن ... جباناً إذا ما ضيمَ لا يتمرد
وما الشيب شعرٌ أبيض فوق مفرق
ولكنه نار على الرأس توقد
وليست حياةٌ بالإياس شقيةٌ ... كأخرى بادراك الأماني ترغد
تفتّح وردُ السُّؤل إلا بروضتي ... وما قيمة الروض الذي لا يورَّد ؟
أغرِّد في روض الحياة كبلبلٍ ... ومن بعد حين موشك لا أغرِّد

سأرحل عن دنيا إليَّ حبيبةٍ ... بها هام حتى الزاهدُ المتعبِّد
تحاول نفسي بالحياة تمسكا ... ولكنما خيط الحياة مُعقَّد
بنيَّ وإني ذاهب غير آيبٍ ... إلى حيث يبلى الجسم مني ويفسد
وما أنا وحدي هالكٌ فيثور بي ... على الموت حبٌّ للحياة مُوطَّد
فقبلي أجيالٌ ألمَّ بها الردى ... وبعدي أجيالٌ ستردى كما ردُوا
نجيء ونمضي زمرةً بعد زمرة
وننبتُ مثل العشب والموت يحصد
مقيدةٌ منا الجسومُ بأرضها ... ولكنما الأرواح لا تتقيَّد
ستذهب ذراتٌ لجسميَ ألّفت ... بَدادِ وعلَّ الروح لا يتبدد
وقد تسبح الأرواح في ضوء أنجمٍ ... فيجمعها جنحٌ من الليل أسود
وما هذه الدنيا بدار سعادةٍ
وإن طاب فيها الأثرياء وأرغدوا
ففي كل يوم للتعاسة لوحة ... وفي كل يوم للشقاوة مشهد
وإن فؤاداً لا يرقّ لزفرة ... يصعّدها قلب كسير لجلمد
ومن كان في بيداء يشكو لُهاثه ... فليس له غير المنية مورد
سئمتُ مِراسَ الحرب فالسلم بغيتي
ولكنَّ باب السلم دوني موصد

* * *

بنيَّ لقد كانت حياتي شقية ... وعلَّك من بعدي بنيَّ ستسعد
قضيت حياتي كلها في تمرّدٍ ... ومن ذا يرى خسفاً ولا يتمرّد
لقد وُلدَ الانسانُ حرًّا بطبعه ... ولكنه للنفس منه مقيَّد
أناخ عليها بالخرافات مثقلاً ... وقيدها بالوهم والوهم مفسد
يلوذ بمن أثرى ويعنو لمن طغى ... فيصبح عبداً صاغراً وهو سيد
تداولت الدنيا شعوبٌ كثيرة ... وقد حبَّذوا تلك القيودَ وأيدوا
أمَن كان حمّاداً لها فهو مؤمن ... ومن كان نقاداً لها فهو ملحد ؟
وإنك مني يا بنيَّ بقيّةٌ ... أعيش بها في الموت أو أتجدد
بنيَّ أرى مستقبلي فيك ماثلا ... وفيك أقول الشعر غضًّا وأُنشد
إذا متُّ فاذكرني بنيَّ مكرراً ... فبالذكر أحيا ثم بالذكر أخلد

(بغداد) جميل صدقي الزهاوي

المســــاء

للدكتور ابراهيم ناجي

يا غلةَ المتلهف الصــادي   يا آيتي وقصيدتي الكُبْرى
زادي لِقاؤكِ : طاب من زادِ   وإذا نأيتِ أعيشُ بالذكرى

يَلْقى خيالَكِ كيفما باتا   صَبٌّ له لِفتاتُ مسحورِ
يَرْوَى ويشبعُ منكِ هيهاتا   لا يرتوى بصر من النور

بعد الأوارِ يدب في الغرس   لا يرتوى عودٌ من الطلّ
ومَن اختسى من لفحة الشمس   لا يرتوى أبداً من الظلّ

ذُقتُ المنايا عدّ أنفاسي   والبعثُ كان شبابكِ الزاهي
ومن ارتوى من سخط الناس   لم يَرْوِهِ غير رضا الله !

يا للمساء العبقريّ وما   مَنَحَتْ من النفحات عيناكِ
أو كان رؤيا واهم حلما   ما كان أقدسَهُ وأسناكِ

يا للنسائم من مُسَبِّحةٍ   خشعت بهيكل ذلك الوادي
لحفيفها همساتُ أجنحة   ورفيفُها صلواتُ عبّاد

نمشي وقد طال الطريق بنا   ونودّ لو نمشي إلى الأبدِ
ونودّ لو خلتِ الحياةُ لنا   كطريقنا وغدتْ بلا أحدِ

نَبْني على أنقاضِ ماضينا   قصراً مِن الأوهامِ عِملاقا
ونظلُّ ننشدُ مِنْ أمانينا   وشياً من الأحلامِ برّاقا

وأظلّ أسقيها وتملأ لي   من منبع فوق الظنونِ خفي
حتى إذا سكِرتْ من الأملِ   وترنحتْ مالتْ على كتفي

حلفتْ بأني أغتدي معها   حيث اغتدت وهواي في دمها
فمسحتُ بالقُبلاتِ أدمعها   وطبعتُ أقسامي على فمِها

إنَّا لقومٌ أنكروا الجسدا   فاعجب لمفترقينِ ما افترقا
أو ما ترى روحيهما اتحدا   أو ما ترى ظليهما اعتنقا

ابراهيم ناجي

حياة الأحلام

بقلم الياس قنصل

لستُ أرثي لمن يكون طموحاً   ذا أمانٍ شبيهةٍ بالمحالِ
إن يفتْه تحقيقها لدواعٍ   تصرف العزمَ عن طلاب المعالي
لم يفتْه تمثيل تحقيقها في   عالم الفكرِ تحت جوّ الخيالِ
يقطعُ العمرَ بين رؤيا وحلمٍ   ليس فيها وفيه غير الظلالِ

خالقاً من اوهامه ما تمنّى   جاعلاً منها مسرحاً للكمالِ
لستُ أرثي لحالمٍ ليس يدرى   رغم طول البقاء معنى الملالِ
إنما أرثي للذي يبتغي « الملمو   س » في دنيا أُبدعتْ للزوال
كل شيء - مهما غلا - إن ينلْه الـ   مرء أمسى في عرفه غير غالِ
أين من عاش نائلاً كلّ ما   يطلبه ممن عاش بالآمالِ !

عاصمة الأرجنتين   الياس قنصل

١١ ـ شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

منزلته في الشعر: قد يكفي أبا العتاهية عندنا توجيهه الشعر هذه الوجهة الصالحة، وذهابه به في جد الحياة نحو تربية الشعوب وهدايتها، وإنارة السبيل أمامها، وتقويم عوجها؛ وهذا أبو نواس وهو من أعلام الشعر في عصره يشهد له بهذا الفضل، ويفضله به على نفسه. حدث هرون بن سعدان قال: كنت جالساً مع أبي نواس في بعض طرق بغداد، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل، بين بني هاشم وفتيانهم، والقواد وأبنائهم، ووجوه أهل بغداد، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم، ولا يقبض رجله إليه، إذ أقبل شيخ راكبا على حمار مريسي، وعليه ثوبان ديبقيان، قميص ورداء، قد تقنع ورده على أذنيه، فوثب اليه أبو نواس، وأمسك الشيخ عليه حماره، واعتنقا، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه، فمكثا بذلك ملياً، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى، مستريحاً من الاعياء، ثم انصرف الشيخ وأقبل أبو نواس فجلس في مكانه، فقال له بعض من بالحضرة: من هذا الشيخ الذي رأيتك تعظمه هذا الاعظام، وتجله هذا الاجلال؟ فقال: هذا اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية. فقال له السائل: لم أجللته هذا الاجلال؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه. قال: ويحك لا تفعل، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوي وأنا أرضي

وقد يكفي أبا العتاهية أيضاً أنه هو الشاعر الشعبي الذي أمكنه أن يدنو بالشعر العربي إلى أفهام العامة، فوردوا مناهله العذبة بعد أن حرموا منها زمناً طويلاً بنزول لغتهم عن لغته، وانصراف الشعراء عنهم كأنهم عجماوات لاحظ لها من علم أو أدب، وهذا كله مع احتفاظه للشعر بما يتطلبه منه الخاصة أيضاً، فأرضى بشعره الفريقين، ولم ينزل به عن مرتبة فحول الشعر في عصره، وقبل عصره، وقد قلنا إنه كان يقصد إلى ذلك قصداً، ويثور به على الطريقة القديمة عامداً، وسقنا من قصته في ذلك مع سلم الخاسر ما يؤيده، وهذه هي قصته معه كاملة:

قال أبو الفرج: حدثني علي بن مهدي، قال: حدثني أحمد ابن عيسى. قال حدثني الجماز. قال: قال سلم الخاسر: صار إلي أبو العتاهية، فقال: جئتك زائراً، فقلت: مقبول منك ومشكور أنت عليه فأقم، فقال إن هذا مما يشتد علي. قلت: ولم يشتد عليك ما يسهل على أهل الأدب؟ فقال لمعرفتي بضيق صدرك، فقلت له وأنا أضحك وأعجب من مكابرته: «رمتني بدائها وانسلت»، فقال: دعني من هذا واسمع مني أبياتاً، فقلت: هات، فأنشدني:

يا للقوي للموت ما أوحاه	نغص الموت كل لذة عيش
صد عنه حبيبه وجفاه	عجباً إنه إذا مات ميت
موت فالموت واقف بحذاه	حيثما وجه امرؤ ليفوت ال
قام في عارضيه ثم نعاه	إنما الشيب لابن آدم ناع
مات من قبل أن ينال مناه	من تمنى المنى فأغرق فيها
س لاقباله وما أقماه	ما أذل المقل في أعين النا
س إلى من ترجوه أو تخشاه	إنما تنظر العيون من النا

ثم قال لي: كيف رأيتها؟ فقلت له: لقد جودتها لو لم تكن ألفاظها سوقية. فقال: والله ما رغبني فيها إلا الذي زهدك فيها

وقد ذكر ابن رشيق القيرواني أبا العتاهية فيمن كان يذهب إلى سهولة اللفظ، ويعني بها مع الاجادة وملاحة القصد، وأنه اجتمع يوماً مع أبي نواس والحسين بن الضحاك الخليع، فقال أبو نواس: لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه في مراده من غير مدح ولا هجاء، فأنشد أبو العتاهية:

فسيروا الأكفان من عاجل	يا إخوتي إن الهوى قاتلي
فانني في شغل شاغل	ولا تلوموا في اتباع الهوى
بدمعها المنسكب السائل	عيني على عتبة منهلة
من شدة الوجد على القاتل	يا من رأى قبلي قتيلاً بكى
ماذا تردون على السائل	بسطت كفي نحوكم سائلا
قولاً جميلا بدل النائل	إن لم تنيلوه فقولوا له
منه فمنوه إلى قابل	أو كنتم العام على عسرة

فسلما له وامتنعا من الانشاد بعده ؛ وقالا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الاشارات ، فلا ننشد شيئاً . قال ابن رشيق : وذلك فى بابه من الغزل جيد أيضاً لا يفضله غيره

ولم يكن أبو العتاهية فى ذلك يتكلف شيئاً لا تواتيه فيه سجيته ، بل كان يجرى فيه على سجية مواتية ، وشعر مطبوع لا تكلف فيه ولا تصنع ، وقد بلغ من سهولة الشعر عليه أنه كان يقول : لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت ، وقيل له : كيف تقول الشعر ؟ قال : ما أردته قط إلا مثل لى ، فأقول ما أريد ، وأترك مالا أريد . وحدث عبدالله بن الحسن قال : جاءنى أبو العتاهية وأنا فى الديوان ؛ فجلس إلىّ ، فقلت : يا أبا اسحاق ، أما يصعب عليك شىء من الألفاظ فتحتاج فيه الى استعمال الغريب كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر ، أو الى ألفاظ مستكرهة ؟ قال : لا ، فقلت له : إنى لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافى السهلة ، قال : فاعرض على ما شئت من القوافى الصعبة ، فقلت : قل أبياتاً على مثل البلاغ ، فقال من ساعته :

أىُّ عيش يكون أبلغ من عيـ ... ـش كفافٍ قوتٍ بقدر البلاغِ
صاحبُ البغى ليس يسلم منه ... وعلى نفسه بغى كلُّ باغى
رُبَّ ذى نعمة تعرَّضَ منها ... حائلٌ بينه وبين المساغ
أبلغَ الدهرُ فى مواعظه بل ... زاد فيهنَّ لى على الابلاغ
غبنتنى الأيامُ عقـلى ومالى ... وشبـابى وصحتى وفراغى

وكان أبو العتاهية مع هـذا إذا أراد تفخيم لفظه ومعناه لم يقصر به ذلك عن غيره ، ومضى فيه كأنه من أولئك الشعراء الجاهليين أو المخضرمين أو الاسلاميين ، وقد قال مسعود بن بشر المازنى : لقيت ابن مناذر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الاسلام ؟ فقال : أترى من إذا شئت هزل ، وإذا شئت جد ؟ قلت : من ؟ قال : مثل جرير حين يقول فى النسيب :

إن الذين غدَوْا بلبك غادروا ... وشلاً بعينك ما يزال معينا
غيضْنَ من عبراتهن وقلن لى ... ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا

ثم قال حين جد :

إن الذى حرمَ المكارمَ تغلباً ... جعل النبوةَ والخلافة فينا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوك فهل لكم ... يا آل تغلبَ من أب كأبينا
هذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئتُ ساقكمُ الى قطينا

ومن المحدثين هذا الخبيث الذى يتناول شعره من كمه ، فقلت : من ؟ قال : أبو العتاهية ، قلت : فبماذا ؟ قال قوله :

اللهُ بينى وبين مولاتى ... أبدتْ لى الصدَّ والملالاتِ
لا تغفر الذنبَ إن أساتُ ولا ... تقبـل عذرى ولا مواتاتى
منحتُها مهجتى وخالصتى ... فكان هجرانها مكافاتى
أقلقنى حبُّها وصيَّرنى ... أحدُوثة فى جميع جاراتى

ثم قال حين جد :

ومهمَهٍ قد قطعتُ طامسه ... قفرٍ على الهول والمحاماةِ
بحُرَّةٍ جسرةٍ عُذافرَةٍ ... خوصاءَ عيرانةٍ علنداةْ
تُبادِرُ الشمس كلما طلعتْ ... بالسير تبغى بذاك مرضاتى
يا ناقِ خُبِّى بنا ولا تعدِى ... نفسكِ مما ترينَ راحاتِ
حتى تُناخِى بنا الى ملِكٍ ... توَّجه الله بالمهابات
عليه تاجان فوق مَفرقه ... تاج جلال وتاج إخبات
يقول للريح كلما عصفت ... هل لكِ يا ريح فى مباراتى
مَنْ مثل من عمُّه الرسول ومن ... أخواله أكرم الخؤولات

وإذا كنت فيما سبق قد جعلت أبا العتاهية زعيم شعراء عصره ؛ فهذا ابن مناذر يقضى له أيضاً بهذا السبق ، وهذا بشار قد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مخنث أهل بغداد ، يعني أبا العتاهية ، وكذلك كان يرى فيه هذا الرأى كثيرون مثل الفراء وجعفر بن يحيى وأبى نواس ، وقد وازن الحرمازى بينه وبين أبى نواس ، فقال : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ؛ فكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جواباً عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعهما فى قول الشعر ، فاذا تعاطيا جميعاً السرعة فضله أبو العتاهية وإذا توقفا وتمهلا فضله أبو نواس ، وقد يرجع هـذا عندى الى ما كان لأبى نواس من دراسة واسعة فى اللغة وغيرها من العلوم ، فلا يخفى أن مثل هذه الدراسة لم يتح مثلها لأبى العتاهية

ولكنه يبقى بعد هذا ما قد يفيده ظاهر بعض ما رواه صاحب الأغانى من أن أبا العتاهية لم يكن يرى فى شعره هذا الرأى ، قال : نسخت من كتاب هرون بن على ، قال حدثنى على بن مهدى ، قال : حدثنى ابن أبى الأبيض ، قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب

أستحسنه لأنى أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى فأحببت أن أستزيد منه ، فأحب أن تنشدنى من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردىء ، قلت : وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فان لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فان الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به ، الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة ، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت : صدقت ، ثم أنشدنى قصيدته :

لِدوا للموت وابنوا للخراب ... فكلُّكمُ يصير الى تَباب

ألا ياموتُ لم أر منك بُدًّا ... أتيتَ وما تحيفُ وما تحابى

كأنك قد هجمت على مشيبى ... كما هجم المشيب على شبابى

قال : فصرت الى أبى نواس فأعلمته ما دار بيننا ، فقال : والله ما أحسب فى شعره مثل ما أنشدك بيتاً آخر ، فصرت إليه فأخبرته بقول أبى نواس ، فأنشدنى قصيدته التى يقول فيها :

طولُ التعاشرِ بين الناس مملول ... ما لابن آدمَ إن فتشتَ معقولُ

يا راعيَ الشاءِ لا تغفل رعايتها ... فأنت عن كل ما استرعيت مسئول

إنى لفى منزل ما زلتُ أعمره ... على يقين بأنى عنه منقول

وليس من موضع يأتيه ذو نفَسٍ ... إلا وللموت سيفٌ فيه مسلول

لم يُشغَل الموتُ عنا مذ أُعِدَّ لنا ... وكلنا عنـه باللذات مشغول

ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب ... والحيُّ ما عاش مَغشيٌّ وموصول

كلٌّ ما بدا لك فالآكال فانيـة ... وكلُّ ذى أكل لا بد مأكول

قال : ثم أنشدنى عدة قصائد ما هى بدون هذه ، فصرت الى أبى نواس فأخبرته فتغير لونه ، وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد ، ولم يقل فيه سوءا

والذى أراه فى ذلك أن أبا العتاهية كان يريد بهذا صرف هذا الرجل عنه ، لأنه كان معتزا بشعره معتدا به ، وقد قارع به بشاراً وغيره لدى الملوك والأمراء فحاز به قصب السبق ، ونال من صلاتهم وجوائزهم ما لم ينله غيره ، ولو كان يراه دون غيره من الشعر لقعد به فى بيته ، ولم يقو أن يقارع أحدا به ؟

عبد المتعال الصعيدى

فصول ملخصة فى الفلسفة الألمانية

٢٠ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

– ١ –

كل جيل أو كل حضارة مرتبطة بسلسلة من القيم الاجتماعية تؤمن بأن هنالك شيئاً أسمى من شىء ، وأن عملا أفضل من عمل ، وترى أن الحقيقة أسمى من الضلال ، وأن عاطفة الرأفة أفضل من عاطفة القسوة . وواجب التاريخ البشرى هو تعيين هذه المقامات والفصل بينها ، لأن هذه المقامات المنطوية على التقاليد الاجتماعية هى التى تسيطر على حياة الأفراد والجماعات ، وتؤثر فى كل أحكامنا ومناقشاتنا . وجدير بها والحالة هذه أن تشغل عقل الفيلسوف وأن تستبد بأكثر عقله وفراغه

نظر نيتشه إلى هذه المقامات وتأملها ملياً ، فجاءت نتيجة تأمله أن هذه المقامات التى تتعاقب عليها الحياة الأوروبية اليوم لهى مقامات فاسدة يجب تنكيسها لأنها لا تصلح للبقاء ، وبهذا يتبدل مجرى حياتنا ، وتبيد هذه المكازات التى تتوكأ عليها أحكامنا وأفكارنا . وقد نرى نيتشه — فى أحد نوبات ألمه العنيف قبل ضياع عقله — ينذر بخراب مروع لهذه البشرية : « إننى أحلف لكم بأن الأرض ستتلوى متشنجة خلال عامين اثنين . . . إننى بنفسى قضاء وقدر »

إن الانسان الحالى يضع فى قائمة « القيم الاجتماعية » عدداً من القيم المطلقة العالية التى لا يمسها سوء ولا يشرف عليها عقل ، ولا يتطاول إليها نقاش ، وبواسطة هذه القيم يسعى الى تبيين الحقيقة . من هذه القيم المعروفة مثلاً عنصرا الخير والحقيقة . وقديماً وحديثاً نرى أن تعبد الحقيقة والصدق هو رأس عقائدنا وإيماننا . ناهيك أن المفكرين أنفسهم وقفوا متهيبين إزاء مسألة الخير والشر حين عرضت لهم ، وقد ظلوا مترددين أمامها ، راعين للتقاليد التى توارثوها عنها . « فكانت » قد افترض وجودها .

وشوبنهاور وجد أن العقدة الأخلاقية إنما هي عقدة عامة، جميع الناس فيها سواء. «فلا تبيء لأخيك، وأغث إخوانك ما استطعت» . وهكذا تطامن الفلاسفة على هذه العقدة ولم يهزوا شجرتها. وكلهم تجمهروا ليدرسوا رأس الأخلاق وهذا الضمير الخلقي الذي اصطلح البشر عامتهم على احترامه والذي لا يزال يسيطر على الأجيال الحالية

أعلن نيتشه الحرب على هذا التعبد للحقيقة وهذه العبادة لشريعة الأخلاق. وبدلاً من أن يتقبلها قبولاً لا مفر منه ولا وجه لمقابلته بجدل. رأيناه يقابلها كمسألة يدرس وجوهها ويحل مبهمها ويفترض ما يفترض في سبيل تفهمها. أليس من حقه أن يتساءل «ولماذا كانت الحقيقة خيراً وأحرى؟ : ولماذا كان الخير أجدر من الشر بالأخذ؟» ثم حل هذه المسألة بذات الجرأة التي ظهر بها جاعلاً قاعدة الانسان الحر هذه الكلمة المأثورة «لا شيء حقيقي في الوجود، كل شيء حل للإنسان»

وما هذه الكلمات النظرية التي تتردد بحروف مختلفة وأسماء متباينة دون أن يخرج معناها بخروج مبناها إلا كلمات ابتدعها الخيال وثبتها الوهم. أما الحقيقة الجديرة بالنظر، فالحقيقة التي ينبغي لنا أن نعرفها فهي حقيقة عالم رغائبنا وأهوائنا. فكل ما تحتوي عليه حياتنا وإرادتنا وفكرتنا هو في الحقيقة نتاج ما فينا من الغرائز الحاكمة. وهذه الغرائز المتفرقة إنما تتشعب بها السبل إلى غريزة واحدة، لا ترد إلا إليها ولا تصدر إلا عنها. هذه الغريزة هي إرادة القوة، هذه الارادة التي تقيئنا - لو رجعنا إليها في تحليل جميع مظاهر الحياة التي تحيط بنا ونحيط بها. فكل كائن - سواء كان من عالم الحيوان أو النبات أو الانسان - يتبع إلى بسط سلطانه على غيره من الكائنات حتى يخضع له ما يخضع منها. وإن هذه الحرب القائمة وهذه الجهود الدائمة، حيث لا تستقر حياة موجودة إلا ببسط نفوذها ونشر قواها، هي الشريعة الأساسية في الوجود، وفي كل مظاهر الحياة - أنى كانت - ترى الغريزة قائدها وهاديها : فاذا رأيت إنساناً ما يجنح بطبيعته إلى حب الفضيلة والفن والحقيقة فهذا الجنوح إنما قام بفضل هذه الغريزة الطبيعية التي رأت من خيرها أن تسلك هذا السبيل، وهكذا قل في الفضيلة الدينية التي تجد بها بعض

النفوس أقواتها وطعام غرائزها. وفي الحقيقة التي يضحي العالم في سبيلها بأزهى عمره تسوقه إليها إرادة القوة التي تعمل على بسط سلطانها، ولكن الانسان مال إلى عبادة ما ابتدعه بنفسه «كمثل أعلى» ليشبع حاجة فيه من حاجاته. فبدلاً من أن يقول : سأحيا أنا لاشباع غرائزي، وسأجري عن الخير والحقيقة تبعاً لهذه الشريعة حيث تدفعني إرادة قوتي : قال : إنما الخير والحقيقة شيئان ينبغي أن يطلبا لنفسيهما. . . يجب صنع الخير لأنه الخير. ويجب نشدان الحقيقة حباً للحقيقة. وحياة الانسان ليس لها قيمة إلا بقدر ما تتنكر من أنانيتها وذاتيتها في سبيل خدمة هذا المثل الأعلى ؛ فلتقتل إذن كل ميولها الغريزية في سبيل هذا المثل، معتقدة أن الأنانية هي شر كبير ورذيلة خطرة. على أن هذا الانسان نفسه الذي قدر هذا التقدير إنما تسوقه غريزة - لأن الغريزة هي سائقة النفوس الى ما تعمل - ولكن هذه الغريزة غريزة فاسدة

على أن هذه الغرائز ليست في الناس سواء، فبعضها معتدلة تعمل على تغذية حياتها وصيانة نموها، وبعضها فاسدة معتلة تعمل على إخفاء مادتها الحيوية. وللعلل الجسدية تأثير كبير فيها قد يتدارك الطبيب قبل أن تنضوي الجسد. وهنالك علل «الشخصية» ولهذه العلل أسباب طبيعية. وبحسب هذه الغرائز المختلفة المسيطرة على الانسان يأتي صاحبها صالحاً أو طالحاً، مثلاً عالياً أو مثلاً سافلاً

إن - هنالك - رجالاً خالصي الأجسام والأرواح يقولون «نعم» للوجود ! هم سعداء ناعمون بحياتهم، وهم ممن يجدر بالحياة أن تخلد لهم. وهنالك رجال منحطون ضعفاء مرضى قد أظلمت غريزتهم وماتت حيويتهم، يقولون «لا» للوجود ! يجنحون إلى الموت والفناء، لا غاية لهم يتحرون عنها، وليس لهم - والحالة هذه - أن يتحروا عن بقائهم في الوجود، وهذه سنة طبيعية تنطبق على الحياة التي لا تتمرد، والحياة - في كل صقع - سائرة في طريق التقدم أو في طريق الانحطاط. والانسان فيها مثل غرسة، طوراً تحيا ذابلة يائسة، وطوراً تتفتح مشرقة زاهية، تسمو منها فروع عالية.

يتبع

خليل هنداوي

القصص

منثور من هوميروس

٥ - حروب طروادة
أخيل
للأستاذ دريني خشبة

شُده القوم ، ونظر بعضهم إلى بعض ، ونهض الكاهن الوقور ذو اللحية المرتمشة يضرب فى غبشة الصبح ، متكئاً على عكازه الذى أحنته وأحنت صاحبه السنون ، ولم يكد يتسنم ذروة الجبل حتى أشرقت ذُكاء ، فاختلط ذهب أشعتها بفضة لحيته ، فزادته رهبة ، وزاده البعد وقاراً ، وملأ بهامته السامقة وطيلسانه القشيب ، قلوب العسكر ، وعيون القادة ، ألغازاً وأسراراً ...

. . . .

عاشت ذيتيس فى كنف بليوز قانعة راضية ، لا يعنيها من هذا العالم الرحب إلا الجنين الحبيب الذى يتقلب فى أحشائها ، فتتقلب معه أكبر الآمال

ومضت شهور . . . ووضعته غلاماً بكاء كثير الصخب ، يضرب الهواء برجليه الصغيرتين ، فكأنما يضرب المشرقين والمغربين ، وينظر فى السماء العميقة بعينيه الزرقاوين ، وكأنما يبحث فى أغوارها عن جده .. ومجده ! وترى إليه أمه وتبتسم !

وشب الغــــلام وأيفع ؛ وتحدثت إلى أمه العـرافات والكاشفات الغيب أن سيكون محارباً عظيماً ، تتحدث بذكره الركبان ، وتتعطر باسمه المحافل فى كل زمان ومكان ؛ وأن لابد من رحلة به إلى الدار الآخرة — هيدز مملكة بلوتو — حيث تستطيع الأم غسل ابنها فى أمواه ستيكس ، نهر الخلود الزاخر ، الذى أودعته الآلهة أسرارها ، ونظمت فيه شعراء الأولب أشعارها واشتهرت بركاته فى العالمين

حدثتها أنها إذا غسلت ابنها فى أمواه ستيكس ، فإنها تكسب جسمه مناعة ضد الموت ، وحفاظاً من الفناء ؛ لأن جلده يصبح كالدرع المسرودة من حديد ، لا تنفذ فيه النبهام ، ولا يؤثر فيه طعن القنا ، ولا ضرب المشرفيات البيض

ووقفت به على شواطئ ستيكس !

وهالها أن تنظر فترى إلى المنايا تقفز على غوارب الموج ، وتثب فوق نواصي الثبج ؛ تدمدم كأنها الذئاب ، وتهوم كأنها البواشق ، وترقص ظلالاً سوداء كأنها الجن !

لقد ريعت الأم المسكينة ، وكادت تنثني بطفلها المعبود ، إشفاقاً عليه من هول ما شاهدت ... بيد أن الطفل ... بيد أن أخيل الصغير ، كان يصرخ وينتحب كلما بعدت به أمه عن شواطئ النهر ، فى حين كان يهدأ ويبتسم كلما اقتربت به منها . فتعجبت ذيتيس ، وجلست ترقب من النهر فرصة هادئة فتغمر ابنها فى مائه لحظة وتمضى لشأنها ...

وكأن الآلهة قد استجابت لتوسلاتها . . . . فقد نامت الأمواج ، واستقر سطح الماء ، وقالت شياطين النهر المصطخب ؛ فتقدمت الأم المضطربة ، حاملة ولدها من إحدى رجليه ، وذكرت أربابها ، مبتهلة إليهم ، وغمست أخيل فى الماء الهادئ فى أقل من لمح البصر ، وعادت أدراجها فرحة متهللة ..

جزء واحد من جسم أخيل لم يغمره الماء !!

ذلك هو عقب قدمه اليسرى ! فيا للهول !

لقد أسلمت ذيتيس ولدها الحبيب للسنتور العظيم شيرون ، مؤدب هرقل ومدربه ، يلقنه الفنون الحربية ، وينشئه على أعمال الفروسية ، ويبث فيه من ذلك الروح الكبير ، الذى بثه فى سائر تلاميذه من قبل ، فكانوا فرسان كل حلبة ، وصناديد كل ميدان ، ولقد نبغ أخيل فى استعمال السيف ، واللعب بالرمح

وترتيز القيسى ، وثقفت رجيل المصارعة والملاكمة . . . وقصارى القول ، أصبح فتى زمانه ، والملح اللتى فى قلوب أنداده وأقرانه ... إن كان له أنداد وأقران !

وعاد إلى أمه فاحتفت به ، وذهبت من فورها هـذا إلى العرافات القدامى ، وكهنة المعبد ، فاستوحتهم ما عسى أن يكون فى كتاب الغيب من حظ لابنها فى الميدان ...

ولكنها حزنت ، ودهاها من الهم ما دهاها ، حين قال لها الكاهن الأكبر ، مؤمنا على ما تنبأت به العرافات ، إن أخيل سيدعى للقتال فى صفوف الأغريق ، وأنه سيلقى حتفه تحت أسوار طروادة ، بسهم ترميه به ألد أعدائه ، يصيب منه مقتلا فى موضع دقيق من جسمه ، هو ، وا أسفاه ، عقب قدمه اليسرى ، التى لم تغمرها مياه ستيكس !!

حزنت ذيتيس ، وتجهمت للحياة المشرقة ، وتجهمت الحياة المشرقة لها ؛ وآلت إلا أن تحول بين ابنها وبين الحملة على طروادة التى كانت الصيحة لها تجوب آفاق هيلاس فى تلك الآونة ...

وجلست تفكر ...

وبدا لها أن ترسل بأخيل حيث يحل ضيفاً على ليقوميدس ملك سيروس الكريم المضياف ، وأن تنتحل الأعذار الواهية ، فتعرض على الملك أن يسمح لولدها بالتنكر ، بأن يصفف طرته ويرسل غدائره ، ويزجج عينيه وحاجبيه ، ويصبغ خديه وشفتيه ويضفى عليه من وشى المرائس ، وأفواف الأثواب ، وحبر القيان الغيد ، ما يبدو به كأنه واحدة من بنات الملك أو إحدى سراريه ! تحسب المسكينة أنها بذلك تمفيه مما قدر له ، وأينما كان يدركه القتل ، ولو كان فى برج مشيد !!

***

واشتد طلب الأغريق لأخيل ، ولبث الأسطول الضخم يرقب مجيئه فى كل لحظة عدة أيام ، وخشى أجاممنون إن هو أقلع بالفلك ، ورسا عند شطئان طروادة أن ترسل الآلهة ريحاً صرصراً تسخرها عليه فتأتى على أسطوله ، أو يظل تحت أسوار أعدائه مرابطاً أبداً ، لا يتقدم ... ولا يتأخر ؛ وتكون إقامته ثمة بالهزيمة أشبه ، وإلى الانخذال أقرب . فأخذ يبعث الرسول يتلو الرسول للبحث عن أخيل ، الذى انبأت الآلهة أن فتح طروادة مستحيل بدونه ؛ ولكن عبثاً حاول أحد من الرسل

العثور بأخيل أو بظل أخيل ؛ بل كانوا يعودون جميعاً وهم يتعثرون فى أذيال الخيبة ، ويلملمون أطراف الفشل !

وهنا ، نهض البطل الملك ، أوليسيز ، فتى إيتاكا ؛ وندب نفسه للبحث عن أخيل ، وأقسم لا يعودن إلا به !

ومع أن بعض القادة من أعضاء المجلس الحربى ، أوجس خيفة من أن يفر أوليسيز ، وأن يكون ندبه لنفسه بحجة البحث عن أخيل ، إن هو إلا حيلة يريد بها أن يفلت من تبعات الحرب وأهوالها ، إلا أن أجاممنون نفسه ، وهو القائد الأعلى للجيوش والأساطيل ، قبل أن يذهب أوليسيز كما يقص أثر أخيل ، بعد أن أخذ عليه « يميناً على حد الحسام المهند ! »

***

استطاع أوليسيز أن ينفذ إلى مملكة بليوز فى أعماق المحيط ، واستطاع أيضاً أن يختلط بالخدم والخول وحاشية القصر ، وأمكنه أن يستدرج بعض الأمراء المقربين من رجال الأسرة المالكة فيعلم منهم أين يختبئ أخيل ، وكيف يمارس حياة العذارى فى بلاط ليقوميدس ، ملك سيروس ، كأنه إحداهن ؛ وعلم أيضاً أن أخيل نشأ نشأة عسكرية على يدى شيرون المظيم ، ومن كان تلميذ شيرون فأخلق به ألا يستنيم لهذه الحياة الناعمة التى لا تليق إلا بأبكار الخدور ، وربات الحجال ، لا بالأبطال وصناديد الرجال .... فانطلق إلى سيروس من فوره !

انطلق أوليسيز إلى سيروس النائيـة ، التى تـكاد تـكون منقطعة عن العالم ، وقد حمل على ظهره المريض ، وكاهله القوى حقيبة كبيرة جمع فيها من كتان مصر وأصباغها ، وغطاورها ، وحبر الشام ، وحريره ونمنوره ، وتصاوير فارس ، وقاقمها وسنجابها ، ومشرفيات الهند ، وتحف السند ، وطرف الصقلب ... ومن كل ما غلا وارتفع ثمنه من أدق صناعات العالم جميعاً

فلما كان فى خاصرة المملكة ، يمم شطر قصر الملك ... وكان الوقت ضحى ؛ ثم إنه طفق يصيح باللهجة السيروسية ، معدداً أسماء السلع التى : « استحضرناها حديثاً من مصر الجميلة المتفننة ، والشام الصناع المبقرى ، وفارس الفنية الكسروية ، والهند العظيمة ، والسند الب ...... ونحن لا نبيع إلا للملوك وأبناء الملوك ، لأن الشعب فقير لا يقدر بضائعنا الغالية ... ونحن

معروفون في مصر ، لا يشتري فرعون إلا منا ، وفي الشام ، وفي فارس ، وفي الهند ، حيث الأقيال العظام والـ ...... »

وأرسلت بنات الملك فأحضرن هذا التاجر الفاخر بما معه واجتمعن حوله يتفرجن ويتلهَّين ؛ هـذه تختار منديلاً من حرير الهند ، أو منطقة من خز الشام ، وتلك تشتري من أصباغ مصر وعطورها وخرزها ، وثالثة تفتتن بتصاوير فارس ، فتشتري كل ما مع الرجل منها ....

ولـكن فتاة مُلثَّمة ... وقفت وحدها ترمق سائر الفتيات بنظرات ساخرة ، ولا تـكاد تُبين إلا عن عينين زرقاوين متألقتين ، تقدمت في خطوات متزنة ، ومشية منتظمة ، وأخذت الحقيبة من الرجل فقلبتها ، وما كادت ترى إلى المشرفيات الرقاق القُضُب ، حتى تهللت ، وبدا البِشر في عينيها ، وتناولت حُساماً مرهفاً وشرعت تلعب به في الهواء ههنا وههنا ، كأنما تطيح به رؤوس أعدائها الذين تتصورهم في لوحة الخيال البعيـد ، المنطبع على أسوار طروادة !!...

وشُده أوليسز مما رأى !

إنه هو نفسه لا يستطيع أن يلاعب السيف كما تلاعبه هذه الفتاة !

وأن فتاة تغازل السيف هكذا ، لا يستطيع عشرة آلاف فارس أن يقفوا في وجهها ؛ إذا جمعتهم وإياها حَلْبَة الوغى !

إنها تأخذ على الهواء مسلكه ، فالهواء نفسه ذبيح هذه الضربات القاسيات !

وانقشع الشك من نفس أوليسز ، وأيقن أنه أمام البطل المنشود ، فصاح بصوته الجهوري ، وكأن الرعد ينبري من بين شدقيه :

« أخيل ! ... ... »

وكأن كل ما في الأرض والسماء راح يردد صيحة أوليسز :

« أخيل ... أخيل ... أخيل ... »

ووقف أخيل لحظة جامداً ، شارد اللب ، زائغ العينين ، كأنه مستيقظ من حلم كربه مفزع ؛ ثم ما هو إلا أن نثر لثامه ومزق الغلالة الحريرية التي كانت تحبس جسمه العظيم في سجن امرأة ، وصاح بأوليسز وقد بدا في بُرد الأسد

« أنا هو ... أنا أخيل ... فرحى يا رجل ! »

ـ « أنت هو .... ؟ ! »

ـ « أجل ... أخيل بن بليوز ... أبي إلـه عظيم وأمي بنت إلـه عظيم ، فلبيك وسعديك ! »

ـ « وأنت مختبئ هنا في خدور النساء خشية الحرب التي احتشد لها قومك دفاعاً عن الوطن ؟ »

ـ « أية حرب يا رجل ؟ »

ـ « بين هيلاس وبين طروادة ! »

ـ « ومن أثارها ؟ »

ـ « لقد سرق باريس بن بريام ، هيلين مليكة أسبارطة »

ـ « سرقها ؟ ولم لم تقتله الفاجرة ؟ »

ـ « فرّت معه ، ولم يمنعها أن تلق شرف هيلاس في الوحل »

ـ « ولم لم تذهب أنت إلى الصفوف ، ويبـدو لي أنك محارب كبير ؟ »

ـ « بل أقبلت من الصفوف لأبحث عنك ! ! »

ـ « ومن أنت حتى ينتدبك الجيش للبحث عن أخيل ؟ »

ـ « ومن أنا ؟ وماذا أسرك أن أكون ؟ »

ـ « من أنت يا رجل ؟ »

ـ « أيسرك أن ملكا هو الذي يبحث عنك يا أخيل ابن بليوز ؟ »

ـ « ماذا تعني ؟ أأنت ملك إذن ؟ ملك ماذا ؟ »

ـ « ملك إيثاكا يا أخيل ! ! »

ـ « أنت ملك إيثاكا ؟ أنت أوليسز ؟ هاها ... وما تلك الحقيبة إذن ؟ »

ـ « هي وسيلتي اليك ، لقد مزقت بها خمارك ؛ وهتكت عما فيها براقعك ! »

ـ « أنت تهينني ! »

ـ « لا عليك ، ما دام محدثك أوليسز ! »

ـ « أفي الحق انك هو .... ؟ ؟ »

ـ « أقسم لك بالـكُناس الذي آواك ...

ـ « وفيم كنت تحرث شاطئ البحر إذن ؟ لقـد ذُكر أنك زرعته ملحاً ، فهل حصدت سردينا يا أوليسز ؟

ـ « أخيل ! الأسطول ينتظرنا ، ألف ألف يتحرقون شوقاً لرؤياك ، وأنت أكرم من أن تفر من حرب ... فهلم !

ـ « هلم الى أين ؟

ـ « الى أوليس أيها العزيز . . الى حياة البطولة والمجد والشرف !

ـ « البطولة والمجد والشرف ! ! ماذا تقول ؟

ـ « لم يخلق تلاميذ شيرون للتقلب فى قصور الراحة ، والتلذذ بما فى العيش من طراوة ونعومة ... هلم يا أخيل نخض المعمعة ، ونلق طروادة العاتية ، ونُلَقّنها درساً دامياً فى الذود عن كرامة الوطن ! لا تقتل وقتنا فقد حرصنا جميعاً على أن تكون معنا ، وتحدثت إلينا آلهتنا أن طروادة لا تُفتَح إلا عليك ، ولا تعنو إلا لك ، وقد اتفقت المقادر أن ترميها بك . . . لا تترك لخصومك فرصة أن يقولوا فر أخيل وتقاعس ، فأين أبطال هيلاس ! ! هلم هلم ، فقومك بنو الكريهة وقروم الحرب وحتوف الأقران . . . لو رأيت إليهم مستلئمين فى سلاحهم ، مُقَنّعين فى حديدهم ، مُلَملَمين فى سفينهم ، لرهاك عسكرهم الجرار ، وبهرك خميسُهم المرمرم ! وتمنيت أن تكون أحدهم بالدنيا وما فيها

دع الغيد يفاخرن بالقلائد والعقود ، ونبال نحن نعد ما فى أجسامنا من ضربات السيوف ، ووخزات الرماح ، ومواقع السهام ، فهذه أعز مفاخر الرجال يا أخيل !

أخيل ! رُدَّ عليّ ! قل سأحضر معك ! كلنا ننتظرك يا أخيل ! لن تُفتح طروادة إلا عليك ! فأى فخر ينتظرك تحت أسوارها ، وأى مجد يكلل هامتك يا بطلها الصنديد !

تكلم ، ولا تصمت هكذا ... إن ملك إيتاكا يتوسل إليك أنا أوليسيز كله ! سأكون جدنك فى الحومة ، وصديقك فى المعمعة ! وأجا ممنون ! إنه قائدنا الى الفخار ، وصاحبنا فى مصارع الشرف ! وديوميديز ! بطل الأبطال وفارس كل كريهة وقتال ! سينسى شجاعته حين ينظر إليك تلاعب الأسنة ، وتقبل مراشف الرقاق البيض ! وأجاكس يا أخيل ! لقد بهره ما سمعه عنك ، وهو يتمنى أن يراك ، ويحارب تحت بند خفاق من بنودك ! أجاكس نفسه ، يود أن يكون جندياً من جنودك وهو أقوى وأبسل جنودنا جميعاً ... !

ماذا ؟ تبكى ؟ . . . لا لا يا أخيل . . . لترقأ دموعك فهى أغلى من أن تنسكب هكذا ! أكرم بك هيلانياً رقيق القلب ، باراً ببلادك ، مناضلاً عن رايتها فى ساحة المجد !

لتشرب من دموع أخيل يا ثرى الوطن !

لتروك هذه العبرات الغاليات ، فهى ترياقك إذا حزبك أمر ، أو ادلهمت بك الخطوب ! »

... ...

وهكذا كان أوليسيز ماهراً فى إثارة النخوة فى قلب البطل !

وهل أحلى من كلمات البطولة ، وأوقع من حديث المجد ، فى نفس شاب مثل أخيل ؟ لقد تقدم مختاراً طائعاً فقبل جبين أوليسيز ، ولثم سيفه ، ثم ودع بنات الملك ، وحيا القصر ، وتزود من الحدائق نظرات

وانطلق فى إثر أوليسيز !

إلى . . .

أوليس !

(لها بقية) دريني خشبة

أشكر الأستاذ الأديب محمد روحى فيصل ، وأدع للرسالة أن تجزيه عنى

دريني

من الفن القصصى الحديث

المشعوذ

LE BATELEUR

للقصصي الألماني اريش كستنر Erich Kaestner

ترجمة علي كامل

في ليلة من ليالي الصيف الماضي شوهد على شرفة مقهى (مجلس الوصاية) الواقع على رصيف مون بلان بجنيف منظر كان حقاً غير عادى . إذ قبل أن ينتصف الليل بقليل كان المقهى يفيض بالزبائن الوجهاء الذين كانوا يشربون قبل أن يذهبوا للنوم مختلف المشروبات المثلجة . فقد كان الجو ثقيلاً ، ثقيلا لدرجة أن رياح البحيرة لم تستطع إحداث أقل إنعاش أو تخفيف

وكان الأغنياء البرجوازيون من أهل جنيف يوقفون عرباتهم أمام الفندق ثم يبحثون بعد أن ينزلوا منها عن مكان وسط ذلك الجمع المختلف الأجناس المحتشد في ذلك المكان

وكان فريق الاركسترا يعزف في الهواء الطلق بضع مقطوعات من أوبرات شهيرة ، وكان كل الجالسين يشعرون بأنه يحيط بهم جو على أتم ما يرام : فجوازات السفر تامة من كل الوجوه ، والحقائب مهيأة للغاية ، وأربطة الرقبة متفقة تماماً مع (البدل) ، والقهوة المثلجة في درجة الحرارة التي يرغبونها ، وأمواج الأوبرات التي يعزفونها جيداً تفتن جميع الآذان

وفي هذا الجو المفعم بالنعيم والفخامة برز مرة واحدة وسط الشارع أحد حمالي البواخر ، وكان أشبه ما يكون بمصارع ، وكان جسمه كله برنزى اللون من أثر الشمس . وبدل القميص كان يلبس (مايوه) بنفسجياً وحول فخذيه بنطلون أحمر متسخ . وكان يلوح بيديه بكوبة من الجعة نصفها فارغ . محيياً — وهو يضحك — الجالسين في المقهى الذين لم يكن من السهل لعينيه أن تراهم جميعاً . ولقد كان يبدو من منظره أن الشراب قد أسكره قليلاً . . وكانت ابتسامته تبدو غريبة ، وبعيد أن عبر شرفة المقهى عاد أدراجه وبدا على وجهه كأنه يريد أن يشرب في صحة الحاضرين . ثم أفرغ ببطء ما تحتويه كوبته ولم يظهر على من بالمقهى أنهم وجدوا في هذا المنظر تسلية كبيرة جداً ، وأفرغ الرجل ما تبقى من الجعة على الرصيف دون أن يبدو عليه أي ارتباك ، ثم أمسك الكوبة بكلتا يديه وحطمها بحطها كاملا بين أسنانه كأنسان عضه الجوع . وكان بالقرب منه فتاة أمريكية من أعظم الموجودات رشاقة فصرخت حين رأته يفعل ذلك واصفر لونها مرة واحدة . أما جارتها فحين تملكها الفزع وضعت منديلها سريعاً على فمها . . ووقف عدد من الزبائن ودفعوا كراسيهم إلى الوراء وجروا بأقصى سرعة . أما أفراد الأركسترا أنفسهم فقد تحولت أنظارهم عن النوت التي أمامهم وطاشت أنغام كل منهم

وفي أثناء كل ذلك الوقت كان الرجل يسحق قطع الزجاج بصوت مرتفع دون أن يتحرك من مكانه متابعاً بعينيه بكل هدوء عصبية المتفرجين المتزايدة ، وكان صوت مضغ الزجاج — ذلك الأمر العجيب النادر — هو وحده الذي يزعج ذلك السكون الشامل . ثم أحنى الرجل رأسه كأنه يتحدث سراً مع أحد من الناس وتأرجح على ركبتيه ثم اتجه إلى مناضد أكثر بعداً وهز من جديد كوبته ونظر بهدوء شديد إلى الوجوه الخائفة وحطم قطعة أخرى بين أسنانه . وهرب هذه المرة أيضاً عدد من الجالسين بينما طلب عدد آخر — وقد أثارهم ذلك المنظر الغريب — من خدم المقهى أن يطردوا ذلك الرجل . على أن الخدم اكتفوا بهز أكتافهم ، فقد كانوا على جانب من التعب الشديد غير قادرين حتى على جمع الحساب الذي لهم عند الزبائن . كما أن الفزع كان قد أخذ منهم كل مأخذ . ومن الحق القول أيضاً بأنهم كانوا لا يودون مطلقاً أن يتشاجروا مع (آكل الزجاج)

وطالب رجل فرنسي — كان قد أصبح وجهه رمادى اللون من هول الرعب — مدير المحل كيما يوجه إليه اللوم الشديد . ووعد مدير المحل بأن يقدم مساعدته وتقدم خطوات نحو حمال البواخر ، لكن شجاعته خانته حالا فتقهقر . ذلك لأن المشعوذ

لم ينقطع عن التردد بين طرفي المقهى وهو يمضغ على مهل بقايا كوبة الجعة، وبعد أن ازدرد جزءاً منها لفظ البقية على الأرض. وبدا على جانب شفتيه مجرى رفيع من الدم انساب حتى ذقنه دون أن يشعر هو نفسه بذلك إذ كان منشغلاً تماماً بمضغ غذائه الوحيد

ومر بالمكان مصادفة أحد رجال البوليس قادماً من رصيف ر. ولسن، وكان يرتدي (بدلة) زرقاء بأشرطة بيضاء، فعند ما رأى ذلك المنظر الغريب انسل بهدوء إلى شارع الناقوس، واختفى دون أن يصرخ آمراً بعودة النظام

ووقفت السيارات في عرض الطريق بينما جلس السائحون صامتين من الذهول، وقد اتجهت أنظارهم - دون أن تتحول مطلقاً - صوب النوافذ الزجاجية

لقد فقد زبائن المقهى وعيهم كلية، وملكهم الرعب من جراء شجاعة ذلك الرجل الخارقة، ولقد دفعهم الخوف لأن يضموا أيديهم على حقائبهم، فقد تكون هي أحسن وسيلة لإبعاد ذلك الجمال الذي حمل إليهم الألم والأذى

على أنه لم تكن هناك وسيلة ما!

لم يبق من السكوبة شيء يذكر، كان الرجل يمضغ بهدوء البقايا الأخيرة ولم يقاومه إلا القاعدة لأن زجاجها أكثر سمكاً، فلوح بها في الهواء وعليه أمارات النصر المتلئ بالاحتقار

كان السكون التام يسود المكان كله ولم يكن هناك إلا فتاة صغيرة — عيناها نصف مقفولتين — تبكي بوداعة. وفي تلك اللحظة اقترب رجلنا من المنضدة المجاورة وقبض — دون أن ينطق بكلمة واحدة — على آنية السكر المعدنية وأدارها على المنضدة ثم قدمها وهي فارغة مما كانت تحويه طالباً المعونة، وقد علت وجهه أمارات التهديد.. وفي الحال انفتحت حقائب النقود كأن قوة سحرية فعلت بها ذلك. وتراكمت قطع النقود في آنية السكر كأنها قطرات مطر هاطل، وتنقل الرجل من منضدة إلى أخرى وهو مالك نفسه أكثر من رجل مسلح من رجال العصابات، ماداً آنية السكر كأنه يصوب مسدساً. إنه لم يستجد بلسانه مطلقاً، كما أنه لم يشكر من أعطوه، على أنه لم يكن يغادر المنضدة إلا بعد أن يعطيه الجالسون عليها نقوداً

وفي الطريق وقف المارون ينظرون في صمت مايفعله الرجل وقد ظهر عليهم السرور واضحاً. ولاحظ مدير المحل — ولكن بعد أن فات الأوان — أن سمعته في خطر كبير فانحنى يطلب بأدب جم إلى العامل أن يوقف هذه الشحاذة، لكن الرجل أبعد ذلك الشخص الذي يضايقه بأن هز كتفيه هزة خفيفة ثم استمر في تكديس النقود كأن شيئاً لم يحدث قط، فقد كان يعتبر الجالسين في المقهى كأنهم أكياس منتفخة من الذهب

لقد جاء إلى المكان وأطاعوه بسهولة! وفي اللحظة التي شعر فيها بأنه حصل على ما يريد أفرغ ما تحتويه آنية السكر في جيبه وألقى على الأرض - دون أي مراعاة - قاع السكوبة الذي لم ينقطع عن التلويح به في الهواء حتى تلك اللحظة، ثم ارتدى بنطلونه بإهمال، كما هي حال الطبقات الدنيا، وسار في طريقه باحتقار وازدراء

وبقي الزبائن ساكنين جالسين في أماكنهم ذاهلين، أشبه ما يكونون بمرضى في دور النقاهة، محطمين من التعب والإرهاق

والآن ما الذي حدث؟

الذي حدث أن رجلاً لا يلبس ياقة ولا رباطاً للرقبة ازدرد الزجاج. بيد أن وقع الحادث على المتفرجين كان أكثر من ذلك هولاً ورهبة

وابتدأ فريق الأركسترا يعزف مقطوعات للموسيقى فيردي بينما كان أحد خدم المقهى يمسح جبهته خفية

البريد الأدبي

مستشرق عظيم

يلومني بعضهم لتنويهي في كل مناسبة بفضل علماء المشرقيات في الغرب على حضارتنا وآدابنا ، ولقولي إننا كنا نجهل كثيراً من علم أمتنا ومدنيتها لو لم يقم الغربيون يحيون كتب العرب منذ القرن السادس عشر من الميلاد ؛ حتى طبعوا منها خزانة عظيمة بإتقان وضبط ، ما برحت مرجع الدارسين والباحثين ؛ وإذا أشرت إلى علماء أمتي بالجرى في طريقة أولئك العاملين ، فهنالك الامتعاض ، وهناك الغمز واللمز ، وهناك الأعذار التي لا مبرر لها

أنا لا أجادل إلا بإيراد مثال واحد على صحة مدعاي ، والأمثلة متوفرة كثيرة . هذا الأستاذ كرنكو الألماني لم يجد منشطاً من دولة ، ولا من جامعة ، ولا من جماعة ؛ ومع هذا طبع نيفاً وعشرين كتاباً من كتبنا لخدمة العلم والحضارة العربية . وترجمة الرجل طريفة عسى أن يكون في نشر طرف منها بعض العبرة لقومي ، وألا يثقل عليهم إذا قلنا إنهم مقصرون عن اللحاق بغيرهم

ولد « فريتس كرنكو » أو « سالم الكرينكوي » ، كما سمى نفسه بعد في قرية شونبرغ في شمالي ألمانيا ؛ وتعلم مع لغته الألمانية ، وكان بها شاعراً ، اللغات الانجليزية والفرنسية واللاتينية واليونانية ، فأتقنها اتقاناً جيداً ، ثم بدأ وهو صبي يافع يتعلم اللغات الأوربية الأخرى واللغة الفارسية ، وتعلم طرفاً صالحاً من الحميرية والعبرية والآرامية والتركية ، ثم رحل إلى انجلترا واشتغل بالتجارة حتى أسس مصنعاً للأقمشة في « لستر » كان يشتغل فيه أكثر من ألف عامل وعاملة ، ولم تفته مع كثرة أشغاله العقلية ساعة إلا طالع فيها الكتب العلمية ، وسما له شوق إلى درس آداب العربية والحضارة الاسلامية ، ولا سيما ما كان له علاقة بأوائل الاسلام والقرون التي سبقته ؛ فتعلمها وأتقنها حتى أصبح يكتب فيها ويؤلف مثل أبناء العرب

وفي الحرب نكب بفقد وحيده ، ثم بخسارة كبرى في تجارته حدث به إلى تركها في سنة ١٩٢٧ . وتفرغ بعد ذلك للعلم ، وهو اليوم يعرف لغات أوربا وثلاث لغات من لغات الشرق : العربية والفارسية والهندية معرفة جيدة ، ودرس اللغات الأخيرة في الكتب من دون أستاذ ، وهو اليوم لا منصب له يعيش براتبه ، وماله مال أمثاله ممن يحترف الأدب ، ولما اشتدت به الضائقة كتب اليه أحد أصدقائه من مسلمي الهند أن ينسخ له من الكتب العربية ما يراه جديراً بالطبع من خزانة التحف البريطاني في لندرا ، وجعل له جعلاً سنوياً مناسباً . وقال لي الأستاذ : إني الآن أعيش بفضل لغتكم

هذه جملة حاله ، أما انتاجه فكثير جداً ، لا تكاد تقوم بمثله المجامع العلمية الكبرى ، ورجائي أن يقتدي بسيرته رجالنا ، فهي غريبة في بابها

طبع الأستاذ كرنكو مجموعة من كتب العرب أعرف منها الكتب التالية :

(١) قصيدة طفيل الغنوي البائية مع ترجمة انجليزية

(٢) قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير مع مقدمة ألمانية

(٣) شعر أبي دهبل الجمحي رواية الزبيري بكار مع زيادة وحواش وملاحظات

(٤) طبقات النحاة لأبي بكر الزبيدي مع مقدمة وشروح عليها باللغة الايطالية

(٥) ديوان مزاحم العقيلي بترجمة انجليزية

(٦) كتاب المجتبى لأبي بكر بن دريد

(٧) ديوان النعمان بن بشير الأنصاري وفي ذيله ديوان بكر ابن عبد العزيز العجلي

(٨) حماسة هبة الله بن الشجري

(٩) ديوان طفيل الغنوي وديوان الطرماح بن حكيم مع مقدمة وترجمة وشروح وفهارس مطولة بالانجليزية

(١٠) الكتاب المأثور لأبي العميثل الأعرابي عن نسخة قديمة كتبت سنة ٢٨٠ مع مقدمة ألمانية وفهارس

(١١) جمهرة ابن دريد في ثلاثة مجلدات مع فهارس له في مجلد كبير

(١٢) تنقيح المناظر لكمال الدين الشيرازي شرح كتاب المناظر لأبي الهيثم البصري

(١٣) كتاب التيجان في تواريخ ملوك حمير لعبد الملك ابن هشام عن وهب بن منبه التابعي وفي ذيله ما بقي من رواية عبيد بن سرية عن الأمم البائدة ، وقد كتب في مجلة « مدنية الاسلام » الألمانيـة أن هذين الكتابين من أقدم الآثار المدونة باللغة العربية

(١٤) « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلاني في أربعـة مجلدات . ويطبع الآن ويصحح كتاب « معاني الشعر الكبير » لابن قتيبـة ، وهو في ألف صفحة ، و « إعراب ثلاثين سورة لابن خالويه » والمجلدات الثلاثة الأخيرة من « التاريخ المنتظم » لابن الجوزي ، و « المؤتلف والمختلف » للآمدي ، وكتاب « محاة البصرة » للسيرافي ، و « الجماهر في معرفة الجواهر » لأبي الريحان البيروني ، إلى غير ذلك مما يطلبه من كتبنا في الهند ومصر والشام والجزائر وأوربا

وبعد هذا ألا نرى من الواجب أن نرسل من هذه الأقطار العربية تحياتنا إلى هذا العالم العامل الكامل في الديار الغربية ، وندعو بطول بقائه ليخدمنا بعقله ونبوغه ، وندعو أن يهيء الله لأمتنا أمثاله من العلماء العاملين

محمد كرد علي

كتاب الذخيرة لابن بسام

تألفت أخيراً برياسة العلامة المستشرق الفرنسي الأستاذ ليفي بروفنسال لجنة من أفاضل المستشرقين لتعني باخراج أثر إسلامي أندلسي ضخم هو كتاب : « الذخيرة في التعريف بمحاسن أهل الجزيرة » لابن بسام ، وهو من أكابر أدباء الأندلس في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري . ولم يكن موجوداً ولا معروفاً قبل بضعة أعوام من كتاب ابن بسام غير أجزاء أو نسخ ناقصة ؛ ولـكن الأستاذ ليفي بروفنسال ، وهو من خيرة المستشرقين الذين وقفوا جهودهم على استقصاء تاريخ الأندلس المسلمة وآدابها وحضارتها ، لبث يبحث وينقب أعواماً طويلة في خفايا المكاتب المغربية حتى ظفر بنسخة حسنة كاملة من كتاب : « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ؛ وساعده على ذلك وجوده بالمغرب الأقصى ، مدى أعوام طويلة ، مديراً لمعهد المباحث الاسلامية في رباط الفتح (مراكش) ، وتجوله الدائم في أنحاء مراكش والجزائر ، وتمكنه من معرفة الآثار والمخطوطات الأندلسية ؛ وهو صاحب القسم الثاني من فهرس المكتبة العربية في الاسكوريال ، وله عن اسبانيا المسلمة مؤلفات عديدة . منها : « اسبانيا في القرن العاشر » و « النقوش الاسلامية في اسبانيا المسلمة » و « وثائق جديدة عن تاريخ الموحدين » و « وصف لمدينة سبتة في القرن الخامس عشر » الخ ... وقد طبع كتاب دوزي عن الأندلس طبعة جديدة منظمة منقحة ؛ وكتاب الذخيرة الذي يعني الآن باخراجه ، أثر أدبي تاريخي ضخم ينقسم إلى أربعة أقسام : الأول خاص بقرطبـة وأعيانها ، والثاني خاص بغرب الأندلس وأعيانها ، وأخبار أشبيلية وبني عباد ؛ والثالث خاص بشرق الأندلس وبلنسية وأعيانها ، والرابع خاص بأخبار الجزيرة وأعيانها . وهو يلقي أعظم الضياء على تاريخ اسبانيا المسلمة وآدابها وأحوالها الاجتماعية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) أيام دول الطوائف . ويوجد بدار الكتب المصرية نسخة ناقصة من كتاب الذخيرة في مجلدين كبيرين ، يحتوي على القسمين الأول والثاني فقط من الكتاب . ومن المحقق أن دوائر البحث الاسلامي سوف تنتظر بفارغ الصبر ثمرة الجهود المحمودة التي يبذلها الأستاذ ليفي بروفنسال وزملاؤه الأفاضل لاخراج هذا الأثر النفيس

من آثار نابوليون

كشف البحث في مكتبة خاركوف العامة (روسيا) عن وجود أثر نفيس من آثار نابوليون ، وهو عبارة عن كتاب منه بخطه إلى صديقه وعامله يوسف فوشيه ، والكتاب مؤرخ في ١١ مايو سنة ١٨١١ ، وفيه يدعو الامبراطور فوشيه ليتولى إدارة شؤون روسيا ، ويحثه على القدوم إلى درسدن مع عدة من معاونيه الذين يعرفون اللغة الألمانية ، وكان نابوليون في ذلك الحين قد غلب على بروسيا ومزقها ، وأخذ يستعد لغزوته الروسية الشهيرة . وأما يوسف فوشيه الذي يوجه إليه هـذا الخطاب ، فهو من أشهر الشخصيات في تاريخ نابوليون وتاريخ فرنسا في هـذا العصر ؛

وقد كان من أقطاب الثورة وزعماء اليعاقبة، ولما بزغ نجم نابوليون عين مديراً لبوليس باريس، واستمر في هذا المنصب أعواماً طويلة ثم تولى بعد ذلك عدة مناصب في الادارة وفي البطانة، واشتهر فوشيه بمسائبه الكثيرة التي جعلت منـــه شخصية روائية مدهشة، وكان داهية وافر الذكاء والخبث، وقلما تجد قصة من قصص هـذا العصر لا يحتل فيها فوشيه أعظم مكانة، وكان نابوليون يثق به وينتدبه لأخطر المهام السرية، ولكنه في أواخر أيامه أخذ يرتاب فيه ويقصيه عنه، وكان فوشيه أديباً كاتباً، وقد ترك لنا عدة آثار ورسائل، وكتب عنه الكثيرون مؤلفات ضخمة، ولا سيما شتيفان زفايج الكاتب النمسوى، ولوى مادلين الكاتب الفرنسي

وفاة فنان نمسوي

من أنباء فينا أن المهندس والفنان الأشهر الأستاذ أوسكار شترناد قد توفي في السادسة والخمسين من عمره في مصيفه في «أوسترى»، وقد كان الأستاذ شترناد أعظم إخصائي في فنه، وهو الهندسة الزخرفية، واشتهر منذ أواخر عهد القيصرية، وتولى زخرفة كثير من المنشآت الشهيرة، ومنها «الأوبرا» النمسوية. ولبث مدى أعوام طويلة أستاذ هذا الفن في مدرسة الزخارف الفنية

الرقابة الأدبية في روسيا

تفرض روسيا السوفيتية على الكتب والصحف رقابة صارمة؛ وكما أنها ترعى هذه الرقابة وتنظمها داخل روسيا، فلا يكتب أو ينشر شيء ينافى المبادىء الشيوعية أو يتوجه إلى نقدها والطعن فيها، فكذلك تنظم هذه الرقابة على الحدود تنظيما دقيقاً فلا يتسرب إلى الأراضي الروسية من الكتب أو الصحف شيء يخشى منه على عقول النشء الروسي الذي نشأ وترعرع في ظل الثورة الشيوعية، وآخر نوع من أنواع هذا الحجر قانون أصدرته وكالة الشؤون التجارية الخارجية، يقضي بأنه لا يجوز لشخص داخل روسيا أن يستورد من الخارج كتباً أو صحفاً أجنبية إلا بتصريح خاص من المكاتب التي ستنشأ لهذا الغرض، وكل صحيفة أو كتاب لم يؤذن باستيراده يعتبر مهرباً ويحاكم محرزه ولا سيما إذا كان فيـه طعن على الحكومة السوفيتية أو مبادئها أو وسائلها، وقد حملت السلطات السوفيتية على تشديد الرقابة على هذا النحو ما لاحظته في الأعوام الأخيرة من اشتداد الحملة على روسيا السوفيتية، وتصوير نظمها وأحوالها في معظم البلدان الأجنبية، سواء بطريق الكتب أو الصحف، تصويراً منفراً تقشعر منه القلوب

إلى صديقي الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي

كنت شـديد الاعجاب بقصيدتك «عاصفة روح» التي سمعتك تنشدها قبل نشرها في العدد الأخير من «مجلتي» الصادرة في أول سبتمبر، ولكني لما خلوت إلى نفسي كنت كمن يفتش على مهل عن شيء ضائع في ذاكرتي ... وأخيراً لقيت هذا الشيء الضائع ... لقيت مطلع قصيدة من ذات العنوان والوزن، بل لقيت القصيدة كلها من نظم الشـاعر الدمشقي ميشيل عفاق منشورة في العدد السابع من مجلة الدهور الصادر في شهر سبتمبر سنة ١٩٣٤ مطلعها:

إعصـــفي يا رياح واهزئي يا سماء
من يكن ذا جناح هل يهاب الفضاء ؟

ولقيتك في المقطع الثاني من قصيدتك تقول:

اعولي يا جراح أظمى الديان
لا يهيم الرياح زورق غضبان

لقد أوغلت في قراءة قصيدتك، ووازنت بين أقوالك ومعانيك، وبين الأقوال والمعاني الواردة في قصيدة الشاعر الدمشقي، وأخيرا لقيت الأليق أن أسألك عما إذا كان هذا مجرد توارد خواطر، وقد ألفنا تعليل الاغارات الأدبية بتوارد الخواطر

أريد أن أمضي معك في تعليلك، وأن أكتفي بنشر مقطع واحد من قصيدة ذلك الشاعر الدمشقي يتفق مع مقطع من قصيدتك، أريد ذلك حتى لا أضيف خسارة صديق جديدة إلى قائمة أولئك الضعفاء غير المأسوف على صـداقتهم، فهل من تعليل؟ .... إني لمنتظر

حبيب الزحلاوي

تصحيح أخطاء في شعر هذا العدد

في البيت الثاني عشر من قصيدة الأستاذ الزهاوي ضبطت تسعد بضم العين والصواب الفتح

والبيت الثامن من قصيدة الدكتور ناجي عبث به بعضهم فأخرجه إلى بحر آخر

وفي البيت الأول من قصيدة السيد الياس قنصل وردت كلمة (شبهة) ولم تعرف اللغة هذه الكلمة



ثلاث رسائل

بخط ياقوت الحموي الرومي

للأديب الفارسي عباس إقبال

ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام

عند كاتب هذا المقال مجموعة صغيرة في ثمان وأربعين ورقة صفراء، طول كل ورقة ١٥ سنتيمتراً وعرضها ١٠، وهي بخط نسخ جميل، كتبها كلها الأديب العالم الكبير شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي، المؤلف ذائع الصيت صاحب معجم البلدان، ومعجم الأدباء، المولود سنة ٥٧٥ والمتوفى سنة ٦٢٦.

في هذه المجموعة أربع رسائل صغيرة كتبها ياقوت نفسه في أوقات مختلفة، ثم جمعها في مجلد واحد. وهي كما يأتي:

١ – كتاب الفصيح: لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني (٢٠٠ – ٢٩١) وهو ٢٨ ورقة. وقد طبع مرات.

٢ – كتاب تمام الفصيح: لأبي الحسين أحمد بن فارس ابن زكريا اللغوي المتوفى سنة ٣٩٥. وفيه ١١ ورقة

٣ و ٤ – كتابان لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني الوراق (٢٧٦ – ٣٨٤) الأول منهما، لسوء الحظ، سقط من المجموعة، ومحي عنوانه من الغلاف. والكتاب الثاني كتاب الحروف. وقد سقط أوله، وبقي معظمه في ٩ ورقات

ولا شبهة في صحة نسبة هذه النسخة الى ياقوت الحموي وأصالتها. فالخط والورق والتاريخ يؤيدها. ثم ياقوت نفسه يكتب هذا خمس مرات بالخط الذي كتبت به النسخة نفسها. ولدينا شواهد تاريخية أخرى نحصيها فيما يلي:

على غلاف هذه المجموعة، كما يظهر من الصورة (١) هذه الكلمات: كتاب الفصيح

تأليف أبي العباس أحمد بن يحيي ثعلب

وكتاب تمام الفصيح

تأليف أبي الحسين احمد بن فارس

. . . .

وفيه كتاب . . . . وكتاب الحروف

كلاهما عن علي بن عيسى بن علي الرماني.

وفي الحاشية اليسرى إزاء اسم كتاب الرماني «ملك لكاتبه ياقوت الحموي عفا الله عنه» ثم في أسفل صفحة الغلاف كتب ياقوت نفسه في سطور وأسية أسماء رواة كتاب الفصيح الى زمانه وبين كيف نسخ هذه النسخة من الفصيح وصححها. ونحن ننقل هنا بعض ما كتب:

. . . . . وصاحب هذا الكتاب عبد الله الفقير إليه ياقوت ابن عبد الله الرومي الحموي، بعد أن عارض بأصله هذا نسخة السماع وكتب ما كان فيها من . . . . . وما كان في هذه النسخة من الزوائد مخالفاً للأصل ضرب عليه بالحمرة. وذلك بأعلى . . . الآخر سنة عشرين وستمائة. وهذا خط صاحب الكتاب ياقوت الحموي عفا الله عنه . . .

وفي آخر نسخة كتاب الفصيح: «منقول من خط أبي الحسين علي بن عبيد الله السمسمي اللغوي بحواشيه حرفاً حرفاً، وكان على وجه نسخته، وفي الحاشية اليمنى بجانب هذه العبارة كتب بخط أحمر: «قوبل بالأصل المنقول عنه؛ فصح والحمد لله رب العالمين، وقوبل ثانياً وصح»

وكتب في هذه النسخة، كما يقول ياقوت في حاشية الغلاف: اختلافات النسخ فوق الكلمات بمداد أحمر، وزيدت في الحواشي زيادات وتصحيحات. وهذا برهان مقابلة النسخة بنسخ أخرى

(١) أرسل الكاتب مع المقال صوراً من الكتاب لم يتيسر نشرها في الرسالة

وليس فى الرسالة تاريخ نسخها ، ولكن يؤخذ من حاشية الغلاف المكتوبة فى ربيع الآخر ســنة ٦٢٠ : أن مقابلة هذه النسخة بنسخة أخرى كان فى هذا التاريخ ، وقد حمل ياقوت هذه المجموعة معه حين فرّ من متوحشى التتار بين سنتى ٦١٧ ، ٦١٨ . وكان من بركة هذا الفرار أن بقيت لنا هذه النسخة ولم يصبها من أيدى هذه الجماعة الوحشية ما أصاب نفائس الكاتب فيما وراء النهر وخوارزم وخراسان

***

وقد كتب على ظهر الورقة الأولى من كتاب تمام الفصيح لأحمد بن فارس : « كتاب تمام الفصيح تأليف الامام أبى الحسين أحمد بن فارس بن زكريا رحمه الله . ومن خطه نقل » ، وفى أول الكتاب « نقلت من خط أبى الحسين أحمد بن فارس مصنف الكتاب » وتنتهى النسخة بهذه العبارة :

« وكتب أحمد بن فارس بن زكريا بخطه فى شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة بالمحمّدية . قال ناسخ هذه النسخة هـذا جميعه صورة خط الامام أبى الحسين بن فارس رحمه الله . فأما أنا فانى فرغت من نسخ هذه النسخة بكرة الأحد سابع ربيع الآخر سنة ست عشرة وستمائة بمرو الشاهجان حامداً لله ومصلياً على نبيه المصطفى محمد وآله وصحبه الكرام ، وكتب ياقوت بن عبد الله الرومى الحموى »

وكتب فى الحاشية مقابل كلمة المحمدية : « قلت المحمدية محلة بالرى هى بين السور البرّانى والسور الداخلانى » ، وهذه العبارة التى كتبها ياقوت فى آخر نسخة تمام الفصيح علاوة على تصريحه بأن هذه النسخة خط يده ، وأنه ختمها يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة ٦١٦ فى مرو الشاهجان ، ونقلها من نسخة المصنف التى كتبها بخطه فى رمضان سنة ٣٩٣ فى المحمدية ترينا تدقيق ياقوت فى ضبط أسماء البلدان . فان هذا العالم الكبير الذى أمضى شطراً من عمره فى تحقيق أسماء البلاد وتعيين مواقعها ، وجمع المعلومات التى مكنته من تأليف كتابه البديع الخالد معجم البلدان رأى فى نسخة اسم محلة غير مشهورة فاهتم بتعيين موقعها فى حاشية نسخته حتى أبان عنه ، وكان من قبل خفياً عليه نفسه كما يتبين مما يأتى :

وقد ذكر ياقوت فى معجم البلدان ، بمناسبة كلمة المحمدية ، نسخة كتاب تمام الفصيح التى كتبها بخطه المصنف أحمد بن فارس ، ووقعت فى يده بمرو الشاهجان ، ونقل العبارة التى ذكرها أحمد بن فارس فى آخر نسخته ونقلناها هنا . وهذا من أقوى الأدلة على صحة نسبة النسخة الحاضرة إلى ياقوت ، وهذه عبارته فى معجم البلدان « ووقع لى بمرو كتاب اسمه تمام الفصيح لابن فارس وبخطه . وقد كتب فى آخره : وكتب أحمد بن فارس بن زكريا بخطه فى شهر رمضان سنة ٣٩٥ (كذا بالرقم فى النسخة المطبوعة فى لايبسيك) بالمحمدية فغبرت دهراً أسأل عن موضع بنواحى الجبال يعرف بهذا الاسم فلم أجده لأن ابن فارس فى هذه الأيام هناك كان حياً حتى وقعت على كتاب محمد بن أحمد بن الفقيه فذكر فيه . قال جعفر بن محمد الرازى : لما قدم المهدى الرىّ فى خلافة المنصور بنى مدينة الرىّ التى بها الناس اليوم ، وجعل حولها خندقاً ، وبنى فيها مسجداً جامعاً ، وجرى ذلك على يد عمار ابن الخصيب . وكتب اسمه على حائطها ، وتم عملها سنة ١٥٨ . وجعل لها فصيلاً يطيف به فارقين آخر ، وسماها المحمدية . فأهل الرى يدعون المدينة الداخلة المدينــة ، ويسمون الفصيل المدينة الخارجة ، والحصن المعروف بالزبيدية فى داخل المدينة بالمحمدية

« له بقية » عبد الوهاب عزام

مطبوعات دار الكتب المصرية

للأستاذ محمد بك كرد علي

أصدرت دار الكتب المصرية الجزء الخامس من « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » لجمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغرى بردى الأتابكي في ٤٦٧ صفحة كبيرة ، مشفوعاً بفهرس الولاة الذين تولوا مصر من سنة ٤٢٨ هـ إلى سنة ٥٦٦ هـ ، وفهرس الأعلام ، وفهرس الأمم والقبائل والبطون والعشائر والأرهاط ، وفهرس أسماء البلاد والجبال والأودية والأنهار وغير ذلك ، وفهرس وفاء النيل من سنة ٤٢٨ إلى ٥٦٦ وهي الأعوام التي استغرق هذا الجزء الكلام عليها . وأصدرت أيضاً الجزء الثاني من « الجامع لأحكام القرآن » لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي الأندلسي المتوفى بمنية ابن خُصَيب في الصعيد الأدنى سنة ٦١٧ هـ ، وهو تفسير جليل « أسقط منه القصص والتواريخ ، وأثبت عوضها أحكام القرآن ، واستنباط الأدلة ، وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ » . وقد جاء الجزء الأول في ٣٩٦ صفحة والثاني في ٤٣٦ ، مصححاً بمعرفة الأستاذ السيد محمد البيلاوي مراقب إحياء الآداب العربية .

والدار آخذة في اتمام طبع كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني ، وقد أنجزت إلى الآن جزأه السابع . و « نهاية الأرب في فنون الأدب » للنويري ، وقد أتمت طبع السفر الحادي عشر منه . وانتهت منذ مدة من طبع « صبح الأعشى » للقلقشندي في أربعة عشر مجلداً ، ولا ينقصه إلا الفهارس التي تحلي بها كل من النجوم الزاهرة والأغاني ونهاية الأرب . وأتمت طبع « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، في أربعة مجلدات ، ويحمل الرابع منها الفهارس المنوعة . وطبعت ديوان مهيار الديلمي في أربعة مجلدات ، وديوان صرّ دُرّ ، وديوان نابغة بني شيبان ، وديوان علم الدين أيدمر المحيوي ، وديوان جران العود النميري ، إلى غير ذلك مما أحيته في عهدها الأخير على نفقتها وبعناية رجالها . كما طبعت في خمسة مجلدات قائمة الكتب العربية المطبوعة والمخطوطة التي دخلت الدار

وكانت طبعت طائفة من الكتب الجليلة ، منها « الطراز » لأمير المؤمنين يحيى بن حمزة العلوي اليمني في ثلاثة مجلدات ، و « الاعتصام » للشاطبي في ثلاثة مجلدات ، و « الاحكام » للآمدي في أربعة مجلدات وغير ذلك . جرى طبع هذه الكتب باشرافها قبل أن تنشئ مطبعتها الفنية المتقنة ، وكانت طبعت في دور آخر من أدوارها الماضية تاريخ مصر لابن إياس في ثلاثة مجلدات مع الفهارس ، و « التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية » لابن جيعان ، و « تاريخ الفيوم وبلادها » للنابلسي الصفدي ، و « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لابن دقماق وغيرها

هذا عمل دار الكتب اليوم وأمس ، ورأيت بعض الغيورين على العلم ينتقدون عليها بطأها في اخراج الكتب للناس ، وما عمل هذه الدار بما تنشر من الأسفار المتعة إلا عمل علمي محض يراد منه احياء ما قد يتعذر على الأفراد احياؤه من الأمهات العربية ، على غاية من العناية بالتصحيح ، مع معارضة النسخ المختلفة بعضها ببعض ، والتعليق على محال الاشكال من النسخ الأصلية المعتمدة ، وشرح ما يجب شرحه من المشكلات اللغوية والأدبية والتاريخية والجغرافية وغيرها ، وهو عمل شاق لا يدرك مبلغ خطورته إلا من عاناه ؛ فقد يتوقف الناشر في صفحة تحيت بعض كلماتها ، أو طمست بعض سطورها أياماً كثيرة ويتقاضاه اثبات الرواية الصحيحة أوقاتاً ، لو كان له أن يصرفها كما يشاء لكتب رسالة مطولة في فن من الفنون . فاحياء كتاب من هذا الطراز ، فيه ما فيه من الغموض واللبس أصعب من تأليف كتاب ، ذلك لأن مصححه مقيد بالنص ومقيد بالرسم والخط ومقيد بالأمانة ، ليس له أن يبدل على هواه كلمة بكلمة ، ولو رأى ما ذهب إلى ذهنه أحق بالاتباع والاثبات . ولو كان عمل الدار تجارياً لأخرجت كل شهر بضعة مجلدات ، ولكن ماذا تكون قيمتها العلمية ؟

أما من يتبجحون بأن بعض منشورات الدار لا تخلو ، مع هذه العناية البالغة ، من أغلاط وتهاون ، فجوابنا لهم أن يتفضلوا وينشروا لنا رسالة صغيرة للقدماء ، في مثل هذه الصورة اللائقة التي تصدر بها مطبوعات دار الكتب ، وعندئذ يحكم العارفون لهم أو عليهم . والدعوى الطويلة المريضة في خلوة غير العمل السديد ، والنقد سهل والصعوبة في الابداع

وأي خدمة أعظم من الخدمات التي تقوم بها دار الكتب المصرية للآداب العربية ، وكثير مما طبعته معلمات أو انسيكلوبيديات في الأدب والانشاء والعلوم . فالشكر للأستاذ المربي محمد أسعد بك برادة مدير دار الكتب على عنايته بالدقيق والجليل في ديوانه ، ولاخوانه ومعاونيه الأساتذة المحققون : السيد محمد البيلاوي ، وزكي العدوي ، والشيخ محمد عبد الرسول ، والشيخ أحمد الزين وغيرهم من الناظرين في الكتب . والشكر الكثير لمجلس دار الكتب الذي ما برح يقرر نشر كل مفيد من آثار السلف .

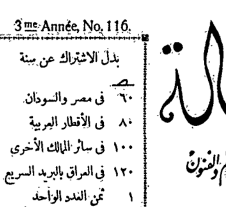
محمد كرد علي

3me Année, No. 116. — Lundi-23-9-1935.

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠





بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١١٦ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٥ جمادى الثانية سنة ١٣٥٤ — ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

ملكة الجمال

للدكتور عبد الوهاب عزام

للأقلام محن تقضي عليها أن تسف إلى ما لا تود الكتابة فيه، وتكره على أن تخط ما تريد الترفع عنه. وقلمي مكره على الكتابة في هذه الحماقات، مرغم على أن يعنى بهذه الترهات

— ١ —

كنت أحادث جماعة من الأصدقاء، فسارت بنا شجون الحديث إلى أن تكلمنا في المدنية الحاضرة حسنها وقبيحها، وجليلها وسفسافها. قلت: أحسب أن المسيطرين على أخلاق الناس في كثير من مناحي المعيشة الحاضرة جماعة من التجار المفسدين. قال صديق: كيف ذلك؟ قلت: في طبع الانسان الكلف باللذات، والاستهتار بالشهوات، وقد سار العالم آلاف السنين على هدى التجاريب، وتعليم الأنبياء والحكماء، يزن آلامه ولذاته، ويعدل بين مصالحه وشهواته، ويضع شرائع، ويسن سنناً ليعيش الانسان على شريعة تعرف وتنكر، وتستحسن وتستقبح، وتقول هذا حلال وهذا حرام، حتى استقامت للانسان خطة في سياسة نفسه ومعاملة الناس. وصار يجاهد نفسه ليمنعها لذاتها، علماً بأن وراء اللذة العاجلة شراً أعظم منها،

ويضير نفسه على ما يكره إيثاراً للعافية في العقبى ، واستمسا كا بالفضيلة التي سكن إليها ، ومكنتها في نفسه سيرة الآباء

قال صديقي : هذا حق فما وراءه ؟ قلت : أرى العصر الحاضر مفتوناً كل الفتنة بالأهواء ، مستكلباً على الشهوات ، قد فتحت له من الملاهي أبواب ، ومدت له إلى الغيّ أسباب ؛ فشغلت من الحياة جانباً . هذه الملاهي والمراقص والحانات والمواخير . ورأى كثير من الناس هذه الدور مجلبة ربح عظيم ، ووسيلة مال وفير ، فأقبلوا عليها إقبالاً ، وافتنّوا فيها افتناناً ، واستعانوا على تزيينها وجلب الناس إليها بكل ما أتيحت الحضارة من علم وفن ، ولم يدعوا حيلة في الاستهواء إلا اتخذوها ، ولا وسيلة إلى تهافت الناس عليها إلا توسلوا بها . ابتلى كل فيما يعرض ، وتؤدي المنافسة والطمع في المال إلى استباحة المحظورات ، فينظر الناس أول الأمر ثم يسكنون ، ويخدعون أنفسهم فيما يرون ، بما تصبو إليه غرائزهم وتغرم به شهواتهم حتى يصير هذا أمراً معروفاً وعملاً مألوفاً . ثم يحدوهم حب الربح والمنافسة إلى أن يثيروا شهوات الناس بأفانين أخرى وهلم جرا ، حتى لا يصدهم وازع من فضيلة أو عادة ، وعبثاً يحاول القانون أن يصد التيار ، أو يقيم الجرف المنهار ، وهكذا تقاد الأمم بأذنابها ، وتأتم بضلالها . وقس يا صاحبي على هذا أزياء النساء . فتنافس التجار فيها هو الذي يطيلها ويقصرها ، ويطلع كل يوم ببدعة تبين عما دق من المرأة وجل ، وما ظهر وما بطن . ولست أجد بدأً من ذكر الحقيقة « البارزة » ، وهي أن النساء الخليعات هن القدوة في هذه السبيل ، يلبسن ما يلفت النظر إليهن ، ويميزهن من غيرهن ، فيروق النساء الأخر هذا الزي ، والمرأة لا تحب أن تغلب في زينتها وتجملها . فيصير هذا الخروج على السنن سنة مألوفة وطرافة (مودة) معروفة . وما ترى في ألبسة البحر من تفنن مستمر غايته أن تبرز المرأة عارية متزينة ؛ فهذه سبيله ، تبدأ به الخليعات الجريئات فتتهافت عليه الأخريات

ووراء هذا جماعة من تجار الكتاب ، والفسقة المفسدين ؛ يريدون أن ينالوا رغائبهم بشريعة ، ويفسدوا في الأرض على علم فيكذبون على الجمال والفن والحرية ما شاءت مآربهم ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويسمون الرذائل بغير أسمائها ، فالفسق إعجاب بالجمال ، وكل خليعة فنانة ، وكل خليع أستاذ ، ويتنافس أصحاب المجلات في كتابة ما تحبه النفوس المريضة ، وعرض الصور التي يهفو إليها الشبان ، لا يألون في سبيل المال أن تصلح الأمة أو تفسد ، وتعمل التجارة عملها حتى يجد الرجل الحريص على الفضيلة ، الداعي إليها إذا ابتلى بمجلة أغضى عن مفاسدها ، فصار له رأي في نفسه ، وفي غير مجلته ، وعمل آخر تجاري في المجلة . وقد عجبت لبعض الكتاب المعروفين بالغيرة على الأخلاق ، والتنديد بالخلاعة والمجون ، وبدع العصر الحاضر ، إذ رأيت المجلة التي يشرف عليها تنشر من الصور والكلام ما لا يلائم آراءه ، ويوافق مواعظه

— ٢ —

قال صديقي : والشيء بالشيء يذكر ، وملكات الجمال ما ترى فيهن ؟ لقد سرت البدعة إلينا ، قلت استمع : كنت في الصيف الماضي ذاهباً إلى إران فعرجت على لبنان أياماً . وبينا أنا في ظهور الشوير ، رأيت الناس يزدحمون ، ويستبقون إلى بعض الفنادق وسمعت أن هذه الجموع وتلك الوفود تتزاحم لتشهد اختيار ملكة الجمال في لبنان . قال رفيقي لي : قد سرت العدوى إلى البلاد العربية ، فقلت غاضباً : كلا . قال ألست ترى وتسمع ؟ قلت لا أكذبك ، لست أرى في هذه الأزياء ولا أسمع في هذه الرطانات عروبة ، فلا تعد هؤلاء من العرب

وقرأت منذ أيام أن ناساً اجتمعوا في حماة من لبنان لاختيار امرأة يسمونها ملكة الجمال ، وأن قنصل مصر ببيروت رأس هذا الجمع فأسفت أن شغل القنصل الفاضل نفسه بهذه السفاسف ، وشارك في هذه المخازي . وقرأت عن انتخاب آخر في بكفيا . وحمدت الله ، إذ لم أجد من المنتخبات اسماً يدل على عربية أو إسلام

وقرأت من بعد في الجرائد عن حماقات كهذه في الاسكندرية ، فرأيت الداعين إليها بين صاحب ملهى يريد أن يجذب الناس إليه ، وصاحب جريدة غير عربية يبغي رواج جريدته ، وأمثال هذين . وبعد قليل رأيت صورة الملكة وقرأت أحاديث عنها ، فعلمت أن فتاة اسمها شارلوت سماها بعض ذوي المآرب ملكة الجمال في مصر ، ولقبوها مس إيجبت (Miss Egypt) ورشحوها للذهاب إلى بروكسل لتشارك في مباراة الجمال . قلت شارلوت ليس اسماً مصرياً ، ومس إيجبت لا تعرفها مصر ، فما اهتمامك بجماعة من الحمقى أرادوا أن يشهروا فتاة ، أو يشتهروا بها ، أو يتملقوا إليها ، أو ينالوا مالاً أو لهم مآرب أخرى . ثم تذكرت ما سطرت في أول هذا المقال ، تذكرت أن زمام الأخلاق في هذا

العصر بأيدي هذه الطغمات وأشباهها ، وأن هذا الذي نستنكره اليوم سيصبح إذا سكتنا عليه ، عادة تمد المجادلة فيها ضرباً من الأفن . وفكرت أن مس إيجيبت هذه ستذهب إلى أوربا باسم مصر ، وتشارك في سوق الرقيق هناك ، وتبوء مصر بكل ما في ذلك من عار وحماقة . فرأيت أن الأمر جدير بالاهتمام ، وأنه إن سكت عنه عقلاء الأمة صارسنة ، وظن المفسدون ، كما تسوّل لهم مآربهم ، أنها سُنة حسنة ينبغي ألا تحرم منها مدينة أو قرية ، وقد وفدت على مصر من قبل ملكة الجمال في تركيا فلم يستح بعض الزعنفين من طلبة الجامعة أن يقترحوا أن يحتفل بها في نادي الجامعة . مَن مُبلغ عنا هـذه الفتاة ، أنا لا نعرفها ولا نعرف جمالها ولا ملكها ، وأن القحة البليغة أن تذهب إلى أوربا مدعية أن مصر أرسلتها ، ومصر بريئة منها وممن يرسلونها . ليت شعرى أرضي المصريون : الحكومة والأمة بهذه السبة . هل رضوا أن تنوب عنهم على رغم أنوفهم فتاة تذهب إلى بروكسل زاعمة أن مصر أرسلتها

كنت أحسب أن موقف مصر الحاضر بين دولة مستبدة ، ودولة مهددة سيخرج بطلاً أو بطلة ، تهيب بالمصريين لينفسلوا العار ، ويحموا الديار ، أو نرسل وفدا يدفع عن حقوق مصر عند عصبة الأمم ؛ فاذا السفهاء في شغل عما يحيط بهم باختيار امرأة يرسلونها إلى بروكسل !

وقد أجاب أهل دمشق داعي العروبة والكرامة والفضيلة ، فاجتمعوا حين سمعوا أن امرأة ستذهب إلى سوق الرقيق باسم سورية ، واستنكروا ذلك ، وأجمعوا على مطالبة الحكومة بأخذ الطريق على هذه السنة السيئة ، فأجابت الحكومة دعوة العقلاء ومنعت اجتماع السفهاء لاختيـار ملكة للجمال ، وفي ذلك للمصريين وغيرهم أسوة حسنة

سيقول السفهاء : جماعة لايعرفون الجمال ، ولا يقدرونه ، ولا يميزون الحسن من القبيح ، فهم ساخطون ثائرون . والله يعلم أن الجمال يُعَبِّدُ قلوبنا ، وعلك مشاعرنا ، وتهفو اليه أفئدتنا حيثما تجلى في السماء أو في الأرض ، ولكنا لانعرف الجمال في الأسواق ، يصفق حوله الفساق ، ولا نعرف الجمال تسأل فيه الآراء ، وتعرض فيه المرأة كما تعرض العجماء

عبد الوهاب عزام

الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

« وكيف يُشعبُ صدْعُ الحبِّ في كَبدي » . كيف يُشعبُ صدعُ الحب ؟

لَعمري ما رأيتُ الجمالَ مرةً إلا كان عندي هو الألمَ في أجمل صُوره وأبدعها ؛ أُراني مخلوقاً يجُرِّج في القلب ؟

ولا تكونُ المرأةُ جميلةً في عيني إلا إذا أحسستُ حين أنظرُ اليها — أن في نفسي شيئاً قد عرفها ، وأن في عينيها الخفايات موجَّهة إليَّ ، وإن لم تنظر هي إليّ

فاثباتُ الجمال نفسَه لعيني ، أن يُثبتَ صداقتَه لروحي باللمْحة التي تدلّ وتتكلم ؛ تدلّ نفسي وتتكلم في قلبي

***

كنت أجلس في (اسكندرية) بين الضُّحى والظهر في مكان على شاطىء البحر ، ومعي صديقي الأستاذ (ح) من أفاضل رجال السلك السياسي ، وهو كاتب من ذوي الرأي ، له أدبٌ غضٌّ ونوادرُ وظرائف ؛ وفي قلبه إيمانٌ لا أعرف مثله في مثله قد بلغ ماشاء اللهُ قوة وتمكنا ، حتى لأحسبُ أنه رجل من أولياء الله قد عوقب فحُكم عليه أن يكون محامياً ، ثم زيد في الحكم فجعل قاضياً ، ثم ضوعفت العقوبة فجعل سياسياً . . .

وهذا المكان ينقلب في الليل مسرحاً ومرقصاً ومابينهما . . . فيتغاوَى فيه الجمالُ والحب ، ويعرض الشيطانُ مصنوعاته في الهزْل والرقص والغناء ، فاذا دخلتَه في النهار رأيتَ نور النهار كأنه يغسله ويغسلك معه ، فتُحسُّ للنور هناك عملاً في نفسك

ويُرى المكانُ صدْراً من النهار كأنه نائم بعد سهر الليل ، فما تجيئه من ساعةٍ بين الصبح والظهر إلا وجدتَه ساكناً هادئاً كالجسم المستثقِل نوماً ، ولهذا كنت كثيراً ما أكتب فيه ، بل لا أذهب اليه إلا للكتابة . فاذا كان الظهر أقبل نساءُ المسرح ومعهن من يطارحهن الأناشيدَ وألحانَها ، ومن يثقّفهن في الرقص ، ومن يُروِّيهن ما يمثلْنَ ، إلى غير ذلك مما ابتلتهن به الحياة لتساقطَ عليهن الليالي بالموت ليلة بعد ليلة

ولكن إذا جئن رأينني على تلك الحال من الكتابة والتفكير ، فينصرفن إلى شأنهن ، إلا واحدة كانت أجملهن . وأكثر هؤلاء المسكينات يظهرن لعين المتأمل ، كأن المرأة منهن مثل العنز التي كسر أحد قرنيها ، فهي تحمل على رأسها علامة الضعف والذلة والنقص ، ولو أن امرأة تتبدد حيناً فلا تكون شيئاً ، وتجتمع حيناً فتكون مرة شيئاً مقلوباً ، وأخرى شكلاً ناقصاً ، وتارة هيئة مشوهة لكانت هي كل امرأة من هؤلاء المسكينات اللواتي عشين في المسرات إلى المخاوف ، ويمشين بمقدمات الموت ، ويجدن في المال معنى الفقر ، ويتلقين الكرامة فيها الاستهزاء ، ثم لا يعرفن شاباً ولا رجلاً إلا وقعت عليهن من أجله لعنة أب أو أم أو زوجة

* * *

وتلك الواحدة التي أومأت إليها كانت حزينة متسلبة[1] فكأنما جذبها حزنها إلي ، وكانت مفكرة فكأنما هداها إلي فكرها ، وكانت جميلة فدلها على الحب ، وما أدري والله أي نفسينا بدأت فقالت للأخرى أهلاً ... ورأيتها لا تصرف نظرها عني إلا لترده إلي ثم لا ترده إلا لتصرفه ، ثم رأيتها قد جال بها الغزل جولة في معركته ... فتشاغلت عنها لا أريها أني أنا الخصم الآخر في المعركة ...

بيد أني جعلت آخذها في مطارح النظر وأتأملها خلسة بعد خلسة في ثوبها الحريري الأسود ، فإذا هو يشب لونها[2] فيجعله يتلألأ ، ويظهر وجهها بلون البدر في تمه ، ويبديه لعيني أرق من الورد تحت نور الفجر

ورأيت لها وجهاً فيه المرأة كلها باختصار ، يشرق على جسم بض ألين من خمل النعام ، تعرض فيه الأنوثة فنها الكامل ؛ فلو خلق الدلال امرأة لكانتها

وتلوح للرائي من بعيد كأنها وضعت في فمها (زر ورد) أحمر منضماً على نفسه . شفتان تكاد ابتسامتهما تكون نداء لشفتي محب ظمآن

أما عيناها فما رأيت مثلهما عيني امرأة ولا ظبية ؛ سوادهما أشد سواداً من عيون الظباء ؛ وقد خلقتا في هيئة

(١) يقال تسلبت المرأة إذا أحدت ولبست ثياب الحداد

(٢) أي يزيده ويظهره ويجعله أحفل بالجمال

تثبت وجود السحر وفعله في النفس ؛ فيهما القوة الواثقة أنها النافذة الأمر ، يمازجها حنان أكثر مما في صدر أم على طفلها . وتمام الملاحة أنهما بهذا التكحيل ، في هذه الهيئة ، في هذا الوجه القمري

يا خالق هاتين العينين ! سبحانك سبحانك !

* * *

قال الراوي :

وأتغافل عنها أياماً ، وطال ذلك مني وشق عليها ، وكأني صغرت إليها نفسها ، وأرهقتها عمني الخضوع ؛ بيد أن كبرياءها التي أبت لها أن تقدم ، أبت عليها كذلك أن تنهزم

وأنا على كل أحوالي إنما أنظر إلى الجمال كما أستنشي العطر يكون متضوعاً في الهواء ، لا أنا أستطيع أن أمسه ولا أحد يستطيع أن يقول أخذت مني .. ثم لا تدفعني إليه إلا فطرة الشعر والإحساس الروحاني دون فطرة الشر والحيوانية[1] ، ومتى أحسست جمال المرأة أحسست فيه بمعنى أكبر من المرأة . أكبر منها ؛ غير أنه هو منها

قال الراوي :

فإني لجالس ذات يوم وقد أقبلت على شأني من الكتابة وبإزائي فتى ريق الشباب في العمر الذي ترى فيه الأعين بالحماسة والعاطفة أكثر مما ترى بالعقل والبصيرة ، ناعم أملد تم شبابه ولم تتم قوته كأنما نكصت الرجولة عنه إذ وافته فلم تجده رجلا .... أو تلك هي شيمة أهل الظرف والقصف من شبان اليوم ، ترى الواحد منهم فتعرف التضج في ثيابه أكثر مما تعرفه في جسمه ، وتأبى الطبيعة عليه أن يكون أنثى فيجاهد ليكون ضرباً من الأنثى .... — إني لجالس إذ وافت الحسناء فأومأت إلى الفتى بتحيتها ، ثم ذهبت فاعتلت المنصة مع الباقيات ، ورقصت فأحسنت ما شاءت ، وكان في رقصها تعبيراً عن أهواء ونزعات تريد إثارتها في رجل ما .... فقلت لصاحبنا الأستاذ (ح) : إن كلمة الرقص إنما هي استعارة على مثل هذا كما يستعرن كلمة الحب لجمع المال . ولا رقص ولا حب إلا لفجور وطمع

(١) بسطنا هذا المعنى في المقدمة الثانية لكتابنا « أوراق الورد » وفي مواضع كثيرة من هذا الكتاب فلم نتوسع به هنا

ثم إنها فرغت من شأنها فمرّت تتهادى حتى جاءت فجلست إلى الفتى . . . . فقال الأستاذ (ح) وكان قد ألمّ بما فى نفسها : أتراها جملته ههنا مخطة . . . ؟

قال الراوى : أما أنا فقلت فى نفسى لقد جاء الموضوع . . . . وإنى لفى حاجة أشد الحاجة إلى مقالة من المكحولات ، فتفرغتُ لها أنظر ماذا تصنع ، وأنا أعلم أن مثل هـذه قليلا ما يكون لها فكر أو فلسفة ؛ غير أن الفكر والفلسفة والمعانى كلها تكون فى نظرها وابتساماتها وعلى جسمها كله

***

وكان فتاها قد وضع طربوشه على يده ؛ فقد انتهينا إلى عهد رجيع حكمُ الطربوش فيه على رأس الشاب الجميل ، كحكم البرقع على وجه الفتاة الجميلة . . . . فأسفر ذاك من طربوشه وأسفرت هذه من نقابها . قال الراوى : فما جلستْ إلى الفتى حتى أدنتْ رأسها من الطربوش ، فاستنامت إليه ، فألصقت به خدّها . . . .

ثم التفتت إلينا التفاتة الخِشْف المذعور استروح السَّبُع[1] ووجد مقدّماته فى الهواء ، ثم أرخت عينيها فى حياء لا يستحى . . . .

وأنشأت تتكلم وهى فى ذلك تسارقنا النظر كأن فى ناحيتنا بعض معانى كلامها . . . .

ثم لا أدرى ما الذى تضاحكتْ له ، غير أن ضحكتها انشقت نصفين رأينا نحن أجلهما فى ثغرها . . . .

ثم تزعزعتْ فى كرسيها كأنما تهمّ أن تنقلب لتمتدّ إليها يدٌ فتمسكها أن تنقلب . . . .

ثم تساندتْ على نفسها كالمريضة الناعمة تتناهضُ من فراشها فيكاد يئنّ بعضها من بعضها ، وقامت فمشت ، فحاذتنا ، وتجاوزتنا غير بعيد ، ثم رجعت إلى موضعها متكسرةً متخاذلةً كأن فيها قوة تعلنُ أنها انهزمت . . . .

***

قال الراوى :

ونظرتُ إليها نظرةَ حزن ، فتنضّبتْ واغتاظتْ وشاجرتْ هذه النظرةَ من عينيها الدّعجاوين بنظرات متهكمة لا أدرى أهى توبخنا بها ، أم تتهمنا بأننا أخذنا من حسنها مجانًا . . . .

فقلت للأستاذ (ح) ، وأنا أجهرُ بالكلام ليبلُغها : أما ترى أن الدنيا قد انتكستْ فى انتكاسها ، وأن الدهر قد فسد فى فساده ، وأن البلاء قد ضوعف على الناس ، وأن بقية من الخير كانت فى الشرّ القديم فانتزعت ؟

قال : وهل كان فى الشر القديم بقيةُ خير وليس مثلها فى الشر الحديث ؟

قلت : ههنا فى هذا المسرح قِيانٌ لو كانت إحداهن . . . فى الزمن القديم لتنافَس فى شرائها الملوكُ والأمراء وسراةُ الناس وأغنياؤهم ، فكان لها فى عمارة الزمن صونٌ وكرامة ، وتتقلّب فى القصور فتجمل لها القصورُ حرمةً تمنعها ابتذالَ فنها لكل من يدفع خمسة غروش ، حتى لِرُذّال الناس وغوغائهم وسفلتهم ؛ ثم هى حين يُدبرُ شبابها تكون فى دار مولاها كحيلةً على كرم يحملُها ، وعلى مروءة تعيش بها

وقديمًا أخذت سلاّمةُ الزرقاء فى قُبلتها لؤلؤتين بأربعين ألف درهم تبلغ ألفى جنيه . فهل تأخذ القَينةُ من هؤلاء إلا دَخينةً عِلّيمين[1] . . . ؟

قال الأستاذ (ح) : ما أبعدك يا أخى عن (بورصة) القُبلة وأسعارها . . . . ولكن ما خبرُ اللؤلؤتين ؟

قال الراوى : كانت سلاّمةُ هذه جاريةً لابن رامين[2] وكانت من الجمال بحيث قيل فى وصفها : كأن الشمس طالعةٌ من بين رأسها وكتفيها ؛ فاستأذن عليها فى مجلس غنائها الصيرفىُّ الملقب بالماجن ، فلما أذنت له دخل فأقعى بين يديها ، ثم أدخل يده فى ثوبه فأخرج لؤلؤتين وقال : انظرى يا زرقاء جُعلتُ فداك ، ثم حلف إنه نُقد فيهما بالأمس أربعين ألف درهم . قالت : فما أصنع بذاك ؟ قال : أردتُ أن تعلمى

ثم غنت صوتًا وقالت : يا ماجن هبهما لى ويحك . قال : إن شئت والله فعلت ؛ قالت : قد شئت . قال : واليمين التى حلفتُ بها لازمة لى إن أخذتِهما إلا بشفتيك من شفتى . . . .

***

(١) الخشف ولد الغزال يطلق على الذكر والأنثى ، واستروح السبع أى وجد ريحه فى الهواء قبل أن يراه ، وكذلك طبيعة الحيوان

(١) الدخينة وضعناها للسيجارة وجمعها الدخائن

(٢) سلامة هذه اشتراها جعفر بن سليمان بمائتى ألف درهم (٤٠٠٠ جنيه) كما اشترى جارية أخرى يقال لها ربيحة بمائة ألف درهم

مصر وقناة السويس

دستور القناة ومبدأ السيادة المصرية

لباحث دبلوماسي كبير

كان انشاء قناة السويس في أرض مصر نذير سوء لمصر، كما كان نذير الخير والرخاء لتجارة الغرب وصناعته؛ ولم تجن مصر من انشاء القناة في أرضها سوى المتاعب الخالدة، وما زالت بسبب هذه القناة عرضة لفروض مؤلمة من الاستعباد الأجنبي، كما أنها ما تزال عرضة لعدوان الاستعمار ووثباته؛ وقد شعرت مصر مرة أخرى بما يمكن أن يجره عليها وجود هذه القناة في أرضها من ضروب الشر والأذى، في الآونة الحاضرة التي يوشك أن يضطرم فيها النضال بين دولتين من دول الاستعمار، هما ايطاليا الفتية الجامحة في أحلام عظمتها الجديدة، وبريطانيا العظمى التي تسيطر فعلاً على قناة السويس وتدعي عليها لنفسها حقوقاً خاصة ما تزال مصر تنازع فيها.

ولما كانت مصر ما تزال ترتبط بحكم الظروف في شؤونها ومصالحها الحيوية بتطورات السياسة الانكليزية، فانها تجد نفسها اليوم عرضة لأخطار هذه الحرب الاستعمارية التي تضطرم ايطاليا على اضرامها في شرق أفريقية؛ وإذا كانت انكلترا تلمح شبح الخطر من جراء هذه الفورة الفاشستية على امبراطوريتها الاستعمارية، وعلى سيادتها في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وتزمع على ما يبدو أن تقاوم هذا الخطر، وأن تسحق المطامع الايطالية إذا اقتضى الأمر بقوة النار والسيف، فان مصر تجد نفسها من جراء ارتباطها بانكلترا، ومن جراء موقعها الجغرافي وحراستها الأمينة لقناة السويس في أحرج مركز وأدقه.

ماذا يكون موقف مصر إذا أصرت ايطاليا على مشروعها الاستعماري وأعلنت الحرب على الحبشة، وماذا يكون مصير قناة السويس طريق ايطاليا الوحيد إلى ميدان القتال؟ بل ماذا يكون موقف مصر إذا تفاقم الأمر، وتشبت الحرب بين انكلترا وايطاليا، ومصر تجاور ايطاليا من جهة الغرب، وثغورها لا تبعد أكثر من سبعين ساعة عن مراكز الأسطول الايطالي؟ هذه فروض خطيرة مزعجة، ولكنها أضحت تلوح في الجو قوية تكاد تنقض صواعقها بين آونة وأخرى؛ ومن ثم كانت موضع الاهتمام من جانب السياسة الانكليزية ومن جانب ولاة الأمر في مصر

وأول ما يشغل مصر في الآونة الحاضرة مسألة قناة السويس، ومدى ما يمكن أن يكون لمصر، سواء بمفردها أو بالاتحاد مع انكلترا من حق في اغلاقها وقت نشوب الحرب الافريقيــة، وهــذا بفرض أن الحرب لم تتعد طرفي النزاع الأصليين: أعني إيطاليا والحبشة؛ ففي هذه الحالة تعتبر مصر من الوجهة الدولية في حالة حياد بالنسبة للدولتين، ولكنها لن تكون كذلك في الواقع لأن قناة السويس تغدو في هــذه الحالة طريقاً حربياً لايطاليا، وفتحها في وجــه السفن والقوات الايطالية لا يمكن أن يحقق معنى الحيدة، بل يكون وسيلة لمعاونة إيطاليا على افتراس الحبشة التي ترتبط مصر بها بروابط تاريخيــة ودينية وثيقة، ولمصر كما لانكلترا مصلحة حيوية في ألا تقع منطقة تانا والنيــل الأزرق في يد دولة قوية كايطاليا يكون وجودها في تلك المنطقة خطراً على ماء النيل

وقد قيل لنا أخيراً إن فقهاء الدولة المصرية بحثوا مسألة قناة

قال الراوي: ورأيتها قد أذِنَتْ لي وأنصتتْ لكلامي، وكأنما كانت تسمعني أعتذر اليها، واستيقنتْ أنْ ليس بي إلا الحزنُ عليها والرثاءُ لها، فبدت أشدَّ حياءً من العذراء في أيام الخِدْر . . . . . .

ثم قلت: نعم كان ذلك الزمن سفيهاً ولكنها سفاهة فن... لا سفاهةُ عربدةٍ وتصعلك كما هي اليوم

فنظرتْ اليَّ نظرةً لن أنساها؛ نظرة كأنها تَدْمَع، نظرة تقول بها: ألستُ انسانة؟ فلم أملكْ أن قلتُ لها: تعالي تعالي

وجاءتْ أحلى من الأمل المترضِ سنحت به الفرصة، ولكن ماذا قلتُ لها وماذا قالت؟ . . . .

(لها بقية) (طنطا) [illegible]

الى الفنان (الحائر): اكتب لي أيها المسكين عنوانك، فان موضوعك لا يحسن أن يكتب فيه إلا اليك. إن شيطانك يا رجل كأنه درس الفقه . . . .

الرافعي

السويس ومدى ما لمصر من حق فى أغلاقها إذا اقتضت الضرورات الدولية ، وقيل لنا إنهم انتهوا إلى تقرير حق مصر فى اغلاقها فى وجه الفريقين المتحاربين إذا نشبت حرب إيطالية حبشية . ونحن ممن يأخذون بحق مصر فى إغلاق القناة سواء من الوجهة الدولية أو الوجهة الواقعية كما سنفصل بعد ، ولكن الذى لفت نظرنا فى مباحث فقهاء الدولة المصرية هو أنهم انتهوا إلى تقرير حق مصر فى اغلاق القناة من طريق لا نعتقد أنه خير الطرق ولا خير الأسانيد لتدعيم هذا الحق . ذلك لأنهم استندوا على ما قيل لنا فى تقريره إلى ميثاق تحريم الحرب الأمريكي أو ميثاق كلوج الذى عقد فى باريس فى أغسطس سنة ١٩٢٨ وانضمت مصر إليه إلى جانب الدول الموقعة عليه . وميثاق تحريم الحرب كما نذكر ، ينص على استنكار الدول الموقعة للحرب كأداة للسياسة القومية ، وعلى تعهدها ألا تلجأ لحل النازعات الدولية مهما كانت أنواعها وأسبابها إلا للوسائل السلمية . وقد وقع ميثاق تحريم الحرب فى باريس فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٢٨ ، وفى ٤ سبتمبر التالى أبلغت مصر حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بأنها تقرر انضمامها للميثاق بصيغته الأصلية دون التسليم بأى تحفظ أبدى بشأنه ، والمقصود بالتحفظات هنا ما أبدته بعض الدول الاستعمارية مثل بريطانيا من الاحتفاظ فى ردودها بحقوق وتحفظات معينة فى تسوية علائقها مع الدول التى تعتبرها واقعة تحت سيطرتها أو نفوذها

ويلوح لنا أن ميثاق تحريم الحرب لا يمكن أن يعتبر سنداً كافياً لما نراه من حق مصر فى اغلاق القناة . وفى رأينا أن هذا الحق يمكن اسناده من جانب مصر إلى حقوق السيادة القومية . ذلك أن مصر قد حلت بمقتضى التطورات الدولية منذ الحرب محل الدولة العثمانية الذاهبة واستعادت سيادتها القومية كاملة بانتهاء التبعية العثمانية الاسمية ، وأضحت لها من الوجهة الدولية مالأية دولة من حقوق السيادة الأرضية . هذا من الوجهة العامة .

وأما من حيث مركز القناة الدولى ، فقد وضعت معاهدة استانبول التى عقدت فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٨ بين الباب العالى ، وبريطانيا العظمى ، والنمسا والمجر ، وألمانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، واسبانيا ، وهولنده ، وروسيا ، لقناة السويس دستوراً خاصاً من سبع عشرة مادة ، أساسه حيدة القناة التامة وحرية الملاحة المطلقة فيها وقت الحرب والسلم . وقد نص فى ديباجتها على أن الغرض من عقدها هو « الاتفاق الحر على نظام نهائى يكفل فى كل الأوقات ولكل الدول حرية الملاحة فى قناة السويس » . وكفلت المادتان الأولى والرابعة هـــذه الحرية فيا يأتى :

المادة الأولى - « تبقى قناة السويس حرة ومفتوحة دائماً أيام الحرب والسلم سواء لجميع السفن التجارية أو الحربية دون أى تفريق فى جنسياتها .

وعلى هـــذا فالدول الموقعة متفقة فيما بينها على ألا تمس حرية المرور فى القناة أثناء الحرب أو السلم

ولا تخضع القناة مطلقاً إلى مزاولة حق الحصار » .

المادة الرابعة - « تبقى القناة مفتوحة وقت الحرب ممراً حراً حتى لسفن الدول المتحاربة وفقاً لنص المادة الأولى . وقد اتفق المتعاقدون أعلاه على ألا تعرض القناة لمزاولة أى عمل حربى أو أى عمل من شأنه أن يخل بحرية الملاحة فى القناة ذاتها أو فى موانى الوصول إليها ، أو فى قطاع من هذه الموانى طوله ثلاثة أميال بحرية ، وهـــذا حتى لو كانت الدولة العثمانية هى إحدى الدول المتحاربة .

ولا يجوز لسفن الدول المتحاربة المارة بالقناة وقت الحرب أن تتزود من المؤن فى القنال أو موانيه إلا بالقدر الضرورى ؛ ويجب عليها أن تخترق القناة بسرعة ؛ ويجب أن تمضى أربع وعشرون ساعة بين خروج سفينة حربية من أحد ثغور القناة وبين قيام سفينة تابعة لدولة معادية »

ففى هاتين المادتين جوهر دستور قناة السويس ، وعليهما يستند أنصار الدعاية الايطالية فى القول بأن مصر لا تستطيع اغلاق القناة مطلقاً حتى ولو أعلنت إيطاليا الحرب على الحبشة ، واتخذت القناة أثناء الحرب ممراً لأساطيلها وجنودها

بيد أن هنالك فى معاهدة استانبول نصاً هاماً تضمنته المادة الثالثة عشرة ، وهو أنه « فيما عدا التبعات المنصوص عليها صراحة فى مواد هذه المعاهدة ، فان ما لجلالة السلطان من حقوق السيادة ، وما لسمو الخديو من حقوق بمقتضى الفرمانات لا يمس بأى حال »

فى هذا النص ما يؤيد حقوق السيادة المصرية التى ترجع إليها حق مصر فى إغلاق القناة . ذلك أن حقوق السيادة التى كانت للدولة العثمانية على مصر قد آلت إلى مصر ذاتها بمقتضى معاهدة الصلح (معاهدة سيفر) أولا ، ثم بمقتضى معاهدة لوزان (سنة ١٩٢٣) ؛ فمصر من الوجهة الدولية هى صاحبة السيادة الأرضية على قناة السويس ، ولا يحد من هـذه السيادة سوى حقوق الامتياز الممنوح لشركة القناة وهى حقوق استغلال تجارية فقط ؛ ولكن يحده من الوجهة الفعلية ما تدعيه إنكلترا لنفسها فى تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ من تحفظات يتعلق أحدها بحق انكلترا فى الدفاع عن المواصلات الامبراطورية ، والقناة فى نظر انكلترا شريان من شرايينها الهامة

وفى وسع مصر أن تدعم حقها فى إغلاق القناة ، باعتباره حقاً من حقوق السيادة القومية ، أولاً بميثاق عصبة الأمم حيث ينص فى المادة العشرين على ما يأتى : « يعترف أعضاء العصبة بأن الميثاق الحالى يلغى كل التعهدات أو الاتفاقات الخاصة التى تتعارض مع نصوصه ، وتتعهد بألا تعقد فى المستقبل أية معاهدة تتعارض مع هذه النصوص » ، ولما كان دستور العصبة يقوم على فكرة السلام التام بين الأمم ، وعلى مبدأ حسم المنازعات الدولية بالوسائل السلمية ، فان هذا الدستور الذى يجعل من قناة السويس وقت الحرب ، طريق حرب يزيد فى ضرامها وأخطارها ، يجب أن يعتبر وثيقة قديمة تنافى روح العصر ونصوص الميثاق . وثانياً بميثاق تحريم الحرب حيث ينص فى المادة الثانية منه على أن الدول الموقعة عليه تقرر بأن تسوية المشاكل والمنازعات الدولية أياً كان نوعها وأسبابها يجب ألا يعالج إلا بالوسائل السلمية ومصر طرف فى هذا الميثاق مثل إيطاليا »

ونذكر أن السنيور موسوليني قد أدلى فى بعض أحاديثه الأخيرة ، أن مصر وانكلترا لا تستطيعان إغلاق قناة السويس لأن المادة ٢٨٢ من معاهدة الصلح (معاهدة فرساى) ، وهى التى تنص على المعاهدات والاتفاقات التى يبقى مفعولها بين ألمانيا والحلفاء ، قد ذكرت معاهدة أكتوبر سنة ١٨٨٨ الخاصة بدستور القناة ضمن المعاهدات النافذة الباقية (فقرة ١١ من المادة المذكورة) ؛ وميثاق عصبة الأمم هو جزء من معاهدة فرساى ، فليس فيه إذاً ما يمكن أن يتخذ سنداً لالغاء معاهدة سنة ١٨٨٨ ؛ وهذا اعتراض له قيمته من الوجهة الفقهية لو لم تكن معاهدة سنة ١٨٨٨ قد غيرت فى كثير من أجزائها بفعل التطورات الدولية ؛ وليس المقصود هنا إلغاء المعاهدة برمتها ، وإنما المقصود نسخ حق حرية الملاحة المطلق الذى قررته المعاهدة ، لأنه يغدو فى مثل الظروف الحاضرة خطراً على سلام العالم ، فضلاً عن أنه خطر على مصر ذاتها

هذا ومن جهة أخرى فان هنالك حالة فعلية لا يمكن إغفالها ، هى أن القناة تقع فعلاً تحت سيطرة القوات الإنكليزية ، وانكلترا تدعى عليها بمقتضى تصريح فبراير سنة ١٩٢٢ حقوقاً تؤيدها هذه الحالة الفعلية ؛ ومهما كان من اعتراض مصر على المسائل المحتفظ بها فى تصريح فبراير ، فانه لا شك أن هذه الحالة الفعلية هى لب المسألة كلها ؛ وإذا كانت مصر تفكر حقاً فى إغلاق القناة إذا أقدمت إيطاليا على إضرام نار الحرب ، فانها سوف تفعل ذلك بالتفاهم التام مع انكلترا ؛ وقد يؤيد تصرف الدولتين فى ذلك قرار يصدر من عصبة الأمم بتوقيع العقوبات الاقتصادية المنصوص عليها فى الميثاق ضد إيطاليا ، ويكون إغلاق القناة وقتئذ ذا صبغة دولية محضة ، ويكون فى عرف العالم كله وسيلة من الوسائل التى تتذرع بها مصر وانكلترا لصون السلام العالمى الذى تصر إيطاليا الفاشستية على تكديره تحقيقاً لشهواتها الاستعمارية

(***)

٤ – فريزر ودراسة الخرافة

احترام الحياة الإنسانية

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
المدرس بالجامعة المصرية

أسلفنا القول فى بيان أثر الخرافة فى تثبيت دعائم الحكومة والملكية الشخصية والزواج . وها نحن أولاء نشرح ما غرسته فى النفوس من تقديس للانسان واحترام لحياته ؛ وبذا نكون قد أتممنا سلسلة النظم الاجتماعية التى شاء فريزر أن يبين مقدار تدخل الخرافة فى نشأتها وتكوينها

بديهى أن معيشة البادية المبنية على حب الانتقام ، والأخذ بالثأر ، وحماية الجار ، والدفاع المستميت عن المال والعرض ، والمملوءة بالأضغان والأحقاد أدعى لإراقة الدماء واعتداء المرء على أخيه . فالانسان الأول الذى عاش هذه المعيشة المضطربة ما كان ينعم بضمانات كافية لحفظ روحه . فلم يكن له عسس منظم يسهر على حراسته ، ولا قانون واضح يهدد بالعقوبة كل من اعتدى عليه ، ولا محاكم محترمة تشهر بالجناة وسفاكى الدماء . ولا زلنا نشاهد الى اليوم أن القتل وازهاق الأرواح البريئة ينتشر حيث تسود الفوضى والاضطراب وفى الأوساط البدوية والقبائل الهمجية بوجه خاص . بيد أن الحمية تعالج نفسها بنفسها وتعد لكل داء ما يناسبه من دواء . ولئن فات الانسان المتوحش شرطتنا المنظمة ، وجندنا الشاكى السلاح فانه لم تفته وسائل أخرى من وسائل الدفاع عن نفسه وحقن دمه . ومن بين هذه الوسائل خرافة الأشباح وأرواح الموتى التى تتمثل فى صورة شياطين ومردة تنتقم ممن اعتدى عليها

قد لا تكون هناك خرافة سادت العالم سيادة هذه الخرافة . ظهرت مع الانسان منذ نشأته ، ولازمته فى مراحل التاريخ المختلفة : تبدو فى العصور القديمة والقرون الوسطى والأزمنة الحديثة ، بين البدو والهمج ولدى الأمم المتمدينة . ويكفى أن نشير الى أن كثيرين منا لا يجرؤون على السير ليلا – بل نهاراً – بجوار دار قتل فيها قتيل زعماً منهم بأن روحه الثائرة ستفتك بهم . وعلى عادة تغيير المسكن السائدة بيننا على أثر حريق أو وفاة مما ترجع الى هذه الخرافة ، كما هو الشأن لدى بعض القبائل الهمجية . ويقص علينا عامتنا وسكان قرانا أغرب القصص عن المردة الذين لاقوهم فى طريقهم ودار بينهم ما دار من حوار ونقاش ؛ والماهر منهم من استطاع أن ينجو من المارد الذى اعترضه بجواب لبق أو حيلة ماكرة ! وحديث « القرينة » والعفاريت ملأ قرانا ومدننا ، وأصبح أشهر من أن يعرَّف عنه ، وله طب خاص وقوامون على أمره يتعهدونه بالبخور « والدقة » وما الى ذلك من علاج كله ضلال وبطلان .

ليس بعسير على الباحث أن يثبت أن خرافة الأشباح هذه جنت على الانسانية جنايات شنعاء ، فنلت بعض الأشخاص بالخوف حتى من ظلهم ، وقضت على آخرين بالجنون والصرع وكثير من المصائب والآفات . وقعدت بكثيرين عن السعى وراء أرزاقهم خشية أن يعدو عليهم شبح من الأشباح أو روح من الأرواح . وفى بعض القبائل المتوحشة لا يستطيع شخص أن ينتفع بمال أبيه وأهله وذويه بعد موتهم ، لأن أرواحهم تنتقم منه أشد الانتقام غيرة على هذا الجرم المباح والمال المتعدى عليه ، فكل يعيش ليومه ، ولا يعمل شيئاً لغده ؛ وعلى هذا كانت فكرة المستقبل التى هى أساس التقدم الصناعى والتجارى والاقتصادى ضائعة لدى هذه القبائل ؛ وفى ضياع هذه الفكرة ما يتنافى وتكوين الثروة والمتاع ، وكيف تتكون الثروة عند قوم كل همهم من الدنيا عشرات السنين يعيشونها ؛ فاذا ماتوا انقرضت أمتعتهم معهم وبددت أموالهم ؟ يقول أحد كبار الرحالة : « إنه ليس لدى البتاجون (من سكان أمريكا الجنوبية) أى قانون ولا أية عقوبة ضد المجرمين . كل يعيش على حسب هواه ، والسارق الماهر هو الجدير بالتقدير . وليس هناك ما يمنعهم من السرقة واقامة الأبنية الثابتة إلا العقيدة السائدة من أنه إذا مات أحدهم وجب أن تبدد أملاكه . فكل بتاجونى حصل على ثروة طوال حياته بالسرقة أو الصيد أو التعامل مع القبائل المجاورة لا يفيد ورثته فى شىء ، ذلك لأن كل ما ادخره يبلى معه ، وعلى أبنائه أن يكوّنوا ثروتهم بمجهودهم الخاص . . . وقوم هذه معتقداتهم وتقاليدهم يقنعون بحاجاتهم العاجلة ولا يتعلقون برغبة

حقيقية ، ولا يصبون نحو غاية بعيدة ؛ وهذا سر كسلهم وتواكلهم وتشاؤمهم ، وقنوعهم بالقليل الذي يتنافى مع التقدم والحضارة ، وعلام التعلق بالمستقبل الذي لا يرجى منه خير أو شر ؟ الحاضر هو كل شيء في أعينهم ، والمنفعة الذاتية مبدؤهم ، فالابن لا يتعهد تطبيع أبيه لعلمه أنه لا يعود عليه بطائل ، وإنما يكد ويكدح وحده ليحصل على ثروة شخصية [1] » بخرافة الأشباح والعفاريت والمردة سبب من أسباب الضعف السياسي والاقتصادي لدى بعض الشعوب الناشئة والجاهلة .

غير أن هذه الخرافة ليست شراً كلها ، بل كانت عاملاً من عوامل الخير والدفاع عن الإنسان في الجمعيات التي سادت فيها ، فالخوف من الأشباح وعدوانها والأرواح وانتقامها ساعد على حقن دماء كثيرة واحترام الحياة الإنسانية . وذلك أن طائفة من الشعوب تعتقد أن أرواح الموتى والقتلى ذات نفوذ عظيم وقوة هائلة تستطيع بها أن تعكر على الأحياء صفوهم وتعترضهم في طريقهم وتتقمص أجسامهم . وأرواح القتلى بوجه خاص مفطورة على الثأر ممن اعتدى عليها في شخصه أو في أهله وعشيرته . لهذا يضطر الأفراد والجماعات لترضيتها بالهدايا والقرابين ، فيقدمون المعز والضأن والديكة والخنازير التي تغسل القاتل مما أقذار خطيئته . وأحياناً يحاربون هذه الأرواح ويطاردونها بمختلف الوسائل ويهجرون القرى والمساكن من جرائها . وكم من قرية كانت آهلة بالسكان صباحاً ، ثم قتل فيها قتيل ظهراً فأضحت في المساء خراباً يباباً . وقد عثل بالمقتول أشنع تمثيل لتبقى روحه كامنة في جسمه وعاجزة عن الثأر له .

فالإغريق الأول كانوا يعتقدون أن روح القتيل تتأجج غيظاً ممن اعتدى عليها وتتابعه في حقله ومسكنه ولا ينجيه منها إلا فراره خارج الديار عاماً كاملا يرجى فيه أن تهدأ هذه الروح من ثورتها . وإذا عاد إلى وطنه سارع إلى تقديم الضحايا والقرابين تكفيراً عن إثمه . وقاتل هذا شأنه يعد شراً يتقى وخطراً تخشاه الجمعية لما يحيط به من أرواح ثائرة قد تؤذي كل من حام حوله ، فكان طبيعياً أن تحكم القبيلة على القاتل بمفارقة البلاد الزمن اللازم لتكفير خطيئته وإرضاء الروح التي جنى عليها [1]

والصينيون كانوا ولا يزالون يؤمنون ببقاء الأرواح وقدرتها على مكافأة المحسنين والانتقام من المسيئين ؛ فهي تتدخل من غير انقطاع في عالم الأحياء وتتصرف فيه تمام التصرف . نعم إن هنالك فرقاً بين الأشخاص والأرواح ، بين الأحياء والأموات ، بيد أن هذا الفرق طفيف والمسافة بين هذه الأطراف قصيرة للغاية . وما الديانة الصينية إلا مجموعة أفكار تدور حول الأرواح وما يتصل بها . وقوم يذعنون للأرواح هذا الإذعان لا يجرؤون على الاعتداء عليها ويقدسون الحياة الإنسانية تمام التقديس [2]

ويعتقد سكان أفريقية الوسطى أن القاتل إذا قاسم قوماً في طعامهم أو بات في كوخهم أحل بهم غضب الله وربما كان سبباً في هلاكهم ، اللهم إلا إن تداركهم القسس والكهنة بأدعيتهم وتضرعاتهم ، ويزعم بعض القبائل الهندية أن الرجل إذا قتل عدوه لا يسلم من شر روحه إلا إن أراق دم خنزير أو جدي صغير ، ومع أن البانتو يعدون الفوز في المعارك الحربية مفخرة عظيمة وشرفاً لا يعدله شرف فإنهم يخشون أرواح القتلى خشية تصل بهم أحياناً إلى الجنون والصرع . ولدرء هذا الخطر يبقى المحارب الظافر في العاصمة بضعة أيام لابساً خرقاً بالية آكلاً في أوان وملاعق خاصة ، وحرام عليه أن يشرب الماء وأن يقرب النساء وأن يتناول أي طعام دافئ . وإذا قتل أحد سكان الكنغو قتيلاً حمل على رأسه بعض أرياش الببغاء وغطى جبهته بلون أحمر ، وكأنما يريد بذلك أن يستتر عن أعين الروح التي تطارده . وفي غانة الجديدة تسارع القبيلة المحاربة بعد إنجازها هجوماً أو معركة ما بالعودة إلى مسكنها أو إلى قرية محالفة قبل أن يدخل الليل الذي تهيج فيه الأرواح وتتشبث بالقتلة والمحاربين . وفي مقدور الروح أن تتعرف من اعتدى عليها بما لصق بجسمه من دم القتيل أو أي أثر من آثاره . لذلك يطهر المحارب جسمه وحربته بعد أن يتم مهمته ، وإذا وصل إلى قريته حيل بينه وبين أهله وذويه وبقي منعزلاً فترة من الزمن ، وفي اليوم الثالث من وصوله يحتفل به

(1) Alcide d'Orbigny, Voyage dans l'Amérique méridionale, II, P. 99 sq

(١) Platon, Lois IX, 8. — Aristote, Constitutions d'Athénes, 57.

(٢) Groot, The religious system of chiuna, IV, 450. 464

أصدقاؤه احتفالاً مناسباً ، وفى اليوم الرابع يلبس أجمل ثيابه وعدة حربه ويخرج شاكى السلاح مخترقاً شوارع القرية ؛ وعله يرمى بهذا إلى استرداد قوته وشجاعته . وإذا شكا أحد أبناء القرية ألماً فى معدته ظن أن ذلك راجع إلى أنه جلس فى مكان شغله محارب من قبل ؛ وإذا أصيب بأذى فى أسنانه عزا هذا إلى أنه أكل فاكهة لمسها محارب [1]

وأرواح الآباء والأقارب القتلى بوجه خاص شديدة الهول وعظيمة الخطر ، لأنها تجد وسائل كثيرة للثأر لنفسها وأعرف بدخائل القاتل من الأرواح الأخرى . وقد يكون فى هذا ما يفسر قسوة الجمهور إلى اليوم على قاتل أبيه أو أمه أو أخيه . والقوانين الجنائية نفسها مشربة بهذا المعنى فى مختلف الأمم والشرائع ، ولأبناء القرية الواحدة من الجلال والحرمة ما للأهل والأقارب ، فلئن استساغ همجى إزهاق روح أجنبية لا يستطيع أن يخفى ذعره من اعتدائه على روح جاره ومواطنه . فسكان الكنغو مثلاً لا يرون غضاضة عليهم فى العدوان على القرى المجاورة فى حين أن عدوانهم على أبناء قبيلتهم وقريتهم يملؤهم خوفا ورعباً ، ولا يتردد القاتل فى أن يلبس السواد على من قتله ويحزن عليه حزناً شديداً كأنه أحد أقاربه أو أصدقائه ولا يشرب ولا يأكل ويبكى بكاء مراً [2]

وليس خطر الأرواح والأشباح بمقصور على الأفراد وحدهم بل يتعداهم إلى الجمعية بأسرها ، لأن الأرواح الثائرة ربما تعدو على من صادفها دون أن تميز الجانى من غيره . لذلك تضطر الجمعية إلى تهدئة ثورة هذه الأرواح بشتى الوسائل أو إلى محاربتها والفرار منها . ومن الأمثلة على ذلك أن أهل برمانيا يزعمون أن أرواح القتلى لا تصعد إلى عالم السعادة ولا تنزل إلى عالم الشقاء ، وإنما تبقى دائماً حائرة فى الأرض تفزع من تلقى ، ولترضية هذه الأرواح تقدم لها فى الغابات المجاورة قرابين من الأرز مصحوبة بالأدعية الآتية : « أرواح من سقطوا من شجرة ، أو من ماتوا جوعا وعطشاً ، أو من أكلهم النمر والثعبان ، أو من عدا عليهم الانسان ، أو من أهلكهم الطاعون والجرب ، لا تسيئوا معاملتنا ، ولا تؤذونا ولا تثوروا علينا ، امكثوا هنا فى هذه الغابة حيث

الأرز اللازم لطعامكم [1] » وقد لا تقف الجمعية عند القرابين والهدايا للتكفير عن خطيئة القتل وتهدئة الأرواح المضطربة ، بل تعمل على مطاردة هذه الأرواح بطرق أخرى . فهنود أمريكا الشمالية إذا عادوا من معركة صاحوا صيحات عالية وأحدثوا جلبة وضوضاء يراد بها منع الأرواح من أن تدخل قراهم ، ومن الغريب أنا نجد نفس هذه التقاليد لدى سكان غانة الجديدة الهولندية والألمانية ، وفى استراليا . ويقطع جماعة الأسكيمو القيمون فى مضيق بيرنج عضلات ذراع وجنب القتيل ليحول ذلك دون سيره إن عادت روحه إلى جسمه طلباً للثأر . وفى أفريقية الجنوبية يهشم العمود الفقرى تهشيماً منعاً للقتيل من الحركة . وتملأ طائفة أخرى عين القتيل بالفلفل كى تضل روحه السبيل

خرافة الأرواح والأشباح ملأت الناس أفراداً وجماعات ذعراً وهولاً ، ودفعتهم إلى احترام الحياة الانسانية وتقديسها . وما القوانين الجنائية المنظمة ؛ والمحاكم القائمة بين الناس بالعدل والانصاف إلا أثر صالح من آثار هذه الخرافة . خشى الفرد القاتل الأرواح وعدوانها فلم يسرف فى القتل حباً لذاته وتعلقاً بشخصيته ، ورأت الجماعة فى هذه الأرواح خطراً يهدد كيانها فأنزلت بالقتلة صارم العقاب ، وسنت ما سنت من حدود تروع الجناة وسفاكى الدماء ، وبذا أضحت الحياة الإنسانية محفوظة بعاملين : داخلى وخارجى ، فردى وجمعى ، ومحمية بسلاح الاخلاق والقانون

يجهد الفقهاء والمشرعون أنفسهم اليوم فى مناقشة النظرية القائلة بأن الحدود جوابر أو زواجر . ويختلف علماء القانون الجنائى فى أثر العقوبة : فطائفة تقول إن الغرض منها إصلاح المجرم ، وأخرى ترى فيها القصاص اللائم للجنى عليه ، وثالثة تعدها ترضية لازمة لعاطفة الجمهور الثائرة والمعتدى عليها . وما هذه الآراء المتباينة والنظريات المختلفة إلا منطق مهذب ندخله فى تقاليد القبائل الهمجية وتعليل منمق نصبغ به خرافات الشعوب الأولى . وهكذا تسير الانسانية من الخيال إلى الحقيقة ، ومن بحر الخرافة العميق إلى صخور العقل الثابتة ، ومن الخارق للعادة إلى الطبيعى ، ومن المسلم به إلى المنطق

إبراهيم بيومى مدكور
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١) Quise, On the tripes inhapiting... New Guinea, Journal of the anthroponlogical institute, XX VIII, p. 213 sq

(٢) Weeks, Among Congo cannibals, p. 268

(١) Bringand, Les Karins de la Birmanie p. 208

الشعر *

في صدر الإسلام وعهد بني أمية

بقلم أحمد حسن الزيات

ظهر الاسلام وقد تحكم في حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرقة ، فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها ، فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب ، كان من الطبيعي أن ينفض رأسه إليه ، وألا يشجع الناس عليه ، ففي القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون . وما علمناه الشعر وما ينبغي له » ، وفي الحديث : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلئ فه شعراً » . فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويثير دفائن القلوب . ثم شغل العرب جميعاً بالدعوة العظمى ، فمن مؤيد ومن معارض ، واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش ، فردوا عليه الأسنة والألسنة ، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والتربص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية ، وبين الديمقراطية والأرستقراطية ، وبين محمد وقريش ، فلم يغامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون وقد كانوا قلالا قبل الاسلام لشواغل الحضارة والتجارة ، فصاروا كثاراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة . بدأ هذه الجلة منهم عبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان ، فآذوا الرسول وأتباعه بقوارص الهجاء ، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودّوا لو يأذن لهم الرسول بمساجلتهم ، فما هو إلا أن قال لهم : « ماذا يمنع الذين نصروا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » حتى صمد للقرشيين نفر من الصحابة ، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجون فيها بفضائل الوثنية ، ولم يدافع المدافعون بفضائل الاسلام ، حتى نقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة ، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد ؛ يدل على ذلك قول الرسول لحسان : « اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم » ، وقوله : « كيف تهجو قريشاً وأنا منها ؟ » فقال : أسلك كما أسل الشعرة من العجين

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً . وخضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأي ، فخرست الألسنة اللاذعة ، وفر الشعر الجاهلي ثانية إلى البادية ، وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية الحديث وجهاد الشرك ، فخفت صوت الشعر لقلة الدواعي إليه ، فما كان يظهر إلا حيناً بعد الحين في صادق المدح والرثاء ؛ وتساهل الرسول في سماعه حتى أثاب عليه ، وحتى قال فيه : « إن من الشعر لحكمة »

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة ، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدة الخلفاء في تأديب الشعراء ، وانصراف هم العرب إلى الفتوح ؛ ولكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس ، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان ، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومعن بن أوس والنابغة الجعدي ، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الاسلامية كالمعروف والنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار . ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة ، فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالاسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان ، أو قلة الانتاج في قريحة لبيد ، أو كثرته في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلا ؛ والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والاسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية ؛ والتأثير الذي ناله من الموالي والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة ، وإنما وسع في معانيه ومناحيه ، فقوى بعض أغراضه كالهجاء ، وميز بعضاً آخر كالغزل وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية ، والخلفاء يتعصبون للبادية ، والرواة والأدباء واللغويون يطلبون اللغة والشعر في البادية ، والعرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويجلون القديم

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

المأثور من سؤدد وخلق وأدب ؟ فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث المقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي جديد ، فان مذهب عمر بن أبي ربيعة في الغزل لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الحضرية ؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني السياسية ، فلنقصر الجهد على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرها وأثرها في الانتاج العقلي للعرب

***

كانت القحطانية والعدنانية ، والعلوية والبكرية ، والهاشمية والأموية ، والعروبة والشعوبية ، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور ، ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه ؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة ، والبصرة والكوفة تختططان على هذه الفكرة ، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة ؛ وكلها تدور على الزعامة والامامة ؛ فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الاسلام ؛ كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير . ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لا على أنه الدين الحق ، بل ليكون لهم الأمر من بعده

ظلت هذه الروح العصبية مكبوتة في عهد الشيخين لأخذها الأمور بالحزم والعدل ، ولانصراف العرب إلى المغنم من طريق الجهاد والفتح ، فلما ولي الأمر عثمان وهنت اليد المصرفة فسندتها يد أخرى ، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده ، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية ؛ وكان المسلمون يومئذ قد أفاءت عليهم الفتوح والغنائم بالثراء إلى حد البطر ، فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان ، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين علي ومعاوية ، وقتل الامام فتحرج الأمر وانشقت العصا ، وانصرف العرب إلى جهاد العدو عن جهاد أنفسهم باللسان والسيف ، وتفرقوا أحزاباً وشيعاً بعضها للدين وبعضها للدنيا . ففي الشام حزب يشايع بني أمية ، يريض لهم الأمر ، ويمكنهم في الملك ؛ وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير ، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته ؛ وفي العراق حزب يشايع أهل البيت ويطالب لهم بحقهم في الخلافة ؛ وهنالك حزب ديمقراطي ينكر الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة . وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لزمت الحياد وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين ، وهم المرجئة ؛ واتصلت بين الأحزاب الخصومة ، وأعنف فيها الخصوم ، ولكن معاوية بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والاغضاء والحزم حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج ، فلما مات أفاق خصومه من خدر سياسته فزعزعوا عرشه ، حتى إذا وهى أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه . وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب ، وكثر الطالبون بالخلافة ، وانبسط سلطان العرب ، وزخرت موارد الفيء ، واكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الاسلام واغتذى بثمر الفتوح واستمتع بجمال الحضارة واختلط بأنماط شتى من الناس وسالم بيده ولسانه في هذه الفتن ، فبلغ الأدب العربي غاية ما قدر له أن يبلغ . فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة ، والعصبية الغالبة ، والأحزاب المتحاربة ، والأهواء المتضاربة ، والشعر العربي ربيب الخصومة والجدل ، تبعثه الحزبية ويقويه المراش وتوحيه شياطين الفرقة ؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب ، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائهم ، ويصطبغ بصبغة العقيدة التي يدعو اليها وينافح عنها . وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً في هذه الأزمات ، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء ، وأوقدوا بينهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقته وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه ؛ ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً وجدالاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن

أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر

* * *

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها . فالعراق كان منذ القدم منتجع الخواطر العربية لخصبه ونمائه ، ووفرة ظله ومائه ؛ وقد لاذ العرب قبل الاسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس ، فأنشأوا إمارة المناذرة ؛ فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والكوفة . وكان في العراق ميراث وفير من العلم والأدب والدين خلفته الأمم البائدة ، ولم يؤت العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر ؛ وأتى إليه العرب بالعصبية اليمنية والنزارية ، ووقعت فيه الأحداث الاسلامية الجُلَّى كوقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة ، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخوارج ، واشتداد المعارضة لبني أمية ، واستحكام الخلاف بين البصريين والكوفيين في السياسة والدين والعلم ، فكانت البصرة عثمانية ، والكوفة بعد استقرار الامام بها علوية ، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية ، لأنها مسكن ربيعة ، وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة ؛ ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الامام علي : « يا خنازير العرب والله لئن صار هذا الأمر إليّ لأضعن عليكم الجزية » . فكان الشعر العراقي صورة لهذه الحياة الثائرة المتنافرة ؛ فهو قوي عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر ، وتتلون فيه العصبية القبلية ألواناً شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس . وتتغلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الاسلامية ، وتتغذى به نفحات بدوية وصلات أموية ، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ .

والحجاز منبع الاسلام كان أشبه بينابيع النهر : يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق ، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسمته التيارات فتكدر غمره واشتد هدره ، وتوزعته الجداول والأقنية ، فبعضه في سباخ الأرض ، وبعضه في الرياض ، فروي بعضاً وأغرق بعضاً . انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام ، وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمونة من كل قطر ، واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن ، وسلطوا عليهم الترف ، وشغلوهم بالمال عن الملك ، وخلوا بينهم وبين الفراغ ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق ، وفي أهل الحجاز ملاحة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو ، فتبسطوا على النعيم وعكفوا على اللذة ، وقطعوا أيامهم بالمنادرة والمنادمة ، وذهبوا في حياة المجون كل مذهب ؛ ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان ، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج : « ابن سريج ، والغريض ، ومعبد ، وحنين ، وابن محرز ، وجميلة ، وهيت ، وطويس ، والدلال ، وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ، ورحمة ، وهبة الله ، ومالك ، وابن عائشة ، وابن طنبورة ، وعزة الميلاء ، وحبابة ، وسلامة ، وبلبلة ، ولذة العيش ، وسعيدة ، والزرقاء ، وابن مسجح » وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم ؛ فقد حدث الامام مالك عن نفسه قال : « نشأت وأنا غلام أتبع المغنين وآخذ عنهم ، فقالت لي أمي : يا بني إن المغني إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنائه ، فدع الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبح الوجه ؛ فتركت المغنين واتبعت الفقهاء فبلغ الله بي عز وجل ما ترى » . من ذلك شاع الحب في مدن الحجاز ورقت عواطف بنيه ، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضري الرقيق الصادق ، حتى كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدىء بهم وينتهي إليهم

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه لبني أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم ، فلا هو مضطرم العواطف كالحجاز ، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق ، وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه لشأنه دون أن يثيروا عصبيته لخلاف ، أو يهيجوا طاغيته لمغنم ؛ فبقي الشعر من جراء ذلك راكداً في نفوس أهله لا يبعثه باعث ، ولا يتوافر على دراسته وروايته باحث ؛ وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يفد إليه من العراق والحجاز مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه ، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء من البصرة كلما أعضلتهم مسألة في اللغة والنحو والأدب

(يتبع)

الزيات

إلى الدكتور طه حسين

نزيل حمص

للأستاذ محمد روحي فيصل

هو العبد الحبشي الماكر ، ومولى السيد جبير بن مطعم ، (وحشي) . نزل حمص واستقر بها فيمن نزلها من المسلمين الفاتحين في صدر الاسلام ، واتخذوها لهم مقاماً ومستقراً ، وكان وحشي في الجاهلية ، فتى شجاعاً رقيقاً يخضع على كره منه لما يخضع إليه الرق من ضعة الذل والعبودية ، فلما كانت غزوة أحد وقامت الحرب التي لا بد منها بين النبي وخصومه ، صاح به مولاه جبير وقال :

— هذا الفداء دائر بيننا وبين محمد ، وأنت باسل طموح ، فلئن قتلت حمزة بن عبد المطلب عم النبي وثأرت لي منه ، فأنت حر طليق

— سمعاً وطاعة يا مولاي

وتشب النار ، ويضطرب الناس ، وتتساقط القتلى من الفريقين ، ووحشي الماكر كامن أثناء المعركة وراء شجرة يستتر بها عن الأعين ويرقب الفرصة السانحة ، فلما رأى أسد الله حمزة يجول في الميدان ويصول على جواده ، رماه بحربة من هذه الحربات القاتلة التي لا تخطئ موضع الخطر في الانسان ، ولا تحيد عما قصد بها من غاية ..!!

وينطلق العبد إلى مولاه جذلان مرحاً ، ويظفر بحريته الحبيبة ، ولكنه « لم يعد إلى بلده ، وكيف سبيل العودة إليها ؟ ولم يَسُد في مكة ، وكيف السبيل إلى السيادة فيها ؟ إنما عاش بين قريش حراً كالعبد وطليقاً كالأسير »

ثم ينتشر الاســلام ، وتنهار الوثنية ، ويدخل المسلمون الظافرون مكة الكافرة ، فتضيق الدنيا على رحبها بالعبد القاتل ، ويفكر كثيراً في نجاته ، فيفزع آخر الأمر مضطراً إلى الاسلام ، ويقصد خائفاً وجه النبي ، ولكن النبي لم يقتل قط رجلاً جاءه مسلماً . ويحزن النبي عليه السلام حين رآه ، ويسترجع بالذكرى والخيال عمل وحشي المنكر الماضي ، فيقول له : غيّب وجهك عني ! فخضع التائب للأمر الواقع ، وندم على ما فعل « وعاش وحشي في المدينة حراً كالعبد ، وطليقاً كالأسير ، وجعل الندم يحز في قلبه حزاً ، ويمزق فؤاده تمزيقاً ، يؤرقه إذا دنا الليل ، ويعذبه إذا أقبل النهار ! »

ويلهو العبد النادم بالجهاد ، ويشترك في حروب الردة ، فيبلو فيها البلاء الجميل ، ويقتل مسيلمة الكذاب ، ثم يمعن في جهاده ويغزو مع من غزا بلاد الروم ، فينزل حمص ويستقر بها فيمن نزلها من المسلمين الفاتحين ، واتخذوها لهم مقاماً ومستقراً ؛ ولكن الندم على هذا الجهاد المتصل لا يزال قوياً واضحاً يفعل أفاعيله في نفس وحشي المسلم ، يقلق عليه مضجعه ، ويشغله عن كل شيء ، ويعذبه عذاباً أليماً .

ويمضي على عادة أديب العربية الكبير الدكتور طه حسين في تحليل النفس النادمة ، ووصف ما تعاني من الآلام ، فاذا وحشي « يستعين على الندم بالخمر ، وإذا هو يشرب ويسرف في الشرب ، وإذا هو يضرب في الشراب فلا يمنعه الحد من معاودة الشراب ، وإذا هو معروف في أهل حمص بما قدم من خير وشر ، وإذا هو معروف في أهل حمص بسكره إذا سكر ، وبصحوه إذا صحا ، وإذا هو يسكر حتى يصبح مخوفاً على من يدنو منه ، ويصحو حتى يصبح عاقلاً حلو الحديث . والندم يلح عليه حتى يبغضه إلى نفسه تبغيضاً ، ويصرفه عن الصحو صرفاً ، وكلما مضت عليه الأيام ازداد امعاناً في الشراب ، والسن تتقدم به ، وجسمه يضعف شيئاً فشيئاً ، وعقله يذهب قليلاً قليلاً ، والندم ماثل مع ذلك في نفسه ، ملح بداره ، يأخذه من كل وجه ، وهو لا يجد سبيلا إلى الفرار منه إلا إلى الشراب ، وهو يضرب في الشراب ، وقد ضعف وفني ، فلا يحتمل الضرب فيموت »

* * *

وقفت خاشعاً بالأمس على قبر وحشي المجاهد الكبير ، وهو قبر متواضع متهدم لا يزال قائماً في شرقي حمص يزوره الناس كل يوم ، أسترجع الجهاد العظيم الذي أبلاه صاحبه ، وأتمثل مصرع حمزة « خير الناس » ومسيلمة « شر الناس » على يده ، وأسأله هل شرب فأسرف في الشرب ؟ وضرب على ذلك فلم يمتنع عن

السكر ؟ وهل كان حقاً لا يجد سبيلاً إلى الفرار من الندم إلا إلى الشراب ، وهل ختم حياته الصالحة بهذا الشر المنكر ؟ وما عهدتني قط في حياتي أقف على الارماس البالية المتداعية ، أخشع جيالها وأسكن إلى صمتها وأستنطقها تاريخ أصحابها كما يسجله الدهر ، وتمليه الحقيقة ، ويقتضيه المنطق ، وخرس القبر الأبكم الأصم فلم يجب السائل ولم يتحدث إلى الواقف ، ولكن معنى واضحاً أشرق على قلبي وتمدد في نفسي ، يقول إن وحشي المجاهد قد ظلم ظلماً كبيراً ، ونسب إليه ما هو منه براء ، ولم يكن كما وصف مدمناً يفزع إلى الخمر ليقتل ندمه الماثل وينسى ألمه الرازح

ورجعت إلى الكتب أستنطقها هي الأخرى عن حياة وحشي ، فاذا بها تتحدث إلى عن كل شيء ، وتقص لي ما تعرف في هدوء المنطق وجمال الحقيقة ، ولكنها تنكر هذا الشرب المتصل الذي ختم به وحشي حياته وضرب من أجله مرات ، والاسلام يمحو ما قبله ، فكيف اشتد الندم بالصحابي هذا الاشتداد ، حتى لجأ إلى الخمر يعاقرها ويلهو بها ، وهو يعلم أن الله قد رضي عنه وغفر له حين دخل في الاسلام ؟

ان الكاتب الأديب الروائي غير مطالب بالدقة التاريخية ، ولا هو مسئول حين يعمم القول ويرسله إرسالاً ، ما دام قوله لا يناقض وجه التاريخ ولا يهدم ظاهر الرواية ؛ ولكنه مطالب مسئول حين يقرر شيئاً يخالف المأثور الواقع أو لا يقره التاريخ عليه ولا يؤيده الحق فيه .

وما أرى إلا أن عظام الصحابي الجليل قد اهتزت في قبره ، وضج الحمصيون لما نسب الى نزيلهم الكريم . ونحن خبيرون بثقافة الدكتور الواسعة العميقة ، وشدة تحريه في كتب التاريخ الاسلامي ، واستقامة منطقه ونظرته ، فهل يدلنا الدكتور أو تحيلنا « الرسالة » على مصدر الرواية التي يصورها الأديب المثقف فيحسن تصويرها ويبدع في سردها ، والتي لم نعثر عليها فيما بين أيدينا [1] من كتب التاريخ ومراجع البحث ؟

(حمص) محمد روحي فيصل

(١) لم نجد شيئاً في « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، ولا في « الاصابة في تمييز الصحابة » للعسقلاني ، ولا في « فوات الوفيات » للكتبي ، ولا في « تهذيب الأسماء واللغات » للنووي : انما قرأنا رواية موجزة في حاشية « خلاصة الكمال في تاريخ رجال الحديث » للأنصاري ، وهي : — قال عمر بن الخطاب : « ما زالت في نفسي لوحشي حتى أخذ ، قد شرب الخمر بالشام فجلد حداً فحططت من عطائه الى ثلثمائة » وكان فرض له عمر في ألفين — والكلام كما ترى من عمر وقد جلده حداً مرة واحدة ، ومعروف أن وحشي توفي أيام عثمان بن عفان ، فالرواية على هذا لا تثبت إدمان الشرب ولا معاودة الحد . وهناك أحاديث أربعة وقيل ثمانية مرويات عن وحشي .....!!

حب الاستعمار والجشع سيقضيان على الحضارة

مؤتمر الكتاب في باريس

لحفظ الثقافة

« الماركسية حلقة من سلسلة الثورات التي قام بها البشر » (كهينو)

بقلم ماجد شيخ الأرض

احتشد نيف ومائة كاتب أموا باريس من جميع أقطار المعمورة في قاعة (قصر التواليه) وجلس وراءهم حشد عظيم من النظارة أتوا يشاركون الكتاب عواطفهم نحو المدنية التي يبحث عن درء الخطر الذي يتهددها، ويستمعون إلى أقوال كبار الكتاب وآرائهم في المحافظة على مخلفات الثقافة التي ينعم الانسان بثمارها اليانعة ويحس بنشوتها إذا غمرت فضيلة العلم فؤاده، وتفتحت أمام عينيه بعض أسرار هذا الكون العجيب المغلقة.

هبت عاصفة من التصفيق الشديد، وعلت أصوات الحضور بالهتافات لسير الثقافة مرفوعة الجبين بالرغم من معارضة الرجعيين عند ما انتهى أندره جيد من خطابه الذي افتتح به المؤتمر وأتى على ذكر غاياته وبيان أبحاثه، وكأن الجمهور أحس بالواجب المقدس الذي حدا بفنان مثل جيد إلى الظهور من عزلته التي اعتادها طيلة خمسة وستين عاماً مسافراً يجوب البلدان والأقطار، أومنزوياً في بيته يدون آراءه وأفكاره في كتب لا يطبع منها إلا عدداً محدوداً، كأن الجمهور شعر بالخطر الداهم الذي يحتم على كل فرد له ميزة من العقل والاحساس أن ينتبه فيصمد في جملة الصامدين.

لم يكتف الجمهور بالهتاف، وما كاد جيد ينتهي من خطابه حتى تقدم إليه رهط من الشباب المثقف بلغ بهم الحماس مبلغه يريدون رفعه على الأيدي لولا أن حال دون بغيتهم الاعتذار وتطبيق نظام المؤتمر، ثم لم تلبث عاطفة الحماس أن هبت من جديد لكن في هذه المرة كان يملؤها حزن عميق ارتسم على الوجوه عند ما قام إلى المنبر عضو المؤتمر الكاتب (اراغون) يؤبن بعبارات رقيقة الكاتب الثوري (رنيه كريفيل) الذي قضى في منتصف الطريق التي يعمل فيها للحرية وإحقاق الحق، وقد دمعت عيون بعض الفتيات إذ أتى الخطيب على فقرات مؤثرة للكاتب الراحل

كان انعقاد المؤتمر في مساء اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو الفائت، ودامت الجلسات تترى بعضها في النهار وبعضها في المساء حتى الخامس والعشرين، وقد قسمت الأبحاث على عشر جلسات تناوب بعض الأعضاء رياستها، وتعين لكل جلسة مقررين منهم. أما الابحاث التي تنوقش فيها وجرى إقرار ما يجب عمله بشأنها فهي :

تراث الثقافة. موقف الكاتب في المجتمع الانساني. الشخصية. الانسانية. الشعب والثقافة. الابداع عند الكاتب وقيمة الفكر. تنظيم مقررات المؤتمر. الدفاع عن الثقافة

ولمعرفة أهمية هذا المؤتمر يكفينا أن نذكر جيد ومالرو وكوتوريه وارغون ونيزان وكهينو وبندا من الفرنسويين، وتولر وهنريخ مان من الألمان، وفرانك من الأمريكان، وإهرمبورغ وكولتسوف وتيخانوف والشاعر باسترنيك من السوفيت، والسيدة كارن ميكائيليس الدانماركية، والسيدة واديا ولمل اسمها وديعة الهندية وهكسلي وفورستر من الانكليز

بدت الجلسة الأولى جدية أكثر من أخواتها لأن بعض المؤتمرين لم يكونوا بعد قد تعارفوا وإن سبق تعارفهم روحياً منذ زمن طويل، أو لأن الموضوع الذي طرحه المسيو بندا في هذه الجلسة كان دقيقاً وكان خطيراً احتدم حوله النقاش مع أن أكثر هذه الخطب كانت مهيأة من قبل ليتسنى لهم ترجمتها، ولوحظ أن الخطب التي تطرق أصحابها فيها إلى السياسة هي الخطب التي تحمس لها الجمهور وأظهر إعجابه بها إلى حد كاد يخرجه عن المألوف في مثل هذه الاجتماعات، حتى بتنا نقول إن في كل يوم مظاهرة، تارة ضد الرأسمالية، وتارة للحرية المهددة بالفاشستية، وطوراً للطبقات العاملة التي لا تستفيد من الوضع الحاضر غير دفع الغرم. بل كيف لا يتحمس الجمهور وهو يرى الكتاب وقد وفدوا من أقصى الجهات وتحملوا أعباء السفر على اختلاف نزعاتهم وتباين آرائهم ليضعوا لهم نظاماً يحفظون به

تراث الثقافة الذي خلفته لنا حضارة الإنسان وليدة دمه المهراق وعرق كده المستفز .

قال جوليان بندا ما خلاصته : « إن نظرة أمم أوربا للآداب والفنون تختلف اختلافاً بيناً مع النظرة الشيوعية من حيث علاقة الحياة الفكرية بالحياة الاقتصادية

فان الأولى تعتقد باستقلال وسمو الحياة الفكرية عن الحياة الاقتصادية ، أما الثانية فانها تعتقد بتضامن الحياتين . فالاختلاف يبدو لنا أساسياً مما يجعل التسوية بينهما مستحيلة ولابد لهما من حرب

ثم هناك مسألة أخرى اختلف فيها الناس كثيراً : هل وجهة النظر الشيوعية المذكورة شيء جاني من شأنه أن يقضي على وجهة النظر السائدة في الغرب ، ويقطع عليها الطريق ، أو أنها نتيجة سير وجهة النظر الثانية وتطورها ؟

فبعضهم يقول بأنها وليدة التطور والاتساع العام للمدارك عند الأمم الغربية ، يشبهونها بمذهب (الرومانتيسم) الذي كان وليد الاتساع الخاص للمدارك الأدبية .

لكن الأمر على غير ما يتصورون ، فان الرومانتيسم برغم ما أدخله من العناصر الجديدة في الأدب لم يكف أصحابه عن الاعتقاد باستقلال الرجل الموهوب وبعده عن المؤثرات والأوضاع الاقتصادية

فبين وجهتي النظر الغربية والشيوعية إذاً تباين ليس في المرتبة أو المسافة ، بل في الروح والتكوين »

لم يكد ينتهي المسيو بندا من خطابه حتى قفز إلى المنبر الفيلسوفان الفرنسيان المسيو كهينو والمسيو نيزان ، وإليك خلاصة ما قاله الأول :

« إن الأمر أهون بكثير مما يتوهمه المسيو بندا ، فحسب رأيه إذا انتقل واحد من هذه البلاد إلى بلاد الاتحاد السوفيتي فلابد أن تستقيم له غير هذه الروح وغير هذا الدماغ للتفكير

لا حاجة عندي لكل هذا التغيير وإذا لم يكن بد من شيء فهو اتباع العقل في مجرى تدرجه الطبيعي

وليست الثورة البلشفية الأخيرة عن بواعث دينية أو إقليمية محلية ، بل هي حلقة من سلسلة الثورات الانسانية التي ابتدأت منذ أن دب الانسان على الأرض

ولست أرى في كارل ماركس غير مفكر من هؤلاء المفكرين الذين يظهر أمثالهم كل يوم في الغرب ، وليس هناك من شيء في رأيي يدفع بنا إلى مقاومة الماركسية ونبذها

ومن العبث والسذاجة أن تقابل هذا الخط الطويل من الآراء المثالية بخط مثله من الآراء الاقتصادية التي لا تقل في قدمها وفي تدرج حركتها عن الآراء الأولى .

أما إنجاح الماركسية ، فتتوقف على الفئة التي تهتدي قلوبهم إليها وعلى مقدار إخلاصهم وتضامنهم ، ولا أظن أن هنالك فريقاً من البشر يلحقه خيرها وفريقاً آخر يلحقه شرها ؛ ما دام الناس في هذا العالم متشابهين من أكثر الوجوه ، وذلك ما يقوله لنا إحساسنا الداخلي في كل ساعة : إننا متشابهون . فان مصير الناس كلهم واحد ، كما يقول هوجو ، ومقدراتهم متشابهة سواء أكان الانسان عالماً أم جاهلاً . أليست الحياة والموت محتمين ، ومشاكل المعيشة العامة والخاصة تتشابه بدون استثناء ، وكل ما عمله الذين سبقونا وما نعمله لكشف خبايا هذه الأسرار المحيطة بنا ، ما زال وبالأسف ابتدائياً ، وهذا ما يشجع فينا الشعور بالتشابه ، والشعور بالتشابه يجعل الاحساسات الشائعة بيننا واحدة ، وكلاهما يدفع بنا إلى إنشاء الجمعية المشتركة في النفع والضرر ، بل نحن نعمل على إنشائها بدافع طبيعي فينا ونريدها من صميم أفئدتنا »

وإليك خلاصة ما قاله المسيو نيزان :

« لا أستطيع الكلام بدون الاعتماد على التاريخ لأن ما جاء به الفيلسوف بندا يتضمن شيئاً كثيراً منه

لقد صور لنا المسيو بندا العالم الغربي في صورة متناسبة متناسقة تجمع شتى الأقوام وشتى الطبقات ، وأكثر ظني أن هذه الصورة لا تتفق مع صحائف التاريخ ، ومن المستحيل أن تكون لهذا العالم صورة جامعة متناسقة فيها تختلف العناصر البشرية الغربية ما دامت مراجعها وينابيع حياتها مستقاة من مدنية الاغريق والنصرانية ثم النهضة الأوربية (الرينسانس) وعهد الاصلاح (الريفورم)

والثورات البورجوازية المختلفة . فأستطرد وأؤكد أن المدنيـة الاغريقية نفسها لم تكن فى أيامها السوالف عمل جميع الاغريق

ينظر المسيو بندا إلى الغرب نظرة أفلاطونية ، نظرة إيجابية ، لا تتطلع إلا إلى الآثار الثمينة وإلى الأفكار من حيث هى أفكار رفيعة ، نظرة محدودة لا تعبأ بما تحت هـذه الآثار من دوافع واحتمالات غامضـة ، ولا تهتم بالحوادث البارزة التى سهلت تلك النتائج

صحيح أن هذه النظرة سادت برهة عند اليونان القدماء ، ثم أصبحت فيما بعد قوام التفكير النظرى عند الأمم الأوربيـة البورجوازية

لكن مذهب أفلاطون ليس كل ما عند الأغريق من مذاهب للتفكير

أتى المسيو كهينو فيمن ذكرهم على اسم ابيقور الذى كان يوجه كلامه إلى العبيد الأرقاء ، وهو الرجل الذى ما كان يتوخى تطهير جمهرة مختارة من البشر ، ولا كان يستنسب جلساءه بين طائفة متميزة منهم ، واليكم الآن مجمل ردى على المسيو بندا :

إن هذه الطائفة المثقفة التى شاء أن يسميها بالعالم الغربى نقبل كل انتقاد يمكن أن يوجه اليها ، أو إلى الأوضاع التى تعيش فيها ، ونرحب بكل تحوير ممكن لهذه الأوضاع يكون فى جانب الطبقات التى تحيا وتفكر ، وتجوع وتموت . ونقبل فى آن واحد أن نؤمن ونشك فى كفاءة الانسان وقدرته ، كما قبل ذلك كارل ماركس فى كلامه عن الانسان (الذى اكتفى حاجاته) ونحن قبل كل شىء نرفض المعتقدات الدينية ، والصفات الالـهية رفضاً باتاً ونعتبرها — كما اعتبرها ابيقور وكتاب فرنسا فى القرن الثامن عشر — أشياء تتمثل فيها مخاوف الانسان وأثر اضطهاده

أما موقفنا من وجهة النظر الغربية فهو ليس قطعاً لها وانفصالاً عنها ، بل هو موقف المنور الهادى الذى يقبل الحالين معاً فيتسع إلى أقصى حد ويضيق إلى أقصى حد

ونحطم بالحجة الدامغة هذه الميثولوجيا الانسانية التى تريد منا أن نعبد ونمجد انساناً غامضاً نجهل وجوده ، وتحملنا على أن ننسى أو نتناسى أننا للآن لم نكن متساوين فى الآلام ، وفى الانتصارات ، وحتى فى الموت »

يتبين لنا من خلال الخطب الثلاث التى تخيرنا تلخيصها فى هذا المقال ، المنطق الذى جرى عليه الخطباء فى نقاشهم ، فلا سبيل إلى الحشو والتنميق ، وكانت الأبحاث على بساطة انشائها دقيقة إلى حد كبير ، يقرأها القارئ الفطن بدون عناء ، فتتجلى أمامه المشاكل الكبرى التى طالما ذوخه التفكير فيها محاولة لا تحتاج لغير التنفيذ ، وكأنما العالم مريض أصيب بداء عضال عالجه هؤلاء الكتاب فأحسنوا التشخيص وأحسنوا الدواء

ولعل أكثر جلسات المؤتمر حماسة هى الجلسة التى بحث فيها الكتاب موقفهم من المجتمع ، فكانت مظاهرة علمية قامت ضد الظلم والجور والاضطهاد ، وكيف لا يتظاهر الكتاب للحرية المتضعضعة ، والحق المضاع ، وهم رسل الحرية ورواد الحقيقة ، بل كيف لا يثورون وبينهم قسم كبير طردوا من بلادهم بعد أن أحرقت كتبهم وسيموا أنواع العذاب والتنكيل ، لكن هذا الحماس ما لبث دقائق حتى عاد الكتاب يبينون آراءهم فى جو مشبع بالهدوء والسكينة .

شكت كارن ميكائيليس مندوبة الدنمارك من أن الكتاب لا يأبهون كثيراً إلى المهمة التى خلقوا لها ، ولا يقدرون الدور الذى يجب أن يلعبوه على مسرح الحياة حق قدره فيؤدوه خير أداء ، إن الكتاب بحكم وظيفتهم أدلاء ، ومن واجب الدليل أن يكون فى الطليعة ، لكنهم يحبون العزلة ، وتراهم يفتشون عمن يحل محلهم ، ثم يلتجئون إلى حلقة منزوية من أصحابهم وزملائهم ، يصوبون جامات الغضب على القادة المضلين ، لكن همسهم هذا ويا للأسف لا تسمعه غير آذانهم . . . .

وشكا جيد من قلة اخلاص الكتاب فيما يكتبون ... وشكا مالرو من تهجيلهم لنيل المال والجاه ... .

والخلاصـة قد أوضح الكتاب أن المجتمع البورجوازى لا يمكن الكاتب من أن يخلص فيه لفنه وأدبه ، وقد شذ بعض القصصيين الانكليز ، اذ أطروا الحرية التى يمنحهم إياها النظام الدعوقراطى القائم فى بلادهم ، لكن وجد من بينهم من تصدى لهذه الفكرة ، وأبان لهم ان هذه الدعوقراطية البورجوازية التى يتبجحون بها لا تشمل غير طبقتها وهى مع ذلك صائرة الى

الزوال يتآمر عليها أبناؤها البورجوازيون »

تشطت حركة الحاضرين في إحدى الجلسات نشاطاً زائداً واشرأبت الأعناق وحملقت العيون وأخذوا يتهامسون بكثير من الدهشة : « مندوبو السوفييت » كأنما هؤلاء هبطوا عليهم من جرم سماوي لم يأتوهم من بلاد تدعى الاتحاد السوفييتي فوق هذه البسيطة ، يريدون استطلاع ما ظهر من هيئتهم وما استتر . ثم ساد سكون رهيب استعداداً لسماع الرد المنتظر من التجربة الصحيحة على ما جاء في خطاب المسيو بندا ، غير أن مندوبي السوفييت خيبوا هذا الظن واكتفوا برد المسيو كيتو والمسيو نيزان ، وأتوا على وصف بعض مناحي الأدب السوفييتي الجديد

وقال إهرنبورغ صاحب كتاب (ثاني أيام الخليقة) ما خلاصته :

« إذا كان الكاتب في المجتمع البورجوازي يكرم ويمجد باعتبار أنه قام بخدمة وطنية تبادل الخدمات التي يقوم بها أمثاله في البلاد الأخرى ، ويقرأ كتبه من أراد أن تسمو مداركه أو أن يجد لذة يملأ بها أوقات فراغه — والقراء في هذا المجتمع من توفرت أسباب حياتهم قليلون — وإذا كان القراء لا يقرأون الأدب بقصد أن يستفيدوا مما يقرأونه في حياتهم الخاصة والعامة وأن يجدوا فيها هدياً لقلوبهم وسمواً لنفوسهم وما يضمرون ، فلا يكون لما يشاهدونه في ليلتهم من عواطف نبيلة على أحد المسارح أو لما يقرأونه في إحدى القصص ، من تأثير فيما يعملونه في نهارهم . وكثيراً ما تخالف أعمالهم ما اختلجت في الليل قلوبهم له . إذا كانت هذه قيمة الأدباء في المجتمع الأوروبي فإني أقول بكل فخر :

إننا توصلنا إلى أن يكرم الكاتب والشاعر في الاتحاد السوفييتي على أنهما يؤديان عملاً مثل سائر الأعمال الحيوية التي لا يستغنى عنها بحال من الأحوال . فقراءة الأدب للمزارع والعامل ولأي شخص آخر مثل قمحه ولبنه وثوبه ومأواه . يقرأه فيلتذ ، ولكنه لا يقتصر على هذه اللذة ، فإنه يفتح قلبه له فتهديه هذه العواطف النبيلة التي للأدب في حياته وفي عمله اليومي

هذا هو تأثير الأدب السوفييتي ، مع أنه ما يزال طفلاً لا يحسن الكلام بدون تمتمة »

— كانت خطب مندوبي السوفييت على هذا النمط : استعراض للموضوع في المجتمع البورجوازي ، ومقارنة ما استجد في بلادهم بشأنه مع بيان أوجه الانتقاد ، وما حدا إلى نبذ الأسلوب القديم

***

لا عجب أن نرى الكتاب في العالم المتمدن يهبون للدفاع عن الثقافة من عاديات الزمان ، وهم حملتها ورافعو لواء مجدها ، بل ومن حقهم قبل كل انسان آخر أن يهتموا لهذا الأمر في مثل هذا الوقت العصيب الذي ينذر العالم بالشر وسوء المصير ، ألم تر المدنيات القديمة التي لو بقيت لكانت للانسان مدنية تفوق مدنيته الغربية بمراتب — كيف اندثرت وعفتها الحروب والمنازعات والوهن الذي إذا دب إلى جسم أمة قضى عليها بالتفسخ والانحلال

وليست أوروبا اليوم بأحسن مما أشرنا اليه ، فإن النزاع على الممتلكات الاستعمارية ، والتفاخر بالقومية ، وتفاقم جشع الناس ، وتفشي الأثرة بينهم أرزاء تنوء تحتها الثقافة وستؤدي إلى أوخم العواقب

ناجي نجيب ابو رحمه

(١) في العدد التالي سننشر ملخص مقال الأستاذ أندريه جيد

عرض لأحدى مشاكل الأدب الإنكليزى

هل ألّف شكسبير رواياته ؟

بقلم جريس القسوس

أخى ح . ش .

كتبت إلىّ تسألنى أن أجلو لك حقيقة هذا النابغة ، الذى على سعة شهرته وذيوع اسمه فى مختلف الأزمان والبلدان ، مازال مبهم الشخصية ، مجهول الهوية ؛ وما فتئ الكثيرون من الأدباء فى انكلترا وفى أمريكا يرتابون فى أمر تأليفه الروايات المنسوبة إليه ؛ فتراهم فى كل حين يكتشفون لها مؤلفاً جديداً غير شكسبير ، مؤيدين آراءهم بأقطع البراهين وأقواها .

ولقد بلغت هذه المسألة من الأهمية وخطورة الشأن ما جعل الأدباء ينقسمون إلى مدرستين ، الأولى تنتصر لشكسبير وتعضده وتعرف هذه بمدرسة مستقيمى الرأى (أورثوذكس) بينما الثانية وهى اللاستراتفوردية Anti - Stratfordian نسبة إلى ستراتفوررد قرية شكسبير ومسقط رأسه – تجرده من كل صبغة أدبية ، وتتهمه بضعف الارادة والجهل ، فهى لا تود أن تنسب هذه المؤلفات الرائعة إلى امرئ كشكسبير وضيع النسب ، نشأ نشأة الوضعاء من عامة البشر ، فلم يلتحق بمعهد عال أو يتفقه على مدرّب كبير

إنه لمن العار بل من الاجرام – على رأيهم – أن تنشأ العبقرية فى الأكواخ ؛ وإنه لمن الشائن المزرى إذن أن تعزى هذه الروايات على ما فيها من روعة وجلال إلى شكسبير العامى القروى . فى ذلك يتفق أصحاب هذه المدرسة ، غير أنهم يختلفون فى أمر مؤلفها

أما أول الأدباء الذين نسب إليهم تأليف روايات شكسبير ففرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ – ١٦٢٦) الفيلسوف الانكليزى الشهير ، وأول واضع أسس النظرية البيكونية Baconian Theory ؛ فهربرت لورانس Herbart L'awrence إذ ألف سنة ١٧٦٩ كتاباً سماه (مجازفات فى الذوق السليم) Adventures in Common Sense ؛ بيد أن هذه الآراء لم تثر اهتمام الأدباء ولم تحرك لهم ساكناً مدة نصف قرن أو أكثر . بعد ذلك لقيت لها أنصاراً عضدوها بالمؤلفات العديدة ، منهم ج . س . هارت J. C. Hart فى كتاب ألفه سنة ١٨٤٨ ، وفى مقالة موضوعها « من ألف روايات شكسبير ؟ » نشرت فى التشمبرز جورنال Chambers' Journal ؛ ومنهم و . هـ . سمث فى رسالة بعث بها إلى لورد اليسمير Ellesmere موضوعها « هل ألف بيكون روايات شكسبير ؟ » ومنهم أيضاً الكاتبة ديليا بيكون Delia Bacon فى كتاب اسمه « كشف القناع عن فلسفة روايات شكسبير » « The pliilosophy of the plays of Shakespeare Identified »

وقد ظهر مؤخراً غير هؤلاء فى انكلترا وفى أمريكا كاللورد بنزانس وسر . ت . مارتن ، و ج . قرينود وغيرهم من مشاهير الأدباء وكبار النقدة ممن عززوا النظرية البيكونية ، وحملوا على شكسبير حملة كادت أن تمحو اسمه محواً ؛ وتدحر جيش أنصاره دحراً

ويبنى معظم أنصار بيكون حجتهم على النقط التالية :

(١) إن سر توبى ماتيوس Sir Tobie Mathews بعث سنة ١٦٢١ برسالة إلى بيكون يمتدحه فيها ويمدّه « أنبغ من أنجبت انكلترا ، ومن عاش على هذا الجانب من البحر ، فى العصر الحاضر »

(٢) إن فى روايات شكسبير بعض فقرات ومفردات تدل على تبحر مؤلفها فى العلم وتعمقه فى الفلسفة والقانون مما لا يمكن أن يعزى إلى شكسبير كما يظهر فى ترجمة حياته المعروفة

(٣) إن فى روايات شكسبير مشاهد وأبياتاً تشهد بأن ناظم عقدها أرستقراطى النزعة والنشأة . مثال ذلك أنه : يسخر بالرعاع ، ويزدرى عامة البشر فى كل من « يوليوس قيصر » و « كور يولانس » سخرية وازدراء لا يمكن أن يصدرا من شكسبير القروى الوضيع النسب ، إن ذلك لامظهر عن مظاهر نبذ الأرستقراطية للعامة وكراهيتها لها ، واعتزازها برجالها ، وفى مقدمتهم بيكون

(٤) أما آخر هذه البراهين ، والذى عليه يبنى جميع خصوم شكسبير ، على اختلاف أشخاصهم ، آراءهم واعتقادهم الراسخ فى

أن شكسبير على ما في نسبه من ضعة ، وفي نشأته من حقارة ، وفي علمه من نقص ، وفي خلقه من تغمز ، وفي حياته من غموض وإبهام ، لا يمكن أن يكون مؤلف تلك الروايات الخالدة ، التي تشهد لصاحبها بعبقرية تفوق كل عبقرية ، وبنبوغ هو فوق كل نبوغ ، كيف يمكن هذا ، ما دام هناك بيكون الفيلسوف الكبير ، والنابغة الفذ الذي شغل أهل زمانه ، وملأ أسماعهم وأبصارهم ؟

ويأخذ أنصار شكسبير هذه الحجج ويفندونها واحدة واحدة . فيقولون — مثلاً في الرد على الحجة الأولى إن (سر توبي ماتيوس) لم يعن في رسالته بيكون الفيلسوف ، وإنما عنى راهباً يسوعياً آخر اسمه طوماس ساوزويل Thomas Southwell كان يعرف بلقب بيكون . مع كل هذا يرى أنصار شكسبير — مسلمين جدلاً بأن سر توبي يعني الفيلسوف بيكون — أن ليس في هذا ما يدل كل الدلالة على أن بيكون إنما هو مؤلف روايات شكسبير . إن هي إلا العاطفة ، عاطفة الصداقة العمياء هذه ذات التعميمات والأحكام الجارفة

أما فيما يخص الأشعار فليس في البقية الباقية من شعر الفيلسوف بيكون ما يدل على أنه شاعر بالمعنى الصحيح ، ذلك الشاعر الفذ الذي يمكن أن يعزى إليه نظم تلك القطع الرائعة التي تتخلل معظم رواياته وخاصة الأخيرة منها

هذا أما المفردات أو الفقرات العديدة الواردة في روايات شكسبير والدالة على تبصر في العلم وتبحر في الفلسفة والقانون والإلمام بأغلب الفنون فلم تكن مقصورة على شكسبير أو على بيكون وحدهما . فقد كانت بحق ملك جميع المؤلفين في عصر اليصابات وبالأخص الأخير منه . إذ شاع فيه التقليد والنسج على منوال الأولين . فالذي يجوز لنا الارتياب في أمر تأليف شكسبير لهذه الروايات على هذا الأساس الواهي ، يجوز لنا أيضاً الاشتباه في غيرهم من الكتاب والشعراء .

وعلاوة على هذا يرى أنصار شكسبير أن ليس في هذه الروايات ما يدل على إلمام واسع بالعلوم والفنون أو تعمق في الفلسفة والقانون ، إلماماً وتعمقاً يصح معهما أن ينسب تأليفها إلى بيكون صاحب النظريات الفلسفية الخالدة والنثر الأدبي الرائع

أما القول بأن مؤلف هذه الروايات لا بد أن يكون ارستقراطي النسب والنزعة كما يظهر من شنوزه نحو الرعاع وخصوصاً في « يوليوس قيصر » و « كور يولانوس » فليس بالقول الذي يعتمد عليه في بنيان مثل هذه النظرية وتحقيقها . إذ ما روايات شكسبير إلا مملكة كبيرة ، فيها الملوك والنبلاء ، والرعاع والعلماء ، وفيها الجنود والصناع ، والأرواح والآلهة ، كل منهم يفكر ويقول ويعمل حسب طبيعته ونزعته ، وعلى قدر قوته ومعرفته ، غير مقيد برأي الشاعر أو عقيدته الخاصة . بهذا يمتاز شكسبير عن (برونتج) خاصة وعن باقي الشعراء والكتاب عامة . فما الرعاع في الحقيقة إلا من هذا البشر الذي توخى شكسبير في تصوير طبيعته ونفسيته الصدق والعدل

هذا بعض مما يقوله أنصار شكسبير في الرد على خصومه ، غير أنهم لا يقفون عند هذا الحد ، بل يوردون الحجج الإيجابية الدامغة التي تؤيد آراءهم كل التأييد . من ذلك قولهم إن حياة شكسبير ليست محاطة بالإبهام كما يظن خصومه . فلو استعرضنا تراجم معاصريه من الأدباء لألفينا في جميعها — اللهم إلا من اتصل منهم بالسياسة أو القانون وكان له فيها شأن كبير — غموضاً وإبهاماً يساويان ، إن لم يزيدا ، ما في ترجمة حياة شكسبير من غموض وإبهام

ويرى أنصار شكسبير أيضاً أن لديهم تقارير عديدة تدل على اتصال الشاعر بالمسرح واشتغاله بأموره مدة ليست باليسيرة . وفي بعض رواياته نلمح ما يدل على إلمام الشاعر بفن المسرح ودقائقه . يحضرنا من ذلك — على سبيل التمثيل — ما جاء على لسان هملت في تلقينه الغلمان سبل الإلقاء والتمثيل تلقيناً يشهد له — أي لشكسبير — بطول الباع في هذا الفن . وليس في ترجمة حياة بيكون الضافية ، ما يدل على ولوعه بالتمثيل أو كلفه بالمسرح .

أما ادعاء خصوم شكسبير أن ما في رواياته من مفردات في القانون ، يكفل لبيكون — وهو بالطبع قانوني — تأليفه الروايات لحجة واهية ، من السهل دحضها . فقد كانت لندن في عصر اليصابات تكتظ بطلاب الحقوق هواة المسرح ، فكان لشكسبير في ذلك فرصة سانحة لمجالستهم والاستماع إلى أحاديثهم التي تدور ، في أغلب الأحيان ، حول القانون . هذا عدا تجاربه واختباراته في هذا الفرع كابن أحد الملاك أو التجار

ومن البيّنات الواضحة التي يعتمدها أنصار شكسبير في الردّ على خصومه ، ورود اسم شكسبير مع التعليق على فنه في بعض النسخ الأولى من رواياته مفردةً Quartoes ومجموعة First Folio وفي مجموعة سونيتاته Sonnets ومذكرات معاصريه ، وخاصةً فرنسيس ميرز Francis Meres في كتابه « بلادس تيميا Palladis Tamia » وروبرت جرين Robert Green في تهكمه اللاذع على شكسبير ، وفي قصيدة بن جونسون « Ben Jonson » التي فيها يمجّد « وزّة أفون Swine of Avon »

وقد ظهر مؤخراً غير بيكون مرشّحون آخرون لروايات شكسبير ، منهم «لورد رتلند الخامس عشر Lord Rutland 15 th» ومنهم كونت دربي Derby ولكن أحدثهم ظهوراً وأشدّهم خطراً على المثل الستراتفوردي ديفر ارل اوف اوكسفورد السابع عشر . فقد وضع ج . طوماس لوني Loonly سنة ١٩٢٠ كتاباً في هذا الموضوع سمّاه « إثبات شخصية شكسبير في دى ڤير ارل أوف أوكسفورد « Shakespeare identified in Edward De vere the 17th Earl of Oxford »

وآخر كتاب ظهر في هذا الموضوع هو لمونتاجو دوجلاس Montagu Douglas رئيس جمعية أدبية(١) أخذت على نفسها معاضدة دى ڤير ودحض آراء أنصار شكسبير . فقد وضع كتاب « ارل أوف أوكسفورد لشكسبير The Earl of Oxford as Shakespeare » وهو يجمع باختصار كل ما يمكن أن يقال في هذا الأديب كمؤلف للروايات المنسوبة لشكسبير

أما النظرية الشيخزبيرية(٢) فما هي في الحقيقة بنظرية ، وإنما هي خرافة أكبر عامل في خلقها التشابه الظاهر بين اسمي الشيخ زبير وشكسبير . ليس هذا فحسب ، بل إن علاقة شكسبير الغرامية مع « السيدة السمراء The Dark Lady » ، ويظن بعضهم أنها مصرية ـ وحبه للخيول وخاصة خيول رواد السرح وما في رواياته من امتداح لجزيرة العرب وتغنٍّ بسمائها وطيرها « فونكس Phoenix » وزهرها وشجرها ، كل هذه بعض من الشواهد التي قد يتخذها هواة النظريات أساساً للنظرية الشيخزبيرية

ولقد غرب عن بالي أن أذكر لك أن من الأدباء من يعزو إلى شكسبير تأليف نحو أربعين رواية أخرى ، ومنهم من يرى أن شكسبير لم يؤلف كل رواياته ، بل شاركه في ذلك كتّاب آخرون كبيمونت وفليتشر ، وخاصة في « تيطس ادرونيكس » وثلاثة أجزاء : « هنري السادس » ، و « تيمون أثينا » ، و « بيركليس » ، و « هنري الثامن »

هذا عرض موجز لما يمكن أن أخبرك به في هذا الموضوع ، ولا أنكر عليك أنني بعد دراسة حجج الفريقين وتمحيصها بكل دقة — أراني ميالاً كل الميل إلى المدرسة الستراتفوردية . ولا أشك في أن النجاح سيحالفها ، مهما وُجّه إليها من نقد لاذع ، ولشكسبير من تهم هو بريء منها

الكرك : شرق الأردن — عيسى القسوس

(١) Shaheapearean Fellowship

(٢) نسبة إلى الشيخ زبير

مصادر المقال

1. Neilson and Thorndike's The Facts about Shakespeare
2. Harvey's Oxford Companion to Eng Literature
3. Prof. Byron Smith's Lectures on Shakespeare
4. Douglas' M. W. The Earl of Oxford as Shakespeare
5. The Encyclopedia Britanica (Shakespeare)
6. J. Qusus' Shakespeare and Sheik Zubeir

تبتغي أمها

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

دفنوا في حفيرة أم سلمى ... ثم عادوا يجرّرون الذيولا

كتموا عن سلمى الصغيرة موت الـ ... أم حقاً وآثروا التضليلا

سألتهم والعين بالدمع شكرى ... غير مخدوعة بما قد قيلا

أين أمي عودوا إليّ بأمي ... أنا لا أبتغي بأمي بديلا

أنا إن لم ألعب بجانب أمي ... لم يجد للأفراح قلبي سبيلا

أنا إن عشت وهي تبعد عني ... كان عيشي عليّ عيشاً ثقيلا

إنها لي تنيم في الحضن منها ... وتغنّي لي بكرة وأصيلا

وإذا ما بكيت تمسح دمعي ... بيديها منعاً له أن يسيلا

ثم من حبها تقبّلني في ... وجناتي فتحسن التقبيلا

ثم تعطيني دمية هي ما أصـ ... بو إليه حب الخليل الخليلا

دميتي بنتي مثلما أنا بنت ... لأميمي التي رعتني طويلا

ثم تهدي إليّ شيئاً من الحلـ ... وى فيغدو الحلوى لهمّي مزيلا

أرجعوا لي أمي الحنون فإن لم ... ترجعوها يكون خطبي جليلا

وإذا ما لم ترجعوا لي أمي ... أملأ الأرض والسماء عويلا

أنا في حاجة إلى عطف أمي ... أيها الناس فارحموني قليلا

هي أمي التي فتحت عيوني ... أجتلي وجهها فكان جميلا

ورضعت اللبان منها فكان الثـ ... دي منها لي منهلاً معسولا

إنني عند غيبة الأم عني ... لا حناناً أرى ولا تدليلا

أرجعوا لي أمي ولا تخدعوني ... بالأباطيل إن صبري عيلا

وإذا صح أن أمي أودت ... فاجعلوني لقبرها إكليلا

(بغداد) جميل صدقي الزهاوي

مناجاة الأمل

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ألا عِدْ وأخلف أنت بالوعد مانح ... فمطلك مغفور وخيرك راجح

ولم تك مثل الآل فالآل مُهلك ... وويحك أسخى ما تضم الجوانح

وكم ناقم من خلف وعدك لا غنى ... له عنك أو تفنى المنايا اللوافح

وأعشق من يهواك من هو ناقم ... وأمدح من يرجوك من هو قادح

تساوى هموم قد تدير عليهم ... كؤوساً فتفتر الثغور الكوالح

سلام على الدنيا ورضوان زاحم ... إذا ضاء نجم منك في الأفق لائح

عفاء على الدنيا وهُلك ونقمة ... إذا لم تكن والمرء بالعيش رازح

وكم في ثنايا اليأس منك كوامن ... إذا فنيت فالعيش فانٍ وطامح

أيا بهجة العمران لولاك لم يكن ... فلا شيّد الباني ولا كدّ كادح

إذا اشتدت اللأواء زدت تألقاً ... كذاك سواد الليل للنجم قادح

وليس بعيب أن تراد لجنة ... فمن ذا يريد النجم والصبح واضح

أيا بلسم الأحزان لولاك لم يعش ... على عنت الدنيا لهيف ونائح

معين على البلوى معين على الضنى ... إذا لم يكن فيه معين وناصح

ويا حادي الركبان في العيش مثلما ... حدا الركب في الصحراء حادٍ وصادح

ويا رحمة الله التي عمت الورى ... ولم يخل منها جارم النفس جامح

على صاحب الكوخ المهدم مشرق ... ببشرى ورب القصر راجٍ وطامح

وأسعد ما تُلقى إذا كنت ماطلاً ... فكل طليب شائق وهو نازح

رست بك في لج الحياة نفوسنا ... فلم تتقاذفها الهموم السوارح

لشيّدت للإيمان في قلب آملٍ ... معابد قد ضمت عليها الجوانح

ثبات وصبر واعتزام وهمة ... فضائل نفس كلها أنت مانح

ولولا مساعٍ أنت عاقد أمرها ... لآثر عقر الدار غادٍ ورائح

تكاد تنير الليل إمّا توقدت ... أمانيُّ تذكو حين تخبو المصابح

تأرج من ذكراك نفحة خاطر ... ألأنت أريج من شذا الزهر فائح

وإن غنيّ الناس من أنت ذخره ... وأي غنى يغني وضوؤك نازح

وسائلي من جدواك أنت استثرتها … وتُغتنَقُ إن لحتَ النهى والقرائح
وكم لك دون النفس وحي وهمسة … إذا نطقت تَعيا اللغاتُ الفصائح
وكم من غريق أسقط الجهدَ كفه … فالحت إلا وهو في اليمّ سابح
منحت حياة مرة بعــد مرة … وتبخل بالعيش النفوس الشحائح
ورب حبيس أنزل السجن ظلمة … عليه ونور منك في السجن لائح
أياطائراً يشدو وفي النفس أيكه … فيخفت فيها بأسها المتناوح
ويا آسِيَ الأحزان والظلم والضنى … ولولاك أعيا الطب مودٍ وطائح
تخلَّلُ أنَّاتِ الشــقاء ونوحه … فتعذب في الاسماع حتى المنائح
خامت على الأيام أحسن خلعة … فيخفى بعيش شره والقبائح
سقيت فأنسيت المؤجل من ضنى … ومن وخط شيب في غد وهو واضح
وأنسيت أن الشر حتم مقــدر … وأن المنايا غاديات روائح
تضاحكُ في بأس ونحس وكربة … كأن الرزايا عابثات موازح
بها مؤنس من طيب عهدك عامر … بشائر في ألوانها ومفارح
وتخلق منك النفس دنيا سنيــة … وفي أفق منها النجوم اللوائح
مباديك شتى كالأزاهر جمة … ففي كل حال موطن منك صالح
أيا سحر إن لم تغن فالسحر كاذب … مغاليقــــه فيما تريد مفاتح
تعللنا بالسعد من بعد ميتة … فتحيين في مرآك حتى الضرائح

عبد الرحمن شكري

ذهب الشـــباب

للأستاذ فخري أبو السعود

ذهب الشبابُ وغاض ذاك الرونقُ … لم يبقَ إلا حسرة وتحرّقُ
لم يبق إلا ذكر عهــد زائل … إذ أنت أملحُ مَن يُحبُّ ويُعلَقُ
حالَ الجمالُ فلا قوامٌ مرهفٌ … يصبي النفوسَ ولا محيّا مُشرق
ما أنت إلا الروض صُوِّحَ بعد إذ … هو مثمرٌ نضر الأزاهر مورق
ولقد يُجاد الروضُ بعــد جفافه … ويجدّ من أبراده ما يَخلَق
وأرى جمالك ليس يبعثُ ميْتَهُ … شمسٌ تضيء ولا غمامٌ يُغدِق
ولقد يروق الزهرُ بعــد ذبوله … وتظلُّ منــــه ريحة تتنشّقُ
ورأيتُ حُسنَك حين أدبرَ لم يذَرْ … إلا قذًى يُؤذي العيونَ ويُوبق
إلا تقابحَ كم تحاول سَترَها … فتنمُّ من دون الطلاء وتنطق
قد جفَّ عودُك والصِّبا مازال في … أعطاف غيرك ناضراً يترقرق
ألوَتْ بقدِّك بعــد لين تهزّه … غِيَرُ الزمان وما عليها موثق
رَهَّلَتْهُ في حيث تَجْمُلُ دقةٌ … وهزَلَتْهُ حيث الجزالةُ أخلق
فقدَتْ تعجُّبَهُ العيونُ وطالما … قد راعها منــــه الرُّواء المونق
وتبدّل الطبعُ المحبّب لم يَعُدْ … دلٌّ يشوق ولا شمائلُ تُعشَقُ
وتطامنَ القلبُ الأبيُّ وإنّهُ … بالأمس للحصنُ المنيعُ المغلق
ومضى شِماسٌ كان فيك سجيةً … فاليوم فيك وداعةٌ وترفّق
واليوم فيــك تلطُّفٌ ومودّة … كم كان يخطبها المحبُّ الشيِّق
وتخلّفَتْ بك في الهوى أسبابُهُ … ولقــد عهدتُك سابقاً لا يُلحَقُ
ولقد علمتك في الملاحة مُفرَداً … ما لاحَ من حُسنٍ جوارك يُمحَق
كانت لحُسنك دولةٌ فتفرّقَتْ … هيهات يجمع شملَها المتفرق
نُثِرَتْ كنانةُ عابديك وكلهم … سالٍ لعهدك أو لحالك مُشفق
وانفضَّ منهم مخلِصٌ ومُنافق … وأقلَّ مدحَكَ صادقٌ ومُمَلِّق
وغدَوْتَ بعضَ الناس حيث تسير لا … مجدٌ يحُفُّ ولا جــلالٌ يُحدِقُ
تبدو، فلا حَدَقُ العيون مُبادرُ … لهفاً إليك ولا الجوانح تخفق
وتبين، لا قلبٌ لبينك مُدْنَفٌ … عانٍ ولا جفنٌ لذكرك يأرق
نَبَتِ القلوبُ وكنتَ قبلُ مُحكَّماً … فيهنّ تأسر ما تشاء وتُعتِق
وإذا القلوبُ تغيَّرَتْ وتفرقت … عيَّ الحليمُ بجمعها والأخرق
سكنَتْ نفوسٌ كنتَ أمس عناءها … ولعلكَ اليـــــوم المُعنَّى المُقلَق
ولَّى جمالُك والطبيعةُ لم تزل … تزهو وترفل في الضياء وتَعبَقُ
تمضي على عاداتها ما راعها … حُسنٌ تَصوَّحَ أو شبابٌ يَنفَقُ

فخري أبو السعود

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢١ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوي

يقول نيتشه مبيناً نظرته في مجموعة القيم الاجتماعية : أنا لا أدري إذا كانت الحياة بذاتها جميلة أو قبيحة . لا شيء عندي باطل إلا هذا النزاع المستمر بين المتفائلين والمتشائمين . وأي انسان في الوجود يحق له أن يقدّر قيمة الحياة ؟ أما الأحياء فلا يقدرون لأنهم فريق من المتجادلين المتخاصمين . والأموات . . . وإنهم لأجدر بألا يجيبوا — لأنهم أموات . فلا أحد بقادر على إبداء قيمة الحياة ، وإني لأجهل كل الجهل إذا كان وجودي خيراً أو عدمي ؟ ولكني في اللحظة التي أحيا فيها الآن أريد بأن تكون الحياة فياضة مضيئة لامعة في نفسي وخارج نفسي . فأقول إذ ذاك — نعم — لكل ما يجمّل الحياة ويجعلها جديرة بأن تحيا . وإذا تبين لي أن الضلال والوهم يساعداني على تذوق الحياة أقول — نعم — للضلال والأوهام . وإذا بدا لي أن الصفات السيئة مهما كانت ألوانها تساعدني على انتصار حيوية الانسان أقول — نعم — للخطيئة والشر ، وإذا اتضح لي أن الألم هو أنجع من السرور في تهذيب النوع الانساني أقول — نعم — للألم وأقول — لا — لكل ما يمسخ حيوية الشجرة الانسانية ، وإذا اكتشفت أن الحقيقة والفضيلة والخير وكل ما اصطلح البشر على احترامه من تقاليد وشرائع تضر بالحياة أقول — لا — للعلم والمعرفة والخير

— ٢ —

يبحث الآن نيتشه كيف نشأت بين الناس هذه القيم الاجتماعية ويصور التأثير الذي تركته في روح الرجل الغربي الحديث ، نقّب نيتشه في أصول المذاهب الخلقية التي تواضع عليها البشر . فألفى أن أصولها المتشابهة تعود إلى فضيلتين اثنتين توزعت عنهما كل الفضائل : فضيلة الأسياد والسلالات القوية الحاكمة ، وفضيلة العبيد والضعفاء الأذلاء

وإنك لواجد في منشأ الحضارة الأوروبية هذا العمل الذي ولد هذين المذهبين . فهناك طائفة محبة للقتال ، وعصابة من الرجال المفترسين الذين يسطون على طائفة جانحة للسلم ، نافرة من الحرب كما هو الأمر في الحضارة اليونانية الرومانية ، التي تلاشت إزاء هجمات الأقوام الجرمانية . إن الرجل الشديد المعتمد على نفسه ، تموج في صدره رغبته بتعيين قيم الناس والأشياء بنفسه . وليست فضيلته إلا بهجته الراقصة بشعوره بقوته وكماله ، يدعو « حسناً » من كان مثاله شرفاً وسيادة ، ويدعو « رديئاً » من يختلف عنه . الخير عنده ما هو إلا مجموعة تلك الصفات الطبية والخلقية التي يقدّرها في نفسه وفي أقرانه . يُبهج نفسه أن يكون قوياً وقديراً . يعرف أن يُخضع غيره ويُخضع نفسه . يقسو على نفسه كما يقسو على سواه . يُقدس هذه الصفات عند الآخرين ويحتقر الضعف والجبن حيث ظهرا ، يسخر من عاطفة الشفقة والنزاهة ، ومن كل الفضائل السائدة اليوم ، لأنه لا يراها صفات تليق بسيد . يعجب بالقوة والقسوة والخداع ، لأن هذه الصفات تحقق له ظفره في النضال ، يحترم الميثاق عند أمثاله الأقوياء ، ويجد نفسه في حل مع العبيد الضعفاء ، ينكل بهم إذا أراد نكالاً ، ويسعدهم إذا أراد إسعادهم . له الأمر في أمرهم . يبذل روحه في سبيل قائده وأميره ، ويكرم شيخ قبيلته ، ويحترم تقاليد أهله

ألا إن الفضيلة الأرستقراطية لفضيلة قاسية متعصبة ، ولما كان الشرفاء أقلية ضئيلة في جحافل كثيرة تتمنى الايقاع بها ، فعليهم أن يصونوا صفاتهم الخاصة التي تضمن لهم الفوز . وتقاليدهم التي اصطلحوا عليها في زواجهم وتربية أبنائهم وارتباط بعضهم ببعض هي من التقاليد العاملة على صيانة ذريتهم من الأخطار . لهذه الذرية الأرستقراطية آلهها الذي تتجسد فيه كل فضائلها التي قادتها إلى القوة وإلى هذا المظهر الذي بدت به ، إن هذا الآله هو — إرادة القوة — التي ساقت الزعماء إلى السلطة ، وجعلت منهم أقوياء سعداء ، والعبادة التي يقومون له بها هي

تفسير ابتهاجهم بالحياة على النمط الذي يفهمون منه أنهم جيلون أقوياء.

هذه الفضيلة تختلف جد الاختلاف عن فضيلة العبيد، والضعفاء الأذلاء. وإذا كانت الكبرياء والبهجة بالحياة، هي العاطفة التي تموج في صدور الأسياد، فلا عجب إذا نما في صدور الضعفاء التشاؤم، ومقت الحياة، وكره الأقوياء. الأقوياء يكيد بعضهم لبعض. أما الضعيف الغريب الذي يتصدى لهم فويل له، لأن غريزتهم في البأس والقوة لا تشبع إلا بسحقه! لأنهم يعتقدون أنهم بما فعلوا أتوا عملاً جليلاً يحق لهم به أن يغدوا على أفواه الشعراء أسماء مرددة، وهم — في ناظر هذا الغريب المغلوب على أمره — شياطين وقردة؛ تحمل الرعب والهول للآمنين. إن جزاء هذه الطائفة وجنونها وقسوتها، واحتقارها للأمان والحياة واغتباطها العميق بالتهديم وظفرها. كل هذه الصفات ينعتها أولئك المقهورون بالبربر والبربرية، وهكذا رجل القوة والبأس والرجولة في مذهب فضيلة الأسياد يصبح رجل اللؤم والرداءة في مذهب فضيلة العبيد. والردىء الشرير — في عرف الضعيف — هو كل من ارتدى رداء القسوة والعنف والرعب، والجليل عنده كل هذه الفضائل التي يحتقرها الأسياد؛ الفضائل التي تخفف من شدة الظلم، وتمنع إرهاق المظلومين، وترأف بالبائسين المتألمين؛ فضائل الشفقة والرقة والصبر والتواضع والاحسان فضائله. إن العظيم الذي كان محارباً مخيفاً قوياً في شريعة الأسياد، يحول في شريعة العبيد هادئاً حليماً، ويصبح جديراً بالصغار، لأنه بالغ في توانيه عن القتال، وبالغ في لبسه ثوب المساكين

— ٣ —

والآن لننظر في هذه القيم الاجتماعية التي أنشأها العبيد، فإن الشريعة المسيحية وفضائلها تولدت في تلك البيئة. وعصابة العبيد والضعفاء والمنحطين وجدت زعيمها في الكاهن، ومن هو الكاهن؟

ينبغي للكاهن أن يكون «منحطاً» ليمكنه تفهم رغائب شعبه المريض، وهو بعد هذا يجب أن يصون سلطته وزعامته لتتجه إليه ثقة المتألمين، ويكون حارسهم الأمين المسيطر عليهم، وإلههم الذي منه يخشون، وهي مهنة تستلزم منه أن يحرس الضعفاء من الأقوياء، ويعلن العداوة بينه وبين الأسياد، عداوة سلاحها سلاح الضعيف: مراوغة وكذب ورياء. فيحول بنفسه حيواناً مفترساً مروعاً كالحيوانات المفترسة التي يحاربها، ولا تقف مهنته عند هذا فحسب، فهو مضطر إلى أن يحرس الشعب من نفسه ومن النوازع السيئة التي تتمشى عادة في الشعوب المريضة. يقاتل بحكمة وقسوة كل ما يخيل إليه فيه فوضى أو تفسخ أو انحلال، يلمس هذه النوازع الملتهبة ويزيدها اضطراماً دون أن يعود ضرر منها على القطيع وعلى راعي القطيع. قد تكون هذه المهنة نافعة من وجه، لأنها تهذب بعض المفاسد، وضارة من وجه لأنها تقف عثرة في سبيل حركة التقدم الطبيعي

ألا نجد «المرفأ» المرفأ الأمين الذي تأوي إليه هذه السفن المشحونة بالمرضى والمتألمين، هو الموت... الموت الذي يسكن كل الآلام ويذهب بكل الأوجاع؟ وهؤلاء الذين أظلمت في نفوسهم قوة الحياة تبقى قوة الارادة عندهم متيقظة تبارك الفناء وتناشد العدم، وهي التي شوهت معنى الحياة عندهم، أمست تمدهم بقواعد للحياة جديدة، وخيل تعمل على تسكين آلامهم، تخدعهم عن حقيقة ألمهم، فيحس الكاهن انتفاعاً بهذه الغريزة الطبيعية، فيسوقها ويديرها ويثيرها حتى يجعل منها آلة سلطته وزعامته، فيصبح زعيم جماعة لا تحصى من المرضى والمنحطين. وما هو الثمن يا ترى؟

(يتبع) خليل هنداوي

القصص

صور من هوميروس

٦ – حروب طروادة

القربان (١)

للأستاذ دريني خشبة

لم يبق إذن على الأسطول إلا أن يقلع إلى طروادة فيدمرها تدميراً !

ولكن البحر هادئ ، والرياح نائمة ، ولا بد لهذه السفن الثقيلة بالعدة والعديد من قوة هائلة تدفعها في هذا الخضم الساحر !

الأيام تمضي دون أن تستيقظ الريح !

والملال يدب في قلوب الجند من طول ما لبثوا في تلك الجهة من الشاطئ اليابس المتجهم لا يرعون !

والميرة تكاد تنفد ! . . . .

والخيل تملك حديدها كأنها برمت بهذا الركود !

– « كالخاس ! »

– « مولاي ! »

– « إذهب يا رجل فاستوح لنا أربابك ماذا تبتغي لتطلق الرياح ؟ ! . . . . »

– « لبيك يا مولاي »

وانطلق عراف الحملة إلى المعبد القريب فمكث غير قليل وعاد بقلب يوهون ، وجسم مضعضع ، ووجه مغبر ، وجبين كاسف منقبض

– « ما وراءك يا كالخاس ؟ ! ! »

– « مولاي ! . . . . »

– « تكلم ! تكلم يا كالخاس ! »

– « الآلهة ! الآلهة عاشي يا مولاي ! ! »

ولم يتمالك العراف الشيخ أن سقط على نفسه من الاعياء ، ومما يخترم فؤاده من الهم ! وأسقط في أيدي القادة . . . وعالجوا كالخاس بالماء ، ودهنوه بالطيوب ، حتى أفاق .

وقال العراف مخاطباً أجاممنون :

– « مولاي ؛ ابنتك يا مولاي ! »

– « ابنتي ؟ ! ابنتي من ؟ ! »

– « إفجينيا ! . . . »

– « ماذا ؟ إفجينيا ما لها ؟ ! »

– « لابد من تقديمها قرباناً ! لابد من أن يطلّ دمها على مذبح الآلهة الأكبر ! »

– « ولِمَهْ ؟ ! »

– « لكي تطلق الرياح من عقالها ، ولكي تكون فدى للجيش كله ، ولهيلاس جميعاً ! ! ! »

– « يا للهول ! لا كانت هذه الحرب ! »

وما كاد يقولها حتى تكبكب القواد حوله ، وطفقوا يترضونه : « من أجل الآلهة ، وفي سبيل الوطن ! » ، والرجل يبكي وينشج ، ويذهب نفسه شعاعاً ! !

وأمرهم أن يتركوه وحده ليرى رأيه . . . .

فلما انصرفوا دعا اليه كالخاس ، وأخذ معه في حوار طويل ، ثم رجاه أن يذهب الى المعبد فيضرع الى الآلهة ، عسى أن تقبل قرباناً آخر غير هذه الفتاة الحبيبة المنكودة ، مهما غلت قيمة هذا القربان !

(١) اعتمدنا في تلخيص هذا الفصل — علاوة على هوميروس — على درامة يوريبيدز الجليلة (Iphigenia) ، وذلك لأن ما وصلنا من هوميروس عنها مقتضب ، فكانت درامة يوريبيدز هذه ودرامته الأخرى (إفجينيا في أوليس) كالشرح المسهب لها

وعاد كالحاس ، وأخبر أن الآلهة لا تبتغي بإفجنيا بديلا !

وانهزم أجاممنون الأب ، وانتصر أجاممنون المؤمن التقي الورع ، الذي يقدس الآلهة ، ويعرف لها قدرها ، فأمر بقرطاس وقلم ، وكتب الى زوجه كليتمنسترا :

« بشراك يا حبيبتي !

أتعرفين أخيل ؟

أخيل الذي أصبح ملء الأسماع والأفواه والقلوب ! بطل هيلاس الذي وعدتنا الآلهة طروادة على يديه ! الشاب الوسيم القسيم القوي الأبي الشجاع ! يتقدم أخيل لخطبة إفجنيا - ابنتنا المحبوبة - ويود لو تزف اليه قبل أن يقلع الأسطول لتدمير طروادة ! انه لا شك سيرى في مرآة إفجنيا وطنه ، وحينئذ يكون حرباً على الأعداء ، ونقمة عليهم من السماء !

أرسليها أيتها العزيزة ، وأحب الى أن تسرعى بإرسالها من دون ما جلبة ولا عناد ، فالوقت ضيق ونحن على وشك الابحار »

(أجاممنون)

وانطلق رقيق عجوز بالخطاب إلى آرجوس ... حيث تثوى كليتمنسترا في قصرها المنيف « أتريدى » مع ابنتها إفجنيا ، وأبنائها الآخرين !

وخفق قلب الفتاة حينما أخبرتها أمها أن أخيل يريد يدها . فقد كانت هيلاس كلها تتحدث باسم الفتى ، وتصلى للآلهة التي وفقته للانضمام إلى الجيوش الثائرة

خفق قلب إفجنيا . . . وكأنما غرقت في لجة من الأحلام التي تجيش عادة في قلوب العذارى ، حين يمر بهن هـذا الطور الناعم الجميل من أطوار الحياة . . .

ولكن ما الذي أوحى إلى أجاممنون بهذا التدبير ؟ ولم اختار هذه الحيلة المكشوفة لاستدعاء ابنته التاعسة ؟ لا ندرى !

لقد مرت أيام دون أن تحضر إفجنيا . ولم يكن الطريق طويلاً أو شاقاً بين أوليس وآرجوس حتى تتأخر كل هـذه المدة . . . فهل حدث شيء ؟ . . .

وكأنما طول الانتظار قد أثار العاصفة من جديد في قلب أجاممنون الأب ! فبدا له ألا يصدع لهذا الظلم الأولبي ، ولو صار بعدها زنديقاً ملحداً مطروداً من جنة الآلهة ، مغضوباً عليه من قلب الوطن ! !

وقد كان !

فانه استدعى الرقيق العجوز ، الذي كان يحمل دائماً بريد القائد العام الى آرجوس ، ودفع إليه برقية أمر فيها ألا تحضر إفجنيا ! ! وأمره أن يسرع بها الى زوجه ، قبل أن تكون قد أخذت أهبتها للسفر !

* * *

واأسفاه !

لقد التقى منالايوس - شقيق أجاممنون وزوج هيلين وملك أسبارطة ، والذي من أجله شبت هذه الحرب - بالرقيق العجوز حامل الرسالة ، فاستوقفه وقرأها !

ودارت الدنيا بالملك المحزون ، واخلولكت الحياة في عينيه وقصد من فوره إلى أخيه فانتهره ، ونشبت بينهما معركة حامية من السباب والتعيير ، يدفع أجاممنون عن ابنته ، وفلذة كبده ، ويفتديها بنفسه وبالدنيا وما فيها ، ويعيره منالايوس بالمروق من الدين ، وعصيان الآلهة ، وشق عصا الطاعة على السماء !

وانهما لكذلك ، إذا برسول يعلمهما أن كليتمنسترا ، زوجة أجاممنون ، وابنتها إفجنيا ، تستأذنان في المثول بين يدي الملك ، ويدى القائد العام ! !

يا لسخرية المقادير ؟

يتفجر الحنان في قلب منالايوس المتحجر ، ويرق لأخيه البائس الملتاع ، فيقول له : « أخى ! أنقذها يا أخى ! انها ابنتى كما هى ابنتك ، فانقذها كما يحلو لك ! ! »

ويبهت أجاممنون لهول الموقف ، ولا يدرى ماذا يقدم أو يؤخر ؛ ثم يراه واقفاً وحده يبكى . . . كما يبكى الأطفال . . . بعد إذ غادره أخوه

ويلمح زوجه مقبلة ، فيصلح من شأنه ، ويتكلف البشاشة والتبسم ، وإنها لبشاشة باكية ، وإنه لتبسم مر حزين ! !

- « أهلا أهلا إفجنيا ! ! مرحباً مرحباً كليتمنسترا ! سفر حميد ورحلة طيبة ! !

- « أين أخيل ، وماذا أعددتم للاحتفال بالعروسين ؟

- « أ . . . أ . . . أجل . ولكن لابد أن تعودى أنت إلى آرجوس !

— « أعود إلى آرجوس ! أعود وأترك ابنتي ! »

— « أجل ! تعودين وتتركين إفجنيا ! »

— « والعرس ! وإعلان الخطبة على الأقل ؟ ألا أحضر شيئاً من ذلك ؟ هذا لا يكون ! لن أعود حتى أشهد كل شيء ! »

وتصر كليتمنسترا على بقائها حتى تحتفل بابنتها ، وحتى ترى إلى هـذا العسكر المجر والأساطيل المنتشرة في البحر كالدُّبَى ، تحيّي ابنتها وتحيّي أخيل ، وترقص طرباً للعروسين ! !

ثم يحدث ما ليس في حسبان أحد ! !

يحضر أخيل ليقابل القائد العام ، وليبدي له سخطه وسخط جنوده (الميرميدون) من طول هذا الانتظار الذي يبدو أن ليس له آخر ، وليلح لديه في وجوب الأقلاع إلى طروادة مهما كلفهم الأمر ! ...

وما تكاد كليتمنسترا تسمع كلام أخيـل ، وتسمعه يذكر فرقة الميرميـدون المشهورة في جميع الآفاق ببسالتها وكفايتها الخارق بالحروب ، حتى تعرفه ، وتعرف أنه أخيـل ... أخيل بعينه ! ... خطيب ابنتها ... وزوج إفجنيا الحبيب !

فتتقدم إليه هاشّة باشّة ، حتى إذا أتت إليها ، بدهته بالسؤال عن العُرس ! ...

— « عرس ؟ عرس ماذا ؟

— « عرس ماذا ؟ ألست أخيل ! ألست قد تقدمت إلى أجاممنون ، أمير آرجوس ، تطلب أن تكون إفجنيا زوجة لك ؟ ألم تطلب يد إفجنيا ؟ تكلم ! ... »

ولكن أخيل يسمّر مكانه باهتا ، لا يدري ماذا يقول ، لأنه لا يعرف مما قالت السيدة شيئاً ! ! وتحملق الملكة في أخيل طويلاً ، ويتصبب العرق من جبين إفجنيا ، الفتاة البريئة ، لما ترى من حيرة أمها ، وارتباك هذا الجندي الباسق الجميل ، الذي كانت تحلم به زوجاً كريماً لها ؟ ! !

وكأن هذا الموقف لم يرض أحداً ... حتى الرقيق العجوز ، حامل بريد القائد العام ؛ فقد انفجر هذا الخادم الأمين من شدة الحنق ، فباح بكل شيء .... ! باح بكل ما سمع من تحاور منالايوس الملك ، وأجاممنون القائد الأعلى ، بخصوص هذا الزواج المفترى : « مولاتي الملكة ! خذي حذرك لفتاتك المسكينة ، إنها ستذبح ! إن الكهنة الأشرار سيذبحونها اليوم ليسقوا أربابهم الظامئة من دمها الثمين ! إن أخيل الكريم لم يتقدم ليطلب يد إفجنيا ! بل هو لا يعرف من أمر ذلك قليلاً أو كثيراً ! ها هو أمامك فاسأليه ! ... »

وكأن صواعق السماء جميعاً نزلت على قلوب القوم !

لقد تحطمت كليتمنسترا !

وذاب الثلج في عروق إفجنيا !

وزلزل أجاممنون !

أما أخيل ! فقد شُده ، وحجبت ناظريه سحابة كثيفة من الذهول ! ثم ما هو إلا أن أفيق فاضطربت به الأرض ، وأحنقه أن يتخذ مطية لهذا العبث العابث ، والسخرية المهينة !

وصاح الشاب كأنه أسد مُهيج ، وانقدح شرر الغضب من عينيه ، حتى خيف أن يبطش بأجاممنون وجنوده ... كما يثأر لاسمه ، ويطهر كرامته ...

وانتهزتها الملكة فرصة غالية لتنقذ ابنتها من القتل ، فانبطحت عند قدمي أخيل تقبلهما ، وتغسلهما بدموعها ، متوسلة إليه أن يدفع عن إفجنيا ، ويحول بينها وبين الموت :

— « فإن لم يكن بحسبك أن أمرّغ خدي تحت قدميك لتكون حامي ابنتي ، فإنها هي أيضاً تفعل مثـلي يا أخيل ! إنها تمرغ حرّ جبينها عند موطئ هذه القدم الطاهرة لتكون حاميها وحارسها ! ! »

— « قري يا سيدتي ! وكلي أباها في شأنها ، فإن لم يحل بينها وبين الموت ، فإني سأقتتل من دونها حتى أنقذها من الهلاك ، ولو حاربت هيلاس جميعاً ! ! »

* * *

وترجو الأم زوجها أن يحول بين ابنته وبين هـذه القتلة الشنيعة ؛ ويتصدع قلب أجاممنون ، وتنهمر دموعه شفقة على الفتاة التعسة ... فيعد ! ولـكن ... لات حين موعد ! !

لقد نمى إلى العسكر أن أخيل أنذر أن سيقف دون الدم الذي أمرت الآلهـة أن يراق فغيظوا وأحنقوا ، وذهبوا إليه يتحسسون جلية الأمر ، فصارحهم به ، فانقضوا عليه يرشقونه بألسنتهم الحداد ، ويرجونه بحجارة الشاطئ ... فولى مدبرا ! !

وريعت الأم حين رأت إلى الميرميدون — جنود أخيل الأمناء — يرجون سيدهم فيمن يرجه من الجنود الآخرين ، فعوّلت على أن تحمل السلاح وتقف الى جانبه ، تذود هؤلاء الوحوش !!

ولكن إفجنيا الصغيرة ! إفجنيا الفتاة ! إفجنيا العظيمة ! وقفت في وجه أمها ، وصرخت قائلة :

« مكانك يا أماه ! لن يموت أخيل من أجل فتاة !

من أنا حتى يفتديني هذا البطل العظيم ؟ وما حياتي التافهة في جانب الذخيرة الغالية ؟ . . . إن رجلاً يحارب من أجل هيلاس ، أجدر بالحياة من عشرة آلاف امرأة لا يستطعن الى حرب من سبيل ؟

أيها الجنود !

خلوا سبيل سيدكم ، فلن تفتح طروادة الأعليه ، كما أخبرت بذلك آلهتكم ! وما دام النصر معلقاً بحياتي ، فكم يبهجني أن أفتدي الوطن ، وأرضي أربابي !! ان هيلاس كلها تنظر الىّ اليوم ! فهل نخر أكثر من أن أكون عند حسن ظنها بي !!

أنا لها ! أنا أفديك يا وطني ! أماه ! لا تجزني ! أنظري الىّ ! ها أنا أبتسم للموت . . . للقتل . . . للذبح . . . هلموا يا سادة . . . هلموا . . . أين الذبح . . . صلوا من أجلي . . . تحيا هيلاس ! . . »

وفي هذه اللحظة فقط ، تكبر إفجنيا في عيني أخيل ، فيتمنى لو أجلت في حياتها لتكون زوجة كريمة له . . . ويعرض استمداده للمنافحة عنها بسيفه ، ولكنها تنهاه ، وتوصيه أن يعيش لوطنه ، ويذب عن بيضته ، ويعلي كلمته . . .

وتنسكب دموع أخيل . . .

ويسير الجميع وراء إفجنيا العظيمة . . . إلى . . . المذبح !!

فيا للفتاة . . .

ويا للأم . . .

ويا لأخيل البطل !

* * *

وتضع إفجنيا رأسها على رخامة المذبح ، ويرهف الكاهن مديته . . . ولكن ؟ . . . لقد شده القوم . . . ! ونظر بعضهم الى بعض . . . !

انهم ينظرون فلا يرون إفجنيا !!

بل يرون مكانها ظبياً . . . رشأ غريراً !!

إذن هي المعجزة !!

لقد تفطّر قلب ديانا الكريمة من أجل الفتاة ، فهبطت من ذرى الأولمب لتنقذها . . . فرفعتها الى السماء . . . ثم أرسلتها لتكون راهبة معبدها العظيم في مملكة توريس !![1]

وارتفعت أغاني الغواني . . .

يسبحن للآلهة العظمى !!

(لها بقية) دريني خشبة

(١) إلى هنا تنتهي مأساة إفجنيا فيما يتعلق بحروب طروادة ، ومن أراد مزيداً فليقرأ درامتي يوريبيدز (١ — إفجنيا في توريس ، ٢ — إفجنيا في أوليس) من ترجمة دانت الشعرية ، أو ترجمة جلبرت موري النثرية

أقصوصة عراقية

نكتـــة العمامة

للأستاذ محمود . أ . السيد

على الشرفة الغربية الكبرى ، في فندق دجلة الكبير ، المشرف على الصالحية وجسرها ، في ذات ليلة قمراء من ليالى صيف عام ١٩٣٥ ، كنا جماعة صغيرة من إخوان الصفاء ، فيها طبيب وكيميائى وصحافى وأديب ؛ نحف بسيدة فاضلة ، وافدة من بلاد المجر للسياحة ودراسة تقاليد العرب ، وأطوار سكان البادية ، وأحوال العامة ، والأدب الشعبى غير المكتوب فى العراق نكرمها مكبرين همتها القعساء التى جشمتها عناء السفر الى بلادنا ، فى هذا الفصل الذى يشتد حره ؛ فهرب منه كثير من أهلها المترفين الى مصائف لبنان وغير لبنان ، فراحت تتنقل بين القبائل أياما وأسابيع ، ثم تعود الى هذا القصر الذى أعده أصحابه نزلاً للتجار والسياح والسياسيين والعلماء الأجانب من أوربيين وأمريكيين وغيرهم ، لتدون مذكراتها العلمية ، وتسجل ما تقف عليه من قصص وأساطير ، وما يحكى لها الرواة من حكايات وروايات تستعين بها على أداء مهمتها العلمية ، ولتستريح يوماً أو أياماً قليلة ثم تعود الى زيارة القبائل والتنقل فى القرى والمدن باحثة مدونة ثم تعود . . .

ومع أنها كانت تبدو للرائى فى أقل من الأربعين من العمر ، فقد كان يعلوها جلال الشيوخ . وهى تنتمى الى « عصبة علمية » تضم رجالاً أفذاذاً من الباحثين وعلماء المشرقيات . طويلة القامة ، مغولية الملامح ، لأنها من سلالة الهون . عالمة بخمس لغات ومنها التركية الحديثة التى تعلمتها فى استانبول . وقد عرفناها فى ذلك الفندق مصادفة . وكنا نؤمه كل ليلة – فى الشتاء والصيف – لنزجى فيه بعض أوقات فراغنا بالحديث والمسامرة ، واستطلاع طلع « الغربيين » الكثيرين الذين نزاهم فيه ، فنتقرب إليهم متشوفين ، متبينين نواياهم ونوايا حكوماتهم فى بلادنا ، منافحين عنها ، ذاكرين لهم ما يخفى عليهم من محاسنها ، وما فى طبيعة قطينها وقطين الشرق كله ، وقرارات نفوسهم من سمو فى الخلق والعاطفة وقرب الى الانسانية والحق والخير ، ناعين على الغرب ماديته وحضارته الرأسمالية الاستعمارية . وكثيراً ما كنا نجادلهم عن إيمان بحقنا وبحق الشعوب المظلومة فى الحياة ، فننتصر عليهم أحياناً بقوة الحجة ، وينتصرون علينا أحياناً بالعناد والمغالطة والمكابرة وما إليها مما يتسلح الغربى به فى مناضلة الشرقى اليوم

وكان اسم هذه السيدة المجرية ماجدا

قالت ماجدا تخاطبنا فى شىء من الاستغراب :

– « اليكم حادثة من حوادث قطركم هذا ما كان أغربها عندى إذ تلوتها مجملة فى هذه الجريدة الانكليزية التى تصدر عن عاصمتكم دار السلام بل التى كانت يوماً ما دار السلام »

وأخرجت جريدة « التيمس » البغدادية من حقيبتها فألقتها على المائدة التى كانت فى وسط مجلسنا منطاة بأقداح الشاى وعدده . ثم ابتسمت وابتسمنا مدركين المعنى المقصود بقولها عن بغدادنا « التى كانت دار السلام » لأنها أصبحت دار الحرب منذ سنة ١٩١٧ ، الحرب النارية الدامية أولاً ، والحرب السياسية ثانياً ، وقالت :

– « هل يصدق أحد منا نحن معشر الأوربيين لو سمع هذا الخبر فى بلده ، إذا كان يجهل حقيقة الحياة الاجتماعية فى بلادكم : أن صبياً فى الحادية عشرة من العمر وأخاً له أصغر منه يقتلان أختاً لهما لأنها انحرفت عن صراط العفاف . هذا ما تقوله هذه الصحيفة – اليوم – عن صبيين من حى (باب الشيخ) . فوا عجباً ! حتى الصبيان يحمل منهم النخوة البدوية والغيرة قساة ذباحين ؟ »

قلت وقد بدا لى أن أهون عليها ما سمعت :

– « لقد نقلت هذا الخبر جريدة أخرى وقالت عن الصبيين القاتلين إنهما يحترفان نحر الجزور لدى جزار . وربما كان احترافهما هذه الحرفة التى ألفا فيها رؤية الدماء والضحايا من الخراف وغيرها صباح مساء ذا أثر عميق فى نفسيهما ، فهان عليهما ما فعلا . وأرجو ألا ترى سيدتى الفاضلة فى ذلك دليلاً على وجود ميل طبيعى فى مواطنينا إلى التوحش وقتل الانسان . . . وأردت أن أعلل الدوافع التى دفعت الصبيين إلى إتيان هذا الأمر ، فلم تدع لى مجالاً للكلام ، بل قالت ، وقد مضت ترتشف الشاى وتبدى

إعجاباً خارجاً عن موضوعنا بالقمر الزاهر المضيء فوق دجلة ، في سماء معروفة بجمالها لدى كل غربي ساح في البلاد العربية وبلغ بغداد :

ـ « كلا لم يخطر ببالي أن أتهم العرب العراقيين بالميل إلى التوحش وقتل الانسان لعين الأسباب التي تدفع غيرهم من أبناء البلاد المتأخرة إلى القتل وإزهاق الأرواح ظلماً وعدواناً . ولكنني استغربت أن تقع في مثل هذه الآونة مثل هذه الحادثة التي تدل على روح قديم وعادات ، كنا نقرأ في الكتب الباحثة في أحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وتاريخهم أنها كانت ، وحسبنا أنها زالت من جراء الاحتكاك والاتصال بالغرب ، بعد دخول البريطانيين هذه الأقطار ، منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً ، الاتصال الذي له حكمه في تغيير العادات والأخلاق »

قال طبيب من أصحابنا بازيسي التحصيل لاتيني الثقافة :

ـ « لا شك في أنه كان لدخول الانكليز بلادنا واتصال الغربيين بنا واتصالنا بهم اتصالاً لم يكن من قبل ، تأثير في تغيير بعض العادات والأخلاق في المدن الكبرى ولا سيما العاصمة ؛ ولكننا لو نظرنا ملياً في التغيير الذي حدث لوجدناه منحصراً لدى الطبقة العليا ، وبعض أبناء الطبقات الأخرى ، في الأسر التي تعددت فيها الدماء واختلف ميراث السلالات المختلفة المتواشجة بالتزاوج . فكانت النتيجة حدوث انحلال أخلاق في أفرادها ، لا نرى له مثيلاً في أبناء القبائل والأرياف والبوادي والقائمة في المدن ـ الذين هم في الأصل القديم من أبناء القبائل ـ والذين ينتسب اليهم هذان الصبيان . ألا تؤيدونني في هذا الرأي يا رفاقي ؟ »

سكت بعضنا ، وقال بعضنا :

ـ « بلى »

وقال أحدنا وهو الصحافي :

ـ « إن أكثر عاداتنا وتقاليدنا ـ وقولي تقاليدنا أصح من قول السيدة الفاضلة والأخ الطبيب أخلاقنا ـ لم يتغير بعد . وأعني بتلك العادات والتقاليد ما كان متأصلاً في روح الشعب ممتزجاً بدمائه منذ قرون وأزمان . فالعراقي العربي الخالص في الزمن القديم الذي كان يقتل زوجه أو أمه أو ابنته أو امرأة من آل بيته وذوي قرباه إذا ما حادت عن طريق العفاف واستزلها شيطان من الانس وعبث بها فأثمت معه ، هو هذا العراقي العربي ـ سواء أكان خالصاً في عروبته أم لم يكن وهو يدعيها ـ الذي يعيش في القرن العشرين ، والذي مثله خير تمثيل بطلا الحادثة التي أتاحت لنا الفرصة لهذا الحوار ، إلا أماشيذ من الناس . وهؤلاء الشاذون ممقوتون تنكرهم ويلبسون ثياب الخزي والعار أنى حلوا وأقاموا . وقد يوجد فارق بين رجل الأمس الذي كان يقدم على القتل وسفك الدم في بيته لدرء العار عنه ، على الشبهة والظن ، ورجل اليوم الذي يتبين ويتريث حتى يأتيه اليقين بما يصح أن يدعوه إلى ما لا بد له منه لكي يجري حكم التقاليد ، ويحيا في قومه عزيزاً شريفاً لا يطأطئ رأسه العار ولا يذله ، ولكن هذا الفارق طفيف »

قالت وقد لذها الحديث وزادها الولع بتدون الحكايات والروايات عن تقاليدنا وعاداتنا شوقاً إلى استماع شيء جديد مما يدخل فيما خضنا فيه :

— « ألا تحدثوني بحادثة من حوادث العهد السابق لعهدكم الحديث ، أسجلها إلى جانب هذه الحادثة التي سوف أستقصيها وأدونها بتفاصيلها ، فانها تغني عن كثير مما يصح أن يروى عن قوة التقاليد — على ما يسميها السيد الصحافي — وشرف العامة وغيرتهم وحرصهم على المرأة من أن تمتد اليها يد الغريب بما يشينها ويدنسها ؟ »

قلت :

— « أي عهد تعنين ؟ »

— « العهد الذي ختمته نهاية القرن التاسع عشر ؛ إذ أننا نعتبر تلك النهاية آخر خيط من الليل السابق لعهد اليقظة في بلادكم ، وبداية الاتصال بالعالم المتمدن »

قلت :

— « سأقص عليك قصة البطل الغيور عبد الحميد ، وهي قصة لحادثة واقعة في النصف أو الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، مما حكى لنا مشايخنا من حوادث بلدنا هذا ، قالوا :

نكتة سوداء من سخام القدر كانت في عمامته ذات يوم ، لم يفطن اليها ، وقد جاء القهوة كما كان يجيئها كل يوم ، مرفوعاً رأسه على الرؤوس ، مفعمة نفسه بخيلاء الفحولة وكبرياء

البطولة ، البطولة التى اعتلى عرشها المسكين فى البلد بحق ، فهابه الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتناول الرواة فى الأحياء أخباره فى كثير من الوقائع الخطيرة التى صادف والأحداث التى شهد

وكان الشطب — وهو آلة التدخين عند القوم فى ذلك الزمن — المفضض الطويل فى يسراه يدخن به مفكراً صامتاً ساهما ، والدخان ينبعث من بين شدقيه كثيفاً

لقد قال له صاحبه أحمد العلوى ، وقد لقيه فى الطريق قادما من بيته قبيل ساعة : « إن وسخا أو سخاما على رأسه » ، وانصرف لطيته . . . وكان الناظر إلى وجهه يرى الشر عليه باديا فى وضوح

وما عتم أن قام إلى بيته متثاقل الخطى ، قابضاً بيده اليمنى على خنجره ، رسول الموت الذى طالما أزهق الأرواح

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الأول من القهوة ، وجعل يدخن ، كما كان . . .

ومر به صاحبه ، وكانت القهوة حافلة بالكهول والشيوخ ذوى النظرات القاسية والعمائم الكبيرة ، فنظر إليه قليلاً ، ثم أقبل عليه ، فجلس إلى جانبه ، ومال إليه برأسه يكلمه همساً :

« إن فى عمامتك لنكتة سوداء نبهتك إليها فلم تزلها بعد »

كان الجواب نظرة تطاير منها الشرر ، ولكن أحمد لم يفقه لها معنى

وكان سكوت ، ثم قام الرجل تاركاً صاحبه جالساً فى مكانه ، دهشاً ، ومشى إلى بيته متثاقل الخطى ، قابضاً بيمينه على خنجره ذلك الذى طالما أزهق الأرواح

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الأول من القهوة ، بجانب صاحبه ، ثم جعل يدخن كما كان . . .

قال له أحمد :

— « غريب هذا الذى أرى منك أيها الأخ ! هل أنت آت من بيتك ؟ كيف غفلت كذلك عن إزالة النكتة من السخام التى فى عمامتك ؟ »

وهنا انفجر الرجل من شدة الغيظ ، وقام على قدميه مرتجفاً ، وقد دارت به الأرض الفضاء :

— « ويلك لم تبق إلا أمي العجوز ! »

تلك هى القصة التى قصها علينا المشايخ فيما قصوا وحفظوا من حكايات بغداد فى زمن قديم خلا

لقد نحر عبد الحميد زوجه وأخته بيده ، واحدة تلو أخرى ، كما ينحر الجزار الخراف والبقر ، ليزيل السخام من عمامته . فعمامته هي التاج ، تاج الشرف والعرض والكرامة فوق هامته فى هذه الحياة ، وشرفه وعرضه وكرامته شرف أسرته وعرضها وكرامتها ، وكل أولئك من شرف قبيلته وحيه وعرضهما وكرامتهما ، فان وسخ العار ذلك التاج ودنسه فلا يطهره منه إلا الدم والموت .

ولم يلم الرجل على ما فعل أحد ، لأنه فهم ما قال له صاحبه على غير حقيقته ، بل لاموا صاحبه الذى لم يستطع إيضاح ما قصد بعبارته التى توهم سامعها الاشارة والرمز إلى العاب والعار . فعبد الحميد كان يمثل العربى العراقى ابن الشعب والقبائل بالأمس ، وان كان يسكن داراً فى بلد لا خيمة فى بادية ؛ وهذان الصبيان يمثلانه اليوم أتم تمثيل . فهما وذاك فى الحقيقة واحد فى ثلاثة ، وان تباعد بينهما وبينه زمانهما وزمانه »

قالت وكأنها استدرجتنى الى استعلام رأى لى فيما كنا نتحدث فيه :

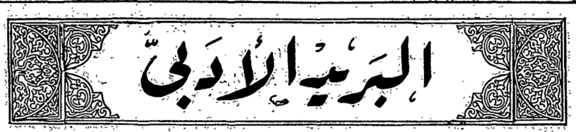
— « وما رأيك أنت فى هذا العقاب الذى كانت تعاقب به المرأة عندكم اذا مازلت بها القدم ، وما زالت تعاقب به ؟ »

— « لا يسمى الناس قتل المرأة عندنا اذا ما أثمت عقاباً ، بل يسمونه — بحكم العادات والتقاليد الموروثة — محوا للعار وتطهيراً للعرض من الدنس . وإذا كنا نعتقد أن حياة الشعب المادية هى التى تملى عليه منهاج أخلاقه وتقرر له عاداته وتقاليده . »

— « بلى . أعتقد ذلك . . . »

— « . . . فان الحياة المادية لشعبنا الفقير المسكين لم تتغير بعد تغيراً جوهرياً بالاتصال بالغرب لكى تتغير تلك العادات والتقاليد لديه ، بل تغيرت الحياة المادية فى القصور ، ولدى بعض المتفرنجين من الموظفين ، وقولى هذا تعليل متمم لما كان قاله أخونا الطبيب . . . . »

(العراق ، الأعظمية) محمود . أ . السيد



جوابي لأخي محمد سكوت قصيراً كما أراه

إنني في كتابتي عن الشيخ جمال القاسمي رحمه الله لم أدخل في علم الحديث دخول من تصدّى لترجيح أو تجريح وخاض في الحديث خوض من يعلمه ، بل بقيت واقفاً على الشاطئ ، على حين أن أخي محمداً الكرد على دخل في الموضوع وحكم فيه حكمه ، وهو مع ذلك يقول إنني أنا وإياه لسنا من هذا العلم في ورد ولا صدر . فإذا كان الأمر كذلك فما كان أحراه بأن يترك انتقاد كتاب مؤلف في الحديث الشريف ، وقد أطنب في وصفه مثل الأستاذ الأكبر السيد رشيد رضا رحمه الله الذي إذا تكلم في هذا الفن يقال : القول ما قالت حذام

أنا كان أكثر كلامي في محاسن الاستاذ الكبير الشيخ جمال القاسمي تغمده الله برحمته ؛ فإن كنت لست من علماء الحديث فإني لست جاهلاً معرفة الرجال ، ولا مبتلواً بخرية التمييز بينهم ، ولولا حسن فراستي ما كان الأستاذ كرد على عظيما في عيني ، وقد اخترته لأخائي منذ اثنتين وأربعين سنة

أما السجع وما أدراك ما السجع ، فالكلام العربي ينقسم إلى مرسل ومسجّع ، وموزون مقفّى ، ولكل نوع من هذه الأنواع الثلاثة مقام يحسن فيه أكثر من غيره ، والمرسل هو الكلام المعتاد الطبيعي الذي به أكثر تفاهم الناطقين بالضاد . والموزون المقفي هو الشعر الذي لا رونق للغيات بدونه . والسجع وسط بين المرسل والموزون ، وله وقع في النفوس لا جدال فيه ، ويكفيه من الشرف أن كتاب الله تعالى قد نزل بهذه الطريقة ، وأن نهج البلاغة وكثيراً من كلام أفصح العرب هو من النوع المسجع . ولا يقال في بديع الزمان والخوارزمي والصاحب والصابي والقاضي الفاضل وأمثالهم إنهم لم يحسنوا القول . فإن كانت اللغات الأوربية ليس فيها سجع إلا ما ندر ، فليس هذا بحجة على اللغة العربية ، فلكل لغة خواص تمتاز هي بها ، وقد خلق الله الناس أذواقاً مختلفة ، وجعل لكل أناس مشربهم ، والعرب غير العجم ، والشرق غير الغرب

جنيف ١٠ جمادى الآخرة شكيب أرسلان

الى الأديب الزحلاوي

اطلعت على كلمتكم المنشورة بعدد (الرسالة) الأخير . الخاصة بقصيدتي المنشورة في « مجلتي » ولما كنت لم يسبق لي التشرف بقراءة شيء ، ولم أسمع مطلقاً قبل اليوم عن شاعركم الدمشقي عفلق افندي ؛ فإني أرجوكم أن تتكرموا بنشر قصيدتي وقصيدته معاً . وأعتقد أن الأستاذ صاحب (الرسالة) لا يمانع في ذلك مادام قد سمح لك أن توجه ما كتبت إلي

والفت نظر زحلاوي أفندي إلى أن المقطعين اللذين انتجعهما لي ولعفلق أفندي ليس فيهما ذرة من التشابه ، فما الشبه بين « أعولي يا جراح » و « أعصفي يا رياح » ، وما الشبه بين « أحيي الديان » وبين « اهزئي بالسماء » !! إن هذا لفهم عجيب

ختاماً لك وللأستاذ صاحب الرسالة تحياتي ؟

الدكتور
ابراهيم ناجي

حول مستشرق عظيم

اطلعت في العدد الخامس عشر بعد المائة من (الرسالة) الغراء على مقالة الأستاذ المؤرخ محمد كرد على بك التي يترجم فيها للأستاذ المستشرق الدكتور ف . كرنكو ، ويثني على خدماته لأدب العرب

وقد رأيت من الواجب أن أستدرك على الأستاذ كرد على بك بعض ما أعرفه عن هذا المستشرق المخلص . فقد كان أستاذاً للآداب الاسلامية في جامعة (بون Bonn) في ألمانيا ، وكان مما يدرسه هنالك (كتاب علوم الحديث لابن الصلاح) ، كما هو من أعضاء بعض المجامع العلمية

ومن عظيم خدماته تحقيقه لمعجم الشعراء للمرزباني الذي

طبع فى القاهرة فى هذا العام ؛ وفى مقدمته (المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وألقابهم وأنسابهم ، ومختار أشعارهم للآمدى)

ومما صححه كتاب (من يسمى عمراً من الشعراء)، وهى رسالة بعث بها محمد بن داود بن الجراح إلى أبى أحمد يحيى بن على ابن يحيى بن أبى منصور المنجم . ترجم فيها لما يزيد على مائتى شاعر ممن يسمى عمراً.

وصحح أيضاً التاريخ الكبير للبخارى، وهو تحت الطبع فى الهند . إلى غير ذلك مما يستحق عليه شكر العلماء والأدباء من أهل الشرق والغرب .

محمد شفيق

التونة :

تابع الأستاذ « درينى خشبة » فى مقاله فى « الرسالة » (العدد ١١١٣) بعض الكتاب فى إطلاق لفظ « التونة » على الخط الذى يلى الأنف فى الخد البارز المستدير ، وسأل الرسالة رأيها فى صحة هذا الإطلاق .

والمعروف أن « التونة » هى النقرة فى ذقن الصبى ، كما جاء فى اللسان والقاموس والتاج والنهاية وغيرها ؛ وفى حديث عثمان أنه رأى صبياً مليحاً فقال : « دسموا نونته كى لا تصيبها العين » أى سودوها . وقال الأزهرى : هى الخنعبة والثومة والهزمة والوهدة والقلدة والهرتمة والعرتمة والحترمة

على أن الخنعبة والثومة ليست النقرة فى الذقن كما قال الأزهرى ، ولكنها مشق ما بين الشاربين ، أى إنما هى هذه الوهدة التى تمتد من وترة الأنف إلى منتصف الشفة العليا .

والهزمة كل نقرة فى الجسد ، وتخص بالنقرة التى فى أعلى الصدر مما تحت العنق .

والهرتمة والحترمة والعرتمة : الدائرة التى فى أعلى الشفة العليا ، وليس فى ذلك ما يصح إطلاقه على الخط الذى يلى الأنف ، وإنما ذلك الخط هو القسمة ، والله أعلم .

على الطنطاوى

سيرة تيمورلنك

سألنى أحد أدباء الخرطوم عن كتاب عربى يقرأ فيه سيرة الفاتح التترى الكبير تيمورلنك ، فأجيبه على صفحات الرسالة بأن أنفس مصدر فى هذا الموضوع هو كتاب « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لشهاب الدين المعروف بابن عربشاه الدمشقى ؛ وهو قطعة فذة من الأدب التاريخى والبيان الرائع ؛ وقد كتبه مؤلفه بعد وفاة تيمور بنحو جيل فقط ، واستقصى أخباره من مصادرها ومواطنها ، وشهد غزوه لدمشق صغيراً ، وقد طبع هذا الكتاب مراراً بمصر وأوربا وترجم إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر

ويستطيع الأديب الفاضل أن يقرأ طرفاً من أخبار تيمور أيضاً فى تاريخ مصر لابن اياس (ج ١ ص ٣٢٦ وما بعدها) وفى النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٨٠١ و ٨٠٢ و ٨٠٣ و ٨٠٤ هـ ؛ وفى السلوك فى دول الملوك للمقريزى (مخطوط) فى الأجزاء الأخيرة ؛ وبالانكليزية فى كتاب جيبون Decline and Fall of the Roman Empire (الفصل الخامس والستون) ، ويستطيع أن يقرأ عن ابن عربشاه مؤرخ تيمور وعن بعض المصادر المتعلقة به فى كتابى « مصر الاسلامية » (الفصل الخامس من الكتاب الثانى) ؛ وفى كتابى ابن خلدون (ص ٨٠ ـ ٨٦)

م . ع . ع

كتاب عن النقد المصرى

لفت نظرنا فصل نشرته جريدة « نسيرشر تسيتونج » السويسرية الألمانية فى صحيفتها التجارية فى عددها الصادر فى ٥ سبتمبر عن كتاب اقتصادى ألفه أحد مواطنينا المصريين بالانكليزية ، ونشرته احدى شركات النشر فى لندن ، وعنوان الكتاب هو : « النظام النقدى فى مصر Monetary systene in Egypt » ، ومؤلفه هو الأستاذ محمد على رفعت . وفى هـذا الفصل عرض دقيق ممتع لما احتواه الكتاب ، فهو يتضمن تاريخ النقد المصرى من سنة ١٨٣٤ ، أى منذ عهد الاصلاح أيام محمد على إلى سنة ١٨٨٥ ، أى إلى بدء الاحتلال الانكليزى ، ثم إلى سنة ١٩١٤ ؛ وشرحاً وافياً لنظام النقد فى مصر ؛ ويخصص المؤلف فراغاً كبيراً للتحدث عن المؤسسة المصرية الاقتصادية الكبرى أعنى بنك مصر ، ونموه السريع المدهش ، ونشاطه المشعب الذى يحمل على الاعجاب ، وشركاته العديدة التى شغلت أعظم ركن فى النهضة الاقتصادية ، وأثره القوى فى تطور الاقتصاد المصرى ، ويعتبر المؤلف انشاء بنك مصر ، بحق فاتحة النهضة الاقتصادية المصرية

وعمادها الحصين . ويحدثنا أيضاً عن أحوال البنوك في مصر بصفة عامة، وعما للمال الأجنبي من أثر كبير في شؤوننا الاقتصادية وغير ذلك مما يتعلق بموضوع مؤلفه

هذا هو ملخص الفصل الذي قرأناه في جريدة « تسيرشر تسيتونج » ، ولم نحظ برؤية كتاب الأستاذ رفعت ، ولكنا اغتبطنا أن تهتم جريدة سويسرية نائية بنقد كتاب لمواطن فاضل . والذي يدعو إلى الأسف في ذلك هو أنه بينا نجد مثل هذا الاهتمام من جانب الصحافة الأجنبية بالجهود العلمية أيا كان مصدرها ، إذا بنا نجد الصحافة المصرية على النقيض من ذلك لا تكاد تهتم باستعراض أي مجهود علمي محلي ، ولولا أنها تلزم هذا الركود النقدي المؤلم ، لكنا قرأنا عن كتاب الأستاذ رفعت وكتب غيره من مواطنينا الفضلاء ، فصولا وفصولا قبل أن نقرأ عنه في الجريدة السويسرية . فمتى تعنى صحافتنا بهذا الجانب المنسي من مهمتها ؟ ومتى تعنى بالنقد العلمي الصحيح ، وتحله منها المكان اللائق ؟

شعر الزهاوي يترجم الى الالمانية

ترجم الأستاذ الدكتور ودمر أستاذ الفلسفة في جامعة بون الى اللغة الألمانية شعراً ملحمة الأستاذ الزهاوي التي عنوانها : (ثورة في الجحيم) مع خمسين قصيدة وثلاث وخمسين رباعية ، ونشر كل ذلك في كتاب جعل عنوانه : (جميل صدقي الزهاوي) وقد صدر الجزء الأول منه

الابتذال الرفيع

اشتهر الأمريكيون بالشذوذ في كثير من الأمور ؛ ولكن لم يكن من المتصور أن يطغى هذا الشذوذ حتى على الاعتبارات والتقاليد العلمية التي ترتفع في كل البلاد المتمدينة عن كل ابتذال . فقد قرأنا في بعض الأنباء الأخيرة أن الأمريكيين ينتظرون عودة الممثلة السينمائية الشهيرة جريتا جاربو الى أمريكا بفارغ الصبر ، وأنهم اعتزموا أن يظهروا إعجابهم بها وبمواهبها بطريقة جديدة لم تكن تخطر على البال . وذلك أن « جامعة جنوب كاليفورنيا » قد أصدرت قراراً خلاصته أن تدعى جريتا جاربو من هوليوود الى حفلة استقبال تقيمها الجامعة وتمنح فيها الممثلة الشهيرة اجازة « الدكتوراه الفخرية » تقديراً لمواهبها الفنيـة ، وينتظر أن يكون هذا الاحتفال الأول من نوعه فريداً في فخامته وطرافته ، وفيه تلقي جريتا محاضرة في موضوع فني . ويقال فوق ذلك إن الممثل الهزلي الشهير شارلي تشابلن ، سيدعى الى الجامعة لنفس الغرض وسيمنح اجازة فخرية لنفس الاعتبارات ، تقول ، وهكذا يبتذل كل شيء في أمريكا ، حتى التقاليد العلمية التي تتخذ في كثير من الأمم والجامعات العريقة لوناً من القدسية ؛ ولكن أمريكا ليست بلداً عريقاً في المدنيـة ولا التقاليد ، والعلم فيها بضاعة مزجاة ، والأجازات الجامعية فيها لا اعتبار لها ، وهي تنثر على الطالبين بأيسر أمر

ذكرى لوبي دي فيجا

احتفلت اسبانيا احتفالاً قومياً شائقاً بذكرى شاعرها الأكبر لوبي دي ڤيجا لمناسبة مرور ثلثمائة عام على وفاته . وقد سبق أن ترجمنا الشاعر الأشهر في هذا المكان من الرسالة ، وقدمنا خلاصة نقدية عن حياته وخواصه الشعرية والأدبية . والآن نقول إن العاصمة الاسبانية قد احتفلت بذكرى الشاعر أعظم احتفال ؛ وخصصت الأيام الأخيرة من أغسطس لاقامة الحفلات والمآدب الشائقة . وكان من أظهر خواص هذه الاحتفالات المسارح المديدة التي أقيمت في العراء لتمثيل روايات لوبي دي ڤيجا ؛ وقد أراد الشعب الاسباني بذلك أن يحيي أيام الشاعر وصور عصره ، وسار الممثلون إلى هذه المسارح الريفية ، في عربات النقل كما كان يحدث أيام الشاعر . وقد كان التأليف للمسرح أجد كفايات لوبي دي ڤيجا ؛ فقد كان شاعراً وجندياً وقساً ، وباحثاً ، وقد كان أيضاً شريداً وخليعاً وصعلوكاً ؛ وقد خدم في حملة « الارمادا » الشهيرة التي جردت على انكلترا ، وقضى معظم وقته على ظهر السفينة يقرض الشعر . وقد هذب المسرح الاسباني ووهبه أثمن تراث وأجله

غرفة الكتب

من الأنظمة الغريبة التي أنشئت في روسيا السوفيتية إدارة تسمى « غرفة الكتاب المركزية » فلا يصدر في روسيا السوفيتية وجميع الجمهوريات الملحقة بها كتاب أو مجلة أو جريدة لا تسجل

في هذه الإدارة، وقد أصدرت الحكومة قانوناً يحتم على الناشر أن يقدم إليها خمسين نسخة من الكتاب أو الصحيفة التي ينشرها، وتستخدم الغرفة المركزية من هذا المدد خمس نسخ لأجراء المبادلة الدولية في الكتب التي تصدر في الدول الأخرى ثم تدرس كل كتاب أو صحيفة من الوجهة الفهرسية ، وتصدر عن ذلك مجموعات دورية مصنفة حسب أنواع الفنون والعلوم ، وقد بلغت فهارس هذه الغرفة حتى اليوم نحو ستين ألف مجلد ، وفي وسع المعاهد العلمية والمكاتب العامة وكذلك الأفراد أن ينتفعوا بمحتوياتها النفيسة

الذكرى المئوية لوزارة المعارف

تألفت لجنة برياسة صاحب السعادة وزير المعارف العمومية وعضوية كل من وكيل الوزارة ، ومدير الجامعة المصرية ، ومرقص سميكة باشا ، وأمين سامي باشا ، ومحمد أسعد برادة بك ، ومحمد خالد حسنين بك ، وإبراهيم درويش بك ، ومحمد نصار بك ، والأستاذ خليل مطران لتحضير ما يلزم للاحتفال بالذكرى المئوية لإنشاء ديوان المدارس التي تقع في غضون شهر فبراير سنة ١٩٣٧ ووضع كتاب ذهبي تستعرض فيه سياسة التعليم ونظمه المختلفة في مصر منذ العصور الأولى

النشيد القومي الرسمي

أصدر حضرة صاحب السعادة الأستاذ أحمد نجيب الهلالي بك وزير المعارف القرار التالي :

نظراً لما للأناشيد القومية من الأثر القوي في إظهار جلال الأمة ، والتنويه بعظمتها ، وإيقاظ شعور الشعب حين يتناشدها ، والحاجة إلى نشيد من هذا النوع يأتي في المناسبات القومية والدولية ، أسوة بالدول المتحضرة

وبما أنه لا يوجد لمصر في الوقت الحاضر نشيد قومي معترف به رسمياً مما تتعين معه المبادرة لسد هذا النقص بتشكيل هيئة يعهد إليها وضع شروط مباراة عامة لاختيار نشيد يحقق أغراض الأناشيد القومية أصدرنا القرار الآتي :

المادة الأولى — تشكل لجنة من :

حضرة صاحب العزة أحمد لطفي السيد بك مدير الجامعة المصرية رئيساً

حضرات : الأستاذ خليل مطران ، الأستاذ علي الجارم المفتش بالوزارة ، الدكتور محمود أحمد الحفني مفتش الموسيقى بالوزارة ، عبد الله سلامة أفندي مفتش التربية البدنية بالوزارة ، أعضاء

المادة الثانية — تكون مهمة هذه اللجنة وضع شروط مباراة عامة بين الشعراء والموسيقيين لنظم وتلحين نشيد قومي يكون صالحاً للاعتراف به رسمياً

المادة الثالثة — تعين جوائز مالية تمنح على الوجه الآتي :

« ا » ٥٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الأول في نظم النشيد الذي يعترف به رسمياً

« ب » ٣٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثاني

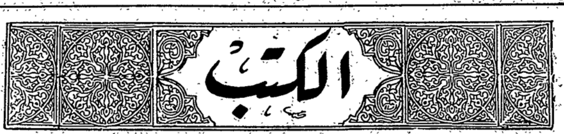
« حـ » ٢٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثالث

« د » ٥٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الأول في تلحين النشيد الذي يعترف به رسمياً

« هـ » ٣٠ جنيهاً مصرياً يمنحها الفائز الثاني

« و » ٢٠ جنيهاً يمنحها الفائز الثالث

المادة الرابعة — على وكيل الوزارة تنفيذ هذا القرار



الجبل الملهم

La Montagne inspirée

لناظمه الشاعر اللبناني « شارل القرم »

للأستاذ خليل هنداوي

ألفتُ ألا أكتب عن كتاب إلا بعد ركود الضجة التي تقوم حوله ، سواء عندي أكانت ضجة استحسان أم ضجة استهجان ، ثقة مني بأن النسمة الهادئة تسكن ما لا تسكن الريح العاتية . والآن وقد هدأت الضجة حول ديوان الجبل الملهم ، وقرّ ضمير صاحبه بعد أن أحرز على جائزة « ادغاريو » الفرنسية ، واطمأن وجدانه للحفلة الرائعة التي سيخطب فيها أدباء لبنان ، مرحبين بشاعر تغنى بجمال لبنان ! وخلاصة تلك الضجة التي قامت والتي ستقوم عبارات ثناء بدون كيل ، وجمل ولاء بلا وزن ، ترفع « شارل القرم » إلى ذروة دونها الذرى التي تغنى بها وتحدث بجمالها ، وكيف لا يرفع النبوغ أصحابه في بلاد يعرف أهلها معنى النبوغ ويرعون حق النبوغ ويقدرون قدر النبوغ ؟

تناولت ديوان « الجبل الملهم » من بين دواوين كلها عيون رانية إلى ، يستنجز أصحابها مني وعداً بالكتابة عنها ، فآثرت الالتذاذ بديوان يحدثني — في الصيف — عن الجبل الملهم ، فأهملت من هم أدنى إلى وعكفت على الجبل الملهم أتلوه بشوق وغبطة ولذة . وقد شغلت نفسي بتأمل الأمثلة الفنية فيه ، كاملة هنا متوسطة هنالك ناقصة هنالك ، وأنا برغم هذا التفاوت في مراحله لم أدع لغبطتي مجالاً لهزيمة

هنالك أجزاء متفككة عملت على وصلها بخيالي ، وهناك اضطراب كثير في ألحان بعض الأوزان التي جاءت كثرة تنوعها زيادة في التشويش ، فلا تكاد تهدأ الأذن إلى لحن حتى يطلع لحن آخر تنبو عنه . فحملت ذلك إلى نقص في الكفاءة الفنية التي تحتاج إلى تمرين كبير ، وهنالك بعض تشابيه تمجها آذان أهل

البلاد أنفسهم ، لأنها لا تمازج روح لغتهم ، ولا توائم نفس عبقريتهم ، كتشبيه الشمس « بصابون السحاب » ، وهنالك ضياع المثل الأعلى الذي يتبعه الشاعر بحيرة ، يتبعه بقلب موزع مضطرب ، فلا يدرك ما هو هذا المثل ولا يدري أين يجده .

لا يعتمد على عقله ولا يثق بروحه . يحارب بعض التقاليد ويؤمن ببعضها إيماناً أعمى : يتطرف في كل شيء يحبه أو ينفر منه . كأنما قلبه لا يغلب عليه اعتدال ولا استقرار

هذه بعض صفات تطالعك من الديوان وددتُ أن أتوسع فيها توسعاً فنياً ، ووددتُ أن يكون بحثي متعلقاً بها ، وقفاً عليها ، لولا ظاهرة خطرة غريبة كامنة في احدى الثنايا ، ما وقعتُ عليها حتى ارتعشتُ وعاودني ألم عنيف وشك في المستقبل . فتركت تلك التعليقات الفنية التي تتعلق بأصحابها وجابهت هذه الظاهرة الاجتماعية التي لها خطرها في حياتنا وبيئتنا وقوميتنا

تلوت هذه الأبيات التي يتحدث بها عن اللغة العربية :

« إننا ننطق اليوم لغة جاءت من آسيا
قد فرضها علينا القتل والرعب
وباطلاً نضع فيها الفن والشعر
والعلم والايمان » !

« إننا لن ننظر إلى العربية
نظرنا إلى أخ يُدعى إلى منزل أبيه
إن هذه الزهرة الصحراوية قد تقبلتها حدائقنا
تحت ضغط حكومة قاسية »

« قبلناها وهذبناها
وأدعمناها باعتنائنا الشديد
ولكن الإسلام لا يرضي بأن تكون هذه اللغة المرفوعة على جباهنا — لنا »

« إن هذه الكلمات الغريبة « اللغة السريانية » التي يتلقنها أبناؤنا
لم تكن يوماً غريبة عنا

بل يكاد يخيل إلينا أن قلوبنا
تذكر يوماً محبتها فيه »

« ولكن هؤلاء الذين يجحدون أصلنا اللاصق بنا . . .[١]
هؤلاء المنفصلين عنا ، المسلوخين من أذرعنا
الأغنياء بالنفى . . . .
هؤلاء يحتقرون أصلهم . كما يفعل الأعزاء العاقون الناكرون الاحسان »

تلوت هذه الفقرات وأنا أكذب نفسى وأتهمها . أحقاً أرى صاحب الجبل الملهم يتنصل من اللغة العربية ، ويعتبرها زهرة غريبة نبتت طفيلية فى حدائق لبنان ؟ أحقاً يرى صاحب الجبل الملهم أن هذه اللغة قد فرضت على أهل لبنان بالسيف والدم ؟ فاذا كان الشاعر لم يكتب له نصيب ولا سهم فى هذه اللغة لا فى نطق ولا كتابة ، فما له يعمل على التنكر منها وضربها فى الصميم ! وما بال أصحابنا اللبنانيين يشايعونه على هذا . وهم علموا ما للعربية من فضل ويد . وعلموا أن الاسلام لم يفرضها عليهم بالقتل والضرب . وإنما فرضت نفسها وعملت على فرض نفسها ، ومتى كانت اللغات تلين لارادات الأفراد ؟ وهل السريانية أخت العربية لو كان فى أجلها فسحة تذوقت رداها ؟ وماذا فى السريانية من أدب وفن يتعلق بأحشاء لبنان ، ويصطبغ بدم لبنان ؟

وأما أن الشاعر لا يريد الكتابة بالعربية لأنه لا يراها جديرة بأن تكون وعاء حكمته وفنه وشعره ، فهل عجزت اللغة عن ضم شتات أفكاره ؟ وهى التى لم تعجز ولن تعجز عن أفكار من كان لهم شأنهم وخطرهم ، إلا أن تكون أفكاره مما لا تحيل به العقول ، ولكن هو الشنآن

كنا نريد أيها الشاعر وأنت لا تنطق بهذه اللغة أن تحترم على الأقل كيانها ، ولا تدس عليها دساً يسخر منه الأجانب أنفسهم . كنا نريد أن يكون لك بأدباء المهجر أسوة حسنة : أولئك الأدباء الذين اصطلحت عليهم عوامل الغربة والانقطاع . وظلوا زاعين للغتهم حافظين لحرمتها عاملين على رفع ألويتها . وقد علمت منهم المجيد السباق فى لغته واللغة الأجنبية التى اصطنعها . كجبران ونعيمة والريحانى وكثير من أمثال هؤلاء فى المهجر وغير المهجر ممن تفتحت لهم من الآفاق ما تفتح لك ، ولان لهم من عبقرية غيرهم ما لان لك .

وأما أن الشاعر يود العودة إلى إحياء الروح الأولى وهى الروح الفينيقية ، شأن المصرية الفرعونية . فالمصريون الفرعونيون أنفسهم لم يفكروا يوماً فى نفى اللغة العربية من بين ظهرانيهم ؛ ولم يجدوا فى بقاء العربية ما يحول بينهم وبين العصر الذى أرادوه .

اضطراب – فى لبنان – فى المثل العليا والتفكير ، واختلاف فى الثقافة والمنحى . كأنما بيئة تفككت أجزاؤها وانطوى كل جزء على نفسه بدون وحدة منتظمة ولا جامعة ملتئمة . كل حزب يمشى ولا يدرى أين يمشى وأى هدف يقصد

وحدوا يا قوم تفكيركم واعرفوا ما تطلبون ، فاننا حتى اليوم لا ندرى مثلكم الأعلى ولا ندرى أى منهج تقصدون ؟ وأنقذوا لبنان قبل أن يقتله محبتكم ، فالمحبة المقسمة على نفسها هى أشد خطراً من الكره والنفور . ولكن لكم مثل أعلى تجمعون إليه وتعملون على إظهاره فى بيوتكم ومدارسكم ، وفى مجامع جدكم ولهوكم ، ينشأ عليه صغاركم ويشب عليه فتيانكم

أما أولئك الذين ينتظرون أن يهيموا غداً فى الحفلة التكريمية لصاحب الجبل الملهم ، أينظرون أى أكاليل يحملونه اليهم ، وأى أكاليل يحملونه اليه ؟ أكاليله لهم أكاليل احتقار اللغة العربية ، وأكاليلهم له مبايعته على ذلك . أكاليله « قبلات لبنانية على شفاه اللغة الفرنسية »[١] ، وأكاليلهم النعاء لمحب لبنان ورافع جبهة لبنان والمبشر بنبوغ لبنان . أحبوك يا لبنان وادعوا محبتك لأنفسهم حتى خنقوك بالأقماط وأدرجوك بالأكفان !

لبنان الذى يشبه اليوم « برج بابل » بأديانه ولهجاته ومذاهبه ، لا يوحد بين أجزائه إلا هذه العربية ، وإنما توحد بينها توحيداً تقليدياً لا يعمل على الايمان به قلب ولا يؤمن به دم . فاذا انهارت هذه السارية التى تتحد عليها أجزاء لبنان تم الفوضى داره ويفشو فيه روح التمزق . وأصحابنا بعد هذا كله يريدون أن يجمع بينهم هذا النشيد : « كلنا للوطن . . . كلنا للعلا . . . كلنا للعلم » . وقد علم العلم والعلا والوطن أن لا مكان لهم فى المكان الذى تتقلص فيه اللغة ولا يحترم لها كيان ، وتهان فلا يهب لنصرتها أعوان

تفرقوا ما استطعتم فى ثقافتكم ومثلكم ، فما أشبه الليلة بالبارحة

خليل هنداوى

---

(١) من هم هؤلاء ؟

(١) إشارة إلى البيت الذى ختم به الشاعر ديوانه



3 me Année, No. 117. — Lundi 30-9-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٧ « القاهرة في يوم الاثنين ٢ رجب سنة ١٣٥٤ — ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

عبرة الحادثات

للدكتور عبد الوهاب عزام

المدنية الأوربية، على خيراتها وما أجدت على الناس من علمها ورفاهيتها، مدنية مادية دعائمها المعادن والأحجار، يصاغ قلبها من الذهب والحديد وأشباههما، ويغذى بالفحم والنفط وأخواتهما، وتدور بهما دواليب المصانع والمغازل والمناسج. قد استحكمت فيها الآلات، وأتقنت الصناعات حتى أغنت عن الانسان أدواتها، ونافسه عتادها، فثارت العداوة بين الآلات وصانعيها وعمالها ومالكيها. وقد أوحى ذلك إلى بعض الأمريكيين فاخترعوا إنساناً آلياً يخدم خدمة الإنسان ويتحرك حركاته، وهل الانسان في المصانع إلا آلة سريعة العطب؟

طبع إنسان هذا العصر آلياً دائراً لا يألف الاستقرار ولا يعرف السلام، ولا تتمكن في قلبه المحبة، ولا تستقر في سريرته الشفقة. واستكلبت هذه الآلات على غذائها، وتنافست في أقواتها، وأحس كل أنها القوة لا العدل، والغلبة لا الانصاف، فنفخوا في الأمم روح العصبية، وغرور العنجهية، وزعم كل قبيل أن أوّله

خير الأولين ، وأنه سيد الحاضرين ، وأن بنيه سادة الآتين ، وأن الأرض كلها له ، وأن الويل لمن جادله . ثم ما شئت من أناشيد مثيرة ، وتربية هائجة ، وإيقاظ الوحشية في النفوس ، وإشعال البغضاء في الأفئدة ، حتى صار الناس على رغم العلم والفلسفة وعلى ما قربت بينهم الوسائل الحديثة أميل إلى الحرب والجلاد ، وأحب للتخريب والتدمير من أناسيّ القرون الخالية . فبينا تراهم في ظاهر من السلام والوئام ، يتغنون بحضارتهم ، ويعكفون على دراساتهم ، ويتكلمون في العدل والحرية والإخوة ، إذ تحكهم التجارب قدح الزناد ، فإذا النار تحت الرماد ! تغلب عليهم الطباع الحربية ، وتسيطر عليهم الحياة الآلية ، فإذا الأمم كلها جنود ومصانع للسلاح والمدمرات ، وإذا الأوربي كالذئب الذي لبس جلد الشاة ثم خلعه !

ومهما يكن حظ القوم من العدل والنصفة ، ونصيبهم من المودة والألفة ، فذلك فيما يشجر بينهم من خلاف . فأما أهل الشرق سكان آسيا وأفريقية من الأمم الملونة فليس لهم في العدل حماية ، ولا في القانون نصفة ، « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » . وما يزال صدى الأحداث يدوي في آذاننا ، وحسبك حروب طرابلس والبلقان والريف . فإن ساغ لأوربي أن يطمئن إلى عدل أوربا وإنصافها ، وقوانينها وجماعة أممها ، فليس للشرقي أن يسكن إلى ذلك ، فهو مال مباح ودم مهدور .

***

وتلك أمة ينفخ قادتها فيها الغرور والعجب ، ويذكرونها مجد الرومان وغابر الزمان ، حتى انتفخت أوداجها وورمت أنوفها . ثم صاحوا فيها قد بطشنا بطرابلس عشرين عاماً حتى دوخناها ، وذللنا دانيها وقاصيها ، ولكنها لا تفي بحاجتنا ولا تسد مطامعنا . ونظروا فإذا في أفريقية دولة واحدة مستقلة حفظ عليها استقلالها من دون أمم أفريقية أنها دولة نصرانية لم يستبح المغيرون أن يجعلوها كالمسلمين ، ولكنها على نصرانيتها أمة سوداء ضعيفة تسكن أرضاً واسعة ، صاح زعيمهم هلم إلى الحبشة ! . فانبرت العقول تخترع الأوهام والتعلات ، والألسن تفترى الكذب ، والأقلام تخط الأباطيل . وطفقوا يعيدون قصة الذئب والحمل حيناً ، ويصرحون بمكنون ضمائرهم حيناً . وسار الشر إلى الحبشة في جيوشه ومفترياته

ويشفق بعض الدول من هذه الغارات ويخاف عقباها فيستغيث الخلق والعدل ، وحماية الضعيف ، والاقتصاص من القوى . وتتوالى نذر الحرب ، وتطيف بمصر مقدماتها ، وتقف مصر بين دولة محتلة ، وأخرى مجاورة ، تشقها الطريق بين الحبشة وإيطاليا . تهيب مصر بجيشها فإذا جيش ضئيل ، وسلاح كليل ! وتدعو بنيها فإذا نفوس أبية ، وسواعد قوية ، ولكنها لم تدرب للقتال ، ولم تعد للنضال ، ولم تشهد الزحوف ، ولم تعتد التعرض للحتوف ، ولم تحمل السلاح ، ولم تمرس بآلات الكفاح ؛ أنفس عزيزة وأمة ذليلة ! ويقول من أبى على الأمة أن تأخذ للأيام أهبتها ، وتعد للخطوب عدتها : لا تراعوا ، هأنذا أدفع عنكم ! فاشكروني ولا تكفروني . ولو ترك لنا من قبل أن نعبئ جيوشنا ونعد سلاحنا لكان شكرنا أعظم وأجدى ، وكنا في أنفسنا أعز وأقوى ، وأنى يعز من يدفع عنه في عقر داره ، ولا يعول عليه في حماية نفسه :

ودرى من أعزه الدفع عنه فيهما أنه العزيز الذليل

هذا موقف الذلة والمهانة ، والضعة والاستكانة ، موقف من لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ولا يجلب لها خيراً ولا شراً —

رب عيش أخف منه الحمام !

ذلكم درس للحادثات مبين ، وعظة للخطوب بليغة ، فعلى المصريين راعيهم ورعيتهم ، ودهمائهم وقادتهم ، أن يفهموا الدرس ويعوه ، ويتدبروا الموعظة وينتفعوا بها . ومهما تنجل عنه السحب المكفهرة ، وتتكشف عنه الحادثات النذرة ، فليعملوا برأى واحد ويد واحدة ، ويتوسلوا بالعزم والحكمة حتى لا يقفهم الزمان هذا الموقف مرة أخرى ، « إن في ذلك لذكرى »

عبد الوهاب عزام

نظرة في النجوم

للأستاذ أحمد أمين

مما أرثى له أن أرى الشرقيين وخاصة سكان المدن لا ينتفعون بسطوح منازلهم الانتفاع الواجب ، فهم قلما يصعدون إليها إلا عند تركيب قوائم الراديو أو حبال الغسيل أو تخزين ما يستغني عنه في حجر السطح ، وهم يحبون أن يلتصقوا بالأرض ولا يحلقوا في السماء، وينزلوا بحضيض المنازل ولا يسموا الى أوجها

وفاتهم أن من خير متع الحياة « سطوح المنازل » لا سيما في جو بديع كجونا ، تصفو فيه السماء في أكثر أشهر السنة ، ويهب فيه النسيم العليل ليلا ، ويمتد فيه البصر ، وتنشرح فيه النفس ، ولياليه بين ليال مقمرة بديعة لا تمل العين جمالها ، وليال غاب فيها القمر فقامت النجوم مقامه تناغيك وتحدثك وتملأ قلبك روعة ونفسك حياة

تبا للأعين التي تنظر دائماً الى تحت ، ولا تنظر الى فوق ، والى الأسفل لا الى الأعلى ، ويلذ لها أن تنظر الى المسافات القريبة والى ما تلمس ، ولا تنظر الى البعد السحيق والمنظر البعيد . إن العين إذا اعتادت ذلك قلدتها النفس فلم تنظر الى الأمل البعيد ولم تلتذ بالطموح ، ولم تسعد بالأمل ، وقنعت بما هي فيه ورضيت بالدون وتشاغلت به ، وصدها ذلك عن أن تنشد الكمال ، للارتباط الشديد بين عالم الحس وعالم العقل وعالم الروح

ولقد كان آباؤنا الأولون أكثر منا عناية بالسماء ، حتى العرب في بداوتهم أطالوا النظر في النجوم وانتفعوا بجوهم المفتوح ، وسمائهم الصافية ، فعرفوا كثيراً منها ، ووضعوا لها أسماءها ، وكان لهم فيها ملاحظات دقيقة ، وأشعار رقيقة ؛ أما نحن فقل أن نعرف من أسماء النجوم إلا الشمس والقمر ، وجهلنا بأسماء مشاهيرها جهل فاضح لا يتفق وسماءنا البديعة . وأما شعراؤنا — سامحهم الله — فأكثرهم لا يشعر في السماء والنجوم إلا تقليداً ، وقد يبرح به ألم الهجر في غرفته المسقوفة وقد أغلقت شبابيكها واسدلت ستائرها ومع ذلك يشكو النجوم وثباتها وهو لا يرى سماء ولا نجوما

لو كان في أوروبا جو مكشوف دافئ كجونا ، لعرفوا كيف ينتفعون بالسماء كما انتفعوا بالأرض ، ولاتخذوا من سطوح منازلهم مقاماً للسمر الحلو والتأمل اللذيذ ، ولاتخذوا منها منتديات ومقاه ومسارح للسينما والتمثيل وأماكن للمحاضرات فانتفعوا بجمال الجو وجمال منظر السماء وجمال منظر السينما والتمثيل وجمال الحديث معاً ، ولو فعلنا لارتحنا من عناء المتسولين والتجولين وماسحي الأحذية إلا أن يصعدوا الينا في السماء

***

نعمت هذا الشهر بسطح منزلنا ، وأكثرت من التحدث إلى النجوم ، والإصغاء إلى حديثها ، وملت إلى قراءة شيء من أخبارها ، فملأت قلبي حياة ، وعقلي هدوءا ، وأعصابي راحة

وكنت كلما شكوت من شيء بثثت شكواي إلى النجوم فتبخرت ، وكلما تدنست في جو الأرض تطهرت في جو السماء ، فان آلمتني السياسة بألاعيبها وخداعها ، والأولاد بمضايقاتهم ومتاعبهم ، والخدم برذائلهم ، والبيئة بمشاكلها وصغائرها ، علوت إلى السطح وانبطحت على سجادة ، ووصلت أسباب ما بيني وبين النجوم فزال كل ألم ، واحتقرت كل ما ضايقني ، وعشت في عالم جديد لذيذ مريح ، ورأيت أني غسلت نفسي كما يغسل الثوب في البحر الواسع

عظيمة هذه النجوم وجميلة وجليلة ! فان رأيت نجوم المجرة وعلمت أنها تبلغ عدتها الملايين ، وأنها تسير بسرعة هائلة ، وأن بعض النجوم يقطع نحو ٢٤٠ كيلو مترا في الثانية ، وبعضها يقطع نحو ٤١٠ كيلو في الثانية ، وأن بعضها بلغ من البعد عنا ما لا يصل الينا ضوؤه إلا في آلاف السنين ، أيقنت بهذه العظمة ؛ وشعرت في أعماق نفسك بحقارتك وحقارة مشاغلك وحقارة أرضك كلها — وإن علمت أن في السماء آلافاً من الشموس تكون كل شمس منها مجموعة من النجوم كمجموعتنا الشمسية ، سبحت في عالم من العظمة لا حد له ، وتساءلت في كثير من الحيرة والإعجاب إلى أي طريق هي مسوقة ، وإلى أي طريق نحن مسوقون معها ؟ وقلت كما قال أبو الشبل البغدادي :

ربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار ؟

ثم رددت الطرف خاشعاً وهو حسير ، ولكنها حسرة لذيذة لا أرضى بها بديلا

أيتها النجوم ، كم من الناس نظروا إليك فأعجبوا بعظمتك وجمالك وجلالك ، وكم من الشعراء تغنوا بك ، وتفننوا في الاشادة بذكرك ، وعابوا عليك سرعتك أيام الوصال ، وبطئك أو وقوفك أيام الهجران

وكم حارت فيك العقول فظنوك آلهة وعبدوك من دون الله ، وأقاموا لك الهياكل والتماثيل ، ثم تقدموا قليلاً فأنزلوك من مقام الألوهية قليلاً ، وجعلوا لك أثراً كبيراً في أحداث الأرض ، فلك أثر في الرياح والأمطار والسعادة والشقاء ، وربطوا مواليد الناس بك ، وجعلوا استعدادهم وشقاءهم من أجلك ، وحتى الفلاسفة العظام أمثال أرسطو أعمتهم عظمتك عن أن يدركوا حقيقتك فأسندوا إليك عقولاً كباراً وجعلوا منزلتك في الفكر والعقل فوق منزلة الانسان ، وسبحوا في الخيال فأسسوا نظاماً وهمياً للأفلاك وتدرجها في الأثر حتى تصل إلى عالمنا — وخدع الناس بك فبنيت لك المراصد لمراقبة حركاتك ، وأقنع المنجمون الناس بتأثيرك فسمموا لقولهم ، واتخذ الملوك المنجمين يعتمدون عليهم في تدبير ممالكهم ، كما يعتمدون الأطباء لتدبير أجسامهم ، فلا يضعون بناء إلا بعد رصدهم لك وإشارتهم بأنك ستمنحين السعادة لبنائهم ، ولا يحاربون إلا برأى رجالك وتخير أوقات رضائك

وكم شغل الناس بطوالعك ، وتخيروا أوقات زواجهم محسوبة بحسابك ، وتنبأوا — بموتتك — بموت فلان وحياة فلان وأنت أنت فوق ذلك كله لا تعبئين به ولا تلتفتين إليه ، كأن أمرهم لا يعنيك ، وشؤونهم لا تهمك ، وتتابعت الأجيال ومرت السنون ، وفنيت أقوام وجدت أقوام وكلهم يتحوطك إعجابهم وأنت في علائك وسيرك وسرعتك دائبة أبداً

وأتى العلم الحديث فغير فيك الأفكار ، وساواك بالأحجار ، وجعل قمرك الجميل كأرضنا غير الجميلة ، وسلب عنك العقل والفكر وأخضعك لنواميس الطبيعة وأبان خرافات الأقدمين فيك — ومع ذلك أقر بجلالك وأخذ بدقة نظامك ، وأقر بجهله أن يحيط بك ، وأن يعرف كل قوانينك — فأنت أنت أيام الجهل وأيام العلم ، وأيامنا وأيام آبائنا

وبينا أنا في ذلك كله ، وفوق ذلك كله ، إذ دعاني الخادم إلى التليفون فنزلت من السماء إلى الأرض

— آلو

— فلان — لعلك تذكرني

— أهلاً وسهلاً

— أريد أن أقابلك

— هل من شيء ؟

— لقد تخرجت من كلية الآداب واشتغلت في عمل لا يناسبني ، وماهية لا تليق بي ، وإخواني كلهم خير مني ، فلي سنوات لم آخذ علاوة ولم أرق إلى درجة

— نعم

— والآن هناك حركة ترقية وأريد مساعدتك

ثم حوار طويل ، ورجاء مستمر ، وشكوى بؤس ، وعائلة يعولها ، وماهية لا تكفيها ، ودنيا ضاقت به وبها

***

في أي تفكير كنت ، وإلى أين صرت ، هذه السماء وهذه الأرض ، أين هذا العالم العظيم السعيد الذي كنت أحلم به من هذا العالم الحقير التافه الذي نقلني اليه التليفون والذي يعفى فيه أكثر الناس أكثر أعمارهم ، لقد غطسني بحديثه في ماء مثلج ، فلأصعد ثانية إلى السماء ولأعاود ما كنت فيه . . . لا — لم تعد للفكر لذته ولا لحديث النجم متعته

***

لقد قلب علم الفلك عقلية الانسان رأساً على عقب ، فقد كان يظن أنه سيد العالم ، وأن أرضه هذه هي مركز العالم ، وأن الشمس والقمر والنجوم تدور حولها فأبان له العلم أن أرضه ليست إلا هنة تسبح في الفضاء ، وأنها شيء تافه في المجموعة الشمسية التي تدور حول الشمس ، وأن كل العالم من أرض ونجوم خاضعة لقوانين واحدة كقوانين الجذب وما إليها ، وأنه إن كانت أرضه هنة فكيف به هو — كل هذا غيّر عقلية الانسان وأنزله من شامخه وسلبه غروره فأخذ يفكر تفكيراً جديداً وينظر لنفسه وللعالم نظراً جديداً ويربط نفسه بالعالم ، ويرى أنه هو والعالم وحدة ، وأن هذه الوحدة تخضع لقوانين ثابتة استكشف أقلها وغاب عنه أكثرها ، ما استكشف منها يدل على عظمة باقيها وعمومها وسيطرتها — ولكن شيئاً واحداً لم يتغير في الانسان وهو ارتباط عواطفه بالنجوم ، وأنها تجد السبيل دائماً لقلبه ، وتوحى إليه بعظمة ربها وربه

أحمد أمين

٢ - الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاءت أحلى من الأمل المعترض سنحت به فرصة؛ وعلى أنها لم تخط إلينا إلا خطوة وتمامها، فقد كانت تجد في نفسها ما يجده لو أنها سافرت من أرض إلى أرض، ونقلها البعد النازح من أمة إلى أمة

يا عجباً! إن جلوس انسان إلى انسان بإزائه قد يكون أحياناً سفراً طويلاً في عالم النفس؛ فهذه الحسناء تعيش في دنيا فارغة من خلال كثيرة، كالتقوى، والحياء، والكرامة، وسمو الروح، وغيرها؛ فاذا عرض لها من يشعرها ببعض هذه الخلال، وينتزعها من دنيا اضطرارها وأخلاق عيشها ولو ساعة — فما تكون قد وجدت شخصاً بل كشفت عالماً تدخله بنفس غير النفس التي تدبّرها في عالم رزقها...

ولا أعجب من سحر الحب في هذا المعنى؛ فان العاشق يكون حبيبه إلى جانبه، ثم لا يحس إلا أنه طوى الأرض والسموات ودخل جنة الخلد في قبلة...

***

جلست إلينا كما تجلس المرأة الكريمة الخفرة، تعطيك وجهها وتبتعد عنك بسائرها، وتريك الغصن وتخبأ عنك أزهاره. فرأيناها لم تستقبل الرجل منا بالأنثى منها كما اعتادت؛ بل استقبلت واجباً برعاية، وتلطفاً بحنان، وأدباً من فن بأدب من فن آخر؛ وكان هذا عجيباً منها، فكلمها في ذلك الأستاذ (ح) فقالت: أما واحدة فاننا نتبع دائماً محبة من نجالسهم وهذه هي القاعدة. وأما الثانية فاننا لا نجد الرجل إلا في الندرة؛ وإنما نحن مع هؤلاء الذين يتسمّون بسيما الرجال — كحيلة المحتال على غفلة المغفل، وهم معنا كالقدرة بالثمن على ما يشتريه الثمن؛ ليسوا علينا إلا قهراً من القهر؛ ولسنا عليهم إلا سلباً من السلب، مادة مع مادة؛ وشر على شر؛ أما الانسانية منا ومنهم فقد ذهبت أو هي ذاهبة.

قال (ح): ولكن...

فلم تدعه يستدركه، بل قالت: إن «لكن» هذه قائمة الآن... فلا تجيء في كلامنا. أتريد دليلاً على هذا الانقلاب؟ إن كل انسان يعلم أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين؛ ولكن كل امرأة منا تعلم أن الخط المعوج هو وحده أقرب مسافة بينها وبين الرجل...

قالت: فاذا وجدت إحدانا رجلاً بأخلاقه لا بأخلاقها... ردّتها أخلاقه إلى المرأة التي كانت فيها من قبل، وزادتها طبيعتها الزهو بهذا الرجل، فتكون معه في حالة كحالة أكمل امرأة؛ بيد أنه كالحلم الذي يستيقظ وشيكاً، فان الرجل الكامل يكمل بأشياء، منها وا أسفاه! منها ابتعاده عنا.

ثم قالت: وصاحبك هذا منذ رأيته، رأيته كالكتاب يشغل قارئه عن معاني نفسه بمعانيه هو....

***

وضحكت أنا لهذا التشبيه، فمتى كان الكتاب عند هذه كتاباً يشغل بمعانيه؟ غير أني رأيتها قد تكلمت واحتفلت، وأحسنت وأصابت، فتركتها تتحدث مع الأستاذ (ح) وغبت عنهما غيبة فكر؛ وأنا إذا فكرت انطبق عليّ قولهم: خلّ رجلاً وشأنه، فلا يتصل بي شيء مما حولي. وكان كلامها يسطع لي كالمصباح الكهربائي المتوقد، فقدمها فكرها إليّ غير ما قدمت إليّ نفسها، ورأيت لها صورتين في وقت معاً، إحداهما تعتذر من الأخرى.....

وكنت قبل ذلك بساعة قد كتبت في تذكرة خواطري هذه الكلمة التي استوحيتها منها: لأضعها في مقالة عنها وعن أمثالها وهي هذه الكلمة:

إذا خرجت المرأة من حدود الأسرة وشريعتها، فهل بقي منها إلا الأنثى مجردة تجريدها الحيواني المتكشف المتعرض للقوة التي تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعمل هذه المرأة إلا أعمال هذه الأنثى؟

وما الذي استرعاها الاجتماع حينئذ فترعاه منه وتحفظه له، إلا ما استرعى أهل المال أهل السرقة؟ إن الليل ينطوي على آمنين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء.

وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا متشوهة ما دامت

رذائلها دائماً وراء عينيها ، وما دام بإزاء عينيها دائماً الأمهات والمحصنات من النساء ، وليس شأنها من شأنهن؟ إن خيالها يجرّ في وعيه صورتها الماضية من قبل أن تزل ؛ فإذا خلت إلى نفسها كانت فيها اثنتان إحداهما تلعن الأخرى ، فترى نفسها من ذلك على ما ترى.

وهي حين تطالع مرآتها لتتبرج وتحتفل في زينتها ، تنظر إلى خيالها في المرآة بأهواء الرجال لا بعيني نفسها ، ولهذا تبالغ أشد المبالغة ؛ فلا تُعنَى بأن تظهر جميلة كالمرأة ، بل مشتهاة كالتاجر ... وتكسبها بجمالها يكون أول ما تفكر فيه ، ومن ذلك لا يكون سرورها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكتسب منه ؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة ، فإن سرورها بمسحة الجمال عليها هو أول فكرها وآخره .

إن الساقطة لا تنظر في المرآة — أكثر ما تنظر — إلا ابتغاء أن تتعهد من جمالها ومن جسمها مواقع نظرات الفجور وأسباب الفتنة ، وما يشتهي الرجل وما يفسد العفة عليه ، فكأن الساقطة وخيالها في المرآة رجل فاسق ينظر إلى امرأة لا امرأة تنظر إلى نفسها ...

***

ذهبت أفكر في هذه الكلمة التي كتبتها قبل ساعة ، ولم أستطع أن أليس في هذه القضية وجه القاضي ؛ فدخلتني رقة شديدة لهذا الجمال الفاتن الذي أراه يبتسم ، وحوله الأقدار العابسة ، ويلهو ، وبين يديه أيام الدموع ، ويجتهد في اجتذاب الرجال إليه ، والوقت آت بالرجال الذين سيجتهدون في طرده عن أنفسهم

وتغشاني الحزن ، ورأت هي ذلك وعرفته ؛ فأخرجت منديلها المعطر ومسحت وجهها به ، ثم هزته في الهواء فإذا الهواء منديل معطر آخر مسحت به وجهي ...

وقال الأستاذ (ح) : آه من العطر ! إن منه نوعاً لا أستنشيه مرة إلا ردني إلى حيث كنت من عشرين سنة خلت ، كأنما هو مسجل بزمانه ومكانه في دماغي ...

فضحكت هي وقالت : إن عطرنا نحن النساء ليس عطراً ، بل هو شعور نثبته في شعور آخر

فقلت أنا : لا ريب أن لهذه الحقيقة الجميلة وجهاً غير هذا ؛

قالت : وما هو ؟

قلت : إن المرأة المعطرة المتزينة هي امرأة مسلحة بأسلحتها ، أفي ذلك ريب ؟

قالت : لا

قلت : فلماذا لا يسمى هذا العطر بالغازات الخانقة الغرامية ... ؟

فضحكت فنونا ؛ ثم قالت : وتسمى (البودرة) بالديناميت الغرامي ...

وثقلني ذلك إلى نفسي مرة أخرى ، فأطرقت إطراقة ؛ فقالت : ما بك ؟

قلت : بي كلمة الأستاذ (ح) ، إنها ألهبت في قلبي جمرة كانت خامدة .

قالت : أو حركت نقطة عطر كانت ساكنة ...

فقلت : إن الحب يضع روحانيته في كل أشيائه ، وهو يغير الحالة النفسية للإنسان فتتغير بذلك الحالة العقلية للأشياء في وهم المحب . (فعطر كذا) مثلاً .... هو نوع شذي من العطر ، طيب الشميم ، عاصف النشوة ، حاد الرائحة ، لكأنه ينشر في الجو روضة قد ملئت بأزهاره تشم ولا ترى ؟ وإنه ليحمل الزمن نفسه عبقاً بريحه وأنه ليفعم كل ما حوله طيباً وأنه ليسحر النفس فيتحول فيها ...

وهنا ضحكت وقطعت على الكلام قائلة : يظهر لي أن (عطر كذا) هاجر أو مخاصم ...

قلت : كلا ، بل خرج من الدنيا وما انتشقت أريجه مرة إلا حسبته ينفح من الجنة

فما أسرع ما تلاشى من وجهها الضحك وهيئته ، وجاءت دمعة وهيئتها . ولمحت في وجهها معنى بكيت له بكاء قلبي بجمالها ، فتنتها ، سحرها ، حديثها ، لهوها ؛ آه حين لا يبقى لهذا كله عين ولا أثر ، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذنوب ، وذنوب ، وذنوب

***

وأردنا أنا و (ح) بكلامنا عن الحب وما إليه ألا نوحشها

من انسانيتنا ، وأن تبلَّ شوقها إلى ماحُرمتْه من قدرها قدرَ إنسانة فيما تتمطَّاه بيننا . والمرأةُ من هذا النوع إذا طمعت فيما هو أغلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع — طمعت فى الاحترام من رجل شريف متعفِّف ، ولو احترامَ نظرة ، أو كلمة . تقنعُ بأقل ذلك وترضى به ، فالقليلُ مما لا يدرك قليله هو عند النفس أكثرُ من الكثير الذى يُنال كثيرُه .

ومثل هذه المرأة ، لا تدرى أنت أطافتْ بالذَّنب أم طاف الذنبُ بها ؟ فاحترامها عندنا ليس احتراماً بمعناه ، وإنما هو كالوجوم أمام المصيبة فى لحظة من لحظات رهبنية القدَر وخشوع الإيمان

وليست امرأةٌ من هؤلاء إلا وفى نفسها التندُّم والحسرةُ واللهفة مما هى فيه ، وهذا هو جانبُهن الانسانيُّ الذى يُنظر إليه من النفس الرقيقة بلهفة أخرى ، وحسرة أخرى ، وندم آخر . كم يرحمُ الانسانُ تلك الزوجةَ الكارهةَ المرغمةَ على أن تعاشرَ من تكرهه فلا يزال يغلى دمُها بوساوس وآلام من البغض لا تنقطع ! وكم يرثى الانسانُ للزوجة الغيور ، يغلى دمُها أيضاً ولكن بوساوسَ وآلام من الحبّ ! ألا فاعلم أن كل امرأة من مثل هذه الحسناء تحمل على قلبها مثل همّ مائة زوجة كارهة مرغمة مستعبدة ، يخالطه مثلُ همّ مائة زوجة غيور مكابدة منافسة ، ولقد تكون المرأة منهن فى العشرين من سنها وهى مما يكابدُ قلبها فى السبعين من عمر قلبها

وهذه التى جاءتنا إنما جاءتنا فى ساعة منا نحن لا منها هى ، ولم تكن معنا لا فى زمانها ولا فى مكانها ولا فى أسبابها ، وقد فتحت البابَ الذى كان مغلقاً فى قلبها على الخفر والحياء ، وحوَّلت جمالها من جمال طابعه الرذيلة إلى جمال طابعه الفن ، وأشمرت أفراحها التى اعتادتها روحَ الحزن من أجلنا فأدخلت بذلك على أحزانها التى اعتادتها روح الفرح بنا

من ذا الذى يعرف أن أدبه يكون إحساناً على نفس مثل هذه ثم لا يُحسن به ؟ (١)

***

تتجددُ الحياةُ متى وجد المرءُ حالةً نفسيةً تكون جديدةً فى سرورها . وهذه المرأةُ المسكينةُ التى لا يعنيها من الرجل مَن هو ؟ ولكن كم هو ...؟ لم ترَ فينا نحن الرجلَ الذى هو « كم » بل الذى هو « من » . وقد كانت من نفسها الأولى على بُعد قصيٍّ كالذى يمدُّ يده فى بئر عميقة ليتناولَ شيئاً قد سقط منه ؛ فلما جلست الينا اتصلت بتلك النفس من قُرب ، إذ وجدت فى زمنها الساعةَ التى تصلح جبراً على الزمن .

قال الراوى : كذلك رأيتها جديدة بعد قليل ، فقلت للأستاذ (ح) : أما ترى ما أراه ؟

قال : وماذا ترى ؟ فأومأتُ إليها وقلت : هذه التى جاءت من هذه . إن قلبها ينشر الآن حولها نوراً كالمصباح إذا أضىء ، وأراها كالزهرة التى تفتَّحت ؛ هى هى التى كانت ، ولكنها بغير ما كانت

فقالت هى : إنى أحسبُك تحبنى ؛ بل أراك تحبنى ؛ بل أنت تحبنى . . . لم يخفَ على هذا منذ رأيتك ورأيتنى

قلت : هبيه صحيحاً فكيف عرفتِه ولم أُبِنْه لكِ ، ولم أتملَّق لكِ ، ولم أزد على أن أجىءُ إلى هنا لأكتب ؟

قالت : عرفته من أنك لم تباسطنى ، ولم تتملق لى ، ولم تزد على أن تجىءُ إلى هنا لتكتب . . .

قلت : ويحك لو كحِلَت عينُ (المكرسكوب) لكانت عينَك . وضحكنا جميعاً ؛ ثم أقبلتُ على الأستاذ (ح) فقلت له : إن القضايا إذا كثر ورودُها على القاضى جعلتْ له عيناً باحثة .

***

قال الراوى : وأنظرُ إليها فإذا وجهُها القمرىُّ الأزهرُ قد شرِق لونه وظهر فيه من الحياء ما يظهر مثلُه على وجه العذراء المخدَّرة إذا أنت مسستَها بريبة ؛ فما شككتُ أنها الساعةَ امرأةٌ جديدة قد اصطلح وجهُها وحياؤُها ، وهما أبداً متعاديان فى كل امرأة مكشوفة العفة . . .

وذهبتُ أستدرك وأتأوَّل ، فقلت لها : ما ذلك أردتُ ، ولا حدَّستُ على هذا الظن ، وإنما أنا مُشفق عليك مما بك ؛ وهل يَعرِضُ لك إلا الطبقة النظيفة . . . من المجرمين والخبثاء وأهل الشرّ ؛ أولئك الذين أعمالهم فى دُور الخلاعة

(١) فى كتابنا (السحاب الأحمر) فصل طويل عنوانه (الربيطة) كتبناه فى مثل موضوع (الجمال البائس) غير أنه بمنحى آخر ومعان أخر . والربيطة هى الكلمة العربية التى تقابل كلمة Maitresse يريد بها الأوربيون المرأة التى ترتبط بأجر فى دار الرجل لتحل محل الزوجة . . .

والمسارح وأسافلهم في دور القضاء والسجون؟

فقالت: اعترف بأنك لم تحسن قلب الثوب فظهر لكل عين أنه مقلوب؛ لكنك تحبني... وهذا كاف أن ينهض منه عذر

قال الأستاذ (ح): إنه يحبك، ولكن أتعرفين كيف حبه؟ هذا باب يضع عليه دائماً عدة من الأقفال.

قالت: فما أيسر أن تجد المرأة عدة من المفاتيح!...

قال: ولكنه عاشق يتبرز العشق بين يديه، فكأنه هو وحبيبته تحت أعين الناس، ما تطمع إلا أن تراه وما يطمع إلا أن يراها، ولا شيء غير ذلك؛ ثم لا يزال حسنها عليه ولا يزال هواه إليها؛ وليس إلا هذا.

قالت: إن هذا لعجيب!

قال: والذي هو أعجب أن ليس في حبه شيء نهائي، فلا هجر ولا وصل؛ يتشاك بعد ساعة ولكنك أبداً باقية بكل جمالك في نفسه. والصغائر التي تبكي الناس وتتلذع في قلوبهم كالنار ليجعلوها كبيرة في همهم ويطفئوها وينتهوا منها كتكمل شهوات الحب — تبكيه هو أيضاً وتتلذع في قلبه، ولكنها تظل دائماً صغائر ولا يعرفها إلا صغائر؛ وهذا هو تجبره على جبابرة الحب

***

قال الراوي: ونظرت إليها ونظرت، وعاتبت نفس نفساً في أعينهما، وسألت السائلة وأجابت المجيبة، ولكن ماذا قلت لها وماذا قالت؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

لأحياء الآداب العربية والتراث القومي

ومهمة دار الكتب المصرية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

يستطيع الذين درسوا الآداب التاريخية الغربية، وقرأوا تواريخ الأمم الغربية في تلك الموسوعات والآثار الجليلة التي تمتاز بطابعها العلمي الدقيق، أن يقولوا بحق إن تاريخ الاسلام والأمم الاسلامية لم يكتب حتى عصرنا

إن الآداب العربيـة تزخر بالموسوعات والآثار التاريخية في كل عصر، وكل قطر؛ ومنها بلا ريب آثار كثيرة تمتاز بدقتها ونفاستها؛ ولكن هذه الآثار تقف أولاً منذ عصر بعيد، فلا تكاد تجد في العربية موسوعة أو مؤلفاً تاريخياً جليلاً منذ القرن العاشر الهجري؛ وهي من جهة أخرى لا يمكن أن تعتبر أكثر من مادة لتغذية المؤرخ الحديث بما يحتاج إليه من التفاصيل والوثائق؛ ومن الانصاف أن نقول إن هذه المادة تمتاز بغزارتها في عصور كثيرة؛ ولكن من الأسف أن أغلبها ما زال يحتجب عن أعيننا في أروقة المكاتب والمجموعات الخاصة، فلا يصل إليها الباحث إلا بعد الجهد المضني.

وهذه مسألة تستحق الاهتمام من كل أولئك الذين يتصلون بالمباحث الاسلامية والتاريخية، وأولئك الذين يشرفون على توجيه الثقافة القوميـة؛ وفي مقدمتهم وزارة المعارف العمومية والجامعة المصرية. فالى الآن لم يكتب تاريخ مصر الاسلامية، ولا مصر الحديثة بما يجب من دقة وإفاضة، وإلى الآن لم تعرف مصادر التاريخ المصري معرفة حسنة حتى من كثير من أولئك الذين يعنون بكتابته أو بتدريسه؛ وإنه لما يبعث إلى الدهشة كما يبعث إلى الأسف أن نجد الكتب الدراسية التي يعتمد عليها الشباب في دراسة التاريخ المصري أو الاسلامي بوجه عام، خلاصة مشوهة اشتق معظمها من المؤلفات الأجنبية، وهي لذلك تفيض بالأخطاء والمثالب، وينقصها روح الانصاف

والتمحيص ؛ هـذا بينا تلقى الكتب التي تعنى بتواريخ الأمم الأجنبية عناية أوفر لأنها تعتمد في مادتها على المصادر القومية المنظمة ، ويجد فيها الشباب من التبسط والتمحيص ما لا يجده في كتب التاريخ المصري أو الاسلامي

إن دار الكتب المصرية تزخر بمئات وألوف من مصادر التاريخ الاسلامي وتاريخ مصر الاسلامية بنوع خاص ، وبين هذه المصادر موسوعات جليلة في مختلف العصور ، ومنها ما كتبته أقلام معاصرة قديرة ؛ وفيها من المواد والتفاصيل والوثائق ما يغتبط له الباحث ويحقق غايته . ولكن كم من هذه المصادر الجليلة أتيح له أن يرى الضياء حتى يومنا ؟ ومع ذلك فان هذه الآثار التي أخرجت حتى اليوم لم تلفت أنظار الباحثين والقراء لأنها لم تنل حقها من التعريف أولاً ، وثانياً لأن معظمها ما زال فريسة الناشرين المتجرين الجهلة ، يخرجونه في أثواب عتيقة منفرة يقبل عليها الباحث مرغماً ويلقى في مراجعتها من المشقة ما يلقاه في مراجعة المخطوطات القديمة ذاتها

هذا وما زالت المراجع والموسوعات القديمة التي وضعت بين أيدي الباحثين والكتاب مستقى خصباً لنقل النصوص والروايات كما كتبت منذ مئات السنين ؛ وما زال معظم المؤلفات التاريخية المعاصرة يقوم على هذا النقل المجرد ؛ ومثل هذه المؤلفات لا قيمة له من الوجهة العلمية ، لأن عصر النقل المجرد انتهى منذ بعيد ، وأصبح التاريخ في عصرنا علماً جليلاً يقوم على المباحث والمقارنات العلمية والنقدية والاستنباط المسند ، وأصبح وثيق الصلة بكثير من العلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ؛ فمن المؤلم أن يرغم الشباب في هذا العصر الذي يعتبر فيه التاريخ مرآة الحضارة ودعامة العاطفة القومية ، على أن يقرأ التاريخ الاسلامي والتاريخ القومي في هذه الكتب الممسوخة التي استخرجت دون بحث أو تمحيص من الروايات القديمة ، ولا فضل لمصنفيها — إن كان ثمة فضل — إلا في الاختصار والتبويب والطبع الأنيق

***

وقد آن أن نتحرر من هـذا الجمود الذي يشل ثقافتنا التاريخية ، ويحجب عنا تراث الماضي الزاخر ، وأن نستخرج من هذا التراث نفائسه ، ونقدمها لجيل العصر في أثواب العصر وأساليبه . وأول ما يجب لتحقيق هـذه الغاية في رأينا هو أن يبذل جهد صادق للتعريف بهذا التراث وقيمته وأمكنة وجوده .

وهـذه مهمة تستطيع دار الكتب المصرية أن تؤدي فيها أعظم دور . ولقد عكفت منذ أعوام على دراسة هذا الجانب من تراثنا القومي ، فكتبت عدة دراسات ومباحث عن أقطاب الرواية المصرية مثل ابن عبد الحكم والكندي وابن زولاق والمسبحي والقضاعي والنويري والعمري والقلقشندي والمقريزي وابن تغري بردي والسخاوي وابن اياس ، استعرضت فيها تراجمهم وجهودهم وآثارهم المنشورة والمخطوطة استعراضاً وافياً ، وعنيت فيها عناية خاصة بالتعريف بعشرات بل مئات من الآثار والمصادر الجليلة التي تتعلق بتاريخ مصر الاسلامية ، والتي ما زالت مخطوطة بعيدة عن التعريف والتداول تحجبها ظلمات النسيان في أروقة دار الكتب . بيد أن مثل هذه المجهودات الفردية لا يمكن أن تحقق الغاية المنشودة . وعندنا أن دار الكتب المصرية يجب عليها أن تعنى بوضع فهرس خاص لمصادر التاريخ المصري العربية المنشورة والمخطوطة بنوع خاص ، تتحرى في وضعه أحدث الطرق العلمية وتصنف المصادر فيه حسب العصور ، وتوصف محتوياتها وصفاً علمياً دقيقاً ؛ ولا تقتصر في ذلك على المصادر الموجودة ، بل تضمنه أيضاً ذكر المصادر والآثار المخطوطة المحفوظة في مختلف المكاتب الأجنبية بالاعتماد على فهارس هـذه المكاتب أو بارسال مندوب أو أكثر للخارج لدراستها وتدوين أوصافها وتصوير ما يجب تصويره منها . ثم يوضع إلى جانب هذا الفهرس العربي ، فهرس آخر يتضمن جميع المصادر والآثار الأجنبية المتعلقة بمصادر التاريخ المصري في جميع العصور ، وفي جميع اللغات الحية ، ويصنف تصنيفاً علمياً دقيقاً ؛ وتبذل دار الكتب جهدها لاستكمال ما ينقصها من هذه المؤلفات ، وينشر الفهرسان ، ويصبح كل منهما مرجعاً نفيساً لمصادر التاريخ المصري ووثائقه ؛ وبذلك تحظى آثارنا المحجوبة بشيء من التعريف ، ويسهل سبيل البحث على الباحثين ، ويفتتح عهد جديد لدراسة التاريخ المصري وكتابته

ثم يجب إلى جانب ذلك أن تدرس جميع الوثائق المتعلقة بتاريخ مصر وأنظمتها الادارية والاجتماعية والاقتصادية مما تحتفظ به دار الكتب ذاتها ، أو الدفترخانة المصرية ، أو وزارة الأوقاف أو غيرها ؛ ومن المعروف أنه توجد لدينا طائفة كبيرة من هـذه الوثائق ، ولا سيما مما يتعلق بالعصر التركي ، وفيها كثير مما يلقي

الضنيلة على طبيعة الأنظمة الإدارية والاجتماعية والثقافية في مصر في هذا العصر . ومعظم هذه الوثائق التي تحتفظ الدفترخانة المصرية بكثير منها محرر باللغة التركية ، ويقتضي ترجمته أو تلخيصه . ونذكر أن الأنظار اتجهت منذ أعوام إلى هذه الوثائق ، وعرفت أهميتها وقيمتها التاريخية ، وقيل لنا إنه سيعني بترجمتها وتنسيقها ، ولا نعلم ماذا تم بعد ذلك في شأنها . بيد أنه لا ريب أن هذه الوثائق المختلفة ، ومنها بوزارة الأوقاف حجج أوقاف قديمة ترجع إلى القرن التاسع الهجري ، إذا نظمت ولخصت في فهرس دقيق جامع ، تكون مرجعاً نفيساً لتاريخ مصر الاداري والاجتماعي والاقتصادي والقضائي في هذه العصور .

***

وتوجد ثمة في هذا الميدان مهمة علمية أخرى تستطيع دار الكتب والجامعة المصرية والجامعة الأزهرية أن تضطلع بها ، هي نشر طائفة من الآثار والمصادر الاسلامية والمصرية الجليلة مما تضطرم به أروقة دار الكتب المصرية ، ولقد أخرجت لنا مطبعة بولاق تبثاً حافلاً من هذه الآثار الجامعة في أواخر القرن التاسع عشر ، فكانت مأثرة علمية جليلة لولاها لبقيت المكتبة العربية عاطلة خلواً من أمهات المصادر والمراجع الكبرى ؛ ولقد أرادت دار الكتب أن تشترك في الاضطلاع بهذه المهمة ، وما زالت تعمل لاخراج بعض الموسوعات والآثار الجليلة ؛ وقد أخرجت بعض هذه الآثار ، ولا سيما موسوعة «صبح الأعشى» للقلقشندي ، ولكن عملها في ذلك بطيء جداً ، ينقصه الطابع العلمي قبل كل شيء ؛ ومن الواجب أن تنظم هذه المهمة تنظيماً علمياً ، وأن تشرف على أدائها هيئة فنية قديرة ، ومن الواجب أن تضاعف الجهود لإخراج هذه الآثار والموسوعات في فترات معقولة ، إذ ما زلنا نتلقى أجزاءها في فترات متباعدة ، وقد يستغرق إخراج الجزء الواحد عامين أو ثلاثة . ثم إن الجامعة المصرية والجامعة الأزهرية تستطيع كلتاهما أن تقوم في هذا السبيل بمجهود قيم ؛ ولا نعلم أن إحدى الجامعتين قامت إلى اليوم بإخراج شيء يذكر من الآثار الاسلامية المخطوطة ، هذا بينما نرى الجامعات والهيئات العلمية الأوربية والأمريكية تشرف باستمرار على إخراج كثير من هذه الآثار ؛ ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أن كتاب « النجوم الزاهرة » لأبي المحاسن بن تغرى بردى الذي تقوم الآن بإخراجه دار الكتب المصرية ، قد أشرفت على إخراجه منذ أكثر من عشرين عاماً جامعة كاليفورنيا الأمريكية ، وتولى نشره وتحقيقه المستشرق الأمريكي وليم بوبر ؛ وإن الجزء الفاقد من تاريخ مصر لابن إياس الذي أخرجته مطبعة بولاق منذ أربعين عاماً ، تولى إخراجه الأستاذ باول كاله الألماني بإشراف جمعية المستشرقين الألمانية وهكذا . ومن واجب مصر ، باعتبارها زعيمة الثقافة العربية والاسلامية أن تأخذ بنصيبها من حركة إحياء الآثار الاسلامية على يد هيئاتها العلمية الكبرى ، وفي مقدمتها الجامعتان المصرية والأزهرية . ولا ريب أن إشراف الجامعتين الكبيرتين على هذه الحركة يسبغ عليها قسطاً من الطابع العلمي الذي ننشده لآثارنا وموسوعاتنا ؛ ذلك أن ما ينشر منها اليوم على أيدي الناشرين التجاريين يخرج في صور يرثى لها من النسخ والتحريف ؛ وليس من المبالغة أن نطلب بهذه المناسبة إلى دار الكتب المصرية أن تبين من القواعد والقيود لاستنساخ المخطوطات ثم لنشرها ما يكفل إخراجها على أيدي ناشرين من الطراز الأول ، يقدرون قيمتها العلمية ويخرجونها في أثواب محترمة ، ويعرضونها للبيع بأثمان لا تخرج عن حد الاعتدال

***

هذه خواطر واقتراحات نعتقد أنها تجول في أذهان كثير ممن يعنون بالمباحث الاسلامية وحركة إحياء الآداب العربية ، بل نعتقد أنها ليست بعيدة عن أذهان المشرفين على مصاير تعليمنا وثقافتنا . وإذا كنا نخص ثقافتنا التاريخية القومية وإحياء تراثها ومراجعها بشيء من الاهتمام ، فذلك لأننا عكفنا على دراسة هذه الناحية من حركتنا العلمية والأدبية مدى أعوام طويلة ، ولمسنا فيها أوجه النقص والعمل بصورة واضحة ؛ وقد كنا وما زلنا نعتقد دائماً أن دار الكتب المصرية ، وهي أعظم مستودع لتراثنا المنسي ، هي أول وأولى هيئاتنا بالعمل لتحقيق هذه الغاية ، ذلك لأنها تضطلع بالفعل بناحية من هذه المهمة الجليلة ؛ وكل ما يطلب إليها هو أن تعمل لتنظيمها وتوسيع مداها على أسس علمية فنية تكفل أداءها بصورة مرضية ؛ ولو عنيت جامعتنا المصرية ، وجامعتنا الأزهرية بأن تأخذ كلتاهما بنصيبها من هذه الحركة لاكتملت لدينا أسباب النهضة ، ولاستطاعت مصر أن تضطلع برسالتها في إحياء الآداب العربية والاسلامية ، وواجبها في إحياء تراثها القومي ؟

محمد عبد الله عنان

حول ١٤ سبتمبر

للأستاذ محمد محمود جلال

أرأيت كيف غيّر (الكورنيش) من الرمل وكيف حكم في حظوظ البقاع ؟! هكذا سألت نفسي وبدأت الحديث مع صديق رافقني إلى سيدي بشر في أول سبتمبر نبحث عن دار ننزلها تحت حكم ظروف طارئة — بعد أن هجرت الاسكندرية كمصيف منذ خمس سنوات.

وكأن الله يريد أن يقفنا على المزيد من آياته في تطور الكون وأنه جل شأنه قد انفرد بالدوام، فما تحدثنا حتى دلفت بنا السيارة إلى اليمين تقطع شارعاً ضيقاً قصيراً لم أره من قبل، قام على أحد جوانبه خلاء وعلى الآخر بناء ضخم يوشك على التمام، وقد كدت أنكر الربوع وكأنها غير تلك التي قضيت بها الصيف أعواماً ثلاثة متواليات. وما وصلنا آخر الشارع حتى طالعنا منزل يتصل بالماضي ببنائه وموقعه اتصاله بذكرياته، ويجفوه بلونه الجديد، وبهذا اللون وحده يتقرب إلى الحياة الجديدة وماطرأ على (سيدي بشر)

هذا منزل (لافولا) ثالث الأبنية بتلك المحلة نزلناه أول مرة منذ تسع سنين يوم كان (سيدي بشر) في الصف الأخير بين المصايف لا تسمع له بينها ذكرا، فاذا ضمك مجلس مع المقبلين على التصييف شاقك ما تسمع عن (سان أستفانو) وفخامة المنازل حوله، وطيب الهواء في (كارلتون)، وسهولة المواصلات في (سان چورج)، وتحس كأن البلدية ائتمرت مع الزمان القلّب فبت الأسماء الأجنبية بخير الأمكنة، وخصت هذه بالعناية البالغة، بينما تركت الجهات الوطنية بلا ميزة، وعطلتها من كل حلية!

غير أني أحسست لأول سكناي ظاهرة غريبة في (سيدي بشر)، فالرطوبة أقل كثيراً من جميع المحطات. والرطوبة شر مارهقني في الاسكندرية صيفاً، وهذه ميزة تعدل في نظري جميع المزايا الأخرى. ميزة تغلب أثرها على ما كنت أرى من دهشة حين أذكر بين اخواني أين أقضي الصيف وكأنهم لم يسمعوا بمحطة تدعى (سيدي بشر).

وما زلت أذكر من فكاهات تتصل بهذا المعنى أن المرحوم محمد نافع باشا، وكان قطباً للحلقة الأولى بالبكازينو — وكنا ندعوها المصطبة — كان يدعوني سيدي بشر إذا ناداني اشارة إلى انفرادي بينهم بهذا المصيف، أو إلى اكتشافي له إذا شئت الحق

و (سيدي بشر) ذاته هو المحلة المزدحمة اليوم، وهو الكمبتة للطبقة التي كانت تنفر منه وتمده شيئاً غير الرمل وشيئاً غير المصيف منذ تسع سنين، ثم منازل أنيقة على شاطئه الجميل، وهذه أفواج تختص (البلاج) بخير ساعاتها، وأفواج أخرى تسارع بسيارتها تتصيد المقاعد الخالية فيما انتثر فيه من مقاهٍ ومجالٍ للسرور

وإذا نظرت إلى (الربوع) وجدتها

تشقى كما تشقى العباد وتسعد

أما يوم نزلنا سيدي بشر فلم يكن به غير ثلاثة أبنية وبضعة حوانيت في بناء مستقل — ولم يكن في الجيرة ماينغص إلا تلك الأكشاك الخشبية وقد صفت على نظام في أجمل بقعة تشرف على شاطئه، وقد خصصت لأسر الضباط الإنكليز يقوم على حراستها نفر من أولئك الذين استحلوا الشكل فلم يعفوا عن الأجزاء

ولم يكن للانجليز أن يختاروا الا خير البقاع، وأحسن المواقع، فهذه النقطة السوداء شهادة لسيدي بشر بامتيازه

وقد استتبعت هذه الجيرة المضة أن يأوي إلى الجوار نفر من أخلاط الدخلاء يبيعون الجنود الخمور وأخرى الحاجات، يجلونهم ويختصونهم بخير ماحوت حوانيتهم حتى ليمنعون المصري ما يطلب بأي ثمن.

ولم تكن الحراسة بين المصريين عبثاً ولا ذات مشقة، فهؤلاء الحراس يودعون كرم الخلق المصري: العرض والحياة والمال. وينفقون ليلهم في تلك الحوانيت يشربون إلى السكر، ويسهرون إلى الصبح.

***

بعد أسبوعين، وفي ليلة واحدة انعكست الآية وسمعنا بمختلف الرطانات إشادة بالخلق المصري والكرم المصري والنبل الوطني بين الجزع والفزع مما حدث، فقد استطاب الجند الضيافة، وأساغ الشرب ما لا يسوغ، وذاق المحتفون من الأخلاط بعض

آثار الاحتلال في عتادهم وفي أنفسهم ، وشهدنا آية الصبر في لحظة ، وكسبنا للقضية الوطنية أنصاراً حتى بين الأقداح وفي أحقر الحوانيت

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت ... على عينه حتى يرى صدقها كذبا

***

سألني بكر أولادي ذات صباح لمن هذه الأرض التي يقوم عليها (الـكامبو)؟ قلت للبلدية . قال وماهى البلدية ؟ أجبت تقريباً للمعنى من ذهن الطفل : هي للحكومة . قال وهل يؤدون أجرتها كما أدينا للخواجه (لافرلا)؟

قلت يا بني لم هذا الالحاف ؟ وفيم الاعنات ؟ وما أريد أن أبكر بالغصص إلى قلبك . إعلم أن هؤلاء الانجليز دخلوا مصر بحجة الدفاع عن عرش الخديو وحمايته ، ولم يكن ثمة تهديد لعرش ولا هدر لحياة ؛ وما زالوا يجدون في كل يوم سبباً لأطالة الضيافة ، فهم يأخذون هذه الأرض بلا أجر كما احتلوا البلاد . قال ، لو أننا نشتري منها قطعة صغيرة ونبني بيتاً صغيراً فلا نؤدي أجرة في كل عام . قلت : فكرة اقتصادية وجيهة ، ولكن الانجليز ؟ قال سأخرجهم حين أصبح ضابطاً . ألم تقل بالأمس إنك ستدخلني المدرسة الحربية ؟

قلت : صدقت ! ولقد قلت وأسأل الله إذا امتد الأجل أن توفق لخدمة البلاد ، وأدعو الله لك ولأخوانك بحياة حرة في جو حر

وأردت أن ينقطع الحديث المشؤوم وعملت على تغيير مجراه فاستعجلته لنخرج على نية شراء بعض ما يلزمه ، وسرنا نقصد محطة الترام فوجدنا حانوتاً مغلقاً وقد تأخر عني خطوة وانشغل به بصره ، فلما ذكرته بالسير قال : ألم تر ؟ قلت ماذا ؟ قال دكان الخواجه (خ) ، والله يا بابا لقد بكيت أمس إذ قلت لعسكرى البوليس صباح أمس حين وقف صاحب الدكان يحكى له ما جرى — خذ العساكر إلى القرقول فلم يفعل !؟!

ساءني أن يستمر الحديث على هذه الوتيرة وقلت يا بني لقد تردد الدمع في مآق الوزير شريف باشا من قبل حين رأى صفوف الاحتلال في طريق الخديو من المحطة إلى عابدين ! ولا شك أنهم سيخرجون يوماً بأذن الله ، ولن ترى من ذلك شيئاً ؛ ولقد رأى أجدادك أبشع من ذلك وأشنع ، فقد روى (هنس زيزر) أنهم كانوا يقتلون جرحى المصريين في التل الكبير ؛ وما زلنا نرى من أحفادهم من يحتمون بهم ومن يتقون . فيوم لا نرى واحداً من هذا الفريق لا نرى على أرض الوطن محتلاً ، ولولاه ما لحق القاهرة ذلة ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢

دارت الأيام ، وغدت إلى سيدى بشر وفى مكتبي الأول أكتب رسالتي وأشخص بين الفينة والفينة إلى البحر فلا أرى معسكراً يحجب ، ولا علامة تثير الغصص وتذكي الألم ، قلت مع الرسول الأمين عليه صلاة الله وسلامه : « ويعجبني الفال »

لعل ما نرى من استنامة للرفاهية أشبه بهذا الطلاء الزائل الذي كاد يغير من منزل (لافرلا) — لعل الجفوة التي نرى بين رجالنا وشبابنا للمبادىء القويمة أشبه بتلك التي كنا نرى ونسمع عن سيدى بشر منذ تسع سنين ، ولعل ما يحجب عنا محاسن الخلق الوطني أشبه بخشبات المعسكر التي تكسرت وزالت ، ولعل القوة الخارقة الطارئة التي اعتبرها علماء الاجتماع وأساطين التاريخ ميزة الخلق المصري حين هب بعد قمبيز ، ومثلت الحكم الاسلامي بالطابع الخاص في الدول الطولونية والأخشيدية والأيوبية ، وحكمت القومية المصرية في عهد المماليك ومحمد علي ، وحررت البلاد من الانجليز في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، لعلها بإذن الله قريب منا ! ولعلها على الأبواب ! ومع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب !

(سيدى بشر) محمد محمود جلال
المحامي

صور حجازية « طبق الأصل »

الاعـــدام !

للأستاذ علي الطنطاوي

سيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض : هذه وحشية ، هذه همجية ، هذا لا يكون في القرن العشرين ، قرن الحرية والنور ، هذا يأباه فلاسفة العالم المتمدن : المسيو فلان ، والمستر فلان ، والهر جرمان ، والسنيور ايطاليان

ويقول الحق : هـذا واجب ، هذا حسن ، هذا دواء القرن العشرين ، قرن الاستعمار والاستعباد ، وإبادة الضعفاء ، واغتصاب الحريات ؛ هذا ما أمر به الله ، وجاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر امرؤ مسلم : أيتبع أمر الله ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم يتبع رأي المسيووات والمستارير ، والهررة والسنانير ؟!...

سمعت — وأنا في مكة — أن أمراً سيقع بعد صلاة الجمعة (آخر المحرم سنة ١٣٥٤) فجعلت أرقب وأنتظر ، لا أحب أن أسأل أحداً ، كيلا تفوتني لذة المفاجأة وروعة الحادث . ثم إن الرجل في الحرم كالسائح في أرض الله ، لا يدري من يسأل ، ولا يعرف من يخاطب ، وبينا هو في « الهند » يسمع لغة الهنود ويرى أزياء الهنود ، ويبصر عادات الهنود ، إذا به ينتقل بعد خطوات الى « نجد » فاذا هو بين النجديين ، وإذا كل شيء من حوله عربي نجدي ، ثم يخطو فاذا هو في مصر ، بين المصريين ، يسمع حديث مصر . في لهجة مصر ... فكأن الدنيا كلها قد استقرت في الحرم ، تستظل بالبيت العتيق ، وتطوف به ، وتجثو خاشعة من حوله ، فلا يحس الرجل وهو فيه بأن وراءه دنيا ، أو ظاهر جدرانه حيًّا من الناس ، أو عامراً من الأرض

حتى إذا قضيت الصلاة ، وانفتل الامام ، ابتدر الناس أبواب الحرم يستبقون الى شارع الحكومة — وهو في أسفل أجياد ، يمتد من شمال الصـفا حتى يجاوز باب ابراهيم — فلم تـكن إلا هُنَيّات حتى امتلأ الشارع على سعته بالناس ، ولم يبق فيه موطئ قدم ، فجعلت أزاحم الناس لأخلص الى الساحة ، فلا أتقدم بخطوة ؛ ومن لي باختراق هذا السد الهائل من الأجساد ، واجتياز هذا الخضم من الناس ؟ فأيست واحتسبت مصيبتي في فوت المشهد عند الله ، وهممت بالعودة الى الحرم ، وإذا أنا بالشيخ يوسف ياسين (سكرتير جلالة الملك) فتعلقت به وقلت :

— والله لا أدعك حتى تبلغ بي الساحة

فاعتذر وتملّص ، فما نجا ولا تخلص ، وكيف يتملص مني وقد كنت كالغريق وجد سفينة النجاة ، أفيدعها بعدما وجدها ؟ فأجاب على كره وسار وأنا أتبعـه ، والبحر ينشق له كأن بيده عصا موسى ... وما للناس لا يتفرقون من بين يديه حذرين خائفين ، وهو سكرتير الملك ؟ حتى إذا بلغ بي درج القصر عاد لشأنه وتركني ، فصعدت فلم أجد مكاناً أقف فيـه ، ووجدت الغرف كلها ملأى بالموظفين والمقربين والحاشـية ، فقادوني الى غرفة فخمة أعدت للأمير فيصل (ابن الملك ونائبه على الحجاز) ولأهل البيت : بيت الملك

ولم لا يفعلون وأنا ممن يكتب في الصحف ، والاكرام إنما يكون لمن يكتب في الصحف ، أو علك سبيلاً من سبل الدعاية ، والحذر إنما يكون من هؤلاء . فذكرت قالون وزير لويس السادس عشر ، حين رأى أن خير طريقة لتقوية الحكومة الضعيفة ، وإغناء الخزانة الفقيرة ، أن تقيم الحكومة الولائم الفخمة وتنفق الأموال الطائلة ، تشترى ألسنة المادحين ، وأقلام الكاتبين حتى يقال : إنها غنية .. فقالوا : إنها غنية ، لأنهم أكلوا خبزها ولكن الخزانة قالت : إني فقيرة ! وقال التاريخ : إن قالون رقيع ...

***

وقفت في النافذة بين فتية من آل البيت ، فيهم ابن للأمير فيصل في نحو الثانية عشرة من عمره ، ما رأيت في لداته أثقب منه ذهناً ، ولا أصح جواباً ، ولا أحد ذكاء ، وأطللت على الناس ، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزي ، فمن رجل عباية[1] على رأسه عقال أسود على صماد أحمر[2] قد التحف بعباءة رقيقة على ثوب أبيض ، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من المثنون ، وهلالاً دقيقاً من تحتها ، بما فيه صف واحد من الشعر كأنما هو مروحة تدلت على صدره : سنة يتبعونها ما أنزل

(١) العباية : العباءة والرجل الجافي

(٢) الصماد : ما يوضع على الرأس دون العمامة أو العقال ، ويسميه الشاميون كوفية ويدعوه النجديون الغماغ

الله بها من سلطان ... وهذا هو النجدي

ومن رجل يلبس ثوباً رقيقاً فوقه رداء قصير (جاكيتة) من قماش هفهاف ، وعلى رأسه قلنسية (طاقية) بيضاء ، إذا مشى في الشمس تعمم عليها بلحفة بثقل الفراش ، يتقي بها شمس مكة الحادة المخيفة[1] وهو حليق اللحية صغير الشاربين ... وهذا هو الحجازي

ومن رجل وسخ الثياب ، ممزقها ، لا تدري عن ثيابه ما لونهما وما هي ، وعلى رأسه حبل قد وضعه مكان العقال ... وهذا هو الأعرابي

ومن رجل يلبس ثوباً متقن الصنع ، عليه عباءة جميلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب ، أو يلبس بدل الثوب حلة (بدلة) بيضاء وهو حليق اللحية ، إلا قليلاً منها يبقيه عناية الدلالة على أنه ملتح ... وهذا هو السوري . وأكثر السوريين في الحجاز موظفون في الوظائف الفنية ، وأقلهم تجار

ومن رجل على رأسه عمة ضخمة فخمة كعمائم السلاطين من آل عثمان ، يوم كان لآل عثمان سلاطين ، وكان لسلاطينهم عمائم ، وقد أرخى بين كتفيه عذبة طويلة ، وله لحية كثة مستديرة ، وشاربان طويلان ، أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض ، تبلغ الكعبين ... وهذا هو الهندي

ومن شاب حليق الوجه كله (على الأسلوب الأمريكاني) نظيف الثياب مهفهف قد ائتزر بمئزر (فوطة) لفها على خصره النحيل لفاً محكماً ، واجتزأ بها عن السراويلات ، وارتدى عليها رداء قصيراً رقيقاً ، وربما بلغ ثمن المئزر من هذه المآزر خمسة الجنيهات أو أكثر ... وهذا هو الطالب الجاوي ، وما أكثر هؤلاء الطلاب في مكة

ومن عبد أسود ، جعد الشعر ، أفطس الأنف ، ضخم الشفة ، عار إلا من خرقة تستر عورته أو بعض عورته ... وهذا هو الأفريقي الأسود

ومن ... ومن أمم ربنا التي لا تعد ولا تحصى

وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم ، ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التي قطعوا السباسب ، وخاضوا البحار ، ليواجهوها ، ويقفوا أمامها ، ويتعلقوا بأستارها

***

ثم أقبل الجند ، وهم بثياب عربية . قد تمنطقوا عليها بمناطق الرصاص ، فاصطفوا من حول الساحة ، ثم أقبل الأمير فيصل في موكبه ، يحف به طائفة من عبيده الأمناء الأشداء الأوفياء ، فصعد إلى الغرفة التي نحن فيها فجلس في شرفتها الكبرى

ثم جيء بالرجل ، وهو قصير كز سائم ، ما عليه إلا قميص واحد مشقوق الجيب ، وكان أصفر قد دمع وامتقع لونه ، وغاض من وجهه الدم ، مجموعة يداه إلى قفاه ، قد مات من قبل الممات . يقوده جندي آخذاً بتلابيبه ، حتى إذا بلغ به الساحة خلاه فهوى جاثياً على ركبتيه ، فلبث لحظة ما يفتح عينيه من الجزع ، ثم ارتدت إليه نفسه بعد حين ، فجعل يقلب عينيه في الناس فيرى كل شيء من حوله ميتاً لا حياة فيه ، فكأن الدنيا قد أظلمت في ناظريه حين يئس من الحياة ، كبيت أطفئ فيه المصباح في ليل داج

وجعل يرى الشمس مشرقة ، ويرى الجند جائين ذاهبين ، يدلون بشاراتهم وسلاحهم ، ويرى القصر قائماً يحمل سطوة الحكومة وهيبة السلطان ... ولكنه لا يرى من ذلك كله إلا صوراً مطموسة ، تطلع عليه من خلال حلم عميق ... ثم تضاءلت هذه الصور واختلطت ، ولم يبق قيد ناظريه إلا الكعبة ، يبصرها من باب الحرم ، فجعل يحرك شفتيه بالتوبة والاستغفار ويشير بسبابته إشارة التوحيد ، ثم أغمض عينيه وجرفه سيل من العواطف المتباينة فغاب في ذهول عميق ، ولم يعد يفكر في شيء

وجيء بالمجرم الآخر ، وهو عبد أسود ، ضخم الجثة ، غليظ الشفتين ، كثير الشعر ، كأنه غول هائل ، أو وحش مروع ،

---

(١) من أصيب بضربة الشمس في مكة فإنما أصيب بالموت المحقق ، ومع ذلك فقد كان معنا في رحلتنا الكشفية الى الحجاز ، شاب نجدي اسمه حبيب ، ما رأيته ستر رأسه ، في بادية ولا في حضر ، فقلت له : ويحك ألا تخشى ضربة الشمس ؟ فقال لي ما نصه : والله لو وقفت الشمس هنا أربعين صباحاً (ونقر على صدغيه) ما خلصت الى داخل ... فعلمت حينئذ كيف مضى أجدادنا لفتح العالم ..

وقد قيده الجند ، وجمعوا يديه إلى عنقه وأقبلوا يمسك به ستة منهم وهو يصاولهم ويقاومهم ، ويزمجر ويصرخ صراخا شديداً ، وهم يزبرونه ويقرعونه حتى انتهوا به إلى الساحة ، فاجتمعوا عليه فأضجعوه على سرير من الخشب وشدوه اليه شداً وثيقاً ، وأقاموه بحيث يرى رفيقه ويبصر مقتله

***

وكأن العبد قد اهتجت نفسه ، وأدركه الخور ، فسكت وسكت الناس وعلقوا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم

وجعلت أطل من الشباك أبحث عن الجلاد فلا أرى أحداً ، وأفتش عمن يتلو حكم الاعدام فلا أجده . وأرى سمو الأمير يشير بيده ، فاذا عبد ضخم يبرز من بين الصفوف ، وبيده سيف صيقيل مسلول ، فيأتي الأعرابي من ورائه وينخسه بالسيف ، فينتبه ويمد عنقه مستطلعاً ، فيهوي العبد بالسيف على قذاله ، ثم يحز به الرأس حزاً ، فلا تمضي ثوان إلا والرأس قد بتر عن الجسد ، من القذال إلى أعلى الصدر ، وطاح ثلاثة أمتار قبل أن تند من المقتول صرخة ، ونفر الدم من عنقه كأنه نافورة ، ومال الجسد قليلاً قليلاً حتى هوى ، وهويت أنا قبل هويه وكفاى على عيني ، ولم أعد أشعر بشيء

ولما صحوت قيل قد فاتك المشهد الهائل : قطعت يد العبد ورجله من خلاف

قلت : ويحكم ، ماذا تقولون ؟

قالوا : قطعت يده ورجله ، ألم تتل قول الله عز وجل : « إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ » . أما إنه لولا هذا ما بلغتم أرض الحجاز سالمين . وما العهد السابق ببعيد ، أفلا نستحي بقتل واحد أو اثنين الناس جميعاً ؟ قلت : بلى والله ! صدق الله العظيم : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ »

دمشق علي الطنطاوي





٢ – الشعر *

في صدر الإسلام وعهد بني أمية

بقلم أحمد حسن الزيات

خصائص الشعر في العراق

لعل الشعر العراقي الإسلامي أصدق ما يصور حياة البادية، وأصح ما يميز عن نفسية العرب؛ فإنه – وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلي يصدر عن دوافعه، وينبع من منابعه – أنقى جملة وأبين علة وأصح نسبة، لقربه من عصر التدوين واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ. وهو مظهر لتلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الإسلام للعرب لأول مرة، فجمع من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة، وباطنها العداوة والفرقة؛ فهو مهاجاة بين الأفراد، ومساجلة بين الأحزاب، ومفاخرة بين القبائل، ومدح للزعماء والخلفاء؛ وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضي اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغلب والسلب. فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد أن يكون مظهره العراق، لتكالب القبائل المتعادية عليه، وظهور المذاهب المتباينة فيه، وغلبة البداوة والأنفة والبطر على أهله. فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه، وهو ينتحل الأسباب المختلفة، ويرتدي الأثواب المتعددة، فيكون فردياً وقبلياً ووطنياً ودينياً وسياسياً؛ ولكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة.

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

فقائل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبية وأديب النصرانية وشاعر الأموية. كان أول ما غرزم به من الشعر الهجاء، هجا امرأة أبيه وهو صغير، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب، فأفحمه وهو يافع، وعلق به لقب الأخطل منذ شب لسفاهته. ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس، أو بين قبيلته وبين القبائل، حتى كان بين يزيد بن معاوية وهو ولي العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الأنصاري تقاول وجدل، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار، فتحرج أن يذم قوماً آووا رسول الله ونصروه، وقال له: أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل): فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر، وفضل عليهم قريشاً في قصيدته الرائية، وكاد يشفي من ذلك على الخطر لولا عون يزيد؛ وبالغ الأمويون في إيثاره وإكرامه، وأمعن هو في النضح عنهم، فناضل الزبيريين بعد الانتصار، وعمد إلى القبائل القيسية فهتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التي مطلعها:

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بكر

وإن كان حيانا عدى آخر الدهر

لمناصبها الأمويين العداء من جهة، ولافتحامها الجزيرة على قومه من جهة أخرى، ثم ختم حياته بممالأة الفرزدق ومهاجاة جرير. والأخطل وإن كان شديد التمسك بنصرانيته، على وثيق صلاته بالخلفاء، لم يشذ عن طبيعة العرب في التدين، فقد قال الأب لامنس في فصل كتبه عنه: «إن أثر النصرانية في دين الأخطل ضئيل، ونصرانيته سطحية كسائر العقائد الدينية عند البدو»، فهو يدمن الخمر في حمى الدين، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة، ويهاجم القبائل في حمى تغلب؛ ولكن هجاءه كان عفيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط ولا يتجاوز به حدود الخلق

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه؛ فكان يهجو بني قومه لحدة طبعه وشراسة خلقه، فيشكونه إلى أبيه فيضربه؛ ثم لج في هجاء الناس حتى استعدوا عليه زياداً والي العراق لمعاوية، فطلبه ففر منه في مدن العراق وقبائله، ثم لجأ إلى المدينة واستجار بواليها سعيد بن العاص من زياد فأجاره؛ فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فساهم فيما وقع

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

فيه من حروب وفتن بعد موت معاوية ويزيد ، حتى بني بمهاجاة جرير فشغلت فكره وملأت عمره وصبغت شعره ، وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة ، وللسواس مهزلة ، وللأدب العربي ثروة متخمة من الشعر لا تخلو على سفاهتها وبذاءتها من حكمة . وكان جرير بن عطية الخطفي التميمي قد قال الشعر كصاحبيه في الحداثة الباكرة ، وقاله مثلهما في الهجاء ، ولكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم . وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقر أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء ؛ وكان أول من نازله وأفحمه غسان السليطي حين هجا قومه ، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً ، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع ، فناضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير ، وتهاجى الشاعران التميميان من أجل ذلك . وفضّل الأخطلُ الفرزدقَ على جرير إما لدفاعه عن قيس ، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه ، فهجاه جرير ، ثم نبحه الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فانهما ثبتا له ونازعاه الغلبة . وانشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشاعرين ؛ وكان بين الفرزدقيين والجريريين ما بين العلويين والأمويين ، يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنكاية والرغبة والرهبة والحلف ، يقوم الأولون بالمربد والآخرون بمقبرة بني حصن ، وقد وقف الشاعران كلٌّ بين أتباعه وأشياعه ينشدهم شعره وهم يكتبونه ، والرواة ينشرونه ، والأدباء والأمراء يتناولون ما روى بالموازنة والنقد والحكم ، والأنصارُ يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصاحبهم على خصمه ؛ فقد روى الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبفرس لمن يفضل الفرزدق على جرير . وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق ، فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج ، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئاً ، وكره أن يعرض نفسه لشرهما ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما : عبيدة بن هلال ، وهو يومئذ في عسكر قطري بن الفجاءة ، فأتيا فوقفا حيال العسكر فدعوا فخرج يجر رمحه ، وظن أنه دعي إلى المبارزة ، فقالا له : آلفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ! فقالا : نحب أن تخبرنا ثم نصير إلى ما تريد ، فقال من يقول

وطوى القيادُ مع الطراد بطونها طيّ التِّجار بحضرموت برودا

قالا : جرير . قال : هو أشعرهما .

وهنالك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعي وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظُفُراً وناباً مزّقوا بهما الأعراض وأشاعوا هُجر القول في الناس ، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل ، لأنهم كما قال أبو عبيدة : « أعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد في الإسلام : مدحوا قوماً فرفعوهم ، وذموا قوماً فوضعوهم ، وهجاهم قوم فردوا عليهم فأفحموهم ، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم »

مذهبهم في الهجاء

مذهبهم في الهجاء هو المذهب التبع والطراز الغالب ، على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع

فالأخطل سيد في قومه ، كريم في نسبه ، نبيل في نفسه ، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتعبد ولا يتزهد . ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة الخاصة ، لا يسف الى القبيح ولا يستعين بالمخازي ، وإنما يهاجم القرن في صفات الرجولة فينفي عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقوله في تيم :

وكنت إذا لقيت عبيد تيم وتيماً قلت أيهما العبيد ؟
لئيم العالمين يسود تيماً وسيدهم وإن كرهوا مسود

وكقوله في كليب بن يربوع :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزّاء والسكر
قوم تناهت إليهم كل مخزية وكل فاحشة سُبّت بها مضر
الآكلون خبيث الزاد وحدهمُ والسائلون بظهر الغيب ما الخبر
وأقسم المجد حقاً لا يحالفهم حتى يحالف بطنَ الراحة الشعَر

ولعل أبخس هجائه قوله في قوم جرير :

قوم إذا استنبح الضيفان كلبهم   قالوا لأمهم بولى على النار

فتمنع البول شحاً أن تجود به   ولا تجود به إلا عقـدار

والخبز كالعنبر الهندي عندهمُ   والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى في إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى الى ذكر المثالب الخاصة والمعايب الفردية ، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فيقايس بينها وبين قبيلته في السمو الى المعالي والسبق الى الغايات ، وفي ذلك يجد بلاغه ومدده ، فلا يضطر اضطرار جرير الى ذكر الصغائر التماساً للغلبة الدنيئة من أقرب طريق . انظر الى قوله لجرير :

يا ابن المراغة إن عمىَّ اللذا   قتلا الملوك وفككا الأغلالا

وأخوهم السفاح ظمَّأ خيله   حتى وردن جبى الكلاب نهالا

فانعق بضأنك يا جرير فإنما   منتك نفسك في الخلاء ضلالا

منتك نفسك أن تكون كدارم   أو أن توازي حاجباً وعقالا

وإلى قوله له :

ولقد شددت على المراغة سرجها   حتى نزعت وأنت غير مجيد

وعصرت نطفتها لتدرك دارماً   هيهات من أمل عليك بعيد

وإذا تعاظمت الأمور لدارم   طأطأت رأسك عن قبائل صيد

وإذا عددت بيوت قومك لم تجد   بيتاً كبيت عطارد ولبيد

تجد أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر . ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمض لا يجري مع هجاء جرير في ميدان ، ولا يستوي وإياه عند العامة في ميزان ، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك خمود الشيخوخة في الأخطل وحدةُ الشبيبة في جرير ؟ إن جريراً نفسه قد علل وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه ؛ فقد قال : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلني » . وقال في قصيدته النونية التي هجا بها الأخطل على أثر تفضيله الفرزدق عليه :

جاريت مُطَّلع الرهان بنابه   رَوْقُ شبيبته وعمرك فان

وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض قومية أو سياسية . ومن تلك الأهاجي المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبه وتصوران فنه : الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها :

ألا يا اسلمي يا هند هند بني بكر

وإن كان حيانا عدًى آخر الدهر

والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها :

خف القطين فراحوا منك أو بكروا

وأزعجتهم نوى في صرفها غِيَرُ

ومنها :

بني أمية إني ناصح لكم   فلا يبيتن منكم آمناً زُفَرُ

فإن مشهده كفر وغائلة   وما يُغيَّب من أخلاقه وعر

إن العداوة تلقاها وإن كنت   كالعُر يكمن حيناً ثم ينتشر

بني أمية قد ناضلت دونكم   أبناء قوم هُمُ آووا وهم نصروا

وقيس عيلان حتى أقبلوا رُقُصاً   فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا

ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم

وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرانيته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء ، فاكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه ، على أنه يستغل أحياناً بعض ما أنكر الإسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه ، كقوله في الأنصار يرميهم بشرب الخمر :

قوم إذا هدر العصير رأيتهم   حمراً عيونهمُ من المسطار

وكقوله في كليب بن يربوع :

بئس الصحاب وبئس الشرب شربهم

إذا جرت فيهمُ المزَّاء والسكر

يتبع   الزيات

في مؤتمر الكتاب الأوربيين لحفظ الثقافة

خطاب أندريه جيد

نحن قليل في هذا المكان بمدنا ، كثير إذا اقتصر الأفراد منا على حب بلادهم ، وكثير كثير إذا أضمر هؤلاء الأفراد للبلاد الأخرى ضغينة وحقداً . إذا ما حدثتكم عن شعوري أنها السادة أقول بأني إنساني النزعة في الوقت الذي ما أزال فيه فرنسياً صميماً ، وأقول بأني فردي من أنصار الفردية مع الاعتقاد الراسخ بأني شيوعي صميم ، لا أجد في الشيوعية غير نصرة لفرديتي وكل تأييد ، لقد كانت رسالتي التي حملتها طوال خمسة وستين عاماً : أنه بمقدار ما تكون شخصية الانسان قوية وأصيلة فيه ، تكون خدماته للمجتمع أجل وأحسن ، وقد أضفت في السنوات الأخيرة إلى هذه الرسالة رسالة جديدة هي من الأولى بمثابة البنت للأم ، هي أن الجمعية الشيوعية تترك المجال الوسيع لكل شخصية وللخصائص التي تتميز بها كل شخصية تنمو وتزدهر على وجهها الأكمل ؛ وحسبي أن أتمثل بعبارة لأندره مالرو ساقها في مقدمة أحد الكتب وقد أصبحت مثلا يجري على كل لسان « إن الجمعية الشيوعية ترد إلى كل شخصية نتاجها الخصيب »

وأذكر اسم رابليه في هذا الكلام لأن النشاط الذي تركه في آدابنا الفرنسية الجليلة لم يتركه أديب من بعده ، ولأني أعتبره خير ممثل للأديب الفرنسي العريق ، ولربما كان فيما كتب بين معاصريه خير ممثل للعصر الذي عاش فيه ، لقد أخذت الآداب الفرنسية بعد رابليه تهدأ ثورتها ، تتوخى الطريق المطمئنة السالمة التي لا صعاب فيها ولا عراقيل ، تجنح إلى الغموض والابهام غير مكترثة بالمادة مشيحة بوجهها عنها

أعني بالآداب الفرنسية التي سميت « كلاسيكية » كل ما يدخل تحتها من كتاب وقراء ونظارة وأبطال للرواية والقصة ، أعني بأن كل هؤلاء قد كفوا مؤونة السعي والجد طلباً للعيش ؛ وعلى هذا الأساس كانت وظيفة الأديب أن يحدث أناساً موفورين عن أناس موفورين ، وإذا لم يكن منعماً هـذا الذي يحدث عنه الأدب ، فليس من شأننا أن نعرف ذلك ، وليس من شأننا أن نعرف لماذا كان أكثر هؤلاء الذين يحدث عنهم أغنياء مغتبطين ؟ وعلام يستندون في جمع ثرواتهم ؟ إن الأدب لا تعنيه كل هـذه الأسئلة المضنية ! فهؤلاء الأبطال يصورهم لنا راسين في مآسيه الرائعة وقد خلوا من تكاليف الحياة ليس لهم إلا أن يندفعوا مع أهوائهم مرخين العنان لقلوبهم تعشق وتحب ، ولرؤوسهم تحلم وتفكر . إن هؤلاء الأبطال لا يعيشون في غير أسطر ضمت في كتاب أو على خشبة مسرح يتقمص أفعالهم الممثلون

لست هنا في معرض دعوى أدافع بها مطالباً بحكم على هذه الآداب الكلاسيكية ، فاني من أكثر الناس حباً لها وإعجاباً بها وبكل ما هو رائع وجميل ، بل أقول إن الأدب لم يشهد منذ الأغريق الأقدمين عهداً رائعاً مثل عهد هذه الآداب . ولرب قائل يقول : إن هؤلاء الملوك والملكات وهؤلاء الأمراء والكبراء الذين لا تخلو منهم رواية مسرحية ألفت في القرن السابع عشر هم الذين ينبو عنهم ذوقنا ؛ وأكبر ظني أن ليس هنالك أحد يستسيغ الحديث عن أناس نسبت إليهم أفعال حميدة وكلام مزوق معسول ، وقد جعلوا في جو من الأبهة والملك يشغفان لهم إذا لم يأت كل ما نسب إليهم مطابقاً للواقع صادراً عن ميولهم ومجرد إحساساتهم ؛ وإذا استساغ البعض حديثاً من هذا النوع فانهم لا يجدون فيه صورة منقولة عن عالم الأحياء الذي يعيشون فيـه . فليس كل من يدبون على الأرض مترفين ولا أصحاب امتيازات

لعمري إن آداباً تلك سمتها لا تنبأ بغير هذا النمط من الناس ولا تهتم بغير الرؤوس والقلوب منهم ، لا يرجى لها مستقبل تأمن فيه من أن تزل قدمها فتهوي إلى أعماق البحر الذي تمشي على شطآنه

إن الآداب والفنون إذا لم تكن مرآة للحياة وصدى للحقيقة فانها أشياء مصطنعة لا تلبث أن تفقد قيمتها ، وإننا إذا استثنينا الآداب اللاتينية لا نجد آداباً أوروبية أخرى أكثر من الفرنسية إيغالاً في الخيال وتعلقاً به ، ما تزال إلى الآن تعتمد عليه اعتماداً كبيراً . إن الآداب لا تسمو ولا تقوى ولا تتجدد إلا بالمقدار الذي تستمده من الشعب الذي يعتبر بحق دعامة المجتمع وأساس بنيانه ، وما أشبه حال الأدب ببطل الأسطورة الأغريقية ذات المغزى البليغ

التي تحكي أن أنتيوس يفقد قواه وتفل عزيمته كلما ارتفعت رجلاه عن أن تمس الأرض (١)

يتساءلون عن الكاتب الذي غذى الآداب الفرنسية في غضون القرن الثامن عشر وجدد في حيويتها؛ أليس هو فولتير ولا هو مونتسكيو على عبقريتهما وما قدماه لهذه الآداب من البدائع. إن هذا الكاتب رجل خرج من بين الرعاع لا حسب له ولا نسب: هو ديدرو وهو روسو

... يقول كاتب في جريدة (الاكسيون فرانسيز) منذ عهد قريب: «إن المدنية هي الكذب ومحض الاختلاق، وظيفتها إقامة رجل متصنع في شؤونه متكلف في أحواله مكان الرجل الطبيعي العادي، شبهها شبه الرجل الذي يبرز مرتدياً ثيابه مصففاً شعره، بعد أن يكون عارياً في حجرته الخاصة» ثم يختم المقال بقوله «على المرء أن يختار بين أن يكون متمدناً لا يعرف للإخلاص معنى وبين أن يكون غير متمدن مخلص لذاته»

كلا ليس من المحتم على المدنية أن تتجرد من صفة الاخلاص، وليس من اللازم على الانسان إذا أراد التمدن أن يكون كاذباً أفاكاً، بل إذا لم يكن للمدنية بد من شيء تتصف به وتحمل طابعه فانه الصدق. إني لست من الذين يلقون تبعة الكذب والتزييف البادين على كل مظهر من مظاهر حياتنا على عاتق الفرد؛ فإن الجاني هو المجتمع كلما أراد أن يخنق صوت الشعب، وكلما حاول أن يتركه على حاله من الغباوة والجهل والاستعباد، لا يعرف ما يجيش في فؤاده فيعبر لنا عنه ولا يدرك ما تستفيده الثقافة منه إذا جهر بما هو دائر في خلده حائم بمخيلته.

وقفت نفسي منذ كنت شاباً أحترف حرفة الكتابة على دحض الزعم القائل «قال الانسان كل ما يمكن أن يقوله وليس في استطاعة أحد أن يقول غير ما قد قيل» وقد اتخذ هذا الزعم وطنيو ذلك العهد شعاراً لهم يتمثلون به

أليس من دواعي العجب والغبطة وقد مضى عصران كانا ملأن على الكلمة التي كان يعتز بها لابروير: «جئت في الزمن الأخير» أن نرى أنفسنا أمام عالم حافل بالعجائب والغرائب لم نصل بعد إلى كثير أو قليل من أسراره، أمام عالم يقظ في إبان فتوته يطلع علينا كل يوم بجديد

من يقل أدب قوم فكأنه عني بذلك خصالهم وأحوال مجتمعهم، لكن هذه القاعدة كثيراً ما تشذ، وقد كثر شذوذها في الآداب الفرنسية، فإن لدينا طائفة كبيرة من الكتاب العظام لم يحظوا في حياتهم بعطف الجمهور وتقديره، فيقال بأنهم يكتبون لأنفسهم؛ لكن هذه الطائفة لم تعدم بعد حين الأنصار الذين رفعوها إلى المكان اللائق بها؛ وقد فطنوا للنظرات المجلي التي لم يستطع ادراكها المعاصرون. وكأني بذلك أعود بالمخيلة إلى بودلير وإلى رامبو وإلى ستاندال أيضاً الذي كان يكتب لعدد ضئيل من محبي أدبه، ويقول بأن قراءه الحقيقيين لم تلدهم أمهاتهم بعد.. بل وأتخيل نيتشه ووليام بلاك ومكفيل الذين لم يكن حالهم بأحسن من حال الأولين؛ هذا وإني لم أذكر إلا الكبار

نشهد اليوم حادثاً لم يسبق للتاريخ مثله، عظيم الأهمية، لا تقاس به الأحداث، ذاك هو النظام الجديد القائم في روسيا السوفيتية، ولست مبالغاً إذا قلت بأنه عمل «نموذجي» ينسج على منواله؛ إن بلاداً يجري فيها مثل هذا النظام تجعل الكاتب يتحسس بيئته ويتصل بقرائه اتصالاً مباشراً، لا يدور حولهم كالتائه يفتش عن ضالته كما هي حالنا معاشر الكتاب، فيستمد من الحقيقة التي تحيط به مادته، ويستلهم منها أخيلته، ويستمع إلى صداه بأذنه. إن بلاداً مثل هذه يؤدي فيها الأديب رسالته كما يجب أن تؤدى، جديرة منا بكل اعجاب. بيد أن ذلك كله لا يفيد. إن الطريق كلها سليمة لا تعتورها الأشواك، وكيف تجتنب الأخطار جميعها ما دام العمل الفني في طبيعته ضعيف المقاومة، قليل التأثير بادئ ذي بدء. ولعل الكلام عن مثل هذه الأخطار التي هي من طراز جديد ستحين له فرصة ثانية، لقد رأيت في النتاج الأدبي السوفييتي آثاراً أثارت مني كل اعجاب، لكنها ما تزال بعيدة عن أن يتمثل فيها الانسان المنتظر، الذي ما برح هذا الأدب يعمل على ايجاده، وهو ما يزال في

---

(١) الأسطورة تقول إن أنتيوس Antée بن جي (الأرض) اعترض هرقل في طريقه إلى أطلس (الذي يحمل السماء على منكبيه) وقد وسوس اليه الشيطان بقتله فكان عراك طويل حتى فطن هرقل إلى السر الذي يستمد منه خصمه أنتيوس قوته كلما بدأت قواه أن تخور بوقوعه على الأرض فرفعه رفعة هائلة ثم أخذ يضغط على عنقه الغليظ الجبل حتى شهق شهقة كانت هي شهقة الموت (المعرب)

مراحله الأولى يصور لنا أدوار التكون والتمخض والولادة ، وإنى لشديد الأمل برؤية الآداب السوفيتية قد كبرت واشتد ساعدها ، فأصبح الكاتب فى كنف الحقيقة الماثلة ، فاتحة له صدرها يضمها بكلتا يديه

إن الأدب الخالد الذى تقبله النفوس وتقدم عليه بشغف يتجدد فى كل حين ، لا ينقطع لسد حاجة وقتية تنبعث عند طبقة من الناس ، فى وقت من الأوقات ، وعلى هذا الأساس ، فان حكومة السوفييت لم تقتصر على طبع الآثار والمؤلفات التى جادت بها قرائح كتابها وشعرائها ، فانها عنيت عناية فائقة بنشر أشعار بوشكين ، وتمثيل مسرحيات شكسبير ؛ ولم تقل قط بأن أدب كتابها مرسوم له الخلود ، ولا هى تستبعد أن يكون نتاج هؤلاء الكتاب صائرا إلى الزوال بزوال الحاجة التى دفعت اليه ، ما دام الزمن لم يحكم حكمه عليه ، وإذا كان هنالك من شيء يمسخ الفائدة التى يمكن أن يجنيها الناس من قراءة الكتب وانشاد الأشعار ، فما هى إلا أن ترسم لهم الأمثولة ويحدد لهم المغزى ، وفى التدليل الكثير على العظة التى تتضمنها الكتب ضياع لمسحة الجمال التى يتميز بها الأدب ، ويصبح بذلك ضربا من ضروب الوعظ الجافة

ليس مما يضير القراء ألا يوفقوا كلهم إلى غاية واحدة ، فان فى استطلاعهم اياها فى أجواء مختلفة فائدة لا تقدر ، وفى ذهابهم مناحى متباينة بعد عن أن تكون هناك سلطة يستهدون بها ، هذا والثقافة كانت لجلاء الذهن واطلاق الفكر قبل أن تكون عامل ارشاد وتهذيب

تتوجه أنظار المفكرين ، فى هذا الزمن ، إلى انتشال الانسانية من وهاد الاضطهادات التى تردت فيها ، وإنى لا أقدر لهؤلاء المفكرين أن يظل الانسان موضع اهتمامهم يوم يفلت من قيده وينطلق حرا شريفا ، فلا يمنون به إلا خانعا ذليلا أو غرا جهولا ، بل ولقد أسبغ على نفوسنا طول تحدثنا عن البؤس وتغنينا بمحامده ومزاياه حلة من الخنوع والاستكانة لا تليق بها

جميل أن نحلم بمجتمع تنم نماؤه الأفراد ، وأجمل منه أن نوقن بقرب قيام هذا المجتمع ؟

ترجمة وتلخيص ماجد شيخ الأرض

٣ - الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين فى العصر الحاضر

« ان صوتى قد أوقد النار المقدسة فى بلاد ايران
ولكن العرب لا يعرفون شيئا عن نغماتى الشجية »
(اقبال)

لأبى النصر أحمد الحسينى الهندى

بدأ الدكتور يقول الشعر فى أول الأمر من نوع الغزل ثم باشر أنواع الشعر الأخرى مثل : « مثنوى » و « قصيدة » و « رباعى » و « قطعة » و « مسدس » فأجادها إجادة تخلب القلوب ، غير أن كمال شعره ليس فى هذه الأشكال والقيود الظاهرية ، بل فى ابتكار المعانى ، وإبداع البيان ، ودقة الفكر ، وسمو الخيال ، وحسن التركيب والتشبيه ، وقوة الكلام التى يشتمل عليها شعره . فأنت ترى كيف أن تلك الصفات أورثت التصوير حسنا ورونقا فى قصيدته « الأمنية » التى طلب فيها من الله أن يخرجه من ضوضاء هذا العالم ويسكنه محلا هادئا ذا منظر بهيج . قال فى وصف ذلك المنظر :

« ... فلتكن (فى ذلك المحل) الأشجار مصطفة فى جانبين يرسم صورتها ماء النهر الصافى ، وليكن منظر الجبال فيه فتانا إلى درجة أن يقوم الماء فى شكل الأمواج لرؤيته ، ويمس الماء فرع الورد مائلا كأن حسناء ترى وجهها فى المرآة ، وعندما تحنى الشمس عروس الليل تلبس الأزهار كساء ذهبيا مشربا حمرة ... الخ »

وقال فى وصف الحباحب الطائرة ليلا فى الحديقة :

« إن نور الحباحب يلمع فى معمورة الحديقة كأن الشمع منور فى محفل الأزهار ، أو نجمة قد جاءت طائرة من السماء ، أو شعاع القمر قد نفخ فيه الروح ، أو سفير النهار قد جاء فى سلطنة الليل فكان خاملا فى وطنه وبرز فى الغربة . أو زر قد وقع من قباء القمر أو ذرة قد ظهرت من قميص الشمس . إن فى هذا القمر الصغير نورا وظلمة فكأنه يخرج من الخسوف حينا ويدخل فيه حينا ... الخ »

إن الدكتور إقبال ليس بشاعر فقط بل هو مفكر وفيلسوف أيضا من الطراز الأول ، وهذا الأمر يزيد شعره حسنا وجمالا

ووزنقاً وكمالاً ، فقد قال كوليريج الشاعر الفلقى الناقد الأديب الانجليزى الشهير : « لم يكن ولن يكون أحد شاعراً كبيراً مجيداً بغير أن يكون فى نفس الوقت فيلسوفاً ومفكراً دقيقاً . لأن الشعر أريج علم الإنسان وأفكاره وشعوره وعواطفه ولغته قاطبة . » فى الشعر يقدر الشاعر الفيلسوف أن يعالج أمراً من أمور الفلسفة الدقيقة ، وعر الملتمس منيع المطلب بيت واحد ، فى حين أنه لا يقدر على معالجته بصفحات من النثر . فأنت ترى كيف أن إقبالاً بين لك فى بيت واحد فلسفة الحياة ، ثم نبهك على مواضع الضعف فيك ، وفى هذا التنبيه منه لك تحريض أيضاً على الإعراض عما أنت فيه قال :

جيات چيست جهان را أسير جان كردن
توخود أسير جهاني كجاتواني كرد

« ما هى الحياة ؟ هى أن تستأسر العالم لنفسك
(ولكن) مادمت أنت أسيراً للعالم فكيف يمكن لك ذلك »

وقال فى بيت آخر ما ترجمته :

« إن الحياة هى أن تخلق اللؤلؤ فى صدفك
وأن تنفذ فى قلب اللهيب ولا تذوب »

وقال فى فلسفة الحياة أيضاً مخاطباً قلبه ما ترجمته :

« أيها القلب تعلم من البرعوم سر الحياة ،
فإن الحقيقة ليست بمحجوبة فى مجازه .
فانه قد نبت من التربة الظلمة ،
ولكن نظره (دائماً) إلى شعاع الشمس »

يجيد الدكتور الانجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية والأردية ، ويعرف السنسكريتية والعربية أيضاً ، ويقول الشعر بالفارسية والأردية ، وجميع مصنفاته التى ظهرت الى الآن هى كما يلى :

١ — مصنفاته شعراً :

١ — بانك درا (أى صوت الجرس) : وهو ديوان باللغة الأردية يحتوى على أنواع الشعر المختلفة من باكورة شعره

٢ — أسرار خودى (أى أسرار الأنانية) : وهو أول دواوينه باللغة الفارسية وشعره من نوع المثنوى . نشره فى سنة ١٩١٦ ، ويحتوى على مباحث إسلامية فلسفية دقيقة لتربية الأنانية . وقد ترجمه المستشرق الشهير الدكتور نكلسن الى اللغة الانجليزية .

٣ — رموز بيخودى (أى رموز إنكار الأنانية) : وهو الديوان الثانى باللغة الفارسية وشعره من نوع المثنوى نشره فى سنة ١٩١٨ ، وهو كالتكملة للأول لتكوين الأنانية العليا وتربيتها

٤ — پيام مشرق (أى رسالة الشرق) : وهو ديوان باللغة الفارسية يحتوى على أنواع الشعر المختلفة ، نشره فى سنة ١٩٢٣ وقد صنفه رداً على « الديوان الغربى » للشاعر الفيلسوف الألمانى الشهير جوتيه . وقد ترجمه الدكتور نكلسن الى الانجليزية

٥ — زبور عجم : ديوان باللغة الفارسية وشعره من الأنواع المختلفة ، ويحتوى على أرق العواطف وأدق الأفكار الفلسفية . نشره فى سنة ١٩٢٦

٦ — جاويد نامه (أى كتاب جاويد) : وهو ديوان باللغة الفارسية نهج فيه الشاعر منهج فاوست لجوتيه ، ويحتوى على أدق الأفكار الفلسفية الاسلامية . وقد نسبه الى أصغر أبنائه المسمى « جاويد » . نشره فى سنة ١٩٣٢

٧ — مسافر : وهو ديوان صغير باللغة الفارسية ، شعره من نوع المثنوى ، يحتوى على ما جادت به قريحته حين سافر الى افغانستان تلبية لدعوة المغفور له جلالة الملك نادرشاه خان ملك افغانستان فى سنة ١٩٣٣

٨ — بال جبريل : ديوان باللغة الاردوية ، يشتمل على ما جادت به قريحته عند زيارته الآثار الاسلامية فى الأندلس ونشره سنة ١٩٣٥

٢ — مصنفاته نثراً :

١ — السياسة المدنية : صنفه باللغة الاردية وهو أول مصنفات الدكتور

٢ — تاريخ التقدم الفكرى فى بلاد إيران : وقد نال بتقديم هذا الكتاب شهادة الدكتوراه من ألمانيا

٣ — المحاضرات الست : وهى التى ألقاها فى الجامعات الهندية ، وتحتوى على فلسفة الالهيات الاسلامية

لقد طال بنا الحديث ونحب أن نختمه بكلمتين وجيزتين : منزلة شعر اقبال فى الهند ، وصداه فى العالم ، فأما منزلة شعر اقبال فى الهند ، فلشعره رسالة سيعرفها حين نفرد لها مقالاً فى فى المستقبل إن شاء الله . والرسالة إذا تمت لا بد أن تجذب ما حولها الى نفسها كذلك شعر اقبال ، ولا يتسع المجال هنا لأن

نستقصى رأى جميع طبقات الهيئة الاجتماعية الهندية فى شعر اقبال لابانة جاذبيته ومنزلته . وإنما نكتفى برأى طبقة الشعراء لأنهم أدرى بحقيقة فنه ودقائقه

إن الشعراء فى الهند كثيرون فمنهم من يجيد الشعر بالأردية ومنهم من ينشئه بالفارسية ، ومنهم من يتقنه بالاثنتين ، ولكن إقبالاً أسبقهم غير مدافع ، وأفضلهم غير معارض ، ولشعره بينهم القدح المعلى ، فقد اتفقوا جميعاً على أنه هو شهابهم الساطع ، وبدرهم الطالع ولقبوه « بترجمان حقيقت » (أى المعبر عن الحقائق) وقد شدا غير واحد منهم ناشراً طراز محاسنه فى المجالس ، وناثراً لآلئ وصـــفه فى المحافل بالأبيات والقصائد نقتطف بعضها هنا . قال مولانا غلام قادر گرامى[1] وهو من كبار شعراء الهند ويقول الشعر بالفارسية :

در ديده معنى نگهان حضرت إقبال
پيغمبرى كردو پيمبر نتوان گفت

« إن فى رأى أرباب النظر قد قام حضرة إقبال بعمل النبوة ولا يمكن أن يقال له نبى »

وقال الشاعر فگار — وهو من مسقط رأس إقبال ويقول الشعر بالفارسية والأردية — وهذه ترجمته :

« إنك قد جئت بكأس من الحانة القديمة وبنغمة داودية من وتر الرباب »

« يا طبيب روح الأمة ! أنت قد جئت بمهد الشباب فى دين ابراهيم بدواء الفلسفة »

« وقد كشفت عن نفسك بواسطة (رموز إنكار الأنانية[2]) يا أبا الحكمة أنت قد جئت بالنهر من السراب »

وقال السيد بشير أحمد اخگر — وهو من كبار الشعراء باللغة الأردية — وهذه ترجمته :

« إن وجودك لى سبب الحياة . إن أسرار أنانيتك[3] لى باعث زيادة الهمة »

(١) توفى رحمه الله فى سنة ١٩٢٧ ميلادية ، وكان من عشاق شعر إقبال . فلما قرب من الموت كان يردد هذا البيت على لسانه :

صبابه حضرت إقبال اين پيامم ده
كه رفت جان گرامى وتومنوز خوش

أيتها الريح بلغى رسالتى هذه الى حضرة اقبال ان
روح گرامى قد طارت وأنت لازلت سباكتاً

(٢) اسم لديوان اقبال (٣) اسمان لديوان اقبال

« إن رموز (إنكار الأنانية[1]) قد حل النقد . إن (صوت الجرس[2]) قد أصبح لى دليل الطريق »

« إن روح (غالب[3]) وحنو (مير[4]) فى قلبك يا إقبال إن حسن ليلى الشعر مخفى فى محملك[5] هذا »

أما صدى شعر إقبال فى العالم ، فلشعر إقبال فى أفغانستان مرتبة لا يشق غبارها وعزة لا يدرك شأوها ، إذ لا تقام حفلة من حفلات الحكومة إلا وتهز فيه فرق الموسيقى الحكومية قلوب الحاضرين بأناشيد إقبال وبخاصة « نشيد المسلم » منها . وقد نشر أبا هادى حسين وزير التجارة مقالات فى شعر إقبال . وبخاصة عن ديوانه « رسالة الشرق » فى مجلة « أمان أفغان » التى تصدر بكابل

ولم تأل الجرائد والمجلات فى ايران تنويهاً بشعر اقبال ، كما أن أهل العلم والأدب فيها يحيطون به خبراً ، ويثنون عليه أطيب الثناء

وفى تركيا ترجم كثيراً من شعر اقبال إلى اللغة التركية الكاتب المفكر الكبير حسين دانش ، وكتب مقالات عديدة عن ديوانه « رسالة الشرق » وبسط نظرياته فيها

وسافر أحد علماء روسيا إلى الهند ليلتقى بالدكتور اقبال فقط ، ثم نقل إلى اللغة الروسية نظريات الدكتور التى فى ديوانه « أسرار الأنانية »

وفى مصر نشر غير مرة صديقنا الفضال الدكتور عبدالوهاب عزام ترجمة بعض المقتطفات من شعر اقبال

وفى ألمانيا ترجم الأستاذ دايشو روسو مقدمة ديوانه « رسالة الشرق » إلى اللغة الألمانية ، كما أن الدكتور فيشر الأستاذ بجامعة ليبزج وصاحب مجلة « اسلاميكا » كتب مقالات عن الديوان « رسالة الشرق » ، وقارن فيها شعر اقبال بشعر الشاعر الألمانى الشهير جوته ، وترجم الشاعر الفيلسوف الألمانى هانس مانيكه قطعة من ديوانه « رسالة الشرق » إلى الألمانية ثم كتبها بيده وجلدها تجليداً جميلاً على الطراز الشرقى موشى بالذهب والفضة أهداها إلى الدكتور إقبال تقديراً لشعره واظهاراً لحسن اعتقاده فيه ؛ وقد أنشئت أخيراً جمعية باسم اقبال لتعريف شعره ونشر مبادئه فى ألمانيا . وتترجم فى ألمانيا الآن محاضرات الدكتور

(١) اسم لديوان اقبال (٢) اسمان لديوان اقبال

(٣) غالب كان رأس شعراء اللغة الأردية ، فهو بمثابة شكسبير وجوته بالأردية (٤) ميركا أحد كبار شعراء اللغة الأردية

(٥) يريد به قلبه

التي ألقاها في الجامعات الهندية في فلسفة الالهيات إلى اللغة الألمانية

وفي ايطاليا نشر العالم الطلياني الكبير الدكتور اسكاريا الذي زار أفغانستان والهند وقابل الدكتور اقبال مقالات عن شعر اقبال في مجلة أدبية ايطالية

وفي انجلترا ترجم الدكتور نكلسون ديوانه « أسرار الأنانية » وجزءاً من ديوانه « رسالة الشرق » إلى الانجليزية ونشرهما فذاع بهما صيت الدكتور في أمريكا وبلاد أخرى أيضاً ، ونوهت أندية العلم والأدب والجرائد والمجلات العلمية والأدبية بشعره ، وكتب عن « أسرار الأنانية » المرحوم الدكتور براون المستشرق الانجليزي الشهير في مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ، وأيضاً نوه باقبال وشعره في تصنيفه تاريخ الأدب الفارسي في المجلد الرابع منه

وفي أمريكا صنف العالم الأمريكي الجليل ميكنزي كتاباً أسماه « يقظة الهند » فنوه فيه باقبال وشعره ونظرياته وفلسفته

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

في الأدب الانجليزي

الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

مقدمة

لا شك في أن عبقرية شكسبير ظهرت في مناحي عدة وصور مختلفة ، وليس من السهل على أي شخص مهما كانت نزعته ومهما تباينت عقليته أن ينكر أن شكسبير هو شاعر بريطانيا الأعظم وكبير من كبار الشعراء العالميين ، ولكن ويا للأسف اختلف النقاد في انكلترا وفي غيرها من بلدان العالم في تحديد الدرجة الممتازة التي وصل إليها هذا الشاعر : فاعتبره البعض أعظم شاعر بزغ نجمه على هذه البسيطة لا في عصره فحسب ، بل في العصور التي سبقته أو تلته . وأنكر البعض الآخر هذا الادعاء وتحاملوا عليه تحاملاً ظاهراً ، معتقدين أن عظمته لا تفوق في أية ناحية من نواحيها عظمة جوتي الألماني ودانتي الايطالي

إن من الصعب أن أبرهن في هذه العجالة على عظمة شكسبير وتبريزه على غيره من شعراء العالم ، ولم أقصد فيها إلا البحث في ناحية واحدة من مناحي تفكيره العميق وخياله المبدع الذي تناول بواسطته جميع نواحي الحياة من عقائد وتقاليد فدونها في شعره ورواياته . نعم كان من الصعب عليه أن يوفق بين عقائده الشخصية وبين عقائد مجتمعه البشري ، ولكنه خرج من هذا الميدان مكللاً بأكاليل من الغار وتيجان من الظفر

لم تكن الخرافات والغيبيات (Supernaturalism) عقيدة راسخة في تفكير شاعرنا ؛ فقد كان دائم الاضطراب والشك في هذه الناحية من مناحي الغموض والخفاء المقلين . لقد حاول في رواياته أن يبتعد عن العقائد الشائعة العامة ، ولكنه لم يستطع ذلك لتخوفه من الرأي العام السائد في تلك الأيام الرهيبة

عقائده الدينية

ولد شكسبير سنة ١٥٦٤ إبان الدور الأول من حكم الملكة اليصابات في عصر اشتد فيه النزاع الديني واختلفت فيه العقائد ، حتى أصبحت مصدر شقاء وينبوع استبداد ساد انكلترا قرناً من الزمان . ولنراجع في الفقرات التالية صفحات التاريخ فنرى كيف انتشرت البروتستنتية في انكلترا ، وبأية صورة كان نشوؤها وتطورها

كلنا يعرف أن الملك هنري الثامن أراد طلاق امرأته الاسبانية كاترين لعشقه غادة من غادات البلاط ، كانوا يسمونها (آن بولين) ولم يكن في الامكان في ذلك العصر تحقيق تلك الرغبة الجامحة ، فما وسع هنري إلا أن يحدث نزاعاً اشتد أمره مع رئيس الكنيسة الأعلى وحامي حماها في الشرق والغرب . طغت عليه الروح الاستبدادية روح العظمة والتفوق ، فحدثته نفسه بالانفصال عن كنيسة رومة ، ولم يلبث أن أعلن ذلك الانفصال ونصب نفسه رئيساً أعلى للكنيسة الانكليزية

ولم تكن هذه الحركة في بدء أمرها إلا حركة سياسية محضة لم يشبها شائب من الدين والعقائد ، ولكن ما لبث أن فارق هنري دنياه ونصب ولده الطفل أدورد ملكاً على عرش بريطانيا ، فكان له من الأنصار والمساعدين نفر اشبعت نفوسهم بروح البروتستنتية فأعلنوا أن الكنيسة الانكليزية قد غدت منفصلة

تمام الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية ووضعوا كتابين من كتب الصلاة ليقرآ في الكنائس بدلاً من الكتب القديمة

حركة جريئة أعقبتها فترة إحجام ورد فعل . مات إدورد فتبوأت مارى تيودور العرش ، وكان لتربيتها الكاثوليكية أثر عظيم في نفسها مالبث أن دفعها للاعلان عن فساد جميع القوانين التي ظهرت في عهد سلفها ، وعن رجوع الكنيسة الانكليزية إلى الحظيرة الكاثوليكية . ولتحقيق تلك الرغبة في نفسها سنت قانوناً تحتم فيه على كل قس أوراهب أن يرجع إلى الحظيرة القديمة وإلا كان جزاؤه الموت والعذاب.

أخيراً انتقلت تلك الملكة الغشمة إلى جوار ربها وارتقت اليصابات العرش . ونظراً لروحها الاستقلالية وميلها إلى الطموح والعظمة لم تلبث أن أعلنت بعد مرور سنة من تسنمها العرش . الانفصال التام عن الكنيسة البابوية وتنصيبها نفسها رئيسة عليا للكنيسة الانجليزية

لو أتيح لنا الاطلاع على كثير من الرسائل الشخصية التي كتبها الشاعر العظيم لأصدقائه وأخدانه لأمكننا الوقوف على عقائده وأفكاره الدينية ، هناك أمور عدة تحملنا على الاعتقاد بأن شكسبير كان رجلاً ديناً خيراً ، ولكن حرية فكره كانت سبباً دائماً في انشغاله بأسئلة لا حد لها عن الموت والحياة غير متأثر بالعقائد الدينية السائدة في عصره . كان والده بروتستنتياً متطرفاً ، فلا بدع أن نراه متأثراً أثر والده ، متحاملاً على البابوية والكثلكة أشد التحامل وأقساه . وبرغم هذا التحامل الظاهر فان الكنيسة البابوية ادعته في كثير من الظروف والأحيان ابناً باراً من أبنائها وعلماً من أبرز أعلامها . واستندوا في إدعاءاتهم هذه على كثير من البراهين والحجج التي إن لم تكن ضعيفة في حد ذاتها ، فلا تصل إلى تلك الدرجة من الاقناع التي يتوخونها ويطلبونها

قد نستطيع من دراستنا لروايات هـذا الشاعر أن نحدد العقائد التي كان يؤمن بها . فلقد صور في هذه الروايات عدداً كبيراً من رجال الدين أمثال الراهب فرنسيس والراهب لورنس ، وكان في كل صورة من أمثال هذه الصور يتوخى التبجيل والاحترام لرجال الأكليروس . إلا أن هذه النظرة وهذا الاحترام لم يتجاوزا طبقة الرهبان إلى طبقة البابوات ؛ فروايته التاريخية التي تتناول سيرة الملك يوحنا (King John) تعد في حد ذاتها أكثر الروايات تحاملاً على البابوية والكثلكة . وعلى الرغم من ازدياد نفوذ البابوية في هذه الأيام وتفوقها على السلطة الزمنية نرى عدداً قليلاً من الملوك يضربون بسلطتها عرض الحائط ويحاولون نزع نير العبودية عن عواتقهم ، فكثيراً ما تعرضوا لوكلاء البابا وممثليه وأغلظوا لهم القول غير هيابين ولا وجلين . دعنا نعرض الأقوال الجريئة التي فاه بها الملك يوحنا مجيباً على تدخل البابا في مسائل سياسية لا تعنيه شيئاً فهو يقول :

هل يمكن لأي رجل دنيوي مهما علت سلطته وارتفعت منزلته أن يعارض إرادة الملوك المقدسة ؟ فليس باستطاعتك أيها الكردينال أن تضطرني إلى إطاعة رجل حقير لا يستحق إلا الاستهزاء به . اذهب إلى سيدك البابا وأخبره ما أسمعتك من قارص الكلم وزد على ذلك أن ليس لأي قسيس إيطالي أن يتدخل في المسائل الانكليزية ، ومادمنا بمشيئة الله وإرادته قد وجدنا رؤساء لهذه الأمة فلنا الحق وحدنا في السير بها حسبما نشاء ونرغب دون أية مساعدة من إنسان . قل له إن ذلك الاحترام وإن تلك السلطة الناشئة قد تقلص ظلهما منذ مدة » (١)

وفي خطاب آخر من نفس الرواية يعدد الملك يوحنا المساوئ الكثيرة التي كانت الكنيسة تتصف بها في هـذه العصور . فالبابا أصبح رجلاً مأجوراً يمكن للملوك أن يستخدموه إذا رشوه بالكثير من الأموال ، فليس من واجب الملوك أن يطيعوا رجلاً كهذا الرجل ، وهذه النظرية تتبين لنا في مواضع عدة من روايات شكسبير فهو يتخذ من البابا أداة للسخرية والهزء في رواية تيتس أندرونيكس (Titus Andronicus) إذ يقول :

« إني لأعلم تمام العلم أنك رجل وفي ورع تحمل بين جنبيك نفساً طاهرة وضميراً حياً ، وأن لك حيلاً تماثل الحيل العديدة التي يتبعها البابا في بسط نفوذه وجمع ثروته » (٢)

يتبع صبري حماد

(1) King John . Act . III . Sc. I . 147 — 160
(2) Titus Andronicus V . I . 74 — 78.

فن الحيـــاة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مقدمة :

إن للانسان فى الحياة نشوة كنشوة الفنان عند الصنع ، أو كنشوة المطلع على الفن عند الاطلاع عليه ، فاذا عدم هذه النشوة صعب عليه أن يسوغ الحياة وأن يلتذها ، ولا يمنع عده الحياة فنا جيلا من تقدمها أو الرغبة فى إصلاحها ، كما يتقد المطلع على الفن ما يشاهده من الفن ؛ وكذلك لا تمنع الرغبة فى إصلاح الحياة من النظر إليها كأنها ممثلة حسناء تمثل الخير والشر فلا يكرهها من أجل تمثيلها الشر ، وهذا خير من أن يظل يبكى ويندب لأن نمر الشر الذى فى كل نفس لم يتحول هرة وديعة كالتى تراها فى المنازل ، وهو لو تحول ما تجاوز أصله ولا فصيلته ، إذ النمر والهرة من فصيلة واحدة « الناظم »

أيا حسن هذا العيش لو كان قصة   يُسَرُّ بها سارى الورى وهو يسمرُ

على ما بها من ضجة بين شقوة   وكم عاشق للنقص يهوى ويُنكر

فليت الفتى يبدو له صرف عيشة   كعيش غريب قصةً تتدبرُ

ويا رُبَّ مأساة إذا ما بدت له   تمثل إن يحزن لها فهو يصبر

وفى فنها ملهى وحسن وسلوة   ولولا فنون العيش ما كان يُعذر

وان كان رب الناس يقضى اقتيالهم   فما شأن مثلى وهو أعلى وأقدر

وما قصَّرت بى رغبة عن محاسن   أريد لها عيشاً سوى العيش يقدر

حياة كحسناء المسارح شرها   إذا ما حكته عاد بالفن يبهر

ممثلة حسناء كم مثلت أذى   وغدراً أجادت فنها وهى تغدر

فما زادها إلا بهاء وحظوة   لدى عاشقيها وهى بالفن تأسر

تمليتها لما ولعت بفنها   ولولاه تزرى بالحياة فتكدر

حنانيك إن العيش فن فلا ترُع   وان ناب خطب فهو محكى ومخبر

تعانَ بهذا الرأى إن كنت قادراً   وان أمكن الاصلاح لم تكُ تقصر

يمثل كل دوره فى حياته   فإن راق فن فهو شأو ومظهر

أإن نمر فى النفس لم يمس هرةً   تظل على الاسقام تبكى وتسخر

وما نمر عن هرة بمباعد   ويطغى ووديع حين يبغى ويقدرُ

عبد الرحمن شكرى

كأس تفيض

للاستاذ محمود غنيم

لكَ اللهُ لا تشكو ولا تتبرمُ   فؤادكَ فياضٌ وثغرك مُلجَمُ

يفيض لسانُ المرء إن ضاق صدرُه   ويطفحُ زيتُ الكيل والكيلُ مفعَم

وهل يُطبق العصفورُ فاهُ على الشجى   ويمتلئُ الحاكى فلا يترنمُ ؟

تعللتُ دهراً بالمنى فاذا بها   قواريرُ من مس الصَّبا تتحطَّم

لعمركَ ما أدرى على أيِّ منطق   أُشاهدُ فى مصرَ الحظوظَ تقسَّمُ

حملنا على الأقدار وهى بريئة   وقلنا : هى الأقدارُ تُعطى وتحرِم

فمن يكُ ذا قُربى وصهرٍ فاننى   بمصرَ وحيدٌ لا شقيقٌ ولا حَم

فلا غروَ أنى قد سكنتُ بأرضها   كما سكنت أهرامُها والمقطَّم

وقفتُ مكانى لا أريمُ وأخمصى   على الشوك من طول السُّرَى تتورَّم

كأنى إطارٌ دائرٌ حول محور   يسير بلا بطء ولا يتقـدَّم

وما أنا ممن تخطئ العينُ مثلَه   ولكن تعامى القومُ عنى أو عَمُوا

***

أيذوى شبابى بين جدران قرية   يباب كأنَّ الصمتَ فيها مخيِّمُ

أكادُ من الصمت الذى هو شاملى   إذا حُسِبَ الأحياء لم أكُ منهمُ

وعاشرتُ أهليها سنين وإننى   غريبٌ بأحساسى وروحى عنهمُ

يقولون : خضراء المرابع نضرةٌ   فقلتُ : هبوها لستُ شاةً تسوَّمُ

على رسلكم إنى أقيمُ بقفرة   يجوز على الأحياء فيها الترحُّم

سئمتُ بها لوناً من العيش واحداً   فدارى بها دارى وصحبى همُ همُ

حياةٌ كسطح الماء والماء راكدٌ   فليس بها شيءٌ يسُرُّ ويُؤلم

وما أبتغى إلا حياةً عنيفةً   تسرُّ فأرضى أو تسوء فأنقِم

حياةٌ كلجِّ البحر والبحرُ زاخرٌ   تدوِّى بها الأنواء والرعد يهزِم

حياةٌ بها جِدٌّ ولهوٌ ، بها رضاً   وسُخطٌ ، لها طعمان : شهدٌ وعلقم

فمن مبلغٌ بنت المعز بأن لى   فؤاداً عليها كالطيور يحوِّم ؟

وأنى من سبعٍ خلوْنَ محافظٌ … على العهد إن خان العهودَ متيَّم
فان تجتنى مصرٌ فحسبىَ أننى … أحُجُّ إليها كلَّ عام وأحرم

* * *

جنانيك إنى قد برمتُ بفتيةٍ … أروحُ وأغدو كلَّ يومٍ إليهمُ
صغارٌ نربيهم بمثل عقولهم … ونبنيهمو لكنَّنا نتهدَّم
لأوشِكُ أن أرتدَّ طفلاً لطولِ ما … أمثِّل دورَ الطفل بين يديهمُ
فصولٌ بدأناها وسوف نعيدها … دواليكَ ، واللحنُ المكرَّر يُسأم
وما كنت أعْنَى بالنتيجة طالباً … فصرت بها فى هدأة الليلِ أحلُم
فمن كان يرثى قلبُه لمعذَّبٍ … فأجدر شخصٍ بالرثاءِ المعلِّم
على كتفيهِ يبلغُ المجدَ غيرُهُ … فما هو إلا للتسلُّق سُلَّمُ
وَدِدْتُ لَوَ انّى عدت للدرس ناشئاً … أسيرُ وفى يمناى لوحٌ ومِرقم

* * *

يقولون : منطيقٌ أغرُّ بيانه … فقلت لهم : لكنَّ حظِّىَ أبكم
أرى الحظ مُنقاداً لكل مهرِّج … فأما على الأكفاء فهو مُحرَّم
يفوز به من يقطع السُبْل مُلحفاً … ويغشى بيوتَ الناسِ والناسُ نوَّم
ورُب أمورٍ يخجل الحرُّ ذكرُها … وبعضُ الذى يُرْوَى عن الناس يُكتم
وكائن ترى الحرَّ الأبيَّةَ نفسُه … يضيع له حقٌّ وآخرُ يُهضم
فياليتنى أغضيتُ جفنى على القذَى … وعلَّمت نفسى بعضَ ماليس تَعلم
فلو أن نفسى طاوعتنى فرضتها … على الهوْنِ لم أخسَرْ وغيرىَ يَغنم
ألا فليسُدْ من شاء حسبىَ أننى … ضَنَنْتُ بماء الوجه حين تكرَّموا
نظمتُ فما أطريت غيرى تزلُّفا … ولكن لنفسى لا لغيرىَ أنظم
ولم أتغزَّل فى الكرام وفضلهم … وغيرى بهم لا بالكواعبِ مُغرم
وإنى لمغبونٌ إذا صرتُ قيصراً … وطوِّق بالنعماء جيدىَ منعم

(كوم حماده) محمود غنيم

الجامعة الأمريكية والصحافة

تفتتح الجامعة الأمريكية بالقاهرة أبوابها هذا العام عن قسم خاص بالصحافة ، على نحو ما تعني به الجامعات الأوربية والأمريكية لأعداد طالب الصحافة اعدادا جامعياً دقيقاً يتناول دراسة اللغات وعلوم الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتاريخ والفلسفة والعلوم السياسية ونظام الحكومات والتربية المقارنة ، وكذلك الفنون المرتبطة بمزاولة العمل الصحفى فى نواحيه جميعاً كالأسلوب ، وتحرير المقال ، والتصحيح ، ومهمة الأخبار ، والتبويب وما اليها

وتبدو مهمة الجامعة الأمريكية فى هذا الباب عظيمة الشأن ، شأنها فى عديد من أقسامها الأخرى كقسم المعلمين والقسم الاعدادى ، واضطلاعها بمسائل الطالب الحيوية واعداده للحياة كما يجب أن يحيا . ولكن طالب الصحافة الجامعى وعناية الجامعة الأمريكية به وبمثل هذا النوع من التعليم فى مصر أو فى الشرق على وجه العموم يكون له من عظم الشأن ما يجعله فى مركز ممتاز دونه فى المعاهد الأخرى نظراً لاعتبارات خاصة لها من الأهمية ما ليس للأخرى ما لها ، لأنه :

أولا : مركز مصر من الشرق فى مقام الزعيمة لا يسمح بأن يدانيها بلد آخر فى مضمار الصحافة أو العناية بدراستها

ثانياً : جعل تعليم الصحافة بنوع خاص فى دائرة حرة بعيداً عن الادارة الحكومية والضغط السياسى

ثالثاً : الشعور السائد الذى يتناوب القراء والصحف ، شعور بالحاجة الى توسيع المعارف والمعارف الصحفية وتكثير نسابها

رابعاً : فتح أبواب جديدة أمام طلبة التعليم العالى فى مصر والشرق بعد أن ضاقت بهم صناعات ووظائف أخرى كالمحاماة والطب والهندسة وغيرها

خامساً : تغذية الصحف بعنصر صالح لادارة أعمالها بمهارة ولباقة ، فضلاً عن أن الصحف تعتبر أداة هامة فى نشر المعارف وفتق الأذهان وخدمة الوطنية ، وملاحظة مثل هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة لما يجعل للجامعة الأمريكية أولاً وأخيراً حق السبق وحق العناية فيما لو فكرت حكومة فى الشرق فى مثل هذا النوع من التعليم ، وإن كان ذلك ، وإن ، فما هو باليوم البعيد الذى نرى فيه الصحفى الأمريكى بمعنى الكلمة أول ثمار الجامعة الأمريكية فى مصر والشرق ما ؟

ا . ث

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٢ – تطور الحركة الفلسفية فى ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

بين اليهود نشأت ذرية الكهان ، وبينهم هبت ثورة العبيد ، واندلعت نيرانها على المبادئ الأرستقراطية . نقموا على المبادئ القائلة بأن الصالح والشريف والقوى والجميل والسعيد هم الذين تحبهم الآلهة ، وعملوا على دحضها بمنطق قوى . قالوا إن الضعفاء والعجزة والأشقياء والبؤساء هم الصالحون وحدهم ... وإن المتألمين والتعساء والمرضى والقبيحين هم وحدهم المقربون إلى الله ، ولهم وحدهم أعدت مساكن النعيم . أما النبلاء والجبارون الأقوياء فهم الجاحدون القاسيون ، وهم فى تلك النار المخذولون والأشقون جاءت المسيحية فورثت عن اليهودية هذا الميراث . وأكمل الكاهن المسيحى ما بشر به الكاهن اليهودى . وما غبرت عشرون قرناً وهو الظافر المنتصر . فكان أول مشهد من ذلك الانقلاب مسألة النفس والارادة الحرة المختارة . وفى الحقيقة لا نفس منسلخة عن جسد ، ولا وجود للارادة الحرة ، وقد تكون إرادة بلا حرية ولا اختيار . وإنما هنالك إرادات قوية تقوم بأعمال ذات قيمة ، وإرادات ضعيفة عملها ضئيل ، آراء كالرعد يقصف ، هى فى الحقيقة فكرة واحدة ترتدى أثواباً مختلفة . فالرعد ليس بشىء ذاتى يقدر على القصف وعلى غير القصف . إنه رعد حين يقصف ؛ كذلك شأن مجموعة القوات المتجلية فى الرجل القوى لا تبدو ولا تظهر إلا بهذه المظاهر . والعقل الشعبي استطاع بوساطة الافتراض الاختيارى أن يفرق بين الكائن والحادث وبين الارادة ومظاهرها ، وافترض أن وراء أعمال البشر ووراء ما تأتيه إرادة القوة كائناً أو نفساً هى علة هذه الأعمال . وهذه النفس هى جوهر حر يظهر كيفما يشاء ، ويعمل كما يشاء . وهذا الذى تمثله « حراً مختاراً » أصبح العبد يساويه بالسيد ، بل يجعله متفوقاً عليه . وهكذا أصبحت قيمة الفرد لا تتوقف على ما يتكون فيه من مجموعة قواته . وبذا زال عندهم تفضيل القوى على الضعيف بفضل منطقهم « لأن القوى يعمل بحسب قواه وهو خاطئ ، لأن عمله بحسب قواه عمل سيئ . والضعيف يعمل بحسب ضعفه وهو ذو حق ، لأن عمله بضعف عمل حسن . فالضعيف إذن هو خير من القوى » ويصف نيتشه وصفاً مؤثراً تلك العوامل التى لجأ إليها العبيد الذين تغلى صدورهم غيظاً وموجدة ، ليحطوا من قدر الأسياد ، وليحولوا أنفسهم الى شهداء وقديسين

هذا هو المثل الأعلى للعبد . فهو يحيا بتلك الدعوات المزية التى ابتدعها . ولكن أثقال ضعفه الراسية على ظهره لينوء بحملها فيتألم ويشكو ويتململ ، فيجئ الكاهن لا ليبرئه من دائه ، ولا ليقطع أسبابه كما يصنع الطبيب . يجئ لينسى الصابر ما يحسه من ألم وشقاء ، وليبث فيه « مواد مخدرة » ترقد الألم ولا تمحوه . يغذى مريضه ويعطيه مادة تضعف فيه القوة الحيوية والعقلية يأتى الزهد والتقشف والبلاهة فى نفسه وجسده خدراً إلى حين ، فيذهل عن ألمه بل يوشك أن ينفك عن كل إحساس فيه . فيغدو هذا الرجل المنحط « قديساً » ، وقد يحيط الكاهن بالرجل فيجعل منه آلة تستغرق كل انتباهه ويجعل منه شيئاً يتحرك بذاته ، ويصرفه عن التأمل فى نفسه والتفكير فيها ، ويلهيه بالانكباب على بهجة حقيرة يسهل عليه نيلها محبة القريب والمحبة والمساعدة المتبادلة ، ثم يعمل الكاهن على أن يصرف « قطعانه المريضة » عن آلامهم الذاتية

وازاء هذه العوامل التى اختلقها عوامل أخرى ابتدعها لمصلحته الخاصة . عوامل خطرة مؤثرة ، تنطوى على سموم تنسى المتألم آلامه وتفنى فيه قوته الحيوية . وهذا السم هو « الايمان بالخطيئة »

أما أصل الخطيئة فسببه دافعان ولدا اختياراً فى قلب الانسانية . وهما الضمير الفاسد ، والايمان بدين مكتوب على الانسان لله . والضمير الفاسد – عند نيتشه – هو نتيجة تشويش فى النفس عميق . تسيطر على الانسان يوم كان وحشاً ممتزلاً ، ثم انقلب عضواً رئيسياً فى قطيع الأحياء ، والحكومة هل هى

إلا - كما يحتمل الذمن - ظلم مرعب فرضه الأقوياء على الضعفاء ، وفجأة وجد المغلوبون على أمرهم أن أسباب الوجود عندهم مقلوبة رأساً على عقب ، وألفوا أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يتبعوا بحرية واختيار تلك الغريزة الطبيعية التي كانت تسوقهم . فظلوا يبذلون جهودهم بينهم وبين أنفسهم ليقودوا أنفسهم بفطنة ، ويضغطون على إرادتهم خشية أن يجازف بالاساءة إلى الأسياد ، ويعملون بتعقل وتأمل . ولكن هذه الغرائز هي جزء من قوة لا بد لها أن تبدو مظاهرها وآثارها . فاذا كتب على هذه القوة أن يضغط عليها حينا حتى لا تخرج عن نفسها بأى دافع ما ، فهي ولا بد مستحيلة إلى قوة خفية تعمل عملها في الباطن . وبمثل هذا التبدل وعلى مثل هذا التحول وُلد « الضمير الفاسد » . فهو وليد هذا الضغط الباطني الذي تصير عليه الغريزة الطبيعية في الانسان . وهو كالوحش السجين الذي عضته الوحشة ونازعه حنينه إلى العرين والحرية والصحراء ، ينهش جسمه بين قضبان القفص . كذلك الانسان الابتدائي الأهلي السجين يتألم بنفسه ، وغريزة الحياة الكامنة فيه المقيدة بمظاهرها الخارجية أمست تبدو بحالة هيجان باطني

وفكرة الدَّين المكتوب لله على الانسان هي فكرة قديمة مترددة في الشرائع القديمة . ففي العصور الأولى كانت كل قبيلة تؤمن بأنها مدينة بخيراتها الحاضرة للذريات السابقة . وأن الأجداد الذين قضوا يصيرون بعد الموت أرواحاً قوية تتابع تأثيرها في الأحياء وتواصل إحسانها إليهم . ولكن كل إحسان لابد أن يُبذل ثمنه . وهكذا تولد في عقول الناس أنهم مدينون بشيء لآبائهم وأجدادهم . وهم مضطرون إلى تقديم الضحايا لهم جزاء وفاقاً على دفعهم للأذى والضر عنهم . ومن هنا نشأت عبادة الأجداد في فجر كل مدنية ، ثم تطورت هذه العبادة قليلاً قليلاً . فالاحترام الذي كان يكنه الانسان لأجداده جميعاً ماضي ينقبض حتى ارتكز في الجد الأصلي للسلالة ، ثم نزل هذا الجد بدوره منزلة الاله . وكلما كان الاله قوياً مخيفاً كان شعبه الذي يجله ويعبده أكثر فلاحاً وتقدماً ، وفي الظروف التي تنمو فيها عظمة الاله ينمو أيضاً الشعور بذلك الدين المفروض في سبيل احترامه وتزداد خشية الانسان من قصوره في العمل لربه .

وبوساطة هذا المنطق ألفينا أن عاطفة خضوع الانسان لله بلغت الدرجة القصوى يوم ظفر إله المسيحية بالأوثان . ودانت له الأرباب وعسكر في مناطق بارزة من أوروبا . فآمن الانسان إذ ذاك بأن الدين قد تضخم . حتى أصبح أجل من أن يوفى . وجد نفسه أنه مدين عاجز لا يملك شيئاً والدائن هو الله . فهو والحالة هذه هدف للقصاص الفظيع . والانسان في شدته هذه يحرى عن وسائل كثيرة ليطرح عن ظهره هذا الدَّين الثقيل . فلام الانسان الأول الذي استحق لعنة الاله . فابتدع « الخطيئة الأصلية » وجرم الطبيعة ، وأنكر الغرائز الكامنة فيه ، ونظر إليها كجرائم شر وشقاء ، ولعن الوجود نفسه . وجعل رجاءه كله في العدم وفي حياة ثانية . وفي النهاية أعطى المسألة التي ناء بها ظهره طويلاً هذا الحل الغريب ، إن الدين المفروض على الانسان من قبل الله هو دين لن يقدر على أدائه الانسان ، والاله وحده يفي عن الاله . فوجد الاله أن يضحي بنفسه في سبيل حبه للانسان واستنقاذه من دين مكتوب عليه . فتمثل إنساناً وقرب نفسه قرباناً . وبهذا الفصل الذي أداه اشترى نفوس الذين يراهم جديرين برحمته ورأفته

يتبع خليل هنداوي



صور من هوميروس

٧ – حروب طروادة

الفداء الأول

للأستاذ دريني خشبة

... رويت الآلهة إذن وشفت ما في أنفسها من ظمأ إلى دماء الضحايا، وإن لم تغفر لديانا البارزة، ديانا ربة القمر، انقاذها للفتاة التعسة إفجنيا، وهي على قاب قوسين من خناجر الكهنة والربيين القساة.

لقد أبت الآلهة إلا أن تشرب من ماء الحياة القرمزي المتدفق في عروق عبادها المخلصين من أبناء هيلاس؛ فلما ذهب كالخاس، عراف الحملة، يستوحي أربابه في معبد دلفي هل لها مطالب آخر في ضحية أو قربان بعد تقدمة إفجنيا، ارتفع الصوت الخافت المنبعث من صميم مقصورة الإله الأكبر يقول: «لا... ولكم أن تقلعوا اليوم... فإذا كنتم عند شطئان طروادة، فإن أنبأ دم الفارس الأول الذي تطأ قدماه رمال الشاطئ... سيقتل، وسيكون لنا عوض من إفجنيا!»

***

ودعا اليه أبناءه (١) ايولوس رب الرياح الست فأمرهم أن يكونوا جميعاً في خدمة الأسطول الهيلاني، حتى يصل إلى طروادة... «وأنا أعرفك يا بوريس حين تعصف وترف، وتصبح ويلاً على الجوازى أى ويل؛ وأنت يا كوروس، إياك وهذه البوارح التي تصلى بها سفائن القوم؛ وأنت يا أكويلو؛ وأنت أيضاً يا نيتوس، إن ريحك مجفل، وهبتك هوجاء، ولفحاتك حرور، وأنفاسك سموم، فإن لم ترفق بالقوم، وتجر بين أيديهم رخاء، فلأسجننك في الكهف الأسود حتى حين، أما أنت يا ولدي ايودوس، فاحذر أن تصيب الناس سوافيك أو يسوءهم فيك؛ بل كن لهم خادماً أميناً، تدفع ركبهم في رفق، وتملأ شراعهم في أناة... ويسرني أن تسمعوا لنصيحة زفيروس، فهو ألينكم عريكة، وأكثركم صفاء... ألقوا اليه بزمامكم، ولا تختلفوا في أمر يلقيه اليكم، أصلح لكم زيوس أحوالكم...»

وهبت الريح فخفقت أفئدة العسكر، وابتهجت أنفس القادة، واجتمع المرميدون حول أخيل يترضونه ويعتذرون عن رجمهم إياه يوم القربان المشئوم، ثم انتشرت الشراع ورفعت المراسي، وهمت الفلك فاحتواها البحر اللجي، وما عتمت أن صارت من الماء والسماء في خضرتين، ومن دروع الجند وزبد الموج في لبدتين، ومن قلوب الشعب الهاتف فوق الشاطئ الشاحب في بحر من الآمال!

واضطرب البحر بعرائس الماء وأبكاره، أسرعن من كل فج يحيين أبطال هيلاس، يخففن الوشائح السوداء التي ادخرنها لأيام الفصل، إن أيام الفصل كانت ميقاتا

وتوارت الشمس بالحجاب، وبزغ القمر يفضض حواشي الماء، وحلقت النجوم ترى إلى هذ الأسطول العجب يمخر عباباً من خلفه عباب، ويطوي لجة من ورائها لجة، والملاحون دائبون ماينون، مرسلين في اللانهاية ألحانهم، مرددة الرياح أغانيهم وأنغامهم؛ والقادة متكبكبون حول القائد الأعلى، حول أجاممنون، يدرسون تلك الخطة، وينقدون هذه الفكرة، ويدبرون من أمرهم ما يصل بهم إلى نصر عزيز

(١) (Æolus) رب الرياح في الميثولوجيا اليونانية، وقد تزوج من أوزورا فأنجبت له أبناءه الستة: ١ – بوريس رب الريح الشمالية، ٢ – كوروس رب الريح الشمالية الغربية ٣ – أكويلو رب الريح الغربية ٤ – نيتوس رب الجنوبية الغربية ٥ – ايوروس رب الريح الشرقية ٦ – ثم زفيروس رب النسيم الجنوبي (عن م. ا. جربر ص ١٨٤)

وتنفس صبح اليوم الثالث . . .

وبدت طروادة العاتية في الأفق الشرقي ، متشحة بالشفق النحاسي ، الذي صبغ سماءها بالبنفسج الرائع ، تتفجر منه أنهار من الدم ! !

طروادة !

ذات الأبراج الشيدة ، والقباب المنيفة !

إليوم ! !(١) . .

بنية(٢) نبتيون إله البحار يوم نفاه زيوس من جنة الأولب ، ونفى معه أبولو ، فساعده في بنائها بموسيقاه ! !

يا ما أروعه منظراً أن ترى إلى أبولو العظيم يعزف على قيثارته المرنة ، فتثب الحجارة وتتراقص ، وتقفز إلى مكانها من أسوارك يا إليوم ! !

طروادة يا ذات الحول !

أين تنام هيلين الساعة سالة جالة ، وأين تتقلب ترب فينوس ملء ذراعي باريس ! !

ويحك يا منلايوس !

إنه ينظر بعينين مشدوهتين إلى أسوار طروادة ، يتمنى لو تندك على العاشقين الآثمين ! !

« . . . أهو الآن يقبلها ، ويجنى جنا خديها بفمه النهم المشتعل ؟ أم هو يضمها إليه في عنف ، غير آبه لقلبي الخافق المضطرب ! . . . . . . »

منلايوس ! لا بد مما ليس منه بد . . .

***

لقد ترامت أخبار الحملة الهيلانية إلى طروادة فهب أهلها البواسل يستعدون ويستمدون جيرانهم فنصروهم ولبوا نداءهم ، وهرعوا إليهم من كل فج عميق ، وها هي مشارف الجبال وقننها وسفوحها ، وتنوء الشاطىء وصخوره ومغاوره ، وها هي ليديا المتيقظة ، وإيوليا المتحفزة ، وإيونيا الرابضة(٣) . . . ها هي البلاد جميعاً تضج بالجند ، وتميج بالسلاح ، وتقعقع بآلة الحرب ، وتدق طبول الوغى ، وتذكى نيران الحراسة في قمم الجبال ، فلا تغفل عين ولا تهمد همة ، ولا يتسرب إلى النفوس كلال

واقترب الأسطول من الشاطىء . . .

ولكن أحداً لم يجسر أن يجازف بنفسه ، لأن القتيل الأول ، هو أول من يهبط إلى الأرض ، كما أخبرت النبوءة في معبد دلفي !

ومرت أيام : والهيلانيون في سفائنهم ينظرون إلى أبراج طروادة وفجاجها ، ويتحرقون شوقاً إلى لقاء جنودها ، ومنلايوس يحرق الأرم هو الآخر ؛ ولكن أحداً لا يرضى أن يكون الفدائي الأول . . . « لأني إذا نزلت إلى هذا البر المخوف فسيكون الموت محتوماً علي ، دون أن أستطيع إلى قتل أحد من هذا الجند من سبيل ، وأنا لم أحضر إلى هنا لأكون قرباناً للآلهة ، ولكن لأزاحم وأنافح وأصول ، فإن قتلت بعدها ، فبمشرات وعشرات ، لا كما يقتل كلب البرية غير مفدى . . . »

بروتسيلوس البطل

بيد أن هيلانياً مقاحماً ، هيلانياً واحداً ، من خيرة القادة ومذاويدهم ، عز عليه ألا يكون في هـذا الجيش العرمرم ، على ما جمع من صناديد اليونان ومغاويرهم ، فدائي واحد يتلقى الطعنة الأولى النجلاء ، بثغر باسم ، وقلب لا يجزع ، ونفس مؤمنة مطمئنة لا تهلع في موقف الموت ، ولا تفرق إذا حم القضاء !

كبر على بروتسيلوس أن يرى قومه يجبن ليست لهم يد فيه ، وكبر عليـــه أن يقف ألف ألف لو شاءوا دكوا الجبال وزلزلوا الشاهقات ، من دون هذا البلد لا يتقدمون ولا يتأخرون ، كأنما حربهم هزل ، ونفيرهم مكاء ، وعزمهم تلفيق . أو كأنما ملأوا الدنيا وعيداً لتمتلىء الدنيا عليهم سخرية وضحكا !

كبر على بروتسيلوس ألا يكون هو شهيد هذا الموقف ، فارتخص نفسه ، وهانت عليه الحياة ، وتفهت في عينيه لذائذ هذا العيش الذليل ؛ ثم استخار أربابه ، واستعاذ بسيد الأولب ، وما هو إلا أن لمح الشمس يذر قرنها في خدر الشرق ، فوق جبين طروادة ، حتى قذف بنفسه على الشاطىء ، وأرسل في الخافقين صيحة الحرب كأنها رعد يميد به جانب الجبل ، وتهتز من قصفه أسوار المدينة ؛ ثم جال جولة هنا وجولة هناك ، وإذا بالسهام ترشقه من كل مكان ، وإذا هو ملقى على أديم الثرى مضرجاً بدمه ، معفر الجبين بأول نقع الوغى

(١) هي طروادة أيضاً ، ومن هذا الأسم اشتق هوميروس كلمة (الإلياذة) الملحمة الخالدة (Iliad) . وعلى ذكر الألياذة ننبه القارىء إلى أننا — حتى هذا الفصل — لم نصل اليها ؛ وسنشير إلى ذلك في حينه

(٢) إشارة إلى أن نبتيون هو الذي بناها

(٣) هذه أقاليم قديمة في غرب الأناضول مما يجاور طروادة براً وبحراً

رحلة من الدار الآخرة

وداع خير مقتبله حتى انتهى الى تساليا ، حيث زوجته الفجيّعة ، فحزنت عليه حزناً أمض قلبها ، وشفّ جسمها ، وأقض مضجعها ، وصيّر الحياة في عينيها حالكاً شديداً وظلاماً قاعاً ! . . . « برتسيلوس ! أهكذا يا حبيبي ذكرت كل شيء في ميدان المجد والشرف ، ونسيت فيه كل شيء ؟ أهكذا يا حبيبي ذكرت التضحية والأقدام حين تخاذل مواطنوك عن مواطن التضحية والأقدام ، فغامرت بنفسك في هذا المترك المضطرب ، ونسيت أن وراءك قلباً ينعقد رجاؤه بك ، ونفساً ترف من خلف البحار فوقك ، وروحاً لا سكن لها إلا صدرك الحنون ، وعينين لا يعرفان جمال الحياة إلا في وجهك المشرق ، وأذنين ما التذتا إلا الموسيقى المنسكبة من فمك ؟ ! برتسيلوس ! ما قيمة الحياة بعدك يا حبيبي ! من لزوجتك التاعسة يوم يفخر النساء بأزواجهن ؟ من للمحزونة الكاسفة لاؤوداميا ؟ ما أشق الحياة على بعدك يا رَجُلي ومن كنت كل شيء لي !

لا أسخط عليكم يا أربابي !

بل أنا أصلي لكم ! أصلي لكم بدموعي وقلبي ! أصلي لكم بأحشائي التي تتمزق ، ورأسي الذي يحترق ! أصلي لكم بلساني الذي يجف من شرق في حلقي ، وكان حديث برتسيلوس يرطّبه ويندّيه ! أصلي لكم يا أرباب الأولمب عسى أن تلين قلوبكم لي ، فأرى حبيبي وأموت ! !

رجيّة يسيرة على مقدرتكم يا أرباب الأولمب ! إما أن أقضي فأستريح من هذا الكمد الممض ، والبث المؤلم ، وإما أن تأذنوا فيعود برتسيلوس ، فأراه وأموت !

أتمنى عليكم أن يعود فأكلّمه . . . أملأ أذني وقلبي من موسيقاه ! أناديه باسمه ويناديني باسمي ! يعانقني وأعانقه ! يرى الى عبراتي وأنظر الى عبراته ! يبتسم لي في رضاه وفرحه ، وأبتسم له في انكساري ولوعتي !

إئذنوا يا أرباب الأولمب ، فأنا ما أفتأ أصلي لكم ، وأتوسل إليكم بدمه الزكي ، وروحه الأبي ، وقلبه الكبير !

إرحموا ذلي ، ورقوا لهواني ، وارثوا لحالي ! . . . . »

***

وصيّرت بنواجيها إشراق الصباح ظُلمةً من الحزن لا أول لها ولا آخر ؛ وأرسلت في الليل البهيم أناتها المؤلمة ، وزفراتها الحارة ؛ ووصلت بكاءها الطويل بصلاتها الخاشعة ، حتى ارتجفت قواعد الأولمب ، واهتزت عروشه الذهبية ، وانعقدت بينه وبين لاؤوداميا قنطرة من الحزن ، عبرت عليها بركات الآلهة الى فؤادها المكلوم ، فمسحت عبراتها ، وهدأت من روعها ، وبشرتها بعودة برتسيلوس !

وفي هدأة ليلة مقمرة ، سكن هواؤها وصدح بلبلها ، وأنشد البدر لحنه الصافي على أوتاره الفضية ليغمرها بهاء وروعة ، خرجت لاؤوداميا المحزونة من قصرها المنيف ، لتلقى روح برتسيلوس يهديه هرمز الكريم بين يديه ، حتى يكون تلقاء زوجه ، فترتمي بين ذراعيه !

ويغرقان في طوفان من القبل !

ويغرقان في لجة من العبرات !

ويقص عليها برتسيلوس أنباء مقتله . . . فتبكي . . . وتبكي . . . وتعاتبه لاؤوداميا . . . وتعذله . . . ولكن الساعات الثلاثة التي سمحت بها الآلهة للقائهما تمر كاللمح . . . فينبههما هرمز الى انقضائها . . . وما تكاد تسمع نذير هرمز ، وتعرف أن زوجها عائد أدراجه الى هيدز ، فيظل فيها الى الأبد ، حتى تصعق مكانها ، وتخر مغشياً عليها . . . وتموت !

فوا رحمتاً للزوجين السعيدين

(لها بقية)

دريني خشبة

الباقي على قيد الحياة

للقصصي الفرنسي بلزاك

ترجمة حسن محمد حبشي

حين دقت ساعة مدينة (مندا) الصغيرة مؤذنة بانتصاف الليل، كان ضابط فرنسي شاب متكئاً على حافة سياج طويل يحيط بالقلعة، غارقاً في لجة التفكير العميق، وذلك أمر غير مألوف بالنسبة لما يحيط به، ولكنه كان منصرفاً عن كل ما هو فيه من وقت وليل ومكان إلى التفكير القوي، وكانت سماء أسبانيا الجميلة تمتد في زرقة صافية فوق رأسه، قد رصعت بالنجوم اللألاءة، وضوء القمر الساطع ينير هذا الوادي الجميل الممتد تحت قدميه، وهو يشرف على مدينة (مندا) ويعلوها بمائة قدم؛ وكأن الطبيعة قد هيأتها هكذا لتكون في مأمن من رياح الشمال الآتية من هذه الصخرة الكبيرة التي تقوم عليها القلعة، وإذ أدار الضابط رأسه، أبصر البحر يكتنف البلدة بأمواجه الفضية، وكأنه قد استحال إلى قطعة من اللجين الذائب، وكأن القلعة كوكب أو جوهر ضوء وهاج، وكان وهو في مكانه، يسمع صدى رنات الموسيقى، وعربدة الضباط في الحفلة الراقصة، وقد اختلط ذلك بهمهمة الأمواج الآتية من بعد، وكأن نسيم البحر والليل جددا نشاطه المنهوك، زد على ذلك ما حوله من حدائق فيحاء، وزهور عطرية الشذا، نفاحة الأريج، فكأنه مغموس في حمام من العطر الزكي.

وكانت قلعة (مندا) في حوزة شريف إسباني، اتخذها وأسرته دار إقامة، وكانت ابنته الكبرى (كلارا) الجميلة ترمق الضابط الفرنسي الشاب بنظرات مبهمة، وإن كانت تنم عن حزن عميق

وكانت كلارا هذه فتاة رائعة الحسن، فوقع جمالها في قلب الضابط الفرنسي موقع الماء من ذي الغلة الصادي، فوقف واجماً يفكر في هذا الجمال، وبالرغم من أن ثروة أبيها كانت طائلة، وموزعة بينها وبين إخوتها الثلاثة وأختيها، فقد رأى فكتور مارشاند (الضابط) أن فيها الكفاية لأن تكون الدوطة كبيرة، ولكن كيف يتسنى له أن يخطب يد (كلارا) ابنة الشريف الأسباني، وهو ابن تاجر صغير في باريس، أضف إلى ذلك ما بين الأسبان والفرنسيين من إحن.

وكان الجنرال (ج) قد علم من مصدر سري أن المركيز يحاول أن يوقد مشعل الثورة لنصرة فرديناند السابع، ولذا أرسل مرشاند ليعسكر في مدينة (مندا) حتى يكون على علم تام بما ينتويه الثوار، ولكي يخمد أي حركة يقومون بها ضد الفرنسيين، وفي ذلك الوقت وصلت إشارة بأن المركيز يتصل سراً بالإدارة الانكليزية في لندن، وليس من البعيد أن يرسل الانكليز مدداً؛ ومما حير لب فكتور مارشاند أن المركيز قد استقبله وعائلته استقبالاً لا يدل إلا على منتهى الهدوء؛ ووقع بين أمرين، إذ كيف يوفق بين هذا الهدوء الذي يتجلى في المركيز وأعماله، وبين إشارة الجنرال من وجود مفاوضات سرية؟ ولكن سرعان ما تلاشت هذه الخواطر من ذاكرته، حينما مد بصره إلى الأمام، فأبصر عدة مصابيح مضاءة في المدينة، مع أنه أصدر أمره، بأن تطفأ الأنوار كلها في ساعة معينة، على رغم أن الليلة ليلة عيد ميلاد القديس سنت جون، ولم يسمح بالأنارة إلا للقصر فحسب، ومما أحال الشك يقيناً عنده، وبأن هناك بدا تعمل في الخفاء، أن رأى ساريات عدة مراكب وسط مياه البحر، تحت أضواء القمر الفضية. وبينما هو سابح في تيار التفكير العميق إذ سمع وقع أقدام خلفه، ولما تبينها وجد أحد رجاله يلهث، وحين رآه قال له:

– أهو أنت يا سيدي الضابط؟

– نعم هو أنا... ماذا تريد؟

– إن هؤلاء الوحوش يزحفون زحف الديدان

– ثم ماذا؟

– لقد رأيت رجلاً يخرج من القصر وفي يده مصباح مضاء، وهذا مما أثار الشك في نفسي، وبعثني على أن أقتفي آثاره، وأظل قريباً منه جهد ما أمكنني؛ أجل؛ قد يكون مسيحياً محافظاً على التقاليد، غير أن الحالة التي هو فيها، ومخالفة أمرك، كل ذلك مما يجعل الشك يحوك في نفسي. وثم أمر آخر يا سيدي الضابط، ذلك أني اكتشفت على قيد خطوات منك، عرمة من الحطب

ولم يكد الجندي يصل إلى هذا الحد من الكلام حتى دوت في المكان صرخة صدعت السكون العميق ، وانفجرت قنبلة أودت شظية منها بالجندي لساعته ، واندلع لهيب النيران على بعد عشر خطوات فحسب ، من الضابط الذي أسقط في يده ، وتبين له أن في الأمر دسيسة ، وأن الثوار قد تأهبوا للفتك بالأعداء ، واضطرب في مكانه ، إذ لم يكن معه حسامه ؛ وها هو ذا يرى رجاله وقد ترددوا في ساحة المدينة ، وصمتت الموسيقى ، وتلاشت ضحكات الضباط ، ومر على مخيلته ما سيلاقيه – إذا هو ظل حياً – من محاكمة وإهانة ، فلم يجد أمامه من وسيلة للنجاة إلا أن يلقي بنفسه في سفح هذا الوادي ، حيث يتحطم جسمه على صخوره الجاثمة هناك :

وإذ كان على أهبة تنفيذ ما اعتزم ، أحس بدأ أغاثته عما هو قادم عليه ، فاشرأب إلى صاحبها ، فاذا به (كلارا) تهيب به ، أن أسرع فان إخوتي على آثاري قادمون .... للفتك ... بك ؛ وانهض إلى الصخرة القائمة عند سفح التل ، وستجد حصان أخي (جوانيتو) فامتطه ولا تتريث لحظة ، وإلا فقدت حياتك

خفق الفتى فيها دقيقة ، وقد فاضت نفسه بالدهشة ، ولكنه تنبه أخيراً ، إذ ثارت في نفسه غريزة حب الحياة ، تلك الغريزة التي تتمثل في الجميع على السواء ، في حيوان أو إنسان ، وحمل اليه الريح صدى صوت (كلارا) تهيب بأخوتها ، ألا يتريثوا في اقتفاء آثاره ، كما سمع وقع حوافر دوابهم تسابق الريح ، وهم على صهواتها يرسلون عليه وابلاً من الرصاص الذي كان يمر بجانب رأسه ، ولم يتمهل هو الآخر لحظة في الطريق بل أسرع بالجواد ، وبعد بضع ساعات كان في حضرة الجنرال ، وكان في ثلة من إخوانه يتناولون طعامهم ، فارتمى أمامه قائلاً :

– « مولاي . إن حياتي بين يديك ، افعل بها ما تشاء ! »

ثم أخذ يقص على الجنرال قصته ، فاذا الجميع ينصتون اليه وكأن على رءوسهم الطير ، على وجوههم غبرة ، ترهقها قترة ، وألجم الخبر أفواههم ، وجعلهم آذاناً فحسب ، فلما أتمها قال له القائد العام :

– « يا هذا إني أراك سيء الحظ ، أكثر من أن تكون مذنباً ، لا تثريب عليك ، وإني لأبرى ساحتك ، إلا إذا رأى المرشال غير هذا »

فسأله الضابط : « وإذا سمع الامبراطور بالحادثة !؟ »

فأجابه الجنرال : « سيكون القتل نصيبك ، ولكن دعنا الآن من هذا ، وهيا ندبر خطة ننتقم بها من هؤلاء الأوغاد ، أوشاب الانسانية ، لابد أن يكون الثأر شديداً ، حتى تخمد في نفوسهم الوحشية والدناءة »

وفي ساعة من الزمن ، شدت فرقة من الجند رحالها ، على رأسها الجنرال ، بصحبة الضابط فكتور ، وإذ علم الجنود بمصير زملائهم الذين أخذوا على غرة ، ثارت في عروقهم دماء الانتقام واستحالوا شعلة تتأجج لحرق الأسبان ، وأقسموا أن ينتقموا لاخوانهم أشد انتقام ، وسرعان ما قطعوا المسافة بين مدينة مندا ، وبين مركز القيادة العليا

ورأى الأسبان أنفسهم محاصرين ، وعلموا أن الجنرال لا يتردد لحظة في الفتك بأهل المدينة ، لا تأخذه في ذلك شفقة ولا رحمة ، فبعثوا اليه رسل الهادنة ، ورضي هو أن يسلم كل من في القصر أنفسهم اليه ، من أحقر الخدم إلى المركيز نفسه ، واتخذ القصر مركزاً للقيادة ؛ وأمر بكل فرد من أفراد الأسرة الحاكمة ، وخدمها أن يقيد ، وتنكل بالثوار أشد تنكيل ، ولم يرحم رجلاً ولا امرأة ولا طفلاً ، بل ثارت فيه غريزته الوحشية ، وبينما هو في مجلس من رجاله إذ أقبل عليه فكتور مارشاند ، وقال له :

– أسألك يا مولاي أن تجيب لي طلباً ، هو أن المركيز يرجوك أن تفرق بين الأشراف والعامة ، وذلك بأن تطيح رقابهم بيد الجلاد لا بالمشنقة ، وأن تفك قيودهم التي كبلوا بها ، وان يحاولوا الهرب ، وذلك عهد قد قطعوه على أنفسهم ، وإنه ليتخلى لك عن جميع أملاكه وأمواله إذا عفوت عن أحد أبنائه ووهبته الحياة

فقال الجنرال : إن أمواله قد أصبحت تبعاً للملك جوزيف ، ولكني سأهبه ما طلب ، وإن كنت أعرف علة رجائه ، في أن يبقى اسم الأسرة ، ببقاء أحد أفرادها ؛ سأهبه ذلك ، لمن يرضى أن يكون جلادهم ، ويطيح برقابهم ، والآن لا تذكر لي شيئاً عنهم ألبتة

***

اجتمع الضباط في الحجرة التالية يتناولون غداءهم ، وكانوا في نهم شديد إثر ما كابدوه من نصب وتعب ، فأقبلوا على الطعام كالوحوش الضارية قد أنشبت مخالبها في فريسة دسمة بعد طول سغب ، وتفقدوا الضابط فكتور ، فلم يجدوه بينهم ،

ذلك لأنه مضى إلى الحجرة التى فيها عائلة المركيز وآلمه أن يرى سادة الأمس مقيدين كالعبيد ، قد ارتسمت على وجوههم دلائل الأسى الشديد ، واللوعة المرة ؛ وأى لوعة أشد على النفس من أن يرى المرء عبدا حقيرا يتحكم فيه وهو السيد الحاكم ؟ وسرت رعشة فى جسد الضابط حين فكر فى هذه الرءوس الجميلة ، وانها ستهوى على أقدام الجلاد مصبوغة بالدماء ، وكأنما هم كانوا يفكرون فى هذا الأمر نفسه ، فقد بعثروا حولهم تنهدات الألم والحزن التى ملأت جو الغرفة ، وإذ أبصروا فكتور يدخل حجرتهم اشرأبت أعناقهم ، طمعاً فى أن يكون حاملا اليهم بشرى العفو ، فأمر الجند أن يفكوا قيود السادة ، ومضى هو بنفسه يحل وثاق (كلارا) فقابلته على صنيعه هذا بابتسامة اغتصبتها اغتصاباً ، ومس فى رفق ذراعها البضة الناعمة ، وأعجبته خصلات شعرها الفاحم ، المتهدل على جبينها الوضاء ، وفتنة قدها المشوق الجميل ، وخصرها الأهيف ، فسألته هل نجح فى مهمته ، فهمهم همهمة حزينة ، وجال ببصره فى وجهها ووجه اخوتها الثلاثة ، وكان (جوانيتو) أكبر الأبناء يبلغ من العمر ثلاثين عاماً ، وأخوه (فيلب) عشرين ربيعاً ، وكان (عمانويل) يبلغ ثمانية أعوام ، ذا أنف رومانى وطلعة جميلة ؛ ثم جمع أطراف شجاعته ، وأخبرها برأى الجنرال ، فسرت رعدة الرهبة فى أوصالها ، ولكنها تشجعت ومضت تخبر أباها بما أسره اليها فكتور ، وزادت عليه قولها : — أبى عليك أن تأمر (جوانيتو) وعليه أن يصدع بأمرك اذا كان مخلصاً لك ، ففى طاعته اياك ، وتلبيته لرغبتك اسعادنا ! فلما سمعت الأم ذلك ، أحست بالأمل يراودها ، وظنت أن نجاتهم أصبحت قاب قوسين ، وما علمت أن المركيز إذ ذاك يطلب من ولده أمراً ، تنهد له الجبال هداً ، واذ تبينت حقيقة الأمر والطلب ارتدت الى الوراء ، تعلوها صفرة اليأس ، وعرف جوانيتو السر فثارت دماء الغضب حارة فى عروقه ، وهب ثائراً كالأسد ، قد ألفى نفسه أسير قفص من الحديد ، بعد أن كان يطأ الثرى ، فى زهو الأمير ، ويرى الغابة كلها تكاد تضيق عن خطى أقدامه ، ولكن الأب هدأ كل ذلك ، بأن قال : « جوانيتو »

فكانت إجابة جوانيتو هزة الرفض من رأسه ، وارتمى خائراً على مقعده ، يصعد ناظريه فى أبويه ، وقد تجلت الدهشة والأسى والغضب فى عينيه الحائرتين ، فلما رأت (كلارا) إصرار أخيها على الرفض ، تركت مكانها الى حيث جوانيتو ، وطوقت عنقه بذراعيها المضنين ، وجثت أمامه وقبلته فى عينيه قائلة :

— « أى جوانيتو : يا أعز ما أملك ، آه ! . . . ما ألذ الموت إذا كان من يدك ! . . . إنك لا تدرى حلاوته . . . كما أشعر بها الآن . . . أنقذنى . . يا جوانيتو . . من يدى السفاح . . الملوث اليدين . . . حتى لا يقال . . . إن جلاداً حقيراً . . . أطاح رقاب العائلة الحاكمة . . وأنقذنى من بين براثنه . . وبراثن رجل آخر »

ثم نظرت شزرا الى فكتور ، نظرت اليه نظرة تفيض حقداً وكراهية واحتقاراً ، وكأنها بذلك تثير فى نفس أخيها الحقارة للفرنسيس ، وتشعل الضغينة فى نفسه عليهم ، . . . ثم قال له أخوه فيليب متوسلاً : « كن شجاعاً صنديداً وإلا محوت عائلتنا الشريفة من العالم »

وأمره الأب ، فلم يلب طلبه ، فجثا أمامه ، هو وإخوته جميعاً ورفعوا أكفهم مُتوَسِّلين اليه أن يضع المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ، وأن ينقذ اسم العائلة من أن يدنس ، وعرف الأب من أين تؤكل الكتف ، فأهاب به قائلاً : « أى بنى . أغادرتك شجاعة الاسبانى ، وإحساسه الشريف ؟ أأجثو أمامك . . . وأتوسل اليك . . . ولا ترد طلبى إلا خائباً ؟ أتفكر فى ألمك فحسب . . ولا تزنه بآلامنا جميعاً . . . إذا أصررت على المكابرة » ثم التفت الى زوجته قائلا : أهذا ولدى يا زوجتى ؟

فصاحت به الأم فى يأس : « سيلبى طلبك . . أيها المركيز !! »

ولمحت جبين جوانيتو ينعقد أكثر ، وتبينت أنه يألم ألما أكثر من الجميع ، وحينذاك كانت الثانية « ماركينا » قد تعلقت بأطراف ذيل أمها ، بقبضتيها الضعيفتين ، وأخذت تذرف الدموع ، فلما شاهدها « فيليب » انتهرها ولامها ، وإذ ذاك دخل الحجرة كاهن المدينة ، فالتفوا حوله كصغار الطير ، ومضوا به الى جوانيتو الصامت ، فلم يستطع مرشاند ، أن يرى هذا المنظر الأليم ، فبارح الغرفة الى حيث اجتمع الجنرال مع بعض قواده يجرعون الخمر ، وقد أصدر أمره باحضار فرقة من الجند تذب الناس عن أن يقربوا من جثث الخدم المشنوقين ، مدلاة أمام أعين السابلة ، ووقف الجلاد بهيئته المفزعة ليحل مكان جوانيتو إذا خانته شجاعته ، ولم يستطع أن يقوم بتنفيذ

ما عهد اليه ، وصدع هذا السكون الضارب أطنابه على المكان وقع أقدام عائلة المركيز ، يحيط بهم الجند مشهرين سيوفهم ، يلمع في ظباها الردى ، ولم تفارق الهيبة أفراد الأسرة ، وكانوا يتقدمون الى حيث النطع الممدود في خطوات هادئة ، لا أثر للخوف أو الاضطراب فيها ، غير أن أحدهم قد علته صفرة الأموات ، متكئاً على ذراع الكاهن الذي أخذ يهدئ روعه المضطرب ، بترانيم دينية ، فعرف الجميع حينئذ أن (جوانيتو) سيقوم بمهمة الجلاد في اطاحة الرقاب ، وجثا الجميع قريبين من المقصلة ، وأي مشهد آلم للنفس من أن ترى عزيز قوم ذل ؟! لقد كان المركيز وزوجته وابنتاه ، وولداه ، أمام جوانيتو ، الذي أسر اليه الجلاد بعض الكلمات

***

حينذاك اقتربت (كلارا) من أخيها ، وصاحت به : جوانيتو ، ابدأ بي إذا أردت أن ترفق ... بشجاعتي المنهوكة ... هيا .. أطح رأسي أولاً ! !

وساعتئذ أبصر الناس الضابط (فيكتور مارشاند) مسرعاً نحو (كلارا) التي جثت على ركبتيها بتأهب للأمر الواقع ، وتستعد لأن يطاح رأسها ، فلما حاذاها تماماً قال لها في أذنها : «إن الجنرال ليعفو عنك ويهبك الحياة إذا رضيت بي زوجا !»

فصوبت اليه نظرة ملؤها الكبرياء بنفسها ، والازدراء له ، ثم صاحت بأخيها ، كأنها اللبؤة الضارية : «هيا ، يا جوانيتو .. فاني ... على أتم الاستعداد . . . .» وإذ ذاك أبصر الناس رأسها الجميل يتدحرج تحت قدمي أخيها ، وقد انفصل عن جسدها ، وسرت الرعشة في جسد أمها ، ولكنها ملكت عواطفها ، وتقدم أخوه عمانويل وسأله : «أتراني في مكاني تماماً . أيها العزيز جوانيتو ؟»

ثم أقبلت اليه أخته الصغيرة (ماركينا) والدموع تنهمر من عينيها ، فسألها : «أتبكين يا أختاه ؟»

فقالت : نعم يا حبيبي جوانيتو ، إني أبكي من أجلك ..... أشد ما يؤلمني أن تظل وحيداً حين تفقدنا جميعاً فلا تجدنا معك»

ولكنه رفع السيف وأهوى به على رقبة الصغيرة ، وإذ ذاك تقدم منه أبوه المركيز ، فصوب ناظريه ، وصمدها ، في دماء أبنائه الجارية تحت قدميه ، كأنها المياه المتدفقة ، شاهدة على ظلم الانسان لأخيه الانسان ، ثم التفت ناحية الجماهير الذين عقدت الدهشة ألسنتهم ، فكانوا أصناماً لا تتكلم ، أو تتحرك تأثرا من هذا المشهد المروع ، ثم مد يده الى جوانيتو ، وصاح في صوت قوي النبرات حادها ، وقال :

«أيها الاسبانيون ! إني أبارك ولدي ، وأهبه دعوات الأبوة والآن هيا أيها المركيز . أطح رأسي ، ولا يأخذك الخوف أو الرعب ، هيئاً . لا تثريب عليك»

فلبى نداء أبيه صامتاً حزيناً ، وإذ ذاك أقبلت أمه ، منهوكة القوى ، خائرة الأوصال ، كيف لا وقد رأت أبناءها جميعاً ، وزوجها المركيز ، تطاح رقابهم ، كأنهم الماشية بل أحقر ، ذلك قلب الأم الذي :

لا ربة النسيان ترحم حزنه وترى بكاه
كلا ولا الأيام تمحو ما يلي في أناملها أساه
إلا إذا صفرت له الأقدار اكليل الجنون
وغدا شقياً ضاحكاً تلهو بمرآه السنون

أقبلت أمه متكئة على ذراع الكاهن ، ونظرت اليه نظرة الوداع ممزوجة بأحر الألم ، فما رآها حتى تنبهت حواسه الخامدة وثار غاضباً ، وقال :

— «إن ثدييها هذين قد أرضعاني صغيراً»

فانتفض الجميع ، حين سماعهم هذا ، وانتزعت تلك الكلمات صرخة الفزع من قلوبهم جميعاً ، وسكنت ضحكات الضباط ، وعرفت المركيزة وقتئذ أن شجاعة جوانيتو ولت ، ولم يعد ذلك القوي ، فجمعت ما تبقى من شجاعتها المبترة ، ثم قفزت من فوق قمة المنحدر فهوت إلى القاع ، وقد مزقتها الصخور الجائعة في أسفله شر ممزق ، فهتف الجمهور المشاهد هتاف الاعجاب ، أما جوانيتو فقد رقد مسجى مغمى عليه ، فحملوه إلى الخارج حيث عاش وقد أسموه (El Verdugo) (الجلاد)

حسن محمد حبشي

البريد الأدبي

سرقة أدبية !؟

قرأت كلة فى بريد الرسالة (١١٥) بتوقيع « حبيب زحلاوى » يتهم فيها « الشاعر الدكتور ابراهيم ناجى » بأنه سرق قصيدته « عاصفة روح » من قصيدة الشاعر الدمشقى ميشيل عفلق (؟) ونحن لم نقرأ قصيدة « عاصفة روح » ولا قصيدة (عفلق) ولا نعتدّ بهذا الشعر ، لأنا لا نجد فيه روحاً كالتى نريد ، ولا لغة كالتى نرتضى ، ولكنا مع هذا نعلم أن الدكتور ناجى من نابغى الشعراء الشباب فى مصر ، ونعرف له أشياء بالغة فى بابها حدّ الجودة . فأحببنا أن نطمئن الدكتور الى أنه ليس فى دمشق شاعر يسمى ميشيل عفلق ألبتة ، وربما كان فيها كاتب صحف ، أو ترجمان قصص ، بهذا الاسم ، أما شاعر فلا . . .

وقد سألنا عن القصيدتين صديقنا الشاعر أنور العطار ، فأكد لنا أن قصيدة عفلق مسروقة من قصيدة لشاعر من شعراء سورية فى المهجر ، وأنّ هذا هو السرّ فى أنه لم ينظم فى حياته غيرها !

على أن هذا المذهب الأدبى الجديد لا ينكر فيما نظنّ السرقات الأدبية . لأنه لو أنكرها وحرّمها ، لسقط سقوطاً لا قيام له من بعده ، لأن فى كل قصيدة أو مقالة من هذا الأدب الجديد ضميراً مستتراً يعود الى شاعر أو كاتب انكليزى أو فرنسى . ثم إن هذا الأدب لم يكتب بلغة عربية ، تضمن له البقاء ، وتكفل له الخلود ، وليس فيه إلا معناه ؛ فاذا خسره فقد خسر كل شيء ، وماذا يبقى من أدب معناه مسروق ، ولغته مرذولة ساقطة ؟ . . .

ولعلّ الله يوفقنا الى تبيان هذا فى مقال آخر ، نردّ فيه هذه البدعة المنكرة فى الأدب ، بدعة أقوام سرقوا المعانى والأفكار ، ثم لم يقدروا أن يصوغوها صياغة عربية فقالوا : إنه لا شأن للألفاظ ، ولكن الشأن للمعانى والأفكار

علي الطنطاوي

حول سيرة تيمورلنك

قرأت فى العدد السادس عشر بعد المائة من « الرسالة » الغراء ما كتبه الأديب الباحث م . ع . ع عن مصادر ترجمة تيمورلنك وابن عربشاه ، ولعل من المفيد أن أذكر بعض المراجع التى ترجمت لهما مما لم يذكر الأديب الكاتب ، فقد ترجم له ابن العماد فى كتابه (شذرات الذهب فى أخبار من ذهب) فى نحو خمس صفحات كبيرة من الجزء السابع ، وكذلك السخاوى فى (الضوء اللامع) ؛ فقد ترجم له فى أربع صفحات كبيرة من الجزء الثالث بتحقيق دقيق ، ولابن عربشاه ترجمة واسعة أيضاً فى الشذرات فى أربع صفحات وكذلك فى الضوء اللامع

محمد منير

مكانة الفن فى نظم التربية

منذ بضعة أعوام عنى ولاة الأمر فى انكلترا بتوسيع دائرة التعليم الفنى فى بعض درجات التعليم ، ولاحظ الخبراء أن هذه الخطوة أثمرت ثمراً حسناً ، وارتفع معيار الذوق الفني لدى الجمهور ، وقد رأى مجلس الفن والصناعة أن يتقدم إلى « ديوان التربية » (أو مجلس المعارف الأعلى) باقتراحات جديدة لترقية التعليم الفنى ؛ وخلاصة هذه الاقتراحات هو أن يدخل فى برامج التعليم فى المدارس الثانوية والمتوسطة والعالية نظام ثابت للتعليم الفنى ، وأن يخصص فيها لهذا النوع من التعليم من العناية قدر ما يخصص لتعليم اللغات أو العلوم أو الرياضيات ، وأن الفن يجب أن يكون مادة اجبارية فى برنامج مدارس المعلمين ، وأنه يجب تشجيع استخدام المعلمين الاخصائيين فى الفن . وتبوؤ الفن هذه المكانة فى نظم التعليم يبث فى أذهان الشباب حب الجمال فى جميع مطالب الحياة

ويقول مجلس الفن إن دراسة الفن يجب ألا تكون لقصد الفن ذاته ، وإنما يجب أن يكون التعليم الفنى أداة للرخاء الاقتصادى . وذلك أنه إذا مزج الفن والصناعة فان معيار الصناعة يرتفع ارتفاعاً محسوساً . ولهذه النقطة أهمية خاصة ،

لأن أبناء الأمة إذا درجوا على تقدير الفن والنماذج الفنية ، فإنهم كشعب لكن لابد أن يطالبوا بمنتجات تتفق مع أذواقهم الفنية ، ولهذا يضطر أصحاب المصانع لاستخدام الفنيين لسد حاجاتهم ، وهذه خطوة هامة في ترقية الصناعة.

ويرى مجلس الفن أيضاً ألا يقتصر على تعليم الفن داخل المدارس ، وإنما يجب أن يسهل السبيل للمتطوعين خارج المدرسة ، ويجب أن يكون للفن أثره في الخط ، وفي شرح دواوين التاريخ والجغرافيا والآداب والطبيعيات والتدبير المنزلي . هذا ولما كانت المدارس الحديثة تبنى جامعة لكل أسباب الراحة والصحة ، فإنه يجب أيضاً أن يعنى بزخرفتها عناية خاصة حتى يعيش النشء بين مناظر الفن والجمال.

وليس الفن الانشائي خاصة بالأقلية صغيرة من الناس ، فقد دلت معارض الأطفال الفنية على مقدرة لم تكن للنشء من قبل . وقد آن الأوان لأن يشغل التعليم الفني مكانته في جميع درجات الدراسة ، وأن يكون من أهم العناصر في نظم التربية وبرامج التعليم

هجرة الكتاب والعلماء من ألمانيا

ليس من ريب في أن قيام طغيان الوطنية الاشتراكية في ألمانيا كانت ضربة للعلوم والآداب والفنون الألمانية ، وقد ظهرت آثار السياسة الهتلرية في انحطاط مستوى الدراسات العلمية والفنية في ألمانيا انحطاطاً ظاهراً ، وفي تدهور الصحافة الألمانية إلى الحضيض بعد أن كانت في مقدمة صحافات العالم ، وفي انحلال النهضة الأدبية الألمانية ؛ ومن المعروف أن معظم العلماء الألمان قد اضطروا إلى الفرار من ألمانيا لأنهم من اليهود أو لأنهم لا يناصرون النظام الهتلري . وقد أثيرت هجرة العلماء الألمان في مؤتمر استقلال المباحث العلمية الذي عقد أخيراً في أكسفورد ، وتلا الأستاذ نورمان بنتوتش الانكليزي على المؤتمر تقريراً ضافياً عن الاضطهادات التي وقعت في ألمانيا على العلماء الذين رفضوا مناصرة السياسة النازية ، ويبدو من الاحصاءات التي تلاها أن العلماء الألمان الذين فقدوا مناصبهم في ظل الحكم الهتلري يبلغ عددهم زهاء ألف ومائتين ، وعلق الأستاذ على ذلك بقوله إن مطاردة العلماء على الجملة إلى مثل هذا الحد ليس لها نظير في التاريخ منذ فتح الأتراك القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م ، وهو فتح أعقبه هجرة العلماء البيزنطيين إلى غرب أوربا . ومما يجدر ذكره أن نحو خمسين من هؤلاء العلماء المشردين قد استخدمتهم الحكومة التركية في معاهد استانبول وأنقرة

هذا وأما الكتاب الألمان فيكفي أن تعرف أن أكابرهم يعيشون الآن في المنفى في سويسرة وانكلترا ، ومنهم كثير من الكتاب الآريين (غير اليهود) مثل توماس مان عميد الأدب الألماني المعاصر والحائز على جائزة نوبل ، وأخوه هنريش مان وولده كلاوزه ، وقد جرد معظم أولئك الكتاب من أملاكهم وأموالهم في ألمانيا وحظر على المطابع الألمانية أن تخرج كتبهم كما حظر دخولها في ألمانيا ، ومعظمهم الآن يخرج كتبه مترجمة إلى الانكليزية أو الفرنسية

وأما الصحافة الألمانية ، فإن أولئك الذين عرفوها أيام ازدهارها وعظمتها أعني قبل ثلاثة أعوام ، يدهشون اليوم حينما يرون ما انتهت إليه الصحف الألمانية من ضآلة في الحجم والمادة ، ومن تشابه ممل فيما تكتب وتعرض وتناقش

الرياضة والمخدرات

يفتك وباء الأفيون ببلاد الملايو التي يسيطر عليها الانكليز كما يفتك بالصين وكل الشعوب التي تنتمي إليها من الوجهة الجنسية أو من وجهة الحضارة . وقد قرأت السيدة هرسبروج عضو مجلس السموم الانكليزي ومندوبة انكلترا في اللجنة الخاصة بمكافحة الأفيون في عصبة الأمم ، تقريراً في اللجنة عن الوسائل التي تجري عليها السلطات الانكليزية في بلاد الملايو في محاربة وباء المخدرات ، قالت فيه إن هذا الكفاح لا يجري فقط بالرقابة والحظر ، ولكنه يجري بوسائل اجتماعية يراد بها إضعاف الرغبة في تذوق المخدرات وخصوصاً بين الشباب . ومما يلاحظ في بلاد الملايو أن عادات الشعب قد تغيرت تغيراً كبيراً عما كانت عليه منذ عشرة أعوام ، ولا سيما بين الطبقات الصينية . ذلك أن الألعاب تستغرق الآن اهتمام الشباب من الجنسين . وقد أنشئت ملاعب كبيرة في المدن والقرى للعب الكرة ، وهي تجذب جماهير كبيرة ، وأنشئت متنزهات عامة في المدن الكبرى يؤمها الصينيون من مختلف الطبقات ، واتخذت اجراءات ووسائل صحية كثيرة ساعدت على ارتفاع المستوى الصحي في البلاد ، وأنشئت مستشفيات عديدة لمعالجة المرضى والمدمنين ، وقد ظهر أثر التيار الرياضي واضحاً في الجيل الحالي ، فهو أقل ميلا إلى الانصراف إلى لذة المخدرات وأكثر شغفاً بوجوه التسلية القائمة على ترويض الجسم والذهن



٢ - ثلاث رسائل

بخط ياقوت الحموي الرومي

للأديب الفارسي عباس اقبال

ترجمها الدكتور عبد الوهاب عزام

قياس عبارات معجم البلدان هذه بما خطه ياقوت في آخر النسخة التي بيد الكاتب نقلاً عن خط ابن فارس، لا يدع ريبة في أن هذه النسخة هي عين النسخة التي كتبها ياقوت لنفسه من نسخة ابن فارس.

ختمت هذه النسخة من تمام الفصيح، كما يقول ياقوت في آخرها، يوم الأحد سابع ربيع الآخر سنة ٦١٦ في مرو الشاهجان، ويصرح ياقوت نفسه في معجم البلدان أنه كان في مرو الشاهجان سنة ٦١٦، وكان يفيد من خزائن الكتب النفيسة في هذه المدينة، وأنه في السنة نفسها ترك المدينة خوفاً من التتار وبلغ خوارزم (الجرجانية) بعد قليل. وكذلك يصرح في معجم البلدان ومعجم الأدباء أنه كان بخوارزم في ذي القعدة من هذه السنة. ثم تركها هرباً من التتار أيضاً(١). ومن هذا يتبين أن ختم هذه النسخة في ربيع الآخر سنة ٦١٦ وقع قبل فرار ياقوت من مرو الشاهجان بشهرين أو ثلاثة

وأما كتابا الرماني فلسوء الحظ سقط أولها من هذه النسخة كما سقط قسم من أول الكتاب الثاني، كتاب الحروف كما قلنا آنفاً

بين كتاب تمام الفصيح والقسم الباقي من كتاب الحروف ورقة واحدة بخط ياقوت لا صلة بينها وبين هذين الكتابين.

(١) معجم البلدان في كلمة « جرجانية » وكلمة « خوارزم » ومعجم الأدباء ج ٦ ص ٥٠٩

والظاهر أنها خاتمة كتاب الرماني الذي سقط من نسختنا. وأول هذه الورقة:

« قابلت به نسخة أبي الفتح محمد بن أحمد بن أشرس النيسابوري التي قرأها على أبي محمد عبيد الله بن محمد الكاتب المعروف بابن الجرادي عن ابن الأنباري، وعلى أبي محمد يوسف ابن الحسين الزاق في سنة تسع وثمانين وثلثمائة. وصححته على اختلاف نقد هذه النسخة، ونسخة السماع عن ابن الأنباري في تقديم بعض الكلام في مواضع وتأخيره. وعلقت الحواشي من نسخته. وفرغ من انتساخه بمرو الشاهجان في عشية الأحد لثمان عشرة ليلة خلت من شهر رمضان سنة ٦١٥ ياقوت بن عبد الله الحموي المولى الرومي الأصل، حامداً الله ومصلياً على سيدنا محمد وآله الطاهرين ومسلماً تسليما »

ثم يتبع هذا ينقل فصل من كتاب لحن العامة لابن حاتم السجستاني. وقد سطر في آخر كتاب الحروف للرماني: « آخر كتاب الحروف. والحمد لله رب العالمين. وصلواته على سيدنا محمد وآله. وفرغت من نقله من خط أبي الحسن عمر بن أبي عمر السجستاني بمرو الشاهجان في محرم سنة ست عشرة وستمائة. وكتب ياقوت بن عبد الله الحموي حامداً لله على سوابغ نعمه »

***

يتبين مما نقلناه من أوائل وأواخر النسخ التي خطها ياقوت في هذه المجموعة، ومن الشواهد التي أوردناها من معجم البلدان ومعجم الأدباء — ا — أن ياقوت صرح في خمسة مواضع من هذه النسخ بأن هذه المجموعة خط يده وملكه — ب — وأن ياقوت كتبها في تواريخ رمضان سنة ٦١٥، والمحرم سنة ٦١٦، وربيع الآخر سنة ٦١٦ — ج — وأنه كتبها في مرو الشاهجان الحاضرة المشهورة للسلطان أبي الحارث معز الدين سنجر بن ملكشاه السلجوقي التي يقول عنها ياقوت في معجم البلدان إنه عاش فيها قرير العين مستفيداً من مكاتبها الكثيرة، وأن حبها تمكن في قلبه حتى أنساه الأهل والمنال وسائر البلدان،

وأنها لو لم تقع في أيدي التتار فسيطر عليها الدمار ما فارقها حتى الممات

والحق أن من العجيب أن تنجو هذه المجموعة الصغيرة التي هي من أنفس ذكريات تلك القرون السالفة، ومن أعز ما ملكه عالم عظيم مثل ياقوت الحموي، من نيران التتار المستعرة، وغير الزمان المدمرة، فها هي الآن بعد سبعة قرون ونصف على مكتبي ذكرى من عظمة المدنية الإسلامية في تلك العصور، ومذكرة برجل من مفاخر هذه المدنية الوضاءة: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي

عباس إقبال

باريس ٦ جمادي الأولى سنة ١٣٥٤



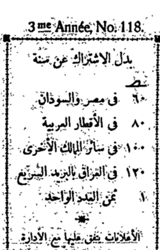
الإسلام الصحيح هو آخر كتاب عني بتأليفه أديب فلسطين السيد إسعاف النشاشيبي على أسلوب طريف في الوضع، استكثر له من المادة، راجعاً في استقائها إلى الأمهات المعتبرة في الأكثر، مستخدماً الخطابيات للتأثير في ذهن السامع وقلبه، ولكن خطابياته مدعومة بالنص المقبول والشاهد والمثل، وتتخللها أنواع من البلاغات، وفصح وشوارد من اللغة يحاول الأديب إحياءها، يعرضها على القارئ في خلال كلامه شارحاً لها في أسفل الصفحة

وموضوع هذا التأليف يدور على مسائل: منها أن صاحبه يدعو إلى الأخذ بالقرآن، ويهيب بفرق الإسلام إلى الالتفاف حول رايته الجامعة، وتكلم على الوهابية والزيدية وبين منشأها وعلى الإمامة، وأثبت من كتب الثقات أن عترة النبي هم أمته وأن جماعة النبي إنما المسلمون كلهم أجمعون، فليس للنبي قرباء ولا بعداء، وبرهن على أنه ليس في الإسلام طبقات وأن بعضهم أبوا إلا أن يكون المسلمون طبقات كمثل المنادك في الهند «فجماعة تنوقت في طغيانها وإلحادها فألهت من ألهت، وما هذا (والله) بطغيان ولا إضلال، لكنه فنون من الجنون . . . وجماعة أنزلت رجالاً من هاشم في غير منزلتهم، وأعطتهم ما ليس في الدين لهم، ومشايعتك المرء على باطل إنما هو خذلان، والتقريظ والتمجيد بغير الصدق وغير الحق زور وبهتان. وقد جاء الإسلام ليحرر فأبى معتاد الاستعباد في الدين والدنيا من قبل إلا استعباده، وإلا أن يشرك بعبادة ربه عباده»، وأفاض في مراد الشريعة من المودة في القربى وتفسير آية التطهير، وفي الصلاة على النبي، وفي نشأة نقابة الأشراف، وفي الحديث والمحدثين وجناية هؤلاء كفعل بعض المفسرين على الدين يوم قالوا: إن من الآيات ما له ظاهر ومنها ما له باطن إلى غير ذلك مما نقض فيه صراحاً ما يذهب إليه بعض فرق الإسلام. وأثبت أن نهج البلاغة المنسوب لعلي ابن أبي طالب يحمل كثيراً من الصفحات التي لا يعرفها صاحبه، وأن في تلقين الأحداث كل ما في هذا الكتاب على أنه صح عمن نسب إليه رضي الله عنه لا يخلو من ضرر على الأحداث، إلى غير ذلك من المطالب التي حل بها ما رآه أولى بالتقديم والمعالجة لرفع الخلاف من صفوف من كانت قبلتهم واحدة، ومورده‍م الذي يستقون منه هم فيه شركاء لا تباغض بينهم، والكتاب مفيد لمن يطالعه مطالعة تدبر وتفكر م؟

محمد كرد علي

3me Année, No. 118.

Lundi 7-10-1935


بدل الاشتراك عن سنة

مص

٦٠ في مصر والسودان

٨٠ في الأقطار العربية

١٠٠ في سائر الممالك الأخرى

١٢٠ في العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الأدارة



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــدد ١١٨ « القاهرة في يوم الاثنين ٩ رجب سنة ١٣٥٤ — ٧ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

المثـــنى بن حارثة

على ذكر « نادى المثنى » ببغداد

للدكتور عبد الوهاب عزام

— ٢ —

كانت قبائل ربيعة ضاربة شرقي نجد ، موغلة إلى الشمال حتى أعالى الفرات . . وكانت الوقائع تثور بينهم وبين الفرس في الحين بعد الحين ، فكانوا أجرأ العرب على فارس ، وكان العرب يسمون فارس الأسد ، فسموا ربيعة « ربيعة الأسد »

وكان بنو شيبان من هامات ربيعة في الجاهلية ، وهم كانوا أبطال « ذي قار » ، وامتد بهم المجد في الاسلام فكان منهم بيوتات لها في الحرب والمكارم مآثر . يقول أبو تمام :

أولاك بنو الأفضال لولا فعالهم درجن فلم يوجد لمكرمة عقب

لهم يوم ذي قار مضى وهو مفرد وحيد من الأشباه ليس له صحب

به علمت صهب الأعاجم أنه

به أعربت عن ذات أنفسها العرب

هو المشهد الفرد الذى ما نجا به.

لكسرى بن كسرى لا منام ولا صُلْب

— ٢ —

وقد امتدت أحقاد ذى قار بين الفرس وبنى شيبان خاصة، وقبائل بكر عامة؛ حتى كان بنو شيبان طلائع الفتح الاسلامى فى العراق: لما عمّ الاسلام الجزيرة وتوطد سلطانه سمع أبو بكر بوقائع سيد من شيبان فى سواد العراق فقال: من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ قال قيس بن عاصم المنقرى: «هذا رجل غير خامل الذكر، ولا مجهول النسب، ولا ذليل العماد؛ هذا المُثنّى بن حارثة الشيبانى».

ثم قدم المثنى على أبى بكر يسأله أن يؤمره على قومه ففعل. وكان المثنى من قبل على قومه أميراً، وبقى من بعدُ أميراً يستعينه الأمراء إذا حضروا، ويستخلفونه إذا غابوا، حتى مات بين مآثر مشكورة، ومناقب محمودة. وقد صدق عمر حين سماه: «مؤمّر نفسه».

وبعث المثنى أخاه مسعوداً إلى الخليفة يستمدّه فأرسل خالداً إلى العراق؛ فلما نزل خالد النّباج كتب إلى المثنى وهو معسكر بخفّان ليأتيه، وبعث إليه بكتاب من أبى بكر يأمره بطاعته. قال الطبرى: «فانقضّ إليه جواداً حتى لحق به». فانظر إلى الرجولة كيف تسارع إلى الطاعة!

ولما توجه خالد إلى الشام استبد المثنى بإمرة العراق، وكان بطل موقعة بابل وفيها قَتل الفيل.

قال الفرزدق يعدد بيوتات بكر:

وبيت المثنى قاتلِ الفيل عَنوة ... ببابل إذ فى فارسٍ مُلكُ بابل

ثم سار المثنى إلى أبى بكر ليخبره بجلية الأمر فى العراق، فوافاه مريضاً قد أشفى، فأوصى أبو بكر عمر قال: «فإن أنا مت فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنى.» وسار الناس إلى العراق وأميرهم أبو عبيد الثقفى. فلما كانت موقعة الجسر التى زُلزل فيها المسلمون وقُطع جسر الفرات وراءهم فتهافتوا فى الماء وقف المثنى فى أمجاد من العرب ينادى: «أيها الناس! إنّا دونكم فاعبروا على هينتكم، ولا تدهشوا، فانا لن نزايل حتى نراكم فى ذلك الجانب». وحمى المثنى الناس حتى عبروا. ثم خلق المثنى من الفلول المهزومة يوم الجسر نصراً باهراً فى موقعة البُوَيب برأيه وسياسته وشجاعته، واحتسب فيها أخاه مسعودا؛ ثم تكاثر الفرس عليه فكتب إلى عمر، فأمره أن يتنحّى بالناس حتى يأتيه أمره. ثم أرسل عمر سعد بن أبى وقاص فى حشد عظيم، وانحاز المثنى إلى ذى قار. وقدم سعد إلى زَرُود ينتظر المثنى، ولكن الأسد المرزأ، والمِسعَر المجرّب، انتقضت به جراحات يوم الجسر. فبينا سعد يرجو مقدمه جاءته وصيته تحملها امرأته سلمى وأخوه المعَنّى. عمل سعد بوصية المثنى وأمّر أخاه مكانه، ثم تزوج امرأته. وقد شهدت سلمى وقعة القادسية، فلما حمى الوطيس؛ واستكلب الموت على الأبطال، نظرت فلم تجد المثنى يسوس الأمجاد، ويقود الجلاد، فصاحت: «وامثنياه! ولا مثنى اليوم للخيل». مات المثنى وشهد له التاريخ أنه «كان شهماً شجاعاً ميمون النقيبة حسن الرأى.. أبلى فى حروب العراق بلاء لم يُبله أحد».

— ٣ —

فيا شباب بغداد الذين أنشأوا نادى المثنى ليحيوا ذكره! اذكروا فيه الرجولة الكاملة، والشجاعة البالغة، والمجد والسؤدد، والعمل المخلّد. اذكروه قائداً مقداماً، وأميراً حازماً، وسيداً مطاعاً، وجندياً مطيعاً. اذكروه حراً أبيا، ومثلا عربيّا، وخُلقاً عالياً. واستمدوا من ذكراه وذكرى أمثاله أخلاقاً صلبة تقيكم رخاوة الحضارة، وعزيمة ماضية ترفعكم عن ذلة الرفاهية، وتقتحم بكم الأهوال إلى الغاية البعيدة والأمل العظيم. ثم اذكروا أن المثنى فتح العراق جندياً مُسْلماً، فاذكروا الاسلام ومجده، واعتصموا بأخلاقه، واستمسكوا بمعاليه. وسيروا قُدُماً فى عزة العروبة، وهداية الاسلام، وأنتم الأعلون والله معكم؟

عبد الوهاب عزام

٣ـ الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الراوي :

نظرتُ إليها ونظرتْ . أمّا هي ، فرنتْ إليّ في سكون ، وكانت نظرتها معاتِبَةً طويلة فيها التملّق والتوجّع ، وفيها الانكسار والفتور ، وفيها الاسترخاء والدلال

وبينما كان طرفُها ساجياً فاتراً كأنه ينظر أحلامه ، إذ حدّدته إليّ فجأةً ونظرتْ نظرةَ مدهوش ، فبدتْ عيناها فزعتين ولكن في وجهٍ مطمئنّ

ثم لم تكد تفعل حتى ضيّقتْ أجفانها وحدّقت النظرَ متلألئاً بمعانيه ، فبدت عيناها ضاحكتين ولكن في وجهٍ متألم

ثم ابتسمتْ بوجهها وعينيها معاً ، وأتمّتْ بذلك أجملَ أساليب المرأة الجميلة المحبوبة في اعتراضها على من تحبه ، وجدالها مع فكره ، وكسْر حُجته في كبريائه ، وانتزاع الفكرة المستقلة من نفسه

وأما أنا ، فكان نظري إليها سا كناً بتاً لما يقرّ أنه يعجز عن جواب عينيها ، وسيبقى عاجزاً عن جواب عينيها . . . .

إن وجهها هو الابتسام ورُوحُ الابتسام ، وجسمها هو الاغراء وروحُ الاغراء ، وفيها هو الفتنةُ ورُوحُ الفتنة ، وهي بهذا كلّه ، هي الحبُّ وروحُ الحب . غير أن فهمها على حقيقتها في الناس يجعلُ ابتسامها عداوةً من وجهها ، وإغراءها جريمةً لجسمها ، وفنها رذيلةً في جمالها ، وهي بهذا كله ، هي الشقاءُ وروحُ الشقاء

***

أمّا إني أحبُّ فنعمْ ونعِمّا ، بل أراه حباً فالقاً كبدي ، وليس يخلو فؤادي أبداً من سوالف حُبٍ مضى ؛ وأما أني أسترذِلُ في الحب وأمتهن فضيلتي وأزِلُّ بها — فلا وأبداً

إن ذلك الحب هو عندي عملٌ فنيٌّ من أعمال النفس ، ولكن الفضيلةَ هي النفسُ ذاتها ؛ والحبُّ أيامٌ جميلةٌ عابرةٌ في زمني ، أما الفضيلةُ فهي زمني كله ؛ وذلك الجمالُ هو قوةٌ من جاذبيـة الأرض في مدتها القصيرة ، ولكن الفضيلةَ جاذبيةُ السماء في خلودها الأبدي

على أنه لا مُنافرةَ بين الحب والفضيلة في رأيي ، فإن أقوى الحب وأملأه بفلسفة الفرح والحزن لا يكون إلا في النفس الفاضلة المتورعة عن مُقارفَةِ الاثم . وههنا يتحول الحبُّ إلى ملَكةٍ سامية في إدراك معاني الجمال ، فيكون الوجهُ المشوقُ مصدرَ وحي للنفس العاشقة . وبهـذا الوحي والاستمداد منه ينزل المحبُّ من المحبوب منزلةَ من يرتفع بالآدميّة إلى الملائكية [1] ليتلقى النورَ منها فناً بعد فن ، والفرح معنى بعد معنى ، والحزن السماويّ فضيلةً بعد فضيلة

فهذا الحبُّ هو طريقةٌ نفسيّةٌ لاتساع بعض العقول المهيّأة للالهام كي تحيط بأفراح الحياة وأحزانها ، فتُبدعَ للدنيا صورةً من صور التعبير الجميلة التي تثير أشواق النفس . كأن كلَّ محب وحبيبته من هؤلاء الملهمين ، هما صورةٌ جديدةٌ من آدمَ وحواء ، في حالةٍ جديدة من معنى ترك الجنة ، لايجاد الصورة الجديدة من الفرح الأرضي والحزن السماوي

والخطَرُ في الحب ألا يكونَ فيـه خطر . . . . فهو حينئذ نداءُ الجنس ، لا يكون إلا دنيئاً ساقطاً مبذولاً فلا قيمةَ له ولا وحي فيه ، إذ يكون احتيالاً من عمل الغريزة جاءت فيه لابسةً ثوبها النورانيَّ من شوق الروح لتخدعَ النفسَ الأخرى فيتصلَ بينهما ، حتى إذا اتصل بينهما خلعت الغريزةُ هـذا الثوب واستعلنتْ أنها الغريزةُ فانحصر الحبُّ في حيوانيته وبطلت أشواقه الخياليةُ أجمع

***

قال الراوي : وعرفتِ الحسناءُ هذا كله من عرضها نظرةً وتلقّيها نظرةً غيرها ، فقالت للأستاذ (ح) : أما أن يكون مع أثر الشعر والفكر في الجمال ودعوى الحب أثرُ الزهد في الجسم الجميل وادّعاءُ الفضيلة — فإنّ بعيداً أن يجتمعا

قال (ح) : وأنى تُبعدينه ويحك عن هذه المنزلة ؟ إني لأعرف من هو أعجبُ من هذا

قالت : وماذا بقي من العجب فتعرفَه ؟

(١) نحن لا ننسب للملائكة إلا على خلاف القاعدة المقررة في علم الصرف ونرى أن مخالفتها هي القاعدة في هذه اللفظة

قال : أعرف رجلاً متزوجاً أحب أشد الحب وأمضّه حتى استهام وتدلّه ، فكان مع هذا لا يكتب رسالة إلى حبيبته حتى يستأذن فيها زوجته كيلا يعتدى على شيء من حقها . وزوجته كانت أعرف بقلبه وبحب هذا القلب ، وهى كانت أعلم أن حبه وسلوانه إنما هما طريقتان فى الأخذ والترك بين قلبه وبين المعانى ؛ تارة من سبيل المرأة وجمالها ، وتارة من سبيل الطبيعة ومحاسنها

فتنهدت وقالت : يا عجباً ! وفى الدنيا مثل هذا الزوج الطاهر ، وفى الدنيا مثل هذه الزوجة الكريمة ؟

ثم إنها وجمت هنيهة تجتمع فى نفسها اجتماع السحابة ، ثم استدمعت ، ثم أرسلت عينيها تبكى . فبدرت أنا أرفّه عنها حتى كفكفت من دمعها ، وكأن (ح) قد وخزها فى قلبها وخزة أليمة بذكره لها الزوجة ، ثم الزوجة الطاهرة ، ثم الطاهرة حتى فى وسوسة شيطان الغيرة : ارتفع ثلاث مرات بالزوجة ، لترى هذه المسكينة أنها سافلة ثلاث مرات ، وكأنه بهذا لم يكلمها بل رسم لها صورتها فى عيشها المُخزى وقال لها : انظرى . . . . .

***

ويا ما كان أجملها يترقرق الدمع فى عينيها الفاتنتين الكحيلتين فينبث منهما حزناً يخيّل لمن رآه ، أنه من أجلها سيحزن الوجود كله

ليس البكاء من هاتين العينين بكاء عند من يراه إذا كان من العاشقين ، بل هو فن الحزن يضع مجالاً جديداً فى فن الحسن . وأكاد أعجب كيف وجد الدمع مكاناً بين المعانى الضاحكة فى وجهها — لو لم يكن هذا الدمع قد جاء ليظهر على وجهها الفن الآخر من جمال المعانى الباكية

***

وسألتها : ما الذى خامر قلبك من كلام الأستاذ (ح) فأبكاك ، وأنت كما أرى يتألق النور على جدران المكان الذى تحلين به ، فيظهر المكان وكأنه يضحك لك ؟

فتشككت لحظة ثم قالت : أبك ما تقول أم أنت تتهكم بى ؟

قلت : كيف يخطر لك هذا وأنا أحترم فيك ثلاث حقائق : الجمال ، والحب ، والألم الإنسانى ؟

قالت : لا تثريب عليك [1] ، ولكن صوّر لى ببلاغتك كيف أحببتك وأنت غير متحبّب الىّ ، وكيف جادلت نفسي فيك وداورتها عنك ، وكلما عزمت انحلّ عزمي ؟ فهذا ما لا أكاد أعرف كيف وقع ، ولكنه وقع . هذه قطرة من الماء الصافى العذب فضع عليها (المكرسكوب) يا سيدى وقل لى ماذا ترى ؟

قلت : إنك تخرجين من السؤال سؤالا . فما الذى خامر قلبك من كلام (ح) فبكيت له ؟

قالت : إذن فليست هى قطرة من الماء بل تلك دمعة من دموعى ، فضع عليها المكرسكوب يا سيدى .

قال الراوى : وكانت حزينة كأنها لم تسكت عن البكاء إلا بوجهها وبقيت روحها تبكى فى داخلها . فأراد الأستاذ (ح) أن يستدرك لغلطته الأولى فقال : إنكِ الآن تسألينه حقاً من حقوقك عليه ، فكل امرأة يحبها هى عروس قلمه ولها على هذا القلم حق النفقة . .

فضحكت نوعاً ظريفاً من الضحك الفاتر كأنما ابتكره ثغرها الجميل لساعة حزنها ، ونظرت الىّ . فقلت : إن كان الأمر من نفقة العروس على القلم فما أشبه هذا (بلا شىء) جحا

فضحكت أظرف من قبل ، وخيّل الىّ أن ثغرها انطبق بعد افترارِه على قبلةٍ أفلتت منه فأمسكها من آخرها . . .

ثم قالت : ما هو (لا شىء) جحا ؟

قلت : زعموا أن جحا ذهب يحتطب ، وحمل فوق ما يطيق ، فبهظه الحمل وبلغ به المشقة ، ثم رأى فى طريقه رجلاً أبله فاستعان به ، فقال الرجل : كم تعطينى إذا أنا حملت عنك ؟ قال : أعطيك (لا شىء) . قال : رضيت

ثم حمل الأبله وانطلق معه حتى بلغا الدار ، فقال : أعطني أجرى : قال جحا : لقد أخذته . واختلفا ، هذا يقول أعطنى ، وهذا يقول أخذت ؛ فلببه الرجل [2] ومضى يرفعه إلى القاضي ، وكانت بالقاضي لوثة وعلى وجهه رواء الحمق [3]

(١) أى لا عتب عليك (٢) أخذ بتلابيبه

(٣) اللوثة بضم اللام مس من الجنون ، وتكون أيضاً بمعنى الحمق ، ورواء الحمق علاماته وهى معروفة فى علم الفراسة

تخبرك عنه قبل أن يخبرك عن نفسه . فلما سمع الدعوى قال لجحا : أنت في الحبس أو تعطيه (اللاشيء) . . . .

قال جحا في نفسه : لقد احتجت لمثلي بين هذين الأبلهين ؛ ثم انه أدخل يده في جيبه وأخرجها مطبقة ، وقال للرجل : تقدم وافتح يدي . فتقدم وفتحها ، قال جحا : ماذا فيها ؟ قال الرجل : (لا شيء)

فقال له جحا : خذ (لا شيئك) وامض فقد برئت ذمتي

قالوا : فذهب الرجل يحتج ، فقال له القاضي : مه ؟ أنت أقررت أنك رأيت في يده (لا شيء) وهو أجرك ؛ فخذه ولا تطمع في أزيد من حقك . . .

***

وضحكت وضحكنا ، ثم قالت : أنا راضية أن أكون عروس القلم ، فليجر على القلم نفقتي ، وليصور لي كيف أحببت ، وكيف آمرت نفسي وجاذبتها ؟

قلت : لا أتكلم عنك أنت ولا أستطيعه . بيد أنني لو صنعت رواية يكون فيها هذا الموقف — لوضعت على لسان العاشقة هذا الكلام تحدث به نفسها

تقول : كيف كنت وكيف صرت . لقد رأيتني أعاشر مائة رجل فأخالطهم في شتى أحوالهم وأصرفهم في هواي وكلهم يجهد جهده في استمالتي ، وكلهم أهل مودة وبذل ، وما منهم إلا جميل مخلص قد أنق وتجمل وراع حسنه كأنما هرب إلي في ثياب عرسه ليلة زفافه وترك من أجلي عروساً تبكي وتصيح بويلها . ثم أنا مع ذلك مغلقة القلب دونهم جميعاً أصدقهم المودة والصحبة ، وأكذبهم الحب والهوى ؛ فلست أحبهم إلا بما أنال منهم ولست أحبب اليهم إلا ما أنولهم مني ، وهم بين عقلي وحيلتي رجال لا عقول لهم ، وأنا بين أهوائهم وحماقاتهم امرأة لا ذات لها

ثم أرى بغتة رجلاً فرداً فلا أكاد أنظر اليه وينظر إلي حتى يضع في قلبي مسئلة تحتاج إلى الحل . . .

وأرتاع لذلك فأحاول تناسيه والاغضاء عنه ، فتلج المسئلة في طلب حلها وتشغل خاطري وتتمدد في قلبي وهو هو المسئلة . . .

فأفزع لذلك وأهتم له وأجهد جهدي أن أكون مرة حازمة بصيرة كرجال المال في حق الثروة عليهم ، ومرة قاسية عنيفة كرجال الحرب في واجبها عندهم ، ومرة خبيثة منكرة كرجال السياسة في عملها بهم ؛ ولكني أرى المسئلة تلين لي وتتشكل مني وتحتمل هذه الوجوه كلها لتبقى حيث هي في قلبي فإنه هو هو المسئلة . . .

وأغتم لذلك غماً شديداً وأراني سأسقط بعد سقوطي الأول وأقبح منه ، إذ الحياة عندنا قائمة بالخداع وهذا يفسده الاخلاص ؛ وبالمكر وهذا يبطله الوفاء ، وبالنسيان وهذا يبطله الحب . وإذ عواطفنا كلها متجردة لغرض واحد هو كسب المال وجمعه وادخاره ، وفضيلتنا عملية لا تتخيل ، حسابية لا تختل ، فيستوى عندنا الرجل بلغ جماله القمر في سمائه ، والرجل بلغت دمامته الذباب في أقذاره ؛ والحب معنا هو كم في كم ويبقى ماذا . . . أو كما يقول أهل السياسة هو « النقطة العملية في المسئلة » . ولكن المسئلة التي في قلبي لا ترى هذا حلاً لها ، لأنه هو هو المسئلة . . .

فيزيد بي الكرب ، ويشتد على البلاء وأحتال لقلبي ، وأدبر في خنقه وأذهب أقنعه أن الرجل إذا كان شريفاً لم يحب المرأة الساقطة إذ يعاب بصحبتها والاختلاف إليها ، فاذا كان ساقطاً لم تحبه هي ، فانما هو صيدها وفريستها وموضع نقمتها من هذا الجنس ، وأسرف على قلبي في الملامة والتذليل فأقول له : ويحك يا قلبي ! إن المرأة منا إذا تفتح قلبها للحبيب تفتح كالجرح لينزف دماءه لا غير ، فيقتنع القلب ويجمع على أن ينسى وأن يرجع عن طلبه الحب ؛ وأرى المسئلة قد بطلت وكان بطلانها أحسن حل لها ، وأنام وادعة مطمئنة ، فيأتي هو في نومي ويدخل في قلبي ويعيد المسئلة إلى وضعها الأول فما أستيقظ إلا رأيته هو هو المسئلة . . . .

فأتناهى في الخوف على نفسي من هذا الحب وأراه سجنها وعقابها ، وقهرها وإذلالها ، فأقول لها : ويلك يا نفسي ! إنما همك في الحياة وسائل الفوز والغلب ، فأنت بهذا عدوة مسماة في غفلة الرجال صديقة ، وقد وضعت في موضع تعيشين فيه باهانات من الرجال يسمونها في لذاتهم بالحب . فأنت عدوة الرجال بمعنى من الدهاء والخبث ، وعدوة الزوجات بمعنى من

الحقد والضغينة ، وعدوّة البغايا أيضاً عمنى من الغالبة والمنافسة ، وكلُّ ما يستطيع الدهاءُ أن يعمله فهو الذى علىّ أنا أن أعمله ، فماذا أصنع وأنا أحب ؟ وكيف أنجح وأنا أحب ؟ ولكن النفس تجيبني على كل هذا بأن هذا كلّه بعيدٌ عن المسئلة مادام هو هو المسئلة . .

***

قال الراوى : وكانت كالذاهلة مما سمعت ، ثم قالت : ألك شيطانٌ فى قلبى ؟ فهذا كله هو الذى حدث فى سبعة أيام

قال (ح) : ولكن كيف يقع هذا الحب . . وهبْك صنعت تلك الرواية ووضعت على لسان العاشقة ذلك الكلام ، فماذا كنت تنطقها فى وصف حبها ، وما اجتذبها من رجل فاز بقلبها ولم يُداورْها ، بعد مائة رجلٍ كلُّهم داوَرَها ولم يفز منهم أحد . أتكون فى وجه هذا الرجل أنوار كتباشير الصبح تدلّ على النهار الكامن فيه ؟

قالت هى : نعم نعم . عماذا كنت تنطقها ؟

قلت : كنت أضع فى لسانها هذا الكلام تجيبُ به عاذلةً تعذُلها :

تقول : لا أدري كيف أحببته ، ولكنّ هذه الشخصية البارزة منه جذبتني إليه ، وجعلت الهواء فيما بيني وبينه مُفعَماً بالمغناطيس مصدرُه هو ، ومعناه هو ، ولا شيء فيه إلا هو

عرَضَتْه لى شخصيتُه ظاهراً لأن جواب شخصيته فىّ ، وأصبح فى عيني كبيراً لأن جوابَ شخصيتى فيه ، ومن ذلك صارت أفكارى نفسها تزيده كلَّ يوم ظهوراً وتزيدنى كل يوم بَصَراً ، وأعطاه حقَّه فى الكمال عندى حقّه فى الحب منى ؛ وبتلك الشخصية التى جوابها فى نفسي أصبح ضرورةً من ضرورات نفسي

***

قال الراوى :

ولما رأيتها فى جوّى نسيمه وعاصفته ، أردتها على قصّتها وشأنها ، فماذا قلت لها وماذا قالت ؟

(فى العدد القادم بقيتها)

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

إلى الأديبة و . س . بدمشق : أما بعد الشكر للأديبة الفاضلة فأنت فى الشكوى والموضوع يتعذر . . . . وسيتهى إليك كتابى. الرافعى

افتتاح إفريقية

وكيف غزاها الاستعمار الأوربى

بقلم مؤرخ كبير

ليست المشكلة الايطالية الحبشية التى تكدر اليوم سلام العالم سوى نفثة جديدة من نفثات الاستعمار الغربى ، وطموح أمة أوربية قوية إلى غزو أمة إفريقية ضعيفة تزخر أرضها بالثروات الطبيعية الدفينة التى مافتئت تحفز الاستعمار إلى الغزو والتغلب ، وإلى اجتياح الأمم الضعيفة الآمنة ؛ فهى ليست بذلك مشكلة دولية بالمعنى المعروف ، وإنما هى محاولة أوربية جديدة لاجتياح آخر أرض فى إفريقية استطاعت أن تنجو حتى اليوم من عدوان الاستعمار

كانت القارة الافريقية منذ قرن فقط ، منطقة بكراً ، لايكاد الغرب يعرف شيئاً إلا عن أممها الشمالية التى تحتل الضفة الأخرى من البحر الأبيض المتوسط ، والتى كانت تتمتع مدى الأحقاب بحضارات زاهرة ؛ وكانت هذه الأمم المتمدنة الزاهرة — مصر وبلاد المغرب — تكاد تحجب ماوراءها من أمم القارة السمراء ، وتكون دون اجتياحها سداً منيعاً يحميها من مطامع الاستعمار الغربى الذى استطاع منـــذ القرن السادس عشر أن يجتاح الأمريكتين ، وأن ينفذ إلى الشرق الأقصى ، واستطاع منذ القرن الثامن عشر أن يستقر فى الهند . ومنذ أواخر هذا القرن أيضاً توالت بعوث الاستعمار إلى إفريقية ، فنفذت اليها من الشرق والغرب والشمال ، وأثارت اكتشافات الرحّل مثل منجو بارك ودنهام وكلابرتون ورنيه كاييه وستانلى ولفنجستون وغيرهم فى الأمم الأوربية مطامع وآمالاً جديدة ؛ وبعثت النهضة الصناعية إليها رغبة قوية فى استعمار تلك المناطق الجديدة واستغلال ثرواتها الدفينة ، واستعباد شعوبها المتأخرة وتسخيرها فى سبيل الغايات الاستعمارية

وكانت أمم إفريقية الشمالية ، وهى مفتاح القارة ، بالطبع محط المشروعات والمحاولات الأولى ؛ وكانت اسبانيا أسبق الأمم

الأوربية إلى التطلع إلى تلك الأمم المغربية التي تواجهها في الضفة الأخرى من البحر، والتي خاضت معها من قبل كثيراً من المعارك، والتي استطاعت أيام قوتها وازدهارها - أيام المرابطين والموحدين - أن تغزو اسبانيا وأن تحتل قسمها الجنوبي أعني اسبانيا المسلمة؛ ومنذ أيام الامبراطور شارلكان وولده فيليب الثاني (القرن السادس عشر) بذلت اسبانيا وهي يومئذ في إبان قوتها وعظمتها عدة محاولات لافتتاح الجزائر وثغور المغرب؛ ولكنها لم تستطع أن تظفر في تلك الوهاد الوعرة بفتوح مستقرة؛ واستطاعت تلك الأمم المغربية أن تحافظ على استقلالها في ظل طائفة من الحكام المغامرين الذين يرجعون إلى أصل تركي حتى فاتحة القرن التاسع عشر. وكانت اسبانيا قد انحدرت في ذلك الحين إلى عداد الدول الثانوية، وأخذت دولة أوربية أخرى هي فرنسا تتطلع إلى افتتاح تلك الأمم واستعمارها؛ وكانت حمى افتتاح إفريقية قد أخذت تسري إلى الدول الأوربية، على أثر الاكتشافات الجغرافية الجديدة التي كشفت عن غنى تلك المجاهل بالثروات الطبيعية المدهشة؛ وخشيت فرنسا أن تسبقها أمة أوربية أخرى إلى غزو أمم المغرب التي تواجهها في الضفة الأخرى من البحر ولا تبعد عن ثغورها الجنوبية سوى يومين؛ ولم يكن يعوز الاستعمار أو تعجزه حجج التدخل والعدوان. ففي سنة ١٨٣٠، في عصر الملك شارل العاشر، جهزت فرنسا أسطولاً ضخماً، وحملة قوية إلى ثغر الجزائر؛ واستولى الفرنسيون على الثغر الحصين بعد قتال رائع، وانسحب الحاكم التركي (الداي) بأمواله وأسرته؛ واتخذ الفرنسيون من الجزائر قاعدة لغزو المغرب الأوسط كله؛ وكانت بتوسطها ومناعتها أصلح القواعد؛ ولكن فرنسا لقيت خصماً صلباً عنيداً في عبد القادر زعيم الجزائر وبطلها الأشهر؛ وقد استطاع هذا الوطني الكبير والجندي الباسل أن ينظم الدفاع عن وطنه زهاء خمسة عشر عاماً هزم خلالها عدة حملات فرنسية قوية، وكبد فرنسا خسائر فادحة في الرجال والمال؛ ولكن السياسة الاستعمارية لم ترتد أمام هذا النضال الوطني الرائع، ولم تحجم في سبيل غايتها عن أية تضحية؛ فما زالت فرنسا تبعث الحملات المختلفة، وتستولي تباعاً على قواعد الجزائر، وتخوض مع عبد القادر معارك مضطرمة مستمرة، حتى أتمت فتح الجزائر؛ وأسر عبد القادر بعد خطوب وأحداث جمة (سنة ١٨٤٧)؛ وارتد الزعيم الباسل بعد أعوام من الأسر بأسرته إلى دمشق ليقضي بقية أيامه فيها.

وهكذا كانت الجزائر أول قطر أفريقي سقط في يد الاستعمار الأوربي؛ وكان سقوطها فاتحة تلك الحركة الاستعمارية الهائلة التي تعرف « بافتتاح إفريقية »، والتي اشتركت فيها معظم الدول الأوربية الكبرى، طوراً متحدة وطوراً منفردة، واستمرت طوال القرن التاسع عشر، وانتهت بتقسيم إفريقية، وسقوط أقطارها تباعاً في يد الدول الاستعمارية الكبرى.

ولما استقرت فرنسا في الجزائر أخذت تتطلع إلى تونس ومراكش؛ وكانت تونس بما يسودها من الضعف والتفكك فريسة هينة؛ فما زال الفرنسيون بها حتى جردوا عليها حملة غازية في سنة ١٨٨١ ثم جردوا عليها أسطولاً رسا في بنزرت، وزحفوا على تونس في مايو سنة ١٨٨٥، وأرغموا « الباي » صاحب تونس على أن يعترف بالحماية الفرنسية على القطر التونسي. أما مراكش فقد استطاعت بمنعتها ووعورتها أن تقف في وجه الاستعمار مدى حين، وعاونتها السياسة الألمانية على مقاومة فرنسا وإحباط محاولاتها حتى أوائل القرن الحالي.

وفي الوقت الذي سقطت فيه تونس في يد الفرنسيين كانت انكلترا قد نظمت مشروعها لاحتلال مصر، وألفت فرصتها في اختلال الأحوال المالية، وفي قيام الثورة العرابية، فبعثت حملتها المعروفة إلى مصر في صيف سنة ١٨٨٢، واحتلت عاصمتها في سبتمبر، في ظروف ما زالت معروفة ماثلة في جميع الأذهان، وما زال الاحتلال الانكليزي قائماً في مصر، وما زالت المسألة المصرية تنتظر حلا شريفاً عادلا يحقق أماني مصر في استرداد حرياتها واستقلالها

***

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر كانت البعثات الاستكشافية الجديدة قد ألقت برحلاتها ومباحثها كثيراً من الضياء على افريقية ومجاهلها ووهادها الفنية، وثرواتها الطبيعية المتنوعة، ولم تمض أعوام أخرى حتى اكتشفت منابع أنهارها العظيمة مثل النيل والنيجر والكونغو، وحققت مجاريها

وأحواضها ، وأخذت روعة الثروات العظيمة التي احتجبت بها القارة السمراء تحفز الاستعمار الأوربي وتذكي أطماعه ، واشتدت المنافسة بين الدول الكبرى لاقتسام هذه الأقطار الغنية واحتلالها .

عندئذ اتفقت الدول على عقد مؤتمر ينظم اقتسام افريقية ، ويحدد مناطق النفوذ والنشاط لكل دولة ، وكان بسمارك المستشار الألماني هو صاحب الفكرة ، فعقد المؤتمر في برلين في أواخر سنة ١٨٨٤ ، واتفق على أن تكفل الحرية التجارية المطلقة لجميع الدول في حوض الكونغو ، وأن تكفل حرية الملاحة في نهري النيجر والكونغو ، وألا يعتبر الاحتلال النظري قائماً في منطقة من المناطق حتى يؤيد بالاحتلال الفعلي ، واعترف المؤتمر أيضاً بقيام دولة مستقلة في الكونغو وأنها ملك شخصي لملك البلجيك وهي التي أضحت في يومنا مستعمرة عظيمة تملكها دولة أوربية صغيرة هي البلجيك .

على أن قرارات مؤتمر برلين لم يكن لها أثر فعلي ظاهر فيما تلا من تقسيم افريقية ، وكانت فرنسا قد وضعت يدها على الجزائر وتونس والسنغال ، ووضعت انكلترا يدها على مصر ، ومنطقة الرأس (الكاب) ، وبدأت ألمانيا احتلالها في نفس الوقت للكمرون وتوجولاند وشرق افريقية ؛ ولم يكن ثمة بد من أن تتفاهم هذه الدول الاستعمارية الكبرى فيما بينها بمعاهدات واتفاقات خاصة على تحديد المناطق التي تطمح كل إلى امتلاكها ، وكانت كل دولة قد شادت بما احتلته أسس امبراطوريتها الاستعمارية في افريقية . وكانت فرنسا أنشطها في بناء هذا الصرح الاستعماري ، فلم تأت أواخر القرن التاسع عشر حتى كانت قد احتلت معظم افريقية الغربية ، واستولت على السنغال وأعالي النيجر ، وساحل العاج ، وداهومي ، ونفذت في قلب افريقية إلى السودان الأوسط حتى بحيرة تشاد ، ووطدت أقدامها في الشمال في تونس والجزائر ، وافتتحت جزيرة مدغشقر في سنة ١٨٩٥ .

أما انكلترا فإنها وطدت أقدامها في وادي النيل ، في مصر والسودان ، وشرق أفريقية البريطاني ، واحتلت زنجبار ، وأخذت في بناء امبراطوريتها الاستعمارية العظيمة في أواسط افريقية وجنوبها . وكانت منذ أوائل القرن التاسع عشر قد احتلت منطقة الرأس (الكاب) كما قدمنا ، وكان البوير (وهم سلالة المستعمرين الهولنديين الأوائل) قد استقروا في منطقة « الأورانج » وفي « ناتال » ، فاستولى الانكليز على ناتال ، وهاجر البوير منها ، وأسسوا لهم مستعمرة جديدة هي « الترنسفال » واعترفت انكلترا باستقلالها سنة ١٨٥٢ ، ولكن انكلترا ما فتئت تبسط سلطانها نحو الشمال تباعاً ، فاستولت على أرض الكفر وباسوتولاند ؛ وفي أواخر القرن التاسع عشر أنشأ سسل رودس شركة استعمارية على مثال الشركة التي أسست من قبل في الهند ، وعضدت الحكومة الانكليزية مشروعه في فتح الأراضي الواقعة حول حوض الزمبيزي وأمدته بالمال والجند ، وهكذا افتتحت رودسيا ، وأصبحت انكلترا تسيطر على أواسط افريقية الجنوبية من منابع الكونغو حتى الكاب ، ولم يبق خارجاً عن سلطانها سوى الترنسفال ومستعمرة الأورانج حيث استقر البوير . وكانت انكلترا تطمح دائماً إلى ضم هاتين المستعمرتين إليها لتوحد امبراطوريتها في افريقية الجنوبية ، وكان البوير من جهة أخرى بزعامة رئيسهم الشهير « كروجر » يناوئون كثيراً من مشاريعها الاستعمارية ، ويقاومون تدخلها بشدة ؛ وأخيراً لم تر انكلترا بداً من اعلان الحرب لتحقيق غايتها ، فاضطرمت الحرب بينها وبين البوير (أكتوبر سنة ١٨٩٩) وأبدى البوير بسالة عظيمة ، واستطال دفاعهم زهاء ثلاثة أعوام ؛ وأخيراً اضطروا إلى الاعتراف بسيادة انكلترا ولكنهم احتفظوا باستقلالهم الداخلي ، ونالوا من انكلترا تعويضاً ضخماً عما أصابهم من التخريب والخسائر ، وكبدت هذه الحرب الشهيرة انكلترا خسائر فادحة في المال والرجال ، ولكنها استطاعت أخيراً أن تحقق مشروعها في توحيد امبراطوريتها في جنوب أفريقية

***

وفي أواخر القرن التاسع عشر اشتدت المنافسة بين الدول الاستعمارية ولاسيما بين ألمانيا وانكلترا من جهة ، وبينها وبين فرنسا من جهة أخرى . وانتهت انكلترا وألمانيا أخيراً إلى التفاهم وعقدتا في سنة ١٨٩٠ معاهدة لتخطيط الحدود بين أملاكهما في إفريقية . وعقدت بين انكلترا وفرنسا في سنة ١٨٩٨ معاهدة لتحديد أملاكهما في حوض النيجر وغرب إفريقية ، ثم عقدت

بينهما معاهدة أخرى فى سنة ١٨٩٩ على أثر حادثة فاشودة الشهيرة وفيها تنازلت فرنسا عن دعاويها فى أعالى النيل ؛ وأخيراً عقد « الاتفاق الودى » بين الدولتين فى سنة ١٩٠٤ ، وفيه تعهدت فرنسا بأن تطلق يد انكلترا فى مصر وألا تناوئ سياستها فيها ؛ وتعهدت انكلترا من جانبها أن تطلق يد فرنسا فى مراكش وألا تناوئ سياستها فيها .

وثارت بين ألمانيا وفرنسا من أجل مراكش خصومة مضطرمة كادت أن تنفجر غير مرة ؛ وكانت فرنسا تحرص على أن تضم مراكش إلى امبراطوريتها الافريقية ، وتحرص ألمانيا من جانبها على أن تضع فى سبيل فرنسا كل عقبة ممكنة ؛ وفى سنة ١٩٠٥ ، زار الامبراطور ولهلم الثانى ثغر طنجة وألقى خطاباً رناناً حمل فيه على السياسة الفرنسية ؛ واضطرت فرنسا أن تقبل بحث المسألة المراكشية فى مؤتمر دولى ؛ وعقد المؤتمر فى الجزيرة (باسبانيا) سنة ١٩٠٦ من الدول الكبرى ؛ وأصدر قراراً باعلان استقلال السلطان ، ووجوب المحافظة على وحدة الأراضى المراكشية ، مع الاعتراف بحقوق اسبانيا وفرنسا ومصالحهما الخاصة فى هذه المنطقة . ولم تغنم ألمانيا شيئاً . وفى سنة ١٩١١ جردت فرنسا حملة على فاس ، وانتهزت ألمانيا هذه الفرصة فأرسلت سفينة حربية إلى أغادير ، ووقعت بين الدولتين مشادة حادة كادت تنتهى باضطرام الحرب بينهما ؛ ولكن الخلاف انتهى بعقد معاهدة اعترفت فيها ألمانيا بحقوق فرنسا فى مراكش مقابل مزايا استعمارية كبيرة فى إفريقية الوسطى . وعلى أثر ذلك انتهزت فرنسا الفرصة وعملت على إرغام مراكش على قبول حمايتها بمعاهدة عقدت مع السلطان فى سنة ١٩١٢

أما إيطاليا ، وهى رابعة الدول الاستعمارية الكبرى التى اشتركت فى اقتسام أفريقية ، فكان نصيبها طرابلس فى الشمال ، وارترية وشطراً من بلاد الصومال فى الشرق . وسنعرض فى فصل قادم إلى تفصيل هذه الغزوات الاستعمارية ؛ وسنعرض بوجه أخص إلى موقف الحبشة من هذه الحركة الأوربية الاستعمارية الشاملة ، وكيف نجت من عواقبها ، واستطاعت أن تحتفظ باستقلالها إلى يومنا ؟

للبحث بقية (...)

٣ ـ الشعر *

فى صدر الاسلام وعهد بنى أمية

بقلم احمد حسن الزيات

٢ — خصائص الشعر فى العراق

أما الفرزدق فهو كالأخطل فى الذؤابة من قومه ، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يوارى ، فاحش الدعابة فلا يحتشم ، شديد الدعارة فلا يتعفف ، حاد البادرة فلا يتلطف ؛ فهو فى هجائه يذكر العورات ويعلن المخزيات بألفاظها العارية وأسمائها الصريحة حتى ليستحى الشاب أن ينشدها ، بله الفتاة الخفرة . وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان وفجور النفس هى كل الأسباب التى أوجدت هذا الهجاء السوقى الوقح ، فان الحطيئة ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف لم يسفوا هذا الإسفاف ، فلابد أن يكون لحياة العراق فى ذلك العهد أثر قوى فى ذلك : فالخلق العربى القوى قد وهت أواصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم ، والوازع الدينى قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية ، والسلطان السياسى يغمض جفنيه ويضحك ملء شدقيه من هذه المهازل التى يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة . أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتال لانتصاره بالمال والقتال والدعاية ، وربما أتى كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيرفد بها الشاعر كما فعلت تيم فى مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ لجرير . وكان أفحش الهجاء هجاء الفرزدق فى جرير ؛ فهو يرمى قومه بضعة النسب ، وضعف الحيلة ، واتخاذ الغنم ، ورعى الإبل ، وإتيان الأتن ، ويفتن فى هذه المعانى افتتاناً عجيباً : يرددها فى كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى ، ولا يتحرج أحياناً من افتعال الحوادث المضحكة إمعاناً فى السخر من المهجو والنيل منه

وهذا غاية ما وصل إليه المتهاجون وأهل التنادر فى عصور

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربى الذى صدر جديثاً

الترف والخلاعة . وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنيء الذي لا يعتقده ولا يصدقه الناس ، إنما يعمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو مايعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة ، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل ، إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح ، أو جهة المساوىء فيه فيذم ، وهو في كلتا الحالين صادق

وقد يتدلى الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذي لا تسيغه رجولة ، فينقض رثاء جرير[1] لامرأته بهجائها المقذع ، دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة ، كقوله :

كانت منافقة الحياة وموتها خزى علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى جزعاً غداة فراقها الأعيار
تبكى على امرأة وعندك مثلها قعساء ليس لها عليك خمار
وليكفينك فقد زوجتك التي هلكت موقعة الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى ميتاً إذا دخل القبور يزار

ورأى الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة ، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد ؛ ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير ، فقد يكون للخصومة بعض الأثر في سوئه ، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت :

يقولون زر حدراء والترب دونها
وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت على بزائر تراباً على مرموسه قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت ناله على المرء في أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنزير بكيت ولم تكن
على امرأة عيني اخال لتدمعا
وأهون رزء لامرئ غير عاجز رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير ، وشهوة الغلبة عند العامة ، ونفاذ المعاني السامية في الهجاء على طول المدة ، وبلادة الحس وهوان النفس باعتياد الشتم ، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء ، حتى خرج شعرهما في النقائض على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السفلة . ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشيمه ، فيتوب عن قرض الشعر ، ويكف عن هجاء الناس ، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول :

ألم ترني عاهدت ربي وأنني لبين رتاج قائماً ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلما ولا خارجاً من فيّ سوء كلام

أو يجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاء عن طبع أبيّ ونفس كريمة ، فتسمو معانيه وتعف ألفاظه ، كقوله في معاوية وقد حبس عنده مالاً لأحد أعمامه بعد وفاته :

أبوك وعمي يا معاوي أورثا تراثاً فيختار التراث أقاربه
فما بال ميراث الحتات أخذته وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرء القليل حلائبه

إلى أن يقول :

وما ولدت بعد النبي وأهله كمثلي حصان في الرجال يقاربه
وكم من أب لي يا معاوي لم يزل أغر يباري الريح ما ازورّ جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن أبوك الذي من عبد شمس يخاطبه

***

أما الطامة الكبرى فهي جرير ، لأنه كان مرسل العنان مطلق اللسان لا يعوقه قيد ولا تكبحه شكيمة ؛ فلا هو صاحب سياسة كالأخطل ، ولا صاحب نحلة كالفرزدق ، ولا وارث مجادة كالاثنين ، وإنما كان سوقياً ترعيبة رزقه الله حدة الذهن ، ورقة الأسلوب ، وخبث اللسان ، وزاده الهراش صلابة عود ، وغزارة فكر ، ومتانة شعر ، وسهولة قافية ، فبلغ بالهجاء الفردي والقبلي غايته في الإقذاع والإقناع والقوة ؛ وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامية المبتذلة في الهجاء كذكر العورات ، وهتك المحارم ، فاضطر خصومه إلى أن يكافئوه باصطلاحه ، ويقاتلوه بسلاحه ، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل في النفوس إلا مشوباً بهذا القذر ؛ وما مهاجاة بشار وحماد إلا صورة من هجاء جرير والفرزدق

كان جرير لعاميته وبيئته ، وللأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض الكلام عن الفرزدق ، يصطنع في الهجاء أساليب الدهماء ، فيعير الأخطل بالقلف والخنزير والسكر ، ويقذف البعيث في أمه وهي أمة سجستانية ، ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها

(1) وهي القصيدة التي مطلعها :
لولا الحياء لهاجني استعبار ولزرت قبرك ، والحبيب يزار

بجبير القين ، وفى أخته جعثن فيرميها بابتذال بني منقر إياها على أثر حادثته مع ظمياء بنت طلبة حفيدة قيس بن عاصم ، ويشهر بقومه فى إخفار عمرو بن جرموز لذمتهم فى قتل الزبير ، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا ، فيجسمها بالمبالغة والتزيد كضربته النابية للرومى ، وزيجته الفالية من نوار

وكان الفرزدق يذهب فى هجائه مذهب الفخر بآبائه ، فيعدد أيامهم الظافرة ، ويجدد مفاخرهم الغابرة ، فلا يستطيع جرير مجاراته فى هذا المضمار ، فيعمد إلى نقض الفخر الصلف بالسخرية اللاذعة والفحش الموجع ؛ وإذا أخذ جرير هذا المأخذ لايقام له . اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التى مطلعها :

إن الذى سمك السماء بنى لنا   بيتاً دعائمـــه أعز وأطول

تجده يقول بعد هذا البيت :

بيتاً زرارة محتبٍ بفنائه   ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

لا يحتبى بفنـاء بيتك مثلهم   أبدا إذا عد الفَعال الأفضل

فيجيبه جرير فى نقيضته لها :

أخزى الذى سمك السماء مجاشعاً   وبنى بناءك فى الحضيض الأسفل

بيتاً يحمم قينكم بفنـائه   دنسا مقاعده خبيث المدخل

قتل الزبير وأنت عاقد حبوة   تبًّا لحبوتك التى لم تحلل

وافاك غدرك بالزبير على منى   ومجر جعثنكم بذات الحرمل

بات الفرزدق يستجير لنفسه   وعجان جعثن كالطريق المعمل

ويقول الفرزدق :

حلل الملوك لباسنا فى أهلنا   والسابغات إلى الوغى نتسربل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم   بعد الزبير كحائض لم تغسل

ويقول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزانة   وتخالنا جنا إذا ما نجهـــل

فارفع بكفك إن أردت بناءنا   ثهلان ذو الهضبات هل يتحلحل ؟

خالى الذى غصب الملوك نفوسهم   وإليه كان حباء جفنة ينقل

إنا لنضرب رأس كل قبيلة   وأبوك خلف أتانه يتقمـــل

فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله   مثل الذليل يعوذ تحت القرمل

وافخر بضبة إن أمك منهم   ليس ابن ضبة بالمعم المخول

أبلغ بنى وقبان إن حلومهم   خفت فلا يزنون حبة خردل

أزرى بحلمكم الفياش فأنتم   مثل الفراش غشين نار المصطلى

ويقول الفرزدق :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا   وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ثم يمضى يعدد الشعراء الفحول ويقول :

دفعوا إلىّ كتابهن وصية   فورثتهن كأنهن الجنـدل

فيجيبه جرير :

أعـــددت للشعراء سما ناقعـاً   فسقيت آخرهم بكأس الأول

لما وضعت على الفرزدق ميسمى   وضغا البعيث جدعت أنف الأخطل

حسب الفرزدق أن يسب مجاشعاً   ويعـــد شعر مرقش ومهلهل

فأنت تلاحظ أن جريراً رغب فى الطريق السهل ، ويطفئ حرارة الجد ببرودة الهزل ، ويقابل الكمىّ المدجج فى سلاحه ولأمته ، وهو فى ثوب المهرج وزيّه وضحكته

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم فى حياته الخاصـة والعامة ، فيتسقط أخباره ويتلقط حوادثه ، ثم يعلنها فى شعره تشهيراً به وفضيحة له :

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زيق بن بسطام على حكم أبيها ، فيقول جرير :

يا زيق قد كنت من شيبان فى حسب   يا زيق ويحك من أنكحت يا زيق

أنكحت ويلك قيناً فى استه حمم   يا زيق ويحك هل بارت بك السوق

يارب قائلة بعـــد البناء بها :   لا الصهر راضٍ ولا ابن القين معشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له : ماتت ، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير ، فيأبى جرير إلا أن يعلن الحقيقة فى قوله :

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى   بحدراء قوم لم يروك لها أهلا

ويعيث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ، ويعترف بذلك في قوله :

هما دلتاني من ثمانين قامة … كما انقض باز أقتم الريش كاسره

فيقول له جرير :

تدليت تزني من ثمانين قامة … وقصرت عن باع العلا والمكارم

ويضرب الرومي في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع … ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم

ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة ، كصحف الأحزاب يجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها ، وموضوعاً لنقدها ونضالها ؛ وجرير لطول ماتمرس بالهجاء وعام في الخصومة ، لاذع السخرية ، فاحش الدعابة ، مر التهكم ، ومن ذلك كان يتصور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجرير . وأي تهكم أمض وآلم من مثل قوله :

يا تيم إن بيوتكم تيمية … قمس العماد قصيرة الأطناب

قوم إذا حضر الملوك وفودهم … نتفت شواربهم على الأبواب

وقوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً … أبشر بطول سلامة يا مربع !

وقوله :

والتغلبي إذا تنحنح للقرى … حك استه وتمثل الأمثالا

وقوله :

تحل الفخر يا ابن أبي خليد … وأد خراج رأسك كل عام

لقد علقت يمينك رأس ثور … وما علقت يمينك باللجام

(يتبع)

الزيات

السنيون والشيعة

وموقفهما اليوم

للأستاذ محمد رضا المظفر

أتيح لي أن أتناول « تاريخ القرآن » للأستاذ الزنجاني أبي عبد الله ، فأقرأ في مقدمته كلمة الأستاذ « أحمد أمين » القيمة في بابها . أقرأها ، فيطربني ما فيها من نغمة متواضعة على وتر من احساس جديد ، نعرفه في الأستاذ اليوم

ولا أكتم الأستاذ أني رجعت إلى ذكريات اختزنت عنه من قراءتي لفجر الاسلام وضحاه . ما آلم هذه الذكرى ! فقد خلقت للأستاذ عندي شخصيتين ، تباعدتا على قرب العهد بينهما ، وكادت تدفعني يومئذ إلى مقالة أضعها بين يديه في « الرسالة » أو في غيرها : لا تخرج عن عتاب بريء على كتابيه ، وعن تشجيع على كلمته الأخيرة وتأييد لها ، وهي التي أطمعتني فيه ، لننشد صراط الاصلاح المستقيم ، ولكني تلكأت لا لشيء ، وما أدري لماذا كان ؟ ولعله لصلاح !

ومنذ أيام كان عدد الرسالة الـ (١١٠) في يدي ، فقرأت كلمة الأستاذ محمد بك كرد علي ، عن تاريخ القرآن ومقدمته ، فطابت لي النبرة وجريت عليها حتى تناولت القلم ، وها أنذا أحدثك وأنا شيني أجري مع سنيين في ميدان الاصلاح لحظيرة الوحدة التي أقامها لنا نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم

يشهد الله والنبي الأكرم أن من أثقل الأشياء على قلبي أن يقرن بين كلمتي سني وشيعي : يتقارنان تقارن افتراق ، ويتصلان اتصال تنافر ، كقطبي المغناطيس المتماثلين ، وقد خلقت لهما السياسة الغاشمة هذا التنافر الشائن يوم خلقت ؛ وآن لنا أن نخجل أمام الله ورسوله من استمرارنا على هذا الشنآن بين أعداء تستمر على مطاردتنا وتستغل افتراقنا ! وما أجدرنا اليوم أن نضرب على هاتين الكلمتين في قاموس اللغة ، فنستريح ونريح ، ونعود أمة اسلامية واحدة كما أرادها الرسول ، أو كما أرادها الله آمنة مطمئنة خير أمة أخرجت للناس !

يرجو الأستاذ (أحمد أمين) في مقدمته — بعد أن ألمع إلى

بعض أسباب الخلاف — (أن يفكر عقلاء الفريقين في سبيل الوئام، ويعملوا على أحياء عوامل الألفة وإماتة الخصام، ويتركوا للعلماء البحث حراً في التاريخ، ويتلقوا النتائج بصدر رحب) ويتابعه الأستاذ (محمد بك كرد علي) فيقول: (ورأى صديق هو رأى فريق كبير من علماء المسلمين اليوم) ثم ينقل لنا خطاب العلامة شيخ الجامع الأزهر، ويقترح أخيراً أن يكتبوا كتاباً في منشأ هذا الخلاف بين السنة والشيعة والطرق العملية لإزالته

وأنا أقترح هذا الاقتراح نفسه على علماء النجف الأشرف عاصمة الشيعة الدينية والعلمية، ونقترح جميعاً على الفريقين أن يتفاهموا جميعاً قبل كل شيء، ولكن كيف يحقق هذا الاقتراح ونفرضه عليهم فرضاً؟ يجب أن نعمل له! فهل نستطيعه ولا نجعله مثار نزاع جديد؟

وأؤكد لك أن نشدان علماء الشيعة هو هذه الوحدة الضائعة، يسعون لها ماسنحت الفرصة، وما عرض لها الزمن، احتفاظاً بجامعة الإسلام العليا، وتوحيداً لكلمة المسلمين

في إبان تأسيس الحكم الوطني في العراق (والشيعة أكثرية العراق) نادى علماء النجف بالوحدة عالياً، وغالوا في ذلك إلى أبعد حد، وبذلك استطاعت الأمة العراقية أن تجعل من نفسها شعباً حياً وحكومة صادقة

ولم يكن أبناء الأقطار العربية الأخرى — وخاصة في مصر — يحسون بواجبهم إزاء العراق الفتى المتطلع إلى سحق العهد التركي البالي، فكانت لهجات متتابعة، ووخزات نافذة تلقتها صدور الشيعة من مصر وسوريا، تلح عليها الحاحا، وتكدر عليها صفو الاتفاق أيما تكدير، وكان من بينها فجر الإسلام وضحاه (وأرجو ألا تخدش هذه الكلمة عواطف الأستاذ مؤلفهما، فإنها الصراحة نريد أن نتبعها) تعززها الأقلام المستأجرة في العراق، وبعبارة أصرح أقلام الاستعمار، بينما العراق في ضرورة ملحة إلى الاتفاق بين سنيه وشيعيه، ليرتقي سلم الاستقلال المنشود

***

إنما هي واحدة تجب رعايتها اليوم على كل باحث عن الشيعة من اخوانهم السنيين، غفل عنها في فجر الإسلام وغيره. هي واحدة تحل كثيراً من الشغب اليوم

نحن نفهم من كلمة الشيعة إذا قلناها: الأمامية الاثنى عشرية خاصة، لأنهم الأكثرية من بين فرق شتى، وذوو المؤلفات والمعارف التي يقال عنها مؤلفات الشيعة ومعارفها، ولأنهم اليوم شيعة العراق وسوريا وإيران والامارات العربية على الخليج الفارسي والهند وأفغانستان، وما إلى ذلك، وهناك الزيدية في اليمن والبهرة في الهند. أما الفرق الأخرى التي يعددها مثل الشهرستاني في الملل والنحل وغيره، فقد أصبحت في خبر كان ولا يعرف لها أي أثر في هذه البلاد المترامية الأطراف، إلا بعض فرق لا يسمع لها حسيس في المجتمع الشيعي ولا غيره كالغالية

فاذا طوح القلم بالكاتب اليوم عن الشيعة، وقرأ ما كتبه السلف عنهم، خلط الحابل بالنابل، وألصق عقائد تلك الفرق البائدة بعامة الشيعة، وعلى الأصح بالشيعة بالمعنى المفهوم الآن، فكانوا في نظره مرجئة، وغالية، ومجسمة، ومجبرة، وسبئية، وزركشية، وما إلى ذلك

وهذا ما يعني على الباحث المتتبع، وهذا ما يثير غضب أولئك الشيعة الأحياء، من غير ما حاجة تدعو الكاتب ولا ضرورة، وما أجدر الكتاب أن يتنبهوا اليوم لهذه الناحية، فلا يثيروا كوامن أحقاد شائنة بذرتها السياسة لأغراضها في زمن بعيد لسنا أبناءه، فلا يصطدم بآراء أفراد — لا فرق — لا نعرف عنهم كثيراً، ولا يصح أن يدخلوا تحت هذا الاسم. وعند ذلك قد نوفق إلى التفاهم فالتقارب حيث تفرضه الاخوة الاسلامية، ويكون بحثنا نزيهاً يتطلب الحقيقة ليس إلا، ليتلقى الطرفان نتائجه بصدر رحب — على ما يقوله الأستاذ أحمد أمين — كما يتلقون النتائج في أي بحث علمي وتاريخي، وكما يقع البحث بين علماء الشيعة أنفسهم، وبين مذاهب السنة أنفسها، مادامت السياسة بعيدة عنه وما دام بعيداً عنها

***

وإذا لم نستطع أن نصل إلى ما نتمناه من حمل علماء الأزهر وعلماء النجف على هذه الطريق الحميدة، وعلى هذا العمل المبرور، فأكبر الظن أن من السهل علينا ألا نذهب بعيداً، فنقترح على (الرسالة) الهادية أن تفتح لنا بين أعمدتها سبيلاً للبحث النزيه، وتعززنا بشجاعتها الأدبية، فلا تصغى إلى سخط العامة — إذا ما كان — لنستطيع أن نلقي من أطمار الماضي مارث وبلى

وفى النجف عندنا جمعية دينية علمية أسست هذا العام باسم (منتدى النشر) تسعى لهذا الواجب وتدعو إليه، (وهى تضم طبقة صالحة من علماء النجف وفضلائها)، ويصدقنى كاتبها العام أن أذيع عنها هذه النية المحمودة، وأذيع عنها استعدادها للعمل فى هذا السبيل. ولقد كان لما كتبه الأستاذان (أحمد أمين) و(محمد بك كرد على) الوقع الجميل فى نفوس أفرادها، ورحبوا بهذا التفكير العالى الكبير.

وفى مصر (لجنة التأليف والترجمة والنشر) الموقرة، ففى استطاعة الجمعيتين أن يقفا فى ملتقى الطريقين، ليأخذا بأيدى الباحثين إلى الحد المعقول، ويتلقيا النتائج للعمل عليها ونشرها فى بلاد الله، كما نريد أن نقترحه على علماء الأزهر والنجف.

ندعو إلى هذا عقلاء قومنا ليضعوا حداً لهذه المهازل، وليقاوموا على خطة واحدة نفاذ الخلاف. وعندى أن يسدل حجاب كثيف على الماضى البعيد، فما يعود إلى الحوادث التاريخية التى لا تمس حياتنا العملية اليوم، فينحصر البحث فى نقطة عملية لا غنى لنا عنها.

تمسك ما تعتقد الشيعة أنها تتمسك بعترة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لأنهم سفينة النجاة، ولكن ليس كعقيدة وموالاة فحسب، فإن هذه عقيدة كل مسلم اعتنق دين الإسلام مصدقاً لما جاء به النبى (ص)، وإنما تعنى من التمسك بهم أن تأخذ بأقوالهم فى أحكام الفقه وترجع إليهم فى دين الإسلام، ولا تعرف للتمسك بهم معنى غير هذا، وتدلل على أن ما جاء به النبى وروته عنه، وعلمه كنوز عندهم وهم أمناء عليه معصومون، لا كبار الرواة عنه وعنهم يروون الأحاديث كنقال يخطئون فى النقل ويصيبون، ويصدقون ويكذبون.

وبهذا بعدت الشقة العملية بينهم وبين إخوانهم أهل السنة، وكثر الخلاف فى الفروع الفقهية؛ فكان وضوء السنة وكان وضوء الشيعة، وكانت صلاة السنة وكانت صلاة الشيعة، وكان وكان.

فإن استطعنا أن نتفق ونحل هذا الأمر بيننا حلاً مرضياً، فقد وفقنا إلى كل شىء، واستطعنا أن نوجه جبهة الإسلام كما يشاء لنا ديننا دين القيمة، وما هذا على الرجال المخلصين بعزيز.

النجف الأشرف

محمد رضا المظفر
كاتب (منتدى النشر) العام

النقد والمثال

لغة الشعر

للأستاذ أحمد الزين

من أهم ما تتفاوت به منازل الشعراء، وتتمايز درجاتهم فى الشعر، وتتفاضل به أذواقهم الفنية فى أداء المعنى وبلوغ الغرض، وتختبر به مدى ثقافاتهم البيانية، ويعرف منه مقدار مطالعاتهم الأدبية، ونفوذ كل منهم إلى حر الكلام وخالصه، وارتوائه من صفو البيان وصريحه، وحفظه لأحسن ما قرأ، وحسن استعماله أحسن ما حفظ من الكلمات والعبارات، هو ذلك الثوب البيانى الذى يلبسه الشعراء معانيهم، وتلك الصورة اللفظية التى يبرزون فيها أغراضهم، فبحسب ما يكون ذلك الثوب مقدراً على المعنى، محيطاً بأطرافه، مقيساً على أجزائه، وتكون تلك الصورة اللفظية مظهرة للغرض، مبرزة لخفايا المعنى، مصورة لدقائق الفكرة، وما يودعه الشاعر بفنه فى تلك الصورة من الحياة والسحر، وما يترقرق فى الكلمات والعبارات من ماء الجمال، ورونق الحسن، وطلاوة المنطق، أقول: بحسب ذلك كله يكون أثر الشاعر فى القلوب، وسلطان شعره على قرائه، ومنزلته فى الفن بين نظرائه. وليس المراد بتحسين الألفاظ وتجميل العبارات هو مجرد جريانها على قواعد اللغة، وموافقتها لنصوص المعجمات، فليس كل ما تبيحه اللغة وقواعدها يباح فى الشعر استعماله، ويسوغ للشعراء التعبير به، إذ الشاعر إنما يقصد فى شعره إلى الروعة والجمال وعدم الابتذال أكثر من قصده إلى مجرد جواز الاستعمال. وقد سبق أن أوضحت ذلك فى بعض الفصول التى كتبتها من زمن بعيد فقلت ما نصه: إنه مما لا ينازع فيه ذو ذوق أدبى دقيق أن للشعر لغة خاصة يتميز بها عن غيره، إذا فقدها لا يسمى شعراً بل يسمى كلاماً عروضياً، أى أنه يشبه الشعر فى وزنه وقافيته، دون ألفاظه ولغته، كما أن لكل من الكتابة والخطابة ألفاظاً خاصة يتميز بها كل منهما عن صاحبه، ويتميزان بها عن الشعر؛ والفروق الدقيقة بين

ألفاظ هذه الصناعات الثلاث وعباراتها لا يدركها إلا من له ذوق صحيح وملكة فنية في إحدى هذه الصناعات أو في جميعها .

وقد كان بعض النقاد في العصور الأولى يسمع الشعر الجيد فيفطن بجودة حسه إلى ما فيه من ألفاظ غير شعرية ، فيحكم بأنه شعر شاعر أو شعر كاتب ؛ وكتب الأدب ملأى بهذه الطرائف .

وقد فطن علماء الأدب المتقدمون إلى هذه الفروق فأفردوا ألفاظ الكتّاب وعباراتهم بمعجمات خاصة ، منها كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، وجواهر الألفاظ لأبي الفرج قدامة بن جعفر وغيرها ؛ وفي كتاب زهر الآداب للقيرواني فصول كثيرة خاصة بألفاظ الكتّاب وعباراتهم في كل غرض من أغراض الكتّاب والمنشئين في ذلك العهد .

ولم أجد من العلماء فيما راجعت من أفرد ألفاظ الشعر والخطابة بمعجم خاص ، وذلك يرجع فيما أظن إلى أن ألفاظ كل صناعة من هذه الصناعات الثلاث لا تتيسر معرفتها معرفة صحيحة إلا لأهلها المشتغلين بها ، والمتوفرين عليها ، بل لفحولها المبرزين ، وأعلامها المتميزين ، لا لكل من اشتغل بها ؛ فلا يمكن الكتاب أن يدركوا من أسرار لغة الشعر والخطابة ما يدرك الشعراء والخطباء أنفسهم منها ، وكذلك الشعراء لا يدركون من دقائق ألفاظ الكتابة وألفاظ الخطابة ما يدركه الكتاب والخطباء أنفسهم من ذلك . وإذن فلا يستطيع تدوين لغة الشعر ولغة الخطابة غير الشعراء والخطباء أنفسهم ؛ ولما كان أكثر الشعراء والخطباء لا يعنون بتأليف الكتب وتصنيف الرسائل عناية الكتاب بذلك لقلة حذقهم بصناعة التأليف فقدت المكتبة اللغوية العربية قسمين عظيمين من هذا النوع الطريف المفيد من المعجمات

وإنك لتجد فقدان اللغة الشعرية في شعر كثير من شعراء عصرنا ممن لا يرون للبيان اللفظي أية قيمة في الشعر ، ويرون المعاني هي كل شيء ، ولو أديت بأسوأ لفظ وأضعف بيان .

وقد سبق في بعض الفصول أن ذكرت للقراء قول بعضهم في حسن النظم والصياغة اللفظية ما نصه : إنه كمال أدنى إلى النقص ، وإحسان أقرب إلى الإساءة . وقول الآخر في حسن الصياغة اللفظية أيضاً : لقد انقضى عهد الثرثرة والصياغة اللفظية ولن يكون الشعر الجديد شراباً يسقى بالملعقة في غير جهد لمتناوله ! فتراه يسمي حسن البيان والصياغة اللفظية ثرثرة ، ويقول : إن عهد ذلك قد انقضى ! كبرت كلمة يقولها هذان الكاتبان وأمثالهما ، إن يقولون إلا خطأ عليه العجز والغرض

والغريب أن نسمع ذلك في عصر يتعاون فيه الأدباء والعلماء والمفكرون مع أولي الأمر في جميع الأقطار العربية على ترقية اللغة ونشر الثقافة البيانية بإنشاء المجامع اللغوية ، وطبع أمهات الكتب الأدبية ، ودواوين فحول الشعراء المتقدمين

فلا أدري بعد ذلك أي الأمرين أحق بأن ينقضي عهده ، ويمحى أثره ، هل هو التكلف والإبهام والتعقيد المحير للأفهام ، أو هو البيان المشرق ، والأسلوب المستقيم السمح ، والصياغة الصافية الواضحة ؟

أحمد الزين

العامية والعربية

ألفاظ صحيحة فلماذا لا تستعمل؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

يتوهم كثيرون من الناس أن اللغة العامية ليست من العربية في شيء، ولهذا يحرصون، حين يكتبون، على الفرار من ألفاظها، ويذهبون يتكلفون، فتكون النتيجة الإغراب والمباعدة ما بين الكاتب والقارىء؛ ومن أجل هذا استفاض الاعتقاد بأن لغة الكتابة غير طبيعية، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى اتخاذ العامية في الكتابة، ليفهم الناس بغير مشقة، ولو أن العامية دُرست لما كان لهذا كله محل، وقد سمعت أن المرحوم أحمد تيمور باشا وضع معجما للغة العامية ردها فيه إلى أصولها العربية، ولكنه لم ينشر، ولا علم لي بما كان من أمره.

وقد عثرت في مطالعاتي على مئات ومئات من الألفاظ العربية يستعملها العامة وإن كانوا يحرفونها قليلاً في النطق، وسأورد في هذا الفصل طائفة منها بلا ترتيب على سبيل التمثيل ليرى القراء أن اللغة العامية جديرة بالعناية، وأن اتقاء ألفاظها كلها خطأ، أو جهل، وقد جريت فيما أكتب، على استعمال الصحيح من الألفاظ العامية، واكتفيت بذلك ولكني أرى الآن أن التنبيه واجب، مخافة أن يعتقد بعض القراء أن هذا مني عن خطأ لا عن عمد

فمن ألفاظ الطعام وما إليه:

الدُّقة — الملح مع ما خلط به من الأبزار أو الملح المدقوق

العُجة — الدقيق المعجون بالسمن ثم يشوى أو يقلى، والعامة على عجة البيض

الكباب — اللحم المشرّح

الوجبة — الأكلة

السُّفرة — المائدة

القصعة — الجفنة

السُّخام — السواد الذي يكون على آنية الطبخ من فعل النار

الطاجن — إناء من خزف، يقلى فيه الطعام

القصبية — طعام معروف في مصر، من دقيق وسمن

البرمة — والبرام — قدر وهو مشهور

عقد السكر — طبخه حتى يخن

الشريحة — اللحمة المرققة

الهبرة — من اللحم البضعة لا عظم فيها، وهبر اللحم اقتطع منه قطعة كبيرة

التسميط — في رأس الخروف وغيره، كشط الشعر عن الجلد لطبخه في الماء

اللهوجة — لهوجت الطعام لم أنضجه، والعامة تستعمل اللفظ مجازيا

شاط الطعام وشاطت آنية الطبخ، احترق

سغسغت الطعام أوسعته دسما وأكثرت من السمن فيه

سلق اللحم — طبخه في الماء

طبخ ومشتقاته معروفة

وهذه كلها ألفاظ عربية، يستعملها أعرق الناس في العامية.

ومن قبيلها أيضا في غير هذا الباب:

الحُلوان — ما تجعله للرجل من الأجر على عمل يؤديه لك

الممصوصة — الفتاة المهزولة

الزغزغة — الدغدغة

الزعر — قلة الشعر، فهو أزعر، ويستعمل للذيل عند العوام

صوفة القفا — الشعر السائل في نقرته

الشعر المفلفل — إذا كان شديد الجعودة

المُدرك — الغلام بعد الاحتلام

فروة الرأس — الجلدة

لبّد شعره — ألزقه بشيء

تكرّش الوجه — تقبض جلده

العمش — ضعف البصر، والرجل أعمش

عظمة اللسان — ما فوق أصله

الحَنَكُ — سقف أعلى الفم

الوِرْكُ كالوَرِك — معروف

الحُق — مغرز رأس الفخذ في الورك

الرُّكبة — ملتقى الساق والفخذ

تشيطن الرجل — فعل فعل الشياطين

الديوث — الذي يغضي على ما يرى من هنات أهله

الدرَدبة — الجري الذي فيه دبّ

المُوالسة ـ المخادعة

المَذّاع ـ الكذاب ، والعامة تستعملها بالرأي

البرطمة ـ كلام الغضبان

البرجة ـ غلظ الكلام

الدندنة ـ الكلام أو الغناء بصوت خفيض

الدبدبة ـ صوت كوقع الحوافر على الصلب من الأرض

الطقطقة ـ الاسم من طق ، حكاية لصوت الحجر

بجم ـ سكت من عيّ أو فزع أو هيبة

فرشح الرجل ـ أصله أن يثب وثباً متقارباً ، وصار يستعمل للمباعدة بين الساقين

نهج ـ تتابع نفسه من الأعياء والتعب

السكة ـ الطريق

اكتن الرجل ـ صار في كِنّ

تربع ـ جمع قدميه في جلوسه ووضع إحداها تحت الأخرى

السلفتان ـ امرأتان تزوجان أخوين

تفرعن ـ صار ذا فرعنة ، أي نكر

جهاز العروس ـ ما تحتاج إليه في زواجها

العَزَبة ـ التي لا زوج لها

سبّع ـ أقام سبعاً

الخيش ـ نسيج خيوطه غلاظ ، ويكون من مشاقة الكتان ، والمشاقة أيضاً صحيحة

تلفع ـ بمعنى تلحف ، والتفع أيضاً ، والعامة تستعمله على حقيقته وعلى المجاز

العباية ـ كالعباءة تماماً

اللاذة ـ تكون من الحرير ، والعامة تستعملها للقطعة من الحرير يلفونها على الرأس

الكنار ـ للثوب شقة منه تكون في طرفه

القطيفة ـ هي الخمل

الملاءة والملاية ـ الريطة التي تستتر بها المرأة في خروجها

البرنس ـ ما يلبسه المرء بعد الاستحمام

الفوطة ـ وجمعها فوط ، معروفة

المنديل ـ معروف أيضاً

الطُّرطُور ـ القلنسوة الطويلة

التِّكّة ـ رباط السراويل ، وجمعها تِكك

قوّر القميص ـ جعل له جيباً

الدرابزين ـ للسلم ، معروف

البطانة ـ للثوب خلاف الظهارة

الخياطة ـ للثياب

الشَّلّ ـ الخياطة الخفيفة ، في أول الأمر

كفّ الثوب ـ خاط حاشيته

الكَشكشة ـ ما استدار حول الذيل

ثوب مُهندم ـ مضبوط

الهدم ، والجمع هدوم ـ الأكسية

دعك الثوب ـ ألان خشونته ، والعامة تستعمله على المجاز

السختيان ـ جلد الماعز

القبقاب ـ نعل من خشب ، والعامة تضم أوله

الصندل والصندلة ـ شبه حذاء ، والفعل تصندل

الشيء المسيخ ـ الذي لا حقيقة لطعمه

الفطور ـ ما يفطر عليه المرء في العادة أو بعد الصيام

القرن ـ ناحية الهامة

المفرطح ـ العريض

السِّقط ـ الولد يوضع لغير تمام

الطلق ـ وجع الولادة

الأجرد ـ الذي لا شعر عليه ، والعامة تقول الأجرود

نسل الشعر والصوف والريش وغيره ـ سقط

البعبعة ـ تتابع الكلام في عجلة وبصوت أجش

الصُّفّارة ـ كالزمارة

كركر ـ وقرقر ـ رفع صوته بالضحك

هأهأ ـ قهقه

***

وهنالك آلاف من الألفاظ أهملتها لأنه لا خلاف على صحتها ، مثل المرود ، والمكحلة ، والمشط ، والضفيرة ، واللحاف ، والزر والعروة ، والكم ، والإبرة الخ الخ ، وقد أهملت هذا الضرب لأني أردت أن أسوق الألفاظ التي يتوهم الناس أنها غير عربية ؛ وسأورد طائفة أخرى في فصل غير هذا ؛ ولو عني رجال المجمع الملكي للغة العربية بمثل هذا البحث لأراحوا أنفسهم من عناء شديد يكابدونه ، ولكان هذا أولى مما يعالجونه من النحت وما إليه وليسروا الأمر على الناس ! إبراهيم عبد القادر المازني

في بلاد اليونان

قــــدر

للأديب أحمد الطاهر

وقفنا خاشعين صامتين مطرقين ، وأنصتنا إلى الكاهن يتكلم في وناء وتؤدة ووقار ، يقص علينا من التاريخ قصصاً . وما كنا نفهم من يونانيته ونحن مصريون شيئاً ، ولكن ظلمة المكان ، ورهبة المعبد ، وخشوع السامعين من أهل اليونان ، وصوت الكاهن يرن تحت هذه القبة العتيقة ، كل ذلك قد استولى علينا فأنصتنا كالسامعين وأطرقنا كالفاهمين ، وتتبعنا حديثه كما لو كان يتكلم بلسان عربي مبين

وانتهى الكاهن من قصصه ، وصافحناه ، وشكرنا له فضله وخرجنا وعلى وجوه اليونانيين مما سمعوا من الكاهن آثار مقروءة من السرور والألم ، والرضا والسخط ، والفخار والحسرة ، يجتمع بعضها إلى بعض

قلت لصاحبي اليوناني المتمصر : « عجل فإني جد مشتاق إلى فهم حديث الكاهن ، وما أحسبه إلا لذيذاً ممتعاً » قال : « إنه حقاً لذيذ ممتع ، وسأقصه عليك كما سمعته من فمه . » وسكت برهة كأنما يستجمع ذكريات ، ثم قال : « أنظر إلى هذه الشجرة العتيقة القائمة في فناء الدير ! » فنظرت إليها وقلت : « ليست إلا شجرة عتيقة قائمة في فناء الدير ! » قال : إنها صفحة من صفحات التاريخ قرأها لنا الكاهن ، وقرأ لنا صفحات أخرى منها دير آخر يسمى ميغاسبليون مررنا عليه في طريقنا من أثينا إلى دير أجيالافرا الذي نحن فيه . ولا تنس قبل أن أقص عليك الحديث أننا على قمة جبل رفع هامته في الفضاء ألف متر ، ثم استقر ثم اكتسى رداء أخضر من شجر الصنوبر ، وطاول به جبال سويسرا وازدهى به بين بقاع العالم التي خلعت عليها الطبيعة جمالها . واعلم أن هذا المكان . . . » قلت : « يا صاحبي ! حنانيك لا تطل علي ولا تباعد بيني وبين الحديث فما طلبت وصف ما رأيت وما رأيتُ ، وأنا وأنت مهما حاولنا وصف المكان فلن نجعل له من ألفاظنا صورة تصلح لأن تدنو من حقيقته ، وحسبي وحسبك أننا متفقان على أن الله قد خلق هذا المكان فيما خلق فأبدع خلقه ، وصوره فيما صور فأحسن تصويره ، وجعل في الناس صدق النظر وحسن التمييز فتراموا عليه من كل حدب وصوب ينعمون بجماله ويسبحون بحمد خالقه » قال : « ولكنك لا تفهم كلام الكاهن ولا تتذوق حديثه إلا بعد مقدمتي الطويلة فاصبر على ما لم تحط به خبراً . . . إن هذا المكان لم يكن الوصول إليه في الزمن السالف يسيراً كما هو الآن : فهذه الجبال التي يزحف عليها قطار السكة الحديدية جاهداً كالأسير يرسف في الأغلال ، ولا يصل إلى عليائها إلا بأضراس من حديد وأسنان كأسنان المشط ترفده كلما ارتفع ، وتصده كلما ارتد أو هم أن يقع ، هذه الجبال لم يكن من السهل أن يرقى إليها الإنسان ، ولا أن يخترق جوفها كما يفعل الآن ، ولا أن تطأ هامتها الأقدام ، ولا أن تفسد جمالها هذه المدنية القائمة على الحديد والنار ، ولا أن يعكر صمتها وينقض من جلالها صخب الناس في الليل والنهار . ولذلك اتخذها الرهبان مثابة ، ولجأوا إليها يتعبدون ، وما أحسب الجبال قد برمت بهم وقد وجدت بينها وبينهم صلة وشيجة من الصمت والوقار والرهبة والتنزه عن هوان المدنية ، إذا علمت هذا فاعلم أن الجبال والرهبان قد أنس بعضهم ببعض وقطعت الطبيعة ما بينهم وبين سائر الخلق من أسباب ، واتخذ بعضهم اجيالافرا التي نحن فيها مثابة ومتعبداً ، أقاموا فيها ديرهم وبيعتهم الصغيرة التي سمعت فيها حديث الكاهن ، واتخذ بعضهم ميغاسبليون التي مررنا بها مثابة ومتعبداً آخرين وأقاموا فيها ديرهم وبيعتهم الصغيرة ؛ وسكن الرهبان إلى الجبل ، وسكن الجبل إلى الرهبان

ولكن ظلم الانسان للانسان لا تنقطع أسبابه ، ولا تنسد أبوابه ، ففي عام ١٨٢١ الذي بدأ الكاهن منه حديثه كان أهل اليونان قد أضناهم الضيق ، وأعيتهم الحيل ، وأمضهم الظلم ، مما يلقون من عسف الترك وحكمهم الجائر . ففي غسق الليل مشى رؤساء القبائل وكبار الرهبان بعضهم إلى بعض يهمسون بالثورة والتمرد ، وما كانوا ليستطيعوا اعلان الثورة أو الاصحار بالتمرد ، بل ما كانوا ليستطيعوا أن يعلنوا مادون الثورة والتمرد مما يسمى شكوى

أو رجاء أو استرحاماً أو ما دون ذلك من ألفاظ الذلة والهوان. ولقيت الدعوة الخافتة من النفوس استمداداً . واجتمعوا تحت ستار العبادة في هذا المكان ليدبروا أمراً : قال الأحبار : « نحن قادة الثورة وحاملوا لوائها باسم الأمة واسم الدين . » وقالت العشائر : « آمين ! » ، وقال كل حبر من الأحبار : « أنا قائد القواد ولوائي هذا هو اللواء الأعظم عالي من المكانة بين الحاضرين. » ، فدبت بينهم الشحناء وانقسموا شيعاً بعضهم لبعض عدو

ثم خرج إليهم كاهن هذا الدير وفي يده لواء واحد وقال : « لا لواء إلا هـذا اللواء الأعظم : عليه صورة المسيح ، أتجدون خيراً منه تستظلون بظله وترتدون إلى فيئه ؟ » قالوا « إنا معك وإنا لك لأجناد مخلصون » وانضموا إليـه خاضعين يستظلون بلوائه الكنسي ، وهذا هو اللواء الذي كان الكاهن يشير إليه وهو يحدثنا ، وهذا النصب الذي تقيمه الحكومة اليوم إنما يقام تمجيداً لهذا المكان وتخليداً لهذه الذكرى ؛ فهنا اشتعلت نار الثورة الأولى ، وهنا اتحدت القبائل والأحبار ، وهنا وضع أساس استقلال البلاد ، وجاهد القوم أعواماً ذاقوا فيها حلاوة النصر ومرارة الخـذلان حتى استنجدت الدولة العثمانية ببطل مصر ابراهيم باشا ؛ وما هي إلا أيام حتى بدا القائد العظيم من فوق هذه الجبال ، ثم انصب على هذا الدير ووقف بجواده تحت ظل هذه الشجرة العتيقة ، وقد انتشرت جيوشه على الجبال في سفحها وعلى قممها وفي وديانها ، وأحاطوا بالمكان إحاطة السوار بالمعصم . قال ابراهيم باشا : « احرقوا هذه البيعة حتى يخضع من فيها من الثوار » فحرقوها وخضع من فيها من الثوار ، وارتد ميمماً البيعة التي في ميغاسبيليون ، وكأنه عز عليه أن يمضي في حرق البيع والأديرة ، فأرسل إلى رهبانها كتاباً قال فيـه : « إما أن تخضعوا أو أحرق بيعتكم كما أحرقت بيعة اجيالافرا » واجتمع الأحبار يتشاورون ، ثم دفعوا إليه بكتاب يقولون فيه : « إنك إذا حاربتنا ثم انتصرت علينا فما في النصر ما يدعو إلى الزهو والفخار ، فمـا انتصرت إلا على بضعة نفر من الرهبان والأحبار ، وأنت ذو حول وقوة بما جمعت من جيوش جرارة ، وخيل كرارة ، وأسلحة ممشوقة ، ودروع محبوكة ، وأما نحن فعددنا خفيف ، وشأننا ضعيف ، ليس بأيدينا من سلاح إلا هذه المسابح نسبح الله علينا في همس ووناء ، وليس على أجسامنا إلا هذه المسوح السوداء ، نحمي بها أجسامنا من قر الشتاء ، ولا مركب لنا في هذه الجبال إلا أقدامنا الكليلة أو بغالنا الهزيلة ؛ وإن قدر لنا أن ننتصر عليـك ، ونحن على ما ترى من ضعف وهوان ، فما أشـده من عار ، وما أمره من انكسار ، فتدبر أمرك وأمرنا ، واقض بالرأى الأصيل »

قرأ ابراهيم خطاب الأحبار فاستشاط غضباً وأمر بالجزيرة[1] أن تحرق كلها بمـا وسعت . وأشعل الجند فيها النار ، والنار إذا امتدت في هـذه الجبال وغاباتها لا تبقى على شيء ولا يصدها شيء . إلا أن يرسل الله من السماء أمطاراً ، أو يجري الوديان أنهاراً . واحترقت الجزيرة وكل ما في الجزيرة : إلا هـذا الدير الذي يسكنه هؤلاء الأحبار ، فما امتدت إليـه شرارة من نار ، وبقي معتصماً بمكانه العالي ، يهزأ من فعل النـار ولا يبالي ! وقال الناس : « حقاً تلك إحدى المعجزات ! » ، مضى على هذا الحادث مائة سـنة وعشر سنين حتى كان عام ١٩٣٤ ، وإذا بالدير وبيعته تندلع منهما النار ، لا يعرف لها سبب ، ولا يصد لها لهب ، وأصبح الناس فمـا وجدوا إلا هشيماً تذروه الرياح . وفزعوا يحاولون انقاذ بعض ماحوى الدير من تحف ونفائس فأنقـذوا شيئاً قليلاً . وبحثوا عن كتاب ابراهيم إلى الأحبار وصورة كتاب الأحبار إلى ابراهيم فاذا النار لم تبق على واحـد منهما . وماذا تغني كتب القواد والأحبار ، إذا حم القضاء واشتعلت النار ؟ أليس حديث الراهب لذيذاً وعجيباً ؟ »

قلت : « وأعجب ما فيه هذه النار : أشعلها بالأمس ابراهيم فكانت على الدير برداً وسلاماً ، وأشعلها اليوم القدر فتركته حطاماً . »

اليوزباشي أحمد الطاهر

(١) الجزيرة يقصد بها شبه جزيرة موره

في الأدب الإنجليزي

٢ – الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

يجب علينا لفهم هذه الروح في شعر شكسبير أن نطلع على الحالة النقلية التي كانت تسود عصره والعصور التي سبقته . قال كلارك : « لقد كان هناك عدد عظيم من الملحدين والمشككين وجدوا في عصر كان بمثابة الخطوة الأولى في ترقية العلوم المعروفة لدينا الآن . فقد كان تلاميذ كوبرنيكس الفلكي يتساءلون ويتجادلون في كل ما عرف من النظريات الفلكية من قبل ، وكان هناك نفر آخر من الكيميائيين دحضوا حجج مدعي الكيمياء القدماء ، ولكن هذا النضال لم يكن مقتصراً على جماعة المجددين فحسب ، بل وجد هناك نفر آخر من القدماء المقلدين الذين كانت أقصى غايتهم مقاومة هذا التيار الجارف . وإن من الغرابة أن نجد الملكة اليصابات تستشير المنجمين والدجالين في تعيين الوقت المناسب للاحتفال بتتويجها ملكة على انكلترة »[1]

ومن حسن حظ العلم قيام عدد من المفكرين أثبتوا فساد كثير من النظريات القديمة المألوفة فنزغ نجم رينولد سكوت (Reginald Scott) لما هاجم عدداً من العقائد الدينية المألوفة ، ولم يقتصر هذا التجدد على المفكرين من رجال العلم بل تعداه إلى رجال الكنيسة أنفسهم فظهر هناك من رجال الكهنوت عدد حاول إصلاح الديانة مما طرأ عليها من الخرافات والأباطيل

أما الخرافات فكانت تسيطر على جميع مناحي الحياة في ذلك العصر . فكان السحر بطرقه المختلفة مهنة تمتهنها النساء اللواتي كانت تغلب عليهن صفة الذبول والتكبر وبشاعة المنظر . وكان معظم هؤلاء النسوة من الشريرات القذرات ممن كان أقصى غايتهن ايقاع الضرر وبذر المساوئ في المجتمع البشري . غير أنه وجد

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 21

في نفس العصر بعض ساحرات كان همهن شفاء المرضى والقيام بخدمات حسنة للمحتاجين والمهددين بالأخطار

قام الناس على اختلاف طبقاتهم يناوئون السحر والسحرة فهاجموا الساحرات في عقر دورهن وكانوا يأخذونهن راسفات في الأغلال إلى السجون حيث ينتظرن محاكمتهن أمام مجلس من القضاة الذين كرهوا السحر وما يأتي به أمثال هؤلاء الشريرات من موبقات وآثام .. فكانوا يعذبونهن بأشد أنواع العذاب . فمنهن من ربطن إلى جذوع الأشجار حيث ذقن الموت جوعاً ، ومنهن من كان يطلب إليهن إعادة الصلوات قبل إلقائهن في النار المضطرمة

وكان من السائد على أهل ذلك العصر أن ينظروا إلى السحرة كأنهم على اتصال بالشيطان . قال كلارك في كتابه : « إن من أبعض الأمور التي كان يتعاطاها السحرة في عصر اليصابات وما قبله ذلك النوع من السحر الذي كان يعرف بالعين الشريرة (Eoil Eye) فكان من جملة معتقداتهم أن في استطاعة الساحرة أن توقع الضرر أو تميت الناس بمجرد إلقائها عليهم نظرة من نظراتها النارية ، فهذا العمل الذي كان يعتبر من أشد أنواع السحر ضرراً هو بمثابة الحجر الأساسي في بناء علم التنويم المغناطيسي المعروف لدينا الآن »[1]

وكان هناك نوع آخر من السحرة أقل ضرراً وخطراً ، ذلكم هو نوع العرافين أو المنجمين الذين كان الناس يقصدونهم كما يقصدون قارئي الكف في يومنا هذا . فكانوا يوهمون قاصديهم باتصالهم بالسماء والعالم العلوي فيقرأون المستقبل في الماء والهواء ، في النار والدخان . وكثيراً ما كانوا يضطرون إلى استشارة أرواح الأموات أو تأويل صياح الديكة في تفسير ما يرونه من حقائق وأحلام

أما العفاريت فكان الناس يؤمنون بوجودهم الإيمان كله ، وما هم إلا بقايا الأشخاص الخرافيين الذين عاشوا في عصر من العصور السالفة وأصبح في استطاعتهم بعد ذلك أن يهيمنوا على الانسان فيحولوا أعماله حسبما يريدون وأنى يشاءون . نعم كان هذا الاعتقاد سائداً لدرجة أن أصبحت الكنيسة تعلم أبناءها

(1) Clark. Sh. & the Supernatural P. 39

أن لكل رجل في هـذا العالم رفيقاً من عالم آخر يحميه ويقيه غائلة الشر

وكانت هنالك نوع آخر من الخرافة هو عالم الأشباح والخيالات . فما الشبح إلا روح غادرت جسدها المائت وانتقلت من عالم الأموات إلى عالمنا هذا ترفرف في الفضاء لتحقيق غاية من الغايات شريرة كالانتقام والقتـل ، أو خيّرة كإبادة البشر وصد الآلام عنهم . أشباح مرئية وأشباح غير مرئية تحلق بأجنحتها في الفضاء فتملأ العالم خيالات لا يحصر عددها ولا يعرف مقدارها

عصر كله خرافات تتسلط على عقول أبنائه الأوهام ، ذلكم هو عصر اليصابات الذي يصفه كلارك بقوله : « على رغم أن ذلك العصر كان عصر بداءة وتمهيد للعلوم المعروفة لدينا الآن ، إلا أن معرفة الحقيقة والطبيعة لم تكن متقدمة للدرجة التي يستطاع بواسطتها القضاء على الخرافات السائدة ؛ فكان الناس يؤمنون بالسحرة والدجالين ، بالفلكيين والمنجمين ، بالحوريات والجنيات ، بالرقى والعزائم ، بالأحلام والاتصال بالأرواح . هذا الاعتقاد السائد كان أكبر عامل في وجود هذه العوالم في روايات المؤلفين الذين لم يستطيعوا بأي حال من الأحوال أن يخرجوا عن محيطهم وبيئتهم »[1]

شكسبير والعقائد العامة :

شأن الشاعر أن يدون في شعره كل ما كان معروفاً في عصره من العقائد العامة ، وهكذا كانت حال شاعرنا شكسبير ، فقد عرف تمام المعرفة أن الخرافات القديمة كانت مواضع خلابة استعملها شعراء الإغريق والرومان في صوغ عباراتهم وتفسير معانيهم ودقائقهم . ولم تـكد العصور القـديمة تنطوي في عالم السجلات والتاريخ حتى ظهر هنالك عالم خرافي جديد كان في حد ذاته خليفة للعصور التي سبقته ، ذلك العصر هو عصر القرون الوسطى التي لم يستطع الشعراء الاستغناء عن خرافاتها في لغتهم بما نقله السلف عمن سبقهم

ومما لاشك فيه أن شاعرنا قد تأثر بعدد غير قليل من العوامل : كالجنس والمحيط والبيئة ، فكان أفراد جنسه « يعتقدون أن كل ما هو غير مرئي حقيقة لا شك فيها ولا نقض » ، ولم تكن الخرافات في عصره قد حوول مهاجمتها محاولة صادقة . نعم كان الاصلاح الديني قد أخذ في الانتشار في البلاد الانكليزية إلا أنه كان مقصوراً على المدن . أما القرى فلم تكن قد تأثرت بهذا الاصلاح أي تأثير

عاش شكسبير في عصر اضطربت فيه العقائد وتضاربت فيه الآراء ، فاعتقد بعض الرجال المتعلمين اعتقادات كانت بعيدة كل البعد عن عقول غيرهم من الناس ؛ وإن من حسن الحظ أن شكسبير يحاول في بعض رواياته أن يظهر لقارئيه عقائده وآراءه الشخصية . فهو يعتقد في الخرافات ، ولكنه يتساءل عن أصلها وكيفية ظهورها ، فهو يقول على لسان الأمير هملت :

« هل من الممكن أن نحسب ذلك الشخص الذي يقضي أوقاته كلها في الأكل والنوم رجلا ؟ كلا إنه لا يتعدى أن يكون حيواناً فقط . إن من المؤكد أن ذلك الإله الذي وضع فينا قوة المجادلة والتمييز بين ما نعمله وما لا نعمله لم يضع فينا هذه المقدرة لنتركها دون أي استعمال أو ممارسة ، أما الآن فسيان عندي إن كان هذا الفكر مجرد وهم أو غموض سماوي . فالفكر لا يحوي في حد ذاته إلا جزءاً من أربعة من الحكم والصواب ، بينما اجزاؤه الثلاثة الأخرى لا تخرج عن كونها من عوامل الجبن والخوف . فلا يمكنني الجزم فيما إذا كنت قد خلقت لأقول مجرد القول في أن هذه الأمور يجب علي أن أعملها ، في حين أني قد أوتيت القوة والارادة والحق في عملها والقيام بها »[1]

إن من الصعب على الشاعر أن يستطيع البحث في موضوع سماوي بطريقة جدية ترتكز على تفكر وبحث عميقين دون أن يكون له أدنى اعتقاد في هذه الامور التي يبحث فيها ؛ وبنظرة عميقة لروايات شكسبير يمكنك أن تحصل على نتيجة لبحثه في مثل هذه المسائل . وقد قال روف (Roffe) في كتابه (شكسبير وعقيدته في الأشباح) : « لم يستطع شكسبير أن يجعل أشخاص رواياته ينطقون عن عقائده ، ولكنه استطاع أن يظهرها في رواياته »

(يتبع) صبري حماد

(1) Clark, Sh. & the Supernatural P. 33

(1) Hamlet IV 4; 40—46

٤ ـ الدكتور محمد اقبال

أكبر شعراء الهند المسلمين في العصر الحاضر

لأبي النصر أحمد الحسيني الهندي

فلسفة

إن كل شيء في هذا العالم متصف بالفردية ، حتى الحياة أيضاً لا تخلو من ذلك ؛ ولا وجود في الخارج للحياة الكلية التي ينشدها بعض المذاهب الفلسفية والصوفية ، فالله أيضاً فرد واحد ليس كمثله شيء ؛ وأما الكائنات فهي عبارة عن مجموعة الأفراد ، ولكن النظم ، والنسق ، والتوافق والتطابق الموجودة فيها ليست بنفسها كاملة . ومهما كانت فهي نتيجة سعي الأفراد الغريزي ، وعلى هذا فنحن نتقدم بالتدريج من الفوضى إلى النظام ، ومن النقص إلى الكمال . وعدد أفراد هذه المجموعة غير محدود ولا معين ، فانه يزداد كل يوم ويتضاعف . فالأفراد الحديثو الولادة يشاركوننا بدورهم ويساعدوننا للبلوغ إلى هذه الغاية العظمى الكمال ، ولذلك كان عمل الكائنات غير متناه ، لأنها لا تزال تتدرج في مدارج الكمال وتترقى إلى ذرى المجد . وعلى أن الكائنات لم تنل الكمال المنشود بتمامه بعد ، وما تفتأ تستنفد وسعها وتفرغ مجهودها في بلوغه فلا يمكن أن يقال في شأنها الكلمة الأخيرة ، وما يمكن أن يقال فيها هو أنها ليست بحقيقة كاملة . وعملية الخلق فيها جارية يقوم فيها الانسان بنصيبه ، ويشترك فيها إلى أن يقدر أن يوجد النظام على الأقل في جزء من فوضاها ؛ والقرآن قد أشار إلى مثل هذا الخلق في الآية : « فتبارك الله أحسن الخالقين »

فنظرية اقبال هذه في الانسان والكائنات خلاف ما رآه الانجليز وغيرهم من أتباع مذهب الهيجلية الحديثة أو الصوفية في مسئلة وحدة الوجود من أن الغاية القصوى لحياة الانسان ونجاتها في أن تندمج في الحياة الكلية كما تندمج القطرة في البحر وتفقد فرديتها

ليست الغاية الأخلاقية للانسان ولا مرمى دينه أن يبيد وجوده باتلاف فرديته وافناء أنانيته ، بل أن يحافظ على فرديته وأنانيته ، وذلك بالحصول على أمثل الصفات وأعلاها التي تجعله فريدا وحيدا . والنبي عليه الصلاة والسلام قد أبانه بقوله : « تخلقوا بأخلاق الله » ، أي اتصفوا بصفات الله ، لذلك كلما كانت صفات الانسان أشبه بصفات الله كان فريد زمانه وواحد عصره .

أما الحياة فيرى إقبال أنها اسم آخر للفرد . وأسمى صورة لها تحققت إلى الآن هي الأنانية التي بها يصبح الفرد مركزا مستقلا ؛ فالانسان مركز مستقل من كلا الجهتين ، أي الجسمانية والروحانية ، لكنه ليس بفرد كامل . والفرد كلما كان بعيدا عن الله كانت فرديته ناقصة وأحط درجة ، وكلما كان قريباً من الله كانت فرديته كاملة وأرفع منزلة . وليس معنى القرب هذا أن تكون نهايته الفناء في الله أو الاندماج فيه كما قرره بعض الصوفية والفلاسفة ؛ بل خلافاً لذلك هو يجذب الله اليه ، أي يتصف بصفاته وأخلاقه [1] ؛ وإلى هذا أشار اقبال في بيت من ديوانه « پيام مشرق » التبس مفهومه على البعض ، قال :

« در دشت جنون من جبريل زبون صيدى
يزدان بكمند آور اى همت مردانه !
إن في صحراء جنوني جبريل صيد تافه
يا همتي الشماء إنني في أنشوطتك بالله . »

يريد به أن الاتصاف بأوصاف الملائكة عنده شيء تافه بل هو يتوخى بهمته الشماء صفات الله

إن الحياة شيء متقدم . هي حركة تجذب الكائنات إلى نفسها بالغلبة على مشاكلها ومعضلاتها العائقة لها عن سيرها وتقدمها ، وجوهر وظيفتها خلق الأماني والأغراض الجديدة بالاستمرار والتقدم ولصون نفسها قد أوجدت الحياة الوسائل ، أو هي ظهرت طوعاً لشريعة الارتقاء ، وهذه الوسائل هي الحواس الخمس والقوة المدركة التي بها تغلب المشاكل والمعضلات ، وإن كان أكبر العوائق في طريقها الطبيعة أو المادة ، لكنها في ذاتها ليست بشر ، إذ هي تمكنها من إبراز قواها الخفية واستعداداتها المكنونة

---

(١) وقد ورد هذا المعنى في حديث صحيح رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال : . . . . ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها . . . الخ وهو خلاف الفناء والاندماج

إن الأنانية حينما تستولى على المشاكل والمعضلات ويبين شأوها عليها تنتقل من الجبر إلى الاختيار فانها إلى حد ما مُجبَرة وإلى حد ما مختارة كما ورد في الأثر أن « الإيمان بين الجبر والاختيار » ، ومتى نالت النهاية القصوى من زلفى الأنانية العظمى (أي الله) التي ليس كمثلها شيء في الحرية والاختيار تمتعت بأقصى مدى من الاختيار والحرية ، وعلى هذا فالحياة عبارة عن الجهد المستمر للوصول إلى ذلك المدى من الاختيار والحرية.

قلنا إن مركز الحياة في الإنسان الأنانية التي تملى شخصيته على صفحة الوجود ، والشخصية هذه عبارة عن حالة الجهد المستمر ، فاذا احتفظ بتلك الحالة ، بقيت الشخصية ثابتة البناء مشيدة الأركان ، وإذا فقدت ، ضعفت قواعدها وانتكثت مرائرها ، وبما أن الشخصية أو حالة الجد المستمر أبعد الغايات للانسان وأعمها ، فينبغي له ألا يدعها ترث قواها فتضعف ، وتنحل عراها فتفنى . لأن بقاءها هو الذى يسبغ عليه الدوام والخلود ، ثم فكرة الابقاء هذه تعطى له أيضاً معياراً للخير والشر أو الحسن والقبح . فان كل ما يقويها خير وحسن ، وكل ما يضعفها شر وقبيح ، سواء أكان من نوع الفن[1] أم الدين أم الأخلاق

على ضوء هذه الآراء انتقد اقبال فلسفة أفلاطون فدحض حجج جميع المذاهب الفلسفية التي تعتبر غاية الإنسان الموت بدل الحياة ، فتلقنه الجبن والوهن وذلك بحمله على الأعراض عن المادة التي هي أكبر العوائق في طريق حياته ، والابتعاد عن مقاومتها ، مع أن جوهر الانسانية في الاستيلاء عليها واستخدامها لنفسها بالبطولة والفحولة[2]

وكما أن الاستيلاء على المادة ضروري لنيل الحرية والاختيار كذلك الغلبة على الزمن لازمة للحصول على الخلود والدوام ؛ و (برجسون) قد علمنا أن الزمان ليس الخط اللامتناهي (في مفهوم الخط المكاني) الذى لابد أن نجتازه سواء رضينا به أم لم نرض .

ولكن هذا المفهوم للزمن ليس بصحيح فان مفهوم الزمن البحت لا يشمل مفهوم الطول .

إن الخلود غاية الانسانية وأمنيتها ، يحوزه كل من يسعى لذلك ، وحيازته تتوقف على تلك الأعمال والأفكار من حياتنا التي تقدر أن توطد أساس الانانية على حالة الجد المستمر وتشيد أركانها ، فديانة بوذا وتصوف إيران وأمثالها من نظريات فلسفة الأخلاق لا تصلح لمآربنا وإن احتوت على بعض الفوائد وهو أننا بعد اجهاد أنفسنا واستغراق وسعنا بالاستمرار نحتاج إلى راحة قليلة لتجديد قوانا ، فكأن تلك الطرق للأعمال والأفكار كالليالى لأيام حياتنا . .

وعلى كل حال فمتى تمكنت أعمالنا وأفكارنا من توطيد حالة الجد المستمر في الأنانية ، فالأرجح أن الموت لا يؤثر عليها ، بل يحتمل أن تكون الفترة بين حياتنا الحاضرة وحياتنا الأخرى هى فترة الراحة ، وتلك الفترة هى التى عبر عنها القرآن بعالم البرزخ الذى يبقى إلى يوم البعث ، فتلك الأنانية وحدها يمكن ألا تتأثر من الموت وتخرج من الفترة فائزة ، التى قد اعتنت بالحياة الحاضرة اعتناء جيداً ، وإن كانت الحياة تأبى الاعادة والتكرار في مدارج الارتقاء ، ولكن على حسب مبادئ فلسفة برجسون ، كما يقول لنا الأستاذ ولدن كار ، حشر الأجساد أيضاً في حيز الامكان التام . إننا نوزع الزمن في اللمحات لذلك نربطها بالمكان فيصعب علينا عبره ، ولكننا ندرك حقيقته حين نغوص في أنفسنا لأن الزمن الحقيقي هو حياتنا ، تلك التى توطدت فيها الأنانية بحالة الجد المستمر ، اننا محكومون بالزمن إلى أن نراه مربوطاً بالمكان ، إن الزمن المقيد بالمكان سلسلة لفتها الحياة حول نفسها لتجذب ما حولها إلى نفسها ، وإلا فنحن مجردون عن الزمن ، وهذا التجرد يمكن أن نشعر به حتى في حياتنا الحاضرة وإن كان لدقيقة

إن الشيء الذى يقوى الأنانية هو العشق في مفهومه المطلق ومعناه جذبك الشيء أو طلبك إياه لتجعله جزءاً من نفسك ، وأسمى صورة له هو ما يمكّن صاحبه من خلق القيم والغايات ، ويدفعه إلى السعى في تحقيقها وبلوغها ، ثم العشق يجعل العاشق فريداً كما يجعل المعشوق ، وذلك أن طلب الفرد المعين الأوحد يوجد شأن الانفراد في الطالب عن غيره كما يوجد في المطلوب ، فانه لا شيء غيره يرضى طلب الطالب ، وكما أن العشق يقوى الأنانية ، كذلك الاستجداء يضعفها ، فكل شيء نيل بغير المجهود الشخصى هو من قبيل الاستجداء ، فالابن الذى يرث

(1) وقد لخصنا رأيه في الفنون والملاهى في حاشية مقالنا السابق فراجعه

(2) وفي القرآن : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » وغيرها من الآيات تفيد هذا المعنى

ثروة أبيه من دون مجهوده الشخصي مستجدٍ ، ومثله ذلك الذي يفكر بفكر الآخرين ويرى برأى غيره . وبناء عليه ينبغى لنا أن توجد وتربى فى أنفسنا العشق أى قوة الجذب وتجتنب جميع أنواع الاستجداء ، وإليه أشار اقبال فى بيت ترجمته :

« إن المملكة التى لم تشتر بالدم
هى عار على المسلم »

بقى أن نسأل كيف توجد العشق ، فيقول اقبال : إن المسلمين على الأقل فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام رداً على ذلك ، فانه عليه الصلاة والسلام قد وضح بأعماله وحياته ما هو العشق ، وكيف يمكن القيام به ، لذلك ينبغى للمسلمين أن يختاروا حياته عليه الصلاة والسلاة أسوة لأنفسهم وأن يحبوه ، وإليه أشار اقبال فى بيت قال :

« هر كه عشق مصطفى سامان اوست
بحر وبر در كوشه دامان اوست
كل من يكون متاعه عشق المصطفى
يكون البحر والبر فى طرف ذيله »

إن الأنانية فى صعودها إلى فروع العلى ، وبلوغها إلى رفعة الكمال حيث تتمتع بفردية كاملة بنيل زلفى الأنانية العظمى لابد أن يجتاز ثلاث مراحل : مرحلة الخضوع للشريعة ، ومرحلة ضبط النفس وهى الصورة العليا للشعور الذاتى ، ومرحلة الخلافة الإلهية

ففى مرحلة الخضوع يفسر لنا اقبال أنه للتقدم لابد من مسلك يسلك ، ومن مشرع يورد ، ومن قانون يخضع له . لذلك كل من يصبو لمارج الكمال ، ويطمح إلى سنام المجد ينبغى له أن يطيع الشريعة . وفى بيان مرحلة ضبط النفس يقول اقبال إن النفس الإنسانية لأمارة بالسوء ، فهى معجبة بذاتها ، أبية ، عنيدة ، لا تهتم إلا بأمر نفسها . لذلك هى محتاجة إلى الضبط والتهذيب . فخير طريق لذلك هو إقامة أحكام الشريعة . فالصلاة تنقذها من الفحشاء والمنكر ، والصوم يقتل غلمتها وترفها ، والحج يذيقها لذة الهجر ويخفف عنها سلطان الحب للوطن ويضمها إلى الاجتماع الإسلامى العام فيجعلها تشعر بجنسية الإسلام ، والزكاة تبيد حبها للمال وتعلمها المساواة

أما الخلافة الإلهية فهى النهاية القصوى للتقدم الإنسانى على سطح الأرض ، هى الأنانية الكاملة والغاية العليا للانسانية ، وقمة الحياة من حيث العقل والجسم . ففيها يتحول تشتت الأفكار فى الحياة الذهنية واختلافاتها وتنافرها إلى التناسق والتوافق ، فتقدر حينئذ على حل جميع العقد المنيعة المطالب والصعبة المرام . هى ملتقى الكمال للعلم والقوة ، ونقطة الاتصال بين الفكر والعمل ، والعاطفة والعقل . ومن استحقها كان آخر ثمرة لدوحة الانسانية ، وظهوره يبرر جميع آلام الارتقاء ومحنه لأنها كانت قائمة لأجله . هو يكون حاكماً حقيقياً على البشر وحكومته تكون حكومة إلهية على الأرض . هو يسبغ من خصب طبعه على الآخرين بحبوحة الحياة ويقربهم إلى نفسه . فكلما يتقربون إليه تتدرج حياتهم فى مدارج التقدم والكمال

إن بلوغ الانسانية إلى أقصى مدى من التقدم عقلاً وجسماً شرط ضرورى لولادة ذلك المستحق للخلافة . لذلك كان وجوده فى الحال فى عالم المثال ، ولكن تقدم الانسانية سائر إلى إنتاج طبقة الأفراد المنفردين فى أوصافهم الحميدة قلة أو كثرة ؛ فهؤلاء سيكونون أجداده

« أما الحكومة الإلهية فمبناها الديموقراطية المكونة من الأفراد المنفردين فى أوصافهم الحميدة قلة أو كثرة برأسهم الفرد الوحيد الذى لا نظير له على وجه الأرض . كانت أشباح هؤلاء الأفراد تجول فى فكر الفيلسوف الألمانى نيتشه ؛ ولكن إلحاده وتعصبه الأرستقراطى شوهها تماماً [1]

هذا ما عن لنا من فلسفة إقبال الآن ؛ وسنقدم إليك معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب فى المقال الآتى إن شاء الله «؟»

السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

(١) إن الدكتور إقبال قد وضح منذ عشرين سنة الفرق بين ديموقراطية أوربا وديموقراطية الاسلام فى مجلة العهد الجديد ؛ ونحن نلخصه هنا قال :

« إن ديموقراطية أوربا الموبوقة بأظلال الشيوعية والخيبة بمخاوف الثورة نشأت فى الحقيقة من التجديد الاقتصادى للهيئات الاجتماعية الأوربية . ولكن نيتشه على كل حال ينكر حكومة الجماعة مثل هذه ويقنط من عامة الناس ، ويؤسس جميع الثقافات العالية على ظهور وتثقيف سبرمان (أى ما فوق البشر) ؛ ولكن هل العامة حقيقة موضع القنوط ؟

إن الديموقراطية الاسلامية لم تنشأ من تمدد الفرص الاقتصادية ، بل هى مبدأ روحانى مبناه الاعتراف بأن كل إنسان مركز القوى الخفية التى يمكن أن تكشف إمكاناتها بتربية طراز خاص من الأخلاق والسجايا . وبناء على ذلك فالاسلام قد خلق من عامة الناس المثل العليا من الحياة والقوة . أو ليست إذن الديموقراطية الاسلامية فى القرون الأولى دحض عملى لأفكار نيتشه ؟ »

الذكرى

للأستاذ فخري أبو السعود

صوتٌ من الأمس ما أنفكّ أسمعُهُ ... مردّدُ اللحن في بالي مرجّعُهُ

لحنٌ شجيٌّ لطيفُ الوقعِ ساحرُهُ ... يدُ الليالي على قلبي توقّعه

إذا تردّدَ منه في الضلوع صدًى ... ثارَ الحنينُ وندّى الجفنَ مدمعه

نهرٌ يظلّ بنفس المرء منسرباً ... وفي مجاهل ماضي العيش منبعه

طيفٌ مدى العمرِ من ماضيَّ يتبعني ... وددتُ لو أنني ما شاء أتبعُهُ

مَن أنتَ يا من من الماضي يخاطبني ... ومن قرارةِ نفسي بثّ أسمعه ؟

تظلّ تحيي الذي قد مات من عُمُري ... وما تشتّت من ماضيّ تجمعُهُ

نعم وتحكي لقلبي من مآربهِ ... ما كان ينشده قدماً ويزمعُهُ

حديثك العذبُ مهما طال يؤنسهُ ... وبالزمان الذي قد مرّ يولعه

يا ربّ عهدٍ غضيرِ الحُسن رائقِه ... قد راح وهو حثيثُ الخطوِ مسرعه

مرّتْ عليه بنانٌ منك ساحرةٌ ... فهاج بي الشوقَ مغناه ومربعه

وهامَ قلبي على آثاره لهجاً ... يودّ لو أنّ هذا الدهرَ يرجعُهُ

وربّ وادٍ بنفسي مزهرٍ نضرٍ ... صوّرتَه فهو حالي النبت ممرعه

ومنظرٍ من طيوفٍ أنتَ راسمُهُ ... ومن حنينٍ خفيٍّ أنت مُبدعه

وصورةٍ لذُكاءٍ وهي غاربةٌ ... هفا لها الكونُ إذ همّت تودّعه

ومشرقٍ حيّت الأرواحَ غرّتُهُ ... ونبّه الطيرَ والأزهارَ مطلعُهُ

هذا ادّكاري: ملءُ القلبِ من صُوَرٍ ... من الطبيعة تشجوه وتمتعه

وسالفاتِ عهودي في مباهجها ... يظلّني ثَمّ نادي الزهر مونعه

حُسنُ الطبيعة إلفٌ في الفؤاد له ... عهدٌ بقلبيَ باقٍ لا أضيّعه

وليس بالقلب ذكرٌ من أخي ثقةٍ ... يبقى بقلبي مدى الأيام موضعه

فكلّ ثوبِ ودادٍ كنتُ ألبسُهُ ... يرثّ وهو جديدٌ ثم أخلعه

فكيف أهفو إلى رثٍّ ومنخرقٍ ... من العهود وبالٍ لستُ أرقعه ؟

مَن رامَ صافيَ ودٍّ غير ذي كدرٍ ... ففي الطبيعة للورّاد مشرعه

أليفها حيثما راقته صحبتُها ... ممتّع النفس راوي الطرف مترعه

أصفى الوداد وروداً ثمّ أدومُهُ ... عهداً وأعذبُه ذكراً وأنقعه

فخري أبو السعود

بين الهدى والهوى

للشاعر الحضرمي علي أحمد باكثير

في طلوع الفجر الوليد على الكو ... نِ، وإيذانِ ليلِه بالهروبِ

وهبوب الأنفاس من رُدُنِ الصبـ ... ـحِ بروحٍ يحيي النفوسَ وطيبِ

رنّ في مسمع السكون أذانٌ ... قُدُسيُّ الترجيع والتثويب (١)

سال - حتى عمّ الفضاء - حناناً ... ذائباً في شعاعه المسكوب!

خالقاً عالماً من النور والفتـ ... ـنة والسحر والجمال الغريب

رعشاتٌ من الغناء السماوي (م) ... تخطّى الأسماع نحو القلوب!

إنما الدين الحق فنٌّ طهور ... قد سما في معناه والأسلوب!

***

وقف (الشاعر) التقيّ يصلّي ... في خشوع لذي الجلال المهيب

فرحاً قلبه يطير استناناً ... في مجال من الأماني رحيب

مطمئناً لو أنه احترق الكو ... نُ جميعاً ما مسّه بلهيب!

عامراً بالهدى يكاد يرى الله (م) ... بعينيه فهو جدّ قريب

ربّ! لِمْ لا تراك عيني؟ ألا تبـ ... ـدو لعينَي عبدٍ إليك منيب

كلِفٍ بالجمال يصبو إلى المنـ ... ـبع بعد الأنبوب فالأنبوب!

فاطوِ عني الحجاب تشهد جفوني ... لمحةً من جمالك المحبوب

***

مرّ في سمعه حفيفٌ لسهمٍ ... ناشبٍ في فؤاده المنكوب

ما وعى السمعُ أو درى القلبُ إلا ... بعد حين من وقعه والنشوب

مَن رماه؟ وأيّ نصلٍ وعن أيـ (م) ... ـةِ قوسٍ رمى؟ وفي أيّ حُوب؟ (٢)

ولوى الجيدَ يسبره فإذا هو ... بمثال من الجمال النجيب (٣)

(١) أن يقول المؤذن في أذان الفجر: الصلاة خير من النوم

(٢) ذنب (٣) الخالص

قمر طالع عليــه من الشر   فة يرنو إليــه كالمذهوب
لفتته الصلاةُ نحو المصلَّى   فادّراه بكل سهم مصيب
ربِّ ! ماذا أرى ؟ ألمحة نور   منك ، أم وهم ناظرٍ مكذوب ؟
أم ملاكاً بعثتــه بقبولى   ونجاح المؤمّل المطــلوب
ربِّ ! قلبى صبا إليه ! كأنْ لم   أكُ فى موقف الصلاة الرهيب
أين ولّى اطمئنان نفسى ؟ ومن لى   بخشوعى إليك والترحيب ؟ (١)
ربِّ ! حل الهوى محــل الهدى فى الـ
قلب ؛ ويلاه ! ربِّ عافِ الذى بى !

وانتهى من صلاته وهو يهذى   بضلالات شعره والنسيب :

* * *

« ألهمينى وحى الجمال ! فعهدى   بشهود الجمال غير قريب
إن تكن نظرتى لوجهك ذنباً   فالتياعى كفارة لذنوبى
وابعثى لى - لتدفئ بُردائى -   وقدةً من ذراعكِ المشبوب !
واصبحينى من خمر عينيك كأساً   تنفِ عنى متاعبى ولُغوبى
وابسمى لى - والابتسام يسيرٌ -   تبتسمْ لى الحياةُ بعد قطوب »

* * *

« هى لغز يحلــو التأمل فيه   لحكيم وشاعرٍ وأديب
هى فى لِبسة التفضل حُسنٌ   من يد الله ، ليس بالمجلوب
يا لها خلوةً عليها من النو   م بقايا تثاؤب محبوب ! !
وبأهدابها خيوط ضياء   عَلِقت من أحلام ليل عجيب !
مُرسَلاً شَعرُها على غير ترتيـ   ـب ولكن أحلى من الترتيب !
خطَّ فى خدها الوِساد سعيداً   آيةً من بدائع التذهيب !
وأذاع النسيم عنها بلاغاً   أفعم الجو من أريج وطيب
إن طيباً فى الحق ليس كطيب   مُرسَل من غلائل وجيوب
بكرت تنضح الشجيرات بالما   ء فينعمن بالبنان الخضيب
وفؤادى أحق بالرىّ منهن (٢) فهلاّ تمدّه بذنوب !
وقفت وقفة الدلال أمامى   تتلهّى فى كفها بقضيب !
أرسلت كهرباءها فتمشت   فى عروقى بهــزة ولهيب
فكأنا (قُطبا عمودٍ) ترى التيـ   ـار فيه من جيئة وذهوب
(بين جهدى وجهدها أبداً فر   قٌ) فما إنْ تكف عن تعذيبى

(١) التنظيم

أيها (السالب) الجميــل حنانيـ   ـك ترفَّق بمهجة المسلوب »

* * *

واستهل الصبح الجديد على الكو   ن مُلَقًّى بالبشر والترحيب
وأتى (الشاعر) الصلاةَ بقلب   شاعر بالملام والتــثريب
مستنيب إلى الإله يرجّى   عفوه عن ضلاله والحوب
فدوى فى أعماقه رجْعُ صوتٍ   كصدى الرعد أو دوىّ النُّوبِ (١)
كيف يقوى على سنا (الربِّ) قلـ   ـبٌ لما رأى سنا (المربوب) ؟
والكمالات لا تناهى لدى الله   فلا بد من بقاء العيوب

علي أحمد باكثير

(١) النحل

القرية

للأستاذ بشاره الخورى

أيتها الفتاة الصــغيره   أنت بتاج ملك جديره
من القرى اشتقوا لك اسم القريه   وعطّل السفح فكنت الحليه
شاعرك البلبل ذو الإلهام   وعودك الجدول ذو الأنغام
والغيمة البيضاء مثل القبه   كأنها من الحرير جبه
تضم أعناق الربى وتلثم   فليس إلا شفةٌ ومبسم
كم طربت شمس لهذا المشهدِ   فمسحت جبهتــه بالعسجد
حتى إذا الليــل سجا ومدا   على الورى جناحه المسودا
مشى إليه البدر مشىَ الصائدِ   يهتبل الغفــلة من مطارد
حتى رمى بخردق النجومِ   صدر الدجى فسِلن كالكلوم
مآتم لكنها أعراس   يدار عندها الهوى والكاس
توحى بها القرية فى رأس الجبل   وأروح العيش خيال وأمل
وساعدٍ عند الضحى مفتولُ   تغمره بالقبــل الحقول
أسمر مما لذعته الشمس   فى كفه لكل جسم نفس
يقوم فى الأرض مقام الخالق   فيغدق الرزق على الخلائق
هذا الذى يحاولون قتله   والعدل يقضى أن يموتوا قبله

بشاره الخورى

بين ناقد وشاعر

علم قراء الرسالة من عدد مضى أن الأديب حبيب الزحلاوي اتهم الدكتور الشاعر ابراهيم ناجي بأنه استعان في قصيدته (عاصفة روح) بقصيدة الشاعر الدمشقي ميشيل عفلق (عاصفة)، وقد دفع الدكتور ناجي ذلك الاتهام، وتحدى متهمه أن ينشر القصيدتين في الرسالة، وأمس أرسل إلينا الناقد نص القصيدتين ومعهما نقد لاذع، واليوم بعث إلينا الشاعر بنصهما أيضاً ومعهما تعليق ساخر، فآثرنا أن نطوى النقد والتعليق لخروجهما عن خطة الرسالة، واكتفينا بنشر القصيدتين، ليحكم القراء بين الرجلين.

عاصفة روح

للدكتور ابراهيم ناجي

أين شطُّ الرجاء   يا عُباب الهموم
ليلتي أنواء   ونهاري غيوم

أعْولي يا جراح   أسمِعي النيان
لا يهم الرياح   زورق غضبان

البلى والثقوب   في صميم الشراع
والضنى والشحوب   وخيال الوداع

في احتدام النار   واصطخاب الأنين
تضحك الأقدار   ترقص السكين

كل يوم يروح   في احمرار الجروح
كل صبح يلوح   فجره مذبوح

اسخرى يا حياه   قهقهى بالرعود
الصبى لن أراه   والهوى لن يعود

الأماني غرور   في لظى البركان
الدجى مخمور   والرَّدى سكران

وخليع العباب   موجه العربيد
دار بالأكواب   ويل هذا العيد

زاخت الأيام   بابتسام الثغور
وتقضى الظلام   في عناق الصخور

كان رؤيا منام   كأسك المسحور
يا ضفاف السلام   تحت عرش النور

اطحنى يا سنين   مزقى يا حراب
كل برق يبين   ومضه كذاب

اسخرى يا حياه   قهقهى يا غيوب
الصبى لن أراه   والهوى لن يؤوب

عاصفة!

لميشيل عفلق

اعصفي يا رياح !   واهزئي بالسماء
من يكن ذا جناح   هل يهاب الفضاء ؟

عبس الغاب وادلهم، فما يبـ   ـسم إلا عن الرعود البوارق
فمشى السر موغلاً في ثنايا   ه مصوتاً من الدجى بفيالق

وتداعت جهم الغيوم ثقيلا   ت حيالى بشائبات الصواعق
ذعرت في الفلاة آمنة الوحـ   ـش فراحت تمشى كمشية سارق

وسرى الماء لائذاً بحمى الظل (م) ملماً ببعضه متعانق

أمعنت في الغناء   قاصفات الرعود
ذاك ضحك القضاء   من قيود العبيد . .

اعصفي اعصفي أيا ريح حتى   تُرقصى من دويّك الأجيالا
واضحكي كم يثير ضحكك عند الـ   ـحشرات النواجح والأعوالا

أوصدت وكرها الثعالب حسرى
لابسات من ضعفها أغلالا

وانبرى الليث ناعم البال يمشى   حاشداً تحت نابه الآجالا
ودعاك النسر احمليني أيا ريـ   ـح إلى حيث لا جناح تعالى !

اغسلي يا سيول   زائف الأصباغ
البنا كالطبول   زمرت بالفراغ

يا سيول افتحى لنفسى مجرى   أنا نهر حيران لم يلق بحرا

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٣ – تطور الحركة الفلسفية فى المانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوى

الرجل ذو الضمير الفاسد يحس فى نفسه حاجة مريضة للتألم ، وهو لا يشعر بأن هذه الحاجة تبعثها علة حقيقية هى وليدة هذا الضغط القاسى على إرادة قوته ، وإنما يدرك فقط أنه متعاقد مع الألوهية على دين لا تمكن أداؤه . ومن الحق أن يبدو له أن هذا الدين شديد تهون فى سبيله الآلام . فهو يحتمل الشقاء ليهدئ غيظ دائنه العنيف ، وليكفر عن خطيئته . وها هو ذا الآن يلتمس العذاب يتذوقه ألواناً ليفى بدين يزعم أن لا نهاية له . يحتمل الألم ولا غاية له إلا الألم ليطفئ فى نفسه رغبة التكفير عن ذنبه . وهيهات أن تشبع هذه الرغبة أو تطفأ !

فكرة الخطيئة بعثت مرة ثانية ، وأصبحت الآلة التى يتوعد بها الكاهن ، وبها يسيطر على الأرواح ، وبها انقادت له جموع الأشقياء . ووضع يده على النماج التالة التى أبصرها فى الطريق . مضى قدماً الى أولئك المنحطين الماملين بشقاء يجهلون علته ، يتحرون عن العلة أو الواحد المسئول عن انحطاطهم الغارقين فيه . فيوحى الى هؤلاء بأنهم هم أنفسهم كانوا سبب شقائهم الحقيقى ، وأنهم ينبغى لهم أن ينظروا الى هذه الآلام كتضحية مستغفرة عن خطيئاتهم التى اجترحوها ، فليتقبلوها – بطرب – كامتحان أراده الله ، فآمنوا به وقبلوا بهذا الحل منه ، وتلقحوا برضاً بهذه الفكرة المسممة عن الايمان بالخطيئة .

وفى أوروبا اليوم مذهب يضم هؤلاء الخاطئين التوابين الذين يمشون بأجساد مريضة وأعصاب ساكنة ونفوس ذاهلة ، فرائس لليأس والهذيان . جوعهم دائم للعذاب ، تستولى عليهم فكرة الخطيئة والهلاك الأبدى

وفى النهاية يجد نيتشه أن التعاليم المسيحية كديانة وكمثل أعلى ، لا تقود إلا إلى العدمية « nihilisme » . يجد أنها خلقت عالماً مفعماً بالأوهام المجردة ، وتخيلت عللاً خيالية وأعمالاً خيالية ، وروابط بين الأكوان خيالية . أسست علماً طبيعياً وهمياً مؤسساً على انكار الأسباب الطبيعية والعلاقات الطبيعية بين الأشياء ، وأسست علم نفس خيالى يرتكز على تفسير خاطئ للحوادث الطبيعية وعلى فلسفة خيالية ، وبينا كان الرجل المسيحى دائباً فى بناء وجود خيالى كان يهدم الوجود الحقيقى ، يقاوم الطبيعة « أصل كل بلاء » فى سبيل الآلهة « أصل كل خير وهناء » ، فولدت الأوهام المسيحية من بغض الحقيقة ، فهى نتيجة انسانية منحطة ، تربو فيها كمية الشقاء على كمية الفرح ، انسانية تعبة سائمة ، متألمة ، تميل إلى التشاؤم وعدم الحياة ، ولا تجد راحتها إلا فى أحضان العدم

— ٤ —

إن عمل التاريخ الأوروبى هو ظفر شريعة العبيد على شريعة الأسياد ، لأنه قبل تلك الشريعة وعمل على اعتناقها وكفر بهذه الشريعة . . . وإنها لمعركة لا تزال مشبوبة محتدمة عشرين قرناً بين « روما » وارثة الحضارة اليونانية ومثلها الأعلى الأرستقراطى ،

تهت عن غايتى ولكن تيهى ... ينبت الخصب كلما حل قفرا
أنا برق فى قوتى والتهابى ... فى وميض أحيا وأدفن عمرا
أنا ليل يفنى اشتعالاً وحباً ... لتوشى دماؤه الحمر فجرا
أنا زهر أطارت الريح أورا ... قى فأفعمت واسع الجو عطرا

أعطشتنى الرغاب ... فشربت النجوم
وحدانى الشباب ... فامتطيت الغيوم

من ذرى هذه السحائب ارمى ... فوق هام الورى رفيع ازدرائى
قدما فى السماء أركز جذلا ... ن وأخرى على جبين الفضاء
لم يعد لى فى الأرض منزل حر ... واسع مطلبى وعال إبائى
أحرقت بيتى الصواعق لكن ... غسلت لى قلبى بذوب الضياء
مزقت ثوبى الرياح ولكن ... نسجت من دم الشموس ردائى

إعصفى يا رياح ! ... واهزئى بالسماء
من يكن ذا جناح ... هل يهاب الفضاء

الذي هو أقوى مثل وأسمى مثل تحت الشمس ، واليهودية موطن البغض ومنزل الروح «الكهنوتي» ، انتصرت اليهودية والنهضة الحديثة التي شبت في أوروبا قامت في وجهها عثرات وعقبات ، كثورة « لوثر » والبروتستانت ، وكثورة الباستيل في فرنسا ، وانهزام نابليون ، هذه نائبات تتالت فحالت بين بلوغ النهضة غايتها ، فآلت إلى انتصار شريعة العبيد ، فأوروبا الآن غارقة في انحطاط عميق ، يقضي على ما تبقى في عروقها من حياة ، حتى ليخشى أن يتقهقر النوع الانساني إلى الوراء ، فلا يورث بعد اليوم إلا صوراً من الخزي والعار

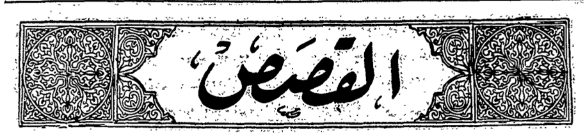
هذه هي شريعة العبيد التي تسيطر على العالم تحت اسم « ديانة الألم الانساني » ، فلنفصل الآن هذه الديانة وماتنطوي عليه

إن تحليلنا لعاطفة الشفقة التي يتبجح بها اليوم معلمو الجيل الحاضر يثبت لنا أن هذه العاطفة ليست من العدل والجمال على المثال الذي يرون . إن عاطفة الشفقة — في الحقيقة — يتولد منها سرور أناني . إذ نحن نصنع مع الآخرين الخير كما نصنع الشر . غايتنا من ذلك أن نظهر شعورنا بقوتنا ، ونخضعهم لسلطتنا . أما الرجل القوي الشريف فهو يفتش عن كفء له ليبادله النضال ويحني هامته بإزاء قوته ، وتراه يحتقر الفريسة الذليلة السهل انقيادها ، وتراه ينحرف عن الخصوم الذين لا يجد فيهم أكفاءه وأمثاله . أما الضعيف فهو يميل إلى الظفر السهل ، والفريسة الخانعة ، وهل كان ضعيف أو شقي يوماً مهيباً ؟ وإن الانسان بطبيعته وإرادته يجنح إلى إحسان لا إلى شقاء

إن الشفقة هي فضيلة الأنفس المتوسطة ، تتدرب عليها دون وازع ولا مانع ، حتى إذا نزلت هذه الشفقة ساحة النبيل أصبحت علامة الانحطاط ، وذهاب الكرامة ، وخساسة الأصل . إن النبيل يكتم آلامه وهمومه ولا يبوح بها . يصرف عن نفسه الارادة الحسنة كما يصرف الارادة السيئة ، والانسان المتألم القبيح قد يكون على حق في كرهه للشهود الذين يبوحون بسر فاقته وقبحه وتعاسته . هؤلاء الشهود الذين لا يستحون من أن ينظروا إلى ما كان ينبغي له أن يظل خفياً عن العيون ، فيحملون هذا الشقي منة شفقة ما طلبها وما تمناها

إن الشفقة ليست بعاطفة مفيدة فحسب ، بل هي عاطفة منحطة أيضاً . لنتصور أن ديانة الألم قد انتشرت بين الناس فما هي النتيجة ؟ إن كمية الألم تزيد بدلاً من أن تنقص ، ويصبح الانسان مجبراً على حمل آلامه الخاصة وجزء من آلام الغير ، حملاً على حمل ، وبهذا تضعف الشفقة من حيوية الحياة ، وتجعل من الألم داء سارياً . ناهيك بأن ديانة الشفقة تضاد المذهب الطبيعي السائد حكمه في الأحياء ، وهو بقاء الأصلح والأنسب الذي يقضي بفناء الكائنات التي لا يصلح تركيبها للحياة ، وقد أتاها حظ بخروجها ظافرة من معركة الحياة ، وكل ديانة ترمي إلى الشفقة هي ديانة تعمل على وقاية العناصر المنحطة ، وعملها هـذا هو ما يسوق إليها الفوز في كل جيل ، لأن الضعفاء والمرضى هم في الحقيقة الفريق الغالب ، بينا أن الانسان الخالص الصافي من كل شائبة هو نادرة من نوادر الوجود ؛ وقد ثبت في كل الأنواع الحية العالية أن الأغلبية فيها هي كائنات منحطة التركيب ، سيئة الخلق ، مستسلمة للألم ، والانسان لا استثناء له من هذا الحكم . والانسان — بالنظر إلى الحيوانات — هو سلالة عالية راقية ، قابلة للتطور ، وهو لما يبلغ آخر مرحلة من مراحل التطور في الكمال ، وهو لما يزل عرضة للحوادث التي تؤثر فيه وتبدل منه . كما أن معدل الانحطاط في النوع الانساني هو أبرز وأكثر منه في سائر الأنواع . وديانة الشفقة تغدو عاملاً كبيراً في الابقاء على فريق كبير من الأحياء لا فائدة منه ، لأن انتخاب النوع لا يرى غاية له إلا الفناء . هي تحفظ مظاهر الفاقة والبؤس . فتجعل الوجود أكثر قبحاً ، والحياة أكثر ميلاً إلى العدم . إن هذه الديانة هي جزء من العدمية . إنها مهددة للوجود وللنماذج العليا من إنسان الوجود . فإن مرأى البؤس والألم والانحطاط والقبح يدعو الرائي إلى رجاء العدم ، إما بعامل اليأس من هذا المرأى أو بعامل الشفقة ، حتى ليغدو مذهب الشفقة مرضاً شديداً يقضي على طبيعة كريمة ، ويقتل منها قوة نضالها ودفاعها ، هذا المرض الدائب على تذليل الذرية الأوروبية ، وتقييد أصفياء الأنواع السامية ، والحيلولة بين الإنسان والسوبرمان

(يتبع) خليل هنداوي



صور من هوميروس

٨ – حروب طروادة

من السماء . . .

للأستاذ دريني خشبة

قضى بروتسيلوس بحبه ، وعادت زوجه الكريمة إلى هيدز مصطحبة روح زوجها البارة ، وغرست عرائس الفنون فسائل الدردار فوق قبر الراحلين فنمت وترعرعت ، وثم بفيئها الوارف ماء الهلسبنت (١) وربتت في ظلها أترابه . . .

ولكن . . . !

لقد كانت روح بروتسيلوس الجذوة التي أججت نيران الحرب فجعلتها ضراماً ! ! فانه ما كاد يرمى بالسهام فيصمي ، فيسيل دمه أنهاراً ، حتى تدفقت جيوش الميلانيين على الشاطئ الأسيوى ، غير مبالين بالموت الأحمر الذي كانت تمطرهم به سهام الطرواديين ، والمنية السوداء التي كانت تقطر من سيوفهم ، فتحصد صفوف الغازين حصداً . لا . لم يبال الميلانيون بهذا الهول الأكبر ، بل انقضوا على الشاطئ رشكاً كأنهم في سلاحهم ، مقتحمين في دروعهم ، مرهفين سيوفهم ، فيفيض عليهم عدة الحرب كأنهم رجنة ترقص في زوبعة ، أو ظلال من الذعر تجول في ممعمة .

وتبعهم قادتهم العظماء فانطلقوا يبوئونهم مواقف للقتال ، ويلقون عليهم من كلمات الحماسة وخطب الاستبسال ، ما أضرموا به جوانحهم شوقاً إلى خوض الكريهة ، وحنيناً إلى اقتحام الوغى ، وصبوة إلى تقبيل الرقاق البيض

ودقت الطبول فكانت إيذاناً بهجوم الميلانيين

فانظر الآن إلى البحر يلتطم بالبحر ، والموج يساور الموج ، والموت يصاول الموت ، والحياة الحلوة تأخذ بتلابيب الحياة الحلوة ، وصيحات الميلانيين يردها صيحات الطرواديين ؛ وليل الآخرة يغطش نهار الدنيا ، وظلام القبور يكشر لهذه الدور ، والفزع يمشى في صفوف هؤلاء وهؤلاء ، واليتم يجرح هذا الكبد ، ويقرح ذلك القلب ، والحزن يفيض على هذا السهل ، ويجوب ذاك الوادي ، ويرف على قلل تلك الجبال ، وأنين الجرحى يطن في فضاء الساحة الحمراء ، فيملأ الآذان بالهلع ، والنفوس بالجزع ، والدماء تتفجر هنا ، وتتحدر هناك ، والرؤوس منتثرة فوق الأديم المضرج ، زائغة أبصارها ، مفغورة أفواهها ، معفرة بالتراب أنوفها التي عزت على العالمين . . .

ثم انظر إلى أخيل يرعد بين الصفوف ويقصف ، ومن ورائه الميرميدون يزرعون المنايا ويهدهدون الحتوف ويقربون الآجال !

وأوليسيز المغوار وتلك المجاجة المتقدة فوق رأسه من غبار الحرب ، وهذه الصمدية السمراء بيمينه تنفث الموت في صدور الأعداء ! . .

وأجاكس وجنوده الكبار الغبار ، الذاويد الأحرار !

ومنيلوس ! قائد المناكر البتوطية ، القروم البواسل ، والليوث الكواسر !

وديوميد ! نبعة أرومته ، وسيد عشيرته ، ووجه قومه ، وفارس كتيبته !

وأجاپنور ! فتى أركاديا ، وملاك أمرها ، وشمس ضحاها !

وميجيز ! النجد الباسل ، والبطل الجلاحل !

وإيدومينيز ! ملك كريد وقائد جنودها ؛ أباة الذل ، وكماة الوغى ، ومرادي الحروب !

وتليبوليموس بن هرقل بطل المجازفات ، المقدام أخو

---

(١) هو بوغاز الدردنيل ، وبالقرب من مأخذه الجنوبي ، على شاطئ آسيا توجد طروادة .

الغمرات ![1] ثم انظر إلى الصيد الصناديد من أبناء طروادة ، وجيرانهم الكماة الأباة الحماة !

هاك هكتور العظيم بن بريام الملك ، عضد طروادة وسندها وليث عرينها ؛ الثبت الصابر المصابر ؛ رابط الجأش شديد البطش ؛ قوى الشكيمة الفارس المقدام !

هاك هكتور الأسد ، يرغى في أسود الشرى ويزبد ، ويوقل في بطاح طروادة ويتجد !

وهاك إينياس الهائل ، يقود (الدردان) الأبطال إلى كرائم الفعال في ساحة القتال !

وهاك بنداروس ، تلميذ أبوللو وربيبه ، يقود فرسانه الفحول ورجاله البهاليل !

وهاهما ولدا ميروبس الكبير ملك أبيسوس ، يصولان في الحومة ويجولان !

وهاك آسيوس بن ملك أبيدوس ، يتقدم رعيل فرسانه ، ويداعب أعداءه بعُرّانه !

وهاهم أشبال تراقية ، يقودهم يوفيموس المقدام ، ويقتحم بهم أيما اقتحام !

وهاهم نسور أميدون البواشق ، أقبلوا من هناك . . . من جنات سيحون وجيحون ليخوضوا الجحيم ، في ذلك اليوم العظيم ، وليذودوا عن طروادة ، حليفتهم ؛ ويدفعوا . . . !

وهاهم أمراء ميديا ، أقبلوا في عدة وعديد ، وكل جبار مريد !

أنظر إذن إلى الجيشين في مد وجزر ، تبسم لأحدهما الآمال ، وتعبس للآخر المنايا ؛ ثم تدور الدائرة ، فيفلذ المنهزم ، ويتأخر المتقدم ، وهكذا دواليك

وتغيب الشمس وتشرق . . . .

ويبزغ القمر . . . ويغرب

وتكر الأيام ، وتمر السنون !

وكلما لاحت للطرواديين غفلة من أعدائهم خرجوا إليهم وهم ألوف فنالوا منهم ، حتى إذا كرّوا عليهم عادوا إلى معاقلهم فلاذوا بحصونها ، واعتصموا بأبراجها ، وتلبثوا هناك حتى تتاح لهم فرصة أخرى

***

أعوام تسعة ! !

مليئة بالتعب ، مشحونة بالنصب ، مفعمة بالخطوب والأهوال

وكان الميلانيون يرسلون البعوث والسرايا ، فتجوب الريف وتؤوب بالغنائم والفىء ، والأسلاب والسبي ، فيقتسمها القادة ، ويفيضون منها على الجند

وهاجموا مرة إحدى القرى ، فكان من جملة السبي فتاتان ذواتا رقة وفتون . . أما إحداها فكانت من نصيب أجاممنون ، واسمها خريسيز ، وهي ابنة كاهن القرية الورع ، حبيب أبوللو وخليله وصفيه ، القديس خريسيز . وكانت فتاة لعوباً حلوة الدل رشيقة الروح ، وكان أبوها يحبها حباً جماً لا تعدل بعضه كل مباهج الحياة ! !

أما الأخرى فقد خلصت لأخيل وأخلصت له الود ، وشاقاها هو المحبة ، فكان أحدهما للآخر في هذه المحنة القاسية الصدر الحنون ، والقلب النجي ، والملاذ الأمين ، اسمها بريسيز ، وأبوها شريف من أشراف هذه الناحية التي نكبت بتلك الحرب الضروس ، فصنليت لظاها ، وطحنتها رحاها !

وعلم كاهن القرية بما كان من أمر ابنته ، فازدحمت على قلبه هموم الحياة ، وأحس في أعماقه بثقل البلية ، وشعر كأنه تجرد من كل شيء حتى من نفسه

وبدا له أن يذهب إلى قائد الجند الميلاني فيفتدي خريسيز ، ولو نزل لأجاممنون عن كل ما يملك . وحذره صحبه من المخاطرة بنفسه في هذا الطريق الشائك ، ولكنه لم يعرهم التفاتة واحدة ، بل دهن نفسه بالطيب الكهنوتي المقدس ، ولبس مسوحه ، وعقد زناره ، وتناول مسبحة أبوللو العظيم ، ثم توكأ على عصاه العتيدة ، وذهب يتهالك على نفسه ، ويتعثر في خطاه ، حتى كان تلقاء المعسكر الضخم

وسأل عن خيمة القائد العام ، فقيل له إنها هي الفسطاط الأكبر الذي تبدو قبته هناك . . . هناك عند شاطئ الهلسبنت ، بين الجيش وبين الأسطول

وانطلق الكاهن الجليل والدمع يتحدر من قلبه قطرات من الدم . . . عن طريق عينيه ، فيعلق بلحيته البيضاء ، فيصبغها بأرجوانه ، كأنه آية السماء الباكية ، نذيراً لهذه القلوب القاسية ، والغزاة الأقوياء ! !

---

[1] ذكر هوميروس رؤساء العشائر اليونانية التي اشتركت في هذه الحرب في الكتاب الثاني من الالياذة ونحن نكتفي بذكر من أوردنا

وبلغ الفسطاط بعد لأى ...

واستأذن على القائد العام فلم يؤذن له . . . . فاستأذن ثانية فهدد بالضرب وبالعقوبة ! . . . ولكنه أب مفئود ، وحزين متكود ، فتنظر قليلاً واستأذن في أدب ولين واستكانة ، فأذن له . . . .

ووقف أمام القائد الأكبر واهي الجسم موهون القلب ، محزوناً متصدعاً ، وحاول الكلام فكانت العبرات تخنقه ، والأسى يعقد لسانه ، والنار المندلعة في رأسه تنسيه كل شيء

وثار به أجاممنون !

لأنه على ما يبدو فوّت عليه لذةً طارئة ، وسكرةً مواتية ، عجيبة في تلك اللحظة الهانئة القريرة ، وإلحافه الشديد بضرورة لقاء القائد . . . .

واحتشد القادة ورؤساء الجند حول فسطاط القائد ، وسمعوا إلى الكاهن الكبير يقول :

« مولاى !

سعيت إليك عائذاً بك ، داعياً أبوللو العظيم لك ، أن يفيء عليكم من النصر والفتح المبين ، وأن يهبكم من الرفاهة والمن ما تشتهى أنفسكم ، وتقر به أعينكم ، وما تترفعون به عن ظلم الضعفاء ، والجور على الملهوفين ، فقد يغني القليل الذى ترضى عنه الآلهة ، عن الكثير الذى يثير سخطها ، ويستنزل غضبها . .

ابنتى يا مولاى !

خريسيز العزيزة ! ردها علىّ يبارك لك أبوللو ، ويُيسّر لك سبيلك ، ببركة دعوات قديسه الحزين الواقف أمامك ، المبتهل إليك ، المستعد لأن يفتديها بكل ما يملك ، وبكل ما يقدر عليه مما يرضى الملك ! »

لكن الملك أشاح بوجهه ، وكبر عليه أن يجرؤ هذا الكاهن على التفوه بهذه الطلبة العزيزة أمامه : خريسيز ! أينزل أجاممنون عن خريسيز وقد احتلت من قلبه مكانة زوجه كليتمنيسترا ؟! واستحوذت على لبه حتى نسى الحرب ، وعزف عن الطعن والضرب ، واستقر معها في فسطاطه آخذين في لهو وحب ، وغناء وشرب !!

أينزل أجاممنون عن خريسيز الجميلة الفاتنة ، ولو استحالت عينا الكاهن بئرين تنزفان الدمع ، وتفيضان بالدم ؟!

كلا ! لن ينزل أجاممنون عن خريسيز !

« إصغ يا رجل ! ليس بي أن تكون قديس أبوللو ، وحامل صولجانه ، وحامى مسبحته ، وعاقد زناره !

ستعود خريسيز معى . . . إلى آرجوس . . . وسيذوى جمالها هناك ، وتذبل محاسنها بين ذراعى ، وسأكل إليها منزلى تخدم فيه ، وتصير أم بنين ، وسيكون بها قصرى جنة خلد ونعيماً لا يفنى . . . اذهب ، فاسفح دموعك في صومعة أبوللو ، وصعّد زفراتك في هيكله ، وبين يدى صنمه . . . اذهب ، وانج بنفسك من عذاب أليم . . .

خريسيز تعود معك !؟

إنك تثير النقمة في نفسى ، فانج بنفسك . . . انج . . . »

وتصدع صدر الرجل ، وكاد قلبه يقف ، فتقف أنفاسه !!

وانثنى والدنيا المظلمة تحجب ناظريه ، وكلمات القائد الظالم تردد في مسمعيه ، فما كاد يبلغ قريته حتى خلا إلى أبوللو ، وجلس يبكى . . . ويصلى !!

« أبوللو !!

يا إلهى !! أسمعت ؟ لقد استهزأ بك أجاممنون ، وفجعنى في بنتى ، وفلذة كبدى ، وقطعة قلبى ، وحياة روحى !!

أبوللو !!

هل سمعت يا رب النور !؟ أرأيت إلى ذلك العاتى المتجبر كيف ثار بقديسك الضعيف المسن الذى أحنت ظهره السنون فى عبادتك ، والصلاة لك ، والتسبيح من أجلك ، والهتاف باسمك . !؟

ألا فلتنتقم لعبدك يا أبوللو العظيم ، وليحل على الطغاة غضبك ، ولتسحتهم بعذاب واصب ، ليس له من قدرتك من دافع . . . .

أبوللو . . . !

استجب يا رب الهيكل الخالد ، وحامى المعبد الأمين !! . . »

وسقط الكاهن أمام المذبح ينتحب ، والشموع الموقدة تذرى دموعها معه !

فثار في عليائه أبوللو . . . !

***

انتفض الإله العظيم انتفاضة رجف من هولها الأولمب ، ورف في السماء كأنه سحابة مظلمة في ليل بهيم ؛ وفوق كاهله

الكبير قوسه الفضية الرنان ، وعلى ظهره كنانته الواسعة الشاسعة ، يُسمع لسهامها صليل أى صليل ... وأشرف من سمائه المضطربة على سفائن الأسطول المطمئن ، وما هو إلا أن تميزها حتى عبس وبسر ، ووتر قوسه فانهمرت منها سهام كالمطر ، صبها على السفن حاملات الخيل والبغال أولاً ، ثم لوى فأصلى سفائن الجنود وابلاً منها بعد ذلك ... فلا تسمع إلا أنيناً وبكاء ، ولا ترى إلا صرعى يضجون ويتلوون ، ولا تحس إلا زفير جهنم وشهيقها يأخذ القوم من هنا وهنا فيقمون إلى أذقانهم سجداً وبكيا . . .

أمطر يا طاعون . . .

ولا حنانيك يا أبوللو . . .

***

واستمر هذا البلاء تسعة أيام طوال كأنها دهر بأكمله . . .

وفى اليوم العاشر أوحى إلى أخيل أن يدعو مجلس الجيش ليرى رأيه فى هذه النكبة التى دهتهم بها ميازيب السماء . فلما التأم شمل القادة اجتمع الرأى على أن يذهب كالخاس فيستوحى أربابه ليكشف هذه الغمة ، أو ليرى بماذا ترضى من التضحيات والقرابين !

وعاد كالخاس ، كعادته كلما حمل أخبار الشؤم من لدن أربابه كاسف الوجه ، كالح الجبين ، يحبس فى صدره شجون الأرض ، وهموم السماء !!

« خريسيز يا سادة ! »

« خريسيز تعود إلى أبيها القديس ، وإلا فتلك مقابركم جميعاً فوق هـذا الشاطئ المظلم ، المضرج بدمائكم ، ودماء أعدائكم ... ! »

« هكذا تتفق كلمة الآلهة من أجل أبوللو ... فويل لنا جميعاً إن لم نهدئ ثورة صاحب القوس ، ورب النور ، وسيد الشمس . ! »

« اسجدوا لأبوللو ، واخشعوا . . . »

ونهض القوم من صلاتهم مشدوهين لا يحيرون ، ينظر بعضهم إلى بعض ، ولا تنفرج شفة بكلمة ، ولا يتحرك لسان بقول !

ولكن أخيل شعر فى صميمه أن القدر يسخره هذه المرة أيضاً لتفريج الأزمة ، وكشف البلاء ، فنهض غير هياب ، وأرسل قولة الحق فى غير وجل ، وصرح بضرورة إرسال خريسيز إلى والدها القديس معززة مكرمة ، ثم تقديم القرابين من لحم العجول وشحم الأوعال إلى معبد أبوللو ، وإطعام الحاضر من شوائها والباد

وزلزلت الأرض زلزالها ، وهوت السماء فوق رأس أجاممنون !

ونشبت ملحمة هائلة بينه وبين أخيل ، أوشك البطل أن يغمد سيفه من جرائها فى صدر القائد العام ، الذى طلب بكل صفاقة أن ينزل له أخيل عن غادته بريسيز : « إذا كان لابد من نزولى عن خريسيز ليسلم الجند من هذا الوباء !! وليسكن غضب أبوللو ، وترضى السماء ! ! »

وتأججت نيران العداوة بينهما ، ذاك يحرص على فتاته الهيفاء وذاك يحض على إنقاذ الجنود بتضحية الذات وإنكارها فى سبيل ما هو أسمى وأرفع ، ولكن أجاممنون عمى عن هذا المثل العالى ، فتشبث وأصر إلا ما نزل له أخيل عن بريسيز ، ليتنزل هو عن خريسيز . ! !

وهنا تتنزل الآلهة لتحكم بين الخصمين !

تبدو ميترفا ، ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، رسولاً من لدن حيرا ، سيدة ربات الأولمب ، للبطل أخيل ، بحيث لا يراها غيره ، فتعظه أن يضحى بفتاته ، ما دام هذا الفظ يتأبى إلا أن يكون ذلك . . .

ويصدع أخيل بأمر السماء . . .

ويذهب أوليسز بابنة القديس إلى أبيها حيث يلقاه فى معبده يبكى . . . ويصلى ! فيبشره بها ، ويسأله الصفح والمغفرة فيهش الكاهن ويبش ، وتنهمر من عينيه دموع الفرح

وتقدم القرابين باسم الجيش الهيلانى إلى معبد أبوللو

فينكشف البلاء . . . . . . وترضى السماء . . . ويدفن الهيلانيون موتاهم !

أما أخيل . . .

فينقطع عن المعركة ، ويعتزل فى معسكره ، لا يشترك فى الحرب ، ولا يشترك فيها جنوده الميرميدون !

ويحس أمه بما ألم به من الحزن ، فتزوره ، وتمده خيراً على يد الإله الأكبر ، زيوس ، سيد أرباب الأولمب !

(لها بقية) دريني خشبة

من الأدب الأمريكي :

قيصر

للقصصي الأمريكي بول بورك Paul Burcke

تألق نجم مؤلف هذه القصة في العام المنصرم إذ تفوق بقصته « أخلاق » على جميع القصصيين الأمريكيين وأحرز من أجلها « جائزة أمريكا الأدبية لعام ١٩٣٤ »

بدأت السَّألة بمعطف مطر . . . .

وإذ خرج « قيصر سمث » في مساء يوم من أيام السبت المعهودة من جمعية رماية القرص التي يترأسها وسار على قدميه رغم المطر المدرار شاقا طريقه إلى منزله ، رأى في تسيارة الآنسة « شيلا » منزوية في مدخل لاحد المنازل غير حاملة مظلة ولا متدثرة بمعطف ، وكانت تعمل جهدها للمحافظة على ثوبها الجديد من الماء الذي يتدفق منحدراً من سطح المنزل . . .

وإلى اليوم لم يدرك قيصر ، وهو الرجل الخجول ، كيف تسنى له أن يبدأ بحديث مع سيدة غريبة عنه ، ولكن لعل فوزه في رماية القرص عصر ذلك اليوم أحيا فيه النشوة . والخلاصة أنه خلع معطفه وقدمه إلى تلك الآنسة ، وارتبك في القول

— « أنت هنا عرضة للتبلل بالماء . . . ارتدى هذا المعطف »

ودهشت الآنسة من قوله ونظرت إليه في عجب وقالت :

— « ولكن كيف لي أن أقبل منك ذلك ؟ . . . وأنت ؟ »

ولحظ قيصر أن لها عيوناً ناعسة ساحرة ، ولم يكن تبينها من قبل وقال لها :

— « لم يبق لي أن أسير طويلاً ، فنهاية سيري عند منعطف الشارع »

وكان ذلك منه اختلاقا ، وترددت الآنسة بادى ذي بدء ، وكان من الواضح أن حرصها على ثوبها الجديد جعلها تتقبل في النهاية تلك التضحية . وأجابت

— « حقاً إن ذلك لعطف منك عظيم . لقد انهالت الأمطار فجاءة ويلوح لي أنها لن تحتبس قريباً . إنني مدينة لك بالشكر »

فأجابها قيصر وفي نبرات صوته شجاعة الكرام

— « إنه أمر لا يستحق أن ينوه به »

وكان قد اعتزم السير ، فسألته الآنسة :

— « ولكن إلى أي مكان أرده ؟ »

فقال : « اسمي قيصر سمث »

وسرعان ما حدقت فيه الآنسة وقالت :

— « ما أروعه اسما ! قيصر ؟ »

وأجاب في تواضع القنوع : « أي ، ولماذا ؟ »

ثم فاه بكلام كبير المغزى إذ قال :

— « لا تكلفي نفسك مشقة ارجاع المعطف »

ثم سكت برهة وقال :

— « سأحضر بنفسي لآخذه »

فترددت الآنسة لحظة ثم قالت :

— « حسناً . إني أدعى شيلا هيرست وأسكن في شارع مونرو رقم ١١٤ »

وأسرع في ارتشاف ابتسامتها العذبة واستمر يتابعها بنظراته حتى أدركه جارف من الماء انساق اليه من حافة قبعته ، فذكره بأن الوقت قد حان ليرجع الى المنزل

وفي المساء التالي ذهب ليسترجع معطفه ؛ فتعرف الى المستر هيرست وزوجته ، وقد استبقياه لتناول الشاى . وفي خلال ذلك تعرف الى « المستر راند » الذي كانت له حظوة عند كل فرد من عائلة هيرست . وتراءى لقيصر أن تلك الحظوة وذلك العطف فيهما الكثير من المبالغة التي لا مبرر لها . وكان للمستر راند سيارة اتفق المجتمعون على أن يستقلوها الى الشاطىء . وهنالك لم يجد قيصر من يتحدث اليه غير المستر هيرست ، إذ أن راند كان يسير في صحبة « شيلا » على بضع خطوات خلفهما . ثم دعوا قيصر إلى العشاء في ذلك اليوم ، وفي خلاله اختصته شيلا بابتسامة عذبة

وانتهى الأمر بقيصر إلى هذا الحد . ومنذ ذلك اليوم وهو يحمل وجهاً عبوساً ، وما ذلك إلا لتأكده من أن مشاعره تحمل الحب لشيلا ، ولكن أي أمل له — وهو الموظف البسيط ذو الأجر الضئيل — في آنسة يبتغيها لنفسه رجل مثل « راند » الثري . وبالمال الوفير تستهوى كل آنسة ؛ ثم ماذا يقدمه لها

عوضاً عن المال ؟ أيقدم اسمه العظيم الذى لم يحسن حتى اليوم صيانته ؟ أم يقدم لقبه كرئيس لجمية رماية القرص ؟ لا شك أن هذا وذاك لا يغرى ، وليس ثمة من فائدة ترتجى . أما لو كنت رئيساً أو وكيلا لرئيس أو على الأقل سكرتيرا لاحدى المؤسسات الكبرى ، وكان لدى ما فيه الكفاية من المال لما توانيت عن نقش اسمى ووظيفتى على قبعتى ، ولأمكننى إذن أن أفصح عما يخالج نفسى ، ولعرفت كيف أرفع من شأن اسمى . ولكن أى حال عليها أنا الآن ؟ قيصر ! ! لاشك أنه هزؤ وسخرية ، وما دمت موظفاً بسيطاً فى « محل دولتل وشركائه » فلبثت قيصرا بل مجرد « أنت يا سمث » أو « أى . . أنت الذى هنالك . . . » ذلك إذا ما أريد منى شىء

وانطوى قيصر على أفكاره ، ثم تذكر موعده فسار إلى منزل شيلا ، ولاحت له من بعد سيارة « راند » مستقرة أمام المنزل . والأولى أن نتغاضى عما تمتم به ساعة أن رآها

وسألها « راند » أثناء تناول الطعام :

ـ إذن فستحضرين يوم السبت إلى ملعب كرة القدم ، حيث تشاهديننى فى الحفلة التى تقام ضد فرقة الأبطال الأقدمين »

وأجابت شيلا : « نعم »

ونظرت إلى قيصر وقالت :

ـ « ولعلك تحضر أنت أيضاً ! »

وهز هذا رأسه وقال :

ـ « إننى آسف ، إذ أنى سأشترك فى اللعب »

وسأله « راند » : « أى شىء ، كرة القدم ؟ » ثم نظر إلى قيصر متعجباً من ضآلة جسمه وحقارة مظهره الذى لا ينم عن بطولة

واحمر وجه قيصر خجلا وقال :

ـ « كلا ، بل رماية القرص »

فقال « راند » هازئاً :

ـ « أى ، إنكم ترمون بذلك الطبق الصغير هنا وهنالك ، أليس كذلك ؟ لقد فعلت هذا يوم أن كنت صبياً . أما الآن فانى أجدها لعبة مملة »

وأجاب قيصر لفوره :

ـ « وكذا شأنى وكرة القدم . لقد كنت أبحث دائما عن لعبة تتجلى فيها المهارة . ولا شك أن قرصاً يرمى ليصيب هدفاً أدعى للمهارة والدقة من كرة تدفع بالأرجل لتتقدم فى السير »

وتدخلت شيلا فى ذلك الحديث الذى أخذ يشتد وقالت :

ـ « ألم تذكر شيئاً عن النزهة بالسيارة ؟ »

وتحمس « راند » وقال :

ـ « بلى ، دعينا نذهب إلى الشاطئ »

والتفتت شيلا لقيصر وقالت له :

ـ « وستكون بالطبع معنا »

وما إن وصلوا إلى الشاطئ حتى نزل ثلاثتهم من السيارة ، وأخذوا يتريضون فى طريق البحر ، وقد خلا من الناس أو كاد ، ولم يبق إلا بضعة أفراد متفرقين يستمتعون بالاستحمام فى البحر

وأرادت شيلا أن تطرق حديثاً لا يجر إلى المشادة ، فسألت :

ـ « هل يمكنك السباحة ؟ »

ولم يعرف كلاهما لمن وجه السؤال ، إلا أن قيصر بادر بالاجابة فقال :

ـ « قليلا ، إذ لم أتدرب عليها التدريب الكافى »

ثم قال « راند » :

ـ « وكذلك حالى ، إن لعب كرة القدم يستولى على كل وقتى ، ولهذا كانت معرفتى بالسباحة ليست عظيمة للغاية »

وسألته شيلا ثانية :

ـ « وماذا أنت فاعل إذا رأيت رجلا يغرق ؟ وليكن على سبيل المثل ذلك الرجل » وأشارت بأصبعها إلى رجل يسبح على بعد غير كبير من الشاطئ

وأجاب « راند » فى لهجة الواثق من نفسه :

ـ « بالطبع أقذف نفسى فى الماء وأعود به إلى الشاطئ »

ونظرت شيلا إلى قيصر وقالت له :

ـ « وهذا ما أنت فاعله أيضاً ، أليس كذلك ؟ »

وتردد قيصر فى الجواب ورنا ببصره إلى ما وراءه ، فوجد قائمة فى مدخل البحر معلقاً بها « حزام النجاة » مشدوداً بحبل إلى القائمة . فقال :

ـ « كلا ، إننى لا أقذف بنفسى فى اليم إذ أنى لا أجيد السباحة ، ولا يمكننى أن أسدى للغريق نفعاً »

وصاح راند بصاحبه : « أى جبان ! » ضمنها شيئاً من السخرية

وحدقت شيلا في قيصر ، الرجل الذي يحمل اسماً كثير الوعود والآمال ، وسألته مرة أخرى :

— « إذن تتركه يغرق ؟! »

فأجاب قيصر : « كلا ! »

وقبل أن يتم حديثه أخذ السابح — وقد كان على وشك التسليم منهم — في أن يثير المسألة بنفسه . وكانت مفاجأة تجلى ساعة أن رفع السابح ذراعيه في الهواء وصرخ مستغيثاً .

فنزع رائد معطفه ، ثم تردد وقال في نفسه : هل من الإنصاف أن أضحي بحياتي ؟ ولا شك أنه رأى في هذه اللحظة الماء في تلك البقعة أعمق منه في المحيط ، ثم هو أصقع من ثلج القطب .

وحثته شيلا ، وقد بدأ القلق ينتابها :

— « أسرع ! ! إنه يشرف على الغرق »

وصاح الرجل من الماء في صوت يكاد يختنق :

— النجدة ، النجدة ! !

وصاحت شيلا مرة أخرى :

— « أسرع ، أسرع وإلا ذهبت أنا بنفسي إليه »

وقال لها قيصر بينما كان منافسه يتباطأ بشكل مزر ليخلع حذاءه :

— « قفي مكانك ! »

ثم انتزع « حزام النجاة » واتخذ موقفاً كالذي اعتاد أن يقفه في عصر كل يوم سبت لرماية القرص ، ثم رمى رميته فتطاير الحزام مع الهواء ورسم في الفضاء قوساً عالياً ، ثم انبطح دفعة على الماء ، وقد كاد يسقط على رأس المشرف على الغرق

وقال قيصر وقد تملكته السكينة والثقة بالنفس :

— « مصيب ! . . . بقدر بنقطتين . . »

وكانت شيلا ترقب رميته وتتابعها بنظرات وجلة . فلما أن انقذ الذي نجا وجيء به الى الشاطئ وأفرغ زفيره وتأوهاته ، سأل عمن رمى اليه بحزام النجاة ، فأشارت شيلا الى قيصر وقد تملكها الفخار

وحدق الرجل الذي نجا من الغرق في قيصر وقال له :

— « ظننت حقاً أن حياتي قد انقضت ، إذ أصيبت بتصلب في الشرايين لجأة . . . لقد كانت رمية متقنة »

وأفصحت شيلا عن قيصر بقولها :

إنه رئيس جمعية رماية القرص

وقال الرجل وقد أدرك سر الأمر :

— « آه ، لهذا كانت تلك الرماية محكمة . والآن اسمح لي أن أقول لك إنك أستاذ ماهر . ولو أنك لم تكن هنا لكنت الآن في ناحية ما من قاع البحر . . . انني أود من صميم فؤادي أن أقدم لك خدمة بأي حال ، فعرفني ماذا تريد »

وما فرغ من كلامه حتى أخذ ينظر الى قيصر من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، ثم سأله :

— أين تعمل ؟

فأجاب قيصر :

— « في محل دولتيل وشركائه »

— « واسمك ؟ »

— « قيصر سمث »

وقال الآخر بصوت خافت :

— « إن قيصر اسم بديع » ثم أفصح وقال : « واسمي بلوارك » وأعقبه قيصر متسائلاً :

— « من مصنع بنيفرسال للسيارات ؟ ! » فقد كان اسم بلوارك معروفاً للجميع ، حتى لصبية الشارع

فقال هذا : — « نعم ، وإن لم تعلق أهمية خاصة على وظيفتك الحالية فاني أتقبلك في محل عملي بكل ارتياح . إنني دائماً في حاجة إلى شاب له قدرة على العمل في الوقت المناسب والرجل العملي يجد عندي الطريق مفتوحاً أمامه . »

وأرقت عينا قيصر وتمتم :

— « إذاً فلا أقل من سكرتير ! »

واتجه ببصره نحو شيلا التي كانت تحدق فيه طوال هذه المدة والاعجاب به قد تملكها

واندفع قيصر قائلاً وكأنه قد استقر على أمر

— « ليس من طبعي أن أستخلص الحوادث فأستثمرها لنفسي ، ولكن إن كنت حقاً في حاجة إلي فاني أبحث عن وظيفة تمكنني من الزواج . »

ثم أخذ يد شيلا في يده ، فما تراجعت ولا وهنت ، وكان ذلك أمام سمع « رائد » وبصره الذي تبلبل وانطفأ منذ اللحظة الأولى لتلك الواقعة

وهكذا جاوز قيصر كل تقدير

نقلها عن الانجليزية — ع . ا . ن

البريد الأدبي

نظرية النشوء بعد مائة عام

احتفلت جمعية علماء الزولوجيا « علم الحيوان » فى لندن أخيراً بالذكرى المئوية لرحلة العلامة الانكليزى تشارلس دارون إلى أمريكا الجنوبية وجزائر المحيط الهادى ؛ وقد أصبح اسم دارون فى عصرنا علماً على نظرية النشوء والتطور التى تذهب إلى تسلسل الانسان من سلالة أحط من الحيوان ، وأضحت النظريات الداروينية فى ذلك علماً راسخاً ، وكانت رحلة دارون الشهيرة التى كانت أساس مباحثه فى « أصول الأنواع » فى سنة ١٨٣١ ؛ وكان دارون يومئذ فى الثانية والعشرين ، وقد أتم دراسته الجامعية وملكه حب المباحث النباتية والحيوانية ، فانتخب باحثاً طبيعياً مع جماعة من العلماء جهزتها جامعة كمبردج ، واستقلت السفينة الشهيرة المسماة « بيجل » إلى أمريكا الجنوبية ، ولبثت السفينة بيجل تطوف أرجاء المياه الأمريكية ، ومياه المحيط الهادى حتى بلغت أقصى جزائرها المسماة « جلاباجوس » ، وقطعت فى هذه الرحلة نحو خمسة أعوام ، ولم تعد إلى انكلترا إلا فى سنة ١٨٣٦ ، وفى أثناء هذا الطواف كان دارون يجمع المعلومات والملاحظات الدقيقة عما يراه من الحيوان والنبات . وإليك ما يقوله لنا عن هذه المباحث فى مقدمته لكتابه الشهير فى « أصول الأنواع » :

« لما ركبت السفينة بيجل كباحث طبيعى ، لفتت نظرى بعض الحقائق الخاصة بتوزيع المخلوقات التى تسكن أمريكا الجنوبية وبالعلائق الجيولوجية بين سكان هذه القارة فى عصرنا وبينهم فى الماضى . وقد لاح لى أن هذه الحقائق قد تلقى بعض الضياء على « أصول الأنواع » أو مسألة المسائل كما سماها فيلسوف من أعظم فلاسفتنا ؛ ولما عدت إلى الوطن سنة ١٨٣٧ ، فكرت أنه قد يمكن استخراج شىء فى هذا الموضوع بجمع هذه الحقائق وتأملها ، وبعد دراسة خمسة أعوام ، سمحت لنفسى أن أتناول الموضوع وأن أكتب عنه بعض مذكرات ، ثم استخرجت النتائج التى لاحت لى وجاهتها ، وما زلت من وقتها إلى يومنا أتابع مباحثى فى الموضوع »

وقد ضمن دارون مباحثه الأولى كتاباً سماه « رحلة السفينة بيجل » Voyage of the Beagle . وفى سنة ١٨٥٩ أخرج كتابه الشهير الذى يعتبر فاتحة عصر فى المباحث الطبيعية ، وهو كتاب « أصول الأنواع » Origin of Species ، فأثار ظهوره أعظم اهتمام فى الأوساط العلمية ، وما زال دارون يشتغل بنظرياته ومباحثه فى هذا الميدان لا يتحول عنها قط حتى أخرج فى سنة ١٨٧١ كتابه عن « سلالة الانسان » Descent of Man ؛ وفيه يتناول أصل الانسان ونشأته وتسلسله ، ومن ذلك الحين اشتهر مذهب النشوء والتسلسل ، وأثارت نظريات دارون فى طبقات الكافة سخطاً واشمئزازاً لأنها لم تفهم على حقيقتها ، بل فهمت على أنها تذهب إلى تسلسل الانسان من القرد . ولدارون مباحث وكتب أخرى فى هذا الباب يضيق عن ذكرها المقام

قاموس الأكاديمية الفرنسية

من المعروف أن الأكاديمية الفرنسية قد أنشئت فى الأصل منذ ثلثمائة عام لتعنى « بتوسيع اللغة الفرنسية وتجميلها » حسبما ورد فى قانونها التأسيسى . ومع أن الأكاديمية قد استحالت بمضى الزمن إلى هيئة أدبية كبرى تقود الآداب الفرنسية وتجمع صفوة زعمائها ، فانها لبثت مع ذلك تحرص على أداء المهمة الأصلية التى خلقت من أجلها ، وهى تنقية اللغة وتحسينها وصقلها . وجهود الأكاديمية فى هذا السبيل تبدو فى القاموس الجامع الذى وضعته عن اللغة الفرنسية ؛ وقد ظهر هذا القاموس فى الصيف الماضى لمناسبة الاحتفال بمضى ثلثمائة عام على تأسيس الأكاديمية ، والطبعة الحالية من القاموس هى الطبعة الثامنة ، وقد بدئ فى وضعها منذ سبعة وخمسين عاماً ؛ ولولا أن لجنة القاموس ضاعفت جهودها فى الأعوام الأخيرة لما ظهر هذا القاموس الشهير . على

أن الأكاديمية لقيت فى وضعه عناء لا نهاية لها، وخصوصاً فى العصر الأخير حيث كثرت الاختراعات العلمية، وتغيرت أوضاع الحياة، وتغلغلت فى اللغة تعبيرات وكلمات جديدة لا نهاية لها. ومع ذلك فإن إصداره بعد هذه الحقبة الطويلة يعد عملاً من أعمال الأكاديمية نظراً لغزارته ودقته وجدته وبديع تصنيفه

وفاة كاتب انجليزى

فى الأنباء الأخيرة أن الكاتب القصصى الانكليزى الكبير سيلاس هوكنج قد توفى فى الخامسة والثمانين من عمره، وكان هوكنج من رجال الدين، وتولى عدة مناصب دينية فى شبابه؛ ولكنه منذ سنة ١٨٩٦، نبذ حياة الكنيسة، وخاض غمار الحركة السياسية، ودخل البرلمان عضواً من حزب الأحرار، وفى أثناء ذلك ظهر هوكنج بكتاباته، واشتهرت قصصه، وكان معاصراً لعدة من أكابر كتاب القصص مثل كونان دويل، وجارورثى، والسير هاجارد، وجوزيف كونراد، وستانلى ويمان وغيرهم، ولكنه لم يبلغ من القوة والشهرة مبلغ هؤلاء؛ بيد أنه من كتاب هذه المدرسة البارزين. ومن قصصه الشهيرة: «آل جرين» «رغم القدر» «ضوء الساحر» «الرجل الصامت» «المراقبون فى الفجر» «يقظة أنتونى ورد» وغيرها

ترجمة لانسبورى بقلمه

المستر جورج لانسبورى زعيم حزب العمال البريطانى شخصية عظيمة فى السياسة الانكليزية، وفى المجتمع الانكليزى؛ وقد نشأ عصامياً، فى أوضع البيئات والأوساط، فاشتغل حمالاً للفحم، وعاملاً، وذاق شظف العيش والحياة الشاقة؛ وهو اليوم فى السادسة والسبعين من عمره، ولكنه مازال جم النشاط يتزعم حركة المعارضة فى البرلمان، ويتزعم حزب العمال، ويشرف على تحرير جريدة الحزب «الديلى هرالد»، وقد أخرج أخيراً كتاباً يحتوى ترجمة حياته؛ وفيه يصف حياة الأحياء والمجتمعات الفقيرة فى مدينة لندن منذ ستين أو سبعين عاماً حينما كان يطوفها صبياً عارى القدمين؛ ثم يصف أدوار حياته، وكفاحه فى سبيل رفاهة العمال، ومثابرته على خدمة القضية التى مازال يخدمها. ويبدو مستر لانسبورى فى كتابه رقيق العاطفة فياض الرحمة والانسانية، والعطف على الفقير والبائس

مؤتمر للصحافة

عقد فى منتصف شهر سبتمبر بمدينة لندن مؤتمر للصحافة بإشراف معهد لندن الصحفى؛ وأرسل مستر بلدوين رئيس الوزارة إلى المؤتمر رسالة نوه فيها بأهمية الصحافة ومسئوليتها العظيمة، وتأثيرها القوى فى تسيير الرأى العام وتقديره للشؤون العامة. والقيت فى المؤتمر خطب عديدة نوه فيها بأهمية الصحافة الحرة، وحاجتها إلى قانون تنظم فيه هذه الحرية؛ ولما كان فى القانون الجديد الذى صدر خاصاً بالنشر ما يتعارض مع هذه الأمنية، فقد أعرب المؤتمر عن أمله فى أن يترك للصحفيين حق تنظيم شؤونهم الخاصة، وقرر السعى لدى البرلمان لحمله على تحقيق هذه الأمنية بإصدار قانون جديد، وقرر المؤتمر أيضاً أن ينشىء نظاما للمعاش يفذى الصحفيين العاطلين والمعوزين

أوتوكار أوسترشيل

توفى أخيراً فى براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا الموسيقى الشهير أوتوكار أوسترشيل مدير المسرح الوطنى ببراغ؛ وقد كان استرشيل زعيم المدرسة الموسيقية الحديثة فى تشيكوسلوفاكيا؛ ودرس فى النمسا وألمانيا، وظهر منذ شبابه بالبراعة فى التأليف الموسيقى، وله مؤلفات عديدة فى الموسيقى وقطع موسيقية شهيرة ما تزال تحتفظ بروعتها وجدتها؛ وكانت وفاته فى عنفوان قوته وشهرته إذ لم يجاوز العقد الخامس إلا بأعوام قلائل



وادي النطرون

وتاريخ الأديرة البحرية

للأمير عمر طوسون

للأستاذ محمد بك كرد علي

وضع الأمير تآليفه لخدمة مصر والسودان ، فهي الآن تملأ قمطرا جميلا من قماطر التاريخ والاجتماع والاقتصاد والمالية وغيرها . ومنها ما كتبه بالفرنسية (١) كذكراته في فروع النيل في القديم وعلى العهد العربي (مجلدان) ، و (٢) مذكرات في مالية مصر منذ عهد الفراعنة إلى أيامنا هذه (مجلد واحد) ، و (٣) مذكرات في تاريخ النيل (ثلاثة مجلدات) ، و (٤) كتاب في جغرافية مصر في عهد العرب (مجلد واحد) ، و (٥) عاقبة أمر المماليك ، و (٦) بحث في وادي النطرون ورهبانه وأديرته وغير ذلك . ومن تآليفه بالعربية (٧) كتاب مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن (مجلد ضخم) ، و (٨) بطولة الأورطة السودانية المصرية في حرب المكسيك ، و (٩) الصنائع والمدارس الحربية والبعثات العلمية في عهد محمد علي باشا ، و (١٠) الجيش المصري ، و (١١) البحرية المصرية ، و (١٢) كتاب البعثات العلمية في عهدي عباس الأول وسعيد ، و (١٣) يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ ؛ وغير ذلك من أبحاثه ومقالاته بالعربية والفرنسية مما ينشره في الصحف والمجلات بالمناسبات

وآخر ما صدر من قلم الأمير بالعربية (١٤) « وادي النطرون ورهبانه وأديرته ومختصر تاريخ البطاركة » مذيلا بكتاب « تاريخ الأديرة البحرية » ، و (١٥) كتاب للباحث المطلع « المجزون » في « ضحايا مصر في السودان وخفايا السياسة الانجليزية » (طبعة ثالثة) طبع على نفقة دائرة سمو الأمير في مطبعة السفير باسكندرية ، وقد قدم الأمير كتاب وادي النطرون إلى صاحب الغبطة الانبا يؤانس (بابا وبطريرك الكرازة المرقسية الثالث عشر بعد المائة) ودل المؤلف فيه على كثرة بحثه ودرسه وأنه خادم أمين لمصر وسودانها ، في جميع المظاهر النافعة ، وأنه حسنة من حسنات مصر الحديثة ، ما أحرز شهرته العالية إلا من طريق العلم والعمل والإخلاص لمصر خاصة ، وللمسلمين في الأرض عامة . فجزاه الله عن العلم أفضل ما يجازي من أخلصوا في خدمته ، ونفع بثمرات اجتهاده مصر والمصريين

***

من أفلاطون إلى ابن سينا

للأستاذ جميل صليبا

نشر مكتب النشر العربي بدمشق ست محاضرات في تلخيص فلسفة أفلاطون والفلسفة العربية وفي الفارابي والجمع بين رأيي الحكيمين أفلاطون وأرسطو ، وفي جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة ، وفي نظرية الفيض Emanation عند ابن سينا ، أو صدور الموجودات عن الخالق ، وفي نظرية النفس عند ابن سينا ، وفي نظرية ابن سينا في السعادة . قال المؤلف : إذا درسنا فلسفة ابن سينا رأينا أنها تختلف عن فلسفة أرسطو في كثير من المسائل ، كفكرة الفيض ، وفكرة خلود النفس وغيرها ، وأن ابن سينا متفق مع أرسطو في الطرائق والوسائل ، ويختلف عنه في الغايات والمقاصد ، ولعله لم يبتعد عن أرسطو في بعض المسائل إلا لتأثره بالوسط الاجتماعي ، ورغبته كالفارابي في الجمع بين الدين والفلسفة ، فقد كان الفارابي يعتقد أن الفلسفة واحدة ، وأن مقاصدها الحقيقية لا تختلف عن مقاصد الدين . وكان ابن سينا يرى كابن الطفيل أن النبوة حالة طبيعية من أحوال النفس ، لا فرق بين الدين والفلسفة إلا من حيث الظاهر . وقال إن الجمع بين الدين والفلسفة كان من أكبر العوامل التي حدت بالفارابي وابن سينا أن يعرضا أحيانا عن أرسطو ويتبعا أفلاطون ، وقد سارا في ذلك على طريقة فلاسفة الاسكندرية ؛ ووجدا في ترجمة كتب أفلاطون خير معين على ذلك . وقد بسط صاحب هذه المحاضرات هذه المباحث بسطا يقربه من الأذهان معتمدا على مصادر عربية وغربية ، فالشكر لعنايته وأدبه

كتاب محاسن أصفهان

تأليف مفضل بن سعد بن الحسين المافروخي الأصفهاني

ويليه رسالة الإرشاد في أحوال الصاحب الكافي اسمعيل بن عباد

صاحب كتاب محاسن أصفهان من علماء القرن الخامس للهجرة ، فارسي أصفهاني استعمل السجع في كلامه حتى كادت تضيع المعاني ، وكتب كتابه على بلده كتابة مبالغة وتمدح ، وفيه فوائد لمن تهمه أحوال تلك الديار في تلك العصور . ومما نقله المؤلف كتاب للحجاج ، قيل إنه كتبه لوهرزاذين بزداذ بن الأنباري ، وكان قريباً لكاتبه المجوسي الأصفهاني جاء فيه : أما بعد فإني استعملتك على اصفهان ، أوسع الأرض رقعة وعملاً ، وأكثرها خراجاً وأزكاها أرضاً ، حشيشها الزعفران والورد ، وجبلها الفضة والكحل ، وأشجارها الجوز واللوز والجلوز وما أشبهها ، والتين والزيتون والكروم الكريمة ، والفواكه العذبة ، وطيورها عوامل العسل ، وماؤها الفرات ، وخيلها الماذيانات الجياد ... فايم الله لئن بخرت إلىَّ بخراج اصفهان كلها أو لأحملنك طوابيق على باب مدينتها ، فاختر أوفق الأمرين لك ، فقد عظمت جنايتك على وأسأت الى نفسك ..» وساق المؤلف حديث « لو كان الإيمان بناط بالثريا لتناوله رجال من الفرس أو قال من هؤلاء » وذكر في جملة فلاسفتها ومهندسيها ومنجميها وأطبائها جماعة من اليهود منهم يوسف اليهودي ، ويعقوب اليهودي ، والفرج بن سهل اليهودي ، الى غيرهم من المسلمين والمجوس ؛ وذكر في شعرائهم طائفة من الشعراء بالعربية وأخرى من شعراء الفارسية ، وكذلك من كتاب تلك الناصمة على اختلاف لغتهم .

وذكر المؤلف ما في داخل أصفهان من الدور الثرية وأن منها ما يصلح لأمير كبير ، وأن في أسواقها ظرائف بغداد ، وخزوز الكوفة ، وديباج الروم وتستر ، ورقى مصر وقباطيها ، وجواهر البحرين ، وآبنوس عمان ، ونوادر الصين ، وفراء خراسان ، وخشب طبرستان ، وأكسية آذربيجان وأصوافها ، وفرش إرمينية ، وما يقاربها من الظروف والأواني والفرش والأمتعة والأثاث والعقاقير والأدوية والأخلاط والأبازير التي مساقطها من البلدان المتطارحة والأوطان المتنازحة ، ووصف جوامع أصفهان

ومنها جامع الخصيب بن مسلم لا يصلى فيه في الصلوات الخمس أقل من خمسة آلاف رجل ، وتحت كل اسطوانة منه شيخ مستند يثنائه جماعة من أهلها بوظيفة درس ، أو رياضة نفس ، تزيد بمناظرة الفقهاء ، ومطارحة العلماء ، ومجادلة المتكلمين ، ومنافحة الواعظين ، ومحاورات المتصوفين ، وإشارات العارفين ، وملازمة المتكفين ، إلى ما يتصل به وينضم إليه من خانكاهات قوراء مرتفعة ، وخانات عامرة متسعة ، قد وقفت لأبناء السبيل من الغرباء والمساكين والفقراء ، وبحذائه دار الكتب وحجرها وخزائنها اللواتي قد بناهن الأستاذ الرئيس أبو العباس أحمد الضبي ونضد فيها من الكتب عيوناً ، وخلدها من العلوم فنوناً . ويشتمل فهرستها على ثلاثة مجلدات كبيرة من المصنفات في أسرار التفاسير وغرائب الأحاديث ، ومن المؤلفات في النحو واللغة والتصريف والأبنية ، ومن المدونات من غرر الأشعار ، وعيون الأخبار ، ومن الملتقطات من سنن الأنبياء والخلفاء ، وسير الملوك والأمراء ، ومن المجموعات من علوم الأوائل من المنطقيات والرياضيات والطبيعيات والإلهيات ، وبذلك أدركنا أن الجامع الأعظم ودار الكتب في أصبهان هما من انشاء العرب أيضاً .

وفي الكتاب شعر كثير ، ومسائل أقرب الى أن تعد في باب الأساطير والخرافات منها الى أن تعد في التاريخ والأدب . وما كتاب محاسن اصفهان إلا صورة صحيحة من تآليف الفرس في ذلك العصر ، والمؤلف نفسه كثير المادة من الألفاظ ، ضعيف في السبك ، تقرأ العجمة في كل سطرين من كلامه . وقد طبع الكتاب في طهران الأستاذ السيد جلال الدين الحسيني الطهراني عن نسخة الميرزا حسنخان وثوق الدولة أحد زعماء السياسة في إيران ، كتبت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة ، وقدم له مقدمة عربية وختمها بقوله : « وإني مع قلة بضاعتي في الفنون الأدبية ، وكثرة اشتغالي بالعلوم الرياضية والفلكية ، أرجو من مطالعي هذا الكتاب العفو عن زلتي في تصحيح بعض مواقعه » وقد وضع للكتابين فهارس الأعلام والأماكن والقبائل وطبعته « مكتبة الإقبال » في عاصمة ايران . أما رسالة الإرشاد فهي في مدح الصاحب بن عباد الوزير الكاتب المشهور تأليف أبي القاسم أحمد بن محمد الحسني الحسيني القوباني الاصبهاني من علماء القرن الثالث عشر من الهجرة . فللناشر أطيب الشكر على عنايته

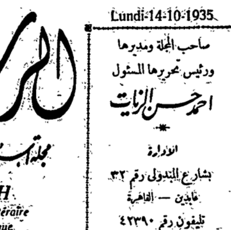
محمد كرد علي

3 me Année, No. 119. | Lundi 14-10-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبتدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١١٩ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٦ رجب سنة ١٣٥٤ — ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

خزائن الكتب فى القاهرة

على ذكر الخزانة الزكية

للدكتور عبد الوهاب عزام

قرأت فى إحدى الجرائد أن وزارة المعارف عزمت على نقل الخزانة الزكية — مكتبة أحمد زكى باشا رحمه الله — من مكانها فى قبة الغورى إلى دار الكتب العامة . ويرحم الله زكى باشا ؛ لو كان حياً لصال بلسانه وقلمه ، وملأ الدنيا حجاجاً ، وشغل رجال الحكومة بزياراته وأحاديثه ، ليدافع عن كتبه العزيزة عليه التى أنفق عمره فى جمعها ، وأقامها مقام الأولاد فمنحها فكره وقلبه ، فيمنعها أن تنقل من مكانها الذى اختاره فى قبة السلطان الغورى . وكان رحمه الله معجباً بالغورى إعجاباً طوى ما بينهما من عصور ، فكان إذا تحدث عنه قال : « صديقى السلطان الغورى » . لكن شيخ العروبة الذى كان نشاطاً لا يفتر ، وحركة لا تسكن ، وعملاً لا يمل ؛ قد طواه الردى ، فأصبحت « الخزانة الزكية » الخزانة اليتيمة

ومن قبل نقلت إلى دار الكتب الخزانة التيمورية التى جمعها من أقطار الأرض العلامة التقى النقى أحمد تيمور باشا رحمه الله

وليست هذه سنة رشيدة ؛ ليس سنة رشيدة أن نجمع الكتب في مكان واحد ، ونحرم القاهرة المعزية إلا من مكتبة واحدة يزدحم فيها القراء من كل قبيل ، ويلتقي فيها الباحث المدقق الذي يستقصي المخطوطات القديمة ، والقارئ الذي يزجي وقته بقصة ملهية ، ويفد إليها أهل القاهرة من المحلات الدانية والقاصية

لابد لنا من مكتبة عامة جامعة كدار الكتب ، ولكن لابد لنا معها من مكتبات خاصة كالخزانة التيمورية والخزانة الزكية ، يقصدها الباحثون المنقبون ، ويؤمها خاصة المطالعين ، فيجدون مكاناً ساكناً يسكنون إليه ويتعارفون فيه ، ثم تكون لكل مكتبة خصائص معروفة تجذب إليها صنفاً من الباحثين ؛ ولابد لنا ، إلى هذه وهذه من مكتبات محلية ، يستفيد منها أهل كل محلة في القاهرة ، يجدونها قريبة إليهم ، ويلفون كتبها ميسرة لهم

كان من سنن الحضارة الاسلامية الاكثار من خزائن الكتب الكبيرة والصغيرة في كل مدينة ، وكان لكل مسجد كبير خزانة كتب ، فكانت القراءة ميسورة لكل طالب في كل حي وفي كل مسجد ، وليس يتسع المجال هنا للحديث عن خزائن الكتب في المدن الإسلامية القديمة في الشرق والمغرب فهو حديث طويل ، وحسبك أن أبا تمام عوّقه البرد في همذان فوجد في إحدى خزائنها ما يسّر له اختيار حماسته ، وأن ياقوتاً الحموي أقام في مرو الشاهجان فأفاد من اثنتي عشرة خزانة بها ، في كل واحدة آلاف المجلدات . وهو يقول في معجم البلدان : « فكنت أرتع بها ، وأقتبس من فوائدها . وأنساني حبها كل بلد ، وألهاني عن الأهل والولد . وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » . هذه مرو الشاهجان ، فما ظنك ببغداد والقاهرة وقرطبة ؟ كانت قرطبة لا تخلو دار كبيرة فيها من خزانة كتب

وكان في الآستانة إلى عهد قريب زهاء أربعين خزانة ، في كل جامع كبير واحدة ، وكثير منها يشرف على حدائق وتتهدل الأشجار عند منافذها . فليس على القارئ الجلوس بها ، ولا يزعجه عن القراءة لغو ولا جلبة . وقد يجلس المطالع في مكتبة الفاتح فيود ألا تنتهي القراءة ولا ينتهي الوقت . وقارئ الكتب أحوج الناس إلى المكان النزه الهادئ ، يوحي السكينة إلى نفسه ، ويجمع للمعرفة فكره ، ويحبب إليه المثابرة والدأب . فأين من هذا دور الكتب الكبيرة المطبقة على المطالع بجدرانها ، وجلبتها ، والتي تقطع عليه فكره بمناظر الداخلين والخارجين . يود قاصدها أن يحصّل أقل ما يريد في أقصر وقت فيسارع إلى الخروج . وكم ينتظر حتى يظفر بالكتاب المطلوب ؟

وقد كان في القاهرة خزائن فرّقتها يد الزمان العسراء ، ولعبت بها غِيَرُه الهوجاء ، ثم جمعت بقية الأحداث منها في دار الكتب المصرية ؛ وقد رأينا وزارة الأوقاف إلى عهد قريب تجمع الكتب من المساجد فتضمها في الخزانة الزكية . لقد أحسنت الحكومة بما فعلت حينما كانت الكتب عرضة للضياع ، غير مهيأة للانتفاع ، ولكن الأحوال تغيرت ، ودار الكتب ضاقت بما فيها ، وغصّت بزائريها . فعلينا أن نتدارك اليوم ما عجزنا عنه بالأمس ، فنُعنَى بتجهيز القاهرة بخزائن الكتب المختلفة في المحلات المختلفة . ونحتفظ بما في المساجد من الكتب إن كان لها بقية لنجعلها نواة لمكتبات كبيرة

ولم لا يكون لنا خزانة في الجامع العتيق ، وكان مثابة العلم في مصر زمناً طويلاً ؟ ولم لا يكون لنا خزائن في جامع ابن طولون ، والجامع الأقمر ، وخانقاة سعيد السعداء التي كانت مأوى كبار العلماء ، ومساجد المؤيد ، وبرقوق ، والسلطان حسن ، وكانت هذه المساجد معاهد للدرس ، وقد اتخذنا بعضها اليوم مدارس أيضاً ، فلماذا لا نتخذها معاهد لمطالعة الكتب ؟ لماذا لا ننتفع بهذه الأبنية الواسعة الشاهقة فنفسر أموالنا ، ونعرف آثارنا ، ونصل ماضينا بحاضرنا ؟ وليت خزائن الكتب تتقسم العلوم فيقصد الباحثون الجامع العتيق ليقرأوا الفقه والحديث وكل ما كتب عن الفسطاط ومصر في عهد الفسطاط ، ويذهبون إلى جامع المؤيد ليقرأوا ما كتب عن المماليك ، ويقصدون خانقاة سعيد السعداء أو تكية المولوية لقراءة التصوف ، وهلم جرّا

هذه آراء يلقاها بالاستهزاء الذين خلعوا أنفسهم من تاريخنا وسنننا ، ولكني أرجو أن يكون لها من تفكير المفكرين نصيب

وبعد ، فينبغي أن تبقى الخزانة الزكية في مكانها إبقاء على السنن الصالحة ، وتيسيراً للقراءة على طلابها ، واحتفاظاً برغبة صاحب الكتب الذي بذل في جمعها من ماله وعمره ، وليث حياته يحنو عليها حنو الأب الشفيق على أولاده . ولا يزال أمام وزارة المعارف سعة للتفكير والعدول عن الخطأ الذي همّت به .

عبد الوهاب عزام

٤ – الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قلتُ لها : إن قلبي وقلبَكِ يتجاليانِ في هذه الساعة [١] ويتبا كَيانِ ؛ أتدرين ماذا يقول لكِ قلبي ؟

إنه ليقول عني : أعْـزِزْ عليَّ بأنْ تكوني هَهنا ، وأن تتألفَ منكِ هذه القصةُ التي تبدأُ بالوَصْمة وتنتهي بالاستخذاء فتنطلقُ المرأةُ في مَتالِفها ومهاويها لتبلغَ بها القَدَرُ ما هو بالغ ؛ وليس إلا الضرورةُ وسطوتُها بها ، والإذلالُ ومهانتُه لها ، والاجتماعُ وتهكّمُه عليها ، والابتذالُ واستعبادُه إياها . ومهما يأتِ في القصة من معنًى فليس فيها معنى الشرف ؛ ومهما يكن من مَوْقفٍ فليس فيها مَوقفُ الحياء ؛ ومهما يَجْـرِ من كلام فليس فيها كلمةُ الزوجة . وأعْـزِزْ عليَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشبوبَ الذي وُضع ليضيءَ ما حوله ، قد انقلب لِحَمل يُحرق ما حوله ؛ وكان يتلألأ ويتوقّد ، فإذا به يتسعّر ويتضرّم ويجني على ما يتصل به ويسقط بذلك سقطةً حمراء . . . .

أفتدرين ماذا يقول لي قلبكِ ؟

إنه يقول عنك : يا بُؤْسَنا من نساء ! لقـد وُضعنا وضعاً مقلوباً فلا تستقيم الانسانيةُ معنا أبداً ، وكلُّ شيء منقلبٌ لنا متنكّر ؛ والشفقةُ علينا تنقلبُ من تلقاءِ نفسها تهكماً بنا ، فيبكي من شفقة بعض الناس كما نبكي من ازدراء بعض الناس . يا بؤسَنا من نساء !

***

قالت : صدقت ، وكذلك تنقلب أسبابُ الحياة معنا أسباباً للمرض والموت ، فاليَـقَـظةُ ليس لها عنـدنا النهارَ بل الليل ، والصَّحوُ لا يكون فينا بالوعْي بل بالسُّكْر ، والراحةُ لا تكون لنا في السُّكونِ والانفراد بل في الاجتماع والتبـذُّل ؛ وما رَدُّ العيشِ على امرأةٍ من واجباتها السهرُ ، والسَّكرةُ والعربدةُ ، والتبذلُ ، وتدريبُ الطباعِ بالوقاحة ، وتضرِيَةُ النفس على الاستهواء والتصدِّي بالجمال للتكسُّب من رذائل الفُسَّاق وأمراضهم ، والتعرُّضُ لمعروفهم بأساليبَ آخرُها الهوان والذلة ، واستماحتِهم بأساليبَ أولها الخداع والمكر ؟ . . . .

إن حياةً هذه هي واجباتُها ، لا يكون البكاءُ والهمُّ إلا من طبيعة من يحياها ، وكثيراً ما نغالِبُ الضحكَ لنفتح لأنفسنا طرُقاً تتهاربُ فيها معاني البكاء ؛ فإذا أثقلَنا الهمُّ وعجلَ عن الضحك وعجزنا عن تكلُّفِ السرور ، خَتَلْنا العقلَ نفسَه بالخمر ؛ فما تسكر المرأةُ منا للسكر أو النشوة ، بل للنسيـان ، وللقدرة على المَرَح والضحك ، ولأمداد محاسنها بالأخلاق الفاجرة من الطيش والخلاعة والسَّفَه ؛ وهذا من الجمال الذي هو شعرُه البليغ . . . . عند بلغاءِ الفُسّاق

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضرُ الغادة منكن هو الشباب والصِّبي والجمال وإقبالُ العيش ، فكيف بها فيما تستقبل ؟

قالت : إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافه على أنفسنا ، وليس من امرأةٍ في هذه الصناعة إلا وهي معدةٌ لمستقبلها إما نوعاً من الانتحار ، وإما ضرباً من ضُروب الاحتمال للذل والخسف . وليس مستقبلنا هـذا إلا كمستقبل الثمار النضرة إذا بقيت بعد أوانها ، فهو الأيام العَفِنة بطبيعة ما مضى . . . إن مستقبل المرأة البغيِّ هو عقاب الشر .

***

قال (ح) : هذا كلام ينبغي أن تعلمه الزوجات ؛ فالمرأةُ منهن قد تتبرّم بزوجها وتضْجَر وتفتَن ، وتزعم أنها معذّبة فتتسخَّط الحياة ، وتندُب نفسها ؛ ثم لا تعلم أنه عذابٌ واحد برجلٍ واحد تألفه فتعتاده فتَرزقُ من اعتياده الصبرَ عليه فيسكن بهذا ثَـقيـارُها . وتلك نعمةٌ واجبُها أن تحمدَ اللهَ عليها ما دام في النساء مثلُ الشهيداتِ تتعذبُ الواحدةُ منهن فنوناً من العذاب بمائة رجل ويألف رجل ، وهم مع ذلك يتبلّون روحَها بمدِمهم من الذنوب والآثام

وقد تستثقلُ الزوجةُ واجباتِها بين الزوجِ والنسلِ والدار ، فتغتاظ وتشكو من هذه الرَّجْرَجة اليومية في الحياة ، ثم لا تعلم أن نساءً غيرها قد انقلبت بهن الحياةُ في مثل الخسْفِ بالأرض

وقد تجزع للمستقبل وتنسى أنها في أمانِ شرفها ، ثم

(١) أي يتكاشفان ويجاوز كلاهما للآخر ويوضح

لا تعلم أن فتاة يترقبن هذا الآتي كما يترقب المجرم غدَ الجريمة من يوم فيه الشرطة والنيابة والمحكمة وما وراء هذا كله.

فقلت: وهناك حقيقة أخرى فيها المرأة كل المرأة للزوجات، وهي أن الزوجة امرأة شاعرة بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها.

والزوجة امرأة تجد الأشياء التي تتوزع حبها وحنان قلبها؛ فلا يزال قلبها إنسانياً على طبيعته، يفيض بالحب ويستمد من الحب. والأخرى لا تجد من هذا شيئاً، فتنقلب وحشية القلب، يفيض قلبها رذائل ويستمد من رذائل؛ إذ كان لا يجد شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل.

والزوجة امرأة هي امرأة خالصة الإنسانية، أما الأخرى فمن امرأة ومن حيوان ومن مادة مهلكة.

وتمام السيادة أن النسل لا يكون طبيعياً مستقراً في قانونه إلا للزوجات وحدهن، فهو نعمتهن الكبرى، وثواب مستقبلهن وماضيهن، وبركتهن على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجة شقية بزوجها فإن زوجها قد أولدها سعادتها، وهذه وحدها مزية ونعمة. أما أولئك فليس لهن عاقبة (1) إذ النسل قلب لحالتهن كلها؛ وهو غنى إنساني ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً، وهو رحمة ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعت الطبيعة في موضع حب الولد الجديد من قلوبهن حب الرجل الجديد، فكانت هذه نقمة أخرى.

قال (ح): أتريد من الرجل الجديد من يكون عندهن الثاني بعد الأول، أو الثالث بعد الثاني، أو الرابع بعد الثالث؟

قلت: ليس الجديد عليهن هو الواحد بعد الواحد إلى آخر العدد؛ ولكنه الرجل الذي يكون وحده بالعدد جميعاً إذ هو عندهن يشبه الزوج في الاختصاص وفي شرف الحب، فهو الحبيب الشريف الذي تتعلقه إحداهن وتريد أن تكون معه شريفة؛ ولكن من نقمة الطبيعة أن من وجدته منهن لا تجده إلا لتعاني ألم فقده.

يا عجباً! كل شيء في الحياة يُلقي شيئاً من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء المسكينات، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة...

قالت هي: وليست الحجارة هي الحجارة فقط، بل منها ألفاظ ترجم بها المسكينة كألفاظك هذه ... وكتسمية الناس لها «بالساقطة» فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر

* * *

ثم تنهدت وقالت: من عسى يعرف خطر الأسرة والنسل والفضيلة كما تعرفها المرأة التي فقدتها؟ إننا نحسها بطبيعة المرأة، ثم بالحنين إليها، ثم بالحسرة على فقدها، ثم برؤيتها في غيرنا، نعرفها أربعة أنواع من المعرفة إذا عرفتها الزوجة نوعاً واحداً. ولكن هل ينصفنا الرجال وهم يتدافعوننا؟ هل يرضون أن يتزوجوا منا؟

قلت: ولكن الأسرة لا تقوم على سواد عيني المرأة وحمرة خديها، بل على أخلاقها وطباعها. فهذا هو السبب في بقاء المرأة حيث ارتطمت. وهي متى سقطت كان أول أعدائها قانون النسل.

ومن ثم كانت الزلة الأولى ممتدة متسحبة إلى الآخر، إذ الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارها هي، أما في اعتبار غيرها فهي تاريخ للنسل إن وقعت فيه غلطة فسد كله وكذب كله فلا يوثق به.

وهذه الزلة الأولى هي بدء الانهيار في طباع رقيقة متداخلة متساندة لا يقيمها إلا تماسكها جملة، وما لم يتماسك إلا بجملته فأول السقوط فيه هو استمرار السقوط فيه. ولهذا لا يعرف الناس جريمة واحدة تعد سلسلة جرائم لا تنتهي إلا سقطة المرأة. فهي جريمة مجنونة كالإعصار الثائر يلف لفاً، إذ تتناول المرأة في ذاتها، وترجع على أهلها وذويها، وترمي إلى مستقبلها ونسلها، فيهتكها الناس هي وسائر أهلها، من جاءت منهم ومن جاءوا منها.

والمرأة التي لا يحميها الشرف لا يحميها شيء. وكل شريفة تعرف أن لها حياتين: إحداهما العفة، وكما تدافع عن حياتها الهلاك، تدافع السقوط عن عفتها، إذ هو هلاك حقيقتها الاجتماعية. وكل عاقلة تعرف أن لها عقلين تحتمي بأحدهما من

(1) يقال ليس له عاقبة أي ليس له نسل وعقب.

نَزَوات الآخر، وما عقلُها الثانى إلا شرفُ عِرضها

***

قال الأستاذ (ح): إن هذه هى الحقيقة، فما تسامح الرجالُ فى شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة، أرادوا ذلك أم لم يريدوه

قلت: وهذا هو معنى الحديث: «عِفُّوا تعفَّ نساؤكم» فإن عفافَ المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها ما لم تتهيأ لها الوسائلُ والأحوالُ التى تعين نفسَها على ذلك. وأهمُّ وسائلها وأقواها وأعظمُها، تشدُّد الرجال فى قانون العِرض والشرف

فاذا تراخى الرجالُ ضعفت الوسائل، ومن بين هذا التراخى وهذا الضعف تنبثق حريةُ المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر على ما تكون أحوالُها وأسبابُها فى الحياة. وهذه الحريةُ فى المدنية الأوربية قد عوَّدت الرجالَ أن يُغضُّوا ويتسمَّحوا، فتهافتَ النساءُ عندهم تنالُ كل منهن حكمَ قلبها وتخضع الرجل....

على أن هذا الذى يسميه القومُ حريةَ المرأة ليس حريةً إلا فى التسمية؛ أما فى المعنى فهو كما ترى:

إما شرودُ المرأة فى التماس الرزق حين لم تجد الزوجَ الذى يَعولُها أو يكفيها ويقيمَ لها ما تحتاج إليه، فمثل هذه هى حرة حريةَ النكد فى عيشها، وليس بها الحرية بل هى مستعبَدةٌ للعمل شرَّ ما تُستعبَدُ امرأة

وإما انطلاقُ المرأة فى عبثها وشهواتها مُستجيبةً بذلك إلى انطلاق حرية الاستمتاع فى الرجال، بمقدار مايشتريه المال، أو تعين عليه القوة، أو يسوِّغُه الطيش، أو يجلبه التهتك، أو تدعو إليه الفنون. فمثل هذه هى حرة حريةَ سقوطها وما بها الحرية بل يستعبدها التمتع

والثالثة حريةُ المرأة فى انسلاخها من الدين وفضائله، فإن هذه المدنية قد نسخت حرامَ الأديان وحلالَها بحرامٍ قانونىٍّ وحلالٍ قانونى، فلا مَسقطةَ للمرأة ولاغضاضةَ عليها قانونًا... فيما كان يعدُّ من قبلُ خزيًا أقبحَ الخزى وعارًا أشدَّ العار، فمثل هذه هى حرة حريةَ فسادها، وليس بها الحرية ولكن تستعبدها الفوضى

والرابعة غطرسةُ المرأة المتعلمة وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معًا، فترى أن الرجل لم يبلغ بعدُ أن يكون الزوجَ الناعمَ كقفاز الحرير فى يدها، ولا الزوجَ المؤنث الذى يقول لها نحن امرأتان.... فهى من أجل ذلك مُطلقةٌ مخلاة كيلا يكونَ عليها سلطانٌ ولا إمرة.. فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزَيغها، وهى مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلالتها

حريةُ المرأة فى هذه المدنية أولها ما شئتَ من أوصاف وأسماء، ولكن آخرها دائمًا إما ضياعُ المرأة وإما فساد المرأة

والدليل على التواء الطبيعة فى المدنية استواءُ الطبيعة فى البادية، فالرجال هناك قوَّامون على النساء، والنساءُ بهذا قوامات على أنفسهن، إذ ينتقمون للمنكر انتقامًا يفورُ دمًا [1] وبهذه الوحشية يقررون شرفَ العِرض فى الطبيعة الانسانية ويجعلونه فيها كالغريزة، فيحاجزون بين الرجال والنساء أولَ شىء بالضمير الشريف الذى يجد وسائله قائمةً من حوله

***

قال الراوى: وغطت وجهها بيديها وقالت: إنك لا تزال ترجم بالحجارة... إن فيك متوحشًا

قلت بل متوحشة...

إنك أنتِ قد تكلمت فىَّ، فجمالك الذى يضع الانسان فى ساعة مجنونة ليتمه بطيشها، فقد وضعنا نحن فى ساعة مفكرة وأمتعنا بعقلها؛ وإذا قلت جمالك، فقد قلت وحيك، إذ لا جمال عندى إلا ما فيه وحى

أما قلتِ: إنك لو خُيِّرت فى وجودك لما اخترتِ إلا أن تكونى رجلًا نابغةً يكتب ويفكر ويتلقى الوحىَ من الوجوه الجميلة؟

---

(١) إلى ج. ص. بعرسين (تركيا). إذا كان حب الفتاة أكبر من حاضرها فلن يكون أكبر من زمنها الآتى كله، فان كانت (تلك) قد نشأت على الفقر وتعلمت من فقرها الرضى، ومارست الاحتمال وتعلمت من احتمالها الصبر، فلتنفذ عزمها فحبيبها الفقير سيكون جمالًا وسرورا لفقرها ويكون معها كأنه سعادة من الغنى. أما إن كانت نشأتها فى الترف ولها أخلاق النعمة، فان حبيبها الفقير سيكون لها هما جميلا، ثم يقل فيكون هما ثقيلا، ثم يثقل فيكون فقراً مبرحا، وتذهب الأوهام، وتأتى الحقائق، ويومئذ تكون ذبابة لتحمل الحب وتطير به من دارها.

(الرافعى)

فقـــدان الثقة

للأستاذ أحمد أمين

لعل أسوأ ما تُبتلى به أمة أن يفقد أفرادها الثقة بعضهم ببعض؛ ففقدان الثقة يجعل الأمة فرداً، والثقة تجعل الفرد أمة؛ والثقة تجعل الأجزاء كتلة، وفقدانها يجعل الكتلة أجزاء غير صالحة للالتئام؛ بل يجعل أجزاءها متنافرة متعادية توجه كل قوتها للوقاية والنكاية.

كم من الزمن ومن المال ومن النظم ومن الخطط تنفق إذا فقدت الثقة؛ ثم هي لا تغني شيئاً ولا تعيد ثقة

تصور أسرة فقد الزوج فيها ثقته بزوجته، والزوجة بزوجها؛ ثم تصور كيف تكون حياتها: نزاع دائم، وسوء ظن متبادل، وانتظار للزمن ليتم الخراب

وهكذا الشأن في كل مجتمع: في المدرسة، في الجيش، في الحزب، في القرية، في الأمة.

بل ما لنا نذهب بعيداً والإنسان نفسه إذا فقد الثقة بنفسه فقد نفسه، فلا يستطيع الكاتب أن يكون كاتباً مجيداً ولا الشاعر أن يكون شاعراً متفوقاً، ولا أي عالم وصانع يجيد علمه وصناعته إلا إذا وثق بنفسه لدرجة ما؛ وكم من الكفايات ضاعت هباء لأن ذويها فقدوا ثقتهم بأنفسهم، واعتقدوا أنهم لا يحسنون صنعاً ولا يجيدون عملا

وكل ما ترى من أعراض الفشل في أمة سببه فقدان الثقة؛ فالحزب ينهار يوم يفقد الأعضاء ثقتهم بعضهم ببعض، والشركة تنهار يوم يتعامل أفرادها على أساس فقدان الثقة، والمدرسة تفشل يوم لا يثق الطلبة بأساتذتهم والأساتذة بطلبتهم، وكل جماعة تفنى يوم يتم فيها فقدان الثقة

كل نظمنا — على ما يظهر — مبنية على فقدان الثقة، ووظائف «المفتشين» في جميع مصالح الحكومة والشركات أصبحت مؤسسة على فقدان الثقة، فالمفتش في الترام والسيارات العامة مبناه ضعف الثقة «بالكمساري»، ومفتش المالية ليراقب حركات مرءوسيه حتى لا يختلسوا أو يزوّروا، ومفتشو الوزارات ليروا إلى أي حد يطبق الموظفون تعاليم الوزارة

قد كان الظن بالمفتشين أن يؤدوا عملاً آخر غير هذا، وهو أن يشرفوا على عمل المرءوسين ليوجهوهم وجهة صالحة، ويتعاونوا معهم على رسم الخطة القويمة، ويصححوا الخطأ، ويكملوا النقص، ولكنهم — في الأغلب — وقفوا فقط موقف الضابط يضبط الجريمة، والصائد يرقب الفريسة، لا موقف الهادي المرشد والناصح الأمين

فإن أردت «بنداً» واحداً من «بنود» ما ينفق من الأموال في سبيل عدم الثقة فاجمع مرتبات المفتشين في جميع مصالح الحكومة

وليس الأمر مقصوراً على هؤلاء، فالراجعون ومراجعو المراجعين؛ والأوراق تمر من يد إلى يد، ومن قلم إلى قلم، ومن مصلحة إلى مصلحة، ومن وزارة إلى وزارة. كل ذلك له أسباب، أهمها «فقدان الثقة»

وإن شئت حصر ما يستهلك من الأموال لفقدان الثقة فلا تكتف بمرتبات المفتشين، بل أضف إليها مرتبات كل هؤلاء

فدقت صدرها بيدها وقالت: أنا؟ أنا لم أقل هذا. ثم أفكرت لحظة وقالت: إذا كنت أنت تزعم أنني قلته، فأظن أنني قلته ....

قال (ح): رجل؛ ويكتب؛ ويفكر؛ ولم تقل هي شيئاً من هذا. أربع غلطات شنيعة من فساد الذوق

قالت: بل قل أربع غلطات جميلة من فن الذوق. إن الرجل الظريف القوي الرجولة، يجب عليه أن يغلط إذا حدّث المرأة

قال (ح): لتضحك منه؟

قالت: لا. بل لتضحك له ....

قلت: فلي إليك رجاء

قالت: إن صوتك يأمر، فقل

***

فماذا قلت لها وماذا قالت؟

(لها تتمة) (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الذين ذكرنا ، فلو قلنا إن نصف مرتبات الموظفين ينفق فى سبيل فقدان الثقة لم نبعد

وليست المصيبة كلها فى الأموال ، فلو كنا نقدر للزمان قيمة كغيرنا من الأمم لاستفظعنا ما يستوجبه فقدان الثقة من أيام وشهور وسنين تضيع فى إجراءات وتدقيقات ومراجعات ومناقضات وتعليقات مبناها كلها « فقدان الثقة »

ثم هناك عقول للنابغين وكبار أولى الأمر فى الأمة تفكر ثم تفكر ، وتقدر ثم تقدر ، وتضع الخطط تلو الخطط ، والقوانين واللوائح والمنشورات تلو القوانين واللوائح والمنشورات ، ويخيل إليها أنها بما فعلت تأمن الخيانة والسرقة والتزوير ، وتظن بذلك أنها تعالج ما فسد وتصلح ما اختـــل ، وهى إنما تزيد بذلك فى « فقدان الثقة »

أضف الى هذا ما تسبغه هذه المظاهر كلها على نفسية الموظف ، فهو يرى كل هذه النظم واللوائح والقوانين والمراجعات والمناقضات فيشعر أنها إنما شرعت له ومن أجله وبسبب فقدان الثقة به ، وأنها كلها تنظر إليه كلص وكمجرم وكمزور ؛ فيفقد الثقة بنفسه ، ويعمل فى حدود ما رسم له ، ويشعر بالسلطات المختلفة عليه ؛ فلا يجرؤ على التفكير بعقله ، ولا يجرؤ على تحمل تبعة ، ويفر من البت فى الأمور ما وسعه الفرار ، حتى يكون بمأمن دائم من الأسئلة والمناقضات — وهذا هو سر ما نراه من بطء فى العمل ، وركود فى الحركة ، وضياع لمصالح الناس ، إذ لا شىء يبعث الثقة فى المرءوس مثل أن يثق به الرئيس ، ولا شىء يبعث الحيرة والارتباك والاضطراب إلا ما يشعر به من « فقدان الثقة »

أنا كفيل بأنا لو قلبنا كل هذه النظم رأساً على عقب وهدمناها من أسسها وأزلنا أنقاضها ، ثم بنيناها على أسس جديدة من الثقة البحتة ، ما خسرنا من الأموال وما خسرنا من الأزمان والأنفس ما نخسر الآن ولو كثرت اللصوص وكثر الخائنون والمزورون

هب أنا فتحنا مكتبة وأسسنا نظامها على الثقة بالموظفين والمترددين من المطالعين فاستغنينا عن مراقب واستغنينا عن مراجع واستغنينا عن مفتش وهكذا ، واكتفينا بعمير للكتب و « فتى » يضع الكتب كل يوم فى أماكنها ، فماذا يكون الشأن وماذا يكون حسابنا فى المكسب والخسارة ؟ لاشك أننا سنفقد كتباً يسرقها بعض المترددين ، وهذا هو كل الخسارة ، ولكننا بجانب ذلك نوفر مرتبات كاتب ومراقب ومفتش ، ونوفر أزماناً طويلة تصرف فى عمليات الجرد والحصر ، وننشر الثقة بين المطالعين ، ونشعرهم بأن المكتبة فى حمايتهم هم وتحت اشرافهم ، فننمى فيهم الشعور بالتبعة ؛ فاذا كان هذا مكسبنا وهذه كل خسارتنا ، فالى النار هذه الكتب المفقودة ، وخسئت عين كل من ينظر فى عمليات الحساب إليها وحدها ، ولا ينظر إلى كل هذه الأرباح التى ربحناها

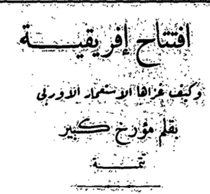
وهذا المثل الصغير يمكن تطبيقه تمام التطبيق على الأعمال الكبيرة فى المصالح المختلفة ، بل إنى أشترى نشر الثقة بين الناس وتسهيل الأعمال ، وشعور الناس بالطمأنينة بأى ثمن ، بل لو أن التجارب دلت على أن ما نفقد من الأموال أكثر مما نربح إذا أسسنا النظم على أساس الثقة لاستمررت فى تجربتى ونظريتى ، وآمنت بوجوب الانتظار على هذا الأساس الجديد حتى يذهب هذا الجيل الذى أفسده النظام القديم ، وقضى على نفسه وعلى شعوره ، ولأنتظر جيلاً جديداً نشأ فى احضان « الثقة » والشعور بالواجب وبالتبعة وبالحرية فى العمل فى دائرة ضيقة من القوانين المعقولة

وهكذا الشأن فى جميع الأمور السياسية والاجتماعية ، فثقة أفراد الحزب بعضهم ببعض — ولو مراعاة للمصلحة — أضمن للنجاح ، وأقرب لتحقيق الغرض ؛ وثقة الجمعية برئيسها ، والرئيس بأعضائها — ولو تصنعا — أقرب لأن ينقلب التصنع خلقاً

وقد رأينا — دائماً — أن العدوى فى المعانى كالعدوى فى المحسات ، فكما أن التثاؤب يبعث التثاؤب ، والضحك يبعث الضحك ، فكذلك الثقة تبعث الثقة وعدمها يبعث عدمها .

وبعد ، فلا تزال ترن فى أذنى كلمة سمعتها من أستاذ انجليزى كان فى الجامعة : « إذا كنتم لا تريدون أن تولوا أموركم الأجنبي ، ولا تمنحون ثقتكم المصرى ، فكيف تعيشون ؟ »

أحمد أمين



افتتاح إفريقية

وكيف غزاها الاستعمار الأوربي

بقلم مؤرخ كبير

تتمة

لم يبق اليوم في إفريقية من الأمم المستقلة سوى الحبشة ، وجمهورية ليبريا ؛ ولكن ليبريا ليست في الواقع سوى منطقة للنفوذ الأمريكي ، وقد أنشأها الزنوج الأمريكيون الأحرار ؛ ومع أنها جمهورية مستقلة وعضو في عصبة الأمم ، فان السياسة الأمريكية هي التي تشرف على شؤونها العليا ؛ وعلى هذا فليس في إفريقية اليوم أمة تتمتع باستقلالها الصحيح سوى امبراطورية الحبشة ؛ وهي تتمتع بهذا الاستقلال منذ فجر التاريخ . وقد حاول الاستعمار الأوربي غير مرة أن يحطم استقلالها ، ولكنها استطاعت أن تسحق مشاريعه ومحاولاته ؛ والآن يشهد التاريخ دورته ويتربص الاستعمار الأوربي بالحبشة مرة أخرى ، ويحشد كل قواه وعدده المدمرة ، ويطالب علناً بافتراسها والقضاء على استقلالها تحقيقاً لشهوة الفتح والتوسع ؛ وها نحن أولاء نشهد الناسفة وقد انقضت ، فهل تستطيع مملكة سبأ الخالدة أن ترد عنها عادية هذا الغزو المبيت ؟ وهل تستطيع الفوز بهذا الاستقلال الذي حافظت عليه منذ الأحقاب ؟ وهل تبقى الحبشة آخر حصن للاستقلال الافريقي ، أم تسقط صريعة الاعتداء ، فيجهز الاستعمار بذلك على آخر ملاذ لهذا الاستقلال ؟ هذا ما سيكشف عنه المستقبل القريب

وقد رأينا فيما تقدم كيف اقتسمت الدول الأوربية إفريقية فيما بينها ، واستقرت كل منها في بعض مناطقها وأراضيها ، وأنشأت الدول الكبرى — انكلترا وفرنسا وألمانيا — كل منها في إفريقية امبراطورية استعمارية شاسعة . وكانت إيطاليا إحدى الدول التي شاركت في افتتاح إفريقية ، غير أنها خرجت منها بصفقة يسيرة . ويرجع ذلك إلى أنها كانت في أواخر القرن الماضي ، حين بدأ افتتاح إفريقية ، ما تزال دولة ثانوية ، حديثة عهد باستقلالها ووحدتها القومية ؛ هذا إلى أنها لقيت خلال غزواتها الاستعمارية نكبة لم تلقها أية دولة أوربية ، إذ هزمت جيوشها وسحقت في موقعة « عدوة » الشهيرة حسبما نفصل بعد ، فوضعت هذه الهزيمة الساحقة حداً لمشاريعها الاستعمارية مدى حين

بدأت إيطاليا محاولاتها الاستعمارية في سنة ١٨٨٢ ، إذ أرسلت إلى بلاد أرترية حملة احتلت خليج عصب وما يليه جنوباً ؛ واحتلت ثغر مصوع وما يليه من الساحل شمالاً (سنة ١٨٨٥) ؛ وأرسلت حملة أخرى إلى بلاد الصومال مما يلي المحيط الهندي ، فاحتلت شقة ضيقة طويلة على الساحل ، من نهر جوبا حتى رأس جردفوي ، وهي التي تعرف اليوم بالصومال الايطالي (سنة ١٨٨٨) . وكانت إيطاليا يومئذ دولة ناشئة فتية تجيش بآمال كبيرة ، وكان وزيرها الشهير (كرسبي) روح هذه المغامرات الاستعمارية ؛ وكان يحلم بانشاء امبراطورية استعمارية إيطالية ضخمة في شرق إفريقية تضم الحبشة ، وتصل ما بين الأرترية والصومال ؛ وكان تفاهم الدول الأوربية على اقتسام إفريقية يخول لإيطاليا حرية العمل في تلك المنطقة . فلما تم احتلال الأرترية والصومال ، اعتقد كرسبي أن الفرصة قد سنحت لغزو الحبشة ، والعمل لانشاء الامبراطورية الاستعمارية التي يتوق إلى إنشائها

وكانت الحبشة منذ منتصف القرن التاسع عشر تجوز فترة من الضعف والتفرق ؛ وكان ملكها يومئذ الامبراطور تيودور ، وهو أمير من أمرائها يدعى كاساي ، اغتصب العرش من الرأس (علي) ملك الحبشة المسلم ، وأقام نفسه امبراطوراً ، وبسط على الحبشة حكمه المطلق ، وأثار بشدته وعنفه في معاملة الأجانب سخط الدول الأوربية ، وقبض على عدد من المرسلين والنزلاء الانكليز وأبى أن يطلق سراحهم ، فجهزت انكلترا حملة لغزو الحبشة بقيادة السير نابيير ؛ ونفذت هذه الحملة إلى الحبشة في سنة ١٨٦٨ ، وهزمت جيش الامبراطور ، فاضطر تيودور أن يطلب الصلح ، ثم انتحر يأساً وغماً ؛ وانسحب الانكليز ، وعادت الحرب الأهلية في الحبشة ، واستولى على العرش كاساي أمير تجري ، ونصب نفسه امبراطوراً باسم يوحنا الثاني ؛ ولبثت الحبشة في حالة اضطراب وفوضى ؛ واحتل الإيطاليون في تلك الفترة ساحل أرترية والصومال ؛ وكانت الجيوش المصرية قد نفذت قبل ذلك بأعوام إلى بعض مناطق الحبشة مما يلي السودان

فاستطاع الأمبراطور يوحنا أن يوقع بها هزيمة فادحة وأن يرغمها على الجلاء عن الحبشة (سنة ١٨٧٦)، ولما توفى يوحنا سنة ١٨٨٩ خلفه على العرش منليك أمير شوا، باسم الأمبراطور منليك الثاني.

وبدأ منليك حكمه في ظروف صعبة؛ وكانت إيطاليا قد استطاعت أن تتقرب إلى الحبشة، وأن تبسط عليها نفوذها شيئاً فشيئاً تحت ستار المفاوضات والصلات الودية، وما زالت حتى استطاعت بسياسة الضغط والوعيد أن تحمل منليك على أن يعقد معها معاهدة حماية مقنعة هي التي تعرف بمعاهدة أوشالي (مايو سنة ١٨٨٩)؛ وبها وضعت الحبشة تحت نوع من الوصاية الايطالية؛ وحاولت إيطاليا خلال الأعوام التالية أن تتدخل في شؤون الحبشة تدخلاً قوياً، وأن تفرض عليها إرادتها، واستطاعت أن تحتل بعض أنحائها المجاورة لأرترية، ولكن الشعب الحبشي لم يلبث أن ثار لهذا الاعتداء على أرضه وحرياته؛ وقاد منليك هذه الثورة الوطنية، فجردت عليه إيطاليا جيشاً ضخما قوامه خمسون ألف مقاتل بقيادة الجنرال باراتيري؛ ولكن الوطنية الحبشية غمرت كل شيء وسحقت الجيوش الايطالية في موقعة عدوة الشهيرة من أعمال ولاية تجرى (٢ مارس سنة ١٨٩٦)، ولم تبق منها سوى فلول ممزقة، وحطمت آمال إيطاليا ومشاريعها الاستعمارية، وأرغمت على الاعتراف باستقلال الحبشة؛ واستمر منليك الثاني أو منليك الأكبر يحرر الحبشة أعواماً طويلة يقودها في سبيل الاصلاح والتقدم؛ وفي عهده نظمت الحبشة علائقها مع الدول الأوربية، واستطاعت أن ترغمها جميعاً على احترام استقلالها. وفي سنة ١٩٠٦ عقد تحالف ثلاثي بين بريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا يقضي بالعمل المشترك بينها لحماية أراضيها ومصالحها في تلك المنطقة، وينص على وحدة الحبشة واستقلالها، وينص أيضاً على تفوق المصالح الايطالية في الحبشة. ولما توفى منليك الأكبر سنة ١٩١٣ خلفه حفيده «ليجي ياسو» بعهد منه؛ ولكن عوامل التفرق عادت تعمل عملها، واضطرمت الحرب الأهلية مرة أخرى، وعزل «ليجي ياسو» بعد خطوب وحوادث جمة، وتولت العرش «زوديتو» كبرى بنات منليك، وعين الرأس تفري وصياً للعرش وولياً للعهد، فاستأثر بكل سلطة حقيقية. ولم تمض أعوام قلائل حتى أعلن نفسه أمبراطوراً إلى جانب «زوديتو»، ولما توفيت الأمبراطورة سنة ١٩٣٠، انفرد بالملك وتلقب باسم «هيلا سلاسي»، وفي عهده قطعت الحبشة مراحل كبيرة في سبيل التقدم والاتحاد الوطني، والتحقت بعصبة الأمم (سنة ١٩٢٣)، وزار الأمبراطور إيطاليا سنة ١٩٢٥ فاستقبل في رومة بحفاوة كبيرة، وعقدت على أثر ذلك بين البلدين معاهدة صداقة وتحكيم واعتقدت الحبشة أنها في ظل عصبة الأمم، وظل الصداقة الايطالية الجديدة، قد أمنت مطامع الاستعمار ومشاريعه الغادرة

* * *

وكانت إيطاليا منذ نكبة «عدوة» قد وجهت مطامعها الاستعمارية شطراً آخر. وكانت طرابلس، هي المنطقة الوحيدة التي بقيت من شمال إفريقية بعيدة عن الاحتلال الأوربي؛ وطرابلس تواجه إيطاليا في الضفة الأخرى من البحر، وفيها مناطق منبسطة شاسعة تصلح للحرث والاستعمار؛ ومنذ فاتحة هذا القرن تعمل إيطاليا لانتزاع طرابلس من قبضة تركيا الضعيفة، ولم تلق إيطاليا اعتراضاً من انكلترا أو فرنسا إذ كانتا تؤثران أن تحل في طرابلس دولة ثانوية مثل إيطاليا، وتخشيان أن تحتلها منافستهما القوية ألمانيا. وهكذا استطاعت إيطاليا بموافقة انكلترا وفرنسا أن تعد عدتها لاحتلال طرابلس. وفي أواخر سنة ١٩١١ وجهت إيطاليا إلى تركيا بلاغاً نهائياً تزعم فيه أن مصالحها في طرابلس قد عبث بها، وأتبعت ذلك في الحال باحتلال ثغرى طرابلس وبنغازى، وتركت تركيا كعادتها طرابلس لمصيرها، ولم يتقدم للدفاع عنها سوى حاميتها الصغيرة؛ ولكن ذمرة من الضباط البواسل بين ترك ومصريين استطاعوا أن يحشدوا رجال القبائل لقتال العدو المغير، واستطالت الحرب الطرابلسية زهاء عام (حتى أكتوبر سنة ١٩١٢) وانتصر الايطاليون في النهاية وعقدوا الصلح مع تركيا، واعترفت تركيا بالحماية الإيطالية على طرابلس. ولكن إيطاليا اشترت ظفرها غالياً بالمال والرجال، ولم تتقدم مع ذلك كثيراً داخل طرابلس؛ لأن رجال القبائل واصلوا الدفاع عن وطنهم، واستمرت إيطاليا تعاني أشد المتاعب في طرابلس مدى أعوام طويلة. ولم توفق إلى إخماد القبائل إلا منذ سنة ١٩٢٥، إذ جردت عليها قوى جرارة. واجتاحت

بأشنع وسائل الفتك الحديثة ، ومع ذلك فانها تقيم فى طرابلس على بركان من الحفيظة والبغض قد ينفجر لأول فرصة

ومنذ قيام الطغيان الفاشستى فى إيطاليا ، تضطرم إيطاليا الفاشستية بآمال وأطماع جديدة ، وتساورها حمى التوسع والفكرة الإمبراطورية . وكانت إيطاليا قد حصلت منذ سنة ١٩١٥ بمقتضى معاهدة لندن السرية على وعود من فرنسا وانكلترا بأن تعوض عند دخولها فى الحرب بمنح استعمارية فى إفريقية ، ولكن الحلفاء نكثوا وعودهم فى مؤتمر الصلح ، واكتفوا بما استولت عليه إيطاليا فى أوربا من تراث النمسا . ولكن إيطاليا الفاشستية شددت فى طلب الوفاء بالعهود المقطوعة ، واستطاعت أن تحصل على مزايا استعمارية جديدة فى افريقيــة ، مثل استيلائها على واحة جغبوب المصرية وواحة المويتات السودانية بفضل نفوذ انكلترا ، واستيلائها على منطقة شاسعة من السودان الفرنسى بمقتضى المعاهدة الفرنسية الايطالية الأخيرة . ولما اعتقد موسولينى أنه سما بإيطاليا وقواها العسكرية والمعنوية إلى أرفع مكانة ، اتجه بأنظاره إلى الحبشة ، ورأى أنه بغزوها واحتلالها يمحو وصمة الماضى المؤلم ، ويحقق حلم إيطاليا المحطم فى انشاء امبراطورية استعمارية كبيرة تشمل الأرتيرية والصومال والحبشة . وها نحن أولاء نشهد منذ أشهر قوى الفاشستية تتدفق بواسطة قناة السويس إلى شرق إفريقية ، وها هى تغزو أراضى الحبشة ؛ وهكذا يزمع الاستعمار الأوربى أن ينقض على آخر وحدة مستقلة فى إفريقية ليفترسها كما افترس سائر أخواتها من قبل ، وليعم الاستعباد جميع أرجاء القارة السمراء

وليس من موضوعنا أن نتحدث هنا عن مصاير هذه الحرب الاستعمارية الجديدة ، فان فى الحبشة شعباً باسلا استطاع منذ فجر التاريخ أن يذود عن حريته واستقلاله ، واستطاع حتى فى العصر الحديث أن يلقى على أولئك الذين يتربصون به اليوم درساً عميق الأثر ، ولكننا نلاحظ بهذه المناسبة أن إيطاليا الفاشستية تذهب بعيداً فى أحلامها القيصرية . أجل إن موسولينى يتشح اليوم بثياب قيصر ، ويفكر على طريقة الدولة الرومانية ، ويتصور أنه يستطيع بما اكتمل له من الاستعداد الحربى أن يخلق دولة القياصرة من جديد ، وأن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية ، وأن يرد مصر — بعد الاستيلاء على الحبشة — إلى حظيرة الامبراطورية الرومانية الجديدة ؛ ولكن موسولينى ليس بقيصر ، وليست إيطاليا الفاشستية بالدولة الرومانيــة ، وهيهات أن يسمح العالم الحديث لهذه الفاشستية المحمومة بأن تضع لمحة من أحلامها المريضة موضع التنفيذ . ولقد كانت إيطاليا منذ جيلين فقط أمة مستعبدة ممزقة تجاهد لاستقلالها ووحدتها ، ولكنها اليوم ، وهى حديثة عهد بنعمة الاستقلال ، لا ترى بأساً من أن تجنى على استقلال شعب حر باسل ، لأنها فقط تحلم بافتتاحه واغتيال أرزاقه ؛ ولكننا نحن الذين لا يؤمنون بعظمة الفاشستية ، ولا بخلالها ووسائلها المثيرة ، نتوقع أن تكون هذه المغامرة الدميمة - وقد اجترأت الفاشستية على تنفيذ مشروعها - قبر الفاشستية وقبر مطامعها وأحلامها الدموية الأثيمة

« تم البحث » (***)

٤ – الشعر *

في صدر الإسلام وعهد بني أمية

بقلم أحمد حسن الزيات

٣ – خصائص الشعر في العراق

وكأن الهجاء كان في جرير غريزة يرمى الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع العاملي، فقال له الخليفة: أتعرف هذا؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، فقال: هذا رجل من عاملة، قال جرير: التي يقول فيها الله: «عاملة ناصبة تصلى نارا حامية»، ثم قال بيتا قبيحا وردّ عليه عديّ بمثله، فهجاه جرير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور:

وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ ... لم يستطع صولة البُزْل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والأذاء، فاشتهت أن تراه فيه، حتى صُوِّرت لها تلك الأمنية في الحلم، فرأت وهي حامل به أن حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد، فلما تأولت رؤياها قيل لها: إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء، فسمته لذلك جريراً؟ وسواء أرأت أمه هذه الرؤيا أم افترتها، فقد كان لها ولا ريب أثر قوي في توجيه قريحته منذ طفولته.

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعد مستقاه فيه، وما استطاع الفرزدق أن يعجزه إلا في مشواره، فهو يقول له بحق:

غلبتك بالمفقئ والمعنّي ... وبيت المحتبي والخافقات

يريد بالمفقئ أو المفقئ قوله:

ولست ولو فقأت عينك واجداً ... أباً لك إن عُدّ المساعي كدارم

وبالمعنّي قوله:

وإنك إن تسعى لتدرك دارماً ... لأنت المعنّى يا جرير المكلَّف

وبالمحتبي قوله:

بيتاً زرارة محتب بفنائه ... ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله:

وأين تُقضى المالكات أمورها ... بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهي من عيون شعره ومتين فخره.

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب، فإنه أجمل خصومه صياغة، وأوفرهم بلاغة، وأرقهم لفظاً، وألطفهم مدخلاً، وأكثرهم افتناناً. ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء، دون الرواة والعلماء.

وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعاني الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالمخبل القريعي، وحسان بن ثابت، والحطيئة، في الابتداء بوصف الطلل والغزل، والاعتماد على المفاخرة والمنافرة، وتلمس العيوب من خبايا الماضي، والانتقال المقتضب من معنى إلى معنى. وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار، فإن كلا الرجلين إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل، فلا تراه يعدل عنها، ولا يكاد يزيد عليها، وإنما رددها في كل قصيدة أو نقيضة في أساليب شتى وقواف مختلفة، فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن لا يضيرنا بعدها ألا نقرأ غيرها. كذلك إذا ألممنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير فقد ألممنا بسائر الهجاء في هذا الطور، لأنه مصوغ من مادته ومضروب على مثاله.

على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء الفردي، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهُجر ولا يتورعون عن الكذب تراهم في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين، فيفاخرون بالنسب، ويكاثرون بالعديد والمال، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف، بيد أنهم يغلون في الفخر حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن.

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث:

اكسع البصري إن لاقيته ... إنما يُكسع من قل وذل

واجعل الكوفي في الخيل ولا ... تجعل البصري إلا في النفل

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي يصدر حديثاً.

وإذا فاخرتمونا فاذكروا ... ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عثنونه ... وفتى أبيض وضاح رفل
جاءنا يخطر في سابغة ... فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا ... وكفرتم نعمة الله الأجل

ومن هجائه السياسي الديني قوله مرتجزاً في الحجاج:

شطت نوى من داره بالإيوان
إيوان كسرى ذي القرى والريحان
إن ثقيفاً منهم الكذابان ... كذابها الماضي وكذاب ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان ... إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان ... بالسيد الغطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالدبى من قحطان ... أقبل الحجاج ولي الشيطان
يثبت لجمع مذحج وهمدان ... فإنهم ساقوه كأس الذيفان
وملحقوه بقرى ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل التفوق والبقاء، كثير النفاق والرياء، لطمع الشعراء في حباء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة. وليس الهجاء الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر. وما نزعم بهذه التسمية أن الأسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفة في عصر الجهالة مشروعة في عهد النبوة، إنما نقصد بالشعر السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في الرأي، وتنازع الزعماء في الحكم. جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة، نستطيع أن نردها إلى أربع: فقد أتت في صورة المدح المشوب بالتحريض والتعريض، كقول أبي العباس الأعمى:

أبني أمية لا أرى لكم ... شبهاً إذا ما التفت الشيع
سعة وأحلاماً إذا نزعت ... أهل الحلوم فضرها النزع
أبني أمية غير أنكم ... والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتمو فيكم عدوكمو ... فسما بهم في ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم لقومكم ... مثل الذي كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لردهم ... حذر العقوبة إنها تزع

وكقول الكميت:

بني هاشم رهط النبي فإنني ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم مني جناحي مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وأرمي وأرمى بالعداوة أهلها ... وإني لأوذى فيهم وأؤنب

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح، لما تجمع لهم من الترغيب في المال، والترهيب بالملك، والتمليق لهوى النفوس، فمدحهم ونصرهم أكثر الشعراء في عصرهم، إما دفعاً لشرهم وإما طمعاً في خيرهم، حتى الذين شايعوا خصومهم من الزبيريين والعلويين لم يستطيعوا حبس لسانهم عن عطايا القصر.

وقد يأتي الشعر السياسي في صورة الهجاء كما مر، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك:

آل الزبير من الخلافة كالتي ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... ما لا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم ... كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهم ... ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلاً مغلقاً ... فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وقد يكون اقتراحاً لسياسة واستطلاعاً لرأي، كقول مسكين الدارمي، وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأي قومه في ذلك:

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلاً وهن هجود
ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد
بني خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

فلما أتم إنشاده قال له معاوية: ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله.

ومثل ذلك حدث من عبد الملك، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة الناس فقال:

لابنك أولى بملك والده ... ونجم من قد عصاك مطرح
داود عدل فاحكم بسيرته ... ثم ابن حرب فإنهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم ... واحي بخير واكدح كما كدحوا

فابتسم عبد الملك ولم يتكلم ؛ فعلم الناس أن ذلك أمره

ثم يكون أحياناً جدلاً في رأى أو بياناً لمذهب ؛ فمن الجدل السياسي ما وقع بين كعب بن جعيل والنجاشي في المفاضلة بين على ومعاوية . فقد قال كعب :

أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا على إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكل يسر بما عنده ... يرى غث ما في يديه سمينا
وما في على لمستعتب ... مقال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ... ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا هو سر ... ولا بد من بعض ذا أن يكونا

فلما بلغ ذلك الإمام علياً أمر النجاشي أن يجيبه فقال :

دعن معاوى ما لم يكونا ... لقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم على بأهل العراق ... وأهل الحجاز فما تصنعونا ؟
يرون الطعان خلال العجاج ... وضرب الفوارس في النقع دينا
هم هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا
فإن يكره القوم ملك العراق ... فقدماً رضينا الذي تكرهونا
فقولوا لكعب أخي وائل ... ومن جعل الغث يوماً سميناً :
جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند ألا تستحونا ؟

ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الامامة :

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء :
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء

وكقول ثابت قطنة ، وهو من شعراء الأمويين ، يفصل مذهب الأرجاء :

يا هند فاستمعي لي إن سيرتنا ... أن نعبد الله لم نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الاسلام كلهم ... والمشركون استووا في دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحداً ... في الناس شركاً إذا ما وحدوا الصمدا

إلى أن قال :

كل الخوارج مخطي في مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما على وعثمان فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا

هذه جملة المعاريض التي عرضت بها المعاني السياسية ، ولعلك تلاحظ من هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسج ، نابية القافية ، بادية التكلف ، تشبه من بعض الوجوه نظم المتون . وعلة ذلك أن اتصالها بالوجدان ضعيف ، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره ، أو شعور ممالق ، أو قريحة كابية ؛ والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجرير ، وبين شعر هؤلاء الذين ذكرنا كالفرق بين من يعبر عن شعوره وحسه ، ويدافع عن قبيله ونفسه ، وبين من يتصل لسانه بقلب غير قلبه ، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية وعواطف نفسية ، ونوازع عصبية ، فكان لشعرهم جمال الاخلاص وروعة اليقين ، وقوة الحقيقة ؛ أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج ، فحق علينا ونحن في مقام البحث في شعر العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم ، لنستشف من خلالها صور مذاهبهم وأفكارهم

(يتبع) الزيات

يوم افتتاح المدارس

صور دمشقية سوداء

طبق الأصل ...

للأستاذ علي الطنطاوي

ذهبت أمس إلى المدرسة الأمينية [1] ، وهي المدرسة الإسلامية التي انحطمت على جدرانها ثمانية قرون وهي قائمة ، وماتت من حولها ثمانمائة سنة وهي حية ، ونشأت دول وانقرضت ، وبدئت تواريخ وختمت ، وتبدلت الأرض وتغيرت ، وهي ماضية في سبيلها ، عاكفة على عملها ، قد انقطعت عن الأرض من حولها ، واتصلت بالسماء من فوقها ، فعاشت في سماء العلم والناس يعيشون في أرض المادة . . .

دخلتها فإذا هي صامتة ساكنة ، لا يسمع في أبهائها صوت مدرس يدرس ، أو دارسين بتلاوة ، وإذا في كل فصل من فصولها رهط من التلاميذ ، متفرقون في زوايا الفصل ، لا تنفرج شفاههم عن بسمة السرور ، ولا تلمع عيونهم ببريق الجذل ، وإذا الأستاذ صاحب المدرسة قابع في غرفته ، يفكر حزيناً ، وينظر آسفاً ، وهو الذي لم يأل العمل جهداً ، ولم يسئ بالله ظناً ؛ فلما رآني قام إلي يحدثني عن المدرسة ، ويعلمني علمها ، فإذا المدرسة قد زلزلت في مطلع هذا العام المدرسي ، لأن الناس قد مالوا عن المدارس الإسلامية وزهدوا فيها ، وزاغوا إلى المدارس الأجنبية وأقبلوا عليها ، وضنوا على مدارسنا

(١) قال أستاذنا العلامة محمد بك كرد علي في خطط الشام (٦ — ٧٧) : الأمينية : قبلي باب الزيادة المعروف اليوم بباب القوافين من أبواب الجامع الأموي ، وهي شرقي المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح ، وكان به بابها (وبابها اليوم من سوق الحرير) وتعرف هذه المحلة قديماً بباب القباب ، وهناك دار مسلمة بن عبد الملك ، قيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أتابك العساكر الملقب بأمين الدولة ربيع الإسلام أمين الدين كمشتكين بن عبد الله السفتكي المتوفى سنة ٥٤١ وقد بنيت المدرسة سنة ٥١٤ الخ . . . قلت : وجاء ذكرها في ترجمة الغزالي في طبقات السبكي لما زار دمشق ، ودرس بها ابن خلكان وغيره ، وكان لها شأن بين مدارس دمشق كبير

بدينار واحد في العام ، ليمنحوا تلك ثلاثة أرباع الدينار في الشهر ..

وأفاض الأستاذ في البيان ، حتى امتلأت نفسي حزناً ، فخرجت حزيناً فمررت على (الكاملية) [1] فإذا هي في خطب أشد ، ومصيبة أفدح ، فجزت بـ (الجوهرية) [2] فإذا هي ماتت بعد شيخ الشام ، الشيخ عيد السفرجلاني ، وإذا فيها بنات يقرأن ويصحن ويلعبن ، فسلكت على (التجارية) [3] فإذا دارها الكبيرة في زقاق الفخر الرازي ، خلاء قواء ، وإذا هي قد انتقلت إلى الخيضرية فاتخذت فيها داراً ، ورأيت (الجقمقية) [4] القاعة التاريخية الجميلة ، والمدرسة الأثرية الجليلة ، فإذا هي قد اتخذت داراً . . .

فذهبت وأنا أحس الألم يقطع في كبدي ، والأسى يحز في قلبي ، ووددت لو أن الله قبضني إليه قبل أن أرى مدارسنا الإسلامية ، لا تستطيع أن تعيش في البلد الإسلامي ، ولا تجد من يشد أزرها ، ويأخذ بيدها . . . وأممت شارع بغداد ، أروح عن نفسي بخضرة البساتين ، وجمال الكون ، وانطلاق الهواء ، ومنظر الجبل ، فما راعني إلا أفواج من الناس قد ازدحمت على باب بناء كبير ، كأنه قلعة من القلاع ، أو قصر من القصور ، حتى لقد كادت تسد بكثرتها الشارع العريض : ما راعني إلا الناس على باب (مدرسة اللاييك) ، يتدافعون

(١) قال في خطط الشام (٦ — ٧٥) : هي التنكزية دار قرآن وحديث شرقي حمام نور الدين الشهيد وراء سوق البزورية أنشأها نائب السلطة تنكز سنة ٧٣٠ . قلت : وسميت الكاملية الهاشمية لأن الأستاذ الجليل الشيخ كامل القصاب جدد بناءها وجعلها مدرسة ثانوية فكانت حيناً من أرقى مدارس دمشق

(٢) قال في الخطط (٦ — ٩١) الجوهرية شرقي تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطة المعروف اليوم بزقاق المحكمة أنشأها الصدر نجم الدين بن عباس التميمي الجوهري سنة ٦٧٦ ، وكان بعضهم أواخر القرن الماضي قسمها ثلاث دور الخ ... قلت : وقد أعادها مدرسة وجدد بناءها الشيخ عيد السفرجلاني رحمه الله رحمة واسعة

(٣) مدرسة مستحدثة أسسها طائفة من تجار دمشق وكانت قبيل الحرب وأوائله أرقى مدرسة ثانوية في دمشق

(٤) قال في الخطط (٦ — ٩١) هي شمال الجامع الأموي أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فانتزعها الملك الناصر حسن سنة ٧٦١ وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن واحترقت في فتنة تيمور فجدد بنيانها سيف الدين جاقان وخص الخانقاه بالصوفية وأضاف إليها مدرسة للأيتام وتربة الخ .. قلت : وفي هذه المدرسة تخرج أكثر رجال دمشق المعروفين اليوم على يد الشيخ عيد رحمه الله

ويتزاحمون ، كأنهم على باب الجنة ، فكل يطمع أن يسبق إليها ، وكلما فتح الباب لواحد ، لحظته العيون بالغيظ ، ورمقته بالحسد . . .

فسألت قوماً أعرفهم ينظرون كما أنظر ، ماذا هناك ؟ فقالوا : هم المسلمون يريدون أن يسلموا أبناءهم إلى رجال اللاييك ليصبوا في قلوبهم ما يشاءون من عقائد باطلة في الدين ، وعواطف زائفة في الوطنية ، وزهادة في اللغة ، وكره للتاريخ الاسلامي ، والقومية العربية ، ويدفعون إليهم الأموال الطائلة ، وما يشترون بها إلا الكفر لأبنائهم ، والزيغ والالحاد ، وحب الغريب ، وبغض القريب ، وما يشترون بها إلا أعداء لهم ولأوطانهم ، يحاربونهم في دورهم ، ويغزونهم في أخلاقهم وعقائدهم ، وهم قد انحدروا من أصلابهم ، وخرجوا من ظهورهم ؛ أفرأيت بلاء أشد ، وخزياً أكبر ، من أن يحاربونا بأبنائنا ، ويأخذوا على ذلك أموالنا ؟ . . .

فقلت : لا والله ! وسرت ، أخشى أن يتمزق والله من الألم كبدي ، فمررت على (مدرسة الفرير) فاذا الجموع أكثر ، والازدحام أشد ، والمسلمون يرجون الخوري . . . أن ينسي أبناءهم القرآن ، ليحفظهم الإنجيل ، ويبغض إليهم محمداً وأبا بكر وعمر ، ويحبب إليهم بطرس ولويس ونابليون . . .

فسرت مسرعاً ، لا يطول بي وقوف فتحرقني نار الحزن ، وأخذت طريقي إلى مدرستي ، أسلك إليها شارع البرلمان ، فاذا على باب (مدرسة الفرنسيسكان) أمام الكنيسة الفخمة ، جمهور من المسلمين لا يحصيهم عد ، يأخذون بأيدي بناتهم ، ليدخلوهن إليها . . . فمدت أدراجي إلى شارع الصالحية فأخذت حافلة (الترامواي) إلى مدرستي في حي المهاجرين ، في لحف جبل قاسيون

***

ولم يستقر بي في المدرسة مقام ، حتى أقبل علينا شيخ من مشايخ المسلمين ، على رأسه عمة بيضاء كأنها برج ، وحول يده كم كأنه خرج ، تتدلى منه سبحة لا يفتأ يعد حباتها ويلعب بها ، وقد تخطى مرة فيسبح عليها ، يجر بيده ولداً ، فخذاه مكشوفان وعلى رأسه كمة [1] فقلت له :

— ما هذا يا شيخ ؟ أعورة من أعلى ، وعورة من أسفل ؟

— قال : وما ذاك ؟

— قلت : ألم يكفك أن تكشف عورته ، وأنت تذكر الله ، وتتلو كتابه ، وتظهر منه ما أمر الله بستره ، حتى تضم إلى العورة عورة أخرى تجيء من فوق رأسه ، فتلبسه القبعة ؟

— فقال (ولوى لسانه وتفيهق وتشدق) : ما هي بعورة في مذهبنا

— قلت : وما مذهبك يا مولانا ؟

— قال : مذهب الامام مالك

— قلت : ذاك إن لا يفرق بين عورة الملتحي وعورة الأمرد ، هذا الذي في مذهب مالك ، لا مع مثل ابنك الذي لا تؤمن معه الفتنة

وإذا أنت فهمت مذهب مالك بهذا الفهم الأعوج ، أفليس في الناس فساق ، يأكلون عرض ابنك على مذهب مالك ، ما دام مذهب مالك حجة يحتج بها كل ماجن وفاسق ... رحم الله مالكاً وجعل افتراءكم عليه حسنات له

***

وتركته وقمت إلى قسم الشهادة الابتدائية ، أرى التلاميذ ... فاذا أكثرهم لا يستر إلا نصفه الأعلى ، وإذا هم متأنثون مائلون مميلون ، فجعلت أسألهم من هنا وهناك ، فقلت :

— ما شروط الصلاة ؟ من يعرفها منكم ؟

— قالوا : لا نعرفها ، درس الديانة ليس من دروس الامتحان، فلا نحفظه

— قلت : فماذا قرأتم في السنة الماضية ؟

— قالوا : وماذا نقرأ ، عندنا ساعة واحدة في الأسبوع . . .

— قلت : فلنبحث في التاريخ ، من يحدثنا عن وقعة اليرموك ، أو القادسية ؟

— قالوا : ما قرأناها . . . نحدثك عن سيرة نابليون ، ووقعة واترلو . . . هذا ما قرأناه وسنقرؤه في هذا العام . . .

***

وبعد . . . فهذا طرف من الحقيقة ، وقليل من كثير من الواقع ، أسوقه بلا تعليق !

(دمشق) علي الطنطاوي

(١) الكمة هي (البيريه) وهي جنس من القبعات فتن بها الناس عندنا فألبسوها أبناءهم فصار يهون عليهم إذا كبروا لبس القبعة ، فاذا لبسوها مرقوا لها حقها ، وما حقها إلا التفرنج ، وترك العربية بالكلية

من تراثنا الأدبي

١ - أبو العيناء

بقلم محمود محمود خليل

أبو العيناء ونسبه

أبو العيناء كاتب منشئ من كتاب القرن الثالث الهجري الحافل بأساطين الأدب وجلة العلماء، ولكنه كاتب ضرير البصر من العباقرة الذين سجل لهم التاريخ الذكر الحسن، أمثال أبي العلاء المعري وبشار بن برد وأضرابهما، وكأن سنة الله قد جرت في الخلق أن يقترن فقد البصر غالباً بالنبوغ والعبقرية، ولن تجد لسنة الله تبديلا. وإذا كان القدر قد أتاح لشاعر المعرة فطاحل الكتاب والأدباء يدرسونه ويمحصونه، ويستخلصون فلسفته من شعره، فلا أقل من أن يدرس أبا العيناء الضرير شخص مثلي، وفي اعتقادي أن شخصية أبي العيناء جذابة فكهة كما سترى، وهي تفضل شخصية شاعر المعرة العبوس المتبرمة من هذه الناحية

يحدثنا الرواة أن أبا العيناء اسمه أبو عبد الله محمد بن القاسم ابن خلاد بن ياسر بن سليمان، وأصل قومه من بني حنيفة من أهل اليمامة، ولحقهم سباء في خلافة المنصور العباسي، فلما صار ياسر في يد المنصور أعتقه، فهم موالي بني هاشم

مولده ونشأته

وُلد أبو العيناء بالأهواز في آخر المائة الثانية للهجرة، ونشأ بالبصرة، وبها طلب الحديث وكسب الأدب؛ وكان على استعداد تام للحرص على كل ما يلقى عليه فأثمرت فيه تربيته بالبصرة الثمر الطيب، وأخرجته رجلاً فذاً في الحياة، مثقفاً إلى درجة حسنة، ولقد هيأته تلك الثقافة إلى رواية الأخبار الطريفة، والملح اللطيفة، والأشعار الجيدة، حتى لقد بلغ به الأمر أن يعرض عليه المتوكل العباسي أن يكون نديمه على شرابه، ويتمنى عليه لو يجيبه، فيمنعه عمى بصره عن الوصول إلى تلك المرتبة السنية، وإن كان قد حاز منزلة سامية من قلب المتوكل. ونرى الأصفهاني في كتابه الأغاني يجعله من رجال سنده في جملة أخبار أتى بها في كتابه، يقول في سند له: أخبرني قدامة عن أبي العيناء عن العتبي

ويمضي أبو الفرج فيروي لنا حديثاً طويلاً بهذا السند في أمر زواج ليلى العامرية برجل من ثقيف وشعر مجنون بني عامر حين بلغه ذلك، وبسند آخر أتى به أبو الفرج. قال أخبرني محمد بن خلف، قال حدثنا أبو العيناء عن القحذمي عن أبي صالح السعدي، ثم يمضي في رواية خبر طويل يتعلق بعمر بن أبي ربيعة، وكذلك ينقل عنه الأبشيهي صاحب كتاب المستطرف؛ وغير هذين المؤلفين كثير، وعد المؤلفين لأبي العيناء من الرجال الذين يعتمد عليهم في رواية الأخبار والأشعار ما هيأه لذلك إلا نشأته بين أولئك الفطاحل من البصريين الذين تغذى بلب علومهم، واستصفى ثمار عقولهم

كان أبو العيناء إذاً يتردد على علماء البصرة يأخذ عنهم. فهل كان في هذا الوقت أعمى أم بصيراً؟ يقول الرواة إنه ما عمي إلا بعد أربعين عاماً من عمره، وهو زمن ليس بالقليل يكون أبو العيناء قد أخذ فيه بحظ وافر من متعته ببصره، والغريب في هذا حقاً أن الرواة يسطرون لنا أسطورة عن سبب عماه، وهي أن جده الأكبر لقي علي بن أبي طالب (ض) فأساء مخاطبته. فدعا عليه وعلى ولده بالعمى، فكل من عمي منهم فهو صحيح النسب، فهذا الخبر إن صح ينبثق منه شعاع من الحقيقة يتحكم فيه قانون الوراثة، فقد ورث عن آبائه سلاطة اللسان

قال أبو العيناء حاكياً عن نفسه: أنا أول من أظهر العقوق لوالديه بالبصرة، قال لي أبي إن الله قد قرن طاعته بطاعتي، فقال تعالى: «أن اشكر لي ولوالديك» فقلت يا أبت إن الله تعالى قد أمنني عليك ولم يأمنك عليّ. فقال: «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم»، ولم يقف بسلاطته تلك على أهله وذويه، فإن الناس كلهم كانوا يخافون معرة لسانه، والسهام التي يقذفها في كلامه، وتستطيع أن تجد له أخبارا كثيرة في كتب الأدب تؤيد ما ذهبنا إليه، فهذا موقفه مع فتى ماجن أراد العبث به مرة. فقال له يا أبا العيناء متى أسلمت؟ قال حين أسلم أهلك وأبوك الذين لم يؤدبوك . . . الخ ذلك الخبر، وموقف آخر مع عيسى بن فرخان شاه الذي كان يتولى الوزارة ويتيه فيها على أبي العيناء، فلما عزل لقيه أبو العيناء في الطريق فسلم عليه وأحفى فقال له: والله لقد كنت أقنع بإيمائك دون بيانك، وبلحظك دون لفظك، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة، فلقد أصابت فيك النقمة، ولئن كانت الدنيا أبدت

مقابحها بالاقبال عليك ، فلقد أظهرت محاسنها بالانصراف عنك ، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم

وموقف ثالث يقفه أبو العيناء مع بعض الوزراء فى مجلسه إذ يمدح البرامكة ويذكر سخاءهم وجودهم فيقول الوزير إنما هذا من تصنيف الوراقين ، وكذب المؤلفين ، فقال أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير ؟ فأسكته وعجب الحاضرون من إقدامه عليه

فهذه الأخبار وغيرها كثير تعطينا فكرة صحيحة عن سلاطة لسانه التى امتاز بها بين الأدباء المعاصرين له ، حتى كان الوزراء وأرباب المناصب وغيرهم يخافونه ويتقون لسانه بل يدارونه ، وتلك اللسانة كما قلت كانت موروثة عن آبائه ، فقد علمنا كيف أقدم جده الأكبر على على بن أبى طالب (ض) ، وأساء مخاطبته حتى دعا عليه ، وحتى استجيبت دعوته فيه وفى أحفاده من بعده . ولكن أبا العيناء يعتذر عن بذاءة لسانه حين سأله المتوكل على الله بقوله بلغنى عنك شر . فقال يا أمير المؤمنين إن يكن الشر ذكر المحسن باحسانه ، والمسيء باساءته ، فقد زكى الله وذم ، فقال فى التزكية : (نعم العبد إنه أواب) ، وقال فى الذم : (هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم) وقال الشاعر :

إذا أنا لم أمدح على الخير أهله ولم أذم الجبس اللئيم المذمما

ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفما

وإن كان الشر كفعل العقرب التى تلسع السنى والدنى بطبع لا يتميز فقد صان الله عبدك عن ذلك

وفى الحق إن أبا العيناء لم يكن يسفه على أحد من الناس إلا على من يتعرض له باساءة ، فاذا تجرأ على هذا شخص فويل له من لسانه ، ولقد أجاب المتوكل إذ قال له كم تمدح الناس وتذمهم فقال ما دام المحسن يحسن والمسيء يسيء ، وغرضه بهذا أنه يعطى كل إنسان ما يستحقه من مدح أو ذم ، ولقد مدح أناساً كثيرين ولكنه ذم أكثر ممن مدح ، وإنا وإن كنا نعتقد أن أبا العيناء قد أسرف فى الذم اسرافاً كثيراً ، فان من الحق علينا أن نعترف أن هناك عوامل أخرى جملته يسرف هذا الاسراف ، وسنعرف بعد ما هى هذه العوامل

(يتبع) محمود محمود خليل



في الأدب الإنجليزي

٣ – الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

لم يحاول شكسبير إظهار شخصيته من خلال رواياته ، ولكن كارليل يقول عنه : « إن روايات شكسبير هي كنوافذ متعددة يظهر من خلالها ما كان يدور في نفسه من الأفكار والخواطر » . ومن كل رواية من رواياته يمكننا أن نتبين الحالة العقلية التي كان فيها لما أنشأها وكتبها . ففي هملت لم يكن تفكيره محصوراً إلا في البحث في الأشباح ، بينما كان في مكبث مشتغلاً بالسحر والسحرة .

وفي كل من روايتيه تتحقق النبوءات التي تتنبأ بها الأشباح والساحرات . ولكن هناك ثمة فرقاً ضئيلاً بين كل من الروايتين ، وذلك الفرق هو أن نبوءات الشبح في هملت هي من أمور الماضي بينما هي في مكبث من أمور المستقبل .

وقد قال جبسن عند كلامه عن الناحية ما يؤكد هذه النظرية ، فهو يقول : « هل كان في استطاعة شكسبير أن يجعل من جميع هذه النبوءات الخيالية حقائق راهنة إن لم يكن يعتقد الاعتقاد كله بهذه الأمور من عالم الخيالات والأشباح ؟ » (1)

وفي رواية الملك هنري الرابع يرى هتسبر (Hotsper) يعارض اعتقاد جلندور (Glendower) أن في استطاعته أن يسخر الأرواح والشياطين في مهامه الخصوصية ، فهو يتحداه بقوله : « إنك تعتقد أن في امكانك مخاطبة الأرواح ولكن هذا في استطاعتي أنا وفي استطاعة أي رجل آخر . وقد فاتك يا هذا أنها لا تجيبنا عند ما ندعوها أو نخاطبها »

وهذا الشك لا يلبث أن يزول عند ما يقدم جلندور البرهان الكافي فتخاطبه الأرواح كأنه فرد من أفراد جنسها ، وهذا الاعتقاد بالخرافات كان مستولياً على شكسبير لدرجة عظيمة حتى إنه كان يضع المجبين والمجانين والشعراء في مصاف من يستطيعون

(1) Gibson Sh. Use of the Supernatural P. 6

الاتصال بالعالم العلوي ، وفي رواية هنري السادس نراه يجمع بين ما هو في عالم العقائد وما هو في عالم الخرافة ، وقد لخص عقيدته في رواية هملت إذ يقول : « إن هناك في السماء أموراً عدة يا هوراشيو Horatis مما ليس في استطاعة العالم البشري فهمها أو التفكير فيها »

أو حين يقول في رواية أخرى :

« يقولون إن زمن المعجزات قد انتهى وآن لنا أن نفكر في كياننا الفلسفي فقط فنجعل من الخرافات مسائل عصرية يقبلها العقل ويستسيغها المنطق . ولما كنا نستهزئ بالمخاوف والأشباح متسترين برداء من العلم والمعرفة فعلينا ألا نكون عرضة لمخاوف غير مرئية وهذا مما لا يتأتى لنا » (1)

إن في استطاعتنا أن نستنتج من هاتين الفقرتين السابقتين أن شكسبير كان يؤمن بالخرافات والغيبيات ، فهناك عدد غير قليل من الأمور التي ليس في استطاعتنا فهمها أو التعبير عنها . فلا يمكن مثلاً انكار وجود عدد من المعجزات التي يكثر حدوثها فوق ظهر هذه البسيطة ، وما العالم العلوي إلا محيط لا يمكننا حل ألغازه وتفهم معانيه . فإن من طبيعة البشر أن يكونوا خاضعين لعالم غير عالمهم يجهلونه ويخافونه ، وما المحاولات التي يقوم بها العلماء لإسناد كل ظاهرة طبيعية إلى عاملها العلمي إلا محاولات خالية من الإقناع وطريق البرهان

قلنا إن شكسبير كان يؤمن بعدد من هذه المخلوقات الغيبية ، وقد جمعها في رواياته محاولاً إظهارها بصور رائعة من الخيال والسمو الفكري ، وأولى هذه الأنواع وأهمها هي ظاهرة الجنيات

الجنيات (Fairies)

إن هذه الجنيات هي بقايا المعبودات والآلهة المحلية التي كانت سائدة على القرى الانكليزية في عصر من العصور ، وما العقيدة الشائعة أن هذه الجنيات قد تسلسلت من الآلهة اليونانية والرومانية القديمة إلا حديث خرافة لا أصل له من الصحة والصدق . وهناك نفر غير قليل من النقاد يرجعونهن إلى أصل بشري ، فما هن إلا ذرية سكان بريطانيا الأقدمين الذين طردهم السكسون عند استيلائهم على البلاد ، فلم يجدن غير الغابات ملجأ يلجأن إليه ومكاناً يستطعن العيش فيه مدة حياتهن

(1) All is Well . . . II 3 . 1

القادمة ، وأصبحن يعرفن فيما بعد بالجنيات

وهذه المخلوقات العجيبة كانت على أنواع عدة ، فمنها ما هو أسود اللون ، ومنها ما هو أخضره أو أبيضه أو رماديه ، وفى كثير من الروايات يصفهن شكسبير ، فهو يقول فى موضع من رواياته (نساء وندسور المرحات) واصفاً إياهن بقوله : إنهن سوداوات اللون أو رماديات أو خضراوات أو بيضاوات

وكن لا يخرجن إلا فى غسق الليل ، فيعقدن مجالس الأنس والطرب تحت ظلال الأشجار ، بينا أهل الأرض نيام . وفى (العاصفة) نرى بروسبيرو يخاطب إحدى هذه الجنيات قائلا : « ستخرجين الليلة ويصيبك فيها برد شديد ، قد يؤدى إلى تشنج فى أعصابك فتألمين منه أشد الألم ، وستحيط بك الجنيات فى الليل فينفذن فيك ما لهن من قوة »

تعيش الجنيات فى الحقول المغطاة بالأزهار والرياحين ، أو فى الأماكن الخلوية من اليابسة والماء ، سيان عندهن التلال والوديان ، الغابات والمروج ؛ وكثيراً ما تراهن بجوار الينابيع وضفاف الأنهار ؛ أو فى أعماق المحيطات والبحار ، وقد وصف الشاعر أحد هذه الأمكنة بقوله : « إنى لأعرف شاطئاً تهب عليه الرياح ، وتنبت فيه أزهار الياسمين والزنبق محاطة بالورود الجميلة المنظر » أما الملكة فهى تود الاجتماع فى جميع الأماكن التى اعتدن فيها اللقيا ، فهى تلقى الأوامر على أفراد رعيتها قائلة : « لنلتق على التلال أو فى الوديان ، بجانب الينابيع المرصوفة ، وعلى شواطئ الأنهار الذهبية ، أو فى أعماق البحار الرملية ، وهناك نحتفل برقصنا على موسيقى الرياح الهائجة »

إن أشهر أسماء هذه الجنيات التى ذكرها شكسبير فى رواياته ثلاثة أولها أبيرون (Oberon) الذى يعتبر ملكا على هذه الطائفة من المخلوقات ؛ أما تيتانيا (Titania) فكثيراً ما يطلق عليها اسم الملكة ماب (Queen Mab) وهى تعتبر باعثة للأحلام كما يظهر من رواية روميو وجوليت : « إنى لأعتقد أن الملكة ماب كانت معك فهى وصيفة الجنيات وملكتهن لا يزيد حجمها على حجر صغير أو إصبع من أصابع الرجال ، وكثيراً ما تصبح بشكل ذرة ترتكز على أنوف الناس عند نومهم » فهى تبعث الأحلام والأخيلة اللذيذة ، ولكنها لسوء حظ البشر فى صراع دائم مع زوجها الملك أبيرون ، ومن هذا الصراع قد يتأتى ما يتأتى من الشرور والأضرار لبنى البشر . أما آخر هذه الأسماء وهو بك (Puck) فهو رسول الملك وحامل أوامره

فى الفقرة السابقة رأينا الملكة ماب بحجم صغير ، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن الجنيات ذوات حجم ضئيل ، وقد وصفهن شكسبير فى رواية العاصفة بقوله « حيثما تهبط النحل أهبط أنا وفى استطاعتى أن أنام داخل جرس من الأجراس فأتخلص من نعيق الغربان والبوم » . وقد يتمكن من الظهور بحجم أصغر فيختفين داخل كؤوس الشراب

ولا ينتظر من هذه المخلوقات الضئيلة إحداث أمر سيئ للبشرية لولا أنها فى نزاع دائم مستمر . ثم إن صفاء نيتهن كان سبباً فى خلق بعض الآلام إلا أنهن كن لا يلبثن أن يزلن ما أحدثن بمهارة وروية . وكثيراً ما تراهن يتعاطين المزاح فيروعن فتيات القرية ويخفنهن فرأينا إعوجن (Imogen) فى سمبالين (Cymbeline) تخاف هذه المخلوقات وتسأل وصيفتها أن تلازمها لتحميها منهن فهى ترجوها قائلة « أرجوك حمايتى من الجنيات ودلاج الليل »

ولكننا نراهن فى الغالب يحفزهن حب الخير وعمله فيقمن بأعمال جمة لفائدة البشرية ونفعها ولا يعد روبن هود (Robinhood) إلا فاعلاً من فعلة الخير ومريديه . فهو يتلقى الأوامر من مليكه ويعرضها على أفراد الشعب وهو يستمع إلى أبيرون حين يقول : « على كل جنى أن يقف بالباب المعين له ، وعليه أن يبارك من فى الغرفة ويدعو لهم بالسلام والطمأنينة » . وكثيراً ما دعت الجنيات للأزواج الحديثى العهد بالسرور والبركة وتلقفن أطفالهم بعين الرعاية والعطف حتى يشبوا ولم يعرفوا الألم قط . وهاهو أبيرون يقول « دعنا نذهب إلى فراش كل عروس جديدة فنباركها فتلد غلاماً يلازمه السرور وترعاه العناية »

(يتبع) فخرى حماد

كتب ابن المقفع

للأستاذ بشير الشريقي

١ — أبو محمد عبد الله بن المقفع كاتب بليغ مشهور امتاز بأسلوبه الجميل السهل الرشيق، لا أعرف بين أدبائنا القدماء والمحدثين من هو أقدر منه على الكتابة والتعبير إلا عمرو بن بحر الجاحظ. كان ماهراً في تصوير طبائع الناس وأهوائهم وميولهم، احتوت كتبه الحكمة والأدب والأمثال، كما احتوت قواعد عامة في الإدارة والسياسة والأخلاق.

٢ — وهو فارسي الأصل اسمه في الفارسية «روزبه» ولد في «خوز» من أعمال خراسان حوالي سنة ١٠٦ هجرية، ونشأ في البصرة، وقد ظل يدين بالمجوسية دين آبائه حقبة من الزمن، ثم اعتنق الإسلام وقد بلغ السابعة والعشرين من عمره، قال الهيثم بن عدي يذكر قصة اسلامه: «جاء ابن المقفع إلى عيسى بن علي عم المنصور، فقال له: قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك، فقال له عيسى: ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس، فإذا كان الغد فاحضر؛ ثم حضر طعام عيسى عشية ذلك اليوم، فجلس ابن المقفع يزمزم على عادة المجوس فقال له عيسى: أتزمزم وأنت على عزم الاسلام؟ قال: أكره أن أبيت على غير دين»

٣ — وكما اشتهر عبد الله أنه كاتب كبير، فقد اشتهر أنه مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة، فهو أول من اعتنى في الإسلام بترجمة الكتب القيمة، ترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق، ونقل كتاب «التاج في سيرة أنوشروان»، وقيل إن كتاب «كليلة ودمنة» كان باللغة الفارسية فنقله إلى اللغة العربية. قال الباقلاني: «ابن المقفع ينحط إذا كتب ويعلو إذا ترجم، لأن له في الأولى عقله وفي الثانية كل المعقول»

وقال الجاحظ: «كان ابن المقفع مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة»

٤ — لابن المقفع من الكتب كتابا «الأدب الصغير والكبير»، وكتاب «الدرة اليتيمة»، وكتاب «التاج في سيرة أنوشروان»، وكتاب «كليلة ودمنة»؛ وكتب في المنطق. وهذه الكتب منها الموضوع ومنها المنقول، فكتابا «الأدب الصغير والكبير» و«الدرة اليتيمة» من تأليف ابن المقفع؛ أما كتب المنطق وكتاب «التاج» فهي منقولة عن الفارسية التي يجيدها الكاتب اجادة عجيبة، واختلف أهل الأدب في حقيقة كتاب «كليلة ودمنة»؛ فمنهم من قال إن ابن المقفع هو الذي وضعه، وأنه نحله الهند القدماء للترغيب أهل زمانه بمطالعته، ومنهم من قال إنه لم يضعه، وإنما كان باللغة الفارسية ونقله إلى العربية

٥ — وبعد فأرى أن أحدث القارئ عن أشهر كتب ابن المقفع وأكثرها متعة وقيمة، وهي كتاب «الدرة اليتيمة» وكتاب «الأدب الصغير» وكتاب «كليلة ودمنة»، وسيقتصر بحثي على تعريف القارئ بهذه الكتب تعريفاً اجمالياً، ثم على عرض أجمل ما فيها من صور أدبية واجتماعية مع شرح موجز:

٦ — الدرة اليتيمة التي لم يصنف في فنها مثلها تقع في ثمانين صفحة، وتشتمل على فصلين كبيرين، الأول منهما خاص بعلم السياسة ويحتوى على آراء قيمة حكيمة في ادارة الحكومة، وواجبات الحاكم، وعلى وصف دقيق لما يجب أن يكون عليه الأمير من القوة والعدل، والبطش والحلم، والتثبت والعلم؛ والثاني خاص بعلم الأخلاق، يشتمل على قواعد دقيقة في التربية والاجتماع، وعلم النفس وعلى نظرات صادقة في الناس وشؤونهم

حل ابن المقفع في «درته اليتيمة» مسألة كبيرة تلخص في كيف يتسنى للأمير أن يحفظ ملكه ويثبت سلطانه، نقول: إن هذه المسألة قد لفتت نظر كاتب فلورنسي يدعى «مكيافيللي» في القرن الخامس عشر ١٤٦٩ — ١٥٢٧، فوضع كتاباً سماه «الأمير» شرح فيه هذه المسألة شرحاً لا يكاد يختلف في أصوله ومعانيه عن شرح ابن المقفع؛ وكانت ضجة عظيمة حول الكتاب في الدوائر العلمية والسياسية الأوربية، وكان أن أصبح مكيافيللي بفضل كتابه الذي اعتبره الغربيون أول كتاب في العلم السياسي، من أعاظم رجال التاريخ؛ ولما كان المجال لا يسع الكلام باسهاب أكتفي بقولي: إن من يطلع على «الدرة اليتيمة» يرى أن ابن المقفع بحث في أصول سياسة الملك بحثاً مستفيضاً ممتعاً، وإلى القارئ صوراً من «الدرة اليتيمة»:

٧ — قال ابن المقفع:

أحق الناس بالتوقير الملك الحليم العالم بالأمور وفرص الأعمال ومواضع الشدة واللين والغضب والرضاء والمعاجلة والأناة الناظر

في الأمر يومه وغده وعواقب أعماله

اعلم أن الملك اثنان : ملك حزم وملك هوى ، أما ملك الحزم فانه يقوم به الأمر ولا يسلم من الطعن والتسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوى ، وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر

لا يضيعن الوالي التثبت عند ما يقول وعندما يعطى وعند ما يفعل ، فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، وإن العطية بعد المنع أجمل من المنع بعد الاعطاء ، وإن الاقدام على العمل بعد التأنى فيه أحسن من الامساك عنه بعد الاقدام عليه ؛ وكل الناس محتاج إلى التثبت ، وأحوجهم اليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع ، وليس عليهم مستحث

إن الوالي لا علم له بالناس إلا ما قد علم قبل ولايته ، فأما إذا ولى فكل الناس يلقاه بالتزين والتصنع ، وكلهم يحتال لأن يثنى عليه عنده بما ليس فيه

لا يمتنع الوالي وإن كان بليغ الرأى والنظر من أن ينزل عنده كثير من الأشرار بمنزلة الأخيار ، وكثير من الخانة بمنزلة الأمناء ، وكثير من الغدرة بمنزلة الأوفياء ، ويغطى عليه أمر كثير من أهل الفضل الذين يصونون أنفسهم عن التصنع والتمحل

لتعرف رعيتك أبوابك التى لا ينال ما عندك من الخير إلا بها ، والأبواب التى لا يخافك خائف إلا من قبلها

احرص الحرص كله على أن تكون خبيراً بأمور عمالك فان المسيء يفرق من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك

ليعلم الوالي أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود ، فليكابد نقض قولهم وليبطل عن نفسه وعن الملوك صفات السوء التى يوصفون بها

لا يولعن الوالي بسوء الظن لقول الناس ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيباً موفوراً يروح به عن قلبه ويصدر به أعماله

من صحب السلطان لم يزل مروعاً . فساد الملك أضر على الرعية من جدب الزمان

٨ — « الأدب الصغير » رسالة قيمة في علم تهذيب الأخلاق ، تقع في أربعين صفحة كتبت بأسلوب جميل ساحر ، أسلوب فيه حلاوة وعليه طلاوة ، أسلوب تتجلى فيه الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة والمعاني التى إذا طرقت الصدور عمرتها ، وهى مملئة بأصدق الأنباء عن الروح الانسانية تبرهن على مقدرة ابن المقفع العجيبة في تصوير طبائع الناس قال :

على العاقل ألا يحزن على شيء فاته من الدنيا أو تولى وأن ينزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة ما لم يصب ، وينزل ما طلب من ذلك ثم لم يدركه منزلة ما لم يطلب

وعلى العاقل أن يجبن عن الرأى الذى لا يجد عليه موافقاً وإن ظن أنه على اليقين

وعلى العاقل إن اشتبه عليه أمران فلم يدر في أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره

من نصب نفسه للناس إماماً في الدين فعليه أن يبدأ في تعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأى واللفظ والأخدان . معلم نفسه ومؤدبها أحق بالاجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم

الناس إلا قليلاً ممن عصم الله مدخولون في أمورهم ، فقائلهم باغ ، وسامعهم عياب ، وسائلهم متعنت ، ومجيبهم متكلف ، وواعظهم غير محقق لقوله بالفعل ، وموعوظهم غير سليم من الاستخفاف ، يترقبون الدول ، ويتعاطون القبيح ، ويتماينون بالفخر

لا يمنعك صغر شأن امرىء من اجتباء ما رأيت من رأيه صواباً ، واصطفاء ما رأيت من أخلاقه كريماً ، فان اللؤلؤة الفائقة لا تهان لهوان غائصها الذى استخرجها

أعدل السير أن تقيس الناس بنفسك ، فلا تأتى إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك

ومن ورع الرجل ألا يقول ما لا يعلم ، ومن الأرب أن يتثبت فيما يعلم

إقدام المرء على ما لا يدرى أصواب هو أم خطأ جماح ، والجماح آفة العقل

خمول الذكر أجمل من الذكر الذميم

لا يوجد الفخور محموداً ، ولا الغضوب مسروراً ، ولا الحر حريصاً ، ولا الكريم حسوداً ، ولا الشره غنياً ، ولا الملول ذا اخوان

ما التبع والأعوان والصديق والحشم إلا للمال ، ولا يظهر المروءة إلا المال ، ولا الرأى والقوة إلا بالمال ، ومن لا إخوان له فلا أهل له ، ومن لا ولد له فلا ذكر له ، ومن لا عقل له فلا دنيا ولا آخرة له ، ومن لا مال له فلا شيء له . والفقر داعية إلى صاحبه مقت الناس ، وهو مسلبة للعقل والمروءة ، ومذهبة للعلم والأدب ، ومعدن التهمة ، ومجمعة البلايا ، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بداً من ترك الحياء ، ومن ذهب حياؤه ذهب

سروره ، ومن ذهب سروره مقت ، ومن مقت أوذى ، ومن أوذى حزن ، ومن حزن ذهب عقله واستنكر حفظه وفهمه ، ومن أصيب فى عقله وفهمه وحفظه كان أكثر قوله وعمله فيما يكون عليه لا له .

(٩) « كليلة ودمنة » كتاب بليغ يتضمن الجد والهزل ، واللهو والحكمة ، ألفه بيدبا الفيلسوف الهندى رأس البراهمة ، ونقله إلى العربية عن الترجمة الفارسية ، فى صدر الدولة العباسية (عبد الله بن المقفع) رأس الكتاب ، وقيل إن ابن المقفع هو الذى وضعه وأنه نحله الهند القدماء لترغيب أهل زمانه فى مطالعة كتب الحكمة والفلسفة التى لم يكونوا يأبهون لها إلا إذا أسندت للقدماء ، وهو موضوع على ألسن البهائم والسباع والطير ليكون ظاهره لهو للعوام وباطنه رياضة لعقول الخاصة ، وهو معروف متداول فلا داعى للإفاضة فى بحثه

١٠ — ونتساءل : كيف كانت صورة عبد الله بن المقفع وهيئته ؟ كيف كان شكله وطراز جسمه ! هل كان جميلاً ظريفاً قوياً أم على العكس قبيحاً دميماً ضعيفاً ! ماذا كان يلبس ؟ هل كان يهتم بنظافة ثيابه وحسن هندامه ، كيف كانت حياته الخاصة كيف كان يعيش مع نفسه وأهله وخلصائه ؟ هل كان يميل إلى المرح والداعبة والهزل ؟ هل أحب ؟ ما هى قصة حبه ؟ هل كان له زوجات وأولاد ؟ ما درجة اتصاله بأهله وذوى قرباه ؟ أى متاع الدنيا آثر عنده ؟

هذه أسئلة عظيمة الفائدة المتمة لابد وأن تعرض للذهن من يود أن يعرف ابن المقفع ويفهم أدبه ، ولكن أليس عجيباً ألا نستطيع أن نجيب على سؤال واحد منها وأن نكون على جهل تام بحياة أديبنا الخاصة ؟

ليس الذنب فى ذلك ذنبنا ، وإنما هو ذنب مترجمى أدبنا القدماء فهم قل أن اهتموا أثناء ترجمتهم لأديب أو شاعر بحياته النفسية الخاصة ثم بحياة محيطه ، هذه الحياة التى تكون الأديب وتطبع آثاره الأدبية البيانية بطابع الشخصية والذاتية

١١ — كل ما ذكره المترجمون عن حياة ابن المقفع الخاصة كان جملة واحدة أوردوها عرضاً أثناء تحدثهم عن شذوذه الدينى أوردها صاحب الأغانى نقلاً عن الجاحظ قال : كان ابن الحباب ومطيع بن إياس ، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالى ، وحفص بن أبى وردة ، وابن المقفع ، ويونس بن أبى فروة ، وحماد عجرد ، وعلى بن خليل ، وحماد بن أبى ليلى الراوية ، وابن الزبرقان ، وعمارة ابن حمزة ، وجميل بن محفوظ ، وبشار المرعش ، ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً ، وكلهم متهم فى دينه »

نقول إن صحت رواية الجاحظ كان هؤلاء الشعراء والأدباء الذين كانوا يجتمعون على الشراب لقول الشعر ولا يكادون يفترقون هم الذين يمثلون الطبقة الخاصة من الناس التى ذكرها ابن المقفع فى قوله « وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحرز وتحفظ فى كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأنسة واللطف والبذلة والمفاوضة ولا يدخل فى هذه الطبقة إلا واحد من ألف كلهم ذو فضل فى الرأى وثقة فى المودة وأمانة فى السر ووفاء بالإخاء

١٢ — مات ابن المقفع باكراً ، لم يتمتع بالحياة ؛ كان عمره ستة وثلاثين عاماً يوم قتلوه ؛ نعم لم يمت المسكين بل قتل حرقاً بالنار . يا لهول الجريمة ! !

أجمع مترجمو ابن المقفع على أن سبب مقتله كتابته أماناً لعبد الله[1] عم المنصور قال فيه :

« . . . ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله ؛ فنساؤه طوالق ، ودوابه حبس ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حل من بيعته » ، فلما وقف عليه المنصور عظم عليه ذلك وقال : من كتب هذا ، فقالوا له : رجل يقال له عبد الله بن المقفع يكتب لأعمامك ؛ فكتب الى سفيان بن معاوية بن مهلب بن أبى صفرة متولى البصرة يأمره بقتله ، ذكروا أن سفيان كان شديد الحنق على ابن المقفع لأنه كان يعبث به وينال من أمه ولا يسميه إلا بابن المغتلمة »

وإنها لخسارة لا تعوض ، وإنها لجريمة لا تغتفر ، ورحم الله ابن المقفع

شرق الأردن بشير الشريقى

(١) هو عبد الله بن على ، خرج على المنصور بالشام والجزيرة فسير عليه أبا مسلم الخراسانى فهزم جموعه وفر عبد الله إلى البصرة محتمياً بأخويه اسماعيل وسليمان ، فطلبه المنصور منهما فلم يجيباه إلا بأمان لعبد الله يمليان شروطه ، فقبل ذلك المنصور ، فأمرا ابن المقفع كاتبهما أن يحرر أماناً يتصيب فى شروطه ، فكان أن كتب هذا الأمان الذى أفقده حياته

١٢ – شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

فنونه الشعرية : تناول أبو العتاهية لأول أمره من فنون الشعر الغزل والمدح والرثاء والهجاء والعتاب والاستعطاف وما إلى ذلك مما كان يتناوله غيره من الشعراء ، ثم استفرغ بعد ذلك جل شعره في الزهد والوعظ والحكمة والمثل ، فأعطى الشعر العربي من ذلك ثروة عظيمة كانت تنقصه .

فأما غزله فكان يذهب فيه مذهب الشعراء العشاق بجميل بثينة وغيره ، وإن كنا قد ذكرنا في ترجمته أنه لم يكن صادق العشق مثلهم ، ولكن سجيته التي كانت تنازعه من أول أمره إلى قول الزهد ، لم تكن لترضى له أن يذهب في غزله مذهب فساق الشعراء كامرىء القيس وعمر بن أبي ربيعة وغيرهما ، فجاء غزله عفيفاً بعيداً عن الفحش والفجور ، ليس فيه إلا شكوى الصبابة وألم الصد وعذاب الفراق ونحو ذلك من وجدانات أهل العشق ؛ ولعل هذا أيضاً مما كان يرغب المهدي والرشيد في غزل أبي العتاهية ويجعلهما يغضبان عليه إذا أراد أن يتركه إلى الزهد ، مع أنهما كانا لا ينظران إلى غزل أحد غيره بتلك العين التي نظرا بها إلى غزله ، وأمر المهدي مع بشار في غزله معلوم ، وكذلك أمر الرشيد مع أبي نواس ؛ وقد شاع الغزل بالمذكر في عصر أبي العتاهية فصان نفسه عنه ، ولم يدنس شعره به ، وهذه شهادة مسلم بن الوليد في غزل أبي العتاهية . ذكر أبو الفرج أن مسلماً قال : كنت مستخفاً بشعر أبي العتاهية فلقيني يوماً فسألني أن أصير إليه ، فجاءني بلون واحد فأكلنا ، وأحضرني تمراً فأكلناه ، وجلسنا نتحدث ، وأنشدته أشعاراً لي في الغزل ، وسألته أن ينشدني ، فأنشدني قوله :

بالله يا قرة العينين زوريني   قبل الممات وإلا فاستزيريني

إني لأعجب من حب يقربني   ممن يباعدني منه ويقصيني

أما الكثير فما أرجوه منك ولو   أطمعتني في قليل كان يكفيني

ثم أنشدني أيضاً :

أخلاي بي شجو وليس بكم شجو
وكل امرئ عن شجو صاحبه خلو

وما من محب نال ممن يحبه   هوى صادقاً إلا سيدخله زهو

بليت وكان المزح بدء بليتي   فأحببت حقاً والبلاء له بدو

وعلقت من يزهو علي تجبراً   وإني في كل الخصال له كفو

رأيت الهوى جمر الغضا غير أنه   على كل حال عند صاحبه حلو

ثم أنشدني :

خليلي مالي لا تزال مضرتي   تكون مع الأقدار حتماً من الحتم

يصاب فؤادي حين أرمي ورميتي   تعود إلى نحري ويسلم من أرمي

صبرت ولا والله مابي جلادة   على الصبر لكني صبرت على رغمي

ألا في سبيل الله جسمي وقوتي   ألا مسعد حتى أنوح على جسمي

تمد عظامي واحداً بعد واحد   بعيني من العذال عظماً على عظم

كفاك بحق الله ما قد ظلمتني   فهذا مقام المستجير من الظلم

قال مسلم : فقلت له لا والله يا أبا إسحاق ما يبالي من أحسن أن يقول مثل هذا الشعر مافاته من الدنيا ؛ فقال يا ابن أخي لا تقولن مثل هذا ، فإن الشعر أيضاً من بعض مصايد الدنيا

وأما مدحه فقد كان مدحاً تجارياً لم ينطق فيه عن عقيدة ، بل كان يمدح به قوماً يخالفونه في عقيدته الشيعية ، ولا يقصد من ذلك إلا الحصول على المال الذي أباح الشيعة أخذه من المتملك لأنه حق لهم ، فسار أبو العتاهية في مدحه بقدر ما يصل به إلى هذا الغرض ، ولم يدخل به في الخصومة السياسية التي كانت قائمة في عصره بين العباسيين والعلويين ، وذهب فيها كثير من الشعراء مذاهب باطلة ، ودفعهم حب مال العباسيين إلى أن يجعلوا حقهم في ملك المسلمين بالإرث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يشاركهم فيه العلويون ولا غيرهم من المسلمين ؛ وفي هذا يقول قائلهم :

أنى يكون وليس ذاك بكائن   لبني البنات وراثة الأعمام

ولم يفرح العباسيون بشيء فرحهم بهذه الفكرة الخاطئة ، فعدوها أكبر نصر لهم على خصومهم من العلويين ، وأغدقوا على من ابتكرها لهم شعراً مالا يحصى من الأموال ، وحملوا الشعراء على التفنن فيها ، وتصريف الشعر في تأييدها ونشرها

فلم يصل مدح أبي العتاهية للعباسيين إلى هذا الحد ، ولم يبع عقيدته بأموالهم فيفضلهم على العلويين أو يذمهم من أجلهم ، بل كان على حبه للمال وبخله به يعرف كيف يرفضه إذا كان في قبوله إهانة له ، أو حطاً من كرامته ؛ ويمكننا أن نسوق على ذلك شواهد كثيرة ، ذكر أبو الفرج أن أبا العتاهية كان منقطعاً إلى صالح المسكين ، وهو ابن أبي جعفر المنصور ، فأصاب في ناحيته مائة ألف درهم ، وكان له ودوداً وصديقاً ، فجاءه يوماً وكان له في مجلسه مرتبة لا يجلس فيها غيره ، فنظر إليه قد قصر به عنها ، وعاوده ثانية فكانت حاله تلك ، ورأى نظره إليه ثقيلا ، فنهض وقال :

أراني صالحٌ بغضا ... فأظهرتُ له بغضا
ولا والله لا ينقـ ... ـض إلا زدته نقضا
وإلا زدته مقتاً ... وإلا زدته رفضا
ألا يا مفسد الودّ ... وقد كان له محضا
تغضبتَ من الريح ... فما أطلب أن ترضى
لئن كان لك المال الـ ... ـمصفّى إن لي عرضا

فنمى الكلام إلى صالح فنادى بعداوته فقال فيه :

مددتُ لمعرض حبلا طويلا ... كطول ما يكون من الحبال
حبال بالصريمة ليس تفنى ... موصّلة على عدد الرمال
فلا تنظرْ إليّ ولا تردْني ... ولا تقرب حبالُك من حبالي
فليت الردم من يأجوج بيني ... وبينك مثبتاً أخرى الليالي
فكرّش إن أردت لنا كلاما ... ونقطع قحف رأسك بالقتال

وذكر أيضاً أنه قدم يوماً منزل يحيى بن خاقان ، فلما قام بادر له الحاجب فانصرف ، وأتاه يوماً آخر فصادفه حين نزل فسلم عليه ودخل إلى منزله ولم يأذن له ، فأخذ قرطاساً وكتب إليه :

أراك تراع حين ترى خيالي ... فما هذا يروعك من خيالي
لعلك خائف مني سؤالي ... ألا فلك الأمان من السؤال
كفيتُك إن حالك لم تمل بي ... لأطلب مثلها بدلا بحالي
وإن اليسر مثل العسر عندي ... بأيهما مُنيتُ فلا أبالي

ولا شك أن هذه النفس في إبائها وعقيدتها المخالفة لعقيدة ممدوحيها لو كانت لغير أبي العتاهية لصعب عليها في الشعر مقام المدح ، ولكن طبع أبي العتاهية في الشعر سهل عليه كل شيء ، وجعله يأتي في ذلك من المدح بما أرضى ممدوحيه غاية الرضا ، وكان على ما ذكرنا في ترجمته يقصر التشبيب أمام المدح ولا يطوله حتى يكون كأنه هو مقصوده من شعره ، كما كان يفعل ذلك غيره .

وكان ابن الأعرابي يتعصب لأبي العتاهية فتنقصه رجل أمامه ورمى شعره بالضعف ، فقال له : الضعيف والله عقلك لا شعر أبي العتاهية ، ألأبي العتاهية تقول إنه ضعيف الشعر ؟ فوالله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر ؛ ثم أنشده قصيدته في الزهد :

قطّعتُ منك حبائل الآمال ... وحططتُ عن ظهر المطيّ رحالي

ثم قال للرجل هل تعرف أحداً يحسن أن يقول مثل هذا الشعر ؟ فقال له الرجل : يا أبا عبد الله جعلني الله فداءك ، إني لم أردد عليك ما قلت ، ولكن الزهد مذهب أبي العتاهية ، وشعره في المديح ليس كشعره في الزهد ، فقال : أفليس الذي يقول في المديح :

وهرونُ ماء المزن يشفى به الصدى ... إذا ما الصدى بالريق غصّت حناجره
وأوسط بيتٍ في قريش لبيته ... وأول عزّ في قريش وآخره
وزحفٌ له تحكي البروق سيوفُه ... وتحكي الرعود القاصفات حوافره
إذا حميتْ شمسُ النهار تضاحكت ... إلى الشمس فيه بيضهُ ومغافره
إذا نكب الإسلام يوماً بنكبة ... فهرون من بين البرية ثائره
ومن ذا يفوتُ الموتَ والموتُ مدركٌ ... كذا لم يفتْ هرونَ ضدٌّ ينافره

قال : فتخلص الرجل من شر ابن الأعرابي بأن قال له : القول ما قلت ، وما كنت سمعت له مثل هذين الشعرين ، وكتبهما عنه :

وأما رثاؤه فكان يذهب فيه مذهبه في الزهد والحكمة ، لقرب مقامه من مقامهما ، ومن ذلك رثاؤه في علي بن ثابت ، وكان صديقاً له ، وبينهما محاورات كثيرة في الزهد والحكمة ، فحضره أبو العتاهية وهو يجود بنفسه ، فلم يزل ملتزمه حتى فاض ، فلما شدّ لحياه بكى طويلا ، ثم أنشد يقول :

يا شريكي في الخير قرّبك الله ... فنعم الشريك في الخير كنتا
قد لعمري حكيت لي غصص المو ... ت فحركتني لها وسكنتا

ولما دفن وقف على قبره يبكي طويلاً أحر بكاء ويردد هذه الأبيات:

ألا مَنْ لي بأنسك يا أخيّا ... ومن لي أن أبثك ما لديّا
طوتك خطوبُ دهرك بعد نشر ... كذاك خطوبه نشراً وطيّا
فلو نشرت قواك لي المنايا ... شكوتُ إليك ما صنعت إليّا
بكيتك يا عليُّ بدمع عيني ... فما أغنى البكاءُ عليك شيّا
وكانت في حياتك لي عظاتٌ ... فأنت اليوم أوعظ منك حيّا

وهذه المعاني كما قال أبو الفرج أخذها كلها من كلام الفلاسفة لما حضروا الإسكندرية، وقد أخرج ليدفن، قال بعضهم: كان الملك أمس أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس؛ وقال آخر: سكنت حركة الملك في لذاته، وقد حركنا اليوم في سكونه جزعاً لفقده. وهذان المعنيان هما اللذان ذكرهما أبو العتاهية في هذه الأشعار

وذكر أبو العتاهية أنه ماتت بنت للمهدي، فحزن عليها حزناً شديداً حتى امتنع عن الطعام والشراب، فقلت أبياتاً أعزيه بها، فوافيته، وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول: لابد من الصبر على مالا بد منه؛ ولئن سلونا عمن فقدنا، ليسلون عنا من يفقدنا، وما يأتي الليل والنهار على شيء إلا أبلياه، فاستأذنته في إنشاد ما قلت فأذن:

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما ... وكل غضٍّ جديد فيهما بالى
يا من سلا عن حبيب بعد ميتته ... كم بعد موتك أيضاً عنك من سال
كأن كلّ نعيم أنت ذائقه ... من لذة العيش يحكي لمعة الآل
لا تلعبنّ بك الدنيا وأنت ترى ... ما شئت من عبر فيها وأمثال
ما حيلة الموت إلا كلُّ صالحة ... أو لا فما حيلة فيه لمحتال

وأما الهجاء فكان أبو العتاهية يترفع عنه ولا يقوله إلا مضطراً، فإذا قاله لم يفحش فيه كغيره، وكانت بينه وبين والبة بن الحباب مهاجاة حينما قصد والبة بغداد وهو كوفي مثله، فحسده على أن بلغ في بغداد ما لم يبلغه، وأخذ يهجوه ويذمه. وقد حدث محمد ابن عمر الجرجاني قال: رأيت أبا العتاهية جاء إلى أبي فقال له: إن والبة بن الحباب قد هجاني، ومن أنا منه؟ أنا جرار مسكين — وجعل يرفع من والبة ويضع من نفسه — فأحب أن تكلمه أن يمسك عني، فكلم أبي والبة فلم يقبل، وجعل يشتم أبا العتاهية فتركه، ثم جاءه أبو العتاهية فسأله عما فعل في حاجته، فأخبره بما رد عليه والبة، فقال لأبي لي الآن عليك حاجة، قال وما هي؟ قال لا تكلمني في أمره، فقال هذا أول ما يجب لك، فقال أبو العتاهية يهجوه:

أوالبُ أنت في العرب ... كمثل الشيص في الرُّطب
هلمّ إلى الموالي الصـ ... ـيد في سعةٍ وفي رحب
فأنت بنا لعمرُ الله ... أشبهُ منك بالعرب
غضبتُ عليك ثم رأيـ ... ـتُ وجهك فانجلى غضبي
لما ذكّرتني من لو ... نِ أجدادي ولون أبي
فقل ما شئت أقبلهُ ... وإن أطنبت في الكذب
لقد أُخبِرتُ عنك وعن ... أبيك الخالص العرب
فقال العارفون به ... مُصاصٌ غيرُ مؤتشب
أتانا من بلاد الرو ... م مُعتجراً على قتب
خفيف الحاذ كالصمصا ... م أطلسُ غير ذي نشب
أوالب ما دهاك وأنـ ... ـت في الأعراب ذو نسب
أراك وُلدتَ بالمريـ ... ـخ يا ابن سبائك الذهب
فجئتَ أقيشرَ الخديـ ... ـن أزرق عارمَ الذنب
لقد أخطأتَ في شتمي ... تخبّرني ألم أصب

وقال فيه أيضاً غير ذلك، فبلغ والبة، فجاء أبي فقال قد كلمتني في أبي العتاهية وقد رغبت في الصلح، فأخبره بما أخذه أبو العتاهية عليه، فقال له والبة فما الرأي عندك؟ قال تنحدر إلى الكوفة، فركب زورقاً ومضى من بغداد إلى الكوفة، وكان هجاء والبة فيه ضعيفاً سخيفاً لا يقوى على هذا الهجاء، وفيه من الفحش ما نروي بعضه ليعلم بعد ما بين الهجاءين:

قل لابن بائعة القصّار ... وابن الدوارق والجرار
. . . .
تهجو مواليك الأولى ... فكوك من ذلّ الإسار

هذا مثل من هجوه وإن الشعر لأعلى مقاماً من هذا القبح الذي أتى به، وإنه لينال من نفسه بذلك قبل أن ينال ممن يهاجيه

عبد المتعال الصعيدي

أمام المشنقة

[على لسان أحد الشبان المحكوم عليهم بالشنق لجريمة أتاها]

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

قتبا على الفلكُ ... بعد قليل أهلكُ

ما باختياري في شبا ... بي للحياة أترك

أين مضت صحابتي ... وأية قد سلكوا

من ذا إذا مت سيبـ ... ـكيني ومن ذا يضحك

قد نصبوا لي شركا ... فما عداني الشرك

ما بال شمسي أخذت ... عند الشروق تدلك

قد استوى ضوء الضحى ... في أعيني والحلك

لم أجن لو كانت يد الـ ... ـمقدور لا تشترك

بالدم قد خضب كفـ ... ـي القدرُ المحركُ

قد أفرح النظار بي ... أن دمي ينسفك

ازدحموا حولي ولا ... أناس منهم أمسكوا

ليبصروا كيف حيا ... تي حبلها ينبتك

ما هي إلا رجفة ... وبعدها لا أحرك

أفي قلوبهم عليّ ... عند موتي حسك

إني إنسان له ... أخطاؤه لا ملك

كم لي من مثل لو أن (م) ... سره ينهتك

خذوا حياتي إنها ... أثمن ما أمتلك

لا تحبسوا الرحمة عمـ ... ـن قد قضوا أو أوشكوا

ولو تجسم الأسى ... لكان دمعاً يسفك

***

كل البقاع للحيا ... ة فوقها معترك

أما الحياة فهي إن ... ولت فلا تستدرك

وللموت بالانسان إلا ... مرة لا يفتك

إذا أتت ساعته ... فكل شيء مهلك

تعقده الحياة والـ ... ـموت له يفكك

قد يدفن المرء على ... أخيه ثم يترك

بعد البلى تعانق الـ ... ـعظام أو تشتبك

إن البلى لكل من ... حواه قبر يعرك

نهاره وليله ... كلاهما محلولك

مشنقتي هي التي ... أودها وأفبرك[1]

وعلّي إذا ركبـ ... ـتها فلا أرتبك

فأعتلي كأنني ... أدركت مالا يدرك

إني سلكت مسلكا ... صعباً وبئس المسلك

والحق خير ما يقو ... ل المرء حين يهلك

هذا جزاء مجرم ... بالأبرياء يفتك

بغداد — جميل صدقي الزهاوي

(١) أنفك

سر الحياة

للأستاذ عبد الرحمن شكري

عبء لغز الحياة يا قلب ما أفـ ... ـدح عبئاً يحنى عليك وثقلا

لغز عيش ولغز عقل وما أعـ ... ـجب لغزاً يروم للغز حلا

كلما رمت بالمجاهل خبراً ... زادك العيش بالمعالم جهلا

عبث العيش كلما قال لا سـ ... ـر أعدت السؤال جداً وهزلا

قد خبرت الأنام يا قلب هل تنـ ... ـشد سراً من بعد ذاك وسؤلا

وحياة بالسر أحجى حياة ... هي أحلى مما تراه وأعلى

خدعة العيش أن يلوح بالسـ ... ـر إذا عاف عاشقوه وملا

فتزيد الحياة حسناً ومأمو ... لاً وتغوي الحياة نشأ وكهلا

مثلما حجبت فتاة ليرجى ... سر حسن لها استسر وقلا

لو بدت عاطلاً لما خلبت لـ ... ـبا ولا استعبدت عشيقاً وخلا

كم سعيد يلهو ويعمل لا ينـ ... ـقض فعلاً وليس ينكر قولا

وعلى غدرها أحب حياة ... وحباها في الحب أهلاً ونسلا

عاشقاً للحياة بعضاً وكلا ... راضياً بالحياة فرعاً وأصلا
فإذا شاكه من العيش همٌّ ... قال قولاً ورام للغز حلّا
عبء لغز الحياة يا قلب ما أفـ ... ـدح عبئاً يُخشى عليك وثقلا
سرُّها أنك السعيد إذا لم ... تدرِ أن لا سرّاً لديها فيُجلَى
ضلّة ما أقول كم لاح من كشـ ... ـفٍ وقد كان خافيَ السر قبلا
ولعل الحياة أكبر لولا ... مُعظمٌ للحياة غالى وأغلى
فهي من فرط رفعه في انخفاض ... تلك عُليا إن يُعلها فهي سُفلى
باءَ باليأس من غَلاها وقد غا ... لى فقال الحياة بالحظ أولى
ويعيد الحياة فرضاً وحسناً ... ومتاعاً من يأخذ العيش سهلا

عبد الرحمن شكري

يا كون !

للأستاذ فخري أبو السعود

يا كونُ كن لي جميلاً ... على الدوام جديدا
أبغي لديك طريفاً ... إذا هجرتُ تليدا
لا تبلَ ، لا تغدُ شيئاً ... ألفتُـــه معهودا
بل ابدُ دوماً عجاباً ... مُستطرفاً منشودا
لا تبدُ فرداً ولكن ... كن أنت جمّاً عديدا
جدِّد لحسنك هذا ... بعد البرود بُرودا
ولا تضق بي أفقاً ... ولا تدانِ حدودا
لا زال أفقك لي يا ... كونُ رحيباً بعيدا
أشيم في كل يوم ... مرمىً به مقصودا
لا تبدُ يوماً فراغاً ... لا تبدُ يوماً زهيدا
لتبقَ حفلاً نفيساً ... أريغ منك المزيدا
جدِّد صروفك وابعث ... بعد النحوس سعودا
ابعث أسىً أو سروراً ... لكن حذارِ الجمودا
أريد يا كونُ عمراً ... في كل يوم مديدا
من عاش في كل يوم ... عمراً أصاب الخلودا
لا أبتغي العمرَ يوماً ... مرَجَّعاً مردودا
أريدُ في كل يوم ... أرودُ هذا الوجودا
في كل يوم أراني ... في عالمٍ مولودا
أريد أكشفُ معنىً ... في كل يوم شرودا
منه أغذّي شعوري ... وأستجدُّ قصيدا

فخري أبو السعود

عرش الجمال

[إلى مس مصر ، ملكة الجمال العالمى]

للأستاذ محمود غنيم

يا ربّة الملك الذي انتظم الورى ... مُلكُ البسيطة ما أتيح لقيصرا
خضعت لحكمك دولةٌ عزّت على ... «دارا» وأعيا عرشها «الاسكندرا»
لك دولةٌ لم ترقِ من أجلها ... حدَّ الحسام ولم تقوِّدي عسكرا
لتُودِّعِ الأسدُ الغضابُ عروشها ... قد أصبح المَلِكُ المتوّج جؤذرا
من كان يمتلك الرقاب فإنما ... عرشُ الجمال على القلوب تسيطرا
كم عاهل ذي سطوة لم يفتتح ... قلباً وإن فتح المدائنَ والقرى
مُلكُ الفراعنة الشداد أعدته ... بيدٍ مخضّبة وطرفٍ أحورا
ما للنها في مصرَ تحكُم عالماً ... والليثُ يفخرُ أن يعيش مخرَّرا

***

ملكت يمينك كلَّ صدرٍ ناهدٍ ... وأطاع أمرك كلُّ خدٍّ أحمرا
كم كاعبٍ ملكت قلوباً أصبحت ... أمَةً تُباع إذا أردتِ وتُشترى
كم تحت حكمك ذاتُ لحظٍ إن رنا ... ترك المهنّد لا يساوي خنجرا
جُندٌ أغرُّ من الحسان الحُور لو ... لاقيتِ أسطولاً به لتقهقرا
أقسمت ما بين الملوك أعزُّ من ... مَلِكٍ على عرش الملاح تأمّرا

كوم حمادة — **محمود غنيم**

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٤ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الإنسان

للأستاذ خليل هنداوى

إن انتشار مذهب الشفقة — في هذا الجيل — دليل على أن الإنسان أصبح يزداد خوفه من الألم. أصبح متراخياً، مخنثاً يخشى من كل ما يعكر عليه طمأنينته ووجوده، لا يحول الفرار من الألم وحده، بل لا يستطيع أن يتصور فكرة الألم عند الآخرين، حتى لا يقدر أن يؤلم الغير عند ما يطالب العدل منه ذلك باسم العدل. الرحيم يبسط شفقته حتى على المجرمين والمسيئين «وقريباً يأتي ذلك اليوم الذي يتراخى فيه المجتمع الانساني ويقعد عن معاقبة المجرم الذي يضره. لماذا يعاقب المجرم؟ إن المعاقبة يرى فيها ضرباً من ضروب الجور. فكرة القصاص وضرورة القصاص تسوؤه. أليس في إقصاء المجرم وغل يديه عن عمل السوء ما يغني؟ فلماذا القصاص إذن؟ إن القصاص يضني. أما المثل الأعلى الذي يطلبه «وحش القطيع» فهو جزء ضئيل من السعادة المحققة لكل إنسان، يرافقه شيء ضئيل من الألم. إن الشقاء — عندهم — شيء يجب محقه

إن نيتشه — في هذا الفصل وهو خير فصوله — يعتقد أن الجبن والخوف من الألم هما من الصغار والحقار بمكان، إن الألم هو في الحق معلم الانسانية وهو الذي يحقق أحسن نماذج شريفة. «أنتم تريدون سحق الألم ونحن نريد أن تكون الحياة أكثر قسوة وأشد رداءة. إن الكائن السامي الذي تفهمونه، نرى فيه «غاية» ولا نرى فيه «نهاية». نرى فيه مرحلة يبدو الانسان من ورائها شيئاً حقيراً مزرياً حتى يدرك آخر عهده، بلى! في مدرسة الألم الكبير، في مدرسة هذا المعلم القاسي يتم الانسان مراحل تطوره، أليس التضييق على هذه النفس الساقطة تحت أعباء الشقاء يزيدها قوة وصلابة! أليست هذه الرجفة التي تنتابها بازاء الحادثات الكبرى تزيد قوة احتمالها وصبرها وثباتها وتحويل المصائب إلى دروس مفيدة. كل هذا ألم يؤول بالنفس – في مدرسة الألم – إلى خروجها مهذبة نقية؟ إن في الانسان «خليقة وخالقاً» في الانسان شيء هو مادة وطين ووحل، لا شعور له، فضاء، وفي الانسان شيء هو خالق مبدع، ونقاش، بهجة فنان وصلابة ومطرقة، أأدركتم هذه المقارنة؟ ألا تزال شفقتكم تذهب إلى ما في الانسان من مادة ينبغي سحقه وحرقه في النار حتى يتطهر، وإلى كل ما يجب عليه أن يتألم بالضرورة؟

وشفقتنا هل تدرون موقعها! إنها شفقة علينا حين نقاتل شفقتكم كما نقاتل كل ظاهرة من ظواهر الضعف والجبن، وهكذا: شفقة ضد شفقة.

ويرى نيتشه أن المذهب الديموقراطي علامة من علامات الانحطاط، لأنه مهما تباعدت أصوله وتبدلت مناهجه متفق مع المذهب الديني، ففي الشريعة المسيحية وفي ديانة الألم الانساني يتمثل ما يتمثل في مذهب المساواة... مقت الضعيف للقوي، وجنوح قوي إلى حياة لا ألم فيها. إن المسيحية تجعل الناس متساوين أكفاء أمام الله، وتعدهم بسعادة كاملة في الحياة الثانية، كذلك الديموقراطية جعلت الناس متساوين أكفاء أمام الشريعة والحق، وعملت على تحقيق سعادتهم في هذه الدار، ورجت أن تخلق مجتمعاً تموت فيه التفاوت ويكون أهله في الحق سواء؛ لا يتمتع أحدهم بما لا يتمتع به آخر. حيث لا أمر ولا طاعة، ولا استبداد ولا استئثار، ولا سيادة ولا عبودية، ولا غنى ولا فقر

هذا هو المثل الذي تنهض اليه الديموقراطية، ويدعو اليه أصحابها على اختلاف مللهم ونحلهم... كلهم يعملون على رفض كل سلطة ذاتية، ليملكوا لأنفسهم كل امتياز. وكلهم يؤمنون بأن كل فرد يقدر بل ينبغي له أن يجد سعادته الخاصة في سعادة المجتمع بأسره، وهذه السعادة الاجتماعية يمكن تحقيقها باشفاق كل فرد على المجتمع، وبالمحبة العامة السائدة. هذه الأفكار غرست في عقول أبناء الحاضر غرساً متيناً، حتى أصبح لا يقوم — في أوروبا — رجال تقوى فيهم روح السلطة والزعامة. ولن نجد في عصرنا هذا من يمثل روح نابليون الذي كان ينضوي تحت لوائه الألوف، يمشي فيمشون لا يسألونه أين يمشي، وهؤلاء من بأيديهم الحكومة اليوم لا يملكون من الحكم إلا قليلا، لأن شريعة العبيد رافعة رأسها في كل مكان، فهم يستمدون

الحكم من هذه الشريعة ، لا يحيدون عنها ولا يجدون عنها مصرفاً ، فهم خادمو هذا البلد ، هم الجلادون فيه ، وهم منفذو القانون (١)

وقد بحث نيتشه علاقة الرجل والمرأة ، وهو يرى أن المرأة ليس لها حق المساواة مع الرجل ، دل على ذلك الحب الذي تنغمس في حمأته الكائنات . فوظيفة الحب – عند الرجل – غيرها – عند المرأة ، ومكانة الحب عند المرأة غيرها عند الرجل . فالحب عند الرجل إن هو إلا حادث بسيط أو غريزة ضعيفة . أما الغريزة العنيفة فيه فهي غريزة القوة ، هذه الغريزة التي تدفعه إلى بسط سلطانه إلى أقصى ما يقدر عليه . ان مناضلة القوى الطبيعية والقوى البشرية في سبيل تحقيق شخصيته هي ما يتطلب منه عصره وجهوده . فاذا أسلم نفسه إلى الحب ، ووهب حياته وأفكاره للمرأة التي يهواها يصبح عبداً مقهوراً وجباناً ذليلاً ، تسلخ عنه الرجولة الحقة والحب الحق

يقول زرادشت « كل ما في حياة المرأة هو لغز ، وكل ما في المرأة له حل واحد هو التوليد » فالحب إذن هو أبرز ما في حياة المرأة ، وإنما مجدها وشرفها يدفعانها إلى أن تمثل دور « الأولى » في الحب ، وأن تهب كيانها كله جسداً وروحاً للرجل الذي تصطفيه ، وأن تفتش عن سعادتها في الانسلاخ عن ارادتها الخاصة . يقول زرادشت : إن سعادة الرجل « أنا أريد » وسعادة المرأة « هو يريد ! » إن المرأة التي تحب ينبغي لها أن تسلم نفسها إلى الرجل الذي يجب عليه أن يتقبل هذه المنحة . . . هذه هي شريعة الحب التي تجعل بين الرجل والمرأة حاجزاً حائلاً وفرقاً بعيداً : خلقت المرأة للحب والطاعة ، وويل لها إذا سئم الرجل من ظفره عليها وألفى أن هذه المنحة حقيرة بالنسبة إليه ، وركض يسعى وراء غرام جديد . ينبغي للرجل أن يحكم وأن يحترس . يجب عليه أن يكون قادراً على أن يحيا حياتين ، ليحقق سعادته لنفسه ، وسعادة من وقفت عليه رجاءها . ولكن تعساً له إذا ظل تحت أثقال هذا العمل ، وإذا أدرك حبه وعجز عن إضرام نار هذا الحب ، فإن هذا الحب ليحور بغضاً ، وتنقلب المرأة به عليه ، حتى لا ترى فيه إلا موضع ازدراء واحتقار

ولكن جيلنا هذا لن يقبل هذه الآراء . . . فالجيل الذي قدس العبد يحرب أن يؤله المرأة . . لا يرى في المرأة عنصراً سامياً يستطيع أن يساعد الانسانية في تقدمها . الرجل وحده يتعلق عليه ذلك لأنه السيد ، وهو السيد ذو القوة الراجحة والعقل الأرجح والقلب الأمثل والارادة الأشد نفاذاً . والمرأة قد تكون نبيهة ، ذكية تضارع الرجل نباهة وذكاء ، تتفهم المسائل وتفصل أمهات الأمور الدقيقة وتحاكم وتجادل ولكن طبيعتها أقل عمقاً وأقل غنى من طبيعة الرجل . إنها تبقى دائماً طافية على سطوح الأشياء . إنها شيء لا يذكر ... إنها مسكينة مزهوة بنفسها

يقول زرادشت « يعلم الرجل للحرب ، والمرأة لتسلية المحارب ... وما دون ذلك فهو جنون » ليست المرأة صنماً وإنما هي لعبة سريعة العطب لكنها ثمينة وقد تكون خطرة . هي رقة في طبع الرجل . تغدو خطرة مرعبة حين يضرمها الهوى والحب والبغض ، لأن طبيعتها لا تزال أكثر احتواء من طبيعة الرجل على وحشية الغرائز الأولى . ففيها رقة ملمس الهرة وفظاعة مخالب النمرة ، فيها طبيعة نابية نائرة ، وأهواء جامحة لا تعرف منطقاً ، ورغائب قلقة . . . وكل هذا يجعل المرأة فقيرة إلى سيد يكبح جماحها ويقودها ويعيث فيها جنونها ، حتى إذا استشعرت الرجل أمست رقيقة ناعمة بفضل طبيعتها وزينتها وتبرجها وفضيلتها اللابسة ألف ثوب . فيعرو – إذ ذاك – قلب سيدها الاشفاق عليها ، الاشفاق الكثير لأنها أكثر عرضة للألم . إنها مفتقرة إلى حبه ، وقد قضي عليها بأن تكون أقل الخلائق وهماً

ان نيتشه ينقم على المرأة التي تريد أن تتحرر من قيودها ، وتهجر احترامها للرجل وتزعم بأنها قرينة مساوية ، تريد أن تدخل معه فيما تطلب الحياة من نضال . ان نيتشه يبغض النساء اللواتي يعشن في صفوف الرجال ، لأنهن يفقدن تأثيرهن ونفوذهن

(١) ولعل نيتشه صدق في نبوءته هذه ، فقد علت النقمة على شريعة العبيد بعد أن تزعزعت فضائلها ، وخابت تعاليمها أيما خيبة ، فعلت الفوضى حيث استأثرت الديمقراطية ، وزاد الشعب حيث استغرق الناس في الحرية ، فهب منهم من لا يؤمن بنصف الحاكم أو بنصف القائد ، وحصر السلطة في نفسه ، ولم يترك لممثلي الشعب إلا ظلا لا يغني ولا ينفع ، فحيثما نظرت تنظر ديكتاتورية عاتية عنيفة ، ضمنت للشعب أن تقوده إلى أنهار من عسل مصفى ، وجداول آمال كان ينكرها إذا هجست بها نفسه ... وهل أهول من هذه الديكتاتورية التي نشأت في وطن نيتشه ؟ وكأني أبصر هذه الديكتاتورية تقتفي أثر تعاليم نيتشه في الاصطفاء والسيادة ... كان نيتشه يبشر بفلسفة عنيفة إنسانية ، يرحب « بالسوبرمان » أينما كان ، في الغرب أو في الشرق ، ولكن رجال شعبه حوروا هذه التعاليم بعض التحوير ، فجعلوا من فلسفة نيتشه فلسفة قومية ، يريدون أن يكون منهم «السوبرمان» أو قل يريدون أن تكون أمتهم «سوبرمان» بقية الأمم ؟ فهم يضطهدون الملحدين والعناصر التي لا تؤمن بالروح الجرمانية ... وويل غداً لكل ديكتاتورية لا تعلق جوع العبيد



صور من هوميروس

٩ - حروب طروادة

فتنة .

للأستاذ دريني خشبة

انتظرت ذيتيس - أم أخيل ، وحبيبة زيوس من قبل - حتى عاد الإله الأكبر من حفل أولمبي دُعى إليه حينما شبت السخيمة بين أجاممنون وبين ابنها ، فأسرعت إليه لتكلمه في الأهانة التي لحقت أخيل العظيم ، وأزرت بكبريائه ، كسيد جنود هيلاس .

عجلت ذيتيس إلى زيوس . . . .

وكانت ذكريات غرام الإله الأكبر ما تزال تتدفق في قلبه ؛ وكان رنين القبل فوق شفتيها القرمزيتين ما يزال تتجاوب أصداؤه الموسيقية على شفتيه المنهومتين الملتهبتين ؛ وكان هذا الجمال الفتى ما يزال له رجع في كل جوارحه . . . وجوانحه . . .

وقفت أمام زيوس ! . . .

وكان حلماً لذيذاً طوّف بعينيه ، فرأى إلى قصة حبه تمثل بكل ماضيها الحافل أمامه ؛ ورأى إلى هذه الأويقات الحلوة التي التذ فيها فتنة ذيتيس تثب فجأة من الأيام الخوالي فتغمره بسحرها وأمرها ؛ ورأى إلى ذراعيه المرتجفتين ملتفتين حول خصرها النحيل ، وطرفه الساهم الباكي يجول في طرفها الناعس الكحيل ، ورأى إلى هذا المرمر الطروب المنصب في تمثالها يكاد يكلمه . . . فيروي له من أخبار العناق ، وسكرات الهوى ما يفيض له دمعه ، ويجب قلبه ، وترتعد من ذكره فرائصه . . . .

- « ذيتيس ؟ ! . . . . . . »

- « . . . . ؟ ! . . . . »

- « مالك ؟ . . . تبكين ! . . . . »

- « [illegible] »

- « لا . . . لا . . . إلىّ ياحبيبتي ! »

. . وكانت كلما ألحت في الصمت والبكاء ، ألح هو في التلطف والرجاء ، وكانت ذيتيس تدرك ما أثارته في قلبه من غرامه القديم ، فدلّت وتاهت ، حتى أيقنت أنه منقاد لما تطلب ، ولو كلفته بهدم الأولمب ، وثل عروش السماء !

- « أ . . . أخيل . . . ! »

- « أخيل ؟ ! . . . ماله ؟ ! . . . »

- « ما كفاني أن يذهب ليلقى حتفه تحت أسوار طروادة ، حتى يهينه أجاممنون ! »

- « يهينه أجاممنون ؟ يهينه كيف ؟ . . . »

- « أغضب قديس أبوللو وكاهنه الأكبر ، ولم يقبل أن يرد عليه ابنته خريسيز ؛ فغضب الراهب الشيخ ودعا ربه ، فسخر الطاعون على الهيلانيين ، حتى كاد يبيدهم ، فلما طلب إليه أن يرد ابنة القديس على أبيها الشيخ ، أبى ، وأخذته العزة بالاثم فلما ألح عليه أخيل ، ولدي البائس ، انقاذاً للجيش ، وإبقاء على أبناء هيلاس ، رضي أن ينزل عن الفتاة ، إذا نزل له أخيل عن بريسيز . . . »

واعتبار المجتمع لهن . وإنما همهن أن يظهرن للرجال بطبيعة مباينة لطبيعتهم وجبلة مخالفة لجبلتهم ، يصعب فهمها ويعسر حكمها . وهاهي المرأة المزاحمة للرجل أضاعت ما خصتها الطبيعة به وأهملت مهنتها التي تقضي عليها بوضع الأطفال

وفي النهاية يرى نيتشه أن أوروبا تتشوه وتزداد تشققاً ، قد استحالت إلى منزل تسكنه طائفة من الناس توفوق - لا أحزان كبيرة ولا أفراح كبيرة - طائفة من رجال ونسوة تساووا في العجز والضعف والانحطاط ، يقضون على الأرض حياة متشحة بالسواد ، لا أمل فيها ولا غاية لها ؟

(يتبع) خليل هنداوي

وآثر أخيل حياة المحاربين ونجاتهم ، فنزل عن الفتاة للقائد الناشم . . . »

— « . . . ثم . . . »

— « ثم هو الآن يحترق بينه وبين نفسه ، وقد اعتزل الحرب ، وخلا وحده في معسكره ، يهضم أحزانه ، وتهضمه الآلام ... »

— « لا عليك يا ذيتيس ! لا عليك يا حبيبتي ! قرى عيناً ... قرى عيناً ... فيا أخذته الناس بغير ما ينبغي له ، لأذيقنه وجنوده البلاء المبين ! ... »

وعادت ذيتيس جذلانة بعد أن طبع على جبينها اللألاء قبلة ... كم كان يشتهي أن يطبعها على فمها الحرى ... لولا أن ذكر أنها زوجة ... !

***

زلزلت ذيتيس قلب الإله الأكبر بدلالها وقوة فتونها ، وأرّق طيفها الرائع جفنيه ، فلم يذق طعم الكرى تلك الليلة بطولها ... فهب من مضجعه السندسي فوق سدة الأولمب ، واستدعى إليه إله الأحلام ، فأمره بالذهاب من فوره إلى معسكر الهيلانيين

« ... فإذا كنت ثمة فانطلق إلى فسطاط أجاممنون ، فداعب عينيه ، واجثم على قلبه ، وقل له ، وهو يغط في نومه العميق ، إن الآلهة تأمرك أن تصبح فتنفخ في بوق الحرب ، حاشداً عساكرك على اقتحام طروادة ... فإن زيوس يبشرك بالمدينة الخالدة ، ولا يكاد النهار ينتصف حتى تكون جنودك في شوارع إليوم ظافرة منتصرة بإذنه ... »

وصدع إله الأحلام بما أمره سيد الأولمب ، وانطلق إلى معسكر أجاممنون في أقل من لمحة ، فداعب عينيه ، وألقى في روعه الحلم الكاذب ، وعاد أدراجه إلى مولاه

فلما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، هب أجاممنون من نومه مذعوراً ، وأرسل رسله إلى رؤساء الجند فاجتمعوا لديه قبيل الشروق ، وأعلن هو انعقاد المجلس الحربي ؛ فصمت الجميع ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وكلٌّ يظن أن لابد من أمر جلل ، استدعى انعقاد المجلس في هذه الساعة من بكرة اليوم !

ونهض أجاممنون فتحدث إلى القادة ، وأخبرهم رؤياه . ولما فرغ ، نهض نسطور الحكيم المحنك ، فسبّح باسم زيوس وأثنى عليه ، وقال :

« لو أن أحداً غير القائد الأعلى رأى تلك الرؤيا لأثار استهزاء الجميع ، ولرماه الجميع بجِنَّة أومس ، ولكنه قائدنا ومليكنا ، وسليل الآلهة العظام ، أجاممنون ، هو الذي رآها ، وهي لا شك موحاة إليه من لدن ربنا وسيدنا ومولانا مليك الأولمب ، وهو لابد ناصرنا على أعدائنا الظالمين . فهلموا أيها الأخوان إلى رجالكم فأيقظوهم ، وانفخوا فيهم الحمية والحماسة ، فإذا أشرقت ذكاء فسوّوا صفوفهم ، واشحذوا عزائمهم ، ولنتوكل على أربابنا ، وليهتف الجميع باسم زيوس ، ولنصل له ، ولنسبح تسبيحاً كبيراً ... »

فلما كان الصبح ، ارتجف السهل والجبل ، ودوى المشرقان والمغربان بجلبة الجند ، وصار كل معسكر كأنه خلية صخابة من النحل ... تطن وتطن ... وصارت الساحة الحمراء كأنها سماء معتكرة ، لرعدها هزيم ولريحها هزيز ، ولبرقها خطف يذهب سناه بالأبصار ...

وشُرعت الرماح وأرهفت السيوف ، وحلقت المنايا كأنها الأغربة السود ترنّق فوق الفرائس ، وتدوّم فوق الجيف ... !

ولم يكن أجاممنون قد انخدع بالحلم الكاذب ، فشدهه أن يرى إلى استعداد الجيش ونفرته نفرة واحدة ... ولم يخدعه كذلك هذا العدد العديد من الجنود ، طالما أن ليس فيهم أخيل وشياطينه المقاتلة ... المير ميدون !

فأوجس في نفسه خيفة ، وهاله أن يكون في الأمر سر ، ووقر في قلبه أن غضبة أخيل لابد أن تغضب السماء ، واستقر في نفسه أن هذا الجيش العرمرم سائر إلى الهزيمة المؤكدة ، ووارد موارد الردى !

وهكذا جُبن القائد العام ... وندم على أن عقد المجلس الحربي ... !

فما أن متع النهار ، ونظر إلى الجند فرآهم يغمرون الأودية ، ويربضون في مشارف الجبال ، ورأى إلى طروادة المنيعة تهزأ بكواكب الهيلانيين وجيوشهم ، حتى نهض فوق يفاع من الأرض ، وهتف بجنوده يقول :

— « يا أبناء هيلاس ! يا بني قومي !

لست أدري إلام تمتد بنا هذه الحرب ، وحتام نُفنى هنا في هذا المكان السحيق من الأرض ؟ !

تسعة أعوام يا قوم ، ونحن هنا بمعزل عن العالم ، ننام في الخيام ، ونأوى إلى السفائن ، تلفحنا الرياح ، ويثور بنا البحر ، وتتخطفنا المنايا !

وعبثاً ينتظرنا أبناؤنا ونساؤنا في هيلاس العزيزة ! ومن يدري ؟ فقد يكون بعض أبنائنا أو آبائنا انتقلوا إلى هيدز ، ونحن هنا نتصارع مع الموت ، من أجل امرأة آبقة لا عرض لها ولا شرف !

أبناء وطني !

ألا أقولها لكم كلمة سواء صريحة !؟ هلموا فاعمدوا هذه الزقاق البيض ، ولنعقد مع الطرواديين هدنة يعقبها صلح شريف ، ثم لنركب أسطولنا الذي نخر السوس في أحشائه أو كاد ، ثم لنعد أدراجنا إلى هيلاس سالمين !

حرب !!

أية حرب هذه التي اشتعلت من هولها الرؤوس شيباً !!

أية حرب هـذه التي تودي بأعز المهج ، وتذهب بأغلى الضحايا من نفوس الشباب !؟ بل أية حرب هـذه التي توقع العداوة والبغضاء بين أخوين من أعز أبناء هيلاس ، فيتراشقان بالفحش من القول ، ويتبادلان الهجر من الكلام ، ويوشكان أن يلتحما في نزال يودي بحياة أحدهما من أجل امرأة ؟ !

أما أنا أجاممنون – أغضبت أخيل أخي من أجل لذة طارئة ، ومتاع غير مقيم !!

يا الهول !!

لننته هـذه الحرب ، لننته هذه الحرب ... ولنعد إلى هيلاس ....»

***

وأرسلها أجاممنون خطبة طويلة تفيض بالحقيقة وتغرق بالواقع ... فصادفت من قلوب الجند المذبين هوى ، ولقيت منهم استحساناً وتحبيذاً ، وطربت لها نفوسهم التي أضناها الحنين إلى الأوطان ، وشفها التوق إلى لقاء الأهل ، ونبذ نير هذه الغربة الطويلة التي أنهكت قواهم وأوهنت شبابهم

وفكر كل في أبنائه وأبويه وأحبائه ، فهفت نفسه إلى الارتحال عن هـذه الساحة الشجية ، عسى أن يقضي الحقبة القصيرة الباقية من حياته الحربية في راحة قلب وهناءة بال بين أهله وذويه ...

لكن الآلهة لا تريد هذا !!

وكيف تنتهي حرب أثارها باريس بين ربات الأولمب في البدء ؟ !

أليس هو قد قضى في التفاحة لفينوس ؟

إذن ففينوس تنصره ، وهي لذلك تقيه هوان الهزيمة وذل الانكسار ! ولكنه أين يهرب من حيرا سيدة الأولمب ، التي وعدته نعماً وملكاً كبيراً ، إذا هو كان قد أعطاها التفاحة ؟

لقد أسخطها بما لم يسخطها أحد به من قبل ، وهي لذلك تصل ليلها بنهارها في تدبير السوء له ، والكيد لوطنه وعشيرته وكل من يلوذ بهما !

ثم أيان يهرب من سخط مينرفا كذلك !؟ .

أليست مينرفا كذلك قد وعدته الحكمة التي لم يؤتها أحد من قبل ، إذا كان قد قضى لها في التفاحة ؟ ...

إن مينرفا هي الأخرى تتربص به السوء ، وتود لو أظفرت به أعداءه فينكلون به ، ويسقونه عذاب الهون ، بما قضائه في التفاحة لفينوس !!

سمعت حيرا خطبة أجا ممنون من عليا الأولمب ، فأفزعها أن ينقاد الجند له ، وهالها أن يستعد الجميع للرحيل !

فاستدعت إليها مينرفا ، وخاطبتها بصدد ما قال قائد الهيلانيين ، ثم اتفقتا على أن تذهب مينرفا إلى معسكر القوم فتلقى البطل المغوار أوليسيز ، فما تنفك تحضه وتحرضه حتى يقوم هو بإلهاب عاطفة الجند ، وتفتيح عيونهم على العار الأبدي الذي ينتظرهم في بلادهم ، إذا عادوا إليها من غير أن يظفرهم أربابهم بأعدائهم ، قانعين من الغنيمة بالإياب ! ... بعد تسعة أعوام في دار الغربة ...

وانطلقت مينرفا إلى ساحة الحرب ، وكانت ترف كالسحابة البيضاء في دجنة الليل فيما بين جبل إيدا وشواطئ الهلسبنت ، حتى إذا شارفت المعسكر أطلت على القوم فوجدت رؤوسهم يتحاورون فيما قال أجاممنون ، ورأت إلى أوليسيز متجهماً منقبض النفس مثقل الروح ، يكاد ينشق من الغيظ ، مما سمع من كلام القائد العام الدال على الخور واليأس ، واستبشرت مينرفا بما رأت من هياج أوليسيز ، فهبطت عليه رحمة من السماء ، وكلمته قائلة ، بحيث لا يراها إلا هو :

« أوليسيز فتى إيتاكا وبطل هيلاس !!»

أسرعت إليك – إليك أنت – إليك يا أشجع جندي هنا ، لأحذرك أن تنخدع بكلام أجاممنون ! إنها خدعة يا أوليسيز ! إن القائد العام يحاول أن يسبر عزائمكم ، ويخبر هممكم ، فلا تنطل عليك كلماته

إنكم لم تنفروا إلى طروادة خفافاً وثقالاً لتفتروا عن

أوطانكم تسعة أعوام طوال ثم لتعودوا كما أتيتم؟! بل أضل سبيلا!

أوليسيز! ما ذنب القتلى الأجرياء الذين خضبت دماؤهم ثرى هذه الساحة، تتركونهم في حمرتين من مقابرهم: حمرة الدم... وحمرة الخجل مما فرطتم في حقوقهم وتهاونتم في كرامتهم.

وما خطب السنين التسع يا أوليسيز؟

أكنتم تلعبون يوم ضحيتم بأفجنيا؟...

أكنتم تلهون يوم أهدر بروتسيلوس دمه.؟

وشرفكم الذي يذبح كل يوم في قصور طروادة!!

واستهزاء الأمم بكم، وضحك القبائل عليكم؟!

لا يا أوليسيز! هلم فحرض القادة، وانفخ من روحك في قلوب الجند...»

وسمع أوليسيز إلى ربة الحكمة، فخفق قلبه، وثارت نخوته، والتهبت حميزته، وعاهدها على إضرام المعمعة، وتأجيج لظى الحرب.

وانطلق بين الصفوف فلقي نسطور وأجاكس وبالاميديز وغيرهم وغيرهم من زعماء الجيش ورؤوس فيالقه، يحذرهم (من الانخداع بكلمات أجاممنون، لأنها حيلة يريد بها القائد سبر عزائمهم، واختبار هممهم)، كما تحدثت إليه مينرفا!!

وحضهم على التضحية والصبر، وحرضهم على الجلد والاستبسال، وذكرهم بعهودهم ونظر الدنيا جميعاً إليهم، ثم حذرهم من العار السرمدي الذي يتربص بهم إذا عادوا من دون أن يفتحوا طروادة!...

وتغيرت الحال!

وتجددت روح الحرب، وفتح كل جندي عينيه على مجد الوطن! ومجد أوليسيز!

ومجد مينرفا!

***

ودهش أجاممنون لهذا التحول المفاجئ في نفسية الجيش، تلك النفسية التي كانت منذ لحظة فقط، مزيجاً من القنوط واليأس، وخليطاً من السرور الخاص لمجرد الأذان بالعود إلى الوطن؛ فصارت تضطرم تشوقاً إلى الحرب، وتتحرق شوقاً إلى امتشاق السمهريات الطوامح!

وما وسعه إلا أن يثني على شجاعة الجنود، و.... عدم استسلامهم، و... ترفعهم عن الاستكانة والاستخذاء!!

فكان تحوله أعجب... وموقفه بين عشية أو ضحاها أغرب!

ونظر الطرواديون من كوى أبراجهم فراعهم التفاف الميلانيين بعديدتهم، وإحاطتهم بها من كل جانب، وسرى الرعب في قلوبهم، ودعوا ثبوراً كثيراً!!

وكان يحنقهم أن باريس الذي جر عليهم كل ذلك الكرب، وكان السبب المقيم لهذه الحرب، يقر في مخدعه الوثير يداعب هيلين المنحوسة ويلاعبها، ويساقيها كؤوس الهوى والغرام، غير آبه لما يغص به قومه من كؤوس الردى والحمام!

وخرج باريس لشأن من شؤون لهوه، وعبث باطل من أغراض غرامه الدني، فسمع الناس يلغطون ويلمزون، ويلوكون اسمه بألسنة الهوان والتحقير، فثار ثائره، وفارت حماسته، وأقسم ليرين الجبناء من ضروب شجاعته ما تنخلع له قلوبهم، وتطير من هوله ألبابهم...

وذهب من فوره إلى أخيه هيكتور فطلب إليه أن يرفع الراية البيضاء، ويخترق الصفوف حتى يكون في وسط الميدان، وينادي قائد القوم ليتفق معه على أن تستريح الجيشان طيلة هذا اليوم، ثم لتكون مبارزة بين باريس، على أن يمثل الطرواديين، ومنالايوس على أن يمثل الميلانيين، فإذا فاز أحدهما بصاحبه، وأظهرته الآلهة عليه، عاد إلى قومه فرحاً مسروراً!!

وطرب منالايوس لما اقترحه غريمه الذي كان كالساعي إلى حتفه بظلفه؛ وصمتت الأفواه وحملقت الأبصار، وتلبس كل جندي في الجيشين قلبه من شدة الخفق وثورة الوجيب؛ وبرز منالايوس وبرز إليه باريس؛ ومرت الأحداث سراعاً أمام عيني ملك أسبارطة؛ فذكر عشاق هيلين وصدود هيلين؛ وذكر يوم الخيرة الكبرى يوم رضيته من دون عشاقها الكثيرين بعلاً كريماً لها؛ وذكر يوم احتفائه بباريس واحتفال أسبارطة كلها به، كضيف عظيم لملكها؛ وذكر أن هذا الفارس الذي تزلزل من تحته الأرض إن هو إلا الغادر الختال الذي اعتدى كأحقر الجبناء على عرضه، ولطخ بوحل الفضيحة شرفه... ثم ذكر كيف فرت زوجه معه تحت جنح الليل... ذليلة للذتها، أسيرة هواها...... فثارت في قلبه زوبعة من الجنون، وانفجر في رأسه بركان من الغضب، واتقدت في عينيه جحيم يأكلها من النقمة، واندفق الدم يغلي في ساعديه، وانقض على خصمه فأوشك أن يحطمه... لولا أن هاله هذا الطيف الغريب الذي كان يحمي باريس منه، واقفاً إلى جانبه... وخلفه... وأمامه... ومن فوقه، ومن كل جهة جاء منالايوس منها، يذود عنه، ويتلقى الضربات الأسبرطية فوق درعه المسرودة،

أقصوصة عراقية :

رصاصة فى الفضاء

« من كتاب (الدفتر الأزرق) للكاتب ، الذى سوف يطبع وينشر فى المستقبل القريب »

بقلم محمود . ا . السيد

— ١ —

حادثة غريبة حدثت فى مرقص الهلال فى بغداد

كان أول من استقر عليه نظرى فى ذلك المرقص ، ليلة حدثت هذه الحادثة التى أروى لكم ، وهى من ليـــالى صيف ١٩٢٨ ، ثلاثة حسبتهم من طلبة المدارس العليا أو صغار الكتبة فى الدواوين ؛ على مقربة منى يقصفون وينظرون إلى من حولهم من النظارة مستكبرين ، ناقدين الرسنج نقد راغب فى إصلاحه : إصلاح الرقص الخليع فيه والغناء المحزن القديم

وكان النظارة تجاراً صغاراً وذوى حرف ، وعمالاً ، رأيتهم أخواناً متقابلين فى حلقات صغيرة من الكراسى الخيزرانية حول موائد مربعة مكسوة بقماش الكتان ؛ تعمم كل مائدة منها أطباق النقل والأقداح وزجاجات الخمور ، وأنوار المصابيح الكهربائية المعلقة فوق رؤوسهم ، الملونة بألوان النلم المراق ، تبدد الظلام . . . .

وكان « جماعة » من الشباب « العوام الأريحيين » ، ذوى العباءات الرقيقـــة السوداء التى تشف عما تحتها ، والعمائم « المصفورية » المرقشة باللون الأزرق ، يتراشقون بالنكات والفكاهات من وراء حوض مبلط بالقاشانى الأحمر كائن فى وسط المرقص تظلله الأعلام وسعف النخل ، وأصواتهم وكلماتهم الشعبية الظريفة تثير الضحك ، وتحيى فى نفوس القوم اللذة والسرور

وكانت الراقصة المغنية الأولى ، تلقى فاتحة الأغانى ، التى أعدت للقوم فى تلك الليلة — وهى عامية مشجية — جذلى ، أو متظاهرة بالجذل ، واثقة بنفسها كما كان يبدو من حركاتها ، معتقدة بأنها تجيد الغناء . ثم أنشدت هذه الأبيات من الشعر الشعبى الجديد :

« عن قص الشعر لا تلومونا   والوقت هـذى فنونه »
« قص الشعر صار وطننا   على الوده شحلو فنه »
« قص الشعر لنا زينه   شـبه الذهب بالخزينه »
« كل من يمشى بخياله   والمحب تنظر عيونه »

وقال واحد من الثلاثة — أولئك الذين حسبتهم من الطلبة أو صغار الكتبة — وهو مبدن ذو وجه مربع كأنه مصنوع بفأس النجار ، يخاطب أحد صاحبيه مشيراً إليها :

— إنها لذات وجه صغير جداً ، وقد صبغت وجنتيها بالصبغ الأحمر لتستر اصفراره ولا شك ، فما أقبحها ! »

ورفع إلى فمه كأسه ، ولم يستمر فى انتقاده . أجاب الذى خاطبه وهو أشقر اللون حسن البزة :

— « كلا يا أخى . إنها لجميلة يجملها شعرها الفاحم المقصوص طبقاً للطريقة المصرية التى شاعت فى الأيام الأخيرة »

وراح ثالثهما ، وهو فتى غرانق ، طلق المحيا باسم الثغر ، يشعل طرف سيكارته ويدخن صامتاً ، والتفت إليـه ذو الوجه المربع يسأله :

— « هل سليمان قادم إلينا ؟ »

— « سوف يأتى . ولكنه لن يأتينا بقلب مفتوح السرور ، إنهم ظلموه حقاً إذ استلبوا منه وظيفته ، على ما تعلمون »

الأضاة ، ذات الحلقات ! !

ماذا ؟

آه ! إنها هى ! ! هى بعينها ! ! هى ڤينوس ! ! لقد أسرعت إلى باريس تحميه فى ذلك الروع الأكبر ! فلما أوشك أن يستسلم عز عليها ألا تنقذ حياته وهو هو الذى حكم لها بالتفاحة . . .

لقد رفعته إلى عل !

وطفق منالايوس يبحث عنه هنا وهنا . . . ولكنه لم يعثر له على أثر !

لقد ذهبت به ربة الحب ، إلى مخدع الحب !

إلى هيلين !

ولكن ويل له من هيلين ! لقد كانت تطلع على الساحة فترى إلى مبارزة البطلين ، فهالها أن يبطش ملك أسبارطة بحبيبها ، لولا هذه السحابة البيضاء التى كانت تحميه دائماً من خصمه وتقيه . . .

وعذلته هيلين على هذا الفرار المشين ، فكان عذلها له أشد على نفسه من ضربات منالايوس ! . . .

(للبحث بقية)   دريني خشبة

قال الأول : وقد احتسى آخر حسوة من كأسه !

— « ليس فى خدمة الحكومة شرف للانسان ، فان كان سليمان فتى « وطنياً » مخلصاً فى عقيدته السياسية فأمامه سبل العمل المطلق كثيرة ، والجهاد . إن خوض المعركة فى ساحة الجهاد الوطني قد اقتربت ساعته ؛ فالشعب قد أرهقته الضرائب ، والاستقلال الذى وعدونا صار مجموعة من المناصب العالية ، وعمت فى نظمنا الفوضى ، فماذا نريد أكثر من ذلك لكى نسوغ خروجنا ونهوضنا نحن الشباب ؟ وإلى متى نحسب أن سبل العيش مسدودة أمامنا ، فلا نعرف من طرائق الارتزاق والتكسب إلا الوظيفة ؟ »

قال له صاحباه :

— « صدقت . . هذا صحيح »

وبعد حوار قصير سكتوا ، وكانت فترة بين فصلين

— ٢ —

أقبل الفتى الذى عرفت من بعد أنه هو سليمان على صحبه فى بداية الفصل التالى عجلا يلهث ، خيباً ، وألقى على المائدة جريدة كان يحمل ، ونزع سدارته ، ثم جلس ، وكانت آثار التعب بادية عليه ، واستغرب صحبه حاله ، وناوله ذو الوجه المربع سيكارة ثم سأله :

— « هل حدث حادثٌ غير الذى نعلم ؟ وهل كان اليوم أيضاً تظاهرٌ سياسى ؟ »

— « تظاهر سياسى ؟ كيف ؟ تظاهر سياسى مرة أخرى ؟ أولم يكفنا ما لقينا أمس فى تظاهرنا من ضرب الشرطة إخواننا المتظاهرين بالعصى وإرهاقهم ؟ وما الفائدة ؟ »

وكان يجيب صاحبه وهو يتكلف الهدوء ، ولكنه كرر « ما الفائدة » مرتين ثم انفجر صاخبا

وكان العواد والكمانى يطربان الحاضرين بقطعة موسيقية من مبتكرات سامى الشوا إيذاناً بانتهاء دور الراقصة المغنية الأولى

— « لم يبق أمل . . . »

نطق بهذه العبارة حانقاً ، يائساً ، وضرب المائدة بقبضة يده ثم قال :

— « . . . البلاد مقيدة بالمعاهدة ، والمناصب الكبرى للأجانب وذوى العقول القديمة ، وفتيان العراق لا يجدون واسطة لإعلان شعورهم ضد الاستعمار ؛ وهم إذا ما تظاهروا معلنين سخطهم على الصهيونية مثلاً كما فعلوا أمس ، سحقوهم بسنابك الخيل . . . قبض الشرطة الآن على عبد الكريم ، وأحمد حسن وطاهر ، وعلى . . . وواحد من المتظاهرين فى المستشفى جريح . . . »

واشتد صخبه وصراخه . وكان صحبه ، مع ترحيبهم به ؛ وتقبلهم آراءه ، يتلقون نظرات المحيطين بهم الدالة على استغرابهم هذه الخطبة ، التى لم يسمع أحد مثلها فى المراقص ، فى شىء من الارتباك . ونادى الفتى الفرانق الخادم ليأتى ضيفهم الثائر بربع من الخمر الأبيض

ثم أقبل صاحب المرقص على سليمان متلطفاً يسكته ، وينبهه إلى أن فيما قاله الكفاية ، وأن الخوض فى شؤون الوطن وسياسته فى المرقص بين الكأس والعود ضرب من العبث ؛ « واليوم خمر وغداً أمر » ؛ وكان الرجل أديباً ظريفاً ، فأفاض على الجماعة بجملة من النوادر قبل أن يتولى عنهم وينصرف

وتركت النظر إليهم ، واستماع أحاديثهم منصرفاً إلى دراسة المرسح !

وكما كان الجاحظ وهو من أئمة الدين يؤلف الرسائل فى القيان ، كنت عازماً على كتابة فصل فى نقد مغنيات بغداد اللائى يطربن أبناء الشعب فى ساعات لهوهم ومرحهم . فقلت أخاطب نفسى :

« إليك المادة الأولى من مواد الموضوع » ، ثم أخرجت قلمى ودفتر مذكراتى فكتبت :

« كانت المغنية الراقصة الأولى التى يسمونها جميلة العودية معتدلة القامة ، نحيفة ترتدى ثوباً قصيراً بنفسجى اللون ، يتوج رأسها تاج من اللؤلؤ المزيف . وجهها مستطيل . نظراتها تدل على غباء . تضاحك الناس بين حين وآخر . . . وأما غناؤها . . . »

وكتبت صفحة أو صفحتين من دفترى فى ذكر غنائها ؛ وطريقة إنشادها ، ثم انتقلت إلى وصف الثانية ، وقد جاء دورها وحانت منى التفاتة إلى أشخاص قصتى ؛ فألفيتهم عاكفين على مائدتهم يأكلون ويشربون ويتحادثون ، وكان سليمان يفرغ الثمالة من زجاجة « الربع » التى كانت أمامه فى كأسه ، ثم يطلب من الخادم زجاجة « ربع » ثانية ؛ وعجبت له كيف سكن بعد هياجه ، ثم سمعته يقول لصاحبه :

— « إننى أكرهها . . أكره تلك المغنية الهزيلة . . أكره تاجها المزيف . . أكره وجهها المستطيل . . أكره نظراتها . .

وأحب زهراء وإن لم تكن مغنية من ذوات الفن ولا ذات شرف في هذا المجتمع »

وجاء الخادم بالزجاجة ، ولم يجبه أحد . وفتح الجريدة التي كان ألقاها ساعة أقبل على المائدة وأشار إلى مقالة فيها وقال :

« صرت منذ اليوم أعلن حبي لها على رءوس الأشهاد ، فهذه المقالة بل هذه الفلسفة الجديدة قد غيرت رأيي »

وقرأ :

« لا تحتقروا أحداً من النساء ، فبنو الإنسانية سواسية في هذه الدنيا . . . »

ولم أستغرب هذه « الفلسفة الجديدة » على ما وصفها ولم أعرف صاحبها ، التي راح يؤيدها سليمان في حماسة شديدة . وخيل إلي من عينيه المحملقتين وصوته الراعد ، أن الثورة الكامنة في أعماق نفسه على وشك الظهور مرة أخرى . ولكنه كان مضطرباً قلقاً ، فلم يكمل قراءة المقالة . ورنا إلى المسرح مجباً برقص الراقصة الثانية ؛ وكانت فتاة رومية مستترّكة وافدة من استانبول . وهز رأسه ، ثم هز رأسه إذ أطربه صوتها الرقيع بالقدود وأناشيدها التركية الرقيقة . وأنشغلت عنه بكتابة وصفها :

- طويلة بيضاء في صفرة كلون الذهب . . . »

واستمررت في الكتابة غير منتبه إلى ما يجري حولي ، نحو ساعة أو أكثر أو أقل ، لا أدري . وقبيل أن ألقي القلم جانباً رنت في أذني قرقعة أحدثها سقوط أطباق على الأرض ، وصرخة صارخ يقول :

- « أنت خاطئ يا أخي ! أنت خاطئ وتخطئ كل الخطأ ! »

وكان الصارخ سليمان . قلت : « حقاً لقد ثار صاحبنا » . ورفعت رأسي لأنظر إليه ، فألفيته واقفاً منفوشاً شعر رأسه يعربد ، ويقول مخاطباً رجلاً غريباً لم أره من قبل ، كان واقفاً أمامه ينظر إليه نظرة شامت مستهزئ :

- « أنا شجاع ، شجاع ! لقد طردوني لأنني أبيت أن أخدمهم لتحقيق غاياتهم .

هذا حق ، ولكنني لم أتأثر لحرماني من الوظيفة . . . ما أنا بسكران ! . . . لست ثائراً لأني أصبحت محروماً من الوظيفة يا كامل ، بل لأن الوطن يريد رجاله . انظر يا كامل ! ويلك ! أنا رجل أقابل ألف رجل من هؤلاء المخانيث لو دعت الحاجة ؛ وما كم البرهان :

والتفت إلى صحبه مهتاجاً ، وكانوا حيارى واجمين ثم قال :

- « رصاصة لأجل الحرية ! »

وسرعان ما أخرج من جيبه مسدساً فأطلق رصاصة في الفضاء

وهرع بعض النظارة إليه ليمنعه من الاستمرار في إطلاق الرصاص ، وبعضهم إلى باب المرقص لينجو بنفسه ، إذ أدرك في هذه الحادثة بادرة للجريمة . وجاء شرطي يعدو ويشق لنفسه طريقاً إلى سليمان في الزحام . . . ولم أعد أفهم من الحوادث التالية شيئاً . . .

— ٣ —

بعد يومين أو ثلاثة ذكرت الصحف : « أن محكمة الجزاء حكمت على سليمان بن محمود وهو موظف سابق معزول ، بأن يسجن عقاباً له على اطلاقه الرصاص من مسدسه وهو سكران في مرقص الهلال »

ولم أسمع له ذكراً بعد ذلك

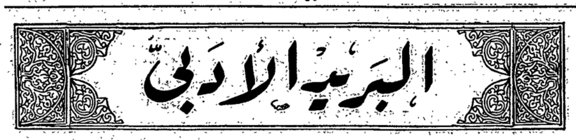
العراق — الأعظمية محمود . أ . السيد

الجامعة المصرية

كلية العلوم

تعلن كلية العلوم أنه ستخلو بها وظيفة مدرس كيميا في الدرجة الخامسة ، ويشترط فيمن يتقدم لهذه الوظيفة أن يكون مصري الجنس ومختصاً في الكيميا وحاصلاً على درجة دكتور في الفلسفة أو دكتور في العلوم ، ويفضل من يكون له خبرة كافية بالتعليم الجامعي ودراية بالأبحاث ، وتقدم الطلبات مبيناً بها المؤهلات وسابقة الخدمة إلى جناب عميد كلية العلوم بالعباسية في موعد غايته ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٣٥

ولا يعطى هذا الاعلان الحق لمن يقع عليه الاختيار في الدرجة المعلن عنها أو مرتبها إلا إذا كانت القوانين المالية تسمح بذلك وبعد موافقة السلطات المختصة



حول النزاع الأدبي

لم أعتد الرد على من يهاجمون شخصي لأني أعتبر واجب الأديب أن يقوم بقسطه من الانتاج ، لا أن يضيع وقته في المشاحنات الفارغة ، ولكن أراني الآن مضطراً إلى أن أقول كلمة (ستكون الأولى والأخيرة لي في الموضوع) إظهاراً للحقيقة ، وخشية أن تمسي «الرسالة» ، وهي المجلة الأدبية الرصينة ، ميداناً للمجادلات هي في نظري أبعد ما تكون عن الأدب :

لا شك أن الفترة الأدبية هي التي دفعت صديقي الأستاذ الرحلاوي إلى فتح هذا النقاش لاعتقاده أن ثمة تشابها كبيراً بين قصيدة الدكتور «ناجي» وبين قصيدتي «عاصفة» المنشورة في مجلة (الدهور) منذ عام ونيف . على أنني أرى هذا التشابه ضئيلاً جداً ، ولا يجوز أن يعزى إلا إلى توارد الخواطر .

أما من جهة رد الأستاذ الطنطاوي فهو ادعاء لا تدعمه حجة ولا يؤيده برهان . لقد ادعى هذا الأديب أن صديقه أنور العطار قال له إن قصيدتي مسروقة من أحد شعراء المهجر ، ثم أردف أنه لا يعرف عني سوى أني «ترجمان قصصي !» فهل «للرسالة» أن تطلب منه أن ينشر على صفحاتها اسم الشاعر وقصيدته التي يقول إن قصيدتي سرقت منها ، وأصل القصص التي يدعى أني ترجمتها ؟

وليعلم الأديب الطنطاوي أخيراً أن من يكتب للناس ما يفيدهم بلغة سهلة بسيطة لهو خير من الذي يسب ويشتم بلغة العرب الأقحاح !

(دمشق) ميشيل عفلق

وفاة رحالة كبير

من أنباء روسيا أن الرحالة المكتشف الشهير بيتر كوزلوف قد توفي في لننجراد في الثانية والسبعين من عمره . وقد اشتهر الأستاذ كوزلوف قبل الحرب باكتشافاته العلمية في مجاهل آسيا ولاسيا في صحراء جوبي . وقد بدأ حياته الكشفية بالاشتراك في بعض الحملات والبعثات الرسمية في أواخر القرن الماضي . وفي سنة ١٨٩٩ جهز حملته الأولى إلى أواسط آسيا ؛ ثم أعقبها برحلات أخرى ، ولكنه وفق إلى أعظم اكتشافاته بين سنتي ١٩٠٧ و ١٩٠٩ حينما اكتشف في صحراء جوبي في أعماق آسيا مدينة مجهولة تسمى خاراخوتو ، وكانت بها بقايا أبنية ظاهرة ، وآثار جنس بشري غير معروف . ووجدت ضمن الآثار المكتشفة نقوش وكتابات كثيرة بلغة مجهولة ، ولكن الأستاذ كوزلوف استطاع قراءتها بفضل نوع من الدليل المكتوب وجده بين الأشياء المكتشفة . واستمرت حكومة البلاشفة بعد الحكومة القيصرية على تشجيع كوزلوف والانفاق على بعثاته ؛ فقام في العهد الأخير بعدة رحلات إلى صحراء جوبي كانت أخراها في سنة ١٩٢٦ . وعاونته الحكومة أيضاً على نشر كتاب ضخم عن جوبي وآثارها وعن منطقة خاراخوتو التي اكتشفها . ونشر كوزلوف أيضاً كتباً أخرى كلها بالروسية ، ولكنها لم تترجم إلى لغات أخرى فلم يعرف العالم الخارجي عنها كثيراً ، غير أنه نشر منذ أعوام كتاباً بالانكليزية عنوانه «عصافير منغوليا» .

وكان الأستاذ كوزلوف عضواً في جمعيات علمية كثيرة . وكان يعيش في منزل منعزل في غابة بالقرب من نوفجورود مدى أعوام طويلة يرتب المواد والآثار التي جمعها ؛ وكان من آن لآخر يحضر إلى لننجراد ليلقي فيها بعض المحاضرات . وقررت له الحكومة البلشفية معاشاً حسناً ، وقد رافقته زوجه في عدة من حملاته الكشفية .

عميد الموسيقى الانكليزية

نعت الأنباء الأخيرة السير فردريك كوين المؤلف الموسيقي المشهور وعميد الموسيقى الإنكليزية منذ أواخر القرن الماضي . توفي في الثالثة والثمانين من عمره ؛ وكان مولده بجزيرة جاميكا في سنة ١٨٥٢ ، وأخذ إلى انكلترا صغيراً حيث كان أبوه يشغل وظيفة «عمسرح الملكة» . وتلقى كوين دروسه الأولى في الموسيقى وهو طفل على يد هنري رسل ، وكتب أول قطعة موسيقية وهو في الخامسة . ودرس العزف (البيانو) على بندكت ، والتأليف

على جونس . وفى سنة ١٨٨٥ ذهب إلى لايبزج ودرس هنالك على أقطاب الفن . ثم عاد إلى انكلترا ، وظهر ببراعته فى التأليف والموسيقى ، وعهد إليه برياسة الحفلات الموسيقية الملكية ؛ ولكنه كان أكثر براعة فى التأليف منه فى العزف ، وكانت أولى قطعه الشهيرة « عذراء الورد » ، ظهرت وعزفت فى لندن سنة ١٨٧٠ ؛ وأتبعها بقطعة تسمى « القربان » . ومن ذلك التاريخ عكف السير كوين على إخراج القطع والأوبرات والأغانى حتى بلغ ما أخرجه منها مئات عدة . وقد انتخب السير كوين مراراً ليكون رئيساً للفرقة الموسيقية التابعة لجمعية الموسيقى الملكية . وفى سنة ١٩١١ أنعم عليه بلقب الفارس

وللسير كوين قطع موسيقية راقصة بديعة . ولما بلغ الثمانين من عمره منذ ثلاثة أعوام ، صرح فى حديث له أنه لا يدرى ماذا حدث فى الموسيقى العصرية ، وأنه يلاحظ أن الموسيقى المعاصرة ملأى بالمفارقات والتناقضات مع أن من شرط الموسيقى أن تكون فياضة التناسق

مؤتمر لتاريخ الطب

عقد أخيراً فى مدريد مؤتمر لمؤرخى الطب ، وهو المؤتمر العاشر من نوعه يعقد كل عام فى عاصمة من عواصم العالم ؛ وقد شهده جمهرة كبيرة من علماء مختلف الدول ، وعقد تحت رعاية رئيس الجمهورية الاسبانية ، ولم يقتصر أعضاء المؤتمر على المناقشات العلمية والتاريخية المتعلقة بتاريخ الطب والجراحة منذ غابر الأزمان ، ولكن لجنة المؤتمر قامت بتنظيم معرض هام للمخطوطات والوثائق الطبية من أقدم العصور ، وكذلك لعرض الأدوات الطبية والجراحية التى كان يستعملها الأطباء فى العصور القديمة والوسطى ، ومن ذلك صور ونماذج للأدوات الطبية والجراحية العربية نقلت من مخطوطات ترجع إلى القرن الرابع عشر ، وصور من مخطوطات موسى بن ميمون الطبية والفلسفية وهو الطبيب اليهودى الأندلسى الذى نبغ فى القرن الثانى عشر ويعرف عند الافرنج باسم « ميمونيدس » ، ومجموعة من آثار أندريس لاجونا طبيب الامبراطور شارلكان ، وأدوات طبية هندية ومصرية ترجع إلى العصور الوسطى ، ونماذج تشريحية وغيرها ؛ وقد لفت الأنظار بنوع خاص نموذج معروض لحانوت صيدلى مسلم فى قرطبة فى القرن الثالث عشر ، ونموذج لمستشفى « سانتا كروز » القديم فى طليطلة كما كان عليه فى القرن السادس عشر

ملكة التراجيديا

صدر أخيراً كتاب بالانكليزية عنوانه « راشيل الخالدة » للكاتب الانكليزى برنارد فوك ، وهو ترجمة مستفيضة مؤثرة للممثلة الكبيرة راشيل التى سطعت فى النصف الأول من القرن الماضى ، وتركت أثرها الخالد فى المسرح الفرنسى ، وكانت راشيل مثل سارا برنهارت وسان سيدون يهودية الأصل ، ولدت سنة ١٨٢١ فى أسرة فقيرة جداً ، وكانت فى طفولتها تغنى وترقص فى شوارع ليون وتجمع الفلوس لتعيش ؛ ولكنها لم تبلغ السابعة عشرة حتى ظهرت على مسرح « الكوميدى فرانسيز » ولم تمض أسابيع على ظهورها حتى ارتفع صيتها إلى السماكين ، ولم تبلغ العشرين حتى غدت غنية ترتع فى بحبوحة الثراء والترف ، والتف حولها أكثر من أمير وشريف يرغبون فى ودها ، وكانت مثال العبقرية الساطعة ، ولكنها لم تكن مثالا للأخلاق الرفيعة ، وكانت لها مبادئ وتصرفات خاصة تعدو مجتمعها وعصرها ، وقد خاضت حياة مضطرمة فياضة بالتنقل واللهو العنيف ، وتوفيت فتية فى زهرة العمر ، فى الثامنة والثلاثين من عمرها

ويستعرض المؤلف حياة هذه الممثلة الباهرة فى قوة وصراحة ويكشف لنا كثيراً من خواص الحياة المسرحية فى القرن الماضى ويوضح لنا كيف كانت راشيل من أعظم ممثلات التاريخ ، ومن أعظم كواكب الفن والمسرح

ترشيح النجاشى لجائزة نوبل

من الأنباء الطريفة التى وقفنا عليها فى البريد الأخير أن صحيفة سويدية هى جريدة « سوسيال ديموكراتى » التى تصدر فى ستوكهلم ترشح الأمبراطور هيلى سلاسى لنيل جائزة نوبل للسلام هذا العام ؛ وتؤيد الجريدة هذا الترشيح بمواقف الإمبراطور السلمية المشهورة وأحاديثه التى أفضى بها إلى مختلف المكاتبين الأوربيين ، وترى أنه أجدر من وقف إلى جانب السلام هذا العام بنيل الجائزة الشهيرة . ونذكر أن الذى فاز بهذه الجائزة فى العام الماضى هو المستر هندرسون رئيس مؤتمر نزع السلاح ، والسير نورمان آنجل الكاتب الانكليزى وداعية السلام الشهير . ولا ريب أن ترشيح النجاشى سيقابل بالتأييد والارتياح من جميع أنصار السلام ، والمعروف أن السويد تعطف على النجاشى عطفاً خاصاً ، وأن معظم مستشاريه العسكريين والسياسيين هم من رجال السويد



علم الدولة

للأستاذ أحمد وفيق

[لمناسبة صدور الجزء الثالث]

بقلم الدكتور محمد توفيق يونس

صدر حديثاً الجزء الثالث من الكتاب الضخم الذي يضعه الكاتب النابه الأستاذ أحمد وفيق في « علم الدولة » ، وهذا الجزء كسابقيه من حيث طريقة البحث وسياق الحديث ، وإذا كان قد فاتنا أن نتحدث عن الجزأين الأول والثاني حين صدورهما فلا يفوتنا وقد صدر الجزء الثالث أن نتحدث عن الكتاب جملة

***

من العسير بل من المستحيل أن تكون « الدولة » بجميع مظاهرها وتطوراتها موضوعاً لبحث واحد جامع ، إذ أن لها وجوهاً مختلفة يتطلب كل منها بحثاً خاصاً ، فهناك الوجه الدستوري الذي يعني بهيئات الدولة العليا ، وهناك الوجه الاداري الذي ينظر إلى التفاصيل التنفيذية للحياة العامة ، أو بمعنى آخر إلى مجموع المصالح العامة التي تكفل سير الدولة العملي ، وهناك الوجه المالي الذي يبحث في إيرادات الدولة ونفقاتها ، ثم هناك دراسة الدولة من ناحية القانون الدولي العام باعتبارها من أشخاصه وبصفتها عضواً في الأسرة الدولية ، الخ

ولكل دراسة من هاته الدراسات ناحيتان أساسيتان : ناحيتها القانونية وناحيتها السياسية ، وأهمية الاستئناس بالأخيرة في تحليل المسائل الفقهية لا تحتاج إلى بيان . وإذا أضفنا إلى كل ذلك نصيب التاريخ تبين لنا أي دائرة واسعة من المعارف يمكن أن تدخل تحت هذا الموضوع .

ولكن المؤلف الفاضل وإن كان قد سمى كتابه « علم الدولة » لم يقصد إلا دراسة فكرة الدولة أو نظرية الدولة كما أوضح ذلك في مقدمة الجزء الأول (ص ٤٧ — ٤٩) .

لهذا كان أجدر به أن يجعل عنوان الكتاب أكثر تحديداً لما فيه بأن يسميه مثلاً « فكرة الدولة » أو « نظرية الدولة » أو « في علم الدولة » إذا لم يرد تحديداً دقيقاً

على أن الموضوع الذي فرضه المؤلف على نفسه يبقى بعد هذا التحديد فسيح الأطراف متشعب النواحي متعدد الوجوه إلى حد يجعل من الصعب استيفاءها جميعاً ودراستها معاً دراسة مستفيضة ، ويضطر المؤلف إلى الايجاز وإهمال التفاصيل ، ويخشى معه ضعف الارتباط وتشتت البحث وتوزع المجهود . والمؤلف نفسه يكتفي في الواقع « بدراسة عامة إجمالية » (ص ٤٧ من الجزء الأول)

ولقد صبغ المؤلف هذه الدراسة بالصبغة التاريخية فجعل التاريخ العنصر الغالب في أجزاء كتابه الثلاثة بل قوامها جميعاً .

وموجز بسيط للموضوعات التي تناولها المؤلف تساعد على إدراك ما قدمنا

قسم المؤلف الجزء الأول من كتابه إلى ثلاثة أبواب خصص الباب الأول منها بأصول الدولة ، فتكلم في الفصل الأول عن ضرورة البحث في هذا الموضوع ، وقدم لذلك مثلين هما : فرض الضرائب على الأجانب والنظام الفاشي . ثم انتقل إلى الكلام في الفصول التالية عن مختلف النظريات التي تناولته عارضاً ناقداً محللاً ، فتكلم في الفصل الثاني عن نظرية الطبيعة ، وفي الثالث عن الأسرة ، وفي الرابع عن العقد الاجتماعي ، وفي الخامس عن القوة ، وفي السادس عن الارادة الفردية ، وبعد أن انتهى المؤلف من الكلام على أصول الدولة في الباب الأول أخذ يتكلم في البابين الثاني والثالث عن التطور التاريخي لفكرة الدولة ، فتناول في الباب الثاني الأفكار القديمة عن الدولة مستعرضاً إياها في الهند وفارس والصين ومصر ، وعند اليهود واليونان

والرومان ، وتناول فى الباب الثالث فكرة الدولة فى القرون الوسطى وفى عهدى الأحياء والإصلاح .

وفى الجزء الثانى من الكتاب تابع المؤلف بحثه فى التطور التاريخى لفكرة الدولة ، فتكلم عنها من عهد الإصلاح الذى ختم به الجزء الأول حتى سقوط نابليون النهائى بعد أن عرج فى طريقه على الدستور البريطانى ، فشرح أطواره منذ نشأته حتى نهاية القرن الثامن عشر .

واستمر هذا البحث التاريخى فى الجزء الثالث ، إذ تناول المؤلف أطوار فكرة الدولة ابتداء من سقوط نابليون حتى اليوم — تناولها من ثلاث نواح فى ثلاثة أبواب ؛ خص الباب الأول منها بتطور فكرة الدولة من ناحية سياجها الخارجى ، أو بعبارة أخرى من ناحية القانون الدولى ، وخص الباب الثانى بأهم أطوار العنصر التاريخى للدولة عارضاً لمختلف الحركات الشعبية منذ سنة ١٨١٥ ، أى بعد سقوط نابليون النهائى ، وخص الباب الثالث بأهم أطوار العنصر القانونى للدولة منذ ذلك الحين كذلك واصلاً ما انقطع فى نهاية الجزء الثانى من الكلام عن الحركة الدستورية والنظام البرلمانى فى فرنسا ، خاتماً إياه بكلمة وجيزة عن بعض المبادئ الدستورية الحديثة .

والحق أن المؤلف الفاضل — مع ما سبق أن قدمنا — قد عالج هذه الأبواب التى تناولها فى أجزاء كتابه الثلاثة معالجة الملم بموضوعه ، الواسع الإطلاع ، الدقيق الملاحظة ، القوى العبارة ، الجزل الأسلوب .

على أننا مع الثناء الخالص على المؤلف والتقدير العظيم للكتاب نأخذ على الأستاذ أنه لم يبين فى صدر الكتاب منهاج بحثه ، وتقسيم عمله ، وتسلسل موضوعه ، البيان الكافى الذى ينير أمام القارئ السبيل إلى الغاية .

كذلك نأخذ عليه عدم ذكره المراجع كاملة فى الثبت الذى ذيل به كل جزء من أجزاء كتابه فلم يذكر أمام كل كتاب بعد اسم المؤلف والعنوان الكامل لكتابه الجزء الخاص بالموضوع إذا كان للكتاب عدة أجزاء ، وعدد الطبعة إذا كان له أكثر من طبعة ، والمدينة والسنة التى طبع فيها ، ففى هذه البيانات ما يساعد محبى البحث والاستقصاء .

كما أنه أهمل هذه البيانات عند ما كان ينقل أو يوجز أقوال بعض العلماء فى صلب الكتاب ، فهو كثيراً ما يكتفى بالإشارة إلى اسم المؤلف ورقم الصفحة دون ذكر لعدد الطبعة ، وقد تكون الطبعة التى يرجع إليها القارئ غير الطبعة التى كانت فى يد الكاتب ، والصفحات تتغير فى مختلف الطبعات ، بل هو أحياناً لا يذكر الصفحة التى نقل عنها فيصعب على القارئ الرجوع إلى العبارة المنقولة والتثبت منها

***

وجملة الرأى فى الكتاب أنه لم يوجه وجهة علمية صرفة ، بل قصد منه التثقيف والتهذيب ، وأنه من هذه الناحية ، أى ناحية الثقافة العامة عمل ضخم ثمين ، أدى به مؤلفه الكريم إلى قراء العربية خدمة جليلة ، كلفته جهوداً مضنية من الطاقة والوقت ، فمن حقه أن يقابل بالشكر الوافر والتعضيد الصحيح .

محمد توفيق يونس

تحذير

شاب يدعى أحمد تركى يزعم للناس أن له صلة بمكتب إعلانات الرسالة ، والرسالة تعلن أن ليس لهذا الرجل بأى عمل من أعمالها صلة

3me Année, No. 120. — Lundi 21-10-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبتدولي رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٢٠ « القاهرة في يوم الاثنين ٢٣ رجب سنة ١٣٥٤ — ٢١ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

أحمد شـــوقي

بمناسبة ذكراه الثالثة



أجتمع رأى الناس — ماعدا الشعراء — على أن شوقي طيب الله ذكره ، كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب ، ويحفظ للبيان العربي قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبثة في الكون ، وأسرار الجمال المضمرة في الطبيعة ، ومعاني الخير الغامضة في الحياة ؛ وأن فقده كان فقداً للوجدان الفني في الشعب الذي علمه كيف يتذوق الأدب ويستسيغ الشعر وينضج عواطفه الجافة بفيض هذه القريحة النابغة الثرة ؛ فالأعوام تعقب

الأعوام ، والذكرى تخلف الذكرى ، والأسى لا يزال يُرمض الجوانح لامتناع الصبر عليه وإعواز العوض منه ؛ فسيبقى شوقى كما وضعه القدر كمالاً فى نقص كان ، وهيهات أن يصير نقصاً فى كمال سيكون ؛ وسيدور الفلك ويدور ، ويقصد النقد ويجور ، ويتطور الذوق ويسمو ، وشعر شوقى ثابت ما ثبت الحق ، خالد ما خلد القرآن ، مقروء ما بقى العرب !

ذلك لأن الطبيعة اختارته لرسالة الشعر بعد فترة موئسة من الرسل ، ثم آثرته بالنصيب الأوفى من الفكر والخيال والعاطفة ، وهى الملكات الثلاث التى ترفد القريحة وتمد الطبع ، وعلى تفاوتها فى القوة والضعف يتفاوت الفنان فى السبق والتخلف ؛ ثم زودته بالأذن الموسيقية والقريحة السخية والأداة الطيعة ، فشب عبقرياً بالفطرة ، لا شأن للبيئة فى تنشئته ، ولا للمدرسة فى إعداده ، ولا للفرصة فى توجيهه ؛ وهل كان أثر البيئة وقفاً عليه ، وتعليم المدرسة خاصاً به ، ومواتاة الفرص امتيازاً له ؟ إنما كان مثله فى رسالة الشعر كمثل الأنبياء فى رسالة الدين ، يختارهم الله من الضعفاء والفقراء والأميين ليكون جلاله عليهم أبهر ، ومعجزته فيهم أظهر ، وحجته منهم أبلغ

وشوقى رجل روحه أقوى من فنه ، وشعره أوسع من علمه ، وحكمته أمتن من خلقه ، وقدرته أكبر من استعداده ، فلا يشك قارئه فى أنه وسيط لروح خفية تقوده ، ورسول لقوة الهية تلهمه ؛ وما اكتسب من القراءة والأسفار إلا إرهاف الذوق ، وتحصيل المادة ، وتوسيع الخبرة ؛ والذوق فى الفن كالعقل فى العلم إنما يحصلان بالدرس والتجربة والسن ؛ والطبيعة تصنع صاحب العبقرية ، ولكنها تبدأ صاحب الذوق

* * *

الشاعر المطبوع رجل يتأثر خياله بقوة ، وينفعل قلبه بسرعة ، ثم يكون بين خياله وقلبه تجاوب سريع مستمر ؛ له أذن مرهفة الحس تفطن للايقاع وتطرب للنغم ، وذوق سليم الادراك يعرف جمال الشعر ويعلم مواقع الكلم ، ونفس ترى المُثُل الروائع فتحمَى وتتحمس ، ثم يدفعها السمو الفنى فيها إلى المنافسة الحرة والمعارضة النبيلة ؛ وإذا تناول الفكرة الأساسية الأولية لموضوع ما ، لا يلبث أن يراها فى دخيلة نفسه تنمو وتتسع وتتركب وتتشعب وتتلون ، ثم تغدو ولوداً خصبة ؛ ثم لا ينفك شاعراً بالحاجة الملحة إلى الانتاج الناشئ عن غزارة الفيض وحرارة العاطفة ؛ ثم يدرك فى يسر ما بين المعانى المجردة والمواد الحسية من علاقة ، فيتخذ من هذه ألواناً لتلك ، بحيث تولد هذه الأفكار فى الذهن مكسوة بهذه الصور ؛ تتمثل فى خاطره المواد من ذات نفسها على الوجه الأنسب للتصوير والوضع الأجمل فى النظم ، فاذا كان الموضوع مؤثراً انثالت عليه العواطف معجلة تريد أن تظهر ، مزدحمة تحاول أن تفيض

ذلك هو الشاعر المطبوع ، وذلك هو شوقى ؛ علمناه بالدرس ، وعرفناه بالصحبة ، فما انخزل يوماً فى تحليقه وإسفافه عن مواقف العبقرية . ولئن كان فى شعر شبابه مأسور الفكر ، محصور الخيال ، محدود النظر ، لا يعبر إلا عن رأى القصر ، ولا يصور إلا بألوان البيئة ، لقد كانت هذه الحقبة الرسمية غيبة للشاعر عن نفسه ، وذهولاً منه عن وجوده ؛ وقديماً كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة العبقرية ، فلما أعتقته الحرب من رق الوظيفة ، وأطلقته انجلترا بالنفى إلى الأندلس ، تيقظ فيه الرسول الشاعر والحكيم المصلح ، فحلق بخياله فى كل جو ، وسطع بعقله فى كل أفق ، وشدا بالاسلام والعروبة والمصرية شدواً ردده كل لسان واهتز له كل قلب ؛ ثم زاد فى القيثارة العربية الأوتار الناقصة ، فأضاف الشعر القصصى والشعر التمثيلى إلى شعرنا الغنائى ؛ فكان بذلك وحده الشاعر الكامل !

* * *

شوقى كله من صنع الطبيعة ، ولد منشداً كما ولد البلبل مغرداً ؛ فالحكم على شعره بقوانين النقد الوضعية ، وآراء الناقدين الشخصية ، لا يضعه فى مكانه ، ولا يزنه بميزانه . اقرأه ثم راجع فيه نفسك ، واستشر فى أثره حسك ، فاذا وجدت ذهنك يشتغل ، وشعورك يشتعل ، وروحك تتصل بروحه ، وذوقك يرتاح لذوقه ، فثق أنك بازاء شاعر علت مزاياه على النقد ، وسخرت مواهبه بالقيود :

* * *

إن شوقى سيظل على رغم الهتاف به مغموط الحق مادام الشعر العربى للخاصة ، لأن الخواص أكثرهم لا ينصفونه ، والعوام كلهم لا يفهمونه ، فمتى زالت معرة الأمية عن الأمة العربية أصبح لشعره يومئذ شأن وأى شأن

احمد حسن الزيات

٥ ـ الجمال البائس

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

قلت لها: إن كلمة الكفر لا تكون كافرة إذا أكره عليها من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، وكلمة الفجور أهون منها وأخف وزناً وشأناً، ثم لا تكون إلا فاجرة أبداً، إذ لا إكراه على هذه الدعارة إكراهاً لا خيار فيه. وما أول الدعارة إلا أن تمد المرأة طرفها من غير حياء، كما يمد اللص يده من غير أمانة

ومن اضطر إلى الكفر استطاع أن يخبأ محراب المسجد في أعماقه فيصلي ثمة، ولكن الفجور لا يترك في النفس موضعاً لدين ولا إيمان، إذ هو دائب في إثارة الغرائز الطبيعية الحيوانية المسترسلة بلا ضابط، فيجعل المرأة تحيا بعيدة عن ضميرها، فيضعف منها أول ما يضعف آثار الآداب والأخلاق، فيهلك فيها أول ما يهلك إحساسها بمعنى المرأة الإنسانية وشعورها بمجد هذا المعنى

فإذا انتهت المرأة إلى هذا لم يكن لها مبدأ ولا عقيدة إلا أن على غيرها أن يتحمل عواقب أعمالها، وهذه بعينها هي حالة المجنون جنون عقله؛ أفلا تكون المرأة حينئذ مجنونة جنون جسمها...؟

* * *

فساءها ذلك وبان فيها، ولكنها أمسكت على ما في نفسها؛ والمرأة من هؤلاء لا يمشي أمرها في الناس ولا يتصل عيشها إلا إذا كثرت طباعها كثرة ثيابها، فهي تخلع وتلبس من هذه وتلك لكل يوم ولكل حالة ولكل رجل، فينبعث منها الغضب وهي في أنعم الرضى، كما ينبعث الرضى وهي في أشد الغيظ، وكأن لم تغضب ولم ترض لأنها ليست لأحد ولا لنفسها

وتسارر غضبها ثم قالت: كان كلامك أن لك رجاء إليّ، فأنا أحب.... أحب أن أعلم

قلت: وأنا كذلك أحب.... أحب أن أعلم

فضحكت وسُرّي عنها، وثبتت على شفتيها ابتسامة لو جاء ملك من السماء ليضع في ثغرها ابتسامة أجمل منها لما وجد أجمل منها

ثم قالت: تحب أن تعلم ماذا؟

قلت: أحب أن أعلم منك قصة هذه الحياة ما كان أولها؟

قالت: لقد قضيت من حكمك فينا، ولكنك أخطأت، فلكل ليل مظلم كوكبه؛ والكوكب الوقاد المتألق فوق ليل المرأة منا هو إيمانها. نعم إنه ليس كإيمان الناس في واجباته ولكنه كإيمان الناس في تعزيته، والله ربنا وربكم!

قلت: لو أطيع الله بمعصيته لاستقام لك هذا، وإنما أنت تصفين الإيمان الأول الذي كان عملاً فصار ذكرى، فصارت الذكرى أملاً، فظننت الأمل هو الإيمان

قالت: ثم إننا جميعاً مكرهات على هذه الحياة، فما نحن إلا صرعى المصادمة بين الإرادة الإنسانية وبين القدر

قلت: ولكن لم تَهْفُ واحدة منكن في غلطتها الأولى وهي مستكرهة على غلطة؛ بل وهي راغبة في لذة، أو مبادرة لشهوة، أو طالبة لنفعة

قالت: هذا أحد الوجهين؛ أما الآخر فالتماس الرزق وصلاح العيش. فالرجل مع الرجل رأس ماله قوته، وعمله بقوته؛ ولكن المرأة مع الرجل رأس مالها أنوثتها، وعمل أنوثتها. وفي الوجه الأول وجه اللذة والنفعة، تحتال كلمة الفجور على المرأة بكلمات رقيقة ساحرة، منها الحب والزواج والسعادة، فتستسلم المرأة مضطرة ليقع شيء من هذا. وفي الوجه الثاني وجه الرزق والعيش، تحتال الكلمة الخبيثة الفاجرة على المرأة المسكينة المستضعفة بكلمات رهيبة قاتلة، منها الجوع والفقر والشقاء، فتسقط المرأة مضطرة خيفة أن يقع شيء من هذا؛ وفي أحد الوجهين يكون الرجل هو الفاجر لفساد آدابه، وفي الوجه الآخر يكون الفاجر هو المجتمع لفساد مبادئه.

* * *

قلت: أما لا أنكر أن المرأة إذا سقطت في هذه الدنيئة لم تقع أبداً إلا في موضع غلطة من غلطات القوانين، وآفة هذه القوانين أنها لم تسن لمنع الجريمة أن تقع، ولكن للعقاب عليها بعد

وقوعها... وبهذا عجزت عن صيانة المرأة وحفظها، وتركتها القانون الغريزة الوحشية في هؤلاء الوحوش الآدميين الذين يأخذهم السُّعار من هذه الرائحة التي لا يعرفونها إلا في اثنين: المرأة الجميلة، والذهب. فما ألجأت امرأةً حاجتُها أو فقرها إلى أحدهم ورأى عليها جمالاً إلا ضربه ذلك السُّعار، فإن استخفت بنزواته وتستّرت عليه طردها إلى الموت ومنعها أن تعيش من قِبَله، وإن صلحت له وتستّرت، آواها هي وطرد شرفها...

وذلك بخلاف الدين، فإنه قائم على منع الجريمة، وإبطال أسبابها؛ فهو في أمر المرأة يلزم الرجل واجبات، ويلزم المجتمع واجبات غيرها، ويلزم الحكومة واجبات أخرى. فأما الرجل فينبغي له أن يتزوج، ويتحصّن، ويغار على المرأة، ويعمل لها؛ وأما المجتمع فيجب عليه أن يتأدب، ويستقيم، ويُعين الفرد على واجبات الفضيلة، ويتساندوا، ويشدّ بعضه بعضاً؛ وأما الحكومة فعليها أن تحمي المرأة فتعاقب على إسقاطها عقابَ الموت والألم والتشهير، لتقيم من الثلاثة حراساً جبارة، من لا يخشى الله خشيها. فليس يمكن أبداً أن يكون في ديننا موضعٌ غلطة تسقط فيه المرأة.

قال الأستاذ (ح): صدقت، فالحقيقة التي لا مراء فيها أن فكرة الفجور فكرة قانونية، وما دام القانون هو أباحها بشروط فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط؛ ومن هذا التقرير يُقدِم عليها الرجل والمرأة كلاهما على ثقة واطمئنان. ومن ثَمَّ تأتي الجرأة على اندفاع الناس إلى ما وراء حدود القانون؛ ومن هذا الاندفاع تأتي الساقطة بآخر معانيها وأقبح معانيها.

وتقرير سيادة المرأة في الاجتماع الأوربي وتقديمها على الرجال والتأدب معها، كل ذلك يجعل جراءة السفهاء عليها جراءة متأدبة، حتى كأن المتحكك منهم في امرأة يقول لها: من فضلك كوني ساقطة... أما هنا فجراءة السفهاء جراءة ووقاحة معاً، وذلك هو سترها.

القانون كأنما يقول للرجال: احتالوا على رضى النساء فإن رضين الجريمة فلا جريمة؛ ومن هذا فكأنه يعلمهم أن براعة الرجل الفاسق إنما هي في الحيلة على المرأة وإيقاظ الفطرة في نفسها بأساليب من الملق والرياء والمكر تتركها عاجزة لا تملك إلا أن تُذعِن وترضى. وبهذا ينصرف كل فاجر إلى إبداع هذه الأساليب التي تُطلق تلك الفطرة من حيائها، وتخرجها من عفتها «تطبيقاً للقانون»...

ولا سيادة في اجتماعنا للمرأة، ولكن القانون جعلها سيدة نفسها، وجعلها فوق الآداب كلها، وفوق عقوبة القانون نفسه إذا رضيت؛ إذا رضيت ماذا...؟

***

قلت: فإذا كان القانون هنا في مسئلتنا هذه يعدل بالظالم، ويحمي الفضيلة بإطلاق حرية الرذيلة، فهو إنما يفسد الدين؛ ويصرف الناس عن خوف الله إلى خوف ما يخاف من الحكومة وحدها. وبهذا لا يكون عمله إلا في تصحيح الظاهر من الرجل والمرأة، ويدع الباطن يُسِرّ ما شاء من خبثه وحيلته وفساده؛ فكأنه ليس قانوناً إلا لتنظيم النفاق وإحكام الخديعة. فلا جرم كان قانوناً لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها؛ فإذا أخذت المرأة ملاينة ورضى فهذا جوز قانوني... وإن كانت الملاينة هي عمل الحيلة والتدبير، وإن كان الرضى هو أثر الخداع والمكر، وإن ضاعت المرأة وسقطت وذهب شرفها باطلاً وألحقه الناس بما لا يكون من توبة إبليس فلا يكون أبداً. أما إذا أُخذت مكارهة وغصباً، فهذه هي الجريمة في القانون؛ ويسميها القانون جريمة الاعتداء على العرض، وهي بأن تسمى جريمة العجز عن إرضاء المرأة أحق وأولى.

على أن المسكينة لم تؤخذ في الحالتين إلا غصباً ولكن اختلفت طريقة الرجل الناصب، فإن كلتا الحالتين لم تتأدّ بالمرأة إلا إلى نتيجة واحدة هي إخراجها من شرفها، وحرمانها حقوق إنسانيتها في الأسرة، وطردها وراء حدود الاعتبار الاجتماعي، وتركها ثمة مخبلة لمجارى أمورها، فلا يتيسر لها العيش إلا من مثل ذلك الرجل الفاجر، فلا تكون لها بيئة إلا من أمثاله وأمثالها كما يجتمع في الوضع الواحد أهل المصير الواحد على طريقة القطيع في الجزرة...

***

فقالت هي: الحق أن هذه الجريمة أولها الحب؛ وهي لا

تقع إلا من بين نقيضين يجتمعان في المرأة معاً : يكبر حبها إلى ما يفوت العقل ، ويصغر عقلها إلى ما ينزل عن الحب . والمرأة تظل هادئة ساكنة رزينة حتى تصادفها اللحاظ النارية من العين المقدّرة لها فلا يكون إلا أن تملأها لهباً . ولتكن المرأة من هي كائنة فإنها حينئذ كمستودع البارود يهول عظمه وكبره ، وهو لا شيء إذا اتصلت به تلك الشرارة الهاجمة

وليست حراسة المرأة شيئاً يؤبه له أو يعتد به أو يسمّى حراسة ، إلا إذا كانت كالتحفظ على مستودع البارود من النار ؛ فيستوي في وسائلها الخوف من الشرارة الصغيرة والفزع من الحريق الأعظم ، فيحتاط لاثنيهما بوسائل واحدة في قدْر واحد واعتبار واحد

وإذا تُركت المرأة لنفسها تحرسها بعقلها وأدبها وفضلها وحريتها ، فقد تُرك لنفسه مستودع البارود تحرسه جدرانه الأربعة القوية . . . .

والرجال يعلمون أن للمرأة مظاهر طبيعية من الخيلاء والكبرياء والاعتداد بالنفس والمباهاة بالعفة ؛ ولكن هؤلاء الرجال أنفسهم يعلمون كذلك أن هذا الظاهر مخلوق مع المرأة بجلد جسمها الناعم ، وأن تحته أشياء غير هذه تعمل عملها وتصنع البارود النسائي الذي سينفجر . . . . . .

***

قلت : إذا كان هذا فقبح الله هذه الحرية التي يريدونها للمرأة . هل تعيش المرأة إلا في انتظار الكلمة التي تحكمها بلطف ، وفي انتظار صاحب هذه الكلمة ؟

قالت : إن هذا حق لا ريب فيه ، وأوسع النساء حرية أضيعهن في الناس ؛ وهل كالمومس في حريتها في نفسها ؟

ولكن يا شؤمها على الدنيا . إنها هي بعينها كما قلت أنت حرية المخلوق الذي يُترك حراً كالشريد لتجرّب فيه الحياة تجاربها المؤلمة . وماذا في يد المرأة من حرية هي حرية القدر فيها ؟

قلت : ولهذا لا أرجع عن رأيي أبداً ، وهو أنه لا حرية للمرأة في أمة من الأمم إلا إذا شعر كل رجل في هذه الأمة بكرامة كل امرأة فيها ، بحيث لو أهينت واحدة ثار الكل فاستقادوا لها ، كأن كرامات الرجال أجمعين قد أهينت في هذه الواحدة . يومئذ تصبح المرأة حرة ، لا بحريتها هي ، ولكن بأنها محروسة بملايين من الرجال . . . .

فضحكت وقالت : (يومئذ) هذا اسم زمان أو اسم مكان . . . . ؟

***

قال الأستاذ (ح) : ولكنا أبعدنا عن قصة هذه الحياة ، ما كان أولها ؟

قالت : إن الشبان والرجال علم يجب أن تعلمه الفتاة قبل أوان الحاجة إليه . ويجب أن تقر في ذهن كل فتاة أن هذه الدنيا ليست كالدار فيها الحب ، ولا كالمدرسة فيها الصداقة ، ولا كالمحل الذي تبتاع منه منديلاً من الحرير أو زجاجة من العطر فيه إكرامها وخدمتها

وأساس الفضيلة في الأنوثة الحياء . فيجب أن تعلم الفتاة أن الأنثى متى خرجت من حيائها وتهجّمت ، أي توقحت ، أي تبذلت ، استوى عندها أن تذهب يميناً أو تذهب شمالاً ، وتهيأت لكلٍّ منهما ولأيهما اتفق . وصاحبات اليمين في كنف الزوج وظل الأسرة وشرف الحياة . وصاحبات الشمال ما صاحبات الشمال . . . . . ؟

قلت : هذا هذا ؛ إنه الحياء ، الحياء لا غيره . فهل هو إلا وسيلة أعانت الطبيعة بها المرأة لتسمو على غريزتها متى وجب أن تسمو فلا تلقى رجلاً إلا وفي دمها حارس لا يغفل . وهل هو إلا سلبي جمعته الطبيعة إلى ذلك الإيجاب الذي لو انطلق وحده في نفس المرأة لاندفعت في التبرج والاغراء وعرض أسرار أنوثتها في المعرض العام . . . . . ؟

قالت : ذاك أردت ، فكل ما تراه من أساليب التجميل والزينة على وجوه الفتيات وأجسامهن في الطرق ، فلا تعدّنه من فرط الجمال بل من قلة الحياء

واعلم أن المرأة لا تخضع حق الخضوع في نفسها إلا لشيئين : حيائها وغريزتها

قلت: يا عجبا! هذا أدقُّ تفسير لقول تلك المرأة العربية: تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكلُ بثديها. فإن اختصصتَ المرأة للحياء كفنتَ غريزتها

قالت: وجعلها الحياء صادقةً في نفسها وفي ضميرها، فكانت هي المرأة الحقيقية الجديرة بالزوج والنسل وتوريث الأخلاق الكريمة وحفظها للإنسانية.

قلت: ومن هذا يكون الإسرافُ في الأنوثة والتبرج أمام الرجال كذباً من ضمير المرأة.

قالت: ومن أخلاقها أيضاً. ألا ترى أن أشد الإسراف في هذه الأنوثة وفي هذا التبرج لا يكون إلا في المرأة التامة . . . ؟

قلت: والمرأة التامة امرأة تجارية القلب. فكأنَّ المسرفة في أنوثتها وتبرجها، هذه سبيلها فهي لا تؤمن على نفسها

قالت: قد تؤمن على نفسها، ولكنها أبداً مومس الفكر في الرجال فيوشكُ ألا تؤمن. وهي رهن بأحوالها وعما يقع لها؛ فقد يتقدم إليها الجريء وقد لا يتقدم؛ ولكنها بذلك كأنها معلنة عن نفسها أنها « مستعدة ألا تؤمن » . . .

قال (ح): لكن يقال إن المرأة قد تتبرج وتتأنث لترى نفسها جميلة فاتنة، فيعجبها حسنها، فيسرُّها إعجابها.

قالت: هذا كالقول إن أستاذ الرقص الذي رأيته هنا، يُنظر إلى نفسه كما ينظر رجل إلى راقصة تتأوَّد وتهتزُّ وتترجرج. إن هذا الرقاص فيه الحركة الفنية كما هي حركة ليس غير؛ فهو كالميزان أو القياس أو أيّ آلات الضبط. أما فتنةُ الحركة وسحرُها ومعناها من المرأة الفاتنة في وهم الرجل المفتون بها؛ فهذا كله لا يكون منه شيء في أستاذ الرقص وإن كان أستاذ الرقص

إن أجمل امرأة تبصقُ بفمها على وجهها في المرآة، إذا محي الرجلُ من ذهنها، أو لم يُطلَّ بعينيه من وراء عينيها، أو لم تكن ممتلئة الحواس به، أو بإعجابه، أو بالرغبة في إعجابه. فهما يكن من جمال هذه فإنها لا ترى وجهها حينئذ إلا كالدنيا إذا خلت من العدل . . .

***

قلت: ولكنا أبعدنا عن « قصة هذه الحياة ما كان أولها ؟ »

قالت: سأفصل ذلك لوضعك عندي. إن قصتي في الفصل الأول منها هي قصةُ جمالي؛ وفي الفصل الثاني هي قصة مرض العذراء؛ وفي الفصل الثالث هي قصة الغفلة والتهاون في الحراسة؛ وفي الفصل الرابع هي قصة انخداع الطبيعة النسوية المبنية على الرقة وإيجاد الحب وتلقيه والرغبة في تنويعه أنواعاً للأهل والزوج والولد؛ ثم في الفصل الخامس هي قصة لؤم الرجل. كان محباً شريفاً يقسم بالله جهد أيمانه، فإذا هو كالمزوِّر والمحتال واللص وأمثالهم ممن لا يعرفون إلا بعد وقوع الجريمة.

ثم سكتت هنيهةً، فكان سكوتها يتمُّ كلامها . . .

وقال (ح): فما هو مرضُ العذراء الذي كان منه الفصل الثاني في الرواية؟

قالت: كل عذراء فهي مريضة إلى أن تتزوج؛ فيجب أن يُعلم أهلها أن العلاج قد يكون مسموماً؛ وينبغي أن يحوطوها بقريب من العناية التي يحاط المريضُ بها، فلا يُجعل ما حوله إلا ملائماً له، ويُمنع أشياء وإن أحبها ورغب فيها، ويُكره على أشياء وإن عافها وصدف عنها

قال (ح): فيكون القانونُ الاجتماعيُّ تصديقاً للقانون الدينيّ من أن الذكورة هي في نفسها عداوةٌ للأنوثة، وأن كل رجل ليس ذا رحمٍ محرمٍ (1) يجب أن يكون مرفوضاً إلا في الحالة الواحدة المشروعة وهي الزواج

قالت: فتكونُ المشكلةُ الاجتماعية هي: من ذا يُرغم الذكورة على هذه الحالة الواحدة المشروعة كيلا تضيع الأنوثة؟

قال: ولكن إذا كان سقوطُ الفتاة هو جناية « الزواج المزوَّر » فما عسى أن يكون سقوطُ بعض المتزوجات ؟

قالت: هو جناية « الزواج المنقَّح » . . . . تريد أنفسُهن الخبيثةُ تنقيح الزوج؛ والمومسات أشرفُ منهن إذ لا يعتدين على حق ولا يخنَّ أمانة

***

ورفَّ على وجهها في هذه اللحظة شعاعٌ من الشمس كان

(1) يقال ذو رحم محرم أي لا يحل للمرأة كأبيها وأخيها الخ

أحلام السلام

وكيف انهارت في خمسة عشر عاماً ؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان حلماً لم يطل أمده أكثر من خمسة عشر عاماً ؛ ذلك هو حلم السلام الذى توهمت أوربا وتوهم العالم أنه سينعم في ظله حقبة من الزمن تكفى لبرء ما أثخنه من جراح ، وما أصابه من استنفاد وتخريب وتحطيم . وقد لاح للإنسانية مدى حين أنها تستقبل عصراً جديداً من السلام والإخاء الدولى والتفاهم الحسن ، واعتقدت الشعوب مدى حين أن قيام عصبة الأمم ، وعقد مواثيق التحكيم ، والتبشير بنزع السلاح ، إنما هى عناصر جديدة فى بناء العالم الجديد ، وأنها الدعائم الأولى لصرح سلام جديد لا تزعزعه الشهوات القومية والنزعات الحربية ؛ واستمر هذا الحلم يسطع حيناً ويخبو حيناً ، زهاء عشرة أعوام ، وبلغ ذروة قوته وروعته حينما عقد ميثاق تحريم الحرب الأمريكى ، ونص فيه على أن الحرب قد حرمت كأداة للسياسة القومية ، وتعهدت الدول بألا تلجأ فى تسوية منازعاتها لغير التفاهم والتحكيم

ولكن حلم السلام تبدد فجأة ، فرفعت عصبة الأمم قناعها المموه ، وانهار مؤتمر نزع السلاح ، وظهر أن ميثاق تحريم الحرب لم يكن أكثر من قصاصة ورق ، واختفت أصوات الساسة الذين يستظلون بأحاديث السلام ، وعلت كلمة الداعين إلى التسليح ، وإلى تحطيم المعاهدات القديمة ، وإلى الانتصاف القومى ، وإلى تحقيق المطامع الاستعمارية . ولم يكن هذا التحول مفاجأة لأولئك الذين يعرفون سير التاريخ ، ويستشفون طرف الحقيقة من وراء المظاهر الخادعة ، ولكنه كان بالطبع مفاجأة أليمة للشعوب الآمنة التى ما زالت تحتمل على كاهلها كل عبء وكل تضحية فى سبيل الشهوات السياسية والقومية ، والتى ما زالت ترتجف فرقاً لذكريات الحرب الكبرى

كان مؤتمر الصلح الذى عقد فى فرساى بين مارس ويونيه سنة ١٩١٩ ، أعظم مؤتمر دولى شهده التاريخ ، وكانت معاهدة الصلح التى تمخض عنها هذا المؤتمر أعظم معاهدة عقدت بين الأمم ، وأوسعها مدى ، وأبعدها أثراً فى سير التاريخ وفى تغيير أوضاع العالم الحديث ؛ بل كانت معاهدة فرساى فى الواقع دستوراً جديداً للعالم ، تغير كثيراً من معالمه الجغرافية والتاريخية ، وتقرر حدوداً جديدة ، وتنشئ أمماً ودولاً جديدة ، وتقضى على أمم ودول أخرى بالاختفاء من خريطة أوربا . ولم يكن ذلك لأن هذه الدول الجديدة أكثر حقاً فى الحياة من الدول المختفية ، أو لأن قيامها يكون أكثر تحقيقاً للعدالة الدولية وسير التاريخ ، ولكن لأن قيامها يحقق شهوات عسكرية وسياسية للدول الظافرة ، ولأن اختفاء الأمم القديمة يقضي على وحدات سياسية وعسكرية ضخمة كانت تخشاها الدول الظافرة . وقد عرف التاريخ الحديث كثيراً من هذه المعاهدات والمؤتمرات الدولية الكبرى التى كانت تغير معالم أوربا ، وتفتتح فى تاريخها عصراً جديداً ؛ فمعاهدة وستفاليا التى اختتمت بها حرب الثلاثين فى سنة ١٦٤٨ ، ومؤتمر فينا الذى عقد فى سنة ١٨١٤ لتسوية المشاكل والتغييرات التى أحدثتها الحروب النابوليونية ، ومؤتمر برلين الذى عقد على

على جبينها كصفاء اللؤلؤ ، ثم تحول على خدها كاشراق الياقوت ؛ ورأتني أتأمله فقالت : أنا مُنْتَشِيةٌ بحظّى فى هذه الساعات ؛ وهذا الشعاعُ إنما جاء يختم نورَها

ثم كانت السخرية العجيبة أنها لم تتم كلمة النور حتى جاء حظها الحقيق من حياتها .... وهو رجلٌ يتحظّاها ؛ فلما أخذته عينُها ابتسمتْ له ابتساماً من الذلّ لو لم تجعله هى ابتساماً لكان دموعاً . ثم وقفت وما تماسكُ من الهم ، كأنها تمثال « للجمال البائس » . ثم سلّمتْ وودّعت . وبعد « واواتٍ » أخرى ... مشتْ ساكنةً ومَرْآها يضجُّ ويبكى

فوداعاً يا أوهامَ الذكاء التي تلمسُ الحقائق بقوة خالقة تزيد فيها !

ووداعاً يا أحلامَ الفكر التى تضع مع كل شيء شيئاً يغيّره !

ووداعاً يا حبّها ....؟

(طنطا)

إلى ا . ص . بأم درمان . لم يقع لى كتابك الأول ، وأشكرك كثيراً وانتظروا إنا معكم منتظرون الرافعى

أثر الحرب التركية الروسية (سنة ١٨٧٨) ، والذى اسفر عن تمزيق الدولة العثمانية القديمة ، وسلخ معظم أملاكها الأوربية ، كلها أمثلة من هذه المؤتمرات الشهيرة الجامعة ذات الأثر البعيد فى مصاير التاريخ والأمم ؛ ولكن مؤتمر فرساى كان أعظمها حجماً وأبعدها أثراً

وقد ظن العالم بعد أن شهد مصائب الحرب وويلاتها المروعة مدى أربعة أعوام ، انه يستطيع أن يعتصم من خطر الحرب بدروسها وعبرها الأليمة ، وان ما لقيته الأمم من قتلاها وأهوالها فى هذه الفترة السوداء من تاريخ الانسانية ، كفيل بأن زهدها فى الحرب وخوضها أمداً طويلاً ؛ وقامت عصبة الأمم لتكون أداة صلح وتفاهم بين الدول المتنازعة ، ونظم مؤتمر نزع السلاح ليعمل على تحديد التسليح إلى الحد الذى يتفق مع السلامة القومية ، وعقد ميثاق لوكارنو ليكون دعامة فى صرح التفاهم بين أعداء الأمس ، وليقرب ما بين فرنسا وألمانيا ، وعقدت بين مختلف الدول مواثيق بعدم الاعتداء ، وكللت دعوة السلام بعقد ميثاق بتحريم الحرب ، وغمرت صيحة السلام والتفاهم جو السياسة العالمية مدى حين ؛ ولكن هذه المظاهر الجلاجلة لم تك إلا ستاراً خادعاً تضطرم من ورائه ضرام الأحقاد والمنافسات القومية الخالدة ؛ فقد كانت الأمم الظافرة والمغلوبة معاً تجد فى مضاعفة تسليحها وأهباتها العسكرية ، وكانت المعاهدات والمحالفات السرية تعقد كما كانت تعقد من قبل ، وتؤلف من الدول جماعات وكتل خصيمة مثلما كانت بالأمس ؛ وكانت عصبة الأمم أثناء ذلك تنحدر شيئاً فشيئاً إلى أداة لينة فى يد الدول الكبرى توجهها لتحقيق مآربها السياسية أو الاستعمارية ؛ وهكذا وقف العالم فجأة على الحقيقة المرة ، وهى أن هذه الخمسة عشر عاماً التى انقضت على خاتمة الحرب الكبرى لم تكن إلا فترة استعداد واستجمام ، تنظمت فيها الدول نشاطها وتنظم اهباتها ومواردها ، تحفزاً لحرب أخرى .

وكما أن الحرب الكبرى كانت فورة المطامع والاهواء الاستعمارية والمنافسات التجارية والصناعية ، فكذلك ستكون حرب الغد ؛ وقد ظهرت بوادرها الأولى ، بل لقد اضرمت شرارتها الأولى بذلك الهجوم البربرى الذى نظمته إيطاليا عن عمد وسبق اصرار لغزو الحبشة ؛ وليس فى تاريخ الاستعمار كله اعتداء دبر بمثل هذا الإصرار الآثم والصراحة المثيرة ، وان كان تاريخ الاستعمار كله يقوم على العدوان والجريمة ؛ وهذه الشرارة التى تضرمها إيطاليا الفاشستية تسطع الآن فى ارجاء أوربا ، وقد يندلع لهيبها بين آونة وأخرى ؛ ولكن إيطاليا الفاشستية تتحدى أوربا كلها والعالم كله ، ولن يضيرها أن تضطرم أوربا غداً بنار حرب غامرة ؛ ذلك أنها تذهب بعيداً فى الاعتداد بقوتها واستعدادها وما تثيره فكرة الحرب من الذعر والروع ، وقد أخذت بنفس الأحلام القيصرية التى أخذت بها العسكرية البروسية فى الحرب الكبرى . ولقد كانت الفاشستية منذ قيامها بالنسبة للمثل الانسانية العليا عاملاً من عوامل الدمار والهدم ، فقد هدمت صرح الديموقراطية والنظم الحرة والكرامة الفردية ومبادئ العدالة الخالدة ، وجعلت من الشعب كتلة مصفدة مسوقة ، تدفعها إرادة الطغيان المسلح إلى حيث لا تعلم ولا تبغى ؛ والفاشستية تنزع بطبيعتها إلى العنف والعدوان ولا تعتمد إلا على القوة الهمجية ، كما أنها لا تخضع لغير هذه القوة ؛ وهى تجوز الآن فى إيطاليا — وفى ألمانيا أيضاً — ذروة تجاربها ومغامراتها ؛ وسنرى ما إذا كان هذا الاندفاع الدموي الذى تصوره عقلية الفاشستية العنيفة فى صور العظمة والمجد القيصرى ، سيغدو قبراً للفاشستية أم سيحقق شيئاً من مطامعها وأحلامها

وهكذا تطورت فكرة الحرب والسلام بسرعة ، وعادت فكرة الحرب كأداة للسياسة القومية تتخذ مكانتها الخالدة فى تفكير الأمم القوية ؛ ولم تكن فكرة السلام العام سوى حلم وخدعة ، استظلت بها الدول الظافرة حتى تستر نصرها وتفوقها المسلح ، واستظلت بها الدول المغلوبة حتى تستأنف استعدادها وتسلحها ؛ ولم يكن من المعقول أن يبقى الظافر متغلباً إلى الأبد ، ولم يكن من الممكن أن يبقى المغلوب ضعيفاً مهيضاً إلى الأبد ؛ والآن نجد أعداء الأمس — الغالب والمغلوب — وجهاً لوجه ، يلوح كل منهما بقوته واستعداده ، ويفصح عن مطامعه وغاياته التى كان يسترها بالأمس لضعف فى أهبته ؛ نرى ألمانيا بعد أن

استعادت حريتها فى التسليح وأخذت تستأنف أهبتها العسكرية ، تطالب بتعديل حدودها واسترداد مستعمراتها ؛ ونرى فرنسا تعمل بكل ما وسعت لمضاعفة أهباتها وتوطيد الجبهة التى حشدتها ضد ألمانيا ، ونراها لا تحجم فى هذا السبيل عن مناصرة ايطاليا فى مشروعها الدموى لافتراس الحبشة ، لكى تستبقى صداقتها وعونها ضد ألمانيا فى الغد المرتقب ، ونرى حمى الحرب تسرى إلى جميع أرجاء أوربا ، والدول جميعاً تأخذ أهبتها لمعركة عامة لم يبق على نشوبها إلا مسألة زمنية ، وقد تنشب فى أية لحظة فى أسابيع أو أشهر قلائل

والخلاصة أن العالم ، بعد أن تبدد حلم السلام الزائف يجد نفسه فى نفس الحالة النفسية والواقعية التى كانت فى سنة ١٩١٤ ؛ وبعد أن كان حديث الحرب قبل عامين أو ثلاثة يعتبر مسألة بغيضة بعيدة الاحتمال ، إذا بشبح الحرب الأوربية يحلق فى الأفق واضحاً قوى النذير ، وليس من ريب فى أن الفاشستية تحمل كثيراً من تبعة هذا التطور الدولى الخطر ؛ ولقد كان انهيار الديموقراطية فى ايطاليا وألمانيا وغيرها محنة بعيدة الأثر ؛ ذلك أن الديموقراطية أكثر إيماناً بمبادئ السلام والانسانية ؛ وأما الفاشستية وزعامتها الغاشمة فلا تؤمن إلا بالقوة العنيفة ، ولا تؤمن بحق الفرد أو الأمة ، ولا تسيرها سوى العوامل والشهوات الحزبية والمذهبية الضيقة ؛ وقد عملت الفاشستية باستمرار على اذكاء الأحقاد الجنسية والقومية ، وعلى اضرام روح العدوان والحرب ، وإضرام المطامع والمنافسات القديمة التى كانت من أكبر العوامل فى اثارة الحرب الكبرى ، فهى اليوم تحمل أكبر تبعة فى خلق هذه العقلية العسكرية المتحفزة التى تعمل لاشتعال نار الحرب بكل ما وسعت من جرأة واستهتار بكل مبادئ الحق والسلام

إن التاريخ يعيد نفسه بصورة واضحة ؛ ولقد كانت القوة وما زالت خلال العصور عماد السياسة القومية ؛ وليس التاريخ كله سوى مراحل متعاقبة من نضال قومى لا تفوق فيه لغير القوة الغاشمة ، ولم يتقدم العالم خطوة فى هذا المعنى عما كان عليه فى العصور الوسطى ؛ ولقد كان ممكناً أن تكون عصبة الأمم ومبادئها رمزاً للتقدم فى تقدير الحقوق القومية والسلام العالمى ، لو لم تعرض العصبة منذ بدايتها لتأثير نفس الأهواء ووسائل وأساء أخرى ، ولو لم تنابذها دول قوية كاليابان وألمانيا ، لأنها لم تستطع أن تؤثر فى توجيهها ؛ وهاهى ذى عصبة الأمم تواجه قدرها المحتوم ، فاما أن تستطيع بكثير من الشجاعة والجرأة أن تضرب على أيدى أولئك الذين عبثوا بمبادئها واجترأوا على تعكير السلم ، وأن تنفذ ما اتخذته أخيراً من القرارات الحازمة ، وعندئذ تسترد كل ما فقدت من هيبة ، وترد إلى الشعوب الضعيفة شيئاً من الأمل ، وكثيراً من الثقة ؛ وإما أن يخونها التوفيق مرة أخرى ، فينهار آخر حجر فى صرح التفاهم الدولى ، وتنطلق الشهوات القومية من عقالها سريعة لا تلوى على شىء ، وعندئذ يضطرم العالم مرة أخرى بضرام حرب يعلم الله وحده مداها ومبلغ هولها وروعتها ؟

محمد عبد الله عنان

٥ - فريزر ودراسة الخرافة

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

تتمة

يختار فريزر أربعة من النظم الاجتماعية ليبين ما للخرافة من أثر في نشأتها وتكوينها، وهي: الحكومة، والملكية الفردية، والزواج، واحترام الحياة الانسانية. فأثبت في وضوح أن الخرافة ساعدت على تأييد الحكومة وبسط نفوذها، وكانت عاملاً قوياً من عوامل الأمن والنظام. وثبتت كذلك دعائم الملكية الشخصية وصيرتها مقدسة بحيث أصبحت في مأمن من السلب والعدوان، واستطاع أصحابها أن ينتفعوا بها تمام الانتفاع. وحاربت الزنا والزناة فدفعت الناس إلى الزواج وحببتهم في الحياة الأسرية. ثم صورت الخرافة أخيراً الموتى والقتلى في صورة أشباح عظيمة الهول وأرواح تنتقم ممن اعتدى عليها، فكان في هذا ما صرف الناس عن سفك الدماء ودفعهم إلى احترام الحياة الانسانية؛ وهذه النظم الأربعة هي عماد البناء الاجتماعي بأسره، إذا اضطرب واحد منها اضطربت له الجمعية كلها. فكأن الخرافة لم تؤثر في بعض النظم الاجتماعية فحسب، بل أثرت في عناصر الحضارة والتقدم على اختلافها. هي شر جاء من طريقه خير كثير، وخطأ في ذاتها إلا أنها هدت الناس إلى صواب عظيم. وليس يعني الجمعية أن تكون مدفوعة إلى الخير ببواعث خيرة بقدر ما يعنيها أن تصل إلى هذا الخير من أي طريق كان وكيفما كانت الدوافع. والأفراد أنفسهم لا يخرجون عن هذا القانون ولا يتعدون هذا النظام، إذ ما دامت أعمالنا طيبة، فليس يعني الغير كثيراً أن تكون نوايانا صالحة. ولئن ملأت الخرافة أدمغة الناس بخزعبلات لا حصر لها وقادتهم إلى أخطر الويلات، لمن الظلم أن ننسى أياديها في الترفيه عن الانسانية والدفاع عن المجتمع. وكفاها احساناً أنها هيأت للعجزة، والضعفاء، والجهلة، وناقصي العقول وسيلة من وسائل العمل الصالح وسلكت بهم سبل الخير. فهي كالعود قد ينقذ غريقاً، أو كالفنار الضئيل الذي، وإن لم يتجاوز ضوؤه ظله، يهدي كثيراً من المارة وعابري السبيل.

تابعنا فريزر في المقالات السابقة، وسرنا وراءه خطوة خطوة رجاء أن نعرض صورة كاملة من آرائه وأبحاثه. وعلّ القارئ قد تبين في هذه الصورة غزارة مادة العالم الانجليزي وسعة اطلاعه وتمكنه من موضوعه. فهو لا يكتفي بأن يدرس ظاهرة من الظواهر الاجتماعية لدى قبيلة أو شعب أو طائفة، وإنما يستقرى الشعوب ويتتبع الجمعيات على اختلافها: فمن زنوج إفريقية إلى هنود أمريكا، ومن متوحشي استراليا إلى سكان الهند والصين، ومن القبائل الهمجية إلى الأمم المتحضرة، ومن العصور القديمة إلى التاريخ المتوسط والحديث. تشهد أمثلته، فوق غزارتها، وحسن اختيارها، بدقة الملاحظة والتعمق في البحث. هذا إلى خيال رائع، وأسلوب جذاب، وأحكام متواضعة لا زهو فيها ولا ادعاء، ولا مبالغة، ولا تهويل، قد أملتها دراسة هادئة، واستنبطتها عقلية متزنة. ويكفي للبرهنة على ذلك أن نسرد الفقرة التالية التي ختم بها فريزر بحثه إذ يقول: «هاكم، سيداتي وسادتي، دفاعي عن الخرافة التي قد يعرض تخفيفاً عن هذا المتهم الساقط حين يقف بين يدي القضاة، ومع هذا سيحكم عليه بالاعدام لا محالة؛ غير أن هذا الحكم لن ينفذ في جيلنا الحاضر، وسيبقى موقوف التنفيذ إلى أجل بعيد. وما أنا إلا محام - لا خصم - يتقدم إليكم الليلة. وقد كانت محكمة أثينا العليا لا تقضي في الجنايات إلا ليلاً، لهذا تخيرت الليل للدفاع عن سلطان الظلام. والآن، ونحن في ساعة متأخرة، يجدر بي أن أختفي مع موكلي الأشأم قبل أن يصيح الديك، ويبدو ضوء الفجر الرمادي في الأفق (١)»

وفي دراسة فريزر للخرافة ناحية أخرى جديرة بالتقدير، ذلك أنه أخذ على عاتقه نصرة قضية يتبادر إلى الذهن بطلانها. يكاد يجمع الناس على أن الخرافة مبعث شر ومثار فتنة؛ ويأبى فريزر إلا أن يخرج على هذا الاجماع معلناً أن في باطن هذا الشر خيراً عظيماً وأن الخرافة أساس النظم الاجتماعية الهامة. وقد نجح نجاحاً كبيراً في اثبات دعواه والبرهنة على ما كان يرمي إليه. بيد أنه لا يفوتنا أن نلاحظ أن ما يسميه فريزر خرافة هو في

(1) Frazer, L'avocat du diable, pp. 294 — 95

رأى معتنقيه دين وعقيدة . فالهمجي يخضع للملوك والحكام خضوع الموقن بسلطانهم الخارق للعادة وهيبتهم الصادرة عن السماء ، ويؤمن بأن مال سيده ورئيسه مقدس فلا يمسه بسوء ، ويعتقد أن الزنا مجلبة للصواعق والجدب والقحط فلا يقربه ، ويخشى الأرواح والأشباح خشية الواثق من وجودها فلا يقتل نفساً ولا يسفك دماً . ولو خالجه الشك يوماً في هذه المعتقدات ما انقاد لها ، ولو جال بخاطره أنها تمت إلى الخرافة بصلة لنبذها نبذ النواة . نعم إن من الديانات ما هو حق ومنها ما هو باطل ؛ ولكن الفكرة ، صواباً كانت أم خطأ ، متى اكتست بكساء الدين أضحت قوة هائلة وأثرت في المجتمع تأثيراً بالغاً . ولو لم يكن للأديان إلا هذا النفوذ في قيادة الشعوب والتأثير في الجماهير لكفى في نصرتها والاستمساك بها

ونستطيع أن نأخذ على فريزر — فوق هذا — عنايته بالأمثلة وتعلقه بالحوادث الجزئية أكثر من بحثه عن القواعد الشاملة والقوانين العامة . وهذا نقد يصدق على مدرسة الاجتماع الانجليزية الحديثة بأسرها التي قامت أعمالها أولا وبالذات على الرحلة والمشاهدة دون أن تعير النظريات والضوابط اهتماماً كبيراً ، وقد جاراها فريزر في هذا التيار . انظر أي كتاب من كتب سبنسر أو وسترمرك أو تيلور الاجتماعية مثلاً تجد أنك تنتقل من مشاهدة إلى مشاهدة ومن مثال إلى آخر ، وقل أن تظفر بقضية عامة أو أصل ثابت . نحن لا ننكر أن هذه الطريقة أفادت علم الاجتماع مادة غزيرة وثروة طائلة ، إلا أن هذه المادة لم تهيأ بعد للتغذية ، وهذه الثروة لما تستثمر . هي مادة أولية « خام » ، إن صح هذا التعبير ، في حاجة إلى من يستخلص منها روحها وما حوت من أسرار . وقد فطن علماء الاجتماع الفرنسيون — وهم أبعد الناس عن السفر وأرغبهم عن الرحلة — إلى هذا النقص فكملوه ، واستغلوا التجارب والمشاهدات الانجليزية استغلالاً حسناً ، وصاغوا القانونات الاجتماعية في القوالب العلمية الحق . فاذا كان علم الاجتماع مديناً لرحالة الانجليز والأمريكان بما فيه من مشاهدات جزئية وحوادث واقعية ، فان الفضل في كثير من نظرياته وقوانينه يرجع إلى المدارس الفرنسية

ومهما يكن فهناك نقطتان هامتان نخرج بهما من أبحاثنا السابقة في الخرافة ، أولاهما خاصة بمصر والشرق في جملته ، وتتلخص في أنه يسود هذه البلاد قدر وفير من الخرافات أشرنا إليها سلفاً . فالخرافة متوغلة في كثير من معتقداتنا وعباداتنا ، في عاداتنا وتقاليدنا ، في آرائنا وأفكارنا . وليس معنى هذا أن أوربا خالية من أية خرافة ؛ كلا فللغرب خرافات كما للشرق ، والجمعيات على اختلافها لا تستطيع أن تتخلى عن مجموعة من الخرافات ترى فيها غذاء لميولها وأخلاقها . ولكن مما لا شك فيه أن الخرافة وجدت بين ظهرانينا مرتعاً خصيباً فنمت وترعرعت . وما أجدرنا بأن ندرس خرافاتنا لنعرف أصلها ونشأتها وصلتها بالخرافات العالمية الأخرى ؛ وبذا نستطيع معالجتها أو مطاردتها والتخلص منها . فخرافة « الزار » مثلاً ظاهرة اجتماعية تتطلب دراسة تاريخية مقارنة فيها كثير من بواعث السرور ووسائل التشويق . وما تخيرنا الخرافة بين الأبحاث الاجتماعية الكثيرة إلا لنلفت الأنظار إلى هذه الأرض الخصبة التي لم تستكشف وهذا العمل الذي لم يبدأ فيه بعد

وقد لاحظنا من قبل اجماع بعض القبائل على اعتناق خرافة ما ؛ وفي هذا ما يؤذن أن للانسانية ، وإن تنوعت بتنوع البيئة والوسط ، تراثاً عاماً يأخذه الخلف عن السلف ؛ وأن الانسان المتحضر ليس إلا صورة مهذبة للانسان المتوحش . نحن في كثير من آرائنا وعاداتنا وتقاليدنا عالة على من كان قبلنا ؛ بل تكاد تكون شخصيتنا ونظام تفكيرنا من صنع القرون البائدة . فلندرس إذن النظم الاجتماعية على ضوء التاريخ إن كنا نريد فهمها على وجهها الصحيح ، لاسيما ونحن مخدوعون غالباً بما ألفناه . فكثيراً ما يلبس الشيء في أعيننا لباس العقل والمنطق في حين أنه يعتمد على أساس خرافي وأصل ضعيف . وكم من عمل عادي فردي أو جمعي نقوم به اليوم دون أن نعيره أية أهمية في حين أنه كان بالأمس ذا صلة بعقيدة خاصة أو عبادة محترمة . وقد تنبه علماء الاجتماع المحدثون إلى هذا فشرحوا لنا أموراً ما كنا نفكر في سردها وتعليلها . وعلى الجملة فالانسانية أشبه ما تكون بشجرة ممتدة الأغصان مترامية الأطراف قد مرت عليها عصور طويلة وأجيال كثيرة ، ولا يمكن فهم طبيعتها وفصيلتها والمؤثرات في نموها إلا إذا بدأنا بجذورها الأولى وعرفنا كيف نمت وتكونت

ابراهيم بيومي مدكور

دكتور في الآداب والفلسفة

العامية والعربية أيضاً

ألفاظ صحيحة لم لا نستعملها ؟

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

لما فتح العرب مصر لم تكن العربية لغة البلاد ، وإنما كانت لغة القوم خليطاً من المصرية القديمة والأغريقية والرومانية وغيرها ، ثم أخذت العربية تحل محل هذا المزيج ، وبدأت مصر بعد رسوخ الاسلام فيها تساهم بحظ في النشاط الذي كانت بغداد مصدره ، على خلاف الحال في إفريقية الشمالية ، حيث كان انتشار العربية بطيئاً جداً ، حتى أنه — إلى القرنين التاسع والعاشر — لم تكن ثم دائرة أدبية تستحق الذكر إلا في القيروان بتونس ، على حين كانت مصر قد صارت في القرن التاسع مركزاً لمدرسة تاريخ مستقلة في العالم الاسلامي . ومما ساعد على رسوخ اللغة العربية في مصر ونجاتها من العوامل التي كانت تحدث أثرها في هذه اللغة في آسيا ، دخول الفاطميين وقيام دولتهم في مصر ، فقد كانوا أنصاراً للعلم والثقافة ، ومن أجل آثارهم هذا الأزهر الذي ظل بعد خراب نظائره في آسيا أكبر جامعة اسلامية ، ولا يزال كذلك إلى الآن ؛ فلا عجب إذا كانت عامية مصر أصبح من عاميات الأمم العربية الأخرى وأقرب إلى الفصيح

وقد سقت أمثلة في فصل سابق ، وإلى القراء طائفة أخرى من الألفاظ التي يتوهم الكثيرون أنها عامية ، وهي صحيحة لا عيب فيها

فمن ألفاظ الطعام والآكال وما إلى ذلك :

النشا — شيء يعمل به الفالوذج

القطائف — دقيق يعجن قريباً من الميوعة ويخمر ويحشى بالفستق وما إليه ويقلى

المربى — معروفة

القمر اصيا — الثمر المعروف

الزلابية — حلواء معروفة

البسيسة — دقيق يلت بالسمن ويؤكل ولا يطبخ ، أو يطبخ

الكرنب ، أو الكرنب ، والقنبيط (تلفظه العامة قرنبيط) والخس ، واللفت ، والفجل ، والكراث ، والاسفاناخ ، والفول ، والحمص ، والباذنجان ، والعدس ، والثوم ، والرجلة ، والشبث ، والجرجير ، والسلق ، واللوبيا ، والقلقاس ، والكرفس ، والقرفة ، والدارصيني ، والقرنفل ، والكراويا — وهي جميعاً معروفة

قرصت العجين — بسطته بالتقطيع لتجعله أرغفة

الفرن — ما ينضج فيه الخبز

الطابون — من طين النار دفنها لئلا تطفأ ، والموضع الطابون والعامة في مصر يؤنثون اللفظ

الرقاق والكعك — معروفان

قششت الشيء — أخذته بأجمعه

التمطق بالشفتين — أن تحدث صوتاً وأنت تضمهما وتفتحهما

الكوز — والجمع كيزان وأكواز

المسعور — الحريص على الأكل

الطبق — ما يؤكل عليه

الرائب — اللبن إذا خثر

الروبة — الخميرة في اللبن

مخض اللبن — أخذ زبده

تجبن اللبن — صار كالجبن

الحالوم — الجبن الطري

العلبة — معروفة

زهمت يدك — صارت فيها رائحة الشحم ، والزهومة ، ريح اللحم السمين إذا أخذ يفسد

ومن ألفاظ البيت التي يستعملها العوام وهي صحيحة :

الدهليز — ما بين الباب والغرف

الرواق — يستعمل في مصر للحجرة الكبيرة الواسعة

الصحن — وسط الدار

الرف — معروف

الكنيف — المرحاض

الصفة في البناء — معروفة

الدكة — للقعود

الاصطبل ــ للدواب

الحارة والشارع والزُّقاق ــ معروفة

المصطبة ــ مكان للجلوس

المِدْماك ــ الصف من اللَّبِن في البناء

الطيَّان ــ الرجل الذي يصنع الطين للبناء

البلاط ــ الحجارة تفرش بها الأرض

العَتَلة ــ حديدة طويلة تقلع بها الحجارة

الزيج ، والامام ، خيط البناء

الرَّزَّة ــ حديدة يدخل فيها القفل

الخوخة ــ الكوة في الجدار أو في الباب

العريش ــ الظلة من شجر أو نحوه

الحصير ــ نسيج من القش معروف

النَّخ ــ بساط خشن معروف

المخدة ــ الوسادة للرأس

المسند ــ الوسادة يُستند عليها

الخُرْجُ ــ جوالق ذو ناحيتين

الدُّرج ــ ما يحفظ فيه الأشياء الصغيرة

القنينة ــ إناء للشرب

الشباك ــ النافذة

***

إن اتخاذ هذه الألفاظ وما إليها ، في مواضعها ، يمنع التكلف الذي يجعل اللغة غريبة ، وينفي ما تقرر في النفوس من أن لنا لغتين : واحدة نكتب بها ، والأخرى نستعملها في الكلام

ويأخذ الطريق على الذين يدعون إلى اتخاذ العامية لغة للكتابة ، فان كل حجتهم هي أن العامية هي لغة السواد ، وأن العربية أجنبية ، ومتى ثبت أنهما شيء واحد ، فقد سقطت الحجة

وليس من همى الاستقصاء ، وما أريد إلا أن أنبه الى أن درس العامية واجب ، وأن من العبث والتكلف الذي لا موجب له ، أن نبحث عن ألفاظ وهي على ألسنتنا كلما تكلمنا

ابراهيم عبد القادر المازني

تنبيه : وقع خطأ مطبعي في المقال السابق ، فظهر كلمة شل (وهي باللام) ومعناها خاط خياطة خفيفة ، بالكاف فوجب التنبيه .

النقد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

تحدثت إليك في فصل سابق عن البيان اللفظي ومنزلته من الشعر ، وأنه من أهم ما تتفاوت به الشعراء في مراتبهم ، وتتمايز به درجاتهم ، كما تحدثت عن الاختلاف بين لغة الشعر والكتابة والخطابة ؛ واليوم أتحدث إليك في المعنى ، فان المعنى هو قوام الشعر ، والعنصر الأول من عناصره ، بل هو الشعر نفسه ؛ وما حرصنا على تحسين الألفاظ وتجميل العبارات إلا ليظهر المعنى في صورة فاتنة تجعل القلوب أشد قبولاً له ، وأقوى تأثراً به ، وينطبع في أذهان الحفظة والوعاة ، ويخلد على ألسنة الرواة ؛ فلا ينال منه تعاقب الزمن ، ولا تمحوه عوادي المحن ؛ وتلك هي ميزة الشعر التي اختص بها من دون النثر ، وإلا فقد كان النثر كافياً في تأدية المعنى وإفهام الغرض ؛ وكما أن الأصوات الغنائية المعروفة الآن بالأدوار لا تعمل عملها في النفس إذا تليت على الأسماع كما تتلى الرسائل ، وألقيت كما تلقى الخطب ، بل لابد من جريانها على قواعد الفن الموسيقي الجميل ، وأدائها بالصوت العذب الرخيم حتى تبلغ في النفوس أثرها ، وتفعل في المشاعر فعلها ، فكذلك المعاني الشعرية لابد في تأديتها من حُسْن الألفاظ ، وعذوبة العبارات ، وجزالة التراكيب ، وقوة النَّسْج واطّراده ، وما إلى ذلك مما سأذكره بعد في هذه الفصول ، ليكون أثرها في القلوب أبلغ ، وعملها في النزعات والميول أقوى ؛ وكما أن سوء الطبع والتحريف ، وكثرة الخطأ والتصحيف ، وتعمية الخط ، ورداءة الورق في بعض الكتب قد تذهب بما حوت صفحاتها من علم غزير وفضل كثير وبحوث دقيقة وأفكار عميقة ، فلا غرابة أن يذهب سوء التأدية وضعف النسج والإبهام في العبارات ، والاسفاف في الألفاظ ، بما يريده الشاعر من أغراض سامية ومعان جليلة ؛ بل إن الصلة بين المعاني والألفاظ أشد وأقوى من الصلة بين الألفاظ والكتابة ، إذ المعاني لا تؤدّى بدون العبارات ، وقد تؤدّى الألفاظ مشافهة بدون كتابة . وقد غفل أو تغافل أو عجز عن ذلك بعض الشعراء في عصرنا ، فاعتبروا المعاني كل شيء في الشعر ، على ما في معانيهم من الضعف والمسخ

وسوء تناولهم إياها، وقصور شاعريتهم عن تحويل المعنى الأصلى إلى معنى شعرى، وقلة خبرتهم بكيفية وضعها فى الشعر، وما إلى ذلك مما سأحدثك به عند الكلام على المعانى؛ ولم يعنوا بالألفاظ أقل عناية، موهمين أنفسهم وغيرهم من قصار النظر أن بيان الألفاظ وإشراق العبارات، ومتانة النسج، والبلاغة فى الأسلوب، وإجراء الشعر على سنن الشعر العربى، أنواع من التزيين والتحلية والزخرف الذى مضى عصره، وانقضى زمنه، وذهب به العصر الجديد، ومحته آية التجديد؛ فملأوا الصحف والدواوين بشعر لا صلة بينه وبين الشعر العربى إلا الصلة العروضية فى الوزن والقافية؛ على أن بعضهم قد تركهما مبالغة فى التجديد، محتجاً بأن ذلك نوع من التقييد؛ على أنهم بعد أن أطلقوا الألسنة والقرائح من قيودها المزعومة، لم يأتوا بالمعجب المطرب فى معنى ولا لفظ، ولم يبتكروا غريباً فى تشبيه ولا خيال، ولم يخترعوا جديداً فى تصوير عاطفة ولا إحساس؛ وإنك لتقرأ ديوان أحدهم من ألفه إلى يائه فلا تظفر منه ببيت يعلق بذهنك فتعيده، ولا معنى يملك لبك فتستجيده؛ وسبب ذلك يرجع إلى أنهم لم يقرأوا من الأدب العربى القديم ولا من علوم العربية ما يقومون به ألسنتهم، ولم يتعلموا من فحول الشعراء المتقدمين ما يهذبون به معانيهم قبل وضعها فى قالبها الشعرى، ويميزون به بين المعنى الشعرى وغيره من معانى الكتابة والخطابة، فانه مما لا ينازع فيه ذو ذوق فنى دقيق أن المعنى الواحد تختلف صوره باختلاف تأديته فى هذه الصناعات الثلاث، وأن الشعر والكتابة والخطابة كما تختلف فى ألفاظها وعباراتها تختلف فى تصوير معانيها وأغراضها، فان الخطيب لا يعمد فى تصوير معانيه إلى خلودها على مر العصور، وبقائها محفوظة فى الصدور، ولكن يقصد إلى نوع من الاثارة الوقتية يلهب بها حمية الجمهور إلى ما يريده من الأمور؛ فاذا فترت همة الجمهور بعد ذلك الموقف لجأ إلى خطبة أخرى وهكذا، ففن الخطيب فن وقتى لا فن خالد، ولذلك لم ينقل الرواة إلينا من خطب الأولين ومواقفهم فى المخاصمات والمصالحات وفى حضرة الخلفاء والأمراء ما يوازى كله ديواناً واحداً من دواوين الشعراء، ولا مجموعة واحدة من رسائل الكتاب. أما الشاعر والكاتب فانهما يقصدان فى تصوير معانيهما إلى خلودها وبقائها؛ والفرق بينهما أن قصد الشاعر إلى تخليد أثره أكثر، وحرصه على بقاء فنه أقوى، فهو يضع فى معانيه وألفاظه من جمال التصوير وروعة الفن ما يرى أنه كفيل ببقاء شعره وحياته على الزمن ولذلك كانت رواية الشعر أشيع، وما نقل إلينا منه أكثر

وأيضاً فان الكاتب والخطيب يبالغان فى تقرير المعنى وتأكيده فى الأذهان باكثار الأمثلة وذكر الأشباه والنظائر إلى حد الاستقصاء أحياناً؛ أما الشاعر فيقتصر من ذلك على قدر الحاجة، فان الشعر ضيق لا يحتمل ذلك الطول، بل يراه فى بعض الأحيان نوعاً من الفضول. وثم فرق ثالث هو أن الخطيب يراعى فى تصوير معانيه أن تكون سطحية بسيطة، قريبة الغور، سريعة إلى الفهم، فانه يوجهها إلى عقلية بسيطة هى عقلية الجماعة؛ وكما أن هذه العقلية سريعة القياد، فهى سريعة الجموح، لا يؤمن نفارها؛ وما أقرب انصرافها وإعراضها عن الخطيب إذا رأت فى معانيه ما يكلفها مشقة الفهم وعناء الفكر. ولذلك يعتمد الخطيب فى خطبته على الصوت والالقاء وملابسات الموقف أكثر من اعتماده على غرابة المعنى وعمق الفكر

أما الكاتب والشاعر فيغربان فى معانيهما ما شاءا، ويتعمقان فى ذلك ما أرادا؛ تلك هى بعض الفروق بين المعانى فى الصناعات الثلاث؛ فاذا رأيت فى إحدى هذه الصناعات بعض الميزات الغريبة عنها فهى مستعارة من غيرها لا أصلية فيها؛ ولا غرابة فى أن ترى الشاعر خطيباً أو كاتباً فى قصيدته، ولا أن ترى الكاتب شاعراً أو خطيباً فى رسالته، ولا أن ترى الخطيب شاعراً أو كاتباً فى خطبته؛ وإنك إذا قرأت شعر ابن الرومى وجدت فيه كثيراً من تقسيمات الكتاب وتعليلاتهم والاستدلالات المنطقية، والاحتجاجات الملزمة للخصم، كقوله:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها ... لأوسع مما كان فيه وأرغد

وقوله يخاطب صديقاً:

قد حلفنا على الوفاء جميعاً ... واجتهدنا وذاك جهد المطيق
فبأى الأحكام توجب تصدي ... قك حتما ولا ترى تصديقى
وبأى الأحكام قولك برها ... ن وقولى من خُلَّبات البروق
ليس فى العدل أن تحكم فى قو ... لك فارجع إلى سواء الطريق
ما من الدعويين إن ضقت دعوى ... غير محتاجة إلى تحقيق
ولنا إن رددت ما تدعيه ... ردُّ ما تدعيه، ضيقاً بضيق

٥ – الشعر *

في صدر الإسلام وعهد بني أمية

بقلم أحمد حسن الزيات

شعر الشيعة

ورث عليّ بن أبي طالب بحكم مولده ومرباه مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي، وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، فأجمع الناس على إجلاله وكادوا يطبقون على حبه؛ حتى من كتب عنه من الأوربيين قد شاركوا المسلمين في هذه العاطفة، فقد قال فيه الكاتب الإنكليزي كارليل: «أما ذلك الفتى عليّ فلا يسعك إلا أن تحبه؛ ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة، وتجلى في خلاله الكرم طوال عمره، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس، وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث، وكل ذلك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية». ثم سار عليّ في خصومته وخلافته وسياسته على ضوء هذه الأخلاق، فما قارف الأثرة، ولا حاول الفرقة، ولا راقب الفرصة، ولا أثار العصبية، ولا استخدم المال؛ وإنما أخلص النية للمؤمنين، ومحض النصيحة لمهان، وأعذر بالحجة لمعاوية؛ ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت على عهده تتجاهل دين البساطة والزهد، ولم تعد السياسة الدينية وحدها قادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام، وثراء الرافدين في العراق، فانتشر أمره، وانصدعت خلافته، ثم قتل مظلوماً في محرابه؛ فكان بحياته ومماته تاريخاً دامياً للفضيلة المدنية والنفس المطمئنة الشهيدة. ثم ورث بنيه وأهليه ذلك العزم الثائر وهذا الجد العاثر، فدب الموت للحسن سراً في كأس مذعوفة، وقتل الحسين قتلة لا يزال يرعد من هولها الدهر

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى، وافتنت المنايا الرواصد في اختلاج بني عليّ، وهم يقابلون هول الغوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس، وتخللت محبتهم قلوب المسلمين، ولا سيما الشيعة. فان ندم هؤلاء على خذلانهم إياهم، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم، رفعا في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفا به على مقام العبادة؛ ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد: فقالوا بالوصية، وجعلوا الامامة من أصول الدين، وحصروها في عليّ وبنيه، وطعنوا في إمامة الشيخين. ولم يتهيأ لهم السلطان، ولم تسعفهم القدرة، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيقها بالبكاء والندب، وتصوير الآلام، وإعلان الفضائل، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق، والرثاء النائح، والمدح المبتهل، والعصبية الحاقدة. على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحها في شعر الأواخر منهم، فان تغلغل الفكرة في أصل العقيدة، وتنكيل الحاكمين بآل البيت، واضطهاد الولاة للشيعة، إنما تدرجت قسوة وقوة مع الزمن، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمويين الضمائر بالحديد والذهب؛ فشعرهم بدأ ولاء صادقاً، ومدحاً خالصاً، وهجاء مراً، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة، ومعارضة شديدة، ومناقشة فقهية، ودعاية حزبية. ولعل ذلك

* من الطبعة الجديدة لكتاب تاريخ الأدب العربي الذي صدر حديثاً

وقوله يعاتب صديقاً لم يحفظه في مغيبه وعاب شعره:

لي صاحب قد كنت آمل نفعه   سبقت صواعقه إليّ صبيبه

إلى أن قال:

نبئت قوماً عابني سفهاؤهم   وشهدت مجلسهم وكنت خطيبه

عابوا وعبت بغير حق منطقاً   لو طال رميك لم تكن لتصيبه

وهب القضاء كما قضيت، ألم يكن   في محض شعري ما يجيز ضريبه

هلا وقد ذوقت درّ قريحتي   فذممت حازره حمدت حليبه

بل هبه عيباً لا يجوز، ألم يكن   من حق خلك أن تحوط مغيبه

وديوانه مملوء بمثل هذا الشعر الذي هو أقرب إلى رسائل الكتاب منه إلى قصائد الشعراء. أما الكتاب الشعراء في نثرهم فمنهم المرحوم أحمد شوقي بك في كتابه أسواق الذهب، والزمخشري في أطواق الذهب، والقاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في رسائله الكثيرة المملوءة بها كتب الأدب

أحمد الزين

يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة . فمن التعبير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلي :

يقول الأرذلون بنو قشير طوال الدهر لا تنسى عليًّا!
بنو عم النبي وأقربوه أحب الناس كلهم إليَّا
أحبهم لحب الله حتى أجيء إذا بعثت على هويا
فإن يك حبهم رشداً أصبه ولست بمخطئ إن كان غيًّا

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خريم الأسدي :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاة واقتراء
أأجعلكم وأقواماً سواء وبينكم وبينهم الهواء ؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميري :

ألا أبلغ معاوية بن صخر مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زاني ؟
فأشهد إن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سمية غير داني

وقول عبد الله بن همام السلولي في يزيد بن معاوية :

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا

ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة :

يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شركت فيه بجيل وأرحب
ولا انتشلت عضوين منها يحابر وكان لعبد القيس عضو مؤرب
فإن هي لم تصلح لحي سواهم إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشتت جمعه وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الأشرار بعد خيارها وجدَّ بها من أمة وهي تلعب !

ويكاد الكميت بن زيد الأسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ لبني هاشم ؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص ونفس جريئة وقريحة سمحة . ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على ما أرجح إلى التقية في شعره على عادة الشيعة ، فقال من كلمة يمدحه فيها :

فالآن صرت إلى أميـ ـة والأمور إلى المصاثر
يا ابن العقائل للعقا ئل والجحاجحة الأخاير
من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكابر

لكم الخلافة والألا ف برغم ذي حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع والخوف حتى تنبجس في عهد بني العباس نفثات غيظ ، وحسرات حزن ، وعبرات ألم ، في شعر السيد الحميري ، ودعبل الخزاعي ، وديك الجن ، ومطيع بن إياس ، وأبي الشيص ، والكوكب ، وأضرابهم

شعر الخوارج

وأما الخوارج - وجمهرتهم من البدو الجفاة والسذج - فقد قام أمرهم على الصلابة في الرأي ، والمكابرة في القول والإشتطاط في الحكم ، والتشدد في الدين ، والغلو في العبادة ، والقسوة في المعاملة ، والاعتماد على الحرب . شايعوا عليًّا وآزروه حتى قبل التحكيم ، فقالوا له : حكمت الرجال ولا حكم إلا لله ! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر ، ونقض ما عاهد معاوية عليه ، فأبى عليهم ما سألوا ، وأوقع بهم يوم النهروان ، فزاد ذلك في حنقهم عليه وخلافهم له فائتمروا به واغتالوه . واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس ، فخطأوا بعضاً وكفروا بعضاً ، ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب ، وأن العمل جزء من الإيمان ، ففرضوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر ، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون موارية ولا تقية ولا هوادة ؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري : « أنضاء عبادة ، وأطلاح سهر ؛ قد أكلت الأرض أطرافهم » . واستقلوا ذلك في جنب الله ؛ فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه . فإذا أنفذه الرمح جعل يسعى إلى قاتله ويقول : « وعجلت إليك رب لترضى »

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم ، فلا يرحمون ضعف المرأة ، ولا براءة الطفل ، ولا شيخوخة الهرم ، ولا وشائج الرحم ، لأنهم - كما ظنوا - باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، فقطعوا أسباب الحياة ، وأماتوا عواطف الدنيا ، وقاتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب

وتلك الغاية . وهم لصراحة بداوتهم ، وشدة عصبيتهم ، وخلوص عقيدتهم ، وما تقتضيه دعوتهم من ادمان الحجاج والمناظرة ، أسلس الناس منطقاً ، وأروعهم كلاماً ، وأمتنهم شعراً ؛ ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة ، لقيام أمرهم على الاقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول ؛ وغناء الشعر في ذلك قليل . فاذا ما صمد الخارجي إلى الخصم ، أوهجم على الموت ، أو وقع في الأسر ، جاشت نفسه بمتين الرجز ، أو رصين القصيد ، يضمنه وصفه للحرب ، ووله للقتال ، وزهده في الحياة ، واستخفافه بالموت ، وشوقه إلى الشهادة ، وظمأه إلى الجنة ، في لفظ جزل وأسلوب قوى ؛ وقلما يدور شعرهم على غير ذلك . فمن الرجز قول أم حكيم :

أحمل رأساً قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عني ثقله !

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرض قومه وهو أسير :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالة ... وكل امرئ منكم يصاد ليُقتلا
فشدوا على القوم العداة فانما ... أقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فيا ليتني فيكم على ظهر سابح ... شديد القُصيرى دارعا غير أعزلا
فيا رُب جمع قد فللت ، وغارة ... شهدت ، وقرن قد تركت مجندلا

وقول الطرماح بن حكيم :

لقد شقيت شقاءً لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجي من النار
والنار لم ينجُ من لهيبها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشاري
أو الذي سبقت من قبل مولده ... له السعادة من خلاقها الباري

وقوله :

وأمسى شهيداً ثاوياً في عصابة ... يصابون في فج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزالون عند الزواحف
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد مافي المصاحف

وكقول قطري بن الفجاءة في يوم دولاب :

فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً ... يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى ... أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الآله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء ، لاعتمادهم في الجدل على الخطابة ، وفي القراع على السيف . ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويقتلكم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان في هجاء الامام :

لله در المرادي الذي سفكت ... كفاه مهجة شر الخلق انسانا
أمسى عشية غشاه بضربته ... مما جناه من الآثام عُريانا

وما حمله على ذلك إلا أنه من القعدة لضعفه عن الحرب لكبر سنه فجاهد بلسانه

الزيات

من نوادر المخطوطات

أثر أدبي فذ!

اختراع الخراع لصلاح الدين الصفدي

للأستاذ علي الطنطاوي

أطلعني على هذه الرسالة صديقي الشاعر الأديب السيد أحمد عبيد ، أحد أصحاب المكتبة العربية العامرة بدمشق الشام ، فرأيتها رسالة عجيبة ، وتحفة أدبية غريبة ، ورأيت فيها فناً من فنون الأدب العربي لا يعرفه الناس ودليلا على بعد الغاية التي بلغها أدبنا ، ورأيت فيها جمالا ولذة ، ووجدت فيها نفعاً وفائدة ، فأحببت أن أتحف بها قراء الرسالة ، فتكون لهم أفكوهة وللأدب خدمة ، بتسجيل هذا الأثر الجليل من آثاره الضائعة في الرسالة (السجل الأدبي الخالد)

صلاح الدين ، أبو الصفا ، خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤) أحد أئمة العلم والأدب في عصره ، « مهر في فن الأدب ، وكتب الخط المليح ، وقال النظم الرائق ، وألف المؤلفات الفائقة ، وباشر كتابة الانشاء بمصر ودمشق ، ثم ولي كتابة السر بحلب ، ثم وكالة بيت المال بالشام ، وتصدى للافادة بالجامع الأموي ، وحدث بدمشق وحلب وغيرها . ذكره شيخه الذهبي في المعجم المختص ، فقال : الامام العالم الأديب البليغ الأكمل ، طلب العلم وشارك في الفضائل ، وساد في علم الرسائل ، وقرأ الحديث وكتب المنسوب وجمع وصنف والله يمده بتوفيقه ، سمع مني وسمعت منه ، وله تآليف وكتب وبلاغة » [1]

قال شيخ الاسلام التاج السبكي [2] :

(خليل بن أيبك) الشيخ صلاح الدين الصفدي الامام الأديب الناظم الناثر أديب العصر : ولد سنة ٦٩٦ وقرأ يسيراً من الفقه والأصلين ، وبرع في الأدب نظماً ونثراً وكتابة وجمعاً ، وعني بالحديث ، ولازم الحافظ فتح الدين بن سيد الناس وبه تمهر في الأدب ، وصنف الكثير في التاريخ والأدب . قال لي : إنه كتب أزيد من ستمائة مجلد تصنيفاً

(١) شذرات الذهب (٦ — ٢٠١)

(٢) طبقات الشافعية الكبرى (٦ — ٩٤)

ومن مؤلفاته الوافي بالوفيات ويكاد يكون أجمع كتب التراجم [1] . ومن مؤلفاته المطبوعة نكت الهميان في نكت العميان ، والغيث المنسجم في شرح لامية العجم ، وجنان الجناس في الأدب ، ودمعة الباكي ، وتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون (وهي غير الرسالة التهكمية التي شرحها ابن نباته) ووصف الهلال وغيرها [2]

أما هذه الرسالة التي نتكلم عنها ، فلم أجد من ذكر أنها له ، ولكني لا أشك في أنها إن لم تكن له ، فلن تكون إلا لأديب كبير ، وعالم متمكن ، ولغوي محقق ، وهي في شرح بيتين من الشعر ... شرحهما المؤلف شرحاً مستفيضاً ، حلاه بالنكات اللغوية والمسائل النحوية ، والطرائف الأدبية ، والآراء الفلسفية ، وزينه بالحكم الباهرة ، والأمثال السائرة ، واستشهد على كل مسئلة من مسائله بأقوال العرب ... ولكنه — وتلك ميزة هذا الكتاب — تعمد ألا يأتي إلا بما هو خطأ محرف عن أصله ، معدول به عن جادة الصواب ، ممال به عن سبيل الحق : فلا بيت ينسب إلى صاحبه ، ولا كتاب يعزى إلى مؤلفه ، ولا مسألة تورد على وجهها ، ولا بلدة توضع في موضعها ؛ وقد أورد ذلك كله بحذق ومهارة ، ولباقة وظرف ، حتى أن الرجل ليتلوه فيحس لحلاوة ما يقرأ أنه لا يقرأ إلا حقاً وصدقاً ، وما فيه من الحق والصدق شيء

ولا يقدر على الخطأ الذي لا صواب فيه ، إلا من يقدر على الصواب لا خطأ معه . يحتاج كلاهما إلى علم بمواقع الخطأ ووجوه الصواب ، وانتباه وفطنة ، واطلاع ومعرفة ، كيلا يخلط خطأ بصواب ، أو صواباً بخطأ . والرسالة على ما فيها من الهزل والتحريف ، تدل على طول باع مؤلفها في علوم اللسان ، وعلوم العقل ، ووقوفه على آراء الفلاسفة ، وآثار الأدباء ، ومباحث العلماء ، ولا تخلو من فوائد

***

وهي ناقصة من وسطها وآخرها ، والموجود منها (٥٣) صفحة ، في كل صفحة (١١) سطراً ، مكتوبة بخط قريب من

(١) راجعت بعض التراجم في بعض الأجزاء الفوتوغرافية ، في دار الكتب المصرية العامرة فوجدته قد جمع فأوعى ، ولم يدع بعده مجالا لقائل

(٢) عن الأعلام للزركلي

النسخي ، مضبوط قليل الأخطاء ، يدل على علم ناسخه . وليس في الرسالة تاريخ ، ولكن ورقها من الورق الذي بطل استعماله من ثلاثة قرون ، فكأنها مكتوبة في القرن التاسع أو العاشر على الصفحة الأولى منها :

كتاب اختراع الخراع
تأليف المولى الأجل الفاضل
العلامة فريد دهره ووحيد
عصره صلاح الدين أبي الصفا
خليل بن أيبك الصفدي
رحمه الله تعالى

للشيخ عبد الجواد :

بدا لابن أيبك في عصره ... كساد العلوم وخبث الطباع
وأن الأماثل قد أصبحوا ... هباء يطار بهم في الشعاع
وأن كثيراً كالأنهم ... دعاوي أحاديثها في انقطاع
فجرّ بأفعاله رأيهم ... وأتحفهم باختراع الخراع

وعلى الرسالة تعليقات لطيفة ، وتنبيهات شريفة

* * *

وأول الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو خرافة ، الهذّ القشيري ، سامحه الله تعالى : حضرت في بعض أوطان أوطاري ، وأوكار أفكاري ، مع جماعة الخ ..

فابتدر أحد ظرفائهم فأنشدنا بيتين الخ . . . وهما

لو كنت بكتوت امرأة جارية الفضل ... وكان أكل الشعير في البرد مَلْبَسكو
لابدّ من الطلوع إلى بترك في ... الليل وظلام النهار متضحج ما

فأخذ الجماعة في الاعجاب ، بما اتفق فيهما من اختلال النظم ، واختلال القافية ، وعدم الاعراب ، وخلاف أوضاع اللغة ، وتناقض المعنى وفساده ، والتخبيط في التاريخ ، وقضوا نهارهم يتعاطى كؤوس العجب من ذلك

فقال أحدهم : إلا أنهما محتاجان إلى شرح ينخرط مفهمها في سلك الغريب ، ويبرز في مظاهرها العجيب !

فألزم بعض من حضر الخ ....وصبّحهم وقد أعمل في الشرح خيله ... فقال :

حدثني نصير الدين أبو الهزايم ثابت [١] ، قال حدثني من كتابه أصيل الدين أبو المفاخر لقيط القطربي ، وقيل القرطبي ، قال أخبرني اجازة أسد الدين أبو ثور صقر الفنحكردي من أهل دمشق ، قال : إن افتخار الدين سبكتكين القسّيتاني صاحب زهر الآداب ، قال : عارض هذين البيتين الأفوه الأودي أبو علي ، على ما ذكره الحريري في الخطب النُباتية [٢] في قوله :

وإذا نظرت إلى الوجود بعينكم ... فجميع ما في الكائنات مليح [٣]

وهذا من قصيدته الطردية في التشبيهات ، وأولها :

وأنت يا غصن النقا ... ما أنت من ذاك النمط [٤]

وزعم مؤيد الدولة أبو خاذل أيدكين الجواليق ، صاحب الدبج المأموني ، في كتاب الصادح والباغم ، في باب المراثي أنهما من باب قول الثعالبي :

لو كنت شاهين جارية الفـ ... ـضل وكان الجريم منزلك
لابدّ الخ ...

وليس بشيء والصحيح الأول [٥]

قال الشارح عفا الله عنه : نبدأ أولاً بما في البيتين من اللغة وثانياً بما فيهما من الاعراب ، وثالثاً بما فيهما من التاريخ وتقدير المعنى ، ورابعاً بما فيهما من البديع ، وخامساً بالكلام على ما يتعلق بعروضهما ، وسادساً بما يتعلق بعلم القافية

القول في اللغة :

قوله بكتوت : هو علم مركب من اللغة العربية والتركية ، فبك بالعربي وتوت بالتركي ، ومعناها أمير توت مثل دمرطاس ومروان وقراحاً وما أشبه ذلك ، ومن قال إن معنى ذلك بالعربية أمير النيروز فلا يتأتى له ذلك إلا إن كان النيروز في شهر توت على ما ذكره السخاوي في سمع الكيان [٦]

قوله امرأة : المرأة مشتقة من المرآة ، وهي التي يرى الانسان فيها وجهه إذا كانت في جيبه أعني السراويل ، وكقول الأخطل :

(١) تأمل في التناقض بين نصره الدين وكونه أبا الهزايم
(٢) صاحب زهر الآداب أبو اسحاق الحصري ، والأفوه الأودي من شعراء العرب ، وأبو علي القالي صاحب الأمالي ، والخطب لابن نباتة ..
(٣) من شعر أرباب الوحدة ... (٤) من شعر البهاء زهير
(٥) الصادح والباغم لابن الهبارية ، وليس فيه مراث ، والثعالبي هو صاحب يتيمة الدهر وغيرها ، والبيتان من شعر ابن الحجاج
(٦) السخاوي معروف ، وسمع الكيان كتاب عارض فيه محمد بن زكريا الرازي الطبيب كتاب أرسطو الطبيعي

ما أخــــذ المرآة فى كفـه ينظر فيها للجمال المصون
إلا رأى الشمس وبدر الدجى ووجهه فى فلك يسبحون(١)

قوله جارية فيها قولان ، منهم من قال : هى الساقية لأنها تجرى من أسفل إلى فوق ، واستشهد بقول الحطيئة :

نديمتى جارية ساقية ونزهتى ســاقية جاريه
جارية أعينهـــا جنّة وجنّة أعينها جاريه(٢)

ومنهم من قال هى فى مقابلة المملوك ، واستشهد بقول العكوك :

أيا بديع الجمال رقّ لمن ستر هواه عليك يهتوك
دموعه فى هواك جارية وقلبه فى يديك مملوك(٣)

وهذا باطل ببديهة الانسان

قوله الفضل : هو كل شىء ناقص ، ومنه سمّى عبد الرحيم كاتب مروان بالفاضل لأنه كان قصيراً(٤) ، وفى أمثال بزرجمهر لأمر ما جدع قصير أنفه(٥) . قال التلعفرى :

ضعاف الطير أطولها جسوماً ولم تطل البزاة ولا الصقور(٦)

قوله كان : معلوم أنها للاستقبال وسيأتى الكلام عليها فى الاعراب

قوله أكل : هو الحالة المؤدية إلى الجوع لمن هو شبعان الخ . .

قوله الشمير : معروف أنه من فواكه الآدميين ؛ ولا يوجد إلا فى جزرات الهند بالمغرب فى الليل دون النهار صيفاً . قال ابن الساعاتى :

جارية لم تأكل المرققا ولم تذق من البقول الفستقا

ومن استشهد فى هذا بقول ابن الفارض يصف رجلاً من الأكراد كوسجاً :

إن تطل لحية عليك وتعرض فالمخالى معروفة للحمـــير
علق الله فى عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعير(٧)

(١) الأخطل معروف ، والبيتان لابن سناء الملك

(٢) الحطيئة معروف ، والشعر لعرف الدين شيخ الشيوخ

(٣) العكوك هو على بن جبلة من شعراء العصر العباسى . والبيتان كلاهما لمحيى الدين بن عبد الظاهر . .

(٤) عبد الرحيم هو القاضى الفاضل كاتب السلطان صلاح الدين وكاتب مروان إنما هو عبد الحميد الكاتب

(٥) بزرجمهر حكيم الفرس والمثل من أمثال قصة الزباء المشهورة . . .

(٦) التلعفرى شهاب الدين متأخر ، والشعر للعباس بن مرداس

(٧) ابن الساعاتى بهاء الدين بن رستم من شعراء صلاح الدين ، والبيت من شواهد كتاب سيبويه ، وابن الفارض معروف ، والشعر لابن الرومى . .

فليس من التحقيق فى شىء والمعنى على الأول

قوله البرد : هذا معروف أيضاً عند الأساكفة فى الشام وأظنه نوعاً من الأطلس الحريرى . قال امرؤ القيس فى معلقته الطائيـة :

قالوا حريراً كان وجنة حبيبه وترى مسوح الشعر فوق الأطلس
جهلوا معانى حسنه مع علمهم أن الحرير كماله بالقندس(١)

ومن قال إنه نوع من المديتى وأنشد الخ . . فليس بشىء لأن المديتى نوع الخ . . . والأطلس إنما هو فلك القمر خلافاً لأبى تمام فانه فى الخطب النباتية زعم أنه الفلك الذى له الحركة القمرية الخ . . وهذا رأى المشائين . والرواقيون خالفوهم والعمدة فى اللغة على أقوالهم(٢) (إلى أن قال) :

لابدّ : البد معلوم ، وهو صنم يعبده اليهود فى النوبة . قال بعض شعراء الجاهلية :

من قال لا بدّ منه فمنه لى ألف بدّ

وقال النابغة :

دعوة يسلى فؤادى : لا خفف الله عنه
كم لمت قلبى فيه فقال : لا بدّ منه(٣)

(البقية فى العدد القادم) على الطنطاوى

(١) البيتان من شعر المتأخرين

(٢) أبو تمام معروف ، والخطب النباتية تقدم ذكرها ، والفلك الذى له الحركة القمرية محدد الجهات ، وهو الذى يدور من الشرق إلى الغرب فى كل يوم وليلة دورة ، والمشاؤون والرواقيون أصحاب المدرستين المعروفتين فى الفلسفة اليونانية ؛ ولا شأن لهم باللغة . .

(٣) من شعر المتأخرين

من تراثنا الأدبي

٢ – أبو العيناء

بقلم محمود محمود خليل

تحدثت في مقالي السابق عن إسراف أبي العيناء في هجاء الناس ، حتى لم يسلم منه أحد من عظيم أو سوقة ، وقلت إن هناك عوامل أثرت في حياته ، حتى جعلته سليط اللسان وقد آن أن أتحدث عن تلك العوامل :

(١) الوراثة وقد تعرضت لها فيما سبق بحديث مستفيض ، فلا حاجة بي الآن إلى تكرار القول فيها

(٢) نشأته فقيراً ، وطالما كان الفقر وهو مثير الأضغان والأحزان منبعاً للنبوغ والذكاء ، ونجد فقره هذا اضطره فيما بعد إلى الارتحال من منبت نشأته وهو البصرة إلى بغداد طلباً لعطايا الخلفاء والوزراء ، وكل أحاديثه مع الكبراء تنبئنا بفقره المدقع ، فقد دخل مرة على عبيد الله بن سليمان بن وهب الوزير فضمه إليه ، فقال له أنا إلى ضم الكفاية أحوج مني إلى ضم اليدين . وقال له مرة أنا معك مغبوط الظاهر موجود الباطن كما قال أبو الطيب المتنبي :

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها إني بما أنا باك منه محسود

وقال لعبيد الله بن يحيى : مسّنا وأهلنا الضر ، وبضاعتنا الحمد والشكر ، وأنت لا يخيب عنده خر

وسواء كان هذا الكلام منه من أساليب الاستجداء الذي اشتهر به أو من شدة الحاجة كما يقول ، فقد عاش أبو العيناء في حياته كلها سواء منها المدة التي قضاها في البصرة أو المدة التي عاشها في بغداد في ضنك من العيش وشدة ، وتلك حياة كثير من الأدباء والكتاب في عصره ، حتى كان الانتساب إلى الأدب طالع سوء على محترفيه ، اللهم إلا نفراً قليلاً من الأدباء الذين أتاح لهم القدر أن يصلوا إلى مرتبة الوزارة أو القضاء ، وغفلت عنهم عين الزمان كما يقولون ، كالفضل بن سهل وأخيه الحسن والفضل بن الربيع وابن الزيات ويحيى بن أكثم وأحمد ابن أبي دؤاد وغيرهم ، وما عدا هؤلاء فكانت حياتهم تتوقف على العطايا التي ينفحهم بها أرباب المناصب في الدولة ، وكثيراً ما كانت تضيق أمامهم سبل العيش ، وتضطرهم الفاقة إلى الاستكانة والذلة ، ولا سيما إذا راعينا رجلاً كأبي العيناء وهو مكفوف البصر ، رثينا الحالة التي كان فيها ، وانتحلنا له عذراً في استطالته بلسانه على الكبراء ، فانه لا يملك غيره ، وهو سيفه الوحيد الذي كان يناضل به في حياته عن عيش الكفاف الذي كان يبتغيه في دنياه كما يقول ذلك لعبيد الله بن سليمان

(٣) وثالث العوامل التي غيرت مجرى حياته فقد بصره ، ولم يحدثنا الرواة أحصل له ذلك الحادث في حياته البصرية أم في حياته البغدادية ، وإني أرجح أن ذلك كان في حياته البصرية قبل أن ينتقل إلى بغداد ، فإن أحاديثه جميعها التي نقلت عنه وهو ببغداد تنبئنا أنه كان أعمى يقوده غلامه

ويظهر أن هذا الحادث قد أثر فيه تأثيراً كبيراً فجعله ساخطاً على الحياة ، يتناول الناس بقوارص الكلم . قال له المتوكل : لا تكثر الوقيعة في الناس ، قال : إن لي في بصري لشغلاً عن الوقيعة فيهم ، قال ذلك أشد لحيفك في أهل العافية . فانظر إلى حيفه في أهل العافية الذي يذكره له المتوكل ، أما كان هذا أثراً من آثار فقد بصره ؟ وشكا مرة إلى صديق له سوء الحال وفقد البصر ، فقال له اشكر فان الله قد رزقك الاسلام والعافية . قال : أجل ولكن بينهما جوعا يقلق الكبد ، ويفقد الرشد

لم يتخذ أبو العيناء سخطه على الحياة مذهباً فلسفياً له كما اتخذه شاعر المعرة من بعده ، ولم يؤد به هذا السخط إلى الزهد والتقشف كما فعل ذلك أبو العلاء ، وإنما كان سخطه مقصوراً على حزنه العميق الذي خالج فؤاده لفقد بصره

صفاته وأدوار حياته :

إذاً فقد اجتمعت عوامل ثلاثة أثرت في حياته : الوراثة والفقر وفقد البصر ، حتى جعلته سليط اللسان حاضر البديهة متوقد

الذكاء ؛ ولقد تزود في حياته البصرية من آثار الوسط الذي كان يعيش فيه بما يصلح لمجالس الملوك والأمراء ومنادمتهم بأحاديث وطرف ونوادر ، ثم رحل إلى بغداد بعد أن ضاقت به سبل العيش في البصرة ؛ ولقد ذمها للمتوكل حينما سأله عنها فقال : من أين أنت ؟ قال من البصرة . قال له : فما تقول فيها ؟ قال : ماؤها أجاج ، وحرها عذاب ، وتطيب في الوقت الذي تطيب فيه جهنم

تزود بتلك الرواية الواسعة واشتهر مع هذا بالجواب المسكت والمراسلات العجيبة والجواب السريع والطبع الفكه والحجة الداحضة ، والبديهة المتوقدة . فكانت تلك المظاهر معينة له على الحياة التي أقدم عليها ببغداد . فمن ذلك أن بعض الرؤساء قال له : يا أبا العيناء ، لو مت لرقص الناس طرباً وسروراً ! فقال بديهة :

أردت مذمتي فأجبت مدحي ... بحمد الله ذلك لا بحمدك

فلا تك واثقاً أبداً بعمد ... فقد يأتي القضاء بغير عمدك

ثم قال : أجل . الناس قد ذهبوا فلو رآني الموتى لطربوا لدخول مثلي عليهم ، وحلول عقلي لديهم ، ووصول فضلي إليهم ؛ فما زال الموتى يغبطونكم ويرحموني بكم . وخاصم أبو العيناء يوماً علوياً فقال له العلوي : تخاصمني وأنت تقول كل يوم : اللهم صل على محمد وآل محمد ! قال لكني أقول الطيبين الطاهرين ولست منهم . ووقف عليه يوماً رجل من العامة فلما أحس به قال من هذا ؟ قال رجل من بني آدم ، فقال مرحباً بك ! أطال الله بقاءك ، ما كنت أظن هذا النسل إلا قد انقطع . ولقيه بعض أصحابه في السحر فجعل يتعجب من بكوره ، فقال له : أراك تشركني في الفعل وتفردني في التعجب ! وقال له المتوكل : إبراهيم بن نوح النصراني واجد عليك . فقال : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قال إن جماعة من الكتاب يلومونك . فقال :

إذا رضيت عني كرام عشيرتي ... فلا زال غضباناً علي لئامها

وغير هذه الأحاديث كثير تستطيع أن تقرأها في كتب الأدب . وتلك البديهة الوقادة والأجوبة المسكتة هي التي جعلت الحصري صاحب زهر الآداب يقول : كان أبو العيناء أحد الناس خاطراً وأحضرهم نادرة ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً .

ولقد كان أبو العيناء يجالس في حياته البغدادية الخلفاء والكبراء فيطرفهم بأحاديثه وفكاهاته ، فكان سلوة لهم في مجالسهم وزينة في محاضرهم على ما فيه من حدة اللسان

انتقل أبو العيناء إذاً من البصرة إلى بغداد بعد أن تمت له الثقافة التي أرادها ، والبلاغة المكاظية التي امتاز بها ، وتلك حال كان يشترك معه فيها كثير من أدباء عصره ، إذ كانت بغداد مركز الخلافة الاسلامية يرحل إليها الأدباء والعلماء ، ويبتغون فيها صلات الملوك والأمراء ، وقد يصل بعضهم إلى أن يرتب له الخليفة من بيت المال رزقاً يجرى عليه . ويظهر أن أبا العيناء كان من أولئك النفر كما تدل عليه أحاديثه ولا سيما إذا لاحظنا أنه من موالي الخلفاء العباسيين ، فكان بلا ريب له دالة عليهم جعلته في مأمن من تلك الحزازات التي كانت في صدور كثير من الحاشية ، والتي سببها أبو العيناء ببذاءة لسانه ، وتطاوله على أعراض الناس

حياته البغدادية :

يقول الرواة إن أبا العيناء ولد في آخر المائة الثانية وتوفي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ فمن ثم يكون قد أظلته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد وصدر من خلافة المعتضد بالله الذي تولى سنة ٢٧٩ وتوفي سنة ٢٨٩ هـ . ولقد كانت الحياة البغدادية في عصر أبي العيناء كلها ترف ولذة ، يسودها المجون والخلاعة ، ويروج فيها العبث واللهو ، وقد روى لنا المؤلفون كثيراً من مجالس لهوهم ومنادمتهم على الشراب ، ومساجلات الشعراء في خلواتهم ، وأحاديث المجان في طربهم ، وإني أعتقد أن الخليفة الذي تمتع بملذات الحياة ، وآمال نفسه ما تبتغيها حقاً ، من خلفاء العباسيين هو المتوكل على الله ، فهو أول من أظهر من خلفاء بني العباس الانهماك على شهوته ، فأسرف في بناء القصور ، وعكف على الشراب ولم يبال باللوم (١) ، ولقد جنى ثمرة رفاهية الدولة ، وإن شئت فقل إن الدولة قد بلغت في أيامه ذروة العظمة ، وكان لا بد لها من بعده أن تضعف حتى تنمحي ، ولكل شيء إذا ما تم نقصان . ولقد

(١) نعتقد أن الأمين لم يتمتع حقاً للخلاف الذي كان بينه وبين أخيه المأمون

حدثنا التاريخ أنه قتل فى قصره ، وأن الأمور من بعده اضطربت اضطراباً شديداً بسبب المول الهادم الذى أوجده المعتصم وهو الجنود الأتراك ، ولم يظهر استبدادهم وشرهم حتى بلغت الأمور غايتها ثم ظهر الفساد بعد عصر المتوكل

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالاً شديداً ، وسنعلم إلى أى حد أثر فيه هذا الاتصال ، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل وإنما اتصل بغيره كما اتصل به ، ولكن المتوكل هو الذى رفع له الحجاب ، وجعل يصغى لأحاديثه ، ولقد بهره منه تلك البديهة الحاضرة ، وذاك الذكاء الوقاد ، حتى رأيناه يمزح معه فى كثير من مجالسه ، ويرفع الكلفة بينه وبينه.

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة فاتصل به وعرف وزيره الحسن بن سهل وأخذ منهما الصلات والعطايا ، ولقد أثر ذلك المعروف فى نفسه حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل : والله لئن أتعب المادحين ، لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب بموته الأنام ، وخرست لفقده الأقلام. وخبر آخر قال أبو العيناء : حصلت لى ضيقة شديدة فدخلت يوماً على يحيى بن أكثم فقال إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص فهل لك فى الحضور ؟ قلت نعم ومضيت معه ، فلما دخلنا أجلسه وأجلسنى ثم قال يا أبا العيناء بالألفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم ... وللرجاء حقوق كلها تجب
إن لم أكن لى أسباب أعيش بها ... ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال لغلامه : أنظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال بقية من مال ، قال فادفع له منها مائة ألف وابعث له بمثلها فى كل شهر . فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فقال له بعض أولاده يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء . فقال :

شيئان لو بكت الدماء عليهما ... عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما ... فقد الشباب وفرقة الأحباب

(يتبع) محمود محمود خليل

شوقية لم تنشر

مراقب الصحف بالآستانة

للمغفور له أحمد شوقى بك

لنا رقيب كان ما أثقله ... الحمد لله الذى رحله
لو ابتلى الله به عاشقاً ... مات به لا بالجوى والوله
لو دام للصحف ودامت له ... لم تنج منه الصحف المنزله
إذا رأى الباطل غالى به ... وإن بدا الحق له أبطله
لو خال « بسم الله » فى مصحف ... تغضب « تحسيناً »(١) محا البسمله
وعزة الله بلا « عزت(٢) » ... لا تنفع القارى ولا خردله
جرائد الترك على عهده ... كانت بلا شأن ولا منزله
إن تذكر الخنجر لفظاً تصب ... من شدة الذعر به مقتله
وإن تصف قنبلة لم ينم ... من هول ذكرى حادث القنبله
الشر بالمشر فيا قوم لا ... إثم إذا راقبتمو منزله
فحاصروا الأبواب واستوقفوا ... من أخرج الزاد ومن أدخله
إن كان فى السلة تفاحة ... ضعوا له موضعها حنظله
أو جىء « بالشرشر(٣) » له فاملأوا ... مكانها من علقم جردله
أو اشتهى الأبيض من ملبس ... قولوا له الأسود ما أجمله
ذلك يا قوم جزاء امرئ ... كم غير الحق وكم بدله

(١) تحسين باشا من ذوى النفوذ
(٢) عزت باشا « « «
(٣) عين معدنية مياهها حلوة صحية

خطرات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

— ١ —

اكدح لدنياك اكدح ... وباللذات افرح
وامرح فما خلقت في الـ ... أرض لغير المرح
دع الهموم جانباً ... وللمسرات اجنح
وربما وجدتها ... في جرعة من قدح
فقد تكون ممسياً ... في اليوم غير مصبح
وإن خلقت شاعراً ... فقل ولا تمتدح
كل الذنوب إن صرفـ ... ـت النفس عنها تمحي

— ٢ —

الناس تحيا بالمنى ... فما لها عنها غنى
لولا المنى ما عشت أنـ ... ـت هادئاً ولا أنا
لا تذهلهم أنفس ... لها من المنى سنا
ولا يرى ذو اليأس ما ... أمامه وإن رنا
اليأس نار تحرق الر ... وح وتفني البدنا
ويجعل العمر قصير ... اً وتطيل الشجنا
أمّل حياة كلها ... طيب هناك أو هنا

— ٣ —

من يعتقد بنحسه ... فهو عدو نفسه
خير الفتى وشره ... كلاهما في رأسه
إن الفتى بسؤله ... ينشط لا بيأسه
وذله في جبنه ... وعزه في بأسه
وربما عرفت ما ... نسيجه من لبسه
يرجو الفتى ألا يكو ... ن يومه كأمسه
قد دونت نفسه ... فليستفد من درسه

— ٤ —

يا نفس لا تنخدعي ... بالزاهد المنقطع
دنياك هذي تحتوي ... على النعيم أجمع
تنعمي بخيرها ... قبل دنو المصرع
وبالحياة ما صفت ... تمتعي تمتعي
لكل باب تحسبيـ ... ـن الخير خلفه اقرعي
وانتهزي الفرصة قبـ ... ـل فوتها وأسرعي
بالبسمات تبلغيـ ... ـن السؤل لا بالأدمع

— ٥ —

مصيبتي في الهرم ... فإنه امتص دمي
لم يبق مني غير جلـ ... ـد ذابل وأعظم
وغير نفس قد تربّد ... نى فيا نفس اسلمي
وغير ما أقوله ... عند الأسى من كلم
صعب علي السير من ... ضوء الضحى للظلم
إني أرى الموت أما ... مي ماثلا من أمم
من ضامن ألا يكو ... ن الشيخ بالمنهدم

— ٦ —

انظر إلى الزواهر ... يسبحن في الدياجر
تلك شموس قد بعد ... ن عن عيون الناظر
لا تنس ما بين نجو ... م الليل من أواصر
فكلها مؤلف ... من كهرباء ثائر
ما أقدم الوجود فهـ ... ـو عنصر العناصر
فما له من أول ... ولا له من آخر
بلى، لكون فيه نحـ ... ـيا سند من قادر

— ٧ —

أهد إلى الشمس القبل ... فإنها بنت الأزل
وحيّها عند شرو ... قها وحيّ في الطفل
قد عبدت بين الأنا ... م في قرونها الأول
منها الحياة والرخا ... ء والسرور والجذل
والأرض لولاها خلت ... من الحياة والعمل
والشمس أم الأرض والـ ... ـخطب إذا زالت جلل
توغل في هذا الفضا ... ء الرحب من غير وجل

بغداد — جميل صدقي الزهاوي

بعد الإخاء والعداء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

حنوتُ على الود الذى كان بيننا   و إن صدَّ عنه ما جنينا على الود

حنوتُ ولو أنى حنوت وما حنا   ولو أنه يبغى هلاكى من الحقد

ولا أُكذِبَنَّ الناس قلبي كقلبه   له آنة ميلٌ عن النصف والقصد

كلانا جنى شراً فعاد إخاؤنا   محالاً حكى ذكرى الشباب على بُعْدِ

فيا طيب ذكراه وما بُعْد عهده   وأين قديم الود من حاضر الصد

مضى حيث يمضى عابر بعد عابر   من الأهل والأصحاب والذخر والولْدِ

مضى حيث يمضى كل رأى ومذهب

له أجل كالناس ظعن بلا عَوْدِ

إذا أنا أُنسِيتُ الإساءة من أخ   ذكرتُ له منى إساءة ذى عمد

وأيقنت لا ينسى عِدائى وما جنى   عدائى عليه من عناء ومن جهد

أيأتلم الصخران فى اليمِّ بعدما   تردد موج اليمِّ بالصدع والهد

ويتفق الخِلّان من بعد ما بدت   به بغضة من مين قول ومن نقد

وكنا على ما كان من قرب أنفس   كنهرين فى وادى النضارة والورد

قد اقتربا مجرى وماء وعسجدا   من الشمس لألاء كلألأة الود

حياة شباب عسجدٌ أىَّ عسجد   وعهد إخاء لا يغيض ولا يُكدِى

إلى أن دعا داعى الحياة وإنها   فمال بنا قصد السبيل عن القصد

وغيَّرَ منا القلبَ والنفسَ والمُنى   وزاد طماحُ النفس بعداً على بعد

هو البغض مثل الحب لحظ فمنطق   فنار لها بين الأضالع كالوقد

وإن كنتَ تدرى الحب كيف طروقه

ولم تدره أيقنت ما جاء بالحقد

فيا ليت أنى قد غفرت جفاءه   ونبوته حتى يصد عن الصد

ويذكر لى صبرى على الضيم والأذى   فيأسى على ما كان منه من الكيد

وتكسبنى منه الندامة ألفة   و إن كان لى من قبل كالحجر الصلد

أعيش بصفو منه يوماً فإن جنى   على إثره غدراً ذخرت له ودى

وأذكرُ نفسى منه عند انصرافها   شمائل تستدعى المَغيظ إلى الحمد

أبعدَ بلائى العيش أبغى مُبَرَّأً   وكيف ونفسى لى كما الضد للضد

يروقك حسن الفجر والنجم فى الدجا

ومرأى رياضٍ من عرار ومن ورد

وأحسن منها البشر فى وجه صاحب   حليفك منه ما استسر ولم يُبْدِ

فياليت لى دنيا أبيع حطامها   بود أخٍ لو يشترى الود بالنقد

إذا الحب لم يخلص من البغض والأذى

فكيف خلاص الود من عنت الحقد

وخِلّاننا مثل الجوارح أيهم   فقدنا فبعض النفس فى ذلك الفقد

أحقٌّ طِلابُ الود من نقص طالب   إذاً فمن نشدانك الود بالحمد

لتكمل بالخل الذى أنت ناشد   كما كَمُلَ النصفان تجمع فى العد

ويا طيب قلب غره الود حقبة   كما عظُمَ المخدوع بالفضل والمجد

وإنك لا تدرى أقلب مراوغ   أسرُّ أم القلب المُغَرَّرُ بالود

و إنَّ وداد المرء من بعض غُنْمِه   ولو أنَّ مخلوف الوفا غاض لم يُجْدِ

تعيش بمخلوف الرجاء وكذبه   فَطامِنْ فإن الود يا قلب لم يُرْدِ

رحيق الحياة الود لو دام صفوه   وكالخمر أصفاه المُعَتَّقُ ذو العهد

وأحسنه ما كان من عصرة الصِّبَى

ولم يَخْلُ بعد الشيب مُسْتَحْدَثُ الود

فمن لى بعود الدهر للود والصِّبَى   أليفين ما كانا كما الند للند

يخال الصِّبَى ودا وود الصِّبَى صِبَى   كيانهما الممزوج كالجوهر الفرد

و إن فقير الناس من خان خِلَّهُ   وإن نال حظاً من طريف ومن تلد

أأبغى إخاء لم تَشُبْهُ عداوةٌ   وأنتم عفو الغدر أو غدرة العَمْدِ

كأنى لم أدرِ الأنام وخُلقه   ولم أدرِ أن الضد يولع بالضد

أبعدَ فراغى من جنازة ودنا   أروم خلود الود من عادم الخلد

متى أرتضى الخلان صحوا وغيمة   فأمنحهم غيثى وأمنعهم رعدى

أغالط نفسى فيهمُ وأغرها   وإن لاح منهم غدر أغدائى اللد

وأكتم من آلام نفسىَ عزةً   إذا لم يُتَحْ لى ما أُزيل به وجدى

فيا ساقىَ النسيان عاطِ صحابتى   وهات لىَ النسيان رفداً على رفد

وهيهات ما أمر إذا جد جده   لِيُنْسَى ولو واروه فى مُشْبِه اللحد

إذا انفلت السهم الطليق فما له   ولو أنه سهم النميرىِّ من رد

ويعجز هذا الدهر عن نقض فعله   ألا وهو الدهر المصرِّفُ ذو الأَيْدِ

عبد الرحمن شكرى

في الأدب الإنجليزي

٤ – الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

وكان من السائد في ذلك العصر أن هذه الطائفة من المخلوقات سرمدية أزلية ، فكثيراً ما يطلق شكسبير على الناس لقب الأحياء الفانين بينما هو لا يعرض لهن شيء من ذلك . وقد يجعلن من الرجل أداة الهزء والسخرية فيلقبنه بألقاب عدة أهمها أنه حي زائل وليس بباق . فالملكة تيتانيا تطلب من بطانتها ووصائفها أن يعاملن بلطف ذلك المخلوق الزائل بوتوم (Bottom) . ولهذه المخلوقات زيادة على ذلك خاصية الاختفاء والظهور للبشر ، فهي كالفقاعات الهوائية التي لا تظهر للناس حتى تزول ولا يمكن عند ذلك معرفة الجهة التي اختفت فيها أو تميزها .

وفضلاً عما تقدم كانت لهن صفات أخرى أهمها خاصية التشكل والظهور بصور عدة ، وقد صور إيرون لنا نفسه بقوله : « بت أكون في وقت ما حصاناً فأصهل ، أو كلباً فأنبح ، أو قوقعة فأنعق ، أو دباً فأقمقع ، أو ناراً فأحترق » . وخاصية السرعة والنشاط فهن أسرع من القمر ، وفي استطاعتهن الدوران حول الكرة الأرضية في مدة لا تتجاوز الأربعين دقيقة . وقد افتخر روبن هود بسرعته وتحدى الآخرين قائلاً « انظروني أذهب بسرعة لا تدانيها سرعة السهم وقد انطلق من قوس التتري »

وأهم ما نراه مشتركا بين الجنيات هو ميلهن إلى الموسيقى وفنه فلا يطربن للسماع فقط بل خلقن وقد لازمهن هذا الفن وهذه الموهبة النادرة ملازمة تامة . وما جزيرة العاصفة الخرافية إلا مكان تسوده الموسيقى والأصوات العذبة مما جعل للمكان روعة ساحرة خلابة . فكثيراً ما كانت تسمع أصوات آلاف الآلات الموسيقية منتشرة في الجو انتشاراً لا يضاهيه انتشار الروائح العطرية المختلفة ولم تقتصر هذه الموهبة على الموسيقى فحسب بل تجاوزتها إلى الرقص ، فنرى الملكة تيتانيا تأمر بطانتها وجواريها « أن يخترن من الينابيع وجداول الأنهار وشواطئ البحار أمكنة ليقمن فيها حلقات الرقص والموسيقى »

وآخر هذه الميزات التي اشتهرت بها الجنيات هي ميزة حماية القبور والأضرحة . فكن يقمن بأعمال ما يسمونه الملاك الحارس . ولا تقتصر مهمتهن على تسلية الميت بل تتعداها إلى حفظه سليماً من الحشرات معافى من الجراثيم . ونرى هذه الخاصية بوضوح في رواية سمبالين إذ يقول « ستقوم نساء الجنيات بحراسة قبره من الحشرات »

أما وقد انتهينا من هذه الصورة الرائعة التي صورها لنا شكسبير فيجدر بنا أن ننظر أكان موفقاً في تصويره أم غير موفق . قال جبسن يصف هذه المحاولة : « إن صورة الجنيات في روايات شكسبير تمثل لنا المرح والسرور والنية الطاهرة ممتزجاً بعضها ببعض تحددها المحاولات الضئيلة التي يقصد منها ايقاع الضرر بالناس . ولا يقصد الشاعر من هذه الصور إلا تسلية قرائه فقط غير محاول إظهار عقيدته الحقيقية ، وما هي إلا مخلوقات هوائية تحلق في الفضاء مرفرفة أمام أعيننا [1] »

لا يسهل علينا أن ننكر قط هذا الجمال الظاهر في هذه الصورة النادرة . فقد نجح شكسبير أيما نجاح في إبرازها إلى حيز الوجود بلباس رائع من المرح والسرور ؛ ولقد صدق جبسن في وصفه السابق لهذه الصورة من ناحية واحدة وأخطأ في ناحية أخرى ، فلقد حكم أن شكسبير لم يقصد منها إلا تسلية قرائه غير معبر عن أية عقيدة من عقائده . وحسبي أن أقول معارضاً هذا الرأي أنه ليس في استطاعة أي شاعر أو كاتب أن يصف عقيدة من العقائد كهذا الوصف الدقيق المسهب دون أن يكون له أدنى تفكير وإيمان بالعقيدة نفسها . فقد اعتقد شكسبير بوجود الجنيات وسمع ما كان يدور على ألسنة أهل عصره من قصص وأساطير جلاها في رواياته مرتدياً رداء من الخيال الواسع والابتكار البديع

الساحرات Witches :

من الصور الغيبية التي رسمها شكسبير بدقة تأتي صورة الساحرات في الدرجة الثانية ؛ فلم يقتصر ذكرهن على رواية واحدة من رواياته ؛ بل تعدتها إلى عدد من الروايات لا يقل عن التي تبحث في الجنيات أهمية وعدداً ، ولكنه اختص إحدى هذه الروايات ببحث مسهب مستفيض جعلها قاصرة على هذا النوع من المخلوقات الغيبية ، وهذه الرواية هي التي يعدها كثير من النقاد والأدباء أحسن ما كتبه الشاعر ألا وهي رواية مكبث

أما ساحرات شكسبير فينقسمن إلى طبقتين مختلفتين :

(1) Gibson. Sh. Use of the Supernatural. P. 18

أولاها طبقة الساحرات البشريات اللواتى يوصفن عادة بالذبول . وثانيتهما طبقة الساحرات العلويات أو الغيبيات اللواتى امتزن عن أخواتهن بعزات أرقى وأهم .

يذكر شكسبير ساحراته الأرضيات فى كثير من رواياته العديدة حيث يكون لهن شأن ضئيل فى مجرى الرواية وهيكلها . فهو يذكر فى رواية هنرى السادس إحدى هؤلاء الساحرات على لسان تالبوت (Talbot) حيث يقول : « إن بوسيل تلك الساحرة الملعونة قد سببت هذه المصيبة وتلك الأكدار التى لم نتخلص منها فى فرنسا إلا بعد لأى » ، وقد ذكرهن فى رواية أخرى هى رواية « نساء وندسور المرحات » (Merry wivesof Windsor) ، حيث تقول السيدة بيج (Page) : « دعنا نلبسه ألبسة تشبه ألبسة ساحرة برانيفورد » . وقد ذكر هذا النوع من الساحرات فى رواية ثالثة هى رواية الملك ريشارد الثالث عندما يخاطبه كلوسستر (Gloucester) قائلاً : « إن هى إلا امرأة إدوورد تلك الساحرة التى نفثت سحرها فى أعمالى فباءت بالفشل » .

فى جميع هذه الروايات التى ذكرتها نرى الساحرات البشريات يلعبن دوراً بسيطاً ، بينما الساحرات السماويات تشغل قسماً أكبر من تفكير هذا الشاعر العظيم ؛ فقد اختص رواية مكبث كلها بتحليل شخصياتهن ووصفها وصفاً دقيقاً مسهباً . وقد صدق مستر لويد فى كتابته النقدية عن مكبث حين قال : « إن رواية مكبث تشمل الخيال المبدع والمخاوف السحرية ، وكثيراً من الخرافات التى كانت تسود أقسام بريطانيا الشمالية والجزر الغربية منها »

وهؤلاء الساحرات لا أسماء لهن فهن يدعين أنفسهن بالاخوات الذابلات كما يتبين لك فى مواضع عدة من رواية مكبث وقد كان الناس كثيراً ما يشتبهون فيهن فيحسبونهن رجالاً لما فى ذقونهن من لحى كلحى الرجال بينما هن فى الحقيقة إناث اكتملت فيهن صفات الأنوثة ؛ ويظهر هذا جلياً فى رواية مكبث عندما يقول مخاطباً إياهن : « إنكن نساء مع أن لحاكن تجعلنى أميل إلى الاعتقاد فى رجولتكن »

إن هذا المظهر الذى كان يجمع بين صفتى الرجولة والأنوثة فى هؤلاء الساحرات كان سبباً قوياً فى ازدياد الشعور نحوهن بالكره والازدراء . وكم كان الناس يودون القضاء عليهن لولا أن فى استطاعتهن أن يغيرن صورهن وأشكالهن ، فتارة تراهن بصورة قطة من القطط الرقطاء ، وطوراً بشكل فأر قد قطع ذنبه ، وهذا يتجلى لنا بصورة واضحة فى رواية مكبث عندما تظهر إحداهن فى بدء الرواية بصورة هرة تدعى كريمالكين (Greymalkin) وقد وصفت إحداهن نفسها بقولها فى ناحية أخرى من الرواية « سأكون بشكل فأرة عارية عن الذنب فأمتطى منخلاً وأسبح فى البحر محاولة تخريب السفن وإغراقها »

وتختلف الساحرات عن الجنيات بكونهن عاملاً من عوامل الشر والدمار فهن يحملن فى أنفسهن الكره الشديد لبنى البشر ويسعين بكل طاقتهن لايقاع الضرر بالمجموع البشرى ، وكثيراً ما يستعملن الأعشاب السامة لتنفيذ أغراضهن الشريرة ، وكانت لهن ملكة تدعى هكيت (Hecate) اقتصرت أعمالها على إيقاع الآلام بالناس ، وقد وصفها لوشيانس فى رواية هملت بقوله : « انك لتخلط بين أعشاب الليل وبين الأعشاب الصفراء الذابلة التى جمعتها هكيت لتستعملها فى سحرها وفى ذلك تنتهى الحياة البشرية »

وتمتاز الساحرات بأنهن أقوى أنواع هذه المخلوقات المنيبة ، فهبوب الرياح والسباحة فى البحار كانت من المسائل التى فى استطاعتهن القيام بها بكل سهولة ، وكان الليل أحب الأوقات اليهن لأنهن يستطعن الخروج فيه بكل جرأة وحرية ويتعاطين مايشأن فى أثنائه . ولنستمع إلى مكبث مخاطباً إياهن قائلاً : « ماذا تعملن أيتها المخلوقات السرية الليلية »

ولم يقتصر زمن ظهورهن على الليل فقط بل كان بامكانهن التجول أثناء النهار فقد اتفقن فى الفصل الأول من رواية مكبث أن يقابلنه قبل مغيب الشمس . وكان فى استطاعتهن أن يختفين أو يظهرن حسب إرادتهن . فقد ظهرن لمكبث وبانكو فى الفصل الثالث من الرواية لكنهن ما عتمن أن اختفين بعد أداء مهمتهن التى قصدنها وقد استولت الدهشة على بانكو فصاح قائلاً لما اختفين : « إن للأرض فقاعات كما أن للماء فقاعات ايضاً ، وهذه المخلوقات هى من فقاعات الأرض ، فى أى مكان اختفين ؟ »

حاولت الساحرات إظهار قوتهن وسلطتهن على البشر فصدرت عنهن تلك النبوءات التى تم تحقيقها فى نهاية رواية ومبث ، وكل ما فى هذه الرواية من ابتكار وابتداع يرتكز على محور واحد ذلكم هو النبوءات ، ففى بدء الرواية يخبرنه عن المستقبل فيتنبأن بصيرورته سيداً على كاذور ثم ملكا على اسكتلندا ، وكلتا هاتين النبوءتين يتحقق ، وفى نهاية الرواية يتنبأن بنبوءات جديدة ، فيخبرنه أنه لن يصيبه مكروه من إنسان عادى بل من رجل لم تنجبه امرأة ، وإن هذا الأمر لن يتحقق إلا إذا انتقلت غابة برنام (Birnam) من مكانها وسارت مسافة

لا تقل عن الخمسين ميلا ، وكل هـذه النبوءات تتحقق ويتبين صدقها فى نهاية الرواية

ونظراً لهذه الشرور والآثام التى كان الساحرات يرتكبنها كان الناس على اختلاف مللهم ونحلهم ينظرون اليهن بعين الكراهيـة والسخط ، فكانت لهن عادات مستهجنة غريبة كميلهن إلى الأعداد الفردية وخصوصاً الثلاثة منها ، فلا يخطون إلا ثلاث خطوات عند رقصهن ، والقط لا يموء إلا ثلاث مرات ؛ وقد اعتقد شكسبير أن السبب الذى حدا بهن إلى هذا الميل الغريب هو اعتقادهن أن الأعداد الفردية تنبئ عن الحظ الحسن والفأل الجيد

وكان العقاب الشديد دائماً فى انتظارهن يهدد حياتهن ، فكل امرأة كان يشك فى كونها ساحرة من النوع الخطر كانت تُشد الى قطعة خشبية مصلبة تتوقف بواسطتها الحركة الدموية ، وتتشنج الشرايين فتحدث ألماً شديداً قل أن يحتمله انسان . وقبـل أن تتوقف الحركة الدموية بهـذه الطريقة كان الساحرات يربطن لمدة لا تقل عن الأربع والعشرين ساعة حتى تعترف بسحرها . وهناك طريقة أخرى كان الساحرات يعذبن بواسطتها ألا وهى طريقة نزيف الدم بقطع أحد الشرايين

وللساحرات فصل معين من فصول السنة لا يظهرن فيه أبدا ، وقد ذكر شيكسبير ذلك فى رواية هملت بقوله : « يقول البعض إن الفصل الذى ولد فيه السيد المسيح هو فصل سعادة وحبور ، فى أثنائه تظل الطيور مغردة على الأفنان ، وتختفى الساحرات والأشباح من عالم البشر » . وكان الناس يخافونهن ويسعون فى مرضاتهن فيستعيذ المتدينون من الرجال منهن ويبتعدون عن شرورهن وآثامهن

وانى لأعتقد من جراء هـذا الاهتمام الذى ابداه شكسبير بهن ، وهـــذا التدقيق فى البحث فى مسائلهن وتصويرهن ، أن شكسبير كان يؤمن بوجودهن وقدرتهن الايمان كله ، فقد اعتقد أن لهن من القوة والجبروت ما تستطعن بواسطته اخضاع النوع البشرى لسلطتهن وسيطرتهن ، وهذا ما أظهره جلياً فى كتابته عنهن فى كثير من رواياته .

صبرى حماد

القصص

صور من هوميروس

١٠ – حروب طروادة

معركة بين الآلهة ...

للأستاذ دريني خشبة

وقفت نديمانة الآلهة « هيب » اللعوب الهيفاء ، تسقى أربابها خمراً ! وكان الأولمب يزخر بسادته

فهذا زيوس العظيم مستوياً على عرشه الضخم المرصع بالجوهر والياقوت

وهذا أبوللو سيد الشمس ، وصاحب القوس ، يوقع على قيثارته أشجى ألحانه

وهذا ڤلكان ، الحداد القذر ، قد بدا في حلة جديدة ذات ألوان صارخة

وذاك مارس الجبار ، إله الحرب ، يلاعب الأسنة ، ويداعب الصمدة البترية

وذلك هرمز ، عزرائيل هيدز الكريم ، ورسول الآلهة إلى سكان الأرض ، يرسل في الملأ نظراته الساخرة ، ونكاته المنكرة

وهذه حيرا ، مليكة الأولمب ، تود لو تضرم النار في قصور مولاها ، إن لم يقض بانتصار الأغريق !

وهذى ميزفا ... الحكيمة الراشدة ... تصمت صمتاً أبلغ من وحى الأولمب كله ، ترى هل تستطيع تسخير هذه العصبة من الأرباب لسحق باريس وقومه وأحلافه !

ثم طائفة كبيرة من الآلهة وأنصاف الآلهة ..

وهيب اللعوب تسقى الجميع خمراً !!

وللخمر الأولمبية ، كالخمر هذه الأرض ، نشوة وسورة ، ولها على رؤوس أربابها صولة وسلطان ، وهى مثلها تروى حتى تبلغ المشاش ، وتتغلغل حتى تمتزج بالدم !

وهيب تروح وتجيء ، حلوة بسامة ... كأنها مدامة !

ودوى الجميع إلا حيرا !!

وانتشى الجميع إلا ميترفا !!

لقد كانتا ما تفكران إلا في هذه الساحة الحمراء ، وما يقع فيها من بلاء !

أليس قد ذهب الهيلانيون ينتقمون لكبريائهما من باريس ومن قوم باريس ؟ ...

ألم تنصح عروس الماء ، أونونيه ، لباريس ألا يصبيخ لڤينوس ، وأن يعطى التفاحة لميترفا ؟

ألم تحذره من التعرض لنقمة الربتين العظيمتين ؟

غير أنه أبى ! !

وآثر الجمال والحب ، ثم الشقاء والحرب ، مع ڤينوس ، على القوة والصولة ، والملك الكبير ، والحكمة والنورانية ، مع حيرا أو ميترفا !!

وبذلك جلب على نفسه وقومه وبال هذه الحرب ونكالها !

وليس اليوم أروح إلى قلب حيرا ، وأرضى إلى نفس ميترفا ، من أن تنصرا جحافل الهيلانيين ، وتثبتا في ساحة الحرب أقدامهم !

ولكن أخيل منفرد في معسكره وهو مفئود محزون !

وقد وعدته أمه بالأثار له ، وكلمت فيه زيوس سيد الأولمب ، ولم تزل به تسلط عليه ذكريات غرامهما القديم حتى زلزلت أركانه ، وسلبت جنانه ، وانتزعت منه وعداً قدسياً بأن ينتقم

من أجاممنون ، وجنوده لأخيلها العزيز !

تأتيكم إذن حيرا ومينرفا

وذا كم زيوس كبير أرباب الأولمب

أما أبوللو ، فهو لا ينسى أن فضحه أجاممنون في بنت كاهنه ، وهو ما ينفك يتربص بالقوم ، ويدبر لهم سوء المنقلب !

وأما ڤينوس ، ... ، ... ؟ ...

فتلك أبرّ بباريس وبقوم باريس ، وهي أبداً ستحمى باريس وجند باريس ! لأنها ستذكر له أبداً أنه نصرها على حيرا ... وأيدها على مينرفا !!

وكذلك أوقدت هذه الحرب العداوة والبغضاء بين الآلهة ، وأضرمت النيران في قصور الأولمب !

فللآلهة في جبل (إيدا) معسكران ، كما لبني الموتى حول طروادة معسكران !!

***

أوشك منالايوس أن يفتك بباريس ، لولا أن أنقذته ڤينوس ولقيته هيلين ذاهلة مغضبة ، لكنه نسي نفسه بين ذراعيها ، واستباحها أن تدع حديث الحرب إلى نشوة الحب ، ... « على أن أعود فأثأر لنفسي من منالايوس العنيد ، الذي لولا حماية مينرفا وحيرا له لبطشت به وجعلته خبراً في الذاهبين ... »

وكان العهد بين بريام الملك ، وأجاممنون قائد الهيلانيين ، أن يلقى المغلوب السّلَم ، فلما فرّ باريس تقدم أجاممنون وطلب أن يسلم الطرواديون هيلين الأرجيفية ، وأن يقدموا دروع باريس وسيفه ، وفرسه ، وجميع عدته الحربية ، لتكون أثراً خالداً يحتفظ به الأغريق ويتوارثونه رمزاً لمجدهم الحربي ، وتذكاراً لفوزهم وغلبهم

بيد أن الطرواديين رفضوا هذا الطلب : « لأن أحداً من المتبارزين لم يظفر بالآخر ، ولأن قطرة من الدم لم تصبغ أديم الأرض فيكون شاهد النصر »

وكانت بين الفريقين مهادنة

فخشيت حيرا ومينرفا أن يطول أمدها ، واتفقتا على أن تذهب مينرفا هذه المرة أيضاً فتصنع حدثاً لهذا السلام الذي يشمل الساحة ، وأن تثير الحرب من جديد !

وذهبت مينرفا فاندست بين صفوف الطرواديين ، وسحرت نفسها فبدت في عدة (لاودوكوس) البطل الطروادي وهيئته ، ثم وترت قوسها ، وأرسلت سهماً مراشاً نفذ في جسم منالايوس إذ هو يبحث عبثاً عن باريس ...

وتجددت الحرب بين الفريقين بسبب هذه السهم ، فكانت حرباً زبوناً ، طاشت من هولها الأحلام ، وبلغت القلوب الحناجر وزاغت الأبصار فما ترى إلا حمما ...

وعز على ڤينوس أن ينهزم جند طروادة ، وهم أولياؤها وصنائعها ، فذكرت أن لها في أرباب الأولمب عاشقاً هيماناً يترضاها ويلتمس وصلة منها تشفي قلبه الخفق ، وتداوي هواه الثائر ، وأعصابه التي مزقها الحب ، وأذابها لظى الغرام ، فانطلقت إليه تغريه بكل ابتسامة تلين الحديد ، وكل نظرة ساجية تفجر الماء من الصخر ، أن يقوم من فوره فينفخ من روحه في قلوب الطرواديين ، ويؤيد بنصره صفوفهم ...

ذلك هو مارس ، مُسعِّر الحروب ومورى لظاها !

وطرب الطرواديون لوجود رب القتال في صفوفهم يناصب أعداءهم الحرب فيحيلها ضراماً ، ويصلصل دروعه فيوقع في قلوبهم الرعب ، ويثير في نفوسهم الهلع ، ويروعهم ترويعاً ...

وكانت إلى جانبه ڤينوس تنفث فيه سحرها ، فكان لا يلاقي فارساً إلا طعنه فيكبه على وجهه ، ثم يشكه فيجفوه [1] من الأرض ، كأنما يتخذ منه هزؤاً وسخرياً !!

وهرع أبوللو فأمطر الهيلانيين وابلاً من سهامه التي ما مست أحداً إلا أردته ، وما أقصدت صدراً إلا شقته ...

وساء منقلب الهيلانيين !

وعز على حيرا ومينرفا أن ينهزم أصحابهما ، وأن يصلوها من مارس وأبوللو ناراً حامية ، وهزيمة منكرة ، ثم لا يكون بحسبهم ضربات مارس اللزاب ، وسهام أبوللو المفوّقة ، بل تطحنهم هذه الصواعق الجهنمية التي سلطها كبير الآلهة عليهم ، زيوس ، سيد الأولمب ، الذي أصبح كل همه أن ينتقم لأخيل من حبيبته

(١) جفاه من الأرض أي رفعه

ذيتيس من هؤلاء الأغريق ناكرى الجميل !!

وعبست حيرا عبوساً ثقيلاً ، ودعت إليها مينرقا ، وجلستا تفكران ! وبدا لها أن تذهبا إلى الأولمب فيستدعيا رب البحار العظيم ، نبتيون ، فيضع حداً لهذه القسوة التي يبديها مارس وزميله أبوللو ......

ولكن كيف السبيل إلى غل يد زيوس ، ورد صواعقه التي تتحطم على الأغريق من عل ، فلا تبقى عليهم ولا تذر ؟

آه ! لا سبيل إلى ذلك إلا بمنطقة فينوس السحرية . بستوس ! تلك المنطقة العجيبة التي تغوى كل من نظر إليها ، وتشعل فى قلبه لظى من الهوى ، وضراماً من الحب . لا بأس إذن من ممالقة فينوس حتى تنزل عن منطقتها أياماً لمليكة الأولمب وكبيرة رباته ، ثم لتذهب مليكة الأولمب بمنطقة فينوس لتعبث كثيراً — أو قليلاً — بقلب زيوس ، الذى ما يفتأ يرسل صواعقه على الأغريق من جبل (إيدا) ، وليس شك أن سيصبو زيوس حين يرى منطقة فينوس تزين خصر حيرا وتبرز مفاتن صدرها ؛ فاذا عصفت به فورة التشهى ، وحاول قبلة واحدة من آثر زوجاته إليه ، فلا بأس من أن تمنحه إياها ... ولكن ... لتنتهز بنكرته العميقة وتسلط عليه إله النوم الجبار — الذى هو دائماً فى خدمتها أينما سارت — فيغرقه فى سُبات عميق ، ويظل به يداعب أجفانه ، ويُمسِل أحلامه ، حتى يكون نبتيون قد انكشف لمارس وصاحبه ، وأجنادهما ، فيقذف الرعب فى قلوبهم ، ويزلزل أركانهم ، ويوهى عزائمهم ؛ ويختلط حابلهم بنابلهم فيولون مدبرين لا يلوى أحد على أحد ! . . .

وقد أفلحت خطة حيرا . . .

فهذا مارس ما يكاد يلمح نبتيون حتى يذكر هذه الأيام السوداء التى صب عليه فيها رب البحار سوط عذابه (1) ، فيخفق قلبه ، وترتعد فرائصه ، ويكبو زنده ، وتذهب ريحه وتنحطم شوكته ... ثم يقذفه نبتيون بسهم ، وقل أن تطيش سهام نبتيون ، فيصرخ إله الكريهة صرخة كريهة ، وينفتل من الحلبة الحمراء مولياً عقبه ، ساخطاً على فينوس ، وما يجر إليه غرام فينوس !!!

وولى فى إثره أتباعه الطغاة ، آلهة الشرور ، إريس رب الشغب ، وفوبوس رب الرعب ، وميتوس رب الخوف ، وديموس رب الفزع ، وبالور رب الهلع ... عصبة الإجرام وشرذمة الآثام ، والطغمة الباغية من أوشاب الأرباب !!

وأفيق الأغريق مما حل بهم من روع . . .

ونظروا فرأوا مارس وملأه مولين الأدبار ، والدم يتدفق من جراحهم جميعاً ؛ فأفرخ روعهم ، وأمن سربهم ، ثم لموا شعثهم وهجموا على أعدائهم هجمة رجل واحد ، فأذالوا لأنفسهم ، وثأروا لكبريائهم ، وانصرفوا يتفقدون جرحاهم ، ويحرقون جثث قتلاهم الشهداء !

يا للهول !

لقد قتل إمبريوس البطل ! قتله تيوسير ، غير راحم شبابه ، ولا مبق على عوده الفينان !

وأمفيا خوس !! لقد صرعه هكتور بن بريام ، غير راث لأمه العجوز الهرمة ، ولا آبه بالباكين حوله والمولين !!

وديوميد !! زين شباب هيلاس ، وآثر فتيانها إلى قلوب الآلهة ! لقد جرحه باريس بسهم أوشك أن يكون قاتلاً ! لولا أن أدركه جنوده فأسعفوه ، وضمدوا جرحه وإلى المعسكر حملوه !

وأجا ممنون ! لقد برّز فى المعمعة ، ودل على الفروسية التى بهرت الطرواديين ، بيد أنه أصيب بسهم نفذ فيه ، فارتد على عقبه يصرخ ويتلوى !

وأوليسيز !! أوليسيز العظيم !! لقد أرسل إليه سوكوس ، أمهر رماة طروادة ، بسهم مُفوّق ، فجعله ينتفض كما ينتفض المحموم ، ويخر إلى الأرض فيتأود كمن لدغته أفعى ، ولولا أن أدركه أجاكس ومنالايوس فأسعفاه لكان من الغابرين !

وأجاكس كذلك ! لقد أتاه سهم كاد يذهب به لولا بقية من حياة !!

ومخاون ! لقد روعه باريس هو الآخر فشكى وبكى !!

***

(1) إشارة إلى الأسطورة القديمة التى وقع فيها مارس أسيراً للماردين الجبارين بتدبير نبتيون

أرأيت ؟

لقد نال الطرواديون وأحلافهم من جموع الميلانيين ، ولولا أن أغاث هؤلاء نبتيون القاهر ، لكانت ملحمة فاصلة في هذه الحرب الشعواء ! . . .

وكأن السماء قد أيقظت ضمائر اليونانيين ، وبرهنت لهم أن أخيل ما دام لا يخوض معهم المعمعة ، فلا نصر لهم ولا غلبة ، ولا محيص من هذه الهزائم المتتالية ، والجروح التي لما تكن قصاصاً لولا أن أدركهم نبتيون !

عرف اليونانيون هذا ، وآمنوا بعد هذا الفزع الأكبر أن لو كان أخيل بينهم يوم هذه الكريهة لما حفلوا بمارس وأتباعه ، ولأظفرتهم آلهتهم بأعدائهم ، ومارس وملئه ، وأبوللو وجنوده جميعاً . . .

وانطلق نسطور فعرض على أجاممنون مصالحة أخيل وإرضاءه ، وبعد لأي رضي القائد العام أن ينطلق نسطور[1] وأوليسيز وأجاكس وفونيكس إلى معسكر أخيل ، مندوبين عن القائد ، ليعرضوا عليه صلحاً شريفاً وموثقاً كريماً ، يرضاه الطرفان ؛ ولكن أخيل يثور لكرامته ، ويأبى إلا . . . بريسيز . . . ثم لا يشترك في حرب ضد الطرواديين . . .

ويلح أوليسيز على صديقه القديم . . . .

ولكن صديقه القديم ما يزداد إلا شماساً ، وما يزداد إلا أنفة . . .

ويكون فونيكس قد نالت منه حجج أخيل ، ويكون قد خلبه بيانه ، وبهره حسن منطقه ، وطلاقة لسانه ، وعظيم شجاعته ، فيؤثر البقاء معه ، مخاصماً الهيلانيين جميعاً حتى يرضى أخيل فيتركه أوليسيز وصاحباه ، ويعودون إلى أجاممنون . . . بخفي أخيل ! ! !

* * *

وهكذا تم كل هذه الأحداث الجسام . . .

وزيوس يغط في نومه الهادئ الناعم يوماً بأكمله . . حتى يبطل السحر ، وتذهب الرقية ، فيهب الآله الأكبر من سباته حيران أسيفاً . . . لأنه ينظر من ذروة جبل إيدا ، فيرى إلى نبتيون الجبار يصول في ساحة طروادة ويجول ، ويصرع الابطال ، ويجندل الأقران ، ويرى إلى مارس المتيد ، وجنوده الأقوياء ، يفرون من وجه سيد البحار ، لا يلوون على شيء . . .

ويرى أيضاً إلى أخيل ما يزال منفرداً في فسطاطه ، قريباً من سفائنه ، والحزن يعضه ، ويوهي جلده ، فيحزن الآله الأكبر وينفذ إريس إلى نبتيون لزجره ، ويأمره أن يغادر الممعان في الحال ، وإلا أرسل عليه سيد الأولمب صواعقه ، وهناك لا يكون له حول ولا تكون له قوة . . .

ويغادر نبتيون الموقعة ، ولكن بعد أن دمر الطرواديين تدميراً ! . . .

« لها بقية »

دريني خشبة

(1) في بعض المصادر أن نسطور لم ينطلق معهم إلى أخيل

رحلة إلى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

شدت رحالي إلى الناحية الغربية من الديار المصرية ، تلك الناحية التي يجهل عن أهلها الشيء الكثير ، فكان أن بدأت بخط ادكو ورشيد ، فررنا بأراض شبه صحراوية ، بها مزارع متناثرة غير متصلة ، وبخاصة حول أدكو ، وهنا أدهشني نشاط الأهلين في الكد وراء كسب عيشهم حتى الأطفال ، فتراهم لا يضيعون من وقتهم شيئاً ، يخرجون جماعات لصيد السمك أو الطيور ، ويتجرون في ذلك كباراً وصغاراً ، وأنت ترى جموعهم تتهافت على القطار يعرضون عليك سلعهم هذه ، فإن أعوزهم المشترون عكفوا على دورهم يأكلون ما تخلف معهم من سمك كثير وطير وفير ؛ لذلك كنا نلمس في أجسادهم وفرة التغذية والامتلاء ، ومن السلع المنتشرة هنالك البيض والليمون ، أما غابات النخيل فهي في كثرة فائقة ، ومنها تستمد البلح الرشــيدي (الزغلول) ذائع الصيت . ولقد مررنا بتفتيش إدفينا ، وهنا تجلت المجهودات الجبارة التي بذلت في استثمار تلك الأراضي التي كانت بائرة نزة ، فلقد زودت بالمصارف والمضخات والقنوات ، فأضحت جنة يانعة ، وهي ملك للخاصة ؛ ويا حبذا لو شمل ذلك الاصلاح ما جاورها من متسعات لا تزال أمرها مغفلاً مهملاً ، وهنالك بعض الشركات الأجنبية تشتري المساحات الشاسعة وتتعهدها بالاصلاح ، فهلا قامت الحكومة بذلك أو ساعدت الأهلين عليه حتى لا تزيد في ملكية الأجانب وامتيازاتهم في بلادنا ؟ دخلنا رشيد فكانت بلداً عتيقاً ، بيوته بالآجر الأحمر الصغير لا يكسوه ملاط ، وهي تقوم على النيل ، ومن أظهر ما يسترعي نظرك مداخن لا حصر لها هي لمضارب الأرز أنشط جهات العمل في البلدة ، وعلى مسيرة زهاء خمسة كيلو مترات يلتقي النيل بالبحر في لسان شبيه بذاك الذي في رأس البر ، ولقد كان ماء هذا الشهر عذباً (أغسطس) بعد أن ظل مالحاً ستة شهور قبل ذلك من طغيان ماء البحر على النهر ، وسيظل الماء عذباً بقيـة العام ؛ ويجاور البلد عدد من الملاحات ، وترى زوارق الصيد يغص بها النهر والبحر ، ومهنة صيد السمك رئيسية هنالك

عدت إلى الاسكندرية ، وقمت صوب الغرب إلى مطروح مسافة تزيد على ٣٠٠ ك م ، ثلاثة أرباعها بسكة الحديد إلى محطة فوكه وبعدها بالسيارات الكبيرة ، وكان قد أنشأ ذاك الخط سمو الخديو السابق رغبة في تعمير تلك الناحية التي كان يمتلك جل أراضيها ويحاول اصلاحها ، لكنه اعتزم أن يبيع الخط للطليان ، فسارعت الحكومة بشرائه منه ، ولقد سار القطار الى جانب مستنقعات بحيرة مريوط وصحرائها المالحة طويلا ، ومر بمحطة (الكنجي مريوط) ، ولعل أكبر البلاد (الحمام) العاصمة التجارية لتلك الناحية ، أما الأهلون فهم قليلون مشتتون في خيامهم ، ولهم لهجتهم العربية المحرفة ، وقد كنا نقف على المحطة فلا نرى من المساكن شيئاً سوى أبنية عمال المحطة ، فنتساءل أين البلدة ؟ فيقولون : ليس هناك من بلد ، والأهلون متفرقون في مساحة شاسعة من الأرض حولها ، ويبدو عليهم العوز والجوع ، وبخاصة في هذا العام الذي تخلف فيه المطر فأجدبت منابت الشعير ، وكنا نرى مساحات الأراضي التي (عزقها) أصحابها وبذروا فيها الشعير كعادتهم وتركوها حتى ينزل عليها مطر الشتاء فيسقيها ، وعند اقتراب نضجها يعودون من جولاتهم الطويلة — التي قد تصل بهم الى داخل مديرية البحيرة — ويحصدونها

وبعد مسير ثماني ساعات ونصف من الاسكندرية أشرفنا على مرسى مطروح في خليج هلالي ، تقوم المباني على جوانبه في شوارع متعامدة أبعادها تكاد تكون متساوية وهندستها موجدة بسيطة ، جلها شبه مربعات من طابق واحد يكسوه الطلاء الأبيض ، وقل أن تجد بناء يشــذ في علوه أو لونه وهندسـته ، والشوارع هناك فسيحة ، ويبدو عليها المظهر الصحراوي في ندرة النبت ، وإن حاولت المحافظة استنبات بعض الأشجار القليلة على جوانب الطرق ، وهناك بيت المحافظ الانجليزي — ومطروح تعتبر عاصمة محافظة الحدود الغربية —

يشرف على البحر ، ويليه بيت وكيل المحافظ وسائر الموظفين . ومما يذكر للإدارة هناك بالفخر ، عنايتها بالنظافة التامة ، ورعاية صحة الأهلين والرقابة الخلقية عليهم ؛ ولقد أعدت للموظفين نادياً صغيراً جميلاً على البحر زود بصنوف الحلوى والمرطبات وأدوات اللعب البرئ ، وبجهاز للراديو يسرى عنهم في معيشتهم المنعزلة الموحشة . وتضاء الشوارع بالمصابيح الكبيرة التي تقلل من وحشة سكون الليل الرهيب هنالك . وخير ما يتجلى منظر البلدة في كامل زوائه من الاستراحة الحكومية التي أقيمت على النجاد التي أدت بسيارتنا إلى شاطئ خليج مطروح . وفي ناحية نائية من غرب مطروح مسجد أنيق (لسيدي العوام) بطل المنطقة وقد بناه الخديو السابق كما بنى كثيراً من المساجد في بلدان خط مربوط ؛ وكانت تقوم حوله طائفة من مساكن الأعراب فعوضتهم عنها الحكومة وأزالتها وأقامت مصيفاً يسمونه البندو ، فيه ذات نزل فاخر زودته بكافة وسائل الترف والراحة وجعلت أجر المقام به نصف جنيه في اليوم ، ثم أقامت حوله بيتين صغيرين أنيقين (فلات) لمن يريد الاستئجار ، على أن عزلة المكان وبعده وافتقاره إلى وسائل اللهو قد زهد المصيفين فيه ، إذ أني لم أحص في المصيف كله أكثر من عشرة أشخاص ، فهو عندي خير مصطاف لطلاب الراحة البريئة والسكون الشامل وهؤلاء قليلون ؛ ويخيل إلى أن تقدير الحكومة الصدقية كان خاطئاً إذ كلفته نيفاً وعشرين ألف جنيه لن يسد للدولة منها شيئاً ؛ ولقد قال لي بعض الناس من سكان البلد إنها فكرة انجليزية قصد بها أن يقيم على حساب الدولة مستراحاً للمارة من السادة الانجليز في روحاتهم وغدواتهم على الحدود الغربية

وأهل البلد من الأعراب يسيرون في ثيابهم الفضفاضة ، وسادتهم يطوقون كواهلهم بأحزمة بيضاء ثقيلة ، ونساؤهم يسرن سافرات في ثياب حمراء فضفاضة كأنها هالة هادلة وهن على جانب كبير من السذاجة ، تجلس في المقهى فترى الواحد منهم يدخل ويقف حولك يحدق فيك ويروغ ببصره ثم يتسكع حولك ولا يكاد ينصرف حتى ترى غيره ، وأطفالهم عراة جياع حالتهم تستدر العطف وتستنزل الرحمات ويكثر بينهم الزنوج السود وهم من عبيد السنوسية جاءوا بهم معهم بعد أن حررهم لما أن طاردهم الطليان وأجلوهم عن ديارهم . ولأبناء السنوسي هناك مقام كبير بين الناس يكاد يبلغ حد التقديس . حدث مرة أن رأيت بيتاً فاخراً طلى باللون الأزرق على خلاف سائر بيوت البلدة فسألت أحد المارة بيت من هذا ؟ فأجاب : بيت الأسياد . قلت : ومن الأسياد ؟ فثار الرجل وصاح في نغمة الغاضب المستنكر : الأسياد ! الأسياد ! كيف لا تعرفهم هم آل السنوسي ! ولهؤلاء جل أملاك المنطقة وأبنيتها . وإلى الجنوب الغربي من البلدة أقيم المطار في متسع هائل واستعداد كبير لاستقبال الطائرات المختلفة ، وقد نزلت به أمامي طائرتان إحداها للشركة الهولندية التي تقوم من هولندة وبتافيا ، وهي طائرة كبيرة من الألمنيوم بها ١٤ مقعداً للمسافرين . أما الثانية فطليانية بين الأسكندرية وبنى غازى وذاك خط حديث بدأ منذ أسبوعين فقط وطائرته صغيرة .

وفي مطروح محطة لاسلكية أساس عملها الاتصال بالطائرات خصوصاً الهولندية . أقمت في مطروح زهاء يومين في نزل أغريقي ، واليونانيون هناك نشيطون في التجارة وبيدهم غالب سيارات النقل وحوانيت البدالة والفنادق ؛ وسيارات النقل هنالك تقوم لثلاث جهات : فوكة وتلك كل يوم ، السلوم ، واحة سيوة مرة أو مرتين في الأسبوع .

الى سيوه :

قمنا مبكرين نستقل سيارات الحدود فأخذنا نسير في صحراء لانهائية عريت عن النبت حتى الشائك منه وإن كان مظهرها في الشتاء والربيع أبهى وأجمل إذ يكثر العشب بنواره المختلف الجميل ، ولا يفتأ المسافر يمر بيقاع تنمو بها أعواد الشعير ، والطريق حجرى في جزئه الأول ، مترب في الأخير ، ويمر بمجموعة من آبار أذكر من بينها : حجفة جلاز عند الكيلو ٧٢ من مطروح — حجفة أبي بثر بلفتهم — وحجفة البويب عند الكيلو ١٢٤ على مقربة من الاستراحة التي أقيمت لجلالة الملك يوم أن زار تلك الناحية سنة ١٩٢٨ ، ولذلك يطلقون على تلك البئر أحياناً (بئر جلالة الملك) لأنه شرب منها ، ثم بئر النصف في منتصف الطريق عند الكيلو ١٥٠ ، والمسافة كلها ٣٠٠ كيلومتر ، وغالب تلك الآبار رومانية الأصل كانوا يحفرونها تجاويف في الصخر تبطن بالأسمنت أو الآجر ، وتمد بفتحات ضيقة يؤدى إليها ماء المطر

عند سقوطه ليتراكم فيها ، وعلى الفتحة الرئيسية باب وحارس يكاف بحفظها من الأوساخ ومن إسراف الناس في مائها ، وأنت ترى طائفة كبيرة من السائمة وبخاصة الإبل تحوم حول تلك العيون وتتسكع في مرعاها عساها تشفي بعض ظمئها من الماء . كلما مر بالبئر عابر ، وقد كان يبدو على بعض الإبل عند بئر جلاز ظمأ شديد ، ولم يرغب الحارس في سقيها ، ولما سألناه عن السبب قال : لكيلا تنتجع تلك الناحية وتعتادها كثيراً فتضايقه ، على أنا أجبرناه أن يسقيها هذه المرة اكراماً لناورأفة بها

لبثنا نسير في ذاك الطريق الوعر ثماني ساعات ونصف الساعة — والسيارات الأخرى الكبيرة تقطعه في يوم كامل — وقبل دخولنا الواحة أخذنا في الهبوط تدريجاً ، وظهرت مخاريط متناثرة من الربى ، تمتد إلى الآفاق في منظر رائع جميل ، ثم بدت الخضرة الشاحبة على بعد أمامنا ، وذاك أول قبس من سيوه التي تنخفض عن سطح البحر بنحو ٢٥ متراً ، ثم أخذت تفاصيل المنظر تبدو في شبه غابات من النخيل مغلقة متباعد بعضها عن بعض ؛ بينها ربى أقيمت عليها المباني بعضها للحكومة والبعض للأهلين



سوق سيوه يقام من أمراش على عمد من طين ومن ورائه المساكن وكأنها الأحجار

وقفنا بباب مركز البوليس ، ولقينا حضرة المأمور أحسن لقاء ، وقدم لنا الاستراحة لنأوي اليها ، وأظهر استعداده الجميل لمساعدتنا في جولتنا العلمية القصيرة هناك ، وكان قد أوصاه بنا خيراً سعادة وكيل المحافظ وبعض اخواننا من مطروح . دخلنا دار الاستراحة وقد أقيمت فوق ربوة شاهقة تشرف على الواحة وقد زودت بالشرفات تغطيها شبابيك من السلك لمنع البعوض ،

وقد كانت الواحة مهددة بالملاريا منذ زمان بعيد ولا يزال لها بقية إلى اليوم — ولن أنسى جلستي في إحدى تلك الشرفات ومشهد الواحة من دوني ساحر وامتداد الصحراء رهيب ؛ وقد عنى بتلك الاستراحة عناية خاصة ، لأن جلالة الملك قد نزل بها في زيارته ، وبها دورة للمياه فاخرة ، وفي أسفلها بعض المغارات التي كان يتعبد فيها الشيخ السنوسي الكبير في زياراته لتلك الواحة قديماً ، وبعد أن طارده الطليان اليها . نزلت أجوب بعض أطراف البلدة فاذا بغالب بيوتها على الربى تقام من الطين المعفر الذي يحكي الطفل ، وترى البيوت وكأنها الأحجار أو المغار بعضها ركب فوق بعض ، وتشبه مجموعة من حصون قديمة ، وليس لها من النوافذ سوى كوى صغيرة لا تكاد تسمح لضوء الشمس أن يتخللها ، ولهم العذر في ذلك ، لأن لفح الصيف قاتل وبخاصة في ابريل ومايو ، وقر الشتاء زمهرير ، وشهور أغسطس وسبتمبر خير مواسم السنة جواً هنالك . ومن أظهر ما يسترعي نظرك وسط تلك الأبنية برج مربع يدق كلما علا ويشبه الدخنة وهو مئذنة لمسجد من مساجدهم القديمة ، أما سوق البلدة ومتاجرها فأقيمت في متسعات أسفل تلك الربى وزودت بظلال من الطين وجريد النخيل ، ومداخل شوارعها ضيقة مسقفة ، لا تشعر بأنها طرق يباح المرور فيها

(يتبع) محمد ثابت

أين تسكن الأرواح

وهل يأكلون ويشربون ؟ وأين هم . الروح حية لا تموت . كيف تظهر الأرواح ، وما هي حالاتهم . المراسلات أو المناجاة . القيامة والانتقال بالموت إلى الحياة الروحية الموعودين بها . ظهور أهلنا وأعزائنا بهيئة الأرواح الروحانية . في دور الانتقال من هذه الحياة إلى حياة أبدية خالدة . صحة مناجاة الأرواح برسائل واضحة ثابتة . الخ

البريد الأدبي

ذكرى الموسيقي سان سيان

احتفلت الدوائر الفنية الفرنسية في أوائل أكتوبر الحالي بالذكرى المئوية لمولد الموسيقي الشهير شارل كامي سان سيان . ويشغل سان سيان في عالم الموسيقى مركزاً فريداً ، فهو حلقة اتصال بين الشرق والغرب يندر وجودها ، وله بالأخص صلة بمصر لا يزال يذكرها من تمتع بسماع عزفه في هذه البلاد قبل الحرب الكبرى . وقد ولد هذا الموسيقي الشهير في أكتوبر سنة ١٨٣٥ بباريس ودرس الموسيقى منذ حداثته ، ودرس عزف الأرغن على العازف الشهير بنوا ، ودرس التأليف الموسيقي على هاليفي في معهد باريس ؛ وتخصص في الموسيقى الكنسية . وفي سنة ١٨٥٨ عين عازفاً بكنيسة المادلين ؛ ولم يمض قليل حتى طار صيته كعازف ومؤلف موسيقي ؛ وفي سنة ١٨٦٧ نشر مقطوعته الشهيرة « أعراس رومينية » فلقيت نجاحاً عظيماً ، وأتبعها بنشر سلسلة أخرى من المقطوعات القوية الشائقة وأخصها مقطوعة عنوانها « شمشون ودليله » التي عزفت لأول مرة في فيار بألمانيا ، وأكدت صيته وعبقريته كمؤلف لمقطوعات الأوبرا ، ومن مقطوعاته الأخرى : « الرقصة المروعة » ، « شباب هرقل » ، « هنري الثامن » ، « إسكانيو » ، « البرابرة » ، « هيلين » وغيرها .

وقد ساح سان سيان كثيراً في بلاد المشرق ، فزار الجزائر ومصر ، وتأثر بحيطها ومثلها الشرقية . وله مقطوعات شهيرة يلذ سماعها للشرقي بنوع خاص ، ففيها يتجلى سحر السماء الصافية ، وروعة الصحراء ، وجمال الليالي الشرقية .

ومما يرويه المستر أدوين إيفانس الناقد الموسيقي الشهير ، أنه كان يمر ذات مساء بالإسكندرية في طريق الرمل ، إذ سمع عزفاً بديعاً على « المعزف » (البيانو) ، فسمره السحر في مكانه ، وسرعان ما علم أن هذا العازف إنما هو سان سيان ، وأنه يقضي بمصر أياماً في خفية وتنكر وذاع صيت سان سيان في جميع أوربا ، ولا سيما فرنسا وانكلترا والنمسا وألمانيا . وعاش زهاء خمسة وثمانين عاماً . وتوفي بالجزائر في ديسمبر سنة ١٩٢١

مباحث عن أصل الترك

انشأت حكومة الجمهورية التركية في استنبول متحفاً لعلم الأجناس البشرية يقصد به بنوع خاص أن يعاون العلماء الباحثين في أصل الجنس التركي على تحديد خواصه الجنسية وتمييز السلالة الانسانية التي ينتمي اليها . ولكي يتمكن العلماء من إجراء المباحث العلمية اللازمة أصدرت الحكومة لائحة تبيح فتح قبور العظماء الترك وفحص جماجمهم وإيداعها بالمتحف المذكور عند الحاجة

وقد نفذت هذه اللائحة بالفعل وفتح قبر سنان باشا أعظم مهندسي الترك ؛ وقد عاش في القرن الخامس عشر وأنشأ أكثر من مائتي مسجد وقصر ومكتبة كلها من الأبنية الأثرية الشهيرة ؛ وفحصت جمجمة المهندس الشهير لجنة من العلماء . وسيجرى أيضاً فحص عدد من جماجم العظماء الترك الآخرين من رجال الحرب والسياسة والتفكير . وتشجع الحكومة هذه المباحث وتعضدها ؛ وهي تجري بإشراف عالمين أجنبيين كبيرين أحدهما الأستاذ موشنيه الاخصائي في علم الأجناس البشرية .

والمعروف أنه يصعب جداً أن تحدد خواص الجنس التركي أو خواص العنصر السائد فيه لأن الترك ليسوا إلا شعبة من جنس أسيوي كبير هو الجنس المغولي على الأرجح ؛ وهو جنس متشعب القبائل ، هذا إلى أن الشعب التركي امتزجت به خلال العصور أجناس كثيرة أخرى دخلت الاسلام واعتنقت الحضارة التركية ؛ ثم إن الترك درجوا خلال العصور على التسري ، وكان الكبراء منهم يحوزون في « حريمهم » نساء من مختلف الجنسيات ، فمن الصعب بل ربما كان من المستحيل أن يستطيع الترك المعاصرون إرجاع أصلهم إلى جنس بذاته

خطر على المؤلفين

هل يقرأ الناس اليوم أكثر مما كانوا يقرأون ؟ وهل يربح المؤلفون أكثر مما كانوا يربحون ؟ دلت الاحصاءات في انكلترا وفي أمريكا على أن قراء الكتب الانكليزية قد زادوا في سنة ١٩٣٤ عنهم في سنة ١٩٢٣ بمعدل نحو عشرة في المائة ، وكان المفروض أن ذلك يعني أن المؤلف قد زاد ربحه ، ولكن الواقع أن أخبار المؤلفين لا تسر ، والأدلة متوفرة على أنهم يسيرون من سيء إلى أسوأ ، وقد دل البحث على أن أشد العوامل وطأة على المؤلفين هو نظام المكاتب الدورية المأجورة ؛ ويوجد من هذه المكاتب في أمريكا نحو خمسين ألف مكتبة ، وهي تنتشر الآن في انكلترا بسرعة مدهشة ، ونظام هذه المكاتب في غاية السهولة فهي لا تطلب ضماناً عما تعيره من الكتب ، ولا تتقاضى من القارئ إلا أجراً زهيداً قد لا يتجاوز بضعة ملاليم عن الكتاب الواحد ، على أنها مع ذلك تجني أرباحاً طائلة ، وبهذه الوسيلة يقرأ الكتاب الواحد مئات وربما آلاف من الناس ، ولا يصل المؤلف منهم شيء ، وقد وصفت هذه المكاتب السيارة بأنها « الوباء الأسود » بالنسبة للمؤلفين ؛ فاذا لم يوضع نظام آخر لهذه المكاتب يكفل للمؤلفين نوعاً من المشاركة في الربح ، فانها تنتهي بتثبيط همم المؤلفين ، ويحجم المؤلفون بذلك عن التأليف ، وعندئذ يكون المشتغلون بهذا النظام قد قتلوا الدجاجة ذات البيضة الذهبية ، وما يقال عن انكلترا وأمريكا يمكن أن يقال عن مصر التي أصبحت فيها عارية الكتب والمجلات والصحف رذيلة ذائعة

معرض للأناجيل

مضت أربعمائة عام كاملة على طبع أول انجيل باللغة الانكليزية . وقد احتفل بهذه الذكرى أخيراً في انكلترا ؛ وأقامت مكتبة رينالدز الشهيرة في منشستر معرضاً للأناجيل القديمة . والانجيل الذي يحتفل بذكراه هو الانجيل الذي ترجمه « كفرديل » ؛ وقد عرضت إلى جانبه أناجيل عديدة بمختلف اللغات تمثل تطور الانجيل منذ نشأة النصرانية حتى القرن الأخير . والمعروف أن أول إنجيل طبع هو إنجيل جوتنبرج الذي طبع في سنة ١٤٥٦ ، وتوجد منه الآن في العالم كله أربعون نسخة فقط ، وبين هذا الانجيل وإنجيل « كفرديل » ثمانون سنة ؛ وقد ظهرت تراجم عديدة أخرى للأناجيل منذ العصور الوسيطى منها تراجم إلى العبرية واليونانية والألمانية والفرنسية ؛ وظهرت بالانكليزية تراجم لأجزاء من الانجيل في وقت مبكر جداً ؛ من ذلك ترجمة كايدمون في القرن السابع ، وترجمة الراهب بيد في القرن الثامن ، ثم ترجمة الفريد الأكبر . وقد عرضت هذه الأناجيل كلها في صعيد واحد . وعرض معها إنجيل مخطوط كان ملكا للملكة اليصابات

آثار الفيكنج

كشفت الباحث الأثرية في السويد عن أشياء مدهشة تدل على بعد المدى الذي انتهى اليه « الفيكنج » في تجوالهم في طلب السلب والغنيمة ، في القرنين الثامن والتاسع من الميلاد ، ومن ذلك ما وجد في جهات متعددة في أنحاء السويد وحفظ في متاحفها ، وهو عبارة عن طائفة كبيرة من الآثار واللقط الشرقية ، وبالأخص النقد الشرقي القديم ، فقد وجد منه زهاء عشرين ألف قطعة ، وجد معظمها في جزيرة جوتلاند ، وتدل بعض الأحجار المنقوشة على أن بعض زعماء الفيكنج سافروا حتى ضفاف بحر الخزر (بحر قزوين) ، وتوفوا هنالك في تلك القفار النائية ؛ وفي متحف البندقية أسد من المرمر عليه نقوش « فيكية » محي بعضها ؛ وكان هذا الأسد من غنائم الحرب التي حصلتها البندقية من اليونان في القرن السابع عشر

كيف يشجعون الأدب

قرأنا في أنباء أمريكا الأخيرة أن الرئيس روزفلت أقر مشروعاً أدبياً ضخماً يعد الأول من نوعه ، وخلاصته أن الحكومة الأمريكية قد اعتمدت نحو سبعة وعشرين مليون ريال (خمسة ملايين جنيه ونصف) لتغذية الحركة الأدبية والفنية في أمريكا ، وأن هذا المشروع الذي يبدأ في تنفيذه من سبتمبر الماضي سيؤدي إلى إيجاد أعمال لخمسين ألفاً من الكتاب والموسيقيين والفنانين لمدة ستة شهور

وهذا المشروع بلا ريب من مفاخر الرئيس روزفلت وسياسته ، وإذا كان ثمة بلد نرجو أن يحدث فيها مثل هذا المشروع صداه وأثره ، فهي مصر التي ما زالت تتجاهل الحركة الأدبية والفنية ، وما زالت تتركها لمصيرها وبؤسها . ولقد عنيت الحكومة أخيراً بمسألة التمثيل ، ورصدت لتشجيعه وانهاضه

زهاء ثلاثين ألفاً ، هذا عدا عشرة آلاف أخرى تفرق كل عام على الفرق الأجنبية . وإذا كنا نحمد لوزارة المعارف عنايتها بالتمثيل وهو من عناصر الفن وأركانه ، فاننا لا نستطيع أن نسيغ موقفها إزاء الحركة الأدبية وإزاء المشتغلين بالأدب والكتابة ، فلم نسمع إلى اليوم أن وزارة المعارف قد فكرت في عهد من العهود أن ترصد أي اعتماد لتشجيع الحركة الأدبية ، ولم نسمع أنها رصدت يوماً أي مبلغ لمكافأة الكتاب البرزين أو مؤلفي الكتب الممتازة ، ومنذ أعوام ترصد وزارة المعارف اعتمادات مختلفة لاعانة الممثلين والممثلات ، ولكنها لم تفكر يوماً في أن ترصد مبلغاً لاعانة الكتاب والمؤلفين ، ولسنا نجد مبرراً لمثل هذا الاغفال المؤلم من وزارة المعارف ، فهل لنا أن نؤمل أنها في عهدها الجديد ، تعنى بهذه المسألة ؟ وهل لنا أن نؤمل أنها كما ذكرت التمثيل والممثلين تذكر الأدب والكتاب ، فتعمل لهؤلاء شيئاً مما تريد أن تعمله لأولئك ؟

آخر كتاب للكولونيل لورنس

من أنباء نيويورك أن شركة للنشر قد أعلنت أنها ستخرج في الخريف القادم عشر نسخ فقط من آخر كتاب وضعه الكولونيل لورنس بطل الثورة العربية الشهير ، وعنوانه المضرب The Mint . وستطبع هذه النسخ العشر على ورق من الحرير الفاخر وتعرض النسخة الواحدة للبيع بمبلغ خمسمائة ألف دولار (مائة ألف جنيه !) والمقول أن بيع الكتاب بهذا الثمن الخرافي يقصد به حماية حق طبعه وعدم إذاعته . ومما يذكر بهذه المناسبة أنه لما طبع كتاب لورنس الشهير « سبعة أعمدة من الحكمة » في أمريكا عرضت النسخة للبيع بمبلغ أربعة آلاف جنيه وبيعت كلها وكان المطبوع منه ١٢٠ نسخة فقط

كتاب جديد لدانونزيو

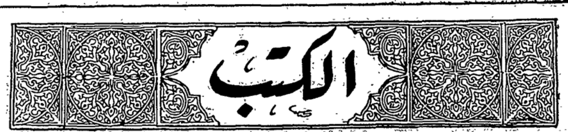
صدر أخيراً كتاب جديد لجبرائيلي دانونزيو شاعر إيطاليا الأكبر بعد صمت طال أمده . وعنوان كتاب الشاعر الجديد طريف مدهش ؛ فقد سماه « مائة ومائة ومائة ومائة صفحة من الكتاب السري لجبرائيلي دانونزيو الذي يود الموت » والكتاب مدهش رائع حقاً ؛ فهو يحتوي على طائفة كبيرة من ذكريات دانونزيو وخاطراته وتجاربه الشخصية وملاحظاته من كل ضرب ، وهو يفيض بالصور البديعة والآراء الغريبة ، والتخيلات المدهشة والاضطرام المتقد في سبيل المجد والشهرة . وينقسم الكتاب إلى قسمين ، قسم يحتوي على قصص الشباب وأحلامه الوحشية ، وقسم عنوانه « الكتاب السري » ، وفيه يتحدث دانونزيو عن الدور الذي قام به في الحرب الكبرى ، ومخاطراته وأحلامه وأعماله العبقرية التي جعلت من الشاعر جندياً شهيراً ، وجعلت منه بطلاً قومياً لايطاليا

من ضحايا النازي

يعيش في المنفى وهط كبير من أكابر الكتاب الألمانيين (غير اليهود) وذلك لأنهم من خصوم هتلر وسياسته ؛ ويعاني الكثير منهم شظف العيش وآلام المنفى لأنهم حرموا من أموالهم وأملاكهم التي صادرتها الحكومة الألمانية . وقد توفي أخيراً في باريس أحد هؤلاء الكتاب ، وهو الدكتور هلمان فون جيرلاخ وكان فون جيرلاخ قبل قيام الحكم الهتلري من أقطاب الصحافة الألمانية ؛ يحرر « جريدة برلين الأسبوعية » B. Z. Am Montag وقد اشتغل فون جيرلاخ بالسياسة منذ بعيد وتقلد النيابة في الريخستاج مراراً عن سيليزيا العليا موطنه . ولكنه كان ديموقراطي النزعة يدعو إلى السلام والتفاهم مع فرنسا ، وهو الذي أسس شعبة حقوق الانسان الألمانية ، ولما قام الحكم الهتلري في ألمانيا ، فر من ألمانيا إلى باريس ، فنزعت الحكومة أملاكه وأمواله ، وجعل فون جيرلاخ جهوده لمقاومة الحكومة النازية ومبادئها حتى توفي في نحو الخامسة والستين من عمره

منازل الفضل

كان الأستاذ الجليل محمد محمود جلال قد أخذ يكتب تحت هذا العنوان عن الدور القديمة التي كان لها أثر ظاهر في تاريخ مصر الحديثة ، فنشر في المجلد الثامن والثمانين من (الرسالة) مقالاً نفيساً عن (قصر الوالدة) ، ثم شغلته شواغل الحياة عن موضوعه . وقد جاءنا اليوم كتابان أحدهما من الأديب (علي فهمي) بالمنصورة ، والآخر من (فؤاد شاكر) بالقاهرة ، يستنجزان الأستاذ وعده بالمضي في هذا الموضوع الطريف الذي يجمع بين الفائدة والعظة واللذة ، والأستاذ لا شك فاعل



الكتب

١ – وحي العصر – تأليف الأستاذ ابراهيم المصري

٢ – قصص الحياة – تأليف السيدة نور الهدى الحكيم

للأستاذ محمود الخفيف

ترى في هذين الكتابين مثلين من ألوان الأدب العصري في مصر. أما أولهما فمجموعة مقالات تتخللها عدة أقاصيص مترجمة، قسمه المؤلف خمسة أقسام: دراسات أدبية، واجتماعيات وصرخات، ووجوه وأرواح، وقصص. ولذلك كان الكتاب في بنائه وفي موضوعه لا يخرج كثيراً عن ذلك النوع من الأدب المعروف «بأدب المقالة»، فلقد جمع المؤلف شتيت ما كتب في مناسبات مختلفة وأطلق عليه اسم «وحي العصر»، وإن كان هذا الاسم يوحي اليك فكرة متصلة أو دراسة مفصلة للعصر الذي يعيش فيه

تطالع الفصل الأول «وحي البيئة والعصر في الأدب الحديث» فترى الكاتب يقرر أن الأدب الحي الجدير بالبقاء هو ما جمع بين تأثير البيئة وإيحاء العصر، وتراه من أجل ذلك يعيب على أدبنا العصري خلوه من هذه الصفة، بينما هو يمتدح الأدب الأوربي ويعجب به، وهو إذ يورد لك الأمثلة في أدبنا ينسى أن ما يشكو منه إنما هو وليد البيئة، كما جاء في كلامه عن طريقتنا في الحب والشعر مثلاً؛ والغريب أنه يشير إلى العلة؛ وهي بعد المرأة عن الرجال! أوليس تأثير البيئة الذي يدعو اليه واضحاً في هذا؟ وكيف يتسنى لنا أدب آخر مع ما نحن عليه؟

وانك لتنتظر أن يدور الكتاب على تلك القاعدة التي يدعو اليها، فاذا بك لا تكاد تحس أثراً لبيئتنا إلا في تلك القطعة الجميلة القوية وهي «المرأة المصرية قبل الكفاح الوطني وبعده». وماعدا هذه فالصبغة كلها غربية، أوربية وأمريكية، ففي مقالة «الصدق في الأدب والحياة» تجده لا يقصر عن اتهام أدبنا فيرمينا بأننا نؤثر اللذة على الألم في انتاجنا ضعفاً منا وجبناً؛ ثم هو يعيب علينا كثرة الخيال وضعف قوى العقل، يعيب ذلك علينا في الشعر والقصة، وهو لا يجهل أن الشعر في العالم قديمه وحديثه شرقيه وغربيه وليد الخيال، وأن القصة تفقد أهم عناصرها إذا غلب فيها التحليل والدرس على الخيال الشعرى القوي، فاذا طلب الصدق فعليه أن يطلبه في الفلسفة، فان الصدق في الأدب عدو الخيال، ومن ثم فهو عدو الشعر والقصة. على أن الكاتب الفاضل لا يلبث أن ينسى هذه القاعدة أيضاً، فيرى أن الأدباء البرجوازيين يتعامون عن بيئتهم، ويزيغون عنها، ويبتعدون بذلك عن الصدق، وهو مع ذلك يرى في أدبهم قوة تنجيه من اللوم، ثم تراه حين يتحدث عن «الشعر في هذا العصر ونهضته في فرنسا» يدعو مع الداعين من أبناء الغرب إلى السمو الروحاني والخيال الجامح إلى الرؤى والأحلام، تراه يدعو إلى «ذلك الشعر الذي يغلب فيه الخيال على العقل، والذي ينطلق كموج الموسيقى، ويتصاعد إلى السماء كالصلاة، ويقصد به الشاعر التغني بالحياة وتمجيد ظواهرها واستبطان هذه الظواهر بواسطة الاشراق الروحي والاتصال من خلالها بالقوة العلوية الخالدة التي أبدعتها» فأين هذا من انكاره الخيال في الأدب وخصوصاً في أدبنا؟! ولعل هذا التناقض نتيجة انعدام الوحدة في الكتاب كما سبق أن ذكرت

أما باقي موضوعات الكتاب فهي كما أسلفت غربية الروح والعاطفة، فأنت تقرأ الأدب الأمريكي الحديث وترجمة خمسة من أعلامه، وتقرأ أدب السرعة ومظهره في أوروبا، كل ذلك دون أن تظفر باشارة إلى شاعر من شعرائنا أو كاتب من كتابنا؛ وفي قسم التراجم من هذا الكتاب لن تجد سوى أعلام الغربيين كاميل زولا، وبول بورجيه، ورومان رولان،

وهنري دى منترلان ، وغيرهم ؛ وفضلاً عن ذلك فلن تحس بشخصية المترجم في تلك التراجم ، وهي على دقتها واستيفائها لا تخرج في جملتها عما نطالعه في المجلات من لمحات بسيطة في سير هؤلاء الرجال حتى لقد أحسست أن ثقافة المجلات مسيطرة سيطرة قوية على الأديب المؤلف في هذا الباب

حتى الأقاصيص تجدها مبرية تشرح بيئات غير بيئتنا ومجتمعاً غير مجتمعنا ، ومُثلاً غير مثلنا . نعم لا ضير على الأديب أن ينقل إلينا ما استحسن من النماذج بين حين وآخر ، ولكن على شرط أن يشعرنا بأبطالنا ويرينا من ألوان ثقافتنا وصور حياتنا ما يؤنسنا وسط هذا الضجيج الغربي الذي نخشى أن يعوق تقدمنا ، ويمحو ذاتيتنا ، ويحول بيننا وبين الإصالة والخلق ، ويقطع الصلة بيننا وبين ماضينا الحافل

ولست أشك في أن الأستاذ ابراهيم المصري بذكائه ونشاطه واستعداده قمين أن يجول في أدبنا المصري الناشىء جولات تعود علينا بالخير ، إن هو وجه إليه بعض عنايته

* * *

يأتي بعد ذلك الكتاب الثاني « قصص الحياة في الأسرة والمجتمع » للمربية الفاضلة السيدة نور الهدى الحكيم ، ويقع في نيف وثلثمائة صفحة ، ذكرت مؤلفته أنه مؤسس على نظريات التربية وعلم النفس والاجتماع . ولقد قرأته فألفيته يدور كله حول المرأة وعلاقتها بالرجل ، وهو يضم إلى ما به من أقاصيص بعض نظرات في الحياة « كاستفتاء في حادث خاص » والمجتمع الحديث للأسر المصرية ، وتطور الآراء في تربية المرأة . وهذا الكتاب يتناول المجتمع المصري والبيئة المصرية في الكثير الغالب من موضوعاته ، حتى لتكاد تنعدم فيه الصبغة الغربية ، على الرغم من أن صاحبته عاشت في أوروبا زمناً ، وهي ظاهرة نحمدها لها ؛ فما أحوجنا إلى من يتناول حياتنا بالشرح والتحليل في إخلاص وعطف . ولقد أحسست الاخلاص والتحرق إلى الاصلاح في هذه الأقاصيص الساذجة ، وأعجبتني تلك الروح الطيبة ؛ فالكاتبة لا تشير إلى عيوبنا إشارة الترفع المستكبر الذي يباهي بمدنية غيره ، ولا يهمه سوى إظهار نقائصنا وعرضها في شكل فضائح كما يفعل بعض شبابنا ، بل تراها تعرض لها في رفق وهوادة ، ولا تقتصر على الموقف السلبي منها ، وإنما تذكر أوجه العلاج وتشرحها جهد طاقتها ، وهي كما أذكر طريقة حميدة وزوج محمودة . هذا إلى أن الكاتبة الفاضلة قد وفقت إلى أسلوب بسيط مقبول ، تراه وإن لم يرضك كثيراً من ناحية البلاغة ، لن يثقل عليك ولن تمله

غير أني أرى بناء القصة عندها ضعيفاً ، ولعلها لا تسير فيها على قاعدة ولا تنتهج طريقة ، وإنما يختلج الرأي في رأسها فتلبسه ثوب القصة في أي وضع ، جاعلة نصب عينيها إبراز الفكرة وتوضيحها بطريقة سهلة غير طريقة الدفاع والمناقشة . ولعلها لم تفكر قط في بناء تلك الأقاصيص ؛ والحقيقة أنها أقرب إلى « الحكايات » التي تدور بين جليسين منها إلى القصة في وضعها الفنيّ ، فأنت إذا طلبت الاستمتاع الفني عند قراءة هاتيك الأقاصيص لن تظفر به في معظمها ، أما إذا طلبت الرأي والعاطفة فهي متوفرة لديك

هذا إلى أن الكاتبة النابهة ، أقوى شخصية وأشد تأثيراً وأجلى بياناً في المقالة عنها في القصة ، فلقد أعجبت حقاً بمقالها « تطور الآراء في تعليم المرأة وتربيتها » وتلوته مرتين مستمتعاً بما جاء فيه من آراء صائبة ، وما يجلي في ثناياه من روح متوثبة

وإني إذ أقدم هذا الكتاب إلى فتياتنا وفتياننا ، أتقدم بالثناء للمربية الفاضلة على ما بذلت من جهد وما توخت من خير

الخفيف

النقد والمثال

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ في فصلٍ سابقٍ عن المعنى ، وأنّه العنصرُ الأولُ من عناصر الشعر ؛ بل هو الشعرُ نفسُه ، وقلت : إن الألفاظ ليست إلا ثوباً يحيط به ، ويقدَّر على أجزائه ؛ وأنَّ حسنَها وروعتَها ليست إلا وسائل يقصد بها استمالة القلوب النافرة ، واجتذاب الميول الجامحة

ولست أريد بالمعنى أيَّ معنى يخطر بالخاطر ، وأول ما تتحدث به نفس الشاعر ، والحقائق المجرَّدة الأصلية التي تقع في الفكر لأول مرة قبل أن تتصرف فيها الملكة الفنية ، فان ذلك لا يسمى شعراً وليس منه في قليل ولا كثير ، لأن هذه المعاني مشتركة بين جميع الأذهان ، ولا فضل للشاعر فيها على غيره ؛ وإنما يقصد بنظمها ضبط الحقائق المتفرقة ، وضم المسائل المنتثرة ليسهل حفظها على من أراده ، لا التأثيرُ في العاطفة الذي يقصد إليه الشاعر بشعره ؛ ومن ذلك قول المرحوم حافظ بك ابراهيم :

البرلمان تهيأت أسبابه   لم يبق من سبب سوى المفتاح

وقوله من قصيدة يودّع بها صاحب الدولة المرحوم سعد زغلول باشا في بعض أسفاره لمفاوضة الانجليز :

الشعب يدعو الله يا زغلولُ   أن يستقلّ على يديك النيل

وقوله في هذه القصيدة أيضاً :

فزعيمهم شاكي السلاح مدجَّجٌ   وزعيمنا في كفه منديل

وقوله يمدح ثلاثة من الأغنياء قد وقفوا بعض الضياع على إحدى المدارس المصرية :

ثلاثة من سَراة النيل قد وقفوا   على مدارسنا سبعين فدانا
وخالفوا سنةً في مصر شائعةً   جرَتْ على العلم والآداب خسرانا
فان عادتهم في مصر أن يقفوا   على القبور وإن لم تحوِ إنسانا

فهل ترى فرقاً بين تلك الأبيات والأخبار التي تقرؤها في مختلف الصحف إذا نظمت على أجزاء العروض وبحوره ؟

وكذلك قول المرحوم أحمد شوقي بك في قصيدته التي استقبل بها مصر حين عاد من الأندلس :

وكلُّ مسافرٍ سيؤوب يوماً   إذا رُزق السلامة والإيابا

إلا أن ما في بقية القصيدة من جلال المعاني ، وعلوّ الألفاظ ، ورقة الديباجة قد ستر ما يشعر به الأديب المتذوّق في هذا البيت من عادية المعنى ، وخفته وابتذاله ، وقلة خطره ، واشتراك جميع الأذهان فيه

ومن هذا النوع أيضاً تلك المتون التي ينظمها العلماء في مختلف الفنون ليسهل حفظها واستذكار العلم بها على الطالب ، كالشاطبية في القراءات ، والألفية في النحو ، والبهجة الوردية في الفقه ، وعقود الجمان في البلاغة ، وما إلى ذلك - - -

ومنه أيضاً ما كان يُنظم في عهد الثورة المصرية من القصائد المسجِّلة لحوادثها لا لإثارة العامة ، وتنشرها الصحف إذ ذاك في كل يوم لأشخاص لا يجيدون قراءة الشعر فضلاً عن قوله ، فلا يلبث أحدهم أن يسمع الحادثة عن بعض الزعماء ، أو يرى طوائف الجنود الدججة تجوب الأحياء ، أو يسمع الخبر ، حتى يجلس جلسة يسيرة يعصر فيها ذهنه ، ويكدّ قريحته ، وينشىء قصيدة طويلة الذيول ، كثيرة الفضول ، لا يذوق الأديب فيها للشعر طعماً ، ولا يحسّ له فيها عيناً ولا أثراً ؛ وعفا الله عن الغرابلي باشا ، فكم أمطرنا سحابه الهاطل من هذه القصائد ما يصكّ الأذواق والأسماع ، وإن استهوى قلوب العامة والرعاع ، فهذا الشعر أشبه بالخطب الشعبيّة منه بالقصائد الشعرية

فاذا تصرفت ملكة الشاعر في تلك المعاني الأصليّة ، وتناولتها بأناملها الرقيقة الصناع ، فأضافت إليها شيئاً من جمال الشعر وروعته ، وسحر الفن وفتنته ، ومزجتها بخيال مستعذب ، أو تعليل مستحسَن ، أو تشبيه رقيق ، أو مجاز غريب ، أو تصوير فاتن ، أو وضع حَسَن ، أو ترتيب جميل ، أو حرارة تحيي العاطفة وتستثير الشجن ، أو روح فيها تحرّك الحاسّة وتجتذب الشعور ، أو غير ذلك ، تحولت تلك المعاني الأصلية إلى معان شعرية يحسب أن صاحبها قد اخترعها ، ولم تكن معروفة لأحد قبله ، ووقع الشعر من القلوب موقعه ، وأصاب من كل نفس موضعه ؛ وكان كما قلت في صفة شعر المرحوم اسماعيل صبري باشا في القصيدة التي رثيته بها :

متلمّسٌ من كلّ نفسٍ سِرَّها   ومُلامسٌ من كل قلبٍ موضعا

طِبُّ النفوسِ يعيد في ميت المنى   روحاً ويبعث في القنوط المطمعا
شعرٌ إذا يتلى تكاد لحسنه   تثب القلوب من الصدور تطلّعا
فكأنها في كل بيت يبتنى   نبأ عن الأحباب فيه أودعا
فلو أن شعرك كان سجعاً للقطا   كاد الأراك مع القطا أن يسجعا

ومن المعاني الشعرية ما تراه شائعاً في شعر الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين ومن نهج نهجهم من التحدّث إلى مالا يفهم خطاباً ، ولا يحير جواباً ، كمخاطبة الأطلال الدارسة ، والرسوم الطامسة ، ومساءلة الديار الخالية والمغاني المقفرة عن أهلها متى رحلوا ؟ وأين حلوا ؟ والدعاء له بسقيا المطر ، وأن يعود لها ما فقدته من زمان غبر ، كما قال أبو تمام :

دِمنٌ ألمّ بها فقال سلامُ   كم حلّ عقدة صبره الالمامُ
لا مرّ يوم واحد إلاّ وفي   أحشائه لمحلّتيك غمام
حتى تعمّم صُلْع هامات الربى   من نوره وتأزّر الأهضام
ولقد أراك ، فهل أراك بغبطة   والعيش غضّ والزمان غلام
أعوام وصل كان ينسى طولها   ذكرُ النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيامُ هجرٍ أردفت   بجوى أسىً فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها   فكأنها وكأنهم أحلام

وقول مهيار الديلمي :

سلمتِ وما الديارُ بسالماتٍ   على عنتِ البلى يا دارَ هندِ
ولا برحتْ مفوّفة الغوادي   تصيب رُباكِ من خطأ وعمْد
بموقظة الثرى والترب هاد   ومجدية الجنى والعام مكدى
على أني متى مطرتْكِ عيني   فقضلُ ماسقاكِ الغيث بعدى
أميل اليكِ ، يجذبني فؤادي   وغيرُكِ — ماستقام السير — قصدي
وأشفق أن تبدّلكِ المطايا   بوطأتها كأن ثراكِ خدّي

وعلة الجمال في ذلك أن قوّة العاطفة قد ملأتْ قلب الشاعر وضاقت بها نفسه ، وضعف عنها احتماله ، فأفاضها على ماحوله ، وأسبغها على مايشاهده من آثار الديار ، والدِّمن القفار ؛ متخيلاً أن لها ماله من قلب وكبد ، وأنها تحس مايحسّ ، وتجد مايجد ؛ ومن ذلك أيضاً مخاطبة الحمائم على الغصون ، والافضاء اليها بما يكنه الشاعر من لوعة وشجون ، كقول الشاعر :

تذكرني أمَّ العلاء حمائمٌ   تجاوبن أن مالت بهن غصون
تمالأطلاً ريشكُن من الندى   وتخضرُّ مما حولكن فنون
ألا ياحمامات اللوى عدْنَ عودة   فاني إلى أصواتكن حزينُ
فعُدْنَ فلما عدْن كدْن يمتنني   وكدتُ بأسراري لهن أبين
فلم تر عيني مثلهن حمائماً   بكين ولم تدمع لهن عيون

وقول أبي كبير الهذلي :

ألا ياحمام الأيك إلفك حاضر   وغصنُك ميّادٌ ففيم تنوحُ
أفق لاتنح من غير شيء فانني   بكيتُ زماناً والفؤاد صحيح
ولوعاً فشطّت غربةً دار زينب   فهأنا أبكي والفؤادُ قريح

ولهذا الشعر قصة طريفة لا بأس من روايتها هنا لما اشتملت عليه من المعاني الشعرية التي نحن بصدد شرحها في هذا الفصل

لما وُلّيَ عبد الله بن طاهر خراسان أخذ معه عوف بن محلّم الخزاعي ؛ فلما كانا (بالرّيّ) جلسا تحت شجرة ، فسمعا صوت عندليب يغرّد ، فقال عبد الله : هل سمعت مثل هذا الصوت ياعوف ؟ قال : لا والله ، ألا قاتل الله أبا كبير الهذلي حيث يقول : « ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ » الأبيات . فقال عبد الله بن طاهر : لقد كان في هذيل مائة وثلاثون شاعراً وكلهم مُفْلِق ، وكان أبو كبير أحسنهم . بالله عليك ياعوف إلا ما أجزت هذه الأبيات ؛ فقال : كبرتْ سني ، وفنى ذهني ، وأنكرتُ ما كنتُ أعرف ؛ فقال عبد الله : أقسمت إلا ما فعلتَ ؛ فقال :

أفي كل عام غربةٌ ونزوح   أما للنوى من ونيةٍ فتريح
لقد طلّح البين المشتُّ ركائبي   فهل أرين البين وهو طليح
وشوّقني (بالرّيّ) نوح حمامة   فنحت وذو اللبّ الغريب ينوح
على أنها ناحت ولم تُذْرِ دمعةً   ونحت وأسراب الدموع سفوح
وناحت وفرخاها بحيث تراهما   ومن دون أفراخي مهامه فيح[1]
ألا يا حمام الأيك إلفك حاضرٌ   وغصنك ميّادٌ ففيم تنوح
عسى جود عبد الله أن يعكس النوى   فتلقى عصا التسيار وهي طروح

(١) الفيح : جمع أفيح وفيحاء : أى الواسعة المترامية الأطراف

بعد شوقي (١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

كان يتوجه الظن على شوقي رحمه الله فيزعم الزاعم أن شوقي هو يحيى شعره، وهو يرفع منه، وهو يشيع حوله قوة الجذب من مغناطيس الثروة والمكانة؛ وأن الرجل ما أوفى على الشعراء جميعاً لأنه أفضلهم، بل لأنه أغناهم، ولا من أنه أقوامهم قوة، بل لأنه أقوامهم حيلة؛ وأن الشاعر لو جاء يومه لبطل السحر والساحر، فترجع العصا وهي عصاً بعد أن انقلبت حية، ويؤول هذا الشعر إلى حقيقته، وتتسم الحقيقة بسمتها؛ كأن شوقي كان يعمل لشعره بقوة السموات والأرض لا بقوة رجل من الناس.

فقد ذهب الرجل إلى ربه، وخلا مكانه، وبطلت كل وسائله، ونام عن شعره نومة الأبدية، وتركه لما فيه يحفظه أو يضيعه إن كان فيه حق من الشعر أو باطل، وأصبح الشاعر هو وماله وجاهه وشعره في حكم الكلمة التي يقولها الزمن، ولم تمدهنه الكلمة في حكمه؛ فهل أثبته الزمن أو نفاه، وهل سلم له أو كابره، وهل رده في أغمار الشعراء أو جعل الشعراء بعده أدلة من أدلته؟

***

أول ما ظهر لي أن الزمن بعد شوقي أصبح أقوى في الدلالة عليه وأصدق في الشهادة له، كما تكون الظلمة بعد غياب القمر شرحاً طويلاً لمعنى ذلك الضياء، وإن سطعت فيها الكواكب وتوقد منها شيء وتلألأ شيء. فقد دل الزمن على أن ذلك الشأن لم يكن لشاعر كالشعراء، يقال في وصفه إنه مفتن مجيد مبدع؛ ولكنه للذي يقال فيه إنه صوت بلاده وصيحة قومه كانت تحدث الحادثة، أو يتخالج الناس معنى من الهم الذي يمسهم، أو يستطيرهم فرح من أفراح الوطن، أو يزول عظيم من العظماء فتزيد صفحة في التاريخ، أو ينشأ كون صغير من أكوان الحضارة في الشرق كبنك مصر، أو ترتج زلزلة في الحياة العربية أينما ارتجت، فإذا كل ذلك قد وقع في الدنيا بهيئتين إحداهما في ذهن شوقي، فيرسل قصيدته الشرود السائرة ذاوية مجلجلة، فلا تكاد تظهر في مصر حتى تلتقي حولها الأفكار في العالم العربي كله، فتكون شعراً من أسرى الشعر وأحسنه، ثم تجاوزه فإذا هي صلة من أقوى الصلات الذهنية بين أدباء العربية وأوثقها، ثم تجاوزها فإذا هي عاطفة تجمع القلوب على معناها، ثم تسمو فوق هذا كله فإذا هي من هذا كله زعامة مصر على الشعر العربي

واليوم يقع مثل ذلك فتتطاير بعض الفقاقيع الشعرية من هنا وثم ملونة منتفخة ماضية على قانون الفقاقيع في الطبيعة من أن لحظة وجودها هي لحظة فنائها، وأن ظهورها يكون لتظهر فقط لا لتنفع

ولست أماري في أن بيننا شعراء قليلين يجيدون الشعر ولهم فكر وبيان ومذهب وطريقة؛ ولكن ما منهم أحد إلا وهو يشعر من ذات نفسه أن الحوادث لم تختره كما اختارت شوقي، وأنه في الحياة كالواقف على باب ديوان ينتظر أن يمهد إليه وأن يخرج له التقليد فهو ينتظر وسينتظر

وهذا عجيب حتى كأنه سحر من سحر الزمن حين تفصل الدنيا بين العبقري الفذ وبين من يشبهونه أو ينافسونه — بضروب خفية من الصرفة والعوائق لا هي كلها من قوة العبقري ولا هي كلها من عجز الآخرين

وأعجب من ذا أن (شوقي) كان في العالم العربي كأنه عمل تاريخي متميز من أعمال مصر، غير أنه مسمى باسم رجل؛ وكان على الحقيقة لا على المجاز — كأن فيه شيئاً من هذه الروح التاريخية المتغلبة التي تخلد بأسماء الآثار الفنية وتكسبها العظمة في الوجودين، من محلها ومن نفس الانسان

وأعجب من هذا وذلك أني لم أر شعراً عربياً يحسن في وصف الآثار المصرية ما يحسن في وصفها شعر شوقي، حتى لأسأل نفسي: هل تختار بعض الأشياء العظيمة وصفها ومفسر

(١) لما توفي شوقي كتبنا لشيخ مجلاتنا (المقتطف) فصلا طويلا عنه وعن شعره ومنزلة شعره فلم نعرض لشيء من ذلك هنا.

عظمتها ، كما تختار المرأةُ الجميلةُ عاشقها ومُستجلي حسنها ؟

***

وما بانَ شوقي على غيره إلا بأنه رجل أفرغَ في رأسه الذهنُ الشعريُّ الكبير ، فكان في رأسه مَصنعٌ عمّاله الأعصاب ، ومادته المعاني ، ومهندسُه الإلهام ؛ والدنيا تُرسل إليه وتأخذ منه ؛ وعلامةُ ذلك من كل شاعر عظيم أن تضعَ دنياه على اسمه شهادتها له . ولهذا ما يكون بعضُ الشعراء كان اسمهُ في وزن اسم مملكة . فإذا قلتَ شكسبير وإنجلترا ، فهما في العظمة النفسية من وزن واحد ، وكذلك المتنبي والعالم العربي ، وكذلك شوقي ومصر

قالوا كان الفرزدق ينقح الشعر ، وكان جرير يَخْشُبُ (أي يُرسل شعره كما يجيء فلا يتنوّقُ فيه ولا ينقحه) ؛ وكان خَشْبُ جرير خيراً من تنقيح الفرزدق . . ولم يتنبّه أحد إلى السر في ذلك ؛ وما هو إلا السر الذي كان في شوقي بعينه ، سرُّ الامتلاء الروحي قد أُمدَّ بالطبع ، وأُعين بالذوق ؛ وأُوتي القوةَ على أن يتحول بآثاره في الكلام ؛ فكل ما كان منه فهو منه ، يجيء دائماً قريباً بعضُه من بعضه ، ولا يكاد ينفذ إلى شعور إلا أحد به

وقد كان عمرُ بن ذرّ الواعظُ البليغ [1] إذا تكلم في مجلسه نشر حوله جواً من روحه فيجعل كلّ ما حوله يتموّج بأمواج نفسية ؛ فكان كلامه يعصف بالناس عصفَ الهواء بالبحر يقومُ به ويقعد ، وكان من الوعاظ من يقلده ويحكيه ولا يدري أنه بذلك يعرض الغلطةَ على ردّها وصوابها ، فقال بعضُ من جالسه وجالسهم : ما سمعتُ عمر بن ذرّ يتكلم إلا ذكرتُ النفخَ في الصُّور ، وما سمعت أحداً يحكيه إلا تمنيتُ أن يجلد ثمانين . . .

فالفرق روحاني طبيعيٌّ كما ترى ، لا عمل فيه لأحد ولا لصاحبه وهو يشبه الفرق بين عاصفة من الهواء وبين نسيم من الريح يرسلان على جهتين في البحر . ففي ناحية يلتجُّ الماء ويثب ويتضرّب ويقصف قصفَ الرعد ، وفي الأخرى يترجرج ويترحف ويقشعرُّ ويهمس كوسواس الحلي

والشأن كل الشأن للكميّة الوجدانية في النفس الشاعرة أو الممتازة ؛ فهي التي تعيّن لهذه النفس عملَها على وجهٍ ما ، وتهيئها لما يراد منها بقدرٍ ما ، وتقيمها على دأبها إلى زمن ما ، وتخصّها بخصائصها لغرض ما . وإذا أنت حققتَ لم تجد الفروقَ بين النوابغ بعضهم من بعض ، إلا فروقاً في هذه الكمية ذاتها مقداراً من مقدار . ولولا ذلك لكان أصغر العلماء أعظمَ من أكبر الشعراء ، فقد يكون الشاعر العظيم كأنه تلميذ في العلم ثم يكون العلمُ كأنه تلميذ لقلب هذا الشاعر وعواطفه . ولئن عجز النقدُ العلميُّ أن ينال من الشاعر العبقريّ لقديماً عجز في كل أمة

وقد كان فيمن حاولوا إسقاط شوقي من هو أوسع منه اطلاعاً على آداب الأمم ، وأبصرُ بأغراض الشعر وحقيقته ، وكان مع ذلك حاسداً شانئاً قد تَقبّبَ في قلبه الحقد ؛ والحاسدُ المبغضُ هو في اتساع الكلام وطغيان العبارة أخو المحب العاشق ، فكلاهما يدور الدمُ في كبده معانيَ ووساوس ، وكلاهما يجري كلامه على أصلٍ مما في سريرته فلا تجد أحدهما إلا عالياً عاليا بمن يحب ، ولا تجد الآخر إلا نازلاً نازلا بمن يبغض . وكان هذا الناقد شاعراً فانضاف شعره إلى حسده ، إلى بغضه ، إلى ذكائه ، إلى اطلاعه ، إلى جهده ، إلى طول الوقت وتراخي الزمن ؛ وهذه كلها مفرقعات نفسية . . . . بعضها أشدُّ من بعض كالبارود ، إلى الديناميت ، إلى الميلينيت ؛ ولكن شوقي كان في مرتقى لم يبلغه الناقد فانقلب جهدُ هذا عجزاً وأصبح البارود والتراب في يده بمعنى واحد . . . .

***

ومن أعجب ما عجبت له من أمر هذا الناقد ، أني رأيته يقرر للناس صوابَ الحقيقة بزعمه ، فإذا هو يقرر غلطَه وجهله وتعسفه . وهو في كل ما يكتب عن شوقي يكون كالذي يرى الماءَ العذبَ وعملَه في إنبات الروض وتَوْشِيَتِه وتلوينه ، فيذهب يعيبُه للناس بأنه ليس هو البنزين . . . . الذي يحرك السيارات والطيارات

تناول شوقي بعد موته تجرده من الشخصية أي من حاسة الشعر ومن إدراك السر الذي لا يُخلَقُ الشاعرُ الحقُّ إلا لإدراكه والكشف عن حقائقه ؛ وكان فيما استدل به على ذلك

(١) هو عمر بن ذر الهمداني الكوفي المتوفى سنة ١٥٦ للهجرة وكان من أبلغ المتكلمين

أن شوقي لا يحسن وصف الربيع بمثل ما وصفه ابن الرومي في قوله:

تَجِدُ الوحوشُ به كفايتَها والطيرُ فيه عتيدةُ الطُّعَمِ
فظباؤُه تُضحى بمُنْتَطَحٍ وحمامه يضحى بمختصَمِ

وزعم أن ابن الرومي قد ولد بحاسة لم يولد بها شوقي ، ولهذه الحاسة اندمج في الطبيعة فأدرك سر الربيع وأنه غليانُ الحياة في الأحياء ، فالظباءُ تنتطح من الأشر الخ الخ وبنى على ذلك ناطحة سحاب . . . . لا ناطحة ظباء[1]

أما شوقي الشاعر الضعيف العاجز الذي لم يولد بمثل تلك الحاسة فلو أنه شهد ألفَ ربيع لما أحسّ هذا الاحساس ولا استطاع أن يجيء بمثل هذا القول المعجز . وكل ذلك من هذا الناقد جهلٌ في جهل ، وأعاليل بأضاليل بأباطيل ؛ فابنُ الرومي في هذا المعنى لصٌّ لا أكثر ولا أقل ، فلم يحسّ شيئاً ولا ابتدع ولا اخترع

قال الجاحظ : يقال في الخصب (أي الربيع) نفشَت العنز لأختها ؛ وخلّفتُ أرضاً تظالَمُ مِعزاها (أي تتظالم) . قال لأنها تنفش شعرها وتنصِبُ رُوقَيها في أحد شِقَّيها فتنطح أختها وإنما ذلك من الأشَر . (أي حين سمنت وأخصبت وأعجبتها نفسُها)

فأنت ترى أن ابن الرومي لم يصنع شيئاً إلا أنه سرق المعنى واللفظ جميعاً ، ثم جاء للقافية بهذه الزيادة السخيفة التي قاس فيها الحمام على الظباء والمعزى . . . . فاستكره الحمام على أن يختصم في زمن بعينه وهو يختصم في كل يوم . وإنما شرط الزيادة في السرقة الشعرية أن تضاف إلى المعنى فتجعله كالمنفرد بنفسه أو كالمخترع

ولعمري لو كان للطبيعة مائة صورة في الخيال الشعري ، ثم قدّم شوقي للناس تسعاً وتسعين منها ، لقال ذلك الناقد المتعنت : لا . . إلا الصورة التي لم يقدّمها . . . .

* * *

وكان شعر شوقي في جزالته وسلاسته كأنما يحمل العصا لبعض الشعراء ، يردّهم بها عن السفسفة والتخليط والاضطراب في اللفظ والتركيب ؛ فكثر الاختلالُ في الناشئين من بعده وجاءوا بالكلام المخلَّط الذي تبعث عليه رخاوة الطبع وضعف السليقة ، فتراه مكشوفاً سهلاً ولكن سهولته أقبحُ في الذوق من جَفْوة الأعراب على كلامهم الوحشيّ المتروك

والآفة أن أصحابَ هذا المذهب يفرضون مذهبَهم فرضاً على الشعر العربي كأنهم يقولون للناس : دعوا اللغة وخذونا نحن . وليس في أذهانهم إلا ما اختلط عليهم من تقليد الأدب الأوربي فكل منهم عابد الحياة ، مندمج في وحدة الكون ، يأخذ الطبيعة من يد الله ، ويجاري اللانهاية ، ويَفْنَى في اللذة ، ويعانق الفضاء ، ويغنّي على قيثارته للنجوم ؛ وبالاختصار فكل منهم مجنون لُغَوى . . . .

وأنا فلست أرى أكثر هذا الشعر إلا كالجِيَف ، غير أنهم يقولون إن الجيفة لا تعدّ كذلك في الوجود الأعظم ، بل هي فيه عمل تحليليٌّ علميٌّ دقيق . لقد صدقوا ؛ ولكن هل يكذب من يقول : إن الجيفة هي فسادٌ ونتن وقذَر في اعتبار وجودنا الشخصي ، ووجود النظر والشم ، والانقباض والانبساط ، وسلامة الذوق وفساد الذوق !

* * *

وكان حاسدو شوقي يحسبون أنه إذا أزيح من طريقهم ظهر تقدُّمهم ؛ فلما أزيح من الطريق ظهر تأخرهم .... وهذه وحدها من عجائبه رحمه الله

وقد كان هذا الشاعر العظيم هبةَ ثلاثة ملوك للشعب ، فهيهات ينبغ مثله إلا إذا عمل الشعب في خدمة الشعر والأدب عمل ثلاثة ملوك . . . . . وهيهات

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

[1] لا يحضرني كلام الكاتب بنصه ولكن هذا بعض معناه وكله تهويل

إلى (حائر) سنجه بالسودان . كان « الفنان الحائر » غير من ظننت ؛ وحيرته من الفن لا من الزندقة ياحضرة مؤلف المقالة الأبليسية . . . وقد اذكرني كتابك رسائلك الأولى فانتقدتها فاذا هي بين عشرين رسالة وردت من مختلف الأقطار أيام مرضي باسكندرية وكنت جعلتها إضبارة (رزم) لأذكرها فنسيتها . فمعذرة إليك وإليهم واليهن ، وأنا كثيراً ما أعتمد على كرم الكاتب أو الكاتبة في العفو عن تقصيري . أما رسائلك التي أسميها المقالة الابليسية فسأكتب عنها في يوم كما يشاء الله قريب أو بعيد .

الرافعي

السنيون والشيعة

للأستاذ أحمد أمين

بهذا العنوان كتب الأستاذ « محمد رضا المظفر » من أفاضل علماء النجف مقالاً قيماً في (عدد الرسالة ١١٨ السنة الثالثة) ؛ وقد استهلها الأستاذ بالعجب من أن أكون كاتب « فجر الإسلام وضحاه » ، وكاتب « مقدمة تاريخ القرآن » للأستاذ الزنجاني مماً وأن « النغمة التي ظهرت مني في هذه المقدمة نغمة متواضعة على وتر من إحساس جديد » وأنها على عكس ما ظهر مني في فجر الإسلام وضحاه ، وفسر ذلك بأن لي « شخصيتين تباعدتا على قرب العهد بينهما »

والحق — يا أخي — أن النغمتين صدرتا عن نفس واحدة كانت تكره الخلاف بين السنيين والشيعة أشد الكره وأعمقه يوم كتبت فجر الإسلام وضحاه كما كانت تكرهه يوم كتبت مقدمة تاريخ القرآن ، وكما لا تزال تكرهه إلى اليوم

وكل مظاهر الخلاف بين القولين سببه أني بحثت في فجر الإسلام وضحاه مذهب الشيعة كما يبحثه كل عالم ، وحاولت جهدي أن أضع التعصب جانباً ، وأن أتناسى أني سني أكتب عن الشيعة ، وأملأ نفسي عقيدة أني مؤرخ يتطلب الحق حيث هو — ومن أجل ذلك نقدت السنيين كما نقدت الشيعة ، وقلت ما اعتقدته الحق في هؤلاء وهؤلاء ، ووضعت الفرقتين في كفتي ميزان ؛ فاذا قلت إن بعض الشيعة وضعوا بعض الأحاديث قلت إن بعض السنيين وضعوا بعض الحديث أيضاً ، لأني اعتقدت الحق في ذلك ؛ وهكذا سرت على هذا المنهج دائماً وأنصفت المعتزلة في بعض آرائهم ، والخوارج في بعض آرائهم ، والشيعة في بعض آرائهم . مع أن العادة جرت أن السنيين لا يرضون عن شيء من ذلك ، فأسلوبي في الحالين طلب الحق حيث كان ، وإذا كان ديننا يتطلب منا أن نزن الحق في ذاته من غير أي اعتبار آخر سواء كان مصدره مسيحياً أو يهودياً أو وثنياً ، فبالأحرى نزنه إن كان مصدره معتزلياً أو خارجياً أو شيعياً ؛ وكل ما في الأمر أن بعض إخواني من الشيعة أخطأوا من ناحيتين : الأولى أنهم دائماً طبقوا ما أقوله عن الشيعة على أنفسهم ، وفهموا أني لا أعني بالشيعة في كل موضع إلا إياهم ، مع أن الشيعة كما يعلمون فرق مختلفة لا حصر لها ، وأن منها الغالي الممعن في غلوه ، ومنها المعتدل القريب من الأنصاف ، وليست الأمامية التي يدين بها أهل العراق وفارس إلا فرقة واحدة من فرق عديدة ، بعضها باق إلى اليوم ، وبعضها عفى عليه التاريخ ؛ فخطأ محض أن يظنوا أني كلما قلت « الشيعة » عنيتهم ؛ إنما يكون لهم الحق كل الحق أن يفهموا أني أقصدهم عندما أتكلم على الأمامية أو الاثني عشرية — والمؤرخ يجب عليه أن يؤرخ الماضي كما يؤرخ الحاضر ، وأن يذكر الغلاة كما يذكر المعتدلين ، فاذا عاب الغلاة فليس عيبه إذا فهم قوم منه أنه يعنيهم

والناحية الثانية هي ما دعوت إليه في « مقدمة تاريخ القرآن » من أنه يجب على العلماء من الطائفتين أن يوسعوا صدرهم للنقد النزيه « ويتلقوا النتائج بصدر رحب » ، فهذه شيمة العلماء حقاً ، فكم أخطأ الشيعة وكم أخطأ السنيون ! فواجب الباحث أن يبحث المسائل حراً طليقاً ، ويتأهب للبحث وهو على الحياد بالنسبة للنتائج ، فسواء خرجت النتيجة صفراء أو سوداء لا يهمه ، لا أن يعتقد أولاً ثم يبحث عن البرهان الذي يؤدي إلى النتيجة التي اعتنقها من قبل ، فذلك ليس شيمة العلماء المخلصين للحق .

وكل ما في الأمر أن الواجب أن ينحى العامة وأشباههم عن الدخول في مثل هذه المباحث لأنهم لا يستسيغونها ولا هم متهيئون لها ، وليست تنفعهم في دينهم ولا دنياهم

بهذه الروح بحثت ، ولا أدعي العصمة ، فقد أكون أخطأت ؛ وقد وجه بعض اخواني من الشيعة نظري إلى أني حين بحثت عولت على مصادر أهل السنة أكثر مما عولت على مصادر الشيعة ، وكان الواجب ألا يعتمد في كلام خصم على خصم ، وأن ينظر في قول كل فرقة إلى حكاية أصحابها وخصومها معاً ، ثم يمحص الحق من ذلك كله ؛ وقد أصغيت إلى هذا القول واقتنعت بصحته ، فلما أردت أن أكتب فصل الشيعة في الجزء الثالث من ضحى الاسلام توسعت ما وسعني في قراءة الكتب المعتمدة عند الشيعة ، ولا أزال أقلبها ظهراً لبطن وأفكر فيها من وجوهها المختلفة حتى يثلج صدري للحق وأومن بما يقوم عليه البرهان من غير تحزب لناحية — وليس يتطلب مني أكثر من ذلك .. وإنما يتطلب من قادة الرأي في الشيعة والسنيين

ألا يضيق صدرهم حرجاً مما يقال متى خلصت نية القائل — وعلى القائل والكاتب أن يعمد إلى الحق والحق وحده، وأن يقوله في أدب لا في تهاتر وسباب.

وليس من الحق ألا يرضى الشيعة عن المؤرخ إلا إذا مجد كل عقائد الشيعة وصوبها، كما ليس من الحق ألا يرضى السنيون عنه إلا إذا مجد كل عقائدهم وصوبها، فالمؤرخ قاض عادل لا يهمه من رضى ومن غضب، وهو لم ينتصب للارضاء والاغضاب، إنما نصب ليتعرف الحق ويجهر به

هذا ما أردت أن أقوله من الناحية العلمية، وأرمى من وراء ذلك كله إلى القول بأن البحث العلمي شيء والنزاع والخصام شيء آخر، وأن البحث العلمي لا يمنع التفاهم والوئام، بل هو إذا نظر اليه النظر الواسع العالي سبب من أسباب الألفة

أما الناحية العملية في الوفاق فسهلة ميسورة متى أخلص القادة في ذلك — وهي في هذا الزمان أيسر وأسهل؛ وإذا كانت الوطنية قد استطاعت أن توفق في مصر بين الأقباط والمسلمين، وفي سوريا بين المسلمين والمسيحيين، فكيف لا تستطيع المصالح المشتركة القوية الواضحة ألا توحد بين الشيعة والسنيين وهم أهل دين واحد يجمعهم الايمان العميق في صدورهم بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن كل الخلاف بينهم موجات على السطح وفقاقيع في الظاهر يستغلها أهل الجاه والمال والرياسة فيوهمون أنها كل شيء في الدين، وليس ذلك بصحيح إلا إذا كانت فقاقيع الماء كل الماء، وأمواج البحر هي كل البحر، وزبد السوائل كل السوائل، والعمامة الخضراء والحمراء والبيضاء هي كل الاسلام؛ فالحق أن الاسلام أعمق من ذلك كله، وما الخلافة والنزاع عليها والفروق الخفيفة في مظاهر الوضوء والصلاة والزواج والطلاق ونحو ذلك إلا أشياء تافهة كل التفاهة بجانب القواعد الأساسية للدين، والفرق بينهما كالفرق بين مظهر الانسان وقلبه، وبين ملبسه ومخبره. ليكن الايمان بالأسس في القلب، ثم ليكن المظاهر ما يكون، فالله ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم.

وليقلل علماء الدين سنيون وشيعة من تمسكهم بالمظهر ومحافظتهم على وجاهتهم في قومهم وأتباعهم وما يغله ذلك عليهم، ويروا أن الوفاق أقرب ما يكون وأسهل ما يكون ويضحكوا ويبكوا من سخافات السلف والخلف الذين أثاروا النزاع على التافه وتركوا اللباب

أليس من السخف أن يتقاتل طائفتان على خلاف تاريخي أ كان عليّ أحق بالخلافة أم أبو بكر وعمر، وعلي وأبو بكر وعمر في قبورهم لا يعنون بشيء من ذلك؟ أم ليس من السخف أن يتعادى طائفتان مسلمتان تقران كل أسس الاسلام من أجل اختلافهما في جزئيات صغيرة في أشكال الوضوء وما اليه؟ أم ليس من السخف ألا يقر الشيعة بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من شيعي؟ وألا يقر السنيون بعلم ولا فضل ولا فكرة ولا عمل مجيد إلا إذا صدر من سني؟... لا لا أيها القوم! جعفر الصادق رجل عظيم، وأبو حنيفة رجل عظيم، فليزر شيعة العراق أبا حنيفة لعظمته، وليزر سنيو العراق مشهد الحسين لعظمته؛ والأمهات يلدن النوابغ على السواء، فلم تضن على الشيعة بنوابغ ولا على السنيين بنوابغ، كما لم تضن على الأمم الأخرى بنوابغ، فحصر كل فرقة تعظيمها لرجال فرقتها ضيق في النظر وفقر في الفكر

وإذا زال هذا كله وأمثاله — وهي فيما أرى من البديهيات — رأينا الخلاف قد تبخر ولم يعد له أساس، ولا يبقى إلا عند المؤرخ والباحث، والمؤرخون والباحثون دائماً متصافون متى كان رائدهم الحق، وشعارهم الصدق، ولم تطوح بهم الأغراض والشهوات.

ليس من وسيلة تدرأ هذا الخلاف إلا أن يتقدم علماء اليوم من الفريقين فيمحوا الآثار السيئة التي خلفها علماء الأمس

ولعل أصلح بقعة لذلك هي العراق، لأنها أشد البلاد مظهراً لهذا الخلاف، فيتعاون رؤساء الطائفتين لعقد مؤتمر في بغداد من رؤساء السنيين والشيعة، ويبحثوا وجوه الخلاف وكيف تزال في جو هادئ مخلص؛ وأسبق الطائفتين إلى هذه الدعوة أفضلهم، ولا يجعلوا للعامة والغوغاء سلطاناً، وليحذروا من أصحاب المطامع والشهوات ودسائسهم، وليجعلوا شعارهم في كل مجتمع وعند كل خلاف «مسلمون قبل كل شيء» «مسلمون قبل أن نكون شيعة وسنيين.»

ولا بأس أن يدعوا قادة الفكر في مصر والشام والحجاز للاشتراك في هذا المؤتمر والتشديد في حصر أغراضه في إزالة الخلاف بين سني وشيعي، فلا يمسون أي موضوع آخر، ثم يرسمون الطريق العملي لازالة هذا النزاع من تزاور الطائفتين، واتخاذ شعار لهذا الوفاق، وتعيين يوم يتخذ عيداً يذكر بهذا

الاتحاد ونحو ذلك . إنهم إن فعلوا وأخلصوا خلصوا من أكبر مشكلة يتعرض لها الطائفتان ، وأمكنهم أن يوجهوا هذه القوى — العظيمة التي تذهب هباء في الخلاف — إلى اصلاح شؤونهم الاجتماعية ، واستطاعوا أن يتعاونوا على رفع مستوى قومهم ، وعجبوا بعد قليل — لما يظهر من نتائج باهرة — كيف كانوا جميعاً في ظلام دامس ، وكيف كانوا هذا الزمن الطويل يستمسكون بالعرض ، ويضيعون الجوهر ، ويفرطون في الكتاب ، ويحتفظون بالغلاف

وأقرر من الآن أني سوف لا أرد على من يتخذ بعض ما جاء في هذه المقالة وسيلة لاثارة النزاع من جديد ، إلا أن يفتح صاحبها مجالاً للكلام في مشروع المؤتمر ، أو وسائل الوفاق وبالله التوفيق ... ؟

أحمد أمين

عصبة الأمم وتطبيق العقوبات

تحريم الحرب

من الوجهة الدولية

وتشبث الدول بالقرار في قمع الاعتداء

لباحث دبلوماسي كبير

لأول مرة في التاريخ نشهد قراراً دولياً بأن حرب الاعتداء وسيلة غير مشروعة لتحقيق غايات السياسة القومية ، ولأول مرة في التاريخ تصدر دول العالم ممثلة في عصبة الأمم حكمها على دولة أوربية عظمى هي ايطاليا بأنها دولة معتدية ، وأنها بغزو الحبشة ترتكب خرقاً لقانون الأمم ؛ بل نشهد في الواقع ما هو أعظم من الأحكام النظرية ؛ نشهد عصبة الأمم تقرر باسم دول العالم أن توقع على ايطاليا طائفة من العقوبات الاقتصادية التي نص عليها في ميثاقها ؛ وهذه أول مرة تتخذ فيها عصبة الأمم مثل هذه القرارات الخطيرة الحاسمة ، وقد كان يبدو دائماً كلما وقعت أزمة دولية خطيرة أن هذه النصوص التي أدمجت في ميثاق عصبة الأمم وقت حمى السلام ، إنما هي نصوص خيالية لا سبيل إلى تطبيقها بصورة عملية ؛ ولكن يلوح لنا أن عصبة الأمم تسير هذه المرة بحزم واضح إلى تطبيق هذه التجربة الشائكة ، وأنها تزمع أن تصل بتطبيقها إلى نتائج عملية لا شك في أهميتها من الوجهة الدولية

وهذا الاقدام الذي تبديه العصبة في مقاومة الاعتداء الايطالي على الحبشة وعلى السلام العام يثير بلا ريب كثيراً من الاعجاب ، ويرفع بلا ريب هيبة العصبة بعد أن كادت تنقض في الأعوام الأخيرة ؛ ولكن يجب ألا نبالغ في فهم الدور الذي تؤديه العصبة في هذا النضال الدولي الخطير ، أو بعبارة أخرى يجب أن نفرق بين العصبة كشخصية دولية معنوية ، وبين الدول التي تساهم في تكوينها وتشرف على توجيهها ؛ فمن الواضح أنه لو لم تقف انكلترا وقفتها المعروفة في التمسك بميثاق العصبة ، ولو لم توفق السياسة البريطانية إلى اقناع الدول الأخرى بوجهة نظرها في تأييد الميثاق ، بل لو لم تقم انكلترا باتخاذ تلك الأهبات البحرية والعسكرية الخطيرة لتأييد موقفها ، لما استطاعت العصبة أن تقدم بمثل هذا العزم على تطبيق الميثاق واتخاذ قرارها الشهير في الحكم على ايطاليا بالاعتداء وتوقيع العقوبات الاقتصادية عليها

ومن الواضح أيضاً أن بريطانيا العظمى لم تقف هذا الموقف الحازم من المغامرة الايطالية حباً في السلام فقط ، أو لأن بريطانيا تريد أن تكون حارسة للسلم ، أو أن تكون على حد تعبيرها « بوليساً » للقارة ، أو بوليساً للعالم . فبريطانيا أزهد ما يكون في مثل هذه المهمة التي تعرضها لمتاعب ومسئوليات لا نهاية لها ؛ ولكن الحقيقة أن هذه الحرب الاستعمارية التي تثيرها ايطاليا تعرض مصالح الامبراطورية البريطانية للخطر ، وفوز ايطاليا بافتتاح الحبشة وتحقيق حلمها في اقامة امبراطورية استعمارية في شرق أفريقية ، يهدد السيادة البريطانية في وادي النيل ، وفيما وراء البحار ، ويعرض المواصلات الامبراطورية البريطانية لأخطار لا شك فيها ، وإذكاء مطامع ايطاليا القيصرية بالفتح يهدد سيادة انكلترا البحرية في البحر الأبيض المتوسط ، وهي

عماد الطريق الامبراطوري إلى الهند وإلى استراليا . فهذه البواعث الخطيرة هي التي تحمل انكلترا قبل كل شيء على اتخاذ موقفها في تحريك ميثاق عصبة الأمم ، وفي المغامرة بالدخول في أية معارك بحرية أو برية يقتضيها تطبيق العقوبات الاقتصادية على ايطاليا

على أنه مهما تكن البواعث التي توجه السياسة البريطانية في الآونة الحاضرة فلا ريب أن بريطانيا العظمى تقف إلى جانب السلم ، ولا ريب أنها بموقفها تؤيد سلام العالم ؛ وإذا كانت الفاشستية الايطالية بعنفها المضطرم ، ووسائلها المثيرة ، وأحلامها الامبراطورية ، وغرورها الأعمى ، تهدد الامبراطورية البريطانية في البحر الأبيض والبحر الأحمر ، فانها تهدد سلام العالم أيضاً ؛ وربما كان من حسن الطالع أن يتحد هذان العاملان معاً ، وأن تجد بريطانيا من بواعث مصالحها الحيوية ما يدفعها إلى العمل في تلك الآونة لتحطيم مشروعات ايطاليا الهمجية . وها نحن أولاء نشهد من اصرار بريطانيا على موقفها ، ومن تمسكها بتطبيق العقوبات الاقتصادية ضد ايطاليا ، ومن أهباتها البحرية والعسكرية ما يفسر خطورة البواعث والعوامل التي تجثم وراء هذا النزاع

وقد كثر الحديث حول العقوبات الاقتصادية التي تعنى بتطبيقها عصبة الأمم ضد ايطاليا المعتدية ؛ وهي عقوبات لها خطورتها وأثرها في هذا العصر الذي يتوقف كل شيء فيه على المال ، وتستمد فيه قوى الدول من مواردها المالية قبل كل شيء ؛ فاذا شلت موارد الدولة من جراء مقاطعة اقتصادية صارمة تنظمها الدول الأخرى ، فلا ريب أن مشاريعها العسكرية تصاب أيضاً بنوع من الشلل يضطرها ازاء هذا الضغط إلى الخضوع . وقد أجملت المادة ١٦ من ميثاق عصبة الأمم ذكر هذه العقوبات ، ولسنا نرى لشرحها خيراً من إيراد نص هذه المادة كاملا وهو :

« إذا التجأ عضو من أعضاء العصبة إلى الحرب خلافاً للتعهدات المنصوص عليها في المادتين ١٢ و ١٣ أو المادة ١٥ فانه يعتبر قد ارتكب عملاً حربياً ضد كل أعضاء العصبة الآخرين ، ويتعهد هؤلاء أن يقطعوا في الحال معه كل علائقهم التجارية والمالية ، وأن يحظروا كل علائق بين رعاياهم وبين رعايا الدولة التي خرقت الميثاق ، وأن يقطعوا كل الصلات المالية والتجارية والشخصية بين رعايا هذه الدولة وبين رعايا أية دولة أخرى ، سواءاً كانت عضواً في العصبة أم لا

« وفي هذه الحالة يجب على المجلس (مجلس العصبة) أن يوحي إلى الحكومات المختلفة ذات الشأن بتقديم القوى العسكرية أو البحرية أو الجوية التي يساهم أعضاء العصبة في تقديمها للقوى المسلحة التي تقوم بالعمل على احترام تعهدات العصبة .

« ويتعهد أعضاء العصبة أيضاً أن يعاون بعضهم بعضاً في تطبيق الاجراءات الاقتصادية والمالية التي تتخذ طبقاً لهذه المادة والتي يراد بها أن تخفض إلى أدنى حد ما يمكن أن يترتب عليها من الخسائر والمضار ، ويتعهدون أيضاً بالتعاون في مقاومة كل اجراء خاص يوجه إلى أحدهم من جانب الدولة التي خالفت الميثاق ، ويتخذون الاجراءات اللازمة لكي يسهل المرور في أراضيهم لقوات أي عضو من أعضاء العصبة يساهم في العمل المشترك الذي يقصد به العمل على احترام تعهدات العصبة

ويمكن أن يفصل من العصبة كل عضو ينتهك أحد التعهدات المترتبة على هذا الميثاق ، ويصدر قرار الفصل بموافقة أعضاء العصبة الآخرين الممثلين في المجلس »

فهذه العقوبات الدولية يمكن إجمالها في كلمة هي « المقاطعة الاقتصادية » وهذه المقاطعة هي التي تجد في سبيل تنظيمها عصبة الأمم ضد إيطاليا ؛ وتجد إيطاليا من جهة أخرى في سبيل اتقاء عواقبها ؛ وتعلل إيطاليا نفسها بأمل انقسام أعضاء العصبة وانهيار الجبهة التي استطاعت السياسة البريطانية أن تؤلفها ضدها حين البدء في تطبيق العقوبات ، وتعتمد في ذلك بادىء بدء على فرنسا التي تزداد كل يوم تردداً وإحجاماً ؛ وسنرى على أي حال نتيجة هذا الصراع في القريب العاجل ؛ بيد أن الذي نريد أن نلفت النظر إليه هو أن تنفيذ هذه العقوبات بدقة سيقتضي بلا ريب تنظيم نوع من الحصار المسلح ضد الدولة المعتدية أعني إيطاليا ، وقد يقتضي القيام ببعض الاجراءات والأعمال العنيفة ؛ وهذا أخطر ما في التجربة ، فان إيطاليا تصرح دائماً بأنها ستقابل مثل هذه الأعمال العنيفة بمثلها ، وعندئذ يكون هذا الصدام الذي لا مفر منه ، بدء حرب ، يستحيل أن تحصر في دائرة معينة ،

ومن المحتوم أن تتحول في الحال إلى حرب أوربية وربما إلى حرب عالمية.

— ٢ —

على أننا نترك هذه التكهنات جانباً لنبحث ناحية أخرى من الموضوع. ولنفرض أولاً أن عصبة الأمم قد وفقت في مهمتها، واستطاعت الدول المتحدة أن ترغم إيطاليا على وقف الحرب الحبشية، وأن تقنع بتسوية ودية تمنح بها بعض المزايا الاستعمارية؛ فماذا يمكن أن يترتب على هذه النتيجة من الوجهة الدولية؟ يمكن أن يترتب عليها تقرير مبدأ في منتهى الخطورة أو بعبارة أخرى تأييده من الوجهة العملية، إذ هو موجود بالفعل. وهذا المبدأ هو تحريم الحرب الاعتدائية؛ وقد نص على تحريم الحرب كأداة للسياسة القومية، بمقتضى ميثاق كلوج؛ ولكن هذا الميثاق لم يكن أكثر من وثيقة نظرية؛ أما اليوم فإن تحريم الحرب يقع بصفة عملية، إذ ترغم دولة قررت عصبة الأمم أنها «معتدية» على وقف الحرب، أو تعاقب على فعلتها بالقاطعة الدولية. وهنا نستطيع أن نلمح وجه المقارنة الفقهية بين الدولة «المذنبة» وبين الفرد «المذنب» في القانون العام، وفي داخل المجتمع المتمدن يحرم على الفرد أن يرتكب ضد غيره عملاً من أعمال العنف، ولو وقع عليه اعتداء ما فلا يسمح له أن ينتصف لنفسه؛ ذلك لأن إقامة العدالة من حق المجتمع، والقانون العام ينظم المجتمع ويرتب حقوق الأفراد وواجباتهم، فإذا اعتدى على شخص فرد ما أو اعتدى على حقوقه، كان القانون كفيلاً بمعاقبة المعتدي، وكفيلاً برد الحق المسلوب، وإذا تقرر ذلك فما الذي يمنع من أن تشبه الدولة في جماعة الأمم بالفرد في المجتمع؟ وكما أن العنف يحرم على الفرد — عدا ماله من حق الدفاع عن النفس أو المال — فكذلك يمكن أن يحرم العنف على الدولة، وتحرم الحرب كأداة لتحقيق غايات السياسة القومية، وإذ كانت الحرب مازالت تعتبر في القانون الدولي أداة مشروعة للسياسة القومية، فإنه يمكن بتحريمها أن تغدو عملاً محرماً غير مشروع، والمقصود هنا دائماً هو الحرب الاعتدائية؛ وهذا ما انتهى إليه الساسة والفقهاء الذين اشتركوا في وضع ميثاق تحريم الحرب أو «ميثاق كلوج»؛ فإذا تقرر أن الحرب محرمة، وأنها تعتبر خرقاً لمواثيق السلام وقانون الأمم، فإنه يمكن معاقبة الدولة التي تقدم عليها، إذا قررت دول العالم ممثلة في هيئة دولية عليا كعصبة الأمم، أنها دولة معتدية، وقررت بذلك أن تطبق عليها نوعاً من العقوبات يكفل ردها إلى صوابها

وهذا ما نشهده اليوم في الواقع، فإن عصبة الأمم، تقرر أن إيطاليا وهي عضو من أعضائها دولة معتدية فيما تقوم به من غزو للأراضي الحبشية، وتقرر أن تطبق عليها العقوبات الاقتصادية التي نص عليها في المادة السادسة عشرة من الميثاق؛ ولكنا ننكر القول بأن عصبة الأمم ما كانت لتجرؤ على اتخاذ مثل هذه الخطوة لو لم تحركها يد السياسة البريطانية القوية، وإلا فأين كانت عصبة الأمم يوم اعتداء اليابان على منشوريا والاستيلاء عليها تحت سمع العصبة وبصرها؟ وإذا كانت عصبة الأمم تستطيع كشخصية معنوية تمثل فيها إرادة الأمم أن تحكم على الدولة الممثلة فيها أولها، فمن الواضح أنه يقتضي لتنفيذ أحكامها قوة دولية أو وسائل ضغط معينة، وهذه القوة أو الوسائل أشارت إليها المادة السادسة عشرة من الميثاق؛ ولكنها لم تخلق أو توجد بعد؛ ولو لم تتقدم بريطانيا العظمى بأهبتها وقوتها المسلحة مدفوعة بما تقدم من البواعث لتنفيذ العقوبات، لبقي قرار العصبة قراراً نظرياً لا سند له ولا أثر

على أن من الإسراف في التفاؤل والأمل أن نعتقد أن عصبة الأمم قد غدت محكمة الأمم العليا، وغدت ملاذ السلم الأعلى، وأن هذه الخطوة التي تقدم على اتخاذها اليوم ستغدو بالفعل مبدأ دولياً عالياً يحتكم إليه في كل الحوادث والظروف المماثلة. إنها نظريات السلام والعدالة الدولية وحقوق الأمم تبدو في الأفق، وفي ظلها وباسمها تعمل عصبة الأمم، ولكنها القوة في الواقع تعمل من الوراء ظاهرة غير مستترة؛ وهي تعمل مسيرة بالبواعث والمصالح الخاصة التي كان من حسن الطالع أنها تتفق مع قضية العدالة الدولية والسلام العالمي؛ ولكن هل يمكن أن تجتمع مثل هذه الظروف دائماً إذا ما تعلق الأمر بإقامة الحق والعدالة الدولية؟ هذا ومن جهة أخرى فإنه من المرجح جداً أن تطور الحوادث على هذا النحو الخطر الذي نشهده قد يقضي في النهاية على كل مظاهر الحق ونظريات السلام والعدالة الدولية؛ وقد يضطرم العالم من جديد بحرب تودي بعصبة الأمم وكل ما يمثل فيها من النظريات والمثل الدولية العليا

(* * *)

Lundi-28-10-1935

3me Année, No. 121

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

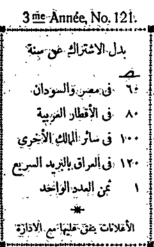
الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique



بدل الاشتراك عن سنة

م	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢١ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣٠ رجب سنة ١٣٥٤ — ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

صفحة

خيبة المدنيـــة

وا أسفاه ! ! أبعدَ هذه الحِقَب الملايين التي أتت على سليل الطين فسوَّت من خَلْقه، وراضت من خُلقه، وصقلت من ذهنه، وصفَّت من جوهره، وجعلته على ملكوت الأرض يديره على حكمه، ويجريه على نظامه — لا يزال كأوابد القفر وضوارى الغاب يسطو القوى على القوى بالختل، ويعدو القوى على الضعيف بالقتل، وتضطرب الشهوات والمآرب بين الحيلة والغيلة اضطراب الأثرة بين العجز والقدرة ؟ !

....

أبعد الرسالات المتعاقبة التي بلّغها رُسُل الله فغمرت العالم بالضياء، ووصلت الأرض بالسماء، ونهجت للنقص البشرى سبيل الكمال المطاق — لا يبرح الانسان باسطاً عنانه في الجهل، يرتكس فى عماية الهوى، ويرتطم فى حمأة المادة، ويجعل من الدين غشاء لِنابه، ومن الأخلاق طلاء لظُفره !

....

أبعد انتشار العلوم التى هتكت أستار الكون، وكشفت أسرار الطبيعة، وسبرت أغوار الحياة، وذللت رَيِّض القوة —

يظل ابن آدم على حيرة من يومه ، وفي غمة من غده ؟ لا يثق وثوق العالم بالحاضر ، ولا يطمئن اطمئنان المؤمن بالمستقبل ؟

***

أبعد ازدهار الآداب التي خلقت للناس أجنحة من الشعر ، وكشفت للعالم أجواء من الخيال ، وأبهجت مشاعر النفس بسحر المجهول ، ودبجت حواشي العيش بألوان الربيع ، ووجهت مطامح العيون إلى رفيع المثل — يظل الانسان مُسِفاً إلى حقير الأمل ، مدفوعاً إلى دنيء الغرض ، محصوراً في حدود المنفعة ؟!

***

أبعد هذه المدنية المغرورة التي تزعم أنها حررت الفكر ، وأبطلت الرق ، وضمنت حقوق الانسان ، ووحدت المقاييس بين الألوان ، وحصرت أهواء الدول العاتية في قصر من قصور (جنيف) لتأمن خصامها بالتوفيق ، وتضمن سلامها بالتعاهد ، وتجعل من جماعتها إلباً على الطغيان ، وحرباً على العدوان ، ويداً على الأثم — يظل الإنسان على عادة الجاهلية : يتكاثر بالعديد ، ويتعزز بالسلاح ، ويرصد الغفلة للغزو ، ويفترى الحجة للغصب ، ويغذي قوته على ضعف غيره ؟!

***

من كان يظن بعد هذا الدهر المتطاول والعمران المستبحر والتقدم العجيب ، أن يظل الناس على ضراوة الفطرة لا يتغير فيهم غير الغشاء ، ولا يتبدل غير الأسماء ، فتصبح البربرية بالعلم مدنية ، والاغتصاب بالمدنية انتداباً ، والاسترقاق بالقانون وصاية !

من كان يظن أن بحر الروم الذي كان بالأمس مسبحاً لغارة القرصان ، ومسرحاً لبغي الرومان ، لا يزال اليوم مجالاً لمثل ذلك ؛ فالأساطيل على وجهه ، وفي جوفه ، وفي جوه ، تضطرم بالحديد والنار لا استجابة لصريخ الحق ، ولا إطاعة لأمر القانون ، ولكن لأن طاغية من طغاة المدنية المغشوشة ، حشر جنوده في البر والبحر والهواء ليقتل أمة عزلاء قبل أن يتفق مع منافسيه على اقتراف الجريمة واقتسام الغنيمة ؟!

من كان يظن أن هذا (الفاشيّ) المفتون يقف برأى من (الفاتيكان) ، وعلى مسمع من (جنيف) ، فيلغي قانون (العصبة) ، وينقض ميثاق (كيلوج) ، ويتحدى جميع الدول ، لأنه نفخ (زقاقة السود) بالهواء الحار ، وحوّل الحذاء الايطالي كله مصانع للذخائر والآلات ، ومعامل للسموم والغازات ، ثم تكبر واختال ، وتخيل ثم خال ، وفكر فيمن يحرقه بهذا الرصاص ، ويمزقه بهذا الديناميت ، ويخنقه بهذا الغاز ، ويسحقه بهذا الحديد ، فلم يجد كفاء لتالد روما وطريف الفاشيست غير الحبشة المتواضعة المسكينة ! ! ولكن بأي حجة يبلع (الدوتشي) جبال الحبشة ورجال عدوى ؟ بالحجة الأوربية المفتحة : تمدين الشعوب الهمج . والأحباش ولا ريب همج لأنهم لا يأكلون (الأسباجتي) ، ولا يشربون (الكيانتي) ، ولا يسترقون إلا الأفراد فلم يرتقوا بعدُ إلى استرقاق الأمم ! !

***

أما بعد ، فلو كانت أمور الناس تجرى على سنن المنطق لكانت الحبشة أولى بتمدين إيطاليا ؛ قضى خمسون دولة بالاجماع على الطليان بالعار والخزى ، فقاطعوهم مقاطعة المجذوم ، وطاردوهم مطاردة الآثم ؛ ووقف الأحباش من المغير موقف الكرامة والنبل ، يقابلون العداوة بالسلم ، ويدافعون السفاهة بالحلم ، حتى ظفروا بإعجاب العالم ورُشح النجاشي لجائزة نوبل !! فلما أغار (المتمدنون) من غير إعلان ، وقاتلوا من غير ضمير ، واستعملوا أسلحة بغير حق ، دافع (الهمجيون) دفاع المستبسل الحر ، وجاهدوا جهاد المستشهد الصابر ، وغالبوا باطل المعتدين بقوة الحق وعطف الشعوب ومزايا الرجولة ، وكان موقف النجاشي الأسود من الزعيم الفاشي الأبيض موقف رب الدار من اللص ، وصاحب القانون من المجرم !

***

رويدك يا أسود الشعار وممثل دور الجبار ومنذر العالم بيوم القيامة ! إن أرواح الشباب الذين قذفتهم ظلماً في جحيم الحبشة ، لتخرق أذنيك من خلال اللهيب بهذا الهتاف الرهيب :

على رِسْلك يا نيرون ! إنك تحرق روما مرة ثانية ! !

احمد حسن الزيات

فان الغنى يُدنى الفتى من صديقه
وعدم الغنى بالمعسرين نزوح

فبكى عبد الله بن طاهر وحلف ألا يُمهل معه خفاً ولا حافراً إلا بالرجوع إلى أهله ، وأمر له بثياب ودنانير ؛ فقال عوف :

يا ابن الذى دان له المشرقان — طُرًّا وقد دان له المغربان
إنّ الثمانين وبُلِّغتَها — قد أحوجت سمعى إلى ترجمان
وبدّلتنى بالشطاط[1] انحنا
وكنتُ كالصعدة[2] تحت السنان
وبدّلتنى من زَماع[3] الفتى — وهمّتى همّ الجبان الهِدان[4]
وقاربتْ منّى خُطى لم تكن — مقارباتٍ وثنتْ من عِنان
وأنشأتْ بينى وبين الورى — عَنانةً من غير نسج العَنان[5]
ولم تَدَع فىّ لمستمتعٍ — إلا لسانى وبحسبى لسان
أدعو به الله وأثنى به
على الأمير المُصْعَبىّ الهِجان[6]
فقرّبانى بأبى أنتما — من وطنى قبل اصفرار البَنان
وقبل مَنْعاىَ إلى نسوةٍ — أوطانها حرّانُ والرّقّتان

أما أمثلة المعانى الشعرية من شعر المعاصرين ، فمن ذلك قصيدة (مصارع الأيام) للمرحوم أحمد شوقى بك ، فقد بلغت هذه القصيدة من جمال الفن ، ووفرة هذه المعانى الفاتنة غاية لم تبلغها قصيدة أخرى من شعر المعاصرين ، وأنا أنصح للأدباء والمتأدبين بحفظها وروايتها فانها تعتبر بحق من معجزات الشعر الحديث لما فيها من دقة فى تصوير الحياة بجميع مراحلها حتى ليخيّل لك أنها حياة كاملة من مبدئها إلى نهايتها يقول فى أولها :

ألا حبّذا صحبةُ المكتبِ — وأحبِبْ بأيامه أحبِبِ !
ويا حبذا صبيةٌ يمرحون — عِنانُ الحياة عليهم صَبى
كأنّهمُ بَسَماتُ الحياة — وأنفاسُ ريحانها الطيّبِ
يُراح ويُغدى بهم كالقَطيع — على مشرق الشمس والمغرب
إلى مَرْتَعٍ ألفوا غيرَه — وراعٍ غريبِ العصا أجنبى
ومستقبَلٍ من قيود الحياة — شديدٍ على النفس مستصعَبِ
فراخٌ بأيكٍ فمن ناهضٍ — يروض الجناحَ ومن أزغَبِ
تقاعدهُم من جَناح الزمان — وما علموا خطرَ المَرْكَبِ
عصافيرُ عند تهجّى الدروس — مِهارٌ عرابيدُ فى الملْعَبِ
خليّون من تبِعات الحياة — على الأمّ يُلقونها والأبِ
جنونُ الحداثة من حولهم — تضيق به سَعةُ المذهبِ
عدا فاستبدّ بعقل الصبىّ — وأعدى المؤدّبَ حتى صبى
لهم جَرَسٌ مطربٌ فى السراح — وليس إذا جدّ بالمطرِبِ
توارت به ساعةُ الزمان — على الناس دائرةُ العقربِ
تَشُول بإبرتها للشباب — وتقذف بالسمّ فى الشُّيَّبِ
يدقّ بمطرقتيها القضاء — وتجرى المقادير فى اللّولَبِ
وتلك الأواعى بأعيانهم — حقائب فيها الغد المختبى
ففيها الذى إن يقم لا يُعَدّ — من الناس أو يمضِ لم يُحسَبِ
وفيها اللواء وفيها النار — وفيها التبيع وفيها النبى
وفيها المؤخَّر خلف الزحام — وفيها المقدَّم فى الموكبِ

ويقول فى آخرها :

قد انصرفوا بعد علم الكتاب — لبابٍ من العلم لم يُكتبِ
حياةٌ يغامر فيها امرؤٌ — تسلّح بالناب والمخلبِ
وصار إلى الفاقة ابن الغنىّ — ولاقى الغنى ولد المتربِ
وقد ذهب المتلى صحةً — وصحّ السقيم فلم يذهبِ
وكم منجب فى تلقى الدروس — تلقّى الحياة فلم ينجبِ
وغاب الرفاق كأن لم يكن — بهم لك عهدٌ ولم تصحبِ
إلى أن فنوا ثلّةً ثلّةً — فناءَ السراب على السبسبِ

ولنذكر لك مثالاً آخر للمعنى الشعرىّ من شعر شوقى أيضاً موضحين لك معناه الأصلىّ ، وكيف استطاع صاحبه أن يحوّله إلى معنًى شعرىّ بما أدخله عليه من المحسنات التى تلعب بالألباب لعب الشمول ، قال يصف أبا الهول :

أبا الهول طال عليك العصُر — وبلّغتَ فى الدهر أقصى العمُر
فيا لِدةَ الدهر لا الدهر شاب — ولا أنت جاوزتَ حد الصغر
إلامَ ركوبك متن الرمال — لطىّ الأصيل وجَوْب السحَر
تسافر منتقلاً فى القرون — فأيانَ تلقى غبار السفر
أبينك عهدٌ وبين الجبال — تزولان فى الموعد المنتظر

الخ ...

(١) الشطاط : حسن القوام والاعتدال
(٢) الصعدة : القناة المستوية
(٣) الزماع المضاء فى الأمر والعزم عليه
(٤) الهدان : الأحمق الجافى الوخم الثقيل فى الحرب
(٥) العنان بفتح العين : السحاب ؛ يريد بهذا البيت أن السن قد أضعفت بصره
(٦) الهجان : الكريم

فان المعنى الأصلى لهذه الأبيات لا تزيد على أنه يصف أبا الهول بطول البقاء ، وأن العصور المتوالية والأجيال المتعاقبة لم تنل منه منالاً ، ولم تصدع له بناء ، فانظر إلى عبقرية شوقى كيف أتت بذلك المعنى اليسير واستخرجت منه تلك المعانى الكثيرة الساحرة ومزجته بتلك المحسنات الفاتنة ؛ أتراه لو أنه اقتصر على نظم المعنى الأول كان يعده أصحاب الذوق الشعرى قد صنع شيئاً أو أتى بجديد ؟ ولا يفوتنا فى هذا الفصل التنبيه على وفرة هذه المعانى الشعرية الساحرة ، وقوة الجمال الفنى الرائع فى شعر الرافعى ، فانك تحس بذلك الجمال فى كل بيت من أبياته ، بل فى كل سطر من نثره ، بل فيه هو إذا جلست إليه وتحدث إليك ، فهو شعر كله ؛ وإنما أنسب الغموض المتوهم فى بعض أبياته إلى قصور ذهن المتوسطين من القراء ، وإلى ضيق الألفاظ المحدودة عن أن تحصر هذا الجمال المعنوى الذى لا يحد ؛ إلا أننى أرى أن معانيه من صنعة الفكر وابتكار الذهن ، لا من وحى العاطفة وإملاء الاحساس . وإليك بعضاً من شعره ليتبين لك صحة ما ذهبت إليه ؛ قال يصف بائسة حسناء أفقرتها الحرب :

طريدة بؤس مل من بؤسها الصبر
وطالت على الغبراء أيامها الغبر

وكانت كما شاءت وشاء جمالها   كما اشتهت العليا كما وصف الشعر

تلألأ فى صدر المكارم درة   يحيط بها من عقد أنسابها در

وما برحت ترقى السنين وتعتلى   وكل المعالى فى طفولتها حجر

فكانت كزهر نضر الفجر حسنه
ولما علت كالنجم أطفأها الفجر

تقاسمت الحسن الالهى وأنثى   يقاسمها ، فالأمر بينهما أمر

فللشمس منها طلعة الحسن مشرقا
وفيها من الشمس التوقد والجمر

وللزهر منها نفحة الحسن عاطرا   وفيها ذبول مثلما ذبل الزهر

وللظبى منها مقلتاها وجيدها   وفيها من الظبى التلفت والذعر

وما قيمة الحسناء يقبح حظها
وتذوى بروض الحب أيامها الخضر

فما الحسن فخر للحسان وإنما   لخالقه فيما يريد به زهر

ضعيفة أنقاض المنى بعد ما غدت   رقاب أمانيها يغللها الفقر

وبين تخطى أيامها كل عثرة   تزلزل أقدام الحياة بها العمر

وزجت بها الأحزان فى بحر دمعها   وليس لبحر الدمع فى أرضنا بر

إذا استنبئوها أرسلت من دموعها
لآلئ حزن كل لؤلؤة فكر

وإن سألوها لجلجت فكأنما   عرا اللفظ لما مر من فيها سكر

مشردة حيرى تنازع نفسها   فريقان ذل لم تعوده والكبر

إلى أن قال فى هذه القصيدة يصف ما فى الانسان من شر وسوء :

رأت كل مخزاة من الشر تلتوى   ويهرب ذعراً من جنايتها المذر

رأت أثراً تدمى به الأرض والسما
وليس سوى الانسان فى جرحه ظفر

أليس يرى الانسان فى القرد شبهه
فهل ذاك إلا من تكبره سخر

كما عاقب الله الأسود لكبرها   فجاء لنا فى صورة الأسد الهر

وهى طويلة

فقد عرفت الآن نوعين من المعانى وعرفت الفرق بين المعانى الأولية والمعانى الشعرية التى هى من مقومات الشعر وأصوله

فينبغى للشاعر إذا أراد أن يكون شعره خصيب المعانى ، متنوع الأغراض ، أن يقصد إلى المعنى قبل ألفاظ البيت وقافيته ، فيمزجه بالمحسنات التى سبق ذكرها ، ويهذبه تهذيباً يقربه من العواطف ليحدث فيها أثره ، ويبعث الحياة فيما همد منها .

وبعض الشعراء قد تعوزهم من البيت قافيته فيتطلبونها قبل المعنى ، ويتلمسونها قبل إعداد الغرض ، فاذا ظفروا بالقافية أتوا بالمعنى على مقتضاها ، فيخرج الشعر مكبلة معانيه ، مظلمة نواحيه ، ضيق المقاصد ، قليل الأغراض ؛ وكثيراً ما ترى ذلك أيضاً فى شعر شعراء البديع الذين لا يقصدون من البيت أو القصيدة إلا إلى ذلك النوع البديعى الذى لا يحرك نفساً ، ولا يهز حساً . فقد أجهزوا على الشعر بالحرص على هذه المحسنات اللفظية إجهازاً تاماً ، وصيروا البكاء عليه فى جميع الأقطار عاماً .

وإليك أبياتاً من قصيدة لصلاح الدين الصفدى كتب بها إلى صديقه جمال الدين بن نباته المصرى ، وقد ضمنها شطرات من معلقة امرئ القيس التى أولها : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » وجعل صدر كل بيت من شعره وعجزه من قصيدة امرئ القيس ، قال :

أفى كل يوم منكِ عتبٌ يسوءنى
(كجلمود صخر حطه السيل من عل)

وترمى على طول المـدى متجنياً
(بسهميكِ فى أعشار قلبٍ مقتَّل)

فأمسى بليلٍ طال جنح ظلامه
(علىَّ بأنواع الهموم ليبتلى)

وأغدو كأن القلب من وقدة الجوى
(إذا جاش فيه حميُه غلىُ مرجل)

تطير شظاياه بصدرى كأنها
(بأرجائه القصوى أنابيشُ عنصُل)

وسالت دموعى من همومى ولوعتى
(على النحر حتى بلّ دمعى محملى)

وهى طويلة ، وقد أجابه ابن نباتة بقصيدة مثلها ضمنها شعر امرئ القيس أيضاً ، قال :

فطمتَ ولائى ثم أقبلتَ عاتباً
(أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل)

بروحى ألفاظ تعرّض عتبها
(تعرّض أثناء الوشاح المفصّل)

فأحيين وداً كان كالرسم عافياً
(بسقط اللوى بين الدخول فحومل)

تمرّ رياح الصد منك رقومه
(لما نسجتها من جنوب وشمأل)

نعم قوّضتْ منك المودّة وانقضت
(فيا عجبا من رحلها المتحمّل)

وهى طويلة أيضاً

فهل ترى فى هذا الشعر غير القدرة على الملاءمة بين شعرهما وشعر امرئ القيس ، والمهارة فى التوفيق بين المعانى المتباعدة والأغراض المتباينة ؟ على أن هذه القدرة ضائعة القيمة حقيرة الخطر إذا قيست بما جرَّه تكلف التضمين على هذه الأبيات من تفاهة وبرود ، وخلوها من روح الشعر . ولنا فى هذه الفصول عودة إلى شعراء البديع وغيرهم ممن يحرصون على إظهار القدرة اللفظية أكثر من غيرها فى شعرهم

أحمد الزين

معـــركة عدوى (*)

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

أخذت الجرائد والمجلات فى الآونة الأخيرة تبحث فى معركة عدوى التى انتصر فيها الأحباش على الطليان . وكثيراً ما يذكرها الطاغية موسوليني ، ويحث الشبان الفاشيست على محو وصمة العار التى لحقت بالجيش الطليانى ، ويمارى للملأ أنه عازم على الانتقام من الأحباش

وقعت هذه المعركة فى ١ مارس ١٨٩٦ فى أطراف عدوى بين الجيش الطليانى البالغ عدده زهاء عشرين ألفاً ، والجيش الحبشى البالغ مقداره زهاء ثمانين ألفاً ؛ وبرغم حيازة الجيش الطليانى على الأسلحة الجيدة ، وتنظيمه على أحدث الأساليب ، انتصر الأحباش عليه انتصاراً مبيناً ، وأوقعوا به خسارة فادحة بلغت ٢٤٨ ضابطاً ، و ١٥٤٠٠ جندى ، بين قتيل وجريح وأسير ، ونالوا بذلك صك استقلالهم الذى امتنعت ايطاليا عن الاعتراف به

لم يكن الجيش الحبشى جيشاً منظماً على الوجه المطلوب ، بل كان مؤلفاً من أناس مسلحين بأسلحة متنوعة ، كالبندقية والحربة والسيف والترس والقوس وغير ذلك ، وكان يقودهم رؤساؤهم على الطريقة البدوية ، وكانت مدافعه قديمة يبلغ عددها الأربعين ؛ وكان لدى الجيش الطليانى أربعة وستون مدفعاً حديثاً

وقبل البحث فى هذه المعركة رأينا من المفيد أن نذكر باختصار جغرافية الحبشة وتاريخها وعلاقاتها بالدول المستعمرة

(*) أصدر الجنرال التركى كاظم قره بكر باشا كتاباً جليلا عن الحبشة ؛ وعنوانه « ايطاليا والحبشة » ، وهـذا الجنرال من أشهر قادة الترك الذين برزوا فى الحرب العامة وفى حرب الاستقلال ، وكان يقود الجيش الشرقى المرابط فى شرقى الأناضول فى حرب الاستقلال ، وتغلب على الجيش الأرمنى فأضاف إلى تركيا مقاطعتى القرص وأردهان ، وبعد تلك الحرب انتخب مندوباً فى المجلس الوطنى الكبير . وكان معارضاً لالغاء الخلافة فلم ينتخب بعد ذلك ، فاعتزل السياسة وقبع فى داره فى استانبول ، وانكب فى المدة الأخيرة على التأليف فأصدر الكتاب المذكور . والكتاب يقع فى ٤٣٨ صفحة ، وهو مزين بالرسوم والخرائط ، وقد وضعه بعد أن طالع مؤلفات كثيرة وهو شامل كل ما يحتاج اليه القارىء . وقد اقتبست منه أكثر المعلومات الواردة فى هذا المقال

جغرافية الحبشة

تقع الحبشة في الشمال الشرقي من إفريقية ، ويحيط بها من الشرق مستعمرة اريترة الطليانية ، والمستعمرات الصومالية الفرنسية ، والبريطانية والطليانية ؛ ومن الشمال مستعمرة اريترة والسودان المصرى ؛ ومن الغرب والجنوب المستعمرات البريطانية في وسط افريقية

ولا منفذ للحبشة إلى البحر الأحمر ، وقد سدت دول الاستعمار طريق البحر في وجهها ، فجعلتها خاضعة لها في تجارتها واقتصادياتها . وتبلغ مساحتها السطحية زهاء ١٫١٢٠٫٠٤٠ كيلو مترا مربعاً ؛ وتقدر نفوسها باثنى عشر مليونا ؛ وهذه النفوس لا تنتمي إلى قومية واحدة ، ولا تدين بدين واحد ؛ وفيما يلى الشعوب التي يتألف منها سكان الحبشة :

الأمحرة ، الغالا ، السيدامو ، الصومال ، الدناكل ، الزنوج

ودين الدولة الرسمى المسيحية ، والمذهب يعقوبى . وفيما يلى عدد النفوس بالنظر إلى الأديان :

العـــدد	
٤٫٥٠٠٫٠٠٠	مسيحيون (يعاقبة)
٣٫٠٠٠٫٠٠٠	مسلمون
٣٫٥٠٠٫٠٠٠	وثنيون
٥٠٫٠٠٠	يهود
٤٠٫٠٠٠	كاثوليك
٥٫٠٠٠	الاتحاد اللاتيني

واللغة الرسمية هى اللغة الأمحرية وهى شعبة من اللغات السامية والعاصمة أديس أبابا ونفوسها زهاء ١٠٠٫٠٠٠ نسمة وهى متصلة بالميناء جيبوتى عاصمة المستعمرة الفرنسية بالسكة الحديدية

وصف البلاد — السهول والجبال

تتألف بلاد الحبشة من جبال وسهول . والأراضي السهلة واقعة بالقرب من الساحل . أما الأراضي الجبلية فهي في داخل البلاد . وإذا ما أنعمنا النظر في خريطة الحبشة رأينا أن سلاسل الجبال الواقعة إلى الشرق وإلى الجنوب قد كونت مثلثاً متساوى الأضلاع : الضلع الشرقي منه ضفاف البحر الأحمر وخليج عدن ، والضلع الجنوبى يمتد من رأس عسير القابل لجزيرة سومطرة إلى الشرق ، والضلع الغربى يمتد من الشمال إلى الجنوب

والأرض الواقعة في هذا المثلث هى الأرض السهلة المتموجة من بلاد الحبشة والمتاخمة لمستعمرة أريترة الطليانية والصومال الفرنسي والبريطاني . والقسم الشمالى منها صحراء دناكل القاحلة ، وإلى جنوبي الضلع الجنوبي من ذلك المثلث تقع أرض سهلة متموجة أخرى تتألف منها بلاد الغالا وفيها قصبة ولوال التى نشأ الخلاف عليها بين إيطاليا والحبشة

وليست الأرض المتموجة خالية من الجبال ، فالجبال منتشرة فيها هنا وهناك ، إلا أنها أقل وعورة من المناطق الجبلية الواقعة إلى غربي الضلع الغربي من المثلث المذكور . ومع ذلك تقع سفوح الجبال الشرقية إلى شرقى هذا الضلع وهى شديدة الانحدار كثيرة المناعة والوعورة

والجبال فى الحبشة تحيط البلاد الداخلية بسور منيع طالما وقف في وجـــه المستعمرين وساعد الأحباش على الاحتفاظ باستقلالهم

ويشبه الوضع الجبلى فى داخل بلاد الحبشة خطوطاً مستحكمة ، فخط منها فى الشرق يمتد من الشمال إلى الجنوب على موازاة الساحل ويسيطر على السهول ويسد طرق الاستيلاء الممتدة من الساحل . وهذا الخط هو السلسلة التى تؤلف ضلع المثلث الغربى

وهناك خط آخر ممتد من رأس عسير فى الصومال البريطانية على موازاة ساحل خليج عدن الجنوبي إلى أن يصل إلى قصبة (هرر) (١) ثم ينعطف نحو الجهة الجنوبية الشرقية ثم إلى الجنوب موازياً للبحيرات الواقعة فى جنوبى الحبشة ، وهو السلسلة التى تؤلف الضلع الجنوبى للمثلث . وهذا الخط يعلو ارتفاعاً ويشتد مناعة كلما تقدمنا من الشرق إلى الغرب ، وكأنه الخط المستحكم الأول الذى يسد طرق الهجوم فى وجه القوات الزاحفة من الصومال الطليانية للتوغل فى صحراء الغالا

(١) لم نتأكد من أسماء الأعلام بالضبط فكتبناها كما وردت فى الكتب الأجنبية

وغير هذين الخطين توجد خطوط أخرى تمر بذرى الجبال الشامخة منفصلة عن الخط الشرقى، وممتدة من الشرق إلى الغرب على موازاة حدود أريترة الطليانية الشمالية كأنها خطوط مستحكمة متوازية لصد القوات المتقدمة من الشمال على التعاقب

ومع وقوع الأرض السهلة والأرض المتموجة والحافات الشرقية الوعرة فى شرق الخط الأول الممتد من الشمال إلى الجنوب والمسيطر على صحراء الدناكل تشتد الأرض وعورة وتزداد مناعة فى هذا الخط ذاته وفى غربيه - أى فى الهضبة الحبشية التى تقطعها عدة سلاسل جبلية ممتدة من الشرق إلى الغرب على ما سبق ذكره؛ وفى أطراف بحيرة تانا تلتف الجبال بعضها ببعض فتكون المعقل المركزى للحبشة بشكل منحرف، ضلعاه القصيران فى اتجاهى الشرق والغرب، وضلعاه الطويلان فى اتجاهى الشمال والجنوب؛ وتقع العاصمة (أديس أبابا) فى طرف الضلع الشرقى

أما منطقة البحيرات الواقعة فى جنوبى الحبشة فحاطة من الشرق والغرب بسلسلتين جبليتين؛ وهما طرفا الخط الأول والخط الثانى الممتدين من الشرق إلى الغرب، وفى وسط هاتين السلسلتين تعلو البحيرات فتؤلف هضبة مرتفعة

مما تقدم نعلم أن داخل بلاد الحبشة قلعة منيعة ذات عدة خطوط مستحكمة تسيطر على السهول فى الشرق والجنوب، وهى مؤلفة من عدة معاقل كونتها الهضاب الشامخة بجبالها وغاباتها

وبحيرة (تانا) تمد وادى النيل بالمياه فى موسم الصيف بواسطة رافده النيل الأزرق، وهى ذات خطورة خاصة لمصر والسودان، ولولاها لما فاض النيل فى كل سنة فيسقى الحقول الواسعة والمزارع الخصبة التى ضرب بها المثل فى فجر التاريخ؛ وسبب ذلك أن الثلوج المتراكمة فى ذرى الجبال تذوب فتختلط بالأمطار الغزيرة التى تنزل صيفاً فتجرى فى الوديان المتشعبة من الجبال وتنصب جميعاً فى النيل الأزرق فيطفح بالمياه وبالطين، وينقل البركة والخير إلى بلاد السودان ومصر

ولنذكر بعد ذلك المرتفعات التى فى أرض الحبشة:

الأرض المتاخمة للساحل فى المستعمرات الطليانية والفرنسية والبريطانية منخفضة وسهلة، وكلما تقدمنا من الشرق إلى الغرب أخذت الأرض فى الارتفاع. وفى أريترة (على مسافة تتراوح بين ٥٠ و ٨٠ كيلو متراً من الساحل تتصل هذه الأرض بالقسم الشمالى من الخط الأول فتصبح شامخة وعرة، مكسوة بالغابات والأحراج

وفى صحراء دناكل بالقرب من (غصب) تكون أرضاً متموجة قليلة المياه، وذات شعاب ووديان؛ وعلى مسافة (٢٠٠ إلى ٣٠٠) كيلو متر من الساحل تصل إلى حدها الأعلى فى الخط الأول حيث المضايق الوعرة؛ ويتفاوت ارتفاع الذرى فى هذا الخط من (٢٤٠٠ إلى ٤٣٠٠) متر، ويبلغ الارتفاع فى ذروة (أبونا يوسف) (٤٢٠٠) متر، وفى ذروة (كالو) يبلغ ٤٣٠٠ متر، وتقع قلعة (مجدلة) على هذا الخط

وفى الجنوب يبدأ السهل من ساحل البحر المحيط الهندى ويأخذ فى الارتفاع إلى الغرب، وعلى مسافة ٢٠٠ إلى ٣٠٠ كيلو متر من الساحل يبلغ من الارتفاع والوعورة مبلغاً يكون هضاب «أوجادن» و «بوران»

وتتفاوت الارتفاعات فى هذا القسم من (٣٠٠ إلى ١٠٠٠) متر. وبالقرب من خليج عدن يبلغ الارتفاع فى السلسلة التى تؤلف الخط الأول ٢٠٠٠ متر فى جنوبى «بربرة»

وفى صحراء «الغالا» نجد الأرض متموجة، والزوايا قليلة الميل، وهى ترتفع إلى جبال هرر بسهولة وتلتقى بالخط الثانى، وتتفاوت المرتفعات فى مركز هذا الخط من (١٠٠٠) إلى (١٥٠٠) متر، وفيها هضاب شامخة بانحدارات شديدة كأنها جدران يتفاوت ارتفاعها من (٢٠٠٠ إلى ٣٥٠٠) متر وصخورها بركانية

أما الجبال الداخلية التى تؤلف معاقل الحبشة، فالهضاب فيها ترتفع (٢٠٠٠) متر كأنها قلعة أحاطت بها الجبال من الشمال والشرق والجنوب، ومع ذلك لا يمكن تسلقها من جهة الغرب حيث يجرى النيل الأزرق إلا بصعوبة

وفى منطقة «غوجام» يبلغ الارتفاع فى رأس «دانجان» (٤٦٢٠) متراً، وهو أعلى ذروة فى بلاد الحبشة

(يتبع) طه الهاشمى

من أدب الشوق المترجمة

شجرتى الضـــالة

« مهداة إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعى »

للأستاذ خليل هنداوى

مقـــدمة :

« لى شجرة ضخمة الجذع وارفة الغصن ؛ أحج إليها كل يوم لأتبوأ جذعها الأبتر مقعداً ، حيث لا يطرقنى إلا الطيور النازحة والنسائم الرائحة . شأن هذه الشجرة عجيب ، قد غبرت عليها عصور ، وهى ثابتة تبدل قشوراً بقشور ، لا يمسها نصيب ولا فتور . والسالك فى ذلك الطريق الوعر ينجذب بظلها ، ويأوى إليها مخففاً عن نفسه بعض ما ناء بها من مشقة الطريق ؛ فيرى الظل والراحة والنعيم ؛ فيتمنى لو أقام أيامه تحت ظلها ؛ أو لو أن حياته القلقة تحتوى على مثل هذا الظل الذى تتخط عليه الشمس من كل مكان لتحرقه وما هو بمحترق ؛ ولكن الانسان ما أشقاه ! ولوع بالسير ولكن الى أين ؟

هذه الشجرة آثرتها لى مثوى فى أيام ضيق ، لانها تقصينى عن الناس وتدنينى من نفسى ؛ وما آثرته لجسدى منتقلا كيف لا أوثره له يوم تغدو حقيقته ظلا ! . . . . »

« خليل »

المسلك اليك وعر يا شجرتى !

وها أنذا قد سلكته

الطريق محفوف بالشوك

وها أنذا قد طرقته . . .

***

يقولون عنك « ضالة » لأنك آثرت هذه العزلة العميقة ،

وهذه الزاوية السحيقة

وينظرون اليك ساخرين لأنك تركتهم وملت إلى الانفراد .

كم يخشى الناس هؤلاء المعتزلين !

يرونهم فيقولون : ربنا لا تجعلنا من الضالين

***

أتضنين على من سلك الوعر اليك . . .

ضالاً عن قرنائه

بهذا الفيء الذى جاهدت جذورك وأوراقك وروحك

فى حياكته

ولو أردت الظل لنفسك لما تعبت فى مده

والظل الخفيف يغنيك . . .

ولكنك لست كالانسان الذى يقضى العمر كله فى حياكة

ظل لنفسه ، ويمضى غير منتهٍ من حياكة ذلك الظل

أما ظلك أنت فقد حكته !

وهذا الظل الواسع الممدود على الأرض لمن تحوكينه ؟

أليس — للضالين — أيتها الشجرة الضالة ؟

إلهى اجعلنا من الضالين !

***

أتضنين على من تحمل النصب من أجلك — وقد تكونين

أنت فى غنى عنه —

أتضنين عليه باستواء قصير على منكبك العالى

ليشركك فى تأملك العميق

وإن ضلالك ليشرك ضلالى

وظلك الممدود ينادى خيالى

فلا تثاقلى من استوائى عليك ، فاننى لن أشوش عليك

تأملاتك

ولن تمطل طيورك أهازيجها من أجلى

افتحى قلبك لى فانى لاجىء اليك

وأومئى بأوراقك فانى ضال مثلك

***

أأنت تلك المحجة التى يسعى اليها الانسان غير حافل بوعورة

الطريق ؟

أأنت تلك المحجة التى تناهضها الصخور والوغور والأشواك

لتواريها عن العيون ؟

وكم يتكلف الوصول إلى هذه المحجة ؟

ارتفعى كثيراً واسمى كثيراً ، حتى تبدو للضالين ذروتك ،

وامددى بأغصانك إلى السماء

وليجذبها شوقك دائماً إلى السماء

***

هل رأيت المحجة بعين الشوق ، فأنبأت رفيقاتك فسخرن منك ، لأنهن لا يرين إلا بعيونهن ، فاعتزلتهن ، وانطلقت وحدك وراء المحجة . . .

نورها يسطع للعيون رقراقاً ، فما أدناه للعين وما أبعد تناوله !

اغمضي عينيك فقد جدت ، وسالي قدمك فقد ارتعشت

والمحجة لا تزال بعيدة كالنور الذي ترنو إليه العين وتقصر عنه اليد

***

ألا أن المحجة في عالم أنفسنا قد سطعت ، فمدي يدك إلى قلبك تلمسيها ، وانظري بعينك في نفسك تبصريها

ألا ان المحجة في أنفسنا . . .

***

ستضرمنا العاصفة ثم تذروناً الرياح رماداً قبل أن ندرك هذه المحجة

أليست هي في أنفسنا ؟ ولكن الابعاد الشاسعة بين نجوم الفضاء . . . هذه الأبعاد التي ترتجف لها مقاييسنا حين نمدها بينها ، هذه الأبعاد هي أقرب تناولاً من الأبعاد الشاسعة المنتصبة بيننا وبين أنفسنا

أين أنت أيهذا الذي بلغ نفسه !

بلى ! ستضرمنا العاصفة ، وسنحول رماداً قبل أن تنتهي مراحلنا إلى أنفسنا

***

كلانا ضال وراء نفسه

كلانا رهب طريقه الناس ، لأن طريقنا طريق الوحدة ، وطريق الوحدة طريق الضلال

كلانا يمشي وإن لم يكن في نظر المقاييس شيئاً ، لأن مشينا لا تدركه مقاييس

***

ضميني اليك يا شجرتي الضالة فقد أضواني السير ولفحت وجهي الشمس

ضميني اليك أقرن تأملاتي بتأملاتك ، فنحن في نظر الحياة شريكان يتمم بعضنا بعضاً

تضيئنا شمس واحدة ، وتنير طريقنا مصابيح واحدة ، وتتلاقنا غاية واحدة

مشهدك واحد في حياتك كلها لا يبرح ناظرك ، ولك منه كل يوم وجه للتأمل جديد

ومشاهدي كثيرة واعتباري منها قليل

***

وواصلي أيتها الطيور أغانيك فوق رأسي فما أنا بالمروع لك !

وغذيني أيتها الشجرة الضالة بفيئك الواسع

وغداً أغذى جذورك بلحمي ودمي

ألست ظمأى إلى دم انسان !

محجتنا واحدة وصداقتنا عميقة فوق ظهر الأرض وتحت بطنها

ستمتصني جذورك عصيراً ، وستحملني سراً عميقاً إلى فروعك النامية

إننا لن نقف !

لأن الشمس تبارك أشواقنا وتنير أرواحنا لأننا أحسنا الاستحالة

وبغير هذه الاستحالة كيف يريدون أن تحول جذورك هذا الظل الوارف الذي يأوي اليه الضالون !

وكيف يريدون أن تميش هذه الزهور المتفتحة بدون رماد !

ألسنا في حالي الفناء والوجود قافلة من قوافل الحياة السائرة منذ الأبد حتى الأبد ؟

ألست في صدرك حياً أيتها الشجرة ؟

ألست أنت حية في صدر النار التي ستلتهمك ؟

ونحن ألسنا بعد شيئاً ينبض في قلب الحياة دماً ولحماً ، وماء ونباتاً ، وناراً ورماداً ؟

***

ربي أحلني في قلب هذه الشجرة ثمرة يباركها قلب جائع ، ثم اجعلنا وقوداً لنار يهتدي بها الضالون ؟

« كفريا » خليل هنداوي

من نوادر المخطوطات

أثر أدبي فـــذ !

اختراع الخراع لصلاح الدين الصفدي

للأستاذ علي الطنطاوي

تتمـــة

قوله من الطلوع : نعوذ بالله منه ، لأنه مرض ينبغي يحدث في الشعر لمداومة أكل الزنجبيل والأشياء الحارة : كالبطيخ والأسماك ، وغيرها . قال ابن الدمينة يرثى شخصاً :

فسّر لي عابر مناماً ... فمثّل في قوله وأجمل

وقال لا بدّ من طلوع ... فكان ذاك الطلوع دمّل

ومن قال إن الطلوع ضد النزول واستشهد بقول أبي ذؤيب الهذلي في الهجاء :

أيسعدني يا طلعة البدر طالع ... ومن شقوتي خط بخديك نازل

فقد أخطأ ووهم والصحيح الأول[1]

إلى بترك : لفظ مركب من الأعداد في التركي ، كقولك في العربي واحد اثنان ، فبيز واحد وإكي اثنان . ومجموع هذا العدد سبعة ونصف ، لأن إكي ناقصة الياء ، ولولا ذلك لكان المجموع ثمانية ، وألفاظ الأتراك لا شاهد عليها من العربية . فلهذا أضربنا عن الاستشهاد لذلك

في الليل : الليل معروف ، وهو من الزوال إلى أذان العصر في العرف ، وفي اللغة من طلوع الشمس إلى غروبها ، كما قال دريد بن الصمة في الغزل :

أمســـتوفي قليّوبَ ... إلى كم هكذا تكذب

من الصبح إلى الظهر ... إلى العصر إلى المغرب[2]

(١) ابن الدمينة من شعراء الحماسة ، والبيتان من شعر الحكيم شمس الدين بن دانيال ، وأبو ذؤيب شاعر معروف ، والبيت لشمس الدين محمد بن العفيف ...

(٢) دريد بن الصمة من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، والشعر لشرف الدين الأبوصيري ...

وقليوب بليدة صغيرة على شاطئ الفرات من أعمال عدن ، وقيل هي إقريطش (كريد) باليمن

قوله : ظلام النهار الخ . . الخ . .

القول في الإعراب :

لو : حرف يجر الاسم ويكسر الخبر على ما ذكره الرماني في شرح طيبي الشفا . والكسائي في رموز الكنوز[1] هذا مذهب الكوفيين ، والصحيح أنها من الأفعال الناقصة التي لا عمل لها ، إنما قلنا إنها فعل ناقص لأنها كانت في الأصل لوى فنقصت حرفاً ، وإنما قلنا إنها لا عمل لها لأنها متى نقصت ضعفت عن العمل ، وهذا الذي ذهب إليه إقليدس وارشميدس في مخارج الحروف وبرهناه مستشهدين على ذلك بقول الشماخ في رائيته :

أرسل فرعاً ولوى هاجري ... صدغاً فأغنيا بهما واصفه[2]

(وقد سقط من الرسالة أوراق لا أدري كم هي ، ثم يبدأ الموجود منها بقوله)

. . . قال الشارح رحمه الله تعالى :

ما في كلام العرب اسم معتل الطرف بالألف المقصورة غير كان ، وهذا مع أن دخلت فيها الحركات الثلاث : الجر والخفض والكسر فأجريت مجرى الصحيح ، وليس بعجيب . قال أرسطو المعزي :

وربما صحت الأجسام بالملل[3]

ومن قال : هذا من شعر أبي مرة الحلاوي ابن المتنبي فهذا قول من لا يدري علم الرمل ما هو . .

وبعد هذا فما أدري بماذا حكم عليها ؟ هل هي صلة وتتمة لابن خلكان وزير بغداد الحنبلي[4] ، أو هي اسم قائم برأسه ، استغفر الله : قائم برجليه . فإن قلنا إنه صلة من ابن خلكان فلا يخلو إما أن يكون العائد على الصلة من باب أسماء الأفعال أو من باب ما لا

(١) الشفا لابن سينا في الحكمة ، ورموز الكنوز لسيف الدين الآمدي ، والكسائي شيخ نحاة الكوفة ، والرماني من النحاة

(٢) إقليدس وأرشميدس من فلاسفة يونان ، والشماخ معروف ، والشعر للمتأخرين ...

(٣) أرسطو معروف ، والشطر للمتنبي

(٤) ابن خلكان هو قاضي القضاة الشافعي المؤرخ المعروف

ينصرف ، فان كان الأول من القسمين لزم الخ . . أكل : فعل مضارع لأن في أوله أحد الزوائد الخمسة وهو الهمزة ، إنما قلنا بزيادتها لأنه لا يصح تجريدها ، تقول كلّ شيء . . قال لبيد :

كل خطب مالم تكونوا غضابا يا أهيل الحمى علىّ يسير

وقد جاء فعلاً ماضياً في قول الخنساء الأخيلية ترثى زوجها :

أكلُ الأمر إذا ماحل بي للذي قدّره أن يقما[1]

الشمير : الألف واللام أصلية ، وهو نكرة إن قلنا بأنها أداة التعريف ، ومعرفة إن قلنا بأصليتها ، ذكر ذلك المبرّد في كتاب ديسقوريدوس[2] في باب النعت ، وهو هاهنا مرفوع على الحال ؛ وللنحاة هاهنا بحث في الماضي والمستقبل والحال بينهم وبين الحكماء ، لأن النحاة أنكروا زمن الحال ، وقالوا ثبوته يؤدى إلى القول بالجوهر الفرد وهو ممنوع ، وقول الحكماء أقرب إلى الصحة[3] قال عبد الله بن عجلان النهدي :

ولو عاين النظام جوهر ثغرها لما شك فيه أنه الجوهر الفرد[4]

وما الذي يمنع الخ . . .

في : إسم لأنه يحسن دخول حرف الجرّ عليه : تقول انتقل من الشمس إلى فيء الظلّ ، ودخول الألف واللام : تقول هذه الدراهم مبلغ ألفي درهم ، والاضافة تقول : أعجبني حسن فيك ، والتنوين أيضاً تقول : هذا المال فيءٌ للمسلمين ، وعلى الجملة فما للنحاة في الأسماء كلمة يدخلها سائر خواص الاسم إلا (في) وهي ممنوعة من الصرف لأنه اجتمع فيها من العلل أكثر مما اجتمع في أذربيجان ، وذلك أن الفاء بعشرة والياء بثمانين على ما ذكره الزجاج في الجمل ، فصارت تسعين ، وعلل الصرف المانعة تسعة ؛

قال شبرمة بن الطفيل في وصف الزرافة :

ربّ برغوث ليلة بت منه وفؤادي في قبضة التسعين

والقبض هو المنع من الصرف[5] . فلهذا قال النحاة إن (في) لا تنصرف ، وهذه النكتة غريبة جداً لم أر أحداً ذكرها

(١) لبيد معروف ، والشعر لبعض المتأخرين ، والخنساء أخت صخر وليلى الأخيلية صاحبة توبة

(٢) المبرد من أئمة العربية ، وكتاب ديسقوريدوس في معرفة الأدوية النباتية المفردة

(٣) الأمر على العكس فالنحاة أثبتوه والحكماء أنكروه

(٤) ابن عجلان من شعراء العرب والبيت لابن سناء الملك

(٥) شبرمة من شعراء العرب والبيت للصاحب جمال الدين بن مطروح

من النحاة غير الاصطخري في كتاب الحيات له[1] ، وهو معرب بالنصب على أنه صفة للفاعل وهو جارية وإن قلنا الخ . .

البرد : منصوب بالألف واللام التي في آخره على أنه خبر متقدم تأخر عنه المبتدأ فحذف ، وهي مسألة مشهورة في باب الاستثناء ، ونصّ عليها سيبويه خلافاً لابن الحاجب لما بحث معه في المسألة الزنبورية بين يدي الوليد بن عبد الملك ، وتقدم الخبر دائر في الكلام على ألسنة العرب ، قال كثير عزة في محبوبته بثينة :

والله ما من خبر سرّني إلا وذكراك له مبتدا

فقدم الخبر وأخر المبتدا . . .[2]

(الى أن قال) :

القول على المعنى

قبل الخوض في الكلام على المعنى نقدم مقدمة تشتمل على ما يتعلق بهذين البيتين من التاريخ منقولاً من المجسطى للاحنف ابن قيس في تاريخ بغداد ؛ فنقول : بكتوت هذه كانت بعض حظايا النعمان بن المنذر ، شراها من نور الدين الشهيد صاحب القيروان ، وكانت قبل لعنان بنت النابغة ابن أبي سلمى زوج سيف الدولة ابن بويه السلجوقي أول ملوك السامانية الذين أخذوا خراسان من الفاطميين[3]

أول أملاكهم السفاح . . .

والسفاح هو أخو العاضد[4]

وكانت بكتوت الخ . . وما أحسن قول بعض ملوك الأندلس أظنه ابن سكرة الهاشمي :

أيا ربة القرط التي حسنت هتكي على أيّ حال كان لابدّ لي منك

(١) الامام الاصطخري من كبار الشافعية وكتاب الحيات لاسحاق ابن عمران الاسرائيلي . .

(٢) سيبويه معروف توفي سنة ١٨٠ وابن الحاجب متأخر معروف والبحث في المسألة الزنبورية بين سيبويه والكسائي عند يحيى البرمكي ، وكثير معروف ومحبوبته عزة ، والبيت لسراج الوراق . . .

(٣) المجسطي لليونان ، والأحنف تابعي كبير معروف ، وتاريخ بغداد للخطيب أبي بكر ، والنعمان ملك الحيرة ، ونور الدين صاحب الشام معروف ، وعنان جارية الناطفي ، وابن أبي سلمى هو زهير ، وسيف الدولة بن حمدان ، وبنو بويه ملوك الديلم ، وبنو سلجوق ملوك الترك ، والسامانية ملوك خراسان ، والفاطميون ملوك مصر والمغرب

(٤) السفاح أخو المنصور أول خلفاء بني العباس ، والعاضد آخر الفاطميين أصحاب مصر

من صور العباقرة

هانيبـــال

بقلم حسين مؤنس

لـكن على حذر حين نلتمس اخبار هانيبال ، فهذا رجل وكل أمره لأنصاف خصومه ، وترك تراثه فى رعاية أشد الناس عداوة له ، وتولى تقديمه إلى الناس أحفل الناس ببغضه ؛ فهو مظلوم من بوليبيوس ، مغضوب عليه من تيت ليف ، مهضوم الحق عند الـكثرة الغالبة من رواة عصره وقضاة زمانه ، ولـكنه برغم هذا كله بارز لا يحتاج عظمته إلى البينـة ، ظاهر لا يعوز عبقريته البرهان ؛ وان الشهادة له لتبدر من الخصم حين يتخونه الحذر ، وإن فضله على أعدائه لتقوم عليه البينات والحقائق وإن أعوزته الألفاظ والعبارات ؛ وهـذا بوليبيوس يتحدث عن آل سيبيو فيطيل الحديث ، ويكون قصارى ما يتأنق فيه من دلائل نبوغهم أنهم أخذوا فنون الحرب عن هانيبال ، وأن أشهرهم المعروف بالأفريقى أخذ عنه وتفطن لأساليبه وحاربه بها فى زاما . ولعل سبب هذه الخصومـة هو أن الرجل كان شرقياً ، لا هو رومانى ولا إغريقى ، وإنما هو فينيقى عريق ، وكانت الخصومة مشبوبة فى ذلك العصر بين الشرق والغرب ، وكان الزمان قد استدار وصار اليوم للغرب ، ورفرفت راياته وخفقت بنوده ، حملها الاسكندر وخلفاؤه زماناً ثم تركوها للرومان ، وكان الفينيقيون قد ضاقت بهم الأرض فى المشرق فالتمسوا الرزق فى المغرب ، وأقاموا المراكز والمـدن على شواطئ افريقية وأسبانيا وصقلية وجنوبى إيطاليا وفرنسا ، فلما نهض الرومان وجدوا الفينيقيين فى طريقهم أينما ساروا ، وكان مركز قيادتهم قد انتقل من صور فى الشرق الى قرطاجنـة فى المغرب ، ومن هنا كانت الخصومة بين روما وقرطاجنة ، ومن هنا كان تعصب مؤرخى الرومان على هانيبال ، ومن هنا كانت ضيعة قضيته عند القضاة ؛ فلنلتمس أخباره فى حذر .. ولنحاول أن نشهده عن كثب ، وأن نفضى اليه ونصاحبه حياته الحافلة بالأحداث ، الخصبة بالوقائع والبيانات

* * *

ها هو ذا فى مجلسه على شاطئ الرون ينظر الى جيشه الـكبير يعبر النهر صفاً طويلاً وقد طال به الجلوس وطال به الانصراف إلى هذا المشهد حتى لا يدرى أهذا مطلع النهار أم مقبل الليل ؛ وكيف له التمييز وهذه أيام ثلاثة بلياليها تقضت وهو فى مجلسه هذا شاخصاً إلى أجناده وفرسانه وقبيلته وهى تعبر النهر على مهل ؟ . . وأين له الراحة أو الانصراف عن التفكير وهو يعلم أن الرومان قد علموا بأمره وأنهم ساعون فى أثره مرسلون قوادهم خفافاً للحاق به والقضاء عليه ؟ . وهذه عيونه تنبئه بأن مارسلوس ماض فى الطريق اليه ، وإنه ليخشى ذلك كثيراً ، إذ كيف تكون العاقبة لو لحق به الرومان وهو يعبر النهر ؟ . إذاً لقضوا عليه فى يسر وهينة . ثم هذه عيونه تنهى اليه أن آل سيبيو يثيرون عليه الناقو ويقيمون عليه قيامة الشعب . فاذا متع الضحى فقد أقبل عليه رئيس فرسانه ينبئه بأن الجيش قد فرغ من العبور وأنه لم تبق فى الضفة الأخرى إلا شراذم من المشاة وأشتات من المؤن التى لا يؤذى ضياعها . هنالك ينهض الرجل الذى أجهده الأعياء وثقلت عليه قلة النوم ، ويأوى إلى فسطاطه . . . ويطلب النوم فيسرع اليه النعاس .. ولـكنه على رغم ذلك مضطرب ما يزال .. وان الذكريات لتسعى اليه فى الحلم فتروعه

هذا هو أبوه هملكار يخطو اليه رهيباً جليلا . . يذكره بعهده الذى قطعه على نفسه وهو ابن سنوات تسع ، وهذا صوت

فاما بذل وهو أليق بالهوى وإما بعز وهو أليق بالملك (١)

وقد أخطأ من نسبهما إلى ابن الأحمر ، فقد أوردهما صاحب المرقص والمطرب (٢) وهو مصنف موجود قبل ابن الاحمر بألف وخمسمائة سنة . وهذا المعنى من البيتين وأضح اتضاح الغسق نصف الليل فى ثمانى وعشرين من الشهر ، وضياء الباطل إذا جاءه الحق ، إن الباطل كان زهوقاً ، ولله در نجم الدين الـكاسى ديبران حيث قال يخاطب الشريف الرضى :

وليس يصح فى الافهام شيء إذا احتاج النهار الى دليل (٣)

* * *

هذا مثال من هذه الرسالة العجيبة ، نقف عنده ، لا نجاوزه الى القول فى البديع والعروض والقافية لأن المقال قد طال ، ونخشى أن يمل القراء الـكرام ما ؟

على الطنطاوى

(١) ابن سكرة شاعر بغدادى ظريف ، والشعر للملك تميم بن المعز

(٢) لأبى سعيد المغربى متأخر

(٣) نجم الدين متأخر عالم بالمعقولات والشريف معروف والبيت للمتنبى

الصبي الصغير يتردد على سمعه واضحاً بيناً ، إنه يقسم أن يكون عدواً لدوداً لروما إلى الأبد

وها هو ذا يرى نفسه صبياً وفتى يافعاً ، ثم رجلا في مداخل الرجولة ، إنه ليمضي الوقت في قفار اسبانيا ووهادها ، لم ينصرف إلى شيء مما ينصرف إليه الشبان ، ولم يترك لنفسه فرصة للراحة أو الدعة ، وإنما اشتد على نفسه عشرين سنة كاملة حتى أوفى على الثلاثين ... حتى إذا اكتمل الأهبة ، فقد اتخذ سبيله إلى ايطاليا ، وكان الرومان قد أخذوا عليه سبيل البحر بعد أن قضوا على أسطول قرطاجنة ، ولم يبق له إلا أن يمضي فيخترق هذه المجاهل الجافة حتى يصل إلى سهول ايطاليا ؛ ولقد فصل عن قرطاجنة الجديدة وهو في تسعين ألفا فتهاوي منهم الآلاف في الطريق تعباً واجهاداً . . . ولولا بقية من أمل معقودة بلواء فرسان نوميديا ، لأدركه اليأس وكر راجعاً إلى بلده ...

هكذا كانت حياته : واقع أشبه بالحلم ، وحلم أشبه بالواقع !

إنه ينام ليحلم بحرب روما ، ويقوم ليمضي لخراب روما . ومضى أمامهم فمضوا من خلفه ، وهم أشد ما يكونون رهبة من هذا الذي يمضي بهم اليه ؛ إنهم ليشعرون الرهبة من هذه الجبال السامقة التي تطل عليهم وتنذرهم بالموت ... وأين لأبدانهم المتعبة أن تتوقل هذه النجاد الوعرة ، وأن تنحدر على هذه الصخور القاسية ؟ وأين لجسومهم العزم الذي يخوضون به هذه الركام المثلوجة التي تبهر عيونهم على قنن الجبال ؟.. ولكنهم لا يملكون لأمر قائدهم دفعاً ... بل هو لا يملك لأمر نفسه دفعاً . وإنه ليمضي ليوفي عهد أبيه لا يكاد يفطن إلى شيء مما حوله . فها هو ذا في مقدمة الجيوش يصعد في اعياء ويسير في هينة ، والجنود يتساقطون من حوله اجهاداً ، والخيل تنبت من تحته نافقة ، وهو في طريقه لا ينبس .. حتى ينتهوا إلى السهول فينحدروا اليها سراعاً

هنا ترجع بنا الذاكرة إلى معبد « بعل » في قرطاجنة . . . تلك هي القديسة تضطرب تحت يد هملكار الذي يقدمها إلى الآلهة طاعة ونسكا . . وتلك هي روما تضطرب تحت يد ابنه هانيبال الذي يقدمها إلى أبيه قرباناً زكياً . . وهؤلاء هم الرسل مقبلين على مدينة التلال السبعة يرجفون بالأخبار ويزعزعون العزمات من رهبة الوعيد ، ويضطرب الأمر بين الرومان اضطراباً شديداً ، ويقذفون بجيوشهم إلى هانيبال في شجاعة واقدام حقيقين بالإعجاب . . والقرطاجني متربص يفني الجيوش فناء ، ويبتلع القادة ابتلاعاً . وهذه تريبا تشهد يوم أجبر هانيبال العدو على النزول إلى الميدان في البكرة القارسة والشمس لا تزال في خدرها ، وكيف انسابت الكمائن من فرسان نوميديا على جوانب الجيش الروماني فأكلته أكلا ... وهذه ترازمين تذكر يومها العبوس من شتاء سنة ٢١٧ .. هذا هانيبال يخبيء جنوده في باطن الجبل المطل على أمواه البحيرة ، ويترك منهم نفرا يناوش القنصل فلامينيوس ، ويتقدم الروم ثم يندفعون اندفاعاً شديداً .. فاذا انتهوا إلى ساحل البحيرة فقد ألقوا أنفسهم في وابل من نبال الغال ، ونار من فرسان النوميديين ، وإذا العدو يسد عليه طريق الرجوع ، وإذا الماء يمين عليهم الخصم ... وإذا هزيمة ساحقة لم ينج منها إلا نفر مضى إلى روما يزلزل أهلها بالمصيبة النازلة ، والفاجعة التي لم تذر .. وهؤلاء أهل المدينة مروعين ، قد انتابهم هلع شديد . . إذ تراى إلى أسماعهم أن الرجل قاصد اليهم .. ثم ها هو ذا على أميال من روما .. ليس من الموت بد ! ولكن هانيبال لا يتقدم ، إنما يطوى عن المدينة ويتجه إلى الجنوب

ترى ماذا صد هانيبال عن روما ؟ كانت الحصون واهنة والجيوش منكسرة ولا يكلف الاستيلاء على المدينة إلا أقل الجهد .. ولكن هانيبال كان يرجو شيئاً آخر . . كان لا يريد أن يقتل الفريسة دفعة واحدة وإنما يقطع أعضاءها عضواً عضواً ، ويمزق أشلاءها شلواً شلواً : ثم يدعها تموت ؛ كان يرجو أن يمزق جسد روما جزءاً جزءاً ويبتر مستعمراتها عنها على مهل ! لم يمزق الرومان أملاك قرطاجنة واحدة فواحدة لكي تموت على مهل . هكذا كان يريد أن ينفذ انتقامه الشديد — ولهذا مضى يثير أنصار روما ويؤلب عليها أحلافها .. إنه ليعلن أنه أقبل ليحارب الرومان لا الايطاليين ، وإنه ليطلق الأسرى الايطاليين دون الرومان ، وإنه ليكسب من هذا كسباً عظيما . . هذه « كبوا » تسارع اليه بقواتها وأحلافها . . وهذه المدن الأغريقية في « تارنتم » تعلن ولاءها . . . وهؤلاء هم الرومان يشتد بهم الخوف فيختارون «فابيوس» لهم قنصلاً .. فيختط لمحاربة هانيبال خطة صارت علماً عليه في التاريخ : هي أن يجنب نفسه وجيوشه لقاء العدو في موقعة حاسمة . . بل يناوشه ويتخطف جنوده ، ويقفل طريق الامداد من الشمال . . ويمضي على ذلك حتى يضعف أمره ويفني جنوده .. ولكن الرومان لا يطيقون صبراً .. إن هانيبال ليفسد عليهم جيرانهم وأتباعهم . ويتلف مزارعهم ويهدم حصونهم

ويمضي من بلد الى بلد ، تاركا جنوده يأتون من الأمر ما يحبون ويصيبون من العدو ما تصل إليه أيديهم ، حتى يضيق ذرع اللاتين فيعزلوا فابيوس ويولوا قنصلا آخر يمضي مسرعاً حتى يلقى هانيبال فى « كانى » على ساحل الأدرياتيك ، وهناك تظهر قدرة الرجل فى الحرب فى أجل آياتها . . . إنه ليصف جنوده صفوفاً طويلة تكاد تخفى جناحى الفرسان . . وإنه ليلقى العدو وينثنى قلب جيشه حتى يصير الصف نصف دائرة تحتوى الرومان ثم يقبل الفرسان فيقضون على العدو قضاء مبرماً

ندع هانيبال فى سيره إلى جنوب شبه الجزيرة ونخف إلى روما لنشهد اضطراب الشيوخ وهياج الشعب واشتداد الأمر ولنشهد مشهداً من أصدق مشاهد الرجولة القوية والبطولة الخالدة . . إن « آل سيبيو » لا يخفت لهم صوت ولا يضعف لهم أمل . . لقد مات الاخوان فى وعور اسبانيا ، وهما فى طريقهما إلى بلادهما بعد أن استوليا على « قرطاجنة الصغيرة » قاعدة هانيبال فى ايبريا ، وشطرا شبه الجزيرة كلها عن القرطاجنى حتى حصروه حصاراً شديداً . . وهاهوذا أخوه « هازدروبال » أخو هانيبال يجمع له ما تيسر من فلول المرتزقة ويمضى إلى إيطاليا فيلقاه الرومان ويفتكون به ويقتلونه . . ثم يحملون رأسه إلى أخيه ويلقون به بين يديه .

ثم ينهض سيبيو الصغير ويقود حملة من أعنف حملات التاريخ ؛ فهذا فتى فى الخامسة والعشرين ولكنه رومانى عزيز . . إنه ليقطع شبه الجزيرة على عجل . . . ثم يركب البحر الى صقلية ثم يخف الى أفريقية وينزل على مقربة من قرطاجنة ثم يبدأ يصنع فى أفريقية ما يصنعه هانيبال فى ايطاليا . . !

* * *

هنالك يتأمل هانيبال رأس أخيه الشهيد ويستمع إلى أخبار سيبيو فتملأ كل الحسرة قلبه ويفزع على مصير قرطاجنة ، ويسرع لنجدتها . . ولا تكاد قدمه تمس ثرى افريقية . . حتى تسرع نحو سيبيو . . فيمضى هذا أمامه . . ولم يكن أخطر على الجيش الرومانى من هذا المضى الذى يباعد ما بينه وبين الشاطئ . . ولكن . . انظر إنه ليثير النوميديين على قرطاجنة ، إنه ليطويهم تحت رايته حلفاء أقوياء . . ثم يثبت لهانيبال عند « زاما » ويرسل فرسانه فى طرفى مشاته . . . ويصف الجنود صفاً طويلاً ، ويباعد بين الجندى والجندى حتى ليدع بينهما طريقاً رحباً . . ثم يقبل هانيبال . . ويدور فرسانه فاذا هم وجهاً لوجه أمام فرسان سيبيو . . فيفسحون لهم الطريق ، فيندفع هؤلاء إلى ماوراء الجيش وهناك ينتظرون . . وتشتد المعركة ، ويثار النقع ، حتى إذا بلغ الأعياء من جيش قرطاجنة أقبل فرسان الرومان فقضوا عليهم قضاء أخيراً . .

أليست هذه أساليب هانيبال ؟ أليست تلك خطته فى كانى ؟ وإنها لبينة واضحة على عبقريته ، وآية باقية على ما خلف للعالم من تراث

* * *

ويخف هانيبال إلى قرطاجنة ، ويأمر بأسوارها أن تقفل ويسودها الهرج والاضطراب ، ويجتمع مجلسها ويتعاقب الخطباء منادين بالحرب والثأر . . ولكن الرجل لا يطيق . . . إنه يعرف خصمه جيداً فينهض ويسكت الخطيب . . ويعتذر لمواطنيه عن هذه الجفوة التى لا محيص له عنها بعد ست وثلاثين سنة فى ميادين الحروب . . ثم يوافق على شروط الصلح التى قدمها سيبيو

ثم يبدأ صراع هو أشبه بصراع المائة يوم بين نابليون وخصومه . . ولكنه يطول سبع سنوات ، يصر الشيوخ فى السناتو على القضاء على الرجل . . ويطلبونه ويجدون فى طلبه . . وهو لا يفقد الأمل فى الغلبة عليهم والانتقام منهم . . لقد فشل فى أن يثير عليهم الغرب ، فلم لا يقيم عليهم قيامة الشرق ؟ . . ها هو ذا يخف إلى بلده « صور » ، فاذا هى ترتعد فرقاً من روما وجيوشها فيفصل عنها إلى « إنطاكية » حيث يستقبله ملكها انتيوكس ، إذ كان يعد حملته على روما . . ويدبر معه الأمر . . ويرسم معه مشروعاً خطيراً . . ولا يكادان يشرعان فى العمل حتى يفاجئهما الرومان فيقضوا على أنتيوكس فى داره فيفر إلى بيثينيا حتى يلقاه ملكها مرحباً . . ويأويه ويكرمه

* * *

ولكن الرومان لا يسكتون عنه . . ويطلبونه ويجدون فى طلبه . . وإنه لجالس ذات يوم فى ملجئه . . إذ أحس اضطراباً وسمع وقع أقدام جنود يقتربون منه . . فنادى بخادمه . . وأمر بالسم فأتى به إليه . . وقال وهو يدنى الكأس من شفتيه : « لكى تستريح روما إذا كان لا يرضيها أن تترك شيخاً فى الستين يموت على مهل »

حسين مؤنس

١٣ – شاعرنا العالمي

أبو العتاهية

للأستاذ عبد المتعال الصعيدي

وأما عتابه فنذكر منه عتابه لصالح الشهرزوري، وكان أبو العتاهية صديقاً له، وآنس الناس به، فسأله أن يكلم الفضل ابن يحيى البرمكي في حاجة له، فقال له صالح: لست أكلمه في أشباه هذا، ولكن حملني ما شئت في مالي، فانصرف عنه أبو العتاهية، وأقام أياماً لا يأتيه، ثم كتب اليه:

أقلل زيارتك الصديق ولا تطل   إتيانه فتَلِجَّ في هجرانه
إن الصديق يلج في غشيانه   لصديقه فيملّ من غشيانه
حتى تراه بعد طول مسرّة   بمكانه متبرّماً بمكانه
وأقل ما يلقى الفتى ثِقَلاً على   إخوانه ما كَفّ عن اخوانه
وإذا توانى عن صيانة نفسه   رَجلٌ تنقّص واستخف بشانه

فلما قرأ الأبيات قال سبحان الله! أتهجرني لمنعي إياك شيئاً تعلم أني ما ابتذلت نفسي له قط، وتنسى مودتي وأخوتي، ومن دون ما بيني وبينك ما أوجب عليك أن تعذرني؟ فكتب اليه أبو العتاهية:

أهل التخلق لو يدوم تخلّق   لسكنتُ ظل جناح من يتخلق
ما الناس في الأمساك إلا واحد   فبأيهم إن حصّلوا أتعلق
هذا زمان قد تعود أهله   تيه الملوك وفعل من يتصدق

أي يطلب الصدقة كما قال في بيت آخر:

هذا زمان ألحّ الناس فيه على   تيه الملوك وأخلاق المساكين

فلما أصبح صالح غدا بالأبيات على الفضل بن يحيى وحدثه بالحديث، فقال له لا والله ما على الأرض أبغض إلى من اسداء عارفة إلى أبي العتاهية، لأنه ليس ممن يظهر عليه أثر صنيعة، وقد قضيت حاجته لك، فرجع وأرسل الى أبي العتاهية بقضاء حاجته، فقال يشكره:

جزى الله عني صالحاً بوفائه   وأضعف أضعافاً له في جزائه
بلوت رجالاً بعده في إخائهم   فما ازددت إلا رغبة في إخائه
صديقٌ اذا ما جئت أبغيه حاجة   رجعت بما أبغي ووجهي بمائه

ولم يكن أبو العتاهية كما قال الفضل ممن لا يظهر عليه أثر الصنيعة، ولكنه كان يباشر هؤلاء العظماء مباشرة الند للند، لا كما كان يفعل غيره من الشعراء المستجدين عند هؤلاء العظماء، وإنما كان البرامكة يكرهون من أبي العتاهية إيثاره الفضل ابن الربيع عليهم، وهو منافسهم السياسي في دولة الرشيد، وقد صحبه أبو العتاهية صحبة طويلة، وما زال الفضل من أميل الناس اليه، فلما رجع من خراسان بعد موت الرشيد دخل عليه أبو العتاهية، فاستنشده فأنشد:

أفنيت عمرك ادباراً واقبالا   تبغي البنين وتبغي الأهل والمالا
الموت هولٌ فكن ما شئت ملتمسا   من هوله حيلة ان كنت محتالا
ألم تر الملك الأمسيّ حين مضى   هل نال حيٌّ من الدنيا كما نالا
أفناه من لم يزل يُفني القرون فقد   أضحى وأصبح عنه الملك قد زالا
كم من ملوك مضى ريب الزمان بهم   فأصبحوا عبراً فينا وأمثالا

فاستحسنها الفضل، وطلب اليه أن يعود اليه في وقت فراغه ليقعد معه ويأنس به، فلما كان يوم فراغه صار اليه، فبينما هو مقبل عليه يستنشده ويسأله فيحدثه اذ أنشده:

ولى الشباب فما له من حيلة   وكسا ذؤابتي المشيبُ خماراً
أين البرامكة الذين عهدتهم   بالأمس أعظم أهلها أخطارا

فلما سمع ذكر البرامكة تغير لونه، ورأى أبو العتاهية الكراهية في وجهه، فما رأى منه خيراً بعد ذلك. وقد حدث أبو العتاهية هذا الحديث الحسن بن سهل في دولة المأمون فقال له: لئن كان ذلك ضرك عند الفضل بن الربيع لقد نفعك عندنا؛ ثم أمر له بعشرة آلاف درهم وعشرة أثواب، وأجرى له كل شهر ثلاثة آلاف درهم، فلم يزل يقبلها دارة إلى أن مات. وكان الحسن بن سهل فارسياً مثل البرامكة، وكان الفضل بن الربيع عربي النزعة، وقد انتهت تلك العصبية بين الفرس والعرب في هذه الدولة بضياع أمرها منهما معاً

ومن عتابه أيضاً ما كان منه لأحمد بن يوسف وكان صديقاً له

فلما خدم المأمون وخص به رأى منه جفوة فكتب اليه :

أبا جعفر إن الشريف يشينُه ... تتايُهُهُ على الأخلاء بالوفر
ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى ... وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر
فان نلت تيهاً بالذى نلت من غنى ... فان غناى فى التجمل والصبر

ومن شعره فى الاستعطاف الى الرشيد وهو فى سجنه :

يا رشيد الامر أرشدنى الى ... وجه نُجحى لاعدمت الرشدا
لا أراك الله سوءاً أبداً ... ما رأت مثلك عينٌ أحدا
أعنِ الخائف وارحم صوته ... زافقاً نحوك يدعوك يدا
وابلائى من دعاوى آملٍ ... كلما قلت تدانى بعدا
كم أمنّى بغدٍ بعد غدٍ ... ينفَدُ العمر ولم ألق غدا

وأما الزهد والحكمة والمثل فهى الفنون التى استفرغ فيها جهده ، وأربى فيها على غيره ، ونظم فيها ما استفاده من أهل العلم من النبين وسير السلف الصالح ، وأشعاره فى ذلك لا مثيل لها لأنها مأخوذة من كتب الدين والسنة ، وما جرى من الحكم على ألسنة هذه الأمة . ومن بدائعه فى ذلك أرجوزته المزدوجة التى سماها ذات الأمثال ، وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها ، ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل ، وهى تجديد عظيم فى الشعر العربى بهذا الطول البالغ فيها هذا المبلغ ، وبهذه القافية التى مكنت له من المضى فيها الى الحد ، وهذا ما ذكره منها صاحب الأغانى :

حسبك مما تبتغيه القوتُ ... ما أكثر القوت لمن يموتْ
الفقر فيما جاوز الكفافا ... من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذرْ
إن كنتُ أخطأتُ فما أخطا القدرْ
لكل ما يؤذى وإن قل ألمْ ... ما أطولَ الليلَ على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله ... وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ... ورب جد جره المزاحُ
من جعل النمام عيناً هلكا ... مبلغك الشر كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجِدَه ... مفسدة للمرء أىُّ مفسده
يغنيك عن كل قبيح تركه ... يرتهن الرأىَ الأصيلَ شكه
ما عيش من آفته بقاؤه ... نغّص عيشاً كلُّه فناؤه
يارب من أسخطنا بجهده ... قد سرّنا الله بغير حمده
ما تطلع الشمس ولا تغيب ... الا لأمر شأنه عجيب
لكل شىء معدن وجوهر ... وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكلٌّ ممتزجْ ... وساوسٌ والصدر منه تعتلج
وكل شىء لاحقٌ بجوهره ... أصغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ... ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج ... لذا نتاجٌ ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس محضُ ... يخبث بعضٌ ويطيب بعض
لكل انسان طبيعتان ... خير وشر وهما ضدان
إنك لو تستنشق الشحيحا ... وجدته أنتن شىء ريحا
والخير والشر اذا ما عُدَّا ... بينهما بونٌ بعيد جدا
عجبت حتى غمنى السكوت ... صرت كأنى حائر مبهوت
كذا قضى الله فكيف أصنع ... الصمت إن ضاق الكلام أوسع

قال أبو الفرج وهى طويلة جداً وانما ذكرت هذا القدر منها حسب ما استاق الكلام من صفتها ؟

عبد المتعال الصعيدى

في وادي الهوى

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

شدا فوق فرع مورق بلبل الوادي فياحبذا الوادي ويا حبذا الشادي

فقلت له زدني بربك انني إلى نغم حلو ترجعه صاد

وما للحياة بهجة وحلاوة إذا كنت في وادي الهوى غير غرّاد

أفدني بأسرار المحبة خبرة فأنت عليم بالخفيّ وبالبادي

ضللتُ طريقي في هوى من أحبه

وإنك في وادي الهوى وحدك الهادي

فقال أتحميني من الموت إنني أراه فأخشاه على نبل صيّاد

توسّمتُ فيه الشرَّ لمّا رأيته

يسدّد نحوي السهمَ من عطفة الوادي

فطرتُ بعيداً عنه أهرب واقفاً على فَنَن في ذروة الدوح ميّاد

ومن هجمات للغراب شديدة يريد بها عن موطني النضير إبعادي

يطاردني في موطني متعمداً وما زال فيه واقفاً لي بمرصاد

ينازعني في الشدو حق زعامة توارثتها من والديّ وأجدادي

فيهدم عشي وهو ما قد بنيته بنفسيَ من نبتٍ يبيس وأعواد

وماذا من الإجرام كنتُ أتيته

فيصبح هذا الأسود النحس جلادي

براني في وادي الهوى اللهُ شاعراً

فأطرَبَ فيه الزهرَ شعري وإنشادي

وما طال لولا الزهرُ فيه إقامتي وما كنت لولا الزهر بالرائح الغادي

لقد كنتُ في الوادي إلى الزهر مُخلِداً

فهل كان يؤذي ذا جناحين إخلادي

سل الطيرَ بي هل كنتُ في العمر مرةً

على واحدٍ منها إلى جانب العادي

وإن أضمرت نفسي على ذي تجاوزي

من الطير أحقاداً تناسيتُ أحقادي

بلانيَ ربي كل يوم بظالم فما القصد من خلقي شقيّاً وإيجادي

ولو كنت ذا ظفر حديد ومنسر تجنبت الغربان بطشي وإرصادي

وإنيَ في الوادي الذي هو معبدي بروحيَ للزهر الذي يحتوي فادِ

فما أجملَ الزهرَ الذي هو مشرق كنجم بدا في آخر الليل وقّاد

وقل لبني الضاد اجمعوا أمركم فما لقوم كسالى نهضةٌ يا بني الضاد

جميل صدقي الزهاوي

في وصف الطباع

وصف شامل للنفس وطباعها

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ما ازدريت الأنام إلا الأوهان ا كيد منهم وهان منهم عداء

وتفردت لا أصول بكيد وتزهدت واستقام العزاء

ومنَ الناس مَنْ إذا ما ازدراهم كان منه الإجرام والاعتداء

ولو انى أكبرتهم لم يروني غافراً واحتوتنيَ البغضاء

ولو أني أكبرتهم لم تر الرح مة ديني وما بهم رحماء

ودهم مثل بغضهم فيه عدوي مثل عدوي تسعى بها الثؤباء

ويرى المرء أنه كل شيء هو تِبْرٌ وما عداه هباء

مركز الكون حوله دارة الأف ق وبهوٌ من فوقه وسماء

ولقد تحمد الخليل طويلاً ثم يبدو ما كان منه انطواء

فإذا الغدر شيمة وطباع وإذا الود والوفاء رياء

وإذا النفس جانب مدلهمٌّ بالدنايا وجانب وضّاء

وإذا المرء يحمد الصحب منه جانباً والكريه منه خفاء

ومع الخُبْر بالأنام فقد يع رو الفتى عند غدرهم إعياء

كل يوم يخال منه جديداً وهو رث وما طواه العفاء

قلبه الآمل المضلَّل بالو د يقود الأسى إليه الرجاء

ومع اليأس منهم كرم الصف ح إذا الحتم ما جنوا والقضاء

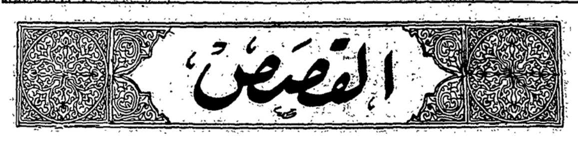
كلهم يشتكي ويشمت بالشا كي وكلٌّ كما يشيُ يساء

كلهم يندب الوفاء وكلٌّ يتأذى وطبعه الإيذاء

كلهم قانص يرى في وفاء الـ   بخل صيداً وليس منه وفاء
كلهم لا يود للنـــاس ما يرْ   غب فيه لنفســـه ويشاء
ويُسَرُّ الفتى ويُبدى اكتئاباً   إنْ ألَمَّتْ بصاحب بأساء
صادق العطف كان أو كاذب العط   ف ففي نحس خله سراء
وارتياح أنْ لم يُصَبْ مثل خل   نزل الحزنُ داره والشقاء
وسواء خِبٌّ وغِرٌّ ولا غرْ   وَ فللغر صولة وعـداء
كلهم إن يرقك منه ذكاء   بعد حين يرعك منه غباء
فكأن الذكاء منه وميض الـ   برق والعقل كله ظلماء
كلهم يبغض النقيصة حقاً   حذر الناس بغضه إخفاء
واكتساباً للحمد والربح يقلا   ها ولولاهما لعيف الرياء
كلهم يُلْبِسُ النقيصة منه   حلة الخير وهو منه براء
يغضب المرء للفضـيلة كيما   يحسب الناس أن ذاك نقاء
وسواء نقص وفضـل لديه   إنْ تدانت من كسبه النعماء
ومن الناس من يبوح بنقص   وكثير من قوله إطراء
كالذي قال إنما أفقـدتني الـ   حلم منه صراحة وإباء
يمدح الحلم مغرياً وهو يسطو   مغنم الحب في الورى الحلماء
وحـذاراً للشر يمدح خيراً   ذاك جبن في طبعه واتقاء
قسم النقص والمحامد بين الـ   ناس منه الأحقاد والأهواء
فلئيم من كان منه جفاء   وكريم من كان منه إخاء
ذاك ميزانه وما الحق إلا   ما رأى الحق يأسه والرجاء
ويرى الأخرق الذي يرحم النا   س وإن ود أنهم رحماء
كي يعدوه بالذي ضن عنهم   بجداه وهكذا الأحياء
كل حي يصون منه حياة   ولئن غال ما عداه العفاء
حاطها بالصيال والمكر والقسْـ   وِ ولو عم ما سواه الشقاء
وبإنكار كيده وأذاه   وبدعوى الكمال وهو طلاء
يتدنى يبغي العلاء ولا ينْـ   ـنيه عما يحط منه إباء
غير من آثروا على أنفس منـ   ـهم نفوس الورى وقد قيل داء
وعجيب إنْ كان أطهرُ ما في الـ   نفس داء والحرص منه الشفاء
وأشد القساة يُنكِرُ لؤم الـ   ناس كيما يكون منه مضاء
وهو يُطْرِي الحياة بُقيا على الكيـ   ـد وذعراً يكون منه الثناء
بين أمرين يدرج الناس طراً   جوع بطن أو أن يكون امتلاء
ومن الجوع أو حذاراً له أو   خشية الموت كم قسا الأحياء
وامتلاء يصير شهوة جسم   يهتك الطهرَ حفزها والمضاء
هَيِّنٌ بعـدها إذا ما الضحايا   نال منها نحس ونال شقاء
خمص بطن ونهمة وحـذار   واحتيـال وقسوة ورياء
ذلك العيش ثم ما كان من خيـ   ـرٍ بكيٍّ لولاه عيف البقاء
وقتال على الحياة دعاه الـ   حيُّ فضلاً يبغي به ما يشاء
ذاك فضلٌ إذا أساء ولكن   هو نقص في الناس حين يُساء
ولو ان السبيل للموت سهل   لم تكن عنه نجوة أو عزاء
فاجمد العيش إن حبتك للعيـ   ـش مُلِحٌّ مهما تمادى العناء
إنَّ أقوى الرجاء ما تعرف النفـ   ـسُ وإن قَبَّحَ الحياةَ الذكاء
لم يعفها وإنما شاء أن يُبْـ   ـصِرَ قدماً من حسنها ما يشاء
دائب بَصَّرَ الأنام بما جـ   ـمَّلَ عيشاً ووصفه إغراء
والذي يكلأ الحياة على العلـ   ـم بها لا تروعه الأشياء
يمدح المرء مثل ما حاز من فضـ   ـل فإن زاد كان منه هجاء
فقليل ما تصدق النفس قولاً   وكثير من أجل ذاك المراء
مهجة الحاسدين من سورة الأحـ   ـقاد والبغض مهجة هوجاء
ساء فعلٌ منهم فساءت ظنون   والورى في طباعهم شركاء
سوء ظن الأنام طبع ولكن   مقلة الظن مقلة حولاء
كل حي أمامه ما جنى الخصـ   ـم يراه وما جناه وراء
وعجيبٌ أنْ يُحْسَدَ المرء حتى   بعد أن لم تدم له النعماء
أي نفس من أنفس الناس عافت   حسداً للقلوب منه اكتواء
لا بل الفضل إنْ تضاءل ما في الـ   نفس منه ولم يكن إيذاء
كلهم ذلك الحسود ولكن   هَيِّنٌ ما بدت به الفضلاء
لو ينال الأنام ما حسدوه   حسدوا ضده ولِيمَ القضاء
حسبوا اللؤم من ذكاء وعقل   فادعاه الطغام والأعلياء
وتباهوا بقـدرة اللؤم فيهم   واستشاطوا إنْ قيل هم لؤماء
وقليل ما يندم المرء إن لم   يك جُرْم من بعده الازدراء

فاذا الناس زيّنوا منــه جرماً شملته مِنْ مدحهم خيــلاء
ومضى سادراً يرود من الآ ثام مرعى ودأبه الـكبرياء
يبتغى المرء أن يرى الناس طرّاً حيث يرضى وخلقهم ما يشاء
وهو لا يستطيع تغيير ما فى نفسه كى يكون منهم رضاء
وحقيق بالشك مَنْ رأيه يتـ ـبع ما خولجت به الحوباء
رأيه مثـل خلقـه وهواه حاكم فيـه جوُّهُ والغـذاء
فى قنوط ومطمع وانقباض وارتياح تناكرت آراء
لو بدا الشر فى النفوس تعادت رحم الله فاحتواه كساء
وإذا الشر أعوز المرء عجزاً إدّعى أن عجزه استعلاء
ومُقِرٌّ بالشر كى يُغفَرَ الشـ ـرُّ وكيما يعود منـه اعتداء
واعتراف بالجود حرصٌ وكسبٌ وهو منه استزادةٌ لا وفاء
ولقـد يحقد العشير إذا خا لاك رزء وكان منـه رثاء
يجرأ الفرد بالجميع على الشـ ـر ولولاه غاله اسـتخذاء
شد من أزر سافل أنّ شراً جُمِعَتْ فى منـــاله الجبناء
فجبانٌ يشـــد أزر جبان وعداء يكون منه عداء
ولقـد يفعلون خيراً ليخفى الـ ـشر منهم وذاك منهم رياء
والشقىُّ الجزُوعُ من شر قوم جر نفعاً منـه اليهم رجاء
مستنيمٌ إلى الولاء ويكوى قلبَهُ أن يغيض منهم ولاء
جاهل بالأنام يخدعه المُظـ ـرى نفوساً لهم وحق الهجاء
لقّنوه أنّ المروءةَ أن يغـ ـترَّ بالناس وهو منــه غباء
لا بل الفضل خيره وهو يدرى إنْ بلاهم أنْ قد يعز الجزاء
مطمئناً بعد اصطناع جميل عندهم إنْ دهاه منهم بلاء
كلهم ظالم وإن كان مظلو ماً رأى أنّ قسوَهُ استشفاء
يشتفى من لواعج الغيظ والذ ل بظلم الأذلّ بئس الدواء
يظلم الصاغر الضعيف كما يظ لمه من له عليـــه اعتلاء
طبقاتٌ مُقَدَّرات من الطغـ ـيان ما إن يُخَال فيها انتهاء
ومع الشر والأباطيل فى النفـ ـس فللخير آنة سـيماء

عبد الرحمن شكرى



صور من هوميروس

١١ – حروب طروادة

أندروماك

للأستاذ دريني خشبة

استطاع نبتيون أن يزلزل قلوب الطرواديين.

وحسبه أن يفر من ميدانهم مارس الجبار، وأن يفر في إثره أتباعه آلهة الروع، وفينوس، أصل البلية التي حاقت باليوم، لينتقل النصر طفرة من جانبهم إلى جانب الهيلانيين.

وبزغت شمس اليوم التالي على الساحة اللطخة تمام الإنسانية، النضرجة بأوزار الآلهة، المصطخبة بأنين الموتى... لتشهد من جديد صراع الضغائن وتصاول الأحقاد، وأخذ السخائم بعضها برقاب بعض، وهذه التكتل البشرية يفني بعضها بعضاً

واشتد الهيلانيون في طلب الطرواديين، واستبسل هؤلاء، فكانت أمواج المزاة تتكسر على صخور شجاعتهم...... ولكنها لا تتلاشى

وعظم الخطب، ومارت الأرض، وانعقد رهج الحرب مما تثير الخيل من هبوات، واشتجرت الهيجاء، حتى لكأنها قطع من الليل، وصلصلت الدروع حتى لكأنها عواء ذئاب الجن، واستشرى الشر حتى لا ترى إلا إلى منايا وآجال، في قتال ونزال. وأخس جنود طروادة بلغوب الوغى، وشعروا بالرجفة تأخذهم من كل جانب، وكان هكتور العظيم يخطف كالبرق بين صفوفهم يحفزهم ويحرضهم؛ بيد أن الشجاعة لا تغني في موقف الموت شيئاً، فقد شرعت فيالقهم تتقهقر ببطء نحو الأسوار، حتى إذا بلغوها لبثوا ثمة يصلون أعداءهم وابلاً من السهام، تساعدهم الرماة من فوق الأبراج....

لكن الهيلانيين ما تفتر لهم همة، ولا يصل إلى حماستهم كلال؛ فقد صمدوا في مواقفهم، وثبتوا وصابروا، وأبدوا من ضروب البسالة والبأس ما حير ألباب أعدائهم، وجعلهم إلباً عليهم واحداً!!

وفي عنفوان المعمعة لقي هيلانوس بن بريام الملك، أخاه المغوار هكتور يقصف بين الصفوف ويرعد، ويرغى بين المحاربين الصناديد ويزبد؛ وكان هيلانوس خير كاشفي الغيب، وعرّاف الطرواديين؛ وكان حبيباً إلى الآلهة، جميل الطلعة، بسام الثغر، حتى في الحرب؛ وكان إلى ذلك حازماً موفور الحزم، صارماً شديد البأس، يقهر الغير على احترامه ولو كانوا يكبرونه سناً؛ فلما رأى هكتور يعيس تلك العبوسة القمطرير لما يحيق بجنوده من أذى، ذهب إليه قدماً وقال:

«أي أخي! أي هكتور العظيم!»

وما كاد هكتور يسمع النداء الحبيب حتى هرع إلى أخيه يلتمس في صدره الحنون برداً لحر تلك الجحيم التي لفحت شجعان طروادة بزفيرها، وصاح به:

«هيلانوس! أنت هنا؟ ادع لنا آلهتك يأيها العزيز! لقد كؤد النصر بعد إذ حسبناه في أيدينا أمس.... ادع لنا آلهتك فقد عيينا بهؤلاء الهيلانيين الأبالسة!...»

– «هكتور! اصغ إليّ! لن تظفروا بهؤلاء مادامت مينرفا معهم تؤيدهم، وتشد أزرهم، وترد عنهم سهامكم، فتجعلها في نحوركم!!»

«هكتور! هلم إلى القصر يا أخي، فالق والدتك المرزأة ثمة، فتوسل إليها أن تذهب من فورها، مرتدية أبهى ملابسها إلى هيكل مينرفا، فلتبك عند قدمي تمثالها، ولتقدم الضحايا، ولتقرب القرابين، ولتحرق البخور المقدس، الممزوج بالأفاويه والصندل وطيوب الهند؛ ولتنذر أن تذبح اثنتي عشرة بقرة من خير أبقار اليوم، فتتصدق بلحومها، وتهب الكهنة شحومها،

إذاً وعدت ربة الحكمة أن ترفع مقتها وغضبها عن طروادة ! »

وألف هيلانوس على هكتور ، فألقى نظرة على المعركة ، وكاد قلبه يتفطر على هذه الأشبال التي تسقط هنا وهناك ، وفي كل صوب وحدب ، لاقية حتوفها في سبيل إليوم ، وذرف عبرات تذوب حناناً ورحمة ، ثم لوى عنان حصانه إلى البوابة الكبرى ، فدخلها وقلبه يتصدع من الهم ، ووقف مرة أخرى يلقي على الساحة المضطربة نظرة قائد بجنوده جد رحيم . . . .

وانطلق إلى القصر الملكي المنيف ذي الشرفات والآكام . .

وهناك . . . . عند بوابة القصر ، وتحت البلوطة الكبرى الوارفة ، اجتمع حول هكتور نسوة كثيرات ، هن أزواج المحاربين البواسل وأخواتهم وبناتهم ، وأمهاتهم كذلك ، ازدحمن حوله يسائلن عن رجالهم ، هل أودى بهم حتف القضاء ؛ وأسقوا ثرى الوطن العزيز من دمائهم ، أم ما يزالون يناضلون الأعداء ، ويردون عن طروادة حمى البلاء ؟ . . . . .

ولكن هكتور يوشك ألا يسمع لهن ، لأنه ينطلق من فوره إلى داخل القصر ، ... وها هو ذا يهرع في أبهائه العظيمة ، ماراً بتلك الغرف الخمسين التي تضم أزواج أبنية وأطفالهن ، ثم بالبهو الأكبر ذي العماد الشاهقة ، ثم بالجواسق المذهبة ذات الدمى والتماثيل ، حتى يكون عند ردهة الملكة ، فتلمحه أخته الجميلة ذات المفاتن لاؤوديس فتجري إليه ، وتلف ذراعيها حول ساقيه ، فيتخلص منها برفق . . . وتكون والدته قد أحست وجوده فتهرع إليه ، وتهتف به :

« هكتور ! بني ! ما ذا جاء بك هنا ؟ لمن تركت الساحة يا وليدي ! أهكذا تدع أبناء طروادة للموت الأحمر وتجيء إلى الحرم تنشد الراحة يا هكتور ؟ لا . لا . لا أحسبك تتخلى عن جنودك لحظة . ولكن هلم إليّ ! إليك هذه الكأس من أشهى ما عصر باخوس ! روّ ظمأتك منها وعد إلى الميدان . . »

بيد أن هكتور يتجهم تجهمة منغضبة ، ويهتف بها :

« أماه ! حاشاي يا أماه ! حاشاي يا أعز الأمهات ! لن تهرق الخمر باسمي ، وتلك دماء إخواني تهرق باسم الوطن وتراق ! حاشاي يا أماه أن أذوق قطرة واحدة من تلك الكأس ، وهناك . . . في سعير الملحمة ، يجرع أبناء طروادة الأعزاء كؤوس المنايا وذوب الحمام ! أريقيها على مذبح مينرفا إذن ! هلمي ولتك معك أزواج القادة والمحاربين جميعاً ، فالبسن أبهى ثيابكن الحريرية المفتلة ، وحبركن المفوّفة ، وانطلقن إلى هيكل مينرفا ، فصلين لها ، وأحرقن البخور الغالي من الأفاويه والصندل أنفس طيوب الهند ، ثم اركعن عند قدمي تمثالها المعبود ، وابكين بكاء طويلاً ، وسبحن باسم آلهة الحكمة ، واغسلن الأرض عندها بدموعكن ، ثم توسلن إليها أن ترفع عن الطرواديين مقتها وغضبها وانذرن أن تقربن ، لو فعلت ، اثنتي عشرة بقرة من خير أبقار إليوم ، يتصدق على الفقراء وأبناء السبيل والمعترين بلحومهن ، وعلى كهنة الهيكل بشحومهن . . .

« أماه ! إن لم تفعلن كما أخبرتك فلا نصر لنا . . بل لنا الهوان والهزيمة المؤكدة . . وعليك وعلى نساء طروادة السلام من أربابها الكرماء ! . . . »

وصمت هكتور ! وأربد وجه هكيوبا !

وانطلق البطل إلى قصر أخيه . . . إلى قصر باريس فوجده يلهو ويلعب ، ولا يأبه بهذه الأرواح الغالية التي تصطرع في الميدان ، فأخذته الحنقة ، وصب عليه شواظ غضبه . . « أنت ! أنت باريس بن بريام ! عجباً وزيوس الأكبر ! أنت هنا تلهو وتلعب ، وتدع ضحاياك تنافح عن آثامك تحت أسوار إليوم ، وتذوق الردى بجريرتك ؟ ! . . . »

وأطلق العنان للخيل ، فذهبت عربته الحربية المطهمة تطوى الطريق إلى الميدان . .

أما أمه فقد جمعت نساء طروادة وجماعة المتوسلات (١) ، وذهبن جميعاً إلى هيكل مينرفا . . . وصلّين وبكين ، وغسلن بدموعهن قدمي التمثال المعبود ، ونذرن لآلهة الحكمة ما أمر به هكتور أن ينذر . . .

ولكن !

لقد أصمت مينرفا أذنيها ! ولم تصخ لهذه التوسلات الكاذبة ، ولم ترق لتلك العبارات المسفوحة ، ولم تطمع أبداً في ضحايا وقرابين تكفر عن خطيئات باريس ؛ ذلك الراعي المفتون الذي آثر الجمال الفاني على الحكمة الخالدة ، فقضى في التفاحة لفينوس ، ربة الحسن والحب ، تلك الحية الرقطاء التي لدغت

(١) Suppliants وقد نظم فيهن كل من اسخيلوس ويوريبدز إحدى دراماتهما الخالدة

طروادة بأسرها ، فهي إلى اليوم تصرخ من سمها الزعاف يسرى في أرواح أبنائها ، فينكل بهم ، ويكاد يقضى عليهم . . . ولا ذنب لهم ولا جريرة ، إلا لبانات الهوى الآثم ، والغرام الشائن ، والحب المجرم المهين ! !

* * *

وأحس هكتور وهو منطلق إلى الميدان كأن منيته تنوشه من مكان بعيد ، وأحس في صميمه بشوق حار إلى لقاء أندروماك ، زوجه العزيزة عليه ، الأثيرة إلى قلبه ، شوقاً يشبه وداع الحياة في حرارته وأسره ، وشوقاً يشبه الاستمتاعة الأخيرة من مباهج هذه الدنيا . . . في حزنه الصامت ، ومعناه العميق !

وأحس كذلك بلوعة إلى التزود بنظرات من سكمندريوس طفله الحبيب ؛ هذه الهبة السماوية التي توشك أن تصبح نقمة من نقمات اليتم ، إذا كان صحيحاً هذا الهاجس الذي وقر في قلب هكتور ، والذى صور له أنه مقتول اليوم لا محالة . . .

وألح الشوق على قلب البطل ، فثنى عنان الخيل إلى الطريق المؤدية إلى قصره المرد ، ليشفى حاجات الفؤاد المعذب

وذهب من توه إلى مخدع أندروماك ! ولكنه لم يجدها هنالك ، فبحث عنها في الغرف والردهات والأبهاء ، ولكنه عبثاً حاول الوقوف لها على أثر !

وسأل عنها حشم القصر ، وكان صدره يعلو ويهبط حين كن يتحدثن إليه عن أندروماك العزيزة وما تلقاه دائماً من القلق ، وما تتفزع به روحها من الهواجس مادام زوجها يخوض غبار هذه الحرب !

فهل هي من الأرض الثقيلة المخضبة بالدماء هذه العواطف المشتركة ، أم هي من السماء الصافية التي لا يرتفع إليها نقع ، ولا يورى فيها زند عداء ، ولا تشب فيها سخيمة ؟ !

وأخبرنه أنها يممت شطر برج طروادة الرفيع ، تشهد منه ما يحدث في المعركة من أهوال ، وذلك عند ما ترامت الأخبار أن الأغريق قد ضيقوا الحصار على جنود طروادة ، وأنهم خضدوا شوكتهم ، وفلجوا عليهم ، ونخبوا قلوبهم ، وضعضعوا أركانهم . . . فريعت أندروماك ، وذهبت من فورها إلى البرج لتطمئن على رجلها وذخر حياتها ، وسندها في هذه الحياة السوداء

ونهد هكتور إلى البرج ، فلقيته أندروماك بعينين مغرورقتين ووجه شاحب وجبين مغضن ، وصدر ينوء بما فوقه من الهموم

كانت تقف ابنة إيتيون ، الجميلة البارعة ، وعلى ذراعها المرمرى الفاتن طفلها الرضيع الشاحب ، الذى حل بهذه الدنيا الهازلة ليكون عبرة سخينة من عبرات الحزن القاهر ، ثم ليكون مأساة وحده حين تضع هذه الحرب الضروس أوزارها ، وحين يشب فلا يرى حوله إلا الباكين والمحزونين ، وإلا هذه المدينة الكاسفة التي تعصف بها آلهة الحرب ، من غير ما شفقة ولا مرحمة !

وتعلقت أندروماك بذراعى زوجها ، وشرعت تنظر في عينيه المبللتين ، وتقول له :

« هكتور ! رجلى وذخرى من هذه الحياة ! إلى أين أيها الحبيب ؟ أما لهذه الحرب الطاحنة من نهاية ؟ أهكذا قضت الآلهة على طروادة الخالدة بالحزن الأبدى والأسى المقيم ؟ هكتور ألا تفكر في سلم يرفرف على ربوع الوطن ، ويبقى على هذا الشباب الذى تعصف به ريح الحرب ؟

رجلى !

إن آلافاً من الهواجس السوداء تضغط على قلبي تحدثه بالعقبى الوخيمة ، والأيام الباكية القريبة !

هكتور ؟

هذه أشباح القتلى الأعزاء من بنى وطنى تحدثنى عن مأساة أبى ، واخوتى السبعة ، والمئين من أهلى ، قتلهم أخيل الجبار بيده السفاحة وجعل من جثثهم كومة عالية تقص على القرون تاريخنا الحزين !

لقد هرعوا جميعاً إلى هذه الساحة من سيليسيا ، ملبين نداء الملك ، الملك التاعس ، أبى ، الذى سعى إلى طروادة لينام أبد الدهر في ظل أسوارها نومة غير قريرة ولا هانئة . . .

هكتور !

لقد نام أعز الآباء في تراب ساحتكم دفاعاً عن مدينتكم ، ولكن المأساة لم تتم بقتله وقتل أبنائه والمئين الأعزاء من بنى جلدته ، ولكن المأساة أبت إلا تكون أمى . . . آه يا أمى العزيزة ! أن تكون هذه الأم صفحة محلولكة من صفحاتها التى تفجر الدم في القلب ، وتضرم النار في الحشا !

لقد ساقها أخيل يا هكتور في جملة السبى ، ولولا القود

الـكبير ، والفدية الغالية التى بذلناها من أجلها ، لـكانت إلى اليوم ، لو مد فى أجلها ، إحـدى خادمات الأعداء الذليلات ، اللواتى لا يملك لهن فى هذا الأسار عزة ، ولا يقدر لها أحد شأناً ! لـكنها سقطت هناك ، فى هامش هذه الساحة الظالمة ، ضحية سهم مراش من قوس الالهة ديان ، فكأنما رفضت أن ترفع كأس هذه الحياة إلى فمها النقى الطاهر . بعد إذ لوثته أحداث الدهر بذل الأسار ! !

هكتور ! !

كل هذه النوازل هدت نفسى ، وحطمت قلبى ، وأثاجت مشاعرى ، وجعلتنى بائسة تاعسة موهونة لا حول لى . . . لولا أنك إلى جانبى تأسو جراحى وتؤنس وحشتى ، وتشيع نوراً متلألئاً فى ظلمات حياتى . . . ! فأنت لى اليوم أب نعم الأب ؛ وأنت لى فى وحدتى بقلبك الحنون أم نعم الأم ، وأنت لى أخ ؛ بل أنت لى كل شىء فى هذه الدنيا !

هكتور !

إبق إلى جانبى فأنا لا أستغنى عنك بأب أو أم أو أخ ، أو بمملكة يزين مفرقى تاجها المشرق ، ولا يشد يمينى صولجانها الرنان !

ابق إلى جانبى يا هكتور !

ابق إلى جانبى وارع هـذا الطفل ، ولا تسلمه وتسلمنى لليتم والشقاء

هكتور !

إن المستقبل يعبس من اليوم لولدك سكمندريوس ؛ فرده عنه ، وادفع عاديات الزمان من الآن عن فلذة كبدك ، وحبة قلبك ، واستشعر نحوه حنان الأب الرحيم ، ولوعة الأم المفئودة !

. . . . »

وخنقتها عبرة حجبت عن ناظريها نور الحياة ، وحبس منطقها كمد ممض ، وحزن أليم ؛ ووقف هكتور مبهوتاً لا يحير ، ينظر اليها مرة ، وإلى ولده أخرى ، ثم يلقى على طروادة نظرات . . .

واستيقظ بطل اليوم من غفوته الصاحية ، وانطلق لسانه من عقاله يقول :

« أندروماك ! أيتها الحبيبة ! إسمعى إلى ! :

لا تخالى يا أعز الناس إلى أن قلبى قد تحجر فلم يخفق لـكل ما ذكرته من قبل ! لا ! لقد خفق كثيراً بمثل هذه الهواجس !

بل هو قد ذكرك ، وقد تصور أن هكتور مقتول ، وكأنك كما ذكرت عن أمك فى جملة السبى ، وأنك تؤوبين مع أحد القادة الميلانيين إلى هيلاس ! وأن القائد الغليظ قد ضمك الى حريمه ، أو بالغ فى الايذاء فجعلك احدى سراريه أو خدمه ، كلما مر بك أحد أشار اليك بالبنان : « مسكينة ! هذه زوجة هكتور فتى طروادة ، وابن مليكها المقدام ، البطل الذى سفك الدماء وسعر الهيجاء ، تعمل هنا اليوم خادمة ذليلة ، كسيرة القلب ، مهيضة الجناح ، تأتمر بأمر السفلة والأخساء !

لا يا أندروماك ! لقد ذكرت ذلك جميعاً ، ومن أجل هذا فأنا لهذه الحرب ، وأنا لهؤلاء الأعداء ! سأحطمهم ! سأدك الأرض من تحتهم ! سأسقط السماء عليهم كسفاً . . . ! من أجلك ! من أجلك يا أندروماك ! لا . . لا . . بل من أجلك يا طروادة . . . ! يا وطنى ! يا بلادى ! . . . »

وسكت فتى طروادة قليلاً ، ثم ذكر المعركة وما يدور فيها ، فتقدم الى زوجه فطبع على جبينها قبلة كلها هموم : ومد يده يريد أن يأخذ سكمندريوس فيداعبه أو يودعه ؛ ولـكن الطفل صرخ مروعاً من هذه القبعة النحاسية المذهبة التى تحمى مفرق أبيه ! وابتسم الوالداه ، برغم حزنهما ، ورفع هكتور القبعة وألقاها على الأرض المعشوشبة ، وتناول الطفل فأرقصه قليلاً حتى انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية ، ولثمه كما تلثم العاصفة فنناً وارفاً فتلفحه ، ودفع به الى حضن أمه

وانطلق يطوى الطريق الى المعمعة ! . . .

(لها بقية) دريني خشبة

٢ - رحلة إلى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

أقلتني سيارة برفقة الأخ النبيل الكريم حسن حشمت ، من خيرة الشبان وأكفأ ضباط الحدود ، وطفنا بكثير من البساتين والينابيع ، وهي عماد موارد الواحة وخير ما يميزها ، تنتثر في أطرافها في عدد لا حصر له ، وحولها تقوم غابات النخيل تتخللها أشجار الفاكهة ، أخص بالذكر منها الكروم والزيتون ، ثم الرمان والتفاح والبرقوق والموالح ، على أن البساتين تفتقر إلى عناية كبيرة من أهلها ، فهي مهملة إلى حد كبير ، إذ تغص أرضها بالطفيليات ، وتزدحم بالأشجار المتجاورة ، مما يؤثر ولا شك في مقدار انتاجها عاماً بعد عام . ويخيل إلى أن الناس هناك أميل إلى الكسل ، إذ كنا نرى ماء الينابيع المتفجرة يجري على غير هدى ، ويؤدي بعضه إلى مستنقعات فسيحة هائلة بعضها يبدو كالبلاجات المديدة ، ونرى كتل الملح الأبيض الوضاء تكسو جوانبه إلى مد البصر . ولقد حاولت وزارة الزراعة إصلاح تلك الأراضي وحث الناس على استغلالها بطريقة أنجع من طريقتهم الحالية في الحرث وتمهيد الأرض ، وكذلك في الاستفادة بذلك الماء الوفير الذي يضيع سدى ، ولقد قامت وزارة الزراعة هناك بمجهود يشكر في توزيع أشجار الزيتون والخروب على الناس مجاناً ، وفي الاحتفاظ بمياه الينابيع فأقامت حول كل عين أحواضاً كبيرة من البناء تؤدي منها المجاري الصغيرة إلى مختلف النواحي ، بحيث تشعر وأنت تجوب أطراف الواحة من كثرة القنوات وتقاطعها وتشعبها أنك وسط قطر زراعي ممتاز ، لكن رغم ذلك يضيع جانب كبير من ذلك الماء سدى ، ولقد ساعدت تلك القنوات على تجفيف كثير من المستنقعات التي كانت مرتعاً خصيباً لبعوض الملاريا الذي كان يفتك بالناس فتكا ذريعاً ، وهي تبث في تلك المياه نوعاً من السمك الصغير الذي يعيش على بويضات ذلك البعوض استئصالاً له . ولقد زرنا مصنع وزارة الزراعة الذي أقامته لاستغلال أكبر موردين للناس هناك : البلح والزيتون ؛ وهي تبتاع من الأهلين جانباً كبيرا من أجود أنواع البلح ، وتخضعه لعملية الغسيل والتطهير والتبخير ، ثم الكبس في صناديق من خشب تبطن بالورق الصقيل ، وتصدر منه بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ طن في العام ؛ وفي جانب من المصنع معصرة آلية للزيتون بكامل معداتها ، يعصر فيها الزيتون وينقى الزيت بعدة عمليات ، ثم يوضع في صفائح ويصدر ؛ وانتاج المصنع آخذ في الزيادة ، ولذلك تفكر الوزارة في توسيعه باطراد . وللأهلين كثير من المعاصر الخاصة للزيت ومساطح البلح الذي يمدون منه (العجوة) السيوي الشهيرة ؛ أما باقي أنواع الفاكهة فلا يكادون يستفيدون منه تجارياً ، حتى البيع لأهل الواحة نفسها غير مباح ، ذلك لأن المالك يعد بيع الثمار للناس معرة لا تليق بكرامته ، ولكل انسان أن يدخل البساتين ويأكل منها ما يشاء بدون مقابل ، ولكن ليس له أن يحمل إلى الخارج شيئاً منها إلا في حالات خاصة ، عند ما يريد المالك تقديم الهدايا من ثمار حديقته لبعض ذوي المكانة والجاه من الغرباء أو الأهلين . ولم أدرك من صنوف الثمار شيئاً ، اللهم إلا أردأ أنواع البلح هنالك ويسمونه البلح الفراوي ، أما البلح الممتاز المسمى الصعيدي ، والذي يليه جودة الفريحي فلا يزال فجاً غير ناضج



عين ناجرزت من أكبر ينابيع سيوه

أذكر أنا دخلنا بستاناً وتفيأنا بشجرة ، وكانت الأرض تحت النخيل يكاد يفرشها ذاك البلح الردي (الفراوي) فطالب الأخ حشمت إلى الرجل أن يذيقنا أطيب ذاك البلح ، فاعتلى

الرجل النخلة وهز عرجونها ، فأمطرتنا وابلاً من رطب أصفر كبير ، فأقبلنا ننتقى منه أطيبه ونغسله فى ماء النبع حولنا ونأكله ، فكان لذيذاً شهياً ، وما كدت أمتدحه حتى سارع الرجل بالاعتذار بأن الأنواع الجيدة لما تنضج بعد ، وأن هذا النوع الذى نأكله غير جدير بنا ، لأنه عندهم طعام الحمير ! وقد علمت أنهم حقاً يقدمونه علفاً للحمير ، والنوى تأكله المعزى

وأكبر عيون الواحة عين قريشت التى تبعد عنها بنحو عشرين ك. م ، ثم عين تاخردت التى تنفجر بقوة هائلة ويتدفق منها ٤٠٠٠ طن يومياً يضيع جله فى متسعات الملاحة بالبحر ؛ ثم عين الشفا ، وتقول خرافة قديمة إنها كانت متصلة بالجن ، خاضعة لعبثهم ، ثم اكتسبت هبة سحرية هى شفاء الأمراض كافة ، لذلك يكاد يغتسل فيها الناس جميعاً كل يوم ، فالنساء يقمن مبكرات ويغسلن أجسادهن دون رءوسهن احتفاظاً بجمال الشعر آخر آيات تجملهن ، ثم يعقبهن فى ساعة متأخرة الرجال ؛ والعين التى يستقى منها الناس جميعاً عين تابه أمام مركز البوليس ؛ وكم كان يروقنى منظر الناس وبخاصة النساء وهن يردن تلك العين فى بكرة الصباح وعند الأصيل بملأن جرارهن ! هذه سيوية فى نصف سفور ، وقد ارتدت جلباباً فضفاضاً من قماش يغلب على نقوشه التخطيط الأزرق ، وقد ضفرت شعرها فى جدائل متعددة ، بعضها يتدلى إلى جانبى الرأس والبعض أمامها ؛ وتنتهى الجدائل الخلفية بقطع من جلد خشن كان سبباً فى أنهن لا يستطعن النوم على ظهورهن أبداً ، وتزين أذنيها أقراط ثلاثة ، فى أسفل الأذن فى طوق كبير يعلوه فى وسط الأذن واحد أصغر منه ، ثم يعلو هذا ثالث هو دونه حجماً ، وتكاد تكسو رقبتها أطواق من الفضة بعضها خارج بعض ، وهؤلاء لا يغسلن رءوسهن إلا فى فترات بعيدة تعد بالأعوام ، وبعضهن لم يغسلنها منذ نشأن ، وذلك خشية افساد زينة الرأس ، وهن كل أسبوع يتعهدن الشعر ببعض الزيوت والأعطار ، ويخيل إلىَّ أن سبب تلك العادة سقوط الشعر من أثر أملاح مياه الينابيع مما نفرهن من غسله فأضحت عادة فيهن

والسيويات جميلات الوجوه بألوانهن الخمرية وتقاطيعهن الدقيقة النحيلة . وإلى جانب السيوية كنت أرى عربية ازينت بجلبابها الأحمر ، وأحاطت خصرها بحزام معوج من الأمام ، وكانت تهولنى أكمامها الكبيرة ، ولقد خبرنى الطبيب بأنه عند الكشف على إحداهن لا تضطر السيدة أن تخلع ثوبها ويكفى أن ترفع ذراعها فيظهر كل جسدها من كمها



سيوية ترد ماء نبع فى سيوه ويشاهد فى وجهها الجمال الغربى

وللقوم لغتهم السيوية الخاصة ، كنت أستمع إليها فى رطانة هى أبعد من اللهجات الأوربية عنا ، وقد حاولت أن أتعقب فى كلماتها شيئاً يمت إلى العربية أو اللاتينية بصلة فلم أهتد إلى كلة واحدة ؛ وهم يتخاطبون بها دائماً ، لكنهم إذا تحدثوا إلى الغريب تكلموا بالعربية ، وأطفالهم لا يعرفون إلا اللغة السيوية . واليك أمثلة من تلك اللغة : تلحاك أنك (كيف حالك ؟) ، أمقحاط : (أين تذهب ؟) ، سقم أنا ضيط : (من أين تجيء ؟) ، أفتك اللون : (افتح الشباك) أقّن شاشينّك أخنفينّك (ألبس الطاقية على رأسك) أفن شخشيرك فى أشكنّك (البس الجورب فى رجلك) أشوّ (الطعام) الخ . وما إلى تلك الألفاظ التى تمعن فى الغرابة بالنسبة للغتنا ، وحتى أسماؤهم تجد من بينها عجباً مثل : تلشلشت ، زوبّاى ، بيّخ . ولهم تدليل خاص لبعض أسمائنا فمثلاً ينادون : أبا بكر باسم كاكا ، ابراهيم باسم بابى ، أحمد باسم حيدة ؛ ويقال إن أصل تلك اللغة بربرى مازجتها العربية ثم الرومانية . ولا تزال للرومان هنالك بعض الآثار ، أشهرها معبد المشترى (جوبتر أمون) ، وكان مقر الكهنة ذرعه ٣٦٠ × ٣٠٠ قدم ، ومن أحجاره ما يبلغ ٣٣ × ٢٦ قدماً ، وقد زاره الاسكندر بعد أن قاسى المتاعب المضنة وبعد أن نضب ماؤه وأشرف على الهلاك لولا أن سقط المطر فأنجاه هو

ورجاله. وكان يقوم في هذا المعبد صنم اسمه سيوح هو الذي أكسب الواحة اسمها؛ وقد زرت هذا المعبد وألفيته في حال يرثى لها، فأنت لا تكاد تجد به حجراً قائماً على أصله وذلك من أثر أحد المأمورين الذين رأوا في أحجاره مادة صالحة لإقامة مركز البوليس، فقام بهدم المعبد ويستخدم أحجاره فيما أراد، والمفروض أنه من مثقفي القوم ومن الذين يعرفون قيمة الاحتفاظ بمثل تلك الآثار الجليلة، وهو لا يزال مأموراً إلى اليوم في ناحية أخرى من مراكز الحدود؛ عفا الله عنه وكفر له عن سيئته.

ويقال إن تلك الواحة كانت تسمى عند العرب (سنتريه)، بناها منافيوس مؤسس بلدة أخميم، أقامها من حجر أبيض وشيد وسقفها ملساً من سبع طبقات وعليه قبة من خشب على عمد من رخام، وكانت كل طبقة لطائفة من الناس على حسب مكانتهم؛ على أني لم أجد لكل هذا أية بقية أو أثر. وقد حاول قمبيز تدميرها وهدم معبد أمون الذي بها فهلك جيشه العظيم في طريقه اليها. ولقد زاد ذلك في قدسيتها لأنهم عزوا ذلك إلى غضب الآلهة، ولم تدخل تلك الواحة تحت حكم مصر إلا في عهد المغفور له محمد علي باشا حين أرسل اليها حسن بك الشماشرجي، حاكم البحيرة إذ ذاك، فأخضعها وتعهد بها عرب أولاد علي إلى زمن سعيد باشا ثم ضمت لمديرية البحيرة، وهم يؤدون ضريبة النخيل للحكومة، وكان مجموعها زهاء ٨٠٠ جنيه وزعت على عدد النخيل الجيد الذي يثمر البلح الصعيدي، بخص كل نخلة نحو تسعة مليمات ضريبة تدفع للدولة كل عام؛ ويكاد يكون لهم نظام حكم خاص بهم فالحكومة تكل أمرهم إلى المشايخ وعددهم سبعة يتقاضون مرتبات تتراوح بين جنيهين وأربعة كل شهر، وهؤلاء هم الوسطاء بين الدولة وبين الأهلين؛ وعند انتخابهم يجتمع أعيان الواحة ممن تزيد ملكيتهم على مائة نخلة وينتخبون الشيخ ولا تقل أملاكه عن ٢٥٠ نخلة؛ وغالب منازعاتهم تحل بطريق التحكيم فيختار كل من الخصمين رجلين يوكل اليهما الأمر وقضاؤهما نافذ بعد عرضه على المأمور، وأساس تشريعهم القواعد التي وضعها لهم عالم اسمه محمد يوسف، وتكاد تكون وفق تقاليدهم الخاصة، إلا في الزواج والميراث فهم خاضعون لقضائنا. وعدد سكان الواحة يقرب من خمسة آلاف ليس بينهم مسيحي واحد؛ ويقولون إن أربعين رجلاً من العرب والبربر وقبيلة أغوزي وفدوا إلى تلك البقعة وأقاموا لهم معصرة ودونوا أسماءهم في سجلاتهم، ثم تكاثر نسلهم حتى بلغ هذا العدد ومن لا ينتمي إلى واحد من أولئك الأربعين يعد دخيلاً عليهم

وطبقة العمال هناك يسمون الزجالة أو الزجالين، يزيد عددهم على الخمسمائة، وهم الذين يقومون بخدمة الأرض نظير قيام السيد بمؤنتهم الضرورية، ولكل خادم جبة من صوف وثوب من قماش كل عام، وعند جمع المحصول يتسلم الواحد ٣٢ صاعاً من الحب وأربعين من البلح الصعيدي الجيد. وتلك الطائفة كبيرة العدد مفتولة السواعد ممتلئة الجسوم، ممنوع أفرادها من الزواج مخافة أن يزيد نسلهم فتزيد النفقة على سيدهم، ومن تزوج منهم طرده سيده وتخلص منه؛ وهذا لا شك من أسباب قلة النسل في الواحة كلها، وقد أخذ ذلك يهدد السكان بالانقراض، فضلاً عن أنه ساعد على انتشار الفساد إلى درجة كبيرة

(يتبع) محمد ثابت

البريد الأدبي

وفاة الشيخ محمد بخيت

في اليوم الثامن عشر من هذا الشهر استأثر الله بالفقيه العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية السابق ؛ وهو خاتم طبقة من العلماء المحققين الذين تميزوا في حياة الأزهر بالتبسط في العقائد ، والتعمق في الفقه ، فانتهت إليه الأمانة فيهما حيناً من الدهر . كان — غفر الله له — من أشد المعارضين لحركة الاصلاح التي قام بها الامام محمد عبده ، دفعه إلى تلك المعارضة الثائرة شهوة المنافسة من جهة ، وتحريض أولى السلطان من جهة أخرى ، وكان في الشيخ ذكاء شاهدة ، ودعابة لطيفة ، وطموح إلى مساماة الامام في منصبه ونفوذه وشهرته حرك فيه الأخذ بنصيب من الأدب والثقافة العامة . ولعله كان أعلم أهل جيله بدقائق الفقه الحنفي ، وأبسطهم لساناً في وجوه الخلاف بين أصحاب الشافعي وأصحاب أبي حنيفة

ولد في بلدة المطيعة من أعمال أسيوط في سنة ١٢٧١ هـ (١٨٥٦ م) ، ثم دخل الأزهر في سنة ١٢٨٢ هـ وتخرج منه سنة ١٢٩٢ فاشتغل بالتدريس فيه . ثم انتقل سنة ١٢٩٧ إلى القضاء فتقلب في مناصبه حتى تولى قضاء مصر نيابة عن القاضي التركي نسيب افندي . وفي سنة ١٩١٤م عين مفتياً للديار المصرية ، وظل في هذا المنصب حتى أحيل على المعاش سنة ١٩٢١م فقضى بقية أيامه في الأقراء والافتاء حتى قبضه الله إلى رحمته

اهتزاع الخراع للصفدي

وقع الأستاذ الطنطاوي على نسخة من هذا الكتاب الغريب عند بعض أصدقائه الأدباء ، وقد وصفها في العدد الماضي وفي هذا العدد ، وقال إنها ناقصة من أولها وآخرها ، وقد أخبرنا صديقنا الأستاذ محمود حسن زناتي أمين الخزانة الزكية أن من هذا الكتاب نسخة مخطوطة كاملة في مكتبة المرحوم عبدالله باشا فكري ، وهي الآن في حوزة حفيده الأستاذ محمد أمين فكري بك بوزارة المالية ؛ فعسى أن يتيح الله لهذا الكتاب الطريف من ينشره

قبر الصفدي

إلى الأخ الأديب الأستاذ علي الطنطاوي

ذكرت يا سيدي أثراً من آثار صلاح الدين الصفدي بعدد « الرسالة » العشرين بعد المائة ودللت على فضل الرجل وعلى أثره في الأدب العربي ، فهل تدري يا سيدي أين يرقد هذا الرجل الفذ ؟ إن قبره في مدينة صفد (فلسطين) قبر متهدم ، في حارة اليهود ، في بقعة لا تزيد على خمسين متراً مربعاً . . . أتريد أن تعلم أكثر من ذلك ؟ — إن جيرانه لا يأنفون أن . . . يقذفوا قبره بزبالة بيوتهم .

قبر مندرس ، في مكان ضيق قذر ، مجهولة قيمة ساكنه ، لا يزار ولا يعرفه إلا القليل ، وما كان ليعرفه كل من يعرفه الآن لولا زيارة المرحوم شيخ العروبة له قبل عشر سنوات ، والتبرع . . . ببناء جدار حوله !

منذ الحرب حتى يومنا هذا لم يزر قبر « إمام عصره » من الأدباء إلا المرحوم أحمد زكي باشا ، فهل هذا هو التقدير لأدبائنا ؟ أمة تنشد الحياة والاستقلال وإحياء الماضي العزيز ، أيليق بها أن تهمل قبور رجال العلم والأدب فيها لتصبح . . . مزابل ؟ ! قارن بين وستمنستر والبانطيون و (مقبرة) صلاح الدين تعلم السر في الفرق بين من أدباؤهم السابقون في وستمنستر ، ومن قبور أدبائهم كقبر ابن أيبك !

ها قد مر على رقدة صلاح الدين الأخيرة خمسمائة وتسعون سنة كاملة ، وبعد عشر سنوات تبلغ الستمائة ؛ فماذا أعددنا لاحياء ذكراه الستمائة ؟ في وقت يقيم الغربيون المهرجانات الكبيرة لأحياء ذكر أدبائهم في كل عام ! عسى ألا تمر العشر السنوات الباقية لذكرى الستمائة سنة لوفاته وقبره مهمل قذر لا يزار

(صفدي)

نظريات الجنس والسلالة والخصومة السامية

اتخذت نظريات الجنس والسلالة في العهد الأخير أهمية خاصة؛ فهي اليوم روح النظام الذي يسود ألمانيا، وقد أخذت تثير في بعض الدول الأخرى جدلا لا نهاية له؛ وقد كان اليهود ضحية هذه الفورة التي اتخذت في ألمانيا أشكالا من العنف والهمجية تذكرنا بروح العصور الوسطى وأساليبها؛ على أن نظرية الجنس وتفوق السلالة لم تقف عند اضطهاد اليهود، ولو وقفت عند هذا الحد لكانت مسألة محلية بالنسبة لألمانيا، ولكن هتلر ودعاته ذهبوا بعيداً في صوغ النظرية الجنسية، فنادوا بتفوق السلالة الجرمانية أو السلالة الشمالية (النوردية) على جميع أجناس البشر، ووصموا الأجناس السامية كلها بالانحطاط وعدم الأهلية لانشاء الحضارة، ونادوا بوجوب اخضاعها وتعذيبها واستغلالها بواسطة الشعوب الشمالية؛ ومن هنا تتخذ الدعاية الهتلرية أهميتها بالنسبة للشعوب الشرقية، وهي التي وصمت بهذه الوصمة وصدر في حقها هذا الحكم؛ وقد كانت ألمانيا وما زالت مهد التعصب الجنسي، وكانت بالأخص مهد الخصومة السامية؛ ولم يأت زعيم الدولة الألمانية في ذلك بجديد في كتابه «كفاحي» الذي يحدثنا فيه طويلاً عن عناصر الانحطاط والخطر في اليهودية، فإن الثقافة التي تلقاها لا تسمح له بمناقشة هذه الشؤون العلمية والتاريخية؛ ولكنه نقل معظم أقواله من الكاتب الألماني كرستيان لاصن؛ وقد كان لاصن أول من صاغ من الخصومة السامية نظرية علمية تاريخية، وأول من تحدث عن انحطاط الأجناس السامية في كتاب نشره في منتصف القرن الماضي؛ ثم تلاه المؤرخ الفرنسي أرنست رينان؛ واتخذت نظرية الخصومة السامية من ذلك الحين شكلها الجدلي

نكتب ذلك لمناسبة كتاب ظهر أخيراً بالانكليزية عنوانه: «How odd of God» (كيف التباين من الله) بقلم الكاتب الانكليزي لويس براون؛ وموضوع الكتاب هو الحديث عن مركز اليهود في المجتمع والانسانية؛ وقد يبدو لأول وهلة أن المؤلف وهو يهودي يجري على نغمة الدفاع عن جنسه؛ ولكن الواقع أنه لا يبدي في ذلك حماسة خاصة؛ وإنما لب الكتاب وموضوعه الأول هو تحليل النظريات الجنسية التي ترتبت عليها الخصومة السامية؛ وشرح الأسباب التي أدت إلى تفاقمها وإلى الصراع بين اليهودية وخصومها، ويرى الكاتب أن الحركة اليهودية لم تتخذ هذه الأهمية من تلقاء نفسها، ولكنها نمت واشتد ساعدها بسبب الاضطهاد والمطاردة؛ ويدلل الكاتب على نظريته بسير الحركات العالمية الكبرى، فالنصرانية ما كانت لتنمو وتنتشر هذا الانتشار لو لم تطارد في بدء ظهورها بعنف وقوة، وكذلك اليهودية؛ فمنذ غابر العصور كان اليهود موضع الاضطهاد والبغض والزراية، وكانوا يجلدون ويعذبون وتحرق منازلهم وتصادر أموالهم، ولكن اليهودية هي اليوم أقوى ما تكون حياة وحيوية؛ بل هي اليوم في ازدهار وتقدم، وقد نتساءل أيكون ذلك رغم الاضطهاد والمطاردة؟ ويقول الكاتب كلا بل بسبب الاضطهاد والمطاردة. ثم يقول إن اليهود لم يكونوا قط جنساً أو شعباً متحداً، ومن الخطأ أن نعتقد أن العصبية الدينية هي التي تربطهم وتقوي تضامنهم؛ ذلك أن اليهودية دين سهل، يقبل مختلف التطورات والتفسيرات؛ ولكن اليهود يجتمعون في مسألة واحدة ما زالت قائمة خلال القرون، تلك هي أنهم دائماً موضع البغض والزراية من بني الانسان؛ وقد أرغموا خلال العصور على أن يناضلوا من أجل حياتهم، فبث فيهم النضال قوة؛ واليهودي يشعر أنه ليس كباقي الناس، ولكنه يحمل دائماً على أن يشعر بأنه يوجد شيء ضده؛ ومن ثم تعلم الحذر والتحوط إلى درجة يدهش لها الجمهور الرفيع

ويكتب لويس براون بوضوح وسلاسة ويستعرض ما في بني جنسه من عيوب وفضائل بروح الاعتدال والانصاف، ويحلل نظريات الجنس والسلالة بقوة وذكاء، ويفند ما فيها من تحامل وسفسطة، ويتساءل عن المعيار الذي يتخذه دعاة النظرية لتفاضل الجنس والسلالة: أهي المظاهر الخلقية المادية كالجمجمة والفك والشفتين واللون وغيرها، وهذه جميعاً يختلف معيار التفاضل فيها عند مختلف الأجناس والشعوب، وربما فضل الزنجي الرجل الأشقر في بعض تقاطيعه أو خواصه، وربما فضل المغولي الأصفر القصير باقي الأجناس بدقة شفاهه وحمرتها، وهكذا. ولا يحاول لويس براون بأي حال أن يزعم أن لليهود تفوقاً خاصاً، ولكنه

يقول فقط إن الجمهور الرفيع لم يترك باباً من أبواب الاضطهاد والمطاردة لسحق اليهود إلا ولجه ؛ وحيثما ترك اليهودي لنفسه ولم يزعج تراه نسياً منسياً ، ولكن حيث يواجهه الصراع والمطاردة تراه قوياً يغالب الحوادث

وقد أثار كتاب لويس براون في الدوائر السياسية والاجتماعية كثيراً من الاهتمام والجدل ؛ وربما كان كتابه أول كتاب من نوعه ، يذكرنا بمؤلفات سلفه ومواطنه الكاتب والفيلسوف اليهودي الأكبر « مكس نردو » الذي لفت أنظار العالم منذ ثلث قرن بقوة جدله في نقض أصول المدنية الحاضرة وأكاذيبها الاجتماعية والجنسية والسياسية

تمثال لحنه بافلوفا

من أنباء لندن أنه سيقام في إحدى حدائقها تمثال بديع للراقصة الروسية الشهيرة حنه بافلوفا ، وقد أوصت بصنع هذا التمثال لجنة من محبي الفنون في لندن حيث عاشت الراقصة الشهيرة حيناً من الدهر ؛ وعهد بصنعه إلى المثال السويدي الكبير كارل ميلس ، وستبلغ نفقاته ثلاثين ألف جنيه ؛ وتقرر أن يقام في بستان ريجنت في حديقة الورد ، وهي تقع إلى جانب بركة البجع ، وهو الطير الذي أوحت حركاته إلى بافلوفا بأشهر وأروع رقصاتها المسماة « رقصة البجع » . وتمول اللجنة على جمع المال المطلوب من إيراد « فلم » يمثل حياة بافلوفا في طائفة من أبدع رقصاتها ومنها « رقصة البجعة المحتضرة » ؛ وقد أخذت هذه المناظر قبل وفاة بافلوفا بقليل واشترك فيها مع الفنانة الشهيرة بعض كبار الراقصين الذين عملوا معها

وتمثل حياة بافلوفا وحدها طوراً من أعظم أطوار الفن الراقص ؛ وقد ولدت هذه الراقصة البدعة في بتروجراد في سنة ١٨٨٥ ، وتعلمت الرقص في بعض مسارحها ، ولم تبلغ العاشرة من عمرها حتى ذاعت شهرتها وتقدمت في سبيل المجد والرياسة الفنية بسرعة مدهشة ؛ وكانت فنانة رائعة الابتكار ، وعلى يدها دخلت أوضاع « الباليه » الراقصة في طور جديد وبلغت ذروتها من الافتتان والروعة . وكان الفن لديها وحياً وسمواً . وقد طافت عواصم العالم الكبرى مثل لندن وبرلين وباريس ونيويورك ولقيت فيها جميعاً فوزاً باهراً . وقدمت إلى مصر سنة ١٩٢٩ ففتنت المجتمع المصري برائع فنها ولا سيما برقصة « البجعة المحتضرة » وتوفيت سنة ١٩٣١ في مدينة لاهاي وطويت بوفاتها صفحة من أروع صفحات الفن الحديث

أرضهم السعداء

يوجد بين جزائر المحيط الهادي التابعة لانكلترا جزيرة صغيرة يصح أن تسمى بالجزيرة السعيدة . وتسمى هذه الجزيرة « جزيرة تونجا » وهي إحدى مجموعة جزائر « الأحباب » التي وقف بها الرحالة الشهير « كابتن كوك » أثناء طوافه في أواخر القرن الثامن عشر بهذه المياه الخطرة . وأمير هذه الجزيرة زنجي يسمى البرنس « توفا آهو » وهو شاب في الثامنة عشرة ولكنه طويل القامة جداً ، وهو يدرس الحقوق في ملبورن ووجه الرضى والسعادة في « تونجا » هو أنه ليس بها فقير ولا معوز ولا تدفع فيها ضرائب . وكل فرد من سكانها يبلغ السادسة عشرة يعطى أرضاً مساحتها نحو ثمانية فدادين ومسكناً قروياً ، أو بعبارة أخرى تهيأ له كل أسباب العيش والرخاء

وقد استبدلت ضريبة الدخل بجعل سنوي قدره جنيهان يدفعه كل ذكر بالغ ؛ ولكنه ليس بضريبة في الواقع لأنه يخول له مقابله أن يعالج مجاناً هو وأفراد عائلته في مستشفى الحكومة ؛ ومعظم إيراد الحكومة يجبى من الجمارك وضريبة السيارات . ويكفل التعليم الحر بوجود المدارس الابتدائية وهي كلها مجانية ؛ وهناك كليتان صغيرتان . ومن مفاخر هذه الجزيرة النائية التي لا يجاوز سكانها ثلاثين ألف نفس أن ليس بها أمي واحد

الكتب

رسالة الحج

تأليف الأستاذ ح . ع . (دبلوماسي)

للأستاذ عبد الحميد العبادي

الأستاذ ح . ع . من خيرة رجالنا العاملين في السلك الدبلوماسي ، مثل مصر ولا يزال يمثلها في ممالك الشرق العربي ، فأفاد بذلك خبرة نادرة بأحوال البلاد العربية في الوقت الحاضر ، وأنشأ لنفسه بخلقه وإخلاصه ونشاطه مكانة عالية عند ملوك العرب ، وساستهم ، وأدبائهم ، وعلمائهم . وإني لسعيد بأن أقول إني اطلعت على ذلك بنفسي في بعض تجوالي في ربوع الشرقين الأدنى والأوسط .

وقد واتى الحظ الأستاذ ح . ع . وساعفته ظروف عمله الدبلوماسي فأدى فريضة الحج ثلاث مرات استطاع أن يدرس في أثنائها على هدى التاريخ وفي ضوء الواقع حال ذلك النظام الإسلامي الجليل المعدود خامس أركان الإسلام . ثم صاغ خلاصة دراسته في رسالة لطيفة الحجم عظيمة الفائدة ، يعرف فيها من يطالعها بلاغة الأديب ، وفكرة الفيلسوف ، ونزعة المصلح المؤمن برسالة الإسلام وبإمكان إنهاض المسلمين من عثارهم بالرجوع بهم إلى كثير من نظمهم وسننهم الأولى . فجاءت الرسالة من أحسن ما كتب عن « الحج » ، ومن خير ما أخرجته المطابع المصرية في هذا العام .

***

ينعى الأستاذ على المسلمين في صدر رسالته إهمالهم أمر الحج حتى كاد هذا النظام العتيق يفقد على مر الزمن من الناحية العملية الحكمة التي قصد إليها الشارع من تشريعه . فهو يقول : « أما بعد فقد أديت فريضة الحج ثلاث مرات ، وشاهدت الحجيج من جميع الأجناس ، وخالطت منهم طوائف كثيرة ، وجادلت كبارهم وذوي العقول منهم ، ودرست بفكري وعيني وقلبي ، فكنت أرى وأفكر وأبحث ، وكنت أستلهم كل شيء حكمته ، وكل مكان وحيه ، وكل عمل سره ، فظهر لي أخيراً أن الحج لا يزال مجهولاً في حقيقته ، وأن الذين يحجون إنما يؤدون عملاً فردياً محضاً ، ولا يعرفون إلا ظاهراً من الأمر . . . »

***

والرسالة تنقسم إلى ثلاثة أقسام ، أولها في أن الاسلام دين انسانى عام ، وأنه دين المساواة التي تظهر في شكلها المادي المحسوس في الحج ، وأن الكعبة من العالم الاسلامي بمنزلة القلب من الجسم ، فالتوجه إليها في الصلاة والحج ذو حكمة بالغة . والقسم الثاني يتناول الكلام على « مقاصد الحج » ، وفيه يرى الأستاذ أن الحج كفيل بتحقيق مبدأ الرجوع إلى طهارة الطبيعة الذي دعا إليه الفلاسفة أمثال روسو ولكنهم عجزوا عن تحقيقه ، وأن الحج يستوفي مزايا نظام الكشافة ويربي عليها ، وأن الحج رمز للجهاد الاسلامي في أسمى وأشرف معانيه ، وأن موسم الحج جدير بأن يصبح مؤتمراً عاماً لنشر الثقافة بين المسلمين لو حرصت كل أمة اسلامية على أن تحج كل عام نفراً من صفوة رجالها يبادلون نظراءهم من حجاج الأمم الأخرى الرأي والمشورة ؛ والأستاذ يرى أن هذه المقاصد كلها مما يندرج تحت مدلول قوله تعالى : « ليشهدوا منافع لهم »

على أن الجديد الممتع من هذه الرسالة هو قسمها الثالث ، هو تلك الفصول التي عقدها الأستاذ لمناسك الحج وأسرارها التي خفيت على كثير من بحاث المسلمين حتى ذهب بعضهم إلى أنها أمور تعبدية توقيفية لا مجال لتفكير العقل البشري فيها ؛ فالأستاذ يتناولها منسكاً منسكاً : من الأحرام ، إلى الطواف حول الكعبة ، إلى السعي بين الصفا والمروة ، إلى الوقوف بعرفات ، إلى رمي الجمار عند العقبة ، إلى تقديم الهدى ، إلى استلام الحجر الأسود والاهلال بالتلبية ، فاذا هذه المناسك قد أفصحت عن سرها ، وأبانت عن مكنون حكمتها . والحق أن هذا البحث ليكشف عن ناحية روحانية جميلة من نفس الباحث القدير

***

ثم يختم الأستاذ رسالته بمقترحات عملية يتقدم بها إلى الحكومات الاسلامية عامة والحكومة المصرية خاصة ، راجياً الأخذ بها حتى ينتفع المسلمون بنظام الحج

وإن الذي يفرغ من قراءة هذه الرسالة ليتمنى أمرين : أن تجد دعوة الأستاذ ح . ع . من أولى الرأي في العالم الاسلامي آذاناً صاغية ، وقلوباً واعية ، وألا يحرم الأستاذ الشباب المتعلم المثقف من نفثات يراعه ، فهو يراع يصدر عن فكر ناضج وعاطفة نبيلة ؟

عبد الحميد العبادي

3 me Année, No. 122.

Lundi 4-11-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

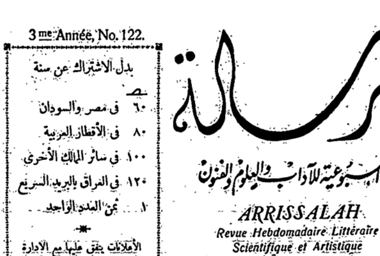
٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــــدد ١٢٢ « القاهرة فى يوم الاثنين ٧ شعبان سنة ١٣٥٤ — ٤ نوفبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

صفحة

فى الجمـــــال ...

بحث تحليلى نهديه الى الآنسة شارلوت
واصف ملكة الجمال العالمى فى هذا العام

ما هو الجميل ؟ الجميل فى اجماع الناس هو ما ينشئ فى الذهن فكرة سامية عن الشيء فى الطبيعة ، أو عن الموضوع فى الفن ، فيبعث فى نفسك عاطفة الاعجاب به . ولكن ما هى على التحديد الصفات التى تبعث اللذة وتثير الاعجاب فى بدائع الفن أو فى روائع الطبيعة ؟ ذلك ما نحاول شرحه فى شيء من الافاضة

الطبيعة والفن إنما يحدثان أثرهما فى النفس إما بالفكرة وإما بالعاطفة وإما بالشعور الصادر عن آلات الحس ؛ ومن ذلك تنوع الجمال فكان عقلياً وأدبياً ومادياً ما فى ذلك شك . ففى أى الجهات إذن تشرف النفس والعاطفه والحواس وجوه الجمال ؟ إن الخصائص المميزة للجمال هى القوة ، والفيرة [1] ، والذكاء ؛ والمراد بالقوة شدة العمل وحدته ، وبالفرة كثرة الوسائل وخصوبتها ، وبالذكاء الطريقة الرشيدة المفيدة لتطبيق هذه الوسائل . ولا جدال فى أن الحواس ليست كلها أهلا لنقل هذه الخصائص الجمالية الثلاث ، وإنما ينفرد منها السمع والبصر بنقل أحاسيسها نقلاً قوياً يثير الدهش والاعجاب واللذة . أما

(١) الفرة : مصدر وفر الشيء اذا كثر واتسع وتم وكمل

الانفعال الذي يأتيك عن طريق الشم والذوق واللمس ، فلا ينشأ عنه فكرة ولا عاطفة ؛ لأن الطعوم والروائح ، والليونة والخشونة ، والصلابة والليونة ، والحرارة والبرودة ، أحاسيس بسيطة عقيمة قد توقظ في النفس ذكرى خابية أو عاطفة غافية ، ولكنها لا تنتج واحدة منهما . وإذا كان البصر آلة الجمال الحسي أو المادي ، والسمع آلة الجمال العقلي والخلقي ، فأن في هاتين الحاستين الدليل على خصائص الجمال الثلاث ، ذلك لأن أجمل ما يؤثر في العين والأذن هو ما بلغ من القوة والفرة والذكاء أسمى غاية ؛ وجمال الأشياء إنما يتفاضل فيهما بمقدار ما يشتمل عليه من هذه العناصر ؛ وكلما نقص عنصر منها أو قل ، ضعف فينا الشعور بالجمال على نسبته .

ما الذي يجعل لعملي النفس وهما الفكر والإرادة هذه الصفة التي تملك اللب في العبقرية والفضيلة ؟ لا شيء غير القوة والفرة والذكاء ، سواء أكان ما تعجب به براعة الصنع أم مهارة الصانع . إن الطيبة في ذاتها فضيلة ، ولكنها لا تكون جميلة إلا إذا اقترنت بالقوة ؛ فسقراط في الحكماء ، وعمر في الخلفاء ، مثلان سائران في جمال الخلق ؛ ولكنك إذا جردت أخلاقهما مما ينبىء عن القوة وخواصها من الصدق والصبر والشجاعة والسمو ، ذهب الجمال وبقيت الطيبة . إذا صنعت المعروف في صديقك وعدوك كان الفعل كريماً في الحالين ، ولكنه في الصديق عادي لأنه بسيط سهل ، وفي العدو ممتاز لأنه عظيم شاق ؛ وفي هذه القوة التي تقتضيها تلك المشقة كان جماله . إن وفاء السموءل بدروع امرىء القيس فضيلة ، ولكن اقترانه بالقوة على تضحيته بابنه جعله آية في جمال الوفاء ؛ وإن تنفيذ بروتوس عقوبة الموت على أحد المجرمين عادة مألوفة ، ولكن تنفيذه إياها على بنيه الذين ائتمروا بروما مثل نادر لجمال البطولة . وموقف هكطور مع أندروماك ، وموقف أسماء بنت أبي بكر مع ابن الزبير لا يقلان جمالاً عن ذينك الموقفين . وسر الجمال في كل ذلك إنما هو تلك القوة الخارقة في تغليب فكرة الواجب على عاطفة البنوة

***

كذلك الجمال في أعمال الذهن ؛ حل معضلة في الهندسة ، واكتشاف عظيم في الطبيعة ، واختراع عجيب في الميكانيكا ، ونظام محكم الوضع في التشريع ، وقطعة قوية التفكير والتصوير في الأدب ، كلها أعمال جميلة ؛ لأنها تستلزم نصيباً موفوراً من الذكاء ، وقوة عظيمة في التفكير ؛ وشعور المرء بالجمال فيها ، موقوف على إدراك القوة التي تقتضيها ؛ فالعامي أمام الأحرف الهجائية ، والتلميذ أمام منطق أرسطو ، لا يجدان فيهما من الجمال ما يجده الفيلسوف ، لأنه يدرك ما اقتضياه وتضمناه من الذكاء والقوة

أما في البلاغة والشعر فأبين خصائص الجمال الذكاء والفرة ؛ فتزاحم العواطف ، وتكاثر الصور ، وتوافر الأفكار ؛ ثم اتساع الخواطر بالذهن النير الذي يحييها ويقويها ويستولدها ، وغزارة اللغة وخصوبتها وقدرتها على أن تعبر عن العلاقات الجديدة للحياة ، أو على أن تفيض من الحرارة والقوة على الحركات المختلفة للنفس ، كل أولئك يملأ شعاب القلب بالإعجاب ، وذلك الإعجاب الذي تحسه هو عاطفة الجمال

***

وشأن الجمال في المادة لا يختلف عن شأنه في الفكر والعاطفة ؛ فإنك إذا رحت تبحث في الطبيعة عن الصفة العامة للجمال لم تجدها غير القوة ، أو الفرة ، أو الذكاء . ففي الحيوان تجد هذه الصفات الثلاث مجتمعة ومتفرقة ، ففي جمال الأسد القوة ، وفي جمال الطاووس الفرة ، وفي جمال الإنسان الذكاء . ولا أقصد ذكاء الإنسان في نفسه ، إنما أقصد ذكاء الطبيعة (1) في تهيئته وتثقيفه ؛ وذكاء الطبيعة معناه مطابقة طرائقها لصورها ، وملاءمة وسائلها لغاياتها . فغايتها من الرجل غير غايتها من المرأة ، ولذلك اختلفت الوسائل في الزوجين ، وتباين مقياس الجمال في الجنسين . أرادت من الرجل أن يعمل ويقاتل ويحمي زوجه ويعول أسرته ، فزودته بما يحقق هذا المراد ويمضي تلك الإرادة : تركيب وثيق محكم تنم ملامحه على السرعة والمهارة والقوة والشجاعة ، وجسم متجاوب الأعضاء متناظر الشكول متوازن الأوضاع يصلح لكل عمل ويقدر على كل حركة ويستقيم على أي صورة ، وسمات من الشهامة والجرأة والحنان والحساسية تفيض من العيون وتنتشر على الوجوه وتختلج على الشفاه ، وجملة من الصفات الخلقية والجسمية تؤلف في الإنسان مزايا الجمال المذكر ؛ فإذا قلت رجل جميل كان معنى ذلك أن الطبيعة وهي تكونه عرفت ما تفعل ، وفعلت ما تريد

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

(1) نريد بالطبيعة ما يقابل الفن ؛ والفن صنع الانسان كما أن الطبيعة صنع الله

فوق الآدمية

الاسراء والمعراج

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

من أعجب ما اتفق لي أني فرغتُ من تسويد هذا المقال ثم أردتُ نقله فتعسَّر عليَّ وصُرِفتُ عنه بألم شديد اعتراني ونالني منه ثِقْلةٌ في الدماغ (١) ؛ ثم كشفه الله بعد يوم فراجعتُ الكتابة ، فاذا قلمي ينبعث بهذه الكلمات :

كيف يَستوطئ المسلمون العجزَ ، وفي أول دينهم تسخيرُ الطبيعة ؟

كيف يَستمهدون الراحةَ ، وفي صدر تاريخهم عملُ المعجزة الكبرى ؟

كيف يَركَنون إلى الجهل ، وأولُ أمرهم آخرُ غايات العلم ؟

كيف لا يحملون النورَ للعالم ، ونبيُّهم هو الكائنُ النورانيُّ الأعظم ؟

***

قصة الاسراء والمعراج هي من خصائص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، هذا النجم الانسانيّ العظيم ، وهذا النور المتجسّد لهداية العالم في حَيرة ظُلماته النفسية ؛ فان سماءَ الانسان تُظلم وتُضيء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله تعالى قد خلق للعالم الأرضي شمساً واحدةً تُنيره وتُحييه وتتقلب عليه بليله ونهاره ، بيد أنه ترك لكل انسان أن يصنع لنفسه شمسَ قلبه وغمائمها وسحائبها وما تُسفِرُ به وما تُظلم فيه . ولهذا سُمي القرآن نورا لعمل آدابه في النفس ، ووُصف المؤمنون بأنهم « يسعى نورُهم بين أيديهم وبأيمانهم » ، وكان أثر الايمان والتقوى في تعبير القرآن الكريم أن يجعل الله المؤمنين نورا يمشون به

ولقد حار المفسرون في حكمة ذِكر « الليل » في آية « الاسراء » من قوله تعالى : « سُبحانَ الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركْنا حوله لنُريه من آياتنا » . فان السُّرى في لغة العرب لا يكون إلا ليلا ؛ والحكمة هي الاشارة إلى أن القصة قصةُ النجم الانساني العظيم الذي يتحول من انسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة ، ويتمم هذه العجيبةَ أن آيات « المعراج » لم تجيء إلا في سورة « والنجم »

وعلى تأويل أن ذِكر (الليل) إشارةٌ إلى قصة النجم ، تكون الآية برهان نفسها ، وتكون في نَسَقها قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية . فاذا قيل إن نجما دار في السماء ، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تعجز الحُسّاب ، فهل في ذلك من عجيب ؟ وهل فيه شك أو نظرٌ أو تردد ؟ وهل هو إلا من بعض ما يسبِّح الله بذكره ؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التي يراها اتصالَ الوجود بعضه ببعض ؟

وأمّا ما يكاد ينقضي عجبي من قوله تعالى : « لنُريه من آياتنا » مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة ، يخيَّل اليك أن ليس وراءها شيء ، ووراءها السرُّ الأكبر ؛ فانها بهذه العبارة نصٌّ على اشراف النبي صلى الله عليه وسلم فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواس مما مرجعُه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه ، بخلاف ما لو كانت العبارةَ (ليرى من آياتنا) فان هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها ، فيضطرب الكلام ويتطرق اليه الاعتراض ولا تكون ثَمَّ معجزة . وتحويلُ فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائي من شكل إلى شكل كما ستعرفه ، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل ؛ فتبارك الله مُنزِلُ هذا الكلام !

وإذا كان صلى الله عليه وسلم نجما إنسانيا في نوره فان يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته ؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهيأة في الدنيا لمثل حالها في الأخرى ؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك . فقُل الآن : أيعترضُ على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة . . . ؟

ومن ثَمَّ كان الانسان إذا سما درجةً واحدةً في ثبات قواه الروحية ، سما بها درجاتٍ فوق الدنيا وما فيها ، وسُخِّرت له المعاني التي تسخِّر غيره من الناس ، ونشأت له نواميسُ أخلاقيةٌ غير النواميس التي تتسلط بها الأهواء . ومتى وُجد الشيء من

(١) لما اعتراني هذا كتبت للأستاذ الزيات أخبره به ليعلم أن المقال سيتأخر عن موعده

الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه. فالنار مثلاً إذا هي تعرضت أوجدت الاحتراق فيما يحترق، فإن وضع فيها مالا يحترق أبطل نواميسها وغلب عليها.

وكل معجزة تحدث فهذا هو سبيلها في إيجاد النواميس الخاصة بها وإبطال النواميس المألوفة؛ وبهذا يقال إنها خرقت العادة؛ ومن النور نور لا يشف له غير الهواء، ومنه أشعة (رنتجن) التي تشف لها الجدران والحجب؛ فهذه معجزة في ذلك

* * *

والنبي لا يكون نبياً حتى يكون في إنسانه إنسان آخر بنواميس تجعله أقرب إلى الملائكة في روحانيتها؛ وما ينزل إنسانه الظاهر من الإنسان الباطن فيه إلا منزلة من يتلقى ممن يعطي. فذلك الباطن هو للحقائق التي لا تحملها الدنيا، وهذا الظاهر لما يمكن أن يبلغ إليه الكمال في المثل الإنساني الأعلى؛ ولولا ذلك الباطن ما استطاع نبي من الأنبياء أن يحمل هموم أمة كاملة لا تضنيه ولا تغيره ولا تعجزه.

حقيقة النبوة أنها قوة من الوجود في إنسان مختار جاءت تصلح الوجود الإنساني به لتقرّ في هذه الحيوانية المرتدة مثلها الأعلى، بدلالتها على طريقها النفسي مع طريقها الطبيعي؛ فيكون مع الانحطاط الرقيّ، ومع النقص الكمال، ومع تحكم الغريزة التحكم في الغريزة، ومع الظلمة المادية الإشراق الروحاني.

وما المعجزات إلا شأن تلك القوة الباطنة لا شأن إنسانها الظاهر. ومن الذي ينكر أن قوى الوجود هي في نفسها إعجاز للعقل البشري؟ وهل ينكر اليوم أحد شأن هذه القوة في (الراديو) حين مسته فجعلت الكلمة التي ترسل بين الشرق والغرب، كالكلمة بين اثنين يتحدثان في مجلس واحد؟

ونحن نرى معجزات التنويم المغناطيسي وما يبصره النائم وما يسمعه وما ينكشف له مما وراء الزمان والمكان؛ وليس التنويم شيئاً إلا تسليط الذات الباطنة بقواها الروحية العجيبة على الذات الظاهرة المقيدة بحواسها المحدودة، فتطغى عليها فتصبح الحواس مطلقة شائعة في الوجود بمقدار ما فيها من قواه لا بمقدار ما فيها من قوة شخصها، وعلى نحو من ذلك يتصل الرجل الروحاني بذاته الباطنة، فيوقع شخصه الظاهر في الاستهواء، فينكشف له الوجود ويبصر ما يقع على البعد ويرى ما هو آت قبل أن يأتي. وما الكون في هذه الحالة إلا كالمشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب: قد أتيتك نوراً تنظر به جمالي

* * *

وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها. وكل ذلك أول البرهان الذي سيلزم العلم فيضطره في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج . . .

ونحن قبل أن نبدي رأينا في القصة نلم بها إلمامة موجزة؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير فجاءت فنوناً وأنواعاً من طرق شتى حتى جمعها بعضهم في جزءين[1]، وما يحتمل كل ذلك ولا بعضه؛ ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر، متى فارت فورتها استحدثت من كل عبارة عبارة أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يمدّ من يمينه ويساره

ولا يرون بذلك بأساً فإنهم يشدّون به الرأي ويضاعفون منه اليقين، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى؛ وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه فلا حرج أن يؤيد القول بعضه بعضاً باجتهاد في عبارة، واستنباط من أخرى، وزيادة في الثالثة — مما هو بسبيل منها، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية؛ إذ تتعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف. والقصص الديني في هذه اللغة العربية فن كامل قائم بنفسه لا يبدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب.

هذا في متن القصة؛ أما في واقعها فقد اختلفوا اختلافاً آخر؛ هل كان الإسراء والمعراج يقظة أو مناماً، وبالروح وجدها أو بالروح والجسم معاً؟ وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليل القاطع على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبر بشيء من ذلك فلم يعيّن لهم وجهاً من هذه الأوجه. والحكمة في ذلك

(1) قال الذهبي: إن الحافظ عبد الغني جمع أحاديث الإسراء في جزءين.

أن عقولهم لم تكن تحتمل الادراك العلمي الذي أساسه الكهرباء والأثير . .

والخلاصة التي تتأدّى من القصة : أنه صلى الله عليه وسلم كان مضطجعاً فأتاه جبريل فأخرجه من المسجد فأركبه البُراق فأتى بيت المقدس ثم دخل المسجد فصلى فيه ، ثم عرج به إلى السموات فاستفتحها جبريل واحدة واحدة ، فرأى فيها من آيات ربه ، واجتمع بالأنبياء صلوات الله عليهم ، وصعد في سماء بعد سماء إلى سدرة المنتهى ، فغشيها من أمر الله ما غشيها ، فرأى صلى الله عليه وسلم مظهر الجمال الأزلي ، ثم زُجّ به في النور فأوحى الله إليه ما أوحى

أما وشي القصة وطرازها فبابٌ عجيب من الرموز الفلسفية الانسانية التي يُرمز بها إلى تجسيد الأعمال في هذه الحياة ، تكون تعباً وتقع فائدة ، أو تُلتمس منفعة وشهوة وتقع مضرةً وحماقة ، ثم تفنى من هذه وتلك الصُّور الزمنيةُ التي توهمها أصحابها ، وتخلد الصور الأبدية التي جاءت بها حقائقها

ومن هذه الرموز البديعة قوله : فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن ، فأخذت اللبن ، فقال جبريل أخذت الفطرة . وإنه مرَّ على قوم يزرعون ويحصدون في كل يوم كلما حصدوا عاد كما كان ؛ فسأل ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعفُ لهم الحسنة سبعمائة ضعف . ثم أتى على قوم تُرضَخُ رءوسهم بالصخر ، كلما رُضِخَت عادت كما كانت ولا يُفتَّر عنهم من ذلك شيء . فقال ما هذا ؟ قال جبريل : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة . ثم أتى على قوم بين أيديهم لحمٌ نضيج في قدر ، ولحمٌ آخر نيءٌ في قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيءِ الخبيث ويَدَعون النضيج . فقال ما هؤلاء ؟ قال جبريل : هذا الرجل تكون عنده المرأةُ الحلالُ الطيّب فيأتي امرأة خبيثة ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً . ثم أتى على رجل قد جمع حُزمةً عظيمةً لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل تكون عليه أماناتُ الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها . ثم رأى نساءً معلّقات بثديهن ، فسأل ، فقال جبريل : هؤلاء اللاتي أدخلن على الرجال من ليس من أولادهم

***

ونحن على الرأي الذي عليه جمهور العلماء من أن الأسراء والمعراج كانا بالجسم والروح معاً على التأويل الذي سنبينه .

ويثبت ذلك قوله تعالى في سورة (والنجم) : « إذ يغشى السِّدرةَ ما يغشى ، ما زاغ البصرُ وما طغى » . فلا يكون البصر يزيغ ويطغى إلا في الجسم ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم . ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله (وما طغى) ؛ فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحول عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء ، إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته ، فما زاغ البصر بكونه مقيد الحاسة ، ولا طغى بكونه مطلق الخيال ، بل كان كما يُريه الله من آياته ، أي كان حقيقةً كونيةً في غير حالتها الأرضية الناقصة

والذين قالوا إن الاسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم ؛ احتجوا لذلك بقوله تعالى : « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس » وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً ، وإنما كان التعبير بلفظ « الرؤيا » وهي التي تكون مناماً ، لنفي تأثير الحواس على الرائي واثبات أن الطبيعة الآدمية بجملتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً فليس نائماً كالنائم ولا مستيقظاً كالمستيقظ

وفي أساس القصة جبريل والبراق ؛ وهما القوة الملائكية ، والقوة الطبيعية ، أو الروح الملائكي والروح الطبيعي ، ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً إذ لا يأبى للعرب أن يفهموا ما يراد منه وعندنا أنه سمي البراق من البرق ، وما البرق إلا الكهربائية ، وهذا هو المراد منه . فتلك قوة كهربائية متى تَبَسَّطت جمعت أول العالم بآخره ، وهذه هي الحكمة في أن آية الأسراء لم تذكر أنه كان محمولاً على شيء إذ لم يكن محمولاً إلا على الروح الأثير

وما دامت القوةُ الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له صلى الله عليه وسلم فلا معنى لأن يكون ذلك بالروح وحدها ، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أن سر المعجزة إنما كان في تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين ؛ فيتحول في صورة كونية ملائكية بين سر الملك وسر الطبيعة ، وحينئذ لا تجرى عليه أحكامُ الحواس ولا أحكام المادة

ومن الممكن أن تتحول الأجسام إلى حالتها الأثيرية في بعض

الأحوال الخارقة ، وبهذا يعلَّل طىّ الأرض لبعض الروحانيين وتعلل خوارق كثيرة مما يحدث فى استحضار الأرواح لهذا العهد ومما يأتيه فقراء الهند ؛ ومما كان يصنعه « لاهودينى » الأمريكى إذ كانوا يغلّلونه بالسلاسل والقيود ثم يرونه طليقاً ؛ ويحبسونه فى السجون المحصّنة يقوم عليها الحراس وتُمسك فيها الأبواب والجدران ، ثم يجدونه فى بعض الفنادق

وليس للعقل أن ينكر شيئاً من هذا ونحوه فان تركيب الطبيعة ردٌّ عليه ؛ ونقصه هو ردٌّ على نفسه ، والمستحيل على الأعمى هو أيسر الممكنات على المبصر

فأنت ترى أن ذكر البراق والملك فى أساس قصة الاسراء والمعراج هو صلة القصة بالمعجزة وهو عينه صلتها بالبرهان العلمى ولو لم يكونا فيها لما كان لها تفسير

***

والقصة بعد ذلك تثبت أن هذا الوجود يرق وينكشف ويستضىء كلما سما الانسان بروحه ، ويغلظ ويتكاثف ويتحجب كلما نزل بها ، وهى من ناحية النبى صلى الله عليه وسلم قصة تصفه بمظهره الكونى فى عظمته الخالدة كما رأى ذاته الكاملة فى ملكوت الله ، ومن ناحية كل مسلم من أتباعه ، هى كالدرس فى أن يكون لقلب المؤمن معراجٌ سماوىٌ فوق هذه الدنيا ليشهد ببصيرته أنوار الحق ، وجمال الخير ، ويجسّد الأعمال الانسانية فى صورها الخالدة ؛ فيكون بتدبره القصة كأنما يصعد إلى السماء وينزل ؛ فيستريح إلى الحقائق الأساسية لهذه الحياة فيدفع عن نفسه بذلك وتمقّد الأخيلة الذى هو أساس البلاء على الروح

ومتى استنار القلبُ كان حياً فى صاحبه وكان حياً فى الوجود كله . ومتى سلمت الحياة من تعقيد الخيال الفاسد لم يكن بين الانسان وبين الله إلا حياةٌ هى الحق والخير ، ولم يكن بينه وبين الناس إلا حياةٌ هى الرحمةُ والحب ؟

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

إلى خ . خ . د : من أجلك وضعت حتى أنا فى مقالات (الجمال البائس) وفى السنة الماضية كتبت مقالة (سمو الحب) وهى فى الرسالة فارجع اليها ؛ ثم إن تعرض لك إبليس بعد أن تكون قرأت هذه المقالات وتدبرتها فاشكه الى أنصفك منه على شرط أن تشكو الى البوليس تلك المرأة التى يظهر لك بوجهها ... كما يؤخذ من كتابك الرافعى

١ – مدينة الزهراء

وحياتها الملوكية القصيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأنا منذ حين فى بعض الأنباء الخارجية أن بعض الهيئات الأثرية فى اسبانيا تعنى بالبحث لاكتشاف معالم مدينة الزهراء الأندلسية ، وأنها قد وفقت بالفعل إلى اكتشاف بعض أسس قديمة فى ضاحية قرطبة يظن أنها من أسس قصر الزهراء ؛ وجدير بمثل هذا النبأ أن يثير شجناً فى نفس أولئك الذين يستعرضون تاريخ الأندلس ، وتاريخ قاعدتها الملوكية الشهيرة التى غاضت من صفحة الوجود حتى لم يبق من أطلالها اليوم ما يدل على مواقعها ومعالمها

كانت الزهراء من أعظم القواعد الملوكية التى عرفها التاريخ ، ولكنها لم تعمر طويلاً ولم تقم فى تاريخ الأندلس بدور ذى شأن ، ولم ينزلها سوى مؤسسها الناصر وولده الحكم وابنه المؤيد ، ولم تعمر كقاعدة ملوكية أكثر من نصف قرن ؛ ومن غرائب القدر أنه فى الوقت الذى أكملت فيه الزهراء فى عهد الحكم المستنصر ، وضعت أسس قاعدة ملوكية إسلامية جديدة قدر لها أن تؤدى فى تاريخ الاسلام وتاريخ الحضارة الاسلامية أعظم دور ؛ تلك هى القاهرة المعزية التى أخذت تتفتح عظمتها وبهاؤها فى نفس الوقت الذى ذوت فيه عظمة الزهراء وعصفت بها حوادث الدهر ؛ ولم تكن الزهراء أول قاعدة ملوكية فى الأندلس ، ولم تكن القاهرة أول قاعدة ملوكية اسلامية فى الشرق أو فى مصر ، فمن قبل أنشأ هشام بن عبد الملك رصافة الشام لتكون منزلاً ملوكياً لبنى أمية ، وأنشأ المعتصم سامرا لتكون منزلاً له ولعقبه من بنى العباس ، وأنشأ ابن طولون مدينة القطائع بمصر لتكون له ولعقبه قاعدة ملوكية إلى جانب الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية ؛ وفى الأندلس أنشأ عبد الرحمن بن معاوية مؤسس ملك بنى أمية بالأندلس ضاحية ملوكية فى قرطبة سماها الرصافة تشبهاً برصافة جده هشام ؛ وسطعت كل من هذه القواعد

الملوكية الاسلامية حيناً من الدهر ، ولكنها اختفت جميعاً من صفحة الوجود ، إلا القاهرة فانها استحالت إلى عاصمة الاسلام فى مصر ، وما زالت تقطع الأحقاب قوية راسخة ، تحمل حتى اليوم عمرها الألفى أعظم ما تكون الحواضر العظيمة والمدن الغراء ضخامة ونخامة وبهاء

كان عصر عبد الرحمن الناصر أعظم عصور الاسلام فى الأندلس ، وكانت قرطبة عاصمة الأندلس ، قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد ، منافستها فى المشرق ، بهاء وفخامة ؛ ولكن قرطبة كانت بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخسمائة ألف ، تضيق عما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر من استكمال الفخامة الملوكية والقصور والرياض الشاسعة ؛ بل كانت تضيق بهذه الأبنية الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل حيث أنشأ الرصافة فى ظاهرها لتكون له منزلاً ومتنزهاً ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش القوية الممتازة ؛ فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه وسحق أعدائه فى الداخل والخارج ، عنى بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى فى أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية رائعة ، فأنشأ مدينة الزهراء ؛ ولانشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التى ترتبط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذى رآه قسطنطين فأوحى اليه بانشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذى أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هى جاريته وحظيته « الزهراء » ؛ وأنه ورث من إحدى جواريه مالاً كثيرا فأمر أن يخصص لافتداء الأسارى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسارى من يفتدى ، فأوحت اليه « الزهراء » بأن ينشىء بهذا المال مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكناها [1] . بيد أنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك والترفع بمظاهره وخصائصه عن المظاهر العامة لعاصمة مكتظة زاخرة

والظاهر أيضاً أن شغفاً خاصاً بالعمارة والبناء كان يحفز الناصر ويذكى رغبته فى إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ

(١) نفح الطيب للمقرى (مصر) ج ١ ص ٢٤٥

والسلطان المؤثل ، وقد نسبت إلى الناصر فى ذلك أبيات قالها فى هذا المعنى :

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها   من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم   ملك محاه حوادث الأزمان
إن البناء إذا تعاظم شأنه   أضحى يدل على عظيم الشان

وهكذا اختطت الزهراء فى ساحة تقع شمال غربى قرطبة على قيد أربعة أميال أو خمسة منها فى سفح جبل يسمى جبل العروس [1] ؛ وكان البدء فى بنائها فى فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر الى ولده وولى عهده الحكم بالاشراف على بناء العاصمة الجديدة [2] ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية [3] ، وجلب اليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردى من المريه وريه ، ومن قرطاجنة افريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية [4] ؛ وكان يشتغل فى بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ستة آلاف صخرة فى اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر أعنى مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها فى عهد الحكم [5] وابتنى الناصر فى حاضرته الجديدة قصراً منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً فى تنميقه وزخرفته حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والجلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ؛ وانشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمى بقصر الخلافة صنعت جدرانه من الرخام المزين بالذهب ، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والآبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبه بالتماثيل والصور البديعة وفى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبه بأضواء ساحرة [6] ؛

(١) نزهة المشتاق للادريسى (طبع رومه) ص ١٩٣ — والمسالك والممالك لابن حوقل (ص ٧٨) ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش

(٢) البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٧ — نفح الطيب ج ١ ص ٣٦٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

(٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٦) نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧

وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء وهو الجناح الشرقي المعروف بالمؤنس ، بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير الذي أهدى اليه من قيصر قسطنطينية ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالاً من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من فيها الى الحوض (١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة المسحورة عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ؛ وأجمعت الروايات على أنه لم يبن في أمم الاسلام مثله في الروعة والاناقة والبهاء (٢)

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيما تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً ، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزود بعمد وقباب فخمة ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال (٣) ، وانشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ومسارح للطير مظللة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلي (٤) ؛ والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة تجمع بين فخامة الملك الباذخ وصولة السلطان المؤثل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

وفي إقامة هذه المنشآت الباذخة وبذل هذه النفقات الطائلة ما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذي بلغته الدولة الأموية بالأندلس من القوة والضخامة والغنى ؛ وقد انتهت إلينا في ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت لعهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف (أعني خمسة آلاف مليون) وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ؛ هذا عدا أخماس الغنائم العظيمة التي لا تحصى ؛ وقيل لنا إن الناصر خلف وقت وفاته في بيوت الأموال خمسة آلاف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار ؛ وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث ، ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ،

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦
(٢) « « ج ١ ص ٢٦٤ و ٢٦٥
(٣) « « ج ١ ص ٢٦٤
(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤

وثلث يدخر للطوارئ (١) ، ولم يتردد المؤرخ الحديث في قبول هذه الأرقام حتى أن دوزي ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب (٢) ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادي الذي زار قرطبة والزهراء في ذلك العصر إن الناصر وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة هم أغنى ملوك العالم في ذلك العصر (٣) ؛ وهذه أرقام وروايات تشهد بضخامة الدولة الأموية وطائل غناها وبذخها في عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر الى جانب حروبه وغزواته الكثيرة أن يضطلع بأعباء هذه المنشآت العظيمة الباهرة ؟

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر أعني حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة ؛ واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ؛ واستغرق بذلك من عهد الخليفتين زهاء أربعين سنة (٤) . ولكنها غدت منزل الملك والخلافة ، مذ تم بناء القصر والمسجد ؛ وقد كان ذلك فيما يظهر في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ففي شعبان من هذا العام تم بناء المسجد ، وأقيمت به أول جمعة رسمية ؛ وكان الناصر قبل ذلك بنحو عامين قد اتخذ سمة الخلافة وتسمى بألقابها (سنة ٣٢٧ هـ) ، فكانت الزهراء بذلك أول منزل للخلافة الاسلامية بالأندلس

للبحث بقية — محمد عبد الله عنان
(النقل ممنوع)

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٧٧ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧
(٢) Dozy : Hist. des Musulmans d'Espagne II p. 173
(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٧
(٤) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤

بين المعجزة والعلم

للأستاذ زكي نجيب محمود

أخي س : م

... لم أكن أتوقع من صروف الدهر مهما أسرفت في عبثها، أن تخرج منك، وأنت القديس المتبتل في يفوعك، زنديقاً يكفر بما كان يؤمن به قلبك وذهنك!! حتى جاءتني هذه الرسالة منك، ففضضتها وأجلت فيها البصر سريعاً، فاذا بصفائك يختفي ويتنكر، وإذا بك تبدو لعين صديقك انساناً غريباً يشك بعد يقين، وينكر بعد إيمان! لقد مضيت في كتابك لي ترفض كل ما يزعمه الناس من المعجزات وخوارق الطبيعة، وتلوح في كل سطر بالعلم وقوانين العلم، وتمتز في كل سطر بالفلسفة ونتائج الفلسفة؛ ثم ختمت الرسالة بهذه العبارة أخذتها من كتاب سبينوزا «في الدين والدولة»: «يظن الدهماء أن قوة الله وسلطانه لا يتجليان بوضوح إلا بالحوادث الخارقة التي تناقض الفكرة التي كونوها عن الطبيعة ... إنهم يظنون أن الله يكون مُعطَّلاً ما دامت الطبيعة تعمل في نظامها المعهود، وعكس ذلك صحيح، أي أن قوة الطبيعة والأسباب الطبيعية يبطل عملها ما دام الله فعّالاً؛ وهم بذلك يتخيلون قوتين منفصلة إحداهما عن الأخرى: قوة الله وقوة الطبيعة؛ والواقع أن الله وقوانين الطبيعة شيء واحد». ولقد ساءلتني بعد ذلك قائلاً: «ما حاجتك إلى التمسك بالمعجزات وخوارق الطبيعة ما دام العلم يفسر لنا كل شيء بقانون؟!»

وإني لأستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بما انتهى اليه هذا العلم نفسه، من أن الطبيعة المادية لا تسير وفق قانون صارم كما يذهب بك الظن، بل إنها قد تغير سلوكها بما لا يمكن التنبؤ به، كالكائنات الحية سواء بسواء؛ وإن هنالك بين أساطين العلم من يزعم أنه ليس في الطبيعة كلها ذرة واحدة تخلو من الحياة أو ما يشبه الحياة، وكل الفرق بين حياتها وحياة الإنسان هو في الدرجة لا في النوع؛ فكما أنني لا أستطيع أن أتنبأ بما أنت فاعله غداً، كذلك لا يستطيع العلم أن يقطع جازماً بما ستؤول اليه هذه الذرة أو تلك، لأنها يا سيدي تتمتع بشيء مما تتمتع به أنت من حركة وإرادة، وليست مجرد آلة صماء في يد القانون!! ولكن يجب أن أسارع إلى القول بأنه وإن تكن الذرة الفردية على شيء من الحياة التي قد تغير في سلوكها، فانها في مجموعها أقرب ما تكون إلى النظام الدقيق في سيرها، كما أن الانسان الفرد حُرٌّ في تصرفه إلى حد بعيد، ولكنه في المجموع يسير وفق أسس وقواعد لا تكاد تعرف الشذوذ.

نعم أستطيع أن أقوض علمك هذا من أساسه بضربة واحدة حين أذكرك بهذه الحقيقة العلمية التي تعترف للطبيعة بإمكان التغير في بعض جوانبها، فذلك وحده كفيل بتعليل أي تبديل في نظام الكون المعهود؛ ولكني سأفرض معك أن قوانين الطبيعة يستحيل عليها الخطأ، وأن المادة لا تملك لنفسها تغييرا ولا تبديلاً عما رسمه لها قانونها الأعلى؛ فمن ذا الذي زعم لك أن المعجزة كسر لقانون الطبيعة، وإنه لذلك يجب اطراحها ونبذها؟ نحن نسلم معك أن قانون الجاذبية صارم لا يقبل الشذوذ، وأن التفاحة إذا انفصلت عن فرعها سقطت من فورها على الأرض بفعل قانون الجاذبية هذا؛ ولكن هب يداً امتدت إلى التفاحة أثناء طريقها إلى الأرض فلقفتها فحالت بذلك بينها وبين الأرض، أيكون ذلك كسراً للقانون؟ كلا! القانون لا يزال قوياً سليما، غير أن إرادة بشرية حالت دون تطبيقه لا أكثر ولا أقل ... أإذا تركت أقلامك وكتبك مبعثرة في أرض غرفتك ثم عدت بعد حين فوجدتها صعدت إلى ظهر المكتب صفوفاً منظمة، أفتقول إن قانون الجاذبية قد إنقلب رأساً على عقب لأن الكتب والأقلام قد صعدت إلى أعلى بدل أن تستقر على الأرض منجذبة بها؟ أم أنت جازم في مثل هذه الحالة بأن شخصاً بشرياً قد تدخل في الأمر بإرادته وحال بين قانون الجاذبية وبين تنفيذه حيناً، فأمكن للكتب بذلك أن تفلت من يده، ولكن القانون لا يزال قائماً لم يخدش ذلك من قوته وشموله؟ لا أحسبك مرتاباً في صحة هذا القول، فأنت موافق ولا شك أن الارادة البشرية قد تستطيع أن تتوسط بين القانون وبين تطبيقه فتعطله دون أن تبطله، نعم إنك موافق على ذلك،

ولكني لو حورت العبارة قليلاً سائراً بها نحو الأقوم والأصح فستغضب للعلم وكرامة العلم ؛ لو زعمت لك أن لله إرادة حرة كهذه التي للانسان، يستطيع بها أن يعطل قانون الطبيعة حيناً قد يقصر أو يطول ولكنه يظل قائماً معمولاً به لا يصيبه عطب ولا خسارة ، كان ذلك الزعم منى فى رأيك جهلاً وحماقة ، يارعاك الله ! أفتستطيع أن تحدثني بما يبرر عندك أن يكون للانسان ما ليس لله ؟ ! !

معذرة ، ياصديقى ؛ فسأقص عليك حديثاً عن كلبي ؛ وللحديث صلة بموضوعنا ، فقد وضعت كتاباً بالأمس على مقعد إلى جانبي ، فجاء الكلب يتحسس ويتجسس ويشم الكتاب ، وأظنه قد حسبه قطعة من الجماد لا خير فيها ؛ فترك الكلب الكتاب وانصرف ؛ وإذا فرضنا أن التفاهم مع الكلب ممكن ، ثم جئت تقسم له أن فى الكتاب ما ليس يدرك بالشم واللمس ، وأن فيه معنى إذا كان لا يدركه هو فليس عجزه دليلاً على عدم وجوده ، نفر وسخر وأكد لك أن حواسه مقياس للحقيقة لا يخطىء . . . وإنى لأحسب الكون ياصديقى كتاباً مفتوحاً فيه من المعانى السامية ما يمكن فهمه وإدراكه لذوى البصيرة السليمة . ولكني أؤكد لك أن هنالك طائفة من الناس ستمد أيديها وأنوفها إلى جوانب الطبيعة تتحسسها ، ثم تجزم فى يقين لا يعرف الشك ولا التردد بأن هذه الطبيعة جماد فى جماد يسيره هذا وهذا من القوانين فى طريق مرسومة معلومة لن تشذ فيها خارقة ولا معجزة . . . وأعجب العجب أن تكون هذه الطريقة الكلبية علماً ، وأن يكون كل ماعداها تخريفاً وجهلاً

نشدتك الله إلا حدثتنى كيف جاز لك أن تقطع أن ليس فى الكون من الحقائق ما تعجز عقولنا وحواسنا عن إدراكه ؟ ولم لا يكون فى هذا الكون الفسيح من هو أكبر منا عقلاً وأحد ذكاء فيستطيع أن يقرأ فى كتاب الكون ما لا نستطيعه ؟ ترى لو أتانا الله حاسة سادسة وسابعة وثامنة ، فماذا عسانا نعرف بتلك الحواس الزائدة ، أم تظل أبواباً مغلقة لأن العلم قد نفد ؟ !

تعال معى إلى الكون نحتكم إلى ظواهره لنرى هل استطاع العلم أن يعللها جميعاً ، أم أن هناك ألوفاً وألوفاً يقف أمامها العلم مكتوف الأيدى ولا يمكن فهمها إلا أن تكون « خوارق » فوق العلم وقوانينه . أم تراك فاعلاً كما يفعل ذوو النزعة المادية الضيقة ، فتطأ بقدمك كل الظواهر التى تستعصى على العلم وتنكر وجودها حتى لا ينثلم العلم ولا ينخدش ، أو تطلب الينا أن نصبر وأن ننتظر حتى تتم للعلم قوته وفتوته فيشمل الكون كله بالتفسير والتعليل ؟ وفى الحق أن هذا السلاح الذى يشهره الماديون — سلاح التسويف والوعد بأن العلم سيتمكن فى المستقبل مما لم يتمكن منه اليوم — يمكن استخدامه فى كل حين ، فليس بيننا وبينهم موعد يبطل بعده التسويف ، ولكنها مماطلة متجددة لا تنقطع ولا تفرغ ؛ فاذا فرضنا أن رجلاً استطاع أن يجز رأسه ويحمله فوق يديه سائراً به فى الطريق ، ثم سألت الماديين رأيهم فى هذا أجابوك : اصبر فان الزمن كفيل للعلم أن يبرهن على هذه الظواهر وأشباهها ، فليس ذلك على العلم بعزيز . . . ولكن هل يتفق وروح العلم أن نلجأ إلى دليل غير موجود ؟ أم أنه أحجى وأقرب إلى الصواب أن نعلل الظواهر بالأدلة التى بين أيدينا ، حتى ولو تعارض ذلك مع آرائنا ؟ فماذا يمنع أن نفرض أن هنالك قوى غير مادية تعمل عملها وتؤثر فى مجرى الطبيعة فتنتج كل هذه الخوارق والمعجزات ؟

ولكن الماديين يركبون رؤوسهم ويحاولون أن يعللوا بقوانين العلم كل شىء ، فان عجزت أمهلونا إلى المستقبل القريب أو البعيد . والعجب أن لهؤلاء الماديين « شطحات » فى التفكير تدعو إلى التأمل ، فأنت إذا سألتهم مثلاً كيف نشأت هذه الخلائق ؟ أجابوك : تسلسلت نوعاً عن نوع وجنساً عن جنس ، وأصلها كلها خلية واحدة ... حسن ! وكيف نشأت هذه الخلية الواحدة ؟ إنها تولدت بطريقة تلقائية آلية من الجماد ! فانظر اليهم كيف تجيز لهم عقولهم صدق هذا النبأ مع أنه على فرض أنه صحيح فقد حدث فى ماض بعيد سحيق ، ولم يشهده شاهد ولا سجله مسجل ، ولكنهم مع ذلك يقبلونه راضين مختارين ؛ ثم إذا عرضنا عليهم خارقة من خوارق الطبيعة مما يقع على مرأى منا ومسمع ، أنكروها فى حمق مع أنها حاضرة بين أيديهم وليست بالماضى البعيد ، وهى مشاهدة ومسجلة فكانت أجدر بالتسليم والقبول من تلك « الخارقة » البعيدة — ونسميها خارقة لأنه ليس من قوانين الطبيعة فيما نظن انبعاث الحياة من الجماد ! ولكن القوم يختارون من الآراء والعقائد ما يتفق مع مذهبهم ، كما يتخير النساء أزياءهن لكى تلائم ألوانهن وأجسامهن

هب يا صديقي جماعة قد ارتطمت سفينتهم على جزيرة مهجورة لا أثر للحياة فيها ، ولكنهم ألفوا على أرضها آثار أقدام ليست من آثارهم هم ، فبماذا يعللون هذه الظاهرة إلا أن أناساً غيرهم كانوا بالجزيرة منذ حين؟ أظن هذا منطقياً لا صعوبة فيه ولا التواء : لكل أثر مؤثر ، فان رأينا أثراً ولم نجد بيننا مؤثره أيقنا أن هذا المؤثر لا بد أن يكون موجوداً في غير مكاننا . وها نحن أولاء ننظر فنرى أنفسنا فوق هذه الجزيرة المهجورة التي تسبح بنا في الفضاء ، ثم ننظر فاذا بآثار لا يحصيها العد تفرض علينا فرضاً أن أحداً غيرنا قد اتصل بهذه الجزيرة وهو يتصل بها في كل حين ليحدث هذه الآثار

ولست أدري ماذا يضيرك أن تعلل بالعلم ما يمكن العلم أن يعلله ، وأن ترجع إلى القوة التي فوق الطبيعة كل ما تصادف من خوارق ومعجزات؟ يقول الماديون إن إدخال « الله » في مجرى الطبيعة عجز وقصور عن التعليل الصحيح ، ويزعمون أن الانسان الأول كان يفسر كل شيء بقوة الآلهة لقلة محصوله من العلم ؛ فكان إذا اكتسب شيئاً من العلم يعلل به ظاهرة ما ، أسقط هذه الظاهرة من دائرة نفوذ الله وأدخلها تحت سيطرة العلم ؛ وهكذا أخذ العلم ينمو ويتسع كما أخذت العقيدة في تأثير الله على سير الطبيعة تضؤل وتضيق ، وهم يرجون أن يطرد نمو العلم حتى يشمل الكون جميعاً ويفسر « الظواهر » كلها بغير استثناء ؛ وهم بناء على ذلك يرفضون رفضاً قاطعاً أن يعللوا شيئاً إلا على أساس واحد : هو قانون الطبيعة ويلفظون من حظيرتهم كل من يحاول أن ينسب شيئاً إلى قوة أخرى غير قوة الطبيعة وقوانينها ! وقديماً كان العالم أو إن شئت فقل الكاهن يفسر كل شيء بقوة الآلهة وحدها ، وينبذ كل من يحاول أن يفسر شيئاً على غير هذا الأساس ! فهل ترى فرقاً بين الكاهن القديم والعالم الحديث؟ كلا ، فكلاهما متعصب محدود الفكر ، ضيق النظر ، ولعمري إن العالم المادي الحديث لم يزد على أن ارتدى رداء سلفه الكاهن مقلوباً ظهراً لبطن !

لعله أقرب لروح العلم الصحيح أن نتناول الأبحاث أحراراً من كل قيد ، فلا نفرض لأنفسنا أساساً معيناً للبحث لا نعدوه ، أعني أنه لا ينبغي أن نحتم على أنفسنا أن نفسر كل شيء بكذا أو بكذا ، وإلا كنا كعلماء الفلك الأقدمين الذين كانوا ينظرون في السماء ويبحثون في النجوم على شرط أن يكون بحثهم مقصوراً على ما هو معروف من النجوم ، فان ظهر كوكب أو نجم جديد أنكروه ورفضوه ! !

أردت يا أخي أن تكون حراً في البحث فكبلت نفسك بالأغلال والقيود ! فارفع عن بصرك هذه الغشاوة عسى أن يهديك الله سواء السبيل

زكي نجيب محمود

٢ - منازل الفضل

دار علي مبارك باشا

للأستاذ محمد محمود جلال

من الأسماء ما يخف على سمعك لمجرد تركيبه ووقع نغمه في الأذن ، ومنها ما يعجبك لمعنى يشير اليه ؛ وقد يعجبك الاسم وقد خلا من هذين اعجاباً بشخصية قدرت في التاريخ دورها ؛ وقد يكون من بين الأسماء ما ينفر منه السمع ، وهو مع ذلك حبيب إلى نفسك لذكرى تتصل به أو جميل أردفته بالعرفان.

ويقص المتشيعون للعلاقة بين الاسم والمسمى من علماء اللغة أن أحدهم سأل اعرابياً عن معنى « أذغاغ » فقال الاعرابي وهو لا يعرف من الفارسية شيئاً : « أرى فيه يبساً وصلابة ، ولعله الحجر »

وليس للطفولة أن تسمو إلى شيء من ذلك البحث أو ذاك القياس ، وإنما يسبق فيها الاحساس المعرفة ، فما نظرت إلى شيء من ذلك يوم كان « شارع علي مبارك باشا بالحلمية » أحب الشوارع الى سنة ١٩٠٨ ، فكنت أخصه بروحاتي وغدواتي ، وأختص « اليافطة » أول سيري به بتجربة قدرتي على قراءة اليفط والخط الشبك

سكنا الحلمية بعد أن هجرنا دارنا الأولى بدرب الجماميز حيث مأمورية الأوقاف الآن ، على أثر خلاف بيننا وبين ديوان الأوقاف على حيازة القطعة المجاورة لتوسيع الدار بطريق البدل ، ولا أجد اليوم تعليلاً معقولاً لتفضيلي إلا بالصلة التي توجدها النشأة ؛ وقد نشأت في الريف ، ومن أسرة فلاحة ، واسم علي ومبارك

كثيرا الشيوع في الفلاحين ، فلم يكن عجيباً أن يكون هذا الإسم أقرب إلى النفس وأسهل في الحفظ من أسماء ندر أن نسمع بها « كسنجر الخازن » و « الأمير يوسف » وغيرها

أجل لم يكن بذلك الشارع بائع (سوداني) ولا شوكولاته ، ولم تكن حوانيت السائدويتش انتشرت بعد ، حتى أرد التفضيل إلى تلك المغريات في سن الطالب

وفي عام ١٩١١ أهدتني الجمعية الخيرية الاسلامية مجموعة ثمينة من الكتب لنجاحي من الفرقة الثالثة في الشهادة الابتدائية ، كان من توفيق الله أن ضمت بين دفتيها « تاريخ علي مبارك باشا » ولن أنسى ما حييت غبطتي بهذا الكتاب ، وذكرت على التو شارع علي مبارك باشا ، وقلت : إذن فهذا رجل له في تاريخ البلاد شأن !

عكفت على القراءة مبتدئاً به ، وخفق قلبي حين وقفت في أوله على نشأة « علي مبارك » فصدق ظني ، فهو فلاح وابن فلاح مثلي ، فلم أترك الكتاب حتى جئت على آخره ، وأعدت قراءته مرات حتى كدت أحفظه عن ظهر قلب إذ ملئت اعجاباً بالرجل سميت المرحوم محمد شريف باشا حين كتبت عنه « رجل البرنامج » ، وليس اليوم أحق بأن يسمى « رجل الواجب » من المرحوم علي مبارك باشا

رأى صديقي المرحوم محمد بك رمضان القاضي السابق بالمحاكم الأهلية حين زار (فينا) عقب الحرب أحد ضحاياها « جول » يزحف وقد بقيت له ساق واحدة وذراع واحدة ، وبيده الوحيدة مكنسة ينظف بها الرصيف ، فسأله عن قصته

قال جان : إنه كان يعمل في التحاليل الكيميائية ، ويؤدي بذلك واجبه نحو بلاده وأسرته ، وانخرط في سلك الجندية يؤدي واجبه نحو بلاده وأسرته ، فلما فقد ساقه وجد مجال الواجب في عنابر الجيش يلف ويرتب بيديه ، ولما فقد إحدى اليدين وكانت الحرب في نهايتها اشتغل كناساً ، فهو بعد لا يستريح ضميره أن يكون من العاطلين ، ومن بين اخوانه من هو أحق منه بالاعانة والاغاثة ، وليس أحب إلى نفسه من أن يقوم بالواجب ويعيش من أداء الواجب ، فليس فرق عنده بين المعمل والصفوف ، ولا بين العنابر وكنس الرصيف !!!

حياه صديقي عليه رحمة الله ، وكتب عنه مقالاً كاملاً يذيع نبل نفسه ويضربه مثلاً لقومه

وكذلك كان علي مبارك باشا ، فهو من نوابغ البعوث العلمية في أول البعوث ، وهو المبرز بين أفراد بعثته ، وبلاده في حاجة إلى أمثاله ، وفي حاجة أشد الحاجة اليه ؛ ولكن لا زهو ولا صلف ولا استكانة ! فالحاجة اليه يراها نعمة الله تستوجب الشكر ، والعلم الذي يقدره الناس فيه يراه الثروة التي زكاتها البذل منها في خير البلاد

ومن لم يجمل فضله بتواضع يبن فضله عنه ويعطل من الفخر

كان علي مبارك باشا (ناظراً) وزيراً للأشغال يسيطر على أكبر الادارات صلة بحياة البلاد ومرافقها ، يضع الخرط وينظم حفر الترع والجسور التي ظلت أجيت مواتاً وودت أخلاف الرزق على الملايين وتركت اليباب مزارع وحقولاً ، في أول عهد البلاد بزراعة منظمة وري منظم

وبينا هو غارق فيما تمده اليوم أبهة المنصب ، ينقل لسبب أو لغير سبب ، لغضب أو لتقدير موهبة منتدباً لاصلاح طابية وهو من خريجي المعاهد الحربية ، فينتقل قرير العين وكأن العالم صور فانحصر في تلك الطابية لا يرى أمامه إلا أن يعيدها كما يجب أن تعد تقديراً لأمانة العلم وقياماً بالواجب

وولي علي مبارك باشا في وقت ما وزارتين ، وجيء به وقتاً آخر يشرف على مد خط حديدي ليس أكثر من كثير مهندسين ، جاءت خطته وأوضاعه وتنفيذ مشروعه آيات في حسن الوضع والتنفيذ ؛ ولم يكن علي مبارك باشا ذو الوزارتين غير علي مبارك صاحب عيشة الخيام في براري البلاد يوطد أركان الدفاع عنها ، ولا غير ذلك الرجل الهادئ رجل الواجب ، يضع من قطع الحديد وصلاً لبلاد الريف وقراه وتقريباً للشقة وتيسيراً لأمور الخلق فهو إنما يعيش لبلاده ، وإنما يخدم بلاده ، وإنما يخدمها حيث يوضع ، ويستثمر كفاءته في أي مجال . طريقته واحدة ونظرته واحدة ، وهدفه واحد : الواجب

وإنك لترى اليوم من شبابنا من ينقل من وظيفة إلى أخرى دون أن تمس راتبه ودون أن تمس درجته ، فهو لا يكتفي بالشكوى والضجيج والالحاح حتى يسمم عمله الجديد بآثار غضبه ويأسه

ولا يعيش إلا بخيال واحد وأمل واحد : أن يتغير العهد ويعود له ما كان فيه ، بينما يقاسي المحكومون ممن تتصل أحوالهم بعمله ألواناً من البطء في شؤونهم وكثيراً من عنت لا ذنب لهم فيه

هذه الظاهرة وحدها من سيرة « على مبارك باشا » درس قيم في الأخلاق وتراث زاخر ، وموعظة لهذا الجيل بالغة

***

أما عمله في وزارة المعارف ففي كل ركن من أركان التهذيب والتثقيف له أثر عميق ، كان لا يني عن زيارة المدارس زيارة لا يسبقها إعلان ولا شيء من جلبة الرسميات ، ولو خلت من هذا وحده لكانت بذلك كافية في معنى الرقابة وما يتصل بالحرص على الواجب من الوقوف على درجة التقدم وعيوب التنظيم

لكنها لم تقف عند ذلك الحد ، فكان عليه رحمة الله يسأل أكثر من طالب في كل فرقة وفي أي مادة يتفق تدريسها مع ساعة الزيارة ، وطالما كان له جولات في مختلف العلوم مع من يزورونه من الطلبة في الديوان سواء لرفع شكاة أو تبيان مصلحة

هكذا كان على مبارك باشا . فانظر إذن وتخيل ما تكون عليه دار أسعدها الله بسكنى رجل الواجب .

كان عهده نادر المقاهي والسوامر والملاهي ، وكانت الدور العامرة سواء في العواصم أو في الريف تقوم بدورها في صيانة الأخلاق وتكوين الجيل ، والعلماء وقت ذاك قليل ، وعلى مبارك بين القليل درة لامعة

دار كانت بالوافدين والساعين إلى العلم أكثر ازدحاماً مما ترى اليوم في جامعة أو في سينما ، لكل فريق دور ، والأدوار متعددة تنتهي بآخر السهرة من الليل لاختلاف أوقات الفضاء لصاحب الدار أو الوافدين

دار طالما عمرت بصالح الحديث وبعدت بنازليها عن اللغو ، فصفوة العلماء يبحثون ويباحثون ، وللأدباء فيها نصيب كبير ، وللطلاب النصيب الأوفر

تزين الدار مكتبة جامعة ، نصيب الرجل منها كنصيب أي واحد من قاصديه ، وعليه هو القوامة على تنسيقها وحفظها ، بل عليه أن يختار لكل ما يلائمه ، يبذل من الكتب والمراجع كما يفيض من محفوظه وتجاربه ؛ وهل يستطيع على مبارك إلا أن يكون واحداً في كل تصرفاته وفي روحاته وغدواته يقوده الواجب ، وسيرته التماس النفع للبلاد ؟

ولقد أعلم أن المرحوم « مصطفى كامل باشا » الذي ما زالت البلاد تعتز في ظل ما خلف إلى اليوم ما أحسن المحسن وما أساء المسيء ، كان في شطر كبير من تكوينه العلمي أكبر حسنات تلك الدار ، كما كان صاحب الدار أكثر الناس إعزازا للنجباء من أبناء البلاد ، فمن نزح إلى أوربا يكمل تعلمه ، لا يني في البحث عنه في العطلة الصيفية وفي عودته إلى الوطن ، ولا تلبث الحلقات أن تنعقد من أولئك الأنجاب في تلك الدار التي ازدهرت وقتاً ما فازدهرت بها حديقة العرفان وكانت جبين البلاد

كانت مهمة الدار في أفق العلم مهمة الجامعات ، فهي سيطرة رفيقة على تنظيم الثقافة وتوزيعها على قدر المختلفين إليها ، وكانت فيما بين الذين أكملوا دراستهم واسطة العقد ، ووسيلة التعارف وأداة الوصل ، كما كانت للنازحين في طلب العلم مرداً إلى عوارف الوطن ، وجيل المدرسة الأولى ، وخير مقرب بين الثقافتين ، وخير قوام على تطبيق المعلومات وتهذيبها وصبغها بما يناسب صبغة البلاد

أين تلك الدار ؟ وأين كعبة العلم ؟ ذهبت بها تصاريف الزمان وعفاها ما يشبه الجحود منا حكومة وشعباً ، ومثلها مثل قصر أم المحسنين في حي الدوباره ، قامت أحجاره يسخر منها « قصر النار » وخلا من كل شيء إلا من نسيج العنكبوت

بل إن للعلم عند الله كرامة ؛ فلئن ذهبت رسوم الدار بين الرياح من جنوب وشمال فقد أكرم الله نازلها وعامرها بهذا العفاء ، فلعلها لو عاشت لظهرت غريبة ولأزرى بها انصراف مؤلم عنها وشبانه من دور قامت على الإساءة للبلاد والسخرية مما ينفع الناس

يبحث إخواننا من أهل العراق عن « المثنى » ويقيمون باسمه نادياً ، فهلا نسمع من شباب الجامعة عزماً على البحث عن مكان الدار وتسمية ناديهم باسم « على مبارك »

إذا كان هذا عزيزاً على أنواء الزمن فهل نسمع في القريب أنهم زينوا إحدى غرف النادي أو قاعات البحث بالجامعة باسم الراحل الكريم ؟ ! .

أيها الناس أكرموا السلف يكرمكم الخلف ، فكما تدين الفتى يدان ؟

الشيخ عطا

محمد محمود هلال
المحامي

فجور القانون

للأستاذ جمال الزرقاني

أعجبت أشد الإعجاب بسلسلة مقالات « الجمال البائس » للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي وتتبعتها بمجلة (الرسالة) الغراء ؛ وأعجبت منها خاصة بتصويره للقانون في مقاله الأخير ورميه بالفجور وقوله على لسان الأستاذ « ح » : « فالحقيقة التي لا مراء فيها أن فكرة الفجور فكرة قانونية ، وما دام القانون هو الذي أباحها بشروط ، فهو هو الذي قررها في المجتمع بهذه الشروط » . وهذه فكرة كانت ظاهرة خافية معاً ؛ فهي في القانون ولم ينتبه لها أحد ولا من رجال القانون . وقد صار من حق (الرسالة) وقرائها عليّ أن أكشف هذا المبنى كشفه القانوني ليعرف القراء كيف غُرس الفجور غرساً في قوانيننا المصرية

لا مشاحة في أن قانون العقوبات قد اهتم لعقاب الجريمة بعد وقوعها أكثر من اهتمامه بالاحتياط لها والعمل على منعها قبل حدوثها ؛ فهمته في الواقع لم تخرج عن بيان الأفعال التي يعتبرها الشرع جرائم ومقدار الجزاء على كل منها ، فهو يتضمن القواعد الموضوعية Règles de fonds للقانون ؛ بينما اهتم قانون تحقيق الجنايات « بالنظم والإجراءات » التي يجب أن تراعى لتنفيذ قانون العقوبات ، أي لمعرفة الجاني إذا ما وقعت الجريمة ؛ فهو يتضمن القواعد الشكلية Règles de forme ، فكلا القانونين اهتما كما قال الأستاذ الرافعي « لحالة الجريمة لا للجريمة نفسها » وتركا مسألة الجريمة وبلا احتياط لمنعها قبل حدوثها للقوانين البوليسية وللعقوبات الأدبية ؛ وبهذا أضافا للخطأ خطأ آخر إذ أغفلا مسألة واقعة وهي أن العقوبة الأدبية قد أضعفتها عوامل المدنية الحاضرة ولم يبق في أكثر النفوس إلا سلطان القانون وحده . . .

والسبب في تقصير القوانين الجنائية هذا التقصير الفاضح وخاصة في بلاد إسلامية تتخلق بأخلاق الفضيلة ، هو أجنبية هذه القوانين فإنها فرنسية الأصل ، فرنسية الوضع ، فرنسية التطبيق ، فرنسية المرجع ، فمن ثم لا يؤدي إلا ما تؤديه القوانين الفرنسية في بلادها ؛ أما حالات الشرق الخاصة وتقوم تقاليده وأخلاقه ، فهي عمياء عنه أو تخبط في عمياء ؛ ومن البلاء أن نقل هذه القوانين كان من عمل مشترعين أجانب بعيدين عن المحيط القومي فنقلوا نقلاً ممسوخاً أضاع كل فائدة ترجى وخاصة في صميم المسائل الأخلاقية الشرقية . بل إن القانون وقف من هذه الأخلاق موقف الجامد الغافل أو المشجع المستهتر بالأباحة

ولو أنا عرضنا قانون العقوبات وضمنا بعض المواد الصماء تحت نظر الفاحص لوضحت فكرتنا ؛ فمن المعروف قانوناً أن حرية النيابة في « تحريك » الدعوى العمومية وفي استعمالها ليست مطلقة كل الاطلاق ، فهناك أحوال تحد من تلك الحرية ، ومنها ما يستوجب الاذن من صاحب الشأن كالحال في دعوى الزنا .

والزنا في القانون يختلف عنه في اللغة وفي الشريعة ، وبهذا اقتصر القانون على اعتباره كذلك إذا وقع من الزوج أو الزوجة وشريكيهما ، وأحاطه بشروط خاصة ضيقة اشترط فيها قيام الزوجية فعلاً أو حكماً . فالفعل الواقع من الزوج أو الزوجة أثناء الخطبة أو بعد الطلاق البائن لا يعتبر جريمة . وكأن القانون في نقله ذلك عن المواد ٣٣٦ — ٣٣٩ من قانون العقوبات الفرنسي قد أغفل الأخلاق الشرقية وتناساها وترك حبل الشيطان على غاربه ، بل هو قد شجع على ارتكاب هذا العمل من غير الزوج أو الزوجة بالشروط الخاصة بجريمتهما ، بل أكثر من ذلك أتاح الفرصة للزوج أن يفعل فعلته النكراء في غير منزل الزوجية بلا عقوبة . وبذلك ترك الأسرة تتدهور بتدهور عائلها ووقف موقفاً غريباً في صدد المساعدة على التدهور الأخلاقي ، فجعل الحق في رفع دعوى الزنا للزوج وللزوجة وحدهما ، فإذا رضي أحدهما عن فعلة الآخر وقف القانون مكتوفاً لا يمكنه التحرك إزاء العمل على سقوط الأسر واختلاط الأنساب والقضاء على الأخلاق ، بل إنه يقف حائلاً دون الزوج نفسه في « تحريك الدعوى العمومية » إذا ما وقعت منه يمين الطلاق وهو في جنون غيظه من جريمة زوجته ، وبذلك تتقي الزوجة وشريكها صولة القانون ويكون الطلاق كأنه محا الجريمة قانوناً مع أنه لم يقع إلا بها

ولا دلالة على نقل القانون المصري نقلاً جامداً عن القانون الفرنسي أكثر من وقوفه بالمادة ٢٠١ عقوبات في جانب الزوج الذي يقتل زوجته في حالة التلبس بالجريمة ، معتبراً ذلك ظرفاً قانونياً مخففاً يعاقب فيه بالحبس فقط ، ثم يأبى ذلك على الأب

والأخ اللذين يمتد إليهما عار الجريمة أكثر من الزوج ، فالزوج يتخلص منه بالطلاق ، أما هما فالعار قد لصق بهما . وهذه القاعدة الفرنسية كانت معقولة في فرنسا في وقت وضع قانون العقوبات الفرنسي إذ كان الطلاق وفقاً للمذهب الكاثوليكي غير جائز ، وإذ كانت الجريمة من ذلك لاصقة بالزوج أكثر من التصاقها بأسرة الزوجة

ومن التخريجات الغريبة والتطبيقات التي تنشأ عن القانون الجنائي المصري في هذا الصدد ، حالة ما إذا فاجأ الزوج زوجته وشريكها ، فحاول قتلهما فقتلته الزوجة أو شريكها ، فلا عقوبة على فعلهما لاعتبار ذلك دفاعاً شرعياً عن النفس ؛ ثم إنه بعد ذلك لا عقوبة على جريمة الزنا التي اقترفاها إذ قد مات الزوج صاحب الحق في الدعوى ضدهما . ولو حدث أن قتل الزوج زوجته سقط بذلك حقه في الدعوى ضد شريكها ، لأن حظ الشريك مرتبط بحظ الزوجة الزانية فيستفيد مما كان يفيدها . وقد ماتت فالشريك يعتبر بريئاً إذ لا عقوبة عليه إلا إذا حكم على الزوجة ، وهذا غير متيسر لموتها

وكذلك القانون لا يعاقب على جريمة الفيسق ولا على تلك الجريمة النكراء الشنعاء : جريمة اللواط متى توفر الرضا إذا كان سن الفتى أو الفتاة أكثر من ست عشرة سنة . فكأن القانون يشجع ذلك بعدم وضع الحظر عليه ، بل أكثر من هذا فإنه يقف موقفاً غريباً بالنسبة للقاصر إذا جاوز السادسة عشرة فإنه يبيح له أن يجني ويبيح الجناية عليه . . . . بلا قيد ، بينما لا يبيح له الزواج أو التصرفات المدنية إلا برضا وليه أو وصيه حسب الظروف ، وهذه مسألة من الخطورة بمكان عظيم إذ تترك الشبيبة الناشئة تتلاعب بها الأيدي والأغراض ، وبجرها المفاسد إلى غير مستقر بدون رقيب عليها ؛ وهي عدة المستقبل وآمال الأمة . فإذا كانت هذه الشبيبة على ما يحوطها من المفاسد ويغريها لا يحميها القانون فيا سوءة المستقبل ، ويا ضياع الآمال . ومن الواجب المحتم أن يتنبه المشرع إلى هذا النقص التشريعي فيسارع إلى علاجه قبل استفحاله كيلا يتهم بالمساعدة على التدهور الخلقي وعلى إفساد الأمة في أسانها الحي الذي هو الفتى والفتاة

هذا بعض من كل من الأمثلة الدالة على تحجر القانون والمشجعة لضروب المنكر — قد يقال إن روح القوانين الحديثة أن تتجه نحو الحرص على عدم التعرض بالعقاب للجرائم الأخلاقية إلا في حدود معينة ، فلم يعاقب على الرذائل والآثام لذاتها ؛ بل لما يترتب عليها من الضرر للأفراد أو للمصلحة العامة . ولكن الرد على هذا سهل يسير وهو : أنه ما من جريمة أخلاقية إلا أصاب الغير ضررها بالذات أو بالواسطة حالاً أو مستقبلاً ، وذلك بانتشار الرذيلة الذي يتبعه تأثر الوسط وفقدانه حيويته ؛ والذي يتبعه حتماً كنتيجة مباشرة انهيار البيئة الاجتماعية وتفشي الأمراض الخبيثة بينها وازدياد الأدواء المختلفة الجسمانية والأخلاقية ، وبذا تتأثر المصلحة العامة ؛ فلا حجة في تلك الحجة

ومع ذلك فإن كثيراً من القوانين الحديثة لا تزال تحرم الرذيلة لذاتها ، والقوانين الانكليزية والألمانية والنمسوية والمجرية تعاقب على اللواط ولو وقع بالرضا ، كما تعاقب أيضاً على اتخاذ القيادة حرفة ومرتزقاً ؛ والقانون السويسري يعاقب على البغاء

وهذه هي قوانين الدول المسيحية ؛ أما الدول الإسلامية فإن قوانينها ولا كفران لله قوانين واسعة سمحة . فيا ليت الحكومات الاسلامية تعمل بهذه الطريقة العكسية فتضع للشيطان قانوناً على الضد من طباعه ، وبذلك يجيء قانون الشيطان مصلحاً لقانون الانسان . . . . . .

جمال الزرقاني
ليسانسيه في القانون

من أيام سورية التاريخية

ذكرى ٢٤ يوليو !

للأستاذين علي الطنطاوي وسليم الزركلي

قال الملك فيصل رحمه الله :

« . . . وقد كان بين هؤلاء الذين سقطوا صرعى في ميسلون بعض رفاقي في معارك فلسطين ؛ وإني لأحني رأسي احتراماً لجميع هؤلاء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل اعتداء لم يعرف له التاريخ مثيلاً . . . »

[جريدة الأيام الدمشقية العدد ٨٦٣ من هذا العام]

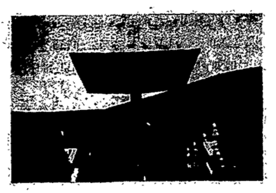
اخرج من دمشق ، وخلّف وراءك الجسر وفيكتوريا ، وهذه البنية ذات الطبقتين ، التي كانت منذ خمسة عشر عاماً « النادي العربي » مثوى الوطنية ، ومثابة الإخلاص ؛ ودع عن شمالك المرجة الخضراء ، التي وقفها نور الدين على سوائم المسلمين ، فرعاها نفر من الأقوياء الحاكمين ، وعاثوا فيها آمنين مطمئنين ؛ وجُز بالمزة وقلاعها ، لا تلتفت إليها ، ولا تأبه لها ، واستقبل الربوة لا تحفل بقرارها ومميمها ، ولا تعجب لأنهارها السبعة ، وقد امتدت بين عدوتي الوادي بعضها فوق بعض ، كعقود اللؤلؤ في جيد الحسناء ، وتناس ما قال فيها ياقوت وقد طوّف أنحاء الدنيا ، وجاب أرجاء الأرض ، ثم رجع فلم يجد في الدنيا أنزه منها ؛ وعدّ عن النيرب لا تذكر عهده ، ولا تبك أيامه ، فقد ذهب النيرب ، وغبرت أيامه ، وفارقه وأنشد قول ابن حمدان :

سقى الله أرض الغوطتين وأهلها ... فلي بجنوب الغوطتين شجون
وماذقت طعم الماء إلا استخفني ... إلى بردى والنيربين حنين
وقد كان شكي في الفراق يروعني ... فكيف أكون اليوم وهو يقين
فوالله ما فارقتكم قالياً لكم ... ولكن مايقضى فسوف يكون

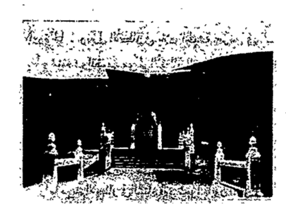
واسلك على وادي الشاذروان ، ولا يقفك عن غايتك أنه وادٍ من أودية الجنة ، هبط إلى الأرض لتذكر فيه النفس أيام الجنة الأولى ، فتطير إلى سمائها بأجنحة من نشوة الذكرى ، ولا يثنك عن وجهتك هذان الجبلان المتعانقان ، كأنهما عاشقان قد لبسا من النجوم المزهرة ، والأشجار المثمرة ، حلة أبهى من السندس ، ولا « يزيد » الذي يجري في صلب الجبل يزخر بالمياه ، فيطفح بها ، فتهبط الصخر من علو مائة ذراع متكسرة مزبدة ، كأنما هي ذوب اللجين ، حتى تعود إلى أبيها بردى ، وهو يجري في بطن الوادي جياشاً ثائراً ؛ واستقبل دُمّر لا تقف بجنانها ورياضها ، ولا تفتنك قصورها ودورها ، ولا يشبك هذا القصر العجيب ، ذو المدارج الملتوية ، والألوان والنقوش ، والبرك والنوافير : قصر الأمير سعيد ، ولا قصر شمايا تجري من تحته الأنهار !

ودع عن يمينك معمل الأسمنت الفخم ، الذي قام دليلاً على أن الشرق يستطيع أن يعمل ، ويقدر أن يبني . ومركباته التي أبت أن تمشي على الأرض ، فسارت متعلقة بأسلاك في الهواء . . وأنت الهامة فدعها عن يمينك لا تنزل إلى السهل ، ولا تفتنك أنهاره وبهجته ، ولا تجذبك فسحته وخضرته ، وامش واضعاً « قادسية » عن شمالك ، ثم دُر دورة فاخرج من الوادي ، وامش مُصْعِداً حتى تدع الوادي من ورائك ، وتستقبل الصحراء الخالية القاحلة ، فإذا أصحرت فدع الديماس وحدائقه وامش قدماً حتى ترى هذه الهضاب المتسلسلة ، والآكام المتتالية ، فاعلُها . . حتى إذا بلغت ذراها ، ولمحت في عرض البادية ، في حضن الجبل ، بناء غريباً كأن سقفه جناحا طيارة ؛ ورأيت من أمامه سلسل ماء ، فاهبط إليه ، ثم قف خاشعاً منحنياً ، فأنت في ميسلون ، وأنت حيال قبر يوسف العظمة . . .

علي الطنطاوي



قبر شهيد ميسلون : يوسف بك العظمة
وزير الحربية في الحكومة العربية



قبر شهيد ميسلون : يوسف بك العظمة

قِفْ عند هذا الضريح واهتف بسكانهْ
هل حلَّ فيكم جريح من أجل أوطانه
أهوى بكم يستريحْ من برح أحزانه
بنى عليه الزمان والغاشم الغادرْ
فراح يبنى الأمان فى الفلك الدائرْ

أصمته هوج الخطوب ففجرت دمعهْ
ومرهقات الكروب فأوقرت سمعهْ
ولم تدعه الحروب فكسرت ضلعه
بكى له النيّران والكوكب الساهر
فأين هذا الهوان من مجده الغابر

الملك رهن الضياعْ إن غيل فى مهدهْ
والسيف ما إن يطاع مادام فى غمده
واحسرتا للشجاع يبكى على مجدهْ
النذل والخوّان والخاتل الماكرْ
يفوز بالجنان (١) ويطرد الثائر

تبكى عيون السماءْ على أمانينا
وفى مجارى الدماء خاضت مواشينا
ما زال رهن الفناء شتى مرامينا
هل يرجع الفاتحان : الأسد الزائر
للعرش والطيلسان والفاتح الظافر

جاست ديارى العداة والدهر يبغينا
وعاث فينا الطغاة ذلاً وتهوينا
لم تصف بمسند الحياة حتى تعادينا
آن أوان الطعان فلينهض الفائرْ
لا يبلغ المجدَ وانٍ عن نيله قاصر

فاستصرخى يا قبور عزائم الأبرار
ولتحطمنّ الدهور صواعق الأحرار
لا عاش من لا يثور ويستبيغ العار
إنا فدى الأوطان من غاصب جائرْ
لا عيش للإنسان فى موطن صاغر

سليم الزركلى

(١) كذا فى الأصل ، والشطر مكسور (الرسالة)

٢ – معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

وفيما يلي وصف الأرض العام في بلاد الحبشة : في الساحل أرض سهلة رملية ، والرطوبة فيها تبلغ درجة عالية في موسم الأمطار ، وحرها لا يطاق ألبتة ؛ وكلما تقدمنا من الساحل إلى الداخل ارتفعت الأرض واختلفت تربتها وتنوع شكلها ، فتكون ترابية وحصوية فصخرية فكلسية وهلم جرا ، وتأخذ في التموج ؛ وهذا التموج يجعل الأرض في بعض المحلات جبلية ذات غابات وأدغال ؛ وكلما زاد الارتفاع كثرت الوديان الضيقة المكسوة بالغابات والأحراج الكثيفة . والانحدار في حافات الجبال شديد يحول دون تسلقها ؛ والطرق فيها مسالك ضيقة تسلكها الدواب بصعوبة . وإذا ما دخلنا الهضاب اشتدت الوعورة ، وازدادت المناعة ، فالجبال تعلو في انحدار شديد ، ويسيطر بعضها على البعض الآخر ، وتكثر فيها المكامن والمضايق والفجوات والوهاد

وقد شق الطليان طريقاً في مستعمرتهم اريترة تربط الميناء « مصوع » بالعاصمة « أسمرة » ؛ وقد أنفقوا على شقه مبالغ طائلة من جراء انحدار الأرض وكثرة الوديان فيها ؛ وكذلك السكة الحديدية التي تربط « مصوع » « بأسمرة » فإنها تعتبر من أرقى ما بلغه الفن الهندسي في مد السكك الحديدية ، لأن السكة تتسلق الجبال ملتفة حولها عابرة على عدة جسور وملتوية الالتواء كله

وتستطيع القوات القادمة من الساحل بفضل وسائط التجهيز والتموين السير في الأرض السهلة والأرض المتموجة ، وإذا ما وصلت إلى السفوح الغربية يتوقف السير لمناعة الأرض وصعوبة سير العجلات والدواب فيها . ومع ذلك نجد أن فقدان المياه في الأرض السهلة والمتموجة مما يحول دون تسيير قوات كبيرة فيها

الأمطار والبحيرات

والحقيقة أن بلاد الحبشة مدينة لغزارة الأمطار التي تنزل فيها ، فهذه الأمطار تسقي بلاد الحبشة بقدر بركانها على البلاد المجاورة لها ، وتنزل الأمطار في بلاد الحبشة مرتين في السنة ، صيفاً وشتاء ؛ والصيف موسم الأمطار الطويل ، فتبدأ الأمطار في هذا الموسم في أوائل أيار إلى نهاية أيلول ، وتقع غالباً بعد الظهر ، وتنزل بغزارة ، وتقلب الأرض السهلة والمتموجة إلى بحيرات وسيول في مدة قصيرة ، وتجري هذه المياه بسرعة في الوديان الجافة إلى البحر ، وبعض الماء تبتلعه الأرض

وأما موسم الأمطار في الشتاء فهو شهرا كانون الثاني وشباط ، والمطر فيه قليل . وأجل الأنهار شأناً في بلاد الحبشة هي تلك التي تنبع من السفوح الغربية في المنطقة الجبلية الداخلية وتصب في نهر النيل

فنهر « صوباط » مثلا يتكون من فرعين ، ويجري في الجهة الجنوبية الغربية ؛ ونهر « اباى » ينبع من بحيرة « تانا » وهو يؤلف القسم الأعلى من نهر النيل الأزرق

وفي الشمال نهر « عطبرة » وهو يتألف من نابعين : نابع (ماريب) في الشمال ، ونابع (تكازة) في الجنوب ، وبعد أن يسقي مقاطعة « تيجري » يجري شمالا ويصب في نهر النيل في عطبرة شمالي الخرطوم

ولنهري اباي وعطبرة تأثير شديد في اقتصاديات السودان ؛ فالأمطار الصيفية تملأ أحواض هذين النهرين ، فيفيضان بها ويسقيان مزارع السودان الصيفية ويتركان الرسوب الغرينية في المزارع

وبحيرة « تانا » التي تمثل دوراً خطيراً في تاريخ الحبشة من حيث تأثيرها في مياه النيل تعلو عن البحر ١٧٠٠ متر ، وتبلغ مساحتها زهاء ٣٠٠٠ كيلو متر ، وتحيط بها الجبال من كل جانب

وفي الجنوب وديان كثيرة تأتي من حافات الجبال ، وأهمها نهر وادي « جبة » وهو الذي ينبع من الحافات الجنوبية للمنطقة الجبلية الداخلية ويجري في الأرض المتموجة والسهلة

وتبدأ الوديان من حافات الجبال الشرقية ، وتمتد إلى السهول ، وإذا ما نزلت الأمطار جرت فيها المياه

ومن المياه ما تتكون منه البحيرات الجنوبية في أرض الحبشة ؛ وهذه البحيرات واقعة على طوار الخط الممتد من الشمال

الشرق إلى الجنوب الغربى ، وتنتهى فى شمالى بحيرة «فيكتورية» وأخطر هذه البحيرات بحيرة « رودولف » فى الجنوب وبحيرة « استيفانى » فى الشمال

تقسيم الأحباش البلاد

والأحباش أنفسهم يقسمون بلاد الحبشة إلى ثلاثة أقسام من حيث أوصافها ، وإليك بيانها :

القسم الأول : وهو القسم المنخفض ، ويتفاوت الارتفاع فيه من (١٠٠٠ إلى ١٨٠٠) متر ، وهذا القسم حار وتتفاوت درجة الحرارة فيه من ٢٠ إلى ٤٠ درجة سنتغراد ؛ وفى هذا القسم المقاطعات « هرر » و « كافا » و « بديتو » و « سيدامو » و « شانكالة » ؛ والحرارة فى المحلات المنخفضة ، وفى الوديان لا تطاق ؛ والزرع فيه هو الذرة . وفى المحلات المرتفعة من هذا القسم يزرع قصب السكر والقطن والزعفران والموز والتمر الهندى والبن والنخيل وغير ذلك

القسم الثانى : وهو القسم المتوسط من حيث ارتفاع الأرض إذ يتفاوت العلو فيه من (١٨٠٠ إلى ٢٤٠٠) متر . وتختلف درجة الحرارة فيه من ١٤ إلى ١٩ سنتغراد ، والهواء فيه جيد ، والربيع دائم ، وتكثر فيه المياه والغابات

القسم الثالث : وهو القسم المرتفع ويتفاوت الارتفاع فيه من (٢٤٠٠ إلى ٣٤٠٠) متر ، ومناخه يشبه مناخ جبال الألب ، والشتاء فيه شديد وبرده قارس . وتختلف درجة الحرارة فيه من ١٠ إلى ١٢ سنتغراد ويجمد الماء فى الليل . وبينما نجد القسم الأول جهنم الحبشة نرى القسمين الثانى والثالث جنتها

التقسيمات الإدارية

تنقسم بلاد الحبشة إلى عدة مقاطعات ، ويحكم كل مقاطعة رأس ، وهو بمنزلة ملك تلك المقاطعة وله سلطة مطلقة عليها نالها ارثاً بحقوق الاقطاع . وكثيراً ما أطلق عاهل الحبشة على نفسه ملك الملوك بعد إخضاعه الرءوس فى المقاطعات وتوحيده المملكة

وفيما يلى المقاطعات الخطيرة : —

(ا) مقاطعة « تيجرى » وهى واقعة فى الشمال ومتاخمة لأريترة الصومالية والسودان ، وفيها العاصمة المقدسة « أكسوم »

(ب) مقاطعة « أمحره » ، وهى واقعة إلى جنوبى مقاطعة تيجرى ومتاخمة للسودان

(ح) مقاطعة « غوجام » ، واقعة إلى جنوبى مقاطعة أمحرة

(ى) مقاطعة « شوءا » ، وهى من أخطر المقاطعات وفيها عاصمة الدولة « أديس أبابا »

(ه) مقاطعة « كافا » ، وهى واقعة إلى الجنوب ومتاخمة للسودان ولمستعمرة أوغاندة البريطانية وفيها يزرع البن

(و) مقاطعة « أوجادن » ، وهى واقعة إلى الجنوب الشرقى ومتاخمة للصومال الطليانى

نبذة من التاريخ

يزعم العلماء الضليعون فى معرفة الأجناس والشعوب أن الأحباش هاجروا من جزيرة العرب إلى إفريقية عن طريق اليمن ، ويعللون انتماء اللغة الحبشية إلى اللغات السامية بتلك الهجرة

والمحقق أن الأحباش احتكوا بالمصريين فى قديم الزمان واقتبسوا منهم بعض مظاهر الحضارة ؛ ولما امتدت فتوح المصريين إلى بلاد النوبة والسودان اشتدت هذه العلاقة . ويؤيد التاريخ استيلاء الأحباش على مصر العليا وتأسيسهم أسرة حاكمة هناك .

ويزعم الأحباش أن الملك منليك الأول هو ابن سليمان من بلقيس ملكة سبأ . وشاعت النصرانية فى الحبشة فى أوائل القرن الرابع بعد الميلاد ورسخت فيها بعد ذلك . والمعلوم أن أبرهة قائد القوات الحبشية الذى استولى على بلاد اليمن وتقدم نحو الحجاز كان نصرانياً . والشائع أن الداعى إلى هجوم الأحباش على اليمن هو الانتصار لبنى دينهم أهل نجران

وكان الأحباش يدينون بالنصرانية لما هاجر المسلمون إلى الحبشة فراراً من الاضطهاد . وشاعت اليهودية فى الحبشة فى عهد هذا الملك . وتخليداً لهذه الذكرى أحدث ملك الحبشة فى سنة ١٨٧٤ وساماً سماه « وسام خاتم سليمان »

وفى القرن السادس تبع الأحباش الكنيسة المصرية التى اعتقدت أن ليسوع (عيسى) طبيعة واحدة ، وانضوى الأحباش من ذلك التاريخ لبطريرك الاسكندرية

وفى القرن السابع استفاد اليهود القاطنون فى الحبشة من الانشقاق فى العقيدة المسيحية ، واتفقوا مع الثائرين والوثنيين

وتغلبوا على الأحباش فأخرجوهم من مقاطعة أكسوم وحكموا البلاد زهاء مائتي سنة . وفي نهاية القرن الثامن قضى (لالبيلا) على حكم اليهود ورجع الأحباش يحكمون بلادهم معتنقين المذهب اليعقوبي .

المسلمون والأحباش

ولم يتوجه العرب في عهد فتوحهم نحو بلاد الحبشة بل اكتفوا بالاستيلاء على بلاد مصر والسودان فقط ، وذلك على ما تعتقد لسببين : أولهما بعد بلاد الحبشة عن طريق الاستيلاء ومناعتها ، وثانيهما ذكرهم للأحباش بخير لأنهم آووا المسلمين الأولين وآمن نجاشيهم برسالة الرسول

وفي القرن الثامن عشر ثارت الحروب بين الأحباش والمسلمين الذين أحاطوا ببلاد الحبشة من كل جانب . وقبل منتصف القرن الخامس عشر احتك البرتغاليون بالأحباش من أجل الحصول على موانئ صالحة في مغامراتهم في بحر المحيط الهندي ، وسعوا لتأسيس علاقات ودية بينهم وبين الأحباش ، وعقدوا أول معاهدة في سنة ١٥١٥ ، وكان من نتائج هذه المعاهدة أن المسلمين أخذوا يتوغلون في بلاد الحبشة لمحاربة الأحباش حلفاء البرتغاليين ، وكلما انتصر المسلمون على البرتغاليين في البحر الأحمر وفي خليج عدن انتقموا من الأحباش الذين ناصروا البرتغاليين في حروبهم .

وفي سنة ١٥١٧ تحرك جيش كبير من المسلمين من « زيلع » وهجم على بلاد الحبشة واستولى على « أكسوم » العاصمة المقدسة ، و « جوندار » عاصمة المملكة . وبعد أن مد البرتغاليون الأحباش بالمدافع وتولى « كريستوفوس دغاما » قيادة الجيش الحبشي انكسر المسلمون وانسحبوا .

ولما استولى العثمانيون على مصر اشتدت علاقة الترك بالأحباش ، وأخذ سلاطين آل عثمان يساعدون المسلمين في البحر الأحمر على محاربة البرتغاليين والأحباش ، وكان من نتائج ذلك أن استولى العثمانيون على مصوع وبربرة وهما من موانئ الحبشة ، وتوغلوا في الداخل ، وأخذ المسلمون القاطنون في السهول يشددون العزائم للهجوم على بلاد الحبشة ويسمون لنشر الدين الاسلامي فيها

(يتبع) طه الهاشمي

من ضحايا الوطنية

شارلوت كورداي

لتوماس كارليل

بقلم الأستاذ حسن عبد الحليم اليماني

يبني التاريخ مشهداً يذكره وسط الغموض والاضطراب اللذين لفا مدينة « كان » الفرنسية كما لفا العالم بأسره في طليعة عهد الثورة الكبرى : أما مكانه فساحة مجلس « كان » النيابي ، وأما أبطاله فرجل وفتاة أوشكا أن يفترقا بعد لقاء هما النائب باربارو وشارلوت كورداي (« دارمان » كما كانت أسرتها تلقب قبل الثورة التي ألغت رتب النبل وألقابه) كانت فتاة فارعة العود في عامها الخامس والعشرين ، يتلألأ محياها جمالاً ووداعة ؛ وكانت على أن ترحل إلى باريس في أمر ما ، ولهذا تقابلت وباربارو فحملها توصية وتقدمة إلى صديقه الباريسي النائب دوبريه ذاكرا في خطابه « إنها الجمهورية الهوى من قبل أن ينادي بالثورة مناد ، وإنها لم تكن في حاجة أبداً إلى الحماسة ، ففي قلبها منها السكفاية » . « أما الحماسة في رأيها فهي تلك العاطفة التي تدفع بالمرء إلى بذل روحه طائعاً في سبيل بلاده »

وقبيل ظهر الثلاثاء التاسع من شهر يوليه من العام الرابع للثورة ، اتخذت شارلوت مكانها من عربة بريد « كان » الراحلة إلى باريس مزودة بخطاب باربارو وبقليل من متاعها الخفيف ، لم يكن في وداعها - كسنة السفار - أحد يتمنى لها رحلة طيبة موفقة ، فهي قد بيتت عزيمتها بينها وبين نفسها مخلفة لأبيها رقعة تفضي إليه فيها بأنها في طريقها إلى انجلترا ، وأنها ترجو أول ما ترجو أن يغفر لها فعلتها وأن ينساها إلى الأبد . وزحفت عربة البريد بحملها ، وكأنما لازمها نعاس ملح ، ما زال يدفع بها وئيدة مهومة حتى بلغت جسر « نيلي » ، وحتى لامست عجلاتها ثرى باريس في ضحى يوم الخميس ١١ يولية ، حيث شهدت عينا شارلوت مدينتها المنشودة تطالع السحاب بقبابها العديدة السوداء . وفي فندق البروفدانس بشارع دي فيو أوجستين

« La rue des Vieux Augustines » احتجزت لنفسها غرفة سرعان ما احتواها فراشها ، وسرعان ما راحت في سبات عميق بقية النهار وطيلة الليل ، فلم تستفق منه إلا وشمس الجمعة قد علت في الأفق

غادرت شارلوت فندقها في ذلك الصباح لمقابلة النائب دوپريه ، فلما سلمته رقعة صديقه بارباروغلم منها أن لصاحبتها أوراقاً تتعلق بأسرتها ، وأن صديقه يرجوه مساعدتها حتى تحصل عليها من وزارة الداخلية . وأنالها دوبريه بغيتها وقضت نشدتها في اليوم نفسه ، وغادرته ولم تشر بطرف إلى رحيل أو بقاء . وفي باريس طالعت نواحي عديدة وصوراً متباينة ، ولكنها لم تهتد إلى لقاء « مارا Marat » (١) والتحقق من قسمات وجهه فقد احتبسه المرض إذ ذاك في منزله

باتت ليلتها في الفندق ، حتى إذا أسفر الصبح غادرته حوالي الساعة الثامنة لتشتري خنجراً ، ثم لتأخذ عربة من ميدان الانتصارات « La place des Victoires » ميممة مسكن مارا بشارع مدرسة الطب رقم ٤٤ ، حتى إذا بلغته حال مرضه دون لقائها ، فأهمها أن تفشل في وسيلة ركزت فيها كل آمالها وأحلامها .

يالشارلوت الجميلة النكودة ! ويالمارا القبيح النكود ! أي قدر يسمى بفتاة من (كان) في أقصى الغرب ، ورجل من نيوشاتل في أقصى الشرق ليلتقيا ؟ وأي شأن يربط بين حظيهما فيجذبهما إلى أن يصطدما ؟

وإذ عادت إلى فندقها بعثت اليه بورقة تحمل اسمها واسم بلدتها : « كان مهد الثورة » ، وتحمل فوق هذا رجاءها ولهفتها إلى لقائه ، حتى تدفع اليه « ما يعينه على أن يسدي لفرنسا يداً » . ولكنها لم تتلق عليها جواباً ، فخطت اليه أخرى أقوى من سابقتها رجاء وعاطفة ، وحملتها بنفسها إلى مسكنه في مساء اليوم نفسه ١٣ يولية

كان مساء شاحباً ، وقد مضى على المساء الذي سقط فيه الباستيل أربعة أعوام كاملة ، ذلك المساء الذي وقف فيه مارا على رأس جموع الشعب ، طالباً من رجال فرقة الموسكار — حرس الباستيل وكانت قلوبهم مع الشعب — أن يخلوا أمكنتهم وأن يلقوا بأسلحتهم . وبهذا الحدث ارتفع مارا إلى الذروة — ذروة البطولة والوطنية ، وهاقد مضت أربعة أعوام حافلة — فأية طريق اشتقها مارا إلى المجد وأية طريق دفع بنفسه في شعابها ؟

لقد كان في الآونة التي يممت فيها شارلوت صوب داره ، ينتقع في حوض استحمامه ، وقد تجرد من ملابسه إلا قليلاً ، وكانت الساعة حوالي منتصف الثامنة مساء ، وكان منهوكاً محطماً يحمل في يده قصاصات من الورق ، وأمامه منضدة مثلثة القوائم ، يتكئ عليها كلما هم بالكتابة . كان وحيداً في مسكنه اللهم إلا إذا اعتبرنا خادمه الشوهاء رفيقة تطرد الوحدة وتخفف أثقالها . فهل انتهى به الطريق إلى أن يأتي خاتمته على هذا الوضع وفي تلك الصورة ؟

قرع الباب وتكرر القرع ، ونفذ إلى مسمعيه صوت لين حلو ، رفض صاحبه أن يغادر مكانه من الباب أو تقضى حاجته . كانت صاحبته هي المواطنة شارلوت كورداي ، تلك التي تريد « أن تعينه حتى يسدي للوطن يداً » — عرف (مارا) من كلامها تلك أنها صاحبة الرقعة الأولى التي وصلته ، فنادى خادمه : أن دعيها تدخل ؛ ودخلت شارلوت قائلة : « أيها المواطن مارا ! إنني من (كان) مهد الثورة ، وأريد أن أفضي إليك بأمر »

فرد عليها قائلاً : « اجلسي يا طفلتي ! ما وراءك من أخبار كان وأخبار خونتها ؟ ومن ترى فيها من النواب الآن ؟ »

ولما سمت له شارلوت بعض النواب ، زمجر « صديق الشعب » قائلاً : « ستطاح رؤوسهم في مدى أسبوعين » ؛ واجتذب المنضدة إليه ثم أخذ يكتب « بارباروه ، بتيون . . . » واستدار في الحوض مصلحاً من جلسته « بتيون . . . لوڤيه و . . . » وفي أسرع من اللمح استلت شارلوت خنجرها من غمده ، ثم أهوت به إلى قلبه . لم تمهله حشرجة الموت طويلاً ؛ فلم يستطع إلا صرخة واحدة : « إلي يا عزيزي — الغوث يا عزيزي ! » سارعت الخادم إليه فاذا به لقى لا روح فيه ، وقد انكفأ على وجهه الذي بدا مغيظاً محنقاً . . . وهكذا تقضي مارا « صديق

(١) هو جان بول مارا — ولد في نيوشاتل إحدى مدن شرق فرنسا سنة ١٧٤٣ ولما شب درس الطب ثم احترفه حيناً في لندن . وفي احتدام الثورة عاد إلى باريس حيث أصدر صحيفته المعروفة « صديق الشعب » وقاد الشعب بقلمه وخطبه حتى جاء عليه وقت حكم فيه فرنسا مشتركاً مع صديقيه روبسبير ودنتون في حكومة الإرهاب الثلاثية .

الشعب » وليس إلى جوارة صديق !

إلى هنا تم لشارلوت ما دبرت ، وأنى لها أن تلقى جزاء عاجلاً محتوماً ... فقد تدفق الجيران على صرخة مارا الأخيرة والتفوا بشارلوت التي قاومت قليلاً ، حتى إذا حضر الشرطة أسلمت نفسها لهم طائعة . واقتيدت لتوها إلى سجن « أباي Abbaye » حيث احتوتها إحدى غرفه هادئة ساكنة ، وقد ماجت باريس حول محبسها ، ودوت أصوات الشعب في خليط يتذبذب بين الدهشة والغضب والاعجاب

بعد أيام أربعة ، طالعت الجموع المحتشدة في قصر العدالة ، حيث تعقد محكمة الثورة ، وجه شارلوت جميلاً هادئاً كعادته ، وما إن دخلت القاعة حتى سرت فيها همهمة ليس من السهل أن نستبين العاطفة التي أوحتها ! وهنالك وقف تنفيل Tinville ليقيم الدعوى مستعيناً بالشهود وبائع الخنجر الذي حضر المحكمة ليدلي بالواقعة أمامها ، ولكن شارلوت قاطعته قائلة « لا حاجة بكم إلى هذه التفاصيل

« إنني أنا القاتلة »

« وبايحاء من ؟ »

« لم يوح إلى أحد »

« إذاً فما الدافع ؟ »

« جرائمه » ثم زادت في صوت صاخب مرتفع « لقد قتلت فرداً لأنقذ مئات الألوف ، مجرماً لأحمي أبرياء ، حيواناً مفترساً لأريح بلداً بأسره ! لقد اعتنقت مبادىء الجمهورية قبل أن تقوم الثورة قائمة ، ولم أكن أبداً في حاجة إلى الحماسة أو التشجيع ! »

وهكذا قطعت عليهم كل سبيل إلى الكلام ، وحملق الجمهور مشدوهاً بينما أتم القضاة إجراءاتهم في صمت وسكون ، وصدر الحكم باعدامها لجريمة القتل فتلقته هادئة ، وفي لهجة رقيقة تشف عن روح نبيلة عالية شكرت محاميها كما شكرت القسيسين الذى أحضروه لها معتذرة له في لطف بأنها ليست في حاجة إلى شيء من بضاعته !

وفي مساء ذلك اليوم نفسه خرج سكان باريس – على بكرة أبيهم – إلى الطرقات والنوافذ ليلقوا على شارلوت نظرة أخيرة ..

وظهرت عربة السجن المشئومة تحمل تلك المخلوقة الصغيرة في ملابس الاعدام الحمراء ، حلوة وادعة ، غضة الاهاب ريانة الغصن تسعى إلى حتفها وحيدة وسط هـذا العالم الصاخب ! كثير هم أولئك الذين حيوها في احترام برفع قبعاتهم ، فأى قلب لا يمس هـذا المشهد قرارته ؟ بينما طاوعت بعض الآخرين نفوسهم فزمجروا وهدرت أصواتهم لدى رؤيتها !

وفي « ميدان الثورة » حيث ينتظرها الموت ، لم يتسلل إلى أساريرها الجميلة الهادئة أى شحوب أو فرق ، بل حافظت على ثباتها وخيويتها ، ولما تقدم الجلادون لقيـد ساقيها ، احتجت متذمرة ، وقد حسبت أنهم إنما يفعلون ذلك رأفة بها ، وقد لحظوا في أنوثتها ضعفاً لا يقوى على مجابهة الموت إلا مكبلاً ! حتى إذا أفهموها أنها إجراءات تتبع في كل حالة اعتـذرت لهم باسمة وخضعت راضية !

وفي المشهد الأخير عند ما جردوا عنقها من لفائفه وهيأوه لسيف الجلاد ، تمشت في عنقها ووجهها الجميل حمرة من خجل العذارى ظلت تصبغ خديها الندين حتى بعـد أن رفع الجلاد رأسها المفصول ليراه جمهور النظارة !

فيا للجمال ويا للقبح ممثلين في شارلوت ومارا ! يصطدمان فيتلاشى كلاهما الآخر ! ويا لكما من منكودين أنهلهما العدم كأسـه مترعة ! فلتناما في أحضان أمكما الأرض ، تلك التى حملتكما معاً !

محمد عبد الحليم اليمانى

في الأدب الإنجليزي

٤ - الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

الأشباح : Ghosts

تشمل الأشباح التي وردت في روايات شكسبير نوعين مختلفين : أشباحاً مرئية وأشباحاً غير مرئية . أما الأشباح المرئية فهي التي في استطاعة كل شخص أن يراها ويبصرها . وأما الأشباح غير المرئية منها فهي التي اختفت عن أعين الجميع إلا عن أعين بطل الرواية

استعمل شكسبير نظرية الأشباح في عدد غير قليل من رواياته ومؤلفاته ، فهناك شبح في رواية الملك ريشارد الثالث لم يره إلا ريشارد وريشموند ، وهناك شبح آخر في رواية يوليوس قيصر يعجز الخدم عن رؤيته بينما يظهر جلياً لبروتس . وفي رواية سمبالين أشباح متعددة تظهر لبوشيموس في سجنه في حالة لا يراها الحرس والسجانون

وكانت مخاطبة الأشباح تقتصر على نفر قليل ممن كانت لهم قوة التنبؤ والاستنباط ، فكان في استطاعتهم أن يسألوا الأرواح في مهماتهم الخصوصية . وقد ذكرهم شكسبير في كثير من رواياته كرواية سمبالين ورواية يوليوس قيصر بقوله : « قد استطعت التغلب على روحي الخفية بواسطة حيلك السحرية » وفي رواية (All's Well That Ends Well) بقوله : « هل يوجد هناك من مشعوذ يستطيع أن يزيل ما أمام عيني من الشك »

وهذا النوع من الرجال كان ينتظر منه الالمام باللغة اليونانية واللاتينية والاضطلاع الواسع على الآداب القديمة . وتظهر لنا هذه الميزة جلياً في رواية هملت عندما يظهر الشبح ، فيقول مارسيلوس مخاطباً هوراشيو : « إنك متعلم ومطلع على الآداب ، ولذا وجبت عليك مخاطبته يا هوراشيو »

ويصحب ظهور الأشباح عادة تغيير في الأنوار ، فنرى ريشارد الثالث يشعر بتغير في الأضواء قبل ظهور الشبح ؛ وفي رواية يوليوس قيصر نرى نفس الظاهرة بجلاء ووضوح ، فيرى بروتس تغيراً في ضوء الشمعة يسترعي انتباهه ويهتف قائلاً : « ما لهذه الشمعة قد شحب ضوؤها ؟ من القادم ؟ »

وتظهر الأشباح بصورة عادية مرتدية نفس الملابس التي كان أصحابها يرتدونها قبل موتهم . ففي رواية هملت يظهر الشبح بنفس الأردية التي كان يرتديها الملك قبل وفاته ، وهذا ما دعا هوراشيو إلى الهتاف قائلاً : « إنه ليشبه والدك تمام الشبه مرتدياً نفس الملابس والأسلحة التي كان يرتديها قبل وفاته » ؛ وفي رواية مكبث يظهر شبح بانكو بنفس الحلة التي وجد فيها قبل وفاته بساعات قليلة

ولهذه الأشباح طبائع غريبة وأخلاق شاذة ، فهي لا تستطيع احتمال الأسئلة الكثيرة بل تهملها . وفي رواية هنري السادس نرى الشبح وقد ضاق ذرعاً بالأسئلة الكثيرة التي وجهت إليه فأجاب سائله بقوله : « اسأل ما بدا لك ولكني لا أجيب إلا عما أريد الاجابة عنه »

وكانت الأشباح تفضل الصمت على الشغب والضوضاء ، ولذا نرى بروسبيرو يطلب الهدوء التام عند ظهور الأشباح . وتختلف هذه المخلوقات الغيبية عن سابقتها بكونها لا تستطيع الظهور مطلقاً إلا عند سدول الظلام ، فلا يظهر الشبح في رواية هملت إلا بعد غروب الشمس ؛ وعندما يشعر باقتراب النهار يفر مسرعاً إلى عالمه العلوي . فالنهار والضوء عدوان لدودان للأشباح

قال جبسن في ختام بحثه عن الأشباح : « إن المهارة والقدرة التي أظهرها شكسبير في تصوير الأشباح لم يؤكد لنا اعتقاده الجازم بها [1] » وهذا الحكم الذي يصدره ناقد معروف كجبسن لجدير بالتفكير والبحث . نعم إن شكسبير لم يوفق في بحثه عن الأشباح وتصويرها كما وفق في الساحرات والجنيات ؛ فخياله المبدع الذي رأيناه سابقاً لا تشاهده في الصورة الحالية ؛ وقد يكون هذا النقص ناتجاً عن عدم اعتقاده بالأشباح ؛ خصوصاً وأن الرجل لا يحسن ما لا يؤمن به ويعتقد فيه ، فكان بحثه تعوزه القدرة ، وينقصه الخيال الواسع والفكر العميق

---

(1) Gibson, Sh's use of The Supernatural p. 31

العفاريت : Devils

كان من السائد على معتقدات الناس فى ذلك العصر أن العفاريت هم من سلالة الآلهة القدامى ، وما عفاريت شكسبير إلا صور مصغرة من آلهة الرومان واليونان والفلسفة الشمالية ، فهم مصدر شقاء وينبوع آلام . نعم إن مقدرتهم لم تصل الى تلك الدرجة من القوة التى وصلت اليها مقدرة الساحرات ، ولكنهم رغماً عن ذلك كانت لهم القدرة الكافية على الاختفاء بالشكل الذى يريدون .

وفى رواية تايمون أثينا (Timon of Athens) نرى وصفاً مسهباً لهذا النوع من العفاريت عند ما يتكلم المهرج قائلاً : « إنها روح شريرة تظهر مرة بشكل سيد من الأسياد ، وأخرى بشكل محام بارع ، وثالثة بشكل فيلسوف شهير »

وكانت فى بعض الأحيان تتخذ لها وسيطاً من بنى البشر ، فيكون لهن من روحه مكاناً يقمن فيه ، ويعامل هذا الرجل (المسكون) عادة أشد المعاملة وأقساها ، فهو عرضة للشتائم ويشتى أنواع العـذاب والهوان . وفى رواية (مهزلة الأخطاء) (Comedy of Errors) نرى بنسن يخبر خليلته بأن زوجها وخادمه قد أصابهما مس من الجنون ، وأن العفاريت قد اتخذت من روحيهما مسكناً مريحاً ، فمن الواجب إذن القبض عليهما وإيداعهما حجرة مظلمة

وفى حديث غرامى بين روزاليند وعاشقها رولاندز فى رواية (كما تريد) (As You Like it) نرى الفكرة نفسها واضحة جلية ؛ فهى تقول له : « إن الحب جنون ، وما العاشق إلا مجنون يجدر به أن يكون حبيس غرفة مظلمة لا يدخلها الضوء ؛ ولكن الحب لا ينزل به هذا النوع من العقاب ، لأن الحكام والقضاة قد كانوا فى نفس الحالة يوماً ما ، ولذا كان من الواجب مداواته بالنصيحة والمشورة »

يندر أن تجد عفريتاً من هذه العفاريت يظهر بشكله الحقيقى على مسرح شكسبير ؛ ولا أذكر فى رواياته كلها غير مرة واحدة ترى العفريت فيها للنظارة ، وهذه المرة تقع فى رواية هنرى السادس عند ما تدخل العفاريت المسرح بقصد إلحاق شديد من الساحر (لا بوسيل) ، فيقومون بأعمال كثيرة تعد فى حكم المستغربة الشاذة ، فيدخلون دون أن ينطقوا بأية كلمة ، ومن ثم يلقون برؤوسهم الى الأسفل ، ثم يرفعونها مرة ثانية ويغادرون القاعة حيث لا رجعة بعد ذلك

من هذه الأعمال الغريبة التى كان العفاريت يقومون بها نستنتج أن هـذه المخلوقات تعد من أغرب أنواع الغيبيات ، وتختلف عن سائر الأنواع الأخرى باختفائها الدائم فى الهواء ؛ وقد ختم جبسن بحثه عن العفاريت بقوله : « إن شكسبير لم يهتم بهذه المخلوقات اهتمامه بالأنواع الأخرى المشابهة لها ، وإن معاملته الشاذة لها جديرة بالاستهزاء بدل الاجلال والتقدير [1] » وهذا الحكم على درجة كبيرة من الصحة والصواب ؛ فلا نجد هنالك إلا عدداً قليلاً من الأماكن التى يأتى ذكرها فيها ؛ ولو فرضنا جدلاً أن شكسبير ذكرها فى عدة أماكن لرأينا أن ذكره لها لا يتجاوز عـدداً من الأسطر ؛ ثم يتركها على ألا يعود اليها ثانية . ومن هـذا يظهر جلياً أن شكسبير كان يحتقر هذا الاعتقاد فى العفاريت فلم يولها جانباً من اهتمامه

(يتبع) خيرى حماد

(1) Gibson. Sh's Use of the Supernatural P. 33

الدكتور محمد اقبال

فلسفته

معالم الاتفاق والاختلاف بينه وبين فلاسفة الغرب

للسيد أبو النصر أحمد الحسيني

إن أول من حاول التوفيق بين فلاسفة الغرب في أن يثبت بالدلائل القاطعة والشواهد الصادقة أن الانسان لا يقدر على حل العقد المستغلقة والمعضلات الغامضة في هذه الكائنات بالعقل المجرد، هو الفيلسوف الألماني الكبير (كانت). وعلى هذا أثبت كانت عن طريق فلسفي ضرورة وجود الله ولزوم الايمان به، وبرهن في مصنفه «نقد العقل العملي» على أن قواعد عقل الانسان العملي ودعائم عمله ووظائف اختباره ثلاثة: حرية الارادة، وخلود الروح، والايمان. ووضح أن الانسان لا يمكن أن يكون مسئولا عن أعماله إذا لم يكن فيها بالخيار. لذلك كان (كانت) بكشف هذه الحقائق وأمثالها في عالم الفلسفة قد قام للانسانية بخدمة عظيمة

ونحن قد أبنا لك في المقال السابق أنه على حسب فلسفة اقبال أيضاً يكون لكمال الانسان وتقدمه ثلاث دعائم: احراز الغاية القصوى من الحرية والاختيار بنيل الأنانيـة العظمى، ونيل الخلود باتصاف الأنانيـة بحالة الجد المستمر، ثم بلوغ منزلة الخلافة الالـهية التي هي نهاية عليا لذلك الكمال والتقـــدم: فعلى هذا يتفق اقبال مع كانت في التصورات الثلاثة أساسياً، ويختلف عنه في أن ليس لدى كانت تصور الخلافة الالـهية. وأما تصور (كانت) الثالث وهو الايمان فهو أساس جميع تصورات اقبال، لذلك لم يحتج اقبال إلى اثبات ضرورة وجود الله والايمان به في فلسفته كما احتاج اليه كانت، ولأن مبدأ فلسفة اقبال الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر، وآخر الجد المستمر الايمان كما هو أوله، لأن الانسان لا يقدم على عمل ويستمر فيه إذا لم يك مؤمناً بنتيجته ونجاحه فيه، وكذلك اقبال لم يحتج إلى اثبات قانون أخلاقي خارجي كما احتاج اليه كانت في بيان نظريته الأخلاقية، لأن قانون الأخلاق عند اقبال ينجم عن ضروريات الأنانية الباطنية، فكل شيء يقوي الأنانية عنده خير وحسن، وكل ما يضعفها شر وقبيح؛ فكأن أنانية الانسان المتصفة بالجد المستمر عنده ضمنية لانتاج ذلك القانون، فلا يحتاج إلى البرهان والدليل.

ويختلف إقبال عن كانت في أن اكتساب الحرية والاختيار ونيل الخلود والدوام في فلسفته ثمرة الجهد المستمر لا يفوز بها إلا الذي اتصفت أنانيته بتلك الصفة، أي الجد المستمر. فكل من رغب فيها وطمح إليها ينبغي له عنده أن يسعى لذلك بعزم وحزم لا يشوبهما على الزمن خلل ولا وهن. وأما كانت فقد تصدى لفكرة الحرية والاختيار والخلود والدوام في فلسفته ليقول إن العـدل جار في الكائنات وإنه يوجد فيها المطابقة بين الأعمال ونتائجها، وبين الأمور وعواقبها

إن فلسفة إقبال فلسفة تفاؤل لأنها تخلق في الانسان الأماني تترى، وتبعث فيـه الهمة القصية المرمى، وتحفزه لبذل الجهد واستفراغ الوسع في تحقيقها بالمثابرة والمواظبة. فهي لذلك تخالف فلسفة التشاؤم التي كان أكبر أئمتها الفيلسوف الألماني شوبنهاور.

كان شوبنهاور هذا متأثراً بأفكار البوذية الهندية، فنظر إلى العالم نظرة التشاؤم، وقرر أن حقيقة الكائنات القصوى هي الارادة، لكنها لا تقدر أن تملك لقصدها مشمولاً خاصاً تمكن أن يعرض عملياً في الذهن، لأن كل مشمول مثل هذا يتعلق بخارجها. فلذلك تلك الارادة الكونية لقصدها نفسها، أي هي تريد لأن تريد. هي تريد لأن تكون حقيقياً، فان كل شيء حقيقي ليس إلا الارادة الممثلة. فبهذا المفهوم سمى شوبنهاور تلك الارادة «إرادة الحياة»، ورأى أنها جوهرياً شر، فانها لا تمكن أن تقنع؛ هي ألم. هي ألم غير القانع؛ وعلى هـذا فالحياة حمأة الطموح الذي لا يشبع، وثورة التوقان الذي لا يقنع. لذلك كانت نهاية الانسان دائماً في الشكوى، ولن يتم له حسن الحظ أبداً. ولكن إقبالا يرى أن سوء الحظ وآلام الحياة أكبر فائدة للانسان إذ بها تربي أنانيته وتدرب، فيطأ بها أعراف المجد، ويتسور شرفات الكمال؛ ثم شوبنهاور ينكر الفردية أي وجود الأشيـــاء المنفردة أو «الارادات المنفردة» كما يقول، ويرى أنها وهم لأنها تتوقف على الفروق الزمنية والمكانية، بينما أساس فلسفة إقبال هو الفردية

أما من يوجد بين فلسفته وفلسفة إقبال معالم المشابهة وملامح المماثلة أكثر فهو الفيلسوف الألماني الكبير نيتشه . والنزعة الكبرى لنيتشه هذا بين فلاسفة الغرب أن عبقريته صبغت الفلسفة بصبغة الالهام ، ولم تكتف في المباحث الفلسفية بانتقاد الفن ، بل أتت للعالم بمقياس جديد للحسن والقبيح ، والخير والشر . وفلسفته ثمرة مزيج من أفكار كانت ، وشوبنهاور ، وداروين . فقد استنبط من نظرية العلم لكانت أن ليس هناك شيء يقال له علم ، بل كل شيء خيال ووهم ، وذلك لأن الحقيقة لا يكشف عنها بل تخلق ، ولا يبحث عنها بل تخترع ، وهو أيضاً قد قرر مثل شوبنهاور أن حقيقة الكائنات القصوى هي الارادة ، ولكن ليست « إرادة الحياة » كما رأى شوبنهاور بل « إرادة القوة » ، وهي عنده مصدر كل خير وفلاح كما أن « إرادة الحياة » عند شوبنهاور منبع كل شر وخسران . وما أحسن قول البعض أن ما رآه شوبنهاور شيطاناً رآه نيتشه إلهاً

يرى نيتشه أن « إرادة القوة » هذه دافع قوي غريزي سار في الكائنات ، فهو مركز الحياة الانسانية ، بينما إقبال يرى أن مركز حياتها هي الأنانية المتصفة بحالة الجد المستمر . ولكنهما يتفقان في أن خوض غمار الآلام ومكابدة المصائب ، ومعاناة النوازل ، مما لا محيص عنه لصعود الانسانية في معارج الشرف ولبلوغ تقدمها غاية الكمال . ويتفقان أيضاً في أن هذا العالم المادي هو ذريعة إلى تلك البغية ووسيلة إلى ذلك المطلب ، وأن الفن[1] يجب أن يكون ملتقى الجمال والقوة كما يتفقان في أن فلسفة الأخلاق المسيحية غير وافية لضروريات تقدم الانسان وتسنمه ذروة الكمال . غير أن نيتشه قدح فيها قدحاً شديداً وانتقدها انتقاداً لاذعاً وصرح بأن المسيحية تدعو إلى « أخلاق العبيد » في حين أن إقبالاً اكتفى بالاشارة إلى أنها غير مفيدة للانسانية لأنها لا تقدر على إماطة اللثام عن قواها الخفية ، ولا على الكشف عن استعداداتها المكنونة ، وذلك لأنها تدعو إلى الرهبنة وترك العالم . وبناء عليه فدعوة إقبال خلاف ذلك كما قال في بيت ترجمته :

غص في البحر وحارب الأمواج

فان خلود الحياة في المحاربة

يتفق إقبال ونيتشه في تصور كمال الانسانية ؛ بيد أن نيتشه يراه ممثلاً في سوبرمان (أي فوق البشر) وإقبال يراه في خليفة الله . والفرق الأساسي بين تصوريهما هو أن نيتشه ينكر وجود الله ويقول : « اقتلوا الله » ! « Alles ist erlaubt » كل شيء مباح . إن الطبيعة والدوافع الطبيعية ليست شراً . ابعدوا الحياء والكظم ! ابعدوا الأدب والتقيد ! إن أخلاق الرجل الحر ستكون الأخلاق المعبرة عن الذات حقيقة » . وعلى هذا فسوبرمان نيتشه محصور في نفسه ومحدود في ذاته ، ليس لديه غاية يجري إليها ولا هم يتفرغ له . وأما الخليفة عند إقبال خياله الأنانية العظمى ، أي الله ذو الرحمة الواسعة ، وصاحب العطاء المتصل ، فله عنده الدرجات العلى ، يجزي بها بما يسمي ؛ ثم سوبرمان نيتشه عار عن العاطفة جافي الطبع ، شديد الوطأة ، لأن روح أفكار نيتشه أرستقراطية ، فرأى أن حقيقة الكائنات القصوى « إرادة القوة » ، وقرر أنها هي الدافع الغريزي الأقوى في الانسان فعليه أن يطلبها ، ولكن هذا الطلب غير المشروط كان ينجم عنه نظام القيم الذي ظلت الحضارة مشتبكة فيه إلى الآن . فهنا أتى نيتشه بفكرة « وراء الحسن والقبيح[1] » فارادة القوة عنده لا تعرف حدود الحل والحرمة ، والحسن والقبح ، لأن كل شيء مصدره ونهايته قوة ، عندها حلال وحسن ، وكل شيء مصدره ونهايته ضعف ، عندها حرام وقبيح ، والنقائد كذلك ليست عندها متساوية متماثلة ، فالفرق الحقيقي بينها ليس عندها من حيث كونها حقاً وباطلاً ، بل من حيث كونها مفيدة وغير مفيدة . وهكذا شعرت أرستوقراطية نيتشه بضرورة « Umwertung aller Werte » ، أي تغيير جميع القيم ، فمثل في آن واحد دور الفيلسوف ، والمصلح الاخلاقي ، والشارع ، وخالق الحضارة الجديدة . وكان في دور ارتقاء أفكاره الأخير شاعراً بمهمته هذه

فعلى هذا النمط وصل نيتشه إلى تصور كمال الانسانية في صورة « سوبرمان » بازاء عامة الناس الذين هم موضع قنوطه ويأسه . فأنشأ فكرته الجديدة للحضارة بتوزيع الاجتماع

(١) قد بينا رأي الدكتور في الفنون والملاهي في مقال تأخر نشره لمرض الأستاذ صاحب الرسالة ، وسينشر بعد فراغنا من فلسفة إقبال

(١) أي « Jenseits von Gut und Böse » ، وهو أيضاً اسم لمصنف نيتشه

الانسانى فى طبقتين متناقضتين : ذات أخلاق السادة وذات أخلاق العبيد . وقرر أن الأولى منشأ سوبرمان ، وأن لأفرادها وهم الأقوياء حق معاملة أفراد الأخرى وهم الضعفاء بالظلم والعدوان ، وإن واجب القوى فى شريعة الارتقاء وتنازع البقاء الولوغ فى دماء الضعيف وفتح جميع أبواب الجور عليه بكل وحشية ، فإن السوبرمان أو الانسان القوى الكامل الصالح للحياة لا يظهر إلا بتدمير الضعيف غير الكامل وغير الصالح للحياة . وأما طبقة الضعفاء أو « ذوو أخلاق العبيد » كما يسميهم هو فقد خلقوا لاستعمال الأقوياء فقط ، وهم موضع يأس نيتشه ، لذلك سد عليهم نيتشة جميع أبواب التقدم كما سدت ديانة البراهمة على المنبوذين فى الهند

فلذلك كان تصور الخليفة لدى إقبال خيراً من تصور السوبرمان عند نيتشة ، لأن روح أفكار إقبال الديموقراطية الاسلامية [1] فالخليفة عند إقبال شخصية محبوبة إلى جميع طبقات البشر تسمى لخيرهم ، وتسبغ من خصب طبعها عليهم وتقربهم إلى نفسها ؛ فكلما تقربوا اليها تتدرج حياتهم فى مدارج الكمال ؛ وهى تمثل اللين كما تمثل الشدة . وهاتان الصفتان لا محيص عنهما لتقدم الاجتماع البشرى . قال إقبال فى بيتين ما ترجمتهما :

اخلق من حفنة ترابك
جسماً أوطد من حصن منيع
وليكن فى داخله قلب رقيق
كالنهر فى جنب الجبل الراسى

إن ما حدا بنيتشه إلى هذه التصورات الأرستقراطية هو خوضه غمار الأدب اليونانى ، وهو لم يشعر بأن النظام الاجتماعى اليونانى فى هذا الأمر كان ناقصاً . فلو شعر بذلك لم يحسب العبودية كالجزء الضرورى للتمدن . فظهور سوبرمانه فى الحقيقة على حساب تلك العبودية ، وهو يحوز قصب السبق على جهود هؤلاء العبيد ، وعلى هذا فشخصيته عند فلسفة إقبال ليست بأكثر من شخصية مستجدية ؟

« للمقال بقية » السيد أبو النصر أحمد الحسينى الهندى

(١) ليست الديموقراطية الأوربية لأن الدكتور اقبال يفرق بين الديموقراطية الأوربية والديموقراطية الأسلامية ، ونحن قد بينا الفرق فى حاشية مقالنا السابق فراجعه



كلمات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

حياةٌ ولكن الحياة تزول ودنيا ولكنَّ البقاء قليل
ودهرٌ طويلٌ ماله من نهاية ولكنَّ فيه العيشَ ليس يطول
وشمسٌ يسرّ الناظرين طلوعُها ولكن لها بعد الطلوع أفول
وفي كل يوم للنهار إذا أتى غدوٌ ومن بعد الغدو أصيل
ربيعٌ ولكن لا يطول زمانُه وزهرٌ ولكن يعتريه ذبول
وإن حياة المرء آفةُ نفسه فإن لم يغَلْه الموت فهي تغول
وفي القبر قد تبقى من الميْت أعظُم ومما بناه أرسمٌ وطلول
وما الموت للانسان إلا ضرورة فينشأ من جيل تقاعس جيل

***

يواري الفتى تحت التراب صديقَه ويدفن في الأرض الخليلَ خليل
كأن الأسى جمرٌ له من لهيبه ذوائب أصلى نارها وذيول
كأن فؤادي يستحيل بها إلى دموع ومن عيني الدموع تسيل
أمامي أرى ماءً نميراً وبي صدًى ومالي إلى الماء النمير سبيل
يبيتُ ابن أرض الرافدين على الطوى
ويشبع من خير البلاد دخيل
وما الأرض بين الرافدين شحيحةٌ ولا الماء يسقي الرافدين قليل
تهون فلول السيف في حومة الوغى إذا لم تصب نفسَ الكماة فلول
أفكر في الماضي فلا هو عائدٌ إليَّ ولا عن ناظريَّ يزول
ولو كنتُ ممن يؤثرون نفوسهم لملتُ مع الأيام حيث تميل
طريقي طريق الصدق لو كان منجياً
فما ليَ حتى الموت عنه نكول
ولي كبدٌ أخشى عليها من الجوى إذا ما نأى بالظاعنين رحيل
وكم مرة واريتُ صحبيَ للثرى على وجه مَن عزّوا عليَّ أهيل
يقولون ما للدهر يقسو بصرفه عليك ويبغي غِرّةً ويصول
ومن أنا من دهري فيطلب غِرّتي ويغري بي بعد المشيب ذُحول

***

أكوِّن رأيي في الحياة مفكراً ولكنَّ رأيي في الحياة يفيل
ورب غويصٍ في الحياة أمامه يظلّ سواءً عالمٌ وجهول
من الدهر تبغي خَلْقَ ذي عبقرية ولكنه بالعبقريّ بخيل
من الغرّ أما عقله فهو راجح يصيب وأما وجهه فجميل
ويعرف من نور السهى ما يجوفها على أن ما يأتيه منه ضئيل
إذا الشمس ذرّت من وراء حجابها فللأرض منها غرّة وحجول
ألام على نيلي من الشعر شهرةً ومَن ذا يعاف المجدَ وهو أثيل
يجيش بصدري الشعر من سورة الأسى
فأشدو به مستعبراً وأقول
ورب يراعٍ جاء في كفّ شاعر بما لم يجئه السيف وهو صقيل
إذا امتلك الذعرُ النفوسَ فجاءة فأوّل ما يلقى الضياع عقول
وإن حياة الشيخ بعد صراعه وخيبته عبءٌ عليه ثقيل
لقد حال مني كل شيء عرفته سوى ذكرياتٍ لا تكاد تحول

الموت

للاستاذ فخري أبو السعود

أيا قادماً تخشى النفوسُ قدومَه لأنتَ صديقٌ في ثياب غريم
قدومُك تحريرُ الأسارى ولو درت
لما أنكرتك النفسُ يوم قدوم
كما يُنكرُ الطفلُ الطبيبَ وعنده له بُرْءُ أسقامٍ ودَمْلُ كلوم
بلوْتَ نفوسَ الخلق من عهد آدم فأنتَ بها يا موت جِدُّ عليم
إذا قستِ الدنيا على مُتعَب بها بسطتَ له لأياً جناحَ رحيم
ومن شفَّه قيظُ الحياةِ أغثتَه ببردِ نسيم في الأصيل رخيم
فأنت لنِضْوِ العيش من دون صحبه ومن دون قُرباه أبرُّ حميم
وأنتَ دواء الجسم قد خيلَ داؤه تُميطُ الأذى عن مُوجَع وسقيم
وأنت بلاغُ النفس حيرى مَرُوعةً بوادي شكوكٍ جمّةٍ وهموم
وفيك ابتعادٌ عن جهالة جاهل وعن قول مأفونٍ وفعل لئيم
وعندك نسيانٌ وطول زهادة لكل مُراد في الحياة عقيم
فأنت ــ وإن غُلْتَ المنى ــ أطيبُ المنى
وفيك نعيمُ المرء أيّ نعيم
لعمرك ما حيٌّ بأروحَ منزلاً على الأرض من بالٍ بها ورميم
ولو علم الجاني لما جادَ عامداً على خصمه بالموت جُودِ كريم

وتمحو يداك الحقد والخوف والأسى
وكلٌّ بلاءٌ في النفوس قديم

وكلَّ بلاء لم يسغ طعمه الفتى ... عليه طوى بالأمس كشح كظيم
وأنت تريح الفكر من كل معضل ... يظل له في حيرة ووجوم
وتطوي عن الأجفان صفحة عالم ... مليء بأنواع الشرور ذميم
وتطوي كتاب الأمس طيًّا وما مضى
به من بغيض ذكره وأليم
عزاء لبعض الناس أنك قادم ... وأن شقاء العيش غير مقيم

المادة

للأستاذ محمود غنيم

فتشت بين الناس عن زاهد ... فلم تقع عيني على واحد
ما أزهد المرء إذا لم يجد ... وأبعد الزهد عن الواجد
لا يزدهي إنسان بآدابه ... أو يفتخر بالسلف البائد
المجد إما سطوة أو غنى ... ما العاجز المعدم بالماجد
فقيمة الشعب إذا قستها ... بقيمة الصادر والوارد
وقيمة الفرد بما يملك الـ ... فرد من الطارف والتالد
كم طفلة أودع من حرة ... جوّعها الجوع إلى مارد
قد يحسد المرء على رزقه ... ولا أرى للفضل من حاسد
لم يفتتن بالمكرمات امرؤ ... والغانيات فتنة العابد
العلم والأخلاق ما قدّما ... إلا لنفع منهما عائد
لا يردع التاجر عن غشه ... إلا اتقاء المتجر الكاسد
لم يختر الناس دياناتهم ... بل أخذوا بالمذهب السائد
ليس جمال الطبع في غادة ... يشمل جمال اليد والساعد
يا زاعم العفة في جسمه ... ما تبتغي من كاعب ناهد ؟
لم يتق الله امرؤ للتقى ... بل لنعيم الجنة الخالد
تيمت الناسك حورية ... ذات قوام أهيف مائد
تسقيه كأساً حلوة الطعم من ... خمر الجنان السيّغ البارد
لولا جمال الحور ما لامست ... أرض المصلّي جبهة الساجد
هل كنت تلقى في الورى ساعياً ... لو كان يسعى الرزق للقاعد
سيّان من يسعى إلى قوته ... بالسلب أو بالورع الزائد
كم لحية أجدى على ربها ... من ألف سهم بيد الصائد
جرح يد المرء له قائد(1) ... وما لجرح العرض من قائد
كم مجرم يقتل روحاً ولا ... يجزى جزاء القاتل العامد
قد يترك الأولاد من جهلهم ... صرعى ولا حدٌّ على الوالد
صاح دع الروح ودع قدسها ... نحن عبيد الجسد الفاسد

(1) من القود بمعنى القصاص

حمامتي!

للشاعر الإنجليزي «كيتس Keats»

بقلم عيسى وهب الله الشمبيري

أظنها من حزنها قد ذوت ... ورفرف الموت على وكرها
ويلاه! ماذا ساءها فانزوت ... تطفئ بالحزن سنا عمرها ؟

***

كانت على سيقانها الناعمة ... خيوط خز صنعتها يدي
تزهو بها، كالوردة الحالمة ... على غصين مائس أملد

***

جفت وأبلى السقم سيقانها ... واحسرتا من سكرات السقام!
يا زهرة أذبل عيدانها ... عصف الردى كيف أتاك الحمام؟

***

قد ضمك الغاب زماناً مضى ... لم تسعدي فيه بنجوى الحبيب
والآن قلبي وكرك المرتضى ... فكيف هدت جانبيك الكروب

***

والحصى الأبيض كم أشرقت ... في ثغرك المحبوب حباته !
والشاعر المحزون كم صفقت ... فوق لماك العذب قبلاته !

***

فلم هجرت الدار لم تسعدي ... بين يدي فيها بعيش مصون!!
لو كان أمر الموت طوع اليد ... فديتك اليوم بروحي الحزين!

القصص

صور من هوميروس

١٢ – حروب طروادة

بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

إن يكن قد أصاب الطرواديين قرح، فقد أصاب الهيلانيين قرح مثله.

ذلك أنه ما كاد ينادى بتيوما جومة الوغى، صادعاً بأمر الإله الأكبر، حتى أفاق الطرواديون وأحلافهم، كما أفاق الهيلانيون من قبل حين غادر الجومة مارس وزبانيته

أفاق الطرواديون إذن، وصحا زيوس من رقيته جيرا، فأقسم إلا أن تدور الدائرة على جنودها من شانئي أخيل، وإلا أن يحيق بهم مكر هذا السحر الذى ملأ جفنيه، وغلق سمعيه، وأطلق أيديهم فى أبناء طروادة يضربون منهم كل عنق كريم وكل بنان!!

وما هى إلا أن لم الطرواديون شعثهم، ورتقوا فتقهم، حتى استطاعوا أن يصدوا الزحف، وبأخذوا أعداءهم الزهوين بنشوة النصر، على غرة منهم؛ ويطلع سيد الأولمب من ذروة جبل إيدا فيمكن لهم من أبناء هيلاس، ثم يسلط عليهم صواعقه، ويفتح عليهم السماء فتمطرهم بعذاب واقع، ليس له من دونه دافع، إلا أن يثأر لابن ذيتيس، حبيبة القلب... ومنية النفس!

وفزع أوليسيز إلى زعه...

وأجاممنون إلى سيفه...

وديوميد إلى صعدته...

وأجاكس إلى جبرازه...

وفزع الجنود إلى أسلحتهم يشحذونها، وإلى دروعهم يلبسونها، وإلى الجياد الصافنات يمتطون صهواتها... وإلى الواقعة فيخوضون غبارها، ويثيرون عجاجتها...

ولكن!!... بلا جدوى...!

فلقد طوردوا حتى بلغوا سيف البحر؛ وضيق عليهم حتى نظروا إلى الهزيمة تأخذهم من هنا وهنا؛ ورأوا إلى هكتور كالأسد الهصور تزلزل الساحة بزئيره، ويثير فى قلوب جنوده الحمية بإقدامه، وأينما توجه توجه الموت فى ركابه، وقطرت المنية من سنان سيفه، وانقدح الشرر من حوافر خيله، وتناثر الزبد من أشداقها، فيكون سماً فى قلوب الهيلانيين

وطرب الطرواديون لهذا النصر المفاجئ، وشاعت الخيلاء فى أعطافهم حين أبصروا فرأوا أوليسيز يغادر الميدان متأثراً بجراحه، وأجاممنون يفر بنفسه كأحقر الأجناد، وديوميد محمولاً إلى سفينته كمن يجود بروحه، وأجاكس العظيم يولى دبره غير متحرف لقتال.... فأوقدوا مشاعلهم، وأججوا نيرانهم، واعتزموا إضرامها فى أساطيل الأعداء، ليكفوا طروادة شرورهم، وليأمنوا آخر الدهر مكرهم، وليتم نصرهم...

وهنا... ... ... ؟!!

انتفض بتروكلوس! بتركلوس الكبير، صديق أخيل، وأعز الناس عليه، وجذوة الحماسة المتأججة فى ضلوع الميرميدون!

لقد نظر بتروكلوس فرأى جموع الهيلانيين تنهزم إلى البحر فتلقى بعتادها فيه، ثم يسبح منهم من يسبح إلى الأسطول الحزين الذى بدا عليه كأنه يرثى لرجاله، ويبكى على أبطاله، ثم يغرق منهم خلق كثير، فيبتلعهم اليم... إلى غير عود... ونظر فرأى الطرواديين وأحلافهم وعلى رأسهم هكتور الهائل كأنه زوبعة يأخذون أبناء هيلاس غير راحمين... ثم نظر أخيراً فرأى إلى حملة المشاعل والنيران يزحفون إلباً فيكونون غير بعيد من السفائن اليونانية، لو أعملوا منجنيقهم فى قذفها لأصبح الأمر

غير الأمر ، ولأتوا على آخر قوة لبني قومه ، ولباء بنو قومه بالفشل العظيم ! ولعاد الميرميدون كاسفي البال يحملون الى هيلاس أنباء مصارع اخوانهم ، الذين تخلى عنهم أخيل وجنوده وهم أقصى ما يكونون حاجة اليهم ؛ ولكن أخيل لا يرضى أن ينسى الضغينة التى بينه وبين أجاممنون حتى فى هذه الساعة العصيبة ، فينهض لنصرة اخوانه اليونانيين ، وليدفع عنهم هذا البلاء الذى حاق بهم ، وليرد عنهم عادية هذه الكلاب التى تنوشهم وتمزق صفوفهم ... ...

ورأى پتروكلوس أنه لا سبيل لعودة الميرميدون الى وطنهم بفرض نجاتهم من نيران الطرواديين ، يجرون أذيال الخيبة ، ويلملمون أكفان الفشل ، فثارت فى قلبه نخوة الجندى الباسل ، واشتعلت فى أضالعه نيران الغيرة من مفاخرات هكتور ومنابذاته التى يملأ بها السهل والجبل ، ثم تفطر قلبه أسى وحسرة على هذه الجموع الهيلانية التى تتدافع الى البحر ... ... فكأنها تفر من موت الى موت ، وتنجو من حمام الى حمام ... ... فذهب من فوره الى أخيل ، واقتحم بابه غير مستأذن ؛ وقال :

« أخيل ! »

« فتى هيلاس وغوثها فى كل روع ! »

« يا سليل الآلهة ، المترفع عن الدنايا ! »

« أرأيت ؟ ! . . . »

« ماذا تتحدث القرون إذا قيل إن الهيلانيين باءوا بالهزيمة ، فلم ينهض أخيل لنصرتهم ؟ وماذا نحمل الى هيلاس إذا أبنا غداً غير أنباء السوء ووقائع تلك النهاية المحزنة ؟ وكيف نلقى الأمهات المولات على أبنائهن ؟ وماذا نقول للوطن إذا طالبنا بصحيفة الحساب عن هذا اليوم الأسود الذى بدت بوادره ، وأخيل العظيم لا يحرك ساكناً ؟ وكيف نتقى نقمة الشعب الذى ندبنا لهذا الأمر إذا خنا أمانته ، وبددنا ثقته ، وحطمنا آماله ؟ وأين تذهب الشهرة الطويلة التى أحسبنا خدعنا بطراوة العيش فيها والأحاديث المعسولة عنها ؟ »

« أخيل ! »

« بل فكر متى إذا تم النصر لهذه الذئاب الوالغة فى دمائنا ، هل يكون بحسبها أن تستأصل شأفة هذا الجيش المنهزم ، وتحرق سفنه ، ثم لا تعتزم غزو هيلاس العزيزة ، لتثأر لهذه السنين السوداء التى أذقناهم طوالها رهق الحياة وخبائة العيش ! ! »

« ثم أين لوطننا قوة بعد هذه القوى المبعثرة ، وأنى له جيش بعد هذا الجيش المراع ، ومن لنا بأسطول يعنو له الموج ، وتذل لعزته البحار ؟ »

« أخيل ! »

« انظر إلى الميرميدون تكاد تقتلهم الخنقة على هذه البلادة التى أخمدت سورة الحرب فى نفوسهم ، وأطفأت جذوة البطولة فى قلوبهم ... انظر إليهم يكادون يقذفون بجموعهم من سفائنك لنصرة إخوانهم ، وليلقوا على هكتور درساً فى النزال لا ينساه آخر الحياة ! »

« مالك لا يحركك هذا اللظى يا أخيل ؟! إن هذا يوم ينسى فيه أمثالك أحقادهم ، ويدفنون سخائمهم ، ولا يبالون ألف متعسف أفاق مثل أجاممنون ! إن هذا يوم هو كله للوطن من دون أيام الدهر جميعاً ، فاذا أفلتت فرصته من أيدينا ، أفلتت عزة الحياة وكرامة العيش من أيدى الهيلانيين جميعاً ؛ ولن يقال فى سبب ذلك إلا أن أخيل العظيم قد تقاعس بجنوده عن نصرة الوطن ، وفى سبيل إشباع شهوة الخصومة قامر بالوطن ، وأبناء الوطن ، ومستقبل الوطن ! .. »

« إيه يافتى هيلاس ، وحامى ذمارها إذا اشتد بها الكرب ! »

« مالك تصمت هكذا كأنك تسمع إلى ألف قرن تناديك ، وتضع ثقتها فيك ؟ ! »

« أنا زعيم لك يا فتى هيلاس ، أن هذه الجحافل الطروادية سترتد على أعقابها فتكون للهيلانيين الكرة عليهم إذا رأوا خوذتك التى تكسف بلألائها شمس الضحى ، وشاهدوا هذه الشعرات البيض التى تزين ذؤابتها ! »

« أخيل ! »

رد على أعز الناس عليك ، فالظرف أحرج من الطل ، وأقصر من هذا الصمت ! والساعة مفزعة مروعة ، وإخواننا فى الوطن والآلهة يصرخون ويموتون !

« أخيل ! »

إن كان يعز عليك أن تحنث فى عزمتك التى عزمت ، فأذن لى أن ألبس خوذتك ، وأمتشق سيفك ، وأحل فى دروعك السوابغ ، ثم أسوق الميرميدون باسمك ، فأرد عادية القوم ، وأجير

إخواننا الميلانيين !... ... ...

وكان بتروكلوس يتكلم ، أخيل وكأنما كان وحي السماء يتنزل على قلب البطل ، بلاغةً وحرارةً وقوةَ إيمان وثباتَ يقين ، وتفيضاً تجيش بالحب وأقدس التي لوطن مصاب في أبطاله ، منقوص في عزائم بنيه ، يتلفت من خلف البحار ، ترى ماذا يصنع أخيل في هذا الروع ، وجنوده الميرميدون !!

وهب أخيل من جلسته الخاملة ، وأخذ يدي بتروكلوس في كلتا يديه ، وطبع على جبينه المرتجف قبلة مهر بها صك التضحية في سبيل الوطن الشقي ، وقال لصديقه :

« بتروكلوس ! أخي ! يا أعز جنودي عليّ !

« أما أن أذهب أنا فأرد هذه الذئاب ، فلا ! ولكني آذن لك بكل ما أردت من قوة وعتاد ، ما دمت تؤثر صالح الوطن ، وتحرص على حقن دماء الميلانيين »

« بتروكلوس ! لا بد أنه يحدثك يا صديقي الكريم أنني أتوقت أن أغضب غضبة لا انتهاء لها ، ولكنني أمرت أن أنتظر حكم السماء بيني وبين خصمي الذي لم يتورع أن يهتك أمر السماء ، فيسلبني ثمرة خلتها وحي علي ، وقدمها إلى الجيش بأسره ... هلم يا بتروكلوس فالبس دروعي وأسبغ عليك لأمتي ، وشرف خوذتي بجبينك ، ولأذهب أنا فأعد لك الميرميدون ، ولتبرهنوا لليا كر الجيل أننا سبب مجده وخير جنده ، وذخيرته كلما حزبه كرب ، أو ألم به خطب

« هلم ... ... هلم ... ... »

***

وانطلق أخيل فصاح بجنوده ، فهرعوا اليه في سفينه الخمسين الراسية بمعزل من سائر الأسطول الميلاني ... وكم كان رائعاً أن يتحرك أسطول أخيل ، في أحرج ساعة مرت بهذا الجيش المنير ، الذي وقع فريسة كله في قبضة الطرواديين ! لقد كان أجاممنون وجنوده ينظرون إلى سفن أخيل ، وكأنها الخلاص من الموت الذي يلاحقهم ، والمنايا التي ترقص فوق هاماتهم ، وهي مع ذلك فيما خيل لهم تزود عنهم ، وتشيح عن نجدتهم ، لأنهم لؤموا مع زعيمها ، وأنكروا عليه ما اعترفت به السماء أنه حقه خالصاً له !

أقلع أسطول أخيل ، ولكنه لم يقلع ليفر من واجبه ، بل أقلع نحو الشمال ليكون جنده بمأمن ، حين يهبطون إلى الشاطئ ، من كبسة الصفوف الظافرة ، المشغولة باستئصال شأفة الميلانيين

وما هي إلا ساعة حتى رسا شمال طروادة ، وحتى أخذ سيل الميرميدون ينهمر على شاطئها الشاحب فيملؤه ، وكأنهم ركسف من العذاب أرسله نبتيون ، رب البحار ، من أعماق اليم ليقذف بها في قلوب الطرواديين !

وطفق أخيل يجيشهم ، فجعل منهم خمسة جحافل كقطع الليل البهيم ، فكان على رأس الجحفل الأول البطل الخلاخل ، والقائد المناضل ، منستيوس بن سبرخيوس ، ابن النماء وصاحب العزة القعساء ... وعقد لواء الجحفل الثاني لابن هرمز المقدام ، الفتى يودوروس ، الذي طالما كان جزعاً في فؤاد الردى ، ووجلاً في قلوب المنايا !! ووضع على رأس الجيش الثالث القائد بزاندر ، ابن ميالوس ، صفي الآلهة وهبة الأولمب ... وأقام على الجيش الرابع صديقه فونيكس ، الذي آثر البقاء إلى جانب أخيل حين أقبل مع أوليسيز وأجاكس ، يفاوضون في الصلح من قبل أجاممنون ؛ أما الجيش الخامس فقد عقدت رايته لابن ليرسين ، ألسكيمدون العظيم ، أخي الغمرات وصاحب الثارات

أما بتروكلوس ! فقد أقدم يتخايل فوق عربة أخيل ، يجرها جواداه الأشهبان ، إكسانثوس وباليوس ، أعز خيل زفيروس ، وأحب دوابه اليه ، ولقد كان مظهره الوقور يبعث الروع في النفوس : فهذي خوذة أخيل تتألق فوق هامته ، والريح العاصف تداعب شعراتها فتجعل منها بركاناً يقذف الحمم . وهذي دروع أخيل سابغة فوق الصدر والفخذين والذراعين ، كأنها لبد نبتت فوق حيد جبل شامخ ينطح السماء بروقيه

وتقدم أخيل فصافحه ، ومنحه شرف القيادة العامة ، وخطب الجنود فقال :

« إيه أيها الميرميدون ! هذا يومكم !

لقد كنتم تنظرون إلى الساحة ، وبكم من الظمأ إلى اقتحامها ما لو أن بعضه بكم الآن لزلزلتم الجبال وخرقتم الأرض ، ولقد كنتم تعذلونني فتقسون على في أني احتجزتكم هنا ووقفت في سبيلكم دون نصرة إخوانكم ، فها هو الميدان أمامكم فاشفوا صدوركم ، وانقذوا أجاممنون مما حاق به ، ولا يجرمنكم شنآنه ألا تغيثوه ، أغيثوه فنصره عزلكم ، شد الآية أزركم ، وبارك

الأرباب أسيافكم ، وأحبت مجد الوطن بما أنتم قادمون عليه ؛ سيروا على بركة زيوس ، وفي حمى حيرا ، وعين ميزفا تكلؤكم »

وانطلق الميرميدون فانطوت الأرض من تحتهم ، ورجف الوادي رجفة أجفل منها السهل والجبل ؛ إذ كانوا ينسابون فلا يربعون على شيء ، ويتدفقون فما تحجزهم لابة (١) ، ولا يعوقهم جُرُف ، وتسجد من دونهم حزون الأرض وآكامها

وانتظم خميسهم (٢) ؛ فبرز القلب تتبعه الميمنة ، تلقاءها الميسرة ؛ وهرول الجناحان فأخذا السبيل على جحافل الطرواديين

ونفخ في البوق فانقض الميرميدون على مؤخرة الأعداء الظافرين ، فبدلوا نشوة ظفرهم بأنكر من سكرة الموت ، وانطفأ في أبصارهم بريق النصر فكان أغطش من ظلام الهزيمة ؛ ونظروا فرأوا تلك الخوذة الذهبية التي طال عهدهم بها ، وحسبوا أنهم أصيبوا بنجوة منها : خوذة أخيل التي كانت تكفي وحدها لإلقاء الرعب في قلوب الطرواديين ، وقذف الوجل في نفس كل منازل أو مناجز

وتصايح بعضهم ببعض : « يا للهول يا صاح ! لقد أقبل أخيل ! النجاء النجاء ! أين كان الطاغية ؟ . . . . . . » ثم تنادوا يحذر بعضهم بعضاً : « أيها الطرواديون ! خذوا حذركم ! الفرار الفرار من الداهية الجبار ! لقد قطع الميرميدون رجعتنا ! دعوا الميلانيين وانشدوا خلاصكم ، إلى البوابة العظمى ! أيها المقاتلون ! لا تزحموا الجسر ! القهقرى القهقرى ! ... ... » إلى آخر هذا النداءات المزعجة الواجفة . . .

ولكن أين يهرب الطرواديون من بتروكليس ؟ !

لقد كان إكسانتوس وبليوس — الجوادان الكريمان — زوبعتين مُغْضَبَتين ، تثيران الرهج وتعقدان العجاجة ، في جميع أنحاء الميدان : في القلب ، في الميسرة ، في الميمنة ، في الجناح الأيسر ، في الجناح الأيمن . . . . . . بل . . . في السماء ! !

وكانت الشمس ، شمس طروادة الملتهبة ، تعكس أضواءها على خوذة أخيل ، فتذيب أفئدة الطرواديين !

واختلط نظام القوم ، وتدافعت جموعهم مذعورة مولية نحو الجسر الكبير ، الذي نصبوه فوق الخندق حول اليوم . ولم

(١) أرض لابة أي كثيرة الحجارة والنؤى

(٢) أطلق العرب الخميس على الجيش الكبير لأنه يتكون من خمس فرق : الميمنة والميسرة ، والجناحان ، والقلب — فهل كانوا يأخذون هذا النظام عن الإغريق ؟

يحتملهم ، فهوى بالألوف المؤلفة في جوف الخندق ؛ ولكن المؤخرة ، وكانت غالبية الجيش ، لم تنتبه لما حل بأكثر المقدمة وكذلك تدافعت لا تلوي على شيء ، فجاءت من جثث الموتى قنطرة تمبر فوقها إلى . . . طروادة ! !

وأخذ الميرميدون السبيل على كتائب كثيفة فأبادوها ، ثم جال بتروكلوس جولة هنا وجولة هناك ، يبحث عن أصحاب النداءات المنكرة التي كانت تملأ الساحة شماتة بالهيلانيين ، منذ لحظات ، فلقي منهم برنوس فصرعه ، ثم ثستور فجندله ، ثم أزيالوس فأرسله إلى الجحيم ، وعشرات غيرهم من بني طروادة النجب

وكانت أعز أمانيه أن يلقى هكتور ؛ فسعى إليه وضيق الحصار عليه ، وأرسل إليه طعنة لو أصابت جانب الجبل لصدعته ، ولكن ، يا لهكتور ! ! لقد ريع من هول ما رأى من مقاحمة بتروكلوس ، فألهب جياده الضاريات فمدت به وأنقذته من قتلة محققة وموت مبين

ولشد ما شده بتروكلوس إذ رأى إلى جانبه فتى هيلاس ، ومحاربها الصنديد أجاكس ، يقود فلول الهيلانيين ، ويقتحم بهم الحلبة كرة أخرى ! ؟ غير مبال بجروحه التي يتدفق من أفواهها الدم صبيا

وكم كان سرور الهيلانيين عظيما حين استيقظوا من سكرة هزيمتهم فرأوا جنود أخيل الأنجاد يذودون عنهم ، ويردون عادية الموت والقتل والغرق عن جموعهم ! ؟

ونشبت ملاحاة بين بتروكلوس قائد الميرميدون ، وساربيدون (١) البطل الطروادي الكبير ، أدت إلى مبارزة دامية ، وانتهت إلى فجيعة طروادة في أشجع فتيانها بعد هكتور ! إذ شكه بتروكلوس شكة جرعته غصة الردى ، وقربت إليه ورد الحمام ! ! . . . . . .

وانكشفت غمة الهيلانيين

ولكن الميرميدون هم الذين دفعوا ثمن هذا النصر ، ودفعوه غالياً وعزيزاً ! ! يا للهول !

لقد قُتِل بتروكلوس ! !

فمن لك بعده يا أخيل ! !

(لها بقية) دريني خشبة

(١) نأسف أشد الأسف لعدم اتساع هذه الفصول لإيراد ملاحاة ساربيدون وهي من أروع صور الإلياذة (الكتاب السادس عشر)

٣ ـ رحلة إلى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

وللقوم عادات عجيبة في الأفراح ، فاذا ما تم الاتفاق على المهر وقدره ستة ريالات (ومن هنا جاءت الأغنية القديمة : بستة ريال بابا جوزنى) تعهد به الزوج على أن يدفع عند حلول أحد الأجلين الموت أو الطلاق ، ثم يقدم قطعاً من القماش ، وفى ليلة الزفاف يدعى الأحباب إلى الطعام ، ويطوف عليهم خلال ذلك كشف بأسمائهم ، فيتبرع كل منهم بما تجود به نفسه ، وقد شهدت فرحاً اكتتب المدعوون فيه بأربعين جنيهاً ، وذلك الاكتتاب يعد ديناً عليه يؤديه كلما دعى فى أفراحهم ؛ وجل تكاليف الفرح تقع على عاتق أهل الزوجية ؛ وفى ليلة (الحنة) تمشط رأس العروس فى حفل كبير يحضره نساء من الفريقين وتلبس حلى ثقيلة من فضة ، تكاد تغطى جسمها كله ، والعجيب أنها مقترضة من الغير فلا يجوز لها أن تلبس حليها الخاصة إلا بعد الزفاف ، وتلك الحلى المقترضة ترد لأصحابها بعد الزفاف بأيام ؛ وفى ليلة الزفاف يقوم بين الفريقين شبه شجار ومشادة يشترك فيها نساء الفريقين ، طائفة تحاول أخذ العروس بالقوة ، والأخرى تحاول منعها ، وعند بزوغ الفجر تخطفها إحدى السيدات وتجرى بها الى بيت الزوج ، وبعد أن يدخل الزوج بها يظل الثلاثة الأيام الأولى نافراً من أهله وصحبه ، يخرج قبيل الشمس ويظل فى الحقول الى المساء لكيلا يراه أحد منهم ، وفى ذلك شىء من التأدب والاحتشام لا بد منه ! ثم يعد أهل العروس صحافاً من طعام (الرقاق) أو من العدس والحمص يسمونه (أطقاع) يحمل الى بيت الزوج ، ويحاول أهل الفريقين أن يتخاطفوه فى الطريق ، فان وصل الى الزوج سالماً أكله وإلا التهمه الناس فى الطريق تيمناً . وفى صباح اليوم الأول من الزفاف (الصباحية) يعد أهل الزوج (شجرة العرس) وهى من جمار (لباب) نخلة طيبة تخرط فى شكل أنيق وفى طول العروس ثم تزين بالأعلام وسائر أنواع الفاكهة ، وتعلق عليها الحلى الفضية التى كانت قد اقترضتها الفتاة ، ثم تحمل تلك الشجرة وسط حفل يكاد يحضره كل أهل البلدة ، ويطاف بها فى الطرق إلى أن تصل بيت العروس ، وهناك تقوم وسط البيت أياماً وكأنها عروس قامت تعوضهم عن فتاتهم ، وإذا ما قاربت اليبس قطعت وأكل منها المحبون ، وبخاصة الفتيات اللواتى يرغبن فى الزواج تيمناً وتبركاً ؛ وإذا ما رزق الزوجان مولوداً سارع المحبون بتقديم قطع من قماش أبيض إن كان المولود ذكراً أو قماش ملون إن كانت أنثى ، وقد تبلغ تلك القطع بضع مئات تسد حاجة الطفل من الملابس شطراً كبيراً من عمره . وإذا مات الزوج عكفت الأرملة فى معزل من الناس جميعاً لتقضى عدتها وقدرها ثلاثة أشهر وثلاثة أيام ، وفى صبيحة اليوم الأخير تخرج لزيارة قبر زوجها ، والويل لمن لاقاها فى طريقه إذ ينصب عليه نحسها ، لذلك ينبه الناس بعضهم بعضاً ألا يخرجوا فى الصباح لأن (الغولة) ستكون فى طريقها إلى المقابر ؛ وقد يطوف بالنبأ مناد ينبه الناس ، وبعد عودتها تقصد إحدى العيون (عين طموس) فتغتسل فيها ، فان اتفق أن لاقاها شخص أصابه نحسها كله ، وإلا استأجر أهلها فقيراً يلقاها ليرفع عنها وصمة النحس ، وبعد ذلك تسير حرة ولا ضير على من لاقاها أو تحدث إليها أو رغب فى زواجها . وعادة الندب ولطم الخدود شائعة لديهم ، ومقابرهم متجاورة ، إلا من اشتغل بالذبح (القصابون) ، أو بعصر الزيتون ، فهؤلاء يدفنون فى أماكن نائية ، فكأنهم من المنبوذين

ومن أشهى الأطعمة لديهم (لِمْصَقَّة) وهى مزيج من القرع والطماطم واللحم والزيت ، ثم (إنقطه) وهى فطير بالزيت والعجوة ، وكل غذائهم بالزيت ، ولا يكادون يعرفون (السمن) قط ؛ وأحب المشروبات عندهم (اللقبى) يتخذ من عصارة لباب النخيل ، وذلك بأن يكشف عن لباب النخلة ويجرح وتوضع تحتها آنية يتجمع فيها السائل ، وقد تدر النخلة منه صفيحة كبيرة (٤ جالون) فى اليوم الواحد ، وتظل تعطى النخلة هذا القدر زهاء نصف عام ، ثم تموت ، لذلك تراهم لا يأخذون من النخيل الجيد إلا القليل كل يوم لكيلا يؤثر ذلك على حال الشجرة فيضنيها . وطعم ذلك الشراب وهو طازج حلو لذيذ ،

لـكنه إذا ترك قليلا تخمر فأصبح مسكراً قوياً ، وهم يشربونه متخمراً ، وبعضهم يدمن تناوله

ويدهشني تقاعد الناس هناك عن استغلال موارد تلك الواحة الغنية ، فالأرض المزرعة محدودة جداً وهم لا يحاولون زيادتها رغم وفرة المياه وسهولة الرى فيها ، وحتى البساتين لا تلقى من عنايتهم إلا القليل رغم أن المنطقة جد صالحة لسائر أنواع الفاكهة والزيتون والحبوب ، وقد تمثل الفرق أمامى مجسماً بين الناس هنا وبين أهل (الواحات الخارجة) فهم هناك يستنبتون الحبوب وبخاصة الأرز والقمح والشعير بكثرة هائلة ، وينتجون غلتين فى الأرض الواحدة كل عام ، ويعنون بتسميدها ولا يفتأون يوسعون المساحة المزرعة يوماً بعد يوم وينقبون عن ينابيع جديدة ؛ أما أهل سيوة فمتواكلون قانعون حتى ملاك الأراضى يتركونها لطبقة العمال (الزجالين) ولا يكاد المالك يزور بستانه مرة كل أعوام . وعندى أن الحكومة لو أوفدت طائفة من (الصعايدة) وأقطعتهم مساحات فى مجاورة الينابيع فى سيوه لـكان لتلك الواحة شأن آخر فى الانتاج خصوصاً وأن الطرق المعبدة الجيدة تربطها بالسلوم وبمطروح والسيارات تقطعها فى أقل من عشر ساعات

قمنا نودع سيوه عائدين إلى مطروح ، ثم أقلتنا إحدى الطوافات وكانت أجمل البواخر وهى (الأميرة فوزية) إلى السلوم فقضينا يوماً كاملاً ونحن نسير إزاء السواحل المصرية الوطيئة . وفى باكورة الصباح دخلنا خليج السلوم الذى حاكى (الحويصلة) فى تقوسه ورسونا على شاطئه الرملى فأشرفت الجبال من ورائه فى طوق هائل أظهر لنا متعة الموقع من الناحية العسكرية ؛ وتلك الجبال هى حافة الهضبة الصحراوية الداخلية التى تؤدى إلى الحدود الطليانية وارتفاعها ١٩٠ متراً . وما كادت الباخرة ترسو حتى تهافت أهل البلدة عليها فى جموع لا حصر لها من سائر الطبقات ، وكانت تبدو عليهم علائم الفرج والسرور لأنها تحمل اليهم مؤونتهم من الطعام والخضر والفاكهة وحتى الماء لأن موارد ماء الشرب هناك معدومة تقريباً ، فالباخرة تملأ لهم مستودع الماء الذى منه توزع على الموظفين يومياً بمعدل (صفيحة واحدة) لـكل فرد ، وإن اعوزهم الماء بعد ذلك أتموا حاجتهم من المياه المكثفة من البحر وقد قامت الآلة المكثفة (كندنسر) على حافة الماء . على أن ماءها رغم نقاوته غير صحى لخلوه من المواد اللازمة للجسم التى لا يخلو منها ماء الشرب عادة

ويوم وصول الباخرة عندهم هو يوم (الملوخية) ، لأن الناس جميعاً يطبخونها لأنها أسرع الخضر تعرضاً لليبس والعطب ، ولقد خلقت الباخرة جو عمل وحركة غير عاديين وسط تلك الجهات الساكنة ، فقد تهافتت سيارات النقل والحمالون وبدأت العربات المعلقة الهوائيـة (Cable Cars) تشحن حاجات الجيش المعسكر فوق المرتفعات ، فترى العربات تجرى معلقة على الأسلاك إلى قمة الجبل ثم تعود فارغة ، وحتى زوارق صيد الاسفنج تبتاع ماء الشرب لها من الطوافة ؛ والمنطقة غنية جدا بالأسفنج الجيد وأصحاب امتياز صيده طائفة من اليونانيين يفدون من بلادهم فى موسم الصيد ومعهم زوارقهم ، وهم لا يفهمون من العربية شيئاً قط . أما أهل السلوم فمن فقراء الأعراب يعيشون عالة على الموظفين او خدماً لهم ، وترى خيامهم القليلة مبعثرة فى سفح الجبل ، وهم يحصلون على مائهم العذب بطريقة عجيبة بسيطة ، فهم يحفرون الرمل بجوار البحر الى عمق نصف متر فينز الماء ويملأ الحفرة ماء لا بأس بعذاقه ، وهم فى فقر مدقع وبؤس مبيد خصوصاً بعد أن اجدبت منابت الشعير إجداباً تاماً هذا العام . ولقد أثر ذلك فى حالتهم الصحية والخلقية تأثيراً سيئاً ؛ وتلك فئة جديرة بعطف ذوى البر ، وقد تبرعت لهم الحكومة ببعض الغلال ويا حبذا لو ضاعفت احسانها لحفظت طائفة من سكان مصر من أن يلقوا بأنفسهم الى أحضان الطليان فى حدود طرابلس مستسلمين كاسرى البال ؛ ونساء العرب هناك سافرات لهن جمالهن الخاص فى أرديتهن الحمراء ، وعند زواج إحداهن يجتمع الناس لتقدير المهر ويبدأ بنحو خمسين جنيهاً ، ثم لا يفتأ يتدخل شيخ منهم ويقول (وعشان خاطرى) فينزل المهر إلى أربعين . ثم إلى ثلاثين ، وهكذا حتى ينزل الى خمسة جنيهات . ويكاد الفرح يقتصر على حفلات الرقص ، ولهم حركات فى غاية الرشاقة والخفة ، وجل الرقص يوقع وفق تصفيق الجماهير ؛ ويغلب أن تكون الراقصة ويسمونها الحجالة من الأوانس اللاتى رغبن فى الزواج ، وهى ترقص وعلى وجهها قناع ، وليالى الفرح أربع ، وفى ليلة الزفاف تحمل العروس على جمل تحت هودج يسمونه (كرمود) ؛ ويمسك بالخطام الفتيات البكر تفاؤلاً ويقتدنها إلى بيت الزوج . ومن عاداتهم أن الفتاة إن طلبها أحد ذوى قرباها فضل على غيره حتى

ولو لم يكن كفؤاً لها ، وإن حصل ما يخالف ذلك فرضت على المتعدى الدية التي يختلف قدرها باختلاف مكانة الفتاة .

حدث مرة أن أجمل فتاة في قبيلة العابدة هناك طلبها كل فتيان قبيلتها فرفضت لأنها كانت تحب فتى من قبيلة أخرى ، وذات ليلة دبر ذلك الفتى أمر اختطافها ، فكانت الدية ألف جنيه . والعجيب أن سائر رجال القبيلة لابد أن يتعاونوا على جمع تلك الدية ودفعها وإلا لحقهم العار ولزمهم الحق جميعاً ، وأنت إذا مررت على (خيشة) من خيامهم وحييتهم وجب أن تعرج لتشرب الشاى ، ولابد من تقديمه ثلاث مرات : الأولى شايها ثقيل أسود مر لا يوضع به سكر قط ، والثانية أخف منه وأحلى ، والثالثة يقدم شايها وكأنه العسل وعليه النعناع ، ويدور السقى إلى اليمين مهما كان من أمر الجالسين ، وهم يدمنون الشاى إدماناً أثر على صحتهم ولو أنه أفاد من ناحية التطهير ضد بعض الأمراض . وإذا اعتدى أحدهم على غيره وأصابه بسوء أرسل المصاب إلى (التطّار) ، وهو يقابل الطبيب الشرعى عندنا لتقدير الدية ، وقوله نافذ على الجميع ، وتلك الدية تسمى (كبارة) ، والقاتل لا يقتل في عرفهم متى دفع الدية التي يقضى بها المحكمون ، وهى حوالى مائتى جنيه في البادية ، ويتعاون كل أغنياء القبيلة على دفعها

طفنا ببلدة السلوم فإذا بها قرية شبيهة بمطروح في نظام بيوتها البيضاء الوطيئة ، على أنها تفوقها وحشة ، إذ يشعر الواحد فيها بأنه في معزل عن العالم . تسلقنا المرتفعات في طرق لبانها من الأعاجيب ، وكلما علونا بدا مشهد خليج السلوم رائعاً بديعاً ، وفوق الهضبة زرنا المعسكر وتوابعه في أبنية بالحجارة فاخرة الإنشاء ، لم أكد أصدق أنها أقيمت لجنودنا المصريين ، وهنا تعسكر أورطة مصرية بكامل رجالها ومعداتها ، وتشرف على الخليج إلى جانب المعسكر طابية قديمة أسسها عصمت التركى سنة ١٣٢٢ ، وعليها الطغراء العثمانية ، ويشغل القسم الأكبر منها اليوم السجن .

ولقد أخذنا نشق تلك الصحارى المجاورة ، ومررنا ببعض الآبار الرومانية القديمة ، ومن أكبرها بئر وعرة نزلناها فإذا بها تجويف في الصخر الهائل ، له شعاب ممدودة تحت الأرض فإذا ما أمطرت السماء سال الماء إليها خلال فتحات ضيقة وترشحت أوساخه مع الرمال الراسبة واستقى منها الناس . ثم سرنا حتى وصلنا الحدود الطليانية ، وهم يمدون على طولها أسلاكاً شائكة . وزرنا طابية



الأسلاك الشائكة على الحدود بين السلوم وطرابلس

(مساعد) التي كانت لهم وتنازلوا عنها لمصر عند تحديد التخوم بعد أن أخذوا هم جغبوب وما جاورها ، وتركوا لنا تلك الطابية ومسافة قدرها زهاء عشرة كيلو مترات حول السلوم . وعجبت جداً لما لم أجد من الاستعداد لدفع طوارئ الهجوم على تلك الناحية المكشوفة من حدودنا ، فعدد الجنود غير كاف ولم يزودوا من الأسلحة بشىء يدفع عنهم أذى ، وحتى مفتش الدفعية رأيته يضرب خيامه أسفل الخليج بعيداً عن المرتفعات ، لذلك يوجس الناس هناك خيفة هجوم العدو بين يوم وآخر . فهلا اهتمت وزارة حربيتنا بأمر تحصين ذلك الركن الهام من حدودنا فأمنتنا أخطاراً جسيمة وألقت شيئاً من مسئولية الدفاع عنا على عواتق أبنائنا المخلصين

قمت من السلوم عائداً إلى الاسكندرية في الطوافة ، وكان أجرها زهيداً جداً ، إذ للموظفين جميعاً أن يدفعوا ربع الأجر فقط ، والأجر الكامل للذهاب والإياب خمسة جنيهات في الدرجة الأولى ، وبتنا فيها ليلتين ، ثم دخلنا الاسكندرية في باكورة الصباح

محمد ثابت

البريد الأدبي

مشاكل الشرق الأقصى — كتاب طريف عنها

فى العهد الأخير لفتت مسائل الشرق الأقصى أنظار العالم ؛ وأثار توغل اليابان فى الصين فى بعض الدول التى تهتم بمجرى الحوادث فى الشرق الأقصى شكوكاً ومخاوف جديدة ، وأبدت اليابان رغبتها جلية واضحة فى الاستئثار ببسط نفوذها على الصين ومقاومة النفوذ الأوربى ، وما تزال مشكلة الشرق الأقصى جاثمة فى الأفق تثير اهتمام السياسة الأمريكية ، والسياسة الروسية ، والسياسة البريطانية ؛ وقد صدر فى أمريكا أخيراً كتاب عنوانه « سحب الحرب فى آفاق الشرق الأقصى » . بقلم المحامى توم إيرلاند ، تناول فيه المؤلف مسائل الشرق الأقصى بإفاضة ، وذهب فيه إلى رأى جديد لا يبدو أنه متفق مع اتجاه السياسة الأمريكية الحاضرة . وخلاصة هذا الرأى هو أن أمريكا يجب أن تنفض يدها من التدخل فى مسائل الشرق الأقصى ، وأن تترك الصين لمصيرها ؛ ويستند المؤلف فى عرض رأيه إلى ما يأتى :

(١) أن التجارة الأمريكية فى الشرق الأقصى لاتبرر هذا التدخل من حيث أهميتها

(٢) أن أمريكا مضطرة إلى إنشاء أسطول ضخم تكون نسبته للأسطول اليابانى كنسبة ٥ إلى ٣ ، إذا أرادت أن تتدخل لمقاومة اليابان تدخلاً فعلياً ، وهذا يكلفها نفقات باهظة

(٣) وحتى لو سلمنا بأن فى استطاعة أمريكا أن تنشئ مثل هذا الأسطول فإنه لا يفيدها كثيراً ، بعد أن فرطت فى جزائر الفيليبين ، وأصبح من المتعذر أن تتخذ منها قاعدة بحرية للعمل فى المحيط الهادى

(٤) أن اليابان سائرة فى طريق التوسع ، ومن حسن الحظ أنها وجدت فى منشوريا (منشوكيو) مجالاً لنشاطها ، وفى ذلك ما يدفع تيار الخطر الأصفر عن أمريكا

وقد أريد بهذا الكتاب أن يصدر قبيل انعقاد المؤتمر البحرى إذ ينتظر أن تطالب اليابان فيه بزيادة نسبة أسطولها نظراً لما تتطلبه حماية أملاكها الجديدة ، ولأن أمريكا مازالت تطالب فى الصين بسياسة الباب المفتوح ، وهى سياسة عتيقة أضحت لاتبررها الظروف

ويقرن المؤلف عرضه بإحصاءات ووثائق اقتصادية كثيرة عن نشاط مختلف الدول ذات المصالح فى الشرق الأقصى ، وإحصاءات عن نفقات الحرب ، وعن القوى البحرية ، وسير المهاجرة ، وسير المواليد ، ويثبت فيه كل المعاهدات التجارية ؛ ويتحدث طويلاً عن سياسة روسيا ونشاطها . والكتاب بموضوعه وتدليله يعتبر وثيقة هامة فى التاريخ السياسى والاقتصادى المعاصر

محنة الصحافة الألمانية فى ظل الإرهاب الهتلرى

من أنباء برلين الأخيرة أن جريدة « كرويتس تسيتونج » الشهيرة Kreuz Zeitung (جريدة الصليب) قد احتجبت واختتمت حياتها الصحفية الحافلة . وقد كانت « الكرويتس تسيتونج » من أعظم الصحف الألمانية وأقدمها ، وأعرقها فى الهيبة السياسية ؛ وقد أنشئت سنة ١٨٤٨ لتكون لساناً للحزب المحافظ الذى أنشأه البرنس بسمارك عميد السياسة الألمانية فى القرن التاسع عشر ؛ وكان شعارها منذ نشأتها العبارة الشهيرة الآتية : « إلى الأمام مع الله ، فى سبيل الملك والوطن . نحن الألمان نخاف الله ، ولا نخاف شيئاً آخر فى العالم » ؛ وكان هذا الشعار ما يزال يطبع فى صدر الصحيفة حتى أيامها الأخيرة أعنى حتى ٣١ أكتوبر المنصرم وهو آخر أيام حياتها ؛ وكانت عند نشأتها تسمى « نوية پروبسشه تسيتونج » أو الجريدة البروسية الجديدة ؛ وقد اختطت لها منذ نشأتها نزعة بروسية محافظة تعبر عن آمال العسكرية والارستقراطية وكبار الملاك ؛ وتظهر صباحاً ومساء فى حجم كبير وتفوق فى الانتشار معظم جرائد برلين الكبرى مثل التاجبلات وجرمانيا ، والدويتشه الجمينة وغيرها ؛ وكانت ما تزال حتى العهد الأخير تتمتع بمركز حسن وذيوع لا بأس به ؛ ولكنها كانت تعانى منذ قيام الحكم الهتلرى صعاباً جمة فى التعبير عن آرائها ؛ وكانت من الجرائد القليلة التى لم تقبل أن تخضع لأغلال النازى ونظرياتهم ؛ وقد كان مصيرها الاغلاق والمصادرة منذ بعيد لو لم تكن تتمتع بتأييد نفوذ بعض

الهيئات العسكرية والمحافظة القوية؛ ولو لم تكن تعتبر أثراً من آثار منشئها بسمارك. بيد أنها رأت أخيراً أنها لا تستطيع المضي في رسالتها تحت تأثير الضغط والوعيد الذي يفرض على الصحافة الألمانية في العهد الجديد، ولهذا آثرت الاحتجاب من تلقاء نفسها. وهكذا تختفي الصحف الألمانية الكبرى واحدة بعد الأخرى وتنحط الصحافة الألمانية تباعاً الى عداد صحف الدعاية الحزبية. وباختفاء «كرويتس تسيتونج» ينهد ركن متين من أركان الصحافة الألمانية العريقة، وتسجل ضحية صحفية جديدة لحكم الارهاب السائد في ألمانيا

مدينة للسينما في انكلترا

كانت الأفلام الأمريكية قد اكتسحت بلدان العالم، وكادت الصناعة السينمائية تصبح وقفاً على أمريكا وعلى هوليوود مدينة الكواكب الشهيرة؛ ولكن كثيراً من الأمم تنبهت الى هذا الخطر الذي يهدد صناعتها وثقافتها المحلية، فنهضت تنشيء لها صناعة سينمائية خاصة، وكانت بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا وايطاليا في مقدمة هذه الدول، فشجعت صناعة الأفلام القومية، ووضعت قيوداً مختلفة على عرض الأفلام الأجنبية. وقد قرأنا في البريد الأخير أن انكلترا قد بدأت بانشاء مدينة خاصة للصناعة السينمائية على نمط مدينة هوليوود الأمريكية. وموقع هذه الضاحية الفنية في دنهام من مقاطعة بوكنهامشير حيث تكثر المناظر الطبيعية البديعة؛ ومساحتها مائة وخمسة وستون فداناً من الأرض؛ وتبني فيها الآن أبهاء التصوير (ستوديو) باشراف المهندس والرسام جاك أوكى، وستكون أعظم أبهاء من نوعها في القارة الأوربية، وهي ثمانية سيكلف صنعها ٤٠٠ ألف من الجنيهات، وسيكون في كل منها مسرح مجهز بالألوان لا يضارعه أي مسرح في أمريكا، وسيجهز بمولد كهربائي يكفي لانارة مدينة كبيرة.

وينتظر أن ينفق نحو مليوني جنيه سنوياً على صناعة الأفلام في دنهام، وأن تخرج كل عام ٢٤ فلماً من الأفلام العظيمة، وستشترك في العمل فيها شركتان أمريكيتان كبيرتان الى جانب شركات لندن الكبرى، وينتظر أيضاً أن يهرع اليها عدد كبير من نجوم هوليوود

ولم ينته الى اليوم من المدينة السينمائية العظيمة سوى الهياكل الحديدية، ولكن المنظور أن تنتهي بعد بضعة أشهر؛ وتحتوي الأرض المختارة على غابات وأشجار ورياض وأنهار وشواطيء بديعة؛ وستنشأ بها مكاتب ومطاعم وفنادق وكل ما يجب لتوفير الوقت والرفاهة لساكنيها من نجوم وغيرهم

مجمع اللغة العربية الملكي

تقرر أن يبدأ مجمع اللغة العربية الملكي دورته القادمة في يوم الأربعاء ٢٠ من شهر شوال سنة ١٣٥٤ الوافق ليوم ١٥ من يناير سنة ١٩٣٦، وقد أرسلت سكرتارية المجمع رقاع الدعوة الى الأعضاء في مصر وفي الخارج. وقد استأنفت لجانه أعمالها بعد فترة الصيف؛ وقد انعقدت مساء يوم الجمعة الماضي بدار المجمع لجان الآداب والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية؛ وستوالي جميع اللجان اجتماعاتها لتعد ما سيجرى البحث فيه في الدورة المقبلة، وقد استدعت اللجان بعض الخبراء الفنيين للاستعانة بهم في دراسة المصطلحات العلمية. هذا وستعجل إدارة المجمع باصدار الجزء الثاني من مجلته تمهيداً لاصدار الجزء الثالث منها، بحيث يكون الجزءان بين أيدي الأعضاء في مفتتح الدورة المقبلة

ذكريات عن أكابر الكتاب

ظهر في لندن أخيراً كتاب طريف عنوانه: «الصلات» Contacts بقلم المستر كورتس براون. ومستر براون ليس كاتباً بمهنته، ولكنه من أكبر «وكلاء الأدب» في انكلترا، وله صلات وثيقة بمعظم الكتاب الانكليز؛ وقد تعاقد مع كثيرين منهم على حقوق كتبه. ويعرف مستر براون جيل الكتاب المنصرم معرفة وثيقة، ويعرف الكثير عن أحوالهم وعاداتهم ومشاربهم، وأساليبهم في التفكير والكتابة؛ وقد وضع كتابه المشار إليه متضمناً ما يعرفه عن كثيرين من أقطاب الكتابة في أواخر القرن الماضي مثل توماس هاردي، وهول كين، وجورج مور، والسير كونان دويل، ولورانس وغيرهم. وكتب أيضاً عن بعض الكتاب الهواة مثل مستر لويد جورج واللادي اسكويث وغيرهما. ونستطيع أن نستخلص من قراءة هذا الكتاب حقيقة مدهشة هي أنه وإن كان هؤلاء الكتاب يشتغلون دائماً بعالم التفكير والخيال، فان بينهم رجالاً يحسنون فهم الأعمال التجارية والمالية، ويحرصون على مصالحهم المادية حرصاً عجيباً. بيد أن الكاتب يروي لنا أيضاً أن بعض هؤلاء الكتاب كان يفرط في حقوقه المادية تفريطاً مدهشاً، ويضرب لنا مثلاً بتوماس هاردي، ويقول لنا إنه لم يتقاض عن حق تأليف روايته الشهيرة: «تحت شجرة الغابة الخضراء» سوى ثلاثين جنيها!



١ – البحاثة اللغوية

عن قاعة البحث اللغوي بدار العلوم

٢ – القبس للانشاء العربي

تأليف: محمد رزق الدهشان / عبد الغني الصاوي – المدرسين بالمدارس الثانوية

للأستاذ محمد سعيد العريان

١ – البحاثة اللغوية

في دار العلوم اليوم نهضة موفقة ، يساهم فيها الشباب والشيوخ من أبناء هذه الدار التي قامت على العربية ستين عاماً ، فأحسنت القوامة ، ورعت الأمانة ، وأدت حق العلم وحق اللغة أو في أداء ، وأرت تأثيرها المبارك فيما ينتج الشعراء والكتاب من أدباء هذا الجيل ؛ وهي نهضة حكيمة ، بادية النشاط ، بادية الأناة ، تسير على سننها في رفق وقوة ، وتمضي إلى غايتها في حماسة ووقار ؛ فمن ثم لا تحاول أن تنسلخ جملة من ماضي التاريخ ، وهي تأبى كذلك أن تصم أذنيها عن دعوة الزمن إلى الابتكار والتجديد

وهـذا أمر جديد ، هو مجلى من مجالي نشاطها الدائب ؛ تحاول به أن تثبت للجاقدين من خصومها ، والماقتين من بنيها ، أن عندها هي وحدها تلتمس الأسباب لحياة هذه اللغة حياة تكون بها بين اللغات ما كانت بينها في تاريخها المجيد

ولقد أنشئت في دار العلوم منذ أكثر من عام « قاعة البحث اللغوي » لتكون ميـداناً حراً لكل ذي فـكر جديد ، يتناول شأناً من شؤون اللغة . والعلم اليوم عرض وبحث ومذاكرة ، لا تلقن وحفظ واستذكار ؛ من أجل ذلك أنشئت هذه القاعة في دار العلوم ، غير مسبوقة بمثال لها تتخذه قدوة وتسير على نهجه ؛ على أنها قد أجدت فأجدت ، واخترعت ففرعت ؛ وهذا كتابها الثاني « البحاثة اللغوية » يدل على جهد مشكور ، وعمل له ما وراءه

وهو نهج جديد في فقه اللغة . وفقه اللغـة عند القدماء أبواب موضوعة ، تضم من أشتات اللغة كل معنى إلى ما يشاكله ، وكل تعبير إلى ما يضاهيه ، وكل لفظ إلى ما يرادفه ؛ فهو عندهم معجم رتب اللغة على أبواب المعاني لا على أبواب الحروف ؛ وإذ كانت اللغات تتطور ، وحاجات العصر تطلب حقها من كل لغة ، وأن تتصرف اسمها على كل لسان — كان هم فقهاء اللغة من هذا الجيل أن يحاولوا الربط بين ألفاظ اللغة وحاجات العصر ، وأن يكشفوا عن أوجه المشاكلة بين كل اسم ومسماه وما يتصل به ، في أبواب يضمونها ، وترتيب يخترعونه ، إلا أنه لا يخرج في جملته ومعناه عن طريقة القدامى في الوضع والترتيب

ولـكن فقه اللغة شيء غير الـكلمات الجديدة ، وغير الجمع والترتيب والتبويب ، وغير النحت والاشتقاق والترجمة ؛ وإن يكن أولئك هو كل ما نطلبه من فقه اللغـة لنساير بها حاجات العصر ؛ إنما فقه اللغة أن تحاول الـكشف عن أسرار اللغـة ، وتفهم طبيعتها ، وفقه ألفاظها على حقيقتها وفي معناها الذي عناه الواضـع الأول ؛ ثم البحث في نشأة الـكلمات ، وتاريخها ، واشتقاقها ، وتطورها ، وما استعملت فيه ودلت عليه من المعاني في مختلف العصور ، وما صارت اليه وعرفت به في لغة الأحياء ؛ ثم ما يهدي اليه هذا البحث مما تزيد به ثروة اللغة ، ويصح به أسلوب الـكلام

وهذا هو ما رآه الأسـتاذ « محمد عبد الجواد » أستاذ فقه اللغة بدار العلوم ، فدعا طلابه إليه ، فهيأ لهم قاعة البحث اللغوي ، فـكان من عملهم هذه البحاثة اللغوية

وهو كتاب دوري ، سبقته البحاثة الأولى إلى القاهور باسم : أنابيش لغوية

وهذه البحاثة كما يدل عليها اسمها والغرض منها هي خلاصة البحث اللغوي لطلاب دار العلوم في السنة الدراسية الماضية بتوجيه أستاذهم ؛ ويبلغ الـكتاب ثلثمائة صفحة ، ثلثاها مما اختير من بحوث الطلاب أنفسهم في « رياضة لغوية في قراءة القاموس المحيط » ؛ وقد نهج بهم أستاذهم منهجاً حسناً ، هو يصفه في مقدمته لهذا الباب :

« ... ورأينا أن توزع عليهم أوراق من القاموس المحيط للبحث فيها ، واستخراج كنوزها ودقائقها ، كي نوجه النظر إلى استعمالها ، والانتفاع بها في حركة التجديد اللغوي ... وقد طلب إليهم قراءتها بإمعان وتدبر ، ووضع خط بالقلم الرصاصي تحت ما يصح أن يوضع للمسمى لم يعرف له اسم عربي ، أو كلمات يتوهم أنها عامية وهي عربية ، أو ما خرج به التحريف أو التصحيف عن عربيته الخ ، أو أية لفظة يرى أنها جديرة بالنشر . وإذا كان لأحدهم مقترح ، أو أراد التوسع في بحثه ، شفع ما قرأ من الأوراق بتوضيح كتابي ... »

ولقد كانت رياضة لغوية مثمرة ، تدل على جدوى هذا النهج الجديد في دراسة فقه اللغة ؛ وإننا لنرى فيها جهد الطلاب ظاهراً قوياً ، وقد وفق الكثير منهم توفيقاً يدعو إلى الاعجاب والرضى ويبعث على كثير من الاطمئنان والأمل ؛ على أنه من التواضع أن يسمى كل هذا الجهد (محاولة) ؛ فما أغلو إذا ادعيت أنه قد أضاف إلى العربية ثروة جديدة ، وكشف عن دفائن تزيدها قوة وغنى

على أن في الكتاب غير ذلك بحوثاً طريفة ، وأبواباً قيمة ، وطرائف من اللغة تروق الأدباء والمتأدبين . وإذا كان لنا أن نأخذ شيئاً على الكتاب ، فذلك أنه كان في حاجة إلى العناية بترتيبه وتقسيم فصوله خيراً مما رتب وقسم ، ليتأتى للمستفيد أن يقع منه على ما يريد من غير عناء ، ولكننا نحب أن نعتذر عنهم من ذلك ، بأنهم أرادوه ليكون أشبه بسجل يصور جهودهم ، أكثر مما أرادوه كتاباً يتناوله القراء للبحث والانتفاع ، وإن كان هو عندنا لأكثر من ذلك

٢ — القبس للإنشاء العربي

وهذا كتاب آخر للانشاء العربي ، متين العبارة ، قوي الأسلوب ، جميل التقسيم ، أنشأه مؤلفاه الفاضلان ليستعين به التلاميذ في دروس الانشاء العربي ، فجاء وافياً بما يريدان من قوة السبك ، وحسن الأداء ، ودقة التقسيم

ولكننا نعود فنسأل عن مدى استفادة التلاميذ مما يسمونه « كتب الإنشاء » ؟

ليس من شك في أن تعلم اللغة تلقين ومحاكاة ، يهيئان التلميذ من بعد للخلق والابتكار ، ولكن وسائل التلقين ليست هي هذه الكتب التي توضع بين أيدي التلاميذ لغرض واحد ، هو أن يقرءوها فيحاكوها ، أو يتبشوها فيقتبسوا منها ، والتي لا ينظرون فيها إلا على نية الأخذ عنها ، والاستعانة بها على تجويد العبارة وصقل الكلام ؛ إنما ينبغي أن يلقن التلميذ من حيث لا نشعره أنه يلقن ؛ بأن نحمله على القراءة في كتب شتى ، وتبعث فيه الشوق إلى المطالعة والنظر في كل كتاب ، ونعوده حسن الاستماع لجيد الكلام ؛ فما يقبل التلميذ على مثل كتب الانشاء هذه بقلبه وعقله ، بل بمحافظته ؛ فمن ثم لا تراه ينظر فيها إلا ليسرق أو يقلد ، فيؤول ذلك إلى أن تكون كتابته أشبه بطبيع الرواسم (الاكليشيهات) : عبارات محفوظة ، وربط سقيم ، وفكر بليد ؛ ثم هي تجعل التلميذ لا يحاول أن يطالع أو أن يقرأ ، إلا إذا طلب إليه أن يكتب أو أن ينشيء ، للدرس ، أو للامتحان ؛ لأنه لم يتعود أن يقرأ ليلذ نفسه ويرضى عاطفته ، بل ليستعين على أداء تكليف ثقيل ... !

وهذه الكتب الكثيرة للانشاء ، أثر من إيحاء مناهج الدراسة ونظم التعليم في بلادنا ؛ هذه النظم التي تقيس العلم بعدد الناجحين ونسبة النجاح ، ومن ثم كانت أكثر محاولات المدرسين في مدارسنا للوصول إلى هذه الغاية ؛ أما تربية الملكات ، وصقل العقل ، وإرهاف الحس ، فذلك شيء قلما ترى من يحاوله منهم ، ولعل لهم عذراً كبيراً من ذلك ... !

ولقد يكون من الخير الكثير لو أن المؤلفين الذين يحاولون تأليف الكتب للانشاء اتجهوا في ذلك اتجاهاً آخر ، فوضعوا همهم وجهدهم في تأليف كتب أخرى مما يروق التلاميذ صغاراً وكباراً ، ويشوقهم إلى قراءته غير نحو ابن عليه ، مثل : القصص والرحلات المشوقة ، وغيرها ، ثم ليجعلوا في ثناياه ذلك ما يريدون أن يضيفوه إلى ثروة التلاميذ اللغوية والعلمية . فلعلهم إن فعلوا ذلك يكونون قد أضافوا إلى اللغة ثروة جديدة من أدب الأطفال ، وعودوا الأطفال أن يقرءوا التماساً للذة العقلية ومتاع الروح ، بدل أن يقرءوا رغبة في النجاح وحسب

وما نعني بهذه الكلمة — هذا الكتاب الجديد وحده ، فلعله من خير ما ألف في موضوعه ، وإنما هو رأي نحب أن يسمعه كل القائمين على تعليم الانشاء في المدارس المصرية ما ؟

محمد سعيد العريان

في يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ الساعة ٨ صباحاً بطنطا شارع ابن الفارض نمرة ٦ بكفرة أبو النجا سيباع منقولات منزلية و ٣ كيلات قمح هندى ملك ميخائيل افندى ابراهيم بالجهة نفاذاً للحكم نمرة ١٩١٥ سنة ١٩٣٥ وفاء للمبلغ قرش صاغ كطلب جورجى بطرس التاجر بطنطا فعلى راغب الشراء الحضور

3 me Année, No. 123.

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	في مصر والسودان
٨٠	في الأقطار العربية
١٠٠	في سائر الممالك الأخرى
١٢٠	في العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الإدارة



ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi 11-11-1935

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٢٣ « القاهرة في يوم الاثنين ١٤ شعبان سنة ١٣٥٤ — ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

في الجمـــال . . .

— ٢ —

لعل جمال المرأة أبرع مثل للجمال الطبيعي لو تدبرته ؛ وسر الاعجاب فيه هو سر الإعجاب في جمال الرجل : أعني الذكاء ؛ والذكاء كما قلت من قبل إبداع الوسائل الملائمة للغاية ، ثم تطبيق هذه الوسائل على غايتها في نظام دقيق محكم ؛ فأنت لا تستطيع أن تفقه جمال المرأة إلا إذا وقفت على حكمة الله فيها ، وغرض الطبيعة منها ، وأدركت ما بين طبيعة خلقها وعلة وجودها من المواءمة التي تسترق الأفئدة وتدق على أفهام البشر

فالعلة الثانية لخلق المرأة هي أن تكون زوجة وأماً ، وسبيلها أن تروق الرجل وتدمث خلقه وترقق طبعه ليسكن إليها ويُسبل عليها بالمونة والنجدة ؛ وسكون الزوج إلى زوجه تدبير إلهي يقوم عليه بناء المجتمع وبقاء النوع ، لأن المرأة وهي زوج تحمل أو أم ترضع ، لا تملك لنفسها ولأولادها غذاء ولا حماية ؛ فما دام الولد في حاجة إلى أمه ، فالأم في حاجة إلى أبيه . ولكن غريزة الاستقرار والاستمرار في الرجل ضعيفة ؛ فلا بد لهذا الوحشي

الشريد من صلة أخرى غير صلة الدم تحبسه على زوجه وتعطفه على بنيه؛ والحب وحده هو الذي مكّن الطبيعة من هذه البُغية؛ فبفعل الجاذبية سكن النافر، وبسحر الجمال ثبت المَرُوق. وللحب خصيصتان قويتان: الرغبة والحشمة؛ ومن ذلك كان جمال المرأة داعي الرغبة خافض الجناح حيي الطبع؛ والرجل مزهوّ على المرأة يُدل بحيازته لها، ويتعزز بقيامه عليها؛ فهو يريدها «ريحانة لا قهرمانة»، وحبيبة لا جليبة[1]، لها سلطان ولكنه رفيق، وفيها إباء ولكنه رقيق.

ومن ذلك كان جمالها مزيجاً من الوداعة والعزة، وخليطاً من الضعف والدلال، وطباقاً من الهيبة والنبل.

......

وجمال المرأة يحتفظ بدوامه وسحره ما دامت له روح من العاطفة تشع في نظراتها، وتنسم في بسماتها، وتشيع في قسماتها، وتنثر أضواءها السحرية على أعصاب الرجل – وهو بطبعه ولوع – فيتمتع بنعمة اختياره ولذة إيثاره، ويجد في الضعف الذي يستسلم ويستكين، الحب الذي يطول ويحكم.

......

إن شبهة الخداع والتصنع تمحق كل شيء: لذلك كان في تخايل الطيبة والنزاهة، وفي سمات الطارف الغرير يتراءى وهو يختفي، وفي أسرار الهوى المكتوم تفضحه البسمة الخئون من شفة مطبقة، وتعلنه الومضة الخاطفة من نظرة خبية، وفي ذلك الملامح المعبرة في الوجوه والعيون تقول وهي تنصت، وتريد وهي ترفض: كان في كل أولئك بلاغة الجمال؛ فإذا أصيب الحب بالفتور ابتُلي الجمال بالخرس.

......

وسلطان المرأة القوي على قلب الرجل إنما يأتيها من ذلك الذكاء المستتر ترعاه منه وفيه على غير علمه؛ فكان من مزايا جمالها أيضاً أن تلوح هذه البصيرة الدقيقة على أسرّة وجهها، وتشرق على الأخص في تلك النظرة الوديعة التي تتغلغل في طوايا القلب فتنسخ ظلال الفتور، وتبدد ظلام الكآبة، وتشمل خمود الحب......

......

ومن خصائص جمال المرأة الاحتفاظ بالقلب الذي تصبّاه وسباه؛ ووسيلته أن يطرد السأم عنه، ويجدد الشوق فيه، فيمير العادة المملة ألوان الجدة، ويقبس الحياة الرتيبة حرارة التنوع؛ وذلك هو السر العجيب الذي وضعه الله في الجمال النسوي، فيتكرر ولا يُمل، ويستعلن ولا يُفهم، ويتجدد ولا يتناهى، ويتنوع ولا يختلف، ويتولد ولا يبيد!!

* * *

إن في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس؛ وإن في تجميع النهر، وتكوين الجبل، وتصريف الريح، وإثارة البحر – جلالاً رائعاً يجري في كل شعور، ويستولي على كل قلب، لأنه يعلن القوة الخارقة؛ والقوة أروع خصائص الجمال وأشدها أخذاً بمدارك الحس؛ كذلك تجد في صغار الأشياء مفاتن للجمال الطبيعي تهز النفس وتصبي الشاعر؛ فورقة الزهرة، وجناح الفراشة، يبعثان في قلبك من الإعجاب ما يبعثه الطود المتوج بالثلج، والمحيط الملفف بالعاصفة؛ ولكن خصيصة الجمال في الزهرة والفراشة هي فرة الألوان، ونصاعة الأصباغ، وتعدد الصور؛ وخصيصة الفرة أضعف من خصيصة القوة لتأثرها بالذوق، وخمودها بالألف والعادة.

ولعل خصيصة الذكاء أخفى الخصائص الجمالية جميعاً، لأن مرجعها إلى التأمل والفهم، وهذان لا يتيسران في كل وقت، ولا لكل شخص؛ فالبركان والأعصار يروعان القلب بالقوة المجردة، ولكن الجمال إذا قام على خصيصة الذكاء وحده، وهي الترتيب والمواءمة والانتظام، خبا أثره في الناس إلا إذا كان محسوساً شديد الغرابة! أليس الواقع أن براعة القدرة وسر الابداع سواء في المظابة والأسد، وفي القصبة والدوحة؟ ولكنك تعجب بالأسد والدوحة، ولا تكاد تأبه للمظابة والقصبة، لأن سلطان القوة غالب، وسحر العظمة عجيب.

فاجتماع الخصائص الثلاث إذن ضروري لحصول الجمال الصحيح في مشاهد الطبيعة وروائع الوجود

(للبحث بقية) **احمد حسن الزيات**

(1) القهرمانة: الخادم، والجليبة: الجارية المجلوبة

اللون الأصفر

للأستاذ احمد أمين

لفت نظري — وأنا أدرس الحياة الاجتماعية في العصر العباسي — ما رأيت من كثرة ما كتب عن اللون الأصفر في هذا العصر، وحلوله محلاً كبيراً غطى على كل الألوان الأخرى، وكثرة ما قيل فيه من أدب، فرأيت أن أعرض على قراء «الرسالة» شيئاً منه وأترك لعلماء الجمال ما يدل عليه انتشار اللون الأصفر في الشعوب من تحديد درجة الذوق في الرقي، وعلاقته بانتشار التهتك والخلاعة، ودلالته على مقدار ما وصلت إليه الأمة من حضارة

***

رأيت العراقيين هاموا باللون الأصفر وتغزلوا بالوجوه الصفر، وصبغوا ثيابهم بالصفرة، وافتتنوا بالزهور الصفر، وأكثروا من اتخاذ الطعوم الصفر، ومدحوا الجواهر الصفر، وهكذا

روى الجاحظ من الأمثلة المشهورة قولهم: «أهلك النساء الأصفران: الذهب والزعفران»، وهذا يدل على غرام النساء باللون الأصفر، وظهور هذا الغرام بحبهن للذهب والزعفران؛ أما حبهن للذهب فللونه ولأنه خير أنواع المال. وقد ظُلم النساء برميهن وحدهن بحب الذهب، فمن من الرجال كذلك لم يذله الذهب ويسترقه المال ويستعبده الدينار؟ ومن منهم لم يقس أخلاقية العمل بمقياس الذهب؟... لقد كان الحريري أصدق قولاً إذ يقول:

أكرم به أصفرَ راقت صفرته … جوّابَ آفاقٍ ترامت سفرته
مأثورةٍ سمعته وشهرته … قد أودعت سر الغنى أسرّته
وقارنت نجحَ المساعي خطرته … وحُببت إلى الأنام غرّته

....

لولا التقى لقلت جلت قدرته

وأما الزعفران (وهو نبت له أصل كالبصل وزهر أصفر إلى حمرة) فقد كان له سلطان في بغداد أي سلطان حتى لو سميت بغداد في ذلك العصر مدينة الزعفران لم تبعد؛ وقد جعلوا له قوة سحرية فقالوا: «إنه إذا كان في بيت لا يدخله سام أبرص»

وإذا حسن في عينهم شيء أصفر شبهوه بلون الزعفران كما قال آدم بن عبد العزيز:

شربت على تذكر عيش كسرى … شراباً لونه كالزعفران

وأكثروا من تلوين الطعام به؛ قال بديع الزمان في إحدى مقاماته: «ومعنا على الطعام رجل تسافر يده على الخوان، وتأخذ وجوه الزعفران»

وكان البغداديون يلونون الطعام ويكرهون أن يقدموه بلا تلوين، ويسمون الطعوم غير الملونة «الطعوم المعتدّة» تشبيهاً لها بالمرأة في العدة، لأنهم يكرهون منها أن تلبس الثياب الملونة، فكانوا يلونون الطعام بالزعفران وبالعصفر وهو أصفر أيضاً. قال ابن حمدون:

هاتوا أطايب نورٍ فائقٍ سمناً … كالفيل قدّاً وإن عدّوه في البقر
وسكبجوها ووفوها توابلها … وزعفروها وصفّوها عن الغير

وصبغوا بالزعفران ملابسهم؛ حكى الأغاني أن الرشيد دخل على أخته علية بنت المهدي في يوم قائظ فوجدها قد صبغت ثياباً بزعفران وصندل وجعلتها على الحبال لتجف، فجعلت الرياح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة فوجد لذلك راحة من الحر

وكتبت جارية على قباء معصفر:

وما البدر النير إذا تجلى … هدواً حين ينزل بالعراق
بأحسن من بثينة يوم قامت … تهادَى في معصفرة رقاق

وقد كثرت أسماء الثياب الصفر فسموا

التّسخمَةَ: الثياب المخططة بالصفرة

والرّادعة: القميص لُمّع بالزعفران والطيب

والسبنيّة: نسبة إلى سَبَن قرية بنواحي بغداد وهي ثياب من حرير فيها أمثال الأترج (الأصفر)

والثياب المحرّضة: وهي المصبوغة بالأحريض وهو العصفر.

والثوب المُمصّر: قيل هو المصبوغ بصفرة خفيفة

والثوب المورّس: المصبوغ بالورس وهو نبت أصفر يصبغ به.

وأكثر ما كانت العصائب التي تتزين بها النساء عصائب مصبوغة بالزعفران وشيت بخيوط من حرير وطرزت بسلوك من ذهب

وقالوا أجمل شيء غلالة معصفرة على جارية

ويروى الوشاء فى كتابه الموشى أنه لا يحسن بالرجال لبس المصبوغ بالزعفران فى مظاهر الجد لأن ذلك من لبس النساء والقيان؛ وقد يلبسه الرجال فى أوقات الفصد والعلاجات وأوقات الشراب، وربما استعملوا ذلك فى وقت قصفهم وتظرفوا بها فى مجالسهم ... والظهور بها قبيح من السوقة مستحسن من أهل النعم وأبناء الخلفاء»

وحكى التنوخى فى نشوار المحاضرة «أن الخليفة المتوكل اشتهى أن يجعل كل ماتقع عليه عينه فى يوم من أيام شربه أصفر، فنصبت له قبة صندل مذهبة مجللة بديباج أصفر، مفروشة بديباج أصفر، وجعل بين يديه الدستنبو[1] والأترج الأصفر وشراب أصفر فى صوانى ذهب، ولم يحضر من جواريه إلا الصفر، عليهم ثياب قصب صفر، وكانت القبة منصوبة على بركة مرصعة يجرى فيها الماء، فأمر أن يجعل فى مجارى الماء إليها الزعفران على قدر ليصفر الماء، ويجرى من البركة أصفر، ففعل ذلك وطال شربه فنفد ما كان عندهم من الزعفران، فاستعملوا العصفر، ولم يقدروا أنه ينفد قبل سكره فنفد، فلما لم يبق إلا قليل عرفوه وخافوا أن يغضب إن انقطع ... فلما أخبروه أنكر أنهم لم يشتروا أمراً عظيما، وقال إن انقطع هذا تنغص يومى، فخذوا الثياب المعصفرة بالقصب فانقعوها فى مجرى الماء ليصبغ لونه بما فيها من الصبغ ... فحسب ما لزم ذلك من الزعفران والعصفر ومن الثياب التى هلكت فكان خمسين ألف دينار»[2]

ونسبوا إلى أفلاطون أنه قال إن رائحة الزعفران تسكن الغضب، وإذا قرن اللون الأحمر بالأصفر تحركت القوة العشقية

ولإعجابهم باللباس المعصفر أو المزعفر شبهوا به الخمر، فقال ابن وكيع:

فاشرب معصفرة القميص سلافة
من صنعة البردان أو قطربل

وقال ابن المعتز:

لبست صفرة فكم فتنت من
أعين قد رأينها وعقول
مثل شمس الغروب تسحب ذيلا
صبغته بزعفران الأصيل

وقال ابن الرومى فى وصف شواء:

وسميطة صفراء دينارية
ثمناً ولوناً زفها لك حزور

وأكثروا من مدح المرأة الصفراء واستحسنوها، ففى الأغانى أن متيم الهاشمية، ومحبوبة المتوكلية، ودنانير البرمكية، كن صفراوات مولدات، وسميت دنانير بذلك لصفرتها. وقال بعضهم فى وصف جمال الصفرة:

وعهدى بها صفراء رود كأنما
نفى عرق منها على اللون عسجدا

ومدحوا الزهور الصفر والثمار الصفر.

فمدحوا الآذريون وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود، قال فيه ابن المعتز:

كأن آذريونها
والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب
فيه بقايا غاليه

كما مدحوا «الخيرى» وهو المنثور الأصفر.

وكان عندهم نوع من الياسمين أصفر قال فيه الشاعر:

كأنما الياسمين حين بدا
يشرق من جوانب الكثب
عساكر الروم نازلت بلدا
وكل صلبانها من الذهب

ومدحوا التفاح الأصفر والخوخ الأصفر:

وتغزلوا بصفرة الخمر فقال أبو نواس:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
لو مسها حجر مسته سراء

ويقول آدم بن عبد العزيز:

اسقنى واسق خليلى
فى مدى الليل الطويل
لونها أصفر صاف
وهى كالمسك الفتيل

وبالغوا فى حب الصفرة حتى كانت القينة أحياناً تلبس الثياب المعصفرة أو المزعفرة وتطلى ما ظهر من يديها ومن عنقها بالورس روى بعضهم قال: «رأيت جارية ببغداد وقد طلت يديها بالورس وفى عنقها طبل وهى تنشد:

محاسنها سهام للمنايا
مريشة بأنواع الخطوب»

وكثيراً ما قرنوا هذا اللون بالدلالة على الميل إلى الشهوات والفجور، فقد رأينا ولوع القيان بهذا اللون؛ ورمزوا للخليع بقولهم إنه «يلبس المورس» واعتقدوا أن الورس يزيد الميل إلى النساء؛ وقرر ذلك الفيروزابادى فى القاموس وهو المولع دائماً بالنص على ذلك

هذه ظاهرة غريبة رأيتها وهى ظاهرة تستحق الدرس، وأحق الناس بالفتوى فيها علماء الجمال الاجتماعى؟

أحمد أمين

(١) هكذا بالأصل ولعله الدستبويه وهو بطيخ أصفر صغير مستطيل
(٢) نشوار المحاضرة ١/١٤٧

المشــــكلة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قالت لي صاحبةُ «الجمال البائس» فيما قالت : إن المرأةَ الجميلةَ تخاطب في الرجــل الواحد ثلاثة : الرجلَ وشيطانه وحيوانه ؛ فأما الشيطان فهو معنا وإن لم نكن معه . . . وأما الحيوانُ فله في أيدينا مقادةٌ من الغباوة ، ومقادةٌ من الغريزة ، إذا شمَسَ في واحدة أصحب في الأخرى وانقاد ؛ ولكن المشكلة هي الرجل تكون فيه رجولة

***

نعم إن المشكلة التي أعضلت على الفساد هي في الرجل القوى الرجولة يعرف حقيقةَ وجوده ويشرفَ منزلته ، ولهذا أوجب الاسلامُ على المسلم أن يكونَ بين الوقت والوقت في اليوم الواحد خارجاً من صلاة

وإنما الرجولةُ في خلالٍ ثلاث : عمل الرجل على أن يكون في موضعه من الواجبات كلِّها قبل أن يكون في هواه ؛ وقبوله ذلك الموضعَ بقبول العامل الواثق من أجره العظيم ؛ والثالثةُ قدرتُه على العمل والقبول إلى النهاية

ولن تقومَ هذه الخلالُ إلا بثلاثٍ أخرى : الادراكِ الصحيح للغاية من هذه الحياة ؛ وجعل ما يحبه الانسانُ وما يكرهه موافقاً لما أدرك من هذه الغاية ؛ والثالثةُ القدرةُ على استخراج معاني السرور من معاني الألم فيما أحبَّ وكره على السواء

فالرجولةُ على ذلك هي إفراغُ النفس في أسلوب قويٍّ جزْل من الحياة ، مُتساوقٍ في نمط الاجتماع ، بليغٍ بمعاني الدين ، مصقول بجمال الانسانية ، مُسترسلٍ ببلاغة وقوة وجمال إلى غايته السامية

ولهذه الحكمة أسقطت الأديانُ من فضائلها مبدأ إرضاء النفس في هواها ، فلا معاملة به مع الله إلا في إثم أو شر ؛ وأسقطه الناسُ من قواعد معاملتهم بعضهم مع بعض ، فلا يقوم به إلا الغش والمكرُ والخديعة ، وكلٌّ خارج على شريعة أو فضيلة أو منفعة اجتماعيــة ، فإنما ينزع إلى ذلك إرضاء لنفسه وإيثاراً لما وموافقةً لحبها وتوفيةً لحظها ؛ وعمله هذا هو الذي يُلبسه الوصفَ الاجتماعيَّ الساقط ويسميه باسمه في اللغــة ، كالرجل الذي رضى نفسه أن يسرق ليغتني ، فإذا أعطى نفسه لرضاها فهو اللص ، وكالتاجر في إرضاء طمعه هو الغاش ، وكالجنــدى في إرضاء جبنه هو الخائن ، وكالشاب في إرضاء رذيلته هو الفاسق ، وهلمَّ جراً وهلمَّ جرجرة . . .

***

وأما بعد ، فالقصة في هذه الفلسفة قصةُ رجل فاضل مهذب قد بلغ من العلم والشباب والمال ، ثم امتحنته الحياة بمشكلة ذهب فيها نومُ ليله وهدوءُ نهاره حتى كسفت باله وفرّقت رأيه وكابد فيها الموتَ الذي ليس بالموت وعاش بالحياة التي ليست بالحياة

قال : فقدتُ أمي وأنا غلام أحوجَ ما يكون القلبُ إلى الأم ، فخشي عليَّ أبي أن أستكين لذلة فقدها فيكون في نشأتي الذلُّ والضراعة ، وكبر عليه أن أحسَّ فقدَها إحساسَ الطفل تموت أمه فيحمل في ضياعها مثلَ حزنها لو ضاع هو منها . فعلمني هذا الأبُ الشفيق أن الرجل إذا فقد أمه كان شأنه غير شأن الصبي لأن له قوة وكبرياء ، وألقى في روعي أني رجلٌ مثله ، وأن أمه قد ماتت عنه صغيراً فكان رجلاً مثلي الآن . . .

وكان من بعدها إذا دعاني قال : أيها الرجل ، وإذا أعطاني شيئاً قال : خذ يا رجل ، وإذا سألني عن شأني قال كيف الرجل ؟ وقلَّ يومٌ يمرُّ إلا أسمعنيها مراراً حتى توهمتُ أن مني رجلاً في عقلي خلقته هذه الكلمة : وتمامُ الرجــل بشيئين : اللحيةُ في وجهه ، والزوجة في داره ، فتجيء الزوجةُ بعد أن تظهر اللحية لتكون كلتاهما قوةً له ، أو وقاراً أو جمالاً ، أو تكون كلتاهما خشونة ، أو لتكونا معاً سوادين في الوجه والحياة . . .

أما اللحيةُ لي أنا أيها الرجلَ الصغيرَ فليس في يد أبي ولا في حيلته أن يجئ بها ، ولكن الأخرى في يده وحيلته ؛ فجاءني ذاتَ نهار وقال لي : أيها الرجل ! إن فلانة مُتسماةٌ عليك[1]

(١) هـذا هو التعبير العربي الصحيح لقولهم قبل العقد « مخطوبة لفلان »

منذ اليوم فهى امرأتك فاذهب لترى فيك رجلها . وفلانة هذه طفلة من ذوات القربى ، فأفرحنى ذلك وأبهجنى ؛ وقلت للرجل الذى فى عقلى : أصبحتَ زوجاً أيها الرجل . . .

وكان هذا الرجل الحالم فى عقلى هو غرورى يومئذ وكبريائى ، فكنت أقع فى الخطأ بعيد الخطأ وآتى الحماقة بعد الحماقة ، وكنت طفلاً ولكن غرورى ذو لحية طويلة . . .

***

ونشأتُ على ذلك صلبَ الرأى معتدًّا بنفسى إذا هممتُ مضيت ، وإذا مضيت لا ألوى ؛ وما هو إلا أن يخطر لى الخاطر فأركبَ رأسى فيه ، ولأنْ تَكسِرَ لى يدٌ أو رجل أهونُ على من أن يكسرَ لى رأى أو حكم ؛ وأكسبنى ذلك خيالاً أكذبَ خيال وأبعدَه ، يخلط على الدنيا خلطاً فيدعنى كالذى ينظر فى الساعة وهى اثنا عشر رقماً لنصف اليوم الواحد ، فيطالبها أثنى عشر شهراً للسنة . . .

وترامت حريتى بهـذا الخيال فجاوزت حدودها المعقولة . وبهذه الحرية الحمقاء وذلك الخيال الفاسد ، كذبتُ على الفكرة والطبيعة

ولست جميلَ الطلعة إذا طالعتُ وجهى ، ولكنى مع ذلك معتقد أن الخطأ فى المرآة . . . إذ هى لا تظهر الرجل الوضيءَ الجميل الذى فى عقلى ؛ ولست نابغةً ولكن الرجل الذى فى عقلى رجل عبقرى ؛ وهذا الذى فى عقلى رجل متزوج فيجب علىَّ أنا الطفلَ – أن أكون رزيناً رزيناً كوالد عشرة أولاد فى المدارس العليا . . .

وذهبتُ بكل ذلك أرى زوجتى ، فأغلقت البابَ فى وجهى واختبأت منى ، فقلت فى نفسى : أيها الرجل ان هـذا نشوزٌ وعصيانٌ لا طاعةٌ وحب . وساءنى ذلك وغمّنى وكبر علىّ فأضمرتُ لها النفـرَ ، فثبتت بذلك فى ذهنى صورةُ (الباب المغلق) وكأنه طلاق بيننا لا باب . . .

***

قال : ثم شبَّ الرجلُ فكان بطبيعة ما فى نفسه كالزوج الذى يترقّبُ زوجته الغائبةَ غيبةً طويلة ؛ كلُّ أيامه ظمأ على ظمأ ، وكل يوم يمرّ به هو زيادةُ سنة فى عمر شيطانه ... وكان قد انتهى إلى مدرسته العالية وأصبح رجلَ كتب وعلوم وفكر وخيال . فعرضتْ له فتاة كاللواتى يعرضن للطلبة فى المدارس العليا ، مامنهن على صاحبها إلا كالجنبية فى امتحان ... بيد أن (الرجل) لم يعرف من هـذه الفتاة إلا أوائل المرأة ... ولم يكد يستشرفُ لأواخرها حتى سُمِّيت على غيره فخطبت فزفّت ، زُفّت بعد نصف زوج إلى زوج ...

وعرف الرجل من الفلسفة التى درسها أنه يجب أن يكون حراً بأكثر مما يستطيع وبأكثر من هـذا الأكثر ... فقالها بملء فيه ، وقال للحرية : أنا لك وأنت لى

قالها للحرية ، فما أسرعَ ماردت عليه الحرية بفتاة أخرى...

***

نقول نحن : وكان قد مضى على (الباب المغلق) تسع سنوات فصار منهن بين الشاب وبين زوجته العقلية تسعة أبواب مغلقة . ولكنها مع ذلك مسماة له يقول أهله وأهلها (فلان وفلانة) . وليس (الباب المغلق) عندهم إلا الحياءَ والصيانة ؛ وليست الفتاةُ من ورائه إلا العفافَ المنتظر ؛ وليس الفتى إلا ابنَ الأب الذى سمّى الفتاةَ له وحبَسها على اسمه ؛ وليست القُربى إلا شريعةً وأجنبة الحق نافذةَ الحكم

وعند أهل الشرف ، أنه مهما يبلغْ من حرية المرء فى هذا العصر فالشرفُ مقيّد

وعند أهل الدين ، أن الزواج لا ينبغى أن يكون كزواج هذا العصر قائماً من أوله على معانى الفاحشة

وعند أهل الفضيلة ، أن الزوجة إنما هى لبناء الأسرة ؛ فان بلغ وجهُها الغايةَ من الحسن أو لم يبلغ ، فهو على كل حال وجهٌ ذو سُلطة وحقوق (رسمية) فى الاحترام ؛ لا تقوم الأسرة إلا بذلك ولا تقوم إلا على ذلك

وعند أهل الكمال والضمير ، أن الزوجة الطاهرةَ المخلصةَ الحبَّ لزوجها ، إنما هى معاملةٌ بين زوجها وبين ربه ؛ فحيثما وضعها من نفسه فى كرامة أو مهانة ، وضع نفسَه عند الله فى مثل هذا الموضع

وعند أهل العقل والرأي ، أن كل زوجة فاضلة هي جميلة جمالَ الحق ، فان لم توجب الحبَّ وجبت لها المودة والرحمة

وعند أهل المروءة والكرم ، أن زوجة الرجل إنما هي انسانيته ومروءته ؛ فان احتملها أعلن أنه رجل كريم ، وإن نبذها أعلن أنه رجل ليس فيه كرامة

أما عند الشيطان لعنه الله ، فشروط الزوجة الكاملة ما تشترطه الغريزة : الحب ، الحب ، الحب

* * *

قال الشاب : وإذا أنا لم أتزوج امرأة تكون كما أشتهي جمالاً وكما يشتهي فكري علماً ، كنت أنا المتزوج وحدي وبقي فكري عزَبا . . . وقد عرفتُ التي تصلح لي بجمالها وفكرها معاً ، وتبوَّأتْ في قلبي وأقمتُ في قلبها . ثم داخلْتُ أهلَها فخلطوني بأنفسهم وقالوا شابٌّ وعزَب ... ومتعلم وسريٌّ ... فلم يكن لدارهم (بابٌ مغلق) حتى لو شئت أن أميل إلى كريمتهم في حرام وصلت ، ولكني رجل يحمل أمانة الرجولة . . .

أما الفتاة فلست أدري والله أفيها جاذبية نجم أم جاذبية امرأة ؛ وهل هي أنثى في جمالها أو هي الجمالُ السماويُّ أتى ينقح الفنونَ الأرضيةَ لأهل الفن ؟

إذا التقينا قالت لي بعينيها : هأنذى قد أرخيتُ لك الزمام فهل تستطيع فراراً مني ؟ وتلتصق فتقول لي بجسمها : أليست الدنيا كلها هنا ، فهل في المكان مكانٌ إلا هنا ؟ ونفترق فتحصر لي الزمن كله في كلمة حين تقول : غدا نلتقي

كلامها كلامٌ متأدب ، ولكنه في الوقت نفسه طريقة من الخلاعة تلفتك الى فمها الحلو . والحركة على جسمها حركة مستحيية ، ولكنها في الوقت عينه كالتعبير الفني المتجسِّم في التمثال العاري

إنها والله قد جعلت شيطاني هو عقلي ؛ أما هذا العقل الذي ينصح ويعظ ويقول هذا خير وهذا شر ، فهو الشيطان الذي يجب أن أتبرأ منه . .

* * *

قال : وألمَّ الأبُ بقصة فتاه ، ويحسبها نزوة من الشباب يُخمدها الزواج ، فيقول في نفسه : إن للرجل نظرتين إلى النساء : نظرة إليهن من حيث يختلفن فتكون كل امرأة غيرَ الأخرى في الخيال والوهم والمزاج الشعري ؛ ونظرة إليهن من حيث يتساوَيْنَ في حقيقة الأنوثة وطبيعة الاحترام الانساني ، فتكون كل امرأة كالأخرى ولا يتفاوتن إلا بالفضيلة والنفعة .

ويقرِّر لنفسه أنَّ ابنه رجل متعلم ذو دين وبَصَر ، فلا ينظر النظرةَ الخيالية التي لا تقنع بامرأة واحدة بل لا تزال تلتمس محاسنَ الجنس ومَفاتنَه ، وهي النظرة التي لا يقوم بها إلا ابناءُ الشعر دون بناء الأسرة ، ولا تصلُحُ عليها المرأةُ تلد أولاداً لزوجها ، بل المرأة تلد المعاني لشاعرها .

ثم احتاط في رأيه فقدَّر أن ابنه ربما كان عاشقاً مفتوناً مسحوراً ذا بصيرة مدخولة وقلبٍ هواء وعقلٍ مُلتاث ، فيتمرد على أبيه ويخرج عن طاعته ويحارب أهله وربَّه من أجل امرأة ، بَيْدَ أنه قال إنه هو والده وهو ربّاه وأنشأه في بيت فيه الدينُ والخُلُق والشهامةُ والنَّجدة ، وأنَّ محاربة الله بامرأة لا تكون إلا عملا من أعمال البيئة الفاسدة المستهتَرَة حين تجمع كل معاني الفساد والاباحة والاستهتار في كلمة (الحرية). وقال إن البيئة في العهد الذي كان من أخلاقه الشرفُ والدينُ والمروءة والغيرةُ على العِرض ، لم يكن فيها شيء من هذا ، ولم يكن الأبناءُ يومئذ يعترضون آباءهم فيمن اختاروهن ، إذ النسلُ هو امتدادُ تاريخ الأب والابن معاً ، والأبُ أعرفُ بدنياه وأجدرُ أن يكون مُبَرّأً من اختلاط النظرة ، فيختار للدين والحسَب والكمال لا للشهوة والحب وفنون الخلاعة ؛ ولا محل للاعتراض بالعشق في باب من أبواب الأخلاق ، بل محلُّه في باب الشهوات وحدها .

ثم جَزَمَ الأبُ أن الولد الذي يجيء من عاشقين حريٌّ أن يرثَ في أعصابه جنونَ اثنين وأمراضهما النفسية وشهواتهما الملتهبة ، ولهذا وقف الشرع في سبيل الحب قبل الزواج لوقاية الأمة في أولها ، ولهذا يكثر الضعفُ العصبي في هذه المدنية الأوربية ، وينتشر بها الفساد فلا يأتي جيلٌ إلا وهو أشد ميلا إلى الفساد من الجيل الذي أعقبه

ولم يكد ينتهي الأبُ إلى حيث انتهى الرأيُ به حتى أسرع إلى (الباب المغلق) يهيء للزفاف ويتعجّل لابنه الطليع . . . . نكبةً ستجيء في احتفال عظيم . . . .

***

قال الشاب : وجن جنوني ؛ وقد كان أبي من احترامي بالموضع الذي لا يلين منه ، فلجأتُ إلى عمى أستدفعُ به النكبة وأتأيّدُ بمكانه عند أبي ، وبثثتُه حزني وأفضيت اليه بشأني ، وقلت له فيما قلت : افعلوا كل شيء إلا شيئاً ينتهي بي إلى تلك الفتاة ، أو ينتهي بها إليّ . وما أنكر أنها من ذوات القربى ، وأن في احتمالي إياها واجباً ورجولة ، وفي ستري لها ثوابا ومروءة ، وخاصةً في هذا الزمن الكاسد الذي بلغت فيه العذارى سن الجدّات . . . ولكن القلبَ العاشق كافر بالواجب والرجولة ، والثواب والمروءة ، وبالأم والأب ، فهو علك النعمة ويريد أن علك التنعم بها ؛ وكل من اعترضه دونها كان كاللص . . . . . .

قال : قبّح الله حباً يجعل أباك في قلبك لصاً أو كاللص

قلت : ولكنى حر أختار من أشاء لنفسي . . . .

قال : إن كنت حراً كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التي أحببتها ؟ ألا تكون حراً إلا فينا نحن وفي هدم أسرتنا ؟

قلت : ولكنى متعلم ، فلا أريد الزواج إلا بمن . . . . . .

فقطع علي وقال : ليتك لم تتعلم ، فلو كنت نجاراً أو حداداً أو خوذياً لأدركت بطبيعة الحياة أن الذين يتخضّعون للحب وللمرأة هذا الخضوع ، هم الفارغون الذين يستطيع الشيطانُ أن يقضي في قلوبهم كلّ أوقات فراغه . . . .

أما العاملون في الدنيا ، والمغامرون في الحياة ، والعارفون بحقائق الأمور ، والطامعون في الكمال الانساني ، فهؤلاء جميعاً في شغل شاغل عن تربية أوهامهم ، وعن البكاء للمرأة ، والبكاء على المرأة ؛ ونظرتهم إلى هذه المرأة أعلى وأوسع ؛ وغرضهم منها أجل وأسمى ، وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله في النساء ؛ أي انظروا اليهن من جانب تقوى الله فان المرأة تقدِم من رجلها على قلب فيه الحبُّ والكراهةُ وما بينهما ولا تدري أي ذلك هو حظها ، ولو أن كل من أحب امرأة نبذ زوجةً لخربت الدنيا ولفسد الرجال ، والنساء جميعا . وهذه يابني أوهام وقتها وعمل أسبابها ، وسيمضي الوقت وتتغير الأسباب ، وربما كان الناضج اليوم هو المتعفّن غداً ، وربما كان الفجُّ هو الناضج بعد !

وهبك لا تحب ذاتَ رَحِمك ثم أكرمتها وأحسنتَ إليها وسترتَها ، أفيكون عندك أجلُّ من شعورها أنك ذو الفضل عليها ؟ وهل أكرمُ الكرم عند النفس إلا أن يكون لها هذا الشعور في نفسٍ أخرى ؟ إن هذا يا بنيّ إن لم يكن حبا فيه الشهوة فهو حب إنساني فيه المجد .

***

ووقعت (المشكلة) وزفّت المسكينة ؛ فكيف يصنع الرجل بين المحبوبة والمكروهة ؟

(طنطا)

(رجاء إلى القراء) هذه القصة واقعة وقد بنى الرجل بامرأته وهو في الشهر الذي لا اسم له عنده وإن كان اسمه عند الناس شهر العسل . فماذا يرى له القارىء من الرأي ؟ وماذا ترى القارئة لهذه العروس اللابسة أكفانها في عين الرجل ؟

وسننتظر أسبوعين ثم نكتب تتمة القصة ، ونرجو أن يكون هذا الفاضل عند ظن الخير به ؛ وسنلخص ما نتلقاه من الآراء ؟ الرافعي

المأساة الفاشستية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

في الثامن والعشرين من أكتوبر احتفلت إيطاليا باختتام العام الثالث عشر لظفر الفاشستية الإيطالية وقيام النظام الفاشستي؛ فمنذ ثلاثة عشر عاماً زحف موسوليني وأنصاره من ذوي الأقمصة السود على رومة، وانتزعوا مقاليد الحكم؛ ومنذ ثلاثة عشر عاماً يسيطر موسوليني وحزبه على مصاير إيطاليا ومصاير الشعب الايطالي؛ ولكن الفاشستية الايطالية تحتفل بعيدها لأول مرة في ظروف خاصة؛ فهي الآن في مأزق خطر، بل هي تجوز معركة الحياة والموت؛ وهي تشعر لأول مرة بمرارة الخيبة وانهيار الآمال، وترى مشاريعها الاستعمارية العريضة في ميزان القدر تكبدها من الخسائر والمشاق الفادحة ما لم تكن تحلم بتكبده ولا قبل لها باحتماله، وترى فوق ذلك نفسها تواجه كتلة عالمية من الأمم الناقمة الساخرة تحيطها بسياج من الحفيظة والبغض، وتنظم ضدها مقاومة مادية فعالة وترمي أن تقضي على كل مطامعها وأحلامها

والفاشستية هي التي جنت على نفسها وعلى إيطاليا، وهي التي زجتها إلى ذلك المأزق الذي تتخبط فيه ولا ترى سبيلاً إلى الخلاص منه؛ فهي التي أقدمت عامدة مصرة على غزو الحبشة وانتهاك المعاهدات الدولية؛ وهي التي لم تخجل أن تصرح في جرأة منقطعة النظير أنها تغزو الحبشة وتعتدي على استقلالها لأنها في حاجة إلى التوسع والاستعمار واستغلال الثروات الطبيعية التي تبطنها وهاد الحبشة؛ وهي التي أثارت بعدوانها وغرورها وخطتها السياسية اشمئزاز كل الشعوب المتمدينة؛ وهي الآن في محنتها ويأسها تحاول أن تتشح بثوب الظافر، لأن الجيوش الايطالية استولت على بعض الأراضي الحبشية في الشمال وفي الجنوب؛ ولكن العالم يعرف جيداً أن هذا النصر اليسير لم يكن نتيجة معارك حقيقية ولا بطولة عسكرية، وأنه مع ذلك قد كبد إيطاليا أعظم الجهود والخسائر، وأن المعارك الفاصلة ما زالت تنتظر إيطاليا في الوهاد الحبشية السحيقة التي لن تبلغها إلا بأفدح تضحية من المال والرجال

لقد كانت قيام الفاشستية في إيطاليا أول ضربة حقيقية للديموقراطية والحريات الشعبية بعد الحرب الكبرى؛ وكانت الديموقراطية قد استطاعت غداة النصر أن تكتسح النظم الامبراطورية في ألمانيا والنمسا؛ ولكن الديموقراطية انساقت في فورة الظفر إلى ألوان خطرة من التطرف والفوضى؛ وكانت إيطاليا مسرحاً لهذا التطرف، ففي غمر الاضطراب العام وثبت الفاشستية تؤيدها العسكرية، وتؤيدها الصناعات الكبرى والمالية العليا، وقبضت على زمام الحكم بقوة؛ وظن خصومها في المبدأ أنها فورة الساعة وأن ريحها لن تلبث أن تركد، ولكن فورة الفاشستية كانت أشد وأقوى مما تصوروا، وكانت المعركة قصيرة المدى، فلم يمض سوى قليل حتى سحقت الفاشستية خصومها، وسحقت الاشتراكية والديموقراطية، وكل النظم البرلمانية الحقيقية، وأخضعت الصحافة لصولها، ولم تبق متنفساً للشعب الايطالي سوى طريقها، ولم تسمح له بأن يفكر إلا برأيها، أو أن يرى إلا بعينها، وامتزجت الدولة بالحزب، فغدت الفاشستية هي الحكومة وهي الدولة، وهي مصدر السلطات وهي كل شيء في حياة إيطاليا العامة، وفي مرافقها ومصايرها.

كان ظفر الفاشستية سريعاً، وكان مطلقاً، ولكنها لم تدخر لتحقيق هذا الظفر أية وسيلة مثيرة؛ ولسنا نقف طويلاً بهذه الوسائل الهمجية التي أصبحت روح النظم الطاغية في عصرنا، سواء في روسيا البلشفية أو تركيا الكمالية أو إيطاليا الفاشستية أو ألمانيا الهتلرية، والتي تقوم على القتل والسجن والنفي والمصادرة وغيرها من أساليب العنف المنظم؛ ولكنا نقول أيضاً في إنصاف هذه الفاشستية الهمجية أنها لم تكن شراً مطلقاً، بل كانت لها آثار داخلية حسنة، وقد أسفرت جهودها في سبيل الانشاء والتنظيم عن نتائج مادية ظاهرة الأثر في تكوين ايطاليا الحديثة وفي تطورها وتقدمها؛ فقد سحقت عوامل التفرق القديم الذي خسرت ايطاليا من جرائه مغانم الحرب في معاهدة الصلح، وسحقت عوامل الفوضى التي كادت تشل الحياة الاقتصادية في ايطاليا، وبثت في الشعب الايطالي روحاً جديداً

وعزائم جديدة في ميادين النشاط والتفكير والعمل ، فخطت الزراعة والصناعة والتجارة إلى الأمام خطوات واسعة ، ونظمت موارد الثروة القومية تنظيما مدهشا ؛ وبذلت الفاشستية جهوداً محمودة لمعالجة الركود الاقتصادي والبطالة ، وحماية الانتاج القومي ، وقامت بعثات المشاريع العمرانية النافعة ، ولم تترك وجهاً من وجوه الحياة العامة إلا عملت لاصلاحه وتقويمه ؛ ولم تقف عند العمل في ميادين النشاط المادي ، بل عملت أيضاً في النواحي المعنوية ، فطهرت الحياة الاجتماعية من كثير من أدرانها القديمة ، وبثت في الشعب الايطالي روحاً جديداً من القوة والخلال الحسنة ، وقد كان قبل قيام الفاشستية في حالة يرثى لها من الانحلال الفكري والأخلاقي ؛ ونظمت الشباب والنشء تنظيما بديعاً ؛ والخلاصة أنها من حيث الوجهة الداخلية ، خلقت ايطاليا خلقا جديداً ، وسارت بها في سبيل التقدم شوطاً بعيداً . وأما من حيث الوجهة الخارجية فقد عملت الفاشستية أيضاً لتقوية ايطاليا في البر والبحر والهواء ، ورفعتها من حيث القوة العسكرية والهيبة الدولية إلى مصاف الدول العظمى ذات الرأي المسموع .

كل ذلك عملته الفاشستية في أعوامها الثلاثة عشر ؛ ولكنها عملته فوق أكداس من الجرائم والضحايا ، وعلى انقاض الحريات العامة والكرامة البشرية والاستقلال الروحي والفكري ؛ والفاشستية مادية مغرقة في المادية ، والمعنويات في نظرها وسيلة إلى تحقيق المصالح المادية ؛ ومن ثم جعلت من الجيل الايطالي الجديد ، في تفكيره وعقليته وتصرفاته قطيعاً من البشر مسلوب الرأي والارادة ، توجهه الزعامة العنيفة أينما شاءت . وكان من أكبر وأخطر جرائم الفاشستية أنها بثت في الشعب الايطالي روحاً خطرة هي روح الغرور المغرق ؛ ولا بأس من أن يتصف الشعب بالكبرياء القومية وأن يستمد من ماضيه المجيد وعظمته الحاضرة أسباب العزة القومية ، ولكن الفاشستية بثت في الشعب الايطالي أخطر عوامل الكبرياء والتحدي الفارغة ؛ فالايطالي الجديد يعتبر نفسه اليوم أرقى الخليقة ، وأنه خلع بارتداء الفاشستية أثواب أوربا البالية ، وأنه غداً يشرف من ذروة عظمته الجديدة على بؤس القارة القديمة وتدهورها ، وأنه سيقود أوربا الجديدة طبق مبادئه وآرائه ؛ ثم هنالك ما هو أخطر من هذه

الأوهام المعنوية ؛ فقد بثت الفاشستية في الجيل الجديد روح العداء لأوربا القديمة ، وروح التطلع والتحفز والعدوان ، ولقنته نظرية جديدة هي أن ايطاليا الفاشستية خليفة الدولة الرومانية القديمة وقرينتها ؛ وأن موسوليني إن هو إلا قيصر يقودها في سبيل الفخار والمجد ، وغمرت هذه الروح القيصرية ذلك الشباب المغرور المتحدي ، فأصبح يتصور أنه سيعيد حدود الدولة الرومانية القديمة ، وأنه سيفتح مصر والأناضول وسورية وشمال افريقية ، ويجعل من البحر الأبيض بحيرة رومانية ؛ ومضت ايطاليا الفاشستية تسخر بلسان زعيمها من كل دعوة للسلام ونزع السلاح ، وكل دعوة إلى تفاهم الأمم ، وآثرت نغمة الوعيد والتهديد ، والحرب والانتقام .

غير أن ذلك الروح الحزبي المضطرم لم يتمخض عن احياء الدولة الرومانية ، ولا استعادة شيء من حدودها أو أملاكها القديمة ؛ ولكنه تمخض عن مشروع استعماري مثير وضيع معاً : ذلك هو غزو الحبشة وافتتاحها لاستخلاص ثرواتها الدفينة ، وليكون منها ومن الصومال والأرترية لايطاليا القيصرية امبراطورية استعمارية ضخمة ؛ وقد كان زعيم الفاشستية يحلم بأن جيوشه ستكتسح الفريسة في سيل من النصر الباهر يدهش العالم ويروعه معاً . ولكن الفريسة صمدت للمعتدين عليها ، وأفهمتهم أن دون ازهاقها أهوالا وتضحيات فادحة ؛ وقد كانت الفاشستية في ذلك معتدية أثيمة تنكر أبسط مبادئ الحق والعدالة ، بل تنكر ماضيها وعهودها وتصريحاتها التي أذاعتها لأول عهدها بلسان زعيمها . واليك مبادئ السياسة الخارجية الفاشستية كما أذاعها موسوليني في أول برلمان فاشستي : « لا نريد استعماراً ، ولا نريد اعتداء ، ولكنا سنتخذ موقفاً يقضي على سياسة الاذلال التي جعلت ايطاليا أقرب إلى وصيفة وخادمة ذليلة للأمم الأخرى ؛ احترام المعاهدات الدولية مهما كلفنا ذلك ؛ اخلاص وصداقة نحو الأمم التي تقدم لايطاليا أدلة صادقة على مبادلة هذه العواطف ؛ تأييد للتوازن الشرقي الذي يقوم عليه سلام الدول البلقانية ، ومن ثم يقوم عليه سلام أوربا وسلام العالم » ، ولكن الفاشستية وهي حركة عنيفة تقوم على القوة وتعتبر الحق للقوة ، لا يمكن أن ترتبط بعهد أو ذمام ، ولا يمكن

أن تؤمن بالحق لذاته أو العدالة لذاتها ؛ وقد نمت الفاشستية واشتد ساعدها بسرعة ، واستطاعت أن تخلق من ايطاليا قوة يخشى بأسها . بيد أنها بدلا من أن تقف هذه القوة لتأييد الهيئة والمصالح القومية المشروعة ، اتخذت منها أداة لتهديد سلام أوربا وسلام العالم ، وجعلتها وقفاً على تحقيق الشهوات الحربية والاستعمارية ، ولم تحجم عن أن تعرض سلام العالم للخطر في سبيل شهواتها وغاياتها.

واليوم وقد انساقت الفاشستية إلى مغامرتها الخطرة ، فانها تشعر لأول مرة في تاريخها بصدمة حقيقية ؛ وقد كان موسوليني يظن أنه يستطيع افتراس الحبشة بأيسر أمر وعلى مرأى ومسمع من العالم ، وأن صيحات الوعيد المتكرر تكفي لاخماد كل معارضة وتدخل ؛ ولم يكن موسوليني ليقيم وزناً لعصبة الأمم ، وقد سحق مبادئها من قبل يوم احتل جزيرة كورفو ليرغم اليونان على تنفيذ مطالبه لخلاف نشأ بينهما من جراء مقتل بعض الرعايا الايطاليين في الأراضي اليونانية ؛ وكان موسوليني على حق في استخفافه بالعصبة وجهودها ؛ ولكن من كان يظن أن عصبة الأمم ستضطرم فجأة بروح جديدة ؟ ومن كان يعتقد أنها ستجرؤ على اتخاذ تلك القرارات التاريخية الشهيرة فتلقي تهمة الاعتداء العمد في وجه إيطاليا وتقضي عليها بالعقوبات الاقتصادية ؟ ولكن عاملاً جديداً لم يكن يتصوره موسوليني قط هو الذي وثب فجأة ووقف للفاشستية ولايطاليا بالمرصاد ، واستطاع أن يقلب جميع الأوضاع الدولية في أسابيع قلائل : ذلك هو تدخل انكلترا وتحرك الامبراطورية البريطانية . ولقد كانت انكلترا تبغض الفاشستية منذ قيامها ، وتعتبرها خطراً على السلم الأوربي ؛ ولكنها مذ اشتد ساعد الفاشستية وذكا وعيدها وتدفقت جيوشها إلى شرق افريقية ، أدركت أن الفاشستية قد أصبحت بمطامعها ومشاريعها الاستعمارية خطراً داهماً على الامبراطورية البريطانية ، وعلى دولها الاستعمارية في وادي النيل وشرق افريقية ، وعلى سيادتها في البحرين الأبيض والأحمر ؛ ويجب لتأييد سلام الامبراطورية وأمنها ، أن تسحق هذه الفورة الخطرة ؛ وهناك عامل معنوي آخر يقتضي في نظر انكلترا الحكم على الفاشستية ، هو أنها رمز النظم الطاغية العنيفة التي يمقتها الشعب الانكليزي ، ويراها خطراً على الديموقراطية التي غدت انكلترا ملاذها وحصنها الأخير بعد أن اجتاحت معظم الدول الأوربية ؛ وهكذا تستحيل المعركة اليوم إلى نضال خطير بين الفاشستية وبين الامبراطورية البريطانية مستترة وراء عصبة الأمم ؛ ولقد كان نجاح انكلترا عظيماً في حشد أمم العالم ضد إيطاليا باسم العصبة ، وفي تنظيم هذه العقوبات الاقتصادية التي ستشل عما قريب كل موارد إيطاليا وقواها المالية والاقتصادية ؛ وهكذا تنهار تدابير الفاشستية فجأة ، وترى نفسها وحيدة في الميدان ، تواجه سخط العالم وتألبه ، وتواجه الامبراطورية البريطانية ؛ وفي رأينا أنه ليس ثمة شك في نتيجة هذه المعركة ، فالفاشستية تجوز معركة الحياة والموت ، وهي تسير بلا ريب إلى انحلالها ، وليس في وسعها أن تثبت طويلاً أمام هذه الصعاب الفادحة التي تواجهها في الخارج وفي الداخل ؛ وتدل الطوالع على أن الحرب الحبشية التي أريد أن تكلل جبين الفاشستية بهالة من الظفر ستغدو قبراً للفاشستية ؛ ومن المرجح أن يقترن فشل الفاشستية في مشروعها الاستعماري بانهيار سلطانها في الداخل ، وعندئذ تختتم تلك المأساة الطويلة بانقلاب حاسم ، وتتحرر إيطاليا من تلك الأغلال الحديدية التي صفدتها مدى ثلاثة عشر عاماً ، ويتنفس العالم سعيداً إذ يرى مصرع تلك الفورة الطاغية الخطرة التي مازالت منذ قيامها تهدد أمنه وسلامه

(***)



كيف كسبت الرهان !

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

(تنبيه — الحادثة ليست شخصية — وليس لي أخت)

غام الزجاج أمامي من كثرة ما سقط عليه من ندى الفجر ، وكنت — كلما قطعنا بضعة فراسخ — أمسحه بمنديل ثم أجلوه بورقة ، وكان ذلك يحوجني إلى الوقوف ثم استئناف السير ، وهذا مضيعة للوقت ، والشقة بعيدة ، والرهان جسيم ؛ فقلت أرفع الزجاج ، فإن التعرض للهواء البارد أيسر محملا ، وأهون من النظر من زجاج عليه ضبابة ، وإن كانت رقيقة ؛ وصحيح أن أختي كانت تصف لي الطريق وتسمي لي ما يعترضنا عليه ، وتمين لي مواقع الأشياء ، ولكن السائق لا يستطيع أن يعتمد على غير عينيه ؛ ثم إن وصفها كثيراً ما كان يحيرني ويحدث لي اضطراباً ، فقد كانت تقول مثلا : « هذا رجل في وسط الطريق .. لا لا لا .. إنه أقرب إلى اليسار ... انتظر ... بل هو يمشي يميناً ... امض على بركة الله ... لا خوف »

فأتمهل ، وأمضي على بركة الله ، فما ثم شيء أجرأ أمضي عليه ؛ وبودي لو تبين لي كيف أستطيع أن أتريث وأنتظر حتى تتثبت هي وتقطع الشك باليقين ؛ ثم إني لم أكن أومن بأن نظرها أصح وأسلم وأقوى ، وأنه يسعها ما أعياني من اختراق هذا الضباب — أعني النظر من خلال الزجاج المغيم ؛ لذلك توكلت على الله ورفعت الزجاج

وقال زوجها : « لا بأس ! ولم لا ؟ إنه لن يصيبنا شر من الالتهاب الرئوي »

فرمت اليه زوجته شيئاً وقالت : « تلفع بهذا »

فرده اليها وهو يقول : « الكلب لا يعض أذن أخيه ... صدق والله ! »

فثاروا به وشغبوا عليه ، ولما قرت الضجة قلت :

« غط صدرك إذا كنت تخشى الهواء ، وفمك أيضاً — فاني نويت أن أعوض ما خسرت إلى الآن »

وضغطت بقدمي فانطلقت السيارة كالسهم ، وانحنت أختي تنظر إلى العداد ، وجعلت تملي الرقم كلما تغير ، وتصيح :

« ٤٠ ... ٤٣ ... ٤٧ ... ٥٠ ... أوه ! لقد وصل إلى الستين ... ! السبعين ... »

ثم أمسكت ، فقد كان الهواء قوياً ، ودفعه في الصدر شديداً ، فلولا أن النظارة على عيني لما وسعني الصبر عليه ؛ وكان الطريق مستقيماً ، والتراب راقداً لكثرة ما نزل عليه من الطل ؛ وبدت لعيني مركبة فسألت نفسي : ترى على أي ناحية من الطريق هي ؟ ولكني جزتها ومرقت كالسهم في نفس اللحظة التي رأيتها فيها ، فلا جواب لسؤالي ؛ وأحسست أن سيارة مقبلة علينا ، ثم تبينت أنها ماضية في اتجاهنا فما عتمت أن صارت وراءنا ، وأحسب أن سائقها قد أوسعني شتماً ولعناً ، فما نبهته ولا حذرته ؛ وظهرت ضيعة ، ورأيت بيوتها الواطئة المبنية من الطين ، وأخذت عيني الأشجار المغروسة أمامها — أو خلفها ، لا أدري — فقد غابت عن عيني بأسرع مما بدت لها ؛ وكنت لا أجرؤ أن أصوب لحظي إلى عداد السرعة ، ولكني كنت أحس كل كيلو نقطعه ونضيفه إلى ما فرغنا منه ؛ وزاد ضغط قدمي ، فتجهمت أختي ونظرت ثم قالت بهمس لي :

« ٨٩ ... ٩٠ ... ٩١ ... ٩٢ ... »

ثم رأتني كالمسمر في مكاني ، وكأنما أدركها العطف علي ، أو قواها إصراري على الفوز ، فعادت تنظر وتبلغني ما ترى :

« إلى اليمين شيء ... عربة ... خال ... عربة ... تتحرك ... دراجة إلى يسارك ... سيارة مقبلة ... خال ... لا ... رجل يمشي ... خال ... »

فسألتها : « كم كيلو قطعنا ؟ وكم الساعة الآن ؟ »

وكانت الساعة الرابعة صباحاً ، ولا يزال أمامنا مائة وعشرة كيلومترات إلى دمنهور ، ونحو ثلاثين أخرى إلى القرية ، وثلاث ساعات نقطعها فيها

فجعلت أدافع اليأس ؛ ذلك أن الطريق إلى (بنها) واسع ، ولكنه بعد ذلك يضيق ، إلى قريب من طنطا ، ويزدحم بالجمال والأبقار والأغنام والدواب والسيارات ، فسألت القوم : « هل ورد ذكر لدمنهور في الرهان ؟ »

فقالت أختي : « أظن ... لا لا ... لم يرد لها ذكر »

وقال زوجها : « أو ورد ... ... سيان ... ... »

فقاطعته ابنة عمه ، وكانت معه على المقعد الخلفي وقالت :

لا ، على التحقيق ... كل ما اشترطه هو الوصول إلى القرية الساعة السابعة صباحاً ، والأسبق هو الفائز ... ... ولكن لماذا تسأل ؟ »

قلت : لأن هناك طريقاً أخصر ... ... من طنطا إلى دسوق مباشرة »

قالت : « وما الفرق ؟ »

قلت : « ثلاثون كيلو ... مسافة لا يستهان بها ... والطريق أضيق ولكنه معبد »

قالت : « وهل تظن أنه يجهل هذا الطريق ؟ »

فهبط قلبي من صدري إلى حذائي ، ولي العذر ، فان قريبنا هذا ـ ومراهننا ، وصاحب الضيعة وداعينا إليها ـ أبرع مني وأعرف بالسكك المؤدية إلى قريته ، ولا شك أنه أهمل النص على دمنهور في الرهان عمدا ، لظنه أني لا أعرف غير سكة دمنهور ، ثم لا أشك أنه تلكأ وراءنا ليغافلنا في طنطا ، ويميل هو إلى الطريق الأخصر ... ...

وزاد الطين بلة أني أحسست ونحن ندخل بنها كأن قدمي قد شكت بمسار محمى ، فصرخت ، ورفعت رجلي ، واضطررت أن أميل بالسيارة إلى الرصيف

وخلعت الحذاء وجعلت أنظر ، وأتحسس قدمي وأفركها ، فقالت أختي :

« ماذا جرى ؟ »

وقال أخوها : « هل أدلكها لك ؟ كلا ، لا بأس ! إذن لم يبق إلا العلاج بالإيحاء . اسمع ! متى قلت : « واحد » فان عليك أن تفرغ رأسك من كل شيء ـ وهذا سهل جداً ولن يكلفك عناء ـ ومتى قلت : « اثنين » فاعتقد أن الألم الذي لا تحسه ، ليس إلا وهماً . . . ومتى . . . »

فصحنا به نسكته ، ولما انقطع اللغط قلت :

« طول الضغط فعل هذا ... على كل حال لا أظنني أستطيع أن أسوق السيارة ، فعليك أن تتفضل وتجلس في مكاني ، وأمرنا إلى الله ، وأرواحنا في وديعته ، وعوضنا الله خيراً ، فقد ذهب الرهان والأمل في كسبه »

فصاحت أختي : « ولكنه لا يحسن القيادة . . . »

قلت : « وما الحيلة ؟ سأجلس الى جانبه ـ وأرشده »

فقالت بنت عمه : ولكنه سيقصر عمرنا . . . »

فقلت : « وماذا نصنع غير ذلك ؟ »

وقالت زوجته : « ولكني أخاف . . . أعني . . . إنه . . . »

فقلت : « إطمئني . . . لا خوف عليه . . . ولا علينا ، إذا كان هذا يمنيك »

فالتفت الينا وقال :

« ان الذي فهمته هو أن هناك اقتراحاً منكم بأن تتمتعوا بقيادتي لهذه السيارة . ... حسن جداً ... فلتبلغ الصحف ، وليذع الشعراء »

فقلت : « إن المسألة لا تحتمل هذا المزح . . . »

وقالت أختي : لا تحتمله أبداً . . . عدني ألا تسرع . . . سر ببطء . . . على مهل . . . ولنصل بعد أسبوع . . . ماذا يهم ؟ واحذر أن تسابق شيئاً . . . »

فقال : « لا تخافي يا نور عيني . . . إذا صادفت في طريق سيارة فاني أعدك أن أعطل المحرك ، وأذهب فأختبىء تحت شجرة »

ودخلت بينهما وقلت : « إن وعداً كهذا لا سبيل اليه ، فان علينا أن نصل إلى القرية في وقت معقول ، إذا لم يكن علينا أن نكسب الرهان ، ثم إني سأكون إلى جانبه وسأرشده ، وسيكون هو السائق اسما ، فقط ، فلا خوف . »

فالتفت الينا ، بعد أن قعد في مكاني وقال : ولكني أشترط أن يكون الارشاد بلغة مفهومة ، أما أن تصيح بي « الهوا » أو « اكسر » . . . فلا يا صاحبي . . . قل كلاماً مفهوماً أطعك ! ولا تقلد ذلك الذي علمني ، وصاح فجأة : « حش . . . حش »

فوثبت عن المقعد ، ولم أدر ماذا أحوش ، ووثب الرجل الذي دعاني معلمي أن أحوش السيارة عنه . . . وعلى ذكر ذلك أقول إني لم أر في حياتي أحداً يثب كما وثب ذاك الرجل يومئذ ! »

فصاحت زوجته ، وهي تنزل من السيارة : « إني لم أكن أعرف هذا الخبر ، ويستحيل أن أدعك تسوق السيارة »

وقعدت على الرصيف

وجعلت أنظر منها اليه ، ومنه إلى بنت عمه ، في صمت ؛ ومضت دقائق كأنها الدهر طولاً ، مشيت بعدها إلى مقعد القيادة وقلت :

« انزل من فضلك . . . فانك مطرود » فنزل وهو يقول :

« ولكن رجلك . . . ثم إن هذا . . . »

قلت : « لا بأس ، سأجرب على الأقل »

فدنت منا بنت عمه ووضعت كفيها على كتفينا وقالت لي

« ألا تدعني أسوق ؟ . . . ربما . . . استطعت . . . »

قلت : « حباً وكرامة ، ولكن كيف يمكن ؟ إنك . . . »

قالت : « لست جاهلة جداً . . . وسأحتاج إلى إرشادك . . . والطريق خال »

فقال : « نعم خال . . . جداً ، إلا من البقر والجمال . . . »

***

وركبنا جميعاً ، وقلت لها : « الآن ضعي ناقل السرعة في . . . براقو . . . انقليه برفق . . . براقو جداً . . . أظن أنه يحسن التأني حتى تبعد عنا هذه السيارة »

فقالت : وهي تحول ناقل السرعة إلى المكان الثالث : « كلا أظن أن الأوفق أن نمر به »

ومرقت كالسهم بجانبه ، فالتفت إليها متعجباً ، فما كنا نعرف أن لها دراية بالسيارات أو خبرة بقيادتها ، ونظرت إلى العداد فإذا هو يشير إلى الخمسين . . . فالستين . . . فرفعت عيني إليها ، فألفيت على ثغرها ابتسامة فاتنة ، وقالت وهي تخطف بالسيارة :

« أظن أن الأمل في الرهان لم يذهب . . . على كل حال « عبده » لا يزال وراءنا »

فقالت أختي : « لا وراءنا ؟ من قال هذا ؟ لقد مرق وأنتم واقفون . . . رأيته بعيني »

فعدنا إلى اليأس بعد أن كاد ينتعش الأمل ، ولكن الفتاة قالت :

« هذا أحسن . . . خيراً صنع . . . وأنا الآن مطمئنة »

قلت : « ولكن كيف ؟ أليس قد سبقنا ؟ »

قالت : « ستري . . . معنا الله »

***

وشارفنا طنطا ، ولحنا سيارة « عبده » ، فتباطأت ، وأبت أن تسبقه كما أشرت عليها ؛ فلما صرنا في قلب المدينة ، اغتنمت فرصة الزحام ، وتركته يمضي في طريق ، وضربت هي في طريق غيره ، وأطلقت للسيارة العنان

وقالت بعد أن خرجت إلى السكة الزراعية : « إنه يعتقد الآن أننا وراءه ، واعتقاده هذا ربح لنا ، وبقي أن نغالط ونأخذ طريق دمنهور »

فسألتها : « ولكن من أدراك أنه لم يسبقنا ؟ »

قالت : « كلا . . . إن طريقي أخصر جداً . . . كن واثقاً »

ومضينا على سكة دسوق ، وكنا لا ننفك نلتفت وراءنا لعلنا نرى سيارة « عبده » ، فلما طال ذلك علينا أيقنا أنه أخذ طريق دمنهور ، فقد كان في وسعه أن يدركنا بسهولة

وسكة دسوق ضيقة كما أسلفت ، وكانت إلى هذا كثيرة الزحاليق ، وكانت السيارة لهذا تتلوى على المواضع البليلة ، كالحية ، ولكن سائقتنا كانت حاذقة ، فسكن روعنا جميعاً ، ووسعنا أن نضحك ونمزح

وقلت لها — همساً — : « إني أحس غيرة . . . هنا »

وأشرت لها إلى موضع القلب فابتسمت وقالت : « لماذا ؟

قلت : « لأن على جبينك خصلة صغيرة جميلة يداعبها النسيم — أعني يقبلها — علناً وعلى مرأى منا جميعاً — وهذا . . . هذا . . . تخجل . . . فعسى ألا يعديني بالجرأة »

فتكلفت الجد وقالت : « إذا فعلت ، فسأمضي إلى هذه الترعة . . . مباشرة »

فهمست : « هش . . . لا تمزحي . . . إنها مسائل لا تحتمل المزح . . . ومن يدري ؟ ؟ فقد تصيبك العدوى . . . ثم إنك لن تحسني التعبيس ما دام لك هذا المحيا الواضح الذي يضيئه الجمال ، ويضحك فيه أيضاً »

فلوت موجه السيارة بلا كلام فصاح ابن عمها :

« إلى أين بنا يا هذه ؟ »

قالت بابتسام : « الى الترعة . . . إذا لم يسكت »

قال : « إذا كنت تريدين أن تستحمي فان في البيت الذي نرجو أن نبلغه سالمين حماماً بديعاً ، ولكن بغير ماء ! على كل حال ، أظن أن جارك مستعد أن يملأ لك الجرار ، ويصبها عليك أيضاً »

قالت : « إذا وعد بأن يكون حسن السلوك . . . »

واستأنفنا السير بسرعة ، ويطول بنا الحديث إذا أردت أن

أبرد ما عانيناه من الغنم والبقر والجمال والسيارات ؛ ولكن حادثاً واحداً وقع لنا لا أرى بداً من ذكره ، ذلك أنا وقعنا فى وحل عظيم ، ولم يكن لنا مفر ، ولا كان لنا مهرب ، فقد كنا مقبلين بسرعة فاذا أمامنا — وإلى مسافة طويلة — ماء وطين ووحل شديد فارتطمنا فيه قبل أن ندرك ما حدث ، وصارت العجلات تنزلق دائرة ولا تتقدم ، فأوقفت المحرك وقالت :

« هل مع أحد منكم سيجارة ؟ »

وأشعلتها ، ونفخت دخانها ثم قالت :

« هذا أوان الحاجة إلى الرجال . . . فاخرجا ، وابحثا عن قش تلقيانه تحت العجلات ، أو اجرفا الطين أمامها وشقا لها طريقاً »

فقال ابن عمها : « هذا بديع . . . لقد تركت أظافرى تطول لمثل هذا اليوم . . . قم بنا يا أخى »

ولكنا فعلنا غير ذلك ، ودعونا أحد الفلاحين إلى معونتنا ، ففزع فاجتمع حولنا نفر من الرجال والنساء ، أعملوا أيديهم فى الطين حتى رفعوه من طريقنا ، فشكرنا لهم مروءتهم ومددنا لهم أيدينا بنقود ، فأبوها كل الاباء ؛ وقال الذى جمعهم : « عيب يا افندى » فألححنا ، فأصر على الإباء ، وعلى أن هذا عيب ، فكررنا له الشكر ، وصافحناه ثم نظرنا فى أيدينا فاذا كلها طين ! فاستحيينا أن نقول شيئاً على مسمع منه

***

بلغنا البيت قبل صاحبه وقبل الوعد المضروب بنحو ربع ساعة ، وكان الفضل لهذه السائقة البارعة التي كنا نجهل أن هذه من مزاياها ؛ ولما أقبل مضيفنا بعد دقائق قال له نسيبى :

« ليكن هذا درساً لك . . . هات الرهان »

قال : « ولكن من أين جئتم ؟ » » ثم كأنما تذكر فرفع يده إلى جبينه وصاح : « ما أغبانى ! » فقال نسيبى : « تمام . . . اعرف نفسك . . . هكذا قال الحكماء . . . وهذا هو ربحك اليوم . . . وأولى أن تسأل كيف جئنا . . . حدثه يا هذا ، فان بى كسلاً بعد الذى تجشمته من متاعب القيادة »

فصحنا به منكرين هذا التكذب . . .

ابراهيم عبد القادر المازنى

حول السنيين والشيعة

للأستاذ محمد بهجة البيطار

قرأت ما كتبه العلامة الأستاذ أحمد أمين فى الرسالة الغراء (عدد ١٢١) تحت عنوان (السنيون والشيعة) فرأيته يدعو إلى نبذ كلام الطاعنين من الفريقين ، وإلى عقد مؤتمر للوحدة الاسلامية ، تمهد له بالتماس وسائل الوفاق من الآن ؛ ولعمرى أن السنة والشيعة هما أكبر مظهر للمسلمين اليوم ، وهم المرجوون لوراثة تلك الوحدة الدينية ، وتجديد ذلك المجد الدارس علماً وديناً وأخلاقاً ؛ وإن أضر شيء علينا هو هذه العصبية الموروثة ، والعداوة المقوتة ، والتفرق الديني الذميم ، « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء »

أيها الشيعة الكرام : تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أنتم تحبونها منا وهى تسرنا منكم ، وهى أن نأخذ بأدب سيدنا على وهديه ، ونقف من محاربيه عند حدود أمره ونهيه ، وان لم تتجاوزوا قوله ولا فعله ، فأهل السنة منكم ، وأنتم منهم وهم منكم ، وهاهى ذى أقواله وأعماله تعرض عليكم : لقد بايع الامام على للأئمة الثلاثة من قبله ، وتنازل ولده الحسن عن الخلافة لمعاوية من بعده ، وأصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين طبقاً لما أخبر جده الصادق الأمين عليه وآله الطاهرين وصحبه الطيبين أفضل الصلاة والتسليم :

فى نهج البلاغة أن علياً عليه السلام سئل عن الخوارج : أكفار هم ؟ قال من الكفر فروا ؛ قيل : أفمنافقون ؟ قال : المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ؛ قيل فما هم ؟ قال قوم بغوا علينا فقاتلونا وقاتلناهم . وفى نهج البلاغة أيضاً أنه عليه السلام قال وقد سمع قوماً من أصحابه يسبون أهل الشام أيام حربهم بصفين : « إنى لأكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم ، وذكرتم حالهم ، كان أصوب فى القول ، وأبلغ فى العذر »

أقول ومما لوم من حال أهل السنة أنهم يقصرون ماجرى بين

أثر تشجيع الأمراء

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ فخري أبو السعود

نالت الآداب العربية من تشجيع الأمراء في مختلف العهود مالم تكد تظفر به آداب أمة أخرى ؛ ومن الأقوال المتواترة في كتب الأدب العربي وتاريخه أن ذلك التشجيع كان من أهم أسباب ازدهار الأدب ، ولكن الحقيقة التي يراها المدقق أن ذلك التشجيع لم يكن له ذلك الأثر الطيب المعزو إليه ، بل كان له في الأدب العربي أثر وخيم بعيد المدى

ذلك بأن الأمراء حين شجعوا الشعر وقربوا الشعراء وأغدقوا عليهم لم يقصدوا إلى تشجيع الفن لذاته أو إكرام أصحابه ، وإنما كانت لهم غاياتهم الشخصية ومآربهم السياسية المعروفة ، فكانوا يريدون من أولئك الشعراء التزكية وإعلاء الصيت ومناضلة أعدائهم والذب عن دعواهم في الملك والسيادة ، ولذلك لم يطلبوا عندهم سوى فن واحد من فنون الشعر هو المدح ، ولم نعلم عن أمير أجاز شاعراً لنبوغه في الوصف أو النسيب أو قول الحكمة وضرب الأمثال

فالشعر الذي شجعه الأمراء هو المدح دون غيره ، وليس المدح بخير فنون الشعر ولا هو من الشعر على الاطلاق لمن طلب في الشعر تعبيراً عن شعور صادق قيم ؛ وما كان المدح الذي أنشأه أولئك الأمراء في الشعر العربي إنشاء لا نظير له يحوي شعوراً صحيحاً ولا تفكيراً مستقيماً

إن أول خصائص الشعر الجيد صدوره عن دافع وجداني داخلي ، وهذه صفة كانت تنقص شعر المدح الذي كان لا يصدر إلا عن دافع مادي خارجي هو صلة الممدوح ، وإن لم يحس الشاعر بحب له ولا إعجاب به ، حتى ولو أضمر له البغض والازدراء . فلا غرو ، وقد فقد شعر المديح هذه الصفة الأساسية أن خالطه الكذب وأسرع إليه التهويل والمبالغة والتهافت والاسفاف والاحالة ، وأغرى معالجيه بسد نقص الشعور بالتلاعب باللفظ واصطناع محسناته ، وأولعهم بالسرقة من متقدميهم وتعاور معانيهم توليداً وتخريجاً وابتذالاً ، حتى لم تعد غاية قرض الشعر التعبير عن الشعور الصحيح — لأنه لم يكن هناك في الغالب شعور — بل عادت الغاية إبداء البراعة ومعارضة المتقدمين واستدرار أكبر الصلات

وشعر المديح استتبع ضرباً آخر من الشعر ليس أقل منه حطة في المرتبة وبعداً عن أغراض الشعر الصحيح ، وهو الهجاء : لأن إرضاء الممدوح كان يستتبع ذم خصومه ، ولأن المادح الخيب كان ينقلب في الغالب هاجياً مفحشاً لممدوحه أو للشاعر الذي زاحمه ونال الحظوة دونه ، ولأن بعض الأمراء كان يشجع تراشق الشعراء ببذيء القول شغلاً لأذهان الناس ، وكان من ثمار هذه الخطة مقذعات جرير والفرزدق والأخطل

واستتبع شعر المديح ضرباً آخر من النظم بعيداً عن الشعر الصحيح والشعور المستقيم امتلأ أيضاً بأنواع الاغراب والاغراق

الصحابة (رض) ويصفون أعمالهم ، ويذكرون حالهم ، ويرون أن الحق في جانب علي عليه السلام ، وأن محاربيه هم الفئة الباغية على الامام الحق ، وهم المخطئون في اجتهادهم ، ولكنهم يؤولون التشاجر بينهم تأدباً واحتراماً لصحبتهم ، وحفظاً لكرامتهم ، وحسن بلائهم في نشر الدعوة الاسلامية ، ويقولون : الكل ينشدون مصلحة الاسلام

أيها الاخوان الكرام : أليست الدعوة إلى عقد مؤتمر يعيد الوحدة الإسلامية على هذا الأساس الديني ، السُّني العلوي هو المطلوب ولا سيما في هذا الزمن المصيب ؟

فنحن نعزز رأي الأستاذ الجليل أحمد أمين ، ونرجو أن يعقد مؤتمر في الكنانة أو في دار السلام تزول به تلك الاحن ، وتحول تلك المشاحنات إلى ما يعود على الأمة بالنفع العام من توحيد الكلمة ، وتقوية الملة ، وانشاء دور العلم المشتركة ، واحياء ذكرى أئمة آل البيت عليهم السلام بتجديد هديهم واصلاحهم

(دمشق) محمد بهجة البيطار

والإسفاف ، ذلك هو النسيب الابتهالى الذى التزمه الشعراء المدّاحون من أهل الحضر تشبها بالمداحين من الجاهليين وإمعاناً فى تقليدهم.

وكل هذه الرذائل التى تجمعت فى شعر المديح - لخلوه من الدافع الوجدانى والشعور الصادق - انتقلت إلى ضروب القول الأخرى ففشت فى الشعر كله عيوب التقليد والمبالغة والصناعة اللفظية ومحاولة إبداء البراعة.

واسترقّت هبات الأمراء - للأسف الشديد - رقاب معظم أقطاب الشعر العربى ، فلم ينزّه شعره عن طلبها إلا القليل جداً ممن أبت لهم ذلك ظروف خاصة ، كالشريف الرضى وأبى العلاء ، وأضيع جانب ضخم من عبقريات أبى نواس والطائى والبحترى وابن الرومى والمتنبى وغيرهم من الفحول فى نظم الأكاذيب والمفارقات طلباً لجوائز الأمراء ، فكان من أقوال هؤلاء الفحول :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ... ثناها لقبض لم تطعه أنامله

تكاد عطاياه يجن جنونها ... إذا لم يعوذها بنغمة طالب

وقد زعموا أن النجوم خوالد ... ولو حاربته ناح فيها الثواكل

وكشفن عن بَرَد خشيت أذيبه ... من حر أنفاسى فكنت الذائبا

والمتأمل لهذه الأبيات يرى إلى أى حد من تفاهة المعانى وكذبها واستحالتها قد خرج المديح بالشعر وبفحول الشعر ؛ بيد أن النُّقّاد انساقوا فى ذلك التيار ، فعدّوا هذا السفساف من غرر أولئك الشعراء وراحوا يقابلون بين هذه الأقوال ويفاضلون بين قائليها ، والأديب الذى يريد من الشعر التعبير الصادق عن الشعور الصحيح لا يرى لأحد من قائليها فضلا بل يحذفها من عداد الشعر جملة

ولو أعرض أولئك الشعراء عن تلك السبيل وقصروا القول على بيان شعورهم الصحيح وأفكارهم الصادقة وتوفروا على الفن الذى حببهم به الطبيعة جاعليه غاية لنفسه ، إذن لربح الشعر العربى ربحاً جزيلا ولتّسعوا من أغراضه وأوضاعه ورحّبوا من أطرافه وآفاقه

هذا أثر تشجيع الأمراء للشعر وصلاتهم للشعراء : إدخال لفارغ القول وكاذبه وسفسافه ، وإزاغة للنظرة إلى الغرض منه ، وتقييد لأغراضه ومذاهبه ، وقعود بهمم رجاله عن استيفاء غاياته ، وصرف لهم عن جدّ التفكير ونافعه ؛ ولو أراد الأمراء بالشعر خيراً لكفّوا عن رجاله صلاتهم فطاب الشعراء الرزق من أبوابه التى يطلبه الناس منها ، وتجنّوا الشعر عن المادة ، وأبقوه كما يجب أن يبقى ترجماناً لمشاعر النفس ووصفاً لروائع الكون فجاء الأدب العربى أشد انطباعاً بطابع الصدق مما كان

لم يكن للأدب الانجليزى - لحسن حظه - مثل هذا الاتصال الوثيق ببلاط الأمراء ، ولم يتخذ حلية من حلى القصور وآلة من آلات السياسة إلا فترة وجيزة فى أواخر القرن السابع عشر خالطه فيها الضعف والاستهتار والمجون والإلحاح ، ثم كانت للأدباء بالنبلاء فى بعض القرن الثامن عشر صلة ، ولكن شتان بينها وبين صلة من تقدم ذكرهم من الشعراء بالأمراء من العرب : كان الأديب يؤلف فيما عنّ له ونال اهتمامه من موضوع ثم يهدى كتابه عند نشره إلى النبيل الذى يتولاه برعايته ، وليس فى هذا ضرر يقاس بالأضرار التى تقدم ذكرها فى الأدب العربى

وقد نشأ منصب شاعر الملك فى انجلترا منذ زمان ، ولكن الشعراء الذين شغلوه لم يترفوا على الملوك توفر شعراء العربية ، ولم يشغل المنصب من كبار الشعراء إلا القليل ، وكان اختيارهم للمنصب تقديراً صحيحاً لسالف جهودهم فى عالم الأدب ، ولم يكن ماقالوه بصفتهم شعراء الملك بخير ما قالوا ، ولم يكن بالكثير ، ولم تزل وظيفة شاعر الملك تتضاءل حتى صار المنصب اسمياً فخرياً لا أكثر

وقد جاء الأدب الانجليزى لخلاصه من لوثة تشجيع الأمراء - أو بالأحرى تسخير الأمراء - وزلفى الأدباء اليهم حرّ النزعة طليق الفكرة بعيد المرمى صادق التعبير ، يعبر عن إحساسات الفرد ويترجم عن عواطف الجماعة ، وانفسحت أمامه الآفاق إذ خلا من القيود ، فتعددت أغراضه وتكاثرت أوضاعه ، إذ كانت وجهته دائماً وجهة كل الفنون الرفيعة : التعبير الجميل عن شعور الانسان الصحيح بروائع الحياة ، بعيداً عن ذلك الغرض المادى الدخيل الذى تعثر الأدب العربى فى قيوده طويلاً

فخرى أبو السعود

٣ - معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي
رئيس أركان حرب الجيش العراقي

ثانياً — الأوربيون والأحباش

وفى نهاية القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر احتك الفرنسيون بالأحباش على عهد ملكهم « ياسو الأول » الذى أرسل سفيراً حبشياً إلى بلاط الملك لويس الرابع عشر . وفى سنة ١٧٠٥ أرسل الفرنسيون المسيو دول سفيراً إلى الحبشة وتشجع الرهبان اليسوعيون الفرنسيون على الذهاب إلى بلاد الحبشة وأخذوا يحلون محل الرهبان اليسوعيين البرتغاليين

ولما مات ياسو الأول ثار الأهلون وقتلوا رجال السفارة الفرنسية ، وأراد خلفه أن يحمى اليسوعيين فلم يوفق ؛ وحدثت اضطرابات داخلية فى المملكة استمرت مدة طويلة فاستفاد الصوماليون والغالا المسلمون من ذلك وهجموا بقوات كبيرة على بلاد الحبشة فتوغلوا فيها وأمعنوا فيها قتلاً وتخريباً . والذى زاد الطين بلة أن الرهبان الكاثوليك أرادوا الاستفادة من هذه الاضطرابات وسعوا سعياً حثيثاً لاستمالة الأحباش إلى مذهبهم طالبين منهم أن يتركوا المذهب اليعقوبى . وفى سنة ١٨٣٨ استولى رأس مقاطعة شوعا على العرش فأصبح ملكا على البلاد وعقد معاهدة مع الفرنسيين

ثالثاً — تصرفات الدول المستعمرة

فى سنة ١٨٥٥ استولى « عالى » أحد أغنياء الغالا على مملكة شوعا ونصب نفسه ملك ملوك الحبشة . ولم يوطد عالى حكمه فعلاً فى البلاد فاستفاد صهره من الموقف فأصبح عاهلاً على جميع بلاد الحبشة باسم « تيودوروس الثانى » بعد أن استمال قبائل الغالا والأمحرة والتيجرى إلى جانبه ونقل عاصمته إلى أنكوبار ولبس تاج الملك فى القاعدة الدينية « أكسوم » أعلن ذلك على أوربة وغدا ملك ملوك الحبشة . ولم يكن تيودوروس من سلالة الملوك ؛ وكان الملك الشرعى « هاتيلو ملكوت » ملك شوعا ووالد « ساهلا لا مريام » (منليك الثانى المنتظر) وتغلب تيودوروس على هذا الملك وعامله باحسان

ومن الأمور الاصلاحية التى قام بها الغاء المخصصات التى كان يتمتع بها الرؤوس بالارث فلقى معارضة منهم واستطاع أن يقهرهم . وعاكسه الرهبان فتغلب عليهم ، ولما علم بأن الرؤوس اجتمعوا فى قصر خلسة ليدبروا ثورة عليه ذهب بنفسه إلى القصر المذكور وباغتهم وقتلهم جميعاً ماعدا الأمير الصغير (ساهلا لا مريام) الذى استطاع أن ينجو بنفسه فاراً

وفى دور الاضطراب كان ملوك الحبشة قد حرموا على الأجانب دخول بلاد الحبشة ، بيد أن تيودورس ألغى هذا التحريم زاعماً أن دخول الأجانب الحبشة يفيد أهل البلاد . فأرسل وفوداً إلى ملكة انكلترة فكتوريا وإلى امبراطور فرنسا نابليون الثالث وكلف هذا الأخير بتجديد المعاهدة المعقودة سنة ١٨٤٨

وكان البريطانيون قد أرسلوا قنصلاً إلى الحبشة إلا أنه قتل فى الاضطراب الذى حدث فى سنة ١٨٦٠ . وفى سنة ١٨٦٢ أوفدت ملكة بريطانيا قنصلاً مع الهدايا ، كما أن نابليون الثالث أيضاً أوفد قنصلاً

ولما رأى البريطانيون أن تيودوروس لقى مقاومة فى الداخل وأن جيشه أخذ يضعف بالحروب المدبرة لم يميلوا إلى الاعتماد عليه ، لذلك لما أراد إرسال سفير إلى انكلترة لم يلب طلبه فضلاً عن أن القناصل البريطانيين أخذوا لا يعبأون به

واشترى الفرنسيون جزائر دسس وزولا فى سنة ١٨٥٩ وميناء عبق فى سنة ١٨٦٢ وجعلوها قاعدة لتموين بواخرهم بالفحم ، وأراد تيودوروس أن يرسل سفيراً إلى فرنسا فلم يتلق جواباً من امبراطورها . ولما اطلع على مخابرات القناصل اغتاظ من الأوربيين جميعاً وحبسهم فى قلعة « مجدلة »

فأرسل البريطانيون فى سنة ١٨٦٤ وفداً برآسة المستر هرمز رسام[1] ليطلق سراح الأجانب ، إلا أن تيودوروس امتنع وحبس رئيس الوفد أيضاً ؛ فلما رأى البريطانيون ذلك وسطوا الخديو اسماعيل باشا فأرسل كتاباً إلى ملك الحبشة ولكنه لم يتلق جواباً عنه

---

(١) أحد الموصليين الذين عاونوا البعثات الأثرية الانكليزية فى الحفريات فى العراق

وفي سنة ١٨٦٦ ترك العثمانيون ميناءى مصوع وسواكن لخديو مصر فأصبحتا بعد ذلك من الممتلكات المصرية ، وأضاف المصريون اليهما منطقة زولا أيضاً

واستفاد البريطانيون من هـذا الحادث فقرروا الحملة على الحبشـة فجهزوا جيشاً في بمبي بقيادة السير روبرت نابر بقوة (١٦٠٠٠) جنـدي وأنزلوها في زولا . وساعد الخـديو البريطانيين في هذه الحركة وأمر محافظ مصوع بالمساعدة ، كما أنه كلف أسـطوله في البحر الأحمر بأن يكون بجانب البريطانيين وأمدهم بالسفن النقلية ، وقوى البريطانيون هـذا الجيش بجنود أهليين وجهزوه بالوسائط النقلية فبلغت قوته (٤٠٠٠٠) جندي

ومال بعض رؤوس الأحباش إلى جانب البريطانيين فلم يساعدوا ملكهم على القتال وامتنع رأس شوعا من إرسال الجند . أما رأس تيجرى فاتفق مع البريطانيين الذين طمأنوه قائلين له إنهم لا يقصدون الاستيلاء على الحبشـة وإنما جل ما يريدونه خلع تيودوروس وتنصيب رأس تيجرى بدلاً منـه وأنهم سوف ينسحبون بعد ذلك

وساعد هـذا الاتفاق على حركة الجيش فتقدم من طريق (سنافة — أدجرات — مكللو — انتالو) ووصل إلى أمام حصون مجدلة ؛ ولما خبطت مساعي تيودوروس لاستمالة الرؤوس إلى جانبه التجأ إلى حصون مجدلة ولم يكن لديه سوى ٧٠٠٠ جندي وستة وعشرين مدفعاً

وفي ١٣ نيسان سـنة ١٨٥٨ احتل البريطانيون حصون مجدلة واستمر تيودوروس على المقاومة في آخر حصن ، ولما تيقن من أن المقاومة لا تجدى نفعاً مات منتحراً

فأخذ البريطانيون تاج تيودوروس ومعطفه الملكي وحفظوهما في المتحف البريطاني في انكلترا ، وأعادوهما إلى الرأس تفرى لما زار انكلترا في سنة ١٩٢٤ . وانسحب الجيش البريطاني بعد أن أطلق سراح الأسرى الأجانب وأخذ معه ابن تيودوروس رهينة خشية أن ينتقم لأبيه وأرسله إلى انكلترا فمات فيها

وفي الملاقاة التي تمت بين قائد الجيش البريطاني ورأس تيجرى أهدى السير روبرت نابر ٩٠٠ بندقية إلى الرأس مكافأة له على صداقته

بعد أن بقى هذا الأمير في الأسر سبع سنوات هرب من منفاه ، وكان عمره إذ ذاك اثنتى عشرة سنة ، ودخل مملكة أبيه شوعا . وبعد جادثة مجدلة أعلن استقلاله فحذا حذوه رأس أمحره ، واستقل الغالا ببلادهم وأخذوا يغيرون على بلاد الحبشة الداخلية جرياً على عادتهم . وهكذا تجزأت المملكة الحبشية التي استطاع تيودوروس أن يجمع كلها ويؤلف منها مملكة كبيرة في مدة قصيرة

أراد رأس تيجرى كاسيا أن يملك البلاد ويوحدها فتحرك على رأس جيشه البالغ ١٢٠٠٠ جندي فتغلب في عدوى على جيش رأس أمحرة البالغ ٨٠٠٠٠ بفضل البنادق التي أخذها من البريطانيين

وفي سـنة ١٨٧٢ أعلن نفسه امبراطوراً على الحبشة باسم « يوحانس السادس » وبعد اثنتي عشرة سنة تفاهم مع رأس شوعا وزوج ابنه من ابنته . وكان من نتيجة ذلك أن أصبح ساهالا مريام حاكماً على مقاطعة شوعا وجميع بلاد غالا ، وذلك ما ساعده بعد ذلك على توحيد المملكة والقبض عليها بيد من حديد فاعترفت باستقلالها الدول الاستعمارية مرغمة

رابعاً — المصريون والأحباش

وبعد تتويج يوحانس في أكسوم شرع الخديو اسماعيل باشا في التأهب للزحف على الحبشة جاعلاً سواكن ومصوع قاعدتين لحركته . ولعله كان يطمع في ضم مقاطعة هرر التي يكثر فيها المسلمون إلى أملاكه والاستيلاء على منابع النيل الأزرق ، أو أنه فكر في أن توسع الحبشة وتقوية جيشها مما يضر بمصالح المصريين ويجعل بلاد السودان معرضة للغارات ، أو أن الدول الطامعة في بلاد مصر أرادت أن تشغل الجيش المصري القوي بالفتوح في الحبشة وتقضى عليه بالتدريج ، ويجوز أن رغبة الخديو الشخصية كانت ترمى إلى التوسع . والظاهر من مجرى الأحوال أن توجيه المصريين أنظارهم إلى الحبشة قربت النكبة التي أصابت المصريين بعد ذلك

ولا شك في أن تجهيز الجيوش وارسالها على التعاقب مما أحرج الموقف المالي الذي ساء من جراء بذخ اسماعيل باشا

وفي سنة ١٨٧٢ أنزل المصريون جيشهم إلى سواحل الصومال في زيلع ، وتقدموا نحو مقاطعة هرر ، ودخلوا شوعا ، إلا أن الرأس ساهالا مريام أجلى الجيش المصري عنها وقضى عليه بالقرب من بحيرة « أوسة »

وفي سنة ١٨٧٤ احتل المصريون هرر وأنزلوا جيشاً بقوة ١٤٠٠٠ في مصوع ، فتقدم نحو عدوى ، فتظاهر رأس تيجرى في بادىء الأمر بالولاء له ، وفي ليلة ظلماء باغته من كل جهة وقضى عليه ، فلم يفلت منه إلا النزر القليل

وفي سـنة ١٨٧٦ أراد الخديو أن ينتقم من الأحباش ،

فجهز جيشاً بقوة ٢٠٠٠٠، وناط قيادته بابنه الأمير حسين باشا وأنزله في مصوع؛ ولما تقدم قابله الأحباش بقوة ٢٠٠٠٠٠ جندي، وفي المعركة التي نشبت في جرة انكسر الجيش المصري بعد أن خسر ١٣٠٠٠ رجل، فوقع الأمير حسين باشا في الأسر مع هيئة أركانه، ولم يخل الأحباش سبيلهم إلا مقابل فدية من المال

والغريب في هذه الحركات أن الأجانب كانوا يتولون قيادة الجيش كأن المصريين من أهل البلاد لا يستطيعون القيادة، بينما التاريخ يشهد لهم ببراعتهم في ذلك، فالجيش الأول كان قائده مونزنجر باشا، وكان يقود الجيش الثاني ضابط دنمركي الأصل، أما رئيس أركان الجيش الثالث وأركانه فكانوا أميركيين

وفي الوقت ذاته كان المسلمون في السودان بقيادة المهدي يهاجمون الحبشة من الشمال، فدخلوا جوندار وأحرقوها، وكان من أمر ذلك أن أرغم يوحانس المسلمين القاطنين في الحبشة على الخروج منها، وأدى ذلك إلى هجرة كثير من المسلمين من الحبشة بعد أن كانوا متنعمين فيها، فتشتتوا هنا وهناك؛ أما الذين بقوا فيها فاضطهدهم الأحباش حتى اضطر بعضهم إلى التنصر. ولو لم ينزل الطليان إلى الساحة الاستعمارية في بلاد الحبشة لظل المسلمون مضطهدين؛ إلا أن محاولة الطليان التوغل في بلاد الحبشة اضطرت ملوك الحبشة إلى التساهل مع المسلمين تمهيداً لتوحيد المساعي إزاء هذا العدو الجديد

وبعد أن احتل البريطانيون أرض مصر لم يتدخلوا في الحروب التي وقعت بين السودانيين والأحباش. ولكي ينتقم يوحانس لوقعة جوندار جهز جيشاً كبيراً وتقدم على رأسه نحو قوات المهدي، وفي المعركة التي وقعت في متمة ١٣ آذار أواخر (مارس) سنة ١٨٨٩ وقع جريحاً ومات فانكسر جيشه

والحقيقة أن قيام المهدي وبسط نفوذه على السودان وانتصاره على الأحباش جعل البريطانيين يفكرون في العاقبة، لأن القوات البريطانية والمصرية وحدها لم تكن كافية للتغلب عليه

ولعل نزول الطليان إلى الساحة كان بتشويق من البريطانيين للتغلب على المهدي من جهة ولمشاغلة الحبشة بقوات جديدة من جهة أخرى لكيلا تسيطر دولة قوية على مياه النيل فتهدد مصالح البريطانيين المتوقعة في السودان

(يتبع)

طه الهاشمي

مذاهب الفلسفة

المذهب الطبيعي *

للأستاذ زكي نجيب محمود

هو ضرب من ضروب الفكر ونحو من أنحاء النظر، لا يذهب في بحثه وراء حجب الطبيعة وأستارها، بل يحصر نفسه في نطاق الطبيعة وحدها، يتقصى بالنظر ما شاء من وجوهها، ثم يقنع بهذا فلا يعدوه قيد أنملة. عنده أن الحقيقة التي لا حقيقة بعدها هي هذه الطبيعة التي تراها بعينك وتلمسها بيديك، هي هذه الأرض وتلك السماء وما بينهما من أحياء وأشياء؛ أما أن تبعثك الطُّلَعة فتحاول أن تنفذ ببصرك إلى ما وراء ذلك، زاعماً أن ما تدركه الحواس عبث باطل، وأن الحقيقة الخالدة هي شيء مستور وراء هذه الحجب الصفيقة، فخداع وجهل في رأي هذا المذهب، إذ يرى أشياعه أن الطبيعة لا تبطن شيئاً وتظهر شيئاً آخر، بل ها هي ذي قد عرضت بضاعتها لمن شاء تحت السمع والبصر، وهي تسير وفقاً لقانون صارم حازم لا يشذ ولا يلين، فهو يسيطر بقوته على الكون بكل ما يحوي بين دفتيه؛ ثم ينهانا أتباع هذا المذهب أن نلقي بالاً إلى ما قد يزعمه الزاعمون أن هنالك فوق الطبيعة حقيقة خالدة يدركها الفكر وتقصر عن إدراكها الحواس، فهم لا يصدقون أن يكون ثمت غير ما نرى أو أن يكون في الطبيعة شيء لا يخضع لقانونها خضوع الجماد الصامت، ولا يستثنون من قاعدتهم الانسان بكل ما فيه من حياة وفكر وخيال لأنه في رأيهم هباءة في يد الطبيعة تطوح بها يمنة أو يسرة كيف شاء لها قانونها الجبار، وإن الانسان ليخدع نفسه حين يوهمها أنها أرفع من الجماد منزلة وأسمى مقاماً؛ فإن اعترضت على رجال المذهب الطبيعي بأن قانون الطبيعة لا يفسر كل شيء، وأن هنالك آلافاً من الحقائق التي تنتظر الشرح والتعليل أجابوك أن ذلك رهين بالعلم وحده، فلن يفتأ العلم يجد في كشفها ويسعى، ولن تزال هي تبدو في ضوئه واحدة في إثر واحدة

(*) يحتاج بعض ذوي العقول الضعيفة أن ننبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها، وبديهي أنها لا تعبر لكاتبها عن رأي خاص

وينقسم المذهب الطبيعي الى شعب تتعدد بتعدد إدراك الانسان لماهية المادة التي تملأ الكون ؛ فان رأيت أن قوام الطبيعة ذرات مادية تتحرك في المكان ، وأن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة لا تعدو أن تكون مجموعة متراكبة من تلك الذرات فذلك هو المذهب المادي ؛ وإن اعتبرت المادة نفسها ضرباً من ضروب الطاقة والقوة ، فذلك هو المذهب الطاقي Energism ؛ وأما إذا غضضت البصر عن أصل المادة الأولى ، ونظرت الى الحقائق كما هي ، مرتبطاً بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول ، فذلك هو ما يسمى بالمذهب الوضعي . . . وكثيراً ما يطلق اسم « المادية » على هذه الشعوب كلها . لأنها مهما اختلفت فهي لم تزد على أن تناولت ظواهر الطبيعة المادية بالشرح والتعليل

وإن هذا المذهب الطبيعي ليبلغ أقصى قوته حينما يقف موقف الانكار والرفض بازاء ما يتعلق به الانسان من صنوف العقائد وضروب الخيال ، فهو لا يتردد في أن يتناول الأديان بكفه الباردة فيسحقها بين أنامله ، لأنه لا يرضيه أن ينظر الى الأشياء والحقائق نظرة مجردة عارية من كل ما ألبسها الانسان من زخرف العقيدة وطلاء الخيال ، فبقذفة واحدة ألقى في اليم كل ما أنتج الفكر البشري من آراء عن عالم الغيب المجهول ، ولعله بذلك قد كفى نفسه مؤونة البحث في هذا المطلب الشاق العسير

ومادام هـذا المذهب الفلسفي قد رفض عالم الغيب رفضاً قاطعاً ، فهو إذن لا يعترف بالله إلا أن يكون ذلك هو الطبيعة نفسها ، أو الانسانية ، أو ماشئت من ظواهر الكون المحسوس ؛ وهو كذلك لا يقر الخلود إلا إذا قصد به آثار الانسان الخالدة وظهوره في أعقابه وما إلى ذلك من ضروب البقاء ؛ أما أن يذهب الظن بالانسان أنه باق بعد الحياة بقاء روحانياً فوهم خاطئ في رأى هذا المذهب ، إذ ما بقاؤه وهذا جسده قد تبدد أشتاتاً فكان منه الشجر والحجر ؟ ستقول إنه باق بروحه دون جسده ، ولكن ما هو ذلك الروح ؟ أهو جزء من الطبيعة أوعنصر شاذ لا يستقيم مع مادتها ولا يخضع لقانونها ؟ اللهم إن كان هذا فلا روح ، لأنه ليس في الطبيعة إلا الطبيعة نفسها !

وهـذه الطبيعة تسير وفق سنن معروفة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ، فلكل ظاهرة من ظواهرها أسباب لا بد أن تنتج مسبباتها ، دون أن تحول بينها وبين ذلك معجزة أو خارقة ، ودون أن يكون في مقدور الانسان أن يغير من مجراها بما يزعم لنفسه من إرادة حرة ، فليس الانسان حراً فيما يفعل وفيما يترك ، إنما هو آلة مجبرة على السير في طريق رسمتها له الطبيعة كما رسمتها للأنهار والأشجار والأحجار والكواكب وسائر ألوان الجماد . ولكن الانسان المغرور كثيراً ما يلقي في روعه نفسه أنه حر التصرف برغم أنف الطبيعة ، فيقول مثلاً : إني لم أقرر بعد ماذا أصنع في كذا وكذا ، ونسي المسكين أن مجموعة الذرات التي تتكون منها مادته قد قررت له ما يصنع — جهل بذلك أو علم — ولم تكن فيما قررت بمعزل عن سائر الكون ، بل اشتركت في تقريره مع العالم كله ، مع الطبيعة بأسرها . فخفف من غلوائك أيها الانسان ، واعلم أنك لا بد فاعل ما أريد لك أن تفعله ، إذ ليس لك عن فعله منصرف ولا محيص

ومن منا لا يلوى شفتيه من الغضب ، كلا ، بل من ذا الذي لا يبتسم ساخراً من هذا المذهب الذي يريد أن ينتزع من الانسان أعز جوانبه وأنفس عناصره ؟ إنه يريد أن يسلبه إرادته فاذا هو صخرة تنحدر من قمة الحياة إلى واديها مدفوعة بقوة القانون ! وليس له أن يقف حيث شاء ولا أن يسلك من السبل ما يشاء !

كيف أكون مكتوف الارادة وها أنذا أحب هذا فأعمله وأكره ذلك فأتركه ؟ فماذا تسمي هـذا إن لم يكن إرادة حرة مطلقة التصرف ؟ ولكن هاك ما يجيبنا به « سبنسر » : نعم إنك تعمل ما تحب وتترك مالا تحب ، ولكن هل علمت أنك لا تحب إلا ما رغبت فيه الطبيعة ؟ إن مولاتك الطبيعة قد حببتك فيما تراه هي صالحاً لسيرها ، ونفرتك مما رأته مضراً بها معطلاً لها عن المضي في سبيلها . فما أحببت أن تعمله إن هو إلا ما أرادتك الطبيعة على حبه : « أنك تستطيع أن تعمل كما تحب ، ولكنك لا تستطيع أن تحب كما تحب » . فاختيارك هذا الشيء ورفضك ذاك ، هو الوسيلة التي تتخذها الطبيعة لتنفيذ ارادتها في سلوك الانسان

وأين المفر من الطبيعة وهي لا تني تذكرنا بما لها علينا من نفوذ وسلطان ؟ فطر بالخيال الى حيث شئت ، فأنت مضطر آخر الأمر أن تنزل في ميدان الحياة لكي تضيفك بين مطرقة

الحقائق الواقعية وسندانها ، تنظمك في سلكها ، ولا تخلي بينك وبين خيالك ! تجد الطبيعة ما استطاعت إلى تجديها من سبيل ، وسترى نفسك بعد حين تصير برغماً على التسليم والخضوع ؛ وإلا فماذا أنت صانع أمام غائلة الجوع سوى أن تقتات بما يقيم الأود ؟ ثم ماذا أنت صانع إذا أضناك الأجهاد وأعياك العمل إلا أن تسلم بضرورة النعاس ؟ ثم ماذا تجدي ارادتك مهما بلغت قوتها أمام الموت إذا دنا الأجل ؟ فالطعام والشراب والنوم والموت اعتراف متواصل بخضوع الانسان لضرورات الطبيعة مهما يكن طاغياً جباراً

وكأني بالعلوم جميعها تناصر هذا المذهب وتؤيده ، وتكاد تضطر العقل اضطراراً إلى اليقين بأن ما يقع في الطبيعة من أحداث مهما اختلف لونها وتباين شكلها خاضع للعلم وقوانينه التي تضرب بنفوذها على أطراف الكون فلا تدع مجالاً ينفذ اليه شيء من القوة المزعومة فيما وراء الطبيعة . وإن احتججت على العلم بأنه مبالغ في شأن نفسه مسرف في تقدير عمله ، وأنه لا يزال قاصراً عن إدراك الحقائق كلها ، فكيف يحق له أن ينكر شيئاً قد يكون جزءاً مما لم يدركه بعد ؟ نقول إن احتججت على العلم بهذا أجابك في يقين ثابت ، وكله أمل ورجاء : هأنذا أسير وأتقدم ، ويستحيل ألا يؤدي هذا السير المطرد إلى حل ألغاز الكون كلها ، ولا بد لي أن أصل يوماً إلى غاية الطريق ، فان لم يكن ذلك بعد حين قريب فامتداد الزمن كفيل بكل شيء ، وإن العلم ليتمسك بتطبيق قانون «العلة الواحدة» Law of Parsimony الذي صاغه « وليام أوكام » ، والذي مؤداه أن ما أمكن تعليله بعلة ما لا يجوز تعليله بعلة أخرى . وبناء على هذا القانون لا ينبغي أن نضيف إلى الظواهر الطبيعية التي أمكن تعليلها بقوانين العلم عللاً أخرى مما وراء الطبيعة ، فان تمكن العلم أن يتتبع حقائق الكون بالتفسير واحدة فواحدة وجب حتماً ألا نتردد في انكار كل قوة أخرى

ولكن إذا كان أنصار هذا المذهب يريدون أن يحتكموا إلى العلم في كل شيء ، وأن يفسروا به كل ظاهرة من ظواهر الوجود ، فماذا هم قائلون في تعليل ظاهرتي الحياة والعقل اللتين تبدوان كأنهما شاذتان نابيتان لا تخضعان لقوانين الطبيعة التي تنتظم الجماد ؟ وأين الجماد من الحياة المتوثبة والعقل المفكر ؟ إنه إن صح مذهبهم للزم أن تكون الحياة قد تفرعت من الجماد الذي لا حياة فيه ، ويستحيل أن يتفرع شيء من أصل لا يحتويه ! إنك تستطيع أن تعلل بالعلم كل ما هو آلي رتيب ، ولكن كيف بالحياة عامة والعقل بنوع خاص ، وبينهما وبين الجماد الآلي من مسافة الخلف ما يكاد يجعلهما ضدين نقيضين ؟

إن للكائنات الحية طابعاً يميزها عن الجماد تمييزاً واضحاً ، ولعل خير ما يوضح ذلك الطابع المميز هو كلمة « بنفسها » . فالكائن الحي يبني نفسه بنفسه ، ويصلح عطبه بنفسه ، ويدبر أمره بنفسه ، ويعمل على حفظ بقائه بنفسه ؛ نعم هنالك آلات تطعم نفسها ولكنها لا تنمو مما تطعم ، وهنالك آلات تكتب من تلقاء نفسها ، وسابحات في الماء تقود نفسها ، ولكن هذه جميعاً لا تصلح لنفسها ما يصيبها من عطب ، ولا تستطيع أن تلائم بين دخيلة نفسها وبين الظروف الخارجية المحيطة بها كما يفعل الكائن الحي ؛ وليس بين الآلات أو صنوف الجماد ما ينشىء في باطنه نواة في مقدورها أن تنمو إلى ما يشبه الأصل الذي تفرعت منه ، ثم يكون فيها بدورها قوة انشاء نواة أخرى تعيد تاريخها وهكذا . . . . وأجدر من هذا كله بالذكر من خصائص الحياة التي تنفرد بها وتتميز عن الجماد هو أن الحياة في كل فرد من الأحياء لا تحصر عملها في حدود هذا الفرد الذي هي حالة فيه ، بل يمتد نطاقها حتى يشمل النوع بأسره ، أعني أن الحياة في كل فرد لا تكتفي بحفظ بقائها هي ، بل تعمل على حفظ النوع كله

تلك هي خصائص الحياة ؛ أما العقل فطابعه الذي يميزه هو علمه بالنفع والضرر ، وهما ما نسميهما باللذة والألم ؛ فكل الكائنات الشاعرة تعرف ما ينفعها فتقبل عليه وما يضرها فتنفر منه ، هذا فضلاً عما لها من قوة التفكير التي تستطيع بها أن تكون آراء عن الأشياء الخارجية ثم اتخاذ تلك الآراء وسيلة إلى فهم حقائق تلك الأشياء والوصول إلى ما يسيرها من قوانين وما تقصد اليه من أغراض

(يتبع) زكي نجيب محمود

الذكرى الرابعة لشاعر البادية

الشيخ محمد عبد المطلب

للأستاذ فايد العمروسي

الذكرى لا تتسع لدراسة أو تحليل ، وحسبها أن تكون للقراء خاطرة وفاء ، ونفحة تقدير ؛ وعبد المطلب أحد شعراء العربية الذين خلفوا لنا تراثاً ممتازاً يضاف الى تراثى المرحومين « شوقى » و « حافظ » ؛ غير أن هذا الرجل عاش مغبوناً ، ومات مغبوناً ، شأنه شأن « حافظ » بعد موته ، فلم يفز ديوانهما بما كان ينبغى من عناية وتقدير ، اللهم إلا مقالات كتبها كاتب هذه الكلمة في جريدة البلاغ بعد صدور الديوان فى الجو الأدبى ، وليس هذا بكاف فى تقدير الأدباء للشعر ، وخاصة لأعلامه وفحوله النابغين . والناظر إلى عبد المطلب لا يعرفه فى ديوانه بحسب ، لأنه ديوان ذو روح خاص ، واتجاه صيغته الصنعة فى أكثر مقاصده من فخر وحماسة وشكر ومدح وغزل ونسيب . . الخ وهذه ظواهر ما كان له أن يتخلى عنها وان حاول ، وما كان للفترة التى عاش فيها غير هذه المقاصد الشعرية تمشياً مع ميول الحياة التى ترغم الشاعر أن يتلون بلونها ، والتى تكوّن العناصر الأولى لفكره وخياله !

وقد كان رحمه الله شخصية عربية صميمة ، تنبئ مظاهره الخلقية أنه من سكان نجد أو الحجاز ، فى ضآلة من الجسم ، وقليل من القصر المتزن ، تنطوى هذه الضآلة على قوة الأسد فى عرينه ، تبدو بهما عيناه الواسعتان البراقتان اللتان تفيضان قوة وثقة واعتزازاً ؛ وكان ذا نفس أبيّة ، وضمير حى ، وشعور متقد ، وإحساس صادق ، يهيج لأتفه أسباب الخلاعة أو اللهو ، فينفجر بأشد ما تكون الخلاعة قسوة وإيلاماً ؛ وكان رجلاً بأسمى ما تكون الرجولة صفاء ونبلاً ، رجلاً جم العطف ، وافر الرحمة فياض الحنان . ولقد رأيته ــ رحمه الله ــ أكثر من مرة يسكب الدمع من عينيه لأمور لا تهيج عواطف الناس ، ولكنها تهيج ذوى النفوس السامية ، والاحساس المرهف القوى

وشخصيته على ما كان فيها من خشونة البداوة كانت تذوب رقة وحناناً ، وتفيض عطفاً ووداعة ؛ وديوانه حافل بصور من هذه العاطفة التى فتشت فى نواحى المجتمع المصرى فعالجته بأثمن النصائح وأغلى الحكم ؛ وكم ودّ تطهير النفوس ، وتهذيب الوجدان ، وصقل الادراك ؛ وكم ودّ الرقى بالانسان إلى درجات العفة والصفاء . وما أشبه الثلاثة بعضهم ببعض : « حافظ والمنفلوطى وعبد المطلب » فى هذا المجهود ! فترى الأخير يصف أسرة يتيمة بقطع من نفسه ، وذوب من فؤاده ، فى قصيدته العصماء التى استهلها بقوله :

أسألت باكية الدياجى ما لها ... أرقت فأرقت النجوم حيالها

باتت تكفكف بالوقار مدامعا ... غلب الأسى عبراتها فأسالها

وفيها يقول :

حتى إذا رقد الأسى بجفونها ... وهفا النعاس برأسها فأمالها

خاب الطوى أحشاءها فتفزعت ... جيرى تمانى سهدها وملالها

وله وطنيات حارة ، ووصف رائع لمشاهد القومية المصرية ، وله علويته المشهورة التى أنشدها على « جمل » متشبهاً بالشعراء فى « عكاظ »

والشاعر على ما أعتقد ليس انتاجاً من قصائد عريضة طويلة ، تطن بالرصانة ، وترن بجودة السبك والايجاد ، وإنما هو نفس قبل كل شىء ، وشعور يصدق فيما يحس أو يشاهد ، شعور يمتزج بالظاهر فيصير جزءاً منها أو تصير هى مزيجاً منه ، لا يتخللهما التفريق ، ولا تحتوى هذه المواهب إلا النفوس الممتازة التى لا تنفتح فى دائرة ضيقة محدودة ، ولا تحيط فى نظرها السطحى من الكائنات . وعبد المطلب كان هذه النفس التى تضيق بما فيها من عوالم تائهة ، فتنبعث على الكون طائفة سابحة ، تستشعر ما فيه من جمال فتطرب ، وتحس ما فيه من آلام فتألم ؛ نفس خلقت لغيرها فنال منها كل شىء ، وهى لم تنل من شىء أى شىء ؛ وروح قسمته العاطفة ، ومزقته الرحمة ، فراح يوزع فيه كأنه نهب مستباح ، وهو إلى ذلك مطمئن الخاطر هادئ البال ... وإنه شخصية ممتازة فى جوهرها ، قبل أن تكون ممتازة فى شعرها وصنعتها ؛ وكم من قائل إن عبد المطلب قديم فى شعره ، قديم فى عاطفته ، جاهلى فى جميع نواحيه ؛ وليت أدرى كيف تكون العاطفة قديمة ، وهى شعور انسانى لا يتغير فى ذاته وجوهره ، وإن تغير فى اتجاهاته وميوله ،

من تراثنا الأدبي

٣ - أبو العيناء

بقلم محمود محمود خليل

لقد مات المأمون؛ ولقد حزن أبو العيناء حقاً عليه، حتى بكى بكاء مراً، وتقرحت عيناه؛ ويظهر من بكائه وحديثه عنه أنه راعى حق النعمة، وقام بإسداء الشكر لصاحبها، حتى بكاه بعد وفاته؛ وسواء أكانت خلة الوفاء موجودة فيه وهو ما لا أظنه، أم كان بكاؤه هذا لمنفعة شخصية فاتته، وخاف من انقطاع الرزق الذي أجراه عليه المأمون من بيت المال، فإن هم ضمان قوته كان يخالج فؤاده، ويخشى من يأتي بعده

ولقد تحققت مخاوفه، فإن عهد المعتصم والواثق لم يظهر فيه شأن أبي العيناء كثيراً، ويرجع هذا إلى الخصومة التي كانت قائمة بين الوزير في ذلك العهد محمد بن عبد الملك الزيات، وبين القاضي أحمد بن أبي دؤاد، تلك الخصومة التي اشتدت إلى درجة كبيرة، حتى جعلت ابن أبي دؤاد يأنف أن يقوم عند دخول ابن الزيات، وكان قد أوجب الخليفة الواثق أن ينهض قياماً له جميع الحاضرين في المجلس، ولم يرخص في ذلك لأحد، فاشتد الأمر على القاضي، ولم يجد لمخالفة الواثق سبيلاً، فالتجأ إلى حيلة لطيفة تخلصه من ذلك الموقف الحرج، فوكل بعض غلمانه بمراقبته، وموافاته بخبر قدومه، فإذا أقبل نهض يصلي، فقال ابن الزيات في ذلك:

صلى الضحى لما استفاد عداوتي وأراه ينسك بعدها ويصوم

لا تعدمنّ عداوة موسومة تركتك تقعد تارة وتقوم

ويرجع سبب هذه العداوة إلى المنافسة في الرياسة التي كانت بين هذين الرجلين الفذين.

لم يقف أبو العيناء إزاء تلك العداوة موقف الحياد، بل انضم إلى القاضي ابن أبي دؤاد، فأبعده هذا إلى حدّ ما عن مجلس الخليفة المعتصم والواثق ووزيرهما ابن الزيات؛ وقد انقسم الأدباء أيضاً إلى حزبين، حتى رأينا الجاحظ يميل إلى ابن الزيات ويكون من حزبه. ولقد سأل أبو العيناء الجاحظ مرة أن يشفع لصاحب له عند ابن الزيات، فكتب الجاحظ الكتاب، وناوله الرجل، فسار به إلى أبي العيناء، وقال له: قد أسعف بالمراد، قال: فهل قرأته؟ قال: لا. إنه مختوم. قال: ويحك فضّه لا يكون صحيفة المتلمس؛ ففضه فإذا فيه: موصل كتابي هذا سألني فيه أبو العيناء، وقد عرفت سفهه وبذوء لسانه، وما أراه لمعروفك أهلاً، فإن أحسنت إليه فلا تحسبه على يداً، وإن لم تحسن إليه لم أعده عليك ذنباً والسلام. فركب أبو العيناء إلى الجاحظ، وقال له: قد قرأت كتابك يا أبا عثمان، فخجل الجاحظ وقال: يا أبا العيناء هذه علامتي فيمن أعتني به، قال: فإذا بلغك أن صاحبي قد شتمك فاعلم أنها علامته فيمن شكر معروفه

وظلت العداوة إذن بين الكاتبين القديرين الجاحظ وأبي العيناء، وكان هذا أثراً لتشيع الحاشية وانقسامها على نفسها كما سبق؛ وها نحن أولاء نرى أبا العيناء يغشى مجلس القاضي ابن أبي دؤاد في تلك المدة، ويتودد إليه، ويروي عنه أحاديث كثيرة آثرنا أن نثبت منها شيئاً؛ قال أبو العيناء للقاضي: إن قوماً من أهل البصرة قدموا إلى (سر من رأى) يداً علي، قال: يد الله فوق أيديهم، فقلت: إن لهم مكراً، فقال: ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله، فقلت: إنهم كثير، فقال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين، فقلت: لله در القاضي، فهو كما قالت الصموت الكلابية:

فالشعور الذي يتجه إلى الألم فيستعذبه، وإلى الدمع فيسكبه، هو الشعور الذي تطربه المسرات، ويشمله النعيم، إلا أن انفعالات الشعور الأول من نوع فاتر حزين، وانفعالات الشعور الثاني من نوع متفتح مرح، وكلا الشعورين له قيمته وخطره؛ فالشعور بالألم يكون معظم عناصر الحياة، كما أن الشعور بالنعيم يمس طبيعتها الأولى وحقيقتها الواقعة، وهما شعوران تخلقهما في النفوس طبيعة الحياة التي نحياها. فليس في عبد المطلب قديم، إذ ليس هناك قديم أو جديد في الأدب، فهو فن والفن لا يتغير في قيمته الجوهرية، وإن تغير في عوارضه والمظاهر التي تسدلها عليه نوازع الابتكار. وبعد، فتلك كلمة لذكرى شاعر البادية عبرة للشعراء، وتذكرة للأدباء الذين هم أحق بهذه الذكرى، وتلك الخاطرة......؟

فايز العمروسي

لله درك أي جُنة خائف ومتاع دنيا أنت للحدثان
متخمط يطأ الرجال شهامة وطء الفنيق مدارج القِردان
ويكبهم حتى تظل رءوسهم مشجوجة تنحط للغربان
ويفرّج الباب الشديد رتاجُه حتى يصير كأنه بابان

وقال أبو العيناء : كنا عند القاضي ابن أبي دؤاد في جماعة من أهل العلم والأدب ، فوفد عليه رسول الحاجب أبي منصور يقرئه السلام ويبلغه ألا يقصد القاضي إلى الحاجب ، لأن ذلك يضر بسمعته عند الوزير ابن الزيات ، فقال القاضي : أجيبوه عن رسالته ، فلم ندر ما نقول ، ونظر بعضنا إلى بعض ، فقال : أما عندكم جواب ؟ قلنا : القاضي أعزه الله أعلم بجوابه منا ، فقال للرسول : اقرأ عليه السلام ، وقل له ما أتيتك متكثرا بك من قلة ، ولا متعززاً بك من ذلة ، ولا طالباً منك رتبة ، ولا شاكياً اليك كربة ؛ ولكنك رجل ساعدك زمان ، وحركك سلطان ، ولا علم يؤلف ، ولا أصل يعرف ، فان جئتك فبسلطانك ، وإن تركتك فلنفسك . فعجبنا من جوابه

على أنه لا يغرنا مجالسة أبي العيناء للقاضي ، فانه قد وقعت بين الرجلين خصومة ، فكان لا يرحمه فيها أبو العيناء ، مما يدلنا على أنه كان من الرجال النفعيين الذين يؤثرون المنفعة الشخصية على تلك الصداقة التي لا تفيده شيئاً من المال الذي يحبه ويفضله على كل عزيز وحميم . ولكن ينبغي ألا نفهم من هذا أن أبا العيناء انضم إلى حزب ابن الزيات . كلا ، بل أبغض الرجلين جميعاً ، وذمهما معاً ، وهذا حديث طريف أتى به صاحب زهر الآداب وقد آثرت أن آتى بجزء صالح منه حتى يكون معيناً لنا على الوقوف على مقدار بلاغة الرجل وأسلوبه في الكتابة

قال أبو العيناء : لما حبس الواثق ابراهيم بن رباح ، وكان له صديقاً ، صنعت له هذا الخبر راجياً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فينتفع به ؛ ولقد سمعه الواثق فضحك واستظرفه ، وقال ما صنع هذا كله إلا أبو العيناء بسبب ابراهيم بن رباح ، وأمر بتخليته . والخبر هو : قال لقيت أعرابياً من بني كلاب ، فقلت له ماعندك من خبر هذا العسكر ؟ قال قتل أرضاً عالمها ؛ قلت فما عندك من خبر الخليفة ؟ قال بخبخ في عزه ، وضرب بجرانه ، وأخذ الدرهم من مصره ، وأرعب قلم كل كاتب بجنايته ؛ قلت فما عندك في أحمد بن أبي دؤاد ؟ قال : عضلة من العضل لا تطاق ، وجندلة لا ترام ، ينتحي بالمدى لتنحره فيجوز ؛ وتنصب له الحبائل ، حتى تقول الآن ، ثم يطفر طفرة الذئب ، ويخرج خروج الضب ؛ والخليفة يحنو عليه ، والقرآن آخذ بضبعيه . قلت فما عندك من خبر ابن الزيات ؟ قال ذلك وسع الورى شره ، وبطن بالأمور خيره ، فله في كل يوم صريع ، لايظهر فيه أثر ناب ولا مخلب ، إلا بتسديد الرأي . قلت فما عندك من خبر ابراهيم بن رباح ؟ قال ذاك رجل أوبقه كرمه ، وإن يفره للكرام قدح ، فلا عز بهجانه ؛ ومعه دعاء لا يخذله ، ورب لا يسلمه ، وخليفة لا يظلمه . ثم يأخذ في الحديث عن شأن أناس كثيرين من رجال الدولة مثل الخصيب والحسن بن وهب وأخيه سليمان ، وهذا لا يعنينا في شيء لأننا لا ندرس أولئك الرجال الآن ، ثم يقول قلت له : أين نزلت فأؤمك ؟ قال مالي منزل تؤمه ، أنا أستتر في الليل إذا عسعس ، وأنتشر في الصبح إذا تنفس

ويلوح لي أن تلك الأحاديث هي التي فتحت باب المقامات ، وأوجدت الفكرة الرئيسية فيها ، حتى نسج على منوالها بديع الزمان الهمذاني والحريري فيما بعد

قد عادى أبو العيناء ابن أبي دؤاد ، ولكنه لم يمض في الخصومة إلى حد كبير ، بل حفظ له جميل كرمه وقضاء حوائجه التي كثيراً ما كان يضايقه بها إبقاء على وده وصداقته ما دامت تجر عليه المنفعة حينا . قال له المتوكل يوماً : من أسخى من رأيت ؟ قال ابن أبي دؤاد ، فقال المتوكل تأتي إلى رجل رفضته فتنسبه إلى السخاء . قال إن الصدق يا أمير المؤمنين ليس في موضع من المواضع أنفق منه في مجلسك ، وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد ، وسخاء الفضل والحسن ابني سهل منسوب إلى المأمون ؛ فاذا نسب الناس الفتح وعبيد الله ابني يحيى بن خاقان إلى السخاء ، فذلك سخاؤك يا أمير المؤمنين . قال صدقت

فمن هذا نعلم مبلغ تلك الخصومة وأنها كانت طفيفة ، ويظهر أن سببها كان عدم إجابة طلب لأبي العيناء أو قبوله شفاعة ، أو نحو ذلك من الأشياء التي كان يتطاول بها أبو العيناء على الرؤساء

دامت المنافسة على الرياسة بين ابن الزيات وابن أبي دؤاد مدة خلافة المعتصم والواثق حتى تولى المتوكل ، وفي السنة الثانية من خلافته نكب ابن الزيات وأحرقه في التنور [1] ، وخلا الجو

(١) ويقول أستاذنا الاسكندري إنه أدخله في تنور مملوء بالمسامير وعذبه فيه حتى مات صبراً وهذه الطريقة هي التي كان يقتال بها الناس

بهذا الحزب ابن أبي دواد ، ووجد أبو العيناء الميدان أمامه فسيحاً ، فاتصل بالمتوكل وجعلت له معه مجالس أدخل الرواة بعضها في بعض ، ويظهر أن أعداءه قد وشوا به إلى الخليفة كي يوقعوه فيما وقع فيه ابن الزيات ، ولكنه بفصاحته وذلاقة لسانه نجا . قال له المتوكل : بلغني أنك رافضي ، فقال يا أمير المؤمنين وكيف أكون رافضياً وبلدي البصرة ، ومنشئي في مسجد جامعها ، وأستاذي الأصمعي ، وليس يخلو القوم أن يكونوا أرادوا الدين أو الدنيا ، فان كانوا أرادوا الدين فقد أجمع الناس على تقديم من أخروا ، وتأخير من قدموا وإن كانوا أرادوا الدنيا ، فأنت وآباؤك أمراء المؤمنين ، لا دين إلا بك ، ولا دنيا إلا معك . وكانت تلك الوشاية كفيلة بأن تقضي عليه ، لأن المتوكل كان يكره الرافضة الذين يدينون بحب علي بن أبي طالب (ض) ولكنه تخلص بذكائه .

ودخل أبو العيناء على المتوكل في قصره المعروف بالجعفري فقال له الخليفة ما تقول في دارنا هذه ؟ فقال يا أمير المؤمنين إن الناس بنوا الدور في الدنيا ، وأنت بنيت الدنيا في دارك . فاستحسن كلامه وقال : كيف شرابك للخمر ؟ قال أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره ؛ فقال له الخليفة دع عنك هذا ونادمنا ، فقال لا أطيق ذلك ، وما أقول هذا جهلا بما لي في هذا المجلس من الشرف ، ولكني رجل مكفوف البصر ، وكل من في مجلسك يخدمك ، وأنا محتاج أن أخدم ، ولست آمن من أن تنظر إلي بعين راض ، وقلبك علي غضبان ، أو بعين غضبان وقلبك راض ، ومتى لم أميز بين هذين هلكت ، فأختار العافية على التعرض للبلاء . قال صدقت ، ولكن تلزمنا ، قال لزوم الفرض الواجب اللازم . فوصلني بعشرة آلاف درهم

تلك كانت منزلة أبي العيناء عند المتوكل يتمنى أن ينادمه ، ويود ولو بجدع الأنف أن يتاح له حضور شخص فكه المحاضرة ، عذب الحديث كأبي العيناء في مجلس شرابه ، وقد كان المتوكل يمزح معه كثيراً قال له مرة : هل رأيت طالبياً حسن الوجه قط . قال يا أمير المؤمنين أرأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا ! قال لم تكن ضريراً فيما تقدم ، وإنما سألتك عما سلف ؟ قال نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه . قال المتوكل : نجده كان مؤاجراً ، ونجدك كنت قوادا عليه ، فقال أبو العيناء : أو فرغت لهذا يا أمير المؤمنين ، أتراني أدع موالي على كثرتهم ، وأقود على الغرباء ، قال اسكت يا مأبون ! قال مولى القوم منهم ، قال المتوكل أردت أن أشتفي منهم ، فاشتفى لهم مني

على أن عدم قبول أبي العيناء لمنادمة المتوكل قد عصمه إلى أحد ما من القصف والمجون اللذين كان يجرى في قصر الخلافة ، وإن كنت أعتقد أن شخصاً متوقد الذكاء كأبي العيناء قد حمى نفسه من معاقرة الخمور ، خوفاً من أن تضيع عقله ، وتغلب على لبه ، فيخرج عن صوابه ، وهو ما كان يأباه على نفسه ، فجوابه إذاً للمتوكل حين سأله عن الشراب بقوله : أعجز عن قليله ، وأفتضح عند كثيره لم يكن للتخلص من منادمته ، وإنما كان صادقاً في هذا القول ، وإن كان قد ذهب إلى الاستمتاع بملذات الحياة من غير طريق الشراب ، كلما حان له ذلك ، ولكن ذهابي إلى هذا الرأي ليس معناه تنزيه أبي العيناء وجعله في عصمة الأنبياء والصديقين بل ربما يكون قد شرب ونادم وأفرط في الشراب والقصف وأخذ بحظه من اللهو والمجون مع غير المتوكل ، لكنني لا أميل إلى اتهامه بأنه كان من المعاقرين للشراب والمدمنين على قرع الكؤوس ، كالمتوكل أو وزيره الفتح بن خاقان مثلا ، كلا ، وإنما كان لا يميل إلى تعاطي الكثير من الخمور لأنها تجره إلى الافتضاح كما يقول .

(يتبع) الزقازيق محمود محمود خليل

١ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

أصبح الرجل محزوناً كاسف البال ، لم يبرح غرفته بل لم يبرح مكانه ، وإنما هو مقيم حيث تركه ابنه عبد الله أمس ، ساكناً لا يريم ، صامتاً لا ينبس ؛ وقد ارتسمت على وجهه أسارير من الحزن لا تخفى ، وتراءت في قسماته ملامح من القلق الممض المشجي . . . بل كانت لا تخفى في عينيه علائم السهر الطويل . . . ومن يدري فربما انقضت هذه الليلة ولم يغمض له جفن ، وربما أرق ليلة الأمس كذلك ، وربما طواها مسهداً في هذه الغرفة التي لا يبرحها . . . إنه يفكر تفكيراً طويلاً . . . يفكر ويخاطب نفسه ويقلب كفيه ، ويهمهم وإنه لينظر نظر الشجي « استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك . . » والله لقد خلتها يا عثمان . . . ! ثم يعود فيردد : « لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ! [١] » . . إن الحزن ليشتد بالرجل وإن الدمع ليترقرق في عينيه وإنه ليحني رأسه ويصمت صمتاً طويلاً . . وبينا هو في ذلك إذا بد خفيفة تمر على كتفه في رفق ، وإذا صوت رقيق يهتف به : « رويدك يا ابن العاص . . . » فيلتفت إليه ويقول : « حتى تحن يا سلامة . . [٢] » . فيجيبه : « لقد متع الضحى » فيسترسل الرجل مرة أخرى في تفكيره ثم يقول : « رحمك الله يا ابن حنتمه . . [٣] والله لقد كانت فيك على شدتك رقة ، وعلى جفائك وداً . . أما هذا . . أما هذا . . » فيقاطعه سلامة قائلاً : فليغفر له الله . . . » فيرد عليه محتداً . . » لا يا ابن روح . . لا غفر الله له أبداً . . لا غفر الله له أبداً . . لقد ولتها عاصرة . . ولن يعفها حتى ينعق علينا البوم . . لقد عملنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فرضي عنا ، وعملنا لخليفته فأكرمنا . . وعملنا لعمر فانصرف عنا قرير العين ، ثم جاءت أيامك يا ابن عفان . . ! ويصمت الرجلان صمتاً بليغاً ، ويسرع بهما الفكر إلى الجزيرة التي فرا بنفسيهما منها . . واطمأنا إلى الراحة في هذا القصر الذي يملكه عمرو في فلسطين ، فهذه جزيرة العرب تموج موجاً وتضطرب اضطراباً ، وقد فوقت إليها الفتنة سهاماً صائبات . . واصطلحت عليها من الشر حادثات . . وهذا عثمان في بيته بالمدينة وحيداً لا يطرق بابه أحد ، فريداً لا يذكره أخ ولا ناصح بعد الذي كان من تقريبه لآل أمية وآل مروان ، وبعد الذي كان من خصومته مع علي وازوراره عن طلحة والزبير وعزله الصالحين من ولاة عمر . . وها هي ذي الفتنة تتحرك في مضاجعها . . . والثائرون يتواصلون ويتابعون الشكوى ويجمع بينهم الظلم . . وهذا أبو ذر الغفاري يطوف بلاد الاسلام يثير الفتنة ويقلب الأرض على عثمان . . . وهذا علي يباعد ما بينه وبين الخليفة مخافة أن يصيبه آل أمية بشر ! وهم الساعة أصحاب الأمر وذوو السلطان على الخليفة الورع اللين الرقيق . . . وهم اليوم لبني هاشم بالمرصاد ، وإن للبيتين فيما مضى لشأناً . وإن لهما فيما يقبل من الأيام لشأناً أكبر . وقد اسخطته من عثمان أمور ونفرته منه شرور . وما يطيق الرجل صمتاً على ابن أبي سرح والياً على مصر ، مكان ابن العاص القدير . فما زاد عثمان على أن أقام على الناس رجلاً كرهه الرسول ولم يرض عنه إلا شفاعة وسماحة . . . ثم سكت طويلاً ثم أخذ يردد هذا الرجز الذي سيكون له في المحنة المقبلة أي شأن ، والذي ستردده الجموع في الشام وتهتف به الجحافل في العراق . . . ويتردد صداه بعد ذلك على مدى الأيام :

أصبحت الأمة في أمر عجب ... والأمر مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولاً صادقاً غير كذب ... إن غدا تهلك أعلام العرب !

ثم بدا له فقام من مجلسه . . وأطل من النافذة على فناء « العجلان [١] » فإذا أعرابي يسعى على راحلته وهو يرديها مسرعاً . فهتف به فوقف ، وسأله كيف عثمان :

فقال الاعرابي : قد تركته محصوراً شديد الحصار
ثم تركه وتولى مسرعاً

وأي هلاك . . ! خليفة الله محصور . إن الأمر ليشتد وإن العاصفة لتنذر وإن العقبى لوخيمة ، ترى أعيل صبر العرب فأتوا يقومون الخليفة بالسيوف . هنا أحس عمرو أنه لم يحسن الصنيع حين ترك عثمان وخده في المدينة ، وأخذ يتساءل : ترى ماذا يصنع علي وماذا تصنع البقية من الصحابة . إن فيهم لعصمة لابن عفان

(١) من حديث عثمان بن عفان لعمرو بن العاص
(٢) هو سلامة بن روح الجذامي
(٣) هو عمر بن الخطاب

(١) قصر عمرو بن العاص في فلسطين

عما يراد به . . . ولكن ما عساهم يصنعون وقد أبى عثمان أن يأتي لهم بالإذن . فلتنفعه عصبية بني حرب لو كان فيهم خير . وليعصمه ابن أبي سرح لو كان يستطيع . أما الصحابة فهاهم أولاء يعتزل منهم نفر فيهم سعد بن أبي وقاص ، ويعلن الفداء منهم نفر وفيهم أبو ذر الغفاري ، ويشتد منهم نفر ولا يتحرج أن ينقد عثمان النقد الجارح الشديد وفيهم علي ، وتنصرف منهم طائفة إلى ذات نفسها تجمع المال وتؤلف الأنصار وتعد العدة لما عسى أن يحدث من الأحداث وفيهم معاوية . ثم نظر فإذا شرذمة من الأعراب على الخيل والجمال يسمون نحو الشمال . وكان انصراف العرب عن الحجاز قد كثر هذه الأيام ، وإذا بهم يعلنون مقتل عثمان في شيء من الانكار والخوف والهلع . فإذا استوقفهم وسألهم فوصفوا له الأمر وصفاً دقيقاً ، ثم تولوا وتولى ، فإذا سلامة قد ترك المصحف الذي كان يقرأ فيه ، ووقع الخبر في نفسه موقع الصاعقة ، وربط نفسه ولم يطق على الأمر صبراً ، فنهض من مجلسه ونظر إلى عمرو فإذا به شيخ يشرق بالدمع ، فقال له : وإنه ليعاني ألماً بليغاً : « يا معشر قريش ! إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق ، فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟ » فقال عمرو وإنه لذاهل : « أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ليكون الناس في الحق شرعاً سواء . »

* * *

وهل أصبح الناس الآن في الحق شرعاً سواء . . ؟ أجل ! وقد ذهب ولي الأمر وأصبح السيف بين الناس حكماً . وليطالب الأمر من يجد في نفسه الاقتدار على النهوض به . . ترى من يكون هذا المقتدر الذي سيملك ناصية الأمر ويقدر له الفوز بهذا الغنم العظيم ؟ كذلك كان ابن العاص يسائل نفسه . . وكذلك كان يمضي في نظر المسألة والتدقيق فيها . . بدأ يستعرض جوانب القوة واحداً فواحداً ويوازن بين ما لديهم من « القدرة » لا من « الحق » موازنة طويلة حتى لا يخفى عليه منها وجه من وجوه الرأي . . وهذا رجل يتقن الحساب ويجيد المساومة . . . ولا يخطئ في تقدير ربحه من أي النواحي . . ولقد كان هذا موقفه في كل أزمة . . وتلك حاله قبيل كل عاصفة . . يقف متأنياً ويفكر طويلاً . . ثم يساوم في حرص . . وأخذ يستعرض ما انقضى من أيامه حتى يلتقي الماضي على الحاضر ضوءاً . . . إنه ليذكر موقفه قبيل إسلامه . . . وقد بدأ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر شيئاً فشيئاً . . . وبدأ الخوف من ناحيته يدب في قلوب قريش . . . وإن طائفة منهم لتشتد في عداوته شدة جاهلية . . . وإن طائفة أخرى لتسرع إلى رايته فتنضوي تحتها . . . وإن طائفة ليثقل عليها الأمر فتدع الميدان وتعتزل الحياة . . . ولكن عمراً لا يميل إلى أحد الجانبين ولا يعتزل بل يزن كل ناحية على مهل . . . ويقدر تقديراً طويلاً بل هو يبتعد عن الميدان كله إلى بلاد الحبشة . . . وهناك يرقب الأمور في صبر وحرص كما يرقب التاجر أسعار السوق . . . فإذا استبان له رجحان كفة الاسلام . . . وإذ رأى كنوز النصر تخفق . . . في بدر وفي الخندق ، فقد أقبل إقبال الواثق ليتم الصفقة وليشتري عن ثقة . . . ولكنه بعد ذلك كله يرجو أن يكون كسبه من الأمر أكثر من كسب الآخرين . إنه ليعود من الحبشة مسرعاً وقد حزم أمره على الدخول في الاسلام . . . ولكن انظر كيف أقنع نفسه بالبيعة للرسول ، لقد بعث إليه قريش تسأله ما عقد عليه النية . . . فلا يعلن إسلامه إعلان عمر ، ولا يفسر إيمانه تفسير أبي بكر أو عثمان . . . وإنما هو يقول للرسول : أنحن أهدى أم فارس والروم ؟ فيقول الرسول : « بل فارس والروم » فيقول عمرو . . . فما ينفعنا فضلنا عليهم في الهدى إن لم تكن إلا هذه الدنيا وهم أكثر فيها أمراً ، قد وقع في نفسي أن ما يقول محمد من البعث حق . . . هكذا منطق الرجل في الايمان وهكذا يستوثق لنفسه من أنه لا « خسارة » عليها في ذلك ، ثم يمضي حتى إذا أقبل على الرسول الكريم ومد يده فقد قبضها ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : « أردت أن أشترط ! » نعم يريد أن يشترط . . . يريد أن « يكسب » شيئاً في هذه البيعة الجديدة . . . فإذا سأله الرسول ما يشترط فقد تريث لحظة . . . وبدا له فطوى ما كان يريد أن يقول . . . وساعفته بديهته . . . فقال « يا رسول الله . . . إني أبايعك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي ، ولا أذكر ما تأخر » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عمرو ! بايع فإن الاسلام يجب ما قبله وإن الهجرة تجب ما قبلها [1] » . . . إنه يريد أن يشترط دائماً . . . هكذا كان موقفه في كل أمر

(للبحث بقية)

حسين مؤنس

---

(١) الطبري : ج ٣ ، ص ١٠٣ — ١٠٤

تحطمي تحطمي !

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

يا ليل للنجم أكتم ... ويا نهار أظلم
يا أدمعي فيضي ويا ... نار فؤادي اضطرمي
نفسيَ لي قد آلمت ... فقلت لها تألمي
كمثل ما حطمتني ... تحطمي تحطمي
مسؤولة يا نفس أنـ ... ـتِ عن حياتي ودمي
ندمتِ مما جئتِه ... ولات حين مندم
بكِ العِدى تهكمت ... وأنتِ للتهكم
من قال إن لاقيتِ نا ... راً تابتغي فاقتحمي
ألم أقل تريّثي ... فيما عزمتِ تسلمي
مشيتِ بي في مزلق ... صعبٍ فزلّت قدمي
ما أنتِ من ذمي بريـ ... ـئةٌ فلا تختصمي
من ذا الذي أغراكِ يا ... نفسي على التقحّم
قولي ، أجيبي ، بيّني ... شيئاً ، أزيلي تُهَمي
لا تلبثي ساكتة ... تكلّمي تكلّمي
يا نفس هذا وقت إن ... تبكي فلا تبتسمي
يا نفس من نفسكِ قبـ ... ـل أن تموتي انتقمي
بالكف يا نفسيَ قد ... صفعتني في الهرم
للشيب في رأسيَ والا ... بتذال لم تحترمي
أصبحتُ من موتي قريـ ... ـباً فأقيمي مأتمي
أنتِ حقيرة بعيـ ... ـن الفيلسوف الفهم
وإن تردّيتِ ثيا ... بَ السيّد المحترم
أخرجتِني من ساحة الـ ... ـنور لساح الظلم
فصرتُ في مشيي على ... وجهي اللطيم أرتمي
هل عائدٌ إليّ عهـ ... ـدُ عيشيَ المنصرم
ماذا أقول والأسى ... قيدُ لساني وفمي
وإن تكلمتُ فهل ... تردّ حتى كلمي
الهمُّ في رأسي كأنـ ... ـه لظى جهنم
وهو إلى قلبي كجيـ ... ـش زاحفٍ عرمرم
تحسبه مخيّماً ... وليس بالمخيّم
لا أستطيع الخوضَ بعـ ... ـد الشيب في الغطمطم
أخاف أن يبلعني التـ ... ـيّارُ بلعَ النَّهِم

***

أأنني في يقظة ... أم انني في حُلُم
المرء بالأفعال لا ... بالقول والتكلّم
لقد رميتُ أسهماً ... فارتدّ نحوي أسهمي
جرحن جلدي ثم لحـ ... ـمي وبلغنَ أعظمي
فياله من حادث ... للروح مني مؤلم
أنتِ به مسؤولةٌ ... ما أنا بالمتّهَم
في الموت كلُّ راحتي ... وبالردى مُعتصَمي
إذا هلكتُ فادفنو ... ني بالمكان الأشأم
قد عششت فيه على الـ ... أرماس أمّ قشعم

بغداد — جميل صدقي الزهاوي

النجاح

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

أنتِ رب الأوشاب والأعلياء   وجماع الجهود والأهواء

تُلْبِسُ المرء منكِ حُلّةَ فضل   يلهج الناس حولها بالثناء

أى فضلٍ للمرء إنْ لم تحكه   وذكاء إنْ لم تكن فى الذكاء

فُرَصُ العيش كلها لك جند   والعطايا موائلٌ كالإماء

وصروف الأقدار طراً عبيد   للذى تصطفيه للآلاء

لا يضير الذى اصطفيت عداه   لا ولا يزدرى لفرط الغباء

ويود الذكى لو كان غِرّاً   ثم تكسوه حُلة الأذكياء

أنت سِحْرٌ يكسو القبيح جمالاً   ويُنيلُ الوضيعَ أُفُقَ العلاء

ويُنيل القَمِىء أجنحة النسـ   ـر فيغدو لقومه كسماء

يرتجى الناس غيثها وعلاها   بخشوع وذلة ورياء

إيهِ يا مالك القلوب قلوب الـ   ـناس طراً طوع اللُّهَا والعطاء

رُبَّ قلبٍ مما كنزتِ لك فى النـ   ـع وذاك المكاس غير الإباء

تنثر التبر مثلما تبعث الشمـ   ـس بأضوائها على الأرجاء

فوق وغدٍ أو فوق غِرٍّ حَظِىٍّ   أو على ظافرٍ من الفضلاء

لك ثوب يُخفِى العيوبَ ويحبو الـ   ـفضلَ فضلاً من رونق اللألاء

قَدَرٌ حاكه وليس صَناعٌ   كصناع يدعونه بالقضاء

معدن الخير والفضيلة والحكـ   ـمة من يرتدى بذاك الرداء

أى فضلٍ تعطى القوىَّ قواه   إن عداه النجاح فى الأحياء

أى صيتٍ يُجْدِى الذكىَّ بيانٌ   لم يُصِبْ نهزة من الاصغاء

أى فضلٍ تحبو الحكيمَ نُهاهُ   وهو لولا الأنصار كالأغبياء

سَرَفٌ أنْ أضاعه الدهرُ لا يُفْـ   ـقِر دهراً أضاعه من ثراء

أترى التبر لو يظل دفيناً   كان يجبى أطايب الأشياء

أترى الحسن كان يُعتدُّ حسناً   وهو فى خفية عن البصراء

يغنم الظافر السعيد وإن كـ   ـذب منه النقاد بُطْلَ الطلاء

وهو فى أعين الأنام نضار   وسواه فى الخلق كالدهماء

يغفر الناس شرَّه وأذاه   ويمدونه بمحض الولاء

إنما الحق ما رأى الناس حَقاً   ثابتاً فى عقيدة الأهواء

والشريف الذى يرون شريفاً   نال أو لم ينل مدى الشرفاء

والكريم الذى يرون كريماً   حاز أو لم يحز هوى الخبراء

صاح لو يُنْبَذُ المُزَيَّفُ طراً   خَرِبَ الناسَ كلٌّ هذا الاباء

ثم باءوا بحيرةٍ وضلالٍ   فى دعاوى العقول والآراء

وإذا النجح لم يكن منه ميزا   نٌ فكلٌّ مُزَيَّفُ الأنباء

كن جديراً به وإنْ لم تنله   إنما الحقد آلة الأدنياء

ويضير الأنام كيدُ حقودٍ   صد عن خير مطمح وعلاء

فدع الناس يكلفون بما شا   ءوا وعِشْ فى حقيقة الأشياء

إنْ تجدها أو لم تجدها فللعـ   ـىّ وللجد نشوة الصهباء

نشوة النجح نشوة السبى والخا   سر من لم يَفُزْ له بطِلاء

ولعل الأحقاد ما صَغَّرَ النجـ   ـح وأنحى عليه بالازراء

ورجاء النجاح خير من النجـ   ـح فعش من طلابه فى رخاء

إنَّ بُعْدَ الرجاء أن تبلغ القصـ   ـد ولا قصد بعد نيل الرجاء

ولقد ينكب النجاح أناساً   بالذى فاق نكبة الشقاء

والسعيد المحروم من أسلم الأطـ   ـماع طراً لصرف حكم القضاء

ويود الذى تود له الأقـ   ـدار يبغى فيها رخاء الرضاء

ذاك خيرٌ يغرى الحكيم وإن شَقَّ   قَ فيُلْفِى رخاءه فى العزاء

ولقد يحبط الطموحُ إذا زحـ   ـزحه الهمُّ عنه بالاعياء

وفُرُوضُ الحياة أخلق بالسعـ   ـى وأحجى من اقتعاد السماء

إنَّ أعلى من العلاء خليقاً   بعلاء لا حائزاً للعلاء

والسعيد الحظىُّ من رُزِقَ الجِدْ   دَ وفى الجد مصرع الثوباء

هو طب الملال إنْ أعنت العيـ   ـشُ وغالت غوائل البأساء

وسواء نُجْحٌ وفوتٌ إذا أحـ   ـدث ما فى مسعاته من دواء

والشقى المحروم من لا يرى فى الـ   ـعيش فرضاً ينأى به عن شقاء

ذاك من مات قلبه وهو حى   وغدت نفسه كقفر خلاء

خاصمته النعماء فى كل أمر   وبدت فيه وحشة البيداء

خيبة المرء أن يمل مُناهُ   لا تمادى الحرمان والابطاء

ولعل الابطاء في النجح أهنا — وقصارى المبذول للازراء

ويُمَلّ المطال بعد أوان — كنز وفي من طول بُعْدِ الغذاء

والذي لا يمل فرضاً مُعاداً — كل يوم بموفق السعداء

لا ينال البعيد من لا يرى الأد — نى سبيلاً يُدْني إلى البعداء

خطوة إثر خطوة هكذا ـ — نه عيش وسنة في الجراء

وابتناع الطليب أهون من أن — ينذب المرء خيبة الأهواء

هو خطب أدهى من الفوت وقعاً — وهو داء أشد من ذا الداء

كالذي يستطب بالخطب من خط — ب ويُقصي الأدواء بالأدواء

ليس يدعى الرضاء يأساً فكم را — ض وفي سعيه دبيب الرجاء

والذي يستدر نجحاً من الخي — بة أحجى برفعة وعلاء

فاذا ما انتكست في العيش فاعلم — ليس في العيش موطن للنجاء

يدخل المرء نفسه في الرزايا — كي يداوى من رغدة الجبناء

مثلما أسمعوا الجياد صليلاً — كي يهون الصليل في الهيجاء

صاح ما العيش بالمخلَّد في الده — ر فترتد ناكصاً للوراء

وإذا ما ارتخصت ما هو مبذو — ل ويارب مرخص من سخاء

فالهواء الحياة وهو مذال — لو نأى كان منية الأحياء

لا تقل خيبة الرجاء سموم — فالشقي الشقي بالأسماء

إن بعض السموم منه دواء — كدواء الرمداء بالظلماء

وإذا ما هممت بالخير لا تو — لع بكسب الاجلال والإطراء

ليس بين الاطراء والذم إلا — كانطباق الجفون في الاغفاء

واللبيب العليم بالناس لا يغ — تر بالمدح منهم والهجاء

غايظوا الراجح السعيد بمن خا — ب ولو فاز كان في البغضاء

يزعمون الخيّاب أحجى بفوز — قد لواه القضاء ذو الأخطاء

زعموا الدهر يظلم الندب إذ يسـ — مو بشأو اللئام والأدنياء

فاذا الندب نال شأواً أعدّوا — ما أعدوا له من الايذاء

ولعمري لو بيّن النقص والفض — ل لكانوا في النقص كالشركاء

باتفاق أو باقتدار نجاح — كان أو لم يكن لدى الفضلاء

ولو أن المفضول لم يلف نجحاً — ضاعف الفوت غبن صرف القضاء

نابه النقص من قضاء فإن خا — ب فغبن مضاعف في الجزاء

ليس فوز الأباة قدر شقاء — هزم النذل نخوة الأحياء

لا بل الفوز صحة واقتدار — وبذل للذخر أو للحياء

وبأن تطّبي رضاء ذوي الجا — ه وأهل الجدود والأقوياء

وبإحباط من يكيد بكيد — رب فوز مستجلب بالدهاء

وبإطراء من ترى منه نفعاً — وبإرضاء كل دان وناءي

واحتذاء الحياة ترضي الذي تر — ضاه من شيمة ومن شياء

وبأن لا تعاف كسباً ولا خُـ — تماً يداني من مطلب ورجاء

فاذا عفت كان سعدك في الخي — بة والنجح من صنوف الشقاء

رب فوت للمرء منه سقام — وهو في جسم آخر كالدواء

وكذا النجح منه عز ونعما — ء ونجح يلم بالبرحاء

عبد الرحمن شكري



صور من هوميروس

١٣ – حروب طروادة

مقتل بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتيل ساربيدون ملك ليسيا وقائد فرسانها ، وأشجع مقاتل في جيش طروادة بعد هكتور ؛ ووقف بتروكلوس على جثته يصليها سخرية وهزوا ، ناسياً أنه إنما يهزأ بابن زيوس سيد الآلهة ، من آثر زوجاته إليه ؛ أوروبا الجميلة الفتان ، التي وقفت من ذروة جبل إيدا تنظر إلى المعركة الحمراء ، وتشهد مقتل ابنها . . . وتبكي ! !

وتثور ثائرة الأم التاعسة ، وتهيب بالإله الأكبر أن يحمي جثة ولدها ، بعد إذ عجز عن حمايته حياً ، وبعد إذ عجز عن دفع ما قضت به ربات القدر

وينظر زيوس فيرى إلى بتروكلوس واطئاً بقدمه صدر ساربيدون ، عادة الجاهلية ، ويسمع إليه يقذفه بأشنع عبارات التهكم والاستهزاء ، غير رائث لهذه الروح التي تفيض ، أو معتبر جلال الموت الذي تخشع أمامه القلوب ؛ فيثور الإله ، ويحنق على بتروكلوس وجند بتروكلوس ، ويأمر ولده من لا تونا . . . أبوللو العظيم . . . فينطلق من فوره إلى معمعان الحرب ، ويرسل إلهي النوم والموت فيحميان جثمان القتيل ، ويدفعان عنه سباع الميرميدون التي تكاثرت حوله تريد لو تسبي سلاحه ، وتستنقذ دروعه

أما الجثة ، فيحملها الإلهان الكريمان إلى ليسيا ؛ وثمة ، يخلطان بها حنوط الخلود ، ويلفانها في ثوب سماوي من ثياب الرحمة ، ويجمعان حولها عرائس الفنون تبكيها وتنشد لها أوجع ألحانها ، وأشجى ما تبكي موسيقاها

ويبدو لبتروكلوس أن طروادة ، بعد ساربيدون ، لقمة سائغة ، وغنيمة باردة ، فيهتف بالأغريق مرة ، وبالميرميدون مرة أخرى ، أن يقاحموا نحو أسوارها ، وأن ينتهزوها فرصة تفتح عليهم فيها المدينة الخالدة

ولا تدري كيف يستيقظ الطرواديون وأحلافهم من سكرة الروع التي غشيتهم فينكشف لهم أن البطل الذي قتل ساربيدون وعشرات غيره من صناديدهم ، ليس هو أخيل العظيم ، وإن يكن يحمل خوذته ، ويتقنع في دروعه ، ويذرع الساحة بعربته . . فيهدأ أعصابهم ، ويثبت جأشهم ، ويأخذون في مناهضة الميرميدون والأغريق جميعاً

ولكن بتروكلوس يهجم غير هياب ، ويجندل من حوله الأبطال الذاويد ، ويقود جنده إلى البوابة الكبرى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعركة بعينين مشدوهتين ، ونفس مذهوب بها ، وقلب حيران متصدع . . .

ووقفت الآلهة دون البوابة تحمي طروادة الخالدة . . .

ذلك أن بتروكلوس كان كلما بلغ ثمة . . . وجد وجنده ينسحبون إلى وراء بقوة خافية لايدرون سرها ، ولايعرفون من أين تأتيهم فتتخطفهم ، وتردي جحافلهم . . . وهي على قاب قوسين من داخل المدينة . . . أو أدنى !

وفي الهجمة الثالثة ، سمع بتروكلوس إلى صوت إلهي يقول :

« بتروكلوس ! ليس على يديك تفتح هذه المدينة الخالدة ! بل هي لن تفتح على أخيل العظيم الذي هو أقوى منك ، ومن عشرة من أمثالك ! عد من حيث جئت ، واحذر أن تكون آخرتك اليوم ، في هذا الميدان المضرج بدماء ضحاياك ، »

وتلفت بتروكلوس فرأى الهاتف هو إله الشمس ، أبوللو ، أبوللو بعينه ، رب طروادة العظيم ، واقفاً فوق برجها الباذخ يقلب قوسه في يديه الجبارتين ، مرسلاً في عساكر الميرميدون والجنود الهيلانيين ، نظرات تقدح الشرر ، وتوري نيران الكيد والجبروت !

واقشعر جسم بتروكلوس ، وأيقن أن أبوللو هو الذي رفع جثمان ساربيدون من مكانه من المعمعة ، وأنه أيضاً أقبل ليلعب دوره ضد الميرميدون وضد الأغريق ، وضد بتروكلوس قبل كل شيء !!

ولكن بتروكلوس محارب ، وقلب المحارب العظيم لا يعرف الجبن ، ولا يتلجلج لقصف المنايا في المعركة ، فكيف به يخفق فرقاً إذا رأى الآلهة نفسها تحارب في صفوف الأعداء !

أقبل يا بتروكلوس وأقدم ، ولا يهولنك أبوللو ، وألف ألف أبوللو ، مادام العمر واحداً ، والساعة آتية ، ولن يفلت أحد مما قدر له !

* * *

وبهت الجمعان المقتتلان حول جثمان ساربيدون حين رأوه إليه يرتفع في الهواء ، ثم يتهادى إلى جهة ليسيا ، موطنه الذي يبكي عليه ، فعلموا أن السماء تعمل !

وأحس الليسيون هذا الفراغ المفزع الذي خلفه مليكهم المقتول فيهم ، فذهب رئيسهم المغوار ، جلوكوز ، نائب الملك وخير وجوه ليسيا ، إلى حيث وقف هكتور ينظر إلى المعمعة قريباً من البوابة الكبرى ، فوقف تلقاءه محطم القلب ، دامع العين ، موهون القوى ، وقال : « يقف هنا بطل أبطال طروادة العظيم ، ويدع أحلافه البواسل يجودون بأرواحهم من أجل إليوم ، ويسيلون نفوسهم على ظبي الرقاق البيض التي يرهفها في وجوههم أعداؤكم ! ولأي شيء ؟ ! لأنكم استجرتم بنا فأجرناكم وأسرعنا إليكم نفتديكم بالمهج الغالية والدماء الزكية ! هكتور ! لقد قتل ساربيدون ، فهل علمت ؟! هل علمت هذه النفوس التي يمضها الأسى ، والعيون التي تقرحها الدموع ، ويعصف بها الدم ؟! فيم وقوفك هكذا ترمق الساحة وقد رأيت من فتك الميرميدون بنا ما رأيت . هل فكرت في حماية مولانا الملك ، أو على الأقل صيانة جثمانه العزيز ؟ ! لقد سلبوا دروعه وسلاحه ، فأي عار يصمنا في طويل الأحقاب والآباد ؟! يا لثأرنا .. يا لثأرنا ... ! »

ولم ينبس هكتور !

ولكنه شاهد الميرميدون يعيدون الكرة بعد الكرة على الطرواديين ، فينالون منهم ويمزقون صفوفهم ، وشاهد البطل الأغريقي المشهور إبجيوس ، يصول بين الجيشين ويجول ، ويجندل الأبطال ويبيد لهاميم الرجال ، فأخذ هكتور حجراً كبيراً وانتهز فرصة من إبجيوس ، وقذف بالحجر فوق رأسه فشجه ، وبرز المخ ، وتدفق الدم ، وتردى البطل فوق الحدور حتى استقر في بسيط الساحة !

واستشاط بتروكلوس غضباً ! وود لو كان قريباً من هكتور فيضغط على عنقه ضغطة تذهب به إلى الجحيم ! ولكنه لم يستطع إلا أن يثأر للقتيل بمثل ما صنع هكتور ، فقد تناول جلموداً كبيراً ، وقذف به ستينلاس الهائل ، أشجع شجعان طروادة الأحياء ، فأطاح جمجمته ، وهوى الجلمود على مفرش جواده فقتله ، بين عجب الطرواديين وشدة تحيرهم ! !

ولكن جلوكوز – رئيس الليسيين – يرى إلى ذلك فيتسخط ، وينقض على البطل الهيلاني الكبير باثيكليز ، فيشكه برمحه شكة تذهب به ، وتتركه يتشحط في دمه . وتستمر المعركة ....

* * *

أما أبوللو ! فيغيظه من هكتور هذا الجمود الذي استولى عليه ، وذلك الموقف الجبان الذي يحول بينه وبين الميدان ، وفي الحق ، لقد كان هكتور ينظر إلى شياطين الميرميدون ولا يصدق أنهم مقاتلة من البشر ، بل وقر في قلبه أنهم زبانية من جحيم بلوتو سلطهم القادر على الطرواديين يسومونهم الخسف وسوء العذاب !

وتنكر أبوللو ؛ فبدا في زي محارب في عنفوان الشباب ، ثم أجرى في عروقه من دماء بني الموتى ، وغضّن قليلاً من جبينه ، وسوى من ساعديه ، ونثر فوق عدته من ثرى المعمعة ، ولوح وجهه بملامح (أسيوس) العظيم ، أخي هكيوبا ، وخال هكتور ؛ وسار قدماً إلى حيث وقف فتى طروادة المسحور يروع الساحة الهوجاء :

« هكتور ! فيم إحجامك عن لقاء الأعداء يا بني ؟ هلم ، هلم ! فوأرباب الأولمب لو كان لى شبابك وعنفوانك ، لصاولت هؤلاء الميرميدون الألداء ، ولأجليت منهم تلك الحومة التى ملأتك هلعاً ! أقدم يا هكتور ولا تحجم هكذا ! إلق بتروكلوس فقيد تصرعه ، وإنك لمنازعه ، وإنك لفاقد إكليلاً من المجد فوق رأسك لا يذبل أبد الدهر ، وحسبك أن أبوللو صاحبك وحاميك ومسدد خطاك ، ومضاعف بتأييده ضرباتك ! هلم ، هلم ، وعش عزيزاً يا هكتور ، أو مت كريماً يا بني ، بين طعن القنا وخفق البنود ! »

وانفتل أبوللو فانخرط فى صفوف المقاتلين ، وطفق يصرع أبطال الميلانيين ليضرب المثل لهكتور ، وليشحذ من همته الخابية ، وليوقظ شبابه النائم

فلما رأى هكتور جلائل هـــذه الفعال التى أبداها خاله - وما هو بخاله - انكشفت عنه هذه الغمة التى غمرته ، وأمر سبريونيس ، سائق عربته ، أن ينطلق به إلى الحومة . فانطلق السائق المسكين نحو بتروكلوس ، حتى إذا كان على مقربة من شباة رمحه ، ترك صاحبه وجهاً لوجه معه . وكان السائق من مغاوير أبطال طروادة ، فأخذه يناوش بتروكلوس هو الآخر ، فما كان من قائد الميرميدون العظيم إلا أن قذفه بحجر هشم رأسه ، وصدع فقاره ، وطار بروحه إلى هيدز

واقشعر هكتور من هول الضربة ، وعز عليـه أن يودى سبريونيس وهو بين يدى مولاه ، فلا يجد له حامياً . ولـكن الطرواديين تكبكبوا حول القتيل ، يذودون الميلانيين الذين كان كل همهم أن يفوزوا بجثته ، أثراً حربياً خالداً ! !

واشتد صيال القوم حول جثمان السائق ، وصخبت زوبعة القتال فوقه ، واشترك هكتور وبتروكلوس مع أجنادهما ؛ فكان جماعة يشدون القتيل من قدميه ، بينا جماعة أخرى تشده من الرأس ، وهم يعفرونه فيما بين هذا وذاك بالتراب ، ويلطخونه بالدم !

ووجد أبوللو فرصته !

أبوللو الخائن ! أبوللو سيد الشمس الذى لا يستحيى ! أبوللو الإلـه الذى يفرق أن يلقى بتروكلوس وجهاً لوجه ، فيأتيه من الظهر ! كأجبن الجبناء ! !

يا للآلهة ! ومسكين يا بتروكلوس ! !

لقد تقدم أبوللو ، مستجمعاً كل قوته فى قبضة يمينه الجبارة فأهوى على قفا بتروكلوس بضربة خائنة كضربات اللصوص ، حين ينسلون تحت أستار الليل ، فأطار صواب البطل ، وأوقع الخوذة الأخيلية الهائلة ، وغودر الرأس العظيم مكشوفاً فى متناول كل ظباة وكل سنان !

ولم يدع هكتور فرصته تمضى ، بل سرعان ما أبصر بتروكلوس يتلفت يرى صافنه ، حتى أرسل رمحه الرعديد الخائر ، إلى الرأس العاري ، فأقصده . . .

وسقط بتروكلوس المسكين . . . مضرجاً بدمه ! !

ووقف هكتور يتشدق ، ويفاخر تلك المفاخرة الكاذبة :

« بتروكلوس ! أرأيت ؟ لقد انتهيت ! ولقد طاحت آمالك وذهبت أمانيك فوق هذه الساحة أباديد ! بتروكلوس ! أكنت تحلم بأن تـفتح طروادة عليك ، فتسوق بيض خفوزها إماء بين يديك إلى بلادك ، وتـقرن فى الأصفاد أبطالها البهاليل ! ؟ أيها التاعس . لقد ترديت من عربة أخيل التى لم تكن يوماً أهلاً لها ، وبعـد قليل تنوشك سباع الطير ، وتغادرك فوق ثرى طروادة صعيداً جرزاً ورفاتاً سحيقاً ! !

بتروكلوس ! يا أتعس قتيل فى هذه الساحة الحمراء !

كم كنت تحدث نفسك بأن لو كان هكتور ، هكتور الخلاحل ، قاتلك ، وسافح دمك ، هو الذى ينام تلك النومة الساعة بين يديك ! !

وكم كنت تمنى نفسك أن لو عدت بعـدة هكتور وعتاده إلى مولاك ، إلى أخيل الذى أرسلك إلى الحومة ، ولم يجازف بنفسه فيها ، وهو يعلم أن أسدها الهصور لابد قاتله ، فافتدى نفسه بك ، وضحاك فى سبيل خلاصه ، من هـذه الصرعة التى زلزلتك !

بتروكلوس !

أهكذا قد غرر بك أخيل ، فأطلقك إلى حيث تلقى حتفك وتسبح فى دمك ، وتغص بآلامك ؛ وإنه ليسبح الآن فى شهواته ويقارف لذاته ، ولا يدرى مصيرك الحزن ، ولا يعرف ماحل بك من موتة زؤام ! ! . . . . . . »

وكان بتروكلوس العظيم يجود بروحه ، ويسمع إلى هـذا الهذر ، ويبكى ! فلما انتهى هكتور تأوه القتيل آهة عميقة ، وقال :

« هكتور !

حتى لك أن تفتخر الآن !

أما قبل هذه اللحظة ، فقد كنت تبحث عن قلبك الرعديد فلا تجده ، لأنه طاش من شدة ما عاينت من ضربات الميرميدون !

على أنك لو كنت رجلاً ، لآثرت أن تدفن وجهك في الرغام ، دون أن تفخر بنصر ليس لك في أقله يدان !

لست أنت الذي رميت يا هكتور ، بل هو سيد الأولب ، وولده أبوللو ، هما اللذان رميا ، وهما اللذان كتبا هـذا القضاء ، وأبرما هذا القدر !!

وإلا ، فوأرباب هيلاس ، لو صاولت عشرين كلباً مثلك ، لما أفلت منهم أحـد أبداً ؛ ولأرسلت أرواحهم الخبيثة تتردى في نار جهنم !!

أجلي هو الذي أعجلني يا هكتور ، وأبوللو هو الذي فتك بي تلك الفتكة البكر ، أما أنت ، فلم تصنع شيئاً ، أكثر من أن رميت رمية الجبان !!

على أني أقولها لك قولة غير كاذبة

إنك ستشرب بالكأس التي شرب بتروكلوس ، ولن تبسم لك الدنيا أكثر مما فعلت ، فانتظر ، فسيأتيك عذاب يشقيك ، وسينتفض أخيل العظيم حين ينتهي إليه نبأ مصرعي ، فيهرع إلى هذه الساحة ، والويل لك من رجعه الظامئ إلى دمك ! »

وكانت هذه المقالة قد أجهدته ، فسكت قليلاً ، ثم أغمض عينيه إغماضة متعبة ، وفتحهما فجأة ، ونظر إلى جنوده ، وقال :

« ميرميدون !

وداعاً ... سلامي ... إلى ... أخيل !!! »

* * *

وفاض الروح الكبير ، وسكنت الساحة الحزينة كلها ... كأنها تبكي ... !!

وكأنما هزت كلمات بتروكلوس فؤاد هكتور ، وكأنما تخشع بطل طروادة لجلال الموت ، فصمت طويلاً ... وقال ، مخاطباً القتيل :

« بتروكلوس !

من يدري إذا كان أخيل هو الذي يقتلني ، أو كنت أنا الذي أقتل أخيل !

هذه آجال يا أخي ... فالسلام عليك !! »

* * *

ولم يتورع هكتور أن ينزع حربته من رأس البطل ، ولم يتورع كذلك أن يأمر فينزع رجاله عدة أخيل ...

تذكاراً حربياً !

وعتاداً مؤقتاً !

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

مؤتمر الشباب الأخلاقي — نداء لسعادة رئيسه

إلى شباب مصر :

أبنائي الأعزاء .....

كان بودي أن أجمعكم في صعيد واحد لأقص عليكم هذا النبأ السار الذي تلقيته بالغبطة والسرور من شباب رابطة الشباب المصري ... وعهدي بكم سباقين إلى طريق الخير ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وها نحن أولاء نتقدم إليكم بفكرة هي أساس لهذا المعروف الذي جبلتم عليه وتسمون إليه . . .

ما أطيب أن تدعوكم هذه الجماعة الفتية لوضع دستور للشباب يتمخض من بين جموعهم ، فيدعوهم إلى توحيد الصفوف توحيداً يبشر بالنجاح ، وينظم حياتهم الخاصة والعامة تنظيماً يهيئ منهم جيلاً صالحاً نحن في أشد الحاجة إليه — ذلك لأن هذا النقص الذي نراه في بعض البيئات منا هو نتيجة لعدم تركز حياتنا على أسس يجب أن تتوافر فينا جميعاً في هذا العصر وفي جميع العصور ، فتجعل منا رجالاً يشرفون أنفسهم ويشرفون بلادهم؟ فإذا ما فهم الشباب حقيقة القصد ونبل الغاية ، فقد قدر لنا أن نحقق رسالتنا على يديه ، ذلك لأنه الروح الدافعة ، والقلب النابض في الأمة .

أبنائي : من منكم لا يريد الهداية لهذا الخلق الحائر .... المغمور فيما لا يرضى نفوسكم الطاهرة ، فضموا الصفوف وتعالوا إلى كلمة سواء لتسمعوا آراء كبار مفكريكم في مؤتمر الشباب الأخلاقي ، ثم نتناقش معاً في جو من الحرية ونزاهة القصد حتى يستقر عزمنا على تحقيق ما قمنا من أجله من وضع دستور تهذيبي يهيئ للشباب سبل الرشاد ؛ هدانا الله سواء السبيل ؟

رئيس مؤتمر الشباب الأخلاقي

محمد علي علوبة

الأستاذ ساطع الحصري

قدم القاهرة منذ يومين الأستاذ الجليل ساطع بك الحصري الوكيل الفني لوزارة المعارف العراقية ومدير دار الآثار ببغداد ، ليتصل برجال العلم وقادة الفكر في مصر ، ويقف على نظم التربية وطرق التعليم ومناهج الدراسة في المعارف ، فيقتبس من الأساليب ويختار من الكتب ما يلائم الحال في مدارس العراق ، توثيقاً لرابطة الفكر وتحقيقاً لوحدة الثقافة بين البلدين الأخوين

والأستاذ ساطع أحد الأعلام المدودين في التربية ؛ وقد كان عميد هذا الفن في تركية قبل الثورة العربية ؛ فلما قامت الدولة الفيصلية في دمشق كان وزيراً للمعارف فيها ، حتى إذا ما انتقلت إلى بغداد انتقل معها وتولى إدارة المعارف هناك ، فوضع أساس التعليم للحكومة الجديدة على أساس الوحدة القومية وأحدث الطرق الفنية بالرغم من ندرة المعلمين ومشاكل الطائفية وعراقيل الانتداب . وأفضل مزايا الرجل أنه صحيح المبدأ ، منطقي الفكر ، صليب الرأي ، حي الضمير ، يتقن العمل الذي يعمله ، ويملأ المنصب الذي يشغله

له مؤلفات قيمة في التربية ، ولكن أنفع آثاره وأخلدها مجلة التربية والتعليم التي كان يصدرها في بغداد ، فإن مجموعاتها سفر جليل حافل في التربية والأخلاق والأدب ؛ وهو ولا شك ركن أساسي قوي من أركان النهضة العلمية في العراق ؛ فأهلاً به وسهلاً

حول قبر الصفدي

إلى الأخ (الصفدي) الفاضل ، صاحب الكلمة الطيبة المنشورة في بريد الرسالة الحادية والعشرين بعد المائة . . .

المعروف يا سيدي أن الصلاح الصفدي جاء إلى دمشق في آخر حياته ، وتولى فيها وكالة بيت المال وكتابة الدست وأقام عليهما إلى أن توفى سنة ٧٦٤ . فلما قرأت كلمتك شككت في ذلك ورجعت إلى ما في خزانتي من مراجع ، فإذا الذي في طبقات

النبكي (٦ : ٩٤) والسبكي معاصره وصديقه ، والشذرات (٦ : ٢٠١) ، وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان (٣ : ١٦١) والأعلام لخير الدين (١ : ٢٩٦) أن وفاته في دمشق ، وزاد في الشذرات أنه دفن بالصوفية ، ومقبرة الصوفية قد درست وقام عليها بناء الجامعة السورية والمستشفى الوطني ، ولم يبق منها إلا قبر شيخ الاسلام ابن تيمية قائماً وسط المستشفى ، وهي في أرزه موضع في دمشق معروف بمقبرة البرامكة.

فكيف يكون القبر الذي وصفت في صفد قبره ؟ وعلام استند الأستاذ المحقق أحمد زكي باشا رحمه الله في تأييد ذلك ؟ هل وجد نصاً يطمئن اليه الباحث ، ويثق به المنقب ، أم اكتفى بالسماع ، والشائع على ألسنة الناس ؟

هذا وقد وقع لي مرة أني كنت ماراً في الزقاق الذي ينتهي إلى سوق الحميدية ، وفيه دور المسردميين ، والذي يسمى زقاق الفخر الرازي ، فلمحت في خربة قذرة قد اتخذها الناس لمثل ما تتخذ له المراحيض ... ... لمحت حجراً أبيض مصقولاً عليه كتابة يبدو طرفه ، وسائره غائص في الطين والأوساخ والتراب ، فعالجته ودعوت من أعانني على استخراجه ، فاذا هو الحجر الذي كان على قبر الامام المصنف العظيم ، علامة المسلمين ، فخر الدين الرازي ، وإذا عليه اسمه ، فحملت الحجر إلى المدرسة التجارية ، وذهبت مغتماً ثائراً ، أقيم الأرض وأقعدها ... ثم بدا لي فرجعت إلى ترجمته ، فاذا من المتفق عليه أنه توفي رحمه الله ببلدة هراة يوم الاثنين في عيد الفطر سنة ٦٠٦ ودفن فيها !

ولعل هذه من تلك ؛ ولعل هذه المزبلة التي في صفد قبر رجل آخر غير الصلاح صاحب الوافي بالوفيات وتلك المصنفات .

وإذن فلله الحمد ، وإن كنا من قبل لفي خطأ مبين

والسلام عليك أيها الأخ ورحمة الله وبركاته ؟

علي الطنطاوي

الشيخ عبد العزيز الميمني

قدم القاهرة الأستاذ العلامة الشيخ عبد العزيز الميمني الراجكوتي أستاذ اللغة العربية في جامعة عليكره في الهند ، وأحد أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ، وهو صاحب المصنفات والآثار الممتعة التي تمتاز بالتحقيق المنقطع النظير ، منها :

(١) أبو العلاء وما إليه ، وفي آخره فائت شعره ورسالة الملائكة . (٢) تنكيتات وتعقيبات على خزانة الأدب للبغدادي . (٣) اقليد الخزانة ، وهو فهرس لما تضمنته خزانة الأدب من الكتب المنسوبة . (٤) تحقيق (ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن المجيد للمبرد) . (٥) تحقيق (أبواب مختارة للأصبهاني في مجازات العرب) . (٦) شرح (ما تلحن فيه العوام للكسائي ومقالة كلا لابن فارس) . (٧) النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف . (٨) ابن رشيق حياته والبيئة التي نشأ فيها . (٩) زيادات ديوان شعر المتنبي . (١٠) تحقيق كتاب المداخل لأبي عمر الزاهد المطرز غلام ثعلب . (١١) تحقيق كتاب جاويزان خرد (أي العقل السرمدي) ، كان ترجم أيام المأمون من الفارسية القديمة إلى العربية ، وهو أقدم كتاب في العالم على رأي الفرس إذ ينسبونه إلى حفيد آدم . (١٢) وقد عني في هذه السبع السنوات الأخيرة بكتاب اللآلي في شرح أمالي القالي لأبي عبيد البكري فصححه على نسختين بألمانيا ومكة ، ونقحه بما لا مزيد عليه من العناية ، وخرج كل ما فيه ، وشاطر المؤلف في جميع المباحث ، وذيله باتمام الكلام على ذيل الأمالي بطريقة البكري نفسه . والأستاذ الميمني بعمله هذا قد أتى بفلقة من الفلق في هذه الأزمنة المتأخرة ، ودل على اطلاع واسع في آداب اللغة العربية في زواياها المترامية الأطراف ، وقد سد الفراغات وما بيض له البكري في كثير من الأمكنة التي كانت تحتاج لمزيد بحث وتدقيق

إلى غير ذلك من مباحث مفيدة ومقالات مستفيضة نشرت في مجلتي المجمع العلمي والزهراء . والله نسأل أن يمتع الأديب العربي بطول بقائه

محمد شفيق

سرقة أدبية

نبهنا الأستاذ علي الطنطاوي والأديب محمد يوسف قوره الى أن القصيدة التي نشرت في عدد الرسالة الماضي تحت عنوان : (حمامتي) وفوق إمضاء (عيسى وهب الله الشمبيري) هي للشاعر محمود حسن اسماعيل صاحب (أغاني الكوخ) ترجمها ونشرها في مجلة الأسبوع عدد ٤ أبريل سنة ١٩٣٤ ! وأعجب ما في الأمر أن هذا السارق أرسل إلينا قطعة أخرى ، ويرجو أن نشير إلى أن اسمه (عيسى وهب الله عبد المسيح) لا عيسى وهب الله الشمبيري كما نشر ، فكأنه يساعد الحق على فضيحته !!.

السياسة والتاريخ

أضحى تعليم التاريخ في عصرنا من أكبر العوامل في تكوين العقلية والثقافات القومية . وقد لعبت الثقافة التاريخية أكبر دور في تكوين الجيل الألماني الذي قام بالحرب الكبرى ، وكانت من أهم العوامل المعنوية في اذكاء الفكرة الجرمانية . وحينما كانت السياسة تسيطر على سير الثقافة القومية نرى التاريخ يلعب دوراً كبيراً في تكوين النشء ، ويصور بالألوان التي تلائم غايات الدعاية السياسية ؛ ففي ايطاليا الفاشستية وفي روسيا البلشفية ، وفي ألمانيا الهتلرية ، يدرس التاريخ بالأساليب السياسية ، ويستعمل أداة قوية لصوغ عقول الشباب وتوجيهها نحو الآراء والنقط الحساسة التي تستطيع السياسة متى حان الوقت أن تضرب على أوتارها . ولم ينس الدعاة الهتلريون في ألمانيا هذه الحقيقة بل عملوا على استغلالها ، وانشأت الحكومة الهتلرية معهداً جديداً للتاريخ أسمته « المعهد القومي لتاريخ ألمانيا الجديدة » وفي أنباء برلين الأخيرة أن هذا المعهد قد افتتح بالفعل في حفلة رسمية عقدت بهو جامعة فردريش ولهلم ، وشهدها جمهور كبير من زعماء الحزب النازي ومندوبي الجامعات الألمانية . وتحدث مدير المعهد الجديد الدكتور والتر فرانك عن « الوجهة الاشتراكية الوطنية لفهم التاريخ » وأفاض في استعراض المناهج السلبية القديمة لدراسة التاريخ وحمل عليها بشدة قائلاً : « ان صراعنا العلمي ممتزج بصراع أمتنا القومي ، ولسنا نستطيع أن نكون في حياتنا وفي عملنا أكثر من تعبير عقلي عن التطور العظيم والعصر العظيم اللذين اضطلع بهما أدولف هتلر »

وشرح الدكتور والتر مهمة المعهد الجديد في ميدان الدراسة التاريخية ولخصها في أربع نقط هي :

أولاً — غزو الأفكار الغربية لألمانيا منذ سنة ١٧٨٩ (أعني منذ الثورة الفرنسية) إلى سنة ١٨٤٨

ثانياً — الحركة القومية الدينية في القرن التاسع عشر

ثالثاً — ألمانيا وتطور الفلسفة في القرن التاسع عشر

رابعاً — المسألة الألمانية اليهودية منذ الثورة الفرنسية إلى الثورة الألمانية الوطنية الاشتراكية

وظاهر من هذا الشرح أن مهمة المعهد الجديد هي توجيه الدراسة التاريخية بما يتفق مع النظريات النازية في شرح التطورات القومية . فالأفكار الغربية التي غزت ألمانيا ، كما غزت العالم كله ، منذ الثورة الفرنسية هي أفكار خطرة منحلة لأنها تذهب إلى أبعد الحدود في تصوير الفردية والحقوق والحريات العامة ، بينما تذهب المبادئ الهتلرية في الحكم وفي تصوير حقوق الفرد إلى أبعد حدود الطغيان وانكار الفردية ؛ والمبادئ النازية تصور بأنها أمثل طرق الحكم وتكوين الفرد . وأما فيما يختص بالتطور الديني والتطور الفلسفي ، والمسألة اليهودية ، فلا ريب أنها ستصور جميعاً بصور مترقة تبرر سياسة النازي وتؤيدها ، وتبرر بالأخص نظريات الجنس والتفوق العقلي الجرماني وغيرها

وسيكون المعهد الجديد مصدر الوحي والالهام لدراسة التاريخ وكتابته في جميع المعاهد والمدارس الألمانية

كتاب جديد عن لورد بيرون

كانت حياة اللورد بيرون الشاعر الانكليزي الأشهر موضع التأمل والدرس لأكثر من كاتب ومؤرخ ، فصدرت عنها بالانكليزية وباللغات الأخرى كتب لا حصر لها ، ولكن حياة لورد بيرون ما تزال في عصرنا ، أعني لأكثر من مائة عام على وفاته مادة شائقة للدرس ؛ وقد صدر أخيراً عن بيرون كتاب جديد عنوانه « بيرون : أعوام الشهرة » Byron : the Years of Fame بقلم الكاتب الانكليزي بيتر كنيل ؛ وهو كتاب ضخم يفيض بالعرض الشائق ويتناول حقبة صغيرة من حياة بيرون هي ما بين سنتي ١٨١٢ و ١٨١٦ ، وهي الفترة التي استقبل بيرون فيها مجده الباذخ وغدا عزيز المجتمع المدلل

وقد ولد بيرون سنة ١٧٨٨ ، من أسرة تشرفت بالنبل ، ولكن عرف أفرادها بسوء الطباع وانحلال الخلق ، ولم يكن بيرون يشذ عن هذه القاعدة ؛ ولكن بيرون كان شاعر الطبيعة العبقري ؛ بيد أن هذه العبقرية التي تفتحت بسرعة مدهشة ، وغمرت كل ما حولها ، لم تدم سوى فترة قصيرة هي التي اتخذها مستر كنيل موضوعاً لدراسته ؛ ففي هذه الأعوام الأربعة أو الخمسة يبدو بيرون في ذروة قوته وخلاله ، وقد استعرض المؤلف نفسية الشاعر وخواصه بافاضة وبراعة ، ونوه بنوع خاص بذلك المزيج المؤلم الذي يجثم في نفسية بيرون وفي صفاته ، والذي يجعل حياته الباهرة قطعة من العذاب المستمر ؛ وذلك التباين المدهش الذي يجمع في صعيد واحد بين الخليع الصاخب والحيي النقي ، وبين المدنف الشره والقنوع الزاهد



(١) المعجم الفلكي — للدكتور أمين المعلوف باشا

(٢) خصائص اللغة العربية — للأستاذ حبيب غزالة بك

(٣) الزراعة العملية الحديثة — للأستاذ الأمير مصطفى الشهابي

(٤) في أصول الأدب — للأستاذ أحمد حسن الزيات

(٥) تاريخ الأدب العربي — للأستاذ أحمد حسن الزيات

للأستاذ محمد بك كرد علي

— ١ —

بعد بحث الأستاذ أمين المعلوف في الحيوان سنين طويلة ألف كتاب معجم الحيوان، فوقع من نفوس العلماء أجل موقع، وها هو الآن ينشر المعجم الفلكي وهو يشمل الثوابت والكواكب السيارة والصور النجومية وبعض المصطلحات الفلكية. وقد جاءت فيه أسماء كثيرة أخذها الافرنج عن العرب للدلالة على النجوم كانت على الدهر شاهدة بفضلهم في هذا العلم. وقد حقق الأستاذ المعلوف ألفاظاً لم يسبقه إليها أحد، وعلق شروحاً وحواشي مهمة وهو في ١٤٠ صفحة طبع في دار الكتب المصرية

— ٢ —

يكتب الأستاذ حبيب غزالة بين حين وآخر أبحاثاً صغيرة مفيدة، ومنها ما نشره في جزيرة رودس وتاريخها، ونشر اليوم رسالة في خصائص اللغة العربية قال فيها ان مما امتازت به اللغة العربيـة من الخصائص المترادفات والتفصيل والتقسيم والأسماء المشتركة والتضاد والاشتقاق والقلب والنحت والتجوز والتعميم والتخصيص والاستعارة والمقصور والممدود والمثنى ومزدوج الكلام والاتباع والتكرار والزيادة والتأكيد والتصغير والكناية والكنية والتفاؤل والتمويه والأمثال والجزاء أو المشاكلة والترويح والتعويض والادغام والتخفيف والأضمار وجمع الجمع والتناسب بين المعنى والاسم والبديع والاعتراض والاعراب والتصريف والحروف وخصائص الحروف . وأورد لكل ذلك أمثلة . وقد شفع هذا البحث بدرس في اللغات العربية العامية

— ٣ —

عرف الأمير مصطفى الشهابي في الأندية العلمية بأبحاثه الزراعية والاقتصادية واللغوية . وقد نشر إلى الآن عدة كتب في الزراعة ومنها كتاب « الزراعة العملية الحديثة » في خمسمائة صفحة ، طبعه طبعة ثانية منقحاً مزيداً مزيناً بالصور بعبارة سلسة قل أن كتب في الزراعة مثلها . وللمؤلف معجم مفيد في الألفاظ الزراعية ، وضع لكل لفظ من الألفاظ بالافرنجية ما يقابلها بالعربية ، ومنها ما كان من وضعه خاصة وهو بضع مئات ؛ فحبذا لو صحت عزيمته على طبعه خدمة للعلم

— ٤ —

أحسن الأستاذ أحمد حسن الزيات بنشر محاضرات لوومقالات

ومنذ سنة ١٨١٦ يأخذ نجم بيرون في الأفول ، ولكن شهرته تصمد ردحاً آخر ، وتنتهي حياته المضطربة الصاخبة بأن رغم على مغادرة انكلترا إلى إيطاليا ثم إلى اليونان ؛ وقد كان اسم اليونان الطامحة الى حريتها يجذب يومئذ كثيراً من عشاق الحرية ، وكان بيرون في طليعة أولئك الذين جذبهم وسحرهم ماضي تلك الأرض القديمة ؛ فغادر ايطاليا الى اليونان في أوائل سنة ١٨٢٤ حينما علم بأن اللجنـة الثائرة انتخبته عضواً فيها ؛ وذهب الى اليونان ليعمل في سبيلها بقلمه وماله وشخصه ؛ ولكن جراثيم الداء الذي قوض حياة الشاعر كانت تعمل عملها ، فلم تمض أشهر قلائل حتى توفي ، واختتمت تلك الحياة الباهرة الصاخبة بسرعة ، ولكن اسم الشاعر ما زال بعد مائة واثنى عشر عاماً من وفاته يفيض حوله أسمى معاني العبقرية والعظمة والخلود

في كتاب خاص ؟ ومن أحق من بلاغة ابن الزيات بالتخليد ؟

وقد درس في هذا الجزء عدة موضوعات ومن أهمها الأدب وحظ العرب من تاريخه والعوامل المؤثرة فيه ، وتاريخ ألف ليلة وليلة ، وبحثه في الروايات المسرحية كالمأساة والملهاة والدرامة والغنائية (الأوبرا) ، ولا شك أن الكلام على ألف ليلة وليلة والروايات المسرحية من الأبحاث الممتعة التي وفق الأستاذ إلى وضعها ولم يسبقه أحد إلى تحليلها وتجويدها . وحبذا لو جمع أيضاً في كتاب بعض ما جملته أنامله على صفحات الرسالة من المقالات الممتعة ، فإن الكتاب تتناوله الأيدي في كل زمان ومكان على صورة لم يكتب للمجلات حتى الآن مثلها .

* * *

قلت في الكتاب حتى المدرسية ما طبع بضع طبعات . وصدور الطبعة السادسة من تاريخ الأدب العربي دليل بيّن على احتياج الطبقات المتأدبة إليه ، وقد زاده المؤلف امتاعاً فنقحه وذيله بمعجم فسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب ، حتى لا يحتاج طالب هذا الفن إلى الرجوع إلى كتاب آخر ، وحبذا لو صحت عزيمة المؤلف الكبير على البحث في سني ولادات من ترجم لهم من الأدباء والعلماء ، فللولادات كالوفيات دخل كبير في تصوير المترجمين ، مثال ذلك عبد الله بن المقفع ، فقد ذكر أنه قتل في السادسة والثلاثين ، وعلى هذا جرى كل من ترجموا له ومنهم كاتب هذه الكلمة في « رسائل البلغاء » (طبعت طبعة ثانية في القاهرة سنة ١٩١٣م — ١٣٢٤ هـ) ، وتبين بعد ذلك أن ابن المقفع عاش أكثر من ذلك ، فقد ذكر الجهشياري في كتاب الوزراء والكتاب الذي طبع في فينا السيد موجيك من علماء المشرقيات سنة ١٣٤٥ — ١٩٢٦ أن ابن المقفع كان يكتب للدواوين عمر بن هبيرة على كرمان ، وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومائة ، وقال إنه كتب للمسبح بن الحواري في نيسابور في ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز قبيل تقلص الدولة الأموية ، وبهذا يصدق التخمين بأن عبد الله بن المقفع ولد في عشر التسعين ظناً ، ولا يعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة على الأقل ، وإذا حسبنا ذلك كان ابن المقفع يوم قتل ابن ستين أو نحوها ؛ وهذا هو المعقول لأنه كتب أكثر من عشرة كتب ، والعمر الذي قال به من قال لا يتسع لكل هذا

محمد كرد علي

مؤتمر الشباب الأخلاقي

بمناسبة المؤتمر الأخلاقي يرحب المركز العام لرابطة الشباب المصري ١٣ شارع المناخ بمصر بكل اقتراح يصل إليه بصدده ، وقد انتدب المركز العام حضرة مراقب المؤتمر الأديب أحمد ابراهيم خطاب لمقابلة من يريد الاستزادة في المعلومات عن هذا المؤتمر يومياً من الساعة ٤ إلى ٦ مساء ...

وقد استقر الرأي نهائياً على أن يعقد هذا المؤتمر يومي الخميس والجمعة ٢ و٣ رمضان سنة ١٣٥٤ الموافقين ٢٨ و٢٩ نوفمبر سنة ١٩٣٥ — الساعة السابعة مساء بقاعة محاضرات جمعية الشبان المسلمين بشارع الملكة نازلي بالقاهرة تحت رئاسة سعادة محمد علي علوبه باشا

سكرتير المؤتمر

ابراهيم الطوخي

3 me Année, No. 124.

Lundi-18-11-1935

الرسالة

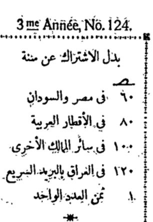
مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠



بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العــدد ١٢٤ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢١ شعبان سنة ١٣٥٤ — ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العــــدد

صفحة

على هامش الموضوع

فى الجمـــــال ؟!

حاولت أن أتابع البحث (فى الجمال) فنبا على الفكر، وشرد عني الخيال، واستبهم أمامي المسلك. وكيف يستطيع أن يبحث فى الجمال من يرى القبح الشنيع قد هجم على المشاعر من وراء البحر، فآذى الأحداق، وسمم الأذواق، وشوه كل منظر؟ ومَن أقبح من قادر يختل، ومعاهد ينكث، وصديق يروغ، ومتمدن يعالن الناس بسخف الذمة، وذائد عن الحق يتبجح باهتضام الحق، وغارق فى الثراء يتحلب ريقه على كفاف الفقير، وكابوس من الأنس يجثم على صدرك نصف قرن، تريد أن تزحزحه فيثقل، أو تخاطبه فيغبى، أو تغاضبه فيبرد؟

إن فى بعض أعمال اللصوص جمالا إذا تمت جراءتها على القوة، أو دلت حيلتها على الذكاء؛ ولكن أي جمال فى صوت يتحنن بالرياء فى (جنيف)، ويتخشن بالعداء فى (جلد هول)، ثم لا يختلف فى مقامه وقراره عن عواء الذئب فى روما؟ أليس هذا وذاك مظهرين وضيعين قبيحين من ضراوة الحيوانية فى الانسان الضعيف؟

على أن من يسطو وفي يده الخنجر، أدنى إلى الرجولة ممن يسطو وفي يده المسبحة ؛ لذلك كانت قهقهة (الدوتشي) من تصريح (هور) سخرية أليمة ، تخنس لها الرياء ، وتخجل منها الدهاء ، وترتج أمامها الحجة !

***

الحياة جميلة ؛ ولكن هذا الانسان يلونها بلونه فتقبح ؛ وقد جاهد المرسلون والمصلحون أن يجلوها على صبغة الله فعجزوا أمام بغيه وجشعه !

ماذا يبتغي الانسان من الانسان إذا كان يفسح له في أرضه ، ويتفضل عليه من رزقه ، ويقول له : هواك هواي ، ورضاك رضاي ، وعدوك عدوي ؛ ولكن لي وطني ولك وطنك ، فليتنعم كلانا بسلطانه الطبيعي على ما يملك ، وليكن بيننا ما بين الحليف والحليف من تعاهد في شرف ، وتعاون في استقلال ، وتعامل في حرية ؟ هذا كلام على بساطته وصراحته ووضوحه ما يزال يعجز الأفهام في أمة تفاخر بالعلم والحكم ، وتباهي بالديمقراطية والعدل ؛ لأن الأنانية المسلحة إذا عصفت في النفوس غشت على الحواس فلا تشعر ، وران على الأذهان فلا تدرك ، وأبهم في الخواطر مفهوم الفضيلة في الانسان ، ومدلول الجمال في الطبيعة ، فلا تدرك من معنى البحر غير الأسطول ، ولا من دلالة الأرض غير الجيش ، ولا من جمال الموقع غير الاستعمار الوقح

من شذوذ هذه العقلية الغالبة في الغرب ما تعاني ، ويعاني الشرق من أرزاء ومحن !

ومن شذوذ هذه العقلية الطاغية ما تصبّب أمس من نفوس الشباب على أديم الأرض ! فدختهم تركة الآباء الغارمة ، وأحفظتهم سياسة الأصدقاء الجارمة ، فغضبوا للحق الطعين ، وفزعوا للأمل الخيّب ، ففاضت أرواح طاهرة ، وذبيت وجوه حرة ، وضجت بالأنين مستشفيات ، وضجت بالشكوى سجون ، وتجاوبت بالحزن بيوت ، وتألف من هذه السطور الحمر صفحة بيضاء من تاريخنا الوطني الحديث

***

جف اللسان وحفي القلم من استجداء القانون واستصراخ العدالة ؛ والقانون والعدالة كلمتان لا تعنيان إلا إرادة القوي ومنفعة الغاصب ؛ فإذا لم يكن بجانب الحق قوة تؤيده ، وبإزاء العدل سلطان يقيمه ، كان استمساك الضعيف بهما استمساكا بالهباء المنتثر !

إذا أعوزتك اليوم قوة السلاح فلا تعوزك قوة الخلق ؛ وقوة الخلق ميسورة لك متى أقنعت نفسك بأنك إنسان له إرادة قبل الوظيفة ، وكرامة فوق المال ، وواجب مع الحق ، وتاريخ بعد الموت ... وقوة الخلق هي التي تجعل للأمة كلمة لا تتعدد ، وسياسة لا تتردد ، ومهابة في الصدور تكسر من طرف المحتقر ، وتكف من شرة الطامع ، وتصد من عادية الدخيل

جربنا كل شيء في جهاد القادرين فما أغنى عنا جهاد ولا تجربة ، لأن العدة كانت قوية إلا من ناحية الخلق . وإذا لم يكن الخلق كانت الشهوة والأثرة والتحاسد والتخاذل والتواكل والهوى ؛ وهذه الرذائل مجتمعة ومتفرقة كانت في مدى أعوام الجهاد الستة عشر وباء ذريعاً تسلطه الأقدار من حين إلى حين على جهود الشباب فيفنيها ، وعلى آمال الأمة فيذويها ، ثم يقطع ما بيننا وبين الزمن المتقدم فنسقط في هوة الماضي على الموقف الأول

***

ها نحن أولاء على جلد الصخرة التي وثبت من فوقها الأمة : وراءنا المدنة التي قُسمت عليها الأسلاب ووُزعت بينها الغنائم ؛ وأمامنا أطلال من الجهود العافية ، وأنقاض من الأماني الحطمة ؛ وعن أيماننا وعن شمائلنا آثار أقوام كانوا قبلنا فعثروا في وجوهنا وانطلقوا خفافاً متسابقين إلى الأمد البعيد . فهل لسادتنا الذين يتولون استئناف الجهاد أن يجربوا في قيادتهم قوة الخلق ؟ إنهم إن فعلوا ذلك أمنوا ولا ريب نكسة العلة ، وردة الهزيمة ، وضلة الطريق . جاهدوا أنفسكم قبل أن تجاهدوا العدو ، فإن من لم ينتصر على نفسه لا ينتصر على غيره ، ومن لم يقد نفسه الواحدة ، لا يستطيع أن يقود النفوس المتعددة

احمد حسن الزيات

٦ - كلمـــة وكُلَيمة

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

أصوبُ الصوابِ عند المأفونِ غلطةٌ تجلبُ له الشهرة

* * *

يرى المغرورُ أنه كالمسجد ، إذا هدمه الناسُ بقيت أطلاله تصلي وتسلم على نفسها . . . .

* * *

عقلُ النمـــلة يصوّرُ لها ظلامِ الليل جيشاً من النمل قد ملأ العالم .. ..

* * *

تعدُّدُ الأحزابِ في أمة تحتاج إلى الحرية ، كتعددِ الأنبياء في أمة تحتاج إلى العقيدة ؛ إذا وجد فيها نبيان كان اتفاقهما معاً دليلاً على كذبهما معاً ، وكان أقل ما في اختلافهما أنه دليـل على كذب أحدهما

* * *

إنما أضعفَ السياسيين في الشرق أن ربحهم وخسارتهم من (الوظائف) لا غير

* * *

من مصائبِ هـذا الشرق أن الخصامَ السياسيَّ فيه لا يدلُّ على سياسة ... تبرّأ متبوعٌ من تابع فاختصما ، فكانا كرجُل وحذائه ؛ يقول الرجل : أنا خلعتُ الحذاء ، ويقول الحذاء : بل أنا خلعت الرجل ...

* * *

إذا كانت المشكلةُ بين الذئب والحَمَل ، فلن يكون حلها إلا من أحد اثنين : إما لحم الخروف ، أو عصا الراعي ...

* * *

كلُّ دجال له أساليبُـه التي صار بها دجالا ، وليس للمنخدعين إلا أسلوبٌ واحد في الغفلة ؛ وشرٌّ من الشر تعدُّدُه ....

* * *

إذا اصطنعتَ سفيهاً يُسافِهُ عنك ، فاحذَرْه لليوم الذي لا يكون فيه سفيهاً إلا عليك

* * *

من أحسَنَ تملُّق المرأة أحسنَ إخضاعها لا تملُّقَها .

* * *

ما رأيت امرأةً حمقـاءَ إلا كان حمقُها من سخفه كأنه امرأةٌ أخرى حمقاء ...

* * *

إذا أحببتَ ففـكر في البغض لعله يكون ، وإذا أبغضتَ ففكر في الحب لعله يعود ؛ بهذا وهذا تكون دائماً محباً وإن أبغضت

* * *

ما أعجبَ تناقُضَ المرأة ! هي تريد أن تستقلَّ فتخرجَ عن طاعة الرجل ، وهي لا تسعد إلا حين تجد رجلاً تشعر من حبه بوجوب طاعته

* * *

من بلاءِ الحب أنه ينزّه جمالَ المحبوب عن كل عيبٍ وكل نقص ؛ ولـكنه بذلك يدفع طبيعةَ العاشق إلى البحث عن كل نقص وكل عيب في أعمال المعشوق

* * *

قاعدةُ الرجل مع المرأة التي يحبها أن تنتصر إرادتُه وإن ذلت كبرياؤه ؛ وقاعدة المرأة مع الرجل أن تنتصر كبرياؤها وإن ذلت إرادتُها

* * *

سؤالٌ فيه جوابه : لماذا يكون حقدُ المرأة الخائنة في حبها حقداً شديداً على الرجل الذي أحبته حتى كأنه حقدُ أمٍّ على قاتل أطفالها . . . ؟

* * *

المرأةُ التي لا زوج لها منفيـةٌ وإن كانت في دارها ، لأن وطن قلبها الرجل

* * *

إذا استسلمت المرأةُ لحبها ظنت الحبَّ قد ابتدأ ، وعلِمَ الرجلُ قد ابتدأ ينتهي . . . أذاك فرقُ ما بينهما في الحب أم فرقُ ما بينهما في الظلم ؟

* * *

ما أعجبَ هـذا ! أرادت حبيبةٌ ظريفـةٌ أن تكون مرةً سخيفةً عند محبها ، فلم تستطع أن تكون سخيفةً إلا كما يحب

* * *

ماهو السُّلوان في الحب ؟ هو رجوعُ العقل من سَفَره الخياليِّ في جسم المحبوب

* * *

٢ - مدينة الزهراء

ومبانيها الملوكية الشهيرة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

تتمة البحث

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والفخامة؛ فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة، منها ما جلب من مدينة رومة، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية؛ وأن مصاريع أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه؛ وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء كان ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة، يفرق لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم سوى الدجاج والحجل وغيرهما (١). وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة سوى القصر البابوي أو قصر الفاتيكان الشهير برومه وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال، فإن هذا المقام الكنسي الملوكي الفخم يحتوي على أربعة آلاف غرفة وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير.

- ٢ -

ولم تعمر الزهراء طويلاً كقاعدة ملوكية؛ فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط، منذ نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ؛ ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية، ولكن لأن تحولاً خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية؛ فقد ترك الحكم الملك لابنه الوحيد - هشام المؤيد - وهو طفل لم يجاوز الحادية عشرة؛ وسرعان ما استولى الوزير محمد بن عبد الله بن أبي عامر على مقاليد الحكم بمؤازرة صبح أم المؤيد ووصية العرش، ولم يمض قليل حتى استأثر ابن أبي عامر بكل سلطة ورياسة في الدولة؛ وفي سنة ٣٦٨ هـ أنشأ له ضاحية ملوكية جديدة بجوار قرطبة على نهر الوادي الكبير وأسماها الزاهرة، وجعلها قاعدة الحكم، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودوائر الحكومة، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور.

وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية؛ وشاءت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها وخلفه الذي أكمل بناءها. وكان قيام الحاجب المنصور في الواقع خاتمة لسلطان بني أمية، ولم يبق لهم بعد ذلك من الملك سوى الاسم؛ وقد بقيت الزهراء حيناً آخر مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه، ولكنها فقدت إلى الأبد أهميتها السياسية، وروعتها الملوكية.

ثم كانت المحنة الكبرى بانهيار هذا الصرح البديع الذي شاده بنو أمية بالأندلس، وانهيار الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية. ففي سنة ٤٠١ هـ (١٠١١ م) زحف سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينتزعها من المؤيد وواضح الحاجب المتغلب عليه، ثم هاجم مدينة الزهراء واقتحمها، وفتك أنصاره البربر بسكانها، وعاثوا في

(١) نفح الطيب ص ٢٦٥.

الرذيلة الصريحة رذيلة واحدة، ولكن الفضيلة الكاذبة رذيلتان.

***

يرى الملحدون أن من حقهم أن يمثلوا في النفس الإنسانية كما يمثل أهل الدين؛ فهل من حق أصابع الرجلين أن تمشي على البيانة (١) كأصابع اليدين؟

***

لكل إنسان عقل تحكمه الغريزة، وحقيقة الدين أن يكون للغريزة عقل يحكمها.

***

إذا جئت بالنكتة وبالغث فيها، كنت كمن أضاء المصباح وأطفأه حين أضاء.

(طنطا)

(١) هي تعريب (البيانو) وجمعها بيانات بكسر الباء

معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ؛ والظاهر أن الضربة كانت قاضية ، فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة سوى أطلال دارسة ، ولا يكاد اسم الزهراء يذكر بعد ذلك في التاريخ الأندلسي إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ؛ وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها وحي الشعر الرائع والخيال الرفيع ؛ وقد تغزل بجمالها وفخامتها جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك في مقطوعات مؤثرة ؛ ومما قاله ابن زيدون أعظم شعراء العصر يشيد بالزهراء وروائع ذكرياتها :

خليلي لا فطر يسر ولا أضحى
فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقني شرق العقاب فلم أزل
أخص بمخصوص الهوى ذلك السفحا
معاهد لذات وأوطان صبوة أجلت المعالي في الأماني بها قدحا
ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح تقضت مبانيها مدامعه سفحا
مقاصر ملك أشرقت جنباتها
فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا
يمثل قرطيها لي الوهم جهرة
فقبتها فالكوكب الرحب فالسطحا
محل ارتياح يذكر الخلد طيبه
إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى
هناك الحمام الورق تندى خفافها
ظلال عهدت الدهر فيها فتى سمحا
تعوضت من شدو القيان خلالها
صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا[1]

ونقل الينا الشيخ محي الدين بن العربي [2] أبياتاً قال إنه قرأها على بعض جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء في المدينة الشهيرة وهي :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متفرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثي الفتح معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض الكبراء في تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم ، كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهي بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب ناعب ، وقد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرقت بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خلالها ، وتفيأوا ظلالها ، وعمروا حدائقها وجناتها ، ونبهوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث في آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعي تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نؤي وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم شبابها ؛ وقد يلين الحديد ، ويبلى على طيه الجديد . . . »[1]

ويحدثنا الرحالة البغدادي ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم — فيصف موقعها ، ويقول إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وأن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلد (قرطبة) في المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتذالا لجيد الثياب والكسى ، وفراهة الكراع وكثرة التحلي ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع »[2].

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجري (القرن الثالث عشر) وقد ذكرها الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في منتصف القرن السادس وذكر أن بينها وبين قرطبة خمسة أميال [3] ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في أوائل القرن السابع الهجري [4] . وفي سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ، ونكبة الاسلام بسقوط قرطبة في يد النصارى ، فطويت بذلك أسطع صحف الاسلام وصحف الخلافة في الأندلس ؛ وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهيبتها

(1) راجع قصيدة ابن زيدون برمتها في ترجمته في « قلائد العقيان » للفتح ص ٧٢
(2) هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري ؛ وقد نقل الينا هذه الرواية والأبيات في كتابه الشهير محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار

(1) راجع قلائد العقيان في ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠
(2) المسالك والممالك ص ٧٨
(3) راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة — ص ١٩٣
(4) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١

الخلافية القديمة . ومن المرجح أن اطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في يد النصارى عصراً يصعب تحديده ؛ غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الاسلامية بسرعة ؛ ولم يبق اليوم من آثارها ومعاهدها الاسلامية الشهيرة سوى مسجدها الباهر الذى حوله الأسبان منذ افتتاحها إلى كنيسة جامعة ؛ وقد شوهت بذلك معالمه ومناظره الأولى ، ولكنه ما زال يحتفظ بكثير من أروقته وأبهائه القديمة ، وما زال يلفت نظر الزائر المتجول بمسحته العربية والاسلامية ؛ بل ما زال يعرف حتى اليوم بكلمة « مزكيتا » Mesquita أى المسجد ؛ ولم يبق غير المسجد من معاهد قرطبة وأبنيتها الفخمة القديمة سوى انقاض بالية . أما الزهراء ، فقد اختفت معالمها منذ عصر بعيد ، ولم يبق منها اليوم أثر ما . بيد أن موقعها ما زال يعرف بالتقريب في شمال غربي قرطبة ، ويطلق عليه اليوم « قرطبة القديمة » Cordoba la viesa ؛ ويقوم إلى جوار موقعها القديم إلى اليوم دير « سان جيرونيمو » ويقال إنه بني بانقاض قصر الزهراء[(١)] وقد عنيت الهيئات الأثرية الإسبانية في العهد الأخير باجراء الحفر في تلك النقطة محاولة استكشاف مواقع الزهراء ومعالمها الحقيقية[(٢)]

وقد كان لهذا المصير المحزن الذي انحدرت اليه مدينة الناصر بسرعة مؤسية شبيه بين مصاير القواعد الملوكية الاسلامية ؛ ذلك هو مصير مدينة القطائع الملوكية التى أنشأها ابن طولون إلى جانب الفسطاط ، وأسبغ عليها ولده خمارويه آيات رائعة من الفخامة والبهاء ، ثم شاء القدر أن تنهار دعائم الدولة الطولونية ، وأن تمحى القطائع بين يوم وليلة ، بعد حياة قصيرة لم تجاوز ثلث قرن ؛ فكانت مأساة مؤثرة تشبهها مأساة الزهراء من وجوه كثيرة مع فارق في العظمة والمنزلة السلطانية ، وفي ظروف العصر ، وصروف الأحداث ؟

محمد عبد الله عنان

(١) Ency. de l'Islam-Cordoue

(٢) راجع في تاريخ الزهراء وأخبارها وأوصافها : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ - ٢٤٧ و ٢٦٤ و ٢٦٦ و ٢٦٩ و ٢٩٢ و ٢٩٤ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ - ٢٤٨ والمسالك والممالك لابن حوقل - ص ٧٨ و ٧٩ ، وياقوت في معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ (كلمة الزهراء) ؛ وراجع أيضا Dozy : ibid, II, P. 174 Murphy : Mohamedan Empire in Spain P. 168—172.

مذاهب الفلسفة

٢ - المذهب الطبيعي *

للأستاذ زكي نجيب محمود

إذن فالجامد والحي شيئان مختلفان أشد ما يكون الاختلاف ، وليس من اليسير أن يسيغ العقل أنهما جانبان لحقيقة واحدة هي الطبيعة ، وأنهما يسيران وفق قانون واحد هو قانون الطبيعة ؛ ولعل أعقد المشاكل التي يصادفها المذهب الطبيعي هي هذه : كيف أنتج الجماد عالم الأحياء وبين موات الجماد وحياة الأحياء ما رأينا من فروق ؟ هنا تقدمت نظرية التطور لتأخذ بيد المذهب الطبيعي فتنجو به من هذا المأزق العسير بأن تفسر لنا كيف نشأت الحياة وكيف نشأ العقل

أما دارون فلم يستطع ذلك ، أو هو على الأصح لم يحاوله ، فقد سلم بوجود الحياة تسليما وفرضه فرضاً ، ثم بدأ سيره من هذه النقطة بأن أخذ يبحث فيما يطرأ على الحياة من تغير وتحول ، ومعنى ذلك أن دارون قد فرض أن الكائن الحي قد تسلسل من كائن حي قبله ، وهذا من كائن حي قبله ، وهكذا دواليك . فهو على ذلك لم يزد في بحثه على أن تتبع حلقات الاتصال بين أنواع الأحياء أي بين الكائنات السفلى والكائنات العليا ، وإذن فدارون لم يقدم في نظريته حلاً للمشكلة الأولى : مشكلة المذهب الطبيعي ، وهي ، كيف نشأت الحياة من الجماد ، وكيف نبت العقل مما لا عقل فيه ؟

ثم جاء في أثره هربرت سبنسر وتناول بعقله الجبار نظرية دارون فأكمل نقصها وأتم مطلبها . فأقام الحجة على أن الحياة إن هي إلا ضرب من ضروب المزيج الكيمياني بين أجزاء المادة ، فاذا كنا نبغي الوصول الى الحلقة التى تصل الحياة بالجماد ، فما علينا إلا أن نلتمس علماء الكيمياء ! ... ولقد رأى سبنسر مما وصلت اليه العلوم في عهده أنه ليس بين قطع الجماد وكائنات الأحياء تلك

(*) يحتاج بعض ذوى العقول الضعيفة أن ننبه الى أن هذه الفصول انما قصدت للدراسة وحدها ، وينبغي أنها لاتعبر لكاتبها عن رأى خاص

الشقة الفسيحة التي توهمها الأولون ، فالفرق كل الفرق بينهما اختلاف في درجة التعقيد والتركيب . أما العقل فضرب من ضروب الطاقة كالحرارة والكهرباء والضوء

ولكن ما بالنا نركب رءوسنا فلا نرضينا إلا أن يقوم الدليل على أن العقل قد نشأ من الجماد نشأة تدريجية معقولة وإلا كان الأمر في أعيننا لغزاً مغلقاً ؟ فلم لا تكون الحياة قد خرجت من الجماد خروجاً فجائياً مباغتاً بغير مقدمة ولا تمهيد ؟ قلب النظر في جوانب الكون تر آلافاً من الأشياء التي جاءت إلى الوجود من غير مقدمة منطقية ؛ خذ طعم الملح مثلاً وسائل نفسك من أين جاء ؟ هو لم يكن في عناصر الملح الأولى التي من مزيجها نشأ الملح ، وإذن فقد جاء هذا الطعم الذي نعرفه للملح طارئاً مباغتاً . فلماذا لا تكون الحياة ولا يكون العقل قد نشأ كلاهما على هذا النحو ، فيكون لهما من الخصائص ما ليس لعنصرها الأول : أعني ما ليس في مادة الطبيعة الجامدة . . . تلك حجة جديدة يؤيد بها أنصار المذهب الطبيعي رأيهم

ولكن دعك بعد هذا كله من تطور العقل سواء أكان تدريجياً أم مفاجئاً ، وحسبنا أن نأخذه كما هو بين أيدينا . فهل يستطيع المذهب الطبيعي أن يفسر كيف يعمل العقل ؟ كيف يمكن لقطعة من اللحم أو الشحم أن تخلق فكراً وتبدع خيالاً كما نرى ؟ إنه إن استطاع أن يعلل ذلك هان عليه بعد ذلك كل شيء ، ولهذا تراه اليوم يجاهد جهاد الأبطال في ميدان علم النفس لعله واجد عنده نصيراً وظهيراً ؛ وها هو ذا علم النفس منذ منتصف القرن الماضي ينحو في بحثه نحواً فسيولوجياً ، أي أنه يعتبر العقل وظيفة للمخ لا أكثر ولا أقل ، فهو لذلك خاضع كبقية أعضاء الجسم لقوانين العلة والمعلول . وكثير بين علماء اليوم من يزعم أن كل ظواهر الانسان الروحية والعقلية لا تعدو أن تكون نتائج كيميائية لبعض افرازات الجسم . وليس بعيداً عن هؤلاء أن يجيء الحين الذي يسيطر فيه الانسان على قواه العقلية ، بأن يبتكر طعاماً معيناً يفرز إفرازاً خاصاً يرفع القدم الوضيع إلى مرتبة الفلاسفة والحكماء !!

المذهب الطبيعي والدين :

لما كان أنصار هذا المذهب يتشبثون بالطبيعة وحدها ، فهم ينكرون أشد انكار أن يكون وراءها أية حقيقة أخرى ، وبعبارة موجزة واضحة : هم ينكرون الدين وكل ما يتصل بالعقيدة الدينية من حقائق لا تمت إلى ظواهر الطبيعة بسبب من الأسباب . فان سألتهم قائلاً : إن كانت العقائد ضلالاً في ضلال فما الذي حدا بالانسان بادئ ذي بدء أن ينظر إلى العالم بمنظار روحي ، ومن أين جاء هذا الاتجاه في التفكير ؟ أجابوك إنه خطأ بشري ككل ما يقع فيه الانسان من أخطاء ، ولكنه في رأيهم خطأ واجب مفيد لم يكن للانسانية عنه بد في حياتها الأولى

إنما ينشد الانسان الحق في الرأي لا لشيء إلا أن تكون الحقيقة عوناً له في طريق الحياة ؛ إذ الفكرة الصائبة توضح السبيل وتيسر الطريق ، وتعمل على استمرار البقاء واجتناب الخطر ؛ وعلى نقيضها الفكرة الخاطئة ، فهي مضللة للانسان مبعثرة لجهوده في غير ما طائل ، بل إنها قد تضره وتؤذيه وتؤدي به إلى الموت . ولما كانت العقائد الدينية مجموعة آراء نسجها الانسان ووشج بينها ، كان لنا أن نقول إنه كلما بعدت العقيدة عن الصواب كانت أدنى إلى إيذاء الانسان والعمل على تدهوره ، ولكن مما يهون الأمر أن الفكرة الخاطئة لا يستفحل خطرها وأذاها إلا إذا مست حياة الانسان العملية فأثرت فيها أثراً مباشراً ، فان لم تكن كذلك كانت قليلة الخطر أو عديمته ؛ فلما كان الانسان مثلاً في العصور القديمة لا يتعدى بأسفاره ورحلاته نطاقاً محدوداً ضيقاً ، لم تكن لتؤذيه فكرة أن الأرض مسطحة على خطئها ، فالخطأ والصواب في مثل هذه الحالة سواء ، بل كثيراً ما يكون الخطأ أنفع للانسان من الرأي الصحيح كأن توهم الشقي على الموت بأنه قوي سليم

وعلى هذا النحو كانت فائدة النظرة الروحية في مراحل الانسانية الأولى ، إذ كانت العقيدة أقوى حافز يدفعه إلى العمل والنشاط حينما كان الانسان أشد ما يكون حاجة إلى التشجيع . فقد كان أول أمره يهيم مع أوابد القفر وضواري الغاب ، يعيش لساعته عيش الحاجة والضرورة ، فلما أراد أن يعلو على مستوى الحيوان وأن يتخذ لنفسه في الحياة منزلة رفيعة ومكانة ممتازة بين الأحياء ، مستعيناً بما أوتي من عقل وخيال ، رأى أن الوسيلة الأولى هي أن يحطم أغلال الضرورة ما استطاعت حيلته ، وأن يوسع من

أفق زمانه فينفذ ببصره إلى الغد ، وهنا أخذ يعيش في جو من
أحلام ينسجها لنفسه بقوة خياله ، وسرعان ما ألقى في روع
نفسه أن هنالك — فوق العالم الذي يرى — قوة سامية سترعاه
وتأخذ بيده مما يصادفه في حياته من عسر وإشكال ، وتمكنت
من نفسه العقيدة بأن تلك القوة العليا ستكون له خير هاد
ومرشد في طريقه نحو الكمال الذي أخذ يرجوه ويبتغيه بعد أن
نقض حياته الحيوانية الأولى ، وتحرر من رق الضرورة واستعبادها

تلك كانت نواة العقيدة الدينية التي عملت فيما بعد على
تماسك الأفراد وترابطهم في تكوين المجتمع ، إذ أوحت إلى
الناس ضرورة احترام العادات والتقاليد التي هي الأساس الأول
في بناء المجتمع ، كما خلعت على السلطة الدينية مسحة مقدسة
زادت من هيبتها واحترامها ؛ وبديهي أنه لا بقاء للمجتمع بغير سلطان
محترم مهيب ، وهكذا كان الدين عماداً قوياً في بناء المجتمع أول
الأمر كما كان خير مدرب لمشاعر الانسان وعواطفه ، إذ راضها
وصقلها وأجراها في سبيل صالح مستقيم ، ولعل هذا هو السبب
الذي من أجله كان الدين كنفاً ترعرعت في ظله الفنون الجميلة على
اختلافها إبان طفولتها

كل هذه حسنات للدين مشكورة غير منكورة ، ولكن
قد يكون هذا الذي عاون الانسان على السير في أول الطريق عائقاً
يحول اليوم دون تقدمه ، وقد يكون « فرويد » العالم النفسي
الكبير مصيباً في رأيه بأن الدين صالح لتقويم الأخلاق إبان
الطفولة حتى إذا ما نضج الانسان كان لزاماً عليه أن يواجه
مشكلات الحياة العملية في صرامتها وجدها ، ولا ينبغي أن نطيل
الوقوف عند هذه المرحلة الأولى — مرحلة الأحلام الجميلة والآمال
الحلوة بأن قوة سامية ستحول بين صدورنا وبين ضربات
القدر وسهامه ، فلئن كان الدين قد ساهم بقسط وافر في تطور
الحياة البشرية ورقيها فلقد فرغت رسالته وأصبحت الانسانية
اليوم في مرتبة من رشد الكهولة تجعلها في غنى عنه

ويقول أوجست كونت في هذا الصدد إن طريقة تفكير
الانسان بإزاء العالم قد سارت منذ نشأتها إلى اليوم في مراحل
ثلاث : الأولى هي المرحلة اللاهوتية حيث كانت تفسر
الأحداث بقوى الآلهة ؛ والثانية ، وهي المرحلة الغيبية حيث كان
الانسان يعلل حوادث الكون بمجموعة من القوى ، فيعزو
الحياة إلى القوة الحيوية ، والنار إلى الحرارة ، وسقوط الأجسام
إلى قوة ثقل الأجسام ؛ والمرحلة الثالثة هي المرحلة الايجابية التي
فيها يفسر الناس ظواهر الوجود بأسباب مباشرة تسبق حدوث
الظاهرة المعينة ، فاذا وقعت العلة جاء في أثرها المعلول تبعاً لقانون
معروف ؛ وهذه المرحلة كما يقول كونت هي أسمى مراحل العقل
البشري ، وهي هي المرحلة التي تجتازها الانسانية اليوم . وهكذا
يدعو أصحاب المذهب الطبيعي إلى نبذ العقائد على الرغم من رسوخ
قدمها في النفس وتأصل جذورها في القلوب ، ويهيبون بالناس
أن يواجهوا حقائق الكون الواقعة في شجاعة وإقدام

* * *

والعجيب أن هذا المذهب الطبيعي لم يعدم في كل عصر من
عصور الفكر ظهيراً ونصيراً ، فقد وجد بين فلاسفة الاغريق
من يقيمه ويؤيده كديمقريطس ؛ ووفق في مستهل العصر
الحديث إلى رجل مثل « توماس هوبز » الذي أخذ على نفسه
أن يفسر كل شيء في الوجود على أنه مادة متحركة ليس إلا ، فتناول
العقل نفسه وقال إنه نتيجة لجملة الأحاسيس التي تنفذ إلينا خلال
الحواس الخمس ، ولما كان هذا الاحساس أثراً مباشراً لتحرك
الأعصاب ، وهذه نتيجة لازمة لما يقع بين الأشياء المادية من
حركة ، كان العقل بكل ما فيه من ذاكرة وخيال وما إليها ضرباً
من ضروب الحركة المادية لا أكثر ولا أقل — هذا وإن ديكارت
الذي يعتبر مؤسس الفلسفة الحديثة وواضع أصولها قد نادى
بأن الكائن الحي لا يزيد على آلة صماء عمياء تسير في حياتها كما
تسير الآلة الميكانيكية ، وقال إن جسم الانسان أيضاً آلة كسائر
صنوف الحيوان ولو أنه استثنى العقل من هذه الآلية وقال إنه
عنصر ممتاز . ثم جاء القرن التاسع عشر ، وهو عصر ازدهرت
فيه المادية ووجدت طائفة كبيرة من المشايعين ، على رأسهم دارون
وسبنسر وبخنر وهيكل وهكسلي ونيتشه ، فسار المذهب الطبيعي
على أيديهم شوطاً فسيحاً في تدعيم قواعده

(يتبع)

زكي نجيب محمود

النقـــد والمثال

الجمال الذاتي في بعض المعاني البسيطة

للأستاذ أحمد الزين

تحدثتُ في الفصل السابق عن نوعي المعنى الأصلي والشعري؛ وقلت في المعنى الأول: إنه أول ما يخطر على الخاطر، وتتحدث به نفس الشاعر، وذكرتُ أنه لا يسمى شعراً، وليس من الشعر في قليل ولا كثير، وبينت المعنى الثاني الذي تصرفت فيه الملكة الفنية بإضافة شيء من المحسّنات الشعرية اليه، وقلت: إنه هو الذي يعدّ من مقومات الشعر وعناصره، ومثلت لكلا المعنيين بما فيه الكفاية من شعر المتقدمين والمحدثين

وأقول في هذا الفصل:

إن بعض هذه المعاني الأصلية التي لم تتصرف فيها ملكة الشاعر قد يكون الحسن فيها أصلياً، والجمال فيها من ذاتها، فلا تتصرف فيها ملكة الشاعر تصرفاً كثيراً ولا قليلاً، ولا تتكلف فيها تحسيناً ولا تجميلا، بل إن تصرف الشاعر فيها قد ينقص من جلالها، ويشوه من جمالها، ويحجب هذه الطبيعة الجميلة بثوب من التكلف يحول بينها وبين مشافهة الأذواق بجمالها، ومباشرة الإحساسات بتأثيرها؛ فهي أشبه بغانيات أبي الطيب اللاتي استغنين بما فيهن من جمال مطبوع، عما يكسبهن الافتتان في الزينة من جمال مصنوع إذ يقول:

حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية وفي البداوة حسنٌ غيرُ مجلوب

أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مضغَ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمّام مائلةً أردافهن صقيلات العراقيب

ومن هوى كل من ليست مموهة تركتُ لون مشيبي غير مخضوب

وليس على الشاعر في أمثال هذه المعاني إلا ما يتعلق بالصياغة البيانية، من عذوبة العبارة، ورقة النسج، وشرف الألفاظ، واختيار الأسلوب الملائم لغرض الشاعر، وما إلى ذلك مما يتصل بالألفاظ والعبارات، دون المعاني والأغراض، وإنما يكون هذا الجمال الطبيعيّ في المعاني البسيطة إذا صدرت عن عاطفة قوية في النفس، وتحدرت عن ينبوع صافٍ من الحسّ، وكانت صُوَراً دقيقة للشعور الصادق في القلب الخافق، فهنالك لا يعد الشاعر إلا لساناً ناطقاً، لا مبتدعاً خالقاً.

وترى هذه المعاني الجميلة بطبيعتها مستفيضةً شائعةً في شعر الجاهليين والمخضرمين والإسلاميين إلى أواسط العصر الأمويّ، وإنما استفاضت هذه البساطة في شعر الأمويين لقرب عهدهم بعيش البساطة في البادية، ومشافهة الطبيعة في صحراء الجزيرة، فهم رغم تفرقهم في الممالك التي فتحوها وانتشارهم في الأمصار التي مصّروها، ومفارقة الفطرة في بواديهم، لم يزل صوتها يناديهم، فيجيبونها في أشعارهم بالبساطة في معانيهم وأفكارهم.

وإنك لتستجلي ذلك في شعر النسيب وما هو بسبيله، من الحنين إلى الأوطان وما قضاه الشاعر فيها من لبانات وأوطار وما لقيه بعد فراقها من محن وآلام وذكر الشباب الزائل، وما كان فيه من لهو وباطل، ونفور الحسان من هذا الشعر الأبيض الذي يقذي العيون، ويذهب باللهو والفتون، كما ترى هذه البساطة الفاتنة فيما تقرؤه أوائل قصائدهم في صفة الديار والأطلال، وما فعلت بها الرياح والأمطار، وما بقي فيها بعد من رحلوا عنها، وتحديد مواقعها بين الأمكنة التي تتصل بها أو تقرب منها

وترى ذلك أيضاً في شعر الذكريات حين تنزل بالشاعر محنة من سجن أو إسار فيعزّي نفسه عن تقييد ساقيه بإطلاق فكره في تذكر أيامه الذاهبة، ولذاته الفائتة؛ وذكر ما كان يحضره من مجالس الشراب والقيان، وبقائه رغم القيد على الوفاء لمن كان يجالسه من الندامى والصحاب، وإقدامه في القتال، وصبره على مقارعة الأقران ثم يأخذ في الافتخار بقومه وعشيرته ولومهم على تركه لأعدائه، وبطئهم عن فدائه؛ كلّ ذلك في حسرة وألم يفريان الضلوع، ويستنزفان الدموع.

وأنا أعرض عليك في هذا الفصل أمثلةً يسيرة لما ذكرت مما اخترته من حفظي.

أما جمال هذه البساطة في النسيب، فكقول المجنون «وهو

من أصوات الأغاني »:

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا ... سوى أن يقولوا إنني لك عاشقُ

لقد صدق الواشون أنتِ حبيبةٌ ... إليّ وإن لم تَصفُ منك الخلائق

ووجه الجمال في هذا الشعر مخالفةُ الشاعر غيرَه من المحبين باحتقاره الوشاة، وعدم استحقاقهم لتكلّف المصانعة والمداراة، وهو بذلك يصف حبّه بالنقاء من الريبة، وأنه أسمى من أن يستره بحيلة، وأشرفُ من أن يعمل في إخفائه الوسيلة

ثم انظر إلى سحر هذه البساطة في ضد ذلك وتصوير الخوف من الوشاة والارتياع من مقالتهم، وشكوى الشاعر إلى حبيبته قلّة الرسل إليها، وأن الحيل قد أعوزته في لقائها، ثم إشارته بعد ذلك إلى عتابه عليها، وضراعته إليها؛ كل ذلك في بساطة ساحرة وجمال رائع يشبه جمال الأزهار التي كستها الطبيعة من ألوانها الفاتنة ما تقصُر عنه ريشةُ الفن بما تزوّره من أصباغها الحائلة.

أريد شعر يزيد بن الطثرية حيث يقول:

أيا خلّة النفس التي ليس دونها ... لنا من أخلاء الصفاء خليل

أما من مقام أشتكي غربة النوى ... وخوف العدا فيه إليك سبيل

فديتك، أعدائي كثير، وشقتي ... بعيد، وأشياعي لديك قليل

وكنت إذا ما جئت جئت بعلة ... فأفنيت علاّتي فكيف أقول

فما كلّ يوم لي بأرضك حاجة ... ولا كلّ يوم لي إليك رسول

صحائف عندي للعتاب طويتها ... ستنشر يوما والعتاب طويل

فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة ... فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

ومثل هذه البساطة الساحرة ما نراه في شعر عبد الله بن الدُّمينة حيث يقول:

ألا لا أرى وادي المياه يثيب ... ولا النفس عن وادي المياه تطيب

أحب هبوط الواديين وإنني ... لمشتهر بالواديين غريب

أحقا عباد الله أن لست واردا ... ولا صادراً إلا عليّ رقيب

ولا زائرا فردا ولا في جماعة ... من الناس إلا قيل أنت مريب

وهل ريبة في أن تحن نجيبة ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب

أما جمال هذه البساطة في معاني الحنين إلى الوطن فمن أحسن ذلك قول بعض الأعراب:

أحب بلاد الله ما بين منعج (١) ... إلى وسلمى (٢) أن يصوب سحابها

بلاد بها حل الشباب تمائمي ... وأول أرض مس جلدي ترابها

وقول عبد الله بن نمير:

تمز بصبر لا وجدّك لن ترى ... عراص الحمى إحدى الليالي الغوابر

كأن فؤادي من تذكره الحمى ... وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

وقول الصمة بن عبد الله القشيري:

قفا ودِّعا نجدا ومن حل بالحمى ... وقلّ لنجد عندنا أن يودعا

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى ... وما أحسن المصطاف والمتربَّعا

وليست عشيّات الحمى برواجع ... عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا

وأذكر أيام الحمى ثم أنثني ... على كبدي من خشية أن تصدّعا

فهل ترى أحد هؤلاء الشعراء الثلاثة قد زاد في هذا الحنين على ما يتحدث به إليك متحدث نأى عن بلده، وفارق أهله وعشيرته، من الحنين إليهم، والألم لفراقهم، وتذكر ما مضى له من عهود، وزمن لا يعود، وتمنيه العودة إلى وطنه تمني اليائس من الأمنية، وتأميله الرجوع إلى بلده تأميل من يثق بالخيبة ويوقن بامتناع الأمل واجتهاده في الدعاء له وتوديعه إياه، وتفديته بالنفس؛ فلم يخترع أحدهم في الحنين معنًى جديداً، ولم يفكر تفكيراً بعيداً، ولم يُغرب في خيال، ولم يبالغ في تصوير ما يشعر به من ألم الفرقة، ووحشة الغربة، ولم يُثقِل شعره بالمجازات والاستعارات، ولا بشيء من تلك الحلى الظاهرية الزائدة على الحاجة في هذه المعاني وأشباهها

ولما كان هذا الشعر خطاباً صادراً عن نفس الشاعر منبعثاً عن عاطفته كان لا بد من مشافهته لنفس السامع ومباشرته لها، ولا نزاع في أن إثقاله بتلك الحلى الظاهرية من الاستعارات والمجازات مما يحول بين معانيه ومشافهتها للنفس، ويباعد بينها وبين الحس، ويجعلها أشبه بالغناء الجميل تسمعه بواسطة (الحاكي)

(١) منعج: واد يأخذ بين حفر أبي موسى والنباج
(٢) وسلمى: أحد جبلي طيء، والجبل الآخر أجأ

فانه لا ينال من نفسك ما يناله الغناء الشافه

وفي هذه الأمثلة التي رويتها لك فوق البساطة الساحرة في معانيها من رقة الأسلوب اللائم لمعاني الحنين ، وعذوبة العبارة ، وحلاوة الألفاظ — وهي كلّ عمل الشاعر . في أمثال هذه المعاني — ما يثير الشجن ويوقظ اللوعة ، ويجتذب قلب السامع إلى قلب الشاعر حتى يصيرا قلباً واحداً متحد الاحساس ، متفق الشعور ، حتى يخيل للسامع — وهو في وطنه بين أهله وعشيرته — أنه غريب عنهما ، وأن النوى قد قذفت به إلى مكان سحيق ، فهو يشكو الغربة كما شكاها الشاعر ، ويتمنى العودة كما تمناها ؛ وقد كان بعض علماء الأدب المتقدمين ينشد أبيات الصمة بن عبد الله السابقة على تلامذته في مسجد الكوفة ، ثم يبكي حتى تخضل لحيته ، ويقول : ما أصلب أكبادكم ! ألا تبكون عشيات الحمى ؟

ومن الجمال في هذه المعاني مشافهتها للعاطفة ودخولها إلى النفس الإنسانية من ناحية الضعف الموجب للمواساة والرحمة ؛ ونفوذها إلى احساس العطف المشترك بين الأسرة البشرية الباعث على المشاركة في الألم والمحنة . أما بساطة هذه المعاني في أشعارهم إذا بكوا الشباب وعهده ، وذموا المشيب ووفده ؛ ووقفوا على الأطلال والديار ، فلا أريد أن أطيل عليك في هذا الفصل القصير بذكر أمثلتها ، فان ذلك مستفيض شائع في كلامهم بل هو جلّ شعرهم ، وأكثر ما يحذأون به قصائدهم ؛ فلا تكاد تجف قصيدة لأحدهم مهما يكن غرضها من دمعة حارة يذريها الأسف على شباب ذاهب والارتياع من مشيب طارق ، والوقوف على طلل ماحل ، ورسم حائل ، وذكر ما قضاه الشاعر في أفياء هذه الرحاب وأكناف هذا الجناب ، من أيام عذاب وليال قصرتها متعة الصبا ولهو الفتوة إلى غير ذلك

ولعلهم جروا على ابتداء قصائدهم بهذه المعاني وتقديمها على الغرض المقصود بالشعر لتحريك القرائح الراكدة ، وإيقاظ الشاعرية الراقدة ، وتنبيه الأذهان التي قد تغفو ، واقتياد الأفكار التي قد تعزب ؛ ولما كانت هذه المعاني معروفة لديهم ، معبدة طرقها لهم ، محفوظاً أكثرها عندهم ، كانت تجربة قرائحهم فيها أيسر ، وتنشيط شاعريتهم في ميدانها أسهل ، كما يجرّب الجواد بإجرائه شوطاً قبل الانتظام في الحلبة ؛ وكما ترى أرباب الموسيقى إذا قصدوا إيقاع إحدى النغمات ، أوقعوا على الأوتار ما يقاربها من النبرات حتى يسهل عليهم الخروج منها إلى النغمة المقصودة

أما روعة هذه المعاني في قصائد الذكريات إذا نزلت بالشاعر محنة من سجن أو إسار ، فأنا أذكر لك أمثلة منها لقلتها وانتثارها في كتب الأدب ، وصعوبة الظفر بها في دواوين العرب ، وأكثرها من شعر لصوص البادية والمغيرين على أموال القبائل وهم أفصح العرب شعراً ، وأصرحهم عربية ؛ وكان بعض علماء الأدب المتقدمين وأحسبه الأصمعي يقول : « إذا أتاك بيت لص فاحتفظ عليه » وذلك لاخلادهم إلى سكنى البادية ، وعدم اتصالهم بالحضر

ومن أحسن ذلك شعر عبد يغوث بن وقاص الحارثي ، وكانت تيم قد أسرته وشدوا لسانه ، فقال من قصيدة

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا ... فما لكما في اللوم خير ولا ليا

أيا راكباً إما عرضت فبلّغن ... نداماي من نجران ألا تلاقيا

أقول وقد شدوا لساني بنسعة (١) ... أمعشر تيم أطلقوا عن لسانيا

أحقاً عباد الله أن لست سامعاً (٢) ... نشيد الرعاء معزبين المتاليا

وقد علمت عرسي مليكة أنني ... أنا الليث معدواً عليّ وعاديا

وقد كنت نحّار الجزور ومعمل الـ ... مطيّ وأمضي حيث لا حيّ ماضيا

وأنحر للشرب الكرام مطيتي ... وأصدع بين القينتين ردائيا

وكنت إذا ما الخيل شمّصها القنا ... لبيقاً بتصريف القناة بنانيا

كأني لم أركب جواداً ولم أقل ... لخيلي كرّي نفّسي عن رجاليا

ولم أسبأ (٣) الزق الروي ولم أقل ... لأيسار (٤) صدق أعظموا ضوء ناريا

وإنك لتقرأ هذا الشعر بيتاً بيتاً فلا ترى ملكة الشاعر قد تصرفت في هذه المعاني البسيطة الفاتنة ببساطتها تصرفاً قليلا

(١) النسعة : سير عريض من جلد ينسج على هيئة أعنة البغال

(٢) المتالي من الابل : الأمهات اذا تلاها الأولاد الواحدة متل ومتلية . ومعنى إعزاب الرعاء لها : أنهم يبعدونها في المرعى

(٣) أسبأ ، أي اشترى

(٤) الايسار : الذين يضربون القداح في الميسر

ولا كثيراً ، ولا أضافت الى هذا الجمالى الطبعى الرائع بطبيعته من المحسنات الفنية ما يزيده روعة وحسنا ؛ ولم يزد الشاعر على أن عرض صوراً دقيقة من حياته الماضية ولذاته المنصرفة ، كما يتحدث به المتحدث ، لا كما يتخيله الشاعر المتكلف ؛ ودعني أيها الأديب المتذوق أعتمد على ذوقك في إدراك الجمال في هذا الشعر فاني أرى الاطالة في شرح جمال الشعر والابانة عن وجوه الحسن فيه كما يفعله علماء البلاغة مما يسخفه ويسمجه ، ويخرجه عن كونه إحساسات نفسية ، إلى جعله قواعد علمية

وسيمر بك أيضاً كثير من أمثلة هذا الجمال منتثرة في هذه الفصول ؟

أحمد الزين

٤ - معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

علاقة الطليان بالحبشة

نشأت هذه العلاقة من اشتراك إيطاليا في سياسة الاستعمار . في اليوم الذي نال الطليان وحدتهم تامة غير منقوصة بعد حرب ١٨٧٠ أخذت الجرائد الطليانية تطالب بالمستعمرات الإيطالية بحجة أن الطليان في زيادة مستمرة في بلادهم فيحتاجون إلى أرض أخرى للسكنى فيها

فاستأجرت في سنة ١٨٧٠ شركة « روباتينو » أرضاً من الأهلين في جوار « عصب » لمدة عشر سنوات . وكانت أرض مصوع وما يجاورها ملكاً للعثمانيين ولكنهم تنازلوا عنها لخديو مصر مقابل خراج سنوى . وعند انقضاء مدة هذا الايجار اشترت الشركة الارض المذكورة . ولما احتل البريطانيون أرض مصر أعلن الطليان أن « عصب » مستعمرة طليانية فأخذت البعثات الطليانية تتجول في أرض دناكل والحبشة برغم هلاك بعضها بيد سكان البلاد ، وكان البريطانيون في هذا التاريخ منهمكين في مقاتلة جماعة المهدى في السودان . وأراد الطليان أن يقلدوا البريطانيين في تشكيل القوات في المستعمرات فأخرجوا قوة طليانية صغيرة إلى « عصب » لحماية الشركة هناك وجعلوا هذه القوة نواة لتشكيلات أهلية أخرى أسوة بالبريطانيين

وعقيب انتصارات المهدي في السودان اضطر المصريون إلى إخلاء مصوع وهرر وأرض الصومال والانسحاب إلى الشمال . فاستفاد الفرنسيون من ذلك فعقدوا معاهدة مع سلطان هرر واحتلوا إخليج تاجورة بأجمعه . فارتاب البريطانيون في ذلك فأسسوا لهم مستعمرة في الصومال في جنوبي جيبوتي وجعلوا قصبة « زيلع » مركزاً لها وألحقوها بمستعمرة عدن وجعلوا سلطان هرر تحت حمايتهم

ويظهر أن بريطانيا أرادت أن تشرك إيطاليا في حركاتها على المهدي وتجعل لفرنسا رقيباً في أرض الصومال فوافقت على أن تحتل إيطاليا مصوع في ٥ شباط ١٨٨٥ ، فخرجت يومئذ قوة طليانية إلى مصوع ورفعت العلم الطلياني على دار الحكومة . فلم يحرك خديو مصر ساكناً . بيد أن الفرنسيين لم يرتاحوا إلى ذلك ، وبعد أن رسخت أقدام الطليان في مصوع وجهوا أنظارهم إلى الداخل للتوغل في أرض الحبشة ، وكان هناك طريقان تجاريان يربطان مصوع بالداخل : أولهما طريق « مصوع - كرن - كسلا - الخرطوم » . أما الطريق الثاني فكان متجهاً إلى الجنوب ويقطع جبال الحبشة من الشمال إلى الجنوب إلى أن يصل إلى شاطىء البحر الأحمر

ولما كان هواء مصوع الحار الرطب غير ملائم للأوربيين فكر الطليان في الحصول على مركز آخر في الداخل صالح للسكنى . فارتفاع قصبة كرن حوالى ١٣٤٠ متراً عن سطح البحر . أما كسلا فارتفاعها يبلغ ٥٣٠ متراً ولكنها محاطة بروابٍ بشكل قلعة ، ولكي يحصل البريطانيون على مساعدة الطليان في مقاتلة المهدى في السودان لوحوا للطليان بالطريق الأول

فقررت الحكومة الطليانية تجهيز قوة لانزالها في مصوع تأهباً لاحتلال الحبشة من جهة أخرى وذلك رغم كون القيادة في مصوع لفتت نظر ساسة الطليان إلى عاقبة الحركة في اتجاه كسلا . وكان في جنوبي مصوع ميناء عرفالى الذى كان الأحباش يعتبرونه من الموانىء الحبشية لأنهم كانوا يجلبون الملح منه ، ولما

رأى النجاشي « يوحانس » أن الطليان احتلوا هذا الميناء احتج على ذلك

والحقيقة أن الحوادث بعد ذلك جعلت الحبشة وايطاليا تقفان وجها لوجه لأن البريطانيين قضوا على حركة المهدي بعد وفاته واحتلوا السودان وثبتوا أقدامهم فيه

لذلك لم يخش الأحباش خطراً من هذا الجانب . أما الطليان فأخذوا يوسعون نفوذهم في مستعمرة مصوع التي أطلقوا عليها اسم « اريترة » (أي الزنبقة الحمراء) ووسعوا ساحة الساحل باحتلالهم ميناء زولا وخليج « عدولي » ومنعوا الأحباش من أخذ الملح فاحتج النجاشي على ذلك أيضاً فلم يعبأ الطليان باحتجاجه بل سلكوا سبيل تخدير أعصاب الأحباش بإرسال البعثات وكانوا قبل ذلك أرسلوا بعثتين من « عصب » فقتلهما الدناكليون . وأرسلوا بعثة أخرى في سنة ١٨٨٦ فذبحت برمتها في هرر . وفي سنة ١٨٨٧ أرسلوا بعثة أخرى . ولما وصلت الى ملك تيجري ألقي الرأس القبض عليها وحبسها . فأرسل الطليان قوة مؤلفة من ٥٠٠ جندي قضى عليها الأحباش فاغتاظ الطليان لذلك فأبلغوا قوتهم في مستعمرة اريترة الى ١٨٠٠٠ جندي وقرروا الحرب وحشد الأحباش رجالهم في آذار سنة ١٨٨٨ أمام موضع دفاع الطليان وكان عددهم بالغاً زهاء ١٠٠٠٠٠ . فخشي الطليان عاقبة الأمر ومالوا الى المسالمة فانسحب الأحباش لأن المهدي كان يهدد مقاطعة امحرة فهاجمها بجيوشه ودخل عاصمتها جوندار فدمرها ، فظن الطليان أن القتال بين الحبشة والمهدي سوف ينهك الأحباش فيجيبون مطالبهم لذلك أعادوا قواتهم الى ايطاليا وتركوا ٨٠٠٠ جندي في اريترا

وفي أوائل سنة ١٨٨٩ جهز الأحباش بقيادة النجاشي « يوحانس » جيشاً بقوة ١٨٠٠٠٠ كما سبق ذكره وتقدموا نحو المهدي فوقعت معركة في « متمة » مات فيها النجاشي جريحاً وبعد أن ترك الأحباش ٣٠٠٠٠ قتيل في ميدان المعركة رجعوا الى بلادهم خاسرين .

منليك ملك الملوك

كان ملك شوعا أقوى ملوك الحبشة كما نعلم وكان من سلالة الملوك الذين يعتزون بنسبهم الى النبي سليمان وزوجته بلقيس ملكة سبأ . فاحتل منليك مدينة هرر في سنة ١٨٨٧ وبسط حكمه على الغالا كلها ، واستولى على مقاطعة كافا وما يجاورها فأصبح بذلك ذا نفوذ عظيم ، فأراد الطليان أن يستفيدوا من حرب داخلية بالانحياز الى جانب منليك متألبين على النجاشي « يوحانس » فأعطوه ٥٠٠٠ بندقية و٢٠٠٠٠٠ طلقة ليبقى على الحياد عند ما يقاتل الطليان النجاشي « يوحانس » ، وكان الكونت « انطونلي » على رأس الوفد الموفد اليه فتذاكر الوفد مع منليك في الوقت الذي مات « يوحانس » في معركة متمة . فقبل منليك شروط معاهدة « أوكيالي » في سنة ١٨٨٩ وكانت خلاصة أحكام المعاهدة مايلي :

« تبادل الممثلين السياسيين ، قبول خط الحدود بصورة عامة ، دفع رسوم جمركية بمقدار ثمانية في المائة عن الأموال الطليانية التي تدخل أرض الحبشة عن طريق مصوع وضرب النقود الحبشية في ايطاليا ، وقرض الحبشة أربعة ملايين ليرة ذهباً ، وحرية التجارة على أن ينفذ حكم المعاهدة في بلاد الحبشة برمتها »

وكانت المادة السابعة عشرة تقضي على الحبشة بان ترضى بتوسيط ايطاليا في علاقتها بالحكومات الاخرى . وكانت هذه المادة سبب الحرب بين الحبشة وإيطاليا

فاستفاد الطليان فوراً من احكام المعاهدة واحتلوا الأراضي التي تركت لهم بموجب المعاهدة قبل أن يوقع عليها ملك ايطاليا واحتلوا أرضاً في بلاد الحبشة

ولم يرض ملك تيجري بأن يتعاهد الطليان مع ملك شوعا وهو الذي ورث الملك عن أبيه يوحانس واعتبر نفسه ملكا للملوك

واحتل الطليان في حزيران ١٨٨٩ « كرن » وفي آب « أسمرة » واستمالوا أحد رؤساء تيجري الى جانبهم . وهكذا استطاعوا أن يدخلوا « عدوي » عاصمة تيجري بسهولة .

وبهذه الواسطة تقدموا من مصوع مسافة ١٣٠ كيلو متراً فتوغلوا في ارض الحبشة واعتبروا انفسهم حماة الحبشة بالملحق الذي أضافوه الى المعاهدة بسهولة حتى أن ملك ايطاليا أضاف الى القابه لقب « حامي بلاد الحبشة »

ولما ذهب الراس « ماكونن » ابن عم منليك الى رومة حاملا

مواد هذا الملحق لنص المعاهدة هلل الطليان فرحاً واستبشاراً . وكان من حقهم أن يهللوا لأنهم حصلوا على ملك استعمار الحبشة دون أن يسفكوا دماً أيطالياً .

وفي تشرين الثاني سنة ١٨٨٩ وقع الرأس « ما كونين » على الملحق باسم منليك وقدموا إليه مقابل ذلك أربعة ملايين فرنك و ٣٨٠٠٠ بندقية و ٢٨ مدفعاً وعتاداً كثيراً عربوناً لاخلاصه

فاعترفت الدول جميعاً بالمعاهدة وملحقها ما عدا روسيا . وفي سنة ١٨٩١ رضى البريطانيون بأن يحتل الطليان قصبة (كسلا) بصورة مؤقتة لأن قضية المهدى لم تكن قد انتهت

أما النجاشي منليك فعنى بتوحيد الحبشة وتوقيتها ونقل عاصمة البلاد من « جوندار » بعد أن أحرقها المهديون إلى أديس أبابا ، ومنح الفرنسيين امتيازاً بانشاء سكة حديدية تربط العاصمة بالساحل . ومن الطبيعي أن البريطانيين والطليان لم يرتاحوا إلى عمل منليك فاحتجوا عليه وحرضوا الرهبان عليه بدعوى أن السكة الحديدية من عمل الشيطان

ولم يستطع الطليان أن يعملوا أكثر من ذلك لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين في محاربة المهدى . وكانوا أرسلوا قوة في اتجاه كسيلا بدعوى حماية الأهلين من ظلم دراويش المهدى واحتلوا « أجوردة » وفي سنة ١٨٩٤ تقدمت قوات طليانية بقيادة الجنرال « باراتيرى » نحو « كسلا » وبعد معركة حامية طردوا أتباع المهدى منها واحتلوها

أما النجاشي منليك فكان يسعى لتوحيد البلاد فاستند في السياسة الخارجية إلى صداقة فرنسا وأخذ يستميل الرؤساء المخالفين إلى جانبه في الداخل واتفق مع رأس تيجرى فاعترف هذا بمنليك ملكا للوك الحبشة وهكذا أصبح النجاشي يحكم فعلاً بلاد الحبشة برمتها

وأول عمل قام به بعد إعلانه ملكا الملوك الحبشة أنه أخذ يذيب كل العملة التي ضرب الطليان عليها رسم ملك إيطاليا ويضع بدلاً من رسم الملك الايطالي رسم النجاشي منليك ويكتب اسمه فيها بالكتابة الحبشية ويضع في الوجه الثاني للعملة شعار الحبشة الأسد والتاج

(يتبع) طه الهاشمي

شكاة واعتذار

قصة معلم

فمن كان يرثى قلبه لمعذب
فأجدر شخص بالرثاء المعلم

الرسالة ١١٧ «الأستاذ محمود غنيم»

للأستاذ علي الطنطاوي

قلت لصديق لي أديب :

— إني لأقرأ لك منذ عشر سنوات ، فما رأيتك أسففت إسفافك في هذه الأيام ، وإني لأشك أأنت تكتب ما تكتبه ، أم يجرى به قلبك وأنت نائم ، فتأخذه فتضع عليه اسمك ؟ فماذا عراك أيها الصديق فأضاع بلاغتك ومحا آيتك ؟

— قال : دعني يا فلان دعني ... فإن سراج حياتي يخبو ، وشمعتي تذوب ، وما إخالني إلا ميتاً عما قريب ، أو دائراً في الأسواق مجنوناً ... إنني انتهيت ... بعت رأسي وقلبي برغيف من الخبز ....

— قلت : أربع عليك أيها الرجل وأخبرني ما بك ، فلقد والله أرعبتني ....

— قال : وماذا بي إلا أني معلم . إني معلم في مدرسة ابتدائية .. نهاري نهار المجانين ، وليلي ليل القتلى ، فمتى أفكر ، ومتى أكتب ..... وأنا أروح العشية إلى بيتي مهدود الجسم ، مصدوع الرأس ، جاف الحلق ، فلا أستطيع أن أنام حتى أقرأ مائة حماقة ، حتى أصحح مائة كراسة ، فأعمى عيني بقراءتها ، والاشارة إلى خطئها ، وبيان صوابها ، وتقدير درجاتها ، فاذا انتهيت من هذا كله — ولا يقرأ تلميذ من كل هذا شيئاً ، ولا ينظر فيه — عمدت إلى دفتر تحضير الدروس ، وهو الموت الأحمر ، والبلاء الأزرق ، الذي صب علينا هذا العام صباً ، فكتبت فيه ماذا أنا فاعل غداً في الفصل ، دقيقة دقيقة ، ولحظة لحظة ... وماذا أنا قائل من كلمة ، أو مقرر من قاعدة ، أو ضارب من مثل ، حتى إذا بلغت آخر كلمة فيه ، استنفدت آخر قطرة من ماء حياتي ، فسقطت في مكاني قتيلا ، فحملت إلى السرير محملا .. فنمت نوماً مضطرباً ملؤه الأحلام المزعجة ، والصور المرعبة ، فأحس كأن أمامي ركام الدفاتر التي سأصححها غداً ، فلا أنجو منها

حتى أبصر المفتش يتكلم من فوق المآذن ، فلا يدع قاعدة من قواعد التربية ، ولا نظرية من نظريات التعليم ، ظهرت في فرنسا أو انكلترا ، إلا أرادني على تطبيقها ، في فصل فيه سبعون تلميذاً قد حشيت بهم المقاعد حشواً ، وصفوا على الشبابيك ، ووضعوا على الرفوف ، مما لا يرضى عنه منهج من مناهج التربية ، ولا قانون من قوانين الصحة ؛ فاذا امحت هذه الصورة ، رأيت كأني أفهم تلميذاً وهو يصغي إليّ ولا يفهم ، فأكرر وأعيد فلا يفهم ، فأقوم إليه أنظر ما يصنع ، فاذا هو منصرف إلى دُبيرة يربط رجلها بخيط . فاذا شتمته أو أخرجته من الفصل ، ذهب يستنجد القانون فينجده القانون الذي حرّم العقوبات كلها ، وكفّ يد المعلم ، وشد لسانه بنسعة . . . ولا أزال في هذه الأحلام ، تنوء بي ، فأتقلب من جنب إلى جنب ، أحس كأن رأسي من الصداع بثقل أُحُد ؛ حتى يصبح الله بالصباح ، فأفيق مذعوراً ، أخشى أن يسبقني الوقت ، فلا أدري كم ركعت وكم سجدت ، ولا كيف أكلت ولبست ، وأهرول إلى المدرسة لا أستطيع التأخر عنها ولو طحنتني الأوجاع ، أو أحرقتني الحمى ، لأن المعلم لا يسمح له القانون أن يمرض في أيام المدرسة ، وعنده أربعة أشهر « عطلة الصيف » يستطيع أن يمرض فيها ، فاذا خالف ومرض ، حرم الراتب ومنع العطاء !

أغدو إلى المدرسة ، فأدخل على تلاميذ السنة الثالثة الأولية ، وهؤلاء هم تلاميذي ، لم يجدوني أهلاً لأكبر منهم ... فلا أنفك أقطع من عقلي لأكمل عقولهم ، وأمزّق نفسي لأرقّع نفوسهم ، ثم لا أفلح في تعليمهم ولا أنجح في تفهيمهم ، ولا أدري من أين السبيل إلى مداركهم ؛ فأنفق ساعة كاملة ، أقلّب أوجه القول ، وأستقري عبارات اللغة ، لأفهمهم كيف يكون (الاسم هو الكلمة التي تدل على معنى مستقل في الفهم وليس الزمن جزءاً منه) فلا يفهمون من ذلك شيئاً ، ولا أقدر أن أطرح هذا التعريف السخيف أو أستبدل به ، فأهذي ساعة وأهري ثم أقول : من فهم ؟

فيرفع ولد أصبعه . فأحمد الله على أن واحداً قد فهم ، وأقول :

ـ قم يا بني بارك الله فيك ، فأخبرني عن معنى هذا التعريف

ـ فيقول : يا أستاذ ! هذا داس على قدمي . فأصيح به ويحك أيها الخبيث ! إني أسألك عن تعريف الاسم ، فلماذا تضع فيه قدمك ؟ ألم أقل لكم إن هذه الشكاوى ممنوعة أثناء الدرس ؟

ـ فيقول : ولماذا يدوس هو على رجلي ؟ !

ـ فأصيح بالآخر : لم دست على رجله ياشيطان ؟

ـ فيقول : والله لقد كذب ، مادست على رجله ولكن هو الذي عضني في أذني فأغضب وأصرخ في وجهه :

ـ وكيف يعضك وأنا قاعد هنا ؟

ـ فيقول : ليس الآن ، ولكنه عضني أمس ويتطوع العفاريت الصغار للشهادة للمدعي والمدعى عليه ، ويزلزل الفصل فأضرب النضد بالعصا وأسكتهم جميعاً مهدداً من يتكلم بأقسى العقوبات ، ولا أدري أنا ما أقسى العقوبات هذه ؟ ... فيخنسون ويُبْلِسون فأعود الى الدرس فاذا هو قد طار من رؤوسهم ، على أنه ما استقر فيها قط !

وينفخ في الصور ، فتقوم القيامة ، ويخرج الأولاد الى الفرصة ، ثم نرجع الى درس القرآن . فأقول :

ـ من يحفظ سورة الفاتحة ؟

ـ فيتصايحون : أنا ... أنا ... أنا

ـ سكوت ، واحد فقط ... إقرأ أنت

ـ الحمد لله رب العالمين ... إياك نعبِد

ـ فأقول : إياك نعبُد . ـ فيقول : نعبد

ـ ويحك : نَعْ بُ دُ .

ـ فيقول : نَعْ بِ د

ـ انتبه يابني : نَعْ بود

فيقولها . حسن . قل نعبُد . فيقول : نعبِد فلا نزال في نعبُد ونعبِد حتى ينتهي الدرس . ولا يلفظونها إلا بالكسر لأنهم حفظوها من السنة الأولى خطأ

* * *

ولا أزال في هذا البلاء بياض نهاري ، ولا يأتي المساء وفيّ بقية من عقل ، أو أثر من قوة ، ثم لا أنا أرضيت الوزارة ، ولا أنا نفعت أبناء المسلمين ، ولا أنا انصرفت الى مطالعاتي وكتابتي

وهذه مكتبتي لم أدخلها منذ أول العام الدرسيّ ، وهذه مشروعات المقالات والبحوث التي أكتبها ، وهذه مسوّدات الكتاب الجديد الذي أؤلفه مبثوثة في جوانب الغرفة ، ضائعة مهملة . أفتلومني بعد ، على أني لا أجوّد في هذه الأيام ؟ قلت : هذه والله حالي فلست ألومك ؛ فرّج الله عني وعنك !

دمشق — علي الطنطاوي

آيتـــــان من آيات الله

للأستاذ قدري حافظ طوقان

حدثت منذ أسبوعين حوادث جوية في نابلس لا عهد لنا بها، ولا لمن هم أسن منا، أزعجت الناس وأدخلت خوفاً كثيراً إلى نفوسهم، هالتهم وعظمت عليهم، أقضت مضاجعهم ونفت الكرى عن عيونهم، أرجعتهم إلى الله يسألونه اللطف بالكهول والأطفال، وقام المؤذنون من أعلى المآذن يستنجدون بخالق السموات والأرضين أن ينظر بعين الرأفة إلى هذه الأمة التي توالت عليها المحن والمصائب من كل جانب، وكان صوت: «يا رب يا لطيف» يدوي في الأجواء، ورن في الآفاق، ترجعه الأصداء إلى الآذان، فيدخل إلى النفوس خشوعاً أحاطه الخوف، واستسلاماً أحاطه الإيمان والعقيدة، فاطمأن المؤمنون وقالوا: ليفعل الله ما يشاء، هو العليم وهو الحكيم، بيده الخير إنه على كل شيء قدير. وقال آخرون: إنها لعلامات تدل على قرب الساعة. وقال غيرهم: إنها لأشارات تنذر بالحروب والكوارث. وكيف لا تشغل هذه الظواهر أفكار الناس، وكيف لا تصبح حديثهم وموضع تنبؤاتهم وخوفهم وقد شغلت السماء كلها، بما على الأرض من رياح ومياه وأشجار ومبان؟!..

لاحظ الناس في مساء يوم الأحد الموافق ٢١ من الشهر الفائت أن الحالة الجوية غير طبيعية قبل غروب اليوم المذكور، فقد كانت تظهر في بعض جهات الشرق والجنوب بروق ولمعات خفيفة، دامت إلى ما بعد الغروب، ثم ما لبثت هذه البروق وتلك اللمعات أن استحالت إلى بروق متواصلة متعاقبة الحدوث والظهور في نواح عديدة إلى أن شملت السماء كلها، فاذا أضواء شديدة تنبعث من بين الغيوم من شرارات كهربائية كثيرة الشعب والتعاريج، كانت تظهر للناظرين وقد خيل اليهم أن السماء مفتحة الأبواب، يخرج منها أنوار تخطف الأبصار، مصحوبة برعود متعاقبة، لها قعقعة مختلفة الشدة، تبعها برد وأمطار غزيرة ورياح هائجة أحارت الناس وأذهلتهم.

ومما لا ريب فيه أن هذه الظواهر الجوية لا تحدث عفواً ومن دون أسباب، بل إن وقوعها لا يكون إلا حسب أنظمة خاصة لا تتعداها، خاضعة لنواميس طبيعية لا تشذ عنها، عرف الانسان بعضها ووقف على أسرارها؛ وقد ثبت أن مدبر هذا الكون سائر بكونه على أساس من القواعد والقوانين متين، وقد أتبع كل شيء سبباً، وكلما عرف الانسان شيئاً عن هذا النظام وهذا الناموس وتلك القواعد والقوانين تجلت لنا عظمته تعالى واضحة في آياته، وتجلت لنا حكمته في أفعاله وأعماله؛ وما البرق والرعد وما اليهما إلا آيات من آيات الله لا تحدث لموت أحد، ولا تنبئ عن وقوع حروب، بل هي ظواهر تسير حسب أنظمة تمكن العلماء من اكتشافها، وثبت لديهم أنها دلائل ساطعة على قدرته تعالى وألوهيته جل وعلا........

لقد حسب كثير من الأقدمين أن هذه الظواهر الجوية من أفعال الشياطين تجرى بموجب قدرة إلهية لتوقيع القصاص على الكفار والمذنبين. هذا الرأي كان سائداً في الغرب وعند كثير من العلماء؛ ومن الغريب أن العرب لم يأخذوا بهذا الرأي، وقد استعملوا في تعليل بعض هذه الظواهر الجوية العقل والفكر فكان رأيهم في تعليل حدوث البروق والرعود والصواعق، مع بعده عن الحقيقة، يدل على دقة في الملاحظة، ويدل أيضاً على أنهم كانوا لا يقبلون الآراء والنظريات المبنية على أوهام وخزعبلات فنجد أحد علمائهم وهو القزويني يقول في تعليل البرق والرعد ما يلي:

«إن الشمس إذا أشرقت على الأرض حللت منها أجزاء أرضية تخالطها أجزاء نارية ويسمى ذلك المجموع دخاناً، ثم الدخان يمازجه البخار ويرتفعان معاً إلى الطبقة الباردة من الهواء فينعقد البخار سحاباً ويحتبس الدخان فيه، فان بقي على حرارته قصد الصعود، وإن صار بارداً قصد النزول، وأيما ما كان يمزق السحاب تمزيقاً فيحدث منه الرعد، وربما يشتعل ناراً لشدة المحاكة فيحدث منه البرق إن كان لطيفاً، والصاعقة إن كان غليظاً كثيراً فتحرق كل شيء أصابته، وربما تذيب الحديد على الباب ولا تضر بخشبه، وربما تذيب الذهب في الخرقة ولا تضر الخرقة، وقد يقع على البناء فيحرق حيتانه وعلى الجبل فيشقه......» وقال في سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد... «واعلم أن الرعد والبرق يحدثان

معاً لكن نرى البرق قبل أن نسمع الرعد لأن الرؤية تحصل بواسطة البصر، وأما السمع فيتوقف على وصول الصوت إلى الصماخ، وذلك يتوقف على تموج الهواء، وذهاب النظر (أي سير النور) أسرع من وصول الصوت . . . »

ولقد بقي تعليل البرق والرعد وغيرهما من الظواهر الجوية غامضاً إلى أن جاء فرنكلين الأمريكي في القرن الثامن عشر للميلاد فأوضح هو وغيره بأن في الجو كهربائية يمكن الحصول عليها، وقد أثبت وجودها بتجارب عديدة، وبين أيضاً أن هذه الكهربائية موجبة في غالب الأحيان، وأن كهربائية السحب تكون عادة سالبة، وقد تكون موجبة في بعض الأحيان، وأن هذا كله يتبع التغيرات الجوية، وعوامل أخرى عديدة بعضها معروف والبعض الآخر غير معروف؛ وقد قدم فرنكلين بنتيجة تجاربه تقريراً إلى الجمعية الملكية بلندن؛ ومع أن أعضاء هذه الجمعية عدوا تجاربه وآراءه خيالاً في أول الأمر إلا أنهم أقروا أخيراً نظرياته وأخذوا بآرائه ومنحوه نوطاً رفيعاً الشأن اعترافاً بفضله وانتخبوه عضواً في جمعيتهم

واختلف العلماء في منشأ كهربائية الجو والسحب؛ ومن الغريب أن هذا الاختلاف لا زال قوياً، إذ لم يستطع أحد البت في هذا الشأن. يقول بعض العلماء إن سبب وجود الكهربائية في الجو يرجع إلى تبخر الماء المحتوى على مقادير ضئيلة من الأملاح؛ ويقول آخرون إن منشأ الكهربائية الجوية بما فيها السحب هو الاحتكاك بين القطرات المائية الدقيقة بالثلج الموجود في الطبقات العالية من الجو. وهناك عوامل أخرى لها علاقة بمنشأ هذه الكهربائية لا تزال غامضة وفي حاجة إلى الاستقصاء وزيادة البحث . . . ولكن الثابت المحقق أن في الجو كهربائية، وأنه يوجد سحب كثيرة مشحونة بكهربائية سالبة أو موجبة، فقد يصادف أن تمر سحابة مشحونة فوق سحابة أخرى أو فوق شجرة أو بناية، فتؤثر فيما تمر عليه وتجذب إليها الكهربائية المخالفة لها، وينتج عن ذلك اتحاد نوعي الكهربائية برغم الهواء ومقاومته، ومن هذا الاتحاد تتكون شرارة كهربائية ينبعث منها ضوء شديد نسميه « البرق »؛ وكثيراً ما يكون سير هذه متعرجاً، ويرجع العلماء سبب هذا إلى مقاومة الهواء الشديدة عند اتحاد نوعي الكهربائية؛ ويختلف طول الشرارة بحسب مقادير الشحنات الموجودة في السحب وعلى سطح الأرض فقد يبلغ ميلاً وقد يزيد على ذلك، ويلاحظ أن لون البرق يختلف، فبينما نراه أبيض في أسفل الجو نراه في أعلاه ضاربا إلى اللون البنفسجي أو مائلاً إلى الحمرة، وذلك لتخلخل الهواء في تلك الجهات المرتفعة

والبرق على أنواع: منها برق كثير التعاريج وقد ظهر جليا في تلك الليلة التي دفعتنا إلى كتابة هذا المقال

وبرق يُرى عند الأفق وهو في حدوثه كاللمعة الفجائية، وبرق كروي يمتد من السحاب إلى الأرض في بطء، ويمكن العين أن تتبعه. وقد اختلف العلماء في منشئه وفي أسباب حدوثه ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى نتيجة قاطعة في ذلك؛ وهناك برق يُرى في ليالي الصيف رغم صفاء السماء، ويرجع منشأ هذا البرق إلى الغيوم الموجودة تحت الأفق، وهذه الغيوم تكون عادة بعيدة، وبعدها هذا من العوامل التي تحول دون سماع أصوات الرعود التي تحدث كنتيجة لهذا البرق. ولقد أثبتت التجارب أن البرقة تتكون من شرارات عديدة يتبع بعضها بعضاً وأن مدة لبث ضوء البرق أقل بكثير من عشر الثانية

أما الرعد فهو الصوت الذي يعقب البرق، وهو يسمع دائما بعد رؤية البرق، والسبب في ذلك يرجع إلى أن سرعة الصوت أقل بكثير من سرعة الضوء، فالصوت يسير في الثانية الواحدة نحو ربع كيلومتر، بينما الضوء يقطع ثلثمائة ألف كيلومتر في الثانية الواحدة — فتأمل ! ! . .

وسبب حدوث الرعد يرجع إلى أنه عند ما يتحد نوعا الكهربائية أي عند التفريغ الكهربائي بين سحابتين، أو بين سحابة والأرض، يتمدد الهواء في منطقة التفريغ ويحدث ضغطاً على الهواء المجاور ثم يأتي الهواء ثانيا إلى تلك المنطقة لتخلخل هوائها، وهكذا تتكرر هذه الحركات وينتج عن تعاقبها صوت نطلق عليه اسم « الرعد »، فاذا كان التفريغ في منطقة قريبة منا سمعنا صوتاً مزعجاً جداً؛ أما إذا كانت بعيدة فحينئذ يكون للرعد أصوات ليس فيها شدة نسمعها متتابعة آخذة في الازدياد من أزيز إلى قرقرة إلى قعقعة؛ وإذا حصل برق ولم يعقبه رعد فمعنى هذا أن التفريغ الكهربائي حدث في أماكن بعيدة أو في مناطق مرتفعة

حيث الهواء قليل الكثافة .

وكثيراً ما نسمع بأن صاعقة وقعت على شخص فأفقدته حياته ، وانها انقضت على بعض مواد قابلة للاشتعال فألهبتها ، وانها أصابت حيوانا فأماتته ، وانها نفذت الى الأرض فأحدثت فيها فوهات عميقة ، وقد تقع على قضبان من الحديد فتمغنطها وتظهر عليها آثار المغناطيسية بصورة ملموسة . فما هي هذه الصاعقة التي تحدث مثل هذه الأعمال ؟ ما سبب حدوثها ؟ لقد أثبتت التجارب أن الصاعقة ليست إلا تفريغا كهربائيا بين سحابة مشحونة وبين الأرض . فالأرض تشحن بالتأثير بكهربائية مخالفة لكهربائية السحابة فيحصل اتحاد بين نوعي الكهربائية وينتج عن ذلك شرارة كهربائية وهي ما نسميها بالصاعقة . وهي تتجه في سيرها في الطرق الأقل مقاومة لها من الهواء فتمر على المباني والأشجار وتؤثر فيها ؛ وقد تحدث فيها أضراراً جمة ، فإذا مرت على شخص أو حيوان فقد يفقدهما الحياة ؛ ولهذا لا يستحسن أن يجلس الانسان في الليالي الكثيرة البرق في أماكن مرتفعة (تحت السماء) أو تحت شجرة ، ففي ذلك كله يعرض نفسه للخطر . وتسلح الأبنية في البلدان التي يكثر فيها وقوع الصواعق بجهاز خاص يطلق عليه اسم «مانعة الصواعق» أو «مترسة الصاعقة» اخترعها فرنكلين لحفظ المباني والأماكن العامة من الأضرار التي يحدثها الصاعقة . وبرغم معارضة رجال الدين لهذا الاختراع الجليل في بادئ الأمر فقد انتشر انتشاراً كبيراً في أمريكا وأوربا ، وذاع اسم مخترعه (فرنكلين) وأصبح حديث الحلقات العلمية وموضع إعجاب العلماء ورجال الأعمال . ولا بأس من الاشارة الى أن فرنكلين لم يكن عالما فقط ، بل خدم العلم وقام بقسط كبير في تقدم الكهرباء ، واليه يرجع الفضل في إنشاء الجمعية الفلسفية الأمريكية وفي تأسيس جامعة بنسلفانيا الشهيرة ؛ وفوق ذلك فقد كان من كبار سياسيي زمانه الذين جاهدوا كثيراً في سبيل استقلال بلادهم ، ومات وقد تحقق كثير من غاياته السياسية التي من أجلها ضحى وناضل . وهذا المخترع العالم جدير بأن يكون قدوة صالحة ومثالاً عالياً لعلمائنا الذين يقبعون في بيوتهم أو في مقاهيهم ولا يبذلون شيئاً من مجهوداتهم وتفكيرهم لخير بلادهم .

وليت الأمر يقف عند هذا الحد بل يتعداه الى أنهم لا يسيرون في ميادينهم العلمية سيراً قومياً ، فلست ترى إلا نادراً من خصص بعضاً من وقته في ناحية الكشف عن مآثر أمته في الطب مثلاً أو التاريخ أو الرياضيات أو الآداب أو الطبيعيات أو الفلسفة أو في أي فرع من فروع المعرفة الأخرى وأثرها (أثر الأمة) في تقدم المدنية وسير الحضارة ؛ وقد غرب عن بالهم أن علماء الأمم في هذا الزمان وفي الأزمنة السابقة قد خصصوا (ويخصصون) جانباً كبيراً من وقتهم وتفكيرهم في ناحية بعث الثقافة القومية وتبيان آثار أممهم في ميادين العلوم والفنون . نحن لا نقول بألا يواصل علماؤنا بحوثهم وألا يهتموا بالتنقيب ، ولكننا نقول بأن يخصصوا جانباً من وقتهم للاشتغال في تحرير بلادهم من النير الأجنبي ولتوجيه بعض بحوثهم توجيهاً قومياً يخلق في النشء روح الاعتزاز والاعتقاد بالقابلية ، وفي هذا قوى تدفع بالأمة المستعمرة إلى ما تتمناه من رفعة وسؤدد واستقلال

ولنرجع الآن إلى مانعة الصواعق فنقول إنها تتركب من ساق وموصل ، فالساق يتركب من قضيب حديدي مدبب في نهايته العليا لا يقل طوله عن خمسة أمتار ولا تقل مساحة مقطعه عن ٢٥ سنتيمتراً مربعاً توضع في أعلى البناء المراد تسليحه ، ويغطى طرفه الأعلى عادة بطبقة من البلاتين لكي تمنع تراكم الصدأ ، وبذلك يبقى القضيب جيد التوصيل ؛ أما الموصل فهو سلك من حديد أو عدة أسلاك تمتد من نهاية الساق إلى الأرض ، ومن الضروري ملاحظة هذه النقطة — نقطة الاتصال الأرضي — إذ يجب أن يكون الاتصال (بالأرض) محكماً ، وإلا لما كان للمانعة فائدة عملية ؛ ويستحسن أن تكون نهاية الموصل في أرض مبللة أو في بئر ، وإذا لم يمكن ذلك فمن الضروري عمل حفرة في الأرض تدخل فيها نهاية الموصل ، ويُراعى في هذه الحفرة أن تكون دائماً رطبة وذلك بتسليط مجرى مائي عليها ، أو باستعمال طرق يمكن بواسطتها حفظ رطوبتها ؛ ولكي يضمن الانسان الفائدة العملية من المانعة يجب عليه أن يجعل لنهاية الموصل شعبتين أو ثلاثاً . وهناك طرق أخرى اخترعت لحفظ المباني من الصواعق وأضرارها يمكن لمن يريد الاطلاع على تفاصيلها أن يراجع الكتب الخاصة بذلك

ولمانعة الصواعق عملان : الأول أنها تمنع تراكم الكهربائية

على سطح الأرض ؛ والثاني أنها ترجع السحب الكهربة إلى حالة التعادل ؛ وهذان العملان يحولان دون حدوث الصاعقة ويحفظان الأبنية من آثارها ؛ وقد تكون المانعة غير قادرة على منع حدوث الصاعقة ، فحينئذ يحدث التفريغ وينتج عنه البرق ، ولكن يقع التأثير كله وتقع الصدمة كلها على المانعة لأنها جيدة التوصيل ، وبهذه الطريقة يصان البناء ويبقى سالماً

لقد تكلمنا بإيجاز عن البرق والرعد والصاعقة ، وعن كيفية حدوثها ، ومن أراد زيادة البحث والاستقصاء فعليه أن يرجع إلى الكتب الموضوعة في علم الطبيعة وغيرها ، ففيها الكفاية والتفصيل

ويظهر لنا مما مر أن هذه الظواهر كغيرها تسير على قانون ونظام لا تخرج عنهما ، وترتكز على أسس ومبادئ يسمى الانسان للتعرف عليها والوقوف على دقائقها ؛ وإن في تعرف الانسان عليها ووقوفه على دقائقها ما يقوى فيه روح الاعتقاد بوجود قوة الله المدبرة الحكيمة المنظمة التي تشرف على هذا الكون وتسيطر على حركاته . أليس في البرق والرعد والصاعقة وفي كيفية حدوثها ، وفي المبادئ الطبيعية التي تسودها ما يزيد المرء اعتقاداً بضآلته ؟ أليس في عدم استطاعته اكتشاف كثير من القوانين التي تسود الكون ، وفي عدم وصوله إلى نتائج حاسمة في الوقوف على أسرار بعض الظواهر الجوية ما يزيد الانسان اعتقاداً بأنه لا يزال على عتبة اليقظة العقلية ؟

أليس في معرفة شيء عن حقيقة هذه الظواهر الجوية ما يزيد في وداعة الانسان وفي تواضعه ، ويسمو به إلى عالم أسمى من عالمنا ؟

أليست هذه الظواهر الجوية دلائل قاطعة على عظمة الله المبدعة وقدرته الخارقة ؟

وأخيراً أليست هذه الظواهر من آياته فيها عبرة وعظة للذين يتفكرون في خلق السموات والأرض وما بينهما ؟

نابلس — قدري حافظ طوقان

بين الأدب والسياسة

للأديب أحمد الطاهر

نقصد بتاريخ الأدب — هنا — كل ما يتناول الحياة الأدبية للأمة ، مما يطرأ عليها من القوة أو الضعف ، والصعود أو الهبوط ، وأسباب ذلك ، وما ينتجه أصحاب البيان في مختلف مناحي القول ، ودراسة حياة أولئك المنتجين ، وأثر ما انتضجت به قرائحهم في اللغة

ونقصد بالتاريخ السياسي والاجتماعي — هنا أيضاً — ما يطرأ على الأمة من احداث وتغيير في نظامها السياسي وعلاقة الحاكم بالمحكوم ونظام الحكم فيها ، وعلاقة الأمة بغيرها من الأمم ، وكذا حالتها الاقتصادية والمالية ، وعلاقة ذلك عراقتها

وما سقنا هذا التعريف — وهو غير جامع ولا مانع — إلا لنحد به موضع البحث في الصلة بين التاريخين ، وهي صلة وثيقة واشجة . فقل أن يتأثر أحدهما بعامل من العوامل دون أن يبدو لذلك أثر في الآخر يبدل وجهته ويغير ديباجته — ذلك مالا خلاف فيه .

أما ما اشتجر فيه الرأي وظهر الخلف : فأيهما يسبق الآخر فيمهد له الطريق ويعبد له المسلك ؟ وأيهما أبلغ أثراً في الآخر ؟ وفي هذا نسوق الحديث :

لجمهرة الأدباء على أن التاريخ الأدبي يسبق السياسي والاجتماعي : فينهج له السبيل ، ويمهد له المنبت : فينشأ قوياً أو ضعيفاً ، منتجاً أو عقيماً ، حسبما تهيأ له

وأغلب الظن أن هـذا القول على إطلاقه لا يقصد به أن يكون قاعدة يعتبر ما شذ عنها استثناء ؛ ذلك بأن استقصاء تواريخ الأمم وتقريه يقف بنا في مراحل عدة نجد فيها التاريخ السياسي والاجتماعي سابقاً للتاريخ الأدبي ، مؤثراً فيه أثراً عليه طابع السياسة وسمتها . بحيث لا يسع مؤرخ الأدب إلا أن يعترف بفعل السياسة فيه ، وأثرها في أكثر مظاهره ونواحيه ؛ ونزول الأدب على حكم السياسة ، وكثرة هذه المراحل لا تطاوعنا معها إلى القول بأنها استثناء للقاعدة ، والسمل من الخير ألا نقرر قاعدة بعينها في تحديد هذه العلاقة

فالأمم الحية القوية التي نالت حظاً من الحضارة والحرية ، إذا وقع فيها انقلاب سياسي أو اجتماعي ، أو قلبت صفحة جديدة في سجل حياتها السياسية قل أن يحدث فيها هذا الانقلاب دون أن تسبقه نهضة أدبية تهيئه للوجود ، وتمده للنهوض بما تعمل في الشعب من إيقاظ الشعور حتى الأحساس بضرورة التغيير ، وحفز الهمم حتى تصدق العزائم على المضي إلى الغاية ، وتمحيص الرأي حتى لا يتعثر في درجه مع سيل الحوادث

بذلك فضل الأدباء والشعراء والخطباء والكتاب ، وموضع الأدب هنا موضع السابق من المسبوق ، والمتبوع من التابع

ولا نغفل هنا أن الأدب لا يكتفي بالسبق ، ولا يقنع بالقيادة : بل إنه ليلتقي الانقلاب السياسي في الميدان بعد أن أفسح له الطريق فيدارجه ويرعاه بما يقويه ، ويبعث النشاط في نواحيه ، ويهدي الأمة في جهادها فيه ، ويقف التاريخ السياسي والاجتماعي حيث قدر له أو حيث أراد ، ولكن التاريخ الأدبي لا يقف عند هذه الغاية ، بل يسير بعد ذلك ويمتد أثره : فما يزال أهل الأدب بعد الحدث السياسي أو الاجتماعي يحيون الأمة بفضلهم ، ويتعهدونها ببرهم ، ويخرجون لها جيل آثارهم ، ونتاج قرائحهم : يتحدثون عن الماضي وما كان فيه ، وعن الحاضر ، ويستشرفون بالأمل في المستقبل ، فتربو ثروة الأدب وتنمو . ويتسع مجال القول ، وتخلد للأمة آثار تبقى ما شاء الله على تطاول الزمن

ولا نغفل كذلك أن الأدب في هذا الوضع يفضل السياسة من حيث ما تفيد الأمة من كليهما : ذلك بأن الانقلاب السياسي أو الاجتماعي غير مأمون العاقبة : فالأمة في سبيلها إلى الغاية السياسية أو الاجتماعية التي تقصد إليها يعرض لها ما يعرض للظاعن في طريقه : فقد تميل فلا تصل إلى الغاية ، أو تتكادها عقبات تحول دون الفوز بالمقصد ، وقد تهب عليها من أية ناحية أعصار وأنواء تصدف بها عن المحجة ، وتلوي بها عن القصد ، وتضلها عن السمت ، فلا تبوء الأمة بعد جهادها الطويل أو القصير إلا بالفشل فيما قصدت إليه ، وخسران الأنفس والأموال فيما سعت له ، بله جريرة ذلك على حاضرها ومستقبلها

أما النهضة الأدبية فقاعدتها بقاء الأصلح . وحكمها فناء السقيم : فمتى نهض أهل الأدب وبرزوا للناس بفضل أقلامهم فذلك هو الخير الذي لا سبيل إلى التشكك فيه من حيث هو ثروة وعتاد في الأدب . والبقاء مكفول لهذه الثروة ما بقي في الدنيا أدباء ومؤرخون ؛ ولا بقاء للأدب الرخيص فإنه يذهب جفاء في اللحظة التي يظهر فيها للوجود . ومهما تكن النتائج السياسية أو الاجتماعية التي مهدت لها النهضة الأدبية أو كانت سبباً فيها فهذه النهضة الأدبية لها قيمتها في ذاتها وفيها خيرها من ساعة ميلادها : لا ينقص من شأنها ، ولا ينقص من قدرها ، ولا تمتد إليها يد غاصب ، ولا تعبث بها يد ظالم . ولا نقصد بقولنا إن الأدب الرخيص أو السقيم لا يقوى على الحياة أن أدب الأمة ما بقي لا يكون إلا قيماً ثميناً ، إنما قصدنا إلى أن الأدب في فضله وما يتروى الناس منه كالكنز يخرج من بطن الأرض له قيمته وقدره ، وقد يكون الكنز ذهباً أو فضة أو معدناً دون الذهب والفضة ، ومهما يكن من شيء فهو ثروة لها قدرها ووزنها

ولكن هناك شروطاً لا بد من وفائها حتى يفيض الأدب فضلاً على أمته ، ويبلغ القصد من محجته ، في هذا الوضع الذي بينا : أولها أن تكون في الأمة حياة أدبية تثبت وجودها قبل الأحداث السياسية ، وتستطيع أن تشق طريقها في ظلمات الانقلاب ، وتسلك نهجها تحت عواصف الثورة ، وتقوى على البقاء بعد أن تهدأ العاصفة ؛ وثانيها أن تكون الأمة موفورة الحق في المتعة بحرية القول والبيان عن جدارة واستحقاق فلا تكمم عن الحق أفواه الخطباء ، ولا تكتم عن الصدق أنفاس الشعراء ، ولا تزم عن الكتابة أنامل الكتاب . وثالثها أن يكون سواد الأمة مثقفاً ثقافة أدبية ؛ فبغير هذا لا ينبت لأهل الأدب زرع ، ولا يدر لهم ضرع ، ولا يصيخ لهم سمع . وأقرب المثل لهذا الوضع وهذه النتائج الثورة الفرنسية ونهضة الأدباء قبلها وأثناءها وبعدها . وذلك مالا يحتاج إلى بيان

* * *

أما الأمم الواهنة المستضعفة فالعلاقة بين تاريخها السياسي والاجتماعي وتاريخها الأدبي مضطربة متقلبة ، لا تسير على نهج واضح ، وتنقطع حيناً وتتصل حيناً ، وتضعف وتقوى ؛ ذلك بأنها لضعفها واستكانتها وفرط ما كرثتها الحوادث تسلم سجل تاريخها السياسي للقدر ، أو لمن بيده أمرها ؛ يقلب صفحاته كما

يشاء ، ويمحو ويثبت فيه ما يشاء . فلا موضع للقول بأن لأدبائها أو لتاريخها الأدبي أثراً في خلق انقلاب سياسي فيها ، أو التمهيد له ، أو تقويته ، أو تمهيده .. فاذا حدث فيها انقلاب سياسي فهو في أغلب الأحيان مقطوع الصلة بحالتها الأدبية ؛ على أنه إذا جد الجد ، وقويت حركة الانقلاب السياسي وغالت مراحله حتى تنفست عن ثورة حادة ، أو ما يشبه الثورة الحادة ، فقد يؤثر ذلك في تاريخ الأمة الأدبي ؛ فيطلق الألسنة من عقالها ، ويمد القرائح بغذائها ، فتنطلق في الجو صيحات تكون خافتة في مبدئها ، وتستسلم بعد ذلك للأقدار ، فاما أن تقوى وتشتد ، واما أن تضعف وترتد

وهنا نرى للأدب فضلا آخر لا يجوز اغفاله : ذلك بأن الأمة التي وصفنا قد تعوزها في جهادها السياسي وسائله وعدته ، أو يقعد بها ضعفها عن النهوض له فتستخذى وتستسلم لضعفها أو قوة غلبها . أما أهل الأدب فلا ينضب لهم معين ، ولا يقفر بهم منبت ، فهذه الظلمات المحيطة بالأمة ينسجون من خيوطها شعراً ، وهذه صخور الظلم والاستبداد يفتتونها بأسنة الأقلام ويبسطونها للناس نثراً ، ومن هذا وهذا يحاولون احياء شعور أماته الظلم ، وإثارة همم قعد بها الخنوع . وقد يفلحون فيصلون بالأمة إلى غاية سياسية محمودة ، وقد يخفقون ولكن بعد أن يتركوا للأمة ثروة أدبية ؛ ولا تنس أن جهادهم شاق وعسير ، وأن بلاءهم مرهق وضائر

وهنا نجد التاريخ السياسي سابقاً ومتبوعا ، والتاريخ الأدبي لاحقا وتابعا ؛ والأول مؤثر في الثاني أثرا قويا أو ضعيفا ، وقد يبرز الأول في الميدان فلا يتبعه الثاني ولا يجاريه ، وإن تبعه ففي تؤدة ووناء .

على أنه يشترط أيضاً في هذه الحالة أن تكون الأمة مثقفة الى حد معين حتى تستطيع في وسط هذا المضطرب أن ترى قبس النور ينبعث من قصبات الأقلام فتمشي على هداه ، وأن تسمع صوت الحق من الخطباء فتلبي نداه . ذلك ان أتيح للأديب أن يكتب ، وللخطيب أن يخطب

ولا يتداخلنا العجب من أن يسبق التاريخ السياسي ويتقدم والمثل أمامنا واضحة بينة . فتاريخ الأدب الاسلامي إنما تأثر بما سبقه من عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية كان من مظاهرها نشوء الأحزاب السياسية وما فتح الله للمسلمين من بقاع الأرض ؛ ذلك أثر في العقلية العربية فغير في أسلوب الشعر والخطابة والكتابة وموضوعاتها تغييرا ظاهرا . وأقرب من هذا المثل تلك الحرب الأوربية التي اندلعت نارها في الغرب ، وامتد لهيبها إلى الشرق ، فحركت النفوس وحفزت الهمم ، وأثارت المطامع ، وأبرزت في الشرق طبقة صالحة من الخطباء والكتاب والأدباء ، ما زالوا يعملون وما زال الشرق يرجو من غيثهم خيرا في الأدب وفي السياسة ؛ أليست هذه نهضة أدبية قامت على أثر حركة سياسية ؟

وليس سبق التاريخ السياسي على الأدبي قاصرا على الأمم الضعيفة أو المستضعفة ، فقد يقع هذا في الأمم القوية كما يتضح من أثر تلك الحرب في الغرب ، وأكثر أممه قوية متحضرة ، فقد تقدمت الحرب وأحداثها ، ثم تبعها تغيير في الآداب من حيث الأسلوب ونظام القصة وطريقة التفكير ، وكان تغييراً مستوياً كاملا قويا ، بل كان نهضة حادة فتية

أليس من الخير بعد هذا ألا نلتزم قاعدة بعينها نجري على سننها الأدب والسياسة ونقيد بها موضع أحدهما من الآخر وأثره فيه ؟

ذلك ما أراه في هذا البحث ، فان رأى أئمة البيان وأهل الأدب غيره وجلوا لي وجه الصواب وبصروني مساقط الرأي فانني لشاكر وسعيد .

اليوزباشي أحمد الطاهر

٢ - عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

ثم انظر كيف فهم الرسول صلى الله عليه وسلم نفس عمرو : لقد قال : « أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص » لقد أسلم الناس حبا في الاسلام وقد دفعتهم عواطفهم وهدتهم طبائعهم ؛ أما عمرو فقد حسب للأمر حسابه ، ووزن ربحه وخسارته ، حتى إذا اطمأن فقد آمن . وقد أقبل واثقاً . . هكذا أصاب الرسول الكريم في فهم هذا الرجل الجليل . وإن الرسول ليعرف أن عمرا كان تاجرا داهية ومساوما ماهرا . . وأنه قد بذل الثمن وينتظر الربح ؛ فهو لا يضن عليه بما يريد فيؤمره على سرية ذات السلاسل ، ويؤمره على المدد الذي أرسله اليه وفيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ونفر من الأنصار والمهاجرين . . . إن الرسول ليعرف أن هؤلاء كلهم لا ينظرون إلى ولاية أو إمارة . . . لأنهم لا يلقون جزاءهم عن الايمان إلا عند الله . . . أما عمرو فيجادل أبا عبيدة على الامارة . . . ويقول له : « إنما قدمت على مددى ، وأنا الأمير ولا امارة لك . . . » فينزل له أبو عبيدة عن الامارة وكفاه شرف الجهاد . . . ثم انظر كيف يفهم أبو بكر نفس عمرو . . . انه ليفرده بفتح فلسطين . . . إنه ينقده ثمن ماسيبذل من جهد في الفتح ومهارة في القتال . . . ولو قد طلب اليه أن يكون مكان يزيد بن أبي سفيان مثلاً على جيش دمشق . . . لربما كره عمر . . . وربما لم يبد من المهارة ما أبدى في أجنادين ، ولكنه خليفة رسول الله ، كان يعرف عمراً خير المعرفة . . . فنزل له عما يريد . ولم يقصر الفاروق في هذا فتركه حراً في فلسطين ، لم يعزله كما عزل خالدا . . . وكان عمر يعرف كذلك أن عمراً مغامر . . . وأي تاجر لا يغامر ؟ وأي رجال المال لا يرتاح الى المضاربة والمغامرة والتعرض للغنم العظيم أو الغرم الذي يقصم الظهر . . . ولكنه كان يعرف فيه حذق المضاربة . . . وأنه لا ينزل السوق إلا كاسبا ، ولهذا . . . أقره على فتح مصر ولم يفرغ بعد من فتح الشام . . . وكان عمرو في ذلك مساوما ماهراً ومقنعاً ذا حجة ودهاء . . . فلم تثبت اعتراضات عمر الثبت الحصيف الدقيق الذي يضن بمسلم واحد على أن يجازف به وإنما اقتنع سريعاً . . . كان عمرو ماهراً لسناً بارعاً حين خلا بابن الخطاب وهما عائدان من فتح فلسطين . . . وكان امهر حين انساب في جنح الليل يسعى الى مصر سعياً . . . لقد خشي أن يعود أمير المؤمنين فيقبض يده . . . وقد خشي أن يراجع عمر نفسه . . . أو خشي أن يثنيه أحد عن عزمه . . . وما أخطأ عمرو في ذلك . . . فها هي ساعات لا تنقضي على مسيرة عمرو حتى يقبل عثمان فيملي اليه عمر نبأ غزاة مصر . . . فما يكاد عثمان يسمع الأمر حتى يراع ويصيح به : « ياأمير المؤمنين : إن عمراً لمجرؤ وفيه اقدام وحب للأمارة ، فأخشي أن يخرج من غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا . . . » فيشفق عمر على المسلمين اشفاقاً شديدا . . . وتحدثه نفسه أن يستوقف عمراً ، ولكن عمراً قد مضى من أيام . . . ولعله قد دخل حدود مصر ، ولعل الرسول لا يبلغه إلا وقد دخلها . . . وما ينبغي لجيش إسلامي أن يدخل بلاداً ثم يبارحها من غير فتح . . . تلك إذن هزيمة لا تليق بجند الاسلام

. . . إذن فليسرع بالكتابة اليه ، فان أدركه الرسول قبل أن يدخل حدود مصر فليرجع ، وما في ذلك حرج . . . وإذا كان قد دخلها . . . فليمض على بركة الله ، وليبعث اليه الامداد سراعاً تباعاً . . . كأنما كان عمرو يقرأ ذلك لكنه من كتاب ! وكأني به وقد قدر أن الخليفة لا بد أن يستدعيه ، وأن أحدا لا بد لاغه في ذلك الأمر . . . فها هو ذا يقرأ كتاب الخليفة دون أن يفتحه ! . . . وها هو ذا يحتال حتى يدخل أرض مصر . . . لا لأنه يعلم أن الخليفة قد قال ذلك . . . بل لكي يقول للخليفة إذا أمره بالرجوع : « وكيف أنسحب وقد دخلت أرض مصر . . . فكأني بالروم تقول : خافتنا العرب . . . »

إلى هذا الحد بلغ ذكاء هذا الرجل وحسن تقديره ودقة بصره . . . حتى عمر نفسه على ما عرف عنه من الذكاء الخارق لم يدرك شأو ابن العاص في فن الحساب والتقدير ! . . . . . .

وأي صفقة هذه . . . لقد ربحها ابن العاص . . . إنها مصر التربة الغبراء . . . والشجرة الخضراء . . . « طولها شهر وعرضها عشر » كما يقول في وصفه البليغ لعمر . . . ثم انظر كيف يعرف الرجل سبيل استغلال « هذه اللقمة » السائغة . . . إنه يقول : « ألا يتأدى خراج ثمرة إلا في أوانها . . . وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها . . . . فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال . . . تضاعف ارتفاع المال [١] . . . »

(١) أبو المحاسن : ج ١ ص ٢٣

وتلك هي سبيل التاجر الذي يحسب مكسبه وطرق الفائدة منه ... ثم استمع إلى ما يوصي به الناس غداة الفتح ... إنه لا يقف كثيراً عن حض الناس على الصلاة والصيام ... فتلك أمور بينهم وبين ربهم ... أما هو فحسبه أن يقول « يا معشر الناس ! إياكم وخلالاً أربعة فانها تدعو إلى التعب بعد الراحة . وإلى الضيق بعد السعة ... وإلى الذلة بعد العزة ... إياكم وكثرة العيال ... وانخفاض الحال ، وتضييع المال ، والقيل والقال بعد ذلك في غير نوال[1] ، ثم يوصي الناس بالخيل ويطيل في ذلك ... لأنها « رأس مال العربي » في الفتح والزرع ! ... وهكذا ...

كان الرجل يعرف قدر الصفقة التي كسبها من عمر ، ويعرف سبيل الفائدة منها ... واحسان القيام عليها ، وإلى هنا يبدأ الخلاف بينه وبين غيره ... حتى عمر نفسه لا يداني ابن العاص في مسائل المال والاستثمار ... فها هو ذا يكتب إليه يقول : « أما بعد فاني فكرت في أمرك والذي أنت عليه ، فاذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيعة قد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً ... وقوة في بر وبحر ، وأنها قد عالجتها الفراعنة وعملوا فيها عملاً محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ... فعجبت من ذلك ... وأعجب ما عجبت أنها لا تؤدي نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك على غير قحط ولا جدب ! » فيرد عليه عمرو الرد الحكيم فيقول : « ولعمري .. للخراج يومئذ (أي أيام الفراعنة) أوفر وأكثر ، والأرض أعمر ، ولأنهم كانوا على كفرهم وعتوهم ، أرغب في عمارة أرضهم منا مذ كان الاسلام ... »

هنا نلمس الفرق بين عمرو وغيره من ساسة الاسلام ، إنه يجيد الاستثمار ، ويحسن القيام على المال ... ... وهل كان الولاة الأولون يعرفون من هذه الأمور كثيراً أو قليلا ؟ أترك الجواب على ذلك لابن خلدون فله من ذلك شكوى لا تنقطع ... ! وهنا سر الخلاف بين عمر وعمرو ، ومبعث هذه المراسلات التي كانت تشتد وربما وصلت إلى التعريض ... فهذا عمر يقول : « وقد علمت أني لست أرضى منك إلا بالحق المبين ، ولم أقدمك مصر أجعلها لك طعمة ! ... » ثم يقول له في كتاب آخر : « إنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن حين وليت مصر ! »

إن ابن الخطاب يعرف أساليب عمرو بن العاص ، إنه يخشى أن يدخر المال ... إنه ليبعث اليه محمد بن مسلمة « ليقاسمه ماله » في ظاهر الأمر ، وليكون عليه رقيباً حسيباً ! ... في باطنه ؟ كان عمر يعرف في ابن العاص صفة التاجر المغامر ... فعامله على حذر ، وأفاد منه ولكن في حذق . ولكن عثمان قد عزله عن مصر ... فأي خطأ هذا ... وأي جهل بطبيعته ... لو أنه وجه اليه كلاماً أقل من كلام عمر لسكت ... لو أنه فعل به أي شيء آخر لما أهاجه ذلك الهياج ... ولكن « الصفقة » ضاعت من يده ؛ لقد عزل عمر بن الخطاب خالد ابن الوليد عن إمرة جند الشام فلم يحزن ولم ييتئس ، ولكن ابن العاص لا يسكت .... إنه يعرض بعثمان حيث جلس ... إنه يخف إلى المدينة مسرعاً وإن الثورة على عثمان لتضطرب بين جوانحه ... وأي ثورة هي أشد من هذا الحديث البديع الذي رواه لنا الطبري كاملا :

قال عثمان : يا ابن النابغة ! ... أتطعن علي وتأتيني بوجه وتذهب عني بوجه آخر ؟

عمرو — إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولاتهم باطل ، فاتق الله يا أمير المؤمنين في رعيتك

عثمان — استعملتك على ظلعك وكثرة القالة فيك

عمرو — قد كنت عاملا لعمر بن الخطاب ففارقني وهو عني راض

عثمان — لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت ، ولكني لنت عليك فاجترأت ، أما والله لأنا أعز منك نفراً في الجاهلية ، وقبل أن ألي هذا السلطان

عمرو — دع هذا ، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد صلى الله عليه وسلم وهدانا به ، قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك عفان ، فوالله للعاص أشرف من أبيك

عثمان — ما لنا ولذكر الجاهلية !

هكذا تنتهي المحاورة بين الخليفة وعمرو ... ويخرج هذا الأخير وقد دبر في نفسه أمراً ... انه ليثير الناس على الخليفة ويقضي وقته متنقلا من مجلس إلى مجلس يبسط للناس أخطاء عثمان ... ويحرضهم على الثورة عليه ... فاذا وفق إلى اثارة الناس وانذرت الفتنة فقد انحاز إلى قصره « العميلان » بفلسطين ... حيث وجدناه في أول هذا الحديث ... فاذا بلغه مقتل عثمان فقد طرب لذلك ولم يكتم فرحه به ... وصاح يقول : « أنا عبد الله ... إذا حككت قرحة أدميتها ، اني كنت لأحرض عليه ، حتى

(١) رواها أبو المحاسن عن ابن عبد الحكم

في الأدب الإنجليزي

٥ - الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

الأحلام Dreams :

إن اهتمام شكسبير بالأحلام ليفوق اكتراثه بالمفاريت ، فقد جعل منها في كثير من الأحيان قسماً من أقسام الرواية الأساسية بحيث تشكل ما نسميه موضوع الرواية . وهناك عدد من الأحلام في رواياته كان له أثر غير قليل في مجرى الرواية وسياقها التمثيلي . فحلم كلوسستر في القسم الثاني من رواية هنري السادس ، وحلم كلارنس في رواية ريشارد الثالث ، وحلم كلبورنيا في رواية يوليوس قيصر ، وحلم العراف في سمبالين ، كلها تكون جزءاً غير قليل من هيكل الرواية التي ذكرت فيها

وجميع هذه الأحلام التي ذكرتها عدا حلم العراف سمبالين تنبيء عن الموت والخراب ؛ فكلوسستر يرى في نومه غلاماً قد لدغته أفعى سامة فقتلته على الفور ؛ وكلارنس يحلم أن أخاه قد رمى به في بحر خضم فأغرقه حيث لا رجعة له بعد ذلك ؛ وكلبورنيا أبصرت في نومها زوجها قتيلاً بين أيدي مثاليه ورأت جسده يسيل الدم من جوانبه وقد اجتمع جميع الرومانيين حوله ليرشفوا من دمائه

وكان الناس على اختلافهم يعتقدون أن الملكة ماب تبعث هذه الأحلام في الصدور ؛ وتتجلى لنا هذه الفكرة من اجابة مركوتيو لرفيقه روميو إذ يقول : « واني لأظن أن الملكة ماب قد لازمتك ليلة البارحة »

لقد تحققت جميع الأحلام التي وردت في روايات شكسبير ؛ ومن هذا يظهر لنا أن الشاعر كان يعتقد اعتقاداً جازماً في الأحلام وتأثيرها على المجتمع البشري ، وهذا الاعتقاد هو ما نسميه اليوم بعلم تفسير الأحلام

التنبؤ والتنجيم : Prophecay and Astrology

تحتوي روايات شكسبير على عدد كبير من النبوءات التي تختلف بحسب أهميتها وكونها قسماً رئيسياً من أقسام الرواية . وأهم هذه النبوءات التي يطالعنا بها شكسبير هي نبوءة مرجريت في رواية ريشارد الثالث . فهي تتنبأ للملكة اليصابات بقدوم وقت قريب تحتاج في أثنائه لمونة كل انسان ، وهي تنبيء كلوسستر بقرب ذلك اليوم الذي تقطع فيه الأحزان نياط قلبه ؛ وإن من الغريب أن كلتا هاتين النبوءتين تتحقق في سياق الرواية

وأما النبوءات التي فاهت بها الساحرات في رواية مكبث ، فقد تحققت كذلك في نهاية الرواية . وهذه النبوءات كما ذكرنا سالفاً كانت على نوعين : احدهما حدث قبل أن يكون ملكاً على اسكتلنده ، والآخر بعد رقيه العرش ، وقد تحققت هذه النبوءات كما تحققت سالفتها

وفي رواية (ترويلس وكريسيدا Troilus and Cressida) نرى هناك عدداً آخر من النبوءات التي تصدر عن أميرة حمقاء تدعى الكسندره ، فقد تنبأت بقتل هكتور ودمار طروادة ، وهذا ما حدث حقيقة في نهاية الرواية ؛ ونرى في بعض الروايات عرافين يتكهنون بحدوث الأمور قبل وقوعها ؛ ففي رواية يوليوس قيصر يتكهن العراف بقتل قيصر ، وهذا ما يتم فعلا

لأجرض عليه الراعي في غنمه في رأس الجبل(١)

والآن ! « قد خرج الحق من خاصرة الباطل ، وأصبح الناس في الحق شرعاً سواء ! . مات ولي الأمر وأصبحت دولة الاسلام كلها « صفقة واحدة » تحسن المساومة فيها جملة ، ولهذا أرق عمرو وسيأرق طويلاً ، إنه ليتدبر الأمر تدبراً ، وإنه ليقلبه على وجوهه ويحسب مكسبه منه ، وخسارته فيه ، ثم يمضي على حذر ، وسنرى .

للبحث بقية حسين مؤنس

(١) الطبري جـ ٥ ص ١٠٧ — ١٠٩ ، ٢٢٣

لننتقل الآن قليلا إلى البحث فى التنجيم والفلك ، ونرى هل اهتم شكسبير بهذا النوع من الغيبيات . لقد وردت اشارات عدة فى كثير من رواياته إلى التنجيم وقدرته على حل رموز الغيب والمستقبل ؛ فنرى فى كل من هملت ، ويوليوس قيصر ، وكوريولانوس ، والعاصفة ، وهنرى السابع ، ومكبث ، وقصة الشتاء Winter's Tale عددا من الظواهر الطبيعية التى تحدث عادة قبل وقوع أمر جلل

يسطول بنا البحث كثيراً إذا أسهبت فى وصف كل من هذه الظواهر الطبيعية وشرح أسبابها ونتائجها ، ولذلك اقتصرت على ذكرها دون شرح أو تفسير ، فمن هذه الظواهر الكثيرة ظاهرة سقوط المذنبات وارتفاع أمواج البحر وقدوم بعض الطيور وسخط الطبيعة وانتقال بعض أنواع الحيوانات من مكان إلى آخر ، كلها كانت أموراً خارقة للعادة تنبيء عن حدث جلل ومصاب عظيم

الملاك الحارس Genius

يعرف جونسون هذا النوع من الغيبيات بأنه القوة السماوية التى تحفظ الانسان من الشرور والآلام ؛ وبولكير فى كتابه « العقائد الانكليزية » يقدم لنا تعريفا أوسع وأكثر شمولا ، فهو يقول : « يكون الملاك الحارس ملاكا خيراً أو شيطاناً مريداً » .

وقد ذكر شكبير هذا النوع من الغيبيات فى سبعة مواضع ، وفى كل واحدة منها اتخذها عنوانا للفضيلة ومعنى من معانى الخير والصلاح إلا فى روايته العاصفة عند ما يصف فردناند هذا النوع من الغيبيات قائلاً : « إن شيطانى الحارس لن يكون قادراً على إبداع شرفى فى الرغام ، ولن يكون فى استطاعته قط أن يغير معالم السرور التى تحيط بى الآن »

من هذه الفقرة يظهر لنا أن للانسان ملاكا وشيطاناً حارسين . يؤكد هذه النظرية خطاب فلستاف Falstaff الى بوننز قائلاً : « إن لهذا الغلام ملاكا حارسا بمثه ، ولكن له فى نفس الوقت شيطانا يعمى بصائره ويقوده الى ما فيه شره ومضرته »

ولا يظهر هذا الملاك الحارس للملأ إلا بعد وفاة صاحبه ، فيظهر فى كل شبح من الأشباح يرتدى نفس الملابس التى كان صاحبها يرتديها قبل وفاته . ولننظر الى حالة الذهول التى تستولى على الناس عند نهاية رواية (مهزلة الغلطات Comedy of Errors) فيرون رجلين متشابهين لا يمكن تمييز أحدهما من الآخر . اسمعهم يتهامسون « إن أحد هذين الرجلين ملاك للآخر أو صورة مطابقة له »

وهذا الملاك يلازم صاحبه تمام الملازمة فى غدواته وروحاته وفى نومه ويقظته ، وهنالك لا يحدث نزاع بين رجلين إلا ويصحبه نزاع آخر بين ملاكيهما الحارسين . ولنستمع الى مكبث يقول عن بانكو : « انه الشخص الوحيد الذى أخافه وأرهبه . إن ملاكى الحارس لا يستطيع القيام بأى أمر من الأمور مخافة غضبه وسخطه ، كما كان ملاك أنطونيوس خاضعاً تمام الخضوع لملاك بروتس »

مما تقدم يتجلى لنا أن شكسبير عنى بالملاك الحارس شيئاً غير الروح وغير الشبح . فما الملاك إلا باعث من بواعث الخير وداع من دعاة الفضيلة يقى صاحبه ويحفظه من كل ما يهاجمه ويناوئه

(البحث بقية) خيرى حماد

من تراثنا الأدبي

٤ – أبو العيناء

للأستاذ محمود محمود خليل

تتمة

قالت إن أبا العيناء اتسع أمامه الميدان أيام المتوكل ، وظهر نجمه ، وسعدت أيامه ، فلم يقتصر الأمر على اتصاله بالخليفة ، بل اتصل بوزيره الفتح وأخيه عبيد الله ابني يحيى بن خاقان واستفاد من عطاياهم وسخائهم مالاً كثيراً ؛ ولقد مدح عبيد الله لدى المتوكل حينما سأله عنه فقال : « نعم العبد لله ولك ، مقتسم بين طاعته وخدمتك ، يؤثر رضاك على كل فائدة ، وما عادل بصلاح ملكك كل لذة » . وله كتاب طويل كتبه إلى عبيد الله يستوهبه دابة يركب عليها حينما وهب له ابنه محمداً دابة ، فزعم أنها غير فارهة ، وهذا الكتاب تستطيع أن تجده في كتب الأدب ، وهو يدل على التلطف في المسألة ، والاحتيال على هؤلاء الرؤساء بتلك الأحاديث الحلوة الفكهة ، مما حبب أبا العيناء إليهم ، وجعلهم يغضون عن بذاءته ويلبسونه على علاته

انقضت دولة المتوكل ووزيريه الفتح وأخيه عبيد الله ، واضطربت الأمور من بعده ، حتى استتب الأمن ، ورجعت المياه إلى مجراها ، وتولى الوزارة عبيد الله بن سليمان بن وهب في خلافة (المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدي) فاتصل به أبو العيناء وحضر مجالسه ؛ وطالما حدثنا الرواة عن كثير من حوادثه معه ؛ دخل عليه ذات يوم فقال : اقرب مني يا أبا عبد الله . فقال : أعز الله الوزير ! تقريب الأولياء ، وحرمان الأعداء . قال : تقريبك غنم وحرمانك ظلم ، وأنا ناظر في أمرك نظراً يصلح من شأنك إن شاء الله ، وقال له يوماً : اعذرني فإني مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم تحتج إليك ، وأنشده :

فلا تعتذر بالشغل عنا فإنما ... تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال : ياسيدي قد عذرتك ، فإنه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك . ودخل عليه يوماً فقال : من أين يا أبا عبد الله ؟ قال من مطارح الجفاء . وأقبل يوماً إليه ، فشكا سوء حاله ، فقال له أليس قد كتبنا إلى ابراهيم بن المدبر في أمرك ؟ فقال : كتبت إلى رجل قد قصَّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة محن الدهر ، فأخفق سعيي ، وخابت طلبتي . فقال أنت اخترته قال : وما عليَّ أعز الله الوزير في ذلك ، وقد اختار موسى قومه سبعين رجلاً ، فما كان فيهم رجل رشيد ، واختار النبي (ص) عبد الله بن سعد بن أبي سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً ، واختار علي بن أبي طالب (ض) حكماً له فحكم عليه ؟! وإنما قال أبو العيناء ذل الأسر لأن ابراهيم المذكور كان قد أسره صاحب الزنج بالبصرة وسجنه فنقب السجن وهرب

ولما نكب الخليفة المعتمد على الله عبيد الله بن سليمان وولى الوزارة صاعد بن مخلد جعل خصام بين هذا الوزير وبين أبي الصقر اسماعيل بن بلبل الكاتب ، فانضم أبو العيناء إلى حزب أبي الصقر ولكن ذلك الموقف الذي وقفه من صاعد لم يمنعه من أخذ عطاياه واستجدائه ، وحضور مجالسه . وقد عادى أبو العيناء رجلاً يقال له أبو العباس بن ثوابة لمعاداته لأبي الصقر ، حتى إن الرجلين اجتمعا في مجلس صاعد يوماً ، وكان ابن ثوابة قد سبّ أبا الصقر قبل ذلك بيوم ، فقال ابن ثوابة لأبي العيناء : أما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك : ضيق العطن ، كثير الوسن ، خاراً على الذقن ، وقد بلغني تعديك على أبي الصقر ، وإنما حلم عنك لأنه لم يجد لك عزاً فيذله ، ولا علواً فيضعه ، ولا مجداً فيهدمه ، فعاف لحمك أن يأكله ودمك أن يسفكه . فقال ابن ثوابة : ماتسابّ إنسانان إلا غلب ألأمهما . فقال : لهذا غلبت أمس أبا الصقر !

ولقد كان من جزاء أبي العيناء من أبي الصقر على وقوفه منه هذا الموقف في سبيله أنه عند ما تولى الوزارة خيّره فيما يحبه حتى يفعله به ، فقال أريد أن تكتب إلى أحمد بن محمد الطائي تعرفه مكاني ، وتلزمه قضاء حق مثلي من خدمة ، فكتب اليه كتاباً بخطه فوصله إلى الطائي ، فسبب له في مدة شهر واحد مقدار ألف دينار وعشرة أجمال ، فانصرف بجميع ما يحبه . وله أحاديث كثيرة ، ومجالس طريفة مع الوزير أبي الصقر . ويظهر أن هذا آخر وزير اتصل به أبو العيناء من وزراء الدولة العباسية فإنه لم يعش بعد ما نكب الموفق أبا الصقر إلا قليلاً ، وتوفي سنة ٢٨٢ أو سنة ٢٨٣ هـ

مهاتراته مع كاتبين في عصره

على أننا نرى من الواجب علينا أن نأتي بشيء مما جرى بين أبي العيناء وبين كاتبين قديرين في عصره ، هما محمد بن مكرم ، وأبي علي بن جعفر الضرير ؛ أما ابن مكرم فكانت له معه مداعبات ، وكان يهاتره كثيراً ؛ كتب اليه ابن مكرم يوماً : قد ابتعت لك غلاماً من بني ناشر ثم من بني ناعظ ثم من بني نهد . فكتب اليه : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . وولد لأبي العيناء ولد ، فأتى ابن مكرم فسلم عليه ، ووضع حجراً بين يديه وانصرف ، فأحس به فقال : من وضع هذا ؟ فقيل ابن مكرم ؛ فقال : لعنه الله انما عرض بقول النبي (ص) : الولد للفراش وللعاهر الحجر . وقال لابن مكرم وقد قدم من سفر : مالك لم تهد إلينا هدية ؟ قال : لم آت بشيء ، وإنما قدمت في خف ، قال : لو قدمت في خف لخفت روحك . وقال له ابن مكرم يوماً يعرض به : كم عدد المكديين بالبصرة ؟ فقال : مثل عدد البغائين ببغداد !

وأما أخباره مع أبي علي الضرير فكثيرة ، وكم أتمنى أن يتيح لي الزمن فرصة الموازنة بين هذين الرجلين ، فان بينهما شبهاً قوياً ، وقد وجدا في عصر واحد ، وكانا في البلاغة نسيج وحدهما ، ولكن كانت بينهما منافسة قوية أدت إلى أن تجرى بينهما مساجلات ومفاخرات كثيرة ، حتى إن فتى من أبناء الكتاب في بعض الدواوين تعرض لأبي العيناء ، وكان فيه جرأة فقال : كل الناس لك يا أبا العيناء زوجة ، وأنت زوجة أبي علي البصير . فقال له أبو العيناء : قد ملكنا عصمتك بيقين خواك ، ثم ننظر في شكوك دعواك ، وقد طلقت الناس كلهم سواك ، ذلك أدنى ألا نعول ، وفيك ما يروي الفحول ، ويتجاوز السول . فقضحه بهذا الكلام ولم يجبه

وهذا الحديث يدل على أنه قد كان بين الرجلين تصادم ؛ وإن شئت فسمه مشاكسة وجدلاً عنيفاً وصراعاً قوياً بالألسن وأنه كثيراً ما يكون الغلب في جانب أبي علي الضرير

أدب أبي العيناء

ونقصد بهذا الأدب الشعر والنثر ؛ أما الشعر فلا نستطيع أن نعد أبا العيناء شاعراً مكثراً من فحول الشعراء لأننا لم نجد له في كتب الأدب والتراجم التي بأيدينا شعراً كثيراً ؛ إنما الذي نقدر أن نحكم له به أنه كان من شعراء الكتاب أضراب أحمد ابن يوسف الكاتب والوزير المأمون فيما بعد ، وقد تقدم له بضعة أبيات مدمجة في أحاديثه تؤيدنا في حكمنا هذا .

وأما النثر فقد كان أبو العيناء سباقاً فيه ، وتمتاز كتابته بأنها تارة تكون مفرغة في قالب فكاهي مضحك ، تقرؤها فلا تكاد تملك نفسك من الضحك ، ولكنه إذا أفرغها في قالب الجد أتى بالفقر القصيرة حينا والطويلة حيناً آخر ؛ وكثيراً ما تكون مرسلة ، وقد يقيدها بالسجع . فأسلوبه من السهل الممتنع كما يقولون ، ويكفيه في منزلته من البلاغة تعجب المتوكل منه ، إذ سأله : أكان أبوك في البلاغة مثلك ؟ فأجابه بقوله : لو رأى أمير المؤمنين أبي لرأى عبداً له لا يرضاني عبداً له . ونرى كاتباً معاصراً له يشهد له شهادة قيمة ، وهو محمد بن مكرم الكاتب قال : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبي العيناء إذا أحسن بكرم أو شرع في طمع فقد ظلم . ونحن وإن كنا نعتقد أن في كلامه غلواً مراعاة للصداقة المحكمة الأواصر بينهما ، إلا أن الحال التي وصف فيها أبا العيناء بالاجادة خليقة بتقدير النقد الأدبي لها . فاننا نرى الرجل يأتي برسائل ممتعة حقاً نعجب كيف صدرت عنه ، ولكننا لو علمنا أن الدافع له إحساسه بالكرم ، أو شروعه في الطمع كما يقول ابن مكرم لا نستغرب هذا

واني أريد أن أؤيد كلامي بنماذج من رسائله ، ولقد كنت في غنى عن هذا لما تقدم من أحاديثه وكتاباته ، ولكني لم أر بداً من الاتيان بنبذ يسيرة منها ، فمن رسائله الفكاهية : ما كتبه إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان حينما أهدى اليه ابنه محمد دابة زعم أنها غير فاره :

أعلم الوزير أعزه الله أن أبا علي محمداً أراد أن يبرني فعقني ، وأن يركبني فأرجلني : أمر لي بداية تقف للنبرة ، وتعثر بالبعرة ، كالقضيب اليابس عجفا ، وكالعاشق المجهود دنفا ، قد أذكرت الرواة عذرة العذري ، والمجنون العامري . يساعد أعلاه لأسفله ، ... مقرون بسعاله ، فلو أمسك لترجيت ، أو أفرد لتعزيت ، ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور ، والمجلس المشهور ، كأنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد ، تضحك من فعله النسوان ، وتتناغى من أجله الصبيان ، فمن صائح يصيح داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول نق له من الشعير ، قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ، ولحق العلماء في الأمصار ، فلو أعين بنطق ، لروى بحق

وصديق ، عن جابر الجعفي ، وعامر الشعبي ، وإنما أتيت به من كاتبه الأعور ، الذي إذا اختار لنفسه أطاب وأكثر ، وإذا اختار لغيره أخبث وأنزر . فإن رأى الوزير أن يبدلني ويريحني بمركوب يضحكني كما أضحك مني ، بمحو بحسنه وفراهته ، ما سطره العيب بقبحه ودمامته ، ولست أرد كرامه ، بسرجه ولجامه ، لأن الوزير أكرم من أن يسلب ما يهديه ، أو ينقض ما يمضيه .

فوجه إليه الوزير برذون من براذينه بسرجه ولجامه ، ثم اجتمع مع محمد بن عبيد الله عند أبيه ، فقال الوزير : شكوت دابة محمد ، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار ، وما هذا ثمنه لا يشتكي . فقال : أعز الله الوزير ، لو لم أكذب مستزيداً لم أنصرف مستفيداً ، وإني وإياه لكما قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . فضحك الوزير وقال : حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك أبلغ من حجة غيرك البالغة .

ومن رسائله الجدية ما كتبه إلى عبيد الله بن سليمان بن وهب : أنا أعزك الله وولدي وعيالي زرع من زرعك ، إن سقيته راع وزكا ، وإن جفوته ذبل وذوي ، وقد مسني منك جفاء بعد بر ، وإغفال بعد تعاهد ، حتى تكلم عدو ، وشمت حاسد ، ولعبت بي ظنون رجال كنت بهم لاعبا ، ولهم مجرسا . ولله در أبي الأسود في قوله :

لا تهني بعد إكرامك لي فشديد عادة منتزعه

وتلك الرسالة كانت كافية في أن تطلق يد عبيد الله بالعطاء فوقع في رقعته : أنا أسعدك الله على الحال التي عهدت ، وميلي إليك كما علمت ، وليس من أنسأناه أهملناه ، ولا من أخرناه تركناه ، وقد وقعت لك برزق شهرين ، لتعرفني مبلغ استحقاقك ، لأطلق لك باقي أرزاقك ، إن شاء الله والسلام .

وكتب إلى الوزير أبي الصقر يشكره : أنا أعزك الله طليقك من الفقر ، ونقيذك من البؤس ، أخذت بيدي عند عثرة الدهر ، وكبوة الكبر ، وعلى أية حال حين فقدت الأولياء والأشكال ، والإخوان والأمثال الذين يفهمون في غير تعب ، وهم الناس الذين كانوا غياثاً للناس ، خلت عقدة الخلة ، ووردت إلى بعد النفور النعمة ، فأحسن الله جزاءك ، وأعظم حباءك ، وقدمني أمامك ، وأعاذني من فقدك ، فقد أنفقت علي مما ملكك الله ، وأنفقت من الشكر ما يسره الله لي ، والله عز وجل يقول لينفق ذو سعة من سعته ، فالحمد لله الذي جعل لك اليد العالية ، والرتبة الشريفة ، لا أزال الله عن هذه الأمة ما بسطها من عدلك ، وبث فيها من رفدك والسلام ؟

(الزقازيق) محمود محمود خليل

ملاحظة : يقول الثعالبي في كتابه يتيمة الدهر : ان أخبار أبي العيناء قد جمعت في سفر جليل ، ولكني برغم بحثي لم أعثر عليه ، ولعله ضاع كما ضاع غيره من نفائس كتب الأدب التي لم تصل إلينا ؟

وداع والد

للأستاذ محمود خيرت

أخوان ما آب المسافر منهما ... حتى استطاب أخوه هجران الحمى

فالقلب بينهما الغداة موزع ... حيران يخفق نشوة وتألما

ولشد ما يجد المفارق ما انتهى ... من جنة اللقيا إليه جهنما

يا أكبر الأبناء خلف بعده ... صبراً تقطع حبله وتصرما

لم تدر يوم البين ما فعل الأسى ... بأبيك لما أن دنوت مسلما

عقد الذهول عن الكلام لسانه ... فتكلم الدمع العصي وترجما

ومشى إليك مشرداً متخاذلا ... يأبى عليه الهول أن يتقدما

حتى إذا نأت السفين بركبها ... وغدوت بالبعد الطويل ملثما

بدت الحقيقة كالخيال فها أنا ... إما أراك غداً أراك توهما

والدار تنعى أنسها الماضي وقد ... أمسى على ظمأى النفوس محرما

يا من كساها من بشاشته سنى ... عكست جوانبها صداه تبسما

للذور أرواح تحن لأهلها ... وتطوف من خلل الحواجز حوما

وضاءة بهم الزمان فإن همو ... نزحوا تغشاها الظلام وخيما

***

كم كنت ترعاني وتأسو علتي ... وتحول دون الداء أن يتحكما

ولكم سهرت على فيه لياليا ... لا عابساً فيها ولا متبرما

وتخذت منك وأنت مني عدة ... عند الزمان إذا الزمان تجهما

فالبعد أقسى ما يمر به أب ... ثقلت عليه همومه فتهدما

لكن رحلت ونصب عينك غاية ... كانت أعز من البقاء وأكرما

وظننت نفسك في أمانيها على ... أن تركب الأخطار كي تتعلما

محمود خيرت

سليل الأكابر

بقلم رفيق فاخوري

حسبُ الذى قيدت له والكونَ مخلوقاً معهْ
يحيا له ويموتُ إذ تطوي الليالي أجمعهْ

***

لم ينك من حظٍ بجدٍّ د للنقيد على الذى
بؤساً ويرسم في محيّ اه اكتئاباً مرمدا

***

فإذا أصاب الدمعُ فى عين الشجيّ مسيلَهُ
رقصتْ بكفيه المنى فشفى بهنّ غليلَه

***

ورثَ الجهالة فاستعا نَ على الجهالة بالغنى
ويُرى وضيعاً وهو فى غُرَفِ النجوم فوقنا

***

أبداً تواكبه وفو دُ السعد أنّى يمّما
وتصوغ أحلامُ الفرا غِ له المكارمَ أنعُما

***

يمسي ويصبح سادراً يأتيه سعياً رزقُهُ
ونظل نطلب ما حيـ نا والمطالبُ حقبُهُ

***

تُفدَى سلامته بأرْ واح لنا لا تفتدى
الويلُ للخوّل الأصا غر إن أضاعوا السيدا

***

إنا بنو الفقر ابتنيـ نا بالمساعي مجدنا
وشروا بماء الوجـ ـه حظاً خاسراً لا يقتنى

***

ليس الغنى ما أورث الـ آباء أو ما خلّفوا
فاشحذْ قواكَ لغدوةٍ تُندى الجبينَ وتُرعِف

***

يا ويحَ للقوم النيا م على تصاريف الزمن
الوادعينَ الآكليـ ـن جَنَى العباد بلا ثمن

***

يغذو النعيمُ جسومَهم أبداً فتعتلُّ النهى
لكأنهم إبلٌ هوا مِلٌ غفلةً أو دونها

***

جمعوا فما أغنامُ مالٌ عصارتُهُ الندم
إن لم تكن بالنفس ذا مالٍ فأنت أخو العدم

حمص رفيق فاخوري

اسمى

[مهداة إلى الأستاذ الكبير المازني]

للأستاذ إلياس قنصل

يروق له اصطدامي بالصعاب ويعجبه اتصالي بالعذاب
فيغريني حديثٌ منه خافٍ يخدِّرني بآمالٍ عذاب
ويدفعني إلى بحر الرزايا أصارع منه أمواج العباب
إذا سلّمت نفسي من بلاء أشار على سواه باطّلابي
أريد البعد عن كل اضطراب ويأبى أنْ أكون بلا اضطراب

وقفتُ على كرامته حياتي وصنتُ علاه من كل نابِ
وفضّلت الـكفاف على ثراء يلطّخ عزّه برشاش عاب
وشدتُ له بآي الفنّ قصراً متين الأسّ مرفوعَ القباب
تذيع قصائدى منه دوياً ستصحبه إلى يوم الحساب

نصيبيَ أن أهيئ وهو يجني وينعم من جهاديَ بالثواب
فإن أنشرْ مقالا أو كتاباً تخايلَ فى مقالى أو كتابي
وإن أبعثْ صديقاً مستجيراً تبختر بين أفواه الصحاب
وإن أبعثْ إلى أحد خطاباً تخطّرَ فى الخطاب وفى الجواب
وإن أرحلْ وإن ألبثْ مكاني تمايل فى المجئ وفى الذهاب
فلستُ حياله إلا خيالا يجدّ متى يجدّ إلى سراب
نكبت بشرّه وأنا وليد وزاقنى أذاه فى شبابي
وسوف يظلّ مرصوداً لرزئي إلى ما بعد درجي فى التراب ..

(عاصمة الأرجنتين) إلياس قنصل

القصص

صور من هوميروس

١٤ - حروب طروادة
أخيل يبكي بتروكلوس

للأستاذ دريني خشبة

قتل بتروكلوس !

وانقلب هذا النصر المؤزر إلى ذهول استولى على أفئدة الميرميدون، صيرته الصدمة الهائلة أشبه شيء بالهزيمة المؤكدة !

وبينما كانت أبصارهم زائغة تنظر إلى ماحل بمولاهم، وبينما كانوا ينظرون إلى أشباح المنايا ترف فوق الساحة، وتدوم على رؤوسهم، تكاد تخطفهم، كان هكتور وملؤه ينزعون عدة أخيل، دون أن يلقوا أقل معارضة ! .. ..

ثم أفاق الميرميدون بصيحة من منالايوس العظيم، اقتحم الحلبة نحو زعيمهم قدماً، وناضل وحده عن الجثمان العزيز، الذي كان هكتور يمنى نفسه بحمله إلى طروادة ليجعله معرضاً هنالك، يشهد له بالشجاعة المغتصبة، والجراءة المزورة، والبطولة التي لم يكن لها بأهل ؛ ثم ينبذه بعدها بالعراء فتنوشه الطير، وتغتذي بلحمه الرسباع طروادة وكلابها ! .. .. ..

وانقض الميرميدون يذودون عن الجثة مع منالايوس، ولكنه انقضاض المهموم المحزون، وهجمة المرزأ المكدود ؛ فلم تكن ضرباتهم الواهية تخيف الطرواديين بعد إذ أنقذوا من بتروكلوس الداهية، ولم تكن صيحاتهم الوانية تهز بضعة من قلوب أعدائهم الذين أصبحت لهم الكرة عليهم .. ..

واستطاع منالايوس، بعد لأي شديد وجهد أن يحمل الجثة، يساعده مريونيس الكبير، وأن يقتحما بها المعترك المصطخب إلى الصفوف الخلفية، يحمي ظهورهما أجاكس وجنوده

وذعر قادة الهيلانيين حين رأوا شدة هجمات الطرواديين بعد مقتل بتروكلوس، وحين نظروا فوجدوا الميرميدون يشتغلون عن المعركة بالبكاء على مولاهم، والرثاء لما حل بهم من بعده، والفزع الأكبر للقاء أخيل .. .. لا يتقدمهم إليه قائدهم .. ..

ولجأ منالايوس إلى الحيلة، وفكر من فوره في إثارة النخوة في قلب أخيل، عسى أن يقدم فيقود أجناده، ويتم النصر للهيلانيين، فأرسل إليه أنتيلوخوس يحمل النبأ العظيم، ويزلزل من تحته الأرض حين يقص عليه ما فعل به هكتور

ولو قد علم أنتيلوخوس ما يثيره هذا النعي في قلب أخيل، ما آثر أن ينفذ إليه به ! فلقد صرخ ابن ذيتيس صرخة اضطرب لها البحر، وماد الشاطئ، وتجاوبت لها جنبات الجبال، ثم بكى، فاربد أديم السماء واعتكر، واحتلك الضحى وبسر، وشاعت في العالم ظلمة أهول من ظلمة القبور !

« بتروكلوس ! .. .. »

أفي الحق ياأعز الأصدقاء أنك أوديت ! واحربا ! أإذا لقيتك الآن فأنت ما تحرك شفتيك لتكلمني، وما تفتح عينيك لترى إلى أخيل ؟ ! ألا ينبض قلبك بعد اليوم يابتروكلوس، حتى ولا بحبي ؟ ! .. .. ..

أإلى حتفك كنت تستأذنني إذن ؟ .. ..

ويلي عليك يابتروكلوس ! ويلي عليك ياأعز الأحباب ...

ولم يطق، فطفق يحثو التراب على رأسه، ويشد شعره، فيكاد ينتزعه، ويرسل في السماء وفي الأرض والبحر صرخاته الداويات

وانتفض الموج، وفار الماء ؛ وكأنما اتصل قلب أخيل باليم فاضطرب بما فيه من وجد، واصطخب بما يؤوده من كمد، وشاعت فيه أشجانه وأحزانه، حتى وصلت إلى الأعماق .. .. حيث تأوي ذيتيس إلى زوجها، رب البحار السفلية، فشعرت الأم المحزونة بما ينتاب ولدها في أسطوله الراسي على هامش طروادة، وأحست بما يأخذه من ألم، وبمزق حشاه من عناء ؛ فصرخت ثمة صرخة اجتمع لها كل عرائس البحر، وعذارى

الماء ، من حوريات نريوس [1] ، وأخذن يلطمن خدودهن الوردية تحت الثبج ، ويذرين من نرجس عيونهن فيضاً من الدمع الدرى ، ثم انتظمن صفوفاً صفوفاً ، ورحن يتهادين وراء ذيتيس ، مرسلات فى الأعماق أناشيد الحزن ، طاويات ذلك الرحب الذى يفصل بين مملكة مولاهن ، وبين شطئان إليوم ؛ حتى إذا كنّ عند الأسطول الميلانى طفون فوق الماء ، فانقلبت اللجة بجمعهن جنة ، وارتد البحر بزينهن فردوس نعيم ! !

وبرزت ذيتيس فترقبت سفينة ابنها أخيل الباكى الآنّ الحزين ؛ وتقدمت فضمته إلى صدرها الحنون ، وجعلت تهوّن عليه أمر صاحبه ، وتصرفه عن هذه الحرب التى يفرق من هولها قلبها الخفّاق أشد الفرَق ، لما تعلمه منذ قديم من القتلة التى تخترم ولدها تحت أسوار طروادة ، كما أنبأتها بها ساحرات الماء ..

وأنّ أخيل أنة شديدة ، وقال لأمه : « أماه ! هكذا قدر لنا أن نلقى ما حتمه القضاء علينا ، وهكذا شاء سيد الأولمب الكبير المتعال ، ولكن خبريني بربك ما قيمة هذه الحياة ما لم يعد بتروكلوس ينضرها ويزين حواشيها ، ومادام أعز أحبابي وأودائي ملقى فوق هذه الساحة النكراء ، ذبيحاً بين أشق الخصوم الألداء ! !

آه يا بتروكلوس ! لقد شفى هكتور غلة قلبه حين سفك دمك غادراً ، وحين انتزع عدتك غادراً ، وحين يفاخر بكل أولئك غادراً !

وهذه العدة يا أماه ! أيلبسها هذا الشقى وهى هدية الآلهة الى بليوس ، أبى ، رب الاعماق ، وهدية من أبى الى ؟ !

أبداً لن أعود معك الى حيث العار الأبدى ينتظرنى ، مالم أثأر لأوفى أحبّائى بتروكلوس ، من هذا النذل ، هكتور ، ومالم أرو هذه الصمدة الظامئة من دمه النجس ، وأقذف فى وجهه بمفاخراته الكاذبة وإهاناته للقتيل الكريم ...

لا ، لا ، لا تتحدثى الى عن أوبة تصمنا بالذل الى الأبد يا أماه ، وإنى لأقسم بالسماء ومن فوقها ، لن أبرح الأرض حتى ينفذ هذا السنان فى صدر هكتور ! »

وصمتت ذيتيس قليلا ، ثم لم تطق أن تخفى ما تخشاه على ولدها من ذلك القضاء المحتوم . فأخبرته بما تحدثت به العرافات عام وُلد ؛ وما تخافه من أمر هذه النهاية المحزنة ، والفجيعة التى لا تكون مثلها فجيعة .

ولكن أخيل تبسم ابتسامة محزونة ، وتحدث الى أمه عن المجد الخالد الذى سيحمله اسمه آخر الدهر : « واستبشار الميلانيين بعودتى لمناصرتهم ووضوح الحق وجلائه لأجا ممنون إننى روح الجيش وحماسة الجند ، والقوة المذخورة لدحر الطرواديين ! صه يا أماه ! فلن تزعجنى مخاوفك ، ولن تلقى فى روعى أقل الجزع ... لأنه إن كان حقا ما تحدثين اليك به ، فأين يهرب أحدنا من القضاء ! ؟ ! »

وبهتت الأم بما صمم عليه ولدها ؛ ولما أيقنت أن لا سبيل لها إلى قلبه الجرىء ، بدا لها أن تعاهده على ألا يخوض الكريهة حتى تعود اليه من عند فلكان ، الإله الحداد ، الذى ستذهب هى اليه تكلفه بعمل درع وخوذة تحملهما اليه ، ليحمياه فى كل يوم روع ! ، وعاهدها أخيل

وأمرت ذيتيس عذارى الماء فانثنين الى مملكة بليوس ، يحملن اليه أنباء ولده ، أما هى ، فانطلقت الى فلكان ... هناك ... هناك فوق ذروة جبل إطنة ، حيث وجدته ينفخ فى لظى كيره الضخم ... يصنع الدروع والعُدد ...

ولقيها الإله الحداد بالترحاب ، وشرع من فوره يصنع عدة لم تر العين مثلها ، ولم يأبه أن يصنع مثلها حتى للآلهة ! ! ...

« وكيف لا ، وأخيل الحبيب سيدّرع بها وتحميه من أوشاب الطرواديين ، وأوغاد هذا الأخ اللئيم مارس ، الذى تعلمين مما كان من أمره مع ڤينوس ما تعلمين . لقد فضحني السافل فضحته القادر .... [1] »

ولكن الساحة كانت تضطرب ، وجموع الطرواديين تأخذ الميلانيين من كل فج ؛ وكانت حيرا ، مليكة الأولمب ، تطلع من عليائها فتأخذها الرهبة لما يحيق بعبادها من تصريع وتقتيل ؛ وكانت مينرڤا كذلك تهلع عليهم هلعا شديدا ...

وتشاور الربّتان ، واتفقتا على أن تنفذا إيريس الى أخيل ، تأمرانه أن يخوض الكريهة فى جانب الميلانيين . ولكنه قص على الرسول ما عاهد أمه عليه فعاد الرسول الى الأولمب يحمل نبأ هذه المعاهدة ...

بيد أن حيرا أشارت على مينرڤا أن تنفذ الرسول الى أخيل يحمل اليه درعها ، وكان لمينرڤا درع اسمه ايجيس لم يصنع مثله لأحد من قبلُ فلكان ؛ وأن تُنهي اليه أنهما تأمرانه بالتوجه

(1) النريد هم بنات نريوس أحد أرباب الماء ومنهم طائفة كبيرة تخدم ذيتيس ، أم أخيل

(1) نشرنا هذه الأسطورة التى يصفها هوميروس فى (الرسالة) من قبل ونحسبنا اليوم الاشارة اليها هنا

الى الساحة فيطلع عليها ليراه الطرواديون ، فانه بحسبهم أن يروه فيولوا الأدبار !!

وانطلق إيرليس برسالته الى أخيل ؛ فاهتز البطل من نشوة الطرب ، وشاعت الكبرياء في أعطافه لأنه سينال شرفاً لم ينله أحد من قبل ، وذلك بأنه سيدّرع بقميص ميترفا ، المسرودة من حديد !!

وعند ما نهض ليلبس الدرع رأى ميترفا نفسها تساعده بيديها الطاهرتين النقيتين كالبلور وتضع فوق جبينه إكليلا وضاءً من الذهب ، ثم تقوده الى الساحة !!

وهناك ، وقف أخيل العظيم فوق ربوة عالية تشرف على الساحة كلها ، ثم أرسل في الآفاق صيحة داوية ، كانت تنفخ فيها ميترفا فتزيدها قوة وعنفواناً ، فزلزل قلوب الطرواديين وجعلها تدق في صدور ذويها كالنواقيس !!

وما كاد الأعداء يستيقنون أن الصيحة صيحة أخيل ، وما كادوا ينظرون الى هذه الآراد المنتشرة فوق رأسه ، والاضواء المتلألئة من إكليله ، حتى سُقط في أيديهم وارتعدت فرائصهم وولوا على أعقابهم مدبرين ! وكانت خيولهم المذعورة تولى هي الأخرى فتطأ الفرسان هنا وهناك ، وتسقط في الخنادق المحيطة بطروادة ، فتلقى فيها حتفها عن علم !!!

وتوارت الشمس بالحجاب

فتحاجز الجمعان وذهب كل ليستريح من هذا اليوم العصيب

وكانت صيحة أخيل أكبر عون لمنالايوس وزميله في الاسراع بجثة بتروكلوس الى مؤخرة الجيش ، حيث الأمان والاطمئنان ؛ فلما عاد أخيل كانت جثة صديقه أول ما وقع بصره عليه ... فبكى ... وبكى ... واجتمع حوله الميرميدون يبكون

ثم رثاه بكلمة دامعة ، ترجمت عن نفس مكلومة ؛ وأمر فأوقدت نار كبيرة وضع عليها دست ماء كبير ؛ وأخذوا جميعا في غسل الجثة المعفرة بالتراب ، ودهنها بالطيوب ثم تحنيطها بالأفاويه والبهار والقرنفل ، ولفوها في مدارج طويلة من الحبر الغاليات البيض .

* * *

واجتمع قادة الطرواديين يتشاورون في هدأة الليل ، فخطب بعضهم (1) ناصحا بوجوب التحرز داخل الأسوار في غد ، مخافة أن يبطش بهم أخيل وشياطينه ، لاسيما وهم سيخوضون الوغى بقلوب جرحها مصرع بتروكلوس ، وهم لا بد مثئرون له ، مهما كلفهم الأثئار من أرواح ودماء !

ولكن هكتور أبى إلا أن يخرج للقوم ، وكأن قتله بتروكلوس غيلة قد خدعه عن شجاعة أخيل ، وما قدر له مما سيلقاه من بطشة أخيل ... وهل غد ببعيد !!؟؟

* * *

وفي هذه اللحظة أيضاً ، كان زيوس يتحدث إلى حيرا حديث الذي أظفر بأعدائه وكأنما أطرب الآلهة الأكبر أن أخيل يعود إلى المعركة بعد أن أديل له من الهيلانيين ومن الطرواديين على السواء

وكانت حيرا تسمع إليه وهي تطفر فرحا ! كيف لا ؟ وهذا أخيل يعود إلى أعدائها في الغد ، فيصليهم عذابا ، ويجرعهم غصصاً ما ذاقوا مذ ترك الحلبة أمثالها !؟ ولتحزن ڤينوس ! وليحل غضب السماء على باريس ، ولتذهب التفاحة المشئومة إلى الجحيم ...

* * *

وأشرقت شمس الغد

ولاحت ذيتيس تتهادى فوق الزبد في الأفق الغربي ، تحمل الدرع التي لم يصنع مثلها فلكان

حتى ولا للآلهة أنفسهم !

والويل لك ياهكتور !!

(لها بقية) دريني خشبة

(1) بوليداماس

غريب

بقلم خبيب الزحلاوى

لم يكن باقياً من سنة ١٩١٣ سوى شهر واحد وبضعة أيام وقتما وصلت مصر قادماً من دمشق هرباً من مطاردة الحكومة إياي

* * *

الليلة عيد ، وأجراس الكنائس تدق ، والناس بين داخل البيع بوجوه تملوها سيماء الرضي والايمان ، وبين خارج منها مسرع الخطى إلى الفنادق الكبرى والمنتديات الخاصة تطلعا إلى الأشتراك فى حفلات العيد

كنت مع الماشين إلى النادى الشرقى وكأنى منساق معهم إليه ؛ ولما دخلته حسبت الناس ينظرون إلى نظرات الاستيحاش والاستغراب

أهاجت فرحة الناس نفسى فتذكرت والدتي وأهلي وإخوانى وقد خلفتهم فى غير هذا البلد الذى كل ما فيه ينادينى : « غريب »

تركت صحبى ومواطنى هناك ؛ تركت قلباً وذكريات تتأجج نارها كلما طال البعاد ، وما أحراها بالاضطرام ليلة العيد إذ ذهبت وحدى إلى ذلك النادى أقضى ساعات مع أناس يعرفوننى ولا أعرفهم من أبناء الجالية السورية

كان كل ما فى النادى فى تلك الليلة ينم عن المرح والحبور ، وكنت الصامت المستوحش الساهم وحدى بين الجمع ، لأنى « غريب »

* * *

انقضت سنوات عدة كنت خلالها لا أنقطع عن زيارة النادى ، إذ أصبح لى فيه إخوان وأصدقاء لا يقلون حبا لى ولا يقل تعلق بهم وإخلاصى لهم عن أولئك الأصدقاء والاخوان الذين خلفتهم فى دمشق

زرت النادى فى ليلة الأحد وأنا متأبط ذراع فتاة عرفتها فيه ، وقد صارت لى زوجة ، وصرت لها بكليتى ، وعقدت حظها بحياتى ، ووقفت على إسعادها وجودى ، وأحسب أنى كنت فى تلك الليلة من أسعد الناس ، وأوفرهم غبطة ، وأحرصهم على تكييف كل شيء بالهناء المرفرف على نفسى ؛ وحينما كان يطوف بذهنى خيال والدتى وأنا وحيدها ، وصورة شقيقتى المحبوبة كنت أحاول استهواء ذاتى وإقناعها بأن قد صار لى فى امرأتى حنان كحنان الأم ، وألفة كألفة الأخت ، فوق حب الزوج لزوجه ، بحيث أضحى محالا أن يطوف بخاطرى طيف « الغريب » أو وحشة البعيد عن أهله ووطنه

* * *

طوتنى مصر كما طوت الآلاف من الناس الذين وفدوا مثلى عليها ، فأقلمتنى بأقليمها ، ونفخت فىّ روحها ، وألهمتنى وحى بيئتها ، فصيرتنى كأحد أبنائها أقوم بالواجب المفروض بمثل ما يقوم به كل مصرى مخلص حرّ ؛ ولما كنت أعود بذاكرتى صوب الشآم ، مسقط رأسى ومهد حداثتى ، كنت أحس بالحرمان يمزقنى ويكبت روحى ، وأشعر بالواقع يسترضينى ويتودد إلىّ . .

حقاً لقد علمتنى مصر أن أرى فيها وطنى وأهلى ، ولقد تعلمت منها كيف أبادلها الجميل بجميل والوفا بوفاء ؛ لقد علمتنى كيف أحبها وكيف أحافظ على حبى مسقط رأسى ومهد ذكرياتى ، وكنت أصيخ بسمعى دائماً إلى أنات قومى وأوجاعهم ، وأسعى جهدى إلى مزجها بأنات إخوانى المصريين الموجعين ؛ وكنت أعمل ، وسأعمل على أن أجعل من تفاعلات تمازج الأنات المؤلمة ما يزيل العلة الموجعة

* * *

انقضت سنوات أخرى كنت لا أنفك خلالها عن المجىء إلى النادى الشرقى ؛ وحدث فى عصر يوم من أيام الشتاء أن ذهبت اليه ، وكنت متعب الجسم ، مكدود القوى ، موزع الخاطر ، مشرد الفكر ، فرحت تواً إلى صالة الرقص وانتحيت ناحية فيها أرفه عن خاطرى بقدح من الشراب

ما كنت لأعبأ بالراقصات والراقصين رغم ما فيهم من رشاقة ودلال جذابين ؛ وما كنت لأحس ضربات « الجازبند » العنيفة المؤذية للنفس لأنى كنت فى شاغل عن كل ذلك

طال بى الجلوس ؛ هممت بالنهوض ؛ رفعت رأسى عفواً وإذا بى ألمح سيدة جالسة قبالتى على قيد أمتار منى ، ما كدت أتبينها حتى نهضت مسرعاً لتحيتها

عرّفتنى السيدة إلى زوجها ، واكتفت بقولها عنى : « صديقنا » وذكرت اسمى ، فكان هذا التعارف على ما فيه من

ببساطة واقتضاب كافياً لاستذكار الزوج ، فنهض مسلماً سلام مودة وصداقة ، داعياً إياي إلى مجالستهما . . . . . . انطلقت ألسنتنا بالحديث ، تارة عن الحياة الزوجية وسعادتها القائمة على التضحية والتفاهم ، والطمأنينة ؛ وطوراً على الأبناء وعناء تربيتهم ، وعما يضحى الآباء في سبيلهم من عواطف زوجية يستغرقها الحنان الوالدي . كنا نتكلم عن كل شيء ، وعن كل إنسان نعرفه في لبنان بسرور ، ولم ننس البذير وأحراج الصنوبر ، ودير «القرقفة» في قرية كفرشيما مسقط رأس السيدة حيث عرفتها هناك ، وكنت ألمح من طرف خفي إلى حوادث الشباب ، ولم يتضايقا من الاسترسال في التنقل بالكلام كالأطفال من موضوع إلى آخر إلا دعوة الزوج زوجه إلى الرقص معه ، واعتذارها بلطف اليه بحجة الرغبة في الرقص معي رقصة «التانجو» رقصنا . . . . . . وكنت إبان الرقص كالساهم الغارق في حلم لذيذ ؛ كنت أنعم بالراحة كلها في مخاصرة هذه السيدة التي تنبعث منها الطمأنينة إلى أعماق نفسي ؛ لم أكلمها ؛ لم أجتل محياها ؛ كنت نشوان بها ؛ لم أسمع كلمة منها ، بل شعرت بجسمها اللين البض يسترخي شيئاً فشيئاً بين ذراعي . كنا سوية كنبرة وتر مزدوجة عزفتها موسيقي ماهر ، فصدرت كأنها من وتر واحد ، يدفع خطانا وينقلها نقلاً ايقاعياً متناسقاً . . . . . . وقبل الانصراف تواعدنا على اللقاء في النادي في الليلة القادمة

* * *

طافت بي الخواطر ، ثم ألحت عليّ ، فآثرت العودة إلى البيت ماشياً لأطلقها في أوسع مجالات الفكر

رجعت بي الذكريات إلى دمشق يوم بارحتها ويوم لذت بلبنان بقرية صغيرة رابضة فوق ربوة تطل على سهول «الشويفات» ثم البحر ، تكتنفها أحراج الصنوبر وقد انتشر منها أريج الأصماغ ؛ ذكرت ذلك الدير المهيب الشاهق الرابض فوق الربوة أشبه بقلعة شيدت لحماية الخيالات والأحلام !! وتراءت لي أطياف سكان القرية وهي تحج اليه متسلقة الربوة بهمة ونشاط ، يتهادون في ابتسام الفجر الساحر المنير تحية الصباح

ذكرت إقبال رجال القرية للسلام عليّ ودعواتهم إياي إلى زيارتهم . ذكرت الساعات الطوال التي كنت أقضيها بين الأحراج أفترش الأرض ، وأناجي الشجر ، وأملأ من جمال الطبيعة قلبي ووحي ؛ تراءت أمام عيني صور شيوخ القرية جالسين في القهوة يدخنون النارجيلة ويجلمون ، والشباب يلعبون الورق أو يشربون ويغنون ؛ كنت أطرب لسماع أغنيتهم المستمدة من وحي روح الطبيعة الساذجة الهادئة ، والمعبرة عن دوافع الغريزة بأبسط الكلمات والاشارات

ذكرت تلك الفتاة القروية عائدة من الكنيسة بثيابها الفضفاضة ، وضفائرها المنسدلة على كتفيها ، ووجهها الجري الزاهر بنفحات الربيع ، وصدرها الناهد ، وقدها المشوق ، وخطواتها المتزنة الحازمة

كم كانت رائعة صبغة الخجل الوردية التي اصطبغت بها أذناها لما سألتها عن اسمها ، وهل فكرت في صلاتها في غير أهلها ممن تعرف من الناس ! ؟ لقد حيرها سؤالي فارتبكت وسكتت عن الجواب ؛ وذكرت أيضاً زيارتي لها في بيت أهلها وكيف اعترفت لها بحبي وعاهدتها على الزواج ، وتلك الأوقات الحلوة التي كنا نقضيها تارة في النقاش وقراءة الكتب ، وطوراً في التطلع إلى المستقبل والتمهيد لبناء عش سعادتنا

تمثلت يوم عودتي إلى دمشق ، والاضطهاد الذي أصابني من حكومتها ، وفراري من السجن والتجائي إلى مصر بعد الحكم علي وعلى زملائي بالنفي المؤبد ، لا لشيء إلا لأننا من دعاة الاستقلال الطامحين إلى الحرية

ذكرت كل هذا والطريق يمتد أمامي ؛ كانت ظلمته تبعث في نفسي رؤيا تلك الأيام التي ودعتها منذ سنين في أرض الوطن وطويتها بين ضلوعي ، وبدا لي كأن ماضي يبعث من جديد وينشر فجأة ؛ تجسمت أمامي الحوادث كأنما لم يمر عليها ساعات ، ذلك العهد الباسم الذي أمضيته وإياها ، خيل إلي أن هذا الماضي الماثل القريب قد ضاع مني كله ، كأن بيني وبينه برزخاً .. فجوة الزمن ، والحنث بالعهد ، تفصل بيننا !!!

ارتدت بي الذكرى فجأة إلى النادي الشرقي ، فاستشعرت تلك الذراع البضة منبسطة فوق كتفي ، والصدر الملىء بما برح يتموج مختلجاً بين ذراعي ؛ جاشت نفسي بالذكرى ، وعضضت شفتي ندماً وقلت : ليتني ، ليتني ما حنثت باليمين . . . . . .

* * *

ما كنت أحسبني أستعيد مرح الصبا ونشوة الرقص ، وقد أرهقني الزواج البكر بأحمال من الرزانة ، وبأثقال من الوقار ، وبكل ما تفتعله أكاذيب العادات ونفاق التقاليد

لم أكن أنشد في الرقص ما ينشده شبان ينتقلون كالنحلة من زهرة الى زهرة ، يرتشفون من ندى زهرات الحياة ما يرتشفون ... لم أكن كنقلاء العزاب أو جهالهم أبحث عن فتاة فيها من أوصاف الجمال الجثماني ، أو طيش الطباع النزاعة الى العبث واللهو ، أو وفرة المال للزواج ، بل كنت مكبوت النفس بحب قديم لم تقو صروف الزمان ومناسباته ولا تطورات الفكر على خنقه ؛ لا غرابة في خمود ذلك الحب طوال السنين ، بل الغرابة لو لم يستيقظ ويستنهض في دوافع الميول المستقرة في أعماق قلبي بكامل ما فيها من قوى الحياة تهليلا للحب البكر البرىء

لقد كنت والسيدة أحرص ما نكون على إخفاء أمارات الحب في عيوننا ؛ لم يكن في مظاهرنا ما يلهم غريزة المرأة استشمار الواقع بدليل أن امرأتي لم تدرك شيئاً منه ؛ أما زوجها فقد كان له من أقداح الوسكي وأحاديث البورصة والمضاربات ما يشغله عنا ، فلم يع شيئاً من ذلك أيضاً ؛ وهكذا كانت تنقضي ليالي الاجتماع بمظهرين : مظهر النفس المتأججة بلاعج من حب باطني ؛ ومظهر السكوت الدال على الاندماج الكلي في وحدانية الحب المقدس ، وعلى التجاوب الروحي والتفاهم الجسدي حين المخاصرة

لم يعد طبيعياً أن تطاوعنا عناصر الوجود على استدامة هذه الحال ، فلما همست أخفت همسة في أذن « حبيبتي » أطلب منها اللقاء على انفراد ، أومأت بهدب جفنها إيماءة الرضى وأتبعتها بلمحة من بسمة ارتسمت على جانب شفتها ، ونظرت الى نظرة طويلة ... ثم فتحت فاها كأنها تريد أن تقول شيئاً ، ولكنها أحجمت وأطبقت شفتيها ... ثم عادت فاشترطت أن يكون اللقاء في الريف على ضفاف النيل ، وألا يرى أحدنا الآخر إلا في الموعد المضروب ؛ رضيت بهذا الشرط الصارم وحرماني منها طيلة عشرة أيام

***

عبثاً كنت أحاول إخماد حدة الأزمة النفسية التي ساورتني ففزعت إلى « الأقصر » أستمد السكون والهدوء من مشاهدة آثار العصور الخوالي في وادي الملوك ، ولكن متى كانت صور الفن تصرف الذهن عن الصور الحية ، وكيف يهدأ قلب استفاق من هجمة الحب الأول على صراخ تأنيب الضمير ؟

عجباً ! لم جعلت اللقاء بعد عشرة أيام ودعمته ألا يرى أحدنا الآخر خلالها ؟ هل رمت من وراء هذا التباعد الى إثارة قوى الدفع والجذب التي تكون وليدة الآمال المرتجاة ؟ هل شاءت بباعث من غرائزها التي يعمل عقل الرجل مجتهداً في حل رموزها أن تمتحن الفوارق بين اللقاء المكظوم في صالة الرقص وبين اللقاء الموعود في الريف ؟ هل أرادت أن نستجم للقاء كما يستجم الشاعر لابداع قصيدة ، والعابد لتمتمة صلاة غير مسطورة في كتاب ، والصوفي للاندماج في وحدانية الله ؟ وإنما رغبت في أن يكون لقائنا اللقاء الأخير وموقف الوداع قبل السفر ! !

... ... دنا الموعد ، اقتربت ساعة اللقاء ، وقفت أنتظر قدوم سيارتها وأرقب دقائق الساعة بضجر ملح ، وأعد الثواني باضطراب . تمضي الثواني والدقائق والساعات ، بل العمر كله يمضي في طريق الزمن والزمن لا ينفك منذ الأزل وسيبقى مدى الآباد يسير بنظام محكم الضبط إلا أنا ، أنا الشاذ المضطرب ، الصاخب الهادئ ، المفكر المبلبل ، أنا السعيد الحزين ، والباكي الضاحك ، أنا الذي أعيش في أرض يلوح لي الآن أنها تدور دورة معكوسة ! ! !

لمحت سيارتها مطلة من بعيد فشعرت بدمي يندفع حاراً في عروقي وسمعت بأذني وجيب قلبي ... وقفت السيارة ، وإذ فتح بابها رأيت السيدة جالسة والى جانبها صبي صغير ، وكانت مرتدية ثوباً أزرق وقد أمالت رأسها الى جانب من السيارة ، رأيت في عينيها الحالمتين فتوراً ساحراً غريباً ؛ وقفت زهاء نصف دقيقة ذاهلاً مبهوتاً لم أستطع النطق حتى بالتحية ؛ خيل الي أني قد استجمعت في هذه الفترة كل ماضينا ... والتفت فوقعت عيناي على الصبي ... وانقبض قلبي ؛ غام الضوء في نظري وشعرت بحزن طارئ يستولي علي ، كبحت جماح عواطفي ، وتمحلت الابتسام ، وكانت قد أفسحت لي مجالا فوثبت إلى المقعد ورأيتني بالقرب منها

لم أدر السبب الذي حدا بي كي أستجيب وأصعد إلى السيارة ؛ لقد غمرني مرأى الصبي باحساس مؤلم قوي لم أكن أتوقعه حتى لقد وددت أن أفر بنفسي

وكأنما قد أشفقت علي ، فلم تتكلم ، بل مدت بأطراف الأنامل يدها وتلاقت يدانا في مصافحة صامتة ، وكانت يدي باردة كالثلج بينما كان الدفء يسري من كفها . ثم قربت يدها شيئاً فشيئاً حتى احتوتها يدي ، فضغطت عليها ضغطة قوية كأنما أردت

أن أهرب من برودة قارسة إلى حرارة الحياة

استأنسنا بالصمت ، ثم تلاقت عينانا ؛ كان فى نظراتى شبه استعتاب لمجيء الصبى معها ، وكأنها فهمت ذلك بالنظرة الخاطفة فتساءت أن تعدل عنها ، وتبسمت واهتزت يدها فى يدى تريد أن تذكرنى بأنى أضغط فى عنف عليها ، وتألق فى عينيها لمعان ... هذا اللمعان الذى أبصرته فى مقلتيها الكستنائيتين أول مرة عرفتها ، لمعان قوى كضوء باهر فى ليلة شتاء يسطع بين السحب ثم يختفى ... أجل ؛ بدا لى أننى أعثر فى تلك السيدة على أشياء ما رأيت قط مثلها فى امرأة من قبل ، وكان هذا محور حياتى معها وتاريخ حبى لها ... فيها أشياء كالنور حينا والحرارة حينا ؛ فيها صمت لا أدرى قراره ... وشممت عطرها القديم الذى طالما ملأت منه رئتى ، فاسترحت

***

... السيارة ماضية بنا تنهب الطريق الممتد بين حقول القطن تظلله غصون الشجر ، لم أكن لأستطيع فى هذا الحين جمع خواطرى لأنها كانت تتناثر كالشرر ، إنما كنت أحس كأنى انفصلت عن العالم وانقطعت صلتى بالناس ، بالحياة وبالواجب أيضاً

هاهى إلى جانبى ، المرأة التى كنت ركزت عليها آمال الشباب ، هاهى مبعث الحلم البعيد الذى يصطخب فى قرارة تصوراتى ، هاهى الومضة الخاطفة التى بإشعاعاتها تنير أجواء التفاؤل فى حياتى ، لقد حققت بوجودها جميع صور الخيال وأطياف الأحلام ، هاهى بروحها وجسمها إلى جانبى لا يحتجزها عن الالتصاق بى سوى طفلها الجالس فى هدوء كأنه يحلم مثلنا

. . . علام أتجاهل خيانتها الواقعة ، بل لم أتغافل عن الأمر الواقع الصارخ ؟ إن قوانين الحياة وتقاليدها البغيضة تسرى علينا سويا ، فلماذا أحاول أن أبعث فى نفسها أنانية متمردة شرهة كالتى تمتج بها نفسى ؟ كلنا أسرى العواطف ، عبيد الشهوات ، أفلا يليق بنا وقد ولجنا عالم الانسانية من أبواب الشعر أن نقيم لسيول الشهوة العمياء سدوداً تحول دون اجترافنا ؟ أجل ، إنى لأنزه الحب عن أن يكون مجرد مادة ، كما إنى أتبرم به متى كان حرماناً صرفاً . يسمو الحب على الحقائق ولكنه لا يستطيع أن ينكرها أو يستهين بها ؛ فلماذا تتألم نفسى من وجود الصبى بيننا ؟

يسمو الحب على الحقائق ، ولكنه متى نما واكتمل وازدهر ، وتسنم ذروته العليا فقد يخضع لهذه الحقائق عن رضى لأن سر عظمته فى اللين والخضوع ! !

لماذا أفزع من وجود الصبى ؟ لقد جاءت به لتفصلنى عنها ، لتضع سداً بينى وبينها ، لتنقذ حبى من التردى فى مهاوى الواقع والفناء فى ظلمة الحقيقة ... إنها تحبنى ، أشعر بهذا من رعشات يدها ، ورجفات جفنيها ، من شفتيها المختلجتين وعينيها المتقدتين شهوة وحسرة ، تحبنى ولكنها لا تريد الاستسلام ، تحبنى وتخشى إن هى استسلمت ثم افترقنا على مضض ، كما يقضى بذلك الواجب ، أن تعذبنى الحسرة وتشقيها اللوعة ، وأن تترك من شخصها فى خيالى صورة بشعة ملوثة تهبط بهذا الحب الرائع القدسى إلى درك الحيوانية الأولى ! ! !

إنها تريد أن تكون بكليتها لى ، أولا تكون لى أبداً ، وما دامت سترحل فى الغد ، عائدة إلى لبنان ، فهى تؤثر أن تحرمنى كل شيء على أن تسقينى من كأس بدنها الشهى جرعة واحدة لا تنقع غلتى ولا بد أن تسمم فى المستقبل كل حياتى

أواه ! لقد أدركت ما يجول بخاطرى ، ها هى تتفرس فى وتتأملنى وتشفق على منذ الآن ، ويكاد الدمع يطفر من عينيها

لماذا ؟ لماذا تبكين يا حبيبتى ؟ ! أخذت رأسها بين ذراعى ألاطف شعرها بينما كانت تنتفض ودموعها الحارة تتساقط على يدى تجاه هذه الدموع لم أجد بداً من الاذعان لها ، أشفقت عليها كما أشفقت على ، سموت بحبى كما أرادت أن تسمو بحبها ، عولت على ألا أعترض القدر ، وأن أنزل ما استطعت على حكم هذه المرأة التى علمتنى أن فى وسع الانسان أن يعيش بالروح أكثر مما يعيش بالجسد ، وأن الحب الكبير قد يستطيع أن ينتصر لا على المادة فقط ، بل على الزمن أيضاً

أرسلت نفساً طويلا فرج عن صدرى ، وضاعف أعصابى صلابة وقوة ، فتنحيت قليلا ومددت رأسى إلى حيث سائق السيارة وغمغمت بهذه الكلمات : « عد من حيث أتيت »

حدقت فى وأشرق وجهها بغتة ، ثم أطرقت برأسها وتلمست يدى ورفعتها برفق إلى شفتيها ، فشعرت بالقبلة الهادئة تجمع بيننا إلى الأبد

عادت بنا السيارة تنهب الأرض ، والأشجار تتعاقب ، والهواء يصفر ، والصبى يضحك ، وأنا أردد فى نفسى هذه الكلمات : غريب ! غريب ! غريب !

حبيب الزحلاوى



أسبوع المتنبي في الجامعة المصرية

اعتزمت كلية الآداب أن تقيم أسبوعاً حافلا للمتنبي بمناسبة انقضاء ألف سنة على وفاته في أوائل العشرة الثانية من شهر رمضان سنة ١٣٥٤ في قاعة الجمعية الجغرافية الملكية ، وسيلقي أساتذة الكلية محاضراتهم على الترتيب الآتي :

الدكتور طه حسين	:	المتنبي في شبابه (من مولده إلى اتصاله بسيف الدولة)
الأستاذ عبد الحميد العبادي	:	سيف الدولة
الأستاذ أحمد أمين	:	المتنبي وسيف الدولة
الدكتور حسن ابراهيم	:	كافور الأخشيدي
الأستاذ أحمد الشايب	:	المتنبي في مصر
الدكتور عبد الوهاب عزام	:	المتنبي من لدن خروجه من مصر إلى وفاته
الأستاذ ابراهيم مصطفى	:	المتنبي والنحاة
الأستاذ عبد الوهاب حموده	:	أسلوب المتنبي
الأستاذ مصطفى عبد الرازق	:	فلسفة المتنبي

وسيتخلل هذه المحاضرات إنشاد بعض قصائد المتنبي وغناء قطع من شعره

سيلفان ليفي حجة التاريخ والحضارات الهندية

نعي إلينا من باريس العلامة والمؤرخ الفرنسي الكبير الأستاذ سيلفان ليفي أستاذ التاريخ الهندي وحضارات الشرق الأقصى بالكوليج ده فرانس . توفي في الثمانية والسبعين من عمره بعد أن قطع زهاء نصف قرن يدرس الحضارات الهندية والصينية ، وكان مولده سنة ١٨٦٣ من أسرة يهودية ؛ وكان سيلفان ليفي علامة واسع الثقافة ، ولغويا ضليعا ، وحجة في شؤون الحضارات الهندية والصينية واليابانية ، وفي حل المخطوطات والرموز الهندية والصينية القديمة . وقد ظهر منذ شبابه بميله إلى هذه الدراسة الفريدة ، فكتب «رسالته» لنيل العالمية عن «المسرح الهندي» وتاريخه وتطوراته وخواصه ، ودرس الديانة البوذية دراسة واسعة ، وكذلك الفلسفة البوذية والبرهمية ووضع عنها رسائل وبحوثاً عديدة ؛ وقام الأستاذ ليفي بعدة رحلات علمية واستكشافية في بلاد الهند والهند الصينية واليابان وجاوه ، وفي بلاد التبت وسيبريا ، وكتب على أثر رحلاته الهندية كتابا عن بلاد « نيبال » والتبت ، وهو يعتبر من أعظم كتبه إن لم يكن أعظمها . ثم نشر بعد ذلك مؤلفاً ضخماً عن « الهند والعالم » شرح فيه الدور الذي قامت به الحضارة الهندية في تكوين الفكر الانساني والحضارة الانسانية

وقد كان سيلفان ليفي أستاذاً في معهد الدراسات العليا ، ثم أستاذاً في الكوليج ده فرانس منذ سنة ١٨٩٤ ؛ ثم تولى رئاسة قسم العلوم الدينية في معهد الدراسات العليا . وكان عضوا عاملا ومراسلا في معظم الجمعيات العلمية الكبرى التي تعنى بالشرقيات ، وكان منذ سنة ١٨٢٨ رئيساً «للجمعية الأسيوية »

ومنذ نحو أربعين عاماً يشغل سيلفان ليفي بين علماء الشرقيات مركزاً فريداً ، فهو الحجة الثقة ، وهو المرجع الفرد في أخص المسائل التاريخية والاجتماعية والأثرية الهندية والصينية ؛ وفي قراءة اللغات الهندية القديمة ولا سيما السنسكريتية التي كان من أعلامها والتي تلقاها على أستاذه بورجيني أشهر علمائها في القرن الماضي

وكان لسيلفان ليفي أكبر الفضل في احياء كثير من اللهجات الأسيوية القديمة ، وكان لمباحثه وجهوده الدراسية والأثرية أكبر الفضل في إلقاء ضوء كبير على الدور الخطير الذي قام به التفكير الهندي القديم في توجيه التفكير الأوربي وفي تكوين الحضارة الحديثة . وأخيراً كان سيلفان ليفي حجة الشؤون الاستعمارية في الشرق الأقصى ، ترجع اليه وزارة الخارجية الفرنسية فيما يمس الشؤون الاجتماعية والنفسية لشعوب الهند الصينية ، وفيما تقوم به من المشروعات الاصلاحية والعمرانية

وكان يتمتع بحيوية مدهشة ، فقد لبث حتى أواخر أيامه

منكباً على مباحثه ودراساته ؛ وقد حضر مؤتمر المستشرقين الأخير في رومه وألقى فيه خطبة باللاتينية كانت موضع التقدير والإعجاب ؛ وكانت وفاته فجأة وفي ذروة القوة والنشاط

حول قبر الصفدي — إلى الأستاذ علي الطنطاوي

أذكر حين زيارة المرحوم زكي باشا لقبر الصلاح الصفدي في حارة يهود صفد أن مؤرخ فلسطين الأستاذ عبد الله مخلص ذكّر الباشا أن الصلاح الصفدي ، خليل بن أيبك مرموس في دمشق ؛ وكأن هذا التذكير لم يرق للباشا الذي يريد أن يزدرع كل أقطاب الإسلام في فلسطين فلعل فيهم سياجاً يدرأ ما ينتابها من المحن — رحمه الله ! ولما لحظ عليه الأستاذ المخلص هذا ساق إليه حديثاً آخر ، وهو أن عالماً دمشقياً قبر في صفد ، وكان معاصراً لابن أيبك ، وبعد مدة نقل ذووه رفاته إلى دمشق ؛ وأضاف : لعل عادة نقل الرفات كانت أمراً شائعاً في ذلك الزمان ؛ ولا يستبعد أن يكون أهل الصلاح نقلوه من دمشق إلى صفد وقبروه في هذا النزل الذي كان عامراً بذكر لا إله إلا الله ! !

فضحك الباشا وقال بلهجته المصرية الحلوة : أبوه جيوه ! جيوه ؟ لقد فرجت عني والله !

وكان من مساعي شيخ العروبة أن بنت جمعية الشبان المسلمين قاعة كبرى في موقع ممتاز في البلد لتكون غرفة مطالعة باسم « مكتبة الصلاح الصفدي » ، وعلى أن تضاف إليها غرفة مقببة تنقل إليها رفات هذا القبر المهين ، فتكون مزاراً لمارفي فضل ابن أيبك ولكن « الله يعمرك يا صفد » والسلام

صفدي آخر

نظريات الجنس والسلالة

صدر أخيراً في انكلترا كتاب تثير قراءته كثيراً من الاهتمام وعنوانه : « نحن الأوربيين » We Europeans وضعه كاتبان عالمان هما جوليان هكسلي و ا . هادون ، وموضوعه استعراض نظرية الجنس والسلالة التي تثير اليوم كثيراً من الجدل . وهو على صغر حجمه يفيض مادة ووضوحاً ؛ وقد استعرضت فيه النظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الانسان وما يكتنف تكوين الأمم الأوربية من العوامل ؛ وفيه شرح شائق لنظرية السلالة المزعومة التي اتخذت في ألمانيا ستاراً لأغراض السياسة . ويذهب المؤلفان إلى أن البيولوجيا لم تبق بعد داروينية النزعة (نسبة الى داروين) بل غدت مندلية النزعة (نسبة الى مندل صاحب مذهب الوراثة) . والمعروف أن الوراثة البيولوجية تحدث خلال آلاف الوحدات ، ولكن الخواص العقلية والجسمية تتأثر أيضاً بمؤثرات المحيط والطبيعة والتربية ، ومن الممكن أن يصقل العقل والخلق بالمران ؛ ويدلل المؤلفان بطريقة بديعة على أن معظم الخواص التي يزعم هتلر ودعاته أنها جنسية ترجع الى فعل السلالة ، إن هي في الحقيقة إلا خواص ثقافية محضة . فإن الانسان له وراثة اجتماعية كما أن له وراثة بيولوجية ، ومن الصعب علينا أن نستخرج الخواص القومية من غيرها ؛ بيد أننا نستطيع أن نعين المؤثرات الاجتماعية بطريقة خاصة . ويدلل المؤلفان على نظريتهما بأمثلة جنسية وقومية واضحة غير اليهود الذين هم اليوم هدف لمطاعن الجنس والسلالة . ويذهب المؤلفان أيضاً الى أنه لا توجد ثمة أجناس نقية ، ذلك أن الانسان يتأثر خلال الأجيال بعثات الأجداد والأسلاف ، ويشتق منهم جميعاً ؛ والواقع أن كلمة « الجنس » قد فقدت معناها بالنسبة للجماعات الانسانية ؛ وأما هذه المزاعم الحديثة التي تنسب الى الجنس والسلالة فليست سوى « علم مزعوم » ينظم لتستتر وراءه غايات السياسة

وفاة شاعر روسي

توفي أخيراً في باريس شاعر روسي فتي هو بوريس بو بلافسكي . وباريس هي كما نعلم مهجر الروس البيض الذين يخاصمون البلشفية ويمقتونها ، وفي باريس يترعرع أدب روسي ناشئ هو أدب المهجر ، يتأثر تأثيراً كبيراً بالأدب الفرنسي ؛ وقد كان بوريس بوبلافسكي من أعلام هذه الحركة الأدبية ومن أقوى ممثليها ، وقد على باريس حدثاً ، وتكون فيها تحت تأثير الأدب الفرنسي ، فنشأ يمثل مزيجاً بديعاً من الأدبين الروسي والفرنسي وظهر بنظمه القوي المؤثر حتى شبهه بعضهم ببعض أكابر الشعر الفرنسي المعاصر مثل رمبو وأبو لنير

وكان بوبلافسكي ينشر قصائده ومقطوعاته في بعض المجلات التي يصدرها الروس المهاجرون مثل مجلة « الأخبار المعاصرة » ومجلة « تفينو » ومجلة « تيسلي » ؛ وكان علماً بارزاً بين أدباء المهجر على رغم حداثته . وفي سنة ١٩٣١ نشر مجموعة شعرية بالفرنسية عنوانها « الاعلام » Les Drapeaux . وقد ترك عند وفاته مجموعة شعرية أخرى لم تنشر ، وكذلك قصتين . وكان



(١) المختار للأستاذ عبد العزيز البشري

(٢) المرشد العربي للسيد سهيل النبير

للأستاذ محمد بك كرد علي

— ٢ —

خُصَّ الأستاذ البشري بالاجادة البالغة في ضروب الكلام . وكتابه « في المرآة » شاهد بتفوقه في هذه الصناعة ، وأنه نسيج وحده في أساليب الجد في الهزل والهزل في الجد ، ساعده على هذا الإبداع والامتاع تمكنه من ناصية اللغة ، وقبضه على قياد الآداب ، إلى ما فُطر عليه من ظرف شفاف ، إذا تنادر وإذا تهكم ، وأتى يودع الآن كتابه « المختار » بعض ما أبدع فيه من المقالات والمسامرات والمحاضرات ، فكان له المنّة على أبناء هذه اللغة بما ينوّع لها من أصناف القول ، وبما يحمل إلى مختلف الطبقات من ألفاظ ومعان وتراكيب لا يكادون يقعون عليها إلا في كلام نبغاء البلغاء

البشريّ كالجاحظ إذا عرضت له النكتة قالها لا يبالي ، وإذا اقتضته الحال أن يتهكم تهكم ، يدخل السرور على قلب قارئه ويعلمه ولا يشقّ عليه ، وقليل جداً في فصحاء جيلنا من تهيأت له الذرائع إلى إتقان فنه هذا الإتقان ، وقليل مثله من عرفوا الحياة ولابسوها كما أرادت ثم قابلوها بالضحك والسخرية ، وقليل جداً من خبروا المجتمع المصري خبرته ، فكتب ما توقع منه نفعاً في رفع مستواه الأدبي .

أحسن الأستاذ خليل بك مطران بقوله في تقدمة كتاب البشري إنه متحف حافل بالمفاخر ، وإن كل طرفة من طرفه جديرة بأن تطالع في تدبر وروية وقد كسر كتابه هذا على ثلاثة أبواب « الأدب » و « الوصف » و « التراجم » . فعالج في الأدب فصولاً في القصص ، والنقد الأدبي ، والأدب بين القديم والجديد ، والأدب القومي وغير ذلك ، وفي باب الوصف جوّد في مقالة « الراديو » ، كما يصفه أعرابي قادم من البادية و « في الطيارة بين الماطلة والدخيلة » وفي غيرها من الفصول . وفي التراجم ترجم لحسين رشدي باشا من رجال السياسة وللشيخ علي يوسف من أرباب الصحافة ولمحمد بك المويلحي من أهل الأدب . ترجم لهم بروح جدّ فكانت ترجمته على مثال التراجم المتعارفة . أما يوم ترجم « في المرآة » مثلا للشيخ أبي الفضل

نوبلافسكي أيضاً كاتباً مجيداً وباحثاً ؛ وكان حركة مضطرمة ؛ وقد توفي في أوج قوته وعنفوان شاعريته ، وأحدث موته فزعاً كبيراً في أدب المهجر . وأثار بين مواطنيه في المهجر أعمق حزن وأسى .

جائزة نوبل

منحت الجائزة الأولى من جوائز نوبل هذا العام ، وهي جائزة الفسيولوجيا (علم وظائف الأعضاء) لعالم ألماني هو الأستاذ هانز شبيمان من أساتذة جامعة فريبورج ؛ ومما يجدر ذكره أن هذه هي المدة الرابعة التي يرشح فيها الأستاذ شبيمان نفسه لنيل هذه الجائزة الشهيرة

والأستاذ شبيمان في نحو السبعين من عمره ؛ وهو يخصص حياته منذ ثلاثين عاماً للعمل في سبيل التكوينات الميكروسكبية ، وقد نجح أثناء مباحثه في نقل بعض الأعضاء الحيوية الى « الأجنة » وجعل فيها مخلوقات جديدة ، وهذا ما يسمى في اللغة العلمية « بالخياليات »

وقد انتهت مباحثه في هذه « الخياليات » إلى نتائج تلفت الأنظار ؛ وكان أن استحق معها جائزة نوبل وقدرها نحو سبعمائة ألف فرنك فرنسي (أعني نحو عشرة آلاف جنيه) ، وبذلك تنتهي هذه الحياة العلمية الباهرة بحياة رغد وثراء .

ومما يذكر بهذه المناسبة أن العلماء الألمان والنمسويين هم أكثر العلماء نيلا لجوائز نوبل وخصوصاً في النواحي العلمية المحضة مثل الطب والكيمياء والعلوم الطبيعية والرياضية ؛ ولم يمر عام لم يظفر فيه واحد منهم أو أكثر بجوائز نوبل . أما جوائز نوبل الأدبية فأكثر ما يظفر بها الكتاب الإنكليز أو الأمم اللاتينية

الجيزاوي، ولأحمد مظلوم باشا، والدكتور محجوب ثابت فانه أتى بالرقص المطرب، وعالم يكتب لأحد من المحدثين إن وُفّق إلى مثل هذه الاجادة في تصوير الصفات والحركات بهذه الطريقة

وبعد فان أدب الشيخ البشري لا يتذوقه كما قال شاعر العرب مطران إلا من يدرسه ويعاود دراسته بروية وتبصر، وصاحبه واحد من بضعة النبشيين في هذا العصر، يحاولون بأساليبهم — ولكل واحد منهم أسلوبه على حياله — أن يعيدوا إلى العربية رونقها القديم من الجزالة والسلاسة، والبعد عن السجع إلا إذا جاء عفو الخاطر.

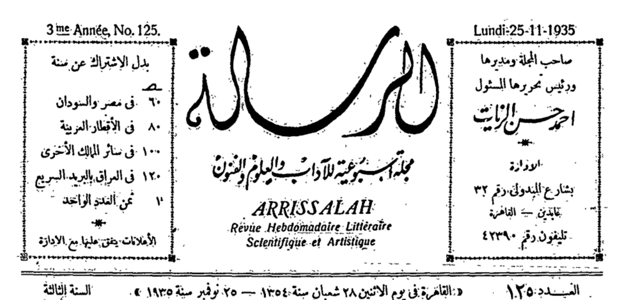
وأملهم موفقون إلى بلوغ الغرض الذي سددوا سهام أقلامهم إليه.

— ٢ —

أعجبني من هذا الدليل في القسم الاسرائيلي منه وصف عمال اليهود في فلسطين و«لعل أرقى حياة يعيشها عامل في العالم كله هي حياة العامل اليهودي في فلسطين» بفضل «الهستدروت» أي النقابة العامة لعمال اليهود. وهي جمعية توزع العمل على العمال وتدافع عن حقوقهم وتكره أصحاب الأعمال على التقيد بأنظمتها وتؤمن حياة العمال وتجد لهم عملاً وتوزع العمل بينهم في الأزمات وعند تكاثر العمال وهبوط الأعمال. والهستدروت شركات تعاون وقرى يعيش ساكنوها عيشة اشتراكية. قال ان الفلاحين في القرى الاشتراكية يعيشون حياة غريبة الشكل بالنسبة للشعوب الأخرى، خصوصاً الشعوب العربية، فهم لا يتناولون أجراً ولا يعرفون قيمة الدراهم، بل يعملون في قراهم بدون أجر، يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون ويتنزهون ويتطببون ويتزوجون ويتناسلون، من غير أن يكلفوا بدفع فلس واحد، لا يعترفون برئيس ولا زعيم، ولا يجعلون للاديان السماوية سلطاناً كبيراً عليهم، وكلهم في نظر اخوانهم يتساوون في الحقوق والواجبات، وقد لاحظ الكاتب أنه يصعب على كل انسان أن يعيش عيشاً اشتراكيا كما يعيش هؤلاء إلا إذا كان على جانب من العلم والثقافة، ويميل بفطرته إلى الحرية المطلقة، على ألا يستعمل هذه الحرية في خرق الأنظمة والقوانين. ومن أهم شركات التعاون شركة المساكن، ولها بنايات ضخمة في البلدان التي ينزل فيها العمال مثل حيفا وتل أبيب، وتتألف هذه البنايات من ١٥٠ بيتاً، ولا يختلف بعضها عن بعض إلا بالسعة، وكلها مبنية على طراز واحد استكمل شروط الصحة والفن

ويعيش الأولاد في القرى الاشتراكية حياة مستقلة تختلف عن حياة الكبار، فلهم بيوت ومطاعم خاصة ومطبخ مستقل ومربيات خصوصيات، قال: والانسان الاشتراكي لا يعيش هنا لنفسه فقط، بل للمجموع، وعليه أن يجد لسعادة المجموعة الاشتراكية أو الأخوية الاشتراكية التي يعايشها، ولا يحاول أن يعتلي على زملائه أو يتحكم فيهم، فهو عامل وشريك، ورأس مالي وفقير معدم في وقت واحد؛ والأغرب أن على هذا الانسان الذي يعيش بدون أمل في الرفعة والسؤدد الشخصي أن يجد ويجتهد، ويعمل بهمة ونشاط كما لو كان يعمل لمستقبله ومستقبل أولاده وأحفاده؛ وإذا لاحظ اخوانه في الاشتراكية أنه كسول خامل، يعمل أقل مما يقدر على عمله، لا يتوانون عن افهامه بلطف وجوب مغادرتهم، فان تجاهل أفهموه صراحة وحكموا بطرده؛ ومتى زهد في الحياة الاشتراكية تقدم له الجمعية نفقات سفره إلى المكان الذي يقصده، وإن رغب أحد الاشتراكيين في زيارة أهله تقدم نفقات سفره ذهاباً واياباً إلى أقصى الأرض ليعود اليهم بعد انقضاء مدة الأذن، ومن كان له فقراء من أهله في مدن أخرى، تقدم له المجموعة الاشتراكية مبلغاً شهرياً لا يتجاوز الجنيهين، وفي هذا الدليل فوائد كثيرة ينبغي للفلاح المصري والشامي والعراقي أن يتملوها، وينسجوا على منوالها بما يلائم طباعهم وعاداتهم.

محمد كرد علي



3 me Année, No. 125.

Lundi-25-11-1935

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

العـــدد ١٢٥ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٨ شعبان سنة ١٣٥٤ — ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

على هامش الموضوع أيضاً

عطف جميل ...

وجّه الكاتب الفرنسى النابه فكتور مرجريت نداء صارخا إلى « الضمير البشرى والعالَم الحر » ، أهاب فيه بذوى الوجدان من بنى الانسان أن يتعاونوا على دفع الظلم وكف الأذى عن مصر التى كابدت أضرار الرق ، وعالجت آصار الذل ، ثلاثاً وخمسين سنة لم يفتُر لصَرْخاها استغاثة ، ولم يسكن لصرعاها أنين ؛ ثم ناشد أعلام الذكاء الفرنسى أن يظاهروه على هذا النداء ، فأمضاه منهم خمسمائة وثمانية آلاف من العلماء والأدباء والفنانين من بينهم چول رومان ، وأندريه چيد ، ورومان رولان ، وهادامار

عَرَض الكاتب الشكور فى ندائه المحَن التى انفجرت على مصر منذ توقح على ضرب الاسكندرية ذلك الأسطول الذى يتقلب اليوم بين شواطئها ومرافئها تقلب العزيز المقتدر والمختال المملك ؛ ثم عَرَّض بتلك الوعود الفواجر التى جرت على لسان غلادستون وغرنفيل وسالسبورى وأضرابهم من الذَّاعين الذين بنوا هذا الملك الضخم على مراوغة اللسان ومماطلة الزمان ومغافلة

الناس ؛ ثم ذكر اضطراب مصر في الأصفاد ، واستشهاد شبابها في الجهاد ، وذياد الحلفاء وفدها المختار عن مكانه في مؤتمر السلام ؛ وعجب أن يتسع الجيل والشُّنّ لحرية الحجاز وأرمينية وألبانيا ، ثم يضيق عن تحرير مصر وهي ما هي في وحدة الأرض وقوة الدولة وتجانس الأمة ، فيذرها معلقة على رغمها بين حق حليم الطبع وباطل سفيه السلاح ؛ ثم أعاد إلى الذاكرة قول الكاتب الخالد أناطول فرانس : « إن سياستنا أنقذوا من يد العدم ، وأنشروا من طوايا القبور ، عشرين أمة ، فانتهت إلى الحرية بولونيا ، وعادت إلى الحياة أرمينية ؛ ولكن العدل الانساني يأبى أن يبرأ من تناقضه ونقصه ، فكان من نقص هذا العدل ، ومن حمق المدعين للحزم والعقل ، أن صارت مصر وحدها هي الضحية الكبرى لأكذوبة السلام ! » .

***

غضبة سامية ، وصرخة داوية ، ودعوة كريمة ! وصدورها عن حفدة الذين أعلنوا بأقلامهم حقوق الانسان ، وأطلقوا بأسيافهم حرية العالم ، أمر جار على مألوف الطبع والعادة ؛ ولكن الأستاذ فكتور ينادي غير سميع ، ويخاطب غير واع ! لقد هوى ذلك الضمير الانساني صريعاً أمام الجشع ، وجثت حرية العالم ضارعة الى الحرص ، واستحال الانسان الجديد إلى معدة مسحوتة هائلة لا تكف عن القضم ، ولا تعيا عن الهضم ، ولا ترسل الميول والعواطف إلا في نواحي المنفعة . أين كان ذلك الضمير الانساني الحر حين رجفت باسمه الرجفة الكبرى ، وأصاخت الى صوته المدنية العظمى ، ثم جلس على اقدار الشعوب لويد جورج وكليمنصو وويلسن ، وأيديهم على منضدة الصلح فوق أعواد الزيتون وأغصان الغار ، يتقاسمون الحقوق الممزقة ، ويتهادون الحريات المسلوبة ، ويقيمون أنفسهم أوصياء على فرائس اقتطعوها ، ثم عجزوا أن يبلعوها ، فقدموها الى الوصي كما تقدم الشاة الى الأفعوان ، يزدردها في سكون ، ويهتضمها على مهل ؟! أين كان ذلك الضمير الانساني الحر حين تجاوبت بالأنين ضحايا السلام في تركية ومصر وفلسطين وسورية والعراق ، تستغيث بالولاء للحلفاء فلا تغاث ، وتلوح بالوثائق والوعود فلا تبالى ، وما ذنبها أنها ضعيفة ، ففيهم أضعف منها ، و إنما ذنبها أنها مسلمة ! أين كان ذلك الضمير الانساني الحر وصرخات مصر الشهيدة تتعاقب على أسماع المدنية من غير فترة ، فتمزق أغلفة الأذهان بالحجة ، وتلمس لفائف القلوب بالرجاء ، ثم لا ترتد أصداؤها إلا بالخيبة ؟ أين كان ذلك الضمير الانساني الحر والوعود الشئون بالجلاء تتساقط من فوق المنبر الدستوري العريق تساقط الشهب ، يخطف البصر سناها في جو السماء ، ثم تكون حجارة باردة على الأرض ؟

هؤلاء أبناؤنا الأعزة يا مسيو فكتور كما سمعت هناك ورأى إخوانك هنا : يشترون بأنفسهم الغالية الهتاف للحرية ، لعلهم ينبهون العامه فيبصر ، ويرشدون المبطل فيقصر ، ويسمعون المخطئ فيصيب . ولكن الطوائر تئز ، والبواخر تصفر ، والمصانع تضج ، والمناورات الحربية ترغد ، والخطب الخداعة تهدر ، فكيف تجد الأصوات الرقيقة العذبة سبيلها في هذه الضوضاء العنيفة الى آذان هي بطبيعتها موقورة عن مثل هذا النغم ؟ ولو كان الضمير الانساني لا يزال حياً لرأى من خلال الحجب ، وسمع من وراء الآفاق ، ثم وخز النفوس وخزته الإلهية ، فيشعر القوي أنه زل ، و يدرك الغوي أنه ضل ، ويفطن الانسان الى أنه إنسان !

***

لقد كنت أود يا مسيو فكتور أن ينبسط عطفك حتى يشمل إخواناً وجيراناً يعانون من الذكاء الفرنسي مثل ما نعاني من الدهاء الانجليزي ، ولكننا سئمنا الكلام وأنفنا الاسترحام واحتقرنا الحجج .

لقد بلد الشعور حتى لا يحس إلا ذباب السيف ، وثقل السمع حتى لا يدرك إلا قصفة المدفع ، وكل الذهن حتى لا يفهم إلا كثافة المادة ؛ فأين يقع من ذلك بيان الأدب ومنطق العلم وخيال الفنان يا مسيو فكتور ؟؟

احمد حسن الزيات

المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

جاء يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مِشيته، يَرْجُفُ بين الخُطوة والخطوة كأنه من كِبره يُشعرك أن الأرض مُدركة أنه يمشي فوقها . . . ولا ينقل قدمه إذا خَطَا حتى يَنهض برأسه يُحركه إلى أعلى، فما تدري أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسه معه . . . أم يُخيَّل إليه أن هذا الرأس العظيم قد وضع على جسمه في موضع راية الدولة، فهو يهزُّه هزَّ الراية . . .

وأخذته عيني وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفة وعرضها. فإذا هو زائغُ البصر كأنما وقع في صحراء يقلِّب عينيه في جهاتها متحيِّراً متردِّداً، ثم كأنما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ فأخذ إلى ناحيته . . .

ورحبتُ به، وأجلسته إلى جانبي، فأخذ يَستَمْسِرُ فُ إليَّ بذكر اسمه وجماعته وبلده، ولا يزيد على ذلك شيئاً كأنه عنترة بني عَبس، لأرضه من طبيعتها جغرافيا، ومن اسمه جغرافيا على حدة. فلما رآني لا أُثبتُه معرفةً قال: إن بك نسياناً!

قلتُ: وكثيراً ما أنسى، غير أن اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكَّر بتاريخ

قال: هذه غلطة الجرائد . . . ومهما تنسَ من شيء فلا تنسَ أنك أستاذ « نابغة القرن العشرين [1] » . . . .

فسرَّحتُ فيه نظري، فإذا أنا بمجنون ظريف أمرَدَ أهيفَ، يكاد برخاوته وتفككه لا يكون رجلاً، ويكاد يبدو امرأة بجمال عينيه وفتورهما

وتوسمتُ فإذا وجه ساكن منبسط الأسارير ممسوح المعاني، ينبيء بانقطاع صاحبه مما حوله، كأن دنياه ليست دنيا الناس، ولكنها دنيا رأسه

وتأملت فإذا طفولة متبلدة قد ثبتت في هذا الوجه لتخرج من بين الرجل والطفل مجنوناً لا هو طفل ولا رجل

وتفرَّستُ فإذا آثارُ معركة بادية في هذه الصفحة تتلاها أفكارُ المسكين وعواطفه

وتبيَّنتُ فإذا رجلٌ مُسترخٍ، مُتفتِّرُ البدن، خائرُ النفس، كأنه قائم لتوّه من النوم فلا تزال في عينه سِنَةٌ، وكأنه يتكلم من بقايا حُلم كان يراه . . .

وخُيِّلَ إليَّ من هذا الحَوَل في هذا الشاب أن عليه جواً من تثاؤبه وأن المكان كله يتثاءبُ، فتثاءبت

***

فلما رأى ذلك مني ضحك وقال: إن « نابغة القرن العشرين » رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم . . . وحسبُك فخراً أن تكون أستاذه وأخاه وثقته، « فليس على ظهرها اليوم أديبٌ غيري وغيرك . . . »

قلتُ في نفسي: إنا لله، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره وغيري، وكأنما ألمَّ بذلك فقال: لستُ مجنوناً؛ ولكني كنت في البيمارستان . . . .

قلت: أهو البيمارستان الذي يسمى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا، إن هذا الذي تسميه أنت هو مستشفى المجاذيب؛ أما الذي سميتُه أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذ أن من المجانين قوماً ظرفاء يَدخُلهم الفسادُ في عقولهم من ناحية فكرة ملازمة لا تبرح، فلا يكون جنونهم جنوناً إلا من هذا الوجه، وسائر أحوالهم كأحوال العقلاء، غير أنهم بذلك طيَّاشون متقلبون، إذا ازْدُهِيَ أحدهم لم يُطِقْهُ الناس من زهوه وكبريائه وتنطُّسه، كأنه واحدُ الدنيا في هذه الفكرة، وكأن بينه وبين الله أسراراً؛ ويظن عند نفسه أنه أعقلُ الناس في أرقى طبقات عقله، وما جنونه إلا في هذه الطبقة وحدها

ومثل هذا لا بد له ممن يستجيبُ لهذيانه كما يحرك فيه خفته وطيشه وزهوه وليكون عنده الشاهد على هذا الوجود الخيالي المُبدَع الذي لا يوجد إلا في عقله المختل. فإذا هو ظفر بمن يُحاسنه، أو يصانعه، أو يجاريه حسبه مُذعِناً مؤمناً مصدِّقاً، فلا يَدَعُه من بعدها ويتعلق به أشد التعلق، ويراه

(١) هذا الشاب المجنون من الأذكياء، وكان قد انتهى الى المدرسة العليا الأولية ثم خولط في عقله فتركها؛ وكل ما في هذا المقال بين قوسين فهو بنصه من كلامه

كأنه فى ملكه . . . فيتخذه صفيًّا وهو يعتقد أنه رقيق ؛ وقد يزعمه أستاذه ليفهمه من ذلك بحساب عقله . . . أنه تلميذه .

وخشيت أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يسمنى أستاذه إلا بحساب من هذا الحساب ، فهو سيعطى الأستاذية حقها ، ولكن كما هو حقها فى لغة جنونه . . . فأصبح فى رأيه تلميذه وصنيعته ، ومحدث هذيانه ، وثقته ومناجاه ، والمحامى من ورائه ؛ قلت فى نفسى : إذا أنا تركته جالساً كان هذا المجلس مثابته من بعد فلا يعرف له محلاً غيره ويصبح كما يقال فى تعبير القانون « محله المختار » ، فيتسطر إلىّ لسبب ولغير سبب ، ويقع فى أوقاتى وقوع السهو لا حساب عليه ويضيع فيه ما يضيع . فأجمعت أن أصرفه راضياً باليأس وقد انتهت نفسه من معرفتى وانتهى عقله إلى الرأى أنى لا أصلح له أستاذاً ، لا بحسابه هو ولا بحساب الناس

فقلت له : ظنى بك أنك أستاذ نفسك ؛ ولا يحسن بنابغة القرن العشرين أن يكون له فى القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغت للأدب ، أما أنا فمشغول بأعمال وظيفتى ، وقد جاء من العمل ما تراه وتكاد لا تفى به الساعات الباقية من الوقت و...

فقطع علىّ وقال : إن الوقت ليس فى الساعة ؛ والدليل أنى أعطلها فيتعطل الوقت ولا يكون فيها يوم ولا ساعة ولا ثانية ولا دقيقة

فقلت : ولكنك إذا عطلتها لم تتعطل الشمس التى تعين منازل النهار ، فسيمر الظهر ويحين العصر و ...

قال : ويأتى غد ، وإنما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنك أستاذ (نابغة القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير فى الأدب وقرأتك ، فما كان لى رأى إلا رأيته لك ، ولا صحت عندى نظرية إلا رأيتك قد أبديتها ، وأنا لا أعتقد أدباً فى مصر إلا ما توافينا عليه معاً . « ولا أسلم جدلاً ، ولا جدلاً أسلم أن فى مصر أدباء ينالون منى شيئاً ، فهو أنا وأنا هو »[1] ، ولئن لم يذعنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلمن أنهم « وقعوا

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصه كما نبهنا الى ذلك ، والباقى ترجمناه نحن عن معانيه ، وأكثر ما يأتى فهذه سبيله

منى موقع علق على صخرة » . « هذا من جهة ، ومن جهة أريد سجاير وليس معى ثمنها » . . .

فتهللت واستبشرت ، وقلت له : هذا قرش فهلم فاشتر به دخائنك ، وفى رعاية الله . ثم استويت للقيام ، ولكنه لم يقم ؛ بل تمكن فى مجلسه . . .

* * *

وكرهت أن أتغير له وما أشك أنه فى هذا صحيح التمييز ؛ فما أسرع ما قال : إن « نابغة القرن العشرين » فتى قوى الارادة ؛ فاذا هو لم يصبر عن التدخين ساعات فما هو بصبور . . . . وإذا لم يثبت لك هذا الأمر عن معاينة .... فما أعطيته حقه

فقلت فى نفسى : لقد غرست الرجل من حيث أردت اقتلاعه ، وأيقنت أنه من عقلاء المجانين الذين تتغير فيهم العاطفة أحياناً فتلهمهم آيات من الذكاء لا يتفق مثلها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذى حكوا عنه أن ابراهيم الشيبانى مر به وهو يأكل خبيصاً[1] فقال له : أطعمنى . قال : ليس هو لى ، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلىّ لآكله لها ...

وقالوا : إنه مر بسوق البزازين فرأى قوماً مجتمعين على باب وكان قد نقب ، فنظر فيه وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم

فقالوا . هذا مجنون يراهم بالليل ولا يتحاشونه فالطفوا به لعله يخبركم . ثم قالوا : أخبرنا . قال : أنا جائع . فجاءوه بطعام سنى وحلواء ؛ فلما شبع قام فنظر فى النقب وقال : هذا عمل اللصوص . . . . .

وكانت مجلة (الرسالة) فى يد (نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلام بها وقال : إنه يقرأ كل مقالاتى وإنه وإنه وإنها وإنها . قلت : فما استحسنت منها ؟ قال : (مقالة السيما) ...

فقلت : متى كان آخر عهدك برؤية السيما ؟ قال : أمس

قلت : فأنا لم أكتب مقالاً عن السيما ، ولكنك أعجبت بما رأيت أمس فتحول ما رأيته حلماً فى مقالة

فأعجبه هذا التأويل وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) فاقرأ مقالاتك فى الغيب من قبل أن تكتبها . . . .

(١) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن

قلت : إنك تكثر أن تقول عن نفسك (نابغة القرن العشرين) وهذا يحصر نبوغك فى قرن بعينه ؛ فلو قطعت الكلمة وقلت (نابغة القرن) لصح أن تكون نابغة القرن التاسع عشر والثامن عشر وما قبلهما وما بعدها

فرأيت به شدهة كأنه يفكر فى جنونه ، ثم أفاق وقال : لا ، لا ... وإن هاهنا موضع نظر ، فلو رضيت بنابغة القرن فقط ، لجاء من يقول إني نابغة قرن خروف . . . .

***

فقلت فى نفسى : حماة مدت بماء[1] . وإن هذه الوساوس لاتنفك تمرو هذا المسكين ما وجد من يكلمه ؛ والأفكار فى ذهنه مجتمعة مختلطة مسترسلة كأنها ثورة من الكلام لا نظام لها ، فلأسكت عنه ولأتشاغل عما بين يدى.

وسكت وأعرضت عنه بجمل طائفه يعتريه ، وكأن السكوت قد سلط أفكاره عليه ، وكأنها أخذت تصيح به فى رأسه كما يصيح غلمان الطرق بالمجنون لا يزالون به حتى يجردوه ويفقدوه البقية من صبره وعقله معاً . فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضب إلى حالة زمهررت فيها عيناه[2] وكلح وجهه حتى خفت أن يثور به الجنون ، فأقبلت عليه وتعللت بسؤاله ألك إخوة؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال : إن له أخاً يعذبه ويوقع به ضرباً ويغلله بالسلاسل ويشده « بأمراس كتان الى صم جندل » وأنه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجر لتألم

قلت : فأنت فى حاجة إلى راحة ويحسن بك أن تأوى إلى مكان تتمدد فيه

قال : إني منصرف وسأجلس فى ندى كذا[3] « هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى ثمن القهوة »

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمناً لها فاذهب فاستمتع بها وبالتدخين وبالراحة فى ذلك الندى فالمكان هاهنا كثير الضجيج والحركة .

واستوفزت للقيام ؛ ولكنه لم يتحلحل من مجلسه

***

ثم قال : أراك الآن مستبصرا أنى (نابغة القرن العشرين) بعينه

قلت : بل بعينيه اليمنى واليسرى معاً ...

قال : لا . لا . إنك نسيت أن العرب تقول فى التوكيد : عينه ونفسه وذاته . « أى أنا نابغة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته ، فليس غيرى نابغة القرن العشرين »

وكادت نفسي تخرج غيظا ولكني رأيت الحلم على مثل هذا يجرى مجرى الصدقة ؛ وقلت إن أدباء المجانين كثيرا ما يتفق لهم الابداع الظريف إذا غلوا شيئاً كذلك القاص الذى كان يقص على العامة سيرة يوسف عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إن الذئب الذى أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردوا عليه : إن يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسم الذئب الذى لم يأكل يوسف ...

فقلت للمجنون : فما العلة عندك فى أن العرب لم يقولوا فى التوكيد : عينه وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله ؟

فنظر نظرة فى الفضاء ثم قال : ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاته ودراهمه . (هذا من جهة ، ومن جهة ليس معى أجرة السيارة الى بلدى ومعى قرشان)

قلت : هذه هى أجرة السيارة وصحبتك السلامة ، ونهضت واقفا ؛ ولكنه لم يتحرك

***

ثم قال : إنك لم تعرف بعد « أنى أقول الشعر فى الغزل والنسيب والمدح والهجاء والفخر ؛ وأنى فى الخطابة قس بن ساعدة أو أكثم بن صيفى ، وأنى صخر لا ينفجر . . . يابس لاينعصر ، لست كالحجاج بل كعمر . »

قلت : هذا شيء يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها فقد آمنت أنك نابغة القرن العشرين فى الأدب والشعر والخطابة والترسل

(١) هــذا مثل فى معنى زاد الطين بلة ، والحماة اذا مدها الماء زادت واتسعت

(٢) أى لمعت غضباً

(٣) نحن نستعمل الندى لمكان القهوة

قال: والفلسفة؟

قلت: والفلسفة وكل معقول ومنقول. وقد انتهينا على ذلك.

قال: ولكنك تحسبني مجنوناً أو ممروراً « كما حسبتني الجرائد التي زعمت أن اختفائي في البيمارستان كان لجنوني الفكري أو لذكائي الطبيعي وهو الأصح... فبيّن لهذه الجرائد أني خرجت وأني سأطبع الأدب بطابع جديد »

قلت: ولكني لست مراسل جرائد. قال « فاجعلني رسالة وراسلها عني أو أكتب لك أنا ما ترسله، وما جئتك إلا لهذا؛ ويجب أن تلحقني بجريدة كبيرة، وهذه الجرائد تمر في كلها، وقد تناولتني من جميع النواحي الأدبية؛ فضلاً عن أني كاتب فذ، وخطيب فذ، وشاعر فذ. وهذا قليل من كثير، فهل أعوّل عليك في صلتي بالجرائد أولا؟ »

قلت: إنك تعرفهم ويعرفونك وقد بلوتهم وبلوا منك فلست في حاجة إلى عندهم.

قال: « إنهم يخشون بأسي وقد حسبوني مجنوناً استهوته الشياطين؛ وما علموا أن شيطان الشعر هو الذي استهواني كما أن شيطان الحب هو الذي استهواك ... هذا من جهة، ومن جهة ليس معي ثمن الغداء ولا أكلفك شيئاً ... »

قلت: فهذا قرش للغداء في مطعم الشعب. وهم الآن يتغدون ويوشك إذا أبطأت أن توافقهم وقد استنفدوا الطعام، وأنت لا تجهل أن القرش في مطعم الشعب هو قرشان في القيمة

قال صدقت؛ يوشك أن أوافقهم وقد فرغوا من طعامهم وغسلوا الآنية. فلأبقِ هذا للعشاء وسأطوي إلى الليل ....

قلت: فمنك الآن ثمن الدخان، والقهوة، والغداء، وأجرة السيارة إلى بلدك. وقد كان نابغة القرن الثالث للهجرة واسمه (طاق البصل)(1) يقول بقيراط ولا يسكت إلا بدانق. هذا من جهة، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك وانصرف

* * *

فشق ذلك عليه وقام مُغْضَباً، وتنفستُ بعده الصعداء الطويلة .... وفتحتُ النافذة واستقبلتُ الهواء النقي وأخذت في رياضة التنفس العميق؛ ثم زاغت عيني إلى الباب فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبل مع نابغة قرنٍ آخر ....

« لها بقية » (طنطا) مصطفى صادق الرافعي

(1) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث

الى ا. ج. بدمشق: سنكتب ان شاء الله مقال (المغنية) فمهلا. ولكن دع المرأة وما اختارت. واعلم أن قولهم مغنية، أو ممثلة، أو راقصة كلمة لها معنيان: أحدهما هذا الذي فيها، والآخر أنها ... وأنها ... وأنها لا تصلح زوجة الرافعي

في مائة عام

الصراع بين الطغيان والديموقراطية

ومحنة الديموقراطية المعاصرة

بقلم مؤرخ كبير

منذ نحو قرن ونصف كانت ريح الثورة الفرنسية الكبرى تهب على الملوكية الفرنسية، فلما انفجر بركان الثورة بعد ذلك بنحو عامين أو ثلاثة، سقطت الملوكية الفرنسية وكل صروحها ونظمها القديمة صرعى الفورة المضطرمة؛ ولكن الثورة الفرنسية لم تقف عند حدود فرنسا، ولم تقف عند سحق الملوكية الفرنسية، ولم تلبث أن غدت ثورة عالمية ترجف لها كل العروش والنظم في أوربا القديمة، وتتحد جيوش أوربا القديمة على مقاومتها وإخمادها. ولكن جيوش أوربا القديمة ارتدت منهزمة أمام القوى المعنوية الجديدة التي تضطرم بها جيوش الثورة؛ ولم تسحق الثورة أمام العدو الخارجي، ولكنها سحقت في غمر من المعارك الداخلية على يد قادتها وزعمائها أنفسهم، ولم تلبث أن استحالت إلى حركة خانعة ذلول تحملها موجة من الطغيان العسكري لتحقيق نفس الشهوات القومية والمبادئ المطلقة التي قامت لسحقها

غير أن الثورة الفرنسية تبقى مع ذلك حركة تحرير عالمية، بل هي من بين الثورات التحريرية الكبرى أوسعها مدى وأبعدها أثراً في تاريخ الانسانية؛ ذلك أنها قامت في الأصل على حقوق الانسان، وجعلت غايتها تحرير الحقوق والحريات المهضومة من أصفادها، وسحق كل النظم الطاغية، وتقديس الفرد وحقوقه، واعتبار الدولة خادم الأمة في مجموعها، وخادم الفرد والأمينة على حقوقه ومصالحه؛ ولهذا كان ظفرها عظيما، وأثرها عميقاً في بث المبادئ الديموقراطية والتحريرية في أمم أوربا القديمة؛ ومنذ فاتحة القرن التاسع عشر نجد معظم الأمم الأوربية التي تسودها النظم المطلقة مثل روسيا القيصرية، وامبراطورية النمسا والمجر تجيش بفورات تحريرية متوالية، وتطالب بإقامة النظم والدساتير الحرة، ونجد الملوكيات القديمة المطلقة تجد بكل ما وسعت في قمع هذه الحركات التحريرية

وقد تجلى هذا الصراع بين الطغيان والديموقراطية على أثر سقوط نابوليون وسحق الفورة العسكرية البونابارتية التي شغلت أوربا مدى خمسة عشر عاماً، وقامت الملوكيات الطاغية القديمة تأتمر وتتحد على قمع المبادئ والحركات التحريرية التي اتسع نطاقها وسرت إلى معظم الأمم الأوربية، واضطرت معظم الحكومات المطلقة أن تنزل عند ضغطها ووعيدها وأن تبذل بعض المنح الدستورية؛ وأسفرت هذه الحركة الرجعية التي نظمها ودبرها اسكندر الأول قيصر روسيا عند عقد «المحالفة المقدسة» الشهيرة بين روسيا وبروسيا والنمسا (سنة ١٨١٥)، وكان غرضها الظاهر أن تنظم الدول الثلاث شؤونها الداخلية والخارجية طبق التعاليم المسيحية؛ وأن يحكم الملوك الثلاثة بين شعوبهم بالعدل والمساواة، وأن يقوموا بتأييد السلام؛ ولكن كان غرضها الحقيقي أن تتعاون الملوكيات الثلاث على قمع الحركات التحريرية التي تضطرم بها أمم القارة، وعلى تأييد الحقوق الملوكية المطلقة، وعلى مقاومة الروح الدستورية الحقيقية وإخضاعها لهوى العرش وإرادته؛ وقد انضمت معظم الدول الأوربية الأخرى إلى هذه المحالفة الشهيرة، عدا انكلترا التي كانت تمثل النزعة الديموقراطية الخصيمة

ولكن الروح الدستورية كانت قد نفذت إلى الأعماق وحمل تيار الحركة التحريرية أمامه كل شيء، فلم تنجح حركات القمع إلا بقدر ما يؤيدها العنف؛ وكان العنف كالمادة يغذي هذه الوثبات الشعبية ويذكيها؛ فلم تلبث غير بعيد حتى عادت إلى الاضطرام؛ ومنذ سنة ١٨٣٠ نرى الثورات الشعبية تنفجر هنا وهنالك في أوربا. ثم كانت سنة ١٨٤٨، التي يمكن أن تسمى بحق عام الثورة الديموقراطية، ففيها سقطت الملوكية في فرنسا أمام إرادة الشعب مرة أخرى، وقامت الجمهورية الفرنسية الثانية؛ وفيها اضطرمت الثورات التحريرية في ألمانيا، وفي معظم أنحاء الامبراطورية النمسوية، وفي كثير من الدول الايطالية، واجتاحت أوربا من أقصاها إلى أقصاها ريح تحريرية قوية اهتزت لها كل النظم الطاغية والعروش القديمة المطلقة؛ ولم

يلبث أن لاح فجر الديموقراطية الحديثة فى الأفق قوياً ساطعاً

— ٢ —

وبلغت الديموقراطية ذروة ظفرها عقب الحرب الكبرى ، فانهارت القيصرية الروسية ، وانهارت الامبراطورية النمسوية ، والامبراطورية الألمانية ، والسلطنة العثمانية ؛ وقامت جمهوريات فتية ، فى روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا وتركيا ، وفى عدة أخر من الدول الجديدة الناشئة التى خلقتها معاهدة الصلح لأغراض عسكرية وسياسية ؛ ثم قامت الجمهورية أخيراً فى اسبانيا بعد أن سقطت ملوكيتها القديمة التالدة أمام الثورة العامة .

ولكن هذا الظفر الذى أحرزته الديموقراطية عقب الحرب الكبرى كان خلباً ، ولم يقم على أسس أو روح ديموقراطية حقيقية ، بل استمد من الفوضى العامة التى أحدثتها الحرب ؛ هذا الى أن هذه الديموقراطية الظافرة لم تكن رزينة عاقلة ، بل انساقت غير بعيد الى ألوان خطرة من العنف والتطرف والفوضى . ومن جهة أخرى فقد كانت الديموقراطية قناعاً للطغيان المطلق فى روسيا السوفيتية وفى تركيا . وقد أدى تطرف الديموقراطية وتفرق كلمتها ووهن جبهتها غير بعيد الى انهيار صروحها فى ايطاليا حيث قام الطغيان المطلق باسم الفاشستية ، ثم الى انهيار صروحها فى ألمانيا حيث قام الطغيان المطلق باسم الاشتراكية الوطنية ؛ وانهارت الديموقراطية أيضاً فى بولونيا وفى النمسا وفى دول أخرى حيث قامت أنظمة قومية أو عسكرية طاغية بألوان وأسماء مختلفة ، وهكذا لقيت الديموقراطية فى بضعة الأعوام الأخيرة من ضروب الفشل والمحن ما لم تلقه قط فى حياتها القصيرة الظافرة ؛ والديموقراطية اليوم تناضل عن مبادئها وعن كيانها ، ولكنها تناضل فى غمر من الصعاب واليأس لأنها لا تناضل فقط أنظمة ومبادئ خصيمة ، وإنما تناضل أيضاً قوى عسكرية طاغية هى التى تعمل باسم المبادئ والنظم الجديدة.

غير أن الديموقراطية مازالت تحتفظ بميزتها الكبرى ، وهى أنها ما زالت تمتيز قانون الحكم العام ، وما زالت مبادئها هى المبادئ الشعبية الخالدة ؛ وهى المبادئ التى ترتكز اليها الحقوق والحريات العامة فى كل الأمم المتمدنة ؛ وهذا هو سر بقائها وسر قوتها ، وهذا ملاذ آمالها ومستقبلها.

أما هذه النظم الطاغية التى تقوم اليوم باسم الشعب أو باسم القومية فى دول مثل روسيا وتركيا وايطاليا وألمانيا ، فهى فى الواقع نظم عنف وإرهاب محض ؛ وهى أبعد النظم عن المبادئ الحرة والمبادئ الانسانية ؛ ذلك لأنها تمثل النزعة الفردية والحزبية قبل كل شئ ، وفى هذه النزعة الفردية الحزبية تذوب فكرة الدولة والأمة والحقوق العامة ؛ وقد قامت البلشفية فى روسيا باسم الكتلة العاملة واسم سيادتها مناقضة لسيادة الرأسمالية فى الدول الأخرى ؛ بيد أن هذه السيادة المزعومة للكتلة العامة فى روسيا ، ليست سوى سيادة الحزب البلشفى ، بل هى فى الواقع سيادة عصبة من الزعماء والساسة يحكمون تلك الكتلة الشعبية الهائلة بوسائل العنف والإرهاب . ثم تزعم البلشفية أن لها غاية عالية هى بث مبادئ الثورة العالمية وتحطيم النظم الرأسمالية كلها ؛ وتعمل البلشفية منذ أعوام طويلة لبث مبادئها ودعايتها فى معظم أنحاء العالم ، ولكن البلشفية ما زالت وقفاً على روسيا وحدها حيث تؤيدها القوة الطاغية المنيفة وحيث تتصرف حفنة من الطغاة الدمويين فى مصاير الشعب الروسى وفى عقوله وأرواحه . ولقد نسجت الفاشستية فى ايطاليا على هذا المنوال فى تمكين قبضتها من الشعب الايطالى ، مع فارق فى الأسس التى تقوم عليها فهى تقوم على فكرة السيادة القومية والعسكرية ، بيد أنها كالبلشفية سيادة حفنة من الرجال ، (بل رجل واحد) يؤيدهم حزب وجيش ، ويفرضون ارادتهم على الشعب بوسائل العنف ؛ وليس فى الفاشستية ما يميزها الا أنها من حيث التنظيم السياسى تقوم على الفكرة النقابية . وقد كانت الاشتراكية الوطنية (النازية أو الهتلرية) فى ألمانيا أحدث ألوان الطغيان المعاصر ، بيد أنها من أشدها إمعاناً فى العنف وسحق الحريات والحقوق العامة ؛ وأهم مميزاتها وقواعدها الفكرة الجنسية أو فكرة السلالة والدم ؛ وهى تذهب فى تطبيق هذه النظرية التى تتخذها ستاراً لغايات السياسة مذهب الاغراق المثير ، وتصدر باسمها أغرب القوانين التعسفية ، وترتكب أشنع ألوان الاضطهاد والمطاردة ؛ ومع أنها تتظاهر بأنها تطارد اليهودية فى الواقع وتعمل على سحق نفوذها العنصرى والاجتماعى فى ألمانيا ، فانها فى الحقيقة تذهب بعيداً فى تأكيد النعرة الجنسية وتتخذها ستاراً لطائفة من التعصب الجنسى والقومى الشنيع ، وهى بذلك من أخطر الحركات القومية التى تنذر بالانفجار المسلح ؛ وللاشتراكية الوطنية خاصة أخرى ، هى أنها تمعن فى التسلط على شخص الفرد وعقله وروحه ، فتسلبه كل ارادة وكل

حق فى التفكير أو التصرف المستقل ، وربما كانت فى ذلك أكثر إمعانا من البلشفية ذاتها ؛ فالفرد لا وجود له فى نظر الاشتراكية الوطنية ؛ والدولة هى كل شىء . بيد أن الدولة والحكومة والزعامة ومصدر السلطات كلها ليست سوى العصبة الهتلرية ومن ورائها القوات النازية المسلحة ؛ وهذا الامعان فى تطبيق الفكرة الحزبية لا يقتصر على الدولة والتشريع ، بل يمتد الى الاقتصاد والثقافة وكل ما هنالك مما له مساس بتكوين الفرد أو توجيهه ، سواء فى جسمه أو عقله وروحه

وكما أن البلشفية تزعم أنها حركة ومبادئ عالمية لاصلاح الدولة والمجتمع ، فكذلك تزعم الفاشستية الايطالية والنازية الألمانية . بيد أن الفاشستية لم تنجح كحركة عالمية ، وإن كانت قد ظهرت آثار يسيرة منها فى بعض الدول الأخرى ويمكن القول بأنها لقيت وما زالت تلقى فى جميع العالم المتمدن أشد صنوف المعارضة ، بل ما زالت رغم كل ما عملته لاصلاح شؤون ايطاليا الداخلية تثير بوسائلها عواطف الاشمئزاز والمقت ؛ كذلك الدعاية الهتلرية لم تجاوز حدود ألمانيا ، ولم تلق مزاعمها الجنسية بالأخص صدى ، وقد وصفت نزعاتها بأنها وثنية بربرية ؛ والخلاصة أن هذه الحركات الطاغية التى قامت بالعنف والارهاب وما زال يسندها العنف والارهاب بقيت حركات محلية ، ومن المحقق أن مصايرها ترتبط بمصاير زعمائها ومصاير القوى العنيفة التى تسندها ، ومن المرجح أنها ستنهار عند حدوث أول انفجار عام .

على أنه لا ريب أن هذا الطغيان الشامل الذى يسحق شعوبا عريقة بأسرها ، وذلك التطور المدهش فى شؤون الزعامة والحكم ، وهو تطور ترتب عليه أن تثب أحط العناصر والطبقات الى أسمى الزعامات السياسية والقومية ؛ وذلك الاستعباد المزرى لكرامة الفرد ولشخصيته وعقله وروحه ؛ وتلك الوسائل البربرية لتدعيم الشهوات الحزبية والمذهبية ، وهى وسائل تذكرنا بالعصور الوسطى ؛ وتلك الأحقاد القومية والجنسية التى تثيرها أذهان متعصبة منحطة : نقول لا ريب أن هذه الخواص التى تلازم نظم الطغيان الحاضرة ، والتى هى ملاذ قوتها وحياتها ، هى فى الواقع دلائل واضحة على انحلال المدنية الغربية الحاضرة ، وعلى قرب انحدارها الى غمر جديدة من الاضطراب والفوضى

« مؤرخ »

الفلسفة

للدكتور ابراهيم بيومى مدكور
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

كلمة تثير فى النفس ما تثير من غموض وإبهام ، وتؤذن بشىء من الغرابة والخفاء . يقال : تفلسف فلان إذا ظن أنه يمعن فى الغريب ولا يأتى بما ألفه الناس . وقد رُمى الفلاسفة بأنهم « يعيشون مع الملائكة » ويسبحون فى عالم الخيال ، لا يشعرون بما يشعر به من حولهم ، ولا يقيسون الأمور بما توارد عليه العرف المألوف . يقال : هذا فيلسوف ، وما لنا ولهذه الفلسفة ، إذا أريد عدّ المحدث عنه وحديثه فى عالم النظريات حيث لا تنال الحقيقة الواقعة ما تستحق من تقدير . لذلك انتبذت الفلسفة ، وانصرف الناس عنها ، ونظروا إليها نظرة ازدراء واحتقار ، أو توجس وخيفة . فالعصريون والمتحضرون ينتقصون الفيلسوف مدعين أنه لا يعيش فى عصره ، ولا يأخذ بقسط وافر من شؤون الحياة ، والجامدون والمتأخرون يرمونه بالالحاد والزندقة والخروج على الأديان

والفلسفة فى بلدنا بوجه خاص غريبة عديمة النصير والأعوان ، لا تكاد تجد من يتحبب إليها ، ويأخذ بيدها ، ولا من يصورها للناس فى شكلها الواضح ومظهرها الصحيح . فالنظم التعليمية العامة لا تعمل على نشرها ، ولا تقف الناس على حقائقها ؛ والجمهور يفر منها ، ولا يحاول أن يتفهمها ليؤمن بما لها من أثر فى تهذيب الأفراد والجماعات ورفع مستواهم العقلى والخلقى ؛ والخاصة يتبادلون منها أفكاراً بالية وآراء عتيقة قلّ أن تعرض عرضاً مستقيما ، وكأن الفلسفة فى نظرهم ما جاء به أفلاطون وأرسطو دون أن يكون للقرون الوسطى والعصور الحديثة أبحاث يعتد بها أو نظريات يقام لها وزن . وهناك طائفة أخرى جنت على الفلسفة جنايات شنعاء ، وزادت الناس فيها بغضاً وكراهية ، وهى جماعة أدعياء الفلسفة الذين يتهجمون عليها ، ويكتبون فيها وينشرون ، ويناقشون ويعترضون ، دون أن ينفذوا إلى صميمها ويدركوا كنهها ؛ وفى الصحف اليومية والأسبوعية من أمثلة هذه الجرأة العظيمة الشىء الكثير . وكأن العلوم الفلسفية فى هذا البلد حمى مباح ، وسلعة تعرض فى مختلف الأسواق ، ومتاع

يستخدمه من عرف ومن لم يعرف قدره ، بل نلاحظ فوق هذا أنه كثيراً ما كتب في الفلسفة من لم يجد السبيل إلى الكتابة في موضوع آخر ؛ وبذا انعكست الآية وأصبحت الأبحاث الدقيقة مجال من لا طاقة لهم بها ، وظهرت الفلسفة في ثوب مشوه منقوص ؛ وإذا كنا نعيب على هؤلاء الأدعياء جرأتهم فلا يفوتنا أن نأخذ على الفلاسفة المختصين تقصيرهم في التعريف عن أنفسهم وتهاونهم في الدفاع عن فنونهم وعلومهم.

ليست الفلسفة غريبة بالقدر الذي يدعيه المرضون عنها ، ولا خيالية بدرجة تباعد بينها وبين الحياة وشؤونها . فللزارع فلسفته في حقله ، وللصانع فلسفته في مصنعه ، وللتاجر فلسفته في متجره ، وللرجل فلسفته مع زوجه ، وللزوجة فلسفتها مع بنيها . لكل من هؤلاء وهؤلاء طريقة خاصة في تفهم الأمور المحيطة به والحكم عليها ووزنها بميزانها الصحيح ؛ وتلك ولا شك فلسفة ذات مغزى عظيم . وما أصدق أرسطو إذ يقول : الانسان حيوان فيلسوف . على أن الفلسفة بمعناها الدقيق لا تخرج عن دائرة الحياة العملية والتجارب اليومية ؛ وكل همها أن تشرح هذه التجارب وتفسرها تفسيراً يرتضيه العقل ويطابق الواقع . فظواهر شروقنا وآلمنا ، وقواعد سلوكنا ، ومعاملتنا ، وآراؤنا ومعتقداتنا ، هي في جملتها موضوع الدراسات الفلسفية ، ومن منا يمر عليه يوم - بل ساعة - دون أن يحكم على شيء بأنه خير أو شر ، وعلى آخر بأنه صواب أو خطأ ، وعلى ثالث بأنه جميل أو قبيح ؟ وهذه الأحكام الثلاثة هي شغل الفيلسوف الشاغل وعمله الدائم ، يعنيه أن يدرس ظواهرها ، ويضبط قوانينها ، ويبين للناس كيف يكونونها التكوين الصحيح . فالفلسفة إذن من الحياة في صميمها ، أو إن شئت هي الحياة كلها ؛ وكيف لا وهي دراسة للانسان في مختلف أحواله الفردية والجمعية ، الفكرية والخلقية .

وإذا كانت هذه منزلة الفلسفة فمن العبث أن نهملها ، أو أن نضعها في الصف الأخير من أبحاثنا ؛ وهل حاجتنا إلى تعرف المادة في تمددها وانكماشها ، والأجسام في مغناطيسيتها وجذبها ، أمس من حاجتنا إلى تعرف أنفسنا في ميولها ومشاعرها ، وتنافرها وتآلفها ؟ نعم إن دراسة الانسان عسيرة ودقيقة ، غير أنها لهذا السبب نفسه ضرورية ولازمة ؛ ولا أظنها أقل تشويقاً من أية دراسة أخرى . فعناصر الثقافة العامة التي تشغل الأذهان الآن لا يصح أن تقصر على الجغرافيا الأقليمية ، والاقتصادية ، والهندسة النظرية والفراغية ، والكيمياء ، والطبيعة ونما إليها دون أن يكون للفلسفة فيها نصيب كبير . على أن هذه العلوم نفسها نشأت في حجر الفلسفة وتربت في كنفها ؛ فقد كان الأغريق الأول يطلقون كلمة فلسفة على أية معرفة كيفما كان نوعها ، وكان العلم والفلسفة متآخيين ومتآزرين ، وكثيراً ما كان الفيلسوف عالماً يقنن القوانين العلمية ويوضحها ، وكثيراً ما اهتدى إلى نظريات علمية على ضوء الدراسات الفلسفية . فطاليس وفيثاغورس الفيلسوفان الأغريقيان كانا رياضيين وعالمين في الطبيعة ، وقد كتب أفلاطون على باب مدرسته : « لا يدخل هنا أحد ممن لم يلموا بأصول الهندسة » ، وإذا جاوزنا العصور القديمة وجدنا أن ديكارت أبا الفلسفة الحديثة هو مخترع الهندسة التحليلية ، وأن ليبنتز كبير فلاسفة الألمان في القرن السابع عشر هو مبتكر حساب الجزئيات . ولئن كانت العلوم قد انفصلت عن الفلسفة الواحد بعد الآخر وكونت دراسات مستقلة لا تزال جميعها مسودة بلهجة وروح فلسفية ، وفلسفة العلوم اليوم هي النقطة الحساسة والرئيسية في كل مادة من مواد الدراسة الانسانية . فالعلم ينزع ثانية إلى أن يكون فلسفياً وأن يعود أيضاً إلى كنف أم غذته بلبانها من قديم ، والأدب أيضاً يتأثر بالفلسفة في أسلوبه ومعانيه ، وغاياته ومراميه ، وربما كان السر في نجاح كثير من الأدباء المعاصرين تلك النزعة الفلسفية التي رق بها شعورهم ، ودق تفكيرهم ، وسمت عبارتهم

فليس ثمة بد من أن نتذوق الفلسفة ونذيقها للناس ما دامت الحياة تملي علينا درسها ، والعلم الصحيح يعتمد عليها ، والأدب الراقي ينهل من حياضها ؛ ومن العار أن نبقى إلى اليوم وليس في لغتنا أبحاث فلسفية سهلة يجد فيها العامة سلوتهم ، ولا دراسات عميقة يشحذ فيها الخاصة أذهانهم . إن البحث الفلسفي ، ككل الأبحاث الأخرى ، ضرب من التثقيف لا يصح أن تحرم منه أمة من الأمم ؛ هذا إلى أنه يجدر بنا أن تكون لنا فلسفة متميزة ذات لون خاص ومبادئ خاصة ، وأن ينقل الغرب عنا كما ننقل عنه ، وبذا تنتظم دورة الفلك ، ويعود التاريخ إلى مجراه ، وتتصل الفلسفة العربية الحديثة بالفلسفة الاسلامية القديمة ، وإذا كان الناس يتحدثون عن فلسفة انجليزية وأخرى فرنسية وثالثة ألمانية ، فلم لا يتحدثون عن فلسفة مصرية وشآمية وعراقية ؟

ابراهيم بيومي مدكور

قصــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذى ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذى شغله البحث فى أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذى حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذى علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؛ الذى كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الإنسان والحيوان ؛ الرجل الذى كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر فى أجسام ضحاياها . البطل الذى نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتلته على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

فى السنوات ذات الأحداث العجيبة والمفاجآت الغريبة من عام ١٨٦٠ إلى عام ١٨٧٠ ، بينا بستور يخلّص صناعة الخل ويكشف عما دهى دودَ القزّ فيُدهش الملوك ويرضي الأمم ، كان شاب قصير القامة قصير البصر ، تبدو عليه ملامح الجد ، يدرس الطب فى جامعة « جوتنجن » Gottingen بألمانيا . وكان اسم هذا الشاب روبرت كوخ Robert Koch ، وكان طالباً مجتهداً . إلا أنه بينما كان يجرى بمشاريطه فى جثث الموتى فيقطّعها إربا ، كان يحلم بغابات إفريقيا وبصيد الأنمار فيها . وبينما كان يحفظ فى رغبة واجتهاد أسماء المئات من عضلات الانسان وعظامه ، كانت صُفّارات السفن الذاهبة للشرق ترنّ فى أذنه فتذهب من رأسه بكل تلك الأسماء اللاتينية والرّطانات الاغريقية

كان كوخ يود أن يضرب فى الأرض ليكشف عن مجاهلها ، أو أن يكون جراحاً فى الجيش ليكسب الشارات والأوسمة ، أو ينال منصب طبيب فى سفينة تمخر به عباب البحار الواسعة فيذهب فيها إلى حيث لم يذهب قبله إنسان . ولكن القدر خيب آماله ، فانه لم يكد يتم دراسته عام ١٨٦٦ حتى وجد نفسه فى مدينة هامبرج Hamburg فى مستشفى للمجاذيب يتولى فيه منصب طبيب مقيم ؛ وفى هذا المستشفى امتلأ سمعه بصراخ المجانين وأحاديث البلهاء فلم تكد أذنه تسمع أصداء بستور ونبوءاته بوجود مكروبات فظيعة تفتك شر فتك بالانسان ؛ وظل ينصت لصفير السفن ، وفى الامساء كان يطلب المشى للرياضة فيصطحب صديقة له كانت تسمى : « إمى فراتس » Emmy Fraatz ، وكان يهبط بها إلى شاطئ البحر حيث السفائن تغدو وتروح ، وسألها الزواج منها ، وخال أن يُغريها بالقبول فذكر لها أمله فى طوافه حول الأرض ومسيره إلى الشرق ورؤية البلاد والشعوب ، فقالت له إنها تتزوجه على شريطة أن يصحو عن أحلامه وينسى الشرق ومغامراته ويفتح لنفسه عيادة فى بلد مدنى فينفع أهله وبلاده



كوخ

وأنصت كوخ إلى إيمى وإلى صوتها الساحر ساعة ، وازدحمت في خياله صور شتى من سعادة خمسين عاماً يقضيها في العيش الهنيء معها ، فطردت هذه الصور صور الفيلة والأنمار من رأسه ، واستجاب نداء عروسه فاستقر لممارسة الطب ، وفي سبيله أخذ ينتقل من قرية بروسية إلى أخرى على نمط من الحياة لايختلف - حياة رتيبة ليس فيها صخبات الحياة وما تتضمنه من متع ولذائذ

وفي هذه الفترة من الزمان ، حين كان كوخ يكتب الوصفات للمرضى وينتقل في سبيل صناعته بين ديارهم المتباعدة على ظهر حصانه ، يستقبل وكفات المطر من فوقه ، ويشق لنفسه طريقاً في الوحل من دونه ، ويسهر الليالي في ديار النفساء من أهل الريف ، في هذه الفترة من الزمان كان « لستر » Lister باسكتلندا آخذاً في إنقاذ حياة الكثيرات من النساء عند الوضع بدفع غائلة المكروب عنهن ، وكان أساتذة الطب وطلابه في أوروبا آخذين في الاصغاء إلى ما يقول به بستور من نظريات ، وما يعزوه إلى المكروب من أمراض ، واختلفوا في الذي يقول واشتجروا ، وقام من بينهم رجال يجرون تجارب أعوزها حذق المجربين وذكاء الباحثين ، وكان كوخ بمعزل عن كل هذا ، كان منقطعاً عن بيئة العلم انقطاع « لوفن هوك » عنها قبل ذلك بمائتي عام ، عام قام لأول مرة في مدينة دلفت بهولاندا ينحت العدس بيد ماعرفت من قبل للعدس نحتاً : وخيل للناظر إلى « كوخ » أن القدر قسم له أن يكون طبيباً عادياً متواضعاً يواسي المرضى ويحاول ما استطاع تخليصهم من الموت ، وعز ذلك مطلباً عليه وعلى أطباء ذلك الزمان ، ورضيت إيمى بقسمة القدر ، وفخرت بزوجها لما كسب خمسة وعشرين مركا في يوم كثير العمل وفير المرضى

ولكن كوخ كان غير راض ، وانتقل في منصبه من قرية بليدة إلى قرية أكثر بلادة ، حتى أدى به المطاف إلى قرية فلشتين Wollstein في روسيا الشرقية ، وفي هذه القرية أتم عامه الثامن والعشرين ، فأهدت اليه زوجته في عيد ميلاده مكرسكوباً يلهو به ويتسلى

وكأني بهذه المرأة الطيبة تقول في نفسها عن اهداء هذا المجهر إياه : « لعل هذا المجهر يمد فكره عن عمله الذي لا يرضاه . . . لعله يروح عن نفسه قليلا ويكسبها شيئاً من الرضاء . . . إنه دائم التحديق الى كل شيء بعدسة جبينه الصغيرة العتيقة ... »

وا بؤسى لهذه المرأة الطيبة الساذجة ! لقد أهدت اليه هذا المكرسكوب غير عالمة أنها بهذا الاهداء إنما فتحت له باب مغامرة تتضاءل الى جانبها مغامرات كان يحلم بها في أقطار الهند وجزائر الاقيانوس السفلى . فتلك الرؤى التي رآها بستور جاءت كوخ على يأس تتأول عند بابه ، وفي نفس تلك الغرفة التي استقبل فيها مرضاه ، تلك الغرفة المليئة بالدواء ، تلك الغرفة التي ضاقت به وضاق بها وبدوائها ، تلك الغرفة التي عاف فيها الطب حتى كاد يصبح داء . نعم في تلك الغرفة استحالت أحلام بستور حقائق ارتآها كوخ في جثث الأبقار ودم الأغنام من خلال عدسات ذلك المجهر الذي أهدته زوجته إياه للهو والسلوى ، كأني بكوخ يقول لزوجته : « أنا أكره هذه الخدعة التي يسمونها طبًا ... وليس ذلك لأني أكره تبرئة الأطفال من الدفتيريا . . . ولكن الأمهات يأتينني صارخات مستغيثات يطلبن النجاة لأبنائهن وبناتهن . . . فماذا أنا صانعه لهن ؟ أتحسس لهن في الظلماء ، وأطمئنهن وأرجيهن حين لا طمأنينة ولا رجاء . وكيف لي بعلاج الدفتيريا وأنا أجهل حتى أسبابها ، وأكثر أطباء ألمانيا يجهلون أسبابها كذلك » . يبث صاحبنا شكواه المرة لإيمى فتضيق نفساً وتحتار فكرا وتغتاظ من هذا الزوج الذي لا يرضى أبدا ، لأنها كانت تعتقد أن واجب الطبيب الشاب يتأدى وينتهي إذا هو بذل كل ما في وسعه واستعان بعلمه الكثير الذي حصله في مدرسة الطب يوم كان طالبا

وعلى الرغم من هذا فكوخ كان لاشك على حق . فما الذي كانت الأطباء تعلمه من أسباب الأمراض الوبيئة ؟ لاشيء . نعم قام بستور بتجارب رائعة ولكنها لم تثبت شيئا من سبب اقتباس الانسان الوباء ولا من كيفية اقتباسه . رفع بستور بيمناه مشعلاً وضاء كبيرا وسبق به الى تلك الظلمات ، صارخا بالأمل ، داعيا للنصر ، يحدث الناس عاليا بانهزام الأوبئة قريبا ، ومحو الأمراض من سطح الأرض وشيكا ، ولكن الأوبئة لم تكن بدأت تتخاذل ، والأمراض لم تكن أخذت تتزايل ، والفلاحون في قرى روسيا التي خربتها الجائحات بقوا على أسلوبهم

فى دفعها ، وظلوا على عادتهم يربطون أربما من أراملهم الى محراث ثم يدورون بهن فى سكون الليل وراء القرية يرسمون حولها أخدودا هو فى حسبانهم خير نطاق يدفعون به شر الوباء . وهل كان لدى الأطباء أسلوب فى دفعه خير من هذا !

كأنى بمدام كوخ تحاول أن تجد لزوجها مخرجا مما هو فيه فتقول : « ولكن يا روبرت إن أساتذة برلين وكبار أطبائها لا بد عالمون أسباب هذه الأدواء التى لا تستطيع أنت علاجها » كان هذا من خمسين عاما أو تزيد ، ولكنى أعود فأقول إن أكبر الأطباء فى هذا الزمان لم يكونوا يدرون عن الوباء أكثر مما درى هؤلاء الريفيون الذين ربطوا الأرامل جهلا الى المحاريث . قام بستور فى باريس يتنبأ بأن البحث لا بد كاشف عن قريب تلك المكروبات التى هى لاشك سبب السل وحتف المسلولين فنهض له رجال الطب أجمع يتقدمهم بيدو Pidoux ذو المقام الرفيع والأزرة البارقة الصفراء يدفعون خرف هذا النبى المأفون

صرخ بيدو كالرعد يقول : « أجرثومة خاصة تحدث السل وتقضى على المسلولين ! خرافة مؤذية وخاطرة خطرة ! إن السل مفرد وجمع فى آن . غايته موت الأنسجة فى عضو بالعدوى وذلك عن طرقات عدة من واجب الطبيب وخبير الصحة محاولة سدها » بمثل هذا الهراء وهذا الكلام الفارغ الذى لا معنى له كان يدفع الأطباء نبوءات بستور

— ٢ —

أخذ كوخ يقضى أمساءه يلهو بمجهره الجديد ، ويتعرف كيف يحرك مرآته ليعكس بها على منظوراته من الضياء القدر الذى يريده ، ويتعلم ضرورة تنظيف صفائح الزجاج وتلميعها قبل أن يضع عليها قطرات الدم من أجسام الخراف والأبقار التى تقضى عليها مرض الجمرة Anthrax [1]

وكان هذا المرض الخفى الغريب قد أخذ يقلق بال المزارعين فى جميع أقطار أوروبا ، فكان تارة ينزل على المزارع صاحب الألف من الأغنام فيقضى عليها بالهلاك ، وعليه بالخراب ، وقد ينزل على الأرملة الفقيرة وبقرتها الوحيدة فيصبحها وقد عزّها الرزق وساءت مصيرا . لم يكن لهذا المرض أسباب معروفة أو خطة مرسومة يجرى عليها فى تخيّر ضحاياه . فقد يُصبّح الصباح على القطيع من الغنم ، فتأخذ عينك منه شاةً سمينة صحيحة جميلة ، لا تكاد تستقر على أرجلها نشاطا ومرحا ، فلا يأتى عليها المساء حتى تعاف الطعام وتميل برأسها بعض الميل ، ولا تشرق عليها شمس الغد حتى تلقاها باردةً هامدة متصلّبة ، وقد استحال دمها الى دم أسودَ كالليل . ثم يعود فيحدث نفسُ هذا لشاة ثانية ، فثالثة ، فسادسة ، فسابعة ، لا يقف عند عدد ولا ينتهى عند حد . ثم يأتى دور الفلاح ودور الراعى ودور فرّاز الأصواف ودور تاجر الجلود ، فتتفجر جلودهم عن خراجات مؤلمة قبيحة ، أو يلفظون آخر أنفاسهم من التهاب رئوى لا يُمهلهم طويلا

بدأ كوخ ، كما بدأ من قبله لوفن هوك ، بدأ يستخدم مجهره لغير غاية معروفة وبغير قصد محدود . فأخذ ينظر به كل شىء ، ويُحدق من خلاله فى كل ما يأتى ، حتى وقع على دم الأغنام التى قتلها داء الجمرة Anthrax ، وعندئذ أخذ يتجمع فكره على غاية ، ويقف جهده على قصد ، وعندئذ أخذ يتناقص نصيب مرضاه من هم نفسه ، فقد يقصد إلى مريض فيلاقى فى طريقه بين الحقول شاة نافقة فينسى المريض وعيادته إياه ، وأخذ يساور الجزارين يسألهم عن الضياع التى بها تقتل الجمرة الشياه . ولم يكن لكوخ من فراغ الوقت مثل الذى كان للوفن هوك ، فكان يتحين الفرص بين تطبيبه لطفل يصرخ من وجع بطنه ، وبين خلعه ضرس قروىّ جاء يفزع اليه من ألمه . فى فترة من تلك الفترات جاء بدم أسود من بقرة ماتت بالجمرة ، فوضع منه قطرات بين رقيقتين من رقاق الزجاج النظيف البارق ، ونظر اليها بمكرسكوبه فوجد بين كُريّات هذا الدم المخضرّة السابحة أشياء أخرى غريبة تراءت كأنها عصىّ صغيرة ، وكانت هذه العصىّ أحياناً قصيرة ، وأحياناً قليلة العدد ، تسبح فى ارتماد قليل بين كريات الدم . وتراءت له كذلك عصىّ أخرى تعلق بعضها فى أطراف بعض من غير مفصل يجمعها ، وقد يتشابك العدد الكثير منها حتى تصير خيطاً طويلاً أرفع ألف مرة من خيط الحرير

« ماهذه العصىّ ؟ ... أهى مكروبات ... أهى حيّة ...

(١) هذا هو المرض الذى تخشاه الى اليوم لاسيا الرجال منا عند الحلاقة وذلك لأن فرشة الحلاقة تصنع من شعر البهائم فاذا لم يطهر هذا الشعر تطهيرا كاملا أصاب المكروب وجه الانسان

إنها لا تتحرك ... أم هو الدم السقيم في هذه الحيوانات المرزوءة يستحيل إلى هذه العصي والخيوط ؟ » . على هذا النحو دار فكر كوخ في الذي رآه . وكان رجال العلم قبله قد رأوا ما رآه . فدافان Davaine ورايار Rayer في فرنسا أبصروا نفس هـذه الأجسام في دم الأغنام النافقة ، وأعلنا أن هذه العصي بشيلات[1] Bacilli وأنها مكروبات حيّة ، وأنهـا لا شك سبب الجمرة anthrax الذي لا مراء فيه - ولـكنهما لم يثبتا ذلك بالدليل ولم يصدقهما فيما زعما أحد في أوربا غير بستور . على أن صاحبنا كوخ لم يكن ينصت كثيراً إلى ما يقوله الناس ، ولم يكن يهتم كثيراً بما يرتئيه البحاث ؛ كان الأطباء من حوله يرتابون في الذي يراه ، ويضحكون منه في الذي يأتيه ، فلا يعني لارتيابهم ولا يهتز لضحكهم ، حتى حماس بستور لم يغره يوماً بالوثوب إلى نتائج لم ينضجها البحث ويمحصها التجريب ؛ ومن حسن حظ كوخ أنه لم يكن سمع به أحد ، فلم ترتفع إلى ظهره سواعد الأشياع والمريدين تدفعه قُدُماً إلى فتوحات في عالم الـكروب عاجلة غير ناضجة ؛ كان في خمول ذكره ربَّ نفسه ومالك أمرها[2]

حدّث كوخ نفسه قال : « أنا لا أستطيع الآن الاهتداء إلى طريقة أعرف بها أهذه العصيّ والخيوط حيّة أم ميتة ، فلأدع هذا مؤقتاً ولأدرس خواصها الأخرى ... » ولم يلبث أن أوقف دراسته للأغنام المريضة ، واتجه يدرس الأغنام الصحيحة ، فذهب إلى مذابحها ، وزار الجزارين وخالط تجار اللحوم وناذبهم ، ورجع بدم كثير من عشرات البهائم السليمة ، واسترق من زمن مرضاه ليفرغ لـكرسكوبه ، فكان يجلس اليه ساعات متصلة طويلة ينظر منه إلى هذا الدم الـكثير الصحيح الذي جمع ، فقلقت زوجه من اهماله عيادته .

قال كوخ : « إني لا أجد في دم هذه الحيوانات الصحيحة تلك العصي والخيوط أبداً ، وهذا حسن جميل ، ولـكنه لا يدلني أهذه الأجسام بشيلات أم لا ، لا ينبئني أهي حية في استطاعتها النمو والتوالد والتكاثر ، أم هي كبعض الجمادات ؟ »

ولـكن كيف السبيل إلى معرفة ذلك ؟ كيف السبيل إلى إثبات أن هذه العصي حية ؟ أخذ هذا السؤال علا نفسه وملك عليه حسه ، وطلبه المسلولون الذين أعيا الأطباء داؤهم ، وطلبه الأطفال وقد سدت الدفتريا عليهم منافس الهواء ، وطلبته العجائز استشفاء من مرض موهوم غير كائن ، ولـكن اشتغال صاحبنا بأمر هذه العصي لم يبق منه غير فضلة قليلـة لمرضاه ، حتى لنسي أن يكتب اسمه على وصفاته لهم . وأنست فيه زوجه الهم والغم وكسوف البال . ودعا النجّار يوماً وسأله أن يقيم في حجرة العيادة حاجزاً خشبياً . وقضى الساعات وراء هذا الحاجز بين مجهره وقطرات الدماء السوداء وفئران بيضاء تمرج وتلعب في أقفاص أخذ عددها يزيد على الأيام .

وكأني بك تنظر الى هذا الحاجز الخشبي فتجد على جانب منه مريضة انتظرت طويلاً فأخذت تحك الأرض بنعلها سأماً وقلقاً ، وتجد على الجانب الآخر طبيبنا الفاضل يتمتم لنفسه فيقول : ليس لي من المال ما أشتري به أغناماً وأبقاراً لتجاربي . ولو كان لي هذا المال لـكان من المتعذر إحضارها إلى هذا المكتب الصغير ؛ أما هذه الفئران فصغيرة رخيصة ، وهي لا تشغل حيزاً كبيراً ، ولعلي أستطيع أن أعطيها مرض الجمرة . . . ولعلي إذن أثبت أن هـذه العصي تنمو حقاً فيها . . . »

يتبع — أحمد زكي

[1] البشلة لفظة لاتينية معناها العصيّة أي العصي الصغيرة وتطلق على فصيلة من البكتيريا

[2] هذا يذكرنا بقول الشاعر : وخمول ذكرك في الحياة سلامة . المترجم



مذاهب الفلسفة

٣ – المذهب الطبيعي

للأستاذ زكي نجيب محمود

ولكن مهلاً! فلأنصار الروحية من البراهين على وجود الله ما يقوض هذا المذهب ويدكه من أساسه دكا؛ لأنه إذا ثبت وجود الله فقد نهض الدليل على صدق العقائد الدينية قوياً دافعاً، وبطل هذا الهراء الذي يهرف به الطبيعيون. ونحن نتخير من تلك البراهين ما يلي:

(١) إن ما في الطبيعة من نظام دقيق وجمال خلاب يستحيل عقلاً أن يكون قد جاء عرضاً بغير تقدير وتدبير. فاذا كانت الظواهر المادية تسير وفق طائفة من القوانين الثابتة المطردة، فلا بد أن يكون هنالك من صاغ لها هذه القوانين وأكسبها ما لها من قوة وثبات. كذلك يستحيل أن يكون جمال الطبيعة وتناسق أجزائها مصادفة طارئة، وإلا كنا كمن يزعم أن الساعة إذا تحطمت عددها وانتثرت أجزاؤها، أمكنها أن تلتئم من تلقاء نفسها، وأن تبدأ السير والحركة من جديد!

(٢) إن مجرد وجود فكرة الله في أذهاننا دليل على حقيقة وجودها في الخارج؛ وذلك لأننا نتصور بعقولنا كمالاً مطلقاً، وهذا الكمال لا يتم إطلاقه إلا إذا وجد وجوداً فعلياً، فان لم يوجد كانت فكرتنا عن الكمال ناقصة صفة الوجود، وفي هذه الحالة – أي في حالة اقتصار فكرة الكمال على مجرد التصور الذهني – نناقض أنفسنا، فنكون كمن يقول: «إني أتصور كمالاً مطلقاً ولكنه ناقص!» مع أن الكمال والنقص لا يجتمعان

وهنالك من الأدلة الأخرى على وجود الله ما هو شائع معروف

وبعد هذا كله فهل ترى هذا المذهب الطبيعي قد فسر لنا شيئاً؟ إن قضيته باختصار هي أن الكون كله مادة يسيرها القانون، وأن العقل الانساني كسائر الظواهر قطعة من المادة تتبع في سيرها نفس القوانين التي تسيطر على قطعة من الحجر!

(١) أما إن الكون مادة فقط، فلا يقدم ذلك في القضية ولا يؤخر، لأنه قول لا يعلل شيئاً بعد أن خلصت الأبحاث العلمية الحديثة إلى أن الذرة المادية ليست كائناً بسيطاً، بل إن كل واحدة منها عالم دقيق على جانب عظيم من التركيب والتعقيد وإنها قادرة من تلقاء نفسها على التكون والانحلال والتحول، كذلك لم يعد الحد الفاصل بين المادة والقوة محددا واضحا كما كان من قبل، فقد يظهر أنهما درجتان من حقيقة واحدة، وأن الواحدة قد تتحول إلى الأخرى وبالعكس، أي تتحول القوة إلى ذرة أو الذرة إلى قوة، وإذن فلا يكفي في تعليل الكون أن نقول إنه مؤلف من مادة، لأن في هذه المادة نفسها ما يحتاج إلى التعليل

(٢) وأما زعم الماديين بأن العقل ظاهرة مادية، وأن حقيقة الإحساس كما يقول هوبز إن هي إلا حركة في الجهاز العصبي، وأن الفكر سلسلة من الاحساسات الماضية، أي أنه مجموعة حركات متعاقبة، فيكفي لهدمه أن نطالبهم مثلا بشرح هذه العبارة: «أنا أحب هذه الوردة الجميلة» إنها حقيقة فكرية أحس بها ولا شك في وجودها؛ فهل يقول الماديون إن هذا الحب هو هزة الأعصاب على نحو معين؟ خذ مجهرك وانظر إلى الأعصاب فسترى قطعة من المادة تهتز وتتحرك حقاً، ولكنك لن ترى «حباً». ولو حدقت في مجهرك عاماً كاملا!! هذا، وإن لنا أن نسائل الماديين: لماذا لا تنتج الحركة في كل ظواهر الوجود المادي إلا حركة مثلها، ثم هي في الانسان تنتج إحساساً وفكرا؟ وما أحسبنا ظافرين منهم بالجواب! وإذن فقد عجز المذهب الطبيعي عن تفسير ظاهرة العقل كما فشل في شرح المادة نفسها

(٣) وأخيراً، يقول أنصار هذا المذهب إن حوادث الكون يمكن تفسيرها بما يسيرها من القوانين العلمية، ولكن أي عقل يكفيه هذا التفسير؟ إني أرى مثلا هذه القطعة من الحديد تتمدد نهارا وتتقلص ليلا، فلماذا؟ سيقولون إنه قانون الحرارة المعروف الذي تتمدد المادة على سننه وقواعده، ولكن لماذا تمدد الحرارة الأجسام؟ فان أجبت عن هذا السؤال بما يجيب به أرباب العلم من أن ذلك ناشيء عن تصادم الذرات أثناء تحركها، فسأعود إلى استجابتك: ولماذا يحدث هذا؛ حتى تقر معي بأن هنالك آخر الأمر ما يتعذر تعليله بأصول هذا المذهب، وأن القوانين التي يلجأون اليها لتعليل ظواهر الكون هي بدورها تحتاج الى التعليل

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

لقد لبثت الفلسفة دهراً طويلا تسبح في سماء الفكر المجرد ، فلا تصغي بآذانها الى الحياة العملية التي تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعا ، ولا تحفل بالواقع الذي تراه الأبصار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها – في الأعم الأغلب – على جوهر الأشياء في ذاتها ، وأخذت تسائل : ما المادة وما الروح وما ميمثها ؟ ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والافلاس ... حتى جاء الفكر الأمريكي الحديث الذي يقدس العمل ويمقت البحث النظري المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفكر نحوا جديدا ، فلا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) الذي اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة ، وأن له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التي قصد الى أدائها بمذهبه فهي في أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولاً ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نؤتي هذه القوة العقلية فنبددها في البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للانسان ولا رجاء ، ان العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب في مممعان الحياة العملية الواقعة ، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول ، الذي لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الأسباب .. ولكن مقياسه الذي يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينة على انجاز أغراض الانسان في حياته العلمية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، الذي تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شيء يؤثر في الحياة أثرا منتجا يجب أن يكون في اعتبارنا هو الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يعول مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها : فان كان الرأي مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وهماً باطلاً

والواقع أن معظم الناس يتبعون في حياتهم العملية أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يعين على تحقيق أغراضهم التي يقصدون اليها ، أو ما يعمل على رقي الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة في الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعد عن متناول الدهماء) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث في حياة الناس روحا قوية ، وتفسح أمامهم في الأمل الجميل الذي تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذي لولاه لضقنا ذرعا بفداحة عبئها .. فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها في أداء مهمته ، فسلوكنا العملي هو في الواقع الذي يوجه أفكارنا . وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا . ولقد قال موسوليني يوما إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم في سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى إنتاجا

وإن نيتشه ليذهب في هذا الاتجاه الى أقصاه فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجحة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأي لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع ، فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة الى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية في رأس الجندي فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكّم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود في سبيل أبنائهم ، ولو استرشدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأي بذل أو عطاء ، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فنعتنق من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانية في حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير

ولا يقتصر الأمر في ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التي تعين على المضي في بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلي على صحة تلك الآراء التي اتخذوها أساسا لأبحاثهم ، فلا يدري العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء ، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته ، وهذا بعينه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفي لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا في

حياتنا توجيهاً صحيحاً ، فلا يعنينا فى كثير ولا قليل أن نعلم ما هى الكهرباء فى ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، وليكن معنى الكهرباء هو ما نعمله وما تؤديه . وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المشاكل الفكرية التى أرهقت الفلسفة بغير طائل ؛ فلندع جانباً كل بحث عن ماهية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما إلى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التى تنشأ عنها فى حياتنا اليومية العملية ، فإن لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظاً جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

يتبع زكى نجيب محمود

أندلسيات :

١ ـ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

تمهيد :

أما وقد خطت « الرسالة » هذه الخطى الرغيبة الموفقة ، وبلغت المبالغ فى الفخامة والضخامة والطرافة والإحسان ، والحشد والاحتفال ، والعناية بالدراسات الأدبية الممتعة الموفقة ، والترحيب بكل ما يقدم إليها من الموضوعات القيمة الفائقة ، فلماذا لا ألقى دلوى أنا الآخر فى الدلاء ، وأنشر فى « الرسالة » من الآن شيئاً مما تنطوى عليه أضابيرى الأندلسية الزاخرة بشتى الموضوعات فى هذا الفردوس الاسلامى المفقود ـ كما كان يسميه فقيد العروبة صديقنا المرحوم أحمد زكى باشا ـ فمن ترجمة أديب إلى قصة شاعر إلى تاريخ فيلسوف إلى حياة عالم إلى طرفة أدبية إلى نبذة فلسفية إلى تحفة علمية إلى شطحة صوفية ، إلى ما شئت مما تهيأ لى أن أعكف على دراسته منذ نيف وثلاثين عاماً حتى صرتُ أطول له عشرة ، وأبطنَ به خبرة . . . ولا تسلنى لماذا تولعت هذا التولع بدراسة الأندلس وكل ما يمت إلى الأندلس بسبب ، فذلك ما أجهل أنا أيضاً علته . . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف وقضى الله أن أكون ممن شغفه حباً هذا الفردوس الذى إذا أنت حاولت أن تنزه نفسك بين رياضه النضرة المزهرة المثمرة ، تجتلى أنوارها ، وتجتنى من أيمن أثمارها ، وتستمع إلى تغريد بلابلها ، وتتروى من رحيق جداولها ، ألفيت ما ينبعث له عجبك وإعجابك ، وتشتهى مذاقه حتى يسيل له لعابك ، ويتأرج عبيرُه المغمَّم فيملأ خياشيمك طيباً ، ويستخفك تغريده المنغم فترتج له تطريباً ؛ بيدَ أنك إذا أنت حاولت هذا الامتاع من طريق الأسفار التى وضعت فى الأندلس قديماً للقيتَ من الألاقى ما لقيت مما لا يكاد ينهض به إلا الأفراد أوتوا من الشوق ما يجلدهم على معاناة البحث والتنقيب والارتياض بتذليل كل صعب عسير . ومن ثم استخلصت لك من نادرة الأسفار ، ومغرَّبة الأخبار ، باقة جمعت مختلف الأزهار ، وسفطاً يحتوى شتى الأثمار ، وحاكياً يسمعك أحسن النغم ، وناجوداً تحتسى منه شراباً لا إثم فيه ولا لمم

أوَّه لقد شط القلم ، وسجعت ثم سجعت ، وتلك التى تسنك منها المسامع . . . ومن عذيرى من الفتح بن خاقان إذا هو أعدانى بسجعه ، وتأثر طبعى بطبعه ، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع ؟ ولكن لا تُرَع فسوف أتجنب السجع ما أمكننى تجنبه ، وكذلك لا تتوقع ما دمت بصدد هذا الفتح أن ستسمع سجعاً أندلسياً كثيراً قد يضجرك ويسلمك إلى السأم والملال . فسوف أشعشع كل أولئك بما يلطفه ويسيغه إن شاء الله . . .

وإذا كنت أقدم بين يدى كلماتى قصة الفتح بن خاقان فليس ذلك عن قصد قاصد ، ولعل الذى وجَّه الذهن اليه الآن هو ما أخذته عينى أخيراً فى بعض التواليف الحديثة الموضوعة فى بلاغة العرب فى الأندلس لبعض أصدقائنا من أساتيذ الجامعة إذ يقول : إنه لم يترجم للفتح بن خاقان غير ابن خلكان ، وأن المقَّرى لم يترجم له فى نفح الطيب . . . مع أن المقرى ترجم له كما ترجم له غير واحد . . . واليك بعد ذلك قصة هذا الأديب الأندلسى :

الفتح بن خاقان

ظهر أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيدالله بن خاقان بن عبدالله القيسى الاشبيلى فى عصر هو من خير العصور ومن شر العصور فى وقت معاً : كان عصراً ذهبياً من ناحية الثقافة ، إذ كان عصراً يفهق بكل أنواع المعارف ، من علم وأدب وفلسفة ، وكان فى الوقت ذاته عصر اضطراب سياسى مزعج . . وبينا الأندلسيون زمن ملوك الطوائف متمتعون بحرية لاحد لها ، يتبجحون فيها ما شاء لهم التبجح ، ويلاقى مثقفوهم من ملوكهم أقصى غايات الأريحية

والأكرام يعيشون في أذرائهم عيشاً تلين لهم مثانيه ومعاطفه ، وتدنو عليهم مجانيه ومقاطفه ، إذ أن ملوكهم كانوا كذلك أدباء أفاضل ، وعلماء أماثل ، أثرت فيهم الحضارة الأندلسية أثرها ، فرققت من جواشيهم ، وألانت من جوانبهم — بينما هم كذلك ، وجفون الخطوب عنهم نيام ، إذ قلب لهم الدهر الخؤون ظهر المجن ، وليس لهم جلد النمر ، فكاب عليهم الأسبانيون من الشمال ، وطمع فيهم برابرة العدوة — مراكش — من الجنوب ، فنزاهم المرابطون الخشنون وأزالوا ملكهم ، فاستحالت حال الأندلسيين ولا سيما في زمن علي بن يوسف بن تاشفين ذلك الملك الذي كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين كما يقول المراكشي صاحب المعجب ، ويقول عنه أيضاً : «واشتد إيثاره — أي إيثار علي بن يوسف بن تاشفين ملك مراكش والأندلس — لأهل الفقه والدين فكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، وكان إذا ولي أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ، ولم يزل الفقهاء على ذلك وأمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم طول مدته ، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم . وفي ذلك يقول ابن البني — شاعر أندلسي سنترجم له — :

أهل الرياء لبستمو ناموسكم ... كالذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك ... وقسمتمو الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب ... وبأصبغ صبغت لكم في العالم

«ابن القاسم وأشهب وأصبغ هم من أئمة مذهب الامام مالك الذي كان المذهب الوحيد المعمول به في المغرب والأندلس »

إلى أن يقول : « ولم يكن يقرّب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع أعني فروع مذهب مالك ، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله وحديث رسول الله صلعم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام — التوحيد — وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد ، في أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه ، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه . ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله (١) أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد حتى سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها . واشتد الأمر في ذلك » ثم قال : «ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبي القاسم بن الجد ، وأبي بكر محمد المعروف بابن القبيطرنه ، وأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون — صاحب القصيدة المشهورة التي رثى بها بني الأفطس من ملوك الطوائف والتي مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

« وسنترى تراجم هؤلاء الأفاضل قريباً » في جماعة يكثر ذكرهم . إلى أن قال : ولم يزل أبو عبد الله بن أبي الخصال وأخوه أبو مروان كاتبين لأمير المسلمين إلى أن أخَّر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد الله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن ردمير هزيمة قبيحة ، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها أحسن فيها ما شاء ، ومنعني من إيرادها ما فيها من الطول : وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة ؛ فمن فصولها قوله : أي بني اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلام يزيفكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؛ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد ، لقد آن أن نوسعكم عقاباً ، وألا تلوثوا على وجه نقاباً (٢) ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم . . . في أمثال لهذا القول فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته وقال لأبي عبد الله أخيه : كنا في شك من بغض أبي مروان

(١) يريد كتبه التي في علم الكلام والمنطق والجدل على طريقة الفلاسفة
(٢) إذ كانوا ملثمين

المرابطين والآن قد صح عندنا . فلما رأى ذلك أبو عبد الله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعد ما مات أخوه أبو مروان بمراكش وأقام هو بقرطبة ، ثم قال : واختلت حال أمير المسلمين بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ودعواهم الاستبداد وانتهوا في ذلك إلى التصريح فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين وأحق بالأمر منه . . . وأمير المسلمين في ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه ، وقنع باسم امرة المسلمين وبما يرفع اليه من الخراج وعكف على العبادة والتبتل فكان يقوم الليل ويصوم النهار مشتهراً عنه ذلك وأهمل أمور الرعية غاية الاهمال فاختل لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس .

***

نجم أبو نصر الفتح بن خاقان في هذا العصر الذي هو كما أسلفنا من خير العصور الأندلسية من ناحية الثقافة واكتظاظ الأندلس بالعلماء والأدباء والفلاسفة والشعراء ، وفي الوقت ذاته هو من شر العصور إذ كان عصراً سياسياً سخيفاً كما ترى

ولد الفتح بن خاقان سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م ، أي قبل أن يدال المرابطين من ملوك الطوائف بسنتين . أما وفاته فقد اضطربت فيها كلمة المؤرخين فحكى ابن خلكان أنها كانت سنة خمس وثلاثين وخمسمائة — ١١٤٠ م — وقال ابن الأبار القضاعي في معجم أصحاب الصدفي إنه توفي ليلة عيد الفطر من سنة ثمان وعشرين وخمسمائة قال : وقرأت ذلك بخط من يوثق به . وقال الوزير الخطير لسان الدين بن الخطيب إن وفاته كانت ليلة الأحد لثمان بقين من محرم من عام ٥٢٩ والفرق بين ما رواه ابن الأبار وبين ما رواه لسان الدين بن الخطيب هو قريب من أربعة أشهر كما ترى . على أن ابن خلكان حكى ما رواه لسان الدين بن الخطيب أيضاً . . . وقال لسان الدين بن الخطيب : وأبو نصر الفتح بن خاقان من قرية تعرف بقلعة الواد من قرى يحصب (١) . ويضم كلام لسان الدين هذا إلى قول الحجاري في المسهب في حق الفتح : طلع من الأفق الأشبيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها — يبدو لنا أن قرى يحصب هذه من كورة إشبيلية ، وقد تكون من كورة أخرى من كور الأندلس نزح منها الفتح إلى إشبيلية واتخذها مقاماً له ؛ وقد يريد لسان الدين بن الخطيب أن أصل الفتح من هذه القرية ، أما هو فقد ولد بأشبيلية بعد أن نهد اليها آباؤه الأقربون وأقاموا بها ؛ وأياً كان مسقط رأسه فقد نشأ في أشبيلية وفيها كما يظهر أخذ الأدب — كما يحدثنا لسان الدين بن الخطيب — عن أبي بكر بن سليمان بن القصيرة — أحد مشهوري الكتاب وسترى ترجمته — وابن اللبانة من كبار شعراء الأندلس ، وأبي محمد بن عبدون الشاعر الكاتب صاحب قصيدة : الدهر يفجع بعد العين بالأثر ، وابن دريد الكاتب وأبي جعفر بن سعدون الكاتب ، وأبي الحسن بن سراج ، وأبي خالد بن تستغير ، وأبي الطيب بن زرقون وأبي عبد الله بن خلصة الكاتب ، وأبي عبد الرحمن بن طاهر ، وأبي عامر بن سرور وأبي الوليد بن حجاج . هكذا سرد مشيخته لسان الدين بن الخطيب

نشأ الفتح بن خاقان نشأة أدبية كما ترى ، ومن ثم غلب عليه الأدب حتى انصرف اليه عن كل ما عداه ولم يؤثر عنه من المعارف سواه ، قال ابن خاتمة : إنه لم يعرف من المعارف بغير الكتابة ، والشعر ، والآداب (١) . أقول : وقلما ترى أديباً أندلسياً إلا وله مشاركة في كثير من العلوم الدينية وغير الدينية . على أن قارئ الفتح بن خاقان يرى أنه واسع الاطلاع إلى أقصى حد ، وأنه أديب كل الأديب وأن معارفه العامة وثقافته الشاملة التي لا بد منها للأديب في تلك العصور متوافرة . وإليك أقوال مترجميه : قال لسان الدين بن الخطيب : كان آية من آيات البلاغة لا يشق غباره ولا يدرك شأوه ، عذب الألفاظ ناصعها ، أصيل المعاني وثيقها ، لعوباً بأطراف الكلام ، معجزاً في باب الحلي والصفات . وقال في موضع آخر : وشعره وسط ، وكتابته فائقة . وقال ابن سعيد في المغرب : فخر أدباء أشبيلية بل الأندلس ذكره الحجاري في المسهب ، الدهر من رواة قلائده ، وحملة فرائده . طلع من الأفق الأشبيلي شمساً طبق الآفاق ضياؤها ، وعم الشرق والغرب سناها وسناؤها ، وكان في الأدب أرفع الأعلام ، وحسنة الأيام ، إلى أن قال : وهو وأبو الحسن علي بن بسام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلماً مفيداً ، وإطناباً

(١) قال صاحب القاموس يحصب كيضرب قلعة بالأندلس قال شارحه سميت بمن نزلها من اليحصبيين من حمير . ثم ذكر ناسا ينتسبون اليها منهم القاضي عياض صاحب الشفاء وهو الذي أقام حد السكر على الفتح كما سيمر بك

(١) هكذا جاء في نفح الطيب ولعل ابن خاتمة يريد بقوله هذا أنه لم يؤثر عن الفتح إلا الكتابة والشعر وما هو منهما بسبيل .

إلى الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

المشكلة

للأديب أحمد الطاهر

لا فضل لي فيما أعرض من رأيي في هذه المشكلة التي عرضت في «الرسالة» يوم الاثنين ليلة النصف من شعبان ، بل الفضل لصاحبة «الجمال البائس» فيما أوحت به إليك من رأي في رجولة الرجل

***

فإذا استوت للرجل رجولته فسبيل الحياة له يكون كما أراده الله أن يكون : خيراً ، ويسراً . أما ما يأتي الرجال فيه مما يسمونه بأسماء تضاد الخير واليسر فمرجعه في أكثر الأحوال إلى أن الرجل لم تستو رجولته ولم تكمل . والنقص في الرجولة زيادة في الشقاء ، وإذا لقي الرجل في سبيل الحياة نتوءاً يتعثر فيه ففي رجولته ثغرة قد قدت على قدر هذا النتوء

ونعود إلى صاحب المشكلة – وفقه الله – فنمتحن رجولته فنجدها ناقصة من بعض نواحيها ، سقيمة في بعضها الآخر ؛ ولكن نقصها ليس مما يستعصي على الكمال ، وسقمها ليس مما يحمل على اليأس في أي حال ، فمشكلته ليست عسيرة والحمد لله

شهد الفتى على نفسه فقال : «إن الرجل الجاثم في عقله هو غروره – يومئذ – وكبرياؤه يقع في الخطأ بعد الخطأ ، ويأتي الحماقة بعد الحماقة ؛ ونشأ صلب الرأي ، معتداً بنفسه ، إذا هم مضى ، وإذا مضى لا يلوي ، وما هو إلا أن يخطر له الخاطر فيركب رأسه . . . . . »

اللهم غفراً ورحمة لهذا الفتى ! !

إنه قد عرف عيب نفسه ، ومن عرف عيبها وأصحر به فقد نهج السبيل إلى علاجها ، وإنه لواصل إلى غايته عاجلا أو آجلا ، لا ينقصه إلا أن يذيقها مرارة الحق لتشفى بعد أن استساغت حلاوة الباطل فسقمت

البلاء الذي لا يشبهه بلاء ، والسقم الذي لا يرجى منه شفاء ، هو أن يجهل الرجل عيب نفسه ، أو يعلمه علماً ناقصاً يلتمس فيه الأسباب والعلل المبررة

أما صاحبنا فكما نعلم من القصة : رجل فاضل مهذب ذو ميسرة ، وبيته بيت فيه الدين والخلق والشهامة والنجدة ؛ وبعض هذا فيما أرى كفيل بتيسير العلاج له برعاية الله التي لا تتخلى عن بيت فيه الدين . . فإن ضل واحد من أفراد هذا البيت ، ففي قلبه من أثر الدين الذي بسط سلطانه على البيت منذ نشأته بقية صالحة يكشف عنها غطاؤها فتقود هذا القلب إلى الخير في عجلة أو وناء . فلندع رجل المشكلة الآن ولننظر إلى فتاتها

هذه الفتاة التي سميت للفتى – صانها الله – لم أغلقت الباب في وجهه ؟ لم يذكر لنا عارض المشكلة سبباً صريحاً لهذه الفعلة ؛ على أن إدراك السبب ليس بعسير ، فلقد نستطيع أن ندركه «بالاستنتاج والمقارنة» ؛ فالفتاة الثانية التي عرفها صاحب المشكلة فأحبها لم تغلق في وجهه الباب لأنها كانت فتاة جذابة «أمسكت بإحدى يديها عنانه» فمضى قدماً ، فإذا التفت إلى الوراء قرأ في عينيها كلمات : «أتستطيع فراراً مني ؟» فيقول : «لا» ويمضي . . . «ثم يلتصق بجسمها» فتسري منها إلى قلبه رسالة يقرؤها بقلبه المريض ، فإذا هي : «الدنيا كلها هنا» . . . . . .

هذا شأنها ، وما أحسب أن من ظالم الأحكام أن نصف الفتاة بأن في جبلتها ليناً ورخاوة ، ولذا لم تغلق في وجهه الباب وهي لم تصبح زوجاً له بعد . ولا أحسب أن الفتاة الأولى قد

في الأخبار ، وإمتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تعلقاً وتمشقاً بالأنفس ، ولولا ما اتسم به مما عرف من أجله ابن خاقان لكان أحد كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المتولي على الرهان ، وإنما أخل به ما ذكرناه مع كونه اشتهر بذم أولي الأحساب ، والتمرن بالطعن على الأدباء والكتاب ، وقد رماه الله بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن ماجه فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولاً . .

نرجئ القول على قتله ولماذا قتل ونمضي الكلام على منزلته الأدبية والمفاضلة بينه وبين معاصره وتوأمه أبي الحسن علي بن بسام صاحب الذخيرة

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقي

أغلقت الباب إلا لأن فى حياتها شدة واستمساكا

* * *

ألا فاعلم يا صاحب المشكلة ، أن حياء المرأة إذا أصيب باللين والرخاوة ثغر فيه الشيطان ثغرة يجلس على بابها ويصيح : « هلموا أيها الفتيان ! » وسرعان ما يستجيب الفتيان لصيحة الشيطان .

واعلم وقاك الله أن هذه الفتاة التى فتحت لك الباب إن تزوجتها فستتزوج معها الشيطان الجاثم على ثغرة حيائها وسينضم الى شيطانك فتصبح بين ثلاثة : إمرأة وشيطانين ! وأنت واحد ! وستكون بين أمرين احلاهما مر : إما أن يأمر بك الشيطانان فيوسعا فى ثغرة حيائها حتى يدخل فيها غيرك من الفتيان . وإما أن تضيق أنت عما وسع الشيطانين أن يفعلا فتلجأ الى أبغض الحلال الى الله ـ الطلاق ! وأدعو لك مرة أخرى : وقاك الله .

على أن الشيطانين إن أعياهما صبرك أو سعة فى خلقك دارا بوجهيهما الى المرأة فصوراك لها بصورة بشعة قبيحة ، وبذرا فى قلبها حبا مراً أسود ينبت فى القلوب المريضة فيثمر ثمراً مراً أسود يسمى البغضاء ويسمى الكراهية ويسمى المقت : ولا يزال هذا الثمر ينمو ويربو حتى ينضج ويستوى فلا يتسع له قلب المرأة فتحاول أن تجتثه من أصله فلا تستطيع ، فتعمد الى الزوج تحاول أن تجتثه ، فان أفلحت فذلك ما أرادت وتستريح ويشقى الرجل شقاء المحروم من أهله ، وإن لم تصبه أصابت شرفه ويشقى الرجل شقاء المثلوم فى عرضه ؛ أقبل أيها الرجل على تلك التى أغلقت الباب فى وجهك : ــ

أندرى لم أغلقته ؟

لأنك لم تكن وحدك حين طرقت بابها ! لقد رأت معك شيطانك وما يتسع بابها لدخول إنسان وشيطان . لقد رأت معك الشيطان متمثلا فى « غرورك وشبابك وكبريائك وعنادك » فأشفقت عليك وعلى نفسها من ثالث يدخل بينكما . ولو أفسد الشيطان وأنتما لم تصبحا زوجين بعد فيالشقاء ويا للعار !

إنها أغلقت الباب فى وجهك وأنت خطيبها المسمى لها وأحكمت إغلاقه من الداخل حتى لا تستطيع أنت أن تدخل عليها ، فكان الأجدر برجولتك أن تحكم إغلاقه من الخارج حتى لا يستطيع غيرك أن يدخل اليها

حتى إذا حان موعد الزواج فضضتما الاغلاق فى وقت واحد وفى حضرة نفر من الأهل وذوى القربى ، وعسير على الشيطان يومئذ أن يندس بينكما

* * *

ما عليك أيها الرجل إلا أن تفتح قلبك لهذه المرأة الحيية الخفرة فتصل ما بينها وبينك ، وتغمض عينيك عن كل ما يصوره لك غرورك ونزقك وكبرياؤك وصلفك ، ولن تلبث طويلا حتى ترى هذه الفتاة جندا من جنودك يحارب معك أعداء نفسك ويعالج منك أدواءها ، وستصلان الى الحب الزوجى النقى وفيه منك العطف والحنان ، وفيه منها الوفاء والاخلاص

ستجد فى هذا عناء ونصبا ، وسوف تتمثل لك الفتاة التى أحببت بين حين وآخر وأنا أدلك على ما يجب أن تعمل :

أنظر بعقلك الذى تبرأ منك حين صدت عنك الفتاة :

تلك الفتاة التى قد أحببت وضيعت جمالها ورقتها وفتنتها وذكاءها فى إباء ولم تحبسه عن الناس ولم تتخذ لصيانته سببا من الأسباب . وهذه الفتاة التى كرهت لقد وضعت عفتها ووفاءها وشرفها وحياءها فى إباء وأغلقت دونه الأبواب . فأيهما أبقى على الزمن ؟ وأيهما أخلص لك ؟ وأيهما لا يعبث به نزق الفتيان ؟

وإن كان فى صدرك حرج مما لا تجد فى زوجتك الخفرة من جمال ورقة وفتنة وذكاء وما يتراءى لك فى الفتاة الجذابة فخذ واحدة مما زُيّن لك من صفاتها وضمها الى جوار واحدة مما ترى من صفات زوجتك : خذ الجمال من تلك وضمه الى جوار الشرف من هذه : وانظر فى نصيبك من الاثنين :

ألست ترى جمال الجميلة ملكا لها تجود منه بما تشاء ومتى تشاء ولمن تشاء ؟ وشرف الشريفة لك ولزوجتك تنعمان بفضله ما بقى ، وتستظلان بفيئه ما كان ؛ لا يستأثر به واحد منكما وحده ، ولا يبخل بخيره أحدكما على الآخر ؟ ألا تجد الجمال متاعا تستهلكه أنوثة المرأة ، والشرف متاعا تستبقيه رجولة الرجل ؟

ثم خذ الذكاء من الحبيبة اليك وضمه الى جوار الحياء من البغيضة اليك وانظر الى حظك من الاثنين :

ألا تجد الذكاء سلاحا فى يد الأولى تحارب به كل الناس وزوجها ؛ والحياء سلاحا فى يد الثانية تحارب به كل الناس إلا زوجها ؟

خذ الفتنة من تلك والوفاء من هذه

ألا ترى الفتانة تنادي بفتنتها : هلموا الى أيها الناس ، وترى الوفية تنادي بوفائها : هلم الى أيها الزوج ؟

***

وبعد ، فهاتان اثنتان احداها وقفت بالباب ، والأخرى أغلقت الباب

أما التي وقفت بالباب فانها تستقبل الدنيا وتستدبر الدار ، وأما التي أغلقت على نفسها الباب فانها تستقبل الدار وتستدبر الدنيا . والدنيا للناس جميعاً ، والدار لك وحدك

فانظر أيهما الصالحة لك ، الجديرة بحبك ، الأمينة على بيتك ، الحفيظة على شرفك

ستري في زوجتك عيوباً ونقصاً ، وستتجسم هذه العيوب ، لأنك تنظر اليها بغير عين الرضا ؛ وخير لك ألا تفكر في هذه العيوب حين تبدو لك إلا بمقدار ما تحاول إصلاحها ، وأن تروض نفسك على اليقين بأن المرأة الكاملة لم تخلق بعد ؛ ولن تخلق بعد ، فلو خلقت الزوجة الكاملة خلقاً وخلقاً لتعطل في الرجل كثير من صفات الرجولة ، ولما شعر الرجل بما مازه الله به على المرأة ، ولخرجت المرأة من أنوثتها ، ولتزحزح الرجل عن رجولته ؛ ولما كان الرجال قوامين على النساء

***

ولا أجد في الرد على ما تدعيه لنفسك من الحرية أبلغ مما أجابك به عمك حين قال : « إن كنت حراً كما تزعم فهل تستطيع أن تختار غير التي أحببتها » ، وحين يسائلك : « ألا نكون حراً إلا فينا نحن وفي هدم أسرتنا ؟ »

وإن كنت تبيح لنفسك تحت ظل هذه الحرية أن تحب غير امرأتك لا لسبب إلا لأنك رأيت فتاة غيرها تفوق زوجتك جمالاً ورقة وعذوبة منطق ، فيم سينتهي بك هذا ؟

ألا تدري أنك إن وثبت إلى الفتاة تراها فتعجبك فتتخذها زوجة دون زوجتك أو تضمها إليها فما زلت في الدنيا وما زال فيها من هي أجمل وأذكى وأدعى للفتنة من تلك التي أعجبتك : أتثب إليها أيضاً وتتخذها زوجة ثالثة ، أم تطلق الاثنتين وتتزوج الثالثة ؟ ألا تعلم أن هذا لا ينتهي بك إلى نهاية ، ولا يقف بك عند غاية ، ولو أباح الناس جميعاً لأنفسهم هذه الفعلة لما قامت زوجية صالحة ، ولا نعم الأولاد بالحنان الممتزج من الأبوة والأمومة ، ولأفضى الحال بالناس إلى أن يتواثب الرجال والنساء بعضهم إلى بعض ، ولفسدت بذلك الأرض ؟

يا أخي : إن المتزوج الذي يشتهي جمالاً أكمل من جمال زوجته أو فضلاً لم يجده في زوجته فيثب إليه إنما هو رجل قد أسقط مروءته وأهدر رجولته وظلم زوجته أشد الظلم ، وكفر بأنعم الله أشد الكفران ، وديث شرفه بالصغار . وحسبك لتقدر هذا أن تزن الفعلة وزنها لو انعكس الوضع فأباحت الزوجة لنفسها ما يبيح الرجل لنفسه ؛ لا تقل إن الله أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع دون المرأة ، فلذلك حكمة وقيود لا يسقط بها حق المرأة على الرجل وواجب الرجل قبل المرأة

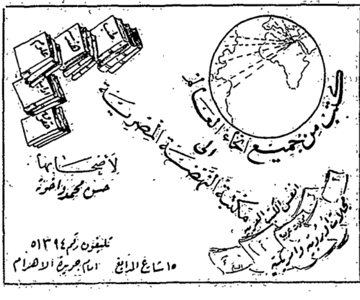
ما أحسبك إلا فهمت هذا وأحسنت تقديره ، وأنت القائل لعمك إنك تقدر الرجولة والثواب والمروءة

***

اتق الله في الزوجة ، وأشعر نفسك قوة الرجولة ، وانظر إلى ضعف الأنوثة ؛ وليكن لك على قلبك السلطان القوي ، وهي بالعطف والحنان مهادا للحب الزوجي تجد أن زوجتك أحب الناس اليك ، وأقدرهم على اسعادك .

البوزباشي

أحمد الطاهر



٣ ــ عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

والآن ، فيم طول التفكير وبعد التقدير ، وقد صار الأمر لعلى ، واستقامت البيعة له فى الحجاز ، وتراخى سلطانه إلى العراق ، وامتدت خلافته فشملت مصر ، وأولئك هم ولاته تردي بهم الابل خفافاً إلى ولاياتهم ، وهؤلاء صحابه وأنصاره يمشون في النفوس ظلالا من الخوف والرعب بعد الذي كان من قتلهم عثمان ، وإن عمراً ليحس مطالع هذه الخلافة الجديدة فى شيء من الشك وقلة التقدير ، وإنه ليجد انقباض نفسه عن طاعتها ورغبتها عن العمل فى ظلها ... بل إنه ليعمل الفكر ليجد من سلطانها مخرجا ومن طاعتها مهرباً ... ولعله يستوى فى هذا مع أترابه من الصحابة والقادة ... ولعله كان يرجو أن يتصل ببعضهم ليستطلع فكره وليبادله الرأى ... وربما ود لو يتصل بعلى نفسه ، إذن لأقنعه بالتخلى عن هذه الطوائف القلقة التى وصل حباله بحبالها ، والتى تضر بقضيته كل الضرر ... فان فى هذه الطوائف لنفرا لا زال دم عثمان يجرى على أيديهم ، وإن فيهم لأوشابا لا يليق بالخلافة أن تتصل بهم ويكونوا عدتها فى الفتح والجهاد ، وإن فيهم لأحداثا لا يستقيم بهم الأمر ، ولا يحسن أن تكون بأيديهم أمور العباد ؛ وماذا عسى ابن العاص أن يفعل مع هؤلاء وهو يرجو أن يكون سيداً لا مسوداً ، وقائداً لا مقوداً ، ثم هو يريد قبل ذلك « أن يشترط » ، فما ينبغى لمثله أن يخطو دون أن يقدر للخطو موضعه ... أو يمضى دون أن يعلم أين يؤدى به المسير ، أو يعمل دون أن يقدر ربحه وخسارته من هذا العمل الذي هو مقبل عليه ... أليس هو القائل : « الكرار فى الحرب ، وإنني الصبور على غير الدهر ، لا أنام عن طلب ؛ كأنما أنا الأفعى عند أصل الشجرة ؛ ولعمري لست بالوانى أو الضعيف ، بل أنا مثل الحية الصماء ، لا شفاء لمن عضته ، ولا يرقد من لسعته ، وإنى ما ضربت إلا فريت ، ولا يخبو ما شببت ... »

أليس هو الفاتح النابغة ، والسائس الذى لا يشق له غبار ... فما باله يبذل قياده طائعاً ، ويقدم نفسه مختاراً ... كلا ... وليكن له فى الميدان الجديد شأن عظيم ... فما هؤلاء الذين يتولون الأمور إلا أترابه ولداته الذين لا يفضلونه فى ماض ولا فى حسب ولا مقام ... والذين لا يساوونه فى مكر ولا سياسة ولا تدبير ... ففيم يكون ذنبا والرؤوس لا تزيد عليه شيئا ؟ وفيم يؤمر وهو من طبيعة الآمرين ؟ .. ولو أن عليا بعث اليه يستعين برأيه ويستنير بفكره ؛ إذن لقام إلى جانبه وأخلص له المودة ، وأفاده الفائدة العظيمة ، فانه « شيخ يضر وينفع » كما يقولون فى بعض ما يدس عليه من الشعر ؛ ولكن عليا منصرف عنه لا يكاد يذكره ، وهذه شهور تنطوى على خلافته وهو مستقل بنفسه وأصحابه ، ما يلقى إلى أحد من الصحابة بالاً ... بل ها هو ذا يؤدب العصاة منهم وينهض لهم بالسيف ... وهذه الأخبار تترامى عن الهزيمة النكراء التى منيت بها عائشة ، والقتلة القاسية التى صار اليها الصحابيان طلحة والزبير ... وماذا بعد ؟ ... أغلب الظن أن دوره مقبل ولا ريب ، وأنه مخير بين الطاعة أو الحرب عن قريب فماذا تراه فاعلا ؟ ... هنا كان الرجل يحس قلقاً شديداً ... فيقلب فكره ويتأمل حاله ، علـه ينتهى إلى رأى يستقر اليه ... ثم خطر بباله فسأل نفسه : ومعاوية ؟ ... كيف ترى حال معاوية ... أغلب الظن أن ابن أبى طالب لن يعفيه ، وهو وال على الشام وما حواليه ... وإنه لمرسل اليه بالطاعة أو عازله ... ثم بدا له خاطر جديد فابتسم ... وهم من مجلسه ومضى يذرع الغرفة جيئة وذهابا ... إنه يفكر فى معاوية ... ويحسب الأمر حساباً دقيقاً ؛ إن لمعاوية جندا كثيفاً ، ونفرا أقوياء ... وإنه لفى منعة بأهل الشام ومال الشام ... ومن يعرف فضل جند الشام كعمرو الفاتح المجرب الخبير ؟ إن فيهم لخيراً ، وإن عليهم لمعتمدا ... وإنهم ليفضلون جند العراق وجند الجزيرة ... وإنهم ليثبتون فى الحرب ثباتاً عظيما ... فلم لا يعتمد عليهم ويستفيد منهم ؟ ولم لا تكون جبهة قوية من جند الشام وقدرة معاوية وحيلة عمرو ... فما عسى أن يفعل جند العراق وشجاعة على وتهور أنصاره أمام هؤلاء ... فاذا فرغ من ذلك الحساب والتقدير فقد هم يريد ليذهب لمعاوية ليرى رأيه فى ذلك الأمر ، وإنه لكذلك إذا طارق قد أقبل ، وإذا به رسول من معاوية ! ... يحمل إلى عمرو

كتابا ... ويبتسم ابن العاص ، فقد فهم ما في الكتاب ، وما يقصر مثله عن ذلك وقد قدر الأمر كله كما رأينا ... ثم يتناول الكتاب ، فاذا به يقول : « أما بعد فانه كان من أمر علي وطلحة والزبير ما قد بلغك ، فقد قدم علي جرير بن عبد الله في بيعة علي ، وحبست نفسي عليك حتى تأتيني ، فأقدم على بركة الله تعالى (١) » .

الآن يستطيع ابن العاص أن يمضي عن ثقة ، فقد عرف ابن أبي سفيان قدره واستنجد به ، وفي استطاعته الآن « أن يشترط » ، وأن يطلب ما يريد من أجر وجزاء ... وهل هو يرجو إلا مصر وخيرها وأمنها ... وهل هو واجد في مناصب الدولة منصباً هو آمن أو أحصن من ولاية مصر الفياضة بالخير والبركات ... بلى وانها لأجدى على صاحبها من الخلافة نفسها ... فما يغنم الخليفة إلا التعب والجهد في غير طائل ... وما جزاؤه من ملكه الواسع إلا أن يتوسد الغبراء ، فاذا رق ومال الى الدنيا كان نصيبه القتل دون رحمة ولا غفران . ثم أي مكان هو أعز من هذا الركن الأمين الذي لا يصله الجند إلا بمشقة ، ولا يقصر في أمر يطلبه الخلفاء ... الخير الخير إذن في المبادرة الى جانب معاوية والانضمام لرايته ، والحزم الحزم في الاسراع اليه والوقوف في صفه فما في هذا خطر ولا خوف ...

وليتزود نفسه من رأيه باستشارة ابنيه محمد وعبد الله ... فقد عود نفسه أن يدقق الحساب جداً ... وألا يترك ناحيـة من نواحي الرأي ولا مذهباً من مذاهب الفكر إلا بحثه ووزنه وزناً دقيقاً ؛ وهاهو ذا يستمع الى ابنه عبد الله ... إنه ليلومه في ذلك لوماً شديداً ، ويرده عن هذا الجشع الذي تحدثه نفسه به : « أيها الشيخ ، إن رسول الله قد ذهب وهو عنك راض ، ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان ، فلا تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها مع معاوية » ... وإن محمدا ليسخر من أخيه ، ويريد لأبيه مكاناً ممتازاً في عالم السياسـة العربية ، ويقول : « بادر الى هذا الأمر فكن فيه رأساً قبل أن تكون ذنباً ... »

بلى لقد قال محمد الصدق ، ومس شغاف قلب أبيه .. وماذا أحب الى ابن العاص من أن يكون رأساً في كل خطوة يقوم بها وألا يأتمر برأي أحد وأن يكون حراً ، فلا تؤذيه مضايقة مثل عمرو ، وإن معاوية لقادر ، قدره ورافعه في درجات الرياسـة والامارة ، ولا يعدم ابن العاص بفكره أن يتسلط بعد ذلك فيكون صاحب الرأي في الجماعة دون معاوية .. وما عسى تفعل « الحيـة في أصل الشجرة » إلا ذاك .. نعم وليمض على بركة الله

* * *

وكان معاوية في حيرة من أمره لا يدري ما يفعل ؛ كان رأيه قد استقر على حرب علي ، ولكنه لم يدر كيف يمضي الى ذلك ، وقد بدأت دعوة علي تتسرب الى الشام ، وأنشأ المسلمون يتحدثون في سر سكوت معاوية عن طاعة الخليفة الجديد ، وكان هو نفسه يسكتهم ويهدئهم بما له من المكانة في نفوسهم والقدر في أعينهم ، ولكنه كان يحس أن لذلك آخرا وأنهم منفضون من حوله إن لم ينتبه في هـذا الموقف الى رأي ، وهل هو إلا وال من الولاة عليه أن يطيع ، وقد وصلت دعوة علي وتحدث بها البعض ومال اليها البعض الآخر ، وبدأ القلق يساور معاوية ، وانتهى به الأمر الى الاستنجاد بابن العاص ، وكان يعرف فيه ميلا عن بني هاشم وكرها لهم ، وكان يقـدر أنه لا بد كاره لأمر علي ، فبعث اليه يتعجل حضوره فخف اليه كما رأينا .. وجلس الرجلان يتبادلان الرأي ، وربما أحس عمرو من حديث معاوية أنه أخطأ في هذه المغامرة التي أقدم عليها ، وأن هذه « الصفقة الجديدة » ربما كان فيها بعض الخطر .. ورأى أن ما كان قدره من الاعتماد على جند الشام كان فيه كثير من الوهم وسوء التقدير .. وكيف يمكن إقناع هؤلاء بمناهضة الخليفة وحربه وهم مسلمون مؤمنون يرون طاعة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضا واجبا ؟ وكيف يمكن التعويل عليهم ، وهذه طاعة علي تكاد تبدو على ألسنتهم ؟ ولكنه اطمأن الى أن لا خطر على مركزه في هـذا الأمر الذي انضم اليه ... فانما هو صاحب الرأي المسموع والكلمة النافذة .. وهاهو ذا يستطيع أن يشترط « أخذ مصر كلها أو مصر ومعها غيرها » . وقد تقدم فما ينبغي له أن يتأخر .. وقد ألقى يده في يد معاوية ولن يخلص له على بعد ذلك أبداً .

ثم إنه مضى يفكر في الأمر تفكيرا طويلا ، وقلبه على وجوهه .. حتى هداه الرأي الى حيلة ربما أفلحت في إقناع جند الشام بعدالة قضية معاوية ... فان هؤلاء الناس لا بد أن يكون قد

---

(١) اليعقوبي ج ٢ ص ٢١٥

سامهم مقتل عثمان ؟ ولا بد أن يكونوا ساخطين على قتلته راغبين في الثأر والاقتصاص منهم ؟ وقد ترامى الى سمع ابن العاص أن عليا يأوى هؤلاء المجرمين ويعد لهم في نعمته ويضعهم من حزبه موضع القادة والرؤساء .. فلم لا يقال للشاميين إن معاوية يقبض يده عن على لأن عليا يمين قتلة عثمان ويدعهم أحرارا طلقاء ، بل لم لا يقال لهم إن مقتل عثمان قد صادف من نفس على موقعا طيبا ؟ . . بل لم لا يقال لهم إن عليا نفسه عمل على هذا القتل وعاون عليه لكي يصير الأمر اليه أخيرا ؟ .. ولم لا تلتمس البراهين على ذلك ، وقد كان على في المدينة ساعة قتل عثمان ، وكان في ميسوره أن يمضي لنجدته فلم يمض ... وكان الأمر لا يكلفه إلا مشية من داره الى دار عثمان فتتفرق الجموع ويرتد الناس ... بلى ... ولم لا يؤثر على عواطفهم بتصوير عثمان عطشان يجهده العطش ... وعلى في داره ريان مسرور ... بلى ... وهذا ابن أبي بكر قاتل عثمان بيده مكرم من على ، أثير عنده ، مقام على مصر واليا ... بلى ، والحق أبلج لا تنقصه البينة ولا يعوزه البرهان !

للبحث بقية — حسين مؤنس

في الأدب الإنجليزي

٦ — الكائنات الغيبية

في شعر شكسبير

The Supernatural

بقلم خيري حماد

تتمة البحث

فلسفته الدينية :

إن من الصعب علينا أن نرجع إحدى رواياته العديدة إلى أصل ديني صريح ، ولكن هناك عدداً غير قليل من العقائد الدينية أودعها شكسبير ثنايا شعره ومؤلفاته ، وتختلف هذه العقائد باختلاف الروايات التي ورد ذكرها فيها

ففي رواية الملك هنري الخامس نرى فكرتين دينيتين أودعهما الشاعر في روايته . وأولى هذه العقائد هي عقيدته في أصل خطأ الانسان ، وثانيتهما هي عقيدته في المعمودية . أما خطأ الانسان فكان منشؤه تلك الخطيئة العظيمة التي اقترفها آدم أبو البشر . اجترم ذلك الجرم فتلوثت نفسه بتلك الخطيئة وكان جديراً بعد ذلك أن تتطهر نفسه مما لحق بها من الأدران ، فأرسل الله اليه أحد الملائكة وأخرج منه تلك الروح الطائشة ووضع بدلاً منها روحاً طاهرة نقية ، وما اقتراف الناس للآثام إلا سير على السنن الذي اختطه والدهم من قبل واحتذاء لحذوه

وهناك عقيدة ثالثة أدرجها شكسبير في رواية هملت ، فهو يعتقد أن الدعاء والابتهال إلى الله لا يصل إلى السماء إلا إذا كان صادراً عن نفس طاهرة وقلب صادق الاخلاص ، وهذه حقيقة دينية تثبت أن شكسبير كان رجلاً ورعاً تقياً يؤمن بصدق النية وخلوصها من الرياء والنفاق

نظر شكسبير إلى هذا العالم المليء بالشرور والموبقات نظرة احتقار وازدراء فكان دائم التوق إلى الخلاص منها والانتقال إلى حياة أروع منها وأطهر ، وقد ذكر عقيدته هذه على لسان بطله هملت الذي كان يقصد الترفع عن الأمور التافهة الشريرة والسمو بنفسه في عالم أرقى ، عالم ماؤه التقى والصلاح والسمو إلى ما فيه خير الناس

وفي رواية الملك يوحنا نرى شكا في عالم آخر يلقى الناس فيه أبناءهم وأصدقاءهم ، ذلكم هو يوم البعث والحساب ، وشكه هذا يظهر على لسان الأميرة كنستانس عندما تخاطب الكردينال قائلة : « إن كان حقاً ما تقول عن وجود حياة أخرى نجتمع فيها بأصدقائنا فانى لا شك واجدة ولدى الذي فقدته في المهد صبياً »

أما اعتقاد شكسبير في وجود الآلهة فكان عقيدة ثابتة لا شك فيها ولا مراء . فهو دائماً يذكر الآلهة في عدد من رواياته وعند ما يقصد إظهار أمر عظيم يقسم بالآلهة الأعظم الذي تطأطئ له جباه البشر ؛ فهو يقول على لسان بانكو : « إني لأقسم أمام الآلهة القدير أن أحارب جميع المكائد التي يقصد منها خراب الأمة والبلاد »

وفي رواية روميو وجوليت تظهر لنا عقيدته في المعمودية ، فالانسان إذا اقترف أمراً منكراً وجب عليه أن يتعمد مرة أخرى فيصبح كأنه حديث النشأة والولادة ويتخلص بواسطة ذلك مما لحقه من ذنوب ومعاص

وأهم هذه العقائد الدينية الكثيرة التي ضمنها شكسبير رواياته عقيدتان: أولاهما حق الملوك الإلهي، وثانيتهما عقيدة تناسخ الأرواح. وقد ذكرت العقيدة الأولى في موضعين من روايات شكسبير: أحدهما في رواية الملك ريتشارد الثاني عند ما يهتف الملك قائلاً: «إن جميع مياه المحيطات لعاجزة عن أن تمحو الزيت المقدس عن الملك المنصوب من قبل الآلهة»[1]. والآخر في رواية مكبث عند ما يتقدم الطبيب إلى مالكولم Malcolm بقوله واصفاً الملك القديس: «ولمسة من يده التي وضع فيها الآله قدسية وطهارة لم يضعهما في غيره كانت كافية لأن تشفي المرضى والمصابين»[2].

من هاتين الفقرتين يتبين أن شكسبير كان يؤمن بحق الملوك الإلهي، وأنهم نفر من الناس اختارهم الله لأدارة شعوبه، فعليهم طاعتهم وتنفيذ أوامرهم. وليس من العجيب أن يعتقد هذا الاعتقاد وقد وجد في عصر سادت فيه هذه العقيدة وآمن بها الناس على اختلاف مللهم ونحلهم، ولم تكن الأفكار الحرة قد انتشرت بعد، بل كان الناس يفضلون كل ما هو قديم موجود.

وأما العقيدة الثانية كما ذكرنا فهي عقيدة تناسخ الأرواح، وهذه تؤلف قسماً من النظرية المعروفة لدينا بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال بعض الأرواح من أجسادها إلى أجساد أخرى، فروح الرجل التقي الورع تنتقل إلى جسد كريم تحل فيه وتتخذ منه مكاناً لاقامتها، وأما روح الرجل الشرير فتحل في جسد أحد الحيوانات الشريرة؛ وقد ذكر شكسبير هذه العقيدة في (الليلة الثانية عشرة Tweifth Night) وفي تاجر البندقية، وفي كل من هذين الموضعين ينظر شكسبير الى هذه العقيدة نظرة استخفاف وازدراء، فهو يقول على لسان كراشيانو في الرواية الثانية: «إنك لتجعل من عقيدتي موضعاً دائماً للشك فيسهل على حينئذ الاعتقاد بنظرية فيثاغورس التي تقول بانتقال أرواح الحيوانات إلى أجساد البشر»[3].

وفي رواية «الليلة الثانية عشرة» نرى حواراً بين المرج وبين مالفوليو، واليك نصه:

المرج: «ما هي نظرية فيثاغورس؟»

مالفوليو: «إنها تعني انتقال روح جدتي الى جسد أحد الطيور»

المرج: «ماذا تعتقد في هذه الفكرة؟»

مالفوليو: «إني لأنزه الروح أن تنزل إلى هذا المستوى، ولذلك فاني أعتقد بأنها نظرية خاطئة»

المرج: «وداعاً يا صاح! لتبق على جهلك، وستعتقد بهذه النظرية قبل أن أعيد اليك عقلك، وعندئذ ستتردد في ذبح أحد الطيور مخافة أن تحل روحه محل روح جدتك»[1]

من هذا الحوار يتبين أن شكسبير كان يستهزىء بهذه العقيدة وينظر اليها نظرة احتقار وازدراء؛ فمعتقداته الدينية لا تسمح له بهذا التفكير، ولذلك كان جديراً به أن يولها ظهره وألا يهتم بها اهتماماً جدياً.

وقبل أن أختم هذا البحث في فلسفة شكسبير الدينية أورد ما قاله جبسن عنه: «إن الاحترام الزائد الذي أبداه شكسبير في رواياته نحو الديانة المسيحية الأساسية لتجعلنا أميل الى الاعتقاد في نصرانيته لولا عدم وجود أحد الأدلة لتثبت لنا أنه كان مسيحياً صادقاً»[2] ولكنه لم يكن يوماً ما معتقداً بجميع الاعتقادات التي آمن بها أهل عصره. نعم لقد عاش مسيحياً ومات مسيحياً، ولكنه أظهر في بعض الأمور شكا وتساؤلا عن صحتها وصدقها. نعم كان شديد الاحترام للكنيسة وعقائدها، ولكنه خالفها في كثير من المواضع.

خاتمة:

لو تتبعنا نظريات شكسبير في الأمور الغيبية التي ذكرناها سابقاً لرأينا الاهتمام الزائد الذي أبداه نحوها، نعم عاش في عصر سادت فيه الخرافات والأوهام، ولكنه تطلع بعين ثاقبة فرأى أشياء كثيرة يعجز الرجل العادي عن رؤيتها. كانت له القدرة الكافية على تفهم الأشياء الغيبية ففهمها بطريقة تخالف الطريقة التي فهمها الغير

(1) Richard II. Act III. 2. 54
(2) Macbeth IV. 3. 141
(3) Merchant of Venice IV 1. 30

(1) Tweifth Night IV. 2. 54.
(2) Gibson. Sh's Use of The Supernatural? .47

ولم تكن العقائد الشائعة المصدر الوحيد الذى اعتمده شاعرنا فى أبحاثه عن المغيبات ، بل كانت هناك مصادر أخرى من الفلسفة الرومانية والإغريقية القديمة مضافاً اليها الابتكار الذى أوجده شكسبير دون أن ينقل عن غيره . سمع بأذنه ما يدور بين الناس من هواجس وأوهام فجمعها فى شعره إلى ما نقله عن مخلفات السلف وأخرج منها روائع تعد من أعظم مبتكرات الأدب ، وأخص بالذكر منها رواية (حلم منتصف ليلة من ليالى الصيف)

وأما الشبح فى رواية هملت فيحوى نوعين من الأشباح أحدهما كان من ابتكار الشاعر العبقرى والآخر مما نقله عن سابقيه من الكتاب الذين رووا حادثة الأمير هملت بشكل قصصى

وأما ساحرات مكبث فقد اقتبسها شكسبير عن هولنشد Holinshed ويتبين لنا هذا مما قال فى هو لنشد : « بينما كان مكبث زاحفاً إلى العاصمة إذا به يصادف ثلاثاً من النسوة وقد ارتدين ألبسة تشبه ما كان يرتديه النساء فى ذلك العصر » ؛ وأما شبح بانكو فهو ابتكار ابتدعه الشاعر العظيم ؛ وأما رواية العاصفة فيغلب على الظن أنها الأولى من نوعها ، وذلك لعدم وجود من كتب فى موضوعها من الشعراء والكتاب الذين دونت كتبهم فى السجلات وكتب القصص والتاريخ

تقع حياة شكسبير بالنسبة إلى بحثه فى المغيبات فى أربعة أطوار : الطور الأول منها هو طور ظهور روايته (حلم فى منتصف ليلة من ليالى الصيف) فاستعماله للجنيات مبتكر ومحدث . . وهو سلس فى كتابته بعيد كل البعد عما يرهق الذاكرة وعقل القارىء . وقد وصف كلارك كتابه هذا بقوله : « إن استعمال شكسبير المغيبات لأول مرة لما يدل على سروره ومرحه : فشكل روايته هذه ملأى بالبهجة والحبور ، ويندر أن تجد هنالك ما يكدرك إلا ما يقع فى الأسطر القليلة التى بحثت فى الأشباح »

وأما الطور الثانى من أطوار تأليفه فهو الدور الذى ظهرت فيه روايته الثانية هملت ؛ وفى هذه الرواية التمثيلية نشعر بالأرواح والأشباح تتصل ببنى البشر اتصالاً لا يكاد يكون تاماً ، فان هذه القوى الخفية لا تستطيع أن تؤثر فى مجرى حياة الانسان وتحوله فى الجهة التى تريدها ، ولا يقوم الشبح فى هذه الرواية بأى عمل من الأعمال إلا إذا كان بطريق وسيطه ؛ وكان شكسبير فى هذا الطور قد بلغ الثلاثين من سنه وبدأت نظرته فى الحياة تتحول من تفاؤل إلى تشاؤم ، وأخذت الأفكار والظنون تنتابه فتجعل منه عرضة دائمة للتفكير والتخيل ، فاعتقد أن وراء الانسان قدرا يسيره حسبما يريد ، وما الانسان إلا فريسة لهذا القدر الغاشم

والطور الثالث ينتهى باخراج رواية مكبث . ازدادت قوة هذه المخلوقات الغيبية ولكنها عاجزة عن إيقاع الضرر بالناس مباشرة ودون أية وأسطة ، ولم تكن كلمات الساحرات فى الحقيقة إلا صدى يردد ما كان يدور فى خلد بطل الرواية ، وكان شكسبير يشعر بالشرور والموبقات تحيط به من كل جانب فأظلمت أفكاره وتناوبته الهواجس المختلفة ، وأصبح فى خوف مستمر من هذه القوى الخفية التى تقوم بأعمالها تحت ستار من الظلام والخفاء . وهنا يصل إيمانه بالخرافات إلى القمة ويصبح شكسبير مؤمنا مصدقاً لكل ما يقال له عن هذه الأمور المخيفة المرعبة

وفى الطور الرابع أو الأخير نراه يخرج للناس رواية العاصفة وفيها يسترد رباطة جأشه وقوة عقيدته فيرجع إلى أفكاره المرحة الطلقة مرة ثانية . فما الأرواح والقوى الخفية إلا عبيد يستخدمها الانسان فى مهامه وأغراضه ، وليس لها من القوة والسلطة عليه شىء ؛ وفى هـذه السنوات الأخيرة يصل خياله الابتداعى إلى أقصى غايته . فيشعر بحقيقة الوجود وطبيعة الأمور دون أى ستار أو غطاء

وقد تخلص شكسبير من هواجسه ومخاوفه وعاد مرة ثانية إلى مرحه وسروره الذى أظهره فى صورته التى صورها للجنيات فانطلقت مخيلته فى الفضاء مجتازة جميع الموانع من عقائد وأفكار رجعية . وسجلت فى روايته الأخيرة نتيجة عبقريته ونبوغه

وفى كل من هـذه الأطوار الأربعة رأينا شكسبير يتخذ مواضيعه مما كان يدور فى خلده من المسائل والمشاغل العقلية ، فهو مفكر واسع التفكير ، مصور حسن التصوير ، وشاعر خصب الخيال ؛ تجلى تفكيره فى كل هذه الأمور العقلية التى بحثها ، وظهر تصويره فى هذه الرسوم الرائعة التى رسمها لمخلوقات خيالية بأبدع تكوين وأحسن تصوير

نابلس — فلسطين　　　　فهيزى هماش

١٤ — شاعرنا العالمى
أبو العتاهية
للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تتمة

محاسنه ومآخذه: إذا كان لأبي العتاهية ذلك الفضل في الشعر العربي بطريقته الجديدة التي أحدثها فيه، وتوخيه فيه السهولة التي تجعله قريب النفع، وتجعل منه أداة صالحة لتقويم الشعب، فإنه كان أحياناً يفرط في هذه السهولة، فينزل فيها إلى اللغة الدارجة، والواجب أن يتوسط في ذلك ويسلك في الشعر لغة بين هذه اللغة ولغته القديمة الجافة. ومما يؤخذ عليه من ذلك قوله:

ألا يا عُتْبَةُ الساعهْ   أموتُ الساعةَ الساعهْ

وقد قيل لأبي بَرْزَةَ الأعرابي أحد بني قيس بن ثعلبة: أيعجبك هذا الشعر؟ فقال: لا والله ما يعجبني، ولكن يعجبني قول الآخر:

جاء شقيقٌ عارضاً رُمحَهُ   إن بني عمك فيهم رماحْ
هل أحدَثَ الدهرُ لنا نكبةً   أم هل رَقَتْ أمُّ شقيق سلاحْ

أي نفثت فيه حتى لا يعمل شيئاً. ولا يفوتنا أن نأخذ على هذا الأعرابي أن هذا الشعر لا يصح أن يذكر مع ذلك الشعر، ولكن يجب أن يذكر معه غزل من نوعه، وفي معنى يمت بسبب إلى معناه، لتكون الموازنة صحيحة بينهما، وتظهر الفروق بين الشعرين تمام الظهور

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وكان ممن ينكر على أبي العتاهية: أنكر الرشيد على طعني على أبي العتاهية في شعره، فقلت يا أمير المؤمنين هو أطبع الناس، ولكن دعنا نعرف أي شيء من الشعر قوله:

هُوَ اللهُ هُوَ اللهُ   ولكن يغفر اللهُ

وقال أبو عبيد الله المرزباني: ومما أنكر على أبي العتاهية من سفساف شعره قوله في عتبة:

ولَّهتني حبُّها وصيرني   مثل جُحَى شهرة ومَشْخَلَبَه

وقوله:

يا وَاهَا لذكر الله   يا وَاهَا ويا وَاهَا
لقد طَيَّبَ ذكر الله   بالتسبيح أفواها
أرى قوماً يتيهونَ   حُشُوشاً رزقوا جاها
فما أنْتَنَ من حُشٍ   على حُشٍ إذا تاها

وقال على بن أبي المنذر العروضي: لما مات سعيد بن وهب الشاعر حضر أبي جنازته، وحضرها الفضل بن الربيع، وكان قد ظهر أيام المأمون، فلما دفن أثنى عليه الفضل، وأقبل على أبي العتاهية يحدثه أنه أودع القضاة والدول أموالا فما وفوا له، وأنه أودع سعيد بن وهب مالا فوفى به، فقال أبي لأبي العتاهية: ألا ترثيه؟ قال: بلى، قال أبي: ثم صرت بعد أيام إلى الفضل ابن الربيع فأخرج إليَّ رقعة، فقال: اقرأ مرثيتة أبي العتاهية لسعيد بن وهب، فإذا فيها:

مات والله سعيدُ بن وهبٍ   رحم الله سعيدَ بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتَ عيني   يا أبا عثمان أوجعت قلبي

فقلت ما أدري ما أقول؟ فقال الفضل: أبو العتاهية بأن يرثي في حياته أولى من سعيد بعد موته، قال الصولي: وله شبيه بهذا في محمد بن يزيد المهلبي:

قد مات خِلي وأنسي   محمد بن يزيد
ما الموتُ والله منا   خلافه ببعيد

قال أبو عبيد الله المرزباني: وقوله في مرثية عيسى بن جعفر أشبه بقوله في سعيد بن وهب مما ذكره الصولي وهو:

بكت عيني على عيسى بن جعفر   عفا الرحمن عن عيسى بن جعفر

ويمكن أن يعتذر عن هذا وأشباهه بأنه مما كان يقوله أبو العتاهية في حديثه السائر ولا يريد به الشعر، وقد روي أبو الفرج رثاءه لسعيد بن وهب بطريق آخر فقال: أخبرني علي بن سليمان الأخفش عن محمد بن مزيد، قال: حدثت عن بعض أصحاب أبي العتاهية، قال: جاء رجل إلى أبي العتاهية ونحن عنده فساره في شيء فبكى أبو العتاهية، فقلنا له: ما قال لك هذا الرجل يا أبا إسحاق فأبكاك؟ فقال وهو يحدثنا لا يريد أن يقول شعراً:

قال لي مات سعيد بن وهب   رحم الله سعيد بن وهب
يا أبا عثمان أبكيتَ عيني   يا أبا عثمان أوجعت قلبي

قال فعجبنا من طبعه ، وأنه يحدث فكان حديثه شعراً موزوناً ؛ وإنا نرجح هذه الرواية بورودها عمن شاهد هذا الشعر حين يقال وعاينه بنفسه ، ولعل الفضل غير فيه هذا التغيير ، ثم رواه بذلك الشكل ليزرى به على أبي العتاهية بعد أن فسد ما بينهما على ما ذكرنا

ومما أنكر على أبي العتاهية قوله :

حلاوةُ عيشك ممزوجةٌ ... فما تأكل الشهد إلا بسم

فالمعنى صحيح لأنه جعله مثلا لبؤس الدنيا الممازج لنعيمها ، والعبارة غير مرضية ، لأنا لم نر أحداً أكل شهداً بسم ، وأجود من قوله لفظاً ، وأصح معنى ، قول ابن الرومى :

وهل خُلةٌ معسولة الطعم نجتنى

من البيض إلا حيثُ وإش يكيدُها

مع الواصل الواشى وهل تجتنى يدٌ

جَنى النحل إلا حيثُ نحلٌ يذودُها

وأنكر عليه أيضا قوله :

يا ذا الذى فى الحب يلحَى أما ... والله لو كُلفتَ منه كما

كلفتُ من حبٍ رخيم لما ... لمتَ على الحب فذرنى وما

ألقى فانى لستُ أدرى بما ... بُليتُ إلا أننى بينما

أنا بباب القصر فى بعض ما ... أطوف فى قصرهم إذ رمى

قلبى غزالٌ بسهام فما ... أخطأ بها قلبى ولكنما

سهماه عينان له كلما ... أراد قتلى بهما سلما

فانه من الشعر المضمن ، والتضمين عندهم عيب شديد فى الشعر ، وخير الشعر عندهم ما قام بنفسه ، وخير الأبيات ما كفى بعضه دون بعض ، مثل قول النابغة :

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أىُّ الرجال المهذّبُ

فلو تمثل إنسان ببعضه لكفاه ، إن قال « أى الرجال المهذب » كفاه ، وإن قال « ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث » كفاه ، وقد سبق أنى لا أرى رأيهم فى عيب هذا التضمين ، ولست أدرى لماذا لا نجيز فى الأسلوب القصصى هذه القطعة الشعرية البارعة المتماسكة ، فيكون لنا من تماسكها وحدة شعرية ملائمة لوحدة قصتها ، كما يكون لنا فى الحكم ونحوها أبيات مستقلة ، فيها يقوم كل بيت منها حكمة قائمة برأسها

أما محاسنه وعيون شعره فنذكر منها ما أجمعوا عليه ، واستحق به التقديم عندهم ، قال موسى بن صالح الشهرزورى : أتيت سلما الخاسر فقلت له أنشدنى لنفسك ، قال لا ولكن أنشدك لأشعر الجن والإنس ، لأبى العتاهية ، ثم أنشدنى قوله :

سكنٌ يبقى له سكنُ ... ما بهذا يؤذن الزمنُ

نحن فى دار يُخبّرنا ... ببلاها ناطق لَسِنُ

فى سبيل الله أنفسنا ... كلنا بالموت مُرتهَنُ

كلُّ نفسٍ عند ميتتها ... حظُّها من مالها الكفن

إن مالَ المرء ليس له ... منه إلا ذِكرُهُ الحسن

وقال بشار لأبى العتاهية : أنا والله أستحسن اعتذارك من دمعك حيث تقول :

كم من صديقٍ لى أسا ... رِقُهُ البكاءَ من الحياءِ

فاذا تأمل لامنى ... فأقول مابى من بكاء

لكن ذهبتُ لأرتدى ... فطرفتُ عينى بالرداء

فقال له أبو العتاهية : لا والله يا أبا معاذ ما لذت إلا بمعناك : ولا اجتنيت إلا من غرسك حيث تقول :

شكوت الى الغوانى ما ألاقى ... وقلت لهن ما يومى بعيدُ

فقلن بكيتَ قلتُ لهن كلا ... وقد يبكى من الشوق الجليدُ

ولكنى أصابَ سوادَ عينى ... عُوَيْدٌ قذًى له طرفٌ حديد

فقلن فما لدمعهما سواء

أكلتا مقلتيكَ أصاب عود

وقال أبو سلمة الباذغيسى : قلت لأبى العتاهية فى أى شعر أنت أشعر ؟ قال قولى :

الناسُ فى غفلاتهم ... ورحا المنية تطحنُ

وقال الفضل بن الربيع لأبى العتاهية : يا أبا إسحاق ما أحسن بيتين لك وأصدقهما ! قال وما هما ؟ قال قولك :

ما الناس إلا للكثير المال أو ... لمسلَّطٍ ما دام فى سلطانه

فاذا الزمان رماهما ببليَّةٍ ... كان الثقاتُ هناك من أعوانه

وقال عبد الله بن الحسن بن سهل الكاتب : قلت لأبى العتاهية أنشدنى من شعرك ما يستحسن فأنشدنى :

ما أسرع الأيام فى الشهر ... وأسرع الأشهرَ فى العُمْر

ليس لمن ليست له حيلةٌ ... موجودةٌ خير من الصبر

فاخبط مع الدهر إذا ما خبطا ... واجر مع الدهر كما يجرى

من سابق الدهر كبا كبوة ... لم يستقلها آخر الدهر

وقال أبو تمام الطائى : لأبى العتاهية خمسة أبيات ما شركه فيها أحد، ولا قدر على مثلها متقدم ولا متأخر ، وهى قوله :

الناسُ فى غفلاتهم ... ورحا المنيـة تطحنُ

وقوله لأحمد بن يوسف :

ألم تر أن الفقر يُرجى له الغنى ... وأن الغنى يُخشى عليه من الفقر

وقوله فى موسى الهادى :

ولما استقلوا بأثقالهم ... وقد أزمعوا للذى أزمعوا

قرنتُ التفاتى بآثارهم ... وأتبعتهم مُقلةً تدمعُ

وقوله :

هب الدنيا تصير اليك عفواً ... أليس مصير ذاك الى زوال

وقال العتبى : رؤى مروان بن أبى حفصة واقفاً بباب الجسر كئيباً آسفاً ينكت بسوطه فى معرفة دابته ، فقيل له يا أبا السمط ما الذى تراه بك ؟ قال أخبركم بالعجب : مدحت أمير المؤمنين فوصفت له ناقتى من خطامها الى خفيها ، ووصفت الفيافى من اليمامة الى بابه أرضاً أرضاً ، ورملة رملة ، حتى إذا أشفيت منه على غناء الدهر ، جاء ابن بياعة النخاخير - يعنى أبا العتاهية - فأنشده بيتين فضعضع بهما شعرى ، وسواه فى الجائزة بى ، فقيل وما البيتان ؟ فأنشد :

إن المطايا تشتكيك لأنها ... تطوى اليك سباسباً ورمالا

فاذا رحلن بنا رحلن مخفةً ... وإذا رجعن بنا رجعن ثقالا

وهذا قليل من كثير من عيون شعر أبى العتاهية ، وديوان شعره فى جزأين كبيرين أولهما فى الزهد ، وثانيهما فى الأغراض الأخرى ، وقد جمعه أحد القسوس اليسوعيين نقلا عن رواية النمرى وكتب مشاهير الأدباء كالأصفهانى والمبرد وابن عبد ربه والمسعودى والماوردى والغزالى وغيرهم ، وهو مطبوع فى بيروت سنة ١٣٠٥ هـ سنة ١٨٨٦ م

وليس ما فى هذا الديوان كل شعر أبى العتاهية ، لأنه كان أحد ثلاثة لم تمكن الاحاطة بشعرهم لكثرته ، وهم بشار والسيد الحميرى وأبو العتاهية ، وكان فى هذا أكثرهم شعراً ، ولعلنا بما كتبناه فى حياته وشعره نكون قد قربناه لمن يجهله أو يجحد به ، وقدمنا للأدباء مثلا من الشعر النبيل الذى يجب أن ينسجوا على منواله

عبد المتعال الصعيدى

الرأى

للشاعر الراوية الأستاذ أحمد الزين

سأحمل فى الرأى مَضَّ الألم ... وأصبر للخطب إما ألمّ

وأحمل نفسى على مُرّها ... إذا ضامها ما يضيم الكرم

ولا أشترى كل هذا الوجود ... ولا العيش فيه ببعض الشمم

وأزهد فيما بناه الرياء ... وأصدع بالرأى مهما هدم

فأهوِنْ علىّ بدنيا النفاق ... وجاه يُنال ببيع الذمم

هو الرأى روحك فاحرص عليه ... فما بعد روحك غير العدم

وحكم القلوب بإلهامها ... وما أصدق القلب فيما حكم

فلا تطلبن وداد الصديق ... بمدح تزوّره أو بذمّ

فإن اللسان رسول القلوب ... يحدّث عنها بلا أو نعم

وإن العقيدة عِرضٌ فصنه ... إذا كنت ممن يصون الحُرَم

سَرَت فى فؤادك مسرى الدماء ... فلا تبذل الدم إلا بدم

أمانة ربك فى خلقه ... فمن كتم الحق فيها ظلم

وميثاقه قبل خلق الجسوم ... تلقّته أرواحنا فى القِدم

بها رفع الله تلك النفوس ... وميّزها عن سوام النَّعم

فلا تغبطنّ أخا حظوة ... فما نالها برخيص القيم

ولكنه باع فيها الضمير ... وألقى العقيدة تحت القَدم

وساوم بالنفس فعل البغىّ ... رمت بالحياء ابتغاء اللقم

وكم أسخط الحق فى موطن ... وكم ألبس النور ثوب الظلم

تكاد مظاهره الخالبات ... تشفّ لعينيك عما كتم

ويوشك منظره المجتلى ... يحدّث عما طوى من تُهَم

فلا تغترر ببهاء الوضيع ... فكم من حذاء صقيل الأدم

وعش بالعقيدة عيش الكرام ... ومت رجلاً تحت هذا العلم

ولا تقتدد بالأولى خالفوك ... وكن أمماً إن عصتك الأمم

أحمد الزين

الجبل

(ذكرى)

للأستاذ عبد الرحمن شكري

جلالك أهدى من ضياء المنائر ... ومنبرك الأعلى أجل المنابر

لقد كنتَ عرشَ المجد في الأرض عزة

ومسكن أرباب الدهور الغوابر

فيا معبداً سقف السماء غطاؤه ... وعبدانه الدوحات ملء النواظر

جلالك يُلهي المرء عن كل زائل ... فيخشع مسحور النهى والضمائر

توحّدتَ كالرهبان يارُبَّ راهب ... رأى عصمةَ الأطواد طهرَ السرائر

تُطِلّ على السهل الفسيح كأنما ... تفكّرُ في عيش القرى والعمائر

ألا إنّ للأهرام مجداً وروعةً ... ولكنها إنْ لُحْتَ لهوُ الأصاغر

فأنتَ بناءُ الله لم يبنِ مثله ... قديرٌ ولم تعبث به يدُ جائر

ومعتصم في معقل منك مانع ... كما اعتصم الملاّح بين الجزائر

علوتَ برأس في السماء مُباعِد ... أكيما تناجي السحب أم كبرُ قادر؟

وينساب فيك الماء جذلان لاهياً ... وآناً له روع كروعة هادر

عليك اعتراكٌ للعواصف رائع ... وبرقٌ ورعدٌ طيّ سُحْبٍ مواطر

وأنتَ وَقورٌ لم تُرَعْ من رعودها ... ولم تتهيّبْ دورةً للدوائر

يُغيِّر مرُّ الدهر حياً وهامداً ... سواك فهل أوقفت خطو المقادر

فيا مَلِكاً بُرْدُ الجليد كساؤه ... ومِنْ فوقه تاج النجوم الزواهر

تشاهد جيلاً بعد جيل كأنما ... تمر بك الأجيال مرّ العساكر

ترى مولد الدولات ثم مماتها ... وتبصر مجد اليوم بعد الغوابر

خلعتُ بكَ النفسَ الطَّموحَ إلى العلا

ومرأى جلالٍ منك ملء الخواطر

عبد الرحمن شكري

عذراء الهوى

بقلم سليم الزركلي

هذا الشاعر في خلوته ... وانثنى يقرأ أسفار الحياة

فتجلى الشك في صورته ... كوميض البرق بين الظلمات

***

زهرة لم تتفتح للهوى ... كالملاك الطفل في مهد الدلال

لمست وجنتها بنت الندى ... فأضاء النور مصباح الخيال

***

بسم النور على أجفانها ... فتجلى في معانيها الأمل

وارتمى البشر على أحضانها ... غارقاً بين أغاريد القبل

***

قبلتها الشمس في وجنتها ... فنما في دِقّها وَرد العفاف

وحنا البدر على طلعتها ... فجلا للعين والقلب اللطاف

***

يا ملاك الحب في المهد ويا ... شعلة الإلهام والوحي المصون

يا ضياء النفس في النفس ويا ... غاية الحسن وتمثال الفنون

***

منية منيتها القلب اللهيف ... فغدا في صبره يلقى العذاب

بسمةً واحدة تهدي الوجيف ... وافتراراً عن ثناياك العِذاب

***

في حنايا النفس آمال جسام ... تتلوى كأفاعي الهاجره

أطفئي غلتها بالابتسام ... وبإغضاء الجفون الساحره

***

ما لهذا الكون معمور الجناب ... وفؤادي في سراه حائر

فإذا ما مزّق الدهر الإهاب ... ما الهوى؟ ما العيش؟ جَدٌّ عاثر!

***

عاشق الزهرة في ميعتها

يحتسي في الكأس معسول الرُّضاب

إنه يقطف في صورتها ... بهجة الدنيا وأحلام الشباب

***

فإذا قبّل خدّ الزهرات ... وهي سكرى كالعيون الناعسه

سمع القلب شجيّ النغمات ... فيها، وهي تغني هامسه :

***

«أنت لا تبصرني بعد غدٍ   سوف يجلوني عن الغصن القدر
فتمتع من جمالي وازدد   ولتجلي خيالات الفكر

***

لا تضع أيامك الغر سدى   واتخذني مثلاً تنشده
يذهب العمر هباء بددا   إن تولى عنه من يسعده

***

يا نسيم الروض خفف وطأتك   لم أعد أستطيع حمل النغمات
سر على مهل وخفف حدتك
أصبحت تؤذي خدودي النسمات

***

واحنُ يا طيف على أخلامنا   وابتسم تشرق أزاهير السعود
وأسر ممراحاً على أيامنا   بنشيد من أناشيد الخلود»

***

فانحنى يغمرها بالقبلات   ويواري في حناياه دموعه
ود لو ينفحها روح الحياة   حانياً فوق أمانيها ضلوعه

***

طهري القلب بحب وغرام   ودعي الأيام في غفلتها
أيت إن أيقظتها جد الخصام   وتداعي العمر في يقظتها

***

واغنمي اللذات في أوقاتها   وارتعي مثل فراشات الربيع
واعطفي القلب على باقاتها   إنها تحنو على الطفل الوديع

دمشق   سليم الزركلي

الزَّوَاجُ

رَأَيْتُ زَوَاجَ الْمَرْءِ أَسْعَدَ حَالَةٍ
مِنَ الْمُكْثِ بَيْنَ النَّاسِ وَهْوَ فَرِيدُ
شَرِيكُ الْفَتَى فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ زَوْجُهُ
فَكَيْفَ يَعِيشُ الْمَرْءُ وَهْوَ وَحِيدُ
وَلَوْلاَ زَوَاجُ النَّاسِ فِي الْكَوْنِ لاَنْقَضَى
وَلَا كَانَ لِلإِنْسَانِ فِيهِ وُجُودُ
يُخَلِّدُ ذِكْرَ الْمَرْءِ فِي الدَّهْرِ نَسْلُهُ
وَمَا لاِمْرِئٍ فِيهِ سِوَاهُ خُلُودُ

(بنابه)   عبد الهادي الطويل

الوداع

بقلم إلياس قنصل

يا قلبُ لا تجنحْ إلى الشـ   ـشكوى فتؤلمك الكلامْ
ودع الكآبة فالشبا   ب إذا انقضى لا يرجع
وتأمل الدنيا ، فقد   أبدى هناها الابتسام
والناس ترفل بالمسرّ   ـرة والطبيعة تسمع
لحناً أثيريّ الجما   ل يعيد أنباض الأملْ
إن كان أحزنك التأهّـ   ـبُ للوداع فما العمل
والدهر لا يرثي وأحـ   ـكام القضا ليست تُرَدّ ؟

***

أنا لا ألومك يا فؤا   د إذا عراك الاضطرابْ
فلقد جرعتَ – وأنت في   عهد الصبي – كأس النوى
وخبرتَ أدواء البقا   ء وما تجرّ من العذابْ
فاصبر على جور الزما   ن ، ولا تهبْ سهم الجوى
فالصبر ينفث في الحيا   ة الانشراح والابتهاجْ
لا تيأسنّ ، فقد يرو   ق البحر من بعد الهياجْ
ولربما انجلت الغيو   م عن السما وبدا القمرْ . . .

(عاصمة الأرجنتين)   إلياس قنصل



صور من هوميروس

١٥ – حروب طروادة

صلح . . .

للأستاذ دريني خشبة

أشرقت الشمس أو كادت ، وبدت ذيتيس تتهادى فى الأفق الغربى فوق الثبج ، وهرعت عرائس الماء وعذارى البحر تحييها وتنشد لها ألحان الفجر ، طلتها الندى . . .

وكانت تتأود تحت حملها الثقيل ، فما إن بلغت سفينة أخيل حتى ألقت بالدرع المسرودة ، وحنى هب ولدها يحييها بعين شكرى ، ومهجة حرى ، وقلب موجع حزين

وكان ما يزال جالساً أمام جثة بتروكلوس يبكيها ، ويكلم فيها الإخاء والوفاء ، ويناجى فى لفائفها الود والولاء ، وكان ما يزداد إلا لوعة ، وكان ما يزداد إلا أنيناً !

وحنت عليه أمه تواسيه ، ثم لفتته إلى الدرع والخوذة ، فحدجهما بنظرة قاتمة ، وشكر لها هدية فلكان ، ثم أوصاها بالجثة خير ما يوصى به الصديق . . . « ذودى الذباب فلا يمسها يا أماه ، وادفعى عنها أذى أسرابه ، واسقيها من المنيقة الصفراء ، حتى تأذن الآلهة فأعود إلى بتروكلوس بثاره . . . . . »

وانطلق فى غبشة الصبح يطوف بمعسكر الميلانيين ، داعياً إلى مجلس حربى

وكان يهتف بالجند النائم هتافاً عالياً ، فينتفض القاعدون وقد خفقت قلوبهم ، واهتزت جوانحهم ، وفاضت عبراتهم من الفرح للقاء أخيل !

وكان أجمل ذلك جميعاً أن ينهض أوليسيز متهالكاً على نفسه ، وديوميد مترنحاً فى عطفه ، ونسطور مرتجفاً كأنه فى يوم حشر ، . . . و . . . أجممنون ، كأن الحياء والخجل يصبغانه بحمرة الجحيم ! ! . . . .

لقد كانت جروح القادة أنطق برهان على ما جرت تلك الخصومة الوضيعة بين أجاممنون وأخيل من هزيمة للجيش ، وضياع للجهود ، وعبث بآمال أمة ترقب أبناءها من وراء البحار !

وانتظم عقد القادة ، ووقف أخيل يتكلم ، فأرهفت الآذان ، وصغت القلوب ، وتحركت الألسن تبحث عن بلل من الريق تبتليه :

« ابن أتريوس المعظم »

« أخى فى الوطن ؟ »

« يا أمير هذه الجيوش الغازية »

أرأيت ؟ ! أى جدوى عادت على أو عليك من هذه القطيعة التى أججت نارها ، واندلع بينى وبينك أوارها ، وأى غنم أفدت من شحناء لم تكن تخلق بعظيم بن عظيم ، بل سليل آلهة عظماء ؟ !

ألا ليتها أودت تلك الفتاة التى أثارت كل تلك العداوة ، وأغرت جميع تلك البغضاء بيننا ! إى وأرباب الأولمب ، ليتها أودت يوم غنمناها من مدينة ليرناسوس ، حتى لا تفرح طروادة بما تم لها من نصر ، وما حاق بجحافلنا من خذلان ، لم يكن شىء منه يقع لولا ما أثارته بريسيز بيننا !

ولكن لا ! فالفتاة نقية وطاهرة وبريئة ، لأنها لا تزر وازرة وزر أخرى ! ولكننا ، معشر الميلانيين ، ينبغى أن نذكر أبداً أن لنا ثأراً عند هؤلاء الطرواديين ، لا محيص لهم من أن نأخذهم به ، وأن نطالبه عندهم ، فلا نرتد عنهم حتى نُدال لنا منهم ، وتكون لنا الكرة عليهم حين يظفرنا اتحادنا بهم . . .

لنكبح جماح نفوسنا إذن ! وليعاف كل من غيظه فى سبيل هيلاس ، ولتندمل تلك الجراح التى تفتأ قلوبنا فتكاد تقضى على آمال أمة ، وتطيح بأمانى الوطن !

أجاممنون ! بن أتريوس العظيم !

تلك يدى أضمها فى يدك ، عهداً مخفوراً وذمة وفية ، ألا ندع أهواءنا تهدم ما طمحت إليه نفوسنا من قبل ، وأن نكون من الساعة يداً على عدونا ، وإلباً واحداً ... ...

والويل بعدها لمن يجرؤ من جند طروادة أن يتصدى لنا ، أو يجازف بنفسه أمامنا . . . . . هذا رمحى ! وتلك قناتى ! ويا طالما قد ظمئت إلى الدماء ... ... ! »

وتدفقت الدماء فى عروق القادة ، وشمروا كأن السماء رفعهم اليها فتطهرهم وتزكيهم ، وتعود بهم الى الثرى قوماً آخرين ! .

ونهض أجاممنون من مكانه ، ولم يستطع أن يتقدم إلى مكان الخطابة ، وقال : « أيها الأصدقاء ! يا أبطال هيلاس ! ياوزراء مارس !

لست أدرى ما أقول رداً على أخيل العظيم ؛ بيد أنني سأفتح له قلبي ، وأكشف لكم أمامه عن سريرتى ، وسيد الأولمب على ما أقول وكيل !

أبداً والله ما كنت سبب هذه المأساة التي أغرت بيننا العداوة ، وأججت نيران هذه البغضاء ! وأبدا والله ما آثرت أن يكون بيننا ، ونحن فى هذا الأمر ما نحن ، شئ من تلك القطيعة التي دفعنا ثمنها غاليا : أرواحا مطهرة ، ودما زكيا ، وشبابا أنضر الشباب ! !

أبداً والله ما أثرت من ذلك شيئاً قط ؛ ولكنها المقادير ، ومشيئة سيد الأولمب ، وهذه الربات الغاليات « أرينيس [1] » اللائى تحالفن علي ، فغشين بصيرتى ، وأذهلنني عن نفسى ، فأتيت ما أتيت على غير وعى مني ، ولا هدى ولا برهان مبين ! ... ...

ولقد ثاب إلى رشدى ، وارتفع الحجاب عن بصيرتي ، ساعة إذ أبصرت هكتور يأخذ جموعنا فيحصرهم بينه وبين البحر ، كأشد ما يكون حصار بين موتين ! عندها ، ذكرت أخيل ! وذكرت أنني آثم فى حق أخيل ، وأن أخيل لو كان فى هذه الحلبة لما ملك هكتور رشاده ، وما ملكت رجلاه أن تحملاه ! فزاغت عيناى ، واستبنت ضلالتى ، واستغفرت الآلهة من أجل آثامى !

أخيل :

ما أعظمك حين نسيت غضبتك ، وسعيت الى خصمك ، ومددت اليه يمينك من أجل الوطن ! مرحبا بك يا أخى ؟ ومرحبا بصلح يغسل الضغن ، ويذهب بالجفوة ، ويرأب ما انصدع من شملنا جميعاً !

على أنى أرى أن أمهر صلحى وأؤكد محبتى ، باللُّهى الغالية ، والهدايا العالية ، وبكل مذخور ثمين ؛ فهلم يا ابن بليوس هلم ؛ هيئ الصفوف وجيش الفرق ، حتى أعود اليك بتذكاراتى ... »

وأبى أخيل أن يلهو أحد فى تلك الساعة ، أو يشتغل إلا بالحرب . والاستعداد ليوم الفصل ؛ فشكر أجاممنون ، ورجاه أن يلبث معه حتى يأخذ كل عدته ؛ ولكن أوليسيز الجريء يتدخل ، ويرجو أن ينطلق أجاممنون فيأتي بالعطايا واللهى ، ... وبالغادة الفتان ، بريسيز ، فتنة الفتن ، ونادرة الجمال ؛ نقية كما هى ، أخيلية كما فصلت من خدر مولاها يوم الخصام الأكبر . وأنا أقسم لأخى على ذلك ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون »

ويقسم عليه ويؤكده أجاممنون ، ويغسل أقسامه بالدمع السخين ؛ ثم يأمر خادمه (تلثبيوس) فينطلق الى حيث يأتى بخنزير سمين يذبحه ويطعم القادة منه ... ويحلف أخيل لا يذوقن من طعام حتى يعود بثأر صديقه وأعز الناس عليه : « بتروكلوس ! » .

ويلح عليه أوليسيز فى أن يأكل : « لأن الحرب شاقة ، ويومها دهر بأكمله ، ومقارعة الأقران مجهدة للأبدان ... » وما يزيد أخيل إلا إباء !

وعاد أجاممنون

وكان أوليسيز نفسه يتقدم الركب الذى أقبل من سفينة القائد العام يحمل هداياه لأخيل . ونهض أجاممنون فأشهد الآلهة على نقاء القلب وصفاء النفس ، ورضاء الضمير ، ثم قدم الهدايا الى ابن بليوس الذى كان يشهدها ويبكى !

وفى الحق ، لقد كانت لُهَىً أحسن اللُّهى ، وهدايا على قدر مُهديها !

فهذه صناديق سبعة مقفلة ، ملئت بالدر واليواقيت والزبرجد وبكل ما غلت قيمته من كتان مصر ، وخز الهند ، وحبر الشام... وهذه اثنا عشر من صافنات الجياد كأنما ولدت فى ليلة

---

(١) ربات ثلاث من زبانية بلوتو رب الدار الآخرة (هيدز) فى هيئة السعلاة ، ولهن مكان الشعر ثعابين تتلوى فوق رؤوسهن عزفن أجسام المجرمين من الموتى ويذقنهم سوء العذاب (الفرح من الأستاذ جرير ص ١٣٩)

واحدة ، ولونتها الآلهة بألوان واحدة ، وأضفت عليها عرائس الفنون من سحرها ، فكانت تخيل أوزوزا !

وهذه أيضاً عشرون دستاً من النحاس المزركش ، جليت سطوحها بالمِيناء والفُسيفِساء ، وتبارت في حفرها كل يد صناع وفكر عتيد . وفيها من أصناف الجوهر ما يبهر اللب ويشده القلب ، ويذهب سنا برقه بالأبصار !

وهذه بدرٌ عشر من الذهب الخالص يحملها أوليسيز ويتقدم بها أبكاراً سبعاً من جلة السّبي ، كل منهن كأنها فينوس حقيقية ، تميس كأنها بانة ، وتبسم كأنها أقحوانة ، وتبدى عن الدر النضيد !!

ثم ...

هذه بريسيز ! بريسيز الهيفاء ، وأصل هذا البلاء ؛ الدمية التي أترعت بالفاتن ، وفاضت عيناها بسحر الهوى !

هذه بريسيز تبرز فتخطف الأبصار ، وتتقدم فتثب القلوب ، تود لو تغمرها لمحة من جمالها النضر ، وشبابها الفينان !

فهل رأيت إلى العاصفة تقتلع الدوح ، وتطيح بالأيك ، وتهب على اليم النائم فيصطخب ، والبحر الوادع فيضطرب . . . و . . . على الغدير ذي الخرير فيرقص من رعشة كأن به مسّاً من الخدَر !!

تلك هي بريسيز حين تبدت للقوم !

لقد هتف أوليسيز هتفة ضاعت في انذهال الملأ بما يرى ، على ما تعرف من جبروت أوليسيز ، وشدة أيده . . . . ثم هتف فتلفت الناس ، وراح الرجل يكرر ما قيل من نقاء بريسيز وتمام طهرها ؛ وأخيل مطرق ساهم ، لا يكاد يعي مما يقال شيئاً ! . . .

واستل أتريديس خنجره ، وأهوى به على عنق الخنزير يذبحه ، وهو في ذلك كله يصلي لأربابه ، ويسبح بحمد السماء ، ويشكر لسيد الأولمب ما أتم من صلح شريف بين سليلي الآلهة . . .

ونهض أجا ممنون فقدم بريسيز إلى سيدها ، وعقّب بكلمة طيبة ، ثم أشار أخيل إلى الرميدون فحملوا الهدايا ، وانطلقوا إلى أسطولهم بها ، ومعهم فتاة مولاهم في صفوف موسيقية ، وفي موكب رهيب !

* * *

وانصرف القادة إلى زادهم ، والجنود إلى ميرتهم ، ولا حديث لهم إلا أخيل وفتاة أخيل ، والصلح الذي باركته السماء ، وكسبوا منه أن يكون فيهم أخيل !

أما بريسيز فقد وصلت إلى سفينة مولاها ؛ فشدهها أن ترى إلى جثة بتروكلوس في لفائفها وأكفانها ، وإلى هذه الأم البارة ، ذيتيس ، جالسة عندها تبكي ، وتدفع أسراب الذباب ، وتسقي القتيل خمراً !!

لقد كانت بريسيز تعجب بالبطل منذ قريب ، ولقد تركته ممتلئاً صحة ، موفوراً شباباً ؛ نضر الصبي ، ريان الأهاب ! ثم عادت فكان أشق عليها أن تراه مُسجّى هكذا ! لا نأمة ! لا حركة ! لا نَفَس ! قتيلاً كأدنى من كان يقتل كل يوم روع ، طعيناً كأقل من كان يطعن كل يوم نزال !!

ودارت الدنيا بالفتاة ، فراحت تملؤها ندبة وبكاء !! . . .

واجتمع لديها الفتيات الأخريات يندبن ويبكين . . .

فما كان أروعه منظراً ، وما كان أحره إخلاصاً !!

* * *

وأقبل فونيكس على أخيل يواسيه

ولكن أخيل ما يرقأ له دمع ، ولا ينقطع له نحيب . . .

واطلعت أرباب الأولمب ، فشهدت ما يأخذ البطل من رُحَضاء الحزن ، ورُحاء الأسى ، فأشار زيوس إلى مينرفا ، فهبت إلى أخيل ترعاه ، وتخفف عنه من بلواه . فلما كانت قاب قوسين من ابن بليوس ، هالها أن ترى إليه يعصف به الحزن ، ويوهنه الجزع ، والجند مع ذلك قد بوءُوا مواقف للقتال ! فما هي إلا أن أمرت فونيكس بأن يصب الخمر المعتقة على صدر صديقه لينقذه من ضيقه ، وليخفف عنه من وطأة الجوع . ويصدع فونيكس ، فيتقدم إلى أخيل كاشفاً عن صدره ، ويصب السلافة الأولمبية فيشربها الجسم الضاوي ، ويسترجع بها ما فقد من قوة . . . وما يفتأ فونيكس يصب الخمر ، وما يفتأ أخيل ينظر إليه مشدوهاً ، حتى يكون في كل قوته من أثر الخمر ، فيصيح صيحة الحرب . . . التي تهتز لها أبراج طروادة ! . . .

فانظر إليه مُقَنَّعاً في حديد فلكان ، ، وانظر إليه تحت تلك الخوذة التي لم تصنع مثلها يد الآلهة الحداد ، ، وانظر إليه يداعب حربة شيرون ، أستاذه السنتور العظيم ؛ ، ثم انظر إليه كالبركان المضطرب يقذف النار من عينيه الغضبتين ، ومن حوله الميرميدون يملؤون الرحب ويسدون الشعاب . . .

ويل لك يا هكتور !

(لها بقية) دريني خشبة

البريد الأدبي

اللغة السيوية بربرية

إلى الرحالة الأستاذ محمد ثابت ، سلام واحترام :

ذكرتم ياسيدي في العدد ١٢١ من (الرسالة الغراء) أن لأهل سيوة لغة خاصة يتكلمونها في رطانة هي أبعد من اللهجات الأوربية عنا ، وأنكم تسمعتم اليها فلم تهتدوا إلى كلمة واحدة تمت إلى العربية أو اللاتينية بسبب ؛ وبعد أن ذكرتم أمثلة من هذه اللغة الغريبة الشاذة قلتم : « ويقال إن أصل تلك اللغة بربرى مازجته العربية ثم الرومانية »

والأمثلة التي ذكرتموها تدل دلالة قاطعة على أن هذه اللغة هي بربرية لا شك فيها ، وهذه الألفاظ التي استغربتموها هي نفسها لا تزال مستعملة في أفواه البربر في هذه البلاد إلى الآن

والذي انتهيتُ اليه — بعد البحث الطويل في أصل هذه اللغة وفي علاقتها بالعربية — هو أنها إن لم تكن لهجة من العربية الأولى بعدت عن أصلها بتراخي الزمن وطول الأمد حتى صارت كأنها لغة مستقلة ، فما لا شك فيه أنها لغة سامية (أنظر بحثنا « هل البربر عرب ؟ وهل لغتهم لغة ضاد أخرى ؟ » في مقتطف يوليو ١٩٣٤)

وأما أن العربية المدونة في القواميس قد مازجت البربرية بعد الفتح الاسلامي لبلاد البربر ، فهذا أمر واقع لا شك فيه ، فكلمة « تَلَشْلَشْتَ » التي قلتم إنها من أسماء الأعلام عند السيويين هي كلمة عربية من « لَشْلَشَ » إذ تردد واضطرب « تُ ... تْ » بإدخال علامة التأنيث في اللغة البربرية عليها وهي التاءان معا في أولها وفي آخرها ؛ وترجمة هذه الكلمة « اللشلشة أو اللشلاشية » وكلمة « لشلاش » من أسماء الأعلام هنا في الجزائر بين العرب

ولقد وجدت وأنا أنظر في اللغة البربرية أن القاف المعقودة فيها ينطقها بعض البربر جيما مصرية ، وينطقها بعضهم جيما عربية ، وينطقها آخرون منهم عربية تارة ومصرية تارة أخرى ، فقلت في نفسي : من يدري فلعل الجيم المصرية جاءت من هنا[1]. وبرابرة برقة كما يحدثنا التاريخ أغاروا على مصر وأقاموا بها وأثروا في لغتها ، وجئتم اليوم أيها الأستاذ الرحالة فرويتم لنا أن نفس اللغة البربرية لا تزال مستعملة كلغة منزلية الى الآن في بعض زوايا مصر ، ونشرتم صورة فتاة سيوية عليها مسحة من الجمال المغربي ، فأفدتنا منكم مالم نكن من قبلُ نعلمه ولا ندريه ، فلكم الفضل والشكر على ما أوليتم

وهران (الجزائر) محمد السعيد الزاهري

قصة رائعة وفلم مبتذل

عرض أخيراً في بعض دور السينما بالقاهرة شريط مصور (فلم) عنوانه « الشيطان امرأة » وقيل في مديحه والترغيب في رؤيته أن النجمة الألمانية الشهيرة مرلين ديتريش هي صاحبة الدور الأول فيه ، وهي التي تقوم بتمثيل هذه « المرأة الشيطان » ؛ ولكن الذي لم يقل في شأن هذا الفلم ولم ينوه به هو أنه مأخوذ من قصة بيير لوئيس الشهيرة المسماة « المرأة وقراقوز » La femme et le Pantin أي الرجل الذي لا إرادة له

وقد أذيع أخيراً أن الحكومة الاسبانية أمرت بمنع عرض هذا الشريط في جميع أنحاء اسبانيا لأنه يعرض سمعة الضباط الاسبان — وبطله الرجل هو ضابط اسباني — إلى المهانة والسخرية ويعرض سمعة المرأة الاسبانية — وبطلته هي فتاة اسبانية راقصة — إلى الزراية ، وذلك أنها تبدو في الفلم في شخص الفنانة الحسناء امرأة عاهرا مبتذلة تعرض أخطر ضروب الاغراء النسوى وأسفلها بصور مثيرة ملهبة ، تلك هي « كونشيتا » بطلة هذه القصة الشهيرة

---

(١) الجم المصرية لغة عربية قديمة ؛ وممن كان يلهج بها بنو ضبة ؛ وبها روى الرجز المشهور : نحن بنى ضبة أصحاب الجمل (الرسالة)

بيد أن الحكومة الاسبانية لم تقف عند هذا المنع المحلي بل تقدمت بمذكرة احتجاج سياسي إلى الحكومة الأمريكية ، فتدخلت في الأمر ونصحت إلى شركة بارامونت التي أخرجت الفلم بسحبه من جميع أنحاء العالم ؛ فلم يسع الشركة إلا النزول عند هذه الرغبة وتنفيذها ، وبذا يختفي أحدث مخرجات مرلين ديتريش عن الأنظار ، ولكن تبقى بعد ذلك القصة الأصلية التي تعتبر من أبدع ما كتب بيير لوئيس ؛ بل هي في سحر أسلوبها وروائع عرضها لا تقل اضطراماً وحياة عن الشريط المصور ذاته ؛ وهكذا يستطيع من حرم مشاهدة هذا الشريط « الماهر المبتذل » أن يقرأ في بيير لوئيس ، ما يرفع زوجه إلى ذروة الفن والخيال الرائع

وفاة لاوردس برون

قرأنا في البريد الألماني الأخير نعي الكاتب القصصي الدنمركي الشهير لاوردس برون (Laurids Bruun) ؛ توفي في الحادية والستين من عمره ، وكان برون سليل هذه المدرسة القصصية الدنمركية الزاهرة التي اشتهرت بروعة خيالها وسحر أسلوبها وخفة روحها ، والتي أنجبت هانز آندرسن معبود الطفولة والحداثة ، وكان مثل مواطنه وسلفه الكبير آندرسن يكتب للشباب قصصاً رائعاً ممتعاً ؛ واشتهر على الأخص بسلسلة من القصص التي تصور الحياة في البحار الجنوبية ، واسم بطلها فان سانتن Van Zanten ؛ وأخرج منها ثلاثة مجلدات عنوان أولها « فان سانتن في أيام سعده » وعنوان الثاني « جزيرة السعادة لفان سانتن » وعنوان الثالث « الأرمل المحزونة » ؛ وتدور القصة كلها حول حياة تاجر ورحالة ، وهو فان سانتن ، يجوب البحار الجنوبية ، وينزل بإحدى جزرها ، ويتزوج إحدى نسائها وهي ابنة ملك هذه الجزيرة ، ويعيش معها سعيداً ؛ ويصف برون هذه الحياة وصفاً رائعاً ساحراً ؛ وعبرة القصة تذهب إلى عكس ما ذهب إليه دانيل ديفوني في قصته « روبنصن كروزى » ، وهي أن الحياة البدوية في هذه البقاع النائية أسعد مما يتصور الناس

وكتب لاوردس برون أيضاً عدة مجموعات من القصص الصغير منها مجموعة : « إلى الوطن » ، وأسلوبه بسيط ساحر ، ويمتاز بمقدرة فائقة على تصوير الحياة والصور الطبيعية فيما وراء البحار ، وذلك في ألوان شعرية بديعة ؛ وهو يذهب في كتابته مذهب الدعوة إلى حياة الطبيعة ، والطبيعة أحب الأشياء والمناظر إليه ، وهي أروع ميادين قلبه وخياله

الأستاذ الزنجاني

من أخبار طهران أن وزارة المعارف الايرانية عينت الأستاذ أبا عبد الله الزنجاني مؤلف كتاب (تاريخ القرآن) أستاذاً للفلسفة الاسلامية وتفسير القرآن الكريم في جامعة (سبهالار) في طهران

أسبوع المتنبي في دمشق

تألفت في دمشق لجنة من العلماء والأدباء برياسة الأستاذ المغربي رئيس المجمع العلمي العربي لاعداد الأهبة لاقامة مهرجان شعبي عظيم تحت رعاية وزارة المعارف السورية يستمر أسبوعاً بدمشق في فصل الربيع ، وسيقام في المعرض الصناعي السوري الذي يفتتح في شهر أبريل سنة ١٩٣٦ . وقد أرسلت لجنة المهرجان الدعوة إلى علماء العرب وشعرائهم في مختلف الأقطار ، وكذلك إلى أفاضل المستشرقين ليساهموا في هذا المهرجان ببحث ناحية من نواحي أبي الطيب ، وستنشر اللجنة كل ما يقال في هذا الاحتفال في كتاب خاص

وفاة فنان كبير ، وانتحار كاتب شهير

توفي أخيراً في فينا المؤلف الموسيقي الشهير الأستاذ بيلا لازكي ؛ وكان لازكي مدى الثلاثين عاماً الأخيرة من أعلام التأليف الغنائي والموسيقي ؛ وهو مجري المولد ، ولد سنة ١٨٦٧ ، وتلقى علومه في فينا عاصمة الفن الزاهر في ظل الامبراطورية القديمة ، وعاش فيها منذ شبابه ؛ وظهر في التأليف الموسيقي ، فوضع مئات الأناشيد والمقطوعات والأغاني الألمانية ، وامتاز بالبراعة في نوع خاص منها هو القطع الغرامية والشعبية التي تعزف وتلقى في النوادي الليلية (الكاباريه) ؛ وكانت تعاونه في فنه زوجته الفنانة والمغنية الحسناء ميلا مارس التي لبثت مدى حين تخلب ألباب المجتمع النسوي الرفيع ؛ ولكنها توفيت شابة ومضى لازكي يطوي بعد ذلك حياته الفنية وحيداً ؛ ويخرج

كل عام عدداً كبيراً من المقطوعات والأناشيد التي تذاع في جميع أنحاء العالم ، وفي أواخر أعوامه عرف لازكي متاعب البؤس والمرض ، إذ خسر معظم أمواله في مضاربات عقيمة ، وداهمته أوصاب الشيخوخة ، فقطع أيامه الأخيرة محزوناً بائساً ، وتوفي في الثامنة والستين من عمره

ووقفتنا في أنباء فينا الأخيرة أيضاً على حادث محزن هو وفاة الكاتب النمسوي الأشهر الدكتور فكتور درزتي وزوجه البارونة كلارا ؛ وقد وجدا منتحرين بالغاز في منزلهما في شارع بابز في ضواحي فينا ؛ ولم تتضح أسباب المأساة تماماً ، ولكن المعتقد أن الحادث يرجع إلى مرض عصبي شديد كانت تعانيه البارونة ؛ وكان الدكتور درزتي من النبلاء ، وكان أديباً وكاتباً كبيراً ، اشتهر بمقالاته الاجتماعية والنقدية ، وله مؤلفات وكتب قصصية ذائعة

شهادة لله [1]

سيدي الأستاذ الفاضل (صاحب الرسالة)

سلام عليك

ربك العظيم يقول في كتابه القديم :

« ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فانه آثم قلبه » صدق الله العظيم .

وإني أعيذ نفسي برحمة الله من آثام القلب ، فضلاً عن تأثم القلوب .

سيدي الأستاذ :

هي شهادة لا أبتغي منك عليها جزاء ولا شكوراً

لقد كنت يا أستاذنا الزيات بليغاً دائماً ، بليغاً علم الله فوق ما نسمع ونقرأ من بلاغات سحبان وأكثم بن صيفي وعبد الحميد وإخوانهم من كرام البلغاء الأقدمين

أما في مقالك الأخير ، في عدد (الرسالة) الأخير ، المعنون (في الجمال) « على هامش الموضوع » فلقد كنت أبلغ من نفسك بكثير .

أتدري لماذا يا سيدي الزيات ؟

لأن موقف اليوم ، الذي أرسل قلمك ، بعد ارساله شجنك ، بمقال اليوم ، موقف من أبلغ مواقف التاريخ . لشد ما قال لنا التاريخ والزمن في أنفسنا قولا بليغاً

وليس للمواقف البليغة في الأمم والشعوب إلا قلوب البلغاء ، بل إلا القلوب البليغة ، ودعني لا أقول هنا : ألسنة البلغاء ، فطالما والله أودت ألسنة البلغاء بحقوق وكرامات وأوطان !

ولعل هذا ما يثبت في قلبك البليغ ، فوق تثبيته في قلمك البليغ ، أنك حقاً قبل أن تحمل في وطنك أو في وطن العربية قلماً ، فانك تؤدي فيها (رسالة)

رسالة لا تكذب الناس ، وهي تتسمى إلى الناس باسم (الرسالة) ، وكثيراً ما تسمت الأشياء على هذه الأرض بغير أسمائها ، وهي الأرض التي قام عليها يوماً مسيلمة يقول : أنا نبي ! وقام من قبله فرعون من فراعنة مصر يقول :

أنا ربكم الأعلى !

هذه شهادتي إليك . ويسرني كما يشرفني ، بل استحلفك بالله أن تجعلها شهادتي الى الناس ، لأنها هي أيضاً شهادتي الى الله ، ألقى بها الله فيما ألقى به وجهه (الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة) كما دعاه يوماً أعظم مخلوقاته ، لأنه أخلص المخلوقات : محمد بن عبد الله ، عليه صلوات الله

وهذه والله شهادتي ، ولو أني لا أتقي أن لي عندك عتاباً قديماً ، لعلك كنت لا تصغي اليه لو أني كتبته اليك قبل اليوم ، أو باذهتك به وجهاً لوجه ، لأننا لم نتعارف قلوباً ، بعد أنا تعارفنا وجوهاً ، مرة واحدة أو مرتين ، في يومين فقط من الأيام

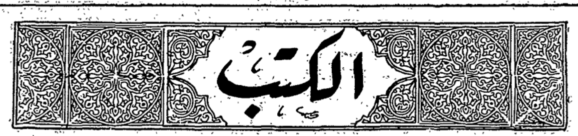
فارفع بيدك (رسالتك) يا أستاذ ، فهي من رسالات الله ، لأنها من رسالات الحق والوطن والقوة والجمال

ارفع بيدك هذه (الرسالة) من النور ، تخدم وطنك فوق ما يخدمه كثير من دعاته وأدعيائه البارزين فوق المسرح هنا وهناك

لن تفلح هذه الأمة في نهضتها الوطنية ، حتى تفلح أولا في نهضتها الأدبية ، أو قل نهضتها الأخلاقية ، نهضة النفوس والأرواح في أعماقها لا على سطوحها التي يراها أو يسمع بها الناس . . . . .

ابراهيم ابراهيم على
المحامي بقليوب

(1) ننشر هذه الرسالة الكريمة على غير عادتنا ابرازاً ليمين الأستاذ كاتبها ؛ وله الشكر الأوفى على حسن رأيه



خيوط العنكبوت

تأليف الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

للأستاذ محمد سعيد العريان

الأستاذ المازنى أديب من أدبائنا المعارف ، يجرى اسمه فى ابتسام عذب على شفتى كل من يتحدث عنه حين يذكر الأدباء ، وقل من لا يتحدث عنه حين يعرض ذكر أدبائنا الذين انشئوا فى الأدب وزادبهم . وإن له فيما يكتب لطابعاً وروحاً يتميز بهما ويعرف ؛ وما الأديب إذا لم يتميز بطابعه وروحه ، ويبرز اسمه وصورته وراء كل سطر مما يكتب ؟

على أن للأستاذ المازنى غير ذلك فناً وحده ، تفرد به ، واقتصر عليه أو كاد ؛ فما يستطيع أن يجاريه فيه أديب من أدباء العربية ؛ يرسم لك به الصورة الملونة ، فيضيف اليها فناً من فنه ، ويخلق لك فيها الجديد الذى لم تبصره عيناك ، ولم تتناوله حواسك ؛ على أنك لا تستطيع إلى ذلك أن تنكر أنك ترى شيئاً مما ترى وتحس ، وان أعجزك أن تراه وتحسه كما رآه المازنى وأحسه ، أو كما جلاه عليك فى صورته الفنية المشرقة ؛ وان أعجب ما يروقك من فنه فيما يجلو عليك من صور ، هى هذه النواحى الضاحكة المضمرة وراء ما يبدو لك من عبوس المناظر والصور والأشكال ؛ فهو حين ينظر ، وحين يفكر ، وحين يكتب ، يستطيع أن يريك موضع الابتسامة من كل معنى كئيب ، واشراقة السرور من وراء كل ظل عابس ؛ وله من ذلك فى كل أليم تأخذه عيناه روح من السرور مضمرة مستخفية ، لا ندرى أهو يخلع عليها من فنه فتضحك من عبوس ، وتنبسط من تقطيب ؛ أم أن له عيناً أنفذ بصيرة الى ما وراء المحسوسات ، هى تكشف له عن حقيقتها وسرها ، فما هو إلا أن يجلوها عليك كما رآها ببصيرته واحساسه العميق ؟

وكما تجد للمازنى فنه الخاص به ، تجد له كذلك أسلوبه ولغته ؛ وأحسبه لا يفكر فى اللفظ والعبارة عند ما يهم أن يكتب ، أكثر مما يفكر فى المعنى والموضوع ؛ فهو هنا وهناك لا يكلف نفسه الغوص والتعمق ، واستخراج المعنى من المعنى ، وتوليد الفكرة من الفكرة ؛ بل تراه أسلوباً متساوقاً مطرداً ، وفكراً قريباً من قريب ، وموضوعاً مما يقع عليه الحس وتألفه النفس . وأحسبه أيضاً يلتمس فيما يكتب أن يرضى قراءه ويسرهم ، أكثر مما يلتمس أن يكون إنشاء يخلد به فى الأدب ، واختراعاً يزيد ثروة اللغة معنىً أو موضوعاً أو فكرة . وما حاجة المازنى إلى الخلود وهو لا يراه إلا خرافة ، اخترعها الانسان ليعلل بها نفسه ويرضى ناحية من غروره وكبريائه ؟

على أنه – من حيث يريد ، أو من حيث لا يريد – قد كتب لنفسه فى تاريخ الأدب صفحة ، وأثبت صورة ، ستخلدها وتخلد به

وأنت حين توازن بين ما يكتبه المازنى الآن ، وما كان يكتبه أو يحرره منذ بضع عشرة سنة – لا تجد فرقاً كبيرا ، إلا أن ذلك الأديب الطموح الذى كان يكتب ليقول الناس : « ما أجمل ما كتب ... ! » قد قست عليه الحياة ونالته أحداث الزمن ، حتى عاد يكتب ، لأنه مطلوب منه أن يكتب ؛ ولكنه هو هو المازنى الذى يعجب القراء به ويجتمعون اليه ، وإن لم يعنه هو اجتمعوا أم تفرقوا إلا بمقدار ما يعنى صاحب الصحيفة الذى يطلب اليه أن يكتب !

والمازنى حريص على سلامة لغته ، حرصه على أن تكون أسهل على آذان القراء وأطوع لألسنتهم ؛ وهو بسبيل ذلك كثيراً ما يحاول تصحيح الكثير من لغة العامة وأساليبهم ، فيخطئ فى ذلك ويصيب ، وما على المجتهد فى أن يخطئ بأس ؛ وقد يمر القارئ العادى على ما يكتب المازنى ، فيراه بعض أولئك الضُلّال الذين يدعون الى العامية ويروجون لها ؛ ويمر الأديب المطلع ، فيرى لغةً إن لم تكن الى لغة القدماء فهى منها ، وان كان فيها من لغة العامة ، فهو الجديد الذى تتقبله العربية ولا يأباه البيان الصحيح ، لأنه يزيدها ثروة الى ثروة ، ويفتح الباب الى الأدب القومى فى لغته التى يتحدث بها أهله ، غير نابية ولا مستكرهة ولا أعجمية

ولكنك إذ ترى المازني يحرص على هذه الناحية القومية في اللغة، قل أن تراه كذلك في الموضوع الذي يحاوله؛ وما أكثر ما يشطح خياله الى قصة أو حادثة، فيصورها بأسلوبه الساحر، على أنها مصرية وقعت في مصر، وجرت في الجو المصري، وتحدثت بها ألسنة مصرية، وكان حقها أن تكون مما يقع في لندن، أو باريس، أو برلين! أتكون مطالعات المازني في مصر هي بعض الجو المصري الذي يراه وينقل عنه ...؟ على أنه أدب جديد في العربية على كل حال سواء أكان من إيحاء الجو المصري الى فكر المازني، أم من إيحاء جو غريب

وبعد، فهذا كتاب المازني الجديد «خيوط العنكبوت»، فمن لم يكن يعرف المازني فليعرفه فيه، ولعله أن يرى هناك ما رأيت وأسلفت وصفه. وتبدو لك فكاهة المازني لأول صفحة من الكتاب، حيث يهديه الى ولديه: «اعترافاً بفضلهما، وشكراً لمونتهما... فلولا عبقريتهما لظهر هذا الكتاب قبل عامين!»

وتقرأ فاتحة الكتاب فلا تدلك أي كتاب هو، ولكن سر الى نهايتها ثم اقرأ: «وبعد، فقد لا يكون هذا الكلام أصلح ما يكتب على سبيل التمهيد لمجموعة من الصور والقصص، ولكن روح الفاتحة من روح الكتاب، وهذا شفيعها عندي فعسى أن يكون شفيعها عند القراء...!»

ولقد قرأت المقدمة، وقرأت الكتاب؛ ولكني لم أستطع أن أفهم قوله «... روح المقدمة من روح الكتاب» أما المقدمة ففصل اجتماعي ما كنت أقدر أن يكتب المازني مثله، لا عجزاً منه، فانه لقدير؛ ولكني أعرفه أكثر اعتزازاً بقوميته، وأفخر بعصريته؛ فما كان ينبغي أن يتهكم بمصر ويزري بها، كل هذا التهكم وهذه الزراية في فاتحة الكتاب! وقد يكون فيما عاب على المصريين وأخذ عليهم عيباً ببعض الحق، وقد يكون بعض ما قاله أو أكثر ما قاله صحيحاً ببعض الصحة، ولكن، أما كان ينبغي أن يستر على قومه؟ والجمود والبلادة، والضعف عيوب طالما رميت بها مصر من أعدائها، ومن بنيها أنفسهم، ولكن هذا على ما قد يكون فيه من رغبة الاصلاح، يؤثر أثره في القراء، ويكون أشبه بالإيحاء يستقر في الواعية الباطنية فيعمل عمله، فلا يكون من ورائه الا الجمود والبلادة والضعف حقاً وصدقاً لا تهمة بغير دليل.. ويحاول الأستاذ المازني في ختام الفاتحة أن يعتذر وأن يتقي التهمة؛ أفتراه قد بلغ في اعتذاره مقدار ما بلغ في تجريحه؟

وإن القارىء ليعجب لذلك يصدر عن المازني المصري الفخور بقوميته، ولكن، أرأيت الى المازني إذ يكتب فلا يتحرج أن يسخر من نفسه، وأهله، وولده؟ فما هو ذاك يسخر أيضاً من مصر...!

أما الكتاب، فكل شيء فيه جميل، إلا الفاتحة: وهو قسمان: «صور من الامس»، و«صور من اليوم» هما مجموعة صور وأقاصيص، لا تجد لها شبيهاً مما كتب في العربية، جمعت الى الرقة في الوصف، حسن الأداء وسلامة التعبير، إلا قليلا أحسبه من أثر السرعة التي يكتب بها المازني. وأنت ترى فيما تقرأ من هذا الكتاب صورة المازني الطفل، والمازني العابث، والمازني الأديب الذي يسحر قراءه بسلامة الفكر وحسن الأداء؛ فخياله منشورة في كتابه مصورة، على حين يحاول أكثر كتابنا أن يكون ما يتصل بشخصه أبعد ما يكون عن قرائه. وقد تجد المازني يجنح أحياناً الى المبالغة في تصويره وفي عبارته، وقد تجده يسترسل في الكلام فيكتب في القصة ما لا يطلبه موضوع القصة؛ ولكن هذا وذاك لا يعيبانه ولا ينقصان من مقدرته القصصية وفنه البارع

وبعد، فمن أراد أن يمتع نفسه ساعات من فراغ، ويلذ نفسه، فحسبه أن يقرأ «خيوط العنكبوت»؛ ولو أن أحداً طلب الي أن أدله على خير ما قرأت في هذا الأسبوع فلذني وأمتعني؛ فليقرأ فيما يقرأ من الكتاب «الراعيان»، «سيرة من السير»، «التدخين»، «الشيخ قفة»، «سياسة المرأة»، فسيجد فيها ما وجدت من متاع ولذة، ألذ متاع وأمتع لذة.

محمد سعيد العريان

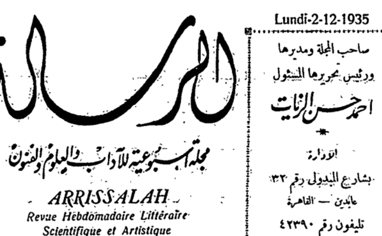
3 me Année, No. 126.

Lunḍi-2-12-1935

بدل الاشتراك عن سنة

٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبتديان رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العــــدد ١٢٦ « القاهرة في يوم الاثنين ٦ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــــدد

في الجمـــــال . . .

— ٣ —

إذا عرفت الجوهر الذي يتحقق به الجمال الطبيعي (١) سهل عليك أن تعرف الجوهر الذي يقوم عليه الجمال الصناعي ، لأنه إما وحيه وإما نموذجه . فالجمال الصناعي يتعلق بالفكرة التي يوحيها إليك الفن عن الفنان ثم عن الفن نفسه إذا كان ابتكارياً ، وبالفكرة التي يوحيها إليك الفن عن الفن نفسه وعن الفنان ثم عن الطبيعة إذا كان تقليديا . ولننظر بادئ الأمر فيم تنشأ منه عاطفة الجمال في الفن الابتكاري كالريازة (٢) مثلا . ففي أي بَنِيَّة من البنايا تجد الوحدة ، والتنوع ، والترتيب ، والتناظر (٣) ، والتناسب ، والتوافق ، تؤلف منها كُلاًّ منتظما في ذلك شك ؛ ولكنك لا تجد في ذلك الشكل جمالا إذا لم يكن من العظمة أو الوفرة أو الذكاء على درجة تثير في نفسك الاعجاب والدهش . وهل تجد في العمارة البسيطة مهما اتسق بناؤها واتفقت أجزاؤها ما تجد في معابد الفراعين من الجمال والجلال والروعة ؟ خذ بنظرك قصراً من قصور القاهرة الحديثة شيد على قدر عادي من العناصر الجمالية

(١) انظر العددين ١٢٢ و ١٢٣ (٢) فن العمارة (٣) السيمترية

الثلاثة ، ثم أطل الوقوف أمامه ما شئت ، تجد الفن فيه نازلا على حكم القواعد الموضوعة ، ولكنه عيي صامت لا يحدثك لا عن نفسه ولا عن صانعه ؛ ثم قف تلك الوقفة أمام معبد الكرنك أو هيكل الأقصر أو هرم الجيزة ، تجد نفسك المسبوهة المشدوهة موزعة بين سمو الفن في ذاته ، وعظمة الفنان في حقيقته . لا جرم أن هذه الأبنية الضخمة الفخمة أقل تناسقاً وتوافقاً من تلك ، ولكن القوة التي أقامت هذه الأعمدة ، ورفعت تلك الصخور ، ونصبت هذه التماثيل ، وصنعت تلك المحاريب ؛ والوفرة التي تراها في الشكول المختلفة ، والصور الناطقة ، والرسوم الدقيقة ، والكتابة الرمزية ، والأصباغ الحية ، والمادة العجيبة ؛ والذكاء الذي يروعك في ابتكار الوسائل الميكانيكية لنقل هذه الأجرام الهائلة من مناحتها في الجبل ، إلى مثابتها في الجو ، لتصارع الفناء الذي لا يفتر ، وتضارع الدهر الذي لا يبيد ؛ هي التي حققت فيها ذلك الجمال ، وألقت عليها هذه الروعة ، وربطت في ذهنك بين فكرتك عن الصنيع وفكرتك عن الصانع . ولو كانت نسبة الذكاء فيها على مقدار نسبة القوة ، لبلغت ما لم تبلغه نواطح السحاب الأمريكية من الغاية التي ينقطع دونها الدرك !

على أن الجمال الطبيعي قد يقوم في بعض مظاهره على القوة والوفرة دون الذكاء ، كما ترى في العواصف والبراكين ، ولكن الذكاء ، إذا أعوز في الفن الصناعي ذهبت عاطفة الجمال فيه بدداً بين التنافر والغرابة ، إذ الطبيعة مجهولة الأسرار محجوبة المقاصد ؛ وقد استراحت عقولنا منذ النشأة إلى أن تلتمس لجهالتها المعاذير ، وتفترض لسفاهتها الحكمة ؛ وليس كذلك الفنان ، فانه مسئول أمام العقل عن العلة التي أجهد من أجلها قوته ، والغاية التي بدد في سبيلها ثروته . وحسبه من الذكاء ما ينفي عنه العبث ؛ فاذا تيسرت له عظمة القوة في ظاهر من النظام ، كفاه ذلك في إنشاء الاعجاب واتقاء النقد ، لأن القوة والوفرة هما المصدران الأولان لنشأة الجمال في الفن .

على أن فكرة القوة تختلف اختلافاً شديداً عن فكرة الجهد ؛ فكلما قلت الدلائل على هذه ، كثرت الدلائل على تلك . فالخفة والظرافة والأناقة والسيراح من صفات الجمال ، لأنها تظهر من القوة أكثر مما تظهر من الجهد ؛ ولكن إنشاء مقامة من الحروف المعجمة أو الحروف المهملة كما صنع الحريري ، أو كتابة سورة من القرآن على حبة من الرز كما يصنع الخطاط السوري ، عمل لا يحدث في النفس شعور الجمال ، لأنه يدل على الجهد أكثر مما يدل على القوة ، ويدعو إلى الرثاء أكثر مما يدعو إلى الدهش . وفي التفصيل المحكم من كلام الله ، وفي السهل الممتنع من كلام التابعين ، كل الفروق بين القوة والجهد .

كذلك لا يستعجم الفرق بين الوفرة الصناع و بين الزخرف الأخرق ؛ فان سر الابداع في الوفرة أنها تضع اللون في مظهره ، والحسن في جوهره ، والمعنى في لفظه ، والشيء في مكانه ؛ أما الزخرف الأخرق فسرف لا ينبئ عن غنى ، ورهق لا يسفر عن قدرة ، ولجب لا يبلغك من ورائه نغم ! هو كل ما يملك الصانع من ثروة نثرها أمام عينيك في غير لباقة ولا تحفظ ، ليخفي بالرياء حقيقة العجز ، و يدفع بالزور تهمة العوز

***

إن ما قلته في الريازة ينطبق على الخطابة والموسيقى وسائر الفنون الابتكارية التي تفصح عن قوى كبيرة ووسائل وفيرة . فالخطيب الذي يبلبل الآراء بقوة كلامه ، ويسترق الأهواء بسحر بيانه ، ويملك على الشعب نوازع القلوب فيرسله على رأيه ، ويصرفه على إرادته ، قد أوتي من القوة في الفن والعبقرية ما يحمل النفوس على الاعجاب بقدرته والانقياد لأمره . كذلك الموسيقي الذي يصبي المشاعر بسحر أنغامه ، والشاعر الذي يسبي العقول بقوة أسلوبه وسمو إلهامه ، كلاهما يعلن الجمال في قوة الفن التي يفرضها ، ووفرة الوسائل التي يعرضها ، وذكاء الروح الذي يفيض على عمله النظام والانسجام والمناسبة . والقوة والوفرة هما كذلك روح هذا الجمال وسره ؛ فاذا كان الانفعال الذي ينشئه الصوت أو القصيدة لطيفاً يحدث اللذة ، ولكنه ضعيف لا يحدث الطرب ، مدحت قريحة الفنان وأطريت عذوبة الفن ، ولكن الاطراء شيء آخر غير هتاف الاعجاب يبعثه سمو العبقرية وقوة الالهام في روائع الموسيقى و بدائع الشاعر

(للبحث بقية)

احمد حسن الزيات

أمس وغـــداً

للأستاذ أحمد أمين

قرأت مرة أن سريا أمريكيا كان له مصانع ومتاجر، كأفخم ما يكون من مصانع ومتاجر، أصابتها النار فأتت عليها، وقدرت الخسائر بملايين الدولارات

وكان هذا السرى فى السابعة والستين من عمره، ليس له قوة الشباب، ولا أمل الشباب، ولا طموح الشباب؛ وكانت ثروته الضائعة ثروة العمر، ومجهود العمر، ونتيجة العمر

أتى اليه « مكاتب » يسأله عن هـذه الكارثة وأسبابها ومقدارها فأجابه: « لست أفكر فى شىء من ذلك، إنما علك علىّ كل فكري الآن: ماذا أنا صانع غداً »

يعجبنى هذا الاتجاه العملى فى التفكير، فانه دليل الحياة، وعنوان القوة، ومبعث النشاط؛ فما دمت حياً ففكر دائماً فى وسائل الحياة، ووسائل السعادة فى الحياة؛ وتلك كلها أمامك لا خلفك، وفى الغد لا فى الأمس

لقد دل هذا السرى باجابته على أنه يقتني عقلية أقوم مما رعته النار، ونفسية خالدة لا تفنى بفناء المال

إن الحياة الناجحة تفكر في الغد، والحياة الفاشلة تبحث فى الأمس. وقديماً قالوا: « إذا أفلس التاجر فتش فى دفاتره القديمة ». وقال الشاعر وقد رأى بنى تغلب لا يعملون عملا جديداً مجيداً، ويكتفون برواية قصيدة قالها عمرو بن كلثوم التغلبى فى مدحهم:

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة ... قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسئوم

ولأمر ما خلق الله الوجه فى الأمام ولم يخلقه فى الخلف، وجعل العين تنظر إلى الأمام ولا تنظر إلى الخلف، وأراد أن يجعل لنا عقلاً ينظر إلى الأمام وإلى الخلف معاً، وأن يكون نظره إلى الخلف وسيلة لحسن النظر إلى الأمام؛ فعكس قوم الفطرة الانسانية ونظروا بعقولهم إلى الخلف وحده، وقلبوا الوضع فجعلوا النظر إلى الخلف غاية لا وسيلة

من هؤلاء الذين نُكِّسوا فى الخلق من إذا حدثتهم فيما هم صانعون غداً حدثوك عما صنعه آباؤهم الأولون، وكيف حاربوا وكيف انتصروا، وكيف سادوا العالم، وكيف وكيف. وهذا حق لو اتخذ وسيلة لعمل مستقبل، واستُحثت به الارادة لعمل مستقبل، وضُرب مثلا لمعالجة مشاكل المستقبل؛ أما أن يكون غرضاً فى نفسه فحديث المعجزة ومن أصيبوا بأنيميا « الفكر » وضعف الارادة.

وممن نُكِّسوا فى الخلق هؤلاء الذين يثيرون العداوات القديمة والأحقاد القديمة بين رجال الأمة وقادتها؛ فاذا طالبتهم أن ينظروا إلى الأمام، ويتكيفوا بما يتطلبه المستقبل، أبوا إلا أن يذكروا لك تاريخ الأمس، وحزازات الأمس، وسخائم الأمس، وما دروا أنهم بهذا يعطلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل، أو دروا ولكنهم الماكرون الخادعون. فليس يصح أن ينظر فى الأمس إلا لتجنب أغلاط الأمس فى المستقبل، والانتفاع بصواب الأمس وخطئه فى المستقبل

وممن نكسوا فى الخلق هؤلاء الذين جمدت عقولهم فاعتقدوا أن كل شيء كان خيره فى الأمس وشره فى الغد؛ فخير النحو ما وضعه سيبويه، وخير البلاغة ما قاله الجاحظ، وخير الفلسفة ما قاله ابن سينا وابن رشد والفارابى، وخير عصور الدين ما سبق من العصور، وخير الأخلاق أخلاق آبائنا، وأنه لم يبق فى هذا الزمن إلا الحثالة من كل علم وأدب ودين وخلق، وأن العالم فى ذلك كله سائر إلى التدهور دائماً، فأمس خير من اليوم، واليوم خير من الغد. فهذه العقلية لا تنفع للحياة وإنما تنفع للصوامع؛ ولا تنفع للجهاد وإنما تنفع للفناء؛ ولا تنفع لمن أرادوا أن يتبوءوا مكاناً فى الحياة وإنما تنفع من أرادوا أن يتبوءوا مكاناً فى القبور. إن النحو الذى ننشده هو فى المستقبل لا فى الماضى؛ واللغة التى تصلح لنا وتؤدى مطالبنا فى الحياة هى فى المستقبل لا فى الماضى؛ والأدب الذى يمثل نزعاتنا حق تمثيل هو فى المستقبل لا فى الماضى؛ والأخلاق التى تلائم الموقف الاجتماعى الذى نقفه اليوم هى فى المستقبل لا فى الماضى؛ وليس لنا من الماضى إلا ما يصلح للمستقبل بعد غربلته وابعاد ما تعفن منه. إن موقفنا بين الماضى والمستقبل يجب أن يكون كموقف وجهنا فينا؛ وضعه الطبيعى فى الأمام؛ ولكن الانسان قد يلوى عنقه وينظر إلى الوراء إذا دعت الضرورة، ثم يعود سيرته الأولى من النظر إلى الأمام ويسير لوجهه ويمضى قُدُماً لشأنه؛ ولن ترى انساناً طبيعياً

لوى عنقه دائماً ، ونظر الى الخلف دائماً

ومن نُكسوا فى الخلق هؤلاء الذين وقفوا ينتظرون القدر ؛ أولئك لم ينظروا للمستقبل ، ولكن ينظرون الى ما يفعل بهم المستقبل ؛ أولئك أحجار ينفعلون ولا يفعلون ، ويتأثرون ولا يؤثرون ؛ وإنما مستقبلك فى يدك ولك دخل كثير فى صياغته ، فان شئت تكن فقيراً ، وإن شئت تكن غنياً – الى حد كبير – وإن شئت تكن سعيداً ، وإن شئت تكن شقياً ؛ وليس يستسلم للقدر إلا من فقد إرادته وأضاع إنسانيته

لقد أتى على الناس زمان كان الاستسلام للقدر عنوان « الولاية » ورمز القداسة ، وكلما أمعن الانسان فى التجرد عن الدنيا أمعن الناس فى تعظيمه وتبركوا به ولثموا يده ؛ ولكن هذا تقدير الماضى ؛ أما تقدير اليوم والمستقبل فالولاية والقداسة فى العمل ، والولى أو القديس هو المصلح ، وهو الذى يبنى المجد بعمله لأمته وللأنسانية ؛ وهو الذى يواجه العمل فى شجاعة وإقدام ، لا الذى يفر من الميدان ؛ وهو الذى يرسم خطة العمل وينفذها ، لا الذى يعزى عن الكوارث ويعود المرضى ويلطف وقع البؤس ؛ وهو الذى يشق الطريق لمحو الفقر عن الفقراء والبؤس عن البؤساء ، لا الذى يذرف الدمع ويوصى بالصبر على احتمال الفقر من غير حث على العمل ، والتفكير فى طرق الخلاص من البؤس ؛ وليس الولى والقديس من يحلم بل من يعمل

مضى الزمن الذى كنا نرصد فيه النجوم لنتطلب السعادة من سلطانها ، ونجتنب الشقاء فى أوقات نحسها ، وأصبحنا نشعر بأن النحس نحس الخلق وموت الارادة ، والسعادة حياة النفس وتفتح الأمل ، والمشى فى مناكب الأرض ، وإعمال اليد والعقل فى جلب الرزق ، وجلب الخير ، ودفع الشر ، ودفع البؤس والفقر

* * *

خير لك إن كنت فى ظلمة أن تأمل طلوع الشمس غداً من أن تذكر طلوعها أمس ؛ فلكل من الظاهرتين أثر نفسى مناكس للآخر ، ففى ترقبك طلوع الشمس غداً الأمل والطموح الى ما هو آت ، وفى هذا معنى الحياة ؛ وفى تذكرك طلوعها أمس حسرة على ما فات ، وألم من خير كنت فيه الى شر صرت فيه ، وفى ذلك معنى الفناء

وفرق كبير بين من يُلطَم اللطمة فلا يكون له وسيلة إلا البكاء ، وتذكُّر اللطمة ثم البكاء ، ثم تذكر اللطمة ثم البكاء ، وبين من يلطم اللطمة فيستجمع قواه للمكافحة . والحياة كلها لطمات ، وأعجز الناس من خارت قواه أمام أول لطمة فهرب . ولو أنصف الناس لقوموا الناس بمقدار كفاحهم ، لا بمقدار فشلهم ونجاحهم

* * *

شر ما ألاحظ فى الشرق حنينه الشديد الى الماضى ، لا أمله القوى فى المستقبل ، واعتقاده أن خير أيامه ما سلفت لا ما قدمت ، وإعجابه الشديد بأعمال الماضين وإهمال المعاصرين ؛ له منظاران : منظار مكبّر يلبسه إذا نظر الى الماضى ، ومنظار مصغّر أسود يضعه إذا نظر الى الحاضر والمستقبل . يلذه أن يطيل البكاء على الميت ، ولا يلذه أن يتدبر فيما يجب أن يفعله الأحياء ؛ يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت ، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء للمريض . يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تدل على عظم الماضى ، ولا يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل فى المستقبل ؛ ففى أعماق نفوسهم أن قول القائل : « ما ترك الأول للآخر » خير من القول : « كم ترك الأول للآخر » . ويلوكون دائماً : « لا جديد تحت الشمس » ، ولا يعجبهم أن تقول إن كل ما تحت الشمس فى جدة مستمرة ، والمستقبل مملوء بالجديد . وإذا رأوا كلمة فى كتاب قديم تدل – ولو دلالة كاذبة – على نظرية جديدة طاروا بها فرحاً ، لأن ذلك يلائم ما فى نفوسهم من تعظيم الماضى وتحقير الحاضر والمستقبل . هم يعيشون فى أحلام ، ولا يريدون أن يعيشوا فى حياة واقعة ، وحول هذه المعيشة الحالمة ينسجون دائماً ما يوافقها ويمازجها ويسايرها ؛ يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة ؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعموا فى الدنيا والآخرة ؟

أحمد أمين

فى العدد القادم

ابتداء من العدد القادم سننشر فصولاً قيمة فى (نظرية النسبية الخصوصية) تتناول الكلام (١) فى الزمان ونسبيته ، (٢) وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية ، (٣) مبادئ الميكانيكا الحديثة ، (٤) مبادئ الديناميكا الجديدة ، (٥) كون منكوفسكى والفاصلات الفراغية والزمانية ، بقلم الدكتور الفاضل الأستاذ اسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية

٢ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ورأيتُ المجنونين يدخلان معاً فكأنما سدَّا الباب وسوّياه بالبناء ، وتركا الغُرفةَ حائطاً مُصمتاً لا بابَ فيه مما اعتراني من الضيق والحرج ؛ وقلت في نفسي : إنه لا مذهبَ للعقـل بين هذين إلا أن يُعينَ كلاهما على صاحبه ، فأرى أن أدَعهما وأكونَ أنا أصرِّفُهما ؛ وبا ربما جاء من النوادر في اجتماع مجنونين ما لا يأتي مثله من عقلين يجتمعان على ابتكاره ؛ غير أني خشيتُ أن أكون أنا المجنون بينهما ، ثم لا آمن أن يَثِب أحدهما بالآخر إذا خطرتْ به الخطْرةُ من شيطانه ، فرأيت أن يكونَ لي ظهيرٌ عليهما ، إن لم يحقّ به العونُ فلا أقلَّ من أن يطول به الصبر . . وكان إلى قريب مني الصديق ا . ش . فأرسلت في طلبه

أما هذا المجنونُ الثاني الذي جاء به (نابغة القرن العشرين) فقد رأيته من قبل ، وهو كالكتاب الذي خُلِّطت صحفُه بعضها في بعض فتداخلتْ وفسد ترتيبها ، وانقلب بذلك العلمُ الذي كان فيها جهلاً وتخليطاً يثبُ الكلام بعد كل صفحة إلى صفحة غريبة لا صلة لها بما قبلها ولا ما بعدها

وهو طالبٌ أزهريٌ كان أكبر همّه أن يصير حافظاً كالحفاظ الأقدمين من الرواة والفقهاء ، فجعل يستظهرُ كتاباً بعد كتاب ومتْناً بعد متن ؛ وكانت له أذُنٌ واعيةٌ فكل ما أُفرغ فيها من درس أو حديث أو خبر ، نزلَ منها كالنقر على آلة الكاتبة ، فينطبعُ في ذهنه انطباعَ الكتابة لا تُمحى ولا تُنسى

ثم النَّاثَ هذه اللَّوثةَ وهو يحفظ متناً في فقه الشافعي رضي الله عنه ، فغبرَ سنين يتحفظه ، كلما انتهى إلى آخره نسيه من أوله ؛ فيعود في حفظه وربما أثبتَ منه الشيء بعد الشيء ، ولكنه إذا بلغ الآخر لم يجد معه الأول ؛ فلا يزال هذا دأبه لا يملُّ ولا يجد لهذا العنَاء معنى ، ولا يزال مقبـلاً على الكتاب يجمعه ثم لا يزال الكتابُ يتبدَّدُ في ذاكرته .

وترك المعهد الذي هو فيه وتخلى في داره للحفظ وأجمع أن لا يدع هذا المتن أو يحفظه كأنَّ فيه الموضعَ الذي فارقه عقله عنده ، وبذلك رجع المسكين آلة حفظ ليس لها مساك ؛ وأصبح كالذي يرفع الماء من البحر ، ثم يلقيه في البحر ، لينزح البحر . . .

***

وجاء ا . ش . فقلت له وأومأتُ إلى المجنون الأول : هذا نابغةُ القرن العشرين

قال : وهل انتهى القرنُ العشرون فيعرف مَن نابغتُـه ؟

فقلت للمجنون : أجبـه أنت . فسأله : وهل بدأ القرنُ الواحد والعشرون ؟ قال لا

قال : فإن هذا الذي إلى جانبي نابغةُ القرن الواحد والعشرين . . . فكما جاز أن يكون هو نابغةَ قرن لم يبدأ ، جاز أن أكون أنا نابغةَ قرن لم ينته

قلتُ : ولكنك زدتَ الشكلة تعقيداً من حيث توهمتَ حلها . فكيف يكون معك في آن وبينك وبينه خمس وستون سنة ؟

فنظر نظرةً في الفضاء ، وهو كلما أراد شيئاً عسيراً نظر إلى اللاشيء ... ثم قال : هذه الأمورُ لا تشتبه إلا على غير العاقل ... وكيف لا يكون بيني وبينه خمس وستون سنة وأنا أتقـدَّمه في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة . . . ؟

قلت للآخر : أكذلك ؟

قال : مما حفظناه عن الحسن : أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو أدركوكم لقالوا شياطين . . .

فضحك الأول وقال : إنه تلميذي

قال الثاني : لقد صدق فهو أستاذي ولكنه حين ينسى لا يذكِّره غيري . . .

قلت : لا غرو ؛ « فيما حفظناه » عن الزُّهرى : إذا أنكرت عقلك فاقدحه بعاقل . . .

فغضب نابغـة القرن العشرين وقال : ويحٌ لهذا الجاهل ، الأحمق ، الجاحد للفضل ، مع جنونه وخبله . أيذكّرني وهو منذ كذا وكذا سـنةً يحفظ متناً واحداً لا يمسك عقله إلا كما يُمسك الماء الغرابيل ؟ صدق والله من قال : عدوٌ عاقل خيرٌ ؛

خيرٌ، خيرٌ. فقال الثاني: خير من صديق جاهل، هأنذا قد ذكرتك من نسيان، وهأنت ذا رأيت.

فضحك النابغة وقال: ولكني لم أرد أن أقول هذا، بل أريد أن أؤلف كلاماً آخر . . . . . . عدوٌّ عاقل خيرٌ، خيرٌ، خيرٌ، خيرٌ من مجنون جاهل . . . .

***

ورأيت أن في التقاء مجنونين شيئاً طريفاً غير جنونهما، وصحّ عندي أن المجنون الواحد هو المجنون، أما الاثنان فقد يكون من اجتماعهما وتحاورهما فنٌّ ظريف من التمثيل إذا وجدا من يبصّرهما في الحديث، ويستخرج ما عندهما، ويستكشف منهما قصتهما العقلية . . . .

ولم أكن أعرف أن (نابغة القرن العشرين) من المجانين الذين لهم أذُنٌ في غير الأذن، وعينٌ في غير العين، وأنفٌ بغير الأنف؛ إذ تتلقى أدمغتهم أصواتاً وأشباحاً وروائح من ذات نفسها لا من الوجود، وتدركها بالتوهم لا بالحاسة، فتتخلّق هواجسهم خَلْقاً بعد خَلْق، ويخطر الكلمة من الكلام في ذهن أحدهم فيخرج منها معناها يتكلم في دماغه أو يجيء أو يلاطفه أو يؤذيه أو يفعل أفعالاً أخرى.

وبينا أنا أدير الرأي في اخراج فصل تمثيلي من الحوار بين هذين المجنونين (1)، إذ قال (نابغة القرن العشرين): صَهْ، إن جرس «التلفون» يدق.

قال ا. ش: لا أسمع صوتاً وليس ههنا تلفون

فاغتاظ المجنون الآخر وقال: إنك تتقحّم على النوابغ ولست من قدرهم، وما عملك إلا أن تنكر، والإنكار، ويلك، أيسر شيء على المجانين وأشباه المجانين، والعامة وأشباه العامة؛ وقد أنكرت نبوغه آنفاً وأراك الآن تنكر «تلفونه» . . . . . .

قال ا. ش: وأين التلفون وهذه هي الغرفة بأعيننا؟

فضحك (نابغة القرن العشرين) وقال: صه ويحك لقد خلطت عليّ؛ إن الجرس يدقّ مرة أخرى وأنا لا أريد أن أكلمها حتى يطول انتظارها، وحتى تدق ثلاث مرات، وأخشى أن تكون قد دقت الثالثة وذهب رنينها في صوتك ولغطك

(1) سيأتي هذا الفصل التمثيلي في مقال آخر

قال المجنون الآخر: هي صاحبته التي يهواها وتهواه؛ وقد استهواها وتيّمها وجنّنها وخبّلها، حتى لا صبر لها عنه، فوضعت له تلفوناً في رأسه . . . .

قال (النابغة): وهذا التلفون لا يُسمعني صوتها فقط، بل هو ينشقني عطرها أيضاً. وقد تكلمني فيه الملائكة أحياناً، وأنا ساخط على هذه الحبيبة فإنها غيورٌ تخشى سطواتها على اللاتي تغار منهن؛ ولولا ذلك لكلمتني في هذا التلفون إحدى الحور العين . . . .

قلنا: أو تغار منها الحورُ العين؟

قال المجنون الثاني: بل الأمر فوق ذلك، فإن الحور العين يشتمنها ويلعنها؛ «فيما حفظناه» هذا الحديث: لا تؤذي امرأةٌ زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله؛ فإنما هو عندك دخيلٌ يوشك أن يفارقك إلينا.

قال (نابغة القرن العشرين): ويلي على المجنون! إنه يريد أن يخلو له موضعي فهو يتمنى هلاكي وانتقالي وشيكاً من هذه الدنيا. وهو يقول بغير علم لأنه أحمق ليس له عُقدةٌ من العقل، فيزعم أنها تؤذيني؛ ولو هي آذتني لغضبت قبل ذلك، ولو غضبت لرفعت التلفون . صه إن الجرس يدق.

***

قال ا. ش: إن للنوابغ لشأناً عجيباً، ففي مديرية الشرقية رجلٌ نابغةٌ ماتت زوجته وتركت له غلاماً فتزوج أخرى وهو يعيش في دار أبيه. فلما كان عيد الأضحى سأل أباه مالاً يبتاع به الأضحية فلم يعطه. وهو رجل يحفظ القرآن فذكر قصة إبراهيم عليه السلام ورؤياه في المنام أنه يذبح ابنه، فخُيِّل إليه أن هذا باب إلى النبوة وأن الله قد أوحى إليه، فأخذ الغلام في صبيحة العيد وهمّ بذبحه. ولولا أن صرخ الغلام فأدركه الناس فاستنقذوه . . .

قال (نابغة القرن العشرين): هذا مجنون وليس بنابغة؛ بل هذا من جهلاء المجانين؛ بل هو مجنون على حدته. وقد رأيته في البيمارستان حين كنت أنا في المستشفى . . فكان يزعم أنه ائتمر في ذبح غلامه بإرادة الله. ولو كانت إرادة الله لنفذت بالذبح، ولو كان الأمر وحياً لنزل عليه من السماء كبش يذبحه . . .

وهكذا أنا فى المنطق (نابغة القرن العشرين)

ثم إنه أشار الى المجنون الثانى وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة كاملة

قلت : ولكنك ذكرتَ هذا من قبل فلِمَ عدتَ فيه الآن ؟

قال : إن السبب قد تغير فتغير معنى الكلام ؛ وقد بدا لى أنه يتمنى هلاكى ليكون هو نابغة القرن العشرين . فمعنى الكلام الآن : أنه لو عاش خمسا وستين سنة « يحفظ المتن » لما بلغ مبلغى من العلم . هذا رجل نصفه ميت جنوناً موتاً حقيقياً ، ونصفه الآخر ميت جهلاً بالموت المنوى

قال ا . ش : حسبُهُ أن يقلدك تقليد العاجز لأمامه فى الصلاة ؛ وعسى ألا تستكثر عليه هذا فانه تلميذك

قال المجنون الثانى « مما حفظناه » : لو صُوِّر العقلُ لأضاء معه الليلُ ، ولو صور الجهلُ لأظلم معه النهار ... ونابغة القرن العشرين هذا لا يعرف كيف يصلى ، فقد وقف منذ أيام يصلى بالشعر ... ولما رأيته ناسياً فذكرته ونبهته أن الصلاة لا تجوز بالشعر ، التفت الى وهو راكع فسبَّنى وشتمنى وصرخ فىَّ وقال : ما شأنك بى هل أنا أصلى لك أنت ...

فغضب « النابغة » وقال : والله إنْ تحسبوننى إلا مجنونا فتريدون أن يقلدنى هذا الأحمقُ الذى ليس له رأىٌ يمسكه .. ولولا ذلك لما اعتقدتم أن تقليدى من السهل الممكن ، ولعرفتم أن نابغة القرن العشرين نفسه لم يستطع تقليد نابغة القرن العشرين

قلنا : هذا عجيب ، وكيف كان ذلك ؟

فضحك وقال : لا أعدُّكم من الأذكياء إلا إذا عقلتم كيف كان ذلك

قال ا . ش : هذا لم يُعرف مثلُه فكيف نعرفه ، ولم يتوهمه أحد فكيف نتوهمه ؟

وقلت أنا : لعلك رأيت نفسك فى الرؤيا

قال : لو لم تكن أستاذ نابغة القرن العشرين لما عرفتَها ؛ وهذا نصف الصواب ؛ وما دمت أستاذى ، فلو أننا اختلفنا فى رأى لكان خلافك لى صوابا لأنه منك ، وكان خلافى لك صوابا لأنه منى ؛ فأنت (غير مخطىء) وأنا مصيب ، وإذا أسقطنا كلمة (غير) أظلُّ أنا مصيباً وتكون أنت مخطئاً . . .

أنا لم أر (نابغة القرن العشرين) فى الرؤيا ولكنى رأيته فى المرآة عند الحلاق . . . ورأيته يقلدنى فى كل شىء حتى فى الإشارة والقَوْمة والقَعْدة ، ولكنى صرختُ فيه وسبَبْتُه ففتح فمه ثم خافنى ولم يتكلم . . .

وأومأ إلى المجنون الآخر وقال : وأنا أتقدم هذا فى النبوغ بأكثر من علم العلماء فى خمس وستين سنة

قال ا . ش : لقد قلتَها مرتين كلتاهما بمعنى واحد ، فما معناك فى هذه الثالثة ؟

قال : هذا الغِرُّ يزعم أنى لا أعرف كيف أصلى ، ويستدلُّ بذلك بأنى صليتُ بالشعر وأنى شتمته وأنا راكع ؛ ولو كان عاقلاً لعلم أن شتمى إياه وأنا راكع ثواب له . . . ولو كان نابغةً لعلم أن الشعر كان فى مدح دولة النحاس باشا وأولى النُّهى .

قلنا : ولكن الشعر على كل حال لا تجوز به الصلاة ولو فى مدح دولة النحاس باشا

قال : لم أصلِّ به ولكن خطر لى وأنا أصلى أنى نسيتُ القصيدة فأردت أن أتحقق أنى لم أنسها .... فاذا أنا نابغة القرن العشرين فى الحفظ وهى ستة أبيات : لا كهذا المعتوه الذى صبر على المتن صبرَ الغريب على الغُربة الطويلة ومع ذلك لم يحفظه

قال ا . ش : فأمْلِ علينا هذا الشعر . فأملى عليه (١)

يا حليف السُّهْد قل لى   أين مَنْ فى الدهر خالْ
إن تكن تهوى غزالاً   أكحل العينين مالْ
أنا أهواها ولكن   لا سبيل إلى الوصالْ
منذ ولَّت قلتُ مهلاً   منذ غابت فى خيالْ
أنا مجنونٌ بليلى   ليلَ يا ليلى ! تعالْ

قلنا ولكن ليس هذا مدحا . فضحك وقال : أردت أن تعرفوا أنى أقول فى الغزل ، أما المديح فهو :

شنف الورى بمناصب وأمانى   وشغفت يا نحاس بالأوطان
حسبوا الحياة تفاخرا وتنعما   وحسبتها لله والأوطان

ثم أُرْتِج عليه فسكت . قال المجنون الآخر : إنها ستة أبيات ، وقد نسيت أربعة ، ولست أريد أن أذكرك

فقال (النابغة) : أظنه قد حان وقت الصلاة وأريد أن أصلى ..

(١) هذا شعره بحروفه كما أملاه

ونظر إلى اللاشىء فى الفضاء ثم قال . والبيت الأخير :

لا أبتغى فى المدح غير أولى النُّهى أو صادق[1] أو شوقى أو مطران

ثم أمر ا . ش . أن يقرأ عليه الشعر فقرأه ، فقال : أحسنت ، أنظر إلى فوق ؛ فنظر ، ثم قال انظر إلى تحت ؛ فنظر ثم سكت

قال ا . ش : وبعد ؟ قال : وبعدُ فان الناس ينظرون إما إلى فوق وإما إلى تحت . . . .

***

وكان الضجر قد نال منى ، فرجوت ا . ش . أن يلبث معهما وأذنت لنابغة القرن العشرين أن يلقانى فى الندىّ وانصرفت

قال ا . ش وهو يُنبئنى : فما غبت عنا حتى أخذ المجنون يشكو ويتوجع ويقول : لقد حاق بى الظلم ، وإن (الرافعى) رجل عَسُوفٌ ظالم لأنى أكتب له كل مقالاته التى ينشرها فى (الرسالة) ... وأجهد نفسى لها ، وأجهدُ فى بيانها ، وأذيب عقلى فيها ، وهو مستريحٌ وادعٌ ، وليس إلا أن ينتحلَها ويضع توقيعه عليها ويبعث بها الى المجلة ثم هو يقبض فيها الذهب وينال الشهرة ولا يدفع لى عن كل مقالة إلا قرشين[2] ...

قال ا . ش : فما يمنعك أن ترسل أنت هـذه المقالات الى الى المجلة فتقبض فيها الذهب ؛ قال : إن هناك أسراراً أنا مُخْتَصِنها وكاتمها ، ولا ينبغى أن يعلمها أحد فانها أسرار ...
قال له : فدع (الرافعى) واكتب لى أنا هذه المقالات وأنا أعطيك فى كل مقالة ذهبين لا قرشين .

قال هذه أسرار ولا أستطيع أن أكتب إلا للرافعى ، لأن (نابغة القرن العشرين) لا يجوز أن يدعى كلامَه إلا أستاذ نابغة القرن العشرين ، ولو ادعاه غيره لكان هذا حطاً من قدر نابغة القرن العشرين . وهذا بعض الأسرار لا كل الأسرار ...

قلت : ثم جاء المجنونان فى العشيّة الى الندىّ

(لها بقية)
مصطفى صادق الرافعى

إلى الأستاذ ح . ع فى بغداد : سرنى كتاب الصديق الكريم ، ولكن ما قصة الحجر الأخضر الذى يشبه الزمرد ؟
الرافعى

---

(١) فسر (صادق) بأنه أستاذ نابغة القرن العشرين . . .

(٢) لا يزال هذا المسكين منذ تسعة أشهر يدعى أنه هو الذى يكتب لنا هذه المقالات ، غير أنه رفع القيمة أخيرا فجعلها عشرين قرشاً ....

١ ـ الصقالبة فى الرواية العربية
وفى الدولة الأندلسية
للأستاذ محمد عبد الله عنان

لم يعن العرب فى فتوحاتهم الأولى بتعيين الأمم والأجناس الأجنبية تعييناً واضحا ، وإذا استثنينا الفرس والروم والقبط والبربر والقوط ، فان هذا التصنيف للأمم والأجناس الأجنبية يتخذ فى الرواية الاسلامية صفة التعميم الغامض ، فنجد كلمات « الأعاجم » و« النصارى » و« الفرنج » تطلق على أمم وأجناس متباينة لا يمكن تحديدها وتعيينها إلا على ضوء الحوادث والظروف ؛ بل نجد كلمة « الروم » ذاتها تطلق فى الرواية الاسلامية الأولى على الرومان وعلى سكان الدولة الشرقية (الدولة البيزنطية) اليونانيين وأحيانا على سكان المستعمرات الرومانية مثل الشام وطرابلس ؛ وتطلق كلمة الفرنج لا على أمة الفرنج (الفرنكيين) وحدها ، بل على معظم الأمم والممالك النصرانية التى كانت تعيش يومئذ فى غرب أوروبا وفى وسطها ؛ ولم تعن الرواية الاسلامية بالتصنيف والتحديد فى هذا الميدان إلا منذ القرن الثالث الهجرى ، وفى القرن الرابع نجد هـذا التصنيف القومى أكثر وضوحا سواء من حيث اللفظ أو المعنى ، فنجد الرواية الاسلامية تحدثنا عن الفرنج واللمان (الألمان) والبلغار والروس والصقالبة ، وعن انكبردية (بلاد اللومبارد) وافرنسة وبرطانية ؛ وهذا التقدم فى تصنيف الأجناس والأمم يرجع الى تقدم مماثل فى الجغرافية الاسلامية ، والى تقدم العلائق والصلات الدبلوماسية والتجارية بين الأمم الاسلامية والأمم النصرانية

وقد كانت كلمة « الصقالبة » من أغمض الكلمات التى أطلقت فى الرواية الاسلامية على الأجناس الأجنبية الدخيلة ؛ ولم يبق اليوم ثمة غموض فى تعريف البلدان والأمم الصقلبية ، فهى تشمل قسما من بلاد البلقان وتشمل صربيا ورومانيا وروسيا حتى الشرق الأقصى وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وشرق ألمانيا ؛

وبعبارة أخرى هى الأمم التى تعرف اليوم بالأمم « السلافية » أو السلافونية « Slavs ; Slavonians » . ولكن كلمة « الصقالبة » فى الرواية الاسلامية كانت بعيدة جدا عن أن تشمل مثل هــذا التصنيف الواسع ، ومع أننا نراها مستعملة فى الرواية الاسلامية منذ القرن الثانى للهجرة ، فانها لبثت دائما لفظاً غامضا متباين المعنى . فمثلا يستعملها البلاذرى ، وهو من أقدم رواة الفتوح الاسلامية فى أكثر من مناسبة ؛ فيقول لنا إن المنصور « نقل أهل الحصون وهم فرس وصقالبة وأنباط ونصارى من المصيصة وكان مروان أسكنهم إياها [1] » ؛ ومن الصعب أن نضبط المعنى الذى ينصرف اليه لفظ « الصقالبة » فى هــذا العصر المتقدم . بيد أنه يلوح لنا أن الكلمة كانت تطلق حتى القرن الثالث على سكان بلاد الخزر (قزوين) والقوقاز وما اليها ، ثم اتسع معناها نوعا وأطلقت على سكان البلقان التــابعين للدولة البيزنطيــة مثل البلغار ؛ وقد كان الصقالبة فى الواقع يستعمرون هذه الأنحاء فى تلك العصور ، وكانت لهم فى بلغاريا مملكة « صقلبية » حقيقية . وكان معنى الكلمة أوضح وأدق فى الغرب الاسلامى ، فى الأندلس وصقلية والمغرب ، حيث كانت تطلق على الأجناس الصقلبية الحقيقية التى تسكن حوض الدانوب الشرقى والأوسط وألمانيا وضفاف الادرياتيك ، ويؤتى منها الى الأندلس والمغرب بالخصيان والأسرى [2] ؛ ويعرف الشريف الادريسى بلاد الصقالبة بأنها هى شبه جزيرة البلقان ، وهو فى الواقع معنى أقدم من عصر الادريسى ، بيد أن الادريسى يشير على ما يظهر الى التجديد السياسى حيث كانت مملكة الصقالبة (بلغاريا) تسود يومئذ بلاد البلقان [3]

وعرفت الصقالبة وعرفتهم القصور الاسلامية فى عصر مبكر جدًا ، فمنذ الدولة الأموية نجدهم فى بلاط الخليفة وفى الجيش ؛ ولكن نفوذهم الحقيقى فى القصور الاسلاميــة يبدأ منذ القرن الرابع الهجرى ، فنراهم عندئذ يتقلبون فى الوظائف والمهام العليا بعد أن كانوا يقتصرون على تقلد الوظائف والمهام الصغرى فى البلاط وداخل القصر ، مثل وظائف الخدمة السلطانية والنظر على الشؤون النزلية المحضة كشؤون المائدة والثياب والرياش ، ونراهم يســيطرون على شؤون الدولة العليا ، فيتولون الوزارة والقيادة والوصاية أحيانا ويسود نفوذهم فى القصر وفى الحكومة . وقد كان هذا النفوذ يرجع فى الغالب الى سياسة الدول والأسر ، تعمل لرعايته وإيثاره لبواعث سياسية واجتماعية ؛ وسنقتصر هنا على معالجة مركز الصقالبة ونفوذهم فى الأندلس حيث كانت لهم دولة وكان لهم أيما نفوذ

— ٢ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالى والصقالبــة واتخاذهم أداة وبطانة ؛ وكانت الظروف العصيبة التى أحاطت بقيام الدولة الأموية فى الأندلس ، والخطوب والثورات الجمــة التى تفجرت حول عبد الرحمن الداخل والتى أثارها خصومه ومنافســوه من زعماء القبائل العربية ، هى التى حملته على الاسترابة بالعرب وعلى اصطفاء البربر والموالى الذين آزروه وقت المحنــة ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته [1] ؛ وقد حافظ خلفاء الداخل على هــذه السياسة فى جوهرها منذ البداية لشعورهم بأهميتها وضرورتها لمقاومة نفوذ القبائل الخصيمة التى كانت تقاسمهم السلطان والنفوذ قبل قيــام الدولة الأموية ؛ وظهر الصقالبة بكثرة لأول مرة فى البلاط الأندلسى فى عهد الحكم المنتصر حفيــد عبد الرحمن الداخل (١٨٨ ــ ٢٠٦ هـ) ؛ وكان الحكم يعشق مظاهر الفخامة والملك الباذخ ، فغص البلاط الأموى فى عصره بالخدم والحشم من المماليك والصقالبة حتى بلغ عددهم زهاء خمسة آلاف [2] وأخذ نفوذ أولئك الصقالبــة يقوى شيئاً فشيئاً داخل القصر والبطانة . بيد أنه لبث مدى حين بعيداً عن شؤون الدولة العليا قاصرا على شؤون القصر والخاص

وفى عهد الناصر قوى نفوذ الصقالبة وازدهر ؛ وكان الناصر يجرى على ســنة سلفه عبد الرحمن الداخل فى الاسترابة بالقبائل

(١) فتوح البلدن ــ مصر ــ ص ١٧٠ (٢) ويرى البعض أن كلمة صقالبة العربية مشتقة فى الأصل من كلمة Esclave الإفرنجيــة (الفرنسية) ومعناها الرقيق والأسير (راجع رينو Invasions des Sarrazins en France ص ٢٢٧ والمراجع) (٣) قارن المستعرق بارتولد Ency. de l'Islam; Slaves:

(١) راجع نفح الطيب ــ مصر ــ ج ١ ص ١٥٦ (٢) ابن الأثير ج ٦ ص ١٢٨

العربية ذات العصبيــة والبأس، وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ؛ وكان يمعن في الاستئثار بالسلطة حتى لقد ألغى وظيفة الحاجب ، وجمع مقاليــد الحكم كلها في يده ؛ وعهد بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعي المنبت من الصقالبة والموالي المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ؛ وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ويوليهم من النفوذ ما لا يوليه سواهم [1]

ومنذ أواسط عهد الناصر يبدأ نفوذ الصقالبة الحقيقي في بلاط قرطبة . وقد كانت كلمة الصقالبة تطلق في الأندلس كما قدمنا على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلبية الحقيقية ؛ ولكنها غدت تطلق بمضي الزمن على جميع الأجانب الذين يخــدمون في البطانة وفي الجيش ؛ ولما استحكم نفوذ الصــقالبة واستأثروا بحماية الخليفة والقصر ، أضحت الكلمة تطلق منــذ عهد الحكم المستنصر على الحرس الخلافي [2] وقد انتهت إلينا عن صقالبة الأندلس في هذا العصر رواية شــاهد عيان هو الرحالة البغدادي ابن حوقل الذي زار قرطبة والزهراء في أواخر عهد الناصر أو أوائل عهد ابنه الحكم المستنصر وبحث أحوال الصقالبة وكتب عنهم في رحلته ما يأتي :

« وبالأندلس سلاح كثيرة ترد إلى مصر والمغرب ، وأكثر جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان من سبي فرنجة وجليقية . والخدم الصقالبة وجميع من على وجــه الأرض من الصقالبة الخصيان من جلب الأندلس ، لأنهم بها يخصون ، ويفعل ذلك بهم تجار اليهود عند قرب البلد ؛ وجميع ما يسبى إلى خراســان من الصقالبة فباق على حالته ، ومقر على صورته . وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابذنده يشــق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وأفرنجة وانكبرده وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله » [3] ، ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجاً من الجليقيين (النصارى الأسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجــة) واللومبارديين (أهل انكبردة) والايطاليين (من قلوريه) . وكذلك الروس وهم أهل القسم الأول من بلاد الصقالبة . وكان معظم هؤلاء الصقالبة يؤتى بهم أطفالا من الجنسين بواسطة خوارج البحر (القرصان) وتجار الرقيق ، وبحملهم سفن القرصان أو سفن البنادقة إلى مختلف ثغور البحر الأبيض ؛ وكانت الكنيسة تقاوم هــذه التجارة المثيرة وتحرمها ؛ بيد أنها كانت تجري في رومة عاصمة النصرانية ذاتها ، وفي معظم الثغور الايطالية . وكانت الحرب مصدراً آخر لجلب هؤلاء الصقالبة ، ففي كثير من الغزوات الأسلامية المنظمة لأمم النصرانية ؛ وفي الحملات والغزوات البحرية الناهبــة كان المسلمون يغنمون كثيراً من السبي والأسرى صغاراً وكباراً ، ومنهم الصقالبة الذين يخــــدمون جنداً مرتزقة في معظم الجيوش النصرانية ؛ هذا عــدا الرقيق والأسرى من مختلف الجنسيات والأمم يتدفقون على الثغور والعواصم الاسلامية عقب كل فتح أو غزوة ناجحة [1] وكان الصقالبة يختارون في الغالب أطفالا من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادئ الاسـلام ؛ وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد ، وبلغوا في عهد الناصر قسطاً وافراً من السلطان والنفوذ ، واحتلوا الوظائف الكبرى في القصر وفي الادارة والجيش ، وأحرزوا الضيــاع والأموال الوفيرة ؛ وفاق عددهم في عهد النــاصر أي عهد آخر حتى قدر بعض المؤرخين عددهم يومئــذ في القصر والبطانة بثــلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا في رواية أخرى ستة آلاف وثمــانين ؛ وفي رواية ثالثة ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ؛ وعلى أي حال فقد كان منهم الحرس الخــلافي ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ ويرغم أشراف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ليذل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم [2] بل كان منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجــدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ودرى صاحب الشرطة ؛ ومنهم ياسر وتمام صاحبا النظر على الخاص [3]

(١) Dozy : Hist des Musulmans d'Espagne; II P 153

(٢) Lévy - Provençal : Ency de l'Islam - Slaves

(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥

(١) راجع رينو — الكتاب المشار إليه ص ٢٣٧ — ٢٣٩

(٢) Dozy ; idib ; II p. 153 — وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٣ — ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١

من ذكريات لبنان

الحـــذاء الذهبي

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

« استيقظت ! »

وكانت قد أغفت ، وهي قاعدة على دكة تحت شجرة صنوبر ، وذراعها على سور النافورة ، ويسراها على حجرها ، ثم فركت عينيها فقلت :

« والآن أرجو أن يلهمها الله ألا تغير جلستها ، فإنها هكذا أحلى ! »

فحطت ساقاً عن ساق ، وتناولت حقيبتها الصغيرة وفتحتها ونظرت في المرآة ، ثم أخرجت منديلاً ، وجعلت تلمس به وجهها في مواضع فقلت :

« ولها جيد جميل أيضاً – وأناملها مخضبة . . . الآن صرت لا أرى عيباً في قول من يقول إن هذا من دم العشاق ! »

فابتسمت وقالت – كأنها تحدث نفسها – « ماذا يقول هذا الرجل ؟ »

فقلت ، وأنا أنكث الأرض بعود صغير في يدي : « إنه يسأل : أتراك زوجته ؟ »

فزوت ما بين عينيها وقالت : « زوجته ؟ زوجة من ؟ »

قلت : « زوجتي أنا ! »

فصاحت : « إيه ؟ »

قلت : « زوجتي . . . تعرفين الكلمة ؟ . . يتهجونها هنا بالزاي والواو والجيم ، وأتهجاها أنا بالحاء والباء و . . . »

وكانت تنظر إلى مبهوتة ، ثم ابتسمت وسألتني :

« هل تعني أنك لا تستطيع أن تعرف زوجتك حين تراها ؟ »

فأهملت السؤال وقلت : وأنا أشير بالعود الذي في يدي :

« إنك هي . . . أو أنت عيناها ، وجيدها وساقاها . . . »

فخيل إلي أنها فهمت وقالت : « أووووه ! ألك زمان طويل لم تراها ؟ »

قلت : « طويل جداً . . . ربع ساعة ! »

فصدمها هذا فقطبت وقالت : « إنك تسخر مني » ومدت يدها إلى الحقيبة

فقلت : « لا تعجلي ! ألم أقل إنك هكذا أحلى ؟ وعلى ذكر ذلك أسألك : كيف يمكن أن تأكلي بهذا الفم الصغير ؟ »

فقالت : « إني ذاهبة . . . اسمح لي »

قلت : « إنها ذاهبة ؟ ؟ هل سمع أحد بمثل هذا ؟ ليت شعري كيف تستطيع أن تمشي في مثل هذا الحذاء الدقيق ؟ ثم تجيء زوجتي فتوسعني تأنيباً ! »

وكانت تهم بالقيام ، فترددت ، ثم سألتني :

« من أنت ؟ إني أريد أن أعرف »

فقلت ، وعيني إلى الأرض : « إنها تسأل ؟ بداية حسنة على كل حال – خطوة في الطريق القويم – ومتى رأيت امرأة تعنى بأن تسأل من يكون الرجل ، فاعلم بأن الأمل في . . . . »

فانتفضت ثمة وقالت وهي عابسة : « سأذهب »

ولكنها لم تكد تخطو خطوة واحدة حتى صرخت وارتدت فانحطت على الدكة ، وانحنت فمدت يديها إلى قدمها اليمنى ، فأسرعت إليها أسألها ما الخبر ، وكانت قد خلعت الحذاء ودست فيه أصبعين تتحسس بهما ، فقالت : « مسمار ! ماذا أصنع ؟ »

فأخذت الحذاء ونظرت فيه ثم قلت : « من كان يتصور أن هذا الحذاء الصغير يمكن أن يسكنه مسمار ضخم كهذا ؟ والآن هل يمكن أن يكون في حقيبتك عتلة أو معول أو فأس أو أي شيء أصغر أو أكبر ندق به هذا المسمار الملعون ؟ »

فقالت وهي تضحك : « لا تمزح من فضلك ! »

وكان لهذه السياسة غير بعيد أسوأ الأثر في انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ؛ وكانت هزيمة الناصر في موقعة الخندق الشهيرة (الاندبجا) أمام نصارى الشمال (٣٢٧ هـ – ٩٣٩ م) ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوي الذي سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية (١)

محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

(١) Dozy ; ibid ; II p. 153

قلت : « هذا أحسن – نعم يجب أن نضحك إذا لم نستطع أن نفعل ما هو خير من ذلك ؟

فقالت : « ولكن ألا تستطيع شيئاً ؟ »

وتلفتت فقلت : « أستطيع أن أضع النعل على وجهى ، وأقبض على رأس المسمار بأسنانى ، وأشد ... هكذا »

فصاحت بى وهى تتلوى من الضحك « أرجو .. أرجو .. »

فقلت : « أعرف ما تريدين بغير حاجة إلى رجاء ... أن أحملك إلى حيث تقصدين »

ففاض الابتسام ، واعتدلت فى جلستها وقالت : « أتظن أنى أسمح لك بذلك ؟ مستحيل ! »

قلت : « ولم لا ؟ إنك أخف من الريشة ، وفى وسعى – بعد قليل من التدرب – أن أظهر بك على المسرح ، وأمشى بك على الحبل ، محمولة على أسنانى »

فضحكت ثم قالت : « أنك فظيع ! »

قلت : « بالعكس . . . إنى لطيف جداً . . . »

فقاطعتنى ضاحكة وقالت : « دع لطفك الآن . . . »

– قبل أن تعترف به ؟ هذا مطلب بعيد !

– وقل لى ما العمل ؟

فقلت : « العمل أن تجلسى حيث أنت – وإن كنت سأحرم منظرك الفاتن وأعود أنا إلى « القهوة » ثم أكر إليك بالحذاء فى يدى – لا فى رجلى – بعد أن نطرد هذا الطفيلى »

***

وانحدرت إلى حيث « القهوة » وعثرت مرتين أو ثلاثاً ، فآمنت أن العجلة من الشيطان ، ولكنى مع ذلك ، وعلى الرغم مما أصابنى ، ظللت أعدو كأن ورائى ألف كلب من كلاب الصيد ، وحرت بين أشجار القهوة فوقفت أنادى : « يا خاج الياس ! يا خاج الياس ! »

فأقبل على اثنان من أعوانه ، فأشرت إليهم بالحذاء وطلبت شيئاً أخرج به المسمار

وكانت زوجتى – مع أولادنا – على مقربة منى ، وكانت ترانى ولا أراها ، فقالت : « ما هذا ؟ »

فدرت حتى واجهتها وقلت ، وأنا أمشى إليها :

« هذا ؟ آه ! هذا حذاء جميل ... ... »

فدهشت وسألتنى : « من أين جئت به ؟ أين وجدته ؟ »

قلت : « لا تسألوا عن أشياء إن تُبْدَ لكم ... صدق الله العظيم ... خذى جربيه ! اخلعى هذا ... »

وانتزعت حذاءها الأيمن ، وذهبت أعدو به

***

« ولكن هذا ليس حذائى ؟ »

قلت : « يا فتاتى البتيطرة .. هو حذاء والسلام .. تستطيعين أن تلبسيه وتمشى به وتقطعى اربعمائة متر ، ثم تخلعيه لا شاكرة ولا مشكورة ، ثم تلبسى حذاءك الجميل ، وتقعدى به كما أنت الآن ... رشيقة أنيقة ... فاتنة الجيد ... ساحرة العينين ... وتروحى تهذرى مع زوجتى التى تصب على رأسى الآن أحر اللعنات ... ومن يدرى ؟ إذا لم تعجلى قبل أن يطغى بها الحنق والسخط ، فقد تلقى بحذائك فى البركة ... إن النساء هكذا ... حذاؤك جميل ، ولكن كل امرأة تعتقد أن حذاءها هى أجمل وأنفس .... هيا بنا ! »

فوقفت وهى تقول : « ولكنى لا أستطيع أن أمشى به .... واسع .... »

قلت : « لا تذمى زوجتى – أعنى قدمها ، فإنها جميلة ... ثم إن المشى فى حذاء واسع خير من المشى فى حذاء فى جوفه مسمار .. تعالى بالله قبل أن يغرق فى البركة »

فتوقفت وصوبت عينها الى قدميها وقالت : ولكنه فضى وحذائى ذهبى ؟ »

قلت : قوس قزح ... تعالى ... أترانا فى معرض أزياء هنا ؟ نحن فى هذه الجنة المغروسة على جبال « الشوير » ولا أحد معنا ولا ثالث لنا إلا .... إلا الهوى ... كآدم وحواء ... وعلى ذكر ذلك أظن أن حواء كانت تلف ذراعها بذراع آدم إذ يسيران فى الجنة »

***

وقالت زوجتى ونحن مقبلان عليها :

« لم أر مثلك أبداً فى الدنيا ! »

قلت : « صدقت يا امرأة ! وأين تجدين فى هذه الدنيا نظيرى »

قالت محتجة : « تخطف حذائى وترمى لى هذا ! ... »

وأشارت بازدراء إلى حذاء الفتاة ، وكان ما يزال على الأرض

فقلت : هس ! إن اللص مني ، أعني المسئولة عن الجريمة والمحرضة على ارتكابها »

فصاحت الفتاة وضربت بكفها على صدرها : «أنا ؟ »

ونظرت زوجتي الى قدمي الفتاة ثم نهضت وأقبلت عليها وقالت ، وهي تمد اليها يديها :

« أوه ! لم أكن أعرف ؟ ولكن كيف استطعت أن تمشي فيه ؟ إنه واسع ... ورجلك أصغر ... وأجمل أيضاً ! »

... فالتفت الى الفتاة وقلت : «أتسمين ياهذه ؟ إنها تقر لرجلك بالمزية ! وجيدها ؟ أليس ساحراً يا امرأة ؟ ألست معذوراً إذا اشتهيت أن آكله ؟ وعيناها ؟ وهذا الفم العجيب الذي لا أدري كيف يتسع للكلام ، وان كان قد اتسع جداً لذم حذائك يا امرأة ! »

فريعت الفتاة وصاحت : « أنا ذممته ؟ حرام عليك ! »

فقلت : نعم ... جداً ... قلت انه واسع عظيم ، وانه يذكرك بالباخرة تايتانك ، وانه يسع جيشاً عرمرماً من الأقدام الكبيرة الغليظة ، وانه ...

وكانت زوجتي تضحك ، أما الفتاة فقد خيل الي أنها ستسقط على الأرض

وقالت زوجتي : « فظيع ! ألا تقفل هذه البوابة ! لاتعبأي به ياحبيبتي ولا تلتفتي اليه ... انه هكذا دائماً ... والآن خذي هذا النيار واحتفظي به للذكرى »

فقلت : « وأنا ؟ ما أجرى على التعب ؟ لقد قطعت كيلومترا في الذهاب والاياب — قطعته عدوا . . . وهذه الأحذية على راحتي الطاهرة ..... »

فقالت زوجتي : « جزاؤك أن تقعد مع الأولاد ، ونذهب نحن نتمشى .... »

قلت : « هذا جزاء سنمار . . لا بأس ! مجنون من يصنع معروفاً في بنت من بنات حواء ... »

فقالت زوجتي : هذا رأيك ؟ إذن لن أدعوها إلى العشاء معنا ! »

فصحت : « لا لا لا . . . انما أعني بنتا من بنات آدم »

فضحكت الفتاة ، ورمتني زوجتي بفستقة ......

ابراهيم عبد القادر المازني

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذي ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذي شغله البحث في أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذي حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذي علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصاً خاليا من الأخلاط ؛ الذي كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الانسان والحيوان ؛ الرجل الذي كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر في أجسام ضحاياها . البطل الذي نزل بساحات الموت قائلة فيها أرفع بنوده ، وقاتله على أرضها ، أفتك جنوده ، فأثخن منها على هواه ، وخرج عنها سالما قد أخطأته سهاما قضاء وقدراً

المترجم

كان كوخ قد اعتزم أن يسيح في الأرض ويضرب في مجاهلها ضرباً ، ثم خاب ، وها هو ذا يبدأ سياحات غريبة في مجاهل أشد غرابة . إني أحياناً أقرن كوخ بلوفن هوك فأجد الأول أعجب وأغرب في صيادته المكروب وأكثر انهماكاً ، وأجد كليهما على السواء عصامياً في كسب العلم . كان كوخ رجلا فقيراً يرتزق من صناعة الطب ، وكل ما عرف من العلم هو ما تضمنته مقررات الطب في مدارسه ، وعلم الله ما كان في هذه الدراسة شيء يعلم ممارسة التجارب ويدرب في فن التجريب . ولم يكن لدى كوخ من أدوات التجربة غير ذلك المكرسكوب الذي أهدته إليه زوجه المخلصة إيمي في عيد ميلاده ، أما عدا هذا من الأدوات فكان عليه أن يحتال لتدبيره وتصميمه وأن يصنعه بيده من قطع الخشب وخيوط القنب وشمع الأختام . وترك يوماً مكرسكوبه وفتراته وجاء زوجته يخبرها في تحمس بالجديد المعجب الذي وجد ، فما

كان من السيدة الطيبة إلا أن قلصت قصبة أنفها فى اشمئزاز ظاهر وقالت له : ولكن يا روبرت ، إنك كريه الرائحة جداً

بعدئذ وجد طريقة أكيدة ينقل بها مرض الجمرة إلى الفئران . لم يكن لديه محقن يحقن به الدم القاتل فيها فى سهولة ، ولكن بعد خيبات ولئات وخسارة عدد طيب من الفئران السليمة ، اهتدى إلى أن يأخذ فلقاً من الخشب فينظفها جيداً ثم يسخنها فى الفرن ليقتل ما قد يكون عليها من المكروبات العادية ، ثم يغمسها فى قطرات من دم الأغنام التى قتلتها الجمرة ، ثم يدخل أطرافها بما عليها من الدم فى جرح جرحه بمشرط نظيف فى أذناب تلك الفئران . ولا تسألنى كيف قبض عليها فسكّنها وهى تترعّص وتتلوى بين يديه . وكان يضع هذه الفئران فى أقفاص وحدها ثم يغسل يديه ، ويخرج ليعود طفلاً مريضاً على سبيل تخليص الذمة ، ورأسه لا يزال مليئاً بالأشتات من كل شىء : « أيموت هذا الفأر بداء الجمرة . . . . . نعم يا مدام اشميت ، يستطيع ابنك أن يعود إلى المدرسة فى الأسبوع القادم ..... أرجو ألا يكون هذا الدم الملوث بالجمرة دخل إصبعى من الجرح الذى فيه . . . » . هكذا كانت حياة كوخ موزعة بين بحثه وطبه

وأصبح الصباح ، وجاء كوخ إلى المعمل البيتى الذى صنعه بيده ، فوجد الفأر ملقى على ظهره وأرجله فى السماء ، وقد تصلب جسمه وانتفش شعره ووقف على جلده وكان بالأمس منبسطاً على ظهره فى ملاسة ونعومة . وبعد أن كان أبيض صار أزرق رصاصياً ، فأحمى كوخ سكاكينه فى النار ، وربط الفأر المسكين على شريحة من الخشب ، وشق بطنه فكشف عن رئيته وكبده ، وشرّحه حتى وصل إلى كل ركن من جسمه وحدق فيه : « نعم . نعم . إن باطنه يشبه باطن الشاة المجمورة . . . . وهذا طحاله ، ما أسوده وما أضخمه ! . . . إنه يكاد يملأ كل بطنه .... » وأسرع كوخ فشق الطحال المتضخم يجرى منه الدم الأسود ، فأخذ منه قطرات ووضعها تحت مجهره ، وتمتم أخيراً لنفسه : « هاهى العصى وها هى الخيوط بعينها . . . . إنها تكاد تملأ دم الفأر كما ملأت دم الشاة » وفرح كوخ فرحاً شديداً لأنه أيقن أنه بذلك استطاع أن ينقل إلى الفئران أمراض الشياه والأبقار والانسان ، والفئران قليلة الثمن ، صغيرة فى اليد ، سهل تناولها عند التجريب . وفى الشهر الذى جاء من بعد ذلك لم يكن لكوخ عمل إلا حقن فأر حى من بعد فأر ميت . يأخذ قطرة الدم من طحال الفأر الميت فيحقنها فى ذيل فأر حى صحيح . ثم يصبح الصباح فيجد هذا الفأر قد مات من داء الجمرة ، فيمتحن دمه فيجد به اللآلاين من تلك الخيوط المتخالطة والعصى المتكاثرة يجدها ساكنة لا حراك بها ، صغيرة متضائلة لا تزيد طولها على جزء من ألفين من المليمتر الواحد

وأخذ كوخ يتفكر : « هذه العصى لا حركة فيها ، ولكن مع هذا لا بد ان تكون حية . إن قطرة الدم التى أحقنها فى الفأر ليس بها غير مئات من هذه العصى ، ولكنها لا تلبث فى دمه أربعاً وعشرين ساعة حتى تكون قد تكاثرت فبلغت البلايين ، ويكون الفأر قد مرض بها ومات .... ولكن كيف السبيل إلى رؤيتها وهى تتكاثر ؟ ! كيف السبيل وجلد الفأر لا يَشُفّ عما تحته ؟ ! »

وأخذ هذا السؤال يرن فى أذنه وهو يجس نبض مرضاه وينظر فى ألسنتهم . فاذا جاء العشاء أكل عشاءه سريعاً ، وغمغم لزوجته تحية المساء لتنام ، وذهب هو إلى تلك الغرفة الصغيرة قد ملأتها رائحة الفيران والمطهّرات الكيميائية وأغلقها على نفسه ، ثم أخذ يفكر كيف يكثّر تلك العصى خارج جسم الفأر . وكان كوخ فى هذا الوقت لا يدرى شيئاً عن أحساء الخمائر التى صنعها بستور ولا عن قباباته ؛ أو إن هو درى ، فالنزر القليل منها ؛ لذلك كانت تجاربه لتكثير تلك العصى تجارب المبتكر الأول ، فيها التواء وفيها تعقّد ؛ كانت كتجارب الرجل الأول يريد أن يصطنع لنفسه ناراً

قال كوخ : « سأحاول أن أكثر هذه الخيوط فى سائل أقرب ما يكون إلى سوائل الجسم ، سائل مصنوع من مادة الأجسام نفسها » . وأتى بعين ثور وأخرج منها بعض مائها ، ووضع فى هذا الماء فُتَيْتة كسن الدبوس من طحال فأر قتله المرض . ثم قال : « هذا غذاء لا شك مستطاب لهذه الخيوط ، ولكن لعلها تتطلب غير الغذاء الطيب حرارة أجسام الفئران كذلك » وصنع بيديه مِدفئاً غير جميل وسخنه بمصباح زيت ، ثم وضع فى هذا المدفأ المرتّجل شريحتين متلاصقتين من الزجاج الرقيق كان قد وضع بينهما سائل عين الثور وفُتَيْتة الطحال . وذهب لينام . ولكنه لم ينم . ففى منتصف الليل قام ليخفّض فتيلة المصباح عدّتئه ، وكان قد ملأه منها الدخان . وبدل أن يعود

فينام ، أخذ ينظر العصيّ بين شريحتى الزجاج مرة بعد أخرى . وخال أحياناً أنه رآها تتكاثر ، ولكنه لم يكن على يقين من ذلك ، لأن مكروبات أخرى من التى تسبح وتثب وجدت سبيلها بين الشريحتين على عادتها ، وزادت فى تكاثرها على عصيّ صاحبنا الدقيقة المهلكة وطغت عليها

قال كوخ لنفسه : « هذا عمل غير نافع ! هذه العصيّ لابد من تكثيرها هي وحدها خالصة نقية من كل مكروب آخر » وأخذ يفكر فى الوصول الى هذا حتى أكدّه الفكر . وأخذ يحتال ويتدبّر حتى صار الاحتيال همّا والتدبّر غمّا

وذات يوم تراءت له طريقة يروض بها عصيّه وهو يرقبها . طريقةٌ غايةٌ فى البساطة غاية فى السهولة لا تحتاج للفكر الكثير قال كوخ : « سأضع تلك العصى فى ، قطرة عالقة ، فلا يصلها من المكروبات الغريبة شيء » . ثم جاء بقطعة صغيرة رقيقة مفرطحة من الزجاج الرائق ، وسخنها حتى يقتل ما قد يكون عليها من المكروب ، ثم وضع عليها قطرة من سائل عين ثور سليم قضى عليه الجزّار حديثا ، ثم غمس فى هذه القطرة قطعة غاية فى الصغر من طحال فأر مات من داء الجمرة حديثاً . وبعد ذلك جاء بشريحة كبيرة غليظة مستطيلة من الزجاج ، كان قد نقر فى وسطها نقرة عميقة واسعة ، ودهن سطحها مما يلي حافة النقرة بشيء من القـزلين vaselins ، ثم قلب هذه الشريحة الكبيرة السميكة على الأخرى الصغيرة الرقيقة التى عليها سائل العين وطحال الفأر بحيث تقع النقرة فوق القطرة ولا تمسها ، فالتصقت الزجاجتان بالقزلين فكانتا كقطعة واحدة . ثم عاد فقلبهما معا فى سرعة وحذق فصارت قطعة الزجاج الصغرى هى العليا وتعلّقت منها قطرة السائل بما فيها من الطحال وعصيّه الكثيرة ، وقد إنحبست فى تلك النقرة انحباساً كاملا فلا تستطيع المكروبات الأخرى الدخول اليها . تلك هى « قطرته العالقة » . ولعلّ كوخا لم يقدّر كل التقدير هذه الطريقة الجديدة ، ولم يدرك كل الادراك مكانها من تاريخ بحث المكروب ومحاربة الانسان أسباب الموت . وسواء قدّرها أو فاته تقديرها فقد كانت ساعة من أخطر الساعات تلك التى أخطرت هذه الفكرة على باله ، ساعة لا يعدلها إلا تلك التى رأى فيها لوفن هوك أحياءه الصغيرة فى ماء المطر أول مرة

ووضع كوخ « قطرته العالقة » تحت مكرسكوبه وجرّ كرسيّه وجلس وهو مضطرب ينظر ما تكشف له العدسة وهو يقول لنفسه : « لا يستطيع شيء أن يدخل إلى تلك القطرة ، وهى ليس بها إلا العصيّ ، فلأرقبها علّى أعلم من أمر نموها شيئاً » ، فكشفت له العدسة عن مجال أغبر لم يجد فيه غير قطع الطحال وقد نسلت وتقطّعت وتراءت ضخمة تحت المجهر ، وغير عصية هنا وعصيـــة هناك طافية بين نسائل الطحال ؛ وظل ينظر ساعتين ، وينظر فى الساعة الواحدة خمسين دقيقة ، ولكن لم يحدث شيء . وأخيراً بدأت الرواية التى اصطبر لمرآها طويلا ، وأخذت صورة المجـال تحت بصره تتغير وتتبدل كأنما امتدت لها بالسحر يد ساحر ، واهتز صاحبنا واضطرب ، وجرت فى ظهره رعدة بعد أخرى كلما اختلفت صورة المجال تحت عينه . إن العصيّ الطافيـة القليلة أخذت فعلا فى التكاثر ! ففى هذا المكان توجد الآن اثنتان حيث كانت واحدة . وتلك عُصَيّة أخرى تطول بطيئة ولكنها تطول كثيرا ، وهى فى استطالتها تنثنى كالأفعى وتنال أطراف المجـال : ولم تمض ساعتان حتى كثرت تلك العصيّ كثرة غطّت على قطع الطحال فاختفت وبلغت أعدادها الملايين فأصبحت فى اختلاطها وتداخلها وتلبّدها ككرة من غزْل ، انحلّ فاختلط فلا رجاء فى تسليكه إلا أنه غزل حيّ ، غزل صامت قاتل

وتنفس كوخ الصُّعداء : « الآن أعلم أن هذه العصيّ حية والآن أعلم أنها تتكاثر بالملايين فى فئرانى الصغيرة المسكينة ، وفى الشياه ، وفى الأبقار . فالعُصيّة الواحدة (البَشِلّة الواحدة) أصـغر من الثور بلايين المرات ، فاذا هى دخلت الثور نمت وتمـددت وصارت ألوفا تنسل ألوفا تنتشر فى نواحى الحيوان الكبير فتتحشى بها رئتـه ويكتظ بها مخّه وينسدّ بها دمه ، لا عن ثأر لها عنده ، أو كراهة لها فيه

أصبح كوخ لا يعى الزمن ، ولا يهتم لواجباته ، ولا يعنى لمرضاه إذ ينتظرونه طويلا فيملون فيشكون . فبكل هذه الأمور فقدت حقيقتها من نفسه ، وأصبح رأس كوخ لا يعى إلا صوراً مخيفة من خيوط الجمرة وهى فى اختلافها واختلاطها . وأخذ يعيـد تلك التجربة التى يخلق فيها من البشلّة الواحدة ألوف الألوف من البشلات . فأعادها ثمانى مرات فى ثمانية أيام متتابعات.

فبدأ بأن أخذ غمسة يسيرة جداً من « قطرته العالقة » وهي تمج بتلك العُصَيّات، فزرعها في قطرات نقية جاء بها من سائل عين ثور سليم. فوجد بكل قطرة من هذه ألوفاً من هذه العصيات. ثم أخذ من هذه القطرات الحادثة ليزرع في قطرات جديدة نقية من عين ثور. وهلم جراً حتى استتم له من ذلك ثماني زرعات

قال كوخ: « لقد تسلسلت هذه البشيلات ثماني ذريات متعاقبات، كلها خالصة من كل مكروب غريب، خالصة من طحال الفأر الذي اختلطت به أولاً. وهذه البشلات في هذه الذرية الأخيرة هي أحفاد البشيلات الأولى التي قتلت الفأر. فهل يا ترى تقتل هذه البشلات الأخيرة الفأر والشاة كما كانت تفعل أمهاتها الأولى ؟ أفتيتمو يا ترى هذه البشلات في الفئران وفي الشياه إذا أنا حقنتها فيها ؟ أهي يا ترى سبب الجمرة الذي لا مرية فيه ؟ »

وأخذ كوخ قطيرة يسيرة من « قطرته العالقة » - وكانت تتراءى للعين العادية عكرة مما تعج به من المكروب - ونشرها على فلقة من الخشب صغيرة، ثم غرس هذه الفلقة تحت جلد فأر صحيح، ونجا هو أفلم يمسه سوء. نجا منه تلك العناية الإلهية التي تقوم إلى جانب البحاث الجريئين المهورين وتحرسهم وتدفع عنهم عشية الله شر ما هم فيه

وفي اليوم التالي كان كوخ قائماً على هذا المخلوق الصغير وقد دبّسه إلى لوحة تشريحه، وقد انحنى عليه عن قصر في البصر ليراه من قريب. ثم أخذ يحمي مشارطه في النار وقد ملأه الرجاء. ولم تمض دقائق ثلاث حتى كان جالساً إلى مكرسكوبه ينظر منه قطاعة صغيرة من طحال الفأر قد وضعها بين رقيقتين من الزجاج ثم تمتم لنفسه: « لقد تحقق المأمول، فها هي الخيوط، ها هي العُصَيّات، وتلك البشلات الصغيرة التي في قطرتي العالقة، تلك البشلات التي أوجدتها بالتنسيل سلالات متعاقبة ثمان، لها من القدرة على القتل مقدار ما لتلك التي يأخذها الآخذ مباشرة من طحال الشاة النافقة من داء الجمرة »

رأى كوخ هذه البشيلات أول ما رأى في دم تلك البقرة التي نفقت من داء الجمرة زماناً مضى، يوم كان مجهره جديداً ويده تضطرب عليه من قلة التجربة والمران، واليوم يرى نفس هذا المكروب في دم الفأر المسكين، وهو هو نفسه المكروب الذي ربّاه في سلسلة طويلة من الفئران، وفي عدد كثير متعاقب من قطراته العالقة

ها هو ذا كوخ يثبت أول مثبت أن النوع الواحد من بعض المكروب يسبب نوعاً واحداً من الأمراض، وأن هذه المخلوقات الصغيرة قد تمتدي في حقارتها على مخلوقات كبيرة عظيمة في ضخامتها فتوردها موارد الموت سريعاً. سبق كوخ كل الرجال في إثبات هذا، وسبق فيه بستور كذلك، وهو الذي على سننه جرى وبهديه اهتدى. رمى كوخ بخيطه وصنارته ليصطاد تلك الأسماك الضئيلة في المحيط الأعظم وهو واسع بهم. وتقفّاها ويجسس بها وهو لا يعلم من صفاتها شيئاً، ولا من عاداتها شيئاً، وهو لا يدري من جرأتها وشراستها شيئاً وهو لا يعرف متى ولا بأي سهولة تثب عليه من مراصدها ومخابئها ؟ والشيء إذا دقّ هذه الدقة فكل مكان مخبأ وكل طريق مرصد

يتبع
أحمد زكي

أندلسيات :

٢ـ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

يتشابه الفتح بن خاقان وأبو الحسن بن بسام فى أنهما كانا متعاصرين ، وفى أنهما تصديا للكلام على أدباء الأندلس من العلماء والشعراء والكتاب والوزراء والملوك ممن عاصرهما ومن كان قبل عصرهما ، وفى أنهما كانا يرسلان الى معاصريهما يعرفانهم عزمهما ويسألانهم إنفاذ شىء من منثورهم ومنظومهم ليذكراه فى كتابيهما : الأول فى قلائد العقيان ومطمح الأنفس ، والثانى فى الذخيرة . قال العماد الكاتب صاحب خريدة القصر : حدثنى الصاحب الكبير العالم جمال الدين بن أكرم قال : لما عزم ابن خاقان على تصنيف كتاب قلائد العقيان جعل يرسل الى كل واحد من ملوك الأندلس ووزرائها وأعيانها من أهل الأدب والشعر والبلاغة ويُعرفه عزمه ويسأله إنفاذ شىء من شعره ونظمه ونثره ليذكره فى كتابه . وكانوا يعرفون شره وثلبه فكانوا يخافونه وينفذون اليه ذلك وصُرَرَ الدنانير ، فكل من أرضته صلته ، أحسن فى كتابه وصفه وصفته . وكل من تغافل عن بره هجاه وثلبه . وكان ممن تصدى له وأرسل اليه أبو بكر بن باجه المعروف بابن الصائغ ، وكان وزير ابن فلويت صاحب المرية . وهو - أى ابن الصائغ - أحد الأعيان وأركان العلم والبيان . شديد العناية بعلم الأوائل ، مستول على أهل الأشعار والرسائل ، وكانوا يشبهونه فى المغرب بابن سينا بالمشرق ، وله تصانيف فى المنطق وغيره ، فلما وصلته رسالته تهاون بها ولم يعرها طرفه ، ولا لوى نحوها عطفه ، وذكر ابن خاقان بسوء بلغه ، فجعله ختم كتابه ، وصيّره مقطع خطابه . وقال : هو رمد جفن الدين الخ وبلغ ذلك ابن الصائغ ، فأنفذ له مالاً استكفه به واستصلحه ؛ وصنف ابن خاقان كتاباً آخر سمّاه مطمح الأنفس وصله بقلائد العقيان افتتحه بذكر ابن الصائغ وأثنى عليه فيه ثناء جميلاً الخ وكذلك نرجىء الكلام على ما كان بين ابن خاقان وبين الفيلسوف ابن باجه أو ابن الصائغ إلى ما بعد الفراغ من الموازنة بين ابن خاقان وبين ابن بسام ... وقد ظهر لك مما أوردناه هنا من كلام العماد أن ابن خاقان كان يرسل الى أعيان الأندلس ليرسلوا اليه آثارهم ، وكذلك كان يفعل ابن بسام صاحب الذخيرة....

قال المراكشى صاحب المعجب : فما أختاره له - أى لأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال أحد كتاب الأندلس البلغاء النابهين - فصول من رسالة كتب بها مراجعاً لبعض إخوانه عن رسالة وردت عليه منه يستدعى فيها منه شيئاً من كلامه ، وهذا الرجل صاحب الرسالة هو أبو الحسن على بن بسام صاحب كتاب الذخيرة ... وهذا هو محل الشاهد ... ودونك الآن فصولاً من هذه الرسالة - أى رسالة ابن أبى الخصال الى ابن بسام فانها من طرف الأندلسيين . قال : وصل من السيّد المسترقّ ، والمالك المستحق ، وصل الله إنعامه لديه ، كما قصر الفضل ، كتابه البليغ ، واستدراجه النُّريغ [1] . فلولا أن يصلد زند اقتداحه [2] ، ويرقد طرف افتتاحه ، وتقبض يد انبساطه ، وتغبن صفقة اغتباطه ، للزمت معه قدرى ، وضنت سريرة صدرى . ولكنه بنفثات سحره يُسمع الصّمّ ، ويستنزل العُصْم ، ويقتاد الصعب فيصحب ، ويستدر الصخور فتحلب ، ولما خفانى ابتداؤه ، وقرع مسمعى نداؤه ، فزعت الى الفكر ، وخفق القلب بين الأمن والحذر ، فطاردت من الفِقَر أوابد قَفْر ، وشوارد عُفْر ، تُغبرُ فى وجه سائقها ، [3] ولا يتوجه الالحاق لوجيهها ولاحقها ، فعلمت أنها الاهانة والمهابة ، والإصابة والاسترابة ، حتى أيأستنى الخواطر ، وأخلفتنى المواطر ، إلا زبرجا يعقب جوادا ، [4] وبهرجا لا يحتمل انتقادا . وأنّى لمثلى والقريحة مزجاة [5] ، والبضاعة مزجاة [6] ببراعة الخطاب ، وبزاعة الكتاب [7] . ولولا دروس معالم البيان ، واستيلاء العفاء على هذا الشان ، لما فاز لمثلى فيه قِدْح ، ولا تحصّل لى فى سوقه ربح ... وأنا أعزك الله أربأ بقدر الذخيرة ، عن هذه النُّتف الأخيرة . وأرى أنها قد بلغت مداها ، واستوفت حلاها ، وأنا أخشى القَدْح فى اختيارك ، والاخلال بمختارك ... الى أن يقول : وعذراً أعزك الله فانى خططت ما خططته والنوم منازل ، والقمر منازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول صولة الحجاج ، فطورا تسدّده سناناً ، وتارة تحركه لساناً ، وآونة

(١) يريد المخادع (٢) صلد الزند يصلد بكسر اللام صوت ولم يخرج نارا (٣) غبر فى وجهه سبقه (٤) يريد السحاب الرقيق لا ماء فيه (٥) من الأرجاء وهو التأخير (٦) قليلة (٧) ظرف وخفة روح

تطاوية حبابه ، وأخرى تنشره ذؤابه ، وتقيمه إبرة لهب ، وتعطفه بُرَة ذهب ، أو حُمَة عقرب . وتقوّسه حاجبَ فتاة ، ذات غمزات ، وتسلطه على سليطه ، وتزيله عن خليطه ، وتخلمه نجما ، وتمده رجما ، وتسلّ رُوحه من ذُباله ، وتميده إلى حاله ، وربما نصبته أذن جواد ، ومسخته حدق جراد . ومشقته حروف برق ، بكفّ ودْق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلا تحظ منه العين ، ولا هداية في الطرس لليدين ، والليل زنجي الأديم ، تبرى النجوم ، قد جللّنا ساجُه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال للحظ ، ولا تعارف إلا بلفظ ، لو نظرت فيه الزرقاء لاكتحلت ، أو خُضبت به الشيبة لما نصلت ، والكلب قد صافح خيشومُه ذَنَبه ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه . والْتوى التواء الحُباب ، واستدار استدارة الحَبَاب [1] ، وجَلَدَه الجليد ، وصمّد أنفاسه الصعيد ، فحِماه مُباح ، ولا هرير ولا نباح ، والنار كالرحيق ، أو كالصديق ، كلاهما عنقاء مُغْرِب ، أو نجم مُغَرِّب ، استوى الفصل ، ولك في الأغضاء الفضل ، والسلام . . .

* * *

وقد حدثنا الفتح في قلائده أنه هو الآخر كتب إلى أبي عبد الله محمد بن أبي الخصال مستدعياً من كلامه ما يثبته في الديوان – يريد قلائد العقيان – ويثبته فيه زهر بستان ، فكتب إليه ابن أبي الخصال رقعة يقول فيها : الحذر – أعزك الله – يؤتى من الثقة ، والحبيب يؤذى من المقة ؛ وقد كنت أرضى من ودك وهو الصحيح بلمحة ، وأقنع من ثنائك وهو المسك بنفحة ، فما زلت تعرضني للامتحان ، وتطالبني بالبرهان ، وتأخذني بالبيان ، وأنا بنفسي أعلم ، وعلى مقداري أحوط وأحزم ، والمعيدي يسمع به لا أن يُرى ، وإن وردت أخباره تترى فشخصه مقتحم مزدرى ، ولا سيما من لا يجلى ناطقا ، ولا يبرز سابقاً ، فتركه والظنون ترجمه ، والقال والقيل يقسمه ، والأوهام تحله وتحرمه ، وتخفيه وتخترمه ، أولى به من كشف القناع ، والتخلف عن منزلة الامتناع ، وفي الوقت من فرسان ، هذا الشان ، وأذمار هذا المضمار ، وقطان هذه المناهل ، وهداة تلك المجاهل ، من تحسد فقره الكواكب ، ويترجل إليه منها الراكب ، فأما الأزاهر فملقاة في رباها ، ولو حليت عن المسك خباها ، وصيغت من الشمس حلاها ، فهي من الوجد تنظر بكل عين شكرى ، لا نكرى ، وإذا كانت أنفاس هؤلاء الأفراد مبثوثة ، وبدائعهم منثوثة ، وخواطرهم على محاسن الكلام ميموثة ، فما غادرت متردما ، ولا استبقت لمتأخر متقدماً ، فعندها يقف الاختيار ، وبها يقع المختار ، وأنا أنزه ديوانه النزيه ، وتوجيهه الوجيه ، عن سقط من المتاع ، قليل الامتاع ، ثقيل روح النثر ، مهلك صر البرد ، إلا أن يعود به جماله ، ويحرس نقصه كماله ، وهبه أعزه الله قد استسهل استلحاقه ، وطامن له أخلاقه ، أتراني أعطي الكاشحين في إتيانه يدا ، وأترك عقلي لهم سدى ، وما إخالك ترضاها لي مع الود خطة خسف ، ومهواة حتف ، لا يستقل غبينها ولا يبل طعينها . . . الخ الخ فهي رسالة طويلة وإن كانت على طولها ممتعة جميلة . . . .

موازنة ومفاضلة

والآن فلنعرض للموازنة بين الفتح وبين ابن بسام مادام بينهما هذا التشابه الذي ذكرنا . . . . قال الحجاري صاحب المسهب : وهو – الفتح – وأبو الحسن بن بسام الشنتمري مؤلف الذخيرة فارسا هذا الأوان ، وكلاهما قس وسحبان ، والتفضيل بينهما عسير ، إلا أن ابن بسام أكثر تقييداً ، وعلما مفيداً ، واطنابا في الأخبار ، وامتاعاً للأسماع والأبصار ، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلف ، وكلامه أكثر تملقاً وتعشقا بالأنفس ... هذا هو كل ما عثرنا عليه للمتقدمين من مفاضلة بين هذين الفاضلين ، ونحن فنقول : إن المتفقد لكتاب الذخيرة لابن بسام ، وكتابي القلائد والمطمح لابن خاقان ، يتبين له أن الفتح في الحق أضخم عبارة ، وأجزل أسلوباً ، وأقدر على التنميق والتزويق والتهويل ، ويغلب ذلك على أكثر تراجمه ؛ وقد يتمهل حتى يرى أثر التقعر محساً ملموسا ، وهو مع هذه الجزالة والضخامة ، أقل تقييدا وعلما مفيداً . دع تقصيره في تراجمه من ناحية التحقيق التاريخي فلا هو يذكر اسم المترجم كاملا ولا نسبه ولا بلده ومنشأه ، ولا تاريخ مولده ووفاته ، فكأنه يترجم مترجميه لناس يعرفونهم كل المعرفة ، وإنما الذي ينقصهم هو أن يلموا ببعض آثار أولئك المترجمين المعروفين ، وأن يقفوا على بلاغة الفتح

(١) الحباب الأولى بضم الحاء الحية والثانية بفتحها الطل الذي يصبح على النبات وحباب الماء نفاخاته وفقاقيعه التي تطفو عليه

٥ ـ معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمى

رئيس أركان حرب الجيش العراقى

أسباب الحرب

لقد ظهر لنا من المباحث السابقة أن الطليان اعتبروا الحبشة مستعمرة طليانية ، وحملوا الدول الأوربية على الاعتراف بذلك بعد نشرهم المعاهدة وذيولها ، واستفادوا من حاجة البريطانيين اليهم فتقدموا إلى كاسيلا واستولوا قبل ذلك على عدوى

ومع أن منليك كان يتظاهر بعدائهم عنـــد منحه امتياز السكة الجـديدة للفرنسيين وإذابته العملة النقدية التى ضربها الطليان فى بلادهم لم يتمكن الطليان من التضييق عليه لأنهم كانوا مكلفين بمساعدة البريطانيين فى قتالهم المهـدى ، ولم يرض البريطانيون بأن يترك الطليان جبهة السودان ويتقدموا بقواتهم على الأحباش

والحقيقة أن السياسة البريطانية من حيث أهـدافها العامة لم ترغب ألبتة فى توسع نفوذ الطليان فى الحبشة وتوطيد كلتهم فيها لأنها كانت ترى إلى احتلال مصر والسودان والمحافظة عليهما بترك حراسة جبال الحبشة بيد أهلها الأحباش

أما النجاشى منليك فكان يرى إلى توحيد المملكة وتقويتها ثم اعلان استقلالها للعالم . ولا شـك فى أن رغبة الطليان فى توطيد نفوذهم فى الحبشة وسعى نجاشى الحبشة لاستقلال البلاد أديا حتما إلى الاختلاف بين ايطاليا والحبشة برغم المعاهدة وذيولها

وسترى كيف حدث هذا الاختلاف فادى إلى الحرب بينهما . والحقيقة هى أن بريطانيا لم تكد تقض على حركة المهدى فتبق ايطاليا حرة فى العمل إلا وشرع الطليان بحشد قواتهم فى مستعمرة أريترة للتوغل فى بلاد الحبشة

ولما تأكد منليك من قدرة جيشه البالغ عدده زهاء ١٤٥٠٠٠ أعلن اسـتقلال الحبشة الى جميع الدول . ولمجاملة ايطاليا طلبت ألمانيا وفرنسا من النجاشى أن يرسل هذا البـلاغ بواسطة ايطاليا

فبلغ منليك ملك ايطاليا أن المادة السابعة عشرة من معاهدة أوكسالى لا ترغمه على توسـيط ايطاليا فى جميع علاقاته بالدول الأوربية ، والنص الحبشى من المعاهدة صريح فى هذا الباب ، فهو يخول للنجاشى حق طلب التوسـيط إذا أراد ذلك . لذلك رجا من ملك ايطاليا أن يخبر الدول الأوربية بذلك لكى لا يحدث سوء تفاهم فى المستقبل

والواقع أن المعاهدة كانت مكتوبة باللغة الأمحرية والـمـادة السابعة عشرة منها تنص على ما يلى : « جلالة امبراطور الحبشة مختار فى استخدام الوكلاء الطليان » . أما الطليان فلما ترجموا المعاهدة إلى لغتهم وضعوا كلمة « الاجبار » بدلا من « الاختيار » فجاء النص الطلياني كما يلى : « جـلالة امبراطور الحبشة مكلف باستخدام الوكلاء الطليان »

فانتبه الساسة الطليان الى خطئهم ، فلما تيقنوا أن القلم لم يجد نفعاً فى الحصول على رغباتهم فى بلاد الحبشـة قرروا استخدام السيف ، مع أن منليك لم يرغب فى الحرب فى تثبيت عـلاقاته بايطاليا . فتظاهر الفرنسيون بالولاء للطليان ، بينما كانوا فى الخفاء يؤيدون النجاشى ، لأن توسع نفوذ الطليان فى بلاد الحبشة يخالف مرماهم . وكان الحاكم الفرنسى فى المستعمرة الصومالية همزة الوصل

وبراعتــه ، وحذقه ومهارته ، وكيف يرفع من يبغى أن يرفعه ويخفض من يريد أن يضعه ، ومن هنا لا تعد كتب الفتح كتب تراجم بالمعنى المعروف ، وانما هى بكتب المختارات أشبه . أما ابن بسام صاحب الذخيرة فهو وإن كان أكثر تقييداً وعلما مفيدا ، واطنابا فى الأخبار ، وامتاعا ـ من هذه الناحية ـ للأسماع والأبصار ـ كما يقول الحجارى ـ وإن كان أقل تزويقا وتهويلا وإن كان أعف لسانا ، وأنزه بيـانا ، إلا أنه هو الآخر يقارب الفتح فى اغفاله تاريخ من ترجم له مولدا ووفاة ونسبا وبلدا ومنشأ ، ومثل الاثنين فى ذلك مثل الثعالبى صاحب يتيمة الدهر ، ومثل الثلاثة العماد الكاتب صاحب خريدة القصر وجريدة أهل العصر والباخرزى صاحب دميـة القصر وعصرة أهل العصر ، كل أولئك يجتزئون ببلاغاتهم عن تحقيقاتهم ، فكانت كتبهم لذلك نوعا غريبا بين أسفار الأدب فى لغـة العرب ، فلا هى بالمختارات المحضة ولا هى بالتراجم الوافية ، ولا هى من قبيل العقد والكامل وما إليهما . ولعل أول من ابتكر هذا النوع هو الثعالبى

« للقصة بقية » عبد الرحمن البرقوقى

بين الحكومة الفرنسية والحكومة الحبشية ، أما الحكومة الروسية فلم تعترف بالمعاهدة وكانت تساعد الحبشة بإرسال الضباط وأصحاب المهن والرهبان والسلاح إليهم .

فرأى رئيس الحكومة الطليانية « كريسبي » إرسال رجل محنك إلى بلاط النجاشي عسى أن يقنعه ويزيل الخلاف . فأرسل الكونت « أنطونلي » إلا أن هـذا لم يتمكن (رغم ذلاقة لسانه ووعيده) من اقناع منليك الذي كان جوابه للوزير الطلياني ما يلي :

« مادام قد حدث غلط في نص المادة السابعة عشرة فالأولى أن نلغيها تماما ، ولنبتدأ كرة من جديد على نص المعاهدة ؛ ثم إن بلادي تحتاج إلى منفذ إلى البحر فلنقرر هذا أيضا » .

ولم يغير منليك رأيه ولم يحـد عن فكره . فكان في جميع هذا كراته مع الوزير المفوض يؤيد هذا الطلب عينه . وأخيراً بلغ الحكومة أن المادة السابعة عشرة من المعاهدة ملغاة . وفي الوقت عينه أعاد الأربعة ملايين فرنك إليها . وكان من نتيجة ذلك أن توترت العلاقات بين إيطاليا والحبشة وانتهت إلى الحرب

ساحة الحركات

تقرب سلسلة الجبال من مصوع وتسيطر على سهلها الضيق وفي امتدادها إلى الشمال تكون موازية للشاطىء . أما في امتدادها إلى الجنوب فتبعد عنه ، وتتكون منها صحراء الدناكل التي تشح المياه فيها ، وهذه الصحراء وعرة ذات مفازات ووديان ورواب

وهذه السلسلة ذاتها تتصل بالسلاسل الأخرى التي تتكون منها معاقل الحبشة الداخلية

جرت الحركات على طرق الحـدود في جنوبي « أسمرة » عاصمة أريترة بعد مصوع . والأرض في هذه المنطقة جبلية وهي واقعة على سفوح السلسلة الأولى التي تؤلف الضلع الغربي للمثلث ، والارتفاعات فيها تتفاوت بين ١٥٠٠ و ٢٥٠٠ متر ، والانحدارات في السفوح الشرقية على ما نعلم مائلة شديدة الوعورة ، وتسلقها صعب ، والأرض متقطعة بوديان وفيها وهاد ومضايق . والروابي يعلو بعضها بعضاً ، والكثير منها مكسو بالغابات والأحراج . أما الطرق فمسالك وعرة يصعب على الحيوانات المحملة السير فيها

والمنطقة بأجمعها تصلح للدفاع أكثر منها للهجوم . ولا تمكن الحركة فيها بقوات كبيرة ما لم يكن السير فيها بأرتال مختلفة متباعدة تفرقها الودن والمضايق عن بعضها فتصعب المواصلة بينها . وفضلاً عن ذلك فالمياه فيها شحيحة ومواد الاعاشة قليلة ، الأمر الذي يقتضي تجهيز القوات بوسائل النقل الكثيرة والسير فيها يقتضي بطبيعة الحال اتخاذ تدابير الحماية . لذلك لا يجوز أبداً تطويل الأرتال لأنهـا تمسى أهدافا ملائمة للمباغتة . والخلاصة أنها من أفضل الأراضي الصالحة للحروب الصغرى بالكمين والمباغتة فهي من هذه الوجهة تفيد الأحباش الذين يعرفونها حق المعرفة ويعلمون بنجدها وغورها فضلاً عن تعودهم على اقليمها .

والطرق التي تربط مستعمرة اريترة بهذه الساحة تبدأ من ساحل البحر وتمتد إلى الجنوب الغربي فإلى الجنوب ، منها طريق شمالي يبدأ من مصوع ويمر بأسمرة بعد أن يتسلق الجبال ويدخل الهضبة . وارتفاع اسمرة ٢٣٧٢ متراً . وقبل أن يقطع نهر مارب الفاصل للحدود يمر بقرية «غوندت» ثم يصل إلى عدوة وارتفاعها ١٩٦٥ مترا وهي واقعة بالغرب من أكسوم وإلى شرقيها

والطريق الثاني يبدأ من زولا على خليج عدولي . وبعد أن يمر بقريتي « حلي » و « كواتيت » يقطع الحدود إلى جنوبي سنافة ويصل إلى قلعة ادجرات وهي من المراكز الحبشية الخطيرة ، فيتوجه الطريق بعـد ذلك إلى الجنوب ويمر بقلعة « مكا » إلى أن يصل إلى « هرر » ويجري في هذه الساحة تابعا نهر عطبرة وهما مارب وتكاسه

ومن جملة الأهداف التي كان يتوخاها الطليان في حركاتهم استمالة الرؤوس إلى جانبهم واثارة الحروب الداخلية في الحبشة لكي يسهل عليهم التغلب على العدو .

فكانوا على إتصال برأس مقاطعة تيجرى ، وبعد هذه المقاطعة تأتي مقاطعة أمحرة الداخلية ، وفي جنوبيها مقاطعة شوعا المختصة بالنجاشي ، وهي خلف مقاطعة غوجام الداخليـة . وفي جنوبي هذه المقاطعات أرض الغالا في منتهى البلاد الحبشية

فيتضح من ذلك أن الحركة يجب أن تجري بمراحل لاحتلال المقاطعات على التوالي ، وهذه المقاطعات جميعاً وعرة منيعة

قوات الفريقين — الجيش الحبشي

استخدم الطليان رئيساً لتجسس أحوال الحبشة وبالنظر إلى المعلومات التي توصل إليها هذا الضابط من أن أنفس مقاطعات تيجرى وأمحرة وغوجام زهاء ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة . أما أنفس

مقاطعة شوعا وحدها فتبلغ ٢،٠٠٠،٠٠٠ نسمة وهذا مما يجعل لهذه المقاطعة مركزاً خطيراً يتجلى بحكمها على المقاطعات الأخرى

ولما لم يكن للحبشة جيش منظم فمن البديهي أن تقدر القوات بالرجال المسلحين الذين تجهزهم المقاطعات المذكورة وعلى هذا الأساس تبلغ قوة الجيش ما يلي :

رجل	
٤٠،٠٠٠	جيش تيجري
٣٥،٠٠٠	جيش امحرة
٢٠،٠٠٠	جيش غوجام
٧٠،٠٠٠	جيش شوعا
١٤٥،٠٠٠	المجموع

ونقصد بالجيش القوة الجاهزة التي يستطيع أن يستخدمها الرأس أو ملك المقاطعة ، متى شاء بمعنى أنها مستعدة للعمل في كل وقت . أما عند الاقتضاء فيمكن إخراج قوات أخرى بكل سهولة لأن الأحباش جميعاً جنود بالطبع لا فرق بين شابهم وشيخهم .

أضف إلى ذلك مقاطعة الغالا وعاصمتها هرر التي تبلغ نفوسها زهاء ٣،٠٠٠،٠٠٠ نسمة ومع أنها بعيدة عن ساحة الحركات إلا أنها تستطيع أن تجهز جيش النجاشي بالخيالة .

ولدى الجيش الحبشي أربعون مدفعاً على أنواع مختلفة .

والأحباش جنود بالطبع فيتحملون السير الطويل دون تعب ، ويعسكرون ويسيرون بلا جلبة ولا ضوضاء ، ويحصلون على معيشتهم بالتكاليف الحربية ولا يستخدمون وسائل لذلك . فالجندي يحمل أرزاقه معه وهي مقدار قليل من الذرة . والأرزاق التي تكفي الجندي الأوربي ثلاثة أشهر يعيش بها الحبشي سنة كاملة . فالحبشي من هذه الجهة قانع بما يتيسر له .

والوحدة السوقية في الجيش الحبشي هي الفرقة أو القوة التي يخرجها الرأس أو الملك . وهذه القوة تختلف باختلاف مساحة مقاطعة الرأس أو الملك فيتفاوت مقدارها بين ٥٠٠٠ و١٠،٠٠٠ رجل أو أكثر

والملك أو الرأس يجهز جنوده بالسلاح والحكومة تمده بالسلاح والعتاد عند الاقتضاء . ومع ذلك نرى أن بعض جنود الأحباش يدبر بنفسه أمر سلاحه وعتاده .

وقد علمنا أن الطليان دون أن يحسبوا حساب المستقبل جهزوا النجاشي بأسلحة حديثـــة فمنحوه ٥٠٠٠ بندقية و ٢٠٠،٠٠٠ طلقة في المرة الأولى و ٣٨٠٠٠ بندقية و ٢٨ مدفعاً في المرة الثانية . أما البريطانيون فكانوا قد أهدوا الى رأس تيجري ٩٠٠ بندقية . وإذا أضفنا الى ذلك السلاح الذى استطاع أن يشتريه منليك في المدة الأخيرة علمنا أن لدى الأحباش عدداً كبيراً من البنادق الصالحة للاستعمال

ومن عادة النساء الحبشيات أن يرافقن الجيش فيحملن مواد الاعاشة والماء لرجالهن ويهيئن الطعام لهم في المعسكر ويداوين الجرحى ويشجعن الجنود على القتال

أسلوب التعبئة عند الأحباش

يمتاز الأحباش بالهجوم السريع وبالشدة . ويحسن المشاة الرمي فلا يطلقون النار إلا من مسافات قريبة حرصا على ذخيرتهم ، وعندما يقتربون من أعدائهم يحملون عليهم صارخين فيستعملون سيوفهم العريضة في الحملة وجهاً لوجه ، وبرغم وعورة الأرض يحسن الأحباش الركوب . وإذا ما وقع في أيديهم بغل أو جواد ينقلب المشاة حالاً إلى خيالة ، ويسير المشاة بسرعة . ويستخدم الأحباش على الأغلب الخيالة في المجنبة ، وذلك للالتفاف حول العدو وقطع خط الاتصال عليه وإذا ما انتصروا عليه قضوا عليه القضاء المبرم بقتل رجاله جميعاً . أما في الدفاع فيحسن الأحباش الاستفادة من الأرض ويعمدون إلى الكمون والمباغتة بنجاح

الجيش الطلياني

يتألف الجيش الطلياني من القوات الطليانية والأهلية الرابطة في مستعمرة أريترة والقوات التي يمكن جلبها من إيطاليا

واستخدم الطليان في بادىء الأمر السودانيين والصوماليين وبقايا الجنود المصريين في المستعمرة بعد أن جعلوا نواة القوة من الطليان

وكانت القوة بعد الاحتلال بثلاث سنوات مؤلفة من ألفي جندي ، وفي سنة ١٨٩٤ نسق الطليان جيش المستعمرات بتأليفه من وحدات طليانية ووحدات أهلية بقيادة الضباط وبعض ضباط الصف الطليان

وكانت القوة الطليانية في بادىء الأمر مؤلفة من فوج مشاة وفصيل مدفعية . أما القوات الأهلية المختلطة فكانت مؤلفة من بطارية وفصيل هندسة ووحدة درك وجنود نقلية

(يتبع) طه الهاشمي

المشكلة* . . . !

للأستاذ كامل محمود حبيب

دخل الشاب مستأذناً ؛ فخلع طربوشه ، وألقى عصاه ، ثم جلس مبهوراً تتتابع أنفاسه ، ويزدحم الكلام على شفتيه ، لا يكاد يبين معنى من معنى ، أو يستقر خاطره على شيء ؛ فما استبنت إلا قوله يختتم الحديث في كلمات متقطعة منهوكة : « نعم ، وقعت المشكلة ! وقعت المشكلة ! فأين أجد الخلاص ؟ » ، وكنت قد وقفت عند قول أستاذنا الرافعي في مقاله بمجلة « الرسالة الغراء » : « ووقعت المشكلة . . . » فعرفت ما يعني صاحبي ، وهو كان صاحبَ هذا الحديث ، ومحورَ رحاه ، على أن الرحى لم تطحن إلا قلبه هو ، وكان قد كتب إلى أستاذنا يطلب الخلاص ، فأين رأى الخلاص من نُصح طبيبه . . ما أمرّ الدواء لو يجدي ، وما أقسى الطبيب . . ! وقلتُ في نفسي : « وا أسفا لهذا الشاب !! أثقل عليه أن صفحة من صفحات قلبه قد نُشرتْ ، وهو كان يحمل الهم كله في صدره فما يثقل عليه ؟ ويل للشاب من الشيخ ، فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان ؟

ثم استوى الشاب في مجلسه وقد اطمأن قليلاً وسرّي عنه بعض ما كان فيه من اضطراب وقلق ، ثم قال : « أترى ما فعل بي أستاذنا ؟ لقد كنتُ — بادىء الرأي — في عينه مهذباً ، متعلماً . ذا رأي وبصر ؛ فما هي إلا دورة الكلام فإذا أنا ساقط ، مرذول ، ضعيف الرأي ! أفترى على الشاب من حرج أن يحلق في سمائه ، يفتش عن قلبه الطائر حتى يرى ضالته . . ؟ والطائر الغريد — يا صديقي — ينقب عن أنثاه التي تساكنه عُشَّه ، وترعى أفراخه . أفيكون لأبيه أن ينتقي له أنثاه من بين عصافير الغاب ، أم تراه هو . . . ! أو تحسبها هي تستقر اليه إذا لم ترَ في ظل جناحه الرأفة والحنان والحب ! أرأيتَ يا صديقي ؟ أرأيت هذا الطير ، يطير عن أنثاه إلى غيرها ، وهو نفسه الذي تعلَّقها ، وفتنه ما فيها من أنوثة وجمال ؛ وهو نفسه الذي اختارها لتشاركه حياة الطير ، وزقَّها وزقته ، وبادلها وبادلته الحب والحنان ؛ أم كان ينتقص من حريته ، ويسلب رأيه لو كان تعلم . . . ؟

إن الذي تعلم منا ، قد تعلم ليمسك بمفتاح القيد الذي ضُمتْ به إحدى رجليه إلى الأخرى ، وشُدتْ إحدى يديه إلى الثانية ، وماذا يكون وراء العلم إن لم يكن هذا ؟ . وإذا كان الرجل يقول : « هذا أبي ، وتلك أمي ، وهؤلاء أهلي » لينتسب اليهم ، أفيخرج عن أهله إن هو قال : « وهذه زوجتي ؟ » وإذا كنتُ رجلاً تنفذ إليه المرأة بين الشيطان والحيوان منه ، ويصده عنها الرجل الذي في عقله ، أفكنتُ غيرَ الرجل الذي يريد أن يتم القصة التي أتمها الله لآدم بحواء ؟ وهل قال الله لآدم : « هذه متسماة عليك ؟ » أم قال لملك الحب : « ضع سحرك ، وابذر لغرسك ؟ » فهمّ آدم ليعانق حواء ، وهمت هي لتعانقه ، فبدت الطبيعة أجمل ما تكون في عين رجل وامرأة ، ورأى بعين الحب التي تشع نظراتها من القلب ، وهو كان يرى بعين الجسد فما وراء نظرته معنى ولا عاطفة . ثم خلق من حبهما شاعراً ، وأديباً ، وفيلسوفاً ، وعبقرياً و . . . وعاشقاً وعاشقة ! »

قلتُ : ويْ ! كأنك قد طرت من الدنيا فلم تهبط إلا في الفردوس ؛ كأنك لا ترى أنك في حجرة إن لم تكن ضيقة فهي ليست بالواسعة !

* * *

واندفع الشاب في خياله ، وكأنه أراد أن يجمع إلى كتبه التي يطالعها ؛ ويرى الجمال في صفحاتها ، صفحة أخرى من جمال الطبيعة ، وثالثة من جمال المرأة ؛ وظن الجمال في عقله عند الكتاب ، وفي نظره تحت ظل شجرة وارفة على ضفاف الوادي ، في قلبه عند امرأة جميلة يميل اليها ويحبها ويرافقها إلى حيث يشبه الطائر الذي تحدثتُ عنه ؛ وفي أذنه عند زقزقة العصافير ، وفي حديث هذه الفتاة التي يزعم عندها الجمال والرقة والعقل ؛ وفي شمِّه عند نسيم الصباح وشذى هذه المحبوبة التي عرفها وهيَّمها وهيمته ، وخُيل إليّ أن تعاويذها قد فعلت فيه ، وأن نارها قد نالت منه ، وأنه قد أسلس لها وانقاد ، فقلتُ : أما أنت

* جواباً على مقالة الأستاذ الرافعي) المشكلة) المنشورة بالعدد ١٢٣

منها فكالذى نُوّم فهو يسير على غير ارادته ، أو سُحر فهو ينظر بغير عينيه ، أو التائه فهو يمشى فى غير طريقه ؛ وإن كان أستاذنا قد قال : فما عليك أن ترفع هذا السحر عنك ، ولكنّ فى كلماته سحراً من نوع آخر . . .

قال : والذى يذهب بعقلى أن يقول الناس : إنك مسحور أو بك لوثة ؛ وقد تملمت – فيما تملمت فى حياتى – أن أفكر بعقل الفيلسوف ، وأن أطير فى سماء الخيال إلى حيث أقع ؛ وإن كان الخيال قد أضر بى قليلا ، إنه لقد شبّ معى بمقدار ما شب عقلى معى ، فكان عقلى وخيالى ، ثم كانت حياتى وكلها دراسة عميقة فلسفية – فحجب عقلى خيالى حيناً ، ثم عاد خيالى للظهور مع هذه ، ولكنه لم يحجب عقلى ، وكانت هى عقلا إلى عقلى ، ولبست خيالاً إلى خيالى ؛ فكان عقلى أولاً ثم خيالى الصغير ، وكانت تقول : « أنا لك بعد عملك ومستقبلك ، ولست لك إلا أن تكون رجلا فذا » فتدفعنى بكلماتها وقلبها وعقلها إلى المثل الأعلى . فيا ضيعة الأمل إن خاب هذا المثل ، ورُددتُ إلى منزلى لأرى فيه مصيبتى ! ! ويا خيبة الرجاء إن صرتُ كذلك الحداد أو النجار أو الحوذى ، أو ... أو غيرهم ممن لا يرون فى الحياة إلا أنها اللقمة والثوب والمأوى ، ثم ... ثم ذلك الضجيج البيتى الذى يصبح فيه هو وزوجته وعمى ، والذى يشب عليه أبناؤها فيأخذون من سوء الخلق ، وضمة الأخلاق ، وسفالة الطبع ، والشقاق ، والتنابذ ، مما رأوا عليه أبويهم

إن أستاذنا ليقول : إنها فتاة الشعر والخيال ، وما هى كذلك ، وما قابلتها مرة ، أو حاولت ذلك إلا بعد أن أخلع عنى خيالى ، لأخاطبها بلسان الفيلسوف ، وعقل الحكيم ، وكم أردت أن أقول لها : « أى فتاتى ... ... » لأندفع معها فى غزل رقيق ، فكانت تنظر إلى بعين تقول منها : « ليست هذه لغتنا ... » فأرتد لأقول : « ولقد قرأت ... ... » ثم أخلو لنفسى لأشبع رغبتى فى الحديث الآخر ... بينى وبين نفسى ... !

قلت : أفترى أن الفيلسوفة العالمة تستطيع أن تكون زوجاً وربة دار ، وأن تكون أمًّا ومدبرة بيت ؟ وهل تراها تنشئ لك الحياة التى قدّرتها فى خيالك ؟ إن الحياة – ياصديقى – شيء غير هذا كله ، وإنك لن تبيت فيه الدين والإحتشام والشهامة ؛

أفليس من ذلك كله أن تمسك عليك زوجك التى اختار أبوك ، وأن تمنحها من نفسك ما يمنح الزوج ؟

قال : إنك تنحو منحى أستاذك . أفتريد أن تضيف إلى همومى هماً آخر ، وأنا جئتك أستعينك على همى ... ! لقد كان أستاذك فى مقاله كالذى ينزع سكيناً هو أغمدها فى صدرى ليداوى جُرحاً هو الذى بلغ به هذا العمق العميق ، حتى إذا ما التأم أو كاد ، عاد فنكأه ، ثم عاد ثالثة ليداويه ... ! وصاحبتى التى اصطلحنا عليها لم تكن منى إلاّ بمنزلة المنظار من عين الأعشى ينظر من خلاله الى هذا العالم فيرى ما يراه ذو العين الصحيحة ؛ ولم تكن من قلبى إلا بمنزلة الاطمئنان من قلب المضطرب ، ولم تكن من عقلى إلا بمنزلة الطبيعة تفتح فيه طرقاً معبدة ؛ ولم تكن من حياتى إلاّ بمنزلة الصديق الوفىّ . ولعلك تذكر يوم أن كتبتُ اليك وكنتَ بعيداً : « لقد أبللت من مرضى ... » . كان أخى فى منأى عنى ، ووقفتْ زوجتى بجوار سريرى ، لا تعرف كيف تَصُبّ الدواء فى فنجانة ، ولا متى يكون . وهفتْ نفسى إلى التى أحبها حين خُيِّل إلى أنى أموت فكتبتُ اليها وألححتُ ؛ فزارتنى على استحياء ، ثم ألجحتُ فوقفتْ منى موقف الطبيب من مريضه ... ثم كتبتْ إلى أهلى تقول : « إن ابنكم يحتاج الى من يقوم عليه .... » كتبت ذلك حين رأت أن فى زيارتها شيئاً ، ثم ... ثم لم تعد

ولما أبللتُ وخرجتُ للقائها قالت : لقد كنت قاسياً ، وما استطعتُ أن أرفض حين رأيتُ الخطر . وما كان أجدر بى وبك ألا نقطع هذه المرحلة . بالشقائى بك ! وبالشقاء زوجك بك ! لقد أصبت قلبين بسهم .

وقالت لى وقالتُ لها ، ثم افترقنا ، وأردت أن أهب إلى التى فى دارى بعض نفسى فأشعرها بأننا أنثى ورجل ؛ فارتد قلبى عنها ، ثم أرغمته فارتد أخرى ، وأظلم منزلى من بهجة العزوبة ومن جمال الزواج معاً ، وأصبحت الدار التى جعلتها لسكناى هى جحيمى ، ففررتُ إلى الشارع وإلى عملى ؛ وشعرت الأخرى أنها لا تملك فى هذا المنزل ما تملكه الزوجة ففرّتْ الى حجرتها وإلى خادمتها ، واعتزلتها ، واعتزلتنى ؛ ورجعنا إلى ما كان ، حين كان بيننا (الباب المغلق) سنوات تسعاً

قلت إن أولى الناس بإحسان المحسن ، هو القريب ، فالجار الجنب ، فالصاحب بالجنب ؛ وقد عرفتك محسنا ، وهذه من ذوي قرابتك ، وأقرب إليك من جارك ؛ أفلا تكون محسناً معها ؟

قال : لقد كنت أستطيعه لو وجدت النور .. إنها الظلام وظلام ... أما الظلام الأول ففي منزلي ، وأما الظلام الثاني ففي قلبي ، وأما الظلام الثالث ففي عقلي ... !

* * *

وصمت وصمت ؛ وكان كأنه يسترجع الذكرى ، ذكرى أيام خلت ، ذاق فيها حلاوة العيش ، وسعادة الرضى ، وكأن حياته ماضيها ومستقبلها قد جمعت في أشهر كانا فيها ...

ثم التفت إليّ كالمذعور وقال : أما أنني كنت معها غير الرجل الذي فيه الرجولة فقط ، وأما أنها كانت مني غير الأنثى التي فيها الأنوثة فقط — فلا . إلا أنها كانت توحي إليّ بكلام هو من لغة السماء ، وتصب في حياة هي حياة أهل الخلد ؛ وكنت إلى ذلك مطمئناً وقد اطمأنت هي أيضاً إليه .. وقنعت وقنعت . والناس يرون في الحب الفاحشة ولا يرون فيه الجيد . والذي يعيش في حياته بلا حب كالشجرة العانس .. ليس إلا هي في الحديقة ، ولا سبيل إلى أن تجد الشجرة الأخرى . فلا هي بالذابلة الجافة ، ولا هي بالمثمرة ؛ ولكنها بارتفاعها وفقرها تقول : « أنا ... أنا الموجود الذي لا وجود له . » فما أسرع ما تمتد إليها يد لتقتلها ، وحين ترى نفسها وقد نالتها فأس الحطاب تقول « ... أنا .. وبلى .. أنا الضائعة » . إن الذي لا يحب الجمال ولا يلتمسه في امرأة ؛ ثم يفاخر غيره بذلك ، إنه لا يقول للناس « أنا لا أحب ولا أقدر الحب » بل يقول « أنا .. ما أنا في الأحياء ! .. أنا .. أنا ميت الأحياء » والضعف الذي يراه في الذين عرفوا الحب وآمنوا به ، إنما هو ضعف في إنسانيته هو لا في إنسانيتهم ، والذي لا يدرك الجمال في المرأة لا يدركه في الطبيعة ؛ لأن المرأة هي المنظار المكبر الذي ينظر الرجل من ورائه إلى ما حوله . وإلا فهو لا يرى موضعه من الأحياء .. »

أنا .. أنا إنسان ولا أستطيع أن أقول إن كل شيء جميل ، وإن كان في القبيح جمال فقد يكون في الجمال قبح ؛ ولكن هذه التي يقولون عنها إنها جميلة ... ثم أرغموني عليها وأرغموها عليّ لا أرى في قبحها جمالاً ولا في بؤس الحياة معها فناً ...

قلت : ويك ! لقد اضطرعت في نفسك عوامل رانت على بصرك وتركتك في بيداء من الوهم والخيال ، كأنك تريد أن تخلع ثوبك ؛ وقد يكون في الذي تخلعه جمال !

قال : أما أن أظل شريداً ، فلا . وأما أن أحتمل مع عيني عيناً آخر ، فلا . وأما أنني أهتم بنفسي ، فنعم .. وماذا يضيرني ويضير هذا العالم بما فيه أهلي وأهلها إذا لبست فوق ثوبي القديم ثوباً آخر ، فيخفي عن عيني وعين الناس هذا القبيح الذي كنت ألبس ؟

* * *

ثم تركني ، وأنا أقول : واأسفا لهذا الشاب ! ! أتثقل عليه أن صفحة من صفحات قلبه قد نشرت وهو كان يحمل الهم كله في صدره فما يثقل عليه ؟ ويل للشاب من الشيخ فذلك يتكلم بوجدانه وعاطفته وقلبه ، وذاك يتكلم بعقله وتجاربه وفلسفته . فأين يلتقيان !

كامل محمود حبيب

٤ – عمرو بن العاص

بقلم حسين مؤنس

تتمة

وانتظمت جيوش معاوية واتخذت سبيلها الى الشام لتثأر لعثمان الشهيد ... ولم يعد في نفس أحد منهم شك في أن عليا هو قاتل عثمان ... وأن حربه والانتقام منه فرض واجب على المسلم الصادق الأمين، ومضى معاوية وعمرو على حصانيهما يتحدثان في الطريق وإن معاوية ليحس خطر هذا الرجل الصامت الى جانبه ... إنه ليعجب من هذا العقل الكبير الذي لا يقصر عن غاية ولا يعجز عن أمر ... وإنه ليخشاه ويرى سلطانه مهددا بوجوده ... ولكنه يحتاج اليه ولا يكاد يستغني عنه في هذه الملحمة المقبلة ... ولم يكن عمرو ليفكر في غير ذلك! ولكنه لم يكن منصرفا اليه هذا الانصراف كله ... فهو يعرف حاجة معاوية اليه ولا يخشى منه أمراً ... بل هو يفكر في أمر آخر . إنه ليفكر في علي وقوته ... ويحسب حسابها ويسأل نفسه: ترى ما ذا أفعل لو انتصر عليّ على وهو أمر معقول جداً ... وإن عليا لفارس العرب وسيف الله البتار ؛ وإنه لصاحب الأيام البيض الخوالد والغزوات الزهر الباقيات، وإن معه لنفرا من الفرسان الصناديد الذين يخشى منهم أي خشية .. فيهم الأشتر النخعي وفيهم من أصحاب الرأى ابن عباس ، وإن في هؤلاء لغناء ومنعة من الفشل ... فما ترى ابن العاص فاعلاً والأمر خطر والبلاء شديد ؟

وانتهت الجيوش إلى ضفاف الفرات ، واقتربت من طلائع على وعسكرت في موضع سهل ومنعت الماء عن علي ... وبأت قوات علي عطشى حتى عيل صبرها فحملت على الشاميين فأجلتهم عن موضع الماء ... وبات الشاميون عطشى فبدءوا من يسأل عليا الماء فأجاب! ... وتلك كانت علة الرجل التي انتهت به الى الهزيمة في ذلك الميدان ، فكيف يثبت الطيب للخبيث ، والرقيق للقاسي، والإيمان للحيلة والدهاء! [1] وزاد الأمر بلاء أن عمرا أدرك موضع الضعف من علي ؛ وسيراه سباقاً الى الاستفادة من إيمان علي وشهامته ... انظر اليه قبيل صفين ... إنه يدور بعينيه في معسكر علي ليختار الدهاة والخبثاء ويتصل بهم ويشككهم في أمرهم ... هذا الأشعث بن قيس يتفاهم مع عمرو ، وهذا أبو موسى يبدأ يشك في حق علي ... ثم تبدأ الدعاية القوية في جيش علي نفسه فتقعد همم الناس وتفتر عزماتهم ... ويرون قتال أعداء علي تعباً لا طائل وراءه ، وإن عليا ليلزم جنوده شدة لا يطيقونها ، وإنه ليمنيهم بالجنة دون الغنائم والأسلاب ؛ وهؤلاء جنود الشام عليهم النعمة ظاهرة والخير وافر : وذلك عدل من معاوية ، وكياسة من عمرو ! ثم انظر إلى ميدان صفين : كيف تهم طائفة من أصحاب علي فتكتسح العدو اكتساحاً وتكاد تأتي على معاوية ، وكيف تتقاعس طائفة أخرى حتى تكاد تفر من الميدان ، وكيف يأتي على مقاومة من أنصاره وممارضة من قواده . لقد تغيروا . لقد داخل نفوسهم الشك في عدالة قضيته ؛ وإنهم ليرون ظل عثمان ماثلا على خلافة علي ثقيلا رهيباً . بل وهذا الأشعث يقعد عن القتال، وهذا الأشتر يمضي ، حتى تكاد الهزيمة تحيق بمعاوية . ويشتد الأمر بجند الشام وينظر عمرو حواليه ، فإذا الأمر مقضي، وإذا الهزيمة قاضية ، فينحي على معاوية ويلومه لوماً شديداً . لقد بدا له أنه « خسر الصفقة » وأن السوق قد أتت بغير ما كان يقدر . إنه لثائر مغضب يلوم معاوية ، فيشتد في لومه ، وإنه ليعتبره مسئولاً عن الخسارة التي حاقت به ، وإنه ليصارحه برأيه ويكشف سره ويقول له : « يا معاوية : أحرقت قلبي بقصصك ؛ ما أرى أننا خالفنا علياً لفضل منا عليه ! لا والله ، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها، وايم الله لتقطعن لي قطعة من دنياك أو لأنابذنك . » [1] وإنه لينـدم على ما أتى من انضمامه ، وقد نسي قدر علي وقوة جنوده ، والآن اتضح له الحق فهو يلوم ويندم ، ولكن ماذا يجدي ، وإن الخطر ليقترب ، وإن جنود علي لتكاد تمس جفناء معاوية ؛ وإنه ليركب حصانه ، ويهيب بعمرو : « الله ... الله ... في الحرمات والنساء والبنات : هلم خبأتك يا ابن العاص فقد هلكنا » ، ولكن كيف يسرع ابن العاص إلى مخبأته ، ويطوى

(١) ابن قتيبة « الأمامة والسياسة » ج ١ ص ١٧٢

(١) رواه الذهبي ، وأنا أشك في صدق الجزء الأخير من « وايم ... » لأنه كان قد سبق للاثنين الاتفاق قبل الشروع في العمل

خيامه ويلوى هارباً ، وما بعد ؟ ... إنه لينظر بعيداً ، وإنه ليرى علياً متعقباً إياهم حتى يقبض عليهم فى عقر دارهم ... كان هذا أمراً يخيف ابن العاص ... فانظر كيف يستغيث وكيف يحتمى بكتاب الله ... لقد عرف أن فى بعض رجال على ميلاً إلى المهادنة وترك القتال . فرأى الاستفادة منهم ... ثم أخذ يسأل نفسه قائلاً : ترى أى شىء يجله هؤلاء القوم فى هـذه اللحظة التى تنكروا فيها لكل شىء ؟ فتجيبه نفسه : كتاب الله ... فيجيبها : فلنعتصم منهم بكتاب الله ، ولنرفع المصاحف على الرماح ؛ فيجيب نفسه ... بلى ... هو الرأى الصواب . فترفع المصاحف على الأسنة ويراها أصحاب على ، وكأنما كانوا يترقبون فرصة يكفون فيها عن القتال فيرون فى هذا حجة كافية ، ويكفون ويحتجون بكتاب الله ، ويدور على بعينه فى معسكر عدوه ليرى مطلع هذه البدعة فيجد أنه عمرو . وهنا ينكشف لعينيه سرها .. إنها خدعة .. إنها حيلة ؛ ولكن قومه لا يسمعون . وها هى صفين تنفض ، والأشتر يؤمر بالرجوع ، وينجو معاوية ، ويحول ابن العاص المعركة من حرب السيوف لحرب الفكر واللسان لكى يشل قوة على ، ولكى يكون هو فى ميدانه الصالح له . ثم انظر اليه يتدخل حتى فى اختيار على لمندوبه ... إنه ليتصل بالخونة من أنصار على ويوعز اليهم فيرفضون عبد الله بن عباس لأنه فتى ذكى مخلص لقضية على . ثم يرفضون الأشتر لأنه متفان فى خدمة ابن أبى طالب ، ولكنهم يؤيدون الأشعرى لأن عمرا يعرف أن بينه وبين على شيئا ، وأن التفاهم قد يجدى معه كثيراً ، وينفض الجمع ليلتقى فى دومة الجندل

ترى فيم يفكر ابن العاص فى هـذه الفترة ... فى مصر وأمورها ... لأنها ستعود اليه بعد قليل ... إنه يكيد لواليها الجديد قيس بن سعد بن عبادة الانصارى فيشيع فى حزب على أن قيساً قد انضم لحزب معاوية ، فيعزله على ويضع مكانه الأشتر النخعى فيموت الأشتر مسموما عند « مسروره » بالقلزم فى ٥ رجب ٣٧ ... أترى لعمرو يداً فى ذلك ؟

ثم يكون التحكيم الذى لم يرو التاريخ مثله أبدا ، والذى لم يوفق مؤرخ فى روايته على أصله أبداً ، والذى يرفض العقل أن يقبله فى صورته التى وصلت الينا ... ولكننا نستطيع أن نفهم منه كيف كان الناس ينظرون إلى عمرو ! وكيف اعتبرته الأجيال أشد الناس لؤما وأكثرهم خبثا ... لقد وفق عمرو توفيقاً عظيما ... ولم يكن توفيقه راجعا الى مهارته فى الكيد وحدها ، بل الى وجود الضعاف والخونة فى صفوف خصمه وحسن استفادته من هؤلاء ... هذا هو يتدخل فى انتخاب مندوب على ويرضى أخيراً عن أبى موسى الأشعرى لا لأنه أبله أو شيخ كما يزعم الرواة ، بل لأنه غير راض الرضى كله عن على ... ولأنه قابل للفتنة مستعد للمساومة ؛ وهذا عمرو يخلو به ساعات طوالاً يتحدث اليه فى الأمر : ويتفنن فى إقناعه ... وينفذ اليه من شتى السبل حتى يوفق الى تشكيك الرجل فى عدالة قضية على ، بل الى اتهامه بمقتل عثمان ... فاذا خلص من هذا فقد أفهمه أن لعثمان أولياء يطلبون ثأره من القاتلين ... وأن الأولياء هم معاوية وعامة آل أمية ... فاذا خلص الى هذا فقد أقنع خصمه بعدالة ثورة معاوية ... ثم يسأله : فماذا ترى ؟... فيصمت الشيخ فيقول عمرو : إننا نرضى بتنازل على عنا لدم عثمان ؛ فلا يرى أبو موسى حرجا فى ذلك ... ويطرب لذلك عمرو ، فقد خسر منافسه الخلافة ولم يخسر هو شيئاً ... وهو إنما يرجو أن يخلع الخلافة عن على ليصير هو ومعاوية صنوين ... ثم إنه يعرف أن أنصار على ملتفون حوله لأنه خليفة ، فاذا زالت عنه الخلافة تفرقوا ... وقد أفلح ... بل إن أنصار على ليتفرقون قبل خلعه فى التحكيم ... ويصبح معسكره فوضى ... وينفض الخوارج ويتفرقون ويحاربهم فى النهروان ... كل هذا يرضى عمرا لأن فيه إضعافا للخصم ، فاذا تم الأمر ونزعت الخلافة لم يصبح لعلى بعد ذلك شىء ويذهب أمره هباء

ثم يعلن الحكمان ما وصلا اليه : لقد رأينا خلع على [1] ... لقد ثارت الفتنة واضطرب الأمر وأسقط فى يد على وأنصاره ... وقد كسب عمرو كل شىء وأصبح على عاجزا عن استنهاض همم جنوده لحرب معاوية ... وقد قوى أنصار هذا الأخير فخافهم الناس واتحد جند معاوية وقوى أمرهم واشتد ساعده بهم ، واستطاع أن يفصل عن على بلاده جزءا جزءا حتى إذا قتل سنة ٤٠ هـ لم يكن قد بقى فى يده من الأمر شىء

هكذا فعل عمرو : فرق الصفوف وأشاع الفتنة وأقام هذه الفوضى التى لم يخلص الاسلام منها الى أواخر أيامه . . .

(١) هذا ما نراه ولا يعقل أن يكونا أعلنا خلع على ومعاوية لأن معاوية لم يكن خليفة فيخلع

لكي يصل الى شيء واحد . . مصر . . لقد باع الحق وارتهن الفضيلة ، وساوم على طمأنينة الدولة الاسلامية ليكسب شيئاً واحداً ، هو مصر بخيرها وبركاتها

وانظر اليه لقد أسرع الى مصر فى ستة آلاف مقاتل ، يقطع بهم سيناء على عجل سنة ٣٨ هـ ، فاذا أشرف عليها فقد أرسل يهدد محمد بن أبي بكر الصديق ليخلي بينه وبين ما يريد . ولكن محمداً رفض ، ولم يدر أن غريمه قد باع الدنيا والآخرة بهذا الذى يمارضه فيه ؛ والتقى الجمعان ، وفر محمد وتبعه معاوية بن حديج وقتله فى المنشاة

ثم انظر صراعه مع معاوية على مصر . إن الأول ليستكثر عليه هذا البلد الغنى الطيب ، وإنه ليراه غير أهل لتلك النعمة الوارفة . فانه لجالس ذات يوم فى نفر من صحبه وفيهم عمرو فيقول :

ــ ما أعجبُ الأشياء ؟ فيجيب يزيد ابنه :

ــ أعجب الأشياء هذا السحاب الراكد بين السماء والأرض . . . وقال آخر :

ــ حظ يناله جاهل ، وحرمان يناله عاقل . وقال عمرو :

أعجب الأشياء أن المبطل يغلب المحق . فيسرع معاوية ويقول :

ــ بل أعجب الأشياء أن يعطى الانسان ما لا يستحق إذا كان لا يخاف

بلى فهو أعجب الأشياء ... وهل يستحق عمرو مصر وهو لا يخاف (الله)

ذلك رأى معاوية فى عمرو ... ثم انظر الى معاوية يحترس من عمرو فى كتاب توليته فيكتب : « على ألا ينقض شرطٌ طاعة ...» فيمسك عمرو بالقلم ويبدلها : « على ألا تنقض طاعةٌ شرطاً »

وعاش عمرو بعد ذلك ما شاء الله له أن يعيش ، وأنجاه الله من يد قاتله لكي ينعم قليلا بالشجرة الخضراء التى خسر فى سبيلها كل شيء . وتردد بين مصر والشام كثيراً ، ليجلس الى معاوية . . ثم ليخلو إلى أولاده ، وكانت مصر قد صارت له طعمة ، فاطمأن باله وترك الكفاح والجلاد ، ولكنه لم ينس الكسب والخسارة الى آخر أيامه ؛ فانه لجالس مع معاوية يوماً إذ سأله هذا ما بقى منك يا عمرو ؟ فيجيب : «مال أغرسه فأصيب من ثمرته وغلته . . »

أجل لازال فى سن السبعين يفكر فى غرس المال والاصابة من ثمرته وغلته ؛ وهكذا ينبغى أن يفهمه الناس ، فان اجتهاده فى السياسة ونبوغه فى الحرب كان مصدرهما شيئاً واحداً : الرغبة فى الكسب والربح . . وقد انتهت جهوده الى شيء واحد ، لا هو الملك ولا هو الثواب . . بل ليست هى الآخرة نفسها وإنما هي مصر . . أغنى ولايات الدولة وأوفرها مالا . وقد مات وخلف ألف ألف درهم كما يقول المسعودى ودوراً عديدة كانت يمتلكها فى مصر والشام

(تم البحث) حسين مؤنس

الصحراء

للأستاذ عبد الرحمن شكري

أرُحْبُكِ أم صمتٌ على الأرض غالب
غدا مُصْحِرٌ من روعه وهو هائب

كصمت الخشوع المطرقين تروعهم
مقابرُ صرعى للردى وخرائب

وصمتٍ لذى المحراب فى بيت ربه   يقاربه فى صمته ويخاطب

توقّعَ من قد غاله الصمت هاتفاً   يكلمه من فرط ما الصمت راعب

كمخترق الظلماء لاح لعينه   إذا جال فيها اللحظُ ما هو غائب

حَرِيٌّ أن يناجي النفس فيك أخو الحجا
ويخشع صمتاً راكب فيك ذاهب

ويخشع من رُحْبٍ كأنْ لا مدى له   حكى أبداً ما حَدَّهُ الدهرَ حاسب

ويخشع أنْ لا شىء إلا مجانسٌ   فلم يُلفَ إلا مُشْبِهٌ أو مناسب

وكم راع رأي العين إن كان لا يُرَى   سوى الشِّبْهِ يتلوه الشبيه المصاقب!

حكى خدعة الآمال آلك رافعاً   على الأفق بشرى كذَّبتها العواقب

سراب الأماني فى الحياة خديعةٌ   وقد تُهلِكُ المرءَ المنى والرغائب

ومن ضلّ فى خرق من العيش لبه   كمن خذلته فى الفيافى المذاهب

تفتّحُ أبواب الجحيم عن اللظى   كأن شواظ القيظ يسفيه دائب

بسموم كدُفّاع البراكين أو لظى الـ   ـحرائق يصلاه الحصا والنجائب

ويصلاه ركبٌ خال دنيا تقلّصت   عن النار لو يسمى جحيمٌ مقارب

ويَسْوَدُّ وجه الأفق حتى كأنما
ذُكاء دجت أو يكسف الشمسَ حاجب

وكم حار ركبٌ من فجاءة صحوة
كما راع مرأى الحسن والعُرْيِ سالب

إذ الجو كالبِلَّوْرِ أُخْلِصَ لونه
وصب عليه من سنا الشمس ساكب

كذلك غب الغيث ريان بهجة   كأن طلاء قطره وهو صائب

كأنَّ ضياء فى سواد سحابة   تكاثر حتى ثَقَّبَ الدجنَ ثاقب

تَفَجَّرَ ينبوع من النور غامر   كما غمر الأرضَ المياه السوارب

ضياء ترى المألوفَ من كل منظرٍ   به فإذا المألوف منه الغرائب

وما فرحة الولهان عاد حبيبه   بأصدق منها فرحةً وهو آيب

نهارك أم ليل الدراريّ نائل   من اللب نيلاً لم تنله الكواعب

أديم سماء يُبْرِزُ الشهبَ صَفْوُه   فأحسبها تدنو به وتقارب

أما يخشع السُّمّار من كثرة الدنى   ويذهل من رحب الفضاء المراقب

يبيت يناجي النجم والنجم سامر   فتُفْضي إليه بالجوار الكواكب

كأن لحاظ النجم من لحظ عاقل   وأن رقيباً فى السماء يراقب

يسائله عن عيشة أين سره   كأن وراء النجم ما هو طالب

إذا خط فيك الدهر سطراً محوته   كذا اليم، لا يقوى على اليم كاتب

وترْقل فيك اليعملات وإنما   سفائن لج البيد تلك الركائب

وللبحر أمواج وللبيد مثلها   إذا هب إعصارٌ على الركب كارب

فيغرق فى لجٍ من الترب حائن
كما احتشدت فوق السفين السوارب

ورحبك رُحْبُ البحر يطويك هائب
ويركبه ذو مطلب وهو هائب

بأفقكما للشهب رهب وروعة   جلالكما شِبْهٌ وشِبْهٌ مقارب

وذى دولة فى اليم قد دال أمره   وآخر أردته لديك المطالب

ويصغر عيش المرء فى اليم مثلما   تضاءل فيك عيشه والرغائب

لِمَخْالِكِ يلقى مكرم الضيف ضيفه   بخير، وأما خصمه فهو سالب

وتشحذه الأخطار حتى كأنما   بنوك سيوف ينتضيها المحارب

لقد صقلتها نار قَيْنٍ وصيقل   كما صقلتهم فى الحياة النوائب

تَنَسَّكْتِ فى بُرْدِ التقشف لم يلِنْ   معاشٌ ولا ترجى لديك الأطايب

عبد الرحمن شكري

لبنان

[تهدى إلى أخى الأستاذ على الطنطاوى]

لشاعر الشباب السورى أنور العطار

ـاب لبنانُ فى رقيقٍ من الغيـ ... ـمِ كما غاب فى مدى اليمّ زورقْ

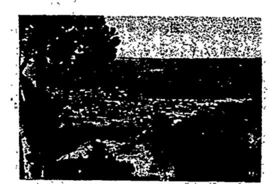
ـمرَ الثلجَ والسحائبَ تاجاً ... واختفى فى الضبابِ ثم تعلّقْ

ـضابُ الشمُّ اكتستْ ورقَ الخُلْـ ... ـدِ وطافَ الربيعُ فيها وأحدقْ

ـالروابى توسّدتْ راحةَ السُّحْـ ... ـبِ ونامتْ على وشاحٍ مرقّقْ

ـالذُّرى البيضُ فى العلاءِ نسورٌ ... حوّمتْ تكشفُ الخفىَّ المغلّقْ

ـشرتْ فى الفضاءِ أجنحها الزهْـ ... ـرَ فأسنى بها الوجودُ وأشرقْ



جونيه (من قرى لبنان)

ـالقرى غلغلتْ بأخبيةِ الغيْـ ... ـبِ وضاعتْ بينَ الغمامِ المنمّقْ

ـرقٌ ملؤه فتونٌ وسحرٌ ... ونعيمٌ صافٍ وحلمٌ مزوّقْ

ـالينابيعُ ضاحكاتٌ من الزهْـ ... ـوِ ترامى فيها السنا وتألّقْ

ـرددتْ قصّةً من النغمِ الحلْـ ... ـوِ ومن سجعةِ الحمامِ المطوّقْ

ـنجّتِ الربوةُ الأنيسةُ بالشدْ ... ـوِ وغنّى السفحُ الحبيبُ وزقزقْ

ـتمشّتْ بالغابِ موجةُ أنسٍ ... فشدا الأرزُ والصنوبرُ صفّقْ

ـتراءى البحرُ البعيدُ كحلمٍ ... مبهمٍ راجفِ الخيالِ ملفّقْ

ـسرقته السماءُ فى الأفقِ النا ... ئى فمن أبصرَ الخضمّاتِ تسرقْ

ـحبّذا فى رباعِ « زحلةَ » وادٍ ... برعمَ الحبُّ فى حماهُ وأورقْ

ـبأفيائهِ الألطافِ الحوانى ... سربَ النهرُ كاللجينِ المطرّقْ

وترامى الصفصافُ فى مائهِ الرقْـ ... ـراقِ يسجو على الضفافِ ويفرقْ

وعلى السفحِ تستريحُ الدوالى ... فى نظامٍ حلوٍ ونهجٍ منسّقْ



(وادى زحلة)

والعناقيدُ بينهنّ نشاوى ... ثملاتٌ من الرحيقِ المعتّقْ

رنّتِ الخمرُ فى ظروفٍ من النوْ ... رِ وكادَ الشذا يشمُّ وينشقْ

ذاكَ « صنّينُ » فيلقٌ فى السموا ... تِ وفى الأرضِ جاثمٌ منهُ فيلقْ

هو جارُ النسورِ حطَّ على الغيْـ ... ـمِ وأسرى إلى العلاءِ وحلّقْ

والسهولُ الفساحُ دنيا من الإلْـ ... ـهامِ تندى من الطيوبِ وتعبقْ

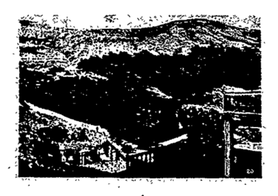
والمساءُ الساجى البهىُّ رسومٌ ... ورؤىً كلُّها تحبُّ وتعشقْ

والقطيعُ المِمراحُ غنّاهُ راعيـ ... ـهِ فأصغى مستمهلاً وتشوّقْ

هدهدتهُ الربابُ فانسابَ كالنهْـ ... ـرِ وأهوى من الربى يتدفّقْ

ملأَ الكونَ بالثغاءِ فما تسْـ ... ـمعُ إلّا صدى يطنُّ ويزعقْ

عادَ والليلُ متعبٌ هبطَ الأرْ ... ضَ وأغفى على الجبالِ وأطبقْ



(الأرز)

إيهِ لبنانُ يا نشيدَ الأناشيـ ... ـدِ ويا صورةَ النعيمِ المحقّقْ

(البقية فى ذيل الصفحة التالية)

جنازة السلام

بمناسبة الحرب بين إيطاليا والحبشة

للأستاذ محمود غنيم

أرأيتَ إذ وُلِدَ السلامْ ... فَتَوْهُ من قبل الفطامْ
وضعتهُ «أوربَّا» لنا ... ياليت «أوربا» عُقامْ
طفــلٌ بريءٌ ذاقَ بِنْ ... يدِ أُمِّهِ كأسَ الحِمامْ
نحروا الغــلامَ ضحيةً ... فى عيد ميلاد الغــلام
لهفى عليــه ممزَّقَ الـْ ... أوصال مُنْتَثِرَ العظام
عصفت به ريحُ الوغى ... عصفاً وغطَّاه القتام
فمضى شهيــداً ماله ... قبرٌ يُزارُ ولا مقــام
ليس الســلامُ بسائد ... ما دام فى الدنيــا حُطام
ما الناسُ إلا الناسُ فى ... عصر الضياء أو الظــلام
سِيَّانِ مَنْ سكنَ القصو ... رَ الشمَّ أو سكن الخيام
بسوى الدمِ المسفوح لا ... يُرْوَى لظاهُم أوام
وأحبُّ ما وقعت عليـ ... ـه عيونُهم جُثَثٌ وهام
وهْوَ ابنُ آدمَ ينتشى ... من خُمْرَةِ الدم والمدام
الذئب كالإنسان لو ... يتعــلم الذئبُ النظــام
فكلاهما وحشٌ حد ... يدُ النَّابِ يلتمس الطعام
سِيَّانِ عنــد الفتكِ نا ... بُ الليثِ أو حدُّ الحسام
قالوا السلامُ فقلتُ ما ... أقوى اللسانَ على الكلام
وتعاهــدوا فسألتهم ... ما حدُّ مَنْ خفرَ الذمام

عالَمٌ أنتَ للهوى والأماني ... يُشتَهَى السِّحْرُ فى حِماكَ فَيُخلَقْ
دَرَجَ الحبُّ فى ثَراكَ نَقِيًّا ... ولَهُ فِتْنَةٌ تَرُوعُ ورَوْنَقْ
وبأعطافِكَ الرِّقاقِ الحواشي ... وَقَفَ الحُسْنُ خاشِعاً ثُمَّ أطْرَقْ

***

... وتطلَّعتُ من مشارفِ لُبْنا ... نَ أُناجي مِنْ صَفْحَةِ الغَيْبِ جِلَّقْ
تِلْكَ مأوى رَغادَتي وخَيالِي ... وبِها قَلْبيَ اللَّهيفُ مُعَلَّقْ

أنور العطار

أبغصن زيتون نجا ... زى أم بصارم الانتقام[1]
قالوا السـلامُ فقلتُ كم ... قد حارب الرُّسُلُ الكرام
لا «الفاتيكانُ» من الحرو ... بِ نجا ولا البيتُ الحرام
قد كانت الخلفاء تُصـ ... ـلَبُ بين زمزمَ والمقام[2]
كلٌّ يشيرُ إلى السـلا ... مِ بعينِ ذئبٍ لا تنام
وأمامهُ أُســطولُه ... ووراءه الجيشُ اللُّهام
فَقَدَ المهنَّدُ عرشَــه ... والمُلْكُ ليس له دوام
نارٌ وغازٌ فاتكٌ ... بدلَ الأسنَّة والسهام
شبحُ المنيَّة جاثمٌ ... فوقَ المياهِ أو الرغام
أو فى الفضاء مرفرفٌ ... بجناحه مثلَ الحمام

***

جبَّارَ رُوما سوف تَلْـ ... ـبَسُ تاج قيصَرَ فى المنام
أتريدُ ويحكَ أن تُؤَ ... خِّرَ أهلَ جيلكَ ألفَ عام
ولَّى زمانُ القيصر ... يَّةِ والقياصرةِ العِظام
أَوَ ما رأيتَ الحكمَ با ... تَ الآن فى أيدي الطَّغام
ولقد مشيتَ القهقرى ... ومشى الزمانُ إلى الأمام
أإذا صفا جوُّ السلا ... مِ زفرتَ فانتشر الغمام
رُحماكَ هل تشكو إليـ ... ـكَ الأرضُ من هول الزحام
لم تخبُ نارُ الفتنة الـ ... ـكبرى وجُرْحُ الكونِ دام[3]
ولقد تحديتَ الأنا ... مَ فكنتَ سخريةَ الأنام
أسرفتَ ويحكَ فاتئد ... ماذا جنى أبناء حام[4]
لا تحسبنَّ مرابضَ الـ ... آسادِ سهلةَ الاقتحام
هــذى معاقلهم فمن ... لكَ بالبواذخ من شمام
ها هم خصومُكَ حول شَـ ... ـطِّ المَنْشِ إن شئتَ الخصام
القابضون على جنيـ ... ـفَ ورهطها مثلَ السوام
قالوا الحصارُ فأذعنت ... «والقول ما قالت حذام»
أخذوا على روما المسا ... لكَ فهى فى ضيق المسام

---

(١) يشير بذلك إلى أن فكرة السلام لا يمكن توطيدها بدون الحرب
(٢) يشير إلى حادثة قتل ابن الزبير وصلبه بعد إطلاق المنجنيق على الكعبة التي اعتصم بها
(٣) يشير إلى الحرب العظمى
(٤) يشير إلى ما تشير إليه الخرافة من أن الأحباش وغيرهم من السود من نسل حام بن نوح

القصص

أقصوصة عراقية:

أبو جاسم

للأستاذ محمود ا. السيد

— ١ —

حدثني صديقي ابراهيم والذكرى تؤلمه ، قال :

« كنت في المدرسة الثانوية — السلطانية العثمانية — قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد بسنة أو أقل ، أصاحب طالباً من ذوى الذكاء الواعد والخلق الجميل . كنت في السادسة عشرة من العمر . وكان هذا الصديق — واسمه على بن حسن — خير عون لي في المدرسة . وكنت أعجب بذكائه .. وكان طليقاً جريئاً يسمو على أقرانه بكثير من المزايا والصفات

وكان الى جانبنا طالب آخر يكمل لنا « ثالوثاً » مقدساً بالأخاء والود اسمه عبدالعزيز . وهو من أبناء الطبقة العاملة . كان أكبرنا سناً ، وأقلنا تهذيباً ، وأجرأنا قلباً ؛ يقلدني وعلياً في الاعتزاز والتفاخر برجال التاريخ الإسلامي العربي : أجدادنا الأولين . وذلكم كان ديدننا في ذلك العهد : فجر الحرب العالمية الاستعمارية الكبرى وضحاها

وكان أكثرنا حباً لبغدادنا وإيغالاً فيها . . . يعاشر خارج المدرسة فتية من أبناء طبقته المكدودة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات . وكان يرى — فيما يرى من غريب الآراء — أن القبعة العسكرية « الأنورية » التي ابتدعتها الحكومة الاتحادية إبان الحرب لرجالها ولطلبة المدارس ، قبعة أفرنجية ، حرام على المسلمين لبسها ، وأن رباط العنق رمز للصليب . ولم يلبس القبعة حتى آخر يوم من أيامه في المدرسة ، فكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبة بطربوشه الأحمر القديم . أما أنا وعلى فقد لبسنا القبعة تلك لأننا لم نستطع أن نشذ عن الجماعة شذوذه .

وكان هذا الصديق الجرىء يقضي أغلب أوقاته في منازعة الطلبة وتحديهم ، فكنت أنصحه راجياً منه أن ينصرف عنهم وعن منازعتهم الى التوفر على دروسه فما كان النصح يجدى

وكان يؤسفني أنه عُرف آخر الأمر بأنه شكس سيء الخلق ، وإن كان في الحقيقة طيب السريرة خيّراً . ولعلهم كانوا يعيبون عليه كرهه للبس القبعة « الأنورية » لغير ما سبب معقول . وكانوا يتخذونه وطربوشه القديم الذى أوشك أن يبلى هزواً ؛ وهذا ما كان يهيجه . ولم يزده عقاب المدرسة إياه على شغبه إلا جرأة واستمراراً في الشغب والنزاع والخروج على « النظام »

وكما كان يكره القبعة ، كان يكره الحكومة — الاتحادية — أشد الكره ، لأنها حين اضطرمت نار الحرب جندت أخاه الكبير وأرسلته مع من أرسلت من أبناء العراق الى سوح الوغى في القوقاز ، ففقدت أسرته بذلك قوامها وسبب حياتها ، كان قائماً بمقام أبيه الشيخ الكبير الذى لا يستطيع عملا ، وكان يحسب أنه لاحق به في العاجل القريب

* ضاق نطاق هذا العدد عن الصور الرائعة التي يجلوها الأستاذ دريني خشبة من (صور هوميروس) فمعذرة إلى قرائها المعجبين بها .. وسنوالى نشرها من العدد القادم

عَجَبي على باغٍ يقو | لُ لمن بغى : هـذا حرام
استعمروا فتلثموا | وخرجتَ مكشوفَ اللثام
رمتَ التنمّرَ مثلهم | فظهرت في ريش النعام
شررٌ بروما طار يو | شكُ أن يكونَ له ضِرام
الشعبُ هُدِّدَ بالطوى | والجيشُ بالموت الزؤام
يتساءل الأقوامُ هـل | «نيرونُ» بعد الموت قام
زعزعتَ أركان السلا | مِ فَذُقْ مرارة الانهزام

كوم حماده — محمود غنيم

وظاهر أن هذا المسلك الذى سلكه عبد العزيز يومئذ كان يجب أن يؤدى إلى شر . وكان يجب أن يكون مصيره « الطرد » من المدرسة والحرمان من العلم . وكان متوقعاً كذلك أن ينالنى بعض الأذى من أجله ، فقد كان المدرسون والطلبة — إلا القليل منهم — يناوئوننا معاً ويكرهوننا ويعادوننا أشد عداء ...

واشتدت الحرب فى العراق . وطغى سيل الغزاة الفاتحين . غلب البريطانيون ، وأصبحوا على أبواب بغداد ، فتنكرت الأيام للناس ، وجندت الحكومة طلبة الصفوف العالية ، وأكرهت طلبة الصفوف التالية الأخرى تعلمهم كما تعلم الجند فنون الحرب والضرب وتقحمهم فى أشق الرياضات العسكرية لتلحقهم بهم . وهنا كان صحبنا الطلبة جميعاً — فى مدرستنا — جبناء ، يملأ قلوبهم الرعب والخوف .

أما عبد العزيز فقد استيقظ فى نفسه من جراء ذلك شعور بغض المدرسة ، بغض للخروج مع الطلبة — على ما كانوا يفعلون فى كثير من الأحيان — إلى استقبال القواد وحضور الحفلات الحكومية ، بغض لمدرس الرياضة الذى أرسل الينا آنئذ من الجيش ، وهو ضابط فظ بدين ، ذو شاربين غليظين منتصبين كالعياصى ... وكان يخشاه ...

وكان — من بعد — حين يخرج من بيته صبحاً يتلكأ فى الذهاب الى المدرسة ، ويحاول أن يتمارض لكى ينقطع عنها أياماً قليلة أو كثيرة . كان يغادر البيت كل صبح ، وكأنه — كما كان يقول لي — يساق إلى سجن لا الى دار علم وعرفان

وجاءنا إذ ذاك مدير للمدرسة جديد . وهو رجل عنيد ، كان يحسبنا مجموع دُمَى من الشمع يسهل عليه اذابتها ثم صنعها ثانية على الغرار الذى يريد . وكان أول من لفت نظره اليه من الطلبة : عبد العزيز ؛ فقد أثار سلوكه اهتمامه وعنايته ، وراح يرهبه ويعالج تأديبه وتهذيبه بالعصا . وأذكر أن طالباً من أبناء الضباط الذين جاءوا بغداد فى أواخر أيام الحرب من البلاد الشمالية ، سفهه ذات يوم ثم عيّره بالعامية والفقر ، فقابله بالصفع والضرب الموجع المهين ، فما كان نصيبه من المدير إلا الاهانة و « الطرد » . وبذلك أسدل الستار على حياته المدرسية ، وألجئ الى التشرد والبطالة ! وا أسفاه !!

ولقيته بعد ذلك فألفيته جزعاً ، وقص على قصة النزاع بينه وبين ذلك الطالب — ولا أذكر اسمه الآن — قال :

« غادرت البيت صبحاً وأنا كئيب محزون ، لأن أمى التى لا تفتأ تذكر أخى الجندى ليلاً ونهاراً بالحسرات والدموع ، وأبى المقبل على آخرته غير آسف على شىء فى الدنيا ، وهو يحبه حباً جماً ، لم يصل اليهما كتاب منه منذ شهر وبعض شهر . فأفرغ ذلك صبرهما بل أفقدهما الرشد . وإذ كنت أمشى فى الشارع فاجأنى خمسة من الشُرَط يعدون وراء رجل علمت من بعد أنه جندى هارب . وصرخ أحدهم قائلاً : « خائن ! قف ! » ثم أطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم فأردوه . وسقط تعباً جريحاً يلهث وعيناه تنظران الى السماء . ووقفت على مقربة منه أنظر اليه فى لهفة وفَرَق ؛ وهو ملقىً وقد اصفرّ لونه وجللت وجهه سحابة من قَتَرِ الطريق ، وتشنجت أعصابه من الخوف ، وأقبل الشُرَط يتراطنون يريدون أن يحملوه ... أعرضت عن هذا المشهد الذى آلمنى أشد إيلام وانصرفت صامتا ، ولحظت أن الشمس تملأ الأرجاء نوراً ، فعرفت أننى تأخرت عن موعد الدرس الأول . وكنت أمشى متباطئاً ذاهلاً ، فما انتبهت إلا وأنا على باب غرفة صفى ... طرقت الباب طرقاً خفيفاً مرة فمرتين وحاولت الدخول فجابهنى المعلم ناهراً إياى بقوله : « أخرج ، اخرج ، اندفع ياحمار ! » أو كنت حماراً فى اصطبل أبيه ؟ ! وكنت — حتى حين خروج الطلبة من الصف إثر الفراغ من الدرس ثائراً مهتاجا ، فلقينى ذلك النذل فلاغانى فلكمته ، وماذا كان يجب على أن أفعل ؟ وسحقاً للمدرسة بعد أن ينالنى من هؤلاء فيها أذى ! »

* * *

وقال صديقى ابراهيم وقد حدثنى بحديثه هذا بعد انتهاء الحرب ومرور سبعة أعوام على نهايتها :

« ثم احتل البريطانيون بغداد ، وفرقت صروف الزمن بيننا — بعد ذلك — إذ رحل بى أبى وأسرتنا كلها الى الحلة ، فأقمنا فيها قرابة سنين أربع ، فلما عدنا اليها لم أسمع لصاحبى عبد العزيز ذكراً »

— ٢ —

وكتبت هذا الحديث لطرافته عام ١٩٢٩ . ثم مضت على ذلك أعوام ثلاثة ، فبدا لى يوما أن أسأل ابراهيم :

« هلا بحثت فى هذه المدة الطويلة الماضية عن رفيقك القديم ؟ رفيق المدرسة وطريدها عبد العزيز ؟ »

فأجابني وهو شاعر بما يتضمنه سؤالي من ملامة :

« لقد بحثت عنه في الأيام الأخيرة ، فبلغني من أنبائه ، أنه كان هاجر قبل مدة غير محدودة بالضبط الى البصرة ، ليتكسب فيها ويعيش عاملاً لدى إحدى الشركات الأجنبية ، فانه أضحى في عنفوان شبابه ، وبلغ السن التي يستقل فيها المرء بالكفاح والجهاد في سبيل الحياة ، وان أخاه الجندي المحارب لما يعد ، وهلكت أمه ومات أبوه فقيراً معدماً ، لم يترك له إلا ديوناً وداراً ، بل كوخاً باعه الدائنون ؛ ولم يف ثمنه بعشر معشار تلك الديون . ولم يكن متعلماً حرفة ، ونسي ما تعلمه في المدرسة العثمانية من مبادئ العلوم . وكان يزاول بعض الأعمال الشاقة التافهة التي يزاولها العمال الذين هم من أدنى الدرجات ؛ ولا يأخذون عليها أجراً يستحق ذكراً . هـذا كل ما سمعته عنه . ولا يعلم أحد على التحقيق أذهب الى البصرة أم الى جهة أخرى »

قلت :

« أو لا ترى من واجب الوفاء إتمام البحث عنه لاستئناف الصلة به والوقوف بجانبه في معترك الحياة ؛ في هذا المجتمع الذي طغت فيه المادية والأنانية والفردية ، المجتمع الجائر القاسي الذي لا يرحم الفقير ، وأن تنفعه وتعينه على اكتساب الرزق ، فانك موسر بعض اليسر . »

قال :

« وهل تحسب عبد العزيز الشاغب في المدرسة ، الذي لم يعرف سوى عزة النفس والأباء في أيامه الماضيـة عدة وخلقاً ، والذي لم يستمن أحداً من صحبه يوماً لو وجدته الآن لمد لي ولأمثالي يده في إبداء حاجة واستعانة مهما كان معسراً تنقض ظهره الشدة والفاقة ؟ كلا . أنا لا أحسب ذلك ؛ بل أحسب أن تلك الفترة من أيام مراهقته وفاتحة شبابه ، كانت مقدمة وعنواناً لما كان مقبلاً عليه من أيام شبابه ورجولته »

ثم سكت وسكت .

وبعد شهرين أو ثلاثة أقبل علي يزورني في داري ، وما عتم أن راح يحدثني عن رفيق صباه عبد العزيز الذي عثر به آخر الأمر فقال :

« ولقد وجدته آخر الأمر وصافحته . . . ولكن أين ؟ احزر أين وجدته ؟ في السجن ! ولا تستغرب ؛ فقد ذهبت يوم الجمعة - أمس - الى هناك لأزور صديقي الصحافي عبد الصمد الذي سجن متهماً بنشر ما لا تجيز الحكومة نشره ، وإذ كنت أدخل الحجرة التي يسمح بمقابلة السجناء فيها ألفيتني أمامه وجهاً لوجه . وكان بكلم زائراً غريباً يرتدي بزة العامة ، ربما كان صديقاً له . ولم أعرفه إلا بعد تأمل فيه قليل ، لأن سحنته قد غيرتها السنون ؛ وحييته فحياني وبسم لي ، ثم سالني : « أو قد نسيتني يا ابراهيم يا حبيبي ؟ يا رفيق الأيام الحلوة التي لن تعود . وهل نسيني على كذلك ؟ وكيف هو ؟ .... الخ » ودمعت عيناه من شدة الفرح بلقياي ، وكان طليقاً جريئاً ، كما كان في المدرسة ، في محادثته السجانين وصاحبي الصحافي عبد الصمد الذي لم يكن يعرفه من قبل ، ورأيت أن لهجته في الكلام أصبحت عامية سوقية خالصة ، تميزها التعابير والألفاظ التي تجري - عادة - على ألسنة هؤلاء الذين عرفوا بفعال « الشقاوة » - كما نسميها - التي تظهر فيها ، في أغلب الأحيان ، شجاعة نادرة في غيرهم و « أريحية » ونجدة وكرم على فقر ، وجرأة في اجترام الجرائم ، وكراهية شديدة لكل من يمت إلى الأجنبي الغاصب بصلة باقية من عهد الاحتلال الظالم ، على ما تعرف . ولا أدري كيف أدركت أنه محكوم عليه بعقاب السجن لاجرامه جريمة قد لا يفخر المرء بها عندنا ، فلم أشأ أن أسأله عما أدى به الى حاله تلك . ومن الغريب أنه لم يكن يرى في أمره غرابة ؛ وكأنه كان مملوماً عندي ما اجترم فلم يخبرني به ؛ وسرعان ما راح يودعني ، إذ كانت الفرصة المسموح بها لزيارة المسجونين ضيقة جـداً ، متمنياً أن يلاقيني عقب خروجه من السجن ، و « أن يكون تحت النظر » على حد تعبيره الشعبي الرمزي الجميل ، « فانه لا يزال على وده القديم ، وذلك الصاحب الذي لا ينسى الصحب على طول الزمان ، ولا يرضى عن الوفاء بديلا » . وترك المجلس لي ولصاحبي منصرفاً عنا في لباقة وحسن أدب ، كما ينصرف الواحد منا عن اثنين لديهما سر ، ولم يكن لدينا - في الحقيقة - سر غير أمره . فانني كنت في أشد الشوق الى سماع قصته ، وبتعبير أصح : قصة جريمته من صاحبي عبد الصمد ؛ وقد أحجمت عن سؤاله عما أدخله السجن ساعة لقيته لكي لا أجرح منه شعوراً طالما كنت أقدره ، بل اقدسه في أيامنا التي خلت ، في أزهى زمان وأحلاه ، زمان الدرس والتحصيل . وقال لي

عبد الصمد : « هذا فتى باهر الخصال يا أخى ، ولا أرى فائدة فى أن أقص قصته عليك فى إسهاب وتفصيل ، فهو الآن مجرم محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين لأنه جرح رجلاً من الأجانب ، كان يحترف عملاً فنياً لدى شركة أجنبية فى البصرة ؛ وكان عبد العزيز « يشتغل » هناك بيده كعامل لا شأن له ، ورئيسه ذلك الأجنبى ، على أنه كان شخصاً مخيفاً بين العمال ، خشن الطباع ، شرساً ، كذلك قالوا عنه . وليس فى حادثته التى طوحت به إلى السجن ما يستغرب منه ومن أمثاله فى العراق اليوم ، فقد انتهره ذلك الأجنبى ذات يوم ، وشتمه وأهانه ، لأنه أخطأ فى عمله بعض الخطأ ، فما كان منه إلا أن قابل اهانته اياه بطعنة عديته ، فجرحه ، ولم يصب منه مقتلاً . انتهت قصته . أما هو فما يزال يذكر الحادثة غير مكترث بما صار اليه من جرائها ، فهو يرى لها سبباً من أسباب التفاخر بالجرأة والشجاعة ، ولا سيما أن المجنى عليه أجنبي من بقايا الذين جاءوا فى الحرب فى « الحملة » على العراق ، وهو يقول لنا عنه فى سذاجة ويكرر قوله مراراً : « ليته كان من أبناء أمتنا أمثالى ، إذن والله لما جرحته ، لما جرحته » ، فانظر الى رقة شعوره وشدة كرهه للأجانب الذين أرهقوا البلاد فى الحرب الاستعمارية الكبرى وبعدها ... ؛ والعبرة ليست فيما حدثتك ، بل فيما أرى عند هذا العبد الحر الذى لقبوه فى السجن بأبى جاسم كما يلقب العراقيون عادة فتيانهم ذوى « الأريحية » والنجدة والشجاعة ، مجرمين كانوا أو غير مجرمين ، من فلسفة القوة والأمل والتفاؤل والاستهزاء بصروف الحياة ، فانى — وقد خصنى بصداقته ورعايته منذ أن دخلت السجن — قد أسفت على حالى كثيراً ، وطالما اسودت الدنيا فى وجهى يأساً وتشاؤماً ، فلا أكاد أسمع نصائحه الساذجة فى ظاهرها ، وضحكاته ذات الرنين العالى ، وأغانيه الشعبية التى يرسلها من نفس زاخرة بالأحلام والآمال ، حتى تتفرج نفسى من اليأس ، وتبدد عنى سحب التشاؤم والأسى ؛ فوالله ما نفعتنى فى هذه الأيام العابسة الكتب وفلسفاتها المهذبة المصقولة ، بقدر ما نفعتنى نصائح وضحكات وأغانى هذا الفندبق الجديد فى السجن ، بل فى مدرسة الرجال والأبطال ، على ما يسميه ؛ وأنا ناقل لقوله فما على من لوم ، فالناس تسمى السجن مدرسة المجرمين » .

***

قال محدثى ابراهيم :

ثم زايلت السجن ، وكلى أسف على حياة صاحبى القديم ، التى أحسبها ضائعة بعد هذه الحال التى صار اليها ؛ وهذا ما كنت أتوقعه منذ طرد من المدرسة السلطانية العثمانية . تلك مقدمة هذه نتيجتها ... وفى نيتى أن أزوره يوم الجمعة القادم » .

قلت وأنا مصغ له فى غير أسف :

« ولكن عبد العزيز أبا جاسم ، وهو جدير بلقبه هذا ، كان شريفاً من قبل ، شريفاً من بعد ؛ ورب مجرم معذور ؛ فاما أنه كان فقيراً وسوف يغدو كما كان ، فما فى الفقر من عيب . وما ضاعت حياة من كان مثله إباء وعزة نفس .... »

العراق — الأعظمية محمود . أ . السيد

البريد الأدبي

تولستوى لمناسبة الاحتفال بذكرى وفاته

تحتفل روسيا السوفيتية خلال شهر ديسمبر باحياء ذكرى كاتب روسيا وفيلسوفها الأكبر ليون تولستوى ، وذلك لمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على وفاته . ولقد محت الثورة البلشفية كثيرا من معالم روسيا وذكرياتها وتقاليدها القديمة ، ولكن روسيا السوفيتية ما زالت تحرص على رعاية الآداب والعلوم والفنون ، وما زال هذا الحرص يتجلى فى كل موقف ومناسبة ، وذكرى تولستوى تتبوأ فى الأدب الروسى بل وفى الأدب العالمى أسمى مكانة ، وما زالت الثورة البلشفية تنحنى اجلالا لذكرى هذا الذى رفع الأدب الروسى الى السماكين ، واتشح بنوع من القدسية تجمل ذكراه وتراثه فوق كل ثورة وكل انقلاب

توفى تولستوى منذ خمسة وعشرين عاما ، فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ ؛ وكان مولده سنة ١٨٢٨ فى قرية ياسينا بوليانا من أعمال مقاطعة تولا فى أسرة قديمة عريقة فى النبل ؛ وتوفيت والدته وهو فى الثانية من عمره ، ثم توفى أبوه وهو فى التاسعة من عمره ؛ فكفلته واخوته إحدى عماته ، وتلقى معهم تربية خاصة على يد معلم فرنسى ؛ وفى سنة ١٨٤٣ أرسل الى جامعة قازان ليدرس فيها ؛ ولكنه لم يبد براعة خاصة فى الدرس ، فقضى بها حينا ، وغادرها ملولا ، وانكب على اللهو بضعة أعوام ؛ ولما بلغ الثالثة والعشرين من عمره انتظم فى سلك الجيش فى قسم المدفعية وأرسل الى القوقاز ، واشترك فى حرب القرم تحت إمرة البرنس جورتشاكوف ، وقاتل فى موقعة سلستريا سنة ١٨٥٤ ، وفى موقعة سباستبول سنة ١٨٥٥ . وكان تولستوى قد ظهر فى عالم الأدب قبل ذلك ببضعة أعوام ، فكتب فى بعض المجلات الكبرى ، وكتب كتبه الثلاثة الأولى وهى « الطفولة » (سنة ١٨٥٢) ثم « الحداثة » (سنة ١٨٥٣) ثم « الشباب » . كتبها فى القوقاز قبل أن يخرج الى ميدان الحرب ، ووصف فيها طفولته وحداثته وشبابه فى صورة مؤثرة . وفى أثناء الحرب ، وتحت قصف المدافع كتب تولستوى عدة صور وقطع حربية قوية أسماها « قصص سباستبول » وفيها ظهرت روعة مواهبه الأدبية ، فطارت شهرته وكان بدء مجده الخالد . وفى « قصص سباستبول » تبدو شخصية تولستوى قوية ، ويبدو اجلاله للحقيقة والشمائل الانسانية والحب الأخوى ؛ ويبدو مقته لكل مظاهر الطغيان والعنف . ولما انتهت الحرب عاد الى بطرسبرج تسبقه شهرته ، واتصل فيها بكل مجتمع رفيع وشخصية بارزة ؛ واتصل بأقطاب الكتابة والأدب ، ولاسيا تورجنيف وجوتشاروف وتكراسوف ، وتوثقت علائقه بتورجنيف مدى حين ، ولكنها لم تلبث أن فترت لاختلافهما فى كثير من الآراء والمبادىء . ذلك أن تولستوى كان ثورى المبدأ والعقيدة ، يحرر العبيد فى ضيعته ويغدق العطاء للفقراء ؛ ولكنه كان فى أعماق نفسه « انفراديا » وكان بعيدا عن الحركة الاشتراكية التى كانت تجرف روسيا يومئذ ويتزعمها جناح قوى من الكتاب والأدباء . هذا إلى أن تولستوى كان عبد الحقيقة يصورها فى تفكيره وفى كتابته ؛ بينما كان أولئك الكتاب يكتبون غير ما يعتقدون ، ويفعلون غير مايقولون . وقد كانت كتب تولستوى صورة صادقة لشخصه ومبادئه ، وكل ما فيها مستمد من حياته ومن نفسه ؛ وهذا ما يقرره تولستوى نفسه فى بعض كتاباته إذ يقول : « إن الحقيقة هى بطلة مؤلفاتى ، وهى دائما نفثة روحى وكل جوارحى »

وفى سنة ١٨٦٢ تزوج تولستوى من صوفيا بيرس ؛ ولم يمض قليل على هذه الحياة الهادئة حتى كتب تولستوى أعظم كتبه قصة « الحرب والسلام » وظهرت لأول مرة سنة ١٨٦٩ ثم كتب قصته الخالدة « حنه كارنينا » وظهرت سنة ١٨٧٧ ؛ وفى هذين الكتابين يصل تولستوى الى ذروة قوته وروعته . وفى القصة الأولى أعنى « الحرب والسلام » يصف تولستوى حوادث الغزوة النابوليونية لروسيا ؛ ومما يلفت النظر أنه يصف

فيها والدته فى شخص الأميرة ماري . وقد رأينا أن تولستوى فقد والدته وهو فى الثانية ، ولكنه مع ذلك يؤكد لنا أنها تركت فى ذهنه صورة قوية وأنه احتفظ فى ذهنه الفتى بكثير من ذكرياتها وصورها . وأما قصة حنا كارنينا ، وهى فيما يرى النقدة أعظم كتب تولستوى ، فهى القصة الخالدة لزواج نكد ، وما يترتب على مثل هـذا الزواج من المحن ؛ وهى القصة الخالدة لزواج عادى وما يحيط به من العوامل والظروف . هى قصة فتاة تزوجت فى سن العشرين رجلا يكبرها بعشرين عاما ، وعاشت معه ردحاً من الزمن أمينة مخلصة ؛ ولكنها فى الثلاثين اضطرمت بفورة من الهوى فأحبت ضابطا فتى جميلا واستسلمت اليه ؛ ولما ارتاب زوجها فى الأمر اعترفت له لأول وهلة ؛ وأدرك الزوج بعد التفكير أنه يحمل تبعة هذه الجناية ، لأنه جنى على امرأة شابة فتزوجها وهو ليس أهلا لحبها ، وكأنما اختلسها اختلاسا وارتكب بذلك جرما يعاقب عليه ؛ وعلى ذلك فقد شعر أنه يستحق ما أصابه ، وترك زوجه الفتية (حنه) وفارقها وعاش بلا أسرة . ولكن هل كانت حنه سعيدة بهذه الحرية ؟ كلا ؛ فقد شعرت هى الأخرى بإثمها ؛ وسرعان ما دب الفتور إلى حبيبها ، وأضحت تشعر أنها غدت عبئا ثقيلا عليه ، وهكذا حطمت حياتها . وأما العاشق (فرونسكى) فقد كان فتى جم العبث والأهواء ، وكان يهوى حنه هوى الفورة والساعة ؛ ولكنه شعر أنه أثم أيضا وأن إثمه يوجب عليه أن يبقى إلى جانب تلك التى حطم حياتها ففر منها الى الخارج وقضى بذلك على مستقبل زاهر كان فى انتظاره ، ثم كانت خاتمة المأساة ذات يوم فى حلبة السباق إذ سقط المحب القديم من فوق ظهر جواد كان يمتطيه فقتل لساعته .

تلك هى الفلسفة الإنسانية الرائعة التى يبسطها لنا تولستوى فى أعظم كتبه . وفى سنة ١٨٨٠ نشر تولستوى كتابه « اعترافى » وفيه يبسط لنا آراءه ونظرياته الدينية . وفى هذا الميدان كما فى غيره يبدو تولستوى فى صور مختلفة متناقضة ؛ فبينا نراه الرجل المؤمن العريق فى الإيمان إذا بنا نراه ملحدا منكرا ، وإذا بنا نراه وثنيا وطائفيا . وكتب تولستوى بعد ذلك عدة كتب ورسائل أخرى يغلب عليها طابع التصوف ، منها « ايقان اليتش » و « الكورتيس سوناتا » و « مملكة الله فى قلبك » و « ما هو الدين » . وساح تولستوى فى ألمانيا وسويسرا وغيرها ، وكتب صوراً من سياحته فى كتابين : أحدهما يسمى « لوسرن » والآخر « مذكرات تخليودو » وغدا تولستوى فى كهولته فيلسوفا ومصلحا اجتماعيا يحرر عبيد ضيعته ، ويقسم أرضه بين الفلاحين ويعنى بتربيتهم وإرشادهم ، ويغيث البؤساء والمنكوبين ؛ ومن أثر ذلك أنه نزل عن أملاكه لزوجه وأولاده ، وحاول أن يعيش عيشة الزهد والتقشف مثل ما يعيش أفقر أبناء الريف . وكان ذلك سببا فى تنغيص حياته العائلية ، وفى تسمم علائقه بزوجته . ولما شعر فى أواخر حياته أنه غدا بين أسرته كالغريب المنبوذ ، فر من منزله سرا . وكان قد تبوأ ذروة مجده منذ أعوام طويلة وغدا يكتنفه نوع من القداسة ، وكان قد أشرف على نهاية حياته الحافلة فتوفى بعد ذلك بقليل فى بلدة استابوفو فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٠ ، واختفت بذلك شخصية من أعظم شخصيات الأدب الحديث

وكان تولستوى شاعراً وفيلسوفاً وناقداً وفناناً ، وكانت حياته كلها حياة كفاح واضطراب ، ولكنها متناقضات مدهشة ؛ فمن ارستوقراطية عريقة ، الى ديمقراطية ساذجة ؛ ومن إيمان مؤثر إلى إلحاد مطبق ؛ ومن شغف بالنساء إلى احتقار لهن ؛ ومن إنسانية فياضة إلى أنانية عميقة . بيد أن تولستوى كان يسمو بروحه ومشاعره إلى أنبل ما يمكن أن تسمو اليه النفس الانسانية ؛ وقد كان لفلسفته وكتبه أثر عميق فى تطور المشاعر الروسية ، وفى تكوين النفس الروسية الحديثة

وقد بلغت مؤلفات تولستوى فى الطبعة الروسية زهاء مائة مجلد ، وترجمت إلى كثير من اللغات الحية ؛ وترجم له كثيرون من أكابر الكتاب فى مختلف الأمم

رسالة ملوكية ضخمة

من أنباء إستانبول الأخيرة أن السلطات المختصة قد وجدت فى محفوظات متحف الدولة رسالة ملوكية ضخمة من الورق المشمع وطولها تسعة أمتار وعرضها سبعة ؛ وظهر من البحث أنها رسالة أرسلها شاه الفرس فى القرن السادس عشر الى السلطان سليمان الأكبر . وقد تقرر أن تعرض لأنظار الجمهور

موت زعيم كريم ، ابراهيم بك هنانو

وا أسفاه ! ! في الساعة التي اشتبهت فيها معالم السياسة في سورية ، فتدسست الأماني الخوادع إلى الشعب ، وتفرقت السبل الجوامع بالزعامة ، بغيب القطب الهادي ، ويُهدَم المنار الدالّ ، ويخبو الضرام المذكي ، ويخفت الصوت المجمِّع ، ويموت الزعيم هنانو ؟ ! رُوِّعت سورية من شمالها إلى جنوبها بنعي هذا الزعيم الكريم ، ونالها من خطبه ما غلب على الصبر ومنع من القرار ، فهبت كلها تندبه وترثيه ، وتبكي بطالها وأمالها ودلياها فيه . والحق أن الفقيد العظيم كان مثلاً نادراً في الزعامة البريئة الجريئة المخلصة : كان صلباً في الرأي على قدر إيمانه ، ومتمرداً على الباطل على سواء حقه ، ومهيمناً على الشعب بقوة نفسه ونبل غرضه . جرد على الواغل الدخيل جيشاً من الوطنية الصابرة والحمية الثائرة والعروبة الغضبى ، ثم صمد له بالعدد القليل بعد سقوط دمشق سنة كاملة لم يلن لمغمز ولم ينكل عن خطة ، حتى آل أمره إلى فلسطين فسلمته حكومتها إلى فرنسا فوكم وري ؟ ومن ذلك اليوم كان معقد آمال السوريين يفزعون إليه في المعضلات ، ويستنيرون برأيه في المشكلات ، وينضوون إلى رايته في المواقع . كان رحمه الله على خلق الزعماء أولي العزم والرسالة : نظر إلى أمته نظر الحكيم المصلح فألف بين قلوبها ووفق بين ميولها وقرب بين عقائدها ، ثم دافع عن مرافقها دفاع المؤمن النزيه ، فلم يسف إلى دني المطامع ، ولم يفتتن بمظاهر الجاه ، ولم يطمح إلى عزة السلطة ، وإنما ظل جندياً يقود ، ومحامياً يذود ، وخطيباً يرأب بلسانه صدوع الفرقة ، حتى أضناه الجهاد المستمر ، وأقعده المرض المخامر ، فكان زعيماً بالفكرة ، قائداً بالمبدأ ، مرشداً بالقدوة . ثم قبضه الله إليه فأحدث ذلك الفراغ المخيف ، وهز أمته تلك الهزة العنيفة ، لأن الزعماء الذين يصوغهم الله على هذا الطراز يكونون في النهضات الاجتماعية من أممهم مكان السماط من حبات العقد ، ينظمون وحدتها ، ويجمعون كلمتها ، ويمسكون نظامها ، ويعقدون أمانيها ؛ فإذا قطعت المنون ذلك الخيط ذهب العقد بدَداً ما لم يكن له من الله ناظم وعاصم . - سقى الله بصيب الرحمة ثراه ، وعزى فيه الأمة العربية خير العزاء

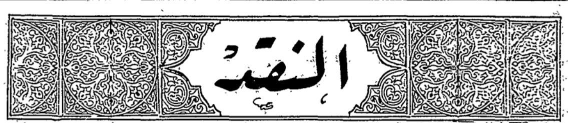
الاحتفال بالجاحظ

في السنة القادمة (١٣٥٥ هـ) يتم أحد عشر قرناً لوفاة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ؛ ويا حبذا لو تقدم علماء العراق وأدباؤه الى الاحتفال بذكراه في مدينة البصرة ، واشتركت الأقطار العربية كلها بتعديد مناقب أعظم رجل جمع بين علوم الدين والدنيا في الإسلام . محمد كرد علي

جوائز نوبل

ذكرنا في العدد الماضي أن جائزة نوبل للطب والفسلجة قد منحت عن هذا العام الى العلامة الألماني الدكتور هنز شبيمان من أساتذة كلية فريبورج . ونضيف اليوم أن جائزة نوبل للكيمياء قد منحت للأستاذ جوليو الفرنسي من أساتذة جامعة باريس ولزوجته السيدة كوري جوليو ، وهي ابنة مدام كوري الكيميائية البارعة التي اشتهرت بمباحثها واكتشافاتها في الراديوم وخواصه . ومنحت جائزة نوبل للطبيعيات للأستاذ چيمس سادويك الانكليزي ومن أساتذة جامعة كمبردج اعترافا بفضله في اكتشاف « النوترون » . وقيمة كل جائزة من هذه الجوائز الشهيرة كما أسلفنا سبعمائة ألف فرنك (نحو تسعة آلاف جنيه)

وأما جائزة نوبل عن الآداب فلم يتقرر منحها هذا العام ، وتقرر أن يعاد النظر في أمر منحها في العام القادم . وقد سبق أن عطل منح هذه الجائزة زهاء خمس عشرة سنة من ١٩٠١ الى سنة ١٩١٤ ، ثم استؤنف منحها بعد ذلك.



١ – تاريخ الاسلام السياسي

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية

لأستاذ كبير

الدكتور حسن ابراهيم حسن من الشبان المصريين الذين يحملون في مادة التاريخ الاسلامي طائفة غير قليلة من الألقاب العلمية الضخمة ما بين مصرية وأجنبية ، ثم هو قد زاول تدريس التاريخ الاسلامي في الجامعتين المصرية والأزهرية سنين طوالاً أخرج فيها من الآثار المؤلفة والمترجمة شيئاً كثيراً ؛ وقد طلع على الناس في هذه الأيام بسفر ضخم في تاريخ الاسلام السياسي تناول الكلام فيه على عصر الجاهلية ، وعصر النبوة ، وعصر الخلفاء الأربعة ، وعصر بني أمية

تلقاء هذه الألقاب الضخمة ، والخبرة الواسعة ؛ وتلقاء جلال العصر الاسلامي القديم ، استشرفت نفسي لمطالعة كتاب الدكتور الأخير منذ علمت بظهوره ؛ ولم أكد أصل إلى نسخة منه حتى عكفت على قراءته ؛ وقد قرأته من أوله إلى آخره . وإني مع اعترافي بالمجهود الكبير الذي أنفقه الدكتور في كتابه ، قد تبين لي في الكتاب من السقط والزلل ما لا يحسن السكوت عليه ، لذلك عمدت إلى نشر ما تيسر لي نشره من الاستدراك خدمة للمادة ناشئة في معاهدنا العلمية ، هي مادة التاريخ الاسلامي ؛ واستحثاثاً للمؤلف على تدارك أمره في مادة هو متخصص فيها ، وضناً بما لمصر من حسن السمعة العلمية في الأقطار الشرقية أن يتطرق إليه ضعف أو وهن . وإني قاصر كلمتي اليوم على إيراد شيء من مآخذ الكتاب التاريخية تاركاً بقية المآخذ لكلمات أخرى أنشرها تباعاً على صفحات « الرسالة » الغراء

***

يطلق المؤلف في ص ٣٤ كلمة « أقيال » على ملوك العرب وساداتهم ، مع أن هذا اللقب خاص بملوك اليمن أو من دونهم من أمراء المخاليف اليمنية

يقول المؤلف في ص ٣٦ : « وكان للعرب نظام ثابت للزواج : فكان جمهورهم يقترن بالزوجة بعد رضاء أهلها ، كما كان كثير منهم يستشيرون البنات في أمر زواجهن . وينبغي ألا نخلط بين هذا الارتباط بالزواج وبين غيره مما عرف عن بعض العرب من اجتماع الرجل بالمرأة بغير هـذه الطريقة » ولو قصر المؤلف هذه الحال على الحجاز لاستقام قوله ؛ أما وهو يعمم الحكم فكلامه لا يطابق الواقع ؛ والدليل على ذلك حديث البخاري المنسوب إلى عائشة ، والذي يبين الأنحاء الأربعة للأنكحة في الجاهلية (البخاري ج ٧ ص ١٥) .

يذكر المؤلف في ص ٤٥ أخذاً بظاهر الرواية العربية ، أن الفرس كانوا زاهدين في ملك اليمن ؛ والصحيح الثابت أنهم كانوا حراصاً عليه ليحدوا من نفوذ خصومهم الروم والأحباش في تلك البلاد

يقول المؤلف في ص ٤٥ في وصف وهرز قائد الحملة الفارسية على اليمن : « ويصفه المؤرخون – ومنهم المستشرق نولدكه – بأنه قد بلغ من الكبر عتياً لدرجة أن جفنيه انطبقا أحدهما على الآخر » والوارد في الروايات أن حاجبيه هما اللذان كانا قد سقطا على عينيه لكبره فكان يعصب له حاجباه ليحسن الابصار (الطبري ج ٢ ص ١١٩) .

يقول في ص ٥٨ « ويستفاد من أخبار العرب أن بني جفنة استولوا على سورية » ، ولو استبدل « بادية الشام » بسورية لاستقام قوله

يقول المؤلف في ص ٦١ — ٦٢ « وكان لكل قبيلة رئيس منهم حسب نظام القبيلة المسمى Patriarchal State الذي كان مألوفاً لدى العرب في جاهليتهم ، وكان لهذا النظام مثيل بجزيرة قرسقة

(كورسيكا) » واستعمال لفظ أجنبي لنظام عربي لا محل له هنا كما أن التنظير بين بلاد العرب وبين قورشقة خاصة يبدو غريباً ونابياً في هذا المقام

يزعم المؤلف في ص ٦٣ أن الحجاز « ظل محافظاً على استقلاله أيام الاسكندر المقدوني الذي صده العرب حين أغار على ملك الفرس » فمتى ، وأين ، وكيف صد العرب الاسكندر المقدوني يا دكتور ؟ لاشك أنك إن فصلت ما أجملت في عبارتك تكشف عن ناحية خطيرة مجهولة من تاريخ الفاتح المقدوني الكبير

يقول المؤلف في ص ٦٨ في سياق كلامه على قريش « واتخذوا جزءا من الأرض المجاورة أولوه احترامهم ، واعتبروه مقدساً ، وبنوا به بيتاً حراماً لا يحل فيه القتال وأخذوا على عاتقهم حمايته » وهذا كلام يضر قائله ولا ينفعه ، وإني أنصح للدكتور أن يبادر الى التبرؤ منه وإلقاء تبعته على قائله الأصلي . فالدكتور لا شك يعرف أن إبراهيم الخليل هو الباني للكعبة ، وأن قريشاً كانت تحتمي بالبيت والحرم ، بدلا من أن تحميهما ، بدليل قوله تعالى « أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم » (سورة العنكبوت)

يقول المؤلف في ص ٨٧ في صدد الكلام على الحنيفية ببلاد العرب : « ويطلق على هذه النزعة التحنف ، وعلى أصحابها الحنفاء أو التائبون المعترفون » وهنا أيضاً أنصح للمؤلف أن يبرأ من هذا القول فليس معنى التحنف « التوبة والاعتراف »

ويقول في ص ٩٧ بعد أن يورد أسماء السابقين الأولين الى الإسلام : « وقد سموا السابقين الأولين كما سمي من أسلم بعدهم بالمستضعفين » وظاهر أن ليس التأخر في الاسلام هو السبب في وصف المستضعفين بالاستضعاف إنما السبب في ذلك أمر آخر يعرفه من يقرأ الجزء الأول من سيرة ابن هشام بشيء من الروية والتفكير

ويقول في ص ١٢٩ – ١٣٠ : « ولم يكد الرسول يفرغ من بناء المسجد حتى أخذ يبث الدين في نفوس أصدقائه وأتباعه ويحثهم على الخضوع والاذعان لارادة الله ، ومن ثم سمي هذا الدين بالاسلام لما فيه من الانقياد والخضوع المطلق لارادة الله تعالى . والذين يدينون به يسمون المسلمين ، أي الذين يخضعون لأمر الله ورسوله » وعلى فرض صحة هذا القول ماذا كان يسمى الاسلام والمسلمون قبل بناء المسجد وطوال العصر المكي ؟

ويقول في ص ١٣١ : « وأحل (الاسلام) الدعوة الدينية محل الوحدة القوميـة » ثم يقول بعد : « وهكذا أصبح الدين دون الجنس المرجع الوحيد في تحديد العلاقات بين الحكومة والرعية » والظاهر أن المؤلف ينقل هنا عن أصل أجنبي ، وأن المراد بالوحدة القومية والجنس هنا إنما هو « القبيلة »

ويقول في ص ١٣٤ : « فقد تزوج (الرسول)....صفية بنت حُيَيّ بن أخطب سيد بني النضير ليتم له إسلام قومها ، لا لتأثير جمالها كما يقولون فهو أعلى نفساً من أن يتأثر بذلك » وهذا الكلام إن دل على شيء فإنما يدل على قلة الاطلاع الصحيح وعلى سذاجة التفكير وإلا فهل كان الرسول لا يزال يطمع في إسلام اليهود بعد الذي جرى بينه وبينهم من الأحداث الجسام بالمدينة وخيبر ؟ ثم متى كان التأثر البريء بالجمال دليلاً على نزول النفس وعدم سموها ؟

ويقول المؤلف في صفحة ١٥٤ : « سرية بني الرجيع » ويعيد ذلك القول في هامش صفحة ١٧٤ ظنا منه أن هناك قبيلة تسمى (بني الرجيع) والواقع أنه إنما يريد « بني لحيان » الذين كان لهم ماء يسمى (الرجيع) وقعت عنده الحادثة المعروفة في كتب السيرة

ويقول في صفحة ١٧٠ : « وصفوة القول أن معاملة الرسول إياهم (اليهود) كانت أيسر وأخف من معاملته قريشا وغيرها » ولو عكس المعنى فقال : « كانت أحزم وأشد » لكان كلامه منطبقا على الواقع من غير نزاع

ويقول في صفحة ١٨٣ في صدد الكلام على غزوة الطائف : « وأقام الرسول على حصارهم (ثقيف) حتى إذا دنا شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم فك الحصار عنهم ليرجع اليهم بعد انقضاء الأشهر الحرم » ومع أن الأشهر الحرم لا تمنع من مباشرة القتال في الاسلام فان الرسول لما رأى أن الحرب طالت بينه وبين ثقيف علم أنه لم يؤذن له فيها وأمر ذلك الى أبي بكر وعمر ثم ارتحل عن الطائف تاركا أمر اسلامها للزمن . وقد صحت فراسته فقد جاءه وفد ثقيف باسلامها في رمضان سنة ٩ هـ

ويسمي المؤلف في صفحة ٢١١ نابليون بـ « الفتى الطلياني » وذلك تعبير لا يليق صدوره ممن يتخصص في التاريخ

في صفحة ٢٤٠ ـ ٢٤١ يزعم المؤلف أن القصيدة التي مطلعها :

إن بالشعب الذي دون سلع   لقتيلا دمه ما يطل

قالها قائلها في رثاء عمه ، والصحيح الثـابت من سياق القصيدة نفسها أنهـا قيلت في رثاء خال النـاظم لا عمه وذلك بدليل قول الشاعر :

فاسقنيها ياسواد بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل

والظاهر أن المؤلف شغل بنقل شرح التبريزي على القصيدة عن تفهمها وتبين من قيلت فيه

ويقول في صفحة ٢٤٧ في كلامه على أبي بكر الصديق : « وكنى بأبي بكر لمبـادرته الى الاسلام » ولست أدري ما الذي أبقاه المؤلف بعد هذا القول لجهلة المبشرين ومتعسفي المستشرقين ؟

ويقول في ص ٢٧٨ « لقد رحب الفرس بالعرب حبا في الخلاص من ظلم الحـكام أولا ورغبة في مما فاتهم من الخـدمة العسكرية ثانيا . . » وهو كلام بعيد عن الواقع بعـد السماء عن الأرض

يظهر المؤلف في هامش ص ٢٩٥ ضجره من اضطراب تاريخ فتح العرب الشام ويقول « وعلى كل حال فليس غرضنا ترتيب الوقائع لأن ذلك ليس من شأننا » فهل ترى يا دكتور أن من شأنك أن تنقل شرح التبريزي على قصيدة تأبط شرا ، وأن ليس من شأنك أن ترتب وقائع فتح العرب الشام ؟

ويقول في ص ٣١٥ عند كلامه على فتح عمرو الاسكندرية : « وهزم الروم براً وبحراً » وقد أخطأ هنا من وجهين . فان عمرا أو غيره من العرب لم يهزم الروم براً وبحراً عند الاسكندرية ، وإنما استولى عليها بمعاهدة بابليون التي تمت بينه وبين المقوقس (أنظر كتاب فتح العرب مصر لبطلر) ثم كيف استطاع عمرو أن يهزم الروم بحراً ؟ هل كان معه أسطول يا ترى ؟

يزعم المؤلف في صفحة ٣١٤ أن المؤرخين لم يجزموا برأي في أمر حريق مكتبة الاسكندرية . والصحيح أنهم فعلوا . فقد جزم بطلر بأن العرب لم يحرقوها ، وجزم جورجي زيدان في تاريخه بأنهم أحرقوها

يقول في ص ٣٣٠ ضمن كلامه على عثمان بن عفان : « وكان يصوم الدهر » ، والعقل الناقد يرفض هذا القول وإن كان وارداً في كتاب قديم ، هـذا فوق ماورد في الأثر من النهي عن صوم الدهر

يقول في ص ٣٤١ أن عثمان ترك للأغنياء أمر الزكاة يدفعونها كما يشاءون ، وتلك دعوى لا يقوم على صحتها دليل

يقول في ص ٣٥٣ أن قتلة عثمان ضربوا عنقه وأن بعضهم قطع بالسيف أصبع نائلة زوج عثمان ، والخليفة المظلوم قتل دون أن يضرب عنقه ، وأن أصابع يد نائلة أطنت بالسيف لا أصبع واحدة

يقول في ص ٣٦٥ : « ولما توفي عمر انتخب عثمان بمقتضى قانون الشورى الذي سنه عمر » وعمر لم يسن قانوناً للشورى وإنما عين ستة نفر يختار المسلمون من بينهم خليفتهم

في ص ٣٩٨ يتابع المؤلف المستشرق الانجليزي نيكلسن في قوله في انتصار معاوية في أمر الخلافة : « اعتبر المسلمون انتصار بني أمية وعلى رأسهم معاوية انتصاراً للارستقراطية الوثنية التي ناصبت الرسول وأصحابه العداء » والأمر هنا ليس أمر وثنية وإسـلام إنما هو أمر أحزاب سياسـية تتنافس في الحكم وفاز بعضها في النهاية

وهو يتابع في ص ٤٢٥ السـيد أمير علي في قوله في وقعة الحرة « ولا غرو فقد حول جند الشام المسجد الجامع الى اصطبل لخيولهم وهدموا الحرم والأماكن المقدسة لسلب ما فيها من أثاث ومتاع » وهذا كله غير ثابت

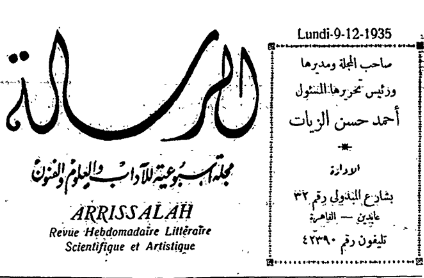
يقول في ص ٥٠٧ عند كلامه على المرجئة : « وقد ظهر من بينهم أبو حنيفة صاحب هذا المذهب المشهور الذي لا يزال باقياً الى اليوم » واتهام الامام الأعظم بالارجاء أمر قديم وقد كفانا مؤنة تفنيده السلطان أبو المظفر عيسى الأيوبي في رده على الخطيب البغدادي

(يتبع) مؤرخ



3me Année, No. 127.

Lundi-9-12-1935



الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع المبتديان رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

صـ	
٦٠	في مصر والسودان
٨٠	في الأقطار العربية
١٠٠	في سائر الممالك الأخرى
١٢٠	في العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

السنة الثالثة « القاهرة في يوم الاثنين ١٣ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٩ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » العـــدد ١٢٧

فهرس العـــدد

في الجمـــال ...

— ٤ —

ذلك إجمال القول في الفن الصناعي المرتجَل؛ أما الفن الصناعي المنقول فالسر فيه أن يبعث في ذهنك فكرتين: فكرة عن الطبيعة المقلَّدة، وفكرة عن الفنان المقلِّد. فتماثيل فدياس، وصور رفائيل، تجمع بين الجمالين: جمال المثال في أصله، وجمال الفن في تقليده. كذلك في وصف مغرب الشمس لابن الرومي تجد الاعجاب الناشئ عن القوة والوفرة والذكاء موزعا بين الصورة الناطقة التي أبدعتها الطبيعة، وبين المحاكاة الصادقة التي أخرجتها القريحة

***

إن روعة الجمال الطبيعي آتية من ناحية الحرية في الطبيعة؛ وحرية الطبيعة هي قانونها العام، لاتقوم عظمتها إلا به، ولا تتجلى فخامتها إلا فيه؛ فالغيضة اللفّاء أجمل مظهراً في النفس من الحديقة المنمنمة، وشلالات النيل أجمل منظراً في العين من النوافير المنظمة؛ لأن الجمال المطلق يملأ خيالك بالتأمل الحالم، وذهنك بالتفكير الرفيع، وشعورك بالطرب الباسط؛ ومظنة العبودية في الحي

أو فى الجماد تضيف إليه معنى من الحقارة والقبح يحطه ويشوهه . ولكن الجمال الصناعى لا بد أن يتقيد بالقواعد ويتحدد بالأصول ؛ فإذا لم يكن الفنان من البراعة بحيث يخفى تلك القيود ، ويحجب هذه الحدود ، ويظهر السمة الدالة على الطبع المرسل والالهام الحر ، همدت فى فنه الحياة ، وخبا فى جماله السحر ، وضاقت فى عمله الفكرة .

ليس الجمال فى الفن المعنوى أو الحسى أن تحاكى الطبيعة محاكاة الصدى ، وتمثلها تمثيل المرآة ، وتنقلها نقل الآلة ؛ تلك هى التبعية التى تنفى الذكاء ، والعبودية التى تسلب القوة ؛ إنما عظمة الفن أن يفوق الطبيعة ؛ وإنما براعة الفنان أن يزيد فى ترتيب صورها بالذكاء ، وفى تنويع تفاصيلها بالوفرة ، وفى توجيه مقاصدها بالعظمة ، وفى بيان تعبيرها بالحياة ، وفى سلطان تأثيرها بالقوة ، وفى حقيقة وقائعها بالسحر الموهم والوشى الخادع .

انظر إلى تعاجيب الطبيعة وتهاويل الفلك ، من العواصف والصواعق والبراكين ، تجدها فى ذاتها جليلة رائعة ، ولكنك تجدها فى فن الشعراء والمصورين والمثالين أجل وأروع . لقد وضعوا فيها شهوات النفوس ، وسلطوا عليها تصادم الأهواء ، وصوروها للأذهان فى عالم من الآلهة الكملة فى قواها المختلفة ، تتنافس فى العجائب ، وتتصارع بالأهوال ، وتتغالى فى اللذة . وسحر الفن الاغريقى فى صمته وفى نطقه قائم على تجميل الظواهر المروعة فى الطبيعة ، بالنوازع المتضاربة فى النفس

ومن المعلوم فى بداءة العقل أن يكون ما يقلده الفنان فى الطبيعة حقيقاً بالتقليد ، حتى يمكن الجمع بين جمال الشئ فى أصله ، وبين جماله فى نقله ؛ فالمصور الذى يرسم وضعاً من أوضاع الرأس ، أو معنى من معانى الوجه ، أو لوناً من ألوان الحياة ، يكون أسمى فى الفن من المصور الذى يتحامل على براعته حتى يصور أرنبا تكاد من دقة التقليد أن تلحظ وثبته وتعد وبره . والشاعر الذى يصف عاطفة من عواطف القلب ، أو ظاهرة من ظواهر الكون ، يكون أبلغ فى فنه من الشاعر الذى يجهد قريحته فى وصف حادثة من هنوات الحوادث لا تقوم فى ذاتها على فائدة ولا لذة

قد يكون الشيء المنقول فى حقيقته قبيحا ، ولكن صدق التعبير عنه ، ودقة التصوير فيه ، والتماس المنفعة منه ، تجعل تقليده جميلا ، كالوجه الشتيم يرسمه المصور المبدع بريشته ، والخلق الذميم يصوره الشاعر المفلق بقلمه ؛ والملهاة المسرحية موضوعها رذائل الناس ونقائص المجتمع ، ولكنها ارتفعت إلى أوج الفن الجميل بتحليلها العميق ، وتصويرها الدقيق ، وغايتها النبيلة . كذلك الحوادث المؤلمة والمناظر المحزنة والمواقف المؤثرة ليس فيها من الجمال شيء . ولكن استبطان الفنان لنخيلة البائس ، وتصويره الفاجعة ماثلة مثول الواقع ، وإعانته الحقيقة على التأثير بالجمل النافذة ، والصور الأخاذة ، والظلال الرهيبة ، يجعل تقليدها من أجمل الأشياء ، ويضع المأساة من الفن موضع الواسطة من العقد

فأنت ترى أن التقليد لا يثير الاعجاب فى نفسك ، ولا يشيع اللذة فى شعورك ، إلا باعتماده على الفن ؛ والفن لا يتحقق جماله إلا بالعظمة فى عمله ، والسعة فى وسائله ، والحكمة فى غايته ؛ فإذا قلدت أصوات الطبيعة من غير تأليف ولا تنسيق ولا معنى ، وأقمت شلالا من الماء والحجر تضارع به شلال أسوان ، وسردت بالكلام الموزون حادثة عادية من حوادث اليوم ، أخطأك الفن وانزوى عنك الجمال ؛ لأنك صغرت الطبيعة ، وحقرت الواقع ، وتعلقت بالتافه ، واستعنت بالمادة ، من غير قوة ولا ثروة ولا علة . ولو أنك رحت تستقرى مفاتن الجمال فى الطبيعة ، أو فى الفن ، أو فى الأثر الذى ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفن ، لما وجدتها فى غير ما يعلن القوة والوفرة والذكاء مجتمعة أو متفرقة

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال فى قول (شيشرون) : « إن الطبيعة أبدعت الأشياء على صورة تجعل ما يكون منها جم المنفعة يكون كذلك جليل المكانة موفور الجمال . إن جلالة هذا المعبد نتيجة لازمة لمنفعته ؛ فلو أنك تخيلت (الكابتول)(١) قائماً فى السماء على هام السحب ، لما وجدت له جلالا فى نفسك ما لم يكن قيامه هناك علة لسقوط المطر »

وهل المنفعة التى أرادها شيشرون فى صنع الطبيعة وفى نتاج الفن إلا الذكاء الذى أردناه فى الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة ؟

احمد حسن الزيات

(١) الكابتول معبد وقلعة أقيما على هضبة من هضاب روما السبع

٣ - المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وكنا في النَّدِيّ ثلاثةً : أنا وا . ش وس . ع ؛ وقد هيَّأتُ تدبيراً تواقفنا عليه لتحريك هذين المجنونين وتدوين ما يجيء منهما . فلما أقبلا تحفَّينا بهما وأنطقناهما ، وقمنا ثلاثتنا ببسطهما وإكرامهما ، حتى حسبا أن في كلمة « مجنون » معنى كلمة أمير أو أميرة . . . . . ورأيتُ في عيني « نابغة القرن العشرين » - وهو أعينُ أنجلُ [1] - ما لو ترجمتُه لما كانت العبارةُ عنه إلا أنه يعتقد أن له نفساً أنثى أعشقها أنا . . . . فكان مُسَدَّدا فكَّهَ اللسان تُستَملَحُ له النادرةُ وتُستظرفُ منه الحركة

ولما تمكن منه الغرور واحتاج الجنونُ كما يحتاج الجمال إلى كبريائه إذا حاطته الأعين - أدار بصره في المكان ثم قال : أُفٍّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا النديّ في ضوضائه ورعاعه وغوغائه . إن هؤلاء إلا أخلاطٌ وأوشابٌ ونُحالة . هذا الجالسُ هناك . هذا الواقف هنالك . هذا المستوفِز . هذان المتقابلان . هؤلاء المتجمّعون . هذا كله خيالٌ حقيقة في رأسي . ما هي ؟ ما هي ؟

هذا التصايحُ المنكر . هذا الضرب بحجارة النرد . هذه الزحمةُ التي انغمسنا فيها . هذا المكان المائج من حولنا . هذا كله خيال حقيقة في رأسي . هي ، هي ، هي .

فانزعج المجنون الآخر ، ووقع في تهاويل خياله . ونظر الينا تدورُ عيناه ، وتوجَّس شرا ، ثم زاغ ببصره الى الباب ، واستوفزَ وجمع نفسَه للقيام ؛ فلما رأى صاحبَه ما نزل به ، قهقهَ وأمعن في الضحك وقال : إنما خوَّفتُه الصبيانَ والضرب ليثبتَ لكم أنه مجنون . . .

فخردَ الآخرُ واغتاظ وجعل يُتمتم بينه وبين نفسه .

قال « النابغة » ما كلامٌ تَطِنُّ به طنينَ الذبابة أيها الخبيث ؟ قال : « مما حفظناه » أن من علامات الأحمق أنه إذا استُنطق تَخلَّفَ ، وإذا بكى خار ، وإذا ضحك نَهَق . . . كما فعلت أنت الساعة تقول هاء ، هوء ، هيء . . .

فتغير وجه « النابغة » ، ونظر اليه نظرةً منكرة ، وهمَّ أن يقتحم عليه وقال : أيها المجنون . لماذا تضطرني إلى أن أجيبك جواب مجنون . . . لا نجوت إن نجوتَ مني

فأمره ع . ا . ش . وأمسك به واعترض من دونه س . ع . وقال له : أنت بدأته والبادىء أظلم

قال : ولكن ويحه كيف قال هذا ؟ كيف لم يقل إلا هذا ؟ كيف لم يجد إلا هذا يقوله ؟ أنابغة القرن العشرين أحمق ، وقد أوحــدهُ الله في القرن العشرين ؟ لهممتُ والله أن أكسرَ الذي فيه عيناه فما يقول إلا أني أحمق القرن العشرين

* * *

قلتُ : إن كان هذا هو الذي أغضبك منه ، ففي الحديث الشريف : ليس من أحدٍ إلا وفيه حَمقةٌ ، فبها يعيش . والحياة نفسها حماقة منظّمة تنظيما عاقلا ؛ وما يُقبِل الانسان على شيء من لذاتها إلا وهو مقبلٌ على شيء من حماقاته ؛ وأمتعُ اللذة ما طاش فيه العقل وخرج من قانونه ؛ ولولا هذا الحق في طبيعة الانسان لما احتمل طبيعةَ الحياة . أليس يُخيَّل اليك أن أكثرك غائب عن الدنيا وأقلك حاضرٌ فيها ، وأن يقظتك الحقيقية إنما هي في الحُلم وما يشبه الحُلم ، كأنك خُلقتَ في كوكب وهبطتَ الى كوكبنا هذا ، فما فيك له ولا فيه لك إلا القليلُ يلتئم بعضُه ببعضه ، وأكثركما متنافر أو متناقض أو متراجع ؟

قال : بلى

قلت : فهذا القليل هو الحَمقةُ التي بها تعيش ، وهو أرضيَّةُ الأرض فيــك . أما سماويةُ السماء فبعيدةٌ لا تحتملها طبيعة الأرض . ولهذا يعيشُ أهل الحقيقة عيشَ المجانين في رأي المغرورين الذين غرّتهم الحياة الفانية ، أو المخدوعين الذين خدعتهم الظواهر الكاذبة ؛ فكلما أتوا عملاً من الأعمال السامية انتهى إلى الحق معكوساً أو محوّلاً أو معدولاً به . ولعل هذا أصحُّ تفسير للحديث الشريف : أكثر أهل الجنة البُله

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أكثر أهل الجنة البُله

فقال (النابغة) : المصيبةُ فيك أنك أنتَ هو أنتَ . ألا

---

(١) أي واسع العين أنجلها ، وقد مر وصفه في المقالة الأولى

فلتعلم أنك من بُلَهاء البيمارستان لا من بُلْه الجنة

قال: ثم إن الموت لا بد آتٍ على الناس جميعاً فيسلبهم كل ما نالوه من الدنيا ويُلحق من نال بمن لم ينل؛ فهذا الذي يُسرُّ بأن ينال مالا يبقى له إلا أن يكون سروره من حماقته؛ ومثل الذي يحزن على أن يفوته ما لا يبقى له إلا أن يكون حزنه حماقة أخرى؟ وأي شيء في الحب بعد أن ينقضي الحب إلا أنه كان حماقة ضربت في الحواس كلها حتى ملأت النفس، ثم ملأت النفس حتى فاضت على الزمن، ثم فاضت على الزمن حتى خبّلت العاشق تخبيلاً لذيذاً تصغر فيه الأشياء وتكبر ويجعل الواقع في النفس غير الواقع في دنياها؟ يُشبّه كلُّ عاشق حبيبته بالقمر: فهب القمر سمع هذا وفهمه وعنّاه أن يجيب عنه، فماذا عساه يقول إلا أن يعجب من هذا الحمق في هذا التشبيه؟

***

فهدأ (النابغة) وسكن غضبه وقال: صدقت ولهذا أنا لا أشبه حبيبتي بالقمر.

قلت: فبماذا تشبهها؟

قال: لا أقول لك حتى أعلم بماذا تشبه أنت حبيبتك.

قلت: وأنا كذلك لا أشبهها بالقمر

قال: فبماذا تشبهها؟ قلت: حتى أعلم بماذا تشبه أنت ...

قال: هذا لا يُرضى منك وأنت أستاذ (نابغة القرن العشرين) ولك حبائب كثيرات عدد كتبك، وقد أعجبتني منهن تلك التي في (أوراق الورد) وأظنك أحببتها في شهر مايو من سنة ... من سنة ...

قال المجنون الآخر: من سنة ١٩٣٥؛ هأنذا قد نبهتك

قال: يا ويلك! إن (أوراق الورد) ظهرت من بضع سنين، إنما أنت من بُلهاء البيمارستان لا من بُله أوراق الورد ... ماذا كنت أقولُ؟

قال: ... شي... كنت تقول: هذا لا يرضى منك ولك حبائب كثيرات.

قال: نعم لأنك إذا شبهت واحدة منهن بالقمر انتهى القمر وفرغ التشبيه فيظل الأخريات بلا قمر ... ثم إن كلمة القمر لا تعجبني، فلونها أدكن مغبر (١) يضرب أحياناً إلى السواد...

فإذا عشقت زنجية فهنا محلُّ التشبيه بالقمر... أما البيضُ الرعابيب فتشبيههن بالقمر من فساد الذوق

قال س. ع: وللألفاظ ألوان عندك؟

قال: لو كنت نابغة لأبصرت في داخلك أخيلة من الجنة. ألم يقل أستاذنا آنفاً عن (نابغة القرن العشرين) إنه هبط من كوكب إلى كوكب؟ ففي كوكبنا الأول يكون لنا سمع ملون وحس ملون، نسمع قرع الطبل أزرق، ونفخ البوق أحمر، ورنين النغم الحلو أخضر(١)، والوجود كله صور ملونة سواء منه ما يُرى وما يُحس وما هو مستخفٍ وما هو ظاهر

ثم أومأ إلى المجنون الآخر وقال: واسمُ هذا الأبله كلفظ الحبر لا أسمعه إلا أسود ...

***

وسكت «النابغة» وسكتنا؛ فقال له س. ع. مالك لا تتكلم؟ قال: لأني أريد السكوت. قال: فلماذا تريد السكوت؟ قال: لأني لا أريد أن أتكلم ...

وتحرك في نفسه الغيظ من المجنون الآخر فرمى بعينه الفضاء ينظر اللاشيء وقال: إذا أصبح كلُّ النساء ذوات لِحى أصبح هذا عاقلا ... فدقّ الآخر برجله دقات ممدودة؛ فثار (النابغة) وقال: من هذا يشتمني؟

قال س. ع. لم يشتمك أحد، هذا خفقُ رجلٍ على الأرض.

قال: بل شتمني هذا الخبيث وسمعي لا يكذبني أبداً، وأنا رجل ظَنُونٌ أسيء الظن بكلّ أحد، وعلامةُ الحازم العاقل سوء ظنه بالناس. فهبه كما قلت قد خفق بنعله أو خبط برجله فهو يعلم ما يعني من ذلك وأنا أسمع ما يعنيه. لقد طفح الشرُّ على قلبي فلا بد لي من هجائه، ولا بد أن أذبحه ولو بالكلام، فإني إذا هجوته رأيتُ دمه في كلامي، وأريد أن أجعله كالعنز التي كانت عندنا وذبحناها

ثم انتزع قلم س. ع. وقال: هذه هي السكين. ولكن أسألك يا أستاذي أن تذبحه أنت بكلمتين وتصف له جنونه فقد

(١) الدكنة لون بين الحمرة والسواد

(١) هذا واقع وليس من الخيال فبعض الناس يسمعون الأصوات ويحسون الأشياء ملونة؛ وعلماء الأمراض العصبية يعرفون هذا ويعللونه بأنه صور ذهنية قد لبسها مؤثر من المؤثرات فهو يصبغها بلونه. أفادنا هذه الفائدة دكتورنا محمد الرافعي

تعزب عني الشعر . إن خفقة رجيل على الأرض تستطير الأرانب فزعاً فينفرن إلى أجحارهن ويتهاربن ، وما كانت أبيات الشعر فى ذهني إلا أرانب . . .

أنتم لا تعرفون أن من كان حصيفاً نبيتاً مثلى كان دقيق الحس ، ومن كان فدماً غبياً مثل هذا كان بليد الحس غليظاً كثيفاً . فاذا أنا استشمرت البرد رأيتنى قد سافرت الى القطب الشمالى ؛ أما هذا المجنون فهو إذا استشمر برداً سافر إلى عباءته أو لحافه . . . . إذ هو لا يعرف جغرافيا ولا يدرى ما طحاها

قلت : هذا منك أظرف من نادرة أبي الحارث . قال : وما نادرة أبي الحارث ؟ وهل هو نابغة ؟

قلت : جلس يتغدى مع الرشيد وعيسى بن جعفر ، فأتى بخوان عليه ثلاثة أرغفة ، فأكل أبو الحارث رغيفه قبلهما ، والرشيد ملك عظيم لا يأكل أكل الجائع وإنما هو التشعيث من هنا وهناك . فكان رغيفه لا يزال باقياً . فصاح أبو الحارث فجأة : ياغلام ، فرسى . ففزع الرشيد وقال : ويلك مالك ؟ قال : أريد أن أركب الى هذا الرغيف الذى بين يديك . .

قال (النابغة) : ولكن فرقاً بين أبي الحارث وبين (نابغة القرن العشرين) ، فان من العجائب أنى ربما نظرت الى الرجل وهو يأكل فأجد الشبع حتى كأنه يأكل ببطنى لا ببطنه . ولكن من العجائب أن هذا لا يتفق لى أبداً حين أكون جائعاً

أما هذا المجنون الذى أمامنا فربما أبصر الحمار على ظهره الحمل فيشعر كأن الحمل على ظهره هو لا على ظهر الحمار . .

قال الآخر : « مما حفظناه » أنه سرق لأعرابى حمار ، فقيل أسرق حمارك ؟ قال نعم وأحمد الله . فقيل له على ماذا تحمده ؟ قال على أنى لم أكن عليه حين سرق . . فأنا إذا رأيت حمارا مثقل الظهر حمدت الله على أن الحمل لم يكن على ، لا كما يقول هذا . ثم دق برجله دقات . .

فاستشاط (النابغة) وقال : أسمعتم كيف يقول إنى مجنون ، ثم لا يكتفى بهذا بل يقول إنى حمار على ظهره الحمل ؟

قلت : ينبغي أن تتكافآ وهذا لا ينبغيك منه ولا يعيبه منك ، فان من نوادر النوابغ أن يشعروا ببؤس الحيوان ، فاذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له ، فاذا دخلتهم الرقة صار خيال الحمل حملا على قلوبهم الرقيقة ؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك . حكى

الجاحظ عن ثمامة قال : كان (نابغة) يأتى ساقية لنا سحراً فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهباً وراجعاً فى شدة الحر أيام الحر ، وفى البرد أيام البرد ، فاذا أمسى توضأ وقال : اللهم اجعل لنا من هذا الهم فرجاً ومخرجاً ؛ فكان كذلك إلى أن مات

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » ثمرة الدنيا السرور ولا سرور للعقلاء ، فلو لم يكن هذا أعقل العقلاء لما سحق سروره فى الدنيا هذا السحق الى أن مات غماً رحمه الله

***

قال س . ع . فاعف الآن عن صاحبك ولا تذبحه بالهجاء

قال : لقد ذكرتنى من نسيان ، وهذا المجنون يرى نسيانى من مرض عقلى ، وكان الوجه لو تهدى الى الحقيقة أن يراه شذوذا فى العقل أى نبوغا عظيما كنبوغ ذلك الفيلسوف الذى أراد أن يعرف فى كم من الزمن تسلق البيضة ؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة ثم نسى نسيان النبوغ فألقى الساعة فى الماء على النار ، وثبتت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هى الساعة . ولو قد رآه هذا الأبله لزعمه مجنونا كما زعمني ، فان المجانين يرون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التى يعملونها

وأنا فليس يهيجني شيء ما يهيجنى كلمات ثلاث : أن يقال لى مجنون ، أو أبله ، أو أحمق . فمن رغب فى صحبتى فليتجنب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر ...

قال ا . ش . فاذا قيل لك مثلا . مثلا . أى على التمثيل : مغفل ...

فحك رأسه قليلا وقال : لا ، هذه ليست من قدرى[1] ...

قلت : فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق ، كذلك القرن الذى قطع فرد البقرة فرساً ؟

قال وكيف كان ذلك ؟

قلت : زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً ، فخرج معهم فجاء بعجل يقوده . فقيل له ما هذا ؟ قال فرس اشتريته . قالوا : ياماثق هذه بقرة أما ترى قرنيها ؟

فرجع الى منزله فقطع قرنيها ثم قادها اليهم وقال لهم : قد أعدتها فرساً كما تريدون ...

قال (النابغة) هذا غير بعيد ، فقد رأيتنا حين ذبحنا العنز

(١) نص عبارته (دى مش أدى) ...

وكثيرنا قرنيها أعدناها كلبة سوداء ، فتقذرتها وعفتُ لحمها ولم أطعم منها

ثم أومأ الى الآخر وقال : هذا لا يدرى ما نطحها ، وهو مثل العنز يحسب قرنيها للقتال والنطاح ومنهما تمسك فذبح . فقل فى هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين)

قلت للآخر : أيرضيك أن أقول فى المعنى لا فيك أنت ... ؟

قال نعم ، فكتبت هذه الأبيات على ما يريد النابغة :

قل لعنز ناطحاها لقتال سلّحاها
مالها قد طرّحاها فى يدين ذبحاها

***

شيمةٌ منى نحاها عقلُ غرٍّ فلحاها
ليس يدرى ماطحاها بل يرى شمسَ ضحاها
حجراً مثلَ رحاها ويرى الليلِ محاها
ظلماً طالت لحاها

***

ونثر (النابغة) وازدهى وجعل يقول طالت لحاها ، طالت لحاها ؟ وما كان هذا إلا السرور الأصغر ؛ أما سروره الأكبر فمجئ ساعى (البريد المستعجل) الى النديّ وفى يده رسالة عنوانها : نابغة القرن العشرين فلان بندى كذا

وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه ؛ فتطاولت أعناق الناس ورفعوا أبصارهم ينظرون الى (نابغة القرن العشرين) وقد مدّ يده يتناول الرسالة وكأنه ملك من القدماء أسقط له كتابٌ بالفتح العظيم وبضم دولة الى دولته

ثم ترك الرسالة بين أصابعه يقلبها ولا يفضّها ونحن فى دهشة من أمره ؛ فنظر فيها المجنون الآخر وقال له : هذا عجيب يا أخى كيف هذا ؟ إن هذا لا يصدّق . إنك لم تلقها فى صندوق البريد إلا منذ ساعة ... ...

(لها بقية) مصطفى صادق الرافعي

المبشرون : كتب الينا فاضل يذكر بعض سخافات المبشرين نقلها من أحد كتبهم وسألنا الرد عليهم فأبلغ الرد على هؤلاء تجنبهم وإهمال كل ما يكتبون إذ هم مصابون بجنون الفكرة الدينية ؛ ومثلهم فى كل ما يكتبونه عن الاسلام مثل رجل أمريكى (نابغة) ... يريد أن يقيم لك البرهان على أن الجمل العربى إنما هو مصنوع فى مصانع فورد......... الرافعي

٢ — الصقالبة فى الرواية العربية وفى الدولة الأندلسية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٣ —

ونلاحظ أنه بينما كان نفوذ الصقالبة يقوى ويشتد فى بلاط قرطبة وفى الدولة الأموية فى الأندلس ، إذا بنفوذ الصقالبة يغزو بلاطا إسلاميا آخر ودولة إسلامية أخرى هى الدولة الفاطمية ؛ ومما يدعو إلى التأمل أن يزدهر النفوذ الصقلبى فى البلاط الفاطمى فى نفس العصر ، أعنى فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، وفى ظروف مماثلة ؛ وقد قامت الدولة الفاطمية فى المغرب بمؤازرة القبائل المغربية القوية ، واستأثر زعماؤها مدى حين بمناصب الثقة والنفوذ ؛ ولكن تطوراً وقع فى السياسة الفاطمية ؛ ومنذ عهد المعز لدين الله يغزو نفوذ الصقالبة البلاط الفاطمى ويغالب نفوذ المغاربة ؛ وقد كان جوهر الصقلى أعظم أعوان المعز وكبير قادته من أصل صقلبى ، وكان له فى الدولة وفى الجيش أعظم نفوذ ؛ وفى عهد العزيز سما نفوذ الصقالبة وساد فى القصر وفى الوزارة ؛ وبلغ ذروة قوته فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله الذى تولى الملك صبياً وتولى الوصاية عليه صقلبى هو برجوان ؛ وفى عهد وصايته القصير سيطر الصقالبة على القصر والدولة ، واستأثر بمناصب النفوذ والحكم نفر من الفتيان الصقالبة مثل يانس وميسور وعين وغيرهم ؛ ولكن الحاكم لم يلبث أن تخلص من هذا النفوذ الخطر بمقتل برجوان ونكبة الفتيان الصقالبة ، وبذلك انهار نفوذ الصقالبة فى البلاط الفاطمى [1]

وكان ذلك فى أواسط القرن الرابع وفى أواخره حيث كان يزدهر نفوذ الصقالبة فى بلاط قرطبة فى عهد الناصر حسبما بينا ، ثم فى عهد ولده الحكم المستنصر من بعده . ولما توفى الناصر كان نفوذ الصقالبة أشد ما يكون بسطة فى القصر وفى الحكومة ؛ وكان فتيان القصر الصقالبة وهم المعروفون بالخلفاء الأكابر أول من أخذ البيعة

(١) المقريزى (مصر) ج ٣ ص ١٧ و ١٨ و ج ٤ ص ٦٨

بالحكم المستنصر ؛ وكان حاجب الحكم ، جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي أقوى وأعظم رجل في الدولة(1) ؛ وكان الحرس الخلافي المكون من الفتيان الصقالبة سياج البيعة الخلافية وأبرز مظاهرها ؛ وكان من وزراء الحكم أيضاً زياد ومحمد ابنا أفلح الصقلبي صاحب الخيل في عهد الناصر(2) ؛ وفي عهد الحكم غدا الحرس الخلافي كل شيء في القصر ، وغدا عصمة الخلافة والخليفة يسهر على سلامة عرشه وشخصه ، ويحميه من المؤامرات والدسائس الخارجية ؛ وكان أولئك الجند الصقالبة يعتدون بقوتهم وسلطانهم ويمرحون في العاصمة ويسيئون أحياناً إلى أهلها ، وكان الحكم يخشى بأسهم ويغضي عن تصرفهم وسوء سلوكهم(3) ؛ وكان عدد الحرس الخاص من الفتيان الصقالبة يبلغ زهاء الف ، بيد أنهم كانوا يتمتعون بوفرة في الوجاهة والثراء ، ويملكون الضياع الشاسعة ، ويسيطرون على كثير من الأتباع والحاشية(4).

وهكذا أصبح الحرس الخلافي أو الفتيان الصقالبة في بلاط قرطبة أصحاب الحول والقوة ، وغدوا عاملا يحسب العرش حسابه ، بل غدوا قبل بعيد حكما في مسألة العرش وولاية العهد ، مثلما غدا الحرس التركي في بلاط بغداد . ولما توفي الحكم (سنة ٣٦٦هـ - ٩٧٦ م) كان الصقالبة هم سادة الموقف وأصحاب الكلمة في ولاية العرش والخلافة . وكانت زعامتهم بيد فائق النظامي صاحب البرد والطراز ، وجوذر صاحب الصاغة والبيازرة ، واليهما كان أيضاً أمر الغلمان الفحول خارج القصر . وكان رأي الصقالبة أن يصرف النظر عن تولية ولي العهد هشام بن الحكم ، وهو يومئذ غلام في نحو الحادية عشرة حتى لا يفقدوا نفوذهم في ظل وصاية جديدة ، وأن يولى الخلافة أخو الحكم المغيرة بن عبدالرحمن الناصر فيكون لهم بذلك فضل يمكنهم من توطيد نفوذهم وسلطانهم عليه ؛ ولكن الحاجب جعفرا المصحفي أدرك ما يضمره الصقالبة من وراء هذا المشروع ولم يقرهم على ائتمارهم بولي العهد ؛ ونظم البيعة لهشام ولي العهد بمعاونة الوزير محمد بن أبي عامر ؛ ودبر الاثنان مقتل المغيرة بن الناصر خشية منافسته ، وتولى ابن أبي

(1) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٠ — البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٨
(2) نفح الطيب ج ١ ص ١٨١ — ابن الأبار في الحلة السيراء ص ١٠٤
(3) Dozy ; ibid II P. 255
(4) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٧

عامر تنفيذ الجريمة ، وبذا استقر هشام المؤيد في العرش الخلافي ، وانهار مشروع الصقالبة ؛ ودبت الوحشة على أثر ذلك بين الصقالبة والحاجب جعفر ، فأخذ يتحين الفرصة لسحقهم ؛ وكان ابن أبي عامر يستميل الصقالبة ويداريهم بادئ ذي بدء حتى تمكن نفوذه في القصر وفي الجيش ؛ وعندئذ اتفق مع الحاجب على نكبة الصقالبة وتشريدهم ، ولم يدخر في ذلك وسيلة ظاهرة أو مستترة حتى شرد زعماؤهم واستصفيت أموالهم وأخمدت شوكتهم ، ونفي زعيمهم فائق إلى الجزائر الشرقية (جزائر البليار)(1) ، وفي ذلك يقول شاعر معاصر هو سعيد الشنتريني :

أخرج من قصر امام الهدى ... كل فتى منبسط جائر
فمن رأينا منهم قال لا ... مساس قبل الناس بالشاكر
تخف ظهر الملك المرتضى ... قد خف من ثقلهم الظاهر
وسال ماء العلم من وجهه ... مذ مال عن جبلهم الخائر
فلازم الميدان في قصره ... مع الوزير الخير الطاهر

ولما أمر ابن أبي عامر وسحق كل خصومه ومنافسيه واستبد بالسلطة ، رأى أن يتخذ من البربر بطانة له وخولا وأن يستعين بهم على العرب ، فقدمهم في الحكومة والجيش ، وعمل على تمزيق القبائل العربية ؛ وكانت العصبية العربية قد اضمحلت منذ بعيد ، فلم تلق السياسة الجديدة معارضة تذكر ؛ وهكذا حل البربر مكان الصقالبة في الالتفاف حول السلطة العليا والتمتع برعايتها ، بيد أن الصقالبة لم يفقدوا كل نفوذ بعد ، فقد استمر عدد كبير منهم يشغل وظائف الخاص بالقصر ؛ ولما أنشأ ابن أبي عامر حاضرته المعروفة بالزاهرة ، واتخذ سمة الملك وتسمى بالحاجب المنصور ، عاد إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ منهم إلى جانب البربر حاشية وبطانة ؛ وحشد منهم كثيراً في الجيش(2) ؛ والظاهر أن هذه الطائفة أعني الصقالبة كانت تتمتع بصفات وخلال خاصة تجعلها أداة لينة صالحة في يد السياسة القوية الحازمة ، وإذا كان الصقالبة قد بدوا في أحيان كثيرة خطرا على الدولة والعرش فقد كان ذلك من أثر السياسة التي تمد لهم في السلطة وتسمح لهم باستغلالها ، وتغضي عن صلفهم وتمردهم ؛ وقد

(1) البيان المغرب ص ٢٨٠ و ٢٨١ — ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ — Dozy ; ibid ; II 207
(2) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨.

كانت هذه حال الصقالبة في عهد الحكم المستنصر وحين وفاته ، فقد بلغ من سلطانهم ونفوذهم أن اعتزموا التصرف في أمر العرش طبق أهوائهم ، ولولا أن سحقتهم يد ابن أبي عامر القوية لاستمر سلطانهم المطلق . بيد أن ابن أبي عامر لم يجد بأسا بعد أن أخمد شوكتهم وشرد زعماءهم من أن يستخدمهم أداة لتنفيذ إرادته ، بل لم يجد بأسا من أن يرفع بعضهم الى أسمى المناصب ، كما حدث في شأن مولاه الفتى واضح الصقلبي ؛ فقد منحه حكم الولايات الجنوبية وولاه قيادة الجيش الذي بعثه لمحاربة أقوى وأخطر خصومه زيري بن عطية البربري حاكم المغرب الأقصى ؛ وقد كان لواضح هذا وعصبته الصقالبة شأن عظيم فيما تلا من الحوادث والخطوب

— ٤ —

ولم يستطع الصقالبة في ظل حكومة المنصور القوية أن يتدخلوا في شؤون الدولة أو يؤثروا في سيرها وتوجيهها ؛ فلما توفي الحاجب المنصور (٣٩٣ هـ - ١٠٠٢ م) ، وانهارت الدولة العامرية بعدئذ بقليل ، رأى الصقالبة الفرصة سانحة للعمل ، فانضموا إلى الحزب الأموي الذي عمل لاسقاط الدولة العامرية وسحق البربر الذين آزروها ومكنوا لها ؛ ولما ظفر محمد بن هشام زعيم هذا الحزب ببغيته واستولى على قرطبة وتلقب بالمهدي ، انضم اليه الفتى واضح وعصبته الصقالبة واتخذ واضحا لحجابته وانضم فريق آخر من الصقالبة بزعامة خيران العامري وزميله عنبر إلى سليمان المستعين خصيم المهدي ومنافسه ، وجرت بين الفريقين مواقع جمة ، واستتب الأمر للمهدي ؛ ولكن الصقالبة لم يخلدوا إلى السكينة ورأوا صالحهم في إبعاد المهدي عن العرش ، فتفاهم الصقالبة من الحزبين وائتمر واضح وخيران بالمهدي فقتله الصقالبة ، في الحمام (سنة ٤٠٠ هـ) وأخرج واضح الخليفة المؤيد هشام المحجور عليه ، وكان سجينا بالقصر منذ أيام المنصور ، وأجلسه على العرش ؛ وتولى واضح حجابته ، واستأثر بكل رأي وسلطة ؛ وقبض على ناصية الأمور في قرطبة مدى حين ؛ ولكن سليمان المستعين لم يلبث أن هاجم قرطبة في جموعه البربر ثم دخلها رغم كل ما اتخذه له واضح من الأهبة لمقاومته ، وفتك جنده بالسكان أيما فتك ، واقتحموا مدينة الزهراء وخربوها (٤٠١ هـ) ؛ فعندئذ رأى واضح السلامة في خيانة المؤيد والالتحاق بالمستعين ؛ ولكن الجند الصقالبة وقفوا على نيته في الوقت المناسب فقتلوه ؛ واستمر الصقالبة في الدفاع عن قرطبة وعن المؤيد وعرشه ، والمستعين يحاول استمالتهم عبثا ، واضطرمت الحرب بين الفريقين مدى حين ، وانتهت باستيلاء سليمان على قرطبة في مناظر هائلة من السفك والعيث (٤٠٣ هـ) وانهار سلطان الصقالبة بانهيار عرش المؤيد ؛ وبدأ سلطان البربر ، واستأثروا بحكم الثغور والنواحي ، وانتثر عقد الخلافة وانقسمت الأندلس الى دويلات وإمارات صغيرة ، وبدأ عهد الطوائف

بيد أن الصقالبة لم ينسحبوا نهائيا من الميدان ، ولم يختفوا نهائيا كعامل يؤثر في سير الحوادث فقد اجتمع فلهم حول زعيم منهم ، من صنائع الدولة العامرية ، هو خيران العامري ؛ واستقر خيران بعصبته ومن لحق به من خصوم المستعين والبربر إلى المرية بعد أن استخلصها من يد البربر ؛ وفي الوقت نفسه عبر علي بن حمود حاكم سبتة في جيش من البربر الى الأندلس محاولا أن يشق له خلال الاضطراب طريقا ، وتفاهم مع خيران العامري والصقالبة وتحالفا على محاربة المستعين ، ثم زحفا بجموعهما على قرطبة ، ونشبت بين الفريقين حرب رائعة هزم فيها سليمان وأسر ثم قتل مع أفراد أسرته ؛ وجلس علي بن حمود على العرش وتلقب بالمتوكل (٤٠٧ هـ) . ولجأ في الحال الى سياسة الأرهاب والشدة ، ولم يترك أي مجال أو سلطة للصقالبة ، فسخط عليه خيران وزكه ؛ وأظهر الخلاف عليه . وأثار المتوكل ببطشه وشدته زعماء العرب ، واشتدت عليه النقمة ، ولم يلبث أن قتله الصقالبة في الحمام (أواخر سنة ٤٠٧ هـ) وبذلك استطاعوا أن يؤثروا في سير الحوادث كرة أخرى

ولما توفي المتوكل خلفه أخوه القاسم بن حمود وتلقب بالمأمون ، وعدل عن سياسة الشدة إلى اللين والمسالمة ، واستمال خيران العامري الذي استعصم بالمرية ، وأقطع زميله زهيرا العامري ولاية جيان ؛ وكانت الحوادث تتطور بسرعة ، وكان الخلاف يضطرم فيما بين آل حمود ؛ فانتهز الزعماء العرب تلك الفرصة وتفاهموا مع الصقالبة ضد آل حمود والبربر ، واستخلصوا قرطبة من يد المتغلبين عليها ؛ بيد أن نجم الصقالبة كان بدأ بالأفول ، ولم يكن يسطع يومئذ إلا غرارا ؛ وكانت دولتهم قد انهارت في الواقع وتفرقوا بين مختلف الصفوف والأحزاب ؛ وكانت آخر مظاهر سلطتهم أن تولوا الحجابة لادريس بن حمود الذي استقر في مالقة وتلقب بالمتأيد بالله ، فتولى حجابته نجا الصقلبي مدى حين ، ولكن دون عصبية ظاهرة

وكان هـذا آخر العهد بتدخل الصقالبة فى سير الحوادث الأندلسية بصورة بارزة . ومن ذلك الحين يختفون من ميدان الشؤون الأندلسية كقوة فعالة لها أثرها الحاسم فى توجيه الحوادث ، ومن ذلك الحين يبزغ نجم البربر ؛ وتتحول المعركة الداخلية الى نضال مزدوج ، نضال ملوك الطوائف فيما بين أنفسهم ، ثم نضالهم ضد العدو المشترك أعنى أسبانيا النصرانية ؛ ثم يجيء دور البربر فى السيادة المطلقة بسرعة ، فتنهار دول الطوائف الصغيرة تحت ضرباتهم القوية ، وتسقط الأندلس فى يد المرابطين ثم يفتتحها الموحدون ، فتستمر سيادة البربر عصراً آخر ؛ ثم تنهض مملكة غرناطة فى تلك الغمار والخطوب العصيبة فتسطع فى الأندلس حتى يحل الصراع الأخير .

تم البحث — محمد عبد الله عنان

(النقل ممنوع)

مذاهب الفلسفة

مذهب الذرائع

PRAGMATISM

للأستاذ زكى نجيب محمود

لقد لبثت الفلسفة دهراً طويلا تسبح فى سماء الفكر المجرد ، فلا تصغى بآذانها الى الحياة العملية التى تعج بأصدائها أرجاء الأرض جميعاً . ولا تحفل بالواقع الذى تراه الأبصار إلا قليلا ، فقد قصرت مجهودها ـ فى الأعم الأغلب ـ على جوهر الأشياء فى ذاتها ، وأخذت تسائل: ما المادة وما الروح وما مبعثهما ؟ ولكنها باءت بعد طول الكدح والعناء بالفشل والاملاس ... حتى جاء الفكر الأمريكى الحديث الذى يقدس العمل ويمقت البحث النظرى المجدب العقيم ، وأراد أن ينحو بالفكر نحواً جديداً ، فلا يكون من شأنه كنه الشيء ومصدره ، بل نتيجته وعقباه . ولقد كان أول من صاغ هذا المذهب وليام جيمس (١٨٤٢ ـ ١٩١٠) الذى اعترف أنه قد استمد أصوله وقواعده من أشتات قديمة . وأن له فضل الصياغة والتعبير . أما رسالته التى قصد إلى أدائها بمذهبه فهى فى أوجز عبارة : أن يتخذ الانسان من أفكاره وآرائه ذرائع يستعين بها على حفظ بقائه أولا ، ثم على السير بالحياة نحو السمو والكمال ثانيا

إنه لمن الغفلة والشطط أن نُؤتى هذه القوة العقلية فنبددها فى البحث عما وراء الطبيعة من قوى مما لا غناء فيه للانسان ولا رجاء ؛ إن العقل إنما خلق ليكون أداة للحياة ووسيلة لحفظها وكمالها ، فلينصرف الى أداء واجبه ، وليضرب فى معمعان الحياة العملية الواقعة ، فليست مهمته أن يصور بريشته عالم الغيب المجهول ، الذى لا يكاد يربطه بحياة الانسان سبب من الاسباب ، وليكن مقياسه الذى يفصل به بين الحق والباطل هو مقدرة الفكرة المعينة على إنجاز أغراض الانسان فى حياته العملية ، فان تضاربت الآراء وتعارضت ، كان أحقها وأصدقها هو أنفعها وأجداها ، ذلك الذى تنهض التجربة العملية دليلا على فائدته . وكل شيء يؤثر فى الحياة تأثيرا منتجا يجب أن يكون فى اعتبارنا هو

الحقيقة ، بغض النظر عن مطابقته أو عدم مطابقته لما يخلقه الفكر المجرد من معايير ، إذ لا يُعوّل مذهب الذرائع إلا على النتائج وحدها ؛ فإن كان الرأى مثمراً نافعاً قبلناه حقيقة ، وإلا أسقطناه من حسابنا وهما باطلا

والواقع أن معظم الناس يتبعون في حياتهم العلمية أصول هذا المذهب ، فهم ينتقون لأنفسهم من الآراء ما يعين على تحقيق أغراضهم التي يقصدون اليها ، أو ما يعمل على رقي الانسانية وتقدم البشر بصفة عامة . خذ العقيدة في الله مثلا ، فالأكثرية العظمى تأخذ بها لا لأن الدليل قاطع بوجوده ، (فذلك أبعد عن متناول الأفهام) ولكن لأنها ترى أن هذه العقيدة تبث في حياة الناس روحاً قوية ، وتفسح أمامهم في الأمل الجميل الذي تزدهر به الحياة وتبتسم ، والذي لولاه لضقنا ذرعاً بفداحة عبئها .. فليس منا من لا يقيس الآراء بظروف عيشه ثم يختار منها أنسبها له وأفعلها في أداء مهمته ؛ فسلوكنا العملي هو في الواقع الذي يوجه أفكارنا ، وليست أفكارنا هي التي توجه أعمالنا . ولقد قال موسوليني يوماً إنه يدين لوليام جيمس بكثير من آرائه السياسية ، وإنه بتأثيره لا يحتكم في سياسته الى نظريات العقل المجرد ، إنما يسلك من السبل ما يراه أقوم وأدنى انتاجا

وإن نيتشه ليذهب في هذا الاتجاه إلى أقصاه ، فيقرر أن الباطل إذا كان وسيلة ناجحة لحفظ الحياة كان خيرا من الحقيقة ؛ فبطلان الرأى لا يمنع قبوله مادام عاملا من عوامل بقاء الفرد وحفظ النوع ؛ فلرب أكذوبة أو أسطورة تدفع الحياة إلى الأمام بما تعجز عنه الحقيقة المجردة العارية . أنظر كيف تفعل الوطنية في رأس الجندي فيطوح بنفسه بين براثن الموت ، ولو حكم عقله المجرد لما فعل ؛ بل انظر كم يبذل الآباء والأمهات من مجهود في سبيل أبنائهم ، ولو استرشدوا العقل وحده لآثروا أشخاصهم ولضنوا على الأبناء بأي بذل أو عطاء ، ولكننا لحسن الطالع ذرائعيون بالفطرة ، فننتقي من الآراء أحفظها للحياة ، ولولا ذلك لظلت الانسانية في حيوانيتها الأولى لا تتقدم ولا تسير

ولا يقتصر الأمر في ذلك على عامة الناس ، بل إن أرباب العلم أنفسهم ليأخذون بطائفة كبيرة من الآراء التي تعين على المضي في بحثهم ، دون أن ينهض الدليل العقلي على صحة تلك الآراء التي اتخذوها أساساً لأبحاثهم ؛ فلا يدري العلم ما الأثير وما الجاذبية وما المادة وما الطاقة وما الكهرباء ، ولكنه يفرضها لأنها تعينه على أداء مهمته ؛ وهذا بعينه ما يدعو اليه مذهب الذرائع ، فيكفى لأن تكون تلك الآراء صحيحة أنها توجهنا في حياتنا توجيها صحيحا ، فلا يعنينا في كثير أو قليل أن نعلم ما هي الكهرباء في ذاتها ما دمنا نستطيع أن نستخدمها ، فحسبنا من معناها آثارها ، ولكن معنى الكهرباء هو ما تعمله وما تؤديه ، وعلى هذا النحو يمكننا أن نتخلص من أعوص المسائل الفكرية التي أرهقت الفلسفة بغير طائل ؛ فلندع جانبا كل بحث عن ما هية القوة أو ماهية المادة أو ماهية الله وما الى ذلك ، وحسبنا منها أن نبحث عن الآثار التي تنشأ عنها في حياتنا اليومية العملية ، فان لم يكن لها آثار فيما نصادف من تجارب وجب اعتبارها ألفاظا جوفاء لا تحمل من المعنى شيئاً

وهكذا يريد مذهب الذرائع أن تكون كل فكرة وسيلة لسلوك عملي معين ، أعني أن تكون الفكرة تصميما لعمل يقوم به الانسان ، أو لا تكون على الاطلاق ؛ فالفكرة التي تحيا في الذهن وحده ليست جديرة بهذا الاسم ، ولا خير فيها إلا ان كانت مرشداً للانسان في حياته وسلوكه ، فيكون مثلها مثل اللون الأحمر أو الأخضر على السكة الحديدية يراها سائق القطار فيوجهان تصرفه توجيها معينا ، أو كالعلامات الموسيقية كل قيمتها في توجيه حركات الموسيقيّ ، فان لم تفد ذلك كانت عبثا صبيانيا لا يعني شيئاً ؛ فيجب على هذا الأساس أن تكون كل فكرة في أذهاننا مرشداً عملياً يرسم لنا سلوكنا ويضع لنا القواعد التي ينبغي أن نسير على مقتضاها في حياتنا اليومية . أو بمعنى آخر تكون أساساً لعادة معينة . ففكرة الجاذبية مثلا معناها محصور في تكوين عادات معينة أستعين بها في سلوكي ، فأعرف كيف أنظم علاقاتي بالأشياء تنظيما ملائما ، فأحمل كوب الماء مثلا وفمه الى أعلى حتى لا ينسكب الماء بفعل الجاذبية ؛ وأمشي معتدل القامة خشية السقوط بفعل الجاذبية ، وأشيد مسكني مستقيم الجدر لئلا ينهار بفعل الجاذبية ، وهلم جرا . أما إن كانت حياتي لا تتأثر بهذه الفكرة ، وكنت لا أصادف لها آثارا فيما أصادف من تجارب ، كانت في اعتباري وهما وخطأ ، بغض النظر عن حقيقة وجودها في العالم الخارجي أو عدم وجودها ؛ فالرأى الصحيح هو ما ييسر لي سبيل الحياة ويعمل على توفيقها

ونجاحها ، والرأى الخاطئ هو ما يفعل عكس ذلك ، أو ما لا أرى له أثراً فى الحياة

وظاهر أن نظرية التطور تؤيد هـذا المذهب وتدعمه ، لأن العقل عندها ليس إلا عضواً كسائر الأعضاء يتذرع به الانسان فى تنازع البقاء ، وأنه لو لم يكن العقل أداة من أدوات البقاء لما وجد أصلا ؛ وإذن فالفكرة التى تنشأ فيه لا تكون صادقة بمقدار مماثلتها للحقيقة الواقعة فى الخارج ، كلا ، بل مقياس صدقها هو فى مقدرتها على إجابة الظروف المحيطة بنا على النحو الذى يمكن لنا فى البقاء . ولتوضيح ذلك نقول إنه من المعلوم أن الأشياء الخارجية فى ذاتها ليس لها ألوان ، إنما الألوان من صنع أعيننا ، ولكنى ما دمت أستطيع بفكرة اللون التى فى ذهنى (وإن لم تكن موجودة فى الخارج) أن أميز الأشياء فأعرف التفاحة الناضجة مثلا باحمرارها ؛ والفجة باخضرارها ، ففكرة اللون صحيحة صادقة . كذلك قل فى الصوت ، فليس للأصوات وجود فى الخارج ، إنما هى أمواج تقصر حينا وتطول حينا ، حتى إذا ماقرعت الأذن ، ترجمتها هذه بما نعهد من أصوات ، ولكن ماذا يعنينى من عدم مماثلة فكرة الصوت فى ذهنى للأمواج الخارجية فى الهواء ، ما دمت أعرف أن هـذا الصوت المعين يدل على سيارة قادمة فأنجو بحياتى من الخطر ؟ إن فكرة الصوت حقيقية ما دامت تعمل على نجاح الحياة وبقائها ... إن الحياة كما يعرفها سبنسر هى ملاءمة حالات الانسان الداخلية بالظروف الخارجية ، وإذن فالعقل الصالح للحياة هو ذلك الذى يدرك اختلاف الظروف الخارجية ليعدل من سلوكنا بما يلائم الموقف الجديد ، وليس يعنينا بعد ذلك فى كثير ولا قليل أن تكون الصورة الذهنية التى رسمها لنا العقل من الأشياء الخارجية ، مطابقة لأصلها أو مشوهة محرفة ، فالحقيقة العليا فى الوجود هى الاحتفاظ بالبقاء أولا ، ثم الارتفاع بالحياة نحو الكمال . فكل ما يؤدى إلى ذلك هو حق صريح . وفى ذلك يقول « ديوى » العالم الامريكى المعروف : إن الفكر أداة لترقية الحياة وليس وسيلة الى معرفة الأشياء فى ذاتها . ويقول «شلر» : إن الحقيقة هى ما تخدم الانسان وحده . وكلا الرجلين من دعاة هذا المذهب

ونحن نجمل فيما يلى ثلاثة الشروط التى يضعها مذهب الذرائع لصدق فكرة ما :

١ ــ فأولا يجب أن يكون للفكرة قيمة فورية Cash-value ، ومعناها أن الانسان يجب أن يشاهد صحة رأيه أو خطأه فى تجربته العملية ، فان جاءت هذه التجربة العملية موافقة للفكرة كانت الفكرة صحيحة وإلا فهى خاطئة

٢ ــ وثانياً أن تكون الفكرة منسجمة مع سائر أفكارى وآرائى . فلا يكفى أن تكون كل فكرة صحيحة على حدة بالنسبة لقيمتها الفورية ، ولكنها يجب كذلك ألا تناقض الأفكار الأخرى . فلا يجوز مثلا أن أفرض نوعا من الذرات فى علم الطبيعة ، ثم أفرض نوعا آخر منها فى علم الكيمياء ، حتى ولو كان كل منهما صحيحا فى ميدانه الخاص — فاذا وجدنا أمامنا فكرتين عن شىء ما ، كل منهما صحيح بالنسبة لقيمته الفورية ، وجب أن نختار إحداهما على أساس البساطة ، فأبسط الفكرتين أصحهما ؛ فمثلا لما أتى كوبرنيك برأيه الجديد عن الكون يعارض به رأى بطليموس القديم ، كانت كلتا الفكرتين صادقة إذا قيستا إلى ما ينجم عنهما من النتائج العملية فى حياة الناس ، ولكن ما دامت فكرة كوبرنيك أقل تعقيدا من الأولى ، كان لزاما أن يقع عليها اختيارنا

٣ ــ ولا بد للفكرة بعد هذا وهذا أن تطمئن لها نفس الانسان وترضى ، ما دام ذلك لا يتعارض مع القيمة العملية . فالعقيدة الدينية مثلا ، على الرغم من أن ليس لها قيمة فورية فى حياتنا إلا بمقدار ضئيل ، إلا أنها واجبة ، لأنها تخلع على حياتى صبغة من التفاؤل ، وهى فى الوقت نفسه تنسجم مع الأفكار الأخرى ولا تتعارض معها . ومعنى ذلك أنه اذا تساوت ظروف فكرتين ، ثم كانت إحداهما تبعث التفاؤل والأخرى تبعث التشاؤم ، كانت الأولى بالنسبة لنا أصدق وأصح . فالمؤمن والملحد كلاهما لا تؤثر عقيدته فى شؤون حياته ! ولكن الأول متفائل يرجو الآخرة ، والثانى متشائم لا يرجو شيئا ؛ إذن فالايمان أصدق من الالحاد وأحق ، لأنه أجدى على الانسان وأنفع

تلك هى الحقيقة فى عرف هذا المذهب ؛ ولقد يعترض بحق أنها قد تؤدى الى التنافر بين الناس ، والى عدم انسجامهم فى سلك المجتمع ، لأن كل فرد سينتقى لنفسه الرأى الذى ينفعه بغض النظر عما يتخذه سواه من آراء ؛ وإذن ففلسفة الانسان ستعتمد على

مزاجه وظروفه ، ولكننا نسارع فنقول إن مذهب الذرائع قد أحس في نفسه بهذا النقص ، فحاول أن يوفق بين قواعده وبين مصلحة الجماعة لا الفرد ، فقرر أن الرأي الصحيح هو الذي يكون له فائدة عملية لأكبر عدد ممكن من الناس ، بل ويحسن أن تشمل نتائجه النافعة الانسانية بأسرها ، وإذن فلا ينبغي أن نحكم على رأي بالصواب أو بالخطأ إلا بعد تجربة اجتماعية طويلة الأمد . ولكن يؤخذ على مذهب الذرائع وجوه أخرى من النقص نرجو أن نعرضها في مقال تال

زكي نجيب محمود

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

طبيب القرية الذي ضجر بالطب لجهله أسباب الداء ثم ادعائه علاجه ؛ الذي شغله البحث في أصول الأمراض عن مداواة أربابها ؛ الذي حقق أحلام بستور وأثبت أن المكروب ينتج الأمراض ، وأن لكل مرض مكروباً يخصه ، ويخصه وحده ؛ الذي علم الدنيا كيف تصطاد النوع الواحد من المكروبات ، وتصطاده خالصا خاليا من الأخلاط ؛ الذي كشف مكروب الجمرة الخبيثة ، قاتلة الماشية والانسان ، ومكروب السل قاتل الانسان والحيوان ؛ الرجل الذي كشف مكروب الكوليرا على أرض مصر في أجسام ضحاياها . البطل الذي نزل بساحات الموت فأظلته فيها أرفع بنوده ، وقاتله على أرضها أفتك جنوده ، فأسر منها على هواه ، ويخرج عنها سالما قد أخطأته سهامها قضاء وقدراً

المترجم

— ٣ —

كان كوخ مستقر النفس ، بارد العاطفة ؛ فلما نجا من هذه المخاطر بسلام ، وأصاب بها ما أمل من نجاح ، لم يَدُرْ بخلده أنه أصبح في عداد الأبطال ، ولم يخطر بباله أن ينشر أبحاثه في الناس . واليوم إذا أنجز الرجل الباحث عملا بارعاً كهذا ، وكشف عن أسرار لها مثل هذه الخطورة ، استحال عليه أن يعقد لسانه فلا يتحدث بها .

وظل يستخّر نفسه في العمل تسخيراً ، ويذللها فيه تذليلا ؛ وهو في ذلك ساكت صامت ، حتى ليكاد المرء يتهم هذا الطبيب الريفي الألماني العبقري بأنه لم يدرك مقدار الجمال والخطر الذي كان في تلك التجارب التي أجراها وحيداً في عزلته وانزوائه

نعم تابع العمل ومثابرة ، فلا بد له أن يعلم فوق الذي علمه ؛ فأخذ يحقن الخنازير الغينية والأرانب ، والشياه أخيراً ، بذلك السائل ذي الظهر الطاهر والخبر القاتل من قطراته المالقة . ولم تكد تدخل هذه الآلاف القليلة من المكروب إلى دم هذه الحيوانات حتى يتضاعف عددها بلايين المرات بسرعة واحدة ، وبفظاعة واحدة ، في الفأر الصغير والشاة الكبيرة على السواء ؛ ولا تمضي ساعات حتى تمج بها أنسجة كانت سليمة تزدحم في الشرايين الصغيرة والأوردة الرفيعة حتى تختنق بها ، وحتى يستحيل الدم الأحمر القاني إلى دم رهيب أسود – فتنفق الشياه ، وتفنى الخنازير والأرانب

كان كوخ في الأطباء واحداً من سواد كثير ، فلم يكن له اسم ، ولم يكن لحاله ذكر ، ولكنه فارق هذا السواد بغتة ، وارتفع مُصعِداً إلى صفوف الأمجاد الخالدين من الباحثين . وكان كلما مهر في اصطياد المكروب ساءت عنايته بمرضاه بقدر ذلك ؛ صاحت أطفال رُضّعٌ في ضياع بعيدة ، ولكن الطبيب لم يحضر ؛ واحتدّ الألم في أضراس فلاحين ، فاصطبروا على أوجاعهم ساعات مُضنيات ، ولكن دون جدوى ؛ واضطُر كوخ أخيراً أن يحول نصيباً من مرضاه على طبيب آخر ؛ وقل حظ زوجته من رؤيته وزاد همها ، وودّت اليه ألا يخرج إلى مرضاه وبه رائحة كيميائياته وحيواناته . أما هو فلم تصله شكوى زوجه ، ولا صوت مرضاه ، فلو أنهم وهم القريبون منه صاحوا له من وراء النصف الأبعد للقمر ما زادوا ولا نقصوا في اسماعهم اياه – ذلك أن قضية خفية جديدة ساورت رأسه ، وملكت لبه ، وأسهرته الليالي ، قال لنفسه :

هذه البشلات تموت وشيكا على قطعة الزجاج تحت المجهر ،

فأنّى لها وهى بهذا الضعف أن تنتقل فى الطبيعة من حيوان مريض بالجرة إلى حيوان جدّ سليم ؟

وكان فلاحو أوربا والبيطريون فيها يؤمنون بخرافات غريبة عن أسباب هذا المرض ، وعن تلك القوة الخفية لهذا الوباء ، وقد أصليت كالسيف فوق رقاب أغنامهم وأبقارهم لا يدرون متى يهبط عليها بالقتل المروع الذريع . أما هذه البشلات الصغيرة الضئيلة التى لا يبلغ طول الواحدة منها جزءاً من ألف من الليمتر ، فلن يتصور عاقل أنها سبب هذا المرض الفظيع

قال البقارون والغنامون لكوخ : « ياسيدنا الدكتور ، هب أن مكروباتك الصغيرة تقتل أبقارنا وأغنامنا ، فقل لنا بالله إن كان هذا حقاً ، كيف أن القطيع يكون سليما فى مرتع ، يأكل ويشرب ، ويثب ويلعب ، فاذا نقلناه إلى مرتع آخر ، كثير العشب ، وافر النعمة ، امتنع أكله ، وذهب لعبه ، وتساقطت وحدانه ، وماتت سريعاً كأنها الذباب »

كان كوخ يعلم أن هذه الوقائع حقا لا كذب فيها ، كان يعلم أن فى أوفرن Auvergne بفرنسا جبالاً خضراء لا تذهب اليها قطعان الأغنام حتى يأخذها الموت واحدة واحدة ، أو عشرة عشرة ، حتى ومائة مائة ، بسبب هذا الداء الأسود داء الجمرة ؛ واجتمع الفلاحون حول نيرانهم فى ليالى الشتاء الباردة وأخذوا يتهامسون : « إن حقولنا ملعونة مسكونة »

وحار كوخ فى أمره — وكيف تقوى هذه البشلات الدقيقة على العيش سنوات عديدة فى مثل هذا الشتاء ، فوق هذه الحقول ، وعلى تلك الجبال ؟ كيف يكون هذا ؟ وهو حين أخذ شيئاً من طحال فأر وبئ ، ونشره على شريحة من الزجاج ، وأخذ ينظر اليه من المجهر ، وجد المكروب قد عجز عن الحياة ، فانبهمت حدوده ، وانتشر جرمه ، واختفت صورته اختفاء ؛ نعم كيف يكون ، وهو لما وضع من بعد هذا على المكروب فوق شريحة الزجاج سائلا من عين ثور ، وهو نعم الغذاء الطيب ، لم ينم المكروب ، لم يتكاثر ، وهل تتكاثر الأموات ؟ ثم هو لما جفف هذا الدم الوبئ ، وحقنه فى فئران ، ظلت فى أقفاصها تلهو وتمرح ناعمة بالحياة ؛ إذن هذه المكروبات ماتت ؛ نعم ماتت هذه المكروبات التى كانت تقتل الشاة السمينة والبقرة الضخمة الكبيرة على السواء

وتساءل كوخ : « هذه المكروبات تموت على زجاجاتى النظيفة اللامعة فى يومين اثنين ، فكيف استطاعت أن تواصل الحياة على الحقول زماناً طويلا ؟ »

وذات يوم وقع بصره على حدث غريب تحت مجهره — تحول عجيب أدّى به إلى حل الطلسم الذى أعجزه . وجلس كوخ على كرسيه بعمله الصغير فى بروسيا الشرقية وكشف السر المخبوء فى حقول فرنسا وجبالها ؛ وحكاية ذلك أنه جاء بقطرة من قطراته المالقة ، وهى حبيسةٌ فى نقرتها الضيقة من شريحة الزجاج ، وتركها فى مدفأ درجة حرارته كدرجة جسم الفأر ، وخلفها هناك أربعا وعشرين ساعة ، فلما عاد قال : « لابد أن يكون المكروب قد نما فى القطرة واستطال خيوطاً طويلة كطول تلك التى تنمو فى أجسام الفئران » . ونظر فى المكرسكوب فوجد غير الذى أمّله . وجد أن الخيوط بعد أن استكملت طولها ، أخذت حدودها تنبهم ، وتنقط الخيط بأجسام بيضاوية لمت كحبات الزجاج ، وانتظمت على طوله كعقد اللؤلؤ ، ترق واستقام

استاء كوخ أول الأمر ، فسخط ولعن ، وحسب أن غريباً من المكروب دخل إلى مكروبه فأفسده ، ولكنه لما أعاد النظرة وجد حسبانه الأول خاطئاً ، فالحبات اللامعة كانت فى داخل خيوط المكروب ، وهذه الخيوط نفسها هى التى تحولت إلى تلك الحبات . وجفف كوخ قطرته المالقة ، وحفظ ما بقى منها على الزجاج شهراً أو بعض شهر . ثم شاء القدر أن يعود فينظر اليها من خلال عدسته ، فوجد العقود لا تزال على لمانها ؛ فخطر له أن يجرى شيئاً من التجارب عليها . فأتى بقطرة صافية من عين ثور ، فأسقطها على تلك المكروبات التى استحالت عقودا ، وأخذ ينظر اليها فاذا بالحبّات تنمو فتصير إلى بشلات ، ثم إلى خيوط طويلة مرة أخرى . عام رأس كوخ اختلاطا واندهاشا

قال : « إن هذه الحبات البارقة الغريبة قد عادت فاستحالت بشلات تارة أخرى ، فهذه بذور المكروب ، صوره الأمتن التى تصمد للحر الشديد والبرد القارص والجفاف القاتل ...... لا بد

أن الميكروب على هذه الصورة يستطيع البقاء طويلا في الحقول ، لا بد أن البشلات تستحيل إلى هذه البذور »

وقام كوخ عندئذ بجملة من التجارب الدقيقة البارعة ، أجراها ليمتحن صحة ظنه في هذه البذور ، فاستخرج طحالات من فئران مجورة ، استخرجها الآن بحذق ظاهر بعد الخبرة والمران ، ورفع هذه الأطحلة ، وفيها الموت ، على مشارط وملاقط طهرت في النار ، واحتاط ما استطاع الحيطة ألا تمسها مكروبات من التي تسبح على ضلال في الهواء ، وحفظها يوماً في درجة حرارة كالتي لجسم الفأر . فلم يكذب ظنه ، فخيوط المكروب استحالت إلى حبات من البذور بارقة كالزجاج ، وتلا هذه بتجارب عديدة خبسته طويلا في حجرته الصغيرة القذرة ، تخرج منها على أن هذه البذور تبقى حية أشهراً كثيرة ، وأنها من بعد ذلك تنفقص على التو عن تلك البشلات القاتلة إذا هي وضعت في قطرة من سائل عين ثور ، أو إذا هي أدخلت على فلقة خشب في قاعدة ذنب فأر .

قال كوخ : « إن هذه البزور لا تكون في حيوان وهو حي أبداً ، وإنما تظهر فيه بعد وفاته إذا احتفظ بجثته طازة » . وأثبت ذلك اثباتاً جميلا بأن وضع أطحلة ميتة في ثلاجة ، ثم عاد إليها بعد أيام فأخذ منها وحقن الفئران ، فلم يصبها سوء ، فكأنما حقن فيها لحماً طازجاً سليماً .

وكان العام عام ١٨٧٦ ، وكان كوخ قد بلغ الرابعة والثلاثين فخرج لأول مرة من عشه ، من قرية فلشتين Wollsttein ليخبر الدنيا في شيء من الفأفأة ، أنه قد ثبت ثبوتاً قاطعاً بعد طول الشك أن المكروبات أسباب الأدواء . لبس كوخ أفخر ثيابه ، ووضع على عينيه نظارته وقد تأطر الذهب حولها ، وحزم مجهره ، وعدداً من القطرات العالقة في محابسها من الزجاج وقد تنفشت بمكروب الجمرة القاتل ، وأضاف إلى متاعه قفصاً أخذ يهتز بيضع عشرات من الفئران البيض الصحيحة ، وركب القطار ووجهته بلدة برسلاوة Breslau ليعرض فيها مكروب الجمرة الذي كشفه ، وليبين للأشهاد كيف يقتل هذا المكروب فئرانه ، وكيف أنه يستحيل تلك الاستحالة الغريبة فيصير عقوداً كالشبح . وأراد بخاصة أن يطلع الأستاذ كون Cohn على كل

هذا ، وهو أستاذ النبات بجامعة برسلاوة ، وكان يكتب أحياناً إلى كوخ مشجعاً حامداً

أعجب الأستاذ كون بتجارب كوخ التي أجراها وحيداً لا يسمع به أحد ، وعلم أنها ذات خطر كبير لم يفطن له كوخ نفسه ، وتصور في ابتسام وخبث ما يكون من أثرها في نفوس جهابذة الجامعة وأعلامها ، وهم ما هم من رفعة القدر وشيوع الذكر ، وكوخ هو ما هو من الضعة والخمول ، فبعث إليهم يدعوهم لحضور الليلة الأولى للمعرض الذي يقيمه طبيب القرية الصغير

— ٤ —

ولبوا الدعوة ، نعم لبوها ليستمعوا إلى هذا الذي جاء من أقصى الريف يحدثهم عن العلم ؛ ولعلهم جاءوا رعاية لحرمة الأستاذ الشيخ كون . ولقيهم كوخ ، ولم يحاضرهم في الذي أتى له ، فلم يكن قط ممن يحسن صناعة الكلام . انعقد لسانه ، ولكن يده انطلقت ثلاثة أيام ولياليها ترى هؤلاء السفسطائيين ما كان من أبحاثه طوال تلك السنين ، وما كان فيها من تلمس في الظلام ، وتحسس في دياجير المجهول ، وما كان فيها من عثرات تبعتها نهضات ، ومن نهضات تلتها عثرات ؛ فلم ينزل أحد من كبريائه ، ولم يهد من ادعائه ، تزول هؤلاء الجهابذة وهدوءهم ، وقد كانوا أتوا في كثرتهم يستمعون لرجلنا القليل ، وقد كانوا طامنوا أنفسهم على التسامح ، وألا يأخذوا عليه المآخذ ، بل يدعونه يرسل القول إرسالا ، فما عند مثله يطالب الجدل ، ولا أن هم في منزلته يثار النقاش . ولم يجادل كوخ قط ولم يتفيهق قط ، ولم يحلم الأحلام ، ولم ينطق عند الغد بصنوف النبوءات ، وإنما ظل يضرب فيلدق الخشب في ذيول الفئران فكانت كالسهام سرعة ودقة ، وفتح أساتذة البثلجة Pathology[1] عيونهم وسعها لما رأوه يتناول تلك البشلات والبزور والمكرسكوب بيد صناع لا تكون لعالم إلا في ستينه . كان انتصاراً دائماً روعة الصباح الضاحي

وكان من بين هؤلاء الأساتذة الأستاذ كون هايم Cohnkeim وكان من أشهر علماء أوربا في دراسة الأمراض ، فلم يستطع صبرا على الذي سمع ورأى ، وخرج ثائراً من صالة العرض وذهب إلى

(١) علم الأمراض

معمله واندفع على التو الى حيث يعمل الشباب من مساعديه في أبحاثه ، فصاح فيهم : « أبنائى ، دعوا ما بأيديكم وانصرفوا فاستمعوا الى الدكتور كوخ ، فان هذا الرجل كشف كشفاً عظيما » واسترجع الأستاذ أنفاسه

قال الطلاب : « ولكن يا سيدنا الأستاذ مَنْ كوخ هذا فما لنا به من علم ؟ »

قال الأستاذ : « مهما يكن من أمره ، فالكشف الذي أتاه عظيم ، كشفٌ غايةٌ في الدقة ، غايةٌ في البساطة ، غايةٌ في العجب . وكوخ هذا ليس أستاذاً ... ولم يتعلم قط كيف يجرى الأبحاث ... وإنما تعلمه من ذات نفسه ، وصنع كل ما صنع بجهوده وحده »

قال الطلاب : « ولكن ما هذا الكشف يا سيدنا الأستاذ ؟ »

قال الأستاذ : « أقول لكم اذهبوا ، واذهبوا جميعاً ، وانظروا بأعينكم ، واسمعوا بآذانكم ، فانه عَلِم الله أخطر كشف في عالم المكروب ... كشف نتضاءل جميعاً إلى جانبه .... اذهبوا . اذهبوا .. »

ولم يتم الأستاذ قوله إلى تلاميذه حتى كانوا قد خرجوا من الباب واختفوا عن بصره فلم يسمعوا آخر نبراته ، وكان من بينهم بول إرليس Paul Ehrlich[1]

قال بستور قبل هذا اليوم بسبع سنوات : « إن الانسان في مقدوره محو الأمراض المعدية من على ظهر البسيطة » ؛ وعندئذ قال أحكم أطباء ذلك العصر : « إنه رجل مأفون » ؛ ولكن في هذه الليلة خطا كوخ بالدنيا أول خطوة في تأويل الحلم الذي ارتآه بستور . وختم كوخ حديثه الى الأساتذة الأمجاد قال : « إن أنسجة الحيوانات التي تموت بداء الجمرة لا تعدى بهذا الداء إلا إذا هي حملت بشلاته أو بزور هذه البشلات ، سواء أكانت هذه الأنسجة صابحة أو فاسدة ، متعفنة أو جفت أو مضى عليها عام . وفي وجه هذه الحقيقة يجب أن يزول كل ظلٍّ من شك في أن هذه البشلات هي سبب هذا الداء » ختم حديثه الى الأساتذة بهذا القول حتى لكأن تجاربه التي أراها إياهم لم يكن بها كفاية من اقناع ؛ وزاد على ما قال بأن أبان لمستمعيه ، وقد أخذتهم الدهشة ، طريقاً لمكافحة هذا الوباء ، طريقاً أرته تجاربه إياه لمحو هذا الداء ، قال : « إن كل حيوان يموت بالجمرة يجب اعدام جثته في الحال ، فاذا لم يكن في الامكان حرقها ، فلا أقل من دفنها عميقة في الأرض حيث البرودة شديدة فلا تأذن للبشلات أن تستحيل الى بزور تقاوم شدة الحياة وجبروتها طويلا ...... »

وهكذا علم كوخ الناس في هذه الثلاثة الأيام كيف يبدأون في محاربة المكروب ويدفعون عن أنفسهم أسباب المهالك التي تكمن لهم خفية في الظلام ؛ وهكذا بدأ في حمله الأطباء على الاقلاع عن اللعب الهازل بالحبوب والملق في مدافعة الأدواء ، واحلال العلم والمنطق محل السحر والخرافات

وقع كوخ بذهابه الى مدينة برسلاوة في زمرة من رجال أمناء كرماء مخلصين ، بذلوا له من صداقتهم ومن عونهم الشيء الكثير ، نخص بالذكر منهم الأستاذين كون Cohn وكون هايم Cohnheim ، ذلك لأنهما أولا لم يسرقا أبحاثه ، ولصوص العلم ليسوا أقل عدداً من اللصوص في مناشط الحياة الأخرى . وثانياً لأنهما صيّحا له وهتفا هُتافاً تردّدُ أصداؤه في أوربا ، حتى لأوجس بستور خيفة على مكانه سيداً لبُحّاث المكروب ، وأخذ هذان الرجلان يرسلان الكتاب تلو الكتاب الى مصلحة الصحة الامبراطورية ببرلين يعرفانها بأمر هذا الرجل الجديد ، مفخرة ألمانيا ، وصنعا ما صنعا لتمكناه من ترك عيادته ، وهي لا تكسبه غير البلاذة ، وتيسير الرزق والمال له ليفرغ لدرس المكروب ودفع أدوائه . ومن يدري ماذا يكون من أمر كوخ لو أنه جاء برسلاوة فلم يجد بها غير الزجر والمهانة والصدود ، إذن لعاد الى قريته واكتفى بمعاودة صناعته من جس النبض والنظر في ألسنة المرضى ، ولما كان من أمره الذي كان . إن رجل العلم لا ينجح إلا أن يكون فيه بعض خُلُق الدلالين وأرباب المعارض — وهكذا كان اسبلانزاني الفخم العظيم ، وهكذا كان بستور الحساس الصخاب — وإلا أن يكون له من أرباب الجاه وذوي السلطان من يحميه بجاهه ، ويدفعه ويزجه في معترك الحياة ؟

يتبع أحمد زكي

[1] هو العالم المكروبي الشهير ، وسنترجم له

نظرية النسبية الخصوصية

البحث الأول

الزمان ونسبيته

للدكتور اسماعيل أحمد أدهم
عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ١ —

لنتصور قطاراً يتحرك من محطة القاهرة الساعة الثامنة ، فما معنى تحركه الساعة الثامنة ؟ لا خلاف فى أن معناه أن آونة تحرك القطار وحادثة وقوف العقرب الكبير فى الساعة على الرقم «١٢» والصغير على الرقم «٨» متوافقان

ولقد يجول بخاطر الكثيرين أن فى هذا البيان الكشف عن حقيقة الزمان ، وهذا ظن صحيح فيه من الوثوق الشيء الكثير لو كان العالم كله الساعة وما حولها . ولكن مثل هذه الفكرة هل تنطبق على حادثتين : الأولى حدثت فى مكان قصى عن مكان الأخرى ؟ فمثلا لو فرضنا حادثة مثل الحادثة «ا» حدثت فى الشمس ، وحادثة أخرى مثل الحادثة «ب» حدثت على الأرض ؛ فهل فى الامكان النظر فى تواقيتهما ؟

إن الاجابة على مثل هذه الأسئلة تتطلب منا أن نذكر أن مسألة التواقت مسألة ترجع لتساوى سير حركة الساعات فى مختلف الأمكنة ، وهذا الأمر يرجعنا الى واسطة التعيين

لنفرض كرة مثل «ل» بها نقطتان ثابتتان ، الأولى «ا» والثانية «ب» ، وبكل نقطة من هاتين النقطتين توجد ساعة ، ولنرمز لساعة النقطة الأولى بالرمز «س١» ، ولساعة النقطة الثانية بالرمز «سب» ، ولنفرض أن المسافة بين هاتين النقطتين هى «م» ؛ فلكى نوحّد سير الساعتين نجد أمامنا إحدى طريقتين نسلك إحداهما لتوحيد سير ساعتى النقطتين : الطريقة الأولى تنحصر فى نقل الساعة «س١» والساعة «سب» إلى مكان واحد ، ثم ضبطهما هنالك على زمان واحد ، ثم اعادة كل ساعة الى المكان الأول . والطريقة الثانية تستند على إشارة ضوئية من النقطة «ا» الى «ب» مثلا ، فتضبط بناء عليها الساعة «سب» زمانها حسب زمان الساعة «س١»

وهاتان الطريقتان لا زالتا مستعملتين إلى يومنا الحاضر فى حياتنا العملية ؛ فالسفن تتبع الطريقة الأولى عندما تضبط وقت ساعاتها حسب أزمنة الموانئ التى ترسو عليها ؛ وتتبع الطريقة الثانية بمراجعتها أزمنة ساعاتها وكرونومتراتها خلال سيرها باشارات التليفون اللاسلكى لتصحح الفروق الناشئة فى الزمن من اختلاف خطوط الطول والعرض على سطح الكرة الأرضية . ويمكننا استناداً إلى هذه الظاهرة تقرير اختلاف الزمان ؛ غير أن هذا التقرير لا تكون له قيمة علمية إلا بعد تعميمه على الأكوان

فلنفرض فى كون مثل «ل» ساعة مثل «س» ، فهل فى الامكان جعل ساعتين مثل «س١» و «س٢» فى كونين مثل «ل١» و «ل٢» تتحركان حركة انتقالية مستقيمة متساوية فى الزمان مع زمان السكون «ل» ؟

الاجابة عن هذه المسألة خارجة عن نطاق علم الطبيعة (Physics) مادامت هذه الأكوان يتحرك بعضها إزاء بعض حركات انتقالية ؛ ومهما كانت هذه الفروق المتولدة من هذه الحركات ضئيلة فسألة تساوى الزمان فى هذه الأكوان أو عدم تساويه لا يمكن معرفتها إلا بالرجوع الى الاشارات الضوئية . والاستناد على الأمواج النورية فى تقرير توافت الزمان قائم على ثبات سرعة النور ، وهى وإن كانت سرعة محدودة إلا أنها سرعة فوق كل سرعة

وقضية ثبات سرعة النور تجرنا إلى معرفة حركات الأكوان الطلقة خلال الفضاء الأثيرى

بيان : اختصرت هذا البحث من كتابى :
Die Grundlangen der Relativitaetsthearie; Leipzig. 1934 ، الذى أحاول نقله مختصراً إلى العربيـة تحت عنوان : « نظرية النسبية وقيمتها العلمية » وقد أوشكت على الانتهاء من جزئه الأول فى ٢٨٠ صفحة ، وسيقدم إلى الطبع عن قريب . ومقال اليوم أول أربع مقالات سيعليه :
١ : وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية
٢ : مبادئ الميكانيكا الحديثة
٣ : مبادئ الديناميكا الجديدة
٤ : كون مينقو فسكي والفاصلات الفراغية والزمانية
وستكون هذه المقالات الخمس زبدة النسبية الخصوصية

اذا أرسلنا شعاعة نور فى اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة هذه الشعاعة بالنسبة للشاهد الذى أرسلها من فوق الأرض : « ٣٠٠,٠٠٠ كم — سرعة الأرض فى الفضاء الأثيرى »

وفى حالة ارسال شعاعة النور فى عكس اتجاه سرعة الأرض فستكون سرعة الشعاعة متضخمة بسرعة الأرض بالنسبة لمرسلها « ٣٠٠,٠٠٠ كم + سرعة الأرض فى الفضاء الأثيرى »

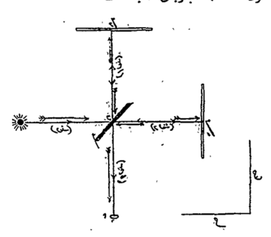
وكل التجارب التى أجريت فى هذا الصدد أسفرت عن نتيجة سلبية

— ٢ —

لنفرض شعاعة نور مثل « س » تقع على مرآة نرمز لها بالرمز « م » ، وهذه المرآة نصف عاكسة ، فتنشق شعاعة النور « س » شعاعتين : المعكوسة « س١ » والمكسورة « س٢ » ، وقد وضعت المرآة « م » بالنسبة لاتجاه الشعاعة « س » بحيث تجعل الشعاعتين « س١ » و « س٢ » متعامدتين إحداهما على الأخرى ؛ ولنفرض أنه قد وضعت فى خط سير هاتين الشعاعتين وعلى بعد ثابت من المرآة « م » مرآتان أخريان ، الأولى « م١ » والثانية « م٢ » بحيث تردان الشعاعتين « س١ » و « س٢ » إلى المرآة « م » ؛ وهنالك عند التقائهما ثانية تمكسان عكساً نصفياً فيتحد الجزء المعكوس من الشعاعة « س٢ » مع الجزء المكسور من الشعاعة « س١ » فى الشعاعة الأخيرة « س٣ » ، فاذا ما سارت الشعاعتان مسافة واحدة من نقطة افتراقهما إلى نقطة التقائهما ثانية : أعنى إذا كانت المسافة من « م » الى « م٢ » تعادل المسافة من « م » الى « م١ » تعادلا تاماً ، فانك إذا ما وضعت عينيك فى الوضع « د » شاهدت الشعاعة « س٣ » كاملة لا نقص فيها ؛ أما إذا كانت المسافة « م — م١ » تنقص أو تزيد على المسافة « م — م٢ » بما يعادل نصف موجة النور أو حاصلا صحيحاً لنصف موجة النور ، فان الشعاعتين تكونان قد سارتا منذ انفراجهما إلى اتحادهما ثانية غير متعادلتين ، فينجم عن ذلك تداخل نورى بين حركة الموجتين يشف عن نظام تداخلى يتظاهر فى شكل حلقات من النور والظلمة (١)

ولو فرض وأزحنا « م١ » أو « م٢ » قليلاً عمى أننا غيرنا تعادل المسافتين « م — م١ » و « م — م٢ » ألفينا هذه الحلقات تتحرك ، أو قل تتقلص شيئاً فشيئاً إلى أن تختفى فى الوسط المشترك بينهما ، ثم تظهر حلقات جديدة من خارج النظام ، ويكون عدد ما يختفى معادلا عدد ما يظهر من الحلقات ؛ ومن مقدار تغير « م — م١ » أو « م — م٢ » نستطيع حساب الحلقات الواجب اختفاؤها على هذا النوال . لهذا لو كان هنالك راصد مشاهد لهذا النظام ، وطفقت حلقاته تتقلص بغتة ، أمكنك أن تحكم يقيناً إن كانت المسافة « م — م١ » أو « م — م٢ » قد شرعت فى التغير ؛ وإذا حسبت عدد الحلقات المختفية استطعت التنبؤ بمقدار تغير المسافتين

أجرى(١) الدكتور ميكلصون Michelson ، والأستاذ مورلى Morley تجربتهما بحيث كانت حركة الشعاعة موازية لحركة الأرض « ع » حول محورها مثلاً ، أى وضعت « م١ » بحيث تكون المسافة « م — م١ » ممتدة شرقا غربا ، فتكون لذلك الشعاعة « س١ » متعامدة على اتجاه حركة الأرض حول محورها ، أى تكون ممتدة شمالا جنوبا فى الاتجاه « ع »



شكل بيانى رقم « ١ » من كتاب :
Louis-Gustave du pasquier : Le principe de la Relativité et les théories d'Einstein. p. 44 7.ig : 6.

ولكن عند ما تنفصل الشعاعتان « س١ » و « س٢ » عند النقطة « د » تسير كلتاهما بسرعة واحدة بالنسبة للفضاء الأثيرى ، لأنهما كلتيهما تموج أثيرى ، والاختلاف لا يكون إلا باسنادها إلى شيء آخر ، ولكن الجهاز : « جهاز ميكلصون —

1 : Louis Gustave du Pasquier : Le principe de la Relativité et les théories d' Einstein., Paris 1922., P 86 — 112.

(١) التجربة التى قضت على الأثير ١٩٣١ المقتطف ؛ شارل مالك

مورلي» فتكون سرعة «س١» بالنسبة للجهاز غير سرعة «س٢» بالنسبة له ، لأن هذه الآلة تدور مع الأرض في دورانها حول محورها ، والشعاعة «س١» متعامدة على السير بينما الشعاعة «س٢» موازية له ؛ فمن هذا الاعتبار ينتج أن سرعة «س٢» بالنسبة لجهاز ميكلصون عند ما تكون الشعاعة «س٢» سائرة نحو «م٢» هي :

ص — ع .... «معادلة ١»

حيث أن «ص» رمز لسرعة الضوء المنطلقة خلال الأثير ، و «ع» رمز لسرعة الأرض حول محورها . وعند ما تنعكس الشعاعة «س٢» عن «م١» تصبح سرعتها بالنسبة للجهاز هكذا :

ص + ع .... «معادلة ٢»

أما الشعاعة «س١» فلها نفس السرعة في سيرها نحو «م٢» لأنها مركبة من سرعتين متعامدتين مثلا ، ولكنها في ذهابها وإيابها في كلتا الحالتين ستكون متعامدة على اتجاه سير الآلة أو الجهاز ، وستكون مقدار هذه السرعة :

$\sqrt{ص^{2} + ع^{2}}$ .... «معادلة ٣»

وذلك لأنها مركبة من سرعتين (١).

على هذا الأساس رتب الدكتور ميكلصون وزميله الأستاذ مورلي جهازهما في الأوضاع السابق ذكرها ، وأخذا يرقبان الشعاعة «سهم» من النقطة «ح» فارتسم أمامهما نظام متداخل ناجم عن تداخل الشعاعتين في بعض ، وعند ما أديرت الآلة بكامل أجزائها حول المحور «ه» بحيث أصبحت «م — م١» متعامدة على اتجاه حركة الأرض بعد أن كانت موازية ، واتخذت الشعاعة «م — م٢» وضعاً موازياً لحركة الأرض بعد أن كانت متعامدة .

فكان المنتظر أن هذا التغيير يسفر عن تغير سرعة الشعاعتين بالنسبة للآلة في الزمن الذي تستغرقه كل من الشعاعتين في سيرها من المركز «ه» إلى المرايا العاكسة ورجوعها إلى «ه» ثانية .

ومن البديهي أن الزمن الذي تستغرقه الشعاعة «سهم٢» في وضعها الجديد أقل من الزمن الذي استغرقته وهي في وضعها القديم ؛ أعني أن شعاعة النور في سيرها في اتجاه متعامد — بشرط أن تنعكس الشعاعتان وترتدا إلى مصدرها ، وإدارة الجهاز حول محوره تسعون درجة — لا بد وأن تسفر عن ابطاء الشعاعة الواحدة في رجوعها إلى «ه» واسراع الشعاعة الأخرى في هذا الرجوع (١).

هذا الابطاء والاسراع يؤثران في النظام الداخلي ، إذ تنقص بعض الحلقات وتختفي حلقات الوسط وتبدو حلقات جديدة تتسرب للنظام من طرفه الخارجي . ذلك لأن تباطؤ الموجة الواحدة في رجوعها يفضي الى تداخل جديد مع حركة الموجة الثانية التي أسرعت في الرجوع (٢).

ولما كانت سرعة الأرض حول محورها معلومة ، وسرعة النور في الفضاء الأثيري معلومة كذلك ، فمن المستطاع قياس الفاصلتين «م — م١» و «م — م٢» واستخراج طول موجة النور ، وبذلك يصبح من الممكن حساب التأخير اللازم حدوثه إذا ما أديرت الآلة ومقدار التغير اللازم طروؤه على عدد الحلقات من تقلص واحتجاب

على مثل هذا الأساس العلمي الدقيق أجريت تجربة ميكلصون ، ولكنها أسفرت عن نتيجة سلبية إذ لم تتغير الحلقات ووصلت الشعاعتان معاً . ثم أعيدت التجربة مع الدقة الشديدة ولكن لم تسفر عن نتيجة (٣)

(بقية البحث في العدد القادم) اسماعيل أحمد أدهم

(1): A. A. Michelson and E. W. Morley: The American Journal of Science and arts, Mew-Haven 31 (1886) P. 337, and (3) 22 (1881) p. 120.

(1): A. A. Michelson an. E. W. Morley: Philosophical Magazine of London., Edinburgh and Dublin. (5) 24. (1887) p. 449.

(2): M. Fitzgerald: Annalen der Pluysik., Leipzig. (4) 1907 p. 137.

(٣) اعتمدنا في الكتابة عن تجربة ميكلصون إلى حد كبير على نص ما كتبه الأستاذ شارل مالك في مقتطف اكتوبر ١٩٣١ تحت عنوان «التجربة التي قضت على الأثير» وقد اعتمدنا على هذا النص العربي لدقته

دراسات :

٣ـ قصة الفتح بن خاقان

للاستاذ عبد الرحمن البرقوقي

مخازى الفتح

نقول إن ابن بسام كان أعفّ لسانا، وأنزه بيانا. أما الفتح ابن خاقان فقد كان مقذعا هجاء الى أنه كان مداحا فصالا [1]، فمن أرضاه وأناله، مدحه وفتح لهاه؛ ومن لا يرضخ له من ماله بما يرضيه، هجاه وأقذع وولغ فيه. وربما دسّ له لدى أولى الأمر وضرّاهم عليه. ومن ذلك ما كان منه مع فيلسوف الأندلس أبي بكر بن الصائغ وطبيبها الأكبر أبي العلاء بن زهر كما سيمر بك قريبا ... وقد كان مع ذلك سكيراً معربدا الى هنوات أخرى لقد يندى لها جبين الأدب، وقعدت به عن بلوغ المراتب التي بلغها أمثاله ومن هو دونه. قال الوزير لسان الدين بن الخطيب في حق الفتح: كان آية من آيات البلاغة لا يُشق غباره، ولا يدرك شأوه، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقها، لعوبا بأطراف الكلام، معجزا في باب الحلى والصفات، إلا أنه كان مجازفا مقدوراً عليه [2]، لا عن من المعاقرة والقصف حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره، ولم يدع بلدا من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره. وأغلا في عليته [3] ... وقال ابن بشكوال في الصلة: وكان ــ الفتح ــ معاصرا للكاتب أبي عبدالله بن أبي الخصال، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته. وجاء في النفح أن الفتح قصد يوما الى مجلس قضاء أبي الفضل عياض ــ صاحب الشفاء ــ مخمّراً، فتنسم بعض حاضري المجلس رائحة الخمر، فأعلم القاضي بذلك، فاستثبت وحدّه حداً تاما.

(١) هو الذي يمدح الناس ليعطوه

(٢) المجازفة المخاطرة يقال جازف بنفسه إذا خاطر بها يرجع الى المساهلة كأنه ساهل بها وهو مجاز ومما استدركه الزبيدى شارح القاموس. ولعل ابن الخطيب يريد أن الفتح كان مستهترا جريئا على فعل ما لا يليق بمثله. ومقدورا عليه يريد ــ لعله ــ أنه ضعيف الارادة لا يقدر على ضبط نفسه

(٣) في عليته أى في قصره وداره فيكون الضمير للأمير، أو في سرواته وإشرافه فيكون الضمير الى البلد

وبعث اليه بعد أن أقام عليه الحد بثمانية دنانير وعمامة ... فقال الفتح حينئذ لبعض من أصحابه: عزمت على إسقاط القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم بقلائد العقيان، قال: فقلت له: لا تفعل، وهي نصيحة، فقال: وكيف ذلك؟ فقلت له: قصتك معه من الجائز أن تنسى وأنت تريد أن تتركها مؤرخة، إذ كل من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت فيه من هو مثله ودونه في العلم والصيت، فيسأل عن ذلك فيقال له، فيتوارث العلم عن الأكابر الأصاغرُ؛ قال: فتبين ذلك وعلم صحته وأقرّ اسمه في (القلائد)

ولقد أزلفنا أنه هجا الفيلسوف ابن الصائغ وأقذع في ترجمته له في القلائد، ثم مدحه وأثني عليه في المطمح؛ وقد حدثنا الوزير لسان الدين بن الخطيب عن سبب هجائه إياه أولا، قال: وحدثني بعض الشيوخ أن سبب حقده على ابن باجه أبي بكر آخر فلاسفة الاسلام بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به في تكذيبه إياه في مجلس اقرائه إذ جعل يكثر ذكر ما وصله به أمراء الأندلس، ووصف حليا، ــ وكان يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون، فقال له: فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التي على شاربك ... فثلبه في كتابه بما هو معروف ...

أما مدحه إياه بعد إذ هجاه فقد ذكر لنا المقاد أن ذلك كان منه بعد أن أنفذ إليه مالا استكفّه به واستصلحه . . . وإليك نتفاً مما كتبه في القلائد هاجيا، ثم مما كتبه في المطمح مادحا: قال في القلائد: « هو ــ أي ابن الصائغ ــ رمد عين الدين، وكمد نفوس المهتدين، اشتهر سخفا وجنونا، وهجر مفروضا ومسنونا، فما يتشرع، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع، ناهيك من رجل ما تطهّر من جنابة، ولا أظهر مخيلة إنابة، ولا استنجى من حدث، ولا أشجى فؤاده بتوار في جدث، ولا أقرّ بباريه ومصوّره، ولا فرّ بتباريه في ميدان تهوره، الاساءة إليه أجدى من الاحسان، والبهيمة عنده أهدى من الانسان، نظر في تلك التعاليم، وفكر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتاب الله الحكيم العليم. الخ الخ [1] ». وقد أورد له متعمداً أبياتا ليست من جيد شعره. وأين هذا من تحليته له

(١) راجع قلائد العقيان

في المطمح بقوله فيه ماهذا بعضه : « نور فهم ساطع ، وبرهان علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بمصره الأعصار ، وتأرجت من طيب ذكره الأمصار ، وقام وزن المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فيئا وتهدل ، إذا قدح زند فهمه أورى بشرر للجهل محرق ، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق ، مع نزاهة النفس وصونها ، وبعد الفساد من كونها ، والتحقيق الذي هو للايمان شقيق ، والجد ، الذي يخلق العمر وهو مستجد ، وله أدب يود عطارد أن يلتحفه ، ومذهب يتمنى المشترى أن يعرفه ، ونظم تعشقه اللبات والنحور ، وتدعيه مع نفاسة جوهرها البحور ، الخ الخ » .

وأورد له شعرا جيدا . وكل أولئك تراه في ترجمتنا لهذا الفيلسوف الأندلسي العظيم . . . أما ما كان من الفتح من الكيد للفيلسوف الكبير والطبيب النطاسي الأشهر والوزير الخطير أبي العلاء زهر لدى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ، فقد جاء في نفح الطيب ما نصه : « وكان بينه – أي بين أبي العلاء زهر – وبين الفتح صاحب القلائد عداوة ، ولذلك كتب في شأنه إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين ما صورته :

أطال الله بقاء الأمير الأجل سامياً للنداء ، رافعا للتطاول والاعتداء ، لم ينظم الله الملك بلبتك عقدا ، وجعل لك حلا للامور وعقدا . وأوطأ لك عقبا ، وأمار من الناس لعونك منتظرا ومرتقبا ، إلا أن تكون للبرية حائطا ، وللعدل فيهم باسطا ، حتى لا يكون منهم من يضام ، ولا ينال أحدهم اهتضام ، ولتقصر يد كل متعد في الظلام . وهذا ابن زهر الذي أجررته رسنا ، وأوضحت له إلى الاستطالة سننا ، لم يتعد من الأضرار إلا حيث اشتهيته ، ولا تمادى على غيه إلا حين لم تنهه أو ألهيته ، وبالعلم أنك لا تنكر عليه نكرا ، ولا تغير له متى ما مكر في عباد الله مكرا ، جري في ميدان الأذية ملء عنانه ، وسرى إلى ما شاء بعدوانه ، ولم يراقب الذي خلقه ، وأمد في الحظوة عندك طلقه ، وأنت بذلك مرتهن عند الله لأنه مكنك لئلا يتمكن الجور ، ولتسكن بك الفلاة والغور ، فكيف أرسلت زمامه حتى جرى من الباطل في كل طريق ، وأخفق به كل فريق ، وقد علمت أن خالقك الباطش الشديد يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وما يخفى عليه نجواك ، ولا يستتر عنه تقلبك ومثواك ، وستقف بين يدي عدل حاكم ، يأخذ بيد كل مظلوم من ظالم ، قد علم كل قضية قضاها ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فبم تحتج مني لديه ، إذا وقفت أنا وأنت بين يديه ؟ أترى ابن زهر منجيك في هذا المقام ، أو يحميك من الانتقام ، قد أوضحت لك المحجة ، لتقوم عليك الحجة ، والله النصير ، وهو بكل خلق بصير ، لا رب غيره والسلام ... هذا جانب من خلائق الفتح : تحول وتقلب ، ونقض لما أبرم ، وإبرام لما نقض ، وهجاء ثم مدح ، ومدح ثم هجاء ، ومناوأة للفلاسفة ، واستعداء للملوك والأمراء عليهم ، إلى ما أشرنا إليه آنفاً من خلعه العذار واستهتاره ، وإدمانه المعاقرة وفسوقه ، حتى كان ذلك سبباً – كما يقول المؤرخون – في تخلفه عن لداته وقعوده عن بلوغ عليا الرتب التي بلغوها . ومن هنا كان حبه المال حبا نال من كرامته ونقص من قيمته وصيره شهرة لدى العلماء والأمراء وسائر العلية والسروات . ومما يؤخذ عليه أيضا غروره واعتداده بنفسه إلى أقصى حد ؛ ولا أدل على ذلك من قوله في خطبة قلائده : «الحمد لله الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنتنا ، وشاد مثواه في أجنتنا ، وذلل لنا من الفصاحة ما تصعب فملكناه ، وأوضح لنا من مشكلاتها ما تشعب فسلكناه ، فصار لنا الكلام عبدا يجيب إذا ناديناه ، ومهما يصيب الغرض إذا رميناه»

وبعد فقد كان هذا الأديب الألمعي الموهوب من أولئك الأدباء الذين أدركهم داء الانحطاط ، ومثله كثير بين أدباء العرب والعجم والشرق والمغرب قديماً وحديثاً ... وهذا الصنف من الأدباء والفنانين جدير بالرحمة والرثاء ، لأن عبقريتهم هي سر انحطاطهم ، إذ العبقرية في الحق شعبة من الجنون كما شرح ذلك لمبروزو وماكس نوردو وغيرهما . وقد كان انحطاط هذا الأديب سببا في قتله ... وفي أنفة مؤرخ كبير وأديب نابغ هو ابن الأبار القضاعي من ترجمته والتعرض لذكره ، فقد قال هذا ابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي : إنه لم يكن مرضيا وحذفه أولى من إثباته . ولذا لم يذكره في التكملة . أما قتله فقد قال ابن سعيد في المغرب – بعد كلام – ما نصه : « وقد رماه الله تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر ابن باجه ، فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذبحه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه وتركه مقتولا ... ... » ...

وقال ابن دحية إنه قتل ذبحا بإشارة علي بن يوسف بن تاشفين....

(يتبع) عبد الرحمن البرقوقي

٦ – معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي



كانت القوة كلها مؤلفة من أربعة أفواج وسرية خيالة وبطرية جبلية . وكانت لدى كل سرية مشاة يبلغ عددها (٢٠٠) جندي ، أربعة طليان وهم رئيس وملازمان وضابط صف . أما الملازمان الآخران فمن الأهلين . ونظراً الى التنسيق الجديد بلغت القوة في المستعمرة ما يلي :

١٧١	ضابطاً طليانياً
١٤٠٠	جندي طلياني
٣٧	ضابطاً أهلياً
٤٤٠٠	جندي أهلي
٦٠٠٨	المجموع

وفي سنة ١٨٩٥ أحدث الحاكم العام الجنرال « باراتيري » احتياطاً من الجنود المسرحين يتألف من ثماني سرايا تبلغ قوتها ١٧٠٠ جندي .

وأطلق الطليان على الجندي الأهلي اسم « عسكري »

ولما توترت العلاقات أنجد الطليان جيش المستعمرة بقوات أخرى جلبوها من إيطاليا . وفي الشهر الأخير من سنة ١٨٩٥ بلغت النجدة أربعة أفواج قوة كل منها ٦٠ جندياً . ثم جعلوا القوة الأهلية ثمانية أفواج بعد أن كانت أربعة أفواج . وزادوا قوة السرية فيها من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ جندي ، وهكذا بلغت قوة الجيش ١٤٠٠٠ ، منها ٢٨٠٠ جندي طلياني

وبإضافة قوة الاحتياط إلى ذلك أصبحت قوة الجيش ١٨٠٠٠ جندي ، وفي معركة عدوى كانت قوة الجيش كما يلي :

(ا) لواء الجنرال « البرتونة » وكان مؤلفاً من أربعة أفواج أهلية وبطريتين طليانيتين وبطرية أهلية

(ب) لواء الجنرال « داوورميدا » وكان مؤلفاً من ستة أفواج طليانية وفوج أهلي وأربع بطريات طليانية

(حـ) لواء الجنرال « اريمونديو » وكان مؤلفا من خمسة أفواج طليانية وسريتين أهليتين وبطريتين طليانيتين

(د) لواء الجنرال « اللانا » وكان مؤلفاً من ستة أفواج طليانية وفوج أهلي وبطريتين طليانيتين سريتي الرمي وسرية هندسة

فالجيش كان مؤلفاً من ثلاثة وعشرين فوجا ، وسريتي مشاة ، واثنتي عشرة بطرية ، وسريتي هندسة ؛ وكان مجموع القوة :

٥١٠ ضباط ، و١٢٤١١ جنديا إيطاليا ، و٧٣٣٠ جنديا أهلياً و٦٤ مدفعاً ، ومجموع رجاله ٢٠٢٥١ رجلا ، وهكذا يصيب كل ألف جندي ٣١١ مدفعاً ، وكانت هذه النسبة جيدة في ذلك الزمن

أسلوب التعبئة الطليانية

كانت كتب التعليم الطليانية شائعة في جيش المستعمرة ، إلا أن بعض أحكامها عدل نظراً الى حالة العدو . وكان بعض هذا التعديل ، الحركة في ميدان المعركة بالنظام المنظم ، والانتشار بصف واحد ، على أن يكون الجنود متجانبين دون فرجات

وظهر من حركات البريطانيين على المهدي أن هذا الأسلوب لا يفي بالمرام تجاه صولة الأحباش الذين يظهرون شجاعة فائقة في حملاتهم ، فاستفادت القيادة الطليانية من حركات البريطانيين وقررت أن تترك قدمات احتياط في الخلف لتنجد الخط الأول عند الحاجة أو لتكون متأهبة للطوارئ . إلا أن الضباط

لم يتعودوا هذا الأسلوب تماما لما وقعت معركة عدوى ، ولاسيا أنهم كانوا قد تدربوا على أساس التعبئة الأوربية قبل مجيئهم إلى المستعمرة .

ليس من السهل دخول القتال في مستعمرة بعيدة عن الوطن ما لم تنتظم أمور السوقيات ، والظاهر من تدابير الطليان أنهم لم يضعوا خطة ناجحة لشؤون النقلية ولم يهروا فيها ، فاتخذوا الميناء « مصوع » قاعدة للحركات وأرسلوا إليها القطعات والتجهيزات على التعاقب دون ترتيب . فكانت التجهيزات ومواد الاعاشة تتكدس هنا وهناك بصورة يصعب نقلها من الميناء إلى الداخل .

والأغرب من كل ذلك أن الحكومة الطليانية كانت ترغب في إدارة رحى الحرب دون انفاق المال . ولما طلب الجنرال باراتيرى المال أجابه رئيس الحكومة « كريسبي » بأن نابليون الأول كان يحارب حروبه على مال العدو ، قال هذا ناسياً أن الساحة التي يتحرك الجيش فيها هي أرض قفراء لا ماء ولا أقوات كافية فيها .

الشروع في القتال :

توترت العلاقات في مايو ١٨٩٤ . وفي آخر شهر من هذه السنة ظهرت علائم التمرد في جنوبي أسمره . وكان المحرض على ذلك رأس تيجرى « منيغسيا » ، ولما سمع الطليان أنه يجمع الجنود طلبوا منه تسريحهم فلم يجب طلبهم

وعلى أثر ذلك تقدمت القوة السفرية المتكلفة بستر أسمرة ومصوع بقيادة الجنرال « باراتيرى » الى شمالي نهر مارب وعسكرت هناك

وفي ١٣ يناير ١٨٩٥ عبر « منيغسيا » نهر بلزة فتقدم الجنرال نحوه ونشبت المعركة في كواتيت . ورتب باراتيرى ثلثي قوته مع البطارية الجبلية في الخط الأول ، وترك باقي القوة في الخط الثاني لحماية جانبه الأيسر

وكان الأحباش يسعون للالتفاف حول هذا الجانب إلا أن إرسال الوحدات الأهلية للنجدة ، وثبات الطليان في الجبهة ، واشتراك جميع القوات في القتال على التدريج مما ساعد باراتيرى على الاحتفاظ بموقفه ، وتوقف القتال بعد الظهر واستمرت المناوشات الخفيفة إلى المساء وانسحب الأحباش ليلا

وشرعت القوات الطليانية في المطاردة في ١٥ يناير ١٨٩٥ وتقدمت طول النهار ولحقت بالأحباش في سنافة . وبعد اطلاق بضع طلقات انسحب الأحباش ، وتقدم الطليان على طريق الهضبة دون أن يضطروا الى عبور الأنهار ، ودخلوا ادجرات في ٢٥ أبريل ١٨٩٥ . وفي شهر مايو يبدأ موسم الأمطار الغزيرة فتوقفت الحركات .

أما الأحباش فأخذوا يجمعون قواتهم لمقاتلة الطليان ، وكانوا يأملون أن يتم الحشد في الخريف ، فشرع الأحباش في الهجوم على الطليان لاخراجهم من البلاد . أما الطليان فأنجزوا تحكيم موقع ادجرات في شهر يونيو . والموقع كما نعلم يرتفع عن سطح البحر ٢٥٤٥ مترا وهو صالح لاقامة الأوربيين من حيث الهواء . وهو أيضا موقع خطير في حد ذاته . ففيه تلتقي الطرق الممتدة إلى مقاطعة شوغا ومقاطعة أمحرة ، فضلا عن كونه واقعا في نقطة ملتقى الجبال ، ومنه تتشعب سلسلة عدوى التي تفصل حوض « تكاذه » وتوابعه عن حوض « مازب » وتوابعه

وقرية عدوى عاصمة المقاطعة ، وعلى مسافة خمسة وعشرين كيلومترا منها تقع أكسوم العاصمة الدينية ، حيث يتوج عواهل الحبشة . واحتل الطليان عدوى أيضا في شهر أبريل ، وبذلك استولوا على خط (ادجرات - عدوى) فسيطروا على المسالك المؤدية اليه ، وجعلوا حوضي النهرين تحت نفوذهم

واستمروا على التقدم من ادجرات سالكين المرتفعات التي تفصل بين أحواض الماء ، ودخلوا قصبة « مكلة » أيضاً وحكموها

وعلى هذا الأسلوب تحركوا بحذر وشيدوا القلاع على طول الخط بمراحل ٣ الى ٥ أيام . وكان من الضروري الاهتمام بالمواصلات التي تربط هذه القلاع بالساحل . ولا شك في أن توسيع دائرة احتلالهم على هذه الصورة جعلهم ضعفاء في كل محل ، لأن القوة لم تكن تكفي لحراسة خطوط المواصلات ، والدفاع عن هذه القلاع وتهيئة قوة سيارة تتحرك عند الحاجة لضرب الأحباش ، لأن القوة لم تزد حينئذ على ١٨٫٠٠٠ رجل . أما الخط الذي انتشرت عليه القوة فيبدأ من « كسلا » ويمر بخط « كون - اسمره - ادجرات » وينتهي في « مكلة » . وكانت الأخبار تؤيد تأهب الأحباش للمعركة الفاصلة . ولم يكتف الطليان

بنشر قواتهم على ذلك الخط الطويل بل أوفدوا قوة ستر مؤلفة من فوج أهلي وفصيلة مدفعية الى جنوبى « مكلة » فى مرحلتين الى (امبا – الاغى)

وفى نهاية السنة هاجم الأحباش هذا الموقع فدافعت القوة دفاعا مستميتاً ، ولم يتلق آمرها أمر الانسحاب إلا متأخراً بعد أن قضى الأحباش على قوته وغنموا مدفعيته ، بينما كان الموقف يتطلب أن يبلغ هـذا الآمر واجبه الأصلى وهو الدفاع الرجعى دون دخول قتال فاصل

وكانت القوة الحبشية مؤلفـة من ٣٠٫٠٠٠ رجل يقودها الرأس « ما كونين » والد الرأس « تفرى »

وكان الجنرال « اريموندى » بكوكبه (بقسمه الأكبر) فى مكلة ، ولما تيقن أن الأحباش سوف يهاجمونه وأنه لا يستطيع الدفاع أمامهم قرر الانسحاب ، فانسحب بسرعة الى « اداجاموس » ثم إلى « ادجرات » وترك فى مكلة فوجاً أهلياً مع مدفع جبلى فقط

أما النجاشى منليك فكان مهتما بجمع الجيش ليملى إرادته على الطليان ويهيىء سبيل الخـلاص لبلاده . وبعد أن جمع المـال المطلوب من مقاطعة الغالا ، وأنجد جيشه بخيالة الغالا ، وصل إلى اديس أبابا وأعلن إلى الجميع أن الحبشة لا تحتاج إلى أحد بل تمد يدها إلى الله ، فتولى قيادة جيشه بنفسه وجمع جميع الرؤوس فى « بروميدا » وصرح لهم ولجميع المشايخ والأشراف برغبته فى طرد الطليان من البلاد وانقاذها من مخالب الاستعمار . فوافقه الرؤوس على ذلك بالاجماع ، وكان المشهد مما يثير الحماسـة فى الصدور ، وكانت قوة الجيش الحبشى مع قوة جيش « ما كونين » تبلغ ١٦٠٫٠٠٠ رجل . فحاصر ما كونين قلعة مكلة وأخـذ يدكها بنار مدافعه ، وقطع عليها طرق الماء . فاضطرها إلى التسليم فى ٢٥ ديسمبر ١٨٩٦ ووافق النجاشى على عودة الأسرى الطليان الى بلادهم لينشروا الرعب فى قلوب الطليان الآخرين

ولمـا انتشرت أخبار انتصار الأحباش فى المستعمرة ساد القلق والرعب فى قلوب الناس ، وفكر الطليان فى الدفاع عن ميناء مصوع أيضاً . وقررت القيادة حشد جميع القوات فى ادجرات لصد تقدم الأحباش ما عدا الحاميتين اللتين فى كرن وكسلا ، وكانت قوة الحامية منها مؤلفة من فوج وسرية خيالة وفصيل مدفعية

(يتبع) طه الهاشمى

مؤتمر القلوب

للأستاذ السيد محمد زياده

سألت نفسى بعد تأمل وتفكير : « ماذا يكون لو أمكن كلَّ إنسان أن ينكمش حتى يختفى فى قلبه ، وأمكن قلبه أن يتسع حتى يحويه ؛ فيظهر للناس عارياً لا يكسوه إلا الشغاف ، ويصبح الشخصُ المنطوى على قلب قلباً منطوياً على شخص ، وتمشى القلوب وتتنقل ، وتدب حيث تحب ؟ أتنكشف السرائر ، وتسفر الخفايا ، وتباح الأسرار ؛ ويستطيع كل قلب أن يعرف ما له عند الآخر بغير حاجة الى رسول بينهما قد يصدق وقد يكذب ، ويتبين المرء ما يكنُّه له حبيبه أو صديقه خاليا من الزيف والرياء ؟ »

وكان سؤالا غريبا جديدا ، حيرنى الجواب عليه ؛ ثم رأيتنى فى الرؤيا أجرب هذا ... فانقبضتْ أطرافى الى بدنى ، وانحصر بدنى فى قلبى ، فأصبحت قلبا ومضيت لشؤونى فى الحياة ؛ ووجدتنى مقبلا عليها بتلهف وشوق كما يقبل على الحرية سجين أطلقوه . فهو يندفع اليها بقوة ، ويتقلب على رحبها بشغف ، كأنه يريد أن يجنح فيها فيملأها . وهى تتلقاه هاشة باشة ، وتتفتح له حيث اتجه ، وكأنها تريد أن يمتزج بها فيصير منها

ثم وجدُتنى هنا وهناك طلقاً موزّعا متحيرا لا أستقر ، ولا أعرف كيف أستقر ، ولا أفهم معنى الاستقرار . وزعمت أنى لم أوجد فى الحياة الا لأتحسس الجمال وأتلمس الحب ، وخيَّل إلى وهمى أن الجمال فى كل لحظة ينادينى ، وأن الحب فى كل بقعة ينتظرنى ؛ فجُننتُ بالجمال والحب ، وحلّقتُ فى سمائهما بأجنحة الخيال حتى كدت أتحطم أو تحطمتُ . . بين شقاء يجرُّنى اليه الهجر ، وشقاء يجرنى اليه الوصال

ورأيت العيون من حولى تلتهمنى بنظرات هى التعجب والاستغراب ، وكأنها تتخاطب قائلة : « ما لهذا القلب لا يهدأ ؟ ؟ » حتى كادت تشعرنى بأنى وحدى أصفق للجمال وأخفق بالحب . ولكنى لم أحفل بالنظرات ولم أهب العيون ، وسرت فى طريقى كما أنا قلباً مهوماً شديد الخفقان

ثم رأيتُنى مدعوًّا إلى مؤتمر دعيتْ اليه القلوب جميعا ؛

ففرحت بهذه الدعوة ونشطت إلى الاثبار . وتوافدنا نحن القلوب يسابق بعضنا بعضاً ، ويحمل كل منا فى أعماقه ما يحمل

* * *

فهذا قلب صاف لا رنق فيه ولا غبار عليه ؛ وهذا قلب درن غلب على بعضه الدرن وغلب على بعضه النقاء ؛ وهذا قلب أسحم لم يبق فيه أثر لطبيعته ؛ وهذا قلب كبير ؛ وهذا قلب صغير

ووقفت أرنو إلى ذلك الحشد الحافل وأستمتع بما فيه من مشاهد غريبة كانت محجوبة عني أو كنت محجوباً عنها ؛ وأخذ كل قلب يتطلع إلى القلوب حوله ، ويستمتع استمتاعى وكأنه يحس ما أحسه من دهش يصحبه فرح ، ومن رهب تصحبه لذة

ورأيت على بعد غير سحيق من مكانى قلبا تقلص أديمه ، وشاه مظهره ؛ فدلنا على باطن غاسق كالليل ؛ والقلوب كلها نافرة منه صادفة عنه ، كأنه قتاد يشوك من يقربه ، أو مخلوق وحشى يلتهم من يلمسه . وهو فى مكانه يوزع عليها نظرات متمعضة ساخطة ملأى بالتمرد والتوعد . فسألت : « مالهذا القلب لا يجد منا صاحبا ولا نجد فيه أهلاً للصحبة ؟ » فقالوا : هذا قلب رجل لا يعيش إلا حيث الفساد بين قلوب عارفيه ، ولا يستريح حتى يشى بين صديقين متفقين ، أو يمكر ما بين حبيبين ناعمين ، أو يسيء إلى أحد ما . فتراه يبتسم لهذا ، ويداعب ذاك ، ويوسوس إلى ذلك ؛ حاسبا أن فى ابتسامته ودعابته وريائه ستاراً لحقده وخبثه وخسته ؛ ولكن هيهات . . فكلنا يعرف ما فى جوفه ، وكلنا يحتقره وينبذه ويلعنه ، وكلنا يود الآن لو يسحقه فيريح الوجود من وجوده

ورأيت فى ناحية أخرى قلبا شف لونه ، وأضاءت سحنته ، فدلتنا على دخيلة بيضاء كالشمس ، والقلوب كلها — إلا ذلك القلب الداكن وأمثاله — متهافتة عليه ، متوددة إليه ، تصافحه وتحييه ؛ فيصافحها ويلاقيها بتحيات زكيات ملأى بالبر والقناعة — فسألت : « ما لهذا القلب لا يجدنا قاليا ولا نجد منه داعيا للقلى ؟ » فقالوا : « هذا قلب رجل تقى كريم يعرف الله ويخشاه ، نصب نفسه لهداية الناس ، وقضى أيامه يجاهد الرذيلة ويحيى الفضيلة ، ويكره الشر ، ويحب الخير . فطالما سعى ليوفق بين صديقين مختلفين ، أو يصلح ما بين حبيبين تاعسين ، أو يحسن إلى أحد ما ؛ فتراه يرشد هذا ، ويعلم ذاك ، وينتزع الغواية من ذلك ، صادقا فى كل ما قال وكل ما فعل ، مصلحاً أينما حل . فكلنا يعرف فضله ويقدره ويحترمه ويود لو يرفعه فيجعله فى السماء

ولفت بصرى قلب غلا دمه ، وتصاعد البخار من فتحاته ، وكاد ينـدلع اللهب من جنباته ؛ حتى خلته تنوراً تنصهر فيه جدرانه جزءاً جزءاً ، ويشتد أزيزه كلما استعر جوفه . يروح ويغدو بين القلوب هائجاً كالشرد ، حائراً كالضال ، لا تفتر قواه ولا ينقطع خفوقه . فتساءلنا عما به فوجدناه قلب محب فارقه حبيبه فبرح به الشوق ، وأضناه الألم ؛ فهو ظمآن لهفان يبحث عنه بيننا علّه يلقاه فينقع اللقاء غلته ، ويبرد لهفته . فقلت : آه ! ! ما أعظم سلطان الحب . . آمنت بأن فى الحياة قلوباً تحاز حيرتى وتكابد ما أكابد

وكان بين القلوب قلب خالٍ كالبيضة إذا أفرخت ، سافر كالمرأة إذا تهتكت ، باهت كالشمس إذا تنقبت بالسحاب . فكان أشبه شيء بالاسفنجة ؛ وأعجبنى منظره الفاتر الخالى من كل قرائن الحياة ؛ لأنه شاذ بفتوره وخلوه منها ، وأخذت أراقبه مليا لأقف على سره لو كان لمثل هذا القلب سر ؛ فوجدته إمعة يظل ساكنا كالنائم فلا يتحرك حتى يحركه غيره ؛ ولا يتوجه حتى يوجهه غيره ، ولا يعمل إلا ما يمليه عليه غيره

يدنو منه قلب من تلك القلوب السوداء هامساً موسوسا فلا يلبث حتى يسودّ ويتشكل بشكله ؛ ثم يدنو منه قلب من تلك القلوب البيضاء الناصعة محدثاً مبشراً ، فلا يلبث حتى يبيضّ ويتشكل بشكله ، وهكذا هو فى كل أحواله مقود لا إرادة له ولا صفة

فسألت عنه فقيل لى : هذا قلب شاب ساذج أبله مغرور بنفسه ، مخدوع بغروره ، لم تنكبه الدهر ، ولم تكرثه العوادى ؛ فعاش كما تراه سلبيا من الشر ومن الخير ، بعيداً عن الحزن وعن الفرح ، وحسب أنه عاش كذلك برغبته وقدرته ، وأنه استطاع أن يهزأ بالأحداث لأنه فوق متناولها ؛ ولم يعرف أن الله خلقه ضعيفاً فأنكره الدهر ، وهزأت بوجوده الأحداث

ووقع بصرى على قلب تراه واقفاً فلا تحسبه واقفاً لدأبه على الدق والتوثب ، ولا تفهم من خفقانه المتواصل معنى خفقان القلوب . وإنما تفهم معنى الجبروت والصولة والعربدة ! ! ينظر

الينا شزرا ويتطلع إلى محيطنا باستخفاف ؛ ثم يصرف عنا بصره ويتطلع إلى أبعد من محيطنا باستخفاف ؛ كأنه لا يشعر بنا وكأنه يعتبر الكون أضيق من أن يتسع قوته وعظمته ، فلا يروح ولا يغدو إلا فى تيه وخيلاء ، ولا يقف إلا وقفة المتمرد المتحفز ، وهو مع هذا أبكم ، أصم ، أعمى ، كافر ، لا يؤمن بالرحمة ، قاس لا يعرف الآلام ؛ فهو أشبه شيء بكرة من الحديد

قلت : قلب من هذا القلب القوى المتكبر ؟ قالوا : قلب رجل شجاع جبار لا يهاب الصعاب ، ولا يرضى الاستكانة ، ولا يعرف التسامح ، مفطور على الكبر والعظمة واستصغار الكبائر ؛ واستضعاف الأقوياء ، واستعباد الضعفاء . فهو يعتقد أنه مخلوق للغلبة والانتصار

***

ونظرتُ على يمينى فرأيت قلبا استحق منى أن أطيل النظر اليه لما هو فيه من هم وكآبة ، وقطعت فترة طويلة من الوقت شاخصاً إليه ، متأملاً مشفقاً وأنا أحس أنه بائس وأن بينى وبينه صلة من البؤس مهما يكن بؤسه ثم ملت اليه وسألته : ماذا بك أيها القلب الحزين الباكى ، ومالى أراك ساكنا سا كنا ... تبدو فى سكونك كاليائس القشعر من يأسه ، وكأن بك تستكثر على نفسك أن تعيش لأنك برم بالعيش ! ! إنك منا ولكنك غريب عنا ؛ لا تخالطنا كما نتخالط ولا تحادثنا كما نتحادث ؛ فما رأيتك منذ رأيتك إلا زافراً تكبت الزفرات ، أو مستعبراً تخبأ العبرات ، وأحسب أنك نكبتَ فى حب فعشت فى ذكرياته ، وأن تلك الذكريات التى وصلتْ ما بينك وبين الماضى قطعت ما بينك وبين الحاضر : فماذا بك ، وقلب من أنت ؟

فانتفخ ، ثم صعدت من فوهته زفرة ملتهبة ، ثم صمت قليلا ، ثم رنا إلىّ طويلا ، ثم قال : دعنى لمأساتى فالقلب لا يحرق إلا من ألتى فيه

قلت : ولكنى أريد أن أعرف مأساتك ؛ فعسى أن أعينك أو أواسيك أو أتوجع لك

فصعدت من فوهته زفرة أخرى وقال : أواه ... هـذا شعور جديد فى الحياة أو جديد فى حياتى أنا فقط ، وهذه كلمات لم أسمع مثلها منذ حين . فيالك من قلب طيب !

إن مأساتى هى أننى بحياتى مأساة فى الحياة ! ! لقد كنت محبا واليوم قد مات الحب ، بل أنا مجب ؛ كنت هانئا ، واليوم قدمات الهناء ... بالأمس كنت قلب فتاة عذراء مؤمنة ، واليوم أنا قلب امرأة متخالعة متماجنة ... امرأة مومس أقدمت على الدعارة مكرهة ، ثم مستسلمة ، ثم راضية ، ... امرأة ساقطة تبيع عرضها فى سوق الفجور (الرسمى) كل يوم لكل من يدفع الثمن ...

مسكينة هـذه البائسة المجروحة التى تحملنى بين جناياها بائساً مجروحاً ! ! إنها تحاول كثيراً أن تسكتنى وتخفينى ، ولو استطاعت لقطعت ما بينى وبينها من شؤون وصلات ، لتخلو لشؤون وصلات ذلك العالم الداعر الكافر الذى تعيش فيه بين ذبَّاحى الانسانية وهدَّامى البشرية ، وأنا فى صدرها أتناع وأتألم وأبكى وليست لى دموع إلا الدماء أستوردها من بدنها فيهزل قوامها ، وهزال قوامها يذبل شبابها ، وذبول شبابها يضيع جمالها ، وجمالها هو حياتها الفانية التى لا خير فيها

الرجال يحدثونها دائماً عن مواضع الفتنة ومواطئْ اللذات فيها ، فلا تسمع رجلا واحدا يحدثها عن مواطن الحسرة ومدافن الذكريات فى أعماق نفسها ، ويسألونها كل يوم عن شهوة بعد شهوة ، ولا يسألونها : أى حزن دخيل ثقيل يحملين ، وكيف تتعذبين ! ! إنها تضاحكهم وتداعبهم ترويحاً لخلاعتها بينما تباكينى وتناجينى تفريجاً لكآبتى ، وهى فى ذلك مضطرة إلى التظاهر بأنها امرأة بلا قلب ولا ضمير ، وإلا اتهموها بأنها تحمل قلباً حياً وضميراً مستيقظاً ، وعدوها بذلك خائنة لحرفتها غير حافظة لنعمتها

لقد حبستْنى وحرَّمتْ على أن يسمعنى أو يشعر بى أحد ، وما جئت إلى هنا إلا خلسة منها . فهى الآن فى أحط أوقاتها بين أحط الرجال

ولكنى لا ألومها فأنا الجانى الأول عليها ، ... لقد قادنى الحب فقدتها أنا الى مهممة العواطف ، ثم قادتها العواطف المطلقة إلى مغانم الشهوات ، ثم قادتها الشهوات المغررة الى مساقط الفساد ، ثم إلى الهاوية التى لا مقيل لها منها إلا الموت

وبكى وبكيت له ورحت أواسيه بالقول لأن مأساته أكبر من أن أعالجها بالعمل

(البقية فى العدد القادم) البيشبيشى محمد زياده

عــــويل الدم

[مهداة الى الأستاذ الزيات]

من وحي مقال: «على هامش الموضوع»

بقلم جورج وغريس

«في يوم مشئوم، في بلد مجهول، جرى دم الشهداء على أديم الغبراء، وظل سحابة يومه شاهد الأرض للسماء؛ وفي الصباح الباكر مر عابر السبيل، فألفى الدماء قد استحالت إلى كلمات، فأخذ يلتقطها بيد مرتجفة ويلقيها في سلال حمراء وسوداء ... وهاؤم اقرأوا تلك الكلمات .. .. »

***

لقد قالوا للسان اصمت، فتكلمنا

نحن القطرات المتساقطة من عيون الفناء، وحيث سقطنا سيظل الحقيقة قائمة إلى الأبد

إنما يعيش الانسان بالدم الذي يجرى في عروقه، فان مات شهيداً عاش الناس بما يلقيه من الدم في عروقهم

لقد كذبت معاجم اللغة في كلمتين: «قعقعة السلاح» وصنوايها «قمقمة الدم»

ليس معنى الموت الموت دائماً، فقد يكون معناه الحياة أحياناً

أليس غريباً أن نهتف للحق مرتين: مرة في حنايا القلب، ومرة من ثنايا الأرض؟

لو أننا عدنا إلى حيث أتينا ثم خيرنا في مصيرنا ما اخترنا غير هذا المصير

لقد فهمنا حاجة الأرض فأطفأنا ما بها من ظمأ . . . .

أيها الثرى الجائع .... لقد أتخمك الشبع!

لقد قالوا لنا عيشوا في مغاقلكم فانطلقنا منها أحراراً

لما أحجم القوم تقدمنا، وحين أطفأ الناس أنوارهم أتينا لهم بالمشاعل

نحن مادة الحياة أينما حللنا ... عشنا في القلوب فخفقت، ولمسنا الأرض فنبضت . .

ليت الانسان يفهم أن للحياة معنى غير الذي دارت عليه أيام الأنام، والحياة بغير هذا المعنى لا معنى لها

انصتوا أيها الباكون حولنا واستمعوا، فان قيثارتنا ترسل أنغامها السحرية

ان تفجرنا من القلوب أو جمدنا في العروق فنهايتنا واحدة: الأرض مثوانا وهي الأم الرءوم

أليست تلك أرض الوطن ... ؟ لقد خالطنا حبها فاختلطنا رغامها وتوغلنا في أعماقها وأضفنا إلى تربتها عنصراً جديداً لن يزول إلى الأبد ... أليس في كيميائها «المادة لا تفنى؟ ...»

للظالم البشرية سهام مسمومة، وللنفس الشريفــة دم كريم ... إن أصاب ذلك الدم سهم من تلك السهام أبت كرامته أن يعيش إلى جواره فيفلت من مكانه ناقماً عليه ثائراً على عداونه

جبلت نفس الظالم من صخر لا قلب له ولا دم. فهو ينتقم لتلك الطبيعة الناقصــة. فان صادف قلبا أرهقه، وإن لاقى دما أهرقه..

لا تقوم في نفس ابن آدم نزعة إلى الشر إلا ويكون مبعثها شيطان فيه. ولا يجيء منه الخير إلا يكون مصدره الانسانية في الانسان. ونحن ـ وا أسفاه ـ نتيجة صراع بين النزعتين في نفسين مختلفتين

تضافرت الفضائل فغلبتها التضحية، وتنافرت الرذائل فجمعتها الأنانية

يا عابر السبيل.. اخلع نعليك، فان الأرض التي تطؤها مقدسة!

يا عابر السبيل ... نحن غرباء مثلك، مطاردون مثلك، وقد أحاطتنا الحياة بهوائها حتى زجرتنا عن محيطها، وقذفت بنا الى الأرض قطرة حارة وزفرة متأججة تحرق الأديم وتلفح

الوجوه . فان بلفتك أنفاسنا المحترقة نخذ من حرارتها قوة لأنشودتك ، ومن فيض آلامها املأ أنغامك سحرا وجلالا وروعة ... ...

يا عابر السبيل ... لا تخش أن يكون سبيلك سبيلنا وطريقك طريقنا ... فانما السبيل للمجد وعر والطريق اليه شائك ، فلا تكتئب أو تحزن فمن وخزات ألمك تميش الكرامة ، ومن زفرات بكائك يشتق الخلود آيته ...

نحن الورود الحمراء التي سقتها الدموع وأنبتتها الأهوال . ستميش جذورنا في أعماق الصخرة وتصمد أعوادنا المخضلة في وجه العاصفة ، وتتفتح أكمامنا للأجيال فتملأ النسمات بأريج عاطر ينعش الأنف ويغذى القلب ويثير الفؤاد

لنا في أذن الأجيال همسات ، أسمعوها يا هؤلاء لأولادكم وأحفادكم إن كان لكم ولهم آذان . واكتبوها على شغاف قلوبكم وقلوبهم بحروف من عصارة تلك القلوب . فان كانت دما نقيا رفعكم ورفعهم ، وإن كانت دما مارقا خذلكم وخذلهم

(اسكندرية) جورج زغيب

أحلام وذكريات

للآنسة فردوس مصطفى

من مشكاة الطفولة اللاهية الغافلة كان قلبي الخلي يطل على قوافل الحياة فيراها ويحس بها غير ما يراها ويحس بها الآن ، وكان احساسه بها حينذاك احساسا قوى الفطرة جامح الغفلة يبهره من قافلة الحياة تناسقها ومظاهرها غير مدرك سرها وجوهرها . وكان يرقبها طوال الأعوام الثلاثة عشر ، حتى إذا ما تحول إحساسه بها الى بعض ادراكه لها نشأ عن هذا الادراك الحسي شعور جديد دفع به إلى السير مع القافلة ، فاندمج فيها ولم يعد يراها ، ولكنه بدأ يعرف سرها ويدرك مداها .

وعندما أذكر أحلام الأعوام الثلاثة عشر ، وقد كانت كلها أحلاما ، أشعر بالماضي يجذبني نحوه وبالحنين يماودني اليه ؛ فأحلام الصغار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بسبائك من الذهب ، ولأحلام الكبار وأمانيهم أسباب تصل ما بينهم وبين الحياة بحبائل من النصب ، وياشد ما يهفو القلب الى القفزات المرحة في رحبة المدرسة ، والى تلك الدمى المتراصة في الدار من مختلف اللعب ، والى فساتين الأعياد الزاهية الألوان ؛ كل ذلك له أثر في القلب ، لأنه بدء علوقه وأول صباباته . فلما شب عن طوقه وبارح مشكاته أصبحت له صبابات غير تلك الصبابات ، وأماني وأحلام غير تلك الأماني والأحلام ، بذل فيها من دمه ونعيمه الشيء الكثير ، فثار على الحياة يثأر لدمه الغالي ونعيمه الذاهب ؛ وللقلب حين يثور فلسفة يحتار في غاياتها العقل ؛ وللقلب حين يثور أفانين يقصر عن إدراكها الفكر ، ولكنها فلسفات وأفانين هي أقرب الى السماء منها الى الأرض ؛ تدمجه في الروح الخالص فلا يشعر بما على الأرض من مادة طاغية ، ولا يحس من بهرج الحياة وظاهرها بسعادة خاوية . فهناؤه فوق المادة ، ونعيمه موصول بالسماء ، وبين الفينة والفينة يعاوده الحنين الى ذكريات الطفولة وأحلامها ، والى المشكاة وأيامها ، فيخيل اليه أنه يستطيع أن يطل على الحياة كما كان يطل ، وأن يرقب القافلة كما كان يرقب ، ولكن هيهات !

فردوس مصطفى

عجز التجارب

للأستاذ عبد الرحمن شكري

ما زاد عمر حياتي غير أشجاني … فزودتني رجحاناً كنقصان
يا دهر لا تنسني في ضيق عادية … محاسن العيش من صبر وغفران
وقوني بتجاريب أزاولها … فإنها لم تزدني غير عرفان
وكيف يلهم خبر صبر مصطبر … يدرى له الخبر عرفاناً بإيهان
يزيده العمر من وهي ومن كبر … ما زاده العمر من خبر بحدثان
فكيف ينفع تجريب ومانحه … يوهي جلادة أعصاب وجثمان
بعض التجارب ينسي بعضها زمناً … إذا تعاور لب المرء ضدان
فإن تيقظ في تجريب طارقة … فإنما هو يقظان كوسنان
ضرورة العيش أن ينسى ليذكر ما … يغدو يعالج من أمر له ثان
فالمرء ما عاش من حال لثانية … منقل بين نسيان ونسيان
فإن تذكر أمراً واحداً أبداً … قضى الحياة غريراً جد غفلان
وإن تناسى فلا نفع لخبرته … وكيف يجديه منسي بغنيان
فإن تذكر منسياً تبادهه … منه فجاءة ما يقضي الجديدان
كأنه مستجد لم يلم به … ولم يحول إلى طبع وديدان
ورب طبع بلا خبر وتجربة … أسخى على المرء من خبر وعرفان
ذخر التجارب ذخر لا رواج له … ولم يخص بأرباح وأثمان
ذخر الأقاصيص مسحوراً ومختزناً … فليس للعين منه غير ريعان
إلا تجارب علم يستجد بها … ما يملأ العيش من حسن وإحسان
لولا انتفاعك من عاد مفصلة … قد تجتبيها مع التجريب في آن
لما خدعت بأشباه إذا اختلطت … فعادة المرء والتجريب أمران
والخبر ليس بناف عادة شنأت … ولا يداوى به من وهي أبدان
يزيدك الخبر علماً بالحياة وما … تغري به الناس من شر وطغيان
حتى تسير على مجرى سجيتهم … فلا يزيدك فيها غير إمعان
فإن أبيت سجايا الناس من شمم … قضيت عيشك في هم وأحزان
إلا إذا ما لبست الدهر عافية … فهيأت لك من صبر وغفران

عبد الرحمن شكري

السجينة

للأستاذ فخري أبو السعود

لك الله كم ذا تطمحين وأعزف … وأثنيك عما تبتغين وأصرف
ويا نفس كم أزور عما اشتهيته … وأعنى بما لا تشتهين وأكلف
وأحجم عما رمتني فيه مقدماً … وأقدم فيما تكرهين وأسرف
وأبدي سوى ما تضمرين مكتماً … جوى لك في الجنبين لا يتكشف
تجنين تهياماً ووجداً ولهفة … وأظهر أني الزاهد المتعفف
وتخفين إشفاقاً وأبدي جلادة … وأغلظ يا نفسي عليك وأعنف
وأكظم غيظاً قد أطاشك فرطه … وأجمل للباغي المسيء وألطف
كأنك في الجنبين مني سجينة … تعذب في ظلمائها وتحيف
وتكبح عما تشتهيه وتبتغي … وتقمع أشواق لها وتشوف
ظلمتك لم أظلم سواك من الورى … وما من خلالي قسوة وتعجرف
ظلمتك، لا يا نفس بل تظلمينني … وأصفح عما تسلفين وأصدف
أما كل يوم مذهب لك شائق؟ … أما كل حين مأرب بك ملحف؟
أما كل آن غاية إثر غاية … أكلف في إدراكها ما أكلف؟
وسيان محمود العواقب نافع … لديك ومذموم المغبة متلف
أما تشتهين اليوم ما يجتوى غداً … ويقلى لديك اليوم ما كان يشغف؟
وهل أنا مستطيع رضاك لو أنني … على العالمين الحاكم المتصرف؟
ولو أنني عمري أجاريك لم أعش … عن النهج إلا حائداً أتعسف
كلانا أيا نفسي بلاء لخدنه … نعم وكلانا ناقم ومعنف
نعيش كأنا اثنان لم يتعارفا … وما لهما في الدهر شمل يؤلف
ظلمتك خدناً صاحباً وظلمتني … فعل فراقاً آتياً هو أنصف

فخري أبو السعود

أغنيـــة

بين بري الشمس تسرى تحت السحاب

للأستاذ ابراهيم ابراهيم علي

وجهُ منْ يا فجر هذا ما بدا … من وراء الغيب في الأفق الجليل ؟!
سحَرَ الطيرَ ، فغنّى وشـدا … وترامت بهجة الدنيا تسيل
لهبٌ يندى على الكون ندى ! … ناضر الجمرة كالخد الأسيل !
وجمالٌ في جمالٍ في جمالْ

ية للحق في عليـائها … تختفي في السحب شيئاً وتبين
يقف العقـل لديها تائهاً … وهي أم العقـل والصبح المبين
غيمة واحـدة تلهو بها … تحجب الغرّاء حيناً بعد حين
أفسحْرٌ ، ليت شعري ، أم دلال ؟

أفهزلٌ ذاك يا أم الحياه ؟ … لعبٌ في الأفق، لهو في السحاب !
ها هو الكون جميعاً يا فتاه … يرقب الأضواء من خلف الحجاب
يسكبُ النور ، ولكن لا نراه ! … ثم يبدو من ثنيّات الضباب
في العلا نورٌ وفي الأرض ظلالْ !

بل هو الجدّ ، ولا هزل هنا ! … بل هو الحق ، ولا حق سواه
بل هو الله ، تجـلى ودنا … وتباركتَ قديماً يا إله !
تبعث الشمس كأطياف المنى … كالرؤى يوماً ، ويوماً كالمياه
وجمالاً في جمالٍ في جمالْ

(قليوب) ابراهيم ابراهيم علي
المحامي

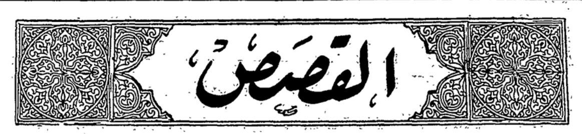
حَنين

للأستاذ رفيق خوري

واهاً على زمنٍ ما كان أقصرهُ … فديتهُ بدمي لو صانه الزمنُ
نفضتُ منه يدي والحرص يمسكه … والمرء حيثُ أراد الدهر مرتهَنُ
إن الذين دعتهم نيّـةٌ قذفٌ … سر الضمير ، وقد فارقتهم عانُ
لا يستجيبون للمضنَى ، فدىً لهمُ … نفسي ، وكنتُ إذا ناديتُهمْ أذِنوا [1]
أكلما لاح برقٌ من ديارهمُ … أجابه من دموعي عارضٌ هتن ؟
ما حيـلةُ المرء في الدنيا بنافعةٍ … إذا أُريد به الترنيقُ والحَزَنُ
ضَلَّ الفؤادُ الذي طار الفراقُ به … لهفي على هائم ما إنْ له سكن
يا ليتَ شعري يدانينا السرور كما … كنا ، ويجمعنا بعد النوى وطن ؟

حمص رفيق خوري

(١) أذنوا : أي سمعوا



صور من هوميروس

١٦ – حروب طروادة

فزع الآلهة . . .

للأستاذ دريني خشبة

يقلق زيوس من اعتزام أخيل اقتحام الحرب

وكيف لا يقلق سيد الأولمب وكل من الفريقين يصلي له ، ويطلب منه العون ، ويتوسل اليه أن يظفره بعدوه ، فتتجاب هذه الغاشية التي صرعت الرجال ، وضرجت أديم الثرى بدماء الأبطال ! !

ودعا اليه أربابه فعقد منهم مجلساً للمشورة ؛ فانتظمهم ديوان الأولمب ، وحفلت بهم ذروة جبل إيدا ، وطفق الإله الأكبر يقلّب الرأي على جميع وجوهه ، ويبحث المسألة من شتى أطرافها ، والأرباب فيما بين ذلك يحملق بعضهم في وجوه بعض ، وتضطرم في أفئدتهم نيران العداوة والبغضاء ؛ لأنهم كانوا جميعاً وقلوبهم شتى ! فهذا فريق منهم يعطف على طروادة ، ويشيد بذكر طروادة ، بل منهم من اشترك في بناء طروادة وإقام أسوارها ، وتحصين صياصيها ؛ والطرواديون من أجل هذا قد أخلصوا العبادة لهؤلاء ، وأقاموا لهم الهيا كل المشيدة ، والمعابد المنيفة ، وهم في طويل الأحقاب والآباد ما يفترون عن عبادتهم والأخبات لهم ، وتقديم القرابين والضحايا بأسمائهم

وفريق آخر من الآلهة يمتير الشعب الهيلاني شعبه المخاص ؛ فهو لذلك يحدب عليه ، ويرجو الخير له ، وهو أبداً يستأذن سيد الأولمب فيحارب في صفوفهم ، ويشد أزرهم ، ثم الهيلانيون يخلصون العبادة لهذا الفريق ، وهم أبداً يتملقون بهم ، ويقيمون المعابد لهم في كل حنية من جبالهم ، وبكل منعرج من شعابهم ، ومنهم كل مثّال صناع اليد ، مرهف الحس ، رفيع الذوق ؛ وهم لذلك قد ملأوا المعابد والهيا كل بتماثيل الآلهة ، حتى ما تقع العين على أجمل منها !

وفريق ثالث لا الى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ينقم على هذه الحرب الشعواء التي سُعّرت لغير ما سبب يستأهل كل تلك الضحايا ويستحل كل هذه المهج ؛ وهذا الفريق يحنق على طروادة ويحنق على هيلاس على السواء . ويود لو يأذن سيد الأولمب فتزلزل بهما الأرض ، أو يرسل عليهما كِسَفاً من السماء ، فلا يبقى على أحد منهم أبداً ! !

واتفق الآلهة على أن يذهب فريق منهم فيكونن في صفوف الطرواديين يرشدهم ، ويدفع عنهم عادية أخيل ، ثم يذهب فريق آخر فيكونن في صفوف الهيلانيين يفل من نشاطهم ، ويكسر من سورتهم ، حتى تكون الحرب بين الجمعين سجالاً ؛ وإلى أن يرى الآلهة في شؤون خلقهم رأياً آخر

وانطلقت حيرا مليكة الأولمب ، ومينرفا ربة الحكمة ، ثم هرمز رسول الآلهة وقائد الأرواح إلى هيدز ، وفلكان الحداد وإله النيران ، الذي فضحة مارس في زوجه ، ونبتيون رب البحار المتيد الذي روّع الطرواديين في هذه الحرب أيما ترويع

انطلق هؤلاء فكانوا في صفوف الهيلانيين

وانطلقت فينوس إلى صفوف الطرواديين ، وراح في أثرها أبولو وأمه لاتونا وديان ومارس وإكسانثوس ، وفئة غير هؤلاء من عشاق فينوس

وانبث الآلهة ينفخون في أبواق الحرب

وصاح أخيل في شياطين الميرميدون صيحة داوية . زادتها مينرفا قوة ، فما تركت فؤاداً إلا زلزلته ، وماغادرت نفساً إلا تركتها ترجف من خوف وفزع

وكان أبولو ينظر الى أخيل فيتميز من الغيظ ، ويود لو يبطش به بغدرة من غدراته التي أودت بيتروكلوس من قبل ، ولكنه أحس بفرائصه ترتعد ، وفقاره يندك من الرعب ، لما رأى حول

أخيل من هذه الأرباب المتعطشة للدماء ، لا سيما هذا الإله الوحش نبتيون الذي يرسل من عينيه بركانين من الغضب يضطرمان اضطراما

وآثر أبوللو أن يستخفي في زي ليكاون بن بريام وصورته ، وأن يذهب من فوره إلى إينياس العظيم مستشار طروادة وأبسل شجعانها بعد هكتور ، فيثيره على أخيل ، ويلهب فيه نخوة الجاهلية التي سيداها التفاخر بالأنساب ، ولحمتها التباهل بالأحساب ، والتبجح بأنا ابن من ضمك السماء ، ودحا الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج !

واستطاع أبوللو أن يهوّن على إينياس من شأن أخيل ، وأن يحقر في ناظريه خطبه ، واستطاع ببيانه الموسيقي ، وطلاقته السحرية ، أن يدفعه إلى ناحية أخيل ، الذي وقف مكانه يقذف الرعب في قلوب الطرواديين وأحلافهم ، باحثاً عن غريمه البغيض ، هكتور بن بريام ، يود لو يخلى بينه وبينه فيبطش به ، ويشفي هذا اللظى الذي يتأجج في جوانحه ، بما قتله أعز أصدقائه ، وأحب الناس اليه

ووقف إينياس تلقاء أخيل ، فتبسم زعيم الميرميدون ، ووعظ المحارب أن ينثني فلا يلقى حتفه ، وذكره بما حدث بينهما قديماً ، حين ساق أخيل قطعان اينياس الساعة في سفح جبل إيدا ؛ وما كان من فرار اينياس ، هذا الفرار المضحك ، الذي أشمت به الأعداء ، وأثار عليه سخرية الأصدقاء والأوداء !

ولكن اينياس ، الذي كان ما يزال مأخوذاً بسحر أبوللو وموسيقاه ، أبى واستكبر ، وهز أعطافه ، ثم أخذته العزة بالإثم ، وانطلق يقذف في وجه أخيل بهذا التفاخر الذميم الذي لا يجدي في حلبة الحرب نفعاً ، ولا يجر على صاحبه مغنماً ، يوم لا حكم إلا للمرهف البتار ، ولا قول إلا ما يقول الفيلق الجرار

والتحم المحاربان العظيمان !

وارتطم الصخر بالصخر ، وثار النقع في الميدان وأظلم حتى قد تهاوت كواكبه ، ونظر الجمان نظرة القلق الحيران ، وأخذ الذهول يضرب أطنابه على الساحة الحمراء ، ونظروا فرأوا اينياس يستجمع كل قوته ، ويقذف برمحه العظيم فترده درع فلكان ، وإن تكن الطعنة قد شقت منها طبقتين ، وفترت ، فلم تصل الى فؤاد أخيل

وهنا !

اشتعلت نيران الدنيا في عيني زعيم الميرميدون ، وذاب في أعصابه حمم من الغضب ، وأرسل بدوره رمحه الهائل يرن على درع اينياس فلا يصيبه بأذى ، ولكنه ، لعظم الطعنة ، يصرعه ويطرحه فوق أديم الثرى فريسة رخيصة لغوائل الردى ، وضربات الرقاق البيض

وينحني أخيل من عربته الفخمة ، فيتناول حجراً عظيماً ، قد يتعب عشرة من صناديد الرجال في حمله ، ثم يرفع الحجر ليقذف به جمجمة اينياس . . .

ولكن ! . . . . .

لا ! ينبغي ألا يقتل إينياس ، لأنه ابن زيوس سيد الأرباب ، وهو لو قتل لم يرض به أبوه ألف ألف أخيل ، وألف ألف ميرميدون كلا أخيل ! . . .

هكذا قدّر نبتيون ! وقتل نبتيون كيف قدر ! !

لقد أرسلها إلى حيرا ، مليكة الأولمب التي كانت قريبة تشهد الحدث الأعظم ، قولة غير صادقة إلا في زعم نبتيون !

وعارضت حيرا في تدخل نبتيون ، ولكنه ، لشدة حبه أخيل ، لم يسعه إلا أن يسرع إليه فينشر أمام ناظريه ضبابة كثيفة حجبت عنهما هدف إينياس ، ثم انكفأ يحمله بعيداً من أخيل ، حتى انتهى الى صفوف الطرواديين الخلفية ، فسجاه على العشب الأخضر ، وأخذ في نصحه ألا يجازف بنفسه أمام أخيل كرة أخرى ! !

وكان الجمان ينظران إلى إينياس محمولاً في الهواء . . فيأخذ العجب منهما كل مأخذ ! !

* * *

وانجابت الضبابة ، وبطل السحر ، ونظر أخيل فلم يعثر لإينياس على أثر ، وشدهه أن ينجو خصمه من قتلة محققة ، فيُلقي في روعه أن إينياس سليل الآلهة كما ادعى منذ لحظة ؛ ثم يشدهه أكثر تجاب الميرميدون والهيلانيين على السواء ، بعد إذ رأوا إلى إينياس محمولا في الهواء !

ويحضهم أخيل على خوض المعمعة ، ويستطيع بحماسياته أن يلهب في صدورهم روح الإقدام . . .

ويكون هكتور في هذه اللحظة قائما في جنوده يحضهم هو الآخر ويطمئنهم أن الآلهة معهم فلا يخافون ولا يحزنون . ويراه أخيل فيخفق قلبه ، ويملؤ صدره ويهبط كأنه الخصم الغاضب . ويدفع عربته نحوه ، فتندفع الخيل ، وكأن النيران تندلع من عيونها وأنوفها . . . .

وكان أبوللو إلى جانب هكتور ، فلم يرض له أن يلقى أخيل

الذى ما خاض المعمعة إلا ليثأر لصديقه بتروكلوس

وكاد هكتور لا يأبه لكلام أبوللو ، وتقدم فعلا لبني حيل ، ولكن الآله الكبير زجره زجراً شديداً ، ثم أمره بالتقهقر فى الحال . . . فانسحب بطل طروادة ، وترك أخيل يحرق الأرّم مكانه ، إذ أفلته هذا الصيد الثمين ! !

وانقض أخيل يشفي غيظه بقتل عشرات وعشرات من أبطال طروادة : فصرع إيفتيون العظيم ابن عذراء البحر ، ثم ثنّى بالكمِيّ الكبير دموليون ، شج رأسه فانبثق الدم يتفجر منه ، وبرز المخ ، وذهبت روحه إلى هيدز ! ثم ثلّث ببطل الأبطال هيوداماس ، شكه شكة فتركه يخور كخوار الثور ، مسوقا إلى مذبح الآلهة ... ثم انقض على بوليدور بن بريام ، ملك طروادة ، فطعنه فى ظهره طعنة صرعته ، ونشرت ظلام الموت فى عينيه ، فهوى إلى الأرض يئن أنينا مؤلما ، أبكى الجند ... وأحزن أخيل نفسه...

لقد كان بوليدور أحب صغار بريام اليه ، وكان يجرى فيسابق الريح ، وينازل القروم الصيد فيصرعهم عشرات ووحدانا ، فيا حزن أبيه الملك عليه بعد اليوم ! !

وكأن ظلام الموت الذى خيم على عيني بوليدور امتد حتى ظلل عيني هكتور ! ولم تكن الحياة رخيصة فى نظر بطل طروادة مثلها اليوم ، فقد فجعه أخيل فى بوليدور ، فلا بد أن يفجع ذيتيس وبليوس ، والدى أخيل ، فى أخيل نفسه ...

وألهب جياده فاندفعت بمركبته ناحية أخيل ...

واستبشر زعيم الميرميدون حين رأى هكتور يسرع ناحيته قدما ، وذكر أنه قاتل بتروكلوس فدارت به الأرض ، وذكر أن بتروكلوس ينتظر ثأره ميتا ، ولا بد أن يعود أخيل اليه به ، فتقدم نحو هكتور وقال له :

« هلم يا بن بريام فتعجل قتلتك ، وودع الحياة الحلوة التى لن تهنأ بها بعد اليوم ! ! » وتجهم هكتور ، وكلم أخيل فاعترف أنه أقوى منه ، وأطول فى مواقف الحرب باعا ، ولكنه حذره من الغرور ؛ « ومن يدرى ؟ ! هل أوحت اليك السماء أنك تقتل هكتور ؟ وهل أخذت على المقادير والأقضية عهداً ألا يصرعك هكتور ... » ثم انقض بن بريام فأرسل حربته الظامئة إلى صدر أخيل ، ولولا أن مينرفا كانت إلى جانبه تحرسه ، ولولا أنها زحزحته قليلا فتفادته الطعنة .... لكان أخيل حديثا من الأحاديث

وبهت أخيل ، ثم صاح صيحة رجفت لها جانب الجبل ، وجاوبتها أسوار طروادة ، ورددت أصداءها أجواز السماء ؛ وانقض على هكتور يود لو يقتلعه من عربته فيخبط به الأرض ، وتذهب روحه بعدها إلى الجحيم ! ...

وكان أبوللو إلى جانب هكتور هذه المرة ، كما كان إلى جانبه دائما ؛ وراع الآله الأكبر أن يهجم أخيل تلك الهجمة التى يعجز عن مثلها مارس الجبار نفسه...

وذهل أبوللو ماذا يصنع ، ليبقى بطله من رمح أخيل ؟ ! ثم ذكر ما صنعه نپتيون من أجل إينياس ، فنشر ضبابة كثيفة أمام ناظرى أخيل ، وتقدم إلى هكتور فحمله ، وذهب به الى حيث يكون بنجوة من مصير محزن ، كان يوشك أن ينتهى اليه . . . . .

وظل أخيل يطعن الضبابة ، مشدوه اللب حيران ! !

طعنها مرة ، ثم مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ثم ما كاد يطعنها الرابعة حتى امحت وبطل السحر ، وانكشف له الميدان يضج بالجند ، ويعج بعدة الحرب ، ولكنه مع ذاك ، وغير ذاك . . . خلو من هكتور ! ! . . . .

« جميل يا هكتور ! ! صل للآله الذى أنقذك اليوم منى ! صل لربك أبوللو ! لقد أنجاك من قتلة بينة ، وموتة محققة . . . صل له يا هكتور ! ولكن ثق أننا سنلتقى بعدها ، ولا أدرى هل ينقذك آلهك عندها ؟ ! إن لى أربابى التى تحمينى ، والتى إن فوجئت بغادر مثلك فهى تنجينى . . . . . سنلتقى يا هكتور . . . . فصل الآن لأبوللو واشكر له ..... »

* * *

وثار أخيل فكان زوبعة !

وطفق يصرع أبطال طروادة ، فطعن دريوبس طعنة اخترمت حياته ، ثم جندل دماخوس وأسرعت روحه إلى أمواج ستيكس المنصهرة ، وتقدم فأطاح رأس دردانوس العتيد ، وجال جولة هنا وجولة هناك ، فكانت المنايا تتعثر أنّى ذهب ، وأيان صار ، فهذا تروس البطل ملقى على الأرض والدم ينبثق من كبده ، ومولیوس الصنديد زائغ العينين يتوجع مما ألم به ، وإخكلوس ابن أجينور تساقط نفسه حشاشات ، ثم ديكاليون الذى دوخ الجيوش وروع الأبطال ، وبث اليتم فى كل دار ... ها هو ذا فوق الثرى صعيداً جرزاً ، وجثمانا يتدفق الدم من جراحه ... نهاية حمراء لحياة حمراء ... كلها حرب وتقتيل !

ورجموس ...

البريد الأدبي

كتاب عن المسألة الحبشية

أثارت المسألة الحبشية واعتداء الاستعمار الايطالي على الحبشة نشاط المؤرخين والكتاب كما أثارت اهتمام الساسة والرأى العالمي، وظهرت فى الآونة الأخيرة عدة كتب ومباحث تاريخية وسياسية واقتصادية وعسكرية عن إيطاليا والحبشة وكل ما يتعلق بتلك المشكلة الخطيرة التي ما زال يضطرب لها العالم كله منذ أشهر .

وكان مما ظهر أخيراً فى ذلك الموضوع كتاب للكاتب الانكليزى اميل بيرنز عنوانه « الحبشة وايطاليا »[1] واميل بيرنز كاتب اشتراكى ، وكتابه حملة قوية على الاستعمار الغربى ، وأحداث فوزانه ونزعاته أعني الاستعمار الايطالي . ويقول الكاتب فى مقدمته إنه يقصد بما يكتب أن يبين الأسباب الدفينة التي تجثم وراء الحوادث ووراء ستار المظاهر الدبلوماسية ؛ والحوادث الظاهرة هى اعتداء ايطاليا المسلح على الحبشة ، وعمل انكلترا وفرنسا السياسي فى عصبة الأمم أو خارجها ، وليس هذا العمل فى نظر اميل بيرنز سوى مؤامرة استعمارية

ويستمد اميل بيرنز أدلته من حوادث التاريخ الحبشى منذ سبعين عاما ؛ فتاريخ الحبشة يحفل خلال هذه الحقبة بمشاريع انكلترا وفرنسا وايطاليا ودسائسها المستمرة ، وكل تغالب الأخرى فى سبيل الحصول على النفوذ الأوفر فى الحبشة ؛ والرأسمالية الاستعمارية من وراء السياسة تحاول أن تضع قدمها فى تلك الأرض الغنية . وليس عمل إيطاليا الا اعتداء فى سبيل الاستغلال والسلب ؛ ذلك أن أحدا فى العالم لم يصدق أن إقدام إيطاليا على اتخاذ هذه التدابير العسكرية كان من باب الضرورة والتحوط وليست لها صبغة اعتدائية ، وأنها ليست إلا ضمانا للسلام والأمن ضد أمة همجية ، ولم يدهش إنسان بعد ذلك أن يرى هذه الاجراءات تتخذ فجأة صبغة الغزو المسلح ، وأن تتحدى إيطاليا رأى العالم المتمدن كله ، ولم تقم الدول الاستعمارية الأخرى بعمل حاسم لمنع هذا الاعتداء ، وإذا كانت قد فعلت شيئاً فذلك لأن الموقف النبيل الذى وقفه النجاشى كان مثار الاعجاب العالم وعطفه

وقد كانت الحبشة فريسة الأعداء الدهر ، وكان لايطاليا أن تحمد الفرصة السانحة من كل وجه وخصوصا لأن موقف الحكومة القومية الانكليزية فى تأييد سياسة النازى (الهتلريين) فى ألمانيا قد دفع فرنسا إلى أحضان إيطاليا وانتهزت إيطاليا هذه الفرصة لتضمن تأييد فرنسا لها فى افتراس الحبشة . بل لقد حاولت انكلترا أن تعمل على اقتسام الحبشة مع إيطاليا ، ومن أجل ذلك قدمت مشروعها بالتنازل عن زيلع إلى الحبشة

ويتناول المؤلف بعد ذلك العوامل الاقتصادية التي دفعت بالحكومة الفاشستيــــة إلى اعتدائها ، ويسرد الأدلة على أن « التمركز المالى » هو الذى يدفع الى هذه النزعة الامبراطورية ثم يتحدث بعد ذلك عن « الفاشستية وعصبة الأمم » ويبين لنا كيف أن الرأسمالية من وراء كل حركة وإجراء تعمل باسم

(1) Abyssinia anb Itaiy

رجوس بن بروس ! الذى شد رحله من تراقية لينصر الطرواديين على بنى وطنه . . . قائداً جموعه التي لا حصر لها ؛ مؤلباً القبائل والأنجاد على الأرض التي أنجبته ، والآلهة التي نشأته . . . . لماذا ؟ لا سبب معقول ! ! ولكنه طيش الملك وغروره وكبرياؤه . . . ولأن الهيلانيين لم يختاروه قائداً لهم فى هذه المشوّنة الزبون ! !

لقد امتشق أخيل سيفه ، وأصلته على رأس رجوس ؛ ثم أهوى به ، فخر الخائن يتشحط فى دمه .. .. وانتهت بموته حياة ذميمة

وزلزل قلب أريثوذ ... حارس رجوس وسائسه ... فود لو قر بعربة سيده ، لولا أن عاجله أخيل بضربة قدت أضالعه ، وذهبت بروحه إلى حيث ذهبت روح مولاه... .. .. ؟

(لها بقية) دريني خشبة

الأقليات وباسم الانتدابات ؟ وكيف أن الرأسمالية الخصيمة تحاول أن تقضي على أي مشروع للصلح يتضمن أي مغنم للرأسمالية الفاشستية ، وهذا بصرف النظر عن قضية الحبشة وعدالتها . والآن تسنح فرصة بديعة لسحق الفاشستية ونظمها الطاغية ، ولكن هل تنتهز الدول هذه الفرصة ؟ ويقول لنا الكاتب إن الواقع أن حكومة انكلترا القومية إن هي إلا حكومة فاشستية بمعنى الكلمة لا ينقصها سوى الاسم .

ويعرض المؤلف نظرياته وأدلته بقوة ووضوح ولا سيما فيما يتعلق بالمسألة الايطالية الحبشية ، ويسبغ على عرضه صبغة اشتراكية واضحة ولكن معقولة متزنة ، وكتابه يعتبر من خير الكتب التي أخرجت أخيراً في موضوعه ، ويمتاز بالنسبة للشعوب الشرقية بأنه حملة قوية منظمة على الاستعمار وأساليبه تثلج صدر كل شرقي يرى أساليب الاستعمار الهمجية تعمل في وطنه وأمته

ذكرى غزوة بدر الكبرى

تألفت بالقاهرة لجنة من الشباب للاحتفال بذكرى غزوة بدر الكبرى في ١٧ من رمضان لأنها أول نصر حاسم في تاريخ الاسلام . وستكون الحفلة برياسة الدكتور محمد حسين هيكل . ومن خطبائها الأساتذة الدكتور محمد حسين هيكل ، الشيخ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، السيد محمد الغنيمي التفتازاني ، الدكتور عبد الرحمن شهبندر ، محمد افندي عبد الباقي سرور نعيم ، الشيخ أحمد البهي مندوب الأزهر ، أحمد أفندي شوقي مندوب كلية الحقوق

وسيكتب في هذا الموضوع الأساتذة محمد جاد المولى بك ، أحمد حسن الزيات ، حفني محمود ، محمد علي غريب ، عبد الحميد المشهدي .

كتاب (محمد) للأستاذ توفيق الحكيم

كتب الأستاذ توفيق الحكيم رسالة إلى أحد أصدقائه الفرنسيين في اكتوبر سنة ١٩٣٤ ، جاء فيها عن كتابه (محمد) ما يأتي : « إن كتابي عن محمد (ص) لا يزال في طور التحضير والتهيئة ، وعسى أن أتمه في الشتاء المقبل . وسأبرز فيه النبي الكريم متكلما بكلامه المأثور ، في صورة تستوعب حياته المجيدة ، كما يتصورها الفنان ، لا كما يفهمها العالم والمؤرخ . . . »

الصقالبة في الرواية العربية

الى الأستاذ المحقق محمد عبد الله عنان

قد قرأت لحضرتكم في عدد الرسالة (رقم ١٢٦) مقالا تحت هذا العنوان ، وفيه عبارة لابن حوقل عن صقالبة الأندلس ، جاء فيها : « فنصف بلدهم (الصقلب) يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالي يسبيه الأندلسيون من جهة جليقية وإفرنجة وانكبردة وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير » . ثم استنتجتم من ذلك أن لفظة الصقالبة كانت تطلق على سكان هذه البلاد المذكورة ، والذي يغلب على ظني أن هذه العبارة لم يرد بها ذلك ، بل المراد وصف الطريق التي كان يسلكها سبي الصقالبة ، حتى يصل إلى الأندلس ، فهل عند الأستاذ ما ينفي هذا الظن ؟

(قنا) عطية الشيخ

الانسان والكون — آراء علمية جديدة

ألقى العلامة الطبيعي الإنكليزي الأشهر سير جيمس جينس أخيراً محاضرة عن « الانسان والكون » حمل فيها بشده على مادية العلم القديمة ، وقال إنه يعتقد أن الانسان ليس آلة صماء ، وانه يناضل في الواقع من أجل مصيره ، وانه قد أحرز أخيراً نجاحاً لا شك فيه . بيد أنه ما زال عليه أن يناضل من أجل مركزه في المجتمع ، فاذا أخفق في هذا النضال فقد يستأصل ويقضى عليه كما قضى على أجناس وفصائل أخرى من قبل ، وفي هذه الحالة يكون الانسان ضحية جنس آخر من صغار المخلوقات ، ربما كان هو الميكروبات التي لا يراها لصغرها

وإذا نجح الانسان في هذا الصراع واستطاع أن يظفر بتوطيد مركزه ، فان مواهبه وكفاياته قد تتسع وتزيد تدريجياً حتى يتحول إلى شيء آخر غير ما هو اليوم عليه وربما كان شيئاً أرفع مما هو عليه . وقد تختلف عنا سلالتنا بعد عشرة ملايين سنة كما نختلف نحن عن أسلافنا المنحطين منذ عشرة ملايين سنة . وشر ما يخشاه الجنس الانساني هو الهزيمة والعدم ، وخير ما يؤمله هو أن يغدو قنطرة منسية للطريق إلى أشياء أسمى

وقد لاح في وقت ما ان نظرية « النسبية » قد وضعت حداً لكل الآمال التي تساور الانسان في جعل العالم أكثر رفاهة وسعادة وجمالاً وأكثر نبلاً وعدالة طبق مثله الخاصة

أما الآن فلدينا أسباب كثيرة تحملنا على العودة إلى اعتقادنا في أن الماضي والحاضر والمستقبل لها في الواقع معنى موضوعي وليست هواجس تهجس في عقولنا ، وبعبارة أخرى يجب علينا أن نعتقد أن الزمن إنما هو حقيقة مادية

واستعرض السير جينس بعد ذلك ما وصل إليه العلم في شأن « الذرة » وما يقال من أنه لا يمكن سير الذرات ، وأن سير الطبيعة يقوم على غير نظام ونقرير سابق ؛ ومن رأيه أن العلم عاجز عن أن يقدم أي تحديد أو أي تدليل على مسألة « الجبر » القديمة ؛ وقد يكون الانسان أو لا يكون آليا ، ولكن العلم لا يستطيع أن يبرهن على أنه ليس آليا ، ثم هو لا يستطيع أن يبرهن أنه آلي قال ؛ وإذا استعرضنا تاريخ العلوم في جملته ، فانا نرى المعارف العلمية ما تزال ترغم الانسان على أن يخفض من تقدير نفسه ومركزه في الكون حتى بدء القرن الحالي ، أما أنا فأرى أن التيار قد أخذ يتطور ، وإننا على ضوء المعلومات التي ترتبت على نظرية النسبية والكمية ، نستطيع أن ننظر إلى مركزنا في شيء من التفاؤل لم يسمح به العصر الفيكتوري »

شرعية الانتحار

يعرض في القريب العاجل على مجلس اللوردات الانكليزي مشروع قانون فريد في نوعه ، يراد به تقرير شرعية الانتحار ، أو بعض أنواع القتل ؛ ففي العهد الأخير وقعت في انكلترا عدة حوادث رنانة مؤثرة ؛ قتل فيها الابن اباه ، والزوج زوجته ، والعاشق حبيبته ، ولم يكن قتلا عاديا أو له صفة الجريمة ، بل كان قتلا منشؤه الاشفاق والحب ، وكان في الغالب بناء على طلب المجنى عليه ؛ وكان المجنى عليه أو القتيل في معظم الأحوال يشكو مرضا لا يرجى برؤه ويعاني آلاما مروعة يريد أن يتخلص منها بالخلاص من حياته ، فيطلب الى أحب الناس اليه أن يقوم بهذه المهمة الأليمة . وقد وقعت عدة حوادث من هذا النوع ، وقدم « الجناة » أو الذين ارتكبوا القتل بهذه الطريقة الى القضاء فحكم القضاء في الغالب بالبراءة إزاء الظروف المؤثرة التي وقع فيها القتل ، وإزاء انعدام نية الجريمة من جانب المتهم ولكن بعض « الانسانيين » وأنصار هذا النوع من الاعدام يخشون أن يقسو القضاء فيعامل المتهمين في هذه الحوادث بالشدة وينال قصاصه المؤلم ، لأن الانتحار يعتبر في القانون الانكليزي جريمة ويعاقب كل من اشترك فيه أو ساعد عليه ؛ ولذلك رأى بعض اللوردات أن يقدم الى المجلس مشروع قانون يبيح القتل في مثل هذه الأحوال ، وقد روعي في هذا المشروع أنه توجد حالات أليمة يشتد فيها المرض والألم على الفريسة فيتمنى كل من حولها لها الخلاص من هذا العذاب ، ويعتبرون من واجبهم المقدس أن يلبوا طلبها في الاجهاز عليها وانقاذها من ذلك الجحيم ؛ ولكن روعي من جهة أخرى أنه قد توجد حالات يتمنى فيها أهل المريض المعذب وفاته بسرعة ليحظوا بالارث والثراء ؛ وقد ينتهزون فرصة آلامه ، وهذيانه فينتزعون منه اقرارا كتابيا بطلب الموت ، ثم يجهزون عليه ؛ ويتذرعون بهذا الاقرار للافلات من العدالة ؛ ففي هذه الحالة يتطلب القانون الجديد أن يقع مثل هذا الاقرار على يد موظف عمومي ، وذلك بعد أن يصدر الطبيب المختص قراره بأن المريض لا يرجى برؤه وانه يعاني آلاما لا يمكن احتمالها مع الحياة ؛ ويشترط مشروع القانون أيضا أن الذي يقوم بعملية الاعدام أو الاجهاز على الفريسة طبيب مرخص له بذلك

وهكذا يراد أن يشرع حق الانتحار ، وأن يمنح حق الاعدام في ظروف معينة ؛ وسنرى ما اذا كان مجلس اللوردات يقر هذا القانون المدهش

معرض الفن الصيني

افتتح أخيرا في لندن في « برلنجتون هاوس » معرض الفن الصيني الذي كانت تتخذ العدة لافتتاحه منذ أشهر . وقد عرضت في هذا المعرض تحف وآثار صينية نفيسة يرجع الكثير منها إلى نحو ثلاثة آلاف سنة . ومعظم هذه التحف الرائعة ملك للصين ولكن الحكومة الوطنية الصينية ارتضت أن تعيرها للسلطات الفنية البريطانية بعد مفاوضات طويلة ؛ ونقلت المعروضات في طرادة بريطانية مسلحة وأخذت إلى لندن لتعرض هنالك على أنظار العالم المتمدين . وتدل هذه التحف على أن الصين كانت قبل آلاف السنين تتمتع بحضارة رائعة تضارع في ازدهارها وروعتها حضارة مصر القديمة ، وتدل على أن الفنون الصينية بلغت مبلغا عظيما من الافتنان . وقد كان الابتكار يقترن لدى الفنان الصيني مع الصبر وتخير النماذج الفائقة . وأقدم التحف المعروضة هي آنية للمراسيم الدينية صنعت من البرونز ويرجع صنعها إلى سنة ١٧٦٦ قبل الميلاد ؛ وكانت البرونز أول مادة استعملت في الفن الصيني ؛ ولم يبدأ النحت البوذي الا في القرن الرابع أو الخامس الميلادي . وقد كان افتتاح المعرض الصيني حادثا فنيا عظيما في انكلترا ، وهرعت الجماهير الحاشدة لرؤيته من أنحاء الجزر البريطانية وأنحاء القارة الأوربية



كتاب التشريح المرضي والجنائي

تأليف الدكتور محمد زكي شافعي

بقلم الدكتور محمد الرافعي

لا أستهل في التلوم من اختصارها ، ولا أيسر من اخراج الكتاب الضخم محصلاً في جزء لطيف . وقد كانت هذه طريقة علمائنا المتقدمين ؛ فليس من كتاب ذي خطر إلا وقد اختصروه مرة أو مراراً ، يريدون إما تقريبه من الأذهان وإما حصر فوائده ، وإما جعله كالمذكرات . وقد يعجز بعض العلماء عن التأليف ويريد مع ذلك أن يكون مؤلفاً فيجد مادته من الكتب المطولة يؤلف منها ما يسميه المختصر أو الموجز أو نحو ذلك . وهذا كله سهل ، بل بعضه أسهل من العبث إلا في الطب ، وخصوصاً حين يكون الاختصار في فرع من فروعه التي اختص بها علماؤها كهذا الكتاب الذي نحن بصدده

إن وضع كتاب مختصر في فرع من الفروع الطبية وخصوصاً باللغة العربية هو عمل من أشق الأعمال ، وأدقها إذا أريد أن يكون الكتاب مع اختصاره وافياً في موضوعه ، محققاً لفائدة الأصل المطول ، جامعاً لفوائد جديدة تعطى الكتاب حكم التأليف مع تسميته المختصر . ومادام الطب شرحاً للجسم المعجز في تركيبه وأعماله ودقائقه المحيرة للعقول ؛ فالتأليف فيه لا ينتهي ، والاختصار المؤلفات فيه لا يكاد يوفق إليه إلا النوابغ المحيطون أوسع إحاطة ، والمتمرنون تمريناً طويلاً ، والمتتبعون لكل جديد

ومن هؤلاء مؤلف كتاب (التشريح المرضي والجنائي) الدكتور محمد زكي شافعي ، مدير المكتب الفني بمصلحة الصحة العمومية بمصر . وقد قال في مقدمة كتابه هذا : « لقد اشتغلت بحوالي العشرين عاماً بالطب الشرعي ، ولا أزال أعمل الآن مراجعة بعض الأعمال الخاصة به ، وكثيرا ما استرعى نظري أن الحاجة ماسة أشد مساس الى كتيب خاص بالتشريح المرضي والجنائي ، يرجع إليه الطبيب الكشاف إذا أعوزه الأمر للاطلاع العاجل ، فانه كثيراً ما يجد نفسه في مأزق حرج ، إذ يطلب إليه — وهو بعيد عن مراجعه — الفصل في مسائل فنية دقيقة الخطورة ، يتوقف على الاجابة عليها مصير متهم قد يكون بريئاً

ولقد كنت أشعر بهذه الحاجة في أثناء ممارستي للتشريح ، ولا سيما في الجهات التي أكون فيها بعيداً عن مراجعي ، وكل الأطباء يدركون دقة هذا الموقف

ولقد عرضت على زميلي « الدكتور لبيب شحاته » أن نعمل على سد هذا النقص ، فوضعنا معا هذا الكتاب ، وتوخينا فيه أن يكون عملياً أكثر منه نظريا ، وجعلناه واضح العبارة ، سهل المأخذ ، حتى ينتفع به كل مشتغل بالطب الشرعي ، وانتقينا أحدث المعلومات ، وأرجحها قبولا لدى جمهرة الأطباء الشرعيين ولذلك اضطرتنا الحال إلى الاطلاع على مراجع عديدة علاوة على المذكرات الشخصية »

ومع أن الكتاب كما يصفه حضرة مؤلفه فقد وقع في ٤٩٠ صفحة ، وبلغت المراجع التي اعتمد عليها واضعاه عشرين مرجعا ، يضاف اليها اختبار المؤلف وتحقيقه مدة عشرين سنة ، وذلك فضلا عن رجوعه في بعض مسائل كتابه الى كثير من الأساتذة المختصين ، بحيث جاء الكتاب عظيم الفائدة للمشتغل بالطب الشرعي ، وللطبيب المشرح ، ولمن يتصلون بالحوادث الجنائية من القضاة ورجال النيابة والمحامين فهؤلاء جميعاً يهتدون فيه الى أدق المسائل الفنية بأيسر طريقة وأسرع وقت ، ويصيب كل منهم غرضه الفني أو القضائي . وقلما يحتاج مع هذا الكتاب إلى الأصول المطولة إلا في التدريس ، على أنه في التدريس ذو قيمة ثمينة إذا جعل للطالب كالتذكرة التي يدون فيها خلاصة علمه . هذا وإن ضم التشريح المرضي الى التشريح الجنائي في كتاب واحد عمل فني بديع لم يسبق اليه .

وأنا وقد درست هذا العلم على الفحول من رجاله في فرنسا ، لا يسعني إلا أن أهنئ الدكتور محمد زكي شافعي ، ومساعده الفاضل الدكتور لبيب شحاته بكتابهما وعيا وفقا فيه ، فهو توفيق يستحق التهنئة العلمية

الدكتور محمد الرافعي

خريج جامعة ليدن بفرنسا

لباب الآداب لابن منقذ

تحقيق وتعليق الأستاذ احمد محمد شاكر

للأستاذ محمد بك كرد علي

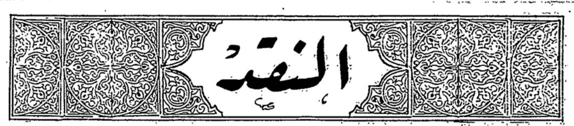
بنو منقذ أصحاب قلعة شيزر من عمل حماة في الشام كانوا معروفين على عهد الحروب الصليبية بالفروسية والسياسة والأدب والأمارة ، وقد خلد أسامة بن منقذ (٤٨٨ ــ ٥٨٤ هـ) أحد رجال هذا البيت بأدبه ذكر آله في التاريخ . ولما طبع له العلامة درنبرغ كتاب « الاعتبار » في سنة ١٨٨٤ م بمدينة ليدن في هولاندة اشتهر أسامة بين الأدباء في الشرق والغرب ، لما حوى كتابه من أخبار البطولة والشجاعة ، ولأنه صُنّف على غير مثال . وقد طبع له درنبرغ أيضا كتاب العصا وغيره في باريز ، وعُني بجمع أخباره بالفرنسية وخدمه وأولع به

والآن طبع الأديب لويس سركيس في القاهرة كتاب « لباب الآداب » لأسامة أيضاً ، وتولى تحقيقه والتعليق عليه الأستاذ أحمد محمد شاكر ، وحلاه بفهارس الأعلام وأيام العرب والأماكن والقوافي ، وشكله تقريبا بالشكل الكامل ، فقرّب فوائده من يد المستفيد ، وأضاف الى ما طبع من كتب الأدب القديم سفراً آخر قال في وصفه إنه من أجود كتب الأدب ، وإن فيه أقوالا من نثر ونظم لم يجدها في كتاب غيره من الكتب المطبوعة

قسم المؤلف كتابه الى عدة أبواب فيها عظة وتعليم وأهداه لابنه الأمير مرهف ، وجعل أبوابه في الوصايا والسياسة والكرم والشجاعة والآداب وكتمان السر والأمانة والتواضع وحسن الجوار والصمت وحفظ اللسان والقناعة والحياء والصبر والرياء والإصلاح بين الناس والتعفف والتحذير من الظلم والاحسان وفعل الخير والصبر على الأذى ومداراة الناس وحفظ التجارب وغلبة العبادة والبلاغة . وهناك فصول من كلام رسول الله والصحابة وغيرهم ، ومن كلام سليمان الحكيم وبرسين الحكيم وافلاطون ، ونوادر فيثاغورس وسيخاس ، ومحاسن شعر الحكماء ، وأبواب في المديح والتشبيه ومشى النساء والخفر والشيب والاعتذار والعتاب والمراثي والغزل والحكمة . يبدأ المؤلف كل فصل بآيات كريمة ويشفعها بما ورد من الأثر ثم الشعر ثم أقوال الحكماء في هذا المعنى

وذكر المعلق على الكتاب أنه وقعت في طبعته هذه بعض أغلاط ، مع كل ما عاني في تصحيحه ، جاء بعضها سهواً منه ، وبعضها من خطأ النظر ، وبعضها من الأغلاط المطبعية التي لا يتنزه عنها كتاب . ونحن نقيم من كلامه هذا عذرا لكل من أحيا كتاباً للقدامى ؛ وليس من الانصاف أن يحمل على كل من ارتكب خطأ من هذا القبيل بعد بذل الجهد ، فقد تسرع الناظر في هذا الكتاب وقال (ص ٢٦) إن كتاب العصا هو كتاب القضاء لا العصا ، وليس في جريدة مؤلفات أسامة كتاب في القضاء وإنما هو كتاب العصا المطبوع . وذكر (ص ٢٢) (الأمير معين الدين أُتُر وزير شهاب الدين محمود) وليس في التاريخ الاسلامي من اسمه أتر ، وإنما هو اتسز وهي كلمة تركية معناها لا لحم له ، أو الرجل الضرب الخفيف اللحم غير الجسيم . واتسز هذا هو مملوك جد مجير الدين أرتق بن محمود ابن بوري بن طغتكين ، وكان عاقلاً ديناً محسناً لعسكره (راجع كتابنا «خطط الشام» م ٢ ص ٢١) . ومن ذلك في صفحة ١٩٢ (تباة البلد) قال ولعلها جمع تاب بوزن غاز وغزاة من قولهم تبا اذا غزا وغنم وسبى . ونحن نميل أن تكون (نُشّاة البلد) أي سكانه من تنأ تنوءاً أقام ، ويقولون (الطراء والتناء) أي النزلاء والمقيمون وهي الأولى بالمقام

وتسرع أيضاً (ص ٢٨) ونقل ظن بعض أهل العلم أن كتاب « الأدب والمروءة » الذي نشرناه في مجلة المقتبس ، ثم ضممناه الى الطبعة الثانية من « رسائل البلغاء » في سنة ١٣٣١هـ ١٩١٣ هو لصالح بن عبدالقدوس لا لصالح بن جناح كما ذكر ناشره أستاذنا العلامة الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله؛ قال « ولعله ــ أي صالح ابن عبدالقدوس ــ أخفى نفسه بهذا الاسم في بعض الأوقات خوف الطالب » . والحقيقة أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن جناح ترجم له ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ، فقال إنه صالح بن جناح اللخمي الشاعر أحد الحكماء ؛ حكى عنه أبو عثمان الجاحظ أنه ممن أدرك الأتباع بلا شك ، وكلامه مستفاد في الحكمة . وقد أخذ عنه الجاحظ في نيسابور وقال عنه دمشقي ؛ ونشر ابن



٢ - تاريخ الإسلام السياسي

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

بعض مآخذ تاريخية وجغرافية

لأستاذ كبير

أتيت في كلمتي السابقة على قليل من المآخذ التاريخية التي تورط فيها مؤلف « تاريخ الاسلام السياسي » وقد لحظ بعض الذين قرأوها أنه كان الأفضل ألا أورد هذه المآخذ مسرودة على نحو ما فعلت بل أن أوردها مقرونة بأسبابها الجوهرية . وأجيب عن هذه الملحوظة التي لها وجاهتها التامة بأن من المفيد في نقد كتب التاريخ أن ينصب النقد أولا على الوقائع مجردة . فان التاريخ من الناحية التحليلية البحتة يقوم على الوقائع التاريخية التي هي مادته الأولية . وبمقدار تزود المؤرخ من هذه المادة الأولية وتمكنه منها احاطة ، وتقويما ، وفهما ، تكون متانة أحكامه التي يستنبطها وافتراضاته التي يذهب اليها ، والعكس بالعكس . وإذا فلا بأس أن أمضي في كلمتي هذه في إتمام ما أخذت فيه في كلمتي السابقة من الاتيان على أجسم ما في الكتاب من المآخذ التاريخية ، مقفياً على أثر ذلك بإيراد شيء مما وقع فيه المؤلف من الأغلاط الجغرافية ، والتاريخ والجغرافيا صنوان مؤتلفان ، وهما ظرفا الزمان والمكان لما يسمى بوقائع التاريخ

***

قال المؤلف في ص ٣٤٠ في معرض الكلام على الوقعة البحرية العظيمة المعروفة في كتب العرب بذات الصواري : « وفي سنة ٣١ هـ نشب القتال بين ابن أبي سرح وبين الروم تحت قيادة ملكهم قسطنطين في البحر الأبيض المتوسط ، على مقربة من الاسكندرية ، وكان النصر للعرب في هذه الحرب ، وقد عرفت هذه الوقعة بوقعة السواري أو ذات السواري » والمؤلف يخطىء هنا من حيث زمان الوقعة ومكانها ، فأما من حيث الزمان فالوقعة قد ذكر في المصادر العربية أنها كانت سنة ٣١ هـ ولكن هناك رواية أخرى تجعلها في عام ٣٤ هـ ، وقد ظهر من المصادر اليونانية أنها تؤيد الرواية الثانية ، وإذاً يتعين الأخذ بها واطراح الأخرى . وأما من حيث مكان الوقعة فالمصادر اليونانية تعينه فتجعله قريبا من ساحل آسيا الصغرى الجنوبي لا قريبا من اسكندرية مصر (انظر تاريخ العصور الوسطى لكمبردج ج ٢ ص ٣٥٣) والمؤلف لاشك يتابع في كلامه هنا السير وليم ميور الذي يأخذ عن المؤرخ الانجليزي جبون ، وكلا هذين المؤرخين أصبح قديما ولا يصح التعويل عليه بصفة مطلقة

جاء في ص ٣٧٠ عن وقعة الجمل المشهورة « ونشب القتال وعائشة راكبة في هودجها على جمل يسمى عسكرا واقتتل الناس حوله بضعة أيام حتى صار كالقنفذ من النشاب » والصحيح أن وقعة الجمل لم تدم أكثر من سحابة يوم واحد . فان السبئية من أصحاب علي أجمعوا انشاب القتال حتى لا يتم صلح بين الفريقين . وقد حملوا بالفعل ليلا على جيش عائشة وما تعالى النهار حتى كان الفريقان قد اشتبكا في وقعة دامية ولم يكد النهار ينصرم حتى كان جمل عائشة

عيناً كر طائفة من شعره الجليل . وبذلك انتفى ظن بعض أهل العلم أن كتاب الأدب والمروءة هو لصالح بن عبد القدوس بل هو لرجل عربي دمشقي ينتسب الى لخم من أتباع التابعين ومن أساتيذ عالم الأمة الجاحظ

ومثل هاته الهنات المعدودة لا تقدح في كتاب طويل وقع في خمسمائة صفحة ، والله أعلم كم قاسى ناشره من المتاعب حتى استخرجه من خطوط قديمة سقيمة . وليس لنا بعد هذا إلا الشكر نقدمه للأستاذ شاكر على عنايته وتجويده

محمد كرد علي

قد عقر وأخذت عائشة وانتهت الوقعة . ولعمرى إن جيشاً رشق كله أو بعضه بالسهام جملا ساعة واحدة لجرى بأن يحيل الجمل كالقنفذ، ولا يقتضى الأمر سبعة أيام!

ومن الخطأ الجسيم ما وقع فيه المؤلف عند ما أراد أن يبدى رأيه فى خروج عائشة وطلحة والزبير على على ، فهو يقول فى ص ٣٧٢ « نرى أنه لا مبرر لعمل طلحة والزبير وعائشة ما دام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ولاسيما وقد وعدهم على ابن أبى طالب بالنظر فى أمر عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عند ما تستقر الأمور . على أننا نرى من جهة أخرى أن مجرد قبول على فى جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان فى الوقت الذى يطالب الناس فيه بدمه كاف لأن تحوم الظنون حوله وتبرر اتهامه بالاشتراك فى دمه » فالمؤلف ينظر هنا الى كل من الفريقين من وجهة نظر الآخر ، وقد خرج من الموضوع ولا رأى له على التحقيق . والوضع الصحيح للمسألة هو ألا مبرر مطلقاً لخروج عائشة وصاحبيها ، وأما على فلعل أصدق وصف له فى الفتن التى اضطر الى خوض غمارها أنه كان على الخلاصة مغلوبا على أمره .

ويقول المؤلف فى هامش ص ٤٥٠ تعليقاً على كلامه على ضرب الحجاج الكعبة بالمجانيق : « لم يرد عبد الملك بن مروان أن يحط من شأن الكعبة وإنما اضطر الى قتال ابن الزبير فحدث ما حدث من غير قصد . وذلك أن الحجاج لما نصب المجانيق على الكعبة جعل هدفه هذه الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة ، إذ كان الأمويون يعتبرون ذلك بدعاً فى الدين » وهذا تخيل عجيب للحال ، فان مجرد استحلال القتال فى الحرم فضلا عن رمى الكعبة بالمجانيق عمل ينطوى فى نفسه على حط كثير من شأن الأمكنة المقدسة من غير نزاع . على أن الأمر كان أمر سياسة قبل كل شيء وبنو أمية كانوا إذا تعارضت المصلحة السياسية وأى اعتبار آخر رجحوا جانب المصلحة السياسية كائنا ما كان ذلك الاعتبار الآخر ، وتاريخهم كله يشهد بذلك . وقد يكون من المضحك أن يقال إن الحجاج جعل الزيادة التى زادها ابن الزبير فى الكعبة هدفا لمجانيقه ! أفما كان من الممكن الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها ثم تنقض الكعبة وتبنى على أسسها القديمة ؟ ثم هل كانت هذه الزيادة متميزة عن سائر بنية الكعبة بحيث يمكن نقضها دون هدم الكعبة ؟ كلا ثم كلا ! لقد كان الهدف الحقيقى للمجانيق هو ابن الزبير نفسه ، ولما جعل ابن الزبير الكعبة حائلا بينه وبين المجانيق ضربت الكعبة .

ويقول المؤلف فى ص ٤٧١ وقد استعرض أشهر فرق الخوارج فى العصر الأموى : « وإن الناظر الى مبادئهم ليجد أنهم اشتطوا جميعاً فى الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان » وهذا الحكم على إطلاقه غير صحيح فهو إن صدق على بعض فرق الخوارج كالأزارقة لا يصدق على بعضها الآخر كالأباضية

ومن الخطأ الجسيم الذى وقع فيه المؤلف متابعته مؤرخا متوسط المكانة التاريخية هو السيد أمير على الهندى فى الكلام على نظام الامارة على البلدان فى العصر الأموى . يقول المؤلف نقلا عن هذا المؤرخ : « إن هناك نقصا قد تطرق إلى النظام الادارى فى عهد بنى أمية وجر إلى أسوأ العواقب فيما بعد . وذلك أنه كان يفرض على ولاة الأقاليم الاقامة فى حواضر ولاياتهم . أما فى عهد الأمويين فقد أصبحت ولاية الولايات تسند الى بعض أفراد البيت المالك والى كبار رجال البلاط فكانوا يبقون فى دمشق ويعينون من قبلهم رجالا يقومون بحكم الولايات نيابة عنهم . وكان من أهم أغراض هؤلاء الأمراء على حساب بيت المال ، وإرضاء هؤلاء الولاة بما كانوا يدرونه عليهم من الأموال » ونبادر الى القول بأن هذا النقل غير دقيق فالسيد أمير يؤرخ النقص الذى تطرق الى النظام الادارى من عهد يزيد بن عبد الملك بن مروان أى من عام ١٠١ هـ فى حين أن كلام الناقل يجعل تطرق النقص منسحبا على العصر الأموى كله

ومع ذلك فكلام السيد أمير على لا ينطبق على الواقع ، فانه إذا كانت الولاية على الأمصار قد أسندت فى بعض الأحوال إلى أمراء من بنى أمية كمسلمة ومروان بن محمد فان ذلك إنما كان لما عرفوا به من الكفاية الممتازة لا لقرابتهم من الخلفاء . ثم إنه لم يكن لبنى أمية بلاط بالمعنى الصحيح يولى كبار رجاله على الأمصار كما أن الأمراء لم يكونوا يقيمون بالعاصمة ويستنيبوا غيرهم على الأمصار ، إنما كانوا يقيمون فى حواضر الأقاليم نفسها .

هكذا كان خالد القسرى أمير العراق ، ونصر بن سيار أمير خراسان وحنظلة بن صفوان أمير مصر .. وإذا انتفت الاستنابة فلا نيابة ولا إثراء ولا رشوة . ولا شك أن السيد أمير على كان يفكر وهو يكتب هذا الكلام فى نظام الولاية على الأقاليم فى العصر العباسى الثانى عند ما غلب الأتراك على الدولة العباسية ، وهو خلط لا مبرر له

ويتكلم المؤلف (ص ٥٧٦) على نظام «المدول» فى معرض الكلام على نظام القضاء فى عصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية فيقول « وقد دعت سنة التقدم والارتقاء إلى اتخاذ الشهود (المحلفين) حين فشت شهادة الزور ، إذ جرت العادة أن تقبل شهادة من يتقدم لأدائها ، سواء أكان ممن عرف بالخير أو بالشر . فقضى النظام الجديد بتعيين شهود عدول ، عرفوا بحسن السمعة والفقه ، فصاروا من هيئة المحكمة ، يعمل برأيهم القاضى فيما له علاقة بالمتقاضين

وكان من اختصاصاتهم أيضا الشهادة على ما يصدره القاضى من الأحكام وانه غير مخالف لأحكام الشريعة الاسلامية » لا شك ان المؤلف تناول هذا الموضوع لاعتقاده أن نظام العدول وجد فى العصر الذى اتخذه موضوعا لكتابه . وهو اعتقاد خطأ فأول ما سمع عن نظام العدول انما كان زمن الرشيد أى فى الدولة العباسية (انظر كتاب تاريخ القضاء فى الاسلام ص ١٣٢) ثم ان كلام المؤلف لا يجلو هذا النظام على حقيقته وفيه تخليط كثير (راجع الكتاب المذكور)

ويقول المؤلف فى ص ٦٢٧ وهو يتكلم على الجامع الأموى بدمشق : « وقد تأنق الوليد فى بناء هذا المسجد حتى قيل انه أنفق على عمارته خراج دولته سبع سنين وما ذلك إلا ليتقرب إلى الله بهذا العمل الدينى الجليل » . والمؤلف ينقل هنا عبارة المستشرق فون كريمر ، وفون كريمر يعتمد على ابن الفقيه . ووجه المبالغة غير المعقولة فى تقدير نفقات الجامع ظاهر . وكان ينبغى العدول عن رواية ابن الفقيه والأخذ برواية أخرى متواترة قال بها الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى .. ومؤداها أن النفقة استغرقت خراج الشام وحده سبع سنوات

***

وبعد فلو أردنا استقصاء الأغلاط التاريخية الواردة فى كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » لطال الأمر . فنكتفى بهذا القدر . ونختم كلمتنا اليوم بإيراد أغلاط جغرافية جرى بها قلم المؤلف

فبلدة (صحار) تكتب بالصاد المهملة لا بالسين كما كتبت على خريطة جزيرة العرب الواردة فى أول الكتاب ، وبلدة عينتاب تكتب بالياء المثناة بعد العين (انظر نفس الخريطة) ، وإذا أريد تعيين وادى أوطاس فلا يقال انه بين مكة والبصرة (ص ٣١) فالتعيين على هذا النحو وعدمه سواء . ولا يقال فى تحديد ملك الغساسنة « انه كان حول دمشق وتدمر . وكانوا يجولون فى الجهات الجنوبية لدمشق وخاصة لبنان وفلسطين والبلقاء وحوران » فماذا بقى للروم من الشام (ص ٥٦) . ولا يقال ان الطبيعة وهبت نهر اليرموك أسراراً وألغازاً (ص ٢٨٩) ، وإلا فما تلك الألغاز والأسرار ؟ ومن أقبح الخطأ أن يقال ص ٣٣٥ « وقد أنشأ معاوية أسطولا حارب البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتى قبرص ورودس » فعمورية لا تقع على البحر ولكنها فى صميم آسيا الصغرى . كما أن هرقلة ليست واقعة على البحر الاسود ولكنها فى شرق آسيا الصغرى مما يلى منطقة الثغور الاسلامية . (الخريطة ص ٢٧٤) ثم ان خريطة الأندلس ملأى بالخطأ والتحريف

مؤرخ

3 me Année, No. 128.

Lundi-16-12-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة



مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٢٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٢٠ رمضان سنة ١٣٥٤ — ١٦ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

فهرس العـــدد

بين الأمس واليوم

١٧ رمضان

يوم الاتحاد والجهاد والنصر

كان الاسلام المهاجر من مكة الجاهلية لا يزال خافض الجناح فى يثرب؛ وكان السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار لا يزالون تحت البلاء: يمتحن الله صبرهم بالألم، ويختبر إيمانهم بالفتنة، ليمحص الذين يجتبيهم لنشر الدعوة، ويعلم الذين يصطفيهم لجهاد الرسالة؛ فالقرشيون يؤلّبون عليهم القبائل، واليهود ينصبون لهم الحبائل، والمنافقون يدسون لهم الغدر فى الملَق. فلما أذن الله لدينه أن يعود ولمجده أن يسود ولنوره أن يتم، أرسل جنوده الثلثمائة إلى وادي بدر، يتعاقبون على سبعين نضواً من أباعر المدينة، ويستعينون بصبر المجاهد على القلة، وبعزة المؤمن على الذلة، وبعفة الزاهد على الفاقة؛ ويسيرون فى استغراق الصوفى المدلَّه إلى ما وعدهم الله من إحدى الطائفتين: العِير أو النفير، وإحدى الحُسْنَيَيْن: النصر أو الشهادة؛ ولكن العير الذى يفهق بالثراء الضخم نجا به أبو سفيان على الساحل، فلم يبق إلا مكة الغاضبة لثروتها وسطوتها ودينها قد نزلت بالعُدْوة

القصوى من الوادي مع أبي جهل ! تسعمائة وخمسون من فلذات كبدها أرسلتهم في الخيل والحديد يجيشون على محمد بالغل ، ويفورون على صحبه بالحفيظة ، ويرون الإسلام في هذا العدد القليل والمظهر المزيل قد أمكنهم من نفسه ، ودلهم على مصرعه

***

التقى الجمعان في صبيحة اليوم السابع عشر من شهر رمضان ، وكان المسلمون على فقرهم وضرهم ثلث المشركين ، وكان المشركون على كثرتهم وعدتهم صفوة قريش ، فموقف الاسلام من الشرك كان يومئذ موقف محنة . كان بين العدوتين في بدر مفرق الطرق ، فإما أن يقود محمد زمام البشرية في سبيل الله فتنجو ، وإما أن يردها أبو جهل إلى مجاهل التيه والضلال فتهلك . وقفت مدنية الإنسان بأديانها وعلومها وراء محمد على القليب ، ووقفت همجية الحيوان بأصنامها وأوهامها وراء أبي جهل على الكثيب ! فكان طريق وعقبة ، ونور وظلمة ، وإله وشيطان ! فإما أن يتمزق تراث الانسانية على هذا الصخر ، ويتبدد نور الله في هذا القفر ؛ وإما أن تتم المعجزة فتفيض الحياة على الناس من هذه البئر ، ويتصل الماضي بالمستقبل من هذه الطريق ، ويبدأ التاريخ عهده الجديد بهذه الموقعة !

« اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ! اللهم فنصرك الذي وعدتني ! اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض ! » ذلك كان دعاء الرسول أمام العريش ووجهه إلى القبلة ، ويداه إلى السماء ، ورداؤه من الذهول في الله يسقط عن منكبيه فيرده الصديق ويقول : بعض هذا يا نبي الله فان ربك منجز وعده ! وما هي إلا خفقة من خفقات الوحي حتى نزل الوعد بالنصر ، وجاءت البشرى بالجنة ، فغاب المسلمون في إشراق عجيب من الايمان ، لا يرسم في أخيلتهم إلا الحور ، ولا يصور في عيونهم إلا الملائكة ؛ وقذف الله في قلوب المشركين الرعب فانهار السد الغليظ أمام النبع النابض من صخور بدر ، وانجاب القتم الكثيف عن النور الوامض من ربوع يثرب ، وانكشفت المعجزة الالهية عن انتصار ثلثمائة على قرابة ألف ! !

موقعة بدر الكبرى لا تذكر بخطتها وعدتها ونفقتها وعديدها في تاريخ الحرب ، فلعلها في كل ذلك لا تزيد على معركة بين حيين في مدينة ؛ إنما تذكر بنتائجها وآثارها في تاريخ السلم ، لأنها كانت حكما قاطعاً من أحكام القدر غير مجرى التاريخ ، وعدل وجهة الدنيا ، ومكن للعرب في دورهم أن يبلغوا رسالة الله ، ويؤدوا أمانة الحضارة ، ويصلوا ما انقطع من سلسلة العلم

لم يكن النصر فيها ثمرة من ثمار السلاح والكثرة ، ولكنه كان ثمرة من ثمار الايمان والصدق ؛ والايمان الصادق قوة من الله فيها الملائكة والروح ، وفيها الأمل والمثل ، وفيها الحب والايثار ، فلا تبالي العدد ولا ترهب السلاح ولا تعرف الخطر !

بهذا الايمان الصادق خلق الله من الضعف قوة في بدر والقادسية واليرموك ؛ وبهذا الايمان الصادق جعل الله من البادية الجديبة والعروبة الشتيتة عمرانا طبق الأرض بالخير ، وملكا نظم الدنيا بالعدل ، ودينا ألف القلوب بالرحمة

***

بهذا الشعور القدسي الذي يحس وينهض ويقود ، وبهذا اليقين النفسي الذي يجاهد وينتصر ويسود ، وقف الشباب المصري الباسل من دخلاء الجيش ، موقف البدريين من كفار قريش ، يشقون بهتافهم أذن الأصم ، ويقرعون باحتجاجهم ضمير المصر ، ويجدعون بثباتهم أنف المستكبر ! لا ينكلون أمام الرصاص ، ولا يرهبون وحشة السجن ، ولا يجزعون عند الفاجعة . وعاطفة الوطنية كعقيدة الدين : فناء في الغيرية ، واندماج في الجمعية ، وتوجيه الأمل الطموح الى المقصد الأعلى ؛ وأجمل ما في وطنية الشباب المصري اليوم ، هو أجمل ما كان في عقيدة الشباب العربي أمس : اتحاد قائم على الألفة ، وتضامن مبني على الوحدة ، ومزاج مركب من الشعور الدافق والايمان الصادق والتفكير المنظم

إن اليوم السابع عشر من رمضان سيظل يوماً مشهوداً في تاريخ الأمة العربية بنزول القرآن وغلبة الحق ، وفي تاريخ الأمة المصرية بنصرة الشباب ووحدة الأحزاب وعودة الدستور

احمد حسن الزيات

٤ ـ المجنـــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

وضاق «نابغةُ القرن العشرين» بحُمق المجنون الآخر؛ ورآه داهية دَوَاهٍ كلما تعاقل أو تحاذق لم يأتِ له ذلك إلا بأن يكشف عن جنونه هو؛ فلا يبرحُ يُجرِّعُه الغيظَ مرةً بعد مرة، ولا يزال كأنه يسبُّه في عقله؛ فأراد أن يحتالَ لصرفه عن المجلس، فدفع اليه الرسالة التي جاء بها (البريد المستعجل)، وقال له: خذ هذه فاذهب فألقِها في دار البريد، فسيجيء بها الساعي مرة أخرى، ثم تذهب الثانية فتلقيها، ويعود هو فيجيء بها، وتكونُ أنت تذهب ويكون هو يجيءُ فنضحك منه ويضحكون . . . .

قال س. ع: ولكن كم يذهب هذا وكم يجيءُ ذاك؟

فغمزه (النابغة) بعينه أن اسكت؛ فتغافل س. ع. وقال: كم تريد أن يجيءُ الساعي ليهتف بنابغة القرن العشرين؟

قال المجنون الآخر: هذا هو الرأي؛ فلست قائماً حتى أعرف كم مرةً أذهب، فإن الساعي لا يجيءُ إلا راكباً، وأنا لا أذهب إلا راجلا، وإن لي رجلي انسانٍ لا رجلي دابة

قال (النابغة): سبحان الله! بقليل من الجنون يَخرجُ من الانسان مجنونٌ كامل مُستَلَبُ العقل. بَيْدَ أنه لا يأتي النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير، ومن النبوغ كله بجميع وسائله وأسبابه على تمدُّدها وتفرقها وصعوبة اجتماعها لانسان واحد (كنابغة القرن العشرين). فهو الذي توافتْ اليه كلُّ هذه الأسباب، وتوازنت فيه كل تلك الخلال. إنه ليس الشأنُ في العلم ولا في التعلم؛ ولكنما الشأنُ في الموهبة التي تبدع الابتكار كموهبة (نابغة القرن العشرين)؛ فيها تجيءُ أعماله منسجمةً دالة بنفسها على نفسها؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتلائمةً مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها.. هذا س. ع. كان الأولَ بين خرِّيجي مدرسة دار العلوم، مدرسة الأدب والعربية والمنطق والتحذلق وبلاغة اللسان وصحة النظر، وهو يعرف أن الكتاب يُلقَى في البريد وعليهِ طابعٌ واحد، فيصل الى غايته بهذا الطابع؛ ثم يرى بعينى رأسه أربعة طوابع على هذه الرسالة المنونة باسم (نابغة القرن العشرين) فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل اليَّ أنا أربع مرات . . . .

فطرب المجنون الآخر واهتزَّ في مجلسه، وصفَّق بيديه، وقال: «مما حفظناه» هذا الحديث: يحاسبُ اللهُ الناس على قدر عقولهم؛ فلا تؤاخذ س. ع. فإن مدرسة دار العلوم تعلمهم «فيها قولان»، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعة أوجه؛ ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طوابع . . . .

ثم التفت الى س. ع. وقال له: لا عليك، فأنا صاحبُه وخَليطُه وحاملُ عِلمه وراويةُ أدبه وأكبر دُعاته وثقاته، وما علمتُ هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة

قال ا. ش: فاذا كان هذا، فإن لقائلٍ أن يقول: لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطوابع فيجيءُ به الساعي عشر مرات

قال (النابغة): وهذا أيضاً . . .

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمروٍ بصاحبك الذي لا تصحبين؛ إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط، ولكنها في يد المجنون للضوء ولاحراق أصابعه ... كم الساعة الآن؟

قلنا: هي التاسعة

قال: ومتى ينصرف أهل هذا الندىّ؟

قلنا: لتمام الثانية عشرة

قال: فاذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة، فهي أربعُ مرات إلى أن ينفضَّ المجتمعون هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قومٌ عرفوا (نابغة القرن العشرين)، وجاء قوم غيرهم فيعرفونه. وأما بعد ذلك فلا يجد الساعي هنا أحداً فلا تكون فائدة من مجيئه

فصفَّق المجنون الآخر وقال: هـذا وأبيك هو التهدِّي إلى وجه الرأي وسداده، وهذا هو الكلامُ الرصينُ الذي يقوم على أصول الحساب والجغرافيا . . . «ومما حفظناه» هذا الحديث: لا مالَ أعودُ من العقل. فأربعة طوابع، لأربع مرات، في أربع ساعات، وما عدا ذلك فاسرافٌ وتبذير، ولا مال أعودُ من العقل . . .

***

ورضى (النابغة) عن صاحبه وقال له : لئن كانت فيك صَعْصَعَة إن فيك لبقية تعقل بها . . . ثم أخذ منه الرسالة ودسّها فى ثوبه . قلنا : ولكن ألا تفضّها لنعرف ما فيها ؟

فضحك وقال : أَنْ جاريتكم فى باب الطايبة والنادرة ، وجاريتُ هذا الأبلهَ فى باب جنونه وحمقه ـ تحسبون أن الأمر على ذلك ، وأن الرسالة فارغةٌ إلا من عنوانها ، وأن نابغة القرن العشرين هو أرسلها إلى نابغة القرن العشرين كما قال سعد باشا : (جورج الخامس يفاوضُ جورج الخامس) . . . ؟ الحقُّ والله أن العقل الكبير الذى يأبى الصغائر هو الذى تأتى منه الصغائر أحياناً لتثبت أنه عقل كبير ، وهكذا تسخر الحقيقة من كبار العقول (كنابغة القرن العشرين)

فغضب المجنون الآخر وهمّ أن يتكلم . فقال له (النابغة) : أنت كاذبٌ فيما ستقوله

قلنا : ولكنه لم يقل شيئاً بعد ، فكما يجوز أن يكون كاذباً يجوز أن يكون صادقاً

قال : وسيخطىء فى رأيه الذى يبديه

قلنا : ولم يبد شيئاً من رأيه

قال : ولا يعرف الحقيقة التى سيتكلم عنها

قلنا : ويحك أدخلت فى عقل الرجل أم تعلم الغيب ؟

قال : لا هـذا ولا ذاك ولكنه قياسٌ منطقىٌّ يتوهّم اطرادُه . إنه سيقول إنى مجنون . . .

فأخرج الآخر لسانه ... قال (النابغة) : تباً لك لقد رأيتُ الكلمةَ فى لسانك كأنها مكتوبة بحروف المطبعة . ويحك يا مَرْقعان[1] ألا تعرف أن لك دماغاً مخروقاً تسقط منه أفكارك قبل أن تتكلم بها ، ولولا أنه مخروقٌ لحفظت التن ! إن كل تخطئة لى منك هى اعترافٌ لى منك بصواب

فنظر اليه الآخر نظرةً كان تفسيرها فى حواجبه إذ مطّ حواجبه[2] ورقّصها . فقال (النابغة) : ونظراته خبيثةٌ ، مِلْحةُ الطعم ، مزعوقةٌ كماء البحر المرّ ، أخذ من البحر وأضيف إلى ملحه الطبيعى ملح . أكادُ أتهوّعُ من هذه النظرة فأقىء الآن فهمتُ معنى قولهم : « ملحةٌ فى عين الحسود » فان الملح لا يغلبه إلا الملح ، كالحديد بالحديد يُفلَج . هاتوا كأساً من معتقة الخمر ثم لينظرْ فيها الخبيث بهذه النظرةَ فإن الخمر لابد مستحيلةٌ شربة ملح إنجليزى ... . هذا الأبله ثقيل الدم كأن دمه مأخوذ من مستنقع . . . أهذا الذى لا يستطيع أن يقول لشىء فى الدنيا : هو لى ، إلا الفقر والجنون والخرافة ـ يكذّب ما فى الرسالة التى جاء بها البريد المستعجل ولا يصدق أنها مرسلة إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير ؟

هذا الذاهب العقل هو كالجبان المنقطع فى وحشة القفر فى ظلام الليل ، إذا توجّس حركةً ضعيفة انقلبت فى وهمه قصةَ جريمةٍ ملؤها الرعب وفيها القتل والذبح . ولهـذا يخشى ما فى الرسالة التى جاءت من صديقى صاحب السمو . هيّا اقرأوا الرسالة

وفضضنا الغلاف فاذا ورقتان ممهورتان بتوقيع أمير معروف إحداهما صكٌّ بألف جنيه تُدفع (لنابغة القرن العشرين) ، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر ··· وإرساله الى المارستان

* * *

وذهبتُ أُصلح بينهما فقلت : إن فى الحديث الشريف : بينما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه إذ مرّ به رجل ، فقال بعض القوم هذا مجنون . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مصاب ، إنما المجنونُ المقيم على معصية الله

فقال صاحب التن : « مما حفظناه » : إنما المجنون المقيم على معصية الله

قلت : وليس فيكما مقيم على معصية الله . . . ،

قال المجنون : « مما حفظناه » وليس فيكما مقيم على معصية الله

قلت : هذا ليس من الحديث ولكنه من كلامى . قال (النابغة) أنبأتكم أن هذا الأبله يَضلّ فى داره كما يضلّ الاعرابى فى الصحراء ؛ وأن الأسطول الانجليزى لو استقرّ فى ساقية يدور فيها ثور ، لكان ذلك أقرب الى التصديق من استقرار العقل فى رأس هذا الأبله ؟

فاحتدمَ الآخر وهمّ أن يقول « مما حفظناه » ولكنى أسكتّه وقلت (للنابغة) : إنك دائماً فى ذروة العالم فلا غَرْوَ أن ترى المحيطَ الأعظم ساقية . والنوابغ هم فى أنفسهم نوابغ ، ولكنهم فى رأى الناس مرضَى بمرض الصعود الخيالىّ إلى ذروة

(١) المرقعان والرقيع الأحمق الذى يتمزق عليه رأيه فلا يجتمع له

(٢) هما حاجبان ولكن هذا الأسلوب هو الأفصح هنا وهو كثير فى العربية

العالم . ومن هذا يكون المجانين هم المرضى بمرض النزول الحقيقى إلى حضيض الآدمية . فهناك يعملون فتكون أفكارهم من أعمالهم ، ثم تكون عقولهم من أفكارهم ، فيكون هـــذا هو الجنون فى عقولهم . وذلك معنى الحديث : إنما المجنون المقيم على معصية الله

قال (النابغة) : لعمرى إن هذا هو الحق . فنبوغُ العقل مرضٌ من أمراض السموّ فيه ؛ فالشاعر العظيم مجنون بالكون الذى يتخيّله فى فكره ، والعاشق مجنون بكون آخر له عينان مكحولتان ؛ والفيلسوف مجنون بالكون الذى يدأب فى معرفته ؛ ونابغة القرن العشرين مجنون ... لا . لا . قد نسينا ! ش فهو مجنون و س . ع فهو مجنون

وكلُّ الناس مجنونٌ بليلى   وليلى لا تُقِرُّ لهم بذا كا

ومن حقّ ليلى ألا تقر لهم إذ هى لا تقر إلا لنابغة القرن العشرين وحده . وما أعجبَ سحرَ المرأة فى الكون النفسانىّ للرجال ؛ أما فى الكون الحقيقى فهى أنثى كأناث البهائم ليس غير . وأعقلُ الرجال من كان كالحمار أو الثور أو غيرهما من ذكور البهائم . فالحمار لا يعرف الحمارة إلا أنها حمارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ولا يكتبون « أوراق الورد » .. ... وإناث البهائم أمّاتٌ (1) لا غير ، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباءً ؛ فهذه الذكورة طفيليةٌ فى الدنيا ، والطفيلىُّ لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب . ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضُروبا من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيل والغفلة والبلاهة . وإذا نظرنا اليه من أوله فهو عشق ، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكذوبة ، وهو قول الطفيلى قد شبعتُ وقد رويت ... ويحكم أين أولُ الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجب سحر المرأة فى الكون النفسانى للرجال

قال : نعم هذا هو . إنه سحر لا أعجب منه فى هذا الكون النفسانى إلا سحر الذهب . فلو مُسِخت المرأةُ الجميلة شيئاً من الأشياء لكانت سبيكةً ذهبيةً تلمع . ولهـذا يُوجِدُ الذهبُ اللصوص فى الدنيا ، وتوجِد المرأةُ الجميلة لصوصا آخرين ، فيجب أن يصان الذهب وأن تصان المرأة .

(1) يقال فى غير العقل أمات وفى العاقل أمهات

قلت : ولكن أليس من المال فضة وهى توجد اللصوص كالذهب ؟

قال : نعم ، وفى النساء كذلك فضة وفيهن النحاس . ولو أنت ألقيت ريالاً فى الطريق لأحدثتَ معركة يختصم فيها رجلان ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى . ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر ...

ولكن (فورد) الغنى الأمريكى العظيم الذى يجمع يده على أربعمائة مليون جنيه لا يتكلم عن القرش ؛ (ونابغة القرن العشرين) الذى يملك (ليلى) لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء

قلت : فانى أحسبك أعلمتنى أن اسمها فاطمة لا ليلى

قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكل الناس مجنون بفاطمة وفاطم لا تقرُّ لهم ؟ قلت لا .

قال : إذن فهى (ليلى) ليستقيم الشعر ... أما حين أقول : أفاطمُ مهلاً بعد هذا التدلّل ، فهى فاطمة ليصح الوزن

قلت : يُشبه والله ألا يكون اسمها ليلى ولا فاطمة ؛ وإنما هى تسمى حسب الوزن والبحر ، فاسمها فَعُولنْ أو مُفَاعَلتنْ ...

***

ثم قلنا له : فما رأيك فى الحب ، فانه ليقال : إنك أعشقُ الناس وأغزل الناس ؟ .

قال : إن ذلك ليقال (وهو الأصح) . ثم أطرق يفكر . وبدا عليه أنه مدهوش ذاهب العقل كأنه من قلبه على مسافة أبعد من المسافة التى بينه وبين عقله . وخيّل إلىّ أن النساء قد حُشِرْن جميعاً فى رأسه ومرت كل واحدة تعرض مفاتنها وغزلها وتلائم هذيانه بهذيان من جمالها ، فهو يرى ويسمع ويَمْرض ويتحيّر . ثم اضطرب كالذى يحاول أن يمسك بشىء أفلت منه ؛ فلم ينبّهه إلا قول المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن أعرابية سئلت عن العشق فقالت : إنه داء وجنون ...

قال : اسكت يا ويلك لقد أطفأت الأنوار بكلمتك المجنونة . كان فى رأسى مرقص عظيم تسطع الأنوار فيه بين الأحمر والأخضر والأبيض ؛ وترقص فيه الجميلات من الطويلة والقصيرة والممشوقة والبادنة ، فجئتَ بالداء والجنون قبحك الله فأخرجتنى

عنهن اليك . أحسبُ أنك لو انتحرت لصلح العالم أو صلحتُ أنا على الأقل ، فاذا أردت أن تشنق نفسك فأنا آتيك بالحبل الذى كنتُ مقيدا فيه أى الحبل الذى عندى فى الدار ... على أن رأسك الفارغ مشنوقٌ فيك وأنت لا تدرى .

قال الآخر : ما أنت مُنذُ اليوم إلا فى شنقى وتعذيبى أو فى شنق عقلى على الأصح . « ومما حفظناه » قول الأحنف بن قيس : إنى لأجالس الأحمق ساعةً فأتبينُ ذلك فى عقلى ...

فلم يَرُعنا إلا قيامُ المجنون مسلحاً بحذائه فى يده ... وهو حذاء عتيق غليظ يقتل بضربة واحدة ؛ فحلنا بينهما وأثبتناه فى مكانه . وقلنا : هذا رجل قد غُلب على عقله فلا يدرى مايقول ؛ فاذا هو دل على أنه مجنون ، أفلا تدلّ أنت على أنك عاقل ؟ ما سألناك فى انتحاره وجنونه ، بل سألناك رأيك فى الحب ؛ وما نشك أنك قد أطلتَ التفكير ليكون الجواب دقيقاً ، فانك « نابغة القرن العشرين » ، فانظر أن يكون الجوابُ كذلك

قال : نعم إن العاقل إذا ورد عليه السؤال أطال الفكر فى الجواب : فاكتب يا فلان (س . ع) :

(جلس نابغة القرن العشرين مجلس الاملاء ثم تجلّى فقال[1] : قصةُ الحب هى قصة آدم ، خلق الله المرأة من ضلعه . فأول علامات الحب أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التى أحبها كسرت له ضلعاً ... وكل قديم فى الحب هو قديم بمعنى غير معقول ، وكل جديد فيه هو جديد بمعنى غير مفهوم ؛ فغيرُ المعقول وغيرُ المفهوم هو الحب

والجمرةُ الحمراءُ إذا قيل إنها انطفأت وبقيت جمرة فذلك أقرب إلى الصدق من بقاء الحب حياً بمعناه الأول إذا انطفأ أو بَرَدَ

والعاشق مجنون . وجنونُه مجنون أيضاً ؛ فهو كالذى يرى الجمرةَ منطفئةً ويرى مع ذلك أنها لا تزال حمراء ، ثم يُمْعِنُ فى خياله فيراها وردة من الورد ... وإذا سألته أن يصف الجمالَ الذى يهواه كان فى ذلك أيضاً مجنونَ الجنون كالذى يرى قمر السماء أنه قد تفتّتَ وتناثر ووقع فى الروضة فكان نثارُه هو الياسمينَ الأبيض الجميل الذكى ...

(١) هذا نص عبارته نحن نزيد التخليط

والمجنون يرى الدنيا بجنونه والعاقل يراها بعقله ؛ ولكن العاشق المخبول لا ينظر من يهواه إلا ببقيةٍ من هذا وبقيةٍ من ذلك فلا يخلُصُ مع حبيبه إلى جنون ولا عقل .

(والمجهول) إذا أراد أن يظهر فى دماغ بشرىّ لم يسعه إلا أحدُ رأسين : رأس المجنون ورأس العاشق

ولا صعوبة فى الحكم على شىء بأنه خير أو شر إلا حين يكون الخير والشر امرأة معشوقة . أما أوصاف الشعراء والكتاب للجمال والحب فهى كلها تقليد قد توسعوا فيه ؛ والأصل أن ثوراً أحب بقرة فكان يقول لها : يا نجمة القطب التى نزلت من السماء لتدور فى الساقية كما دارت فى الفلك . . .

قال (النابغة) : هذا رأيى فى حب العاشقين ، أما حبى أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك : فلّ ، ورد ، زهر . . .

قلنا ما هذه الألغاز ، وهل للحب متن كقولهم : حروفُ القلقلة يجمعها قولك (قُطْبُ جَدٍ) ، وحروف الزيادة يجمعها قولك (سألتمونيها) ؟

فتضاحك (النابغة) وقال : تكاثرت الظباءُ على خراش ، فلكيلا ننسى ... إن كل حرف هو بدءُ اسم ، الفاء فاطمة ، واللام ليلى ، والواو وردة ، والراء رباب ، والدال دلال ، والزاى زكية ، والهاء هند ، والراء رباب

قلنا : رباب قد مضت فى (ورد) . قال : كنا تهاجرنا مدةً ثم اصطلحنا بعد هند ...

***

قلت : هكذا النوابغ فان رجلا أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما « نبغ » صيّرها (أبا العِبر) وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره . قالوا فكان يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهى هكذا :

أبو العبر طَرَدْ طِيل طَليرى بَك بَك

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

الى آنستين : هل تتفضل الآنسة التى كتبت إلى من القاهرة بغير توقيع فتتخذ لها عنوانا أخاطبها به . وهل تفعل مثل ذلك الآنسة التى كتبت من دمشق بغير توقيع ؟ إن من الجواب ما لا يكون صريحاً كما يريد السائل إلا إذا كان جواباً للسائل وحده

الرافعى

حوادث الشرق الأقصى

مشروع اليابان
في الاستيلاء على الصين
بقلم باحث دبلوماسي كبير

بينما تشغل أوربا والعالم بأسره بتطورات المشكلة الايطالية الحبشية وما يترتب على تفاقمها من أخطار داهمة على سلام أوربا وسلام العالم ، إذا بالشرق الأقصى يجيش بحوادث خطيرة قد يكون لها أكبر الأثر في مصاير الصين والشرق الأقصى كله ، ولكن يحجب عنا خطورتها ، نأيها وغموضها وانحصارها في ذلك الركن من العالم ؛ وهي ليست في جوهرها جديدة أو مستقلة ، ولكنها حلقة جديدة في ثبت الحوادث التي يضطرم بها الشرق الأقصى منذ أربعة أعوام ، والتي تضرمها وتذكيها السياسة اليابانية كلما آنست فرصة صالحة للعمل

وليس من الصعب أن نتلمس في حوادث الصين الجديدة رغم غموضها ، وجه الصلة بينها وبين الحوادث المماثلة التي تقع في الصين بين آونة وأخرى ، فالسياسة اليابانية هي التي تنظمها وتوجهها بأساليب متماثلة ، وتتذرع لاضرامها بنفس المعاذير : اعتداء على المصالح اليابانية في ناحية من النواحي ، أو مقتل أحد الرعايا اليابانيين ، أو اضطراب الأمن وعيث العصابات ، أو دسائس الشيوعية ؛ كذلك ليس من الصعب أن نتحرى العوامل والبواعث الدفينة التي تحمل هذا الغزو الياباني المنظم الى داخل الصين بين آونة وأخرى تارة بالقوة العنيفة ، وتارة بالوسائل السياسية ، فاليابان تكاد تفصح عن نياتها ومقاصدها الاستعمارية البعيدة في كل مناسبة ، وإن كانت ما تزال تستتر وراء بعض المظاهر والعبارات الخلابة التي يمهر الاستعمار في صوغها

وقد بدأت اليابان منذ بضعة أسابيع في القيام بمحاولة جديدة لبسط نفوذها على مناطق جديدة من الصين ؛ ومهد قادة الجيش الياباني في شمال الصين لذلك بمؤتمر عقدوه في دائرن ثغر منشوريا الجنوبي ، ووجهوا على أثره بلاغاً نهائياً إلى الحكومة الصينية الوطنية (حكومة نانكين) ضمنوه المطالب الآتية :

(١) قمع الدعوة الشيوعية في الصين ، وهي دعوة تهددها ومصدرها منغوليا

(٢) قمع أعمال « الكومن تانج » (الحزب الوطني الصيني) وأعمال الجمعية الوطنية الصينية المسماة بجمعية « ذوي الأقمصة الزرقاء » في شمال الصين

(٣) تعهد الحكومة الصينية بأن تتبع منذ الآن سياسة ودية نحو اليابان

وبينما كانت حكومة نانكين تدرس ذلك البلاغ ، إذ وقعت عدة حوادث في منطقة الحياد الشمالية في شمال بكين اقتضت تدخل السلطات اليابانية ، وقامت ثورات محلية صغيرة في عدة مناطق طولب خلالها بتخفيض الضرائب والاستقلال عن حكومة نانكين ؛ ولم يكن أصبع العسكرية اليابانية بعيداً عن هذه الحوادث

ولم تلبث السياسة اليابانية أن أفصحت عن غرضها الحقيقي من القيام بهذه الحركة ؛ فقد أبلغت السلطات المحلية في ولايات الصين الشمالية ، وأبلغت حكومة نانكين بوجوب إنشاء حكومة إدارية مستقلة في ولايات خمس هي : هوبى ، وتشاهار ، وشانصى ، وسويان ، وشانتونج ، وتكون عاصمتها بكين ، العاصمة الأمبراطورية السابقة ؛ وقصد اليابان من ذلك أن تقيم دولة متوسطة بين أملاكها الصينية في الشمال أعنى منشوكيو وجهول ، وبين وادي النهر الأصفر حيث يبدأ نفوذ حكومة نانكين الحقيقي

وقد أفرغت اليابان مطالبها في صيغة بلاغ نهائي ، وأنذرت الحكومة الوطنية الصينية بأنها ستتخذ الاجراءات العسكرية اللازمة إذا لم تحقق رغبتها ؛ ولكن حكومة نانكين لم تذعن لهذا الوعيد ، وكذلك لم يذعن زعماء الشمال ، ولم تنفذ اليابان وعيدها في الحال ، ولكنها آثرت أن تعمد مؤقتاً إلى العمل السياسي ؛

وفي الأنباء الأخيرة أن الضغط الياباني قد أحدث أثره الأول وذلك بحمل حكومة نانكين على الموافقة على إنشاء إدارة مستقلة في مقاطعتي تشاهار وهوبى يكون مركزها في بكين ، ويتولى إدارتها مجلس مؤلف من زعماء الشمال ، ويكون لها طابع الاستقلال التام في شئونها الداخلية وعلائقها الخارجية ، ما عدا الجمارك والبريد فتحتفظ حكومة نانكين بإدارتها ؛ ومعنى ذلك أن اليابان

قد فازت بتحقيق الخطوة الأولى فى مشروعها لفصل الشمال عن الجنوب ووضعه تحت نفوذها السياسى والاقتصادى

* * *

ونظرة بسيطة إلى خريطة الصين توضح لنا فداحة هذا المشروع اليابانى؛ فالولايات الخمس التى يراد فصلها عن الحكومة الوطنية هى من أهم وأغنى الأقاليم الصينية؛ وفصلها على هذا النحو يشطر الصين إلى شطرين، ويمهد إلى بسط النفوذ اليابانى على الأقاليم الشمالية حتى النهر الأصفر (الينج تسى)؛ وتتظاهر السياسة اليابانية بأنها فى هذه المحاولة إنما تعبر عن رغبات سكان هذه الأقاليم، والواقع أنها تعتمد فى ذلك على مؤازرة الجنرال «شنج تشى يوان» زعيم الشمال وخصيم الحكومة الوطنية، وتعتمد من جهة أخرى على محالفة حكومة «كوانتونج» الجنوبية (حكومة كنتون)، وهى أيضاً خصيمة الحكومة الوطنية؛ فالحكومة الوطنية أو حكومة نانكين تجد نفسها بين نارين فى هذا الصراع الذى يوشك أن يقوض دعائمها

ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن اليابان قد استولت قبل ذلك بأربعة أعوام على أقليم منشوريا الغنى، ولم تعبأ بتدخل عصبة الأمم وقراراتها النظرية؛ وأنشأت فيه جمهورية صورية تحت الحماية اليابانية باسم جمهورية «منشوكيو»؛ ولبثت بعد ذلك تتحين الفرص للزحف جنوباً متذرعة بمختلف الحجج والأعذار حتى اقتحمت قواتها «السور الكبير» واستولت على قسم كبير من إقليم جيهول، وبسطت نفوذها على جميع الأراضى الواقعة شمال بكين؛ وليست الحركة الانفصالية الجديدة التى تديرها السياسة اليابانية إلا حركة غزو جديدة، تستأنف بها اليابان نشاطها فى سبيل تنفيذ مشروعها الاستعمارى الضخم الذى تتحين الفرص لتحقيقه كلما شغلت الدول الغربية بأزماتها الخطيرة

والظاهر أن السياسة اليابانية كانت تعبر عن نياتها ومشاريعها المستقبلة تعبيراً صادقاً حينما ألقت إنذارها الشهير منذ نحو عام ونصف إلى أوربا وأمريكا وهو: «إرفعوا أيديكم عن الصين» أو بعبارة أخرى حينما صرحت بأنها تجرى فى سياستها الصينية على مبدأ «آسيا للأسيويين» مثلما تجرى أمريكا فى سياستها على مبدأ «مونرو» الشهير أو على مبدأ «أمريكا للأمريكيين»، وقد كانت اليابان ترقب دائماً مشاريع الدول الغربية وتوغل نفوذها فى الصين بمنتهى الاهتمام والتوجس؛ وتعمل على مقاومة نفوذها وامتيازاتها بالوسائل الاقتصادية والعسكرية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، ولكنها جرت فى الأعوام الأخيرة على سياسة عملية يؤيدها التدخل العسكرى، وكان استيلاؤها على منشوريا تحت سمع أوربا وأمريكا ورغم تدخل عصبة الأمم تجربة عملية ناجحة تحسست بها غور الدول الكبرى ذات المصالح فى الصين مثل بريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا وأمريكا، واستطاعت أن تقف على مدى المقاومة التى يمكن أن تتذرع بها الدول لمعارضتها؛ بيد أن الدول خلا روسيا لم تبد سوى معارضة نظرية، ومع أن روسيا وأمريكا قدمتا على غزو اليابان للأراضى الصينية احتجاجات شديدة، فان اليابان لم تحفل بأى احتجاج أو معارضة؛ ولما توسعت اليابان فى مشروعها وغزت ثغر شنغهاى لترغم الصين على الاعتراف بالحالة الواقعة فى منشوريا، احتجت الدول الغربية بنصوص معاهدة الدول التسع (معاهدة سنة ١٩٢٢) التى تنص على احترام سيادة الصين ووحدتها الأقليمية والادارية، ولكن اليابان لم تنسحب من شنغهاى إلا أمام المقاومة المنيعة التى استطاعت أن تنظمها حكومة نانكين

والآن تمضى اليابان فى تنفيذ مشروعها لاحتلال الصين واستعمارها مرحلة أخرى. وهى تعمل فى ظروف صالحة جداً؛ فالدول الغربية وأمريكا مشغولة بالأزمة الدولية الخطيرة التى أثارتها المشكلة الحبشية؛ والصين فى حال من التفرق والتمزق لا تمكنها من أية مقاومة عملية، فحكومة الجنوب أو حكومة كوانتونج (وعاصمتها كنتون) تخاصم الحكومة الوطنية وتناوئها، والحكومة الوطنية (حكومة نانكين) لا يكاد يتعدى سلطانها الأقاليم الوسطى. أما الأقاليم الشمالية وهى مسرح النشاط اليابانى، فتكاد تخرج جميعاً عن قبضتها ولا تكاد تتمتع فيها بأية سلطة أو نفوذ يذكر؛ والسلطة فيها موزعة بين جماعة من القادة العسكريين المحليين، أهمهم وأقواهم الجنرال «شنج تشى يوان» زعيم الشمال وهو من أنصار سياسة التفاهم مع اليابان. ويجب أن نذكر أن اليابان تعمل الآن مطمئنة من جانب روسيا التى اضطرت إزاء تطور الحوادث وتفاقمها فى أوربا أن تترك ميدان الصراع مع

اليابان فى الشرق الأقصى ، وأن تنسحب نهائياً من منشوريا بعد أن باعت لليابان نصيبها فى السكة الحديدية الشرقية ؛ وبذلك خفت عوامل الاحتكاك القديمة بين اليابان وروسيا ، وهى عوامل كانت تحسب اليابان حسابها كلما أقدمت على عمل جديد فى هذا الميدان

أما الدول الغربية فليس من المنتظر أن تقوم فى الظرف الحاضر بعمل ذى شأن ، وخصوصاً بعد ما تصدعت جبهتها المشتركة ، وأضحت كل تعمل بمفردها ؛ بيد أن الصين تحاول من جانبها أن تحمل الدول الغربية على التحرك ، وذلك بإثارة التمسك بمعاهدة الدول التسع لدى الدول الموقعة عليها ، وهى الولايات المتحدة (أمريكا) وبريطانيا العظمى وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندة والبرتغال والصين واليابان ذاتها ؛ وتنص هذه المعاهدة على احترام سيادة الصين واستقلالها ووحدتها الادارية والاقليمية ، وعلى معاونتها على النهوض والتقدم بكل الوسائل ، واستعمال الدول الموقعة لنفوذها فى تأييد مبدأ الفرص المتساوية فى النشاط التجارى والصناعى فى الصين لجميع الأمم ، وعلى عدم انتهاز ظروف الصين للحصول على امتيازات خاصة ؛ فهذه المعاهدة هى التى تثير الصين وتثير الدول بنصوصها اليوم احتجاجاً على عمل اليابان فى شمال الصين ، بيد أنه من المشكوك فيه أن يسفر هذا الاحتجاج النظرى عن أية نتيجة عملية ؛ فاليابان تمضى دائماً فى طريقها غير حافلة بالنصوص التى تعرقل مشاريعها

على أن هناك عاملاً يحسب حسابه ؛ فان اليابان إذا استمرت فى سياسة التوغل فى الصين على هذا النحو ، فانها تقترب شيئاً فشيئاً من حدود الهند البريطانية ، وحدود الهند الصينية الفرنسية ؛ وبريطانيا العظمى لا تستطيع السكوت طويلاً على هذه الحركة التى قد تفضى إلى تهديد سيادتها فى الهند ؛ كذلك تشعر فرنسا بالخوف على مستقبل الهند الصينية ، إذا ما اقتربت اليابان من جنوب الصين . والواقع أن بريطانيا رغم انشغالها بالشكلة الحبشية واحتمالاتها المزعجة ، لم تفتر عن العمل لمقاومة التوغل اليابانى فى الصين ، والصراع يضطرم دائماً بين الدولتين وإن كان ما يزال يقتصر على الوسائل المستترة ؛ وآخر محاولة بريطانية لمقاومة النفوذ اليابانى ، هى اتفاق بريطانيا مع حكومة نانكين على القيام بتنظيم المالية الصينية على يد خبير بريطانى ، وعقد قرض للصين فى انكلترا ، وهى محاولة تفطن لها اليابان وتعمل لمعارضتها ؛ وإذا كانت الدلائل تدل على أن أمريكا قد أخذت تبتعد شيئاً فشيئاً عن التمسك بسيادة المحيط الهادى وعن التعرض لسياسة التوسع اليابانى فى الصين ، فانها من جهة أخرى تدل على أن بريطانيا العظمى ما زالت تعتبر قيام التوازن الدولى فى الصين أمراً حيوياً لسلامة الهند وباقى أملاكها فى الشرق الأقصى ؛ ولم يكن إنشاء انكلترا لقاعدة سنغافورة البحرية الهائلة بعيداً عن التحوط للزحف اليابانى نحو الجنوب

وليس بعيداً أن يكون تقدم التوسع اليابانى فى الشرق الأقصى على هذا النحو المزعج عاملاً جوهرياً فى التقرب بين انكلترا وروسيا ، واتحادهما معاً على مقاومة هذا الخطر اليابانى الذى تشعر كلتاهما باشتداده وطأته ؛ فاذا تم ذلك ، فانه يسجل انقلاباً خطيراً فى السياسة الدولية ، قد يكون له أبعد الأثر فى تطور الحوادث فى الشرق الأقصى

(*****)

المرأة كما يراها شوبنهور

للأستاذ زكي نجيب محمود

إن المرأة بحكم تكوينها لا تستطيع أن تضطلع بجليل الأعمال — الجسمى منها والعقلى على السواء ، وإن رسالتها فى الحياة لتنحصر فى الانسال وتمهد الأطفال ، مع وجوب طاعتها للرجل وخضوعها له ؛ فقد شاءت لها الطبيعة أن تسلك فى حياتها سبيلا هادئا مطمئنا وادعا ، لا تصادف فيه ما يصادفه الرجل فى حياته من التطرف فى اللذة والألم كليهما — وإذا كانت الحياة قد ركنت الى المرأة فى أداء هذه الرسالة الكبرى ، وأرادت بها أن تكون أداة لتربية النشء فى مدارج الطفولة الباكرة ، فقد أعدتها أعدادا عقلياً يلائم الغرض من وجودها ، فجاءت ضعيفة العقل قصيرة النظر ، حتى لكأنها طفل كبير ، لكى يتم بينها وبين أطفالها شيء من التناسق والانسجام ، أو إن شئت فقل إنها مرحلة عقلية متوسطة بين الطفولة والرجولة ، فالرجل هو الكائن البشرى الحق الذى قصدت اليه الحياة

عرفت الطبيعة فى المرأة ضعفها فوهبتها الجمال تغزو به أفئدة الرجال لينهض هؤلاء بعبئها عن رضى وطواعية ، ولكن الطبيعة فى عطائها كانت كعهدنا بها مقترة مغلولة اليد ، فلم تهب المرأة من الجمال إلا بمقدار ما تستطيع أن تتخذ منه أداة لحفز الرجل على التناسل ليستمر البقاء ، حتى إذا ما انقضت مهمتها فى ذلك عادت الحياة فسلبتها ما كانت وهبتها من فتنة وجمال ، وتركتها ذابلة ذاوية تبكى شبابها المفقود ... وإن الفتاة مهما اشتملت حماسة لحريتها ، واصطنعت لنفسها مهن الرجال ، لتشعر فى أعماق نفسها أنها ما خلقت إلا المعركة الجنسية ، تتوسل لها بالحب وما يتصل به من تزين ودلال

ومما يلاحظ أنه كلما ارتقى الكائن الحى فى سلم الكمال كان أبطأ وصولا الى مرتبة النضوج ، فبينا المرأة تكتمل نضوجها العقلى فى سن الثامنة عشرة ، ترى الرجل لا يكاد يبلغ نهاية هذا النضوج إلا بعد الثامنة والعشرين ، على أن المرأة لا تدرك من القوة العقلية إلا حدا ضئيلا لا يمكنها من أن تنفذ الى حقائق الأشياء ، ولذا يسهل انخداعها بالظواهر الباطلة ، كما أنها كثيرا ما تتعلق بتوافه الأمور دون الهام منها والخطير ؛ كذلك تتميز المرأة بأنها تعيش فى حاضرها فقط ، نظرا لعجزها عن أن تنفذ بفكرها الى الماضى أو المستقبل ، فبالقوة العقلية وحدها يستطيع الرجل أن يحطم حدود الزمن التى تقيد المرأة كما تقيد الحيوان الأعجم ، فيرسل بصره إلى الأفق النائى البعيد ، ويضم فى نفسه أطراف الزمان من الأزل الى الأبد ؛ ولعل هذه الخاصة هى التى يتميز بها الرجل دون المرأة ، وأعنى بها النظر الشامل العميق ، هى العلة فيما يلاحظ عليه من هم وانقباض كثيرا ما يغلبان عليه حتى ينسياه ما قد يحيط به من عوامل الهناءة والسرور .

أما المرأة فهى تنعم بضعفها العقلى لأنها تلهو بلذائذ يومها غير حافلة بما يأتى به الغد من ويلات وكوارث . فهى فى ذلك كالحيوان الأجهر (ضعيف البصر) الذى يرى ما هو قريب منه فى وضوح وجلاء ، ولكن بصره لا يمتد الى أبعد من أنفه ؛ أى أنها قد تستطيع أن ترى الحوادث الحاضرة أدق مما يراها الرجل ، ولكنها عاجزة كل العجز عن اجتياز حاضرها الى ماضيها ومستقبلها ، وربما كان هذا النظر الضيق المحدود هو الذى دفع المرأة إلى ما تتصف به عادة من إسراف قد يصل إلى حد الحماقة والجنون ؛ فهى تريد أن تنعم « الآن » وليأت بعد ذلك الطوفان ! ولكن اشتغال المرأة بحاضرها واستمتاعها بلذائذ يومها لا يخلو من حكمة بالغة ، لأن ذلك يكسبها مرحا وابتهاجا بالحياة يمكنانها من القيام بواجبها الخطير نحو الرجل ، وهو الترويح عن نفسه مما يعانيه من شقاء وعناء ، فما أكثر ما تكون المرأة جنة فيحاء تزيل بسحرها عن كاهل الرجل المتعب المضنى عبء الهم الثقيل

ولكن لا ينبغى أن يتيه الرجل بما أوتى من العقل فلا يصغى لرأيها ولا يحفل بما تقول ، بل خير له إذا ما حزب الأمر واشتد الخطر أن يستشيرها الرأى ويستهديها السبيل ، وذلك لأن طريقة المرأة فى فهم الأشياء تخالف طريقة الرجل كل المخالفة ، فهى تحب بطبعها أن تسلك أخصر الطرق التى تؤدى إلى الغاية المقصودة ، هذا فضلا عن مقدرتها على رؤية القريب بسبب ضعف قواها العقلية الذى أشرنا اليه ، فهى بذلك قد تلفت نظر الرجل إلى ما يغفل عن إدراكه لقربه منه ، إذ هو كما قدمنا مفطور بطبعه على النظر البعيد ؛ أضف إلى ذلك أن المرأة ألصق بالحقائق الواقعة فترى الحوادث كما هى لا تضيف اليها ولا تنتقص منها ، أما الرجل فاذا ما اضطرمت عواطفه ، انطلق خياله يهول فى الأمر

ويزيد عليه فتضيع الحقيقة فى ثنايا الأوهام ويستحيل عليه التفكير السليم

وقد كان هذا الضعف العقلى الذى تتميز به المرأة قيداً حصرها فى دائرة الحقائق والوقائع المحسوسة دون أن تكلف نفسها مؤونة التفكير المطلق المجرد ، فنتج عن هذا شدة عطفها على البائسين وحدبها على الأشقياء ، لأنها لا تدرى من حقائق الكون إلا هذه الحقائق الجزئية التى تراها وتلمسها ؛ وليس فى مقدورها أن تنظر إلى العالم كله وحدة متصلة وحقيقة واحدة ينمحى فى خضمه المتلاطم كل ما فيه من بؤس الأفراد وشقائهم ؛ ولكن إن كان هذا النظر الواقعى المحدود قد أكسب المرأة عطفها الجميل ، فقد جنح بها كذلك إلى ألأم الطباع وأخسها ، فهى أبعد ما يكون الانسان عن العدل والشرف ويقظة الضمير وما اليها من الصفات الخلقية التى لا تستساغ إلا بالنظر المجرد العميق ، وقد ألجأها ما أحسته فى نفسها من ضعف إلى أساليب المكر والختل والخداع ، فهيهات أن تجد بين النساء امرأة واحدة قد خاص طبعها من الخيانة والغدر والكذب ؛ فهذه هى عدتها التى وهبتها إياها الطبيعة لتدافع بها عن كيانها ووجودها كما أمدت الضوارى بالمخالب والأنياب ، فليس لدى المرأة من عتاد تدرأ به عن نفسها ما يتهددها من خطر إلا المكر والخداع ، لا فرق فى ذلك بين امرأة وامرأة ، وهى تلجأ إلى هذا السلاح الفكرى فى كل ظرف دون أن تشعر أنها ترتكب بذلك ما يناقض فضيلة أو شرفاً ، بل إنها على نقيض ذلك تعتقد أنها إنما تستخدم قوة طبيعية فيها لها كل الحق فى استخدامها كما يستعين الأسد بمخالبه ساعة الخطر ؛ ولما كان الخداع مفطوراً فى دماء النساء كن أقدر من الرجل على إدراك خداع الناس . ولذلك كان من الغفلة والبلاهة أن يحاول الرجل خداع المرأة لأنها فى هذا الميدان فارسة لا يشق لها غبار . ولقد نشأ من هذا الجانب فى النساء ميل غريزى إلى العقوق والخيانة ونكران الجميل ؛ وما أهون على المرأة أن تحنث فى يمينها ، وما أيسر عليها أن تمد يدها الى السرقة حتى ولو لم تكن فى حاجة الى ما تسرقه

لقد اتخذت الحياة من المرأة وسيلة للتعبير عن إرادتها فى البقاء ، وإن المرأة لتعلم فى أعماقها أنها خلقت لحياة النوع قبل أن تخلق لشخصها ، ولذا تراها تسمى جهدها لأداء واجبها الأول نحو النوع وإن تعارض ذلك مع واجبها نحو الرجل الذى يتعهدها ويرعاها ، فهى تأبى مثلا إلا أن تلد وترضع وتربى مهما كلفها ذلك من عناء ؛ وهنا تختلف المرأة عن الرجل اختلافاً جوهرياً ، فبينما هى تتوفر لخدمة النوع وبقائه ، ترى الرجل لا ينصرف بمجهوده إلا لبقاء شخصه ؛ أعنى أن المرأة خلقت وسيلة لبقاء النوع ، أما الرجل فهو غاية فى حد ذاته — ومن هذا الفارق بين الجنسين تفرع وجه اختلاف آخر بينهما : فالرجال لا يكاد بعضهم يأبه ببعض ، بل كل منهم منصرف الى سبيله لا يحفل بغيره ، وذلك لبعد ما بين أعمالهم من تباين وخلاف ؛ أما النساء فبينهن عداوة غريزية فلا يسع الواحدة منهن إلا أن تضمر فى نفسها أشد المقت لغيرها من بنات جنسها . وعلة ذلك أنهن جميعا قد خلقن لعمل واحد هو حفظ بقاء النوع ، فكان ذلك مدعاة للغيرة والكيد والتنافس ؛ فانظر مثلا إلى سيدتين تقابلتا فى الطريق كيف تنظر إحداهما الى الأخرى بعين كلها الغل والكراهية ؛ وإنه لما يبعثك على الضحك أن تستمع إلى امرأتين تتعارفان أو تتبادلان تحية اللقاء أو الوداع ، فلن ترى إلا سخفاً منشؤه أن التودد والتعاطف والمحبة ليست من طبيعة المرأة نحو المرأة ، وأن هذه العداوة الفطرية بينهن لتتضح لك فى جلاء إذا رأيت كيف تعامل المرأة الارستقراطية من هى دونها فى المنزلة الاجتماعية من النساء ؛ عندئذ ترى صلفا أى صلف وغطرسة وكبرياء ، لماذا ؟ لأنها تشعر أن الفارق بينهما فى حقيقة الأمر جد ضئيل . استغفر الله بل إنه لا فارق ألبتة بين امرأتين . فهذه تحفظ النوع بنسلها كما تحفظه تلك سواء بسواء ؛ ولعمرى أن الحياة لم تقصد بهن إلا هذا ، وهذا وحده . تشعر المرأة الأرستقراطية بانعدام الفارق فى الجوهر بينها وبين المرأة الوضيعة فتلجأ إلى الصناعة والتكلف تخلق بهما ما تريد هى أن يكون بين المرأتين من تفاضل ؛ أما الرجل فتراه على النقيض من ذلك : يعامل من دونه بالحسنى ، لأنه يعلم أن الطبيعة قد فرقت بينهما فى القوة والعقل ، فليس به لاظهار منزلته حاجة إلى الصلف والكبرياء

واشد ما أعجب لهذا الاسم الذى يطلق على النساء جزافاً : (الجنس اللطيف) ؛ ولست أشك أن من أطلق هذا اللقب على ذلك الجنس الضئيل القصير الشائه ، هم أولئك الذين أفسدت غرائزهم الجنسية عقولهم . فجمال المرأة كله قائم على الغريزة الجنسية وحدها ، وإنه لأقرب الى الصواب أن نسمى النساء بالجنس الذى لا ذوق له ولا فن ، إذ ليس فى مقدورهن تقدير الجمال فى شتى

الفنون ، ولكنهن كثيراً ما يغالطن في الحقائق فيدعين أنهن ذوات فن جميل ، بأن يعزفن على الآلات الموسيقية أو يعالجن التصوير ، ولكن ذلك منهن كذب ورياء ، فهن لا يشتغلن إلا بما خلقن من أجله : حفظ النوع ... إن الرجل يجاهد في العلوم والفنون لتتم له السيطرة على الأشياء ، إما بفهمها أو بالتحكم فيها ، أما المرأة فهي بطبيعتها لا تحب أن تسيطر على الأشياء سيطرة مباشرة ، ولكنها دائماً تقصد الى السيادة على الأشياء عن طريق سيادتها على الرجل ، فالرجل وحده هو ما تصبو المرأة الى التحكم فيه والسيطرة عليه — ومعنى ذلك بعبارة أخرى — أن المرأة ترى في كل شيء وسيلة فقط لغزو الرجل ، فاذا ما تظاهرت بميل الى الموسيقى أو الشعر مثلاً فليس ذلك ناشئاً عن رغبة طبيعية فيها نحو هذه الفنون ، إنما هي تتخذ منها أداة تتجمل بها لتروق في عين الرجل . وما أصدق روسو حين قال : « إن النساء بصفة عامة لا يحببن الفنون ولا يعرفنها ، ومحال أن يبلغن فيها حد النبوغ » وهل تريد دليلاً على نفورهن من الفنون الرفيعة أقطع من هذا الذي تراه في دور التمثيل ؟ أنظر اليهن كيف يواصلن الحديث في أتفه الكلام ، معرضات عما قد يكون على المسرح من أروع آيات الفن ! ولئن صدق ما يقال من أن الاغريق لم يسمحوا لنسائهم بمشاهدة تمثيل المآسي ، فوالله لقد أصابوا ... ثم استعرض التاريخ وحدثني من من النساء قد أبدع في الفن آية فيها الأصالة والنبوغ ؟؟

ولقد شاءت الطبيعة للمرأة أن تثير في الرجل أحط جوانبه ، فهي لا تنفذ إلى الرجل من ناحية عقله وهو مظهر قوته وسيادته ولكنها تأتيه من نواحي ضعفه ومجونه . فيجمل بالرجل أن يتخلص من ضعفها ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، أما أن يكرمها ويرفع من قدرها فذلك ما أعجب له أشد العجب ! إن إكرامك للمرأة واحترامك لها انحطاط لك في عينها ، لأنها تدرك بفطرتها أنها أحط من الرجل وأضعف . فلا يضعها في غير موضعها إلا الضعيف العاجز — المرأة يجب أن تكون أماً فيجب ألا نعد بناتنا إلا لهذا مع تدريبهن على طاعة الرجل وقسرهن على الخضوع ؛ وفي ذلك يقول بيرون الشاعر الانجليزي « على النساء أن يعنين بالمنزل ، وعلينا أن نحسن لهن في الطعام واللباس ، ولكن لا يجوز لهن مخالطة المجتمع ، فان تعلمن شيئاً فليكن ذلك هو الدين ، على شريطة ألا يطالعن شعراً ولا سياسة ، وألا يقرأن إلا كتب العبادة والطبيخ »

إن كل قانون للزواج يعامل المرأة على أساس مساواتها بالرجل باطل من أوله ، فاذا أراد القانون أن يسويها في الحقوق بالرجال فليعطها أولاً عقلاً كعقول الرجال ! ومع ذلك فتأبى سخرية القدر إلا أن تعاني المرأة نفسها ما وراء المساواة من وخيم العواقب ، لأنه كلما جارت القوانين على الرجل وأجحفت بسيادته الطبيعية على المرأة وطالبته بأن يقف منها موقف الند للند ، أعرض الرجل ونفر ، فليس من الهين عليه أن يقوم على مثل هذه التضحية وأن يطوح بما أوتيه من قوة وسيادة ، وبذلك الاعراض يزداد عدد النساء غير المتزوجات اللواتي قد يدفعهن الفقر والحاجة اما إلى عمل لا يتفق مع طبيعتهن ، وإما إلى السقوط في هاوية الفساد ، وعندئذ تكون الطامة الكبرى . ويستطرد شوبنهور في استحسان تعدد الزوجات وفي وجوب عدم توريث المرأة مال زوجها لأنها مسرفة بطبعها ، وقد نشأ إسرافها من تعلق أطماعها بالأشياء المادية فتراها تبذل بغير حساب في تجملها وزينتها ، وهي في ذلك مخالفة للرجل الذي يتوجه بطموحه إلى نواح غير مادية كالعلم والشجاعة وما إليهما ، فهو يستنفد مجهوده فيما لا يحتاج إلى البذل والاسراف .

يقول أرسطو في كتاب « السياسة » : إنه إذا سمح للمرأة بالزيادة من حقوقها كان ذلك نذيراً بزوال الدولة ودمارها ، وهو يستشهد على ذلك بأسبرطة . ولقد جاء التاريخ الحديث بأمثلة كثيرة تؤيد ما ذهب إليه ذلك الفيلسوف المظلم ، فزيادة نفوذ المرأة في فرنسا منذ عهد لويس الثالث عشر أدى الى تدهور الحكومة والبلاط ، وهذا بدوره أنتج الثورة الفرنسية الكبرى وما أعقبها من ثورات

وشهد شاهد من أهلها

لقد عرضت على القراء آراء شوبنهور في المرأة بمناسبة ما قرأته في إحدى الصحف الانجليزية لسيدة تنكر على المرأة حقها في الحرية ، قائلة إن الحرية تستتبع التفكير والمسئولية وهما ضد طبائع المرأة التي خلقت لتستعبد لشخص ما : زوجها أو طفلها . وهي تؤيد قولها بأنصع الأدلة وأقوى الحجج ، وتروي لنا أنها كانت تحاضر في ناد نسوي فسألت الحاضرات : لو لم تكوني من بنات هذا القرن فأي زمن تختارين ؟ فأجابتها فتاة ذكية : كنت أحب أن أعيش في أي عصر لا يتطلب من المرأة التفكير ! !

زكي نجيب محمود

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكي

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

وانتقل كوخ بزوجه ومتاع بيته الى برسلاوة ، وعُيّن فيها طبيبا للبلدية براتب قدره تسعون جنيها فى العام ، وكان قد افتُرضَ عند تقدير هـذا المرتب أن كوخ لا شك سيضاعفه أضعافا بما يكسبه من مرضاه ، وأن المرضى لاشك آتون إليه زرافات ووحدانا إذا شاع فى البلد أنه قد حلّ به مثل هذه العبقرية الفذّة . هكذا ظن الأستاذ كُون ، وهكذا ظن الأستاذ كُون هايم ؛ وفتح كوخ داره للناس ، فلم يقرع بابه طارق واحد . عندئذ تعلم كوخ أن من مساوئ الطبيب أن يكون فكّيرا يبحث فى علل الأشياء . وعاد أدراجه إلى قرية ڤُلِشتين عودة حنين بخُفيه ، وفيها ظل يتقفى آثار المكروب ، ويتجسّس الجراثيم ، ويقتنص تلك الخلائق الدنيئة فى أجحارها ، تلك الموجودات المعدومات فى حكم العين ، التى تصل الى جروح الانسان والحيوان فتبُثّ فيها سمّا قاتلا . وظل يحرز فى هذا الميدان السبق بعد السبق من عام ١٨٧٨ إلى عام ١٨٨٠ ، وتعلّم أن يَصْبُغ كل نوع من أنواع البشلات صِبْغات مختلفات لتظهر صُغْراها بيّنة الجرم فيما حولها واضحة الحدود . واقتصد شيئا من المال ، ولايدرى إلا الله كيف اقتصده ، واشترى كُرَةً ربط عدستها بمكروسكوبه ، وتعلم وحده كيف يصوّر بها تلك الخلائق الصغيرة

قال كوخ : « ليس فى استطاعة المرء أن يقنع العالم بحقيقة هذه المكروبات حتى يريهم صُوَرا منها . وفوق هـذا فالمجهر الواحد لا يستطيع النظر فيه اثنان فى آن ، وهما إذا نظرا استحال عليهما أن يَشْغلا عن المكروبة الواحدة صورة واحدة ، وإذَنْ يكون خصام وانقسام . أما الصور الفوتوغرافية فلا تكذب ، ويستطيع العشرة من الرجال أن ينظروها معاً ، ويدرسوها سويّا ، ويخرجوا منها على نتيجة واحدة لا سبيل للخُلف فيها »

على هذا النحو أراد كوخ أن يدخل فى هذا العلم الوليد شيئا من النظام والانسجام مكان الهرجلة والتخليط ، وشيئا من الموسيقى والنغم المتسق بعد النشوز الذى آذى الآذان ردحا طويلا من الزمان

وفى هذه الاثناء لم يغب عن بال أصدقائه ؛ ففى عام ١٨٨٠ لم يدر إلا والحكومة تدعوه الى الحضور الى برلين ليتعين بها زميلا فوق العادة لمصلحة الصحة الامبراطورية . وفى منصبه الجديد أعطت له السلطات معملا جميلا ، ووفرة كبيرة من الأجهزة لم يكن يحلم بها ، ومساعدين ، ومالا كافيا فيه غناءٌ عن طلب الرزق ، وتمكينٌ له من قضاء ست عشرة ساعة أو ثمانى عشرة فى اليوم الواحد بين صبغاته وأنابيبه وخنازيره الجينية

وفى هذا الوقت كانت اكتشافات كوخ شاعت فى معامل أوروبا جميعها ، وعبرت المحيط الأطلسى الى أمريكا ، فقام لها أطباؤها وقعدوا ، وتحمسوا لها ، وانتقدوا من جرائها انتقادا ؛ ودارت معركة حامية الوطيس واسعة النطاق حول نظرية الجراثيم وبلغت فى هذا الأوان أشـدها . واتخذ كل طبيب وكل أستاذ فى علم الأمراض عرف المكرسكوب وخفاياه ، أو خال أنه عرفه وعرف خفاياه ، اتخذ عدته وعتاده ، وقام يتقفى المكروبات يؤمل اصطياد جديد منها ؛ وأخـذت تنجلى الأسابيع عن اكتشافات مزعومة فرح لها الناس عن جراثيم خال أصحابها أنها سبب السرطان أو السل أو التيفود . وصرخ صارخ منهم صرخة تردد صداها فى القارات الخمس زعم فيها أنه وجد مكروبا واسع الأثر بمطيك من الأمراض على هواك ، من التهاب الرئة الى زكمة الدجاج . وهدأت هذه الصرخة ، وتلاشت موجاتها فى الهواء ، لتتبعها أخرى من سخيف آخر يدعى أنه أثبت أن الداء الواحد كالسل مثلا قد تسببه مئات من أنواع مختلفات من المكروبات

ازداد تحمس القوم لفكرة الجراثيم ، وزاد تخليطهم فيها ، حتى خيف على اكتشافات كوخ ذاتها أن يضحك الناس منها ضحكهم من هذه الخزعبلات التى ملأت الكتب والمجلات فى هذا السبيل ، وأن ينسوها نسيانهم تلك الأباطيل

ولكن قُدِّر لأعمال كوخ أن تحيا ؛ واليوم صيحة الأمم أقوى في طلب زيادة في المعامل ، وزيادة في قناص الميكروب ، وزيادة في أجور البحاثات الذين يعملون جهدهم في دفع السوء عنا ، ولا سبيل إلى التقدم إلا أن يبعث الله لنا رجالا ككوخ ذوى صدق وبصيرة

كان ما كان من هذا الحماس الجاهل المشئوم الذي لا يكون من نتيجته إلا القضاء على علم الميكروب وهو وليد ناشىء . ولكن كوخ حفظ اتزانه في وسط هذه الجلبة الضارة ، وجلس في هدوء وسكون يتعلم كيف يربي النوع الواحد من الميكروب خالصاً من أخلاطه . قال : « أنا أومن بأن النوع الواحد من الجراثيم يسبب نوعاً واحداً من الأدواء ، وأن كل داء له جرثومته الخاصة » آمن بذلك قبل أن يثبته ، فكأنما أوحى اليه . قال : « ..... فلا بد لي أن أجد طريقة أكيدة يسيرة أكثّر بها الجنس الواحد من الميكروب دون أن تختلط به الأجناس الأخرى التي هي دائماً حوله تحاول الدخول اليه خلسة واستراقا »

ولكن كيف السبيل الى اقتناص جرثومة واحدة بادئ ذي بدء ؟ اخترع المخترعون عدة مكنات غريبة لفصل الميكروبات ، ونصب آخرون منهم أجهزة مركبة معقدة ، طويلة لا شك أنهم من طولها وتعقد تركيبها نسوا بعد أن أتموها الغرض الذي من أجله نصبوها . وقام بحاث غير هؤلاء ، لا يبالون الموت ، فحقنوا الميكروب الذي حقنوا في جو سام قتال من الكيميائيات المطهرات ليقتلوا جراثيم الهواء التي تسبح فيه على ضلال كي لا تقع في الميكروب الذي يحقنون

— ٥ —

وذات يوم نظر كوخ الى فلقة من البطاطس المسلوق تُركت عفواً في معمله ؛ نظر اليها اتفاقاً وأقر هو بذلك ؛ نظرها فوجدها قد تبقعت بعدة بقع ذات ألوان ؛ فهمس لنفسه قال : « هذه بقعة شقراء ، وهذه أخرى حمراء ، وهذه ثالثة بنفسجية ، ورابعة صفراء . لا بد أنها تكونت جميعاً من جراثيم الهواء » . وأخذ يحدق فيها من قريب لقصر نظره حتى كادت تمترج بها لحيته الخفيفة ، وهمّ ينظف عدسات مجهره وهي رقائق الزجاج . وأمسك بعود رقيق من معدن البلاتين فغمسه بخفة في بقعة من البقع الشقراء ورفعه بشيء منها ؛ ثم وضع هذا الشيء القليل ، ومزاجه كالمخاط ، على رقيقة من تلك الرقائق الزجاجية ، ودافه بقطرة من الماء ، وحدق فيه من خلال المجهر فاذا جماعات البشلات تتهادى في الماء عوماً ، وتشاكلت جميعها فلم يكن بها على كثرتها بشلة واحدة غريبة عن أخواتها . وأخذ من البقعة الصفراء ومن البنفسجية ومن الحمراء ، فوجد الميكروب في احداها مستديراً ، وفي الأخرى عصياً عائمة ، وفي الثالثة حلزونيات كالبريمات دبت فيها الحياة ؛ وليس في هذا جديد ، إنما الجديد أن الميكروبات في البقعة الواحدة متشاكلات لا تختلف واحدة عن أختها

وفي سرعة البرق الخاطف تجلى لكوخ جمال هذه التجربة التي اصطنعتها له الطبيعة : « كل بقعة من هذه البقعات زريعة خالصة من نوع واحد من الميكروبات ... الأمر واضح وتفسيره حاضر ! فالميكروبات عندما تقع من الهواء في الأحسية السائلة التي نستخدمها ، وهي أنواع عدة ، تتكاثر جنباً لجنب ، وتعوم فتختلط فلا ينتج إلا مزيج من أخلاط عدة . أما اذا هي وقعت على سطح البطاطس ، وهو صلب ، لصقت وحداتها في المكان الذي وقعت فيه ، فتكاثرت الواحدة حيث هي فصارت ألوفاً ، ولكن من نوع واحد لا يختلف »

وكان يعين كوخ طبيبان في الجيش ، يدعى أحدهما لُفْلار Loeffler والآخر جفكي Gaffky فدعاهما كوخ في هدوء وأطلعهما على ما وجد ، وأراهما مدى التغيير الذي سيطرأ على دراسة الميكروب بسبب التفاتته السانحة الى قطعة البطاطس المتروكة ، نقول التغيير ، وما كان إلا الثورة ! وبدأ الرجال الثلاثة يدرسون صحة ما خال كوخ بجد لا حد له ، وبدقة ألمانية إذا وصفها الفرنسي المتعصب سماها سخفاً . بدأ الثلاثة يعملون فكنت تراهم صفاً واحداً على كراسيهم الثلاثة ، مكبين على مجاهرهم الثلاثة ينظرون في ضوء ثلاث نوافذ . وقد توسطهم كوخ . ثالوث أي ثالوث ! يبذلون الجهد الجاهد لا ليثبتوا الذي ظنوه ، بل ليكذبوه ، فاذا النتيجة تؤمن على الذي قاله كوخ وقالوه ، وكانت طريقتهم في ذلك أنهم خلطوا من الميكروبات نوعين أو ثلاثة ؛ فيكوّن منها مزيج تعجز الأحسية السائلة عن فصل أنواعه مهما طال زرعها فيها وتكثيرها ؛ ثم جاؤا بقطرة من هذا المزيج ونشروها نشراً واسعاً على سطح مستو لبطاطسة مسلوقة مشقوقة ؛ فاستقرت

المكروبات من هذا السطح على أبعاد غير متقاربة ، وتكاثرت المكروبة الواحدة حيث استقرت فخرج منها الملايين ولكن من نوعها ، ومن نوعها فحسب

بشق بطاطسة عتيقة استحدث كوخ طرائق جديدة لاقتناص المكروب ، وأرسى هذا العلم على قواعد صحيحة يطمئن اليها أولو الفكر اطمئنانهم الى سائر العلوم ، من بعد أن كان ظناً ورجماً بالغيب ؛ ثم أخذ كوخ يتجهز لاقتناص المكروبات التي تسبب عشرات الأمراض التي تفتك بالناس ، ولم يكن كوخ لقى بعد من رجال العلم انتقاداً يذكر ولا اعتراضاً كبيراً ، ذلك لأنه لم يفتح فمه إلا بعد أن كان يتم تأكده من نتائجه ، ثم لأنه كان اذا تحدث بعد ذلك عن اكتشافاته ذكرها في كثير من التواضع فتخاذل خصومه ونام الشر في قلوبهم ، وفوق هذا وهذا لأنه كان دائماً يصوّر لنفسه شتى الاعتراضات الممكنة ، والانتقادات الجائزة ، ويجيب عليها قبل اخراج عمله للناس

وامتلأ كوخ ثقة بنفسه ، فاعتزم أن يلقى الأستاذ رودلف فرشو Rudolph Virchow ، وما أدراك من هو ؟ هو أشهر بحاث ألمانيا في أصول الأدواء ، وأكبر جهابذتها وأعلامها ؛ اذا حدثته في موضوعات شتى أراك فيها من العلم ما لا يريك عشرات العلماء ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . كان فرشو عمدة الطب الألماني ، درس تجبن الدم وقال آخر كلمة تقال فيه ، واخترع ألفاظاً من أروع الألفاظ مثال المترُوبيا وأجنيسيا والأكرونوسس وكثير غيرها مما يسهر طلاب الطب لياليهم في محاولة تفهمها ، ونظر بمكرسكوبه في ستة وعشرين ألف جثة ، ووصف فيها حال الأنسجة وقد غيرتها شتى الأمراض ، ونشر بلا مبالغة ألوفا من الأبحاث في كل موضع يخطر بالبال ، من دراسة أشكال رؤوس الذكور من تلاميذ المدارس الألمانية ، وتفحص أصواتهم ، الى قياس الأوعية الدموية ، وقد بلغت الغاية في الصغر في أجسام بنات اخضرت وجوههن مرضاً واعتلالا

ذهب كوخ الى صاحب هذا الصيت الكبير وفي قلبه رعب ، فدخل الى حضرته على أطراف قدميه احتراماً وخشية أن يتحرك الهواء فينزعج رب المكان

قال كوخ وهو مطرق : « سيدى الأستاذ ! لقد كشفت طريقة لتكثير النوع الواحد من المكروب خالصاً لا شائبة فيه »

فقال الأستاذ : « إذن فقل بالله كيف تصنع ، ففي ظني أن هذا لن يكون »

قال كوخ : « بتربيته على طعام جامد . نعم أستطيع أن أولد منه على قطعة من البطاطس مستعمرات لا يسكنها غير نوع واحد منه . . . . فبدل البطاطس أذيب الآن الجلاتين في حساء من لحم البقر ، فاذا برد انعقدا جميعاً وصار لمزيجهما سطح جامد ، وعندئذ . . . . . »

لم يتحرك فرشو لهذا الكلام ؛ ولما نطق قال في استهزاء الحاقد : « إن منع المكروب من أن تختلط أنواعه عسير جداً ، إلا إذا شاء كوخ أن يبني لكل نوع معملا خاصاً . . » واختصاراً لم يجد كوخ عند صاحبنا غير البرود والتثبيط ؛ ولا عجب ، فالرجل كان قد بلغ من الشيخوخة تلك السن التي عندها يعتقد الرجال أن كل شيء عُرف ، فلم يبق في الدنيا ما يُكتشف ؛ وتولى عنه كوخ وفي نفسه شيء من الكآبة ، ولكن عزيمته لم تهن ، ولم يفعل ما كان غيره فاعله ، فلم يجادل فرشو في الذي كان ، ولا كتب المقالات ، ولا خطب الخطب في النيل منه ، ولكنه اتجه بكل ما فيه من حول الى بحث هو أبدع بحوثه ، الى تقفي أثر أخبث مكروب عرف ، الى كشف ذلك القتال الخفي الذي سبق المكروبات جميعها في حصد أنفس الرجال والنساء والأطفال ، فتقاضى روحاً من كل سبع صعدت الى ربها . شمر كوخ عن ساعديه ، ومسح نظارته ، وبدأ رحلته الكبرى لاقتناص جرثومة السل المروع

(يتبع) أحمد زكي

في طريق المدينة*

للأستاذ علي الطنطاوي

أفاق سحراً — ولا يبدو السحر على أتمه إلا في البادية ، فلا ليل في الجلال كليلها ، ولا صبح في الجمال كصبحها ، ولا نهار في الشدة كنهارها — فجلس ينظر الى هذه الصحراء التي تمتد من حوله ، يغيب أولها في بياض الفجر المقبل ، وآخرها في سواد الليل المدبر ، وهي ساكنة سكون الموت ، واسعة سعة السماء ، فأحس في نفسه بشيء لم يحس به قط ، فقال : لا إله إلا الله ! خرجت من أعماق قلبه . . . وأي امرىء تلقيه الأيام في البادية ، فيرى ليلها ونهارها ، وشمسها ورمالها ، ثم لا يكون أشد الناس بالله إيماناً ، وعليه اتكالا ؟ وهو يرى أبداً من جلال المخلوق ما يخشع منه قلبه لجلال الخالق ؛ وهو يعلم أنه ليس بينه وبين أن يموت عطشاً ، أو يهلك جوعاً ، إلا أن يحيد عن طريقه ذراعاً ، أو ينحرف عن وجهته شبراً . . . وكيف يكفر بالذي لا يرجو النجاة إلا منه ، ولا قوة إلا به ، وليس له من يدعوه إلا إياه ؟

وكانت تلك صبيحة اليوم السابع عشر من أيام البادية ، فطفق يذكر هذه الأيام ، وينظر ما أفاده فيها ، فاذا هو قد عرف من خبر العرب ، في سبعة عشر يوماً ، ما لم يعرفه في سبع عشرة سنة ، يقرأ فيها أسفار العرب ، ويتلو أشعار العرب ، ويدرس لغة العرب ، وتاريخ العرب ، وإذا هو قد سافر ألفاً وثلثمائة سنة في الزمان ، لا ألفاً وثلثمائة كيل على الأرض ؛ وسلك الطريق التي سلكها الغزاة الأولون ، فعلم أن سر قوة العربي الأول الذي عمل ما لم تعمله الجن ، ولا تقوى عليه المردة ، حتى بني للحضارة هذا الصرح العظيم ، فأوت اليه ، وتفيأت ظلاله ، وإن سر عجز العربي الأخير ، حتى نام عن هذا الصرح ، وأباح العدو حماه ، إنما هو (بعد الاسلام) هذه الصحراء

هذه الصحراء التي لا يعيش فيها الجبان العاجز ، لأن الحياة فيها بين عيني الأسد ، لا ينالها إلا شجاع مقدام ، أخو غمرات ، صبار على النكبات ، ضحاك في الملمات ، وإلا ابن الشمس ، صديق الرمال ، حليف الجوع والعطش ، ذو إرادة لا تنثني ، وهمة لا تطاول ، وعزيمة لا تفل

ولا يعيش فيها المريض ، لأنها لم تخلق مستشفى للمرضى ، ولكنها خلقت ميداناً للأبطال ، وأنى يأتي البدوي المرض ، مادام لا يؤتى من قبل معدته (والمعدة بيت الداء) ، ومادام كل طعامه التمر والسمن واللحم والأقط ، وكل شرابه اللبن والماء ، فاذا مرض يشرب قارورة من شعاع الشمس ، وشمس الصحراء أنفع من مجموع صيدليات باريز ! فاذا لم تجده نفعاً ، أجداه الكي ، وما بعد الكي إلا حياة كاملة أو موت كامل ، هو خير على كل حال من حياة ناقصة . . . وقديماً قالوا آخر الطب الكي !

ولا يعيش فيها الفقير ، لأن أهلها كلهم أغنياء . . . وهل الغنى إلا أن تنال كل ما تطلب ؟ وهل يطلب البدوي إلا ماء له وكلأ لمواشيه ؟ فاذا أمحلت الدار أم غيرها :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لمن خاف القلى متحول

ولا يعيش فيها المنافق المتملق الخداع ، الذي يلبس جلد الحمل على جلد الذئب . . . لأن الصحراء منبسطة مستوية متكشفة ، ظاهرها كباطنها ، وليس فيها سقوف ولا جدران ، ولا مغارات ولا سراديب ، وكذلك نفس العربي ما في قلبه على لسانه ؛ فان عاداك فعداوة الشريف ، يستقبلك بالشر ولا يستدبرك به ؛ ويحمل إليك الموت على شفرة السيف ، لا يقدمه في كأس من الذهب ، قد خلط فيها السم بالدسم ؛ وإن صافاك آخاك ، فأخوة الشريف يفديك بنفسه وماله ، ولا يرغب عنك حتى ترغب عنه ، وإذا أنت أنكرت من العرب جفاء في الطبع ، أو خشونة في المقال ، فلن تنكر منهم عوض تلوناً ولا تملقاً ، ولا تنكر منهم لين الحية ولا لطف المستعمر ... على أن الجفاء ليس من شأن العرب ، ولا هو في جميعهم ، وإن فيهم للطفاً ، وإن فيهم لظرفاً ، وإن لهم لأحلاما . . .

* * *

وطفق يذكر كيف كان يتبرم بهذه الأشعار التي تندب الديار وتبكي الأطلال ، ويستثقلها ويراها كأنها الدمى فيها جمال وليس

* أنظر مقالة (في طريق المدينة) في العدد ٩٧ من الرسالة

فيها روح ؛ فلما كانت أول ليلة قضاها وأصحابه في البادية ، وحطّ الركب في قاع الدغيلة [1] فوقفت السيارات الخمس ، ووضعت الأحمال ، ونصبت الخيام ، وأوقدت النيران ، ورفعت القدور ، وبسطت البسط ، ومدّت الفرش ، وكمل المجلس حتى قام المذياع (الراديو) يسمعهم بين الشيح والقيصوم ، أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم

ف.... باتوا بأنعم ليلة حتى بدا   صبح تلوّح كالأغرّ الأشقر

فنادى منادي الرحيل ؛ فما هي حتى طويت الخيام ، ولمّت البسط ، وشدّت الأحمال ، فاذا كل شيء كأنه حلم ، أو كأنه صفحة طويت ، ولم يبق إلا النؤى المهدم ، وإلاّ موقد النار ، فامتلأت نفسه حزناً ، وانطلق لسانه يترجم عن أصدق عاطفة ، وأعمق شعور ، بكلمة النابغة التي استثقلها ، وعدّها من القول المعاد ، والكلام الفارغ :

. عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار . . .

وانطلق يقف اخوانه لحظة ، يحيي فيها هذه البقعة التي ترك فيها ليلة من حياته ، وطائفة من ذكرياته ، وقطعة من نفسه ؛ ثم عاد فسخر منهم كيف يقفون على أحجار قد سوّدتها النار ، وحفرة حفروها من حول الخيمة خشية الأمطار . .

ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟

ويجد القاع بعد أن تقوّضت الخيام ، وطويت البسط ، وضاع المكان الذي سوّاه لنومه ، وأعدّه لجلوسه

أقوى وأقفر من نعم وغيّره   هوج الرياح بهابي الترب موّار

ويطول به الوقوف ، وأصحابه يستحثّونه ، والسيارات (تصرخ) مستعجلة ، فيمشي وهو يفكر في هذا القاع . هل يحفظ هذه الذكريات ؟ ويسأل هذا القاع : هل يذكر أبداً هذه الليلة التي قضاها فيه ، والعواطف التي استودعه إياها ؟ فلا يسمع مجيباً ، ولا يجد إلا أحجار الموقد ، وإلا هذا الثمام الضعيف اللين ، الذي جمعوا منه فأوقدوا به النار ، واتخذوه فراشاً ، فينشد قول النابغة :

وقفت فيها سراة اليوم أسألها   عن آل نعم أموناً عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئاً ألوذ به   إلا الثمام وإلا موقد النار

وتعدو به السيارة عدو الظليم ، وهو لاهٍ عما حوله ، يتمثل الشاعر وقد عمّ الديار ، فلم يجد بها سائلاً ولا مجيباً :

ناديت : أين أحبّتي ؟ فأجبت : أين أحبتي ؟ !

فبرّح به الشوق ، واشتعلت في صدره النار ، وكواه الهجر ، فذهب يذكر نعماً ، وقد كان يسايرها حتى ينأى بها عن الحيّ ، ثم يجلسان حتى تغيب الشمس ، ويلفهما الظلام برداء الأمن من الرقباء ، ويسبغ عليهما نعمة الحبّ ، فلا يكون بينهما إلا كل خير : بينها حبّه ، فتشكو له حبّها ، ويكشف لها عن قلبه ، فتكشف له عن قلبها ، ولا يخفي عنها شيئاً ، ولا تكتمه شيئاً :

وقد أراني ونعما لاهيين بها   والدهر والعيش لم يهمم بإمرار
أيام تخبرني نعم ، وأخبرها
ما أكتم الناس من حاجي وأسراري

***

وجعل يذكر كيف فهم في تلك الساعة قصيدة النابغة ، ونفذ إلى روحها ، وقد كان يتلوها ، ويدرّسها ، ويشرحها ، فلا يفهم منها إلا كلماتها وجملها ، وعروضها وإعرابها ؛ وجعل يذكر ما حفظ من أشعار الديار ، فيبصر فيه جمالاً لم يبصره من قبل ، فيعلم أنه قد كان منه في ليل مظلم ، لا يرى فيه إلا سواداً فطلعت تلك الساعة بدراً ، أراه أن وراء الظلام دنيا واسعة ، وفتنة وجمالاً ، وروضة وأنهاراً ...

وجعل يذكر كيف كان يقرأ أمثال العرب فلا يفهم من قولهم : (أن ترد الماء بماء أكيس) إلاّ أن ذلك أحزم ، فلما خرجوا من القاع وأقبلوا على ماء الهزيم الذي طالما وصفوه لهم وحببوه اليهم ، وجده بئراً منتنة خبيثة ، تقتل من يشمها ، فكيف عن يشرب منها ؟ فعلم أن معنى أكيس : أنك لا تشرب ماء خبيثاً فتمرض !

فلما وردوا ماء الفجر ، بعد مسيرة يومين في الشعب لم تسر السيارة فيهما كيلين متتابعين على أرض كالأرض ، ولكنها كانت

[1] بعد الأزرق قرب الحدود بين شرق الأردن والحجاز ، وقد قضينا فيه ليلة الثلاثاء في ٢ ابريل سنة ١٩٣٥ في رحلتنا الى الحجاز

نظرية النسبية الخصوصية

بقية البحث الأول

الزمان ونسبيته

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم
عضو أكاديمية العلوم الروسية

— ٣ —

علل هذه الظاهرة فتزجرالد[1] بقوله إن المتحركات تتقلص في اتجاه سرعتها ، فالأرض تتقلص في اتجاه سرعتها بقدر الفرق النظري بين رحلتي الشعاعين بحيث تعودان كما هما عمليا في وقت واحد . وقام العلامة لورانتز الهولندي فاستخرج مقدار هذا التقلص في عملية رياضية دقيقة .

لو رمزنا بالرمز « ر » لمسافة رحلة الشعاعة « س١ » ، وبالرمز « ر٢ » لرحلة الشعاعة « س٢ » ، وبالرمز « ص » لسرعة الضوء ، وبالرمز « س » لسرعة الأرض ، لكان :

(1) Y. Fitzgerald: Annalen der Physik, Leipzig p. 137 (1907).

$$\text{ر} = \frac{\text{ر}_2}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ص}^2}}} \quad \text{« معادلة ٤ »}$$

وهذا معناه تقلص الأرض حتى تصير بمقدار :

$$\frac{1}{\sqrt{1 - \frac{\text{س}^2}{\text{ص}^2}}}$$

وبذلك تقرر استحالة استخراج الحركة المطلقة للمتحرك ، وبذا صار من المحال معرفة التواقت

— ٤ —

لا بدّ من فاصلة[1] زمانية لمعرفة سرعة الضوء ؛ هذا إلى أن معنى الزمان قائم على معرفة سرعة انتشار النور . هذا التضاد استخدمه العلامة ألبرت اينشتين في سبيل استخلاص مبادئه الأولى في النسبية الخصوصية

لنفرض كوناً مثل « ك » به نقطة مثل « ا » ثابتة ، وبهذه النقطة راصد ومعه ساعة ؛ ولنفرض أن هذا الراصد يعين حدوث الحادثات في كونه بموجب زمن الساعة التي يحملها ، ولكنه بلا شك يفشل في تعيين زمان الحادثات عينها بالنسبة لنقطة ثابتة في كون آخر يتحرك حركة انتقالية ازاءه ؛ ما لم يوحد سير ساعته مع سير ساعة الراصد القائم في الكون الآخر

وتوحيد سير الساعتين لا يقوم إلا على اشارة ضوئية ؛ والضوء كما قلنا سرعته واحدة في كل الجهات ؛ ومعنى هذا أن الفترة التي تستغرقها شعاعة الضوء لقطع المسافة من الكون الأول الى الثاني هي عين الفترة التي تستغرقها للعودة من الكون الثاني الى الأول .

هكذا يتحول معنى المسافة الممتدة بين النقطتين « ا » في الكون الأول ، و « ب » في الكون الثاني من امتداد الأجسام الصلبة إلى أمواج النور ، أعني أنها تتحول من خط امتداد الأجسام الصلبة الى المسافة التي تقطعها أمواج النور في آماد متساوية

(1) Albert Einstein and M. Grossmann "Kosavazeignschaften der feldgleichungen der Gravetatioustheorie" L. M. Physik. 6-3-1941 P. 215

تعلو صخرة ، أو تهبط حفرة ، أو تغوص في رملة ، لما وردوا الماء وجدوه جافاً ، فعلم أن معنى ا كيس : أنك تبقى بلا ماء فتموت

***

ثم نظر فرأى الفجر قد انبثق ، فأيقظ المؤذن ، وكان قوي الحنجرة جهير الصوت ، فأذن فزلزل البادية بـ « الله أكبر »

فلما قال « أشهد أن محمداً رسول الله » ، لم يتمالك صاحبنا نفسه أن تضطرب وقلبه أن يخفق ، وعينه أن تدمع :

هذا آخر يوم من أيام البادية . لم يبق بيننا وبين المدينة إلا نصف مرحلة ... فهل يكتب لنا أن ندخل من باب السلام ونقوم أمام الحجرة ونسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ...

علي الطنطاوي

هذا التبدل يؤدى الى تغيير موضوع الهندسة الأوقليدية ، إذ تتحول الأشكال والخطوط الأوقليدية التى ترسمها الأجسام الصلبة فى تحركها الى الأشكال والخطوط الاينشتينيّة التى يرسمها سير أمواج الضوء

— ٥ —

لقد رجع اينشتين بعالم الحادثات الى الهندسة . ومن المعلوم أن هنالك ضربين من الرياضيات : ضربا ذهنيا محضا ، وضربا حسيا . فالضرب الأول هو الذى تقوم عليه مبادئ الرياضة ، وخاصة التحليلية منها ، والضرب الثانى يتفق والأول فى الماهية الرياضية ، إلا أنه يختلف فى كونه راجعاً الى الحس والتجربة . والمدرسة الأكسيومانيكية تجد فى مكان الرياضة المحض مكانَ المنطق الصورى والذهن الخالص

على هذا الأساس لومضينا ندقق موضوع الهندسة الأوقليدية لألفيناها هندسة ترجع لخواص الأجسام الصلبة وعلاقاتها ببعض ، فهى ضرب من الهندسة التجريبية ، وبذا تعد ضرباً من الطبيعيات . والهندسة الأوقليدية ليست قضاياها منطقية تحليلية فحسب ، بل هى تنطوى على أحكام تجريبية مستمدة من الاختبار والمشاهدة ، وبذلك كانت بعيدة عن ساحة الهندسة الصرفة

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال من حول الهندسة الأوقليدية وعمليتها بمعنى : هل هى تلتئم من حول حوادث هذا العالم ؟ وللاجابة على هـذا السؤال نلجأ للتجربة ، فهى الأداة العلمية الوحيدة التى تمكننا من الاجابة على هـذا السؤال ، فان قياس أى طول فى علم الطبيعة يرجع لمبدأ انتشار النور فى خطوط مستقيمة ، وبذا تأتى الأطوال ترجع إلى ضرب من الرياضة التجريبية ؛ وهذه الحقيقة نخرج منها بنتيجة هامة . فالنقطة والخط .... ؛ ليس من المهم أن نقول إن معرفتنا بها عقلية ، لأننا فى الحقيقة نفرض صحة بعض المبادئ ، ومن حول هذا الفرض نقيم هندستنا الصورية التى لا ترجع معرفتنا بمبادئها الى التجربة ؛ إذ هى مبادئ أوجدها العقل الانسانى وصرح بامكانها . غير أنه من المهم أن نقول إننا بارجاعنا الهندسة إلى مبدأ انتشار الضوء نقرر ضمناً ارجاع الهندسة الى الطبيعيات الحديثة أو العكس ، ويكون مقدار ما فى الهندسة من الصواب بمقدار ما فيها من المرونة للالتئام من حول حقائق العالم الخارجى ، وهكذا نرى الهندسة الأوقليدية تنهار حيث لا تتفق ومبـدأ انتشار النور [1]

— ٦ —

« موضوع النسبية الخصوصية : تقوم على أساس أولى فى تحويل موضوع الهندسة من الأشكال التى ترسمها الأجسام الصلبة اللامتغيرة الى الأشكال التى ترسمها الأمواج النورية الثابتة » برترِ اندرسل

لنفرض ساعة فى نقطة مثل « ا » حيث صدرت منها شعاعة نور فى الآونة « $ا_1$ » الى النقطة « ب » فوصلتها فى الآونة « $ب_1$ » ثم رجعت الى « ا » فى الآونة « $ا_2$ » فتكون :

$$\text{«ب}_1\text{»} - \text{«ا}_1\text{»} = \text{«ا}_2\text{»} - \text{«ب}_1\text{»}$$

أو أن :

$$\text{«ب}_1\text{»} = \frac{\text{«ا}_1\text{»} + \text{«ا}_2\text{»}}{2}$$

بمعنى أن الساعة التى فى « ا » تكون متساوية فى سيرها مع الساعة التى فى « ب » ويكون اعلان الساعتين للزمان واحدا . فلو أردنا أن نعين زمان الساعتين فى وقت واحد فما علينا إلا أن نرسل إشارة نورية بزمان النقطة « ا » إلى « ب » فتضبط استناداً عليها نقطة « ب » زمانها ، وعليه تكون النقطتان متوافقتين فى زمانهما ، وهنا يوحى التواقت إلى الذهن فكرة أن الزمان ليس أكثر من مجرد الفواصل التعاقبية للحادثات [2]

— ٧ —

ما معنى التواقت ؟

حدثت حادثة مثل « ح » فى « ا » وحادثة أخرى مثل « $ح_1$ » فى « ب » ؛ فما معنى تواقتهما ؟

(1) Albert Einstein : Geometry and Experience., 1935 P. 35 -73

(٢) (إن تعاقب الحادثات فى النفس يكون فى الذات مفهوم الزمان الذاتى ، ويقابله فى الخارج الزمان الموضوعى الذى لا يخرج عن كونه تعاقبات الحادثات الكونية . فلو تصورنا مجموعة من الحوادث النهائية وهى تطرق الوعى ؛ فهى بطبيعتها ستتبع حالة تعاقبية فى طرقها ؛ وحيث أن موضوع الذهن واحد لا يتغير ، فوصول حادثة قبل أخرى أو بعدها أو معها توجد علاقة ذهنية فى العقل تحدد مفهوم الزمن الذهنى ، بينما هذه العلاقة تحدد فى الخارج بمعنى تقديرى رياضى للحادثات تنزل منه منزلة الزمن الذاتى من الذات ، ولولا الحركة لما كان للزمن من مفهوم ، فتعاقب الحوادث بأسلوب نهائى يعرض على الذهن مع الحادثات ذاتها يشكل موضوع الزمان ، والتعاقب يجرى فى خط واحد فيتحد مع خطوط المكان الثلاثة فيكون الحدود الأربعة للمادة) ص ١٣٢ من كتابنا الشواهد المباشرة للوجود ، طبعة ميلان — لندن ١٩٣٤

للاجابة على هذا السؤال نفرض أن الحادثة « ح$_{١}$ » حدثت في الزمن « ا$_{٢}$ » كما أن الحادثة « ح » حدثت في الزمن « ا$_{١}$ » ، فلو كان سير ساعة النقطة « ا » هو سير ساعة النقطة « ب » ، وما تقلنه الساعة الأولى من الوقت هو ما تملنه الساعة الثانيـة فالحادثتان متواقتتان

على هذا الأساس يمكننا أن نعرف الزمان إستناداً على إشمارات الساعات ؛ ولكن لنا أن نتساءل : هل يصح القول بتواقت حادثتين حدثت إحداهما في كون مستقل عن الآخر وهما يتحركان بالنسبة لبعض حركة انتقالية ؟

للاجابة على هذا السؤال نرجع لمثالنا السابق فندقق فيه النظر فسنرى أن ساعات كل كون يمكن أن تتساوى في سيرها مع آخر ، وعليـه يمكننا تعيين زمان حدوث أية حادثة بأية ساعة في هذا الكون لانتشار النور خلاله بسرعة ثابتة ؛ أما في أكوان متعددة تتحرك بالنسبة لبعضها حركات انتقاليـة كما هو جار في العالم الخارجي فلا يمكن القول بالتواقت لانعدام واسطة استخراج الحركة المطلقة . ولبيان هذا نفرض خطاً يمتد من النقطة « م » إلى « م$_{١}$ » طوله ٩٠٠٠ وحدة طولية ، وأن هنالك شعاعاً من النور يقطع هذا الخط من اتجاه « م » إلى « م » بسرعة ٣٠٠ وحدة طولية في الساعة ، ولنفرض كذلك طيارة بها راصـد تتحرك من جهة « م » إلى « م$_{١}$ » مع شعاعة النور بسرعة ٧٥ وحدة طولية في الساعة ؛ ولنرمز للراصـد الذي بداخل الطيارة بالرمز « ص$_{١}$ » ، ولنفرض أن في منتصف المسافة بين « م » و« م$_{١}$ » على بعد ٤٥٠٠ وحدة طولية من كل من النقطتين يقوم راصد مثل « ص^{٢} » في النقطة « ن » ومعه جهاز كهربائي يمتد طرفاه إلى نهاية الخط من الجهتين ، وبكل طرف مصباح كهربائي يبين باشارة نورية تأتيـه من الجهاز الكهربائي الذي مع الراصد « ص^{٢} » وبالطبع ستتلاقى الشماعتان معاً عند « ص^{٢} » في آونة واحدة

لنفرض أن الراصد « ص^{٢} » ضغط على جهازه الكهربائي فصدرت منه إشارتان كهربائيتان إلى النقطتين « م » و « م » حينما صارت الطيارة براصدها « ص$_{١}$ » أمامه تماماً . فهل تبدو الشماعتان الواردتان من المصباحين متواقتتين لكل من الراصدين « ص$_{١}$ » و « ص$_{٢}$ » لأن كلا منهما في منتصف المسافة بين « م » و « م$_{١}$ » حينما ضغط « ص^{٢} » على الجهاز الكهربائي الذي معه ؟

إن الاشارة الكهربائية ستقطع المسافة من « ن » إلى كل من النقطتين « م » و « م$_{١}$ » في ١٥ ساعة « $\frac{٩٠٠٠}{٢} \times \frac{١}{٣٠٠}$ » وستقطع الموجـة النورية الصادرة من المصباح الذي في « م » المسافة من « م — ن » ومن « م$_{١}$ — ن » في نفس المدة . فبعد ثلاثين ساعة يشاهد الراصد « ص^{٢} » الشماعتين قد وصلتا أمامه في « ن » في آونة واحـدة . هاتان الحادثتان متواقتتان للراصد « ص^{٢} » ، ولكن هل هما متواقتتان بالنسبة للراصد « ص$_{١}$ » ؟

لا . لأن الراصد « ص$_{١}$ » يكون قد غادر النقطة « ن » عندما ضغط « ص$_{٢}$ » على الجهاز ، فيأخذ في الاقتراب من نقطة « م » بمعدل ٧٥ وحدة طولية في الساعة ، وحينما تتلاقى الشماعتان عند « ص$_{٢}$ » يكون هو قد قطع ٢٢٥٠ وحدة طولية ، ويستقبل الشماعة الواردة من النقطة « م$_{١}$ » قبلما تصل إلى « ن » ، فعنده تجري حادثة وقوع شماعة « م$_{١}$ » قبل أن تجري حادثة وقوع شماعة « م » ؛ أعني أن الحادثتين غير متواقتتين عنده . ونستنتج من هذا أن التواقت نسبي حسب الشاهد وكذلك الزمان

— ٨ —

إن التواقت نسبي في أكوان تتحرك بالنسبة لبعضها حركة انتقالية كما هو حاصل في عالمنا هذا . ويصح التواقت بين حوادث كون ما كن ؛ أما في أكوان متحركة فلا يصح القول بالتواقت حتى ولو وصلت الحادثات إلى الشاهد متواقتة في وقوعها ، إذ يلزم أن تكون الحوادث في وضعها متواقتة ؛ ولما كان السبيل إلى ذلك قائماً على معرفة الحركة المطلقة للأكوان ، وكانت الحركة المطلقة مستحيلاً استخراجها ، كان القول بالتواقت المطلق لغواً ، وكان لكل حادثة زمان خاص نسبي لها حسب المشاهد ؛ كذلك يكون التواقت نسبياً حسب الشاهد ، فما هو متواقت عندك يكون غير متواقت عند غيرك

من هنا نخرج بأن الزمان نسبي ، وأن التواقت نسبي ، وأن زمان كل حادثة نسبي لمشاهدها

(تم البحث الأول) اسماعيل أحمد أدهم

في الأدب الأمريكي

مارك توين

[بمناسبة انقضاء مائة سنة على ميلاده]

— ١ —

في يوم السبت الماضي ٣٠ من شهر نوفمبر سـنة ١٩٣٥ احتفل الأدباء في أغلب أقطار الأرض بانقضاء مائة عام على مولد الكاتب العبقري الأمريكي الفكه مارك توين . ومن من الناس لا يحيي ذكرى مؤلف : (مخاطرات توم ساوير) ، و (هكلبيري فين) ، و (الأمير والشحاذ) وغيرها من القصص التي استهوت قلوب الصغار لفكاهتها وطرافتها ، وعقول الكبار لحكمتها وبلاغتها ؟ إن الذين قرأوا مارك توين قد علموا بعض العلم عن الرجل ، لأنه انما يتحدث في الغالب عن نفسه أو عن ذويه في قصصه ؛ وقد روى ذكريات طفولته في تلك المخاطر التي عزاها إلى أولئك الأطفال الذين عاشوا على ضفاف (المسيسبي) ؛ وليست العمة الشهيرة (بولي) في قصته (توم ساوير) إلا أمه . ولعلنا نستطيع أن نزيد في هذا العلم شيئاً بحكاية تاريخ حياته المضحكة المبكية المملوءة بالمخاطر والأحداث والطرف ، فانها في ذاتها لا تقل امتاعا للقارئ عن سائر كتبه

* * *

في ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٣٥ ، وفي قرية (فلوريدا) بولاية (ميسوري) ازدادت أسرة المحامي (جون كليمانس) واحدا بولادة طفل خامس سموه (صمويل) ، ثم صار بعد حين من الدهر (مارك توين) ؛ وكان يؤكد أنه لم يكد يولد حتى وجد له محلا بين عظماء الناس ، لأن ولادته زادت في عدد قريته واحدا في المائة ، إذ كان تعداد سكانها مائة بالضبط

وفي سنة ١٨٣٩ عين أبوه النائب القانوني قاضياً في (هانيبال) على شواطئ المسيسبي فلحقت به أسرته ؛ وهناك قضى صمويل شطرا من طفولته . وكانت الطباع في ذلك البلد شرسة ، والأخلاق منحلة ؛ فالمقامرة والمناقرة والعراك والقتل أمور مألوفة وحوادث فاشية ، وصمويل قد شهد بنفسه أربع حوادث من حوادث القتل ، وقد اختزن في ذاكرته جملة من مشاهد هذه الحياة وصفها في مؤلفاته . وكان في هانيبال عدد وفير من العبيد ؛ وكان لأسرة كليمانس منهم ثلاثة أعبد جاءت بهم أم صمويل مهراً لأبيه . وكان هؤلاء المساكين يحبون صمويل حباً جماً لرقته وعطفه ؛ ولهم من ذكرياته في مؤلفاته حظ عظيم

كان صمويل في المدرسة شديد الكسل رديء العمل ، يؤثر على درسه وكتبه الاجتماع بطغمة من رفاقه الأشرار الذين أتى واياهم من النكرات والسيئات ما قرأناه بعدُ في قصصه . وقد يئست أمه من صلاح أمره ؛ وكانت سيدة جميلة ذكية متسلطة تؤثره وترعاه ، ولها عليه سلطان قوي مدى عمرها الطويل إلا في الجانب الذي يتعلق بدراسته . كان تقويمه من طريق الاقناع عبثاً ، فعمدت أمه الى تقويمه بالضرب والأذى ؛ وفي ذات يوم قالت له وهي تضربه : صدقني يا بني أني حين أضربك أتألم بشدة ، فأجابها بقوله : هذا ممكن ، ولكنك تألمين في غير الموضع الذي أتألم منه . وهذا الجواب الذي صار مثلا يشهد هو وغيره أن صمويل كان حاضر البديهة سريع الجواب

* * *

كان من عادة مارك توين أن يقول : « إن السيد الحقيقي للانسان هو المصادفة » . وذلك قول صحيح بالنسبة له ، فان المصادفات الطارئات والظروف المفاجآت كثيرا ما غيرت مجرى حياته . فقد كان صمويل لا يزال على مقاعد الدرس حين فجعه الموت في أبيه ، فاضطرت أمه أن تخرجه من المدرسة وتجعله (صبياً) عند صاحب جريدة (هانيبال كوريير) يعمل له من غير أجر إلا الطعام والمأوى ؛ ولكن الجراية كانت وا أسفاه قليلة لا تسد رمقه .. ولما أصدر أخوه الأكبر (جريدة هانيبال) في سنة ١٨٥٠ ضمه اليه وعمره يومئذ لا يزيد على خمس عشرة سنة ؛ ولكن النجاح لم يكن على قدر الأمل فقل عدد الموظفين واضطر صمويل الى أن يجمع بين صف الحروف وبين ترتيب المواد ، وأن يجوب بعد ذلك شوارع المدينة للتحصيل ، فيعود مملوء اليدين بالحبوب لأن أغلب المشتركين كانوا يؤدون قيمة اشتراكاتهم عيناً . كان العمل كثيراً ، ولكن صمويل مع ذلك

كان يجد الفراغ للكتابة مقالة أو أقصوصة تظهر فيها دلائل قريحته الفكهة المنتظرة؛ وكان ينتهز الفرصة في غياب أخيه لبعض أعماله، فينشر في الجريدة ما يكتب؛ وكان أكثر ما يطرق من الموضوعات التعليق اللاذع على الحوادث المحلية، فيؤنبه على ذلك أخوه؛ ولكن الجمهور كان شديد الاعجاب بها، وأكثر القراء كانوا لا يشترون الجريدة إلا ليقرأوها ...

وفي ذات يوم رأى في غيبة أخيه أن يلهو مع القراء فنشر أقصوصة عن صحافي أمريكي مدع كان مولعاً بالأسفار، فوقع في بعض رحلاته في أواسط أفريقية أسيراً في قبيلة تأكل لحوم البشر، فكان مصيره الأليم لا شك فيه، إلا أن شيخ القبيلة أراد أن يستجوبه طويلا عن حرفته، وعن الغاية المقصودة من رحلته، فلما سأله في ذلك أجابه المسكين وعيناه الزائغتان تنظران الى معدات الوليمة: أنا لست إلا صحافياً متواضعاً يا مولاى العظيم. فقال له الشيخ: صحافي؟ تريد أن تقول انك مدير جريدة؟ فأجابه: أوه! كلا يا مولاى القادر ما أنا إلا وكيل حقير، فقال له اطمئن أيها الرجل الأبيض! سترقى بعد أن تصنع منك الحساء الى مدير! ...

كانت هذه النوادر المضحكة تستهوى ألباب القراء، ولكن أخاه (أوريون كليمانس) كانت لا يجد لها مذاقاً ويرجو منه ألا يستمر فيها. على أن صمويل لم يحرص على البقاء في الجريدة، فقد كان نزوعاً بطبيعته الى الاستطلاع والنقلة، ولكن افلاسه كان يحول بينه وبين قضاء هذه النزعة. وقد طلب من أمه أن تقرضه خمسة دولارات، فأبت عليه ذلك حتى لا تشجع فيه هذه النزعة التي تحسبها نوعاً من التشرد والصعلكة؛ فاضطر الى أن يتذرع بالصبر حتى يجمع المبلغ المطلوب بارة فبارة، حتى اذا ظن أنه أصبح غنياً يستطيع مواجهة العالم الفسيح فر في ليلة من الليالي يريد (أن يحيا حياته) على حد تعبيره، فتكسبه الترحال والتجوال ثروة في اختباراته، ووفرة في انطباعاته، أفادته كثيراً فيما بعد حين تكشفت مواهبه النادرة عن الكاتب النابه (مارك توين).

— ٢ —

على أن من النادر أن تأتي الشهرة والنباهة دفعة واحدة، فقد كان أول الطريق على صمويل وعراً، طوّف في البلاد ما طوّف حتى بلغ نيويورك، فأتقن فن الطباعة، ثم ارتد الى هانيبال، وكان عمره إذ ذاك ثمانية عشر عاماً؛ وكان أخوه في غضون ذلك قد تزوج وأصبح مديراً لاحدى المطابع، فصار صمويل عاملا من عمالها، ولكنه كان قد تذوق الحرية وقرأ كثيراً من كتب الرحلات، فما كان يحلم إلا بانتجاع أمريكا الجنوبية على ضفاف الأمازون؛ وكان للمصادفة مرة أخرى يد بيضاء في توجيه الشاب الحالم. فقد عثر ذات يوم في الطريق على ورقة مالية من ذات الخمسين دولارا، ولما لم يجد لها طالباً في الصحف احتفظ بها وعاد من جديد يضرب في الأرض.

سار على ضفاف المسيسبي منحدرا مع مجراه حتى بلغ بعد خمسة عشر يوما (أورليان الجديدة)، وهنالك أدركته خيبة الأمل؛ فقد علم أن ليس في البواخر ما يسافر الى الجنوب، وإذن لا يستطيع أن يبحر كما فكر وقدر. صفرت يده من المال، وهددته الشرطة أن يعاملوه معاملة المتشرد، وأخذت حاله تسوء من يوم ليوم ... ولكن آلهة المصادفة كان يرعاه، ففي الوقت الذي بلغت فيه حاله من الحرج وحياته من الضيق مبلغاً شديداً، ألقى في طريقه بحاراً يدعى (بكسبي) تقدم اليه صمويل ليكون تلميذاً بحرياً في سفينته دون أن يفكر في المصاعب التي يلقاها اللاح في نهر كالمسيسبي طوله اثنا عشر ألف ميل، وبه من التماريج ما يجب على راكبه أن يعرفها على التفصيل والجملة. ولكن وساطة بعض الأصدقاء ذللت له العقبات وسهلت عليه القبول.

قضى المغامر الشاب عهد التعلم الشاق في ثبات وصبر وشجاعة، حتى غدا قائدا ماهرا للسفينة ... أصبحت حجرة الدفة مأواه، والنهر المتنوع الحلى مدرسته، فكانت هذه الحياة العاملة التي قضاها في النهر بعد تلك المقالات التي نشرها في جريدة أخيه مدرسة ناجحة لهذا الصحافي المنتظر؛ ومن ملاحته في الماء العذب أخذ صمويل اسمه المستعار (مارك توين)، فقد كان في بعض مواضع النهر كثبان من الرمل، فاذا ما اقتربت السفينة منها سبر العامل المختص غور الماء، وقال وهو يلاحظ المسبار: ارقم ثلاثة (By the mark three) أرقم اثنين (mark twain) وهلم جرا ... فأعجبت صمويل كلمة مارك توين فاتخذها اسما له.

راغ صمويل من حرب الانفصال طول شبوبها ، ثم سافر بعد ذلك مع رفيق له يبحثان عن الذهب ، ولكن ما معه من المال نفد سريعاً ، فاضطر الى العمل أجيراً فى منجم من مناجم الذهب بعشرة دولارات أسبوعيا ، وهى أجرة ساخرة إذا قيست بالعمل المرهق المنهك الذى كان يؤديه هذا المسكين . وذلك كان رأيه ، فانه حين ظفر يوماً بمقابلة المدير طلب منه زيادة الأجر فقال له المدير : إنك لا تساوى شيئاً ؛ ومع ذلك فأنا أحب أن أعرف ادعاءك . فقال له صمويل بأدب : إنى رجل معقول ، لذلك أقنع بأربعمائة ألف دولار فى الشهر ! فما كان جواب المدير إلا أن طرده لتوه . ولما لقيه بعد ذلك مصادفة سأله ألم تندم على شىء ؟ فقال له : بلى « بعد أن علمت ما هو العمل فى المنجم كان ينبغى أن أطلب سبعمائة ألف دولار أجرة فى الشهر لا أربعمائة ألف كما طلبت »

بعد هذه التجربة القاسية عزم صمويل أن يبحث عن الذهب على حسابه ، فاشترك مع رفيق له ، وحصل على امتياز ومضى فى العمل . ولكنه تعلم على حسابه أن الثروة لا تواتى الجسورين دائماً . فقد أهمل هو ورفيقه أن يسورا الأرض التى علكان فيها الامتياز ، فنازعهما على ملكها بعض الناس ، وأعوزهما الدليل فآلت الى هؤلاء المنازعين ، وبحثوا فيها فعثروا على عروق خصيبة من الذهب . وكانت الصدمة قوية على الشابين . ولكن المصادفة أدركت صمويل فى ساعة المحنة . إذ طلب إليه أن يكون وكيلا للادارة فى جريدة (انتربرايز) ، وهذا المنصب فى نظر صمويل كان عرقاً ذهبياً من نوع آخر ، إذ أدخله على غير انتظار فى حلبة الأدب . وكان دخوله فى تحرير هذه الجريدة فرصة حسنة تمكنه من ناصية الانشاء والقصص ، فصقل بالتحرير أسلوبه ، وهذب بالمران حكاياته ، ولكن طبعه المهتاج وروحه الداعب الفكه لم يحمدا فيه ؛ وأوشك فى البداية أن يقع منهما فى ورطة شديدة ، وذلك أنه نشر فى بعض الأيام بيانا عن حادثة قتل وقعت فى محطة (دوتش نيكس) أطلق فيه لخياله العنان ، فذكر أن القاتل بعد أن طعن زوجته وأطفاله التسعة بالخنجر ، وضرب نفسه فقطع عنقه من الأذن إلى الأذن ، امتطى جواداً عدا به حتى بلغ (كنساس ستى) ثم خر صريعاً هناك . نقلت ذلك الخبر جرائد كاليفورنيا كلها ثم حملت فى تعليقاتها على وحشية القاتل وفظاعة جرمه ، ولكن جرائد بعض الولايات القريبة روت ذلك الحادث الغريب وقالت انه حديث خرافة . فكان ذلك فضيحة ظريفة للكاتب أوشكت أن تخرجه من عمله

ثم انتقل إلى (سان فرنسيسكو) واستمر يكتب فى الصحف كتابة رفعت شأنه وأذاعت اسمه فى ولاية (كاليفورنيا) ، ولكنه بعد أن نشر كتابه (قصة الضفدعة التى تثب) أصبح نابه الذكر بعيد الصيت فى أمريكا أولا ، ثم فى سائر البلاد بعد ذلك ؛ واحتل من الأدب العالمى مكانا ممتازاً لا يتبوؤه إلا القليل . كذلك فى هذه المدة نال مارك توين شهرته الدائمة فى فن المحاضرة ، وأضاف إلى علمه العميق بفن القراءة وقدرته العجيبة على زخرف الحديث ، موهبته الساحرة لجذب قلوب السامعين باللهو والضحك . ولما عزم أن يحاضر الجمهور لأول مرة كتب فى الاعلان الذى ألصقه على الجدران : « فتح الأبواب فى الساعة السابعة والنصف ، وابتداء الضجة الفاضحة فى الساعة الثامنة تماما » . ولما زار انجلترا ليلقى فيها بعض المحاضرات أحس فى أول اختلاطه بالجمهور اللندنى بعض الفتور وشيئا من عدم الثقة ، فعلم أنه ليس من اليسير التغلب على الطبع الانجليزى المتزمت المحتشم ، فطفق يتحدث عن أخبار رحلاته وعن انفعالات نفسه أمام جبل « يبرد الهواء على قمته بردا يجمد له مخ الانسان فى التو ، وأثر ذلك فى كل من يصعدونه أن يصبحوا عاجزين عن قول الحقيقة » ثم سكت قليلا وقال فى لهجة نادمة ساذجة : « انى أعرف شيئا عنه لأنى صعدت فوقه ! » فانفجرت قاعة المحاضرة بالضحك المغرب ، واعتقد ساعتئذ أنه ربح الصفقة واكتسب السامعين

وكان يلقى ذات مرة محاضرة فى (بوستن) فقاطعه أحد السامعين وسأله رأيه فى الجنة والنار ، فأجابه « لا أريد أن أبدى رأيى فيما تسأل ، لأنى لى أصدقاء كراما فى هذه وفى تلك ! »

— ٣ —

كان مارك توين ذكى القلب متوقد الذهن ، ولكنه لم يكن على شىء من حسن السمت وجمال الشارة ، فقد كان هندامه مهملاً ولفاؤه جافاً ومعاملته خشنة ؛ على أن السنين صقلت هذا الفلاح فاكتسب سمت النبلاء بفضل امرأته (أوليفيا كليمنس) التى بنى عليها فى سنة ١٨٧٠ . وكانت هذه السيدة أنيقة مثقفة

ذكية ، فأثرت تأثيرها الجميل فى زوجها ، ودامت حياتهما الزوجية خمسا وثلاثين سنة لا يكدر صفاءها حادث ، ولا ينغص هناءها خلاف . وقد جاهدت هذه الزوجة الكريمة فى إصلاح زوجها ، فلمت شعثه وحالت بينه وبين بعض الأمور التى لا تلائم مكانته . كانت ترعاه رعاية الأم لطفلها ، فلا تدعه يخرج الى مكان ما قبل أن تفحص هندامه فحصاً دقيقاً مخافة أن يكون فى شكله وزيه ما يخالف العادة

وكانت تنتبه إلى كل شىء حتى إلى خلع معطفه فى المدخل قبل أن يدخل البهو . فاذا غابت ذات يوم كانت الطامة ، فقد اتفق مرة وهما فى وشنجطون أن خرجت السيدة كليمنس لبعض شأنها ، وكان على مارك توين زيارة لابد أن يؤديها إلى سيدة من سيدات الطبقة العليا . فارتدى ثيابه بنفسه وخرج دون أن يخضع هذه المرة لتفتيش زوجه . أدى الزيارة وعاد إلى مكتبه فى زيه الفاخر وطفق يعمل . وكانت زوجه قد عادت فى هذه الاثناء فدخلت عليه تلاطفه وتسأله عن الزيارة . ولكنها لم تكد تلقى على السيد نظرة حتى رفعت يديها إلى السماء وصاحت قائلة : يالله ! أفى هذه الهيئة زرت السيدة فلانة ؟ فأجابها : وهو يلقى بعينه النظر فى نفسه خلسة : ماذا ؟ أليست فى زى أنيق وشارة حسنة ؟ فقالت : ولكن أين رباط رقبتك ؟ لقد نسيت رباط رقبتك ! يالفضيحة الفظيعة يا عزيزى !! فأجابها بلهجة مصالحة : « أهذا كل ماهنالك ؟ لاتضايقى نفسك فسأسوى الأمر » وما كان أشد دهشة الزوجة حين علمت فى اليوم التالى كيف سوى زوجها الأمر ! علمت أنه أرسل رباط رقبته مع الخادم إلى السيدة التى زارها مصحوباً ببطاقة كتب عليها : « هذه تكملة زيارتى »

***

على أن الدهر لم يسالم الكاتب النابغ طويلا ، فقد فجعه الموت فى ثلاث من بناته قضين صغيرات ، وجل الخطب وفدح الرزء بفقد زوجته المحبوبة ؛ ولكنه عاد فتصرف على هواه ، وقرر بعد موت زوجته ألا يرتدى غير الثياب البيض وقد حرص على اتخاذ هذا اللون بقية عمره

كان مارك توين رقيق القلب شديد العطف على الناس يقابل ضعفهم بالتسامح ، وبؤسهم بالرحمة ، وجرمهم بالعفو ؛ وذلك فى شىء من الفكاهة الحلوة والدعابة الخبيثة . دخل اللصوص ذات ليلة فى منزله فى (إستار مفيلد) وسرقوا كل ما وجدوه من الأوانى الفضية ؛ وكانت هذه السرقة شغل البيت وحديث أهله بالطبع ، فأخطروا الشرطة وأذاعوا الخبر وتقاسموا الهم ، إلا مارك توين ، فقد كان فى هذه الضجة هادئاً لا يعبأ بشىء ولا يقوم بحركة ؛ فلما هم بالانصراف ليلاً إلى مخدعه علق فى مكان ظاهر من مدخل الدار ورقة كبيرة كتب فيها هذه الكلمات

(اعلان للصوص فى المستقبل)

ليس فى المنزل بعد الآن أوان فضية بل مفضضة ، وهى فى ركن من أركان قاعة المائدة بجانب السلة التى تنام فيها القطاط الصغيرة ؛ وإذا احتجتم الى هذه السلة فلا تنسوا أن تضعوا القطط فى درج البوفيه الأسفل . أرجو ألا تحدثوا ضوضاء ، وأن تغلقوا الباب وراءكم ، وتقبلوا خالص احتراماتى ؟ (س . كليمانس)

ومن السهل أن تتصور ما قابلت به الأسرة هذا الاعلان من الدهش العظيم والضحك الشديد . وهكذا عاش ممثل الذكاء الأمريكى حتى توفاه الله فى ٢١ أبريل سنة ١٩١٠ وهو فى أوج مجده

حول السنيين والشيعة

إلى الأستاذ أحمد أمين

للأستاذ السيد محمد صادق الصدر

يسرني ويسرني جداً أن أقرأك أيها الأستاذ الأمين على صفحات « الرسالة » – صحيفة الأدب الخالدة – حاملاً لواء الوحدة، داعياً الى الاتحاد والألفة. وإن في لحنك الجديد العالي – يا أستاذ – لذة ومتاعا، وإن فيه كل ما تصبو اليه النفوس الحساسة الشاعرة، وإن تفسيرك للفظة الشيعة التي وردت في كتابيك الجليلين وسفريك الثمينين: فجر الاسلام وضحاه، وتصريحك بأنك لم تقصد من لفظ الشيعة الامامية الاثنى عشرية منهم، وإنما قصدت الغالي الممعن في غلوه، كل ذلك منك عاطفة مشكورة نقدرها كل تقدير ونكبرها الاكبار كله؛ وإن عاطفتك هذه لدليل أقوى دليل، وبرهان أسطع برهان، على أدب نفسك وطهارة ذاتك، وعظيم أخلاقك وخلالك. وكن على يقين مني بأن تصريحك هذا قد رفع سوء التفاهم وأزال من نفوس إخوانك الشيعة البررة كل ملامة وعتب؛ وإذا قرأت أو سمعت عن تذكرتهم شيئاً لا يرضيك، فانما كان ذلك غيرة على طائفتهم ودفاعاً عن آرائهم ومعتقداتهم، وهذا طبيعي لكل أمة تحتفظ بكرامتها، وتحرص على سمعتها؛ واسمح لي بأن أقول إنهم لم يخطئوا إذ فهموا من لفظ الشيعة أنك عنيتهم ما دام لفظ الشيعة مطلقاً غير مقيد؛ وليس في كتابيك (فجر الاسلام وضحاه) عبارة واحدة على تقييد الشيعة بالغالية لتخرج الاثنى عشرية عن لفظ الشيعة المطلق الذي يشمل فرق الشيعة المتعددة؛ ومن المقرر في أصول الفقه أن المطلق إذا لم تقم قرينة تدل على تقييده يحمل على إطلاقه. وقد تكون ثمة قرائن – لا قرينة واحدة – قامت لدى الشيعة على الإطلاق وحملتهم على ما فهموه، فان ذكرك للفظ الشيعة مطلقاً أيضاً في كتابك (ضحى الاسلام) – بعد أن زرت العراق وطفت بمدن الشيعة، واجتمعت برجالاتها، وعرفت الشيء الكثير من عقائدها وآرائها – سوغ لهم هذا الفهم وحملهم على أن يعتقدوا هذا الاعتقاد؛ ولست أريد بكلامي هذا أن أثبت أنك تقصد ما فهموه، وإنما أريد أن أقول إنهم لم يخطئوا في فهمهم ما دام إطلاق اللفظ كان يحتم عليهم فهم ذلك. وعلى كل حال سترى من الشيعة إخواناً شاكرين أفكارك وآراءك الأخيرة

وأود أن ألفت نظرك الى نقطة مهمة وردت في مقالك القيم، فقد قلت: « وليست الامامية التي يدين بها أهل العراق وفارس إلا فرقة واحدة من فرق عديدة بعضها باق الى اليوم، وبعضها عفى عليه التاريخ ». إن الطائفة الاثنى عشرية هي الطائفة الوحيدة اليوم من طوائف الشيعة وهي مبثوثة في العراق وفارس والهند وأفغان وسورية والبحرين والحسا والقطيف وفي غيرها من الأقطار الاسلامية، وكل ما يبرز للعالم من آثار علمية ومنتوجات أدبية هو مما دبجته أقلام علماء هذه الفرقة وكتابها وشعرائها، ولم يبق من طوائف الشيعة المتعددة غير هذه، اللهم إلا بعض طوائف ضئيلة لا تذكر. لذلك أصبح لفظ الشيعة اليوم خاصاً بهذه الطائفة يتبادر الى الذهن لدى إطلاقه؛ وقد بادت – ولله الحمد – أكثر هاتيك الطوائف الضالة التي شوهت سمعة الشيعة. وأملي وطيد ألا تعرض في الجزء الثالث من فجر الاسلام الى غير هذه الطائفة لأنها هي الطائفة الوحيدة من بين طوائف الشيعة المتعددة، التي يطلق عليها لفظ الشيعة بكل ما لهذه اللفظة من معنى؛ فهي التي شايعت علياً عليه السلام وتابعته في أعماله وأقواله، وليست طوائف الشيعة الضالة من التشيع في شيء ما دامت أعمالهم وأقوالهم لا تتفق وأقوال أهل البيت عليهم السلام وأعمالهم. ومن الخطأ جداً أن نجعل القياس والجامع للتشيع حب علي (ع)، لأنا إذا أردنا أن نجعل القياس هذا العنوان وجب أن نطلق على السنيين لفظة الشيعة أيضاً، لأنهم يحبون الامام ويقدسون شخصيته، فالقياس للتشيع إذن هو المشايعة والمتابعة، وهو الذي يقتضيه لفظ الشيعة؛ أما الطوائف التي لا نجدها مطابقة لهذا اللفظ فليست من الشيعة في شيء وإن ألصقت نفسها إلصاقاً واتخذت لها هذا الاسم وساماً

أما ما رجحت من عقد مؤتمر في بغداد يجمع بين علماء الطائفتين، ويؤلف بين الفريقين فهذه فكرة ناضجة، وأصبحت اليوم محتمة. وجدير بكل مسلم أن يبث هذه الدعوة، ويشى

لتحقيق هذه الفكرة فقد آن أن نتفق ونتحد ، وآن لنا أن نوحد الصفوف ونجمع الكلمة ، وآن لنا أن ننبذ النعرات الطائفية التي كانت السبب الوحيد في شق عصا المسلمين وبث روح الخصام في نفوس الأمة المسلمة التي كان يسودها الاتفاق ، ويملؤ سماءها الحب والوئام . وحرى بنا – ونحن في هذا العصر الذي كثر فيه أعداء الاسلام ومناوئوه – أن نتناسى الماضي ونسدل حجاباً كثيفاً على كل ما من شأنه أن يكدر الجو ويثير العداوة والبغضاء . وإذا فرقتنا المذاهب بالأمس فستجمعنا المصائب اليوم . وإني أتذكر كلمة خالدة في هذا الموضوع لعلامة جبل عامل الأكبر الإمام السيد عبد الحسين شرف الدين نوهت عنها مجلة النار الاسلامية ، فقد قال عن الطائفتين : (فرقتهما السياسة ، وستجمعهما السياسة) ؛ فالسياسة التي فرقت بينهما طيلة الأعصر الماضية هي هي التي ستجمع بينهم في هذا العصر وتوحد صفوفهم في الأعصر الآتية ؛ وإن الواجب ليحتم على كل فرد من أفراد الأمة الاسلامية أن يبث روح الاتفاق الحية ، ويسعى غاية جهده في كل ما يرجع إلى صالح الأمة ، (فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته) ، ولكن مما لا شك فيه أن المسؤولية العظمى تلقى على عاتق العلماء والمفكرين من الأمة ، فانهم هم القادة ، وهم الذين يقدرون الواجب ، وهم الذين يحسون بمسيس الحاجة إلى بث روح الاتفاق والألفة ، وهم قادرون – بما أوتوا من علم وحكمة وقوة بيان – أن يخضعوا العامة لآرائهم ونظرياتهم ؛ وإذا قام العلماء ببث هذه الروح ، وقاموا بايجاد مؤتمر اسلامي عام ، فانما يقومون بواجب تفرضه عليهم حالة الأمة الاسلامية الحاضرة ، ويحتمه آي القرآن الكريم ونصوص السنة المقدسة ؛ فالقرآن الكريم يحض على الاتفاق ، ويحث على الألفة فيقول : (إنما المؤمنون إخوة) ، ويقول : (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) ، ويقول : (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) ويقول (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) الى غير ما هنالك من الآيات الكريمة التي تحتم على المسلمين أن يتفقوا ، وتحذرهم أن يتفرقوا فتذهب ريحهم ، ويخسروا عزهم ومجدهم . ونحن لو رجعنا الى السنة النبوية المقدسة لوجدناها تضرب على هذا الوتر وتلحن أحاديثها الشريفة على هذا التلحين ، وتواجه المسلمين بنحو هذا الأسلوب فتقول : « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، وهم يد على من سواهم فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل » والأحاديث في ذلك كثيرة .

وكان صلى الله عليه وسلم يبث هذه الروح المباركة ويحض عليها بمختلف التعبير ، وكان لإرشاداته (ص) وتعاليمه القيمة دوى عظيم في أنحاء الجزيرة العربية ، وأثر في نفوس المسلمين الأثر الذي جعل فيهم روحاً وثابة حية كانت هي السبب الوحيد في رقيهم الباهر ، وتقدمهم العظيم . فالأمة الاسلامية ما اجتازت تلك المراحل ، وما وصلت الى ما وصلت اليه من المجد والعظمة الا بالتمسك بالاتفاق والاعتصام بحبله المتين ؛ فبفضل الاتفاق أصبحت الأمة الاسلامية أمة حية ، وبفضل الاتفاق تربعت على دست الحكم وقبضت بيدها الحديدية على أنحاء المعمور . وإذا أردنا أن نسترجع مجدنا القديم ونسترد عزنا السالف لتحتم علينا أن نتقدم للعمل حاملين هذه الروح الوثابة المباركة . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ؟

بغداد — للديوان محمد صادق الصدر



وا أُمَّاهُ !!

للأستاذ الحاج محمد الهراوى

تكشَّفتِ الأحداثُ بعدكِ يا أمّى — فيا طولَ ما ألقى من الحزنِ والهمّ
لىَ اللهُ يا أمّاهُ ما أنا بالذى — تعوَّدَ أن يقوى على الحادثِ الجَهْم
تلمّستُ حزمى فى المصابِ فعزَّنى — لقد غابَ عنّى فى الثرى مصدرُ الحزم
فقدتُ التى كانتْ إذا شطَّ بى النوى
تُسائلُ عنّى فى الدجى سارىَ النجم
وإن ترمِنى الأقدارُ منها بحادثٍ — تلقّتهُ عنّى على الروحِ والجسم
وإن تَرِبتْ كفّى تجودُ بروحها — مخافةَ مالمْ أحتمله من العُدْم
وإن مسّنى سُقمٌ ثوتْ عند مرقدى
لِزاماً فلم تبرحْهُ إلاّ معَ السُّقْم
على أنّها والسُّقمُ يَبرى عظامَها — تحاولُ أن تخفيه عنّى بالكَتْم
ولو أنّها اسطاعت لأخفتْ حِمامَها — وقد حُمَّ، إشفاقاً علىَّ من الضيم
فيا رَحمتا للفاقدين أمّهاتِهم
من الناسِ مثلى أو من الطيرِ والبُهْم
فإنّ الحنانَ الحقَّ فى الأمِّ وحدَها — وغيرُ حنانِ الأمِّ ضربٌ من الوهم
هى الأمُّ سرٌّ لستَ تعرفُ كُنْهَه — وإن خلتَها فى صورةِ الدمِّ واللحم
يقولون فانظرْ رسمها بعد موتها — فقلتُ لهم فى الرمسِ أمّى لا الرسم
فإن فاتنى ذاك الحنانُ التمستُه — على حسرةٍ من ذلك القبرِ باللَّثْم
دفنتُ به من لا يَنى إن دعوتُه — إلى معشرٍ صُمٍّ إذا ما دُعُوا بُكْم
فإن قلتُ يا أمّاهُ أغنانىَ اسمُها — عن الأبِ والأبناءِ والخالِ والعمّ
عصاميّةً كانت على حين أنّها — لها نسبٌ فوقَ النقيصةِ والذمّ
وأمّيّـةً كانت ولكنَّ رأيَها
لدى مُعضلاتِ الأمرِ فوقَ ذوى العلم
فقدتُ أبى طفلاً فلم أدرِ ما الأسى — وأفقدتُها كهلاً فهدَّ الأسى عزمى
سلونى أحدِّثْكم عن اليُتمِ بعدها
فإنّ اليتيمَ الكهلَ أعرفُ باليُتْم
فياليتَ أيامَ الحياةِ وقفنَ بى — لدى موضعى منها من الإثمِ والغُنْم
ويا ليتَ لم يقطعْ بنا الدهرُ شوطَه — فإنّ خُطاهُ للقطيعةِ والخَرْم
سرى لىَ يا أمّاهُ طيفُكِ فى الكرى
فغابَ خيالُ الأمِّ عن زورةِ الأمّ
وأنّى لىَ السُّلْوى وقد حالَ دونها — مثالُكِ فى عينى وطيفُكِ فى حُلْمى
سأخضعُ يا أمّى لقلبى ومدمعى
على رَغمِ ما أبديتِ من نُصحِكِ الجَمّ
وأبكيكِ بالقلبِ الذى تعرفينه — وللدمعِ شأنٌ غيرُ ذلك فى الحُكم

محمد الهراوى

ليلة حوراء

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

رقَّ الظلامُ بليلةٍ — حوراءَ كالطرفِ الكحيل
سحرُ العيونِ كسحرها — بين الشواهدِ والشكول
هى فتنةُ الحدقِ الملا — حِ ونسمةُ الطرفِ العليل
رقَّ الظلامُ كأنّه — متفيّئاً الظلَّ الظليل
فى روضةٍ فينانةٍ — هجرَ الهجيرُ بها المقيل
وصفا الدجا فكأنّما — مزجَ النهارُ به الأصيل
فتمازجا كتمازجِ الـ — ـماءِ المصفّى والشمول
فى جنحها وصفائها — قُرِنَ الجليلُ إلى الجميل
وتصالحا من بعد ما افـ — ـترقَ السبيلُ عن السبيل
تحنو علينا مثلما — يحنو الخليلُ على الخليل
وتخالها حُلُماً بسـ — ـدجل عن قيدِ العقول
ولربَّ ليلٍ فاحمٍ — فيكادُ يُقطَعُ أو يسيل
لا مثلَ ليلتىَ التى — تندى على الوجدِ الدخيل
فى سحرها وصفائها — ونجومها بردُ الغليل
عمَّ السكونُ كأنّه — مَلَكٌ على الدنيا نزيل
فكأنّها رسمٌ بدا — وكأنّها حُلُمٌ مخيل

في مثلها من هدأة … سكن القضاء فلا يصول
وكهدأة في معبد … للخاشعين به مثول
وكأنما أغفى الهوا … ء كغفضة الطرف الكليل
والبدر طيف في المنا … م يطيف كالحب الوصول
في مثلها من ليلة … عبد الذي أهل الحلول
ورأوا تجلى الله في … كون عراه له ذهول
والزهر كالمسحور وسـ … ـنان المحاسن في ذبول
والنهر غاف راكد … نسي الترقرق والمسيل
وسنان يحلم بالريا … ض وظلها فيه الظليل
في مثلها من ليلة … يقف الزمان فلا يحول
يصغي إلى نجوى القلو … ب وذكرها العهد المحيل
كوقوف نجم سمائها … يثنيه من سحر ذهول
كذهول مسحور بما … تجلو من الحلم الجميل
ياليل بل يا سحر بل … ياحلم ليتك لا تزول

عبد الرحمن شكري

الحياة

للأستاذ فخري أبو السعود

ليت شعري لأي أمر مراد … قد سرت منك نفحة في الجماد ؟
فاستقلت أجزاؤه من همود … وصحا بعد طول ذاك الرقاد
دائب السعي لا يمل حراكا … مستمراً ولا طويل جلاد
ساعياً دون غاية يجتليها … مسعى ذى غاية جلي المراد
صابراً للصروف كيف توالت … مستجما للنازلات الشداد
فيك بؤس له وفيك نعيم … وهو في الحالتين لهفان صاد
يبلغ الجوع منه والخوف والحز … ن وغات من نازل الداء عاد
باسماً للرجاء يشرق بعد الـ … ـكد منه وبعد وعر الجهاد
آملاً كيفما تمادى شقاه … أن يدور الزمان بالإسعاد
وهو مهما أصاب خيراً مريغ … غيره منك طامع في ازدياد
وهو مهما طال البقاء به را … ج بقاء وراغب في التمادي
وحريص على هواك وإن لم … تق غير الجفاء والإبعاد
فرط حب قد استوى أفتك الفتـ … ـاك فيه وأزهد الزهاد
ليس يدري سواك أصلاً وفصلاً … ليس يثنيه غير واديك واد
يكره الموت جهده وهو روح … وقرار له على الآباد
وإذا حن للخلود تقي … يبتغي بالصلاح دار الرشاد
فهو يبغي في الخلد مافيك من نعـ … ـمى ومن فتنة ومن إرغاد
وهو يبغي جميع ذلك صفواً … من صنوف القذى وريب العوادي
وهو يبغي جميع ذاك مقيماً … مستمراً له لغير نفاد
جنة الخلد صورة منك تغذو … منه شتى المنى وحاج الفؤاد

فخري أبو السعود

فراق

للأستاذ رفيق فاخوري

يا خدين الصبا رعى الله عهداً … لم يلد مثله الزمان المقل
لا أرى لي عمراً سواه فلولا … ظله لم يكن لحياي ظل
هو فصل من النعيم نهبنا … ه قصيراً ، ولذة لا تمل
لمع من سعادة ورخاء … أعقبت حسرة تمر وتحلو

***

زعموا البعد منتهى كل أنس … وفراق الأحباب خطباً يجل
قلت : إن أزمع الخليط احتمالاً … ففؤادي بالوجد لا يستقل
نحن كل بوحدة الروح يحيا … وجميع على العداة مطل
فاذا ناله التفرق يوماً … لم يكن فيه للحياة محل
يامعين السلوان ليت لقلبي … ما يميت الحنين فيه فيسلو
آنه جرعة تغول حجاه … علة من بواعث الهم يخلو
كاد من لوعة وفرط اشتياق … عن حماه بين الأضالع يجلو
ضاق عن حبه فتى ذا مراس … واشتكى من عذابه وهو طفل

حمص

رفيق فاخوري

القصص

صور من هوميروس

١٧ ـ حروب طروادة

طوفان . . .

للأستاذ دريني خشبة

تفزّع الطرواديون مما أخذهم به أخيل؛ وزادهم خبالا هذا الظلام الذي راحوا يضربون فيه على غير هدى ، والذي كانت تمد حيرا في دياجيره فيتدجى فوق الساحة الصاخبة ، ويمكن لابن پليوس من أعدائه فيضرب في أقفيتهم ، ويهوى على أعناقهم ، ويمسح سُوقهم ويضرب كل بنان

وضاق الجسر بجموع الفارين ، فانطروا إلى خوض عباب النهر الزاخر ، وخوّضوا فيه بخيلهم ورجلهم ... وتطامن لهم سكمندر [1] فسكنت أواذيه ، ونامت جراجره ، وانكشف قاعه عن حصباء كالدر النضيد ... ...

وتبعهم أخيل فخاض مياه النهر ، ثم أعمل سيفه ورمحه ، فكانت شآبيب الماء تختلط وشآبيب الدماء ، وأنين القتلى يمتزج وأصداء المنهزمين ، والجماجم المنتثرة تصطدم بالأشلاء الطافية هنا وهناك ، والسماء الكاسفة ترسل عقبانها تغتذي بالجزر المتساقط في رحب المعركة ، من بطون مبقورة ، وهام مُفلّقة ، ولحم مقروم ... ...

واستطاع أخيل أن يحصر اثني عشر شاباً فيأخذ عليهم سبيل الفرار ، وفضل أن يرسلهم الى سفائنه أسرى حتى لا يثخن في الأرض ، وحتى يشهدوا ثمة ذلك القتيل المسجى ، تسقيه ذيتيس الحزينة خمرا ؛ فكبّل أرجلهم وأيديهم من خلاف ، ووكل بهم جماعة من رجاله فقادوهم الى الأسطول ؛ بعد ما وقفوا هنيهة أمام جثة پتروكلوس ، يؤدون لها تحية المعركة التي دارت رحاها عليهم ، واصطلوا من بعده بنارها

وطفق أخيل يأخذ الجموع من كل حدب ، ويلقاهم في كل صوب ، حتى كان وجهاً لوجه أمام ليكاون بن بريام ، الذي كانت له معه قصة قديمة مشجية ، زمان إذ أسره أخيل واستاق قطعانه ، وحبسه في جزيرة لنوس ، حتى افتداه أهله من الحرس الموكل به ، ورشوهم بمائة ثور جسد ذي خوار ليطلقوا سراحه !

مسكين ليكاون بن بريام ! لقد فر من جزيرة لنوس منذ اثني عشر يوماً فقط ، وسعى الى هذه الساحة النكراء ليلاقي فوق أديمها حتفه ، كما لقيه أخوه پوليدور من قبل

ودهش أخيل إذ رأى ابن بريام يذرع الميدان أمامه ، وعجب من أفلته من منفاه السحيق في عرض البحر ... ثم أيقن أن في الأمر مكيدة ... فانقض على الفتى المسكين انقضاض الباشق ، وأرسل اليه طعنة نجلاء كادت تخترم أجله ، لولا هذه اللفتة الرشيقة التي انفتلها الشاب فأنقذت حياته ... ولو إلى حين !

وفتح الفتى عينيه فنظر إلى شبح الموت تنتشر سماديره من ظباة أخيل ، وأحس كأن هذا الشبح يلاحقه في كل مكان فيقبض على عنقه ويضغطه ، ثم ينشب فيه أظفاره فيسري السم في هيكله الخاوي فلا يكاد يبين !

وحاول أن ينجو من روع هذا الموقف ... ولكنه كان أبطأ من حتفه الذي يسابقه ، فلما أيقن أن لا سبيل إلى الفرار ، ألقى سلاحه وتقدم إلى أخيل فقبل ثرى الساحة عند قدميه ، ثم ألقى ذراعيه المرتجفتين حول ساقي زعيم الميرميدون ، وطفق يضرع اليه ألا يقتله ... « فإن لي أماً محزونة ما تفتأ ترسل دموعها على أخي پوليدور الذي قتلته منذ لحظة ، والذي أذويت

(١) رب النهر المحيط بطروادة

شبابه الغض ولم تبق على عوده الفينان ، ولم ترحم فيه قلوباً تعطف عليه ، وأباً شيخاً أصبته فى ولده بقاصمة الظهر ... ... أرسلني يا أخيل تباركك الآلهة ، وترعاك أرباب الأولمب ، ولا تفجع فى ذينك القلبين الحنين على ، الحفيين بى ... »

وكان الفتى يتوسل توسلاته بعبرات شبابه ، ويصهرها بآهات صباه ... ولكن أخيل الذى يضطرم حزناً على بتروكلوس ، لم تأخذه رحمة فى ابن بريام المسكين ، وأخى هكتور الدميم ... ! بل امتشق حرازه البتار وأهوى به على عنق الفتى ... فطاح الرأس الطراودى الكريم ...!

وكان البطل الطروادى العظيم ، ستراببوس بن پلجون ، رب البركات ، الذى يدين له بحياته أكسيوس رب النهر الشرقى الكبير ... كان ستراببوس على مقربة من أخيل وهو يصرع ليكاون بن بريام ، فجزع - شهدت الآلهة - على ابن الملك ، وأحزنه ألا يرق أخيل لتوسلاته ؛ ووقر فى نفسه أن يقتص له من هذا الشيطان ، ويخلص الطرواديين منه ، فيطير ذكره فى الخافقين ويقترن اسمه بمالم يقترن به اسم أحد فى العالمين . فيمم شطر أخيل والكبرياء تنفخ أوداجه ، والغرور يشيع فى أعطافه ، ثم هز رمحه هزة المتحدى الخصيم ...

وزجره أخيل فلم يزدجر ، فانقض عليه انقضاض الحتف ، وأخذه أخذ المنيـة ، لا تجدى فيها إذا أنشبت أظفارها التمائم ، ولا تدفعها الرُّقى ، ولا تُفلت من أقصدته ولو كان فى برج مشيد !

وأرسل أخيـل رمحه كالصاعقة ، لو لاقى الصخر لقده ، أو الجبل لنفذ فيه ؛ ولكن ستراببوس كان أرشق من أن يلاقى الطعنة فانزلق انزلاقة خفيفة أذهبت الرمح فى الهواء ، ثم هوى إلى الأرض فغاص فيها ؛ ومن ثمة راح يداعب أخيل حتى أحنقه وحتى بلغ الغيظ منه ، فامتشق بن پليوس سيفه وصرخ صرخة رجفت لها السماء ، وانصدع من هولها جانب الجبل ، وهجم على ستراببوس هجمة رابية فلم يفلته ، بل أرسل السيف فى بطنه فخرج سنانه من ظهره ، وبرزت الأمعاء فاجتمعت حولها أسماك الماء ، تنوشها وتغتذى بها ...

وريع سكمندر ، رب النهر العظيم ، إذ نظر فرأى ابن ضيفه المقدام ، يلفظ أنفاسه ، ويُساقط نفسه ، فدارت الأرض به ، وضاقت عليه بما رحبت ، وتجهم من توه لأخيل ، وود لو انشق فابتلع ابن پليوس آخر الدهر ، أو لو يأخذ هو سيفاً فيقد به أضلاعه ، ويطيح به رأسه ، ويريح العالم من بأسه . لكنه آثر ، كالٰـه له وقاره ، أن ينذر أخيل ويأخذه بالحيـلة ، فخاطبه من القرار ، قال : « أخيل ! يا ابن پليوس العظيم ! أنا لا يهمني أن تصطلم الطرواديين جميعاً ، ما دام زيوس قد سلطك عليهم ورماهم بك . . . أنا لا يهمنى من ذلك شىء ... ولكن الذى يحزننى ويضيق به صدرى هذه الجثث الكثيرة التى يعج بها عبابى ، وينتشر منها الخبث فى أرجائى ... لقد أنتنت يا أخيل ، وخالطت عذوبة مائى ، ولم يعد لى بها طاقة ، ولا عليها جلد ... وهى إلى ذلك كادت تقف تيارى ، وتشل حركتى ... فهلم فارفعها عنى ، وقف التصريع والتقتيل حتى تطهر مجراى من أدرانها وحتى ألفظ أنا إلى البحر ديدانها ... »

وتبسم أخيل قائلا : « أما أن أقف هذه الحرب فلا سبيل إلى ذلك حتى آخذ بثأر بتروكلوس ، وحتى أدك طروادة على رأس هكتور ، فاما أن ألقاه فأقتله وإما إن يلقانى فيقتلنى ؛ وأما أن أطهر مجراك من هذه الجثث الطافية فوقه فليس لى الآن بذلك يدان ... أو تضع هذه الحرب أوزارها ... »

وحنق سكمندر العظيم ، وانطلق إلى أپوللو يكلمه فى أمر أخيل ، ولم يدعه أپوللو حتى أغراه بابن پليوس أعدى أعدائه ، وأشد شانئيه ، وحتى أثاره عليه ، وهاج فيه كل حقد دفين . وعاد سكمندر فأشار إلى الماء فملا وفاض ، وإلى الموج فتلاطم وجرجر ، وإلى الأواذى فدوّمت وهوّمت ، ولاحقت أخيل من ههنا ومن ههنا ؛ وفطن ابن پليوس إلى الخطر الذى أوشك أن يحيق به فهرع يحاول الفرار ... ولات حين فرار ... فقد أزبد الموج ، وانساب العباب ، وتشققت الأرض عيوناً ومسايل ، وعَمُقت اللجة ، وبعد ما بين سطحها وبين قدمى أخيل ، أو ما بينه وبين قرارها ، فأطلق المسكين ذراعيه يسبح فى أغوارها ، ويتماق بالجثث الطافية فوقها

واشتد الخطب ، وعظم الكرب ، وصرخ أخيل يستنجد أربابه ، فما كادت حيرا تسمعه حتى فزعت اليه ، وأمرت ڤلكان ابنها فانطلق يجفف الأمواه بنيرانه ، ويرسل على الطوفان بدخانه ،

ويستعين في كل ذلك بآلهة الريح التي هرعت إليه من كل صوب تساعده، وكان زفيروس الكريم يهب على النهر اللجي سجسجاً، ويذهب منه بكل مزنة مثقلة، وديمة محملة، فلم يغض غير بعيد حتى صفا الجو، وغيض الماء، وبرز أخيل يحمل عدته، فطربت الآلهة لنجاته، وانقض ڤلكان على سكمندر يحاول أن يثأر لأخيل منه ... ولكن بعد أن عاهد حيرا — إذا هي صدت عنه ولدها ڤلكان — أن يحصر الطرواديين بوجه، فلا يمكنهم من الدخول إلى مدينتهم، ويجعلهم بذلك هدفاً لأخيل يصنع بهم ما يشاء!!

***

وتثار الخصومة بين الآلهة لموقف ڤلكان من سكمندر ... ويغيظ مارس من منيرڤا أنها تؤيد ڤلكان وتحرضه على رب النهر المسكين الذي أفزعته النيران تأخذه من كل حدب ... فتقدم إليها وطفق يقرعها وتقرعه، ويرميها بالمثالب وترميه بها ... ثم تناول رمحه العظيم واستجمع كل قوته، وأرسله يود لو يقضي به على ربة الحكمة الحازمة، ولكن، ويل لك يا مارس! لقد ارتد الرمح فلم يستطع إلى درع منيرڤا من سبيل ... وانحنت الآلهة المغيظة فأخذت حجراً من أكبر حجارة الجبل وقذفت به مارس فدكت عنقه، وقصمت ظهره، وتركته على السفح الشاحب لَقًى من ألقاء هذه الحرب!

وظل مارس ممدداً على السفح يخور ويئن، ويتلوى بجثته العظيمة [1] التي كانت ترتطم بالجبل فتميد به، وتهزه هزاً ظاهراً

وأقبلت ڤينوس فوقفت تواسي مارس وتهون عليه ما فعلت به منيرڤا، ثم أنهضته وانصرفت به، ولكن حيرا أرسلت في إثرهما منيرڤا، ترى ما يكون من أمرهما ... بعد كل تلك الفضائح التي لوثت شرفهما، وجعلت اسمهما مضغة في جميع الأفواه ...

وأقبلت ڤينوس على مارس تشفي حرقة في قلبه، وتدله من قبلاتها ما تنسيه به

(1) جاء في الميثولوجيا أن طول مارس سبعمائة قدم

بعض الذي لقيه من أذى.... ولكن ميزقا أهابت بهما ... !
وطفقت تنصح لها أن بدها اليوم فلا ينصرانها على شبيهما
المختار ... هيلاس المزيزة ! ولكن . . . ! لقد أسمعت
لو ناديت حياً . . . ! فلقد أعطت فينوس باريس موثقاً ، وإن
فينوس لصادقة . . . ! !

***

وانطلق نبتيون يعظ أبوللو ، ويصرفه هو الآخر عن مؤازرة
الطرواديين ، فذكره أيام أن نفاهما زيوس إلى أقصى الأرض ،
فأتيا إلى طروادة ، وعملا في خدمة أميدون الجبار ، الذي
لم يتورع أن يرسل أبوللو فيرعى له قطعانه ، ويسمّن نعمه وشاءه ،
كأن لم يكن أبوللو ابن إله عظيم ، وكأن لم يكن هو نفسه إلهاً
عظيماً !! ... « أتذكر هذه الأيام يا أخي أبوللو !! ... أتذكر أيام
أن كان هذا العاتية العنيد يسومنا الذل ، ويقهرنا أرهق القهر ،
وينزل بنا أشد ألوان الخسف ، متذرعاً بغضب سيد الأولمب
علينا ، لا تأخذه فينا رحمة ، ولا يهمه أن نبرم ونتسخط ما دام
- فيما كان يزعم - يؤدي ما أمره به أبوك زيوس ! !
فيم هذه المناصرة كلها لطروادة يا أبوللو ؟ ... ما ذا تذكر
من حسنات الملكها اللأمين أوميدون ؟! أنسيت يوم أسخطناه
بالتراخي قليلاً في عملنا ، فأمر بنا فقطعت آذاننا وشد وثاقنا ،
وأصبحنا ضحكة كل راء ؟! ... لا لا يا أبوللو ... أنا لا أرتضى
لك أن تكون غبياً إلى هذا الحد ... »

وعملت فيه كلمات العم نبتيون عملها ، فعاهده ألا يخوض
غمار هذه الحرب كرة أخرى ، وقاسمه ألا يسعد فيها بعد اليوم
منهما ... ولو عيرته أخته ديانا ألف تعيير !!!

وماذا لو عيرته ديانا ، ورمته بالجبن أمام نبتيون ؟! ها هي ذي
حيرا تسمع إلى ربة القمر ، فتقذفها أشنع القذف وأمره[1] ، ثم
تهجم عليها فتكبلها ، وتنثر كنانة سهامها ، وتمضي بعد ذلك
لشأنها ... وتأتي لاتونا - أم ديانا الباكية - فتواسيها وتذهب
وإياها إلى زيوس ... المتربع فوق سدة الأولمب ، فتشكو إليه
ما لحق ابنتها من زوجه ... ويغضي الإله ... لأنه ليس له على
حيرا يدان ... ...

(١) لم يتورع هوميروس أن يتقاذف الآلهة بأخس ألوان الفحش فأثار
بين حيرا وديانا سباباً ليس مثله سباب

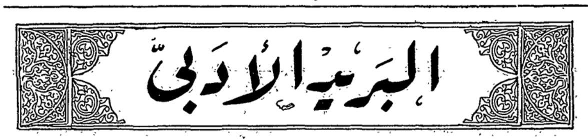
ويتم الظفر لأخيل وجنده بعد إذ ينسحب أبوللو من المعركة ،
فيأخذ الطرواديين أخذ عزيز مقتدر ؛ ويقف بريام الملك في برج
شاهق يطلع على الساحة ، ويشهد هزائم جنده ، فتدمع عيناه ...
ويأمر بالبوابة الكبرى فتفتح ، ويهرع الجنود ناحيتها فراراً
من أخيل وشياطين أخيل ، ولكن أخيل وشياطين أخيل
تشطر الجنود الفارين شطرين ، بل يستطيع أخيل وكوكبة قوية
من الميرميدون أن ينفذوا إلى البوابة الكبرى ، ويدخلوا
طروادة فاتحين ... ... !!

وهناك ! يثبت لهم أجينور البطل الطروادي الحلاحل ،
ويأخذ مع أخيل في ملاحاة عنيفة ، ثم يتقارعان برهة ، ويحاول
أحدهما الآخر ...

ويكون ... أبوللو ... !! الى جانب أجينور يحضنه
ويحرضه ، ويثبت قدميه ... ناسياً مواثقه التي قطعها على نفسه
أمام نبتيون ... ...

ويهم أخيل أن يبطش بفتى طروادة
لولا أن يعز على أبوللو أن يلحق أجينور بصاحبه استرابيوس
من قبل ، وبعشيرات الأبطال من مثل سترابيوس ، فيتقدم الى
أجينور يحميه ، ويرسل عليه سحابة بيضاء فيحمله فيها ... ...
مضللا أخيل عن خصمه ... ومبعده خارج البوابة التي يقفلها
الطرواديون من دونه ... ...

(لها بقية) دريني خشبة



الصقالبة فى الرواية العربية

رد على ملاحظة

وجه إلى قارىء فاضل هو الأستاذ عطية الشيخ فى عدد الرسالة الماضى ملاحظة بشأن ما ورد فى مقالى « الصقالبة فى الرواية العربية » تفسيراً لرواية الرحالة ابن حوقل البغدادى عن « صقالبة الأندلس » . فقد ذكر ابن حوقل فى رحلته المساة بالمسالك والممالك عن الصقالبة ما يأتى : « وذلك أن بلد الصقالبة طويل فسيح ، والخليج الآخذ من بحر الروم ممتد على القسطنطينية واطرابزنده يشق بلدهم بالعرض ، فنصف بلدهم بالطول يسبيه الخراسانيون ويصلون ، والنصف الشمالى يسبيه الأندلسيون من جهة جليقة وأفرنجة وأنكبردة وقلورية ، وبهذه الديار من سبيهم الكثير باق على حاله » (ص ٧٥) ؛ قلت : « ومعنى ذلك أن الصقالبة الأندلسيين كانوا مزيجاً من الجليقيين (النصارى الاسبان) والألمان والفرنسيين (أهل افرنجة) واللومبارديين (أهل انكبردة) والايطاليين (من قلورية) » ، ولكن القارىء الفاضل يريد أن يفسر قول ابن حوقل بأن الصقالبة كانوا يصلون إلى الأندلس عن طريق البلاد المذكورة ، لا بأنهم كانوا يجلبون منها

وردى على ذلك هو أن المعنى الثانى هو الأرجح ، وهو الذى اخترت الأخذ به ، ذلك أن من بين البلاد التى يذكرها ابن حوقل أقطاراً كانت تقع فى صميم بلاد الصقالبة فى تلك العصور مثل لومبارديا (أنكبردة) وشرق افرنجة (ألمانيا) ؛ وفى الوقت الذى زار فيه ابن حوقل الأندلس فى أواخر عهد الناصر (أو أوائل عهد الحكم المستنصر) كانت كلمة الصقالبة تطلق فى الأندلس على جميع الأجانب الذين يخدمون فى البطانة أو الجيش ؛ ولم يكن يقتصر فى فهمها على الصقالبة الخلص ، أعنى سكان شرق أوربا وحوض الدانوب . وفى القسم الأول من مقالى شرح واف لتطورات هذه الكلمة ، وذكر بعض المراجع التى تلقى ضوءاً على الموضوع .

م . ع . ع

التاريخ والسينما

كانت حوادث التاريخ وما زالت أعظم غذاء المسرح والسينما ؛ والمسرح قديم عريق فى الاقتباس من حوادث التاريخ ووقائعه الشهيرة ؛ ولكن السينما استطاعت على حداثتها أن تتوسع فى هذا الاقتباس سواء من حيث الوقائع أو المناظر ، وذلك لتفوق وسائلها الفنية ، وقد بدأت السينما باقتباس كثير من حوادث التاريخ القديم وشخصياته ، فرأينا على ستارها حياة كليوباطرة ، وصفحات كثيرة من التاريخ الرومانى قبل رواية « كوفاديس » الشهيرة ؛ ثم كان عهد القصص التاريخية الكبيرة مثل « الفرسان الثلاثة » ، و « مونت كريستو » ، و « الثورة الفرنسية » لاسكندر دماس وغيرها ، وفى الأيام الأخيرة رأينا ممثلا نابغاً هو السير أرليس يحيى لنا طائفة من أشهر شخصيات التاريخ الحديث مثل ريشيليو ، وفولتير ، والدوق ولنتون وغيرها

وفى الأنباء الأخيرة أن شركة فنية انجليزية قررت أن تخرج شريطاً مصوراً يمثل حياة ألفرد نوبل المخترع السويدى وصاحب جوائز نوبل الشهيرة للعلوم والآداب والفنون ؛ وكانت حياة نوبل صورة رائعة التناقض ، فقد قضى حياته فى اختراع أصناف جديدة من المفرقعات المهلكة ، ثم جعل كل ثروته بعد وفاته وقفاً على تشجيع العلوم والفنون ، ورصد منها جائزة كبيرة تمنح كل عام لمن يقدم أجل خدمات لقضية السلام . وقد رأى نوبل قبل وفاته نتائج اختراعاته المهلكة فى الحرب الفرنسية الألمانية (سنة ١٨٧٠) ورأى روائع فتكها ببنى الانسان فحزن لهذه النتيجة أعا حزن وغدت حياته عذاباً مستمراً ، ورأى أن خير ما يكفر به عن هذا الاثم هو أن يهب كل ثروته التى جمعها من اختراع المهلكات لتشجيع أعمال السلام من علوم وفنون ، وهذه المأساة المؤلمة وما يترتب عليها من العبر البالغة هى التى يريد مخرجو الشريط الجديد أن يبرزوها للناس

والظاهر أن التعاون بين السينما والتاريخ لن يقف عند تمثيل

الحوادث التاريخية وإخراجها على هذا النحو ، وانه لن يمضى وقت طويل حتى تقوم السينما بدور أهم في خدمة التاريخ ؛ ففي باريس يعرض الآن شريط مصور (فلم) عنوانه « السينما في خدمة التاريخ » وهو عبارة عن شرح مصور لأشهر الحوادث التاريخية التي وقعت في الثلاثين عاماً الأخيرة ، ومادته مأخوذة من الصور المعاصرة التي سجلت عن هذه الحوادث نفسها . ومعنى ذلك أن المؤرخ قد يرى في الغد القريب في السينما نوعاً من المخطوطات التاريخية التي يمكنه أن يرجع إليها ليحقق بعض المناظر والحوادث . ولا ريب أن تسجيل الحوادث بطريق التصوير وسيلة مؤكدة لإجراء مثل هذا التحقيق ؛ وفي وسع المؤرخ أن يعتمد كثيراً على صورة لاجتماع برلماني ، أو اجتماع دولي ، أو مناظر ثورية ، أو عسكرية ، أو غيرها صورت وقت حدوثها ، بأفضل مما يعتمد على الروايات المعاصرة ذاتها .

مصادرة مؤلف ألماني

من أنباء النمسا أن الحكومة النمسوية قررت أن تصادر كتاباً صدر أخيراً بالألمانية وعنوانه « الامبراطورة البزابيث واننا » بقلم السيدة مارى لويز فون فالرسى لارتش ، وقد أخرجته إحدى المطابع الألمانية في لايبزج . والامبراطورة البزابيث هي قرينة الامبراطور فرانز يوسف وامبراطورة النمسا والمجر ، وقد اغتالها بعض الجمعيات الفوضوية في سنة ١٨٩٨ ، وكان لمصرعها دوى كبير في أوربا . وقد كانت المؤلفة وصيفة في البلاط الامبراطوري ، وكانت صلاتها بالقصر والبلاط تهيىء لها فرصة الاطلاع على كثير من الأسرار والحقائق الملوكية ؛ والظاهر أنها خرجت في مؤلفها المذكور عن حدود التحفظ المألوف .

العيد المئوي لصموئيل بتلر

احتفل أخيراً في إنكلترا بالعيد المئوي لمولد الكاتب والشاعر الانكليزي الكبير صموئيل بتلر ؛ وكان مولده في نوفمبر سنة ١٨٣٥ في مقاطعة نوتنهام شير ؛ وقضى طفولته فيما وراء البحار في زيلاندة الجديدة ، وتلقى بعد ذلك تربية جامعية حسنة في كمبردج . وكان بتلر ذا خلال ومواهب خاصة ، فقد كان مصوراً بارعاً يتمتع في عالم التصوير بشهرة ذائعة ، ولكنه نزل إلى ميدان الأدب فجأة وأخرج قصته الشهيرة « ارهوم » Erewhom وهي قصة طريفة تدور حول وصف عالم خيالي غير عالمنا وبلاد لا وجود لها إلا في مخيلة الكاتب على مثل « رحلات جوليفر » الشهيرة وهي قطعة تفيض بالمخاطرات والحوادث المدهشة ، ولكنها تفيض أيضاً بالسخرية اللاذعة والتهكم المر ؛ وقد قفاها في أواخر حياته بقصة أخرى من طرازها وعلى منوالها في سير الحوادث وسماها « ارهوم المنقحة » سنة ١٩٠١ ؛ وكتب بتلر أيضاً كتباً أخرى منها « الحياة والعادة » و « التطور قديماً وحديثاً » ؛ وهو مؤلف علمي يحاول فيه بتلر أن يدحض نظريات دارون في التطور ؛ وكان آخر ما كتبه بتلر قصته الشهيرة The Way of All Flesh تركها مخطوطاً ولم تظهر إلا بعد وفاته في سنة ١٩٠٣ ؛ وله قصائد ومقطوعات شعرية كثيرة ؛ وأهم ما يؤثر عن بتلر أنه كان عناية الأستاذ الروحي لكاتب من أعظم الكتاب الانكليز المعاصرين ونعني به برنارد شو ؛ وقد تأثر أعماً تأثير بتفكيره وأساليبه في التهكم والسخرية اللاذعة . وكانت وفاة صموئيل في سنة ١٩٠٢

نادي الجامعيين :

يدرس الآن أساتذة الجامعة المصرية فكرة انشاء نادي لهم يقضون فيه بعض الفراغ ، فيتبادلون المعرفة ، ويتواصون الرأى ، ويتساهمون المودة . والفكرة حكيمة ولا شك ، لأن توثيق الصلات الحرة بين ممثلي الذكاء المصري وأئمة الثقافة العالية له أثره البالغ في توجيه النهضة الفكرية ، وتمهيد السبل لها ، وتوحيد الغاية منها .

والمأمول أن نرى قريباً تحقيق هذه الفكرة

الفرقة القومية المصرية

افتتحت الفرقة الحكومية موسمها التمثيلي الأول مساء الخميس الماضي برواية (أهل الكهف) للأستاذ توفيق الحكيم ، فسمعنا من وراء الستار قارئاً خلو النغم يقرأ قول الله تعالى في هذه القصة من سورة الكهف ؛ ثم ابتدأ الفصل الأول بمقدمة موسيقية رائعة تترجم الصور الخيالية التي كانت تمر على الستار الأبيض مصورة اضطهاد المسيحيين في عهد دقيانوس قبل حادثة الرواية ؛ وسنكتب عن الاخراج والتمثيل والرواية في عدد قادم



في الأدب القديم :

١ — أعجام الأعلام : للأستاذ محمود مصطفى
« أخرجته جماعة دار العلوم بإقرار لجنتها العلمية »

٢ — الفروق اللغوية : لأبي هلال العسكري

٣ — معجم الشعراء : للمرزباني

٤ — المؤتلف والمختلف : لأبي القاسم الآمدي
« نشرتها مكتبة القدسي »

للأستاذ محمد سعيد العريان

كيف نفهم الأدب القديم ، وكيف نتروّاه ، وإلى أي مدى نستفيد منه ، وما وسيلتنا إلى ذلك . . . ؟

هذه أسئلة كثيراً ما تعرض لي ، حين يضمني مجلس إلى بعض المتأدبين من ناشئتنا الذين يدعون إلى الجديد ؛ وإن أعجب ما يلقاك في مثل مجلس هؤلاء ، هو الدعوة العريضة ، والانكار الساخر — أو شبه الانكار الجاهل — والاعتداد بالنفس في غير معتد ، ثم الحكم الجامع المانع لا نقص فيه ولا استثناء . وما أيسر أن تسمع من واحد من هؤلاء . « الأدب القديم . . . ! وما الأدب القديم ؟ وماذا فيه . . . ؟ » فلا أدب عنده إلا هذا اللغو الذي تنشره له الصحف ، أو هذه الرطانة العجماء تحاول أن تستعرب على لسانه ؛ ولا إنشاء إلا على مثال برقيات « روتر » و « هافاس » ، التي يترجمها (فلان) ويدعو إلى احتذائها فيما يكتب الأدباء وينشئون . . . !

ولو أنك ذهبت تحاول أن تحمل واحداً من هؤلاء على غير ما يرى في الأدب القديم ، أو أن تقنعه بما فيه من حياة وقوة — لأعياك أن تبلغ إليه ؛ وأنى لك أن تبلغ وما يعرف أكثر هؤلاء ولا يفهمون من الأدب القديم إلا محفوظات المدارس ، وما حصلوا من فنون اللغة إلا القليل من قواعد النحو والبلاغة في حجرات التعليم . . . ؟ بل لو أنك أردت واحداً من هؤلاء على أن يحقق لفظة في معجم ، أو يقرأ سطراً غير مشكول في كتاب — لكنت كمن يطلب إليه أن ينقل صخرة ، أو يحفر بئراً . . . ! فمن أين لمثل هذا أن يتذوق ما تجلوه عليه من روائع الأدب القديم ؟

وطائفة أخرى من هؤلاء المتأدبين آمنت عن تلقين ، أو تقليد ، بأن في الأدب القديم ثروة مخبوءة ، ومنجماً حقيقاً بالجهد وحسن الاستغلال ؛ فراحت هذه الطائفة — طمعاً في الثروة وحسن الاستغلال وحسب ! تحاول أن تعثر بشيء تسيغه ، أو تجد لُقىً تسمى اليه ، ولكنها لم تأخذ الأهبة ، ولم تهيء الأسباب ، وحسبت أن في أظفارها اللينة غناء عن الفئوس والمساحي في الحفر والتنقيب ؛ فلما آبت أوبتها الخاسرة ، عادت تعيب ما كانت تباهي به ، وتنكر ما كانت تعترف ؛ ولو أنصفت لعابت الجهد الكليل والعزم الخائر

وقد جلست مرة إلى آنسة متأدبة تشتغل بشؤون التعليم ، فلقيتني متعبة مكدودة وهي تقول : « حسبي منك يا صاحبي ومن أدبك القديم ! » قلت : « ماذا يا آنسة ؟ » قالت : « هذا (نهاية الأرب) بين يدي منذ أيام ثلاثة ، أحاول أن أجد فيه شيئاً يفيد تلميذاتي فأترجمه لهن في كتاب المطالعة الذي أشتغل بتأليفه فما وجدت . . . ! »

وكان هذا أول عهد صاحبتي بالأدب القديم ، وقد لجأت إليه أول ما تلجأ ، لتجد بغيتها تحت عينيها ؛ فلما استيأست ونال منها الجهد ، رمت الكتاب وهي تسب الأدب القديم ، وتعيب الأدب القديم !

وإنما يتأتى الفوز بمثل ذلك لمن أدمن الاطلاع والنظر ، وداوم البحث والاستقراء ، فيقرأ أولاً ليدرس وبلذ نفسه ، حتى إذا بلغ من ذلك ما بلغ ، جاءته الثمرة من حيث لا يطلبها ، ووجد الفائدة تحت عينيه تدل على موضعها ، وهؤلاء الباحثون

جميعاً لم يؤدوا إلينا نتائج ما بحثوا منسوقة ناضجة لأنهم أرادوا أن يبلغوا هذه النتائج أول ما قرءوا؛ إنما كانت القراءة أولا؛ ثم شعاع الفكرة، ثم عناصر البحث، ثم هذه الثمرات التي نقرؤها فنعجب بها فنثني على ما جاهدوا وظفروا؛ ولو أنهم أرادوا موضوع البحث قبل أن يقرأوا، لكان غاية جهدهم أن يخترعوا عناوين البحوث . . . !

وهذا أديب آخر يظفر بالشهرة والجاه عند دعاة الجديد، ويحسبونه واحداً منهم، لأنه يكتب بأسلوبهم وعلى طريقتهم، لقيته مرة فحدثته وحدثني، فقال لي: «دعهم يقولون عني، وينسبون إليّ وينتسبون؛ ولكني لا أكذبك، فكم تمنيت أن يكون حظي من الأدب القديم أكثر مما عندي، وسأبلغ ذلك؛ وسيعلم أصدقائي يومئذ أنني لم أكن في المجددين لأني أنكر القديم، بل لأن زادي وثروتي من اللغة لم يكن يبلغ بي أن أكون مع غير الذين يسمونهم مجددين . . . !»

أفينكر إخواننا في اللغة أن هذه النهضة التي ينتسبون إليها لم تكن من صنعهم؟ وإنما هيأ أسبابها وأذكاها تلك الكتب القديمة التي يستونها اليوم حين نهض لنشرها أدباؤنا منذ قرن فدرسوها مخطوطات بالية مركومة، وخلفوها لنا مطبوعة مصححة مجلوة.

ولكل عمل أداته ووسيلته، وإنما الوسيلة لدراسة هذه اللغة هي النشاط الدائب في التحصيل، والجهد المتصل في الاستقراء، والمحاولة المستمرة للكشف والبحث والاطلاع. ولهذه اللغة أصول لابد من الاحاطة بها قبل الشروع، وعندها طرف الخيط، فمن شاء فليبلغ إلى الغاية . . .

* * *

أما بعد فهذه كتب أربعة، لم أكن بحاجة في تقديمها إلى كل ما أسلفت، ولكنها جميعاً من الأدب القديم؛ وللأدب القديم ملمس خشن، أفيدرى اللامسون ما وراء . . . ؟

١ – إعجام الأعلام:

أكثر ما يعاني المطالع في الكتب القديمة، هذه الأعلام الكثيرة في كل سطر وفي كل عبارة مما يقرأ؛ على أن أشق ما يعانيه في هذه الأعلام، هو ضبطها والتمييز بينها؛ وحسبك أن تعلم أن أكثر هذه الأعلام ليس مما يتسمى به في هذا الزمان، فلا سبيل إلى تصحيح نطقه إلا بالسماع والرواية، ولا سبيل إلى الترجمة لمسماه – إنساناً كان أو بلداً – إلا بالبحث الطويل والجهد المضني، على أن ذلك لا يتأتى لكل طالب؛ فأنت لا تجد كتاباً في العربية يستغنى به عن سواه في هذا الباب

والأستاذ محمود مصطفى أستاذ الأدب العربي بكلية اللغة العربية الأزهرية، رجل دءوب كثير البحث، طويل الأناة؛ وهو قد لقي في شتى مطالعاته ضروباً من العناء في ضبط الأعلام والتعرف الى أصحابها؛ فاجتمع له بسبيل ذلك فيما اجتمع من ثمرات المطالعة طائفة كبيرة من أعلام الأناسي والبلاد مضبوطة مترجمة لا تجتمع لمثله حين ينشدها إلا بجهاد سنوات وسنوات؛ فرأى أن يقدم هذه الثمرة الجليلة إلى أدباء عصره، ليخفف عنهم بعض ما لقي، على أنه لم يثقل عليهم بما لا حاجة بهم إليه. فاكتفى من عمله بضبط الأعلام وتصحيحها، ثم إيجاز ترجمتها بما يقتصر على ما يفيد، بعيداً من الاختصار المخل والتطويل الممل؛ وقد أعانته على إخراج كتابه «جماعة دار العلوم» بإقرار لجنتها العلمية؛ ومن غير جماعة دار العلوم تعرف قيمة هذا العمل الجليل؟ على أن ذلك وإن يكن من واجبها، لا يمنعنا أن نذكر عملها شاكرين، فقل في هذا الزمان من يذكر واجبه بمقدار ما يفكر في وسائل الفرار منه!

وأكثر الكتاب في ضبط أعلام الأناسي، وأقله للأعلام البلاد.. ولو أنني حاولت الانصاف لما وسعني إلا أن أعترف بأن هذه الصفحات المائتين والأربعين، تغني عن مكتبة حافلة بكتب التراجم ومعاجم الأعلام

ولكن إعجابي بالكتاب وثنائي عليه لا يمنعاني أن آخذ على مؤلفه العالم أنه أهمل الإشارة الى المراجع التي منها استمد؛ وأحسبه كان يجمعه لنفسه فلا يهتم بحفظ المصادر؛ فلما اجتمع له هذا القدر الكبير أخرجه كتاباً. أفيدفع عنه النقد هذا الاعتذار . . . ؟؟

وفي الكتاب أشياء كانت تقتضي جهداً أوسع، وعناية أدق؛ فالتعريف بالأماكن قليل مخل، وأرى المؤلف في هذا الباب لم يعد إلا ضبط أعلام المواضع، أما تحديدها وتعيين أماكنها فما بلغ منه الى كثير. وتراه في أكثر من موضع من الكتاب،

قد أوجز الحديث وأحال الى موضع آخر ، فاذا انتقلنا الى ذلك الموضع لم نجد شيئاً مما أحال اليه ، أو نجد شيئاً ولكنه لا يغني كل الغناء ؛ فمن ذلك في ص ٧٦ « . . . . بسطام ، وهي بلدة مشهورة من أعمال قومس » ، فاذا بحثت عن (قومس) هذه في أعلام البلاد وجدت (القوامس) كثيرة ، فلا تعرف الى أيها تنتسب (بسطام) . وفي ص ٩٤ : « كان منزل رهط (جبل) في وادي القرى (انظره) . . . » وتنظر في أعلام البلاد ، فلا تجد ذكراً لوادي القرى . ومثل ذلك في ص ١٢٨ ترجمة السُّهْرَوَرْديّ « ونسبته الى سهرورد ، وهي بلدة (انظرها) » ولكن أين ؟ وغير ذلك كثير

على أن الكتاب مع ذلك لا يستغني عنه متأدب ، وإن فيه لغناء عن كتب ومكتبة ، وأكثر مصادره مما لا تتناوله الأيدي ، وهو مجهود مشكور ، جدير بالثناء والاعجاب

٢ — الفروق اللغوية

أبو هلال العسكري إمام من أئمة اللغة في القرن الرابع الهجري ، تحتفظ له المكتبة العربية بآثار خالدة ؛ أكثرها مخزون متداول ، وهو الى أنه شاعر وأديب ، عالم فحل ، واسع المعرفة ، صنّف في أكثر من فن من فنون العربية ، وهذا كتابه « الفروق اللغوية » يبحث في الفرق بين الألفاظ التي تؤدي معاني متقاربة ، والتي يسميها علماء اللغة مترادفات ، وهو في هذا الكتاب يقرر مذهباً في اللغة : « أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الأعيان في لغة واحدة ، فان كل واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر ، وإلا لكان الثاني فضلا لا يحتاج اليه ... لأن في ذلك تكثيرا للغة بما لا فائدة فيه ... إلا أن يجيء ذلك في لغتين ، فأما في لغة واحدة فمحال أن يختلف اللفظان والمعنى واحد كما ظن كثير من النحويين واللغويين .... »

فهو يرى كل لفظين مما نسميه مترادفاً ، يختلفان في المعنى ، أو في الصفة ، أو الاستعمال . أو الاشتقاق . . . وتراه على هذا المذهب يسير في كتابه ، يبين الفرق بين اللفظ ومرادفه ، في أبواب مقسمة على معاني الكلمات ، تريك دقة أبي هلال ، وسعة علمه ، وصدق نظره في فقه اللغة العربية ، والكتاب كله أمثلة على ما ذكرت

ولو أن كاتباً من أبلغ أدباء هذا الزمان ، عرض كلامه على كتاب « الفروق اللغوية » ، لبانت له قيمة ما يكتب بإزاء ما يجب أن يكتب ، ولعرف مقداره بين كتّاب العربية حين يعرف أين عربيته من العربية الصحيحة . وهذا وحده الدليل كلُّ الدليل على جدوى هذا الكتاب في كل زمان ، لا سيما هذا الزمان !

٣ — معجم الشعراء ؛ ٤ — المؤتلف والمختلف

يعترض القارىء في أثناء مطالعاته في الأدب القديم ، أسماء شتى لشعراء من مختلف العصور ، فيختلف عليه ، وتتشعب فكره ، وتتشابه في سمعه ، وياأكثر ما يشترك شاعران أو أكثر في اسم واحد ، فتتداخل الصور وتزدحم عليه ، فما يتأتى له أن يحكم حكمه في موضوعه ، أو يتضح له منهاج بحثه ، إلى أن يعرف ترجمة كل شاعر من هؤلاء ، معرفة تحدد في الذهن صورته وتكشف عن ابهامه ، وسبيل هذه المعرفة لا تكونَ إلا بمثل هذين الكتابين

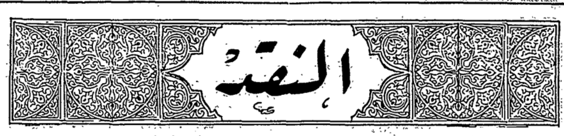
والمرزباني والآمدي عَلَمان من أعلام القرن الرابع الهجري ، لهما في الأدب العربي فكر وفنٌّ وبيان

والكاتبان على ما اختلفا في الغرض يلتقيان في الموضوع ، فأوّلهما يترجم لشعرائه ترجمة تعرّف بهم في ايجاز مفيد مع استشهاد رائق ، على أن الذي بين يدينا من كتابه هو جزء منه أحسبه يبلغ ثلثيه

وأما الآمديّ فيترجم للشعراء المشتبهة أسماؤهم وحسب ، ترجمة تزيل الشبهة وتكشف اللبس ، ويجمع هذا الكتاب مع الجزء الموجود من معجم الشعراء — أكثر من ألفي شاعر ، بأسمائهم ، وكُناهم ، وألقابهم ، وأنسابهم ، وبعض شعرهم . وقد أحسن ناشرهما احساناً كبيراً بضم بعضهما الى بعض في مجلد واحد ، ليكون النفع بهما أتم والغاية أوفى

ولا نشك أن مكتبة « القدسيّ » بنشرها هذين الكتابين ، وكتاب « الفروق اللغوية » قد بذلت جهدا ، ويسرت نفعاً ، وعممت فائدة ، وهذا باب في خدمة العربية يذكر فيه العاملون .

(شبرا) محمد سعيد العريان



٣ – تاريخ الاسلام السياسى

تأليف الدكتور حسن ابراهيم حسن

مصادر الكتاب

لأستاذ كبير

ألممت فى كلمتى السابقتين بما تأخذه النظرة المجلى من الأغلاط التاريخية والجغرافية الواقعة فى كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » وهى لعمرى أغلاط يذهب بعضها بمحاسن أى كتاب ترد فيه فكيف بها كلها ؛ وأريد فى هذه الكلمة أن أعرض فى شئ من النقد لمصادر هذا الكتاب ، وأن آتى بعد ذلك على بعض عيوب يخطئها على طريقة المؤلف فى أخذه عن المصادر المذكورة ، وكم كنت أود ، علم الله ، أن تكون كلمة اليوم كلمة ثناء أكيله للمؤلف جزافاً لعلى أمحو ما عساه أن يكون قد علق بنفسه من جراء المقالين السابقين ، ولكن شاء سوء حظى عنده أن يجىء الأمر على غير ما أريد

***

كل من يطلع على « تاريخ الاسلام السياسى » تبهره من غير شك كثرة المصادر التى تدل على أن المؤلف رجع اليها فى وضع كتابه ، فما من صفحة من صفحاته ، ولا فقرة من فقره إلا وهى تحتوى على أقل تقدير إحالة واحدة للقارئ على مرجع من مراجع التاريخ الاسلامى القديمة والحديثة . ثم إن المؤلف لا يكتفى بذكر مراجعه منثورة مفرقة على الفصول والصفحات والفقر والأسطر ، بل هو يوردها فى آخر كتابه مجموعة منسوقة فى بضع صفحات تروع النظر والفؤاد جميعاً

وإيراد المراجع العلمية على هذا النحو واجب محتوم فى البحوث العلمية الدقيقة التى يراد فيها الإدلاء بنظرية علمية جديدة أو بسط وجهة نظر مستطرفة . أما فى الكتب العامة التى يقصد أن تكون فى متناول الطلاب المثقفين فقد جرى العرف بأن يقتصر من ذكر المراجع فى صلب الفصول على الضرورى ، ثم يذيل كل فصل بذكر المراجع التى استعان المؤلف بها فى كتابة الفصل تبرئة لذمته ، وتوسعة على الطالب والقارئ الراغب فى سعة الاطلاع وكثرة التحصيل . ومما يبعث على سلوك هذه الطريقة أن الأصل فى الكتب المؤلفة للطلاب وراغبى الثقافة ، أن يكون واضعوها من أعلام العلماء وجهابذة الأساتذة ، ممن لهم فى العلم قدم راسخة ومكانة عالية تحمل قراءهم على تصديقهم فيما يقررون وما اليه يذهبون

ومع أن كتاب « تاريخ الاسلام السياسى » من الصنف الثانى فقد آثر المؤلف ركوب الطريقة التى تتبع فى الصنف الأول ، فحمل متن كتابه من الشروح والحواشى حملا ثقيلا ، وكلف نفسه شططا وقرآءه مشقة وعنتا . ولم كل هذا ؟ لا لشئ سوى ابتغاء السمعة عند الناس وأن يأتى فى روع القارئ أنه فى التاريخ واسع الاطلاع ، طويل الباع ، قد وعى ما كتبه الأوائل والأواخر

على أن نظرة ناقدة الى المراجع المذكورة كفيلة بأن تثبت أن كثرتها الى حد بعيد صورية لا حقيقية ، فان حرص المؤلف على التكثر والتزيد قد حمله فى كثير من الأحيان على أن يدل على ما لا يحتاج الى دليل ، وأن يعدد المراجع ولو كانت فى صرد أمرها ترجع الى مصدر واحد . فمن من تلاميذ المدارس لا يعرف نص الخطبة التى افتتح بها أول الخلفاء الراشدين عهده ؟ إنها أشهر من أن تجهل . ومع ذلك فالمؤلف الكريم يحيل قارئه عند إيراده نص هذه الخطبة على أربعة كتب قديمة متضمنة لها ذاكرا اسم الكتاب واسم المؤلف ورقم الجزء والصفحة والطبعة ومكان الطبع ! كذلك الحديث الذى يزعم رواة العرب أنه جرى بين أبى سفيان وبين هرقل قيصر الروم فى الشام ، وهو حديث يحمل فى ثناياه أدلة ضعفه وانتحاله ، وهو على فرض صحته ليس بذى خطر ، ولا يقدم فى فهم سيرة الرسول ولا يؤخر . ومع ذلك ، فالمؤلف يورده بنصه على طول ذلك النص ثم يحيل القارئ على الكتب القديمة التى ذكرته ، وقد ذكر منها

خمسة أكثرها شروح مختلفة على متن البخارى . لو أن المؤلف قصد الى مناقشة هذه النصوص ومقارنة رواياتها المختلفة بعضها ببعض ، وبيان ما تتفق فيه وما تختلف من حيث اللفظ والمعنى ، ثم الوصول بعد ذلك الى حكم يكون لها أو عليها ، لكان للمشقة التى عنى نفسه وقارئه بها ما يجيزها ويسوغها . أما وهو لم يقصد الى شيء من ذلك فقد انتفت المزية وبقيت المشقة

***

ثم إن هنة الكثرة صورية من وجه آخر أكثر خطراً وأضر بقيمة الكتاب العلمية وبقدرة مؤلفه على نقد مراجعه وتقويمها ذلك بأن المؤلف كثيرا ما يأخذ عن كتب أثبت البحث العلمى الدقيق أنها لا يصح الاعتماد عليها بحال فى معرض التدليل العلمى الصحيح . فهو يعتقد أن الكتاب القصصى المسمى « فتوح الشام » للواقدى حقا ، ثم يذهب يستعين به فى الفصل الذى عقده لفتح العرب الشام ، وينقل عنه صفحات برمتها ، ثم لا يكتفى بذلك بل ينبرى لمناقشته ومجادلته . فليأذن لنا الدكتور أن نقول له إن هذا الكتاب ليس للواقدى ، بل ليس من آثار عصر الواقدى ، وإنما هو كتاب كتب بعد زمن الواقدى بمئات السنين : كتب على أغلب الظن إبان الحروب الصليبية لبث الحمية الدينية فى نفوس الجمهور وترغيبه فى مجاهدة الصليبيين بتذكيره بفعال آبائه فى الشام . ونفس عبارة الكتاب من النوع القصصى الحماسى . جاء فى دائرة المعارف الاسلامية فى ترجمة الواقدى ما يأتى :

Les Futuh al sham et al Irak, ne sont pas conservées; les livres qui circulent sous ce nom proviennent d'une époque postérieure et sont faussement attribuès à Wakidi » وترجمتها

« إن كتابى فتوح الشام والعراق قد فقدا . أما الكتابان المتداولان بهذا الاسم فيرجعان الى عصر متأخر ، وهما مضافان إلى الواقدى خطأ . »

كذلك يعتمد المؤلف فى عدة مواضع من كتابه على كتاب آخر زائف هو كتاب « الامامة والسياسة » المنسوب الى ابن قتيبة وكل شيء فى هذا الكتاب يدل على أنه ليس لابن قتيبة . وإنما هو فى غالب الظن لكاتب أندلسى أراد تسلية الخاصة باسم الحياة السياسية الاسلامية فوضع هذا الكتاب الذى يعتبر من الناحية الأدبية قطعة فنية ، وإن كان من الناحية التاريخية لا يعول عليه على الاطلاق . وفى ذلك يقول المستشرق الانجليزى مرجليوث فى كتابه « مؤرخو العرب » فى ص ١٢٥

« Its falisification or ignorance of history is so glaring that if cannot be ibn Qutaibah's work » وترجمته « أن ما فى هذا

الكتاب من تكذيب للتاريخ أو جهل به ، لفاضح بحيث لا يمكن أن يكون من تصنيف ابن قتيبة . »

ثم إن المؤلف كثيراً ما يستمد ويقتبس من كتب منها ما قد أصبح قديماً قاصراً من حيث المستوى العلمي ، ومنها ما هو ثانوي الأهمية ، ومنها الضعيف ، ومنها ما قصد بكتابته الى التثقيف العام . من هذه : « تاريخ العرب » لسديو ، و « موجز تاريخ العرب » للسيد أمير علي ، و « الحضارة العربية » لجوستاف لوبون » ، و « أتباع محمد » لواشنجتن أرفنج

إن هذه الكتب وكثيراً غيرها قد وضعها في أغلب الأحوال هواة قصدوا بها ناحية الثقافة العامة والتصوير المجمل ، وكثرة الاستدلال بها في مقام البحث الجدي ترخص لا مسوغ له

***

هذا عن مبلغ نقد المؤلف لبعض أمهات مصادره . أما مذهبه في الانتفاع بهذه المصادر إجمالاً فلنا عليه بعض الاستدراك . فهو مفرط في الأخذ عنها والاقتباس منها ، بحيث أنك في كثير من فصول الكتاب تبحث عن شخصية المؤلف فلا تجدها أو تجدها ضئيلة ضعيفة ، خذ لذلك مثلاً الباب الأخير من أبواب الكتاب الخاص بالحضارة الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، وهو باب كان يمكن المؤلف أن يجول فيه ويصول ، ومع ذلك فهو لا يخرج عن كونه مجرد تلخيص لكتاب « الخلافة » لارنولد ، وكتب الحضارة الاسلامية والأدب العربي لفون كريمر والسيد أمير علي ونيكلسن . أن الأمر هنا أمر تكرار لا ابتكار

وقد يخطئ المؤلف بعض من يأخذ عنهم تخطئة لا حق له فيها . من ذلك أنه عند كلامه على الخوارج استشهد بقول صاحب كتاب « الفخري » : « وصدرت منهم أمور متناقضة تدل على أنهم يخبطون خبط عشواء ، منها أن رطبة سقطت من نخلة فتناولها رجل ووضعها في فيه ، فقالوا له أكلتها غصباً وأخذتها بلا ثمن ، فألقاها ، ومنها أن خنزيراً لبعض أهل القرى مر بهم فضربه أحدهم بسيفه فعقره فقالوا هذا فساد في الأرض ، فمضى الرجل إلى صاحب الخنزير وأرضاه ، ومنها أنهم كانوا يقتلون النفس التي حرمت إلا بالحق ، قتلوا عبد الله بن خباب ، وكان خباب من كبار الصحابة ، وقتلوا عدة نساء وسبوا ، وفعلوا أفاعيل من هذا القبيل » هذه العبارة التي يصح أن تعتبر مثلاً للتناقض يعلق عليها المؤلف بقوله : « نرى أن هـذا ليس من التناقض في شيء ، وإنما هو أقرب إلى أن يكون غلوا في تطبيق مذهبهم » ! ! !

ومن ذلك نقده الهادم لحاجي خليفة ، لا لشيء سوى أنه أورد خبراً لم يرضه المؤلف فيقول : « ومثل هذا المؤرخ لا يؤخذ بكلامه ولا يعول عليه في المسائل التاريخية الهامة لأنه كان متأخراً في الزمن فقد توفي سنة ١٠٦٧ هـ » وهو تعسف في الحكم من غير نزاع ، ومن هذا القبيل أيضاً تصديه لمرجوليوث في أمر الرجلين اللذين تزعم الرواية العربية أن كسرى أمر عامله على اليمن أن ينفذهما إلى الرسول ليأتياه به ، فلما قدم الرجلان على الرسول أخبرهما النبي بأن كسرى قتل وأن ابنه هو الذي قتله . فمرجوليوث يأخذ من هيئة الرواية أن النبي كان له من يأتيه بالأخبار . أما المؤلف فبدلاً من أن ينقد الرواية العربيـة ، ليرى هل من المعقول أن ينفذ كسرى من طريق عامله على اليمن رجلين اثنين إلى سيد الحجاز ليأتياه به ، فانه يأخـذ في الرد على مرجوليوث لأنه لم ينظر الى المسألة نظر المسلم المؤمن بنبوة محمد (صلعم) ، ولو أنه عمد إلى نقد الرواية أو تأولها على أقل تقدير لانهارت دعوى مرجوليوث من تلقاء نفسها

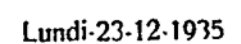
والمؤلف يسهو أحياناً فيذكر أنه أخـذ من مصدر بعينه أخذاً مباشراً ، في حين أنه يكون قد أخذ عنه بالواسطة ، فهو يحيل القارئ في ص ٨٠ وغيرها على ما يسميه هو المجلد الثاني من كتاب « بقية الوثنية العربية » Reste Arabischen Heidentums لمستشرق الألماني فلهاوزن . والواقع أن الكتاب المذكور يقع في مجلد واحد فقط ، ولكنه طبع مرتين ، فلو أنه رجع اليه حقاً لما وقع في هذا الخلط القبيح

وعلى كثرة من يستشهد المؤلف بهم في كتابه وذكره أسماءهم مباهياً بتلمذته لبعض المستشرقين منهم ، كأرنولد ونيكلسون ، نراه ينسى أن يذكر أن الفصل الذي عقده لمكتبة الأسكندرية كله ملخص من كلام دكتور بطلر في كتاب « فتح العرب مصر » والغريب أنه يحيل في ختام هذا الفصل على كتابه هو « عمرو بن العاص »

وبهذه المناسبة نقول أن المؤلف غمط حق مؤرخ جليل وعالم كبير طالما جلس المؤلف منه مجلس التلميذ من الأستاذ ، ذلك هو المرحوم الشيخ محمد الخضري بك الذي طوى الموت ما بينه وبين هذه الدنيا بما فيها من غدر ومحال ، وباطل وغرور . لقد انتفع المؤلف بعلم هـذا الشيخ حياً وميتاً كما يدل كلامه على شرعية القتال ، ثم هو يبخل بأن يذكر اسمه ضمن من أخذ عنهم . فيا ليت شعري إذا كنا لا نظفر بالوفاء عند تلاميذنا ، فعند من سواهم يكون الظفر بالوفاء ؟ ؟

(يتبع) مؤرخ

3me Année, No. 129.


Lundi-23-12-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مـ

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الثالثة — «القاهرة فى يوم الاثنين ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ — ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥» — العـــدد ١٢٩

فهرس العـــدد

صفحة

أبو الطيب المتنبى

بمناسبة ذكراه الالف

المتنبى كما تخيله جبران

فى مثل هذا الأسبوع من سنة أربع وخمسين وثلثمائة للهجرة طُلَّ فى سواد بغداد دم الرجل الطموح والبطل الشاعر أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى ، فهدت بهموده نفس دائبة الشبوب وعزيمة دائمة الوثوب وهمة رفيعة المصعد! وكان المأمول أن يكون هذا العدد من الرسالة ديواناً لما بقيه

أساتذة الجامعة المصرية من المحاضرات فى (أسبوع المتنبى) ، ولكن العواصف الهوج التى ثارت بالبلاد فروعت قلوب الناس ، وزعزعت سلام الجامعة ، حالت من دون هذا الأمل . وأبو الطيب الذى رُزق السعادة فى شعره ، وأوتى النباهة الخالدة فى ذكره ، لا يزال حظه العاثر لعبة الأيام وألهية القدر ! هذا العراق الذى وُلد به ودفن فيه قد أعرض بسمعه عن ذكراه ، وهو المثل الذى يرتجيه لشبابه ، والروح الذى يبتغيه لنهضته ! وهذه حلب التى جعلها نشيداً فى فم الزمن ، قد قسم الهوى رأيها على ذكراه فجاءت بما لا يتفق مع قدره ، ولا يسمو إلى جلاله ! وهذه مصر التى كان أول من أخذها بالخضوع الضارع [١] ، وعابها بالزهد الوضيع [٢] ، ونبه عينها الوسنى إلى فساد الحكم [٣] قد دفنت ذكراه بين وعد من (رابطة الأدب العربى) عفى عليه النسيان ، ونية من الجامعة المصرية ثبطت عنها الحوادث ؛ فلم يظفر شاعر القوة وشهيد المجد إلا بحفلتين جديرتين بفضله : حفلة قومية أقامها شباب العرب الأبرار فى (سان باولو) ، وحفلة رسمية سيقيمها رجال الأدب الأخيار فى (دمشق) ! وسان باولو لم تخلق فى دنياه ، ودمشق لم تذكر فى شعره

***

كان أول عهدى بالمتنبى أن والدى — سقى الله ثراه — أهدى إلىّ فى يوم من الأيام ديوانه ، وكنت لا أزال غلاماً يافعاً قد ارتفع قليلا عن سن الحداثة ، فأنا أقرأ القصص ، وأحفظ المتون ، وأتلقى الدروس الأولية فى الأزهر ، وأكثر من نظم الشعر فى المناسبات المختلفة على معان سقيمة وقوالب مشوشة ؛ فأراد أبى أن أستعين بالنظر فى هذا الديوان على تقويم ملكتى وتهذيب طبعى ؛ فأقبلت عليه إقبال المنهوم المحروم ، لأنه الكتاب الوحيد الذى أملك ، والغذاء الشهى الذى أحب ، والحنان الأبوى الذى أقدس . كنت أقرأه فأدرك موسيقاه بشعورى ، وإن كنت لا أدرك معناه بعقلى ، وأحس أن شعاعاً سحرياً ينبثق عن سطوره ، فيغمر القلب بالنشوة ، ويرفع النفس بالحماسة ، كاللحن القوى ينساب فى الأذن الأمية نغماً من غير معنى ، وجمالا من غير تحديد ، ووحياً من غير بيان ، ولذة من غير وعى

ازداد على الدرس والأيام فهمى للمتنبى ، فصار للذوق الساذج حجة من الفن ، وللحب الذى صادف خلاء من القلب قوة من المنطق . وكان أستاذنا المرصفى — تغمده الله بالرحمة — لا يصح فى رأيه أحد من الشعراء المولدين وبخاصة أبو الطيب ، فدس فى أذواق تلاميذه الكراهة له والنفور من شعره ؛ وتأثر بذلك الايحاء رفيقاى طه حسين ومحمود زناتى ، وقاومه فى نفسى تلك العوامل الأولى فلم أر رأيهما فيه ، ولم أمالئ تعصبهما عليه ؛ وكثيراً ما كنا نتمادى فى أدبه ، ونتهاجى بسببه ! ولا زلنا نتذاكر تلك المداعبات الأدبية الأخوية فنستروح منها شميم الصبى الغريض ، ونسيم العيش الأبله ، ونفح الولاء الخالص

***

إن أبلغ ما أثر فى نفسى من حياة المتنبى منذ عرفته هى هذه النفسية المعذبة بين الطموح والعجز ، وتلك الشخصية المذبذبة بين الوسيلة والغاية : سمت نفسه منذ أيفع إلى معالى الأمور ، ولم يجد معيناً عليها غير المال والقوة . أما القوة فقد التمسها فى قيادة الأعراب باسم الدين أو باسم العدالة فأخفق ، وأما المال فاحتال عليه بوحى العبقرية وقوة الشاعرية فأصاب . وكان الشاعر المغامر من هذه الوسيلة الأرضية ، ومن تلك الغاية السماوية ، بين عاملين مختلفين : عامل يرفعه فيُدِلّ على الملوك ، ويتأبى على السوقة ، ويتجافى عن الهون . ويقول لبعض الأمراء :

وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى يُرى من الشعراء

وعامل يضعه فيهش للهبة هشاشة السائل ، ويحرص على المال حرص الشحيح ، ويعفر خده الأصعر فى البحث عن درهم ، ويقول لبعض الأغنياء :

تهلل قبل تسليمى عليه وألقى ماله قبل الوساد

ولكنه فى كلتا الحالين كان طالب مُلك ، وعاشق مجد وخاطب دولة

(للكلام بقية) **احمد حسن الزيات**

---

(١) سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم

(٢) أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمة ضحكت من جهلها الأمم

(٣) نامت نواطير مصر عن ثعالبها حتى بشمن وما تفنى العناقيد

٥ – المجنــــون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

ثم إن (نابغة القرن العشرين) استخفه الطرب لذكر صواحبه وجيلاته من فاطمة الى رباب؛ ومن طبع المجنون أنه إذا كذب صدق نفسه، فان قوة الضبط في عقله إما معدومة وإما مختلة، وكل وجه تخيل منه خيالا فهو وجه من وجوه العلم عنده إذ كان عالمه أكثره في داخله لا في العالم، فاذا توهم أو أحس أو شعر فانما يكون ذلك بطريقته هو لا بطريقة الناس العقلاء، فليس يحتمل عقله إلا فكرة واحدة تمضي منفردة بنفسها مستقلة بمعناها كأنها قدر غالب على جميع أفكاره الأخرى، فلا شأن لها بالواقع ولا شأن للواقع بها، وإنما هي تحقق معناها كما تخطر له لا كما تتمثل فيما حوله. فبين كل مجنون وبين ما حوله دماغه المتدجي بالغيوم العقلية، لا تزال تعرض له الغيمة بعد الغيمة من اختلال بعض المراكز العصبية فيه، وفساد أعمالها بهذا الاختلال، وقيام الطبيعة فيها على هذا الفساد

ومن ذلك تنقلب الكلمة من الكلام وإنها الحادثة تامة في عقل المجنون كالقصة الواقعة لها زمان ومكان وبدء ونهاية، لا يخامره فيها الشك، ولا يعتريها التكذيب؛ وكيف وهي قائمة في ذهنه من وراء سمعه وبصره قيام الحقيقة في الأبصار والأسماع؟

والحواس المجنون جهتان في العمل لأنها بين كونين أحدهما الكون الخرب الذي في دماغه؛ وفي هذا يقول (نابغة القرن العشرين): إن في داخل عينيه منظارا يرى به الأشياء في غير حقائقها، أي في حقائقها

وحدثنا الدكتور محمد الرافعي قال: إن في دار المجانين بمدينة ليون بفرنسا نابغة كنابغة القرن العشرين ذكرت أمامه قيصرة روسيا وخبر مقتلها، فأحفظه هذا وأزعجه وقال يا ويحهم! كذبوا عليها وعلي... فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصرة أنها رأتني فأحبتني وعلمت من كل وجه يمكن أن يعلم منه قلبها أني أنا رجلها لا القيصر. فما زالت بعدها تناكد القيصر وتلتوي عليه ولا تصالح له في شيء حتى يئس منها فطلقها. فجمعت كنوزها وحلاها ولجأت الى حبيبها. ثم تبعتها نفس القيصر ولم يطق العيش بعدها فانتحر.... ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز فأخفاها هو في مكان حريز لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنه هو لا يصل الى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام... كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعقبه فيعلم مقرها. ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ... فقد يزل مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على عقله... فيذهب اليه فعسى أن يراه من ينم بذلك فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه؛ قال: وإن القيصرة هي تحتاط أيضاً مثل ذلك فتراسله كل يوم باللاسلكي رسائل تقع من الجو في دماغه فيقرؤها وحده. وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة فتزوره في هذا المارستان......

فقد تقتل إذا رآها الشيوعيون

قال الدكتور: وهناك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامت به وأنها مبتلاة في حبها إياه بجنون الغيرة، وقد تناهت فيه حتى إنها لتقتل نفسها إذا علمت أن لصاحبها هوى في امرأة أخرى. وخبلته هذه الفكرة فاعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف؛ ثم توهم ذات يوم أن واشياً قد أعلمها أن النساء افتتن به؛ فطار صوابها فهي آتية إليه في المارستان لتوبخه وتشفي غيظها منه ثم تنتحر أمام عينيه. وأدار (النابغة) الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخنها بالغيب.... فلم يهتد إلى مقنع تستيقن به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن.... ففعل وجب خصيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنه لها وحدها...:

***

قلنا: وطرب نابغة القرن العشرين، لذكر صواحبه وجيلاته فجعل يترنم بهذا الشعر:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم

ما لذة العيش إلا للمجـــانين

فقال المجنون الآخر: «مما حفظناه»: ما لذة «الخبز» إلا للمجانين....

فضحك (النابغة) وقال: ما أسخفك من أحمق. إذا كان هذا هو المعنى فقل ما لذة (الكمك). ألم أقل لكم إن هذا الأبله لو تهجّا كلمة خبز لقال إنها ل . ح . م . ولو تهجا كلمة لحم لقال ف . و . ل . . . .

إنه طفل عمره ثلاثون سنة وفيه دائماً غضب الطفل ونزقه وحماقته، وفيه كذلك سرور الطفل وطيشه وأحلامه؛ غير أنه ليس فيه عقل الطفل .. وهو من الضعف وشدة الحاجة إلى العناية في حياطته وسياسته والبر به كطفل صغير – بحيث يخيل إلى أحياناً أنني أمه . . . .

قلنا: وتنسى في هذه الحالة أنك رجل؟

قال: وأنتم كذلك تتهمونني بالنسيان وهو شرعاً جهة ملزمة للحكم بالجنون. فما النسيان إلا الكلمة الأخرى لمعنى ضعف العقل؛ وضعف العقل هو اللفظ الآخر لمعنى جنوني؛ وقد أعلمتكم ما أكره من الكلام.

قلت: لا، إن النسيان لا يكون منك نسياناً بمعناه في المجانين، بل بمعناه فيك أنت من تواثب الأفكار النابغة وتزاحمها في توارُدها على العقل .. فإذا تواثبت وتزاحمت كان أمرها إلى أن يُنسي بعضها بعضاً فلا ينطلق منها إلا القوي النابغ حق نبوغه، فيجيء كالمنقطع مما قبله، فيحسب ذلك نسياناً وما هو به .. وقد تصطلح الافكار في هذه المعركة الذهنية إذا كان النابغة مسروراً مجبوراً يرقص طرباً . . . فيكون أمرها إلى أن تجيء كلها معاً على اختلاف معانيها وتناقضها؛ فيحسب ذلك ضرباً من الذهول عند من يجهل العلة النبوغية؛ وعذره جهل هذه العلة وهي في دلالة العقل ليست نسياناً ولا ذهولاً

قال: فأعلمني كيف نسيان المجانين فقد خفي عليّ أن أدرك هذا الأمر العجيب فيهم، ولست أدري كيف يفوتهم ما استدنى لهم من الفكر بعد أن يكون قد استقر وحصل في عقولهم؟

قلت: لا يكون النسيان تهمة بالجنون إلا في أحوال ثلاث جاءت بكلها الرواية الصحيحة المحفوظة:

فأما الأولى فما رُوي عن رجل كان سرياً غنياً وعُمِّر حتى أدركه الخرف؛ فجاءه كاتبه يوماً يستعينه على تجهيز أمه وقد ماتت فدفع إلى غلام له دنانير يشتري بها كفناً ودنانير أخرى يتصدق بها على القبر؛ ثم قال لغلام آخر: إمض إلى صاحبنا وغاسل موتانا فلان فادعه يغسلها. قال الكاتب: فاستحييت منه وقلت يا سيدي ابعث خلف فلانة وهي جارة لنا تغسلها. قال يا فلان ما تدع عقلك في حزن ولا فرح. كيف ندخل عليها من لا نعرفه؟

قال الكاتب: نعم تأذن بذلك. قال لا والله ما يغسلها إلا فلان

فضاق الكاتب بهذا الحمق وقال: ياسيدي كيف يغسل رجل امرأة؟

قال: وإنما أمك امرأة . . .؟ والله لقد أنسيت

وأما الحالة الثانية فما يُروى عن رجل كان نائماً في ليلة باردة فخرجت يده من الفراش فبردت، فأدناها إلى جسده وهو نائم فأحس بردها فأيقظته، فانتبه فزعاً فقبض عليها بيده الأخرى وصاح: اللصوص. اللصوص . . . هذا اللص قد قبضت عليه أدركوني لئلا تكون في يده حديدة يضربني بها، فجاءوا بالسراج فوجدوه قابضاً بيده على يده وقد نسي أنها يده . . .

وأما الثالثة فهي رواية عن رجل قد ورث نصف دار، ففكر طويلاً كيف تخلص الدار كلها له ثم اهتدى الى الوسيلة؛ فذهب الى رجل وقال له: أريد أن أبيعك حصتي من الدار وأشتري بثمنها النصف الباقي لتصير الدار كلها لي . . .

***

قال (النابغة) لعمري إن هذا لهو الجنون، وما يذكر مع هؤلاء مجنون العمى ولا غيره . . .

فقال الآخر: تالله لولا أن (نابغة القرن العشرين) يدفع نفسه عن الجنون لجاء في الجنون بما يُذهل العقول . . .

ثم نظر فاذا النابغة يتحفز له . . .؛ فأسرع يقول: «مما حفظناه» كُن حذراً كأنك غِرّ، وكن ذاكراً كأنك ناس.

فهذا هو نسيان نابغة القرن العشرين، نسيان حكماء لا نسيان مجانين

قال (النابغة) ولكن قد فسد قول الشاعر، ما لذة العيش إلا للمجانين؛ فما بقيت مع الجنون لذة

قلت: إن الشاعر لا يريد المجانين الذين هم مجانين بالمرض وإنما يريد العشاق المجانين بالجمال؛ وجنون العاشق في هذا الباب

كعيوب العظماء من أهل الفن ، وهي عيوب تدافع عن نفسها بحسنات العظمة فليست كثيرها من العيوب

قال : فيجب أن أصنع بيتاً آخر يفسّر ذلك الشعر ليستقيم لي التمثل به . ثم فكّر وهمهم ، ثم كتب في ورقة ثم طواها وقال : اصنع أنت أولُ ، وسأتّمن س . ع . على شعري ودفع إليه الورقة

فنظرت وقلتُ : يجب أن يكون الشعر هكذا :

قالوا جُننت بمن تهوى فقلتُ لهم

ما لذة العيش إلا للمجانين

العقلُ إن حَكمَ العُشّاق أثقلُ من

فقرٍ تحكّم في رزقِ المجانين

ونشر س . ع . الورقة فاذا فيها :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم

ما لذة العيش إلا للمجانين

إن العيوب عن المجنون دافعة

بأنه نابغ في القرن عشرين ...

وضحكنا جميعاً ؛ فقال النابغة : أبعدك الله يا س . ع . إن من من ائتمن المجنون على سرّ وقال له اكتمه فكأنما قال له انشره

***

ثم قال : وددتُ والله أن يكون س . ع هذا نابغة ، ولكني سأجعله نابغة ، فقد صار له عليّ حقُّ الصديق وهو حق لا أُضيّعه ولا أُخلُّ به . فاذا احتجت يا س . ع إلى خطاب رنان تلقيه في حفل عظيم ، أو قصيدة تمدح بها وزير المعارف ، فالجأ إليّ فأني ملجأ لك . ومتى انتحلت شعري كنت عند الناس المتنبي أو البحتري أو ابن الرومي ، فإن هؤلاء القدامى لم ينفعهم إلا أنني لم أكن فيهم ، ولما لم أكن فيهم أعجبوا الناس إذ أنني لم أكن فيهم

قلنا فما حكمك عليهم في الأدب ؟

قال : إذا حكمتُ عليهم فقد جعلت نفسي بينهم ، فمن الطبيعي ألا يعجبني منهم أحد . إن « نابغة القرن العشرين » لا يقول لمعنى هذا أحسن فانه هو فوق الأحسن ، ولا يقول ع ، نابغة هذا أشهر فانه هو فوق الأشهر

قلت : كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذي لا يقول في حُسنٍ هذا أحسنُ لأنه فوق الشهوة ، ولا في نعيم هذا أطيبُ لأنه فوق الطمع ، ولا في مال هذا أكثر لأنه فوق الحرص . وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لكنت الحقيق في عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة : أصلحتُ شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال : وكيف ذلك ؟

قلت : حُكي عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه : يا رب ، مَن زوجتي في الجنة ؟ فأُرِيَ في منامه ثلاث ليال أنها جارية سوداء في أرض كذا . فجاء تلك الأرض تسأل عن الجارية ، فقال له رجل ما هذا ؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لي فأعتقتها ؟ قال وماذا رأيتم من جنونها ؟ قال : كانت تصوم النهار فاذا أعطيناها فطورها تصدقتْ به ، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضجرنا منها

قال : فأين هي ؟ قال ترعى غنماً للقوم في الصحراء

فذهب إلى الصحراء فاذا هي قائمة في صلاتها ، ونظر إلى الغنم فاذا ذئبٌ يدلها على المرعى وذئبٌ يسوقها . فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بُشّر بها ؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام ؟ قالت : نعم أصلحتُ شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم

قال (النابغة) : هذا كذب لأنه عجيب ، وهو عجيب لأنه كذب

قلت : وأي عجيب في هذا ؟ إن الذئب والشاة ، والأسد والغزال ، والثعبان والعصفور ، وكل آكل ومأكول من الأحياء ، لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لانتظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد . فهذه الجارية نشرت رُوحَ الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان ، فوقع الذئب منها في دائرة مغناطيسية ، فسُلبَ وحشيته ورجع مُسَخَّراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيه الحياة بما حولها ، وانسجم النوعُ والنوعُ في حركة متجاوبة انسجام الرجل المغناطيسي هو ومن ينوّمه في إرادة واحدة وفكرة واحدة

قال (النابغة) : فاذا دخل الذئب مسجداً يَرْتَجُّ بالمصلّين ، أتراه يَصُفُّ أربعته ويقف بينهم للصلاة ، أم يصلي صلاته الذئبية في لحومهم ؟

قلت : وأين هم الذين يصلون بحقيقة الصلاة فيخرجون بها

مِنَ التفنن إلى التكوين ، ومن الزمن إلى الأبد ، ومن الأسباب إلى مُسبّبها ، ومما في القلب إلى ما فوق القلب ؟ إن هؤلاء جميعاً يعملون بجوارحهم وبينهم وبين أرواحهم طولُ الدنيا وعرضها ؛ وما منهم إلا من يتصل فكرُه بما يغلب عليه كما يتصل فكر اللص بيده ، وفكر العاشق بمبيته ، وفكر الطفيلي بمعدته . . . فاسمها عندهم الصلاة وحقيقتها عند الله كما ترى

قال (النابغة) ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يرعاها ؛ فلا أفهم شيئاً .

وقال الآخر : «مما حفظناه» رتع الذئب في الغنم ، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم ، فلا أفهم شيئاً .

قلت : سأزيدكما عدم فهم ... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة متصل بالله ، وليس فيه شيء من طباعها الانسانية ولا ظلٌّ من ظلال الدنيا ، وقد تجلى فيه سرُّ الحياة ، وهو السر الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطمع في شيء ولا يحرز شيئاً ، وإنما طبيعته إشراقه الكونية واتصاله بنفحات القوة الأزلية المسخِّرة للوجود كله . فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها ، وجاء الذئب فالتبح فيها وغمرته الروحانية الغالبة ، فإذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلى السلامُ عليه ، فليس فيه إلا قوة آمرة أمرها بائتلاف كل شيء مع كل شيء ، واجتماع المتنافرين في حالة معرفة لا في حالة إنكار . فصار الذئب مستيقظاً ، ولكنه في روح النوم ، وشُلَّت فيه الذئبيةُ الطبيعية فإذا هو بحول الأنياب والأظافر وقد أُنسِيَ استعمالها ، وبقيت حركتُه الحيوانيةُ ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها .

ومن كل ذلك اختفى الذئب الذي هو في الذئب ، وبقى الحيوان حياً كسائر الأحياء ، فناسب الشاة وفزع إليها إذ لم تعد العلاقة بينهما علاقةَ جسمِ الآكل بجسم الأكيلة ؛ بل علاقة الروح الحي بروح حي مثله[1]

* * *

قال (النابغة) : أما أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم . . أكتب يا س . ع : جلس نابغة القرن العشرين بمجلسه للفلسفة على غير إعدادٍ ولا تمكنٍ ، وبدون كتب ألبتة ... وكان هذا أجمع لرأيه وأذهنَ له وأدعى لأن يتوفَّر على الاملاء بكل مواهبه العقلية ؛ ولما أن فكر النابغة وأعطى النظر حقه وجم في عقله الفذّ جزالة الرأي إلى قوة التفنن والابتكار ، قال مرتجلا : إن فلسفة الذئب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطحه ، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين ...

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة

فامتعض الآخر وقال : «مما حفظناه» :

وبات يقدح طول الليل فكرته وفسر الماء بعد الجهد بالماء

فقال (النابغة) : ويلك يا أبله ! أما والله لو كنت نفطويه أو سيبويه لما كنت عندي إلا جحشويه أو بغلويه . . .

لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلا حفته الأشجار والأزهار عن جانبيه ، واندفعت في سوائه (تمبيلات) الأفكار خاطفة كالبرق . فلما تكلمت أنت انتهينا من سخافتك إلى طريق حجري تقعقع فيه عربات النقل تجرها البغال البطيئة

فقال الآخر وهو يعتذر إليه : ما أردت والله مساءتك ولو أردتها لقلت وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو . فهذا هو الخطأ ، أما تفسير الماء بعد الجهد بالماء فهو صحيح

قال النابغة : ولكنه تفسير مُفرط السقوط كتفسير المجانين ، فهو يقول إني مجنون

قلت : كلا ، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه

---

(١) روت الصحف في هذه الأيام قصة حاكم انجليزي كان قد اقتنص ذئبا هنغاريا وشده في سلسلة وجعله في حديقة داره إلى أن يرى فيه رأياً . وكان للحاكم طفل صغير أعجبه الذئب ومنظره الوحشي فتربص إلى الليل ، فلما استقل أهله نوماً انسل من حجرته وهبط الحديقة وجاء إلى الذئب فوثب هذا يتحفز لافتراسه ؛ ولكن الطفل لم يدرك شيئا من معنى هذه الوحشية ، ولم يكن في نفسه إلا أن الذئب كالكلب فلم يضطرب ولم يخف ولم يداخله الشك . ومضى إلى الوحش مسروراً مطمئناً فتناوله من شعره وجعل يمسحه بيديه الصغيرتين ويعبث به ، والذئب مدهوش ذاهل ، ثم سكن واستأنس اليه كأنه مع جرو من أجرائه لا مع طفل آدمي . وجذبه الطفل من رقبته حتى أضجعه ثم اتخذه وسادة ووضع رأسه على ظهره ونام ... وافتقدت الطفل مربيته فلم تجده في فراشه ، فنبهت أهله وذهبوا يبحثون عنه في غرف الدار ثم نزلوا إلى الحديقة فبصروا به نائماً ورأسه على الذئب . وخافوا إزعاج الوحش فرموه بالرصاص فقتلوه وقام الطفل يبكي على صديقه الوفي ...

هذا هو أثر الروح المطمئنة الماضية على يقينها ، ولكن أين مثل هذا اليقين في مثل هذه الحالة ؟ وكل مروضي الوحوش يعلمون أن أول وآخر ما يخيفونها به هو نزع الخوف من أنفسهم ، وأن هذا هو وحده سلاح النفس في النفس

١ – بعض مواطن الخفاء

في التاريخ الإسلامي

للأستاذ محمد عبد الله عنان

كان الخفاء وما زال مثار الفضول والروع، ومصدر الأساطير الغريبة الشائقة؛ وفي عصور ومواطن كثيرة كان الخفاء عماد دعوات وثورات سياسية واجتماعية خطيرة، وكان مبعث دول قوية قامت في ظروف غامضة، واستندت في قيامها إلى دعوات ومبادئ خفية؛ وكان هذا الخفاء نفسه مصدر قوتها وحياتها. وقد شغلت هذه الثورات والدعوات الخفية فراغاً كبيراً في التاريخ الاسلامي، وخصتها الرواية الاسلامية بكثير من التفصيل والجدل؛ وما زلنا نلمس آثارها حتى اليوم في بعض الطوائف والمجتمعات التي تلوذ في عقائدها وتقاليدها بكثير من الغموض والخفاء

وقد كانت قصة المهدي المنتظر بلا ريب من أشد مواطن الخفاء في التاريخ الاسلامي وكانت أخصبها مورداً للأساطير، وأحفلها بالدعوات والثورات الخفية؛ ويكفي أن هذه الأسطورة الغريبة كانت مبعثاً لطائفة من الدول القوية التي كان لها أكبر الأثر في سير التاريخ الاسلامي كما أنها كانت مصدراً لطائفة من الدعوات والمذاهب الدينية والاجتماعية التي شغلت مكاناً كبيراً في الكلام الاسلامي. كانت أسطورة المهدي عماد الدولة الفاطمية التي قامت في قفار المغرب الأوسط حول تلك الشخصية الخفية – شخصيـــة المهدي المبعوث – وحول رسالتها وإمامتها؛ ثم افتتحت مصر والشام وبسطت سيادتها على قلب العالم الاسلامي فيما بين آسيا الصغرى والحرمين؛ وكانت عماد دولة الموحدين التي قامت في قفار المغرب الأقصى، وسادت بسائط المغرب والأندلس أكثر من قرن؛ وكانت عماد طائفـة كبيرة من الثورات والفتن الدينية التي وقعت في مختلف العصور في أنحاء العالم الاسلامي. وكان الخفاء صفة ملازمة لأسطورة المهدي قبل البعث وبعده، يسبغ على القائم ودولتـه وخلفائه نوعاً من القداسة الروحية أو السمو فوق بني الانسان

ومنذ عصر الاسلام الأول تتبوأ هذه الأسطورة مكانها في الكلام الاسلامي، وتقوم على عناصر الغموض والخفاء، فنرى من غلاة الشيعة من يقول إن علياً بن أبي طالب لم يمت، ولكنه حي غائب عن أعين الناس، مستقر في السحاب، صوته الرعد والبرق في سوطه؛ ونرى منهم من يقول مثل ذلك القول في ولده محمد بن الحنفية، وأنه مستقر في جبل رضوى من أعمال الحجاز[1]؛ ثم نرى الأسطورة تتخذ بعد ذلك صبغتها السياسية وتدعم بالأسانيد الكلاميـة والشروح التاريخية، ولكن مع اقترانها بصفة الخفاء دائماً. وخلاصة الأسطورة «أنه لا بد في آخر الزمان من ظهور رجل من آل البيت يؤيد الدين ويظهر العدل، ويتبعه المسلمون، ويعيد مجد الاسلام ودولته ويسمى بالمهدي». أما هذا الامام الخفي فمن هو؟ هو من ولد علي بن أبي طالب؛ ولكن يختلف الشيعة في مساق الامامة أصولاً وفروعاً؛ وليس من موضوعنا أن نتعرض لهذا الجدل[2]؛ ولكننا نذكر فقط أن أشهر فرق الشيعة الامامية، وهم الاثنا عشرية، يقولون إن الثاني عشر من أئمتهم، وهو محمد بن الحسن العسكري، هو المهدي، وإنه لم يمت؛ ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار، ولا يزال مختفياً إلى آخر الزمان؛ ثم يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً؛ وزاد بعض الدعاة على ذلك فحددوا لظهور المهدي تواريخ معينة، وكلهم يستتر لتأييد مزاعمه

(١) ابن خلدون – المقدمة ص ١٦٥

(٢) راجع في هذا الموضوع ابن خلدون – المقدمة ص ٢٦٠ وما بعدها

كالذي حكاه الجاحظ قال: سمعت رجلا يقول لآخر: ضربنا الساعة زنديقاً. قال الآخر: وأي شيء الزنديق؟ قال الذي يقطع الزيقا. قال: وكيف علمت أنه يقطع الزيقا؟ قال رأيته يأكل التين بالخل ... ...

(التكملة في العدد الآتي)

(طنطا)

إلى «الحضرمي»: أنا من زمن لا أقرأ شيئاً لهذا الزنديق الذي سميته في كتابك؛ وقد عرفته رجلا لو أيقن أن حبل المشنقة يرفعه متربن ذنط في جو الشهرة لمد له عنقه ... وكل ما تقرؤه له من الطعن في العربية والعرب والاسلام، فإنما نيته فيه أن يتناوله الكتاب ولو بالصفع إذا رن الصفع في العالم العربي ......   الرافعي

وراء الرموز والإشارات الغامضة ، مما يسبغ على دعوتهم دائماً لون السرية والخفاء .

وكما كان الخفاء مبعث القداسة والخشوع قبل تحقيق الظفر السياسي ، فكذلك كان الخفاء بعد تحقيق هذا الظفر مصدر القوة والنفوذ للدولة أو الأسرة التي تتشح بثوب الدعوة أو الامامة أو الرسالة ؛ ولنا أسطع مثل على ذلك في الدولتين ، الفاطمية والموحدية . بيد أن هنالك أمثلة محلية كثيرة للاعتصام بهذا الخفاء المروع ، وبما كان يترتب على هذا الاعتصام من النتائج المادية والمعنوية المدهشة ؛ ويكفي أن تكون هذه الغمر الخفية مبعثاً لأكثر من دعوة بالنبوة ، بل مبعثاً لدعوة الألوهية ذاتها ، وأن تقوم عليها عقائد ومذاهب كان لها أثر قوي في سير العالم الإسلامي وما زالت تمثل في عصرنا

— ٢ —

ويقدم لنا التاريخ الإسلامي أمثلة عملية مدهشة قوامها الخفاء المادي والروحي ؛ ومن الصعب أن نستوعب هذه الأمثلة أو أن نحصيها جميعاً في هذا المقام المحدود ، ولكننا نقدم منها بعض أمثلة شهيرة

في أواخر القرن الثالث من الهجرة ظهرت دعوة القرامطة مستظلة بالدعوة الشيعية والاسماعيلية وقوامها التبشير بالمهدي المنتظر ؛ وظهر داعية القرامطة الأول الفرج بن عثمان القاشاني الملقب بذكرويه في جنوب العراق ، ولبث حيناً يبث دعوته سراً وخفية ؛ وتلاه تلميذه وصاحبه « قرمط » مؤسس المذهب الحقيقي يبث الدعوة جهراً ، ويدعو إلى امام من آل البيت هو المهدي الذي يظهر فيملأ الارض عدلا ؛ فلما ذاع أمره قبض عليه عامل الكوفة وألقاه إلى ظلام السجن ، ولكنه استطاع أن يفر من سجنه في ظلام الليل تساعده جارية للحاكم ؛ وكان هذا الداعية الجريء يدرك سر الخفاء وفعله في نفوس الكافة فاختفى على أثر فراره حيناً ، وألقي في روع أنصاره أنه رفع إلى السماء فازدادوا به فتنة ؛ ثم ظهر بعد ذلك وكأنه قد بعث ، ثم فر إلى الشام ولم يوقف له على خبر بعد ذلك ، فكان هذا الاختفاء في ذاته عاملا في ذيوع الدعوة القرمطية واضطرامها

ورأى الفرج بن عثمان أو ذكرويه أن يخوض أيضاً غمر الخفاء ، ليحدث مثل الأثر الذي أحدثه اختفاء قرمط ، فنزح إلى القفر وتوارى عن الأنظار في مكان ناء ، في مغار أنشأه لذلك ، واستخلف أولاده للدعوة ، ولبث أعواماً طويلة يعمل ويدبر الخطط من وراء ستار ، ويوجه أكابر أنصاره ، وخاصته حتى اشتدت دعوة القرامطة وغدت خطراً حقيقياً على الجزيرة ؛ ثم خرج ذكرويه من كهفه ، وظهر بين أنصاره ، وسار غازياً إلى الشام ، والتقى هنالك في ظاهر حمص بجند المكتفي ، فهزم القرامطة بعد قتال رائع ، وجرح ذكرويه وأسر ، وحمل إلى بغداد حيث توفي من جراحه بعد أيام ، ومثل بجثته أشنع تمثيل (سنة ٢٩٤هـ) بيد أن ثورة القرامطة كانت قد اجتاحت يومئذ أنحاء البحرين ، واستقرت هنالك قوية منذرة ، واستمرت خطراً دائماً على الشام ومصر وأطراف الجزيرة حتى أواخر القرن الرابع [1]

— ٣ —

على أننا نجد أروع مثل للخفاء في الدولة الفاطمية ، في قيامها ، وفي وسائلها ، وفي خلفائها ؛ فقد نشأت هذه الدولة القوية في قفار المغرب على يد دعاتها السريين وشيعتهم من القبائل البربرية المتعصبة الساذجة ، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدي شخصية خفية غامضة لم يستطع التاريخ أن يقف على حقيقتها أو يتقصى نسبها ؛ واستمر هذا الخفاء يغمر شخصية الخلفاء الفاطميين ، وهذا الريب يغمر أصلهم ونسبهم ، حتى أننا نجد أشراف مصر يطلبون الى المعز لدين الله حين مقدمه إلى مصر أن يوقفهم على نسبه ، فيجمعهم في مجلس عام ويسل نصف سيفه ويقول لهم هذا نسبي ، ثم ينثر عليهم ذهباً ويقول لهم هذا حسبي [2] ، ونجد خصوم الفاطميين ولا سيما بني العباس يتخذون هذا الريب في نسبهم مثاراً للطعن في امامتهم وفي ذممهم وعقائدهم مما لا يتسع المقام لبسطه ؛ بيد أن هناك حقيقة تلفت النظر ، هي أن الخلفاء الفاطميين ، ولا سيما الأوائل منهم كانوا يزعمون علم الغيب ومعرفة الخفاء [3] ، ومما يروى في ذلك أن العزيز بالله الفاطمي صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة مكتوب فيها

(١) راجع في دعوة القرامطة وغزواتها — ابن الأثير ج٧ ص١٤٧ و١٤٨ و١٦٨ و١٦٩ و١٧٢ و١٧٤ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٨٥ — ٩٠ ؛ واتعاظ الحنفاء للمقريزي ص ١٣٠ وما بعدها ؛ وراجع كتابي تاريخ الجمعيات السرية ص ٣٣ — ٣٨

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠٠

بالظلم والجــور قد رضــينا وليس بالـكفر والحماقه
إن كنت قد أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقه

وذلك إشارة إلى دعواهم علم الغيب ؛ وقد اتخــــذ تعلق الفاطميين بالخفاء واستظلالهم برموزه صورا واضحة لها أثرها القوى فى بناء الدولة الفاطمية وفى خططها ووسائلها ؛ بل كان هــذا التعلق بالخفاء سياســة مقررة للخــلافة الفاطمية ؛ فنراها منذ استقرت بمصر تنظم مجالس الحـكمة الشهيرة فى القصر وفى الأزهر وتعنى بأن تكون هذه المجالس مبعثاً لتعاليمها المذهبية ؛ ثم نرى هذه المجالس يتسع نطاقها شيئاً فشيئاً وتغــدو ، جزءاً من نظم الدولة الروحية والاجتماعية ، ونراها تعقد للنساء والـكافة ، وينصب للأشراف عليها رجل من أكبر موظفى الدولة هو قاضى القضاة ، وينعت فى هذا المنصب « بداعى الدعاة » . وفى عهد الحاكم بأمر الله تتخذ الخطوة الأخيرة والحاسمة فى تنظيم مجالس الحـكمة ، وتنظيم الدعوة السرية الفاطمية بصورة رسمية وتنشأ دار الحـكمة الشهيرة ، لتستأثر بتنظيم الدعوة وبثها على يد نخبة من الدعاة والنقباء (سنة ٣٩٥ هـ)(١) ؛ وقد اتخذت دار الحـكمة منذ قيامها صبغة مذهبية واضحة قوامها بث الروح والمبادىء الدينية الفاطمية ، وكانت هذه مهمتها الظاهرة ؛ بيد أنها كانت تعمل فى الظــلام لغاية أخرى يغمرها الخفاء ، هى بث الدعوة السرية الفاطمية . ولا يتسع المقام للافاضة فى تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ورسومها ، ولـكنا نقول فقط أنها كانت من أغرب الدعوات السرية المــذهبية ؛ وكانت موزعة على مراتب تسع يتدرج فيها الطلبة على يد الدعاة ، ويدفعون تباعا الى حظيرة التعاليم الفلسفية والالحادية ؛ ويبدأ الطالب فى جو من الايمان العيق ، ولـكنه لا يصل المرتبة السادسة أو السابعة حتى يكون قد انحدر إلى غمر الانكار المطبق ؛ ويبدو مما نقل الينا من تفاصيل هذه الدعوة الغريبة ومن موضوعات مراتبها ، أن الغاية الأخيرة التى كانت تعمل لها الدعوة السرية الفاطمية هى هدم كل اعتقاد وكل عقيدة دينية ، والانتقال بالطلبة والصحب الى حظيرة الالحاد المطبق والترفع عن العقائد الروحية العامة التى تؤكد الدعوة أنها لم توضع إلا للكافة ، ولا يلزم بها ذوو الأفهام الرفيعة

وقد اســتمرت هذه الجامعة الغريبة ، أعنى دار الحــكمة ، عصراً تبث العقائد والمبادىء الفاطمية ، الخفيــة والظاهرة ، وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثراً فى توجيــه الحركة الروحية فى مصر ؛ بيد أنها لم توفق إلى تحقيق الغاية التى عملت لها ، ولم تستطع أن تطبع المجتمع المصرى بطابع عميق من الدعوة التى كانت مبعثها ومستقرها ، وكانت جهودها بالعكس عاملا فى بث أســباب السخط على تلك السياسة التى رسمت للاستئثار بتوجيــه العقائد وبث الانكار والالحاد ؛ واضطرت الخلافة الفاطمية غير بعيد أن تعدل عن هــذا الاغراق فى بث العقائد المذهبيــة ، فتضاءلت أهمية دار الحــكمة ، ثم أغلقت بعد ذلك ؛ بيد أن هــذه الدعوة السرية ذاتها تمخضت كما سنرى عن نتائج مدهشة سريعة الأثر

(للبحث بقية) محمد عبد الله عنان

(١) راجع فى دار الحـكمة ونظمها ومراتبها : المقريزى (مصر) ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ وج ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها وفيها تفاصيل الدعوة ومراتبها باسهاب

المتنبي في ديوانه

بمناسبة ذكراه الألفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

اختلفت مذاهب الأدباء في المتنبي بين المدح والذم اختلافاً شديداً منذ العصر الذي كان يحيا فيه إلى الآن ، وقد مرت على وفاته عشرة قرون كاملة . وإنك لتجد اليوم بعد هذه الأجيال الطويلة من يتكلم عن المتنبي بلسان الصاحب بن عباد خصمه العنيد الذي جعل وكده النيل من المتنبي وإنكار فضائله بالحق أو الباطل ، ومن يدافع عنه ويتعصب له أكثر من ابن جني وأبي العلاء .

ولقد كان حرياً أن تضيع حقيقة المتنبي بين التفريط والإفراط من الفريقين كما هو الشأن في كل ما يتعاوره هذان العاملان المختلفان ، ولكن المتنبي كان شخصية فذة تأبى إلا الإعلان عن نفسها والظهور بمظهرها الحقيقي مهما حالت الحوائل بينها وبين الناس

فالمتنبي لا يجهل أحد من المثقفين اليوم أنه من أكبر شعراء العربية إن لم يكن أكبرهم على الإطلاق ، رفع من شأن الشعر العربي فأحله مرتبة لم تكن له من قبل ، بما نفى عنه من الزخارف اللفظية والأساليب التقليدية والأغراض السافلة ، وما نفخ فيه من روح العظمة والابتكار والسمو إلى الغايات البعيدة المنال . حتى أنه إذا مدح شخصاً فإن مدحه له يكون كالتلقين لمبدأ سام لا يجد الإنسان مندوحة عن الاستجابة له من أعماق نفسه .

ولا نستدل على ذلك بأكثر من مطلع هذه القصيدة التي يمدح بها سيف الدولة ، فإن فيه وحده بلاغاً لمن يتشكك في هذا القدر ، وهو قوله :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم
وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها
وتصغر في عين العظيم العظائم

وكما يعرف الجمهور هذه الحقيقة من أمر المتنبي اليوم ، فإنه كان يعرفها بالأمس وفي نفس عصر المتنبي . يدلنا على ذلك هذه العناية الكبيرة من الأدباء بشعره ؛ فمن شرح له ، إلى انتقاد ، إلى تقريظ ، إلى غير ذلك مما لم ينله شاعر قبله ولا بعده . وفي حياة المتنبي قال ابن العميد لأحد خلصائه : « إنه والله ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في إخماد ذكره ؛ فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فزعت منه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملاً
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

ولاحظ الأستاذ العقاد [1] عن المدة بين نظم القصيدة التي منها هذان البيتان وموت أخت ابن العميد التي كانت التعزية فيها ، أنها لا تزيد كثيراً على سنة واحدة . فانظر كيف كان تلقف الأدباء لآثار المتنبي وتلقيهم لها بالقبول ، برغم وجود كثير من المنافسين له والعاملين على إخماد ذكره كما يعبر الرئيس ابن العميد .

فمقام المتنبي دائماً أرفع من أن يتطاول إليه أحد ، وشأنه أكبر من أن يؤثر فيه مقال أهل الحسد . وما كثرت هذه التتبعات لشعره فكثرت بسببها العثرات التي يأخذها عليه خصومه ، إلا لأن نبوغه كان أكمل وأتم ، وعبقريته أجل وأعظم ؛ والناس منذ كانوا مولعون بالنظر يتلمسون عيوبهم فيظهرونها ، ويتكشفون عوراتهم فلا يسترونها . على أن جل ما أخذ على المتنبي قد رده المحققون وبينوا أن الصواب ما ذهب إليه هو ؛ وبعض الباقي هو مما لم يخل منه كاتب ولا شاعر في القديم والحديث ، وأي صارم لا ينبو ؟ وأين الجواد الذي لا يكبو ؟

نعم ، هناك هنات لا تزال لاصقة بالمتنبي فتزري بشخصه الكبير ، ولا زال البحث العلمي بعيداً عن أن يصل فيها إلى نتيجة حاسمة ، فنريد أن نأتي عليها بصيصاً من نور التحقيق معتمدين في الكثير على شعر المتنبي الذي هو أصدق مرآة لنفسيته وأخلاقه . وسيكون اعتمادنا في الأكثر على نسخة خطية عتيقة من ديوانه توجد بالخزانة الكنونية . وهذه الهنات التي نقصد إلى الكلام فيها هي تنبؤه وعقيدته وأخلاقه .

(1) المطالعات ص ١٣١

فأما تنبؤه فهو الزلة الكبرى التي تؤخذ على ذلك العقل الجبار، وهو في الحقيقة أمر لو صح لكان ذريعة إلى اتهامه في سلامة الادراك. ولكن من المعروف أن المعري كان يشك في صحة ذلك، ويقول في هذا اللقب الذي غلب على أبي الطيب: إن اشتقاقه من النبوة أي الارتفاع، لما كان من رفعه على الخلق، لا من النبأ الذي منه اشتقاق النبيء. وهذا الخبر وحده كاف في نفي هذه التهمة عنه، لا لتشكك المعري فيها، ولكن لما يتضمنه ذلك من إخفاء قضية التنبؤ وعدم شهرتها بين الخاصة فأبلغه بالعامة، وإلا لما سأل ابن القارح أبا العلاء عن حقيقتها فأجابه أبو العلاء بذلك الجواب. وهذا على أن ما بين المتنبي وأبي العلاء من الزمن لا يجاوز العقد الواحد من السنين. فكيف خفي هذا الأمر ودفن مع المتنبي حتى أن اثنين من كبار أدباء ذلك العصر لا يجدان سبيلا إلى التوثق منه، مع أن العادة في مثله إذا وقع ولو ممن هو أدنى من المتنبي مقاماً، أن يشتهر ويتعالم فيتناقله الناس ولا يبقى أحد ليس عنده نبأ منه!

وأكثر من خبر المعري دلالة على هذا المعنى، خبر ابن جني الذي ذكر له أبو القاسم الشريف (الشريف الغرناطي) في شرح مقصورة حازم، قال: « وحكى أبو الفتح ابن جني قال: سمعت أبا الطيب المتنبي يقول: إنما لقبت بالمتنبي لقولي:

أنا تِربُ الندى وربُّ القوافي وسمامُ العدى وغيظُ الحسودِ

أنا في أمةٍ تداركها الله غريبٌ كصالحٍ في ثمودِ »

فهو لو كان تنبأ حقيقة لما جهل ذلك من أمره حتى يحتاج إلى البيان، وإلا كان كالمعتذر بأقبح من الزلة. وصفوة القول أن قضية تنبئه لم تثبت حتى في زمن حياته. وهي إن لم تكن من إشاعات خصومه الكاذبة فهي على الأرجح مما نُبز به لتشبيهه نفسه بالأنبياء كما في البيتين السابقين والبيت الآخر الذي يقول فيه:

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وننظر في ديوانه فلا نجد ما يدل على هذه القضية لا تصريحاً ولا تلويحاً إلا ما كان من أمر سجنه في صباه بسبب وشاية بعض الناس به إلى الوالي. فنقول ما هي هذه الوشاية؟ أتراها مما له علاقة بهذا الأمر؟ وتجيب نسختنا عن ذلك بما كتب فيها على القصيدة التي مدح بها الوالي فتقول:

« وكان قوم في صباه وشوا به إلى السلطان وتكذبوا عليه وقالوا له قد انقاد إليه خلق من العرب، وقد عزم على أخذ بلدك، حتى أوحشوه منه. فاعتقله وضيق عليه فقال يمدحه ». فالوشاية إذاً هي خروجه على السلطان لا ادعاؤه النبوة. واستمع إلى ما يقوله في استعطاف الوالي من تلك القصيدة:

أمالك رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد

دعوتك عند انقطاع الرجا ء والموت مني كحبل الوريد

دعوتك لما براني البلى وأوهن رجلي ثقلُ الحديد

وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيود

وكنت من الناس في محفل فها أنا في محفل من قرود

يريد المسجونين من اللصوص والجناة المختلفي الطبقات السيئي السلوك

تعجل فيَّ وجوب الحدود وحدِّي قبل وجوب السجود

يريد أنه صغير لم تجب عليه الصلاة فكيف يجب عليه الحد؟

وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود

يريد أنهم اتهموه بالعدوان على العالمين في حال الطفولة قبل أن يستطيع القعود. وليلاحظ القارئ نوع التهمة فهي منحصرة في الخروج، ولو كانت ادعاء النبوة لما قال عدوت على العالمين:

فما لك تقبلُ زورَ الكلام وقدرُ الشهادة قدرُ الشهود

يريد أن الشهود من سفلة الناس فشهادتهم مردودة لعدم تورعهم عن الكذب:

فلا تسمعنَّ من الكاذبين ولا تعبأنَّ بعِكِّ اليهود

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلتُ بشأوٍ بعيد

وفي جود كفك ما جدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

فهذا كلامه في حال صباه قبل أن يناصبه العداء أحد من المنافسين له والحانقين عليه، لم يتضمن شيئاً من الإشارة إلى دعوى النبوة، ولا يمكن أن تفهم منه بحال. فلو كان قال هذه القصيدة في إبان شهرته وانتشار ذكره لقلنا إنه جمجم فيها وداري عن نفسه، ولكنه كما علمت قالها في صباه، وهي من أوائل شعره بلا نزاع في الاعتماد عليها وصحة الاستشهاد بها؛ بل نحن نسلم جدلاً أنه ادعى النبوة وبسببها سجن، فكيف يصح قوله حينئذ:

وكن فارقاً بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشأو بعيد ؟

وهل من يريد ادعاء النبوة متنبي بالفعل ؟ وهل هذه الارادة مما يمكن الاطلاع عليه قبل إظهارها حتى تتأتى الوشاية به ؟ وذلك بخلاف الخروج فان بوادره تظهر للناس قبل الاقدام عليه ، لأنه لا بد له من دعاوة كبيرة ، إذ أن الفرد لا يمكن أن يرفع وحده علم الثورة في وجه الدولة !

ومع تأكيدنا أن الذين وشوا به لم يتهموه إلا بالخروج ، لا نستبعد أنهم الذين لزّوه بذلك اللقب المشنوء لما رأوا تعاليه عليهم وتقريعه لهم مع تشبيههم باليهود وتشبيه نفسه بالأنبياء كما في قوله :

ما مقامي بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

وقوله :

فلا تبيمن من الكاذبين ولا تعبأن بمحك اليهود

بل اننا لا نكاد نميل عن هذا الرأي في سبب تلقيبه بالتنبي حتى تقوم الحجة ، والحجة القاطعة على خلافه . وأما أقوال خصومه في ذلك فمجرد ادكار قوله أنه نام العدا وغيظ الحسود تضعف وتضمحل حتى لا يبقى لها اعتبار ما

***

وأما عقيدته فهي مما كثر كلام الناس فيه ؛ ولسوء حظ المتنبي لم يتناولها إلا منتقد ، وليس هناك معتقد فنا نعلم تولى رد مارمي به من الزيغ والالحاد . فنحن نبين مايعتمد إليه متهموه فيها ونعقب عليه بما يلوح لنا من ذلك صحيحاً أو باطلا . غير أنه لابد من القول أن مثل المتنبي في أدبه وشعره وروحه الفلسفية لا يطمع منه أن يكون متديناً خالصاً إلى حد التبتل والانقطاع للعبادة ومحاسبة نفسه على الخطرات وحبس لسانه عن فضول الكلام ، فان التدين بهذه الصفة مما لا يكاد يفهمه إخوانه من الشعراء وأهل الأدب على وجه العموم . وقديماً مثلوا برقة إيمان الأدباء ، فكيف نريد من المتنبي أن يتستر على جمهورهم ويتقدم لنا من نفسه «أويسا» في ثوب شاعر ، أو شاعراً في ثوب «أويس» ؟

ولئن قال علي بن حمزة عن المتنبي إنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن فلقد قال عنه إنه ما كذب ولا زنا ولا لاط . وهذه إن لم تقم بتلك فان تلك لا اعتداد بها مع هذه . وهل كان الشعراء الذين لم يتنزهوا عن الكذب والزنا واللواط يصومون ويصلون ويقرأون القرآن ؟

وبهذا تعلم أن عدوان الخصومة على المتنبي قد ستر من محاسنه ما لو ظهر لكان له في النفوس مكان أسمى مما له فيها الآن

ولأقص على سمعك بعد هذه المقدمة بعض الأبيات التي زُنّ بسببها بضعف العقيدة . قال يمدح بدر بن عمار :

تتقاصر الأفهام عن إدراكه مثل الذي الأفلاك فيه والدنى

فقالوا : لقد أفرط جداً لأنه شبه ممدوحه بالحق سبحانه وتعالى ، لأن الذي فيه الأفلاك والدنى هو علمه عز وجل . ونقول إن هذا تعسف ظاهر ، فمن الذي نقل عنه أنه يريد ما ذكرتم ؟ وماذا حسّن في بلاغتكم التعبير عن علم الله بالذي الأفلاك فيه والدنى حتى رجحتموه على أن يكون المراد به هذا الفضاء الواسع الذي يحتوي الأفلاك والدنى حقيقة ممتداً وراء الآفاق التي تتقاصر عن إدراكها العقول ؟

وقال المتنبي :

أنا مبصر وأظن أني نائم من كان يحلم بالاله فأحلما ؟

فقالوا : هذه مبالغة مذمومة وإفراط وتجاوز حد، ثم هو غالط في إنكار رؤية الله تعالى في النوم فان الأخبار قد تواترت بذلك .

ونقول : إن للبيت رواية أخرى وهي الأشهر هكذا :

من كان يحلم ما راه فاحلما ، وهي كذلك في نسختنا ، والمعنى عليها أظهر من الأولى فلا يبعد أن تكون تحريفاً

« البقيه في العدد القادم » (طنجة) عبد الله كنون الحسني

قصـــة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

يكتشف مكروب السل

— ٦ —

إن بشلات الجرة بشلات فى المكروبات كبيرة يسهل الكشف عنها إذا هى قورنت بمكروب السل ، ذلك المكروب القتال الخداع . ومكروب الجرة يكثر فى أجسام الحيوان قبيل موته كثرة هائلة ، فلا يخطئه البصر ولو لم يكن حديدا ؛ أما مكروب السل — ولم يكن كوخ على يقين من وجود مكروب له — فقد طلبه الطالبون وتقفاه الباحثون ولكن بغير جدوى . ولو أن لوفن هوك نفسه ، وهو أحد البحاث عيناً ، نظر فى مائة رئة مريضة ، ثم نظر ، ثم أعاد النظر ، ما خرج من نظاراته الحديدة الكثيرة على شيء . ولو أن اسبلنزانى حاول ما حاول لوفن لعجزت مجاهره عن ابلاغه تلك الغاية . أما بستور ، وهو الباحث القدير ، فلم تكن طرائقه من الدقة بحيث ترفع الغطاء عن هذا الفاتك الغادر . أو لعل صبره كان ينفد دون أن يحقق شيئاً

ولم يكن يعرف قبل كوخ من داء السل شيء كثير ، فكل ما عرف عنه أنه داء تنقله مكروبات ، وذلك لامكان نقله من حيوان سقيم الى آخر سليم . سبق الى هذا الدليل عالم شيخ اسمه ڤلمان Villemin ، وحققه من بعده كون هايم Cohnheim أستاذ برسلاوة الكبير ، فاستطاع أن ينقل داء السل الى الأرانب ، إذ أخذ فتيتة من رئة مسلولة فأدخلها فى الخزانة الأمامية لعين أرنب ، فأخذت أنسجة العين تتدرن ، وأخذ الدرن يتمدد بنذر الموت . وظل طالما القدير يرقب حوادث هذه التجربة البديعة من خلال أغشية العين الشفافة فكأنما يرقب دورا على مسرح يلعب من وراء زجاج

كان كوخ قد اطلع على تجربة كون هايم ، ودرسها درساً طيباً . قال :

« ليس فى المقدور أن أجرب تجارب السل فى آدمى ، وقد أمكن الآن نقل هذا الداء الى الحيوان ، فهاك يا نفس فرصة غالية لدراسته ، لكشف مكروبه ، فلا بد من مكروب ينشأ عنه هذا الداء . . . . »

وبدأ كوخ عمله ، وكان لا يعمل إلا على خطة رسمها ، وكانت خططه قاسية لا صلة لها بعاطفة بنى الانسان ، ولا تمت بسبب الى حنان القلوب . وأجراها ببرود قلب لو اطلعت عليه فى تقاريره عنها لاقشعر بدنك منها . وحصل على مادة سله الأولى من عامل يفعل فى الأرض ؛ وكان رجلا قوى البنية ، مفتول العضل شديدا ، وكان عمره ستة وثلاثين عاماً ، وكان منذ ثلاثة أسابيع فى صحة هى الغاية مما يرجوه انسان ، فلم يلبث أن جاءته سعلة باغتة ، واخترقت صدره آلام فاجئة ، نفذت منه نفوذ السهام . وأخذ جسمه فى الهزال السريع حتى أصبح كأنه الشمعة احترقت فأخذت تسيح . ودخل المستشفى ولم تظلته سقفه أربعة أيام حتى صعدت روحه الى السماء ، وتخلف جسمه حيث هو من سريره ، وقد عمه الدرن وتنقط كل عضو فيه بتلك الحبيبات الغبراء الصفراء كأنها الفلفل بعثره مبعثر فيها

بدأ كوخ عمله فى هذه المادة الخطيرة وحيدا ، فمساعداه كانا قد افترقا عنه ، أما لفلار فأخذ يتقفى مكروب الدفتريا ، وأما جفكى فكان ينقب عن مكروب التيفود . بدأ كوخ العمل وحده ، فجمع الدرن الأصفر من جثة العامل المنكود بين مشرطين أحماها فى النار ، ثم سحق الدرن ، ثم حقن سحيقه بلطف فى عيون طائفة من الأرانب ، وحقن منه تحت جلود طائفة أخرى من الخنازير الغينية ، ووضع الأرانب والخنازير فى أقفاص نظيفة ، وأخذ يعنى بها ويلاطفها ويداعبها مداعبة الأم الرؤوم ؛ وبينا هو ينتظر انبعاث السل فيها ملأ وقته بالنظر بأقوى مجهر فى الأنسجة المريضة التى خلفها العامل المسكين

نظر ثم نظر ، ثم داوم النظر أياما بمجهر يكبر الأشياء مئات

المرآة ، فلم يكشف بصره شيئاً إلا الحطام الذي تخلف من كبد تهدمت أو رئة تخربت . قال كوخ : « إن يكن للسل مكروب فلا بد أنه يداورني ويغالبني حتى يفلت من عيني فلن أستطيع بعد الآن رؤيته وهو حيث هو من أنسجته ، فلا حيلة إلا أن أصبغ هذه الأنسجة بصبغة شديدة ، فلعله يتراءى من بعد ذلك فيها . . . »

ومضى اليوم تلو اليوم ، وكوخ قائم قاعد في صبغ الدرن الذي جمعه ، يصبغه بالأسمر والأزرق والبنفسجي والأحمر ، وبكل لون من ألوان الطيف استطاعه . كان ينشره على شريحة من الزجاج نظيفة ، ثم يغمرها بما عليها في محلول صبغة قوية زرقاء ، ويدعها الساعات فيها ، ثم يعود إلى شريحة ثانية ويصنع بها ما صنع بالأولى ، فيغمرها في صبغة أخرى ، ثم يعاود ثالثة ورابعة ، وكلما مست يداه شيئاً مستراباً غمسهما في محلول مطهر من السليماني (١) حتى تقشف جلدهما واسود .

وأصبح صباح يوم ، فقام كوخ إلى شرائحه الزجاجية فأخرجها من محاليل الصبغات التي كانت بها ، ووضعها واحدة بعد أخرى تحت مجهره ، وأخذ يُسَوِّره (٢) عليها ، فأخذ مجال بصره يتضح رويداً رويداً حتى خرج له من الغماء الأغبر صورة جلية بينة ، وإذا عينه ترى بين خلايا الرئة التي تقوضت من الداء مجموعات غريبة من بشيلات صغيرة كالعصي زرقاء ، رقت في بصره فلم يستطع تقدير سمكها ، أما طولها فأقل من جزء من خمسة عشر ألف جزء من البوصة الواحدة

قال كوخ : « ما أجملها بشيلات ! إن بها انحناء قليلا والتواء ، فهي ليست في استقامة مكروب الجمرة ، وهناك أسراباً منها اجتمعت واكتنزت كأنها حزم السجائر ، وهناك بشيلة عبقرية دخلت وحدها خلية من خلايا الرئة الميتة كلها ... أحقاً هذا مكروب السل وقعت عليه هكذا سريعاً ؟ »

وواصل كوخ عمله بدقته المعهودة ، فظل يصبغ الدرن يستخرجه من كل ناحية من نواحي جثة العامل ، وحيثما صبغ أرته صبغته الزرقاء تلك البشيلات الدقيقة الحنواء ؛ تلك الخلائق الغريبة الجديدة وقد اختلفت عن كل ما كان رآه في أجسام ألوف الحيوان والانسان سليمه وسقيمه

ولم يلبث فيما هو فيه طويلا حتى بدأت الفاجعة المحزنة تقع في الخنازير الغينية والأرانب . أخذت هذه الخنازير يتزاحم بعضها ليلصق ببعض في أركان القفص في كآبة بينة ، وانتفش فروها ، وأجسامها الصغيرة التي دأبت بالأمس على الوثب واللعب ، أخذت تهزل وتذوب عنها ما كساها من اللحم والشحم فصارت كأنها العظم تحوته قشرة من جلدها . ولزمتها الحمى فهمدت وتخاذلت عن طعامها من الجزر الطيب قد زها لونه ، والحشيش الطازج قد فاح شذاه . ثم أخذت تموت واحدا فواحدا ، وكلما مات واحد منها ارواء لغُلة عالمنا من البحث ، وافتداء لسلامة الانسان ، قام صاحبنا اليه فدبّسه على لوحة تشريحه ، وبلّل بمحلول السليماني جلدة ثم أخذ مشارطه فطهرها ثم شق جثة الخنزير وشرحها في دقة زائدة وعناية بالغة سكتت لها أنفاسه مخافة الزلل

وفي بطون هذه الضحايا ، التي جهلت بما ضحت ، وجد كوخ نفس ذلك الدرن الأصفر الأرمد المرعب الذي امتلأت به جثة العامل ، فقام يلتقطه على لوائح زجاجه الذي لا يفنى ، ثم يغمره في صبغته الزرقاء ، وفي كل حالة وبكل جسم كشفت له الصبغة عن نفس تلك العصي الحدباء التي أرته إياها أول مرة في رئة ذلك العامل

فدعا عونيه الأقدمين ـ لفلار الشغال ، وجفكي المخلص ـ فتركا ما هما فيه من مكروبات أخرى يبحثانها ، فلما جاءاه أراهما ما وجد . قال : « انظرا كلاكما ، فإني وضعت في هذا الحيوان منذ ستة أسابيع فُتَيْتَة صغيرة من الورق لا يتجاوز ما فيها مائة من هذه البشيلات ، وها هي اليوم قد تكاثرت فيه فبلغت البلايين . أي مخلوقات هذه ! فلقد انتشرت من حيث حقنت في فخذ هذا الخنزير إلى كل أجزاء جسمه ، فنفذت كالأرضة إلى أقاصيه ، واخترقت جوانب الشرايين . . . وحملها الدم إلى عظامه ... وحملها إلى أبعد زاوية في مخه .... »

وذهب الى مستشفيات برلين ، كائنة حيثما كانت ، يستجدي منها جثث الموتى رجالا ونساء من صرعى السل ، وأخذ يقضي أيامه وحيداً مستوحشاً بين هذه الجثة حيث هي من بيوتها ، ويقضي

(١) هو كلورور الزئبق ، ويتركب من ذرتين من الكلورور وذرة من الزئبق ، وهو سام

(٢) يرفع المجهر أو يخفضه حتى يقع الشيء المنظور في بؤرة المجهر ، وعندئذ فقط تتراءى صورته واضحة

أمساه عند مكرسكوبه فى معمله ، وهو ساكن كالقبر إلا من أصوات خنازيره الغينية وحركاتها ، واستخرج من أجساد الموتى أنسجتها المريضة فحقن منها فى مئات من هـذه الخنازير ، وفى كثير من الأرانب ، وفى ثلاثة كلاب ، واثنتى عشرة حمامة ، وثلاث عشرة قطة خدّاشة ، وعشر دجاجات دفّاقة قوّاقة ؛ ولم يقف من جنونه الى هذا الحد من حقن هذا العديد الكبير من الحيوانات ، بل إنه حقن هذه المادة الجُبنيّة القاتلة فى أنواع عدة من الجرذان والفئران أبيضها وأرمدها ، وما يرتاد الجبال منها ، وما يرتاد الحقول . بلغت دقة كوخ فى صيد المكروب حداً لم يبلغه صائد قبله

وتفكر كوخ لمّا أجهده الحذر قال : « يا لله من عمل يهُزّ الأعصاب هزّاً » . قال هذا وقد خال ما كان حاله لو أن غلب هذه الهرة امتد كالبرق الى محقنه فارتشق فى جلده بمكروبه القتّال ! لم يكن كوخ برغم هدوئه ووحدته وانفراده فى محاربة هذه الأعداء الخفيّة خلوا من هزّات الحياة وانفعالاتها ، إلا أنها لم تكن انفعالات من التى تنعش وتسر ، ولكن من تلك التى تنذر بالفواجع والمآسى

وصمد صاحبنا للمأساة المنذرة فلم تزلّ يده أبداً ، وإنما ازدادت على الأيام جفافاً وتجمّداً واسوداداً لغمسه إياها فى محلول السليمانى ، هذا المحلول الطيب الذى وجد بحّاث المكروب فى تلك الأيام أمنَهم فيه ، فغمروا به كل شىء حتى أجسامهم . وتتالت الأسابيع وكوخ بين مُواء القطط وقَيْق الدجاج ونُباح الكلاب ، وبَشِلّته الحنواء تتكاثر تكاثراً سريعاً قاسياً فظيعاً فى هذه الحيوانات ، ثم أخذت هذه الحيوانات تتساقط واحدة بعد أخرى ، وتعجّلها الموتُ فازدحمت بين يدى كوخ ، فاشتغل من يومه ثمانى عشرة ساعة قضاها فى شق جثثها وتفحّص ما بها ، ثم فى امتحان ما وجد فيها تحت المكرسكوب بعينه المعشاة

قال كوخ لتلميذيه الأقدمَيْن لُفْلار وجَفْكى : « إنى لا أجد هذه العصىّ الزرقاء إلا فى الرجُل أو فى الحيوان المسلولين . ولقد نظرت كما تعلمون فى مئات من الحيوانات الصحيحة فلم أجد لهذه العصىّ أثراً »

فقال صاحباه : « ومعنى هذا يا سيدنا الدكتور أنك وجدت البشِلّة التى هى أصل هذا الداء »

فيقول كوخ : « لا . لا . للساعة لم يتم الأمر ... إن الذى أتيته قد يقنع بستور ، أما أنا فلم أقتنع بعد ، فلا بد لى من استخراج هذه البَشِلاّت من أجسام هذه الميْتات ، ولا بد لى بعد ذلك من زرعها فى فالوذج حساء اللحم الذى كنا اصطنعناه ...

« لا بد من الحصول على زَريعات خالصة من هذه البَشِلاّت ، ثم لا بد من توليدها نسلاً من بعد نسل عدّة أشهر ، بعيدة عن كل مخلوق حىّ . ثم بعد ذلك أحقن النسل الأخير الخالص فى حيوانات سليمة ، فاذا جاءها السل . . . . » وعندئذ انبسطت أسارير كوخ وعلت فمه ابتسامة قصيرة . وعاد لُفلار وجَفْكى إلى أبحاثهما ، وفى قلبيهما روعة المعجب وخَجْلة المتسرّع الذى يجنى النتائج فجة غيرَ ناضجة

ورسم كوخ فى رأسه كل الصور الممكنة لزرع هذا المكروب وبدأ بزرعه على فالوذج حساء البقر . وصنع عشرات من مختلف الأحسية ، وصبها فى أنابيبه وقنّيناته ووضعها فى درجات من الحرارة مختلفة ؛ فبعضها فى درجة غرفته ، وبعضها فى درجة حرارة جسم الانسان السليم ، وبعضها الآخر فى درجة حرارة الانسان المحموم . وأتى ببشلاّته من رئات خنازير غينية فجاءت خالصة من كل مكروب ضالّ يخشى منه أن يكاثرها وهى دقيقة فيسد عليها مسالكها . وزرع هذه البشلات النقية فى مئات الأنابيب والقَنانىّ ، ولكنه خرج من كل هذا — بالخيبة ! فهذه البشلات الدقاق التى تتكاثر فى أجسام حيواناته تكاثراً سريعاً ذريعاً ، هذه البشلاّت التى تناسلت فى أجسام المرضى من بنى الانسان حتى بلغت الملايين ، هذه البشلات رفعت أنوفها — على فرض أن لها أنوفاً — عن طعام كوخ اشمئزازاً من أحسائه وفواليذه

وذات يوم خطر لكوخ خاطر فى سبب إخفاقه قال : « إن بشلات السل لا تنمو إلا فى أجسام حيّة ، فلعلها إذن تتطفل على هذه الأجسام ، وعلىّ إذن أن أجهّز لها طعاماً أقرب ما يكون إلى مادة جسم الحيوان »

هكذا اكتشف كوخ طعامه الشهير — فالوذ[1] مصل الدم — اكتشفه طعاماً لكل مكروب أرستقراطىّ مُترف يعاف طعام السُّوقة من المكروبات ، وذهب إلى القصّابين وجاء منهم بدم

(١) الفالوذ والفالوذج سيان

طازج من أبقار قُتِلت لوقتها ، فلما انجمد وتجبّن ، شقّقه ، فسال منه عصير زلالىّ يضرب إلى صُفرة التبْن . ثم سخّن هذا المصل بمقدار يقتل ما سقط فيه من مكروبات الهواء الضالة ، ثم صبّه على حذر في عشرات من أنابيب اختبار ضيّقة ، أمالها في مواضعها إمالة كبيرة ليتسع سطح المصل الذي بها ، فعلى هذا السطح سيبسط مادة المكروب . ثم سخن الأنابيب وهي على ميلانها تسخيناً يكفي لانعقاد مصلها وتحوّله إلى هلام ، فالوذىّ جامد جميل في زرقانه .

ومات في صباح هذا الغد خنزير غينىّ خرّمه السل تخريماً ، فشرّحه واستخرج منه درنة أو درنتين ، نشرهما بعود من البلاتين على سطح فالوذ المصل وهو ندىّ ، وانتقل من أنبوبة إلى أخرى حتى لقّح الجميع . ثم استنشق نفساً كبيراً ، ثم زفر زفرة طويلة فكأنما نفض فيها الهم الذي ملأه في هذه العملية الدقيقة وقد نجحت بعد خشية الزلل ، وقام كوخ فأخذ الأنابيب فوضعها في مدفأ درجة حرارته تعدل تماماً تلك التي في جسم الخنزير الغينىّ

ومضت أيام ذهب كوخ فيها كل صباح إلى هذا المَفرخ الدافئ ، ورفع أنابيبه إلى نظارته في إطارها الذهبى ، وحدّق فيها وحملق ، ولكنه لم يرَ شيئاً . قال كوخ : « هذه خيبة أخرى ! كل المكروبات التي زرعتها تكاثرت في يومين ، وهذا هو اليوم الرابع عشر ، فما لهذا المكروب التعس لا يتكاثر أبداً . . . »

لو أن رجلاً غير كوخ صادف ما صادفه من الخيبات لكبّ أنابيبه وسكب مصله ، ورجع عما قصد إليه . أما كوخ ، طبيب القرية الأشوع ، فله شيطان يحفزه ويغريه ، فقام عندئذ يوسوس إليه من وراء عاتقه : « صبراً سيدى صبراً . أنسيت أن جرثومة السل بطيئة تستغرق في قتل الرجال الأشهر والسنين . فلعلها إذن بطيئة كذلك في تكاثرها في مصل أنابيبك » . فاستمع كوخ لشيطانه ، فلم يَرْمِ بأنابيبه وأمصاله ، واستمهلها لليوم الخامس عشر . فلما كان صباحه نزل إلى مَفرخه فوجد الفالوذج المصل قد تبعثرت على سطحه الناعم حبات صغيرة لامعة . فمدّ كوخ يده في لهفة إلى جبينه يستخرج منه عدسته وألصقها بعينه وأخذ يحدّق في الأنابيب أنبوبة أنبوبة ، فلما كبرت هذه الحبّات في عينه تراءت قشوراً جافة صغيرة

فأمسك كوخ وهو ذاهل باحدى الأنبوبات ، فنزع عنها سداد القطن الذي يسدّها ، ووضع فاها وهو غائب الفكر في اللهب الأزرق لمصباح بنسن Bunsen ليعقّمه ، وأدخل فيها عوداً من البلاتين فلقط على طرفه حبّة من تلك الحبات التي ظهرت على الفالوذج المصل ، وهو يكاد يوقن أنها مكروبات . فوضعها تحت مكرسكوبه ، وهو لا يكاد يدرى ما وضع ، ونظر فعلم أن البحث تجرى طريقه شاقةً في صحراء قاحلة جرداء ، لا زرع فيها ولا ماء ، ولكن المسافر فيها يأتي الفينة بعد الفينة على واحة ظلها وارف ، ونبعها بارد ، وثمرها وفير مستطاب ، نظر فعلم أنه هبط بعد الجهد والجلد على واحة من تلك الواحات . أفليست ملايين المكروبات هذه التي تكشف لبصره الآن هي عينها تلك البشلات الخنواء التي رآها في رئة ذلك العامل المسلول زماناً مضى ، وتراءت له لا حراك بها ، ولكنها حية بدليل تكاثرها ، وتراءت له دقيقة صغيرة ، رقيقة المزاج ، أنيقة الطعم ، سريعة الرغبة عما لا ترضاه منه ، ولكنها مع هذا كبيرة النهم شديدة الفتك مخرّبة هدّامة ، أكثر تخريباً من غُزاة التتر ، وآكد في الموت من الحيات والأفاعى

(يتبع) أحمد زكى

أبو الطيب المتنبي

شاعر الأدب القوى

بمناسبة ذكراه الالفية

مهداة إلى الأستاذ الكبير أحمد أمين

بقلم السيد كامل حريري

في مثل هذا اليوم منذ ألف سنة خلت ، فقدت آلهة الشعر والبيان رسولها الأمين ونبيها العظيم أبا الطيب أحمد المتنبي ، بعد إذ أدى رسالتها ونشر دعوتها أربعين عاماً لا تأخذه كلالة ولا تتكاءده ملالة ، وأنبياء البيان كأنبياء الأديان شديد عنتهم كثير اضطهادهم صعبة دعوتهم ، وهم مع ذلك يؤدون رسالتهم في بلاء وجهد ما أنزلت عليهم آلهة الشعر رائع آياتها وخالد أبياتها ، وما بي عرض رسالة المتنبي وما كان يلاقي بسببها من كفر العبقرية وجحود الفضل ونكران العظمة ، فكل أحس ذلك في شعر شوقي ورسائله ، وإن ما أخذت نفسي به هو ذكر أبي الطيب الفيلسوف المهذب، « كورني » العرب في القرن الرابع ؛ وأنا إذ أقول هذا لا أقصد إلى قول الفيلسوف الشاعر أبي العلاء المعري : « إنما أبو تمام وأبو الطيب حكيمان والشاعر البحتري » بل أعني ناحية خطيرة في شعر المتنبي هي وحدها سر خلوده وعظمته وبقاء شعره على الزمن

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مردداً وغنى به من لا يغني مغردا

ولكن هذا يقتضيني ذكر القرن الرابع الهجري ، وقد تهاوى بناء الدولة العباسية ، ورث حبل العروبة ، وفشت فاشية ملوك الطوائف في البلاد العربية الاسلامية ؛ فآل بويه وبنو حمدان في العراق وفارس والشام ، ودولة الأخشيديين وبنو رائق في مصر وفلسطين يتواثب بعض على بعض ، وإن للفساد والرذيلة لسوقاً رائجة ، وإن للخيانة والنفاق لبضاعة نافقة ؛ أما عن الأخلاق الواهية والعزائم الواهنة والمروءات الساقطة فحدث ولا إثم

فقد هوى بأسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام
أرانب غير أنهم ملوك مفتحة عيونهم نيام

ذلكم القرن الرابع الذي ولد فيه فخر الشعراء أبو الطيب المتنبي قد عرضته عليك بعجره وبجره وخيره وشره . لأن للعصر أثراً بيناً فيما ينظم الشاعر ويكتب الأديب ، وهو عصر ما أخلقه بشاعر كالمتنبي ينشر بين أهله الضعفاء فرقان القوة ورسالة المجد والمثل الأعلى

وكما ابتعث « جوبيتير » آله الحرب والقوة نيتشه فيلسوفاً يوقظ بإنجيله همم الألمان الراقدة وعزائمهم الهامدة ويلقنهم آيات تنازع البقاء وبقاء القوى الغالب ، ابتعث المتنبي قبله بثمانية عصور الى الأمم الأسلامية يقول :

فالموت أعذر لي والصبر أجمل بي والبر أوسع والدنيا لمن غلبا

تطاول العهد بالجاهلية الأولى ، فنسي الشعراء نغمة التفاخر بالعديد ، والتكاثر بالوليد ، والاعتداد بالقوة ، والاعتزاز بالمنعة ، والتفاضل بمنع الجار وحفظ العشيرة ، فأصبحوا وقد رقت حاشية الحياة ، ولانت أعطاف العيش ، تشوقهم اللذة ، وتروقهم الترف ، ويستعبدهم الهوى ، وتستصبيهم الطريقة النواسية ، فما منهم إلا عاشق مفتون ، وقيس بليلاه مجنون ، وما فيهم إلا نضو ردف ثقيل ، وخصر نحيل ، وطرف سقيم ، وثغر نظيم ؛ ومن لا يحب الخصور والنحور واللواحظ والثغور إذا كن مما يشتهي ويستملح !

طغى سيل الأدب اللين بنوعيه الشعر والنثر على الحياة الاسلامية العربية في القرن الثالث والرابع حتى ماعت الأخلاق الصلبة البدوية ، وذابت الرجولة القاسية الجاهلية ، وتفككت الفضائل من رابطتها الوثيقة ، وتحللت الأخلاق من أزمتها المتينة ، وسرى داء الضعف والتخنث في نفوس الشيوخ والشبان بله الكواعب والغلمان . فكان من ذلك جيل مترف متنعم ، مسخت الحضارة رجولته ، وألان الترف شكيمته ، وأنامت النعمة طموحه . فما تتراقى إلى مجد له همة ، ولا تتسامى إلى مثل أعلى له عزمة ، وما جنى على هذا الجيل ما جنى إلا شعراؤه الخليعون الماجنون وفي طليعتهم بشار وأبو نواس . فان من يقول :

ولو أن مالي يستقل بلذتي
لأنسيت أهل اللهو كسرى وقيصرا

لا يبشر إلا بجيل خائر ضعيف كهذا الجيل الذى ولد فيه المتنبي . ومالنا لا نقول فى صراحة وصدق ، إن الأدب القوي في غير عنف ، الشديد في غير عسف ، ظل يتيما بعد الفرزدق وجرير حتى جاء أبو الطيب فرأب الصدع ، وسد الثأى وحمل الراية ؛ ثم فتح للشعراء طرائق الخلد ، وسن لهم سنن المجد ؟

ولا تحسبن المجد زقاً وقينة فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الرجال وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

أنا لا أريد لهذا النشء المتفكك من شبابنا « الشيك » أن يقحم نفسه الحرب ، ويحملها الطعن والضرب ، كي ينشأ شجاع النفس شديد البطش منيع الجانب عظيم الرجولة ، ولكني أنصحه بقراءة ديوان المتنبي شاعر القوة والبطش والرجولة الحق ، وأنا زعيم له بعد ذلك بما يتطلبه من رجولة وإقدام

ولو أن الحياة تبقى لحي لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد فمن العجز أن تموت جبانا

أما أنتم أيها الذين أضلهم المجد وقعدت بهم الهمة عن طلاب العلا ، فاستوطأوا مهاد الضعة ، وأساغوا صاب الذل ، ورضوا بخطة الخسف ، فاليكم أتوجه ببيتي شاعر المجد والعظمة

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم

وبعد : فإن فى ديوان المتنبي جبهة حربية تعلم شبابنا الشجاعة والقتال ، ومدرسة اسبارطية تنشئ أطفالنا على احتمال الشدائد والأهوال ، وجامعة فلسفية توحى إلى رجالنا جلائل الأعمال . فلنمجد شاعر الأدب القوي الذي يدعو إليه نيتشه فى عصره ، والأستاذ احمد أمين فى عصرنا ، والذى توجبه حالنا الاجتماعية والخلقية ، وتفرضه سنة البقاء على الناس

وليحن قراء « الرسالة » مني رؤوسهم خشوعاً وإجلالاً لنبي الشعر ، وفارس الدهر ، وملء أذن العصر ، وعبقرى لو تقدم به الزمن فى عهد الاغريق لخلده هومير مع الأبطال وسما به إلى سماء الآلهة ! ولا عجب وأبو الطيب القائل عن نفسه :

وقت يضيع وعمر ليت مدته فى غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه فى شبيبته فسرهم وأتيناه على الهرم

(حلب) كمال حريري

أندلسيات :

٤ ـ قصة الفتح بن خاقان

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقي

تتمـــة

تواليف الفتح وشيء من منظومه ومنثوره

الشائع المعروف أن ليس للفتح بن خاقان غير قلائد العقيان ، ومطمح الأنفس ، ولكن يجب أن يلحظ أن المطمح نسختان صغيرة وكبيرة ؛ وقال ابن خلكان إن المطمح ثلاث نسخ صغرى ووسطى وكبرى . وللفتح غير قلائد العقيان والمطمح كتاب اسمه بداية المحاسن وغاية المحاسن ، ذكر ذلك المقرى وقال إن له أيضاً مجموعاً في ترسيله وتأليفاً صغيراً في ترجمة ابن السيد البطليوسي نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد . . . ولمناسبة ذكر ابن السيد البطليوسي الأندلسي الأديب الكبير وصاحب شرح أدب الكاتب لابن قتيبة نقول : إنه كان بينه وبين الفتح علقة ومودة ، ومن ثم قرّظ ابن السيد كتاب القلائد بهذه الرقعة التي أرسلها إلى الفتح ، قال : « تأملت ـ فسح الله لسيدي ووليي في أمد بقائه ـ كتابه الذي شرع في إنشائه ، فرأيت كتاباً سينجد ويغور ، ويبلغ حيث لا تبلغ البدور ، وتبين به الذرى والمناسم ، وتقتدى له غرر في أوجه ومواسم ، فقد أسجد الله الكلام لكلامك ، وجمل النيرات طوع أقلامك ، فأنت تهدى بنجومها ، وتردى برجومها ، فالنثرة من نثرك ، والشعرى من شعرك ، والبلغاء لك معترفون ، وبين يديك متصرفون ، وليس يباريك مبار ، ولا يجاريك الى الغاية مجار ، إلا وقف حسيراً وسبقت ، ودعى أخيراً وتقدمت ، لاعدمت شفوفا ، ولا برح مكانك بالآمال محفوفا . بعزة الله . . » . وقلائد العقيان كتاب قدمه الفتح لأبي اسحاق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين أخي أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ونائبه في الأندلس ، وقد ألمنا فيما سلف إلى بعض صفات هذا الكتاب وأنه هو والذخيرة لابن بسام ، واليتيمة للثعالبي ، والخريدة للعماد ، ونظائرها ، لا تعد كتب تراجم بالمعنى المتعارف ؛ وإنما هي حلىّ وصفات لبعض أفاضل العصر وبلغائه بأسلوب منمق بليغ ، ومختارات من منظومهم ومنثورهم . أما تاريخ المترجم له ومنشؤه ونسبه ومولده ووفاته وكيف تصرفت به الأحوال فهذا ما ليسوا منه بسبيل ولا هو من عملهم وإنما هو من عمل المؤرخ . أما هم فأدباء يحاولون أدباء معاصرين أو قريبين من عصورهم ... وأسلوب الفتح في كتبه أسلوب لا شك جزل متين وإن كان كله مسجعاً ؛ ومن ثم قد يعلو وقد يسفل ، وقد يرى مطبوعا وقد يرى عليه أثر التكلف والتعمل . وقد كان بلغاء الكتاب في تلك الأعصر يظنون السجع عملا فنيّاً في الذروة من الفن تلي مرتبته مرتبة الشعر للموسيقية التي فيه . وإن كان النقدة من المتقدمين ينكرون الولوع به والافراط فيه كما ننكره نحن اليوم . وقد اشترطوا له شروطا أهمها : أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، ولم يشترطوا ذلك في السجع فحسب ؛ وإنما اشترطوه في كل المحسنات البديعية ، قالوا : إن هذه المحسنات ولاسيما اللفظية منها لا تحل محلها من القبول ، ولا تقع موقعها من الحسن ، حتى يكون المعنى هو الذي استدعاها وساقها نحوه ، وحتى تجدها لا تبتغى بها بدلا ولا تجد عنها حولا ؛ ومن هنا ذم الاستكثار منها والولوع بها ، لأن المعاني لا تدين في كل موضع لها ، إذ هي في الغالب ألفاظ ، والألفاظ خدم المعاني مصرّفة في حكمها ، فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة من الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين . ولهذه الحالة كان كلام المتقدمين الذين تركوا فضل العناية بالسجع ولزموا سجية الطبع أمكن في العقول ، وأبعد من القلق ، وأوضح للمراد ، وأسلم من التفاوت ، وأبعد من التصنع الذي هو ضرب من الخداع بالتزويق . والرضا بأن تقع النقيصة في نفس الصورة وذات الخلقة إذا أكثر فيها من الوشم والنقش ، وأثقل صاحبها بالحلي والوشم ، قياس الحلي على السيف الددان [1] والتوسع في الدعوى بغير برهان ، كما قال المتنبي :

إذا لم تشاهد غير حسن شياتها وأعضائها فالحسن عنك مغيب

هكذا يقول إمام النقاد عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ ـ سنة ١٠٧٨ ميلادية ـ ويقول : وقد تجد في كلام

(١) الددان بالفتح كالكهام وزنا ومعنى أي الكليل

المتأخرين كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع – ومنه السجع – إلى أن ينسى أنه يتكلم ليُفهم ، ويقول ليُبين ؛ ويخيل اليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقل على العروس بأصناف الحلي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها ... ولن تجد أيمن طائراً ، وأحسن أولا وآخراً ، وأهدى إلى الإحسان ، وأجلب للاستحسان ، من أن ترسل المعاني على سجيتها ، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ ، فانها إذا تركت وما تريد لم تلبس إلا ما يليق بها ، ولم تلبس من المعارض إلا ما يزينها . فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين فهو الذى أنت منه بعرض الاستكراه وعلى خطر من الخطأ والوقوع فى الذم الخ . «وبعد» فإن الكلام في هذا الموضوع يطول ، ولنجتزئ بهذا القدار .

والآن ، ألا يسمح لنا القارئ بأن نعرض عليه شيئاً من منظوم الفتح ومنثوره ؟ وأنت تعلم أن شعر الكتاب في الأعم الأغلب إن هو إلا مقطعات من جهة ، وليس من النسق العالي كشعر فحول الشعراء من الجهة الأخرى . ومن ثم كان ما رأيناه من شعر الفتح على قلته شعراً وسطاً كما قال لسان الدين بن الخطيب . فمن شعره مما لم يرد في كتبه :

لله ظبي من جنابك زارني	يختال زهوا في ملاء ملاح
ولى التماسك في هواه كأنه	مروان خاف كتائب السفاح
خلعت صبري بالعرا ونبذته	وركبت وجدي في عنان جماح
أهدى لي الورد المضعف خده	فقطفته باللحظ دون جُناح
وأردت صبراً عن هواه فلم أطق	وأريت جدا في خلال مزاح
وتركت قلبي للصبابة طائرا	تهفو به الأشواق دون جَناح

ومنه قوله وقد أورده في قلائده يخاطب أبا يحيي بن الحاج :

أكعبة علياء وهضبة سودد	وروضة مجد بالمفاخر تمطر
هنيئاً للك زار افقك نوره	وفى صفحتيه من مضائك أسطر
وأين لحاق الجناحين كلما	سرى لك ذكر أو نسيم ممطر
وقد كان واش هاجنا لتهاجر	فبت وأحشائي جوى تتفطر
فهل لك في ود ذوى لك ظاهراً	وباطنه يندى صفاء ويقطر

ومن منثوره مما لم يرد في القلائد ولا في المطمح قوله :

مماليك أشهر رسوما ، وأعطر نسيما ، من أن يغربَ شهاب مسماها ، أو يجدب لرائد مرعاها ، فان نبهتك فانما نبهت عمرا ، وإن استنرتك فانما أستنير قمراً ؛ والأمير أيده الله تعالى أجلى من أعتصم في ملكه ، وأنتظم في سلكه ، فانه حسام بيد الملك طلاقته فرنده ، وشهامته حده ، وقضيب في دوحة الشرق رطيب ، بشره زهره ، وبره ثمره ؛ وقد توسمت نارك لعلي أفوز منها بقبس ، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدس . وعسى الأمل أن تعلو بكم قداحه ، ويشف من أفقكم مصباحه . جرد أيدك الله تعالى صارم عزم لا يفل غروبه ، وأطلع كوكب سعد لا يخاف غروبه ... « وأما بعد » فان أردت التروّي من منثور الفتح وبدائعه ، فعليك بالقلائد والمطمح ، فهما بحق نهران يزخران بالمعجب والمطرب ، رحمة الله على هذا الأديب الأندلسي العبقري المبدع . . .

(تم البحث) عبد الرحمن البرقوقي

بمناسبة ذكرى المتنبي الألفية

دنيا المتنبي

إن أهنت الدنيا فإنك دنيا
كلها عزة ونبل وجود

للسيد أمجد الطرابلسي

هكذا المجدُ ! همةٌ وصعودُ ... وحياةٌ بعد الردى ، وخلودُ
هكذا المجدُ ! صيحةٌ تملأ الأر ... ض كما تملأ الفضاءَ الرعودُ
هكذا المجدُ ! ومضةٌ تبهرُ العيـ ... ن ، وتجلى بها الليالي السودُ
هكذا المجدُ ! فرحةٌ لبني الأر ... ض وللأرض والسماء وعيدُ
هكذا المجدُ مجدُ « أحمدَ » لحنٌ ... في سماع الدنيا له ترديد
نفحةٌ من خمائل الخلد ريّا ... بشذاها ، وبلبلٌ غرِّيد

* * *

يا نبيَّ القريض كم لك بيتٍ ... ملأ الخافقين وهو شرودُ !
كم خطاب فصل ، وكم مَثَلٍ سا ... رَ فأبلى القرونَ وهو جديد !
سائلِ الأعصرَ الطوالَ أأودى ... لك فيها بيتٌ ومات قصيد ؟
يتوالى المدى وشعرُك باقٍ ... وتشيخ الدنيا وأنت وليد
شعرُك المستفيضُ في عنق الأ ... يام درٌّ ولؤلؤٌ منضود
أيُّ سلوى عن الزمان تراها ... في قوافيك بائسٌ منكود
أيُّ سلوى عن الحبيب تراها ... في قوافيك ثاكلٌ مفئود
شعرُك النارُ للجبان سلاحٌ ... وعتادٌ وعزمةٌ وجنود
وهتافٌ يهيبُ بالنكس حتى ... يردَ الكالحاتِ وهو جليد
يستثيرُ الأسرى على الظلم حتى ... يتنزّى المقيّـدُ المصفود
وتردُّ الدنيا على الجور حتى ... تتعرّى سلاسلٌ وقيود

* * *

أيها الشاعرُ الذي أطربَ الأجـ ... يالَ منه الإنشادُ والتغريد
وغدا الدهرُ راوياً ومعيداً ... لأغاريده ، وجلَّ المعيد
أيها الشاعرُ الذي سحرَ الأسـ ... ماعَ حتى كأنه داود
وتغنّى بلحنه الفلكُ الدوّا ... رُ والبحرُ والربى والبيد
ملءُ صدر الزمان حكمتك المثـ ... لى وإرشادك القويمُ السديد
« أنت في شعرك العظيم نبيٌّ » ... مرسلٌ ملهمٌ وأفقٌ مديد
وفحولُ القريض بعدك يروو ... نَ على الدهر بحرك المورود
هكذا الشعرُ نعمةُ الله في الأر ... ض تغنّى بها الهوى والنجود
يتخطّى الزمانَ جيلاً فجيلاً ... ويبيد القرونَ وهو خلود

* * *

يا ابنَ حمدانَ أنت لولا أبو الطيِّـ ... بِ أبى لذكرك التخليد
أنت أوليته العطايا جزافاً ... والعطايا مع الزمان تبيد
وحباك الخلودَ في مصحف العز ... م وهذا هو الندى والجود
أنت لولاه ما رأيناك في السا ... ح ، وللحرب ضجةٌ وبنود
تصدعُ الجحفلَ الألفَ بسيفٍ ... مصلتٍ حرمت عليه الغمود
باسماً تطلبُ الردى مستميتاً ... والردى منك خائفٌ مكدود
وفلولُ الأعداء تبغي عن المو ... ت محيداً وليس ثَمَّ محيد
كلهم يصرخُ النجاة ويطوي ... صفحاتِ القفار وهو شريد
صورةٌ للنضال عيني تراها ... في ارتياعٍ ، ومنظرٌ مشهود

* * *

يا أبا الطيب الزكيَّ من الوحـ ... ي ويا أيها الحديثُ الفريد
إن أهنت الدنيا فإنك دنيا ... كلها عزةٌ ونبلٌ وجود
قد أبيت الرياءَ والكونُ ختلٌ ... ورياءٌ وخدعةٌ وسجود
وحقرت الدنيا يموجُ بها الشـ ... ـرُّ وتغلي مطامعٌ وحقود
وسئمت الحياةَ رنّقها الظلـ ... ـمُ وأودى بصفوها التصريد
يتلوّى النبيغُ فيها من الجو ... ع ويعلو عروشها الرعديد
آفةُ المرء في الحياة شعورٌ ... مستفيضٌ وخافقٌ مجهود
ونصيبُ الإنسان بين الجلاميـ ... ـد عذابٌ وحرقةٌ ونكود
وأخو النبل والإباء بغيضٌ ... تتجافى عنه الرفاقُ ، وحيد
مستضامٌ يطوي الحياة كميداً ... وهو في مرِّ عيشه محسود
شدُّ العمرَ في تراب التمني ... والأماني لوعةٌ وجهود

* * *

يا أبا الطيب السنيَّ من الذكـ ... ـرِ ويا أيها الثناءُ الحميد
ما الذي أشتكي إليك وقلبي ... مفعمٌ موجعٌ ، ودمعي بديد
قد شكوتَ الزمانَ والمجدُ مجدٌ ... عربيٌّ ، وغصنه أملود

وملأت الحياة في ظل «سيف» ... وهو فحل العروبة الصنديد
فلعمري ماذا نبثّ ونشكو ... بعد أن صوّح التراث المجيد؟
قد عفا الملك وانطوى كل عزٍّ ... وهوى العرش والبناء المشيد
«وغدا الحرّ من بني الصِّيد عبداً ... بينما العبد سيّد معبود» (1)
وتمشّى الصغار فوق شباب الـ ... ـمجد يختال هازئاً ويسود
وبنو الصِّيد نائمون على الضيـ ... ـم فلا غصّة ولا تنكيد
يا أبا الشعر أين منك دويٌّ ... هو للظلم والطغاة وعيد
أين صيحاتك التي تتنادى ... بصداها يوم الزحام الأسود
قم وصرّخ بين الغفاة مهيباً ... فلقد طال بالنيام الهجود
وأثر نخوة الضراغم حتى ... يرخصوا كل مهجة ويجودوا
وصمة للخلود أن تمّحى العُر ... بُ، ويبلى لواؤها المعقود
ويصيح العفاء في ربعها القفـ ... ـر، ويطوى حديثها الممدود

***

يا أخا المجد والمكارم ماذا ... في حياة نعيمها تعقيد؟
لو تركت الدنيا وأهوالها السُّحْـ ... ـمَ، فإن الحياة فيها جحود!
أنت تبغي السناء والمجد يأبى ... وتروض الزمان وهو عنيد
قد ركبت الأهوال في درك الآ ... مال فلا راحة ولا تمهيد
وقطعت القفار يحملك الشو ... ق ويحدوك حلمك المنشود
عزمة دونها السيوف المواضي ... وإباء وهمّة لا تميد
ومضاء يستعذب الموت ورداً ... ويفلّ الصروف وهو حديد
وإذا النفس دلّهت عناها ... فالمنايا خمائل ومهود
حلم يستبيك في أفق المجـ ... ـد بهيٌّ لا أعين وخدود
وقدود القنا سبتك غراماً ... لا قدود عاتية ونهود
رضت صعب الفلا وجبت الصحاري ... طامئاً يطّبيك ورد برود
«وشققت النوى إلى العزّ» حتى ... جاءك الموت في المطاف يصيد (2)
فرميت السلاح بعد حياة ... كلها ثورة وجهد جهيد
ولقيت الحِمام في كنف المو ... ت وقد عزّ في الحياة الهمود

ثم ضاق الثرى الرحيب وضاقت ... عنك يا ابن الخلود هذي اللحود
فمحت قبرك السنون المواحي ... ومشى فوقه الزمان المبيد
متّ إلا صداك فهو رنين ... هازئ بالمدى الطويل، شديد
إن عفا قبرك الضئيل فأنت الـ ... ـيوم في كل خافق ملحود
أو خبا لحنك الجميل فأنت الـ ... ـيوم في مسمع الزمان نشيد

(دمشق) — أحمد الطرابلسي

(1) إشارة إلى قول أبي الطيب: الحر مستعبد والعبد معبود
(2) إشارة إلى قوله:
ومن كان قلب كقلبي له ... يشق إلى العز قلب النوى

الشتاء في انجلترة

(ذكرى)

للأستاذ عبد الرحمن شكري

مقدمة:

يسقط الثلج في انجلترة شتاء على شكل حبات الدقيق فيعلو الأرض والمنازل والأشجار، فيخيل للرائي كأنما قد كسيت الدنيا كساء من القطن، وكأن النهار ليلة مقمرة، وكأنما بياض الثلج من أثر بياض أشعة القمر؛ وتذكى النار في المواقد في البيوت، فكأن ألوان النار ألوان الأزهار الزاهية في جنة الربيع؛ وتذكى نار المواقد وجنات الوجوه، فكأن في المواقد جمراً، وفي الوجوه جمراً؛ وتبعث في القلوب فترى نار الحياة وشرتها، وترى الحب والآمال لم يغض منها برد الشتاء وثلجه (الناظم)

نشر الضريب على البسيطة حلة ... بيضاء تمحو غبرة الغبراء
يسعى على وضح النهار كأنما ... يسري الفتى في ليلة قمراء
فكأن نور البدر ما حلّى الثرى ... برواء تلك الحلة البيضاء
غلب البياض على اصفرار أشعة ... تهب النهار من اصفرار ذُكاء
وعلى المساكن كسوة منه كما ... تعلو المفارق شيبة الشمطاء
فإذا مشابهة المشيب كدعوة ... للنفس أن تنأى عن الأهواء
وإذا استراح لمقمر من لونه ... راء ترى الأحلام عين الرائي
وكأنما في عالم الأرواح يسـ ... ـعى من سعى لا عالم الدقعاء
وكأن زهراً أبيضاً غطّى الثرى ... برواء ثوب الروضة الغنّاء
ولكل لون حسنه كالليلة الـ ... ـليلاء أو كالقبة الزرقاء
ولربما اختلف الجمال وفعله ... متشابه في أخذة الصهباء

مؤتمر القلوب

للأستاذ محمد السيد زيادة

بقية المنشور في العدد ١٢٧

وبقيت حزيناً مطرقاً أتفكر في أساليب الشقاء على الأرض حتى أخرجني من الحزن قلب رأيته حائراً بين القلوب موزعا عليها بجنحا فوقها !! يجد قلبا آسيا فيميل اليه مشفقا عاطفا يسأله عن قصته ثم يواسيه ويعزيه ، ويظل مائلا اليه بشفقته وعطفه حتى يتأكد أنه خفف عنه بعض ألمه . ثم يتركه ويمضي في المجتمع نائحاً يردد في نوحه صدى القصة التي سمعها من ذلك القلب ، ويذيع سرها منمقا ، ويصورها مجسمة ليتأسى صاحبها ويستعبر سامعوها ... ثم يصادف قلباً آخر ذا مترية فيبذل له قسطه من دموعه ومن عزائه ، ثم يمضي إلى سبيله في المجتمع موضحا ما غمض شارحا ما تعقد . وهكذا رأيته كالطائر الغريد يقضي كل وقته متنقلاً بين الأدواح والغصون يتسمع الهمس والنبض والأنين ، ويتغنى بما يصل الى حسه من شجو القلوب وأساها ، فيصرف في ذلك راحته وهدوءه . ويتهافت على ذلك كأنما هو يؤدي وظيفة يحتم عليه الواجب أن يؤديها

قلت : قلب مَنْ هـذا القلب المؤمن العطوف الذي يعذب نفسه في راحتنا ، ويصب علينا من مشاعره حنانا ورحمة ، وينساب بيننا كما ينساب الجدول في الحديقة بين مختلف الزهور يفيض منها الظامئ ، وينعش الذابل ، ويرقص المنتعش ؟

قالوا : هذا قلب شاعر . . . وما خلق الشعراء إلا رحمة للعالمين . . . قلب كريم يتعذب بين الناس بحنانه ، ليزرع الحنان في قلوبهم بعذابه ؛ فترينا حياته كيف تكون حياة الملائكة إذا صاروا من بني الانسان . إن في أحنائه لعالماً فسيحاً تمتزج فيه آلام الناس بآلامه هو فتكون كتلة واحدة من الألم يتفجر من بينها ينبوع فوار من الرحمة ينهل منه كل بائس

لكأنما هو مكلف باستخراج مصيبة لنفسه ، من كل مصيبة تنزل بغيره ، أو مرسل من عند الله لتخفيف أشجان مخلوقاته . فكم يفتش في مناحي الحياة عن مآسيها وعبرها ليتحمل نصيباً منها ! وكم ينقب في أغوار الكيان عن خفاياه ومكنوناته ليحدث الناس عنها ! وكم يكد ليخلق من كل ما حوله جنة لكل من حوله !

* * *

ولما أنى للمؤتمر أن يبدأ عمله وجدت قلب الشاعر أظهرنا اهتماما ، وأشدنا فرحا ، وأكثرنا حركة . وما كدت أعجب لهذا حتى عجبت لأكثر منه إذ علمت أنه هو الداعي إلى هذا المؤتمر

وساد السكون فترة ثم وقف قلب الشاعر يقول : دعوتكم إلى هنا اليوم يا اخواني لأنادي فيكم بالوئام فهل أنتم مجيبون ؟ إذا كان ذلك ، وما أظن إلا ذلك ، فلنجمع إذاً أمرنا على اقرار المحبة ، وتبادل الوداد والاخلاص بيننا ؛ ولنترك إذن كل ما يتعلق في أهداب الحياة من المساوئ والمكاره التي اذا وقع أحدنا في إحداها وقع في أخس الصفات وبات مذموما ممقوتا ؛ ولنتنصل إذن من شيء بغيض اسمه البغض ، ومن شيء كريه اسمه الكراهية ؛ ولنتجنب الوضاعة في تجنب الحقد ، ولننبذ الأنانية في نبذ الحسد .

لنشرع لنا يا إخوتي سَنناً جديداً ، ونمشي في نوره إلى المثل الأعلى لنقاوة القلوب . كونوا جميعاً عصبة واحدة كلمتها الدائمة : نحن إخوة فليس بيننا إلا ما في الاخاء من إخلاص ووفاء — كونوا جميعاً قلباً واحداً لا يحمل غير الإيمان والحب

قال قلب الشيخ الصالح : أكرم بك يا قلب الشاعر !! لقد قلت ما أحب دائما أن أقوله وأن أعمل له . إنك لصورة مني في قالب الجرأة ، وإني لصورة منك في قالب الحياء

ثم تحول إلى الجمع وقال : انصتوا له يا أعضاء المؤتمر ،

وإذا المواقد في البيوت تضاحكت
من شـدة الايقاد والإذكاء

خلت الربيع سعى اليك بحفله
والنار زهر الجنة الفيحاء

يذكى الوجوه لهيبها فتراهما
جمرين يشتعلان في الظلماء

ما غض من دفء الحياة ونارها
ثلج الشتاء على ثرى الغبراء

الحب والآمال فوق متونه
كالحب والآمال في الصحراء

والقلب قلب حيث كان اذا ذكت
نار الشـباب وشرة الأحياء

عبد الرحمن شكري

وأطيعوه ، إنه يدعوكم إلى السلام

قال قلب الشاب الساذج المغتر وهو يرقص كالطفل يرى لعبة جديدة له فى يد أمه : مرحى ... مرحى ... جاء السلام ... نعم السلام ؛ فلنتسارع جميعاً اليه ولنستبشر بالهدوء والطمأنينة

قال قلب الرجل المفسد : كأن لك غرضاً خفياً من وراء ندائك هذا ياقلب الشاعر !! فأنت تدعونا الآن إلى الانصراف عما خلقنا له من عمل وجهاد ، والركون إلى ما خلقنا لنحاربه من جمود واستسلام

قال قلب الشاعر : صه ياهـذا القلب المتكلم .... ماذا فى السلام من الجمود والاستسلام ؟ وهل معنى العمل والجهاد أن نتسابق فى الضغائن والأحقاد ؟ اعملوا وجاهدوا ولكن فيما فيه الخير والنفع تعيشوا فى حدود السلام سالمين

قال قلب المفسد : وكيف نسلم إذا كانت نواميس الطبيعة تحتم علينا أن تختلف طباعنا ، فنختلف بها ، فيأخذ كل منا منهجا لنفسه ، فتتعدد الأحوال بتعدد المناهج ، فتنجم المشاكل فتخلق العناد ، وتستلزم العمل والجهاد

قال قلب الشيخ المصلح : ما أخطرك أيها القلب على كل محيط تندس فيه !! إنك لخبيث وتدافع عن الخبث بقوة هى فجور الخبث وتسلطه وانتقاله من طور الداء الى طور الوباء . لماذا لم يتكلم غيرك منابذاً دعوة السلام ، محاولا تفنيد الرسالة التى حملها الينا قلب الشاعر ؟ ولماذا لم تبدُر من غيرك ندُرُ الخلاف ووسائل الشر ؟ أليس هذا لأنك مجبول على الخسة وحقارة المبدأ ؟ . . . ما أقل شأنك عند الله ، وما أبعدك عن رحمته ، وما أحقك بأن تكون سخرية لكل ساخر !

قال قلب الشاعر : لقد فسد خلقُه ، ثم أعلن فى هذا المؤتمر فساده ، ثم دافع عنه الصلاح ، ثم أراد أن يجعله نهجاً نتسفل فنعمل به جميعاً . . . ليس بعد هذا حضيض لمنحط ، أو قرار لنازل من مستوى الآدميين على دركات منها الوقيعة ، ومنها النميمة ، ومنها الدس ، ومنها الرياء ؛ وآخرها التبجح فى كل ذلك !! أخرجوه عنا وأبعدوه

فانقضضنا عليه وطردناه ، وكان كل منا يشعر إذ ذاك بأن هذا القلب رذيلة تتحكك به ؛ فاتحد شعورنا فشعرنا كلنا بأنه رذيلة تريد أن تسلك سبيلها المظلم فى المجتمع ، فوجب علينا أن نصدها ، بل وجب علينا أن نمحوها ... ولما طُرد من بيننا ذلك القلب الشرير ، أو ذلك الشر المتسلط ، أو ذلك الخطر المتسلل ، اسوأ الطرد كانت لا تزال بيننا قلوب من طبقته ، تعمل على شاكلته ، فتوجست خيفة ، وتضاءلت ، والتمست النجاة ، واندجت المخابئ . ولكنها كانت مع هذا حريصة على أن تظل مدسوسة فى المؤتمر ، أو مخبوءة فى مسمع مما يدور فيه لتشبع غريزة حب الاستطلاع التي هى احدى لوازم عملها ، واحدى دعائم خيانتها

وعرفناها فألحقناها بزميلها الذى فضح نفسه حين تكلم ، فكان شراً على نفسه حين أراد أن يكون شرا علينا ، وانقلبت عليه سيئات ما عمل قبل أن تصل الينا

***

ووقف قلب الشاعر يكرر نداءه ، ويستكمل رسالته ويقول : أحسب الآن أننا نجونا من الرذائل بطرد دعاتها ومحبذيها ، وأعتقد أننا سنحارب القلوب المضرة ما استطعنا حتى تصير مثلنا أو تنقرض ، وأن كلاً منا قد آمن بنعمة السلام ، وأننا قد أصبحنا إخوة ، ولكن تظل أخوتُنا ناقصة حتى نسبغ عليها شيئاً ضروريا لما هو روح الأخوة . . . فينظر بعضنا الى بعض دائما نظرة الاحترام الخالية من الاستصغار أو الاستنكار أو الاستهتار ، وإن يكن منا قلب ضئيلا فى كونه ، قليلا فى شأنه . . . فليكن بيننا كبيراً فى مقداره ، كثيراً فى اعتباره ، وليكن شعوره محترماً ككل شعور

فاستاء قلب الجبار وقال : ياعجباً !! كيف يساغ أن نعامل الضعيف كما نعامل القوى ؟؟ وكيف نجل ذاك كما نجل هذا ؟ وكيف نعتبر ذاك فى ضعفه كما نعتبر هذا فى قوته ؟ ألا يكون فى ذلك خلط ، وتزييف فى الحقائق ، وغبن للكرامة ، وتشويه للحياة ؟ . . . إنها لمساواة فاشلة باطلة ، كالمساواة بين الخادم وسيده ، أو بين الطفل وأبيه . فلا العقل يتصورها ، ولا الطبيعة تقيمها ، ولا ظروف المعايش تبيحها

قال قلب الشاب الساذج المغتر : أجل ... أجل .. هذا هو الصواب ؛ فالقوى لا يمكن أن يقبل الضعيف عدلا له أو شبيهاً به ، لأن القوى لا يستطيع أن يهبط حتى يعيش عيشة الضعيف ، والضعيف لا يستطيع أن يعلو حتى يعيش عيشة القوى ؛ فليكن القوى فوق الضعيف ، ولتكن القوة موضع الاحترام

قلت أنا أخاطب قلب الجبار : أنت واهم أيها القلب المتجبر

يحسب أن الصدارة للقوى يعمل مايشاء فيرتاح الجميع لما يعمل ؛ ثم يأبى عليك جبروتك أن تساوى من يقل عنك قوة ومكانة ؛ ولكن هوّن عليك فانك لم تُدْعَ إلى ما فيه غبن لكرامتك أو حطم لكبريائك ، وإنما دُعيتَ إلى ما تعد كريما لو فعلته . دعيت إلى تبادل المحبة مع القوي والضعيف على السواء ؛ فبقدر قوتك يحسب على الضعيف كرمُك ، وبقدر كرمك يُعتبر تواضعك ، وبقدر تواضعك يكون سموُّك

نحن نعرف أنك قوى ، ونعرف أنك لست وحدك القوى ، فأ كثرنا ذو قوة ... وإن لم تكن قوته فى بنيته ففى صلابة إيمانه ، أو فى طيبة عنصره ، أو فى طهارة نزوعه ، أو فى عزّته وإبائه ؛ وقد ينقصك شيء مما فى غيرك من هذا كما ينقص غيرك شيء مما فيك من القوة . فلنقدر كل هذه الصفات ، ولنعلم أن القوة ما هى إلا واحدة منها

قال قلب الشاعر : ليس ذنب الضعيف أنه ضعيف ، لأنه خلق كذلك فلم يُدْخل شيئاً جديداً على خلقته ؛ والقوى يكون مذنباً إذا اختال بقوته ، لأنه يدخل باختياله عيباً كبيرا على خلقته . . . .

***

وكنت أظن أن عمل المؤتمر قد انتهى إلى هذا ، ولكن وقف قلب الشاعر مرة أخرى يستكمل رسالته ويقول :

مادمنا اخوة ، ومادمنا نشعر بروح الأخوّة . . . . فعلينا واجب هو آخر واجباتنا غير أنه أهمها ، هو أن نقدم العون والمواساة لمن كان منا منكوباً أو مكروباً ؛ فهذا هذا القلب — وأشار الى قلب البؤس بجانبى فبكى — كم يألم ، وكم يكتم ألمه ، لأنه لا يجد من يشكوه اليه ، وإن وجد فانه لا يجد من يواسيه فيه ، فيبكى وحده كلما انفرد فتذكر ، أو كلما اجتمع فتفكر — بكاء اليائسين على غير أمل ، والأحياء فى غير رجاء

فأقبلنا جميعاً على هذا القلب المسكين نواسيه ، حتى انفرجت كربته ؛ ثم أخذنا نتشاكى ونتناجى ونتواسى ؛ ثم أقبلنا على قلب الشاعر نكبره ونصافحه ونحييه ، ثم انفض المؤتمر

ولما خرجت من التفكير والحلم ، ثم عدت كما أنا شخصاً فى صدره قلب ، قلت : آه ! ! كم يعيش العالم سعيدا لو اتحدت قلوبنا فاتحدنا ؛ وكان أساس اتحادنا الأخلاص !

(طنطا) السيد محمد زيادة

بين المتنبي وسيف الدولة

للأستاذ أحمد أحمد بدوى

غادر المتنبي أرض مصر وشعوره لأميره السابق سيف الدولة نستطيع أن نجمله فى بيتين قالهما المتنبي وهما :

فارقتكم فاذا ما كان قبلكم قبل الفراق أذى ، بعد الفراق يد
إذا تذكرت ما بيني وبينكم أعان قلبي على الشوق الذى أجد

فهو قد خرج من مصر ونفسه توّاقة إلى سيف الدولة ، مشتاقة إلى الاستظلال بكنفه ، لأن آماله التى غرسها عند غيره لم يجن منها غير الخيبة والندامة ؛ ولم يكن اشتياق سيف الدولة إلى لقاء المتنبي بأقل من ذلك ، فقد أحس بعد فرقته بفراغ لم يملأه شاعر ممن حوله ، ورأى بلبله الغريد قد طار عن أيكته ، وحط عند غيره ، ولم يكن أحب إليه من عودته ، كما دلت على ذلك فعال سيف الدولة بعد أن فارق المتنبى أرض مصر ، وهو إحساس كان من السهل على المتنبي أن يستثمره وأن يقصد توّاً أرض سيف الدولة ، ولكنه لم يفعل لأمور نستطيع تلخيصها فيما يأتى :

أولاً ما فطر عليه المتنبي من سمو النفس والعظمة التى كانت تملأ جنبيه ، فقد عز عليه أن يلجأ إلى من فارقه مغضباً منه ، وأن يذهب إلى من فرّط فيه ولم يبق عليه ، بل سمع فيه قول الوشاة

وثانياً هذا الشعر الكثير الذى قاله مضطراً تحت عوامل نفسية ، وعوامل خارجية وثورة واضطرام عواطف ، وسب فيه سيف الدولة ، فلم يجد من اللياقة أن يقصد من هجاه ، ورأى فى ذلك غضاضة لا يسيغها ولا يقبلها

لم يذهب المتنبى إذاً إلى سيف الدولة ولكنه قصد الكوفة ، وهناك كثيراً ما ذكر أيامه السالفة لدى الأمير وعهده الغابر ؛ أما سيف الدولة فقد نسى كل ما ذكره المتنبى عنه حينما كان بمصر وأرسل إليه ابنه بهدية ، فلم يجد المتنبى ما يشكره به سوى شعره ، فكتب إليه قصيدة بدا فيها ما يكنه من جميل الذكرى وفيها يقول :

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا ، وأنت السبيل
والمسمّون بالأمير كثير والأمير الذى بها المأمول
الذى زلت عنه شرقاً وغرباً ونداه مقابلى ما يزول
نقص البعد عنك قرب العطايا مرتعى مخصب وجسمى هزيل

إن تبوأت غير دنياي دارا وأتاني نيل فأنت المنيــل
من عبيدي إن عشت لي ألف كافو ر ولي من نداك ريف ونيــل

ولا ينسى في تلك القصيدة أن يسمعه تلك النغمة القديمة التي كان يطرب بها مسامعه أيام كان في كنفه ، فهو يحدثه عن حربه مع الروم وطول غزاته معهم ، لأن تلك النغمة أعذب نغمة لدى سيف الدولة ، فهو يقول له :

ومواليك يحييهم من يديه نعم غيرهم بها مقتول
فرس سابق ، ورمح طويل ودلاص زُعف وسيف صقيل
أنت طول الحياة للروم غاز فمتى الوعد أن يكون القفول

تلك القصيدة تشعرك حقاً بأن المتنبي يحفظ أجل الذكريات لأميره ولا ينساها . ثم لما ماتت أخت سيف الدولة وورد نعيها العراق وسمع به المتنبي أبت عليه نفسه إلا أن يكون له نصيب من الحزن عليها فرثاها بقصيدة تدلك حقاً على وجدان متألم ، وأنه يحزن لحزن أميره القديم ويرثى لمصابه ، وفيها يقول :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصاد والأدب

فأنت تراه ينفي عن نفسه أنه لم يشارك أميره في الحزن ويقسم له بحرمة الفقيدة ثم يقول :

يا أحسن الصبر زر أولى القلوب به وقل لصاحبه يا أنفع السحب
وأكرم الناس لا مستثنياً أحداً من الكرام سوى آبائك النجب

ولعل رغبة سيف الدولة قد اشتدت في أن يكون المتنبي إلى جانبه فأرسل إليه كتاباً بخطه إلى الكوفة يطلب منه أن يسير إليه ، فأجابه بقصيدة فيها عتاب جميل واعتذار عن التخلف ، ومديح لسيف الدولة ؛ ولعل المتنبي بذلك المدح يريد أن يعوض على سيف الدولة فقده ، واستمع إليه يعتذر ويقول :

وما عاقني غير خوف الوشا ة وإن الوشايات طرق الكذب
وتكثير قــوم وتقليلهم وتقريبهم بيننــا والخبب
وقد كان ينصرهم سمعه وينصرني قلبــه والحسب
وما قلت للبدر أنت اللجيـ ن وما قلت للشمس أنت الذهب
فيقلق منه البعيــد الأناة ويغضب منه البطيء الغضب

ويمدحه ويقول :

وما لاقني بلد بعــدكم ولا اعتضت من رب نعماى رب
وما قست كل ملوك البلاد فدع ذكر بعض ؛ بمن في حلب
أفي الرأي يشبه أم في السخا ء أم في الشجاعة أم في الأدب

ثم يمضي مادحاً معيداً على أذنه تلك النغمة القديمة - كما قلنا - نغمة مدحه بقتال الروم .

تلك علاقة المتنبي بسيف الدولة وهي علاقة لا تتعدى المراسلة ، وقد يقال : أما كان من الخير للمتنبي أن يذهب إلى سيف الدولة بعد أن دعاه ؟ ولكن إذا علمنا ما كان يخشاه المتنبي من الوشاة وأن المأساة ربما تتكرر خففنا من لومه والاعتراض عليه

لم يلق المتنبي إذاً سيف الدولة بعد أن فارقه حتى قتل ؛ أما شعور الأمير ساعة علم بمقتل شاعره القديم فإن كتب الأدب إذا كانت لم تحدثنا عنه فمن السهل علينا فهمه ، إذ ليس من اليسير على سيف الدولة تقبل مثل هذا الخبر من غير أن يحزن له وأن يتألم من أجله في صميم فؤاده

أحمد أحمد بدوي

٧ - معركة عدوى

للأستاذ الفريق طه باشا الهاشمي

رئيس أركان حرب الجيش العراقي

وكان لموقع عدوى خطورة خاصة من حيث الاحتشاد في « ادجرات » حيث يوجد طريق يربط عدوى بأسمرة توا بعد أن يمر بفوندت ويقطع خط الاتصال على القوات في ادجرات ، وإذا أرادت الانسحاب تكون القوة الحبشية في عدوى قد سبقتها الى اسمرة ، بينما موقع أسمرة خطير وهو واقع على عقدة الجبال ويستر ميناء مصوع

نعم يوجد طريق آخر يربط ادجرات بزولا في جنوبي مصوع وتستطيع القوات أن تتمون وتنسحب بواسطته إلى الساحل عند الحاجة ، بيد أنه لا يستر الميناء « مصوع » ، وهذا الميناء هو القاعدة لجميع الحركات ومنه تتمون حاميات « كرن » و « كسلا » ، ولم يكن البريطانيون راغبين في اخلاء كسلا قبل أن يقضوا على حركات المهدي تماما

وقد أدى جمع القوات في ادجرات إلى مجابهة القيادة الطليانية مشكلة التموين . وكان في عدوى مقدار كبير من الذخائر اضطر الطليان الى اتلافه لما انسحبوا منها . ولم تكف وسائل النقل لنقل المؤن . وبدلا من أن يمونوا الوحدات الأهلية أخذوا يدفعون اليها الدراهم بدلا من الأرزاق ، بينما كانت الأرزاق قليلة ، وكانت الأحوال جميعاً تدل على أن الطليان وقعوا في مأزق لا يمكنهم الخروج منه إلا بصعوبة

فأرادت الحكومة الطليانية أن تنقذ الموقف بارسال قوات جديدة الى اريترة ، وقررت من جهة أخرى إنزال القوات في ميناء زيلع للتقدم نحو هرر واستمالة المسلمين الى جانب إيطاليا وتهديد العاصمة « أديس ابابا » ، فتضطر القوات الحبشية إلى الانقسام . بيد أن حكومتي بريطانيا وفرنسا لم توافقا على إنزال القوات الطليانية في ميناء زيلع في الصومال البريطاني لأنهما كانتا قد اتفقتا على اعتبار مقاطعة هرر من الأملاك الحبشية . وهذه المقاطعة الكثيرة السكان تتجر مع المستعمرتين الفرنسية والبريطانية ، ولكلتا الدولتين منافع خاصة فيها

والذي زاد الطين بلة أن الخلاف ظهر بين القيادة الطليانية في اريترة وبين الحكومة الطليانية في رومة . وكانت البرقيات التي يرسلها رئيس الحكومة « كريسبي » تندد بأعمال الجنرال بازاتيري ، وكلما ورد خبر مؤلم الى ايطاليا تثور زوبعة في رومة تنتهي بارسال برقية شديدة اللهجة الى حاكم المستعمرة وقائدها

ومن هذه البرقيات البرقية التالية التي أرسلها رئيس الحكومة إلى الحاكم العام بعد وصول أخبار نكبة « امبا - الاغي » :

« أرسلنا اليك أكثر مما طلبت ولا نزال نرسل . وإذا كان سبب المصائب عدم كفاية وسائلك أو قلة كفايتك فالويل لك »

وفي البرقية الأخرى يذكر ما يلي :

« يظهر لنا أن في روحك شيئا من الخيبة والتردد »

وطلب الجنرال إرسال أربعة عشر فوجاً وخمس بطريات جبلية ؛ بيد أنه لم يفكر في كيف يتمكن من تموين هذه القوات بينما كانت القيادة عاجزة عن تموين أولئك الموجودين في المستعمرة ، وكان يبحث في القيام بالهجوم من جديد . وكان جواب « كريسبي » اليه ما يلي : « أنا لا أريد منك خطط حركات ، وإنما أرغب ألا تتكرر الهزائم »

وفي ٨ يناير ١٨٩٦ أبرق الجنرال « باراتيري » أنه لا يريد إرسال قوات لأنه لا يتمكن من تموين القوات الموجودة عنده .

وبعد سقوط قلعة « مكلة » تأكد الجنرال من كثرة قوات الحبشة التي عسكرت بين « مكلة » وادجرات ، فقرر ترك مقاطعة « تيجري » والانسحاب بقواته إلى مصوع ، وطلب الموافقة على ذلك من رومة ، إلا أن الحكومة الطليانية لم تشاركه في هذا الرأي ، وكان كريسبي يستهزئ بباراتيري مبرقا اليه : « انك مصاب بالتدرن »

فلم ير الجنرال بدا من رمي الجيش الطلياني في النار

٨ - قبل معركة عدوى

لما حاصر ما كونين قلعة « مكلة » عسكر منليك بجيشه بين القامة و « ادجرات » ، ولما سقطت « مكلة » وافق على ذهاب الأسرى مقابل مال تدفعه اليه الحكومة الطليانية . وكان رسول كريسبي يفاوض منليك في هذا الشأن . وسافر الموظفون المدنيون أولا الى « ادجرات » ، وبعد خمسة عشر يوماً سافر الجرحى والمرضى على البغال التي أخرجتها الحامية من القلعة لقلة الماء فيها

وقد أظهر النجاشي مقدرة حربيـــة بالاستفادة من سوق

الأسرى . ولم تكن القوة المحتشدة في ادجرات قليلة ، وكانت القلعة حصينة ، والطريق الذي يصل مكلة بادجرات وعرا ، وعر مضايق حصنها الطليان لسدها في وجه الأحباش . وكانت الجهة المعرضة للهجوم واقعة الى الجنوب ومسيطرة على الوادي في انحدار شديد . وكان طول الخنادق حول القلعة ٧٥٠ مترا ، وكانت مواضع المدافع صالحة للرمي على مسافات بعيدة . وبلغت القوة المكلفة بالدفاع عن هذه الجهة ٢٠٠٠ر٢٠ مقاتل ، وكان التقدم في هذه الناحية يلقى عراقيل وموانع ، وقد لا ينجح الهجوم على الطليان لمناعة مواضعهم وكثرة مدافعهم ووفرة سلاحهم . واذا استطاع منليك أن ينقل جيشه من شمالي مكلة الى عدوى دون علم الطليان فانه يكون قد هدد طريق « أسمره ـ مصوع » وألجأ الطليان الى الانسحاب من ادجرات ، لأن التقدم من عدوى في الجهة الشمالية الشرقية يقطع خط الرجعة على الجيش الطلياني

ولكن كيف يستطيع منليك القيام بالمسير الخفي بهذا الجيش اللجب دون علم الطليان ؟ والأمر يتوقف على الخدعة ، والعرب يقولون : « رب حيلة تغني عن قبيلة » . وسوق الأسرى وفيهم الجرحى والمرضى من مكلة الى ادجرات هيأ هذه الخدعة ، فأنبأ منليك القيادة الطليانية بأنه سوف يوفد قوة من جيش ما كونن مع الأسرى لحراستهم . فساقهم يوم ٢٥ يناير على طريق « ادبرثا » ، وفي اليوم الثامن غير طريقهم الى « هوزن » بحجة أن الطريق الأول لا يصلح لسوق المرضى والجرحى ؛ وهكذا قدم جيش ما كونن على طريق « مكلة ـ هوزن ـ ادجرات » وبحراسة هذا الجيش سير منليك جيشه من معسكره الى عدوى . ولما وصل الأسرى الى ادجرات كان جيش منليك في عدوى والتحق به بعد ذلك جيش ما كونن فاصبح مجموع القوة ٠٠٠ر٨٠ رجل

ولا ريب في أن منليك أهمل أمر « ادجرات » واهتم بعدوى . والحقيقة أن لخط « ادجرات ـ عدوى » خطورة عظيمة من حيث السيطرة على مستعمرة اريترة ، أو سد الطرق في وجه المهاجمين لبلاد الحبشة ، لأن الخط المذكور كما سبق القول يمر بذرى الجبال التي تؤلف الخط الفاصل بين حوضي نهر مارب ونهر تكاسا . واعتمد منليك على تفوق عدده وتيقن أن الضربة التي ينزلها في عدوى تفتح له الطريق . وما دام هو في عدوى فلا يجرؤ الطليان على التقدم في الجبهة الجنوبية الغربية

ولما وصل الجيش الى عدوى احتل الروابي الشرقية وتأهب للمعركة ، فاضطر الجنرال « باراتيري » أيضا الى تغيير وجهة جيشه . فبعد أن كان متوجها الى الجنوب توجه الى الغرب

ولم يستعجل منليك القتال ، وكانت لديه مهمات أخرى يريد أن ينجزها قبل العمل ، وهي اراحة الجيش ، واحتلال المواضع المسيطرة ، وتسليح الأهلين في المستعمرة ، وحثهم على الثورة على الطليان . فتظاهر بأنه يريد الصلح ، وشاغل الطليان بمفاوضات الصلح ، فحملهم على البقاء في ادجرات . وطلب من الحاكم العام أن تجري المفاوضات على الأسس الآتية :

اعتبار نهر مارب ونهر بلزة خط الحدود ، وتصحيح معاهدة كسلا ، والاعتراف باستقلال الحبشة . وهكذا أظهر للعالم أنه مسالم . بيد أن الجنرال « باراتيري » أنبأه بأنه غير مفوض بقبول هذه الشروط ما لم يقف على رأي رومة

وفي ١٣ فبراير سنة ١٨٩٦ نجحت تدابير منليك باغراء الأهلين الذين كانوا قد تطوعوا في الجيش الطلياني مقابل راتب . وفي ١٤ فبراير ترك المتطوعون الجيش الطلياني وانضموا الى الجيش الحبشي وهاجموا قوة الستار الطليانية في مضيق « اليطا »

وحاول قائد القوة في هذه الجهة أن يحول دون انضمام المتطوعين الى الأحباش وأرسل وراءهم فصائل طليانية على التعاقب ، الا أن المتطوعين أحاطوا بهؤلاء واضطروهم الى التسليم وساقوهم أسرى الى منليك ، فتشجع الأهلون بذلك وثاروا على الطليان ، واستولوا على طريق « ادجرات ـ سنافه » ، وقطعوا الأسلاك البرقية ؛ وطفق الطليان يشعرون بحرج الموقف إذ قلت الأرزاق ، لأن الثوار أخذوا يهاجمون القوافل على خط المواصلات ؛ وكانت القوافل تسير بحراسة حاميات قوية ببطء . وأخذ بعض فصائل الجيوش يتقدم نحو أسمرة لعبور نهر مارب والوصول الى « غودفلاسي »

(يتبع) طه الهاشمي

شعراء الديباجة

أدب البارودي وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

أما وقد تحدثت إليك في الفصول السابقة عن ألفاظ الشعر ومعانيه ؛ وبينت أن للشعر ألفاظاً ومعاني مختصين به ، لا يشاركه فيهما غيره من الكتابة والخطابة ؛ وأوضحت الفرق بين المعاني الشعرية وغيرها من المعاني البسيطة ؛ ومثلت لجميع ذلك بما أوضحت به الغرض من شعر القدماء والمحدثين ؛ فاني متحدث إليك اليوم عن شعراء الألفاظ فأقول :

قد يفرط بعض الشعراء في تحسين الألفاظ وتجميل العبارات مع خلو الشعر من المعاني الحية ، والأغراض الملائمة للبيئة ، والتفكير الساير لثقافة العصر ، فلا ترى في القصيدة على طولها ، بل في الديوان على ضخامته صورة صادقة منتزعة من حياة الأمة ولا من حياة الشاعر نفسه ، بل يعمد الشاعر إلى معاني سواه من الشعراء المتقدمين فيرددها في شعره ، ويحشو بها قصائده ، ويحاول أن يخدع القراء عن هذا التقليد بألفاظ يجيد تهذيبها ، ويحسن اختيارها ، ويجري فيها على مذهب القدماء من الفخامة والجزالة والمتانة ، ومع هذه الفخامة وتلك الجزالة فانك تشعر في مجموع القصيدة وفي كل بيت من أبياتها ببرودة الموت وسكون الفناء ، كأنك ترى جسما ميتاً يبدو الجمال على محياه ، وما يجدي الجمال مع فقد الحياة ؟ فانه مما لا نزاع فيه أن للمعاني كما لذوات الروح أزمنة محدودة تحياها ، وأعماراً معدودة تعيشها ؛ وأن من المعاني ما ينقضي أجله بمجرد انقضاء الحادثة التي قيل فيها ، فاذا قيل بعدها عدّ من المعاني الرثة البالية ؛ ومنها ما يخلد على توالي العصور وتعاقب الأجيال ويظل جديداً على قدمه ، يغالب الزمن بما فيه من عناصر القوة والبقاء ، ويدافع العدم بما فيه من أسباب الحياة ، وذلك اذا تعلق المعنى بغرض عام في حياة الانسانية جمعاء ، وصلح أن يتخذ مثلاً سائراً بين جميع الأحياء ؛ ومنها ما يخرج من فم قائله ميتاً ، كالسقط الذي لم يستهل صارخاً ، لا يستحق غسلا ولا تكفينا ، لأنه ولد دفيناً ؟ وكثيراً ما ترى ذلك في شعر التقليد وقصائد المعارضات التي يجاري فيها الشعراء من تقدمهم من فحول الشعر وأعلام القريض

وبالجملة فمن عيوب الشعر التي لا تغتفر أن يُعنى الشعراء بالألفاظ دون ملاءمة المعاني للبيئة التي يعيشون فيها ، ومسايرتها لثقافة العصر الذي قيل فيه الشعر

ومن هؤلاء المرحوم (محمود سامي البارودي) فقد كان رحمه الله غريباً في مصره ، وصياغة عصر غير عصره ، ومغرّداً في روض العلويين بأغاريد العباسيين ، ومُسمِعاً دولة اسماعيل وتوفيق ما لا يطرب له غير الرشيد وأنداده من أمراء المؤمنين ، فهو شاعر جاء متأخراً عن زمنه ، بعيد العهد بينه وبين أقرانه وأساتذته من أوائل العصر العباسي إلى أواسط القرن الرابع ، وهم الشعراء الثلاثون الذين اشتملت مختاراته الضخمة على كرائم قصائدهم ، وعيون شعرهم في أهم أبواب الشعر وأجل أغراضه في تلك العصور وهي المديح والرثاء والأدب والصفات والنسيب والهجاء والزهد

ولم يزل هذا الكتاب منذ طبع حتى اليوم ينبوعاً صافي المورد ، ومنهلا عذب الشريعة ، يَرِدُه الأدباء والمتأدبون ظماء ، ويَصدُرون عنه رِواء ؛ فكم من أديب نابغ في هذا الجيل قد تخرّج عليه ، وعَلَم من أعلام البيان العربي كان مرجع بيانه اليه ، وشاعر فحل زكت شاعريته ، ونمت موهبته بالرواية عنه ، والأخذ منه ، ولسان منعقد حُلّت عقدته عطالته ، وانطلق من وثاق اللكنة بمذاكرته ، وتعلّم صقل الألفاظ ، وعلوّ البيان ، واشراقَ الأسلوب بدوام النظر فيه ، ومحاكاة ما يعلق بالذهن واللسان منه ؛ وكم خابط في ظلمات العجمة استوضح معالم العربية الصريحة ، وملامح الصور الشعرية الصحيحة بضوء مصباحه ، فهذه المجموعة في حُسن ما اشتملت عليه من قصائد المولّدين وجدواها على الأدباء والمتأدبين ، وكثرة من تخرّج عليها من الشعراء المجوّدين ، أشبهُ الكتب بحماسة أبي تمام وإن اختص كل منهما بشعراء عصر ، فمختار أبي تمام مقطعات من شعر العربية الخالصة التي لم يشُبها توليد ، ومختار البارودي قصائد من شعر المولّدين ؛ فحيث انتهى أبو تمام في حماسته ابتدأ البارودي في مختاراته ، فهو كالذيل له ، وإن كان

أشفق من الثوب ، وقد كان يقال : إن أبا تمام في اختياره ، أحسن منه في أشعاره .

وعندي أن البارودي يشبهه في ذلك ، بل هو أولى منه بهذا الحكم الأدبي العادل .

فجميع شعره ليس إلا تقليداً لشعر هؤلاء الثلاثين الذين اختارهم ، ولا نزاع في أن الأصل أقوى في بابه من التقليد مهما بالغ المقلد في احكام عمله ، وتنوق في تقليده

أما أبو تمام فلم يقلد أحداً في شعره ، بل كان إمام مذهب شعري خاص موسوم به ، معزو إليه ؛ لم يسبق فيه بأحد قبله ، وتابعه عليه كثيرون ممن عاصره أو جاء بعده

وناهيك بما كابده البارودي رحمه الله من العناء والجهد في جمع هذه الدواوين التي كانت تعد في عصره من نوادر الكتب ونفائس الخزائن ، وذخائر الكنوز الخطية التي لم تصل إليها يد النشر بطبع ولا نسخ ، إذ كان بعضها في خزائن العظماء والسراة يتوارثونها فيما يتوارثون من ذخائر وطرائف ، لا يعرفون قيمتها ، ولا يدرون ما يفعل بها ؛ وكان أكثرهم بل كلهم من أمراء الترك الذين استوطنوا هذه البلاد واتصلوا بملوكها ، إما بالمودة أو بالقربى أو بالعمل ، واستأثروا بالثروة الوافرة والجاه العريض ؛ وكانوا يحشدون في خزائنهم تلك الكتب مباهين بعضهم بعضاً في جمعها ، لا في نفعها ، وقد آل بعض هذه الخزائن إلى دار الكتب المصرية من عهد قريب ، كمكتبة المرحوم طلعت بك وحليم باشا وغيرهما ، ويشهد الله ما فتح أكثر هؤلاء من كتبهم سفراً ، ولا قرءوا منها سطراً ، وانما كان يبهجهم ما يرون في بعض هذه الكتب من النقوش الفنية البديعة ، والصور المتقنة الرقيقة ، ويبهرهم من الكتاب ما يرون فيه من نفاسة الغلاف ، والعلامات الذهبية في أواسط الصحف أو على الأطراف ، وغير ذلك مما يسترعي الأبصار ، دون الأفكار

ولا يزال بيننا الآن من الناس من لهم كلف شديد باقتناء الكتب ، إما ببذل المال الكثير في شرائها ، أو باستهدائها من مؤلفيها وجمعيات نشرها ، ويتنوقون في تجليدها تجليداً حسناً ، وينقشون أسماءهم عليها بالذهب ، ويرتبونها في خزائنها ترتيباً متقناً ، وينسقونها في مواضعها تنسيقاً فنياً يبهج الناظر ، متوخين في ترتيبها التجانس في الألوان والأحجام ، دون العلوم والموضوعات ، إذ كانوا لا يفقهون من ذلك قليلا ولا كثيرا ، ولا يدركون من نفعها جليلا ولا حقيرا ؛ معتقدين أن حجرة الكتب مما تتم به مرافق البيت ، كحجرة الزائرين وحجرة الطعام وما إليها ، فان قدم عليهم زائر أدخلوه حجرة الكتب ليرى أثر النعمة عليهم ، بجمع هذه التحف لديهم

وكان بعض هذا الكنز الثمين مدفوناً بين أنقاب المساجد وفي كوى الزوايا في حراسة الجهلة من خدمها ، يبيعونه لتجار الفرنجة بيع يوسف بثمن (بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)

فتفرق أكثر هذه الكتب في العواصم الأوربية ، إما في مكاتبها العامة ، أو في الخزائن الخاصة ، والأدباء والعلماء في الشرق يتلهفون شوقاً إليها ، ويتحرقون أسفاً عليها ، ويسمون بها معاجم بأصحابها ، حاسبين أنها انقرضت بانقراضهم ، وذهبت بذهابهم ؛ وهي تختلس من بلادهم ، وتنتهب من بين أيديهم ؛ واللغة التي أشفت على الهوة ، وأشرفت على المنحدر ، في حاجة ماسة إلى نهضة كبرى لأحيائها ، وقوام تلك النهضة هو احياء تلك المخطوطات البالية ، بل الآثار الباقية لأعلام البيان وأمراء الكلام من الكتاب والشعراء ، فلبثت هذه الكتب في ظلمات الخزائن مئات من السنين تتعاقب عليها الحقب والأجيال ، ويتضافر على تعطيل الانتفاع بها الجهل والاهمال ، وتنتفع الجرذان والأرضة بأكلها ، أكثر مما ينتفع الأدباء والعلماء بفضلها ؛ حتى أتاح الله لها ذلك الأديب النابغ ، والشاعر الفذ ، فتولى نظارة ديوان الأوقاف ، وجمع ما بقي من هذه الكتب في مخابئها ؛ وكان هذا هو بدء العمل في إقامة دار للكتب في مصر

ولا يغيبن عن ذهنك أن ما بذله ذلك النابغة رحمه الله من الجهود المضنية في الظفر بتلك الدواوين التي جمع منها مختاراته ، لم يكن بأكثر مشقة مما عاناه من التعب الممض ، والنصب المنقض ، في تصحيح ما أفسدته أيدي الجهلة من النساخ بل المساخ من ألفاظها ، وإصلاح المحرف من كلماتها ، وتكميل الناقص من أبياتها ، وإعادة البهاء والرونق إلى ماشوه الجهل من جمالها ، ومسخ من صورها ، وطمس من معالمها ، وإن أيسر ذلك لمما يستنزف الجهود ، ويستنفد الزمن الممدود ، والعمر المحدود ؛ فانك لا تكاد تفتح أحد هذه الدواوين المخطوطة

القصص

صور من هوميروس

١٨ - حروب طروادة

مصرع هكتور . . .

للأستاذ دريني خشبة

اختلط حابل الطرواديين بنابلهم ، وظلوا يهرعون إلى الأبواب حذر الموت الذي يتلقفهم عن شمائلهم وعن أيمانهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ، كأنما جثمت المنايا في كل خطوة فهي لهم بالمرصاد . . . طالما يكر أخيل هنا ويفر هناك ، وتكر من خلفه وتفر شياطين الميرميدون ، صائحين متهدجين : « يا لثارات بتروكلوس ! »

ووقف أبوللو وهو يتميز من الغيظ يشهد المعركة ، ويرى إلى أخيل يحصد تلك الرؤوس اليانعة التي لم يحن بعد قطافها ، فلم يملك أن دنا منه وقال :

« على رسلك يا ابن بليوس ، فكأني بك ما كفاك من صرعت حتى لتحدثك نفسك بقتال الآلهة ، ومحاربتي أنا من دون أرباب الأولمب خاصة ! ولكن هيهات ! فانك لا بد يوماً ذائق الموت الذي لن يذوقه إله في الأرض ولا في السموات ... فاقصد في تقتيل هؤلاء الأبرياء ، ولا يغرنك نصر قد تكون في آثاره هزائم . . . . . »

وعبس أخيل عبوسة قاتمة ، ثم نظر الى أبوللو مغضباً وقال : « حسبك يا سيد الشمس ما ضيعت من جهود ، وما فوّت عليّ من ثارات ... أعرج في سمائك الشاسعة ، ودع بني الموتى يصطرعون من أجل المجد والشرف ... لقد أنقذت خصمي من قتلة محققة ، فهل يا ترى تظل يا سيد الشمس تعترض طريق الأقدار ، ليمرح في كنفك الفجار الأشرار ؟ . . . »

وانطلق أخيل يعدو في إثر هكتور ؛ وكان هكتور قد أخذته

حتى ترى ظلاما كثيفاً من التحريف والتصحيف قد غشي جميع صحفه ، وخيّم على جميع سطوره ، فلا يبدو لعينك في وسط هذه الظلمة من شعاع الصواب ، إلا كما يبدو ضوء الشُّهُب من خلل السحاب ، ولا تكاد تقرأ سطراً خالياً من عدة كلمات محرفة ، أو مصحفة ، غير مستقيمة المعنى ولا واضحة الغرض ، يحتاج إصلاحها إلى زمن طويل ، وبحث غير قليل ، وذهن غير كليل ؛ وتحفظ من الخطأ ، ودقة في الذوق الشعري ينفذ بها القارئ إلى وجه الصواب ؛ وحسن اختيار في المحو والاثبات ، وتفهّم دقيق لما يقتضيه سياق الكلام من المعاني والأغراض ، ومعرفة بأساليب الشعراء ومصطلحاتهم في كل عصر ، ليكون المحو والاثبات تابعين لما تقتضيه هذه الأساليب وتلك المصطلحات وخبرة واسعة بالكتب اللغوية والأدبية ، وأغراض كلٍّ منها ، ومكان الفائدة منها ، ثم إعمال الذهن بلا كلال ، وإجهاد الفكر بلا سآمة في الألفاظ المحرفة ، والعبارات المغلقة ، التي لم يستقم معناها على وجه من الوجوه ، بتقليب حروفها بين التحوير والتغيير ، والتقديم والتأخير ، والحذف والزيادة ، والاعجام والاهمال ، حتى يستقيم المعنى و يتضح الغرض مع الأمانة التامة على الأصول ، وعدم الخروج عنها إلا بالقدر المقبول .

هذا قليل من كثير من المشقات التي يعانيها الناظر في أمثال هذه الدواوين ليختار منها مجموعة ضخمة مصححة أقوم تصحيح كمختارات البارودي

أما شاعرية البارودي فسنحدثك عنها في العدد المقبل

أحمد الزين

الغزة فأبى أن ينجو بنفسه فيدخل المدينة مع الداخلين

وكان بريام ، الملك الشيخ ، يشرف على الساحة الحمراء من أحد أبراج مدينته ، فرأى ابنه واقفاً في إحدى حنيات الأسوار ينتحم ، ويرسل في رهج الميدان عينين ساذرتين محزونتين ، تشفان عن قلق عميق ، واضطراب دوى ، فريع الأب المفئود ، وزلزل زلزالا شديدا ، وطفق يئن أنيناً عالياً ، ويضرب صدره الواهن بيديه الواهيتين ، ثم يصيح بابنه أن يسارع إلى البوابة الأسكائية قبل أن يلحق به أخيل ، عسى أن ينجو مما يتربص به من منون ...

« أي بني ! هكتور ! فيم تقف في هذا الميدان وحدك تنتظر الطاغية أخيل عليه لعنة السماء والآلهة ، بقتله بنيّ ، واهداره دماء مواطنيّ !

هلم يا بني حسبي ما جزعت على بوليدور ، وجزت أمض الحزن وأوجعه على ليكاون ، وحطم قلبي من الأسى على أبنائي اليوم ! ...

هلم يا بني فأنت أمل طروادة ومعقد رجائها ، وليس لها بعدك من ولي ولا شفيع ! ...

هلم فأبوك الشيخ قد صدعه الحزن ، وأوقرت ظهره ويلات الحرب ، وأغشت عينيه أرزاء هذا البلاء ، فلا تكن أنت محنة المحن التي تحل به ، واستبق شبابك له يتسل بك ، ولأمك المفجعة تستلهم بقربك الصبر ، على ما كرثها الزمن الصارم من نكبات يلاحق بعضها البعض ، وتأخذ أولاها بتلابيب أخراها مشرق كل شمس ، وكل مغيب شمس

هلم يا هكتور إليّ ! إلى والدتك ! إلى زوجك ! إلى طفلك الذي تكاد تسلمه لليتم ، وتدعه خلفك للشقاء ! ...

هلم وحسبنا أرامل شجعاننا اللائي يحلن إشراق أيامنا ظلمة ، ويصيرن لألاء الحياة قتاما ... أو يرسفن في أغلال الاستعباد حيث يقمن في خدمة الإغريق اللؤماء ... !

هلم إليّ يا بني ! فو أرباب الأولمب إني لأرتعد فرقا كلما خلتك ملقى بالعراء تنوشك سباع الطير ، منبوذاً لضواري هذه البرية التي طالما أطعمتها وأكرمت مثواها ... »

وصمت الملك ، وراعه أن ابنه لم يتحرك لتوسلاته ، بل لبث مكانه يرمق الميدان فراح يضرب يدا بيد ، ثم انحنى فجعل يحثو التراب على رأسه المجال بثلج الشيب ، وندف الأيام ، وبهذه الشملة البيضاء التي زادتها أحداث الزمان اضطراماً ...

وكانت هيكوبا إلى جانبه ... هكيوبا مليكة اليوم ، ... هكيوبا الأم ... التي فجعها أخيل في عدد من أعز أبنائها ، ويحاول اليوم أن يفجعها في هكتور ، ابنها البكر ، وتاج الأمومة الوضاح ، الذي تفخر به كل أم ، وتدل به كل والدة !

وقالت الأم الباكية تخاطب هكتور : « هلم يا ولدي فإنك وحدك لا تستطيع أن تكبح جماح هذا البحر الزاخر من الجند ، بل لو أن معك ألفاً من شجعان طروادة ما وسعهم أن يردوا عادية هؤلاء الميرميدون المقنعين في حديدهم ، الكثيرين في عديدهم

هلم يا هكتور واستبق شبابك وعنفوانك لأمك المحزونة التي لم يبق لها من ولد غيرك ، ولا عز إلا في جوارك ، ولا حمى إلا في كنفك ، ولا مجن يرد عنها عوادي الأيام إلا في ظلك ، ولا فخر لها بين النساء إلا فخرك ، وما تحمد الآلهة في أيدك ، وتشد به أزرك ... ...

هلم يا بني فقد أزعجتني الرؤى ، وروعتني الأحلام ، وجثمت فوق صدري أشباح هذه الساحة التي تفتأ تلبس الحداد وتخلعه وتعرى بالنصر ثم تنزعه ، وإن سرت بطلا بفوز تنكس فتفجعه ، فتنقد أضلعه وتمتزج بدمه أدمعه ... ... »

وكانت الملكة ، كما كان الملك ، تمزج توسلاتها إلى ولدها بأغلى الدموع ، وأحر الآهات ؛ بيد أن هكتور ظل مسمرا مكانه كالحية الرقطاء التي تتحوى وتتكوم في انتظار عابر تنقض عليه ؛ وكان يمني نفسه أن يأخذ أخيل على غرة ، فيريح طروادة منه ، ويظفر لنفسه بنفسه إكليلاً من المجد لم يزن مفرق بطل من قبل.

وكانت توسلات أبويه تتناثر فوق أذنيه ، ولا يصغي لها قلبه ، بل هو قد ظل يحلم في يقظته أحلاماً معسولة ، كانت تطن في خلده هكذا : « مذلة لي إذا ثنيت عناني إلى المدينة ألوذ بها من أخيل ، فأرسف أبد الدهر في حضيض العار ، وأطأطئ حياء كلما لقيت طروادياً يهمس في أذن أخيه : إن هذا هكتور الذي ولى دبره ، ونكص على عقبيه ، ولم يجرؤ أن يلاقي أخيل بمفرده في

الميدان ... وأين أذهب من غادات إليوم وحرائرها إذا أنا وليت الأدبار ، وها هن مشرفات على الساحة يرين ماذا يكون من أمرى مع ابن بليوس الذى تفزع الآلهة من ضرباته ، وتمور الأرض تحت عجلاته ، وتنعقد عجاجة الوغى فوق رأسه فى حين يبرز منها كالكوكب الدرى ! حاشاى أن أعود أجرر أذيال الخيبة ، فاما أن ألقاه فأريح الدنيا قاطبة من شره ، وإما أن يمحى هو من هذا الهم المقيم فأنفى فى سبيل بلادى ومن أجل مملكتى ...

ثم فيم صراخ أبى وعويل أمى ؟ أيرجوان أن أدخل إلى المدينة فأكون بنجوة من الموت الشريف فوق أديم الميدان ساعة ، ثم يفتحها أخيل على ، فيذبحنى كما يذبح شاة لا حول لها ولا طول ، أو يضع الأغلال فى عنق ويجرنى فى شوارع (إليوم) كما تكون أذن الجارية فى يد النخاس بسوق الرقيق ! ؟

« حاشا ... بل خير لى ألف مرة أن أخوض خبار المعمعة ، ما دام لن يضيرنى إلا ما حتمت القادر على ... »

وما كاد يفيق من أحلامه حتى كان أخيل أمامه وجهاً لوجه ، وعلى كتفه الرمح الهرقلي رمحه الظامئ المتبـــد ، وفوق صدره العريض المرد سوابغ دروعه التى سردها الإله الحداد فلتكان ، تنعكس عليها آلاف وآلاف من آراد الشمس فتبهر الأبصار وتخلع الأفئدة ، وتذيب فى الجوارح كهرباء الرعب ، وتشعل فى الرؤوس ضرام الشيب ! !

وزاغ بصر هكتور ، واضطربت مفاصله ، ونخب قلبه ، واستطير لبه ، وأحس كأن جبلاً ينحط على روحه فلا يكاد يقلها ، وذاب الثلج فى عروقه فجمدت من الروع والفزع ، وهزته قشعريرة طفقت تعصف بكيانه الضخم ، وتلعب بفؤاده الوانى ...

ثم بدا له أن يلهب جياده فتفر به من وجه أخيل ، ولكن إلى أين ؟ إنه حيثما تولى فثم وجه أخيل ! ! إن أخيل غدا آلافاً لا حصر لها من الأشباح الفزعة تملأ الساحة وتكظ الهواء ، وتأخذ على الطرواديين أنفاسهم !

وانطلق ابن بليوس فى إثر هكتور ، وأشرف عذارى إليوم يطللن من أبراج المدينة الخالدة وعكن حبات قلوبهن أن تثب إلى الميدان فتطأها سنابك تلك الجياد الجوامح . وكان كلما أغذ هكتور أوخف أخيل فى أثره ، فكانا كالأبردين : لا الليل يدرك النهار ولا النهار يستأنى فيدركه الليل ، حتى نال منهما الجهد ، وتفزعت الآلهة فى علياء الأولمب اشفاقاً على ابن بريام المظلم ، ورثاء لابن بليوس المهدج ، ورحمة لهذه الأرض المضرجة بدماء الشهداء

وهم سيد الأولمب أن ينقذ هكتور ، لولا أن أقنعته ابنته مينرفا ربة الحكمة والموعظة الحسنة ، فنحته عن طريق الأقدار وأخلت بين أخيل وخصمه ...

وطافا حول طروادة ثلاثاً ، وما كادا يبدآن طوافهما الرابع ، حتى قبض زيوس إليه ميزان القدر ، فهوت كفة الحق بقتل هكتور ، واربد وجه أبوللو وسقط فى يده ، وانطلق يضرب أخماساً لأسداس ... !

وأسرعت مينرفا إلى أخيل تزف إليه بشرى السماء ، وآثرت له أن يتلبث مكانه يستجم نشاطه ، ويتنفس الصعداء ، حتى تذهب هى إلى هكتور تغريه بلقاء خصمه ، وتنفره من هذا الفرار الذى أضحك منه قيان إليوم وحسانها ...

واستخفت مينرفا ، وبدت لهكتور فى هيئة أخيه الأصغر ديفوبوس ، ثم راحت تحمسه على الحرب ، وتحرضه على أخيل ، وتهون له من شأن زعيم الميرميدون ، وتعده أنها ستقدم له كل عون حتى يظفر به وتنصره السماء عليه نصراً عزيزاً ...

ولم يشك هكتور فى أن الذى يخاطبه هو شقيقه وحبيبه ديفوبوس ، فوقف قليلاً يفرج عن قلبه بعض ما كربه من روع ، وراح يمزج شكرانه لأخيه بدموع الفزع ، وذلة العبارات المتقطعة الحزينة ، وخفقان القلب المضطرب ذى الوجيب !

وانثنى هكتور للقاء أخيل ...

فما كاد ابن بليوس يشهده مقبلاً ، بعد إذ كان مدبراً ، حتى طرب قلبه ، وشاعت بشاشة اللقاء فى زنده القوى وسواعده المفتولة ، ثم انقلبت هذه البشاشة إلى جهنم من الغيظ تستعر بالتشوف إلى الانتقام فى فؤاده ، وتضطرم بلظى البغض فى سويدائه ؛ وتطل من عينيه تود لو تنقدح فى أضلع هكتور ... !

وقال هكتور : « تخدع نفسك يا أخيل إذا ظننت أنى كنت ألوذ بأذيال الهرب منك ، حين أجريتك هذه الأشواط الثلاثة

حَوْل إليوم ... ! لا ... فانى ما حاولت إلا إجهادك ، وأن ينال الاعياء منك ... والآن ، هأنذا قد انقلبت لقتالك فاما أن أقتلك ، وإما أن تروى رمحك الظامئ من دمى . من يدرى ؟ أليست الأقدار مطوية عنا فى صحائف الغيب ، لا يعلمها إلا سيد الأولمب وكبير الآلهة : زيوس جل شأنه !

بيد أنى أطمئنك من الآن يا أخيل ، إن أظفرتنى السماء بك ، فلن أفضحك فى هذه المدة السابغة من فوقك ، ولن أنزع عنك تلك الدروع الضافية التى لن تنفعك من المقادير من شيء ... ثم أعدك أيضاً ألا أفضحك بعد موتك فى هذا الجسم العزيز الذى سيكون بعد قليل جثة لا نأمة فيها ولا حياة .... لن أرسل بك إلى عراء طروادة فأنبذك فتأكل الطير منك ، وتنوشك سباع البرية الموحشة التى تموج بالضوارى والكلاب .. لا ... لن أفعل من ذلك قليلاً ولا كثيراً ... بل سأترك لجنودك البواسل أن يحملوك إلى سفائنك عزيزاً فى قتلتك ، كما كنت عزيزاً فى معاشك .

والآن يا ابن پليوس ! هل تعدنى الوعد الذى وعدتك ، وهل تعاملنى بمثل ما أنا معتزم أن أعاملك ، إن أظفرتك السماء على . . . . ؟

وتزلزل الأرض تحت عربة أخيل مما سمع من مهاترة ابن پريام ويقذفه بشواظ من الكلام الحنق والقول المضطرم ، ثم يقذفه بصعدته الظامئة التى تمرق إلى هكتور كالبرق الخاطف ، لو أصابت منه عضواً لذهبت به إلى الجحيم ....

ولكن هكتور العظيم يتقبل انفتالة عجلى ، فيهوى رمح أخيل إلى أرض الساحة ، ويغوص ثمة إلى ثلثيه ... إلا قليلا

وكانت فرصة طيبة لهكتور ينفرد فيها بخصمه الأعزل ، لو لم تكن مينرڤا حاضرة ، وعلى أهبة تامة لمعاونة أخيل .... فلقد سارعت إلى الرمح فانتزعته من الأرض ، وسلمته لصاحبه دون أن يلمحها هكتور . . .

وقبل أن يتهيأ لها أن تصنع ذلك ، قال ابن پريام : « أخيل ! ها قد طاشت ضربتك ، وآن لطروادة التليدة أن تستريح منك يا ألد أعدائها ! ! لقد كنت تحدث نفسك برأس هكتور ؛ غريمك وخصمك ، فلتبحث الآن عن رأسك يا ابن پليوس....

ولم يكد البطل المسكين يتم قولته ، ويضيع بها فرصته ، حتى كانت مينرڤا قد أعادت الرمح الى أخيل . . وحتى تبسم أخيل ابتسامة لاذعة ساخرة بما قال هكتور ، الذى ذاعب هو الآخر رمحه ، ثم أرسله كأنه الحتف فارتد على درع فلكان ، ومنه الى الأرض ، يفناص فيها ؛ وقبل أن يلحق به هكتور حال أخيل بينهما ، وأصبح الموت أقرب اليه من حبل الوريد ؛ وتلفت ابن پريام يبحث عن أخيه ديفوبوس فلم يعثر له على أثر ، فصاح من الوجل يقول : « ياديفوبوس ! ياديفوبوس ! أغثنى ياديفوبوس ! أدركنى ياديفوبوس ! هات لى رمحاً ياديفوبوس ... ... »

بيد أن ديفوبوس لم يغثه ولم يدركه ولم يحضر له رمحاً ، وبدت له مينرڤا وهى تبتسم ابتسامة خبيثة زلزلت أركان هكتور ، الذى فطن إلى الحيلة التى دخلت عليه ، فقال يخاطب الربة الساخرة ، وهو يكاد ينشق من الغيظ : « يا للسماء ! أهكذا تخاتل الآلهة ، فتقضى عوتى فى معركة لا أحمل فيها سلاحاً ... ولكنى سأقاومك يا ابن پليوس ، فإذا سقطت فلن يكون لك فى ذلك فضل ولا محمدة ، واذهب من بعدها فصل للخاتلة التى نصرتك وآزرتك . . . »

وامتشق المسكين سيفه ، ولكن ماذا يصنع الجراز البتار فى ملحمة لا يقطر الموت فيها إلا على أسنة الرماح ! . . .

لقد انقض أخيل على فخر طروادة وأملها المذخور فعاجله بشكة من رمحه الظامئ نفذت فى عنقه ، وهوت به إلى أديم الأرض المقدسة التى يا طالما دافع عنها مع جنوده البواسل الكرماء . . .

... « هكتور ! اليوم شفيت حزنى الممض على پتروكلوس ... واليوم تذهب روحك إلى ظلمات هيدز غير كريمة ولا محمدة .. يا كلب طروادة المذءوم ! ! كم كنت تمنى نفسك لو تظفر بى فتنبذ جثتى بالعراء لوحوش طروادة وجوارح طيرها . . . ألا فحدث نفسك الآن ماذا صنع القدر بك . . . ! »

ويتهدج هكتور قائلاً : « أخيل ! يا ابن پليوس العظيم ! استقسمك برأسك الرفيع ، وأبويك الحبيبين ، ألا تأخذ جثتى فتنبذها للكلاب ، وتعفر جبينى الحر بثرى المذلة بين أصحابك ، وحسبك أن الآلهة قد أظفرتك بى ، وأن المقادير السوداء قد أفلتتك على »

فيقول أخيل ، وقد زهاه النصر على ألد خصمائه : « اطمئن يا هكتور ، فكلابنا لا تستطيب إلا جزر الأبطال ، وستكون لها وليمة فاخرة . . . فو رأس أبيك لو ملأ لى بريام هذه الدنيا ذهباً على أن أخلى بينه وبينك ، ليعود بك إلى إليوم ، ما رضينا بك بديلاً . . . »

وتكون سكرة شديدة من سكرات الموت جاثمة فى صدر هكتور تعذبه وتضنيه ، فيتأنى قليلاً حتى تنجاب عنه الحشرجة ، ويفتح عينيه ويقول : « أخيل ؟ لا تغتر بما تم لك من نصر ؛ فباريس أخى سيقتص منك لى ؛ وسيرميك من أبراج طروادة بسهم يعجل بك إلىّ . . . فى هيدز . . . وثمة سنلتقى ! »

ويموت البطل . . .

وتنطوى صحيفة مجيدة من صحائف طروادة . بل تنطوى أنصع صفحاتها جميعاً ، بموت هكتور

يا عجباً ! !

هل كان كتاب الغيب مفتوحاً أمام هكتور يقرأ منه عند ما أنذر أخيل بسهم باريس ؟ !

***

وازدحم الميلانيون حول الجثة يطعنونها ويصلونها كلوماً عجزوا عن إيصالها إليها حية فأبوا إلا أن يصلوها بها ميتة ...

ونزل أخيل من عربته ، فانحنى على الجثة ، ونزع عنها تلك العدة المزرّدة التى نزعها هكتور عن جثة بتروكلوس . . . عدة أخيل ... فلن تكون بعد اليوم إلا لأخيل !

واستل ابن بليوس خنجره ، وأهوى على عَقِبَىْ هكتور نخرمهما ، وربط القدمين المزرّتين فى مؤخر عربته الحربية ، ثم ألهب جياده فهامت على وجوهها فى الساحة ، وطفقت تطوبها مثنى وثلاث حول إليوم ، والرأس العظيم يتمرغ بثرى المعمعة الذاهلة ، والطرواديون فوق الأسوار ينظرون ولا يحيرون ... إلا هذا الملك الشيخ ... بريام الذهول ... الذى راح يملأ الفضاء أنيناً موجعاً ، وشجواً مفزعاً ، ... وإلا هذه الأم الرؤم ... هكيوبا الملكة ... التى راحت تحثو التراب فوق رأسها ، وتتقلب فوق الأرض كالطائر المذبوح ...

أما أندروماك ... فلها السماء ... ولها الآلهة ! !

لقد كانت تضفر أفواف الزهر للقاء هكتور ، وترشق الورود فى أرائك المخدع ، وتمد الحمام الساخن لتغسل ثرى الميدان ... ولم تكن تفكر قط إلا فى عودة البطل مخضّب الذيل بدماء الأعداء ...

ولكنها سمعت لغطاً وضوضاء يرتفعان فجأة خارج القصر ... وكأن هاتفاً من السماء هتف بها أن تخرج لتستجلى النبأ ... ولكنها أيضاً شعرت بقوة خفية تدفعها إلى البوابة الأسكائية ... حيث وقف بريام يبكى ولده ... فما كادت تصل ثمة وتشهد هذا الجمع المحزون يذرى دموعه ... وما كادت تطل من شرفة البرج فترى إلى هكتور مربوطاً فى عربة أخيل ، وأخيل الجبار يطوى به الساحة ، ويذرع به الميدان ... حتى وجفت نفس الزوجة البائسة ، وخرت إلى الأرض مغشياً عليها ...

***

وأفاقت أندروماك التاعسة ...

وطفقت تبكى زوجها وترثيه بالدم

وظفقت نفسها تساقط عليه أنفساً ! ؟

لها بقية — دريني خشبة

حادث انتحار

بقلم حسين شوقي

عند ما دقت الساعة الثانية صباحا ، كانت بار « الدب الأبيض » خالياً من خدمه ورواده ، عدا رجلين : أدولف الخمار الشيخ الذي ذهب إلى داخل المحل لتصفية حسابات اليوم ، وشاب جلس في ركن منزو يشرب ويكتب ؛ ولم تمض فترة قصيرة على انزواء أدولف حتى سمع دوى رصاص في البار ، فعاد مهرولا ، فوجد الشاب قتيلاً على كرسيه ، قتل نفسه بمسدس كان لا يزال بيده اليمنى ... لمسه أدولف فوجده قد مات من فوره ، بينما السيجارة التي كان يدخنها لا تزال مشتعلة .. وقف أدولف في حيرة من أمره ، ثم أخذ يصخب ويلعن ، ثم جعل يخاطب نفسه قائلاً : ألم يكن الأجدر بهذا الأبله أن ينتحر في بيته ؟

علام إزعاج الخلق هكذا ؟

ثم فكر أدولف متحسراً في النوم الذي لن يذوقه الليلة . إذ عليه أعمال كثيرة ... إخطار البوليس بالحادث ، وانتظار التحقيق القضائي الذي سوف يدوم ساعات ... وعلى رغم هذا شعر أدولف بشيء من العطف عند ما نظر ثانية إلى وجه القتيل لأنه كان شاباً بين العشرين والخامسة والعشرين ، ثم تنهد قائلاً :

إنه لم يحن أوان موته بعد !

إن الشباب يجلب العطف دائماً ، وبخاصة من جانب الذين فقدوه أمثال أدولف ، أو من جانب الذين فقدوا أشخاصا يعزونهم ماتوا في ميعة الصبا ، أمثال أدولف أيضاً ، الذي فقد في العام الماضي ابنة لم تبلغ العشرين بعد ...

وبعد أن أخطر أدولف البوليس بالحادث رجع عند الجثة ، ثم أخذ يحدق في وجه القتيل : إنه لا يعرفه أبداً ، فلقد كانت هذه زيارته الأولى للبار ... ثم رأى أدولف ورقة مكتوبة أمام الشاب فتناولها مدفوعاً بحب الاستطلاع ، فقرأ ما يأتي :

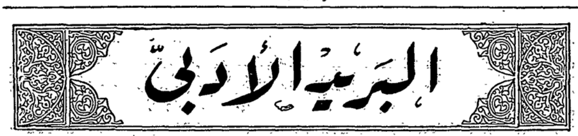
الموقع على هذا (س) . المولود في . . والمقيم في . . يقدم اعتذاره إلى صاحب بار الدب الأبيض من القلق الذي سيسببه له بعمله هذا . إن (س) يأسف لأنه لم يستطع أن ينتحر في بيته كما كانت تقضي بذلك اللياقة ، لأن صاحبة الفندق الذي يقيم فيه سيدة عجوز مريضة بالقلب ، فأي انفعال يقضي عليها ؛ وإذا كان (س) قد اختار البار لفعلته ، فلكي يستطيع أن يتناول بضعة أقداح من « الويسكي » تنعشه في رحلته الطويلة المظلمة . . ومع ذلك فان (س) واثق من أن هذا الحادث سوف يعوض لصاحب البار ما أصابه من ضرر ، بما يهيئه له الإعلان الذي يعمله هذا الانتحار للمحل . . إن (س) لا يأسف كثيراً على مفارقة الحياة لأنه لم يعد يملك شيئا ، والحياة بلا مال ، أمر في نظره من جرعة ملح . . ثم (س) فوق ذلك لا يثق بالمستقبل ، ولا بنفسه ، فهو يعلم أنه لا شيء ، وأنه لن يصير في يوم من الأيام رجلا مثريا . . ومع ذلك فان (س) لم يخلف ديوناً . . بل لا يزال في حجرته بالفندق بضعة جنيهات ، وهو يهديها الى جمعية الرفق بالحيوان ، لأنه لا يحب أن يخلف شيئاً لبني جنسه ، إذ هو يحتقر الطبيعة البشرية ، ولا يستثني منها نفسه . . إذ لم يكن ملاكا في الحياة الدنيا ، بل كان كغيره مخادعاً . . بل (س) يأسف لأنه لم يحسن الخداع في الحياة ، لأن الحياة في نظره كلعبة « البوكر » لا يربح فيها إلا البارع في الخداع . .

ومن الأسباب القوية لانتحار س أيضاً ، أن ضميره لم يكن مستريحاً ، فقد كان سببا في وفاة فتاة في العام الماضي في ريعان الصبا ، ماتت كمداً لأنه وعدها بالزواج ولكنه لم يف بوعده ، لأنه فقير لا يستطيع أن يتزوج ، وهو لا يعترف بالحب مع البؤس . كم ود (س) أن يتناسى هذا الحادث ! ولكن ماذا يفعل في ذلك الشيطان الصغير الذي يقطن داخل جسدنا والذي أخذ ينغص عليه الحياة من أجل هذا الحادث ؟ ... لهذا نجد (س) غير نادم كثيراً على مفارقة الحياة ... وبهذه المناسبة يطلب (س) الصفح من هيلانة (وهو اسم الفتاة) ...

ولكن أدولف الخمار لم يكمل قراءة الورقة ، بل قذف بها صارخا : آه من الوغد ! مسكينة هيلانة !

فلقد كانت هذه الفتاة ابنته . .

حسين شوقي



كتاب عن التاريخ الحبشي

وهذا أيضاً كتاب جديد عن الحبشة . والحبشة ومسائلها ومصايرها تثير اليوم أعظم الاهتمام والعطف . وقد صدرت عن الحبشة في الآونة الأخيرة كتب ومؤلفات عديدة أشرنا إلى بعضها في هذا المكان من «الرسالة» . واليوم نشير الى مؤلف قيم جديد هو تاريخ الحبشة بقلم الأستاذ جونس والسيدة مونرو Abyssinian History ؛ وهو عرض قيم جدا لتاريخ الحبشة منذ أقدم العصور الى الآونة الحاضرة ؛ ويمهد المؤلفان بوصف شائق للحبشة وشعوبها وأصولها ؛ ويتلو ذلك الحديث عن عصر الأساطير في التاريخ الحبشي ، وهو حديث يدعمه التدليل التاريخي ؛ «كان ملوك الحبشة حتى القرن الرابع من الميلاد وثنيين ، يرجعون أصلهم إلى «مهرم» وهو إله الحرب . أما أسطورة ملكة سبأ فقد نشأت بعد القرن السادس ؛ ومن المرجح أنها نشأت في العصور المظلمة التي تلت قيام الاسلام في جزيرة العرب . وحرمت الحبشة من الاتصال بالعالم النصراني »

وقد اعتنقت الحبشة النصرانية في القرن الرابع ؛ وكان ملوك الحبشة يومئذ يعيشون في بذخ همجي ، وما زالت مسلات اكسوم تدل على ذلك العصر . وفي «عصر الحبشة المظلم» وهو الذي يعرضه القسم الثاني من الكتاب ، احتل العرب والمسلمون شواطئ البحر الأحمر وسحقوا حركة القرصان الأحباش ، وقطعوا الحبشة عن العالم الخارجي ، وفي ذلك العصر ازدهرت أسرة «زاجوي» واستمرت في الملك حتى سنة ١٢٧٠ م ، ثم عادت الأسرة السليمانية التي تزعم أنها سليلة ملكة سبأ وسليمان . وبدأ تاريخ الحبشة الحديث ؛ وكان للحبشة ديوان تحقيق (محكمة تفتيش) تطارد الملاحدة ورئيسها زرعة ابن يعقوب

ويتناول القسم الثالث من الكتاب أسطورة «القس چون» وسفارة البرتغال ، ووصف السفير البرتغالي الفارز للحبشة يومئذ (سنة ١٥٢٠) وهو أدق وأقيم وصف لحالة الحبشة في أوج مجدها وحضارتها قبل أن تنحدر إلى عصر من الضعف والفوضى . وكان ملك الحبشة يعيش يومئذ في معسكر متنقل وليس له عاصمة ثابتة ؛ وقد انتهت هذه السفارة الشهيرة بتنازل الامبراطور عن مصوع للبرتغال نظير توريد السلاح وإرسال الأطباء ؛ ولكن النتائج المرغوبة لم تتحق لأن الترك عبروا البحر الأحمر يومئذ ، وغزوا الحبشة ؛ ولكنه غزو لم يطل أمده ؛ ووقعت الحبشة في عصر من الفوضى

ويتناول القسم الرابع عصر «العزلة والفوضى» ثم يتناول القسم الخامس تاريخ الحبشة الحديث ، ونزاع الأمراء على العرش وظهور طلائع الاستعمار الأوربي ، وحملة السير نابيير وانتحار الامبراطور تيودور ؛ ويتناول القسم السادس والأخير مسألة النزاع الايطالي الحبشي في سنة ١٩٣٥ ، وتطوراتها المختلفة حتى أغسطس الماضي

وقد كتب الكتاب بأسلوب سلس قوي يحفز القارئ ؛ والكتاب قيم مدعم بالوثائق التاريخية ، ويعتبر من أنفس ما كتب عن الحبشة في الآونة الأخيرة

كتب بالمزاد !

أذيع أخيراً في القاهرة نبأ بيع مكتبة فخمة لأحد الكبراء ، تحتوي على طائفة كبيرة من المجموعات والكتب القيمة ؛ والمطبوعات النادرة ، وكان البيع بالمزاد طبعاً ، فهرع إلى مكانه حشد من العلماء وهواة الكتب والآثار النادرة ، وبيعت في اليوم الأول طائفة حسنة من الكتب والمجموعات ، ولكن لوحظ أنها بيعت بالأخص لجماعة من الهواة الذين يأسرهم جمال الطبع والرونق قبل أن تغريهم البواعث العلمية ؛ ورأى الحاضرون من العلماء والخبراء الذين يعرفون قيمة الكتب ويحسنون تقدير أثمانها أنهم لا يستطيعون الشراء في هذا الجو

الشيخ يتنافس الهواة ، فلم يشتروا سوى القليل . ذلك أن قليلاً جداً من الكتب المعروضة بيع بثمن المثل أو أقل قليلاً ، ولكن معظمها رسا بأثمان فاحشة كانت تصل أحياناً إلى أضعاف القيمة الحقيقية ؛ وكانت ثمة عوامل وأصوات مريبة تتدخل في المزايدة في ظروف ووقفات خاصة ، فترفع الأثمان بنسب مدهشة حتى يتقدم أحد الفرائس من الهواة فيأتي عليه البيع المنشود .

وبعد أيام قلائل كان بيع القسم الثاني من هذه المكتبة الشهيرة ؛ فكان أول ما لوحظ أن معظم الذين حضروا في الدفعة الأولى لم يحضروا هذه المرة ، ألم يتضح لهم الحقيقة بعد أن غادروا قاعة المزاد ، وتساءلوا عن القيم الحقيقية للكتب التي اشتروها في هذا الجو المكهرب ؟ وكان قد عرف خلال ذلك أن المكتبة المعروضة ليست لكبير ولا وزير وإنما هي ملك لأحد تجار الكتب المعروفين الذين أزعجتهم الأزمة ، فعمد إلى تصريف كتبه بهذه الوسيلة ، وفي هذه الجلسة أيضاً ازدادت العوامل المريبة والمصطنعة ظهوراً ، وتصاعدت أثمان الكتب المعروضة إلى نسب فاحشة حتى أن كثيراً منها كان يباع بأضعاف ثمنه جديداً ، وزاد يقين العارفين بأنهم يجلسون في شرك منصوب ؛ ولكن حدث كما حدث في الجلسة الأولى أن توالى سقوط الهواة في هذا الشرك

ولقد كان درساً لمن حدثته نفسه بالظفر بنصيبه من هذا الكنز بالوسائل والأثمان المشروعة ؛ وكانت خيبة أمل ، ولكن الحقيقة ظهرت ناصعة ، وهي أن شراء الكتب بالمزايدة وسيلة لا تصلح للعلماء ، وأن المزايدة (ولا سيما في مصر) ليست دائماً وسيلة شريفة للتعامل . فحذار أن تشتروا الكتب بالمزايدات !

وفاة مؤلف موسيقي شهير

من أنباء النمسا أن المؤلف الموسيقي الشهير ماكس فون أوبرليتنر قد توفي في الثامنة والستين من عمره ، فاختفى بوفاته أحد أساطين المدرسة الموسيقية القديمة ، التي ازدهرت في أواخر أيام الامبراطورية ، وما زالت آثارها تخلب ألباب الشعب النمسوي .

وقد تفرغ ماكس فون أوبرليتنر منذ شبابه للتأليف للأوبرا ، وأحرز في هذا الميدان نجاحاً باهراً ؛ وبزغ نجمه في سنة ١٩١٢ حيث لحنت قطعته الشهيرة « افروديتي » وعزفت في الأوبرا الامبراطورية بفينا ، وغنتها يومئذ فتاة موهوبة كانت في مستهل حياتها الفنية وهي ماريا يرتزا التي تتبوأ اليوم مقاماً فنياً سامياً في نيويورك وتعتبر أشهر مغنية في أمريكا . وفي سنة ١٩١٦ عزفت قطعته « المسيح الحديدي » « Die eiserne Heiland » في « الأوبرا الشعبية » ، فأحرزت نجاحاً باهراً ، ثم عزفت بعد ذلك في عدة مسارح شهيرة نمسوية وألمانية ، وانتهت إلى دار الأوبرا ؛ ووضع فون أوبرليتنر بعد ذلك عدة مقطوعات وأوبرات كانت دائماً موضع التقدير والاعجاب

مدينة دولية للفنانين والكتاب

تألفت منذ حين في باريس جمعية اسمها « جمعية المدينة الدولية للفنون والتفكير » برئاسة مسيو جبرائيل بوامي الكاتب الشهير ورئيس تحرير مجلة « كوميديا » الكبرى ؛ وقد صرح رئيس هذه الجمعية أخيراً بأن الغرض من تأسيس هذه الجمعية هو السعي في إنشاء « مدينة دولية » بالقرب من محطة مونبارناس ، يخصص سكناها للعلماء والفنانين من جميع البلدان ، وإن الجمعية تعلق أكبر الأهمية على الآثار المادية والمعنوية التي تترتب على تنفيذ مثل هذا المشروع الجليل . ومن المعروف أن الحي الذي تختاره الجمعية لانشاء المدينة الجديدة ، وهو حي مونبارناس ، هو حي الفنون والآداب منذ بعيد ، وله تقاليد فنية وأدبية مؤثلة ، وقد بزغ فيه نجم مئات من الكتاب والفنانين ، الذين تغص بهم دائماً ربوعه ومقاهيه

المعهد الامبراطوري ومهامه

يذكر القراء تلك الأحاديث الشائقة التي ألقاها وزير الخارجية البريطانية وبعض أكابر الساسة أمام عصبة الأمم عن توزيع المواد الخام ووجوب توزيعها بين الدول الكبرى بنسب أكثر عدالة ، وذلك لمناسبة النزاع القائم على توزيع المستعمرات واستئثار انكلترا بأعظم نصيب منها . وقد وقعت في بعض الصحف على معلومات هامة عن المعهد الامبراطوري الذي يعتبر في انكلترا قلب الاستعمار النابض ، والذي يسهر على مصاير المواد الأولية في جميع أنحاء العالم ؛ فهذا المعهد قد أسس للعمل على تنمية الاستغلال الصناعي والاستفادة من المواد الأولية المختلفة ، وجمع الاحصاءات والبيانات الاستعمارية اللازمة ؛ وقد زود المعهد بمعامل للأبحاث الكيميائية والفنية لبحث المواد الأولية وتعيين قيمتها ومدى الانتفاع بها ووضع التقارير الفنية عنها . ويصدر المعهد نشرات فنية محققة عن مختلف المواد الأولية وعلاقاتها بالصناعة ، ومدى تقدم الاستغلال الاستعماري في ميادين الزراعة والمعارف وغيرها ، ويعنى عناية خاصة بدرس المواد الأولية في الهند البريطانية والمستعمرات والأملاك المستقلة



٤ – تاريخ الإسلام السياسي

تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن

موضوع الكتاب، الثقافة الإسلامية، خاتمة

لأستاذ كبير

لست أدري لم قصر مؤلف «تاريخ الاسلام السياسي» وصف كتابه على «السياسي» فحسب، مع أنه عرض لنواح شتى من الحياة الاسلامية القديمة: عرض لنواحي الدين، والسياسة، والاجتماع، والعقل، والأدب. فبينا تقرأ له فصلا في حكمة تشريع القبلة، إذا بك تنتقل إلى فصل آخر موضوعه فتح عمرو بن العاص مصر؛ وبينا تقرأ له فصولا في عقائد الفرق الاسلامية القديمة ومذاهبها، إذا بك تقرأ له كلاماً في حال المرأة المسلمة في العصر القديم، ثم إذا بك تنتقل بعد إلى كلام مطول في صناعتي الشعر والنثر في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين

أو ما كان أولى بالمؤلف أن يقدر هذه الزوايا قدرها، فيصوغ عنوان كتابه بحيث يدل عليها كلها مقتدياً في ذلك بالسيد أمير علي حين سمى كتابه الذي يعرفه المؤلف حق المعرفة «موجز تاريخ العرب». لا شك أن الصفة السياسية الصحيحة، كما يعرفها علماء التاريخ والعارفون بأصول علم السياسة، ليست أبرز نواحي الكتاب، وقد تكون عند التحقيق من أضعف نواحيه. ولكن من يدري؟ فلعل المؤلف قد لحظ هذه الحقيقة فنعت كتابه بأضعف صفاته تواضعاً منه! وإن كان التواضع خلة قلما يدل عليها كتابه. أو لعل له غرضاً آخر يعرفه ولا نعرفه

والحق أن المؤلف أقدم على تأليف كتابه وليس له غرض واضح محدود يرمي اليه ويسير على هديه، إلا أن يكون كتابة تاريخ عام للاسلام من الطراز المألوف وهو ما لا يدل عليه عنوان الكتاب. وغموض الغرض الحقيقي أو انتفاؤه بالمرة أضر بالكتاب من عدة وجوه. فمن جهة أحال الكتاب كتلة ضخمة من الأخبار والحوادث المتعلقة بعصر معين، قد جمعت من هنا وهنا، ثم حشدت حشداً، وأزجيت على الورق إزجاء، فاقدة الوحدة المعنوية، والاتصال الذاتي، اللذين يكسبانها الروح والحياة والحركة. ومن جهة ثانية فان غموض الغرض قد لبس على المؤلف أمره، وجعله يضطرب بين طرائق المؤرخ المحقق، والمحامي المنافح عن الدين، والواعظ المبشر بالاسلام، والراد لشبهات المبشرين وتعسفات المستشرقين؛ فعدل في كثير من المواطن عما يحسن، وتكلف ما لا يحسن، وما ليس من شأنه من حيث هو مؤرخ فحسب. ومن جهة ثالثة فان نشاط المؤلف وعنايته لم يوزع على أجزاء الكتاب توزيعاً يتكافأ وأقدارها من الوجهة التاريخية البحتة، فتشريع القبلة وحكمته يظفران بثلاث صفحات، في حين أن غزوة بدر التي تعتبر بحق أهم وقائع الإسلام، ومن وقائع التاريخ الفاصلة، لا تكاد تظفر بصفحة واحدة! وأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك تخص بصفحتين، في حين أن الأحداث الجسام التي وقعت زمن الخليفة يزيد ابن الوليد بن عبد الملك تركز وتضغط في أسطر قلائل!

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الابل

***

ومن الأمور التي أثرت في كتاب «تاريخ الاسلام السياسي» وقعدت به عن رتبة الجودة ما يدل عليه الكتاب نفسه من عدم وفور حظ المؤلف من الثقافة الاسلامية الصحيحة، والمطلع على الكتاب يرى أن المؤلف يحاول جهده أن يكتم هذا الضعف، ويستره بطلاء براق من الاقتباسات العربية الكثيرة التي يطالعك بها في كل صفحة، لكن هذه المحاولة لا تروج حتى على من يقرأ الكتاب قراءة عجلى. فان اللحن والتحريف الفاشيين في الكتاب واللذين أعرضنا عن تتبعهما اختصاراً للقول، وتوخياً لصميم الموضوع، وإن المآخذ التي سردنا بعضها في بحوثنا الماضية، نقول إن ذلك كله كفيل باثبات أن المؤلف غير موفور الثقافة

الاسلامية . وقد أداه تفريطه فى جانب الثقافة الإسلامية إلى الافراط فى الأخذ عن المصادر الأجنبية ، فخرج كتابه حائل الصبغة ، حائراً بين العروبة والفرنجة ، لا ينتمى إلى واحدة منهما انتماء صحيحاً

والحق أن التاريخ الاسلامى من أشق فروع التاريخ مطلباً وأوعرها مذهباً ، فهو تاريخ عالم بأسره ؛ لا مجرد تاريخ اقليم معين أو أمة بعينها . وهو تاريخ عصور متطاولة تقرب من أربعة عشر قرناً ، ثم هو تاريخ تختلط فيه الأحداث ، والنظم ، والآراء ، والمذاهب اختلاطاً عجيباً ، فاذا ما أريد تصنيفها وإفراد كل منها على حدته ، وسوقه فى مساقه الخاص ، اقتضى ذلك من الجهد والعناء الشيء الكثير . والمعانى لدراسته يحتاج الى وفور حظه من الثقافتين التاريخيتين العامة والاسلامية ، فان لم يفعل كان كمن يغشى الهيجاء بيد عزلاء ، أو يتقحم المجاهل برجل عرجاء . من أجل ذلك لم ينهض بعد التاريخ الاسلامى فى الشرق نهضته المستقلة المنشودة : مع أن التاريخ سجل أحداثه ، وديوان مجده وفخاره ، فهو لا يزال قصصاً يقص ، وسيراً ساذجة تتلى . أما روح الجماعات ، وأثر البيئة والتقاليد ، وعمل المبادئ والعقائد ، والقوى الاجتماعية والاقتصادية المختلفة ، فتلك كلها لا تزال فى العربية أسراراً لم ترفع عنها الحجب . وقد يعتذر بعضهم عن هذه الحال بأن العوامل المذكورة ليست عند الشرقيين فى مثل قوتها عند غيرهم ولكن الأمر هنا ليس أمر قوة وضعف ، فهى موجودة على كل حال ، والطبيعة البشرية واحدة ، والناس هم الناس سواء أكانوا فى شرق أم فى غرب . ولو أنصف أولئك المعتذرون لقالوا إن الذى يحول دون نمو الروح التاريخى الصحيح فى الشرق هو ما يعترض الباحث من وعورة المسلك ، وبعد الشقة ، وصعوبة المنال

* * *

وبعد فقد آن أن نختم هذه الفصول التى لم يدفعنا إلى تسطيرها إلا ما أشرت إليه فى كلمتى الأولى من توخى المصلحة العامة قبل كل شيء ، فلعلى أكون قد وفقت فيما قصدت إليه

ونصيحتى الأخيرة للدكتور مؤلف « تاريخ الإســـلام السياسى » أنه إذا أسعده الحظ فأعاد طبع كتابه ، ينبغى أن يعيد النظر فى كل فصل من فصوله ، وصفحة من صفحاته ، فيصحح الخطأ ، ويقيم المعوج ، وأنه عند ما يتولى إصدار الأجزاء الباقية ينبغى أن يكون أشد تحفظاً ، وأكثر تثبتاً ، فالناس لا يسألون عادة عن مقدار الزمن الذى ينفق فى عمل من الأعمال ، بمقدار ما يسألون عن حظ هذا العمل من التجويد والاتقان

بقى أن أبرأ إليه مما عسى أن يكون القلم قد ناله به فى هذه الكلمات من لفظ خشن ، أو عبارة قارسة ، فان ذلك مما قد يحمل عليه مجرد الغضب للحق . أما المآخذ العلمية فلا حيلة لى فيها ، وقديماً قالوا : « لا يزال الرجل فى فسحة من عقله مالم يقل شعراً أو يؤلف كتاباً » ، وقد ألف الدكتور كتاباً ، وسمع فيه مديحاً عاطراً كيل جزافاً ، فمن الحق عليه أن يسمع إلى جانب ذلك صوت النقد يكال بقدر وحساب ما ؟

(انتهى) مؤرخ

3me Année, No. 130.

Lundi-30 12-1935

بدل الاشتراك عن سنة

مص

٦٠ فى مصر والسودان

٨٠ فى الأقطار العربية

١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى

١٢٠ فى العراق بالبريد السريع

١ ثمن العدد الواحد

الأعلانات يتفق عليها مع الادارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها

ورئيس تحريرها المسئول

احمد حسن الزيات

الادارة

بشارع المبدولى رقم ٣٢

عابدين — القاهرة

تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ١٣٠ « القاهرة فى يوم الاثنين ٤ شوال سنة ١٣٥٤ — ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٥ » السنة الثالثة

أبو الطيب المتنبي

بمناسبة ذكراه الألف

— ٢ —

وُلد أبو الطيب فى دُرور القرن الرابع عظيما بالاستعداد، قويا بالنشأة، طموحا بالفطرة؛ فلا تحاول أن ترجع هذه الصفات فيه إلى أحوال داعية وأسباب موجبة، فان إعجاز القدرة أن يُولد الملك فى حجر السوقة، ويدرج العبقرى فى عش القدم، ويظهر النبى فى بيت الشرك؛ إنما العظمة خلقةٌ فى العظيم، تقويها عوامل وتضعفها عوامل؛ فولادة المتنبي بالكوفة، وتجوله فى البادية، وتنقله فى القبائل، وكدحه الدائب أربعاً وثلاثين سنة وراء الرزق الشرود، يضرب من أفق إلى أفق، ويخرج من هول إلى هول، نمّت فيه أخلاق الجرأة والصراحة والصدق والصبر والمغامرة والتّسَن؛ واتصاله بسيف الدولة الأديب الشجاع السَّمح، هذب فيه الشاعرية والفروسية، وهاغريزتا البداوة، وخصيصتا العروبة؛ ثم ظهوره فى العصر الذى تحللت فيه روابط الخلافة، وتمددت خواصر الأدب، وتطاولت

فهرس العــــدد

كفايات السيف والقلم إلى العروش المقدسة والمناصب الفخمة ، وأثمر تداخل الثقافات المختلفة بما أثمر من شمول العلم ، ونضوج العقل ، واعتراض الشكوك ، وتمدد الفرق ، وسع في ذهنه أفق المعرفة ، وقوى في نفسه الطموح إلى الرياسة ، وهيج في رأسه الثورة على القدر ، وأراه بعض الكتاب في بغداد يصل بالأدب إلى الوزارة ، وبعض العبيد في مصر يصل بالحيلة إلى الامارة ، فطوّع له رأيه في نفسه أن يبايع لها بالملك ، ثم أخذها بسمت الملوك ، وألزمها شارة الخاصة ، وعاشر الدهاة مباشرة الأنوف المشكرة ، وساير الرؤساء مسايرة القريم الحاقد ، وسخر قوته وعبقريته في طلب هذا (الحق) وتحقيق هذا المطلب ، حتى ملأ الدنيا بذكره ، وشغل الناس بأمره .

* * *

المتنبي في كتاب الأدب العربي فصل قائم بذاته ؛ لأن حياته التي اختلفت عليها العوامل ، وازدحمت فيها الأحداث ، واعتركت بها الآمال ، وفاضت منها التجارب ، أمكنته من نوع جديد في الشعر يتسم بالتفكير الحي ، والابتكار الجرىء ، والأداء الحر ، فأقبل عليه عشاق الأدب وطلاب الشهرة من ذوي السلطان في خراسان والعراق والشام ومصر ، يتسابقون الى وده ، ويتنافسون في رضاه ، وربما توسل بعضهم بالشفاعة ليخطبه في حبله ، وجلس أحدهم بين يديه ليسمع مدحه فيه ، وهو يتصون عن مدح السوقة ، ويتكرم عن موقف الشاعر ؛ فسعى اليه الرؤساء المحرومون بالمداوة ، واجتمع عليه الشعراء المغمورون بالحسد ، وتعاون هؤلاء وأولئك على تعقب سقطاته وجحود فضله ؛ فكان من أثر الكتب التي ألفت في نقده ، والقصائد التي قيلت في هجوه ، والخصومة الأدبية التي أثيرت من حوله ، والحركة الذهنية التي نشأت من شعره ، أن سار ذكره مسير الشمس ، وصار شعره سجل الخلود ، وغدا مدحه مطمح الملوك ، وأصبح أدبه وما اتصل به من النقود والشروح مكتبة !

* * *

عقلية المتنبي عقلية بدوية خالصة : تتعلق بالحس أكثر من تعلقها بالمعنى ، وتعتمد بالواقع أكثر من اعتدادها بالخيال ، وتعتمد على القوة أكثر من اعتمادها على الحيلة . لذلك كان ذهول الصوفية نابياً في عقله ، وشعور الجمال خابياً في قلبه ، وأثر الدين ضعيفاً في حياته ؛ ثم كانت فلسفته حاجة الدنيا ، وخطته سنة الطبيعة ، وفكرته صورة الواقع ، وغايته غاية الرجل الطامح : شخصيته تبغي الظهور ، وشهوته ترغب المال ، وحيويته تطالب الغلب ، وعظمته تريد الحكم ؛ لذلك كان أخص مايميزه بروز شخصيته في شعره ، وصدق ايمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تمييزه عن طبائع النفس ومشاغل الناس وأغراض الحياة .

* * *

عبقرية أبي الطيب سبّاحة الجناح ، لماحة الطرف ، مبسوطة الأفق ؛ ولكنه قيدها بالمادة وحصرها فيما تدور عليه من كاذب المدح ولاذع الهجاء ، فقرت قرار الطائر الحبيس ، تخافت بالأغاريد الزورة على طبيعتها ، وتكابد الشوق الملح إلى الهواء والسماء والروض ؛ ثم تفلت أحيانا من ربقة القيد فتحلق في سماء الالهام وتهتف بالمعجز من قلائد الحكم وشوارد الأمثال وطرائف الذهن ، حتى في الأغراض المبتذلة والمواقف الوضيعة

وهكذا كانت قوى المتنبي ومواهبه مقهورة معذبة ! ولعله كان أقسى ما يكون على قريحته وعبقريته ! فقد أرادها على الابتكار في مدح لا يعتقده ، ووصف لا يحسه ، فجاءت معانيه في أمثال هذه الأغراض توليداً من عقله ، لا نقلا عن شعوره ؛ ومن ثم كثر فيها الاغراق لقيامها على الدعاوى المرسلة ، والغموض لانتزاعها من الخوالج المبهمة ، والتناقض لتعبيرها عن غير كائن ، والتشابه لتفصيلها على غير معين

أما فيما يشعر به كالهجاء والعتاب والنقد والفخر والشكوى ، فسيل لا يحجزه سد ، وبحر لا يحصره ساحل . وهو في تدفع السيل وعمق البحر وسعة العباب ، مثله في بطء الحركة واختلاج الأداء وضيق الفكرة : شخصية مفروضة على الذهن ، وروح شاعة على الاحساس ، وزفيف في الارتفاع والاسفاف يدل على جناح النسر !

والحق أن المتنبي شاعر القوة ، شاعر الحرب ، شاعر المغامرة ، شاعر المجد ! فلو كان سياسياً لكان مكيافللي ، أو قائداً لكان نابليون ، أو فيلسوفاً لكان نيتشه !

احمد حسن الزيات

وقع في المقال الماضي غلطتان : تبادى والصواب تبارى ، ويتأبى والصواب يتأبه

المجنون

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

تتمة

وطال المجلسُ بنا وبالمجنونين ، والكلامُ على أنحائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه ، ويمرُّ في معنىً الى معنى ؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجلها بين هذين المجنونين ، بعدما انطلقا فى القول وانفتح القُفل الموضوعُ على عقل كل منهما

وكان قد مرّ فى النديّ بائع روايات مترجمة « بوليسية وغرامية ولصوصية ! » يحمل الرجلُ منها مَزبَلةَ أخلاقٍ أوربية كاملة لينفضها فى نفوس الأحداث من فتياننا وفتياتنا ، فقلتُ (لنابغة القرن العشرين) : أتقرأ الروايات ؟ قال : لا ، إلا مرة واحدة ثم لم أعاود ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها

قلنا : هذا أعجب ما مرّ بنا منذ اليوم ، فكيف صرت رواية ؟

قال : أنتم لا تعرفون طبيعة النوابغ ، إذ ليس لكم حسهم المرهف ، ولا طبعُهم المستحكم ، ولا خصائصهم الغيبية ، ولا خواطرهم المتعلقة بما فوق الطبيعة . قلت : نعم أعرف ذلك ؛ وما من (نابغة) إلا وهو بين عالمين على طرَف مما هنا وطرفٍ مما هناك ، فهو خرّاجٌ ولاّجٌ بين العالمين ؛ وله نفسٌ مركبة تركيبها على نواميس معروفةٍ وأخرى مجهولة ، فهي تأخذ من الظاهر والباطن معاً ، ويحصرها المكانُ مرة ويُفلتها مرة ، وتكون أحياناً فى زمان الأرض ، وأحياناً فى زمن الكواكب من القمر فصاعدا ..... ولكن ....

فقطع عليّ وقال : أضف إلى ذلك أن هذه العقول التى تحصر من يسمونهم العقلاء فى الزمان والمكان ، لا تُوجِدُ أهلها إلا الهمومَ والأحزانَ والمطامع السافلة والأعمال الدنيئة ، فإنهم يعيشون فوق التراب

قلت : نعم ، وإذا عاشوا فوق التراب فباضطرارٍ أن تكون معانى التراب فوقهم وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم ، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً ترابياً فى كل معانيه ولكن ..

قال : وزد على ذلك أنهم مقيدون تقييدَ المجانين غير أن حبالهم وسلاسلهم عقلية غير منظورة ؛ وبتغليلهم تغليل المجانين يسمون أنفسهم عقلاء ، وأعقلهم أثقلهم قيودا ، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلت : نعم ، أما العقلاءُ بحقيقة العقل فهم الذين يضحكون على هؤلاء ويسخرون منهم ، إذ كانوا فى حالٍ كحال المنطلق من القيد ، وفى موضع كموضع المعافى من المبتلى . ولكن . . .

قال : وفوق هذا وذاك ، إنهم لا يملكون السعادة إذ ليس لهم العقلُ الضاحكُ الساخر العابثِ الذى خُصّ به النوابغُ وكان الأوحدُ فيه (نابغة القرن العشرين)

قلت : نعم ، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها ؛ أما (النوابغ) فقد لا يملكونها ولكن لا يفوتهم الشعورُ بها أبدا فيجيئهم الفرحُ من أسبابه ومن غير أسبابه ما دام العقلُ الضاحك الساخر العابث الذى دأبه أبدا أن ينسى ليضحك ، ولا قانون له إلا إرادةُ صاحبه ، على مشيئة صاحبه ، لمنفعة صاحبه . ولكن .. ..

قال : والذى هو أهمّ من كل ما سبق ؛ أن أعظم خصائص هذا العقل الضاحك الساخر العابث أن يطرد عن صاحبه ما لا يحبّ ويجنبه أن يخسر شيئاً من نفسه ، فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين فى المائة .. ..

قلت : نعم ، وهو دائماً كالطفل ؛ وما أظرف بلاهة الطفل وما أجداها عليه إذ يضع بلاهته دائماً فى أرواح الأشياء وأسرارها فتخرج بلهاء مثله ، وتنقلبُ له الدنيا كأنها أمٌّ تضاحك ابنها وتلاعبه . ولكن . . . .

قال : ولكن هذا مبلغ لا تبلغه الانسانية إلا شذوذاً فى أفرادها من جبابرة العقول (كنابغة القرن العشرين)

قلت : نعم ولكن كيف صار نابغة القرن العشرين روايةً حين قرأ الرواية !

قال : هذه نكتة النبوغ ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلنا يتلقّى فى نفسه وحي الأثير وإشارات الروح الأعظم ؛ لعلم من الغيب أن نابغة القرن العشرين سيقرأ روايته ، فكان يتحرّى معانى غير معانيه ويتوخى بهذه القصة وصفاً آخر لا تكون فيه

حبيبةٌ خائنة ، ولا لصٌ عارم ، ولا قاتل سفّاح ، ولا سجنٌ مظلم ، ولا محكمة تقول حيث وحيث … …

قلت : وما عليك من حبيبة خائنة في الورق ، ولص بين الحروف المطبعية ، وقاتل لا يقتل إلا كلاماً ، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض ؟

قال : هذه نكتة النبوغ ، فما استوعبت القصة حتى عمّرتني أشخاصها وأقحِمتُ منها على هول هائل ، فخانتني الخائنة لعنها الله . ولولا خوف السجن والمحكمة لقتلتها أشنع قِتلة ومثّلت بها أقبح تمثيل . ويْح الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويل العملاق المشبوح العظام المفتول العضل ؟ ولكني لست عملاقاً ولا مبنياً بناء الحائط ؛ ثم كان مجنوناً بشهواته جنون الفيل الهائج وكنت في شهواتي عاقلاً عقل الانسان ؛ ثم كان غنياً غنى الجهّال وكنت فقيراً فقر العلماء ؛ والنساء ؛ قبح الله النساء . إنهن زينةٌ تطلب زينة مثلها . وإن المرأة لتمنح وجهها للقرد يقبله إذا كان الذهب يتساقط من قبلاته . أما من كان مثلي أمواله الشباب والجمال أو العقل والنبوغ ؛ فهو مفلس عندهن إفلاس القرد في الغابة ، فهو عندهن قرد لهذه المشابهة

قلت : هذا ليس عجيباً فان اللغويين يجرون على الشيء اسم ما يقاربه في المعنى

قال المجنون الآخر : « مما حفظناه » أن اللغويين يجرون على الشيء اسم ما يقاربه في المعنى … …

فتربّد وجه (النابغة) غضباً وقال : أبي يلعب هذا المجنون ؟ إنه يزعم أن اللغويين يسمونني قرداً ، فهاتوا القواميس كلها وارجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة) … سوأة عليك أيها الصبيُّ المعثّر … ألا فدعوني أؤدبه أدب الصبيان فان اللطمة القوية على وجه الطفل المكابر في حقيقة ، تُلمِسهُ الحقيقة التي يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقرب طريق . . .

قال ا . ش : أنت قلت لا هو . على أنك لست قرداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متماجنة قد تضع البرذعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها ، فيُعجب الأمير أن يكون حمارها . ولست قرداً مع قرّاد إلى جانب عنز وكلب …

قال : الآن علمت السبب فان الخائنة كانت متخيلةً مؤلفة كتب وروايات ، والمرأة التي تؤلف الكتب ، غير بعيد أن تؤلف الرجل أيضاً ، وتجعله قصة فيها قرد … وهذا إن كانت جميلة كامرأة الرواية . أما إن كانت دميمة مجموعة من المتناقضات ، أو عجوزاً مجموعة من السنين ؛ فهذه وهذه كلٌّ أيامها كيوم الأحد عند النصارى … يوم للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة . هذه وهذه كلتاهما تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد . . . لا يشتعل ، فضلاً عن أن يستعر ، فضلاً عن أن يحترق

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا أحد وثيقتين : فأما جميلة ، فوجهها وثيقة بأن لها ديوناً على الرجال ؛ وإما غير جميلة ، فوجهها (مخالصة) من كل الديون …

قلنا : هذا في الخائنة . فكيف سرقك اللص ولست غنياً ؟

قال : هذه هي نكتة النبوغ ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها وليس في جهلها مضرةٌ على أحد ، وجهلٌ لا يضرّ هو علم لا ينفع ، لكنه علم . والبحث في بعض أعمال (النابغة) هو كالبحث عن سر الحياة فيه ، إذ يعمل أعماله تلك بسر الحياة لا بسر العقل ، أي بالعقل النابغ الخاصّ به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس .

***

قلت : ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات ولكنك مع ذلك تؤلفها …

قال : إن ذلك ليكون ، وإن لم أؤلفها أنا تألفت هي لي . فاذا تقدّم الليل ونام الناس جميعاً انتبهتُ أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئت أن أرى . وفي ضوء النهار أجِدُ الناس عقلاء ولكني في ظلمة الليل أبصرهم مجانين . فهذا الليل برهانُ الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضربٍ من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلت في نهارها ولا استقام لها أمر

يُصرَعُ الناس في الليل صرعة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً . أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يضجُّ بالضحك من الانسان الأحمق الذي يقطع سَراة نهاره وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف … أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنيك زئيره ؛ ادّعيت الدعوى المريضة وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه ، ولا تدرى في هذا أنك كالمعتوه إذا قبض على الظل بيده وصاح هاتوا الحبل

لأقيده لا يُفلت ... ؟

قلت : فاذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلا من الرواية

قال : أيما أحب اليكم ، أن أكتب أو أمثل ؟

قلنا : بل التمثيل أحبُّ الينا . فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إن المجنون في طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال ، كينبوع الماء يسحُّ الدفعة بعد الدفعة ، فهنا المسرح ، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون ...

* * *

أنت يا س . ع . عمُّ هذا المجنون ، فاذا قال لك يا عم . قل له أنا لست عمك ولكني أخو أبيك ... لننظر أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا ؛ فانه فرق عقلي دقيق تمتحن به المقول ...

تعال أيها المريض فاني أرجو أن يكون شفاؤك على يدى ، وفى يدى هذه لمسة من لمسات المسيح ، لأن (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين

اتقوا أن تغضبوه أو تخيفوه ، وأقيموا له كل مايحتاج اليه ، وتحروا مسرته دائما فان إدخال بعض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بعض العقل إلى رأسه . متى أنكرت يا س . ع عقل ابن أخيك وما كان السبب وكيف غُلب على عقله . وهل ا.ش. هو خاله أو أخو أمه ... ؟

لطف الله بك أيها المسكين . قل لي : أتتذكر أمس ؛ أتتذكر غداً ... إن الأمس والغد ساقطان جميعاً من حساب المجانين ؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تبدأ لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثي هموم الزمن فى العقلاء . وهم لا يصلحون أن ينفعوا الناس كالعقلاء ، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم فى الضحك والمرح والطرب ، وهذا حسبهم من النعمة عليهم

قل لى أيها المجنون : أتحسُّ أن الدنيا تصنع لك نفسك أم نفسك هى تصنع لك الدنيا ؟ إن هذه مسألة يحلها كل مجنون على طريقته الخاصة به ، فما هى طريقتك فى حلها ؟

مالك لا تجيب أيها الأبله ؟ (هذا من جهة ومن جهة) أعطوه قرشاً لينطلق لسانه ، وآتوا الطبيبَ أجره وافياً وهو لا يقل عن قرشين . . .

ثم مال (النابغة) على مجنون التقى وساره بشىء . فقلنا يا أمر المال بسر ؛ هذا قرش للمريض وهذان قرشان للطبيب .

فقال المجنون : « مما حفظناه » كفى بالسلامة داءً

قال الطبيب : هذا مريض بنوع من الجنون اسمه « مما حفظناه » وهو جنون النسيان الذى يضع فى مكان العقل كلمةً ثابتة لايتذكره إلابها ؛ ومن أعراضه جنونُ الشك فبكل ما حول المريض مشكوك فيه ، وقد يترامى إلى جنون اللمس ، فلو لمسته بأصبعك توهمها عقرباً نخاف من الاصبع تلمسُه خوفَه من العقرب تلدغه ، ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ، فليس هذا من مجانين العبقرية التى انحرفت عن طريقها أو شذّت فى قوتها ؛ ولا هو ممن يتجانُّ ويتحامقُ التماساً للرزق والعيش كما قال بعضهم : حماقةٌ تمولنى خير من عقل أعوله

فقال المجنون : « مما حفظناه » حماقة تمولني

فضحك (النابغة) وقال : هو كما بينتُ لكم مصاب بجنون (مما حفظناه) وهو أقل الجنون وأهونُه ، وعلاجه البسطُ والسرور والقرش ؛ والضربُ أحياناً . . . فاذا ثارَ عليه الداءُ تحول إلى جنون (مما ضربناه) . . . فيمتدى المصابُ على كل من يراه أو يوقع به ضرباً ، وعلاجه حينئذ القميص المرقوم [1] ؛ فاذا فدحتْ العلة انقلب المرض إلى جنون (مما قتلناه) . وعلاجه يومئذ السلاسل والأغلال

والحق أقول لكم إن آخر ما انتهت اليه فلسفة الطب فى القرن العشرين أن الناس جميعاً مجانين ولكن بعضهم أوفر قسطاً من بعض ، كأن سلبَ العقل هو أيضاً حظوظ كحظوظ موهبة العقل . وأهل المريخ من أجل ذلك يسمون الأرض بيمارستان الفلك

ولكن بقيت أشياء لا بد من التدقيق فى فحصها ؛ وعندى فى الدار عاطوسٌ إذا أشممتُه هذا المجنونَ عطسَ به عطسةً قوية تخرج جنونه من أنفه . . . قل لى أيها المسكين : أتخاف إذا سرتَ وحدك فى ميدان واسع كأن الميدان سيلتفُّ عليك ؟ أتضطرب إذا مشيت فى مضيق كأن المكان سينطبق عليك ؟ وإذا كنت فى عربة القطار فهل يخيل اليك أن البيمارستان قد جره القطار وانطلق به هارباً ؟ وهل شعرت مرة أنه أوحى إليك أن تنتحر ؟

أرنى هذا القرش الذى فى يدك . فمد إليه المجنون يده بالقرش

(١) القميص المرقوم قميص السجن يلبسه المسجون ويرقم عليه العدد الذى يسمى اليوم (النمرة) وقد كان هذا معروفاً فى التمدن الاسلامى

قال (النابغة) : أنظر الآن هل تحدثك نفسك أن تغصبني هذا القرش أو تسرقه مني ؟ قال : نعم

قال (النابغة) : إذن يجب أن أحرزه في جيبي ... وأسرع فأخفاه في جيبه

* * *

فصاح الآخر وشتم ، وقال سلبني ونهبني . قلنا لا ينبغي أن يتصل بينكما شر في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر ، ولكن أفي الفلسفة عند (النابغة) إباحة السرقة والغصب ؟ . . .

قال : فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو

قال لي ويحك يا أرسطو . أعلمت أن في المجانين أغنياء يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليست بهم حاجة إليه . فما علة ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون ؟ . .

أعجزت عن الجواب ؟ إذن فاعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحيلته ، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل بالشراء . بيد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقيلة وحيلته فيجيئه بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا . فهذا جنون باللذة لا بالسرقة وهو بذلك ضرب من العشق يجعل الشيء إذا لم يسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتنعة على عاشقها

والجياع إذا سرقوا ليأكلوا وعسكوا الرمق على أنفسهم ، لا يقال في لغة الفلسفة أنهم سرقوا بل أخذوا . . . فباضطرار جاعوا وباضطرار مثله أكلوا ، والسارق هنا هو الغني الذي منعهم الاحسان والمعونة . . .

فالدنيا معكوسة منقلبة أوضاعها يا أرسطو ، ولو استقامت هذه الأوضاع لوجدت السعادة في الأرض لأهل الأرض جميعاً . وكيف لك بالسعادة والناس مخلوقون بعيوبهم ؟ ويا ليتهم مخلوقون بعيوبهم فقط ، ولكن الطامة الكبرى أن عيوبهم تعمل دائماً على أن ترى في الآخرين عيوباً مثلها

كل حمار فهو يريد أن علأ جوفه تبناً وفولاً وشميراً ، غير أني لم أر حماراً قط يريد أن علأ لنفسه الاصطبل ، فاذا وجد حمار هذه همته وهذا عمله فاتمه إنسان لا حمار . . .

يا أرسطو إن معضلة المعضلات أن يحاول إنسان حل مشكلة داخلية محضة قائمة في نفس حمار أو نابتة في ذهنه الحماري ؛ ومثل هذا أن يحاول حمار حل مشكلة نفسية في ذهن إنسان أو في قلبه ؛ فلا حل لشأ كل العالم أبداً ما دام كل إنسان مع غيره كحمار مع إنسان . . .

والمعضلات النفسية من عمل الشياطين فكان ينبغي أن تجيء الملائكة لتحارب الشياطين بالبرق والرعد دفاعاً عن الانسانية ؛ ولكن الله تعالى منعها وأرسل للانسان ملائكة أخرى إن شاء هذا الانسان عملت ، وإن شاء عجزت ؛ وهي فضائل الأديان المنزلة فاذا منحها الانسان إرادته وقوته فعملت عملها كان الانسان هو الملك بل فوق الملك ، وإذا أضعفها وحقرها كان الانسان هو الشيطان وأسفل من الشيطان

يا أرسطو [1] « هذا العالم عندي كتلة من العدم اتفقت على الظهور وستختفي . والعالم عندي ضعف ركب وقوة ركبت . والعالم عندي لا شيء . والعالم بين بين . والعالم قسمان . منهم الفلاح الزراعي وذلك أفضل فلسفة طبيعية .... والعالم في حاجة إلى الموت والموت في حاجة إليه . والأدب هو الحياة ولا حياة بلا أدب ؛ والأدب ضربان : أدب نفساني وأدب مكتسب . وقد يكون طبيعياً كما هو عند نابغة القرن العشرين . ومن هو نابغة القرن العشرين ؟ هو شخص مات بلا موت ويحيا بلا حياة . »

أتريد يا أرسطو أن تعرف سر تركيب العالم ؟ الأمر يسير غير عسير ، فان سر تركيبه كسر تركيب القرش الذي في يدك ، فدعني أظهرك على هذه الحقيقة ومد يدك بالقرش لأبين لك سر التركيب فيه . . . :

* * *

ولكن المجنون الآخر أسرع فغيب القرش في جيبه . فقال (النابغة) هذا سياسي داهية خبيث . والرواية الآن رواية سياسي القرن العشرين

ليس في حقيقة السياسة إلا الرذل من أفعال السياسيين . والألفاظ السياسية التي تحمل أكثر من معنى هي التي لا تحمل معنى . فليحذر الشرق من كل لفظ سياسي يحتمل معنيين ، أو

---

(١) هذه الأسطر التي وضعناها بين القوسين هي من كلام المجنون بالنص وكنا سألناه أن يكتب رأيه في العالم والحياة فكتب على البديهة مقالة كلها تخليط . وتندر فيها كلمات كأعمق ما تجيء به مذاهب الفلسفة

معنى ونصف معنى ، أو معنى وشِبْه معنى . فان قالوا لنا (أحمر) قلنا لهم اكتبوه بهذا اللفظ ؛ فاذا كتبوه قلنا لهم ارسموا إلى جانبه معناه باللون الأحمر لتشهد الطبيعةُ نفسها على أن معناه أحمر لاغير . . . . وعلى هـذه الطريقة يجب أن تكتب المعاهداتُ السياسية بين أوربا والشرق

انهم يكتبون لنا جريدة بأسماء الأطعمة ثم يقولون : أكلتم وشبعتم . . . . ولقد رأيت (مظاهرات) كثيرة ولا كالمظاهرة التي أعناها ؛ فما أعني إلا أن يخرج كل الجانبين في مظاهرة . . . . . .

وهـذا الأبله الذي أمامنا ليس وطنياً ولا فيه ذرة من الوطنية . فان كان وطنياً أو زعم أنه وطني ، فليخرج القرش الذي في جيبه . . . . ليكون فألا حسناً لخروج جيش الاحتلال من مصر

***

ولـكن المجنون لم يخرج القرش وترك جيش الاحتلال في مكانه فقال (النابغة) : الرواية الآن رواية الشرطي واللص . ويحقّ من القانون يكون للشرطي أن يفتش هذا اللص ليخرج القرش من جيبه . . . .

***

غير أن المجنون امتنع . فقال (النابغة) : كل ذلك لا يجدى مع هذا الخبيث ، فالرواية الآن رواية هارون الرشيد مع البرامكة ، ويجب أن ينكب الرشيد هؤلاء البرامكة ليستصفى القرش . . .

***

بيد أننا منعناه أن ينكب « البرامكة » فقال : الرواية الآن رواية العاشق والمعشوقة ، ونظر طويلاً في المجنون وصعَّد فيه عينه وصوَّب فلم يرَ إلا ما يذكر بأنه رجل فتهدَّى إلى رأي عجيب . فوقع على قدميه وتوهمه امرأةً في حذائها . . . وجعـل يناجى الحذاء بهذه المناجاة :

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخيف ؛ فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيفةً ، عليها جلالُ الحب ؛ وللحذاء في قدميك يا حبيبتي جمالُ الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل ، وكل شيء منك أنت فيه سرُّ جمالك أنت ، والحذاء في قدميك ليس حذاءً ، ولـكنه بعض حدود جسمك الجميل ؛ فلا أكون كلَّ العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء

ان جسمك يا حبيبتي كالماء الجاري العذب ؛ في كل موضع منه روح الماء كله . وحيثما وقعت القبلة من جسمك كان فيها روح شفتيك الورديتين . هذه قبـلة على قدميك يا حبيبتي ؛ وهذه قبلة على ساقك ؛ وهذه قبلة على ثوبك ؛ وهذه قبلة على جيبك . . . .

وكادت يد (النابغـة) تخرج بالقرش ؛ فمصَّه المجنون في كتفه عضة وحشية فجأه الخوف منها فطار صوابه ؛ فصرخ صرخة عظيمة دوى لها المكان وترددت كصرصرة البازى في الجو . ثم اعتراه الطيف ، وأطبق عليه الجنون ، فاختلط وتخبّط . . . .

(والرواية الآن) . . . ؟ . رواية عربة الاسعاف . . . . .

(طنطا) مصطفى صادق الرافعي

تصحيح خطأ

جاء في مقال (المجنون) في صفحة ٢٠٤٥ من العدد ١٢٩ هذا البيت :

العقل إن حكم العشاقَ أثقلُ من فقرٍ تحكَّم في رزق المجانينِ

وصوابه : في رزق « المساكين »

٢ - بعض مواطن الخفاء

فى التاريخ الإسلامى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

— ٤ —

وفى عصر الحاكم بأمر الله تدنو أساليب الخلافة الفاطمية، وتدنو شخصية الخلفاء الفاطميين من ذروة الخفاء؛ وكما أن الدعوة السرية الشيعية لقيت على يد الخلافة الفاطميـة أعظم مظاهر ظفرها الدينى والسياسى، فكذلك تلقى الدعوة السرية الفاطمية فى عصر الحاكم بأمر الله أغرب مظاهرها، وأشدها إمعاناً فى الغموض والخفاء؛ وفى هذه الفترة بالذات ينفجر بركان الدعوات السرية التى لبثت تضطرم قبل ذلك بأكثر من قرن، وتحقق بعض غاياتها العملية بصور جريئة مروعة

ولقد كانت شخصية الحاكم بأمر الله مثال الخفاء ذاته؛ ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تنتاب هذه الشخصية الغريبـة فى كثير من المواطن، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التى تتمتع بها فى أحيان كثيرة، بيد أنا نلاحظ أن الخفاء يغمر هذه المظاهر جميعاً، سواء فى فترات قوتها أو ضعفها. كان الحاكم ذهناً هائماً، يشغف بنظريات الخفاء والعالم الآخر، وينكب على دراسة التنجيم والفلك، ويهيم فى ميدان المباحث الفلسفية والروحية؛ وكان هذا الخفاء المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة، وفى تصرفاته العامة، فى أقواله وأعماله؛ وأى خفاء أشد من ذلك الذى تنفثه حولها شخصية ترتفع فى سماء التفكير حتى لتزعم السمو فوق البشر، وتهيم فى دعوى الألوهية، وتنحط مع ذلك فى بعض نزعاتها وتصرفاتها الى نوع من الجنون الغامض؟ لقد يجرؤ الدعاة فى كثير من المواطن على انتحال الرسالة أو النبوة، وقد زعم المشعوذون والمغامرون أنهم يتمتعون بمواهب خارقة، ولدينا من هؤلاء وهؤلاء ثبت حافل فى جميع العصور والأمم، بل إنا لنراهم يبثون فى القرن الثامن عشر فى معظم المجتمعات الأوربيـة يزاولون السحر والتنجيم، ويعتصمون بأذيال الخفاء والروع؛ ولكنا لا نعرف مثلا عملياً ذهب فيه الداعى الى انتحال الألوهيـة، وأثمرت فيه الدعوة ثمرتها العملية كمثل الحاكم بأمر الله

احتشد الدعاة السريون بمصر فى عصر الحاكم، وازدهرت الدعوات السرية، واتخذت سبلا ومظاهر شتى؛ وكان المجتمع القاهرى يعيش فى الواقع على هامش تلك الدعوات الغريبة التى تتخذ سبلها فى الخفاء الى أذهان الهائمين والمنافقين؛ وقد تمخضت هذه الحركة السرية المتحدة فى عصر الحاكم ذاته عن نتائج مدهشة، ففى أواخر عصر الحاكم ظهر دعاة يدعون إلى ألوهية الحاكم بأمر الله؛ وزعم حمزة بن على رأس أولئك الدعاة وأشدهم جرأة أن الحاكم ليس بشراً، وإنما هو « المولى سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان » ونعته بأنه « قائم الزمان »، وأنه هو أى حمزة نبيه ورسوله؛ وذهب الدعاة فى جرأتهم الى حد التبشير بهذا الهراء فى جامع القاهرة (الأزهر) علناً، وكادت تضطرم من جراء ذلك فتنة خطيرة لولا أن بادر الحاكم بصرف الدعاة وابعادهم إلى الشام، وهنالك أسفرت دعوتهم عن تأسيس مذهب الدروز الذى ما زال قائماً إلى اليوم، وقوامه القول بالتناسخ وحلول الأرواح، وأن الحاكم بأمر الله هو الالــه، وهو قائم الزمان، تجسمت فيـه روح آدم، بعد أن تجسمت من قبل فى على بن أبى طالب

وقد وضع أولئك الدعاة كتباً ورسائل سرية مدهشة انتهى الينا بعضها [1]؛ ولم يك ثمة ريب فى أن الحاكم بأمر الله كان يرعى هذه الدعوة ويغذيها من وراء ستار، وأنه تأثر بها فى أواخر عهده، وأذكت هيامه، واضطرام عقله وروحه، وكان لها أكبر أثر فى تطور الدعوات السرية الاسماعيلية

— ٥ —

وكان اختفاء الحاكم كحياته لغزاً مدهشا، بل كان ذروة الخفاء والروع؛ ومازالت قصة هذا الاختفاء وظروفه وحقيقته وأسبابه مثار الريب والجدل. ركب الحاكم ذات مساء فى بعض جولاته الليلية التى كان يشغف بها ولا يصبر عنها، وقصد ناحية فى جبل المقطم اعتاد أن يرتادها لرصد النجوم، بعد أن صرف الحشم

(١) تحتفظ دار الكتب المصرية بطائفة من هذه الكتب والرسائل، تحت أرقام ٥٤ و ٣٥ و ١٣٣ عقائد النحل

الرافقين له؛ ثم لم ير بعد ذلك قط لاحياً ولاميتا، ولم يوجد له بعد ذلك أثر قط؛ ولم توجد جثته قط. ولم تقدم إلينا الروايات المعاصرة أو المتأخرة أية رواية حاسمة عن مصرعه أو اختفائه، ولكنا لا نتردد رغم خفاء الحادث وغموض ظروفه في الاعتقاد بأن الحاكم ذهب ضحية مؤامرة، وأن مقتله لم يك سوى جريمة سياسية ارتكبت لتحقيق شهوات الملك والسياسة؛ وهذا ما تقرره بعض الروايات المعاصرة على اختلافها في الشرح والتفصيل؛ وفي ظروف الحاكم، وفي عنفه واضطرام أهوائه، وغريب تصرفاته، وفي قسوته وصرامة نفسه، ما يفسر مثل هذا الرأي، وما يسبغ عليه مسحة من الرجحان. ومعظم الروايات المعاصرة على أن الذي دبر المؤامرة هي الأميرة ست الملك أخت الحاكم؛ وكانت تأخذ عليه عنفه وإغراقه، وتحذره من عواقب أهوائه؛ وكان الحاكم يشدد عليها الحجر والرقابة وينعى عليها سوء مسلكها وفضائحها الغرامية؛ وكانت تخشى بطاشه وفتكه، وترقب الفرص لتدبير اغتياله؛ وكان حليفها وعونها في تدبير المؤامرة وتنفيذها، سيف الدولة بن دواس زعيم قبيلة كتامة القوية التي فقدت في ظل الحاكم ما كانت تتمتع به من النفوذ والجاه. وفي ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠م) ركب الحاكم إلى المقطم، بعد أن طاف حيناً في أنحاء القاهرة، وسار إلى الجبل ومعه ركابيان فقط؛ وكان ابن دواس قد اتخذ أهبته ورتب للفتك بالأمير عبدين من أخلص عبيده؛ وتوغل الحاكم في الجبل إلى حيث اعتاد أن يرصد النجوم ومعه ركابي فقط؛ أما الركابي الآخر فصرفه مع بعض ذوي حاجة اعترضوه في طريقه، وهنالك في جوف الجبل تمت الجريمة وقتل الحاكم ووصيفه، وقطعت قوائم حماره الأشهب؛ وحملت جثة الحاكم في جوف الظلام إلى أخته ست الملك فدفنته في نفس مجلسها؛ واتخذت كل ما يجب لكتمان الجريمة، وأذاعت أن أخاها سيغيب أياماً؛ وخرج الناس إلى الجبل فلم يعثروا بأثر للحاكم أو حماره أو ركابيه؛ ورتبت ست الملك في نفس الوقت اغتيال ابن دواس وكل من اشترك في الجريمة أو وقف على السر، وذهب السر مع الجناة إلى القبر

وقضى رجال الدولة ثلاثة أيام متوالية يبحثون عن الحاكم دون جدوى، وفي اليوم الرابع توغلوا في الجبل فعثروا بحماره الأشهب وقد قطعت قوائمه، وتابعوا بحثهم حتى وصلوا إلى البركة الواقعة شرقي حلوان، فنزلها البعض، وعثروا فيها بثياب الحاكم مزررة لم تحل أزرارها وفيها أثر الطعان. فمنذئذ أيقن الناس بقتله

كان مصرع الحاكم فيما يرجح إذاً جريمة سياسية دبرت ونفذت بأحكام؛ ولكن ذلك التعليل لم يكن حاسما في عصر ذاعت فيه الدعوات والأساطير السرية، ونودي فيه بألوهية ذلك الذي اختفى على هذا النحو الغامض. ومن ثم فقد زعم بعض الغلاة والمتآمرين من الدعاة أن الحاكم لم يمت ولكنه اختفى وسيظهر آخر الزمان، أو أنه رفع إلى السماء كما رفع المسيح [1] بل لقد وجدت هذه الأساطير المغرقة سبيلها إلى بعض دوائر البحث الحديث، فنرى المستشرق فون ميللر مثلا يعلق على اختفاء الحاكم بما يأتي: «أما أن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل، فهو حديث خرافة. والواقع أن مصيره لم يعرف قط. وعندي أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه في مصر، فاعتزل الحياة واختفى في مكان ما ليقضي حياته بعيداً عن الأنظار، لكي يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو «الناطق» حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان في شخص الامام أو المهدي؛ وهذا ما لا يزال ماثلا إلى اليوم في عقائد الدروز» [2]

والواقع أن هذه الأساطير رغم بطلانها وإغراقها، كانت أخصب مستقى لمذهب الدروز. وإذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بهذا التعليل الغريب لاختفاء الحاكم، ففي وسعنا أن نعتقد أن اختفاء الحاكم كان نتيجة جريمة دبرها الدعاة السريون لاذكاء دعوتهم، ولكي يسبغوا عليها باخفاء الحاكم من هذا العالم قوة الدلائل المادية، فيقال إن ناطق الزمان قد اختفى ولن يظهر إلا في آخر الزمان. على أنه مهما قيل في مصرع الحاكم وفي تعليل اختفائه، فلا ريب أنه حادث من أغرب حوادث التاريخ الاسلامي، وأشدها غموضاً وروعة وخفاء

— ٦ —

هذه خلاصة منوعة لبعض مواطن الخفاء في التاريخ الإسلامي

(١) ابن خلكان — ج ٢ ص ١٦٧ و ١٦٨

(٢) Von Müller : Der Islam 1 P. 633

وهنالك الكثير منها مما لا يتسع المقام لذكره . ولا تقتصر هذه المواطن الخفية الغامضة على حوادث التاريخ الاسلامي ؛ ولكنها تمثل في تواريخ معظم الأمم والعصور ؛ فما من عصر إلا وله أساطيره ، وما من أمة إلا ولها أساطيرها القومية ، وقد كانت هذه الأساطير وهذه المواطن الخفية تمت في الغالب بصلة إلى الدين أو إلى الاطماع والمشاريع السياسية ، وكان يستغلها دائما دعاة مهرة ومغامرون لهم من الجرأة والاقدام ، ما يكفل تحقيق مشاريعهم ؛ وكان السلطان الروحي أو السياسي دائما مطمح أولئك الدعاة أو المغامرين ؛ وفي أحوال كثيرة نرى الأسطورة الدينية أو الدعوة الخفية تنتهي بانفجار تعقبه انقلابات سياسية واجتماعية خطيرة ، وفي بعض الأحيان نرى الأسطورة أو الدعوة تفضي إلى قيام دولة جديدة أو مذهب ديني أو سياسي جديد

ولا ريب أن هذه الأساطير والدعوات والحوادث الخفية تبدو في عصرنا حديث خرافة ، ومن المستحيل أن تشق طريقها بعد في أمة متمدنة أو مجتمع مستنير . ولكن يجب أن نذكر فوارق العصر والظروف ، وأن نحكم على هذه الظواهر الغريبة بميزان العصر الذي حدثت فيه . على أننا نجد في التاريخ الحديث ، وفي المجتمعات الحديثة المتمدنة أيضاً أمثلة مدهشة من هذه الأساطير والظواهر الخفية تشق طريقها إلى أرقى المجتمعات وتثير الدهشة والروع في نفوس الكبراء فضلا عن الكافة ؛ ففي القرن الثامن عشر ظهر في ألمانيا والنمسا وفرنسا عدة من الدعاة والمغامرين السريين مثل يعقوب فرنك (أو الكونت أوفنباخ) والدكتور فوك ، ويوسف بلسابو (أو الكونت كاجليوسترو) ، والكونت سان جرمان وغيرهم ، وجابوا المجتمعات الأوربية الرفيعة ، وأثارت مزاعمهم ودعاويهم في الخلود وعلم الغيب ، ومزاولة السحر ، والخوارق ، كثيرا من الدهشة والروع ؛ بيد أن هؤلاء المغامرين الدعاة لم يحاولوا أكثر من تحقيق مطامع محلية وشخصية ؛ ذلك أن العصر الذي كانت فيه جرأة الدعاة تتجه إلى انشاء المذاهب الدينية أو الدول السياسية ، كان قد انتهى منذ بعيد ، ولم يبق أمام الأواخر من الدعاة والمشعوذين إلا أن يعملوا في ميدان متواضع جداً لتحقيق المآرب والأهواء الشخصية ؟

(تم البحث) محمد عبد الله عنان

ذكرى زوجة

للأستاذ حسنين حسن مخلوف

حدثني صاحبي قال :

عشر سنين سويا هي مدى العيش بيني وبينها
هي قنطرة حياتها الجديدة اجتازتها عجلة إلى القبر

كانت تملأ بيتي نوراً ، وتفسي حبوراً ؛ بدلتني بالوحشة انساً ، وبالوحدة جمعاً . هؤلاء أولادها نجوم سماء أرسلتها العناية الالهية لتكون معجزة الله في نظام الأسرة ، وفي بعث الأمل الباسم ؛ وفي سعادة الآباء والأمهات ، ثم لم يمتعها الدهر بهم إلا قليلا ، واستودعتني صغاراً كأفراخ الطير ، وذهبت في عالم السماء . . . . . .

دعني يا أخي أخفف من بُرحاء حزني بقطرات من الدمع هي كل ما أملك عندما يغلي مرجل قلبي بذكراها

دع دماء قلبي تتفجر فتستحيل دموعاً ، في انبثاقها هدوء لوعتي وأشجاني ؛ فقد انصبّت أحزان الناس جميعاً في مصيبتي ، فما أطيق لها حملا

أفما رأيت المحزونين يتعزون بي ، وينسون مصائبهم إذا رأوني ، فيرثون لبلواي ، ويصحون بتعازيهم فيض عيني التي هي معاني دموعهم على موتاهم ؟

يا لأيامها الحلوة ، وسريرتها الطاهرة ! !

أرأيت إلى البحر الصافي الساكن الذي لا يدنس في قرارته شيئاً ! ! أرأيت إلى السماء الزرقاء الجميلة تزهر بالنجوم الوضاءة ، هي رمز السرور والطمأنينة ! ! ذلك هو قلبها : إخلاص وصدق ، وأدب وحياء ، وكل ما ترتجى في الزوجة الكاملة من سمو ووفاء . . . . . .

وكأن القدر أراد أن يسقيني كؤوس السعادة مترعة ثم يسلبنيها وشيكا ليطول حزني ، ويمتد إلى الأبد جراح قلبي ، فأنا منها في هم مقعد مقيم

قلت له : هوّن عليك يا أخي ، فما لما قضى الله حيلة ، وحسبك ما قدّمت بذلك ، وما قمت به نحوها من تمريض ، فقد كانت في أغلب سنيها معك بين الموت والحياة ، تمسي سمى

المُجد لتدفع القـدَر عنها ، فلم تدع طبيباً إلا استشرته ، ولا صيدلية إلا أفرغت فيها كنوز حياتك

كنتَ في حياتها في فكر ممض ، وقلق مستديم ، وليس من الانصاف لنفسك ولا لأولادك أن تظل هكذا شقياً بمماتها ..

فما استأذن حديثي على سمعه حتى ظل هُنيهة مطرقاً مفكراً ، وكأن أطياف الماضي تذهب وتجيء في رأسه ، فلا يستطيع لها دفعاً ، وكأن لوحة خيال تعرض حوادث حياته مشهداً مشهداً ، وبعد أن تنبه إليّ قال :

لست أنسى طول حياتي رزانة عقلها ، واتزان كلامها ، وجميل وفائها ؛ وقصدها في الأمور كلها ، حتى لقد حسبت أن الله مازها بذلك من دون النساء جميعا ؛ وأن شمائل بنات حواء اجتمعت لديها ثم صارت وقفاً عليها . أرأيت إلى قطرات من الطل تتحلب من أفواه السحاب ، ثم يؤلف الله منها ماء رويا يحظى به فرد واحد من بني الانسان ؟ تلك هي فضائلها . فان مُحي البرّ والمعروف والوفاء من نفوس الناس جميعاً فلن تبرح ذهني ذكراها ، وهكذا تمر الأيام وروحها ماثلة أمامي ، ومآثرها مشرقة اشراق الشمس ؛ فهي باقية في معاني الكمال الانساني ، باقية في هؤلاء الصبية كلما خطروا أمام عينيّ ، فهم بضعة منها ، وأمثالها العزيزة على نفسي ... ...

كان داء قلبها يبعث آلامها ، فما تبرّمتُ لحظة في القيام بما تفرضه شركة الحياة بيني وبينها ، ولأني أعلم أن صخرة عاتية تنتظرني بعد أن أنفض يديّ من تراب قبرها ، فتحطم آمالي بحطمها ، وتفرق أجزاء نفسي شعاعاً

وكم كنت أودّ إن لم يكتب الله لها السلامة أن تعيش هكذا في سريرها تنعم برؤية أولادها ، وأنا كل يوم أزجي إليها كواذب الآمال في برئها ، وأزوّر مع الطبيب في الطريق كلاماً نقوله عند لقائها ، والطبيب يشفق عليّ ويقول : حسبك فقد أبليت ، والطبّ ألقى سلاحه معترفاً بالعجز عند باب حجرتها ؛ وأنا أجيبه : لا عليك أن تكرر الزيارة ، وأن تذرع الأرض جَيْئةً وذهوباً ، وأجرك موفور ، وعذرك في عدم الشفاء مذكور ، رجاء أن تدخل شيئاً من برد الطمأنينة على قلبها

وقد والله كانت راضية بالقدر خيره وشره ، وما ذاقت طعم النوم أشهراً إلا مثل حَسْوِ الطير ماء الثِّماد ، وكانت لا تطيب نفسها أن أسهر بجانبها حتى أقوى على أسباب العيش طول النهار ؛ فاذا نزلت عند رأيها انتابني الفزَع في وهن الليل ، فأراها جالسة مفتوحة العينين تنتظر قضاء الله فيها ، وقد تهيج المؤذن في الفجر يشق الفضاء بكلمة الحق : « الله أكبر » في سكون الليل وهدوئه ، فتضرع اليه أن يحكم فيها بما يراه خيراً لها ، ثم تدعو الذي كتب لها قصر العمر أن يكتب لي طول العمر جزاء ما أسديت اليها في أمراضها المتطاولة من برّ ومجهود ، فآبى لهذا القول ، وأذكر الأمل في الشفاء ، فتستبعد تحقيق ما أمّلت وتقول : أيقدّر لي الشفاء فأقضي عمراً جديداً في شكر معروفك ؟!

ثم اشتدت بها العلة ، وبرحت بها الأوصاب . ومن عجائب القدر أن تكلفني وزارة المعارف مغادرة المدينة لأعمل في الامتحانات في مدينة أخرى ، وليس من شرعة وزارة المعارف أن ترحم مثل الظروف المحيطة بي ، أو تقبل عذري إلا إذا كنتُ أنا مدنفاً عليلا ، ويشهد جماعة من الأطباء جهد أعلامهم أني لا أطيق السفر ، ولا أقوى على مكابدة الأعمال

* * *

سافرت متعب الفكر ، مضطرب النفس ، وبين جنبي من الهم ما لو كان بالجبال لاندكت ، وبالبحار ما سمعت لرنات أمواجها زئيراً ، ولا الشموخ أنفها عزة وزفيراً

وقبل سفري تقدمت إلى أنجالي أن يراسلوني يومياً بحالتها ، وأسررت إلى بعض أصدقائي إن حلّ المقدور أن يبادر باستقدامي برقياً ، ومن عجب أن تترى الرسائل كل يوم بأن معجزة عيسى الباهرة ظهرت في زوجي ، وأن المرض كادت تزول آثاره ؛ فأحدث ذلك في نفسي حالة بين الشك واليقين . أذكر البرء فأقول : « آمنت بالله » ، « يحيي العظام وهي رميم » ، ها هو ذا مجهودي الطويل تتوّج بالنجاح ، وتالله إن فرحي برؤيتها سليمة لينسيني كل عذاب تحملته صابراً محتسباً ، ثم تخيم عليّ سُحب مظلمة تقترب من نفسي شيئاً فشيئاً فأنفجر باكياً في حجرتي بالفندق بعد أن أحكم رتاج الباب ، وأشتفي بدائم المحزون ؛ هي تلك القطرات

يالله للانسان لو لم تكن دموع عينيه أتراه ينشق فتطاير أجزاء قلبه ورأسه فلذة في المشرق وفلذة في المغرب ثم يتناثر جسمه إرْباً إرْباً . ثم تعود إليّ قوة نفسي فأحس حرارة اليقين في صدري ، ويشع أمام عينيّ ضياء الأمل فأنتعش وأبني قصور

المتنبي في ديوانه

بمناسبة ذكراه الألفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

بقية ما نشر في العـــــدد الماضي

وقال المتنبي :

يترشفن من فمي رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

فقالوا : لو كان يجد للإيمان في قلبه حلاوة لما جعل رشفاتهن من فمه أحلى من التوحيد . ونقول : إن البيت قد روى هكذا : هن فيه حلاوة التوحيد ، وهي نسختنا أيضاً . وقد قيل إن أفعل غير مراد به التفضيل ؛ وقيل أيضاً إن التوحيد نوع من التمر ؛ وعلى الرواية الثانية يكون شبه الترشيف بحلاوة التوحيد ولا حرج في ذلك ، ومثله مستساغ في مذهب الشعراء . هذه ثلاثة أبيات ليس في شعر المتنبي أكثر غلواً منها ، ومع ذلك فهي لا ترد علينا كما رأيت . أما مذاهب عقليته فنشير إليها حيث يقتضي المقام ذلك ؛ وليس هناك ما يدل على أنها من ذات نفسه ومضمر قلبه أصلاً ؛ وأما مبالغاته في المدح فيصل بها إلى حد المقارنة بين نفسه وممدوحيه وبين الأنبياء

والأمر الأول لا شك لا يؤاخذ عليه لأنه حتى على فرض كونه مما يؤثر في صحة الإيمان فمن أين لنا أنه كان يعتقده ؟ وإلا فحاكي الكفر ليس بكافر ، وعلى أنه اعتقده فمن أين لنا أنه استمر على اعتقاده إلى أن مات ؟ وعلى كل حال فالحكم على المتنبي بضعف العقيدة لبعض أفكار فلسفية تضمنها شعره يجعلنا لا نقبل في حظيرة الإسلام أكثر علماء الإسلام من الذين لهم مذاهب فلسفية وأفكار حكمية . على أنه ما من قول من هم في شعر المتنبي إلا وقد وجد في شعر غيره ما هو أكثر إيهاماً منه ؛ فلماذا لم يحكموا على غيره من الشعراء بذلك الحكم الجائر ؟ ولولا ضيق المجال لعقدنا مناظرة بين أقواله وأقوال غيره من الشعراء في هذا الموضوع حتى يرى القارئ أن المتنبي لا يزيد على غيره إن لم يقصر في ذلك .

وإليك قوله مثلاً في كافور :

ألا فتى يورد الهندي هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم ،

فإنه حجة يؤذي القلوب بها من دينه الدهر والتعطيل والقدم

فإنه هو عين قول ابن الرومي لصاحب لحية طويلة في صورة أخرى من السخرية :

أرع فيها الموسى فإنك منها – يشهد الله – في أثام كبير

أيما كوسج يراها فيلقى ربه بعدها صحيح الضمير

هو أحرى بأن يشك ويغرى باتهام الحكيم في التقدير

فلماذا أخذ قول المتنبي دليلاً على ميله للتعجيل دون قول ابن الرومي الذي منه استمد المتنبي ذلك المعنى ؟

كذلك الأمر الثاني ، لم يكن المتنبي بارعاً فيه ولا بأول ولا آخر ؛ فما زال الشعراء يشبهون ممدوحيهم بالأنبياء بل يجاوزون التشبيه إلى ما هو فوقه ، وذلك معروف من مذهبهم قديماً وحديثاً ؛ ولا نعني أنه لا بأس به شرعاً ، ولكنا نريد أن نقول إن المتنبي لم ينفرد به ولم يطعن أحد بمثله على غيره من الشعراء في عقيدته ؛ وقد وجد ذلك في صدر الإسلام ووسطه ويوجد الآن في هذا العصر ، فمن قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

أتى الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر

ومن قول أبي نواس في الأمين :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب

ومن قول أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك يذكر طائرات فرنسا :

لسليمان بساط « واحد » ولكم ألف بساط في الفضاء

فهل هؤلاء الشعراء لا يضربون مع المتنبي على وتر واحد في هذه النغمة ؟

والخلاصة أن المتنبي كغيره من الشعراء صدرت عنه أقوال ظاهرها الاستخفاف بأمر الدين ولكن لا نحكم بمقتضاها أنه فاسد العقيدة حتى نحكم على غيره من الشعراء بل العلماء أنهم كذلك ، فإن بعضهم أسوة بعض في هذا الأمر

* * *

وأما أخلاقه فلسنا بحاجة إلى التنويه بما كان عليه من علو الهمة والشجاعة والصدق والوفاء ، فإن شعره مملوء بشواهد ذلك حتى لقد بلغ من علو الهمة أن عابه خصومه بهذا الخلق ، فمنهم من لقبه بالمتنبي لتشبيهه نفسه بالأنبياء ، ومنهم من جعل ذلك مرضاً

نفسيا أشبه ما يكون بالجنون . والواقع أن المتنبي كان يسرف في التعظيم وإن كان له سلف في ذلك ، فانظر إلى قوله :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتى كشعرة في مفرقى

فإنك لا تجده يختلف عن قول هبة الله بن سناء الملك :

وفرط اختيارى للأنام لأننى
أرى كل عار من حلى سؤددى سدى

أرى الخلق دونى إذ أرانى فوقهم ذكاء وعلماً واعتلاء وسؤددا

وبلغ من شجاعته أن لاقى الموت المحقق فراراً من الغدر . وبلغ من صدقه أن قال عنه على بن حمزة إنه ما كذب قط ، وقال هو :

ومن هوى الصدق في قولى وعادته
رغبت عن شعر في الرأس مكذوب

وبلغ من وفائه أنه برغم ما عامله به سيف الدولة من سوء العشرة ، لم يبرح ذاكراً له متشوقاً اليه ؛ وقد كان يمدح كافورا فيصدر بمدحه ويكثر التأسف على فراقه . ومن شدة وفائه أنه وفى للشيب فلم يقدر على مفارقته إلا حزيناً باكيا كما قال :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

هذه أخلاق المتنبي ليس فيها مغمز لأحد ؛ وقد وصفها نفسه في شعره ، وجاءت سيرته دليلا على صدقه في هذا الوصف . إلا أن الطاعنين عليه لم يعدموا ما يلمزون به أخلاقه أيضاً فقالوا : إنه كان بخيلا ، وبخيلا جداً ، واستدلوا على ذلك بحكايات ملفقة تشم منها رائحة الوضع كما يقول المحدثون ، وبأبيات من شعره إن لم نقل إنها محرفة عن موضعها فلا أقل من أن نقول إنها لا دلالة فيها على ما زعموه أصلا . فأما تلك الحكايات فقد كفانا الأستاذ المازنى أمرها إذ بين ما فيها من زور وما تحتويه من بهتان[1] ؛ وأما أبيات الشعر فانا ناقلون مما هو نص من شعره في نفى هذه التهمة عنه ثم مقارنون بينه وبينها ليظهر خطأ الاستدلال بها واضحاً لا خفاء فيه .

قال المتنبي يستنجز كافورا ما وعده به من الولاية :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله
فانى أغنى منذ حين وتشرب

إذا لم تنط بى ضيعة أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

وقال فيه أيضاً :

وهل نافعى أن ترفع الحجب بيننا
ودون الذى أملت منك حجاب

فهذا المتنبي يقول إن بغيته في فضلة من الكأس التي يشرب بها كافور « يعني الولاية » لا المال . وإن كل ما وصل من عطاء كافور لم يرفع الحجب بينه وبين ما أمله منه ، ولا شك أن ذلك شيء غير المال . ومن كانت هذه منزلة المال عنده ، لا يحفل به ولا يجعله شيئاً مما أمله ، فكيف يوصف بالبخل ويتهم بالحرص لو كان هناك انصاف ؟ وقد صرح بما أخذ ضمناً من هذه الأبيات في قوله

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنها فى مفخر أستجده

وقال في شكره لمن وهب له هبة :

وما شكرت لأن المال فرحنى سيان عندى إكثار وإقلال
لكن رأيت قبيحاً أن يجاد لنا وأننا بقضاء الحق بخال

وفي مطلعها ما يشير إلى صدق قوله « فجودك يكسونى وشغلك يسلب » وهذا هو المطلع :

لا خيل عندى أهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

ثم هل بقى من تقبيح البخل أكثر من جعله من مبطلات الصلاة كما قال :

فتى لا يرجى أن تتم طهارة لمن لم يطهر راحتيه من البخل

فهذه الأبيات وسواها كثير مما هو نص في المراد ، كيف يصح إغفالها والتمسك بمثل قوله دليلا على بخله :

فلا مجد فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

فهل هو إلا مقرر لحقيقة واقعية ، وهي أن المجد مهما كان رفيعاً لا اعتبار له إلا بالمال ، وقد أجمع الناس على ذلك فما يحترمون إلا صاحب المال ولو كان دنيئاً ؟ ولكن ألا تراه مع ذلك قد عقب بأن المال وحده لا اعتبار له عند العقلاء ولا بد من خصال المجد التي هي أساس الاعتبار ؟

وأغرب من ذلك الاستشهاد على بخله بمثل قوله :

---

(١) حصاد الهشيم ص ٢٢٢ وما بعدها

من يطلب المجد فليكن كعليٍّ م يهبُ الألفَ وهو يبتسم

وقوله :

تهلّل قبل تسليمي عليه وألقى مالهُ قبلَ الوساد

وهذا لو صح دليلاً على بخل الشاعر لعددنا كل شعراء العربية بخالاً ، فإنه لكثرة ما تدوول هذا المعنى ، صار لا يخلو منه ديوان شاعر

وإننا لا ننفي أن المتنبي كان جماعة للمال ، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا للاستعانة به على مقاصده كما يصرح هو بذلك في شعره لاسيما وهو يعلم من أحوال عصره أن الاعتبار كله إنما هو لأهل المال خاصة . وانظر إلى حكاية البطيخة التي أعطى صاحبها خمسة دراهم فلم يبعها له وباعها بثلاثة لمن يملك مائة ألف دينار لمجرد كونه يملك مائة ألف دينار ! فانصرف وقد علم أنه لا يتم اعتبار الناس له إلا إذا جمع مائة ألف دينار ؛ وقد كان كذلك ، وكل ما صدر عنه في هذا الصدد إنما هو من قبيل المثل الفرنسي Quand je ferai mon million,

وكم بين من يطلب المال ليستعين به على قضاء حقوقه — وأي حقوق هي ! إنها لتزري بحقوق الطغرائي التي يقول فيها :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قِبلي

وبين من يطلبه لمجرد الحرص عليه وشهوته التي هي مرض من الأمراض ، فإن هذا هو البخيل حقاً لا ذاك !

والواقع أننا وجدنا المتنبي صادقاً في كل ما وصف به نفسه من خلال المجد ، فلا يصح أن يكذب في هذا الأمر لمجرد حكايات الله أعلم بحالها وحال من نحلها إياه ! كذلك وجدنا شعره طافحاً بمدح الكرم وذم البخل في أبيات صريحة لا غبار عليها فلا يجوز أن نغض الطرف عن ذلك ونلجأ إلى الفرض والتخمين محملين بعض ألفاظه ما لا دلالة لها عليه لنصحح تهمة أنه كان بخيلا !

وإذ قد فرغنا من الكلام في النقط الثلاث التي عنينا بها هنا ، فلنتساءل ماذا كان مطلب المتنبي في الحياة ما دام لم يكن يطلب المال لذاته ؟

والجواب أن المتنبي كان طالب دولة ولا شك ، وكان لا أعدى إليه من أصحاب الدول في عصره ، فهو لو تمكن منهم لما رحمهم ، بل نرحم شبابه من أن يرحمهم على حد تعبيره هو :

لا يخدعنك من عدوٍّ دمعُه وارحم شبابك من عدوٍّ ترحمُ

وقد كان يرى المجد في ضرب أعناق الملوك :

ولا تحسبنَّ المجد زقاً وقَينةً فما المجد إلا السيف والفتكةُ البكر

وتضريبُ أعناق الملوك وأن تُرى لك الهبواتُ السود والعسكر المجر

فلو أن الفلك جرى بموافقة سميه لعصف بدول عصره جميعاً ولو دولة الخلافة ، وأقام على أنقاضها دولة متنبية من الطراز الذي يقول فيه أبو الطيب :

أعلى الممالك ما يبنى على الأسَل

وما أصدق ذلك الذي قال على لسان كافور[1] وقد صوّر أنه سئل لماذا لم يُنل المتنبي ما طلب منه من الولاية : « ياقوم ! من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم كيف لا يدعي الملك بعد كافور ؟ »

وحينئذ فماذا كان يصير لو نجح المتنبي في مطلبه ؟

إن الدولة العربية كانت قد شاخت في زمنه وتمكن الضعف منها فصارت هامة اليوم أو الغد ، وقد رأى هو أن العرب أصبحت تدين للعجم بالطاعة وذلك أمر ليس من صالحهم في شيء :

وإنما الناس بالملوك وما تصلح عُربٌ ملوكها عجمُ

وإن المسلمين أصبحوا في كل جهة عبيد العصا يسوقهم المتغلب أمامه كما يسوق الراعي قطعان الماشية :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبُدُ القزمُ

وقد صار أمرهم مع المشركين بين العجز عنهم والرهب منهم :

أرى المسلمين مع المشركين إمّا لعجز وإما رهَبْ

فإذا قلنا إنه لو نجح في مطلبه لكان ذلك من الخير للعرب والإسلام . لم يكن في قولنا هذا شيء من المبالغة لأن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد ، فكان ينفخ من روحه في جسم الدولة المتهالك ويهيب بالأمة إلى حياة المجد والعظمة فما يكون بأسرع منها إلى الاستجابة له والإقبال عليه صادعة بأمره صادرة عن قوله :

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضامُ مُدرِكٍ أو محاربٍ لا ينامُ

ليس عزماً ما مرّض المرءُ فيه ليس همّاً ما عاق عنه الظلامُ

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيه غذاءٌ تضوى به الأجسامُ

ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ

(طنجه) عبد الله كنون الحسني

---

(١) لأنا نرجح أن نسبة ذلك لكافور لا تصح

التضحية

للأستاذ محمد روحي فيصل

صلاح الأمة للبقاء أو قوة حيويتها إنما تظهر أشد الظهور إذا أصاب تلك الأمة شر، أو ألم بها خطب، أو انتابتها أزمة في السياسة أو في المال، أو في الأخلاق، مما يجل وقعه، ويشق احتماله؛ ذلك لأن جميع الأمم تستطيع أن تعيش في الرخاء، وتسمو بالنعيم، ولكنها لا تستطيع كلها أن تعيش وتسمو إذا أحدقت بها الشدة، وحفت بها المكاره، وتنكر لها الدهر، وعبست في وجهها الحياة.

بلى! قليلة جداً تلك الأمم التي تستطيع أن تعيش وتسمو إبان المحنة والشدائد، لأن كل أمة من الأمم تحتاج حينئذ إلى أن تستمد حياتها من حياة أبنائها، وتعتمد في شفائها على سواعد أفرادها؛ فإذا كان خلق التضحية قوياً فيهم، متأصلاً في نفوسهم، مشتملاً عليه كلهم أو جلهم، نجت تلك الأمة من الشر إن كان نازلاً بها، أو تقدمت الى غايتها إن كانت لها غاية عليا تعشقها وتطمح اليها

أما الأمة الأثرة التي لا تعرف من التضحية غير اسمها، فهي محكوم عليها بالفناء والموت، لا بد أن يخني عليها الذي أخنى على لبد

لما اشتدت الأزمة المالية أخيراً على الأمة الانجليزية رأينا كيف أن مظاهر التضحية لم تنحصر في رؤساء الأحزاب فحسب، وإنما تعدتهم إلى الأفراد رجالاً ونساء، فكانت الفتاة الفقيرة تهب سوارها الذهبي الذي أهدته اليها أمها قريرة العين طيبة الخاطر؛ وكانت العائلة الفقيرة تتنزل راضية عن جنيه من كسبها الذي لا تحصل عليه إلا بشق الأنفس وترفقه بكلمة كهذه:

« مساعدة متواضعة للبلادنا وشعبنا من أسرة (فقيرة) »

كذلك كل أمة نالت شأوا بعيداً في المجد، وبلغت مكانة عالية بين الأمم، ما نالت ذلك الشأو وما بلغت تلك المكانة، إلا بتضحية أبنائها أمامها بالأنفس والأموال تضحية صادقة صحيحة! ولعمر الحق ما كانت تكون لأجدادنا العرب، أبناء الصحراء، وساكني الجزيرة، تلك السيادة الرفيعة، وذلك السلطان المرهوب، لو لم يكونوا متشبعين بخلق التضحية إلى أقصى مدى

ونحن، إذا كنا قد تنبهنا بعد الغفلة واستيقظنا بعد النوم، فاستأنفنا طريقنا إلى العلياء وطالبنا بحريتنا السليبة واستقلالنا المفقود، فانما يجب أن نتجشم تكاليف ما نطالب به ونضحي لنيله القليل والكثير، ونتحمل ما نلاقي في سبيله من ألوان المكاره وضروب المشاق، ونصبر على صنوف العقبات حتى يلين صلبها ويسهل صعبها، فانه لا تنال المطالب إلا مكافحة ومغالبة، لأن الحياة معركة؛ فما لم يدرك فيها بالملاينة والمحاسنة، أدرك بالعنف والمخاشنة ...!!

إن رجال هذه الأمة جميعاً ثلاثة: رجل لا علم له بما عليه من الواجبات نحو وطنه فلا يعنيه شأنه، ولا يهمه أمره، ولا يعبأ به ولا يحفله، فهو جاهل؛ ورجل أخذ من الدين بقشوره، وشرب من مورده العذب مصة خفيفة ظنها غاية ما يرتوي به المرتوون، فقضى أوقاته في البحث في الحيرة والحيض والنفاس، ونصب نفسه لمعاداة كل جديد وإنكار كل ما لم يألف، فهو جامد؛ ورجل يجري وراء منافعه الشخصية أينما رآها وتخيلها، يراها في جانب مصلحة عامة فيظهر في زي المصلح الداعي إلى هذه المصلحة ويملأ الجو نداء للتعاون عليها، حتى إذا تراءت له منفعة خاصة لا يصل اليها إلا أن يقضي على ما ينفع الناس والوطن داسه بكلتا قدميه، وذهب إلى منفعته تواً لا يلوي على شيء، فهو خب منافق

فاذا أزيل عن الأول جهله، وأزيح عن الثاني جموده، وشنع على الثالث خبثه ونفاقه، وعمل على بث خلق التضحية فيهم وتقويته عندهم، مع تبصيرهم بمقتضيات الأحوال كما يقول البديعيون - إذا فعل هذا عظمت الفائدة، وتوفرت العائدة على الوطن، وسارت الأمة مسرعة إلى مطامحها

(حمص) محمد روحي فيصل

السنيون والشيعة والمؤتمر

للأستاذ محمد رضا المظفر

لأول وهلة بدا لي أن أنسحب بعد مقال الأستاذ (أحمد أمين) المنشور في (عدد الرسالة ١٢١) ، ولا أدخل في هذا الموضوع من جديد ، لأنه قرر أخيراً : « أنه سوف لا يرد على من يتخذ بعض ما جاء في مقالته وسيلة لاثارة النزاع من جديد إلا أن يفتح صاحبها مجالا للكلام في مشروع المؤتمر أو وسائل الوفاق » تخشيت أن أكون عند الناس أو عند نفسي (وهي لا تحب لي الرذيلة) ممن يتحبَّب النزاع أو يسعى لتعكير صفو الأخوة التي ظهرت بشائرها في العالم الاسلامي ، ولهذا — أو لشيء آخر لا أدري — وُضع هذا التقرير الصريح

ومن جهة أخرى ، تخوّفت أن يكون حديثي هذا من (لغو الصيف) وإن كنا نستقبل الشتاء ، فلا أجاب عليه بعد ذلك التقرير ؛ وليست فكرة المؤتمر — وبالأصح حلم المؤتمر — تلك الفكرة الناضجة والحلم الصادق فيما أعتقد (وسأعود إليها) ، حتى أستنزل بعلاجها طرْف الأستاذ لميدان هذا الموضوع

كل ذلك دار في خَلدي ، وأكثر من كل ذلك صرفني عن كل هذا الحديث ، حتى يمضي عليّ هذا الزمان ، وأخيراً أراجع إلى طوية نفسي فأجدها جد مؤمنة بوجوب السعي لتحقيق فكرة الاتفاق ، وتوحيد كلمة المسلمين ، مهما اختلفت وجهة النظر مع الأستاذ أو مع غيره ، وهنا فليقرر الأستاذ ما يشاء ؛ وليقل الناس ما يحبون !

ولعلّ الرسالة تفتح صدرها الرحب لكاتب يقف للفرص يتتبعها ، لازالة ما قد يسيء للاتفاق بين الطائفتين ، ويشهد حديث كتابها أو غيرهم من كتب ، حتى لا يتكلموا عن الشيعة كأمة غائبة في مجاهل المفاوز ، لا سمع لها ولا لسان ، في حين أن رجال الشيعة تتبع الأحاديث عنها في الصحف والكتب بكل إصغاء ، وقد لا تشاء الرد والجواب ، كما وقع في العام الماضي في الرسالة بين الأستاذين ، عبد الوهاب عزام ، وأمين الخولي ، في قضية مكة ومشهد الحسين

وكم يضحكني ما يكتب عن الشيعة كأنها من الأمم الخوالي (ولتعرف من الآن أنا لا نفهم من كلمة الشيعة إذا أطلقت غير الأمامية) ، فتنسب لها عقائد وآراء لا تعرفها ، وكثير من رجالها صامتون كأن الحديث مع غيرهم ، ثم يحرقون الأرم من غير طائل ، وليس من الصحيح هذا التسامح الذي جر ما جر من تباغض وشنآن ، وربما على ما خلف لنا علماء أمس رحمهم الله ، وزاد في الطين بلّة ، وربما تصبح الطريق بعد هذا زلقاً لا تصلح لسير الأقدام إلا بما لا يحمد ، كما كان في العصور السالفة ؛ وكان من الواجب أن يبادر إلى علاج هذه الناحية قبل فوت أوان العلاج ، والحرية الصحافية ضربت أطنابها في البلاد ، وخصوصاً في مصر ، فأعجب أن يُسأل صاحب المقتطف — مثلاً — عن الشيعة ، فيجيب عنهم بما يعلم — وهو معذور — ولا يرد عليه واحد منهم وهو لا يأبى عن ذلك ، ولا يأبى أن يزيد علمه فيهم . إذن بعد هذا لم لا أتقدم بنفسي لهذا الواجب ؟

هذا سؤال وجيه ، وعليّ أن أجيب عنه بكل صراحة وإخلاص : كم هناك من مباحث وددت كشف غطاء الحقيقة عنها — لو كنت من أهل ذلك — فأتقدم إلى القرطاس ، وأحاول أن أجرد قلمي من لحاء التعقيب لعقيدتي التي نشأت عليها ، وغُذيتها في لبن التربية ، لا طلب الحقيقة بالبرهان ، ولا أكون ممن يتطلب البرهان للعقيدة ، ولكن أجد محاولتي الباطلة ، فأبحث عن قلمي ، فأراه قد تألف من مجموع قشور ، وأخيراً لا أجد قلماً أحمله لأكتب به

وهكذا العقائد العامة ليس في وسع أحد أن يتجرد عن تبعتها مهما تخيل أنه سيذهب عنها ناحية ، ولا بد أن تنزله لحضيضها ، ويُرغم على غذائها ، فبما يكتب وفيما يعمل ، فترتكز عليها أقواله وأفعاله ، من حيث يدري ولا يدري ؛ وعلم النفس يصدقني — وعلى الأقل لا يكذبني — في هذه الدعوى

ولا أعتقد أن امرءاً استطاع أن يحرر نفسه من عقيدته ، ما دامت له عقيدة يستمسك بها ، أنبي الأستاذ « أحمد أمين » أم لم يأب !

ولكني أرجو أن يوفقنا الله في جهاد سورة النفس في تعصبها، وقمع غلوائها، فيما إذا اعتقدنا بعظم النتيجة وفائدتها للجميع؛ وعسى أن نصيب هدف الحقيقة بمدخين بهذه الحيلة؛ وهذا هو الذي يطمئنني أن أنزل إلى هذا الميدان الوعر المسالك، ومن ورائي جمعية (منتدى النشر) تقبض على ناصيتي

ولقد كانت وجهة نظري القاصر - ولا بد أن تعرفها من حديثي المتقدم ومقالي السابق - أن نفتح لنا باباً للتفاهم في أصل عقائدنا وصحتها - مهما كان في ذلك من الخطورة - فندخل في بحث علمي أو تاريخي، كسائر أبحاثنا العلمية والتاريخية، ونتلقى النتائج بصدر رحب، وذكرت في مقالي السابق: ما هي النقطة التي يجب اتباعها في البحث؟. وذاك هو الذي فهمته أيضاً من كلام الأستاذين محمد بك كرد علي واحمد امين في المرة الأولى، وعلى هذه النغمة جسست وتري، ومضيت مطرباً الى حد بعيد وحجماً «إن البحث العلمي لا يمنع التفاهم والوئام، بل هو إذا نظر اليه النظر الواسع العالي سبب من أسباب الألفة»

إلا أني بعد هذا وجدتك - أيها الأستاذ - تذهب بعيداً وتنتقل مفاجأة إلى حديث عقد مؤتمر بين الطائفتين في العراق، فماذا تقصد من المؤتمر؟ وعلى أي خطة ولأي غاية يجب أن يسير؟ هذا الذي بعد لم أحط به علماً، ونزولاً عند رغبتك أدخل في الموضوع ما انفتح لي بابه: - -

لا شك أن عقد مؤتمر بين الطائفتين - على أي وجه يكون - لا يمكن التوصل إلى تحقيقه، بمجرد تفكير واحد واقتراح آخر وتأييد ثالث، مهما كان المفكر والمقترح والمؤيد فلا بد أن يختمر في العقول بنقد ورد وبدرسه على جميع وجوهه حتى يستقر على فكرة واحدة ووجه واحد، ويعم صوته الاسماع النائية والقريبة، ويساهم في درسه العالم والسياسي، ويقتنع به ولاة الأمور - ولا بد من اقتناعهم أو إقناعهم - كعمل لا بد منه، ثم تنتهز الفرص للعمل على تحقيقه، ويُسعى باخلاص لتأسيسه، على سنة الارتقاء والتدرج، أو كما قال معالي العلامة الشبيبي

خواطري اليوم أقوالي ومعتقدي غداً وغرة أعمالي وراء غد

لقد سمعنا بحديث هذا المؤتمر وسعى بعض رجالات الطائفتين لتأسيسه، وسمعنا باختلاف التفكير في خططه، كل هذا سمعنا، واتضح لي مما سمعت ومما قرأت أيضاً أنه مازال أمنية لم تشبع درساً وتدقيقاً؛ وكل عمل كبير مثل هذا لا بد أن يكون كذلك وأكثر. فلنفرض أن المؤتمر انعقد في العراق، واجتمع أعضاؤه لدرس خططهم، فعمّ يتساءلون؟

يدرسون مذهب الشيعة وأهل السنة - وعلى الأصح مذاهب المسلمين - وأسباب الخلاف بينهم، كأجانب عن المذهبين، ثم يتفقون على الصحيح، أو قل: على جوهر الاسلام الحقيق الذي جاء به الرسول عن الله، ويطوحوا بالقشور ويعنا ألصق بالحنيفة إلصاقا - ولا بد أن يكون هناك لباب وقشور وحق وباطل لا محالة - ليحملوا الأمة الاسلامية جمعاء على الاسلام الصحيح، الذي يفهمه روح الاخلاص والبحث النزيه

حلم لذيذ! لو صدقناه لكنا خيرا منه ونعم الخلف الصالح. ولاسترحنا من آلاف الكتب التي ألفت في هذه الشؤون، وجرت على المسلمين الويل والثبور، وأضاعت من أوقات العلماء كل غال ونفيس درساً وتأليفاً، فصرفتهم عن كل عمل ينفع الأمة ويجر إليها المغنم، طيلة هذه القرون.

ولكن - بالله عليك - هل رأيت حلماً أكذب من هذا في أضغاث الأحلام، وأمنية أبعد منها في الأماني؟ كيف يتفق أولئك على الصحيح؟ وبماذا يحملون الرأي العام على اعتناقه؟ أبا لقوة يعتنق هؤلاء الدين الجديد عندهم؟ أم بالتقليد لأولئك النفر القليل؟ أم بطريق الحجة والاقناع؟ كلا! كل هذا ليس من السهل، أو ليس من المستطاع؛ وإذا جاز أن يقع مثله في أول الدعوة إلى الاسلام من نبينا وأصحابه، فليس من الجائز أن يقع في هذا العصر من مؤتمر يؤلف من علماء الطائفتين المتخالفتين في بؤرة الخلاف، وهل يصح أن نكتفي بهم وخدهم أو بالخاصة معهم - لو جاز أن يتفقوا - ونستغني عن اتباع السواد لهم

وأكبر الظن أني تياسرت عن الغرض في تأويلي هذا للمؤتمر المقصود، إذن فعمّ يبحثون؟

لنتركهم يعملوا لايجاد عوامل الالفة والصداقة الودية بين الفريقين، ولذبح النعرة الطائفية على أعتاب الاخوة الاسلامية

ليدخلوها بسلام آمنين ، ولتبق بعد هذا كل طائفة على عقيدتها وأعمالها ، كمذاهب أهل السنة فيما بينهم ، وكالشيعة لما يختلفون فى تقليد مجتهديهم ، وهناك تتجلى الكلمة الذهبية الخالدة : (إنما المسلمون إخوة)[1] ، وقوله عليه السلام : (المسلمون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً)[2] . وبنظر عندئذ المؤتمر فى دعوى من يدعى غمط حقوقه كمحكمة كبرى اسلامية ، ويأخذ على الأيدى العابثة من كتاب وغيرهم بالوسائل التى يختطها ويستطيعها

وظنى أن هذا المؤتمر هو الذى يرمى اليه اخواننا فيما فكروا وتحدثوا وكتبوا ، وهناك ملحوظات يجب ألا نغفل عنها :

هذه الدعوة إلى الاتحاد ونبذ النزعات الطائفية ، والتفرقة الشائنة ، هى إحدى الأسس القويمة التى بنى عليها الحكم الوطنى فى العراق - كما ذكرت فى مقالى السابق - ورؤساء الطائفتين يومئذ لم يقصروا فى توجيه الرأى العام نحو هذه الفكرة الجديدة التى لم يدع لها العهد التركى البائد مجالاً للظهور أو لبذرها فى العقول ، واستطاعوا فى أقصر وقت أن يكهربوا الفكرة العامة بتيارهم ، حتى إنك كنت تسمع الهتاف بالوحدة يبلغ عنان السماء فى جميع محافلنا ومجالسنا ، وكان الرجل يخشى أن ينبس بكلمة واحدة تشم منها رائحة الخلاف ، وعلى ذلك أعوام - أو أيام - مضت ، حتى تغير بعض النفوس ، وتبدل كثير من النوايا ، ولا ندرى لماذا كان ؟ ! وهل يجوز أن نقول لا ندرى ؟ لا أدرى !

واليوم - بحمد الله - تجد الحال كما هى ، لم تتبدل تلك الظاهرة المحبوبة ؛ ولكنها فقاقيع على الماء من ارتفاع درجة الحرارة ، وليست هى كل الماء - كما يقول الأستاذ أحمد أمين - أو ليس وجودها إلا لتظهر فقط لا لتنفع - كما يقول الأستاذ الرافعى - لأن هذه الظاهرة احتفظت بها السياسة وجدها واكتفت بها ، ولم تأخذ بها الأمة عن طريق الرغبة فيها ، والاقتناع بضرورتها وثمراتها ، فى حين أن الدعوة إليها قد تضاءل نبراسها إلى حد كاد معه ينطفئ ، وما أدل على هذا من أن السنى الداعى إلى الوحدة يصبح متشيعاً فى نظر أصحابه ، والشيعى الداعى إلى الوحدة يصبح سنياً فى دعوى اخوانه ، وهذا ذنب كبير عندهم لا يغتفر !

ولذلك يسود الاعتقاد اليوم أن الدعوة الأولى كانت كلها خداعاً فى خداع ؛ ومن رجالنا من لا يزال مستمسكاً بها إلى اليوم ، فينسب إلى غفلة أو سذاجة ، وهذا هو الداء الدوى.

فاذا أردنا أن نؤلف هذا المؤتمر فى العراق ، فانما نريد أن نعيد تلك الكرة لتنفق المزة ، وقد لاقت فى مبدأ الأمر سوقاً رائجة ، ثم كسدت تلك السوق ، وبيع فيها الرأى العام بأبخس ثمن ، وبدراهم معدودة ؛ ومن الصعب جداً أن نعمل عملاً مجرباً بتشاؤم منه ؛ واعتقد أنه سيكبد القائمين مجهوداً كبيراً من هذه الناحية ، ويحتاج إلى زمن ليس بالقصير ، لتحوير الأفكار ورسوخ العقيدة من جديد ، تتخلله الدعاية الواسعة من القادة وذوى العقول المخلصين : وتقريباً للمسافة أجد من الضرورى أن تنضج هذه الفكرة خارج العراق أولاً ، ثم تدخل العراق لتستطيع أن تهضمها الأفكار بسهولة

ومن المرجح أن هذا المشروع لا يلاقى الفشل بعد تشكيله فى هذه المرة إذا كان القائم به مؤتمرا منظما يبنى على أسس متينة ونظم واضحة ، وإذا كان مؤسسو المؤتمر يحملون فى حقائبهم إخلاصاً صادقاً وعقيدة ثابتة ووطنية صحيحة ، والعراق فى دور الاستقلال ، وما فشل لأول مرة إلا لأنه كان عملاً فوضوياً اندفع إليه المجتمع كسائر اندفاعاته التى لا يقودها العقل والرأى - على حسب قانون المجتمعات - فاستغلته السياسة الوقتية ، ثم لعب أهل الأغراض والمطامع ومن خلفهم الاستعمار أدوارهم - وبالطبع يتلاشى هذا الظل بعد حين ، متى طلعت الشمس ولا بد أن تطلع - ، ولا مؤتمر مسئول ولا جمعية مخلصة تحاسب الناس على أعمالهم

النجف الأشرف — محمد رضا المظفر

(١) كذا (٢) كذا

قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور احمد زكي

وكيل كلية العلوم

كوخ KOCH

رابع غزاة المكروب

يكتشف مكروب السل

بدت لكوخ طلائع النجاح ، فقضى أشهراً يؤكده بالعمل المتواصل ، والتفصيل المُملّ ، والصبر النادر ، والدقة المتناهية ، والحذر البعيد . تجد كل ذلك منه إذا أنت قرأت تجاربه المتكررة العديدة في تقريره التاريخي عن داء السل ، وقد ولد من هذه البشلات ثلاثاً وأربعين أسرة مختلفة ، ولدها على فالوذج المصل في أنابيبه المائلة من القردة والسلاوة والفئران والخنازير الغينية الذليلة .

ولم يستطع توليدها إلا من حيوانات أصابها السل أو ماتت من جرائه ، وقضى أشهراً يرعى تلك القبيلة الصغار رعى الحاضن ولدها ، وكان أكبر همه ألا يدخلها من أخلاط المكروبات الضالة شيء .

قال كوخ : « والآن إذ ولدت بشلاتى هذه خالصة ، فلم يبق لي إلا أن أحقنها في خنازير غينية سليمة ، بل في كل نوع من حيوان سليم . فاذا أصابها السل علمتُ علم اليقين أن هذه البشلات ضرورة لازمة لاحداثه ، وأنها علته التي لا شبهة فيها »

وقام كالمجنون الذي ركب رأسه لفكرة ملكت عليه منافذ السُّبُل ، فقلب معمله فصار أشبه شيء بحدائق الحيوانات ، وأصبح يتجهّم للناس ويتهكم بزوّاره المتشوفين لما عنده حتى صار غولاً ألمانياً صغير الجرم حقوداً ، وعقّم عشرات المحاقن وحده ، وزوّدها بمكروبه الأحدب من زريباته التي على فلاذج أمصاله بعد أن دافه بقليل من الماء ، ثم أطلق هذا المكروب من هذه المحاقن كالسهام في جلود الخنازير والأرانب والدجاج والجرذان والقردة والفئران . ثم زمجر فقال : « لا يكفي هذا .

فلا بد من إطلاق هذا المكروب في أنواع من الحيوانات لا يُعرف أن السلّ أصابها أبداً » ، وخرج عن ألمانيا يطوف البلاد فجمع لمعمله ، ثم عاد فحقن بشلاته ، المزرّقة عليه الشديدة على غيره ، في سلاحف وعصافير وخمس ضفادع وثلاثة من ثعابين الماء

وفي نوبة ذهب فيها عقله شاء أن يتمم تجربته الغريبة بحقن مكروبه في سمكة مرجان goldfish

ومضت أيام تلو أيام ، وتلاحقت الأسابيع ، وفي كل يوم منها ذهب كوخ إلى (ورشته) في الصباح واتجه تواً إلى أقفاصه وجراره التي احتوت هذه الحيوانات الخطيرة . أما سمكة المرجان فظلت تفتح فاها وتغلقه وهي تعوم عوم الوادع الآمن في طاسها الكبير ذي البطن العظيم . أما الضفادع فظلت تنق نقيق من لا يأبه لشيء . وأما ثعابين البحر فكانت على عهدها نشيطة رشيقة في انزلاقها على الماء ، وأما السلاحف فكانت تخرج رأسها أحياناً من بيتها العظم وتطرف بعينها لكوخ كأنها تغمز به وتقول : « إن مكروبك يا سيدي المزرّ غذاء صالح لنا ، فهل لديك من مزيد ؟ »

سلمت هذه الحيوانات من محاقن كوخ ، ولا عجب ، فهي في حياتها العادية منيعة على السلّ . أما الخنازير الغينية فأخذت تميل ثم تتساقط على جنوبها تتلهف على الهواء وتستدر الرحمات ثم تموت وقد براها السل برياً شديداً

والآن وقد أتم كوخ آخر حلقة من البرهان الذي أراده ، تهيأ ليعلن للدنيا أن البشلة التي هي سبب السل الحق قد اصطيدت ، قد اكتُشفت ! وما كاد يهمّ بالاعلان حتى خطر له أن للبرهان ذيلاً لا بد من إتمامه . قال : إن الناس لا بد آخذة هذه البشلات استنشاقاً مع تراب الهواء ، أو لعلهم آخذوها من المسلولين إذ يسعلون . فليت شعري أتأخذه الحيوانات السليمة بهذه الطريقة أيضاً ؟ » وما عتّم أن قلّب وجوه الحيلة لاجراء هذه التجربة الخطرة . وارتأى أن يرش البشلات رشاً في وجوه الحيوانات . وتلك مخاطرة من دونها فتح أبواب السجون لعشرات الألوف من القتلة السفاحين

ولكن كوخ كان مشبعاً بروح الصيد ، فعرف أنه لا بد له من مواجهة الأخطار التي لا مندوحة للصيّاد عنها . فصنع صندوقاً كبيراً في الجنينة ووضع فيه الخنازير الغينية والفئران

والأرانب . وأوصل من شباك معمله خرطوماً ينتهى طرفه فى الصندوق برشاشة . وقعد هو فى معمله عند طرف الخرطوم الآخر يحرك مضخة ينبعث من تحريكها فى الصندوق ضباب من البشلات قتّال يستنشقه ما فى الصندوق من حيوان ، وقام كوخ يحرك المضخة نصف ساعة كل يوم طيلة ثلاثة أيام . وعند فوات عشرة أيام وجد ثلاثة من الأرانب تتنفس سريعاً فى طلب هذا الهواء الغالى الذى عجزت رئاتها المريضة عن إعطائها إياه . ولم تمض خمسة وعشرون يوماً حتى كانت هذه الخنازير قامت هى أيضاً بنصيبها المتواضع من هذه المأساة المجيدة فمات الواحد تلو أخيه مسلولا

ولم يذكر لنا كوخ كيف صنع لاخراج هذه الحيوانات من صندوقها وقد عمّه وعمّها الوباء ، ولم يحدثنا ما الذى صنعه بهذا البيت الصغير الذى بناه بعد أن ابتلت حيطانه بهذا الرشاش الفتاك . ولعمرى لقد أضاع هذا البحّاثة الهادئ المتواضع بصمته عن ذكر هذا فرصة ثمينة لمن همّه الفخر وطلب المباهاة

(يتبع) أحمد زكى

شعراء الدبياجة

أدب البارودى وشعره

بمناسبة انقضاء مائة سنة على مولده

للأستاذ أحمد الزين

تتمة

أما شاعرية البارودى فقد قدمت لك أنها صياغة عصور غابرة ، ووليدة بيئات منقرضة ، إذ لم يسبق بنهضة أدبيّة نما فيها ذوقه العربىّ ، ولم ينشأ فى بيئة عربية ترعرع فيها فنه البيانىّ ؛ بل كان هو باعث تلك النهضة بعد أن لم تكن ، ومطلع ذلك النور بعد أن خبا ، والمجلى فى حلبة البيان الذى لم يسبقه أحد قبله وجاء على أثره من بعده ، ومكوّن تلك البيئة بعد أن كانت مصر قبله وفى صدر من عهده ممحلة من الأدب والأدباء والشعر والشعراء إلا القليل ممن لا يعتد بشعرهم ، ولا ينبغى أن تسجّل أسماؤهم فى الشعراء إلا تسجيلا تاريخيا لمن أراد أن يكتب سجلا جامعاً ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها

إلا أن تلك النهضة التى بعثها من مرقدها لم تكن نهضة تجديدية فى الأفكار والمعانى ؛ وتلك الوثبة التى وثبها لم تكن وثبة انقلابية فى تصوير ما حوله من المشاعر والاحساسات ؛ وهذه الخطوة التى خطاها لم تكن خطوة تطوّريّة فى مسايرة روح العصر وتوجيهه إلى ما يريده الشاعر لأمته وبلاده من المثل الأعلى فى الآمال والأغراض ؛ بل كانت نهضة بيانية لا أكثر ، متعلقة بجودة العبارات ، واختيار الألفاظ ، وإحكام النسّج ، ومتانة التركيب ، والجرى على مذهب القدماء فى الفخامة والجزالة ؛ فلا تكاد ترى فى شعره ما يعبر عما حوله من أحاسيس أمته وأوطانه ، إلا القليل مما تراه منتثرا فى ديوانه ؛ وسبب ذلك يرجع إلى أن شاعريته كما قدمتُ لك من صياغة الكتب والدواوين ، وصناعة هؤلاء الشعراء المتقدمين ؛ فكان يعيش بشعره فى عصر غير عصره ، وكان أشبه بالعاشق المولّه الذى يجالس القوم بجثمانه ، ويكلمهم بلسانه ، وهو مع معشوقه وسالب لبّه بروحه ووجدانه .

وهنا ينبغى أن نشير إلى مخالفتنا لما رآه بعض كتاب النقد فى شعر البارودىّ ، فقد قسّم الشعر إلى أربعة أقسام ، وهى شعر التقليد الضعيف ، وشعر التقليد القوى ، وشعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحريّة القوّمية ، وشعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحرية الفردية ؛ وذكر أن شعر البارودى فى طليعة النوع الثالث ، وهو شعر الابتكار الذى يوحيه الشعور بالحرية القومية

وعندى أن شعره لا يعدو النوع الثانى من هذه الأنواع الأربعة ، وهو شعر التقليد القوى ؛ وهذا هو سر شغفه بمحاكاة الفحول من شعراء المتقدمين ومعارضتهم فى مشهورات قصائدهم كأبى نواس ، والشريف الرضى ، وأبى فراس ، والبوصيرى ، وغيرهم ؛ وفى رأيى أنه لم يبلغ أحدا من هؤلاء ، وإن كان قد قاربهم بعض المقاربة ، وذلك لأنه مقلّد ، والتقليد كما تحدثتُ اليك من قبل أضعف من الأصل مهما يبالغ المقلد فى إحكام المشابهة وإتقان المحاكاة . وإنك لتقرأ القصيدة من شعره فلا توقظ عاطفة من عواطفك ، ولا تحرك شجناً من أشجان نفسك ، ويخيّل لك أنك سمعتها قبل ذلك عدة مرات ؛ والحق أنك قد سمعتها ، فان لم تكن قد سمعتها بألفاظها ، فقد سمعتها بمعانيها

فى شعر العباسيين وغيرهم من المتقدمين ، حتى أن قصائده التى قالها فى صفة الحروب وأهوالها ، والميادين وأبطالها ، وافتخاره بالإقدام إذا حمى الوطيس واشتد الخوف وجاشت نفس الجبان لا تراها تتميز إلا فى القليل النادر بمعان جديدة وأفكار مستحدثة عن شعر المتقدمين فى صفة ذلك ، حتى إنك لو لم تعرف أن قائل هذا الشعر هو البارودى لحسبت أنه شاعر عباسى يصف إحدى غزوات الرشيد أو المأمون فى خراسان أو فى بلاد الروم . وإلا فأى جديد مستحدث يلفت ذهنك اليه ، ويجتذب قلبك نحوه ، تراه فى قوله :

فلا جو إلا سمهرى وقاضب ... ولا أرض إلا شمرى وسابح

تراها بها كالأسد ترصد غارة ... يطير بها فتق من الصبح لامح

فلست ترى إلا كماة بواسلا

وجرداً تخوض الموت وهى ضوابح

نغير على الأبطال والصبح باسم ... ونأوى إلى الأدغال والليل جانح

بكى صاحبى لما رأى الحرب أقبلت ... بأنيابهـــا واليوم أغبر كالح

ولم يك مبكاه لخوف وإنما ... توهم أنى فى الكريهة طائح

فقال اتئد قبل المنيال ولا تكن ... لنفسك حرباً إننى لك ناصح

ألم تر مفقود الدخان كأنما ... على عاتق الجوزاء منه سرائح

وقد نشأت للحرب مزنة قسطل

لها مستهل بالمنيـــة راشح

فلا رأى إلا أن تكون بنجوة ... فإنك مقصود المكانة واضح

فقلت تعلم إنما هى خطة ... يطول بها مجد وتخشى فضائح

فقد يهلك الرعديد فى عقر داره

وينجو من الحتف الكمى المشايح

الخ . . . . . .

وقد كان ينبغى أن يتميز شعره فى صفة الحرب عن شعر المتقدمين ، ولا يحاكيهم فى كثير ولا قليل من معانيهم فيها ، وذلك لما باشر من وقائعها ، وخاض من غمراتها ، وتمرض لمخاوفها ، ولما امتلأت به نفسه من حبها ، والتمدح بالاسراع اليها ، ولما تميزت به الحروب فى عصره عن الحروب فى العصور الماضية ، واختلفت فى صورها وآلاتها وترتيبها عن الحروب أيام تقسيم الغزاة إلى شاتية وصائفة .

ومما يعاب على البارودى ويؤاخذ به قلة شيوع الشعور الوطنى والاحساس المصرى فى شعره ، وخلو قصائده إلا فى القليل النادر من العاطفة القومية ، وإنما استثنيت القليل النادر لما له فى ذلك من القصائد اليسيرة التى قالها وهو فى منفاه بسرنديب كقوله من قصيدة :

هل من طبيب لداء الحب أو راق

يشفى عليلا أخا حزن وإيراق

قد كان أبقى الهوى من مهجتى رمقا

حتى جرى البين فاستولى على الباق

وفيها يقول :

يا روضة النيل لا مستك بائقة ... ولا عدتك سماء ذات اغداق

ولا برحت من الأوراق فى حلل

من سندس عبقرى الوشى براق

يا حبذا نسم من جوها عبق

يسرى على جدول بالماء دفاق

مرعى جيادى ومأوى جيرتى وحمى

قومى ومنبت آدابى وأعراق

أصبو اليها على بعد ويعجبنى

أنى أعيش بهـــا فى ثوب إملاق

وكيف أنسى دياراً قد تركت بهـا

أهلا كراماً لهم ودى واشفاق

فيـــا بريد الصبا بلغ ذوى رحمى

أنى مقيم على عهـــدى وميثاق

وأنت يا طـــائراً يبكى على فنن

نفسى فداؤك من ساق على ساق

أذكرتنى ما مضى والشمل مجتمع

بمصر والحرب لم تنهض على ساق

الخ . . . .

ولعل السر فى عدم شيوع ذلك الشعور فى شعره وقلة ظهور هذه العاطفة فى قصائده يرجع إلى أنه سليل عائلة من الأتراك الذين يرون أن سيادتهم فى مصر لا تتم إلا بالترفع عن مخالطة أهلها ، وعدم مشاركتهم فيما يشعرون به من آلام وآمال ، ويرون أن الاتصال بطبقات الشعب تسلم فى عزتهم ، وانتقاص من سيادتهم

واليك طرفاً من قصيدته التى استقبل بها مصر حين عاد من منفاه، قال :

أبابلُ رأىَ العين أم هذه مصر ... فانى أرى فيها عيوناً هي السحر
نواعسُ أيقظن الهوى بلواحظ ... تدين لها بالفتكة البيض والسمر
فان يك موسى أبطل السحر مرة ... فذلك عصر المعجزات وذا عصر
بنفسي وإن عزت علىّ ربيبة ... من العين فى أجفان مقلتها فترُ

الخ .. ..

فأنت ترى أنه لم يزد فى استقبال وطنه على ذكر ما فيه من الجمال النسوىّ الشائع بين جميع الأمم ، والمشترك بين مختلف الشعوب ، ولم يقل فى قدومه إلى مصر إلا ما يقوله قادمٌ على أىّ بلد من البلاد المشهورة بهذا النوع من الجمال ، وإن لم يكن وطنه . ثم أنظر هذا الاحساس الوطنيّ المتدفق ، والعاطفة المصرية الفياضة فى قصيدة شوقى التى استقبل بها مصر حين عاد من منفاه بالأندلس ، إذ يقول :

ويا وطني لقيتك بعد يأس ... كأنى قد لقيتُ بك الشبابا
وكلٌّ مسافر سيؤوب يوماً ... إذا رُزق السلامةَ والايابا
ولو أنى دُعيتُ لكنت ديني ... عليه أقابل الحتم المجابا
أدير اليك قبل البيت وجهى ... إذا فُهتُ الشهادة والمتابا
هدانا ضوءُ ثغرك من ثلاثٍ ... كما تهدى المنوّرةُ الركابا
وقد غشّى المنارُ البحر نورا ... كنار الطور جلّلت الشعابا
وقيل : الثغر ، فاتأدت ، فأرست ... فكانت من ثراك الطهر قابا

وقوله وهو فى منفاه أيضا :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني اليه فى الخلدُ نفسى
وهفا بالفؤاد فى سلسبيل ... ظمأ للسواد من (عين شمس)
أحرامٌ على بلابله الدوْ ... ح حلال للطير من كل جنسِ
كل دار أحق بالأهل إلا ... فى خبيث من المذاهب رجس

وهنا قد يخطر بذهنك أن تسأل عن العوامل المؤثرة فى شعر شوقى هذا الأثر الظاهر ، وميزته عن شعر البارودى هذا التميز الواضح ، وجعلته فياضاً بهذه العاطفة القومية ، مفعما بتلك الاحساسات الوطنية ، فلا تكاد تقرأ قصيدة من قصائده خالية من ذكر مصر والفخر بماضيها ، والألم لحاضرها والأمل القوي فى مستقبلها ؛ ولا تبعد عن الحق كثيراً إن قلت إن شوقى لم يجد إجادة تامة إلا في هذه الأغراض ؛ وأقول فى جواب هذا السؤال إن سر ذلك يرجع إلى مخالطة شوقى لزعماء الوطنية المصرية وصلته القوية بهم ، وحرصه على توثيق أسباب المودة بينه وبينهم ، وملازمته لمجالسهم بالليل والنهار ، فلا عجب إن شاركهم بعد ذلك فى الآراء والأفكار ، وشاطرهم فى الآمال والأوطار . . .

أضف إلى ذلك خدمته الطويلة للخديو السابق عباس الثانى ؛ وقد كان من كراهته للمحتلّ الغاصب ، وحبّه الاستقلال بالسلطة والانفراد بالحكم ، ما هو معروف مشهور

وهذا جواب إجمالىٌّ أرجىءُ تفصيله إلى فصل آخر عند الكلام على شاعرية شوقى ؟

أحمد الزين

سكان أعالى النيل

بقلم رشوان احمد صادق

يسكن أعالى النيل ثلاث مجموعات أساسية تتفرع منها عدة مجموعات أخرى فرعية :

١ ـ المجموعة النيلية ، ويطلق عليهم اسم Nilotes ، وهم خليط من الزنجى والحامى .. نشأ هذا الخليط بالقرب من شرق البحيرات الكبرى فى شرق أفريقا ثم نبعت منه شعبتان :

الشعبة الأولى هي جماعة الدنكا وقد اتجهت شمالا ثم تكون منها الدنكا والنوير الجاليتان

والشعبة الثانية اتجهت شمالا أيضا ونتج عنها القبائل التى تتكلم اللهجة الشلك مثل جماعة الشلك والليو والانواك

وهذه المجموعة تشغل أقاليم بحر الغزال وبحر الجبل وبحر الزراف والسوباط وجزءا من النيل الأبيض . أما مميزات هذه المجموعات الجنسية فهى قامة بائنة الطول ، وراس مستطيل ، وبشرة سوداء جدا ، وشعر مجعد ؛ فهم يختلفون عن الزنجى البحت وكذلك عن الحامى البحت

أما جماعة الأشولي الذين يتكلمون لهجة الشلك فرؤوسهم مستديرة ، وذلك يرجع الى تأثرهم جنسياً وثقافة بعنصر مستدير الرأس جاء من الغرب إلى الشرق والتقى بهم أثناء هجرتهم من موطنهم الأصلى

٢ ـ المجموعة الحامية النيلية Nilo hamites مثل البارى واللوتوكو وغيرهم ، وهم يشبهون النصف حاميين half hamites الذين يوجدون فى شرق أفريقا وفى شرق أفريقا الوسطى ، ويكثر وجودهم فى مستعمرة كينيا واوغندا حتى حدود السودان وشمال تنجانيقا . وهم أيضا خليط من الحامى والزنجى ، غير أنه يظهر تغلب الجنس الحامى فى تكوينهم خصوصا من حيث التقاطيع مثل الأنف ولو أن البشرة سوداء اللون . ولقد تأثروا أيضاً بالهجرات المستديرة الرأس الآتية من الغرب إلى الشرق ، ولكن هذا التأثير كان ثقافيا لا جنسياً

٣ ـ مجموعة زنجية مستديرة الرأس لونهم أخف من لون النيليين وقامتهم أقصر . كانت أما كنهم بحيرة تشاد ، ثم هاجروا جنوبا إلى افريقا الاستوائية الفرنسية ، ثم شمالا إلى خط تقسيم المياه بين الكنغو والنيل . وأهم هذه المجموعة الازندى ، ويسكنون فى أعالى بحر الغزال الآن

وبعض العلماء يظن أن لونهم الفاتح يرجع الى اختلاطهم بجماعة البربر أو بعض الحاميين

خريطة تبين سير الهجرات
(للأستاذ سليمان)

ولقد اشتهر سكان هذه الجهات ومعظم سكان أفريقا — سواء الزنجى البحت أو الخليط — بحب اللهو والطرب والرقص وكثرة شرب الخمور . ولقد تبارى العلماء فى تعليل هذه الظاهرة التى تكاد تعم معظم بقاع افريقا

فابن خلدون يرجع ذلك إلى عوامل مناخية إذ يقول :

« من خلق السود على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب ، فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، موصوفين بالحمق فى كل قطر ؛ والسبب الصحيح فى ذلك أنه تقرر فى موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هى انتشار الروح الحيوانى وتفشيه ، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه . وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار ، مخلخلة له زائدة فى كميته ، ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور مالا يعبر عنه ، وذلك بما يداخل بخار الروح فى القلب من الحرارة الغريزية التى تبعثها سورة الخمر فى الروح من مزاجه فيتفشى الروح ويجئ طبيعة الفرح . وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا فى هوائها واتصلت حرارة الهواء فى أرواحهم فتسخنت ، لذلك حدث لهم فرح ، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور . ولما كان السودان

سا كنين فى الاقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفى أصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم بالقياس إلى أرواح أهل الاقليم الرابع (المعتدل) أشد حرا ، فتكون أكثر تفشياً ، فتكون أسرع فرحا وسرورا وأكثر انبساطاً ، ويجيء الطيش على أثر هذه . وتتبع ذلك فى الأقاليم والبلدان تجد فى الأخلاق أثرا من كيفيات الهواء والله الخلاق العليم ...»

ولقد حاول كثير من العرب تعليل حب هؤلاء الأقوام للخمر واللهو والرقص ، ومن هؤلاء المسعودى الذى ينسب ذلك إلى ضعف عقليتهم ، كذلك يعقوب بن اسحاق الكندى ذكر ذلك التعليل الذى ربما يكون المسعودى قد نقله عنه

كذلك ذكر هذا الرأى جالينوس كما يقول ذلك ابن خلدون

وربما كان ذلك راجعا إلى قلة العمل وطول الوقت ، ولذلك يلهو الزنجى بمثل هـذا النوع من الطرب . وربما يرجع حب الزنجى للرقص والخمر الى التغلب على مناخ بلاده الذى يدعو إلى الكسل والخمول . كما يستعمل الأوروبى مثلا المسكرات للتغلب على البرد فى بلاده . ويقول نعوم بك شقير فى كتابه تاريخ السودان : « وهم مولعون بالرقص ولعاً شديدا ، ولكل قبيلة منهم رقصة خاصة يرقصها الرجال والنساء على أصوات الآلات الموسيقية . وقد رأيت جماعة من رجال الشلك يرقصون رقصة حربية فى الخرطوم أيام تشريف الخديو للخرطوم ، وقد لبسوا شعورهم على أشكال غريبة وزينوها بالريش والخرز وصبغوا جفونهم بصباغ أبيض مشرب حمرة ، ولبسوا أساور العاج والنحاس فى أيديهم ، والجلود أو الخرق فى أصلابهم ، وحملوا الحراب والنبابيت فمثلوا فى رقصهم واقعة حربية وقفوا فيها صفين يهاجم أحدهما الآخر ، وهم يقفزون كالقردة ويصيحون كالذئاب ، وهم يهزون رماحهم وعصيهم فوق رؤوسهم ، ويغنون أغانى لا تلحين فيها ، ويصوتون بالقرون أصواتاً مزعجة تصم الآذان ؛ وبالاجمال لم يكن فى رقصهم طرب بل دل على الهمجية والخشونة »

وقد اشتهر الزنجى بجودة الرقص خصوصاً فى عهد قدماء المصريين إذ استخدموا الأقزام لرقص الآلهة . وكثيراً ما نرى الآن فى موسيقى الجاز الأوروبية الراقصة أن يستخدم الزنجى للعزف . كما اشتهر بعض الزنوج نساء ورجالاً بالرقص الأوروبى

الزنوج النيليون Nilotes

النوير

لم يتأثروا بالحكم الأوربى لأن أماكن سكناهم تجعلهم فى عزلة إذ يتعذر اجتياز بلادهم فى فصل الأمطار لكثرة المستنقعات كذلك فى فصل الجفاف . لذلك لم يحاول جيرانهم الاعتداء عليهم ، كما أن العرب الذين عرفوا هذه الجهات قديماً اكتفوا بانشاء محطات تجارية على المجارى الرئيسية . ولم تهتم بهم الحكومات الأوربية إلا منذ أربع سنوات عندما قاموا ببعض الاضطرابات . وكان لهذه العزلة الأثر الأكبر فى عدم قبولهم الاختراعات الحديثة ، وعدم تغييرهم لنظامهم الاجتماعى ، كذلك لم يتأثروا بالمسيحية ولا بالاسلام ؛ وتجد الحكومة صعوبة فى جباية الضرائب منهم أو ارغامهم على العمل

وتنقسم السنة عندهم إلى قسمين تبعاً لتغير الانتاج الزراعى الذى يتوقف على هطول الأمطار . فمن ابتداء شهر مايو تهطل الأمطار وتستمر كذلك حتى أواخر نوفمبر ، فتمتلئ الأنهـار وتكثر الأخوار . ولما لم يكن هناك تصريف على السطح فان هذه المياه تتجمع على شكل مستنقعات تقوم فى وسطها عدة قرى فى الأراضى المرتفعة . وفى هذا الفصل تكون الماشية على مقربة من هذه القرى لكى يمكن ايوائها مساء فى الأماكن المخصصة لها لحمايتها من شر البعوض . كذلك يتمكن النوير فى هذا الفصل من زراعة بعض الذرة . وفى شهر ديسمبر تبدأ الأمطار فى القلة ، ولذلك تساق الماشية الى

خريطة توزيع القبائل
(عمل الأستاذ رتشارد)

أماكن بعيدة عن القرى في الجهات الغابية حيث ترعى هناك، وبعد أن يجمع المحصول في القرى ترجع الماشية الى القرى لتأكل بقايا النباتات؛ ثم بعد ذلك يحل فصل الجفاف

وأهم شيء في حياة النوير خاصة، والزنوج النيليين عامة، هو الماشية، فمنها يأخذون اللحم واللبن، وجلودها تستعمل فراشاً، وروثها يستعمل وقوداً، والرماد المتخلف يتخذ لدلك الجسم لحمايته من البعوض، ويصنع منه مسحوق للاسنان والشعر، وقرونها تستعمل ملاعق، وذيلها للزينة. والرجل الغني عندهم هو الذي يملك ماشية، فهي تقوم مقام الصداق في حفلات الزواج، ولذلك كان النويري شديد الاهتمام بتنمية القطيع من الماشية، لأنه مهم من حيث الزواج. والرجل عندما يريد الزواج لا بد أن يوزع عشرين رأساً من الماشية على أهل زوجته ولا بد من إهداء عشرة رؤوس لأقارب والدة عروسه، وعشرة أخرى لأقارب والد عروسه، فمن اللازم أن يأخذ القطيع في الزيادة حتى يصل الى خمسين رأساً من الماشية. فاذا تزوج ابن فلابد أن يظل بقية الأبناء بدون زواج حتى يأخذ القطيع في الزيادة إلى أن يستعيد عدده قبل الزواج. فالزواج حسب الترتيب: الأكبر فالذي يليه وهكذا. وعلى نساء الأبناء الكبار أن يقمن بطهي الطعام وحلب الماشية للاخوة الذين لم يتزوجوا بعد؛ كذلك تستعمل الماشية في دفع الديات والتعويضات. والنويري يعتبر القتل كالزواج، أي أن الرجل اذا قتل شخصاً من عائلة أخرى كان كأنه تزوج فتاة من هذه العائلة؛ وذلك على قاعدة أن هذه العائلة ستفقد فردا منها في حالة الزواج أو في حالة القتل. فعلى القاتل أن يعطي عائلة المقتول عشرين رأسا من الماشية: عشرة منها توزع على أقارب والد القتيل، وعشرة أخرى توزع على أقارب والدة القتيل. والفكرة في ذلك أن عائلة القتيل تحتفظ بهذه الماشية التي أخذتها دية لكي يمكنها أن تحصل بواسطتها على زوجة للرجل الميت لكي تلد هذه الزوجة ابناً يحل محل أبيه. وهذه الزوجة بعد الحصول عليها تعيش مع زوجة الرجل المقتول، والابن الذي يولد لها يعتبر كأنه للرجل المقتول.

يتبع — رشوان أحمد صادق

الاشتراك المجاني في الرسالة

لدخولها في سنتها الرابعة

(١) ابتداء من أول يناير سنة ١٩٣٦ إلى ٣١ منه سيكون الاشتراك في الرسالة على النحو الآتي:

قرش صاغ	
٥٠	في مصر والسودان
٤٠	لطلاب العلم ولرجال التعليم الالزامي
٦٠	في البلاد العربية بالبريد العادي
٥٠	لطلاب العلم في البلاد العربية بالبريد العادي

(٢) إذا دُفع الاشتراك المخفض في أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ أُهدي إلى المشترك مجموعة من السنة الثانية أو مجموعة من السنة الثالثة؛ وثمن كل منهما ستون قرشاً مصرياً. وأجرة البريد على المشترك، وقدرها خمسة قروش في الداخل، وعشرون قرشاً في الخارج

(٣) إذا دُفع الاشتراك الكامل في أثناء شهر يناير سنة ١٩٣٦ وقدره ستون قرشاً في مصر، وثمانون في البلاد العربية، أُهدي إلى المشترك نسخة من كتاب (ضحى الاسلام) أو (فجر الاسلام) للأستاذ أحمد أمين، أو من كتاب (وحي القلم) للأستاذ الرافعي، أو من كتاب (تاريخ الأدب العربي) للأستاذ الزيات؛ أو كتابان يختاران من الكتب الآتية: آلام فرتر، رفائيل، في أصول الأدب، للاستاذ الزيات؛ قصة المكروب، مرجريت، للدكتور أحمد زكي؛ مواقف حاسمة في تاريخ الاسلام، قصص اجتماعية، للأستاذ عنان وأجرة البريد على المشترك وقدرها عشرة قروش في الداخل، وعشرون قرشاً في الخارج

(٤) يقبل الاشتراك الكامل والمخفض أقساطاً من طلاب العلم ورجال التعليم الالزامي، ولا يقل القسط عن عشرة قروش ولا تعطى الهدية إلا مع القسط الأخير

اندفاعات

للشاعر الفيلسوف جميل صدقي الزهاوي

يعيش القريعُ الحرُّ في البلد الحرّ ... فبالخير يجزي الخيرَ والشرَّ بالشرّ
ويزري بعادات يراها مضرّة ... وأمّا بما فيه انتفاعٌ فلا يزري
وأكثِرْ بمغترّ بما كان ظاهراً ... وأقلِلْ بمن قد كان ليس بمغتر
بمجتمع حرّيةُ الفكر عنده ... وما عنده حُريةُ القول والجهر
ولم يك أسراً منع حُرّية الورى ... ولكنه شرٌّ عليهم من الأسر
وما خيرُ أرض هان فيها ذوو الحجا ... وذو الأفن موصول الكرامة والقدر
تحمّلتُ أعباء الحياة ثقيلة ... فكانت كأخت الموت قاصمة الظهر
يعادونني من أجل تركي لمدحهم ... ومَن كان حُراً عاش للأدب الحُر
ومالي وثوق في العراق بصاحب ... مع المدّ يأتيني ويمضي مع الجَزْر
لقد نسبوا لي الوزرَ فيما أقوله ... وهل مُثقِلٌ غيري إذا صدقوا وزري
وللكفر والإيمان تجمع لحمةٌ ... وقد شرب الايمان من منبع الكفر
ولو كنتُ أدري ما ألاقي من الأذى ... أخذت من الأيام قبل الأذى حِذري
أعاتب أيامي على ما أصابني ... وما في يد الأيام شيء من الأمر
ولستُ إذا لاقيتُ مكراً بناكص ... ولكنني أستقبل المكرَ بالمكر
إذا رمتَ أن تلقى من الناس حرمةً ... فكن سيداً للخير أو سيد الشر
وإن الفتى الخوّار في حومة الوغى ... إذا لم يمت بالسيف مات من الذعر
وليس يردّ العسكرَ المجرَ غازياً ... لمملكة مُثلي سوى العسكر المجر
وما أنس لا أنس الشبابَ فانه ... على ما به من خفة غرّةُ العمر
صبوتُ إلى غُرّ الوجوه مُتيماً ... ومَن كان لا يصبو إلى الأوجه الغُرّ؟
وإني ليعروني اضطرابٌ لذكرهم ... كما اضطرب العصفور في مخلب الصقر
وإني كسار ضلّ ليلاً طريقه ... بمذأبة خرقاء أو مهمهٍ قفر
ذكرتُ شباباً كان لي في زمانه ... سوابق آثام فأخجلني ذكري
أثمتُ وبالطيش اعتذرتُ مُبرِّراً ... وأكبرُ من إثمي الذي جئته عذري
ألامُ على حبي لدنياي هذه ... وما حيلتي إن كان قلبي بها يغري
صحوت غداة الشيب من سكرة الصبا ... ويارُبّ صحوٍ كان شراً من السكر
وكان نصيبي في الشباب ابتسامةً ... تلوح على عين الحبيبة والثغر
قد ازدان بالألماس والزهر فرعُها ... كما ازدان ليل الصيف بالأنجم الزُهر
ولما تفارقنا شجاني بكاؤها ... وما نثرت تلك المدامعُ من دُرّ
أذال هوانا الدمعَ والعقل صانه ... فموقفُه بين المذلّة والكبر
وماذا لليلى جدّ حتى تغيرت ... فاني وليلى كنت كالماء والخمر
تعيرني بالشيب وهو مصيرُها ... كأني وإياها إلى غاية نجري
أبا لقلب مني تهزئين إذا صحا ... ولكنّ هذا القلب ينبض بالشعر
منحتك حبي خالصاً فهجرتني ... وأسرفتِ يا ليلى الجميلة في الهجر

***

وللبلبل الصيداح في كل روضة ... عرائسُ يبثثن الغرامَ من الزهر
ويبسمن للصيداح من فرح به ... ويرمينني للشيب بالنظر الشزر
وللزهر مثل الغانيات لواحظٌ ... وفي تلكم الألحاظ شيء من السحر
عيون رمتني بالسهام مريشةً ... بأهدابها من حيث أدري ولا أدري

***

سأهبط قبراً بعد حُمّى تميتني ... سلامٌ على الحُمّى، سلامٌ على القبر
وإني لأخشى دفنهم لي بحفرة ... فيُدفن للنسيان فيها معي فكري
تموت اعتبارات الفتى عند موته ... فلا حسنٌ في عُرف ولا قبيحٌ في نكر
وأطولُ بليل القبر والقبرُ ضيّقٌ ... ونوميَ في جوف التراب مدى الدهر
وددتُ لو اني قد يقظتُ من الكرى ... على صيحة الصيداح في مطالع الفجر

طريقُ حياتى لم يكن متساوياً   فوعرٌ إلى سهل وسهلٌ إلى وعر

أرى المرء مضطراً لما هو فاعل   وإن خال جهلاً أنه غير مضطر

ولستُ أخاف الشكَّ فى كل ماروَوا

ولكنّ بعض الشكّ يأكل من حِجرى

لمن تكتب الأرواحُ فى اليمّ مألكاً

فانى أرى الأمواجَ سطراً إلى سطر

مكانَكَ لاتطلب من اليم مخرجاً   فانك أنى سرت فى قبضة الدهر

وليس أنيناً ماله أنت سامعٌ   ولكنه شكوى الغريق إلى البحر

لقد جرّد الدوحَ الخريفُ وليته   لأطياره أبقى على الورق النضر

فروضٌ ولكن لا رُواء لزهره   فهل فيه لاقى الزهرُ شحّاً من القطر

إذا لم تكن تشكو الأزاهيرُ كربةً   فما بالها ليست بباسمة الثغر

بحر الحسد

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

مقدمة:

الحياة هى بحر الحسد ، ويسعى الناس فى الحياة لأرزاقهم وجاههم بالكيد والمكر كأنما يسبحون فى بحر من الحسد ، وقد يدفع بعضهم بعضاً كى يظهر الدافع على متون أمواجه ، وقد يمين بعضهم بعضاً فى الأحايين . أما المجاملة فى الحياة والتحيات فقد تكون أشبه بلألاء الشمس على سطح الماء ، يخفى بجماله ما فى البحر من قبح وبلاء (الناظم)

يسبح الأحياء فى بحر الحسد   فاعتصم بالصبر فيه والجلَدْ

واقتعد صهوته مستبشراً   سابحاً فى الموج منه والزَّبد

ضاحكاً من عنت الأمواج لا   يُدفَعُ الغائلُ منها بالكمد

أنظر الأمواج فى الشط تجِدْ   لُجَّها منهزم الأمر بدد

إنْ علت موجة حقد فاصطبر   أى موج فى ذرى اليمّ خلد

وإذا ما رمّة لاحت فلا   تحسب الرمة فيه كالسند

وإذا لألأت الشمس على الـ   يمّ أخفت قبح ما دون الزبد

كمقال الخب يخفى كيدهُ   إنْ سطا فى العيش فى لؤم وحِقد

وإذا غار بك الماء فقل   كم حسام فى قراب قد غُمِد

رب دُرّ فيه لا تأمله   إن من غاص على الدر وجد

درة مخبوءة أنت إذا   ما طفا باللؤم إن أغرقتَ وغد

أنجد السابح إن خار وكن   للذى أشفى على الهُلْكِ عَضُد

ليس مجد الغدر أحجى بالفتى   أى مجد ناله الأوغاد مجد

أحمق الناس جهول خائف   كلما لاح له برق ورعد

ليس فى العيش ولا الموت أذى   إنَّ من سار على الدرب ورد

لا يلذ الموتَ إلا متعَبٌ   سهر العيش وفى الموت رقد

رقدةٌ يا طيبها من رقدة   بعد أن عانى وأبلى وسهد

الشادوف[1]

بقلم محمود حسن اسماعيل

دَعْ نايكَ الشادى بلا تعزيفِ   طرِبَ الخيالُ لأنّة الشادوفِ

عُريانُ جرّده الضحى من سِتره   فغدا يضجّ بدمعه المذروف

لم يُرضِه ثوبُ السَّنا سِدْلاً له   يختالُ فى بَهَج ولمحِ شُفوف

فبكى ونكّس رأسه متذللاً   متحسّراً كالعاشق الملهوف

فاذا تقاعس خِلتَهُ فى صمتِهِ   جُثمانَ مصلوبٍ بغير كُفوف

بترَتْ سواعدَه الليالى ، وانبرَتْ

تُبْليه فى سخطٍ وفى تعنيف

وإذا جثا ألفيتَهُ متعبّداً   طهُرَتْ سرائرُهُ من التزييف

سجَداتُهُ فى النبْع قُبْلَةُ واله   طبعَتْ على سلساله المرشوف

صديانُ قدّم للورود شرابَهُ   وأعارَ أدمُعَهُ لقلب الرّيف

فيظلُّ يظمأ عارياً ، والزَّهرُ فى   رِىّ ، ونبْتُ الحقل فى تفويف

ثاوٍ على الجُبِّ العميق كأنّهُ   أعمى على جُرُفٍ هنالكَ موفى!

جبّارُ أفزعه الرّدى فتقلّصتْ   أضلاعُه من صرْعة التخويف

فتخاله فى الوهم جُثّةَ ماردٍ   ضجِرتْ بذُولٍ فى القبور مخيف

فأعارتْ الأكفانُ ثورةَ حانقٍ   برِمتْ بحتفٍ فالتقتْ بحتوف

***

---

(١) آلة قديمة للرى فى مصر

فصول ملخصة في الفلسفة الألمانية

٢٥ – تطور الحركة الفلسفية في ألمانيا

الناحية السلبية من مذهب نيتشه

الانسان

للأستاذ خليل هنداوي

— ٥ —

يرى نيتشه شريعة العبيد ومثل الزهد وساطة الكاهن تقوم أركانها على جملة أكاذيب فارغة ؛ وهو لا ينظر إلى الشريعة المسيحية نظرة الرافض لها ، وإنما يجد فيها خطراً كبيراً وتدميرا . إن قطيع المنحطين وقائدهم كاهنهم الزاهد تراهم وقد قضى عليهم بأن يغمضوا أعينهم عن بيان أصول الأشياء ، لكي يضعوا – موضع الامتحان والحقيقة التجريبية – شريعتهم وقيمهم الوهمية الضالة التي عالجوا بها حل أسرار الوجود . لو أدرك المريض حقيقة أمره ، وعرف مكان عافيته ، وموطن شفائه ، وعلم أن علاج الكاهن لا يزيح من ألمه الحقيقي شيئاً ، وإنما هو علاج ظاهر يعمل على تشديد الألم بدلا من أن يعمل على تخفيفه وشفاء صاحبه ؛ لو علم ذلك كله لرأيت العمارة المسيحية قد انهارت دعائمها واندكت صروحها . إن المنحط الضعيف يتحرى عن تخفف حقيقي لآلامه عند الطبيب أو عند الموت . وقد أحس الكاهن هذا الخطر فأخذ يحدث قرناءه دائماً عن الايمان ، وهو الاقتناع المبني على غير العقل ، عن الايمان الذي لا يحفل بحقيقة الأشياء ، وهل الايمان بحقيقته إلا أن تفرض وهما تشعر بضرورة وجوده في الحياة ، تفرض وجوده بأي ثمن كان

في كل عصر يرى الكاهن في الحكمة الدنيوية والعلم الواقعي الذي يدرس الوجود للعلم ، غير حافل بقواعد الدين ، يرى الكاهن فيهما خصمين عنيفين ، وهو يحلل كل وسيلة تصرف الانسان عن التأمل في الأشياء بعين نفسه ، وعن جلاء الحقيقة عارية مجردة من غير تشويه . وهذا ما لا يتساهل فيه نيتشه ، ولقد يغفر للمسيحية ما تبث في الانسانية من آلام ، وما عسى يضر الألم الانسان إذا كان الألم يصفيه ؟ وفي الحقيقة نرى الايمان الديني قد خلق أرواحاً كثيرة أفادت البشر ؛ ولم يكاف نيتشه نفسه بيان الآلاء التي قامت بفضل ثورة العبيد فأغنت النوع الانساني وظلت من الانقلابات المعتبرة في التاريخ . ونيتشه يعجب بالمنطق العظيم في المنطق الديني الكاذب ، وبالمذهب الذي ابتدعه وظل يغذي الناس طيلة عشرين قرناً بالأوهام الخيالية ، وقد يعجب بالكاهن برغم أنه ينطوي على ارادة شريرة ، لأن ارادته تستمد شعورها من نفسها ، لا تحوك الأوهام حول الهدف الذي تقصده ولا حول الوسائل التي تصطنعها . وأما ما يستفز غضب نيتشه من العالم المسيحي فهو ذلك المحيط القدسي الذي يحيط به ، وذلك المزيج من المكر والغباوة والطهارة الكاذبة التي يتظاهر بها رجال الايمان . فاستفاق في نيتشه شعوره الوحشي وحبه للطهارتين المادية والروحية ، وجرأته في الذهاب وراء أقصى ما أشرف عليه عقله ، فثار وتمرد على هذا التدليس كله ، ثم انصرف عن هذه الجماعة وفي قلبه سأم من رجالها الذين غدا الوهم عندهم جزءاً من الأجزاء التي لا يتم بدونها الوجود ؛ وهم لا يعرفون أنفسهم حين يخدعون ويخادعون وحين يكونون صادقين ، يعيشون أسرى أوهامهم حين يريدون أو لا يريدون ؛ وأعلن بأن المسيحية هي المسئولة عن تسميمها للبيئة العقلية والأدبية في أوربا

على أن جهود الكنيسة كلها في مناضلة العلم ذهبت عبثاً ، ومقاومتها للعقل البشري انطلقت أدراج الرياح ؛ فان في أوربا كثيرين من علماء الطبيعة – على اختلاف مناهجهم ومدارسهم – يعيشون في غير أكناف الدين والايمان ؛ هؤلاء هم أعداء الكاهن . ولكن سائلا يسأل : وما بال عقول هؤلاء لم تضع سداً عنيعاً تأثير الوهم المسيحي ؟ وكيف لم يفلح أصدقاء الطبيعة والحياة والعافية في تحطيم القيم المسيحية ؟

كان جواب نيتشه على هذا السؤال جواباً أدبياً ، يقول : إن هؤلاء العلماء لا يؤمنون بعلمهم ، ومعنى ذلك أنهم لا ينصرفون

يا صامتاً والريحُ تخفقُ حولَه | والنبتُ يطربُ بسجعٍ خفيف
وتصايحُ الغربانِ يُنذِرُ مَرْجَه | بحصيدِ سافيةٍ وجدبِ خريف
وربابةُ الراعي تُهدهِدُ عنده | قلباً يهيم بلحنِها المعزوف
سَكْرَى من الأنغامِ أسكرَ شَدْوُها | آذانَ ثاغيةٍ وسمعَ خروف ؟
هلاّ شجتْكَ نُغاثةٌ من بائسٍ | لهفانَ في كنفِ الأسى ملفوف
روّى الزروعَ بصيّبٍ من دمعِهِ | وثوى بقلبٍ في الظلام لهيف !

محمود حسن اسماعيل

إلى تبديل المثل الأعلى الديني بمثل أعلى من عندهم ؛ أو أنهم يؤمنون بعلمهم ويأتون بمثل جديد للحياة يستمدون مادته من المثل الأعلى المشيد على الزهد ؛ أو أن رجال العلم هم رجال متوسطو الإدراك ، عاجزون عن إبداع شريعة جديدة ؛ أو أنهم قوم زاهدون محتالون عالمون ؛ لا يختلف جوهر مثلهم الأعلى عن مثل الكهان.

يشبه نيتشه هذا العالم « المتوسط » بامرأة عجوز لا تلد ولا تنجب . وهو قليل القناعة بنصيبه

والآن فلننظر في تعريف رجل العلم !

إن رجل العلم يتصل نسبه بذرية بشرية غير شريفة . تنطوى نفسه على خلال ذرية غير شريفة ، ذرية لا تأمر ولا تملك سلطة ، ولا تبغي شيئاً . إنه عامل دائب يدرك بشعوره حاجات قرنائه . إنه وارث أمراض ذرية غير نبيلة ، ملك عليه الزهو ومشى لا يتجرى إلا عن الأشياء السفلية في الطبائع . أما العظمة فهي بعيدة المنال عنه . وإن مما يجعل العالم جليل الخطر شعوره الباطن بأنه من ذرية متوسطة ، فهو والحالة هذه يدأب عاملاً على إبادة الرجل « الشاذ »

ولا ريب أن العالم يحيا بعيداً عن كل إيمان ؛ ألا ترى فطرته في كثير من المواطن توائم فطرة رجل الدين ، ثم يخالفه ويفر من ملامسته وملامسة أمثاله ، لأنه يعتقد كل الاعتقاد بأن رجل الايمان هو نموذج سفلي في البشرية ، وأن رجل العلم هو أسمى منه . على أن هنالك هوة سحيقة تفصل بين رجل الدين رجل الارادة الكبيرة المريضة ، القاتل الظافر بفضل هذه الارادة ، والخالق فيما يعتقد بصحتها ، وبين هذا الرجل العالم الجرىء ، هذا القصير المعجب بنفسه الذي فقد إيمانه بنفسه وعلمه . يعمل كما تعمل الآلهة ليزداد غواية وضلالاً ، وليتمتق من التفكير ، وليزيح من سبيله هذه المسائل المقلقة ! قد يكون عمله حسناً لو كان يعمل مستوحياً نفسه ، لكنه يعمل ليكون مأموراً عاجزاً عن إبداع قيمة جديدة عاجزاً عن أن يتذرع بإرادة

لنحكم أن العالم « غير الذاتي » الذي نضجت فيه الحاسة العلمية قد ساد أمره فماذا ينتج منه ؟ لا شيء إلا مرآة . . . وآلة لا إرادة لها . . . إنه يشبه المرآة التي تعكس الأشياء ، ترتقب حتى تظهر عليها فتعكس مرآها ، وإنما غناه في أن يكون معبراً تمر به الأشياء . لا يحس ولا يلمس آلامه الشخصية . يعمل ما يستطيع ، ويعطي ما يستطيع ، ولكن ما يعطيه حقير لا قيمة له . هو لا يأمر ولا يخرب شيئاً ، يقول مع (ليبنتز) : « أنا لا أحتقر شيئاً » . إنه آلة تتجلى فيها العبودية والخضوع والطاعة . مفتقر إلى معلم يهديه إلى الغاية المقصودة . وهو ليس بعلامة حركة جديدة ، ولا بملة أولى . إنه وا أسفاه ليس بمعلم . إنه وعاء فارغ يتخذ لون السائل المراق فيه ، إنه فقد الشخصية

ثم هاجم نيتشه الشكوكيين الذين يصل بهم علمهم إلى حيرة يتساوى فيها الصعود والهبوط ، والعلم والجهل ، وإنما يتميزون من رجال العلم بأن هؤلاء عاملون دائبون كالآلات ؛ أما الشكوكيون فهم عقول أضعفها تريضها الزائد في العلوم ، وهم ليسوا بشيمة واحدة ، فمنهم المضطرب والمعتدل المزهو بنفسه ، ومنهم النفس التي تبذل الجهد في كشف أسرار الوجود وقد دوختها أسراره حتى غدت تروح وتغدو كالخيال الدقيق ليس له من قرار

ألا ترى إلى زرادشت — نبي نيتشه — البشر بالسوبرمان قد سحب وراءه خيالا من هذه الأخيلة الضالة ، رافقته في كل مراحله ، قد طلقت كل إيمان كان فيه عزاء ، وحطمت كل الأوثان ، وفقدت إيمانها بالأسماء الكبيرة والرموز الفخمة حتى أضاعت غايتها في النهاية ، وضلت في زوايا الوجود الموحش هائمة بدون حب ولا رجاء ولا وطن . رآها زرادشت فلم يتمالك نفسه من الاشفاق عليها

– قال بكآبة : أنت ظلي !

إن الخطر الذي تفر منه ليس بحقير أيها المسافر !

إن أمامك نهاراً سيئاً فاحترس من أن يكون مساؤك أسوأ .

إن السجن لأمثالك الطائشين قد يصبح نعمة لهم

أرأيت هؤلاء العاتين المفسدين ، يجرجرون في قيودهم !

هؤلاء ينامون نوماً هادئاً لأنهم مرتاحون بطمأنينتهم

احترس في النهاية أن تغدو سجين إيمان ضيق ووهم قاس مرعب . على أن كل ما هو ضيق قاس هو لك فيه إهواء وخديعة

إنك أضعت الغاية ، وكذلك أضعت سبيلك

يا لك من نفس ضالة طائشة ! يا لك من فراشة منهوكة القوى »

ولكن رجال العلم ليسوا جميعاً على هذا النحو الذي صوره نيتشه ، فهنالك رجال يقين من رجال العلم ، علم هؤلاء لا يقف عند قولهم : ماذا ندرى ؟ هو علم وثاب يخلق إرادة ويبدع شريعة ومذهباً

(يتبع) خليل هنداوى

القصص

في ذكرى بدر:

أبو جهل ....

لم أكتب رواية، ولكني عرضت مناظر من بدر .....

«علي»

للأستاذ علي الطنطاوي

(المنظر الاول)

«في بيت عاتكة بنت عبد المطلب»

عاتكة — يا أخي! والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني، وتخوّفت أن يدخل على قومك منها شرّ ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثت، فإنهم إن سمعوها آذونا، وأسمعونا ما لا نحب

العباس — حدثيني، فسأكتم الحديث

عاتكة — رأيت راكباً قد أقبل على بعير له، حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لَغُدُر إلى مصارعكم في ثلاث! فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه؛ فبينا هم حوله مثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها؛ ثم مثل به على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها؛ ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضّت، فما بقيت دار من دور مكة إلا دخلها منها فلقة ....

العباس — إن هذه رؤيا حق، فاكتميها ولا تذكريها لأحد

(المنظر الثاني)

«في الحرم، وقد غابت الشمس، وجلست قريش في مجالسها من حول الكعبة»

«أبو جهل في رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة»

أبو جهل — يا أبا الفضل! إذا فرغت من طوافك فأقبل علينا ....

«يقبل العباس»

أبو جهل — يا بني عبد المطلب! متى ظهرت فيكم هذه النبيّة؟

العباس (متجاهلا) — وما ذاك؟

أبو جهل — الرؤيا التي رأت عاتكة!

العباس — وما رأت؟

أبو جهل — كأنك لا تدري؟ ... ألم تحدث بذلك الوليد بن عتبة؟ أما رضيتم يا بني عبد المطلب بكذب الرجال، حتى جئتمونا بكذب النساء؟ زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث! فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقاً فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب

العباس (وقد غضب) — هل أنت منته يا مصفّراً ....؟ فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك

«يهم به فيحول القرشيون بينهما»

القرشيون — ما كنت يا أبا الفضل جهولاً ولا خرقاً

(المنظر الثالث)

«في بطن الوادي، صباحاً ...»

العباس (لرجل منه) — لقد لقيت أمس من عاتكة أذىً شديداً لما أفشيت من حديثها، ولم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني تقول: أقررتم ... أقررتم لهذا الخبيث أن يقع في رجالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت ... ...

فو الله لأتعرضنّ له، وإن عاد قاتلته، فلقد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه

الرجل — انظر يا أبا الفضل! هذا أبو جهل خارجاً من باب المسجد يشتدّ

العباس — ماله لعنه الله، أكل هذا فرقاً مني؟ إذهب فانظر ما شأنه؟

«يذهب الرجل ويرجع على عجل»

الرجل (مضطرباً) — ألا تسمع؟

العباس — ماذا ؟

الرجل — هذا ضمضم بن عمرو الغفارى . يصرخ ببطن الوادى وقد شق قميصه ، وحوّل رحله ، وجدع بعيره ؛ اسمع .

« يتقدمان ويصغيان »

ضمضم — يامعشر قريش ! اللطيمة ... اللطيمة ... أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ... لا أرى أن تدركوها ... الغوث ... الغوث ... !

« حركة واضطراب وغطو صيحات حماسية »

رجل — هذه والله رؤيا عاتكة !

آخر — والله إن أخذ محمد العير لا تفلح قريش أبداً

آخر — انفروا إلى مصارعكم فى ثلاث . إن رؤيا عاتكة كأنها أخذ باليد

أبو جهل — هه ! أيظن محمد أنها كعير ابن الحضرمى ؟.. والله ليعلمن غير ذلك ... إنها قريش !

سهيل بن عمر — يا آل غالب ! أتاركون أنتم محمداً والصباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم ؟ — من أراد مالاً فهذا مالى ؟ ومن أراد قوتاً فهذا قوتى ...

« يتفرق الناس ، يستعدون للخروج »

(المنظر الرابع)

« فى الحرم ، وقت الظهيرة »
أمية بن خلف وسعد بن معاذ سيد الأوس
وهو ضيفه وخليله

أمية — تعال فطف بالبيت ، فانه وقت الظهيرة ولا يراك أحد

« يطوف سعد بالبيت ويجلس أمية »

أبو جهل (قادماً) — من هذا الذى يطوف بالبيت ؟

سعد — أنا . سعد بن معاذ !

أبو جهل — ماذا ؟ أتطوف بالبيت آمناً ، وقد آويتم محمداً وأصحابه ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟ ! أما والله لولا أنك مع أبى صفوان مارجعت إلى أهلك سالماً

سعد — أما والله لئن منعتنى هـذا لأمنعنك ما هو أشـد عليك منه : طريقك على المدينة

أمية (لسعد) — لا ترفع صوتك على أبى الحكم فانه سيد أهل الوادى

سعد (لأمية) — إليك عنى ، فانى سمعت محمداً يقول إنه قاتلك

أمية — إياى ؟ سعد — نعم !

أمية — بمكة ؟ سعد — لاأدرى !

أمية — والله ما كذب محمد

« يسقط أمية خائر القوى »

إذن والله لا أخرج من مكة ، إذن والله لا أخرج من مكة

المنظر الخامس

« فى الحرم . مساء . قريش فى مجالسها .
عقبة بن أبى معيط قادم على مجلس أمية معه
مجمرة فيها بخور . أبو جهل على أثره »

أمية — ويلك لمن هذا ؟

عقبة — لك يا أبا على . قم استجمر فانما أنت من النساء

أمية — قبحك الله وقبح ما جئت به

« يصل أبو جهل »

أبو جهل — يا أبا صفوان ، إنك متى يراك الناس قد تخلفت ، وأنت من أشراف قريش ، تخلفوا معك ، فسر يوماً أو يومين

أمية — افعل !

« يمضى عقبة وأبو جهل إلى مجلس عتبة وشيبة
ابنى ربيعة وزمعة بن الأسود وحكيم بن حزام

أبو جهل — أنتم سادة قريش ، وأنتم قادة الناس ، فمالكم لا تتجهزون ؟

عتبة — لقد استقسمنا بالأزلام لخروج الناهى

عقبة — كلا ، ولكنه الفزع من اللقاء

عتبة — ألمثلى يقال هذا ؟ والله لولا أنك فى بيت الله ....

أبو جهل — دعه يا أبا الوليد ، فانك اليوم شيخ قريش ، فاذا لم تخرج أقام الناس

عتبة — سأخرج

(المنظر السادس)

« يفصلون من مكة ، وهم ألف رجل فيهم
شيوخ قريش وأشرافها . قد خرجوا على
الصعب والذلول ، ومعهم القينات يضربن
بالدفوف ويغنين بهجاء المسلمين ، وقد ارتج
بهم الوادى »

(المنظر السابع)

« ماء فى البادية ، عليه خباء رجل ،
وعليه جاريتان تختصمان ، يقف عليه رجلان
من المسلمين فيستقيان »

الجارية — لا أدعك حتى تقضينى الذى لى

الأخرى — دعينى ، فستأتى العير غـداً أو الذى بعده ، فاعمل لهم ، فأقضيك

الرجل — لقد صدقت ، فستأتى العير غداً أو بعد غد

« يسمع الرجلان فيجلسان على بعيريهما ليلحقا بالمسلمين »

« أبو سفيان يأتى بعد قليل ، يتقدم العير وحده »

أبو سفيان — هل أحسست أحداً أيها الرجل ؟

الرجل — ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أن راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شنّ لهما ، وانطلقا

أبو سفيان — أرنى مبرك ناقتيهما

الرجل — هو ذاك ...

« يأتى أبو سفيان المبرك ، فيأخذ من أبعارهما فى يده »

أبو سفيان — هذا هو النوى ، هذه والله علائف يثرب

« ويمضى مسرعاً فينجو بالعير »

(المنظر الثامن)

« فى جيش المسلمين ، فى ذفران ، وقد جاءهم الخبر بمسير قريش ليمنعوا عيرهم »

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

إن القوم قد خرجوا من مكة ، على كل صعب وذلول ، فما تقولون ؟ ألعير أحب إليكم من النفير ؟

رجل — عليك بالعير ودع العدو

آخر — هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ! إنا خرجنا للعير

« يتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

المقداد بن الأسود — يا رسول الله ! امض لما أمرك الله ، فنحن معك ؛ والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . والله الذى بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك حتى تبلغه

« يشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »

المسلمون — كلنا ذاك الرجل يا رسول الله ، ولكنا ظننا أن فى العير قوّة للإسلام

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا علىّ

عمر — يا رسول الله ! إنها قريش وعزّها ، والله ما ذلت منذ عزّت ، ولا آمنت منذ كفرت ؛ والله لتقاتلنك ؛ فتأهب لذلك أهبته ، واعدد له عدّته

قال رسول الله (ص) : أشيروا علىّ أيها الناس

سعد[1] — لعلك تريدنا معاشر الأنصار يا رسول الله

قال رسول الله : أجل

سعد — قد آمنا بك وصدّقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، ولعلك يا رسول الله تخشى أن تكون الأنصار ترى عليك ألا ينصروك إلا فى ديارهم ، وإنى أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت لنا ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك . فامض يا رسول الله لما اردت ونحن معك ، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، وإنا لصُبُر فى الحرب ، صُدُق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله

قال صلى الله عليه وسلم :

— سيروا وابشروا ، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين ، فو الله لكأنى أنظر الآن إلى مصارع القوم !

(المنظر التاسع)

ماء فى البادية عليه شيخ من العرب ، يقدم عليه رسول الله وأبو بكر متخفيين فيسألانه عن قريش

— ما ذا تعرف عن قريش ؟

الرجل — لا أخبركما حتى تخبرانى من أنتما !

قال رسول الله (ص) : إن أخبرتنا أخبرناك

الرجل — ذاك بذاك ؟

قال الرسول : نعم

الرجل — بلغنى أن محمداً وأصحابه ، خرجوا يوم (كذا) فإن كان صدق الذى أخبرنى . فهم اليوم فى مكان (كذا)

أبو بكر (لنفسه) — لقد عرف مكاننا

الرجل (متماً) — وبلغنى أن قريشاً خرجوا يوم (كذا) فإن صدق الذى أخبرنى فهم اليوم فى مكان (كذا) . فمن أنتما ؟

قال النبى (ص) : نحن من ماء !

(١) ابن عبادة كما قيل ، وابن معاذ على الأصح . وإذن يكون قد لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن كان بمكة لما علم بأمر خروجه

أبو بكر (لنفسه) — فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق.

الرجل (متعجباً) — من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ أمن ماء الشام ؟

(المنظر العاشر)

« فى بدر على الماء الأدنى من المدينة »

الحباب — يا رسول الله ! أرأيت هذا المنزل ، أهو منزل أنزلكه الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

الحباب — يا رسول الله ! إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغوّر ما عداه من القلب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ، فنشرب ولا يشربون

قال النبي (ص) : لقد أشرت بالرأى

« يتقدم المسلمون »

(المنظر الحادى عشر)

« فى بدر على الماء الأدنى من القوم »

سعد : يا نبي الله ! ألا نبنى لك عريشاً من جريد تكون فيه ، وتعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فان أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، لهم رغبة فى الجهاد ونية ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير ، يمنعك الله بهم ويناصحونك ، ويجاهدون معك

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— أو يقضى الله خيراً من ذلك يا سعد

(المنظر الثانى عشر)

« قريش فى الجحفة فى طريقهم إلى بدر »

رسول — يا معشر قريش ! قد أرسلنى اليكم أبو سفيان إنه قد نجا بالعير ، فارجعوا فأحرزوا عيركم

أبو جهل — سوءة لك ! والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم عليه ثلاثة أيام ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، فلا يزالون يهابوننا أبداً

الرسول — هذا بغى ، والبغى منقصة وشؤم

أبو جهل — صه ! قطع الله لسانك

الأخنس — لقد صدق الرسول ، وأنا راجع بقومى

(لقومه) — يا بنى زهرة ! قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما نفرتم لتمنعوه وماله ، فاجعلوا بى جبنها ، وارجعوا فانه لا حاجة بكم إلى أن تخرجوا فى غير منفعة

« ضجة وهياج ولغط ... ينفرد الأخنس بأبى جهل »

الأخنس — أترى محمداً يكذب ؟

أبو جهل — ما كذب قط ، كنا نسميه « الأمين » ، لكن إذا كانت فى بنى عبد المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة ، فأى شىء يكون لنا ؟

الأخنس — أنت والله تحسده

« يرجع الأخنس وبنو زهرة »

عمير بن وهب (قادماً) — يا معشر قريش ! لقد ذهبت فى الوادى ، أحزر أصحاب محمد ، أنظر هل للقوم كمين أو مدد فأبعدت فلم أر شيئاً ، وأنهم ثلاثمائة رجل ، يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً ، ولكني رأيت البلايا تحمل المنايا : نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون ، يتلمظون تلمظ الأفاعى ، لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهليهم ، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الجحف ، ليس لهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما نرى أن نقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم ، فاذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ! فروا رأيكم

حكيم بن حزام (لعتبة) — يا أبا الوليد ! إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، فهل لك لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟

عتبة — وما ذاك يا حكيم ؟

حكيم — ترجع بالناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمى

عتبة — هذا والله الرأى ، فادع لى الناس

« يدعو الناس »

عتبة (خطيباً) — يا معشر قريش ! انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال رجل منكم ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه وابن خاله ، ورجلا من عشيرته . ارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فان أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك كفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون . أى يا قوم ! إعصبوها اليوم برأسى وقولوا : جبن عتبة ، وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم .. .. ..

يا قوم أطيعوني فانكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمي وما أخذ من العير وقد تحملت ذلك . يا معشر قريش ! أنشدكم الله في هذه الوجوه التي تضيء ضياء المصابيح أن تجعلوها أنداداً لهذه الوجوه التي كأنها عيون الحيات

« يسكت عتبة ويلغط القوم لغطاً شديداً »

رجل — نعما يقول أبو الوليد !

آخر — هو والله الرأي

آخر — عتبة سيد الناس فأطيعوه

عتبة (لحكيم) — انطلق الى ابن الحنظلية

« يذهب حكيم »

حكيم (لأبي جهل) — إن عتبة أرسلني اليك لترجع بالناس ، وهو يحمل دم حليفه ابن الحضرمي

أبو جهل — أهو يقول هذا ؟ والله لو قاله غيره لأعضضته إنتفخ والله سحره ! كلا والله ، لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد

« يرسل أبو جهل الى عامر بن الحضرمي »

أبو جهل (لعامر) — هذا حليفك ، عتبة بن ربيعة يريد أن يرجع بالناس ، ويخذلهم عن القتال . وقد تحمل دية أخيك من ماله يزعم أنك قابلها ، ألا تستحي أن تقبل الدية من مال عتبة ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فاذكر مقتل أخيك

« عامر يتكشف ويحثو عليه التراب »

عامر (صائحاً) — واعمراه ... واعمراه !

« يهيج الناس ويتحمسون »

حكيم (لعتبة) — لقد أثارها

عتبة — دعه فسيكون شؤماً وبلاء على قومه .

(المنظر الثالث عشر)

« اشتعلت الحرب وقتل المسلمون عتبة وشيبة والوليد ، ورجع سراقة وكان قد أجارهم من كنانة »

أبو جهل — يا معشر الناس ! لا يهمنكم خذلان سراقة فانه كان على ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة والوليد ، فانهم قد عجلوا ، واللات والعزى لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال . . .

يا معشر قريش ! لا تقتلوهم . خذوهم أخذ اليد

« يخرج رسول الله من العريش فيحض الناس على القتال »

— أما والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة

« عمير بن الحمام يأكل تمرات في يده »

عمير — بخ بخ ... ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟ فان حييت حتى آكل تمراتي

« يلقي التمرات ويقدم »

عمير (هاجاً)

ركضاً إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمـــل المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشـاد

« تزداد الحرب اضطراماً »

(المنظر الرابع عشر)

« قريش تنهزم ، ابن مسعود يفتش بين القتلى من رجل »

عبد الله — هل أخزاك الله ياعدو الله ؟

« يضع رجله على عنق أبي جهل وهو على آخر رمق »

(المنظر الخامس عشر)

أبو جهل — وبم أخزاني ؟ أعار على رجل قتلتموه ؟ اخبرني لمن كانت الدبرة لنا أو علينا ؟

عبد الله — بل لله ولرسوله !

« في الحرم وقد جلس أبو سفيان وأبو لهب في ناس من قريش ينتظرون الأخبار ... »

أبو لهب ... هذا ابن عبد عمرو ! ماوراءك يا ابن عبد عمرو ؟

ابن عبد عمر — فنيت قريش ! قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأمية بن خلف ... لقد ظهر الاسلام ! فسيظل غالباً الى يوم القيامة ... !.. وذلت الأصنام فلا تعز إلى يوم القيامة ... !

علي الطنطاوي

البريد الأدبي

آنساتنا والثقافة الأجنبية

ثار أخيراً في مجتمعنا الأدبي حوار طريف ، بين الكاتب الفكه الأستاذ فكرى أباظه وبين بعض آنساتنا المثقفات ؛ فالأستاذ ينعى على أولئك الآنسات المثقفات أنهن برغم ثقافتهن الواسعة في الفرنسية والأدب الفرنسي ، لم يتزودن بأى قسط من العربية والأدب العربي ، وأنهن يكدن يعجزن عن أن يعربن عن آرائهن بالعربية ، وأنهن يبالغن في الانصراف إلى الفرنسية وإلى الكتابة بها . وقد حاولت إحدى الآنسات اللاتى يوجه اليهن هذا اللوم ، وهى من أعضاء الإتحاد النسائي المصرى أن تدافع عن موقفهن ، فضربت مثلاً باحدى زميلاتها وقالت إنها تعلمت في باريس ، ولم تعرف مصر إلا فتاة ناضجة فلا جناح عليها إذن ، والتبعة في ذلك - إن كان ثمة تبعة - تقع على أسرتها ، ثم قالت : إن أولئك الآنسات يكتبن بالفرنسية لكى يسمعن صوت المرأة المصرية إلى الخارج ، وأن العربية لا تقرأ في باريس ولا لندن ولا برلين

ونحن نؤيد الأستاذ فكرى أباظه في ملاحظته كل التأييد فأولئك الآنسات اللاتى يعتصمن بالثقافة الأجنبية يذهبن في هذا الاعتصام إلى حد الاغراق ، وإلى حد الانفصال عن البيئة المصرية والمجتمع المصري ؛ وفي رأينا أن مثل هذه الثقافة الأجنبية تفقد كثيراً من قيمتها لأنها لم تقرن بقسط من الثقافة العربية السليمة ؛ ولسنا ندرى ما المانع في أن تمثل الثقافتان معاً ، ذلك أن من المحزن أن نرى أولئك الآنسات يكدن يعجزن عن الافصاح عن أفكارهن بالعربية العادية فضلا عن الكتابة بها ، وليس صحيحاً أن قضية المرأة المصرية تخدم فقط عن طريق الكتابة بالفرنسية ، لأن الفرنسية تقرأ في برلين ولندن ، فالمرأة المصرية بحاجة إلى التحدث إلى أبناء جنسها أولا وقبل كل شىء ، وقضية المرأة المصرية (إن كان ثمة لها قضية) يجب أن تبث في مصر أولا وباللغة العربية قبل كل شىء ؛ ولسنا نعرف في الواقع مثلا لهذا النوع الغريب من الثقافة في أى بلد متمدين ؛ ففي الغرب لا يمكن أن يحول أى عذر دون تذوق الثقافة القومية ، وإذا نهل الراغبون من أية ثقافة أجنبية ، فهى دائماً إضافة فقط إلى جانب الثقافة القومية ؛ ولم نسمع بأن مستشرقاً ممن يفنون أعمارهم في دراسة اللغات والآداب الشرقية قد أعجزه تعلم العربية أو الفارسية عن الكتابة بلغته الأصلية ؛ كذلك يجب ألا يغيب عن ذهن أولئك الآنسات أن هذا الاعتصام المحزن بثقافة أجنبية يجعلهن في شبه عزلة من المجتمع المصرى الصحيح ، ويحرم القضية التى يدافعن عنها من كثير من العطف القومي وهو ألزم لها من أى عطف أجنبي ، وان تلك الصلة الروحية التى أنشأتها الطبيعة بين المرء ولغته الأصيلة وماضى أمته وتراثها العقلى هو خير دعامة في صرح الوطنية الصحيحة والعزة القومية الأثيلة

تاريخ الأديب

كتب الكاتب الفرنسي الكبير بيير بنوا عضو الأكاديمية الفرنسية كلمة يصور فيها تاريخ « الأديب » . وفي رأيه أن الأديب لم ينشأ محترفاً بطبيعته ، ولكنه قطع زهاء عشرين قرنا قبل أن ينتهى إلى هذه النتيجة ؛ فمنذ العصور القديمة ، أعنى منذ فرجيل وهوراس ، وفي خلال العصور الوسطى والعصر الحديث نجد الأديب « هاوياً » ينساق إلى ميدان الأدب بفطرته وذوقه ، وتحقيقاً لهواه وشغفه ؛ وقلما نجد أديباً أو مفكراً يعمل ليعيش من قلمه ؛ بل كان كل من هنالك من كتاب وشعراء ومؤرخين يعيشون في كنف الأمراء والكبراء ويلوذون جميعاً برعاية ملك أو عظيم من العظماء ، يتخذون مكانهم في بطانته ؛ ويعملون له كمستشارين أو مدبرين ، وإلا عاشوا على مديحه وملقه ، أو يتخذهم معلمين لأولاده ، أو بوقاً لوحيه ؛ وقلما نجد كتاباً كتب في هذه العصور إلا وقد صدر باهداء وتحية رقيقة لملك أو عظيم ، وليس معنى ذلك أن الأديب لم يكن يكسب من قلمه ، فقد كان ثمة أدباء يكسبون من ثمرات قرائحهم وأقلامهم ، ولكنه كسب ضئيل جداً ، لم يكن ليصلح لهم قوتاً أو حياة ، ولنذكر على سبيل التمثيل أن راسين قد باع مخطوطه « أندروماك »

عما يساوى ألفا ومائتى فرنك . ويستخلص مسيو بيير بنوا من ذلك أن الأديب المحترف لم يخلق مختارا فى المجتمع ، ولكنه بدأ « هاويًا » ، لا تمنعه عبقريته من أن يكون فقط من ذوى الهوى والشغف ، وهذا الهوى ما زال يؤثر أكبر تأثير فى تكوينه وفى مصايره .

نقول ، وهذه الصورة التى يقدمها بيير بنوا عن تاريخ الأديب فى بلاد الغرب ، ليست بعيدة عن الصورة التى يمكن أن نقدمها عن تاريخ الأديب فى المشرق ؛ فقد نشأ الأديب فيه أيضاً هاوياً يعيش فى كنف الأمراء والعظماء ، ولم يتقدم فى سبيل الكسب إلا بعد عصور ؛ بيد أن الكسب الأدبى لم يكن أساسياً فى عبقريته أو إنتاجه ، ولم يكن قوام عيشه وحياته

ترجمة لجالسورذى

منذ نحو عام ونصف توفى جون جالسورذى عميد الكتاب القصصيين الانكليز ورئيس نادى القلم الانجليزى ؛ ومن ذلك الحين يعني جماعة من أصدقائه بوضع كتاب جامع عن حياته ، وقد صدر هذا الكتاب أخيراً بعنوان « حياة جون جالسورذى ورسائله » Life and letters of J. Galsworthiy بقلم الكاتب والنقادة المعروف مستر ﻫ . ماروت ، وهو مجلد ضخم فى نحو تسعمائة صفحة ، ولكنه ليس بالكثير على رجل كان فى طليعة القادة والزعماء فى الأدب الانكليزى المعاصر . وفى حياة جالسورذى ما يستوقف النظر ، فهو لم ينشأ كاتباً ولا قصصياً ، ولم ينزل ميدان الكتابة إلا بعد أن طوى مرحلة الشباب ؛ وقد هام فى صباه بالرياضة والرحلات ، وكان أول عهده بهوى الكتابة رحلة قام بها فى البحار الجنوبية ؛ وشاءت الأقدار أن يلتقى على ظهر السفينة التى أقلته ببحار فتى بولونى يدعى يوسف كونراد ، وقد كان هذا البحار الفتى أديباً ، وشاءت الأقدار غير بعيد أن يغدو كاتباً شهيراً ، وأن يكتب بالانجليزية قصصاً رائعة ؛ وكانت صحبة تاريخية بين الكاتبين العظيمين ، وكان لقاء له أكبر الأثر فى تطور حياة جالسورذى

وثمة ظرف آخر كان له فى حياة جالسورذى وفى تكوينه الأدبى أكبر تأثير ، ذلك هو حبه لزوجه ، وهو حب كان يشوبه الحزن والألم لما كانت تلقاه هذه الزوجة العزيزة من صنوف الأوصاب المبرحة ؛ وقد أذكى هذا الظرف المؤلم عاطفة الحب عند جالسورذى ، وأذكى مشاعره الانسانية ، فغدا نصير المكلومين والبؤساء ، وأضحى القلم فى يده أداة للتعبير عن هذا الحب الانسانى ؛ وهكذا أضحى جالسورذى مصلحاً وزعيماً إنسانياً . ويقال إنه كان ينفق نحو نصف دخله لغوث المنكوبين والبؤساء

هذه الظروف والمواقف المؤثرة فى حياة جالسورذى يعرضها مستر ماروت عرضاً قوياً بديعاً ، ويورد خلال حديثه للكاتب عشرات الرسائل التى لم تنشر من قبل

جائزة فمينا لسنة ١٩٣٥

منحت جائزة « فمينا » الأدبية الشهيرة عن هذا العام لسيدة شاعرة ، هى الكاتبة والشاعرة الفرنسية كاود سياف أو الكونتة دلافوريه ديفون ، وقد نالت السيدة هذه الجائزة بكتابها المسمى « البركة » Bènèdiction ، وهو قصة شعرية لقصر قديم ترويها سيدة قارئة فى زاوية سحيقة من زوايا القصر ، وتذكر خلالها طائفة مدهشة من العجائب والخوارق ، وقد وصف الكتاب بأنه قطعة من الأدب الساحر ، وأنه صورة قوية للأدب النسوى ، يفيض رقة ورشاقة ، وهو مكتوب بالشعر الريق القوى المؤثر ، وقد صرحت مؤلفته مدام سياف أنها ما كانت تنتظر قط أن يظفر كتابها بمثل تلك الجائزة الخطيرة ، لأنها تعتقد أن جمهور القراء قد انصرف منذ بعيد عن قراءة الشعر ، أما الآن فهى تعتقد أن الجمهور ما زال يحتفظ بذوقه الشعرى ، وأنه فى وسع المرء أن يكتب الشعر وأن يقدمه إليه

فى أدب الشباب

جرت مجلة « آلاباج » الفرنسية على أن تخصص فى ديسمبر من كل عام جائزة أدبية قدرها ألف فرنك (نحو خمسة عشر جنيها) تمنح عن أحسن قصة صغيرة يكتبها شاب دون الحادية والعشرين . وقد منحت هذه الجائزة هذا العام لطالب طب يدعى « آلان ليجيه » عن قصة كتبها وقدمها بعنوان « الخلاصة » ، وتشرف على تخصيص هذه الجائزة لجنة أدبية مكونة من عدة من أعلام الكتاب مثل جورج دوهامل ، وفرانسوا مورياك ، وبونار . وقد صرح مسيو دوهامل للصحفيين أن القصة التى منحت الجائزة هذا العام هى أحسن قصة للشباب قرأوها منذ أربعة أعوام . والظاهر أن سيكون لهذا الطالب القصصى مستقبل زاهر فى عالم الأدب

وزارة المعارف العمومية

إدارة السجلات والامتحانات

اعلان

بشأن مواعيد انعقاد الدور الأول للامتحانات العامة لسنة ١٩٣٦

أولاً

الامتحان	بدء الامتحان التحريري	آخر ميعاد لقبول الطلبات	الجهة التي تشترى منها الاستمارة	ملاحظات
شهادة الدراسة الثانوية القسم الثاني على النظام العام	١٣ يونية سنة ٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	أول فبراير سنة ١٩٣٦	المدارس الثانوية الأميرية	لا يتقدم إليه إلا من مضى على نجاحه في القسم الأول عامان على الأقل وأتم الدراسة المقررة وسيكون الامتحان وفقاً لنظام العام الماضي
القسم الثاني على نظام تجهيزية دار العلوم للطلبة المتقدمين من الخارج			مدرسة دار العلوم بالمنيرة	يمتحن الطلبة بمدرسة دار العلوم بالمنيرة ويتقدم له كل من أتم الدراسة المقررة ومضى على نجاحه في امتحان القسم الأول لتجهيزية دار العلوم عامان على الأقل ، ويشترط حفظهم القرآن الكريم بتمامه — واللغة الانجليزية الاضافية اختيارية
شهادة الكفاءة للتعليم الأولى للمعلمين	١٣ يونية سنة ١٩٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	أول فبراير سنة ١٩٣٦	مدارس المعلمين الأولية	يتقدم إليه طلبة الفرقة النهائية بمدارس المعلمين الأولية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج
شهادة الكفاءة للتعليم الأولى للمعلمات	٦ يونية سنة ١٩٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	»	بمدارس المعلمات الأولية	يتقدم إليه طالبات الفرق النهائية بمدارس المعلمات الأولية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج
الامتحان النهائي للمعلمات الراقية	»	»	»	يتقدم إليه طالبات الفرق النهائية بمدرسة المعلمات الأولية الراقية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج

الامتحـــــان	بدء الامتحان التحريرى	آخر ميعاد لقبول الطلبات	الجهة التى تشترى منها الاستمارة	ملاحظـــــات
امتحان الفنون الطرزية	٦ يونية سنة ١٩٣٦ الساعة ٧٫٣٠ صباحاً	أول فبراير سنة ١٩٣٦	بمدارس المعلمات الأوليـــة	يتقـدم إليه طالبات الفرق النهائية بأقسام الفنون الطرزية وغير مسموح بالتقدم إليه من الخارج
امتحان شهادة إتمام الدراسة الابتدائية	«	«	المدارس الابتدائية الأميرية	يتقدم إليه كل من أتم الدراسة المقررة وفاقاً للمنهاج المقرر بالمدارس الابتدائية الأميرية وسيكون الامتحان فى مقرر السنوات الأربع فى اللغتين العربية والأوروبية والحساب وفى مقرر السنة الرابعة فقط فى المعلومات العامة والرسم

ويراعى فى امتحانات شهادة الدراسة الثانوية وكفاءة المعلمين والمعلمات الاطلاع على النشرات الخاصة بمواد الامتحان المبلغة هذا العام للمدارس الأميرية وعلى المناهج المتبعة

ثانيــاً — يجب على الطالب أن يحرر بخط يده استمارة طلب الدخول والبطاقات الملصقة بها وأن يرفق بها ما يأتى :

(ا) رسم الدخول فى الامتحانات وقدره جنيهان مصريان حوالة بريدية ولا تقبل الشيكات ولا أوراق البنك نوت

(ب) الاستمارة رقم ١ غير المدموغة (البيضاء) بعد استيفاء جميع بياناتها

(ج) ثلاث صور شمسية حديثة واضحة جيدة الصنع ، تلصق احداها بالصمغ فى المكان المعين لها بالاستمارة المدموغة ، وتلصق الثانية ببطاقة تحقيق الشخصية ، وتلصق الثالثة بالاستمارة غير المدموغة فى المحل المخصص فيها ، وذلك بعد كتابة الاسم فى أسفل الاستمارة

(د) طلبة المعادلة فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية يطلبون الاستمارة الخاصة بهم (استمارة رقم ١ معادلة) من المدرسة الابراهيمية الثانوية

ثالثــاً — من يتقدم إلى الامتحان من غير طلبة الفرقة النهائية أولم يكن مستوفياً جميع شرائط الامتحان يرفض طلبه

رابعــاً — يجب على الطلبة قبل كتابة استمارة طلب الدخول فى الامتحان وملحقاتها الاطلاع على الاعلان التفصيلى المدرج بالجريدة الرسمية بالعدد ١١٧ بتاريخ ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٥ والموجودة نسخة منـه بجميع المدارس الأميرية والمدارس الحرة والمعلن بادارة السجلات والامتحانات بوزارة المعـارف بشارع الفلكى

خامسـاً — مراكز اللجان وجداول الامتحان وشرائط التقدم والتنبيهات والتعليمات كلها مبينة باعلانات الامتحانات المذكورة ٥٠٦٦

الـكتب

الجزء الثانى من شرح الايضاح

تأليف الاستاذ عبد المتعال الصعيدى

أتمت المكتبة المحمودية التجارية طبع الجزء الثانى من شرح الايضاح فى علوم البلاغة للأستاذ عبد المتعال الصعيدى المدرس بكلية اللغة العربية ، وقد نهج فيه نهجه فى الجزء الأول من العناية باللباب فى هذه العلوم دون القشور التى يعنى بها فيها ، وشرح شواهده ، ونسبتها الى قائليها ، وبيان ما دخل هذه العلوم من الأخطاء التى وقعت فيها ، ومن ذلك مسألة الوصل والفصل فقد جرى عبد القاهر على أنهما إنما يكونان فى الجمل دون المفردات ، وفى الواو دون غيرها من حروف العطف ، وجرى المتأخرون على أنهما يكونان فى الجمل وفى المفردات ، وفى الواو وغيرها من الحروف العاطفة ، فرد الأستاذ الشارح الحق فى ذلك الى نصابه ، وذكر أن العطف فى المفردات يجرى وراء اشتراكها فى الحكم ولو لم يكن هناك بينها مناسبة من المناسبات المعتبرة فى مسألة الوصل والفصل ، كما جمع بعض الشعراء بين الضب والنون فى وصف واد جمع بينهما فقال :

زُرْ وادى القصر نعم القصر والوادى
فى منزل حاضر إن شئت أو بادى

ترقى به السُّفْنُ والظُّلمانُ حاضرةٌ
والضَّبُّ والنُّونُ والمـلاح والحادى

ولوجرت المفردات فى ذلك مجرى الجمل لما صح لهذا الشاعر عطف النون على الضب ، لأنهم يقولون فى الجمل إن الجمع بين غير المتناسبين فيها كالجمع بين الضب والنون ؛ وقد يحس مراعاة تلك المناسبات بين المفردات فى الخيال الشعرى ، لأن الأمر فيه يجرى على الخيال لا على الحقيقة ، وقد اجتمع نصيب والكميت وذو الرمة فأنشد الكميت :

أم هل ظعائن بالعلياء رافعة وإن تكامل فيها الدل والشنب

فعقد نصيب واحدة ؛ فقال له الكميت ماذا تحصى ؟ فقال خطأك ، فانك تباعدت فى القول ؛ أين الدل من الشنب ؟ ألا قلت كما قال ذو الرمة

لمياءُ فى شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفى اللثات وفى أنيابها بَرَدُ

فالدل يذكر مع الغنج وما أشبهه ، والشنب يذكر مع اللعس وما أشبهه

وكذلك عيب على أبى نواس قوله :

وقد حلفت يميناً مبرورةً لا تكذبْ
برب زمزم والحو ض والصفا والمحصب

فان ذكر الحوض مع زمزم والصفا والمحصب غير مناسب ، وإنما يذكر الحوض مع الصراط والميزان وما جرى مجراها

وإنما يحسن من ذلك مثل قوله تعالى (يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها) لما بين ذلك من تقابل التضاد ، وكذلك قول البحترى فى رثاء المتوكل :

ولم أنسَ وحش القصر إذ ريع سِربُهُ
وإذ ذُعِرتْ أطلاؤُه وجآذِرُهْ

تحمل عنه ساكنوه فجاءة
فعادت سواء دوره ومقابره

ولكن ذلك كله يرجع إلى محسنات بديعية ، ولا يرجع إلى ما يجب فى اعتبار الوصل والفصل بين الجمل

وقد جرى الأستاذ الشارح على هذا المنوال فى تحقيق أمثال هذه المسألة ، فجزاه الله خيرا ، ومنح شرحه ذيوعاً ؟

« ص »

فى يوم ٥ يناير سنة ١٩٣٦ بعزبة الطيارة تبع الوزيرية ، وفى يوم ٩ منه بسوق بندر كفر الشيخ كطلب مصطفى ابراهيم من كفر الشيخ سيباع محلة بقر بملك أحمد ابراهيم محمود تنفيذا لحكم نمرة ٦٥٦١ سنة ١٩٣٥ كفر الشيخ فعلى راغب الشراء الحضور

فى يوم ٨ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بناحية أولاد سراج مركز ابنوب المجاورة لناحية الوسطى سيباع علناً ٨ قراريط قصب خلفه ملك وهبه دقدوق تقاذا للحكم نمرة ٥٤٧٨ سنة ١٩٣٥ جزئى أسيوط وفاء لمبلغ ٣٣٤ قرش صاغ بخلاف المصاريف كطلب على ابراهيم على من الوسطى فعلى راغب الشراء الحضور

فهرس الموضوعات للمجلد الثاني من السنة الثالثة

فهرس الكتاب للمجلد الثانى من السنة الثالثة

اعلانات قضائية

محكمة ملوى الأهلية

اعلان بيع نشرة أولى في القضية المدنية نمرة ٣٨٦٨ سنة ١٩٣٥ ملوى

إنه في يوم الثلاثاء ٢٨ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ أفرنكي صباحا بأودة المزايدات بسراى المحكمة بملوى

سيباع بطريق المزاد العلني العقار الآتي بيانه بعد ملك محمد مأمون شقير التاجر بناحية نواي مركز ملوى مديرية أسيوط وبيانه كالآتي :

١٦ ط ستة عشر قيراط بشيوعاً في فدان وتسعة قراريط وعشرة أسهم بحوض القمر نمرة ١٢ ضمن القطعة ١ و ٢ منافع مصرف المحيط بزمام نواي مركز ملوى مديرية أسيوط . البحرى باقي القطعتين ١ و ٢ منافع باسم الحكومة بطول ٨ ١٦/٢٤ قصبة . والشرق بركات أحمد رجب وآخرين بالقطع من نمرة ٢ إلى ٥ و ١١ ، ١٢ ، ومن ١٧ إلى نمرة ١٩ بحوضه بطول ٥٠ ٢٠/٢٤ قصبة . والقبلي باقي القطعتين ١ و ٢ منافع باسم الحكومة بطول ٩ ١/٢ قصبة . والغربي باقي القطعة نمرة ١ منافع ملك مصلحة الرى بطول ٥٠ ١/٤ قصبة

١٦ ط فقط ستة عشر قيراط

وهذا العقار محكوم بنزع ملكيته من هذه المحكمة بتاريخ ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ بحكم مسجل بمحكمة المنيا في ٥ سبتمبر سنة ١٩٣٥ بنمرة ٦٢٠

وهذا البيع بناء على طلب الست شفيقة محمد شقير من بندر أسيوط ومحلها المختار مكتب حضرة الأستاذ محمد افندى أبو الحسن حموده المحامى بملوى . والبيع قسما واحداً ويفتح مزاده على مبلغ ٦٠ جنيه ستين جنيهاً مصريا للفدان وفاء لمبلغ ٢٣٨٤ قرش صاغ بخلاف المصاريف وما يستجد

فمن له رغبة في المشترى الحضور في الزمان والمكان المحددين أعلاه ومن يرسى عليه المزاد يدفع عشر الثمن وكامل المصاريف وإن تأخر يعاد المزاد على ذمته ويلزم بالفرق إن نقص وجميع الأوراق مودعة بقلم كتاب المحكمة لاطلاع من يرغب الاطلاع عليها ؟

كاتب أول المحكمة

في يوم السبت ٤ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بناحية نوسا البحر مركز أجا ويوم الأحد ٥ منه بسوق نوسا الغيط سيباع علناً أردب ونصف أذرة شامي مقشر بكيزانه وحمار أحمر أزرق سن ٥ سنوات ملك عمر حسب النبي حسنة من الناحية نفاذاً للحكم الصادر من محكمة أجا الأهلية نمرة ٩٦ مدنى سنة ١٩٣٥ والبيع كطلب عبد الحميد محمد البلتاجى من الناحية المذكورة وفاء لمبلغ ١ جنيه و ٨٩٠ مليم بخلاف أجرة النشر وما يستجد

فعلى راغب الشراء الحضور

في يوم الأحد ٥ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٦ صباحا بعزبة الكاشف تبع مركز اطسا وإن لم تتم يكون بسوق أبو جندير يوم الأحد ١٢ منه من الصباح للمساء بناء على طلب هنرى افندى ابراهيم أبو سيف التاجر بالفيوم سيباع علناً جرن أرز غير مدروس أمام منزل المدين من الجهة البحرية قدر لما ينتج منه ٦٠ ستون أردبا أرز تقريبا ملك عبد الجليل سعداوى بعزبته تبع منشاة سيف النصر وفاء لمبلغ ١٥ جنيه و ٦٠٠ مليم بخلاف مايستجد نفاذاً للحكم رقم ١٠١٣ سنة ١٩٢٤ الفيوم

فعلى راغب الشراء الحضور

في يوم الأحد ٥ يناير سنة ١٩٣٦ الساعة ٨ صباحا بناحية طهواى وفي يوم الأربع ٨ منه بسوق أشمون إذا لم يتم بناء على طلب مقطفة محمد أبو زيد من طهواى سيباع علنا كمية من الذرة بغلافه محصول هذا العام تقدر بأربعة أرادب تقريبا ملك الليسى محمد درار من طهواى وفاء لمبلغ ٢٧٤ قرش صاغ بخلاف أجرة النشر نفاذاً للحكم نمرة ٣٦٣٦ سنة ١٩٣٥ أشمون

فعلى راغب الشراء الحضور

FIN

DU

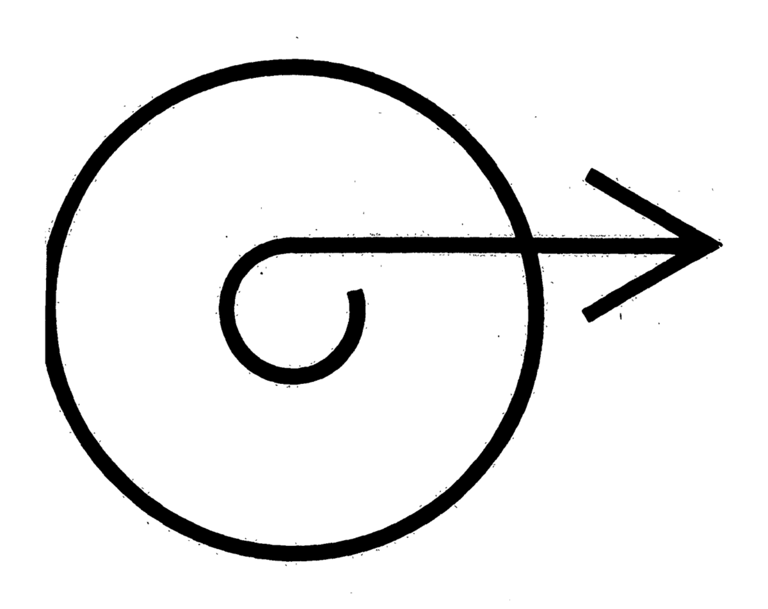
DOCUMENT



1935

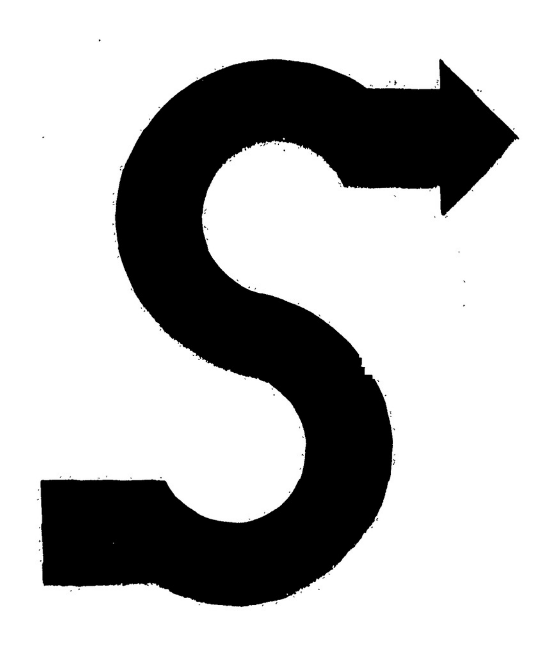
1er juillet - 30 décembre

(n° 104-130)



Fin de bobine

NF Z 43 120 3



Suite sur une autre bobine

NF Z 43-120-6